مختصر صحيح تفسير ابن كثير رحمه الله

لأبي عبد الله مصطفى بن العدوي

اختصره

أبو عبد الرحمن عوض مصطفى الجزار
رئيس أنصار السنة المحمدية بفارسكور

دار ابن رجب
دار الفوائد

مختصر
صحيح
تفسير ابن كثير

مختصر صحيح تفسير ابن كثير

لأبي عبد الله مصطفى بن العدوي

اختصره
أبو عبد الرحمن عوض بن لطفي

الجزء الأول

دار الفوائد
دار ابن رجب

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إِنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ تَعَالَى فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ . **وَبَعْدُ** :

فَإِنَّ كِتَابَ « **تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ** » لِلْحَافِظِ الكَبِيرِ وَالإِمَامِ الْعَلَمِ عِمَادِ الدِّينِ ابْنِ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - هُوَ مِنْ أَجَلِّ وَأَشْهَرِ وَأَذْكَرِ التَّفَاسِيرِ حَتَّى صَارَ مُصَنِّفُهُ عَلَمًا وَإِمَامًا فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ ، بَلْ فَاقَ شَيْخَهُ شَيْخَ الإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ فِي هَذَا العِلْمِ ، مِمَّا جَعَلَ الإِمَامَ السُّيُوطِيَّ يَقُولُ فِي تَرْجَمَتِهِ : وَلَهُ التَّفْسِيرُ الَّذِي لَمْ يُؤَلَّفْ عَلَى نَمَطِهِ مِثْلُهُ .

وَذَلِكَ أَنَّهُ اعْتَمَدَ فِي تَفْسِيرِهِ عَلَى النَّهْجِ الْعَامِ لِأَهْلِ السُّنَّةِ ، حَيْثُ يُفَسِّرُ الْقُرْآنَ بِالْقُرْآنِ مَا وَجَدَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، ثُمَّ بِالسُّنَّةِ ، فَإِذَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ تَفْسِيرًا لِلْآيَةِ قَدَّمَهُ ، ثُمَّ بِأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ ﷺ ثُمَّ التَّابِعِينَ - رحمهم الله رب العالمين -.

لِهَذَا كَانَ لِتَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ فِي نَفْسِي الْأَثَرُ الكَبِيرُ ، فَقَدْ شَارَكَ فِي تَكْوِينِ مَنْهَجِي وَعَقِيدَتِي مُنْذُ بِدَايَةِ الالْتِزَامِ وَطَلَبِ العِلْمِ قَبْلَ نَحْوِ ثَلَاثِينَ عَامًا ، وَلَقَدْ ظَلَلْتُ طَوَالَ هَذِهِ الأَعْوَامِ أُوصِي أَحْبَابِي وَإِخْوَانِي بِاقْتِنَاءِ هَذَا السِّفْرِ الكَرِيمِ إِلَّا أَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ - مِمَّنْ قَلَّ وَقْتُهُ وَعَجَزَتْ هِمَّتُهُ - كَأَنَّهُمْ يَمَلُّونَ مِنْ ذِكْرِ الحَافِظِ رَحِمَهُ اللهُ لِأَسَانِيدِ الأَحَادِيثِ وَالآثَارِ وَالْمَرْوِيَّاتِ وَالحُكْمِ عَلَيْهَا ، وَذِكْرِ العِلَلِ فِي بَعْضِهَا ، وَذِكْرِ أَقْوَالِ أَهْلِ الجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ - عَلَى جَزِيلِ نَفْعِهَا وَعَظِيمِ فَائِدَتِهَا - فَكُنْتُ أَحْزَنُ لِذَلِكَ كَثِيرًا ، فَتَمَنَّيْتُ أَنْ يُخْتَصَرَ هَذَا الكِتَابُ مِنَ الأَسَانِيدِ وَيُهَذَّبَ مِمَّا عَلِقَ بِهِ مِنَ الأَحَادِيثِ وَالآثَارِ وَالْمَرْوِيَّاتِ الضَّعِيفَةِ ، حَتَّى وَقَفْتُ عَلَى مُخْتَصَرِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ نَسِيبِ الرِّفَاعِيِّ فَشَفَى جُزْءًا كَبِيرًا مِنْ غَلِيلِي إِلَّا أَنَّ ارْتِفَاعَ سِعْرِهِ حَالَ دُونَ انْتِشَارِهِ هُنَا فِي مِصْرَ ، وَمِمَّا زَادَنِي أَلَمًا أَنَّ أَشْهَرَ مُخْتَصَرَاتِ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ وَأَكْثَرَهَا تَدَاوُلًا بَيْنَ النَّاسِ ، قَدْ تَكَلَّمَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي عَدَمِ الْتِزَامِ صَانِعِهِ بِعَقِيدَةِ الحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ ، وَالَّتِي بَيَّنَهَا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ ، بَلْ غَيَّرَ وَبَدَّلَ فِي أَلْفَاظِهِ وَعِبَارَاتِهِ انْتِصَارًا لِعَقِيدَتِهِ الأَشْعَرِيَّةِ غَفَرَ اللهُ لَنَا وَلَهُ .

وَلِهَذَا عَرَضْتُ الأَمْرَ عَلَى الشَّيْخِ الفَاضِلِ أَبِي عَبْدِ اللهِ مُصْطَفَى الْعَدَوِيِّ ؛ لِكَيْ يَقُومَ بِاخْتِصَارِ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ فَرَحَّبَ مُتَهَيِّبًا - حَفِظَهُ اللهُ - لَكِنْ بَعْدَ الاسْتِخَارَةِ وَالاسْتِشَارَةِ زَفَّ إِلَيَّ الْمُوَافَقَةَ وَبَدَأَ العَمَلَ فِي الكِتَابِ ، فَقَامَ أَوَّلًا بِحَذْفِ كُلِّ مَا بَدَا لَهُ ضَعْفُ إِسْنَادِهِ مِنَ الأَحَادِيثِ وَالآثَارِ وَالْمَرْوِيَّاتِ ، وَأَبْقَى عَلَى مَا صَحَّ عِنْدَهُ فَقَطْ مَعَ اخْتِصَارِ الأَسَانِيدِ وَعَزْوِ الأَحَادِيثِ إِلَى مَظَانِّهَا مِنْ كُتُبِ الحَدِيثِ ، وَكَذَا اخْتِصَارِ بَعْضِ الْمَسَائِلِ الفِقْهِيَّةِ وَالاسْتِدْلَالَاتِ

القُرْآنِيَّةِ الَّتِي أَكْثَرَ مِنْهَا الحَافِظُ - رَحِمَهُ اللهُ - وَبَعْدَ انْتِهَاءِ العَمَلِ وَجَدْنَا أَنَّ أَقْرَبَ وَأَدَقَّ الأَسْمَاءِ لِهَذَا المُخْتَصَرِ هُوَ ((صَحِيحُ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ)) فَكَانَ كَذَلِكَ ، وَخَرَجَ الكِتَابُ بِصُورَةٍ مُشَرِّفَةٍ لاقَت اسْتِحْسَانَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ بَعْضِ الأَخْطَاءِ المَطْبَعِيَّةِ فِي التَّشْكِيلِ اسْتَدْرَكْنَاهَا فِي الطَّبْعَةِ التَّالِيَةِ وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ .

وَكَانَ الشَّيْخُ - حَفِظَهُ اللهُ - قَدْ أَوْكَلَ إِلَيَّ أَثْنَاءَ العَمَلِ بِالكِتَابِ مُهِمَّةَ رَبْطِ الجُمَلِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ ، وَوَصْلِ مَا انْقَطَعَ بِفِعْلِ حَذْفِ الضَّعِيفِ مِنْهُ ، مَعَ المُحَافَظَةِ عَلَى عِبَارَاتِ وَأَلْفَاظِ الحَافِظِ - رَحِمَهُ اللهُ - وَقَدْ أَخَذَ مِنِّي هَذَا العَمَلُ جُهْدًا شَاقًّا خِلَالَ عَامَيْنِ كَامِلَيْنِ ، لَكِنْ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيَّ أَنْ أَصَابَنِي بِسَبَبِهِ الخَيْرُ الكَثِيرُ ، وَذَلِكَ لِقِرَاءَتِي التَّفْسِيرَ كَامِلًا أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِ مَرَّاتٍ ، وَهَذَا مِنْ بَرَكَةِ هَذَا العَمَلِ ، أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَهُ خَالِصًا لِوَجْهِهِ ، وَقَدْ وَفَّقَنِي اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ المُهِمَّةِ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ - وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ - مِمَّا حَدَا بِبَعْضِ أَحْبَابِي - مِمَّنْ يُحْسِنُونَ الظَّنَّ بِي - أَنْ يُشِيرُوا عَلَيَّ بِاخْتِصَارِ ((صَحِيحِ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ)) حَتَّى يَسْتَفِيدَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ العَظِيمِ كُلُّ مَنْ ضَاقَ وَقْتُهُ وَعَجَزَتْ هِمَّتُهُ عَنْ مُطَالَعَةِ الأَصْلِ أَوْ الصَّحِيحِ ، فَانْشَرَحَ صَدْرِي لِهَذَا الأَمْرِ ، فَاسْتَخَرْتُ اللهَ تَعَالَى وَبَدَأْتُ العَمَلَ عَلَى وَجَلٍ وَهَيْبَةٍ ، فَوَاصَلْتُ العَمَلَ لَيْلاً وَنَهَارًا دُونَ مَلَلٍ ، فَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ بِضَاعَتِي مُزْجَاةٌ وَأَنَّنِي أَخُوضُ غِمَارًا فَوْقَ طَاقَتِي ، وَخِضَمًّا لَيْسَ لِمِثْلِي أَنْ يَخُوضَ عُبَابَهُ .

وَلَنْ أُطِيلَ عَلَيْكَ أَخِي القَارِئَ الكَرِيمَ فِي وَصْفِ مُمَيِّزَاتِ هَذَا المُخْتَصَرِ أَوْ تَفْصِيلِ مَنْهَجِي فِي هَذَا العَمَلِ ، فَهُوَ بِاخْتِصَارٍ : أَنَّنِي أَرَدْتُ أَنْ أُقَدِّمَ لِعَامَّةِ المُسْلِمِينَ مِمَّنْ ضَاقَ وَقْتُهُ وَعَجَزَتْ هِمَّتُهُ مُخْتَصَرًا سَهْلًا يَسِيرًا فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ عَلَى مَنْهَجِ أَهْلِ السُّنَّةِ بِعِبَارَاتِ وَاحِدٍ مِنْ أَعْظَمِ عُلَمَاءِ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ بِشَكْلٍ غَيْرِ مُخِلٍّ وَعَرْضٍ غَيْرِ مُمِلٍّ ، هَذَا وَمَا كَانَ مِنْ تَوْفِيقٍ فَمِنَ اللهِ وَحْدَهُ ، وَمَا كَانَ مِنْ خَطَأٍ أَوْ زَلَلٍ أَوْ سَهْوٍ أَوْ نِسْيَانٍ فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ ، وَلَا نَنْسَى أَنْ نُنَوِّهَ إِلَى أَنَّ هَذَا العَمَلَ جُهْدٌ بَشَرِيٌّ وَهُوَ عُرْضَةٌ لِلنَّقْصِ وَالخَطَأِ وَالزَّلَلِ وَالنِّسْيَانِ ، فَمَنِ اطَّلَعَ عَلَى خَطَأٍ فِيهِ أَوْ زَلَلٍ فَلْيُقَدِّمِ العُذْرَ وَحُسْنَ الظَّنِّ عَلَى غَيْرِهِ ، وَيُرْسِلْ إِلَيْنَا بِمَا وَقَفَ عَلَيْهِ مِنْ خَطَأٍ أَوْ مُلَاحَظَةٍ ، وَلَهُ مِنَّا جَزِيلُ الشُّكْرِ وَالتَّقْدِيرِ .

وَخِتَامًا أَسْأَلُ اللهَ العَظِيمَ أَنْ يَتَقَبَّلَ مِنَّا جُهْدَ المُقِلِّ بِقَبُولٍ حَسَنٍ ، وَأَنْ يَأْجُرَنَا عَلَيْهِ الثَّوَابَ الحَسَنَ ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَنَا مَا كَانَ فِيهِ مِنْ خَطَأٍ إِنَّهُ بِكُلِّ جَمِيلٍ كَفِيلٌ ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الوَكِيلُ ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

وكتبه

أبو عبد الرحمن عوض لطفي الجزار

رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية بفارسكور

غفر الله له ولوالديه وأولاده والمؤمنين والمؤمنات

بسم الله الرحمن الرحيم

آياتها ٧ تفسيرُ سُورةِ الفاتحة مكية

يُقَالُ لَهَا الْفَاتِحَةُ أَيْ : ((فَاتِحَةُ)) الْكِتَابِ خَطًّا وَبِهَا تُفْتَحُ الْقِرَاءَةُ فِي الصَّلَوَاتِ وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا : أُمُّ الْكِتَابِ لِقَوْلِهِ ﷺ: ((الحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ : أُمُّ الْقُرْآنِ ، وَأُمُّ الْكِتَابِ ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي ، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ)). وَيُقَال لَهَا : ((الْحَمْدُ)) وَيُقَال لَهَا : ((الصَّلاةُ)) لِقَوْلِهِ ﷺ عَنْ رَبِّه : ((قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ)). وَيُقَالُ لَهَا : ((الشِّفَاءُ)) وَيُقَالُ لَهَا : ((الرُّقْيَةُ)) لِقَوْلِهِ ﷺ: ((وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ ؟)) . وَهِيَ مَكِّيَّةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي ﴾ وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ . قَالَ الْبُخَارِيُّ: وَسُمِّيَتْ أُمَّ الْكِتَابِ لأَنَّهُ يُبْدَأُ بِكِتَابَتِهَا فِي المَصَاحِفِ وَيُبْدَأُ بِقِرَاءَتِهَا فِي الصَّلاةِ ، وَقِيلَ : إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِرُجُوعِ مَعَانِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ إِلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ . عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى رضي الله عنه قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: ((لأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ)) قَالَ : فَأَخَذَ بِيَدِي ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله إِنَّكَ قُلْتَ : لأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ، قَالَ : ((نَعَمْ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ)). وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: ((مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الإِنْجِيلِ مِثْلَ أُمِّ الْقُرْآنِ وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَهِيَ مَقْسُومَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ)).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((مَنْ صَلَّى صَلاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ ثَلاثًا غَيْرُ تَمَامٍ)) فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ : إِنَّا نَكُونُ خَلْفَ الإِمَامِ فَقَالَ : اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : ((قَالَ اللهُ عز وجل: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى : حَمِدَنِي عَبْدِي ، وَإِذَا قَالَ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قَالَ اللهُ : أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ قَالَ اللهُ : مَجَّدَنِي عَبْدِي ، وَقَالَ مَرَّةً : فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قَالَ : هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قَالَ اللهُ : هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ)) .

الكَلامُ عَلَى تَفْسِيرِ الاسْتِعَاذَةِ وَأَحْكَامِهَا

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٩٩ - ٢٠٠]

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾[المؤمنون ٩٦ - ٩٨]

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[فصلت : ٣٤-٣٦] فَهَذِهِ ثَلَاثُ آيَاتٍ لَيْسَ لَهُنَّ رَابِعَةٌ فِي مَعْنَاهَا ، وَهُوَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَأْمُرُ بِمُصَانَعَةِ الْعَدُوِّ الْإِنْسِيِّ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ لِيَرُدَّهُ عَنْهُ طَبْعُهُ الطَّيِّبُ الْأَصْلِ إِلَى الْمُوَالَاةِ وَالْمُصَافَاةِ وَيَأْمُرُ بِالاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنَ الْعَدُوِّ الشَّيْطَانِيِّ لَا مَحَالَةَ إِذْ لَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةً وَلَا إِحْسَانًا ، وَلَا يَبْتَغِي غَيْرَ هَلَاكِ ابْنِ آدَمَ لِشِدَّةِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ آدَمَ مِنْ قَبْلُ . **وَالْمَشْهُور الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ** : أَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ إِنَّمَا تَكُونُ قَبْلَ التِّلَاوَةِ لِدَفْعِ الوَسَاوِسِ فِيهَا ، وَمَعْنَى الْآيَةِ عِنْدَهُمْ : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[النحل : ٩٨] أَيْ : إِذَا أَرَدْتَ الْقِرَاءَةَ . **وَمِنْ لَطَائِفِ الاسْتِعَاذَةِ** أَنَّهَا طَهَارَةٌ لِلْفَمِ مِمَّا كَانَ يَتَعَاطَاهُ مِن اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ وَتَطَيُّبٌ لَهُ وَتَهَيُّؤٌ لِتِلَاوَةِ كَلَامِ اللهِ ، وَهِيَ اسْتِعَانَةٌ بِاللهِ وَاعْتِرَافٌ لَهُ بِالْقُدْرَةِ ، وَلِلْعَبْدِ بِالضَّعْفِ وَالْعَجْزِ عَنْ مُقَاوَمَةِ هَذَا الْعَدُوِّ الْمُبِينِ الْبَاطِنِيِّ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى مَنْعِهِ وَدَفْعِهِ إِلَّا اللهُ الَّذِي خَلَقَهُ وَلَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةً وَلَا يُدَارَى بِالْإِحْسَانِ . وَمَعْنَى **أَعُوذ بِاللهِ مِن الشَّيْطَانِ الرَّجِيم** : أَيْ : أَسْتَجِيرُ بِجَنَابِ اللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَنْ يَضُرَّنِي فِي دِينِي أَوْ دُنْيَايَ أَوْ يَصُدَّنِي عَنْ فِعْلِ مَا أُمِرْتُ بِهِ أَوْ يَحُثَّنِي عَلَى فِعْلِ مَا نُهِيتُ عَنْهُ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَكُفُّهُ عَنِ الْإِنْسَانِ إِلَّا اللهُ ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ تَعَالَى بِمُصَانَعَةِ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَمُدَارَاتِهِ بِإِسْدَاءِ الْجَمِيلِ إِلَيْهِ لِيَرُدَّهُ طَبْعُهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِن الْأَذَى ، وَأَمَرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنْ شَيْطَانِ الْجِنِّ لِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ رِشْوَةً وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِ جَمِيلٌ ، لِأَنَّهُ شِرِّيرٌ بِالطَّبْعِ وَلَا يَكُفُّهُ عَنْك إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُ . **وَالشَّيْطَانُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ** مُشْتَقٌّ مِنْ شَطَنَ إِذَا بَعُدَ فَهُوَ بَعِيدٌ بِطَبْعِهِ عَنْ طِبَاعِ الْبَشَرِ ، وَبَعِيدٌ بِفِسْقِهِ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ ، **وَقِيلَ** : مُشْتَقٌّ مِنْ شَاطَ : لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ . وَ« **الرَّجِيمُ** » فَعِيل بِمَعْنَى مَفْعُولٌ ، أَيْ : أَنَّهُ مَرْجُومٌ مَطْرُودٌ عَنِ الْخَيْرِ كُلِّهِ .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

افْتَتَحَ بِهَا الصَّحَابَةُ كِتَابَ اللهِ ، وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ مِنْ سُورَةِ النَّمْلِ ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا : هَلْ هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ ، أَوْ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ كُتِبَتْ فِي أَوَّلِهَا ، أَوْ أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ ، أَوْ أَنَّهَا كَذَلِكَ فِي الْفَاتِحَةِ دُونَ غَيْرِهَا ، أَوْ أَنَّهَا إِنَّمَا كُتِبَتْ لِلْفَصْلِ لَا أَنَّهَا آيَةٌ عَلَى أَقْوَالٍ لِلْعُلَمَاءِ سَلَفًا وَخَلَفًا ، وَذَلِكَ مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

عَنْ رَدِيفِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : عُثِرَ بِالنَّبِيِّ ﷺ حِمَارُهُ فَقُلْتُ : تَعِسَ الشَّيْطَانُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**لَا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ : تَعِسَ الشَّيْطَانُ تَعَاظَمَ وَقَالَ بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ ، وَإِذَا قُلْتَ : بِسْمِ اللهِ تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ**)). فَهَذَا مِنْ تَأْثِيرِ بَرَكَةِ ((بِسْمِ ٱللَّهِ)) وَلِهَذَا تُسْتَحَبُّ فِي أَوَّلِ كُلِّ عَمَلٍ وَقَوْلٍ . وَتُسْتَحَبُّ فِي أَوَّلِ الْوُضُوءِ وعِنْدَ الْأَكْلِ ، وَعِنْدَ الْجِمَاعِ . فَالْمَشْرُوعُ ذِكْرُ اسْمِ اللهِ فِي الشُّرُوعِ فِي ذَلِكَ كُلِّه تَبَرُّكًا وَتَيَمُّنًا وَاسْتِعَانَةً عَلَى الْإِتْمَامِ وَالتَّقَبُّلِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

﴿ الله ﴾ عَلَمٌ عَلَى الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُقَالُ : إِنَّهُ الاسْمُ الْأَعْظَمُ ؛ لِأَنَّهُ يُوصَفُ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر : ٢٢-٢٤] فَأَجْرَى الْأَسْمَاءَ الْبَاقِيَةَ كُلَّهَا صِفَاتٍ لَهُ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا ، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**)) . وَهُوَ اسْمٌ لَمْ يُسَمَّ بِهِ غَيْرُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ اِسْمَانِ مُشْتَقَّانِ مِنَ الرَّحْمَةِ عَلَى وَجْهِ الْمُبَالَغَةِ ، وَالرَّحْمَٰنُ أَشَدُّ مُبَالَغَةً فِي الرَّحْمَةِ لِعُمُومِهَا فِي الدَّارَيْنِ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَالرَّحِيمَ خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ ، وَلَمَّا تَجَمْهَرَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ ، وَتَسَمَّى بِرَحْمَٰنِ الْيَمَامَةِ كَسَاهُ اللهُ جِلْبَابَ الْكَذِبِ وَشَهَرَهُ بِهِ ، فَلَا يُقَالُ إِلَّا مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ .

وَأَمَّا الرَّحِيمُ فَإِنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ بِهِ غَيْرَهُ حَيْثُ قَالَ : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] ، كَمَا وَصَفَ غَيْرَهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ .

وَالْحَاصِلُ أَنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى مَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ ، وَمِنْهَا مَا لَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ كَاسْمِ اللهِ ، وَالرَّحْمَٰنِ ، وَالْخَالِقِ ، وَالرَّزَّاقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَلِهَذَا بَدَأَ بِاسْمِ اللهِ وَوَصَفَهُ بِالرَّحْمَٰنِ ؛ لِأَنَّهُ أَخَصُّ وَأَعْرَفُ مِنَ الرَّحِيمِ ؛ لِأَنَّ التَّسْمِيَةَ أَوَّلًا إِنَّمَا تَكُونُ بِأَشْرَفِ الْأَسْمَاءِ ، فَلِهَذَا ابْتَدَأَ بِالْأَخَصِّ فَالْأَخَصِّ .

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

مَعْنَى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الشُّكْرُ للهِ خَالِصًا دُونَ سَائِرِ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ ، وَدُونَ كُلِّ مَا بَرَأَ مِنْ خَلْقِهِ بِمَا أَنْعَمَ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا الْعَدَدُ وَلَا يُحِيطُ بِعَدَدِهَا غَيْرُهُ .

﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الرَّبُّ هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ وَيُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى السَّيِّدِ وَعَلَى الْمُتَصَرِّفِ لِلْإِصْلَاحِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ صَحِيحٌ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَى ، وَلَا يُسْتَعْمَلُ الرَّبُّ لِغَيْرِ اللهِ بَلْ بِالْإِضَافَةِ تَقُولُ : رَبُّ الدَّارِ ، رَبُّ كَذَا ، وَأَمَّا الرَّبُّ فَلَا يُقَالُ إِلَّا للهِ ﷻ .

وَالْعَالَمِينَ جَمْعُ عَالَمٍ وَهُوَ كُلُّ مَوْجُودٍ سِوَى اللهِ ﷻ ، وَالْعَالَمُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْعَلَامَةِ .
قُلْتُ : لأَنَّهُ عَلَمٌ دَالٌّ عَلَى وُجُودِ خَالِقِهِ وَصَانِعِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ، كَمَا قَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ :

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : إِنَّمَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بَعْد قَوْلِهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لِيَكُونَ مِنْ بَابِ قَرْنِ التَّرْغِيبِ بَعْدَ التَّرْهِيبِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴾[الحجر : ٤٩- ٥٠] قَالَ : « فَالرَّبُّ » فِيهِ تَرْهِيبٌ « وَالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » تَرْغِيبٌ .

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

قَرَأَ بَعْضُ الْقُرَّاءِ ﴿ مَٰلِكِ ﴾ وَقَرَأَ آخَرُونَ « مَلِكِ » ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ مُتَوَاتِرٌ فِي السَّبْعِ ، وَمَالِكٌ : مَأْخُوذ مِنَ الْمُلْكِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ ، وَمَلِكٌ : مَأْخُوذٌ مِنَ الْمُلْكِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ ، وَتَخْصِيصُ الْمُلْك بِيَوْمِ الدِّينِ لَا يَنْفِيهِ عَمَّا عَدَاهُ لأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ الإِخْبَارُ بِأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَذَلِكَ عَامٌّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَإِنَّمَا أُضِيفَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ؛ لأَنَّهُ لَا يَدَّعِي أَحَدٌ هُنَالِكَ شَيْئًا وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ .

وَالْمَلِكُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ اللهُ ﷻ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾[الحشر : ٢٣] فَأَمَّا تَسْمِيَةُ غَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا بِمَلِكٍ فَعَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾[الكهف : ٧٩] . وَالدِّينُ : الْجَزَاءُ وَالْحِسَابُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ ﴾[النور : ٢٥] وَقَالَ : ﴿ أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أَيْ : مَجْزِيُّونَ مُحَاسَبُونَ .

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾

« الْعِبَادَةُ » فِي اللُّغَةِ مِنَ الذِّلَّةِ ، يُقَالُ : طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ وَبَعِيرٌ مُعَبَّدٌ أَيْ : مُذَلَّل ، وَفِي الشَّرْعِ : عِبَارَةٌ عَمَّا يَجْمَعُ كَمَالُ الْمَحَبَّةِ وَالْخُضُوعِ وَالْخَوْفِ . وَقَدَّمَ الْمَفْعُولَ وَهُوَ إِيَّاكَ وَكُرِّرَ لِلاهْتِمَامِ وَالْحَصْرِ أَيْ : لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ وَلَا نَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْكَ ، وَهَذَا هُوَ كَمَالُ الطَّاعَةِ . وَالدِّينُ كُلُّهُ يَرْجِعُ إِلَى هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ . وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : الْفَاتِحَةُ سِرُّ الْقُرْآنِ وَسِرُّهَا هَذِهِ الْكَلِمَة ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ فَالأَوَّلُ تَبَرُّؤٌ مِنَ الشِّرْكِ ، وَالثَّانِي تَبَرُّؤٌ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ ، وَالتَّفْوِيضُ إِلَى اللهِ ﷻ . وَتَحَوُّلُ الْكَلَامِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْمُوَاجَهَةِ بِكَافِ الْخِطَابِ وَهُوَ مُنَاسِبَة لأَنَّهُ لَمَّا أَثْنَى عَلَى اللهِ تَعَالَى فَكَأَنَّهُ اقْتَرَبَ وَحَضَرَ بَيْنَ يَدَي اللهِ تَعَالَى ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ . عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي

نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، إِذَا قَالَ الْعَبْدُ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قَالَ اللهُ : حَمِدَنِي عَبْدِي وَإِذَا قَالَ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قَالَ الله : أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ قَالَ اللهُ : مَجَّدَنِي عَبْدِي ، وَإِذَا قَالَ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قَالَ : هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ قَالَ : هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » ، وَقَالَ قَتَادَة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوهُ عَلَى أُمُورِكُمْ ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ عَلَى ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ لَهُ هِيَ الْمَقْصُودَةُ ، وَالاسْتِعَانَةُ وَسِيلَةٌ إِلَيْهَا ، وَالاهْتِمَامُ وَالْحَزْمُ تَقْدِيمُ مَا هُوَ الْأَهَمُّ فَالْأَهَمُّ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

لَمَّا تَقَدَّمَ الثَّنَاءُ عَلَى الْمَسْئُولِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَاسَبَ أَنْ يُعَقِّبَ بِالسُّؤَالِ ، كَمَا قَالَ : « فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » وَهَذَا أَكْمَلُ أَحْوَالِ السَّائِلِ أَنْ يَمْدَحَ مَسْئُولَهُ ثُمَّ يَسْأَلَهُ حَاجَتَهُ وَحَاجَةَ إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ لِأَنَّهُ أَنْجَحُ لِلْحَاجَةِ وَأَنْجَعُ لِلْإِجَابَةِ ، وَلِهَذَا أَرْشَدَ اللهُ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ الْأَكْمَلُ . وَالْهِدَايَةُ هَهُنَا : الْإِرْشَادُ وَالتَّوْفِيقُ ، وَأَمَّا ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ جَمِيعًا عَلَى أَنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ ، وَكَذَلِكَ فِي لُغَةِ جَمِيعِ الْعَرَبِ . ثُمَّ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ فِي تَفْسِيرِ الصِّرَاطِ وَإِنْ كَانَ يَرْجِعُ حَاصِلُهَا إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ وَهُوَ : الْمُتَابَعَةُ للهِ وَلِلرَّسُولِ ، فَرُوِيَ أَنَّهُ كِتَابُ الله . وَقِيلَ : هُوَ الْإِسْلَام . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ قَالَ : الْحَقُّ ، وَهَذَا أَشْمَلُ . وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ صَحِيحَةٌ وَهِيَ مُتَلَازِمَةٌ .

فَإِنْ قِيلَ : فَكَيْفَ يَسْأَلُ الْمُؤْمِنُ الْهِدَايَةَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ صَلَاةٍ وَغَيْرِهَا وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِذَلِكَ ؟ فَهَلْ هَذَا مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ أَمْ لَا ؟ فَالْجَوَابُ : أَنْ لَا ، وَلَوْلَا احْتِيَاجُهُ لَيْلاً وَنَهَارًا إِلَى سُؤَالِ الْهِدَايَةِ ؛ لَمَا أَرْشَدَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ مُفْتَقِرٌ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَحَالَةٍ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي تَثْبِيتِهِ عَلَى الْهِدَايَةِ وَرُسُوخِهِ فِيهَا وَتَبَصُّرِهِ وَازْدِيَادِهِ مِنْهَا وَاسْتِمْرَارِهِ عَلَيْهَا ، فَالسَّعِيدُ مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَى لِسُؤَالِهِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْ تَكَفَّلَ بِإِجَابَةِ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ وَلَا سِيَّمَا الْمُضْطَرُّ الْمُحْتَاجُ الْمُفْتَقِرُ إِلَيْهِ . فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ اسْتَمِرْ بِنَا عَلَيْهِ ، وَلَا تَعْدِلْ بِنَا إِلَى غَيْرِه .

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ مُفَسِّرٌ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيم . وَالَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ

ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٩-٧٠] ، وَهُمْ أَهْلُ الْهِدَايَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالطَّاعَةِ للهِ وَرُسُلِهِ وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ ، وَتَرْكِ نَوَاهِيهِ وَزَوَاجِرِهِ ، غَيْرِ صِرَاطِ ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ وَهُمُ الَّذِينَ فَسَدَتْ إِرَادَتُهُمْ فَعَلِمُوا الْحَقَّ وَعَدَلُوا عَنْهُ وَلَا صِرَاطَ ﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ وَهُمُ الَّذِينَ فَقَدُوا الْعِلْمَ ، فَهُمْ هَائِمُونَ فِي الضَّلَالَةِ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ . وَأَكَّدَ الْكَلَامَ بِلَا ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ ثَمَّ مَسْلَكَيْنِ فَاسِدَيْنِ وَهُمَا طَرِيقَتَا الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى . وَلِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الطَّرِيقَتَيْنِ لِتُجْتَنَبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، فَإِنَّ طَرِيقَةَ أَهْلِ الْإِيمَانِ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْعِلْمِ بِالْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِهِ ، وَالْيَهُودُ فَقَدُوا الْعَمَلَ وَالنَّصَارَى فَقَدُوا الْعِلْمَ ، وَلِهَذَا كَانَ الْغَضَبُ لِلْيَهُودِ وَالضَّلَالُ لِلنَّصَارَى ؛ وَكُلٌّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ضَالٌّ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ ، لَكِنْ أَخَصُّ أَوْصَافِ الْيَهُودِ الْغَضَبُ ، وَأَخَصُّ أَوْصَافِ النَّصَارَى الضَّلَالُ ، وَبِهَذَا جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ .

فَصْلٌ : اشْتَمَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ عَلَى حَمْدِ اللهِ وَتَمْجِيدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى الْمُسْتَلْزِمَةِ لِصِفَاتِهِ الْعُلْيَا ، وَعَلَى ذِكْرِ الْمَعَادِ وَهُوَ يَوْمُ الدِّينِ ، وَعَلَى إِرْشَادِهِ عَبِيدَهُ إِلَى سُؤَالِهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ ، وَالتَّبَرُّؤِ مِنْ حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ ، وَإِلَى إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَتَوَحُّدِهِ بِالْأُلُوهِيَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَنْزِيهِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ ، أَوْ مُمَاثِلٌ ، وَإِلَى سُؤَالِهِمْ إِيَّاهُ الْهِدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَهُوَ الدِّينُ الْقَوِيمُ ، وَتَثْبِيتِهِمْ عَلَيْهِ ، وَاشْتَمَلَتْ عَلَى التَّرْغِيبِ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ؛ لِيَكُونُوا مَعَ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مَسَالِكِ الْبَاطِلِ لِئَلَّا يُحْشَرُوا مَعَ سَالِكِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهُمُ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ وَالضَّالُّونَ ، وَمَا أَحْسَنَ مَا جَاءَ إِسْنَادُ الْإِنْعَامِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ وَحَذَفَ الْفَاعِلَ فِي الْغَضَبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ وَإِنْ كَانَ هُوَ الْفَاعِلُ لِذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ . وَكَذَلِكَ إِسْنَادُ الضَّلَالِ إِلَى مَنْ قَامَ بِهِ وَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي أَضَلَّهُمْ بِقَدَرِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف:١٧] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْهِدَايَةِ وَالْإِضْلَالِ .

فَصْلٌ : **يُسْتَحَبُّ لِمَنْ قَرَأَ الْفَاتِحَةَ أَنْ يَقُولَ بَعْدَهَا : آمِينَ** ، وَمَعْنَاهُ : اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ ، وَيُسْتَحَبُّ ذَلِكَ لِمَنْ هُوَ خَارِجُ الصَّلَاةِ وَيَتَأَكَّدُ فِي حَقِّ الْمُصَلِّي ، وَسَوَاءٌ كَانَ مُنْفَرِدًا أَوْ إِمَامًا أَوْ مَأْمُومًا وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، لِقَوْلِهِ ﷺ : « **إِذَا قَالَ** - يَعْنِي الْإِمَامُ - **وَلَا الضَّالِّينَ فَقُولُوا آمِينَ يُجِبْكُمُ اللهُ** » . وَقَالَ ﷺ : « **إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمِّنُوا** » وَأَنَّهُ ﷺ كَانَ يُؤَمِّنُ إِذَا قَرَأَ ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « الْفَاتِحَةِ » وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

آياتها ٢٨٦ تفسيرُ سُورَةِ البَقَرَةِ مدنيـة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا ، فَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ لَا يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ** ».

وَعَنْ بُرَيْدَةَ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « **تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ** » أَيْ :السحرة .

فَصْلٌ : وَالْبَقَرَةُ جَمِيعُهَا مَدَنِيَّةٌ بِلَا خِلَافٍ وَهِيَ مِنْ أَوَائِلِ مَا نَزَلَ بِهَا ، لَكِن قَوْلَهُ تَعَالَى فِيهِ : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ الْآيَةُ يُقَالُ : إِنَّهَا آخِرُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مِنْهَا ، وَكَذَلِكَ آيَاتُ الرِّبَا مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ﴿١﴾

قَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الَّتِي فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ ، **فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ** : هِيَ مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِهِ ، فَرَدُّوا عِلْمَهَا إِلَى اللهِ ، وَلَمْ يُفَسِّرْهَا . وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهَا ، وَاخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ فِي مَعْنَاهَا ، **فَقَالَ بَعْضُهُمْ** : إِنَّمَا هِيَ : أَسْمَاءُ السُّوَرِ . وَقَالَ آخَرُونَ ﴿ الم ﴾ و ﴿ حم ﴾ و ﴿ المص ﴾ و ﴿ ص ﴾ فَوَاتِحُ افْتَتَحَ اللهُ بِهَا الْقُرْآنَ .

وَقِيلَ : هِيَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى ، وَقَالَ آخَرُونَ : هو قَسَمٌ أَقْسَمَ اللهُ بِهِ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : فَهِيَ حُرُوفٌ اُسْتُفْتِحَتْ مِنْ حُرُوفِ هِجَاءِ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى .

قُلْتُ : مَجْمُوعُ الْحُرُوفِ الْمَذْكُورَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ بِحَذْفِ الْمُكَرَّرِ مِنْهَا أَرْبَعَةَ عَشَرَ حَرْفًا وَهِيَ - « ا ل م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن » - **يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ** : نَصٌّ حَكِيمٌ قَاطِعٌ لَهُ سِرٌّ . وَهِيَ نِصْفُ الْحُرُوفِ عَدَدًا ، وَالْمَذْكُورُ مِنْهَا أَشْرَفُ مِنَ الْمَتْرُوكِ ، وَبَيَانُ ذَلِكَ مِنْ صِنَاعَةِ التَّصْرِيفِ .

ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

ذَلِكَ الْكِتَابُ أَيْ : هَذَا الْكِتَابُ .

وَالْكِتَابُ : الْقُرْآنُ ، ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لَا شَكَّ فِيهِ ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ هُنَا : أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ هُوَ الْقُرْآنُ لَا شَكَّ فِيهِ ، أَنَّهُ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي السَّجْدَةِ ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴾ [السجدة : ١-٢]

وَخُصَّتِ الْهِدَايَةُ لِلْمُتَّقِينَ ، كَمَا قَالَ : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى اخْتِصَاصِ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّفْعِ بِالْقُرْآنِ ، لأَنَّهُ هُوَ فِي نَفْسِهِ هُدًى ، وَلَكِنْ لَا يَنَالُهُ إِلَّا الأَبْرَارُ . ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يَعْنِي : نُورًا لِلْمُتَّقِينَ ، ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ، وَقِيلَ : الَّذِينَ يَحْذَرُونَ مِنَ اللهِ عُقُوبَتَهُ ، وَقِيلَ : ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ الشِّرْكَ بِي وَيَعْمَلُونَ بِطَاعَتِهِ ، وَقِيلَ : اتَّقَوْا مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِم ، وَأَدَّوْا مَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْهِم . وَيُطْلَقُ الْهُدَى وَيُرَادُ بِهِ مَا يُقِرُّ فِي الْقَلْبِ مِنَ الإِيمَانِ ، وَهَذَا لَا يَقْدِرُ عَلَى خَلْقِهِ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ إِلَّا اللهُ . وَأَصْلُ التَّقْوَى التَّوَقِّي مِمَّا يُكْرَهُ . قَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ :

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا ... وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاصْنَعْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً ... إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى

ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾

أَمَّا الإِيمَانُ فِي اللُّغَةِ فَيُطْلَقُ عَلَى التَّصْدِيقِ الْمَحْضِ ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي الْقُرْآنِ وَالْمُرَادُ بِهِ ذَلِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ٦١] ، وَكَمَا قَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لأَبِيهِمْ ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [يوسف : ١٧] ، وَكَذَلِكَ إِذَا اسْتُعْمِلَ مَقْرُونًا مَعَ الأَعْمَالِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [ص : ٢٤] فَأَمَّا إِذَا اسْتُعْمِلَ مُطْلَقًا ، فَالإِيمَانُ الشَّرْعِيُّ الْمَطْلُوبُ لَا يَكُونُ إِلَّا اعْتِقَادًا وَقَوْلًا وَعَمَلًا . هَكَذَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَكْثَرُ الأَئِمَّةِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ : بِالْخَشْيَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ [الأنبياء : ٤٩] ، وَالْخَشْيَةُ : خُلَاصَةُ الإِيمَانِ وَالْعِلْمِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر : ٢٨]

وَأَمَّا الْغَيْبُ الْمُرَادُ هَاهُنَا . قِيلَ : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَنَّتِهِ وَنَارِهِ وَلِقَائِهِ ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَبِالْبَعْثِ فَهَذَا غَيْبٌ كُلُّهُ . وَقِيلَ : الْغَيْبُ فَمَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ مِنْ أَمْرِ الْجَنَّةِ وَأَمْرِ النَّارِ ، وَمَا ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ ، وَقِيلَ : بِالْقَدَرِ . فَكُلُّ هَذِهِ مُتَقَارِبَةٌ فِي مَعْنًى وَاحِدٍ ، لأَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ مِنَ الْغَيْبِ ، الَّذِي يَجِبُ الإِيمَانُ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ إِتْمَامُ الرُّكُوعِ ، وَالسُّجُودِ ، وَالتِّلَاوَةِ ، وَالْخُشُوعِ وَالإِقْبَالِ عَلَيْهَا فِيهَا ، وَالْمُحَافَظَةُ عَلَى مَوَاقِيتِهَا ، وَوُضُوئِهَا ، وَرُكُوعِهَا ، وَسُجُودِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ قِيلَ الْمُرَادُ : زَكَاةُ أَمْوَالِهِمْ ، وَقِيلَ : نَفَقَةُ الرَّجُلِ عَلَى أَهْلِهِ ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الزَّكَاةُ .

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾

أَيْ : يُصَدِّقُونَ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الله ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنهم وَلَا يَجْحَدُونَ مَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِمْ ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ . أَيْ : بِالْبَعْثِ وَالْقِيَامَةِ ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَالْحِسَابِ وَالْمِيزَانِ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَت الْآخِرَةُ ، لأَنَّهَا بَعْدَ الدُّنْيَا .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : ﴿أُوْلَٰٓئِك﴾ أَيْ : الْمُتَّصِفُونَ بِمَا تَقَدَّمَ ﴿عَلَىٰ هُدٗى﴾ أَيْ : عَلَى نُورٍ وَبَيَانٍ وَبَصِيرَةٍ مِنَ الله تَعَالَى وَاسْتِقَامَةٍ وَسَدَادٍ بِتَسْدِيدِهِ إِيَّاهُمْ وَتَوْفِيقِهِ لَهُمْ ، وَتَأْوِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أَيْ : الْمُنْجِحُونَ الْمُدْرِكُونَ مَا طَلَبُوا عِنْدَ الله بِأَعْمَالِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ بِالله وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ مِنَ الْفَوْزِ بِالثَّوَابِ وَالْخُلُودِ فِي الْجَنَّاتِ ، وَالنَّجَاةِ مِمَّا أَعَدَّ اللهُ لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْعِقَابِ .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾

يَقُول تَعَالَى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أَيْ : غَطُّوا الْحَقَّ وَسَتَرُوهُ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ إِنْذَارُكَ وَعَدَمُهُ فَإِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ . **كَمَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس : ٩٦-٩٧] ، وَقَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ الْمُعَانِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَ﴾ [البقرة : ١٤٥] . أَيْ أَنَّ مَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ فَلَا مُسْعِدَ لَهُ ، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ وَبَلِّغْهُم الرِّسَالَةَ ، فَمَنِ اسْتَجَابَ لَكَ فَلَهُ الْحَظُّ الْأَوْفَرُ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا يُهِمَّنَّكَ ذَلِكَ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد : ٤٠] ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ أَيْ : هُمْ كُفَّارٌ فِي كِلَا الْحَالَيْنِ ؛ فَلِهَذَا أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ .

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾ أَيْ : طَبَعَ اللهُ . **قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَأَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّ اللهَ ﷻ** قَدْ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْخَتْمِ وَالطَّبْعِ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ مُجَازَاةً لِكُفْرِهِمْ كَمَا قَالَ : ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾ [النساء : ١٥٥] ، وَذَكَرَ حَدِيثَ تَقْلِيبِ الْقُلُوبِ « **وَيَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ** ».

قَالَ ابْن جَرِير : وَالْحَقُّ عِنْدِي فِي ذَلِكَ مَا صَحَّ بِنَظِيرِهِ الْخَبَرَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ : « **إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَة سَوْدَاء فِي قَلْبه فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَعْتَبَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ ، **ثُمَّ قَالَ**

ابْنُ جرِير : فَأَخبرَ رَسُولُ الله ﷺ أَنَّ الذُّنُوبَ إِذَا تَتَابَعتْ عَلَى الْقُلُوبِ أَغْلَقَتْهَا ، وَإِذَا أَغْلَقَتْهَا أَتَاهَا حِينَئِذٍ الْخَتْمُ مِنْ قِبَلِ الله تَعَالَى وَالطَّبْع ، فَلا يَكُونُ لِلْإِيمَانِ إِلَيْهَا مَسْلَكٌ وَلَا لِلْكُفْرِ عَنْهَا مُخَلِّصٌ فَذَلِكَ هُوَ الْخَتْمُ وَالطَّبْعُ الَّذِي ذُكِرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ﴾ جُمْلَةٌ تَامَّةٌ فَإِنَّ الطَّبْعَ يَكُونُ عَلَى الْقَلْبِ وَعَلَى السَّمْعِ ، وَالْغِشَاوَةُ وَهِيَ الْغِطَاءُ يَكُونُ عَلَى الْبَصَرِ .

لَمَّا تَقَدَّمَ وَصفَ الْمُؤْمِنِينَ فِي صَدْرِ السُّورَةِ بِأَرْبَعِ آيَاتٍ ثُمَّ عَرَّفَ حَالَ الْكَافِرِينَ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ، شَرَعَ تَعَالَى فِي بَيَانِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

النِّفَاقُ : هُوَ إِظْهَارُ الْخَيْرِ وَإِسْرَارُ الشَّرِّ ، وَهُوَ أَنْوَاعٌ : اِعْتِقَادِيٌّ وَهُوَ الَّذِي يَخْلُدُ صَاحِبُهُ فِي النَّارِ ، وَعَمَلِيٌّ وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الذُّنُوبِ كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ صِفَاتُ الْمُنَافِقِينَ فِي السُّوَرِ الْمَدَنِيَّةِ لِأَنَّ مَكَّةَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا نِفَاقٌ بَلْ كَانَ خِلَافُهُ مِنَ النَّاسِ مَنْ كَانَ يُظْهِرُ الْكُفْرَ مُسْتَكْرَهًا وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ مُؤْمِنٌ ، وَهَاجَرَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ وَكَانَ بِهَا الْأَنْصَارُ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ وَكَانُوا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ عَلَى طَرِيقَةِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَبِهَا الْيَهُودُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى طَرِيقَةِ أَسْلَافِهِمْ ، وَأَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرٍ الْعُظْمَى ، وَأَظْهَرَ اللهُ كَلِمَتَهُ وَأَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ ، قَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولٍ وَكَانَ رَأْسًا فِي الْمَدِينَةِ وَهُوَ مِنَ الْخَزْرَجِ ، وَكَانَ سَيِّدَ الطَّائِفَتَيْنِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى أَنْ يُمَلِّكُوهُ عَلَيْهِمْ فَجَاءَهُمُ الْخَيْرُ وَأَسْلَمُوا وَاشْتَغَلُوا عَنْهُ فَبَقِيَ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرٍ قَالَ : هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ فَأَظْهَرَ الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ وَدَخَلَ مَعَهُ طَوَائِفُ مِمَّنْ هُوَ عَلَى طَرِيقَتِهِ وَنِحْلَتِهِ وَآخَرُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَمِنْ ثَمَّ وُجِدَ النِّفَاقُ فِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْأَعْرَابِ ، فَأَمَّا الْمُهَاجِرُونَ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ يُهَاجِرُ مُكْرَهًا بَلْ يُهَاجِرُ فَيَتْرُكُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَأَرْضَهُ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَ الله فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ .

وَلِهَذَا نَبَّهَ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَى صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ لِئَلَّا يَغْتَرَّ بِظَاهِرِ أَمْرِهِمْ الْمُؤْمِنُونَ فَيَقَعَ لِذَلِكَ فَسَادٌ عَرِيضٌ مِنْ عَدَمِ الِاحْتِرَازِ مِنْهُمْ وَمِنِ اعْتِقَادِ إِيمَانِهِمْ وَهُمْ كُفَّارٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أَيْ : بِإِظْهَارِهِمْ مَا أَظْهَرُوهُ مِنَ الْإِيمَانِ مَعَ إِسْرَارِهِمُ الْكُفْرَ ، يَعْتَقِدُونَ بِجَهْلِهِمْ أَنَّهُمْ يَخْدَعُونَ اللهَ بِذَلِكَ وَأَنَّ ذَاكَ نَافِعُهُمْ عِنْدَهُ ؛ لِهَذَا

قَابَلَهُمْ عَلَى اعْتِقَادِهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ يَقُول : وَمَا يَغُرُّونَ بِصَنِيعِهِمْ هَذَا وَلَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ بِذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ .

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ : شَكٌّ ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ : شَكًّا . ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ قِيلَ : هَذَا مَرَضٌ فِي الدِّينِ وَلَيْسَ مَرَضًا فِي الْأَجْسَادِ وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ ، وَالْمَرَضُ : الشَّكُّ الَّذِي دَخَلَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ . قِيلَ : ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ : زَادَهُمْ رِجْسًا . ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ ، وَقُرِئَ ((يُكَذِّبُونَ)) ، وَقَدْ كَانُوا مُتَّصِفِينَ بِهَذَا وَهَذَا ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا كَذَبَةً وَيُكَذِّبُونَ بِالْغَيْبِ يَجْمَعُونَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ : هُمُ الْمُنَافِقُونَ . أَمَّا ﴿ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ : الْفَسَادُ هُوَ الْكُفْرُ وَالْعَمَلُ بِالْمَعْصِيَةِ . وَقِيلَ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ يَعْنِي : لَا تَعْصُوا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ فَسَادُهُمْ ذَلِكَ مَعْصِيَةَ اللهِ ، لِأَنَّهُ مَنْ عَصَى اللهَ فِي الْأَرْضِ أَوْ أَمَرَ بِمَعْصِيَتِهِ فَقَدْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ ، لِأَنَّ صَلَاحَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ بِالطَّاعَةِ . فَالْمُنَافِقُ لَمَّا كَانَ ظَاهِرُهُ الْإِيمَانَ اشْتَبَهَ أَمْرُهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، فَكَانَ الْفَسَادُ مِنْ جِهَةِ الْمُنَافِقِ حَاصِلٌ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي غَرَّ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَوَالَى الْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَوْ أَنَّهُ اسْتَمَرَّ عَلَى حَالِهِ الْأَوَّلِ لَكَانَ شَرُّهُ أَخَفَّ ، وَلَوْ أَخْلَصَ الْعَمَلَ للهِ وَتَطَابَقَ قَوْلُهُ وَعَمَلُهُ لَأَفْلَحَ وَأَنْجَحَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ أَيْ : نُرِيدُ أَنْ نُدَارِيَ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ وَنَصْطَلِحَ مَعَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ .

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ يقول : أَلَا إِنَّ هَذَا الَّذِي يَعْتَمِدُونَهُ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ إِصْلَاحٌ هُوَ عَيْنُ الْفَسَادِ وَلَكِنْ مِنْ جَهْلِهِمْ لَا يَشْعُرُونَ بِكَوْنِهِ فَسَادًا .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَإِذَا قِيلَ لِلْمُنَافِقِينَ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ، أَيْ : كَإِيمَانِ النَّاسِ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَخْبَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَعَنْهُ ، وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ فِي امْتِثَالِ الْأَوَامِرِ وَتَرْكِ الزَّوَاجِرِ . ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ يَعْنُونَ - لَعَنَهُمُ اللهُ - أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ . يَقُولُونَ : أَنَصِيرُ نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ

وَعَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ وَهُمْ سُفَهَاءُ ؟ وَالسُّفَهَاءُ : جَمْعُ سَفِيهٍ ، وَالسَّفِيهُ هُوَ : الْجَاهِلُ الضَّعِيفُ الرَّأْيِ الْقَلِيلُ الْمَعْرِفَةِ بِمَوَاضِعِ الْمَصَالِحِ وَالْمَضَارِّ ، وَقَدْ تَوَلَّى اللهُ سُبْحَانَهُ جَوَابَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا فَقَالَ : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ فَأَكَّدَ وَحَصَرَ السَّفَاهَةَ فِيهِمْ ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ يَعْنِي : وَمِنْ تَمَامِ جَهْلِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ بِحَالِهِمْ فِي الضَّلَالَةِ وَالْجَهْلِ ، وَذَلِكَ أَرْدَى لَهُمْ وَأَبْلَغُ فِي الْعَمَى .

وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَإِذَا لَقِيَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا : آمَنَّا وَأَظْهَرُوا لَهُمُ الْإِيمَانَ وَالْمُوَالَاةَ وَالْمُصَافَاةَ نِفَاقًا وَمُصَانَعَةً وَتَقِيَّةً ، وَلِيُشْرِكُوهُمْ فِيمَا أَصَابُوا مِنْ خَيْرٍ وَمَغْنَمٍ ﴿ وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ ﴾ يَعْنِي : إِذَا انْصَرَفُوا وَذَهَبُوا وَخَلَصُوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ . يَعْنِي : هُمْ رُؤَسَاؤُهُمْ فِي الْكُفْرِ مِنْ يَهُود - الَّذِينَ يَأْمُرُونَهُمْ بِالتَّكْذِيبِ وَخِلَافِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ - وَأَصْحَابِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ ، وَقَادَتِهِمْ فِي الشِّرْكِ وَالشَّرِّ . ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ أَيْ : أَنَّا عَلَى مِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا نَحْنُ نَسْتَهْزِئُ بِالْقَوْمِ وَنَلْعَبُ بِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى جَوَابًا لَهُمْ وَمُقَابَلَةً عَلَى صَنِيعِهِمْ ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ فَاعِلٌ بِهِمْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحديد : ١٣] الْآيَةُ . قَالَ : فَهَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنِ اسْتِهْزَاءِ اللهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ ، وَسُخْرِيَتِهِ وَمَكْرِهِ وَخَدِيعَتِهِ لِلْمُنَافِقِينَ ، وَأَهْلِ الشِّرْكِ بِهِ عِنْدَ قَائِلِ هَذَا الْقَوْلِ وَمُتَأَوِّلِ هَذَا التَّأْوِيلِ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : بَلِ اسْتِهْزَاؤُهُ بِهِمْ تَوْبِيخُهُ إِيَّاهُمْ وَلَوْمُهُ لَهُمْ عَلَى مَا رَكِبُوا مِنْ مَعَاصِيهِ وَالْكُفْرِ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يَمُدُّهُمْ : يُمْلِي لَهُمْ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : يَزِيدُهُمْ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : كُلَّمَا أَحْدَثُوا ذَنْبًا أَحْدَثَ لَهُمْ نِعْمَةً وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ نِقْمَةٌ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٤٤-٤٥] ، وَالطُّغْيَانُ هُوَ الْمُجَاوَزَةُ فِي الشَّيْءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ فِي ضَلَالَتِهِمْ وَكُفْرِهِمُ الَّذِي غَمَرَهُمْ دَنَسُهُ وَعَلَاهُمْ رِجْسُهُ يَتَرَدَّدُونَ حَيَارَى ضُلَّالًا لَا يَجِدُونَ إِلَى الْمَخْرَجِ مِنْهُ سَبِيلًا لِأَنَّ اللهَ قَدْ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَخَتَمَ عَلَيْهَا وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْهُدَى وَأَغْشَاهَا لَا يُبْصِرُونَ رُشْدًا وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أَخَذُوا الضَّلَالَةَ وَتَرَكُوا الْهُدَى . فَاسْتَحَبُّوا الضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَى . قَالَ تَعَالَى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾[فصلت : ١٧]

وَحَاصِلُ الْقَوْلِ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ عَدَلُوا عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ وَاعْتَاضُوا عَنِ الْهُدَى بِالضَّلَالَةِ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أَيْ : بَذَلُوا الْهُدَى ثَمَنًا لِلضَّلَالَةِ ، ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ أَيْ : مَا رَبِحَتْ صَفْقَتُهُمْ فِي هَذِهِ الْبَيْعَةِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ : أَيْ : رَاشِدِينَ فِي صَنِيعِهِمْ ذَلِكَ .

﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾

وَتَقْدِيرُ هَذَا الْمَثَلِ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ شَبَّهَهُمْ فِي اشْتِرَائِهِمُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ، وَصَيْرُورَتَهُمْ بَعْدَ الْبَصِيرَةِ إِلَى الْعَمَى بِمَنْ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ وَانْتَفَعَ بِهَا وَأَبْصَرَ بِهَا مَا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، وَتَأَنَّسَ بِهَا فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ طُفِئَتْ نَارُهُ ، وَصَارَ فِي ظَلَامٍ شَدِيدٍ لَا يُبْصِرُ وَلَا يَهْتَدِي وَهُوَ مَعَ هَذَا أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ ، أَبْكَمُ لَا يَنْطِقُ ، أَعْمَى لَوْ كَانَ ضِيَاءً لَمَّا أَبْصَرَ ؛ فَلِهَذَا لَا يَرْجِعُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ فِي اسْتِبْدَالِهِمْ عِوَضًا عَنِ الْهُدَى وَاسْتِحْبَابِهِمُ الْغَيَّ عَلَى الرُّشْدِ . وَفِي هَذَا الْمَثَلِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَعَنْ قَتَادَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : إِنَّ الْمَعْنَى : أَنَّ الْمُنَافِقَ تَكَلَّمَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَأَضَاءَتْ لَهُ فِي الدُّنْيَا ، فَنَاكَحَ بِهَا الْمُسْلِمِينَ ، وَغَازَاهُمْ بِهَا ، وَوَارَثَهُمْ بِهَا ، وَحَقَنَ بِهَا دَمَهُ وَمَالَهُ ، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الْمَوْتِ سُلِبَهَا الْمُنَافِقُ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهَا أَصْلٌ فِي قَلْبِهِ وَلَا حَقِيقَةٌ فِي عَمَلِهِ . ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ فَهُمْ خُرْسٌ عُمْيٌ . لَا يَسْمَعُونَ الْهُدَى وَلَا يَعْقِلُونَهُ ، ﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ أَيْ : لَا يَرْجِعُونَ إِلَى هُدًى .

﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾

هَذَا مَثَلٌ آخَرُ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِضَرْبٍ آخَرَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَهُمْ قَوْمٌ يَظْهَرُ لَهُمُ الْحَقُّ تَارَةً وَيَشُكُّونَ تَارَةً أُخْرَى ، فَقُلُوبُهُمْ فِي حَالِ شَكِّهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَتَرَدُّدِهِمْ ﴿كَصَيِّبٍ﴾ ، وَالصَّيِّبُ : هُوَ الْمَطَرُ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ فِي حَالِ ظُلُمَاتٍ ، وَهِيَ الشُّكُوكُ وَالْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ ﴿وَرَعۡدٞ﴾ وَهُوَ مَا يُزْعِجُ

الْقُلُوبَ مِنَ الْخَوْفِ ، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُنَافِقِينَ الْخَوْفَ الشَّدِيدَ وَالْفَزَعَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ ، وَ ﴿الْبَرْقُ﴾ هُوَ مَا يَلْمَعُ فِي قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الضَّرْبِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنْ نُورِ الْإِيمَانِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أَيْ : وَلَا يُجْدِي عَنْهُمْ حَذَرُهُمْ شَيْئًا لِأَنَّ اللهَ مُحِيطٌ بِقُدْرَتِهِ وَهُمْ تَحْتَ مَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ أَيْ : لِشِدَّتِهِ وَقُوَّتِهِ فِي نَفْسِهِ ، وَضَعْفِ بَصَائِرِهِمْ وَعَدَمِ ثَبَاتِهَا لِلْإِيمَانِ . ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ يَقُولُ : كُلَّمَا أَصَابَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ عِزِّ الْإِسْلَامِ اطْمَأَنُّوا إِلَيْهِ ، وَإِذَا أَصَابَ الْإِسْلَامَ نَكْبَةٌ قَامُوا لِيَرْجِعُوا إِلَى الْكُفْرِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ [الحج : ١١] ، **فَتَلَخَّصَ مِنْ مَجْمُوعِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ** : أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ صِنْفَانِ مُقَرَّبُونَ وَأَبْرَارٌ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ صِنْفَانِ : دُعَاةٌ وَمُقَلِّدُونَ ، وَأَنَّ الْمُنَافِقِينَ أَيْضًا صِنْفَانِ : مُنَافِقٌ خَالِصٌ وَمُنَافِقٌ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنْ نِفَاقٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ لَمَّا تَرَكُوا مِنَ الْحَقِّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيْ : إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ مَا أَرَادَ بِعِبَادِهِ مِنْ نِقْمَةٍ أَوْ عَفْوٍ قَدِير . وَمَعْنَى ﴿قَدِيرٌ﴾ : قَادِرٌ كَمَا مَعْنَى «عَلِيمٌ» عَالِمٌ .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي بَيَانِ وَحْدَانِيَّةِ أُلُوهِيَّتِهِ بِأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُنْعِمُ عَلَى عَبِيدِهِ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ وَإِسْبَاغِهِ عَلَيْهِمُ النِّعَمَ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ بِأَنْ جَعَلَ لَهُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا ، أَيْ : مَهْدًا كَالْفِرَاشِ مُقَرَّرَةً مُوَطَّأَةً مُثَبَّتَةً بِالرَّوَاسِي الشَّامِخَاتِ ، وَالسَّمَاءُ بِنَاءٌ : وَهُوَ السَّقْفُ ، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ، وَالْمُرَادُ بِهِ : السَّحَابُ هَاهُنَا فِي وَقْتِهِ عِنْدَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ فَأَخْرَجَ لَهُمْ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ مَا هُوَ مُشَاهَدٌ رِزْقًا لَهُمْ وَلِأَنْعَامِهِمْ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى الْخَالِقُ الرَّازِقُ مَالِكُ الدَّارِ وَسَاكِنِيهَا وَرَازِقُهُمْ ، فَبِهَذَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ غَيْرُهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ . أَيْ : لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْدَادِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا رَبَّ لَكُمْ يَرْزُقُكُمْ غَيْرُهُ ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الَّذِي يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ التَّوْحِيدِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِ اللهِ ﷻ : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ ، قَالَ : هُوَ الشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ،

وَهُوَ أَنْ يَقُولَ : وَاللهِ وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ وَحَيَاتِي ، وَيَقُول : لَوْلَا كَلْبَةُ هَذَا لَأَتَانَا اللُّصُوصُ الْبَارِحَةَ ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللُّصُوصُ . وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ : مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ : لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ ، لَا تَجْعَلْ فِيهِ فُلَانٌ ، هَذَا كُلُّه بِهِ شِرْكٌ .

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى فِي تَقْرِيرِ النُّبُوَّةِ بَعْدَ أَنْ قَرَّرَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَقَالَ مُخَاطِبًا لِلْكَافِرِينَ : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ فَعَارِضُوهُ بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ وَاسْتَعِينُوا عَلَى ذَلِكَ بِمَنْ شِئْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ، فَإِنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ ﴿ شُهَدَاءَكُم ﴾ أَعْوَانُكُمْ ، وَقَدْ تَحَدَّاهُمُ اللهُ تَعَالَى بِهَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ لَنْ لِنَفْيِ التَّأْبِيدِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْ : وَلَنْ تَفْعَلُوا ذَلِكَ أَبَدًا ، وَهَذِهِ أَيْضًا مُعْجِزَةٌ أُخْرَى وَهُوَ أَنَّهُ أَخْبَرَ خَبَرًا جَازِمًا قَاطِعًا مُقْدِمًا غَيْرَ خَائِفٍ وَلَا مُشْفِقٍ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يُعَارَضُ بِمِثْلِهِ أَبَدَ الْآبِدِينَ وَدَهْرَ الدَّاهِرِينَ ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ الْأَمْرُ لَمْ يُعَارَضْ مِنْ لَدُنْهِ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا ، وَلَا يُمْكِنُ وَأَنَّى يَتَأَتَّى ذَلِكَ لِأَحَدٍ ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ خَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ وَكَيْفَ يُشْبِهُ كَلَامُ الْخَالِقِ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ ؟.

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أَمَّا الْوَقُودُ بِفَتْحِ الْوَاوِ فَهُوَ مَا يُلْقَى فِي النَّارِ لِإِضْرَامِهَا كَالْحَطَبِ وَنَحْوِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن : ١٥] ، وَالْمُرَادُ بِالْحِجَارَةِ هِيَ هَاهُنَا حِجَارَةُ الْكِبْرِيتِ الْعَظِيمَةِ السَّوْدَاءِ الصُّلْبَةِ الْمُنْتِنَةِ وَهِيَ أَشَدُّ الْأَحْجَارِ حَرًّا إِذَا حُمِيَتْ أَجَارَنَا اللهُ مِنْهَا .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ الْأَظْهَرُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي أُعِدَّتْ عَائِدٌ إِلَى النَّارِ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ أَيْ : أُرْصِدَتْ وَحَصَلَتْ لِلْكَافِرِينَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ . وَقَدْ اسْتَدَلَّ كَثِيرٌ مِنْ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ النَّارَ مَوْجُودَةٌ الْآنَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أُعِدَّت ﴾ أَيْ : أُرْصِدَتْ وَهُيِّئَتْ .

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَعَدَّهُ لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ الْكَافِرِينَ بِهِ وَبِرُسُلِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ،

عَطَفَ بِذِكْرِ حَالِ أَوْلِيَائِهِ مِنَ السُّعَدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَبِرُسُلِهِ الَّذِينَ صَدَّقُوا إِيمَانَهُمْ بِأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ ، وَهَذَا مَعْنَى تَسْمِيَةُ الْقُرْآنِ مَثَانِي ، وَهُوَ أَنْ يَذْكُرَ الْإِيمَانَ وَيَتْبَعَ بِذِكْرِ الْكُفْرِ أَوْ عَكْسِهِ أَوْ حَالِ السُّعَدَاءِ ثُمَّ الْأَشْقِيَاءِ أَوْ عَكْسِهِ وَحَاصِلِهِ ذِكْرِ الشَّيْءِ وَمُقَابِلِهِ . وَأَمَّا ذِكْرُ الشَّيْءِ وَنَظِيرُهُ فَذَاكَ التَّشَابُهُ ؛ فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ فَوَصَفَهَا بِأَنَّهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَيْ مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا وَغُرَفِهَا .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ : **إِنَّهُمْ أُتُوا** بِالثَّمَرَةِ فِي الْجَنَّةِ ، فَلَمَّا نَظَرُوا إِلَيْهَا قَالُوا : هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ فِي الدُّنْيَا . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَآخَرُونَ** : بَلْ تَأْوِيلُ ذَلِكَ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، لِشِدَّةِ مُشَابَهَةِ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَتَقُول لَهُمُ الْوِلْدَانُ : كُلُوا فَاللَّوْنُ وَاحِدٌ وَالطَّعْمُ مُخْتَلِفٌ ، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى : ﴿ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ﴾ قَالَ يُشْبِهِ بَعْضُه بَعْضًا وَيَخْتَلِفُ فِي الطَّعْمِ . **وَقِيلَ** : يَعْرِفُونَ أَسْمَاءَهُ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا : التُّفَّاحُ بِالتُّفَّاحِ ، وَالرُّمَّانُ بِالرُّمَّانِ ، قَالُوا فِي الْجَنَّةِ : هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ فِي الدُّنْيَا ، وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا يَعْرِفُونَهُ وَلَيْسَ هُوَ مِثْلُهُ فِي الطَّعْمِ . وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْقَذَرِ وَالْأَذَى . مِنَ الْحَيْضِ وَالْغَائِطِ وَالْبَوْلِ وَالنُّخَامِ وَالْبُزَاقِ وَالْمَنِيِّ وَالْوَلَدِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ هَذَا هُوَ تَمَامُ السَّعَادَةِ فَإِنَّهُمْ مَعَ هَذَا النَّعِيمِ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ مِنَ الْمَوْتِ وَالِانْقِطَاعِ فَلَا آخِرَ لَهُ وَلَا انْقِضَاءَ ، بَلْ فِي نَعِيمٍ سَرْمَدِيٍّ أَبَدِيٍّ عَلَى الدَّوَامِ ، وَاللهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يَحْشُرَنَا فِي زُمْرَتِهِمْ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ بَرٌّ رَحِيمٌ .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ : هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلدُّنْيَا أَنَّ الْبَعُوضَةَ تَحْيَا مَا جَاعَتْ ، فَإِذَا سَمِنَتْ مَاتَتْ وَكَذَلِكَ مَثَلُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ ضَرَبَ لَهُمْ هَذَا الْمَثَلَ فِي الْقُرْآنِ إِذَا امْتَلَئُوا مِنَ الدُّنْيَا رِيًّا أَخَذَهُمُ اللهُ عِنْدَ ذَلِكَ ثُمَّ تَلَا ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ وَ ﴿ مَا ﴾ هَاهُنَا لِلتَّقْلِيلِ وَتَكُونُ ﴿ بَعُوضَةً ﴾ مَنْصُوبَةً عَلَى الْبَدَلِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : **أَحَدُهُمَا** : فَمَا دُونَهَا فِي الصِّغَرِ وَالْحَقَارَةِ ، كَمَا إِذَا وُصِفَ لَكَ رَجُلٌ بِاللُّؤْمِ وَالشُّحِّ فَيَقُولُ السَّامِعُ : نَعَمْ وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ – يَعْنِي : فِيمَا وَصَفْتَ ،

وَقَالَهُ أَكْثَرُ المُحققِّينَ . وَالثَّانِي : فَمَا فَوْقَهَا لِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا ، لأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَحْقَرَ وَلَا أَصْغَرَ مِنَ الْبَعُوضَةِ ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَسْتَصْغِرُ شَيْئًا يَضْرِبُ بِهِ مَثَلًا ، وَلَوْ كَانَ فِي الْحَقَارَةِ وَالصِّغَرِ كَالْبَعُوضَةِ ، كَمَا لَا يَسْتَنْكِفُ عَنْ خَلْقِهَا كَذَلِكَ لَا يَسْتَنْكِفُ مِنْ ضَرْبِ المَثَلِ بِهَا كَمَا ضَرَبَ المَثَلَ بِالذُّبَابِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ٧٣] ، وَفِي الْقُرْآنِ أَمْثَالٌ كَثِيرَةٌ : **قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : إِذَا سَمِعْتَ المَثَلَ فِي الْقُرْآنِ فَلَمْ أَفْهَمْهُ بَكَيْتُ عَلَى نَفْسِي لأَنَّ اللهَ قَالَ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَلَامُ الرَّحْمَنِ وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ الله . ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا يَعْنِي بِهِ : المُنَافِقِينَ ، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا يَعْنِي بِهِ : المُؤْمِنِينَ ، فَيَزِيدُ هَؤُلَاءِ ضَلَالَةً إِلَى ضَلالَتِهِمْ ؛ لِتَكْذِيبِهِمْ بِمَا قَدْ عَلِمُوهُ حَقًّا يَقِينًا مِنَ المَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ اللهُ بِمَا ضَرَبَ لَهُمْ ، وَأَنَّهُ لِمَا ضُرِبَ لَهُ مُوَافِقٌ ، فَذَلِكَ إِضْلَالُ الله إِيَّاهُمْ بِهِ ﴿ وَيَهْدِى بِهِۦ ﴾ يَعْنِي : المَثَلَ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ فَيَزِيدُهُمْ هُدًى إِلَى هُدَاهُمْ ، وَإِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِمْ ؛ لِتَصْدِيقِهِمْ بِمَا قَدْ عَلِمُوهُ حَقًّا يَقِينًا ، أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِمَا ضَرَبَهُ اللهُ لَهُ مَثَلًا وَإِقْرَارِهُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هِدَايَةٌ مِنَ الله لَهُمْ بِهِ ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ قَالَ هُمْ : المُنَافِقُونَ . **وَالْفَاسِقُ فِي اللُّغَةِ** : هُوَ الخَارِجُ عَنِ الطَّاعَةِ أَيْضًا . فَالْفَاسِقُ يَشْمَلُ الْكَافِرَ وَالْعَاصِي ، وَلَكِنَّ فِسْقَ الْكَافِرِ أَشَدّ وَأَفْحَش ؛ وَالمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ الْفَاسِقُ الْكَافِرُ وَاللهُ أَعْلَمُ ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ وَهَذِهِ الصِّفَاتُ صِفَاتُ الْكُفَّارِ المُبَايِنَةِ لِصِفَاتِ المُؤْمِنِينَ ، وَقَدِ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فِي مَعْنَى الْعَهْدِ الَّذِي وَصَفَ هَؤُلَاءِ الْفَاسِقِينَ بِنَقْضِهِ فَقَالَ بَعْضهم : هُوَ وَصِيَّةُ الله إِلَى خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ إِيَّاهُمْ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَنَهْيِهِ إِيَّاهُمْ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ فِي كُتُبِهِ ، وَعَلَى لِسَانِ رُسُلِهِ ، وَنَقْضهمْ ذَلِكَ هُوَ تَرْكُهُمُ الْعَمَلَ بِهِ .

وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ هِيَ فِي كُفَّارِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالمُنَافِقِينَ مِنْهُمْ ، وَعَهْدُ الله الَّذِي نَقَضُوهُ هُوَ مَا أَخَذَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَاةِ مِنَ الْعَمَلِ بِمَا فِيهَا ، وَاتِّبَاع مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا بُعِثَ وَالتَّصْدِيقِ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ ، وَنَقْضهمْ ذَلِكَ هُوَ جُحُودُهُمْ بِهِ بَعْدَ مَعْرِفَتهمْ بِحَقِيقَتِهِ وَإِنْكَارِهِمْ ذَلِكَ وَكِتْمَانِهِمْ عِلْمَ ذَلِكَ عَنِ النَّاسِ .

وَقَالَ آخَرُونَ : الْعَهْدُ الَّذِي ذَكَرَهُ تَعَالَى هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ حِينَ أَخْرَجَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ الَّذِي وُصِفَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ

أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ [الأعراف : ١٧٢] الآيَتَيْنِ . وَنَقْضُهُمْ ذَلِكَ تَرْكُهُمُ الْوَفَاءَ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ بِهِ صِلَةُ الأَرْحَامِ وَالْقَرَابَاتِ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ ، فَكُلُّ مَا أَمَرَ اللهُ بِوَصْلِهِ وَفِعْلِهِ فَقَطَعُوهُ وَتَرَكُوهُ . ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أَيْ : فِي الآخِرَةِ . وَالخَاسِرُونَ : جَمْعُ خَاسِرٍ وَهُمُ النَّاقِصُونَ أَنْفُسَهُمْ حُظُوظَهُمْ - بِمَعْصِيَتِهِمِ اللهَ - مِنْ رَحْمَتِهِ كَمَا يَخْسَرُ الرَّجُلُ فِي تِجَارَتِهِ بِأَنْ يُوضَعَ مِنْ رَأْسِ مَالِهِ فِي بَيْعِهِ ، وَكَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ خَسِرَ بِحِرْمَانِ اللهِ إِيَّاهُ رَحْمَتَهُ الَّتِي خَلَقَهَا لِعِبَادِهِ فِي الْقِيَامَةِ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَى رَحْمَتِهِ .

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحْتَجًّا عَلَى وُجُودِهِ وَقُدْرَتِهِ وَأَنَّهُ الْخَالِقُ الْمُتَصَرِّفُ فِي عِبَادِهِ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ أَيْ : كَيْفَ تَجْحَدُونَ وُجُودَهُ أَوْ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ أَيْ : وَقَدْ كُنْتُمْ عَدَمًا فَأَخْرَجَكُمْ إِلَى الْوُجُودِ .

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى دَلَالَةَ مَنْ خَلَقَهُمْ وَمَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ذَكَرَ دَلِيلًا آخَرَ مِمَّا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَقَالَ : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ أَيْ : قَصَدَ إِلَى السَّمَاءِ وَالِاسْتِوَاءِ هَاهُنَا مُضَمَّنٌ مَعْنَى الْقَصْدِ وَالإِقْبَالِ لأَنَّهُ عُدِّيَ بِإِلَى فَسَوَّاهُنَّ أَيْ : فَخَلَقَ السَّمَاءَ سَبْعًا ، وَالسَّمَاءُ هَاهُنَا اسْمُ جِنْسٍ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ مَا خَلَقَ ، فَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى ابْتَدَأَ بِخَلْقِ الأَرْضِ أَوَّلًا ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ سَبْعًا ، وَهَذَا شَأْنُ الْبِنَاءِ أَنْ يُبْدَأَ بِعِمَارَةِ أَسَافِلِهِ ثُمَّ أَعَالِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِامْتِنَانِهِ عَلَى بَنِي آدَمَ بِتَنْوِيهِهِ بِذِكْرِهِمْ فِي الْمَلَأِ الأَعْلَى قَبْلَ إِيجَادِهِمْ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ أَيْ : وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ، وَاقْصُصْ عَلَى قَوْمِكَ ذَلِكَ ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ أَيْ : قَوْمًا يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَجِيلًا بَعْدَ

جِيلٍ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ هَاهُنَا بِالْخَلِيفَةِ آدم عليه السلام فقَطْ إِذْ لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمَا حَسُنَ قَوْلُ الْمَلَائِكَةِ ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ ، فَإِنَّهُمْ أَرَادُوا أَنَّ مِنْ هَذَا الْجِنْس مَنْ يَفْعَل ذَلِكَ ، وَكَأَنَّهُمْ عَلِمُوا ذَلِكَ بِعِلْمٍ خَاصٍّ ، أَوْ بِمَا فَهِمُوهُ مِنَ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ .

وَقَوْلُ الْمَلَائِكَةِ هَذَا لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الِاعْتِرَاضِ عَلَى الله وَلَا عَلَى وَجْهِ الْحَسَدِ لِبَنِي آدَمَ ، وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ، أَيْ لَا يَسْأَلُونَهُ شَيْئًا لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ فِيهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ سُؤَالُ اسْتِعْلَامٍ وَاسْتِكْشَافٍ عَنِ الْحِكْمَة فِي ذَلِكَ ، يَقُولُونَ : يَا رَبَّنَا مَا الْحِكْمَة فِي خَلْقِ هَؤُلَاءِ مَعَ أَنَّ مِنهُمْ مَنْ يُفْسِدُ فِي الْأَرْضِ وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ عِبَادَتَك ، فَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ، وَنُقَدِّسُ لَكَ أَيْ : نُصَلِّي لَكَ . وَلَا يَصْدُرُ مِنَّا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَهَلَّا وَقَعَ الِاقْتِصَارُ عَلَيْنَا ؟ .

قَالَ الله تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ عَنْ هَذَا السُّؤَال : ﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : أَعْلَمُ مِنَ الْمَصْلَحَةِ الرَّاجِحَةِ فِي خَلْقِ هَذَا الصِّنْفِ - عَلَى الْمَفَاسِدِ الَّتِي ذَكَرْتُمُوهَا - مَا لَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ ، فَإِنِّي سَأَجْعَلُ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءَ وَأُرْسِلُ فِيهِمُ الرُّسُلَ ، وَيُوجَدُ مِنْهُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ ، وَالصَّالِحُونَ وَالْعُبَّادُ وَالزُّهَّادُ وَالْأَوْلِيَاءُ ، وَالْأَبْرَارُ وَالْمُقَرَّبُونَ وَالْعُلَمَاءُ الْعَامِلُونَ ، وَالْخَاشِعُونَ ، وَالْمُحِبُّونَ لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمُتَّبِعُونَ رُسُله - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ . التَّقْدِيسُ هُوَ التَّعْظِيمُ وَالتَّطْهِيرُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ، يَعْنِي بِقَوْلِهِمْ سُبُّوحٌ : تَنْزِيهٌ لَهُ ، وَبِقَوْلِهِمْ قُدُّوسٌ : طَهَارَةٌ وَتَعْظِيمٌ لَهُ ، وَكَذَلِكَ . قِيلَ : لِلْأَرْضِ : أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُطَهَّرَة . فَمَعْنَى قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ إِذًا ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ نُنَزِّهُكَ وَنُبَرِّئُكَ مِمَّا يُضِيفُهُ إِلَيْكَ أَهْلُ الشِّرْكِ بِكَ ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ نَنْسُبُكَ إِلَى مَا هُوَ مِنْ صِفَاتِكَ مِنَ الطَّهَارَةِ مِنَ الْأَدْنَاسِ وَمَا أَضَافَ إِلَيْكَ أَهْلُ الْكُفْرِ بِكَ .

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

هَذَا مَقَامٌ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ شَرَفَ آدَمَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِمَا اخْتَصَّهُ مِنْ عِلْمِ أَسْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ دُونَهُمْ ، وَهَذَا كَانَ بَعْدَ سُجُودِهِمْ لَهُ ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ هَذَا الْفَصْلَ عَلَى ذَاكَ لِمُنَاسَبَةِ مَا بَيْنَ هَذَا الْمَقَامِ وَعَدَمِ عِلْمِهِمْ بِحِكْمَةِ خَلْقِ الْخَلِيفَةِ حِينَ سَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ فَأَخْبَرَهُمْ تَعَالَى بِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا لَا يَعْلَمُونَ ، وَلِهَذَا ذَكَرَ اللهُ هَذَا الْمَقَامَ عَقِيبَ هَذَا لِيُبَيِّنَ لَهُمْ شَرَفَ آدَمَ ، بِمَا فُضِّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي الْعِلْمِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ الَّتِي يَتَعَارَفُ بِهَا النَّاس : إِنْسَانٌ ، وَدَوَابٌّ ، وَسَمَاءٌ ،

وَأَرْضٌ ، وَسَهْلٌ ، وَبَحْرٌ ، وَخَيْلٌ ، وَحِمَارٌ ، وَأَشْباه ذَلِكَ مِنَ الْأُمَمِ وَغَيْرِهَا .

وَالصَّحِيحُ : أَنَّهُ عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا : ذَوَاتِهَا وَصِفَاتِهَا وَأَفْعَالِهَا حَتَّى الْفَسْوَةِ وَالْفُسَيَّةِ ، يَعْنِي : ذَوَات الْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ الْمُكَبَّرِ وَالْمُصَغَّرِ . ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ مَنْ عَرَضْتُهُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمَلَائِكَةِ الْقَائِلُونَ : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ؟ مِنْ غَيْرِنَا أَمْ مِنَّا . فَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ - ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فِي قِيلِكُمْ : إِنِّي إِنْ جَعَلْتُ خَلِيفَتِي فِي الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِكُمْ عَصَانِي وَذُرِّيَّتُهُ وَأَفْسَدُوا وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ ، وَإِنْ جَعَلْتُكُمْ فِيهَا أَطَعْتُمُونِي وَاتَّبَعْتُمْ أَمْرِي بِالتَّعْظِيمِ وَالتَّقْدِيسِ ، فَإِذَا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ أَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَرَضْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ تُشَاهِدُونَهُمْ فَأَنْتُمْ بِمَا هُوَ غَيْرُ مَوْجُودٍ مِنَ الْأُمُورِ الْكَائِنَةِ الَّتِي لَمْ تُوجَدْ أَحْرَى أَنْ تَكُونُوا غَيْرَ عَالِمِينَ . ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ هَذَا تَقْدِيسٌ وَتَنْزِيهٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لله تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ أَحَدٌ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ، وَأَنْ يَعْلَمُوا شَيْئًا إِلَّا مَا عَلَّمَهُمُ اللهُ تَعَالَى ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أَيْ : الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، الْحَكِيمُ فِي خَلْقِكَ وَأَمْرِكَ وَفِي تَعْلِيمِكَ مَا تَشَاءُ وَمَنْعِكَ مَا تَشَاءُ ، لَكَ الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ وَالْعَدْلُ التَّامُّ . ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قَالَ : أَنْتَ جِبْرَائِيلُ ، أَنْتَ مِيكَائِيلُ ، أَنْتَ إِسْرَافِيلُ ، حَتَّى عَدَّدَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا حَتَّى بَلَغَ الْغُرَابَ .

فَلَمَّا ظَهَرَ فَضْلُ آدَمَ عليه السلام عَلَى الْمَلَائِكَةِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - فِي سَرْدِهِ مَا عَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ أَسْمَاءِ الْأَشْيَاءِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أَيْ : أَلَمْ أَتَقَدَّمْ إِلَيْكُمْ أَنِّي أَعْلَم الْغَيْبَ الظَّاهِرَ وَالْخَفِيَّ .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

وَهَذِهِ كَرَامَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِآدَمَ اِمْتَنَّ بِهَا عَلَى ذُرِّيَّتِهِ حَيْثُ أَخْبَرَ أَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ ، وَدَخَلَ إِبْلِيسُ فِي خِطَابِهِمْ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ عُنْصُرِهِمْ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَدْ تَشَبَّهَ بِهِمْ وَتَوَسَّمَ بِأَفْعَالِهِمْ ، فَلِهَذَا دَخَلَ فِي الْخِطَابِ لَهُمْ ، وَذُمَّ فِي مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ ﴾ فَكَانَتِ الطَّاعَةُ لله وَالسَّجْدَةُ لِآدَمَ ، أَكْرَمَ اللهُ آدَمَ أَنْ أَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ ، وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ : كَانَ هَذَا سُجُودُ تَحِيَّةٍ وَسَلَامٍ وَإِكْرَامٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، وَقَدْ كَانَ هَذَا مَشْرُوعًا فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَلَكِنَّهُ نُسِخَ فِي مِلَّتِنَا .

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ حَسَدَ عَدُوُّ اللهِ

إِبْلِيسُ آدَمَ عليه السلام عَلَى مَا أَعْطَاهُ اللهُ مِنَ الْكَرَامَةِ ، وَقَالَ : أَنَا نَارِيٌّ وَهَذَا طِينِيٌّ وَكَانَ بَدْءُ الذُّنُوبِ الْكِبْرُ ، اِسْتَكْبَرَ عَدُوُّ اللهِ أَنْ يَسْجُدَ لِآدَمَ عليه السلام . وَقَدْ كَانَ فِي قَلْبِ إِبْلِيسَ مِنَ الْكِبْرِ ، وَالْكُفْرِ ، وَالْعِنَادِ مَا اقْتَضَى طَرْدَه وَإِبْعَاده عَنْ جِنَابِ الرَّحْمَةِ وَحَضْرَةِ الْقُدْسِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ يَعْنِي : مِنَ العَاصِينَ ، **قِيلَ** : وَصَارَ مِنَ الكَافِرِينَ بِسَبَبِ امْتِنَاعِهِ .

وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَمَّا أَكْرَمَ بِهِ آدَمَ : إِنَّهُ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ، وَأَنَّهُ أَبَاحَ لَهُ الْجَنَّةَ يَسْكُنُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ وَيَأْكُل مِنْهَا مَا شَاءَ ﴿رَغَدًا﴾ أَيْ : هَنِيئًا وَاسِعًا طَيِّبًا .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ فَهُوَ اخْتِبَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى وَامْتِحَانٌ لِآدَمَ . **وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي هَذِهِ الشَّجَرَةِ مَا هِيَ** ؟ وَالصَّوَابُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ اللهَ - جل ثَنَاؤُهُ - نَهَى آدَمَ وَزَوْجَتَهُ عَنْ أَكْلِ شَجَرَةٍ بِعَيْنِهَا مِنْ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ دُونَ سَائِرِ أَشْجَارِهَا فَأَكَلَا مِنْهَا ، وَلَا عِلْمَ عِنْدَنَا بِأَيِّ شَجَرَةٍ كَانَتْ عَلَى التَّعْيِينِ ؛ لأَنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ لِعِبَادِهِ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا مِنَ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ . ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا﴾ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ عَنْهَا عَائِدًا إِلَى الْجَنَّةِ فَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ كَمَا قَرَأَ عَاصِمٌ فَأَزَالَهُمَا . أَيْ : فَنَحَّاهُمَا وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى أَقْرَبِ الْمَذْكُورَيْنِ وَهُوَ الشَّجَرَةُ ، فَيَكُون مَعْنَى الْكَلَامِ . فَأَزَلَّهُمَا ، أَيْ : مِنْ قَبْلِ الزَّلَلِ ، فَعَلَى هَذَا يَكُون تَقْدِيرُ الْكَلَامِ ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا﴾ أَيْ : بِسَبَبِهَا ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أَيْ : مِنَ اللِّبَاسِ وَالْمَنْزِلِ الرَّحْبِ وَالرِّزْقِ الْهَنِيءِ وَالرَّاحَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أَيْ : قَرَارٌ وَأَرْزَاقٌ وَآجَالٌ ﴿وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أَيْ : إِلَى وَقْتٍ مُؤَقَّتٍ وَمِقْدَارٍ مُعَيَّنٍ ثُمَّ تَقُومُ الْقِيَامَةُ . **فَإِنْ قِيلَ** : فَإِذَا كَانَتْ جَنَّةُ آدَمَ الَّتِي أُخْرِجَ مِنْهَا فِي السَّمَاءِ كَمَا يَقُولُ الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ فَكَيْفَ تَمَكَّنَ إِبْلِيسُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ وَقَدْ طُرِدَ مِنْ هُنَالِكَ طَرْدًا قَدَرِيًّا ، وَالْقَدَرِيُّ لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ ؟ **وَأَجَابَ الْجُمْهُورُ بِأَجْوِبَةٍ** : أَحَدِهَا أَنَّهُ مُنِعَ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ مُكَرَّمًا ، فَأَمَّا عَلَى وَجْهِ السَّرِقَةِ وَالْإِهَانَةِ فَلَا يَمْتَنِعُ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ كَمَا جَاءَ فِي التَّوْرَاةِ أَنَّهُ دَخَلَ فِي فَمِ الْحَيَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ . **وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ** : يَحْتَمِلُ أَنَّهُ وَسْوَسَ لَهُمَا وَهُوَ خَارِجُ بَابِ الْجَنَّةِ . **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : يَحْتَمِلُ أَنَّهُ وَسْوَسَ لَهُمَا وَهُوَ فِي الْأَرْضِ وَهُمَا فِي السَّمَاءِ .

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾

قِيلَ : إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مُفَسَّرَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف : ٢٣] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أَيْ : إِنَّهُ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ فَهُوَ تَعَالَى يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَيَتُوبُ عَلَى مَنْ يَتُوبُ ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ بِخَلْقِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعَبِيدِهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا أَنْذَرَ بِهِ آدَمَ وَزَوْجَتَهُ وَإِبْلِيسَ حِينَ أَهْبَطَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَالْمُرَادُ الذُّرِّيَّةُ : أَنَّهُ سَيُنْزِلُ الْكُتُبَ وَيَبْعَثُ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ أَيْ : مَنْ أَقْبَلَ عَلَى مَا أَنْزَلْتُ بِهِ الْكُتُبَ وَأَرْسَلْتُ بِهِ الرُّسُلَ ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أَيْ : فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ عَلَى مَا فَاتَهُمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا . ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أَيْ : مُخَلَّدُونَ فِيهَا لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا مَحِيصَ .

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَمُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ، وَمُهَيِّجًا لَهُمْ بِذِكْرِ أَبِيهِمْ إِسْرَائِيلُ وَهُوَ نَبِيُّ اللهِ يَعْقُوبُ عليه السلام وَتَقْدِيرِه : يَا بَنِي الْعَبْدِ الصَّالِحِ الْمُطِيعِ للهِ كُونُوا مِثْلَ أَبِيكُمْ فِي مُتَابَعَةِ الْحَقِّ ، كَمَا تَقُولُ : يَا ابْنَ الْكَرِيمِ ، اِفْعَلْ كَذَا يَا ابْنَ الشُّجَاعِ بَارِزِ الْأَبْطَالَ ، يَا ابْنَ الْعَالِمِ اُطْلُبِ الْعِلْمَ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ . ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ . قَالَ : بِعَهْدِي الَّذِي أَخَذْت فِي أَعْنَاقِكُمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِذَا جَاءَكُمْ أُنْجِزَ لَكُمْ مَا وَعَدْتُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَصْدِيقِهِ وَاتِّبَاعِهِ بِوَضْعِ مَا كَانَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْآصَارِ وَالْأَغْلَالِ الَّتِي كَانَتْ فِي أَعْنَاقِكُمْ بِذُنُوبِكُمْ الَّتِي كَانَتْ مِنْ إِحْدَاثِكُمْ . ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ أَيْ : فَاخْشَوْنِ . وَهَذَا اِنْتِقَالٌ مِنَ التَّرْغِيبِ إِلَى التَّرْهِيبِ فَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى الْحَقِّ ، وَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ وَالِاتِّعَاظِ بِالْقُرْآنِ وَزَوَاجِرِهِ ، وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَتَصْدِيقِ أَخْبَارِهِ ، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْعَرَبِيِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَسِرَاجًا مُنِيرًا مُشْتَمِلًا عَلَى الْحَقِّ مِنَ اللهِ تَعَالَى

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ ﴾ فَيَعْنِي بِهِ : أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؛ لأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ بَشَرٌ كَثِيرٌ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَوَّلُ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَاشَرَةً ، فَإِنَّ يَهُودَ الْمَدِينَةِ أَوَّلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ خُوطِبُوا بِالْقُرْآنِ ، فَكُفْرُهُمْ بِهِ يَسْتَلْزِمُ أَنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ جِنْسِهِمْ . ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ يَقُولُ : لَا تَعْتَاضُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِآيَاتِي وَتَصْدِيقِ رَسُولِي بِالدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا ، فَإِنَّهَا قَلِيلَةٌ فَانِيَةٌ ، فَأَمَّا تَعْلِيمُ الْعِلْمِ بِأُجْرَةٍ فَإِنْ كَانَ قَدْ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَأْخُذَ عَلَيْهِ أُجْرَة ، وَيَجُوزُ أَنْ يَتَنَاوَلَ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ مَا يَقُومُ بِهِ حَالُهُ وَعِيَالُهُ ، فَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ مِنْهُ شَيْءٌ وَقَطَعَهُ التَّعْلِيمُ عَنِ التَّكَسُّبِ فَهُوَ كَمَا لَمْ يَتَعَيَّنْ عَلَيْهِ ، وَإِذَا لَمْ يَتَعَيَّنْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَأْخُذَ عَلَيْهِ أُجْرَةً .

وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ أَنَّهُ تَعَالَى يَتَوَعَّدُهُمْ فِيمَا يَتَعَمَّدُونَهُ مِنْ كِتْمَانِ الْحَقِّ وَإِظْهَارِ خِلَافِهِ ، وَمُخَالَفَتِهِم الرَّسُول صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا لِلْيَهُودِ عَمَّا كَانُوا يَتَعَمَّدُونَهُ مِنْ تَلْبِيسِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ وتَمْوِيهِهِ ، وَكِتْمَانِهِم الْحَقَّ ، وَإِظْهَارِهِمُ الْبَاطِلَ ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فَنَهَاهُمْ عَنِ الشَّيْئَيْنِ مَعًا ، وَأَمَرَهُمْ بِإِظْهَارِ الْحَقِّ وَالتَّصْرِيحِ بِهِ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ﴿ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَكْتُمُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِرَسُولِي وَبِمَا جَاءَ بِهِ وَأَنْتُمْ تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِيمَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي بِأَيْدِيكُمْ . ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ حَالٌ أَيْضًا ، وَمَعْنَاهُ : وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْحَقّ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الضَّرَرِ الْعَظِيمِ عَلَى النَّاسِ مِنْ إِضْلَالِهِمْ عَنِ الْهُدَى الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى النَّارِ إِنْ سَلَكُوا مَا تُبْدُونَهُ لَهُمْ مِنَ الْبَاطِلِ الْمَشُوبِ بِنَوْعٍ مِنَ الْحَقِّ لِتُرَوِّجُوهُ عَلَيْهِمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ أَمَرَهُمْ أَنْ يُصَلُّوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أَمَرَهُمْ أَنْ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ أَيْ : يَدْفَعُونَهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ أَمَرَهُمْ أَنْ يَرْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَقُولُ : كُونُوا مَعَهُمْ وَمِنْهُمْ .

أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : كَيْفَ يَلِيقُ بِكُمْ يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَأَنْتُمْ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَهُوَ جِمَاعُ الْخَيْرِ أَنْ تَنْسَوْا أَنْفُسَكُمْ فَلَا تَأْتَمِرُونَ بِمَا تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِهِ ، وَأَنْتُمْ مَعَ ذَلِكَ تَتْلُونَ الْكِتَابَ وَتَعْلَمُونَ مَا فِيهِ عَلَى مَنْ قَصَّرَ فِي أَوَامِرِ اللهِ ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ مَا أَنْتُمْ صَانِعُونَ بِأَنْفُسِكُمْ ، فَتَنْتَبِهُوا

مِنْ رَقْدَتِكُمْ وَتَتَبَصَّرُوا مِنْ عَمَايَتِكُم .

وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عَبِيدهُ فِيمَا يُؤَمِّلُونَ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَة : بِالِاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، فَأَمَّا الصَّبْرُ فَقِيلَ : إِنَّهُ الصِّيَامُ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالصَّبْرِ : الْكَفُّ عَنِ الْمَعَاصِي ، وَلِهَذَا قَرَنَهُ بِأَدَاءِ الْعِبَادَات وَأَعْلَاهَا فِعْلُ الصَّلَاةِ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ إِنَّ الصَّلَاةَ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى الثَّبَاتِ فِي الْأَمْرِ . ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ أَيْ : مَشَقَّةٌ ثَقِيلَةٌ ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي الْمُصَدِّقِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ، وَقِيلَ : الْخَائِفِينَ ، وَقِيلَ : الْمُتَوَاضِعِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْكَلَامِ الَّذِي قَبْلَهُ ، أَيْ : أَنَّ الصَّلَاةَ أَوِ الْوَصَاة لَثَقِيلَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مَحْشُورُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعْرُوضُونَ عَلَيْهِ ﴿ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ أَيْ : أُمُورُهُمْ رَاجِعَةٌ إِلَى مَشِيئَتِهِ يَحْكُمُ فِيهَا مَا يَشَاءُ بِعَدْلِهِ ، فَلِهَذَا لَمَّا أَيْقَنُوا بِالْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ سَهُلَ عَلَيْهِمْ فِعْلُ الطَّاعَاتِ وَتَرْكُ الْمُنْكَرَاتِ ، فَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ -: الْعَرَبُ قَدْ تُسَمِّي الْيَقِينَ ظَنًّا وَالشَّكُّ ظَنًّا . قَالَ : وَالشَّوَاهِدُ مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَكَلَامِهَا عَلَى أَنَّ الظَّنَّ فِي مَعْنَى الْيَقِينِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى : ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ .

يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾

يُذَكِّرُهُمْ تَعَالَى بِسَالِفِ نِعَمِهِ عَلَى آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ ، وَمَا كَانَ فَضَّلَهُمْ بِهِ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ مِنْهُمْ ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ ، وَعَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ . ﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قَالَ : بِمَا أُعْطُوا مِنَ الْمُلْكِ وَالرُّسُلِ وَالْكُتُبِ عَلَى عَالَمِ مَنْ كَانَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، فَإِنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ عَالَمًا ، وَيَجِبُ الْحَمْلُ عَلَى هَذَا لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى خِطَابًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً ، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ » ، وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

لَمَّا ذَكَّرَهُمْ تَعَالَى بِنِعَمِهِ أَوَّلًا عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ التَّحْذِيرَ مِنْ طُولِ نِقَمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ :

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا أَيْ : لَا يُغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ . ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْكَافِرِينَ كَمَا قَالَ : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾[المدثر : ٤٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أَيْ : لَا يُقْبَلُ مِنْهَا فِدَاءٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ [آل عمران : ٩١] ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِ وَيُتَابِعُوهُ عَلَى مَا بَعَثَهُ بِهِ ، وَوَافَوا اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُهُمْ قَرَابَةُ قَرِيبٍ ، وَلَا شَفَاعَةُ ذِي جَاهٍ ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ فِدَاءٌ ، وَلَوْ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أَيْ : وَلَا أَحَدَ يَغْضَبُ لَهُمْ فَيَنْصُرُهُمْ وَيُنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهُ لَا يَعْطِفُ عَلَيْهِمْ ذُو قَرَابَةٍ ، وَلَا ذُو جَاهٍ ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ فِدَاءٌ ، هَذَا كُلُّهُ مِنْ جَانِبِ التَّلَطُّفِ ، وَلَا لَهُمْ نَاصِرٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ .

وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : اُذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ؛ ﴿ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ أَيْ : خَلَّصْتُكُمْ مِنْهُمْ ، وَأَنْقَذْتُكُمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ صُحْبَةَ مُوسَى عليه السلام ، وَقَدْ كَانُوا يَسُومُونَكُمْ أَيْ : يُورِدُونَكُمْ وَيُذِيقُونَكُمْ وَيُولُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، وَهَاهُنَا فَسَّرَ الْعَذَابَ بِذَبْحِ الْأَبْنَاءِ ، وَفِرْعَوْنُ عَلَمٌ كُلِّ مَنْ مَلَكَ مِصْرَ كَافِرًا مِنَ الْعَمَالِيقِ وَغَيْرِهِمْ ، كَمَا أَنَّ قَيْصَرَ عَلَمٌ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلَكَ الرُّومَ مَعَ الشَّامِ كَافِرًا ، وَكِسْرَى لِمَنْ مَلَكَ الْفُرْسَ ، وَتُبَّعٍ لِمَنْ مَلَكَ الْيَمَنَ كَافِرًا ، وَالنَّجَاشِيِّ لِمَنْ مَلَكَ الْحَبَشَةَ ، وَبَطْلَيْمُوسُ لِمَنْ مَلَكَ الْهِنْدَ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَفِي الَّذِي فَعَلْنَا بِكُمْ مِنْ إِنْجَائِنَا آبَاءَكُمْ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنْ عَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ بَلَاءٌ لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ، أَيْ : نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ . **وَقِيلَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ** : ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ، مِنْ ذَبْحِ الْأَبْنَاءِ ، وَاسْتِحْيَاءِ النِّسَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ مَعْنَاهُ : وَبَعْدَ أَنْ أَنْقَذْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَخَرَجْتُمْ مَعَ مُوسَى عليه السلام خَرَجَ فِرْعَوْنُ فِي طَلَبِكُمْ فَفَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ ، ﴿ فَأَنجَيْنَٰكُمْ ﴾ أَيْ : خَلَّصْنَاكُمْ مِنْهُمْ ، وَحَجَزْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ، وَأَغْرَقْنَاهُمْ ، وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَشْفَى لِصُدُورِكُمْ ، وَأَبْلَغَ فِي إِهَانَةِ عَدُوِّكُمْ .

وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ

عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

يَقُول تَعَالَى : وَاذْكُرُوا نِعْمَتِيَ عَلَيْكُمْ فِي عَفْوِي عَنْكُمْ ، لَمَّا عَبَدْتُمُ الْعِجْلَ بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى لِمِيقَاتِ رَبِّهِ ، عِنْدَ انْقِضَاءِ أَمَدِ الْمُوَاعَدَةِ ، وَكَانَتْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْأَعْرَافِ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾ [الأعراف : ١٤٢] قِيلَ : إِنَّهَا ذُو الْقِعْدَةِ بِكَمَالِهِ وَعَشْرٍ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ، وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ خَلَاصِهِمْ مِنْ فِرْعَوْنَ ، وَإِنْجَائِهِمْ مِنَ الْبَحْرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يَعْنِي التَّوْرَاة ﴿ وَٱلْفُرْقَانَ ﴾ وَهُوَ مَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْهُدَى وَالضَّلَالَةِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ** : أَمَرَ مُوسَى قَوْمَهُ أَنْ يَقْتُلُوا أَنْفُسَهُمْ ، قَالَ : وَأَخْبَرَ الَّذِينَ عَبَدُوا الْعِجْلَ فَجَلَسُوا ، وَقَامَ الَّذِينَ لَمْ يَعْكُفُوا عَلَى الْعِجْلِ فَأَخَذُوا الْخَنَاجِرَ بِأَيْدِيهِمْ ، وَأَصَابَتْهُمْ ظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَجَعَلَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَانْجَلَتِ الظُّلْمَةُ عَنْهُمْ ، وَقَدْ جَلَوْا عَنْ سَبْعِينَ أَلْفَ قَتِيلٍ ، كُلُّ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ كَانَ لَهُ تَوْبَةٌ ، وَكُلُّ مَنْ بَقِيَ كَانَتْ لَهُ تَوْبَةٌ .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَاذْكُرُوا نِعْمَتِيَ عَلَيْكُمْ فِي بَعْثِي لَكُمْ بَعْدَ الصَّعْقِ ، إِذْ سَأَلْتُمْ رُؤْيَتِي جَهْرَةً عِيَانًا ، مِمَّا لَا يُسْتَطَاعُ لَكُمْ ، وَلَا لِأَمْثَالِكُمْ . وَالصَّاعِقَةُ : صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ ، **وَقِيلَ** : نَارٌ . وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ رُوَيْمٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ قَالَ : صُعِقَ بَعْضُهُمْ وَبَعْضُهُمْ يَنْظُرُونَ ، ثُمَّ بُعِثَ هَؤُلَاءِ وَصُعِقَ هَؤُلَاءِ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ فَمَاتُوا ، فَقَامَ مُوسَى يَبْكِي وَيَدْعُو اللهَ وَيَقُولُ : رَبِّ مَاذَا أَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا أَتَيْتُهُمْ وَقَدْ أَهْلَكْتُ خِيَارَهُمْ ﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ [الأعراف : ١٥٥] فَأَوْحَى اللهُ إِلَى مُوسَى أَنَّ هَؤُلَاءِ السَّبْعِينَ مِمَّنْ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ ثُمَّ إِنَّ اللهَ أَحْيَاهُمْ فَقَامُوا وَعَاشُوا ، رَجُلٌ رَجُلٌ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ كَيْفَ يَحْيَوْنَ .

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ

وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا دَفَعَهُ عَنْهُمْ مِنَ النِّقَمِ شَرَعَ يُذَكِّرُهُمْ أَيْضًا بِمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ فَقَالَ : ﴿ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ ﴾ ، وَهُوَ جَمْعُ غَمَامَةٍ سُمِّيَ بِذَلِكَ ، لِأَنَّهُ يَغُمّ السَّمَاءَ . أَيْ : يُوَارِيهَا وَيَسْتُرُهَا ، وَهُوَ السَّحَابُ الْأَبْيَضُ ، ظُلِّلُوا بِهِ فِي التِّيهِ لِيَقِيَهُمْ حَرَّ الشَّمْسِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ ﴾ اِخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ فِي الْمَنِّ مَا هُوَ ؟ وَالظَّاهِرُ وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ كُلُّ مَا امْتَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، مِمَّا لَيْسَ لَهُمْ فِيهِ عَمَلٌ ، وَلَا كَدًّا ، وَأَمَّا « السَّلْوَى » فطَائِرٌ يُشْبِهُ بِالسَّمَانِيِّ كَانُوا يَأْكُلُونَ مِنْهُ . ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ أَمْرُ إِبَاحَةٍ وَإِرْشَادٍ وَامْتِنَانٍ . ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ أَيْ : أَمَرْنَاهُمْ بِالْأَكْلِ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ، وَأَنْ يَعْبُدُوا ، فَخَالَفُوا ، وَكَفَرُوا ، فَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، هَذَا مَعَ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْمُعجِزَاتِ الْقَاطِعَاتِ ، وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ .

وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى لَائِمًا لَهُمْ عَلَى نُكُولِهِمْ عَنِ الْجِهَادِ ، وَدُخُولِهِمُ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ لَمَّا قَدِمُوا مِنْ بَرِّ مِصْرَ صُحْبَةَ مُوسَى عليه السلام فَأُمِرُوا بِدُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي هِيَ مِيرَاثٌ لَهُمْ عَنْ أَبِيهِمْ إِسْرَائِيلَ ، وَقِتَالُ مَنْ فِيهَا مِنَ الْعَمَالِيقِ الْكَفَرَةِ فَنَكَلُوا عَنْ قِتَالِهِمْ ، وَضَعُفُوا وَاسْتَحْسَرُوا ، فَرَمَاهُمُ اللهُ فِي التِّيهِ عُقُوبَةً لَهُمْ ، كَمَا ذَكَرَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سُجَّدٗا ﴾ أَيْ : شُكْرًا للهِ تَعَالَى عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ ، وَرَدَّ بَلَدَهُمْ عَلَيْهِمْ وَإِنْقَاذِهِمْ مِنَ التِّيهِ وَالضَّلَالِ ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٞ ﴾ مَغْفِرَةٌ اِسْتَغْفِرُوا ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٞ ﴾ قَالَ : قُولُوا هَذَا الْأَمْرَ حَقٌّ كَمَا قِيلَ لَكُمْ ، وَقِيلَ : قُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ هَذَا جَوَابُ الْأَمْرِ أَيْ : إِذَا فَعَلْتُمْ مَا أَمَرْنَاكُمْ ، غَفَرْنَا لَكُمُ الْخَطِيئَاتِ ، وَضَاعَفْنَا لَكُمُ الْحَسَنَاتِ ، وَحَاصِلُ الْأَمْرِ : أَنَّهُمْ أُمِرُوا أَنْ يَخْضَعُوا للهِ تَعَالَى عِنْدَ الْفَتْحِ بِالْفِعْلِ وَالْقَوْلِ ، وَأَنْ يَعْتَرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ وَيَسْتَغْفِرُوا مِنْهَا ، وَالشُّكْرُ عَلَى النِّعْمَةِ عِنْدَهَا ، وَالْمُبَادَرَةُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْمَحْبُوبِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى . ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ ﴾ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ : اُدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى اِسْتَاهُمْ فَبَدَّلُوا وَقَالُوا حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ** ». وَحَاصِلُ مَا ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ ، وَمَا

دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ مِنَ الحَدِيثِ : أَنَّهُمْ بَدَّلُوا أَمْرَ اللهِ لَهُمْ مِنَ الْخُضُوعِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، فَأُمِرُوا أَنْ يَدْخُلُوا سُجَّدًا فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى اسْتَاهِهِمْ مِنْ قِبَلِ اسْتَاهِهِمْ ، رَافِعِي رُءُوسِهِمْ ، وَأُمِرُوا أَنْ يَقُولُوا : حِطَّةٌ أَيْ أُحْطُطْ عَنَّا ذُنُوبَنَا وَخَطَايَانَا ، فَاسْتَهْزَءُوا ، فَقَالُوا : حِنْطَةٌ فِي شَعِيرَةٍ ، وَهَذَا فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْمُخَالَفَةِ وَالْمُعَانَدَةِ ، وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللهُ بِهِمْ بَأْسَهُ وَعَذَابَهُ بِفِسْقِهِمْ ، وَهُوَ خُرُوجُهُمْ عَنْ طَاعَتِهِ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ .

۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَاذْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي إِجَابَتِي لِنَبِيِّكُمْ مُوسَى عليه السلام حِينَ اسْتَسْقَانِي لَكُمْ ، وَتَيْسِيرِي لَكُمُ الْمَاءَ وَإِخْرَاجَهُ لَكُمْ مِنْ حَجَرٍ يُحْمَلُ مَعَكُمْ وَتَفْجِيرِي الْمَاءَ لَكُمْ مِنْهُ مِنْ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ عَيْنًا ، كُلُّ سِبْطٍ مِنْ أَسْبَاطِكُمْ عَيْنٌ قَدْ عَرَفُوهَا ، فَكُلُوا مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى وَاشْرَبُوا مِنْ هَذَا الْمَاءِ الَّذِي أَنْبَعْتُهُ لَكُمْ بِلَا سَعْيٍ مِنْكُمْ وَلَا كَدٍّ ، وَاعْبُدُوا الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ ذَلِكَ ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ وَلَا تُقَابِلُوا النِّعَمَ بِالْعِصْيَانِ فَتُسْلَبُوهَا .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ

يَقُولُ تَعَالَى : وَاذْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي إِنْزَالِي عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى طَعَامًا طَيِّبًا نَافِعًا هَنِيئًا سَهْلًا ، وَاذْكُرُوا دَبَرَكُمْ وَضَجَرَكُمْ مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ، وَسُؤَالَكُمْ مُوسَى اسْتِبْدَالَ ذَلِكَ بِالْأَطْعِمَةِ الدَّنِيئَةِ مِنَ الْبُقُولِ وَنَحْوِهَا مِمَّا سَأَلْتُمْ . قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : فَبَطِرُوا ذَلِكَ فَلَمْ يَصْبِرُوا عَلَيْهِ وَذَكَرُوا عَيْشَهُمْ الَّذِي كَانُوا فِيهِ ، وَكَانُوا قَوْمًا أَهْلَ أَعْدَاسٍ وَبَصَلٍ وَبَقْلٍ وَفُومٍ فَقَالُوا : ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ ، وَإِنَّمَا قَالُوا عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ وَهُمْ يَأْكُلُونَ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى لِأَنَّهُ لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَغَيَّرُ كُلَّ يَوْمٍ فَهُوَ مَأْكَلٌ وَاحِدٌ . فَالْبُقُولُ وَالْقِثَّاءُ وَالْعَدَسُ وَالْبَصَلُ كُلُّهَا مَعْرُوفَةٌ ، وَأَمَّا الْفُومُ فَقِيلَ : الْفُومُ : الْحِنْطَةُ وَهُوَ الْبُرُّ الَّذِي يُعْمَلُ مِنْهُ الْخُبْزُ . ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ﴾ فِيهِ تَقْرِيعٌ لَهُمْ وَتَوْبِيخٌ عَلَى مَا سَأَلُوا مِنْ هَذِهِ الْأَطْعِمَةِ الدَّنِيئَةِ مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ الرَّغِيدِ وَالطَّعَامِ الْهَنِيءِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا ﴾ الْمُرَادُ مِصْرٌ مِنَ الْأَمْصَارِ ؛

لأَنَّ مُوسَى ﷺ يَقُولُ لَهُمْ : هَذَا الَّذِي سَأَلْتُمْ لَيْسَ بِأَمْرٍ عَزِيزٍ ، بَلْ هُوَ كَثِيرٌ فِي أَيِّ بَلَدٍ دَخَلْتُمُوهَا وَجَدْتُمُوهُ ، فَلَيْسَ يُسَاوِي مَعَ دَنَاءَتِهِ وَكَثْرَتِهِ فِي الْأَمْصَارِ أَنْ أَسْأَلَ اللهَ فِيهِ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ أَيْ : مَا طَلَبْتُمْ ، وَلَمَّا كَانَ سُؤَالُهُمْ هَذَا مِنْ بَابِ الْبَطَرِ وَالْأَشَرِ وَلَا ضَرُورَةَ فِيهِ لَمْ يُجَابُوا إِلَيْهِ وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ أَيْ : وُضِعَتْ عَلَيْهِمْ وَأُلْزِمُوا بِهَا شَرْعًا وَقَدَرًا ، أَيْ : لَا يَزَالُونَ مُسْتَذَلِّينَ مَنْ وَجَدَهُمُ اسْتَذَلَّهُمْ وَأَهَانَهُمْ وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الصَّغَارَ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَذِلَّاءُ مُسْتَكِينُونَ . ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ اسْتَحَقُّوا الْغَضَبَ مِنَ اللهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا الَّذِي جَازَيْنَاهُمْ مِنَ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَإِحْلَالِ الْغَضَبِ بِهِمْ مِنَ الذِّلَّةِ بِسَبَبِ اسْتِكْبَارِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَإِهَانَتِهِمْ حَمَلَةَ الشَّرْعِ وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهُمْ فَانْتَقَصُوهُمْ إِلَى أَنْ أَفْضَى بِهِمُ الْحَالُ إِلَى أَنْ قَتَلُوهُمْ ، فَلَا كُفْرَ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَ اللهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ . ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ ، وَهَذِهِ عِلَّةٌ أُخْرَى فِي مُجَازَاتِهِمْ بِمَا جُوزُوا بِهِ ، أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْصُونَ وَيَعْتَدُونَ ، فَالْعِصْيَانُ فِعْلُ الْمَنَاهِي ، وَالِاعْتِدَاءُ الْمُجَاوَزَةُ فِي حَدِّ الْمَأْذُونِ فِيهِ وَالْمَأْمُورِ بِهِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

لَمَّا بَيَّنَ تَعَالَى حَالَ مَنْ خَالَفَ أَوَامِرَهُ وَارْتَكَبَ زَوَاجِرَهُ وَتَعَدَّى فِي فِعْلِ مَا لَا إِذْنَ فِيهِ ، وَانْتَهَكَ الْمَحَارِمَ وَمَا أَحَلَّ بِهِمْ مِنَ النَّكَالِ نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ مَنْ أَحْسَنَ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَأَطَاعَ ، فَإِنَّ لَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَى ، وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ كُلُّ مَنِ اتَّبَعَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ فَلَهُ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا يَتْرُكُونَهُ وَيُخَلِّفُونَهُ .

وَالْيَهُودُ مِنَ الْهَوَادَةِ وَهِيَ الْمَوَدَّةُ أَوِ التَّهَوُّدُ وَهِيَ التَّوْبَةُ ، كَقَوْلِ مُوسَى ﷺ ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : تُبْنَا ، فَكَأَنَّهُمْ سُمُّوا بِذَلِكَ فِي الْأَصْلِ لِتَوْبَتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ فِي بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ، وَقِيلَ لِنِسْبَتِهِمْ إِلَى يَهُودَا أَكْبَرِ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ ، فَلَمَّا بُعِثَ عِيسَى ﷺ وَجَبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ اتِّبَاعُهُ وَالِانْقِيَادُ لَهُ ،

فَأَصْحَابُهُ وَأَهْلُ دِينِهِ هُمُ النَّصَارَى ، وَسُمُّوا بِذَلِكَ لِتَنَاصُرِهِمْ فِيمَا بَيْنَهِمْ ، وَقَدْ يُقَال لَهُمْ : أَنْصَارٌ أَيْضًا كَمَا قَالَ عِيسَى ﷺ ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ ، وَقِيلَ : إِنَّهُمْ سُمُّوا بِذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ نَزَلُوا أَرْضًا يُقَال لَهَا نَاصِرَةُ . وَالنَّصَارَى جَمْعُ نَصْرَان ، كَنَشَاوَى جَمْعُ نَشْوَان ، وَسُكَارَى جَمْعُ سَكْرَان ، وَيُقَالُ لِلْمَرْأَةِ نَصْرَانَة .

فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمًا لِلنَّبِيِّينَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَجَبَ عَلَيْهِمْ تَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ ، وَطَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ ، وَالِانْكِفَافُ عَمَّا عَنْهُ زَجَرَ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، وَسُمِّيَتْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُؤْمِنِينَ ؛ لِكَثْرَةِ إِيمَانِهِمْ وَشِدَّة إِيقَانِهِمْ ، وَلِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ الْمَاضِيَةِ وَالْغُيُوبِ الْآتِيَةِ ، وَأَمَّا الصَّابِئُونَ فَقَدِ اُخْتُلِفَ فِيهِمْ .

وَأَظْهَرُ الْأَقْوَالِ - وَاللهُ أَعْلَمُ - قَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّهُمْ قَوْمٌ لَيْسُوا عَلَى دِينِ الْيَهُودِ وَلَا النَّصَارَى وَلَا الْمَجُوسِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ ، وَإِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ بَاقُونَ عَلَى فِطْرَتِهِمْ وَلَا دِينَ مُقَرَّرٌ لَهُمْ يَتَّبِعُونَهُ وَيَقْتَفُونَهُ . وَلِهَذَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَنْبِزُونَ مَنْ أَسْلَمَ بِالصَّابِئِ أَيْ : أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ عَنْ سَائِرِ أَدْيَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ ، **وَقَالَ بَعْض الْعُلَمَاء** : الصَّابِئُونَ الَّذِينَ لَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةُ نَبِيٍّ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُذَكِّرًا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ ، وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ رَفَعَ الْجَبَلَ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ لِيُقِرُّوا بِمَا عُوهِدُوا عَلَيْهِ ، وَيَأْخُذُوهُ بِقُوَّةٍ وَجَزْمٍ وَامْتِثَالٍ ، فَالطُّورُ هُوَ الْجَبَلُ كَمَا فَسَّرَهُ بِهِ فِي الْأَعْرَافِ ، وَقِيلَ : الطُّورُ مَا أَنْبَتَ مِنَ الْجِبَالِ وَمَا لَمْ يُنْبِتْ فَلَيْسَ بِطُورٍ .

وَقَالَ الْحَسَنُ : فِي قَوْلِهِ : ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ يَعْنِي : التَّوْرَاةَ ، قِيلَ : بِقُوَّةٍ : أَيْ بِطَاعَةٍ ، وَقِيلَ : قُوَّةُ الْجِدِّ . ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ ﴾ يَقُولُ : اِقْرَءُوا مَا فِي التَّوْرَاةِ وَاعْمَلُوا بِهِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الْمِيثَاقِ الْمُؤَكَّدِ الْعَظِيمِ تَوَلَّيْتُمْ عَنْهُ وَانْثَنَيْتُمْ وَنَقَضْتُمُوهُ ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ أَيْ : بِتَوْبَتِهِ عَلَيْكُمْ وَإِرْسَالِهِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ إِلَيْكُمْ ﴿ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ بِنَقْضِكُمْ ذَلِكَ الْمِيثَاقَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا

نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ﴾ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ مَا حَلَّ مِنَ الْبَأْسِ بِأَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي عَصَتْ أَمْرَ اللهِ ، وَخَالَفُوا عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ فِيمَا أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعْظِيمِ السَّبْتِ وَالْقِيَامِ بِأَمْرِهِ ؛ إِذْ كَانَ مَشْرُوعًا لَهُمْ ، فَتَحَيَّلُوا عَلَى اِصْطِيَادِ الْحِيتَانِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ بِمَا وَضَعُوا لَهَا مِنَ الشُّصُوصِ وَالْحَبَائِلِ وَالْبِرَكِ قَبْلَ يَوْمِ السَّبْتِ ، فَلَمَّا جَاءَتْ يَوْمُ السَّبْتِ عَلَى عَادَتِهَا فِي الْكَثْرَةِ نَشِبَتْ بِتِلْكَ الْحَبَائِلِ وَالْحِيَلِ فَلَمْ تَخْلُصْ مِنْهَا يَوْمَهَا ذَلِكَ ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ أَخَذُوهَا بَعْدَ اِنْقِضَاءِ السَّبْتِ ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ مَسَخَهُمُ اللهُ إِلَى صُورَةِ الْقِرَدَةِ وَهِيَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْأَنَاسِيِّ فِي الشَّكْلِ الظَّاهِرِ وَلَيْسَ بِإِنْسَانٍ حَقِيقَةً ، فَكَذَلِكَ أَعْمَالُ هَؤُلَاءِ وَحِيلَتُهُمْ لَمَّا كَانَتْ مُشَابِهَةً لِلْحَقِّ فِي الظَّاهِرِ وَمُخَالِفَةً لَهُ فِي الْبَاطِنِ كَانَ جَزَاؤُهُمْ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ ، فَجَعَلَ اللهُ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ فَزَعَمَ أَنَّ شَبَابَ الْقَوْمِ صَارُوا قِرَدَةً ، وَأَنَّ الشِّيخَةَ صَارُوا خَنَازِيرَ . ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا ﴾ الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْقَرْيَةِ ، أَيْ : فَجَعَلَ اللهُ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَالْمُرَادُ أَهْلُهَا بِسَبَبِ اِعْتِدَائِهِمْ فِي سَبْتِهِمْ ﴿ نَكَالًا ﴾ أَيْ : مَا عَاقَبْنَاهُمْ عُقُوبَةً فَجَعَلْنَاهَا عِبْرَةً كَمَا قَالَ اللهُ عَنْ فِرْعَوْنَ ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾ ، **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ أَيْ : مِنَ الْقُرَى ، **يَعْنِي** : جَعَلْنَاهَا بِمَا أَحْلَلْنَا بِهَا مِنَ الْعُقُوبَةِ عِبْرَةً لِمَا حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى . وَالْمُرَادُ بِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا مَنْ بِحَضْرَتِهَا مِنَ الْقُرَى يَبْلُغُهُمْ خَبَرُهَا وَمَا حَلَّ بِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ ﴾ الْآيَةَ ، فَجَعَلَهُمْ عِبْرَةً وَنَكَالًا لِمَنْ فِي زَمَانِهِمْ ، وَمَوْعِظَةً لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ بِالْخَبَرِ الْمُتَوَاتِرِ عَنْهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ الْمُرَادُ بِالْمَوْعِظَةِ هَاهُنَا الزَّاجِرُ . أَيْ : جَعَلْنَا مَا أَحْلَلْنَا بِهَؤُلَاءِ مِنَ الْبَأْسِ وَالنَّكَالِ فِي مُقَابَلَةِ مَا ارْتَكَبُوهُ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ ، وَمَا تَحَيَّلُوا بِهِ مِنَ الْحِيَلِ فَلْيَحْذَرِ الْمُتَّقُونَ صَنِيعَهُمْ لِئَلَّا يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَاذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي خَرْقِ الْعَادَةِ لَكُمْ فِي شَأْنِ الْبَقَرَةِ وَبَيَانِ الْقَاتِلِ مَنْ هُوَ بِسَبَبِهَا ، وَإِحْيَاءِ اللهِ الْمَقْتُولَ ، وَنَصِّه عَلَى مَنْ قَتَلَهُ مِنْهُ .

عَنْ عَبِيدَةَ السَّلْمَانِيِّ قَالَ : كَانَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَقِيمًا لَا يُولَدُ لَهُ ، وَكَانَ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ ، وَكَانَ اِبْنُ أَخِيهِ وَارِثَهُ ، فَقَتَلَهُ ثُمَّ اِحْتَمَلَهُ لَيْلًا فَوَضَعَهُ عَلَى بَابِ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ أَصْبَحَ يَدَّعِيهِ عَلَيْهِمْ حَتَّى تَسَلَّحُوا وَرَكِبَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ . فَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ وَالنُّهَى : عَلَامَ يَقْتُلُ

بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَهَذَا رَسُولُ اللهِ فِيكُمْ ؟ فَأَتَوْا مُوسَى ﷺ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ قَالَ : فَلَوْ لَمْ يَعْتَرِضُوا لَأَجْزَأَتْ عَنْهُمْ أَدْنَى بَقَرَةٍ ، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشُدِّدَ عَلَيْهِمْ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْبَقَرَةِ الَّتِي أُمِرُوا بِذَبْحِهَا ، فَوَجَدُوهَا عِنْدَ رَجُلٍ لَيْسَ لَهُ بَقَرَةٌ غَيْرُهَا ، فَقَالَ : وَاللهِ لَا أُنْقِصُهَا مِنْ مِلْءِ جِلْدِهَا ذَهَبًا ، فَأَخَذُوهَا فَذَبَحُوهَا فَضَرَبُوهُ بِبَعْضِهَا فَقَامَ ، فَقَالُوا : مَنْ قَتَلَكَ ؟ فَقَالَ : هَذَا - لِابْنِ أَخِيهِ - ثُمَّ مَالَ مَيِّتًا ، فَلَمْ يُعْطَ مِنْ مَالِهِ شَيْئًا ، فَلَمْ يُوَرَّثْ قَاتِلٌ بَعْدُ .

وَثَمَّ سِيَاقَاتٌ أُخَرُ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَالسُّدِّيِّ وَغَيْرِهِمْ فِيهَا اِخْتِلَافٌ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ السِّيَاقَاتِ مَأْخُوذَةٌ مِنْ كُتُبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهِيَ مِمَّا يَجُوزُ نَقْلُهَا ، وَلَكِنْ لَا تُصَدَّقُ وَلَا تُكَذَّبُ ، فَلِهَذَا لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا وَافَقَ الْحَقَّ عِنْدَنَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَعَنُّتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ لِرَسُولِهِمْ ، وَهَذَا لَمَّا ضَيَّقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ضَيَّقَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ ذَبَحُوا أَيَّ بَقَرَةٍ كَانَتْ ؛ لَوَقَعَتِ الْمَوْقِعَ عَنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشُدِّدَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالُوا : ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ أَيْ : مَا هَذِهِ الْبَقَرَة ، وَأَيُّ شَيْءٍ صِفَتُهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ أَيْ : لَا كَبِيرَةٌ هَرِمَةٌ وَلَا صَغِيرَةٌ لَمْ يَلْحَقْهَا الْفَحْلُ ﴿ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ يَقُولُ : نِصْفٌ بَيْنَ الْكَبِيرَةِ وَالصَّغِيرَةِ ، وَهِيَ أَقْوَى مَا يَكُونُ مِنَ الدَّوَابِّ وَالْبَقَرِ وَأَحْسَنُ مَا تَكُونُ . ﴿ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ إِنَّهَا كَانَتْ صَفْرَاءَ ، وَلِهَذَا أَكَّدَ صُفْرَتَهَا بِأَنَّهُ ﴿ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ . **قِيلَ** : صَافٍ ، **وَقِيلَ** : شَدِيدَةُ الصُّفْرَةِ تَكَادُ مِنْ صُفْرَتِهَا تَبِيضُ . ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ أَيْ : لِكَثْرَتِهَا فَمَيِّزْ لَنَا هَذِهِ الْبَقَرَةَ وَصِفْهَا وَحِلِّهَا لَنَا ﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ إِذَا بَيَّنْتَهَا لَنَا ﴿ لَمُهْتَدُونَ ﴾ إِلَيْهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾ أَيْ : إِنَّهَا لَيْسَتْ مُذَلَّلَةً بِالْحِرَاثَةِ ، وَلَا مُعَدَّةً لِلسَّقْيِ فِي السَّاقِيَةِ ، بَلْ هِيَ مُكَرَّمَةٌ حَسَنَةٌ صَبِيحَةٌ مُسَلَّمَةٌ صَحِيحَةٌ

لَا عَيْبَ بِهَا ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ : لَا عَيْبَ فِيهَا . ﴿ لَّا شِيَةَ ﴾ لَا بَيَاضَ وَلَا سَوَادَ ، وَقِيلَ : لَوْنُهَا وَاحِدٌ بَهِيمٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الْآنَ بَيَّنْتَ لَنَا ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ كَادُوا أَنْ لَا يَفْعَلُوا وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الَّذِي أَرَادُوا ، لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ لَا يَذْبَحُوهَا ، يَعْنِي : أَنَّهُمْ مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذِهِ الْأَسْئِلَةِ وَالْأَجْوِبَةِ وَالْإِيضَاحِ مَا ذَبَحُوهَا إِلَّا بَعْدَ الْجَهْدِ ، وَفِي هَذَا ذَمٌّ لَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ غَرَضُهُمْ إِلَّا التَّعَنُّتَ ، فَلِهَذَا مَا كَادُوا يَذْبَحُونَهَا .

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰءْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰءْتُمْ فِيهَا ﴾ اِخْتَلَفْتُمْ . قَالَ بَعْضُهُمْ : أَنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُ . وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ أَنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُ ﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ مَا تُغَيِّبُونَ ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ هَذَا الْبَعْضُ أَيُّ شَيْءٍ كَانَ مِنْ أَعْضَاءِ هَذِهِ الْبَقَرَةِ ، فَالْمُعْجِزَةُ حَاصِلَةٌ بِهِ وَخَرْقُ الْعَادَةِ بِهِ كَائِنٌ . ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أَيْ : فَضَرَبُوهُ فَحَيِيَ وَنَبَّهَ تَعَالَى عَلَى قُدْرَتِهِ وَإِحْيَائِهِ الْمَوْتَى بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ أَمْرِ الْقَتِيلِ ، جَعَلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَلِكَ الصَّنِيعَ حُجَّةً لَهُمْ عَلَى الْمَعَادِ ، وَفَاصِلًا مَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْخُصُومَةِ وَالْعِنَادِ .

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى تَوْبِيخًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَقْرِيعًا لَهُمْ عَلَى مَا شَاهَدُوهُ مِنْ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى وَإِحْيَائِهِ الْمَوْتَى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ كُلِّهِ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ الَّتِي لَا تَلِينُ أَبَدًا ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ فَصَارَتْ قُلُوبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ طُولِ الْأَمَدِ قَاسِيَةً بَعِيدَةً عَنِ الْمَوْعِظَةِ ، بَعْدَ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْآيَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ ، فَهِيَ فِي قَسْوَتِهَا كَالْحِجَارَةِ الَّتِي لَا عِلَاجَ لِلِينِهَا أَوْ أَشَدّ قَسْوَةً مِنَ الْحِجَارَةِ ، فَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ مَا يَتَفَجَّرُ مِنْهَا الْعُيُونُ بِالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ ، وَمِنْهَا مَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ جَارِيًا ، وَمِنْهَا مَا يَهْبِطُ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَفِيهِ إِدْرَاكٌ لِذَلِكَ بِحَسْبِهِ .

أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَفَتَطْمَعُون ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ أَيْ : يَنْقَادُ لَكُمْ بِالطَّاعَةِ هَؤُلَاءِ الْفِرْقَةِ الضَّالَّةِ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ شَاهَدَ آبَاؤُهُمْ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ مَا شَاهَدُوهُ ، ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ ﴾ أَيْ : يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أَيْ : فَهِمُوهُ عَلَى الْجَلِيَّةِ وَمَعَ هَذَا يُخَالِفُونَهُ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أَنَّهُمْ مُخْطِئُونَ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنْ تَحْرِيفِهِ وَتَأْوِيلِهِ . ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : هُمُ الْيَهُودُ كَانُوا يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَوَعَوْهُ . ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ الْآيَةُ : يَعْنِي : الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْيَهُودِ كَانُوا إِذَا لَقُوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالُوا آمَنَّا . وَكَانُوا يَقُولُونَ إِذَا دَخَلُوا الْمَدِينَةَ : نَحْنُ مُسْلِمُونَ لِيَعْلَمُوا خَبَرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَمْرِهِ . فَإِذَا رَجَعُوا رَجَعُوا إِلَى الْكُفْرِ ، فَلَمَّا أَخْبَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ قَطَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَكُونُوا يَدْخُلُونَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ يَعْنِي : بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِي كِتَابِكُمْ مِنْ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ . وَقِيلَ : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ هَؤُلَاءِ نَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ ، آمَنُوا ثُمَّ نَافَقُوا فَكَانُوا يُحَدِّثُونَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْعَرَبِ بِمَا عُذِّبُوا بِهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ مِنَ الْعَذَابِ لِيَقُولُوا نَحْنُ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْكُمْ وَأَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْكُمْ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : يَعْنِي مَا أَسَرُّوا مِنْ كُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَتَكْذِيبِهِمْ بِهِ ، وَهُمْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ .

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ أَيْ : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَالْأُمِّيُّونَ : جَمْعُ أُمِّيٍّ وَهُوَ الرَّجُلُ الَّذِي لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ . ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ أَيْ : لَا يَدْرُونَ مَا فِيهِ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : نَسَبَتِ الْعَرَبُ مَنْ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَخُطُّ مِنَ الرِّجَالِ إِلَى أُمِّهِ فِي جَهْلِهِ بِالْكِتَابِ دُونَ أَبِيهِ . ﴿ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ : إِلَّا أَحَادِيثَ ، وَقِيلَ : إِلَّا قَوْلًا يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ كَذِبًا ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ : أُنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ مِنَ الْكِتَابِ شَيْئًا ، وَكَانُوا يَتَكَلَّمُونَ بِالظَّنِّ بِغَيْرِ مَا فِي كِتَابِ اللهِ ، وَيَقُولُونَ : هُوَ مِنَ الْكِتَابِ أَمَانِيُّ يَتَمَنَّوْنَهَا ، ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ : يَكْذِبُونَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ الْآيَة . هَؤُلَاءِ صِنْفٌ آخَرُ مِنَ الْيَهُودِ وَهُمُ الدُّعَاةُ إِلَى الضَّلَالِ بِالزُّورِ وَالْكَذِبِ عَلَى

الله وَأَكْل أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَالْوَيْل وَالْهَلَاكِ وَالدَّمَارِ . وَهُمْ أَحْبَارُ الْيَهُودِ .

وَقَوْلُهُ تعَالَى : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ أَيْ : فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبُوا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْكَذِب وَالْبُهْتَانِ وَالافْتِرَاءِ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا أَكَلُوا بِهِ مِنَ السُّحْتِ .

وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْيَهُودِ فِيمَا نَقَلُوهُ وَادَّعَوْهُ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ أَنَّهُمْ لَنْ تَمَسَّهُمُ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، ثُمَّ يَنْجُونَ مِنْهَا فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ أَيْ : بِذَلِكَ ، فَإِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ عَهْدٌ ، فَهُوَ لَا يُخْلِفُ عَهْدَهُ ، وَلَكِنْ هَذَا مَا جَرَى وَلَا كَانَ ، وَلِهَذَا أَتَى بِـ ((أَمْ)) الَّتِي بِمَعْنَى ((بَلْ)) تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ عَلَيْهِ .

بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَمَنَّيْتُمْ وَلَا كَمَا تَشْتَهُونَ ، بَلِ الْأَمْرُ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ - وَهُوَ مَنْ وَافَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، بَلْ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ سَيِّئَاتٌ - فَهَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أَيْ : آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الْعَمَلِ الْمُوَافِقِ لِلشَّرِيعَةِ ، فَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

يُذَكِّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَأَخْذِهِ مِيثَاقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنَّهُمْ تَوَلَّوْا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَأَعْرَضُوا قَصْدًا وَعَمْدًا ، وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ وَيَذْكُرُونَهُ فَأَمَرَهُمْ تعالى أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِهَذَا أَمَرَ جَمِيعَ خَلْقِهِ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، وَهَذَا هُوَ أَعْلَى الْحُقُوقِ وَأَعْظَمُهَا ، وَهُوَ حَقُّ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، ثُمَّ بَعْدَهُ حَقُّ الْمَخْلُوقِينَ ، وَآكَدُهُمْ وَأَوْلَاهُمْ بِذَلِكَ حَقُّ الْوَالِدَيْنِ وَلِهَذَا يَقْرِنُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَيْنَ حَقِّهِ وَحَقِّ

الْوَالِدَيْنِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان : ١٤] ﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ ، وَهُمُ الصِّغَارُ الَّذِينَ لَا كَاسِبَ لَهُمْ مِنَ الْآبَاءِ وَالْمَسَاكِينِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ أَيْ : كَلِّمُوهُمْ طَيِّبًا وَلَيِّنُوا لَهُمْ جَانِبًا ، يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَاسَبَ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِأَنْ يَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا بَعْدَ مَا أَمَرَهُمْ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ بِالْفِعْلِ ، فَجَمَعَ بَيْنَ طَرَفَي الْإِحْسَانِ الْفِعْلِيِّ وَالْقَوْلِيِّ ثُمَّ أَكَّدَ الْأَمْرَ بِعِبَادَتِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ بِالْمُتَعَيِّنِ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ فَقَالَ : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ تَوَلَّوْا عَنْ ذَلِكَ كُلِّه ، أَيْ : تَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَأَعْرَضُوا عَنْهُ عَلَى عَمْدٍ بَعْد الْعِلْمِ بِهِ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَانِ رَسُولِ الله ﷺ بِالْمَدِينَةِ ، وَمَا كَانُوا يُعَانُونَهُ مِنَ الْقِتَالِ مَعَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ - وَهُمُ الْأَنْصَارُ - كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ عُبَّادَ أَصْنَام ، وَكَانَتْ بَيْنهمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ ، وَكَانَتْ يَهُودُ الْمَدِينَةِ ثَلَاثَ قَبَائِلَ : بَنُو قَيْنُقَاع ، وَبَنُو النَّضِيرَ حُلَفَاءُ الْخَزْرَجِ ، وَبَنُو قُرَيْظَةَ حُلَفَاءُ الْأَوْسِ فَكَانَت الْحَرْبُ إِذَا نَشِبَتْ بَيْنهمْ قَاتَلَ كُلُّ فَرِيق مَعَ حُلَفَائِهِ فَيَقْتُلُ الْيَهُودِيُّ أَعْدَاءَهُ وَقَدْ يَقْتُلُ الْيَهُودِيُّ الْآخَرَ مِنَ الْفَرِيقِ الْآخَرِ ، وَذَلِكَ حَرَامٌ عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ وَنَصِّ كِتَابِهِمْ ، وَيُخْرِجُونَهُمْ مِنْ بُيُوتِهِمْ ، وَيَنْتَهِبُونَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَثَاثِ وَالْأَمْتِعَةِ وَالْأَمْوَالِ ، ثُمَّ إِذَا وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا اسْتَفَكُّوا الْأُسَارَى مِنَ الْفَرِيقِ الْمَغْلُوبِ عَمَلًا بِحُكْمِ التَّوْرَاة ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ أَيْ : لَا يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وَلَا يُخْرِجُهُ مِنْ مَنْزِلِهِ . ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أَيْ : ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ بِمَعْرِفَةِ هَذَا الْمِيثَاقِ وَصِحَّتِهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ بِهِ . ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ

وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : أَنْبَأَهُمُ اللهُ بِذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ ، وَقَدْ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَاةِ سَفْكَ دِمَائِهِمْ ، وَافْتَرَضَ عَلَيْهِمْ فِيهَا فِدَاءَ أَسْرَاهُمْ ، يَقُولُ اللهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - حَيْثُ أَنْبَأَهُمْ بِذَلِكَ ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ أَيْ : تُفَادُونَهُمْ بِحُكْمِ التَّوْرَاةِ وَتَقْتُلُونَهُمْ ، وَفِي حُكْمِ التَّوْرَاةِ أَنْ لَا يُقْتَلَ وَلَا يُخْرَجَ مِنْ دَارِهِ ، وَلَا يُظَاهَرَ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ يُشْرِكُ بِاللهِ وَيَعْبُدُ الْأَوْثَانَ مِنْ دُونِهِ اِبْتِغَاءَ عَرَضِ الدُّنْيَا ؟ فَفِي ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ مَعَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فِيمَا بَلَغَنِي نَزَلَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ . ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ شَرْعَ اللهِ وَأَمْرِهِ ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ﴾ جَزَاءً عَلَى مُخَالَفَتِهِمْ كِتَابَ اللهِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . ﴿ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ ، وَاخْتَارُوهَا ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أَيْ : لَا يَفْتُرُ عَنْهُمْ سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أَيْ : وَلَيْسَ لَهُمْ نَاصِرٌ يُنْقِذُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، مِنَ الْعَذَابِ الدَّائِمِ السَّرْمَدِيِّ وَلَا يُجِيرُهُمْ مِنْهُ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾

يَنْعَتُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْعُتُوِّ وَالْعِنَادِ وَالْمُخَالَفَةِ وَالِاسْتِكْبَارِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ آتَى مُوسَى الْكِتَابَ وَهُوَ التَّوْرَاة ، فَحَرَّفُوهَا وَبَدَّلُوهَا وَخَالَفُوا أَوَامِرَهَا وَأَوَّلُوهَا ، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ، الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بِشَرِيعَتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾ أي : أَتْبَعْنَا ، وَأَرْدَفْنَا . حَتَّى خُتِمَ أَنْبِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعِيسَى اِبْنِ مَرْيَمَ فَجَاءَ بِمُخَالَفَةِ التَّوْرَاةِ فِي بَعْضِ الْأَحْكَامِ ، وَلِهَذَا أَعْطَاهُ اللهُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَهِيَ الْمُعْجِزَاتُ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى ، وَخَلْقِهِ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَيَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ ، وَإِبْرَاءِ الْأَسْقَامِ ، وَإِخْبَارِهِ بِالْغُيُوبِ ، وَتَأْيِيدِهِ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَهُوَ جِبْرِيلُ عليه السلام مَا يَدُلُّهُمْ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ، فَاشْتَدَّ تَكْذِيبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَهُ ، وَحَسَدُهُمْ وَعِنَادُهُمْ . فَكَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تُعَامِلُ الْأَنْبِيَاءَ أَسْوَأَ الْمُعَامَلَةِ ، فَفَرِيقًا يُكَذِّبُونَهُ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَهُ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ يَأْتُونَهُمْ بِالْأُمُورِ الْمُخَالِفَةِ لِأَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ ، وَبِالْإِلْزَامِ بِأَحْكَامِ التَّوْرَاةِ الَّتِي قَدْ تَصَرَّفُوا فِي مُخَالَفَتِهَا فَلِهَذَا كَانَ ذَلِكَ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ فَكَذَّبُوهُمْ وَرُبَّمَا قَتَلُوا بَعْضَهُمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ . وَرُوحُ الْقُدُسِ هُوَ جِبْرِيلُ **قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ** : ﴿ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ بِالرُّوحِ الْمُقَدَّسَةِ كَمَا تَقُولُ : حَاتِمُ الْجُودِ ، وَرَجُلُ صِدْقٍ .

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ إِنَّمَا لَمْ يَقُلْ وَفَرِيقًا قَتَلْتُمْ ؛ لأَنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ وَصْفَهُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضًا ؛ لأَنَّهُمْ حَاوَلُوا قَتْلَ النَّبِيِّ ﷺ بِالسُّمِّ وَالسِّحْرِ .

وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ﴾ أَيْ : فِي أَكِنَّة ، وَقِيلَ : أَيْ : لَا تَفْقَهُ . وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : غُلُفٌ بِضَمِّ اللَّام وَهُوَ جَمْعُ غِلَافٍ أَيْ : قُلُوبُنَا أَوْعِيَةٌ لِكُلِّ عِلْم فَلَا تَحْتَاجُ إِلَى عِلْمِكَ ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أَيْ : طَرَدَهُمْ اللهُ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ مَعْنَاهُ لَا يُؤْمِنُ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ .

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

يَقُول تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ يَعْنِي الْيَهُودُ ﴿ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ يَعْنِي مِنَ التَّوْرَاةِ . ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أَيْ : وَقَدْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ مَجِيءِ هَذَا الرَّسُولِ بِهَذَا الْكِتَابِ يَسْتَنْصِرُونَ بِمَجِيئِهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، إِذَا قَاتَلُوهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّهُ سَيُبْعَثُ نَبِيٌّ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، نَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمٍ . يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

قَالَ السُّدِّيُّ : ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ﴾ يَقُولُ : بِئْسَمَا اعْتَاضُوا لِأَنْفُسِهِمْ فَرَضُوا بِهِ ، وَعَدَلُوا إِلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ عَنْ تَصْدِيقِهِ وَمُوَازَرَتِهِ وَنُصْرَتِهِ ، وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْبَغْيُ وَالْحَسَدُ وَالْكَرَاهِيَةُ ﴿ أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ وَلَا حَسَدَ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا ، وَمَعْنَى ﴿ فَبَآءُو ﴾ أي : اِسْتَوْجَبُوا ، وَاسْتَحَقُّوا ، وَاسْتَقَرُّوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ، وَلَمَّا كَانَ كُفْرُهُمْ سَبَبُهُ الْبَغْيُ وَالْحَسَدُ ، وَمَنْشَأُ ذَلِكَ التَّكَبُّرُ ، قُوبِلُوا بِالْإِهَانَةِ وَالصَّغَارِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أَيْ : لِلْيَهُودِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾

عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَصَدِّقُوهُ وَاتَّبِعُوهُ ﴿ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ أَيْ : يَكْفِينَا الْإِيمَانُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ، وَلَا نُقِرُّ إِلَّا بِذَلِكَ ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُۥ ﴾ يعني : بِمَا يَعْدُوهُ ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ أَيْ : وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ ، فَالْحُجَّةُ قَائِمَةٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمُ الْإِيمَانَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، فَلِمَ قَتَلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ جَاءُوكُمْ بِتَصْدِيقِ التَّوْرَاةِ الَّتِي بِأَيْدِيكُمْ ، وَالْحُكْمِ بِهَا وَعَدَمِ نَسْخِهَا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقَهُمْ ؟ قَتَلْتُمُوهُمْ بَغْيًا وَعِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا عَلَى رُسُلِ اللهِ ، فَلَسْتُمْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا مُجَرَّدَ الْأَهْوَاءِ وَالْآرَاءِ وَالتَّشَهِّي .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أَيْ : بِالْآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ عَلَى أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَالْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ هِيَ : الطُّوفَانُ ، وَالْجَرَادُ ، وَالْقُمَّلُ وَالضَّفَادِعُ ، وَالدَّمُ ، وَالْعَصَا ، وَالْيَدُ ، وَفَرْقُ الْبَحْرِ ، وَتَظْلِيلُهُمْ بِالْغَمَامِ ، وَالْمَنُّ وَالسَّلْوَى ، وَالْحَجَرُ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي شَاهَدُوهَا ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ أَيْ : مَعْبُودًا مِنْ دُونِ اللهِ فِي زَمَانِ مُوسَى وَأَيَّامِهِ ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أَيْ : مِنْ بَعْدِ مَا ذَهَبَ عَنْكُمْ إِلَى الطُّورِ لِمُنَاجَاةِ اللهِ ﷻ ، ﴿ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ فِي هَذَا الصَّنِيعِ الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ مِنْ عِبَادَتِكُمُ الْعِجْلَ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

يُعَدِّدُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ خَطَأَهُمْ ، وَمُخَالَفَتَهُمْ لِلْمِيثَاقِ ، وَعُتُوَّهُمْ وَإِعْرَاضَهُمْ عَنْهُ ، حَتَّى رَفَعَ الطُّورَ عَلَيْهِمْ حَتَّى قَبِلُوهُ ثُمَّ خَالَفُوهُ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أُشْرِبُوا حُبَّهُ حَتَّى خَلَصَ ذَلِكَ إِلَى قُلُوبِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : بِئْسَمَا تَعْتَمِدُونَهُ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ ، مِنْ كُفْرِكُمْ بِآيَاتِ اللهِ وَمُخَالَفَتِكُمُ الْأَنْبِيَاءَ ، ثُمَّ اعْتِمَادُكُمْ فِي كُفْرِكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَهَذَا أَكْبَرُ ذُنُوبِكُمْ وَأَشَدُّ الْأُمُورِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ كَفَرْتُمْ بِخَاتَمِ الرُّسُلِ وَسَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، الْمَبْعُوثِ إِلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ ، فَكَيْفَ تَدَّعُونَ لِأَنْفُسِكُمُ الْإِيمَانَ ، وَقَدْ فَعَلْتُمْ هَذِهِ الْأَفَاعِيلَ الْقَبِيحَةَ ، مِنْ نَقْضِكُمُ الْمَوَاثِيقَ وَكُفْرِكُمْ بِآيَاتِ اللهِ ، وَعِبَادَتِكُمُ الْعِجْلَ مِنْ دُونِ اللهِ .

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ ﴾ : فَسَلُوا المَوْتَ ، فَهُمْ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ تَعَالَى - لما زَعَمُوا أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، وَقَالُوا : لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ، دُعُوا إِلَى المُبَاهَلَةِ وَالدُّعَاءِ عَلَى أَكْذَبِ الطَّائِفَتَيْنِ مِنْهُمْ أَوْ مِنَ المُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا نَكَلُوا عَنْ ذَلِكَ عَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّهُمْ ظَالِمُونَ ، لأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا جَازِمِينَ بِمَا هُمْ فِيهِ ، لَكَانُوا أَقْدَمُوا عَلَى ذَلِكَ ، فَلَمَّا تَأَخَّرُوا عَلِمَ كَذِبَهُمْ وَهَذِهِ الآيَةُ مِمَّا احْتَجَّ اللهُ سُبْحَانَهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ عَلَى اليَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ ظَهْرَانَيْ مُهَاجَرِهِ ، وَفَضَحَ بِهَا أَحْبَارَهُمْ وَعُلَمَاءَهُمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى قَضِيَّةٍ عَادِلَةٍ فِيمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الخِلَافِ ، قِيلَ لَهُمْ كَلَام نَصَف : إِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءَ اللهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ ، وَأَنَّكُمْ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، وَأَنَّكُمْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ ، وَمَنْ عَدَاكُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَبَاهِلُوا عَلَى ذَلِكَ وَادْعُوا عَلَى الكَاذِبِينَ مِنْكُمْ أَوْ مِنْ غَيْرِكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ المُبَاهَلَةَ تَسْتَأْصِلُ الكَاذِبَ لَا مَحَالَةَ ، فَلَمَّا تَيَقَّنُوا ذَلِكَ وَعَرَفُوا صِدْقَهُ نَكَلُوا عَنِ المُبَاهَلَةِ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَكِتْمَانِهِم الحَقَّ مِنْ صِفَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَنَعْتِهِ ، وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَتَحَقَّقُونَهُ فَعَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ بَاطِلَهُمْ وَخِزْيَهُمْ وَضَلَالَهُمْ وَعِنَادَهُمْ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ المُتَتَابِعَةِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ - وَسُمِّيَتْ هَذِهِ المُبَاهَلَةُ تَمَنِّيًا ؛ لأَنَّ كُلَّ مُحِقٍّ يَوَدُّ لَوْ أَهْلَكَ اللهُ المُبْطِلَ المُنَاظِرَ لَهُ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ حُجَّة لَهُ فِي بَيَانِ حَقِّهِ وَظُهُورِهِ ، وَكَانَت المُبَاهَلَةُ بِالمَوْتِ ؛ لأَنَّ الحَيَاةَ عِنْدَهُمْ عَزِيزَةٌ عَظِيمَةٌ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ سُوءِ مَآلِهِمْ بَعْدَ المَوْتِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ أَيْ : عَلَى طُولِ العُمْرِ لِمَا يَعْلَمُونَ مَآلَهُم السَّيِّءِ وَعَاقِبَتَهُمْ عِنْدَ اللهِ الخَاسِرَةَ ؛ لأَنَّ « **الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ** » فَهُمْ يَوَدُّونَ لَوْ تَأَخَّرُوا عَنْ مَقَامِ الآخِرَةِ بِكُلِّ مَا أَمْكَنَهُمْ ، وَمَا يُحَاذِرُونَ مِنْهُ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ ، حَتَّى وَهُمْ أَحْرَصُ مِنَ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاس** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ قَالَ : الأَعَاجِم . ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ ﴾ أَيْ : يَوَدُّ أَحَد اليَهُودِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ نَظْمُ السِّيَاقِ .

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ ابْنُ جَرِيرِ الطَّبَرِيُّ - رَحِمَهُ الله -: أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالتَّأْوِيلِ جَمِيعًا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ جَوَابًا لِلْيَهُودِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، إِذْ زَعَمُوا أَنَّ جِبْرِيلَ عَدُوٌّ لَهُمْ ، وَأَنَّ مِيكَائِيلَ وَلِيٌّ لَهُمْ ، ثُمَّ اِخْتَلَفُوا فِي السَّبَبِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ قَالُوا ذَلِكَ .

وَأَمَّا تَفْسِيرُ الْآيَةِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مَنْ عَادَى جِبْرَائِيلَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، الَّذِي نَزَلَ بِالذِّكْرِ الْحَكِيمِ عَلَى قَلْبِكَ مِنَ الله بِإِذْنِهِ لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَمَنْ عَادَى جِبْرَائِيلَ فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لله ؛ لِأَنَّ جِبْرَائِيلَ لَا يَنْزِلُ بِالْأَمْرِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا يَنْزِلُ بِأَمْرِ رَبِّهِ كَمَا قَالَ : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ الْآيَةُ ، وَلِهَذَا غَضِبَ اللهُ لِجِبْرَائِيلَ عَلَى مَنْ عَادَاهُ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : هُدًى لِقُلُوبِهِمْ وَبُشْرَى لَهُمْ بِالْجَنَّةِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت : ٤٤]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : مَنْ عَادَانِي وَمَلَائِكَتِي وَرُسُلِي - وَرُسُلُهُ تَشْمَلُ رُسُلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، ﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ، فَإِنَّهُمَا دَخَلَا فِي الْمَلَائِكَةِ فِي عُمُومِ الرُّسُلِ ، ثُمَّ خُصِّصَا بِالذِّكْرِ ؛ لِأَنَّ السِّيَاقَ فِي الِانْتِصَارِ لِجِبْرَائِيلَ ، وَهُوَ السَّفِيرُ بَيْنَ الله وَأَنْبِيَائِهِ ، وَقَرَنَ مَعَهُ مِيكَائِيلَ فِي اللَّفْظِ ؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ زَعَمُوا أَنَّ جِبْرِيلَ عَدُوُّهُمْ وَمِيكَائِيلَ وَلِيُّهِمْ ، فَأَعْلَمَهُم اللهُ تَعَالَى أَنَّ مَنْ عَادَى وَاحِدًا مِنْهُمَا فَقَدْ عَادَى الْآخَرَ ، وَعَادَى اللهَ أَيْضًا .

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ

أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَر ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ﴾ أَيْ : أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ عَلَامَاتٍ وَاضِحَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَى نُبُوَّتِكَ ، وَتِلْكَ الْآيَاتُ هِيَ مَا حَوَاهُ كِتَابُ اللهِ مِنْ خَفَايَا عُلُومِ الْيَهُودِ ، وَمَكْنُونَاتِ سَرَائِرِ أَخْبَارِهِمْ ، وَأَخْبَارِ أَوَائِلِهِمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَالنَّبَأُ عَمَّا تَضَمَّنَتْهُ كُتُبُهُم الَّتِي لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهَا إِلَّا أَحْبَارُهم وَعُلَمَاؤُهُمْ ، وَمَا حَرَّفَهُ أَوَائِلُهُمْ وَأَوَاخِرُهُمْ وَبَدَّلُوهُ ، مِنْ أَحْكَامِهِمُ الَّتِي كَانَتْ فِي التَّوْرَاةِ ، فَأَطْلَعَ اللهُ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِ الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ لِمَنْ أَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَلَمْ يَدْعُهَا إِلَى هَلَاكِهِ الْحَسَدُ وَالْبَغْيُ ، إِذْ كَانَ فِي فِطْرَةِ كُلِّ ذِي فِطْرَةٍ صَحِيحَةٍ تَصْدِيقُ مَنْ أَتَى بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ، الَّتِي وَصَفَ مِنْ غَيْرِ تَعَلُّمٍ تَعَلَّمَهُ مِنْ بَشَرٍ ، وَلَا أَخْذَ شَيْئًا مِنْهُ عَنْ آدَمِيٍّ .

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : فِي قَوْلِهِ : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قَالَ : نَعَمْ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ عَهْدٌ يُعَاهِدُونَ عَلَيْهِ إِلَّا نَقَضُوهُ وَنَبَذُوهُ ، يُعَاهِدُونَ الْيَوْمَ وَيَنْقُضُونَ غَدًا . ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ الْآيَةُ . أَيْ : طَرَحَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ كِتَابَ اللهِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ - مِمَّا فِيهِ الْبِشَارَةُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ - وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، أَيْ : تَرَكُوهَا كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَا فِيهَا ، وَأَقْبَلُوا عَلَى تَعَلُّمِ السِّحْرِ وَاتِّبَاعِهِ ، وَلِهَذَا أَرَادُوا كَيْدًا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَسَحَرُوهُ فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ وَجُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ تَحْت رَعُوفَةٍ بِبِئْرِ ذَرْوَانَ ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى ذَلِكَ مِنْهُمْ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ : لَبِيد بْنُ الْأَعْصَم - لَعَنَهُ اللهُ وَقَبَّحَهُ - فَأَطْلَعَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ رَسُولَهُ ﷺ وَشَفَاهُ مِنْهُ وَأَنْقَذَهُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : إِنَّ الْقَوْمَ كَانُوا يَعْلَمُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ نَبَذُوا عِلْمَهُمْ وَكَتَمُوهُ وَجَحَدُوا بِهِ . ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ﴾ أَيْ : وَاتَّبَعَتِ الْيَهُودُ - الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ إِعْرَاضِهِمْ عَنْ كِتَابِ اللهِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ - مَا تَتْلُوهُ الشَّيَاطِين أَيْ : مَا تَرْوِيهِ وَتُخْبِرُ بِهِ ، وَتُحَدِّثُهُ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَعَدَّاهُ بـ ((عَلَى)) لِأَنَّهُ تَضَمَّنَ تَتْلُو : تَكْذِبُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ .

ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ : إِلَى أَنَّهُمَا كَانَا مَلَكَيْنِ مِنَ السَّمَاءِ وَأَنَّهُمَا أُنْزِلَا إِلَى الْأَرْضِ ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمَا مَا كَانَ ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُون الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَا وَرَدَ مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى عِصْمَةِ الْمَلَائِكَةِ ، أَنَّ هَذَيْنِ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ لَهُمَا هَذَا ، فَيَكُونُ تَخْصِيصًا لَهُمَا ، فَلَا تَعَارُض حِينَئِذٍ .

وَقَدْ رُوِيَ فِي قِصَّةِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ ، وَقَصَّهَا خَلْقٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ

الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ ، وَحَاصِلُهَا رَاجِعٌ فِي تَفْصِيلِهَا إِلَى أَخْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، إِذْ لَيْسَ فِيهَا حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ صَحِيحٌ مُتَّصِلُ الْإِسْنَادِ إِلَى الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ الْمَعْصُومِ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، وَظَاهِرُ سِيَاقِ الْقُرْآنِ إِجْمَالُ الْقِصَّةِ مِنْ غَيْرِ بَسْطٍ وَلَا إِطْنَابٍ فِيهَا ، فَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى مَا أَرَادَهُ اللهُ تَعَالَى ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ ، عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : نَعَمْ أُنْزِلَ الْمَلَكَانِ بِالسِّحْرِ لِيُعَلِّمَا النَّاسَ الْبَلَاءَ الَّذِي أَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَ بِهِ النَّاسَ ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمَا الْمِيثَاقَ أَنْ لَا يُعَلِّمَا أَحَدًا حَتَّى يَقُولَا : إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ .

وَقَدِ اسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى تَكْفِيرِ مَنْ تَعَلَّمَ السِّحْرَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ أَيْ : فَيَتَعَلَّمُ النَّاسُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ مِنْ عِلْمِ السِّحْرِ ، مَا يَتَصَرَّفُونَ بِهِ فِيمَا يَتَصَرَّفُونَ مِنَ الْأَفَاعِيلِ الْمَذْمُومَةِ مَا إِنَّهُمْ لَيُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، مَعَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْخُلْطَةِ وَالِائْتِلَافِ .

وَهَذَا مِنْ صَنِيعِ الشَّيَاطِينِ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فِي النَّاسِ ، فَأَقْرَبُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ فِتْنَةً ، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ : مَا زِلْتُ بِفُلَانٍ حَتَّى تَرَكْتُهُ ، وَهُوَ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا ، فَيَقُولُ إِبْلِيسُ : لَا وَاللهِ مَا صَنَعْتَ شَيْئًا ، وَيَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ : مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ قَالَ : فَيُقَرِّبُهُ وَيُدْنِيهِ وَيَلْتَزِمُهُ وَيَقُولُ : نَعَمْ أَنْتَ ».وَسَبَبُ التَّفَرُّقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ بِالسِّحْرِ مَا يُخَيَّلُ إِلَى الرَّجُلِ أَوِ الْمَرْأَةِ مِنَ الْآخَرِ مِنْ سُوءِ مَنْظَرٍ أَوْ خُلُقٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ، أَوْ عَقْدٍ أَوْ بِغْضَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلْفُرْقَةِ ، وَالْمَرْءُ عِبَارَةٌ عَنِ الرَّجُلِ ، وَتَأْنِيثُهُ اِمْرَأَةٌ وَيُثَنَّى كُلٌّ مِنْهُمَا وَلَا يُجْمَعَانِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : إِلَّا بِقَضَاءِ اللهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ أَيْ : يَضُرُّهُمْ فِي دِينِهِمْ ، وَلَيْسَ لَهُ نَفْعٌ يُوَازِي ضَرَرَهُ ، ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ أَيْ : وَلَقَدْ عَلِمَ الْيَهُودُ - الَّذِينَ اسْتَبْدَلُوا بِالسِّحْرِ عَنْ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ - لَمَنْ فَعَلَ فِعْلَهُمْ ذَلِكَ ، أَنَّهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ . يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَبِئْسَ ﴾ الْبَدِيلُ مَا اسْتَبْدَلُوا بِهِ مِنَ السِّحْرِ عِوَضًا عَنِ الْإِيمَانِ وَمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ، لَوْ كَانَ لَهُمْ عِلْمٌ بِمَا وُعِظُوا بِهِ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ أَيْ : وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَاتَّقَوُا الْمَحَارِمَ ، لَكَانَ مَثُوبَةُ اللهِ عَلَى ذَلِكَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّا اسْتَخَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ وَرَضُوا بِهِ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ

أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

نَهَى اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِالْكَافِرِينَ فِي مَقَالِهِمْ وَفِعَالِهِمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يُعَانُونَ مِنَ الْكَلَامِ مَا فِيهِ تَوْرِيَةٌ لِمَا يَقْصِدُونَهُ مِنَ التَّنْقِيصِ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ الله - فَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يَقُولُوا : اسْمَعْ لَنَا ، يَقُولُوا : رَاعِنَا ، وَيُوَرُّونَ بِالرُّعُونَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾ [النساء : ٤٦] ، وَكَذَلِكَ جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ بِالْإِخْبَارِ عَنْهُمْ ، بِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَلَّمُوا إِنَّمَا يَقُولُونَ : السَّامُ عَلَيْكُمْ ، وَالسَّامُ هُوَ الْمَوْتُ ، وَلِهَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَرُدَّ عَلَيْهِمْ بِـ« **وَعَلَيْكُمْ** » .

وَالْغَرَضُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى نَهَى الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُشَابَهَةِ الْكَافِرِينَ قَوْلًا وَفِعْلًا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يُبَيِّنُ بِذَلِكَ تَعَالَى شِدَّةَ عَدَاوَةِ الْكَافِرِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ حَذَّرَ اللهُ تَعَالَى مِنْ مُشَابَهَتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ ، لِيَقْطَعَ الْمَوَدَّةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ ، وَنَبَّهَ تَعَالَى عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الشَّرْعِ التَّامِّ الْكَامِلِ ، الَّذِي شَرَعَهُ لِنَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ يَعْنِي : رَفْعَهَا ، مِثْلَ قَوْلِهِ « **الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ** » .

وَأَصْلُ النَّسْخِ : مِنْ نَسْخِ الْكِتَابِ ؛ وَهُوَ نَقْلُهُ مِنْ نُسْخَةٍ أُخْرَى إِلَى غَيْرِهَا ، فَكَذَلِكَ مَعْنَى نَسْخِ الْحُكْمِ إِلَى غَيْرِهِ ؛ إِنَّمَا هُوَ تَحْوِيلُهُ ، وَنَقْلُ عِبَارَةٍ إِلَى غَيْرِهَا ، وَسَوَاءٌ نُسِخَ حُكْمُهَا أَوْ خَطُّهَا إِذْ هِيَ فِي كِلْتَا حَالَتَيْهَا مَنْسُوخَةٌ .﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ فَقُرِئَ عَلَى وَجْهَيْنِ : نَنْسَأْهَا وَنُنْسِهَا ، فَأَمَّا مَنْ قَرَأَهَا : بِفَتْحِ النُّونِ وَالْهَمْزَةِ بَعْدَ السِّينِ فَمَعْنَاهُ : نُؤَخِّرُهَا . وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ فَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ : كَانَ اللهُ ﷻ يُنْسِي نَبِيَّهُ ﷺ مَا يَشَاءُ وَيَنْسَخُ مَا يَشَاءُ . **وَقِيلَ** : ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ : نَرْفَعُهَا مِنْ عِنْدِكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ أَيْ : فِي الْحُكْمِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَصْلَحَةِ الْمُكَلَّفِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يُرْشِدُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِهَذَا إِلَى أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا

يَشَاءُ ، فَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ ، فَكَمَا خَلَقَهُمْ كَمَا يَشَاءُ ، وَيُسْعِدُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُشْقِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيُصِحُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُمْرِضُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُوَفِّقُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَخْذُلُ مَنْ يَشَاءُ ، كَذَلِكَ يَحْكُمُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ ، فَيُحِلُّ مَا يَشَاءُ ، وَيُحَرِّمُ مَا يَشَاءُ وَيُبِيحُ مَا يَشَاءُ ، وَيَحْظُرُ مَا يَشَاء ، وَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ، وَيَخْتَبِرُ عِبَادَهُ وَطَاعَتَهُمْ لِرُسُلِهِ بِالنَّسْخِ ، فَيَأْمُرُ بِالشَّيْءِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ الَّتِي يَعْلَمُهَا تَعَالَى ، ثُمَّ يَنْهَى عَنْهُ لِمَا يَعْلَمُهُ تَعَالَى ، فَالطَّاعَةُ كُلُّ الطَّاعَةِ فِي امْتِثَالِ أَمْرِهِ ، وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ فِي تَصْدِيقِ مَا أَخْبَرُوا ، وَامْتِثَالِ مَا أَمَرُوا وَتَرْكِ مَا عَنْهُ زَجَرُوا ، وَفِي هَذَا الْمَقَامِ رَدٌّ عَظِيمٌ ، وَبَيَانٌ بَلِيغٌ لِكُفْرِ الْيَهُودِ وَتَزْيِيفِ شُبْهَتِهِمْ - لَعَنَهُمُ اللهُ - فِي دَعْوَى اسْتِحَالَةِ النَّسْخِ ، إِمَّا عَقْلًا كَمَا زَعَمَهُ بَعْضُهُمْ ، جَهْلًا وَكُفْرًا ، وَإِمَّا نَقْلًا كَمَا تَخَرَّصَهُ آخَرُونَ مِنْهُمْ ، افْتِرَاءً وَإِفْكًا . فَفِي هَذَا الْمَقَامِ بَيَّنَ تَعَالَى جَوَازَ النَّسْخِ ، رَدًّا عَلَى الْيَهُود - عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ الله - حَيْثُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الْآيَة ، فَكَمَا أَنَّ لَهُ الْمُلْكَ بِلَا مُنَازِعٍ ، فَكَذَلِكَ لَهُ الْحُكْمُ بِمَا يَشَاءُ ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، **وَالْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى جَوَازِ النَّسْخِ فِي أَحْكَامِ الله تَعَالَى لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ ، وَكُلُّهُمْ قَالَ بِوُقُوعِهِ .**

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

نَهَى اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَنْ كَثْرَةِ سُؤَالِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ الْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ [المائدة : ١٠١] أَيْ : وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْ تَفْصِيلِهَا بَعْدَ نُزُولِهَا تُبَيَّنُ لَكُمْ ، وَلَا تَسْأَلُوا عَنِ الشَّيْءِ قَبْلَ كَوْنِهِ ؛ فَلَعَلَّهُ أَنْ يُحَرَّمَ مِنْ أَجْلِ تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : بَلْ تُرِيدُونَ ، أَوْ هِيَ عَلَى بَابِهَا فِي الاسْتِفْهَامِ ، وَهُوَ إِنْكَارِيٌّ ، **وَالْمُرَادُ : أَنَّ اللهَ ذَمَّ مَنْ سَأَلَ الرَّسُولَ ﷺ عَنْ شَيْءٍ** عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالِاقْتِرَاحِ ، كَمَا سَأَلَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ مُوسَى عليه السلام تَعَنُّتًا وَتَكْذِيبًا وَعِنَادًا .

قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ أَيْ : مَنْ يَشْتَرِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أَيْ : فَقَدْ خَرَجَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ إِلَى الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ .

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

يُحَذِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ سُلُوكِ طَرِيقِ الْكُفَّارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَيُعْلِمُهُمْ بِعَدَاوَتِهِمْ لَهُمْ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ ، وَمَا هُمْ مُشْتَمِلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَسَدِ لِلْمُؤْمِنِينَ ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِفَضْلِهِمْ وَفَضْلِ نَبِيِّهِمْ ، وَيَأْمُرُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ ، أَوِ الاحْتِمَالِ ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ مِنَ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ ، وَيَأْمُرُهُمْ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَيَحُثُّهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَيُرَغِّبُهُمْ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ أي : مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ ، ﴿ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ، فَكَفَرُوا بِهِ حَسَدًا وَبَغْيًا ، إِذْ كَانَ مِنْ غَيْرِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : نَسَخَ ذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾[التوبة : ٢٩] إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ فَنَسَخَ هَذَا عَفْوَهُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَالَ آخَرُونَ : إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ السَّيْفِ ، وَيُرْشِدُ إِلَى ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ﴾ يَحُثُّهُمْ تَعَالَى عَلَى الاشْتِغَالِ بِمَا يَنْفَعُهُمْ ، وَتَعُودُ عَلَيْهِمْ عَاقِبَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مِنْ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ؛ حَتَّى يُمَكِّنَ لَهُمُ اللهُ النَّصْرَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَغْفُلُ عَنْ عَمَلِ عَامِلٍ ، وَلَا يَضِيعُ لَدَيْهِ ، سَوَاءٌ كَانَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا ؛ فَإِنَّهُ سَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .

وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

يُبَيِّنُ تَعَالَى اغْتِرَارَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِمَا هُمْ فِيهِ ؛ حَيْثُ ادَّعَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى : أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى مِلَّتِهَا ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ أَنَّهُمْ قَالُوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ ، فَأَكْذَبَهُمُ اللهُ تَعَالَى ، بِمَا أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ مُعَذِّبُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ،

وَلَوْ كَانُوا كَمَا ادَّعَوْا لَمَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، وَكَمَا تَقَدَّمَ مِنْ دَعْوَاهُمْ : أَنَّهُ لَنْ تَمَسَّهُم النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، ثُمَّ يَنْتَقِلُونَ إِلَى الْجَنَّة ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ - تَعَالَى - فِي ذَلِكَ ، وَهَكَذَا قَالَ لَهُمْ فِي هَذِهِ الدَّعْوَى الَّتِي ادَّعَوْهَا بِلَا دَلِيلٍ ، وَلَا حُجَّةٍ ، وَلَا بَيِّنَةٍ ، فَقَالَ : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ تَمَنَّوْهَا عَلَى الله بِغَيْرِ حَقٍّ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ، ﴿ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾ حُجَّتَكُمْ ، وبَيِّنَتَكُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : فِيمَا تَدَّعُونَهُ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أَيْ : مَنْ أَخْلَصَ الْعَمَلَ لله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ : أَخْلَصَ ﴿ وَجْهَهُۥ ﴾ دِينَهُ ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أَيْ : اِتَّبَعَ فِيهِ الرَّسُولَ ﷺ .

فَإِنَّ لِلْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ شَرْطَيْنِ : أَحدهما : أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لله وَحْدَهُ ، **وَالْآخَر** : أَنْ يَكُونَ صَوَابًا مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ ، فَمَتَى كَانَ خَالِصًا ، وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُتَقَبَّلْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ضَمِنَ لَهُمْ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ تَحْصِيلُ الْأُجُورِ ، وَآمَنَهُمْ مِمَّا يَخَافُونَهُ مِنَ الْمَحْذُورِ : فَـ : ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ ، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ عَلَى مَا مَضَى مِمَّا يَتْرُكُونَهُ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ . هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ ، وَهَذَا الْقَوْلُ يَقْتَضِي أَنَّ كُلًّا مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ صَدَقَتْ فِيمَا رَمَتْ بِهِ الطَّائِفَةَ الْأُخْرَى ، وَلَكِنَّ ظَاهِرَ سِيَاقِ الْآيَةِ يَقْتَضِي ذَمَّهُمْ فِيمَا قَالُوا مِنْ عِلْمِهِمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ أَيْ : وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ شَرِيعَةَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ كُلٌّ مِنْهُمَا قَدْ كَانَتْ مَشْرُوعَةً فِي وَقْتٍ وَلَكِنَّهُمْ تَجَاحَدُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عِنَادًا وَكُفْرًا وَمُقَابَلَةً لِلْفَاسِدِ بِالْفَاسِدِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ بَيَّنَ بِهَذَا جَهْلَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِيمَا تَقَابَلُوهُ مِنَ الْقَوْلِ . ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ تَعَالَى يَجْمَعُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْمَعَادِ ، وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ بِقَضَائِهِ الْعَدْلِ الَّذِي لَا يَجُورُ فِيهِ ، وَلَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

الَّذِي يَظْهرُ - واللهُ أَعْلَمُ - فِي الْمُرَادِ مَنَ الَّذِينَ مَنَعُوا مَسَاجِدَ الله وَسَعَوْا فِي خَرَابِهَا هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ حَالُوا بَيْنَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ ، وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلُوا مَكَّةَ حَتَّى نَحَرَ هَدْيَهُ بِذِي طُوًى وَهَادَنَهُمْ . وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِعِمَارَتِهَا زَخْرَفَتِهَا وَإِقَامَةِ صُورَتِهَا فَقَطْ ، إِنَّمَا عِمَارَتُهَا بِذِكْرِ الله

فِيهَا ، وَإِقَامَةِ شَرْعِهِ فِيهَا ، وَرَفْعِهَا عَنِ الدَّنَسِ وَالشِّرْكِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾ هَذَا خَبَرٌ مَعْنَاهُ الطَّلَبُ ، أَيْ : لَا تُمَكِّنُوا هَؤُلَاءِ إِذَا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ دُخُولِهَا إِلَّا تَحْتَ الْهُدْنَةِ وَالْجِزْيَةِ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا مَسَاجِدَ اللهِ إِلَّا خَائِفِينَ عَلَى حَالِ التَّهَيُّبِ ، وَارْتِعَادِ الْفَرَائِصِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْ يَبْطِشُوا بِهِمْ فَضْلًا أَنْ يَسْتَوْلُوا عَلَيْهَا وَيَمْنَعُوا الْمُؤْمِنِينَ مِنْهَا . ﴿ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ عَلَى مَا انْتَهَكُوا مِنْ حُرْمَةِ الْبَيْتِ وَامْتَهَنُوهُ مِنْ نَصْبِ الْأَصْنَامِ حَوْلَهُ وَدُعَاءِ غَيْرِ اللهِ عِنْدَهُ ، وَالطَّوَافِ بِهِ عَرَايَا ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفَاعِيلِهِمُ الَّتِي يَكْرَهُهَا اللهُ وَرَسُولُهُ ﷺ .

وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

وَهَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - فِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ مَكَّةَ ، وَفَارَقُوا مَسْجِدَهُمْ ، وَمُصَلَّاهُمْ ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِمَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَالْكَعْبَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ وُجِّهَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا ، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، ثُمَّ صَرَفَهُ اللهُ إِلَى الْكَعْبَةِ بَعْدُ ، وَلِهَذَا يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : أَوَّلُ مَا نُسِخَ لَنَا مِنَ الْقُرْآنِ فِيمَا ذُكِرَ لَنَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - شَأْنُ الْقِبْلَةِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ فَاسْتَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَصَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَتَرَكَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ ، ثُمَّ صَرَفَهُ إِلَى بَيْتِهِ الْعَتِيقِ وَنَسَخَهَا فَقَالَ : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة : ١٥٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ ﴾ يَسَعُ خَلْقَهُ كُلَّهُمْ بِالْكِفَايَةِ وَالْجُودِ وَالْإِفْضَالِ : ﴿ عَلِيمٌ ﴾ ، يَعْنِي عَلِيمٌ بِأَعْمَالِهِمْ ، مَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْهَا شَيْءٌ ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ ، بَلْ هُوَ بِجَمِيعِهَا عَلِيمٌ .

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ - وَكَذَا مَنْ أَشْبَهَهُمْ مِنَ الْيَهُودِ ، وَمِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ ، مِمَّنْ جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتِ اللهِ ، فَأَكْذَبَ اللهُ جَمِيعَهُمْ فِي دَعْوَاهُمْ ، وَقَوْلِهِمْ : إِنَّ للهِ وَلَدًا ؛ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ أَيْ : تَعَالَى ، وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا افْتَرَوْا ، وَإِنَّمَا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِمْ ، وَهُوَ خَالِقُهُمْ ، وَرَازِقُهُمْ ، وَمُقَدِّرُهُمْ وَمُسَخِّرُهُمْ ، وَمُسَيِّرُهُمْ ، وَمُصَرِّفُهُمْ كَمَا يَشَاءُ ، وَالْجَمِيعُ عَبِيدٌ لَهُ ، وَمِلْكٌ لَهُ ،

فَكَيْف يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ مِنْهُمْ ؟! وَالْوَلَدُ إِنَّمَا يَكُونُ مُتَوَلِّدًا مِنْ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ ، وَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ ، وَلَا مُشَارِكٌ فِي عَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ ، وَلَا صَاحِبَةَ لَهُ ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ؟.

وَقَوْلُهُ تعالى : ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴾ قِيلَ : مُصَلُّونَ . وَقِيلَ : مُقِرُّونَ لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ . وَقِيلَ : مُطِيعُونَ ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ يَقُولُ : طَاعَةُ الْكَافِرِ فِي سُجُودِ ظِلِّهِ وَهُوَ كَارِهٌ ، وَهَذَا الْقَوْلُ عَنْ مُجَاهِدٍ يَجْمَعُ الأَقْوَالَ كُلَّهَا وَهُوَ الْقُنُوتُ وَالطَّاعَةُ ، وَالِاسْتِكَانَةُ إِلَى اللهِ ، وَهُوَ شَرْعِيٌّ وَقَدَرِي ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ [الرعد : ١٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : خَالِقُهُمَا عَلَى غَيْرِ سَبْقٍ . وَمَعْنَى الْمُبْدِعِ : الْمُنْشِئ وَالْمُحْدِث مَا لَا يَسْبِقُهُ إِلَى إِنْشَاءِ مِثْلِهِ وَإِحْدَاثِهِ أَحَدٌ .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : يُخَاطِبُنَا بِنُبُوَّتِكَ يَا مُحَمَّدُ . هَذَا قَوْلُ كُفَّارِ الْعَرَبِ ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، ﴿ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أَيْ : أَشْبَهَتْ قُلُوبُ مُشْرِكِي الْعَرَبِ قُلُوبَ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ فِي الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ وَالْعُتُوِّ . ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أَيْ : قَدْ أَوْضَحْنَا الدَّلَالَاتِ عَلَى صِدْقِ الرُّسُلِ بِمَا لَا يَحْتَاجُ مَعَهَا إِلَى سُؤَالٍ آخَرٍ ، وَزِيَادَةٍ أُخْرَى لِمَنْ أَيْقَنَ وَصَدَّقَ وَاتَّبَعَ الرُّسُلَ وَفَهِمَ مَا جَاءُوا بِهِ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ قَالَ : بَشِيرًا بِالْجَنَّةِ ، وَنَذِيرًا مِنَ النَّارِ . ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أَيْ : لَا نَسْأَلُكَ عَنْ كُفْرِ مَنْ كَفَرَ بِكَ كَقَوْلِهِ :﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ .

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ ، وَلَيْسَتِ الْيَهُودُ – يَا مُحَمَّدُ – وَلَا النَّصَارَى بِرَاضِيَةٍ عَنْكَ أَبَدًا ، فَدَعْ طَلَبَ مَا يُرْضِيهِمْ وَيُوَافِقُهُمْ وَأَقْبِلْ عَلَى طَلَبِ رِضَا اللهِ فِي دُعَائِهِمْ إِلَى مَا بَعَثَكَ اللهُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ، ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ أَيْ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ : إِنَّ هُدَى اللهِ الَّذِي

بَعَثَنِي بِهِ هُوَ الْهُدَى ، يَعْنِي هُوَ الدِّينُ الْمُسْتَقِيمُ الصَّحِيحُ الْكَامِلُ الشَّامِلُ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ فِيهِ تَهْدِيدٌ ، وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ لِلْأُمَّةِ عَنِ اتِّبَاعِ طَرَائِقِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، بَعْدَ مَا عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ، عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّ الْخِطَابَ مَعَ الرَّسُولِ وَالْأَمْرَ لِأُمَّتِهِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى . وَقِيلَ : هُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ﴿ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ خَبَرٌ عَنْ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ أَيْ : مَنْ أَقَامَ كِتَابَهُ مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ حَقَّ إِقَامَتِهِ ، آمَنَ بِمَا أَرْسَلْتُكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [المائدة : ٦٨] أَيْ : إِذَا أَقَمْتُمُوهَا حَقَّ الْإِقَامَةِ ، وَآمَنْتُمْ بِهَا حَقَّ الْإِيمَانِ ، وَصَدَّقْتُمْ مَا فِيهَا مِنَ الْإِخْبَارِ بِمَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنَعْتِهِ ، وَصِفَتِهِ ، وَالْأَمْرِ بِاتِّبَاعِهِ ، وَنَصْرِهِ ، وَمُؤَازَرَتِهِ قَادَكُمْ ذَلِكَ إِلَى الْحَقِّ ، وَاتِّبَاعِ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

وَقَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي صَدْرِ السُّورَةِ ، وَكُرِّرَتْ هَاهُنَا ، لِلتَّأْكِيدِ ، وَالْحَثِّ عَلَى اتِّبَاعِ الرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ، الَّذِي يَجِدُونَ صِفَتَهُ فِي كُتُبِهِمْ ، وَنَعْتِهِ ، وَاسْمِهِ ، وَأَمْرِهِ ، وَأُمَّتِهِ ، يُحَذِّرُهُمْ مِنْ كِتْمَانِ هَذَا ، وَكِتْمَانِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِمْ ، مِنَ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ ، وَلَا يَحْسُدُوا بَنِي عَمِّهِمْ مِنَ الْعَرَبِ عَلَى مَا رَزَقَهُمُ اللهُ مِنْ إِرْسَالِ الرَّسُولِ الْخَاتَمِ مِنْهُمْ ، وَلَا يَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ الْحَسَدُ عَلَى مُخَالَفَتِهِ ، وَتَكْذِيبِهِ ، وَالْحَيْدِ عَنْ مُوَافَقَتِهِ ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى شَرَفِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِهِ عليه السلام وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَهُ إِمَامًا لِلنَّاسِ يُقْتَدَى بِهِ فِي التَّوْحِيدِ ، حِينَ قَامَ بِمَا كَلَّفَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ

إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ ﴾ أَيْ : وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ ، لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَهْلِ الْكِتَابَيْنِ الَّذِينَ يَنْتَحِلُونَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ وَلَيْسُوا عَلَيْهَا ، وَإِنَّمَا الَّذِي هُوَ عَلَيْهَا مُسْتَقِيمٌ ، فَأَنْتَ وَالَّذِينَ مَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، اُذْكُرْ لِهَؤُلَاءِ اِبْتِلَاءَ اللهِ إِبْرَاهِيمَ ، أَيْ : اِخْتِبَارُهُ لَهُ بِمَا كَلَّفَهُ بِهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أَيْ : قَامَ بِهِنَّ كُلِّهِنَّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ أَيْ : وَفَّى جَمِيعَ مَا شَرَعَ لَهُ ؛ فَعَمِلَ بِهِ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ - .وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بِكَلِمَـٰتٍ ﴾ أَيْ : بِشَرَائِعَ ، وَأَوَامِرَ ، وَنَوَاهٍ ، قَالَ : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ أَيْ : جَزَاءً عَلَى مَا فَعَلَ ، كَمَا قَامَ بِالْأَوَامِرِ ، وَتَرَكَ الزَّوَاجِرَ ، جَعَلَهُ اللهُ لِلنَّاسِ قُدْوَةً ، وَإِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ ، وَيُحْتَذَى حَذْوُهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ قال : لَمَّا جَعَلَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ إِمَامًا ، سَأَلَ اللهَ أَنْ تَكُونَ الْأَئِمَّةُ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ، فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ ، وَأُخْبِرَ أَنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ظَالِمُونَ ، وَأَنَّهُ لَا يَنَالُهُمْ عَهْدُ اللهِ ، وَلَا يَكُونُونَ أَئِمَّةً فَلَا يُقْتَدَى بِهِمْ . وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ أُجِيبَ إِلَى طُلْبَتِهِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ﴾ فَكُلُّ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ اللهُ ، وَكُلُّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللهُ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ ، فَفِي ذُرِّيَّتِهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

مَضْمُونُ مَا فَسَّرَ بِهِ الْأَئِمَّةُ هَذِهِ الْآيَةَ : أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَذْكُرُ شَرَفَ الْبَيْتِ ، وَمَا جَعَلَهُ مَوْصُوفًا بِهِ شَرْعًا وَقَدَرًا ؛ مِنْ كَوْنِهِ مَثَابَةً لِلنَّاسِ ، أَيْ : جَعَلَهُ مَحَلًّا تَشْتَاقُ إِلَيْهِ الْأَرْوَاحُ ، وَتَحِنُّ إِلَيْهِ ، وَلَا تَقْضِي مِنْهُ وَطَرًا ، وَلَوْ تَرَدَّدَتْ إِلَيْهِ كُلَّ عَامٍ ، اِسْتِجَابَةً مِنَ اللهِ تَعَالَى لِدُعَاءِ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ ، وَيَصِفُهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ جَعَلَهُ آمِنًا ؛ مَنْ دَخَلَهُ أَمِنَ ، وَلَوْ كَانَ قَدْ فَعَلَ مَا فَعَلَ ، ثُمَّ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا . وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ نَبَّهَ عَلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ الْأَمْرِ بِالصَّلَاةِ عِنْدَهُ . فَقَالَ : ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ .

الْمُرَادُ بِالْمَقَامِ : إِنَّمَا هُوَ الْحَجَرُ الَّذِي كَانَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام يَقُومُ عَلَيْهِ لِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ ، لَمَّا ارْتَفَعَ الْجِدَارُ أَتَاهُ إِسْمَاعِيلُ عليه السلام بِهِ لِيَقُومَ فَوْقَهُ ، وَيُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ ، فَيَضَعُهَا بِيَدِهِ لِرَفْعِ الْجِدَارِ ، وَكُلَّمَا كَمَّلَ نَاحِيَةً اِنْتَقَلَ إِلَى النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى يَطُوفُ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ، وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ ، كُلَّمَا فَرَغَ مِنْ جِدَارٍ نَقَلَهُ إِلَى النَّاحِيَةِ الَّتِي تَلِيهَا ، وَهَكَذَا حَتَّى تَمَّ جُدْرَانُ الْكَعْبَةِ ، وَكَانَتْ آثَارُ قَدَمَيْهِ ظَاهِرَةً فِيهِ ، وَلَمْ يَزَلْ هَذَا مَعْرُوفٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا .

وَقَدْ أَدْرَكَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ فِيهِ أَيْضًا . عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : رَأَيْتُ الْمَقَامَ فِيهِ أَصَابِعُهُ عليه السلام

وَأَخْمُص قَدَمَيْهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ أَذْهَبَهُ مَسْحُ النَّاسِ بِأَيْدِيهِمْ . قُلْتُ : وَقَدْ كَانَ هَذَا الْمَقَامُ مُلْصَقًا بِجِدَارِ الْكَعْبَةِ قَدِيمًا ، وَمَكَانُهُ مَعْرُوفٌ الْيَوْمَ إِلَى جَانِبِ الْبَابِ مِمَّا يَلِي الْحَجَر يَمْنَةَ الدَّاخِلِ مِنَ الْبَابِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُسْتَقِلَّةِ هُنَاكَ ، وَكَانَ الْخَلِيلُ عليه السلام لَمَّا فَرَغَ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ وَضَعَهُ إِلَى جِدَارِ الْكَعْبَةِ ، أَوْ أَنَّهُ انْتَهَى عِنْدَهُ الْبِنَاءُ فَتَرَكَهُ هُنَاكَ ؛ وَلِهَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَمَرَ بِالصَّلَاةِ هُنَاكَ عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الطَّوَافِ ، وَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ حَيْثُ انْتَهَى بِنَاءُ الْكَعْبَةِ فِيهِ ، وَإِنَّمَا أَخَّرَهُ عَنْ جِدَارِ الْكَعْبَةِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه - أَحَدُ الْأَئِمَّةِ الْمَهْدِيِّينَ ، وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الَّذِينَ أُمِرْنَا بِاتِّبَاعِهِمْ ، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَ الْقُرْآنِ بِوِفَاقِهِ فِي الصَّلَاةِ عِنْدَهُ - وَلِهَذَا لَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ ﴾ قَالَ : أَمَرَهُمَا اللهُ أَنْ يُطَهِّرَاهُ مِنَ الْأَذَى وَالنَّجَسِ ، وَلَا يُصِيبهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ . ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ ﴾ قَالَ : مِنَ الْأَوْثَانِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ فَالطَّوَافُ بِالْبَيْتِ مَعْرُوفٌ . ﴿ وَٱلْعَـٰكِفِينَ ﴾ الْمُقِيمِينَ فِيهِ . ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ إِذَا كَانَ مُصَلِّيًا فَهُوَ مِنَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ أَيْ : مِنَ الْخَوْفِ ، لَا يُرْعَبُ أَهْلُهُ ، وَقَدْ فَعَلَ اللهُ ذَلِكَ شَرْعًا وَقَدَرًا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ ، وَقَوْله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ٦٧] ، وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْأَحَادِيثُ فِي تَحْرِيمِ الْقِتَالِ فِيهَا ، عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ : ((**لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلَاحَ**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ **قِيلَ** : هُوَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى ، **وَقِيلَ** : ذَلِكَ مِنْ تَمَامِ دُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ ، وَكَانَ **ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **يَقُولُ** : ذَلِكَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ ، يَسْأَلُ رَبَّهُ أَنَّ مَنْ كَفَرَ فَأَمْتِعْهُ قَلِيلًا . ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ﴾ فَإِنِّي أَرْزُقُ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ ، وَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا . ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

ٱلْأَخِرِ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَحْجُرُهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ دُونَ النَّاسِ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ أَيْضًا أَرْزُقُهُمْ كَمَا أَرْزُقُ الْمُؤْمِنِينَ، أَأَخْلُقُ خَلْقًا لَا أَرْزُقُهُمْ ؟ أُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرِ، ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[الإسراء : ٢٠]، وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : ثُمَّ أُلْجِئُهُ بَعْدَ مَتَاعِهِ فِي الدُّنْيَا، وَبَسْطِنَا عَلَيْهِ مِنْ ظِلِّهَا إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرِ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُنْظِرُهُمْ وَيُمْهِلُهُمْ، ثُمَّ يَأْخُذُهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فَالْقَوَاعِدُ : جَمْعُ قَاعِدَةٍ، هِيَ : السَّارِيَةُ وَالْأَسَاسُ يَقُولُ تَعَالَى : وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ بِنَاءَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - الْبَيْتَ، وَرَفْعَهُمَا الْقَوَاعِدَ مِنْهُ، وَهُمَا يَقُولَانِ : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : لَمَّا كَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ، خَرَجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّ إِسْمَاعِيلَ، وَمَعَهُمْ شَنَّةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ فَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَوَضَعَهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَهْلِهِ، فَاتَّبَعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ حَتَّى بَلَغُوا كَدَاء، نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ : يَا إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَنْ تَتْرُكُنَا ؟ قَالَ : إِلَى اللهِ، قَالَتْ : رَضِيتُ بِاللهِ. قَالَ : فَرَجَعَتْ، فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ، وَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، حَتَّى لَمَّا فَنِيَ الْمَاءُ قَالَتْ : لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسّ أَحَدًا، فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا، فَنَظَرَتْ هَلْ تُحِسُّ أَحَدًا، فَلَمْ تُحِسّ أَحَدًا، فَلَمَّا بَلَغَتِ الْوَادِي سَعَتْ حَتَّى أَتَتِ الْمَرْوَة، وَفَعَلَتْ ذَلِكَ أَشْوَاطًا، ثُمَّ قَالَتْ : لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ الصَّبِيُّ، فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ فَإِذَا هُوَ عَلَى حَالِه، كَأَنَّهُ يَنْشَغُ لِلْمَوْتِ، فَلَمْ تُقِرّهَا نَفْسُهَا فَقَالَتْ : لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا، فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتْ الصَّفَا فَنظَرَتْ وَنَظَرَتْ، فَلَمْ تُحِسُّ أَحَدًا حَتَّى أَتَمَّتْ سَبْعًا، ثُمَّ قَالَتْ : لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ، فَإِذَا هِيَ بِصَوْتٍ فَقَالَتْ : أَغِثْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ، فَإِذَا جِبْرِيلُ عليه السلام، قَالَ : فَقَالَ بِعَقِبِهِ هَكَذَا، وَغَمَزَ عَقِبَهُ عَلَى الْأَرْض، قَالَ : فَانْبَثَقَ الْمَاءُ، فَدَهَشَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَعَلَتْ تَحْفِر قَالَ : فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ « **لَوْ تَرَكَتْهُ لَكَانَ الْمَاءُ ظَاهِرًا** » قَالَ فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ وَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، قَالَ : فَمَرَّ نَاسٌ مِنْ جُرْهُمَ بِبَطْنِ الْوَادِي، فَإِذَا هُمْ بِطَيْرٍ، كَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَلِكَ وَقَالُوا : مَا يَكُون الطَّيْرُ إِلَّا عَلَى مَاءٍ، فَبَعَثُوا رَسُولَهُمْ، فَنَظَرَ فَإِذَا هُوَ بِالْمَاءِ، فَأَتَاهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ، فَأَتَوْا إِلَيْهَا، فَقَالُوا : يَا أُمَّ إِسْمَاعِيلَ أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَكُونَ مَعَكِ وَنَسْكُنَ

مَعَكِ ؟ فَبَلَغَ ابْنهَا وَنَكَحَ مِنْهُمُ امْرَأَةً ، قَالَ : ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ ﷺ فَقَالَ لِأَهْلِهِ : إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي ، قَالَ : فَجَاءَ فَسَلَّمَ ، فَقَالَ : أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ ؟ قَالَتِ امْرَأَتُهُ : ذَهَبَ يَصِيدُ ، قَالَ : قُولِي لَهُ إِذَا جَاءَ غَيِّرْ عَتبَةَ بَابِكِ ، فَلَمَّا أَخْبَرَتْهُ قَالَ : أَنْتِ ذَاكَ فَاذْهَبِي إِلَى أَهْلِك ، قَالَ : ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي ، قَالَ : فَجَاءَ ، فَقَالَ : أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ ؟ فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ : ذَهَبَ يَصِيدُ ، فَقَالَتْ : أَلَا تَنْزِلُ فَتَطْعَمُ وَتَشْرَبُ ، فَقَالَ : مَا طَعَامُكُمْ وَمَا شَرَابُكُمْ ؟ قَالَتْ : طَعَامُنَا اللَّحْمُ وَشَرَابُنَا المَاءُ ، قَالَ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ ، قَالَ : فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ « **بَرَكَةٌ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ** » ، قَالَ : ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ ﷺ ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي ، فَجَاءَ فَوَافَقَ إِسْمَاعِيلَ مِنْ وَرَاءِ زَمْزَمَ يُصْلِحُ نَبْلًا لَهُ ، فَقَالَ : يَا إِسْمَاعِيلُ ، إِنَّ رَبَّكَ ﷻ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا ، فَقَالَ : أَطِعْ رَبَّكَ ﷻ ، قَالَ : إِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ تُعِينَنِي عَلَيْهِ ، فَقَالَ : إِذَنْ أَفْعَلُ - أَوْ كَمَا قَالَ - قَالَ : فَقَامَ فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ قَالَ : حَتَّى ارْتَفَعَ الْبِنَاء وَضَعُفَ الشَّيْخُ عَنْ نَقْلِ الْحِجَارَةِ ، فَقَامَ عَلَى حَجَرِ الْمَقَامِ ، فَجَعَلَ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ ، وَيَقُولَانِ : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً لِدُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَعْنِيَانِ بِذَلِكَ وَاجْعَلْنَا مُسْتَسْلِمَيْنِ لِأَمْرِكَ خَاضِعَيْنِ لِطَاعَتِكَ ، لَا نُشْرِكُ مَعَكَ فِي الطَّاعَةِ أَحَدًا سِوَاكَ ، وَلَا فِي الْعِبَادَةِ غَيْرَكَ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ **عَنْ عَطَاءٍ** : أَخْرِجْهَا لَنَا وَعَلِّمْنَاهَا ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ مَذَابِحَنَا .

رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ تَمَامِ دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ لِأَهْلِ الْحَرَمِ : أَنْ يَبْعَثَ اللهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَيْ : مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَقَدْ وَافَقَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ الْمُسْتَجَابَةُ قَدَرَ اللهِ السَّابِقِ فِي تَعْيِينِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - رَسُولًا فِي الْأُمِّيِّينَ إِلَيْهِمْ وَإِلَى سَائِرِ الْأَعْجَمِيِّينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ .

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ **قَالَ** : قُلْتُ : يا رَسُولَ اللهِ مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ ؟ قَالَ ﷺ : « **دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشَارَةُ عِيسَى ، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورَ الشَّامِ** » . **وَالْمُرَادُ** : أَنَّ أَوَّلَ مَنْ نَوَّهَ بِذِكْرِهِ وَشَهَرَهُ فِي النَّاسِ إِبْرَاهِيمُ ؑ وَلَمْ يَزَلْ ذِكْرُهُ فِي النَّاسِ مَذْكُورًا مَشْهُورًا سَائِرًا حَتَّى أَفْصَحَ بِاسْمِهِ خَاتَمُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ نَسَبًا وَهُوَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ؑ ، حَيْثُ قَامَ

فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ خَطِيبًا وَقَالَ : ﴿ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] ، ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ، يَعْنِي : الْقُرْآنَ ، ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ يَعْنِي : السُّنَّةَ ، وَقِيلَ : الْفَهْمَ فِي الدِّينِ ، وَلَا مُنَافَاةَ ، ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أَيْ : الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، الْحَكِيمُ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ ، فَيَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَحَالِّهَا ؛ لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ .

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَدًّا عَلَى الْكُفَّارِ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ وَأَحْدَثُوهُ مِنَ الشِّرْكِ بِاللهِ الْمُخَالِفِ لِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ، إِمَامِ الْحُنَفَاءِ ؛ فَإِنَّهُ جَرَّدَ تَوْحِيدَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَلَمْ يَدْعُ مَعَهُ غَيْرَه ، وَلَا أَشْرَكَ بِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَتَبَرَّأَ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ ، وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ سَائِرَ قَوْمِهِ ، حَتَّى تَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ ﴿ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٨ - ٧٩] قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ أَيْ : ظَلَمَ نَفْسَهَ بِسَفَهِهِ وَسُوءِ تَدْبِيرِهِ بِتَرْكِهِ الْحَقِّ إِلَى الضَّلَالِ ، حَيْثُ خَالَفَ طَرِيقَ مَنِ اصْطُفِيَ فِي الدُّنْيَا لِلْهِدَايَةِ وَالرَّشَادِ مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّهِ ، إِلَى أَنِ اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلًا وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحِينَ السُّعَدَاءِ ، فَمَنْ تَرَكَ طَرِيقَهُ هَذَا وَمَسْلَكَهُ وَمِلَّتَهُ ، وَاتَّبَعَ طُرُقَ الضَّلَالَةِ وَالْغَيِّ فَأَيُّ سَفَهٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا ؟ أَمْ أَيِ ظُلْمٍ أَكْبَر مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقولُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِالْإِخْلَاصِ وَالِاسْتِسْلَامِ وَالِانْقِيَادِ ، فَأَجَابَ إِلَى ذَلِكَ شَرْعًا وَقَدَرًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ أَيْ : وَصَّى بِهَذِهِ الْمِلَّةِ - وَهِيَ الْإِسْلَامُ للهِ - أَوْ يَعُودُ الضَّمِيرُ عَلَى الْكَلِمَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لِحِرْصِهِمْ عَلَيْهَا وَمَحَبَّتِهِمْ لَهَا حَافَظُوا عَلَيْهَا إِلَى حِينِ الْوَفَاةِ ، وَوَصَّوْا أَبْنَاءَهُمْ بِهَا مِنْ بَعْدِهِمْ . ﴿ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أَيْ : أَحْسِنُوا فِي حَالِ الْحَيَاةِ وَالْزَمُوا هَذَا لِيَرْزُقَكُم اللهُ الْوَفَاةَ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الْمَرْءَ يَمُوتُ غَالِبًا عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَيُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَجْرَى اللهُ الْكَرِيمُ عَادَتَهُ بِأَنَّ مَنْ قَصَدَ الْخَيْرَ وُفِّقَ لَهُ وَيُسِّرَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ نَوَى صَالِحًا ثَبَتَ عَلَيْهِ .

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحْتَجًّا عَلَى الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ أَبْنَاءِ إِسْمَاعِيلَ ، وَعَلَى الْكُفَّارِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ - وَهُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - بِأَنَّ يَعْقُوبَ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَصَّى بَنِيهِ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ﴾ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّغْلِيبِ لِأَنَّ إِسْمَاعِيلَ عَمُّهُ . ﴿ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾ أَيْ : نُوَحِّدُهُ بِالْأُلُوهِيَّةِ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا غَيْرَهُ ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ أَيْ : مُطِيعُونَ خَاضِعُونَ ، وَالْإِسْلَامُ هُوَ مِلَّةُ الْأَنْبِيَاءِ قَاطِبَةً ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُهُمْ وَاخْتَلَفَتْ مَنَاهِجُهُمْ ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ وَالْأَحَادِيثُ ، فَمِنْهَا قَوْلُهُ ﷺ : ((**نَحْنُ مَعْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ ، أَوْلَادُ عَلَّاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أَيْ : مَضَتْ ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ أَيْ : إِنَّ السَّلَفَ الْمَاضِينَ مِنْ آبَائِكُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لَا يَنْفَعُكُمُ انْتِسَابُكُمْ إِلَيْهِمْ إِذَا لَمْ تَفْعَلُوا خَيْرًا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّ لَهُمْ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي عَمِلُوهَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ . وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ : ((**مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**)) .

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ أَيْ : لَا نُرِيدُ مَا دَعَوْتُمُونَا إِلَيْهِ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ ، بَلْ نَتَّبِعُ ﴿ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ أَيْ : مُسْتَقِيمًا .

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

أَرْشَدَ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ بِوَاسِطَةِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُفَصَّلًا ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ مُجْمَلًا ، وَنَصَّ عَلَى أَعْيَانٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَأَجْمَلَ ذِكْرَ بَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَنْ لَا يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، بَلْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ كُلِّهِمْ ، وَلَا يَكُونُوا كَمَنْ قَالَ اللهُ فِيهِمْ : ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟

بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾[النساء : ١٥٠] ، **وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ وَقَتَادَةُ** : الْأَسْبَاطُ : بَنُو يَعْقُوبَ اِثْنَا عَشَرَ رَجُلًا ، وَلَدَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ ، فَسُمُّوا الْأَسْبَاطَ . **وَقَالَ الْبُخَارِيُّ** : الْأَسْبَاطُ : قَبَائِلُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَسْبَاطِ هَاهُنَا شُعُوبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْوَحْيِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمَوْجُودِينَ مِنْهُمْ ، كَمَا قَالَ مُوسَى لَهُمْ ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾[المائدة : ٢٠]

فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى فَإِنْ آمَنُوا ، يَعْنِي : الْكُفَّارُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ ، بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ - يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - مِنَ الْإِيمَانِ بِجَمِيعِ كُتُبِ اللهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴿ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾ أَيْ : فَقَدْ أَصَابُوا الْحَقَّ وَأُرْشِدُوا إِلَيْهِ ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ أَيْ : عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : فَسَيَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ وَيُظَفِّرُكَ بِهِمْ ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ . **قَوْلُهُ** : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ أي : دِينَ اللهِ .

قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى مُرْشِدًا نَبِيَّهُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُه عَلَيْهِ إِلَى دَرْءِ مُجَادَلَةِ الْمُشْرِكِينَ : ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : تُنَاظِرُونَنَا فِي تَوْحِيدِ اللهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَالِانْقِيَادِ وَاتِّبَاعِ أَوَامِرِهِ ، وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ الْمُتَصَرِّفُ فِينَا وَفِيكُمْ ، الْمُسْتَحِقُّ لِإِخْلَاصِ الْإِلَهِيَّةِ لَهُ وَحْده لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ أَيْ : نَحْنُ بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ ، وَأَنْتُمْ بُرَآءُ مِنَّا كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[يونس : ٤١] ، ثُمَّ أَنْكَرَ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي دَعْوَاهُمْ : أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ ذُكِرَ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَسْبَاطِ كَانُوا عَلَى مِلَّتِهِمْ ، إِمَّا الْيَهُودِيَّةِ وَإِمَّا النَّصْرَانِيَّةِ فَقَالَ : ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾

يَعْنِي : بَلْ اللهُ أَعْلَمُ . وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا هُودًا وَلَا نَصَارَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ **قَالَ الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : كَانُوا يَقْرَءُونَ فِي كِتَابِ اللهِ الَّذِي أَتَاهُمْ ، إِنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامُ ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ كَانُوا بُرَآءُ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ ، فَشَهِدُوا للهِ بِذَلِكَ ، وَأَقَرُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ للهِ ، فَكَتَمُوا شَهَادَةَ اللهِ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ ، أَيْ أَنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِعَمَلِكُمْ وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أَيْ : قَدْ مَضَتْ ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ أَيْ : لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ وَلَيْسَ يُغْنِي عَنْكُمُ انْتِسَابُكُمْ إِلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ مُتَابَعَةٍ مِنْكُمْ لَهُمْ ، وَلَا تَغْتَرُّوا بِمُجَرَّدِ النِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ ، حَتَّى تَكُونُوا مُنْقَادِينَ مِثْلَهُمْ لِأَوَامِرِ اللهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ ، الَّذِينَ بُعِثُوا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، فَإِنَّهُ مَنْ كَفَرَ بِنَبِيٍّ وَاحِدٍ فَقَدْ كَفَرَ بِسَائِرِ الرُّسُلِ وَلَا سِيَّمَا بِسَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ وَخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ .

سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

قِيلَ : الْمُرَادُ بِالسُّفَهَاءِ هَاهُنَا : مُشْرِكُو الْعَرَبِ ، **وَقِيلَ** : أَحْبَارُ يَهُود ، **وَقِيلَ** : الْمُنَافِقُونَ ، وَالْآيَةُ عَامَّةٌ فِي هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ - وَاللهُ أَعْلَمُ - . **عَنِ الْبَرَاءِ** ﷺ **قَالَ** : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَيُكْثِرُ النَّظَرَ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُ أَمْرَ اللهِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ فَقَالَ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ : وَدِدْنَا لَوْ عَلِمْنَا مَنْ مَاتَ مِنَّا قَبْلَ أَنْ نُصْرَفَ إِلَى الْقِبْلَةِ ، وَكَيْفَ بِصَلَاتِنَا نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ ، وَقَالَ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ - وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ -: مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

وَحَاصِلُ الْأَمْرِ : أَنَّهُ قَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أُمِرَ بِاسْتِقْبَالِ الصَّخْرَةِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَكَانَ بِمَكَّةَ يُصَلِّي بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ وَهُوَ مُسْتَقْبِلُ صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ تَعَذَّرَ الْجَمْعُ

بَيْنهما ، فَأَمَرَهُ اللهُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ . وَالمَقْصُودُ : أَنَّ التَّوَجُّهَ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ بَعْدَ مَقْدِمِهِ ﷺ المَدِينَةَ ، وَاسْتَمَرَّ الأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ بِضْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، وَكَانَ يُكْثِرُ الدُّعَاءَ وَالابْتِهَالَ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَى الكَعْبَةِ الَّتِي هِيَ قِبْلَةُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ ، وَأُمِرَ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى البَيْتِ العَتِيقِ ، فَخَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ فَأَعْلَمَهُمْ بِذَلِكَ وَكَانَ أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا إِلَيْهَا صَلَاةَ العَصْرِ .

وَلَمَّا وَقَعَ هَذَا حَصَلَ لِبَعْضِ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالرِّيَبِ ، وَالكَفَرَةِ مِنَ اليَهُودِ ، ارْتِيَابٌ وَزَيْغٌ عَنِ الهُدَى ، وَتَخْبِيطٌ وَشَكٌّ ، وَقَالُوا : ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ أَيْ : قَالُوا مَا هَؤُلَاءِ تَارَةً يَسْتَقْبِلُونَ كَذَا ، وَتَارَةً يَسْتَقْبِلُونَ كَذَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ جَوَابَهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ أَيْ : الحُكْمُ وَالتَّصَرُّفُ وَالأَمْرُ كُلُّهُ للهِ ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] وَ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٧٧] أَيْ : الشَّأْنُ كُلُّهُ فِي امْتِثَالِ أَوَامِرِ اللهِ ، فَحَيْثُمَا وَجَّهَنَا تَوَجَّهْنَا ، فَالطَّاعَةُ فِي امْتِثَالِ أَمْرِهِ ، وَلَوْ وَجَّهَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّاتٍ إِلَى جِهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، فَنَحْنُ عَبِيدُهُ وَفِي تَصَرُّفِهِ وَخُدَّامه حَيْثُمَا وَجَّهنا تَوَجَّهْنَا ، وَهُوَ تَعَالَى لَهُ بِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُه عَلَيْهِ - وَأُمَّتِهِ عِنَايَةٌ عَظِيمَةٌ ، إِذْ هَدَاهُمْ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ - خَلِيلِ الرَّحْمَنِ - وَجَعَلَ تَوَجُّهَهُمْ إِلَى الكَعْبَةِ المَبْنِيَّةِ عَلَى اسْمِهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، أَشْرَف بُيُوتِ اللهِ فِي الأَرْضِ ، إِذْ هِيَ بِنَاءُ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ عليه السلام وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ يَقُولُ تَعَالَى إِنَّمَا حَوَّلْنَاكُمْ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَاخْتَرْنَاهَا لَكُمْ لِنَجْعَلَكُمْ خِيَارَ الأُمَمِ ، لِتَكُونُوا يَوْمَ القِيَامَةِ شُهَدَاءَ عَلَى الأُمَمِ ، لأَنَّ الجَمِيعَ مُعْتَرِفُونَ لَكُمْ بِالفَضْلِ ، وَالوَسَطُ هَاهُنَا : الخِيَارُ وَالأَجْوَدُ ، كَمَا يُقَالُ : قُرَيْش أَوْسَطُ العَرَبِ نَسَبًا وَدَارًا ، أَيْ خَيْرُهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّمَا شَرَعْنَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ التَّوَجُّهَ أَوَّلًا إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ ، ثُمَّ صَرَفْنَاكَ عَنْهُ إِلَى الكَعْبَةِ ، لِيَظْهَرَ حَالُ مَنْ يَتَّبِعُكَ وَيُطِيعُكَ وَيَسْتَقْبِلُ مَعَكَ حَيْثُمَا تَوَجَّهْتَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ، أَيْ : مُرْتَدًّا عَنْ دِينِهِ ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴾ أَيْ : هَذِهِ الفَعْلَةُ ، وَهُوَ صَرْفُ التَّوَجُّهِ عَنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إِلَى الكَعْبَةِ ، أَيْ وَإِنْ كَانَ هَذَا الأَمْر عَظِيمًا فِي النُّفُوسِ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ قُلُوبَهم وَأَيْقَنُوا بِتَصْدِيقِ الرَّسُولِ ، وَأَنَّ كُلَّ مَا جَاءَ بِهِ فَهُوَ الحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ ، وَأَنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ، فَلَهُ أَنْ يُكَلِّفَ عِبَادَهُ بِمَا شَاءَ وَيَنْسَخُ مَا يَشَاءُ ، وَلَهُ الحِكْمَةُ التَّامَّةُ وَالحُجَّةُ البَالِغَةُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ، بِخِلَافِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

مَرَضٌ ؛ فَإِنَّهُ كُلَّمَا حَدَثَ أَمْرٌ أَحْدَثَ لَهُمْ شَكًّا ، كَمَا يَحْصُلُ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِيقَانٌ وَتَصْدِيقٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ أَيْ : صَلَاتَكُمْ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَبْلَ ذَٰلِكَ ، مَا كَانَ يُضِيعُ ثَوَابَهَا عِنْدَ اللهِ .

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

قَوْلُهُ : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ أَمَرَ تَعَالَى بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِ الْأَرْضِ ، شَرْقًا وَغَرْبًا وَشَمَالًا وَجَنُوبًا ، وَلَا يُسْتَثْنَى مِنْ هَذَا شَيْءٌ سِوَى النَّافِلَةِ فِي حَالِ السَّفَرِ ، فَإِنَّهُ يُصَلِّيهَا حَيْثُمَا تَوَجَّهَ قَالِبُهُ وَقَلْبُهُ نَحْوَ الْكَعْبَةِ ، وَكَذَا فِي حَالِ الْمُسَايَفَةِ فِي الْقِتَالِ يُصَلِّي عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَكَذَا مَنْ جَهِلَ جِهَةَ الْقِبْلَةِ يُصَلِّي بِاجْتِهَادِهِ ، وَإِنْ كَانَ مُخْطِئًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أَيْ : وَالْيَهُودُ الَّذِينَ أَنْكَرُوا اسْتِقْبَالَكُمُ الْكَعْبَةَ ، وَانْصِرَافَكُمْ عَنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى سَيُوَجِّهُكَ إِلَيْهَا بِمَا فِي كُتُبِهِمْ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ مِنَ النَّعْتِ وَالصِّفَةِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَأُمَّتِهِ ، وَمَا خَصَّهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ وَشَرَّفَهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْكَامِلَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَلَكِنْ أَهْلُ الْكِتَابِ يَتَكَاتَمُونَ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ حَسَدًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا ، وَلِهَذَا تَهَدَّدَهُمْ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِ الْيَهُودِ وَعِنَادِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ ، مَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ شَأْنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَنَّهُ لَوْ أَقَامَ عَلَيْهِمْ كُلَّ دَلِيلٍ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ ، لَمَا اتَّبَعُوهُ وَتَرَكُوا أَهْوَاءَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ إِخْبَارٌ عَنْ شِدَّةِ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِمَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ ، وَأَنَّهُ كَمَا هُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِآرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ ، فَهُوَ أَيْضًا مُسْتَمْسِكٌ بِأَمْرِ اللهِ وَطَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ مَرْضَاتِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُمْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ، وَلَا كَوْنُهُ مُتَوَجِّهًا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِكَوْنِهَا قِبْلَةَ الْيَهُودِ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ عَنْ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى ، ثُمَّ حَذَّرَ تَعَالَى عَنْ مُخَالَفَةِ الْحَقِّ الَّذِي يَعْلَمُهُ الْعَالِمُ إِلَى

الْهَوَى ؛ فَإِنَّ الْعَالِمَ الْحُجَّة عَلَيْهِ أَقْوَمُ مِنْ غَيْرِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ مُخَاطِبًا لِلرَّسُولِ وَالْمُرَادُ بِهِ الْأُمَّة ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّ عُلَمَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ يَعْرِفُونَ صِحَّةَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ كَمَا يَعْرِفُ أَحَدُهُمْ وَلَدَهُ ، وَالْعَرَبُ كَانَتْ تَضْرِبُ الْمَثَلَ فِي صِحَّةِ الشَّيْءِ بِهَذَا .

قُلْتُ : وَقَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ مِنْ بَيْنِ أَبْنَاءِ النَّاسِ كُلِّهِمْ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ مَعَ هَذَا التَّحَقُّقِ وَالْإِتْقَانِ الْعِلْمِيِّ ﴿ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ ﴾ أَيْ : لَيَكْتُمُونَ النَّاسَ مَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . ثُمَّ ثَبَّتَ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ ، فَقَالَ : ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ .

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

لِلْيَهُودِيِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ، وَلِلنَّصْرَانِيِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ، وَهَدَاكُمْ أَنْتُمْ أَيَّتُهَا الْأُمَّةُ إِلَى الْقِبْلَةِ الَّتِي هِيَ الْقِبْلَةُ . ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَيْ : هُوَ قَادِرٌ عَلَى جَمْعِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنْ تَفَرَّقَتْ أَجْسَادُكُمْ وَأَبْدَانُكُمْ .

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

هَذَا أَمْرٌ ثَالِثٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِاسْتِقْبَالِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي حِكْمَةِ هَذَا التَّكْرَارِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، **فَقِيلَ** : تَأْكِيدٌ لِأَنَّهُ أَوَّلُ نَاسِخٍ وَقَعَ فِي الْإِسْلَامِ ، **وَقِيلَ** : بَلْ هُوَ مُنَزَّلٌ عَلَى أَحْوَالٍ ، **فَالْأَمْرُ الْأَوَّلُ** : لِمَنْ هُوَ مُشَاهِدٌ الْكَعْبَةَ ، **وَالثَّانِي** : لِمَنْ هُوَ فِي مَكَّةَ غَائِبًا عَنْهَا ، **وَالثَّالِثُ** : لِمَنْ هُوَ فِي بَقِيَّةِ الْبُلْدَانِ . ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ أَيْ : أَهْلُ الْكِتَابِ ؛ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْ صِفَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ التَّوَجُّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ ، فَإِذَا فَقَدُوا ذَلِكَ مِنْ صِفَتِهَا رُبَّمَا احْتَجُّوا بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَلِئَلَّا يَحْتَجُّوا بِمُوَافَقَةِ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهُمْ فِي التَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى ﴾ أَيْ : لَا تَخْشَوْا شُبَهَ الظَّلَمَةِ الْمُتَعَنِّتِينَ وَأَفْرِدُوا الْخَشْيَةَ لِي ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُخْشَى مِنْهُ .وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ ﴾ عَطْفٌ عَلَى لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ، أَيْ : لِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِيمَا شَرَعْتُ لَكُمْ مِن اسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ لِتَكْمُلَ لَكُمُ الشَّرِيعَةَ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهَا ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أَيْ : إِلَى مَا ضَلَّتْ عَنْهُ الْأُمَمُ هَدَيْنَاكُمْ إِلَيْهِ وَخَصَصْنَاكُمْ بِهِ ، وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ أَشْرَفَ الْأُمَمِ وَأَفْضَلَهَا .

كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

يُذَكِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْثَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهِمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ أَيْ : يُطَهِّرُهُمْ مِنْ رَذَائِلِ الْأَخْلَاقِ وَدَنَسِ النُّفُوسِ وَأَفْعَالِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ، وَالْحِكْمَةَ : وَهِيَ السُّنَّةُ ، وَيُعَلِّمُهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ ، فَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْجُهَلَاءِ يُسَفَّهُونَ بِالْعُقُولِ الْغَرَّاءِ ، فَانْتَقَلُوا بِبَرَكَةِ رِسَالَتِهِ وَيُمْنِ سِفَارَتِهِ إِلَى حَالِ الْأَوْلِيَاءِ وَسَجَايَا الْعُلَمَاءِ ، فَصَارُوا أَعْمَقَ النَّاسِ عِلْمًا ، وَأَبَرَّهُمْ قُلُوبًا ، وَأَقَلَّهُمْ تَكَلُّفًا ، وَأَصْدَقَهُمْ لَهْجَةً . ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ . **قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ** : إِنَّ اللهَ يَذْكُرُ مَنْ ذَكَرَهُ ، وَيَزِيدُ مَنْ شَكَرَهُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ كَفَرَهُ ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : « مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُ » .وَ**قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِشُكْرِهِ ، وَوَعَدَ عَلَى شُكْرِهِ بِمَزِيدِ الْخَيْرِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾

لَمَّا فَرَغَ تَعَالَى مِنْ بَيَانِ الْأَمْرِ بِالشُّكْرِ ، شَرَعَ فِي بَيَانِ الصَّبْرِ وَالْإِرْشَادِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي نِعْمَةٍ فَيَشْكُرُ عَلَيْهَا ، أَوْ فِي نِقْمَةٍ فَيَصْبِرُ عَلَيْهَا ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « **عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ : إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ** » . وَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ أَجْوَدَ مَا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى تَحَمُّلِ الْمَصَائِبِ : الصَّبْرُ وَالصَّلَاةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ الشُّهَدَاءَ فِي بَرْزَخِهِمْ أَحْيَاءٌ يُرْزَقُونَ ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ « إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضْرٍ ، تَسْرَحُ فِي الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ اطِّلَاعَةً ، فَقَالَ : مَاذَا تَبْغُونَ ؟ فَقَالُوا يَا رَبَّنَا وَأَيَّ شَيْءٍ نَبْغِي ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقك ؟ ثُمَّ عَادَ عَلَيْهِمْ بِمِثْلِ هَذَا ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَا يَتْرُكُونَ مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا ، قَالُوا : نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا ، فَنُقَاتِلُ فِي سَبِيلِكَ حَتَّى نُقْتَلَ فِيكَ مَرَّةً أُخْرَى - لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ - فَيَقُولُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ : « إِنِّي كَتَبْتُ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ » .

وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

أَخْبَرَنَا تَعَالَى أَنَّهُ يَبْتَلِي عِبَادَهُ : أَيْ يَخْتَبِرُهُمْ وَيَمْتَحِنُهُمْ فَتَارَةً بِالسَّرَّاءِ وَتَارَةً بِالضَّرَّاءِ مِنْ خَوْفٍ وَجُوعٍ ، فَإِنَّ الجَائِعَ وَالخَائِفَ كُلٌّ مِنْهُمَا يَظْهَر ذَلِكَ عَلَيْهِ ، ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ ﴾ أَيْ : ذَهَابِ بَعْضِهَا ﴿ وَٱلْأَنفُسِ ﴾ كَمَوْتِ الْأَصْحَابِ وَالْأَقَارِبِ وَالْأَحْبَابِ ﴿ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أَيْ : لَا تُغِلُّ الحَدَائِقَ وَالمَزَارِعَ كَعَادَتِهَا .

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى : مَنِ الصَّابِرُونَ الَّذِينَ شَكَرَهُمْ ؟ فَقَالَ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ أَيْ : تَسَلَّوْا بِقَوْلِهِمْ هَذَا عَمَّا أَصَابَهُمْ ، وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ مِلْكٌ لله يَتَصَرَّفُ فِي عَبِيدِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَا يَضِيعُ لَدَيْهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَأَحْدَثَ لَهُمْ ذَلِكَ اعْتِرَافَهُمْ بِأَنَّهُمْ عَبِيدُهُ ، وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . لِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا أَعْطَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ أَيْ : ثَنَاءٌ مِنَ الله عَلَيْهِمْ . وَأَمَنَةٌ مِنَ الْعَذَابِ ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ . قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ : نِعْمَ الْعِدْلَانِ وَنِعْمَت الْعِلَاوَة ، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ . فَهَذَانِ الْعِدْلَانِ ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ فَهَذِهِ الْعِلَاوَةُ ، وَهِيَ مَا تُوضَعُ بَيْنَ الْعِدْلَيْنِ ، وَهِيَ زِيَادَةٌ فِي الحِمْلِ ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ أُعْطُوا ثَوَابَهُمْ وَزِيدُوا أَيْضًا .

۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

عَنْ عُرْوَةَ : قُلْتُ : أَرَأَيْت قَوْلَ الله تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ قُلْتُ : فَوَاللهِ مَا عَلَى أَحَدٍ جُنَاحٌ أَنْ لَا يَتَطَوَّفَ بِهِمَا ،

فَقَالَتْ عَائِشَةُ : بِئْسَمَا قُلْتَ يَا ابْنَ أُخْتِي ، إِنَّهَا لَوْ كَانَتْ عَلَى مَا أَوَّلْتَهَا عَلَيْهِ ، كَانَتْ : فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطُوفَ بِهِمَا ، وَلَكِنَّهَا إِنَّمَا أُنْزِلَتْ لِأَنَّ الْأَنْصَارَ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا كَانُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ الْمُشَلَّلِ ، وَكَانَ مَنْ أَهَلَّ لَهَا يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ، فَسَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ قَالَتْ عَائِشَة : ثُمَّ قَدْ سَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ الطَّوَافَ بِهِمَا ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَدَعَ الطَّوَافَ بِهِمَا . **وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ** رضي الله عنه **الطَّوِيلِ وَفِيهِ** : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ بِالْبَيْتِ عَادَ إِلَى الرُّكْنِ فَاسْتَلَمَهُ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَابِ الصَّفَا وَهُوَ يَقُول : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ((**أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ**)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ **قِيلَ** : زَادَ فِي طَوَافِهِ بَيْنَهُمَا عَلَى قَدْرِ الْوَاجِبِ ثَامِنَةً وَتَاسِعَةً وَنَحْوِ ذَلِكَ ، **وَقِيلَ** يَطُوفُ بَيْنَهُمَا فِي حَجَّةِ تَطَوُّعٍ ، أَوْ عُمْرَةِ تَطَوُّعٍ ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ تَطَوَّعَ خَيْرًا فِي سَائِرِ الْعِبَادَاتِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : يُثِيبُ عَلَى الْقَلِيلِ بِالْكَثِيرِ ، عَلِيمٌ بِقَدْرِ الْجَزَاءِ ، فَلَا يَبْخَسُ أَحَدًا ثَوَابَهُ ﴿ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ كَتَمَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الدَّلَالَاتِ الْبَيِّنَةِ عَلَى الْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ وَالْهُدَى النَّافِعِ لِلْقُلُوبِ ، مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَهُ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ فِي كُتُبِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ . **ثُمَّ اسْتَثْنَى اللهُ تَعَالَى مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ فَقَالَ** : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ ﴾ أَيْ : رَجَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ ، وَأَصْلَحُوا أَعْمَالَهُمْ ، وَبَيَّنُوا لِلنَّاسِ مَا كَانُوا يَكْتُمُونَهُ ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الدَّاعِيَةَ إِلَى كُفْرٍ أَوْ بِدْعَةٍ ، إِذَا تَابَ إِلَى اللهِ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَاسْتَمَرَّ بِهِ الْحَالُ إِلَى مَمَاتِهِ بِأَنَّ ﴿ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : فِي اللَّعْنَةِ التَّابِعَةِ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ الْمُصَاحِبَةُ لَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ الَّتِي ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ فِيهَا ، أَيْ : لَا يُنْقَصُ عَمَّا هُمْ فِيهِ ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أَيْ :

لَا يُغَيَّرُ عَنْهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَفْتُرُ ، بَلْ هُوَ مُتَوَاصِلٌ دَائِمٌ ، فَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ .

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَفَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ ، وَإِنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ ، بَلْ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ ، الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ فِي أَوَّلِ الْفَاتِحَةِ . ثُمَّ ذَكَرَ الدَّلِيلَ عَلَى تَفَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا فِيهَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ، مِمَّا ذَرَأَ وَبَرَأَ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تِلْكَ فِي اِرْتِفَاعِهَا وَلَطَافَتِهَا وَاتِّسَاعِهَا وَكَوَاكِبِهَا السَّيَّارَةِ وَالثَّوَابِتِ وَدَوَرَانِ فُلْكِهَا - وَهَذِهِ الْأَرْضُ فِي كَثَافَتِهَا وَانْخِفَاضِهَا وَجِبَالِهَا وَبِحَارِهَا وَقِفَارِهَا وَوِهَادِهَا وَعِمْرَانِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، هَذَا يَجِيءُ ثُمَّ يَذْهَبُ وَيَخْلُفُهُ الْآخَرُ وَيَعْقُبُهُ ، لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ لَحْظَةً كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس : ٤٠] وَتَارَةً يَطُولُ هَذَا وَيَقْصُرُ هَذَا ، وَتَارَةً يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا ثُمَّ يَتَعَاوَضَانِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحديد : ٦] أَيْ : يَزِيدُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا ، وَمِنْ هَذَا فِي هَذَا ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ أَيْ : فِي تَسْخِيرِ الْبَحْرِ بِحَمْلِ السُّفُنِ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ لِمَعَايِشِ النَّاسِ ، وَالِانْتِفَاعِ بِمَا عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الْإِقْلِيمِ ، وَنُقِلَ هَذَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَا عِنْدَ أُولَئِكَ إِلَى هَؤُلَاءِ ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس : ٣٣-٣٦] ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أَيْ : عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا وَمَنَافِعِهَا وَصِغَرِهَا وَكِبَرِهَا ، وَهُوَ يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيَرْزُقُهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ . ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ أَيْ : فَتَارَةً تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ ، وَتَارَةً تَأْتِي بِالْعَذَابِ ، وَتَارَةً تَأْتِي مُبَشِّرَةً بَيْنَ يَدَيِ السَّحَابِ ، وَتَارَةً تَسُوقُهُ ، وَتَارَةً تَجْمَعُهُ ، وَتَارَةً تُفَرِّقُهُ ، وَتَارَةً تُصَرِّفُهُ ، ثُمَّ تَارَةً تَأْتِي مِنَ الْجَنُوبِ وَهِيَ الشَّامِيَّةُ ، وَتَارَةً تَأْتِي مِنْ نَاحِيَةِ الْيَمَنِ ، وَتَارَةً صَبًا وَهِيَ الشَّرْقِيَّةُ الَّتِي تَصْدِمُ وَجْهَ الْكَعْبَةِ ، وَتَارَةً دَبُورًا وَهِيَ غَرْبِيَّةٌ تَنْفُذُ مِنْ نَاحِيَةِ دُبُرِ الْكَعْبَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ : سَائِرٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مُسَخَّرٌ

إِلَى مَا يَشَاءُ اللهُ مِنَ الْأَرَاضِي وَالْأَمَاكِنِ كَمَا يُصَرِّفُهُ تَعَالَى : ﴿ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ دَلَالَاتٌ بَيِّنَةٌ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى حَالَ الْمُشْرِكِينَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، حَيْثُ جَعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا ، أَيْ أَمْثَالًا وَنُظَرَاءَ ، يَعْبُدُونَهُمْ مَعَهُ وَيُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ ، هُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَلَا ضِدَّ لَهُ ، وَلَا نِدَّ لَهُ ، وَلَا شَرِيكَ مَعَهُ . **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ** ﷺ **قَالَ** : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ : ((**أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**)).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ ، وَلِحُبِّهِمْ للهِ وَتَمَامِ مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ وَتَوْقِيرِهِمْ وَتَوْحِيدِهِمْ لَهُ ، لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا ، بَلْ يَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ ، وَيَتَوَكَّلُونَ عَلَيْهِ وَيَلْجَئُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ إِلَيْهِ . ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى الْمُشْرِكِينَ بِهِ ، الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِذَلِكَ ، فَقَالَ : ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : تَقْدِيرُ الْكَلَامِ لَوْ عَايَنُوا الْعَذَابَ لَعَلِمُوا حِينَئِذٍ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعًا أَيْ : أَنَّ الْحُكْمَ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ تَحْتَ قَهْرِهِ وَغَلَبَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ كُفْرِهِمْ بِأَوْثَانِهِمْ وَتَبَرِّي الْمَتْبُوعِينَ مِنَ التَّابِعِينَ ، فَقَالَ : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾ تَبَرَّأَتْ مِنْهُمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ ﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ ، وَالْجِنُّ أَيْضًا تَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ وَيَتَنَصَّلُونَ مِنْ عِبَادَتِهِمْ لَهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ أَيْ : عَايَنُوا عَذَابَ اللهِ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْحِيَلُ وَأَسْبَابُ الْخَلَاصِ ، وَلَمْ يَجِدُوا عَنِ النَّارِ مَعْدِلًا وَلَا مَصْرِفًا . ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ **قِيلَ** : تَقَطَّعَتِ الْمَوَدَّةُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾ أَيْ : لَوْ أَنَّ لَنَا عَوْدَةً إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا حَتَّى نَتَبَرَّأَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ فَلَا نَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ ، بَلْ نُوَحِّدُ اللهَ وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ : وَهُمْ كَاذِبُونَ فِي هَـذَا بَلْ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : تَذْهَبُ

وَتَضْمَحِلُّ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

لَمَّا بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَنَّهُ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ ، شَرَعَ يُبَيِّنُ أَنَّهُ الرَّزَّاقُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ ، فَذَكَرَ فِي مَقَامِ الامْتِنَانِ : أَنَّهُ أَبَاحَ لَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ ، فِي حَالِ كَوْنِهِ حَلَالًا مِنَ اللهِ طَيِّبًا أَيْ : مُسْتَطَابًا فِي نَفْسِهِ غَيْرَ ضَارٍّ لِلْأَبْدَانِ وَلَا لِلْعُقُولِ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، وَهِيَ طَرَائِقُهُ وَمَسَالِكُهُ فِيمَا أَضَلَّ أَتْبَاعَهُ فِيهِ ، مِنْ تَحْرِيمِ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَالْوَصَائِلِ وَنَحْوِهَا ، مِمَّا كَانَ زِينَةً لَهُمْ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ . ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ كُلُّ مَعْصِيَةٍ للهِ فَهِيَ مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ عَدُوُّكُمْ الشَّيْطَانُ بِالْأَفْعَالِ السَّيِّئَةِ ، وَأَغْلَظ مِنْهَا الْفَاحِشَةَ كَالزِّنَا وَنَحْوه ، وَأَغْلَظ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ الْقَوْلُ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ ، فَيَدْخُلُ فِي هَذَا كُلُّ كَافِرٍ وَكُلُّ مُبْتَدِعٍ أَيْضًا .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَإِذَا قِيلَ لِهَؤُلَاءِ الْكَفَرَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاتْرُكُوا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْجَهْلِ ، قَالُوا فِي جَوَابِ ذَلِكَ : ﴿ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ أَيْ : مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَيْ : مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ . قَالَ اللهُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ : ﴿ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ يَقْتَدُونَ بِهِمْ وَيَقْتَفُونَ أَثَرَهُمْ ﴿ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ فَهْمٌ وَلَا هِدَايَةٌ . ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ تَعَالَى مَثَلًا فَقَالَ : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أَيْ : فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ وَالْجَهْلِ ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗ ﴾ كَالدَّوَابِّ السَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَفْقَهُ مَا يُقَالُ لَهَا ، بَلْ إِذَا نَعَقَ بِهَا رَاعِيهَا أَيْ دَعَاهَا إِلَى مَا يُرْشِدُهَا لَا تَفْقَهُ مَا يَقُولُ وَلَا تَفْهَمُهُ ، بَلْ إِنَّمَا تَسْمَعُ صَوْتَهُ فَقَطْ . ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ ﴾ أَيْ : صُمٌّ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ ، بُكْمٌ لَا يَتَفَوَّهُونَ بِهِ ، عُمْيٌ عَنْ رُؤْيَةِ طَرِيقِهِ وَمَسْلَكِهِ ﴿ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَفْهَمُونَهُ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ

ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَكْلِ مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقَهُمْ تَعَالَى ، وَأَنْ يَشْكُرُوهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ إِنْ كَانُوا عَبِيدَهُ ، وَالْأَكْلُ مِنَ الْحَلَالِ سَبَبٌ لِتَقَبُّلِ الدُّعَاءِ وَالْعِبَادَةِ ، كَمَا أَنَّ الْأَكْلَ مِنَ الْحَرَامِ يَمْنَعُ قَبُولَ الدُّعَاءِ وَالْعِبَادَةِ . وَلَمَّا امْتَنَّ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِرِزْقِهِ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى الْأَكْلِ مِنْ طَيِّبِهِ ، ذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْمَيْتَةَ وَهِيَ الَّتِي تَمُوتُ حَتْفَ أَنْفِهَا مِنْ غَيْرِ تَذْكِيَةٍ .

ثُمَّ أَبَاحَ تَعَالَى تَنَاوُلَ ذَلِكَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ وَالِاحْتِيَاجِ إِلَيْهَا عِنْدَ فَقْدِ غَيْرِهَا مِنَ الْأَطْعِمَةِ فَقَالَ : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ أَيْ : فِي غَيْرِ بَغْيٍ وَلَا عُدْوَانٍ ، وَهُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ ، فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ أَيْ : فِي أَكْلِ ذَلِكَ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يَعْنِي : الْيَهُودُ الَّذِينَ كَتَمُوا صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي كُتُبِهِمْ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ ، مِمَّا تَشْهَدُ لَهُ بِالرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ ، فَكَتَمُوا ذَلِكَ لِئَلَّا تَذْهَبَ رِيَاسَتُهُمْ ، وَمَا كَانُوا يَأْخُذُونَهُ مِنَ الْعَرَبِ ، مِنَ الْهَدَايَا وَالتُّحَفِ عَلَى تَعْظِيمِهِمْ آبَاءَهُمْ ، فَخَشُوا لَعَنَهُم الله إِنْ أَظْهَرُوا ذَلِكَ أَنْ يَتَّبِعهُ النَّاسُ وَيَتْرُكُوهُمْ ، فَكَتَمُوا ذَلِكَ إِبْقَاءً عَلَى مَا كَانَ يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ نَزْرٌ يَسِيرٌ ، فَبَاعُوا أَنْفُسَهُمْ بِذَلِكَ ، وَاعْتَاضُوا عَنِ الْهُدَى ، وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ ، وَتَصْدِيقِ الرَّسُولِ ، وَالْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ عَنِ الله بِذَلِكَ النَّزْرِ الْيَسِيرِ ، فَخَابُوا وَخَسِرُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ الله أَظْهَرَ لِعِبَادِهِ صِدْقَ رَسُولِهِ بِمَا نَصَبَهُ وَجَعَلَهُ مَعَهُ مِنَ الْآيَاتِ الظَّاهِرَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ ، فَصَدَّقَهُ الَّذِينَ كَانُوا يَخَافُونَ أَنْ يَتَّبِعُوهُ ، وَصَارُوا عَوْنًا لَهُ عَلَى قِتَالِهِمْ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ، وَذَمَّهُمُ الله فِي كِتَابِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ، فَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ، وَهُوَ عَرَضُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَأُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ، أَيْ : إِنَّمَا يَأْكُلُونَ مَا يَأْكُلُونَهُ فِي مُقَابَلَةِ كِتْمَانِ الْحَقِّ نَارًا تَأَجَّجُ فِي بُطُونِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى غَضْبَانُ عَلَيْهِمْ ، لِأَنَّهُمْ كَتَمُوا وَقَدْ عَلِمُوا ، فَاسْتَحَقُّوا الْغَضَبَ ، فَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ، أَيْ

يُثْنِي عَلَيْهِمْ وَيَمْدَحُهُمْ ، بَلْ يُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ : ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ أَيْ : اعْتَاضُوا عَنِ الْهُدَى وَهُوَ نَشْرُ مَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ صِفَةِ الرَّسُولِ ، وَذِكْرِ مَبْعَثِهِ وَالْبِشَارَةِ بِهِ مِنْ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَاتِّبَاعِهِ وَتَصْدِيقِهِ ، اِسْتَبْدَلُوا عَنْ ذَلِكَ وَاعْتَاضُوا عَنْهُ الضَّلَالَةَ وَهُوَ تَكْذِيبُهُ وَالْكُفْرُ بِهِ وَكِتْمَانُ صِفَاتِهِ فِي كُتُبِهِمْ ﴿ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ أَيْ : اعْتَاضُوا عَنِ الْمَغْفِرَةِ بِالْعَذَابِ ، وَهُوَ مَا تَعَاطَوْهُ مِنْ أَسْبَابِهِ الْمَذْكُورَةِ :

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ فِي عَذَابٍ شَدِيدٍ عَظِيمٍ هَائِلٍ ، يَتَعَجَّبُ مَنْ رَآهُمْ فِيهَا مِنْ صَبْرِهِمْ عَلَى ذَلِكَ ، مَعَ شِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْأَغْلَالِ ، عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا اسْتَحَقُّوا هَذَا الْعَذَابَ الشَّدِيدَ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ كُتُبَهُ بِتَحْقِيقِ الْحَقِّ وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ ، وَهَؤُلَاءِ اتَّخَذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا ، فَكِتَابُهُمْ يَأْمُرُهُمْ بِإِظْهَارِ الْعِلْمِ وَنَشْرِهِ ، فَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ ، وَهَذَا الرَّسُولُ الْخَاتَمُ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى ، وَيَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَهُمْ يُكَذِّبُونَهُ وَيُخَالِفُونَهُ وَيَجْحَدُونَهُ ، وَيَكْتُمُونَ صِفَتَهُ ، فَاسْتَهْزَءُوا بِآيَاتِ اللهِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى رُسُلِهِ ، فَلِهَذَا اسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ وَالنَّكَالَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .

۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

وَأَمَّا الْكَلَامُ عَلَى تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوَّلًا بِالتَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، ثُمَّ حَوَّلَهُمْ إِلَى الْكَعْبَةِ ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى نُفُوسِ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَبَعْضِ الْمُسْلِمِينَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى بَيَانَ حِكْمَتِهِ فِي ذَلِكَ ، وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ إِنَّمَا هُوَ طَاعَةُ اللهِ ﷻ وَامْتِثَالُ أَوَامِرِهِ وَالتَّوَجُّهِ حَيْثُمَا وَجَّهَ ، وَاتِّبَاعُ مَا شَرَعَ ، فَهَذَا هُوَ الْبِرُّ وَالتَّقْوَى وَالْإِيمَانُ الْكَامِلُ ، وَلَيْسَ فِي لُزُومِ التَّوَجُّهِ إِلَى جِهَةٍ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ بِرٌّ وَلَا طَاعَةٌ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ أَمْرِ اللهِ وَشَرْعِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ الْآيَة ، كَمَا قَالَ فِي

الْأَضَاحِيّ وَالْهَدَايَا ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج : ٣٧]

﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ﴾ وَهُوَ اسْمُ جِنْسٍ يَشْمَلُ الْكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، حَتَّى خُتِمَتْ بِأَشْرَفِهَا وَهُوَ الْقُرْآنُ ، الْمُهَيْمِنُ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ ، الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ كُلُّ خَيْرٍ ، وَاشْتَمَلَ عَلَى كُلِّ سَعَادَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَنُسِخَ بِهِ كُلُّ مَا سِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ قَبْلَهُ ، ﴿ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ وَآمَنَ بِأَنْبِيَاءِ اللهِ كُلِّهِمْ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى خَاتَمِهِمْ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ أَيْ : أَخْرَجَهُ وَهُوَ مُحِبٌّ لَهُ رَاغِبٌ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ ، وَهُمْ قَرَابَاتُ الرَّجُلِ ، وَهُمْ أَوْلَى مَنْ أَعْطَى مِنَ الصَّدَقَةِ ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ . ﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ هُمُ الَّذِينَ لَا كَاسِبَ لَهُمْ ، وَقَدْ مَاتَ آبَاؤُهُمْ وَهُمْ ضُعَفَاءُ صِغَارٌ دُونَ الْبُلُوغِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى التَّكَسُّبِ . ﴿ وَٱلْمَسَٰكِينَ ﴾ ، وَهُمُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَكْفِيهِمْ فِي قُوتِهِمْ وَكِسْوَتِهِمْ وَسُكْنَاهُمْ ، فَيُعْطَوْنَ مَا تُسَدُّ بِهِ حَاجَتُهُمْ وَخَلَّتُهُمْ ، ﴿ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وَهُوَ الْمُسَافِرُ الْمُجْتَازُ الَّذِي قَدْ فَرَغَتْ نَفَقَتُهُ ، فَيُعْطَى مَا يُوَصِّلُهُ إِلَى بَلَدِهِ ، وَكَذَا الَّذِي يُرِيدُ سَفَرًا فِي طَاعَةٍ فَيُعْطَى مَا يَكْفِيهِ فِي ذَهَابِهِ وَإِيَابِهِ ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الضَّيْفُ . ﴿ وَٱلسَّآئِلِينَ ﴾ ، وَهُمُ الَّذِينَ يَتَعَرَّضُونَ لِلطَّلَبِ فَيُعْطَوْنَ مِنَ الزَّكَوَاتِ وَالصَّدَقَاتِ . ﴿ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ ، وَهُمُ الْمُكَاتَبُونَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُؤَدُّونَهُ فِي كِتَابَتِهِمْ . ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أَيْ : وَأَتَمَّ أَفْعَالَ الصَّلَاةِ فِي أَوْقَاتِهَا بِرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا ، وَطُمَأْنِينَتِهَا وَخُشُوعِهَا عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَرْضِيِّ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ زَكَاةُ النَّفْسِ وَتَخْلِيصُهَا مِنَ الْأَخْلَاقِ الدَّنِيئَةِ الرَّذِيلَةِ كَقَوْلِهِ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩-١٠] ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ زَكَاةَ الْمَالِ ، وَيَكُونَ الْمَذْكُورُ مِنْ إِعْطَاءِ هَذِهِ الْجِهَاتِ وَالْأَصْنَافِ الْمَذْكُورِينَ ، إِنَّمَا هُوَ التَّطَوُّعُ وَالْبِرُّ وَالصِّلَةُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ ، وَعَكْسُ هَذِهِ الصِّفَةِ النِّفَاقُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ الْفَقْرِ ، وَهُوَ الْبَأْسَاءُ ، وَفِي حَالِ الْمَرَضِ وَالْأَسْقَامِ وَهُوَ الضَّرَّاءُ ، ﴿ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ الْقِتَالِ وَالْتِقَاءِ الْأَعْدَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ هُمُ الَّذِينَ صَدَقُوا فِي إِيمَانِهِمْ لِأَنَّهُمْ حَقَّقُوا الْإِيمَانَ الْقَلْبِيَّ بِالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ ، لِأَنَّهُمْ اتَّقُوا الْمَحَارِمَ وَفَعَلُوا الطَّاعَاتِ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ

بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْعَدْلُ فِي الْقِصَاصِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، حُرُّكُمْ بِحُرِّكُمْ ، وَعَبْدُكُمْ بِعَبْدِكُمْ وَأُنْثَاكُمْ بِأُنْثَاكُمْ ، وَلَا تَتَجَاوَزُوا وَتَعْتَدُوا ، كَمَا اعْتَدَى مَنْ قَبْلَكُمْ ، وَغَيَّرُوا حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ ، فَأَمَرَ اللهُ بِالْعَدْلِ فِي الْقِصَاصِ ، وَلَا يُتَّبَعُ سَبِيلُ الْمُفْسِدِينَ الْمُحَرِّفِينَ الْمُخَالِفِينَ لِأَحْكَامِ اللهِ فِيهِمْ ، كُفْرًا وَبَغْيًا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ** : فَالْعَفْوُ أَنْ يَقْبَلَ الدِّيَةَ فِي الْعَمْدِ ، **وَعَنْهُ أَيْضًا** : فَمَنْ تُرِكَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ ﴿ شَيۡءٞ ﴾ يَعْنِي : أَخَذَ الدِّيَةَ بَعْدَ اِسْتِحْقَاقِ الدَّمِ ، وَذَلِكَ الْعَفْوُ ﴿ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ يَقُولُ : فَعَلَى الطَّالِبِ اِتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ إِذَا قَبِلَ الدِّيَةَ ﴿ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾ **يَعْنِي** : مِنَ الْقَاتِلِ مِنْ غَيْرِ ضَرَرٍ وَلَا مَعْك ، يَعْنِي : الْمُدَافَعَة . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞ ﴾ **يَقُولُ تَعَالَى** : إِنَّمَا شَرَعَ لَكُمْ أَخْذَ الدِّيَةِ فِي الْعَمْدِ تَخْفِيفًا مِنَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً بِكُمْ ، مِمَّا كَانَ مَحْتُومًا عَلَى الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْقَتْلِ أَوْ الْعَفْوِ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ **يَقُول تَعَالَى** فَمَنْ قَتَلَ بَعْدَ أَخْذِ الدِّيَةِ أَوْ قَبُولِهَا فَلَهُ عَذَابٌ مِنَ اللهِ أَلِيمٌ مُوجِعٌ شَدِيدٌ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ **يَقُولُ تَعَالَى** : وَفِي شَرْعِ الْقِصَاصِ لَكُمْ ، وَهُوَ قَتْلُ الْقَاتِلِ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَهِيَ بَقَاءُ الْمُهَجِ وَصَوْنُهَا ؛ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ الْقَاتِلُ أَنَّهُ يُقْتَلُ اِنْكَفَّ عَنْ صَنِيعِهِ ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ حَيَاةٌ لِلنُّفُوسِ ، ﴿ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ يَقُولُ : يَا أُولِي الْعُقُولِ ، وَالْأَفْهَامِ ، وَالنُّهَى ، لَعَلَّكُمْ تَنْزَجِرُونَ وَتَتْرُكُونَ مَحَارِمَ اللهِ ، وَمَآثِمه ، وَالتَّقْوَى : اِسْمٌ جَامِعٌ لِفِعْلِ الطَّاعَاتِ ، وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ .

كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٨١﴾ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨٢﴾

اِشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى الْأَمْرِ بِالْوَصِيَّةِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَى أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ قَبْلَ نُزُولِ آيَةِ الْمَوَارِيثِ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْفَرَائِضِ نَسَخَتْ هَذِهِ ، وَصَارَتْ

الْمَوَارِيثُ الْمُقَدَّرَةُ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ يَأْخُذُهَا أَهْلُوهَا حَتْمًا مِنْ غَيْرِ وَصِيَّةٍ ، وَلَا تَحَمُّلٍ مِنَ الْمُوصِي .

فالآيَةُ : مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الْمِيرَاثِ ، فَإِنَّ وُجُوبَ الْوَصِيَّةِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ الْوَارِثِينَ مَنْسُوخٌ بِالْإِجْمَاعِ ، بَلْ مَنْهِيٌّ عَنْهُ لِلْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ « **إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ** » .وَقَوْلُهُ : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ أَيْ : مالًا .وَقَوْلُهُ : ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أَيْ : بِالرِّفْقِ وَالْإِحْسَانِ . وَالْمُرَادُ بِالْمَعْرُوفِ أَنْ يُوصِيَ لِأَقْرَبِيهِ وَصِيَّةً لَا تُجْحِفُ بِوَرَثَتِهِ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا تَقْتِيرٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . **يَقُولُ** تَعَالَى فَمَنْ بَدَّلَ الْوَصِيَّةَ وَحَرَّفَهَا فَغَيَّرَ حُكْمَهَا وَزَادَ فِيهَا أَوْ نَقَصَ ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْكِتْمَانُ لَهَا بِطَرِيقِ الْأَوْلَى ﴿ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : وَقَدْ وَقَعَ أَجْرُ الْمَيِّتِ عَلَى اللهِ وَتَعَلَّقَ الْإِثْمُ بِالَّذِينَ بَدَّلُوا ذَلِكَ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : قَدِ اطَّلَعَ عَلَى مَا أَوْصَى بِهِ الْمَيِّتُ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَلِكَ ، وَبِمَا بَدَّلَهُ الْمُوصَى إِلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ تعالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا ﴾ الآيَةُ ، الْجَنَفُ : الْخَطَأُ . وَهَذَا يَشْمَلُ أَنْوَاعَ الْخَطَأِ كُلِّهَا ، بِأَنْ زَادُوا وَارِثًا بِوَاسِطَةٍ أَوْ وَسِيلَةٍ ، كَمَا إِذَا أَوْصَى بِبَيْعَةِ الشَّيْءِ الْفُلَانِيِّ مُحَابَاةً ، أَوْ أَوْصَى لِابْنِ ابْنَتِهِ لِيَزِيدَ ، أَوْ نَحْو ذَلِكَ مِنَ الْوَسَائِلِ ، إِمَّا مُخْطِئًا غَيْرَ عَامِدٍ بَلْ بِطَبْعِهِ وَقُوَّةِ شَفَقَتِهِ مِنْ غَيْرِ تَبَصُّرٍ ، أَوْ مُتَعَمِّدًا آثِمًا فِي ذَلِكَ ، فَلِلْوَصِيِّ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - أَنْ يُصْلِحَ الْقَضِيَّةَ وَيَعْدِلُ فِي الْوَصِيَّةِ عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ ، وَيَعْدِل عَنِ الَّذِي أَوْصَى بِهِ الْمَيِّتُ إِلَى مَا هُوَ أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ وَأَشْبَهُ الْأُمُورِ بِهِ ، جَمْعًا بَيْنَ مَقْصُودِ الْمُوصِي وَالطَّرِيقِ الشَّرْعِيِّ ، وَهَذَا الْإِصْلَاحُ وَالتَّوْفِيقُ لَيْسَ مِنَ التَّبْدِيلِ فِي شَيْءٍ ، وَلِهَذَا عَطَفَ هَذَا فَبَيَّنَهُ عَلَى النَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ ، لِيَعْلَمَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ بِسَبِيلٍ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَآمِرًا لَهُمْ بِالصِّيَامِ ، وَهُوَ الْإِمْسَاكُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْوِقَاعِ بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ للهِ ﷻ ، لِمَا فِيهِ مِنْ زَكَاةِ النُّفُوسِ وَطَهَارَتِهَا وَتَنْقِيَتِهَا مِنَ الْأَخْلَاطِ الرَّدِيئَةِ وَالْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ كَمَا أَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ فَقَدْ أَوْجَبَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ ، فَلَهُمْ فِيهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ

عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ لأَنَّ الصَّوْمَ فِيهِ تَزْكِيَةٌ لِلْبَدَنِ ، وَتَضْيِيقٌ لِمَسَالِكِ الشَّيْطَانِ ، ثُمَّ بَيَّنَ مِقْدَارَ الصَّوْمِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، لِئَلَّا يَشُقَّ عَلَى النُّفُوسِ فَتَضْعُفُ عَنْ حَمْلِهِ وَأَدَائِهِ ، بَلْ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ . ثُمَّ بَيَّنَ حُكْمَ الصِّيَامِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أَيْ : الْمَرِيضُ وَالْمُسَافِرُ لَا يَصُومَانِ فِي حَالِ الْمَرَضِ وَالسَّفَرِ ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمَا ، بَلْ يُفْطِرَانِ وَيَقْضِيَانِ بِعِدَّةِ ذَلِكَ مِنْ أَيَّامٍ أُخَر . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ ، **عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ** أَنَّهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ كَانَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ يَفْتَدِي حَتَّى نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا فَنَسَخَتْهَا ، **وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ** ﷺ **قَالَ** : هِيَ مَنْسُوخَةٌ . **وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: لَيْسَتْ مَنْسُوخَة ، هُوَ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْمَرْأَةُ الْكَبِيرَةُ ، لَا يَسْتَطِيعَانِ أَنْ يَصُومَا ، فَيُطْعِمَانِ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا .

فَحَاصِلُ الْأَمْرِ أَنَّ النَّسْخَ ثَابِتٌ فِي حَقِّ الصَّحِيحِ الْمُقِيمِ بِإِيجَابِ الصِّيَامِ عَلَيْهِ لِقَوْلِهِ : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ ، وَأَمَّا الشَّيْخُ الْفَانِي الْهَرَمُ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الصِّيَامَ ، فَلَهُ أَنْ يُفْطِرَ وَلَا قَضَاءَ عَلَيْهِ ، لأَنَّهُ لَيْسَتْ لَهُ حَالٌ يَصِيرُ إِلَيْهَا يَتَمَكَّنُ فِيهَا مِنَ الْقَضَاءِ ، وَيَجِبُ عَلَيْهِ فِدْيَةٌ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ .

شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

يَمْدَحُ تَعَالَى شَهْرَ الصِّيَامِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الشُّهُورِ ، بِأَنِ اخْتَارَهُ مِنْ بَيْنِهِنَّ لِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِيهِ ، نَزَلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَهُ مُفَرَّقًا بِحَسْبِ الْوَقَائِعِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ . وَقَوْلُهُ : ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ هَذَا مَدْحٌ لِلْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ هُدًى لِقُلُوبِ الْعِبَادِ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ ﴿ وَبَيِّنَٰتٍ ﴾ أَيْ : وَدَلَائِلُ وَحُجَجٌ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ لِمَنْ فَهِمَهَا وَتَدَبَّرَهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ هَـذَا إِيجَابٌ حَتْمٌ عَلَى مَنْ شَهِدَ اسْتِهْلَالَ الشَّهْرِ ، أَيْ كَانَ مُقِيمًا فِي الْبَلَدِ حِينَ دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ ، وَهُوَ صَحِيحٌ فِي بَدَنِهِ ، أَنْ يَصُومَ لَا مَحَالَةَ ، وَنَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْإِبَاحَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ لِمَنْ كَانَ صَحِيحًا مُقِيمًا أَنْ يُفْطِرَ وَيَفْدِي ، وَبِإِطْعَامِ مِسْكِينٍ

عَنْ كُلِّ يَوْمٍ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، وَلَمَّا خُتِمَ الصِّيَامُ أَعَادَ ذِكْرَ الرُّخْصَةِ لِلْمَرِيضِ وَلِلْمُسَافِرِ فِي الْإِفْطَارِ بِشَرْطِ الْقَضَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ مَعْنَاهُ : وَمَنْ كَانَ بِهِ مَرَضٌ فِي بَدَنِهِ يَشُقُّ عَلَيْهِ الصِّيَامُ مَعَهُ أَوْ يُؤْذِيهِ ، أَوْ كَانَ عَلَى سَفَرٍ ، أَيْ فِي حَالِ السَّفَرِ ، فَلَهُ أَنْ يُفْطِر ، فَإِذَا أَفْطَرَ فَعَلَيْهِ عِدَّةُ مَا أَفْطَرَهُ فِي السَّفَرِ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا رَخَّصَ لَكُمْ فِي الْفِطْرِ فِي حَالِ الْمَرَضِ ، وَفِي السَّفَرِ مَعَ تَحَتُّمه فِي حَقِّ الْمُقِيمِ الصَّحِيحِ ، تَيْسِيرًا عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً بِكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ أَيْ : وَلِتَذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ انْقِضَاءِ عِبَادَتِكُمْ ، وَلِهَذَا جَاءَتِ السُّنَّةُ بِاسْتِحْبَابِ التَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّكْبِيرِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : إِذَا قُمْتُمْ بِمَا أَمَرَكُمُ اللهُ مِنْ طَاعَتِهِ ، بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ وَتَرْكِ مَحَارِمِهِ ، وَحِفْظِ حُدُودِهِ ، فَلَعَلَّكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الشَّاكِرِينَ بِذَلِكَ .

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

الْمُرَادُ مِنْ هَذَا : أَنَّهُ تَعَالَى لَا يُخَيِّبُ دُعَاءَ دَاعٍ ، وَلَا يَشْغَلُهُ عَنْهُ شَيْءٌ ، بَلْ هُوَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ، فَفِيهِ تَرْغِيبٌ فِي الدُّعَاءِ ، وَأَنَّهُ لَا يَضِيعُ لَدَيْهِ . وَفِي ذِكْرِهِ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ الْبَاعِثَةَ عَلَى الدُّعَاءِ مُتَخَلِّلَةً بَيْنَ أَحْكَامِ الصِّيَامِ ، إِرْشَادٌ إِلَى الاجْتِهَادِ فِي الدُّعَاءِ عِنْدَ إِكْمَالِ الْعِدَّةِ ، بَلْ وَعِنْدَ كُلِّ فِطْرٍ .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **لِلصَّائِمِ عِنْدَ إِفْطَارِهِ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ** » فَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو إِذَا أَفْطَرَ دَعَا أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ وَدَعَا .

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

هَذِهِ رُخْصَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِينَ وَرَفْع لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ، فَإِنَّهُ كَانَ إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُهُمْ إِنَّمَا يَحِلُّ لَهُ الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَالْجِمَاعُ إِلَى صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، أَوْ يَنَامُ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَمَتَى نَامَ أَوْ صَلَّى الْعِشَاءَ حَرُمَ عَلَيْهِ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ وَالْجِمَاعُ إِلَى اللَّيْلَةِ الْقَابِلَةِ ، فَوَجَدُوا مِنْ

ذَلِكَ مَشَقَّةً كَبِيرَةً ، وَالرَّفَثُ هُنَا هُوَ الْجِمَاعُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ يَعْنِي : هُنَّ سَكَنٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ سَكَنٌ لَهُنَّ ، وَحَاصِلُهُ أَنَّ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ كُلٌّ مِنْهُمَا يُخَالِطُ الْآخَرَ وَيُمَاسُّهُ وَيُضَاجِعُهُ ، فَنَاسَبَ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُمْ فِي الْمُجَامَعَةِ فِي لَيْلِ رَمَضَانَ لِئَلَّا يَشُقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ أَبَاحَ تَعَالَى الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِبَاحَةِ الْجِمَاعِ فِي أَيِّ اللَّيْلِ شَاءَ الصَّائِمُ ، إِلَى أَنْ يَتَبَيَّنَ ضِيَاءُ الصَّبَاحِ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ ، وَعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِالْخَيْطِ الْأَبْيَضِ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ وَرَفْعَ اللَّبْسِ بِقَوْلِهِ : ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ .

وَقَوْلُهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ يَقْتَضِي الْإِفْطَارَ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ حُكْمًا شَرْعِيًّا . وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ **النَّهْيُ عَنِ الْوِصَالِ** ، وَهُوَ أَنْ يَصِلَ يَوْمًا بِيَوْمٍ آخَرَ وَلَا يَأْكُلُ بَيْنَهُمَا شَيْئًا ، وَثَبَتَ أَنَّهُ مِنْ خَصَائِصِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ كَانَ يَقْوَى عَلَى ذَلِكَ وَيُعَانُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ﴾ لَا يَقْرَبُهَا وَهُوَ مُعْتَكِفٌ ، وَهَذَا هُوَ **الْأَمْرُ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ** : أَنَّ الْمُعْتَكِفَ يَحْرُمُ عَلَيْهِ النِّسَاءُ مَا دَامَ مُعْتَكِفًا فِي مَسْجِدِهِ ، وَالْمُرَادُ بِالْمُبَاشَرَةِ إِنَّمَا هُوَ الْجِمَاعُ وَدَوَاعِيهِ مِنْ تَقْبِيلٍ وَمُعَانَقَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَأَمَّا مُعَاطَاةُ الشَّيْءِ وَنَحْوِهِ فَلَا بَأْسَ بِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي بَيَّنَّاهُ وَفَرَضْنَاهُ وَحَدَّدْنَاهُ مِنَ الصِّيَامِ وَأَحْكَامِهِ ﴿ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : شَرَعَهَا اللهُ وَبَيَّنَهَا بِنَفْسِهِ ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ أَيْ : لَا تُجَاوِزُوهَا وَتَتَعَدُّوهَا ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ ﴾ أَيْ : كَمَا بَيَّنَ الصِّيَامَ وَأَحْكَامَهُ وَشَرَائِعَهُ وَتَفَاصِيلَهُ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ سَائِرَ الْأَحْكَامِ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَهْتَدُونَ وَكَيْفَ يُطِيعُونَ .

وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

هَذَا فِي الرَّجُلِ يَكُونُ عَلَيْهِ مَالٌ وَلَيْسَ عَلَيْهِ فِيهِ بَيِّنَةٌ ، فَيَجْحَدُ الْمَالَ وَيُخَاصِمُ إِلَى الْحُكَّامِ ، وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ الْحَقَّ عَلَيْهِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ آثِمٌ آكِلُ الْحَرَامِ . فَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ لَا يُغَيِّرُ الشَّيْءَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، قَالَ قَتَادَةُ : اِعْلَمْ يَا ابْنَ آدَمَ أَنَّ قَضَاءَ الْقَاضِي لَا يُحِلُّ لَكَ حَرَامًا ، وَلَا يُحِقُّ لَكَ بَاطِلًا وَإِنَّمَا يَقْضِي الْقَاضِي بِنَحْوِ مَا يَرَى وَتَشْهَدُ بِهِ الشُّهُودُ ، وَالْقَاضِي بَشَرٌ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَنْ قُضِيَ لَهُ بِبَاطِلٍ أَنَّ خُصُومَتَهُ لَمْ تَنْقَضِ حَتَّى يَجْمَعَ اللهُ بَيْنَهُمَا

يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَقْضِي عَلَى الْمُبْطِلِ لِلْمُحِقِّ بِأَجْوَدَ مِمَّا قُضِيَ بِهِ لِلْمُبْطِلِ عَلَى الْمُحِقِّ فِي الدُّنْيَا .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ جَعَلَهَا اللهُ مَوَاقِيت لِصَوْمِ الْمُسْلِمِينَ وَإِفْطَارِهِمْ ، وَعِدَّةِ نِسَائِهِمْ وَمَحِلِّ دَيْنِهِمْ .

عَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ : كَانُوا إِذَا أَحْرَمُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَتَوُا الْبَيْتَ مِنْ ظَهْرِهِ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ وَفِي رِوَايَةٍ : عَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ : كَانَتِ الْأَنْصَارُ إِذَا قَدِمُوا مِنْ سَفَرِهِمْ لَمْ يَدْخُلِ الرَّجُلُ مِنْ قِبَلِ بَابِهِ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : اتَّقُوا اللهَ فَافْعَلُوا مَا أَمَرَكُمْ بِهِ ، وَاتْرُكُوا مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ غَدًا إِذَا وَقَفْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَيُجَازِيكُمْ عَلَى التَّمَامِ وَالْكَمَالِ .

وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ تَهْيِيجٌ وَإِغْرَاءٌ بِالْأَعْدَاءِ الَّذِينَ هِمَّتُهُمْ قِتَالُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، أَيْ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ أَنْتُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ أَيْ : لِتَكُونَ هِمَّتُكُمْ مُنْبَعِثَةٌ عَلَى قِتَالِهِمْ ، كَمَا أَنَّ هِمَّتَهُمْ مُنْبَعِثَةٌ عَلَى قِتَالِكُمْ ، وَعَلَى إِخْرَاجِهِمْ مِنْ بِلَادِهِمُ الَّتِي أَخْرَجُوكُمْ مِنْهَا ، قِصَاصًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أَيْ : قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تَعْتَدُوا فِي ذَلِكَ ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ ارْتِكَابُ الْمَنَاهِي مِنَ الْمُثْلَةِ ، وَالْغُلُولِ ، وَقَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَالشُّيُوخِ ، الَّذِينَ لَا رَأْيَ لَهُمْ وَلَا قِتَالَ فِيهِمْ ، وَالرُّهْبَانِ وَأَصْحَابِ الصَّوَامِعِ ، وَتَحْرِيقِ الْأَشْجَارِ ، وَقَتْلِ الْحَيَوَانِ لِغَيْرِ مَصْلَحَةٍ . وَلَمَّا كَانَ الْجِهَادُ فِيهِ إِزْهَاقُ النُّفُوسِ وَقَتْلُ الرِّجَالِ ، نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ مَا هُمْ مُشْتَمِلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللهِ وَالشِّرْكِ بِهِ وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِهِ ، أَبْلَغُ وَأَشَدُّ

وَأَعْظَمُ وَأَطَمُّ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ قِيلَ : الشِّرْكُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ « **إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلَمْ يَحِلَّ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَإِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يُعْضَدُ شَجَرُهُ ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُولُوا إِنَّ اللهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ** » يَعْنِي : بِذَلِكَ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُه عَلَيْهِ - قِتَالَهُ أَهْلَهُ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَّا أَنْ يَبْدَءُوكُمْ بِالْقِتَالِ فِيهِ ، فَلَكُمْ حِينَئِذٍ قِتَالُهُمْ وَقَتْلُهُمْ دَفْعًا لِلصَّائِلِ ، ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : فَإِنْ تَرَكُوا الْقِتَالَ فِي الْحَرَمِ ، وَأَنَابُوا إِلَى الْإِسْلَامِ وَالتَّوْبَةِ ، فَإِنَّ اللهَ يَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ ، وَلَوْ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا الْمُسْلِمِينَ فِي حَرَمِ اللهِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَتَعَاظَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ ، لِمَنْ تَابَ مِنْهُ إِلَيْهِ . ثُمَّ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِقِتَالِ الْكُفَّارِ ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أَيْ : شِرْكٌ . ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : يَكُونَ دِينُ اللهِ هُوَ الظَّاهِرُ الْعَالِي عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : فَإِنِ انْتَهَوْا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَقِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَكُفُّوا عَنْهُمْ ، فَإِنَّ مَنْ قَاتَلَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ ظَالِمٌ ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ، وَالْمُرَادُ بِالْعُدْوَانِ هَاهُنَا : الْمُعَاقَبَةُ وَالْمُقَاتَلَةُ .

ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ : لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَغْزُو فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ** إِلَّا أَنْ يُغْزَى ، أَوْ يُغْزَوْا ، فَإِذَا حَضَرَهُ أَقَامَ حَتَّى يَنْسَلِخَ . وَلِهَذَا لَمَّا بَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُخَيِّمٌ بِالْحُدَيْبِيَةِ أَنَّ عُثْمَانَ قُتِلَ وَكَانَ قَدْ بَعَثَهُ فِي رِسَالَةٍ إِلَى الْمُشْرِكِينَ ، بَايَعَ أَصْحَابَهُ وَكَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعمِائَةٍ تَحْتَ الشَّجَرَةِ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ عُثْمَانَ لَمْ يُقْتَلْ كَفَّ عَنْ ذَلِكَ ، وَجَنَحَ إِلَى الْمُسَالَمَةِ وَالْمُصَالَحَةِ فَكَانَ مَا كَانَ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أَمَرَ بِالْعَدْلِ حَتَّى فِي الْمُشْرِكِينَ كَمَا قَالَ : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أَمْرٌ لَهُمْ بِطَاعَةِ اللهِ وَتَقْوَاهُ ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّهُ تَعَالَى مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ : نَزَلَتْ فِي النَّفَقَةِ . وَمَضْمُونُ الْآيَةِ : الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ فِي سَائِرِ وُجُوهِ الْقُرُبَاتِ ، وَوُجُوهِ الطَّاعَاتِ ، وَخَاصَّةً صَرْفُ الْأَمْوَالِ فِي قِتَالِ الْأَعْدَاءِ ، وَبَذْلُهَا فِيمَا يَقْوَى بِهِ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، وَالْإِخْبَارُ عَنْ تَرْكِ فِعْلِ ذَلِكَ ، بِأَنَّهُ هَلَاكٌ وَدَمَارٌ لِمَنْ لَزِمَهُ وَاعْتَادَهُ ، ثُمَّ عَطَفَ بِالْأَمْرِ بِالْإِحْسَانِ ، وَهُوَ أَعْلَى مَقَامَاتِ الطَّاعَةِ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَحْكَامَ الصِّيَامِ وَعَطَفَ بِذِكْرِ الْجِهَادِ ، شَرَعَ فِي بَيَانِ الْمَنَاسِكِ ، فَأَمَرَ بِإِتْمَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ ، **وَظَاهِرُ السِّيَاقِ** إِكْمَالُ أَفْعَالِهِمَا بَعْدَ الشُّرُوعِ فِيهِمَا . **وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ** ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ ﴾ أَيْ : صُدِدْتُمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ ، وَمُنِعْتُمْ مِنْ إِتْمَامِهِمَا ، وَلِهَذَا **اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ** عَلَى أَنَّ الشُّرُوعَ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ مُلْزِمٌ سَوَاءٌ قِيلَ بِوُجُوبِ الْعُمْرَةِ أَوْ بِاسْتِحْبَابِهَا ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ **قِيلَ** : إِتْمَامُهُمَا أَنْ تُحْرِمَ مِنْ أَهْلِكَ لَا تُرِيدُ إِلَّا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ ، وَتُهِلّ مِنَ الْمِيقَاتِ ، لَيْسَ أَنْ تَخْرُجَ لِتِجَارَةٍ وَلَا لِحَاجَةٍ ، حَتَّى إِذَا كُنْتَ قَرِيبًا مِنْ مَكَّةَ قُلْتَ : لَوْ حَجَجْتُ أَوْ اعْتَمَرْتُ ، وَذَلِكَ يُجْزِئُ وَلَكِنَّ التَّمَامَ أَنْ تَخْرُجَ لَهُ وَلَا تَخْرُجَ لِغَيْرِهِ . **وَقِيلَ** : ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : أَقِيمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾ ذَكَرُوا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي سَنَةِ سِتٍّ أَيْ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ ، حِينَ حَالَ الْمُشْرِكُونَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَ الْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ ، وَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ سُورَةَ الْفَتْحِ بِكَمَالِهَا ، وَأَنْزَلَ لَهُمْ رُخْصَةً أَنْ يَذْبَحُوا مَا مَعَهُمْ مِنَ الْهَدْيِ ، وَكَانَ سَبْعِينَ بَدَنَةً وَأَنْ يَحْلِقُوا رُءُوسَهُمْ ، وَأَنْ يَتَحَلَّلُوا مِنْ إِحْرَامِهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُمْ ﷺ بِأَنْ يَحْلِقُوا رُءُوسَهُمْ وَأَنْ يَتَحَلَّلُوا ، فَلَمْ يَفْعَلُوا ، انْتِظَارًا لِلنَّسْخِ حَتَّى خَرَجَ فَحَلَقَ رَأْسَهُ ، فَفَعَلَ النَّاسُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : الْهَدْيُ مِنَ الْأَزْوَاجِ الثَّمَانِيَةِ مِنَ الْإِبِلِ ، وَالْبَقَرِ ، وَالْمَعْزِ ، وَالضَّأْنِ . **وَقِيلَ** : شَاةٌ . وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ ، وَلَيْسَ مَعْطُوفًا عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ لَمَّا حَصَرَهُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ عَنِ الدُّخُولِ إِلَى الْحَرَمِ حَلَقُوا وَذَبَحُوا هَدْيَهُمْ خَارِجَ الْحَرَمِ ،

فَأَمَّا فِي حَالِ الْأَمْنِ وَالْوُصُولِ إِلَى الْحَرَمِ فَلَا يَجُوزُ الْحَلْقُ ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ﴾ ، وَيَفْرُغُ النَّاسِكُ مِنْ أَفْعَالِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ ، إِنْ كَانَ قَارِنًا ، أَوْ مِنْ فِعْلِ أَحَدِهِمَا إِنْ كَانَ مُفْرِدًا أَوْ مُتَمَتِّعًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ .

عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ ﷺ : حُمِلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْقَمْلُ يَتَنَاثَرُ عَلَى وَجْهِي فَقَالَ : « **مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ الْجَهْدَ قَدْ بَلَغَ بِكَ هَذَا ، أَمَا تَجِدُ شَاةً** » قُلْتُ : لَا . قَالَ : « **صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفُ صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ ، وَاحْلِقْ رَأْسَكَ** » فَنَزَلَتْ فِيَّ خَاصَّةً وَهِيَ لَكُمْ عَامَّةً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾ أَيْ : فَإِذَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ أَدَاءِ الْمَنَاسِكِ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَمَتِّعًا بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ وَهُوَ يَشْمَلُ مَنْ أَحْرَمَ بِهِمَا أَوْ أَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ أَوَّلًا ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا أَحْرَمَ بِالْحَجِّ ، وَمِنَ الرُّوَاةِ مَنْ يَقُولُ : تَمَتَّعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وَآخَرُ يَقُولُ : قَرَنَ ، وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ سَاقَ هَدْيًا ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾ أَيْ : فَلْيَذْبَحْ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْهَدْيِ ، وَأَقَلُّهُ شَاةٌ ، وَلَهُ أَنْ يَذْبَحَ الْبَقَرَ ، لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذَبَحَ عَنْ نِسَائِهِ الْبَقَرَ . وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ التَّمَتُّعِ . ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا ، فَلْيَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ، أَيْ : فِي أَيَّامِ الْمَنَاسِكِ . ﴿ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ . إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ **قِيلَ** : تَأْكِيدٌ ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ : رَأَيْتُ بِعَيْنَيَّ ، وَسَمِعْتُ بِأُذُنَيَّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ هُمْ أَهْلُ الْحَرَمِ . وَمَنْ كَانَ مِنْهُ عَلَى مَسَافَةٍ لَا يَقْصُرُ فِيهَا الصَّلَاةَ ، لِأَنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ يُعَدُّ حَاضِرًا لَا مُسَافِرًا – وَاللهُ أَعْلَمُ – .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : فِيمَا أَمَرَكُمْ وَنَهَاكُمْ ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أَيْ : لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَارْتَكَبَ مَا عَنْهُ زَجَرَهُ .

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾

اِخْتَلَفَ أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ ظَاهِرُهُ أَنَّ وَقْتَ الْحَجِّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ، فَخَصَّصَهُ بِهَا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ شُهُورِ السَّنَةِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ قَبْلَهَا كَمِيقَاتِ الصَّلَاةِ . **عَنِ ابْنِ عُمَرَ** – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ قَالَ : شَوَّالُ وَذُو الْقَعْدَةِ وَعَشْرٌ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ ﴾ أَيْ : أَوْجَبَ بِإِحْرَامِهِ حَجًّا – فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى لُزُومِ الْإِحْرَامِ

بِالْحَجِّ وَالْمُضِيِّ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا رَفَثَ ﴾ أَيْ : مَنْ أَحْرَمَ بِالْحَجِّ أَوِ الْعُمْرَةِ فَلْيَجْتَنِبِ الرَّفَثَ وَهُوَ الْجِمَاعُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ ، وَكَذَلِكَ يَحْرُمُ تَعَاطِي دَوَاعِيهِ مِنَ الْمُبَاشَرَةِ وَالتَّقْبِيلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ التَّكَلُّمُ بِهِ بِحَضْرَةِ النِّسَاءِ . ﴿ وَلَا فُسُوقَ ﴾ وَالْفُسُوقُ هَاهُنَا هُوَ جَمِيعُ الْمَعَاصِي . كَمَا نَهَى تَعَالَى عَنِ الظُّلْمِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ ، وَإِنْ كَانَ فِي جَمِيعِ السَّنَةِ مَنْهِيًّا عَنْهُ ، إِلَّا أَنَّهُ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ آكَدُ . ﴿ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ الْمُرَادُ بِالْجِدَالِ هَاهُنَا الْمُخَاصَمَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ لَمَّا نَهَاهُمْ عَنْ إِتْيَانِ الْقَبِيحِ قَوْلًا وَفِعْلًا ، حَثَّهُمْ عَلَى فِعْلِ الْجَمِيلِ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ عَالِمٌ بِهِ وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ** : كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحُجُّونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ وَيَقُولُونَ نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ . فَلَمَّا أَمَرَهُمْ بِالزَّادِ لِلسَّفَرِ فِي الدُّنْيَا أَرْشَدَهُمْ إِلَى زَادِ الْآخِرَةِ ، وَهُوَ اسْتِصْحَابُ التَّقْوَى إِلَيْهَا ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦] لَمَّا ذَكَرَ اللِّبَاسَ الْحِسِّيَّ نَبَّهَ مُرْشِدًا إِلَى اللِّبَاسِ الْمَعْنَوِيِّ ، وَهُوَ الْخُشُوعُ وَالطَّاعَةُ وَالتَّقْوَى ، وَذَكَرَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ هَذَا وَأَنْفَعُ ﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ : وَاتَّقُوا عِقَابِي وَنَكَالِي وَعَذَابِي لِمَنْ خَالَفَنِي ، وَلَمْ يَأْتَمِرْ بِأَمْرِي ، يَا ذَوِي الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ** : كَانَتْ عُكَاظُ وَمَجَنَّةُ وَذُو الْمَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَتَأَثَّمُوا أَنْ يَتَّجِرُوا فِي الْمَوْسِمِ ، فَنَزَلَتْ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ . إِنَّمَا صَرَفَ عَرَفَاتَ وَإِنْ كَانَ عَلَمًا عَلَى مُؤَنَّثٍ ، لِأَنَّهُ فِي الْأَصْلِ جَمْعٌ ، كَمُسْلِمَاتٍ وَمُؤْمِنَاتٍ .

وَعَرَفَةُ : مَوْضِعُ الْوُقُوفِ فِي الْحَجِّ وَهِيَ عُمْدَةُ أَفْعَالِ الْحَجِّ . **وَوَقْتُ الْوُقُوفِ** : مِنَ الزَّوَالِ يَوْمَ عَرَفَةَ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ الثَّانِي مِنْ يَوْمِ النَّحْرِ ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَقَفَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ بَعْدَ أَنْ صَلَّى الظُّهْرَ إِلَى أَنْ غَرُبَتِ الشَّمْسُ وَقَالَ : « **لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ** » وَقَالَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ : « **فَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ فَقَدْ أَدْرَكَ** » . وَذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ إِلَى أَنَّ وَقْتَ الْوُقُوفِ : مِنْ أَوَّلِ

يَوْمِ عَرَفَةَ . وَالْمَشَاعِرُ : هِيَ الْمَعَالِمُ الظَّاهِرَةُ وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الْمُزْدَلِفَةُ الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ ؛ لِأَنَّهَا دَاخِلُ الْحَرَمِ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ ﴾ تَنْبِيهٌ لَهُمْ عَلَى مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْهِدَايَةِ ، وَالْبَيَانِ وَالْإِرْشَادِ إِلَى مَشَاعِرِ الْحَجِّ ، عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْهِدَايَةِ لِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ **قِيلَ** : مِنْ قَبْلِ هَذَا الْهَدْيِ ، **وَقِيلَ** : الْقُرْآنُ ، **وَقِيلَ** : الرَّسُولُ ، وَالْكُلُّ مُتَقَارِبٌ وَمُتَلَازِمٌ وَصَحِيحٌ .

ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

﴿ ثُمَّ ﴾ هَاهُنَا لِعَطْفِ خَبَرٍ عَلَى خَبَرٍ وَتَرْتِيبِه عَلَيْهِ ، كَأَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ الْوَاقِفَ بِعَرَفَاتٍ أَنْ يَدْفَعَ إِلَى الْمُزْدَلِفَةِ لِيَذْكُرَ اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَكُونَ وُقُوفُهُ مَعَ جُمْهُورِ النَّاسِ بِعَرَفَاتٍ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ كَثِيرًا مَا يَأْمُرُ اللهُ بِذِكْرِهِ ، بَعْدَ قَضَاءِ الْعِبَادَاتِ .

فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ وَالْإِكْثَارِ مِنْهُ بَعْدَ قَضَاءِ الْمَنَاسِكِ وَفَرَاغِهَا وَقَوْلُهُ ﴿ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ ﴾ اِخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ ، **عَنْ عَطَاءٍ** : هُوَ كَقَوْلِ الصَّبِيِّ : أَبَه أُمَّه ، يَعْنِي كَمَا يَلْهَجُ الصَّبِيُّ بِذِكْرِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ ، فَكَذَلِكَ أَنْتُمْ ، فَالْهَجُوا بِذِكْرِ اللهِ بَعْدَ قَضَاءِ النُّسُكِ .
وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ : الْحَثُّ عَلَى كَثْرَةِ الذِّكْرِ للهِ ﷻ ، وَ « أَوْ » هَاهُنَا لِتَحْقِيقِ الْمُمَاثَلَةِ فِي الْخَبَرِ ، فَلَيْسَتْ هَاهُنَا لِلشَّكِّ قَطْعًا ، وَإِنَّمَا هِيَ لِتَحْقِيقِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ ، كَذَلِكَ أَوْ أَزْيَدَ مِنْهُ . ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى أَرْشَدَ إِلَى دُعَائِهِ بَعْدَ كَثْرَةِ ذِكْرِهِ ، فَإِنَّهُ مَظِنَّةُ الْإِجَابَةِ ، وَذَمَّ مَنْ لَا يَسْأَلُهُ إِلَّا فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ ، وَهُوَ مُعْرِضٌ عَنْ أُخْرَاهُ ، فَقَالَ : ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ أَيْ : مِنْ نَصِيبٍ وَلَا حَظٍّ ، وَتَضَمَّنَ هَذَا الذَّمُّ وَالتَّنْفِيرُ عَنِ التَّشَبُّهِ بِمَنْ هُوَ كَذَلِكَ ، وَلِهَذَا مَدَحَ مَنْ يَسْأَلُهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، فَقَالَ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ ، فَجَمَعَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ كُلَّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا ، وَصَرَفَتْ كُلَّ شَرٍّ ، وَأَمَّا الْحَسَنَةُ فِي الْآخِرَةِ فَأَعْلَى ذَلِكَ دُخُولُ الْجَنَّةِ .
عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ صَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **هَلْ تَدْعُو اللهَ بِشَيْءٍ ، أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ** » قَالَ : نَعَمْ ، كُنْتُ أَقُولُ : اللَّهُمَّ مَا كُنْتُ مُعَاقِبِي بِهِ

فِي الْآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **سُبْحَانَ اللهِ لَا تُطِيقُهُ أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ ، فَهَلَّا قُلْتَ** : رَبَّنَا آتِنَا فِي **الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** » قَالَ فَدَعَا اللهَ فَشَفَاهُ .

۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: **الْأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ** : أَيَّامُ التَّشْرِيقِ ، **وَالْأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ** : أَيَّامُ الْعَشْرِ . **وَقَالَ عِكْرِمَةُ** : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ يَعْنِي التَّكْبِيرَ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ : اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ . وَلَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى النَّفْرَ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي ، وَهُوَ تَفَرُّقُ النَّاسِ مِنْ مَوْسِمِ الْحَجِّ إِلَى سَائِرِ الْأَقَالِيمِ وَالْآفَاقِ ، بَعْدَ اجْتِمَاعِهِمْ فِي الْمَشَاعِرِ وَالْمَوَاقِفِ ، قَالَ : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧٩]

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: **أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ** ، **وَقِيلَ** : بَلْ ذَلِكَ عَامٌّ فِي الْمُنَافِقِينَ كُلِّهِمْ وَفِي الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ . **وَأَمَّا قَوْلُهُ** : ﴿ وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ ﴾ ، **قِيلَ** : **مَعْنَاه** أَنَّ هَذَا وَإِنْ أَظْهَرَ لَكُمُ الْحِيَلَ لَكِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مِنْ قَلْبِهِ الْقَبِيحِ ، **وَقِيلَ** : مَعْنَاهُ أَنَّهُ إِذَا أَظْهَرَ لِلنَّاسِ الْإِسْلَامَ حَلَفَ وَأَشْهَدَ اللهَ لَهُمْ أَنَّ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مُوَافِقٌ لِلِسَانِهِ ، **وَهَذَا الْمَعْنَى صَحِيح** .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ **الْأَلَدُّ فِي اللُّغَةِ** : **الْأَعْوَجُ** ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ أَيْ : عِوَجًا وَهَكَذَا الْمُنَافِقُ فِي حَالِ خُصُومَتِهِ يَكْذِبُ وَيَزْوَرُّ عَنِ الْحَقِّ وَلَا يَسْتَقِيمُ مَعَهُ ، بَلْ يَفْتَرِي وَيَفْجُر .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾ أَيْ : **هُوَ أَعْوَجُ** الْمَقَالِ سَيِّئُ الْفِعَالِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ، وَهَذَا فِعْلُهُ ، كَلَامُهُ كَذِبٌ ، وَاعْتِقَادُهُ فَاسِدٌ ، وَأَفْعَالُهُ قَبِيحَةٌ ، وَالسَّعْيُ هَاهُنَا هُوَ : الْقَصْدُ ، فَهَذَا الْمُنَافِقُ لَيْسَ لَهُ هِمَّةٌ إِلَّا الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ، وَإِهْلَاكَ الْحَرْثِ : وَهُوَ مَحَلُّ نَمَاءِ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ، وَالنَّسْل : وَهُوَ نِتَاجُ الْحَيَوَانَاتِ الَّذِينَ لَا قِوَامَ لِلنَّاسِ إِلَّا بِهِمَا . ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ أَيْ : **لَا يُحِبُّ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ وَلَا مَنْ يَصْدُرُ مِنْهُ ذَلِكَ** .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ أَيْ : **إِذَا وُعِظَ هَذَا الْفَاجِرُ فِي مَقَالِهِ وَفِعَالِهِ** ، وَقِيلَ لَهُ : اِتَّقِ اللهَ وَانْزِعْ عَنْ قَوْلِكَ وَفِعْلِكَ ، وَارْجِعْ إِلَى الْحَقِّ ، اِمْتَنَعَ وَأَبَى وَأَخَذَتْهُ الْحَمِيَّةُ

وَالْغَضَبُ بِالْإِثْمِ ، أَيْ بِسَبَبِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْآثَامِ ، ﴿ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ أَيْ : هِيَ كَافِيَتُهُ عُقُوبَةً فِي ذَلِكَ . وَلَمَّا أَخْبَرَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِصِفَاتِهِمُ الذَّمِيمَةِ ، ذَكَرَ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَمِيدَةَ فَقَالَ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ . **قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ** : نَزَلَتْ فِي صُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ الرُّومِيِّ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَسْلَمَ بِمَكَّةَ ، وَأَرَادَ الْهِجْرَةَ مَنَعَهُ النَّاسُ أَنْ يُهَاجِرَ بِمَالِهِ ، وَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَجَرَّدَ مِنْهُ وَيُهَاجِرَ فَعَلَ ، فَتَخَلَّصَ مِنْهُمْ وَأَعْطَاهُمْ مَالَهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةَ . **وَأَمَّا الْأَكْثَرُونَ** فَحَمَلُوا ذَلِكَ عَلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي كُلِّ مُجَاهِدٍ فِي سَبِيلِ اللهِ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ الْمُصَدِّقِينَ بِرَسُولِهِ ، أَنْ يَأْخُذُوا بِجَمِيعِ عُرَى الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ ، وَالْعَمَلِ بِجَمِيعِ أَوَامِرِهِ ، وَتَرْكِ جَمِيعِ زَوَاجِرِهِ ، مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ ذَلِكَ . ﴿ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ ﴾ يَعْنِي : الْإِسْلَامَ . **وَقِيلَ** : الطَّاعَةَ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ كَآفَّةً ﴾ : جَمِيعًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أَيْ : اِعْمَلُوا بِالطَّاعَاتِ ، وَاجْتَنِبُوا مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ الشَّيْطَانُ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ أَيْ : عَدَلْتُمْ عَنِ الْحَقِّ بَعْدَمَا قَامَتْ عَلَيْكُمُ الْحُجَجُ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ ، أَيْ فِي اِنْتِقَامِهِ ، لَا يَفُوتُهُ هَارِبٌ ، وَلَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ ، حَكِيمٌ فِي أَحْكَامِهِ ، وَنَقْضِهِ وَإِبْرَامِهِ ، وَلِهَذَا قَالُوا : عَزِيزٌ فِي نِقْمَتِهِ ، حَكِيمٌ فِي أَمْرِهِ .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُهَدِّدًا لِلْكَافِرِينَ بِمُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، فَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ .

سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ : كَمْ شَاهَدُوا مَعَ مُوسَى مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ أَيْ : حُجَّةٍ قَاطِعَةٍ بِصِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ، كَيَدِهِ وَعَصَاهُ ، وَفَلْقِهِ الْبَحْرَ وَضَرْبِهِ الْحَجَرَ ، وَمَا كَانَ مِنْ تَظْلِيلِ الْغَمَامِ عَلَيْهِمْ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ ، وَمِنْ إِنْزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّاتِ عَلَى وُجُودِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ ، وَصِدْقِ مَنْ جَرَتْ هَذِهِ الْخَوَارِقُ عَلَى يَدَيْهِ ، وَمَعَ هَذَا أَعْرَضَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْهَا ، وَبَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا ، أَيْ اسْتَبْدَلُوا بِالْإِيمَانِ بِهَا ، الْكُفْرَ بِهَا وَالْإِعْرَاضَ عَنْهَا ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَزْيِينِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ رَضُوا بِهَا ، وَاطْمَأَنُّوا إِلَيْهَا ، وَجَمَعُوا الْأَمْوَالَ وَمَنَعُوهَا عَنْ مَصَارِفِهَا الَّتِي أُمِرُوا بِهَا ، مِمَّا يُرْضِي اللهَ عَنْهُمْ ، وَسَخِرُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ، الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنْهَا ، وَأَنْفَقُوا مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِمْ ، وَبَذَلُوهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ، فَاسْتَقَرُّوا فِي الدَّرَجَاتِ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ ، وَخُلِّدَ أُولَئِكَ فِي الدَّرَكَاتِ فِي أَسْفَلَ سَافِلِينَ ؟ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أَيْ : يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ ، وَيُعْطِيهُ عَطَاءً كَثِيرًا جَزِيلًا ، بِلَا حَصْرٍ وَلَا تِعْدَادٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « **ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ ، أُنْفِقْ عَلَيْكَ** » وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ .

كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ** : كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشَرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ ، فَاخْتَلَفُوا ، فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، **وَقِيلَ** : كَانُوا كُفَّارًا فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا عَلَى مِلَّةِ آدَمَ حَتَّى عَبَدُوا الْأَصْنَامَ فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ نُوحًا عليه السلام فَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ : مِنْ بَعْدِ مَا قَامَتِ الْحُجَجُ عَلَيْهِمْ ، وَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْبَغْيُ مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ﴾ . أَيْ : بِعِلْمِهِ بِهِمْ ، وَبِمَا هَدَاهُمْ لَهُ ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : مِنْ خَلْقِهِ ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أَيْ : وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ ﴾ قَبْلَ أَنْ تُبْتَلَوْا وَتُخْتَبَرُوا وَتُمْتَحَنُوا كَمَا فُعِلَ بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الأُمَمِ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ ﴾ وَهِيَ الأَمْرَاضُ ، وَالأَسْقَامُ ، وَالآلَامُ ، وَالمَصَائِبُ ، وَالنَّوَائِبُ . ﴿ ٱلْبَأْسَآءِ ﴾ : الْفَقْرُ ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ : السَّقَمُ ﴿ وَزُلْزِلُوا ﴾ : خُوِّفُوا مِنَ الأَعْدَاءِ زِلْزَالًا شَدِيدًا وَامْتُحِنُوا امْتِحَانًا عَظِيمًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ﴾ أَيْ : سُنَّتهمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، وَيَدْعُونَ بِقُرْبِ الْفَرَجِ ، وَالمَخْرَجِ عِنْدَ ضِيقِ الحَالِ وَالشِّدَّةِ . ﴿ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ ، كَمَا قَالَ ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥-٦] ، وَكَمَا تَكُونُ الشِّدَّةُ يَنْزِلُ مِنَ النَّصْرِ مِثْلُهَا .

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

وَمَعْنَى الآيَةِ : يَسْأَلُونَكَ كَيْفَ يُنْفِقُونَ ؟ فَبَيَّنَ لَهُمْ تَعَالَى ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أَيْ : اصْرِفُوهَا فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : مَهْمَا صَدَرَ مِنْكُمْ مِنْ فِعْلِ مَعْرُوف ، فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ ، وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الجَزَاءِ ، فَإِنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

هَذَا إِيجَابٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلْجِهَادِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، أَنْ يَكُفُّوا شَرَّ الأَعْدَاءِ عَنْ حَوْزَةِ الإِسْلَام ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ أَيْ : شَدِيدٌ عَلَيْكُمْ وَمَشَقَّةٌ ، وَهُوَ كَذَلِكَ ، فَإِنَّهُ إِمَّا أَنْ يُقْتَلَ أَوْ يُجْرَح مَعَ مَشَقَّةِ السَّفَرِ ، وَمُجَالَدَةِ الأَعْدَاءِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أَيْ : لأَنَّ الْقِتَالَ يَعْقُبهُ النَّصْر وَالظَّفَر عَلَى الأَعْدَاءِ ، وَالاسْتِيلَاء عَلَى بِلَادِهِمْ ، وَأَمْوَالِهِمْ ، وَذَرَارِيِّهِمْ ، وَأَوْلَادِهِمْ ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ ، وَهَذَا عَامٌّ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا ، قَدْ يُحِبُّ المَرْءُ شَيْئًا وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ خِيَرَةٌ وَلَا مَصْلَحَةٌ ، وَمِنْ ذَلِكَ الْقُعُودُ عَنِ الْقِتَالِ ، قَدْ يَعْقُبهُ اسْتِيلَاء الْعَدُوّ عَلَى الْبِلَادِ وَالحُكْم . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : هُوَ أَعْلَمُ بِعَوَاقِبِ الأُمُورِ مِنْكُمْ ، وَأَخْبَرَ بِمَا فِيهِ صَلَاحُكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَأُخْرَاكُمْ ، فَاسْتَجِيبُوا لَهُ ، وَانْقَادُوا لأَمْرِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَرْشُدُونَ .

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ »(١).

۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

عَنْ عُمَرَ ﷺ **أَنَّهُ قَالَ** : لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قَالَ : اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . **فَقَوْلُهُ** : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾ أَمَّا « الْخَمْرُ » فَكَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ ﷺ : إِنَّهُ كُلُّ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ ، « وَالْمَيْسِر » وَهُوَ الْقِمَارُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أَمَّا إِثْمُهُمَا فَهُوَ فِي الدِّينِ ، وَأَمَّا الْمَنَافِعُ فَدُنْيَوِيَّةٌ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ فِيهَا نَفْعَ الْبَدَنِ ، وَتَهْضِيمَ الطَّعَامِ ، وَإِخْرَاجَ الْفَضَلَاتِ ، وَتَشْحِيذَ بَعْضِ الْأَذْهَانِ ، وَلَذَّةَ الشِّدَّةِ الْمُطْرِبَةِ ، وَكَذَا بَيْعُهَا وَالِانْتِفَاعُ بِثَمَنِهَا ، وَكَانَ يُقَمِّشُهُ بَعْضُهُمْ مِنَ الْمَيْسِرِ فَيُنْفِقُهُ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ عِيَالِهِ ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَصَالِحُ لَا تُوَازِي مَضَرَّتَهُ وَمَفْسَدَتَهُ الرَّاجِحَةَ ، لِتَعَلُّقِهَا بِالْعَقْلِ وَالدِّينِ ، **وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ ، وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُمَهِّدَةً لِتَحْرِيمِ الْخَمْرِ عَلَى الْبَتَاتِ ، وَلَمْ تَكُنْ مُصَرِّحَةً بَلْ مُعَرِّضَةً وَلِهَذَا قَالَ عُمَرُ ﷺ لَمَّا قُرِئَتْ عَلَيْهِ : اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ** : مَا يَفْضُلُ عَنْ أَهْلِكَ . **ثُمَّ قَدْ قِيلَ** : إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الزَّكَاةِ . **وَقِيلَ** : مُبَيَّنَةٌ بِآيَةِ الزَّكَاةِ ، وَهُوَ أَوْجَهُ . ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أَيْ : كَمَا فَصَّلَ لَكُمْ هَذِهِ

---

(١) أورد الحافظ ابن كثير آثارًا عند تفسير هذه الآيات لا تخلو من مقال .

الْأَحْكَامَ وَبَيَّنَهَا وَأَوْضَحَهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ سَائِرَ الْآيَاتِ فِي أَحْكَامِهِ ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ يَعْنِي : فِي زَوَالِ الدُّنْيَا وَفَنَائِهَا وَإِقْبَالِ الْآخِرَةِ وَبَقَائِهَا ، لِمَنْ تَفَكَّرَ فِيهَا ، لِيَعْلَمَ أَنَّ الدُّنْيَا دَار بَلَاءٍ ثُمَّ دَار فَنَاءٍ ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ الْآخِرَةَ دَار جَزَاءٍ ثُمَّ دَار بَقَاءٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ الْآيَة . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] وَ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء : ١٠] انْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ ، مِنْ طَعَامِهِ ، وَشَرَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ ، فَجَعَلَ يَفْضُلُ لَهُ الشَّيْءَ مِنْ طَعَامِهِ فَيَحْبِسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِمْ ، وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِمْ . فَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ أَيْ : عَلَى حِدَةٍ ﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ أَيْ : وَإِنْ خَلَطْتُمْ طَعَامَكُمْ بِطَعَامِهِمْ ، وَشَرَابَكُمْ بِشَرَابِهِمْ ، فَلَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ ، لِأَنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ مَنْ قَصْدُهُ وَنِيَّتُهُ الْإِفْسَادُ أَوْ الْإِصْلَاحُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَضَيَّقَ عَلَيْكُمْ وَأَحْرَجَكُمْ ، وَلَكِنَّهُ وَسَّعَ عَلَيْكُمْ ، وَخَفَّفَ عَنْكُمْ ، وَأَبَاحَ لَكُمْ مُخَالَطَتِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ بَلْ جَوَّزَ الْأَكْلَ مِنْهُ لِلْفَقِيرِ بِالْمَعْرُوفِ ، إِمَّا بِشَرْطِ ضَمَانِ الْبَدَلِ لِمَنْ أَيْسَرَ أَوْ مَجَّانًا ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ إِنْ شَاءَ اللهُ وَبِهِ الثِّقَةُ .

وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

هَذَا تَحْرِيمٌ مِنَ اللهِ ﷻ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَزَوَّجُوا الْمُشْرِكَاتِ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ ، ثُمَّ إِنْ كَانَ عُمُومُهَا مُرَادًا ، وَأَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهَا كُلُّ مُشْرِكَةٍ مِنْ كِتَابِيَّةٍ وَوَثَنِيَّةٍ ، فَقَدْ خَصَّ مِنْ ذَلِكَ نِسَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ ﴾ [المائدة : ٥] فَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ اسْتَثْنَى اللهُ مِنْ ذَلِكَ نِسَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ﴾ أَيْ : لَا تُزَوِّجُوا الرِّجَالَ الْمُشْرِكِينَ النِّسَاء الْمُؤْمِنَات كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ

يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ أَيْ : وَلَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ ، وَإِنْ كَانَ رَئِيسًا سِرِّيًّا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : مُعَاشَرَتُهُمْ وَمُخَالَطَتُهُمْ تَبْعَثُ عَلَى حُبِّ الدُّنْيَا ، وَاقْتِنَائِهَا وَإِيثَارِهَا عَلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَعَاقِبَةُ ذَلِكَ وَخِيمَةٌ ، ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ أَيْ : بِشَرْعِهِ ، وَمَا أَمَرَ بِهِ ، وَمَا نَهَى عَنْهُ ، ﴿ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه : أَنَّ الْيَهُودَ كَانَتْ إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ مِنْهُمْ لَمْ يُوَاكِلُوهَا ، وَلَمْ يُجَامِعُوهَا فِي الْبُيُوتِ ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ النَّبِيَّ ﷺ ، فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنَ الْآيَةِ . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **اِصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ ، إِلَّا النِّكَاحَ** » . فَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ يَعْنِي الْفَرْجَ ؛ لِقَوْلِهِ : « **اِصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ** » ، وَلِهَذَا ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَوْ أَكْثَرُهُمْ إِلَى أَنَّهُ يَجُوزُ مُبَاشَرَةُ الْحَائِضِ فِيمَا عَدَا الْفَرْجِ . ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ ﴿ فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ ، وَنَهْيٌ عَنْ قُرْبَانِهِنَّ بِالْجِمَاعِ ، مَا دَامَ الْحَيْضُ مَوْجُودًا ، وَمَفْهُومُهُ حِلُّهُ إِذَا انْقَطَعَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فِيهِ نَدْبٌ وَإِرْشَادٌ إِلَى غِشْيَانِهِنَّ بَعْدَ الِاغْتِسَالِ . **وَقَدِ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا انْقَطَعَ حَيْضُهَا لَا تَحِلُّ حَتَّى تَغْتَسِلَ بِالْمَاءِ أَوْ تَتَيَمَّمَ إِنْ تَعَذَّرَ عَلَيْهَا بِشَرْطِهِ** . وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ أَيْ : مِنَ الدَّمِ ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ أَيْ : بِالْمَاءِ . ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ : يَعْنِي الْفَرْجَ ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ أَيْ : مِنَ الذَّنْبِ وَإِنْ تَكَرَّرَ غِشْيَانُهُ ، ﴿ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ أَيْ : الْمُتَنَزِّهِينَ عَنِ الْأَقْذَارِ وَالْأَذَى ، وَهُوَ مَا نُهُوا عَنْهُ مِنْ إِتْيَانِ الْحَائِضِ ، أَوْ فِي غَيْرِ الْمَأْتَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ الْحَرْثُ : مَوْضِعُ الْوَلَدِ ﴿ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ أَيْ : كَيْفَ شِئْتُمْ مُقْبِلَةً وَمُدْبِرَةً فِي صِمَامٍ وَاحِدٍ ، كَمَا ثَبَتَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ . عَنِ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – أَنَّ رَجُلًا أَتَى امْرَأَتَهُ فِي دُبُرِهَا فَوَجَدَ فِي نَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ وَجْدًا شَدِيدًا فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ . وَهَذَا الْحَدِيثُ مَحْمُولٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ، وَهُوَ أَنَّهُ يَأْتِيهَا فِي قُبُلِهَا مِنْ دُبُرِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أَيْ: مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ مَعَ امْتِثَالِ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ مِنْ تَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾ أَيْ: فَيُحَاسِبكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ جَمِيعِهَا. ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ: الْمُطِيعِينَ لله فِيمَا أَمَرَهُمْ التَّارِكِينَ مَا عَنْهُ زَجَرَهُمْ.

وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى لَا تَجْعَلُوا أَيْمَانَكُمْ بِالله تَعَالَى مَانِعَةً لَكُمْ مِنَ الْبِرِّ وَصِلَةِ الرَّحِمِ إِذَا حَلَفْتُمْ عَلَى تَرْكِهَا، فَالِاسْتِمْرَارُ عَلَى الْيَمِينِ آثَمُ لِصَاحِبِهَا مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهَا بِالتَّكْفِيرِ.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ ﴾ أَيْ: لَا تَجْعَلَنَّ عُرْضَةً لِيَمِينِكِ أَنْ لَا تَصْنَعَ الْخَيْرَ وَلَكِنْ كَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ وَاصْنَع الْخَيْرَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ أَيْ: لَا يُعَاقِبُكُمْ وَلَا يُلْزِمُكُمْ بِمَا صَدَرَ مِنْكُمْ مِنَ الْأَيْمَانِ اللَّاغِيَةِ، وَهِيَ الَّتِي لَا يَقْصِدَهَا الْحَالِفُ بَلْ تَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ عَادَةً مِنْ غَيْرِ تَعْقِيدٍ وَلَا تَأْكِيدٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ وَهُوَ أَنْ يَحْلِفَ عَلَى الشَّيْءِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ كَاذِبٌ، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ أَيْ: غَفُورٌ لِعِبَادِهِ حَلِيمٌ عَلَيْهِمْ.

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

الْإِيلَاءُ: الْحَلِفُ، فَإِذَا حَلَفَ الرَّجُلُ أَنْ لَا يُجَامِعَ زَوْجَتَهُ مُدَّةً، فَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ أَقَلَّ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْهَا، فَإِنْ كَانَتْ أَقَلَّ فَلَهُ أَنْ يَنْتَظِرَ انْقِضَاءَ الْمُدَّةِ ثُمَّ يُجَامِعُ امْرَأَتَهُ، وَعَلَيْهَا أَنْ تَصْبِرَ وَلَيْسَ لَهَا مُطَالَبَتُهُ بِالْفَيْئَةِ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ، وَهَذَا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ آلَى مِنْ نِسَائِهِ شَهْرًا، فَنَزَلَ لِتِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَقَالَ: « **الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ** »، فَأَمَّا إِنْ زَادَتِ الْمُدَّةُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَلِلزَّوْجَةِ مُطَالَبَةُ الزَّوْجِ عِنْدَ انْقِضَاءِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، إِمَّا أَنْ يَفِيءَ - أَيْ: يُجَامِعَ - وَإِمَّا أَنْ يُطَلِّقَ، فَيُجْبِرُهُ الْحَاكِمُ عَلَى هَذَا، وَهَذَا لِئَلَّا يَضُرَّ بِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ أَيْ: يَحْلِفُونَ عَلَى تَرْكِ الْجِمَاعِ مِنْ نِسَائِهِمْ، ﴿ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ أَيْ: يَنْتَظِر الزَّوْجُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ مِنْ حِينِ الْحَلِفِ، ثُمَّ يُوقَفُ وَيُطَالَبُ بِالْفَيْئَةِ أَوِ الطَّلَاقِ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ فَإِن فَآءُو ﴾ أَيْ: رَجَعُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْجِمَاعِ. ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي: لِمَا سَلَفَ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّهِنَّ بِسَبَبِ الْيَمِينِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الطَّلَاقَ لَا يَقَعُ بِمُجَرَّدِ مُضِيِّ الْأَرْبَعَةِ أَشْهُر، وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَنْ يُوقَفَ فَيُطَالَبُ إِمَّا بِهَذَا وَإِمَّا بِهَذَا، وَلَا يَقَعُ عَلَيْهَا بِمُجَرَّدِ مُضِيِّهَا طَلَاقٌ.

وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لِلْمُطَلَّقَاتِ الْمَدْخُولِ بِهِنَّ مِنْ ذَوَاتِ الْأَقْرَاءِ بِأَنْ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَة قُرُوء، أَيْ: بِأَنْ تَمْكُث إِحْدَاهُنَّ بَعْد طَلَاق زَوْجها لَهَا ثَلَاثَة قُرُوء ثُمَّ تَتَزَوَّج إِنْ شَاءَتْ. **وَالْمُرَاد بِالْأَقْرَاءِ** مَا هُوَ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: **أَحَدهمَا**: أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْأَطْهَارُ. **الْقَوْلِ الثَّانِي**: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْأَقْرَاءِ الْحَيْضُ، فَلَا تَنْقَضِي الْعِدَّةُ حَتَّى تَطْهُرَ مِنَ الْحَيْضَةِ الثَّالِثَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ ﴾ أَيْ: مِنْ حَبَلٍ أَوْ حَيْضٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ تَهْدِيدٌ لَهُنَّ عَلَى قَوْلِ خِلَافِ الْحَقِّ، وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمَرْجِعَ فِي هَذَا إِلَيْهِنَّ، لِأَنَّهُ أَمْرٌ لَا يُعْلَمُ إِلَّا مِنْ جِهَتِهِنَّ وَيَتَعَذَّرُ إِقَامَةُ الْبَيِّنَةِ غَالِبًا عَلَى ذَلِكَ، فَرَدَّ الْأَمْرَ إِلَيْهِنَّ، وَتُوُعِّدْنَ فِيهِ لِئَلَّا يُخْبِرن بِغَيْرِ الْحَقِّ، إِمَّا اسْتِعْجَالًا مِنْهَا لِانْقِضَاءِ الْعِدَّةِ، أَوْ رَغْبَةً مِنْهَا فِي تَطْوِيلِهَا لِمَا لَهَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ، فَأُمِرَتْ أَنْ تُخْبِرَ بِالْحَقِّ فِي ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ﴾ أَيْ: وَزَوْجُهَا الَّذِي طَلَّقَهَا أَحَقُّ بِرَدِّهَا مَا دَامَتْ فِي عِدَّتِهَا، إِذَا كَانَ مُرَادُهُ بِرَدِّهَا الْإِصْلَاحَ وَالْخَيْرَ، وَهَذَا فِي الرَّجْعِيَّاتِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أَيْ: وَلَهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ الْحَقِّ مِثْلَ مَا لِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ، فَلْيُؤَدِّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى الْآخَرِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ بِالْمَعْرُوفِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ أَيْ: فِي الْفَضِيلَةِ فِي الْخَلْقِ، وَالْخُلُقِ، وَالْمَنْزِلَةِ، وَطَاعَةِ الْأَمْرِ، وَالْإِنْفَاقِ، وَالْقِيَامِ بِالْمَصَالِحِ، وَالْفَضْلِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ: عَزِيزٌ فِي انْتِقَامِهِ مِمَّنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ، حَكِيمٌ فِي أَمْرِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ.

ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا

تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ رَافِعَةٌ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنْ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ أَحَقَّ بِرَجْعَةِ امْرَأَتِهِ وَإِنْ طَلَّقَهَا مِائَةَ مَرَّةٍ ، مَا دَامَتْ فِي الْعِدَّةِ ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا فِيهِ ضَرَرٌ عَلَى الزَّوْجَاتِ ، قَصَرَهُمْ الله ﷻ إِلَى ثَلَاثِ طَلْقَاتٍ ، وَأَبَاحَ الرَّجْعَةَ فِي الْمَرَّةِ وَالثِّنْتَيْنِ ، وَأَبَانَهَا بِالْكُلِّيَّةِ فِي الثَّالِثَةِ ، فَقَالَ : ﴿ ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَـٰنٖ ﴾ . أَيْ : إِذَا طَلَّقْتَهَا وَاحِدَةً أَو اثْنَتَيْنِ ، فَأَنْتَ مُخَيَّرٌ فِيهَا مَا دَامَتْ عِدَّتُهَا بَاقِيَةً ، بَيْنَ أَنْ تَرُدَّهَا إِلَيْك نَاوِيًا الْإِصْلَاحَ بِهَا ، وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهَا ، وَبَيْنَ أَنْ تَتْرُكَهَا حَتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهَا ، فَتَبِينَ مِنْكَ ، وَتُطْلِقَ سَرَاحَهَا مُحْسِنًا إِلَيْهَا ، لَا تَظْلِمَها مِنْ حَقِّهَا شَيْئًا ، وَلَا تُضَارَّ بِهَا .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا ﴾ أَيْ : لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تُضَاجِرُوهُنَّ ، وَتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ، لِيَفْتَدِينَ مِنكُمْ بِمَا أَعْطَيْتُمُوهُنَّ مِنَ الْأَصْدِقَةِ أَوْ بِبَعْضِهِ ، فَأَمَّا إِنْ وَهَبَتْهُ الْمَرْأَةُ شَيْئًا عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهَا ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴾ [النساء : ٤]، وَأَمَّا إِذَا تَشَاقَقَ الزَّوْجَانِ ، وَلَمْ تَقُمِ الْمَرْأَةُ بِحُقُوقِ الرَّجُلِ ، وَأَبْغَضَتْهُ ، وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى مُعَاشَرَتِهِ ، فَلَهَا أَنْ تَفْتَدِيَ مِنْهُ بِمَا أَعْطَاهَا ، وَلَا حَرَجَ عَلَيْهَا فِي بَذْلِهَا لَهُ ، وَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِي قَبُولِ ذَلِكَ مِنْهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ ﴾ الْآيَة . فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا عُذْرٌ وَسَأَلَتِ الِافْتِدَاءَ مِنْهُ فَقَدْ وَرَدَ ، **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ امْرَأَةَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ أَتَت النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ الله : مَا أَعِيبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلَا دِينٍ ، وَلَكِنْ أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَام ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « **أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ** » قَالَتْ : نَعَمْ ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « **اقْبَلِ الْحَدِيقَةَ ، وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً** ». وَلَيْسَ لِلْمُخَالِعِ أَنْ يُرَاجِعَ الْمُخْتَلِعَةَ فِي الْعِدَّةِ بِغَيْرِ رِضَاهَا ، لِأَنَّهَا قَدْ مَلَكَتْ نَفْسَهَا ، بِمَا بَذَلَتْ لَهُ مِنَ الْعَطَاءِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : هَذِهِ الشَّرَائِعُ الَّتِي شَرَعَهَا لَكُمْ هِيَ حُدُودُهُ ، فَلَا تَتَجَاوَزُوهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ إِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ طَلْقَةً ثَالِثَةً ، بَعْد مَا أَرْسَلَ عَلَيْهَا الطَّلَاقَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنَّهَا تَحْرُمُ عَلَيْهِ ﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ ﴾

أَيْ : حَتَّى يَطَأَهَا زَوْجٌ آخَرٌ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ ، فَلَوْ وَطِئَهَا وَاطِئٌ فِي غَيْرِ نِكَاحٍ وَلَوْ فِي مِلْكِ الْيَمِينِ لَمْ تَحِلَّ لِلأَوَّلِ لأَنَّهُ لَيْسَ بِزَوْجٍ ، وَهَكَذَا لَوْ تَزَوَّجَتْ ، وَلَكِنْ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا الزَّوْجُ لَمْ تَحِلَّ لِلأَوَّلِ . وَالمَقْصُودُ مِنَ الزَّوْجِ الثَّانِي أَنْ يَكُونَ رَاغِبًا فِي المَرْأَةِ ، قَاصِدًا لِدَوَامِ عِشْرَتِهَا ، كَمَا هُوَ المَشْرُوعُ مِنَ التَّزْوِيجِ . **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ** ﷺ **قَالَ** : لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **المُحِلَّ وَالمُحَلَّلَ لَهُ** ».

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا ﴾ أَيْ : الزَّوْجُ الثَّانِي بَعْدَ الدُّخُولِ بِهَا ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ ﴾ أَيْ : المَرْأَةُ وَالزَّوْجُ الأَوَّلُ ﴿ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يَتَعَاشَرَا بِالمَعْرُوفِ . ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : شَرَائِعُهُ وَأَحْكَامُهُ ﴿ يُبَيِّنُهَا ﴾ أَيْ : يُوَضِّحُهَا ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ ﷻ لِلرِّجَالِ ، إِذَا طَلَّقَ أَحَدُهُمُ المَرْأَةَ طَلَاقًا لَهُ عَلَيْهَا فِيهِ رَجْعَةٌ ، أَنْ يُحْسِنَ فِي أَمْرِهَا إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا مِقْدَار مَا يُمْكِنُهُ فِيهِ رَجْعَتهَا ، فَإِمَّا أَنْ يُمْسِكَهَا أَيْ يَرْتَجِعَهَا إِلَى عِصْمَةِ نِكَاحِهِ بِمَعْرُوفٍ ، وَهُوَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَى رَجْعَتِهَا وَيَنْوِي عِشْرَتَهَا بِالمَعْرُوفِ أَوْ يُسَرِّحَهَا أَيْ يَتْرُكَهَا حَتَّى تَنْقَضِي عِدَّتُهَا ، وَيُخْرِجُهَا مِنْ مَنْزِلِهِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، مِنْ غَيْرِ شِقَاقٍ ، وَلَا مُخَاصَمَةٍ وَلَا تَقَابُحٍ ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ﴾ . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : كَانَ الرَّجُلُ يُطَلِّقُ المَرْأَةَ فَإِذَا قَارَبَتِ انْقِضَاءَ الْعِدَّةِ رَاجَعَهَا ضِرَارًا لِئَلَّا تَذْهَبَ إِلَى غَيْرِهِ ، ثُمَّ يُطَلِّقُهَا فَتَعْتَدُّ فَإِذَا شَارَفَتْ عَلَى انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ طَلَّقَ لِتَطُولَ عَلَيْهَا الْعِدَّةُ ، **فَنَهَاهُمُ اللهُ عَنْ ذَلِكَ** وَتَوَعَّدَهُمْ عَلَيْهِ ، **فَقَالَ** : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ أَيْ : بِمُخَالَفَتِهِ أَمْرَ اللهِ تَعَالَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : فِي إِرْسَالِهِ الرَّسُولَ بِالهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ إِلَيْكُمْ ﴿ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ أَيْ : السُّنَّةِ ﴿ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ أَيْ : يَأْمُرُكُمْ وَيَنْهَاكُمْ وَيَتَوَعَّدُكُمْ عَلَى ارْتِكَابِ المَحَارِمِ ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : فِيمَا تَأْتُونَ وَفِيمَا تَذَرُونَ ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِكُمُ السِّرِّيَّةِ وَالجَهْرِيَّةِ وَسَيُجَازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الرَّجُلِ يُطَلِّقُ اِمْرَأَتَهُ طَلْقَةً أَوْ طَلْقَتَيْنِ فَتَنْقَضِي عِدَّتُهَا ، ثُمَّ يَبْدُو لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا وَأَنَّ يُرَاجِعَهَا ، وَتُرِيدُ الْمَرْأَةُ ذَلِكَ ، فَيَمْنَعُهَا أَوْلِيَاؤُهَا مِنْ ذَلِكَ ، فَنَهَى اللهُ أَنْ يَمْنَعُوهَا . وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ ظَاهِرٌ مِنَ الْآيَةِ . وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَمْلِكُ أَنْ تُزَوِّجَ نَفْسَهَا ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ فِي النِّكَاحِ مِنْ وَلِيٍّ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ «**لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ**».

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي نَهَيْنَاكُمْ عَنْهُ مِنْ مَنْعِ الْوَلَايَا أَنْ يَتَزَوَّجْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، يَأْتَمِرُ بِهِ وَيَتَّعِظُ بِهِ وَيَنْفَعِلُ لَهُ ، مَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، أَيْ يُؤْمِنُ بِشَرْعِ اللهِ ، وَيَخَافُ وَعِيدَ اللهِ ، وَعَذَابَهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْجَزَاءِ ﴿ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ أَيْ : اِتِّبَاعُكُمْ شَرْعَ اللهِ فِي رَدِّ الْمُولِيَاتِ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ ، وَتَرْكُ الْحَمِيَّةِ فِي ذَلِكَ ، أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ ، ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَصَالِحِ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَي : الْخِيَرَةُ فِيمَا تَأْتُونَ وَلَا فِيمَا تَذَرُونَ .

۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلْوَالِدَاتِ أَنْ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ كَمَالَ الرَّضَاعَةِ ، وَهِيَ سَنَتَانِ فَلَا اِعْتِبَارَ بِالرَّضَاعَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ ، وَذَهَبَ أَكْثَرُ الْأَئِمَّةِ إِلَى أَنَّهُ لَا يُحَرِّمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ إِلَّا مَا كَانَ دُونَ الْحَوْلَيْنِ ، فَلَوِ اِرْتَضَعَ الْمَوْلُودُ وَعُمْرُهُ فَوْقَهُمَا لَمْ يُحَرِّمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أَيْ : وَعَلَى وَالِدِ الطِّفْلِ نَفَقَةُ الْوَالِدَاتِ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، أَيْ بِمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ أَمْثَالِهِنَّ فِي بَلَدِهِنَّ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا إِقْتَارٍ ، بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ فِي يَسَارِهِ وَتَوَسُّطِهِ وَإِقْتَارِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا ﴾ أَيْ : بِأَنْ تَدْفَعَهُ عَنْهَا لِتَضُرَّ أَبَاهُ بِتَرْبِيَتِهِ ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهَا دَفْعُهُ إِذَا وَلَدَتْهُ حَتَّى تَسْقِيَهُ اللَّبَنَ ، الَّذِي لَا يَعِيشُ بِدُونِ تَنَاوُلِهِ غَالِبًا ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا لَهَا دَفْعُهُ عَنْهَا إِذَا

شَاءَتْ ، وَلَكِنْ إِنْ كَانَتْ مُضَارَّةً لِأَبِيهِ فَلَا يَحِلُّ لَهَا ذَلِكَ ، كَمَا لَا يَحِلُّ لَهُ انْتِزَاعُهُ مِنْهَا لِمُجَرَّدِ الضِّرَارِ لَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾ أَيْ : بِأَنْ يُرِيدَ أَنْ يَنْتَزِعَ الْوَلَدَ مِنْهَا إِضْرَارًا بِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ **قِيلَ** : فِي عَدَمِ الضِّرَارِ لِقَرِيبِهِ ، **وَقِيلَ** : عَلَيْهِ مِثْلُ مَا عَلَى وَالِدِ الطِّفْلِ مِنَ الْإِنْفَاقِ عَلَى وَالِدَةِ الطِّفْلِ ، وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهَا وَعَدَمِ الْإِضْرَارِ بِهَا ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ أَيْ : فَإِنِ اتَّفَقَ وَالِدَا الطِّفْلِ عَلَى فِطَامِهِ قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ ، وَرَأَيَا فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةً لَهُ ، وَتَشَاوَرَا فِي ذَلِكَ ، وَأَجْمَعَا عَلَيْهِ ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ ، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ إِنِ انْفَرَدَ أَحَدُهُمَا بِذَلِكَ دُونَ الْآخَرِ لَا يَكْفِي ، وَلَا يَجُوزُ لِوَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يَسْتَبِدَّ بِذَلِكَ ، مِنْ غَيْرِ مُشَاوَرَةِ الْآخَرِ .

وَهَذَا فِيهِ احْتِيَاطٌ لِلطِّفْلِ وَإِلْزَامٌ لِلنَّظَرِ فِي أَمْرِهِ وَهُوَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ حَيْثُ حَجَرَ عَلَى الْوَالِدَيْنِ فِي تَرْبِيَةِ طِفْلِهِمَا ، وَأَرْشَدَهُمَا إِلَى مَا يُصْلِحُهُمَا وَيُصْلِحُهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أَيْ : إِذَا اتَّفَقَتِ الْوَالِدَةُ وَالْوَالِدُ عَلَى أَنْ يَسْتَلِمَ مِنْهَا الْوَلَدُ ، إِمَّا لِعُذْرٍ مِنْهَا أَوْ لِعُذْرٍ لَهُ ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِي بَذْلِهِ وَلَا عَلَيْهِ فِي قَبُولِهِ مِنْهَا إِذَا سَلَّمَهَا أُجْرَتَهَا الْمَاضِيَةَ ، بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، وَاسْتَرْضَعَ لِوَلَدِهِ غَيْرَهَا بِالْأُجْرَةِ بِالْمَعْرُوفِ . ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ ، ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أَيْ : فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمْ .

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ لِلنِّسَاءِ اللَّاتِي يُتَوَفَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ ، أَنْ يَعْتَدِدْنَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَ لَيَالٍ ، وَهَذَا الْحُكْمُ يَشْمَلُ الزَّوْجَاتِ الْمَدْخُولِ بِهِنَّ ، وَغَيْرَ الْمَدْخُولِ بِهِنَّ بِالْإِجْمَاعِ وَلَا يَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا وَهِيَ حَامِلٌ فَإِنَّ عِدَّتَهَا بِوَضْعِ الْحَمْلِ ، وَلَوْ لَمْ تَمْكُثْ بَعْدَهُ سِوَى لَحْظَةٍ ، لِعُمُومِ قَوْلِهِ : ﴿ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا وُجُوبُ الْإِحْدَادِ عَلَى الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا مُدَّةَ عِدَّتِهَا ، وَالْإِحْدَادُ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرْكِ الزِّينَةِ مِنَ الطِّيبِ ، وَلُبْسِ مَا يَدْعُوهَا إِلَى الْأَزْوَاجِ مِنْ ثِيَابٍ وَحُلِيٍّ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَهُوَ وَاجِبٌ فِي عِدَّةِ الْوَفَاةِ قَوْلًا وَاحِدًا ، وَيَجِبُ الْإِحْدَادُ عَلَى جَمِيعِ الزَّوْجَاتِ الْمُتَوَفَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ ، سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ الصَّغِيرَةُ ، وَالْآيِسَةُ ، وَالْحُرَّةُ ، وَالْأَمَةُ ، وَالْمُسْلِمَةُ ، وَالْكَافِرَةُ ، لِعُمُومِ الْآيَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أَيْ : اِنْقَضَتْ عِدَّتُهنَّ ، ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ عَلَى أَوْلِيَائِهَا ﴿ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ يَعْنِي : النِّسَاءُ اللَّاتِي اِنْقَضَتْ عِدَّتُهنَّ ، وقيل : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ هُوَ النِّكَاحُ الطَّيِّبُ .

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أَنْ تُعَرِّضُوا بِخِطْبَةِ النِّسَاءِ فِي عِدَّتِهِنَّ ، مِنْ وَفَاةِ أَزْوَاجِهِنَّ ، مِنْ غَيْرِ تَصْرِيحٍ . **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ** : فِي التَّعْرِيضِ أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا مِنْ غَيْرِ تَصْرِيحٍ لَهَا بِالْخِطْبَةِ ، وَهَكَذَا حُكْمُ الْمُطَلَّقَةِ الْمَبْتُوتَةِ يَجُوزُ التَّعْرِيضُ لَهَا ، فَأَمَّا الْمُطَلَّقَةُ الرَّجْعِيَّةُ فَلَا خِلَافَ فِي أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِغَيْرِ زَوْجِهَا التَّصْرِيحُ بِخِطْبَتِهَا ، وَلَا التَّعْرِيضُ لَهَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أَيْ : أَضْمَرْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ خِطْبَتِهِنَّ ، ﴿ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ . يَعْنِي : الزِّنَا ، **وَقِيلَ** : لَا تَقُلْ لَهَا إِنِّي عَاشِقٌ ، وَعَاهِدِينِي أَنْ لَا تَتَزَوَّجِي غَيْرِي ، وَنَحْو هَذَا . **وَقِيلَ** : هُوَ أَنْ يَأْخُذَ مِيثَاقَهَا أَنْ لَا تَتَزَوَّجَ غَيْرَهُ ، **وَقِيلَ** : هُوَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا فِي الْعِدَّةِ سِرًّا ، فَإِذَا حَلَّتْ أَظْهَرَ ذَلِكَ ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ عَامَّةً فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ يَعْنِي بِهِ : مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِبَاحَةِ التَّعْرِيضِ ، كَقَوْلِهِ : إِنِّي فِيكِ لَرَاغِبٌ وَنَحْوَ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ ﴾ يَعْنِي وَلَا تَعْقِدُوا الْعَقْدَ بِالنِّكَاحِ حَتَّى تَنْقَضِي الْعِدَّةُ . **وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ** : لَا يَصِحُّ الْعَقْدُ فِي مُدَّةِ الْعِدَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ تَوَعَّدَهُمْ عَلَى مَا يَقَعُ فِي ضَمَائِرِهِمْ مِنْ أُمُورِ النِّسَاءِ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى إِضْمَارِ الْخَيْرِ دُونَ الشَّرِّ ، ثُمَّ لَمْ يُؤَيِّسهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلَمْ يُقْنِطْهُمْ مِنْ عَائِدَتِهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾

أَبَاحَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى طَلَاقَ الْمَرْأَةِ بَعْدَ الْعَقْدِ عَلَيْهَا وَقَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا . **والمَسُّ** : النِّكَاحُ ، بَلْ يَجُوزُ أَنْ يُطَلِّقَهَا قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا ، وَالْفَرْضُ لَهَا إِنْ كَانَتْ مُفَوَّضَةً ، وَإِنْ كَانَ فِي هَذَا اِنْكِسَارٌ

لِقَلْبِهَا، وَلِهَذَا أَمَرَ تَعَالَى بِإِمْتَاعِهَا، وَهُوَ تَعْوِيضُهَا عَمَّا فَاتَهَا بِشَيْءٍ تُعْطَاهُ مِنْ زَوْجِهَا، بِحَسَبِ حَالِهِ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ، وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

تَشْطِيرُ الصَّدَاقِ وَالْحَالَةُ هَذِهِ، أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، لَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ مَتَى كَانَ قَدْ سَمَّى لَهَا صَدَاقًا ثُمَّ فَارَقَهَا قَبْلَ دُخُولِهِ بِهَا، فَإِنَّهُ يَجِبُ لَهَا نِصْفُ مَا سَمَّى مِنَ الصَّدَاقِ، إِلَّا أَنَّ عِنْدَ الثَّلَاثَةِ: أَنَّهُ يَجِبُ جَمِيعُ الصَّدَاقِ إِذَا خَلَا بِهَا الزَّوْجُ، وَإِنْ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا، وَبِهِ حَكَمَ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ أَيْ: النِّسَاءُ عَمَّا وَجَبَ لَهَا عَلَى زَوْجِهَا، فَلَا يَجِبُ لَهَا عَلَيْهِ شَيْءٌ. ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ ذَلِكَ أَبُوهَا أَوْ أَخُوهَا، أَوْ مَنْ لَا تُنْكَحُ الزَّوْجَةُ إِلَّا بِإِذْنِهِ. ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ**: **قَالَ بَعْضُهُمْ**: خُوطِبَ بِهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ. **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ**: أَقْرَبُهُمَا لِلتَّقْوَى الَّذِي يَعْفُو. **وَقِيلَ**: الْفَضْلُ هَاهُنَا أَنْ تَعْفُوَ الْمَرْأَةُ عَنْ شَطْرِهَا، أَوْ إِتْمَامِ الرَّجُلِ الصَّدَاقَ لَهَا، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أَيْ: الْإِحْسَانَ. **وَقِيلَ**: الْمَعْرُوفَ، يَعْنِي: لَا تُهْمِلُوهُ بَلِ اسْتَعْمِلُوهُ بَيْنَكُمْ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَيْ: لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِكُمْ، وَأَحْوَالِكُمْ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا، وَحِفْظِ حُدُودِهَا، وَأَدَائِهَا فِي أَوْقَاتِهَا. وَخَصَّ تَعَالَى مِنْ بَيْنِهَا بِمَزِيدِ التَّأْكِيدِ الصَّلَاةَ الْوُسْطَى، **وَقَدِ اخْتَلَفَ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ فِيهَا، أَيُّ صَلَاةٍ هِيَ؟** فَقِيلَ: إِنَّهَا الصُّبْحُ. **وَقِيلَ**: إِنَّهَا صَلَاةُ الْعَصْرِ، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ. وَقَدْ ثَبَتَتِ السُّنَّةُ بِأَنَّهَا الْعَصْرُ فَتَعَيَّنَ الْمَصِيرُ إِلَيْهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ أَيْ: خَاشِعِينَ، ذَلِيلِينَ، مُسْتَكِينِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهَذَا الْأَمْرُ مُسْتَلْزِمٌ تَرْكَ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ، لِمُنَافَاتِهِ إِيَّاهَا. **عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ**: كَانَ الرَّجُلُ يُكَلِّمُ صَاحِبَهُ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَاجَةِ فِي الصَّلَاةِ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ فَأُمِرْنَا بِالسُّكُوتِ.

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ لَمَّا أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ ، وَالْقِيَامِ بِحُدُودِهَا ، وَشَدَّدَ الأَمْرَ بِتَأْكِيدِهَا ، ذَكَرَ الْحَالَ الَّذِي يَشْتَغِلُ الشَّخْصُ فِيهَا عَنْ أَدَائِهَا عَلَى الْوَجْهِ الأَكْمَلِ ، وَهِيَ حَالُ الْقِتَالِ ، وَالْتِحَامُ الْحَرْبِ ، فَقَالَ : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ﴾ أَيْ : فَصَلُّوا عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ ، رِجَالًا ، أَوْ رُكْبَانًا يَعْنِي مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَة وَغَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا . ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : أَقِيمُوا صَلَاتَكُمْ كَمَا أُمِرْتُمْ فَأَتِمُّوا رُكُوعَهَا ، وَسُجُودَهَا ، وَقِيَامَهَا ، وَقُعُودَهَا ، وَخُشُوعَهَا ، وَهُجُودَهَا ﴿ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : مِثْلَ مَا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ ، وَهَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ، وَعَلَّمَكُمْ مَا يَنْفَعكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، فَقَابِلُوهُ بِالشُّكْرِ وَالذِّكْرِ .

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

قَالَ الأَكْثَرُونَ : هَذِهِ الآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِالَّتِي قَبْلَهَا وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم ﴾ أَيْ : يُوصِيكُمُ اللهُ بِهِنَّ وَصِيَّةً كَقَوْلِهِ : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ الآيَة ، فَلْتُوصُوا بِهِنَّ وَصِيَّةً ، وَلَا يُمْنَعْنَ مِنْ ذَلِكَ ، لِقَوْلِهِ ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ ، فَأَمَّا إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهنَّ بِالأَرْبَعَةِ الأَشْهُرِ وَالْعَشْرِ ، أَوْ بِوَضْعِ الْحَمْلِ ، وَاخْتَرْنَ الْخُرُوجَ وَالانْتِقَالَ مِنْ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ فَإِنَّهُنَّ لَا يُمْنَعْنَ مِنْ ذَلِكَ لِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ، وَقَدِ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الآيَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى وُجُوبِ الْمُتْعَةِ لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ سَوَاءٌ كَانَتْ مُفَوِّضَةً ، أَوْ مَفْرُوضًا لَهَا ، أَوْ مُطَلَّقَةً قَبْلَ الْمَسِيسِ ، أَوْ مَدْخُولًا بِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أَيْ : فِي إِحْلَالِهِ ، وَتَحْرِيمِهِ ، وَفُرُوضِهِ ، وَحُدُودِهِ ، فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ ، بَيَّنَهُ ، وَوَضَّحَهُ ، وَفَسَّرَهُ ، وَلَمْ يَتْرُكْهُ مُجْمَلًا فِي وَقْتِ احْتِيَاجِكُمْ إِلَيْهِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : تَفْهَمُونَ وَتَتَدَبَّرُونَ .

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ

أَحْيَاهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ **قَالَ** : كَانُوا أَرْبَعَةَ آلَافٍ خَرَجُوا فِرَارًا مِنَ الطَّاعُونِ ، قَالُوا : نَأْتِي أَرْضًا لَيْسَ بِهَا مَوْتٌ ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِمَوْضِعِ كَذَا وَكَذَا ، قَالَ اللهُ لَهُمْ : ﴿ مُوتُوا ﴾ فَمَاتُوا ، فَمَرَّ عَلَيْهِمْ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يُحْيِيَهُمْ ، فَأَحْيَاهُمْ ، فَذَلِكَ قَوْلُه ﷻ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ الْآيَةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : كَمَا أَنَّ الْحَذَرَ لَا يُغْنِي مِنَ الْقَدَرِ ، كَذَلِكَ الْفِرَارُ مِنَ الْجِهَادِ ، وَتَجَنُّبُهُ لَا يُقَرِّبُ أَجَلًا ، وَلَا يُبْعِدُهُ ، بَلِ الْأَجَلُ الْمَحْتُومُ ، وَالرِّزْقُ الْمَقْسُومُ مُقَدَّرٌ مُقَنَّنٌ ، لَا يُزَادُ فِيهِ ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ يَحُثُّ تَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ . **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ** رضي الله عنه **قَالَ** : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ ﴾ قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ الْأَنْصَارِيُّ : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَإِنَّ اللهَ ﷻ لَيُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ** » قَالَ أَرِنِي يَدَكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : فَنَاوَلَهُ يَدَهُ ، **قَالَ** : فَإِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي ﷻ حَائِطِي قَالَ : وَحَائِطٌ لَهُ فِيهِ سِتُّمِائَةِ نَخْلَةٍ ، وَأُمُّ الدَّحْدَاحِ فِيهِ وَعِيَالُهَا ، قَالَ : فَجَاءَ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَنَادَاهَا : يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ ، قَالَتْ : لَبَّيْكَ ، قَالَ : اُخْرُجِي ، فَقَدْ أَقْرَضْتُه رَبِّي ﷻ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ **قِيلَ** : هُوَ النَّفَقَةُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، **وَقِيلَ** : هُوَ النَّفَقَةُ عَلَى الْعِيَالِ ، **وَقِيلَ** : هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّقْدِيسُ ، ﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ الْآيَةَ ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهَا . ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾ أَيْ : أَنْفِقُوا ، وَلَا تُبَالُوا ، فَاللهُ هُوَ الرَّزَّاقُ يُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فِي الرِّزْقِ ، وَيُوَسِّعهُ عَلَى آخَرِينَ ، لَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي ذَلِكَ ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا

قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

أَيْ : لَمَّا طَلَبُوا مِنْ نَبِيِّهِمْ أَنْ يُعَيِّنَ لَهُمْ مَلِكًا مِنْهُمْ فَعَيَّنَ لَهُمْ طَالُوتَ ، وَكَانَ رَجُلًا مِنْ أَجْنَادِهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَيْتِ الْمُلْكِ فِيهِمْ ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ أَيْ : كَيْفَ يَكُونُ مَلِكًا عَلَيْنَا ؟ ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ أَيْ : ثُمَّ هُوَ مَعَ هَذَا فَقِيرٌ لَا مَالَ لَهُ يَقُومُ بِالْمُلْكِ ، وَهَذَا اِعْتِرَاضٌ مِنْهُمْ عَلَى نَبِيِّهِمْ وَتَعَنُّتٌ ، وَكَانَ الْأَوْلَى بِهِمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ، ثُمَّ قَدْ أَجَابَهُم النَّبِيُّ قَائِلًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : اِخْتَارَهُ لَكُمْ مِنْ بَيْنِكُمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْكُمْ ، يَقُولُ : لَسْتُ أَنَا الَّذِي عَيَّنْتُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، بَلْ اللهُ أَمَرَنِي بِهِ ، لَمَّا طَلَبْتُمْ مِنِّي ذَلِكَ ﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ أَيْ : وَهُوَ مَعَ هَذَا أَعْلَمُ مِنْكُمْ وَأَنْبَلُ ، وَأَشْكَلُ مِنْكُمْ ، وَأَشَدُّ قُوَّةً ، وَصَبْرًا فِي الْحَرْبِ ، وَمَعْرِفَةً فِيهَا ، أَيْ : أَتَمّ عِلْمًا وَقَامَةً مِنْكُمْ ، وَمِنْ هَاهُنَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَلِكُ ذَا عِلْمٍ ، وَشَكْلٍ حَسَنٍ ، وَقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ فِي بَدَنِهِ وَنَفْسِهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : هُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي مَا شَاءَ فَعَلَ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ ، لِعِلْمِهِ ، وَحِكْمَتِهِ ، وَرَأْفَتِهِ بِخَلْقِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : هُوَ وَاسِعُ الْفَضْلِ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْمُلْكَ ، مِمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ .

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

يَقُولُ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ عَلَامَةَ بَرَكَةِ مُلْكِ طَالُوتَ عَلَيْكُمْ ، أَنْ يَرُدَّ اللهُ عَلَيْكُم التَّابُوتَ الَّذِي كَانَ أُخِذَ مِنْكُمْ ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ، قِيلَ : مَعْنَاهُ فِيهِ وَقَارٌ وَجَلَالَةٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ ﴾ . عَصَاهُ وَرُضَاضُ الْأَلْوَاحِ . وَقِيلَ : يَعْنِي عَصَا مُوسَى ، وَعَصَا هَارُونَ ، وَلَوْحَيْنِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْمَنِّ ، ﴿ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ : جَاءَتِ الْمَلَائِكَةُ تَحْمِلُ التَّابُوتَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، حَتَّى وَضَعَتْهُ بَيْنَ يَدَيْ طَالُوتَ ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ ﴾ أَي : عَلَى صِدْقٍ فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ وَفِيمَا أَمَرْتُكُمْ

بِهِ مِنْ طَاعَةِ طَالُوتَ ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ .

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ طَالُوتَ مَلِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، حِينَ خَرَجَ فِي جُنُودِهِ ، وَمَنْ أَطَاعَهُ مِنْ مَلَإِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم ﴾ أَيْ : مُخْتَبِرُكُمْ بِنَهَرٍ ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى ﴾ أَيْ : فَلَا يَصْحَبْنِي الْيَوْمَ فِي هَذَا الْوَجْهِ ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِۦ ﴾ أَيْ : فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ أَيْ : اِسْتَقَلُّوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ لِقَاءِ عَدُوِّهِمْ لِكَثْرَتِهِمْ فَشَجَّعَهُمْ عُلَمَاؤُهُمُ الْعَالِمُونَ بِأَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ، فَإِنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ الله ، لَيْسَ عَنْ كَثْرَةِ عَدَدٍ وَلَا عُدَّةٍ ، **وَلِهَذَا قَالُوا** : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

أَيْ : لما وَاجَهَ حِزْبُ الإِيمَانِ وَهُمْ قَلِيلٌ مِنْ أَصْحَابِ طَالُوتَ ، لِعَدُوِّهِمْ أَصْحَابِ جَالُوتَ وَهُمْ عَدَدٌ كَثِيرٌ ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أَيْ : أَنْزِلْ عَلَيْنَا صَبْرًا مِنْ عِنْدِكَ ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ أَيْ : فِي لِقَاءِ الأَعْدَاءِ ، وَجَنِّبْنَا الفِرَارَ وَالعَجْزَ ﴿ وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : غَلَبُوهُمْ وَقَهَرُوهُمْ بِنَصْرِ الله لَهُمْ ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾ ثُمَّ آلَ الْمُلْكُ إِلَى دَاوُدَ عليه السلام مَعَ مَا مَنَحَهُ اللهُ بِهِ مِنَ النُّبوةِ العَظِيمَةِ وَلِهَذَا **قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ الَّذِي كَانَ بِيَدِ طَالُوتَ ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أَيْ : النُّبوة ﴿ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ أَيْ : مِمَّا يَشَاءُ اللهُ

مِنَ العِلْمِ الَّذِي اخْتَصَّهُ بِهِ ﷺ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ أَيْ : لَوْلَا اللهُ يَدْفَعُ عَنْ قَوْمٍ بِآخَرِينَ ، كَمَا دَفَعَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمُقَاتَلَةِ طَالُوتَ وَشَجَاعَةِ دَاوُدَ لَهَلَكُوا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : مَنٍّ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةٍ بِهِمْ يَدْفَعُ عَنْهُ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا وَلَهُ الحُكْمُ ، وَالحِكْمَةُ ، وَالحُجَّةُ عَلَى خَلْقِهِ ، فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أَيْ : هَذِهِ آيَاتُ اللهِ الَّتِي قَصَصْنَاهَا عَلَيْكَ مِنْ أَمْرِ الَّذِينَ ذَكَرْنَاهُمْ بِالحَقِّ أَيْ : بِالْوَاقِعِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ المُطَابِقُ لِمَا بِأَيْدِي أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الحَقِّ الَّذِي يَعْلَمُهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وَهَذَا تَوْكِيدٌ وَتَوْطِئَةٌ لِلْقَسَمِ .

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ فَضَّلَ بَعْضَ الرُّسُلِ عَلَى بَعْضٍ ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ يَعْنِي : مُوسَى وَمُحَمَّدًا ﷺ وَكَذَلِكَ آدَمَ ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ ، كَمَا ثَبَتَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ حِينَ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ الْأَنْبِيَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ بِحَسَبِ تَفَاوُتِ مَنَازِلِهِمْ عِنْدَ اللهِ ﷻ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أَيْ : الحُجَجَ ، وَالدَّلَائِلَ الْقَاطِعَاتِ ، عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ إِلَيْهِمْ ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ يَعْنِي أَنَّ اللهَ أَيَّدَهُ بِجِبْرِيلَ ؏ **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ أَيْ : كُلُّ ذَلِكَ عَنْ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمْ فِي سَبِيلِهِ ، سَبِيلِ الخَيْرِ ، لِيَدَّخِرُوا ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَلِيكِهِمْ ، وَلِيُبَادِرُوا إِلَى ذَلِكَ ، فِي هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ

الْقِيَامَةِ ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ أَيْ : لَا يُبَاعُ أَحَدٌ مِنْ نَفْسِهِ ، وَلَا يُفَادَى بِمَالٍ لَوْ بَذَلَهُ وَلَوْ جَاءَ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا ، وَلَا تَنْفَعُهُ خُلَّةُ أَحَدٍ ، يَعْنِي صَدَاقَتُهُ ، بَلْ وَلَا نَسَابَتُهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ أَيْ : وَلَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ، ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ مُبْتَدَأٌ مَحْصُورٌ فِي خَبَرِهِ ، أَيْ : وَلَا ظَالِمَ أَظْلَمُ مِمَّنْ وَافَى اللهَ يَوْمَئِذٍ كَافِرًا .

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

هَذِهِ آيَةُ الْكُرْسِيِّ وَلَهَا شَأْنٌ عَظِيمٌ قَدْ صَحَّ الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِأَنَّهَا أَفْضَلُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ . **عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ** ﵁ **أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ **سَأَلَهُ** : أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، ثُمَّ قَالَ : آيَةُ الْكُرْسِيِّ ، قَالَ : ((**لِيَهْنِكَ الْعِلْمَ أَبَا الْمُنْذِرِ**)).

وَهَذِهِ الْآيَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى عَشْرِ جُمَلٍ مُسْتَقِلَّةٍ ، فَقَوْلِهِ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِالْإِلَهِيَّةِ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ أَيْ : الْحَيُّ فِي نَفْسِهِ ، الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا ، الْقَيِّمُ لِغَيْرِهِ ، وَكَانَ عُمَرُ يَقْرَأُ الْقَيَّام ، فَجَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْهِ ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا ، وَلَا قِوَامَ لَهَا بِدُونِ أَمْرِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ أَيْ : لَا يَعْتَرِيهِ نَقْصٌ ، وَلَا غَفْلَةٌ ، وَلَا ذُهُولٌ عَنْ خَلْقِهِ ، بَلْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَمِنْ تَمَامِ الْقَيُّومِيَّةِ ، أَنَّهُ لَا يَعْتَرِيهِ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ، فَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ ﴾ أَيْ : لَا تَغْلِبُهُ سِنَةٌ وَهِيَ : الْوَسَنُ وَالنُّعَاسُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا نَوْمٌ ﴾ لِأَنَّهُ أَقْوَى مِنَ السِّنَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إِخْبَارٌ بِأَنَّ الْجَمِيعَ عَبِيدُهُ ، وَفِي مُلْكِهِ ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ ، وَسُلْطَانِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ ، وَهَذَا مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ ﷻ ، أَنَّهُ لَا يَتَجَاسَرُ أَحَدٌ عَلَى أَنْ يَشْفَعَ لِأَحَدٍ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ ، مَاضِيهَا ، وَحَاضِرِهَا وَمُسْتَقْبَلِهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ أَيْ : لَا يَطَّلِعُ أَحَد مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بِمَا أَعْلَمَهُ اللهُ ﷻ ، وَأَطْلَعَهُ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ الْكُرْسِيُّ : مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ أَيْ: لَا يُثْقِلُهُ، وَلَا يَكْتَرِثُهُ، حِفْظَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَنْ فِيهِمَا، وَمَنْ بَيْنَهُمَا، بَلْ ذَٰلِكَ سَهْلٌ عَلَيْهِ، يَسِيرٌ لَدَيْهِ، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾، وَهَذِهِ الْآيَاتُ، وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ، الْأَجْوَدُ فِيهَا طَرِيقَةُ السَّلَفِ الصَّالِحِ: أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ، مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ، وَلَا تَشْبِيهٍ.

لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ أَيْ: لَا تُكْرِهُوا أَحَدًا عَلَى الدُّخُولِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ بَيِّنٌ وَاضِحٌ جَلِيٌّ دَلَائِلُهُ وَبَرَاهِينُهُ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُكْرِهَ أَحَدًا عَلَى الدُّخُولِ فِيهِ، بَلْ مَنْ هَدَاهُ اللهُ لِلْإِسْلَامِ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ، وَنَوَّرَ بَصِيرَتَهُ، دَخَلَ فِيهِ عَلَى بَيِّنَةٍ، وَمَنْ أَعْمَى اللهُ قَلْبَهُ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ، فَإِنَّهُ لَا يُفِيدُهُ الدُّخُولُ فِي الدِّينِ مُكْرَهًا مَقْسُورًا.

وَقَدْ ذَهَبَ طَائِفَةٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: أَنَّ هَذِهِ مَحْمُولَةٌ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، وَمَنْ دَخَلَ فِي دِينِهِمْ قَبْلَ النَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ، إِذَا بَذَلُوا الْجِزْيَةَ، **وَقَالَ آخَرُونَ**: بَلْ هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الْقِتَالِ، وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُدْعَى جَمِيعُ الْأُمَمِ إِلَى الدُّخُولِ فِي الدِّينِ الْحَنِيفِ دِينِ الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَبَى أَحَدٌ مِنْهُمُ الدُّخُولَ، وَلَمْ يَنْقَدْ لَهُ، أَوْ يَبْذُلِ الْجِزْيَةَ، قُوتِلَ حَتَّى يُقْتَلَ، وَهَذَا مَعْنَى ﴿ لَآ إِكْرَاهَ ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ أَيْ: مَنْ خَلَعَ الْأَنْدَادَ، وَالْأَوْثَانَ، وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ مِنْ عِبَادَةِ كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، وَوَحَّدَ اللهَ، فَعَبَدَهُ وَحْدَهُ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ أَيْ: فَقَدْ ثَبَتَ فِي أَمْرِهِ وَاسْتَقَامَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثْلَى وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ. **وَالْقَوْلُ فِي الطَّاغُوتِ**: « **إِنَّهُ الشَّيْطَانُ** » قَوِيٌّ جِدًّا، فَإِنَّهُ يَشْمَلُ كُلَّ شَرٍّ كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَالتَّحَاكُمِ إِلَيْهَا، وَالِاسْتِنْصَارِ بِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ أَيْ: فَقَدِ اسْتَمْسَكَ مِنَ الدِّينِ بِأَقْوَى سَبَبٍ، وَشَبَّهَ ذَلِكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى الَّتِي لَا تَنْفَصِمُ، فَهِيَ فِي نَفْسِهَا مُحْكَمَةٌ مُبْرَمَةٌ قَوِيَّةٌ، وَرَبْطُهَا قَوِيٌّ شَدِيدٌ. **قِيلَ**: الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى يَعْنِي: الْإِيمَانُ، **وَقِيلَ**: هُوَ الْإِسْلَامُ، **وَقِيلَ**: يَعْنِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، **وَقِيلَ**: الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى: الْقُرْآنُ، **وَقِيلَ**: هُوَ الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ صَحِيحَةٌ وَلَا تَنَافِي بَيْنَهَا.

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ

فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

يُخبِر تَعَالَى أَنَّهُ يَهْدِي مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ فَيُخْرِجُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالشَّكِّ وَالرَّيْبِ ، إِلَى نُورِ الْحَقِّ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الْمُبِينِ السَّهْلِ الْمُنِيرِ ، وَأَنَّ الْكَافِرِينَ إِنَّمَا وَلِيُّهُمُ الشَّيْطَانُ ، يُزَيِّنُ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْجَهَالَاتِ وَالضَّلَالَاتِ ، وَيُخْرِجُونَهُمْ ، وَيَحِيدُونَ بِهِمْ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ إِلَى الْكُفْرِ وَالْإِفْكِ ﴿ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ . وَلِهَذَا وَحَّدَ تَعَالَى لَفْظَ النُّورِ وَجَمَعَ الظُّلُمَاتِ ، لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ ، وَالْكُفْرَ أَجْنَاسٌ كَثِيرَةٌ ، وَكُلُّهَا بَاطِلَةٌ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أَيْ : بِقَلْبِكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ أَيْ : وُجُودِ رَبِّهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ ثَمَّ إِلَهٌ غَيْرُهُ ، وَمَا حَمَلَهُ عَلَى هَذَا الطُّغْيَانِ ، وَالْكُفْرِ الْغَلِيظِ ، وَالْمُعَانَدَةِ الشَّدِيدَةِ ، إِلَّا تَجَبُّرُهُ وَطُولُ مُدَّتِهِ فِي الْمُلْكِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُقَالُ إِنَّهُ مَكَثَ أَرْبَعمِائَةِ سَنَةٍ فِي مُلْكِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ ، وَكَانَ طَلَبَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ دَلِيلًا عَلَى وُجُودِ الرَّبِّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا الدَّلِيلُ عَلَى وُجُودِهِ حُدُوثُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، الْمُشَاهَدَةُ بَعْدَ عَدَمِهَا ، وَعَدَمُهَا بَعْدَ وُجُودِهَا وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ ضَرُورَةً ، لأَنَّهَا لَمْ تَحْدُثْ بِنَفْسِهَا ، فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُوجِدٍ أَوْجَدَهَا ، وَهُوَ الرَّبُّ الَّذِي أَدْعُو إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ الْمُحَاجُّ وَهُوَ النُّمْرُوذُ : ﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ .

وَالظَّاهِرُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ مَا أَرَادَ هَذَا لأَنَّهُ لَيْسَ جَوَابًا لِمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ ، وَلَا فِي مَعْنَاهُ ، لأَنَّهُ مَانِعٌ لِوُجُودِ الصَّانِعِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَدَّعِي لِنَفْسِهِ هَذَا الْمَقَامَ عِنَادًا وَمُكَابَرَةً ، وَيُوهِمُ أَنَّهُ الْفَاعِلُ لِذَلِكَ ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، كَمَا اقْتَدَى بِهِ فِرْعَوْنُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا ادَّعَى هَذِهِ الْمُكَابَرَةَ : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ أَيْ : إِذَا كُنْتَ كَمَا تَدَّعِي مِنْ أَنَّكَ تُحْيِي وَتُمِيتُ فَالَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ هُوَ الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِي الْوُجُودِ ، فِي خَلْقِ ذَوَاتِهِ ، وَتَسْخِيرِ كَوَاكِبِهِ ، وَحَرَكَاتِهِ ، فَهَذِهِ الشَّمْسُ تَبْدُو كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الْمَشْرِقِ ، فَإِنْ كُنْتَ إِلَهًا كَمَا ادَّعَيْتَ تُحْيِي وَتُمِيتُ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ؟ فَلَمَّا عَلِمَ عَجْزَه ، وَانْقِطَاعه ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمُكَابَرَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، بُهِتَ ، أَيْ : أُخْرِسَ ، فَلَا يَتَكَلَّمُ ، وَقَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ . ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : لَا يُلْهِمُهُمْ حُجَّةً وَلَا بُرْهَانًا ،

بَلْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ .

أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

تَقَدَّمَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ وَهُوَ فِي قُوَّةِ قَوْلِهِ : هَلْ رَأَيْتَ مِثْلَ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ؟ ، وَلِهَذَا عَطَفَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ **قِيلَ** : هَذَا المَارُّ هُوَ عُزَيْرٌ . وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْمَشْهُورُ . **وَقِيلَ** : هُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَأَمَّا الْقَرْيَةُ فَالْمَشْهُورُ أَنَّهَا بَيْتُ الْمَقْدِسِ ، مَرَّ عَلَيْهَا بَعْدَ تَخْرِيبِ بُخْتُنَصَّرَ لَهَا ، وَقَتْلِ أَهْلِهَا ﴿ وَهِىَ خَاوِيَةٌ ﴾ أَيْ : لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ ، مِنْ قَوْلِهِمْ خَوَتِ الدَّارِ تَخْوِي خُوِيًّا . ﴿ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أَيْ : سَاقِطَةٌ سُقُوفُهَا وَجُدْرَانُهَا عَلَى عَرَصَاتِهَا ، فَوَقَفَ مُتَفَكِّرًا فِيمَا آلَ أَمْرُهَا إِلَيْهِ ، بَعْدَ الْعِمَارَةِ الْعَظِيمَةِ ، ﴿ قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ وَذَلِكَ لِمَا رَأَى مِنْ دُثُورِهَا ، وَشِدَّةِ خَرَابِهَا ، وَبُعْدِهَا عَنِ الْعَوْدَةِ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ قَالَ وَعُمِّرَتِ الْبَلْدَةُ بَعْدَ مُضِيِّ سَبْعِينَ سَنَةً مِنْ مَوْتِهِ ، وَتَكَامَلَ سَاكِنُوهَا ، وَتَرَاجَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا بَعَثَهُ اللهُ ﷻ بَعْدَ مَوْتِهِ كَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ أَحْيَا اللهُ فِيهِ عَيْنَيْهِ لِيَنْظُرَ بِهِمَا إِلَى صُنْعِ اللهِ فِيهِ ، كَيْفَ يُحْيِي بَدَنَهُ ، فَلَمَّا اسْتَقَلَّ سَوِيًّا ، قَالَ اللهُ لَهُ : أَيْ بِوَاسِطَةِ الْمَلَكِ ﴿ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ قَالَ : وَذَلِكَ أَنَّهُ مَاتَ أَوَّلَ النَّهَارِ ، ثُمَّ بَعَثَهُ اللهُ فِي آخِرِ النَّهَارِ ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَاقِيَةً ظَنَّ أَنَّهَا شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمَ ، فَقَالَ : ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مَعَهُ فِيمَا ذُكِرَ عِنَبٌ وَتِينٌ وَعَصِيرٌ ، فَوَجَدَهُ كَمَا تَقَدَّمَ لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهُ شَيْءٌ ، لَا الْعَصِيرُ اسْتَحَالَ ، وَلَا التِّينُ حَمُضَ وَلَا أَنْتَنَ ، وَلَا الْعِنَبُ نَقَصَ ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ أَيْ : كَيْفَ يُحْيِيهِ اللهُ ﷻ وَأَنْتَ تَنْظُرُ ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أَيْ : دَلِيلًا عَلَى الْمَعَادِ ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ أَيْ : نَرْفَعُهَا فَيَرْكَبُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ

جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

ذَكَرُوا لِسُؤَالِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام **أَسْبَابًا، مِنْهَا**: أَنَّهُ لَمَّا قَالَ لِنُمْرُودَ: ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أَحَبَّ أَنْ يَتَرَقَّى مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ بِذَلِكَ، إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ وَأَنْ يَرَى ذَلِكَ مُشَاهَدَةً، فَقَالَ: ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ: وَقَطِّعْهُنَّ، **وَقِيلَ**: ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ أَوْثِقْهُنَّ، فَلَمَّا أَوْثَقَهُنَّ ذَبَحَهُنَّ، ثُمَّ جَعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا. ثُمَّ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَدْعُهُنَّ فَدَعَاهُنَّ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ ﷻ فَأَتَوا كَمَا أَخْبَرَ اللهُ ﴿ ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ بِحَوْلِ الله وَقُوَّتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ: عَزِيزٌ لَا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ.

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِتَضْعِيفِ الثَّوَابِ لِمَنْ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِهِ وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ، وَإِنَّ الْحَسَنَةَ تُضَاعَفُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، فَقَالَ: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يَعْنِي فِي طَاعَةِ الله، وَهَذَا الْمَثَلُ أَبْلَغُ فِي النُّفُوسِ مِنْ ذِكْرِ عَدَدِ السَّبْعِمِائَةِ، فَإِنَّ هَذَا فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ يُنَمِّيهَا اللهُ ﷻ لِأَصْحَابِهَا، كَمَا يُنَمِّي الزَّرْعَ لِمَنْ بَذَرَهُ فِي الْأَرْضِ الطَّيِّبَةِ. وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِتَضْعِيفِ الْحَسَنَةِ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ.

وَقَوْلُهُ هَاهُنَا: ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ: بِحَسَبِ إِخْلَاصِهِ فِي عَمَلِهِ ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ: فَضْلُهُ وَاسِعٌ كَثِيرٌ، أَكْثَرُ مِنْ خَلْقِهِ، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ، سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ.

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

يَمْدَحُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي سَبِيلِهِ، ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالصَّدَقَاتِ

مَنًّا عَلَى مَنْ أَعْطَوْهُ ، فَلَا يَمُنُّونَ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَمُنُّونَ بِهِ لَا بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَآ أَذًى ﴾ أَيْ : لَا يَفْعَلُونَ مَعَ مَنْ أَحْسَنُوا إِلَيْهِ مَكْرُوهًا ، يُحْبِطُونَ بِهِ مَا سَلَفَ مِنَ الْإِحْسَانِ ، ثُمَّ وَعَدَهُم اللهُ تَعَالَى الْجَزَاءَ الْجَزِيلَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : ثَوَابُهُمْ عَلَى اللهِ لَا عَلَى أَحَدٍ سِوَاهُ ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أَيْ : عَلَى مَا خَلَّفُوهُ مِنَ الْأَوْلَادِ ، وَلَا مَا فَاتَهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا ، لَا يَأْسَفُونَ عَلَيْهَا ، لِأَنَّهُمْ قَدْ صَارُوا إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ أَيْ : مِنْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَدُعَاءٍ لِمُسْلِمٍ ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ أَيْ : عَفْوٌ ، وَغَفْرٌ عَنْ ظُلْمٍ قَوْلِيٍّ أَوْ فِعْلِيٍّ ﴿ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾ . وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ الصَّدَقَةَ تَبْطُلُ بِمَا يَتْبَعُهَا مِنَ الْمَنِّ وَالْأَذَى ، فَمَا بَقِيَ ثَوَابُ الصَّدَقَةِ ، بِخَطِيئَةِ الْمَنِّ ، وَالْأَذَى ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ، كَمَا تَبْطُلُ صَدَقَةُ مَنْ رَاءَى بِهَا النَّاسَ ، فَأَظْهَرَ لَهُمْ أَنَّهُ يُرِيدُ وَجْهَ اللهِ ، وَإِنَّمَا قَصْدُهُ مَدْحُ النَّاسِ لَهُ أَوْ شُهْرَتُهُ بِالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ ، لِيُشْكَرَ بَيْنَ النَّاسِ ، أَوْ يُقَالَ إِنَّهُ كَرِيمٌ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ مَعَ قَطْعِ نَظَرِهِ عَنْ مُعَامَلَةِ اللهِ تَعَالَى اِبْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ وَجَزِيلِ ثَوَابِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ ثُمَّ ضَرَبَ تَعَالَى مَثَلَ ذَلِكَ الْمُرَائِي بِإِنْفَاقِهِ ، وَالَّذِي يُتْبِعُ نَفَقَتَهُ مَنًّا أَوْ أَذًى فَقَالَ : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ﴾ ، وَهُوَ جَمْعُ صَفْوَانَةٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ الصَّفْوَانُ يُسْتَعْمَلُ مُفْرَدًا أَيْضًا وَهُوَ الصَّفَا وَهُوَ الصَّخْرُ الْأَمْلَسُ ﴿ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ ﴾ هُوَ الْمَطَرُ الشَّدِيدُ ﴿ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾ أَيْ : فَتَرَكَ الْوَابِلُ ذَلِكَ الصَّفْوَانَ صَلْدًا ، أَيْ أَمْلَسَ يَابِسًا ، أَيْ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ التُّرَابِ ، بَلْ قَدْ ذَهَبَ كُلُّهُ ، أَيْ وَكَذَلِكَ أَعْمَالُ الْمُرَائِينَ تَذْهَبُ وَتَضْمَحِلُّ عِنْدَ اللهِ ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ أَعْمَالٌ فِيمَا يَرَى النَّاسُ كَالتُّرَابِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

وَهَذَا مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُنْفِقِينَ أَمْوَالَهُمْ اِبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أَيْ : وَهُمْ مُتَحَقِّقُونَ وَمُتَثَبِّتُونَ أَنَّ اللهَ سَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ ﴾ أَيْ : كَمَثَلِ بُسْتَانٍ بِرَبْوَةٍ ، وَهُوَ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ . ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ ، وَهُوَ الْمَطَرُ الشَّدِيدُ

﴿ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ﴾ أَيْ : ثَمَرَتَهَا ﴿ ضِعۡفَيۡنِ ﴾ أَيْ : بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الجِنَانِ ﴿ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞ ﴾ **قَالَ الضَّحَّاكُ** : هُوَ الرَّذَاذُ ، وَهُوَ اللَّيِّنُ مِنَ المَطَرِ ، أَيْ هَذِهِ الجَنَّةُ بِهَذِهِ الرَّبْوَةِ لَا تَمْحُلُ أَبَدًا ، لأَنَّهَا إِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَأَيًّا مَا كَانَ فَهُوَ كِفَايَتُهَا ، وَكَذَلِكَ عَمَلُ المُؤْمِنِ لَا يَبُورُ أَبَدًا ، بَلْ يَتَقَبَّلُهُ اللهُ وَيُكْثِرُهُ وَيُنَمِّيهِ ، كُلُّ عَامِلٍ بِحَسَبِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أَيْ : لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ عِبَادِهِ شَيْءٌ .

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ **يَوْمًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ** ﷺ : فِيمَنْ تَرَوْنَ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ ؟ ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ ﴾ قَالُوا : اللهُ أَعْلَمُ ، فَغَضِبَ عُمَرُ فَقَالَ : قُولُوا نَعْلَمُ ، أَوْ لَا نَعْلَمُ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ عُمَرُ : يَا ابْنَ أَخِي ، قُلْ وَلَا تَحْقِرْ نَفْسَكَ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ ، قَالَ عُمَرُ : أَيُّ عَمَلٍ ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لِعَمَلٍ . قَالَ عُمَرُ : لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ ، ثُمَّ بَعَثَ اللهُ لَهُ الشَّيْطَانَ فَعَمِلَ بِالمَعَاصِي ، حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ . وَفِي هَذَا الحَدِيثِ كِفَايَةٌ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ وَتَبْيِينُ مَا فِيهَا مِنَ المَثَلِ بِعَمَلِ مَنْ أَحْسَنَ العَمَلَ أَوَّلًا ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ انْعَكَسَ سَيْرُهُ ، فَبَدَّلَ الحَسَنَاتِ بِالسَّيِّئَاتِ - عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ - فَأَبْطَلَ بِعَمَلِهِ الثَّانِي مَا أَسْلَفَهُ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَ الصَّالِحِ ، وَاحْتَاجَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الأَوَّلِ فِي أَضْيَقِ الأَحْوَالِ فَلَمْ يَحْصُلْ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَخَانَهُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ ﴾ ، وَهُوَ الرِّيحُ الشَّدِيدُ ﴿ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡ ﴾ أَيْ : أَحْرَقَ ثِمَارَهَا ، وَأَبَادَ أَشْجَارَهَا ، فَأَيُّ حَالٍ يَكُونُ حَالُهُ ؟ . ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : تَعْتَبِرُونَ وَتَفْهَمُونَ الأَمْثَالَ ، وَالمَعَانِي ، وَتُنْزِلُونَهَا عَلَى المُرَادِ مِنْهَا ، كَمَا **قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ

أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِنْفَاقِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ الصَّدَقَةُ هَاهُنَا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي اِكْتَسَبُوهَا بِتَيْسِيرِهِ إِيَّاهَا لَهُمْ ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ﴾ أَيْ : تَقْصِدُوا ﴿ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ ﴾ أَيْ : لَوْ أُعْطِيتُمُوهُ مَا أَخَذْتُمُوهُ إِلَّا أَنْ تَتَغَاضَوْا فِيهِ ، فَاللهُ أَغْنَى عَنْهُ مِنْكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا للهِ مَا تَكْرَهُونَ . ﴿ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ﴾ لَوْ كَانَ لَكُمْ عَلَى أَحَدٍ حَقٌّ فَجَاءَكُمْ بِحَقٍّ دُونَ حَقِّكُمْ ، لَمْ تَأْخُذُوهُ بِحِسَابِ الْجَيِّدِ حَتَّى تُنْقِصُوهُ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ﴾ فَكَيْفَ تَرْضَوْنَ لِي مَا لَا تَرْضَوْنَ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَحَقِّي عَلَيْكُمْ مِنْ أَطْيَبِ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفَسِهِ ؟.

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أَيْ : وَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالصَّدَقَاتِ وَبِالطَّيِّبِ مِنْهَا ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَجَمِيعُ خَلْقِهِ فُقَرَاءُ إِلَيْهِ ، وَهُوَ وَاسِعُ الْفَضْلِ لَا يَنْفَدُ مَا لَدَيْهِ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ وَاسِعُ الْعَطَاءِ ، كَرِيمٌ جَوَادٌ ، وَسَيَجْزِيهِ بِهَا وَيُضَاعِفُهَا لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظَلُومٍ ، وَهُوَ الْحَمِيدُ أَيْ : الْمَحْمُودُ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ ، وَأَقْوَالِهِ ، وَشَرْعِهِ ، وَقَدَرِهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ ﴾ أَيْ : يُخَوِّفُكُم الْفَقْرَ ، لِتُمْسِكُوا مَا بِأَيْدِيكُمْ ، فَلَا تُنْفِقُوهُ فِي مَرْضَاةِ اللهِ ﴿ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ أَيْ : مَعَ نَهْيِهِ إِيَّاكُمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ خَشْيَةَ الْإِمْلَاقِ ، يَأْمُرُكُمْ بِالْمَعَاصِي ، وَالْمَآثِمِ ، وَالْمَحَارِمِ ، وَمُخَالَفَةِ الْخَلَّاقِ . ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ ﴾ أَيْ : فِي مُقَابَلَةِ مَا أَمَرَكُم الشَّيْطَانُ بِالْفَحْشَاءِ ﴿ وَفَضْلًا ﴾ أَيْ : فِي مُقَابَلَةِ مَا خَوَّفَكُم الشَّيْطَانُ مِنَ الْفَقْرِ ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ . الْحِكْمَةُ - كَمَا قَالَهُ الْجُمْهُورُ - لَا تَخْتَصُّ بِالنُّبُوَّةِ بَلْ هِيَ أَعَمُّ مِنْهَا ، وَأَعْلَاهَا النُّبُوَّةُ ، وَالرِّسَالَةُ أَخَصُّ ، وَلَكِنْ لِأَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ حَظٌّ مِنَ الْخَيْرِ عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أَيْ : وَمَا يَنْتَفِعُ بِالْمَوْعِظَةِ وَالتِّذْكَارِ إِلَّا مَنْ لَهُ لُبٌّ وَعَقْلٌ ، يَعِي بِهِ الْخِطَابَ وَمَعْنَى الْكَلَامِ .

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ الْعَامِلُونَ مِنَ الْخَيْرَاتِ ، مِنَ النَّفَقَاتِ وَالْمَنْذُورَاتِ ، وَتَضَمَّنَ ذَلِكَ مُجَازَاتُهُ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ ، لِلْعَامِلِينَ لِذَلِكَ ، اِبْتِغَاءَ وَجْهِهِ وَرَجَاءَ مَوْعُودِهِ ،

وَتَوَعَّدَ مَنْ لَا يَعْمَلُ بِطَاعَتِهِ بَلْ خَالَفَ أَمْرَهُ ، وَكَذَّبَ خَبَرَهُ ، وَعَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنْقِذُونَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَنِقْمَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ﴾ أَيْ : إِنْ أَظْهَرْتُمُوهَا فَنِعْمَ شَيْءٌ هِيَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ إِسْرَارَ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ مِنْ إِظْهَارِهَا ، لأَنَّهُ أَبْعَدُ عَنِ الرِّيَاءِ ، إِلَّا أَنْ يَتَرَتَّبَ عَلَى الْإِظْهَارِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ مِنِ اقْتِدَاءِ النَّاسِ بِهِ ، فَيَكُونُ أَفْضَلُ مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ . وَالْأَصْلُ أَنَّ الْإِسْرَارَ أَفْضَلُ لِهَذِهِ الْآيَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ أَيْ : بَدَلَ الصَّدَقَاتِ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ سِرًّا يَحْصُلُ لَكُمْ الْخَيْرُ فِي رَفْعِ الدَّرَجَاتِ ، وَيُكَفِّرُ عَنْكُمُ السَّيِّئَاتُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أَيْ : لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ .

لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ** : كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَرْضَخُوا لِأَنْسَابِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسَأَلُوا ، فَرَخَّصَ لَهُمْ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِأَنْ لَا يُتَصَدَّقُ إِلَّا عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾ إِلَى آخِرِهَا ، فَأَمَرَ بِالصَّدَقَةِ بَعْدَهَا عَلَى كُلِّ مَنْ سَأَلَكَ مِنْ كُلِّ دِينٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ وَنَظَائِرُهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ **قَالَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ** : يَعْنِي إِذَا أَعْطَيْتَ لِوَجْهِ اللهِ ، فَلَا عَلَيْكَ مَا كَانَ عَمَلُهُ ، وَهَذَا مَعْنًى حَسَنٌ ، وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْمُتَصَدِّقَ إِذَا

تَصَدَّقَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى الله ، وَلَا عَلَيْهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لِمَنْ أَصَابَ أَلِبَرٍّ ، أَوْ فَاجِرٍ ، أَوْ مُسْتَحِقٍّ ، أَوْ غَيْرِهِ ، وَهُوَ مُثَابٌ عَلَى قَصْدِهِ ، وَمُسْتَنَدُ هَذَا تَمَامُ الْآيَةِ ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يَعْنِي الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ قَدِ انْقَطَعُوا إِلَى الله وَإِلَى رَسُولِهِ ، وَسَكَنُوا الْمَدِينَةَ ، وَلَيْسَ لَهُمْ سَبَبٌ يَرُدُّونَ بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَا يُغْنِيهِمْ ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يَعْنِي سَفَرًا لِلتَّسَبُّبِ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ ، وَالضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ : هُوَ السَّفَرُ . ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ أَيْ : الْجَاهِلُ بِأَمْرِهِمْ وَحَالِهِمْ ، يَحْسَبُهُمْ أَغْنِيَاءَ مِنْ تَعَفُّفِهِمْ فِي لِبَاسِهِمْ وَحَالِهِمْ ، وَمَقَالِهِمْ . ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ أَيْ : بِمَا يَظْهَرُ لِذَوِي الْأَلْبَابِ مِنْ صِفَاتِهِمْ . ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ أَيْ : لَا يُلِحُّونَ فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَيُكَلِّفُونَ النَّاسَ مَا لَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ، فَإِنَّ مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ عَنِ الْمَسْأَلَةِ ، فَقَدْ أَلْحَفَ فِي الْمَسْأَلَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ ، وَسَيَجْزِي عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ وَأَتَمَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ هَذَا مَدْحٌ مِنْهُ تَعَالَى لِلْمُنْفِقِينَ فِي سَبِيلِهِ ، وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ ، مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، وَالْأَحْوَالِ مِنْ سِرٍّ وَجِهَارٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا فَعَلُوا مِنَ الْإِنْفَاقِ فِي الطَّاعَاتِ ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ .

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْأَبْرَارَ الْمُؤَدِّينَ النَّفَقَاتِ ، الْمُخْرِجِينَ الزَّكَوَاتِ ، الْمُتَفَضِّلِينَ بِالْبِرِّ وَالصَّدَقَاتِ لِذَوِي الْحَاجَاتِ وَالْقَرَابَاتِ ، فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْأَوْقَاتِ ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ أَكَلَةِ الرِّبَا وَأَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَنْوَاعِ الشُّبُهَاتِ ، فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ يَوْمَ خُرُوجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ ، وَقِيَامِهِمْ مِنْهَا ، إِلَى بَعْثِهِمْ وَنُشُورِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ أَيْ : لَا يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الْمَصْرُوعُ حَالَ صَرْعِهِ ، وَتَخَبُّطُ الشَّيْطَانِ لَهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَقُومُ قِيَامًا مُنْكَرًا ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : آكِلُ الرِّبَا يُبْعَثُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَجْنُونًا يُخْنَق . وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا جُوزُوا بِذَلِكَ لِاعْتِرَاضِهِمْ عَلَى أَحْكَامِ اللهِ فِي شَرْعِهِ ، وَلَيْسَ هَذَا قِيَاسًا مِنْهُمْ لِلرِّبَا عَلَى الْبَيْعِ ، وَلَوْ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْقِيَاسِ لَقَالُوا : إِنَّمَا الرِّبَا مِثْلُ الْبَيْعِ ، وَإِنَّمَا قَالُوا : ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ أَيْ : هُوَ نَظِيرُهُ ، فَلِمَ حُرِّمَ هَذَا وَأُبِيحَ هَذَا ؟ وَهَذَا اعْتِرَاضٌ مِنْهُمْ عَلَى الشَّرْعِ ، أَيْ هَذَا مِثْلُ هَذَا ، وَقَدْ أَحَلَّ هَذَا وَحَرَّمَ هَذَا . ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تَمَامِ الْكَلَامِ رَدًّا عَلَيْهِمْ ، أَيْ عَلَى مَا قَالُوهُ مِنَ الِاعْتِرَاضِ ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِتَفْرِيقِ اللهِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا حُكْمًا ، وَهُوَ الْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَمَصَالِحِهَا ، وَمَا يَنْفَعُ عِبَادَهُ فَيُبِيحُهُ لَهُمْ ، وَمَا يَضُرُّهُمْ فَيَنْهَاهُمْ عَنْهُ ، وَهُوَ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا الطِّفْلِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مَنْ بَلَغَهُ نَهْيُ اللهِ عَنِ الرِّبَا ، فَانْتَهَى حَالُ وُصُولِ الشَّرْعِ إِلَيْهِ ، فَلَهُ مَا سَلَفَ مِنَ الْمُعَامَلَةِ أي : مَا كَانَ أَكَلَ مِنَ الرِّبَا قَبْلَ التَّحْرِيمِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ أَيْ : إِلَى الرِّبَا ، فَفَعَلَهُ بَعْدَ بُلُوغِهِ نَهْيَ اللهِ عَنْهُ فَقَدِ اسْتَوْجَبَ الْعُقُوبَةَ ، وَقَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : آخِرُ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ آيَةُ الرِّبَا .

يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ يَمْحَقُ الرِّبَا ، أَيْ يُذْهِبُهُ ، إِمَّا بِأَنْ يُذْهِبَهُ بِالْكُلِّيَّةِ مِنْ يَدِ صَاحِبِهِ ، أَوْ يُحْرِمَهُ بَرَكَةَ مَالِهِ ، فَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ ، بَلْ يُعَذِّبُهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا ، وَيُعَاقِبُهُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ قُرِئَ بِضَمِّ الْيَاءِ وَالتَّخْفِيفِ مِنْ رَبَا الشَّيْءِ ، يَرْبُو ، وَأَرْبَاهُ ، يُرْبِيهِ ، أَيْ : كَثَّرَهُ ، وَنَمَّاهُ ، يُنَمِّيهِ . ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ أَيْ : لَا يُحِبُّ كَفُورَ الْقَلْبِ ، أَثِيمَ الْقَوْلِ ، وَالْفِعْلِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ، مَادِحًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِرَبِّهِمْ ، الْمُطِيعِينَ أَمْرَهُ ، الْمُؤَدِّينَ شُكْرَهُ ، الْمُحْسِنِينَ إِلَى خَلْقِهِ فِي إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، مُخْبِرًا عَمَّا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ ، وَأَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ التَّبَعَاتِ آمِنُونَ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا

تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ ، نَاهِيًا لَهُمْ عَمَّا يُقَرِّبُهُمْ إِلَى سَخَطِهِ ، وَيُبْعِدُهُمْ عَنْ رِضَاهُ ، **فَقَالَ** : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَيْ : خَافُوهُ وَرَاقِبُوهُ فِيمَا تَفْعَلُونَ ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ أَيْ : اُتْرُكُوا مَا لَكُمْ عَلَى النَّاسِ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى رُءُوسِ الْأَمْوَالِ بَعْدَ هَذَا الْإِنْذَارِ ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : بِمَا شَرَعَ اللهُ لَكُمْ مِنْ تَحْلِيلِ الْبَيْعِ ، وَتَحْرِيمِ الرِّبَا وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنِ اسْتَمَرَّ عَلَى تَعَاطِي الرِّبَا بَعْدَ الْإِنْذَارِ . **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : ﴿ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ ﴾ أَيْ : اِسْتَيْقِنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ .

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ ﴾ أَيْ : بِأَخْذِ الزِّيَادَةِ ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ أَيْ : بِوَضْعِ رُءُوسِ الْأَمْوَالِ أَيْضًا ، بَلْ لَكُمْ مَا بَذَلْتُمْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ عَلَيْهِ ، وَلَا نَقْصٍ مِنْهُ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى بِالصَّبْرِ عَلَى الْمُعْسِرِ الَّذِي لَا يَجِدُ وَفَاءً فَقَالَ : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ لَا كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُ أَحَدُهُمْ لِمَدِينِهِ إِذَا حَلَّ عَلَيْهِ الدَّيْنُ : إِمَّا أَنْ تَقْضِيَ وَإِمَّا أَنْ تُرْبِيَ . ثُمَّ يَنْدُبُ إِلَى الْوَضْعِ عَنْهُ وَيَعِدُ عَلَى ذَلِكَ الْخَيْرَ وَالثَّوَابَ الْجَزِيلَ ، **فَقَالَ** : ﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : وَإِنْ تَتْرُكُوا رَأْسَ الْمَالِ بِالْكُلِّيَّةِ وَتَضَعُوهُ عَنِ الْمَدِينِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ، يَعِظُ عِبَادَهُ وَيُذَكِّرُهُمْ زَوَالَ الدُّنْيَا ، وَفَنَاءَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَغَيْرِهَا ، وَإِتْيَانَ الْآخِرَةِ ، وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ تَعَالَى ، وَمُحَاسَبَتَهُ تَعَالَى خَلْقَهُ عَلَى مَا عَمِلُوا وَمُجَازَاتَهُ إِيَّاهُمْ بِمَا كَسَبُوا ، مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَيُحَذِّرُهُمْ عُقُوبَتَهُ : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ

إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَطْوَلُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . وَقَوْله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ هَذَا إِرْشَادٌ مِنْهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِذَا تَعَامَلُوا بِمُعَامَلَاتٍ مُؤَجَّلَة أَنْ يَكْتُبُوهَا ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَحْفَظُ لِمِقْدَارِهَا وَمِيقَاتِهَا ، وَأَضْبَطُ لِلشَّاهِدِ فِيهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱكْتُبُوه ﴾ أَمْرٌ مِنْهُ تَعَالَى بِالْكِتَابَةِ لِلتَّوْثِقَةِ وَالْحِفْظِ . قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا ثُمَّ نُسِخَ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ﴾ أَيْ : بِالْقِسْطِ وَالْحَقِّ وَلَا يَجُرْ فِي كِتَابَتِهِ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَكْتُبُ إِلَّا مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ ، وَلَا نُقْصَانٍ . ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ ﴾ أَيْ : وَلَا يَمْتَنِعُ مَنْ يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ إِذَا سُئِلَ أَنْ يَكْتُبَ لِلنَّاسِ ، وَلَا ضَرُورَةَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ، فَكَمَا عَلَّمَهُ اللهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ، فَلْيَتَصَدَّقْ عَلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ وَلْيَكْتُبْ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « إِنَّ مِنَ الصَّدَقَةِ أَنْ تُعِينَ صَانِعًا ، أَوْ تَصْنَعَ لِأَخْرَقَ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ أَيْ : وَلْيُمْلِلِ الْمَدِينُ عَلَى الْكَاتِبِ مَا فِي ذِمَّتِهِ مِنَ الدَّيْنِ ، وَلْيَتَّقِ اللهَ فِي ذَلِكَ ﴿ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَا يَكْتُمُ مِنْهُ شَيْئًا ﴿ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا ﴾ مَحْجُورًا عَلَيْهِ ، بِتَبْذِيرٍ وَنَحْوِهِ ﴿ أَوْ ضَعِيفًا ﴾ أَيْ : صَغِيرًا أَوْ مَجْنُونًا ﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ ﴾ إِمَّا لِعِيٍّ أَوْ جَهْلٍ بِمَوْضِعِ صَوَابِ ذَلِكَ مِنْ خَطَئِهِ ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ أَمْرٌ بِالْإِشْهَادِ مَعَ الْكِتَابَةِ لِزِيَادَةِ التَّوْثِقَةِ ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ ﴾ ، وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْأَمْوَالِ ، وَمَا يَقْصِدُ بِهِ الْمَالَ ، وَإِنَّمَا أُقِيمَتِ الْمَرْأَتَانِ مَقَامَ الرَّجُلِ لِنُقْصَانِ عَقْلِ الْمَرْأَةِ . ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى اشْتِرَاطِ الْعَدَالَةِ فِي الشُّهُودِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا ﴾ يَعْنِي : الْمَرْأَتَيْنِ إِذَا نَسِيَتِ الشَّهَادَةُ ﴿ فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ أَيْ : يَحْصُلُ لَهَا ذِكْرٌ بِمَا وَقَعَ بِهِ مِنَ الْإِشْهَادِ . وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ﴾ لِلْأَدَاءِ ، لِحَقِيقَةِ قَوْلِهِ الشُّهَدَاءُ وَالشَّاهِدُ حَقِيقَةٌ فِيمَنْ تَحَمَّلَ ، فَإِذَا دُعِيَ لِأَدَائِهَا فَعَلَيْهِ الْإِجَابَةُ إِذَا تَعَيَّنَتْ ، وَإِلَّا فَهُوَ فَرْضُ كِفَايَةٍ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : إِذَا دُعِيتَ لِتَشْهَدَ فَأَنْتَ بِالْخِيَارِ ، وَإِذَا شَهِدْتَ فَدُعِيتَ فَأَجِبْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْإِرْشَادِ وَهُوَ الْأَمْرُ بِكِتَابَةِ الْحَقِّ صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا ، فَقَالَ : وَلَا تَسْأَمُوا . أَيْ : لَا تَمَلُّوا أَنْ تَكْتُبُوا الْحَقَّ عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ مِنَ الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ إِلَى أَجَلِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ﴾ . أَيْ : هَذَا الَّذِي أَمَرْنَاكُم بِهِ مِنَ الْكِتَابَةِ لِلْحَقِّ ، إِذَا كَانَ مُؤَجَّلًا ، هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ الله ، أَيْ : أَعْدَلُ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ ، أَيْ : أَثْبَتُ لِلشَّاهِدِ إِذَا وَضَعَ خَطَّهُ ثُمَّ رَآهُ تَذَكَّرَ بِهِ الشَّهَادَةَ ، لِاحْتِمَالِ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكْتُبْهُ أَنْ يَنْسَاهُ ، كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ غَالِبًا ﴿ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ﴾ ، وَأَقْرَبُ إِلَى عَدَمِ الرِّيبَةِ بَلْ تَرْجِعُونَ عِنْدَ التَّنَازُعِ إِلَى الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتُمُوهُ ، فَيَفْصِلُ بَيْنَكُمْ بِلَا رِيبَةٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾ أَيْ : إِذَا كَانَ الْبَيْعُ بِالْحَاضِرِ يَدًا بِيَدٍ فَلَا بَأْسَ بِعَدَمِ الْكِتَابَةِ ، لِانْتِفَاءِ الْمَحْذُورِ فِي تَرْكِهَا . **فَأَمَّا الْإِشْهَادُ عَلَى الْبَيْعِ** فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ **قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : يَعْنِي : أَشْهِدُوا عَلَى حَقِّكُمْ إِذَا كَانَ فِيهِ أَجَلٌ ، أَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ أَجَلٌ فَأَشْهِدُوا عَلَى حَقِّكُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : هَذَا الْأَمْرُ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ ﴾ ، وَهَذَا الْأَمْرُ مَحْمُولٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ عَلَى الْإِرْشَادِ وَالنَّدْبِ ، لَا عَلَى الْوُجُوبِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ **قِيلَ مَعْنَاهُ** : لَا يُضَارَّ الْكَاتِبُ وَلَا الشَّاهِدُ ، فَيَكْتُبُ هَذَا خِلَافَ مَا يُمْلِي ، وَيَشْهَدُ هَذَا بِخِلَافِ مَا سَمِعَ ، أَوْ يَكْتُمُهَا بِالْكُلِّيَّةِ ، **وَقِيلَ مَعْنَاهُ** : لَا يَضُرّ بِهِمَا ، وإِيضَاحُهُ كَمَا جَاءَ عَنْ عَدَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَأْتِي الرَّجُلُ فَيَدْعُوهُمَا إِلَى الْكِتَابِ وَالشَّهَادَةِ ، فَيَقُولَانِ : إِنَّا عَلَى حَاجَةٍ ، فَيَقُولُ : إِنَّكُمَا قَدْ أُمِرْتُمَا أَنْ تُجِيبَا ، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُضَارَّهُمَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ﴾ أَيْ : إِنْ خَالَفْتُمْ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ ، أَوْ فَعَلْتُمْ مَا نُهِيتُمْ عَنْهُ ، فَإِنَّهُ فِسْقٌ كَائِنٌ بِكُمْ ، أَيْ لَازِمٌ لَكُمْ لَا تَحِيدُونَ عَنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : خَافُوهُ ، وَرَاقِبُوهُ ، وَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ ، وَاتْرُكُوا زَجْرَهُ ، ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال : ٢٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : هُوَ عَالِمٌ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ ، وَمَصَالِحِهَا ، وَعَوَاقِبِهَا ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، بَلْ عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ .

وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ

ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ أَيْ : مُسَافِرِينَ ، وَتَدَايَنْتُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴿ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا ﴾ يَكْتُبُ لَكُمْ ، فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ، أَيْ : فَلْيَكُنْ بَدَلُ الْكِتَابَةِ رِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ، أَيْ : فِي يَدِ صَاحِبِ الْحَقِّ . ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ ﴾ أَيْ : إِذَا ائْتَمَنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلَا بَأْسَ أَنْ لَا تَكْتُبُوا ، أَوْ لَا تُشْهِدُوا . ﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ يُعْنَى : الْمُؤْتَمَن .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ ﴾ أَيْ : لَا تُخْفُوهَا ، وَتُغْلُوهَا ، وَلَا تُظْهِرُوهَا ، ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ يَعْنِي : فَاجِرٌ قَلْبُهُ .

لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا فِيهِنَّ ، وَمَا بَيْنَهُنَّ ، وَأَنَّهُ الْمُطَّلِعُ عَلَى مَا فِيهِنَّ ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ الظَّوَاهِرُ ، وَلَا السَّرَائِرُ ، وَالضَّمَائِرُ ، وَإِنْ دَقَّتْ وَخَفِيَتْ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ سَيُحَاسِبُ عِبَاده عَلَى مَا فَعَلُوهُ ، وَمَا أَخْفَوهُ فِي صُدُورِهِمْ ، وَقَدْ أَخْبَرَ فِي هَذِهِ بِمَزِيدٍ عَلَى الْعِلْمِ وَهُوَ الْمُحَاسَبَةُ عَلَى ذَلِكَ وَلِهَذَا لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَة اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الصَّحَابَة ، وَخَافُوا مِنْهَا ، وَمِنْ مُحَاسَبَةِ الله لَهُمْ عَلَى جَلِيلِ الْأَعْمَالِ وَحَقِيرِهَا ، وَهَذَا مِنْ شِدَّةِ إِيمَانِهِمْ وَإِيقَانِهِمْ .

فَلَمَّا أَقَرَّ بِهَا الْقَوْمُ وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ أَنْزَلَ اللهُ فِي أَثَرِهَا ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ إِلَى آخِرِهِ .

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ - مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ - فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ**». **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ**: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ جِبْرِيلُ إِذْ سَمِعَ نَقِيضًا فَوْقَهُ، فَرَفَعَ جِبْرِيلُ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: هَذَا بَابٌ قَدْ فُتِحَ مِنَ السَّمَاءِ مَا فُتِحَ قَطُّ قَالَ: فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لَهُ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ قَدْ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ، فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ حَرْفًا مِنْهُمَا إِلَّا أُوتِيتَهُ. **قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ إِخْبَارٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ. **وَقَوْلُهُ**: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ عَطْفٌ عَلَى الرَّسُولِ ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الْجَمِيعِ فَقَالَ: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ فَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ فَرْدٌ صَمَدٌ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَيُصَدِّقُونَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَالْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى عِبَادِ اللهِ الْمُرْسَلِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، بَلِ الْجَمِيعُ عِنْدَهُمْ صَادِقُونَ بَارُّونَ رَاشِدُونَ مَهْدِيُّونَ هَادُونَ إِلَى سَبِيلِ الْخَيْرِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أَيْ: سَمِعْنَا قَوْلَكَ يَا رَبَّنَا، وَفَهِمْنَاهُ وَقُمْنَا بِهِ، وَامْتَثَلْنَا الْعَمَلَ بِمُقْتَضَاهُ ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ سُؤَالٌ لِلْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَاللُّطْفِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أَيْ: لَا يُكَلَّفُ أَحَدٌ فَوْقَ طَاقَتِهِ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَهَذِهِ هِيَ النَّاسِخَةُ الرَّافِعَةُ لِمَا كَانَ أَشْفَقَ مِنْهُ الصَّحَابَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: هُوَ وَإِنْ حَاسَبَ وَسَأَلَ لَكِنْ لَا يُعَذِّبُ إِلَّا بِمَا يَمْلِكُ الشَّخْصُ دَفْعَهُ، فَأَمَّا مَا لَا يَمْلِكُ دَفْعَهُ مِنْ وَسْوَسَةِ النَّفْسِ وَحَدِيثِهَا، فَهَذَا لَا يُكَلَّفُ بِهِ الْإِنْسَانُ، وَكَرَاهِيَةُ الْوَسْوَسَةِ السَّيِّئَةِ مِنَ الْإِيمَانِ. **وَقَوْلُهُ**: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أَيْ: مِنْ خَيْرٍ ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ أَيْ: مِنْ شَرٍّ، وَذَلِكَ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي تَدْخُلُ تَحْتَ التَّكْلِيفِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُرْشِدًا عِبَادَهُ إِلَى سُؤَالِهِ، وَقَدْ تَكَفَّلَ لَهُمْ بِالْإِجَابَةِ، كَمَا أَرْشَدَهُمْ وَعَلَّمَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أَيْ: إِنْ تَرَكْنَا فَرْضًا عَلَى جِهَةِ النِّسْيَانِ، أَوْ فَعَلْنَا حَرَامًا كَذَلِكَ، أَوْ أَخْطَأْنَا، أَيِ الصَّوَابُ فِي الْعَمَلِ جَهْلًا مِنَّا بِوَجْهِهِ الشَّرْعِيِّ، وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «**قَالَ اللهُ: نَعَمْ**» وَحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ «**قَالَ اللهُ: قَدْ فَعَلْتُ**».

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أَيْ: لَا تُكَلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ وَإِنْ أَطَقْنَاهَا، كَمَا شَرَعْتَهُ لِلْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ قَبْلَنَا مِنَ الْأَغْلَالِ وَالْآصَارِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، الَّتِي بَعَثْتَ نَبِيَّكَ مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيَّ الرَّحْمَةِ بِوَضْعِهِ فِي شَرْعِهِ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ بِهِ مِنَ الدِّينِ الْحَنِيفِيِّ السَّهْلِ السَّمْحِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**قَالَ اللهُ: نَعَمْ**». وَفِي الْحَدِيثِ

الآخرِ : ((**قَالَ اللهُ : قَدْ فَعَلْتُ**)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ أَيْ : مِنَ التَّكْلِيفِ وَالمَصَائِبِ وَالْبَلَاءِ لَا تَبْتَلِنَا بِمَا لَا قِبَلَ لَنَا بِهِ ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا ﴾ أَيْ : فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، مِمَّا تَعْلَمُهُ مِنْ تَقْصِيرِنَا وَزَلَلِنَا ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَا ﴾ أَيْ : فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ عِبَادِكَ ، فَلَا تُظْهِرهُمْ عَلَى مَسَاوِينَا ، وَأَعْمَالِنَا الْقَبِيحَةِ ﴿ وَٱرْحَمْنَآ ﴾ أَيْ : فِيمَا يُسْتَقْبَلُ ، فَلَا تُوقِعنَا بِتَوْفِيقِكَ فِي ذَنْبٍ آخرٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ ((**قَالَ اللهُ : نَعَمْ**)) وَفِي الْحَدِيثِ الْآخرِ ((**قَالَ اللهُ : قَدْ فَعَلْتُ**)).

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنتَ مَوْلَىٰنَا ﴾ أَيْ : أَنْتَ وَلِيُّنَا وَنَاصِرُنَا ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْكَ التُّكْلَانُ ، وَلَا حَوْلَ لَنَا وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ ﴿ فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ جَحَدُوا دِينَكَ ، وَأَنْكَرُوا وَحْدَانِيَّتَكَ ، وَرِسَالَةَ نَبِيِّكَ ، وَعَبَدُوا غَيْرَكَ ، وَأَشْرَكُوا مَعَكَ مِنْ عِبَادِكَ ، فَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ ، وَاجْعَلْ لَنَا الْعَاقِبَةَ عَلَيْهِمْ ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ((**قَالَ اللهُ : نَعَمْ**)) وَفِي الْحَدِيثِ الآخرِ ((**قَالَ اللهُ : قَدْ فَعَلْتُ**)).

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ البَقَرَةِ وَللهِ تَعَالَى الحَمْدُ وَالمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ ، وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ، وَلَا حَولَ وَلَا قوةَ إِلَّا بِالله العَلِيِّ العَظِيمِ ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ .

تفسيرُ سُورَةِ آل عِمْرَانَ

آياتها ٢٠٠ مدنيـــة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾

تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الٓمٓ ﴾ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ ، وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْكُرْسِيِّ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يَعْنِي : نَزَّلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ يَا مُحَمَّدُ بِالْحَقِّ أَيْ : لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا رَيْبَ ، بَلْ هُوَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﷻ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ قَبْلَهُ مِنَ السَّمَاءِ ، عَلَى عِبَادِ اللهِ الْأَنْبِيَاءِ

﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ أَيْ : عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ﴿ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ أَيْ : عَلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أَيْ : فِي زَمَانِهِمَا ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ وَهُوَ الْفَارِقُ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : جَحَدُوا بِهَا وَأَنْكَرُوهَا وَرَدُّوهَا بِالْبَاطِلِ ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أَيْ : مَنِيعُ الْجَنَابِ عَظِيمُ السُّلْطَانِ ﴿ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ أَيْ : مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ وَخَالَفَ رُسُلَهُ الْكِرَامَ وَأَنْبِيَاءَهُ الْعِظَامَ .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ . ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ أَيْ : يَخْلُقُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَمَا يَشَاءُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَحَسَنٍ وَقَبِيحٍ وَشَقِيٍّ وَسَعِيدٍ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أَيْ : هُوَ الَّذِي خَلَقَ وَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْإِلَهِيَّةِ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَهُ الْعِزَّةُ الَّتِي لَا تُرَامُ ، وَالْحِكْمَةُ وَالْأَحْكَامُ .

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ، أَيْ : بَيِّنَاتٌ وَاضِحَاتُ الدَّلَالَةِ لَا الْتِبَاسَ فِيهَا عَلَى أَحَدٍ ، وَمِنْهُ آيَاتٌ أُخَرُ فِيهَا اشْتِبَاهٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ بَعْضِهِمْ ، فَمَنْ رَدَّ مَا اشْتَبَهَ إِلَى الْوَاضِحِ مِنْهُ وَحَكَّمَ مُحْكَمَهُ عَلَى مُتَشَابِهِهِ عِنْدَه فَقَدِ اهْتَدَى وَمَنْ عَكَسَ انْعَكَسَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أَيْ : أَصْلُهُ الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ عِنْدَ الاشْتِبَاهِ ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ أَيْ : تَحْتَمِلُ دَلَالَتُهَا مُوَافَقَةَ الْمُحْكَمِ ، وَقَدْ تَحْتَمِلُ شَيْئًا آخَرَ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ وَالتَّرْكِيبِ لَا مِنْ حَيْثُ الْمُرَادِ .

وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ أَيْ : ضَلَالٌ وَخُرُوجٌ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ

﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ بِالْمُتَشَابِهِ الَّذِي يُمْكِنُهُمْ أَنْ يُحَرِّفُوهُ إِلَى مَقَاصِدِهِم الْفَاسِدَةِ ، وَيُنْزِلُوهُ عَلَيْهَا لِاحْتِمَالِ لَفْظِهِ لِمَا يَصْرِفُونَهُ ، فَأَمَّا الْمُحْكَمُ فَلَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهِ لِأَنَّهُ دَافِعٌ لَهُمْ وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى :** ﴿ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ ﴾ أَيْ : الْإِضْلَال لِأَتْبَاعِهِمْ ، إِيهَامًا لَهُمْ أَنَّهُمْ يَحْتَجُّونَ عَلَى بِدْعَتِهِمْ بِالْقُرْآنِ ، وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ لَا لَهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ أَيْ : تَحْرِيفُهُ عَلَى مَا يُرِيدُونَ . **عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ :** تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ **قَالَتْ :** قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ اخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي الْوَقْفِ هَهُنَا ، **فَقِيلَ :** عَلَى الْجَلَالَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ وَقَالُوا : **الْخِطَابُ بِمَا لَا يُفْهَمُ بَعِيدٌ .**

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَا لِابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فَقَالَ : ((**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**)) ، **وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ فَصَّلَ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَقَالَ :** التَّأْوِيلُ يُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ مَعْنَيَانِ : أَحَدُهُمَا : التَّأْوِيلُ بِمَعْنَى حَقِيقَةِ الشَّيْءِ وَمَا يَئُولُ أَمْرُهُ إِلَيْهِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، **وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ :** ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ أَيْ : بِالْمُتَشَابِهِ ، ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ أَيْ : **الْجَمِيعُ مِنَ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ حَقٌّ وَصِدْقٌ** ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُصَدِّقُ الْآخَرَ وَيَشْهَدُ لَهُ لِأَنَّ الْجَمِيعَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَفْهَمُ وَيَعْقِلُ وَيَتَدَبَّرُ الْمَعَانِي عَلَى وَجْهِهَا أُولُو الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ وَالْفُهُومِ الْمُسْتَقِيمَةِ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُمْ دَعَوْا رَبَّهُمْ قَائِلِينَ :** ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ أَيْ : لَا تُمِلْهَا عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ أَقَمْتَهَا عَلَيْهِ وَلَا تَجْعَلْنَا كَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَلَكِنْ ثَبِّتْنَا عَلَى صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ وَدِينِكَ الْقَوِيمِ ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ تُثَبِّتُ بِهَا قُلُوبَنَا وَتَجْمَعُ بِهَا شَمْلَنَا وَتَزِيدُنَا بِهَا إِيمَانًا وَإِيقَانًا ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ أَيْ : يَقُولُونَ فِي دُعَائِهِمْ : إِنَّكَ يَا رَبَّنَا سَتَجْمَعُ بَيْنَ خَلْقِكَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ، وَتَفْصِلُ بَيْنَهُمْ وَتَحْكُمُ فِيهِمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَتَجْزِي كُلًّا بِعَمَلِهِ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ

بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ بِأَنَّهُمْ وَقُودُ النَّارِ ، وَلَيْسَ مَا أُوتُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ بِنَافِعٍ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ ، وَلَا بِمُنْجِيهِمْ مِنْ عَذَابِهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَيْ : بِآيَاتِ اللهِ ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ ، وَخَالَفُوا كِتَابَهُ ، وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِوَحْيِهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : حَطَبُهَا الَّذِي تُسْجَرُ بِهِ وَتُوقَدُ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ : كَصَنِيعِ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : كَسُنَّةِ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَكَفِعْلِ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَكَشَبَهِ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَالْأَلْفَاظُ مُتَقَارِبَةٌ . وَالدَّأْبُ بِالتَّسْكِينِ وَالتَّحْرِيكِ أَيْضًا كَنَهْرٍ وَنَهَرٍ : هُوَ الصَّنِيعُ وَالْحَالُ وَالشَّأْنُ وَالْأَمْرُ وَالْعَادَةُ .

وَالْمَعْنَى فِي الْآيَةِ : أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا تُغْنِي عَنْهُمُ الْأَمْوَالُ وَلَا الْأَوْلَادُ ، بَلْ يَهْلِكُونَ وَيُعَذَّبُونَ ، كَمَا جَرَى لِآلِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ فِيمَا جَاءُوا مِنْ آيَاتِ اللهِ وَحُجَجِهِ ﴿ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أَيْ شَدِيدُ الْأَخْذِ ، أَلِيمُ الْعَذَابِ .

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْكَافِرِينَ سَتُغْلَبُونَ ، أَيْ : فِي الدُّنْيَا ، وَتُحْشَرُونَ ، أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادِ . ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴾ أَيْ : قَدْ كَانَ لَكُمْ أَيُّهَا الْيَهُودُ الْقَائِلُونَ مَا قُلْتُمْ آيَةٌ ، أَيْ : دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اللهَ مُعِزُّ دِينِهِ ، وَنَاصِرُ رَسُولِهِ ، وَمُظْهِرُ كَلِمَتِهِ ، وَمُعْلِ أَمْرِهِ ﴿ فِى فِئَتَيْنِ ﴾ أَيْ : طَائِفَتَيْنِ ﴿ ٱلْتَقَتَا ﴾ أَيْ : لِلْقِتَالِ ﴿ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾ وَهُمْ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ . ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : يَرَى الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ بَدْرٍ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَيْهِمْ فِي الْعَدَدِ رَأْيَ أَعْيُنِهِمْ ، أَيْ : جَعَلَ اللهُ ذَلِكَ فِيمَا رَأَوْهُ سَبَبًا لِنُصْرَةِ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِمْ .

وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ الْمَعْنَى أَيْ : يَرَى الْفِئَةَ الْمُسْلِمَةُ الْفِئَةَ الْكَافِرَةَ مِثْلَيْهِمْ ، أَيْ : ضِعْفَيْهِمْ فِي الْعَدَدِ ، وَمَعَ هَذَا نَصَرَهُمُ اللهُ عَلَيْهِمْ . **لَكِنْ بَقِيَ سُؤَالٌ آخَرُ وَهُوَ وَارِدٌ عَلَى الْقَوْلَيْنِ وَهُوَ** : أَنْ يُقَالَ مَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي قِصَّةِ بَدْرٍ ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ [الأنفال : ٤٤] **فَالْجَوَابُ** : أَنَّ هَذَا كَانَ فِي حَالَةٍ وَالْآخَرُ كَانَ فِي حَالَةٍ أُخْرَى . فَعِنْدَمَا عَايَنَ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الْآخَرَ رَأَى الْمُسْلِمُونَ الْمُشْرِكِينَ مِثْلَيْهِمْ ، أَيْ : أَكْثَرَ مِنْهُمْ بِالضِّعْفِ ، لِيَتَوَكَّلُوا وَيَتَوَجَّهُوا وَيَطْلُبُوا الْإِعَانَةَ مِنْ رَبِّهِمْ

ﷺ ورأى المُشْرِكُونَ المُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ لِيَحْصُلَ لَهُمُ الرُّعْبِ وَالخَوْف وَالجَزَع وَالهَلَع ، ثُمَّ لَمَّا حَصَلَ التَّصَافُّ وَالْتَقَى الفَرِيقَانِ قَلَّلَ اللهُ هَؤُلَاءِ فِي أَعْيُنِ هَؤُلَاءِ ، وَهَؤُلَاءِ فِي أَعْيُنِ هَؤُلَاءِ لَيُقْدِمَ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى الآخَرِ ﴿ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ﴾ أَيْ : لِيُفَرِّقَ بَيْنَ الحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، فَيُظْهِرَ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ عَلَى الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ ، وَيُعِزَّ الْمُؤْمِنِينَ وَيُذِلَّ الْكَافِرِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ وَفَهْمٌ لِيَهْتَدِيَ بِهِ إِلَى حُكْمِ اللهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَقَدَرِهِ الجَارِي بِنَصْرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ .

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا زُيِّنَ لِلنَّاسِ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ أَنْوَاعِ المَلَاذِّ مِن النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ فَبَدَأَ بِالنِّسَاءِ لأَنَّ الْفِتْنَةَ بِهِنَّ أَشَدُّ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ : « **مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ** » فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقَصْدُ بِهِنَّ الْإِعْفَافُ وَكَثْرَةُ الْأَوْلَادِ فَهَذَا مَطْلُوبٌ مَرْغُوبٌ فِيهِ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ ، كَمَا وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ بِالتَّرْغِيبِ فِي التَّزْوِيجِ وَالاسْتِكْثَارِ مِنْهُ ، وَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ كَانَ أَكْثَرُهَا نِسَاءً ، وَقَوْلُهُ ﷺ : « **الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِهَا المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ إِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ ، وَإِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ** » ، وَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ : « **حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ** » .

وَحُبُّ الْبَنِينَ تَارَةً يَكُونُ لِلتَّفَاخُرِ وَالزِّينَةِ ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي هَذَا ، وَتَارَةً يَكُونُ لِتَكْثِيرِ النَّسْلِ وَتَكْثِيرِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِمَّنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَهَذَا مَحْمُودٌ مَمْدُوحٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ « **تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** » .

وَحُبُّ المَالِ كَذَلِكَ تَارَةً يَكُونُ لِلْفَخْرِ وَالخُيَلَاءِ وَالتَّكَبُّرِ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَالتَّجَبُّرِ عَلَى الْفُقَرَاءِ فَهَذَا مَذْمُومٌ ، وَتَارَةً يَكُونُ لِلنَّفَقَةِ فِي الْقُرُبَاتِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالْقَرَابَاتِ وَوُجُوهِ الْبِرِّ وَالطَّاعَاتِ ، فَهَذَا مَمْدُوحٌ مَحْمُودٌ شَرْعًا . وَقَدِ اخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي مِقْدَارِ الْقِنْطَارِ عَلَى أَقْوَالٍ وَحَاصِلُهَا أَنَّهُ المَالُ الجَزِيلُ .

وَحُبُّ الخَيْلِ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسَامٍ تَارَةً يَكُونُ رَبطَهَا أَصْحَابُهَا مُعَدَّةً لِسَبِيلِ الله مَتَى احْتَاجُوا إِلَيْهَا غَزَوْا عَلَيْهَا فَهَؤُلَاءِ يُثَابُونَ ، وَتَارَةً تُرْبَطُ فَخْرًا وَنِوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فَهَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا وِزْر ، وَتَارَةً لِلتَّعَفُّفِ وَاقْتِنَاءِ نَسْلِهَا وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ الله فِي رِقَابِهَا فَهَذِهِ لِصَاحِبِهَا سِتْرٌ . **وَأَمَّا الْمُسَوَّمَةُ ، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : الْمُسَوَّمَةُ : الرَّاعِيَةُ وَالْمُطَهَّمَةُ الْحِسَانُ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : الْمُسَوَّمَةُ : الْغُرَّةُ وَالتَّحْجِيلُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾ يَعْنِي : الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ﴿ وَٱلْحَرْثِ ﴾ يَعْنِي : الْأَرْضُ الْمُتَّخَذَةُ لِلْغِرَاسِ وَالزِّرَاعَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ﴿ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا هَذَا زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا الْفَانِيَةُ الزَّائِلَةُ ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ أَيْ : حُسْنُ الْمَرْجِعِ وَالثَّوَابِ ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ أَيْ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ : أَؤُخْبِرُكُم بِخَيْرٍ مِمَّا زُيِّنَ لِلنَّاسِ : فِي هَذِهِ الْحَيَاة الدُّنْيَا مِنْ زَهْرَتِهَا وَنَعِيمِهَا الَّذِي هُوَ زَائِلٌ لَا مَحَالَةَ ؟ ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ أَيْ : تَنْخَرِقُ بَيْنَ جَوَانِبِهَا وَأَرْجَائِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَشْرِبَةِ مِنَ الْعَسَلِ وَاللَّبَنِ وَالْخَمْرِ وَالْمَاءِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعْت ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَد الْآبَادِ ، لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿ وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ أَيْ : مِنَ الدَّنَسِ وَالْخَبَثِ وَالْأَذَى وَالْحَيْضِ وَالنِّفَاسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَعْتَرِي نِسَاءَ الدُّنْيَا ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يَحِلُّ عَلَيْهِمْ رِضْوَانُهُ فَلَا يَسْخَطُ عَلَيْهِمْ بَعْدَهُ أَبَدًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى الَّتِي فِي بَرَاءَةَ ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة : ٧٢] أَيْ : أَعْظَمُ مِمَّا أَعْطَاهُمْ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ أَيْ : يُعْطِي كُلًّا بِحَسَبِ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعَطَاءِ .

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

يَصِفُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ وَعَدَهُمُ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا ﴾ أَيْ : بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرَسُولِكَ ﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ أَيْ : بِإِيمَانِنَا بِك ، وَبِمَا شَرَعْتَهُ لَنَا ، فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَتَقْصِيرَنَا مِنْ أَمْرِنَا بِفَضْلِكَ وَرَحْمَتِكَ ﴿ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ أَيْ : فِي قِيَامِهِمْ بِالطَّاعَاتِ وَتَرْكِهِم الْمُحَرَّمَاتِ ﴿ وَٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ مِنْ إِيمَانِهِمْ بِمَا يَلْتَزِمُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ ﴿ وَٱلْقَـٰنِتِينَ ﴾ وَالْقُنُوتُ : الطَّاعَةُ وَالْخُضُوعُ ﴿ وَٱلْمُنفِقِينَ ﴾ أَيْ : مِنْ أَمْوَالِهِمْ فِي جَمِيعِ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ ، وَالْقَرَابَاتِ ، وَسَدِّ الْخَلَّاتِ ، وَمُوَاسَاةِ ذَوِي الْحَاجَاتِ ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾

دَلَّ عَلَى فَضِيلَةِ الاسْتِغْفَارِ وَقْتَ الْأَسْحَارِ .

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

شَهِدَ تَعَالَى وَكَفَى بِهِ شَهِيدًا وَهُوَ أَصْدَقُ الشَّاهِدِينَ وَأَعْدَلُهُمْ وَأَصْدَقُ الْقَائِلِينَ ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : الْمُنْفَرِدُ بِالْإِلَهِيَّةِ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ ، وَأَنَّ الْجَمِيعَ عَبِيدُهُ وَخَلْقُهُ ، وَفُقَرَاءُ إِلَيْهِ وَهُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ ، ثُمَّ قَرَنَ شَهَادَةَ مَلَائِكَتِهِ وَأُولِي الْعِلْمِ بِشَهَادَتِهِ فَقَالَ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ وَهَذِهِ خُصُوصِيَّةٌ عَظِيمَةٌ لِلْعُلَمَاءِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ﴿ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ ، وَهُوَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ كَذَلِكَ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الْعَزِيزُ : الَّذِي لَا يُرَامُ جَنَابُهُ عَظَمَةً وَكِبْرِيَاءً ، الْحَكِيمُ : فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ إِخْبَارًا مِنْهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ لَا دِينَ عِنْدَهُ يَقْبَلُهُ مِنْ أَحَدٍ سِوَى الْإِسْلَامِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ الْأَوَّلَ إِنَّمَا اخْتَلَفُوا بَعْدَمَا قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ : بَغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَاخْتَلَفُوا فِي الْحَقِّ لِتَحَاسُدِهِمْ وَتَبَاغُضِهِمْ وَتَدَابُرِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مَنْ جَحَدَ مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي كِتَابِهِ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أَيْ : فَإِنَّ اللهَ سَيُجَازِيهِ عَلَى ذَلِكَ وَيُحَاسِبُهُ عَلَى تَكْذِيبِهِ وَيُعَاقِبُهُ عَلَى مُخَالَفَتِهِ كِتَابَهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾ أَيْ : جَادَلُوكَ فِي التَّوْحِيدِ ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ أَيْ : فَقُلْ أَخْلَصْتُ عِبَادَتِي للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ أَيْ : عَلَى دِينِي يَقُولُ كَمَقَالَتِي ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى آمِرًا لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى طَرِيقَتِهِ وَدِينِهِ وَالدُّخُولِ فِي شَرْعِهِ ، وَمَا بَعَثَهُ اللهُ بِهِ : الْكِتَابِيِّينَ مِنَ الْمِلِّيِّينَ ، وَالْأُمِّيِّينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ أَيْ : وَاللهُ عَلَيْهِ حِسَابُهُمْ وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ وَمَآبُهُمْ ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ،

وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ أَيْ : هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الضَّلَالَةَ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَأَمْثَالُهَا مِنْ أَصْرَحِ الدَّلَالَاتِ عَلَى عُمُومِ بَعْثَتِه - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُه عَلَيْهِ - إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ دِينِهِ ضَرُورَةً .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

هَذَا ذَمٌّ مِنَ الله تَعَالَى لِأَهْلِ الْكِتَابِ بِمَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ ، فِي تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ الله قَدِيمًا وَحَدِيثًا الَّتِي بَلَّغَتْهُمْ إِيَّاهَا الرُّسُل ، اسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ وَعِنَادًا لَهُمْ وَتَعَاظُمًا عَلَى الْحَقِّ وَاسْتِنْكَافًا عَنِ اتِّبَاعِهِ ، وَمَعَ هَذَا قَتَلُوا مَنْ قَتَلُوا مِنَ النَّبِيِّينَ حِين بَلَّغُوهُمْ عَنِ الله شَرْعَهُ ، بِغَيْرِ سَبَبٍ وَلَا جَرِيمَةٍ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ إِلَّا لِكَوْنِهِمْ دَعَوْهُمْ إِلَى الْحَقِّ ﴿ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ، وَهَذَا هُوَ غَايَةُ الْكِبْرِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((**الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**)). وَلِهَذَا لَمَّا أَنْ تَكَبَّرُوا عَنِ الْحَقِّ ، وَاسْتَكْبَرُوا عَلَى الْخَلْقِ ، قَابَلَهُمُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ بِالذِّلَّةِ وَالصَّغَارِ فِي الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ الْمُهِينِ فِي الْآخِرَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أَيْ : مُوجِعٍ مُهِينٍ .

أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الْمُتَمَسِّكِينَ - فِيمَا يَزْعُمُونَ - بِكِتَابَيْهِم اللَّذَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ وَهُمَا التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى التَّحَاكُمِ إِلَى مَا فِيهِمَا مِنْ طَاعَةِ الله فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فِيهِمَا ، مِن اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ تَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ عَنْهُمَا ، وَهَذَا فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنْ ذَمِّهِمْ وَالتَّنْوِيهِ بِذِكْرِهِمْ بِالْمُخَالَفَةِ وَالْعِنَادِ . ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا حَمَلَهُمْ وَجَرَّأَهُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ الْحَقِّ افْتِرَاؤُهُمْ عَلَى الله فِيمَا ادَّعَوْهُ لِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ عَنْ كُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ فِي الدُّنْيَا يَوْمًا . ﴿ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ أَيْ : ثَبَّتَهُمْ عَلَى دِينِهِمُ الْبَاطِلِ مَا خَدَعُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، مِنْ زَعْمِهِمْ أَنَّ النَّارَ لَا تَمَسُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ، وَهُمُ الَّذِينَ افْتَرَوْا هَذَا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ وَاخْتَلَقُوهُ وَلَمْ يُنْزِلِ اللهُ بِهِ سُلْطَانًا .

قَالَ اللهُ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا لَهُمْ وَمُتَوَعِّدًا : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أَيْ : كَيْفَ يَكُونُ حَالُهُمْ وَقَدِ افْتَرَوْا عَلَى اللهِ ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ ، وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَهُ ، وَاللهُ تَعَالَى سَائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَحَاكِمٌ عَلَيْهِمْ وَمُجَازِيهِمْ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أَيْ : لَا شَكَّ فِي وُقُوعِهِ وَكَوْنِهِ ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ قُلِ ﴾ يَا مُحَمَّدُ مُعَظِّمًا لِرَبِّكَ ، وَشَاكِرًا لَهُ ، وَمُفَوِّضًا إِلَيْهِ ، وَمُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ ﴿ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ أَيْ : لَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ أَيْ : أَنْتَ الْمُعْطِي وَأَنْتَ الْمَانِعُ ، وَأَنْتَ الَّذِي مَا شِئْتَ كَانَ وَمَا لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ . ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾ أَيْ : تَأْخُذُ مِنْ طُولِ هَذَا فَتَزِيدُهُ فِي قِصَرِ هَذَا فَيَعْتَدِلَانِ ، ثُمَّ تَأْخُذُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا فَيَتَفَاوَتَانِ ثُمَّ يَعْتَدِلَانِ ، وَهَكَذَا فِي فُصُولِ السَّنَةِ رَبِيعًا وَصَيْفًا وَخَرِيفًا وَشِتَاءً .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ أَيْ : تُخْرِجُ الزَّرْعَ مِنَ الْحَبِّ وَالْحَبَّ مِنَ الزَّرْعِ ، وَالنَّخْلَةَ مِنَ النَّوَاةِ ، وَالنَّوَاةَ مِنَ النَّخْلَةِ ، وَالْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ وَالْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ ، وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أَيْ : تُعْطِي مَنْ شِئْتَ مِنَ الْمَالِ مَا لَا يَعُدُّهُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى إِحْصَائِهِ ، وَتُقَتِّرُ عَلَى آخَرِينَ ، لِمَا لَكَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْمَشِيئَةِ والعدلِ .

لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

نَهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُوَالُوا الْكَافِرِينَ ، وَأَنْ يَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ يُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ تَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ أَيْ : وَمَنْ يَرْتَكِبْ نَهْيَ اللهِ فِي هَذَا فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ أَيْ : مَنْ خَافَ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ وَالْأَوْقَاتِ مِنْ شَرِّهِمْ

فَلَهُ أَنْ يَتَّقِيَهُمْ بِظَاهِرِهِ لَا بِبَاطِنِهِ وَنِيَّتِهِ ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ أَيْ : يُحَذِّرُكُمْ نِقْمَتَهُ فِي مُخَالَفَتِهِ وَسَطْوَتِهِ وَعَذَابِهِ ، لِمَنْ وَالَى أَعْدَاءَهُ وَعَادَى أَوْلِيَاءَهُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : إِلَيْهِ المَرْجِعُ وَالمُنْقَلَبُ لِيُجَازِيَ كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .

قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ السَّرَائِرَ وَالضَّمَائِرَ وَالظَّوَاهِرَ ، وَأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ ، بَلْ عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِهِمْ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ ، وَالْأَزْمَانِ ، وَالْأَيَّامِ ، وَاللَّحَظَاتِ ، وَجَمِيعِ الْأَوْقَاتِ وَجَمِيعِ مَا فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَالْبِحَارِ وَالْجِبَالِ ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَيْ : وَقُدْرَتُهُ نَافِذَةٌ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ، وَهَذَا تَنْبِيهٌ مِنْهُ لِعِبَادِهِ عَلَى خَوْفِهِ وَخَشْيَتِهِ ، لِئَلَّا يَرْتَكِبُوا مَا نَهَى عَنْهُ وَمَا يُبْغِضُهُ مِنْهُمْ ، فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أُمُورِهِمْ ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى مُعَاجَلَتِهِمْ بِالْعُقُوبَةِ ، وَإِنْ أَنْظَرَ مَنْ أَنْظَرَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ يُمْهِلُ ثُمَّ يَأْخُذُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ . **وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا** ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ الْآيَةُ . يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُحْضِرُ لِلْعَبْدِ جَمِيعَ أَعْمَالِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ١٣] فَمَا رَأَى مِنْ أَعْمَالِهِ حَسَنًا سَرَّهُ ذَلِكَ وَأَفْرَحَهُ ، وَمَا رَأَى مِنْ قَبِيحٍ سَاءَهُ وَغَصَّهُ ، وَوَدَّ لَوْ أَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، وَأَنْ يَكُون بَيْنَهُمَا أَمَدٌ بَعِيدٌ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُؤَكِّدًا وَمُهَدِّدًا وَمُتَوَعِّدًا ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ أَيْ : يُخَوِّفُكُمْ عِقَابَهُ . ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ مُرْجِيًا لِعِبَادِهِ لِئَلَّا يَيْأَسُوا مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَقْنَطُوا مِنْ لُطْفِهِ ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ أَيْ رَحِيمٌ بِخَلْقِهِ يُحِبُّ لَهُمْ أَنْ يَسْتَقِيمُوا عَلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَدِينِهِ الْقَوِيمِ ، وَأَنْ يَتَّبِعُوا رَسُولَهُ الْكَرِيمَ .

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ حَاكِمَةٌ عَلَى كُلِّ مَنِ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللهِ وَلَيْسَ هُوَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، فَإِنَّهُ كَاذِبٌ فِي دَعْوَاهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، حَتَّى يَتَّبِعَ الشَّرْعَ الْمُحَمَّدِيَّ وَالدِّينَ النَّبَوِيَّ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : يَحْصُلُ لَكُمْ فَوْقَ مَا

طَلَبْتُمْ مِنْ مَحَبَّتِكُمْ إِيَّاهُ، وَهُوَ مَحَبَّتُهُ إِيَّاكُمْ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْأَوَّلِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ: بِاتِّبَاعِكُمُ الرَّسُولَ ﷺ يَحْصُلُ لَكُمْ هَذَا مِنْ بَرَكَةِ سِفَارَتِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى آمِرًا لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ خَاصٍّ وَعَامٍّ ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أَيْ: تُخَالِفُوا عَنْ أَمْرِهِ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مُخَالَفَتَهُ فِي الطَّرِيقَةِ كُفْرٌ وَاللهُ لَا يُحِبُّ مَنِ اتَّصَفَ بِذَلِكَ، وَإِنِ ادَّعَى وَزَعَمَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ مُحِبٌّ لله وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ حَتَّى يُتَابِعَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ خَاتَمَ الرُّسُلِ، وَرَسُولُ اللهِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ.

إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ اخْتَارَ هَذِهِ الْبُيُوتَ عَلَى سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَاصْطَفَى آدَمَ عليه السلام خَلَقَهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ، وَاصْطَفَى نُوحًا عليه السلام وَجَعَلَهُ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَاصْطَفَى آلَ إِبْرَاهِيمَ، وَمِنْهُمْ سَيِّدُ الْبَشَرِ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ ﷺ وَ «آلَ عِمْرَانَ» وَالْمُرَادُ بِعِمْرَانَ هَذَا: هُوَ وَالِدُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ أُمِّ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام.

إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾

امْرَأَةُ عِمْرَانَ هَذِهِ هِيَ أُمُّ مَرْيَمَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - وَهِيَ حنةُ بِنْتُ فاقوذ. قَالَتْ: يَا رَبِّ ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ: السَّمِيعُ لِدُعَائِي، الْعَلِيمُ بِنِيَّتِي، وَلَمْ تَكُنْ تَعْلَمَ مَا فِي بَطْنِهَا أَذَكَرًا أَمْ أُنْثَى. ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾، ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ أَيْ: فِي الْقُوَّةِ وَالْجَلَدِ فِي الْعِبَادَةِ، وَخِدْمَةِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴿ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ التَّسْمِيَةِ يَوْمَ الْوِلَادَةِ.

وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْ أُمِّ مَرْيَمَ أَنَّهَا قَالَتْ: ﴿ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ أَيْ: عَوَّذَتْهَا بِاللهِ عز وجل مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَعَوَّذَتْ ذُرِّيَّتَهَا وَهُوَ وَلَدُهَا عِيسَى عليه السلام فَاسْتَجَابَ اللهُ لَهَا ذَلِكَ.

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

يُخْبِرُ رَبُّنَا أَنَّهُ تَقَبَّلَهَا مِنْ أُمِّهَا نَذِيرَةً ، وَأَنَّهُ أَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ، أَيْ : جَعَلَهَا شَكْلًا مَلِيحًا وَمَنْظَرًا بَهِيجًا ، وَيَسَّرَ لَهَا أَسْبَابَ الْقَبُولِ ، وَقَرَنَهَا بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ ، تَتَعَلَّمُ مِنْهُمُ الْعِلْمَ وَالْخَيْرَ وَالدِّينَ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ بِتَشْدِيدِ الْفَاءِ وَنَصْبِ زَكَرِيَّا عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ ، أَيْ : جَعَلَهُ كَافِلًا لَهَا . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ سِيَادَتِهَا وَجَلَادَتِهَا فِي مَحَلِّ عِبَادَتِهَا فَقَالَ : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ وَجَدَ عِنْدَهَا فَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ ، وَفَاكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ ، فَإِذَا رَأَى زَكَرِيَّا هَذَا عِنْدَهَا ﴿ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ﴾ أَيْ : يَقُولُ مِنْ أَيْنَ لَكِ هَذَا ؟ ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٤١﴾

لَمَّا رَأَى زَكَرِيَّا عليه السلام أَنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَرْيَمَ عليها السلام فَاكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ وَفَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ ، طَمِعَ حِينَئِذٍ فِي الْوَلَدِ وَإِنْ كَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ ضَعُفَ وَوَهَنَ مِنْهُ الْعَظْمُ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ، وَكَانَتِ امْرَأَتُهُ مَعَ ذَلِكَ كَبِيرَةً وَعَاقِرًا ، لَكِنَّهُ مَعَ هَذَا كُلِّهِ سَأَلَ رَبَّهُ وَنَادَاهُ نِدَاءً خَفِيًّا وَقَالَ : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ﴾ أَيْ : مِنْ عِنْدِكَ ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ أَيْ : وَلَدًا صَالِحًا ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ ﴾ أَيْ : خَاطَبَتْهُ الْمَلَائِكَةُ شِفَاهًا خِطَابًا أَسْمَعَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِحْرَابِ عِبَادَتِهِ ، وَمَحَلِّ خَلْوَتِهِ ، وَمَجْلِسِ مُنَاجَاتِهِ وَصَلَاتِهِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا بَشَّرَتْهُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ أَيْ : بِوَلَدٍ يُوجَدُ لَكَ مِنْ صُلْبِكَ اسْمُهُ يَحْيَى . ﴿ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ . ﴿ وَسَيِّدًا ﴾ **قِيلَ** : الْحَلِيمُ ، **وَقِيلَ** : سَيِّدًا فِي الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الْفَقِيهُ الْعَالِمُ . ﴿ وَحَصُورًا ﴾ : هو الَّذِي لَا يَأْتِي النِّسَاءَ .

وَالْمَقْصُودُ : أَنَّهُ مَدْحٌ لِيَحْيَى بِأَنَّهُ حَصُورٌ لَيْسَ أَنَّهُ لَا يَأْتِي النِّسَاءَ ، بَلْ مَعْنَاهُ ، أَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْقَاذُورَاتِ . ﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ هَذِهِ بِشَارَةٌ ثَانِيَةٌ بِنُبُوَّةِ يَحْيَى بَعْدَ الْبِشَارَةِ بِوِلَادَتِهِ ، فَلَمَّا تَحَقَّقَ زَكَرِيَّا عليه السلام هَذِهِ الْبِشَارَةَ ، وَأَخَذَ يَتَعَجَّبُ مِنْ وُجُودِ الْوَلَدِ مِنْهُ بَعْدَ الْكِبَرِ

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ ﴾ أَيْ : المَلَكُ ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ أَيْ : هَكَذَا أَمْرُ الله عَظِيمٌ لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَلا يَتَعَاظَمُهُ أَمْرٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ﴾ أَيْ : عَلامَةً أَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى وُجُودِ الْوَلَدِ مِنِّي ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ أَيْ : إِشَارَةً لَا تَسْتَطِيعُ النُّطْقَ مَعَ أَنَّكَ سَوِيٌّ صَحِيحٌ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ . ثُمَّ أُمِرَ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّسْبِيحِ فِي هَذِهِ الحَالِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ .

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ الله تَعَالَى بِمَا خَاطَبَتْ بِهِ المَلَائِكَةُ مَرْيَمَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - عَنْ أَمْرِ الله لَهُمْ بِذَلِكَ ، أَنَّ اللهَ قَدِ اصْطَفَاهَا ، أَيْ : اخْتَارَهَا لِكَثْرَةِ عِبَادَتِهَا وَزَهَادَتِهَا وَشَرَفِهَا وَطَهَارَتِهَا مِنَ الْأَكْدَارِ وَالْوَسَاوِسِ ، وَاصْطَفَاهَا ثَانِيًا مَرَّةً بَعْد مَرَّةٍ لِجَلَالَتِهَا عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ المَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ أَمَرُوهَا بِكَثْرَةِ الْعِبَادَةِ وَالْخُشُوعِ وَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالدَّأْبِ فِي الْعَمَلِ ، لِمَا يُرِيدُ اللهُ بِهَا مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ وَقَضَاهُ ، مِمَّا فِيهِ مِحْنَةٌ لَهَا ، وَرِفْعَةٌ فِي الدَّارَيْنِ ، بِمَا أَظْهَرَ اللهُ فِيهَا مِنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ حَيْثُ خَلَقَ مِنْهَا وَلَدًا مِنْ غَيْرِ أَبٍ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ أَمَّا الْقُنُوتُ : فَهُوَ الطَّاعَةُ فِي خُشُوعٍ .

ثُمَّ قَالَ لِرَسُولِهِ بَعْدَمَا أَطْلَعَهُ عَلَى جَلِيَّةِ الْأَمْرِ : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أَيْ : مَا كُنْتَ عِنْدَهُمْ يَا مُحَمَّدُ فَتُخْبِرَ عَنْهُمْ عَنْ مُعَايَنَةٍ عَمَّا جَرَى ، بَلْ أَطْلَعَكَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : أَنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى نَهَرِ الْأُرْدُن ، وَاقْتَرَعُوا هُنَالِكَ عَلَى أَنْ يُلْقُوا أَقْلَامَهُمْ فَأَيُّهُمْ يَثْبُتُ فِي جِرْيَةِ المَاءِ فَهُوَ كَافِلُهَا ، فَأَلْقَوْا أَقْلَامَهُمْ فَاحْتَمَلَهَا المَاء إِلَّا قَلَمَ زَكَرِيَّا فَإِنَّهُ ثَبَتَ ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ كَبِيرُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ وَعَالِمُهُمْ وَإِمَامُهُمْ وَنَبِيُّهُمْ .

إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

هَذِهِ بِشَارَةٌ مِنَ المَلَائِكَةِ لِمَرْيَمَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - بِأَنْ سَيُوجَد مِنْهَا وَلَدٌ عَظِيمٌ لَهُ شَأْنٌ كَبِيرٌ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ أَيْ : بِوَلَدٍ يَكُونُ وُجُودُهُ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ ، أَيْ : يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، ﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ أَيْ : يَكُونُ هَذَا مَشْهُورًا فِي الدُّنْيَا يَعْرِفُهُ الْمُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ . وَسُمِّيَ المَسِيح : لِكَثْرَةِ سِيَاحَتِهِ ، وَقِيلَ : لأَنَّهُ كَانَ إِذَا مَسَحَ أَحَدًا مِنْ ذَوِي الْعَاهَاتِ بَرِئَ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ نِسْبَةً إِلَى أُمِّهِ حَيْثُ لَا أَبَ لَهُ ﴿ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أَيْ : لَهُ وَجَاهَةٌ وَمَكَانَةٌ عِنْدَ اللهِ فِي الدُّنْيَا بِمَا يُوحِيهِ اللهُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ ، وَيُنْزِلُهُ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا مَنَحَهُ اللهُ بِهِ .

قَوْلُهُ : ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أَيْ : يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي حَالِ صِغَرِهِ مُعْجِزَةً وَآيَةً ، وَفِي حَالِ كُهُولَتِهِ حِينَ يُوحِي اللهُ إِلَيْهِ ﴿ وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ أَيْ : فِي قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ ، لَهُ عِلْمٌ صَحِيحٌ وَعَمَل صَالِحٌ . فَلَمَّا سَمِعَتْ بِشَارَةَ المَلَائِكَةِ لَهَا بِذَلِكَ عَنِ اللهِ ﷻ قَالَتْ فِي مُنَاجَاتِهَا : ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ تَقُولُ : كَيْفَ يُوجَدُ هَذَا الْوَلَدُ مِنِّي وَأَنَا لَسْتُ بِذَاتِ زَوْجٍ وَلَا مِنْ عَزْمِي أَنْ أَتَزَوَّجَ ، وَلَسْتُ بَغِيًّا حَاشَا للهِ ، فَقَالَ لَهَا المَلَكُ عَنِ اللهِ ﷻ فِي جَوَابِ ذَلِكَ السُّؤَالِ : ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ أَيْ : هَكَذَا أَمْرُ اللهِ عَظِيمٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَصَرَّحَ هَهُنَا بِقَوْلِهِ : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ يَفْعَلُ كَمَا فِي قِصَّةِ زَكَرِيَّا ، بَلْ نَصَّ هَهُنَا عَلَى أَنَّهُ يَخْلُقُ لِئَلَّا يَبْقَى لِمُبْطِلٍ شُبْهَةٌ ، وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أَيْ : فَلَا يَتَأَخَّرُ شَيْئًا ، بَلْ يُوجَدُ عَقِيبَ الأَمْرِ بِلَا مُهْلَةٍ .

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَمَامِ بِشَارَةِ الْمَلَائِكَةِ لِمَرْيَمَ بِابْنِهَا عِيسَى عليه السلام : إِنَّ اللهَ يُعَلِّمُهُ ﴿ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ . الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ هَاهُنَا : الْكِتَابَةُ ، وَالْحِكْمَةُ : تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ .﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ فَالتَّوْرَاةُ : الْكِتَابُ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ، وَالْإِنْجِيلُ : الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَقَدْ كَانَ عِيسَى عليه السلام يَحْفَظُ هَذَا وَهَذَا .

قَوْلُهُ : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ قَائِلًا لَهُمْ : ﴿ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ ، يُصَوِّرُ مِنَ الطِّينِ شَكْلَ طَيْرٍ ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ فَيَطِيرُ عِيَانًا بِإِذْنِ اللهِ عز وجل ، الَّذِي جَعَلَ هَذَا مُعْجِزَةً لَهُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَرْسَلَهُ ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ ﴾ **قِيلَ** : الْأَعْشَى ، **وَقِيلَ** : الْأَعْمَش ، **وَقِيلَ** : هُوَ الَّذِي يُولَد أَعْمَى وَهُوَ أَشْبَه ؛ لِأَنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْمُعْجِزَةِ ، وَأَقْوَى فِي التَّحَدِّي ﴿ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾ مَعْرُوفٌ ﴿ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ﴾ أَيْ : أُخْبِرُكُمْ بِمَا أَكَلَ أَحَدُكُم الْآنَ ، وَمَا هُوَ مُدَّخَرٌ لَهُ فِي بَيْتِهِ لِغَدٍ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ﴿ لَءَايَةً لَّكُمْ ﴾ أَيْ : عَلَى صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ أَيْ : مُقِرًّا لَهَا وَمُثْبِتًا ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ عِيسَى عليه السلام نَسَخَ بَعْضَ شَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أَيْ : بِحُجَّةٍ وَدَلَالَةٍ عَلَى صِدْقِي فِيمَا أَقُولُهُ لَكُمْ . ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ أَيْ : أَنَا وَأَنْتُمْ سَوَاءٌ فِي الْعُبُودِيَّةِ لَهُ ، وَالْخُضُوعِ وَالِاسْتِكَانَةِ إِلَيْهِ ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ .

فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ ﴾ أَيْ : اسْتَشْعَرَ مِنْهُمُ التَّصْمِيمَ عَلَى الْكُفْرِ وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَى الضَّلَالِ قَالَ : ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ مَنْ يَتْبَعُنِي إِلَى اللهِ .

وَالظَّاهِرُ : أَنَّهُ أَرَادَ مَنْ أَنْصَارِي فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ** : ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ الْحَوَارِيّ : النَّاصِرُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مَلَإِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيمَا هَمُّوا بِهِ مِنَ الْفَتْكِ بِعِيسَى عليه السلام وَإِرَادَتِهِ بِالسُّوءِ وَالصَّلْبِ ، فَلَمَّا أَحَاطُوا بِمَنْزِلِهِ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ ظَفِرُوا بِهِ نَجَّاهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ بَيْنِهِمْ ، وَرَفَعَهُ مِنْ رَوْزَنَةِ ذَلِكَ الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ ، وَأَلْقَى اللهُ شَبَهَهُ عَلَى رَجُلٍ

مِمَّنْ كَانَ عِنْدَه فِي المَنْزِلِ ، فَأَخَذُوهُ وَأَهَانُوهُ وَصَلَبُوهُ وَوَضَعُوا عَلَى رَأْسِهِ الشَّوْكَ . وَكَانَ هَذَا مِنْ مَكْرِ الله بِهِمْ فَإِنَّهُ نَجَّى نَبِيَّهُ وَرَفَعَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، وَتَرَكَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ يَعْمَهُونَ ، وَأَوْرَثَهُمْ ذِلَّةً لَا تُفَارِقُهُمْ إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ .

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

اخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ . **قَالَ الْأَكْثَرُونَ** : المُرَادُ بِالْوَفَاةِ هَهُنَا : النَّوْمُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ [الأنعام : ٦٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أَيْ : بِرَفْعِي إِيَّاكَ إِلَى السَّمَاءِ ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ القِيَامَةِ ﴿ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ . وَكَذَلِكَ فَعَلَ بِمَنْ كَفَرَ بِالمَسِيحِ مِنَ الْيَهُودِ ، أَوْ غَلَا فِيهِ أَوْ أَطْرَاهُ مِنَ النَّصَارَى ، عَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَأَخْذِ الْأَمْوَالِ وَإِزَالَةِ الْأَيْدِي عَنِ المَمَالِكِ ، وَفِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَذَابُهُمْ أَشَدُّ وَأَشَقُّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ وَفِي الْآخِرَةِ بِالْجَنَّاتِ الْعَالِيَاتِ ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي قَصَصْنَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ فِي أَمْرِ عِيسَى وَمَبْدَأِ مِيلَادِهِ وَكَيْفِيَّةِ أَمْرِهِ ، هُوَ مِمَّا قَالَهُ تَعَالَى وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ ، وَنَزَّلَهُ عَلَيْكَ مِنَ اللَّوْحِ المَحْفُوظِ ، فَلَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ .

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ

فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

يَقُول جَلَّ وَعَلَا : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فِي قُدْرَةِ اللهِ حَيْثُ خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَبٍ ﴿ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ حَيْثُ خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَلَا أُمٍّ ، بَلْ ﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فَالَّذِي خَلَقَ آدَمَ مِنْ غَيْرِ أَبٍ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ عِيسَى بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ، ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ . أَيْ : هَذَا هُوَ الْقَوْلُ الْحَقُّ فِي عِيسَى الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ وَلَا صَحِيحَ سِوَاهُ ، وَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُبَاهِلَ مَنْ عَانَدَ الْحَقَّ فِي أَمْرِ عِيسَى بَعْدَ ظُهُورِ الْبَيَانِ ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ﴾ أَيْ : نُحْضِرَهُمْ فِي حَالِ الْمُبَاهَلَةِ ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ أَيْ : نَلْتَعِنْ ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أَيْ : مِنَّا وَمِنْكُمْ .

وَكَانَ سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْمُبَاهَلَةِ وَمَا قَبْلَهَا مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هُنَا فِي وَفْدِ نَجْرَانَ : أَنَّ النَّصَارَى لَمَّا قَدِمُوا فَجَعَلُوا يُحَاجُّونَ فِي عِيسَى ، وَيَزْعُمُونَ فِيهِ مَا يَزْعُمُونَ مِنَ الْبُنُوَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ رَدًّا عَلَيْهِمْ . وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوا الْمَوْتَ لَمَاتُوا ، وَلَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ مَالًا وَلَا أَهْلًا .

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ فِي شَأْنِ عِيسَى هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَعْدِلَ عَنْهُ وَلَا مَحِيدَ ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ . أَيْ : عَنْ هَذَا إِلَى غَيْرِهِ . ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أَيْ : مَنْ عَدَلَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ فَهُوَ الْمُفْسِدُ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِهِ ، وَسَيَجْزِيهِ عَلَى ذَلِكَ شَرَّ الْجَزَاءِ .

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾

هَذَا الْخِطَابُ يَعُمُّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُمْ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ ﴾ ، وَالْكَلِمَةُ تُطْلَقُ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمُفِيدَةِ ، كَمَا قَالَ هَهُنَا ، ثُمَّ وَصَفَهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ أَيْ : عَدْلٌ وَنِصْفٌ نَسْتَوِي نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا ، ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ لَا وَثَنًا وَلَا صَلِيبًا وَلَا صَنَمًا وَلَا طَاغُوتًا وَلَا نَارًا وَلَا شَيْئًا بَلْ نُفْرِدُ الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهَذِهِ دَعْوَةُ جَمِيعِ الرُّسُلِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ

بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ يَعْنِي : يُطِيعُ بَعْضُنَا بَعْضًا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ . **وقيل** : يَسْجُدُ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أَيْ : فَإِنْ تَوَلَّوْا عَنْ هَذَا النصفِ وَهَذِهِ الدَّعْوَةِ فَاشْهَدُوا أَنْتُمْ عَلَى اسْتِمْرَارِكُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ لَكُمْ .

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

يُنْكِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي مُحَاجَّتِهِمْ فِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عليه السلام وَدَعْوَى كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ الْآيَةُ ، أَيْ : كَيْفَ تَدَّعُونَ أَيُّهَا الْيَهُودُ أَنَّهُ كَانَ يَهُودِيًّا ، وَقَدْ كَانَ زَمَنُهُ قَبْلَ أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى ، وَكَيْفَ تَدَّعُونَ أَيُّهَا النَّصَارَى أَنَّهُ كَانَ نَصْرَانِيًّا ، وَإِنَّمَا حَدَثَتِ النَّصْرَانِيَّةُ بَعْدَ زَمَنِهِ بِدَهْرٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ الْآيَةُ . هَذَا إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ يُحَاجُّ فِيمَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ ، فَإِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى تَحَاجُّوا فِي إِبْرَاهِيمَ بِلَا عِلْمٍ وَلَوْ تَحَاجُّوا فِيمَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْهُ عِلْمٌ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَدْيَانِهِمِ الَّتِي شُرِعَتْ لَهُمْ إِلَى حِينِ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَكَانَ أَوْلَى بِهِمْ ، وَإِنَّمَا تَكَلَّمُوا فِيمَا لَا يَعْلَمُونَ ، فَأَنْكَرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ، وَأَمَرَهُمْ بِرَدِّ مَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الَّذِي يَعْلَمُ الْأُمُورَ عَلَى حَقَائِقِهَا وَجَلِيَّاتِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ أَيْ : مُتَحَنِّفًا عَنِ الشِّرْكِ قَاصِدًا إِلَى الْإِيمَانِ ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : أَحَقُّ النَّاسِ بِمُتَابَعَةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ عَلَى دِينِهِ ، وَهَذَا النَّبِيُّ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَصْحَابِهِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بَعْدَهُمْ .

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ

ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

يُخبِرُ تَعَالَى عَنْ حَسَدِ الْيَهُودِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَبَغْيِهِمْ إِيَّاهُمْ بِالْإِضْلَالِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ وَبَالَ ذَلِكَ إِنَّمَا يَعُودُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ مَمْكُورٌ بِهِمْ.

قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أَيْ: تَعْلَمُونَ صِدْقَهَا وَتَتَحَقَّقُونَ حَقَّهَا. ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: تَكْتُمُونَ مَا فِي كُتُبِكُمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ ذَلِكَ وَتَتَحَقَّقُونَهُ. ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. هَذِهِ مَكِيدَةٌ أَرَادُوهَا لِيُلْبِسُوا عَلَى الضُّعَفَاءِ مِنَ النَّاسِ أَمْرَ دِينِهِمْ، وَهُوَ أَنَّهُمُ اشْتَوَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يُظْهِرُوا الْإِيمَانَ أَوَّلَ النَّهَارِ، وَيُصَلُّوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَإِذَا جَاءَ آخِرُ النَّهَارِ ارْتَدُّوا إِلَى دِينِهِمْ؛ لِيَقُولَ الْجَهَلَةُ مِنَ النَّاسِ إِنَّمَا رَدَّهُمْ إِلَى دِينِهِمْ اطِّلَاعُهُمْ عَلَى نَقِيصَةٍ وَعَيْبٍ فِي دِينِ الْمُسْلِمِينَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أَيْ: تَطْمَئِنُّوا وَتُظْهِرُوا سِرَّكُمْ وَمَا عِنْدَكُمْ إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أَيْ: هُوَ الَّذِي يَهْدِي قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَتَمِّ الْإِيمَانِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يَقُولُونَ لَا تُظْهِرُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ لِلْمُسْلِمِينَ فَيَتَعَلَّمُوهُ مِنْكُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَيْ: يَتَّخِذُوهُ حُجَّةً عَلَيْكُمْ بِمَا فِي أَيْدِيكُمْ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أَيْ: الْأُمُورُ كُلُّهَا تَحْتَ تَصَرُّفِهِ، وَهُوَ الْمُعْطِي الْمَانِعُ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ بِالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالتَّصَرُّفِ التَّامِّ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، فَيُعْمِي بَصَرَهُ وَبَصِيرَتَهُ، وَيَخْتِمُ عَلَى قَلْبِهِ وَسَمْعِهِ وَيَجْعَلُ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً، وَلَهُ الْحُجَّةُ التَّامَّةُ وَالْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أَيْ: اخْتَصَّكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْفَضْلِ بِمَا لَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ، بِمَا شَرَّفَ بِهِ نَبِيَّكُمْ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، وَهَدَاكُمْ بِهِ إِلَى أَكْمَلِ الشَّرَائِعِ.

وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا

يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ بِأَنَّ مِنْهُمُ الْخَوَنَةَ ، وَيُحَذِّرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الاغْتِرَارِ بِهِمْ ، فَإِنَّ مِنْهُمْ ﴿ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَالِ ﴿ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : وَمَا دُونَهُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى أَنْ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ أَيْ : بِالْمُطَالَبَةِ وَالْمُلَازَمَةِ ، وَالْإِلْحَاحِ فِي اسْتِخْلَاصِ حَقِّكَ ، وَإِذَا كَانَ هَذَا صَنِيعُهُ فِي الدِّينَارِ فَمَا فَوْقَهُ أَوْلَى أَنْ لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى جُحُودِ الْحَقِّ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : لَيْسَ عَلَيْنَا فِي دِينِنَا حَرَجٌ فِي أَكْلِ أَمْوَالِ الْأُمِّيِّينَ وَهُمُ الْعَرَبُ ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَحَلَّهَا لَنَا ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى:** ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : وَقَدِ اخْتَلَقُوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ ، وَائْتَفَكُوهَا بِهَذِهِ الضَّلَالَةِ ، فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ الْأَمْوَالِ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَإِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ بُهْتٌ .

قَالَ تَعَالَى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ ﴾ أَيْ : لَكِنْ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى مِنْكُمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ، وَاتَّبَعَ طَاعَتَهُ وَشَرِيعَتَهُ الَّتِي بَعَثَ بِهَا خَاتَمَ رُسُلِهِ وَسَيِّدَهُمْ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّ الَّذِينَ يَعْتَاضُونَ عَمَّا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ مِنِ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَذِكْرِ صِفَتِهِ لِلنَّاسِ وَبَيَانِ أَمْرِهِ ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمُ الْكَاذِبَةِ الْفَاجِرَةِ الْآثِمَةِ بِالْأَثْمَانِ الْقَلِيلَةِ الزَّهِيدَةِ ، وَهِيَ عُرُوضُ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أَيْ : لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا وَلَا حَظَّ لَهُمْ مِنْهَا ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ أَيْ : بِرَحْمَةٍ مِنْهُ لَهُمْ يَعْنِي لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ كَلَامَ لُطْفٍ بِهِمْ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الذُّنُوبِ وَالْأَدْنَاسِ ، بَلْ يَأْمُرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ - أَنَّ مِنْهُمْ فَرِيقًا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيُبَدِّلُونَ

كَلَامَ اللهِ ، وَيُزِيلُونَهُ عَنِ الْمُرَادِ بِهِ لِيُوهِمُوا الْجَهَلَةَ أَنَّهُ فِي كِتَابِ اللهِ ، كَذَلِكَ وَيَنْسُبُونَهُ إِلَى اللهِ ، وَهُوَ كَذِبٌ عَلَى اللهِ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا وَافْتَرَوْا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ،وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ :﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ يُحَرِّفُونَهُ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يُزِيلُ لَفْظَ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ اللهِ ، لَكِنَّهُمْ يُحَرِّفُونَهُ وَيَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ .

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

مَا يَنْبَغِي لِبَشَرٍ آتَاهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالنُّبُوَّةَ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ اُعْبُدُونِي مِنْ دُونِ اللهِ ، أَيْ : مَعَ اللهِ .وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ أَيْ : يَقُولُ الرَّسُولُ لِلنَّاسِ : وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ، أَيْ : حُكَمَاءَ عُلَمَاءَ حُلَمَاءَ ، وَقِيلَ : فُقَهَاءَ أَهْلَ عِبَادَةٍ وَأَهْلَ تَقْوَى ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ تُعَلِّمُونَ : بِالتَّشْدِيدِ مِنَ التَّعْلِيمِ ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ تَحْفَظُونَ أَلْفَاظَهُ .

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ﴾ أَيْ : وَلَا يَأْمُرُكُمْ بِعِبَادَةِ أَحَدٍ غَيْرِ اللهِ ، لَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ ، وَلَا مَلَكٍ مُقَرَّبٍ ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ ، وَمَنْ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ فَقَدْ دَعَا إِلَى الْكُفْرِ .

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَخَذَ مِيثَاقَ كُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عليه السلام إِلَى عِيسَى عليه السلام ، لَمَهْمَا آتَى اللهُ أَحَدَهُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، وَبَلَغَ أَيَّ مُبَلَّغٍ ، ثُمَّ جَاءَهُ رَسُولٌ مِنْ بَعْدِهِ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ وَلَا يَمْنَعُهُ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالنُّبُوَّةِ مِنَ اتِّبَاعِ مَنْ بُعِثَ بَعْدَهُ وَنُصْرَتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ أَيْ : لَمَهْمَا أَعْطَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴿ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي عَهْدِي ، وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ إِصْرِى ﴾ أَيْ : ثِقَلُ مَا حُمِّلْتُمْ مِنْ

عَهْدِي ، أَيْ : مِيثَاقِي الشَّدِيدُ ، ﴿ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ . أَيْ : عَنْ هَذَا الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ .

أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى مَنْ أَرَادَ دِينًا سِوَى دِينِ اللهِ الَّذِي أَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ وَأَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، الَّذِي لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَي : اسْتَسْلَمَ لَهُ مَنْ فِيهِمَا طَوْعًا وَكَرْهًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [الرعد : ١٥] ، فَالْمُؤْمِنُ مُسْتَسْلِمٌ بِقَلْبِهِ وَقَالِبِهِ لله ، وَالْكَافِرُ مُسْتَسْلِمٌ لله كَرْهًا ، فَإِنَّهُ تَحْتَ التَّسْخِيرِ ، وَالْقَهْرِ ، وَالسُّلْطَانِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يُخَالَفُ ، وَلَا يُمَانَعُ . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ المَعَادِ فَيُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أَيْ : مِنَ الصُّحُفِ وَالْوَحْيِ ﴿ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ وَهُمْ بُطُونُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْمُتَشَعِّبَةِ مِنْ أَوْلَادِ إِسْرَائِيلَ - وَهُوَ يَعْقُوبُ - الاثْنَى عَشَر ﴿ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ يَعْنِي : بِذَلِكَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ وَهَذَا يَعُمُّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ جُمْلَةً ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ يَعْنِي : بَلْ نُؤْمِنُ بِجَمِيعِهِمْ ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ فَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ نَبِيٍّ أُرْسِلَ ، وَبِكُلِّ كِتَابٍ أُنْزِلَ ، لَا يَكْفُرُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، بَلْ هُمْ يُصَدِّقُونَ بِمَا أُنْزِلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَبِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ الْآيَةَ . أَيْ : مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا سِوَى مَا شَرَعَهُ اللهُ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ أَيْ: قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَجُ وَالْبَرَاهِينُ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ، وَوَضَحَ لَهُمُ الْأَمْرُ، ثُمَّ ارْتَدُّوا إِلَى ظُلْمَةِ الشِّرْكِ، فَكَيْفَ يَسْتَحِقُّ هَؤُلَاءِ الْهِدَايَةَ بَعْدَ مَا تَلَبَّسُوا بِهِ مِنَ الْعِمَايَةِ؟ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أَيْ: يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمْ خَلْقُهُ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ: فِي اللَّعْنَةِ ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أَيْ: لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً. ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ وَبِرِّهِ وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَائِدَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ، أَنَّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا وَمُهَدِّدًا لِمَنْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ ثُمَّ ازْدَادَ كُفْرًا، أَيْ: اسْتَمَرَّ إِلَى الْمَمَاتِ وَمُخْبِرًا بِأَنَّهُمْ لَنْ تُقْبَلَ لَهُمْ تَوْبَةٌ عِنْدَ الْمَمَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ أَيْ: الْخَارِجُونَ عَنِ الْمَنْهَجِ الْحَقِّ إِلَى طَرِيقِ الْغَيِّ. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ أَيْ: مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ خَيْرٌ أَبَدًا، وَلَوْ كَانَ قَدْ أَنْفَقَ مِلْءَ الْأَرْضِ ذَهَبًا فِيمَا يَرَاهُ قُرْبَةً، وَكَذَلِكَ لَوِ افْتَدَى بِمِلْءِ الْأَرْضِ أَيْضًا ذَهَبًا مَا قُبِلَ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ فَعَطَفَ ﴿ وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ عَلَى الْأَوَّلِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُهُ.

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ «بَيْرُحَاء»، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاء، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ للهِ أَرْجُو بِهَا بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ، حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ، فَقَالَ

النَّبِيُّ ﷺ : ((بَخ بَخ)) ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ ، وَقَدْ سَمِعْتُ وَأَنَا أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ)) ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : أَفْعَلُ يَا رَسُولَ الله ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ .

كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾ أَيْ : كَانَ حِلًّا لَهُمْ جَمِيعَ الْأَطْعِمَةِ قَبْلَ نُزُولِ التَّوْرَاةِ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ إِسْرَائِيلُ . ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فَإِنَّهَا نَاطِقَةٌ بِمَا قُلْنَاهُ . ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ، أَيْ : فَمَنْ كَذَبَ عَلَى الله ، وَادَّعَى أَنَّهُ شَرَّعَ لَهُمُ السَّبْتَ ، وَالتَّمَسُّكَ بِالتَّوْرَاةِ دَائِمًا ، وَإِنَّهُ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا آخر يَدْعُو إِلَى الله تَعَالَى بِالْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ ، بَعْد هَذَا الَّذِي بَيَّنَّاهُ مِنْ وُقُوعِ النَّسْخِ وَظُهُورِ مَا ذَكَرْنَا ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ صَدَقَ اللهُ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ ، وَفِيمَا شَرَعَهُ فِي الْقُرْآنِ ﴿ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أَيْ : اتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي شَرَعَهَا اللهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَإِنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ ، وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي لَمْ يَأْتِ نَبِيٌّ بِأَكْمَلَ مِنْهَا ، وَلَا أَبْيَنَ وَلَا أَوْضَحَ وَلَا أَتَمَّ .

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ، أَيْ : لِعُمُومِ النَّاسِ لِعِبَادَتِهِمْ وَنُسُكِهِمْ ، يَطُوفُونَ بِهِ وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ وَيَعْتَكِفُونَ عِنْدَهُ ﴿ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ يَعْنِي : الْكَعْبَةَ الَّتِي بَنَاهَا إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عليه السلام ﴿ مُبَارَكًا ﴾ أَيْ : وُضِعَ مُبَارَكًا ﴿ وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ . وَبَكَّة مِنْ أَسْمَاءِ مَكَّة عَلَى الْمَشْهُورِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ أَيْ : دَلَالَاتٌ ظَاهِرَةٌ أَنَّهُ مِنْ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَنَّ اللهَ عَظَّمَهُ وَشَرَّفَهُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ يَعْنِي : الَّذِي لَمَّا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى رَفْعِ الْقَوَاعِدِ مِنْهُ وَالْجُدْرَانِ ، حَيْثُ كَانَ يَقِفُ عَلَيْهِ وَيُنَاوِلُهُ وَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ ، وَقَدْ كَانَ مُلْتَصِقًا

بِجِدَارِ الْبَيْتِ حَتَّى أَخَّرَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ فِي إِمَارَتِهِ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّرْقِ ، بِحَيْثُ يَتَمَكَّنُ الطُّوَّافُ مِنْهُ وَلَا يُشَوِّشُونَ عَلَى الْمُصَلِّينَ عِنْدَهُ بَعْدَ الطَّوَافِ . ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ يَعْنِي : حَرَمَ مَكَّةَ إِذَا دَخَلَهُ الْخَائِفُ يَأْمَنُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ فِي حَالِ الْجَاهِلِيَّةِ ، كَانَ الرَّجُلُ يَقْتُلُ فَيَضَعُ فِي عُنُقِهِ صُوفَةً وَيَدْخُلُ الْحَرَمَ فَيَلْقَاهُ ابْنُ الْمَقْتُولِ فَلَا يُهَيِّجُهُ حَتَّى يَخْرُجَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ هَذِهِ آيَةُ وُجُوبِ الْحَجِّ عِنْدَ الْجُمْهُورِ . وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَعَدِّدَةُ بِأَنَّهُ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَدَعَائِمِهِ وَقَوَاعِدِهِ ، وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى ذَلِكَ إِجْمَاعًا ضَرُورِيًّا ، وَإِنَّمَا يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ فِي الْعُمُرِ مَرَّةً وَاحِدَةً بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ . وَأَمَّا الِاسْتِطَاعَةُ فَأَقْسَامٌ تَارَةً يَكُونُ الشَّخْصُ مُسْتَطِيعًا بِنَفْسِهِ ، وَتَارَةً بِغَيْرِهِ ، كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ .

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

هَذَا تَعْنِيفٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلْكَفَرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى عِنَادِهِمْ لِلْحَقِّ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَقَدْ تَوَعَّدَهُمُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ شَهِيدٌ عَلَى صَنِيعِهِمْ ذَلِكَ بِمَا خَالَفُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ وَمُعَامَلَتِهِمُ الرَّسُولَ الْمُبَشَّرَ بِهِ بِالتَّكْذِيبِ وَالْجُحُودِ وَالْعِنَادِ ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ، أَيْ وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

يُحَذِّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يُطِيعُوا طَائِفَةً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَحْسُدُونَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَمَا مَنَحَهُمْ مِنْ إِرْسَالِ رَسُولِهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ الْكُفْرَ بَعِيدٌ مِنْكُمْ وَحَاشَاكُمْ مِنْهُ ، فَإِنَّ آيَاتِ اللهِ تَنْزِلُ عَلَى رَسُولِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَهُوَ يَتْلُوهَا عَلَيْكُمْ ، وَيُبَلِّغُهَا إِلَيْكُمْ . ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أَيْ : وَمَعَ هَذَا فَالِاعْتِصَامُ بِاللهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ هُوَ الْعُمْدَةُ فِي الْهِدَايَةِ ، وَالْعُدَّةُ فِي مُبَاعَدَةِ الْغِوَايَةِ ، وَالْوَسِيلَةُ إِلَى الرَّشَادِ وَطَرِيقِ السَّدَادِ وَحُصُولِ الْمُرَادِ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

ذَهَبَ بَعْضُ العُلَمَاءِ إِلَى : أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] ، وَقَالَ آخرون : لَمْ تُنْسَخْ وَلَكِنْ ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ أَنْ يُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَلَا تَأْخُذُهُمْ فِي الله لَوْمَةَ لَائِم ، وَيَقُومُوا بِالْقِسْطِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَآبَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ .وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أَيْ : حَافِظُوا عَلَى الْإِسْلَامِ فِي حَالِ صِحَّتِكُمْ وَسَلَامَتِكُمْ لِتَمُوتُوا عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ قَدْ أَجْرَى عَادَتَهُ بِكَرَمِهِ أَنَّهُ مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ عَلَيْهِ ، فَعِيَاذًا بِالله مِنْ خِلَافِ ذَلِكَ .وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ قِيلَ : ﴿ بِحَبْلِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : بِعَهْدِ الله ، وَقِيلَ : يَعْنِي : الْقُرْآن . ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ أَمَرَهُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّفْرِقَةِ .وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، وَهَذَا السِّيَاقُ فِي شَأْنِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَعَدَاوَةٌ شَدِيدَةٌ وَضَغَائِنُ وَإِحَنٌ وَذُحُولٌ ، طَالَ بِسَبَبِهَا قِتَالُهُمْ وَالْوَقَائِعُ بَيْنَهُمْ ، فَلَمَّا جَاءَ اللهُ بِالْإِسْلَامِ فَدَخَلَ مَنْ دَخَلَ مِنْهُمْ صَارُوا إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ بِجَلَالِ الله ، مُتَوَاصِلِينَ فِي ذَاتِ الله ، مُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَكَانُوا عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ فَأَنْقَذَهُمُ الله مِنْهَا ، أَنْ هَدَاهُمْ لِلْإِيمَانِ .

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ مُنْتَصِبَةٌ لِلْقِيَامِ بِأَمْرِ الله فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ

وَالنَّهي عَنِ المُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ .

وَالمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ تَكُونَ فِرْقَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُتَصَدِّيَةٌ لِهَذَا الشَّأْنِ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْأُمَّةِ بِحَسَبِهِ .قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ الْآيَة ، يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ أَنْ يَكُونُوا كَالأُمَمِ المَاضِيَةِ فِي افْتِرَاقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ وَتَرْكِهِمُ الْأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ تَبْيَضُّ وُجُوهُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ أَهْلِ الْبِدْعَةِ وَالْفُرْقَةِ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ وَهُمُ المُنَافِقُونَ ﴿ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ وَهَذَا الْوَصْفُ يَعُمُّ كُلَّ كَافِرٍ . ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةَ مَاكِثُونَ فِيهَا أَبَدًا ، لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا .ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ أَيْ : هَذِهِ آيَاتُ الله وَحُجَجِهِ وَبَيِّنَاتِهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : نَكْشِفُ مَا الْأَمْرُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ بِظَالِمٍ لَهُمْ ، بَلْ هُوَ الْحَاكِمُ الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَجُورُ ، لِأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَلَا يَحْتَاجُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ مِلْكٌ لَهُ وَعَبِيدٌ لَهُ ، وَإِلَى الله تُرْجَعُ الْأُمُورُ أَيْ هُوَ الْحَاكِمُ المُتَصَرِّفُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ بِأَنَّهُمْ خَيْرُ الْأُمَمِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ وَالمَعْنَى أَنَّهُمْ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ ، وَلِهَذَا قَالَ ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْأُمَّةِ كُلِّ قَرْنٍ بِحَسَبِهِ ، وَخَيْرُ قُرُونِهِمُ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ رَسُولُ الله ﷺ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، وَإِنَّمَا حَازَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَصَبَ السَّبْقِ إِلَى الْخَيْرَاتِ بِنَبِيِّهَا مُحَمَّدٍ فَإِنَّهُ أَشْرَفُ خَلْقِ الله ، وَأَكْرَمُ الرُّسُلِ عَلَى الله ،

وَبَعَثَهُ اللهُ بِشَرْعٍ كَامِلٍ عَظِيمٍ لَمْ يُعْطِهِ نَبِيًّا قَبْلَهُ وَلَا رَسُولًا مِنَ الرُّسُلِ ، فَالْعَمَلُ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَسَبِيلِهِ يَقُومُ الْقَلِيلُ مِنْهُ مَا لَا يَقُومُ الْعَمَلُ الْكَثِيرُ مِنْ أَعْمَالِ غَيْرِهِمْ مَقَامَهُ . فَمَنِ اتَّصَفَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ دَخَلَ مَعَهُمْ فِي هَذَا الْمَدْحِ ، وَمَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِذَلِكَ أَشْبَهَ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ ذَمَّهُمُ اللهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة : ٧٩] ، وَلِهَذَا لَمَّا مَدَحَ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ شَرَعَ فِي ذَمِّ أَهْلِ الْكِتَابِ وَتَأْنِيبِهِمْ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ أَيْ : بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ أَيْ : قَلِيلٌ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ عَلَى الضَّلَالَةِ وَالْكُفْرِ وَالْفِسْقِ وَالْعِصْيَانِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَمُبَشِّرًا لَهُمْ ، أَنَّ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ لَهُمْ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ الْكَفَرَةِ الْمُلْحِدِينَ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ وَهَكَذَا وَقَعَ ؛ فَإِنَّهُمْ يَوْمَ خَيْبَرَ أَذَلَّهُمُ اللهُ وَأَرْغَمَ أُنُوفَهُمْ ، وَكَذَلِكَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ بَنِي قَيْنُقَاعَ وَبَنِي النَّضِيرِ وَبَنِي قُرَيْظَةَ كُلُّهُمْ أَذَلَّهُمُ اللهُ . وَكَذَلِكَ النَّصَارَى بِالشَّامِ كَسَرَهُمُ الصَّحَابَةُ فِي غَيْرِ مَا مَوْطِنٍ ، وَسَلَبُوهُمْ مُلْكَ الشَّامِ أَبَدَ الْآبِدِينَ وَدَهْرَ الدَّاهِرِينَ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : أَلْزَمَهُمُ اللهُ الذِّلَّةَ وَالصَّغَارَ أَيْنَمَا كَانُوا ، فَلَا يَأْمَنُونَ ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : بِذِمَّةٍ مِنَ اللهِ وَهُوَ عَقْدُ الذِّمَّةِ لَهُمْ ، وَضَرْبُ الْجِزْيَةِ عَلَيْهِمْ ، وَإِلْزَامِهِمْ أَحْكَامَ الْمِلَّةِ ﴿ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : أَمَانٍ مِنْهُمْ لَهُمْ ، كَمَا فِي الْمُهَادَنِ وَالْمُعَاهَدِ وَالْأَسِيرِ ، إِذَا أَمَّنَهُ وَاحِدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَوِ امْرَأَةٌ وَكَذَا عَبْدٌ عَلَى أَحَدِ قَوْلَيِ الْعُلَمَاءِ . ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : أُلْزِمُوا فَالْتَزَمُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَهُمْ يَسْتَحِقُّونَهُ ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ أَيْ : أُلْزِمُوهَا قَدَرًا وَشَرْعًا . ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْكِبْرُ وَالْبَغْيُ وَالْحَسَدُ ، فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ الذِّلَّةَ وَالصَّغَارَ وَالْمَسْكَنَةَ أَبَدًا مُتَّصِلًا بِذُلِّ الْآخِرَةِ ، ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِ رُسُلِ اللهِ ، وَقُيِّضُوا لِذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُكْثِرُونَ الْعِصْيَانَ لِأَوَامِرِ اللهِ وَالْغِشْيَانَ لِمَعَاصِي اللهِ ، وَالِاعْتِدَاءَ فِي شَرْعِ اللهِ ، فَعِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ .

لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن

يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾

﴿ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ ﴾ قِيلَ : لَا يَسْتَوِي أَهْلُ الْكِتَابِ وَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، **وَالْمَشْهُورُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ** : أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِيمَنْ آمَنَ مِنْ أَحْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ كَعَبْدِ الله بْن سَلَام ، وَأَسَدِ بْنِ عُبَيْدٍ ، وَثَعْلَبَةَ بْنِ شُعْبَةَ وَغَيْرِهِمْ . أَيْ لَا يَسْتَوِي مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ بِالذَّمِّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيۡسُواْ سَوَآءٗ ﴾ أَيْ : لَيْسُوا كُلُّهُمْ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ ، بَلْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُ وَمِنْهُمُ الْمُجْرِمُ .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ ﴾ أَيْ : قَائِمَةٌ بِأَمْرِ الله مُطِيعَةٌ لِشَرْعِهِ مُتَّبِعَةٌ نَبِيَّ الله ، فَهِيَ قَائِمَةٌ يَعْنِي مُسْتَقِيمَةٌ ﴿ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴾ أَيْ : يُقِيمُونَ اللَّيْلَ وَيُكْثِرُونَ التَّهَجُّدَ وَيَتْلُونَ الْقُرْآن فِي صَلَوَاتِهِمْ . ﴿ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي آخِرِ السُّورَةِ ﴿ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٩٩] ، **ولهذا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا** : ﴿ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُ ﴾ أَيْ : لَا يَضِيعُ عِنْدَ الله بَلْ يَجْزِيهِمْ بِهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : لَا يَخْفَى عَلَيْهِ عَمَلُ عَامِلٍ وَلَا يَضِيعُ لَدَيْهِ أَجْرُ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا .

قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكَفَرَةِ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُ : ﴿ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا ﴾ أَيْ : لَا تَرُدُّ عَنْهُمْ بَأْسَ الله وَلَا عَذَابَهُ إِذَا أَرَادَهُ بِهِمْ ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ . **ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلًا لِمَا يُنْفِقُهُ الْكُفَّارُ فِي هَذِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ ﴾ أَيْ : بَرْدٌ شَدِيدٌ ، فَإِنَّ الْبَرْدَ الشَّدِيدَ وَلَا سِيَّمَا الْجَلِيدُ يُحْرِقُ الزُّرُوعَ وَالثِّمَارَ كَمَا يُحْرِقُ الشَّيْءُ بِالنَّارِ ﴿ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُ ﴾ أَيْ : فَأَحْرَقَتْهُ ، يَعْنِي بِذَلِكَ : السَّعَفَةَ إِذَا نَزَلَتْ عَلَى حَرْثٍ قَدْ آنَ جِذَاذُهُ أَوْ حَصَادُهُ فَدَمَّرَتْهُ ، وَأَعْدَمَتْ مَا فِيهِ مِنْ ثَمَرٍ أَوْ زَرْعٍ فَذَهَبَتْ بِهِ وَأَفْسَدَتْهُ ، فَعَدِمَهُ صَاحِبُهُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ . فَكَذَلِكَ الْكُفَّارُ يَمْحَقُ اللهُ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَثَمَرِهَا ، كَمَا يَذْهَبُ ثَمَرَة هَذَا الْحَرْثِ بِذُنُوبِ صَاحِبِهِ . وَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ بَنَوْهَا عَلَى غَيْرِ أَصْلٍ وَعَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ الْمُنَافِقِينَ ﴿ بِطَانَة ﴾ أَيْ : يُطْلِعُونَهُمْ عَلَى سَرَائِرِهِمْ ، وَمَا يُضْمِرُونَهُ لِأَعْدَائِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ أَيْ : مِنْ غَيْرِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ ، وَبِطَانَة الرَّجُلِ : هُمْ خَاصَّةُ أَهْلِهِ الَّذِينَ يَطَّلِعُونَ عَلَى دَاخِلِ أَمْرِهِ . فَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الذِّمَّةِ لَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُهُمْ فِي الْكِتَابَةِ الَّتِي فِيهَا اسْتِطَالَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَاطِّلَاعٌ عَلَى دَوَاخِلِ أُمُورِهِمُ الَّتِي يُخْشَى أَنْ يُفْشُوهَا إِلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ أَيْ : قَدْ لَاحَ عَلَى صَفَحَاتِ وُجُوهِهِمْ ، وَفَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ ، مَعَ مَا هُمْ مُشْتَمِلُونَ عَلَيْهِ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْبَغْضَاءِ لِلْإِسْلَامِ ، وَأَهْلِهِ ، مَا لَا يَخْفَى مِثْلُهُ عَلَى لَبِيبٍ عَامِلٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ تُحِبُّونَ الْمُنَافِقِينَ بِمَا يُظْهِرُونَ لَكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ ، فَتُحِبُّونَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَهُمْ لَا يُحِبُّونَكُمْ لَا بَاطِنًا وَلَا ظَاهِرًا ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ أَيْ : لَيْسَ عِنْدَكُمْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ وَهُمْ عِنْدَهُمُ الشَّكُّ وَالرَّيْبُ وَالْحِيرَةُ ، وَقِيلَ أَيضًا : ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ أَيْ : بِكِتَابِكُمْ وَكِتَابِهِمْ ، وَبِمَا مَضَى مِنَ الْكُتُبِ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِكِتَابِكُمْ ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِالْبَغْضَاءِ لَهُمْ مِنْهُمْ لَكُمْ ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ ، وَالْأَنَامِلُ أَطْرَافُ الْأَصَابِعِ ، وَهَذَا شَأْنُ الْمُنَافِقِينَ يُظْهِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْإِيمَانَ وَالْمَوَدَّةَ ، وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أَيْ : مَهْمَا كُنْتُمْ تَحْسُدُونَ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَغِيظُكُمْ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مُتِمٌّ نِعْمَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمُكَمِّلٌ دِينِهِ وَمُعْلٍ كَلِمَتِهِ وَمُظْهِرُ دِينِهِ ، فَمُوتُوا أَنْتُمْ بِغَيْظِكُمْ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أَيْ : هُوَ عَلِيمٌ بِمَا

تَنْطَوِي عَلَيْهِ ضَمَائِرُكُمْ ، وَتُكِنُّهُ سَرَائِرُكُمْ مِنَ الْبَغْضَاءِ وَالْحَسَدِ وَالْغِلِّ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ مُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا بِأَنْ يُرِيكُمْ خِلَافَ مَا تَأْمُلُونَ ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ فِي النَّارِ الَّتِي أَنْتُمْ خَالِدُونَ فِيهَا ، لَا مَحِيدَ لَكُمْ عَنْهَا ، وَلَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ وَهَذِهِ الْحَالُ دَالَّةٌ عَلَى شِدَّةِ الْعَدَاوَةِ مِنْهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أَصَابَ الْمُؤْمِنِينَ خِصْبٌ وَنَصْرٌ وَتَأْيِيدٌ وَكَثُرُوا وَعَزَّ أَنْصَارُهُمْ سَاءَ ذَلِكَ الْمُنَافِقِينَ ، وَإِنْ أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ سَنَةٌ أَيْ : جَدْبٌ أَوْ أُدِيلَ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ لِمَا للهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ - كَمَا جَرَى يَوْمَ أُحُدٍ - فَرِحَ الْمُنَافِقُونَ بِذَلِكَ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا الْمُؤْمِنِينَ : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ **الْآيَةُ** ، يُرْشِدُهُمْ تَعَالَى إِلَى السَّلَامَةِ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدِ الْفُجَّارِ ، بِاسْتِعْمَالِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ الَّذِي هُوَ مُحِيطٌ بِأَعْدَائِهِمْ ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَهُمْ إِلَّا بِهِ وَهُوَ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَلَا يَقَعُ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ إِلَّا بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ . ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَّةِ أُحُدٍ ، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنَ الاخْتِبَارِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، وَبَيَانِ الصَّابِرِينَ فَقَالَ تَعَالَى :

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْوَقْعَةِ يَوْمَ أُحُدٍ عِنْدَ الْجُمْهُورِ ، وَكَانَتْ وَقْعَةُ أُحُدٍ يَوْمَ السَّبْتِ مِنْ شَوَّالٍ سَنَةَ ثَلَاثٍ مِنَ الْهِجْرَةِ . **قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ أَيْ : تُنْزِلُهُمْ مَنَازِلَهُمْ وَتَجْعَلُهُمْ مَيْمَنَةً وَمَيْسَرَةً وَحَيْثُ أَمَرْتَهُمْ ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : سَمِيعٌ لِمَا تَقُولُونَ عَلِيمٌ بِضَمَائِرِكُمْ . ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾ **الْآيَةَ** . **عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ** : فِينَا نَزَلَتْ ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ ﴾ **الْآيَةَ** . قَالَ : نَحْنُ الطَّائِفَتَانِ : بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلَمَةَ ، وَمَا يَسُرُّنِي أَنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ أَيْ : يَوْمَ بَدْرٍ وَكَانَ يَوْمَ جُمُعَةٍ وَافَقَ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ مِنَ الْهِجْرَةِ ، وَهُوَ يَوْمُ الْفُرْقَانِ الَّذِي أَعَزَّ اللهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ ، وَدَمَغَ فِيهِ الشِّرْكَ وَخَرَّبَ مَحَلَّهُ وَحِزْبَهُ ، هَذَا مَعَ قِلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ فَإِنَّهُمْ كَانُوا ثَلَاثَمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا ، فِيهِمْ فَارِسَانِ وَسَبْعُونَ بَعِيرًا وَالْبَاقُونَ مُشَاةٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى

عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَحِزْبِهِ الْمُتَّقِينَ ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ أَيْ : قَلِيلٌ عَدَدُكُمْ ، لِتَعْلَمُوا أَنَّ النَّصْرَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، لَا بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ ، **وَبَدْرٌ مَحَلَّةٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ تُعْرَفُ بِبِئْرِهَا ،** مَنْسُوبَةٌ إِلَى رَجُلٍ حَفَرَهَا ، يُقَالُ لَهُ بَدْرُ بْنُ النَّارَيْنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : تَقُومُونَ بِطَاعَتِهِ .

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الْوَعْدِ هَلْ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ أَوْ يَوْمَ أُحُدٍ ؟ فَالظَّاهِرُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ ، كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ أَنَّ قِتَالَ الْمَلَائِكَةِ ، إِنَّمَا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ يَعْنِي : تَصْبِرُوا عَلَى مُصَابَرَةِ عَدُوِّكُمْ ، وَتَتَّقُونِي وَتُطِيعُوا أَمْرِي . ﴿ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ أَيْ : مِنْ غَضَبِهِمْ وَوَجْهِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ أَيْ : بِسِيمَا الْقِتَالِ . **وَقِيلَ** : مُعَلَّمِينَ : أَيْ بِعَلَامَاتِ الْقِتَالِ . ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ أَيْ : وَمَا أَنْزَلَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ وَأَعْلَمَكُمْ بِإِنْزَالِهِمْ إِلَّا بِشَارَةً لَكُمْ ، وَتَطْيِيبًا لِقُلُوبِكُمْ وَتَطْمِينًا ، وَإِلَّا فَإِنَّمَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، الَّذِي لَوْ شَاءَ لَانْتَصَرَ مِنْ أَعْدَائِهِ بِدُونِكُمْ ، وَمِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَى قِتَالِكُمْ لَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أَيْ : هُوَ ذُو الْعِزَّةِ الَّتِي لَا تُرَامُ ، وَالْحِكْمَةِ فِي قَدَرِهِ وَالْإِحْكَامِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ أَيْ : أَمَرَكُمْ بِالْجِهَادِ وَالْجِلَادِ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي كُلِّ تَقْدِيرٍ ، وَلِهَذَا ذَكَرَ جَمِيعَ الْأَقْسَامِ الْمُمْكِنَةِ فِي الْكُفَّارِ الْمُجَاهِدِينَ فَقَالَ : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا ﴾ أَيْ : لِيُهْلِكَ أُمَّةً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ أَي : يُخْزِيَهِمْ وَيَرُدَّهُمْ بِغَيْظِهِمْ لِمَا يَنَالُوا مِنْكُمْ مَا أَرَادُوا ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ ﴾ أَيْ : يَرْجِعُوا ﴿ خَآئِبِينَ ﴾ أَيْ : لَمْ يَحْصُلُوا عَلَى مَا أَمَلُوا . ثُمَّ اعْتَرَضَ بِجُمْلَةٍ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ،

فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ أَيْ : بَلِ الْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيَّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] ، **ثُمَّ ذَكَرَ بَقِيَّةَ الْأَقْسَامِ فَقَالَ** : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ فَيَهْدِيهِمْ بَعْدَ الضَّلَالَةِ ﴿ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ . عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِيهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْفَجْرِ : « **اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا** » بَعْدَ مَا يَقُولُ : « **سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ** » فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ الْآيَةُ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ الْآيَةُ . أَيِ الْجَمِيعُ مِلْكٌ لَهُ وَأَهْلُهُمَا عَبِيدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ تَعَاطِي الرِّبَا ، وَأَكْلِهِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ بِالنَّارِ وَحَذَّرَهُمْ مِنْهَا ، فَقَالَ تَعَالَى . ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ . ثُمَّ نَدَبَهُمْ إِلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى نَيْلِ الْقُرُبَاتِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : كَمَا أُعِدَّتِ النَّارُ لِلْكَافِرِينَ ، **وَقَدْ قِيلَ** : إِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ تَنْبِيهًا عَلَى اتِّسَاعِ طُولِهَا ، كَمَا قَالَ فِي صِفَةِ فُرُشِ الْجَنَّةِ ﴿ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ أَيْ : فَمَا ظَنُّكَ بِالظَّهَائِرِ ، **وَقِيلَ** : بَلْ عَرْضُهَا كَطُولِهَا ، لِأَنَّهَا قُبَّةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ ، وَالشَّيْءُ الْمُقَبَّبُ وَالْمُسْتَدِيرُ عَرْضُهُ كَطُولِهِ . **ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى صِفَةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَقَالَ** : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ أَيْ :

فِي الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَالصِّحَّةِ وَالْمَرَضِ. لَا يَشْغَلُهُمْ أَمْرٌ عَنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى، وَالْإِنْفَاقِ فِي مَرَاضِيهِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِهِ مِنْ قَرَابَاتِهِمْ وَغَيْرِهِمْ بِأَنْوَاعِ الْبِرِّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ أَيْ: إِذَا ثَارَ بِهِمُ الْغَيْظُ كَظَمُوهُ بِمَعْنَى: كَتَمُوهُ فَلَمْ يُعْمِلُوهُ.

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: مَعَ كَفِّ الشَّرِّ يَعْفُونَ عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَلَا يَبْقَى فِي أَنْفُسِهِمْ مَوْجِدَةٌ عَلَى أَحَدٍ وَهَذَا أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ أَيْ: إِذَا صَدَرَ مِنْهُمْ ذَنْبٌ أَتْبَعُوهُ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ. ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أَيْ: لَا يَغْفِرُهَا أَحَدٌ سِوَاهُ. ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: تَابُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَرَجَعُوا إِلَى اللهِ مِنْ قَرِيبٍ، وَلَمْ يَسْتَمِرُّوا عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَيُصِرُّوا عَلَيْهَا غَيْرَ مُقْلِعِينَ عَنْهَا، وَلَوْ تَكَرَّرَ مِنْهُمُ الذَّنْبُ تَابُوا مِنْهُ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ مَنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ وَصْفِهِمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أَيْ: جَزَاؤُهُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ ﴿مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أَيْ: مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشْرُوبَاتِ ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أَيْ: مَاكِثِينَ فِيهَا ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ يَمْدَحُ تَعَالَى الْجَنَّةَ.

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا أُصِيبُوا يَوْمَ أُحُدٍ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أَيْ: قَدْ جَرَى نَحْوَ هَذَا عَلَى الْأُمَمِ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ كَانَتِ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ وَالدَّائِرَةُ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنُ فِيهِ بَيَانُ الْأُمُورِ عَلَى جَلِيَّتِهَا، وَكَيْفَ كَانَ الْأُمَمُ الْأَقْدَمُونَ مَعَ أَعْدَائِهِمْ ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنُ فِيهِ خَبَرُ مَا قَبْلَكُمْ وَهُدًى

لِقُلُوبِكُمْ ﴿ وَمَوْعِظَة ﴾ أَيْ : زَاجِرٌ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَآثِمِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَلَا تَهِنُوا ﴾ أَيْ : لَا تَضْعُفُوا بِسَبَبِ مَا جَرَى ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ . ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ أَيْ : إِنْ كُنْتُمْ قَدْ أَصَابَتْكُمْ جِرَاحٌ ، وَقُتِلَ مِنْكُمْ طَائِفَةٌ ، فَقَدْ أَصَابَ أَعْدَاءَكُمْ قَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ مِنْ قَتْلٍ وَجِرَاحٍ ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ أَيْ : نُدِيلُ عَلَيْكُمُ الْأَعْدَاءَ تَارَةً ، وَإِنْ كَانَتْ لَكُمُ الْعَاقِبَةُ لِمَا لَنَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : فِي مِثْلِ هَذَا لِنَرَى مَنْ يَصْبِرُ عَلَى مُنَاجَزَةِ الْأَعْدَاءِ ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ يَعْنِي : يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ وَيَبْذُلُونَ مُهَجَهُمْ فِي مَرْضَاتِهِ ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أَيْ : يُكَفِّرُ عَنْهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ إِنْ كَانَتْ لَهُمْ ذُنُوبٌ ، وَإِلَّا رَفَعَ لَهُمْ فِي دَرَجَاتِهِمْ بِحَسَبِ مَا أُصِيبُوا بِهِ . ﴿ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ أَيْ : فَإِنَّهُمْ إِذَا ظَفِرُوا بَغَوْا وَبَطِرُوا فَيَكُون ذَلِكَ سَبَبُ دَمَارِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ وَمَحْقِهِمْ وَفَنَائِهِمْ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ أَيْ : أَحَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمْ تُبْتَلَوْا بِالْقِتَالِ وَالشَّدَائِد . فَلَا يَحْصُلُ لَكُمْ دُخُولُ الْجَنَّةِ حَتَّى تُبْتَلَوْا ، وَيَرَى اللهُ مِنْكُمُ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مُقَاوَمَةِ الْأَعْدَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ أَيْ قَدْ كُنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ تَتَمَنَّوْنَ لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَتَحْتَرِقُونَ عَلَيْهِ ، وَتَوَدُّونَ مُنَاجَزَتَهُمْ وَمُصَابَرَتَهُمْ فَهَا قَدْ حَصَلَ لَكُمُ الَّذِي تَمَنَّيْتُمُوهُ وَطَلَبْتُمُوهُ ، فَدُونَكُمْ فَقَاتِلُوا وَصَابِرُوا . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ ﴾ يَعْنِي : الْمَوْتَ ، ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ شَاهَدْتُمُوهُ وَقْتَ حَدِّ الْأَسِنَّةِ ، وَاشْتِبَاكِ الرِّمَاحِ ، وَصُفُوفِ الرِّجَالِ لِلْقِتَالِ .

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

لَمَّا انْهَزَمَ مَا انْهَزَمَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ، نَادَى الشَّيْطَانُ: أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، وَرَجَعَ ابْنُ قَمِيئَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ لَهُمْ: قَتَلْتُ مُحَمَّدًا وَإِنَّمَا كَانَ قَدْ ضَرَبَ رَسُولَ اللهِ فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ، فَوَقَعَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ قُتِلَ، وَجَوَّزُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، كَمَا قَدْ قَصَّ اللهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - فَحَصَلَ ضَعْفٌ وَوَهَنٌ وَتَأَخُّرٌ عَنِ الْقِتَالِ، فَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أَيْ: لَهُ أُسْوَةٌ بِهِمْ فِي الرِّسَالَةِ وَفِي جَوَازِ الْقَتْلِ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى مَنْ حَصَلَ لَهُ ضَعْفٌ ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ أَيْ: رَجَعْتُمُ الْقَهْقَرَى ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ أَيْ: الَّذِينَ قَامُوا بِطَاعَتِهِ وَقَاتَلُوا عَنْ دِينِهِ وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ حَيًّا وَمَيِّتًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ أَيْ: لَا يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِقَدَرِ اللهِ، وَحَتَّى يَسْتَوْفِيَ الْمُدَّةَ الَّتِي ضَرَبَهَا اللهُ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَشْجِيعٌ لِلْجُبَنَاءِ وَتَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ، فَإِنَّ الْإِقْدَامَ وَالْإِحْجَامَ لَا يُنْقِصُ مِنَ الْعُمُرِ وَلَا يَزِيدُ فِيهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أَيْ: مَنْ كَانَ عَمَلُهُ لِلدُّنْيَا فَقَدْ نَالَهُ مِنْهَا مَا قَدَّرَهُ اللهُ لَهُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ، وَمَنْ قَصَدَ بِعَمَلِهِ الدَّارَ الْآخِرَةَ أَعْطَاهُ اللهُ مِنْهَا مَعَ مَا قَسَمَ لَهُ فِي الدُّنْيَا. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ أَيْ: سَنُعْطِيهِمْ مِنْ فَضْلِنَا وَرَحْمَتِنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِحَسَبِ شُكْرِهِمْ وَعَمَلِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَمَّا كَانَ وَقَعَ فِي نُفُوسِهِمْ يَوْمَ أُحُدٍ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ كَمْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ وَقُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ مِنْ أَصْحَابِهِ كَثِيرٌ، ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ قِيلَ: جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ: أُلُوفٌ. وَقِيلَ: عُلَمَاءُ كَثِيرٌ. وَقِيلَ: عُلَمَاءُ صُبُرٌ، أَيْ: أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ، وَقِيلَ: الرِّبِّيُّونَ: الْأَتْبَاعُ، وَالرَّعِيَّةُ، وَالرَّبَّانِيُّونَ: الْوُلَاةُ ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ مَا ضَعُفُوا بِقَتْلِ نَبِيِّهِمْ ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ يَقُولُ: فَمَا ارْتَدُّوا عَنْ نُصْرَتِهِمْ وَلَا عَنْ دِينِهِمْ أَنْ قَاتَلُوا عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ نَبِيُّ اللهِ حَتَّى لَحِقُوا بِاللهِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾: وَمَا ذَلُّوا لِعَدُوِّهِمْ. أَيْ: مَا أَصَابَهُمْ ذَلِكَ حِينَ قُتِلَ نَبِيُّهُمْ. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أَيْ: لَمْ يَكُنْ لَهُمْ هِجِّيرَى إِلَّا ذَلِكَ ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ: النَّصْرُ وَالظَّفَرُ وَالْعَاقِبَةُ ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أَيْ: جَمَعَ لَهُمْ ذَلِكَ مَعَ هَذَا ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟

خَسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

يُحَذِّر تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ طَاعَة الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، فَإِنَّ طَاعَتَهُمْ تُورِثُ الرَّدَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾ ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ ، وَمُوَالَاتِهِ ، وَالاسْتِعَانَةِ بِهِ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴾ ثُمَّ بَشَّرَهُمْ بِأَنَّهُ سَيُلْقِي فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِمْ الْخَوْفَ مِنْهُمْ وَالذِّلَّةَ لَهُمْ ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ ، مَعَ مَا ادَّخَرَهُ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، فَقَالَ : ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي ، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: وَعَدَهُمُ اللهُ النَّصْرَ ، وَقَدْ يُسْتَدَلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٢٤] أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ لِأَنَّ عَدُوَّهُمْ كَانَ ثَلَاثَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ ، فَلَمَّا وَاجَهُوهُمْ كَانَ الظَّفَرُ وَالنَّصْرُ أَوَّلَ النَّهَارِ لِلْإِسْلَامِ ، فَلَمَّا حَصَلَ مَا حَصَلَ مِنْ عِصْيَانِ الرُّمَاةِ وَفَشَلِ بَعْضِ الْمُقَاتِلَةِ تَأَخَّرَ الْوَعْدُ الَّذِي كَانَ مَشْرُوطًا بِالثَّبَاتِ وَالطَّاعَةِ . قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾ أَيْ : أَوَّلَ النَّهَارِ ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُم ﴾ أَيْ : تَقْتُلُونَهُمْ ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ أَيْ : بِتَسْلِيطِهِ إِيَّاكُمْ عَلَيْهِمْ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا

فَشِلْتُمْ﴾ الْفَشَلُ: الْجُبْنُ ﴿وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾، كَمَا وَقَعَ لِلرُّمَاةِ ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ وَهُوَ الظَّفَرُ بِهِمْ ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ وَهُمُ الَّذِينَ رَغِبُوا فِي الْمَغْنَمِ حِينَ رَأَوا الْهَزِيمَةَ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ثُمَّ أَدَالَهُمْ عَلَيْكُمْ لِيَخْتَبِرَكُمْ وَيَمْتَحِنَكُمْ ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أَيْ: غَفَرَ لَكُمْ ذَلِكَ الصَّنِيعَ، وَذَلِكَ - وَاللهُ أَعْلَمُ - لِكَثْرَةِ عُدَدِ الْعَدُوِّ وَعَدَدِهِمْ، وَقِلَّةِ عُدَدِ الْمُسْلِمِينَ وَعَدَدِهِمْ ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ لَمْ يَسْتَأْصِلْكُمْ ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أَيْ: صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ إِذْ تُصْعِدُونَ أَيْ فِي الْجَبَلِ هَارِبِينَ مِنْ أَعْدَائِكُمْ، ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أَيْ: وَأَنْتُمْ لَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الدَّهَشِ وَالْخَوْفِ وَالرُّعْبِ ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أَيْ: وَهُوَ قَدْ خَلَّفْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، يَدْعُوكُمْ إِلَى تَرْكِ الْفِرَارِ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَإِلَى الرَّجْعَةِ وَالْعَوْدَةِ وَالْكَرَّةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ أَيْ: فَجَزَاكُمْ غَمًّا عَلَى غَمٍّ، **قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ:** الْغَمُّ الْأَوَّلُ بِسَبَبِ الْهَزِيمَةِ وَحِينَ قِيلَ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالثَّانِي حِينَ عَلَاهُمُ الْمُشْرِكُونَ فَوْقَ الْجَبَلِ، **وَقِيلَ:** كَرْبًا بَعْدَ كَرْبٍ، قُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ، وَعُلُوِّ عَدُوِّكُمْ عَلَيْكُمْ، وَمَا وَقَعَ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ قَوْلٍ: قُتِلَ نَبِيُّكُمْ، فَكَانَ ذَلِكَ مُتَتَابِعًا عَلَيْكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ. ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أَيْ: عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَالظَّفَرِ بِعَدُوِّكُمْ ﴿وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ﴾ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْقَتْلِ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ جَلَّ وَعَلَا.

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى عِبَادِهِ فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّكِينَةِ وَالْأَمَنَةِ، وَهُوَ النُّعَاسُ الَّذِي غَشِيَهُمْ وَهُمْ مُشْتَمِلُونَ السِّلَاحَ فِي حَالِ هَمِّهِمْ وَغَمِّهِمْ، وَالنُّعَاسُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ دَلِيلٌ عَلَى الْأَمَانِ. وَعَنْ أَبِي طَلْحَةَ رضي الله عنه **قَالَ:** غَشِيَنَا النُّعَاسُ وَنَحْنُ فِي مَصَافِّنَا يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ: فَجَعَلَ

سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي وَآخُذهُ وَيَسْقُطُ وَآخُذُهُ. ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ يَعْنِي: أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ وَالثَّبَاتِ وَالتَّوَكُّلِ الصَّادِقِ، وَهُمُ الْجَازِمُونَ بِأَنَّ اللهَ ﷻ سَيَنْصُرُ رَسُولَهُ وَيُنْجِزُ لَهُ مَأْمُولَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ يَعْنِي: لَا يَغْشَاهُمُ النُّعَاسُ مِنَ الْقَلَقِ وَالْجَزَعِ وَالْخَوْفِ ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ [الفتح: ١٢] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَهَكَذَا هَؤُلَاءِ اعْتَقَدُوا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا ظَهَرُوا تِلْكَ السَّاعَةَ أَنَّهَا الْفَيْصَلَةُ وَأَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ بَادَ وَأَهْلُهُ، وَهَذَا شَأْنُ أَهْلِ الرَّيْبِ وَالشَّكِّ إِذَا حَصَلَ أَمْرٌ مِنَ الْأُمُورِ الْفَظِيعَةِ تَحْصُلُ لَهُمْ هَذِهِ الظُّنُونُ الشَّنِيعَةُ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿ يَقُولُونَ ﴾ فِي تِلْكَ الْحَالِ ﴿ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ﴾ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ ثُمَّ فَسَّرَ مَا أَخْفَوْهُ فِي أَنْفُسِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ أَيْ: يُسِرُّونَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ. ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ أَيْ: هَذَا قَدَرٌ قَدَّرَهُ اللهُ ﷻ وَحُكْمٌ حَتْمٌ لَا مَحِيدَ عَنْهُ وَلَا مَنَاصَ مِنْهُ. ﴿ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أَيْ: يَخْتَبِرَكُمْ بِمَا جَرَى عَلَيْكُمْ لِيَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيُظْهِرَ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْمُنَافِقِ لِلنَّاسِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أَيْ: بِمَا يَخْتَلِجُ فِي الصُّدُورِ مِنَ السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ﴾ أَيْ: بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمُ السَّالِفَةِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ بَعْدَهَا، وَإِنَّ مِنْ جَزَاءِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعْدَهَا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أَيْ: عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْفِرَارِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ أَيْ: يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَحْلُمُ عَنْ خَلْقِهِ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

يَنْهَى تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُشَابَهَةِ الْكُفَّارِ فِي اعْتِقَادِهِمُ الْفَاسِدِ، الدَّالِّ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ عَنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْأَسْفَارِ وَالْحُرُوبِ: لَوْ كَانُوا تَرَكُوا ذَلِكَ لَمَا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ أَيْ: عَنْ إِخْوَانِهِمْ ﴿ إِذَا

ضَرَبُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ : سَافَرُوا لِلتِّجَارَةِ وَنَحْوِهَا ﴿ أَوْ كَانُواْ غُزًّى ﴾ أَيْ : كَانُوا فِي الْغَزْوِ ﴿ لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا ﴾ أَيْ : فِي الْبَلَدِ ﴿ مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ ﴾ أَيْ : مَا مَاتُوا فِي السَّفَرِ وَمَا قُتِلُوا فِي الْغَزْوِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : خَلَقَ هَذَا الاعْتِقَادَ فِي نُفُوسِهِمْ لِيَزْدَادُوا حَسْرَةً عَلَى مَوْتَاهُمْ وَقَتْلَاهُمْ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ ﴿ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أَيْ : بِيَدِهِ الْخَلْقُ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ ، وَلَا يَحْيَا أَحَدٌ وَلَا يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَقَدَرِهِ ، وَلَا يُزَادُ فِي عُمُرِ أَحَدٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أَيْ : عِلْمُهُ وَبَصَرُهُ نَافِذٌ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ . ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ تَضَمَّنَ هَذَا أَنَّ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمَوْتَ أَيْضًا وَسِيلَةٌ إِلَى نَيْلِ رَحْمَةِ اللهِ وَعَفْوِهِ وَرِضْوَانِهِ ، وَذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَجَمِيعِ حُطَامِهَا الْفَانِي .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّ كُلَّ مَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ فَمَصِيرُهُ وَمَرْجِعُهُ إِلَى اللهِ ﷻ ، فَيَجْزِيَهُ بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ
فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم
مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا
غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ
رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ
ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ
أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ
لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا رَسُولَهُ ﷺ مُمْتَنًّا عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، فِيمَا أَلَانَ بِهِ قَلْبَهُ عَلَى أُمَّتِهِ ، الْمُتَّبِعِينَ لِأَمْرِهِ التَّارِكِينَ لِزَجْرِهِ ، وَأَطَابَ لَهُمْ لَفْظَهُ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ أَيْ : بِأَيِّ شَيْءٍ جَعَلَكَ اللهُ لَهُمْ لَيِّنًا لَوْلَا رَحْمَةُ اللهِ بِكَ وَبِهِمْ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ وَالْفَظُّ الْغَلِيظُ : الْمُرَادُ بِهِ هَهُنَا غَلِيظُ الْكَلَامِ لِقَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ ﴾ أَيْ : لَوْ كُنْتَ سَيِّئَ الْكَلَامِ قَاسِيَ الْقَلْبِ عَلَيْهِمْ لَانْفَضُّوا عَنْكَ وَتَرَكُوكَ ، ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ

وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ ﴾ . وَلِذَلِكَ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ فِي الْأَمْرِ إِذَا حَدَثَ ، تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ ، لِيَكُونَ أَنْشَطَ لَهُمْ فِيمَا يَفْعَلُونَهُ ، كَمَا شَاوَرَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَشَاوَرَهُمْ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فِي مُصَالَحَةِ الْأَحْزَابِ بِثُلُثِ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ عَامَئِذٍ ، وَشَاوَرَهُمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ ، وَقَالَ ﷺ فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ : « **أَشِيرُوا عَلَيَّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ** » وَاسْتَشَارَ عَلِيًّا وَأُسَامَةَ فِي فِرَاقِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - فَكَانَ ﷺ يُشَاوِرُهُمْ فِي الْحُرُوبِ وَنَحْوِهَا . ﴿ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : إِذَا شَاوَرْتَهُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَزَمْتَ عَلَيْهِ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله فِيهِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ فَقَالَ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَخُونَ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ أَيْضًا فِي أَحَادِيثَ مُتَعَدِّدَةٍ :

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ أَيْ : لَا يَسْتَوِي مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ الله فِيمَا شَرَعَهُ فَاسْتَحَقَّ رِضْوَانَ الله وَجَزِيلَ ثَوَابِهِ وَأُجِيرَ مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ ، وَمَنِ اسْتَحَقَّ غَضَبَ الله وَأُلْزِمَ بِهِ ، فَلَا مَحِيدَ لَهُ عَنْهُ ، وَمَأْوَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . **ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : يَعْنِي أَهْلَ الْخَيْرِ وَأَهْلَ الشَّرِّ دَرَجَاتٌ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : مَنَازِلُ : يَعْنِي مُتَفَاوِتُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ دَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ وَدَرَكَاتِهِمْ فِي النَّارِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾ أَيْ : وَسَيُوَفِّيهِمْ إِيَّاهَا لَا يَظْلِمُهُمْ خَيْرًا وَلَا يَزِيدُهُمْ شَرًّا بَلْ يُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ أَيْ : مِنْ جِنْسِهِمْ لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ مُخَاطَبَتِهِ وَسُؤَالِهِ وَمُجَالَسَتِهِ وَالِانْتِفَاعِ بِهِ ، فَهَذَا أَبْلَغُ فِي الِامْتِنَانِ أَنْ يَكُونَ الرُّسُلُ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ بِحَيْثُ يُمْكِنُهُمْ مُخَاطَبَتُهُ وَمُرَاجَعَتُهُ فِي فَهْمِ الْكَلَامِ عَنْهُ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿ وَيُزَكِّيهِمۡ ﴾ أَيْ : يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، لِتَزْكُوَ نُفُوسُهُمْ وَتَطْهُرَ مِنَ الدَّنَسِ وَالْخَبَثِ ، الَّذِي كَانُوا مُتَلَبِّسِينَ بِهِ فِي حَالِ شِرْكِهِمْ وَجَاهِلِيَّتِهِمْ ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِ هَذَا الرَّسُولِ ﴿ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : لَفِي غَيٍّ وَجَهْلٍ ظَاهِرٍ ، جَلِيٍّ بَيِّنٍ لِكُلِّ أَحَدٍ .

أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ

ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ ﴾ وَهِيَ مَا أُصِيبَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنْ قَتْلَى السَّبْعِينَ مِنْهُمْ ﴿ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ بَدْرٍ ، فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ سَبْعِينَ قَتِيلًا وَأَسَرُوا سَبْعِينَ أَسِيرًا ﴿ قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ﴾ أَيْ مِنْ أَيْنَ جَرَى عَلَيْنَا هَذَا ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ بِسَبَبِ عِصْيَانِكُمْ لِرَسُولِ الله ﷺ حِينَ أَمَرَكُمْ أَنْ لَا تَبْرَحُوا مِنْ مَكَانِكُمْ فَعَصَيْتُمْ ، يَعْنِي بِذَلِكَ الرُّمَاةُ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَيْ : يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ .

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فِرَارُكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَدُوِّكُمْ وَقَتْلِهِمْ لِجَمَاعَةٍ مِنْكُمْ ، وَجِرَاحَتِهِمْ لِآخَرِينَ ، كَانَ بِقَضَاءِ الله وَقَدَرِهِ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ صَبَرُوا وَثَبَتُوا وَلَمْ يَتَزَلْزَلُوا . ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ أَصْحَابَ عَبْدِ الله ابْنِ أُبَيِّ ابْنِ سَلُولٍ الَّذِينَ رَجَعُوا مَعَهُ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ فَاتَّبَعَهُمْ رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى الْإِتْيَانِ وَالْقِتَالِ وَالْمُسَاعَدَةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ أَوِ ٱدْفَعُواْ ﴾ يَعْنِي : كَثِّرُوا سَوَادَ الْمُسْلِمِينَ ، **قِيلَ** : رَابِطُوا ، فَتَعَلَّلُوا قَائِلِينَ : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يَعْنُونَ لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَلْقَوْنَ حَرْبًا لَجِئْنَاكُمْ ، وَلَكِنْ لَا تَلْقَوْنَ قِتَالًا .

قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ اسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى أَنَّ الشَّخْصَ قَدْ تَتَقَلَّبُ بِهِ الْأَحْوَالُ فَيَكُونُ فِي حَالٍ أَقْرَبُ إِلَى الْكُفْرِ ، وَفِي حَالٍ أَقْرَبُ إِلَى الْإِيمَانِ ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى**: ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُمْ يَقُولُونَ الْقَوْلَ وَلَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ هَذَا : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ﴾ فَإِنَّهُمْ يَتَحَقَّقُونَ أَنَّ جُنْدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ جَاءُوا مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ يَتَحَرَّقُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِسَبَبِ مَا أُصِيبَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ يَوْم بَدْرٍ ، وَهُمْ أَضْعَافُ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ كَائِنٌ بَيْنَهُمْ قِتَالًا لَا مَحَالَةَ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى**: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ﴾ أَيْ : لَوْ سَمِعُوا مِنْ مَشُورَتِنَا عَلَيْهِمْ فِي الْقُعُودِ وَعَدَمِ الْخُرُوجِ مَا قُتِلُوا مَعَ مَنْ قُتِلَ ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى**: ﴿ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ

ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ كَانَ الْقُعُودُ يَسْلَم بِهِ الشَّخْصُ مِنَ الْقَتْلِ وَالْمَوْتِ ، فَيَنْبَغِي أَنَّكُمْ لا تَمُوتُونَ ، وَالْمَوْتُ لا بُدَّ آتٍ إِلَيْكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ، فَادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الشُّهَدَاءِ بِأَنَّهُمْ وَإِنْ قُتِلُوا فِي هَذِهِ الدَّارِ فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ حَيَّةٌ مَرْزُوقَةٌ فِي دَارِ الْقَرَارِ . **عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ** : إِنَّا سَأَلْنَا عَبْدَ الله عَنْ هَذِهِ الآيَةِ . ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فَقَالَ : أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ : « **أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ ، تَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِم رَبُّهُمْ إِطْلاعَةً فَقَالَ : هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا ؟ فَقَالُوا : أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا ؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا ، قَالُوا : يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى ، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا** » .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أَيْ : الشُّهَدَاءُ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَهُمْ فَرِحُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْغِبْطَةِ ، وَمُسْتَبْشِرُونَ بِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ بَعْدَهُمْ فِي سَبِيلِ الله ، أَنَّهُمْ يَقْدَمُونَ عَلَيْهِمْ وَأَنَّهُمْ لا يَخَافُونَ مِمَّا أَمَامَهُمْ ، وَلا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا تَرَكُوهُ وَرَاءَهُمْ ، نَسْأَلُ اللهَ الجَنَّةَ . **قَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴾ . هَذَا كَانَ يَوْمُ حَمْرَاءَ الأَسَدِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا أَصَابُوا مَا أَصَابُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَرُّوا رَاجِعِينَ إِلَى

بِلَادِهِمْ ، فَلَمَّا اسْتَمَرُّوا فِي سَيْرِهِمْ نَدِمُوا لِمَ لَا تَمَّمُوا عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَجَعَلُوهَا الْفَيْصَلَة ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَدَبَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الذَّهَابِ وَرَاءَهُمْ لِيُرْعِبَهُمْ وَيُرِيَهُمْ أَنَّ بِهِمْ قُوَّةً وَجَلَدًا ، وَلَمْ يَأْذَن لِأَحَدٍ سِوَى مَنْ حَضَرَ الْوَقْعَةَ يَوْم أُحُدٍ سِوَى جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - لِمَا سَنَذْكُرُهُ ، فَانْتُدِبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْإِثْخَانِ طَاعَةً لله وَلِرَسُولِهِ ﷺ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ الْآيَة أَيْ : الَّذِينَ تَوَعَّدَهُمُ النَّاسُ بِالْجُمُوعِ وَخَوَّفُوهُمْ بِكَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ فَمَا اكْتَرَثُوا لِذَلِكَ ، بَلْ تَوَكَّلُوا عَلَى الله وَاسْتَعَانُوا بِهِ ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ ﴿ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ أَيْ : لَمَّا تَوَكَّلُوا عَلَى الله كَفَاهُمْ مَا أَهَمَّهُمْ ، وَرَدَّ عَنْهُمْ بَأْسَ مَنْ أَرَادَ كَيْدَهُمْ ، فَرَجَعُوا إِلَى بَلَدِهِمْ ﴿ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ مِمَّا أَضْمَرَ لَهُمْ عَدُوُّهُمْ ﴿ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ أَيْ : يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ ، وَيُوهِمُكُمْ أَنَّهُمْ ذَوُو بَأْسٍ وَذَوُو شِدَّةٍ ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : إِذَا سَوَّلَ لَكُمْ وَأَوْهَمَكُمْ فَتَوَكَّلُوا عَلَيَّ وَالْجَئُوا إِلَيَّ ، فَإِنِّي كَافِيكُمْ وَنَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ .

وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ﴾ وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَى النَّاسِ

كَانَ يَحْزُنُهُ مُبَادَرَةُ الْكُفَّارِ إِلَى الْمُخَالَفَةِ وَالْعِنَادِ وَالشِّقَاقِ ، فَقَالَ تَعَالَى : وَلَا يَحْزُنْكَ ذَلِكَ ﴿ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ﴾ أَيْ : حِكْمَتُهُ فِيهِمْ أَنَّهُ يُرِيدُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ أَنْ لَا يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيبًا فِي الْآخِرَةِ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذَلِكَ إِخْبَارًا مُقَرَّرًا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴾ أَيْ : اسْتَبْدَلُوا هَذَا بِهَذَا ﴿ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ أَيْ : وَلَكِنْ يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[المؤمنون : ٥٥-٥٦]

قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ أَيْ : لَا بُدّ أَنْ يُعْقَد شَيْءٌ مِنَ الْمِحْنَةِ يُظْهَرُ فِيهِ وَلِيُّهُ وَيُفْتَضَحُ بِهِ عَدُوُّهُ ، يُعْرَفُ بِهِ الْمُؤْمِنُ الصَّابِرُ وَالْمُنَافِقُ الْفَاجِرُ ، يَعْنِي بِذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ الَّذِي اِمْتَحَنَ اللهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَذَكَرَ بِهِ إِيمَانَهُمْ وَصَبْرَهُمْ وَجَلَدَهُمْ وَثَبَاتَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ للهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، وَهَتَكَ بِهِ أَسْتَارَ الْمُنَافِقِينَ فَظَهَرَ مُخَالَفَتُهُمْ وَنُكُولُهُمْ عَنِ الْجِهَادِ وَخِيَانَتهم للهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : مَيَّزَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ ،**ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ غَيْبَ اللهِ فِي خَلْقِهِ حَتَّى يُمَيِّزَ لَكُمُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْمُنَافِقِ ، لَوْلَا مَا يَعْقِدُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْكَاشِفَةِ عَنْ ذَلِكَ .**ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾[الجن : ٢٦- ٢٧] ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ أَيْ : أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاتَّبِعُوهُ فِيمَا شَرَعَ لَكُمْ ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾ أَيْ : لَا يَحْسَبَنَّ الْبَخِيلُ أَنَّ جَمْعَهُ الْمَالَ يَنْفَعُهُ بَلْ هُوَ مَضَرَّةٌ عَلَيْهِ فِي دِينِهِ ، وَرُبَّمَا كَانَ فِي دُنْيَاهُ . ثُمَّ أَخْبَرَ بِمَآلِ أَمْرِ مَالِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ **فَقَالَ** : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ ، مُثِّلَ لَهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ** - يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - **يَقُولُ** : **أَنَا مَالُكَ ، أَنَا كَنْزُكَ** » ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَة ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيْ : فَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا مَرْجِعُهَا إِلَى اللهِ ﷻ ، فَقَدِّمُوا مِنْ أَمْوَالِكُمْ مَا يَنْفَعُكُمْ يَوْمَ مَعَادِكُمْ ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

خَبِيرٌ ﴾ أَيْ : بِنِيَّاتِكُمْ وَضَمَائِرِكُمْ .

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢٤٥] قَالَتِ الْيَهُودُ : يَا مُحَمَّدُ : افْتَقَرَ رَبُّكَ فَسَأَلَ عِبَادَهُ الْقَرْضَ ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ الْآيَةُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ ﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ ؛ وَلِهَذَا قَرَنَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أَيْ : هَذَا قَوْلُهُمْ فِي اللهِ ، وَهَذِهِ مُعَامَلَتُهُمْ رُسُلَ اللهِ ، وَسَيَجْزِيهِمُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ شَرَّ الْجَزَاءِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَتَحْقِيرًا وَتَصْغِيرًا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى تَكْذِيبًا لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْهِمْ فِي كُتُبِهِمْ أَنْ لَا يُؤْمِنُوا لِرَسُولٍ حَتَّى يَكُونَ مِنْ مُعْجِزَاتِهِ أَنَّ مَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ فَتُقُبِّلَتْ مِنْهُ أَنْ تَنْزِلَ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ تَأْكُلُهَا . قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أَيْ : بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ ﴿ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ ﴾ أَيْ : وَبِنَارٍ تَأْكُلُ الْقَرَابِينَ الْمُتَقَبَّلَةَ ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ ﴾ أَيْ : فَلِمَ قَابَلْتُمُوهُمْ بِالتَّكْذِيبِ وَالْمُخَالَفَةِ وَالْمُعَانَدَةِ وَقَتَلْتُمُوهُمْ ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَنْ كُنْتُمْ تَتَّبِعُونَ الْحَقَّ وَتَنْقَادُونَ لِلرُّسُلِ .

قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ أَيْ : لَا يُوهِنُكَ تَكْذِيبُ هَؤُلَاءِ لَكَ فَلَكَ أُسْوَةٌ بِمَنْ قَبْلَكَ مِنَ الرُّسُلِ الَّذِينَ كُذِّبُوا مَعَ مَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَهِيَ الْحُجَجُ وَالْبَرَاهِينُ الْقَاطِعَةُ ﴿ وَٱلزُّبُرِ ﴾ وَهِيَ الْكُتُبُ الْمُتَلَقَّاةُ مِنَ السَّمَاءِ كَالصُّحُفِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ أَيِ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ .

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ

ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَامًّا يَعُمُّ جَمِيعَ الْخَلِيقَةِ بِأَنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦- ٢٧] فَهُوَ تَعَالَى وَحْدَهُ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ ، وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ ، وَيَنْفَرِدُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْقَهَّارُ بِالدَّيْمُومَةِ وَالْبَقَاءِ ، فَيَكُونُ آخِرًا كَمَا كَانَ أَوَّلًا ، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَعْزِيَةٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ ، فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى أَحَدٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ حَتَّى يَمُوتَ فَإِذَا انْقَضَتِ الْعِدَّةُ وَفَرَغَتِ النُّطْفَةُ الَّتِي قَدَّرَ اللهُ وُجُودَهَا مِنْ صُلْبِ آدَمَ ، وَانْتَهَتِ الْبَرِيَّةُ أَقَامَ اللهُ الْقِيَامَةَ وَجَازَى الْخَلَائِقَ بِأَعْمَالِهَا جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا ، قَلِيلِهَا وَكَثِيرِهَا ، كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا ، فَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ أَيْ : مَنْ جُنِّبَ النَّارَ وَنَجَا مِنْهَا وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ كُلَّ الْفَوْزِ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ** : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ تَصْغِيرٌ لِشَأْنِ الدُّنْيَا وَتَحْقِيرٌ لِأَمْرِهَا ، وَأَنَّهَا دَنِيئَةٌ فَانِيَةٌ قَلِيلَةٌ زَائِلَةٌ . ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة : ١٥٥] إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ . أَيْ : لَا بُدَّ أَنْ يُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ فِي شَيْءٍ مِنْ مَالِهِ أَوْ نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ أَهْلِهِ ، وَيُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي الْبَلَاءِ ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ مَقْدَمِهِم الْمَدِينَةَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ مُسَلِّيًا لَهُمْ عَمَّا يَنَالُهُمْ مِنَ الْأَذَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ، وَآمِرًا لَهُمْ بِالصَّفْحِ وَالصَّبْرِ وَالْعَفْوِ ، حَتَّى يُفَرِّجَ اللهُ ، ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ . فَكُلُّ مَنْ قَامَ بِحَقٍّ أَوْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤْذَى ، فَمَا لَهُ دَوَاءٌ إِلَّا الصَّبْرُ فِي اللهِ ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ ، وَالرُّجُوعُ إِلَى اللهِ ﷻ .

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ

﴿أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

هَذَا تَوْبِيخٌ مِنَ اللهِ وَتَهْدِيدٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَخَذَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنْ يُنَوِّهُوا بِذِكْرِهِ فِي النَّاسِ، فَيَكُونُوا عَلَى أُهْبَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، فَإِذَا أَرْسَلَهُ اللهُ تَابَعُوهُ، فَكَتَمُوا ذَلِكَ وَتَعَوَّضُوا عَمَّا وُعِدُوا عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، بِالدُّونِ الطَّفِيفِ وَالْحَظِّ الدُّنْيَوِيِّ السَّخِيفِ، فَبِئْسَ الصَّفْقَةُ صَفْقَتُهُمْ، وَبِئْسَ الْبَيْعَةُ بَيْعَتُهُمْ. وَفِي هَذَا تَحْذِيرٌ لِلْعُلَمَاءِ أَنْ يَسْلُكُوا مَسْلَكَهُمْ فَيُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَهُمْ، وَيَسْلُكُ بِهِمْ مَسْلَكَهُمْ، فَعَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يَبْذُلُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ الدَّالِّ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَا يَكْتُمُوا مِنْهُ شَيْئًا فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**».

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ الْآيَةُ. يَعْنِي بِذَلِكَ: الْمُرَائِينَ الْمُتَكَثِّرِينَ بِمَا لَمْ يُعْطَوا. **وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ** رضي الله عنه: أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانُوا إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْغَزْوِ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَحَلَفُوا، وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فَنَزَلَتْ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ الْآيَة. ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أَيْ: لَا تَحْسَبُ أَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنَ الْعَذَابِ، بَلْ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيْ: هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، فَهَابُوهُ وَلَا تُخَالِفُوهُ وَاحْذَرُوا غَضَبَهُ وَنِقْمَتَهُ، فَإِنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ، الْقَدِيرُ الَّذِي لَا أَقْدَرَ مِنْهُ.

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: هَذِهِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا، وَهَذِهِ فِي انْخِفَاضِهَا وَكَثَافَتِهَا وَاتِّضَاعِهَا، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْآيَاتِ الْمُشَاهَدَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ كَوَاكِبَ

سَيَّارَاتٍ وَثَوَابِتَ وَبِحَارٍ وَجِبَالٍ وَقِفَارٍ وَأَشْجَارٍ وَنَبَاتٍ وَزُرُوعٍ وَثِمَارٍ وَحَيَوَانٍ وَمَعَادِنَ وَمَنَافِعَ مُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ وَالْخَوَاصِّ ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أَيْ : تَعَاقُبُهُمَا وَتَقَارُضُهُمَا الطُّولَ وَالْقِصَرَ . فَتَارَةً يَطُولُ هَذَا وَيَقْصُرُ هَذَا ، ثُمَّ يَعْتَدِلَانِ ، ثُمَّ يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا فَيَطُولُ الَّذِي كَانَ قَصِيرًا ، وَيَقْصُرُ الَّذِي كَانَ طَوِيلًا ، وَكُلُّ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أَيْ : الْعُقُولُ التَّامَّةُ الزَّكِيَّةُ الَّتِي تُدْرِكُ الْأَشْيَاءَ بِحَقَائِقِهَا عَلَى جَلِيَّاتِهَا .

وَصَفَ تَعَالَى أُولِي الْأَلْبَابِ فَقَالَ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : لَا يَقْطَعُونَ ذِكْرَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ بِسَرَائِرِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : يَفْهَمُونَ مَا فِيهِمَا مِنَ الْحِكَمِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ وَرَحْمَتِهِ . وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَعَالَى مَنْ لَا يَعْتَبِرُ بِمَخْلُوقَاتِهِ ، الدَّالَّةُ عَلَى ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ وَآيَاتِهِ **فَقَالَ** : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ ، وَمَدَحَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قَائِلِينَ ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ أَيْ : مَا خَلَقْتَ هَذَا الْخَلْقَ عَبَثًا بَلْ بِالْحَقِّ لِتَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَتَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ، ثُمَّ نَزَّهُوهُ عَنِ الْعَبَثِ وَخَلْقِ الْبَاطِلِ فَقَالُوا : ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ أَيْ : عَنْ أَنْ تَخْلُقَ شَيْئًا بَاطِلًا ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : يَا مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، يَا مَنْ هُوَ مُنَزَّهٌ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْعَيْبِ وَالْعَبَثِ ، قِنَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ ، وَقَيِّضْنَا لِأَعْمَالٍ تَرْضَى بِهَا عَنَّا ، وَوَفِّقْنَا لِعَمَلٍ صَالِحٍ تَهْدِينَا بِهِ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَتُجِيرُنَا بِهِ مِنْ عَذَابِكَ الْأَلِيمِ .

قَالُوا : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾ أَيْ : أَهَنْتَهُ وَأَظْهَرْتَ خِزْيَهُ لِأَهْلِ الْجَمْعِ ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مُجِيرَ لَهُمْ مِنْكَ ، وَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَمَّا أَرَدْتَ بِهِمْ . ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ ﴾ أَيْ : دَاعِيًا يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ وَهُوَ الرَّسُولُ ﷺ ﴿ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ أَيْ : يَقُولُ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، أَيْ : فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَاتَّبَعْنَاهُ ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ أَيْ : بِإِيمَانِنَا وَاتِّبَاعِنَا نَبِيَّكَ ﴿ وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾ أَيْ : فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ أَيْ : أَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ . ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ مَعْنَاهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِكَ وَهَذَا أَظْهَرُ . ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أَيْ : عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ أَيْ : لَا بُدَّ مِنَ الْمِيعَادِ الَّذِي أَخْبَرَتْ عَنْهُ رُسُلُكَ وَهُوَ الْقِيَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْكَ . **وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَاتِ الْعَشْرِ مِنْ آخِرِ آلِ عِمْرَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ لِتَهَجُّدِهِ** .

فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ ﴾ أَيْ : فَأَجَابَهُمْ رَبُّهُمْ ، **وَمَعْنَى الْآيَة** : أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ ذَوِي الْأَلْبَابِ لَمَّا سَأَلُوا مَا سَأَلُوا مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ عَقِبَ ذَلِكَ ﴿ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ ﴾ هَذَا تَفْسِيرٌ لِلْإِجَابَةِ ، أَيْ : قَالَ لَهُمْ مُخْبِرًا أَنَّهُ لَا يُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ لَدَيْهِ ، بَلْ يُوَفِّي كُلَّ عَامِلٍ بِقِسْطِ عَمَلِهِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ ﴾ أَيْ : جَمِيعُكُمْ فِي ثَوَابِي سَوَاءٌ ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ أَيْ : تَرَكُوا دَارَ الشِّرْكِ وَأَتَوْا إِلَى دَارِ الْإِيمَانِ وَفَارَقُوا الْأَحْبَابَ وَالْإِخْوَانَ وَالْخِلَّانَ وَالْجِيرَانَ ﴿ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ ﴾ أَيْ : ضَايَقَهُمُ الْمُشْرِكُونَ بِالْأَذَى حَتَّى أَلْجَئُوهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي ﴾ أَيْ : إِنَّمَا كَانَ ذَنْبُهُمْ إِلَى النَّاسِ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ . ﴿ وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ ﴾ ، وَهَذَا أَعْلَى الْمَقَامَاتِ أَنْ يُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُعْقَرَ جَوَادُهُ ، وَيُعَفَّرَ وَجْهُهُ بِدَمِهِ وَتُرَابِهِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ أَيْ : تَجْرِي فِي خِلَالِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشَارِبِ مِنْ لَبَنٍ وَعَسَلٍ وَخَمْرٍ وَمَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ . ﴿ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أَضَافَهُ إِلَيْهِ وَنَسَبَهُ إِلَيْهِ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ عَظِيمٌ ؛ لِأَنَّ الْعَظِيمَ الْكَرِيمَ لَا يُعْطِي إِلَّا جَزِيلًا كَثِيرًا . ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ أَيْ : عِنْدَهُ حُسْنُ الْجَزَاءِ لِمَنْ عَمِلَ صَالِحًا .

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : لَا تَنْظُرْ إِلَى مَا هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مُتْرَفُونَ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْغِبْطَةِ وَالسُّرُورِ ، فَعَمَّا قَلِيلٍ يَزُولُ هَذَا كُلُّهُ عَنْهُمْ ، وَيُصْبِحُونَ مُرْتَهَنِينَ بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ . فَإِنَّمَا نَمُدُّ لَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ اسْتِدْرَاجًا ، وَجَمِيعَ مَا هُمْ فِيهِ ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ .

وَهَكَذَا لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا وَذَكَرَ أَنَّ مَآلَهُمُ النَّارُ ، قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾ .

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ حَقَّ الْإِيمَانِ، وَيُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ مَعَ مَا هُمْ مُؤْمِنُونَ بِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، أَنَّهُمْ خَاشِعُونَ للهِ، أَيْ: مُطِيعُونَ لَهُ، خَاضِعُونَ مُتَذَلِّلُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أَيْ: لَا يَكْتُمُونَ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْبِشَارَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَذِكْرِ صِفَتِهِ وَنَعْتِهِ وَمَبْعَثِهِ وَصِفَةِ أُمَّتِهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ خِيرَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ وَصَفْوَتِهِمْ سَوَاءٌ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾ أُمِرُوا أَنْ يَصْبِرُوا عَلَى دِينِهِمُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ لَهُمْ وَهُوَ الْإِسْلَامُ، فَلَا يَدَعُوهُ لِسَرَّاءٍ وَلَا لِضَرَّاءٍ وَلَا لِشِدَّةٍ وَلَا لِرَخَاءٍ، حَتَّى يَمُوتُوا مُسْلِمِينَ، وَأَنْ يُصَابِرُوا الْأَعْدَاءَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ دِينَهُمْ، وَأَمَّا الْمُرَابَطَةُ: فَهِيَ الْمُدَاوَمَةُ فِي مَكَانِ الْعِبَادَةِ وَالثَّبَاتِ، وَقِيلَ: انْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ. وَقِيلَ الْمُرَادُ بِالْمُرَابَطَةِ هَهُنَا: مُرَابَطَةُ الْغَزْوِ فِي نَحْوِ الْعَدُوِّ وَحِفْظِ ثُغُورِ الْإِسْلَامِ وَصِيَانَتِهَا عَنْ دُخُولِ الْأَعْدَاءِ إِلَى حَوْزَةِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أَيْ: فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ
نَسْأَلُهُ الْمَوْتَ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، آمِين

آياتها ١٧٦ — تَفْسِيرُ سُورَةِ النِّسَاءِ — مدنيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا خَلْقَهُ بِتَقْوَاهُ وَهِيَ عِبَادَتُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمُنَبِّهًا لَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ الَّتِي

خَلَقَهُمْ بِهَا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ آدَمُ عليه السلام : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وَهِيَ حَوَّاءُ عَلَيْهَا السَّلَام .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ أَيْ : وَذَرَأَ مِنْهُمَا ، أَيْ : مِنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَنَشَرَهُمْ فِي أَقْطَارِ الْعَالَمِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ ، وَلُغَاتِهِمْ ، ثُمَّ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَعَادُ وَالْمَحْشَرُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ أَيْ : وَاتَّقُوا اللهَ بِطَاعَتِكُمْ إِيَّاهُ ، **قَالَ بعض العُلَمَاءِ** : ﴿ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ﴾ أَيْ : كَمَا يُقَالُ : أَسْأَلُكَ بِاللهِ وَبِالرَّحِمِ . **وَقَالَ غَيْرُهُمْ** : وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَعَاقَدُونَ وَتَعَاهَدُونَ بِهِ ، وَاتَّقُوا الْأَرْحَامَ أَنْ تَقْطَعُوهَا وَلَكِنْ بِرُّوهَا وَصِلُوهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ أَيْ : هُوَ مُرَاقِبٌ لِجَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ .

وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى بِدَفْعِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى إِلَيْهِمْ إِذَا بَلَغُوا الْحُلُمَ كَامِلَةً مُوَفَّرَةً ، وَيَنْهَى عَنْ أَكْلِهَا وَضَمِّهَا إِلَى أَمْوَالِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾ **قَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ** : لَا تَعْجَلْ بِالرِّزْقِ الْحَرَامِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَ الرِّزْقُ الْحَلَالُ الَّذِي قُدِّرَ لَكَ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : كَانَ أَحَدُهُمْ يَأْخُذُ الشَّاةَ السَّمِينَةَ مِنْ غَنَمِ الْيَتِيمِ وَيَجْعَلُ مَكَانَهَا الشَّاةَ الْمَهْزُولَةَ وَيَقُولُ : شَاةٌ بِشَاةٍ ، وَيَأْخُذُ الدِّرْهَمَ الْجَيِّدَ وَيَطْرَحُ مَكَانَهُ الزَّيْفَ ، يَقُولُ دِرْهَمٌ بِدِرْهَم .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾ أَيْ : لَا تَخْلِطُوهَا فَتَأْكُلُوهَا جَمِيعًا . ﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ أَيْ : إِثْمًا عَظِيمًا . **وَالْمَعْنَى** : إِنَّ أَكْلَكُمْ أَمْوَالَهُمْ مَعَ أَمْوَالِكُمْ إِثْمٌ عَظِيمٌ وَخَطَأٌ كَبِيرٌ فَاجْتَنِبُوهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ ﴾ أَيْ : إِذَا كَانَ تَحْتَ حِجْرِ أَحَدِكُمْ يَتِيمَةٌ وَخَافَ أَنْ لَا يُعْطِيهَا مَهْرَ مِثْلِهَا ، فَلْيَعْدِلْ إِلَى مَا سِوَاهَا مِنَ النِّسَاءِ ، فَإِنَّهُنَّ كَثِيرٌ وَلَمْ يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيْهِ . **وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ** أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾ قَالَتْ : يَا ابْنَ أُخْتِي هَذِهِ الْيَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حِجْرِ وَلِيِّهَا تُشْرِكُهُ فِي مَالِهِ ، وَيُعْجِبُهُ مَالُهَا وَجَمَالُهَا ، فَيُرِيدُ وَلِيُّهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ أَنْ يُقْسِطَ فِي صَدَاقِهَا فَيُعْطِيهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ ، فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ ، إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا إِلَيْهِنَّ

وَيَبْلُغُوا بِهِنَّ أَعْلَى سُنَّتِهِنَّ فِي الصَّدَاقِ ، وَأُمِرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ أَيْ : اِنْكِحُوا مَنْ شِئْتُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ إِنْ شَاءَ أَحَدُكُمْ ثِنْتَيْنِ ، وَإِنْ شَاءَ ثَلَاثًا ، وَإِنْ شَاءَ أَرْبَعًا . ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ أَيْ : إِنْ خِفْتُمْ مِنْ تَعْدَادِ النِّسَاءِ أَنْ لَا تَعْدِلُوا بَيْنَهُنَّ ، فَمَنْ خَافَ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَقْتَصِرْ عَلَى وَاحِدَةٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾ أَيْ : لَا تَجُورُوا . يُقَال : عَالَ فِي الْحُكْمِ إِذَا قَسَطَ وَظَلَمَ وَجَارَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ نِحْلَةً : فَرِيضَةً . وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَنْكِحَ اِمْرَأَةً إِلَّا بِصَدَاقٍ وَاجِبٍ ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ دَفْعُ الصَّدَاقِ إِلَى الْمَرْأَةِ حَتْمًا ، وَأَنْ يَكُون طَيِّبَ النَّفْسِ بِذَلِكَ ، فَإِنْ طَابَتْ هِيَ لَهُ بِهِ بَعْدَ تَسْمِيَتِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَلْيَأْكُلْهُ حَلَالًا طَيِّبًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ .

وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

يَنْهَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ تَمْكِينِ السُّفَهَاءِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْأَمْوَالِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا ، أَيْ : تَقُومُ بِهَا مَعَايِشُهُمْ مِنَ التِّجَارَاتِ وَغَيْرِهَا . ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : هُمُ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ . ﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** – رضي الله عنهما – **يَقُولُ** : لَا تَعْمِدْ إِلَى مَالِكَ وَمَا خَوَّلَكَ اللهُ ، وَجَعَلَهُ لَكَ مَعِيشَةً فَتُعْطِيَهُ اِمْرَأَتَكَ أَوْ بِنْتَكَ ، ثُمَّ تَنْظُرَ إِلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَلَكِنْ أَمْسِكْ مَالَكَ وَأَصْلِحْهُ ، وَكُنْ أَنْتَ الَّذِي تُنْفِقُ عَلَيْهِمْ مِنْ كِسْوَتِهِمْ وَمُؤْنَتِهِمْ وَرِزْقِهِمْ . ﴿ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يَعْنِي : فِي الْبِرِّ وَالصِّلَةِ . وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَة تَضَمَّنَتِ الْإِحْسَانَ إِلَى الْعَائِلَةِ ، وَمَنْ تَحْتَ الْحَجْرِ بِالْفِعْلِ مِنَ الْإِنْفَاقِ فِي الْكَسَاوِي وَالْأَرْزَاقِ ، بِالْكَلَام الطَّيِّبِ وَتَحْسِينِ الْأَخْلَاقِ . ﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ أَيْ : اِخْتَبِرُوهُمْ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ ﴾ الْحُلُمَ . **قَالَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : الْبُلُوغُ فِي الْغُلَام تَارَةً يَكُونُ بِالْحُلُم ، وَهُوَ : أَنْ يَرَى فِي مَنَامِهِ مَا يَنْزِل بِهِ الْمَاءُ الدَّافِقُ الَّذِي يَكُونُ مِنْهُ الْوَلَدُ . أَوْ يَسْتَكْمِلَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ يَعْنِي : صَلَاحًا فِي دِينِهِمْ وَحِفْظًا لِأَمْوَالِهِمْ ، وَهَكَذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ : مَتَى بَلَغَ الْغُلَامُ مُصْلِحًا لِدِينِهِ وَمَالِهِ اِنْفَكَّ الْحَجْرُ عَنْهُ ، فَيُسْلَمُ

إِلَيْهِ مَالُهُ الَّذِي تَحْتَ يَدِ وَلِيِّهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ﴾ يَنْهَى تَعَالَى عَنْ أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ ضَرُورِيَّةٍ ﴿ إِسْرَافًا وَبِدَارًا ﴾ أَيْ : مُبَادَرَةً قَبْلَ بُلُوغِهِمْ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ أي : مَنْ كَانَ فِي غَنِيَّةٍ عَنْ مَالِ الْيَتِيمِ فَلْيَسْتَعْفِفْ عَنْهُ وَلَا يَأْكُلْ مِنْهُ شَيْئًا . يَعْنِي : مِنَ الْأَوْلِيَاءِ ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا ﴾ أَيْ : مِنْهُمْ ﴿ فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أَيْ : بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ يَعْنِي : بَعْدَ بُلُوغِهِمُ الْحُلُمَ ، وَإِينَاسِكُمُ الرُّشْدَ مِنْهُمْ ، فَحِينَئِذٍ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴿ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ وَهَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلْأَوْلِيَاءِ أَنْ يُشْهِدُوا عَلَى الْأَيْتَامِ إِذَا بَلَغُوا الْحُلُمَ ، وَسَلَّمُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ لِئَلَّا يَقَعَ مِنْ بَعْضِهِمْ جُحُودٌ وَإِنْكَارٌ لِمَا قَبَضَهُ وَتَسَلَّمَهُ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أَيْ : وَكَفَى بِاللهِ مُحَاسِبًا وَشَاهِدًا وَرَقِيبًا عَلَى الْأَوْلِيَاءِ ، فِي حَالِ نَظَرِهِمْ لِلْأَيْتَامِ ، وَحَالِ تَسْلِيمِهِمْ لِأَمْوَالِهِمْ .

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ فِيهِ سَوَاءٌ فِي حُكْمِ اللهِ تَعَالَى ، يَسْتَوُونَ فِي أَصْلِ الْوِرَاثَةِ ، وَإِنْ تَفَاوَتُوا بِحَسَبِ مَا فَرَضَ اللهُ لِكُلٍّ مِنْهُمْ ، بِمَا يُدْلِي بِهِ إِلَى الْمَيِّتِ مِنْ قَرَابَةٍ أَوْ زَوْجِيَّةٍ أَوْ وَلَاءٍ ، فَإِنَّهُ لُحْمَةٌ كَلُحْمَةِ النَّسَبِ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ . **قِيلَ** : الْمُرَادُ حَضَرَ قِسْمَةَ الْمِيرَاثِ ذَوُو الْقُرْبَى مِمَّنْ لَيْسَ بِوَارِثٍ ﴿ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ ﴾ فَلْيُرْضَخْ لَهُمْ مِنَ التَّرِكَةِ نَصِيبٌ ، وَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ وَاجِبًا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ . **وَذَكَرَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ** : إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ . وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ إِذَا حَضَرَ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءُ مِنَ الْقَرَابَةِ الَّذِينَ لَا يَرِثُونَ ، وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ قِسْمَةَ مَالٍ جَزِيلٍ ، فَإِنَّ أَنْفُسَهُمْ تَتُوقُ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ ، إِذَا رَأَوْا هَذَا يَأْخُذُ وَهَذَا يَأْخُذُ وَهُمْ يَائِسُونَ لَا شَيْءَ يُعْطَوْنَهُ ، فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى - وَهُوَ الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ - أَنْ يُرْضَخَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَسَطِ ، يَكُون بِرًّا بِهِمْ وَصَدَقَةً عَلَيْهِمْ ، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ وَجَبْرًا لِكَسْرِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الْآيَة . **قَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ** : هَذَا فِي

الرَّجُلِ يَحْضُرهُ المَوْتُ فَيَسْمَعهُ رَجُلٌ يُوصِي بِوَصِيَّةٍ تَضُرُّ بِوَرَثَتِهِ ، فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى الَّذِي يَسْمَعهُ أَنْ يَتَّقِي اللهَ وَيُوَفِّقَهُ وَيُسَدِّدَهُ لِلصَّوَابِ فَيَنْظُرَ لِوَرَثَتِهِ كَمَا كَانَ يُحِبُّ أَنْ يُصْنَعَ بِوَرَثَتِهِ إِذَا خَشِيَ عَلَيْهِمُ الضَّيْعَةَ ، **وَقِيلَ** : المُرَادُ بِقولِهِ : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي : فِي مُبَاشَرَةِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ، وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ يَتَأَيَّدُ بِمَا بَعْدَهُ مِنَ التَّهْدِيدِ فِي أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا ، أَيْ : كَمَا تُحِبُّ أَنْ تُعَامَلَ ذُرِّيَّتَكَ مِنْ بَعْدِكَ فَعَامِلِ النَّاسَ فِي ذُرِّيَّاتِهِمْ إِذَا وَلِيتَهُمْ ، ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّ مَنْ أَكَلَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا فَإِنَّمَا يَأْكُلُ فِي بَطْنِهِ نَارًا . **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ .

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ وَالَّتِي بَعْدَهَا ، وَالْآيَةُ الَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ هَذِهِ السُّورَةِ هُنَّ آيَاتُ عِلْمِ الْفَرَائِضِ وَهُوَ مُسْتَنْبَطٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ ، وَمِنَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ مِمَّا هُوَ كَالتَّفْسِيرِ لِذَلِكَ . **عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله** - رضي الله عنهما - **قَالَ** : عَادَنِي رَسُولُ الله ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ فِي بَنِي سَلِمَةَ مَاشِيَيْنِ فَوَجَدَنِي النَّبِيُّ ﷺ لا أَعْقِلُ شَيْئًا ، فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ مِنْهُ ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيَّ فَأَفَقْتُ ، فَقُلْتُ : مَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَصْنَعَ فِي مَالِي يَا رَسُولَ الله ؟ فَنَزَلَتْ ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ أَيْ : يَأْمُرُكُمْ بِالْعَدْلِ فِيهِمْ ، فَإِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَجْعَلُونَ جَمِيعَ الْمِيرَاثِ لِلذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ ، فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالتَّسْوِيَةِ بَيْنهمْ فِي أَصْلِ الْمِيرَاثِ ، وَفَاوَتَ بَيْنَ الصِّنْفَيْنِ فَجَعَلَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، وَذَلِكَ لِاحْتِيَاجِ الرَّجُلِ إِلَى مُؤْنَةِ النَّفَقَةِ وَالْكُلْفَةِ وَمُعَانَاةِ التِّجَارَةِ وَالتَّكَسُّبِ وَتَحَمُّلِ الْمَشَاقِّ ، فَنَاسَبَ أَنْ يُعْطَى ضِعْفَيْ مَا تَأْخُذهُ الْأُنْثَى . ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ **قَالَ بَعْضُ النَّاسِ** : قَوْلُهُ ﴿ فَوْقَ ﴾ زَائِدَةٌ ، وَتَقْدِيرُهُ : فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً اِثْنَتَيْنِ ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ : **ثُمَّ قَوْلُهُ** : ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ مَا قَالُوهُ لَقَالَ فَلَهُمَا ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنَّمَا اُسْتُفِيدَ كَوْنُ الثُّلُثَيْنِ لِلْبِنْتَيْنِ مِنْ حُكْمِ الْأُخْتَيْنِ فِي الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى حَكَمَ فِيهَا لِلْأُخْتَيْنِ بِالثُّلُثَيْنِ وَإِذَا وَرِثَ الْأُخْتَانِ

الثُّلُثَيْنِ فَلأَنْ يَرِثَ الْبِنْتَانِ الثُّلُثَيْنِ بِالطَّرِيقِ الأَوْلَى ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ : ﴿ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ﴾ فَلَوْ كَانَ لِلْبِنْتَيْنِ النِّصْفُ لَنَصَّ عَلَيْهِ أَيْضًا ، فَلَمَّا حَكَمَ بِهِ لِلْوَاحِدَةِ عَلَى انْفِرَادِهَا دَلَّ عَلَى أَنَّ الْبِنْتَيْنِ فِي حُكْمِ الثَّلَاثِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾ إِلَى آخِرِهِ ، **الأَبَوَانِ لَهُمَا فِي الإِرْثِ أَحْوَالٌ :** **أَحَدُهَا** : أَنْ يَجْتَمِعَا مَعَ الأَوْلَادِ فَيُفْرَضَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَيِّتِ إِلَّا بِنْتٌ وَاحِدَةٌ فُرِضَ لَهَا النِّصْفُ وَلِلأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ، وَأَخَذَ الأَبُ السُّدُسَ الآخَرَ بِالتَّعْصِيبِ فَيُجْمَعُ لَهُ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - بَيْنَ الْفَرْضِ وَالتَّعْصِيبِ .

الْحَالُ الثَّانِي : أَنْ يَنْفَرِدَ الأَبَوَانِ بِالْمِيرَاثِ فَيُفْرَضُ لِلأُمِّ الثُّلُثُ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - وَيَأْخُذُ الأَبُ الْبَاقِي بِالتَّعْصِيبِ الْمَحْضِ ، فَيَكُونُ قَدْ أَخَذَ ضِعْفَيْ مَا حَصَلَ لِلأُمِّ وَهُوَ الثُّلُثَانِ ، فَلَوْ كَانَ مَعَهُمَا زَوْجٌ أَوْ زَوْجَةٌ وَيَأْخُذُ الزَّوْجُ النِّصْفَ وَالزَّوْجَةُ الرُّبُعَ . **ثُمَّ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ مَاذَا تَأْخُذُ الأُمُّ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : وَالصَّحِيحُ** : أَنَّهَا تَأْخُذُ ثُلُثَ الْبَاقِي فِي الْمَسْأَلَتَيْنِ ، لأَنَّ الْبَاقِيَ كَأَنَّهُ جَمِيعُ الْمِيرَاثِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمَا ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَهَا نِصْفَ مَا جَعَلَ لِلأَبِ ، فَتَأْخُذُ ثُلُثَ الْبَاقِي وَيَأْخُذُ الأَبُ الْبَاقِي ثُلُثَيْهِ ، وَهُوَ قَوْلُ الْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ وَالأَئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ وَجُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ .

وَالْحَالُ الثَّالِثُ مِنْ أَحْوَالِ الأَبَوَيْنِ : وَهُوَ اجْتِمَاعُهُمَا مَعَ الإِخْوَةِ سَوَاءٌ كَانُوا مِنَ الأَبَوَيْنِ أَوْ مِنَ الأَبِ أَوْ مِنَ الأُمِّ فَإِنَّهُمْ لَا يَرِثُونَ مَعَ الأَبِ شَيْئًا ، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَحْجُبُونَ الأُمَّ عَنِ الثُّلُثِ إِلَى السُّدُسِ فَيُفْرَضُ لَهَا مَعَ وُجُودِهِمُ السُّدُسُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَارِثٌ سِوَاهَا وَسِوَى الأَبِ أَخَذَ الأَبُ الْبَاقِيَ . **وَحُكْمُ الأَخَوَيْنِ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ كَحُكْمِ الإِخْوَةِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ .**

عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ : ﴿ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ﴾ أَضَرُّوا بِالأُمِّ وَلَا يَرِثُونَ وَلَا يَحْجُبُهَا الأَخُ الْوَاحِدُ عَنِ الثُّلُثِ ، وَيَحْجُبُهَا مَا فَوْقَ ذَلِكَ ، وَكَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا حَجَبُوا أُمَّهُمْ عَنِ الثُّلُثِ أَنَّ أَبَاهُمْ يَلِي إِنْكَاحَهُمْ وَنَفَقَتُهُ عَلَيْهِمْ دُونَ أُمِّهِمْ . وَهَذَا كَلَامٌ حَسَنٌ . ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ **أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ عَلَى أَنَّ الدَّيْنَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْوَصِيَّةِ .**

وَقَوْلُهُ : ﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ أَيْ : أَنَّ النَّفْعَ مُتَوَقَّعٌ وَمَرْجُوٌّ مِنْ هَذَا ، كَمَا هُوَ مُتَوَقَّعٌ وَمَرْجُوٌّ مِنَ الآخَرِ ، فَلِهَذَا فَرَضْنَا لِهَذَا وَهَذَا ، وَسَاوَيْنَا بَيْنَ الْقِسْمَيْنِ فِي أَصْلِ الْمِيرَاثِ - وَاللهُ أَعْلَمُ - .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ تَفْصِيلِ الْمِيرَاثِ وَإِعْطَاءِ بَعْضِ الْوَرَثَةِ أَكْثَرَ مِنْ بَعْضٍ ، هُوَ فَرْضٌ مِنَ اللهِ ، حَكَمَ بِهِ وَقَضَاهُ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، **الَّذِي يَضَعُ الأَشْيَاءَ فِي مَحَالِّهَا** ، وَمُعْطِي كُلًّا مَا يَسْتَحِقُّهُ بِحَسَبِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَكُمْ أَيُّهَا الرِّجَالُ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِذَا مُتْنَ عَنْ غَيْرِ وَلَدٍ ، فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ الْوَصِيَّةِ أَوِ الدَّيْنِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الدَّيْنَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْوَصِيَّةِ وَبَعْدَهُ الْوَصِيَّةُ ، ثُمَّ الْمِيرَاثُ ، وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، وَحُكْمُ أَوْلَادِ الْبَنِينَ وَإِنْ سَفَلُوا حُكْمَ أَوْلَادِ الصُّلْبِ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ ﴾ إِلَى آخِرِهِ وَسَوَاءٌ فِي الرُّبُعِ أَوِ الثُّمُنِ الزَّوْجَةُ وَالزَّوْجَتَانِ الِاثْنَتَانِ وَالثَّلَاثُ وَالْأَرْبَعُ يَشْتَرِكْنَ فِيهِ ، ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ ﴾ إِلَخِ الْكَلَامُ عَلَيْهِ كَمَا تَقَدَّمَ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً ﴾ الْكَلَالَةُ : مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْإِكْلِيلِ وَهُوَ الَّذِي يُحِيطُ بِالرَّأْسِ مِنْ جَوَانِبِهِ ، وَالْمُرَادُ هُنَا : مَنْ يَرِثُهُ مِنْ حَوَاشِيهِ لَا أُصُولِهِ وَلَا فُرُوعِهِ . **قَالَ أَهْلُ العِلْمِ** : **الْكَلَالَةُ** : مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ . ﴿ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ﴾ أَيْ : مِنْ أُمٍّ ، ﴿ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ﴾ وَإِخْوَةُ الْأُمِّ يُخَالِفُونَ بَقِيَّةَ الْوَرَثَةِ مِنْ وُجُوهٍ : **أَحَدُهَا** : أَنَّهُمْ يَرِثُونَ مَعَ مَنْ أَدْلَوْا بِهِ وَهِيَ الْأُمُّ . **وَالثَّانِي** : أَنَّ ذُكُورَهُمْ وَإِنَاثَهُمْ فِي الْمِيرَاثِ سَوَاءٌ . **وَالثَّالِثُ** : أَنَّهُمْ لَا يَرِثُونَ إِلَّا إِنْ كَانَ مَيِّتُهُمْ يُورَثُ كَلَالَةً ، فَلَا يَرِثُونَ مَعَ أَبٍ وَلَا جَدٍّ وَلَا وَلَدٍ وَلَا وَلَدِ ابْنٍ . **الرَّابِعُ** : أَنَّهُمْ لَا يُزَادُونَ عَلَى الثُّلُثِ ، وَإِنْ كَثُرَ ذُكُورُهُمْ وَإِنَاثُهُمْ . وَهَذَا قَوْلُ عَدَدٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ﴾ **أَيْ** : لِتَكُنْ وَصِيَّتُهُ عَلَى الْعَدْلِ لَا عَلَى الْإِضْرَارِ وَالْجَوْرِ وَالْحَيْفِ ، بِأَنْ يَحْرِمَ بَعْضَ الْوَرَثَةِ أَوْ يُنْقِصَهُ أَوْ يَزِيدَهُ عَلَى مَا فَرَضَ اللهُ لَهُ مِنَ الْفَرِيضَةِ ، فَمَنْ سَعَى فِي ذَلِكَ كَانَ كَمَنْ ضَادَّ اللهَ فِي حُكْمِهِ وَشَرْعِهِ .

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

أَيْ : هَذِهِ الْفَرَائِضُ وَالْمَقَادِيرُ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ لِلْوَرَثَةِ بِحَسَبِ قُرْبِهِمْ مِنَ الْمَيِّتِ وَاحْتِيَاجِهِمْ

إِلَيْهِ وَفَقْدِهِمْ لَهُ عِنْدَ عَدَمِهِ هِيَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَلَا تُجَاوِزُوهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أَيْ : فِيهَا ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أَيْ : لِكَوْنِهِ غَيَّرَ مَا حَكَمَ اللهُ بِهِ ، وَضَادَّ اللهَ فِي حُكْمِهِ ، وَهَذَا إِنَّمَا يَصْدُرُ عَنْ عَدَمِ الرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللهُ وَحَكَمَ بِهِ ، وَلِهَذَا يُجَازِيهِ بِالْإِهَانَةِ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الْمُقِيمِ .

وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾

كَانَ الْحُكْمُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا ثَبَتَ زِنَاهَا بِالْبَيِّنَةِ الْعَادِلَةِ حُبِسَتْ فِي بَيْتٍ فَلَا تُمَكَّنُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهُ إِلَى أَنْ تَمُوتَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ يَعْنِي : الزِّنَا ﴿ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ فَالسَّبِيلُ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ هُوَ النَّاسِخُ لِذَلِكَ . **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : كَانَ الْحُكْمُ كَذَلِكَ حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ سُورَةَ النُّورِ فَنَسَخَهَا بِالْجَلْدِ أَوْ الرَّجْمِ ، وَهُوَ أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ أَيْ : وَاللَّذَانِ يَفْعَلَانِ الْفَاحِشَةَ فَآذُوهُمَا . أَيْ : بِالشَّتْمِ وَالتَّعْيِيرِ وَالضَّرْبِ بِالنِّعَالِ ، وَكَانَ الْحُكْمُ كَذَلِكَ حَتَّى نَسَخَهُ اللهُ بِالْجَلْدِ أَوْ الرَّجْمِ . ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا ﴾ أَيْ : أَقْلَعَا وَنَزَعَا عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ وَصَلَحَتْ أَعْمَالُهُمَا وَحَسُنَتْ ﴿ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ﴾ أَيْ : لَا تُعَنِّفُوهُمَا بِكَلَامٍ قَبِيحٍ بَعْدَ ذَلِكَ ، لِأَنَّ التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ « **إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ وَلَا يُثَرِّبْ عَلَيْهَا** » أَيْ : لَا يُعَيِّرْهَا بِمَا صَنَعَتْ بَعْدَ الْحَدِّ الَّذِي هُوَ كَفَّارَةٌ لِمَا صَنَعَتْ .

إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : إِنَّمَا يَقْبَلُ اللهُ التَّوْبَةَ مِمَّنْ عَمِلَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُ وَلَوْ بَعْدَ مُعَايَنَةِ

الْمَلَكِ يَقْبِضُ رُوحَهُ قَبْلَ الْغَرْغَرَةِ . وَقَدْ دَلَّتِ الْأَحَادِيثُ عَلَى أَنَّ مَنْ تَابَ إِلَى اللهِ ﷻ وَهُوَ يَرْجُو الْحَيَاةَ فَإِنَّ تَوْبَتَهُ مَقْبُولَةٌ ،وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ ﴾ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ ﴾[غافر : ٨٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ وَشِرْكِهِ لَا يَنْفَعُهُ نَدَمُهُ وَلَا تَوْبَتُهُ ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ فِدْيَةٌ وَلَوْ بِمِلْءِ الْأَرْضِ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهًاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٢٠﴾ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهًا ﴾ قَالَ : كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِامْرَأَتِهِ إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا ، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا ، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا ، فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ ﴾ أَيْ : لَا تُضَارُّوهُنَّ فِي الْعِشْرَةِ لِتَتْرُكَ مَا أَصْدَقْتَهَا أَوْ بَعْضَهُ ، أَوْ حَقًّا مِنْ حُقُوقِهَا عَلَيْكَ ، أَوْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْقَهْرِ لَهَا وَالْإِضْرَارِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : يَعْنِي : إِذَا زَنَتْ فَلَكَ أَنْ تَسْتَرْجِعَ مِنْهَا الصَّدَاقَ الَّذِي أَعْطَيْتَهَا ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : النُّشُوزُ وَالْعِصْيَانُ ، **وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ** : أَنَّهُ يَعُمُّ ذَلِكَ كُلَّهُ الزِّنَا وَالْعِصْيَانُ وَالنُّشُوزُ وَبَذَاءُ اللِّسَانِ وَغَيْرُ ذَلِكَ . يَعْنِي أَنَّ هَذَا كُلَّهُ يُبِيحُ مُضَاجَرَتَهَا حَتَّى تُبْرِئَهُ مِنْ حَقِّهَا أَوْ بَعْضِهِ وَيُفَارِقَهَا وَهَذَا جَيِّدٌ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ أَيْ : طَيِّبُوا أَقْوَالَكُمْ لَهُنَّ وَحَسِّنُوا أَفْعَالَكُمْ وَهَيْئَاتِكُمْ بِحَسَبِ قُدْرَتِكُمْ ، كَمَا تُحِبُّ ذَلِكَ مِنْهَا فَافْعَلْ أَنْتَ بِهَا مِثْلَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ أَيْ : فَعَسَى أَنْ يَكُونَ صَبْرُكُمْ فِي إِمْسَاكِهِنَّ مَعَ الْكَرَاهَةِ فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ أَيْ : إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يُفَارِقَ امْرَأَةً وَيَسْتَبْدِلَ مَكَانَهَا غَيْرَهَا فَلَا يَأْخُذ مِمَّا كَانَ أَصْدَقَ الْأُولَى شَيْئًا ، وَلَوْ كَانَ قِنْطَارًا مِنْ مَالٍ ، وَفِي هَذِهِ الْآيَة دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ الْإِصْدَاقِ بِالْمَالِ الْجَزِيلِ . ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أَيْ : وَكَيْفَ تَأْخُذُونَ الصَّدَاقَ مِنَ الْمَرْأَةِ وَقَدْ أَفْضَيْتَ إِلَيْهَا وَأَفْضَتْ إِلَيْكَ ، وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يَعْنِي بِذَلِكَ الْجِمَاعَ . ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْعَقْدُ ، وَقَالَ آخَرُونَ قَوْلُهُ : ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ هُوَ قَوْلُهُ ﷺ : ((أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ الْآيَة ، يُحَرِّمُ اللهُ تَعَالَى زَوْجَاتِ الْآبَاءِ تَكْرِمَةً لَهُمْ وَإِعْظَامًا وَاحْتِرَامًا ، أَنْ تُوطَأَ مِنْ بَعْدِهِ ، حَتَّى أَنَّهَا لَتَحْرُم عَلَى الِابْنِ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ عَلَيْهَا ، وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا ﴾ أَيْ : بُغْضًا ، أَيْ : هُوَ أَمْرٌ كَبِيرٌ فِي نَفْسِهِ ، وَيُؤَدِّي إِلَى مَقْتِ الِابْنِ أَبَاهُ بَعْدَ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِامْرَأَتِهِ ، فَإِنَّ الْغَالِبَ أَنَّ مَنْ يَتَزَوَّج بِامْرَأَةٍ يَبْغَضُ مَنْ كَانَ زَوْجُهَا قَبْلَهُ ، ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ أَيْ : وَبِئْسَ طَرِيقًا لِمَنْ سَلَكَهُ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ تَعَاطَاهُ بَعْدَ هَذَا فَقَدِ ارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ ، فَيُقْتَلُ وَيَصِيرُ مَالُهُ فَيْئًا لِبَيْتِ الْمَالِ .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۖ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ هِيَ آيَةُ تَحْرِيمِ الْمَحَارِمِ مِنَ النَّسَبِ ، وَمَا يَتْبَعهُ مِنَ الرَّضَاعِ ، وَالْمَحَارِمِ بِالصِّهْرِ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ ﴾ أَيْ : كَمَا يَحْرُمُ عَلَيْكَ

أُمُّكَ الَّتِي وَلَدَتْكَ، كَذَلِكَ يَحْرُمُ عَلَيْكَ أُمُّكَ الَّتِي أَرْضَعَتْكَ. ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ **أَمَّا أُمُّ الْمَرْأَةِ** فَإِنَّهَا تَحْرُمُ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ عَلَى بِنْتِهَا سَوَاءٌ دَخَلَ بِهَا أَوْ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا. **وَأَمَّا الرَّبِيبَةُ** وَهِيَ بِنْتُ الْمَرْأَةِ فَلَا تَحْرُمُ حَتَّى يَدْخُلَ بِأُمِّهَا؛ فَإِنْ طَلَّقَ الْأُمَّ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا جَازَ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِنْتَهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فِي تَزْوِيجِهِنَّ؛ فَهَذَا خَاصٌّ بِالرَّبَائِبِ وَحْدَهُنَّ، وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الرَّبِيبَةَ لَا تَحْرُمُ بِالْعَقْدِ عَلَى الْأُمِّ بِخِلَافِ الْأُمِّ فَإِنَّهَا تَحْرُمُ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾ فَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ الرَّبِيبَةَ حَرَامٌ سَوَاءٌ كَانَتْ فِي حِجْرِ الرَّجُلِ أَوْ لَمْ تَكُنْ فِي حِجْرِهِ. **عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ ﷺ فِي قَوْلِهِ**: ﴿ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾ قَالَ: فِي بُيُوتِكُمْ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ أَيْ: نَكَحْتُمُوهُنَّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ أَيْ: وَحُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ زَوْجَاتُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ وَلَدْتُمُوهُمْ مِنْ أَصْلَابِكُمْ الْمَدْخُول بِهَا وَغَيْرِ الْمَدْخُول، فَتَحْرُمُ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ عَلَيْهَا، وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الْآيَة. أَيْ: وَحَرُمَ عَلَيْكُمُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ مَعًا فِي التَّزْوِيجِ، وَكَذَا فِي مِلْكِ الْيَمِينِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْكُمْ فِي جَاهِلِيَّتِكُمْ فَقَدْ عَفَوْنَا عَنْهُ وَغَفَرْنَاهُ. ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أَيْ: وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَجْنَبِيَّاتِ الْمُحْصَنَاتِ وَهِيَ الْمُزَوَّجَاتُ ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ يَعْنِي: إِلَّا مَا مَلَكْتُمُوهُنَّ بِالسَّبْيِ، فَإِنَّهُ يَحِلُّ لَكُمْ وَطْؤُهُنَّ إِذَا اسْتَبْرَأْتُمُوهُنَّ، فَإِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: هَذَا التَّحْرِيمُ كِتَابٌ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكُمْ، يَعْنِي **الْأَرْبَع** فَالْزَمُوا كِتَابَهُ، وَلَا تَخْرُجُوا عَنْ حُدُودِهِ وَالْزَمُوا شَرْعَهُ وَمَا فَرَضَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: مَا عَدَا مَنْ ذُكِرْنَ مِنَ الْمَحَارِمِ هُنَّ لَكُمْ حَلَالٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أَيْ: تُحَصِّلُوا بِأَمْوَالِكُمْ مِنَ الزَّوْجَاتِ إِلَى أَرْبَعٍ أَوْ السَّرَارِيِّ مَا شِئْتُمْ بِالطَّرِيقِ الشَّرْعِيِّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أَيْ: كَمَا تَسْتَمْتِعُونَ بِهِنَّ فَآتُوهُنَّ مُهُورَهُنَّ فِي مُقَابَلَةِ ذَلِكَ، وَقَدِ اُسْتُدِلَّ بِعُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى نِكَاحِ الْمُتْعَةِ وَلَا شَكَّ أَنَّهُ كَانَ مَشْرُوعًا فِي اِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ نُسِخَ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ مَنْ حَمَلَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى نِكَاحِ الْمُتْعَةِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالَ: لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا اِنْقَضَى الْأَجَلُ أَنْ تَتَرَاضَوْا عَلَى زِيَادَةٍ بِهِ

وَزِيَادَة لِلْجُعْلِ . قَالَ السُّدِّيُّ : فإذَا انْقَضَتِ المُدَّةُ فَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهَا سَبِيلٌ وَهِيَ مِنْهُ بَرِيئَةٌ ، وَعَلَيْهَا أَنْ تَسْتَبْرِئَ مَا فِي رَحِمِهَا ، وَلَيْسَ بَيْنَهُمَا مِيرَاثٌ ، فَلا يَرِثُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فَنَاسَبَ ذِكْرَ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ بَعْدَ شَرْعِ هَذِهِ المُحَرَّمَاتِ .

وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا ﴾ أَيْ : سَعَةً وَقُدْرَةً ﴿ أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أَيْ : الحَرَائِرَ الْعَفَائِفَ . ﴿ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أَيْ : فَتَزَوَّجُوا مِنَ الْإِمَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ اللَّاتِي يَمْلِكُهُنَّ الْمُؤْمِنُونَ ، ثُمَّ اعْتَرَضَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ أَيْ : هُوَ الْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَسَرَائِرِهَا ، وَإِنَّمَا لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ الظَّاهِرُ مِنَ الْأُمُورِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ السَّيِّدَ هُوَ وَلِيُّ أَمَتِهِ لَا تُزَوَّجُ إِلَّا بِإِذْنِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أَيْ : وَادْفَعُوا مُهُورَهُنَّ بِالمَعْرُوفِ ، أَيْ : عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَبْخَسُوا مِنْهُ شَيْئًا اسْتِهَانَةً بِهِنَّ لِكَوْنِهِنَّ إِمَاءً مَمْلُوكَاتٍ ، ﴿ مُحْصَنَٰتٍ ﴾ أَيْ : عَفَائِفُ عَنِ الزِّنَا لَا يَتَعَاطَيْنَهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ ﴾ وَهُنَّ الزَّوَانِي اللَّاتِي لَا يَمْنَعْنَ مَنْ أَرَادَهُنَّ بِالْفَاحِشَةِ . ﴿ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ يَعْنِي : أَخِلَّاء . ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ المُرَادُ بِالْإِحْصَانِ هَهُنَا التَّزْوِيجُ ؛ لِأَنَّ سِيَاقَ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ المُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ ﴾ أَيْ : تَزَوَّجْنَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يُبَاحُ نِكَاحُ الْإِمَاءِ بِالشُّرُوطِ المُتَقَدِّمَةِ لِمَنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ الْوُقُوعَ فِي الزِّنَا ، وَشَقَّ عَلَيْهِ الصَّبْرُ عَنِ الجِمَاعِ ، وَعَنِتَ بِسَبَبِ ذَلِكَ كُلِّهِ ، فَلَهُ حِينَئِذٍ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِالْأَمَةِ ، وَإِنْ تَرَكَ تَزَوُّجَهَا وَجَاهَدَ نَفْسَهُ فِي الْكَفِّ عَنِ الزِّنَا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، لِأَنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَهَا جَاءَ أَوْلَادُهُ أَرِقَّاءُ لِسَيِّدِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا

عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مَا أَحَلَّ لَكُمْ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ ، بِمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يَعْنِي : طَرَائِقَهُمُ الْحَمِيدَةَ وَاتِّبَاعَ شَرَائِعِهِ الَّتِي يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْإِثْمِ وَالْمَحَارِمِ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ أَيْ : يُرِيدُ أَتْبَاعُ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالزُّنَاةِ ، أَنْ تَمِيلُوا عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ مَيْلًا عَظِيمًا . ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ أَيْ : فِي شَرَائِعِهِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَمَا يُقَدِّرُهُ لَكُمْ ، وَلِهَذَا أَبَاحَ الْإِمَاءَ بِشُرُوطٍ ، ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ فَنَاسَبَهُ التَّخْفِيفُ لِضَعْفِهِ فِي نَفْسِهِ وَضَعْفِ عَزْمِهِ وَهِمَّتِهِ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

يَنْهَى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يَأْكُلُوا أَمْوَالَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا بِالْبَاطِلِ ، أَيْ بِأَنْوَاعِ الْمَكَاسِبِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ شَرْعِيَّةٍ كَأَنْوَاعِ الرِّبَا وَالْقِمَارِ ، وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ صُنُوفِ الْحِيَلِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ قُرِئَ « تِجَارَةٌ » بِالرَّفْعِ وَبِالنَّصْبِ وَهُوَ اِسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : لَا تَتَعَاطَوا الْأَسْبَابَ الْمُحَرَّمَةَ فِي اِكْتِسَابِ الْأَمْوَالِ ، لَكِنِ الْمَتَاجِرِ الْمَشْرُوعَةَ الَّتِي تَكُونُ عَنْ تَرَاضٍ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي فَافْعَلُوهَا وَتَسَبَّبُوا بِهَا فِي تَحْصِيلِ الْأَمْوَالِ . ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أَيْ : بِارْتِكَابِ مَحَارِمِ اللهِ ، وَتَعَاطِي مَعَاصِيهِ ، وَأَكْلِ أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ أَيْ : فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا ﴾ أَيْ : وَمَنْ يَتَعَاطَى مَا نَهَاهُ اللهُ عَنْهُ مُتَعَدِّيًا فِيهِ ظَالِمًا فِي تَعَاطِيهِ أَيْ : عَالِمًا بِتَحْرِيمِهِ مُتَجَاسِرًا عَلَى اِنْتِهَاكِهِ ﴿ فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ﴾ الْآيَة . وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، فَلْيَحْذَرْ مِنْهُ كُلُّ عَاقِلٍ لَبِيبٍ ، مِمَّنْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ الْآيَة ، أَيْ : إِذَا اِجْتَنَبْتُمْ كَبَائِرَ الْآثَامِ الَّتِي نُهِيتُمْ عَنْهَا ، كَفَّرْنَا عَنْكُمْ صَغَائِرَ الذُّنُوبِ وَأَدْخَلْنَاكُمُ الْجَنَّةَ ، وَلِهَذَا قَالَ :

﴿ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ .

وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ : وَلَا يَتَمَنَّى الرَّجُلُ فَيَقُولُ : لَيْتَ لَوْ أَنَّ لِي مَالُ فُلَانٍ وَأَهْلِهِ ، فَنَهَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ يَسْأَلِ اللهَ مِنْ فَضْلِهِ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾ أَيْ : كُلٌّ لَهُ جَزَاءٌ عَلَى عَمَلِهِ بِحَسَبِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، **وَقِيلَ** : المُرَادُ بِذَلِكَ فِي المِيرَاثِ ، أَيْ : كُلٌّ يَرِثُ بِحَسَبِهِ . ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا يُصْلِحُهُمْ ، **فَقَالَ** : ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ لَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلْنَا بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ؛ فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ مَحْتُومٌ ، أَيْ : إِنَّ التَّمَنِّي لَا يُجْدِي شَيْئًا ، وَلَكِنْ سَلُونِي مِنْ فَضْلِي أُعْطِكُمْ ؛ فَإِنِّي كَرِيمٌ وَهَّابٌ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ أَيْ : هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الدُّنْيَا فَيُعْطِيهِ مِنْهَا ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ فَيُفْقِرُهُ ، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الآخِرَةَ فَيُقَيِّضُهُ لِأَعْمَالِهَا ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الخِذْلَان فَيَخْذُلُهُ عَنْ تَعَاطِي الخَيْرِ وَأَسْبَابُهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ ﴾ أَيْ : وَرَثَةً . **وَقِيلَ** : عُصْبَةً . فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ : وَلِكُلِّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ جَعَلْنَا عُصْبَةً يَرِثُونَهُ مِمَّا تَرَكَ وَالِدُهُ وَأَقْرَبُوهُ مِنْ مِيرَاثِهِمْ لَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ أَيْ : وَالَّذِينَ تَحَالَفْتُمْ بِالأَيْمَانِ المُؤَكَّدَةِ أَنْتُمْ وَهُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنَ المِيرَاثِ كَمَا وَعَدْتُمُوهُمْ فِي الأَيْمَانِ المُغَلَّظَةِ إِنَّ اللهَ شَاهِدٌ بَيْنَكُمْ فِي تِلْكَ الْعُهُودِ وَالمُعَاقَدَاتِ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا فِي ابْتِدَاءِ الإِسْلَامِ ، ثُمَّ نُسِخَ بَعْدَ ذَلِكَ وَأُمِرُوا أَنْ يُوفُوا لِمَنْ عَاقَدُوا ، وَلَا يَنْسَوْا بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ مُعَاقَدَةً .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما -: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ ﴾ قَالَ : وَرَثَةً ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ كَانَ المُهَاجِرُونَ لَمَّا قَدِمُوا المَدِينَةَ يَرِثُ المُهَاجِرِيُّ الأَنْصَارِيَّ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ ، لِلأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمْ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ ﴾ نَسَخَتْ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ مِنَ النَّصْرِ وَالرِّفَادَةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَقَدْ ذَهَبَ المِيرَاثُ وَيُوصِي لَهُ .

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أَيْ: الرَّجُلُ قَيِّمٌ عَلَى الْمَرْأَةِ، أَيْ: هُوَ رَئِيسُهَا وَكَبِيرُهَا وَالْحَاكِمُ عَلَيْهَا وَمُؤَدِّبُهَا إِذَا اعْوَجَّتْ ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أَيْ: لأَنَّ الرِّجَالَ أَفْضَلُ مِنَ النِّسَاءِ وَالرَّجُلُ خَيْرٌ مِنَ الْمَرْأَةِ، وَلِهَذَا كَانَتِ النُّبُوَّةُ مُخْتَصَّةٌ بِالرِّجَالِ وَكَذَلِكَ الْمُلْكُ الأَعْظَمُ لِقَوْلِهِ ﷺ: «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً**»، وَكَذَا مَنْصِبُ الْقَضَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أَيْ: مِنَ الْمُهُورِ وَالنَّفَقَاتِ وَالْكُلَفِ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللهُ عَلَيْهِمْ لَهُنَّ فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، فَالرَّجُلُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَرْأَةِ فِي نَفْسِهِ، وَلَهُ الْفَضْلُ عَلَيْهَا وَالإِفْضَالُ، فَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ قَيِّمًا عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ**: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ يَعْنِي: أُمَرَاءُ عَلَيْهِنَّ، أَيْ: تُطِيعُهُ فِيمَا أَمَرَهَا اللهُ بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ، وَطَاعَتُهُ أَنْ تَكُونَ مُحْسِنَةً لِأَهْلِهِ حَافِظَةً لِمَالِهِ.

وَ**قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أَيْ: مِنَ النِّسَاءِ ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ يَعْنِي: مُطِيعَاتٌ لِأَزْوَاجِهِنَّ ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أَيْ: تَحْفَظُ زَوْجَهَا فِي غَيْبَتِهِ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ، ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: الْمَحْفُوظُ مَنْ حَفِظَهُ اللهُ. ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ أَيْ: وَالنِّسَاءُ اللَّاتِي تَتَخَوَّفُونَ أَنْ يَنْشُزْنَ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، وَالنُّشُوزُ: هُوَ الارْتِفَاعُ، فَالْمَرْأَةُ النَّاشِزُ هِيَ الْمُرْتَفِعَةُ عَلَى زَوْجِهَا، التَّارِكَةُ لِأَمْرِهِ الْمُعْرِضَةُ عَنْهُ الْمُبْغِضَةُ لَهُ، فَمَتَى ظَهَرَ لَهُ مِنْهَا أَمَارَاتُ النُّشُوزِ فَلْيَعِظْهَا وَلْيُخَوِّفْهَا عِقَابَ اللهِ فِي عِصْيَانِهِ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَوْجَبَ حَقَّ الزَّوْجِ عَلَيْهَا وَطَاعَتَهُ وَحَرَّمَ عَلَيْهَا مَعْصِيَتَهُ، لِمَا لَهُ عَلَيْهَا مِنَ الْفَضْلِ وَالإِفْضَالِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ**: الْهَجْرُ: هُوَ أَنْ لَا يُجَامِعَهَا وَيُضَاجِعَهَا عَلَى فِرَاشِهَا وَيُوَلِّيهَا ظَهْرَهُ، وَزَادَ آخَرُونَ، وَلَا يُكَلِّمَهَا مَعَ ذَلِكَ وَلَا يُحَدِّثُهَا، **وَقِيلَ**: يَعِظُهَا فَإِنْ هِيَ قَبِلَتْ، وَإِلَّا هَجَرَهَا فِي الْمَضْجَعِ، وَلَا يُكَلِّمُهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَذَرَ نِكَاحَهَا، وَذَلِكَ عَلَيْهَا شَدِيدٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ أَيْ: إِذَا لَمْ يَرْتَدِعْنَ بِالْمَوْعِظَةِ وَلَا بِالْهِجْرَانِ، فَلَكُمْ أَنْ تَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ. ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أَيْ: إِذَا أَطَاعَتِ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا فِي جَمِيعِ مَا يُرِيدُهُ مِنْهَا مِمَّا أَبَاحَهُ اللهُ لَهُ مِنْهَا، فَلَا سَبِيلَ لَهُ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ لَهُ ضَرْبها وَلَا

هِجْرَانِهَا ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ تَهْدِيدٌ لِلرِّجَالِ إِذَا بَغَوْا عَلَى النِّسَاءِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ ، فَإِنَّ اللهَ الْعَلِيَّ الْكَبِيرَ وَلِيُّهُنَّ ، وَهُوَ مُنْتَقِمٌ مِمَّنْ ظَلَمَهُنَّ وَبَغَى عَلَيْهِنَّ .

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

قَالَ الْفُقَهَاءُ : إِذَا وَقَعَ الشِّقَاقُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ أَسْكَنَهُمَا الْحَاكِمُ إِلَى جَنْبِ ثِقَةٍ يَنْظُرُ فِي أَمْرِهِمَا ، وَيَمْنَعُ الظَّالِمَ مِنْهُمَا مِنَ الظُّلْمِ ، فَإِنْ تَفَاقَمَ أَمْرُهُمَا وَطَالَتْ خُصُومَتُهُمَا ، بَعَثَ الْحَاكِمُ ثِقَةً مِنْ أَهْلِ الْمَرْأَةِ وَثِقَةً مِنْ قَوْمِ الرَّجُلِ لِيَجْتَمِعَا فَيَنْظُرَا فِي أَمْرِهِمَا وَيَفْعَلَا مَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ مِمَّا يَرَيَانِهِ مِنَ التَّفْرِيقِ أَوِ التَّوْفِيقِ ، وَتَشَوُّفُ الشَّارِعِ إِلَى التَّوْفِيقِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ . وَمَذْهَبُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الْحَكَمَيْنِ لَهُمَا الْجَمْعُ وَالتَّفْرِقَةُ . وَقَدِ اخْتَلَفَ الأَئِمَّةُ فِي الْحَكَمَيْنِ هَلْ هُمَا مَنْصُوبَانِ مِنْ جِهَةِ الْحَاكِمِ فَيَحْكُمَانِ ، وَإِنْ لَمْ يَرْضَ الزَّوْجَانِ أَوْ هُمَا وَكِيلَانِ مِنْ جِهَةِ الزَّوْجَيْنِ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى الْأَوَّلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ فَسَمَّاهُمَا حَكَمَيْنِ ، وَمِنْ شَأْنِ الْحَكَمِ أَنْ يَحْكُمَ بِغَيْرِ رِضَا الْمَحْكُومِ عَلَيْهِ وَهَذَا ظَاهِرُ الْآيَةِ .

۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾

يَأْمُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى خَلْقِهِ فِي جَمِيعِ الْآنَاتِ وَالْحَالَاتِ ، فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ مِنْهُمْ أَنْ يُوَحِّدُوهُ ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، ثُمَّ أَوْصَى بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ ، وَكَثِيرًا مَا يَقْرِنُ اللهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ عِبَادَتِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ ثُمَّ عَطَفَ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا الْإِحْسَانُ إِلَى الْقَرَابَاتِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ فَقَدُوا مَنْ يَقُومُ بِمَصَالِحِهِمْ وَمَنْ يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ ، فَأَمَرَ اللهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَالْحُنُوِّ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ وَهُمُ الْمَحَاوِيجُ مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَنْ يَقُومُ بِكِفَايَتِهِمْ ، فَأَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ بِمُسَاعَدَتِهِمْ بِمَا تَتِمُّ بِهِ كِفَايَتُهُمْ ، وَتَزُولُ بِهِ ضَرُورَتُهُمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى : يَعْنِي الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ ، وَالْجَارِ الْجُنُبِ : الَّذِي لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ قِيلَ : هِيَ : الْمَرْأَةُ . وَقِيلَ : هُوَ الرَّفِيقُ فِي السَّفَرِ . وَأَمَّا

﴿ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ هُوَ الَّذِي يَمُرُّ عَلَيْكَ مُجْتَازًا فِي السَّفَرِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ ﴾ وَصِيَّةٌ بِالْأَرِقَّاءِ لِأَنَّ الرَّقِيقَ ضَعِيفُ الْحِيلَةِ أَسِيرٌ فِي أَيْدِي النَّاسِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالًا فَخُورًا ﴾ أَيْ : مُخْتَالًا فِي نَفْسِهِ مُعْجَبًا مُتَكَبِّرًا فَخُورًا عَلَى النَّاسِ ، يَرَى أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُمْ ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ ، وَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَقِيرٌ ، وَعِنْدَ النَّاسِ بَغِيضٌ . قَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ مُخۡتَالًا ﴾ يَعْنِي : مُتَكَبِّرًا ﴿ فَخُورًا ﴾ يَعْنِي : يَعُدُّ مَا أُعْطِيَ وَهُوَ لَا يَشْكُرُ اللهَ تَعَالَى ، يَعْنِي : يَفْخَرُ عَلَى النَّاسِ بِمَا أَعْطَاهُ اللهُ مِنْ نِعَمِهِ ، وَهُوَ قَلِيلُ الشُّكْرِ عَلَى ذَلِكَ .

ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَامًّا الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِأَمْوَالِهِمْ ، أَنْ يُنْفِقُوهَا فِيمَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ مِنْ بِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَقَارِبِ وَالْيَتَامَى ، وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى ، وَالْجَارِ الْجُنُبِ ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنَ الْأَرِقَّاءِ ، وَلَا يَدْفَعُونَ حَقَّ اللهِ فِيهَا وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ أَيْضًا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ فَالْبَخِيلُ جَحُودٌ لِنِعْمَةِ اللهِ ، وَلَا تَظْهَرُ عَلَيْهِ وَلَا تَبِينُ لَا فِي مَأْكَلِهِ وَلَا فِي مَلْبَسِهِ وَلَا فِي إِعْطَائِهِ وَبَذْلِهِ ، وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ وَالْكُفْرُ : هُوَ السَّتْرُ وَالتَّغْطِيَةُ ، فَالْبَخِيلُ يَسْتُرُ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ وَيَكْتُمُهَا وَيَجْحَدُهَا ، فَهُوَ كَافِرٌ لِنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ فَإِنَّهُ ذَكَرَ الْمُمْسِكِينَ الْمَذْمُومِينَ وَهُمُ الْبُخَلَاءُ ، ثُمَّ ذَكَرَ الْبَاذِلِينَ الْمُرَائِينَ الَّذِي يَقْصِدُونَ بِإِعْطَائِهِمُ السُّمْعَةَ ، وَأَنْ يُمْدَحُوا بِالْكَرَمِ ، وَلَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا ﴾ الْآيَة ، أَيْ : إِنَّمَا حَمَلَهُمْ صَنِيعُهُمْ هَذَا الْقَبِيح وَعَدُولهمْ عَنْ فِعْلِ الطَّاعَةِ عَلَى وَجْهِهَا الشَّيْطَانُ ؛ فَإِنَّهُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ وَقَارَنَهُمْ فَحَسَّنَ لَهُمُ الْقَبَائِحَ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾ وَلِهَذَا قَالَ الشَّاعِرُ :

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ الْآيَة . أَيْ : وَأَيُّ شَيْءٍ يَضُرُّهُمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَسَلَكُوا الطَّرِيقَ الْحَمِيدَةَ ، وَعَدَلُوا عَنِ الرِّيَاءِ إِلَى الْإِخْلَاصِ ،

وَالإِيمَانِ بِالله رَجَاءَ مَوْعُودِهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، لِمَنْ يُحْسِنُ عَمَلَهُ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ فِي الْوُجُوهِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللهُ وَيَرْضَاهَا . ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ أَيْ : وَهُوَ عَلِيمٌ بِنِيَّاتِهِمُ الصَّالِحَةِ وَالْفَاسِدَةِ ، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ التَّوْفِيقَ مِنْهُمْ فَيُوَفِّقُهُ ، وَيُلْهِمُهُ رُشْدَهُ وَيُقَيِّضُهُ لِعِلْمٍ صَالِحٍ يَرْضَى بِهِ عَنْهُ ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْخِذْلَانَ وَالطَّرْدَ عَنِ الْجَنَابِ الْأَعْظَمِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي مَنْ طُرِدَ عَنْ بَابِهِ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، عِيَاذًا بِالله مِنْ ذَلِكَ .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْقَالَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ وَلَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، بَلْ يُوَفِّيهَا لَهُ وَيُضَاعِفُهَا لَهُ إِنْ كَانَتْ حَسَنَةً .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَشِدَّةِ أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْأَمْرُ وَالْحَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَجِيءُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ يَعْنِي : الْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [النحل : ٨٩] **عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ** ﷺ **قَالَ** : قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ : ((**اقْرَأْ عَلَيَّ**)) فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ ؟! قَالَ : ((**نَعَمْ ، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**)) فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْت إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ فَقَالَ : ((**حَسْبُكَ الْآنَ**)) **فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ** .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ أَيْ : انْشَقَّتْ وَبَلَعَتْهُمْ مِمَّا يَرَوْنَ مِنْ أَهْوَالِ الْمَوْقِفِ وَمَا يَحِلُّ بِهِمْ مِنَ الْخِزْيِ وَالْفَضِيحَةِ وَالتَّوْبِيخِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ إِخْبَارٌ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِجَمِيعِ مَا فَعَلُوهُ وَلَا يَكْتُمُونَ مِنْهُ شَيْئًا . **عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ** : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ لَهُ سَمِعْتُ اللهَ ﷻ يَقُولُ يَعْنِي إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُمْ قَالُوا : ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاس أَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا أَهْلُ الْإِسْلَامِ ، قَالُوا : تَعَالَوْا فَلْنَجْحَدْ فَقَالُوا : ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ، فَخَتَمَ اللهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ، وَتَكَلَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا

إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ فِعْلِ الصَّلَاةِ فِي حَالِ السُّكْرِ الَّذِي لَا يَدْرِي مَعَهُ الْمُصَلِّي مَا يَقُولُ، وَعَنْ قُرْبَانِ مَحَالِّهَا الَّتِي هِيَ الْمَسَاجِدُ لِلْجُنُبِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُجْتَازًا مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ مِنْ غَيْرِ مُكْثٍ وَقَدْ كَانَ هَذَا قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ هَذَا أَحْسَنُ مَا يُقَالُ فِي حَدِّ السَّكْرَانِ إِنَّهُ الَّذِي لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ، فَإِنَّ الْمَخْمُورَ فِيهِ تَخْلِيطٌ فِي الْقِرَاءَةِ وَعَدَمِ تَدَبُّرِهِ وَخُشُوعِهِ فِيهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الْمَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ مُصَلِّينَ فِيهَا وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ، وَلَا تَقْرَبُوهَا أَيْضًا جُنُبًا حَتَّى تَغْتَسِلُوا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ، وَالْعَابِرُ السَّبِيلَ: الْمُجْتَازُ مَرًّا وَقَطْعًا، يُقَالُ: مِنْهُ عَبَرْتُ هَذَا الطَّرِيقَ فَأَنَا أَعْبُرُهُ عَبْرًا وَعُبُورًا، وَمِنْهُ قِيلَ عَبَرَ فُلَانٌ النَّهَرَ إِذَا قَطَعَهُ وَجَاوَزَهُ، وَكَأَنَّهُ تَعَالَى نَهَى عَنْ تَعَاطِي الصَّلَاة عَلَى هَيْئَةٍ نَاقِصَةٍ تُنَاقِضُ مَقْصُودَهَا وَعَنِ الدُّخُولِ إِلَى مَحَلِّهَا عَلَى هَيْئَةٍ نَاقِصَةٍ، وَهِيَ الْجَنَابَةُ الْمُبَاعِدَةُ لِلصَّلَاةِ وَلِمَحَلِّهَا أَيْضًا - وَاللهُ أَعْلَمُ -. **وَقَوْلُهُ**: ﴿ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ﴾ دَلِيلٌ على أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى الْجُنُبِ الْمُكْثُ فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى يَغْتَسِلَ أَوْ يَتَيَمَّمَ إِنْ عَدِمَ الْمَاء، أَوْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى اسْتِعْمَالِهِ بِطَرِيقَةٍ. ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ أَمَّا الْمَرَضُ الْمُبِيحُ لِلتَّيَمُّمِ: فَهُوَ الَّذِي يُخَافُ مَعَهُ مِنِ اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ فَوَاتُ عُضْوٍ أَوْ شَيْنِهِ أَوْ تَطْوِيلِ الْبُرْءِ، وَالسَّفَرُ مَعْرُوفٌ وَلَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ الطَّوِيلِ وَالْقَصِيرِ. ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴾ الْغَائِطُ: هُوَ الْمَكَانُ الْمُطْمَئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ كَنَّى بِذَلِكَ عَنِ التَّغَوُّطِ وَهُوَ الْحَدَثُ الْأَصْغَرُ، **وَأَمَّا قَوْلُهُ**: ﴿ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ **اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ وَالْأَئِمَّةُ فِي مَعْنَى ذَلِكَ عَلَى قَوْلَيْنِ**: **وَالصَّحِيح**: أَنَّ ذَلِكَ كِنَايَةً عَنِ الْجِمَاعِ، لِقَوْلِهِ: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ اسْتَنْبَطَ كَثِيرٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّيَمُّم لِعَادِمِ الْمَاءِ إِلَّا بَعْدَ طَلَبِ الْمَاءِ، فَمَتَى طَلَبَهُ فَلَمْ يَجِدْهُ جَازَ لَهُ حِينَئِذٍ التَّيَمُّمُ. **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ **فَالتَّيَمُّمُ فِي اللُّغَةِ هُوَ**: الْقَصْدُ، تَقُولُ الْعَرَبُ تَيَمَّمَكَ اللهُ بِحِفْظِهِ أَيْ: قَصَدَكَ، **وَالصَّعِيدُ**، **قِيلَ**: هُوَ كُلُّ مَا صُعِّدَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ التُّرَابُ وَالرَّمْلُ، **وَالطَّيِّبُ هَهُنَا قِيلَ**: الْحَلَالُ، **وَقِيلَ**: الَّذِي لَيْسَ بِنَجِسٍ.

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ التَّيَمُّمُ بَدَلٌ عَنِ الْوُضُوءِ فِي التَّطْهِيرِ بِهِ ، لَا أَنَّهُ بَدَلٌ مِنْهُ فِي جَمِيعِ أَعْضَائِهِ ، **بَلْ يَكْفِي مَسْحُ الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ فَقَطْ بِالإِجْمَاعِ** ، **وَلَكِنِ اخْتَلَفَ الأَئِمَّةُ فِي كَيْفِيَّةِ التَّيَمُّمِ عَلَى أَقْوَالٍ أَحَدُهَا** : أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَمْسَحَ الْوَجْهَ وَالْيَدَيْنِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ بِضَرْبَتَيْنِ ، **وَالْقَوْلُ الثَّانِي** : إِنَّهُ يَجِبُ مَسْحُ الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ إِلَى الْكَفَّيْنِ بِضَرْبَتَيْنِ ، **وَالثَّالِثُ** : أَنَّهُ يَكْفِي مَسْحُ الْوَجْهِ وَالْكَفَّيْنِ بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ . **عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى عَنْ أَبِيهِ** أَنَّ رَجُلًا أَتَى عُمَرَ فَقَالَ : إِنِّي أَجْنَبْتُ فَلَمْ أَجِدْ مَاءً فَقَالَ عُمَرُ : لَا تُصَلِّ ، قَالَ عَمَّارٌ : أَمَا تَذْكُرُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَنَا وَأَنْتَ فِي سَرِيَّةٍ فَأَجْنَبْنَا ، فَلَمْ نَجِدْ مَاءً ، فَأَمَّا أَنْتَ فَلَمْ تُصَلِّ وَأَمَّا أَنَا فَتَمَعَّكْتُ فِي التُّرَابِ فَصَلَّيْتُ فَلَمَّا أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ : « **إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ** » وَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ الأَرْضَ ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا وَمَسَحَ بِهَا وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - أَنَّهُمْ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ، وَيُعْرِضُونَ عَمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ، وَيَتْرُكُونَ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ الأَوَّلِينَ فِي صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ أَيْ : يَوَدُّونَ لَوْ تَكْفُرُونَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ وَتَتْرُكُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ النَّافِعِ . ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ﴾ أَيْ : هُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ وَيُحَذِّرُكُمْ مِنْهُمْ ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ أَيْ : كَفَى بِهِ وَلِيًّا لِمَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ وَنَصِيرًا لِمَنِ اسْتَنْصَرَهُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ « مَنْ » هَذِهِ لِبَيَانِ الْجِنْسِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ أَيْ : يَتَأَوَّلُونَ الكَلَامَ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ ، وَيُفَسِّرُونَهُ بِغَيْرِ مُرَادِ اللهِ ﷻ قَصْدًا مِنْهُمْ وَافْتِرَاءً ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ أَيْ يَقُولُونَ : سَمِعْنَا مَا قُلْتَهُ يَا مُحَمَّدُ وَلَا نُطِيعُكَ فِيهِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَأَنَّهُمْ يَتَوَلَّوْنَ عَنْ كِتَابِ اللهِ بَعْدَمَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ مَا عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الإِثْمِ وَالْعُقُوبَةِ ، وَقَوْلُهُمْ ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ أَيْ : اِسْمَعْ مَا نَقُولُ لَا سَمِعْتَ . وَهَذَا اِسْتِهْزَاءٌ مِنْهُمْ وَاسْتِهْتَارٌ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ ﴿ وَرَاعِنَا لَيًّا

بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ ﴾ أَيْ : يُوهِمُونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : رَاعِنَا سَمْعَكَ بِقَوْلِهِمْ : رَاعِنَا ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ الرُّعُونَةَ بِسَبِّهِمُ النَّبِيَّ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيْ : قُلُوبُهُمْ مَطْرُودَةٌ عَنِ الْخَيْرِ مُبْعَدَةٌ مِنْهُ فَلَا يَدْخُلُهَا مِنَ الْإِيمَانِ شَيْءٌ نَافِعٌ لَهُمْ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِيمَانًا نَافِعًا .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا أَهْلَ الْكِتَابِ بِالْإِيمَانِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْكِتَابِ الْعَظِيمِ الَّذِي فِيهِ تَصْدِيقُ الْأَخْبَارِ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْبِشَارَاتِ وَمُتَهَدِّدًا لَهُمْ إِنْ لَمْ يَفْعَلُوا بِقَوْلِهِ : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما -: نَجْعَلُ وُجُوهَهُمْ مِنْ قِبَلِ أَقْفِيَتِهِمْ فَيَمْشُونَ الْقَهْقَرَى وَنَجْعَلُ لِأَحَدِهِمْ عَيْنَيْنِ مِنْ قَفَاهُ ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ ، وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لَهُمْ فِي صَرْفِهِمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَرَدِّهِمْ إِلَى الْبَاطِلِ ، وَرُجُوعِهِمْ عَنِ الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ إِلَى سَبِيلِ الضَّلَالَةِ ، يُهْرَعُونَ وَيَمْشُونَ الْقَهْقَرَى عَلَى أَدْبَارِهِمْ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : ٨] . أَيْ : هَذَا مَثَلُ سُوءٍ ضَرَبَهُ اللهُ لَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ وَمَنَعَهُمْ عَنِ الْهُدَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ اعْتَدَوْا فِي سَبْتِهِمْ بِالْحِيلَةِ عَلَى الِاصْطِيَادِ ، وَقَدْ مُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ ، ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أَيْ : إِذَا أَمَرَ بِأَمْرٍ فَإِنَّهُ لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ﴿ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ أَيْ : لَا يَغْفِرُ لِعَبْدٍ لَقِيَهُ وَهُوَ مُشْرِكٌ بِهِ ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : مِنَ الذُّنُوبِ ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : مِنْ عِبَادِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله . أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ : ((**أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**)) .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ

كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾

عَنِ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ ﷺ **قَالَ** : أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَحْثُوَ فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ . **وَعَنِ ابْنِ أَبِي بَكْرَةَ** ﷺ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سمِعَ رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ فَقَالَ : « **وَيْحَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ** » ثُمَّ قَالَ : « **إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لَا مَحَالَةَ ، فَلْيَقُلْ أَحْسَبُهُ كَذَا ، وَلَا يُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا** » . وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٢] ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : الْمَرْجِعُ فِي ذَلِكَ إِلَى اللهِ ﷻ لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَغَوَامِضِهَا ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ أَيْ : وَلَا يُتْرَكُ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَجْرِ مَا يُوَازِنُ مِقْدَارَ الْفَتِيلِ . وَهُوَ مَا يَكُونُ فِي شَقِّ النَّوَاةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ ﴾ أَيْ : فِي تَزْكِيَتِهِمْ أَنْفُسَهم ، وَدَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، وَقَوْلِهِمْ : ﴿ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة : ١١١] ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴾ ، أَيْ : وَكَفَى بِصَنِيعِهِمْ هَذَا كَذِبًا وَافْتِرَاءً ظَاهِرًا ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : **الْجِبْتُ** : السِّحْرُ ، **وَالطَّاغُوتُ** : الشَّيْطَانُ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : **الْجِبْتُ** : الشَّيْطَانُ ، **وَقِيلَ** : الْأَصْنَامُ ، **وَقِيلَ** : الْكَاهِنُ ، **وَقِيلَ** : كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ .

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الطَّاغُوتُ : **الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ صَاحِبُ أَمْرِهِمْ** ، **وَقَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ** : **هُوَ كُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ** ﷻ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ **أَيْ : يُفَضِّلُونَ الْكُفَّارَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِجَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ دِينِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِكِتَابِ اللهِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ** .

أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴿٥٤﴾ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ ﴾ ، وَهَذَا اِسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ ، أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِالْبُخْلِ فَقَالَ : ﴿ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ أَيْ : لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانَ لَهُمْ نَصِيبٌ فِي الْمُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ لَمَا أَعْطَوْا أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ، وَلَا سِيَّمَا مُحَمَّدًا ﷺ شَيْئًا ، وَلَا مَا يَمْلَأُ النَّقِيرَ ،

وَهُوَ النُّقْطَةُ الَّتِي فِي النَّوَاةِ . وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾ [الإسراء : ١٠٠] أَيْ : خَوْفَ أَنْ يَذْهَبَ مَا بِأَيْدِيكُمْ مَعَ أَنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ نَفَادُهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ بُخْلِكُمْ وَشُحِّكُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ أَيْ : بَخِيلًا .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ : حَسَدُهُمُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى مَا رَزَقَهُ اللهُ مِنَ النُّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ ، وَمَنَعَهُمْ مِنْ تَصْدِيقِهِمْ إِيَّاهُ حَسَدُهُمْ لَهُ لِكَوْنِهِ مِنَ الْعَرَبِ ، وَلَيْسَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾ أَيْ : بِهَذَا الْإِيتَاءِ وَهَذَا الْإِنْعَامِ ﴿ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾ أَيْ : كَفَرَ بِهِ وَأَعْرَضَ عَنْهُ ، وَسَعَى فِي صَدِّ النَّاسِ عَنْهُ ، وَهُوَ مِنْهُمْ وَمِنْ جِنْسِهِمْ ، أَيْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل ، فَقَدِ اخْتَلَفُوا عَلَيْهِمْ ، فَكَيْفَ بِكَ يَا مُحَمَّدُ وَلَسْتَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ . وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾ أَيْ : بِمُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾ فَالْكَفَرَةُ مِنْهُمْ أَشَدُّ تَكْذِيبًا لَكَ وَأَبْعَدُ عَمَّا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ الْمُبِينِ ، وَلِهَذَا قَالَ مُتَوَعِّدًا لَهُمْ : ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ أَيْ : وَكَفَى بِالنَّارِ عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ كُتُبَ اللهِ وَرُسُلَهُ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يُعَاقِبُ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ مَنْ كَفَرَ بِآيَاتِهِ وَصَدَّ عَنْ رُسُلِهِ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ﴾ الْآيَة ، أَيْ : نُدْخِلُهُمْ فِيهَا دُخُولًا يُحِيطُ بِجَمِيعِ أَجْرَامِهِمْ وَأَجْزَائِهِمْ . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ دَوَامِ عُقُوبَتِهِمْ وَنَكَالِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ مَآلِ السُّعَدَاءِ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي تَجْرِي فِيهَا الْأَنْهَارُ فِي جَمِيعِ فِجَاجِهَا وَمَحَالِّهَا وَأَرْجَائِهَا ، حَيْثُ شَاءُوا وَأَيْنَ أَرَادُوا ، وَهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَحُولُونَ وَلَا يَزُولُونَ وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا . ﴿ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ أَيْ : مِنَ الْحَيْضِ وَالنِّفَاسِ وَالْأَذَى وَالْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ وَالصِّفَاتِ النَّاقِصَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ أَيْ : ظِلًّا عَمِيقًا كَثِيرًا غَزِيرًا طَيِّبًا أَنِيقًا . عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا - شَجَرَةُ الْخُلْدِ** » .

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ

بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَأْمُرُ بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا . وَهُوَ يَعُمُّ جَمِيعَ الْأَمَانَاتِ الْوَاجِبَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حُقُوقِ اللهِ ﷻ عَلَى عِبَادِهِ وَمِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ كَالْوَدَائِعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُؤْتَمَنُونَ بِهِ مِنْ غَيْرِ اطِّلَاعِ بَيِّنَةٍ عَلَى ذَلِكَ ، فَأَمَرَ اللهُ ﷻ بِأَدَائِهَا ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا أُخِذَ مِنْهُ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ أَمْرٌ مِنْهُ تَعَالَى بِالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ أَيْ : يَأْمُرُكُمْ بِهِ مِنْ أَدَاءِ الْأَمَانَاتِ ، وَالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَوَامِرِهِ وَشَرَائِعِهِ الْكَامِلَةِ الْعَظِيمَةِ الشَّامِلَةِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ أَيْ : سَمِيعًا لِأَقْوَالِكُمْ بَصِيرًا بِأَفْعَالِكُمْ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما – ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ قَالَ : نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ .

وَعَنْ عَلِيٍّ ﷺ **قَالَ** : بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَلَمَّا خَرَجُوا وَجَدَ عَلَيْهِمْ فِي شَيْءٍ قَالَ : فَقَالَ لَهُمْ : أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَكُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي ؟ قَالُوا بَلَى . قَالَ : فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا . ثُمَّ دَعَا بِنَارٍ فَأَضْرَمَهَا فِيهَا ، ثُمَّ قَالَ : عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَتَدْخُلُنَّهَا . قَالَ : فَقَالَ لَهُمْ شَابٌّ مِنْهُمْ إِنَّمَا فَرَرْتُمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ النَّارِ فَلَا تَعْجَلُوا حَتَّى تَلْقَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوهَا فَادْخُلُوهَا ، قَالَ : فَرَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : « **لَوْ دَخَلْتُمُوهَا مَا خَرَجْتُمْ مِنْهَا أَبَدًا ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ** » . **وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ** – رضي الله عنهما – عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : « **السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ** » . **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ يَعْنِي : أُولِي الْأَمْرِ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : اتَّبِعُوا كِتَابَهُ ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ أَيْ : خُذُوا بِسُنَّتِهِ ﴿ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ أَيْ : فِيمَا أَمَرُوكُمْ بِهِ مِنْ طَاعَةِ اللهِ لَا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ ، فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ « **إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ أَيْ : إِلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ . وَهَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ ﷻ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ أَنْ يُرَدَّ التَّنَازُعُ فِي ذَلِكَ

إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَحَاكَمْ فِي مَحَلِّ النِّزَاعِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ ، فَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ أَيْ : التَّحَاكُمُ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِمَا فِي فَصْلِ النِّزَاعِ ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أَيْ : وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً وَمَآلًا .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللهِ ﷻ عَلَى مَنْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُرِيدُ أَنْ يَتَحَاكَمَ فِي فَصْلِ الْخُصُومَاتِ إِلَى غَيْرِ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَالْآيَةُ عَامَّةٌ ، فَإِنَّهَا ذَامَّةٌ لِمَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَتَحَاكَمُوا إِلَى مَا سِوَاهُمَا مِنَ الْبَاطِلِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالطَّاغُوتِ هَا هُنَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ إِلَى آخِرِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ أَيْ : يُعْرِضُونَ عَنْكَ إِعْرَاضًا كَالْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي ذَمِّ الْمُنَافِقِينَ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ بِهِمْ إِذَا سَاقَتْهُمُ الْمَقَادِيرُ إِلَيْكَ فِي مَصَائِبَ تَطْرُقُهُمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَاحْتَاجُوا إِلَيْكَ فِي ذَلِكَ ﴿ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ أَيْ : يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكَ وَيَحْلِفُونَ مَا أَرَدْنَا بِذَهَابِنَا إِلَى غَيْرِكَ وَتَحَاكُمِنَا إِلَى أَعْدَائِكَ إِلَّا الْإِحْسَانَ وَالتَّوْفِيقَ ، أَيْ : الْمُدَارَاةَ وَالْمُصَانَعَةَ لَا اعْتِقَادًا مِنَّا صِحَّةَ تِلْكَ الْحُكُومَةِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ هَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ هُمُ الْمُنَافِقُونَ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، فَاكْتَفِ بِهِ يَا مُحَمَّدُ فِيهِمْ ، فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِظَوَاهِرِهِمْ وَبَوَاطِنِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أَيْ : لَا تُعَنِّفْهُمْ عَلَى مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴿ وَعِظْهُمْ ﴾ أَيْ : وَانْهَهُمْ عَمَّا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ النِّفَاقِ وَسَرَائِرِ الشَّرِّ ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ أَيْ : وَانْصَحْهُمْ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ بِكَلَامٍ بَلِيغٍ رَادِعٍ لَهُمْ .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ

فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾ أَيْ : فُرِضَتْ طَاعَتُهُ عَلَى مَنْ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : أَيْ : لَا يُطِيعُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِي ، يَعْنِي : لَا يُطِيعُهُمْ إِلَّا مَنْ وَفَّقْتُهُ لِذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ الْآيَةَ ، يُرْشِدُ تَعَالَى الْعُصَاةَ وَالْمُذْنِبِينَ إِذَا وَقَعَ مِنْهُمُ الْخَطَأُ وَالْعِصْيَانُ أَنْ يَأْتُوا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ فَيَسْتَغْفِرُوا اللهَ عِنْدَهُ ، وَيَسْأَلُوهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ وَغَفَرَ لَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ يُقْسِمُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ الْمُقَدَّسَةِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَحَدٌ حَتَّى يُحَكِّمَ الرَّسُولَ ﷺ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ ، فَمَا حَكَمَ بِهِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ الِانْقِيَادُ لَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ أَيْ : إِذَا حَكَّمُوكَ يُطِيعُونَكَ فِي بَوَاطِنِهِمْ ، فَلَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا حَكَمْتَ بِهِ ، وَيَنْقَادُونَ لَهُ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ، فَيُسَلِّمُونَ لِذَلِكَ تَسْلِيمًا كُلِّيًّا مِنْ غَيْرِ مُمَانَعَةٍ وَلَا مُدَافَعَةٍ وَلَا مُنَازَعَةٍ .

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَكْثَرِ النَّاسِ أَنَّهُمْ لَوْ أُمِرُوا بِمَا هُمْ مُرْتَكِبُونَهُ مِنَ الْمَنَاهِي لَمَا فَعَلُوهُ ، لِأَنَّ طِبَاعَهُمُ الرَّدِيئَةَ مَجْبُولَةٌ عَلَى مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ ، وَهَذَا مِنْ عِلْمِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمَا لَمْ يَكُنْ ، أَوْ كَانَ فَكَيْفَ كَانَ يَكُونُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ ﴾ أَيْ : وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُؤْمَرُونَ بِهِ وَتَرَكُوا مَا يُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ أَيْ : مِنْ مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ وَارْتِكَابِ النَّهْيِ ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾

أَيْ : وَأَشَدَّ تَصْدِيقًا ﴿ وَإِذًا لَّأٓتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ ﴾ أَيْ : مِنْ عِنْدِنَا ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةَ ، ﴿ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَنْ عَمِلَ بِمَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَتَرَكَ مَا نَهَاهُ اللهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ يُسْكِنُهُ دَارَ كَرَامَتِهِ وَيَجْعَلُهُ مُرَافِقًا لِلْأَنْبِيَاءِ ، ثُمَّ لِمَنْ بَعْدَهُمْ فِي الرُّتْبَةِ ، وَهُمُ الصِّدِّيقُونَ ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ ، ثُمَّ عُمُومُ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمُ الصَّالِحُونَ الَّذِينَ صَلَحَتْ سَرَائِرُهُمْ وَعَلَانِيَتُهُمْ ، ثُمَّ أَثْنَى عَلَيْهِمْ تَعَالَى فَقَالَ : ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مِنْ عِنْدِ اللهِ بِرَحْمَتِهِ ، وَهُوَ الَّذِي أَهَّلَهُمْ لِذَلِكَ لَا بِأَعْمَالِهِمْ ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ أَيْ : هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ وَالتَّوْفِيقَ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَخْذِ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّهِمْ وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ التَّأَهُّبَ لَهُمْ بِإِعْدَادِ الْأَسْلِحَةِ وَالْعُدَدِ وَتَكْثِيرِ الْعَدَدِ بِالنَّفِيرِ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴿ ثُبَاتٍ ﴾ أَيْ : جَمَاعَةً بَعْدَ جَمَاعَةٍ وَفِرْقَةً بَعْدَ فِرْقَةٍ ، وَسَرِيَّةً بَعْدَ سَرِيَّةٍ ، وَالثُّبَاتُ: جَمْعُ ثُبَةٍ ، وَقَدْ تُجْمَعُ الثُّبَةُ عَلَى ثُبِينَ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ ﴾ أَيْ : عُصَبًا ، يَعْنِي سَرَايَا مُتَفَرِّقِينَ ﴿ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴾ يَعْنِي : كُلَّكُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ** : نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ ، **وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ** : ﴿ لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ أَيْ : لَيَتَخَلَّفَنَّ عَنِ الْجِهَادِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُ يَتَبَاطَأُ هُوَ فِي نَفْسِهِ ، وَيُبَطِّئُ غَيْرَهُ عَنِ الْجِهَادِ ، كَمَا كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ - قَبَّحَهُ اللهُ - يَفْعَلُ ، يَتَأَخَّرُ عَنِ الْجِهَادِ وَيُثَبِّطُ النَّاسَ عَنِ الْخُرُوجِ فِيهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُنَافِقِ أَنَّهُ يَقُولُ إِذَا تَأَخَّرَ عَنِ الْجِهَادِ ﴿ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ ﴾ أَيْ : قَتْلٌ وَشَهَادَةٌ وَغَلْبُ الْعَدُوِّ لَكُمْ لِمَا للهِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴿ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ أَيْ : إِذْ لَمْ أَحْضُرْ مَعَهُمْ وَقْعَةَ الْقِتَالِ ، يَعُدُّ ذَلِكَ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَدْرِ مَا فَاتَهُ مِنَ الْأَجْرِ فِي الصَّبْرِ أَوِ الشَّهَادَةِ إِنْ قُتِلَ . ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : نَصْرٌ وَظَفَرٌ وَغَنِيمَةٌ ﴿ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ ﴾ أَيْ : كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أَيْ : بِأَنْ يُضْرَبَ لِي بِسَهْمٍ مَعَهُمْ فَأَحْصُلَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ أَكْبَرُ قَصْدِهِ وَغَايَةُ مُرَادِهِ . ثُمَّ **قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ ﴾ أَيْ : الْمُؤْمِنُ

النَّافِرُ ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ ﴾ أَيْ : يَبِيعُونَ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ قَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِكُفْرِهِمْ وَعَدَمِ إِيمَانِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أَيْ : كُلُّ مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ الله سَوَاءٌ قُتِلَ أَوْ غَلَبَ فَلَهُ عِنْدَ الله مَثُوبَةٌ عَظِيمَةٌ وَأَجْرٌ جَزِيلٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ ، وَتَكَفَّلَ اللهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يُرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ .

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

يُحَرِّضُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ وَعَلَى السَّعْيِ فِي اسْتِنْقَاذِ الْمُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ الْمُتَبَرِّمِينَ مِنَ الْمُقَامِ بِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ يَعْنِي : مَكَّةَ ، ثُمَّ وَصَفَهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ أَيْ : سَخِّرْ لَنَا مِنْ عِنْدِكَ وَلِيًّا نَاصِرًا . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما -: كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ .

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ أَيْ : الْمُؤْمِنُونَ يُقَاتِلُونَ فِي طَاعَةِ الله وَرِضْوَانِهِ ، وَالْكَافِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ ، ثُمَّ هَيَّجَ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ أَعْدَائِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ الآيَةُ . كَانَ الْمُؤْمِنُونَ فِي ابْتِدَاءِ الإِسْلَامِ وَهُمْ بِمَكَّةَ مَأْمُورِينَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ ذَاتَ النُّصُبِ لَكِنْ كَانُوا مَأْمُورِينَ بِمُوَاسَاةِ الْفُقَرَاءِ مِنْهُمْ ، وَكَانُوا مَأْمُورِينَ بِالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ، وَالصَّبْرِ إِلَى حِينٍ ، وَكَانُوا يَتَحَرَّقُونَ وَيَوَدُّونَ لَوْ أُمِرُوا بِالْقِتَالِ ، لِيَشْتَفُّوا مِنْ أَعْدَائِهِمْ ، وَلَمْ يَكُنِ الْحَالُ إِذْ ذَاكَ مُنَاسِبًا لِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا : قِلَّةُ عَدَدِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كَثْرَةِ عَدَدِ عَدُوِّهِمْ ، وَمِنْهَا كَوْنُهُمْ كَانُوا فِي بَلَدِهِمْ وَهُوَ بَلَدٌ حَرَامٌ وَأَشْرَفُ بِقَاعِ الْأَرْضِ ، فَلَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ فِيهِ ابْتِدَاءً لَائِقًا ، فَلِهَذَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالْجِهَادِ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ لَمَّا صَارَتْ لَهُمْ دَارٌ وَمَنَعَةٌ وَأَنْصَارٌ ، وَمَعَ هَذَا لَمَّا أُمِرُوا بِمَا كَانُوا يَوَدُّونَهُ جَزِعَ بَعْضُهُمْ مِنْهُ ، وَخَافُوا مِنْ مُوَاجَهَةِ النَّاسِ خَوْفًا شَدِيدًا ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أَيْ : لَوْمَا أَخَّرْتَ فَرِيضَتَهُ إِلَى مُدَّةٍ أُخْرَى ، فَإِنَّ فِيهِ سَفْكَ الدِّمَاءِ وَيُتْمَ الْأَوْلَادِ وَتَأَيُّمَ النِّسَاءِ . ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ أَيْ : آخِرَةُ الْمُتَّقِي خَيْرٌ مِنْ دُنْيَاهُ ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ أَيْ : مِنْ أَعْمَالِكُمْ بَلْ تُوَفَّوْنَهَا أَتَمَّ الْجَزَاءِ ، وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ لَهُمْ عَنِ الدُّنْيَا وَتَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَتَحْرِيضٌ لَهُمْ عَلَى الْجِهَادِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ صَائِرُونَ إِلَى الْمَوْتِ لَا مَحَالَةَ وَلَا يَنْجُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ . ﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ أَيْ : حَصِينَةٍ مَنِيعَةٍ عَالِيَةٍ رَفِيعَةٍ ، أَيْ : لَا يُغْنِي حَذَرٌ وَتَحَصُّنٌ مِنَ الْمَوْتِ ، كَمَا قَالَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَلْقَهَا ... وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ﴾ أَيْ : خِصْبٌ وَرِزْقٌ مِنْ ثِمَارٍ وَزُرُوعٍ وَأَوْلَادٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أَيْ : قَحْطٌ وَجَدْبٌ وَنَقْصٌ فِي الثِّمَارِ وَالزُّرُوعِ ، أَوْ مَوْتُ أَوْلَادٍ أَوْ نِتَاجٍ ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ ﴿ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾ أَيْ : مِنْ قِبَلِكَ وَبِسَبَبِ اتِّبَاعِنَا لَكَ ، وَاقْتِدَائِنَا بِدِينِكَ ، وَهَكَذَا قَالَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا ، وَلِهَذَا إِذَا أَصَابَهُمْ شَرٌّ إِنَّمَا يُسْنِدُونَهُ إِلَى اتِّبَاعِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ . ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ ، وَهُوَ نَافِذٌ فِي الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ وَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَائِلِينَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ الصَّادِرَةَ عَنْ شَكٍّ وَرَيْبٍ ، وَقِلَّةِ فَهْمٍ وَعِلْمٍ ، وَكَثْرَةِ جَهْلٍ وَظُلْمٍ : ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِرَسُولِهِ ﷺ ، وَالْمُرَادُ جِنْسُ الْإِنْسَانِ لِيَحْصُلَ الْجَوَابُ : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مِنْ فَضْلِ اللهِ وَمَنِّهِ وَلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ . ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ أَيْ : فَمِنْ قِبَلِكَ وَمِنْ عَمَلِكَ أَنْتَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً ﴾ أَيْ : تُبَلِّغُهُمْ شَرَائِعَ اللهِ ، وَمَا يُحِبُّهُ اللهُ

وَيَرْضَاهُ ، وَمَا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أَيْ : عَلَى أَنَّهُ أَرْسَلَكَ ، وَهُوَ شَهِيدٌ أَيْضًا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ وَعَالِمٌ بِمَا تبلغهُمْ إِيَّاهُ ، وَبِمَا يَرُدُّونَ عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ كُفْرًا وَعِنَادًا .

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَنَّ مَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ، وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ عَصَى اللهَ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لأَنَّهُ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣- ٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أَيْ : لَا عَلَيْكَ مِنْهُ ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ، فَمَنِ اتَّبَعَكَ سَعِدَ وَنَجَا ، وَكَانَ لَك مِنَ الْأَجْرِ نَظِيرُ مَا حَصَلَ لَهُ ، وَمَنْ تَوَلَّى عَنْكَ خَابَ وَخَسِرَ وَلَيْس عَلَيْكَ مِنْ أَمْرِهِ شَيْءٌ . ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ الْمُوَافَقَةَ وَالطَّاعَةَ ﴿ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ ﴾ أَيْ : خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ وَتَوَارَوْا عَنْكَ ﴿ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ﴾ أَيْ : اِسْتَسَرُّوا لَيْلًا فِيمَا بَيْنَهُمْ مَا أَظْهَرُوهُ لَك ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُهُ وَيَكْتُبُهُ عَلَيْهِمْ ، بِمَا يَأْمُرُ بِهِ حَفَظَتَهُ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ هُمْ مُوَكَّلُونَ بِالْعِبَادِ ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ . ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أَيْ : اِصْفَحْ عَنْهُمْ وَاُحْلمْ عَلَيْهِمْ ، وَلَا تُؤَاخِذْهُمْ وَلَا تَكْشِفْ أُمُورَهُمْ لِلنَّاسِ ، وَلَا تَخَفْ مِنْهُمْ أَيْضًا ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أَيْ : كَفَى بِهِ وَلِيًّا وَنَاصِرًا وَمُعِينًا ، لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ .

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ بِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ ، وَنَاهِيًا لَهُمْ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ ، وَعَنْ تَفَهُّمِ مَعَانِيهِ الْمُحْكَمَةِ ، وَأَلْفَاظِهِ الْبَلِيغَةِ ، وَمُخْبِرًا لَهُمْ أَنَّهُ لَا اِخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا اِضْطِرَابَ وَلَا تَضَادَّ وَلَا تَعَارُضَ لأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ، فَهُوَ حَقٌّ مِنْ حَقٍّ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لَوْ كَانَ مُفْتَعَلًا مُخْتَلَقًا ، كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ جَهَلَةِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي بَوَاطِنِهِمْ ﴿ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا ﴾ أَيْ : اِضْطِرَابًا وَتَضَادًّا

كَثِيرًا ، أَيْ : وَهَذَا سَالِمٌ مِنَ الاِخْتِلَافِ فَهُوَ مِنْ عِنْدِ الله ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ حَيْثُ قَالُوا : ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ أَيْ : مُحْكَمُهُ وَمُتَشَابِهُهُ حَقٌّ ، فَلِهَذَا رَدُّوا الْمُتَشَابِهَ إِلَى الْمُحْكَمِ فَاهْتَدَوْا ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ رَدُّوا الْمُحْكَمَ إِلَى الْمُتَشَابِهِ فَغَوَوْا ، وَلِهَذَا مَدَحَ تَعَالَى الرَّاسِخِينَ وَذَمَّ الزَّائِغِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ﴾ إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ يُبَادِرُ إِلَى الْأُمُورِ قَبْلَ تَحَقُّقِهَا ، فَيُخْبِرُ بِهَا وَيُفْشِيهَا وَيَنْشُرُهَا ، وَقَدْ لَا يَكُونُ لَهَا صِحَّةٌ . وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ يَسْتَنبِطُونَهُ ﴾ أَيْ : يَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ مَعَادِنِهِ . يُقَالُ : اِسْتَنْبَطَ الرَّجُلُ الْعَيْنَ إِذَا حَفَرَهَا وَاسْتَخْرَجَهَا مِنْ قُعُورِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قِيلَ : يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ . وَقِيلَ : يَعْنِي كُلَّكُمْ .

فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِأَنْ يُبَاشِرَ الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ ، وَمَنْ نَكَلَ عَنْهُ فَلَا عَلَيْهِ مِنْهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : عَلَى الْقِتَالِ وَرَغِّبْهُمْ فِيهِ وَشَجِّعْهُمْ عِنْدَهُ ، كَمَا قَالَ لَهُمْ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ يُسَوِّي الصُّفُوفَ ((**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أَيْ : بِتَحْرِيضِكَ إِيَّاهُمْ عَلَى الْقِتَالِ ، تَنْبَعِثُ هِمَمُهُمْ عَلَى مُنَاجَزَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُدَافَعَتِهِمْ عَنْ حَوْزَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، وَمُقَاوَمَتِهِمْ وَمُصَابَرَتِهِمْ ، ﴿ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ أَيْ : هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ أَيْ : مَنْ سَعَى فِي أَمْرٍ فَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ ﴿ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾ أَيْ : يَكُونُ عَلَيْهِ وِزْرٌ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ الَّذِي تَرَتَّبَ عَلَى سَعْيِهِ وَنِيَّتِهِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((**اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا ، وَيَقْضِي اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ**)) . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : أَيْ : حَفِيظًا ، وَقِيلَ : شَهِيدًا ، وَقِيلَ : حَسِيبًا . وَقِيلَ : قَدِيرًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ أَيْ : إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمُ الْمُسْلِمُ فَرُدُّوا

عَلَيْهِ أَفْضَلَ مِمَّا سَلَّمَ ، أَوْ رُدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا سَلَّمَ ، فَالزِّيَادَةُ مَنْدُوبَةٌ ، وَالْمُمَاثَلَةُ مَفْرُوضَةٌ .

فَأَمَّا أَهْلُ الذِّمَّةِ فَلَا يُبْدَءُونَ بِالسَّلَامِ ، وَلَا يُزَادُونَ ، بَلْ يُرَدُّ عَلَيْهِمْ بِمَا ثَبَتَ عَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمُ الْيَهُودُ فَإِنَّمَا يَقُولُ أَحَدُهُمْ : السَّامُ عَلَيْكَ فَقُلْ : وَعَلَيْكَ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إِخْبَارٌ بِتَوْحِيدِهِ وَتَفَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ وَتَضَمَّنَ قَسَمًا لِقَوْلِهِ : ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، وَهَذِهِ اللَّامُ مُوَطِّئَةٌ لِلْقَسَمِ فَقَوْلُهُ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ خَبَرٌ وَقَسَمٌ أَنَّهُ سَيَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ أَيْ : لَا أَحَد أَصْدَقُ مِنْهُ فِي حَدِيثِهِ وَخَبَرِهِ ، وَوَعْدِهِ ، وَوَعِيدِهِ ، فَلَا إِلَه إِلَّا هُوَ ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي اخْتِلَافِهِمْ فِي الْمُنَافِقِينَ عَلَى قَوْلَيْنِ . **فَعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ** رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى أُحُدٍ فَرَجَعَ نَاسٌ خَرَجُوا مَعَهُ فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيهِمْ فِرْقَتَيْنِ : فِرْقَةٌ تَقُولُ : نَقْتُلُهُمْ ، وَفِرْقَةٌ تَقُولُ : لَا هُمُ الْمُؤْمِنُونَ فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّهَا طَيِّبَةٌ ، وَإِنَّهَا تَنْفِي الْخَبَثَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم ﴾ أَيْ : رَدَّهُمْ وَأَوْقَعَهُمْ فِي الْخَطَأِ ، ﴿ بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ عِصْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمُ الرَّسُولَ وَاتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ أَيْ : لَا طَرِيقَ لَهُ إِلَى الْهُدَى وَلَا مَخْلَصَ لَهُ إِلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ أَيْ : هُمْ يَوَدُّونَ لَكُمُ الضَّلَالَةَ لِتَسْتَوُوا أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ فِيهَا ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِشِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ وَبُغْضِهِمْ لَكُمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أَيْ : تَرَكُوا الْهِجْرَةَ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : أَظْهَرُوا كُفْرَهُمْ ﴿ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أَيْ : لَا تُوَالُوهُمْ وَلَا تَسْتَنْصِرُوا بِهِمْ عَلَى أَعْدَاءِ اللهِ ، مَا دَامُوا كَذَلِكَ . **ثُمَّ اسْتَثْنَى اللهُ مِنْ هَؤُلَاءِ ، فَقَالَ** : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ أَيْ : إِلَّا الَّذِينَ لَجَئُوا وَتَحَيَّزُوا إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مُهَادَنَةٌ ، أَوْ عَقْدُ ذِمَّةٍ ، فَاجْعَلُوا حُكْمَهُمْ كَحُكْمِهِمْ .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ فِي قِصَّةِ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ فَكَانَ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي صُلْحِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي صُلْحِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ وَعَهْدِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ الْآيَة . هَؤُلَاءِ قَوْمٌ آخَرُونَ مِنَ الْمُسْتَثْنَيْنَ مِنَ الْأَمْرِ بِقِتَالِهِمْ ، وَهُمُ الَّذِينَ يَجِيئُونَ إِلَى الْمَصَافِّ ، وَهُمْ حَصِرَتْ صُدُورهمْ ، أَيْ : ضَيِّقَةٌ صُدُورُهُمْ مُبْغِضِينَ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ ، وَلَا يَهُونُ عَلَيْهِمْ أَيْضًا أَنْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ مَعَكُمْ ، بَلْ هُمْ لَا لَكُمْ وَلَا عَلَيْكُمْ ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ﴾ أَيْ : مِنْ لُطْفِهِ بِكُمْ أَنْ كَفَّهُمْ عَنْكُمْ ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ ﴾ أَيْ : الْمُسَالَمَة ﴿ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ أَيْ : فَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تُقَاتِلُوهُمْ مَا دَامَتْ حَالُهُمْ كَذَلِكَ ، وَهَؤُلَاءِ كَالْجَمَاعَةِ الَّذِينَ خَرَجُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ مَعَ الْمُشْرِكِينَ ، فَحَضَرُوا الْقِتَالَ وَهُمْ كَارِهُونَ كَالْعَبَّاسِ وَنَحْوِهِ ، وَلِهَذَا نَهَى النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ عَنْ قَتْلِ الْعَبَّاسِ وَأَمَرَ بِأَسْرِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا ﴾ ، هَؤُلَاءِ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ كَمَنْ تَقَدَّمَهُمْ ، وَلَكِنْ نِيَّةُ هَؤُلَاءِ غَيْرُ نِيَّةِ أُولَئِكَ ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُنَافِقُونَ ، يُظْهِرُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِأَصْحَابِهِ الْإِسْلَامَ لِيَأْمَنُوا بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَذَرَارِيهِم ، وَيُصَانِعُونَ الْكُفَّارَ فِي الْبَاطِنِ فَيَعْبُدُونَ مَعَهُمْ مَا يَعْبُدُونَ؛ لِيَأْمَنُوا بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ مَعَ أُولَئِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة : ١٤] ، **وَقَالَ هَاهُنَا** : ﴿ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا ﴾ أَيْ : انْهَمَكُوا فِيهَا . ﴿ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ ﴾ الْمُهَادَنَةُ وَالصُّلْحُ ، ﴿ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أَيْ : عَنِ الْقِتَالِ ﴿ فَخُذُوهُمْ ﴾ أُسَرَاءَ ، ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ أَيْ : أَيْنَ لَقِيتُمُوهُمْ ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ أَيْ : بَيِّنًا وَاضِحًا .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى لَيْسَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ اِمْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: النَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالتَّارِكِ لِدِينِهِ الْمُفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ**»، ثُمَّ إِذَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ آحَادِ الرَّعِيَّةِ أَنْ يَقْتُلَهُ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ إِلَى الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ قَالُوا: هُوَ اِسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ. ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ هَذَانِ وَاجِبَانِ فِي قَتْلِ الْخَطَأِ، أَحَدُهُمَا: الْكَفَّارَةُ لِمَا اِرْتَكَبَهُ مِنَ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ وَإِنْ كَانَ خَطَأً، وَمِنْ شَرْطِهَا أَنْ تَكُونَ عِتْقَ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَلَا تُجْزِئُ الْكَافِرَةُ، **وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ**: أَنَّهُ مَتَى كَانَ مُسْلِمًا صَحَّ عِتْقُهُ عَنِ الْكَفَّارَةِ سَوَاءٌ كَانَ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا. ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ هُوَ الْوَاجِبُ الثَّانِي فِيمَا بَيْنَ الْقَاتِلِ وَأَهْلِ الْقَتِيلِ عِوَضًا لَهُمْ عَمَّا فَاتَهُمْ مِنْ قَتِيلِهِمْ. وَهَذِهِ الدِّيَةُ إِنَّمَا تَجِبُ عَلَى عَاقِلَةِ الْقَاتِلِ لَا فِي مَالِهِ. ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ أَيْ: فَتَجِبُ فِيهِ الدِّيَةُ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَتَصَدَّقُوا بِهَا فَلَا تَجِبُ، ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أَيْ: إِذَا كَانَ الْقَتِيلُ مُؤْمِنًا وَلَكِنْ أَوْلِيَاؤُهُ مِنَ الْكُفَّارِ أَهْلِ حَرْبٍ، فَلَا دِيَةَ لَهُمْ، وَعَلَى الْقَاتِلِ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ لَا غَيْرَ، ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أَيْ: فَإِنْ كَانَ الْقَتِيلُ أَوْلِيَاؤُهُ أَهْلُ ذِمَّةٍ أَوْ هُدْنَةٍ فَلَهُمْ دِيَةُ قَتِيلِهِمْ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا فَدِيَةٌ كَامِلَةٌ، وَكَذَا إِنْ كَانَ كَافِرًا أَيْضًا عِنْدَ طَائِفَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَيَجِبُ أَيْضًا عَلَى الْقَاتِلِ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أَيْ: لَا إِفْطَارَ بَيْنَهُمَا بَلْ يَسْرُدُ صَوْمَهُمَا إِلَى آخِرِهِمَا، فَإِنْ أَفْطَرَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ مِنْ مَرَضٍ أَوْ حَيْضٍ أَوْ نِفَاسٍ اِسْتَأْنَفَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أَيْ: هَذِهِ تَوْبَةُ الْقَاتِلِ خَطَأً إِذَا لَمْ يَجِدِ الْعِتْقَ صَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَ تَعَالَى حُكْمَ الْقَتْلِ الْخَطَأِ شَرَعَ فِي بَيَانِ حُكْمِ الْقَتْلِ الْعَمْدِ **فَقَالَ**: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ -الْآيَة، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ تَعَاطَى هَذَا الذَّنْبَ الْعَظِيمَ. **وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَخَلَفِهَا**: أَنَّ الْقَاتِلَ لَهُ تَوْبَةٌ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله

ﷺ فَإِنْ تَابَ وَأَنَابَ وَخَشَعَ وَخَضَعَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا بَدَّلَ اللهُ سَيِّئَاتهُ حَسَنَاتٍ ، وَعَوَّضَ الْمَقْتُولَ مِنْ ظُلَامَتِهِ وَأَرْضَاهُ عَنْ طِلَابَتِهِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا ﴾ الْآيَة . وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ مِنْ كُفْرٍ وَشِرْكٍ وَشَكٍّ وَنِفَاقٍ وَقَتْلٍ وَفِسْقٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، كُلُّ مَنْ تَابَ مِنْ أَيِّ ذَلِكَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، فَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ مَا عَدَا الشِّرْك .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاس – رضي الله عنهما – **قَالَ** : كَانَ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَتِهِ فَلَحِقَهُ الْمُسْلِمُونَ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا غُنَيْمَتهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : عَرَضَ الدُّنْيَا : تِلْكَ الْغُنَيْمَةُ . ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ أَيْ : خَيْرٌ مِمَّا رَغِبْتُمْ فِيهِ مِنْ عَرَضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّذِي حَمَلَكُمْ عَلَى قَتْلِ مِثْلِ هَذَا الَّذِي أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ ، وَأَظْهَرَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ ، فَتَغَافَلْتُمْ عَنْهُ وَاتَّهَمْتُمُوهُ بِالْمُصَانَعَةِ وَالتَّقِيَّةِ ، لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَمَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْمَغَانِمِ الْحَلَالِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ مَالِ هَذَا . ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : تَسْتَخْفُونَ بِإِيمَانِكُمْ ، كَمَا اسْتَخْفَى هَذَا الرَّاعِي بِإِيمَانِهِ . ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : تَابَ عَلَيْكُمْ ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ .

لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

عَنِ الْبَرَاءِ ﷺ **قَالَ** : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْدًا فَكَتَبَهَا ، فَجَاءَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فَشَكَا ضَرَارَتَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كَانَ مُطْلَقًا ، فَلَمَّا نَزَلَ بِوَحْيٍ سَرِيعٍ ﴿ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ ﴾ صَارَ ذَٰلِكَ مَخْرَجًا لِذَوِي الْأَعْذَارِ الْمُبِيحَةِ لِتَرْكِ الْجِهَادِ مِنَ الْعَمَى وَالْعَرَجِ وَالْمَرَضِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أَيْ : الْجَنَّةَ وَالْجَزَاءَ الْجَزِيلَ . وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْجِهَادَ لَيْسَ بِفَرْضِ عَيْنٍ بَلْ هُوَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ، ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ بِمَا فَضَّلَهُمْ بِهِ مِنَ الدَّرَجَاتِ فِي غُرَفِ الْجِنَانِ الْعَالِيَاتِ ، وَمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ وَالزَّلَّاتِ ، وَحُلُولِ الرَّحْمَةِ وَالْبَرَكَاتِ ، إِحْسَانًا مِنْهُ وَتَكْرِيمًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ : كَانَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ أَسْلَمُوا وَكَانُوا يَسْتَخْفُونَ بِالْإِسْلَامِ ، فَأَخْرَجَهُمُ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَهُمْ ، فَأُصِيبَ بَعْضُهُمْ ، قَالَ الْمُسْلِمُونَ : كَانَ أَصْحَابُنَا مُسْلِمِينَ وَأُكْرِهُوا فَاسْتَغْفَرُوا لَهُمْ ، فَنَزَلَتْ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ﴾ الْآيَةَ . قَالَ : فَكُتِبَ إِلَى مَنْ بَقِيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِهَذِهِ الْآيَةِ لَا عُذْرَ لَهُمْ ، قَالَ : فَخَرَجُوا فَلَحِقَهُمُ الْمُشْرِكُونَ فَأَعْطَوْهُمُ الْفِتْنَةَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٨] وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴾ هَذَا عُذْرٌ مِنَ اللهِ لِهَؤُلَاءِ فِي تَرْكِ الْهِجْرَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ ، وَلَوْ قَدَرُوا مَا عَرَفُوا مَا يَسْلُكُونَ الطَّرِيقَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴾ طَرِيقًا . ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ أَيْ : يَتَجَاوَزَ عَنْهُمْ بِتَرْكِ الْهِجْرَةِ ، وَ ﴿ عَسَى ﴾ مِنَ اللهِ مُوجِبَةٌ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ ، وَهَذَا تَحْرِيضٌ عَلَى الْهِجْرَةِ ، وَتَرْغِيبٌ فِي مُفَارَقَةِ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ حَيْثُمَا ذَهَبَ وَجَدَ عَنْهُمْ مَنْدُوحَةً وَمَلْجَأً يَتَحَصَّنُ فِيهِ ، الظَّاهِرُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمُرَاغَمَ التَّمَنُّعُ الَّذِي يُتَخَلَّصُ بِهِ ، وَيُرَاغَمُ بِهِ الْأَعْدَاءَ ، ﴿ وَسَعَةً ﴾

يَعْنِي : الرِّزْقَ ، ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : وَمَنْ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ بِنِيَّةِ الْهِجْرَةِ فَمَاتَ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ ، فَقَدْ حَصَلَ لَهُ عِنْدَ اللهِ ثَوَابُ مَنْ هَاجَرَ . وَعَنْ أَبِي ضَمْرَةَ بْنِ الْعِيصِ الزُّرَقِيِّ الَّذِي كَانَ مُصَابَ الْبَصَرِ وَكَانَ بِمَكَّةَ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ﴾ ، فَقُلْتُ : إِنِّي لَغَنِيٌّ وَإِنِّي لَذُو حِيلَةٍ ، فَتَجَهَّزَ يُرِيدُ النَّبِيَّ ﷺ ، فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ بِالتَّنْعِيمِ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ ﴾ الْآيَةَ .

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : سَافَرْتُمْ فِي الْبِلَادِ ، ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أَيْ : تُخَفِّفُوا فِيهَا إِمَّا مِنْ كَمِّيَّتِهَا بِأَنْ تُجْعَلَ الرُّبَاعِيَّةُ ثُنَائِيَّةً ، كَمَا فَهِمَهُ الْجُمْهُورُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَاسْتَدَلُّوا بِهَا عَلَى قَصْرِ الصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ . **وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ ، فَقَدْ يَكُونُ هَذَا خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ حَالَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ ، فَإِنَّ فِي مَبْدَأِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ كَانَ غَالِبُ أَسْفَارِهِمْ مَخُوفَةً بَلْ مَا كَانُوا يَنْهَضُونَ إِلَّا إِلَى غَزْوٍ عَامٍّ ، أَوْ سَرِيَّةٍ خَاصَّةٍ . وَسَائِرُ الْأَحْيَاءِ حَرْبٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ . **عَنْ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ** : سَأَلْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ قُلْتُ لَهُ : قَوْلُهُ : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ ، وَقَدْ أَمِنَ النَّاسُ ، فَقَالَ لِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : ((**صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ**)) .

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

صَلَاةُ الْخَوْفِ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ : فَإِنَّ الْعَدُوَّ تَارَةً يَكُونُ تُجَاهَ الْقِبْلَةِ ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي غَيْرِ صَوْبِهَا ، وَالصَّلَاةُ تَكُونُ رُبَاعِيَّةً ، وَتَارَةً تَكُونُ ثُلَاثِيَّةً كَالْمَغْرِبِ ، وَتَارَةً تَكُونُ ثُنَائِيَّةً كَالصُّبْحِ وَصَلَاةِ السَّفَرِ ، ثُمَّ تَارَةً يُصَلُّونَ جَمَاعَةً ، وَتَارَةً يَلْتَحِمُ الْحَرْبُ فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْجَمَاعَةِ ، بَلْ يُصَلُّونَ

فُرَادَى مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ وَغَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا وَرِجَالًا وَرُكْبَانًا ، وَلَهُمْ أَنْ يَمْشُوا - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - وَيَضْرِبُوا الضَّرْبَ الْمُتَتَابِعَ فِي مَتْنِ الصَّلَاةِ . وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ : يُصَلُّونَ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - رَكْعَةً وَاحِدَةً ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ أَبَاحَ تَأْخِيرَ الصَّلَاةِ لِعُذْرِ الْقِتَالِ وَالْمُنَاجَزَةِ ، كَمَا أَخَّرَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ فَصَلَّاهُمَا بَعْدَ الْغُرُوبِ ، ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهُمَا الْمَغْرِبَ ثُمَّ الْعِشَاءَ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أَيْ : إِذَا صَلَّيْتَ بِهِمْ إِمَامًا فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ ، وَهَذِهِ حَالَةٌ غَيْرُ الْأُولَى ، فَإِنَّ تِلْكَ قَصْرُهَا إِلَى رَكْعَةٍ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ فُرَادَى وَرِجَالًا وَرُكْبَانًا مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ وَغَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا ، ثُمَّ ذَكَرَ حَالَ الِاجْتِمَاعِ وَالِائْتِمَامِ بِإِمَامٍ وَاحِدٍ ، وَمَا أَحْسَنَ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى وُجُوبِ الْجَمَاعَةِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ فَكَبَّرَ ، وَكَبَّرُوا مَعَهُ ، وَرَكَعَ وَرَكَعَ نَاسٌ مِنْهُمْ ، ثُمَّ سَجَدَ وَسَجَدُوا مَعَهُ ، ثُمَّ قَامَ لِلثَّانِيَةِ فَقَامَ الَّذِينَ سَجَدُوا وَحَرَسُوا إِخْوَانَهُمْ ، وَأَتَتِ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى فَرَكَعُوا وَسَجَدُوا مَعَهُ ، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ فِي الصَّلَاةِ وَلَكِنْ يَحْرُسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا .

فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ عَقِيبَ صَلَاةِ الْخَوْفِ ، وَإِنْ كَانَ مَشْرُوعًا مُرَغَّبًا فِيهِ أَيْضًا بَعْدَ غَيْرِهَا ، وَلَكِنْ هَاهُنَا آكَدُ لِمَا وَقَعَ فِيهَا مِنَ التَّخْفِيفِ فِي أَرْكَانِهَا وَمِنَ الرُّخْصَةِ فِي الذَّهَابِ فِيهَا وَالْإِيَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ يُوجَدُ فِي غَيْرِهَا ، وَإِنْ كَانَ هَذَا مَنْهِيًّا عَنْهُ فِي غَيْرِهَا ، وَلَكِنْ فِيهَا آكَدُ لِشِدَّةِ حُرْمَتِهَا وَعَظَمَتِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ أَيْ : فِي سَائِرِ أَحْوَالِكُمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أَيْ : فَإِذَا أَمِنْتُمْ وَذَهَبَ الْخَوْفُ وَحَصَلَتِ الطُّمَأْنِينَةُ ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أَيْ : فَأَتِمُّوهَا وَأَقِيمُوهَا ، كَمَا أُمِرْتُمْ بِحُدُودِهَا وَخُشُوعِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَجَمِيعِ شُؤُونِهَا . ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَيْ مَفْرُوضًا ، قِيلَ : إِنَّ لِلصَّلَاةِ وَقْتًا كَوَقْتِ الْحَجِّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ﴾ أَيْ : لَا تَضْعُفُوا فِي طَلَبِ عَدُوِّكُمْ ، بَلْ جُدُّوا فِيهِمْ وَقَاتِلُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴿ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ أَيْ : كَمَا يُصِيبُكُمُ الْجِرَاحُ وَالْقَتْلُ ، كَذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾

أَيْ : أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ سَوَاءٌ فِيمَا يُصِيبُكُمْ وَإِيَّاهُمْ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْآلَامِ ، وَلَكِنْ أَنْتُمْ تَرْجُونَ مِنَ اللهِ الْمَثُوبَةَ وَالنَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ ، وَهُمْ لَا يَرْجُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، فَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْجِهَادِ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ رَغْبَةً فِيهِ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أَيْ : هُوَ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ فِيمَا يُقَدِّرُهُ وَيَقْضِيهِ وَيُنْفِذُهُ وَيُمْضِيهِ ، مِنْ أَحْكَامِهِ الْكَوْنِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : هُوَ حَقٌّ مِنَ اللهِ ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْحَقَّ فِي خَبَرِهِ وَطَلَبِهِ ، ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ الْآيَةُ ، هَذَا إِنْكَارٌ عَلَى الْمُنَافِقِينَ فِي كَوْنِهِمْ يَسْتَخْفُونَ بِقَبَائِحِهِمْ مِنَ النَّاسِ ؛ لِئَلَّا يُنْكِرُوا عَلَيْهِمْ وَيُجَاهِرُونَ اللهَ بِهَا ؛ لِأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى سَرَائِرِهِمْ ، وَعَالِمٌ بِمَا فِي ضَمَائِرِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ الْآيَةُ . أَيْ : هَبْ أَنَّ هَؤُلَاءِ انْتَصَرُوا فِي الدُّنْيَا بِمَا أَبْدَوْهُ أَوْ أَبْدَى لَهُمْ عِنْدَ الْحُكَّامِ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بِالظَّاهِرِ وَهُمْ مُتَعَبَّدُونَ بِذَلِكَ ، فَمَاذَا يَكُونُ صَنِيعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَى ، الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَتَوَكَّلُ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي تَرْوِيجِ دَعْوَاهُمْ ؟ أَيْ : لَا أَحَدَ يَوْمَئِذٍ يَكُونُ لَهُمْ وَكِيلًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ .

وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا

يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَرَمِهِ وَجُودِهِ أَنَّ كُلَّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ.

فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ، **كَقَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [فاطر : ١٨] **يَعْنِي** أَنَّهُ لَا يُغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ ، وَإِنَّمَا عَلَى كُلِّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ، لَا يَحْمِلُ عَنْهَا غَيْرُهَا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أَيْ : مِنْ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ كَانَ ذَلِكَ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ **يَعْنِي** : كَمَا اتَّهَمَ بَنُو أُبَيْرِق بِصَنِيعِهِمُ الْقَبِيحِ ذَلِكَ الرَّجُلَ الصَّالِحَ وَهُوَ لَبِيدُ بْنُ سَهْلٍ ، أَوْ زَيْدُ بْنُ السَّمِينِ الْيَهُودِيُّ عَلَى مَا قَالَهُ الْآخَرُونَ ، وَقَدْ كَانَ بَرِيئًا وَهُمُ الظَّلَمَةُ الْخَوَنَةُ ، كَمَا أَطْلَعَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ رَسُولَهُ ﷺ ، ثُمَّ هَذَا التَّقْرِيعُ وَهَذَا التَّوْبِيخُ عَامٌّ فِيهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ مِمَّنِ اتَّصَفَ بِصِفَتِهِمْ ، فَارْتَكَبَ مِثْلَ خَطِيئَتِهِمْ ، فَعَلَيْهِ مِثْلُ عُقُوبَتِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾ امْتَنَّ عَلَيْهِ بِتَأْيِيدِهِ إِيَّاهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَعِصْمَتُهُ لَهُ ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَهُوَ : الْقُرْآنُ ، وَالْحِكْمَةُ وَهِيَ : السُّنَّةُ ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ أَيْ : قَبْلَ نُزُولِ ذَلِكَ عَلَيْكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .

۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ ﴾ **يَعْنِي** : كَلَامُ النَّاسِ ﴿ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : إِلَّا نَجْوَى مَنْ قَالَ ذَلِكَ . قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا** » . **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مُخْلِصًا إِلَى ذَلِكَ مُحْتَسِبًا ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ ﷻ ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أَيْ : ثَوَابًا جَزِيلًا كَثِيرًا وَاسِعًا .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ ﴾ أَيْ: وَمَنْ سَلَكَ غَيْرَ طَرِيقِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرَّسُولُ ﷺ فَصَارَ فِي شِقٍّ وَالشَّرْعُ فِي شِقٍّ، وَذَلِكَ عَنْ عَمْدٍ مِنْهُ بَعْدَمَا ظَهَرَ لَهُ الْحَقُّ وَتَبَيَّنَ لَهُ وَاتَّضَحَ لَهُ، ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هَذَا مُلَازِمٌ لِلصِّفَةِ الْأُولَى، وَلَكِنْ قَدْ تَكُونُ الْمُخَالَفَةُ لِنَصِّ الشَّارِعِ، وَقَدْ تَكُونُ لِمَا اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ فِيمَا عُلِمَ اتِّفَاقُهُمْ عَلَيْهِ تَحْقِيقًا، فَإِنَّهُ قَدْ ضُمِنَتْ لَهُمُ الْعِصْمَةُ فِي اجْتِمَاعِهِمْ مِنَ الْخَطَأِ تَشْرِيفًا لَهُمْ وَتَعْظِيمًا لِنَبِيِّهِمْ.

وَلِهَذَا تَوَعَّدَ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ أَيْ: إِذَا سَلَكَ هَذِهِ الطَّرِيقَ جَازَيْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ نُحَسِّنَهَا فِي صَدْرِهِ وَنُزَيِّنَهَا لَهُ اسْتِدْرَاجًا لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: ٤٤]، ثُمَّ جَعَلَ النَّارَ مَصِيرَهُ فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْهُدَى لَمْ يَكُنْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَّا إِلَى النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ الْآيَة. وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ أَيْ: فَقَدْ سَلَكَ غَيْرَ الطَّرِيقِ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنِ الْهُدَى، وَبَعُدَ عَنِ الصَّوَابِ، وَأَهْلَكَ نَفْسَهُ وَخَسِرَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة، وَفَاتَتْهُ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ: أَوْثَانًا. وَقِيلَ الْمَعْنَى: قَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ الله وَإِنَّمَا نَعْبُدُهُمْ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى، قَالَ: فَاتَّخَذُوهُنَّ أَرْبَابًا وَصَوَّرُوهُنَّ جَوَارِي فَحَكَمُوا وَقَلَّدُوا، وَقَالُوا: هَؤُلَاءِ يُشْبِهْنَ بَنَاتَ الله الَّذِي نَعْبُدُهُ، يَعْنُونَ الْمَلَائِكَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ أَيْ: هُوَ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ وَحَسَّنَهُ وَزَيَّنَهُ لَهُمْ، وَهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ إِبْلِيسَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ.

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : طَرَدَهُ وَأَبْعَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ جِوَارِهِ ، وَقَالَ : ﴿ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ أَيْ : مُعَيَّنًا مُقَدَّرًا مَعْلُومًا ، **قَالَ قَتَادَةُ** : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ .﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ﴾ أَيْ : عَنِ الْحَقِّ ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ أَيْ : أُزَيِّنَ لَهُمْ تَرْكَ التَّوْبَةِ ، وَأَعِدُهُمُ الْأَمَانِيَ وَآمُرُهُمْ بِالتَّسْوِيفِ وَالتَّأْخِيرِ ، وَأَغُرُّهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : يَعْنِي تَشْقِيقَهَا ، وَجَعْلَهَا سِمَةً وَعَلَامَةً لِلْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : يَعْنِي بِذَلِكَ خَصْيَ الدَّوَابِّ ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : يَعْنِي بِذَلِكَ الْوَشْمُ ، **وَقَالَ عَدَدٌ آخَرُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ يَعْنِي : دِينَ اللهِ ﷻ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ أَيْ : فَقَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَتِلْكَ خَسَارَةٌ لَا جَبْرَ لَهَا وَلَا اسْتِدْرَاكَ لِفَائِتَتِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُ أَوْلِيَاءَهُ وَيُمَنِّيهِمْ بِأَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَقَدْ كَذَبَ وَافْتَرَى فِي ذَلِكَ ،**وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أَيْ : الْمُسْتَحْسِنُونَ لَهُ فِيمَا وَعَدَهُمْ وَمَنَّاهُمْ ﴿ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أَيْ : مَصِيرُهُمْ وَمَآلُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ عَنْهَا مَنْدُوحَةٌ ، وَلَا مَصْرِفٌ وَلَا خَلَاصٌ وَلَا مَنَاصٌ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ السُّعَدَاءِ وَالْأَتْقِيَاءِ وَمَالَهُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ التَّامَّةِ . **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أَيْ : صَدَقَتْ قُلُوبُهُمْ وَعَمِلَتْ جَوَارِحُهُمْ بِمَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الْخَيْرَاتِ ، وَتَرَكُوا مَا نُهُوا عَنْهُ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ ﴿ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أَيْ : يَصْرِفُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا وَأَيْنَ شَاءُوا ، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أَيْ : بِلَا زَوَالٍ وَلَا انْتِقَالٍ ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ﴾ أَيْ : هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللهِ وَوَعْدُ اللهِ مَعْلُومٌ حَقِيقَةً أَنَّهُ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ، وَلِهَذَا أَكَّدَهُ بِالْمَصْدَرِ الدَّالِّ عَلَى تَحْقِيقِ الْخَبَرِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ حَقًّا ،**ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ أَيْ : لَا أَحَدَ أَصْدَقُ مِنْهُ قَوْلًا ، أَيْ خَبَرًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾

وَالمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ : أَنَّ الدِّينَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي ، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقُلُوبِ وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَكُمْ وَلَا لَهُمْ النَّجَاةُ بِمُجَرَّدِ التَّمَنِّي ، بَلِ الْعِبْرَةُ بِطَاعَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، وَاتِّبَاعِ مَا شَرَعَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ الْكِرَامِ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ ، وَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : السُّوءَ هَهُنَا : بِالشِّرْكِ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ ذَلِكَ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْأَعْمَالِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْجَزَاءَ عَلَى السَّيِّئَاتِ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَأْخُذَ مُسْتَحَقَّهَا مِنَ الْعَبْدِ ، إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَهُوَ الْأَجْوَدُ لَهُ ، وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ - وَالْعِيَاذُ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ - شَرَعَ فِي بَيَانِ إِحْسَانِهِ وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ فِي قَبُولِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادِهِ ذُكْرَانِهِمْ وَإِنَاثِهِمْ بِشَرْطِ الْإِيمَانِ ، وَأَنَّهُ سَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ وَلَا يَظْلِمُهُمْ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ وَلَا مِقْدَارَ النَّقِيرِ - وَهُوَ النُّقْرَةُ الَّتِي فِي ظَهْرِ نَوَاةِ التَّمْرَةِ - .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : أَخْلَصَ الْعَمَلَ لِرَبِّهِ ﷻ فَعَمِلَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أَيْ : مُتَّبِعًا فِي عَمَلِهِ مَا شَرَعَهُ اللهُ لَهُ ، وَمَا أَرْسَلَ بِهِ رَسُولَهُ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، وَهَذَانِ الشَّرْطَانِ لَا يَصِحُّ عَمَلُ عَامِلٍ بِدُونِهِمَا ، أَنْ يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا ، وَالْخَالِصُ : أَنْ يَكُونَ للهِ ، وَالصَّوَابُ : أَنْ يَكُونَ مُتَابِعًا لِلشَّرِيعَةِ ، فَيَصِحُّ ظَاهِرُهُ بِالْمُتَابَعَةِ ، وَبَاطِنُهُ بِالْإِخْلَاصِ ، فَمَتَى فَقَدَ الْعَمَلُ أَحَدَ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ فَسَدَ ، فَمَتَى فَقَدَ الْإِخْلَاصَ كَانَ مُنَافِقًا وَهُمُ الَّذِينَ يُرَاءُونَ النَّاسَ ، وَمَنْ فَقَدَ الْمُتَابَعَةَ كَانَ ضَالًّا جَاهِلًا ، وَمَتَى جَمَعَهُمَا فَهُوَ عَمَلُ الْمُؤْمِنِينَ : قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ وَهُمْ مُحَمَّدٌ وَأَتْبَاعُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَالْحَنِيفُ : هُوَ الْمَائِلُ عَنِ الشِّرْكِ قَصْدًا ، أَيْ : تَارِكًا لَهُ عَنْ بَصِيرَةٍ ، وَمُقْبِلٌ عَلَى الْحَقِّ بِكُلِّيَّتِهِ ، لَا يَصُدُّهُ عَنْهُ صَادٌّ ، وَلَا يَرُدُّهُ عَنْهُ رَادٌّ . ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّرْغِيبِ فِي اتِّبَاعِهِ ، لِأَنَّهُ إِمَامٌ يُقْتَدَى بِهِ حَيْثُ وَصَلَ إِلَى غَايَةِ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْعِبَادُ لَهُ ، فَإِنَّهُ انْتَهَى إِلَى دَرَجَةِ الْخُلَّةِ الَّتِي هِيَ أَرْفَعُ مَقَامَاتِ الْمَحَبَّةِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِكَثْرَةِ طَاعَتِهِ لِرَبِّهِ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ خَلِيلُ اللهِ لِشِدَّةِ مَحَبَّتِهِ لِرَبِّهِ ﷻ ، لِمَا قَامَ لَهُ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ الَّتِي يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ مُلْكُهُ وَعَبِيدُهُ وَخَلْقُهُ وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ، لَا رَادَّ لِمَا قَضَى ، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ أَيْ : عِلْمُهُ نَافِذٌ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ عِبَادِهِ ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ .

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾

عَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا –: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ **قَالَتْ**: هُوَ الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْيَتِيمَةُ، هُوَ وَلِيُّهَا وَوَارِثُهَا، قَدْ شَرَّكَتْهُ فِي مَالِهِ حَتَّى فِي الْعِذْقِ، فَيَرْغَبُ أَنْ يَنْكِحَهَا وَيَكْرَهُ أَنْ يُزَوِّجَهَا رَجُلًا فَيُشْرِكُه فِي مَالِهِ بِمَا شَرِكَتهُ، فَيَعْضُلَهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ اِسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِنَّ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ الْآيَةَ، **قَالَتْ**: وَالَّذِي ذَكَرَ اللهُ أَنَّهُ يُتْلَى عَلَيْهِ فِي الْكِتَابِ. الْآيَةُ الْأُولَى الَّتِي قَالَ اللهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]، **وَعَنْ عَائِشَةَ** – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – **أَيْضًا قَالَتْ**: وَقَوْلُ اللهِ ﷻ ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ عَنْ يَتِيمَتِهِ الَّتِي تَكُونُ فِي حِجْرِهِ حَتَّى تَكُونَ قَلِيلَةَ الْمَالِ وَالْجَمَالِ، فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَنْ رَغِبُوا فِي مَالِهَا وَجَمَالِهَا مِنْ يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ، مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ، وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ فِي حِجْرِهِ يَتِيمَةٌ يَحِلُّ لَهُ تَزْوِيجُهَا، فَتَارَةً يَرْغَبُ فِي أَنْ يَتَزَوَّجَهَا فَأَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُمْهِرَهَا أُسْوَةَ أَمْثَالِهَا مِنَ النِّسَاءِ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلْيَعْدِلْ إِلَى غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ، فَقَدْ وَسَّعَ اللهُ ﷻ، وَهَذَا الْمَعْنَى فِي الْآيَةِ الْأُولَى الَّتِي فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، وَتَارَةً لَا يَكُونُ لِلرَّجُلِ فِيهَا رَغْبَةٌ لِدَمَامَتِهَا عِنْدَهُ، أَوْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَنَهَاهُ اللهُ ﷻ أَنْ يَعْضُلَهَا عَنِ الْأَزْوَاجِ خَشْيَةَ أَنْ يُشْرِكُوهُ فِي مَالِهِ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ تَهْيِيجًا عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَامْتِثَالًا لِلْأَوَامِرِ، وَأَنَّ اللهَ ﷻ عَالِمٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ، وَسَيَجْزِي عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ وَأَتَمَّهُ.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا وَمُشَرِّعًا مِنْ حَالِ الزَّوْجَيْنِ تَارَةً فِي حَالِ نُفُورِ الرَّجُلِ عَنِ الْمَرْأَةِ وَتَارَةً فِي

حَالِ اتِّفَاقِهِ مَعَهَا ، وَتَارَةً عِنْدَ فِرَاقِهِ لَهَا ، فَالْحَالَةُ الْأُولَى مَا إِذَا خَافَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ زَوْجِهَا أَنْ يَنْفِرَ عَنْهَا أَوْ يُعْرِضَ عَنْهَا فَلَهَا أَنْ تُسْقِطَ عَنْهُ حَقَّهَا أَوْ بَعْضَهُ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ كِسْوَةٍ أَوْ مَبِيتٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحُقُوقِ عَلَيْهِ ، وَلَهُ أَنْ يَقْبَلَ ذَلِكَ مِنْهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا فِي بَذْلِهَا ذَلِكَ لَهُ ، وَلَا عَلَيْهِ فِي قَبُولِهِ مِنْهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ أَيْ : مِنَ الْفِرَاقِ ، ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ أَيْ : الصُّلْحُ عِنْدَ الْمُشَاحَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْفِرَاقِ .

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ قَالَتْ : الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْمَرْأَةُ الْمُسِنَّةُ لَيْسَ بِمُسْتَكْثِرٍ مِنْهَا يُرِيدُ أَنْ يُفَارِقَهَا فَتَقُولُ : أَجْعَلُكَ مِنْ شَأْنِي فِي حِلٍّ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . وَالظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ صُلْحَهُمَا عَلَى تَرْكِ بَعْضِ حَقِّهَا لِلزَّوْجِ ، وَقَبُول الزَّوْجِ ذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الْمُفَارَقَةِ بِالْكُلِّيَّةِ ، كَمَا أَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ ! عَلَى أَنْ تَرَكَتْ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - وَلَمْ يُفَارِقْهَا بَلْ تَرَكَهَا مِنْ جُمْلَةِ نِسَائِهِ ، وَفِعْلُهُ ذَلِكَ لِتَتَأَسَّى بِهِ أُمَّتُهُ فِي مَشْرُوعِيَّةِ ذَلِكَ وَجَوَازِهِ ، فَهُوَ أَفْضَلُ فِي حَقِّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَلَمَّا كَانَ الْوِفَاقُ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْفِرَاقِ ؛ قَالَ : ﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ بَلِ الطَّلَاقُ بَغِيضٌ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، ﴿ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ وَإِنْ تَتَجَشَّمُوا مَشَقَّةَ الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ مِنْهُنَّ ، وَتَقْسِمُوا لَهُنَّ أُسْوَةَ أَمْثَالِهِنَّ ، فَإِنَّ اللهَ عَالِمٌ بِذَلِكَ وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ أَيْ : لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ تُسَاوُوا بَيْنَ النِّسَاءِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ فَإِنَّهُ وَإِنْ وَقَعَ الْقَسْمُ الصُّورِيُّ لَيْلَةً وَلَيْلَةً فَلَا بُدَّ مِنَ التَّفَاوُتِ فِي الْمَحَبَّةِ وَالشَّهْوَةِ وَالْجِمَاعِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾ أَيْ : فَإِذَا مِلْتُمْ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ ، فَلَا تُبَالِغُوا فِي الْمَيْلِ بِالْكُلِّيَّةِ ﴿ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ أَيْ : فَتَبْقَى هَذِهِ الْأُخْرَى مُعَلَّقَةً . لَا ذَاتَ زَوْجٍ وَلَا مُطَلَّقَةً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أَيْ : وَإِنْ أَصْلَحْتُمْ فِي أُمُورِكُمْ ، وَقَسَمْتُمْ بِالْعَدْلِ فِيمَا تَمْلِكُونَ ، وَاتَّقَيْتُمُ اللهَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ غَفَرَ اللهُ لَكُمْ مَا كَانَ مِنْ مَيْلٍ إِلَى بَعْضِ النِّسَاءِ دُونَ بَعْضٍ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ ، وَهَذِهِ هِيَ الْحَالَةُ الثَّالِثَةُ ، وَهِيَ حَالَةُ الْفِرَاقِ ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُمَا إِذَا تَفَرَّقَا ؛ فَإِنَّ اللهَ يُغْنِيهِ عَنْهَا ، وَيُغْنِيهَا عَنْهُ ، بِأَنْ يُعَوِّضَهُ اللهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْهَا ، وَيُعَوِّضَهَا عَنْهُ بِمَنْ هُوَ خَيْرٌ لَهَا مِنْهُ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ أَيْ : وَاسِعَ الْفَضْلِ عَظِيمَ الْمَنِّ حَكِيمًا فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْدَارِهِ وَشَرْعِهِ .

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا

حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَنَّهُ الْحَاكِمُ فِيهِمَا ،وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أَيْ : وَصَّيْنَاكُمْ بِمَا وَصَّيْنَاهُمْ بِهِ مِنْ تَقْوَى الله ﷻ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ أَيْ : غَنِيٌّ عَنْ عِبَادِهِ ﴿ حَمِيدٌ ﴾ أَيْ : مَحْمُودٌ فِي جَمِيعِ مَا يُقَدِّرُهُ وَيُشَرِّعُهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أَيْ : هُوَ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، الرَّقِيبُ الشَّهِيدُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ . ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ أَيْ : هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِذْهَابِكُمْ وَتَبْدِيلِكُمْ بِغَيْرِكُمْ إِذَا عَصَيْتُمُوهُ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾[محمد : ٣٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أَيْ : يَا مَنْ لَيْسَ هِمَّتُهُ إِلَّا الدُّنْيَا اِعْلَمْ أَنَّ عِنْدَ الله ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِذَا سَأَلْتَهُ مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ أَعْطَاكَ وَأَغْنَاكَ وَأَقْنَاكَ .

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ، أَيْ : بِالْعَدْلِ فَلَا يَعْدِلُوا عَنْهُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا أَنْ لَا يَأْخُذَهُمْ فِي الحَقِّ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، وَلَا يَصْرِفُهُمْ عَنْهُ صَارِفٌ ، وَأَنْ يَكُونُوا مُتَعَاوِنِينَ مُتَسَاعِدِينَ مُتَعَاضِدِينَ مُتَنَاصِرِينَ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ كَمَا قَالَ : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : أَدُّوهَا اِبْتِغَاءَ وَجْهِ الله ، فَحِينَئِذٍ تَكُونُ صَحِيحَةً عَادِلَةً حَقًّا خَالِيَةً مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالْكِتْمَانِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أَيْ : اِشْهَدِ الحَقَّ وَلَوْ عَادَ ضَرَرُهَا عَلَيْكَ ، وَإِذَا سُئِلْتَ عَنِ الْأَمْرِ فَقُلِ الحَقَّ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ مَضَرَّةً عَلَيْكَ ، فَإِنَّ اللهَ سَيَجْعَلُ لِمَنْ أَطَاعَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا ، مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يَضِيقُ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ أَيْ : وَإِنْ كَانَتِ الشَّهَادَةُ عَلَى وَالِدَيْكَ وَقَرَابَتِكَ فَلَا تُرَاعِهِمْ فِيهَا بَلِ اِشْهَدْ بِالْحَقِّ ، وَإِنْ عَادَ ضَرَرُهَا عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ الْحَقَّ حَاكِمٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ أَيْ : لَا تَرْعَاهُ لِغِنَاهُ وَلَا تُشْفِقَ عَلَيْهِ

لِفَقْرِهِ ، وَاللهُ يَتَوَلَّاهُمَا ، بَلْ هُوَ أَوْلَى بِهِمَا مِنْكَ وَأَعْلَمُ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمَا . ﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ﴾ أَيْ : فَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ الْهَوَى وَالْعَصَبِيَّةُ وَبُغْضَةُ النَّاسِ إِلَيْكُمْ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ فِي أُمُورِكُمْ وَشُؤُونِكُمْ ، بَلِ الْزَمُوا الْعَدْلَ عَلَى أَيِّ حَالٍ . ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ ﴾ أَيْ : تُحَرِّفُوا الشَّهَادَةَ وَتُغَيِّرُوهَا ، وَاللَّيُّ : هُوَ التَّحْرِيفُ وَتَعَمُّدُ الْكَذِبِ . وَالْإِعْرَاضُ هُوَ : كِتْمَانُ الشَّهَادَةِ وَتَرْكُهَا ، **وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمُ اللهُ بِقَوْلِهِ** : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أَيْ : وَسَيُجَازِيكُمْ بِذَلِكَ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالدُّخُولِ فِي جَمِيعِ شَرَائِعِ الْإِيمَانِ وَشُعَبِهِ وَأَرْكَانِهِ وَدَعَائِمِهِ ، فَأَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ، ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ وَهَذَا جِنْسٌ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَقَالَ فِي الْقُرْآنِ ﴿ نَزَّلَ ﴾ لِأَنَّهُ نَزَلَ مُفَرَّقًا مُنَجَّمًا عَلَى الْوَقَائِعِ ، بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ ، وَأَمَّا الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ فَكَانَتْ تَنْزِلُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، **لِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ أَيْ : فَقَدْ خَرَجَ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى ، وَبَعُدَ عَنِ الْقَصْدِ كُلَّ الْبُعْدِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ دَخَلَ فِي الْإِيمَانِ ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ ، ثُمَّ عَادَ فِيهِ ، ثُمَّ رَجَعَ وَاسْتَمَرَّ عَلَى ضَلَالِهِ وَازْدَادَ حَتَّى مَاتَ ، فَإِنَّهُ لَا تَوْبَةَ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَلَا يَغْفِرُ اللهُ لَهُ وَلَا يَجْعَلُ لَهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ فَرَجًا وَلَا مَخْرَجًا وَلَا طَرِيقًا إِلَى الْهُدَى ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾ . **ثُمَّ قَالَ** :

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ يَعْنِي : أَنَّ الْمُنَافِقِينَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ ، فَإِنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ مَعَهُمْ فِي الحَقِيقَةِ يُوَالُونَهُمْ وَيُسِرونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا سَلَكُوهُ مِنْ مُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ : ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ ، ثُمَّ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى بِأَنَّ الْعِزَّةَ كُلَّهَا للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلِمَنْ جَعَلَهَا لَهُ . وَالمَقْصُودُ مِنْ هَذَا : التَّهْيِيج عَلَى طَلَبِ الْعِزَّةِ مِنْ جَنَابِ اللهِ ، وَالالْتِجَاءُ إِلَى عُبُودِيَّتِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ أَيْ : إِنَّكُمْ إِذَا ارْتَكَبْتُمُ النَّهْيَ بَعْدَ وُصُولِهِ إِلَيْكُمْ ، وَرَضِيتُمْ بِالْجُلُوسِ مَعَهُمْ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُكْفَرُ فِيهِ بِآيَاتِ اللهِ وَيُسْتَهْزَأُ وَيُنْتَقَصُ بِهَا ، وَأَقْرَرْتُمُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، فَقَدْ شَارَكْتُمُوهُمْ فِي الَّذِي هُمْ فِيهِ ، فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ فِي الْمَأْثَمِ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ أَيْ : كَمَا اشْتَرَكُوا فِي الْكُفْرِ كَذَلِكَ شَارَكَ اللهُ بَيْنَهُمْ فِي الْخُلُودِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ أَبَدًا .

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ يَتَرَبَّصُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ دَوَائِرَ السُّوءِ ، بِمَعْنَى : يَنْتَظِرُونَ زَوَالَ دَوْلَتِهِمْ وَظُهُورَ الْكَفَرَةِ عَلَيْهِمْ وَذَهَابَ مِلَّتِهِمْ ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : نَصْرٌ وَتَأْيِيدٌ وَظَفَرٌ وَغَنِيمَةٌ ، ﴿ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ أَيْ : يَتَوَدَّدُونَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ ، ﴿ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ ﴾ أَيْ : إِدَالَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، كَمَا وَقَعَ يَوْمَ أُحُدٍ ، فَإِنَّ الرُّسُلَ تُبْتَلَى ثُمَّ يَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ ؛ ﴿ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : سَاعَدْنَاكُمْ فِي الْبَاطِنِ وَمَا أَلَوْنَاهُمْ خَبَالًا وَتَخْذِيلًا حَتَّى انْتَصَرْتُمْ عَلَيْهِمْ . وَهَذَا أَيْضًا تَوَدُّدٌ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُصَانِعُونَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ لِيَحْظَوْا عِنْدَهُمْ وَيَأْمَنُوا كَيْدَهُمْ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِضَعْفِ إِيمَانِهِمْ وَقِلَّةِ إِيقَانِهِمْ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أَيْ : بِمَا يَعْلَمُهُ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ مِنَ الْبَوَاطِنِ الرَّدِيئَةِ ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِجَرَيَانِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَيْكُمْ ظَاهِرًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا تَنْفَعُكُمْ ظَوَاهِرُكُمْ ، بَلْ هُوَ يَوْمٌ تُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ وَيُحَصَّلُ مَا فِي الصُّدُورِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ .

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ

ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

قَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [البقرة: ٩]، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ ﴾ وَلَا شَكَّ أَنَّ اللهَ لَا يُخَادِعُ، فَإِنَّهُ الْعَالِمُ بِالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لِجَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عِلْمِهِمْ وَعَقْلِهِمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَمْرَهُمْ، كَمَا رَاجَ عِنْدَ النَّاسِ وَجَرَتْ عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ ظَاهِرًا، فَكَذَلِكَ يَكُونُ حُكْمُهُمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَوْلُهُ ﴿ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ ﴾ أَيْ: هُوَ الَّذِي يَسْتَدْرِجُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ وَضَلَالِهِمْ، وَيَخْذُلُهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَالْوُصُولِ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓا إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. هَذِهِ صِفَةُ الْمُنَافِقِينَ فِي أَشْرَفِ الْأَعْمَالِ وَأَفْضَلِهَا وَخَيْرِهَا وَهِيَ الصَّلَاةُ، إِذَا قَامُوا إِلَيْهَا قَامُوا وَهُمْ كُسَالَى عَنْهَا، لِأَنَّهُمْ لَا نِيَّةَ لَهُمْ فِيهَا، وَلَا إِيمَانَ لَهُمْ بِهَا وَلَا خَشْيَةَ وَلَا يَعْقِلُونَ مَعْنَاهَا. فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓا إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ ﴾ هَذِهِ صِفَةُ ظَوَاهِرِهِمْ.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى صِفَةَ بَوَاطِنِهِمُ الْفَاسِدَةَ فَقَالَ: ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ أَيْ: لَا إِخْلَاصَ لَهُمْ وَلَا مُعَامَلَةَ مَعَ اللهِ بَلْ إِنَّمَا يَشْهَدُونَ النَّاسَ تَقِيَّةً لَهُمْ وَمُصَانَعَةً وَلِهَذَا يَتَخَلَّفُونَ كَثِيرًا عَنِ الصَّلَاةِ الَّتِي لَا يُرَوْنَ فِيهَا غَالِبًا كَصَلَاةِ الْعِشَاءِ وَقْتَ الْعَتَمَةِ وَصَلَاةِ الصُّبْحِ فِي وَقْتِ الْغَلَسِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « **أَثْقَلُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ** ».

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيْ: فِي صَلَاتِهِمْ لَا يَخْشَوْنَ وَلَا يَدْرُونَ مَا يَقُولُونَ، بَلْ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ لَاهُونَ، وَعَمَّا يُرَادُ بِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ مُعْرِضُونَ. ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يَعْنِي: الْمُنَافِقِينَ مُحَيَّرِينَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، فَلَا هُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَلَا مَعَ الْكَافِرِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، بَلْ ظَوَاهِرُهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَبَوَاطِنُهُمْ مَعَ الْكَافِرِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَرِيهِ الشَّكُّ فَتَارَةً يَمِيلُ إِلَى هَؤُلَاءِ وَتَارَةً يَمِيلُ إِلَى أُولَئِكَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ أَيْ: وَمَنْ صَرَفَهُ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧] فَإِنَّهُ ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وَالْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ أَضَلَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ النَّجَاةِ فَلَا هَادِيَ لَهُمْ، وَلَا مُنْقِذَ لَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ

لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

يَنْهَى اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، يَعْنِي : مُصَاحَبَتِهِمْ وَمُصَادَقَتِهِمْ وَمُنَاصَحَتِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ أَيْ : حُجَّةً عَلَيْكُمْ فِي عُقُوبَتِهِ إِيَّاكُمْ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَزَاءً عَلَى كُفْرِهِمُ الْغَلِيظِ . ﴿ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ أَيْ : يُنْقِذُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ أَلِيمِ الْعَذَابِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَنْ تَابَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا تَابَ عَلَيْهِ وَقَبِلَ نَدَمَهُ ، وَإِذَا أَخْلَصَ فِي تَوْبَتِهِ وَأَصْلَحَ عَمَلَهُ وَاعْتَصَمَ بِرَبِّهِ فِي جَمِيعِ أَمْرِهِ . فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : بَدَّلُوا الرِّيَاءَ بِالإِخْلَاصِ فَيَنْفَعُهُمُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَإِنْ قَلَّ . ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : فِي زُمْرَتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ غِنَاهُ عَمَّا سِوَاهُ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يُعَذِّبُ الْعِبَادَ بِذُنُوبِهِمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ أَيْ : أَصْلَحْتُمُ الْعَمَلَ وَآمَنْتُمْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ أَيْ : مَنْ شَكَرَ شَكَرَ لَهُ ، وَمَنْ آمَنَ قَلْبُهُ بِهِ عَلِمَهُ وَجَازَاهُ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ .

۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

قِيلَ الْمَعْنَى : لَا يُحِبُّ اللهُ أَنْ يَدْعُوَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا ، فَإِنَّهُ قَدْ أَرْخَصَ لَهُ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ وَإِنْ صَبَرَ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : إِنَّ لِي جَارًا يُؤْذِينِي ، فَقَالَ لَهُ : « أَخْرِجْ مَتَاعَكَ فَضَعْهُ عَلَى الطَّرِيقِ » فَأَخَذَ الرَّجُلُ مَتَاعَهُ فَطَرَحَهُ عَلَى الطَّرِيقِ فَجَعَلَ كُلُّ مَنْ مَرَّ بِهِ قَالَ : مَا لَكَ ؟ قَالَ : جَارِي يُؤْذِينِي فَيَقُولُ : اللَّهُمَّ الْعَنْهُ ، اللَّهُمَّ اخْزِهِ قَالَ : فَقَالَ الرَّجُلُ : ارْجِعْ إِلَى مَنْزِلِكَ وَاللهِ لَا أُوذِيكَ أَبَدًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ أَيْ : إِنْ تُظْهِرُوا أَيُّهَا النَّاسُ خَيْرًا أَوْ أَخْفَيْتُمُوهُ أَوْ عَفَوْتُمْ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكُمْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُقَرِّبُكُمْ عِنْدَ اللهِ ، وَيُجْزِلُ ثَوَابَكُمْ لَدَيْهِ ، فَإِنَّ مِنْ صِفَاتِهِ تَعَالَى أَنْ يَعْفُوَ عَنْ عِبَادِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى عِقَابِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾

يَتَوَعَّدُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْكَافِرِينَ بِهِ وَبِرُسُلِهِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى حَيْثُ فَرَّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ فِي الْإِيمَانِ ، فَآمَنُوا بِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ ، **وَالْمَقْصُودُ** : أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِنَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَقَدْ كَفَرَ بِسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ وَاجِبٌ بِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَمَنْ رَدَّ نُبُوَّتَهُ لِلْحَسَدِ أَوْ الْعَصَبِيَّةِ أَوْ التَّشَهِّي تَبَيَّنَ أَنَّ إِيمَانَهُ بِمَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَيْسَ إِيمَانًا شَرْعِيًّا إِنَّمَا هُوَ عَنْ غَرَضٍ وَهَوًى وَعَصَبِيَّةٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ فَوَسَمَهُمْ بِأَنَّهُمْ كُفَّارٌ بِاللهِ وَرُسُلِهِ ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ أَيْ : فِي الْإِيمَانِ ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ أَيْ : طَرِيقًا وَمَسْلَكًا .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فَقَالَ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا ﴾ أَيْ : كُفْرُهُمْ مُحَقَّقٌ لَا مَحَالَةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ أَيْ : كَمَا اسْتَهَانُوا بِمَنْ كَفَرُوا بِهِ إِمَّا لِعَدَمِ نَظَرِهِمْ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ اللهِ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ ، وَإِمَّا بِكُفْرِهِمْ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِمْ بِنُبُوَّتِهِ ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيْثُ حَسَدُوهُ عَلَى مَا آتَاهُ اللهُ مِنَ النُّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ ، وَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ وَعَادُوهُ وَقَاتَلُوهُ فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمُ الذُّلَّ الدُّنْيَوِيَّ الْمَوْصُولَ بِالذُّلِّ الْأُخْرَوِيِّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللهُ وَبِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُ قَدْ أَعَدَّ لَهُمُ الْجَزَاءَ الْجَزِيلَ وَالثَّوَابَ الْجَلِيلَ وَالْعَطَاءَ الْجَمِيلَ فَقَالَ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡ ﴾ عَلَى مَا آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ أَيْ : لِذُنُوبِهِمْ ، إِنْ كَانَ لِبَعْضِهِمْ ذُنُوبٌ .

يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿١٥٤﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ العُلَمَاءِ : سَأَلَ الْيَهُودُ رَسُولَ الله ﷺ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ كَمَا نُزِّلَتْ التَّوْرَاةُ عَلَى مُوسَى مَكْتُوبَةً ، وقَالَ آخَرُونَ : سَأَلُوهُ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ صُحُفًا مِنَ الله مَكْتُوبَةً إِلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ وَفُلَانٍ بِتَصْدِيقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ، وَهَذَا إِنَّمَا قَالُوهُ عَلَى سَبِيلِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ وَالْكُفْرِ وَالإِلْحَادِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ أَيْ : بِطُغْيَانِهِمْ وَبَغْيِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ﴾ أَيْ : مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالْأَدِلَّةِ الْقَاهِرَةِ عَلَى يَدِ مُوسَى عليه السلام فِي بِلَادِ مِصْرَ ، وَمَا كَانَ مِنْ إِهْلَاكِ عَدُوِّ الله فِرْعَوْنَ وَجَمِيعِ جُنُودِهِ فِي الْيَمِّ ، فَمَا جَاوَزُوهُ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى أَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، فَقَالُوا لِمُوسَى : ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨- ١٣٩]، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ اتِّخَاذِهِمُ الْعِجْلَ مَبْسُوطَةً فِي ((سُورَةِ الْأَعْرَافِ)) وَفِي ((سُورَةِ طَه)) بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى إِلَى مُنَاجَاةِ الله ﷻ، ثُمَّ لَمَّا رَجَعَ وَكَانَ مَا كَانَ جَعَلَ اللهُ تَوْبَتَهُمْ مِنَ الَّذِي صَنَعُوهُ وَابْتَدَعُوهُ أَنْ يَقْتُلَ مَنْ لَمْ يَعْبُدِ الْعِجْلَ مِنْهُمْ مَنْ عَبَدَهُ ، فَجَعَلَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، ثُمَّ أَحْيَاهُمُ الله ﷻ ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴾ .

ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ ﴾ وَذَلِكَ حِينَ امْتَنَعُوا مِنَ الالْتِزَامِ بِأَحْكَامِ التَّوْرَاةِ ، وَظَهَرَ مِنْهُمْ إِبَاءٌ عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ مُوسَى عليه السلام وَرَفَعَ اللهُ عَلَى رُءُوسِهِمْ جَبَلًا ثُمَّ أُلْزِمُوا فَالْتَزَمُوا وَسَجَدُوا وَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَى فَوْقِ رُءُوسِهِمْ خَشْيَةَ أَنْ يَسْقُطَ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧١] ﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ أَيْ : فَخَالَفُوا مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، فَإِنَّهُمْ أُمِرُوا أَنْ يَدْخُلُوا بَابَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سُجَّدًا وَهُمْ يَقُولُونَ حِطَّةٌ . أَيْ : اللَّهُمَّ حُطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا فِي تَرْكِنَا الْجِهَادَ وَنُكُولِنَا عَنْهُ حَتَّى تُهْنَا فِي التِّيهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى اسْتَاهِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ : حِنْطَةٌ فِي شَعْرَةٍ ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ أَيْ : وَصَّيْنَاهُمْ بِحِفْظِ السَّبْتِ وَالْتِزَامِ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا دَامَ مَشْرُوعًا لَهُمْ ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ أَيْ : شَدِيدًا ، فَخَالَفُوا وَعَصَوْا وَتَحَيَّلُوا عَلَى ارْتِكَابِ مَا حَرَّمَ اللهُ ﷻ، كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ [الأعراف : ١٦٣]

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ

مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

وَهَذِهِ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي اِرْتَكَبُوهَا مِمَّا أَوْجَبَ لَعْنَتَهُمْ وَطَرْدَهُمْ وَإِبْعَادَهُمْ عَنِ الْهُدَى ، وَهُوَ نَقْضُهُمُ الْمَوَاثِيقَ وَالْعُهُودَ الَّتِي أُخِذَتْ عَلَيْهِمْ ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ ، أَيْ : حُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ وَالْمُعْجِزَاتِ الَّتِي شَاهَدُوهَا عَلَى يَدِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ وَذَلِكَ لِكَثْرَةِ إِجْرَامِهِمْ وَاجْتِرَائِهِمْ عَلَى أَنْبِيَاءِ اللهِ ، فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا جَمًّا غَفِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : أَيْ فِي غِطَاءٍ ، وَهَذَا كَقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ : ﴿ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾ [فصلت : ٥] ، **وَقِيلَ** : مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ اِدَّعَوْا أَنَّ قُلُوبَهُمْ غُلُفٌ لِلْعِلْمِ ، أَيْ : أَوْعِيَةٌ لِلْعِلْمِ قَدْ حَوَتْهُ وَحَصَّلَتْهُ . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ فَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ كَأَنَّهُمْ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ بِأَنَّ قُلُوبَهُمْ لَا تَعِي مَا يَقُولُ ؛ لِأَنَّهَا فِي غُلْفٍ وَفِي أَكِنَّةٍ ، قَالَ اللهُ : بَلْ هِيَ مَطْبُوعٌ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ، وَعَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي عُكِسَ عَلَيْهِمْ مَا اِدَّعَوْهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مِثْلِ هَذَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ . ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيْ : مَرَدَتْ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ وَقِلَّةِ الْإِيمَانِ . ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُمْ رَمَوْهَا بِالزِّنَا ، وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنَ الْآيَةِ أَنَّهُمْ رَمَوْهَا وَابْنَهَا بِالْعَظَائِمِ فَجَعَلُوهَا زَانِيَةً ، وَقَدْ حَمَلَتْ بِوَلَدِهَا مِنْ ذَلِكَ ، زَادَ بَعْضُهُمْ : وَهِيَ حَائِضٌ - فَعَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : الَّذِي يَدَّعِي لِنَفْسِهِ هَذَا الْمَنْصِبَ قَتَلْنَاهُ ، وَهَذَا مِنْهُمْ مِنْ بَابِ التَّهَكُّمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ . ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ أَيْ : رَأَوْا شَبَهَهُ فَظَنُّوهُ إِيَّاهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ مَنِ ادَّعَى أَنَّهُ قَتَلَهُ مِنَ الْيَهُودِ ، وَمَنْ سَلَّمَهُ إِلَيْهِمْ مِنْ جُهَّالِ النَّصَارَى ، كُلُّهُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ وَحَيْرَةٍ وَضَلَالٍ وَسُعُرٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ أَيْ : وَمَا قَتَلُوهُ مُتَيَقِّنِينَ أَنَّهُ هُوَ بَلْ شَاكِّينَ مُتَوَهِّمِينَ . ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ أَيْ : مَنِيعَ الْجَنَابِ لَا يُرَامُ جَنَابُهُ وَلَا يُضَامُ مَنْ لَاذَ بِبَابِهِ ﴿ حَكِيمًا ﴾ أَيْ : فِي جَمِيعِ مَا يُقَدِّرُهُ وَيَقْضِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَخْلُقُهَا ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ وَالسُّلْطَانُ الْعَظِيمُ وَالْأَمْرُ الْقَدِيمُ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ : لَمَّا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ خَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ وَفِي الْبَيْتِ اِثْنَا عَشَر رَجُلًا مِنَ الْحَوَارِيِّينَ ، يَعْنِي فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَيْنٍ فِي الْبَيْتِ وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً فَقَالَ : إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يَكْفُرُ بِي اِثْنَيْ عَشْرَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي ، قَالَ : ثُمَّ قَالَ : أَيُّكُمْ يُلْقَى عَلَيْهِ شَبَهِي فَيُقْتَلُ مَكَانِي وَيَكُونُ مَعِي فِي دَرَجَتِي ، فَقَامَ شَابٌّ مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا فَقَالَ لَهُ : اِجْلِسْ ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ ، فَقَامَ ذَلِكَ الشَّابُّ فَقَالَ : اِجْلِسْ . ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَامَ الشَّابُّ فَقَالَ : أَنَا ، فَقَالَ : أَنْتَ هُوَ ذَاكَ ، فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شَبَه عِيسَى ، وَرُفِعَ عِيسَى مِنْ رَوْزَنَةٍ فِي الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ ، قَالَ : وَجَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ فَأَخَذُوا الشَّبَهَ فَقَتَلُوهُ ثُمَّ صَلَبُوهُ ، فَكَفَرَ بِهِ بَعْضُهُمْ اِثْنَتَيْ عَشْرَة مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِهِ ، وَافْتَرَقُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ : كَانَ اللهُ فِينَا مَا شَاءَ ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ وَهَؤُلَاءِ الْيَعْقُوبِيَّةُ ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ : كَانَ فِينَا اِبْنُ اللهِ مَا شَاءَ ثُمَّ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَهَؤُلَاءِ النَّسْطُورِيَّةُ ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ : كَانَ فِينَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولِهِ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَهَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ ، فَتَظَاهَرَتِ الْكَافِرَتَانِ عَلَى الْمُسْلِمَةِ فَقَتَلُوهَا ، فَلَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ طَامِسًا حَتَّى بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ يَعْنِي : قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى يُوَجِّهُ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ جَمِيعَهُمْ يُصَدِّقُونَ بِهِ إِذَا نَزَلَ لِقَتْلِ الدَّجَّالِ ، فَتَصِيرُ الْمِلَلُ كُلُّهَا وَاحِدَةً وَهِيَ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ الْحَنِيفِيَّةُ دِينُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام . ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ أَيْ : بِأَعْمَالِهِم الَّتِي شَاهَدَهَا مِنْهُمْ قَبْلَ رَفْعِهِ إِلَى السَّمَاءِ وَبَعْدَ نُزُولِهِ إِلَى الْأَرْضِ . وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا جَيِّدًا وَأَمْعَنَ النَّظَر اِتَّضَحَ لَهُ أَنَّ هَذَا وَإِنْ كَانَ هُوَ الْوَاقِعُ لَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ هَذَا ، بَلِ الْمُرَادُ بِهَا مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ تَقْرِيرِ وُجُودِ عِيسَى عليه السلام وَبَقَاءِ حَيَاتِهِ فِي السَّمَاءِ ، وَأَنَّهُ سَيَنْزِلُ إِلَى الْأَرْضِ قَبْلَ يَوْم الْقِيَامَةِ لِيُكَذِّبَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، الَّذِينَ تَبَايَنَتْ أَقْوَالُهُم فِيهِ وَتَصَادَمَتْ وَتَعَاكَسَتْ وَتَنَاقَضَتْ وَخَلَتْ عَنِ الْحَقِّ فَفَرَّطَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ ، وَأَفْرَطَ هَؤُلَاءِ النَّصَارَى ، تَنَقَّصَهُ الْيَهُود بِمَا رَمَوْهُ بِهِ وَأُمِّهِ مِنَ الْعَظَائِمِ ، وَأَطْرَاهُ النَّصَارَى بِحَيْثُ ادَّعَوْا فِيهِ مَا لَيْسَ فِيهِ ، فَرَفَعُوهُ فِي مُقَابَلَةِ أُولَئِكَ عَنْ مَقَامِ النُّبُوَّةِ إِلَى مَقَامِ الرُّبُوبِيَّةِ ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ عُلُوًّا كَبِيرًا ، وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَهُمُ الرِّسَالَةَ مِنَ اللهِ ، وَأَقَرَّ بِعُبُودِيَّةِ اللهِ ﷻ ، وَهَذَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي « آخِر سُورَةِ الْمَائِدَةِ » : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٦ - ١١٨]

فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا

لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

أَنَّهُ تَعَالَى حَرَّمَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَاةِ أَشْيَاءَ كَانَتْ حَلاَلًا لَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ ، لأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ بِسَبَبِ بَغْيِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ رَسُولِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَيْهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ أَيْ : صَدُّوا النَّاسَ وَصَدُّوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، وَهَذِهِ سَجِيَّةٌ لَهُمْ مُتَّصِفُونَ بِهَا مِنْ قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ أَيْ : أَنَّ اللهَ قَدْ نَهَاهُمْ عَنِ الرِّبَا فَتَنَاوَلُوهُ وَأَخَذُوهُ وَاحْتَالُوا عَلَيْهِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْحِيَلِ وَصُنُوفٍ مِنَ الشُّبَهِ ، وَأَكَلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ ﴾ أَيْ : الثَّابِتُونَ فِي الدِّينِ لَهُمْ قَدَمٌ رَاسِخَةٌ فِي الْعِلْمِ النَّافِعِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي « سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ » .﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ عَطْفٌ عَلَى الرَّاسِخِينَ وَخَبَرُهُ : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ . ﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : هُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَدْحِ ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ [البقرة : ١٧٧] قَالَ : وَهَذَا سَائِغٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ زَكَاةَ الْأَمْوَالِ ، وَيَحْتَمِلُ زَكَاةَ النُّفُوسِ ، وَيَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ وَاللهُ أَعْلَمُ ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ أَيْ : يُصَدِّقُونَ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا . ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ هُوَ الْخَبَرُ عَمَّا تَقَدَّمَ ﴿ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةَ .

۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، كَمَا أَوْحَى إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ

فَقَالَ : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ وَالزَّبُورُ : اِسْمُ الْكِتَابِ الَّذِي أَوْحَاهُ اللهُ إِلَى دَاوُدَ ﷺ.

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْآيَةِ . يَعْنِي : فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ وَغَيْرِهَا ، وَهَذِهِ تَسْمِيَةُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ نَصَّ اللهُ عَلَى أَسْمَائِهِمْ فِي الْقُرْآنِ ، وَهُمْ آدَمُ وَإِدْرِيسُ وَنُوحٌ وَهُودٌ وَصَالِحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَلُوطٌ وَإِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ وَيُوسُفُ وَأَيُّوبُ وَشُعَيْبٌ وَمُوسَى وَهَارُونُ وَيُونُسُ وَدَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ وَإِلْيَاسُ وَالْيَسَعُ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى . وَكَذَا ذُو الْكِفْلِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ، وَسَيِّدُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ.

﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ وَهَذَا تَشْرِيفٌ لِمُوسَى ﷺ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، وَلِهَذَا يُقَالُ لَهُ : الْكَلِيمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أَيْ : يُبَشِّرُونَ مَنْ أَطَاعَ اللهَ وَاتَّبَعَ رِضْوَانَهُ بِالْخَيْرَاتِ ، وَيُنْذِرُونَ مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ بِالْعِقَابِ وَالْعَذَابِ . ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ أَيْ : أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ كُتُبَهُ وَأَرْسَلَ رُسُلَهُ بِالْبِشَارَةِ وَالنِّذَارَةِ ، وَبَيَّنَ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ مِمَّا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ ، لِئَلَّا يَبْقَى لِمُعْتَذِرٍ عُذْرٌ .

لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

لَمَّا تَضَمَّنَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ إِلَى آخِرِ السِّيَاقِ إِثْبَاتَ نُبُوَّتِهِ ﷺ وَالرَّدَّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ نُبُوَّتَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : وَإِنْ كَفَرَ بِهِ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِمَّنْ كَذَّبَكَ وَخَالَفَكَ ، فَاللهُ يَشْهَدُ لَكَ بِأَنَّكَ رَسُولُهُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ أَيْ : فِيهِ عِلْمُهُ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَطَّلِعَ الْعِبَادُ عَلَيْهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى وَالْفُرْقَانِ . ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ أَيْ : بِصِدْقِ مَا جَاءَكَ وَأُوحِيَ إِلَيْكَ وَأُنْزِلَ عَلَيْكَ مَعَ شَهَادَةِ اللهِ تَعَالَى لَكَ بِذَلِكَ ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ أَيْ : كَفَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ فَلَمْ يَتَّبِعُوا الْحَقَّ وَسَعَوْا فِي صَدِّ النَّاسِ عَنِ اتِّبَاعِهِ وَالِاقْتِدَاءِ بِهِ ، قَدْ خَرَجُوا عَنِ الْحَقِّ ، وَضَلُّوا عَنْهُ وَبَعُدُوا مِنْهُ بُعْدًا عَظِيمًا شَاسِعًا ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حُكْمِهِ فِي الْكَافِرِينَ بِآيَاتِهِ وَكِتَابِهِ

وَرَسُولِهِ ، الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِذَلِكَ ، وَبِالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَارْتِكَابِ مَآثِمِهِ وَانْتِهَاكِ مَحَارِمِهِ بِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لَهُمْ . ﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ أَيْ : سَبِيلًا إِلَى الْخَيْرِ . ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾ ، وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ الْآيَة . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ أَيْ : قَدْ جَاءَكُمْ مُحَمَّدٌ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ وَالْبَيَانِ الشَّافِي مِنَ اللهِ ﷻ، فَآمِنُوا بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ وَاتَّبِعُوهُ يَكُنْ خَيْرًا لَكُمْ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : فَهُوَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَعَنْ إِيمَانِكُمْ ، وَلَا يَتَضَرَّرُ بِكُفْرَانِكُمْ ، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أَيْ : بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْكُمُ الْهِدَايَةَ فَيَهْدِيه ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغِوَايَةَ فَيُغْوِيه ﴿ حَكِيمًا ﴾ أَيْ : فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ .

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

يَنْهَى تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ عَنِ الْغُلُوِّ وَالْإِطْرَاءِ ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي النَّصَارَى ؛ فَإِنَّهُمْ تَجَاوَزُوا حَدَّ التَّصْدِيقِ بِعِيسَى ، حَتَّى رَفَعُوهُ فَوْقَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهَا ، فَنَقَلُوهُ مِنْ حَيِّزِ النُّبُوَّةِ إِلَى أَنِ اتَّخَذُوهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللهِ يَعْبُدُونَهُ كَمَا يَعْبُدُونَهُ . بَلْ قَدْ غَلَوْا فِي أَتْبَاعِهِ وَأَشْيَاعِهِ مِمَّنْ زَعَمَ أَنَّهُ عَلَى دِينِهِ ، فَادَّعَوْا فِيهِمُ الْعِصْمَةَ ، وَاتَّبَعُوهُمْ فِي كُلِّ مَا قَالُوهُ سَوَاءٌ كَانَ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا ، أَوْ ضَلَالًا أَوْ رَشَادًا ، أَوْ صَحِيحًا أَوْ كَذِبًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ أَيْ : لَا تَفْتَرُوا عَلَيْهِ وَتَجْعَلُوا لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا - تَعَالَى اللهُ ﷻ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ، وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ وَتَوَحَّدَ فِي سُؤْدُدِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَعَظَمَتِهِ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ - **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا هُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ ، وَخَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ ، قَالَ لَهُ : كُنْ فَكَانَ ، وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ أَيْ : **خَلَقَهُ بِالْكَلِمَةِ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا جِبْرِيلُ** عليه السلام **إِلَى مَرْيَمَ فَنَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﷻ ، فَكَانَ عِيسَى بِإِذْنِهِ ﷻ ، وَصَارَتْ تِلْكَ النَّفْخَةُ الَّتِي نَفَخَهَا فِي جَيْبِ دِرْعِهَا ، فَنَزَلَتْ حَتَّى وَلَجَتْ فَرْجَهَا ، بِمَنْزِلَةِ لِقَاحِ الْأَبِ وَالْأُمِّ ، وَالْجَمِيعُ مَخْلُوقٌ للهِ ﷻ ؛ وَلِهَذَا قِيلَ لِعِيسَى : إِنَّهُ كَلِمَةُ اللهِ وَرُوحٌ مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ تَوَلَّدَ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ نَاشِئٌ عَنِ الْكَلِمَةِ الَّتِي قَالَ لَهُ بِهَا كُنْ فَكَانَ ، وَالرُّوحُ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا جِبْرِيلُ .**

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ أَيْ : فَصَدِّقُوا بِأَنَّ اللهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا صَاحِبَة ، وَاعْلَمُوا وَتَيَقَّنُوا بِأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَـٰثَةٌ ﴾ أَيْ : لَا تَجْعَلُوا عِيسَى وَأُمَّهُ مَعَ اللهِ شَرِيكَيْنِ ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ أَيْ يَكُنْ خَيْرًا لَكُمْ ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَ ٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ أَيْ : تَعَالَى وَتَقَدَّسَ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَ ٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ مِلْكُهُ وَخَلْقُهُ وَجَمِيعُ مَا فِيهِمَا عَبِيدُهُ ، وَهُمْ تَحْتَ تَدْبِيرِهِ وَتَصْرِيفِهِ ، وَهُوَ وَكِيلٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ مِنْهُمْ صَاحِبَةٌ أَوْ وَلَدٌ .

لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

قَوْلُهُ : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾ لَنْ يَسْتَكْبِرَ ، وَقِيلَ : إِنَّمَا ذُكِرَ الْمَلَائِكَةُ . لِأَنَّهُمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مَعَ اللهِ كَمَا اتُّخِذَ الْمَسِيحُ ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ عَبِيدٌ مِنْ عِبَادِهِ وَخَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ أَيْ : فَيَجْمَعُهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ الَّذِي لَا يَجُورُ فِيهِ وَلَا يَحِيفُ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ يَعْنِي : فَيُعْطِيهِمْ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ ، وَيَزِيدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَامْتِنَانِهِ .﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ﴾ أَيْ : اِمْتَنَعُوا مِنْ طَاعَةِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ ذَلِكَ ﴿ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَ ٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا جَمِيعَ النَّاسِ ، وَمُخْبِرًا لَهُمْ بِأَنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ مِنْهُ بُرْهَانٌ عَظِيمٌ ، وَهُوَ الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ لِلْعُذْرِ وَالْحُجَّةُ الْمُزِيلَةُ لِلشُّبَهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ أَيْ : ضِيَاءً وَاضِحًا عَلَى الْحَقِّ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : هُوَ الْقُرْآنُ . ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ ﴾ أَيْ : جَمَعُوا بَيْنَ مَقَامَي الْعِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا

بِالْقُرْآنِ . ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ أَيْ : يَرْحَمُهُمْ فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ وَيَزِيدُهُمْ ثَوَابًا وَمُضَاعَفَةً وَرَفْعًا فِي دَرَجَاتِهِمْ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ أَيْ : طَرِيقًا وَاضِحًا قَصْدًا قَوَامًا لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ .

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

عَنِ الْبَرَاءِ ﷺ قَالَ : آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ بَرَاءَةُ ، وَآخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْكَلَالَةِ وَاشْتِقَاقِهَا ، وَأَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنَ الإِكْلِيلِ الَّذِي يُحِيطُ بِالرَّأْسِ مِنْ جَوَانِبِهِ ، وَلِهَذَا فَمَيَّزَهَا أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ : بِمَنْ يَمُوتُ وَلَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : الْكَلَالَةُ مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ ﴾ أَيْ : مَاتَ . ﴿ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ تَمَسَّكَ بِهِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْكَلَالَةِ انْتِفَاءُ الْوَالِدِ بَلْ يَكْفِي فِي وُجُودِ الْكَلَالَةِ انْتِفَاءُ الْوَلَدِ ، وَلَكِنِ الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ هُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ وَقَضَاءُ الصِّدِّيقِ أَنَّهُ الَّذِي لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ وَلَوْ كَانَ مَعَهَا أَبٌ لَمْ تَرِثْ شَيْئًا ؛ لِأَنَّهُ يَحْجُبُهَا بِالإِجْمَاعِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ بِنَصِّ الْقُرْآنِ ، وَلَا وَالِدَ بِالنَّصِّ عِنْدَ التَّأَمُّلِ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ الْأُخْتَ لَا يُفْرَضُ لَهَا النِّصْفُ مَعَ الْوَالِدِ ، بَلْ لَيْسَ لَهَا مِيرَاثٌ بِالْكُلِّيَّةِ . ﴿ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ﴾ أَيْ : وَالْأَخُ يَرِثُ جَمِيعَ مَا لَهَا إِذَا مَاتَتْ كَلَالَةً وَلَيْسَ لَهَا وَلَدٌ ، أَيْ وَلَا وَالِدٌ ؛ لِأَنَّهَا لَوْ كَانَ لَهَا وَالِدٌ لَمْ يَرِثِ الْأَخُ شَيْئًا ، فَإِنْ فُرِضَ أَنَّ مَعَهُ مَنْ لَهُ فَرْضٌ صُرِفَ إِلَيْهِ فَرْضُهُ كَزَوْجٍ أَوْ أَخٍ مِنْ أُمٍّ وَصُرِفَ الْبَاقِي إِلَى الْأَخِ لِقَوْلِهِ ﷺ : « **أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا أَبْقَتِ الْفَرَائِضُ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ أَيْ : فَإِنْ كَانَ لِمَنْ يَمُوتُ كَلَالَةً أُخْتَانِ فُرِضَ لَهُمَا الثُّلُثَانِ ، وَكَذَا مَا زَادَ عَلَى الْأُخْتَيْنِ فِي حُكْمِهِمَا ، وَمِنْ هَهُنَا أَخَذَ الْجَمَاعَةُ حُكْمَ الْبِنْتَيْنِ ، كَمَا اسْتُفِيدَ حُكْمُ الْأَخَوَاتِ مِنَ الْبَنَاتِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ هَذَا حُكْمُ الْعَصَبَاتِ مِنَ الْبَنِينَ وَبَنِي الْبَنِينَ ، وَالإِخْوَةُ إِذَا اجْتَمَعَ ذُكُورُهُمْ وَإِنَاثُهُمْ أُعْطِيَ الذَّكَرُ مِثْلَ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ أَيْ : يَفْرِضُ لَكُمْ فَرَائِضَهُ وَيَحُدُّ لَكُمْ حُدُودَهُ ، وَيُوَضِّحُ لَكُمْ

شَرَائِعَهُ . ﴿ أَن تَضِلُّواْ ﴾ أَيْ : لِئَلَّا تَضِلُّوا عَنِ الْحَقِّ بَعْدَ الْبَيَانِ ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : هُوَ عَالِمٌ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَمَصَالِحِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ لِعِبَادِهِ وَمَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَرَابَاتِ بِحَسَبِ قُرْبِهِ مِنَ الْمُتَوَفَّى .

انْتَهَى تَفْسِيرُ سُورَةِ النِّسَاءِ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ١٢٠ تفسير سُورَةِ المَائِدَةِ مدنية

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو - رضي الله عنهما - قَالَ : آخِرُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ يَعْنِي بِالْعُقُودِ : الْعُهُود ، وَالْعُهُودُ مَا كَانُوا يَتَعَاهَدُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحِلْفِ وَغَيْرِهِ ، قِيلَ : يَعْنِي بالْعُهُودِ : مَا أَحَلَّ اللهُ ، وَمَا حَرَّمَ ، وَمَا فَرَضَ ، وَمَا حَدَّ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ ، وَلَا تَغْدُرُوا وَلَا تَنْكُثُوا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ هِيَ : الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ الظَّاهِرُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ﴾ فَإِنَّ هَذِهِ وَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْأَنْعَامِ إِلَّا أَنَّهَا تَحْرُمُ بِهَذِهِ الْعَوَارِضِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ يَعْنِي : مِنْهَا ، فَإِنَّهُ حَرَامٌ لَا يُمْكِنُ اسْتِدْرَاكُهُ وَتَلَاحُقُهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : إِلَّا مَا سَيُتْلَى عَلَيْكُمْ مِنْ تَحْرِيمِ بَعْضِهَا فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ أَحْلَلْنَا لَكُمُ الْأَنْعَامَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ،

فَحَرِّمُوا الصَّيْدَ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بِهَذَا ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فِي جَمِيعِ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي بِذَلِكَ : مَنَاسِكَ الْحَجِّ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : الصَّفَا وَالْمَرْوَةُ وَالْهَدْيُ وَالْبُدْنُ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ ، **وَقِيلَ** : شَعَائِرُ اللهِ مَحَارِمُهُ : أَيْ لَا تُحِلُّوا مَحَارِمَ اللهِ الَّتِي حَرَّمَهَا تَعَالَى ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ : تَحْرِيمُهُ وَالِاعْتِرَافُ بِتَعْظِيمِهِ ، وَتَرْكُ مَا نَهَى اللهُ عَنْ تَعَاطِيهِ فِيهِ ، مِنَ الِابْتِدَاءِ بِالْقِتَالِ ، وَتَأْكِيدِ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ ، **وَقَدْ حَكَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ اللهَ قَدْ أَحَلَّ قِتَالَ أَهْلِ الشِّرْكِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ وَغَيْرِهَا مِنْ شُهُورِ السَّنَةِ** . قَالَ : وَكَذَلِكَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْمُشْرِكَ لَوْ قَلَّدَ عُنُقَهُ أَوْ ذِرَاعَيْهِ بِلِحَاءِ جَمِيعِ أَشْجَارِ الْحَرَمِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَهُ أَمَانًا مِنَ الْقَتْلِ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ تَقَدَّمَ لَهُ عَقْدُ ذِمَّةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَمَانٌ . ﴿ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ يَعْنِي : لَا تَتْرُكُوا الْإِهْدَاءَ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ فَإِنَّ فِيهِ تَعْظِيمًا لِشَعَائِرِ اللهِ ، وَلَا تَتْرُكُوا تَقْلِيدَهَا فِي أَعْنَاقِهَا لِتَتَمَيَّزَ بِهِ عَمَّا عَدَاهَا مِنَ الْأَنْعَامِ ، وَلِيُعْلَمَ أَنَّهَا هَدْيٌ إِلَى الْكَعْبَةِ فَيَجْتَنِبُهَا مَنْ يُرِيدُهَا بِسُوءٍ ، وَتَبْعَثُ مَنْ يَرَاهَا عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهَا . **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ فَلَا تَسْتَحِلُّوهُ ، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا خَرَجُوا مِنْ أَوْطَانِهِمْ فِي غَيْرِ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ قَلَّدُوا أَنْفُسَهُمْ بِالشَّعْرِ وَالْوَبَرِ ، وَتَقَلَّدَ مُشْرِكُو الْحَرَمِ مِنْ لِحَاءِ شَجَرِ الْحَرَمِ فَيَأْمَنُونَ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴾ أَيْ : وَلَا تَسْتَحِلُّوا قِتَالَ الْقَاصِدِينَ إِلَى بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، وَكَذَا مَنْ قَصَدَهُ طَالِبًا فَضْلَ اللهِ ، وَرَاغِبًا فِي رِضْوَانِهِ فَلَا تَصُدُّوهُ وَلَا تَمْنَعُوهُ وَلَا تُهَيِّجُوهُ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ : يَعْنِي بِذَلِكَ التِّجَارَةُ . ﴿ وَرِضْوَٰنًا ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : يَتَرَضَّوْنَ اللهَ بِحَجِّهِم .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ﴾ أَيْ : إِذَا فَرَغْتُمْ مِنْ إِحْرَامِكُمْ وَأَحْلَلْتُمْ مِنْهُ فَقَدْ أَبَحْنَا لَكُمْ مَا كَانَ مُحَرَّمًا عَلَيْكُمْ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ مِنَ الصَّيْدِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ﴾ **مَعْنَاهَا** : لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُ قَوْمٍ قَدْ كَانُوا صَدُّوكُمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ - وَذَلِكَ عَامُ الْحُدَيْبِيَةِ - عَلَى أَنْ تَعْتَدُوا حُكْمَ اللهِ فِيكُمْ فَتَقْتَصُّوا مِنْهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا ، بَلِ احْكُمُوا بِمَا أَمَرَكُمُ اللهُ بِهِ مِنَ الْعَدْلِ فِي حَقِّ كُلِّ أَحَدٍ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَمَا سَيَأْتِي مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٨] أَيْ : لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُ أَقْوَامٍ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ ، فَإِنَّ الْعَدْلَ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ حَالٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُعَاوَنَةِ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَهُوَ الْبِرُّ ، وَتَرْكُ الْمُنْكَرَاتِ وَهُوَ التَّقْوَى ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّنَاصُرِ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : الْإِثْمُ : تَرْكُ مَا أَمَرَ اللهُ بِفِعْلِهِ ، وَالْعُدْوَانُ : مُجَاوَزَةُ مَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ وَفِي غَيْرِكُمْ .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عِبَادَهُ خَبَرًا مُتَضَمِّنًا النَّهْيَ عَنْ تَعَاطِي هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ الْمَيْتَةِ : وَهِيَ مَا مَاتَ مِنَ الْحَيَوَانِ حَتْفَ أَنْفِهِ مِنْ غَيْرِ ذَكَاةٍ وَلَا اصْطِيَادٍ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَضَرَّةِ لِمَا فِيهَا مِنَ الدَّمِ الْمُحْتَقِنِ ، فَهِيَ ضَارَّةٌ لِلدِّينِ وَلِلْبَدَنِ ، فَلِهَذَا حَرَّمَهَا اللهُ ﷻ ، وَيُسْتَثْنَى مِنَ الْمَيْتَةِ السَّمَكُ فَإِنَّهُ حَلَالٌ سَوَاءٌ مَاتَ بِتَذْكِيَةٍ أَوْ غَيْرِهَا ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلدَّمُ ﴾ يَعْنِي بِهِ : الْمَسْفُوحُ لِقَوْلِهِ : ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ .

قَوْلُهُ : ﴿ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ يَعْنِي : إِنْسِيُّهُ وَوَحْشِيُّهُ ، وَاللَّحْمُ يَعُمُّ جَمِيعَ أَجْزَائِهِ حَتَّى الشَّحْمَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ أَيْ : مَا ذُبِحَ فَذُكِرَ عَلَيْهِ اسْمُ غَيْرِ اللهِ فَهُوَ حَرَامٌ ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْجَبَ أَنْ تُذْبَحَ مَخْلُوقَاتُهُ عَلَى اسْمِهِ الْعَظِيمِ ، فَمَتَى عُدِلَ بِهَا عَنْ ذَلِكَ وَذُكِرَ عَلَيْهَا اسْمُ غَيْرِهِ مِنْ صَنَمٍ أَوْ طَاغُوتٍ أَوْ وَثَنٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَإِنَّهَا حَرَامٌ بِالْإِجْمَاعِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ ﴾ وَهِيَ الَّتِي تَمُوتُ بِالْخَنْقِ ، إِمَّا قَصْدًا وَإِمَّا اتِّفَاقًا ، بِأَنْ تَتَخَبَّلَ فِي وَثَاقِهَا فَتَمُوتُ بِهِ ، فَهِيَ حَرَامٌ ، وَأَمَّا ﴿ وَٱلْمَوْقُوذَةُ ﴾ فَهِيَ الَّتِي تُضْرَبُ بِشَيْءٍ ثَقِيلٍ غَيْرِ مُحَدَّدٍ حَتَّى تَمُوتَ . وَأَمَّا الْمُتَرَدِّيَةُ : فَهِيَ الَّتِي تَقَعُ مِنْ شَاهِقٍ أَوْ مَوْضِعٍ عَالٍ فَتَمُوتُ بِذَلِكَ فَلَا تَحِلُّ .

وَأَمَّا النَّطِيحَةُ : فَهِيَ الَّتِي مَاتَتْ بِسَبَبِ نَطْحِ غَيْرِهَا لَهَا ، فَهِيَ حَرَامٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ﴾ أَيْ : مَا عَدَا عَلَيْهَا أَسَدٌ أَوْ فَهْدٌ أَوْ نَمِرٌ أَوْ ذِئْبٌ أَوْ كَلْبٌ فَأَكَلَ بَعْضَهَا فَمَاتَتْ بِذَلِكَ فَهِيَ حَرَامٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ عَائِدٌ عَلَى مَا يُمْكِنُ عَوْدُهُ عَلَيْهِ مِمَّا انْعَقَدَ سَبَبُ مَوْتِهِ فَأَمْكَنَ تَدَارُكُهُ بِذَكَاةٍ ، وَفِيهِ حَيَاةٌ مُسْتَقِرَّةٌ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَعُودُ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ **قَالَ غَيْرُ واحِدٍ مِنَ العُلَمَاءِ** : كَانَتِ النُّصُبُ حِجَارَةً حَوْلَ الْكَعْبَةِ . **قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ** : وَهِيَ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نُصُبًا ، كَانَتِ العَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يَذْبَحُونَ عِنْدَهَا وَيَنْضَحُونَ مَا أَقْبَلَ مِنْهَا إِلَى الْبَيْتِ بِدِمَاءِ تِلْكَ الذَّبَائِحِ ، وَيُشَرِّحُونَ اللَّحْمَ وَيَضَعُونَهُ عَلَى النُّصُبِ . فَنَهَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ هَذَا الصَّنِيعِ وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ هَذِهِ الذَّبَائِحِ الَّتِي فُعِلَتْ عِنْدَ النُّصُبِ ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ يُذْكَرُ عَلَيْهَا اِسْمُ اللهِ لَمَا فِي الذَّبْحِ عِنْدَ النُّصُبِ مِنَ الشِّرْكِ الَّذِي حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ . ﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ﴾ أَيْ : حَرَّمَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الاِسْتِقْسَامَ بِالْأَزْلَامِ ، وَاحِدُهَا : زُلَمٌ ، وَقَدْ تُفْتَحُ الزَّاي فَيُقَال : زَلَمٌ ، وَقَدْ كَانَتِ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يَتَعَاطَوْنَ ذَلِكَ ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ قِدَاحٍ ثَلَاثَةٍ عَلَى أَحَدِهَا مَكْتُوبٌ : اِفْعَلْ ، وَعَلَى الْآخَرِ : لَا تَفْعَلْ ، وَالثَّالِثِ : غُفْلٌ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَإِذَا أَجَالَهَا فَطَلَعَ سَهْمُ الْأَمْرِ فَعَلَهُ ، أَوْ النَّهْي تَرَكَهُ ، وَإِنْ طَلَعَ الْفَارِغُ أَعَادَ ، وَالِاسْتِقْسَامُ مَأْخُوذٌ مِنْ طَلَبِ الْقَسْمِ مِنْ هَذِهِ الْأَزْلَامِ .﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ أَيْ : تَعَاطِيهِ فِسْقٌ وَغَيٌّ وَضَلَالَةٌ وَجَهَالَةٌ وَشِرْكٌ ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَرَدَّدُوا فِي أُمُورِهِمْ أَنْ يَسْتَخِيرُوهُ ، بِأَنْ يَعْبُدُوهُ ، ثُمَّ يَسْأَلُوهُ الْخِيَرَةَ فِي الْأَمْرِ الَّذِي يُرِيدُونَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ ﴾ يَعْنِي : يَئِسُوا أَنْ يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَئِسُوا مِنْ مُشَابَهَةِ الْمُسْلِمِينَ لِمَا تَمَيَّزَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِلشِّرْكِ وَأَهْلِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى آمِرًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَصْبِرُوا وَيَثْبُتُوا فِي مُخَالَفَةِ الْكُفَّارِ وَلَا يَخَافُوا أَحَدًا إِلَّا اللهَ فَقَالَ : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴾ أَيْ : لَا تَخَافُوهُمْ فِي مُخَالَفَتِكُمْ إِيَّاهُمْ ، وَاخْشَوْنِي أَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَأُبِيدُهُمْ وَأُظَفِرْكُمْ بِهِمْ ، وَأَشْفِ صُدُورَكُمْ مِنْهُمْ ، وَأَجْعَلْكُمْ فَوْقَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ هَذِهِ أَكْبَرُ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ حَيْثُ أَكْمَلَ تَعَالَى لَهُمْ دِينَهُمْ فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى دِينِ غَيْرِهِ ، فَلَمَّا أَكْمَلَ لَهُمُ الدِّينَ تَمَّتْ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ أَيْ : فَارْضَوْهُ أَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ؛ فَإِنَّهُ الدِّينُ الَّذِي أَحَبَّهُ اللهُ وَرَضِيَهُ وَبَعَثَ بِهِ أَفْضَلَ الرُّسُلِ الْكِرَامِ ، وَأَنْزَلَ بِهِ أَشْرَفَ كُتُبِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : فَمَنِ احْتَاجَ إِلَى تَنَاوُلِ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى لِضَرُورَةٍ أَلْجَأَتْهُ إِلَى ذَلِكَ ، فَلَهُ تَنَاوُلُهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ﴾ أَيْ : غَيْرُ مُتَعَاطٍ لِمَعْصِيَةِ اللهِ ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَبَاحَ ذَلِكَ لَهُ وَسَكَتَ عَنِ الْآخرِ .

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنَ الْخَبَائِثِ الضَّارَّةِ لِمُتَنَاوِلِهَا إِمَّا فِي بَدَنِهِ أَوْ فِي دِينِهِ أَوْ فِيهِمَا، اِسْتَثْنَاهُ فِي حَالَةِ الضَّرُورَةِ، قَالَ بَعْدَهَا: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أَيْ: أُحِلَّ لَكُمُ الذَّبَائِحُ الَّتِي ذُكِرَ اِسْمُ اللهِ عَلَيْهَا، وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ الرِّزْقِ، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا صِدْتُمُوهُ بِالْجَوَارِحِ، وَهِيَ مِنَ الْكِلَابِ وَالْفُهُودِ وَالصُّقُورِ وَأَشْبَاهِهَا، وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتُ الَّتِي يُصْطَادُ بِهِنَّ جَوَارِحُ مِنَ الْجَرْحِ: وَهُوَ الْكَسْبُ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: فُلَانٌ جَرَحَ أَهْلَهُ خَيْرًا. أَيْ: كَسَبَهُمْ خَيْرًا، وَيَقُولُونَ: فُلَانٌ لَا جَارِحَ لَهُ، أَيْ: لَا كَاسِبَ لَهُ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أَيْ: مَا كَسَبْتُمْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي عَلَّمْتُمْ؛ فَيَكُونُ حَالًا مِنَ الْفَاعِلِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الْمَفْعُولِ، وَهُوَ الْجَوَارِحُ، أَيْ: وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ فِي حَالِ كَوْنِهِنَّ مُكَلَّبَاتٍ لِلصَّيْدِ، وَذَلِكَ أَنْ تَقْتَنِصَهُ بِمَخَالِبِهَا أَوْ أَظْفَارِهَا، فَيُسْتَدَلُّ بِذَلِكَ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - عَلَى أَنَّ الْجَارِحَةَ إِذَا قَتَلَ الصَّيْدَ بِصَدْمَتِهِ لَا بِمِخْلَابِهِ وَظُفُرِهِ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أَرْسَلَهُ اِسْتَرْسَلَ، وَإِذَا أَشْلَاهُ اِسْتَشْلَى، وَإِذَا أَخَذَ الصَّيْدَ أَمْسَكَهُ عَلَى صَاحِبِهِ حَتَّى يَجِيءَ إِلَيْهِ، وَلَا يُمْسِكُهُ لِنَفْسِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فَمَتَى كَانَ الْجَارِحُ مُعَلَّمًا وَأَمْسَكَ عَلَى صَاحِبِهِ وَكَانَ قَدْ ذَكَرَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَقْتَ إِرْسَالِهِ، حَلَّ الصَّيْدُ وَإِنْ قَتَلَهُ بِالْإِجْمَاعِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أَيْ: عِنْدَ إِرْسَالِهِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: «**إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ وَذَكَرْتَ اِسْمَ اللهِ فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ**»، وَفِي حَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ «**إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ فَاذْكُرِ اِسْمَ اللهِ، وَإِذَا رَمَيْتَ بِسَهْمِكَ فَاذْكُرِ اِسْمَ اللهِ**»، وَلِهَذَا اِشْتَرَطَ مَنِ اشْتَرَطَ مِنَ الْأَئِمَّةِ: التَّسْمِيَةَ عِنْدَ إِرْسَالِ الْكَلْبِ وَالرَّمْيِ بِالسَّهْمِ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ عَنِ الْجُمْهُورِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ: الْأَمْرُ بِالتَّسْمِيَةِ عِنْدَ الْإِرْسَالِ.

ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ

فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْخَبَائِثِ ، وَمَا أَحَلَّهُ لَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، **قَالَ** بَعْدَهُ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ حُكْمَ ذَبَائِحِ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَقَالَ : ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : يَعْنِي ذَبَائِحَهُمْ . **وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ ذَبَائِحَهُمْ حَلَالٌ لِلْمُسْلِمِينَ** .وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ أَيْ : وَيَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تُطْعِمُوهُمْ مِنْ ذَبَائِحِكُمْ . ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أَيْ : وَأُحِلَّ لَكُمْ نِكَاحُ الْحَرَائِرِ الْعَفَائِفِ مِنَ النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَذَكَرَ هَذَا تَوْطِئَةً لِمَا بَعْدَهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ **الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُحْصَنَاتِ** : الْعَفِيفَاتِ عَنِ الزِّنَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أَيْ : مُهُورَهُنَّ ، أَيْ كَمَا هُنَّ مُحْصَنَاتٌ عَفَائِفُ فَابْذُلُوا لَهُنَّ الْمُهُورَ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ . ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾ فَكَمَا شَرَطَ الْإِحْصَانَ فِي النِّسَاءِ وَهِيَ الْعِفَّةُ عَنِ الزِّنَا ، كَذَلِكَ شَرَطَهَا فِي الرِّجَالِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ مُحْصَنًا عَفِيفًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ وَهُمُ الزُّنَاةُ الَّذِينَ لَا يَرْتَدِعُونَ عَنْ مَعْصِيَةٍ ، وَلَا يَرُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ عَمَّنْ جَاءَهُمْ ﴿ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾ أَيْ : ذَوِي الْعَشِيقَاتِ الَّذِينَ لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا مَعَهُنَّ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

قَالَ كَثِيرُونَ مِنَ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ يَعْنِي : وَأَنْتُمْ مُحْدِثُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ يُسْتَحَبُّ قَبْلَ غَسْلِ الْوَجْهِ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللهِ تَعَالَى عَلَى وُضُوئِهِ ، وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَغْسِلَ كَفَّيْهِ قَبْلَ إِدْخَالِهِمَا فِي الْإِنَاءِ ، وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ عِنْدَ الْقِيَامِ مِنَ النَّوْمِ ؛ وَحَدُّ الْوَجْهِ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ مَا بَيْنَ مَنَابِتِ شَعْرِ الرَّأْسِ - وَلَا اعْتِبَارَ بِالصَّلَعِ وَلَا بِالْغَمَمِ - إِلَى مُنْتَهَى اللَّحْيَيْنِ وَالذَّقَنِ طُولًا ، وَمِنَ الْأُذُنِ إِلَى الْأُذُنِ عَرْضًا . وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ **أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ تَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ** . ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ أَيْ : مَعَ الْمَرَافِقِ .وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُتَوَضِّئِ أَنْ يَشْرَعَ فِي الْعَضُدِ فَيَغْسِلَهُ مَعَ ذِرَاعَيْهِ . ﴿ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ ﴾ **اِخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الْبَاءِ** ، هَلْ هِيَ لِلْإِلْصَاقِ ؟ وَهُوَ الْأَظْهَرُ ، أَوْ لِلتَّبْعِيضِ ؟ وَفِيهِ نَظَرٌ عَلَى قَوْلَيْنِ ، وَمِنَ الْأُصُولِيِّينَ مَنْ قَالَ : هَذَا

مُجْمَلٌ فَلْيُرْجَعْ فِي بَيَانِهِ إِلَى السُّنَّةِ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ ، أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِعَبْدِ الله بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ : هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُرِيَنِي كَيْفَ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَتَوَضَّأُ ؟ فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ زَيْدٍ : نَعَمْ ، فَدَعَا بِوَضُوءٍ فَأَفْرَغَ عَلَى يَدَيْهِ فَغَسَلَ يَدَيْهِ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ مَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ ثَلاثًا ، وَغَسَلَ وَجْهَهُ ثَلاثًا ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَيْهِ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ إِلَى المِرْفَقَيْنِ ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ بِيَدَيْهِ فَأَقْبَلَ بِهِمَا وَأَدْبَرَ ، بَدَأَ بِمُقَدَّمِ رَأْسِهِ ثُمَّ ذَهَبَ بِهِمَا إِلَى قَفَاهُ ، ثُمَّ رَدَّهُمَا حَتَّى رَجَعَ إِلَى المَكَانِ الَّذِي بَدَأَ مِنْهُ ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ قُرِئَ ﴿ وَأَرْجُلَكُم ﴾ بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – **أَنَّهُ قَرَأَهَا** ﴿ وَأَرْجُلَكُم ﴾ **يَقُولُ** : رَجَعت إِلَى الْغَسْلِ . وَهَذِهِ قِرَاءَةٌ ظَاهِرَةٌ فِي وُجُوبِ الْغَسْلِ كَمَا قَالَهُ السَّلَفُ .

وَمِنْ هَهُنَا ذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى وُجُوبِ التَّرْتِيبِ فِي الْوُضُوءِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الجُمْهُورِ . وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ آمِرًا بِغَسْلِ الرِّجْلَيْنِ كَمَا فِي قِرَاءَةِ النَّصْبِ ، وَكَمَا هُوَ الْوَاجِبُ فِي حَمْلِ قِرَاءَةِ الْخَفْضِ عَلَيْهِ ، تَوَهَّمَ بَعْضُ السَّلَفِ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَاسِخَةٌ لِرُخْصَةِ المَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ . وَلَيْسَ كَمَا زَعَمُوهُ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَسَحَ عَلَى الْخُفَّيْنِ بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ . **وَقَدْ ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ عَنْ رَسُولِ الله** ﷺ **مَشْرُوعِيَّةُ المَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ قَوْلًا مِنْهُ وَفِعْلًا** ، وَعِنْدَ الجُمْهُورِ أَنَّ الْكَعْبَيْنِ هُمَا : الْعَظْمَانِ النَّاتِئَانِ عِنْد مَفْصِلِ السَّاقِ وَالْقَدَمِ وَفِي كُلِّ قَدَمٍ كَعْبَانِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ كُلُّ ذَلِكَ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ النِّسَاءِ . ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ أَيْ : فَلِهَذَا سَهَّلَ عَلَيْكُمْ وَيَسَّرَ وَلَمْ يُعَسِّر ، بَلْ أَبَاحَ التَّيَمُّمَ عِنْدَ المَرَضِ ، وَعِنْدَ فَقْدِ المَاءِ ، تَوْسِعَةً عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً بِكُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نِعَمَهُ عَلَيْكُمْ فِيمَا شَرَعَهُ لَكُمْ مِنَ التَّوْسِعَةِ وَالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالتَّسْهِيلِ وَالسَّمَاحَةِ .

وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُذَكِّرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ فِي شَرْعِهِ لَهُمْ هَذَا الدِّينَ الْعَظِيمَ ، وَإِرْسَالِهِ إِلَيْهِمْ هَذَا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ ، وَمَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ فِي مُبَايَعَتِهِ عَلَى مُتَابَعَتِهِ وَمُنَاصَرَتِهِ وَمُؤَازَرَتِهِ ، وَالْقِيَامِ بِدِينِهِ ، وَإِبْلَاغِهِ عَنْهُ ، وَقَبُولِهِ مِنْهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ وَهَذِهِ هِيَ الْبَيْعَةُ الَّتِي كَانُوا يُبَايِعُونَ عَلَيْهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عِنْدَ إِسْلَامِهِمْ ، كَمَا قَالُوا : بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا ، وَأَثَرَةً عَلَيْنَا ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تَأْكِيدٌ وَتَحْرِيضٌ عَلَى مُوَاظَبَةِ التَّقْوَى فِي كُلِّ حَالٍ ، ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَتَخَالَجُ فِي الضَّمَائِرِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْخَوَاطِرِ ، فَقَالَ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ أَيْ : كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْحَقِّ للهِ ﷻ ، لَا لِأَجْلِ النَّاسِ وَالسُّمْعَةِ ، وَكُونُوا ﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أَيْ : بِالْعَدْلِ لَا بِالْجَوْرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ أَيْ : لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُ قَوْمٍ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ فِيهِمْ ، بَلِ اسْتَعْمِلُوا الْعَدْلَ فِي كُلِّ أَحَدٍ ، صَدِيقًا كَانَ أَوْ عَدُوًّا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أَيْ : عَدْلُكُمْ أَقْرَبُ إِلَى التَّقْوَى مِنْ تَرْكِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ مِنْ بَابِ اسْتِعْمَالِ أَفْعَلِ التَّفْضِيلِ فِي الْمَحَلِّ الَّذِي لَيْسَ فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنْهُ شَيْءٌ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أَيْ : وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَى مَا عَلِمَ مِنْ أَفْعَالِكُمُ الَّتِي عَمِلْتُمُوهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ﴾ ، أَيْ : لِذُنُوبِهِمْ ﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ وَهُوَ الْجَنَّةُ الَّتِي هِيَ مِنْ رَحْمَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ لَا يَنَالُوهَا بِأَعْمَالِهِمْ ، بَلْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ ، وَإِنْ كَانَ سَبَبُ وُصُولِ الرَّحْمَةِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ ، وَهُوَ تَعَالَى الَّذِي جَعَلَهَا أَسْبَابًا إِلَى نَيْلِ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَعَفْوِهِ وَرِضْوَانِهِ ، فَالْكُلُّ مِنْهُ وَلَهُ ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وَهَذَا مِنْ عَدْلِهِ تَعَالَى وَحِكْمَتِهِ وَحُكْمِهِ الَّذِي لَا يَجُورُ فِيهِ ، بَلْ هُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الْحَكِيمُ الْقَدِيرُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ﴾ عَنْ جَابِرٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَزَلَ مَنْزِلًا وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْعِضَاةِ يَسْتَظِلُّونَ تَحْتَهَا ، وَعَلَّقَ النَّبِيُّ سِلَاحَهُ بِشَجَرَةٍ ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى سَيْفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخَذَهُ

فَسَلَّهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ قَالَ : « اللهُ ﷻ » قَالَ الْأَعْرَابِيُّ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : « اللهُ » قَالَ : فَشَامَ الْأَعْرَابِيُّ السَّيْفَ فَدَعَا النَّبِي ﷺ أَصْحَابَهُ فَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَ الْأَعْرَابِيِّ وَهُوَ جَالِسٌ إِلَى جَنْبِهِ وَلَمْ يُعَاقِبْهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ يَعْنِي : مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللهِ كَفَاهُ اللهُ مَا أَهَمَّهُ ، وَحَفِظَهُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ وَعَصَمَهُ .

وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

لَمَّا أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْوَفَاءِ بِعَهْدِهِ وَمِيثَاقِهِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَمَرَهُمْ بِالْقِيَامِ بِالْحَقِّ وَالشَّهَادَةِ بِالْعَدْلِ ، وَذَكَّرَهُمْ نِعَمَهُ عَلَيْهِمُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ فِيمَا هَدَاهُمْ لَهُ مِنَ الْحَقِّ وَالْهُدَى ، شَرَعَ يُبَيِّنُ لَهُمْ كَيْفَ أَخَذَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ : الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، فَلَمَّا نَقَضُوا عُهُودَهُ وَمَوَاثِيقَهُ أَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ لَعْنًا مِنْهُ لَهُمْ ، وَطَرْدًا عَنْ بَابِهِ وَجَنَابِهِ ، وَحِجَابًا لِقُلُوبِهِمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، وَهُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ يَعْنِي : عُرَفَاءَ عَلَى قَبَائِلِهِمْ بِالْمُبَايَعَةِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ .

وَهَكَذَا لَمَّا بَايَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْأَنْصَارَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ ؛ كَانَ فِيهِمُ اثْنَا عَشَرَ نَقِيبًا : هَؤُلَاءِ كَانُوا عُرَفَاءَ عَلَى قَوْمِهِمْ لَيْلَتَئِذٍ عَنْ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمْ بِذَلِكَ ، وَهُمُ الَّذِينَ وُلُّوا الْمُعَاقَدَةَ وَالْمُبَايَعَةَ عَنْ قَوْمِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ﴾ أَيْ : بِحِفْظِي وَكِلَاءَتِي وَنَصْرِي ، ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ

وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى ﴾ أَيْ : صَدَّقْتُمُوهُمْ فِيمَا يَجِيئُونَكُمْ بِهِ مِنَ الْوَحْيِ ﴿ وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ أَيْ : نَصَرْتُمُوهُمْ وَآزَرْتُمُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ ، ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ وَهُوَ الإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِهِ وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ ، ﴿ لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ أَيْ : ذُنُوبَكُمْ أَمْحُوهَا وَأَسْتُرُهَا وَلَا أُؤَاخِذُكُمْ بِهَا ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أَيْ : أَدْفَعُ عَنْكُمُ المَحْذُورَ وَأُحَصِّلَ لَكُمُ المَقْصُودَ ، ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أَيْ : فَمَنْ خَالَفَ هَذَا المِيثَاقَ بَعْدَ عَقْدِهِ وَتَوْكِيدِهِ وَشَدِّهِ ، وَجَحَدَهُ وَعَامَلَهُ مُعَامَلَةَ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ ، فَقَدْ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ ، وَعَدَلَ عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ عِنْدَ مُخَالَفَتِهِمْ مِيثَاقَهُ وَنَقْضِهِمْ عَهْدَهُ . **فَقَالَ** : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ ﴾ أَيْ : فَبِسَبَبِ نَقْضِهِمُ المِيثَاقَ الَّذِي أُخِذَ عَلَيْهِمْ ، لَعَنَّاهُمْ أَيْ : أَبْعَدْنَاهُمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَطَرَدْنَاهُمْ عَنِ الْهُدَى ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ أَيْ : فَلَا يَتَّعِظُونَ بِمَوْعِظَةٍ لِغِلَظِهَا وَقَسَاوَتِهَا ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ أَيْ : فَسَدَتْ فُهُومُهُمْ وَسَاءَ تَصَرُّفُهُمْ فِي آيَاتِ الله ، وَتَأَوَّلُوا كِتَابَهُ عَلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَهُ ، وَحَمَلُوهُ عَلَى غَيْرِ مُرَادِهِ ، وَقَالُوا عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْ - عِيَاذًا بِالله مِنْ ذَلِكَ - ﴿ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ أَيْ : وَتَرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ رَغْبَةً عَنْهُ . ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ يَعْنِي : مَكْرُهُمْ وَغَدْرُهُمْ لَكَ وَلِأَصْحَابِكَ ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ﴾ وَهَذَا هُوَ عَيْنُ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ . **كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : مَا عَامَلْتَ مَنْ عَصَى اللهَ فِيكَ بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللهَ فِيهِ ، وَبِهَذَا يَحْصُلُ لَهُمْ تَأْلِيفٌ وَجَمْعٌ عَلَى الْحَقِّ ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ يَعْنِي بِهِ : الصَّفْحَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : هَذِهِ الآيَةُ ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ﴾ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ ﴾ أَيْ : وَمِنَ الَّذِينَ ادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ نَصَارَى مُتَابِعُونَ المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﷺ وَلَيْسُوا كَذَلِكَ ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمُ الْعُهُودَ وَالمَوَاثِيقَ عَلَى مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَمُنَاصَرَتِهِ وَمُؤَازَرَتِهِ وَاقْتِفَاءِ آثَارِهِ ، وَعَلَى الإِيمَانِ بِكُلِّ نَبِيٍّ يُرْسِلُهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ ، فَفَعَلُوا كَمَا فَعَلَ الْيَهُودُ ، خَالَفُوا المَوَاثِيقَ وَنَقَضُوا الْعُهُودَ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أَيْ : فَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ لِبَعْضِهِمْ بَعْضًا ، وَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ وَكَذَلِكَ طَوَائِفُ النَّصَارَى عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ لَا يَزَالُونَ مُتَبَاغِضِينَ مُتَعَادِينَ يُكَفِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَكُلُّ فِرْقَةٍ تُحَرِّمُ الأُخْرَى ، وَلَا تَدَعُهَا تَلِجُ مَعْبَدَهَا ، فَالمَلَكِيَّةُ تُكَفِّرُ الْيَعْقُوبِيَّةَ وَكَذَلِكَ الآخَرُونَ ، وَكَذَلِكَ النَّسْطُورِيَّةُ والآرْيُوسِيَّةُ ، كُلُّ طَائِفَةٍ تُكَفِّرُ الأُخْرَى فِي

هَذِهِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِلنَّصَارَى عَلَى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَا نَسَبُوهُ إِلَى الرَّبِّ ﷻ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ، عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ، أُمِّيِّهِمْ وَكِتَابِيِّهِمْ، وَأَنَّهُ بَعَثَهُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْفَرْقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ أَيْ : يُبَيِّنُ مَا بَدَّلُوهُ وَحَرَّفُوهُ وَأَوَّلُوهُ وَافْتَرَوْا عَلَى اللهِ فِيهِ، وَيَسْكُتُ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا غَيَّرُوهُ وَلَا فَائِدَةَ فِي بَيَانِهِ.

قَوْلُهُ : ﴿ مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ فَكَانَ الرَّجْمُ مِمَّا أَخْفَوْهُ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ **فَقَالَ** : ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ أَيْ : طُرُقَ النَّجَاةِ وَالسَّلَامَةِ وَمَنَاهِجَ الِاسْتِقَامَةِ، ﴿ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ أَيْ : يُنَجِّيهِمْ مِنَ الْمَهَالِكِ وَيُوَضِّحُ لَهُمْ أَبْيَنَ الْمَسَالِكِ، فَيَصْرِفُ عَنْهُمُ الْمَحْذُورَ، وَيُحَصِّلُ لَهُمْ أَحَبَّ الْأُمُورِ، وَيَنْفِي عَنْهُمُ الضَّلَالَةَ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى أَقْوَمِ حَالَةٍ.

لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا وَحَاكِمًا بِكُفْرِ النَّصَارَى فِي ادِّعَائِهِمْ فِي الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ، وَهُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ

الله ، وَخَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ ، أَنَّهُ هُوَ اللهُ - تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا - ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَكَوْنِهَا تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أَيْ : لَوْ أَرَادَ ذَلِكَ فَمَنْ ذَا الَّذِي كَانَ يَمْنَعُهُ مِنْهُ ، أَوْ مَنْ ذَا الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى صَرْفِهِ عَنْ ذَلِكَ ؟ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ أَيْ : جَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ مُلْكُهُ وَخَلْقُهُ وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَعَدْلِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَهَذَا رَدٌّ عَلَى النَّصَارَى . قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي كَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ أَيْ : نَحْنُ مُنْتَسِبُونَ إِلَى أَنْبِيَائِهِ ، وَهُمْ بَنُوهُ وَلَهُ بِهِمْ عِنَايَةٌ ، وَهُوَ يُحِبُّنَا ، وَلِهَذَا قَالُوا : نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ . **قَالَ اللهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ** : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ أَيْ : لَوْ كُنْتُمْ كَمَا تَدَّعُونَ أَبْنَاءَهُ وَأَحِبَّاءَهُ فَلِمَ أَعَدَّ لَكُمْ نَارَ جَهَنَّمَ عَلَى كُفْرِكُمْ وَكَذِبِكُمْ وَافْتِرَائِكُمْ ؟ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ أَيْ : لَكُمْ أُسْوَةُ أَمْثَالِكُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْحَاكِمُ فِي جَمِيعِ عِبَادِهِ ، ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : هُوَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ مُلْكُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ إِلَيْهِ فَيَحْكُمُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ . **أَمَّا قَوْلُهُمْ** : ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ ﴾ فَإِنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَى إِسْرَائِيلَ : وَلَدًا مِنْ وَلَدِكَ أُدْخِلُهُمُ النَّارَ فَيَكُونُونَ فِيهَا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، حَتَّى تُطَهِّرَهُمْ وَتَأْكُلَ خَطَايَاهُمْ ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ : أَنْ أَخْرِجُوا كُلَّ مَخْتُونٍ مِنْ وَلَدِ إِسْرَائِيلَ ، فَأَخْرِجُوهُمْ فَذَلِكَ قَوْلُهُمْ : ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ [آل عمران : ٢٤]

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، بِأَنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ الَّذِي لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَلَا رَسُولَ ، بَلْ هُوَ الْمُعَقِّبُ لِجَمِيعِهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ أَيْ : بَعْدَ مُدَّةٍ مُتَطَاوِلَةٍ مَا بَيْنَ إِرْسَالِهِ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ . وَالْمَشْهُورُ هُوَ أَنَّهَا سِتُّمِائَةِ سَنَةٍ ، وَكَانَتِ الْفَتْرَةُ بَيْنَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ آخِرِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، قَالَ ﷺ : ((**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ لَأَنَا ؛ لِأَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ**)) .

وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَطُمُوسٍ مِنَ السُّبُلِ ، وَتَغَيُّرِ الْأَدْيَانِ ،

وَكَثْرَةِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالنِّيرَانِ وَالصُّلْبَانِ ، فَكَانَتِ النِّعْمَةُ بِهِ أَتَمَّ النِّعَمِ ، وَالْحَاجَةُ إِلَيْهِ أَمْرٌ عَمَمٌ ، فَإِنَّ الْفَسَادَ كَانَ قَدْ عَمَّ جَمِيعَ الْبِلَادِ ، وَالطُّغْيَانَ وَالْجَهْلَ قَدْ ظَهَرَ فِي سَائِرِ الْعِبَادِ ، إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِبَقَايَا مِنْ دِينِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ مِنْ بَعْضِ أَحْبَارِ الْيَهُودِ وَعُبَّادِ النَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ أَيْ : لِئَلَّا تَحْتَجُّوا وَتَقُولُوا - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ بَدَّلُوا دِينَهُمْ وَغَيَّرُوهُ - مَا جَاءَنَا مِنْ رَسُولٍ يُبَشِّرُ بِالْخَيْرِ وَيُنْذِرُ مِنَ الشَّرِّ . ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ : ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ مَعْنَاهُ** : إِنِّي قَادِرٌ عَلَى عِقَابِ مَنْ عَصَانِي وَثَوَابِ مَنْ أَطَاعَنِي .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى عليه السلام فِيمَا ذَكَّرَ بِهِ قَوْمَهُ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ وَآلَائِهِ لَدَيْهِمْ ، فِي جَمْعِهِ لَهُمْ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى طَرِيقَتِهِمُ الْمُسْتَقِيمَةِ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ ﴾ أَيْ : كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ قَامَ فِيكُمْ نَبِيٌّ مِنْ لَدُنْ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ وَكَذَلِكَ كَانُوا لَا يَزَالُ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ يَدْعُونَ إِلَى اللهِ وَيُحَذِّرُونَ نِقْمَتَهُ حَتَّى خُتِمُوا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام ثُمَّ أَوْحَى اللهُ إِلَى خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْمَنْسُوبِ إِلَى إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَهُوَ أَشْرَفُ مِنْ كُلِّ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنْهُمْ ﷺ . ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ **قِيلَ** : بِامْتِلَاكِ الْخَادِمِ وَالْمَرْأَةِ وَالْبَيْتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يَعْنِي : عَالَمِي زَمَانِكُمْ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَشْرَفَ

النَّاسِ فِي زَمَانِهِمْ مِنَ الْيُونَانِ وَالْقِبْطِ وَسَائِرِ أَصْنَافِ بَنِي آدَمَ .

وَالمَقْصُودُ : أَنَّهُمْ كَانُوا أَفْضَلَ أَهْلِ زَمَانِهِمْ ، وَإِلَّا فَهَذِهِ الْأُمَّةُ أَشْرَفُ مِنْهُمْ وَأَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ وَأَكْمَلُ شَرِيعَةً ، وَأَقْوَمُ مِنْهَاجًا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَحْرِيضِ مُوسَى عليه السلام لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الْجِهَادِ وَالدُّخُولِ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ الَّذِي كَانَ بِأَيْدِيهِمْ فِي زَمَانِ أَبِيهِمْ يَعْقُوبَ لَمَّا ارْتَحَلَ هُوَ وَبَنُوهُ وَأَهْلُهُ إِلَى بِلَادِ مِصْرَ أَيَّامَ يُوسُفَ عليه السلام ، ثُمَّ لَمْ يَزَالُوا بِهَا حَتَّى خَرَجُوا مَعَ مُوسَى فَوَجَدُوا فِيهَا قَوْمًا مِنَ الْعَمَالِقَةِ الْجَبَّارِينَ قَدِ اسْتَحْوَذُوا عَلَيْهَا وَتَمَلَّكُوهَا ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ مُوسَى عليه السلام بِالدُّخُولِ إِلَيْهَا وَبِقِتَالِ أَعْدَائِهِمْ ، وَبَشَّرَهُمْ بِالنُّصْرَةِ وَالظَّفَرِ عَلَيْهِمْ ، فَنَكَلُوا وَعَصَوْا وَخَالَفُوا أَمْرَهُ ، فَعُوقِبُوا بِالذَّهَابِ فِي التِّيهِ وَالتَّمَادِي فِي سَيْرِهِمْ حَائِرِينَ ، لَا يَدْرُونَ كَيْفَ يَتَوَجَّهُونَ إِلَى مَقْصِدٍ مُدَّةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى تَفْرِيطِهِمْ فِي أَمْرِ اللهِ تَعَالَى ، **فَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَالَ** : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾ أَيْ : الْمُطَهَّرَةَ . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** هِيَ : الطُّورُ وَمَا حَوْلَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ أَيْ : الَّتِي وَعَدَكُمُوهَا اللهُ عَلَى لِسَانِ أَبِيكُمْ إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ وِرَاثَةُ مَنْ آمَنَ مِنْكُمْ ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ ﴾ أَيْ : وَلَا تَنْكُلُوا عَنِ الْجِهَادِ ، ﴿ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ أَيْ : اعْتَذَرُوا بِأَنَّ فِي هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّتِي أَمَرْتَنَا بِدُخُولِهَا وَقِتَالِ أَهْلِهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ، أَيْ ذَوِي خَلْقٍ هَائِلَةٍ وَقُوًى شَدِيدَةٍ ، وَإِنَّنَا لَا نَقْدِرُ عَلَى مُقَاوَمَتِهِمْ وَلَا مُصَاوَلَتِهِمْ وَلَا يُمْكِنُنَا الدُّخُولَ إِلَيْهَا مَا دَامُوا فِيهَا ، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا دَخَلْنَاهَا وَإِلَّا فَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ أَيْ : فَلَمَّا نَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَمُتَابَعَةِ رَسُولِ اللهِ مُوسَى عليه السلام حَرَّضَهُمْ رَجُلَانِ ، للهِ عَلَيْهِمَا نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَهُمَا مِمَّنْ يَخَافُ أَمْرَ اللهِ وَيَخْشَى عِقَابَهُ ، **وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ** : ((قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يُخَافُونَ)) أَيْ : مِمَّنْ لَهُمَا مَهَابَةٌ وَمَوْضِعٌ مِنَ النَّاسِ . **فَقَالَا** : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ وَاتَّبَعْتُمْ أَمْرَهُ وَوَافَقْتُمْ رَسُولَهُ نَصَرَكُمُ اللهُ عَلَى أَعْدَائِكُمْ ، وَأَيَّدَكُمْ وَظَفَّرَكُمْ بِهِمْ وَدَخَلْتُمُ الْبَلَدَ الَّتِي كَتَبَهَا لَكُمْ ، فَلَمْ يَنْفَعْ ذَاكَ فِيهِمْ شَيْئًا . ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ . وَهَذَا نُكُولٌ مِنْهُمْ عَنِ الْجِهَادِ ، وَمُخَالَفَةٌ لِرَسُولِهِمْ ، وَتَخَلُّفٌ عَنْ مُقَاتَلَةِ الْأَعْدَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ يَعْنِي : لَمَّا نَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنِ الْقِتَالِ غَضِبَ عَلَيْهِمْ مُوسَى عليه السلام وَقَالَ دَاعِيًا عَلَيْهِمْ : ﴿ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ

إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ﴾ أَيْ : لَيْسَ أَحَدٌ يُطِيعُنِي مِنْهُمْ فَيَمْتَثِلَ أَمْرَ اللهِ وَيُجِيبَ إِلَى مَا دَعَوْتُ إِلَيْهِ إِلَّا أَنَا وَأَخِي هَارُونَ ﴿ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : يَعْنِي : اِقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، وَافْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنهِمْ ، **وَقَالَ آخرُونَ** : اُفْرُقْ : اِفْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الْآيَةُ . لَمَّا دَعَا عَلَيْهِمْ مُوسَى عليه السلام حِينَ نَكَلُوا عَنِ الْجِهَادِ ، حَكَمَ اللهُ بِتَحْرِيمِ دُخُولِهَا عَلَيْهِمْ قَدْرَ مُدَّةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، **عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ** : سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الْآيَةُ . قَالَ : فَتَاهُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً يُصْبِحُونَ كُلَّ يَوْمٍ يَسِيرُونَ لَيْسَ لَهُمْ قَرَارٌ ، ثُمَّ ظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ فِي التِّيهِ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ، وَهَذَا قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثِ الْفُتُونِ ، ثُمَّ كَانَتْ وَفَاةُ هَارُونَ عليه السلام ، ثُمَّ بَعْدَهُ بِمُدَّةِ ثَلَاثِ سِنِينَ وَفَاةُ مُوسَى الْكَلِيمِ عليه السلام ، وَأَقَامَ اللهُ فِيهِمْ يُوشَعَ بْنَ نُونٍ عليه السلام نَبِيًّا خَلِيفَةً عَنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ، وَمَاتَ أَكْثَرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ هُنَاكَ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ سِوَى يُوشَعَ وَكَالِبَ ، وَمِنْ هَهُنَا قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾ هَذَا وَقْفٌ تَامٌّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ مَنْصُوبٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فَلَمَّا انْقَضَتِ الْمُدَّةُ خَرَجَ بِهِمْ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ عليه السلام أَوْ بِمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ وَبِسَائِرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ - مِنَ الْجِيلِ الثَّانِي - فَقَصَدَ بِهِمْ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَحَاصَرَهَا ، فَكَانَ فَتْحُهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ ، فَلَمَّا تَضَيَّفَتِ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ وَخَشِيَ دُخُولَ السَّبْتِ عَلَيْهِمْ ، قَالَ : إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيَّ ، فَحَبَسَهَا اللهُ تَعَالَى حَتَّى فَتَحَهَا ، وَأَمَرَ اللهُ يُوشَعَ بْنَ نُونٍ أَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ يَدْخُلُونَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ أَنْ يَدْخُلُوا بَابَهَا سُجَّدًا وَهُمْ يَقُولُونَ : حِطَّةٌ ، أَيْ حُطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا فَبَدَّلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ ، وَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى اسْتَاهِهِمْ ، وَهُمْ يَقُولُونَ : حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا كُلُّهُ فِي ((سُورَةِ الْبَقَرَةِ)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ تَسْلِيَةٌ لِمُوسَى عليه السلام عَنْهُمْ أَيْ : لَا تَأْسَفْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ فِيمَا حَكَمْتَ عَلَيْهِمْ بِهِ ، فَإِنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ تَضَمَّنَتْ تَقْرِيعُ الْيَهُودِ وَبَيَانُ فَضَائِحِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ للهِ وَلِرَسُولِهِ ، وَنُكُولِهِمْ عَنْ طَاعَتِهِمَا فِيمَا أَمَرَاهُمْ بِهِ مِنَ الْجِهَادِ ، فَضَعُفَتْ أَنْفُسُهُمْ عَنْ مُصَابَرَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُجَالَدَتِهِمْ وَمُقَاتَلَتِهِمْ مَعَ أَنَّ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ رَسُولَ اللهِ عليه السلام وَكَلِيمه وَصَفيه مِنْ خَلْقِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، وَهُوَ يَعِدُهُمْ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ بِأَعْدَائِهِمْ ، هَذَا مَعَ مَا شَاهَدُوا مِنْ فِعْلِ اللهِ بِعَدُوِّهِمْ فِرْعَوْنَ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْغَرَقِ لَهُ وَلِجُنُودِهِ فِي الْيَمِّ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ، لِتَقَرَّ بِهِ أَعْيُنُهُمْ ، وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قِدَمٍ ، ثُمَّ يَنْكُلُونَ عَنْ مُقَاتَلَةِ أَهْلِ بَلَدٍ هِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى دِيَارِ مِصْرَ لَا تُوَازِي عُشْرَ الْمِعْشَارِ فِي عُدَّةِ أَهْلِهَا وَعَدَدِهِمْ ، فَظَهَرَتْ

قَبَائِحُ صَنِيعِهِمْ لِلْخَاصِّ وَالْعَامِّ ، وَافْتَضَحُوا فَضِيحَةً لَا يُغَطِّيهَا اللَّيْلُ وَلَا يَسْتُرُهَا الذَّيْلُ ، هَذَا وَهُمْ فِي جَهْلِهِمْ يَعْمَهُونَ ، وَفِي غَيِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ، وَهُمُ الْبُغَضَاءُ إِلَى اللهِ وَأَعْدَاؤُهُ ، وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ : نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، فَقَبَّحَ اللهُ وُجُوهَهُمُ الَّتِي مُسِخَ مِنْهَا الْخَنَازِيرُ وَالْقُرُودُ ، وَأَلْزَمَهُمْ لَعْنَةً تَصْحَبُهُمْ إِلَى النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ، وَيَقْضِي لَهُمْ فِيهَا بِتَأْبِيدِ الْخُلُودِ ، وَقَدْ فَعَلَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي جَمِيعِ الْوُجُود .

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا وَخِيمَ عَاقِبَةِ الْبَغْيِ وَالْحَسَدِ وَالظُّلْمِ فِي خَبَرِ ابْنَيْ آدَمَ لِصُلْبِهِ . وَهُمَا : قَابِيلُ وَهَابِيلُ ، كَيْفَ عَدَا أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ فَقَتَلَهُ بَغْيًا عَلَيْهِ وَحَسَدًا لَهُ فِيمَا وَهَبَهُ اللهُ مِنَ النِّعْمَةِ ، وَتَقَبُّلِ الْقُرْبَانِ الَّذِي أَخْلَصَ فِيهِ للهِ ﷻ ، فَفَازَ الْمَقْتُولُ بِوَضْعِ الْآثَامِ وَالدُّخُولِ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَخَابَ الْقَاتِلُ وَرَجَعَ بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ فِي الدَّارَيْنِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : اقْصُصْ عَلَى هَؤُلَاءِ الْبُغَاةِ الْحَسَدَةِ إِخْوَانِ الْخَنَازِيرِ وَالْقِرَدَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَأَمْثَالِهِمْ ، خَبَرَ ابْنَيْ آدَمَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : عَلَى الْجَلِيَّةِ وَالْأَمْرِ الَّذِي لَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا كَذِبَ وَلَا وَهْمَ وَلَا تَبْدِيلَ وَلَا زِيَادَةَ وَلَا نُقْصَانَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ [آل عمران : ٦٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الكهف : ١٣] ، **وَكَانَ مِنْ خَبَرِهِمَا فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ** أَنَّ اللهَ تَعَالَى شَرَعَ لِآدَمَ عليه السلام أَنْ يُزَوِّجَ بَنَاتَهُ مِنْ بَنِيهِ لِضَرُورَةِ الْحَالِ ، وَلَكِنْ قَالُوا : كَانَ يُولَدُ لَهُ فِي كُلِّ بَطْنٍ ذَكَرٌ وَأُنْثَى ، فَكَانَ يُزَوِّجُ أُنْثَى هَذَا الْبَطْنِ لِذَكَرِ الْبَطْنِ الْآخَرِ ، وَكَانَتْ أُخْتُ هَابِيلَ دَمِيمَةً وَأُخْتُ قَابِيلَ وَضِيئَةً ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْثِرَ بِهَا عَلَى أَخِيهِ ، فَأَبَى آدَمُ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يُقَرِّبَا قُرْبَانًا ، فَمَنْ تُقُبِّلَ مِنْهُ فَهِيَ لَهُ ، فَتُقُبِّلَ مِنْ هَابِيلَ ، وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْ قَابِيلَ فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمَا مَا قَصَّهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ . ثُمَّ الْمَشْهُورُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ أَنَّ الَّذِي قَرَّبَ الشَّاةَ هُوَ هَابِيلُ ، وَأَنَّ الَّذِي قَرَّبَ الطَّعَامَ هُوَ قَابِيلُ ، وَأَنَّهُ تُقُبِّلَ مِنْ هَابِيلَ شَاتُهُ ، وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْ قَابِيلَ .

وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : مِمَّنِ اتَّقَى اللهَ فِي فِعْلِهِ . ثُمَّ يَقُولُ لَهُ أَخُوهُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ الَّذِي تَقَبَّلَ اللهُ قُرْبَانَهُ لِتَقْوَاهُ حِينَ تَوَاعَدَهُ أَخُوهُ بِالْقَتْلِ عَلَى غَيْرِ مَا ذَنْبٍ مِنْهُ إِلَيْهِ : ﴿ لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ أَيْ : لَا أُقَابِلُكَ عَلَى صَنِيعِكَ الْفَاسِدِ بِمِثْلِهِ فَأَكُونُ أَنَا وَأَنْتَ سَوَاءٌ فِي الْخَطِيئَةِ ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : مِنْ أَنْ أَصْنَعَ كَمَا تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ ، بَلْ أَصْبِرُ وَأَحْتَسِبُ . ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : أَيْ : بِإِثْمِ قَتْلِي وَإِثْمِكَ الَّذِي عَلَيْكَ قَبْلَ ذَلِكَ . وَهَذَا الْكَلَامُ مُتَضَمِّنٌ مَوْعِظَةً لَهُ لَوِ اتَّعَظَ ، وَزَجْرًا لَهُ لَوِ انْزَجَرَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ أَيْ : تَتَحَمَّلُ إِثْمِي وَإِثْمَكَ ﴿ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ ﴾ أَيْ : فَحَسَّنَتْ وَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ وَشَجَّعَتْهُ عَلَى قَتْلِ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ، أَيْ : بَعْدَ هَذِهِ الْمَوْعِظَةِ وَهَذَا الزَّجْرِ . ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ **رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ** : لَمَّا مَاتَ الْغُلَامُ تَرَكَهُ بِالْعَرَاءِ ، وَلَا يَعْلَمُ كَيْفَ يُدْفَنُ فَبَعَثَ اللهُ غُرَابَيْنِ أَخَوَيْنِ فَاقْتَتَلَا ، فَقَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ ، فَحَفَرَ لَهُ ثُمَّ حَثَى عَلَيْهِ ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ : ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : عَلَاهُ اللهُ بِنَدَامَةٍ بَعْدَ خُسْرَانٍ ، فَهَذِهِ أَقْوَالُ الْمُفَسِّرِينَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ ، وَكُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ هَذَيْنِ ابْنَا آدَمَ لِصُلْبِهِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ .

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : مِنْ أَجْلِ قَتْلِ ابْنِ آدَمَ أَخَاهُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا ﴿ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أَيْ : شَرَعْنَا لَهُمْ وَأَعْلَمْنَاهُمْ ﴿ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ

جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أَيْ : مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ سَبَبٍ مِنْ قِصَاصٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ وَاسْتَحَلَّ قَتْلَهَا بِلَا سَبَبٍ وَلَا جِنَايَةٍ ، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ عِنْدَهُ بَيْنَ نَفْسٍ وَنَفْسٍ ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ أَيْ : حَرَّمَ قَتْلَهَا وَاعْتَقَدَ ذَلِكَ ، فَقَدْ سَلِمَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْهُ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أَيْ : بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ ، وَالدَّلَائِلِ الْوَاضِحَةِ ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ ، وَهَذَا تَقْرِيعٌ لَهُمْ وَتَوْبِيخٌ عَلَى ارْتِكَابِهِمُ الْمَحَارِمَ بَعْدَ عِلْمِهِمْ بِهَا ، كَمَا كَانَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ مِمَّنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْيَهُودِ ، الَّذِينَ كَانُوا يُقَاتِلُونَ مَعَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ إِذَا وَقَعَتْ بَيْنَهُمُ الْحُرُوبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، ثُمَّ إِذَا وَضَعَتِ الْحُرُوبُ أَوْزَارَهَا فَدَوْا مَنْ أَسَرُوهُ وَوَدَوْا مَنْ قَتَلُوهُ ، وَقَدْ أَنْكَرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فِي « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ الْآيَةُ . الْمُحَارَبَةُ : هِيَ الْمُضَادَّةُ وَالْمُخَالَفَةُ ، وَهِيَ صَادِقَةٌ عَلَى الْكُفْرِ وَعَلَى قَطْعِ الطَّرِيقِ وَإِخَافَةِ السَّبِيلِ ، وَكَذَا الْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ يُطْلَقُ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الشَّرِّ . **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** ﷺ : أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْلٍ - ثَمَانِيَةً - قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ ، فَاسْتَوْخَمُوا الْمَدِينَةَ وَسَقِمَتْ أَجْسَامُهُمْ ، فَشَكَوْا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَلِكَ فَقَالَ : « **أَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِينَا فِي إِبِلِهِ ، فَتُصِيبُونَ مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا** » فَقَالُوا : بَلَى ، فَخَرَجُوا فَشَرِبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا فَصَحُّوا فَقَتَلُوا الرَّاعِيَ وَطَرَدُوا الْإِبِلَ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ فَأُدْرِكُوا ، فَجِيءَ بِهِمْ فَأَمَرَ بِهِمْ فَقُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ وَسُمِرَتْ أَعْيُنُهُمْ ثُمَّ نُبِذُوا فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا . وَعِنْدَ الْبُخَارِيِّ قَالَ أَبُو قِلَابَةَ : فَهَؤُلَاءِ سَرَقُوا وَقَتَلُوا وَكَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَحَارَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ . ثُمَّ قَدِ احْتَجَّ بِعُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ فِي ذَهَابِهِمْ إِلَى أَنَّ حُكْمَ الْمُحَارَبَةِ فِي الْأَمْصَارِ وَفِي السَّبَلَانِ عَلَى السَّوَاءِ ؛ لِقَوْلِهِ : ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ الْآيَةُ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : مَنْ شَهَرَ السِّلَاحَ فِي فِئَةِ الْإِسْلَامِ وَأَخَافَ السَّبِيلَ ، ثُمَّ ظُفِرَ بِهِ وَقُدِرَ عَلَيْهِ ، فَإِمَامُ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ بِالْخِيَارِ إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ ، وَإِنْ شَاءَ صَلَبَهُ ، وَإِنْ شَاءَ قَطَعَ يَدَهُ وَرِجْلَهُ ، وَمُسْتَنَدُ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ ظَاهِرَ ﴿ أَو ﴾ لِلتَّخْيِيرِ ، **وَقَالَ الْجُمْهُورُ** : هَذِهِ الْآيَةُ مُنَزَّلَةٌ عَلَى أَحْوَالٍ . إِذَا قَتَلُوا وَأَخَذُوا الْمَالَ : قُتِلُوا وَصُلِبُوا ، وَإِذَا قَتَلُوا وَلَمْ يَأْخُذُوا الْمَالَ : قُتِلُوا وَلَمْ يُصْلَبُوا ، وَإِذَا أَخَذُوا الْمَالَ وَلَمْ يَقْتُلُوا : قُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ، وَإِذَا أَخَافُوا السَّبِيلَ وَلَمْ يَأْخُذُوا

المَالَ : نُفُوا مِنَ الْأَرْضِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : الْمُرَادُ بِالنَّفْيِ هَهُنَا السَّجْنُ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : أَنْ يُخْرَجَ مِنْ بَلَدِهِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ فَيُسْجَنَ فِيهِ . ﴿ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُهُ مِنْ قَتْلِهِمْ وَمِنْ صَلْبِهِمْ ، وَقَطْعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ مِنْ خِلَافٍ وَنَفْيِهِمْ ، خِزْيٌ لَهُمْ بَيْنَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، مَعَ مَا ادَّخَرَ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ﴿ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : إِذَا لَمْ يَتُوبُوا مِنْ فِعْلِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى هَلَكُوا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَمَّا عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ : إِنَّهَا فِي أَهْلِ الشِّرْكِ فَظَاهِرٌ ، وَأَمَّا الْمُحَارِبُونَ الْمُسْلِمُونَ : فَإِذَا تَابُوا قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُ يَسْقُطُ عَنْهُمُ انْحِتَامُ الْقَتْلِ وَالصَّلْبِ وَقَطْعِ الرِّجْلِ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ وَهِيَ إِذَا قُرِنَتْ بِطَاعَتِهِ كَانَ الْمُرَادُ بِهَا الانْكِفَافَ عَنِ الْمَحَارِمِ وَتَرْكَ الْمَنْهِيَّاتِ ، **وَقَدْ قَالَ بَعْدَهَا** : ﴿ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : أَيْ : الْقُرْبَةُ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : أَيْ : تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ وَالْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيهِ .

وَالْوَسِيلَةُ : هِيَ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى تَحْصِيلِ الْمَقْصُودِ ، **وَالْوَسِيلَةُ أَيْضًا** : عَلَمٌ عَلَى أَعْلَى مَنْزِلَةٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَهِيَ مَنْزِلَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَدَارُهُ فِي الْجَنَّةِ ، وَهِيَ أَقْرَبُ أَمْكِنَةِ الْجَنَّةِ إِلَى الْعَرْشِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لَمَّا أَمَرَهُمْ بِتَرْكِ الْمَحَارِمِ وَفِعْلِ الطَّاعَاتِ أَمَرَهُمْ بِقِتَالِ الْأَعْدَاءِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ الْخَارِجِينَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَالتَّارِكِينَ لِلدِّينِ الْقَوِيمِ ، وَرَغَّبَهُمْ فِي ذَلِكَ بِالَّذِي أَعَدَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : مِنَ الْفَلَاحِ وَالسَّعَادَةِ الْعَظِيمَةِ الْخَالِدَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِمَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ الْكُفَّارِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَبِمِثْلِهِ لِيَفْتَدِيَ بِذَلِكَ مِنْ عَذَابِ اللهِ - الَّذِي قَدْ أَحَاطَ بِهِ وَتَيَقَّنَ وُصُولَهُ إِلَيْهِ - مَا تُقُبِّلَ ذَلِكَ مِنْهُ ، بَلْ لَا مَنْدُوحَةَ عَنْهُ وَلَا مَحِيصَ لَهُ وَلَا مَنَاصَ ، وَلِهَذَا قَالَ :

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : مُوجِعٌ . ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ فَلَا يَزَالُونَ يُرِيدُونَ الْخُرُوجَ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ شِدَّتِهِ وَأَلِيمِ مَسِّهِ ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، وَكُلَّمَا رَفَعَهُم اللَّهَبُ فَصَارُوا فِي أَعْلَى جَهَنَّمَ ضَرَبَتْهُمُ الزَّبَانِيَةُ بِالْمَقَامِعِ الْحَدِيدِ فَيَرُدُّوهُمْ إِلَى أَسْفَلِهَا ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ لَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا ، وَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا .

وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى حَاكِمًا وَآمِرًا بِقَطْعِ يَدِ السَّارِقِ وَالسَّارِقَةِ . وَالْحُكْمُ عِنْدَ جَمِيعِ الْعُلَمَاءِ : أَنَّ الْيَمِينَ هِيَ الَّتِي تُقْطَعُ . ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا ﴾ أَيْ : مُجَازَاةً عَلَى صَنِيعِهِمَا السَّيِّئِ فِي أَخْذِهِمَا أَمْوَالَ النَّاسِ بِأَيْدِيهِمْ ، فَنَاسَبَ أَنْ يُقْطَعَ مَا اسْتَعَانَا بِهِ فِي ذَلِكَ ﴿ نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : تَنْكِيلًا مِنَ اللهِ بِهِمَا عَلَى ارْتِكَابِ ذَلِكَ ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أَيْ : فِي انْتِقَامِهِ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : مَنْ تَابَ بَعْدَ سَرِقَتِهِ وَأَنَابَ إِلَى اللهِ ، فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، فَأَمَّا أَمْوَالُ النَّاسِ فَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَيْهِمْ أَوْ بَدَلِهَا عِنْدَ الْجُمْهُورِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمَالِكُ لِجَمِيعِ ذَلِكَ ، الْحَاكِمُ فِيهِ الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ . وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ

ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ فِي الْمُسَارِعِينَ فِي الْكُفْرِ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ الْمُقَدِّمِينَ آرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ عَلَى شَرَائِعِ اللهِ ﷻ: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ أَيْ: أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَقُلُوبُهُمْ خَرَابٌ خَاوِيَةٌ مِنْهُ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُنَافِقُونَ ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أَيْ: مُسْتَجِيبُونَ لَهُ مُنْفَعِلُونَ عَنْهُ ﴿ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ أَيْ: يَسْتَجِيبُونَ لِأَقْوَامٍ آخَرِينَ لَا يَأْتُونَ مَجْلِسَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَتَسَمَّعُونَ الْكَلَامَ وَيَنْهُونَهُ إِلَى أَقْوَامٍ آخَرِينَ مِمَّنْ لَا يَحْضُرُ عِنْدَكَ مِنْ أَعْدَائِكَ ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾ أَيْ: يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَيُبَدِّلُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ﴾. وَالصَّحِيحُ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ زَنَيَا وَكَانُوا قَدْ بَدَّلُوا كِتَابَ اللهِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْأَمْرِ بِرَجْمِ مَنْ أُحْصِنَ مِنْهُمْ، فَحَرَّفُوهُ وَاصْطَلَحُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى الْجَلْدِ مِائَةِ جَلْدَةٍ، وَالتَّحْمِيمِ وَالْإِرْكَابِ عَلَى حِمَارَيْنِ مَقْلُوبَيْنِ، فَلَمَّا وَقَعَتْ تِلْكَ الْكَائِنَةُ بَعْدَ الْهِجْرَةِ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: تَعَالَوْا حَتَّى نَتَحَاكَمَ إِلَيْهِ، فَإِنْ حَكَمَ بِالْجَلْدِ وَالتَّحْمِيمِ فَخُذُوا عَنْهُ وَاجْعَلُوهُ حُجَّةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللهِ، وَيَكُونُ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ قَدْ حَكَمَ بَيْنَكُمْ بِذَلِكَ، وَإِنْ حَكَمَ بِالرَّجْمِ فَلَا تَتَّبِعُوهُ فِي ذَلِكَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: إِنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنَيَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟ فَقَالُوا: نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ: كَذَبْتُمْ إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ، فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ ابْنُ سَلَامٍ: اِرْفَعْ يَدَكَ، فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرُجِمَا، فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَحْنِي عَلَى الْمَرْأَةِ يَقِيهَا الْحِجَارَةَ. فَهَذِهِ الرِّوَايَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَكَمَ بِمُوَافَقَةِ حُكْمِ التَّوْرَاةِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الْإِلْزَامِ لَهُمْ بِمَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ؛ لِأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِاتِّبَاعِ الشَّرْعِ الْمُحَمَّدِيِّ لَا مَحَالَةَ، وَلَكِنَّ هَذَا بِوَحْيٍ خَاصٍّ مِنَ اللهِ ﷻ إِلَيْهِ بِذَلِكَ، وَسُؤَالُهُ إِيَّاهُمْ عَنْ ذَلِكَ لِيُقَرِّرَهُمْ عَلَى مَا بِأَيْدِيهِمْ مِمَّا تَوَاطَئُوا عَلَى كِتْمَانِهِ وَجَحْدِهِ

وَعَدَمِ الْعَمَلِ بِهِ تِلْكَ الدُّهُورِ الطَّوِيلَةِ، هَوًى مِنْهُمْ وَشَهْوَة، لَا لِاعْتِقَادِهِمْ صِحَّةَ مَا يَحْكُمُ بِهِ، **وَلِهَذَا قَالُوا**: ﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا ﴾ أَيْ: الْجَلْدَ وَالتَّحْمِيمَ ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ أَيْ: اقْبَلُوهُ ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ أَيْ: مِنْ قَبُولِهِ وَاتِّبَاعِهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أَيْ: الْبَاطِلِ ﴿ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ أَيْ: الْحَرَامُ وَهُوَ الرِّشْوَةُ، **ثُمَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ** ﴿ فَإِن جَآءُوكَ ﴾ أَيْ: يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْكَ ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ: فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَحْكُمَ بَيْنَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ بِتَحَاكُمِهِمْ إِلَيْكَ اتِّبَاعَ الْحَقِّ، بَلْ مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ. **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ**: هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٩] ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ أَيْ: بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَإِنْ كَانُوا ظَلَمَةً خَارِجِينَ عَنْ طَرِيقِ الْعَدْلِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ فِي آرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَمَقَاصِدِهِمُ الزَّائِغَةِ، فِي تَرْكِهِمْ مَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ، الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِالتَّمَسُّكِ بِهِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجُوا عَنْ حُكْمِهِ وَعَدَلُوا إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا يَعْتَقِدُونَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بُطْلَانَهُ وَعَدَمَ لُزُومِهِ لَهُمْ فَقَالَ: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُولَٰٓئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾. ثُمَّ مَدَحَ التَّوْرَاةَ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ **فَقَالَ**: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ أَيْ: لَا يَخْرُجُونَ عَنْ حُكْمِهَا وَلَا يُبَدِّلُونَهَا وَلَا يُحَرِّفُونَهَا ﴿ وَالرَّبَّٰنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ﴾ أَيْ: وَكَذَلِكَ الرَّبَّانِيُّونَ: وَهُمُ الْعُلَمَاءُ الْعُبَّادُ، وَالْأَحْبَارُ: وَهُمُ الْعُلَمَاءُ ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَٰبِ اللَّهِ ﴾: أَيْ بِمَا اسْتُودِعُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ الَّذِي أُمِرُوا أَنْ يُظْهِرُوهُ وَيَعْمَلُوا بِهِ ﴿ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ أَيْ: لَا تَخَافُوا مِنْهُمْ وَخَافُونِي ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْكَٰفِرُونَ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ**: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ. أَوْ مَنْ جَحَدَ حُكْمَ اللهِ الْمُنَزَّلِ فِي الْكِتَابِ. وَسُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَنْ قَوْلِهِ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم ﴾ الْآيَةُ. قَالَ: هِيَ بِهِ كُفْرٌ، **قَالَ ابْنُ طَاوُسٍ**: وَلَيْسَ كَمَنْ كَفَرَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ. **وَعَنْ عَطَاءٍ أَنَّهُ قَالَ**: كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ، وَظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ، وَفِسْقٌ دُونَ فِسْقٍ. **وَعَنْ طَاوُسٍ**: قَالَ: لَيْسَ بِكُفْرٍ يَنْقُلُ عَنِ الْمِلَّةِ.

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ

بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا وُبِّخَتْ بِهِ الْيَهُودُ وَقُرِّعُوا عَلَيْهِ ، فَإِنَّ عِنْدَهُمْ فِي نَصِّ التَّوْرَاةِ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَهُمْ يُخَالِفُونَ ذَلِكَ عَمْدًا وَعِنَادًا ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَاكَ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ لأَنَّهُمْ جَحَدُوا حُكْمَ الله قَصْدًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا وَعَمْدًا ،**وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يُنْصِفُوا المَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ فِي الأَمْرِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِالْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْجَمِيعِ فِيهِ ، فَخَالَفُوا وَظَلَمُوا وَتَعَدَّوْا عَلَى بَعْضِهِمْ بَعْضًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾ **قِيلَ** : فَمَنْ عَفَا عَنْهُ وَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ ، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لِلْمَطْلُوبِ وَأَجْرٌ لِلطَّالِبِ **وَقِيلَ** : كَفَّارَةٌ لِلْجَارِحِ وَأَجْرُ المَجْرُوحِ عَلَى **الله** ﷻ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ **قَدْ تَقَدَّمَ عَنْ طَاوُسٍ وَعَطَاءٍ أَنَّهُمَا قَالَا** : كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ ، وَظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ ، وَفِسْقٌ دُونَ فِسْقٍ .

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ أَيْ : أَتْبَعْنَا عَلَى آثَارِهِمْ يَعْنِي أَنْبِيَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ أَيْ : مُؤْمِنًا بِهَا حَاكِمًا بِمَا فِيهَا ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ أَيْ : هُدًى إِلَى الْحَقِّ وَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي إِزَالَةِ الشُّبُهَاتِ وَحَلِّ الْمُشْكِلَاتِ : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ أَيْ : مُتَّبِعًا لَهَا غَيْرَ مُخَالِفٍ لِمَا فِيهَا إِلَّا فِي الْقَلِيلِ مِمَّا بَيَّنَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْضَ مَا كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ . ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : وَجَعَلْنَا الْإِنْجِيلَ هُدًى يُهْتَدَى بِهِ ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ أَيْ : زَاجِرًا عَنِ ارْتِكَابِ المَحَارِمِ وَالمَآثِمِ ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : لِمَنِ اتَّقَى اللهَ وَخَافَ وَعِيدَهُ وَعِقَابَهُ .

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ قُرِئَ ﴿ وَلِيَحْكُمَ ﴾ بِالنَّصْبِ ، عَلَى أَنَّ اللَّامَ لَامُ كَيْ ، أَيْ : وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ لِيَحْكُمَ أَهْلَ مِلَّتِهِ بِهِ فِي زَمَانِهِمْ ، وَقُرِئَ ﴿ وَلْيَحْكُمْ ﴾ بِالْجَزْمِ عَلَى أَنَّ اللَّامَ لَامُ الْأَمْرِ ، أَيْ : لِيُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ مَا فِيهِ ، وَلْيُقِيمُوا مَا أُمِرُوا بِهِ فِيهِ ، وَمِمَّا فِيهِ الْبِشَارَةُ بِبَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ، وَالْأَمْرِ بِاتِّبَاعِهِ وَتَصْدِيقِهِ إِذَا وُجِدَ ، **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا** ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أَيْ : الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ ، المَائِلُونَ إِلَى الْبَاطِلِ ، التَّارِكُونَ لِلْحَقِّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ

أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي النَّصَارَى وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنَ السِّيَاقِ .

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى التَّوْرَاةَ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى مُوسَى كَلِيمِهِ ، وَمَدَحَهَا وَأَثْنَى عَلَيْهَا وَأَمَرَ بِاتِّبَاعِهَا ، حَيْثُ كَانَتْ سَائِغَةَ الِاتِّبَاعِ ، وَذَكَرَ الْإِنْجِيلَ وَمَدَحَهُ وَأَمَرَ أَهْلَهُ بِإِقَامَتِهِ وَاتِّبَاعِ مَا فِيهِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : بِالصِّدْقِ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ الْمُتَضَمِّنَةِ ذِكْرَهُ وَمَدْحَهُ وَأَنَّهُ سَيَنْزِلُ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : الْمُهَيْمِنُ الْأَمِينُ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : الْقُرْآنُ أَمِينٌ عَلَى الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ قَبْلَهُ فَمَا وَافَقَهُ مِنْهَا فَهُوَ حَقٌّ ، وَمَا خَالَفَهُ مِنْهَا فَهُوَ بَاطِلٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : فَاحْكُمْ يَا مُحَمَّدُ بَيْنَ النَّاسِ عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ ، أُمِّيِّهِمْ وَكِتَابِيِّهِمْ ﴿ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ وَبِمَا قَدَّرَهُ لَكَ مِنْ حُكْمِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَمْ يَنْسَخْهُ فِي شَرْعِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أَيْ : آرَاءَهُمُ الَّتِي اصْطَلَحُوا عَلَيْهَا ، وَتَرَكُوا بِسَبَبِهَا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رُسُلِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : لَا تَنْصَرِفْ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي أَمَرَكَ اللهُ بِهِ إِلَى أَهْوَاءِ هَؤُلَاءِ مِنَ الْجَهَلَةِ الْأَشْقِيَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ سَبِيلًا وَسُنَّةً . **وَعَنْ قَتَادَةَ ، قَوْلُهُ** : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ **يَقُولُ** : سَبِيلًا وَسُنَنًا ، وَالسُّنَنُ مُخْتَلِفَةٌ ، هِيَ فِي التَّوْرَاةِ شَرِيعَةٌ ، وَفِي الْإِنْجِيلِ شَرِيعَةٌ ، وَفِي الْفُرْقَانِ شَرِيعَةٌ ، يُحِلُّ اللهُ فِيهَا مَا يَشَاءُ وَيُحَرِّمُ مَا يَشَاءُ ، لِيَعْلَمَ مَنْ يُطِيعُهُ مِمَّنْ يَعْصِيهِ ، وَالدِّينُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ غَيْرَهُ التَّوْحِيدُ

وَالْإِخْلَاصُ لله الَّذِي جَاءَتْ بِهِ جَمِيعُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُ تَعَالَى شَرَعَ الشَّرَائِعَ مُخْتَلِفَةً ؛ لِيَخْتَبِرَ عِبَادَهُ فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ ، وَيُثِيبَهُمْ أَوْ يُعَاقِبَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ بِمَا فَعَلُوهُ أَوْ عَزَمُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى نَدَبَهُمْ إِلَى الْمُسَارَعَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهَا فَقَالَ : ﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ وَهِيَ طَاعَةُ الله وَاتِّبَاعُ شَرْعِهِ الَّذِي جَعَلَهُ نَاسِخًا لِمَا قَبْلَهُ ، وَالتَّصْدِيقُ بِهَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ آخِرُ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أَيْ : مَعَادُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَمَصِيرُكُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أَيْ : فَيُخْبِرُكُمْ بِمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ فَيَجْزِي الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ، وَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ الْجَاحِدِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ الْعَادِلِينَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرِ بِذَلِكَ ، وَالنَّهْيِ عَنْ خِلَافِهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : وَاحْذَرْ أَعْدَاءَكَ الْيَهُودَ أَنْ يُدَلِّسُوا عَلَيْكَ الْحَقَّ فِيمَا يُنْهُونَهُ إِلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ ، فَلَا تَغْتَرَّ بِهِمْ فَإِنَّهُمْ كَذَبَةٌ كَفَرَةٌ خَوَنَةٌ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أَيْ : عَمَّا تَحْكُمُ بِهِ بَيْنَهُمْ مِنَ الْحَقِّ وَخَالَفُوا شَرْعَ الله ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ عَنْ قُدْرَةِ الله وَحِكْمَتِهِ فِيهِمْ أَنْ يَصْرِفَهُمْ عَنِ الْهُدَى لِمَا لَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ الَّتِي اقْتَضَتْ إِضْلَالَهُمْ وَنَكَالَهُمْ ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ مُخَالِفُونَ لِلْحَقِّ نَاءُونَ عَنْهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ الله الْمُحْكَمِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ ، النَّاهِي عَنْ كُلِّ شَرٍّ ، وَعَدَلَ إِلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَالِاصْطِلَاحَاتِ الَّتِي وَضَعَهَا الرِّجَالُ بِلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ شَرِيعَةِ الله .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ أَيْ : يَبْتَغُونَ وَيُرِيدُونَ وَعَنْ حُكْمِ الله يَعْدِلُونَ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أَيْ : وَمَنْ أَعْدَلُ مِنَ الله فِي حُكْمِهِ لِمَنْ عَقَلَ عَنِ الله شَرْعَهُ وَآمَنَ بِهِ ، وَأَيْقَنَ وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ، وَأَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا .

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ

﴿ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُوَالَاةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ هُمْ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ - قَاتَلَهُمُ اللهُ - ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، ثُمَّ تَهَدَّدَ وَتَوَعَّدَ مَنْ يَتَعَاطَى ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ الْآيَةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أَيْ : شَكٌّ وَرَيْبٌ وَنِفَاقٌ ﴿يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ . أَيْ : يُبَادِرُونَ إِلَى مُوَالَاتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أَيْ : يَتَأَوَّلُونَ فِي مَوَدَّتِهِمْ وَمُوَالَاتِهِمْ : أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ يَقَعَ أَمْرٌ مِنْ ظَفَرِ الْكَافِرِينَ بِالْمُسْلِمِينَ فَتَكُونَ لَهُمْ أَيَادٍ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَيَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ عِنْدَ ذَلِكَ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : فَتْحَ مَكَّةَ . وَقِيلَ : يَعْنِي : الْقَضَاءَ وَالْفَصْلَ ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : ضَرْبَ الْجِزْيَةِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿فَيُصْبِحُوا﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ وَالَوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ مِنَ الْمُوَالَاةِ ﴿نَـٰدِمِينَ﴾ أَيْ : عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِمَّا لَمْ يُجْدِ عَنْهُمْ شَيْئًا ، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمْ مَحْذُورًا ، بَلْ كَانَ عَيْنُ الْمَفْسَدَةِ ، فَإِنَّهُمْ فُضِحُوا وَأَظْهَرَ اللهُ أَمْرَهُمْ فِي الدُّنْيَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَسْتُورِينَ لَا يُدْرَى كَيْفَ حَالُهُمْ ، فَلَمَّا انْعَقَدَتِ الْأَسْبَابُ الْفَاضِحَةُ لَهُمْ تَبَيَّنَ أَمْرُهُمْ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَتَعَجَّبُوا مِنْهُمْ كَيْفَ كَانُوا يُظْهِرُونَ أَنَّهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ذَلِكَ وَيَتَأَوَّلُونَ ، فَبَانَ كَذِبُهُمْ وَافْتِرَاؤُهُمْ .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ أَنَّ مَنْ تَوَلَّى عَنْ نُصْرَةِ دِينِهِ وَإِقَامَةِ شَرِيعَتِهِ فَإِنَّ اللهَ يَسْتَبْدِلُ بِهِ مَنْ هُوَ خَيْرًا لَهَا مِنْهُ ، وَأَشَدَّ مَنَعَةً ، وَأَقْوَمَ سَبِيلًا .

قَالَ تَعَالَى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ أَيْ : يَرْجِعُ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ هَذِهِ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ الْكُمَّلِ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ مُتَوَاضِعًا لِأَخِيهِ وَوَلِيِّهِ ، مُتَعَزِّزًا عَلَى خَصْمِهِ وَعَدُوِّهِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ أَيْ: لَا يَرُدُّهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ طَاعَةِ الله، وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ، وَقِتَالِ أَعْدَائِهِ، وَالْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَا يَرُدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ رَادٌّ، وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْهُ صَادٌّ، وَلَا يَحِيكُ فِيهِمْ لَوْمُ لَائِمٍ وَلَا عَذْلُ عَاذِلٍ. ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ: مَنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ فَضْلِ الله عَلَيْهِ وَتَوْفِيقِهِ لَهُ ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ: وَاسِعُ الْفَضْلِ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِمَّنْ يَحْرِمُهُ إِيَّاهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أَيْ: لَيْسَ الْيَهُودُ بِأَوْلِيَائِكُمْ، بَلْ وِلَايَتُكُمْ رَاجِعَةٌ إِلَى الله وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أَيْ: الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ، مِنْ إِقَامِ الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ عِبَادَةُ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ الَّتِي هِيَ حَقُّ الْمَخْلُوقِينَ، وَمُسَاعَدَةٌ لِلْمُحْتَاجِينَ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ. فَكُلُّ مَنْ رَضِيَ بِوِلَايَةِ الله وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ مُفْلِحٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْصُورٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

وَهَذَا تَنْفِيرٌ مِنْ مُوَالَاةِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مِنَ الْكِتَابِيِّينَ وَالْمُشْرِكِينَ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ أَفْضَلَ مَا يَعْمَلُهُ الْعَامِلُونَ، وَهِيَ شَرَائِعُ الْإِسْلَامِ الْمُطَهَّرَةِ الْمُحْكَمَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ دُنْيَوِيٍّ وَأُخْرَوِيٍّ، يَتَّخِذُونَهَا هُزُوًا: يَسْتَهْزِئُونَ بِهَا، وَلَعِبًا: يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا نَوْعٌ مِنَ اللَّعِبِ فِي نَظَرِهِمُ الْفَاسِدِ وَفِكْرِهِمُ الْبَارِدِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ ﴾ «مِنْ» هَهُنَا لِبَيَانِ الْجِنْسِ كَقَوْلِهِ: ﴿ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ ﴿ وَٱلْكُفَّارِ ﴾ بِالْخَفْضِ عَطْفًا، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ مَعْمُولٌ ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ تَقْدِيرُهُ: «وَلَا الْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ» أَيْ: لَا تَتَّخِذُوا هَؤُلَاءِ وَلَا هَؤُلَاءِ أَوْلِيَاءَ، وَالْمُرَادُ بِالْكُفَّارِ هَهُنَا: الْمُشْرِكُونَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ: اتَّقُوا اللهَ أَنْ تَتَّخِذُوا هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءَ لَكُمْ وَلِدِينِكُمْ أَوْلِيَاءَ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِشَرْعِ الله الَّذِي اتَّخَذَهُ هَؤُلَاءِ هُزُوًا وَلَعِبًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ أَيْ: وَكَذَلِكَ إِذَا أَذَّنْتُمْ دَاعِينَ إِلَى الصَّلَاةِ

الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ لِمَنْ يَعْقِلُ وَيَعْلَمُ مِنْ ذَوِي الْأَلْبَابِ ﴿ ٱتَّخَذُوهَا ﴾ أَيْضًا ﴿ هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ مَعَانِي عِبَادَةِ اللهِ وَشَرَائِعِهِ .

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ : ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : هَلْ لَكُمْ عَلَيْنَا مَطْعَنٌ أَوْ عَيْبٌ إِلَّا هَذَا ؟ وَهَذَا لَيْسَ بِعَيْبٍ وَلَا مَذَمَّةٍ ، فَيَكُونُ الِاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعًا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : وَآمَنَّا بِأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ، أَيْ : خَارِجُونَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : هَلْ أُخْبِرُكُمْ بِشَرِّ جَزَاءٍ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِمَّا تَظُنُّونَهُ بِنَا ؟ وَهُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ هُمْ مُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْمُفَسَّرَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : أَبْعَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : غَضَبًا لَا يَرْضَى بَعْدَهُ أَبَدًا ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ ﴾ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ أَهِيَ مِمَّا مَسَخَ اللهُ ؟ فَقَالَ : ((**إِنَّ اللهَ لَمْ يُهْلِكْ قَوْمًا**)) أَوْ قَالَ ((**لَمْ يَمْسَخْ قَوْمًا فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلًا وَلَا عَقِبًا ، وَإِنَّ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ**)) . ﴿ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ وَقُرِئَ ﴿ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ عَلَى أَنَّهُ فِعْلُ مَاضٍ ، وَالطَّاغُوتُ مَنْصُوبٌ بِهِ ، أَيْ : وَجَعَلَ مِنْهُمْ مَنْ عَبَدَ الطَّاغُوتَ . ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ اسْتِعْمَالِ أَفْعَلِ التَّفْضِيلِ فِيمَا لَيْسَ لِلطَّرَفِ الْآخَرِ مُشَارَكَةٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ﴾ وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُنَافِقِينَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يُصَانِعُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الظَّاهِرِ وَقُلُوبُهُمْ مُنْطَوِيَةٌ عَلَى الْكُفْرِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَقَد دَّخَلُوا۟ ﴾ أَيْ : عِنْدَنَا يَا مُحَمَّدُ ﴿ بِٱلْكُفْرِ ﴾ أَيْ : مُسْتَصْحِبِينَ الْكُفْرَ فِي قُلُوبِهِمْ ثُمَّ خَرَجُوا وَهُوَ

كَامِنٌ فِيهَا لَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا قَدْ سَمِعُوا مِنْكَ مِنَ الْعِلْمِ ، وَلَا نَجَعَتْ فِيهِمُ الْمَوَاعِظُ وَلَا الزَّوَاجِرُ ، وَلِهَذَا قَالَ ﴿ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ﴾ فَخَصَّصَهُمْ بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ . ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴾ أَيْ : عَالِمٌ بِسَرَائِرِهِمْ وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ ضَمَائِرُهُمْ ، وَإِنْ أَظْهَرُوا لِخَلْقِهِ خِلَافَ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ أَيْ : يُبَادِرُونَ إِلَى ذَلِكَ مِنْ تَعَاطِي الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ وَالِاعْتِدَاءِ عَلَى النَّاسِ ، وَأَكْلِ أَمْوَالِهِمْ بِالْبَاطِلِ ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : لَبِئْسَ الْعَمَلُ كَانَ عَمَلُهُمْ ، وَبِئْسَ الِاعْتِدَاءُ اعْتِدَاؤُهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ يَعْنِي : هَلَّا كَانَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ مِنْهُمْ عَنْ تَعَاطِي ذَلِكَ ، وَالرَّبَّانِيُّونَ هُمْ : الْعُلَمَاءُ الْعُمَّالُ أَرْبَابُ الْوِلَايَاتِ عَلَيْهِمْ ، وَالْأَحْبَارُ هُمْ : الْعُلَمَاءُ فَقَطْ ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي الرَّبَّانِيين ، أَنهُمْ بِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ، يَعْنِي : فِي تَرْكِهِمْ ذَلِكَ .

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - بِأَنَّهُمْ وَصَفُوهُ - تَعَالَى عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا - بِأَنَّهُ بَخِيلٌ كَمَا وَصَفُوهُ بِأَنَّهُ فَقِيرٌ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ، وَعَبَّرُوا عَنِ الْبُخْلِ بِأَنْ قَالُوا : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : لَا يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ يَدَ اللهِ مُوثَقَةٌ وَلَكِنْ يَقُولُونَ : بَخِيلٌ ، أَمْسَكَ مَا عِنْدَهُ بُخْلًا - تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا - . وَقَدْ رَدَّ اللهُ ﷻ عَلَيْهِمْ مَا قَالُوهُ ، وَقَابَلَهُمْ فِيمَا اخْتَلَقُوهُ وَافْتَرَوْهُ وَائْتَفَكُوهُ ، فَقَالَ : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ﴾ ، وَهَكَذَا وَقَعَ لَهُمْ ، فَإِنَّ عِنْدَهُمْ مِنَ الْبُخْلِ وَالْحَسَدِ وَالْجُبْنِ وَالذِّلَّةِ أَمْرًا عَظِيمًا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ أَيْ : بَلْ هُوَ الْوَاسِعُ الْفَضْلِ ، الْجَزِيلُ الْعَطَاءِ ، الَّذِي مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَهُ خَزَائِنُهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ أَيْ : يَكُونُ مَا آتَاكَ

اللهُ يَا مُحَمَّدُ مِنَ النِّعْمَةِ نِقْمَةً فِي حَقِّ أَعْدَائِكَ مِنَ الْيَهُودِ وَأَشْبَاهِهِمْ ، فَكَمَا يَزْدَادُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ تَصْدِيقًا وَعَمَلًا صَالِحًا وَعِلْمًا نَافِعًا ، يَزْدَادُ بِهِ الْكَافِرُونَ الْحَاسِدُونَ لَكَ وَلِأُمَّتِكَ ﴿ طُغْيَانًا ﴾ وَهُوَ الْمُبَالَغَةُ وَالْمُجَاوَزَةُ لِلْحَدِّ فِي الْأَشْيَاءِ ﴿ وَكُفْرًا ﴾ أَيْ : تَكْذِيبًا . ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُ لَا تَجْتَمِعُ قُلُوبُهُمْ ، بَلِ الْعَدَاوَةُ وَاقِعَةٌ بَيْنَ فِرَقِهِمْ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ دَائِمًا ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى حَقٍّ ، وَقَدْ خَالَفُوكَ وَكَذَّبُوكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : كُلَّمَا عَقَدُوا أَسْبَابًا يَكِيدُونَكَ بِهَا ، وَكُلَّمَا أَبْرَمُوا أُمُورًا يُحَارِبُونَكَ بِهَا أَبْطَلَهَا اللهُ ، وَرَدَّ كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ ، وَحَاقَ مَكْرُهُمُ السَّيِّئُ بِهِمْ . ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أَيْ : مِنْ سَجِيَّتِهِمْ أَنَّهُمْ دَائِمًا يَسْعَوْنَ فِي الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ . **ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا** : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ ﴾ أَيْ : لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقَوْا مَا كَانُوا يَتَعَاطَوْنَهُ مِنَ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ ﴿ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أَيْ : لَأَزَلْنَا عَنْهُمُ الْمَحْذُورَ وَأَنَلْنَاهُمُ الْمَقْصُودَ . ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ** : هُوَ الْقُرْآنُ . ﴿ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ أَيْ : لَوْ أَنَّهُمْ عَمِلُوا بِمَا فِي الْكُتُبِ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَبْدِيلٍ وَلَا تَغْيِيرٍ ؛ لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالْعِلْمِ بِمُقْتَضَى مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ ، فَإِنَّ كُتُبَهُمْ نَاطِقَةٌ بِتَصْدِيقِهِ ، وَالْأَمْرُ بِاتِّبَاعِهِ حَتْمًا لَا مَحَالَةَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ : كَثْرَةُ الرِّزْقِ النَّازِلِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ، وَالنَّابِتِ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ . ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ . فَجَعَلَ أَعْلَى مَقَامَاتِهِمُ الِاقْتِصَادَ ، وَهُوَ أَوْسَطُ مَقَامَاتِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ رُتْبَةِ السَّابِقِينَ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷻ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٢] . **وَالْأَقْسَامُ الثَّلَاثَةُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ كُلُّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ** .

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِاسْمِ الرِّسَالَةِ وَآمِرًا لَهُ بِإِبْلَاغِ جَمِيعِ مَا أَرْسَلَهُ اللهُ بِهِ وَقَدِ امْتَثَلَ - عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ - ذَلِكَ ، وَقَامَ بِهِ أَتَمَّ الْقِيَامِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ يَعْنِي : وَإِنْ لَمْ تُؤَدِّ إِلَى النَّاسِ مَا أَرْسَلْتُكَ بِهِ

﴿ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ أَيْ : وَقَدْ عَلِمَ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ لَوْ وَقَعَ . ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : بَلِّغْ أَنْتَ رِسَالَتِي وَأَنَا حَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ عَلَى أَعْدَائِكَ ، وَمُظْفِرُكَ بِهِمْ ، فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ، فَلَنْ يَصِلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَيْكَ بِسُوءٍ يُؤْذِيكَ ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ يُحْرَسُ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : بَلِّغْ أَنْتَ ، وَاللهُ هُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ .

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ أَيْ : مِنَ الدِّينِ ﴿ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ أَيْ : حَتَّى تُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ مَا بِأَيْدِيكُمْ مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ اللهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، وَتَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا ، وَمِمَّا فِيهَا الْإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ وَالْأَمْرُ بِاتِّبَاعِهِ ﷺ ، وَالْإِيمَانُ بِمَبْعَثِهِ وَالِاقْتِدَاءُ بِشَرِيعَتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا يَهِيدَنَّكَ ذَلِكَ مِنْهُمْ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وَهُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ وَهُمْ حَمَلَةُ التَّوْرَاةِ ﴿ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ ﴾ لَمَّا طَالَ الْفَصْلُ حَسُنَ الْعَطْفُ بِالرَّفْعِ ، وَالصَّابِئُونَ : طَائِفَةٌ مِنَ النَّصَارَى وَالْمَجُوسِ لَيْسَ لَهُمْ دِينٌ . وَأَمَّا النَّصَارَى فَمَعْرُوفُونَ : وَهُمْ حَمَلَةُ الْإِنْجِيلِ ، وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ آمَنَتْ بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَعَمِلَتْ عَمَلًا صَالِحًا ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ بَعْدَ إِرْسَالِ صَاحِبِهَا الْمَبْعُوثِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ ، فَمَنِ اتَّصَفَ بِذَلِكَ ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ ، وَلَا عَلَى مَا تَرَكُوا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴿ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى نَظِيرَتِهَا فِي ((سُورَةِ الْبَقَرَةِ)) بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا .

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَخَذَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لله وَلِرُسُلِهِ ، فَنَقَضُوا تِلْكَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ وَاتَّبَعُوا آرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ ، وَقَدِمُوا عَلَى الشَّرَائِعِ فَمَا وَافَقَهُمْ مِنْهَا قَبِلُوهُ ، وَمَا خَالَفَهُمْ رَدُّوهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أَيْ : وَحَسِبُوا أَنْ لَا يَتَرَتَّبَ لَهُمْ شَرٌّ عَلَى مَا صَنَعُوا فَتَرَتَّبَ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ عَمُوا عَنِ الحَقِّ وصَمُّوا ، فَلَا يَسْمَعُونَ حَقًّا وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيهِ ﴿ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ . أَيْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ ﴿ ثُمَّ عَمُواْ ﴾ أَيْ : بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْغَوَايَةَ .

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى حَاكِمًا بِتَكْفِيرِ فِرَقِ النَّصَارَى : مِنَ الْمَلَكِيَّةِ وَالْيَعْقُوبِيَّةِ والنَّسْطُورِيَّةِ مِمَّنْ قَالَ مِنْهُمْ بِأَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ اللهُ - تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عُلُوًّا كَبِيرًا - هَذَا وَقَدْ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمُ الْمَسِيحُ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، وَكَانَ أَوَّلُ كَلِمَةٍ نَطَقَ بِهَا وَهُوَ صَغِيرٌ فِي الْمَهْدِ أَنْ قَالَ : ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ إِنِّي أَنَا اللهُ وَلَا ابْنُ اللهِ بَلْ قَالَ : ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم : ٣٠ - ٣٦] ، وَكَذَلِكَ قَالَ لَهُمْ فِي حَالِ كُهُولَتِهِ وَنُبُوَّتِهِ آمِرًا لَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ رَبِّهِ وَرَبِّهِمْ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فَيَعْبُدُ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ أَيْ : فَقَدْ أَوْجَبَ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ، ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ أَيْ : وَمَا لَهُ عِنْدَ اللهِ نَاصِرٌ وَلَا مُعِينٌ وَلَا مُنْقِذٌ مِمَّا هُوَ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ . **الصَّحِيحُ** : أَنَّهَا أُنْزِلَتْ فِي النَّصَارَى خَاصَّةً . **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : نَزَلَتْ فِي جَعْلِهِمُ - الْمَسِيحَ وَأُمَّهُ - إِلَهَيْنِ مَعَ اللهِ ، فَجَعَلُوا اللهَ

ثَالِثَ ثَلَاثَةٍ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ ، قَالَ السُّدِّيُّ : وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾[المائدة : ١١٦] ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَظْهَرُ - وَاللهُ أَعْلَمُ -.

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أَيْ : لَيْسَ مُتَعَدِّدًا بَلْ هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ إِلَهُ جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ وَسَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ وَمُتَهَدِّدًا ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ هَذَا الِافْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ ﴿ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْأَغْلَالِ وَالنَّكَالِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وَهَذَا مِنْ كَرَمِهِ تَعَالَى وَجُودِهِ وَلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ ، مَعَ هَذَا الذَّنْبِ الْعَظِيمِ ، وَهَذَا الِافْتِرَاءُ وَالْكَذِبُ وَالْإِفْكُ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ ، فَكُلُّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ أَيْ : لَهُ أُسْوَةُ أَمْثَالِهِ مِنْ سَائِرِ الْمُرْسَلِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ الْكِرَامِ .

وقَوْلُهُ : ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ أَيْ : مُؤْمِنَةٌ بِهِ مُصَدِّقَةٌ لَهُ ، وَهَذَا أَعْلَى مَقَامَاتِهَا ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِنَبِيَّةٍ ، وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا مِنَ الرِّجَالِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ أَيْ : يَحْتَاجَانِ إِلَى التَّغْذِيَةِ بِهِ وَإِلَى خُرُوجِهِ مِنْهُمَا ، فَهُمَا عَبْدَانِ كَسَائِرِ النَّاسِ ، وَلَيْسَا بِإِلَهَيْنِ كَمَا زَعَمَتْ فِرَقُ النَّصَارَى الْجَهَلَةِ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أَيْ : نُوَضِّحُهَا وَنُظْهِرُهَا ﴿ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أَيْ : ثُمَّ انْظُرْ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَالْوُضُوحِ وَالْجَلَاءِ ، أَيْنَ يَذْهَبُونَ ؟ وَبِأَيِّ قَوْلٍ يَتَمَسَّكُونَ ؟ وَإِلَى أَيِّ مَذْهَبٍ مِنَ الضَّلَالِ يَذْهَبُونَ ؟ .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى مَنْ عَبَدَ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ ، وَمُبَيِّنًا لَهُ أَنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ شَيْئًا مِنَ الْإِلَهِيَّةِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْعَابِدِينَ غَيْرَ اللهِ مِنْ سَائِرِ فِرَقِ بَنِي آدَمَ ، وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ النَّصَارَى وَغَيْرُهُمْ ﴿ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُ عَلَى إِيصَالِ ضَرٍّ إِلَيْكُمْ وَلَا إِيجَادِ نَفْعٍ ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ، الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَلِمَ عَدَلْتُمْ عَنْهُ إِلَى عِبَادَةِ جَمَادٍ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ،

وَلَا يَعْلَمُ شَيْئًا وَلَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا لِغَيْرِهِ وَلَا لِنَفْسِهِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ﴾ أَيْ : لَا تُجَاوِزُوا الْحَدَّ فِي اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، وَلَا تُطْرُوا مَنْ أُمِرْتُمْ بِتَعْظِيمِهِ فَتُبَالِغُوا فِيهِ حَتَّى تُخْرِجُوهُ عَنْ حَيِّزِ النُّبُوَّةِ إِلَى مَقَامِ الْإِلَهِيَّةِ ، كَمَا صَنَعْتُمْ فِي الْمَسِيحِ ، وَهُوَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَجَعَلْتُمُوهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللهِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِاقْتِدَائِكُمْ بِشُيُوخِ الضَّلَالِ الَّذِينَ هُمْ سَلَفُكُمْ مِمَّنْ ضَلَّ قَدِيمًا ﴿ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أَيْ : وَخَرَجُوا عَنْ طَرِيقِ الِاسْتِقَامَةِ وَالِاعْتِدَالِ إِلَى طَرِيقِ الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ .

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَعَنَ الْكَافِرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ دَهْرٍ طَوِيلٍ فِيمَا أَنْزَلَهُ عَلَى دَاوُدَ نَبِيِّهِ عليه السلام وَعَلَى لِسَانِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ بِسَبَبِ عِصْيَانِهِمْ للهِ وَاعْتِدَائِهِمْ عَلَى خَلْقِهِ ، ثُمَّ بَيَّنَ حَالَهُمْ فِيمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي زَمَانِهِمْ . **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ أَيْ : كَانَ لَا يَنْهَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَدًا عَنِ ارْتِكَابِ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ ثُمَّ ذَمَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ ؛ لِيُحْذَرَ أَنْ يُرْتَكَبَ مِثْلُ الَّذِي ارْتَكَبُوهُ فَقَالَ : ﴿ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُنَافِقِينَ ، ﴿ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾ يَعْنِي : بِذَلِكَ مُوَالَاتِهِمْ لِلْكَافِرِينَ وَتَرْكِهِمْ مُوَالَاةَ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي أَعْقَبَتْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ، وَأَسْخَطَتِ اللهَ عَلَيْهِمْ سَخَطًا مُسْتَمِرًّا إِلَى يَوْمِ مَعَادِهِمْ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ، وَفَسَّرَ بِذَلِكَ مَا ذَمَّهُمْ بِهِ ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ أَيْ : لَوْ آمَنُوا حَقَّ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَالرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ لَمَا ارْتَكَبُوا مَا ارْتَكَبُوهُ مِنْ مُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ فِي الْبَاطِنِ وَمُعَادَاةِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ ﴿ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ أَيْ : خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ مُخَالِفُونَ لِآيَاتِ وَحْيِهِ وَتَنْزِيلِهِ .

۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ

وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ كُفْرَ الْيَهُودِ كُفْرُ عِنَادٍ وَجُحُودٍ وَمُبَاهَتَةٍ لِلْحَقِّ وَغَمْطٍ لِلنَّاسِ وَتَنَقُّصٍ بِحَمَلَةِ الْعِلْمِ ، وَلِهَذَا قَتَلُوا كَثِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى هَمُّوا بِقَتْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَيْرَ مَرَّةٍ وَسَمُّوهُ وَسَحَرُوهُ وَأَلَّبُوا عَلَيْهِ أَشْبَاهَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ الْمُتَتَابِعَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ -.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ نَصَارَى مِنْ أَتْبَاعِ الْمَسِيحِ وَعَلَى مِنْهَاجِ إِنْجِيلِهِ ، فِيهِمْ مَوَدَّةٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ فِي الْجُمْلَةِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ إِذْ كَانُوا عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ مِنَ الرِّقَّةِ وَالرَّأْفَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ [الحديد : ٢٧] وَفِي كِتَابِهِمْ : مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ فَأَدِرْ لَهُ خَدَّكَ الْأَيْسَرِ ، وَلَيْسَ الْقِتَالُ مَشْرُوعًا فِي مِلَّتِهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أَيْ : يُوجَدُ فِيهِمُ الْقِسِّيسُونَ وَهُمْ : خُطَبَاؤُهُمْ وَعُلَمَاؤُهُمْ ، وَاحِدُهُمْ قِسِّيسٌ وَقَسٌّ أَيْضًا ، وَالرُّهْبَانُ : جَمْعُ رَاهِبٍ وَهُوَ : الْعَابِدُ مُشْتَقٌّ مِنَ الرَّهْبَةِ وَهِيَ الْخَوْفُ ، فَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ تَضَمَّنَ وَصْفُهُمْ بِأَنَّ فِيهِمُ الْعِلْمَ وَالْعِبَادَةَ وَالتَّوَاضُعَ ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِالانْقِيَادِ لِلْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ وَالْإِنْصَافِ . **فَقَالَ** : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ أَيْ : بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْبِشَارَةِ بِبَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أَيْ : مَعَ مَنْ يَشْهَدُ بِصِحَّةِ هَذَا وَيُؤْمِنُ بِهِ . **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ** : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي النَّجَاشِيِّ وَفِي أَصْحَابِهِ . ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ وَهَذَا الصِّنْفُ مِنَ النَّصَارَى هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٩٩] ، **قَالَ تَعَالَى هَهُنَا** : ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أَيْ : فَجَازَاهُمْ عَلَى إِيمَانِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ وَاعْتِرَافِهِمْ بِالْحَقِّ ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا

أَبَدًا لَا يُحَوَّلُونَ وَلَا يَزُولُونَ ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ : فِي اتِّبَاعِهِم الْحَقَّ وَانْقِيَادِهِمْ لَهُ حَيْثُ كَانَ وَأَيْنَ كَانَ وَمَعَ مَنْ كَانَ . **ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ فَقَالَ** : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ أَيْ : جَحَدُوا بِهَا وَخَالَفُوهَا ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أَيْ : هُمْ أَهْلُهَا وَالدَّاخِلُونَ فِيهَا .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا آكُلُ اللَّحْمَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : « **مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأَنَامُ وَأَقُومُ ، وَآكُلُ اللَّحْمَ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي** » . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ : وَلَا تُبَالِغُوا فِي التَّضْيِيقِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِتَحْرِيمِ الْمُبَاحَاتِ عَلَيْكُمْ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ : كَمَا لَا تُحَرِّمُوا الْحَلَالَ فَلَا تَعْتَدُوا فِي تَنَاوُلِ الْحَلَالِ بَلْ خُذُوا مِنْهُ بِقَدْرِ كِفَايَتِكُمْ وَحَاجَتِكُمْ ، وَلَا تُجَاوِزُوا الْحَدَّ فِيهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ [الأعراف : ٣١] ، فَشَرْعُ اللهِ عَدْلٌ بَيْنَ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ ، لَا إِفْرَاطَ وَلَا تَفْرِيطَ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾ **أَيْ** : فِي حَالِ كَوْنِهِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ ، وَاتَّبِعُوا طَاعَتَهُ وَرِضْوَانَهُ وَاتْرُكُوا مُخَالَفَتَهُ وَعِصْيَانَهُ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ .

لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى اللَّغْوِ فِي الْيَمِينِ ، وَإِنَّهُ قَوْلُ الرَّجُلِ فِي الْكَلَامِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ : لَا وَاللهِ ، بَلَى وَاللهِ . بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : ﴿ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ﴾ **أَيْ** : بِمَا صَمَّمْتُمْ عَلَيْهِ مِنْهَا وَقَصَدْتُمُوهَا ﴿ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ ﴾ يَعْنِي : مَحَاوِيجَ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَمَنْ لَا يَجِدُ مَا يَكْفِيهِ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : أَيْ : مِنْ أَعْدَلِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ **قَالَ الشَّافِعِيُّ** - رَحِمَهُ اللهُ - لَوْ دفعَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَشَرَةِ مَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ اِسْمُ الْكِسْوَةِ مِنْ قَمِيصٍ أَوْ سَرَاوِيلَ أَوْ إِزَارٍ أَوْ عِمَامَةٍ أَوْ مِقْنَعَةٍ أَجْزَأَهُ ذَلِكَ . **وَقَالَ مَالِكٌ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ** : لَا بُدَّ أَنْ يَدْفَعَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنَ الْكِسْوَةِ مَا يَصِحُّ أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ إِنْ كَانَ رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً كُلٌّ بِحَسَبِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ . ﴿ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ **أَخَذَ أَبُو حَنِيفَةَ بِإِطْلَاقِهَا فَقَالَ** : تُجْزِئُ الْكَافِرَةُ كَمَا تُجْزِئُ الْمُؤْمِنَةُ ، **وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَآخَرُونَ** : لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُؤْمِنَةً ، لِقَوْلِهِ ﷺ : ((**أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**)) . **فَهَذِهِ خِصَالٌ ثَلَاثٌ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ أَيُّهَا فَعَلَ الْحَانِثُ أَجْزَأَ عَنْهُ بِالْإِجْمَاعِ** ، وَقَدْ بَدَأَ بِالْأَسْهَلِ فَالْأَسْهَلِ ، فَالْإِطْعَامُ أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ مِنَ الْكِسْوَةِ ، كَمَا أَنَّ الْكِسْوَةَ أَيْسَرُ مِنَ الْعِتْقِ ، فَتَرَقَّى فِيهَا مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى فَإِنْ لَمْ يَقْدِرِ الْمُكَلَّفُ عَلَى وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ الثَّلَاثِ كَفَّرَ بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ أَيْ : هَذِهِ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ الشَّرْعِيَّةِ ﴿ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : مَعْنَاهُ لَا تَتْرُكُوهَا بِغَيْرِ تَكْفِيرٍ ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أَيْ : يُوَضِّحُهَا وَيُفَسِّرُهَا ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ تَعَاطِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَهُوَ الْقِمَارُ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْقِمَارِ فَهُوَ مِنَ الْمَيْسِرِ حَتَّى لِعَبُ الصِّبْيَانِ بِالْجَوْزِ ، **وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ** : مَا أَلْهَى عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهُوَ مِنَ الْمَيْسِرِ . **وَأَمَّا الْأَنْصَابُ فَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : هِيَ حِجَارَةٌ كَانُوا يَذْبَحُونَ قَرَابِينَهُمْ عِنْدَهَا . **وَأَمَّا الْأَزْلَامُ فَقَالُوا أَيْضًا** : هِيَ قِدَاحٌ كَانُوا يَسْتَقْسِمُونَ بِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ **قِيلَ** : سَخَطٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، **وَقِيلَ** : إِثْمٌ ، **وَقِيلَ** : أَيْ : شَرٌّ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الرِّجْسِ ، أَيْ : اُتْرُكُوهُ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وَهَذَا تَرْغِيبٌ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَتَرْهِيبٌ .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾ يَعْنِي: صِغَارُ الصَّيْدِ وَفِرَاخُهُ ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ يَعْنِي: كِبَارُهُ ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ تَعَالَى يَبْتَلِيهِمْ بِالصَّيْدِ يَغْشَاهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، يَتَمَكَّنُونَ مِنْ أَخْذِهِ بِالْأَيْدِي وَالرِّمَاحِ سِرًّا وَجَهْرًا؛ لِتَظْهَرَ طَاعَةُ مَنْ يُطِيعُ مِنْهُمْ فِي سِرِّهِ أَوْ جَهْرِهِ، وَقَوْلُهُ هَهُنَا ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ **قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ**: يَعْنِي: بَعْدَ هَذَا الْإِعْلَامِ وَالْإِنْذَارِ وَالتَّقَدُّمِ ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيْ: لِمُخَالَفَتِهِ أَمْرَ اللهِ وَشَرْعَهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، وَهَذَا تَحْرِيمٌ مِنْهُ تَعَالَى لِقَتْلِ الصَّيْدِ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ، وَنَهْيٌ عَنْ تَعَاطِيهِ فِيهِ. ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ **الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ**: أَنَّ الْعَامِدَ وَالنَّاسِيَ سَوَاءٌ فِي وُجُوبِ الْجَزَاءِ عَلَيْهِ، **وَقَالَ الزُّهْرِيُّ**: دَلَّ الْكِتَابُ عَلَى الْعَامِدِ وَجَرَتِ السُّنَّةُ عَلَى النَّاسِي. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ عَلَى كُلٍّ مِنَ الْقِرَاءَتَيْنِ دَلِيلٌ لِمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ **وُجُوبِ الْجَزَاءِ مِنْ مِثْلِ مَا قَتَلَهُ الْمُحْرِمُ إِذَا كَانَ لَهُ مِثْلٌ مِنَ الْحَيَوَانِ الْإِنْسِيِّ**. ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، يَعْنِي أَنَّهُ يَحْكُم بِالْجَزَاءِ فِي الْمِثْلِ أَوْ بِالْقِيمَةِ فِي غَيْرِ الْمِثْلِ عَدْلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. ﴿هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ أَيْ وَاصِلًا إِلَى الْكَعْبَةِ، وَالْمُرَادُ وُصُولُهُ إِلَى الْحَرَمِ بِأَنْ يُذْبَحَ هُنَاكَ وَيُفَرَّقَ لَحْمُهُ عَلَى مَسَاكِينِ الْحَرَمِ، وَهَذَا أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ، ﴿أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أَيْ: إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمُحْرِمُ مِثْلَ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ، أَوْ لَمْ يَكُنِ الصَّيْدُ الْمَقْتُولُ مِنْ ذَوَاتِ الْأَمْثَالِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أَيْ: أَوْجَبْنَا عَلَيْهِ الْكَفَّارَةَ لِيَذُوقَ عُقُوبَةَ فِعْلِهِ الَّذِي ارْتَكَبَ فِيهِ الْمُخَالَفَةَ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أَيْ: فِي زَمَانِ الْجَاهِلِيَّةِ لِمَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ وَاتَّبَعَ شَرْعَ اللهِ وَلَمْ يَرْتَكِبِ الْمَعْصِيَةَ، **ثُمَّ قَالَ**: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أَيْ: وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ تَحْرِيمِهِ فِي الْإِسْلَامِ وَبُلُوغِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ إِلَيْهِ ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ ذُو مُعَاقَبَةٍ لِمَنْ عَصَاهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ إِيَّاهُ.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ

حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ ﴾ يَعْنِي : مَا يُصْطَادُ مِنْهُ طَرِيًّا ﴿ وَطَعَامُهُۥ ﴾ مَا يُتَزَوَّدُ مِنْهُ مَلِيحًا يَابِسًا ، **وَقَالَ الْأَكْثَرُونَ** : ﴿ وَطَعَامُهُۥ ﴾ مَا لَفَظَهُ مَيِّتًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ أَيْ : مَنْفَعَةً وَقُوتًا لَكُمْ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ ﴿ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ وَهُو جَمْعُ سَيَّارٍ . **قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ** : الطَّرِيُّ مِنْهُ لِمَنْ يَصْطَادُهُ مِنْ حَاضِرَةِ الْبَحْرِ ، وَطَعَامُهُ مَا مَاتَ فِيهِ أَوْ اُصْطِيدَ مِنْهُ وَمُلِّحَ وَقُدِّدَ يَكُون زَادًا لِلْمُسَافِرِينَ وَالنَّائِينَ عَنِ الْبَحْرِ . **وَقَدِ اسْتَدَلَّ الْجُمْهُورُ عَلَى حِلِّ مَيْتَتِهِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ** ، وَعَنِ ابْنِ عُمَر قَالَ : « **أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ : فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ وَأَمَّا الدَّمَانِ : فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ أَيْ : فِي حَالِ إِحْرَامِكُمْ يُحَرَّمُ عَلَيْكُمُ الِاصْطِيَادُ ، فَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى تَحْرِيمِ ذَلِكَ ، فَإِذَا اصْطَادَ الْمُحْرِمُ الصَّيْدَ مُتَعَمِّدًا أَثِمَ وَغَرِمَ ، أَوْ مُخْطِئًا غَرِمَ وَحُرِّمَ عَلَيْهِ أَكْلُهُ . ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : « يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : وَاخْشَوا اللهَ ، أَيُّهَا النَّاسُ ، وَاحْذَرُوهُ بِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ ، وَفِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى نَبِيِّكُمْ ﷺ ، مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْخَمْرِ والْمَيْسِرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ ، وَعَنْ إِصَابَةِ صَيْدِ الْبَرِّ وَقَتْلِهِ فِي حَالِ إِحْرَامِكُمْ وَفِي غَيْرِهَا ، فَإِنَّ اللهَ مُصَيِّرُكُم وَمُرْجِعُكُمْ ، فَيُعَاقِبُكُم بِمَعْصِيَتِكُمْ إِيَّاهُ ، وَيُجَازِيكُمْ فَيُثِيبُكُم عَلَى طَاعَتِكُمْ لَهُ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : صَيَّرَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْحَرَامَ قِوَامًا لِلنَّاسِ الَّذِينَ لَا قِوَامَ لَهُمْ ، مِنْ رَئِيسٍ يَحْجُزُ قَوِيَّهُمْ عَنْ ضَعِيفِهِمْ ، وَمُسِيئَهُمْ عَنْ مُحْسِنِهِمْ ، وَظَالِمَهُمْ عَنْ مَظْلُومِهِمْ - وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ والْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ - فَحَجَزَ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ قِيَامُ غَيْرِهِ ، وَجَعَلَهَا مَعَالِمَ لِدِينِهِمْ ، وَمَصَالِحَ أُمُورِهِمْ .**قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَأَمَّا ﴿ ٱلْكَعْبَةَ ﴾ فَالْحَرَمُ كُلُّهُ ، وَسَمَّاهَا اللهُ تَعَالَى « حَرَامًا » ؛ لِتَحْرِيمِهِ إِيَّاهَا أَنْ يُصَادَ صَيْدُهَا أَوْ يُخْتَلَى خِلَاهُا ، أَوْ يُعْضَدَ شَجَرُهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : اعْلَمُوا ، أَيُّهَا النَّاسُ ، أَنَّ رَبَّكُمُ الَّذِي يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَا

يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ سَرَائِرِ أَعْمَالِكُمْ وَعَلَانِيَّتِهَا ، وَهُوَ يُحْصِيهَا عَلَيْكُمْ لِيُجَازِيكُمْ بِهَا شَدِيد عِقَابِهِ - مَنْ عَصَاهُ وَتَمَرَّدَ عَلَيْهِ - عَلَى مَعْصِيَتِهِ إِيَّاهُ ، وَهُوَ غَفُورٌ لِذُنُوبِ مَنْ أَطَاعَهُ وَأَنَابَ إِلَيْهِ ، فَسَاتِرٌ عَلَيْهِ وَتَارِكٌ فَضِيحَتَهُ بِهَا رَحِيمٌ بِهِ أَنْ يُعَاقِبَهُ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِ ، بَعْدَ إِنَابَتِهِ وَتَوْبَتِهِ مِنْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ هَذَا مِنَ اللهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ ، وَتَهْدِيدٌ لِعِبَادِهِ وَوَعِيدٌ ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : لَيْسَ عَلَى رَسُولِنَا الَّذِي أَرْسَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ ، أَيُّهَا النَّاسُ ، بِإِنْذَارِكُمْ عِقَابَنَا بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ، وَإِعْذَارُنَا إِلَيْكُمْ بِمَا فِيهِ قَطْعُ حُجَجِكُمْ ، إِلَّا أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْكُمْ رِسَالَتَنَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا الثَّوَابُ عَلَى الطَّاعَةِ ، وَعَلَيْنَا الْعِقَابُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ . ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ يَقُولُ : وَغَيْرُ خَفِيٍّ عَلَيْنَا الْمُطِيعُ مِنْكُمْ ، وَالقَابِلُ رِسَالَتَنَا الْعَامِلُ بِمَا أَمَرْتُهُ بِالْعَمَلِ بِهِ مِنَ الْمُعَاصِي الآبِي رِسَالَتَنَا ، التَّارِكُ الْعَمَلَ بِمَا أَمَرْتُهُ بِالْعَمَلِ بِهِ ؛ لأَنَّا نَعْلَمُ مَا عَمِلَهُ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فَأَظْهَرَهُ بِجَوَارِحِهِ وَنَطَقَ بِهِ لِسَانُهُ ﴿ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ ، يَعْنِي : وَمَا تُخْفُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ إِيمَانٍ وَكُفْرٍ ، أَوْ يَقِينٍ وَشَكٍّ وَنِفَاقٍ .

قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ ﴿ قُل ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ ﴾ أَيْ : يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴿ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ الْقَلِيلَ الْحَلَالَ النَّافِعَ خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ الْحَرَامِ الضَّارِّ . ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أَيْ : يَا ذَوِي الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ، وَتَجَنَّبُوا الْحَرَامَ وَدَعُوهُ وَاقْنَعُوا بِالْحَلَالِ وَاكْتَفُوا بِهِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ هَذَا تَأْدِيبٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَنَهْيٌ لَهُمْ عَنْ أَنْ يَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ مِمَّا لَا فَائِدَةَ لَهُمْ فِي السُّؤَالِ وَالتَّنْقِيبِ عَنْهَا ؛ لأَنَّهَا إِنْ أُظْهِرَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْأُمُورُ رُبَّمَا سَاءَتْهُمْ وَشَقَّ عَلَيْهِمْ سَمَاعُهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ أَيْ : وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْ هَـٰذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي نُهِيتُمْ عَنِ السُّؤَالِ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْوَحْيُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ تُبَيَّنُ لَكُمْ ، وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ﴾ أَيْ : عَمَّا كَانَ مِنْكُمْ قَبْلَ ذَلِكَ ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ أَيْ : لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ

تَسْتَأْنِفُونَ السُّؤَالَ عَنْهَا فَلَعَلَّهُ قَدْ يُنَزَّلُ بِسَبَبِ سُؤَالِكُمْ تَشْدِيدٌ أَوْ تَضْيِيقٌ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ « **أَعْظَمُ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا : مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ ، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ** » وَلَكِنْ إِذَا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِهَا مُجْمَلَةً فَسَأَلْتُمْ عَنْ بَيَانِهَا بُيِّنَتْ لَكُمْ حِينَئِذٍ ، لِاحْتِيَاجِكُمْ إِلَيْهَا ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ﴾ أَيْ : مَا لَمْ يَذْكُرْهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ مِمَّا عَفَا عَنْهُ ، فَاسْكُتُوا أَنْتُمْ عَنْهَا كَمَا سَكَتَ عَنْهَا ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ** » . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : قَدْ سَأَلَ هَذِهِ الْمَسَائِلَ الْمَنْهِيَّ عَنْهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ فَأُجِيبُوا عَنْهَا ، ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا ، فَأَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ، أَيْ : بِسَبَبِهَا أَنْ بُيِّنَتْ لَهُمْ فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْأَلُوا عَلَى وَجْهِ الِاسْتِرْشَادِ ، بَلْ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِهْزَاءِ وَالْعِنَادِ .

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ قَالَ : الْبَحِيرَةُ : الَّتِي يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ فَلَا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ ، **وَالسَّائِبَةُ** : كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِآلِهَتِهِمْ لَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ ، **وَالْوَصِيلَةُ** : النَّاقَةُ الْبِكْرُ تُبَكِّرُ فِي أَوَّلِ نِتَاجِ الْإِبِلِ ، ثُمَّ تُثَنِّي بَعْدُ بِأُنْثَى وَكَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِطَوَاغِيتِهِمْ إِنْ وُصِلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ **وَالْحَام** : فَحْلُ الْإِبِلِ يَضْرِبُ الضِّرَابَ الْمَعْدُودَ فَإِذَا قَضَى ضِرَابَهُ وَدَعُوهُ لِلطَّوَاغِيتِ وَأَعْفَوْهُ عَنِ الْحَمْلِ فَلَمْ يُحْمَلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ وَسَمَّوْهُ الْحَامِيَ .

فَأَمَّا الْبَحِيرَةُ فَقِيلَ أَيْضًا : هِيَ النَّاقَةُ إِذَا نَتَجَتْ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ ، نَظَرُوا إِلَى الْخَامِسِ فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا ذَبَحُوهُ فَأَكَلَهُ الرِّجَالُ دُونَ النِّسَاءِ ، وَإِنْ كَانَ أُنْثَى جَدَعُوا آذَانَهَا فَقَالُوا : هَذِهِ بَحِيرَةٌ . **وَأَمَّا السَّائِبَةُ : فَقِيلَ أَيْضًا** : هِيَ مِنَ الْغَنَمِ نَحْوُ مَا فُسِّرَ مِنَ الْبَحِيرَةِ ، إِلَّا أَنَّهَا مَا وَلَدَتْ مِنْ وَلَدٍ كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ سِتَّةُ أَوْلَادٍ كَانَتْ عَلَى هَيْئَتِهَا ، فَإِذَا وَلَدَتِ السَّابِعَ ذَكَرًا أَوْ ذَكَرَيْنِ ذَبَحُوهُ فَأَكَلَهُ رِجَالُهُمْ دُونَ نِسَائِهِمْ ، **وَقِيلَ : السَّائِبَةُ** : هِيَ النَّاقَةُ إِذَا وَلَدَتْ عَشْرَ إِنَاثٍ مِنَ الْوَلَدِ لَيْسَ بَيْنَهُنَّ ذَكَرٌ ، سُيِّبَتْ فَلَمْ تُرْكَبْ ، وَلَمْ يُجَزُّ وَبَرُهَا وَلَمْ يُحْلَبْ لَبَنُهَا إِلَّا الضَّيْفَ . **وَأَمَّا الْوَصِيلَةُ : فَقِيلَ أَيْضًا** : هِيَ الشَّاةُ إِذَا نَتَجَتْ سَبْعَةَ أَبْطُنٍ ، نَظَرُوا إِلَى السَّابِعِ ، فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مَيِّتٌ اشْتَرَكَ فِيهِ الرِّجَالُ دُونَ النِّسَاءِ ، وَإِنْ كَانَ أُنْثَى اسْتَحْيَوْهَا ، وَإِنْ كَانَ ذَكَرًا وَأُنْثَى فِي بَطْنٍ وَاحِدٍ اسْتَحْيَوْهُمَا ، وَقَالُوا : وَصَلَتْهُ أُخْتُهُ فَحَرَّمَتْهُ عَلَيْنَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : مَا شَرَعَ اللهُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَلَا هِيَ عِنْدَهُ قُرْبَةٌ ، وَلَكِنَّ الْمُشْرِكِينَ افْتَرَوْا ذَلِكَ وَجَعَلُوهُ شَرْعًا لَهُمْ وَقُرْبَةً ، يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَيْهِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِحَاصِلٍ لَهُمْ بَلْ هُوَ وَبَالٌ عَلَيْهِمْ . ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ أَيْ : إِذَا دُعُوا إِلَى دِينِ اللهِ وَشَرْعِهِ وَمَا أَوْجَبَهُ وَتَرْكِ مَا حَرَّمَهُ ، قَالُوا : يَكْفِينَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ الْآبَاءَ وَالْأَجْدَادَ مِنَ الطَّرَائِقِ وَالْمَسَالِكِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَا يَفْهَمُونَ حَقًّا وَلَا يَعْرِفُونَهُ وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ ، فَكَيْفَ يَتَّبِعُونَهُمْ وَالْحَالَةُ هَذِهِ ؟ لَا يَتَّبِعُهُمْ إِلَّا مَنْ هُوَ أَجْهَلُ مِنْهُمْ وَأَضَلُّ سَبِيلًا .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُصْلِحُوا أَنْفُسَهُمْ وَيَفْعَلُوا الْخَيْرَ بِجُهْدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ وَمُخْبِرًا لَهُمْ : أَنَّهُ مَنْ أَصْلَحَ أَمْرَهُ لَا يَضُرُّهُ فَسَادُ مَنْ فَسَدَ مِنَ النَّاسِ سَوَاءٌ كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ أَوْ بَعِيدًا . قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : يَقُولُ تَعَالَى إِذَا مَا الْعَبْدُ أَطَاعَنِي فِيمَا أَمَرْتُهُ بِهِ مِنَ الْحَلَالِ ، وَنَهَيْتُهُ عَنْهُ مِنَ الْحَرَامِ ، فَلَا يَضُرُّهُ مَنْ ضَلَّ بَعْدَهُ إِذَا عَمِلَ بِمَا أَمَرْتُهُ بِهِ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ نُصِبَ عَلَى الْإِغْرَاءِ ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ . وَلَيْسَ فِيهَا مُسْتَدَلٌ عَلَى تَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، إِذَا كَانَ فِعْلُ ذَلِكَ مُمْكِنًا .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى حُكْمٍ عَزِيزٍ قِيلَ : إِنَّهُ مَنْسُوخٌ ، وَقَالَ آخَرُونَ - وَهُمُ الْأَكْثَرُونَ - :

بَلْ هُوَ مُحْكَمٌ وَمَنِ ادَّعَى نَسْخَهُ فَعَلَيْهِ الْبَيَانُ ، **فَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ﴾ هَذَا هُوَ الْخَبَرُ لِقَوْلِهِ : ﴿ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ **فَقِيلَ** : **تَقْدِيرُهُ** شَهَادَةُ اِثْنَيْنِ ، **وَقِيلَ** : دَلَّ الْكَلَامُ عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ يَشْهَدَ اِثْنَانِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَوَا عَدْلٍ ﴾ وَصَفَ الاثْنَيْنِ بِأَنْ يَكُونَا عَدْلَيْنِ . ﴿ مِّنكُمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ يَعْنِي : أَهْلَ الْكِتَابِ . ﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : سَافَرْتُمْ ﴿ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ وَهَذَانِ شَرْطَانِ لِجَوَازِ اسْتِشْهَادِ الذِّمِّيِّينَ عِنْدَ فَقْدِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي سَفَرٍ وَأَنْ يَكُونَ فِي وَصِيَّةٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : يَعْنِي صَلَاةَ الْعَصْرِ . **وَالْمَقْصُودُ** : أَنْ يُقَامَ هَذَانِ الشَّاهِدَانِ بَعْدَ صَلَاةٍ اِجْتَمَعَ النَّاسُ فِيهَا بِحَضْرَتِهِمْ ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ ﴾ أَيْ فَيَحْلِفَانِ بِاللهِ ﴿ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾ أَيْ : إِنْ ظَهَرَتْ لَكُمْ مِنْهُمَا رِيبَةٌ أَنَّهُمَا قَدْ خَانَا أَوْ غَلَّا فَيَحْلِفَانِ حِينَئِذٍ بِاللهِ ﴿ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ﴾ أَيْ : بِأَيْمَانِنَا ﴿ ثَمَنًا ﴾ أَيْ : لَا نَعْتَاضُ عَنْهُ بِعِوَضٍ قَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ أَيْ : وَلَوْ كَانَ الْمَشْهُودُ عَلَيْهِ قَرِيبًا لَنَا لَا نُحَابِيهِ ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ ﴾ أَضَافَهَا إِلَى اللهِ تَشْرِيفًا لَهَا وَتَعْظِيمًا لِأَمْرِهَا . ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ فَعَلْنَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ مِنْ تَحْرِيفِ الشَّهَادَةِ أَوْ تَبْدِيلِهَا أَوْ تَغْيِيرِهَا أَوْ كَتْمِهَا بِالْكُلِّيَّةِ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾ أَيْ : فَإِنِ اِشْتَهَرَ وَظَهَرَ وَتَحَقَّقَ مِنَ الشَّاهِدَيْنِ الْوَصِيَّيْنِ أَنَّهُمَا خَانَا أَوْ غَلَّا شَيْئًا مِنَ الْمَالِ الْمُوصَى بِهِ إِلَيْهِمَا وَظَهَرَ عَلَيْهِمَا بِذَلِكَ ﴿ فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ ﴾ . **يَكُونُ الْمَعْنَى بِذَلِكَ** : أَيْ مَتَى تَحَقَّقَ ذَلِكَ بِالْخَبَرِ الصَّحِيحِ عَلَى خِيَانَتِهِمَا ، فَلْيَقُمْ اِثْنَانِ مِنَ الْوَرَثَةِ الْمُسْتَحِقِّينَ لِلتَّرِكَةِ ، وَلِيَكُونَا مِنْ أَوْلَى مَنْ يَرِثُ ذَلِكَ الْمَالَ ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا ﴾ أَيْ : لَقَوْلُنَا إِنَّهُمَا خَانَا أَحَقُّ وَأَصَحُّ وَأَثْبَتُ مِنْ شَهَادَتِهِمَا الْمُتَقَدِّمَةِ ﴿ وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ ﴾ أَيْ : فِيمَا قُلْنَا فِيهِمَا مِنَ الْخِيَانَةِ ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : **إِنْ** كُنَّا قَدْ كَذَبْنَا عَلَيْهِمَا ، وَهَذَا التَّحْلِيفُ لِلْوَرَثَةِ وَالرُّجُوعُ إِلَى قَوْلِهِمَا وَالْحَالَةُ هَذِهِ كَمَا يَحْلِفُ أَوْلِيَاءُ الْمَقْتُولِ إِذَا ظَهَرَ لَوْثٌ فِي جَانِبِ الْقَاتِلِ ، فَيُقْسِمُ الْمُسْتَحِقُّونَ عَلَى الْقَاتِلِ فَيُدْفَعُ بِرُمَّتِهِ إِلَيْهِمْ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي بَابِ الْقَسَامَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ .

قَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ ﴾ أَيْ : شَرْعِيَّةُ هَذَا الْحُكْمِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الْمَرْضِيِّ مِنْ تَحْلِيفِ الشَّاهِدَيْنِ الذِّمِّيَّيْنِ وَقد اسْتُرِيبَ بِهِمَا ، أَقْرَبُ إِلَى إِقَامَتِهِمَا الشَّهَادَةَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَرْضِيِّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ أَيْ : يَكُونُ الْحَامِلُ لَهُمْ عَلَى الْإِتْيَانِ بِهَا عَلَى وَجْهِهَا ، هُوَ تَعْظِيمُ الْحَلِفِ بِاللهِ ، وَمُرَاعَاةُ جَانِبِهِ وَإِجْلَالِهِ ، وَالْخَوْفُ مِنَ الْفَضِيحَةِ بَيْنَ النَّاسِ ،

إِنْ رُدَّتِ الْيَمِينُ عَلَى الْوَرَثَةِ ، فَيَحْلِفُونَ وَيَسْتَحِقُّونَ مَا يَدَّعُونَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ ﴿ وَٱسْمَعُوا ﴾ أَيْ : وَأَطِيعُوا ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أَيْ : الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ وَمُتَابَعَةِ شَرِيعَتِهِ .

۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾

هَذَا إِخْبَارٌ عَمَّا يُخَاطِبُ اللهُ بِهِ الْمُرْسَلِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا أُجِيبُوا بِهِ مِنْ أُمَمِهِمُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ إِلَيْهِمْ ، وَقَوْلُ الرُّسُلِ : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ . ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ **قِيلَ** : أَيْ مَاذَا عَمِلُوا بَعْدَكُمْ وَمَاذَا أَحْدَثُوا بَعْدَكُمْ ، قَالُوا : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ **وَقِيلَ** : يَقُولُونَ لِلرَّبِّ ﷻ : لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا عِلْمٌ أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنَّا ، وَهُوَ مِنْ بَابِ التَّأَدُّبِ مَعَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ . أَيْ لَا عِلْمَ لَنَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِكَ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَنَحْنُ وَإِنْ كُنَّا قَدْ أُجِبْنَا وَعَرَفْنَا مَنْ أَجَابَنَا ، وَلَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ كُنَّا إِنَّمَا نَطَّلِعُ عَلَى ظَاهِرِهِ لَا عِلْمَ لَنَا بِبَاطِنِهِ ، وَأَنْتَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، الْمُطَّلِعُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَعِلْمُنَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِكَ كَلَا عِلْمٍ ، فَإِنَّكَ ﴿ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ .

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا امْتَنَّ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام مِمَّا أَجْرَاهُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ ، وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، فَقَالَ : ﴿ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ ﴾ أَيْ : فِي خَلْقِي إِيَّاكَ مِنْ أُمٍّ بِلَا ذَكَرٍ ، وَجَعْلِي إِيَّاكَ آيَةً ، وَدَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِي عَلَى الْأَشْيَاءِ ﴿ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ حَيْثُ جَعَلْتُكَ لَهَا بُرْهَانًا عَلَى بَرَاءَتِهَا مِمَّا نَسَبَهُ الظَّالِمُونَ الْجَاهِلُونَ إِلَيْهَا مِنَ الْفَاحِشَةِ ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ عليه السلام وَجَعَلْتُكَ نَبِيًّا دَاعِيًا إِلَى اللهِ فِي صِغَرِكَ وَكِبَرِكَ ، فَأَنْطَقْتُكَ فِي الْمَهْدِ صَغِيرًا ، فَشَهِدْتَ بِبَرَاءَةِ أُمِّكَ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ، وَاعْتَرَفْتَ لِي بِالْعُبُودِيَّةِ ، وَأَخْبَرْتَ عَنْ رِسَالَتِي إِيَّاكَ ، وَدَعَوْتَ إِلَى عِبَادَتِي ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أَيْ : تَدْعُو

النَّاسَ إِلَى اللهِ فِي صِغَرِكَ وَكِبَرِكَ ، وَضَمَّنَ ﴿ تُكَلِّمُ ﴾ تَدْعُو ؛ لأَنَّ كَلَامَهُ النَّاسَ فِي كُهُولَتِهِ لَيْسَ بِأَمْرٍ عَجِيبٍ . ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أَيْ : الْخَطَّ وَالْفَهْمَ ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ وَهِيَ الْمُنَزَّلَةُ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ الْكَلِيمُ ، وَقَدْ يَرِدُ لَفْظُ التَّوْرَاةِ فِي الْحَدِيثِ وَيُرَادُ بِهِ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى ﴾ أَيْ : تُصَوِّرُهُ وَتُشَكِّلُهُ عَلَى هَيْئَةِ الطَّائِرِ بِإِذْنِي لَكَ فِي ذَلِكَ ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾ أَيْ : فَتَنْفُخُ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي شَكَّلْتَهَا بِإِذْنِي لَكَ فِي ذَلِكَ فَتَكُونُ طَيْرًا ذَا رُوحٍ تَطِيرُ بِإِذْنِ اللهِ وَخَلْقِهِ . ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ . ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾ أَيْ : تَدْعُوهُمْ فَيَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : وَاذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ فِي كَفِّي إِيَّاهُمْ عَنْكَ حِينَ جِئْتَهُمْ بِالْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ عَلَى نُبُوَّتِكَ ، وَرِسَالَتِكَ مِنَ اللهِ إِلَيْهِمْ ، فَكَذَّبُوكَ وَاتَّهَمُوكَ بِأَنَّكَ سَاحِرٌ ، وَسَعَوْا فِي قَتْلِكَ وَصَلْبِكَ ، فَنَجَّيْتُكَ مِنْهُمْ وَرَفَعْتُكَ إِلَيَّ وَطَهَّرْتُكَ مِنْ دَنَسِهِمْ ، وَكَفَيْتُكَ شَرَّهُمْ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الامْتِنَانَ كَانَ مِنَ اللهِ إِلَيْهِ بَعْدَ رَفْعِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، أَوْ يَكُونُ هَذَا الامْتِنَانُ وَاقِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِصِيغَةِ الْمَاضِي دَلَالَةً عَلَى وُقُوعِهِ لَا مَحَالَةَ ، وَهَذَا مِنْ أَسْرَارِ الْغُيُوبِ الَّتِي أَطْلَعَ اللهُ عَلَيْهَا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الامْتِنَانِ عَلَيْهِ عليه السلام بِأَنْ جَعَلَ لَهُ أَصْحَابًا وَأَنْصَارًا ، **ثُمَّ قِيلَ** : إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْوَحْيِ وَحْيُ إِلْهَامٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص : ٧] الْآيَةَ . وَهُوَ وَحْيُ إِلْهَامٍ بِلَا خِلَافٍ ، **وَهَكَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ** ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ أَيْ : أُلْهِمُوا ذَلِكَ فَامْتَثَلُوا مَا أُلْهِمُوا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ : وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَيْهِمْ بِوَاسِطَتِكَ فَدَعَوْتَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ ، وَاسْتَجَابُوا لَكَ وَانْقَادُوا وَتَابَعُوكَ ، فَقَالُوا ﴿ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ .

إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ

وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾

هَذِهِ قِصَّةُ المَائِدَةِ وَإِلَيْهَا تُنْسَبُ السُّورَةُ ، فَيُقَالُ : سُورَةُ المَائِدَةِ ، وَهِيَ مِمَّا امْتَنَّ اللهُ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى لَمَّا أَجَابَ دُعَاءَهُ بِنُزُولِهَا ، فَأَنْزَلَهَا اللهُ آيَةً وَدَلَالَةً وَمُعْجِزَةً بَاهِرَةً ، وَحُجَّةً قَاطِعَةً ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ وَهُمْ أَتْبَاعُ عِيسَى عليه السلام ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ هَذِهِ قِرَاءَةُ كَثِيرِينَ ، وَقَرَأَ آخَرُونَ : « هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ » أَيْ : هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْأَلَ رَبَّكَ ﴿ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ وَالمَائِدَةُ : هِيَ الخِوَانُ عَلَيْهِ الطَّعَامُ ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُمْ إِنَّمَا سَأَلُوا ذَلِكَ لِحَاجَتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ مَائِدَةً كُلَّ يَوْمٍ يَقْتَاتُونَ مِنْهَا ، وَيَتَقَوَّوْنَ بِهَا عَلَى العِبَادَةِ ﴿ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : فَأَجَابَهُمُ المَسِيحُ عليه السلام قَائِلًا لَهُمْ : اتَّقُوا اللهَ وَلَا تَسْأَلُوا هَذَا ، فَعَسَاهُ أَنْ يَكُونَ فِتْنَةً لَكُمْ ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللهِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . ﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ أَيْ : نَحْنُ مُحْتَاجُونَ إِلَى الأَكْلِ مِنْهَا . ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ إِذَا شَاهَدْنَا نُزُولَهَا رِزْقًا لَنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ أَيْ : وَنَزْدَادُ إِيمَانًا بِكَ وَعِلْمًا بِرِسَالَتِكَ ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أَيْ : وَنَشْهَدُ أَنَّهَا آيَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَدَلَالَةٌ وَحُجَّةٌ عَلَى نُبُوَّتِكَ ، وَصِدْقِ مَا جِئْتَ بِهِ .

﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ : أَيْ : نَتَّخِذُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عِيدًا نُعَظِّمُهُ نَحْنُ وَمَنْ بَعْدَنَا ، وَقِيلَ : عِظَةٌ لَنَا وَلِمَنْ بَعْدَنَا ، وَقِيلَ : كَافِيَةٌ لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴿ وَءَايَةً مِّنكَ ﴾ أَيْ : دَلِيلًا تَنْصِبُهُ عَلَى قُدْرَتِكَ عَلَى الأَشْيَاءِ ، وَعَلَى إِجَابَتِكَ لِدَعْوَتِي ، فَيُصَدِّقُونِي فِيمَا أُبَلِّغُهُ عَنْكَ ﴿ وَٱرْزُقْنَا ﴾ أَيْ : مِنْ عِنْدِكَ رِزْقًا هَنِيئًا بِلَا كُلْفَةٍ وَلَا تَعَبٍ ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ ﴾ أَيْ : فَمَنْ كَذَّبَ بِهَا مِنْ أُمَّتِكَ يَا عِيسَى وَعَانَدَهَا ﴿ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : مِنْ عَالَمِي زَمَانِكُمْ . وَأَنْزَلَ اللهُ المَائِدَةَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَيَّامَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِجَابَةً مِنَ اللهِ لِدَعْوَتِهِ ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ ظَاهِرُ هَذَا السِّيَاقِ مِنَ القُرْآنِ العَظِيمِ ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . وَالجُمْهُورُ : أَنَّهَا نَزَلَتْ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَخْبَرَ بِنُزُولِهَا وَوَعْدُ اللهِ وَوَعِيدُهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ .

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ

مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

هَذَا أَيْضًا مِمَّا يُخَاطِبُ اللهُ بِهِ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عليه السلام قَائِلًا لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَضْرَةِ مَنِ اتَّخَذَهُ وَأُمَّهُ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ : ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ لِلنَّصَارَى وَتَوْبِيخٌ وَتَقْرِيعٌ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ هَذَا تَوْفِيقٌ لِلتَّأَدُّبِ فِي الْجَوَابِ الْكَامِلِ . ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ أَيْ : إِنْ كَانَ صَدَرَ مِنِّي هَذَا فَقَدْ عَلِمْتَهُ يَا رَبِّ ، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ فَمَا قُلْتُهُ وَلَا أَرَدْتُهُ فِي نَفْسِي وَلَا أَضْمَرْتُهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ ﴾ بِإِبْلَاغِهِ ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أَي : مَا دَعَوْتُهُمْ إِلَّا إِلَى الَّذِي أَرْسَلْتَنِي بِهِ وَأَمَرْتَنِي بِإِبْلَاغِهِ ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أَي : هَذَا هُوَ الَّذِي قُلْتُ لَهُم . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ أَي : كُنْتُ أَشْهَدُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ حِينَ كُنْتُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ هَذَا الْكَلَامُ يَتَضَمَّنُ رَدَّ الْمَشِيئَةِ إِلَى اللهِ عز وجل ، فَإِنَّهُ الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ، وَمُتَضَمِّنٌ التَّبَرِّي مِنَ النَّصَارَى ، الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وَعَلَى رَسُولِهِ ، وَجَعَلُوا للهِ نِدًّا وَصَاحِبَةً وَوَلَدًا ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُجِيبًا لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام فِيمَا أَنْهَاهُ إِلَيْهِ مِنَ التَّبَرِّي مِنَ النَّصَارَى الْمُلْحِدِينَ الْكَاذِبِينَ عَلَى اللهِ وَعَلَى رَسُولِهِ ، وَمِن رَدِّ الْمَشِيئَةِ فِيهِمْ إِلَى رَبِّهِ عز وجل فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ قِيلَ : يَوْمُ يَنْفَعُ الْمُوَحِّدِينَ تَوْحِيدُهُمْ ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا لَا يُحَوَّلُونَ وَلَا يَزُولُونَ ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة : ٧٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ أَيْ : هَذَا الْفَوْزُ الْكَبِيرُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ .

قَوْلُهُ : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾ أَيْ : هُوَ الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ الْمَالِكُ لَهَا الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا الْقَادِرُ عَلَيْهَا ، فَالْجَمِيعُ مِلْكُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ وَفِي مَشِيئَتِهِ ، فَلَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا وَزِيرَ وَلَا عَدِيلَ وَلَا وَالِدَ وَلَا وَلَدَ وَلَا صَاحِبَةَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ .

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَائِدَةِ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسير سورة الأنعام — آياتها ١٦٥ — مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى مَادِحًا نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ ، وَحَامِدًا لَهَا عَلَى خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَرَارًا لِعِبَادِهِ . وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ مَنْفَعَةً لِعِبَادِهِ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ ، فَجَمَعَ لَفْظَ الظُّلُمَاتِ وَوَحَّدَ لَفْظَ النُّورِ ؛ لِكَوْنِهِ أَشْرَفَ ، كَمَا قَالَ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أَيْ : وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ كَفَرَ بِهِ بَعْضُ عِبَادِهِ وَجَعَلُوا لَهُ شَرِيكًا وَعَدْلًا ، وَاتَّخَذُوا لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا ، تَعَالَى اللهُ ﷻ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ يَعْنِي : أَبَاهُمْ آدَمَ الَّذِي هُوَ أَصْلُهُمْ ، وَمِنْهُ خَرَجُوا فَانْتَشَرُوا فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ يَعْنِي : الْمَوْتَ ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ يَعْنِي : الْآخِرَةَ . وَقِيلَ : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ يَعْنِي : مُدَّةَ الدُّنْيَا ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ يَعْنِي : عُمْرَ الْإِنْسَانِ إِلَى حِينِ مَوْتِهِ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ عِندَهُۥ ﴾ أَيْ : لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ : يَعْنِي تَشُكُّونَ فِي أَمْرِ السَّاعَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ اِخْتَلَفَ مُفَسِّرُو هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَقْوَالٍ بَعْدَ الاتِّفَاقِ عَلَى تَخْطِئَةِ قَوْلِ الْجَهْمِيَّةِ الْأُوَلِ الْقَائِلِينَ - تَعَالَى عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا -: بِأَنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، حَيْثُ حَمَلُوا الْآيَةَ عَلَى ذَلِكَ فَالْأَصَحُّ مِنَ الْأَقْوَالِ : أَنَّهُ الْمَدْعُوُّ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ، أَيْ : يَعْبُدُهُ وَيُوَحِّدُهُ وَيُقِرُّ لَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَيُسَمُّونَهُ اللهَ ، وَيَدْعُونَهُ رَغَبًا وَرَهَبًا ، إِلَّا مَنْ كَفَرَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف : ٨٤] أَيْ : هُوَ إِلَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ ، وَإِلَهُ مَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُهُ : ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ خَبَرًا أَوْ حَالًا .

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ الْمُعَانِدِينَ : أَنَّهُمْ مَهْمَا أَتَتْهُمْ ﴿ مِّنْ ءَايَةٍ ﴾ ، أَيْ : دَلَالَةٌ وَمُعْجِزَةٌ وَحُجَّةٌ مِنَ الدَّلَالَاتِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ الْكِرَامِ ، فَإِنَّهُمْ يُعْرِضُونَ عَنْهَا فَلَا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَلَا يُبَالُونَ بِهَا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ ، وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ : بِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ ، وَلَيَجِدُنَّ غِبَّهُ وَلَيَذُوقُنَّ وَبَالَهُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى وَاعِظًا وَمُحَذِّرًا لَهُمْ أَنْ يُصِيبَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ الدُّنْيَوِيِّ مَا حَلَّ بِأَشْبَاهِهِمْ وَنُظَرَائِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ الَّذِينَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا ، وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَاسْتِغْلَالًا لِلْأَرْضِ وَعِمَارَةً لَهَا ، فَقَالَ : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَعْمَارِ وَالْجَاهِ الْعَرِيضِ وَالسَّعَةِ وَالْجُنُودِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا ﴾ أَيْ : شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ ﴾ أَيْ : أَكْثَرْنَا عَلَيْهِمْ أَمْطَارَ السَّمَاءِ وَيَنَابِيعَ الْأَرْضِ ، أَيْ : اِسْتِدْرَاجًا وَإِمْلَاءً لَهُمْ ﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : بِخَطَايَاهُمْ وَسَيِّئَاتِهِمُ الَّتِي اجْتَرَمُوهَا ﴿ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ أَيْ : فَذَهَبَ الْأَوَّلُونَ كَأَمْسِ الذَّاهِبِ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴿ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ أَيْ : جِيلًا آخَرَ لِنَخْتَبِرَهُمْ فَعَمِلُوا مِثْلَ أَعْمَالِهِمْ فَهَلَكُوا كَهَلَاكِهِمْ ، فَاحْذَرُوا أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ ، فَمَا أَنْتُمْ بِأَعَزَّ عَلَى اللهِ مِنْهُمْ ، وَالرَّسُولُ الَّذِي كَذَّبْتُمُوهُ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْ رَسُولِهِمْ ،

فَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْعَذَابِ وَمُعَاجَلَةِ الْعُقُوبَةِ مِنْهُمْ ، لَوْلَا لُطْفُهُ وَإِحْسَانُهُ .

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَعِنَادِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ لِلْحَقِّ ، وَمُبَاهَتَتِهِمْ وَمُنَازَعَتِهِمْ فِيهِ ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ أَيْ : عَايَنُوهُ وَرَأَوْا نُزُولَهُ وَبَاشَرُوا ذَلِكَ : ﴿ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ . ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أَيْ : لِيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ أَيْ : لَوْ نُزِّلَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ لَجَاءَهُمْ مِنَ اللهِ الْعَذَابُ . كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر : ٨]، وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان :٢٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ أَيْ : لَوْ أَنْزَلْنَا مَعَ الرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ مَلَكًا أَيْ : لَوْ بَعَثْنَا إِلَى الْبَشَرِ رَسُولًا مَلَكِيًّا لَكَانَ عَلَى هَيْئَةِ الرَّجُلِ ؛ لِتَفْهَمَ مُخَاطَبَتُهُ وَالِانْتِفَاعُ بِالْأَخْذِ عَنْهُ ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَالْتَبَسَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ كَمَا يُلَبِّسُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي قَبُولِ رِسَالَةِ الْبَشَرِيِّ ، فَمِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ أَنَّهُ يُرْسِلُ إِلَى كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْخَلَائِقِ رُسُلًا مِنْهُ لِيَدْعُوَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَلِيُمَكِّنَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَنْتَفِعَ بِبَعْضٍ فِي الْمُخَاطَبَةِ وَالسُّؤَالِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ هَذِهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، وَوَعْدٌ لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ بِالنُّصْرَةِ وَالْعَاقِبَةِ الْحَسَنَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أَيْ : فَكِّرُوا فِي أَنْفُسِكُمْ وَانْظُرُوا مَا أَحَلَّ اللهُ بِالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُ وَعَانَدُوهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا ، مَعَ مَا ادَّخَرَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي الْآخِرَةِ ، وَكَيْفَ نَجَّى رُسُلَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ .

قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا

سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَأَنَّهُ قَدْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الرَّحْمَةَ ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ الخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي**)).

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ هَذِهِ اللَّامُ هِيَ الْمُوَطِّئَةُ لِلْقَسَمِ ، فَأَقْسَمَ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ لَيَجْمَعَنَّ عِبَادَهُ ﴿ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أَيْ : لَا شَكَّ فِيهِ عِنْدَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَمَّا الْجَاحِدُونَ الْمُكَذِّبُونَ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : لَا يُصَدِّقُونَ بِالْمَعَادِ ، وَلَا يَخَافُونَ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أَيْ : كُلُّ دَابَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، الْجَمِيعُ عِبَادُهُ وَخَلْقُهُ ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَتَصَرُّفِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ، الْعَلِيمُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ وَسَرَائِرِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي بَعَثَهُ بِالتَّوْحِيدِ الْعَظِيمِ وَبِالشَّرْعِ الْقَوِيمِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ إِلَى صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ [الزمر : ٦٤] ، وَالْمَعْنَى : لَا أَتَّخِذُ وَلِيًّا إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِنَّهُ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَيْ : خَالِقُهُمَا وَمُبْدِعُهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ أَيْ : وَهُوَ الرَّزَّاقُ لِخَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَيْهِمْ . ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ أَيْ : مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ ﴾ أَيْ : الْعَذَابُ ﴿ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ﴾ يَعْنِي : فَقَدْ رَحِمَهُ اللهُ ﴿ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ، وَالْفَوْزُ هُوَ : حُصُولُ الرِّبْحِ وَنَفْيُ الْخَسَارَةِ .

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ

أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ مَالِكُ الضُّرِّ وَالنَّفْعِ وَأَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ أَيْ: هُوَ الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ الرِّقَابُ وَذَلَّتْ لَهُ الْجَبَابِرَةُ، وَعَنَتْ لَهُ الْوُجُوهُ، وَقَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ، وَدَانَتْ لَهُ الْخَلَائِقُ ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أَيْ: فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ بِمَوَاضِعِ الْأَشْيَاءِ وَمَحَالِّهَا. ثُمَّ قَالَ: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ﴾ أَيْ: مَنْ أَعْظَمُ الْأَشْيَاءِ شَهَادَةً ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ أَيْ: هُوَ الْعَالِمُ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ وَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ لِي ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ أَيْ: هُوَ نَذِيرٌ لِكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ ﴾ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ ﴿ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ هَذَا الَّذِي جِئْتَهُمْ بِهِ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ أَيْ: خَسِرُوا كُلَّ الْخَسَارَةِ ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بِهَذَا الْأَمْرِ الْجَلِيِّ الظَّاهِرِ الَّذِي بَشَّرَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، وَنَوَّهَتْ بِهِ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾ أَيْ: لَا أَظْلَمَ مِمَّنْ تَقَوَّلَ عَلَى اللهِ فَادَّعَى أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ أَرْسَلَهُ، ثُمَّ لَا أَظْلَمَ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ وَدَلَالَاتِهِ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أَيْ: لَا يُفْلِحُ هَذَا وَلَا هَذَا، لَا الْمُفْتَرِي وَلَا الْمُكَذِّبُ.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَسْأَلُهُمْ عَنِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِهِ قَائِلًا لَهُمْ ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾ أَيْ حُجَّتُهُمْ ، **وَقِيلَ** : مَعْذِرَتُهُمْ . **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَالصَّوَابُ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ قِيلُهُمْ عِنْدَ فِتْنَتِنَا إِيَّاهُمُ اعْتِذَارًا عَمَّا سَلَفَ مِنْهُمْ مِنَ الشِّرْكِ بِاللهِ ﴿ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ أَيْ : يَجِيئُوكَ لِيَسْمَعُوا قِرَاءَتَكَ وَلَا تَجْزِي عَنْهُمْ شَيْئًا ؛ لِأَنَّ اللهَ جَعَلَ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ، أَيْ : أَغْطِيَةً لِئَلَّا يَفْهَمُوا الْقُرْآنَ ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أَيْ : صُمًّا عَنِ السَّمَاعِ النَّافِعِ . ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ أَيْ : مَهْمَا رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ وَالدَّلَالَاتِ وَالْحُجَجِ الْبَيِّنَاتِ وَالْبَرَاهِينِ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ، فَلَا فَهْمَ عِنْدَهُمْ وَلَا إِنْصَافَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ ﴾ أَيْ : يُحَاجُّونَكَ وَيُنَاظِرُونَكَ فِي الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : مَا هَذَا الَّذِي جِئْتَ بِهِ إِلَّا مَأْخُوذٌ مِنْ كُتُبِ الْأَوَائِلِ وَمَنْقُولٌ عَنْهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ وَفِي مَعْنَى ﴿ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ قَوْلَانِ : **أَحَدُهُمَا** : أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُمْ يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَتَصْدِيقِ الرَّسُولِ وَالِانْقِيَادِ لِلْقُرْآنِ ﴿ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ أَيْ : وَيُبْعِدُونَهُمْ عَنْهُ ، فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ الْفِعْلَيْنِ الْقَبِيحَيْنِ لَا يَنْتَفِعُونَ وَلَا يَدَعُونَ أَحَدًا يَنْتَفِعُ .

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى حَالَ الْكُفَّارِ إِذَا وُقِفُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى النَّارِ وَشَاهَدُوا مَا فِيهَا مِنَ السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ ، وَرَأَوْا بِأَعْيُنِهِمْ تِلْكَ الْأُمُورَ الْعِظَامَ وَالْأَهْوَالَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا : ﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يَتَمَنَّوْنَ أَنْ يُرَدُّوا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُكَذِّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَيَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : بَلْ ظَهَرَ لَهُمْ حِينَئِذٍ مَا كَانُوا يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ وَالْمُعَانَدَةِ وَإِنْ أَنْكَرُوهَا فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ ؛ كَمَا قَالَ

قَبْلَهُ بِيَسِيرٍ ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ ظَهَرَ لَهُمْ مَا كَانُوا يَعْلَمُونَهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنْ صِدْقِ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنْ كَانُوا يُظْهِرُونَ لِأَتْبَاعِهِمْ خِلَافَهُ ، وَأَمَّا مَعْنَى الاعْتِرَافِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ فَإِنَّهُمْ مَا طَلَبُوا الْعَوْدَ إِلَى الدُّنْيَا رَغْبَةً وَمَحَبَّةً فِي الْإِيمَانِ ، بَلْ خَوْفًا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي عَايَنُوهُ جَزَاءً عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ، فَسَأَلُوا الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَتَخَلَّصُوا مِمَّا شَاهَدُوا مِنَ النَّارِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أَيْ : فِي تَمَنِّيهِمُ الرَّجْعَةَ رَغْبَةً وَمَحَبَّةً فِي الْإِيمَانِ ، ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمُخَالَفَةِ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أَيْ : فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ أَيْ : لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَلَقَالُوا : مَا هِيَ إِلَّا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَا مَعَادَ بَعْدَهَا ، **وَلِهَذَا قَالَ:** ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : أُوقِفُوا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : أَلَيْسَ هَذَا الْمَعَادُ بِحَقٍّ وَلَيْسَ بِبَاطِلٍ كَمَا كُنْتُمْ تَظُنُّونَ ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أَيْ : بِمَا كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ بِهِ فَذُوقُوا الْيَوْمَ مَسَّهُ ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ خَسَارَةِ مَنْ كَذَّبَ بِلِقَائِهِ وَعَنْ خَيْبَتِهِ إِذَا جَاءَتْهُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَعَنْ نَدَامَتِهِ عَلَى مَا فَرَّطَ مِنَ الْعَمَلِ ، وَمَا أَسْلَفَ مِنْ قَبِيحِ الْفِعَالِ ، **وَلِهَذَا قَالَ:** ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ وَهَذَا الضَّمِيرُ يَحْتَمِلُ عَوْدُهُ عَلَى الْحَيَاةِ وَعَلَى الْأَعْمَالِ وَعَلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ، أَيْ : فِي أَمْرِهَا . ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ مَا يَزِرُونَ ، أَيْ : يَحْمِلُونَ ، **وَقِيلَ** : يَعْمَلُونَ . ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا غَالِبُهَا كَذَلِكَ ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ

كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ قَوْمِهِ لَهُ وَمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُ ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾ أَيْ : قَدْ أَحَطْنَا عِلْمًا بِتَكْذِيبِهِمْ لَكَ ، وَحُزْنِكَ وَتَأَسُّفِكَ عَلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ أَيْ : لَا يَتَّهِمُونَكَ بِالْكَذِبِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أَيْ : وَلَكِنَّهُمْ يُعَانِدُونَ الْحَقَّ وَيَدْفَعُونَهُ بِصُدُورِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ هَذِهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَتَعْزِيَةٌ لَهُ فِيمَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، وَأَمْرٌ لَهُ بِالصَّبْرِ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَوَعْدٌ لَهُ بِالنَّصْرِ كَمَا نُصِرُوا ، وَبِالظَّفَرِ حَتَّى كَانَتْ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ بَعْدَمَا نَالَهُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ مِنْ قَوْمِهِمْ وَالْأَذَى الْبَلِيغِ ، ثُمَّ جَاءَهُمُ النَّصْرُ فِي الدُّنْيَا كَمَا لَهُمُ النَّصْرُ فِي الْآخِرَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : الَّتِي كَتَبَهَا بِالنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أَيْ : مِنْ خَبَرِهِمْ كَيْفَ نُصِرُوا وَأُيِّدُوا عَلَى مَنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ فَلَكَ فِيهِمْ أُسْوَةٌ وَبِهِمْ قُدْوَةٌ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أَيْ : إِنْ كَانَ شَقَّ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ عَنْكَ ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : النَّفَقُ : السَّرْبُ ، فَتَذْهَبَ فِيهِ فَتَأْتِيَهِمْ بِآيَةٍ ، أَوْ تَجْعَلَ لَكَ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَصْعَدَ فِيهِ فَتَأْتِيَهِمْ بِآيَةٍ أَفْضَلَ مِمَّا آتَيْتَهُمْ بِهِ فَافْعَلْ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٩٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لِدُعَائِكَ يَا مُحَمَّدُ مَنْ يَسْمَعُ الْكَلَامَ وَيَعِيهِ وَيَفْهَمُهُ . ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ : الْكُفَّارُ ؛ لِأَنَّهُمْ مَوْتَى الْقُلُوبِ ، فَشَبَّهَهُمُ اللهُ بِأَمْوَاتِ الْأَجْسَادِ فَقَالَ : ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّهَكُّمِ بِهِمْ وَالِازْدِرَاءِ عَلَيْهِمْ .

وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أَيْ : خَارِقٌ عَلَى مُقْتَضَى مَا كَانُوا يُرِيدُونَ وَمِمَّا يَتَعَنَّتُونَ . ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : هُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَكِنَّ حِكْمَتَهُ تَعَالَى تَقْتَضِي تَأْخِيرَ ذَلِكَ ، لأَنَّهُ لَوْ أَنْزَلَهَا وَفْقَ مَا طَلَبُوا ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا لَعَاجَلَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ ، كَمَا فَعَلَ بِالأُمَمِ السَّالِفَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ **قِيلَ** : أَيْ : أَصْنَافٌ مُصَنَّفَةٌ تُعْرَفُ بِأَسْمَائِهَا . **وَقِيلَ** : الطَّيْرُ أُمَّةٌ ، وَالإِنْسُ أُمَّةٌ ، وَالْجِنُّ أُمَّةٌ ، **وَقِيلَ** : ﴿ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ أَيْ : خَلْقٌ أَمْثَالُكُمْ . ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ عِلْمُهُمْ عِنْدَ الله ، وَلَا يَنْسَى وَاحِدًا مِنْ جَمِيعِهَا مِنْ رِزْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، سَوَاءٌ كَانَ بَرِّيًّا أَوْ بَحْرِيًّا ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: حَشْرُهَا الْمَوْتُ . **وَقِيلَ** : أَنَّ حَشْرَهَا بَعْثُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ أَيْ : مِثْلُهُمْ فِي جَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عِلْمِهِمْ ، وَعَدَمِ فَهْمِهِمْ ، كَمَثَلِ أَصَمَّ وَهُوَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ ، أَبْكَم وَهُوَ الَّذِي لَا يَتَكَلَّمُ ، وَهُوَ مَعَ هَذَا فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُ ، فَكَيْفَ يَهْتَدِي مِثْلُ هَذَا إِلَى الطَّرِيقِ أَوْ يَخْرُجُ مِمَّا هُوَ فِيهِ ؟ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ .

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ ، الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَأَنَّهُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى صَرْفِ حُكْمِهِ عَنْ خَلْقِهِ ، بَلْ هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ يُجِيبُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ أَيْ : أَتَاكُمْ هَذَا أَوْ هَذَا ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : لَا تَدْعُونَ غَيْرَهُ لِعِلْمِكُمْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى رَفْعِ ذَلِكَ سِوَاهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : فِي اتِّخَاذِكُمْ آلِهَةً مَعَهُ . ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ

﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ أَيْ : فِي وَقْتِ الضَّرُورَةِ لَا تَدْعُونَ أَحَدًا سِوَاهُ وَتَذْهَبُ عَنْكُمْ أَصْنَامُكُمْ وَأَنْدَادُكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ ﴾ يَعْنِي : الْفَقْرُ وَالضِّيقُ فِي الْعَيْشِ ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ وَهِيَ الْأَمْرَاضُ وَالْأَسْقَامُ وَالْآلَامُ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أَيْ : يَدْعُونَ اللهَ وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ وَيَخْشَعُونَ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ ﴾ أَيْ : فَهَلَّا إِذَا ابْتَلَيْنَاهُمْ بِذَلِكَ تَضَرَّعُوا إِلَيْنَا وَتَمَسْكَنُوا لَدَيْنَا ﴿ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أَيْ : مَا رَقَّتْ وَلَا خَشَعَتْ ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : مِنَ الشِّرْكِ وَالْمُعَانَدَةِ وَالْمَعَاصِي ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ أَيْ : أَعْرَضُوا عَنْهُ وَتَنَاسَوْهُ وَجَعَلُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أَيْ : فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ الرِّزْقِ مِنْ كُلِّ مَا يَخْتَارُونَ ، وَهَذَا اسْتِدْرَاجٌ مِنْهُ تَعَالَى وَإِمْلَاءٌ لَهُمْ ، عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ مَكْرِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ ﴾ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَرْزَاقِ ﴿ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ أَيْ : عَلَى غَفْلَةٍ ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ أَيْ : آيِسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ قُل ﴾ لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ الْمُعَانِدِينَ ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ ﴾ أَيْ : سَلَبَكُمْ إِيَّاهَا كَمَا أَعْطَاكُمُوهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ أَيْ : هَلْ أَحَدٌ غَيْرُ اللهِ يَقْدِرُ عَلَى رَدِّ ذَلِكَ إِلَيْكُمْ إِذَا سَلَبَهُ اللهُ مِنْكُمْ ؟ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أَيْ : نُبَيِّنُهَا وَنُوضِحُهَا وَنُفَسِّرُهَا ، دَالَّةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ بَاطِلٌ وَضَلَالٌ ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ أَيْ : ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذَا الْبَيَانِ يَصْدِفُونَ ، أَيْ : يَعْرِضُونَ عَنِ الْحَقِّ وَيَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً ﴾ أَيْ : وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ بِهِ حَتَّى بَغَتَكُمْ وَفَجَأَكُمْ ﴿ أَوْ جَهْرَةً ﴾ أَيْ : ظَاهِرًا عِيَانًا ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا كَانَ يُحِيطُ بِالظَّالِمِينَ أَنْفُسَهُمْ بِالشِّرْكِ بِاللهِ وَيَنْجُو الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أَيْ : مُبَشِّرِينَ عِبَادَ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْخَيْرَاتِ ، وَمُنْذِرِينَ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ النِّقَمَاتِ وَالْعُقُوبَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ ﴾ أَيْ : فَمَنْ آمَنَ قَلْبُهُ بِمَا جَاءُوا بِهِ ، وَأَصْلَحَ عَمَلَهُ بِاتِّبَاعِهِ إِيَّاهُمْ ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : بِالنِّسْبَةِ لِمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أَيْ : بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فَاتَهُمْ وَتَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَصَنِيعِهَا ، اللهُ وَلِيُّهُمْ فِيمَا خَلَّفُوهُ وَحَافِظُهُمْ فِيمَا تَرَكُوهُ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ أَيْ : يَنَالُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَفَرُوا بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَخَرَجُوا عَنْ أَوَامِرِ اللهِ وَطَاعَتِهِ ، وَارْتَكَبُوا مَنَاهِيه وَمَحَارِمِهِ وَانْتِهَاكِ حُرُمَاتِهِ .

قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لَسْتُ أَمْلِكُهَا وَلَا أَتَصَرَّفُ فِيهَا ﴿ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ أَيْ : وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ إِنَّمَا ذَاكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ ﷻ وَلَا أَطَّلِعُ مِنْهُ إِلَّا عَلَى مَا أَطْلَعَنِي عَلَيْهِ ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ أَيْ : وَلَا أَدَّعِي أَنِّي مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِنَ الْبَشَرِ يُوحَى إِلَيَّ مِنَ اللهِ ﷻ ، شَرَّفَنِي بِذَلِكَ وَأَنْعَمَ عَلَيَّ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ أَيْ : لَسْتُ أَخْرُجُ عَنْهُ قَيْدَ شِبْرٍ وَلَا أَدْنَى مِنْهُ ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ أَيْ : هَلْ يَسْتَوِي مَنِ اتَّبَعَ الْحَقَّ وَهُدِيَ إِلَيْهِ وَمَنْ ضَلَّ عَنْهُ وَلَمْ يَنْقَدْ لَهُ ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أَيْ : وَأَنْذِرْ بِهَذَا الْقُرْآنِ يَا مُحَمَّدُ : ﴿ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٧] ، وَالَّذِينَ ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد : ٢١] ﴿ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ لَيْسَ لَهُم ﴾ أَيْ : يَوْمَئِذٍ ﴿ مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أَيْ : لَا قَرِيبَ لَهُمْ وَلَا شَفِيعَ فِيهِمْ

مِنْ عَذَابِهِ إِنْ أَرَادَهُ بِهِمْ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : أَنْذِرْ هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي لَا حَاكِمَ فِيهِ إِلَّا اللهُ ﷻ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ فَيَعْمَلُونَ فِي هَذِهِ الدَّارِ عَمَلًا يُنْجِيهِمُ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَذَابِهِ ، وَيُضَاعِفُ لَهُمْ بِهِ الْجَزِيلَ مِنْ ثَوَابِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ أَيْ : لَا تُبْعِدْ هَؤُلَاءِ الْمُتَّصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ عَنْكَ ، بَلِ اجْعَلْهُمْ جُلَسَاءَكَ وَأَخِصَّاءَكَ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ أَيْ : يَعْبُدُونَهُ وَيَسْأَلُونَهُ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ أَيْ : يُرِيدُونَ بِذَلِكَ الْعَمَلِ وَجْهَ اللهِ الْكَرِيمِ ، فَهُمْ مُخْلِصُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا حِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ ﷻ وَلَيْسَ عَلَيَّ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابِي مِنْ شَيْءٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ فَعَلْتَ هَذَا وَالْحَالَةُ هَذِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ أَيْ : اِبْتَلَيْنَا وَاخْتَبَرْنَا وَامْتَحَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴿ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ غَالِبُ مَنِ اتَّبَعَهُ فِي أَوَّلِ بَعْثَتِهِ ضُعَفَاءَ النَّاسِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ ، وَلَمْ يَتَّبِعْهُ مِنَ الْأَشْرَافِ إِلَّا قَلِيلٌ ، وَقَالَ فِي جَوَابِهِمْ حِينَ قَالُوا : ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أَيْ : أَلَيْسَ هُوَ أَعْلَمُ بِالشَّاكِرِينَ لَهُ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ فَيُوَفِّقُهُمْ وَيَهْدِيهِمْ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : فَأَكْرِمْهُمْ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيْهِمْ وَبَشِّرْهُمْ بِرَحْمَةِ اللهِ الْوَاسِعَةِ الشَّامِلَةِ لَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ أَيْ : أَوْجَبَهَا عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ تَفَضُّلًا مِنْهُ وَإِحْسَانًا وَامْتِنَانًا ﴿ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ﴾ **قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : كُلُّ مَنْ عَصَى اللهَ فَهُوَ جَاهِلٌ . ﴿ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ ﴾ أَيْ : رَجَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَاصِي وَأَقْلَعَ وَعَزَمَ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ وَأَصْلَحَ الْعَمَلَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ﴿ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا

يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تعَالَى : وَكَمَا بَيَّنَّا مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ مِنَ الْحُجَجِ وَالدَّلَائِلِ عَلَى طَرِيقِ الْهِدَايَةِ وَالرَّشَادِ وَذَمِّ الْمُجَادَلَةِ وَالْعِنَادِ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ أَيْ : الَّتِي يَحْتَاجُ الْمُخَاطَبُونَ إِلَى بَيَانِهَا ﴿ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ أَيْ : وَلِتَظْهَرَ طَرِيقُ الْمُجْرِمِينَ الْمُخَالِفِينَ لِلرُّسُلِ ، وَقُرِئَ « وَلِيَسْتَبِيْنَ سَبِيْلَ الْمُجْرِمِيْنَ » أَيْ : وَلِيَسْتَبِينَ يَا مُحَمَّدُ أَوْ يَا مُخَاطَبُ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي ﴾ أَيْ : عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ شَرِيعَةِ الله الَّتِي أَوْحَاهَا اللهُ إِلَيَّ ﴿ وَكَذَّبۡتُم بِهِۦ ﴾ أَيْ : بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَنِي مِنَ الله ﴿ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓ ﴾ أَيْ : مِنَ الْعَذَابِ ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَرْجِعُ أَمْرُ ذَلِكَ إِلَى الله ، إِنْ شَاءَ عَجَّلَ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمُوهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنْ شَاءَ أَنْظَرَكُمْ وَأَجَّلَكُمْ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْعَظِيمَةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ﴾ أَيْ : وَهُوَ خَيْرُ مَنْ فَصَّلَ الْقَضَايَا ، وَخَيْرُ الْفَاتِحِينَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ عِبَادِهِ . ﴿ قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ ﴾ أَيْ : لَوْ كَانَ مَرْجِعُ مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِلَيَّ لَأَوْقَعْتُ بِكُمْ مَا تَسْتَحِقُّونَهُ مِنْ ذَلِكَ ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾ [لقمان : ٣٤] .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾ أَيْ : يُحِيطُ عِلْمُهُ الْكَرِيمُ بِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ بَرِّيِّهَا وَبَحْرِيِّهَا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ وَلَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا ﴾ أَيْ : وَيَعْلَمُ الْحَرَكَاتِ حَتَّى مِنَ الْجَمَادَاتِ ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْحَيَوَانَاتِ ، وَلَا سِيَّمَا الْمُكَلَّفُونَ مِنْهُمْ مِنْ جِنِّهِمْ وَإِنْسِهِمْ .

وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِنَّهُ يَتَوَفَّى عِبَادَهُ فِي مَنَامِهِمْ بِاللَّيْلِ ، وَهَذَا هُوَ التَّوَفِّي الْأَصْغَرُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ أَيْ : مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ فِيهِ

﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أَيْ : فِي النَّهَارِ . ﴿ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ يَعْنِي بِهِ : أَجَلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم ﴾ أَيْ : فَيُخْبِرُكُمْ ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : وَيَجْزِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ أَيْ : وَهُوَ الَّذِي قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَخَضَعَ لِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ كُلُّ شَيْءٍ ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَ بَدَنَ الْإِنْسَانِ ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ أَيْ : احْتُضِرَ وَحَانَ أَجَلُهُ ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ أَيْ : مَلَائِكَةٌ مُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ أَيْ : فِي حِفْظِ رُوحِ الْمُتَوَفَّى بَلْ يَحْفَظُونَهَا وَيُنْزِلُونَهَا حَيْثُ شَاءَ اللهُ ﷻ إِنْ كَانَ مِنَ الْأَبْرَارِ فَفِي عِلِّيِّينَ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْفُجَّارِ فَفِي سِجِّينٍ ، عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ ﴾ يَعْنِي : الْمَلَائِكَةُ ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يَعْنِي : الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ إِلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِعَدْلِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ .

قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى عِبَادِهِ فِي إِنْجَائِهِ الْمُضْطَرِّينَ مِنْهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ أَيْ : الْحَائِرِينَ الْوَاقِعِينَ فِي الْمَهَامَّةِ الْبَرِّيَّةِ وَفِي اللُّجَجِ الْبَحْرِيَّةِ إِذَا هَاجَتِ الرِّيَاحُ الْعَاصِفَةُ ، فَحِينَئِذٍ يُفْرِدُونَ الدُّعَاءَ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ أَيْ : جَهْرًا وَسِرًّا ﴿ لَّئِنْ أَنجَىٰنَا ﴾ أَيْ : مِنْ هَذِهِ الضَّائِقَةِ ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أَيْ : بَعْدَهَا ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ ﴾ أَيْ : بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ تُشْرِكُونَ ﴾ أَيْ : تَدْعُونَ مَعَهُ فِي حَالِ الرَّفَاهِيَةِ آلِهَةً أُخْرَى . ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ لَمَّا قَالَ : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا ﴾ أَيْ : بَعْدَ إِنْجَائِهِ إِيَّاكُمْ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ يَعْنِي : الرَّجْمَ ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ يَعْنِي : الْخَسْفَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ يَعْنِي : يَجْعَلُكُمْ مُلْتَبِسِينَ شِيَعًا فِرَقًا مُتَخَالِفِينَ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يَعْنِي : الْأَهْوَاءَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يَعْنِي : يُسَلِّطُ بَعْضَكُمْ

عَلَى بَعْضٍ بِالْعَذَابِ وَالْقَتْلِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ ﴾ أَيْ : نُبَيِّنُهَا وَنُوَضِّحُهَا وَنُقَرِّرُهَا : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ أَيْ : يَفْهَمُونَ وَيَتَدَبَّرُونَ عَنِ اللهِ آيَاتِهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ .

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ ﴾ أَيْ : بِالْقُرْآنِ الَّذِي جِئْتَهُمْ بِهِ وَالْهُدَى وَالْبَيَانِ ﴿ قَوْمُكَ ﴾ يَعْنِي : قُرَيْشًا ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ أَيْ : الَّذِي لَيْسَ وَرَاءَهُ حَقٌّ ﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ أَيْ : لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ وَلَسْتُ بِمُوَكَّلٍ بِكُمْ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] أَيْ : إِنَّمَا عَلَيَّ الْبَلَاغُ وَعَلَيْكُمُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فَمَنِ اتَّبَعَنِي سَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ خَالَفَنِي فَقَدْ شَقِيَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : أَيْ : لِكُلِّ نَبَأٍ حَقِيقَةٌ ، أَيْ : لِكُلِّ خَبَرٍ وُقُوعٌ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ [ص : ٨٨] ، وَقَالَ : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا ﴾ أَيْ : بِالتَّكْذِيبِ وَالِاسْتِهْزَاءِ ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ أَيْ : حَتَّى يَأْخُذُوا فِي كَلَامٍ آخَرَ غَيْرِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ آحَادِ الْأُمَّةِ أَنْ لَا يَجْلِسَ مَعَ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ آيَاتِ اللهِ ، وَيَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا ، فَإِنْ جَلَسَ أَحَدٌ مَعَهُمْ نَاسِيًا ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ بَعْدَ التَّذَكُّرِ ﴿ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ أَيْ : إِذَا تَجَنَّبُوهُمْ فَلَمْ يَجْلِسُوا مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ فَقَدْ بَرِئُوا مِنْ عُهْدَتِهِمْ وَتَخَلَّصُوا مِنْ إِثْمِهِمْ .

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : دَعْهُمْ وَأَعْرِضْ

عَنْهُمْ وَأَمْهِلْهُمْ قَلِيلًا ، فَإِنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ ﴾ أَيْ : ذَكِّرِ النَّاسَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَحَذِّرْهُمْ نِقْمَةَ اللهِ وَعَذَابَهُ الْأَلِيمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أَيْ : لِئَلَّا تُبْسَلَ ، قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : ﴿ تُبْسَل ﴾ تُسْلَمُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : تُفْضَحُ . وَقِيلَ : تُحْبَسُ ، وَقِيلَ : تُؤَاخَذُ . وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَالْعِبَارَاتِ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَعْنَى ، وَحَاصِلُهَا : الْإِسْلَامُ لِلْهَلَكَةِ ، وَالْحَبْسُ عَنِ الْخَيْرِ ، وَالِارْتِهَانُ عَنْ دَرْكِ الْمَطْلُوبِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أَيْ : لَا قَرِيبَ وَلَا أَحَدَ يَشْفَعُ فِيهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ أَيْ : وَلَوْ بَذَلَتْ كُلَّ مَبْذُولٍ مَا قُبِلَ مِنْهَا ، وَكَذَا قَالَ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ .

قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

قَالَ السُّدِّيُّ : قَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ : اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَاتْرُكُوا دِينَ مُحَمَّدٍ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا ﴾ أَيْ : فِي الْكُفْرِ ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ فَيَكُونَ مَثَلُنَا مَثَلَ الَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ يَقُولُ : مَثَلُكُمْ إِنْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ مَعَ قَوْمٍ عَلَى الطَّرِيقِ ، فَضَلَّ الطَّرِيقَ فَحَيَّرَتْهُ الشَّيَاطِينُ ، وَاسْتَهْوَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَأَصْحَابُهُ عَلَى الطَّرِيقِ ، فَجَعَلُوا يَدْعُونَهُ إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ ائْتِنَا فَإِنَّا عَلَى الطَّرِيقِ ، فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ يَتَّبِعُهُمْ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَمُحَمَّدٌ هُوَ الَّذِي يَدْعُو إِلَى الطَّرِيقِ ، وَالطَّرِيقُ هُوَ : الْإِسْلَامُ . وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَضَلَّتْهُ فِي الْأَرْضِ ، يَعْنِي : اسْتَهْوَتْهُ سَيَّرَتْهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ قَالَ : رَجُلٌ حَيْرَانُ يَدْعُوهُ أَصْحَابُهُ إِلَى الطَّرِيقِ ، وَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ يَضِلُّ بَعْدَ أَنْ هُدِيَ ﴿ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ [الزمر : ٣٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : نُخْلِصَ لَهُ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . ﴿ وَأَنْ

أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ أَيْ : وَأَمَرَنَا بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَبِتَقْوَاهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : بِالْعَدْلِ فَهُوَ خَالِقُهُمَا وَمَالِكُهُمَا وَالْمُدَبِّرُ لَهُمَا وَلِمَنْ فِيهِمَا . ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَقُولُ اللهُ : كُنْ فَيَكُونُ عَنْ أَمْرِهِ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، وَيَوْمَ مَنْصُوبٌ إِمَّا عَلَى الْعَطْفِ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾ وَتَقْدِيرُهُ : وَاتَّقُوا يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُون ، وَإِمَّا عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أَيْ : وَخَلَقَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ، فَذَكَرَ بَدْءَ الْخَلْقِ وَإِعَادَته وَهُوَ مُنَاسِبٌ ، وَإِمَّا عَلَى إِضْمَارِ فِعْلٍ تَقْدِيرُهُ : وَاذْكُرْ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ جُمْلَتَانِ مَحَلُّهُمَا الْجَرُّ عَلَى أَنَّهُمَا صِفَتَانِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا لِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] ، وَالْمُرَادُ بِالصُّورِ : الْقَرْنِ الَّذِي يَنْفُخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ عليه السلام .

۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ النَّسَبِ : إِنَّ أَبَا إِبْرَاهِيمَ اسْمُهُ تَارِخ ، **وَقَالَ غَيْرُهُمْ** : آزَر : اِسْمُ صَنَمٍ .

قُلْتُ : كَأَنَّهُ غَلَبَ عَلَيْهِ آزَر لِخِدْمَتِهِ ذَلِكَ الصَّنَمَ - فَاللهُ أَعْلَمُ - . **وَالْمَقْصُودُ** : أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَعَظَ أَبَاهُ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، وَزَجَرَهُ عَنْهَا وَنَهَاهُ فَلَمْ يَنْتَهِ كَمَا قَالَ : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾ أَيْ : أَتَتَأَلَّهُ لِصَنَمٍ تَعْبُدُهُ مِنْ دُونِ اللهِ ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ ﴾ أَيْ : السَّالِكِينَ مَسْلَكَكَ ﴿ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : تَائِهِينَ لَا يَهْتَدُونَ أَيْنَ يَسْلُكُونَ ، بَلْ فِي حِيرَةٍ وَجَهْلٍ ، وَأَمْرُكُمْ فِي الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالِ بَيِّنٌ وَاضِحٌ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ صَحِيحٍ . ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : نُبَيِّنُ لَهُ وَجْهَ الدَّلَالَةِ فِي نَظَرِهِ إِلَى خَلْقِهِمَا عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ عز وجل فِي مُلْكِهِ وَخَلْقِهِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ . ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ **قِيلَ** : « الْوَاو »

زَائِدَةٌ ، تَقْدِيرُهُ : وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ، **وَقِيلَ** : بَلْ هِيَ عَلَى بَابِهَا ، أَيْ : نُرِيَهُ ذَلِكَ لِيَكُونَ عَالِمًا وَمُوقِنًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾ أَيْ : تَغَشَّاهُ وَسَتَرَهُ ﴿ رَءَا كَوْكَبًا ﴾ أَيْ : نَجْمًا ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾ أَيْ : غَابَ ، **قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ** : **الْأُفُولُ** : الذَّهَابُ ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يُقَالُ أَفَلَ النَّجْمُ يَأْفِلُ وَيَأْفُلُ أُفُولًا وَأَفَلًا : إِذَا غَابَ ، قَالَ : ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : عَلِمَ أَنَّ رَبَّهُ دَائِمٌ لَا يَزُولُ ، ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا ﴾ أَيْ : طَالِعًا ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ أَيْ : هَذَا الْمُنِيرُ الطَّالِعُ رَبِّي ﴿ هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾ أَيْ : جِرْمًا مِنَ النَّجْمِ وَمِنَ الْقَمَرِ وَأَكْثَرُ إِضَاءَةً ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتْ ﴾ أَيْ : غَابَتْ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ ﴾ أَيْ : أَخْلَصْتُ دِينِي ، وَأَفْرَدْتُ عِبَادَتِي ﴿ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أَيْ : خَلَقَهُمَا وَابْتَدَعَهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ﴿ حَنِيفًا ﴾ أَيْ : فِي حَالِ كَوْنِي حَنِيفًا أَيْ : مَائِلًا عَنِ الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ **وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الْمَقَامِ هَلْ هُوَ مَقَامُ نَظَرٍ أَوْ مُنَاظَرَةٍ ؟**

وَالْحَقُّ : أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام كَانَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُنَاظِرًا لِقَوْمِهِ مُبَيِّنًا لَهُمْ بُطْلَانَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْهَيَاكِلِ وَالْأَصْنَامِ ، فَلَمَّا انْتَفَتِ الْإِلَهِيَّةُ عَنْ هَذِهِ الْأَجْرَامِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي هِيَ أَنْوَرُ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ الْأَبْصَارُ ، وَتَحَقَّقَ ذَلِكَ بِالدَّلِيلِ الْقَاطِعِ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أَيْ : أَنَا بَرِيءٌ مِنْ عِبَادَتِهِنَّ وَمُوَالَاتِهِنَّ ، فَإِنْ كَانَتْ آلِهَةً فَكِيدُونِي بِهَا جَمِيعًا ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَعْبُدُ خَالِقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَمُخْتَرِعَهَا وَمُسَخِّرَهَا وَمُقَدِّرَهَا وَمُدَبِّرَهَا ، الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَخَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ وَإِلَهُهُ ، وَمِمَّا يُؤَيِّدُ أَنَّهُ كَانَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُنَاظِرًا لِقَوْمِهِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ لَا نَاظِرًا قَوْلُهُ تَعَالَى :

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ جَادَلَهُ قَوْمُهُ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَنَاظَرُوهُ بِشُبَهٍ مِنَ الْقَوْلِ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ أَيْ: تُجَادِلُونَنِي فِي أَمْرِ الله، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَقَدْ بَصَّرَنِي وَهَدَانِي إِلَى الْحَقِّ، وَأَنَا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ فَكَيْفَ أَلْتَفِتُ إِلَى أَقْوَالِكُمُ الْفَاسِدَةِ، وَشُبَهِكُمُ الْبَاطِلَةِ. ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ ﴾ أَيْ: وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِكُمْ فِيمَا ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِ: أَنَّ هَذِهِ الْآلِهَةَ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا لَا تُؤَثِّرُ شَيْئًا، وَأَنَا لَا أَخَافُهَا، وَلَا أُبَالِيهَا، فَإِنْ كَانَ لَهَا صُنْعٌ فَكِيدُونِي بِهَا، وَلَا تُنْظِرُونِ بَلْ عَاجِلُونِي بِذَلِكَ. ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، أَيْ: لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ إِلَّا اللهُ ﷻ: ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ أَيْ: أَحَاطَ عِلْمُهُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ: فِيمَا بَيَّنْتُهُ لَكُمْ فَتَعْتَبِرُونَ أَنَّ هَذِهِ الْآلِهَةَ بَاطِلَةٌ فَتَنْزَجِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ﴾ أَيْ: كَيْفَ أَخَافُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ الله ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾ أَيْ: حُجَّةٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ: فَأَيُّ الطَّائِفَتَيْنِ أَصْوَبُ، الَّذِي عَبَدَ مَنْ بِيَدِهِ الضُّرُّ وَالنَّفْعُ أَوِ الَّذِي عَبَدَ مَنْ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ بِلَا دَلِيلٍ؟ أَيُّهُمَا أَحَقُّ بِالْأَمْنِ مِنْ عَذَابِ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ **قَالَ اللهُ تَعَالَى**: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ أَيْ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ لله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَمْ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، هُمُ الْآمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمُهْتَدُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ أَيْ: وَجَّهْنَا حُجَّتَهُ عَلَيْهِمْ، **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ**: يَعْنِي: بِذَلِكَ قَوْلَهُ: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ﴾ الْآيَة. وَقَدْ صَدَّقَهُ اللهُ وَحَكَمَ لَهُ بِالْأَمْنِ وَالْهِدَايَةِ فَقَالَ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ **ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ**: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ: حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، عَلِيمٌ أَيْ: بِمَنْ يَهْدِيهِ وَمَنْ يُضِلُّهُ، وَإِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَجُ وَالْبَرَاهِينُ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾.

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا

فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ وَهَبَ لِإِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ بَعْدَ أَنْ طَعَنَ فِي السِّنِّ وَأَيِسَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ سَارَّةُ مِنَ الْوَلَدِ ، فَجَاءَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُمْ ذَاهِبُونَ إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ، فَبَشَّرُوهُمَا بِإِسْحَاقَ ، فَتَعَجَّبَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَتْ : ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود : ٧٢] وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِهِ هَدَيْنَاهُ كَمَا هَدَيْنَاهُ وَوَهَبْنَا لَهُ ذُرِّيَّةً صَالِحَةً ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾ أَيْ : وَهَدَيْنَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴿ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾ الْآيَة ، وَعَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَى نُوحٍ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ الْمَذْكُورِينَ ظَاهِرٌ لَا إِشْكَالَ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ ذَكَرَ أُصُولَهُمْ وَفُرُوعَهُمْ وَذَوِي طَبَقَتِهِمْ ، وَأَنَّ الْهِدَايَةَ وَالِاجْتِبَاءَ شَمَلَهُمْ كُلَّهُمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ لَهُمْ وَهِدَايَتِهِ إِيَّاهُمْ ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ تَشْدِيدٌ لِأَمْرِ الشِّرْكِ وَتَغْلِيظٌ لِشَأْنِهِ وَتَعْظِيمٌ لِمُلَابَسَتِهِ . ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ أَيْ : أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ بِهِمْ وَلُطْفًا مِنَّا بِالْخَلِيقَةِ ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا ﴾ أَيْ : بِالنُّبُوَّةِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ عَائِدًا عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّلَاثَةِ : الْكِتَابِ وَالْحُكْمِ وَالنُّبُوَّةِ . ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يَعْنِي : أَهْلَ مَكَّةَ ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ يَكْفُرْ بِهَذِهِ النِّعَمِ مَنْ كَفَرَ بِهَا مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ وَمِلِّيِّينَ وَكِتَابِيِّينَ ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا ﴾ أَيْ : الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَتْبَاعِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿ لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ أَيْ : لَا يَجْحَدُونَ مِنْهَا شَيْئًا وَلَا يَرُدُّونَ مِنْهَا حَرْفًا وَاحِدًا بَلْ يُؤْمِنُونَ بِجَمِيعِهَا : مُحْكَمِهَا وَمُتَشَابِهِهَا ، جَعَلَنَا اللهُ مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ يَعْنِي : الْأَنْبِيَاءَ الْمَذْكُورِينَ مَعَ مَنْ أُضِيفَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْآبَاءِ وَالذُّرِّيَّةِ وَالْإِخْوَانِ وَهُمُ الْأَشْبَاهُ ﴿ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : هُمْ أَهْلُ الْهِدَايَةِ لَا غَيْرُهُمْ ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ أَيْ : اقْتَدِ وَاتَّبِعْ ، وَإِذَا كَانَ هَذَا أَمْرًا لِلرَّسُولِ ﷺ فَأُمَّتُهُ تَبَعٌ لَهُ فِيمَا يُشَرِّعُهُ وَيَأْمُرُهُمْ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أَيْ : لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ عَلَى إِبْلَاغِي إِيَّاكُم هَذَا الْقُرْآنَ أَجْرًا ، أَيْ : أُجْرَةً ، وَلَا أُرِيدُ مِنْكُمْ شَيْئًا ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : يَتَذَكَّرُونَ بِهِ فَيَرْشُدُوا مِنَ الْعَمَى إِلَى الْهُدَى ، وَمِنَ الْغَيِّ إِلَى الرَّشَادِ ، وَمِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ .

وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَمَا عَظَّمُوا اللهَ حَقَّ تَعْظِيمِهِ إِذْ كَذَّبُوا رُسُلَهُ إِلَيْهِمْ . **وَقِيلَ** : نَزَلَتْ فِي قُرَيْشٍ ، **قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أَيْ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُنْكِرِينَ لِإِنْزَالِ شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ مِنْ عِنْدِ اللهِ فِي جَوَابِ سَلْبِهِمُ الْعَامِ بِإِثْبَاتِ قَضِيَّةٍ جُزْئِيَّةٍ مُوجِبَةٍ ﴿ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾ **يَعْنِي** : التَّوْرَاةَ الَّتِي قَدْ عَلِمْتُمْ وَكُلُّ أَحَدٍ أَنَّ اللهَ قَدْ أَنْزَلَهَا عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ﴿ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أَيْ : لِيُسْتَضَاءَ بِهَا فِي كَشْفِ الْمُشْكِلَاتِ ، وَيُهْتَدَى بِهَا مِنْ ظُلَمِ الشُّبُهَاتِ . ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ أَيْ : يَجْعَلُهَا حَمَلَتُهَا قَرَاطِيسَ ، أَيْ : قِطَعًا تَكْتُبُونَهَا مِنَ الْكِتَابِ الْأَصْلِيِّ الَّذِي بِأَيْدِيكُمْ ، وَتُحَرِّفُونَ مِنْهَا مَا تُحَرِّفُونَ ، وَتُبَدِّلُونَ وَتَتَأَوَّلُونَ وَتَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، أَيْ : فِي كِتَابِهِ الْمُنَزَّلِ ، وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ أَيْ : وَمَنْ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ الَّذِي عَلَّمَكُمُ اللهُ فِيهِ مِنْ خَبَرِ مَا سَبَقَ وَنَبَأِ مَا يَأْتِي ، مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ . **قَالَ قَتَادَةُ** : هَؤُلَاءِ مُشْرِكُو الْعَرَبِ . **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : هَذِهِ لِلْمُسْلِمِينَ . ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : قُلِ اللهُ أَنْزَلَهُ ، وَهَذَا هُوَ الْمُتَعَيِّنُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ . ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أَيْ : ثُمَّ دَعْهُمْ فِي جَهْلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ يَلْعَبُونَ حَتَّى يَأْتِيهِمْ مِنَ اللهِ الْيَقِينُ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ أَلَهُمُ الْعَاقِبَةُ أَمْ لِعِبَادِ اللهِ الْمُتَّقِينَ ؟

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ ﴾ **يَعْنِي** : الْقُرْآنُ ﴿ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ **يَعْنِي** : مَكَّةَ ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ وَمِنْ سَائِرِ طَوَائِفِ بَنِي آدَمَ مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أَيْ : كُلُّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُؤْمِنُ

بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أَيْ : يَقُومُونَ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَدَاءِ الصَّلَوَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أَيْ : لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ فَجَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ أَوْ وَلَدًا ، أَوِ ادَّعَى أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ إِلَى النَّاسِ وَلَمْ يَكُنْ أَرْسَلَهُ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ **قَالَ عِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ** : نَزَلَتْ فِي مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ . ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : وَمَنِ ادَّعَى أَنَّهُ يُعَارِضُ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ مِنَ الْوَحْيِ مِمَّا يَفْتَرِيهِ مِنَ الْقَوْلِ . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ أَيْ : فِي سَكَرَاتِهِ وَغَمَرَاتِهِ وَكُرُبَاتِهِ : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أَيْ : بِالضَّرْبِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ﴾ [المائدة : ٢٨] . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : ﴿ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أَيْ : بِالْعَذَابِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أَيْ : بِالضَّرْبِ لَهُمْ حَتَّى تَخْرُجَ أَنْفُسُهُمْ مِنْ أَجْسَادِهِمْ ، وَلِهَذَا يَقُولُونَ لَهُمْ : ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا احْتُضِرَ بَشَّرَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِالْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْأَغْلَالِ وَالسَّلَاسِلِ وَالْجَحِيمِ وَالْحَمِيمِ وَغَضَبِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، فَتَتَفَرَّقُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَتَعْصِي وَتَأْبَى الْخُرُوجَ ، فَتَضْرِبُهُمُ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تَخْرُجَ أَرْوَاحُهُمْ مِنْ أَجْسَادِهِمْ ، **قَائِلِينَ لَهُمْ** : ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ الْآيَة . أَيْ : الْيَوْمَ تُهَانُونَ غَايَةَ الْإِهَانَةِ ، كَمَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ عَلَى اللهِ ، وَتَسْتَكْبِرُونَ عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِهِ ، وَالِانْقِيَادِ لِرُسُلِهِ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ هَذَا ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أَيْ : كَمَا بَدَأْنَاكُمْ أَعَدْنَاكُمْ ، وَقَدْ كُنْتُمْ تُنْكِرُونَ ذَلِكَ وَتَسْتَبْعِدُونَهُ ، فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ أَيْ : مِنَ النِّعَمِ وَالْأَمْوَالِ الَّتِي اقْتَنَيْتُمُوهَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ﴾

تَقْرِيعٌ لَهُمْ وَتَوْبِيخٌ عَلَى مَا كَانُوا اتَّخَذُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ﴾ أَيْ : فِي الْعِبَادَةِ لَهُمْ فِيكُمْ قِسْطٌ فِي اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ لَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ قُرِئَ بِالرَّفْعِ أَيْ : شَمْلُكُمْ ، وَقُرِئَ بِالنَّصْبِ ، أَيْ : لَقَدِ انقطَعَ مَا بَيْنَكُمْ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالْوَصَلَاتِ وَالْوَسَائِلِ ﴿ وَضَلَّ عَنكُم ﴾ أَيْ : وذَهَبَ عَنْكُمْ ﴿ مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ مِنْ رَجَاءِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، أَيْ : يَشُقُّهُ فِي الثَّرَى ، فَتَنْبُتُ مِنْهُ الزُّرُوعُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنَ الْحُبُوبِ وَالثِّمَارِ ، عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا وَطُعُومِهَا مِنَ النَّوَى ، وَلِهَذَا فَسَّرَ قَوْلَهُ : ﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ بِقَوْلِهِ : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ أَيْ : يُخْرِجُ النَّبَاتَ الْحَيَّ مِنَ الْحَبِّ وَالنَّوَى الَّذِي هُوَ كَالْجَمَادِ الْمَيِّتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ : ﴿ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ . وَقَدْ عَبَّرُوا عَنْ هَذَا وَهَذَا بِعِبَارَاتٍ كُلُّهَا مُتَقَارِبَةٌ مُؤَدِّيَةٌ لِلْمَعْنَى : فَمِنْ قَائِلٍ : يُخْرِجُ الدَّجَاجَةَ مِنَ الْبَيْضَةِ وَالْبَيْضَةَ مِنَ الدَّجَاجَةِ ، وَمِنْ قَائِلٍ : يُخْرِجُ الْوَلَدَ الصَّالِحَ مِنَ الْفَاجِرِ وَالْفَاجِرَ مِنَ الصَّالِحِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي تَنْتَظِمُهَا الْآيَةُ وَتَشْمَلُهَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : فَاعِلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ ، وَتَعْدِلُونَ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ ، فَتَعْبُدُونَ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ أَيْ : خَالِقُ الضِّيَاءِ وَالظَّلَامِ ، كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ أَيْ : فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَفْلِقُ ظَلَامَ اللَّيْلِ عَنْ غُرَّةِ الصَّبَاحِ فَيُضِيءُ الْوُجُودَ ، فَبَيَّنَ تَعَالَى قُدْرَتَهُ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَضَادَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ ، الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ عَظَمَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ ، فَذَكَرَ أَنَّهُ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَقَابَلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ أَيْ : سَاجِيًا مُظْلِمًا لِتَسْكُنَ فِيهِ الْأَشْيَاءُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ أَيْ : يَجْرِيَانِ بِحِسَابٍ مُقَنَّنٍ مُقَدَّرٍ لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَضْطَرِبُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ جَارٍ بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُخَالَفُ ،

الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ **قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : مَنِ اعْتَقَدَ فِي هَذِهِ النُّجُومِ غَيْرَ ثَلَاثٍ فَقَدْ أَخْطَأَ ، وَكَذَبَ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ . إِنَّ اللهَ جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَيُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَـٰتِ ﴾ أَيْ : قَدْ بَيَّنَّاهَا وَوَضَّحْنَاهَا ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : يَعْقِلُونَ وَيَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَيَجْتَنِبُونَ الْبَاطِلَ .

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ يَعْنِي : آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ أَيْ : فِي الْأَرْحَامِ ، ﴿ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ أَيْ : فِي الْأَصْلَابِ . ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ أَيْ : يَفْهَمُونَ وَيَعُونَ كَلَامَ اللهِ وَمَعْنَاهُ . ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أَيْ : بِقَدَرٍ مُبَارَكًا رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَإِحْيَاءً وَغِيَاثًا لِلْخَلَائِقِ ، رَحْمَةً مِنَ اللهِ بِخَلْقِهِ ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ أَيْ : زَرْعًا وَشَجَرًا أَخْضَرَ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَخْلُقُ فِيهِ الْحَبَّ وَالثَّمَرَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ أَيْ : يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا كَالسَّنَابِلِ وَنَحْوِهَا ﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ ﴾ أَيْ : جَمْعُ قِنْوٍ ، وَهِيَ عُذُوقُ الرُّطَبِ ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ أَيْ : قَرِيبَةٌ مِنَ الْمُتَنَاوِلِ . ﴿ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ أَيْ : وَنُخْرِجُ مِنْهُ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ . ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ﴾ يَتَشَابَهُ فِي الْوَرَقِ وَالشَّكْلِ ، قَرِيبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ ، وَيَتَخَالَفُ فِي الثِّمَارِ شَكْلًا وَطَعْمًا وَطَبْعًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ أَيْ : نُضْجِهِ . **قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : أَيْ : فَكِّرُوا فِي قُدْرَةِ خَالِقِهِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ حَطَبًا صَارَ عِنَبًا وَرُطَبًا ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا خَلَقَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿ لَأَيَـٰتٍ ﴾ أَيْ : دَلَالَاتٍ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ خَالِقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : يُصَدِّقُونَ بِهِ وَيَتَّبِعُونَ رُسُلَهُ .

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ

عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

هَذَا رَدٌّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ وَأَشْرَكُوا بِهِ فِي عِبَادَتِهِ ، أَنْ عَبَدُوا الْجِنَّ فَجَعَلُوهُمْ شُرَكَاءَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ ، تَعَالَى اللهُ عَنْ شِرْكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ . **فَإِنْ قِيلَ** : فَكَيْفَ عُبِدَتِ الْجِنُّ وَإِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ ؟ فَالْجَوَابُ : أَنَّهُمْ مَا عَبَدُوا الأَصْنَامَ إِلَّا عَنْ طَاعَةِ الْجِنِّ وَأَمْرِهِمْ إِيَّاهُمْ بِذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ أَيْ : وَقَدْ خَلَقَهُمْ فَهُوَ الْخَالِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَكَيْفَ يُعْبَدُ مَعَهُ غَيْرُهُ ؟ ، وَمَعْنَى الْآيَةِ : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ وَحْدَهُ ، فَلِهَذَا يَجِبُ أَنْ يُفْرَدَ بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يُنَبِّهُ بِهِ تَعَالَى عَلَى ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ فِي وَصْفِهِ تَعَالَى بِأَنَّ لَهُ وَلَدًا ، وَمَعْنَى ﴿ خَرَقُواْ ﴾ أَيْ : اِخْتَلَقُوا وَائْتَفَكُوا وَتَخَرَّصُوا وَكَذَبُوا . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : فَتَأْوِيلُ الكَلَامِ إِذًا : وَجَعَلُوا للهِ الْجِنَّ شُرَكَاءَ فِي عِبَادَتِهِمْ إِيَّاهُ وَهُوَ الْمُنْفَرِدُ بِخَلْقِهِمْ بِغَيْرِ شَرِيكٍ وَلَا مُعِينٍ وَلَا ظَهِيرٍ ﴿ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ ﴾ . يَقُولُ : وَتَخَرَّصُوا للهِ كَذِبًا ، فَافْتَعَلُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بِحَقِيقَةِ مَا يَقُولُونَ وَلَكِنْ جَهْلًا بِاللهِ وَبِعَظَمَتِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِمَنْ كَانَ إِلَهًا أَنْ يَكُونَ لَهُ بَنُونَ وَبَنَات وَلَا صَاحِبَةَ ، وَلَا أَنْ يُشْرِكَهُ فِي خَلْقِهِ شَرِيكٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أَيْ : تَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَاظَمَ عَمَّا يَصِفُهُ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةُ الضَّالُّونَ : مِنَ الْأَوْلَادِ ، وَالْأَنْدَادِ ، وَالنُّظَرَاءِ ، وَالشُّرَكَاءِ .

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مُبْدِعُهُمَا وَخَالِقُهُمَا وَمُنْشِئُهُمَا وَمُحْدِثُهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ، ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ أَيْ : كَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ أَيْ : وَالْوَلَدُ إِنَّمَا يَكُونُ مُتَوَلِّدًا بَيْنَ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ ، وَاللهُ تَعَالَى لَا يُنَاسِبُهُ وَلَا يُشَابِهُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ ، لِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَا صَاحِبَةَ لَهُ وَلَا وَلَدَ . ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ صَاحِبَةٌ مِنْ خَلْقِهِ تُنَاسِبُهُ ، وَهُوَ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ فَأَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أَيْ : الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا وَلَدَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ أَيْ : فَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَقِرُّوا لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ ، وَلَا وَالِدَ وَلَا صَاحِبَةَ لَهُ ، وَلَا نَظِيرَ وَلَا عَدِيلَ ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أَيْ : حَفِيظٌ وَرَقِيبٌ يُدَبِّرُ كُلَّ مَا سِوَاهُ وَيَرْزُقُهُمْ وَيَكْلَأُهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .

وَ**قَوْلُهُ** : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ لَا تُدْرِكُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَتْ تَرَاهُ فِي الْآخِرَةِ ، كَمَا تَوَاتَرَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ . **كَمَا قَالَ مَسْرُوقٌ عَنْ عَائِشَةَ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - **أَنَّهَا قَالَتْ** : مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا أَبْصَرَ رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ ، وَفِي رِوَايَةٍ - عَلَى اللهِ - فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ .

وَ**قَوْلُهُ** : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ أَيْ : يُحِيطُ بِهَا وَيَعْلَمُهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ خَلَقَهَا ، وَقَدْ يَكُونُ عَبَّرَ بِالْأَبْصَارِ عَنِ الْمُبْصِرِينَ ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ لَا يَرَاهُ شَيْءٌ وَهُوَ يَرَى الْخَلَائِقَ ، ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ قَالَ : اللَّطِيفُ بِاسْتِخْرَاجِهَا الْخَبِيرُ بِمَكَانِهَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - .

قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

الْبَصَائِرُ : هِيَ الْبَيِّنَاتُ وَالْحُجَجُ الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ وَمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْبَصَائِرَ قَالَ : ﴿ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾ أَيْ : فَإِنَّمَا يَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْهِ . ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أَيْ : بِحَافِظٍ وَلَا رَقِيبٍ ، بَلْ إِنَّمَا أَنَا مُبَلِّغٌ ، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ . وَ**قَوْلُهُ** : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أَيْ : وَكَمَا فَصَّلْنَا الْآيَاتِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ بَيَانِ التَّوْحِيدِ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، هَكَذَا نُوَضِّحُ الْآيَاتِ وَنُفَسِّرُهَا وَنُبَيِّنُهَا .

وَ**قَوْلُهُ** : ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : وَلِنُوَضِّحَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَيَتَّبِعُونَهُ ، وَالْبَاطِلَ فَيَجْتَنِبُونَهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا** : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ « **وَلِيَقُولُوا دَارَسْتَ** » أَيْ : قَرَأْتَ وَتَعَلَّمْتَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ﴿ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسَتْ ﴾ أَيْ : تَقَادَمَتْ وَانْمَحَتْ .

ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا لِرَسُولِهِ ﷺ وَلِمَنِ اتَّبَعَ طَرِيقَهُ : ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أَيْ : اقْتَدِ بِهِ

وَاقْتَفِ أَثَرَهُ وَاعْمَلْ بِهِ ، فَإِنَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ ، لأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أَيْ : اُعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ وَاحْتَمِلْ أَذَاهُمْ حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ لَكَ وَيَنْصُرَكَ وَيُظْفِرَكَ عَلَيْهِمْ ، وَاعْلَمْ أَنَّ لله حِكْمَةً فِي إِضْلَالِهِمْ ، فَإِنَّهُ لَوْ شَاءَ لَهَدَى النَّاسَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ ﴾ أَيْ : بَلْ لَهُ الْمَشِيئَةُ وَالْحِكْمَةُ فِيمَا يَشَاؤُهُ وَيَخْتَارُهُ ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ . ﴿ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أَيْ : حَافِظًا تَحْفَظُ أَقْوَالَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أَيْ : مُوَكَّلٌ عَلَى أَرْزَاقِهِمْ وَأُمُورِهِمْ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ .

وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى نَاهِيًا لِرَسُولِهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ عَنْ سَبِّ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ إِلَّا أَنَّهُ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مَفْسَدَةٌ أَعْظَمُ مِنْهَا ، وَهِيَ مُقَابَلَةُ الْمُشْرِكِينَ بِسَبِّ إِلَهِ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ قَالُوا : يَا مُحَمَّدُ ، لَتَنْتَهِيَنَّ عَنْ سَبِّكَ آلِهَتَنَا أَوْ لَنَهْجُوَنَّ رَبَّكَ ، فَنَهَاهُمُ اللهُ أَنْ يَسُبُّوا أَوْثَانَهُمْ ﴿ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ أَيْ : وَكَمَا زَيَّنَّا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ حُبَّ أَصْنَامِهِمْ وَالْمُحَامَاةَ لَهَا وَالِانْتِصَارِ ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ عَلَى الضَّلَالِ ﴿ عَمَلَهُمْ ﴾ الَّذِي كَانُوا فِيهِ وَلله الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ وَالْحِكْمَةُ التَّامَّةُ فِيمَا يَشَاؤُهُ وَيَخْتَارُهُ ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ﴾ أَيْ : مَعَادُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : يُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ أَقْسَمُوا بِالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَيْ : حَلَفُوا أَيْمَانًا مُؤَكَّدَةً ﴿ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ ﴾ أَيْ : مُعْجِزَةٌ وَخَارِقٌ ﴿ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ أَيْ : لَيُصَدِّقُنَّهَا ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْأَلُونَكَ الْآيَاتِ تَعَنُّتًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا لَا عَلَى سَبِيلِ الْهُدَى وَالِاسْتِرْشَادِ : إِنَّمَا مَرْجِعُ هَذِهِ الْآيَاتِ إِلَى الله ، إِنْ شَاءَ أَجَابَكُمْ بِهَا وَإِنْ شَاءَ تَرَكَكُمْ كَمَا قَالَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قِيلَ الْمُخَاطَبُ بِمَا يُشْعِرُكُمْ : الْمُشْرِكُونَ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ : وَمَا يُدْرِيكُمْ بِصِدْقِكُمْ فِي هَذِهِ الْأَيْمَانِ الَّتِي تَقْسِمُونَ بِهَا ، وَقِيلَ الْمُخَاطَبُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ الْمُؤْمِنُونَ ، يَقُولُ : وَمَا يُدْرِيكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، وَعَلَى هَذَا فَتَكُونُ « لَا » فِي قَوْلِهِ :

﴿ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ صِلَةٌ ، وَتَقْدِيرُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : وَمَا يُدْرِيكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - الَّذِينَ تَوَدُّونَ لَهُمْ ذَلِكَ حِرْصًا عَلَى إِيمَانِهِمْ - أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْهُمُ الْآيَاتُ يُؤْمِنُونَ ، **قَالَ بَعْضُهُمْ** : ﴿ أَنَّهَا ﴾ بِمَعْنَى : لَعَلَّهَا . ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ **أَيْ** : وَنَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ فَلَا يُؤْمِنُونَ كَمَا حُلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ أَوَّلَ مَرَّةٍ . ﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ أَيْ : نَتْرُكُهُمْ ﴿ فِي طُغْيَٰنِهِمْ ﴾ فِي كُفْرِهِمْ ، وَضَلَالِهِمْ ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أَيْ : يَتَرَدَّدُونَ .

۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَوْ أَنَّنَا أَجَبْنَا سُؤَالَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ، فَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ تُخْبِرُهُمْ بِالرِّسَالَةِ مِنَ اللهِ ﴿ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أَيْ : فَأَخْبَرُوهُمْ بِصِدْقِ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾ **قِيلَ** : مَعْنَاهُ مِنَ الْمُقَابَلَةِ وَالْمُعَايَنَةِ أَيْضًا . **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ قُبُلًا ﴾ أَيْ : أَفْوَاجًا قَبِيلًا قَبِيلًا ، أَيْ : تَعْرِضُ عَلَيْهِمْ كُلَّ أُمَّةٍ بَعْدَ أُمَّةٍ ، فَيُخْبِرُونَهُمْ بِصِدْقِ الرُّسُلِ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ ﴿ مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : إِنَّ الْهِدَايَةَ إِلَيْهِ لَا إِلَيْهِمْ ، بَلْ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَكَمَا جَعَلْنَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ أَعْدَاءً يُخَالِفُونَكَ وَيُعَادُونَكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ قَبْلِكَ أَيْضًا أَعْدَاءً فَلَا يَهِيدَنَّكَ ذَلِكَ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿ عَدُوًّا ﴾ أَيْ : لَهُمْ أَعْدَاءٌ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَالشَّيْطَانُ : كُلُّ مَنْ خَرَجَ عَنْ نَظِيرِهِ بِالشَّرِّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ أَيْ : يُلْقِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ الْمُزَيَّنَ الْمُزَخْرَفَ ، وَهُوَ الْمُزَوَّقُ الَّذِي يَغْتَرُّ سَامِعُهُ مِنَ الْجَهَلَةِ بِأَمْرِهِ ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أَيْ : وَذَلِكَ كُلُّهُ بِقَدَرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنْ هَؤُلَاءِ ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أَيْ : فَدَعْهُمْ ﴿ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أَيْ : يَكْذِبُونَ ، أَيْ : دَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فِي عَدَاوَتِهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ . ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ ﴾ ، أَيْ : وَلِتَمِيلَ إِلَيْهِ . ﴿ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أَيْ : قُلُوبُهُمْ وَعُقُولُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ أَيْ : يُحِبُّوهُ وَيُرِيدُوهُ وَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُ

لِذَلِكَ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ: ﴿ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ وَلِيَعْمَلُوا مَا هُمْ عَامِلُونَ.

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾ أَيْ: بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ أَيْ: مُبَيَّنًا ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أَيْ: مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ: بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْبِشَارَاتِ بِكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ**: صِدْقًا فِيمَا قَالَ وَعَدْلًا فِيمَا حَكَمَ. **وَقِيلَ**: صِدْقًا فِي الْإِخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الطَّلَبِ ﴿ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أَيْ: لَيْسَ أَحَدٌ يُعَقِّبُ حُكْمَهُ تَعَالَى، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمُ الَّذِي يُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ أَكْثَرِ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ بَنِي آدَمَ أَنَّهُ الضَّلَالُ، وَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ لَيْسُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَإِنَّمَا هُمْ فِي ظُنُونٍ كَاذِبَةٍ وَحُسْبَانٍ بَاطِلٍ ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ فَإِنَّ الْخَرْصَ: هُوَ الْحَزْرُ، وَذَلِكَ كُلُّهُ عَنْ قَدَرِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ ﴿ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ فَيُيَسِّرُهُ لِذَلِكَ ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ فَيُيَسِّرُهُمْ لِذَلِكَ «**وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**».

فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

هَذَا إِبَاحَةٌ مِنَ اللهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنَ الذَّبَائِحِ مَا ذُكِرَ عَلَيْهِ اسْمُهُ، وَمَفْهُومُهُ أَنَّهُ لَا يُبَاحُ مَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، ثُمَّ نَدَبَ إِلَى الْأَكْلِ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ: قَدْ بَيَّنَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ وَوَضَّحَهُ ﴿ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ أَيْ: إِلَّا فِي حَالِ الِاضْطِرَارِ فَإِنَّهُ يُبَاحُ لَكُمْ مَا وَجَدْتُمْ، ثُمَّ

بَيَّنَ تَعَالَى جَهالَةَ الْمُشْرِكِينَ فِي آرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ فِي اِسْتِحْلَالِهِمُ الْمَيْتَاتِ وَمَا ذُكِرَ عَلَيْهِ غَيْرُ اِسْمِ الله تَعَالَى ، فَقَالَ : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أَيْ : هُوَ أَعْلَمُ بِاعْتِدَائِهِمْ وَكَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ .

وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ مَعْصِيَتَهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : ظَاهِرُهُ الزِّنَا مَعَ الْبَغَايَا ذَوَاتِ الرَّايَاتِ ، وَبَاطِنُهُ الزِّنَا مَعَ الْخَلِيلَةِ وَالصَّدَائِقِ وَالْأَخْدَانِ ، **وَالصَّحِيحُ** : أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴾ أَيْ : سَوَاءٌ كَانَ ظَاهِرًا أَوْ خَفِيًّا فَإِنَّ اللهَ سَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ .

وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

اِسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الذَّبِيحَةَ لَا تَحِلُّ إِذَا لَمْ يُذْكَرِ اِسْمُ الله عَلَيْهَا وَإِنْ كَانَ الذَّابِحُ مُسْلِمًا . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾ **عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ** : قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ إِنَّ الْمُخْتَارَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ ، قَالَ : صَدَقَ ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ أَيْ : حَيْثُ عَدَلْتُمْ عَنْ أَمْرِ الله لَكُمْ وَشَرْعِهِ إِلَى قَوْلِ غَيْرِهِ فَقَدَّمْتُمْ عَلَيْهِ غَيْرَهُ ، فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ .

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي كَانَ مَيْتًا ، أَيْ : فِي الضَّلَالَةِ هَالِكًا حَائِرًا فَأَحْيَاهُ اللهُ ، أَيْ : أَحْيَا قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ وَهَدَاهُ لَهُ وَوَفَّقَهُ لِاتِّبَاعِ رُسُلِهِ ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : يَهْتَدِي كَيْفَ يَسْلُكُ وَكَيْفَ يَتَصَرَّفُ بِهِ ، وَالنُّورُ : هُوَ الْقُرْآنُ . **وَقِيلَ** : الْإِسْلَامُ ، وَالْكُلُّ صَحِيحٌ ﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ ، أَيْ : الْجَهَالَاتِ وَالْأَهْوَاءِ وَالضَّلَالَاتِ الْمُتَفَرِّقَةِ ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ أَيْ : لَا يَهْتَدِي إِلَى مَنْفَذٍ وَلَا مُخَلِّصٍ مِمَّا هُوَ فِيهِ ، ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : حَسَنًا لَهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالَةِ ، قَدَرًا مِنَ الله وَحِكْمَةً بَالِغَةً ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكَمَا جَعَلْنَا فِي قَرْيَتِكَ يَا مُحَمَّدُ أَكَابِرَ مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَرُؤَسَاءَ وَدُعَاةً إِلَى الْكُفْرِ وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَإِلَى مُخَالَفَتِكَ وَعَدَاوَتِكَ ، كَذَلِكَ كَانَتِ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِكَ يُبْتَلَوْنَ بِذَلِكَ ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ ، **وَرَوَى بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ قَالَ : سَلَّطْنَا شِرَارَهَا فَعَصَوْا فِيهَا فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ قَالَ : عُظَمَاؤُهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيْ : وَمَا يَعُودُ وَبَالُ مَكْرِهِمْ ذَلِكَ ، وَإِضْلَالِهِمْ مَنْ أَضَلُّوهُ إِلَّا عَلَى أَنْفُسِهِمْ . ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أَيْ : إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ وَبُرْهَانٌ وَحُجَّةٌ قَاطِعَةٌ ﴿قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أَيْ : حَتَّى تَأْتِينَا المَلَائِكَةُ مِنَ اللهِ بِالرِّسَالَةِ ، كَمَا تَأْتِي إِلَى الرُّسُلِ ، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أَيْ : هُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَضَعُ رِسَالَتَهُ ، وَمَنْ يَصْلُحُ لَهَا مِنْ خَلْقِهِ . ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الْآيَة . هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ مِنَ اللهِ ، وَتَهْدِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ تَكَبَّرَ عَنِ اتِّبَاعِ رُسُلِهِ ، وَالِانْقِيَادِ لَهُمْ فِيمَا جَاءُوا بِهِ ، فَإِنَّهُ سَيُصِيبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَي اللهِ صَغَارٌ وَهُوَ الذِّلَّةُ الدَّائِمَةُ ، كَمَا أَنَّهُمُ اسْتَكْبَرُوا أَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ ذُلًّا . ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ لَمَّا كَانَ المَكْرُ غَالِبًا إِنَّمَا يَكُونُ خَفِيًّا ، وَهُوَ التَّلَطُّفُ فِي التَّحَيُّلِ وَالخَدِيعَةِ ، قُوبِلُوا بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ مِنَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَزَاءً وِفَاقًا .

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أَيْ : يُيَسِّرُهُ لَهُ وَيُنَشِّطُهُ وَيُسَهِّلُهُ لِذَلِكَ ، **وَقِيلَ** : يُوَسِّعُ قَلْبَهُ لِلتَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِهِ . ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ ﴿حَرَجًا﴾ بِفَتْحِ الحَاءِ وَالرَّاءِ وَهُوَ : الَّذِي لَا يَتَّسِعُ لِشَيْءٍ مِنَ الْهُدَى وَلَا يَخْلُصُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مَا يَنْفَعهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَلَا يَنْفُذُ فِيهِ . وَذُكِرَ فِي تَفْسِيرِ الحَرَجِ أَقْوَالًا مِنْهَا : شَاكًّا ، وَمِنْهَا : لَيْسَ لِلْخَيْرِ

فِيهِ مَنْفَذٌ ، وَمِنْهَا ﴿ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ حَتَّى لا تَسْتَطِيعَ أَنْ تَدْخُلَ قَلْبَهُ ، كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ عَلَيْهِ . وَمِنْهَا : لَا يَجِدُ فِيهِ مَسْلَكًا إِلَّا صُعُدًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ مِنْ ضِيقِ صَدْرِهِ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِقَلْبِ هَذَا الْكَافِرِ فِي شِدَّةِ تَضْيِيقِهِ إِيَّاهُ عَنْ وُصُولِ الْإِيمَانِ إِلَيْهِ ، يَقُولُ : فَمَثَلُهُ فِي امْتِنَاعِهِ مِنْ قَبُولِ الْإِيمَانِ وَضِيقِهِ عَنْ وُصُولِهِ إِلَيْهِ مَثَلُ امْتِنَاعِهِ عَنِ الصُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ وَعَجْزِهِ عَنْهُ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي وُسْعِهِ وَطَاقَتِهِ ، وَقَالَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يَقُولُ : كَمَا يَجْعَلُ اللهُ صَدْرَ مَنْ أَرَادَ إِضْلَالَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ، كَذَلِكَ يُسَلِّطُ اللهُ الشَّيْطَانَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَمْثَالِهِ مِمَّنْ أَبَى الْإِيمَانَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَيُغْوِيَهُ وَيَصُدَّهُ عَنْ سَبِيلِ اللهِ . قِيلَ : الرِّجْسُ : الشَّيْطَانُ . وَقِيلَ : كُلُّ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ ، وَقِيلَ : الْعَذَابُ .

وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى طَرِيقَ الضَّالِّينَ عَنْ سَبِيلِهِ الصَّادِّينَ عَنْهَا نَبَّهَ عَلَى أَشْرَفِ مَا أَرْسَلَ بِهِ رَسُولَهُ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ ، أَيْ : هَذَا الدِّينُ الَّذِي شَرَعْنَاهُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ صِرَاطُ اللهِ الْمُسْتَقِيمُ ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أَيْ : وَضَّحْنَاهَا وَبَيَّنَّاهَا وَفَسَّرْنَاهَا ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أَيْ : لِمَنْ لَهُ فَهْمٌ وَوَعْيٌ يُعْقَلُ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ . ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ وَهِيَ الْجَنَّةُ ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنَّمَا وَصَفَ اللهُ الْجَنَّةَ هَهُنَا بِدَارِ السَّلَامِ لِسَلَامَتِهِمْ فِيمَا سَلَكُوهُ مِنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الْمُقْتَفِي أَثَرَ الْأَنْبِيَاءِ وَطَرَائِقَهُمْ ، فَكَمَا سَلِمُوا مِنْ آفَاتِ الِاعْوِجَاجِ أَفْضَوْا إِلَى دَارِ السَّلَامِ . ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ أَيْ : وَالسَّلَامُ - وَهُوَ اللهُ - وَلِيُّهُمْ أَيْ : حَافِظُهُمْ وَنَاصِرُهُمْ وَمُؤَيِّدُهُمْ ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : جَزَاءً عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ تَوَلَّاهُمْ وَأَثَابَهُمُ الْجَنَّةَ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ فِيمَا تَقُصُّهُ عَلَيْهِمْ وَتُذَكِّرُهُمْ بِهِ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ يَعْنِي : الْجِنَّ وَأَوْلِيَاءَهُمْ مِنَ الْإِنْسِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ

ٱلْإِنسِ﴾ أَيْ : يَقُولُ : يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ ، وَسِيَاقُ الْكَلَامِ يَدُلُّ عَلَى الْمَحْذُوفِ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أَيْ : مِنْ إِغْوَائِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ . ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ يَعْنِي : أَنَّ أَوْلِيَاءَ الْجِنِّ مِنَ الْإِنْسِ قَالُوا : مُجِيبِينَ لله تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ بِهَذَا ، فَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ . قَالَ الْحَسَنُ : وَمَا كَانَ اسْتِمْتَاعُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ إِلَّا أَنَّ الْجِنَّ أَمَرَتْ وَعَمِلَتِ الْإِنْسَ . ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ **قَالَ السُّدِّيُّ** : يَعْنِي : الْمَوْتَ ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ أَيْ : مَأْوَاكُمْ وَمَنْزِلُكُمْ أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ وَأَوْلِيَاؤُكُمْ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا مُكْثًا مُخَلَّدًا ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : يَرْجِعُ مَعْنَى الِاسْتِثْنَاءِ إِلَى الْبَرْزَخِ ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : هَذَا رَدٌّ إِلَى مُدَّةِ الدُّنْيَا ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ .

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

عَنْ قَتَادَةَ فِي تَفْسِيرِهَا : إِنَّمَا يُوَلِّي اللهُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ ، فَالْمُؤْمِنُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِ أَيْنَ كَانَ وَحَيْثُ كَانَ ، وَالْكَافِرُ وَلِيُّ الْكَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ وَحَيْثُمَا كَانَ ، لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي وَلَا بِالتَّحَلِّي . وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ ابْنُ جَرِيرٍ . **وَمَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ** : كَمَا وَلَّيْنَا هَؤُلَاءِ الْخَاسِرِينَ مِنَ الْإِنْسِ تِلْكَ الطَّائِفَةَ الَّتِي أَغْوَتْهُمْ مِنَ الْجِنِّ ، كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالظَّالِمِينَ نُسَلِّطُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَنُهْلِكُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ، وَنَنْتَقِمُ مِنْ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، جَزَاءً عَلَى ظُلْمِهِمْ وَبَغْيِهِمْ .

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا يُقَرِّعُ اللهُ بِهِ كَافِرِي الْجِنِّ وَالْإِنْسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَيْثُ يَسْأَلُهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ - هَلْ بَلَّغَتْهُمُ الرُّسُلُ رِسَالَاتِهِ ، وَهَذَا اسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أَيْ : مِنْ جُمْلَتِكُمْ ، وَالرُّسُلُ مِنَ الْإِنْسِ فَقَطْ ، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ . **قَالَ تَعَالَى** : ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ أَيْ : أَقْرَرْنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُونَا رِسَالَاتِكَ وَأَنْذَرُونَا لِقَاءَكَ ، وَأَنَّ هَذَا الْيَوْمَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ، **وَقَالَ تَعَالَى** : ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ : وَقَدْ فَرَّطُوا فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا وَهَلَكُوا بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَمُخَالَفَتِهِمْ لِلْمُعْجِزَاتِ لِمَا اغْتَرُّوا بِهِ مِنْ زُخْرُفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَشَهَوَاتِهَا ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ .

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ أَيْ: إِنَّمَا أَعْذَرْنَا إِلَى الثَّقَلَيْنِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ، لِئَلَّا يُعَاقِبَ أَحَدًا بِظُلْمِهِ، وَهُوَ لَمْ تَبْلُغْهُ دَعْوَةٌ، وَلَكِنْ أَعْذَرْنَا إِلَى الْأُمَمِ، وَمَا عَذَّبْنَا أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ إِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ أَيْ: وَلِكُلِّ عَامِلٍ مِنْ طَاعَةِ اللهِ أَوْ مَعْصِيَتِهِ مَرَاتِبُ وَمَنَازِلُ مِنْ عَمَلِهِ، يُبْلِغُهُ اللهُ إِيَّاهَا، وَيُثِيبُهُ بِهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ**: أَيْ وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِهِمْ يَا مُحَمَّدُ بِعِلْمٍ مِنْ رَبِّكَ يُحْصِيهَا وَيُثْبِتُهَا لَهُمْ عِنْدَهُ، لِيُجَازِيَهُمْ عَلَيْهَا عِنْدَ لِقَائِهِمْ إِيَّاهُ، وَمَعَادِهِمْ إِلَيْهِ.

وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ أَيْ: عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ وَهُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أَيْ: وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ رَحِيمٌ بِهِمْ، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أَيْ: إِذَا خَالَفْتُمْ أَمْرَهُ ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ أَيْ: قَوْمًا آخَرِينَ، أَيْ: يَعْمَلُونَ بِطَاعَتِهِ ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أَيْ: هُوَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ، سَهْلٌ عَلَيْهِ، يَسِيرٌ لَدَيْهِ، كَمَا أَذْهَبَ الْقُرُونَ الْأُولَى وَأَتَى بِالَّذِي بَعْدَهَا، كَذَلِكَ هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِذْهَابِ هَؤُلَاءِ وَالْإِتْيَانِ بِآخَرِينَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ﴾ أَيْ: أَخْبِرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ الَّذِي يُوعَدُونَ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أَيْ: وَلَا تُعْجِزُونَ اللهَ، بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِكُمْ وَإِنْ صِرْتُمْ تُرَابًا رُفَاتًا وَعِظَامًا. ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، أَيْ: اِسْتَمِرُّوا عَلَى طَرِيقَتِكُمْ وَنَاحِيَتِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَظُنُّونَ أَنَّكُمْ عَلَى هُدًى، فَأَنَا مُسْتَمِرٌّ عَلَى طَرِيقَتِي وَمَنْهَجِي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أَيْ: تَكُونُ لِي أَوْ لَكُمْ؟ وَقَدْ أَنْجَزَ اللهُ

مَوْعُودَهُ لِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ . فَإِنَّهُ تَعَالَى مَكَّنَ لَهُ فِي الْبِلَادِ ، وَحَكَّمَهُ فِي نَوَاصِي مُخَالِفِيهِ مِنَ الْعِبَادِ ، وَفَتَحَ لَهُ مَكَّةَ ، وَأَظْهَرَهُ عَلَى مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ وَعَادَاهُ وَنَاوَأَهُ .

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

هَذَا ذَمٌّ وَتَوْبِيخٌ مِنَ اللهِ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اِبْتَدَعُوا بِدَعًا وَكُفْرًا وَشِرْكًا ، وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ وَجُزْءًا مِنْ خَلْقِهِ ، وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ أَيْ : مِمَّا خَلَقَ وَبَرَأَ ﴿ مِنَ ٱلْحَرْثِ ﴾ أَيْ : مِنَ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ أَيْ : جُزْءًا وَقِسْمًا ﴿ فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ﴾ **قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : كُلُّ شَيْءٍ جَعَلُوهُ للهِ مِنْ ذَبْحٍ يَذْبَحُونَهُ لَا يَأْكُلُونَهُ أَبَدًا حَتَّى يَذْكُرُوا مَعَهُ أَسْمَاءَ الْآلِهَةِ ، وَمَا كَانَ لِلْآلِهَةِ لَمْ يَذْكُرُوا اِسْمَ اللهِ مَعَهُ ، وَقَرَأَ الْآيَةَ حَتَّى بَلَغَ ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أَيْ : سَاءَ مَا يَقْسِمُونَ ، فَإِنَّهُمْ أَخْطَئُوا أَوَّلًا فِي الْقِسْمَةِ ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ وَلَهُ الْمُلْكُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ وَفِي تَصَرُّفِهِ وَتَحْتَ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، ثُمَّ لَمَّا قَسَمُوا فِيمَا زَعَمُوا لَمْ يَحْفَظُوا الْقِسْمَةَ الَّتِي هِيَ فَاسِدَةٌ بَلْ جَارُوا فِيهَا .

وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكَمَا زَيَّنَتِ الشَّيَاطِينُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَجْعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ، كَذَلِكَ زَيَّنُوا لَهُمْ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ خَشْيَةَ الْإِمْلَاقِ ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ خَشْيَةَ الْعَارِ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : أَمَرَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ أَنْ يَقْتُلُوا الْبَنَاتِ إِمَّا لِيُرْدُوهُمْ فَيُهْلِكُوهُمْ وَإِمَّا لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ . أَيْ : فَيَخْلِطُونَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، وَقَدْ كَانُوا أَيْضًا يَقْتُلُونَ الْأَوْلَادَ مِنَ الْإِمْلَاقِ وَهُوَ الْفَقْرُ ، أَوْ خَشْيَةَ الْإِمْلَاقِ أَنْ يَحْصُلَ لَهُمْ فِي تَلَفِ الْمَالِ ، وَقَدْ نَهَاهُمْ عَنْ قَتْلِ أَوْلَادِهِمْ لِذَلِكَ ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ شَرْعِ الشَّيْطَانِ وَتَزْيِينِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أَيْ : كُلُّ هَذَا وَاقِعٌ بِمَشِيئَتِهِ تَعَالَى ، وَإِرَادَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ لِذَلِكَ كَوْنًا ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ فِي ذَلِكَ ، فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

أَيْ : فَدَعْهُمْ وَاجْتَنِبْهُمْ وَمَا هُمْ فِيهِ فَسَيَحْكُمُ اللهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ .

وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : الْحِجْرُ : الْحَرَامُ مِمَّا حَرَّمُوا مِنَ الْوَصِيلَةِ وَتَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوا . **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾ يَقُولُونَ حَرَامٌ أَنْ تُطْعَمَ إِلَّا مَنْ شِئْنَا ، **وَقَالَ** : أَمَّا الْأَنْعَامُ الَّتِي حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا فَهِيَ : الْبَحِيرَةُ وَالسَّائِبَةُ وَالْوَصِيلَةُ وَالْحَامُ ، وَأَمَّا الْأَنْعَامُ الَّتِي لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا . قَالَ : لَا إِذَا أَوْلَدُوهَا وَلَا إِنْ نَحَرُوهَا . **عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ قَالَ لِي أَبُو وَائِلٍ** : أَتَدْرِي مَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ قُلْتُ : لَا . قَالَ : هِيَ الْبَحِيرَةُ كَانُوا لَا يَحُجُّونَ عَلَيْهَا . ﴿ ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : عَلَى اللهِ ، وَكَذِبًا مِنْهُمْ فِي إِسْنَادِهِمْ ذَلِكَ إِلَى دِينِ اللهِ وَشَرْعِهِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَلَا رَضِيَهُ مِنْهُمْ ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أَيْ : عَلَيْهِ وَيُسْنِدُونَ إِلَيْهِ .

وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

رُوِيَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ ﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ فَهُوَ اللَّبَنُ كَانُوا يُحَرِّمُونَهُ عَلَى إِنَاثِهِمْ وَيَشْرَبُهُ ذُكْرَانُهُمْ ، وَكَانَتِ الشَّاةُ إِذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا ذَبَحُوهُ ، وَكَانَ لِلرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ ، وَإِنْ كَانَتْ أُنْثَى تُرِكَتْ فَلَمْ تُذْبَحْ ، وَإِنْ كَانَتْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ، فَنَهَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ . ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أَيْ : قَوْلَهُمُ الْكَذِبَ فِي ذَلِكَ . يَعْنِي قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل ١١٦ -] ﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بِأَعْمَالِ عِبَادِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهَا أَتَمَّ الْجَزَاءِ .

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ فَعَلُوا هَذِهِ الْأَفْعَالَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَخَسِرُوا أَوْلَادَهُمْ بِقَتْلِهِمْ ، وَضَيَّقُوا عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ ، فَحَرَّمُوا أَشْيَاءَ ابْتَدَعُوهَا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَيَصِيرُونَ إِلَى شَرِّ الْمَنَازِلِ بِكَذِبِهِمْ عَلَى اللهِ وَافْتِرَائِهِمْ .

۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا أَنَّهُ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ وَالْأَنْعَامِ الَّتِي تَصَرَّفَ فِيهَا هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِآرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَقَسَّمُوهَا وَجَزَّءُوهَا فَجَعَلُوا مِنْهَا حَرَامًا وَحَلَالًا فَقَالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ ﴾ **قِيلَ فِي الْمَعْرُوشَاتِ** : مَا عَرَّشَ النَّاسُ ، ﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ ﴾ مَا خَرَجَ فِي الْبَرِّ وَالْجِبَالِ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴿ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ مُتَشَابِهًا فِي الْمَنْظَرِ وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ فِي الْمَطْعَمِ ، **وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ** : ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾ قَالَ مِنْ رُطَبِهِ وَعِنَبِهِ ، ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ **قِيلَ** : هِيَ الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ . عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ « **مِنْ كُلِّ جَادٍّ عَشْرَةَ أَوْسَقٍ مِنَ التَّمْرِ بِقِنْوٍ يُعَلَّقُ فِي الْمَسْجِدِ لِلْمَسَاكِينِ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ نَهْيٌ عَنِ الْإِسْرَافِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، لَكِنَّ الظَّاهِرَ - وَاللهُ أَعْلَمُ - مِنْ سِيَاقِ الْآيَةِ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى الْأَكْلِ ، أَيْ : لَا تُسْرِفُوا فِي الْأَكْلِ لِمَا فِيهِ مِنْ مَضَرَّةِ الْعَقْلِ وَالْبَدَنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ الْحَمُولَةُ : مَا تَرْكَبُونَ ، وَالْفَرْشُ : مَا تَأْكُلُونَ وَتَحْلُبُونَ ، شَاةٌ لَا تَحْمِلُ تَأْكُلُونَ لَحْمَهَا ، وَتَتَّخِذُونَ مِنْ صُوفِهَا لِحَافًا وَفُرُشًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : مِنَ الثِّمَارِ وَالزُّرُوعِ وَالْأَنْعَامِ ، فَكُلُّهَا خَلَقَهَا اللهُ وَجَعَلَهَا رِزْقًا لَكُمْ ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أَيْ : طَرَائِقَهُ وَأَوَامِرَهُ ، ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ ﴾ أَيْ : إِنَّ الشَّيْطَانَ أَيُّهَا النَّاسُ لَكُمْ ﴿ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : مُبِينٌ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ .

ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

هَٰذَا بَيَانٌ لِجَهْلِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ فِيمَا كَانُوا حَرَّمُوا مِنَ الْأَنْعَامِ وَجَعَلُوهَا أَجْزَاءً وَأَنْوَاعًا

بَحِيرَةً وَسَائِبَةً وَوَصِيلَةً وَحَامًا ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَنْوَاعِ الَّتِي اِبْتَدَعُوهَا فِي الْأَنْعَامِ وَالزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ، وَأَنَّهُ أَنْشَأَ مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ، ثُمَّ بَيَّنَ أَصْنَافَ الْأَنْعَامِ إِلَى غَنَمٍ : وَهُوَ بَيَاضٌ ، وَهُوَ الضَّأْنُ ، وَسَوَادٌ : وَهُوَ الْمَعْزُ ذَكَرُهُ وَأُنْثَاهُ ، وَإِلَى إِبِلٍ : ذُكُورِهَا وَإِنَاثِهَا ، وَبَقَرٍ كَذَلِكَ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَلَا شَيْئًا مِنْ أَوْلَادِهَا ، بَلْ كُلُّهَا مَخْلُوقَةٌ لِبَنِي آدَمَ : أَكْلًا وَرُكُوبًا وَحَمُولَةً وَحَلْبًا ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الْمَنَافِعِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ [الزمر : ٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ رَدًّا عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ﴾ الْآيَةَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : أَخْبِرُونِي عَنْ يَقِينٍ كَيْفَ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْكُمْ مَا زَعَمْتُمْ تَحْرِيمَهُ مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّـٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا ﴾ تَهَكُّمٌ بِهِمْ فِيمَا اِبْتَدَعُوهُ وَافْتَرَوْهُ عَلَى اللهِ مِنْ تَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوهُ مِنْ ذَلِكَ ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أَيْ : لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْهُ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ، وَأَوَّلُ مَنْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَمْرُو بْنُ لُحَيِّ بْنِ قَمْعَةَ ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ ، وَوَصَلَ الْوَصِيلَةَ ، وَحَمَى الْحَامِ ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ .

قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ ﴿ قُل ﴾ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ اِفْتِرَاءً عَلَى اللهِ ﴿ لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ ﴾ أَيْ : آكِلٍ يَأْكُلُهُ .

قِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ يَعْنِي : الْمُهْرَاقُ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : حُرِّمَ مِنَ الدِّمَاءِ مَا كَانَ مَسْفُوحًا ، فَأَمَّا اللَّحْمُ خَالَطَهُ دَمٌ فَلَا بَأْسَ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ أَيْ : فَمَنِ اُضْطُرَّ إِلَى أَكْلِ شَيْءٍ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهُوَ غَيْرُ مُتَلَبِّسٍ بِبَغْيٍ وَلَا عُدْوَانٍ ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : غَفُورٌ لَهُ رَحِيمٌ بِهِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ . **وَالْمَقْصُودُ مِنْ سِيَاقِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ** : الرَّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اِبْتَدَعُوا مَا اِبْتَدَعُوهُ مِنْ تَحْرِيمِ الْمُحَرَّمَاتِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

بِآرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَأَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يُخْبِرَهُمْ أَنَّهُ لَا يَجِدُ فِيمَا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيْهِ أَنَّ ذَلِكَ مُحَرَّمٌ ، وَإِنَّمَا حَرَّمَ مَا ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْمَيْتَةِ ، وَالدَّمِ الْمَسْفُوحِ ، وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ ، وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَلَمْ يُحَرَّمْ ، وَإِنَّمَا هُوَ عَفْوٌ مَسْكُوتٌ عَنْهُ ، فَكَيْفَ تَزْعُمُونَ أَنْتُمْ أَنَّهُ حَرَامٌ ، وَمِنْ أَيْنَ حَرَّمْتُمُوهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهُ اللهُ ؟ .

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَقُولُ تَعَالَى وَحَرَّمْنَا عَلَى الْيَهُودِ كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ، وَهُوَ مِنَ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ مَا لَمْ يَكُنْ مَشْقُوقَ الْأَصَابِعِ كَالْإِبِلِ وَالنَّعَامِ وَالْأَوِزِّ وَالْبَطِّ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ ﴾ **قَالَ السُّدِّيُّ** : يَعْنِي الثَّرْبُ وَشَحْمُ الْكُلْيَتَيْنِ ، وَكَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ : إِنَّهُ حَرَّمَهُ إِسْرَائِيلُ فَنَحْنُ نُحَرِّمُهُ . **وَقِيلَ** : الثَّرْبُ ، وَكُلُّ شَحْمٍ كَانَ كَذَلِكَ لَيْسَ فِي عَظْمٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **يَعْنِي** : مَا عُلِّقَ بِالظَّهْرِ مِنَ الشُّحُومِ . ﴿ أَوِ ٱلْحَوَايَآ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : الْحَوَايَا : جَمْعٌ وَاحِدُهَا حَاوِيَاءُ . وَحَاوِيَةٌ ، وَحَوِيَّةٌ ، وَهُوَ : مَا تَحْوِي مِنَ الْبَطْنِ فَاجْتَمَعَ وَاسْتَدَارَ ، وَهِيَ بَنَاتُ اللَّبَنِ وَهِيَ الْمَبَاعِرُ ، وَتُسَمَّى الْمَرَابِضُ وَفِيهَا الْأَمْعَاءُ . **قَالَ** : **وَمَعْنَى الْكَلَامِ** : وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ مَا حَمَلَتِ الْحَوَايَا . ﴿ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ أَيْ : وَإِلَّا مَا اخْتَلَطَ مِنَ الشُّحُومِ بِالعِظَامِ فَقَدْ أَحْلَلْنَاهُ لَهُمْ . ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ أَيْ : هَذَا التَّضْيِيقُ إِنَّمَا فَعَلْنَاهُ بِهِمْ وَأَلْزَمْنَاهُمْ بِهِ ، مُجَازَاةً لَهُمْ عَلَى بَغْيِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَوَامِرَنَا . ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ أَيْ : وَإِنَّا لَعَادِلُونَ فِيمَا جَزَيْنَاهُمْ بِهِ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ مِنْ تَحْرِيمِنَا ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، لَا كَمَا زَعَمُوا مِنْ أَنَّ إِسْرَائِيلَ هُوَ الَّذِي حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ .

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَإِنْ كَذَّبَكَ يَا مُحَمَّدُ مُخَالِفُوكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَمَنْ شَابَهَهُمْ ﴿ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ﴾ ، وَهَذَا تَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي ابْتِغَاءِ رَحْمَةِ اللهِ الْوَاسِعَةِ وَاتِّبَاعِ رَسُولِهِ ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ تَرْهِيبٌ لَهُمْ فِي مُخَالَفَتِهِمُ الرَّسُولَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ .

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

هَذِهِ مُنَاظَرَةٌ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى، وَشُبْهَةٌ تَشَبَّثَ بِهَا الْمُشْرِكُونَ فِي شِرْكِهِمْ وَتَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوا، فَإِنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالتَّحْرِيمِ لِمَا حَرَّمُوهُ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى تَغْيِيرِهِ بِأَنْ يُلْهِمَنَا الْإِيمَانَ، أَوْ يَحُولَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْكُفْرِ فَلَمْ يُغَيِّرْهُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَرِضَاهُ مِنَّا ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أَيْ: بِهَذِهِ الشُّبْهَةِ ضَلَّ مَنْ ضَلَّ قَبْلَ هَؤُلَاءِ وَهِيَ حُجَّةٌ دَاحِضَةٌ بَاطِلَةٌ؛ لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً لَمَا أَذَاقَهُمُ اللهُ بَأْسَهُ وَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ وَأَدَالَ عَلَيْهِمْ رُسُلَهُ الْكِرَامَ، وَأَذَاقَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَلِيمِ الِانْتِقَامِ.

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ أَيْ: بِأَنَّ اللهَ رَاضٍ عَنْكُمْ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ أَيْ: فَتُظْهِرُوهُ لَنَا وَتُبَيِّنُوهُ وَتُبْرِزُوهُ ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أَيْ: الْوَهْمَ وَالْخَيَالَ، **وَالْمُرَادُ بِالظَّنِّ هَهُنَا**: الِاعْتِقَادُ الْفَاسِدُ ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أَيْ: تَكْذِبُونَ عَلَى اللهِ فِيمَا ادَّعَيْتُمُوهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿**قُلْ**﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ أَيْ: لَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ، وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فِي هِدَايَةِ مَنْ هَدَى وَإِضْلَالِ مَنْ ضَلَّ ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فَكُلُّ ذَلِكَ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أَيْ: أَحْضِرُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴿ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ أَيْ: هَذَا الَّذِي حَرَّمْتُمُوهُ وَكَذَبْتُمْ وَافْتَرَيْتُمْ عَلَى اللهِ فِيهِ ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أَيْ: لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَشْهَدُونَ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - كَذِبًا وَزُورًا ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أَيْ: يُشْرِكُونَ بِهِ وَيَجْعَلُونَ لَهُ عَدِيلًا.

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ

وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

وَأَمَّا تَفْسِيرُهَا فَيَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا غَيْرَ اللهِ، وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ، وَقَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ، وَكُلُّ ذَلِكَ فَعَلُوهُ بِآرَائِهِمْ وَتَسْوِيلِ الشَّيَاطِينِ لَهُمْ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿تَعَالَوْا﴾ أَيْ: هَلُمُّوا وَأَقْبِلُوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: أَقُصُّ عَلَيْكُمْ وَأُخْبِرُكُمْ بِمَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، لَا تَخَرُّصًا وَلَا ظَنًّا بَلْ وَحْيًا مِنْهُ وَأَمْرًا مِنْ عِنْدِهِ ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْئًا﴾، وَكَأَنَّ فِي الْكَلَامِ مَحْذُوفًا دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ وَتَقْدِيرُهُ: وَأَوْصَاكُمْ ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْئًا﴾ وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِ الْآيَةِ ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وَتَقُولُ الْعَرَبُ: أَمَرْتُكَ أَنْ لَا تَقُومَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أَيْ: وَأَوْصَاكُمْ وَأَمَرَكُمْ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، أَيْ: أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ، فَأَمَرَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا وَإِنْ كَانَا مُشْرِكَيْنِ بِحَسْبِهِمَا، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

لَمَّا أَوْصَى تَعَالَى بِبِرِّ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ الْإِحْسَانَ إِلَى الْأَبْنَاءِ وَالْأَحْفَادِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتُلُونَ أَوْلَادَهُمْ كَمَا سَوَّلَتْ لَهُمُ الشَّيَاطِينُ ذَلِكَ، فَكَانُوا يَئِدُونَ الْبَنَاتِ خَشْيَةَ الْعَارِ، وَرُبَّمَا قَتَلُوا بَعْضَ الذُّكُورِ خَشْيَةَ الِافْتِقَارِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ هُوَ الْفَقْرُ؛ أَيْ: وَلَا تَقْتُلُوهُمْ مِنْ فَقْرِكُمُ الْحَاصِلُ. وَقَالَ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ أَيْ: لَا تَقْتُلُوهُمْ خَشْيَةَ حُصُولِ فَقْرٍ فِي الْآجِلِ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَاكَ: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فَبَدَأَ بِرِزْقِهِمْ لِلِاهْتِمَامِ بِهِمْ، أَيْ: لَا تَخَافُوا مِنْ فَقْرِكُمْ بِسَبَبِهِمْ فَرِزْقُهُمْ عَلَى اللهِ، وَأَمَّا هُنَا فَلَمَّا كَانَ الْفَقْرُ حَاصِلًا قَالَ: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لِأَنَّهُ الْأَهَمُّ هَهُنَا - وَاللهُ أَعْلَمُ -. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وَهَذَا مِمَّا نَصَّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَنِ النَّهْيِ عَنْهُ تَأْكِيدًا، وَإِلَّا فَهُوَ دَاخِلٌ فِي النَّهْيِ عَنِ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ. وَقَدْ جَاءَ النَّهْيُ وَالزَّجْرُ وَالْوَعِيدُ فِي قَتْلِ الْمُعَاهَدِ وَهُوَ الْمُسْتَأْمَنُ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ: هَذَا مَا وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ عَنِ اللهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ**: لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾

وَ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا ﴾[النساء : ١٠] ، فَانْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ ، وَشَرَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ ، فَجَعَلَ يُفَضِّلُ الشَّيْءَ فَيَحْبِسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ، فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾[البقرة : ٢٢٠] قَالَ : فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِمْ وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ يَعْنِي : حَتَّى يَحْتَلِمَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى بِإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي الْأَخْذِ وَالْإِعْطَاءِ ، وَقَدْ أَهْلَكَ اللهُ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ كَانُوا يَبْخَسُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ . ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أَيْ : مَنِ اجْتَهَدَ فِي أَدَاءِ الْحَقِّ وَأَخْذِهِ فَإِنْ أَخْطَأَ بَعْدَ اسْتِفْرَاغِ وُسْعِهِ وَبَذْلِ جُهْدِهِ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى بِالْعَدْلِ فِي الْفِعَالِ وَالْمَقَالِ ، عَلَى الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، وَاللهُ تَعَالَى يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ لِكُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَفِي كُلِّ حَالٍ ، ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَقُولُ : وَبِوَصِيَّةِ اللهِ الَّتِي أَوْصَاكُمْ بِهَا فَأَوْفُوا ، وَإِيفَاءُ ذَلِكَ أَنْ تُطِيعُوهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَنَهَاكُمْ ، وَتَعْمَلُوا بِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْوَفَاءُ بِعَهْدِ اللهِ ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا وَصَّاكُمْ بِهِ وَأَمَرَكُمْ بِهِ وَأَكَّدَ عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : تَتَّعِظُونَ وَتَنْتَهُونَ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنْ قَبْلِ هَذَا .

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ قَالُوا : أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَمَاعَةِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الِاخْتِلَافِ وَالْفُرْقَةِ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ بِالْمِرَاءِ وَالْخُصُومَاتِ فِي دِينِ الله . عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : خَطَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ : « هَذَا سَبِيلُ اللهِ مُسْتَقِيمًا » وَخَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ » ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾ إِنَّمَا وَحَّدَ سَبِيلَهُ لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ ، وَلِهَذَا جَمَعَ السُّبُلَ لِتَفَرُّقِهَا وَتَشَعُّبِهَا .

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

وَ ﴿ ثُمَّ ﴾ هَهُنَا إِنَّمَا هِيَ لِعَطْفِ الْخَبَرِ بَعْدَ الْخَبَرِ ، لَا لِلتَّرْتِيبِ هَهُنَا . وَهَهُنَا لَمَّا أَخْبَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ عَنِ الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ عَطَفَ بِمَدْحِ التَّوْرَاةِ وَرَسُولِهَا فَقَالَ : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا ﴾ أَيْ : آتَيْنَاهُ الْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْهِ تَمَامًا كَامِلًا جَامِعًا لِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي شَرِيعَتِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾ أَيْ : جَزَاءً عَلَى إِحْسَانِهِ فِي الْعَمَلِ وَقِيَامِهِ بِأَوَامِرِنَا وَطَاعَتِنَا ، كَقَوْلِهِ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ فِيهِ مَدْحٌ لِكِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ ﴿ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فِيهِ الدَّعْوَةُ إِلَى اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ ، وَوَصْفُهُ بِالْبَرَكَةِ لِمَنِ اتَّبَعَهُ وَعَمِلَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ لِأَنَّهُ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ .

أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : مَعْنَاهُ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ لِئَلَّا يَقُولُوا : ﴿ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ يَعْنِي : لِيَنْقَطِعَ عُذْرُهُمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴾ أَيْ : وَمَا كُنَّا نَفْهَمُ مَا يَقُولُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِلِسَانِنَا ، وَنَحْنُ فِي غَفْلَةٍ وَشُغْلٍ مَعَ ذَلِكَ عَمَّا هُمْ فِيهِ . ﴿ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾ أَيْ : وَقَطَعْنَا تَعَلُّلَكُمْ ، أَنْ تَقُولُوا : لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فِيمَا أُوتُوهُ . وَهَكَذَا قَالَ : ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ يَقُولُ : فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ قُرْآنٌ عَظِيمٌ ، فِيهِ بَيَانٌ لِلْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَهُدًى لِمَا فِي الْقُلُوبِ ، وَرَحْمَةٌ مِنَ اللهِ بِعِبَادِهِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ وَيَقْتَفُونَ مَا فِيهِ . ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ أَيْ : لَمْ يَنْتَفِعْ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ، وَلَا اتَّبَعَ مَا أُرْسِلَ بِهِ ، وَلَا تَرَكَ غَيْرَهُ ، بَلْ صَدَفَ عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللهِ ، أَيْ : صَرَفَ النَّاسَ وَصَدَّهُمْ عَنْ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴾ .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ

يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِلْكَافِرِينَ بِهِ ، وَالْمُخَالِفِينَ لِرُسُلِهِ ، وَالْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِهِ ، وَالصَّادِّينَ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ وَذَلِكَ كَائِنٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا ﴾ وَذَلِكَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَائِنٌ مِنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا** » وَفِي لَفْظٍ « **فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ ، وَذَلِكَ حِينَ** ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ ». **فَقَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : إِذَا أَنْشَأَ الْكَافِرُ إِيمَانًا يَوْمَئِذٍ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَبْلَ ذَلِكَ ، فَإِنْ كَانَ مُصْلِحًا فِي عَمَلِهِ فَهُوَ بِخَيْرٍ عَظِيمٍ ، وَإِنْ كَانَ مُخَلِّطًا فَأَحْدَثَ تَوْبَةً حِينَئِذٍ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ تَوْبَتُهُ ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ أَيْ : وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا كَسْبُ عَمَلٍ صَالِحٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَامِلًا بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ ، ﴿ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لِلْكَافِرِينَ ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ سَوَّفَ بِإِيمَانِهِ وَتَوْبَتِهِ إِلَى وَقْتٍ لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْحُكْمُ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ؛ لاقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَظُهُورِ أَشْرَاطِهَا .

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ **الْعُلَمَاءِ** : نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى . **وَقِيلَ** : هُمُ الْخَوَارِجُ . **وَقِيلَ** : هُمْ أَصْحَابُ الْبِدَعِ . **وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ فَارَقَ دِينَ اللهِ وَكَانَ مُخَالِفًا لَهُ** ، فَإِنَّ اللهَ بَعَثَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَشَرْعُهُ وَاحِدٌ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا افْتِرَاقَ ، فَمَنِ اخْتَلَفَ فِيهِ ﴿ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ﴾ أَيْ : فِرَقًا كَأَهْلِ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ وَالْأَهْوَاءِ وَالضَّلَالَاتِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ بَرَّأَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ .

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مُفَصِّلَةٌ لِمَا أُجْمِلَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ . وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرٌ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ** » . **قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ** : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ مَنْ جَاءَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ يَقُولُ بِالشِّرْكِ .

قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا نَبِيَّهُ ﷺ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ : أَنْ يُخْبِرَ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْهِدَايَةِ إِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ أَيْ : قَائِمًا ثَابِتًا ﴿ مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وَلَيْسَ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ ﷺ أُمِرَ بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْحَنِيفِيَّةِ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَكْمَلَ مِنْهُ فِيهَا ؛ لِأَنَّهُ ﷺ قَامَ بِهَا قِيَامًا عَظِيمًا ، وَأُكْمِلَتْ لَهُ إِكْمَالًا تَامًّا لَمْ يَسْبِقْهُ أَحَدٌ إِلَى هَذَا الْكَمَالِ ، وَلِهَذَا كَانَ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يَأْمُرُهُ تَعَالَى أَنْ يُخْبِرَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللهِ وَيَذْبَحُونَ لِغَيْرِ اسْمِهِ ، أَنَّهُ مُخَالِفٌ لَهُمْ فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّ صَلَاتَهُ للهِ ، وَنُسُكَهُ عَلَى اسْمِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ أَيْ : أَخْلِصْ لَهُ صَلَاتَكَ وَذَبْحَكَ ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَيَذْبَحُونَ لَهَا ، فَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِمُخَالَفَتِهِمْ ، وَالِانْحِرَافِ عَمَّا هُمْ فِيهِ ، وَالْإِقْبَالِ بِالْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ وَالْعَزْمِ عَلَى الْإِخْلَاصِ للهِ تَعَالَى . **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى ﴾ النُّسُكُ : الذَّبْحُ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : أَيْ : مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَهُوَ كَمَا قَالَ ؛ فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ كُلُّهُمْ كَانَتْ دَعْوَتُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَصْلُهُ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ فِي إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا ﴾ أَيْ : أَطْلُبُ رَبًّا سِوَاهُ ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ يُرَبِّينِي وَيَحْفَظُنِي وَيَكْلَؤُنِي ، وَيُدَبِّرُ أَمْرِي ، أَيْ : لَا أَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ ، وَلَا أُنِيبُ إِلَّا إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَلَهُ الْخَلْقُ

وَالْأَمْرُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي جَزَاءِ اللهِ تَعَالَى وَحُكْمِهِ وَعَدْلِهِ ، أَنَّ النُّفُوسَ إِنَّمَا تُجَازَى بِأَعْمَالِهَا ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، وَأَنَّهُ لَا يُحْمَلُ مِنْ خَطِيئَةِ أَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ ، وَهَذَا مِنْ عَدْلِهِ تَعَالَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أَيْ : اِعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ فَسَتَعْرِضُونَ وَنَعْرِضُ عَلَيْهِ ، وَيُنَبِّئُنَا وَإِيَّاكُمْ بِأَعْمَالِنَا وَأَعْمَالِكُمْ ، وَمَا كُنَّا نَخْتَلِفُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا .

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : جَعَلَكُمْ تَعْمُرُونَهَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، وَقَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَخَلَفًا بَعْدَ سَلَفٍ . ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ أَيْ : فَاوَتَ بَيْنَكُمْ فِي الْأَرْزَاقِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْمَحَاسِنِ وَالْمَسَاوِئِ وَالْمَنَاظِرِ وَالْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أَيْ : لِيَخْتَبِرَكُمْ فِي الَّذِي أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ وَامْتَحَنَكُمْ بِهِ ، لِيَخْتَبِرَ الْغَنِيَّ فِي غِنَاهُ ، وَيَسْأَلَهُ عَنْ شُكْرِهِ ، وَالْفَقِيرَ فِي فَقْرِهِ وَيَسْأَلُهُ عَنْ صَبْرِهِ . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ تَرْهِيبٌ وَتَرْغِيبٌ ، أَنَّ حِسَابَهُ وَعِقَابَهُ سَرِيعٌ فِيمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ رُسُلَهُ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ لِمَنْ وَالَاهُ وَاتَّبَعَ رُسُلَهُ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ خَبَرٍ وَطَلَبٍ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

تفسير سورة الأعراف

آياتها ٢٠٦ — مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِالْحُرُوفِ وَاخْتِلَافِ النَّاسِ فِيهِ . ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : هَذَا كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، أَيْ : مِنْ رَبِّكَ ﴿ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ أَيْ :

شَكٌّ مِنْهُ ، وَقِيلَ : لَا تَتَحَرَّجْ بِهِ فِي إِبْلَاغِهِ وَالْإِنْذَارِ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ أَيْ : أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُنْذِرَ بِهِ الْكَافِرِينَ ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِلْعَالَمِ : ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أَيْ : اِقْتَفُوا آثَارَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي جَاءَكُمْ بِكِتَابٍ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ أَيْ : لَا تَخْرُجُوا عَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ الرَّسُولُ إِلَى غَيْرِهِ ، فَتَكُونُوا قَدْ عَدَلْتُمْ عَنْ حُكْمِ اللهِ إِلَى حُكْمِ غَيْرِهِ ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾ أَيْ : بِمُخَالَفَةِ رُسُلِنَا وَتَكْذِيبِهِمْ فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا مَوْصُولًا بِذُلِّ الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[الأنعام : ١٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ أَيْ : فَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ جَاءَهُ أَمْرُ اللهِ وَبَأْسُهُ وَنِقْمَتُهُ بَيَاتًا ، أَيْ : لَيْلًا ، أَوْ هُمْ قَائِلُونَ : مِنَ الْقَيْلُولَةِ وَهِيَ : الِاسْتِرَاحَةُ وَسَطَ النَّهَارِ ، وَكِلَا الْوَقْتَيْنِ وَقْتُ غَفْلَةٍ وَلَهْوٍ . ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : فَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ عِنْدَ مَجِيءِ الْعَذَابِ إِلَّا أَنِ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ حَقِيقُونَ بِهَذَا .

قَوْلُهُ : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ فَيَسْأَلُ اللهُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا أَجَابُوا رُسُلَهُ فِيمَا أَرْسَلَهُمْ بِهِ ، وَيَسْأَلُ الرُّسُلَ أَيْضًا عَنْ إِبْلَاغِ رِسَالَاتِهِ . ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ قِيلَ فِي مَعْنَاهُ : يُوضَعُ الْكِتَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُ تَعَالَى يُخْبِرُ عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا قَالُوا وَبِمَا عَمِلُوا مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ وَجَلِيلٍ وَحَقِيرٍ .

وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أَيْ : لِلْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ أَيْ : لَا يَظْلِمُ تَعَالَى أَحَدًا .

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى عَبِيدِهِ فِيمَا مَكَّنَ لَهُمْ مِنْ أَنَّهُ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ، وَجَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مَنَازِلَ وَبُيُوتًا ، وَأَبَاحَ لَهُمْ مَنَافِعَهَا وَسَخَّرَ لَهُمُ السَّحَابَ لِإِخْرَاجِ

أَرْزَاقِهِمْ مِنْهَا ، وَجَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مَعَايِشَ أَيْ : مَكَاسِبَ وَأَسْبَابًا يَكْسِبُونَ بِهَا ، وَيَتَّجِرُونَ فِيهَا ، وَيَتَسَبَّبُونَ أَنْوَاعَ الْأَسْبَابِ ، وَأَكْثَرُهُمْ مَعَ هَذَا قَلِيلُ الشُّكْرِ عَلَى ذَلِكَ .

وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى بَنِي آدَمَ فِي هَذَا الْمَقَامِ عَلَى شَرَفِ أَبِيهِمْ آدَمَ ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ عَدَاوَةَ عَدُوِّهِمْ إِبْلِيسَ ، وَمَا هُوَ مُنْطَوٍ عَلَيْهِ مِنَ الْحَسَدِ لَهُمْ وَلِأَبِيهِمْ آدَمَ ؛ لِيَحْذَرُوهُ وَلَا يَتَّبِعُوا طَرَائِقَهُ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ آدَمَ عليه السلام بِيَدِهِ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ، وَصَوَّرَهُ بَشَرًا سَوِيًّا ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ تَعْظِيمًا لِشَأْنِ اللهِ تَعَالَى وَجَلَالِهِ ، فَسَمِعُوا كُلُّهُمْ وَأَطَاعُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ﴾ الْمُرَادُ بِذَلِكَ : آدَمُ ، وَإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ بِالْجَمْعِ ؛ لِأَنَّهُ أَبُو الْبَشَرِ .

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَوْجِيهِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ أَنَّ مَنَعَكَ تَضَمَّنَ مَعْنَى فِعْلٍ آخَرَ تَقْدِيرُهُ : مَا أَحْوَجَكَ وَأَلْزَمَكَ وَاضْطَرَّكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ وَنَحْوَ هَذَا ، وَقَوْلُ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللهُ ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ مِنَ الْعُذْرِ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الذَّنْبِ ، كَأَنَّهُ امْتَنَعَ مِنَ الطَّاعَةِ ، لِأَنَّهُ لَا يُؤْمَرُ الْفَاضِلُ بِالسُّجُودِ لِلْمَفْضُولِ ، يَعْنِي :- لَعَنَهُ اللهُ - وَأَنَا خَيْرٌ مِنْهُ فَكَيْفَ تَأْمُرُنِي بِالسُّجُودِ لَهُ ؟ ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ بِأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ نَارٍ ، وَالنَّارُ أَشْرَفُ مِمَّا خَلَقْتَهُ مِنْهُ وَهُوَ الطِّينُ ، فَنَظَرَ اللَّعِينُ إِلَى أَصْلِ الْعُنْصُرِ وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى التَّشْرِيفِ الْعَظِيمِ ، وَهُوَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ .

قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِإِبْلِيسَ بِأَمْرٍ قَدَرِيٍّ كَوْنِيٍّ ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ عِصْيَانِكَ لِأَمْرِي ، وَخُرُوجِكَ عَنْ طَاعَتِي ، فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا . **قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ** : الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى الْمَنْزِلَةِ الَّتِي هُوَ فِيهَا فِي الْمَلَكُوتِ الْأَعْلَى ﴿ فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴾ أَيْ : الذَّلِيلِينَ الْحَقِيرِينَ ، مُعَامَلَةً لَهُ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ وَمُكَافَأَةً لِمُرَادِهِ بِضِدِّهِ ، فَعِنْدَ

ذَلِكَ اسْتَدْرَكَ اللَّعِينُ وَسَأَلَ النَّظِرَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، قَالَ : ﴿ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ ، أَجَابَهُ تَعَالَى إِلَى مَا سَأَلَ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الحِكْمَةِ وَالإِرَادَةِ وَالمَشِيئَةِ الَّتِي لَا تُخَالَفُ وَلَا تُمَانَعُ ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ .

قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾

يُخْبِرِ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَنْظَرَ إِبْلِيسَ ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ وَاسْتَوْثَقَ إِبْلِيسُ بِذَلِكَ ، أَخَذَ فِي المُعَانَدَةِ وَالتَّمَرُّدِ فَقَالَ : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أَيْ : كَمَا أَغْوَيْتَنِي ، قِيلَ : كَمَا أَضْلَلْتَنِي ، وَقِيلَ : كَمَا أَهْلَكْتَنِي ؛ لَأَقْعُدَنَّ لِعِبَادِكَ الَّذِينَ تَخْلُقُهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَذَا الَّذِي أَبْعَدْتَنِي بِسَبَبِهِ عَلَى ﴿ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أَيْ : طَرِيقَ الحَقِّ وَسَبِيلَ النَّجَاةِ ، وَلَأُضِلَّنَّهُمْ عَنْهَا ؛ لِئَلَّا يَعْبُدُوكَ وَلَا يُوَحِّدُوكَ بِسَبَبِ إِضْلَالِكَ إِيَّايَ .

قَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الآيَةُ . رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: أَمَّا « مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ » فَمِنْ قِبَلِ دُنْيَاهُمْ ، وَأَمَّا « مِنْ خَلْفِهِمْ » فَأَمْرُ آخِرَتِهِمْ ، وَأَمَّا « عَنْ أَيْمَانِهِمْ » فَمِنْ قِبَلِ حَسَنَاتِهِمْ ، وَأَمَّا « عَنْ شَمَائِلِهِمْ » فَمِنْ قِبَلِ سَيِّئَاتِهِمْ . آتَاكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِكَ مِنْ فَوْقِكَ ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَحْمَةِ اللهِ . ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ أَيْ : مُوَحِّدِينَ ، وَقَوْلُ إِبْلِيسَ هَذَا إِنَّمَا هُوَ ظَنٌّ مِنْهُ وَتَوَهُّمٌ ، وَقَدْ وَافَقَ فِي هَذَا الوَاقِعِ .

قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

أَكَّدَ تَعَالَى اللَّعْنَةَ وَالطَّرْدَ وَالإِبْعَادَ وَالنَّفْيَ عَنْ مَحَلِّ المَلَأِ الأَعْلَى بِقَوْلِهِ : ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : أَمَّا المَذْءُومُ : فَهُوَ المَعِيبُ . **قَالَ** : وَالمَدْحُورُ : المُقْصَى وَهُوَ المُبْعَدُ المَطْرُودُ .

وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَبَاحَ لِآدَمَ وَلِزَوْجَتِهِ حَوَّاءَ الجَنَّةَ أَنْ يَأْكُلَا مِنْهَا مِنْ جَمِيعِ ثِمَارِهَا إِلَّا شَجَرَةً وَاحِدَةً ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي « سُورَةِ البَقَرَةِ » ، فَعِنْدَ ذَلِكَ حَسَدَهُمَا الشَّيْطَانُ وَسَعَى فِي المَكْرِ وَالوَسْوَسَةِ وَالخَدِيعَةِ لِيُسْلَبَا مَا هُمَا فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَاللِّبَاسِ الحَسَنِ ﴿ وَقَالَ ﴾ كَذِبًا

وَافْتِرَاءً ﴿ مَا نَهَنكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ أَيْ : لِئَلَّا تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ خَالِدَيْنِ هَاهُنَا ، وَلَوْ أَنَّكُمَا أَكَلْتُمَا مِنْهَا لَحَصَلَ لَكُمَا ذَلِكَ كَقَوْلِهِ : ﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه : ١٢٠] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ أَيْ : حَلَفَ لَهُمَا بِاللهِ ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ حَتَّى خَدَعَهُمَا ، وَقَدْ يُخْدَعُ الْمُؤْمِنُ بِاللهِ ، فَقَالَ : إِنِّي خُلِقْتُ قَبْلَكُمَا وَأَنَا أَعْلَمُ مِنْكُمَا فَاتَّبِعَانِّ أُرْشِدْكُمَا ، **وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُ** : مَنْ خَدَعَنَا بِاللهِ انْخَدَعْنَا لَهُ .

فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ : جَعَلَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ قَالَ : كَهَيْئَةِ الثَّوْبِ . **قَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ هِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي تَلَقَّاهَا آدَمُ مِنْ رَبِّهِ .

قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

قِيلَ : الْمُرَادُ بِالْخِطَابِ فِي : ﴿ ٱهْبِطُوا ﴾ آدَمُ وَحَوَّاءُ وَإِبْلِيسُ وَالحَيَّةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَذْكُرِ الحَيَّةَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . وَالْعُمْدَةُ فِي الْعَدَاوَةِ آدَمُ وَإِبْلِيسُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي « سُورَةِ طَهَ » قَالَ : ﴿ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ [طه : ١٢٣] . وَحَوَّاءُ تَبَعٌ لِآدَمَ ، وَالحَيَّةُ إِنْ كَانَ ذِكْرُهَا صَحِيحًا فَهِيَ تَبَعٌ لِإِبْلِيسَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أَيْ : قَرَارٌ وَأَعْمَارٌ مَضْرُوبَةٌ إِلَى آجَالٍ مَعْلُومَةٍ قَدْ جَرَى بِهَا الْقَلَمُ ، وَأَحْصَاهَا الْقَدَرُ وَسُطِرَتْ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ .

قَوْلُهُ : ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ الْأَرْضَ دَارًا لِبَنِي آدَمَ مُدَّةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فِيهَا مَحْيَاهُمْ وَفِيهَا مَمَاتُهُمْ وَقُبُورُهُمْ ، وَمِنْهَا نُشُورُهُمْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَجْمَعُ اللهُ فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَيُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ .

يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

يَمْتَنُّ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ اللِّبَاسِ وَالرِّيَاشِ ، فَاللِّبَاسُ : يَسْتُرُ الْعَوْرَاتِ وَهِيَ السَّوْآتِ ، وَالرِّيَاشُ وَالرِّيشُ : مَا يُتَجَمَّلُ بِهِ ظَاهِرًا ، فَالْأَوَّلُ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ ، وَالرِّيشُ مِنَ

التَّكمِلَاتِ وَالزِّيَادَاتِ .وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ ؛ فَقَالَ عِكْرِمَةُ : يُقَالُ : هُوَ مَا يَلْبَسُهُ الْمُتَّقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ الْإِيمَانُ ، وَقِيلَ : الْعَمَلُ الصَّالِحُ . وَقِيلَ : خَشْيَةُ الله . وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : يَتَّقِي اللهَ فَيُوَارِي عَوْرَتَهُ فَذَاكَ لِبَاسُ التَّقْوَى . وَكُلُّ هَذِهِ مُتَقَارِبَةٌ .

يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

يُحَذِّرُ تَعَالَى بَنِي آدَمَ مِنْ إِبْلِيسَ وَقَبِيلِهِ ، مُبَيِّنًا لَهُمْ عَدَاوَتَهُ الْقَدِيمَةَ لِأَبِي الْبَشَرِ آدَمَ عليه السلام فِي سَعْيِهِ فِي إِخْرَاجِهِ مِنَ الجَنَّةِ الَّتِي هِيَ دَارُ النَّعِيمِ إِلَى دَارِ التَّعَبِ وَالْعَنَاءِ ، وَالتَّسَبُّبِ فِي هَتْكِ عَوْرَتِهِ ، بَعْدَمَا كَانَتْ مَسْتُورَةٌ عَنْهُ ، وَمَا هَذَا إِلَّا عَنْ عَدَاوَةٍ أَكِيدَةٍ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾[الكهف : ٥٠]

وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ : كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً يَقُولُونَ : نَطُوفُ كَمَا وَلَدَتْنَا أُمَّهَاتُنَا فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ الْآيَةُ .

قُلْتُ : كَانَتِ الْعَرَبُ - مَا عَدَا قُرَيْشًا - لَا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ فِي ثِيَابِهِمُ الَّتِي لَبِسُوهَا ، يَتَأَوَّلُونَ فِي ذَلِكَ : أَنَّهُمْ لَا يَطُوفُونَ فِي ثِيَابٍ عَصَوُا اللهَ فِيهَا ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ - وَهُمُ الحُمْسُ - يَطُوفُونَ فِي ثِيَابِهِمْ ، وَمَنْ أَعَارَهُ أَحْمَسِيٌّ ثَوْبًا طَافَ فِيهِ ، وَمَنْ مَعَهُ ثَوْبٌ جَدِيدٌ طَافَ فِيهِ ، ثُمَّ يُلْقِيهِ فَلَا يَتَمَلَّكُهُ أَحَدٌ ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ ثَوْبًا جَدِيدًا وَلَا أَعَارَهُ أَحْمَسِيٌّ ثَوْبًا طَافَ عُرْيَانًا ، وَرُبَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ فَتَطُوفُ عُرْيَانَةً ، فَتَجْعَلُ عَلَى فَرْجِهَا شَيْئًا لِيَسْتُرَهُ بَعْضَ السَّتْرِ فَتَقُولُ :

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ   وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

وَأَكْثَرُ مَا كَانَ النِّسَاءُ يَطُفْنَ عُرَاةً بِاللَّيْلِ ، وَكَانَ هَذَا شَيْئًا قَدِ ابْتَدَعُوهُ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ وَاتَّبَعُوا

فِيهِ آبَاءَهُمْ ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ فِعْلَ آبَائِهِمْ مُسْتَنِدٌ إِلَى أَمْرٍ مِنَ اللهِ وَشَرْعٍ ، فَأَنْكَرَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ ، فَقَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ : ﴿ قُلْ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ لِمَنِ ادَّعَى ذَلِكَ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي تَصْنَعُونَهُ فَاحِشَةٌ مُنْكَرَةٌ ، وَاللهُ لَا يَأْمُرُ بِمِثْلِ ذَلِكَ ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : أَتُسْنِدُونَ إِلَى اللهِ مِنَ الْأَقْوَالِ مَا لَا تَعْلَمُونَ صِحَّتَهُ . ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴾ أَيْ : بِالْعَدْلِ وَالِاسْتِقَامَةِ ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أَيْ : أَمَرَكُمْ بِالِاسْتِقَامَةِ فِي عِبَادَتِهِ فِي مَحَالِّهَا وَهِيَ مُتَابَعَةُ الْمُرْسَلِينَ الْمُؤَيَّدِينَ بِالْمُعْجِزَاتِ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنِ اللهِ ، وَمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ ، وَبِالْإِخْلَاصِ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَتَقَبَّلُ الْعَمَلَ حَتَّى يَجْمَعَ هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ : أَنْ يَكُونَ صَوَابًا مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ ، وَأَنْ يَكُونَ خَالِصًا مِنَ الشِّرْكِ . اُخْتُلِفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ **قِيلَ** : يُحْيِيكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ . **وَقِيلَ** : كَمَا بَدَأَكُمْ فِي الدُّنْيَا كَذَلِكَ تَعُودُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْيَاءً . **وَقِيلَ** : كَمَا كَتَبَ عَلَيْكُمْ تَكُونُونَ ، **وَقِيلَ** : مَنِ ابْتَدَأَ اللهُ خَلْقَهُ عَلَى الشَّقَاوَةِ صَارَ إِلَى مَا ابْتُدِئَ عَلَيْهِ خَلْقُهُ ، وَإِنْ عَمِلَ بِأَعْمَالِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَمَنِ ابْتَدَأَ خَلْقَهُ عَلَى السَّعَادَةِ صَارَ إِلَى مَا ابْتُدِئَ خَلْقُهُ عَلَيْهِ ، وَإِنْ عَمِلَ بِأَعْمَالِ أَهْلِ الشَّقَاءِ ، كَمَا أَنَّ السَّحَرَةَ عَمِلُوا بِأَعْمَالِ أَهْلِ الشَّقَاءِ ثُمَّ صَارُوا إِلَى مَا ابْتُدِئُوا عَلَيْهِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَهَذَا مِنْ أَبْيَنِ الدَّلَالَةِ عَلَى خَطَأِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا عَلَى مَعْصِيَةٍ رَكِبَهَا أَوْ ضَلَالَةٍ اعْتَقَدَهَا ، إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهَا بَعْدَ عِلْمٍ مِنْهُ بِصَوَابِ وَجْهِهَا ، فَيَرْكَبُهَا عِنَادًا مِنْهُ لِرَبِّهِ فِيهَا ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ فَرِيقِ الضَّلَالَةِ - الَّذِي ضَلَّ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ هَادٍ - وَفَرِيقِ الْهُدَى فَرْقٌ ، وَقَدْ فَرَّقَ اللهُ تَعَالَى بَيْنَ أَسْمَائِهِمَا وَأَحْكَامِهِمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ .

۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ نَزَلَتْ فِي طَوَافِ الْمُشْرِكِينَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً ، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَمَا وَرَدَ فِي مَعْنَاهَا مِنَ السُّنَّةِ يُسْتَحَبُّ التَّجَمُّلُ عِنْدَ الصَّلَاةِ وَلَا سِيَّمَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَيَوْمُ الْعِيدِ ، وَالطِّيبُ لِأَنَّهُ مِنَ الزِّينَةِ ، وَالسِّوَاكُ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ تَمَامِ ذَلِكَ ، وَمِنْ أَفْضَلِ اللِّبَاسِ الْبَيَاضُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ الْآيَةُ . **قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : جَمَعَ اللهُ الطِّبَّ كُلَّهُ فِي نِصْفِ آيَةٍ ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: كُلْ مَا شِئْتَ ،

وَالْبَسْ مَا شِئْتَ ، مَا أَخْطَأَتْكَ خَصْلَتَانِ سَرَفٌ وَمَخِيلَةٌ . **وَقَالَ** : أَحَلَّ اللهُ الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ مَا لَمْ يَكُنْ سَرَفًا أَوْ مَخِيلَةً .

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ((**مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ ، حَسْبُ ابْنُ آدَمَ أَكَلَاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ فَاعِلًا لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**)) .

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى رَدًّا عَلَى مَنْ حَرَّمَ شَيْئًا مِنَ الْمَآكِلِ أَوِ الْمَشَارِبِ أَوِ الْمَلَابِسِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ شَرْعٍ مِنَ اللهِ ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُحَرِّمُونَ مَا يُحَرِّمُونَ بِآرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَابْتِدَاعِهِمْ ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ الْآيَةُ . أَيْ : هِيَ مَخْلُوقَةٌ لِمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَعَبَدَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَإِنْ شَرِكَهُمْ فِيهَا الْكُفَّارُ حِسًّا فِي الدُّنْيَا ، فَهِيَ لَهُمْ خَاصَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَا يُشْرِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ مِنَ الْكُفَّارِ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ .

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**لَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ**)) . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ . وَحَاصِلُ مَا فُسِّرَ بِهِ الْإِثْمُ : أَنَّهُ الْخَطَايَا الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْفَاعِلِ نَفْسِهِ ، وَالْبَغْيُ : هُوَ التَّعَدِّي إِلَى النَّاسِ فَحَرَّمَ اللهُ هَذَا وَهَذَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ أَيْ : تَجْعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ فِي عِبَادَتِهِ ﴿ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ مِنَ الِافْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ مِنْ دَعْوَى أَنَّ لَهُ وَلَدًا ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا لَا عِلْمَ لَكُمْ بِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أَيْ : قَرْنٌ وَجِيلٌ ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أَيْ : مِيقَاتُهُمُ الْمُقَدَّرُ لَهُمْ ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ﴾ عَنْ ذَلِكَ ﴿ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ . ثُمَّ أَنْذَرَ تَعَالَى بَنِي آدَمَ أَنَّهُ سَيَبْعَثُ

إِلَيْهِمْ رُسُلًا يَقُصُّونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَبَشَّرَ وَحَذَّرَ فَقَالَ : ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ ﴾ أَيْ : تَرَكَ الْمُحَرَّمَاتِ وَفَعَلَ الطَّاعَاتِ ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ ﴾ أَيْ : كَذَّبَتْ بِهَا قُلُوبُهُمْ وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ الْعَمَلِ بِهَا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أَيْ : مَاكِثُونَ فِيهَا مُكْثًا مُخَلَّدًا .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾ أَيْ : لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى الْكَذِبَ عَلَى اللهِ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ الْمُنَزَّلَةِ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ . **قِيلَ** : يَنَالُهُمْ مَا كُتِبَ عَلَيْهِمْ ، وَكُتِبَ لِمَنْ يَفْتَرِي عَلَى اللهِ أَنَّ وَجْهَهُ مُسْوَدٌّ ، **وَقِيلَ** : نَصِيبُهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ ، مَنْ عَمِلَ خَيْرًا جُزِيَ بِهِ ، وَمَنْ عَمِلَ شَرًّا جُزِيَ بِهِ ، **وَقِيلَ** : مَا وُعِدُوا بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قَالَ : عَمَلُهُ وَرِزْقُهُ وَعُمْرُهُ ، وَهَذَا الْقَوْلُ قَوِيٌّ فِي الْمَعْنَى ، وَالسِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَيْهِ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ وَيَصِيرُ الْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ **وَقَوْلُهُ** : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ الْآيَةُ . يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِذَا تَوَفَّتِ الْمُشْرِكِينَ تُفْزِعُهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ وَقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ إِلَى النَّارِ ، يَقُولُونَ لَهُمْ : أَيْنَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ بِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَدْعُونَهُمْ وَتَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ اُدْعُوهُمْ يُخَلِّصُوكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ، قَالُوا : ﴿ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ أَيْ : ذَهَبُوا عَنَّا فَلَا نَرْجُو نَفْعَهُمْ وَلَا خَيْرَهُمْ ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أَيْ : أَقَرُّوا وَاعْتَرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴿ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ .

قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَقُولُهُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ الْمُفْتَرِينَ عَلَيْهِ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِهِ ﴿ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ ﴾

أَيْ : مِنْ أَشْكَالِكُمْ وَعَلَى صِفَاتِكُمْ ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم ﴾ أَيْ : مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الْكَافِرَةِ ﴿ مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ فِىٓ أُمَمٍ ﴾ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ﴿ فِىٓ أُمَمٍ ﴾ أَيْ : مَعَ أُمَمٍ ، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ ﷺ ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ [العنكبوت : ٢٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا ﴾ أَيْ : اِجْتَمَعُوا فِيهَا كُلُّهُمْ ﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ ﴾ أَيْ : آخِرُهُمْ دُخُولًا - وَهُمُ الْأَتْبَاعُ - لِأُولَاهُمْ - وَهُمُ الْمَتْبُوعُونَ - لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ جُرْمًا مِنْ أَتْبَاعِهِمْ ، فَدَخَلُوا قَبْلَهُمْ فَيَشْكُوهُمُ الْأَتْبَاعُ إِلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ فَيَقُولُونَ : ﴿ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : أَضْعِفْ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ۝٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : قَدْ فَعَلْنَا ذَلِكَ وَجَازَيْنَا كُلًّا بِحَسَبِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ ﴾ أَيْ : قَالَ الْمَتْبُوعُونَ لِلْأَتْبَاعِ ﴿ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤٠ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٤١

قَوْلُهُ : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ لَا يُرْفَعُ لَهُمْ مِنْهَا عَمَلٌ صَالِحٌ وَلَا دُعَاءٌ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ لَا تُفَتَّحُ لِأَرْوَاحِهِمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ . ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ . هَكَذَا قَرَأَهُ الْجُمْهُورُ وَفَسَّرُوهُ بِأَنَّهُ الْبَعِيرُ . قَالُوا : حَتَّى يَدْخُلَ الْبَعِيرُ فِي خَرْقِ الْإِبْرَةِ . ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ الْفُرُشُ : ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ اللُّحُفُ . ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝٤٢ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ عَطَفَ بِذِكْرِ حَالِ السُّعَدَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أَيْ : آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِجَوَارِحِهِمْ ضِدَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ، وَيُنَبِّهُ تَعَالَى عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ بِهِ سَهْلٌ ؛ لأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ : ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ أَيْ : مِنْ حَسَدٍ وَبُغْضٍ . قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **كُلُّ أَهْلِ الجَنَّةِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ : لَوْلَا أَنَّ اللهَ هَدَانِي ، فَيَكُونُ لَهُ شُكْرًا ، وَكُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ فَيَقُولُ : لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي ، فَيَكُونُ لَهُ حَسْرَةً** » . وَلِهَذَا لَمَّا أُورِثُوا مَقَاعِدَ أَهْلِ النَّارِ مِنَ الجَنَّةِ نُودُوا : ﴿ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ أَعْمَالِكُمْ نَالَتْكُمُ الرَّحْمَةُ فَدَخَلْتُمُ الجَنَّةَ وَتَبَوَّأْتُمْ مَنَازِلَكُمْ بِحَسَبِ أَعْمَالِكُمْ . وَإِنَّمَا وَجَبَ الحَمْلُ عَلَى هَذَا لِقَوْلِهِ ﷺ : « **وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الجَنَّةَ** » قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « **وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ** » .

وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُواْ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِمَا يُخَاطِبُ أَهْلُ الجَنَّةِ بِهِ أَهْلَ النَّارِ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ إِذَا اسْتَقَرُّوا فِي مَنَازِلِهِمْ ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ﴾ « أَن » هَاهُنَا مُفَسِّرَةٌ لِلْقَوْلِ المَحْذُوفِ ، وَ « قَدْ » لِلتَّحْقِيقِ ، أَيْ : قَالُوا لَهُمْ : قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا : نَعَمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ : أَعْلَمَ مُعْلِمٌ وَنَادَى مُنَادٍ : ﴿ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : مُسْتَقِرَّةٌ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أَيْ : يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ سَبِيلِ اللهِ وَشَرْعِهِ وَمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ ، وَيَبْغُونَ أَنْ يَكُونَ السَّبِيلُ مُعْوَجَّةً غَيْرَ مُسْتَقِيمَةٍ حَتَّى لَا يَتَّبِعَهَا أَحَدٌ ﴿ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَـٰفِرُونَ ﴾ أَيْ : وَهُمْ بِلِقَاءِ اللهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَافِرُونَ : أَيْ جَاحِدُونَ مُكَذِّبُونَ ، فَلِهَذَا لَا يُبَالُونَ بِمَا يَأْتُونَ مِنْ مُنْكَرٍ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ؛ لأَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ حِسَابًا عَلَيْهِ وَلَا عِقَابًا فَهُمْ شَرُّ النَّاسِ أَقْوَالًا وَأَعْمَالًا .

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مُخَاطَبَةَ أَهْلِ الجَنَّةِ مَعَ أَهْلِ النَّارِ نَبَّهَ أَنَّ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ حِجَابًا ، وَهُوَ الحَاجِزُ

الْمَانِعُ مِنْ وُصُولِ أَهْلِ النَّارِ إِلَى الجَنَّةِ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَهُوَ السُّورُ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾[الحديد : ١٣] وَهُوَ **الْأَعْرَافُ** الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ ﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَالْأَعْرَافُ : جَمْعُ عُرْفٍ ، وَكُلُّ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ عِنْدَ الْعَرَبِ يُسَمَّى عُرْفًا ، وَإِنَّمَا قِيلَ لِعُرْفِ الدِّيكِ عُرْفًا لِارْتِفَاعِهِ ، **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : الْأَعْرَافُ : تَلٌّ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ، حُبِسَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ فِي **أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ** مَنْ هُمْ ؟ وَكُلُّهَا قَرِيبَةٌ تَرْجِعُ إِلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَهُوَ أَنَّهُمْ : **قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ** .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : **يَعْرِفُونَ أَهْلَ الجَنَّةِ** بِبَيَاضِ الْوُجُوهِ ، وَأَهْلَ النَّارِ بِسَوَادِ الْوُجُوهِ ، وَقَالُوا : أَنْزَلَهُمُ اللهُ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ ؛ لِيُعْرَفُوا مَنْ فِي الجَنَّةِ وَالنَّارِ ؛ وَلِيَعْرِفُوا أَهْلَ النَّارِ بِسَوَادِ الْوُجُوهِ وَيَتَعَوَّذُوا بِاللهِ أَنْ يَجْعَلَهُمْ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يُحَيُّونَ أَهْلَ الجَنَّةِ بِالسَّلَامِ ، لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ أَنْ يَدْخُلُوهَا ، وَهُمْ دَاخِلُوهَا إِنْ شَاءَ اللهُ .

قَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ **قِيلَ** : إِنَّ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ إِذَا نَظَرُوا إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَعَرَفُوهُمْ ، قَالُوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَقْرِيعِ أَهْلِ الْأَعْرَافِ لِرِجَالٍ مِنْ صَنَادِيدِ الْمُشْرِكِينَ وَقَادَتِهِمْ يَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِسِيمَاهُمْ : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ ﴾ أَيْ : كَثْرَتُكُمْ ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَنْفَعُكُمْ كَثْرَتُكُمْ وَلَا جُمُوعُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، بَلْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صِرْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ . ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ يَعْنِي : أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ .

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ذِلَّةِ أَهْلِ النَّارِ وَسُؤَالِهِمْ أَهْلَ الجَنَّةِ مِنْ شَرَابِهِمْ وَطَعَامِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ لَا يُجَابُونَ إِلَى ذَلِكَ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ يَعْنِي : الطَّعَامُ . وَقِيلَ : يَسْتَطْعِمُونَهُمْ وَيَسْتَسْقُونَهُمْ . ثُمَّ وَصَفَ تَعَالَى الْكَافِرِينَ بِمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي الدُّنْيَا بِاتِّخَاذِهِمُ الدِّينَ لَهْوًا وَلَعِبًا ، وَاغْتِرَارِهِمْ بِالدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَزُخْرُفِهَا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الْعَمَلِ لِلآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ أَيْ : نُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةَ مَنْ نَسِيَهُمْ ؛ لأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَشِذُّ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ وَلَا يَنْسَاهُ ، وَإِنَّمَا قَالَ تَعَالَى هَذَا مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ كَقَوْلِهِ : ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : ٦٧] ، وَقَالَ : ﴿ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه : ١٢٦]

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِعْذَارِهِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ ، بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِمْ ، بِالْكِتَابِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَأَنَّهُ كِتَابٌ مُفَصَّلٌ مُبَيِّنٌ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أَيْ : عَلَى عِلْمٍ مِنَّا بِمَا فَصَّلْنَاهُ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ﴾ أَيْ : مَا وُعِدُوا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ ﴾ أَيْ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : تَرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ وَتَنَاسَوْهُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ ﴾ أَيْ : فِي خَلَاصِنَا مِمَّا نَحْنُ فِيهِ ﴿ أَوْ نُرَدُّ ﴾ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ أَيْ : خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِدُخُولِهِمُ النَّارَ وَخُلُودِهِمْ فِيهَا ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أَيْ : ذَهَبَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ، فَلَا يَشْفَعُونَ لَهُمْ وَلَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَا يُنْقِذُونَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ .

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ الْعَالَمِ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ فِي سِتَّةِ أَيَّام ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَالسِّتَّةُ أَيَّام هِيَ : الأَحَدُ وَالاِثْنَيْنُ وَالثُّلَاثَاءُ وَالأَرْبِعَاءُ وَالخَمِيسُ وَالجُمْعَةُ

وَفِيهِ اجْتَمَعَ الخَلْقُ كُلُّهُ ، وَفِيهِ خُلِقَ آدَمُ عليه السلام . **وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ فَلِلنَّاسِ فِي هَذَا المَقَامِ مَقَالَاتٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا لَيْسَ هَـذَا مَوْضِعُ بَسْطِهَا ، وَإِنَّمَا يُسْلَكُ فِي هَذَا المَقَامِ مَذْهَبُ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَهُوَ إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ وَلَا تَعْطِيلٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ أَيْ : يُذْهِبُ ظَلَامَ هَذَا بِضِيَاءِ هَذَا ، وَضِيَاءَ هَذَا بِظَلَامِ هَذَا ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَثِيثًا ، أَيْ : سَرِيعًا ، لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ بَلْ إِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا ، وَإِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ هَذَا ، فَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ أَيْ : لَا يَفُوتُهُ بِوَقْتٍ يَتَأَخَّرُ عَنْهُ ، بَلْ هُوَ فِي أَثَرِهِ لَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُمَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ مِنْهُمْ مَنْ نَصَبَ وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ ، وَكِلَاهُمَا قَرِيبُ المَعْنَى أَيْ : الجَمِيعُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ مُنَبِّهًا : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ أَيْ : لَهُ المُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان : ٦١]

ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

أَرْشَدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى دُعَائِهِ الَّذِي هُوَ صَلَاحُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ فَقَالَ : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ **قِيلَ** : مَعْنَاهُ تَذَلُّلًا وَاسْتِكَانَةً ، **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **فِي قَوْلِهِ** : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ **قَالَ** : فِي الدُّعَاءِ وَلَا فِي غَيْرِهِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ يَنْهَى تَعَالَى عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا أَضَرَّهُ بَعْدَ الْإِصْلَاحِ ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْأُمُورُ مَاشِيَةً عَلَى السَّدَادِ ثُمَّ وَقَعَ الْإِفْسَادُ بَعْدَ ذَلِكَ ، كَانَ أَضَرَّ مَا يَكُونُ عَلَى الْعِبَادِ ، فَنَهَى تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ وَأَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَدُعَائِهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ وَالتَّذَلُّلِ لَدَيْهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أَيْ : خَوْفًا مِمَّا عِنْدَهُ مِنْ وَبِيلِ الْعِقَابِ ، وَطَمَعًا فِيمَا عِنْدَهُ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّ رَحْمَتَهُ مُرْصَدَةٌ لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَوَامِرَهُ وَيَتْرُكُونَ زَوَاجِرَهُ ، وَقَالَ : ﴿ قَرِيبٌ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : قَرِيبَةٌ ؛ لِأَنَّهُ ضَمَّنَ الرَّحْمَةَ مَعْنَى الثَّوَابِ ، أَوْ لِأَنَّهَا مُضَافَةٌ إِلَى اللهِ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ .

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ الحَاكِمُ الْمُدَبِّرُ الْمُسَخِّرُ ، وَأَرْشَدَ إِلَى دُعَائِهِ ؛ لأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ ، نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ الرَّزَّاقُ وَأَنَّهُ يُعِيدُ الْمَوْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا ﴾ أَيْ : نَاشِرَةً بَيْنَ يَدَي السَّحَابِ الحَامِلِ لِلْمَطَرِ ، ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ أَيْ : بَيْنَ يَدَي المَطَرِ ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً ﴾ أَيْ : حَمَلَتِ الرِّيَاحُ سَحَابًا ثِقَالًا ، أَيْ مِنْ كَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ المَاءِ ، تَكُونُ ثَقِيلَةً قَرِيبَةً مِنَ الْأَرْضِ مُدْلَهِمَّةً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ ﴾ أَيْ : إِلَى أَرْضٍ مَيِّتَةٍ مُجْدِبَةٍ لَا نَبَاتَ فِيهَا كَقَوْلِهِ : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا ﴾[يس : ٣٣] . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أَيْ : كَمَا أَحْيَيْنَا هَذِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ نُحْيِي الْأَجْسَادَ بَعْدَ صَيْرُورَتِهَا رَمِيمًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنْزِلُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَاءً مِنَ السَّمَاءِ فَتُمْطِرُ الْأَرْضَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، فَتَنْبُتُ مِنْهُ الْأَجْسَادُ فِي قُبُورِهَا كَمَا يَنْبُتُ الحَبُّ فِي الْأَرْضِ ، وَهَذَا المَعْنَى كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ يَضْرِبُ اللهُ مَثَلًا لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ أَيْ : وَالْأَرْضُ الطَّيِّبَةُ يَخْرُجُ نَبَاتُهَا سَرِيعًا حَسَنًا ﴿ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ قِيلَ : هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ . عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْهُدَى كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**)).

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ آدَمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ وَفَرَغَ مِنْهُ ، شَرَعَ تَعَالَى فِي ذِكْرِ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ فَابْتَدَأَ بِذِكْرِ نُوحٍ ﷺ فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَ آدَمَ ﷺ وَقَدْ كَانَ بَيْنَ آدَمَ إِلَى زَمَنِ نُوحٍ ﷺ عَشَرَةُ قُرُونٍ ، كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ : وَكَانَ أَوَّلُ مَا عُبِدَتِ الْأَصْنَامُ أَنَّ قَوْمًا

صَالِحِينَ مَاتُوا، فَبَنَى قَوْمُهُم عَلَيْهِمْ مَسَاجِدَ وَصَوَّرُوا صُوَرَ أُولَئِكَ فِيهَا ؛ لِيَتَذَكَّرُوا حَالَهُمْ وَعِبَادَتَهُمْ فَيَتَشَبَّهُوا بِهِمْ ، فَلَمَّا طَالَ الزَّمَانُ جَعَلُوا أَجْسَادًا عَلَى تِلْكَ الصُّوَرِ ، فَلَمَّا تَمَادَى الزَّمَانُ عَبَدُوا تِلْكَ الْأَصْنَامَ وَسَمَّوْهَا بِأَسْمَاءِ أُولَئِكَ الصَّالِحِينَ : وَدًّا ، وَسُوَاعًا ، وَيَغُوثَ ، وَيَعُوقَ ، وَنَسْرًا ، فَلَمَّا تَفَاقَمَ الْأَمْرُ بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ - رَسُولَهُ نُوحًا ، يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَقَالَ : ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أَيْ : مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِذَا لَقِيتُمُ اللهَ وَأَنْتُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ . ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ ﴾ أَيْ : الْجُمْهُورُ وَالسَّادَةُ وَالْقَادَةُ وَالْكُبَرَاءُ مِنْهُمْ ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : فِي دَعْوَتِكَ إِيَّانَا إِلَى تَرْكِ عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَيْهَا . ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : مَا أَنَا ضَالٌّ وَلَكِنْ أَنَا رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وَهَذَا شَأْنُ الرَّسُولِ أَنْ يَكُونَ بَلِيغًا فَصِيحًا نَاصِحًا عَالِمًا بِاللهِ ، لَا يُدْرِكُهُمْ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ .

أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نُوحٍ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ ﴾ الْآيَة . أَيْ : لَا تَعْجَبُوا مِنْ هَذَا فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يُوحِيَ اللهُ إِلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ رَحْمَةً بِكُمْ وَلُطْفًا وَإِحْسَانًا إِلَيْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا نِقْمَةَ اللهِ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أَيْ : تَمَادَوْا عَلَى تَكْذِيبِهِ وَمُخَالَفَتِهِ ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ أَيْ : عَنِ الْحَقِّ لَا يُبْصِرُونَهُ وَلَا يَهْتَدُونَ لَهُ ، فَبَيَّنَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّهُ انْتَقَمَ لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ ، وَأَنْجَى رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ ، وَهَذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَنَّ الْعَاقِبَةَ فِيهَا لِلْمُتَّقِينَ وَالظَّفَرَ وَالْغَلَبَ لَهُمْ ، كَمَا أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحٍ بِالْغَرَقِ ، وَنَجَّى نُوحًا وَأَصْحَابَهُ الْمُؤْمِنِينَ .

۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾

أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ نُوحٍ نُوحًا ، كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا . **قُلْتُ** : هَؤُلَاءِ هُمْ عَادٌ الْأُولَى الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ ، وَهُمْ أَوْلَادُ عَادِ بْنِ إِرَم ، الَّذِينَ كَانُوا يَأْوُونَ إِلَى الْعَمَدِ فِي الْبَرِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [الفجر : ٦- ٨] ، وَذَلِكَ لِشِدَّةِ بَأْسِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت : ١٥] . وَقَدْ كَانَتْ مَسَاكِنُهُمْ بِالْيَمَنِ بِالْأَحْقَافِ وَهُوَ جِبَالُ الرَّمَلِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ ﴾ وَالْمَلَأُ هُمُ الْجُمْهُورُ وَالسَّادَةُ وَالْقَادَةُ مِنْهُمْ ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أَيْ : فِي ضَلَالَةٍ ، حَيْثُ دَعَوْتَنَا إِلَى تَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، وَالْإِقْبَالِ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ . ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : لَسْتُ كَمَا تَزْعُمُونَ ، بَلْ جِئْتُكُمْ بِالْحَقِّ مِنَ اللهِ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكه . ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ وَهَذِهِ الصِّفَاتُ الَّتِي يَتَّصِفُ بِهَا الرُّسُلُ : الْبَلَاغُ وَالنُّصْحُ وَالْأَمَانَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ أَيْ : لَا تَعْجَبُوا أَنْ بَعَثَ اللهُ إِلَيْكُمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ أَيَّامَ اللهِ وَلِقَاءَهُ ، بَلِ احْمَدُوا اللهَ عَلَى ذَاكُمْ ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أَيْ : وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ ، الَّذِي أَهْلَكَ اللهُ أَهْلَ الْأَرْضِ بِدَعْوَتِهِ لَمَّا خَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ ﴿ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ أَيْ : زَادَ طُولُكُمْ عَلَى النَّاسِ ﴿ بَصْطَة ﴾ أَيْ : جَعَلَكُمْ أَطْوَلَ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِكُمْ .

قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَمَرُّدِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَإِنْكَارِهِمْ عَلَى هُودٍ ﷺ : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ ﴾ الْآيَةُ . كَمَا قَالَ الْكُفَّارُ مِنْ قُرَيْشٍ : ﴿ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾[الأنفال : ٣٢] ، وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ : أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ أَصْنَامًا . قَالَ هُودٌ ﷺ : ﴿ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌ ﴾ أَيْ : قَدْ وَجَبَ عَلَيْكُمْ بِمَقَالَتِكُمْ هَذِهِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴿ رِجۡسٞ ﴾ قِيلَ : هُوَ مَقْلُوبٌ مِنْ رِجْزٍ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: مَعْنَاهُ سَخَطٌ وَغَضَبٌ ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم ﴾ أَيْ : أَتُحَاجُّونِّي فِي هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ آلِهَةً ، وَهِيَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَى عِبَادَتِهَا حُجَّةً وَلَا دَلِيلًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴾ . وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ مِنَ الرَّسُولِ لِقَوْمِهِ ، وَلِهَذَا عَقَّبَ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ صِفَةَ إِهْلَاكِهِمْ فِي أَمَاكِنَ أُخَرَ مِنَ الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ أَرْسَلَ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ، مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ .

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾

قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ وَالنَّسَبِ : ثَمُودُ بْنُ عَاثِرَ بْنِ إِرَمَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ ، وَكَانَتْ ثَمُودُ بَعْدَ عَادٍ ، وَمَسَاكِنُهُمْ مَشْهُورَةٌ فِيمَا بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ إِلَى وَادِي الْقُرَى وَمَا حَوْلَهُ ، وَقَدْ مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى دِيَارِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ وَهُوَ ذَاهِبٌ إِلَى تَبُوكَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗا ﴾ أَيْ : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى قَبِيلَةِ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴿ قَالَ

يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ فَجَمِيعُ الرُّسُلِ يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ أَيْ : قَدْ جَاءَتْكُمْ حُجَّةٌ مِنَ اللهِ عَلَى صِدْقِ مَا جِئْتُكُمْ بِهِ ، وَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ سَأَلُوا صَالِحًا أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ، وَاقْتَرَحُوا عَلَيْهِ بِأَنْ تَخْرُجَ لَهُمْ مِنْ صَخْرَةٍ صَمَّاءَ عَيَّنُوهَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَهِيَ صَخْرَةٌ مُنْفَرِدَةٌ فِي نَاحِيَةِ الْحِجْرِ يُقَالُ لَهَا : الْكَاتِبَةُ ، فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ تَخْرُجَ لَهُمْ مِنْهَا نَاقَةٌ عُشَرَاءُ تَمْخُضُ ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ صَالِحٌ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ لَئِنْ أَجَابَهُمُ اللهُ إِلَى سُؤَالِهِمْ وَأَجَابَهُمْ إِلَى طُلْبَتِهِمْ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَتَّبِعُنَّهُ ، فَلَمَّا أَعْطَوْهُ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَهُمْ وَمَوَاثِيقَهُمْ ، قَامَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى صَلَاتِهِ وَدَعَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ، فَتَحَرَّكَتْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ ثُمَّ انْصَدَعَتْ عَنْ نَاقَةٍ جَوْفَاءَ وَبْرَاءَ يَتَحَرَّكُ جَنِينُهَا بَيْنَ جَنْبَيْهَا كَمَا سَأَلُوا .

فَأَقَامَتِ النَّاقَةُ – وَفَصِيلُهَا بَعْدَمَا وَضَعَتْهُ – بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مُدَّةً ، تَشْرَبُ مَاءَ بِئْرِهَا يَوْمًا ، وَتَدَعُهُ لَهُمْ يَوْمًا ، وَكَانُوا يَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمَ شُرْبِهَا يَحْتَلِبُونَهَا فَيَمْلَئُونَ مَا شَاءُوا مِنْ أَوْعِيَتِهِمْ وَأَوَانِيهِمْ ، وَكَانَتْ تَسْرَحُ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ ، تَرِدُ مِنْ فَجٍّ وَتَصْدُرُ مِنْ غَيْرِهِ لِيَسَعَهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ تَتَضَلَّعُ مِنَ الْمَاءِ ، وَكَانَتْ – عَلَى مَا ذُكِرَ – خَلْقًا هَائِلًا وَمَنْظَرًا رَائِعًا ، إِذَا مَرَّتْ بِأَنْعَامِهِمْ نَفَرَتْ مِنْهَا ، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَاشْتَدَّ تَكْذِيبُهُمْ لِصَالِحٍ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَزَمُوا عَلَى قَتْلِهَا ؛ لِيَسْتَأْثِرُوا بِالْمَاءِ كُلَّ يَوْمٍ ، فَيُقَالُ : إِنَّهُمُ اتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى قَتْلِهَا . قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ ﴾ فَأَسْنَدَ ذَلِكَ إِلَى مَجْمُوعِ الْقَبِيلَةِ فَدَلَّ عَلَى رِضَا جَمِيعِهِمْ بِذَلِكَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ وَفَرَغُوا مِنْ عَقْرِ النَّاقَةِ وَبَلَغَ الْخَبَرَ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَجَاءَهُمْ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ فَلَمَّا رَأَى النَّاقَةَ بَكَى وَقَالَ : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾[هود : ٦٥] . فَعَدُوا يَنْتَظِرُونَ نِقْمَةَ اللهِ وَعَذَابَهُ – عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ – لَا يَدْرُونَ مَاذَا يُفْعَلُ بِهِمْ ، وَلَا كَيْفَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ، وَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ ، جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ وَرَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ ، فَفَاضَتِ الْأَرْوَاحُ وَزَهَقَتِ النُّفُوسُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ . ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ أَيْ : صَرْعَى لَا أَرْوَاحَ فِيهِمْ .

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

هَذَا تَقْرِيعٌ مِنْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ لَمَّا أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُ ، وَتَمَرُّدِهِمْ عَلَى اللهِ ، وَإِبَائِهِمْ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْهُدَى إِلَى الْعَمَى ، قَالَ لَهُمْ صَالِحٌ ذَلِكَ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَهُمْ يَسْمَعُونَ ذَلِكَ ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أَيْ : فَلَمْ تَنْتَفِعُوا بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الْحَقَّ وَلَا تَتَّبِعُونَ نَاصِحًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ .

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَ ﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿ لُوطًا ﴾ أَوْ تَقْدِيرُهُ ﴿ وَ ﴾ اُذْكُرْ ﴿ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾ وَلُوطٌ هُوَ ابْنُ هَارانَ بْنِ آزَرَ وَهُوَ ابْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عليه السلام كَانَ قَدْ آمَنَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَهَاجَرَ مَعَهُ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ ، فَبَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ سَدُومَ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ عز وجل وَيَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا كَانُوا يَرْتَكِبُونَهُ مِنَ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ وَالْفَوَاحِشِ الَّتِي اخْتَرَعُوهَا ، لَمْ يَسْبِقْهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ وَلَا غَيْرِهِمْ ، وَهُوَ إِتْيَانُ الذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ ، وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ بَنُو آدَمَ تَعْهَدُهُ وَلَا تَأْلَفُهُ وَلَا يَخْطِرُ بِبَالِهِمْ ، حَتَّى صَنَعَ ذَلِكَ أَهْلُ سَدُومَ عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ لُوطٌ عليه السلام ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ أَيْ : عَدَلْتُمْ عَنِ النِّسَاءِ وَمَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْهُنَّ إِلَى الرِّجَالِ ، وَهَذَا إِسْرَافٌ مِنْكُمْ وَجَهْلٌ ؛ لِأَنَّهُ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ ، وَذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ : أَنَّ الرِّجَالَ كَانُوا قَدِ اسْتَغْنَى بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَكَذَلِكَ نِسَاؤُهُمْ كُنَّ قَدِ اسْتَغْنَيْنَ بَعْضُهُنَّ بِبَعْضٍ أَيْضًا .

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾

أَيْ : مَا أَجَابُوا لُوطًا إِلَّا أَنْ هَمُّوا بِإِخْرَاجِهِ وَنَفْيِهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، فَأَخْرَجَهُ اللهُ تَعَالَى سَالِمًا وَأَهْلَكَهُمْ فِي أَرْضِهِمْ صَاغِرِينَ مُهَانِينَ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى :** ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ :** عَابُوهُمْ بِغَيْرِ عَيْبٍ . **وَقَالَ مُجَاهِدٌ :** ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ مِنْ أَدْبَارِ الرِّجَالِ وَأَدْبَارِ النِّسَاءِ .

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَأَنْجَيْنَا لُوطًا وَأَهْلَهُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ سِوَى أَهْلِ بَيْتِهِ فَقَطْ إِلَّا امْرَأَتَهُ فَإِنَّهَا لَمْ تُؤْمِنْ بِهِ ، بَلْ كَانَتْ عَلَى دِينِ قَوْمِهَا تُمَالِئُهُمْ عَلَيْهِ وَتُعْلِمُهُمْ بِمَنْ يَقْدَمُ عَلَيْهِ مِنْ ضِيفَانِهِ ، بِإِشَارَاتٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُمْ ، وَلِهَذَا لَمَّا أُمِرَ لُوطٌ عليه السلام أَنْ يَسْرِيَ بِأَهْلِهِ أُمِرَ أَنْ لَا يُعْلِمَهَا وَلَا يُخْرِجَهَا مِنَ الْبَلَدِ ، وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أَيْ : الْبَاقِينَ ، **وَقِيلَ :** مِنَ الْهَالِكِينَ ، وَهُوَ تَفْسِيرٌ بِاللَّازِمِ . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ مُفَسَّرٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً

مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٢- ٨٣] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أَيْ : أُنْظُرْ يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَنْ تَجْهَرَمَ عَلَى مَعَاصِي اللهِ ﷻ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ ؟.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾

قُلْتُ : « مَدْيَنُ » تُطْلَقُ عَلَى الْقَبِيلَةِ وَعَلَى الْمَدِينَةِ وَهِيَ الَّتِي بِقُرْبِ « مَعَانٍ » مِنْ طَرِيقِ الْحِجَازِ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [القصص : ٢٣] ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ وَبِهِ الثِّقَةُ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ هَذِهِ دَعْوَةُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أَيْ : قَدْ أَقَامَ اللهُ الْحُجَجَ وَالْبَيِّنَاتِ عَلَى صِدْقِ مَا جِئْتُكُمْ بِهِ ، ثُمَّ وَعَظَهُمْ فِي مُعَامَلَتِهِمُ النَّاسَ بِأَنْ يُوفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ وَلَا يَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، أَيْ لَا يَخُونُوا النَّاسَ فِي أَمْوَالِهِمْ وَيَأْخُذُوهَا عَلَى وَجْهِ الْبَخْسِ ، وَهُوَ نَقْصُ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ خُفْيَةً وَتَدْلِيسًا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ شُعَيْبٍ الَّذِي يُقَالُ لَهُ : خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ لِفَصَاحَةِ عِبَارَتِهِ وَجَزَالَةِ مَوْعِظَتِهِ .

وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

يَنْهَاهُمْ شُعَيْبٌ ؑ عَنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ الْحِسِّيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ أَيْ : تَتَوَعَّدُونَ النَّاسَ بِالْقَتْلِ إِنْ لَمْ يُعْطُوكُمْ أَمْوَالَهُمْ . ﴿ بِكُلِّ صِرَٰطٍ ﴾ وَهِيَ الطُّرُقُ ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أَيْ : وَتَوَدُّونَ أَنْ تَكُونَ سَبِيلَ اللهِ عِوَجًا مَائِلَةً ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾ أَيْ : كُنْتُمْ مُسْتَضْعَفِينَ لِقِلَّتِكُمْ فَصِرْتُمْ أَعِزَّةً لِكَثْرَةِ عَدَدِكُمْ ، فَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ ﴿ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ وَالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، بِاجْتِرَائِهِمْ عَلَى مَعَاصِي اللهِ وَتَكْذِيبِ رُسُلِهِ . قَوْلُهُ : ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ

يُؤْمِنُوا ﴾ أَيْ : قَدِ اخْتَلَفْتُمْ عَلَيَّ ﴿ فَٱصْبِرُوا ﴾ أَيْ : اِنْتَظَرُوا ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ وَبَيْنَكُمْ ، أَيْ : يَفْصِلُ ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ فَإِنَّهُ سَيَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ وَالدَّمَارَ عَلَى الْكَافِرِينَ .

۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَمَّا وَاجَهَتْ بِهِ الْكُفَّارُ نَبِيَّهُ شُعَيْبًا ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَعُّدِهِمْ إِيَّاهُ ، وَمَنْ مَعَهُ بِالنَّفْيِ مِنَ الْقَرْيَةِ ، أَوِ الْإِكْرَاهِ عَلَى الرُّجُوعِ فِي مِلَّتِهِمْ وَالدُّخُولِ مَعَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ يَقُولُ أَوْ أَنْتُمْ فَاعِلُونَ ذَلِكَ وَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ . ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ وَهَذَا رَدٌّ إِلَى الْمَشِيئَةِ ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَقَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أَيْ : فِي أُمُورِنَا مَا نَأْتِي مِنْهَا وَمَا نَذَرُ ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ :افْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ أَيْ : خَيْرُ الحَاكِمِينَ .

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ شِدَّةِ كُفْرِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ ، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ ، وَمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْمُخَالَفَةِ لِلْحَقِّ ، وَلِهَذَا أَقْسَمُوا وَقَالُوا : ﴿ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ .

قَوْلُهُ : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى هُنَا أَنَّهُمْ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ، وَذَلِكَ كَمَا أَرْجَفُوا شُعَيْبًا وَأَصْحَابَهُ جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ ، وَرَجْفَةٌ مِنَ الْأَرْضِ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ فَزَهَقَتِ الْأَرْوَاحُ ، وَفَاضَتِ النُّفُوسُ ، وَخَمَدَتِ الْأَجْسَامُ ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ﴾ أَيْ : كَأَنَّهُمْ لَمَّا أَصَابَتْهُمُ النِّقْمَةُ لَمْ يُقِيمُوا بِدِيَارِهِمُ الَّتِي أَرَادُوا إِجْلَاءَ الرَّسُولِ وَصَحْبِهِ مِنْهَا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُقَابِلًا لِقِيلِهِمْ ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

أَيْ : فَتَوَلَّى عَنْهُمْ شُعَيْبٌ ﷺ بَعْدَمَا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنِّقْمَةِ وَالنَّكَالِ ، وَقَالَ مُقَرِعًا لَهُمْ وَمُوَبِّخًا ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أَيْ : قَدْ أَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ فَلَا أَسَفَةَ عَلَيْكُمْ وَقَدْ كَفَرْتُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ .

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا اخْتَبَرَ بِهِ الْأُمَمَ الْمَاضِيَةَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءُ ﴿ بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ يَعْنِي : بِالْبَأْسَاءِ : مَا يُصِيبُهُمْ فِي أَبْدَانِهِمْ مِنْ أَمْرَاضٍ وَأَسْقَامٍ ، وَالضَّرَّاءُ : مَا يُصِيبُهُمْ مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ أَيْ : يَدْعُونَ وَيَخْشَعُونَ وَيَبْتَهِلُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي كَشْفِ مَا نَزَلَ بِهِمْ . وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : أَنَّهُ ابْتَلَاهُمْ بِالشِّدَّةِ لِيَتَضَرَّعُوا ، فَمَا فَعَلُوا شَيْئًا مِنَ الَّذِي أَرَادَ اللهُ مِنْهُمْ ، فَقَلَبَ عَلَيْهِمُ الْحَالَ إِلَى الرَّخَاءِ لِيَخْتَبِرَهُمْ فِيهِ . ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾ أَيْ : حَوَّلْنَا الْحَالَ مِنْ شِدَّةٍ إِلَى رَخَاءٍ ، وَمِنْ مَرَضٍ وَسَقَمٍ إِلَى صِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ ، وَمِنْ فَقْرٍ إِلَى غِنًى لِيَشْكُرُوا عَلَى ذَلِكَ فَمَا فَعَلُوا ، ﴿ حَتَّىٰ عَفَواْ ﴾ أَيْ : كَثُرُوا وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ، يُقَالُ : عَفَا الشَّيْءُ إِذَا كَثُرَ ﴿ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : ابْتَلَيْنَاهُمْ بِهَذَا وَهَذَا ؛ لِيَتَضَرَّعُوا وَيُنِيبُوا إِلَى اللهِ ، فَمَا نَجَعَ فِيهِمْ لَا هَذَا وَلَا هَذَا ، وَلَا انْتَهَوْا بِهَذَا وَلَا بِهَذَا بَلْ قَالُوا : قَدْ مَسَّنَا مِنَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ، ثُمَّ بَعْدَهُ مِنَ الرَّخَاءِ مِثْلُ مَا أَصَابَ آبَاءَنَا فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ ، وَإِنَّمَا هُوَ الدَّهْرُ تَارَاتٌ وَتَارَاتٌ ، وَلَمْ يَتَفَطَّنُوا لِأَمْرِ اللهِ فِيهِمْ ، وَلَا اسْتَشْعَرُوا ابْتِلَاءَ اللهِ لَهُمْ فِي الْحَالَيْنِ ، وَهَذَا بِخِلَافِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللهَ عَلَى السَّرَّاءِ وَيَصْبِرُونَ عَلَى الضَّرَّاءِ ، وَلِهَذَا عَقَّبَ هَذِهِ الصِّفَةَ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أَيْ : أَخَذْنَاهُمْ بِالْعُقُوبَةِ بَغْتَةً أَيْ : عَلَى بَغْتَةٍ وَعَدَمِ شُعُورٍ مِنْهُمْ . أَيْ : أَخَذْنَاهُمْ فَجْأَةً .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ

مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ أَيْ: آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ، وَصَدَّقَتْ بِهِ، وَاتَّبَعُوهُ وَاتَّقُوا بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ المُحَرَّمَاتِ ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ: قَطْرُ السَّمَاءِ وَنَبَاتُ الْأَرْضِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ أَيْ: وَلَكِنْ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ فَعَاقَبْنَاهُمْ بِالْهَلَاكِ عَلَى مَا كَسَبُوا مِنَ المَآثِمِ وَالمَحَارِمِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخَوِّفًا وَمُحَذِّرًا مِنْ مُخَالَفَةِ أَوَامِرِهِ وَالتَّجَرُّؤِ عَلَى زَوَاجِرِهِ ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ أَيْ: الْكَافِرَةُ ﴿ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ﴾ أَيْ: عَذَابُنَا وَنَكَالُنَا ﴿ بَيَٰتًا ﴾ أَيْ: لَيْلًا ﴿ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أَيْ: فِي حَالِ شُغْلِهِمْ وَغَفْلَتِهِمْ. ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ: بَأْسَهُ وَنِقْمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ عَلَيْهِمْ، وَأَخْذَهُ إِيَّاهُمْ فِي حَالِ سَهْوِهِمْ وَغَفْلَتِهِمْ ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾، وَلِهَذَا قَالَ الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ - رَحِمَهُ الله - المُؤْمِنُ يَعْمَلُ بِالطَّاعَاتِ وَهُوَ مُشْفِقٌ وَجِلٌ خَائِفٌ، وَالْفَاجِرُ يَعْمَلُ بِالمَعَاصِي وَهُوَ آمِنٌ.

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ ﴾ أَوَلَمْ نُبَيِّنْ لَهُمْ أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ. ﴿ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ يَقُولُ: أَنْ لَوْ نَشَاءُ فَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا فَعَلْنَا بِمَنْ قَبْلَهُمْ ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ وَنَخْتِمُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ مَوْعِظَةً وَلَا تَذْكِيرًا.

تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

لَمَّا قَصَّ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ خَبَرَ قَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ، وَمَا كَانَ مِنْ إِهْلَاكِهِ الْكَافِرِينَ وَإِنْجَائِهِ المُؤْمِنِينَ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَعْذَرَ إِلَيْهِمْ بِأَنْ بَيَّنَ لَهُمُ الحَقَّ بِالحُجَجِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ - صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - قَالَ تَعَالَى: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ أَيْ: يَا مُحَمَّدُ ﴿ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾ أَيْ: مِنْ أَخْبَارِهَا ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أَيْ: بِالحُجَجِ عَلَى صِدْقِهِمْ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ بِهِ. ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ الْبَاءُ سَبَبِيَّةٌ. أَيْ: فَمَا

كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ ، بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ أَوَّلَ مَا وَرَدَ عَلَيْهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم ﴾ أَيْ : لِأَكْثَرِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ﴿ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴾ أَيْ : وَلَقَدْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ فَاسِقِينَ خَارِجِينَ عَنِ الطَّاعَةِ وَالِامْتِثَالِ ، وَالْعَهْدِ الَّذِي أَخَذَهُ هُوَ مَا جَبَلَهُمْ عَلَيْهِ وَفَطَرَهُمْ عَلَيْهِ ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمْ فِي الْأَصْلَابِ أَنَّهُ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَقَرُّوا بِذَلِكَ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهِ ، وَخَالَفُوهُ وَتَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَعَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ ، لَا مِنْ عَقْلٍ وَلَا شَرْعٍ .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٠٣

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم ﴾ أَيْ : الرُّسُلُ الْمُتَقَدِّمُ ذِكْرُهُمْ كَنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى سَائِرِ أَنْبِيَاءِ اللهِ أَجْمَعِينَ - ﴿ مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ أَيْ : بِحُجَجِنَا وَدَلَائِلِنَا الْبَيِّنَةِ إِلَى فِرْعَوْنَ ، وَهُوَ مَلِكُ مِصْرَ فِي زَمَانِ مُوسَى ﴿ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ أَيْ : قَوْمِهِ ﴿ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾ أَيْ : جَحَدُوا وَكَفَرُوا بِهَا ظُلْمًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : ١٤] أَيْ : انْظُرْ يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَأَغْرَقْنَاهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ بِمَرْأًى مِنْ مُوسَى وَقَوْمِهِ ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي النَّكَالِ بِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، وَأَشْفَى لِقُلُوبِ أَوْلِيَاءِ اللهِ مُوسَى وَقَوْمِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ .

وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝١٠٦

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُنَاظَرَةِ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ وَإِلْجَامِهِ إِيَّاهُ بِالْحُجَّةِ ، وَإِظْهَارِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ بِحَضْرَةِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنْ قِبْطِ مِصْرَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : أَرْسَلَنِي الَّذِي هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ . ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ أَيْ : جَدِيرٌ بِذَلِكَ وَحَرِيٌّ بِهِ . ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أَيْ : بِحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ مِنَ اللهِ أَعْطَانِيهَا دَلِيلًا عَلَى صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أَيْ : أَطْلِقْهُمْ مِنْ أَسْرِكَ وَقَهْرِكَ وَدَعْهُمْ وَعِبَادَةَ رَبِّكَ وَرَبِّهِمْ ، فَإِنَّهُمْ مِنْ سُلَالَةِ نَبِيٍّ كَرِيمٍ إِسْرَائِيلَ وَهُوَ يَعْقُوبُ ابْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ . ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : قَالَ فِرْعَوْنُ : لَسْتُ بِمُصَدِّقِكَ فِيمَا قُلْتَ ، وَلَا بِمُطِيعِكَ فِيمَا طَلَبْتَ فَإِنْ كَانَتْ مَعَكَ حُجَّةٌ فَأَظْهِرْهَا لِنَرَاهَا إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا ادَّعَيْتَ .

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ**: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ فَتَحَوَّلَتْ حَيَّةً عَظِيمَةً فَاغِرَةً فَاهَا مُسْرِعَةً إِلَى فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا رَآهَا فِرْعَوْنُ أَنَّهَا قَاصِدَةٌ إِلَيْهِ اِقْتَحَمَ عَنْ سَرِيرِهِ، وَاسْتَغَاثَ بِمُوسَى أَنْ يَكُفَّهَا عَنْهُ فَفَعَلَ. **قَوْلُهُ**: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أَيْ: أَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ دِرْعِهِ بَعْدَمَا أَدْخَلَهَا فِيهِ، فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ تَتَلَأْلَأُ مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ وَلَا مَرَضٍ.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾

أَيْ: قَالَ الْمَلَأُ وَهُمُ الْجُمْهُورُ وَالسَّادَةُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ مُوَافِقِينَ لِقَوْلِ فِرْعَوْنَ فِيهِ، بَعْدَمَا رَجَعَ إِلَيْهِ رَوْعُهُ وَاسْتَقَرَّ عَلَى سَرِيرِ مَمْلَكَتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ، قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فَوَافَقُوهُ وَقَالُوا كَمَقَالَتِهِ وَتَشَاوَرُوا فِي أَمْرِهِ وَمَاذَا يَصْنَعُونَ فِي أَمْرِهِ؟ وَكَيْفَ تَكُونُ حِيلَتُهُمْ فِي إِطْفَاءِ نُورِهِ وَإِخْمَادِ كَلِمَتِهِ وَظُهُورِ كَذِبِهِ وَافْتِرَائِهِ؟ وَتَخَوَّفُوا أَنْ يَسْتَمِيلَ النَّاسَ بِسِحْرِهِ فِيمَا يَعْتَقِدُونَ فَيَكُون ذَلِكَ سَبَبًا لِظُهُورِهِ عَلَيْهِمْ، وَإِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ، وَالَّذِي خَافُوا مِنْهُ وَقَعُوا فِيهِ، فَلَمَّا تَشَاوَرُوا فِي شَأْنِهِ، وَائْتَمَرُوا بِمَا فِيهِ، اِتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى مَا حَكَاهُ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَولِهِ تَعَالَى:

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: ﴿أَرْجِهْ﴾ أَخِّرْهُ، ﴿وَأَرْسِلْ﴾ أَيْ: اِبْعَثْ ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾ أَيْ: فِي الْأَقَالِيمِ وَمُعَامَلَةِ مُلْكِكَ ﴿حَٰشِرِينَ﴾ أَيْ: مَنْ يَحْشُرُ لَكَ السَّحَرَةَ مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ وَيَجْمَعُهُمْ، وَقَدْ كَانَ السِّحْرُ فِي زَمَانِهِمْ غَالِبًا كَثِيرًا ظَاهِرًا، وَاعْتَقَدَ مَنِ اعْتَقَدَ مِنْهُمْ وَأُوهِمَ مَنْ أُوهِمَ مِنْهُمْ، أَنَّ مَا جَاءَ مُوسَى بِهِ ﷺ مِنْ قَبِيلِ مَا تُشَعْبِذُهُ سَحَرَتُهُمْ، فَلِهَذَا جَمَعُوا لَهُ السَّحَرَةَ؛ لِيُعَارِضُوهُ بِنَظِيرِ مَا أَرَاهُمْ مِنَ الْبَيِّنَاتِ.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَشَارَطَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَالسَّحَرَةُ الَّذِينَ اِسْتَدْعَاهُمْ لِمُعَارَضَةِ مُوسَى ﷺ إِنْ غَلَبُوا مُوسَى لَيُثِيبَنَّهُمْ وَلَيُعْطِيَنَّهُمْ عَطَاءً جَزِيلًا، فَوَعَدَهُمْ وَمَنَّاهُمْ أَنْ يُعْطِيَهُمْ مَا أَرَادُوا، وَلَيَجْعَلَنَّهُمْ مِنْ جُلَسَائِهِ وَالْمُقَرَّبِينَ عِنْدَهُ، فَلَمَّا تَوَثَّقُوا مِنْ فِرْعَوْنَ لَعَنَهُ اللهُ.

قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

وَهَذِهِ مُبَارَزَةٌ مِنَ السَّحَرَةِ لِمُوسَى عليه السلام فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ أَيْ : قَبْلَكَ ؛ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ [طه : ٦٥] . قَالَ لَهُمْ مُوسَى عليه السلام : ﴿ أَلْقُوا ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ أَوَّلًا قَبْلِي وَالْحِكْمَةُ فِي هَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - لِيُرِيَ النَّاسَ صَنِيعَهُمْ وَيَتَأَمَّلُوهُ ، فَإِذَا فُرِغَ مِنْ بَهْرَجِهِمْ وَمُحَالِهِمْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ بَعْدَ التَّطَلُّبِ لَهُ وَالِانْتِظَارِ مِنْهُمْ لِمَجِيئِهِ ، فَيَكُونُ أَوْقَعَ فِي النُّفُوسِ ، وَكَذَا كَانَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ أَيْ : خَيَّلُوا إِلَى الْأَبْصَارِ أَنَّ مَا فَعَلُوهُ لَهُ حَقِيقَةٌ فِي الْخَارِجِ ، وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مُجَرَّدَ صَنْعَةٍ وَخَيَالٍ .

۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى عليه السلام فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ ، الَّذِي فَرَّقَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، يَأْمُرُهُ بِأَنْ يُلْقِيَ مَا فِي يَمِينِهِ وَهِيَ عَصَاهُ ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ أَيْ : تَأْكُلُ ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أَيْ : مَا يُلْقُونَهُ وَيُوهِمُونَ أَنَّهُ حَقٌّ ، وَهُوَ بَاطِلٌ ، **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : فَجَعَلَتْ لَا تَمُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ حِبَالِهِمْ وَلَا مِنْ خَشَبِهِمْ إِلَّا الْتَقَمَتْهُ ، فَعَرَفَتِ السَّحَرَةُ أَنَّ هَذَا شَيْءٌ مِنَ السَّمَاءِ ، لَيْسَ هَذَا بِسِحْرٍ ، فَخَرُّوا سُجَّدًا ، وَقَالُوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ .

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَوَعَّدَ بِهِ فِرْعَوْنُ - لَعَنَهُ اللهُ - السَّحَرَةَ لَمَّا آمَنُوا بِمُوسَى عليه السلام وَمَا أَظْهَرَهُ لِلنَّاسِ مِنْ كَيْدِهِ وَمَكْرِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾ أَيْ : إِنَّ غَلَبَهُ لَكُمْ فِي يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّمَا كَانَ عَنْ تَشَاوُرٍ مِنْكُمْ وَرِضًا مِنْكُمْ لِذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ

الْأُخْرَى ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ [طه : ٧١]، وَهُوَ يَعْلَمُ - وَكُلُّ مَنْ لَهُ لُبٌّ - أَنَّ هَذَا الَّذِي قَالَهُ مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ ، فَإِنَّ مُوسَى ﷺ بِمُجَرَّدِ مَا جَاءَ مِنْ مَدْيَنَ ، دَعَا فِرْعَوْنَ إِلَى اللهِ وَأَظْهَرَ الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةَ وَالْحُجَجَ الْقَاطِعَةَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي مَدَائِنِ مُلْكِهِ وَمُعَامَلَةِ سَلْطَنَتِهِ ، فَجَمَعَ سَحَرَةً مُتَفَرِّقِينَ مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ بِبِلَادِ مِصْرَ مِمَّنِ اخْتَارَ هُوَ وَالْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ، وَأَحْضَرَهُمْ عِنْدَهُ وَوَعَدَهُمْ بِالْعَطَاءِ الْجَزِيلِ ، وَلِهَذَا قَدْ كَانُوا مِنْ أَحْرَصِ النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ وَعَلَى الظُّهُورِ فِي مَقَامِهِمْ ذَلِكَ وَالتَّقَدُّمِ عِنْدَ فِرْعَوْنَ ، وَمُوسَى ﷺ لَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْهُمْ ، وَلَا رَآهُ وَلَا اجْتَمَعَ بِهِ ، وَفِرْعَوْنُ يَعْلَمُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا تَسَتُّرًا وَتَدْلِيسًا عَلَى رَعَاعِ دَوْلَتِهِ وَجَهَلَتِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾ أَيْ : تَجْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَهُوَ وَتَكُونُ لَكُمْ دَوْلَةٌ وَصَوْلَةٌ ، وَتُخْرِجُوا مِنْهَا الْأَكَابِرَ وَالرُّؤَسَاءَ ، وَتَكُونُ الدَّوْلَةُ وَالتَّصَرُّفُ لَكُمْ ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : مَا أَصْنَعُ بِكُمْ . ثُمَّ فَسَّرَ هَذَا الْوَعِيدَ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ يَعْنِي : يَقْطَعُ يَدَ الرَّجُلِ الْيُمْنَى وَرِجْلَهُ الْيُسْرَى أَوْ بِالْعَكْسِ ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وَقَوْلُ السَّحَرَةِ : ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ أَيْ : قَدْ تَحَقَّقْنَا أَنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، وَعَذَابُهُ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِكَ ، وَنَكَالُهُ عَلَى مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ الْيَوْمَ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ أَعْظَمُ مِنْ نَكَالِكَ ، فَلَنَصْبِرَنَّ الْيَوْمَ عَلَى عَذَابِكَ لِنَتَخَلَّصَ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أَيْ : عُمَّنَا بِالصَّبْرِ عَلَى دِينِكَ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ أَيْ : مُتَابِعِينَ لِنَبِيِّكَ مُوسَى ﷺ ، فَكَانُوا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ سَحَرَةً فَصَارُوا فِي آخِرِهِ شُهَدَاءَ بَرَرَةً .

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَمَالَأَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ وَمَا أَضْمَرُوهُ لِمُوسَى ﷺ وَقَوْمِهِ مِنَ الْأَذَى وَالْبِغْضَةِ : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ أَيْ : لِفِرْعَوْنَ ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ ﴾ أَيْ : أَتَدَعُهُمْ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ، أَيْ : يُفْسِدُوا أَهْلَ رَعِيَّتِكَ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ دُونَكَ . يَا للهِ لَلْعَجَبِ ! صَارَ هَؤُلَاءِ يُشْفِقُونَ مِنْ إِفْسَادِ مُوسَى وَقَوْمِهِ ! أَلَا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ هُمُ الْمُفْسِدُونَ

وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : « الْوَاو » هَاهُنَا : حَالِيَّةٌ ، أَيْ : أَتَذَرُهُ وَقَوْمُهُ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَقَدْ تَرَكَ عِبَادَتَكَ ؟ **وَقَالَ آخَرُونَ** : هِيَ عَاطِفَةٌ ، أَيْ : لَا تَدَعْ مُوسَى يَصْنَعُ هُوَ وَقَوْمُهُ مِنَ الْفَسَادِ مَا قَدْ أَقْرَرْتُهُمْ عَلَيْهِ ، وَعَلَى تَرْكِ آلِهَتِكَ . فَأَجَابَهُمْ فِرْعَوْنُ فِيمَا سَأَلُوهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ ﴾ وَهَذَا أَمْرٌ ثَانٍ بِهَذَا الصَّنِيعِ ، وَقَدْ كَانَ نَكَّلَ بِهِمْ قَبْلَ وِلَادَةِ مُوسَى عليه السلام حَذَرًا مِنْ وُجُودِهِ ، فَكَانَ خِلَافَ مَا رَامَهُ وَضِدَّ مَا قَصَدَهُ فِرْعَوْنُ ، وَهَكَذَا عُومِلَ فِي صَنِيعِهِ هَذَا أَيْضًا ، إِنَّمَا أَرَادَ قَهْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَإِذْلَالَهُمْ ، فَجَاءَ الْأَمْرُ عَلَى خِلَافِ مَا أَرَادَ ، أَعَزَّهُمُ اللهُ وَأَذَلَّهُ وَأَرْغَمَ أَنْفَهُ وَأَغْرَقَهُ وَجُنُودَهُ .

وَلَمَّا صَمَّمَ فِرْعَوْنُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ مِنَ الْمُسَاءَةِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ وَوَعَدَهُمْ بِالْعَاقِبَةِ ، وَأَنَّ الدَّارَ سَتَصِيرُ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أَيْ : قَدْ جَرَى عَلَيْنَا مِثْلُ مَا رَأَيْتَ مِنَ الْهَوَانِ وَالْإِذْلَالِ مِنْ قَبْلِ مَا جِئْتَ يَا مُوسَى وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، فَقَالَ مُنَبِّهًا لَهُمْ عَلَى حَالِهِمُ الْحَاضِرَةِ ، وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ فِي ثَانِي الْحَالِ : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ الْآيَةُ ، وَهَذَا تَحْضِيضٌ لَهُمْ عَلَى الْعَزْمِ عَلَى الشُّكْرِ عِنْدَ حُلُولِ النِّعَمِ وَزَوَالِ النِّقَمِ .

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ أَيْ : اِخْتَبَرْنَاهُمْ وَامْتَحَنَّاهُمْ وَابْتَلَيْنَاهُمْ ﴿ بِٱلسِّنِينَ ﴾ وَهِيَ سِنِي الْجُوعِ بِسَبَبِ قِلَّةِ الزُّرُوعِ ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : وَهُوَ دُونَ ذَلِكَ ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾ أَيْ : مِنَ الْخِصْبِ وَالرِّزْقِ ﴿ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ أَيْ : هَذَا لَنَا بِمَا نَسْتَحِقُّهُ ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أَيْ : جَدْبٌ وَقَحْطٌ ﴿ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ أَيْ : هَذَا بِسَبَبِهِمْ وَمَا جَاءُوا بِهِ ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ **قِيلَ** : مَصَائِبُهُمْ عِنْدَ اللهِ . أَيْ : الْأَمْرُ مِنْ قِبَلِ اللهِ .

وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا

كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ ﷻ عَنْ تَمَرُّدِ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ لِلْحَقِّ ، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يَقُولُونَ : أَيُّ آيَةٍ جِئْتَنَا بِهَا ، وَدَلَالَةٌ وَحُجَّةٌ أَقَمْتَهَا رَدَدْنَاهَا ، فَلَا نَقْبَلُهَا مِنْكَ وَلَا نُؤْمِنُ بِكَ وَلَا بِمَا جِئْتَ بِهِ .
قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾ اِخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ ، فَقِيلَ : كَثْرَةُ الْأَمْطَارِ الْمُغْرِقَةِ الْمُتْلِفَةِ لِلزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ، وَقِيلَ : هُوَ كَثْرَةُ الْمَوْتِ . وَأَمَّا الْقُمَّلُ ، قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هُوَ السُّوسُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْحِنْطَةِ ، وَقِيلَ : الْقُمَّلُ : دَوَابٌّ سُودٌ صِغَارٌ . وَقِيلَ : الْقُمَّلُ : الْبَرَاغِيثُ .

فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَمَّا عَتَوْا وَتَمَرَّدُوا مَعَ اِبْتِلَائِهِ إِيَّاهُمْ بِالْآيَاتِ الْمُتَوَاتِرَةِ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ انْتَقَمَ مِنْهُمْ بِإِغْرَاقِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْيَمِّ ، وَهُوَ الْبَحْرُ الَّذِي فَرَقَهُ لِمُوسَى ، فَجَاوَزَهُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ مَعَهُ ، ثُمَّ وَرَدَهُ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ عَلَى أَثَرِهِمْ ، فَلَمَّا اِسْتَكْمَلُوا فِيهِ اِرْتَطَمَ عَلَيْهِمْ فَغَرِقُوا عَنْ آخِرِهِمْ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَتَغَافُلِهِمْ عَنْهَا . أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْرَثَ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴿ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾ يَعْنِي : الشَّامَ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ جَرِيرٍ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٥ - ٦]
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ ﴾ أَيْ : وَخَرَّبْنَا مَا كَانَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ يَصْنَعُونَهُ مِنَ الْعِمَارَاتِ وَالْمَزَارِعِ ﴿ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ ، قِيلَ : يَبْنُونَ .

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا قَالَهُ جَهَلَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى ﷺ حِينَ جَاوَزُوا الْبَحْرَ وَقَدْ رَأَوْا مِنْ آيَاتِ اللهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ مَا رَأَوْا ﴿ فَأَتَوْا ﴾ ، أَيْ : فَمَرُّوا ﴿ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ . فَقَالُوا : ﴿ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أَيْ : تَجْهَلُونَ عَظَمَةَ اللهِ وَجَلَالَهُ ، وَمَا يَجِبُ أَنْ يُنَزَّهَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِيكِ وَالْمَثِيلِ . ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ ﴾ ، أَيْ : هَالِكٌ ﴿ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

يُذَكِّرُهُمْ مُوسَى ﷺ بِنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِمْ مِنْ : إِنْقَاذِهِمْ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ وَقَهْرِهِ وَمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْهَوَانِ وَالذِّلَّةِ ، وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعِزَّةِ ، وَالِاشْتِفَاءِ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، وَالنَّظَرِ إِلَيْهِ فِي حَالِ هَوَانِهِ وَهَلَاكِهِ وَغَرَقِهِ وَدَمَارِهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي الْبَقَرَةِ .

۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْهِدَايَةِ بِتَكْلِيمِهِ مُوسَى ﷺ وَإِعْطَائِهِ التَّوْرَاةَ وَفِيهَا أَحْكَامُهُمْ وَتَفَاصِيلُ شَرْعِهِمْ ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ وَاعَدَ مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ، وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذِهِ الْعَشْرِ مَا هِيَ ؟ فَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الثَّلَاثِينَ هِيَ : ذُو الْقَعْدَةِ ، وَالْعَشْرُ : عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَدْ كَمُلَ الْمِيقَاتُ يَوْمَ النَّحْرِ وَحَصَلَ فِيهِ التَّكْلِيمُ لِمُوسَى ﷺ وَفِيهِ أَكْمَلَ اللهُ الدِّينَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ ، فَلَمَّا تَمَّ الْمِيقَاتُ وَعَزَمَ مُوسَى عَلَى الذَّهَابِ إِلَى الطُّورِ ، فَحِينَئِذٍ اسْتَخْلَفَ مُوسَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَاهُ هَارُونَ وَأَوْصَاهُ بِالْإِصْلَاحِ وَعَدَمِ الْإِفْسَادِ ، وَهَذَا تَنْبِيهٌ وَتَذْكِيرٌ وَإِلَّا فَهَارُونُ ﷺ نَبِيٌّ شَرِيفٌ كَرِيمٌ عَلَى اللهِ لَهُ وَجَاهَةٌ وَجَلَالَةٌ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ .

وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى ﷺ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ لِمِيقَاتِ اللهِ تَعَالَى ، وَحَصَلَ لَهُ التَّكْلِيمُ مِنَ اللهِ ، سَأَلَ

اللهَ تَعَالَى أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ فَقَالَ : ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾ قَالَ : قَالَ « هَكَذَا » ، يَعْنِي : أَنَّهُ أَخْرَجَ طَرَفَ الْخِنْصَرِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ ، فَإِنَّهُ أَكْبَرُ مِنْكَ وَأَشَدُّ خَلْقًا ، ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾ ، فَنَظَرَ إِلَى الجَبَلِ لَا يَتَمَالَكُ ، وَأَقْبَلَ الجَبَلُ فَدُكَّ عَلَى أَوَّلِهِ ، وَرَأَى مُوسَى مَا يَصْنَعُ الجَبَلُ فَخَرَّ صَعِقًا . أَيْ : مَغْشِيًّا عَلَيْهِ . ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ وَالإِفَاقَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا عَنْ غَشْيٍ ﴿ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ تَنْزِيهًا وَتَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا إِلَّا مَاتَ ، ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : أَنْ أَسْأَلَكَ الرُّؤْيَةَ ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قِيلَ : مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَقِيلَ : ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَنَّهُ لَا يَرَاكَ أَحَدٌ . وَقِيلَ : قَدْ كَانَ قَبْلَهُ مُؤْمِنُونَ ، وَلَكِنْ يَقُولُ : أَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِكَ أَنَّهُ لَا يَرَاكَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ لَهُ اتِّجَاهٌ .

قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَاطَبَ مُوسَى بِأَنَّهُ اصْطَفَاهُ عَلَى عَالَمِي زَمَانِهِ بِرِسَالَاتِهِ وَكَلَامِهِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، وَلِهَذَا اخْتَصَّهُ اللهُ بِأَنْ جَعَلَهُ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، الَّذِي تَسْتَمِرُّ شَرِيعَتُهُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ وَأَتْبَاعِهِ أَكْثَرُ مِنْ أَتْبَاعِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ كُلِّهِمْ ، وَبَعْدَهُ فِي الشَّرَفِ وَالْفَضْلِ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ ثُمَّ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ كَلِيمُ الرَّحْمَنِ عليه السلام وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى لَهُ : ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْكَلَامِ وَالْمُنَاجَاةِ ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ أَيْ : عَلَى ذَلِكَ وَلَا تَطْلُبْ مَا لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ كَتَبَ ﴿ لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ قِيلَ : كَانَتِ الْأَلْوَاحُ مِنْ جَوْهَرٍ ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ لَهُ فِيهَا مَوَاعِظَ وَأَحْكَامًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ أَيْ : بِعَزْمٍ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾ قِيلَ : أَمَرَ مُوسَى عليه السلام أَنْ يَأْخُذَ بِأَشَدِّ مَا أَمَرَ قَوْمَهُ ﴿ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ أَيْ : سَتَرَوْنَ عَاقِبَةَ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَخَرَجَ عَنْ طَاعَتِي ، كَيْفَ يَصِيرُ إِلَى الْهَلَاكِ وَالدَّمَارِ وَالتَّبَابِ ؟ ، وَهُوَ خِطَابٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ دُخُولِهِمُ التِّيهَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ

سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ: سَأَمْنَعُ فَهْمَ الحُجَجِ وَالْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِي وَشَرِيعَتِي وَأَحْكَامِي قُلُوبَ المُتَكَبِّرِينَ عَنْ طَاعَتِي، وَيَتَكَبَّرُونَ عَلَى النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَيْ: كَمَا اِسْتَكْبَرُوا بِغَيْرِ حَقٍّ أَذَلَّهُمُ اللهُ بِالجَهْلِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ أَيْ: وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ ﴿ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ ﴾ أَيْ: طَرِيقَ النَّجَاةِ لَا يَسْلُكُوهَا، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ طَرِيقَ الْهَلَاكِ وَالضَّلَالِ ﴿ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾، ثُمَّ عَلَّلَ مَصِيرَهُمْ إِلَى هَذِهِ الحَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أَيْ: كَذَّبَتْ بِهَا قُلُوبُهُمْ ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ أَيْ: لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِمَّا فِيهَا.

قَوْلُهُ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ أَيْ: مَنْ فَعَلَ مِنْهُمْ ذَلِكَ وَاسْتَمَرَّ عَلَيْهِ إِلَى المَمَاتِ، حَبِطَ عَمَلُهُ ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ: إِنَّمَا نُجَازِيهِمْ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي أَسْلَفُوهَا، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ.

وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ الَّذِي اِتَّخَذَهُ لَهُمُ السَّامِرِيُّ، مِنْ حُلِيِّ الْقِبْطِ الَّذِي كَانُوا اِسْتَعَارُوهُ مِنْهُمْ، فَشَكَّلَ لَهُمْ مِنْهُ عِجْلًا ثُمَّ أَلْقَى فِيهِ الْقَبْضَةَ مِنَ التُّرَابِ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ أَثَرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ عليه السلام فَصَارَ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ، وَالْخُوَارُ: صَوْتُ الْبَقَرِ، وَكَانَ هَذَا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى لِمِيقَاتِ رَبِّهِ تَعَالَى، فَأَعْلَمَهُ اللهُ تَعَالَى بِذَلِكَ وَهُوَ عَلَى الطُّورِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي ضَلَالِهِمْ بِالْعِجْلِ، وَذُهُولِهِمْ عَنْ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ، أَنْ عَبَدُوا مَعَهُ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ لَا يُكَلِّمُهُمْ، وَلَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى خَيْرٍ، وَلَكِنْ غَطَّى عَلَى أَعْيُنِ بَصَائِرِهِمْ عَمَى الجَهْلِ وَالضَّلَالِ. قَوْلُهُ: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ أَيْ: نَدِمُوا

عَلَى مَا فَعَلُوا ﴿ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ أَيْ : مِنَ الهَالِكِينَ ، وَهَذَا اِعْتِرَافٌ مِنْهُمْ بِذَنْبِهِمْ وَالْتِجَاء إِلَى الله ﷻ.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مُوسَى عليه السلام رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ مِنْ مُنَاجَاةِ رَبِّهِ تَعَالَى وَهُوَ غَضْبَانُ أَسِفٌ . **قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ** : الأَسَفُ أَشَدُّ الْغَضَبِ . ﴿ قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓ ﴾ يَقُولُ : بِئْسَ مَا صَنَعْتُمْ فِي عِبَادَتِكُمُ الْعِجْلَ بَعْد أَنْ ذَهَبْتُ وَتَرَكْتُكُمْ ﴿ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡ ﴾ يَقُولُ : اِسْتَعْجَلْتُمْ مَجِيئِي إِلَيْكُمْ ، وَهُوَ مُقَدَّرٌ مِنَ الله تَعَالَى ﴿ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِ ﴾ وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى مَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ ((**لَيْسَ الخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ**)) ، ثُمَّ ظَاهِرُ السِّيَاقِ : أَنَّهُ إِنَّمَا أَلْقَى الْأَلْوَاحَ غَضَبًا عَلَى قَوْمِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِ ﴾ خَوْفًا أَنْ يَكُونَ قَدْ قَصَّرَ فِي نَهْيِهِمْ ﴿ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : لَا تُسْقِنِي مَسَاقَهُمْ وَلَا تَخْلُطْنِي مَعَهُمْ ، وَإِنَّمَا قَالَ ﴿ ٱبۡنَ أُمَّ ﴾ لِيَكُونَ أَرَقَّ وَأَنْجَعَ عِنْدَهُ ، وَإِلَّا فَهُوَ شَقِيقُهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ ، فَلَمَّا تَحَقَّقَ مُوسَى عليه السلام بَرَاءَةَ سَاحَةِ هَارُونَ عليه السلام . **فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى** : ﴿ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾

أَمَّا الْغَضَبُ الَّذِي نَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَةِ الْعِجْلِ فَهُوَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَقْبَلْ لَهُمْ تَوْبَةً حَتَّى قَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي ((سُورَةِ الْبَقَرَةِ)) : ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٥٤] وَأَمَّا الذِّلَّةُ فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ ذِلَّةً وَصَغَارًا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴾ نَائِلَةً لِكُلِّ مَنِ اِفْتَرَى بِدْعَةً . ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عِبَادَهُ وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عِبَادِهِ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ مِنْ كُفْرٍ أَوْ شِرْكٍ أَوْ نِفَاقٍ أَوْ شِقَاقٍ ، وَلِهَذَا عَقَّبَ هَذِهِ الْقِصَّةَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ

تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ يَا رَسُولَ التَّوْبَةِ وَنَبِيَّ الرَّحْمَةِ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ أَيْ : مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْفَعْلَةِ ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ أَيْ : سَكَنَ غَضَبُهُ عَلَى قَوْمِهِ ﴿ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ أَيْ : الَّتِي كَانَ أَلْقَاهَا مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ عَلَى عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ ، غَيْرَةً لله وَغَضَبًا لَهُ ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ . **يَقُولُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ** : إِنَّهَا لَمَّا أَلْقَاهَا تَكَسَّرَتْ ثُمَّ جَمَعَهَا بَعْد ذَلِكَ ، **وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : فَوَجَدَ فِيهَا هُدًى وَرَحْمَةً ، وَأَمَّا التَّفْصِيلُ فَذَهَب ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ ضَمَّنَ الرَّهْبَةَ مَعْنَى الْخُضُوعِ وَلِهَذَا عَدَّاهَا بِاللَّامِ .

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

قِيلَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : كَانَ اللهُ أَمَرَهُ أَنْ يَخْتَارَ مِنْ قَوْمِهِ سَبْعِينَ رَجُلًا فَاخْتَارَ سَبْعِينَ رَجُلًا ، فَبَرَزَ بِهِمْ لِيَدْعُوا رَبَّهُمْ ، وَكَانَ فِيمَا دَعَوا اللهَ ، قَالُوا : اللَّهُمَّ أَعْطِنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا قَبْلَنَا وَلَا تُعْطِهِ أَحَدًا بَعْدَنَا ، فَكَرِهَ اللهُ ذَلِكَ مِنْ دُعَائِهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ﴾ الْآيَةُ . **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : إِنما أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يُزَايِلُوا قَوْمَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ ، وَلَا نَهَوْهُمْ ، وَيَتَوَجَّه هَذَا الْقَوْلُ بِقَوْلِ مُوسَى ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ أَيْ : اِبْتِلَاؤُكَ وَاخْتِبَارُكَ وَامْتِحَانُكَ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴾ **الْغَفْرُ** : هُوَ السَّتْرُ وَتَرْكُ الْمُؤَاخَذَةِ بِالذَّنْبِ ، وَالرَّحْمَةُ إِذَا قُرِنَتْ مَعَ الْغَفْرِ يُرَادُ بِهَا أَنْ لَا يُوقِعَهُ فِي مِثْلِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴾ أَنْ لَا يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ .

۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ هُنَاكَ الْفَصْلُ الْأَوَّلُ مِنَ الدُّعَاءِ فِي دَفْعِ الْمَحْذُورِ وَهَذَا لِتَحْصِيلِ الْمَقْصُودِ وَالْمَعْنَى : أَوْجِبْ لَنَا وَأَثْبِتْ لَنَا فِيهِمَا حَسَنَةً ،

وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الحَسَنَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : تُبْنَا وَرَجَعْنَا وَأَنَبْنَا إِلَيْكَ . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : وَهُوَ كَذَلِكَ لُغَةً . ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى مُجِيبًا لِمُوسَى فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾ . قَالَ : ﴿ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أَيْ : أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ وَأَحْكُمُ مَا أُرِيدُ ، وَلِيَ الحِكْمَةُ وَالْعَدْلُ فِي كُلِّ ذَلِكَ ، سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ آيَةٌ عَظِيمَةُ الشُّمُولِ وَالْعُمُومِ . عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**إِنَّ للهِ ﷻ مِائَةَ رَحْمَةٍ ، فَمِنْهَا رَحْمَةٌ يَتَرَاحَمُ بِهَا الخَلْقُ ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوُحُوشُ عَلَى أَوْلَادِهَا ، وَأَخَّرَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**)).

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ يَعْنِي : فَسَأُوجِبُ حُصُولَ رَحْمَتِي مِنَّةً مِنِّي وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ ، ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : سَأَجْعَلُهَا لِلْمُتَّصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ ، وَهُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، **وَقِيلَ** : ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : الشِّرْكَ وَالْعَظَائِمَ مِنَ الذُّنُوبِ . ﴿ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ **قِيلَ** : زَكَاةُ النُّفُوسِ ، **وَقِيلَ** : الْأَمْوَالُ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ عَامَّةً لَهُمَا ، فَإِنَّ الآيَةَ مَكِّيَّةٌ . ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : يُصَدِّقُونَ .

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ وَهَذِهِ صِفَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ ، بَشَّرُوا أُمَمَهُمْ بِبَعْثِهِ ، وَأَمَرُوهُمْ بِمُتَابَعَتِهِ ، وَلَمْ تَزَلْ صِفَاتُهُ مَوْجُودَةً فِي كُتُبِهِمْ يَعْرِفُهَا عُلَمَاؤُهُمْ وَأَحْبَارُهُمْ . ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ هَذِهِ صِفَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ . وَهَكَذَا كَانَتْ حَالُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِخَيْرٍ وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَنْ شَرٍّ . ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ أَيْ : يُحِلُّ لَهُمْ مَا كَانُوا حَرَّمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَالْوَصَائِلِ وَالحَامِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا ضَيَّقُوا بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ قِيلَ : كَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَالرِّبَا ، وَمَا كَانُوا يَسْتَحِلُّونَهُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ الْمَآكِلِ الَّتِي حَرَّمَهَا اللهُ تَعَالَى . ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ جَاءَ بِالتَّيْسِيرِ وَالسَّمَاحَةِ . ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ﴾ أَيْ : عَظَّمُوهُ وَوَقَّرُوهُ . ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ أَيْ : الْقُرْآنَ وَالْوَحْيَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُبَلِّغًا إِلَى النَّاسِ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وَهَذَا خِطَابٌ لِلْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ وَالْعَرَبِيِّ وَالْعَجَمِيِّ ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ أَيْ : جَمِيعُكُمْ ، وَهَذَا مِنْ شَرَفِهِ وَعَظَمَتِهِ ﷺ أَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، وَأَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً . ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ صِفَةُ الله تَعَالَى فِي قَوْلِ : ﴿ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ أي : إِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ ، الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَالْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ وَلَهُ الْحُكْمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ رَسُولُ الله إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ ﴿ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﴾ أَيْ : الَّذِي وُعِدْتُمْ بِهِ وَبُشِّرْتُمْ بِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، فَإِنَّهُ مَنْعُوتٌ بِذَلِكَ فِي كُتُبِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ﴾ أَيْ : يَصْدُقُ قَوْلُهُ عَمَلَهُ ، وَهُوَ يُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴿ وَاتَّبِعُوهُ ﴾ أَيْ : اُسْلُكُوا طَرِيقَهُ وَاقْتَفُوا أَثَرَهُ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أَيْ : إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ .

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ مِنْهُمْ طَائِفَةً يَتَّبِعُونَ الحَقَّ وَيَعْدِلُونَ بِهِ .

وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذَا كُلِّهِ فِي سُورَةِ البَقَرَةِ ، وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ ، وَهَذَا السِّيَاقُ مَكِّيٌّ ، وَنَبَّهْنَا عَلَى الفَرْقِ بَيْنَ هَذَا السِّيَاقِ وَذَاكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ ، وَلله الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

هَذَا السِّيَاقُ هُوَ بَسْطٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥] يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿وَسْئَلْهُمْ﴾ أَيْ: وَاسْأَلْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ بِحَضْرَتِكَ عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِهِمُ الَّذِينَ خَالَفُوا أَمْرَ الله، فَفَاجَأَتْهُمْ نِقْمَتُهُ عَلَى صَنِيعِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ وَاحْتِيَالِهِمْ فِي الْمُخَالَفَةِ، وَحَذِّرْ هَؤُلَاءِ مِنْ كِتْمَانِ صِفَتِكَ الَّتِي يَجِدُونَهَا فِي كُتُبِهِمْ، لِئَلَّا يَحِلَّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِإِخْوَانِهِمْ وَسَلَفِهِمْ، وَهَذِهِ الْقَرْيَةُ هِيَ «أَيْلَةُ» وَهِيَ عَلَى شَاطِئِ بَحْرِ الْقُلْزُمِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أَيْ: يَعْتَدُونَ فِيهِ وَيُخَالِفُونَ أَمْرَ الله فِيهِ لَهُمْ بِالْوَصَاةِ بِهِ إِذْ ذَاكَ ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ **قِيلَ**: أَيْ: ظَاهِرَةً عَلَى الْمَاءِ، **وَقِيلَ**: مِنْ كُلِّ مَكَانٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أَيْ: نَخْتَبِرُهُمْ بِإِظْهَارِ السَّمَكِ لَهُمْ عَلَى ظَهْرِ الْمَاءِ فِي الْيَوْمِ الْمُحَرَّمِ عَلَيْهِمْ صَيْدُهُ، وَإِخْفَائِهِ عَنْهُمْ فِي الْيَوْمِ الْمُحَلَّلِ لَهُمْ صَيْدُهُ ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ نَخْتَبِرُهُمْ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ يَقُولُ: بِفِسْقِهِمْ عَنْ طَاعَةِ الله وَخُرُوجِهِمْ عَنْهَا.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ أَنَّهُمْ صَارُوا إِلَى **ثَلَاثِ فِرَقٍ**: **فِرْقَةٍ ارْتَكَبَتِ الْمَحْذُورَ** وَاحْتَالُوا عَلَى اصْطِيَادِ السَّمَكِ يَوْمَ السَّبْتِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، **وَفِرْقَةٍ نَهَتْ عَنْ ذَلِكَ** وَاعْتَزَلَتْهُمْ، **وَفِرْقَةٍ سَكَتَتْ** فَلَمْ تَفْعَلْ وَلَمْ تَنْهَ وَلَكِنَّهَا قَالَتْ لِلْمُنْكِرَةِ ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أَيْ: لِمَ تَنْهَوْنَ هَؤُلَاءِ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا وَاسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ مِنَ الله؟ فَلَا فَائِدَةَ فِي نَهْيِكُمْ إِيَّاهُمْ، قَالَتْ لَهُمُ الْمُنْكِرَةُ: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالرَّفْعِ كَأَنَّهُ عَلَى تَقْدِيرِ: هَذِهِ مَعْذِرَةٌ، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِالنَّصْبِ، أَيْ: نَفْعَلُ ذَلِكَ ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أَيْ: فِيمَا أُخِذَ عَلَيْنَا مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يَقُولُونَ: وَلَعَلَّ بِهَذَا الْإِنْكَارِ يَتَّقُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَيَتْرُكُونَهُ، وَيَرْجِعُونَ إِلَى الله تَائِبِينَ، فَإِذَا تَابُوا

تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ ﴾ أَيْ : فَلَمَّا أَبَى الْفَاعِلُونَ قَبُولَ النَّصِيحَةِ ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أَيْ : اِرْتَكَبُوا الْمَعْصِيَةَ ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ فَنَصَّ عَلَى نَجَاةِ النَّاهِينَ ، وَهَلَاكِ الظَّالِمِينَ ، وَسَكَتَ عَنِ السَّاكِتِينَ ؛ لأَنَّ الجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، فَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ مَدْحًا فَيُمْدَحُوا وَلَا ارْتَكَبُوا عَظِيمًا فَيُذَمُّوا . وَ ﴿ بَئِيسٍ ﴾ فِيهِ قِرَاءَاتٌ كَثِيرَةٌ ، وَمَعْنَاهُ فِي قَوْلِ مُجَاهِدٍ : الشَّدِيدُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : أَلِيمٌ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : مُوجِعٌ ، وَالْكُلُّ مُتَقَارِبٌ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ أَيْ : ذَلِيلِينَ حَقِيرِينَ مُهَانِينَ .

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

﴿ تَأَذَّنَ ﴾ تَفَعَّلَ مِنَ الْأَذَانِ أَيْ : أَعْلَمَ . قَالَهُ مُجَاهِدٌ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : أَمَرَ ، وَفِي قُوَّةِ الْكَلَامِ مَا يُفِيدُ مَعْنَى الْقَسَمِ مِنْ هَذِهِ اللَّفْظَةِ ، وَلِهَذَا تُلُقِّيَتْ بِاللَّامِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : عَلَى الْيَهُودِ ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ عِصْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَوَامِرَ اللهِ وَشَرْعِهِ ، وَاحْتِيَالِهِمْ عَلَى الْمَحَارِمِ . قِيلَ : هِيَ الْجِزْيَةُ ، وَالَّذِينَ يَسُومُونَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأُمَّتُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أَيْ : لِمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ شَرْعَهُ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ قَرْنِ الرَّحْمَةِ مَعَ الْعُقُوبَةِ ، لِئَلَّا يَحْصُلَ الْيَأْسُ فَيَقْرُنُ تَعَالَى بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ كَثِيرًا لِتَبْقَى النُّفُوسُ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ .

وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ فَرَّقَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا أَيْ : طَوَائِفَ وَفِرَقًا ﴿ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : فِيهِمُ الصَّالِحُ وَغَيْرُ ذَلِكَ ، ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم ﴾ أَيْ : اِخْتَبَرْنَاهُمْ ﴿ بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أَيْ : بِالرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ ، وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ ، وَالْعَافِيَةِ وَالْبَلَاءِ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ ﴾ الْآيَةُ . يَقُولُ تَعَالَى ﴿ فَخَلَفَ ﴾ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْجِيلِ الَّذِي فِيهِمُ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ ﴿ خَلۡفٌ ﴾ آخَرُ لَا خَيْرَ فِيهِمْ ، وَقَدْ ﴿ وَرِثُوا ﴾ دِرَاسَةَ ﴿ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ وَهُوَ التَّوْرَاةُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هُمُ النَّصَارَى ، وَقَدْ يَكُونُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ ﴿ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ ﴾ أَيْ : يَعْتَاضُونَ عَنْ بَذْلِ الْحَقِّ وَنَشْرِهِ بِعَرَضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيُسَوِّفُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيَعِدُونَهَا بِالتَّوْبَةِ ، وَكُلَّمَا لَاحَ لَهُمْ مِثْلُ الْأَوَّلِ وَقَعُوا فِيهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٌ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُ ﴾ يَعْمَلُونَ الذَّنْبَ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ اللهَ مِنْهُ ، فَإِنْ عَرَضَ ذَلِكَ الذَّنْبَ أَخَذُوهُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ ﴾ قَالَ : لَا يُشْرِفُ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا أَخَذُوهُ ، حَلَالًا كَانَ أَوْ حَرَامًا ، وَيَتَمَنَّوْنَ الْمَغْفِرَةَ ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٌ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُ ﴾ ، وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ﴾ : إِي وَاللهِ ، لَخَلْفُ سُوءٍ ﴿ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ بَعْدَ أَنْبِيَائِهِمْ وَرُسُلِهِمْ ، وَرَّثَهُمُ اللهُ وَعَهِدَ إِلَيْهِمْ ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى : ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [مريم : ٥٩] . قَالَ : ﴿ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا ﴾ تَمَنَّوْا عَلَى اللهِ أَمَانِيَّ وَغِرَّةً يَغْتَرُّونَ بِهَا ﴿ وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٌ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُ ﴾ لَا يَشْغَلُهُمْ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ ، وَلَا يَنْهَاهُمْ شَيْءٌ عَنْ ذَلِكَ ، كُلَّمَا هَفَّ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا أَكَلُوهُ ، لَا يُبَالُونَ حَلَالًا كَانَ أَوْ حَرَامًا .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ ﴾ الْآيَةُ . يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ فِي صَنِيعِهِمْ هَذَا مَعَ مَا أُخِذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمِيثَاقِ لَيُبَيِّنُنَّ الْحَقَّ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ . قِيلَ : ﴿ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ ﴾ قَالَ : فِيمَا يُوجِبُونَ عَلَى اللهِ مِنْ غُفْرَانِ ذُنُوبِهِمُ الَّتِي لَا يَزَالُونَ يَعُودُونَ فِيهَا وَلَا يَتُوبُونَ مِنْهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ يُرَغِّبُهُمْ فِي جَزِيلِ ثَوَابِهِ ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ ، أَيْ : وَثَوَابِي وَمَا عِنْدِي خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى الْمَحَارِمَ ، وَتَرَكَ هَوَى نَفْسه ، وَأَقْبَلَ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ ، ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ يَقُولُ : أَفَلَيْسَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اعْتَاضُوا بِعَرَضِ الدُّنْيَا عَمَّا عِنْدِي عَقْلٌ يَرْدَعُهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ السَّفَهِ وَالتَّبْذِيرِ ، ثُمَّ أَثْنَى تَعَالَى عَلَى مَنْ تَمَسَّكَ بِكِتَابِهِ الَّذِي يَقُودُهُ إِلَى اتِّبَاعِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أَيْ : اعْتَصَمُوا بِهِ وَاقْتَدُوا بِأَوَامِرِهِ وَتَرَكُوا زَوَاجِرَهُ ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴾ .

۞ وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ﴾ رَفَعْنَاهُ ، ﴿ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ رَفَعَتْهُ المَلَائِكَةُ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ .

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ اِسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ بَنِي آدَمَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ : أَنَّ اللهَ رَبَّهُمْ وَمَلِيكَهُمْ ، وَأَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى فَطَرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَجَبَلَهُمْ عَلَيْهِ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ أَيْ : أَوْجَدَهُمْ شَاهِدِينَ بِذَلِكَ قَائِلِينَ لَهُ حَالًا وَقَالًا : ﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ أَيْ : لِئَلَّا تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا ﴾ أَيِ التَّوْحِيدِ ﴿ غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا ﴾ الْآيَةُ .

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ الْآيَةُ ، قَالَ : هُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَال لَهُ بُلْعُمُ بْنُ آبَرَ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : إِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ اسمَ اللهِ الأَعْظَمَ ، وَكَانَ مُجَابَ الدَّعْوَةِ . ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أَيْ : اِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ وَغَلَبَهُ عَلَى أَمْرِهِ فَمَهْمَا أَمَرَهُ اِمْتَثَلَ وَأَطَاعَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ أَيْ : مِنَ الهَالِكِينَ الحَائِرِينَ الْبَائِرِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ **يَقُولُ تَعَالَى** : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ أَيْ : لَرَفَعْنَاهُ مِنَ التَّدَنُّسِ عَنْ قَاذُورَاتِ الدُّنْيَا بِالْآيَاتِ الَّتِي آتَيْنَاهُ إِيَّاهَا ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مَالَ إِلَى زِينَةِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا ، وَأَقْبَلَ عَلَى لَذَّاتِهَا وَنَعِيمِهَا ، وَغَرَّتْهُ كَمَا غَرَّتْ غَيْرَهُ مِنْ غَيْرِ أُولِي الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ ، **قِيلَ** : أَنَّ بَلْعَامًا اِنْدَلَعَ لِسَانُهُ عَلَى صَدْرِهِ فَتَشْبِيهُهُ بِالْكَلْبِ فِي لَهْثِهِ فِي كِلْتَا

حَالَتَيْهِ إِنْ زُجِرَ وَإِنْ تُرِكَ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ فَصَارَ مِثْلَهُ فِي ضَلَالِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ فِيهِ ، وَعَدَمِ انْتِفَاعِهِ بِالدُّعَاءِ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَعَدَمِ الدُّعَاءِ كَالْكَلْبِ فِي لَهْثِهِ فِي حَالَتَيْهِ إِنْ حَمَلْتَ عَلَيْهِ ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ هُوَ يَلْهَثُ فِي الحَالَيْنِ ، فَكَذَلِكَ هَذَا لَا يَنْتَفِعُ بِالمَوْعِظَةِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ وَلَا عَدَمِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ ﴾ أَيْ : لَعَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعَالِمِينَ بِحَالِ بَلْعَامَ ، وَمَا جَرَى لَهُ فِي إِضْلَالِ اللهِ إِيَّاهُ وَإِبْعَادِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ ، بِسَبَبِ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ فِي تَعْلِيمِهِ الاسْمَ الْأَعْظَمَ ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ ، فِي غَيْرِ طَاعَةِ رَبِّهِ ، بَلْ دَعَا بِهِ عَلَى حِزْبِ الرَّحْمَنِ وَشِعْبِ الْإِيمَانِ أَتْبَاعَ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، كَلِيمِ اللهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عليه السلام وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : فَيَحْذَرُوا أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُ ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَاهُمْ عِلْمًا ، وَمَيَّزَهُمْ عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ ، وَجَعَلَ بِأَيْدِيهِمْ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ يَعْرِفُونَهَا كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، فَهُمْ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِاتِّبَاعِهِ وَمُنَاصَرَتِهِ وَمُؤَازَرَتِهِ .

قَوْلُهُ : ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : سَاءَ مَثَلًا مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، أَيْ سَاءَ مَثَلُهُمْ أَنْ شُبِّهُوا بِالكِلَابِ الَّتِي لَا هِمَّةَ لَهَا إِلَّا فِي تَحْصِيلِ أَكْلَةٍ أَوْ شَهْوَةٍ ، فَمَنْ خَرَجَ عَنْ حَيِّزِ الْعِلْمِ وَالْهُدَى وَأَقْبَلَ عَلَى شَهْوَةِ نَفْسِهِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ صَارَ شَبِيهًا بِالْكَلْبِ ، وَبِئْسَ المَثَلُ مَثَلُهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ أَيْ : مَا ظَلَمَهُمُ اللهُ ، وَلَكِنْ هُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْهُدَى وَطَاعَةِ المَوْلَى .

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : مَنْ هَدَاهُ اللهُ فَإِنَّهُ لَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ وَضَلَّ لَا مَحَالَةَ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ .

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴾ أَيْ : خَلَقْنَا وَجَعَلْنَا ﴿ لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ أَيْ : هَيَّأْنَاهُمْ لَهَا وَبِعَمَلِ أَهْلِهَا يَعْمَلُونَ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ عَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ كَوْنِهِمْ ، فَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ فِي كِتَابٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ**

سَنَةٍ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ)).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ يَعْنِي : لَيسَ يَنْتَفِعُونَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الجَوَارِحِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ سَبَبًا لِلْهِدَايَةِ . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ الحَقَّ وَلَا يَعُونَهُ وَلَا يُبْصِرُونَ الهُدَى كَالْأَنْعَامِ السَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَنْتَفِعُ بِهَذِهِ الحَوَاسِّ مِنْهَا ، إِلَّا فِي الَّذِي يَعِيشُهَا مِنْ ظَاهِرِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلِهَذَا قَالَ فِي هَؤُلَاءِ ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ أَيْ : مِنَ الدَّوَابِّ ؛ لِأَنَّهَا قَدْ تَسْتَجِيبُ مَعَ ذَلِكَ لِرَاعِيهَا إِذَا أَيِسَ بِهَا ، وَإِنْ لَمْ تَفْقَهْ كَلَامَهُ ، بِخِلَافِ هَؤُلَاءِ ، وَلِأَنَّ الدَّوَابَ تَفْقَهُ مَا خُلِقَتْ لَهُ إِمَّا بِطَبْعِهَا وَإِمَّا بِتَسْخِيرِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ .

وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اِسْمًا ، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ**)). ثُمَّ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْأَسْمَاءَ الحُسْنَى غَيْرُ مُنْحَصِرَةٍ فِي التِسْعَةِ وَالتِسْعِينَ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾ قَالَ : إِلحَادُ المُلْحِدِينَ بِأَنِ اِشْتَقُّوا اللَّاتَ مِنَ اللهِ ، وَالْعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ : يُشْرِكُونَ فِي أَسْمَائِهِ . **وَقِيلَ** : الإِلحَادُ : التَّكْذِيبُ ، وَأَصْلُ الإِلْحَادِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ : الْعُدُولُ عَنِ الْقَصْدِ ، وَالمَيْلُ وَالجَوْرُ وَالِانْحِرَافُ . **يَقُولُ تَعَالَى** : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ أَيْ : بَعْضُ الْأُمَمِ ﴿ أُمَّةٌ ﴾ قَائِمَةٌ بِالحَقِّ قَوْلًا وَعَمَلًا ﴿ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يَقُولُونَهُ وَيَدْعُونَ إِلَيْهِ ﴿ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ يَعْمَلُونَ وَيَقْضُونَ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْآثَارِ أَنَّ المُرَادَ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ المَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ هِيَ هَذِهِ الْأُمَّةُ المُحَمَّدِيَّةُ .

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ الرِّزْقِ ، وَوُجُوهَ المَعَاشِ فِي الدُّنْيَا ؛ حَتَّى يَغْتَرُّوا بِمَا هُمْ فِيهِ ، وَيَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ﴾ أَيْ : وَسَأُمْلِي لَهُمْ ، أَيْ : أُطَوِّلُ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ ﴿ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ أَيْ : قَوِيٌّ شَدِيدٌ . **يَقُولُ تَعَالَى** : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ﴾ هَؤُلَاءِ المُكَذِّبُونَ بِآيَاتِنَا ﴿ مَا بِصَاحِبِهِم ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ ﴿ مِّن جِنَّةٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ بِهِ جُنُونٌ ، بَلْ هُوَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا ، وَدَعَا إِلَى حَقٍّ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : ظَاهِرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ لُبٌّ وَقَلْبٌ يَعْقِلُ بِهِ وَيَعِي بِهِ .

أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ ﴾ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ بِآيَاتِنَا ، فِي مُلْكِ اللهِ وَسُلْطَانِهِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَفِيمَا خَلَقَ مِنْ شَيْءٍ فِيهِمَا ، فَيَتَدَبَّرُوا ذَلِكَ وَيَعْتَبِرُوا بِهِ ، وَيَحْذَرُوا أَنْ تَكُونَ آجَالُهُمْ قَدِ اقْتَرَبَتْ فَيَهْلِكُوا عَلَى كُفْرِهِمْ ، وَيَصِيرُوا إِلَى عَذَابِ اللهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ . ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ يَقُولُ : فَبِأَيِّ تَخْوِيفٍ وَتَحْذِيرٍ وَتَرْهِيبٍ بَعْدَ تَحْذِيرِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَرْهِيبِهِ الَّذِي أَتَاهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ فِي آيِ كِتَابِهِ يُصَدِّقُونَ ، إِنْ لَمْ يُصَدِّقُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﷻ ؟ .

مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : مَنْ كَتَبَ عَلَيْهِ الضَّلَالَةَ فَإِنَّهُ لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ ، وَلَوْ نَظَرَ لِنَفْسِهِ فِيمَا نَظَرَ ، فَإِنَّهُ لَا يُجْزِي عَنْهُ شَيْئًا .

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ **قِيلَ** : نَزَلَتْ فِي قُرَيْشٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ **قِيلَ** : مُنْتَهَاهَا : أَيْ : مَتَى مَحَطُّهَا ، وَأَيَّانَ آخِرُ مُدَّةِ الدُّنْيَا ، الَّذِي هُوَ أَوَّلُ وَقْتِ السَّاعَةِ ، ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ إِذَا سُئِلَ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ ، أَنْ يَرُدَّ عِلْمَهَا إِلَى اللهِ تَعَالَى ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا . أَيْ : يَعْلَمُ جَلِيَّةَ أَمْرِهَا ، وَمَتَى يَكُونُ عَلَى التَّحْدِيدِ ؟ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ تَعَالَى ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : ثَقُلَ عِلْمُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ وَلَا يَنْفِي ذَلِكَ ثِقَلُ مَجِيئِهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ﴾ **أَيْ** : كَأَنَّكَ بِهَا عَالِمٌ ، وَقَدْ أَخْفَى اللهُ عِلْمَهَا عَلَى خَلْقِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَرُدَّ عِلْمَ وَقْتِ السَّاعَةِ إِلَيْهِ إِذَا سُئِلَ عَنْهَا .

قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُفَوِّضَ الْأُمُورَ إِلَيْهِ وَأَنْ يُخْبِرَ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا اطِّلَاعَ لَهُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِمَا أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَيْ: مِنَ الْمَالِ، وَفِي رِوَايَةٍ: لَعَلِمْتُ إِذَا اشْتَرَيْتُ شَيْئًا مَا أَرْبَحُ فِيهِ فَلَا أَبِيعُ شَيْئًا إِلَّا رَبِحْتُ فِيهِ، ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ قَالَ: وَلَا يُصِيبُنِي الْفَقْرُ. **وَقَالَ آخَرُونَ**: مَعْنَى ذَلِكَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَعْدَدْتُ لِلسَّنَةِ الْمُجْدِبَةِ مِنَ الْمُخْصِبَةِ، وَلَعَرَفْتُ الْغَلَاءَ مِنَ الرُّخْصِ، فَاسْتَعْدَدْتُ لَهُ مِنَ الرُّخْصِ. **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ قَالَ: لَاجْتَنَبْتُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّرِّ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ وَاتَّقَيْتُهُ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا هُوَ ﴿ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ أَيْ: نَذِيرٌ مِنَ الْعَذَابِ وَبَشِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّاتِ.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ خَلَقَ جَمِيعَ النَّاسِ مِنْ آدَمَ عليه السلام، وَأَنَّهُ خَلَقَ مِنْهُ زَوْجَهُ حَوَّاءَ، ثُمَّ انْتَشَرَ النَّاسُ مِنْهُمَا. ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ أَيْ: لِيَأْلَفَهَا وَيَسْكُنَ بِهَا، فَلَا أُلْفَةَ بَيْنَ رُوحَيْنِ أَعْظَمَ مِمَّا بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ؛ وَلِهَذَا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ السَّاحِرَ رُبَّمَا تَوَصَّلَ بِكَيْدِهِ إِلَى التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا ﴾ أَيْ: وَطِئَهَا ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾ وَذَلِكَ أَوَّلُ الْحَمْلِ لَا تَجِدُ الْمَرْأَةُ لَهُ أَلَمًا، إِنَّمَا هِيَ النُّطْفَةُ ثُمَّ الْعَلَقَةُ ثُمَّ الْمُضْغَةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿ فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ اسْتَمَرَّتْ بِحَمْلِهِ. **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ**: مَعْنَاهُ اسْتَمَرَّتْ بِالْمَاءِ قَامَتْ بِهِ وَقَعَدَتْ. ﴿ فَلَمَّآ أَثْقَلَت ﴾ أَيْ: صَارَتْ ذَاتَ ثِقَلٍ بِحَمْلِهَا ﴿ دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا ﴾ أَيْ: بَشَرًا سَوِيًّا. فَقَدْ أَشْفَقَا أَنْ يَكُونَ بَهِيمَةً ﴿ لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

عَنِ الْحَسَنِ: ﴿ جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ قَالَ: كَانَ هَذَا فِي بَعْضِ أَهْلِ الْمِلَلِ، وَلَمْ يَكُنْ بِآدَمَ. **وَعَنْهُ أَيْضًا**: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، رَزَقَهُمُ اللهُ أَوْلَادًا فَهَوَّدُوا وَنَصَّرُوا.

وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ آدَمَ وَحَوَّاءَ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ: فَذَكَرَ آدَمَ وَحَوَّاءَ أَوَّلًا كَالتَّوْطِئَةِ لِمَا بَعْدَهُمْ مِنَ الْوَالِدَيْنِ، وَهُوَ كَالِاسْتِطْرَادِ مِنْ ذِكْرِ الشَّخْصِ إِلَى الْجِنْسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ [الملك: ٥] وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَصَابِيحَ وَهِيَ النُّجُومُ الَّتِي زُيِّنَتْ بِهَا السَّمَاءُ، لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي يُرْمَى بِهَا،

وَإِنَّمَا هَذَا اسْتِطْرَادٌ مِنْ شَخْصِ الْمَصَابِيحِ إِلَى جِنْسِهَا ، وَلِهَذَا نَظَائِرُ فِي الْقُرْآنِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ ، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ للهِ مَرْبُوبَةٌ مَصْنُوعَةٌ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ ، وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَنْتَصِرُ لِعَابِدِيهَا ، بَلْ هِيَ جَمَادٌ لَا تَتَحَرَّكُ وَلَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ ، وَعَابِدُوهَا أَكْمَلُ مِنْهَا بِسَمْعِهِمْ وَبَصَرِهِمْ وَبَطْشِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أَيْ : أَتُشْرِكُونَ بِهِ مِنَ الْمَعْبُودَاتِ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ أَيْ : لِعَابِدِيهِمْ . ﴿ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ يَعْنِي : وَلَا لِأَنْفُسِهِمْ يَنْصُرُونَ مِمَّنْ أَرَادَهُمْ بِسُوءٍ كَمَا كَانَ الْخَلِيلُ عليه السلام يَكْسِرُ أَصْنَامَ قَوْمِهِ وَيُهِينُهَا غَايَةَ الْإِهَانَةِ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ [الصافات : ٩٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ الْآيَةُ . يَعْنِي : أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَسْمَعُ دُعَاءَ مَنْ دَعَاهَا ، وَسَوَاءٌ لَدَيْهَا مَنْ دَعَاهَا وَمَنْ دَحَاهَا ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم : ٤٢] . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهَا عَبِيدٌ مِثْلُ عَابِدِيهَا ، أَيْ : مَخْلُوقَاتٌ مِثْلُهُمْ ، بَلِ الْأَنَاسِيّ أَكْمَلُ مِنْهَا ؛ لِأَنَّهَا تَسْمَعُ وَتُبْصِرُ وَتَبْطِشُ ، وَتِلْكَ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ الْآيَةُ . أَيْ : اِسْتَنْصِرُوا بِهَا عَلَيَّ ، فَلَا تُؤَخِّرُونِي طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَاجْهَدُوا جَهْدَكُمْ ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أَيْ : اللهُ حَسْبِي وَكَافِيَّ وَهُوَ نَصِيرِي ، وَعَلَيْهِ مُتَّكَلِي ، وَإِلَيْهِ أَلْجَأُ وَهُوَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَهُوَ وَلِيُّ كُلِّ صَالِحٍ بَعْدِي .

قَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ مُؤَكِّدٌ لِمَا تَقَدَّمَ إِلَّا أَنَّهُ بِصِيغَةِ الْخِطَابِ ، وَذَاكَ بِصِيغَةِ الْغَيْبَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ ﴾ [فاطر : ١٤] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ . إِنَّمَا قَالَ : ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : يُقَابِلُونَكَ بِعُيُونٍ مُصَوَّرَةٍ ، كَأَنَّهَا نَاظِرَةٌ وَهِيَ جَمَادٌ .

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ أَمَرَهُ اللهُ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ عَشْرَ سِنِينَ ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ . **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ** : إِنَّمَا أَنْزَلَ ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ فِي أَخْلَاقِ النَّاسِ ، وَهَذَا أَشْهَرُ الْأَقْوَالِ . **وَقَالَ الْبُخَارِيُّ قَوْلُهُ** : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ الْعُرْفُ الْمَعْرُوفُ . أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْمُرَ عِبَادَهُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَدْخُلَ فِي ذَلِكَ جَمِيعُ الطَّاعَاتِ ، وَبِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِلِينَ ، وَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ أَمْرًا لِنَبِيِّهِ ﷺ فَإِنَّهُ تَأْدِيبٌ لِخَلْقِهِ بِاحْتِمَالِ مَنْ ظَلَمَهُمْ وَاعْتَدَى عَلَيْهِمْ ، لَا بِالْإِعْرَاضِ عَمَّنْ جَهِلَ الْحَقَّ الْوَاجِبَ مِنْ حَقِّ اللهِ ، وَلَا بِالصَّفْحِ عَمَّنْ كَفَرَ بِاللهِ وَجَهِلَ وَحْدَانِيَّتَهُ ، وَهُوَ لِلْمُسْلِمِينَ حَرْبٌ .

وَيُرْشِدُ تَعَالَى إِلَى الِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنْ شَيْطَانِ الْجَانِّ ، فَإِنَّهُ لَا يَكُفُّهُ عَنْكَ الْإِحْسَانُ ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ هَلَاكَكَ وَدَمَارَكَ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَإِنَّهُ عَدُوٌّ مُبِينٌ لَكَ وَلِأَبِيكَ مِنْ قَبْلِكَ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ** : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾ [الأعراف:٢٠٠] ، وَإِمَّا يُغْضِبَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ غَضَبٌ يَصُدُّكَ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِلِينَ وَيَحْمِلُكَ عَلَى مُجَازَاتِهِمْ ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ يَقُولُ : فَاسْتَجِرْ بِاللهِ مِنْ نَزْغِهِ ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وَأَصْلُ النَّزْغِ الْفَسَادُ ، إِمَّا بِالْغَضَبِ أَوْ غَيْرِهِ ، وَ « الْعِيَاذُ » : الِالْتِجَاءُ وَالِاسْتِنَادُ وَالِاسْتِجَارَةُ مِنَ الشَّرِّ ، وَأَمَّا الْمَلَاذُ فَفِي طَلَبِ الْخَيْرِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُتَّقِينَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَطَاعُوهُ فِيمَا أَمَرَ وَتَرَكُوا مَا عَنْهُ زَجَرَ ، أَنَّهُمْ ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ ﴾ أَيْ : أَصَابَهُمْ ﴿ طَٰٓئِفٌ ﴾ مِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِالْغَضَبِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِمَسِّ الشَّيْطَانِ ، بِالصَّرْعِ وَنَحْوِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِالْهَمِّ بِالذَّنْبِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِإِصَابَةِ الذَّنْبِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَذَكَّرُوا۟ ﴾ أَيْ : عِقَابَ اللهِ وَجَزِيلَ ثَوَابِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ، فَتَابُوا وَأَنَابُوا وَاسْتَعَاذُوا

بِاللهِ وَرَجَعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ أَيْ : قَدِ اِسْتَقَامُوا وَصَحُّوا مِمَّا كَانُوا فِيهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ ﴾ أَيْ : وَإِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْإِنْسِ ، وَهُمْ أَتْبَاعُهُمْ ، وَالْمُسْتَمِعُونَ لَهُمُ الْقَابِلُونَ لِأَوَامِرِهِمْ ﴿ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ﴾ أَيْ : تُسَاعِدُهُمُ الشَّيَاطِينُ عَلَى الْمَعَاصِي وَتُسَهِّلُهَا عَلَيْهِمْ وَتُحَسِّنُهَا لَهُمْ . قِيلَ : « **الْمَدُّ** » الزِّيَادَةُ ، يَعْنِي : يَزِيدُونَهُمْ فِي الْغَيِّ ، يَعْنِي : الْجَهْلِ وَالسَّفَهِ ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ **قِيلَ مَعْنَاهُ** : إِنَّ الشَّيَاطِينَ تَمُدُّ الْإِنْسَ لَا تُقَصِّرُ فِي أَعْمَالِهِمْ بِذَلِكَ .

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾ ، يَقُولُ : لَوْلَا تَلَقَّيْتَهَا ، وَقِيلَ : لَوْلَا أَحْدَثْتَهَا فَأَنْشَأْتَهَا . وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ ﴾ أَيْ : مُعْجِزَةٍ وَخَارِقٍ . يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ : لَا تُجْهِدْ نَفْسَكَ فِي طَلَبِ الْآيَاتِ مِنَ اللهِ حَتَّى تَرَاهَا وَتُؤْمِنَ بِهَا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لَهُ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّى ﴾ أَيْ : أَنَا لَا أَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ تَعَالَى فِي شَيْءٍ ، وَإِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا أَمَرَنِي بِهِ ، فَأَمْتَثِلُ مَا يُوحِيهِ إِلَيَّ ، فَإِنْ بَعَثَ آيَةً قَبِلْتُهَا ، وَإِنْ مَنَعَهَا لَمْ أَسْأَلْهُ اِبْتِدَاءً إِيَّاهَا ، إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لِي فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ أَعْظَمُ الْمُعْجِزَاتِ ، وَأَبْيَنُ الدَّلَالَاتِ ، وَأَصْدَقُ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ ، فَقَالَ : ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ الْقُرْآنَ بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَة ، أَمَرَ تَعَالَى بِالْإِنْصَاتِ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ إِعْظَامًا لَهُ وَاحْتِرَامًا ، وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ إِذَا جَهَرَ الْإِمَامُ بِالْقِرَاءَةِ . **قَالَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾ ، يَعْنِي : فِي الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ .

وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ كَثِيرًا ، كَمَا أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مَكِّيَّةٌ ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ بِٱلْغُدُوِّ ﴾ وَهُوَ أَوَّلُ النَّهَارِ ، ﴿ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ جَمْعُ أَصِيلٍ ، كَمَا أَنَّ الْأَيْمَانَ جَمْعُ يَمِينٍ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ أَيْ : اُذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً ، وَبِالْقَوْلِ لَا جَهْرًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ

مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ ، وَهَكَذَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ الذِّكْرُ ، لَا يَكُونُ نِدَاءً وَجَهْرًا بَلِيغًا ، وَلِهَذَا مَدَحَ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ؛ فقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ الْآيَةُ . وَإِنَّمَا ذَكَرَهُمْ بِهَذَا لِيُتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي كَثْرَةِ طَاعَتِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ ، وَلِهَذَا شُرِعَ لَنَا السُّجُودُ هَاهُنَا لَمَّا ذُكِرَ سُجُودُهُمْ لله ﷻ .

آخِرُ سُورَةِ الأَعْرَافِ وَلله الحَمْدُ والمِنَّةُ

آياتها ٧٥ تفسيرُ سُورَةِ الأنفَال مدنيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾

﴿ ٱلْأَنفَالِ ﴾ : الغَنَائِمُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ . وَصَحَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّهُ فَسَّرَ النَّفَلَ بِمَا يُنَفِّلُهُ الإِمَامُ لِبَعْضِ الأَشْخَاصِ مِنْ سَلَبٍ أَوْ نَحْوِهِ ، بَعْدَ قَسْمِ أَصْلِ الْمَغْنَمِ . **وَقَالَ الإِمَامُ أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَّام** - رَحِمَهُ اللهُ - فِي كِتَابِ « الأَمْوَالُ الشَّرْعِيَّةُ وَبَيَانُ جِهَاتِهَا وَمَصَارِفِهَا » : أَمَّا الأَنْفَالُ فَهِيَ الْمَغَانِمُ ، وَكُلُّ نَيْلٍ نَالَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ الْحَرْبِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أَيْ : وَاتَّقُوا اللهَ فِي أُمُورِكُمْ وَأَصْلِحُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ ، وَلَا تَظَالَمُوا وَلَا تَخَاصَمُوا وَلَا تَشَاجَرُوا ، فَمَا آتَاكُمُ اللهُ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ خَيْرٌ مِمَّا تَخْتَصِمُونَ بِسَبَبِهِ ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ أَيْ : فِي قَسْمِهِ بَيْنَكُمْ عَلَى مَا أَرَادَهُ اللهُ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَقْسِمُهُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ .

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فَرِقَتْ ، أَيْ : فَزِعَتْ وَخَافَتْ . ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٤]، **وَقَدِ اسْتَدَلَّ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَأَشْبَاهِهَا عَلَى : زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَتَفَاضُلِهِ فِي الْقُلُوبِ** . ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَرْجُونَ سِوَاهُ ، وَلَا يَقْصِدُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، وَلَا يَلُوذُونَ إِلَّا بِجَنَابِهِ ، وَلَا يَطْلُبُونَ الْحَوَائِجَ إِلَّا مِنْهُ ، وَلَا يَرْغَبُونَ إِلَّا إِلَيْهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ جِمَاعُ الْإِيمَانِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ : الْمُحَافَظَةُ عَلَى مَوَاقِيتِهَا ، وَوُضُوئِهَا ، وَرُكُوعِهَا ، وَسُجُودِهَا وَالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ : يَشْمَلُ إِخْرَاجَ الزَّكَاةِ وَسَائِرَ الْحُقُوقِ لِلْعِبَادَةِ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أَيْ : الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقَّ الْإِيمَانِ . ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : مَنَازِلُ وَمَقَامَاتٌ وَدَرَجَاتٌ فِي الْجَنَّاتِ . ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ أَيْ : يَغْفِرُ لَهُمُ السَّيِّئَاتِ وَيَشْكُرُ لَهُمُ الْحَسَنَاتِ .

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبَرِيُّ : اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي السَّبَبِ الْجَالِبِ لِهَذِهِ الْكَافِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ **فَقَالَ بَعْضُهُمْ** : شُبِّهَ بِهِ فِي الصَّلَاحِ لِلْمُؤْمِنِينَ اتِّقَاؤُهُمْ رَبَّهُمْ وَإِصْلَاحُهُمْ ذَاتَ بَيْنِهِمْ ، وَطَاعَتُهُمْ للهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : كَمَا أَنَّكُمْ لَمَّا اخْتَلَفْتُمْ فِي الْمَغَانِمِ ، وَتَشَاحَحْتُمْ فِيهَا فَانْتَزَعَهَا اللهُ مِنْكُمْ وَجَعَلَهَا إِلَى قَسْمِهِ وَقَسْمِ رَسُولِهِ ﷺ ، فَقَسَمَهَا عَلَى الْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ ، فَكَانَ هَذَا هُوَ الْمَصْلَحَةُ التَّامَّةُ لَكُمْ ، **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَقَالَ آخَرُونَ : مَعْنَى ذَلِكَ : ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ عَلَى كُرْهٍ مِنْ فَرِيقٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، كَذَلِكَ هُمْ كَارِهُونَ لِلْقِتَالِ ، فَهُمْ يُجَادِلُونَكَ فِيهِ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ . **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ مُجَادَلَةً ، كَمَا جَادَلُوكَ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَقَالُوا : أَخْرَجْتَنَا لِلْعِيرِ وَلَمْ تُعْلِمْنَا قِتَالًا فَنَسْتَعِدَّ لَهُ .

وَالْغَرَضُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَلَغَهُ خُرُوجُ النَّفِيرِ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ يَعِدُهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ : إِمَّا الْعِيرُ وَإِمَّا النَّفِيرُ ، وَرَغِبَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْعِيرِ ؛ لِأَنَّهُ كَسْبٌ بِلَا قِتَالٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ . **وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ أَيْ : يُحِبُّونَ

أَنَّ الطَّائِفَةَ الَّتِي لَا حَدَّ لَهَا وَلَا مَنَعَةَ وَلَا قِتَالَ ، تَكُونُ لَهُمْ وَهِيَ الْعِيرُ ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أَيْ : هُوَ يُرِيدُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الطَّائِفَةِ الَّتِي لَهَا الشَّوْكَةُ وَالْقِتَالُ لِيُظَفِّرَكُمْ بِهِمْ وَيَنْصُرَكُمْ عَلَيْهِمْ . وَيُظْهِرَ دِينَهُ وَيَرْفَعَ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ .

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ** ﷺ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ وَنَيِّفٍ ، وَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَإِذَا هُمْ أَلْفٌ وَزِيَادَةٌ ، فَاسْتَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْقِبْلَةَ وَعَلَيْهِ رِدَاؤُهُ وَإِزَارُهُ ، ثُمَّ قَالَ : « **اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا** » قَالَ : فَمَا زَالَ يَسْتَغِيثُ رَبَّهُ وَيَدْعُوهُ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَرَدَّاهُ - أَلْبَسَهُ - ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ ! كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ ، **فَأَنْزَلَ اللهُ** ﷻ : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَئِذٍ الْتَقَوا ، فَهَزَمَ اللهُ الْمُشْرِكِينَ فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا ، وَأُسِرَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ أَيْ : يُرْدِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . **قِيلَ** : ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ مُتَتَابِعِينَ ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ لَكُمْ ، أَيْ : نَجْدَةً لَكُمْ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ** : بَيْنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ ، وَصَوْتُ الْفَارِسِ يَقُولُ : « **أَقْدِمْ حَيْزُومُ** » ، إِذْ نَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا ، قَالَ : فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ حُطِّمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ : « **صَدَقْتَ ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ** » ، فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسَرُوا سَبْعِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ ﴾ الْآيَةُ . أَيْ : وَمَا جَعَلَ اللهُ بَعْثَ الْمَلَائِكَةِ وَإِعْلَامه إِيَّاكُمْ بِهِمْ إِلَّا بُشْرَى ، ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ وَإِلَّا فَهُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى نَصْرِكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ بِدُونِ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ وَلِهَذَا كَانَ قَتْلُ صَنَادِيد قُرَيْشٍ بِأَيْدِي أَعْدَائِهِمْ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ بِأَعْيُنِ ازْدِرَائِهِمْ أَنْكَى لَهُمْ وَأَشْفَى لِصُدُورِ حِزْبِ الْإِيمَانِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أَيْ : لَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ : فِيمَا

شَرَعَهُ مِنْ قِتَالِ الْكُفَّارِ ، مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى دَمَارِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

يُذَكِّرُهُمُ اللهُ تَعَالَى بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ إِلْقَائِهِ النُّعَاسَ عَلَيْهِمْ ، أَمَانًا مِنْ خَوْفِهِمُ الَّذِي حَصَلَ لَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ تَعَالَى بِهِمْ يَوْمَ أُحُدٍ .

قُلْتُ : أَمَّا النُّعَاسُ فَقَدْ أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ وَأَمْرُ ذَلِكَ مَشْهُورٌ جِدًّا ، وَأَمَّا الآيَةُ الشَّرِيفَةُ إِنَّمَا هِيَ فِي سِيَاقِ قِصَّةِ بَدْرٍ ، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى وُقُوعِ ذَلِكَ أَيْضًا ، وَكَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ سَجِيَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ شِدَّةِ الْبَأْسِ ؛ لِتَكُونَ قُلُوبُهُمْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً بِنَصْرِ اللهِ ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ وَنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ أَيْ : مِنْ حَدَثٍ أَصْغَرَ أَوْ أَكْبَرَ ، وَهُوَ تَطْهِيرُ الظَّاهِرِ ﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أَيْ : مِنْ وَسْوَسَةٍ أَوْ خَاطِرٍ سَيِّءٍ ، وَهُوَ تَطْهِيرُ الْبَاطِنِ ، ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ أَيْ : بِالصَّبْرِ وَالْإِقْدَامِ عَلَى مُجَالَدَةِ الْأَعْدَاءِ ، وَهُوَ شَجَاعَةُ الْبَاطِنِ ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ ، وَهُوَ شَجَاعَةُ الظَّاهِرِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وَهَذِهِ نِعْمَةٌ خَفِيَّةٌ أَظْهَرَهَا اللهُ تَعَالَى لَهُمْ لِيَشْكُرُوهُ عَلَيْهَا ، وَهُوَ أَنَّهُ - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَبَارَكَ وَتَمَجَّدَ - أَوْحَى إِلَى الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ أَنْزَلَهُمْ لِنَصْرِ نَبِيِّهِ وَدِينِهِ وَحِزْبِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، يُوحِي إِلَيْهِمْ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ أَنْ يُثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ أَيْ : ثَبِّتُوا أَنْتُمُ الْمُؤْمِنِينَ وَقَوُّوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، عَنْ أَمْرِي لَكُمْ بِذَلِكَ ، سَأُلْقِي الرُّعْبَ وَالْمَذَلَّةَ وَالصَّغَارَ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَكَذَّبَ رَسُولِي ، ﴿ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ أَيْ : اِضْرِبُوا الْهَامَ فَفَلِّقُوهَا ، وَاحْتَزُّوا الرِّقَابَ فَقَطِّعُوهَا ، وَقَطِّعُوا الْأَطْرَافَ مِنْهُمْ ، وَهِيَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ . ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أَيْ : خَالَفُوهُمَا فَسَارُوا فِي شِقٍّ ، وَتَرَكُوا الشَّرْعَ وَالْإِيمَانَ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ فِي شِقٍّ ، وَمَأْخُوذٌ أَيْضًا مِنْ شَقِّ الْعَصَا وَهُوَ جَعْلُهَا فِرْقَتَيْنِ ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

هَذَا خِطَابٌ لِلْكُفَّارِ . أَيْ : ذُوقُوا هَذَا الْعَذَابَ وَالنَّكَالَ فِي الدُّنْيَا ، وَاعْلَمُوا أَيْضًا أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا عَلَى الْفِرَارِ مِنَ الزَّحْفِ بِالنَّارِ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا ﴾ أَيْ : تَقَارَبْتُمْ مِنْهُمْ وَدَنَوْتُمْ إِلَيْهِمْ . ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ أَيْ : تَفِرُّوا وَتَتْرُكُوا أَصْحَابَكُمْ . ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾ أَيْ : يَفِرُّ بَيْنَ يَدَيْ قِرْنِهِ مَكِيدَةً لِيُرِيَهُ أَنَّهُ قَدْ خَافَ مِنْهُ فَيَتْبَعُهُ ، ثُمَّ يَكُرُّ عَلَيْهِ فَيَقْتُلُهُ ، فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ . ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ أَيْ : فَرَّ مِنْ هَهُنَا إِلَى فِئَةٍ أُخْرَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُعَاوِنُهُمْ وَيُعَاوِنُونَهُ فَيَجُوزُ لَهُ ذَلِكَ ، حَتَّى لَوْ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ فَفَرَّ إِلَى أَمِيرِهِ ، أَوْ إِلَى الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ دَخَلَ فِي هَذِهِ الرُّخْصَةِ . **فَأَمَّا إِنْ كَانَ الْفِرَارُ لَا عَنْ سَبَبٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ فَإِنَّهُ حَرَامٌ وَكَبِيرَةٌ مِنَ الْكَبَائِرِ** ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَقَدْ بَآءَ ﴾ أَيْ : رَجَعَ ﴿ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ ﴾ أَيْ : مَصِيرُهُ وَمُنْقَلَبُهُ يَوْمَ مِيعَادِهِ ﴿ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾

يُبَيِّنُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ ، وَأَنَّهُ الْمَحْمُودُ عَلَى جَمِيعِ مَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِنْ خَيْرٍ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَفَّقَهُمْ لِذَلِكَ وَأَعَانَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ أَيْ : لَيْسَ بِحَوْلِكُمْ وَقُوَّتِكُمْ قَتَلْتُمْ أَعْدَاءَكُمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِكُمْ ، أَيْ بَلْ هُوَ الَّذِي أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، يُعْلِمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ النَّصْرَ لَيْسَ عَلَى كَثْرَةِ الْعَدَدِ ، وَلَا بِلُبْسِ اللَّأْمَةِ وَالْعُدَدِ ، وَإِنَّمَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ أَيْضًا فِي شَأْنِ الْقَبْضَةِ مِنَ التُّرَابِ الَّتِي حَصَبَ بِهَا وُجُوهَ الْكَافِرِينَ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَأَوْصَلَ اللهُ تِلْكَ الْحَصْبَاءَ إِلَى أَعْيُنِ الْمُشْرِكِينَ ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا نَالَهُ مِنْهَا مَا شَغَلَهُ عَنْ حَالِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ أَيْ : هُوَ الَّذِي بَلَّغَ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ ، وَكَبَتَهُمْ بِهَا لَا أَنْتَ . وَقَدْ رُوِيَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَمْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ يَوْمَ حُنَيْنٍ أَيْضًا .

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾ أَيْ : لِيُعَرِّفَ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ إِظْهَارِهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : سَمِيعُ الدُّعَاءِ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ وَالْغَلَبَ . ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ هَذِهِ بِشَارَةٌ أُخْرَى مَعَ مَا حَصَلَ مِنَ النَّصْرِ ، أَنَّهُ أَعْلَمَهُمْ تَعَالَى بِأَنَّهُ مُضْعِفُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ ، مُصَغِّرُ أَمْرِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ كُلَّ مَا لَهُمْ فِي تَبَارٍ وَدَمَارٍ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِلْكُفَّارِ : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ ﴾ أَيْ : تَسْتَنْصِرُوا وَتَسْتَقْضُوا اللهَ وَتَسْتَحْكِمُوهُ أَنْ يَفْصِلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن تَنتَهُواْ ﴾ أَيْ عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللهِ وَالتَّكْذِيبِ لِرَسُولِهِ ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، ﴿ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ ﴾ مَعْنَاهُ : وَإِنْ عُدْتُمْ إِلَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ ، نَعُدْ لَكُمْ بِمِثْلِ هَذِهِ الْوَقْعَةِ . ﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ أَيْ : وَلَوْ جَمَعْتُمْ مِنَ الْجُمُوعِ مَا عَسَى أَنْ تَجْمَعُوا . فَإِنَّ مَنْ كَانَ اللهُ مَعَهُ فَلَا غَالِبَ لَهُ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ، وَيَزْجُرُهُمْ عَنْ مُخَالَفَتِهِ ، وَالتَّشَبُّهِ بِالْكَافِرِينَ بِهِ الْمُعَانِدِينَ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ ﴾ أَيْ : تَتْرُكُوا طَاعَتَهُ وَامْتِثَالَ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ ﴿ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ أَيْ : بَعْدَ مَا عَلِمْتُمْ مَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ . ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ الْمُشْرِكُونَ ، وَقِيلَ : هُمُ الْمُنَافِقُونَ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الضَّرْبَ مِنْ بَنِي آدَمَ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ﴾ أَيْ : عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ ﴿ ٱلْبُكْمُ ﴾ عَنْ فَهْمِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فَهَؤُلَاءِ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ دَابَّةٍ مِمَّا سِوَاهُمْ مُطِيعَةٌ للهِ فِيمَا خَلَقَهَا لَهُ ، وَهَؤُلَاءِ خُلِقُوا لِلْعِبَادَةِ فَكَفَرُوا .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ لَا فَهْمَ لَهُمْ صَحِيحٌ ، وَلَا قَصْدَ لَهُمْ صَحِيحٌ ، لَوْ فُرِضَ أَنَّ لَهُمْ فَهْمًا ،

فَقَالَ : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ أَيْ : لَأَفْهَمَهُمْ ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : وَلَكِنْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ ، فَلَمْ يُفْهِمْهُمْ ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ أَيْ : أَفْهَمَهُمْ ﴿ لَتَوَلَّوا ﴾ عَنْ ذَلِكَ قَصْدًا وَعِنَادًا ، بَعْدَ فَهْمِهِمْ ذَلِكَ ﴿ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ عَنْهُ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

قَالَ الْبُخَارِيُّ : ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ ﴾ أَجِيبُوا ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ لِمَا يُصْلِحُكُمْ . ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : يَحُولُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ ، وَبَيْنَ الْكَافِرِ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ . **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : يَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤْمِنَ وَلَا يَكْفُرَ إِلَّا بِإِذْنِهِ .

وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

يُحَذِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ فِتْنَةً ﴾ أَيْ : اخْتِبَارًا وَمِحْنَةً يَعُمُّ بِهَا الْمُسِيءَ وَغَيْرَهُ ، لَا يَخُصُّ بِهَا أَهْلَ الْمَعَاصِي ، وَلَا مَنْ بَاشَرَ الذَّنْبَ ، بَلْ يَعُمُّهَا حَيْثُ لَمْ تُدْفَعْ وَتُرْفَعْ . **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ** : أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يُقِرُّوا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ فَيَعُمَّهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ ، وَهَذَا تَفْسِيرٌ حَسَنٌ جِدًّا .

وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، حَيْثُ كَانُوا قَلِيلِينَ فَكَثَّرَهُمْ ، وَمُسْتَضْعَفِينَ خَائِفِينَ فَقَوَّاهُمْ وَنَصَرَهُمْ ، وَفُقَرَاءَ عَالَةً فَرَزَقَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَاسْتَشْكَرَهُمْ فَأَطَاعُوهُ ، وَامْتَثَلُوا جَمِيعَ مَا أَمَرَهُمْ ، وَهَذَا كَانَ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ حَالَ مَقَامِهِمْ بِمَكَّةَ ، قَلِيلِينَ مُسْتَخْفِينَ ، مُضْطَهَدِينَ ، يَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَهُمُ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ بِلَادِ اللهِ ، مِنْ مُشْرِكٍ وَمَجُوسِيٍّ وَرُومِيٍّ كُلُّهم أَعْدَاءٌ لَهُمْ لِقِلَّتِهِمْ ، وَعَدَمِ قُوَّتِهِمْ فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبُهُمْ ، حَتَّى أَذِنَ اللهُ لَهُمْ فِي الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَآوَاهُمْ إِلَيْهَا ، وَقَيَّضَ لَهُمْ أَهْلَهَا ، آوَوْا وَنَصَرُوا يَوْمَ بَدْرٍ وَغَيْرِه ، وَوَاسَوْا بِأَمْوَالِهِمْ وَبَذَلُوا مُهَجَهُمْ فِي طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

فِي الصَّحِيحَيْنِ قِصَّةُ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى قُرَيْشٍ يُعْلِمُهُمْ بِقَصْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِيَّاهُمْ عَامَ الْفَتْحِ ، فَأَطْلَعَ اللهُ رَسُولَهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَبَعَثَ فِي إِثْرِ الْكِتَابِ فَاسْتَرْجَعَهُ ، وَاسْتَحْضَرَ حَاطِبًا فَأَقَرَّ بِمَا صَنَعَ ، وَفِيهَا فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ ، فَإِنَّهُ قَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : « **دَعْهُ فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ ، فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ** » . **قُلْتُ** : وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ وَإِنْ صَحَّ أَنَّهَا وَرَدَتْ عَلَى سَبَبٍ خَاصٍّ ، فَالْأَخْذُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ عِنْدَ الْجَمَاهِيرِ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَالْخِيَانَةُ تَعُمُّ الذُّنُوبَ الصِّغَارَ وَالْكِبَارَ اللَّازِمَةَ وَالْمُتَعَدِّيَةَ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ **قِيلَ** : بِتَرْكِ سُنَّتِهِ ، وَارْتِكَابِ مَعْصِيَتِهِ ﴿ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ ﴾ **قِيلَ** : الْأَمَانَةُ : الْأَعْمَالُ الَّتِي ائْتَمَنَ اللهُ عَلَيْهَا الْعِبَادَ ، يَعْنِي : الْفَرِيضَةَ ، يَقُولُ : ﴿ لَا تَخُونُوا۟ ﴾ لَا تَنْقُضُوهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أَيْ : اخْتِبَارٌ وَامْتِحَانٌ مِنْهُ لَكُمْ ، إِذْ أَعْطَاكُمُوهَا ؛ لِيَعْلَمَ أَتَشْكُرُونَهُ عَلَيْهَا وَتُطِيعُونَهُ فِيهَا ، أَوْ تَشْتَغِلُونَ بِهَا عَنْهُ ، وَتَعْتَاضُونَ بِهَا مِنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : ثَوَابُهُ وَعَطَاؤُهُ وَجَنَّاتُهُ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، فَإِنَّهُ قَدْ يُوجَدُ مِنْهُمْ عَدُوٌّ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾

﴿ فُرْقَانًا ﴾ **قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ** : أَيْ : فَصْلًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، فَإِنَّ مَنِ اتَّقَى اللهَ بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ وُفِّقَ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ نَصْرِهِ وَنَجَاتِهِ ، وَمَخْرَجِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَسَعَادَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ لِيُقَيِّدُوكَ . الْإِثْبَاتُ : هُوَ الْحَبْسُ وَالْوَثَاقُ ، وَهُوَ الْغَالِبُ مِنْ صَنِيعِ مَنْ أَرَادَ غَيْرَهُ بِسُوءٍ . **وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ أَيْ : فَمَكَرْتُ بِهِمْ بِكَيْدِي الْمَتِينِ حَتَّى خَلَّصْتُكَ مِنْهُمْ .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِ قُرَيْشٍ وَعُتُوِّهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَدَعْوَاهُمُ الْبَاطِلَ عِنْدَ سَمَاعِ آيَاتِهِ حِينَ تُتْلَى عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : ﴿ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ﴾ ، وَهَذَا مِنْهُمْ قَوْلٌ بِلَا فِعْلٍ ، وَإِلَّا فَقَدْ تُحُدُّوا غَيْرَ مَا مَرَّةٍ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ فَلَا يَجِدُونَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، وَإِنَّمَا هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُمْ يَغُرُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ . وَمَعْنَى : ﴿ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ، وَهُوَ جَمْعُ أُسْطُورَةٍ ، أَيْ : كُتُبُهُمْ اقْتَبَسَهَا ، فَهُوَ يَتَعَلَّمُ مِنْهَا وَيَتْلُوهَا عَلَى النَّاسِ ، وَهَذَا هُوَ الْكَذِبُ الْبَحْتُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ هَذَا مِنْ كَثْرَةِ جَهْلِهِمْ وَشِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ ، وَهَذَا مِمَّا عِيبُوا بِهِ ، وَكَانَ الْأَوْلَى لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَاهْدِنَا لَهُ وَوَفِّقْنَا لِاتِّبَاعِهِ ، وَلَكِنِ اسْتَفْتَحُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَاسْتَعْجَلُوا الْعَذَابَ وَتَقْدِيمَ الْعُقُوبَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: كَانَ فِيهِمْ أَمَانَانِ : النَّبِيُّ ﷺ ، وَالِاسْتِغْفَارُ ، فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَبَقِيَ الِاسْتِغْفَارُ . **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ مَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَ قَوْمًا وَأَنْبِيَاؤُهُمْ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ حَتَّى يُخْرِجَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ ﴾ يَقُولُ : وَفِيهِمْ مَنْ قَدْ سَبَقَ لَهُ مِنَ اللهِ الدُّخُولُ فِي الْإِيمَانِ ، ﴿ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ يَعْنِي : يُصَلُّونَ ، يَعْنِي بِهَذَا أَهْلَ مَكَّةَ .

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ أَهْلٌ لِأَنْ يُعَذِّبَهُمْ وَلَكِنْ لَمْ يُوقِعْ ذَلِكَ بِهِمْ لِبَرَكَةِ مَقَامِ الرَّسُولِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ، وَلِهَذَا لَمَّا خَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ أَوْقَعَ اللهُ بِهِمْ بَأْسَهُ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَقُتِلَ صَنَادِيدُهُمْ ، وَأُسِرَ سَرَاتُهُمْ ، وَأَرْشَدَهُمْ تَعَالَى إِلَى الِاسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي هُمْ مُتَلَبِّسُونَ بِهَا مِنَ الشِّرْكِ وَالْفَسَادِ ، **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : لَمْ يَكُنِ الْقَوْمُ يَسْتَغْفِرُونَ وَلَوْ كَانُوا يَسْتَغْفِرُونَ لَمَا عُذِّبُوا . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ أَيْ : وَكَيْفَ لَا يُعَذِّبُهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، أَيْ : الَّذِي بِمَكَّةَ : يَصُدُّونَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهُ عَنِ الصَّلَاةِ فِيهِ وَالطَّوَافِ بِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ أَيْ : هُمْ لَيْسُوا أَهْلَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّمَا أَهْلُهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ، ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ هُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ﷺ .

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ ، وَمَا كَانُوا يُعَامِلُونَهُ بِهِ ،فَقَالَ : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ المُكَاءُ : الصَّفِيرُ . وَالتَّصْدِيَةُ : التَّصْفِيقُ .

قَوْلُهُ : ﴿ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ هُوَ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

هِيَ عَامَّةٌ وَإِنْ كَانَ سَبَبُ نُزُولِهَا خَاصًّا ، فَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْكُفَّارَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ؛ لِيَصُدُّوا عَنِ اتِّبَاعِ طَرِيقِ الْحَقِّ ، فَسَيَفْعَلُونَ ذَلِكَ ثُمَّ تَذْهَبُ أَمْوَالُهُمْ ﴿ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ أَيْ : نَدَامَةٌ ، حَيْثُ لَمْ تُجْدِ شَيْئًا ؛ لأَنَّهُمْ أَرَادُوا إِطْفَاءَ نُورِ اللهِ وَظُهُورَ كَلِمَتِهِمْ عَلَى كَلِمَةِ الْحَقِّ ، وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، وَنَاصِرُ دِينِهِ ، وَمُعْلِنُ كَلِمَتِهِ ، وَمُظْهِرُ دِينِهِ عَلَى كُلِّ دِينٍ ، فَهَذَا الْخِزْيُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ، فَمَنْ عَاشَ مِنْهُمْ رَأَى بِعَيْنِهِ وَسَمِعَ بِأُذُنِهِ مَا يَسُوؤُهُ ، وَمَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ أَوْ مَاتَ فَإِلَى الْخِزْيِ الأَبَدِيِّ وَالْعَذَابِ السَّرْمَدِيِّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ قِيلَ الْمَعْنَى : فَيَمِيزُ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ ، ﴿ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ ﴾ أَيْ : يَجْمَعَهُ كُلَّهُ ، وَهُوَ جَمْعُ الشَّيْءِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي السَّحَابِ ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ [النور : ٤٣] أَيْ : مِتَرَاكِمًا مُتَرَاكِبًا ﴿ فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ هُمُ الْخَاسِرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ ﴾ أَيْ : عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمُشَاقَّةِ وَالْعِنَادِ ، وَيَدْخُلُوا فِي الإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ وَالإِنَابَةِ ، ﴿ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ أَيْ : مِنْ كُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ . ﴿ وَإِن يَعُودُواْ ﴾ أَيْ : يَسْتَمِرُّوا عَلَى مَا هُمْ فِيهِ ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

أَيْ : فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُنَا فِي الْأَوَّلِينَ ، أَنَّهُمْ إِذَا كَذَّبُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَى عِنَادِهِمْ أَنَّا نُعَاجِلُهُمْ بِالْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : فِي قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ . ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ يَعْنِي : لَا يَكُونُ شِرْكٌ ، **وَقِيلَ** : ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ : حَتَّى لَا يُفْتَنَ مُسْلِمٌ عَنْ دِينِهِ . ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ **قَالَ فَرِيقٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : يُخْلِصُ التَّوْحِيدَ لله . **وَقَالَ آخَرُونَ** : أَنْ يُقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ . ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ ﴾ أَيْ : بِقِتَالِكُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ ، فَكُفُّوا عَنْهُ وَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا بَوَاطِنَهُمْ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾[التوبة : ٥] . **وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى** ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ ﴾[التوبة : ١١] ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ أَيْ : وَإِنِ اسْتَمَرُّوا عَلَى خِلَافِكُمْ وَمُحَارَبَتِكُمْ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ وَسَيِّدُكُمْ ، وَنَاصِرُكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ .

۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

يُبَيِّنُ تَعَالَى تَفْصِيلَ مَا شَرَعَهُ مُخَصِّصًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الشَّرِيفَةِ - مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ - بِإِحْلَالِ الْغَنَائِمِ . **وَالْغَنِيمَةُ** : هِيَ الْمَالُ الْمَأْخُوذُ مِنَ الْكُفَّارِ بِإِيجَافِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ ، **وَالْفَيْءُ** : مَا أُخِذَ مِنْهُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ ، كَالْأَمْوَالِ الَّتِي يُصَالِحُونَ عَلَيْهَا ، أَوْ يُتَوَفَّوْنَ عَنْهَا وَلَا وَارِثَ لَهُمْ ، وَالْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾ تَوْكِيدٌ لِتَخْمِيسِ كُلِّ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ حَتَّى الْخَيْطَ وَالْمِخْيَطَ . **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ قَالَ : الَّذِي لله فَلِنَبِيِّهِ ، وَالَّذِي لِلرَّسُولِ لِأَزْوَاجِهِ . **وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ** : خُمُسُ اللهِ وَالرَّسُولِ وَاحِدٌ ،كَانَ يَحْمِلُ مِنْهُ وَيَصْنَعُ فِيهِ مَا شَاءَ ، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ ، وَهَذَا أَعَمُّ وَأَشْمَلُ ، وَهُوَ أَنَّهُ ﷺ يَتَصَرَّفُ فِي الْخُمُسِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لَهُ بِمَا شَاءَ ، وَيَرُدُّهُ فِي أُمَّتِهِ كَيْفَ شَاءَ ، وَقَدْ كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْغَنَائِمِ شَيْءٌ يَصْطَفِيهِ لِنَفْسِهِ : عَبْدٌ أَوْ أَمَةٌ أَوْ فَرَسٌ أَوْ سَيْفٌ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ . **وَأَمَّا سَهْمُ ذَوِي الْقُرْبَى** : فَإِنَّهُ يُصْرَفُ إِلَى بَنِي هَاشِمٍ ، وَبَنِي الْمُطَّلِبِ ؛ لِأَنَّ بَنِي الْمُطَّلِبِ وَازَرُوا بَنِي هَاشِمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَفِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ ، وَدَخَلُوا مَعَهُمْ فِي الشِّعْبِ غَضَبًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَحِمَايَةً لَهُ ، مُسْلِمُهُمْ طَاعَةً لله وَلِرَسُولِهِ ، وَكَافِرُهُمْ حَمِيَّةً لِلْعَشِيرَةِ وَأَنَفَةً وَطَاعَةً لِأَبِي طَالِبٍ عَمِّ رَسُولِ اللهِ

ﷺ . وَقَوْلُهُ: ﴿ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ أَيْ : أَيْتَامُ الْمُسْلِمِينَ ﴿ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾ : هُمُ الْمَحَاوِيجُ ، الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَسُدُّ خَلَّتَهُمْ وَمَسْكَنَتَهُمْ ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ : هُوَ الْمُسَافِرُ ، أَوِ الْمُرِيدُ لِلسَّفَرِ إِلَى مَسَافَةٍ تُقْصَرُ فِيهَا الصَّلَاةُ ، وَلَيْسَ لَهُ مَا يُنْفِقُهُ فِي سَفَرِهِ ذَلِكَ ، ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ أَيْ : اِمْتَثِلُوا مَا شَرَعْنَا لَكُمْ مِنَ الْخُمُسِ فِي الْغَنَائِمِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى رَسُولِهِ . ﴿ يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يُنَبِّهُ تَعَالَى عَلَى نِعْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى خَلْقِهِ ، بِمَا فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِبَدْرٍ ، وَيُسَمَّى الْفُرْقَانُ ؛ لِأَنَّ اللهَ أَعْلَى فِيهِ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ عَلَى كَلِمَةِ الْبَاطِلِ ، وَأَظْهَرَ دِينَهُ وَنَصَرَ نَبِيَّهُ وَحِزْبَهُ . **وَيَومُ الفُرْقَانِ** : يَوْمُ بَدْرٍ .

إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَوْمِ الْفُرْقَانِ : ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : إِذْ أَنْتُمْ نُزُولٌ بِعُدْوَةِ الْوَادِي الدُّنْيَا الْقَرِيبَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴿ وَهُم ﴾ أَيْ : الْمُشْرِكُونَ نُزُولٌ ﴿ بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ ﴾ أَيْ : الْبَعِيدَةُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى نَاحِيَةِ مَكَّةَ ﴿ وَٱلرَّكْبُ ﴾ أَيْ : الْعِيرُ الَّذِي فِيهِ أَبُو سُفْيَانَ بِمَا مَعَهُ مِنَ التِّجَارَةِ ﴿ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ أَيْ : مِمَّا يَلِي سَيْفَ الْبَحْرِ ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ وَالْمُشْرِكُونَ إِلَى مَكَانٍ ﴿ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ﴾ . **عَنْ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ** : وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ مِيعَادٍ مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ ، ثُمَّ بَلَغَكُمْ كَثْرَةَ عَدَدِهِمْ وَقِلَّةَ عَدَدِكُمْ مَا لَقِيتُمُوهُمْ ، ﴿ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أَيْ لِيَقْضِيَ اللهُ مَا أَرَادَ بِقُدْرَتِهِ مِنْ إِعْزَازِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، وَإِذْلَالِ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ ، مِنْ غَيْرِ مَلَأٍ مِنْكُمْ . ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ أَيْ أَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : إِنَّمَا جَمَعَكُمْ مَعَ عَدُوِّكُمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ ؛ لِيَنْصُرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَيَرْفَعُ كَلِمَةَ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ؛ لِيَصِيرَ الْأَمْرُ ظَاهِرًا ، وَالْحُجَّةُ قَاطِعَةً ، وَالْبَرَاهِينُ سَاطِعَةً ، وَلَا يَبْقَى لِأَحَدٍ حُجَّةٌ وَلَا شُبْهَةٌ ، فَحِينَئِذٍ يَهْلِكُ مَنْ هَلَكَ ، أَيْ يَسْتَمِرُّ فِي الْكُفْرِ مَنِ اسْتَمَرَّ فِيهِ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ ، أَنَّهُ مُبْطِلٌ لِقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، ﴿ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ ﴾ أَيْ : يُؤْمِنُ مَنْ آمَنَ ﴿ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ أَيْ : حُجَّةٍ وَبَصِيرَةٍ ، وَالْإِيمَانُ هُوَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ ﴾ أَيْ : لِدُعَائِكُمْ وَتَضَرُّعِكُمْ وَاسْتِغَاثَتِكُمْ بِهِ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : بِكُمْ وَأَنَّكُمْ تَسْتَحِقُّونَ النَّصْرَ عَلَى أَعْدَائِكُمُ الْكَفَرَةِ الْمُعَانِدِينَ .

إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ

وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ : أَرَاهُ اللهُ إِيَّاهُمْ فِي مَنَامِهِ قَلِيلًا ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ ، فَكَانَ تَثْبِيتًا لَهُمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ ﴾ أَيْ : لَجَبُنْتُمْ عَنْهُمْ ، وَاخْتَلَفْتُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أَيْ : مِنْ ذَلِكَ بِأَنْ أَرَاكَهُمْ قَلِيلًا ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أَيْ : بِمَا تُجِنُّهُ الضَّمَائِرُ وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ الْأَحْشَاءُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ وَهَذَا أَيْضًا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِهِمْ ، إِذْ أَرَاهُمْ إِيَّاهُمْ قَلِيلًا فِي رَأْيِ الْعَيْنِ ، فَيُجَرِّئُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيُطَمِّعُهُمْ فِيهِمْ . ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ **عَنْ عِكْرِمَةَ** ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ ﴾ الْآيَةُ . **قَالَ** : حَضَّضَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ . **وَعَنْ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أَيْ : لِيُلْقِيَ بَيْنَهُمُ الْحَرْبَ لِلنِّقْمَةِ مِمَّنْ أَرَادَ الِانْتِقَامَ مِنْهُ ، وَالْإِنْعَامَ عَلَى مَنْ أَرَادَ تَمَامَ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ وِلَايَتِهِ ، وَمَعْنَى هَذَا : أَنَّهُ تَعَالَى أَغْرَى كُلًّا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بِالْآخَرِ وَقَلَّلَهُ فِي عَيْنِهِ لِيَطْمَعَ فِيهِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ الْمُوَاجَهَةِ ، فَلَمَّا الْتَحَمَ الْقِتَالُ وَأَيَّدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ، بَقِيَ حِزْبُ الْكُفَّارِ يَرَى حِزْبَ الْإِيمَانِ ضِعْفَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [آل عمران : ١٣] ، وَهَذَا هُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ، فَإِنَّ كُلًّا مِنْهُمَا حَقٌّ وَصِدْقٌ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

هَذَا تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ آدَابَ اللِّقَاءِ ، وَطَرِيقَ الشَّجَاعَةِ عِنْدَ مُوَاجَهَةِ الْأَعْدَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ ﴾ . فَأَمَرَ تَعَالَى بِالثَّبَاتِ عِنْدَ قِتَالِ الْأَعْدَاءِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى مُبَارَزَتِهِمْ ، فَلَا يَفِرُّوا وَلَا يُنَكِّلُوا وَلَا يَجْبُنُوا ، وَأَنْ يَذْكُرُوا اللهَ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَلَا يَنْسَوْهُ ، بَلْ يَسْتَعِينُوا بِهِ وَيَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ ، وَيَسْأَلُوهُ النَّصْرَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، وَأَنْ يُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ فِي حَالِهِمْ ذَلِكَ ، فَمَا أَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِهِ ائْتَمَرُوا . وَمَا نَهَاهُمْ عَنْهُ انْزَجَرُوا ، **وَلَا** يَتَنَازَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَيْضًا فَيَخْتَلِفُوا ، فَيَكُونَ سَبَبًا لِتَخَاذُلِهِمْ وَفَشَلِهِمْ ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ **أَيْ** :

قُوَّتُكُمْ وَحِدَّتُكُمْ ، وَمَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الإِقْبَالِ ، ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى بَعْدَ أَمْرِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِخْلَاصِ فِي الْقِتَالِ فِي سَبِيلِهِ وَكَثْرَةِ ذِكْرِهِ ، نَاهِيًا لَهُمْ عَنِ التَّشَبُّهِ بِالْمُشْرِكِينَ فِي خُرُوجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴿ بَطَرًا ﴾ ، أَيْ : دَفْعًا لِلْحَقِّ ﴿ وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ وَهُوَ الْمُفَاخَرَةُ وَالتَّكَبُّرُ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ أَبُو جَهْلٍ لَمَّا قِيلَ لَهُ : إِنَّ الْعِيرَ قَدْ نَجَا فَارْجِعُوا ، فَقَالَ : لَا وَاللهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَ مَاءَ بَدْرٍ ، وَنَنْحَرَ الْجُزُرَ ، وَنَشْرَبَ الْخَمْرَ ، وَتَعْزِفَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ ، وَتَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ بِمَكَانِنَا فِيهَا يَوْمَنَا أَبَدًا ، فَانْعَكَسَ ذَلِكَ عَلَيْهِ أَجْمَعَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا وَرَدُوا مَاءَ بَدْرٍ وَرَدُوا بِهِ الْحِمَامَ ، وَرُكِمُوا فِي أَطْوَاءِ بَدْرٍ مُهَانِينَ أَذِلَّاءَ ، صَغَرَةً أَشْقِيَاءَ ، فِي عَذَابٍ سَرْمَدِيٍّ أَبَدِيٍّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أَيْ : عَالِمٌ بِمَا جَاءُوا بِهِ وَلَهُ ؛ وَلِهَذَا جَازَاهُمْ عَلَيْهِ شَرَّ الْجَزَاءِ لَهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾ الْآيَةُ ، حَسَّنَ لَهُمْ - لَعَنَهُ اللهُ - مَا جَاءُوا لَهُ ، وَمَا هَمُّوا بِهِ ، وَأَطْمَعَهُمْ أَنَّهُ لَا غَالِبَ لَهُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وَنَفَى عَنْهُمُ الْخَشْيَةَ مِنْ أَنْ يُؤْتَوْا فِي دِيَارِهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ بَنِي بَكْرٍ ، فَقَالَ : إِنِّي جَارٌ لَكُمْ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ تَبَدَّى لَهُمْ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ سَيِّدِ بَنِي مُدْلِجٍ ، كَبِيرِ تِلْكَ النَّاحِيَةِ ، وَكُلٌّ ذَلِكَ مِنْهُ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ **ذُكِرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **فِي هَذِهِ الْآيَةِ** : لَمَّا دَنَا الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، قَلَّلَ اللهُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَعْيُنِ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَلَّلَ الْمُشْرِكِينَ فِي أَعْيُنِ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ : غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ، وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ مِنْ قِلَّتِهِمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ سَيَهْزِمُونَهُمْ ، لَا يَشُكُّونَ فِي ذَلِكَ . ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يَعْتَمِدُ عَلَى جَنَابِهِ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أَيْ : لَا يُضَامُ مَنِ الْتَجَأَ إِلَيْهِ ، فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ مَنِيعُ الْجَنَابِ عَظِيمُ السُّلْطَانِ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِي أَفْعَالِهِ ، لَا يَضَعُهَا إِلَّا فِي مَوَاضِعِهَا ، فَيَنْصُرُ مَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ ، وَيَخْذُلُ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِذَلِكَ .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَوْ عَايَنْتَ يَا مُحَمَّدُ حَالَ تَوَفِّي المَلَائِكَةِ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ ، لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا هَائِلًا فَظِيعًا مُنْكَرًا ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴾ وَيَقُولُونَ لَهُمْ : ﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ ، **عَنْ مُجَاهِدٍ** ﴿ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴾ : اسْتَاهُهُمْ ، قَالَ : يَوْمُ بَدْرٍ . وَهَذَا السِّيَاقُ وَإِنْ كَانَ سَبَبُهُ وَقْعَةَ بَدْرٍ ، وَلَكِنَّهُ عَامٌّ فِي حَقِّ كُلِّ كَافِرٍ ، وَلِهَذَا لَمْ يُخَصِّصْهُ تَعَالَى بِأَهْلِ بَدْرٍ ، بَلْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام : ٩٣] أَيْ : بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ بِالضَّرْبِ فِيهِمْ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ ، إِذِ اسْتَصْعَبَتْ أَنْفُسُهُمْ وَامْتَنَعَتْ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْأَجْسَادِ ، أَنْ تَخْرُجَ قَهْرًا ، وَذَلِكَ إِذَا بَشَّرُوهُمْ بِالْعَذَابِ وَالْغَضَبِ مِنَ اللهِ ، وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ المَلَائِكَةَ تَقُولُ لَهُمْ : ﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أَيْ : هَذَا الْجَزَاءُ بِسَبَبِ مَا عَمِلْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا جَازَاكُمُ اللهُ بِهَا هَذَا الْجَزَاءَ ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أَيْ : لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ بَلْ هُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَجُورُ .

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَعَلَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الْمُكَذِّبُونَ بِمَا أُرْسِلْتُ بِهِ يَا مُحَمَّدُ ، كَمَا فَعَلَ الْأُمَمُ الْمُكَذِّبَةُ قَبْلَهُمْ ، فَفَعَلْنَا بِهِمْ مَا هُوَ دَأْبُنَا ، أَيْ : عَادَتُنَا وَسُنَّتُنَا فِي أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِالرُّسُلِ ، الْكَافِرِينَ بِآيَاتِ اللهِ ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ ، أَهْلَكَهُمْ وَأَخَذَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أَيْ : لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ ، وَلَا يَفُوتُهُ هَارِبٌ .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عَدْلِهِ وَقِسْطِهِ فِي حُكْمِهِ بِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يُغَيِّرُ نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِسَبَبِ ذَنْبٍ ارْتَكَبَهُ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ أَيْ : كَصُنْعِهِ بِآلِ فِرْعَوْنَ

وَأَمْثَالِهِمْ حِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِهِ ، أَهْلَكَهُمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَسَلَبَهُمْ تِلْكَ النِّعَمِ الَّتِي أَسَدَاهَا إِلَيْهِمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ فِي ذَلِكَ بَلْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ .

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ شَرَّ مَا دَبَّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَقَضُوهُ ، وَكُلَّمَا أَكَّدُوهُ بِالْأَيْمَانِ نَكَثُوهُ ﴿ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَخَافُونَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ اِرْتَكَبُوهُ مِنَ الْآثَامِ . ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ ﴾ أَيْ : تَغْلِبُهُمْ وَتَظْفَرُ بِهِمْ فِي حَرْبٍ : ﴿ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ أَيْ : نَكِّلْ بِهِمْ ، وَمَعْنَاهُ : غَلِّظْ عُقُوبَتَهُمْ ، وَأَثْخِنْهُمْ قَتْلًا لِيَخَافَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ ، وَيَصِيرُوا لَهُمْ عِبْرَةً ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ، **قَالَ السُّدِّيُّ** : يَقُولُ : لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ أَنْ يَنْكُثُوا فَيُصْنَعُ بِهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ .

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ ﴾ قَدْ عَاهَدْتَهُمْ ﴿ خِيَانَةً ﴾ أَيْ : نَقْضًا لِمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْمَوَاثِيقِ وَالْعُهُودِ ﴿ فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : عَهْدَهُمْ ﴿ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أَيْ : أَعْلِمْهُمْ بِأَنَّكَ قَدْ نَقَضْتَ عَهْدَهُمْ حَتَّى يَبْقَى عِلْمُكَ وَعِلْمُهُمْ بِأَنَّكَ حَرْبٌ لَهُمْ وَهُمْ حَرْبٌ لَكَ ، وَأَنَّهُ لَا عَهْدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَلَى السَّوَاءِ تَسْتَوِي أَنْتَ وَهُمْ فِي ذَلِكَ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ أَيْ : حَتَّى وَلَوْ فِي حَقِّ الْكُفَّارِ لَا يُحِبُّهَا أَيْضًا .

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ﴾ أَيْ : فَاتُونَا فَلَا نَقْدِرُ عَلَيْهِمْ ، بَلْ هُمْ تَحْتَ قَهْرِ قُدْرَتِنَا ، وَفِي قَبْضَةِ مَشِيئَتِنَا ، فَلَا يُعْجِزُونَنَا ، ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى بِإِعْدَادِ آلَاتِ الْحَرْبِ لِمُقَاتَلَتِهِمْ حَسَبَ الطَّاقَةِ وَالْإِمْكَانِ وَالِاسْتِطَاعَةِ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا

ٱسْتَطَعْتُم ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَمْكَنَكُمْ ﴿ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ تُرْهِبُونَ ﴾ أَيْ : تُخَوِّفُونَ ﴿ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْكُفَّارِ ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَقِيلَ : هُمُ الْمُنَافِقُونَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ فِي الْجِهَادِ ، فَإِنَّهُ يُوَفَّى إِلَيْكُمْ عَلَى التَّمَامِ وَالْكَمَالِ .

۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : إِذَا خِفْتَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ، فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ ، فَإِنِ اسْتَمَرُّوا عَلَى حَرْبِكَ وَمُنَابَذَتِكَ فَقَاتِلْهُمْ ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ ﴾ أَيْ : مَالُوا ﴿ لِلسَّلْمِ ﴾ أَيْ : الْمُسَالَمَةِ وَالْمُصَالَحَةِ وَالْمُهَادَنَةِ ﴿ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ أَيْ : فَمِلْ إِلَيْهَا ، وَاقْبَلْ مِنْهُمْ ذَلِكَ . ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : صَالِحْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، فَإِنَّ اللهَ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ ، وَلَوْ كَانُوا يُرِيدُونَ بِالصُّلْحِ خَدِيعَةً ؛ لِيَتَقَوَّوا وَيَسْتَعِدُّوا ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : كَافِيكَ وَحْدَهُ ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : جَمَعَهَا عَلَى الْإِيمَانِ بِكَ ، وَعَلَى طَاعَتِكَ ، وَمُنَاصَرَتِكَ وَمُؤَازَرَتِكَ . ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : لِمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ ، فَإِنَّ الْأَنْصَارَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، وَأُمُورٌ يَلْزَمُ مِنْهَا التَّسَلْسُلُ فِي الشَّرِّ ، حَتَّى قَطَعَ اللهُ ذَلِكَ بِنُورِ الْإِيمَانِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : عَزِيزُ الْجَنَابِ ، فَلَا يُخَيِّبُ رَجَاءَ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ ، حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

يُحَرِّضُ تَعَالَى نَبِيَّهُ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، وَمُنَاجَزَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُبَارَزَةِ الْأَقْرَانِ ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ حَسْبُهُمْ ، أَيْ : كَافِيهِمْ وَنَاصِرُهُمْ ، وَمُؤَيِّدُهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ وَإِنْ

كَثُرَتْ أَعْدَادُهُمْ وَتَرَادَفَتْ أَمْدَادُهُمْ ، وَلَوْ قَلَّ عَدَدُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ أَيْ : حُثَّهُمْ وَذَمِّرْ عَلَيْهِ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَآمِرًا** : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ كُلُّ وَاحِدٍ بِعَشْرَةٍ ، ثُمَّ نُسِخَ هَذَا الْأَمْرُ وَبَقِيَتِ الْبِشَارَةُ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ** : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، حَتَّى فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشْرَةٍ ، ثُمَّ جَاءَ التَّخْفِيفُ ، فَقَالَ : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾ قَالَ : خَفَّفَ اللهُ عَنْهُمْ مِنَ الْعِدَّةِ ، وَنَقَصَ مِنَ الصَّبْرِ بِقَدْرِ مَا خَفَّفَ عَنْهُمْ . **وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ** ﷺ : كُتِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرَّ عِشْرُونَ مِنْ مِائَتَيْنِ ، ثُمَّ خَفَّفَ اللهُ عَنْهُمْ فَقَالَ : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ فَلَا يَنْبَغِي لِمِائَةٍ أَنْ يَفِرُّوا مِنْ مِائَتَيْنِ .

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه **قَالَ** : اِسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ فِي الْأُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ : « **إِنَّ اللهَ قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ** » فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ ، ثُمَّ عَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالْأَمْسِ** » فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ ، فَقَالَ لِلنَّاسِ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ نَرَى أَنْ تَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَأَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمُ الْفِدَاءَ ، قَالَ : فَذَهَبَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْغَمِّ ، فَعَفَا عَنْهُمْ وَقَبِلَ مِنْهُمُ الْفِدَاءَ ، قَالَ : وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ﴾ ، فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ : ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . قَالَ : غَنَائِمُ بَدْرٍ قَبْلَ أَنْ يُحِلَّهَا لَهُمْ ، يَقُولُ : لَوْلَا أَنِّي لَا أُعَذِّبُ مَنْ عَصَانِي حَتَّى أَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ ، لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ أَيْ : لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ . **وَقِيلَ** : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ يَعْنِي : فِي أُمِّ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ ، أَنَّ الْمَغَانِمَ وَالْأُسَارَى حَلَالٌ لَكُمْ ، ﴿ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ ﴾ مِنَ الْأُسَارَى ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ الْآيَةَ . فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذُوا مِنَ الْأُسَارَى الْفِدَاءَ .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

بَعَثَتْ قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فِي فِدَاءِ أَسْرَاهُمْ ، فَفَدَى كُلُّ قَوْمٍ أَسِيرَهُمْ بِمَا رَضُوا ، وَقَالَ الْعَبَّاسُ : يَا رَسُولَ الله قَدْ كُنْتُ مُسْلِمًا ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **اللهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ ، فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَإِنَّ اللهَ يَجْزِيكَ ، وَأَمَّا ظَاهِرُكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْنَا ، فَافْتَدِ نَفْسَكَ وَابْنَيْ أَخِيكَ : نَوْفَلَ بْنَ الحَارِثِ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَعَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الله ، وَحَلِيفَكَ عُتْبَةَ بْنَ عَمْرٍو أَخِي بَنِي الحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ** » قَالَ : مَا ذَاكَ عِنْدِي يَا رَسُولَ الله ، قَالَ : « **فَأَيْنَ المَالُ الَّذِي دَفَنْتَهُ أَنْتَ وَأُمُّ الْفَضْلِ ؟ فَقُلْتَ لَهَا : إِنْ أُصِبْتُ فِي سَفَرِي هَذَا فَهَذَا المَالُ الَّذِي دَفَنْتُهُ لِبَنِيَّ الْفَضْلِ وَعَبْدِ الله وَقُثَمَ** » قَالَ : وَالله يَا رَسُولَ الله إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ الله ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مَا عَلِمَهُ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ أُمِّ الْفَضْلِ ، فَاحْسِبْ لِي يَا رَسُولَ الله مَا أَصَبْتُمْ مِنِّي عِشْرِينَ أُوقِيَّةً مِنْ مَالٍ كَانَ مَعِي ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **لَا ، ذَاكَ شَيْءٌ أَعْطَانَا اللهُ تَعَالَى مِنْكَ** » فَفَدَى نَفْسَه وَابْنَيْ أَخَوَيْهِ وَحَلِيفَهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ﴾ أَيْ : فِيمَا أَظْهَرُوا لَكَ مِنَ الْأَقْوَالِ ، ﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ ، أَيْ : مِنْ قَبْلِ بَدْرٍ ، بِالْكُفْرِ بِهِ ، ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أَيْ : بِالْأُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِفِعْلِهِ حَكِيمٌ فِيهِ .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾

ذَكَرَ تَعَالَى أَصْنَافَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَسَمَهُمْ إِلَى مُهَاجِرِينَ : خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَجَاءُوا لِنَصْرِ الله وَرَسُولِهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ ، وَبَذَلُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي ذَلِكَ ، وَإِلَى أَنْصَارٍ وَهُمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ إِذْ ذَاكَ ، آوَوْا إِخْوَانَهُمُ المُهَاجِرِينَ فِي مَنَازِلِهِمْ ، وَوَاسَوْهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ ، وَنَصَرُوا اللهَ وَرَسُولَهُ بِالْقِتَالِ مَعَهُمْ ، فَهَؤُلَاءِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، أَيْ : كُلٌّ مِنْهُمْ أَحَقُّ بِالْآخَرِ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ ، وَلِهَذَا آخَى رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ المُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ كُلَّ اثْنَيْنِ أَخَوَانِ ، فَكَانُوا يَتَوَارَثُونَ

بِذَلِكَ إِرْثًا مُقَدَّمًا عَلَى الْقَرَابَةِ ، حَتَّى نَسَخَ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِالْمَوَارِيثِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾ هَذَا هُوَ الصِّنْفُ الثَّالِثُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا ، بَلْ أَقَامُوا فِي بَوَادِيهِمْ ، فَهَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْمَغَانِمِ نَصِيبٌ ، وَلَا فِي خُمُسِهَا إِلَّا مَا حَضَرُوا فِيهِ الْقِتَالَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾ الْآيَةُ . يَقُولُ تَعَالَى وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابُ ، الَّذِينَ لَمْ يُهَاجِرُوا فِي قِتَالٍ دِينِيٍّ ، عَلَى عَدُوٍّ لَهُمْ فَانْصُرُوهُمْ ، فَإِنَّهُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ نَصْرُهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ إِلَّا أَنْ يَسْتَنْصِرُوكُمْ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ﴾ أَيْ : مُهَادَنَةٌ إِلَى مُدَّةٍ فَلَا تَخْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ ، وَلَا تَنْقُضُوا أَيْمَانَكُمْ مَعَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، قَطَعَ الْمُوَالَاةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ ، وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ**)) . وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ أَيْ : إِنْ لَمْ تُجَانِبُوا الْمُشْرِكِينَ وَتُوَالُوا الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِلَّا وَقَعَتْ فِتْنَةٌ فِي النَّاسِ ، وَهُوَ الْتِبَاسُ الْأَمْرِ وَاخْتِلَاطُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْكَافِرِينَ ، فَيَقَعُ بَيْنَ النَّاسِ فَسَادٌ مُنْتَشِرٌ عَرِيضٌ طَوِيلٌ .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حُكْمَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا عَطَفَ بِذِكْرِ مَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ بِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ سَيُجَازِيهِمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَالصَّفْحِ عَنِ الذُّنُوبِ إِنْ كَانَتْ ، وَبِالرِّزْقِ الْكَرِيمِ وَهُوَ الْحَسَنُ الْكَثِيرُ الطَّيِّبُ الشَّرِيفُ ، دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ أَبَدًا لَا يَنْقَطِعُ وَلَا يَنْقَضِي ، وَلَا يُسْأَمُ وَلَا يُمَلُّ لِحُسْنِهِ وَتَنَوُّعِهِ . ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْأَتْبَاعَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَهُمْ مَعَهُمْ فِي الْآخِرَةِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فِي حُكْمِ اللهِ ، وَالْآيَةُ عَامَّةٌ تَشْمَلُ جَمِيعَ الْقَرَابَاتِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ
وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

تفسير سورة التوبة

آياتها ١٢٩ — مدنية

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ ﴾

هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ أَوَاخِرِ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، **قَالَ الْبَرَاءُ** : آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾ [النساء : ١٧٦] ، وَآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ : بَرَاءَةُ ، وَإِنَّمَا لَمْ يُبَسْمِلْ فِي أَوَّلِهَا ؛ لأَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكْتُبُوا الْبَسْمَلَةَ فِي أَوَّلِهَا فِي الْمُصْحَفِ الإِمَامِ ، بَلِ اقْتَدَوْا فِي ذَلِكَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ وَأَرْضَاهُ .

وَأَوَّلُ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهَمَّ بِالْحَجِّ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَحْضُرُونَ عَامَهُمْ هَذَا الْمَوْسِمَ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي ذَلِكَ ، وَأَنَّهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً ، فَكَرِهَ مُخَالَطَتَهُمْ ، وَبَعَثَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ أَمِيرًا عَلَى الْحَجِّ هَذِهِ السَّنَةِ ، لِيُقِيمَ لِلنَّاسِ مَنَاسِكَهُمْ وَيُعْلِمَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ لَا يَحُجُّوا بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ، وَأَنْ يُنَادِيَ فِي النَّاسِ « بِبَرَاءَةَ » فَلَمَّا قَفَلَ أَتْبَعَهُ بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ لِيَكُونَ مُبَلِّغًا عَنْ رَسُولِهِ ﷺ لِكَوْنِهِ عَصَبَةً له ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ أَيْ : هَذِهِ بَرَاءَةٌ ، أَيْ : تَبَرُّؤٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴿ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ هَهُنَا اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، فَقَالَ قَائِلُونَ : هَذِهِ الآيَةُ لِذَوِي الْعُهُودِ الْمُطْلَقَةِ غَيْرِ الْمُؤَقَّتَةِ ، أَوْ مَنْ لَهُ عَهْدٌ دُونَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَيُكَمَّلُ لَهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مُؤَقَّتٌ فَأَجَلُهُ إِلَى مُدَّتِهِ مَهْمَا كَانَ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ الآيَة ، وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَهْدٌ فَعَهْدُهُ إِلَى مُدَّتِهِ ، وَهَذَا أَحْسَنُ الأَقْوَالِ وَأَقْوَاهَا .

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَإِعْلَامٌ ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ وَإِنْذَارٌ إِلَى النَّاسِ ﴿ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ النَّحْرِ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ أَيَّامِ الْمَنَاسِكِ وَأَظْهَرُهَا وَأَكْبَرُهَا جَمِيعًا ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ﴾ أَيْ : بَرِيءٌ مِنْهُمْ أَيْضًا ، ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ إِلَيْهِ فَقَالَ : ﴿ فَإِن تُبْتُمْ ﴾ أَيْ : مِمَّا أَنْتُمْ

فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالضَّلَالِ ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أَيْ : اسْتَمْرَرْتُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴿ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ﴾ بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ فِي قَبْضَتِهِ ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَمَشِيئَتِهِ ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا بِالْخِزْيِ وَالنَّكَالِ ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْمَقَامِعِ وَالْأَغْلَالِ .

وَيَوْمُ **الْحَجِّ الْأَكْبَرِ** : يَوْمُ النَّحْرِ ، وَإِنَّمَا قِيلَ الْأَكْبَرُ مِنْ أَجْلِ قَوْلِ النَّاسِ : الْحَجُّ الْأَصْغَرُ .

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مِنْ ضَرْبِ مُدَّةِ التَّأْجِيلِ بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ لِمَنْ لَهُ عَهْدٌ مُطْلَقٌ لَيْسَ بِمُؤَقَّتٍ ، فَأَجَلُهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ يَسِيحُ فِي الْأَرْضِ يَذْهَبُ فِيهَا لِيَنْجُوَ بِنَفْسِهِ حَيْثُ شَاءَ ، إِلَّا مَنْ لَهُ عَهْدٌ مُؤَقَّتٌ فَأَجَلُهُ إِلَى مُدَّتِهِ الْمَضْرُوبَةِ الَّتِي عُوهِدَ عَلَيْهَا ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَعَهْدُهُ إِلَى مُدَّتِهِ ، وَذَلِكَ بِشَرْطِ أَنْ لَا يَنْقُضَ الْمُعَاهِدُ عَهْدَهُ وَلَمْ يُظَاهِرْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا ، أَيْ يُمَالِئُ عَلَيْهِمْ مَنْ سِوَاهُمْ ، فَهَذَا الَّذِي يُوَفَّى لَهُ بِذِمَّتِهِ وَعَهْدِهِ إِلَى مُدَّتِهِ ، وَلِهَذَا حَرَّضَ تَعَالَى عَلَى الْوَفَاءِ بِذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : الْمُوفِينَ بِعَهْدِهِمْ .

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِالْأَشْهُرِ الْحُرُمِ هَهُنَا مَا هِيَ؟ ، وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ حَيْثُ السِّيَاقُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا أَشْهُرُ التَّسْيِيرِ الْأَرْبَعَةِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ أَيْ : إِذَا انْقَضَتِ الْأَشْهُرُ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي حَرَّمْنَا عَلَيْكُمْ فِيهَا قِتَالَهُمْ وَأَجَّلْنَاهُمْ فِيهَا ، فَحَيْثُمَا وَجَدْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ . ﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَرْضِ ، وَهَذَا عَامٌّ ، وَالْمَشْهُورُ تَخْصِيصُهُ بِتَحْرِيمِ الْقِتَالِ فِي الْحَرَمِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ﴾ [البقرة: ١٩١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَخُذُوهُمْ ﴾ أَيْ : وَأْسِرُوهُمْ إِنْ شِئْتُمْ قَتْلًا ، وَإِنْ شِئْتُمْ أَسْرًا ، ﴿ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ أَيْ : لَا تَكْتَفُوا بِمُجَرَّدِ وِجْدَانِكُمْ لَهُمْ ، بَلِ اقْصِدُوهُمْ بِالْحِصَارِ فِي مَعَاقِلِهِمْ وَحُصُونِهِمْ ، وَالرَّصْدُ فِي طُرُقِهِمْ وَمَسَالِكِهِمْ حَتَّى تُضَيِّقُوا عَلَيْهِمُ الْوَاسِعَ ، وَتَضْطَرُّوهُمْ إِلَى الْقَتْلِ أَوِ الْإِسْلَامِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ

سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وَلِهَذَا اعْتَمَدَ الصِّدِّيقُ ﷺ فِي قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَأَمْثَالِهَا ، حَيْثُ حَرَّمَتْ قِتَالَهُمْ بِشَرْطِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ . وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ هِيَ آيَةُ السَّيْفِ الَّتِي قَالَ فِيهَا الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ : أَنَّهَا نَسَخَتْ كُلَّ عَهْدٍ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَكُلَّ عَقْدٍ وَكُلَّ مُدَّةٍ .

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الَّذِينَ أَمَرْتُكَ بِقِتَالِهِمْ وَأَحْلَلْتُ لَكَ اسْتِبَاحَةَ نُفُوسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴿ ٱسْتَجَارَكَ ﴾ أَيْ : اسْتَأْمَنَكَ ، فَأَجِبْهُ إِلَى طِلْبَتِهِ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ : أَيِ الْقُرْآنَ ، تَقْرَؤُهُ عَلَيْهِ وَتَذْكُرُ لَهُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدِّينِ ، تُقِيمُ بِهِ عَلَيْهِ حُجَّةَ اللهِ ﴿ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ أَيْ : وَهُوَ آمِنٌ مُسْتَمِرُّ الْأَمَانِ ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بِلَادِهِ وَدَارِهِ وَمَأْمَنِهِ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا شَرَعْنَا أَمَانَ مِثْلِ هَؤُلَاءِ ، لِيَعْلَمُوا دِينَ اللهِ ، وَتَنْتَشِرَ دَعْوَةَ اللهِ فِي عِبَادِهِ .

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

بَيَّنَ تَعَالَى حِكْمَتَهُ فِي الْبَرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَنَظِرَتَهُ إِيَّاهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ السَّيْفُ الْمُرْهَفُ أَيْنَ ثُقِفُوا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ﴾ أَيْ : أَمَانٌ ، وَيُتْرَكُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ ، وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِاللهِ كَافِرُونَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ ﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ أَيْ : مَهْمَا تَمَسَّكُوا بِمَا عَاقَدْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ وَعَاهَدْتُمُوهُمْ مِنْ تَرْكِ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عَشْرَ سِنِينَ ﴿ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وَقَدْ فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ . اسْتَمَرَّ الْعَقْدُ وَالْهُدْنَةُ مَعَ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ فِي سَنَةِ سِتٍّ إِلَى أَنْ نَقَضَتْ قُرَيْشٌ الْعَهْدَ ، وَمَالَئُوا حُلَفَاءَهُمْ وَهُمْ بَنُو بَكْرٍ عَلَى خُزَاعَةَ أَحْلَافِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَتَلُوهُمْ مَعَهُمْ فِي الْحَرَمِ أَيْضًا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ غَزَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ ، فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ الْبَلَدَ الْحَرَامَ وَمَكَّنَهُ مِنْ نَوَاصِيهِمْ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَرِّضًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مُعَادَاةِ الْمُشْرِكِينَ وَالتَّبَرِّي مِنْهُمْ ، وَمُبَيِّنًا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عَهْدٌ لِشِرْكِهِمْ بِاللهِ تَعَالَى ، وَكُفْرِهِمْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَلِأَنَّهُمْ لَوْ ظَهَرُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأُدِيلُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يُبْقُوا وَلَمْ يَذَرُوا ، وَلَا رَاقَبُوا فِيهِمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : الْإِلُّ : الْقَرَابَةُ ، وَالذِّمَّةُ : الْعَهْدُ .

ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَمًّا لِلْمُشْرِكِينَ وَحَثًّا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِهِمْ ﴿ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُمُ اعْتَاضُوا عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللهِ بِمَا الْتَهَوْا بِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا الْخَسِيسَةِ ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ ﴾ أَيْ : مَنَعُوا الْمُؤْمِنِينَ مِنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ ، وَكَذَا الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ إِلَى آخِرِهَا تَقَدَّمَتْ .

وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ ﴾ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمُوهُمْ عَلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ ﴿ أَيْمَـٰنَهُم ﴾ أَيْ : عُهُودَهُمْ وَمَوَاثِيقَهُمْ ﴿ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ ﴾ أَيْ : عَابُوهُ وَانْتَقَصُوهُ ، وَمِنْ هَهُنَا أُخِذَ قَتْلُ مَنْ سَبَّ الرَّسُولَ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - أَوْ مَنْ طَعَنَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ أَوْ ذَكَرَهُ بِنَقْصٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ أَيْ : يَرْجِعُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ وَالضَّلَالِ .

أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

وَهَذَا أَيْضًا تَهْيِيجٌ وَتَحْضِيضٌ وَإِغْرَاءٌ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ النَّاكِثِينَ لِأَيْمَانِهِمُ الَّذِينَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ مِنْ مَكَّةَ . قَوْلُهُ : ﴿ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ يَوْمُ بَدْرٍ حِينَ خَرَجُوا

لِنَصْرِ عِيرِهِمْ ، فَلَمَّا نَجَتْ وَعَلِمُوا بِذَلِكَ اسْتَمَرُّوا عَلَى وَجْهِهِمْ طَلَبًا لِلْقِتَالِ بَغْيًا وَتَكَبُّرًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : لَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، فَأَنَا أَهْلٌ أَنْ يَخْشَى الْعِبَادُ مِنْ سَطْوَتِي وَعُقُوبَتِي ، فَبِيَدِي الْأَمْرُ وَمَا شِئْتُ كَانَ وَمَا لَمْ أَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى عَزِيمَةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَيَانًا لِحِكْمَتِهِ فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الْجِهَادِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى إِهْلَاكِ الْأَعْدَاءِ بِأَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ وَهَذَا عَامٌّ فِي الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ . ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : مِنْ عِبَادِهِ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : بِمَا يُصْلِحُ عِبَادَهُ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِي أَفْعَالِهِ ، وَأَقْوَالِهِ الْكَوْنِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ ، فَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ، وَهُوَ الْعَادِلُ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يَجُورُ أَبَدًا ، وَلَا يُضَيِّعُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، بَلْ يُجَازِي عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ نَتْرُكَكُمْ مُهْمَلِينَ لَا نَخْتَبِرُكُمْ بِأُمُورٍ يَظْهَرُ فِيهَا أَهْلُ الْعَزْمِ الصَّادِقِ مِنَ الْكَاذِبِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ أَيْ : بِطَانَةً وَدَخِيلَةً بَلْ هُمْ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ عَلَى النُّصْحِ للهِ وَلِرَسُولِهِ ، فَاكْتَفَى بِأَحَدِ الْقِسْمَيْنِ عَنِ الْآخَرِ .

وَالْحَاصِلُ : أَنَّهُ - تَعَالَى - لَمَّا شَرَعَ لِعِبَادِهِ الْجِهَادَ بَيَّنَ أَنَّ لَهُ فِيهِ حِكْمَةٌ ، وَهُوَ اخْتِبَارُ عَبِيدِهِ مَنْ يُطِيعُهُ مِمَّنْ يَعْصِيهِ ، وَهُوَ تَعَالَى الْعَالِمُ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ .

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : مَا يَنْبَغِي لِلْمُشْرِكِينَ بِاللهِ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَى اسْمِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، هَذَا وَهُمْ شَاهِدُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أَيْ : بِحَالِهِمْ وَقَالِهِمْ ، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ أَيْ : بِشِرْكِهِمْ ﴿ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ

لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٤] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ فَشَهِدَ تَعَالَى بِالْإِيمَانِ لِعُمَّارِ الْمَسَاجِدِ . ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أَيْ : الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ عِبَادَاتِ الْبَدَنِ ﴿ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أَيْ : الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْمُتَعَدِّيَةِ إِلَى بِرِّ الْخَلَائِقِ ، ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : وَلَمْ يَخَفْ إِلَّا مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَلَمْ يَخْشَ سِوَاهُ ﴿ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَكُلُّ عَسَى فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ وَاجِبَةٌ .

۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

خَيَّرَ اللهُ الْإِيمَانَ وَالْجِهَادَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى عِمَارَةِ الْمُشْرِكِينَ الْبَيْتَ ، وَقِيَامِهِمْ عَلَى السِّقَايَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللهِ مَعَ الشِّرْكِ بِهِ وَإِنْ كَانُوا يَعْمُرُونَ بَيْتَهُ وَيُحْرِمُونَ بِهِ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ أَهْلُ الْعِمَارَةِ فَسَمَّاهُمُ اللهُ ظَالِمِينَ بِشِرْكِهِمْ ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمُ الْعِمَارَةُ شَيْئًا .

وَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : مَا أُبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ للهِ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أَسْقِيَ الْحَاجَّ . وَقَالَ آخَرُ : بَلْ عِمَارَةُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . وَقَالَ آخَرُ : بَلِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِمَّا قُلْتُمْ ، فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ وَقَالَ : لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ . قَالَ : فَفَعَلَ فَأَنْزَلَ ، اللهُ ﷻ ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِمُبَايَنَةِ الْكُفَّارِ بِهِ وَإِنْ كَانُوا آبَاءً أَوْ أَبْنَاءً ، وَنَهَى عَنْ مُوَالاتِهِمْ إِنِ اسْتَحَبُّوا : أَيِ اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَتَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ . ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنْ يَتَوَعَّدَ مَنْ آثَرَ أَهْلَهُ وَقَرَابَتَهُ وَعَشِيرَتَهُ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ **فَقَالَ** : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ أي : اكْتَسَبْتُمُوهَا وَحَصَّلْتُمُوهَا ﴿ وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ﴾ أَيْ : تُحِبُّونَهَا لِطِيبِهَا وَحُسْنِهَا . أَيْ : إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ أَيْ : فَانْتَظِرُوا مَاذَا يَحِلُّ بِكُمْ مِنْ عِقَابِهِ وَنَكَالِهِ بِكُمْ . **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ : هَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ مِنْ بَرَاءَةَ ، يَذْكُرُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فَضْلَهُ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانَهُ لَدَيْهِمْ فِي نَصْرِهِ إِيَّاهُمْ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ غَزَوَاتِهِمْ مَعَ رَسُولِهِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى وَبِتَأْيِيدِهِ وَتَقْدِيرِهِ لَا بِعَدَدِهِمْ وَلَا بِعُدَّتِهِمْ ، وَنَبَّهَهُمْ عَلَى أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِهِ سَوَاءٌ قَلَّ الْجَمْعُ أَوْ كَثُرَ . وَقَدْ كَانَتْ وَقْعَةُ حُنَيْنٍ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ فِي شَوَّالَ سَنَةَ ثَمَانٍ مِنَ الْهِجْرَةِ . وَذَلِكَ لَمَّا فَرَغَ ﷺ مِنْ فَتْحِ مَكَّةَ ، وَتَمَهَّدَتْ أُمُورُهَا وَأَسْلَمَ عَامَّةُ أَهْلِهَا ، وَأَطْلَقَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبَلَغَهُ أَنَّ هَوَازِنَ جَمَعُوا لَهُ لِيُقَاتِلُوهُ ، وَأَنَّ أَمِيرَهُمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ النَّضْرِيُّ وَمَعَهُ ثَقِيفٌ بِكَمَالِهَا ، وَبَنُو جُشَمٍ وَبَنُو سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ ، وَأَوْزَاعٌ مِنْ بَنِي هِلَالٍ وَهُمْ قَلِيلٌ ، وَنَاسٌ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ وَعَوْفِ بْنِ عَامِرٍ ، وَقَدْ أَقْبَلُوا وَمَعَهُمُ النِّسَاءُ وَالْوِلْدَانُ وَالشَّاءُ وَالنَّعَمُ ، وَجَاءُوا بِقَضِّهِمْ وَقَضِيضِهِمْ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي جَيْشِهِ الَّذِي جَاءَ مَعَهُ لِلْفَتْحِ ، وَهُوَ عَشَرَةُ آلَافٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَمَعَهُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَهُمُ الطُّلَقَاءُ فِي أَلْفَيْنِ ، فَسَارَ بِهِمْ إِلَى الْعَدُوِّ فَالْتَقَوْا بِوَادٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ يُقَالُ لَهُ حُنَيْنٌ ، فَكَانَتْ فِيهِ الْوَقْعَةُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ فِي غَلَسِ الصُّبْحِ ، انْحَدَرُوا فِي الْوَادِي وَقَدْ كَمَنَتْ فِيهِ هَوَازِنُ ، فَلَمَّا تَوَاجَهُوا لَمْ يَشْعُرِ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا بِهِمْ قَدْ بَادَرُوهُمْ ، وَرُشِقُوا بِالنِّبَالِ ، وَأَصْلَتُوا السُّيُوفَ ، وَحَمَلُوا حَمْلَةَ رَجُلٍ

وَاحِدٍ كَمَا أَمَرَهُمْ مَلِكُهُمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ وَثَبَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ رَاكِبٌ يَوْمَئِذٍ بَغْلَتَهُ الشَّهْبَاءَ يَسُوقُهَا إِلَى نَحْرِ الْعَدُوِّ ، وَالْعَبَّاسُ عَمُّهُ آخِذٌ بِرِكَابِهَا الْأَيْمَنِ وَأَبُو سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ آخِذٌ بِرِكَابِهَا الْأَيْسَرِ يُثْقِلَانِهَا لِئَلَّا تُسْرِعَ السَّيْرَ وَهُوَ يُنَوِّه بِاسْمِهِ ﷺ وَيَدْعُو الْمُسْلِمِينَ إِلَى الرَّجْعَةِ وَيَقُولُ : « **إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ ؟ إِلَيَّ أَنَا رَسُولُ اللهِ** » وَيَقُولُ فِي تِلْكَ الْحَالِ : « **أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ** » .

وَثَبَتَ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ قَرِيبٌ مِنْ مِائَةٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : ثَمَانُونَ ، فَمِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - وَالْعَبَّاسُ وَعَلِيٌّ ، وَالْفَضْلُ بْنَ عَبَّاسٍ ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْن الْحَارِثِ ، وَأَيْمَنُ ابْنُ أُمِّ أَيْمَنَ ، وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهم ﷺ ، ثُمَّ أَمَرَ ﷺ عَمَّهُ الْعَبَّاسُ وَكَانَ جَهِيرَ الصَّوْتِ أَنْ يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا أَصْحَابَ الشَّجَرَةِ - يَعْنِي شَجَرَةَ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ الَّتِي بَايَعَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ تَحْتَهَا عَلَى أَنْ لَا يَفِرُّوا عَنْهُ - فَجَعَلَ يُنَادِي بِهِمْ يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ ، وَيَقُولُ تَارَةً : يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ : يَا لَبَّيْكَ ، يَا لَبَّيْكَ ، وَانْعَطَفَ النَّاسُ فَتَرَاجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ إِذَا لَمْ يُطَاوِعهُ بَعِيرُهُ عَلَى الرُّجُوعِ لَبِسَ دِرْعَهُ ثُمَّ انْحَدَرَ عَنْهُ ، وَأَرْسَلَهُ وَرَجَعَ بِنَفْسِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَلَمَّا اجْتَمَعَتْ شِرْذِمَةٌ مِنْهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَمَرَهُمْ ﵇ أَنْ يَصْدُقُوا الْحَمْلَةَ ، وَأَخَذَ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ بَعْدَ مَا دَعَا رَبَّهُ وَاسْتَنْصَرَهُ وَقَالَ : « **اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي** » .ثُمَّ رَمَى الْقَوْمَ بِهَا فَمَا بَقِيَ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَصَابَهُ مِنْهَا فِي عَيْنَيْهِ وَفَمِهِ مَا شَغَلَهُ عَنِ الْقِتَالِ ثُمَّ انْهَزَمُوا ، فَاتَّبَعَ الْمُسْلِمُونَ أَقْفَاءَهُمْ يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ وَمَا تَرَاجَعَ بَقِيَّةُ النَّاسِ إِلَّا وَالْأَسْرَى مُجَنْدَلَةٌ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ أَيْ : طُمَأْنِينَتَهُ وَثَبَاتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴿ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ مَعَهُ ﴿ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قَدْ تَابَ اللهُ عَلَى بَقِيَّةِ هَوَازِنَ فَأَسْلَمُوا وَقَدِمُوا عَلَيْهِ مُسْلِمِينَ ، وَلَحِقُوهُ وَقَدْ قَارَبَ مَكَّةَ عِنْدَ الْجِعْرَانَةِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ الْوَقْعَةِ بِقَرِيبٍ مِنْ عِشْرِينَ يَوْمًا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَيَّرَهُمْ بَيْنَ سَبْيِهِمْ وَبَيْنَ أَمْوَالِهِمْ ، فَاخْتَارُوا سَبْيَهُمْ ، وَكَانُوا سِتَّةَ آلَافِ أَسِيرٍ مَا بَيْنَ صَبِيٍّ وَامْرَأَةٍ ، فَرَدَّهُ عَلَيْهِمْ وَقَسَمَ الْأَمْوَالَ بَيْنَ الْغَانِمِينَ ، وَنَفَلَ أُنَاسًا مِنَ الطُّلَقَاءِ ، لِيَتَأَلَّفَ قُلُوبَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ ، فَأَعْطَاهُمْ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ أُعْطِيَ مِائَةً مَالِكُ بْن عَوْفٍ النَّضْرِيّ وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى قَوْمِهِ كَمَا كَانَ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ

عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ - الطَّاهِرِينَ دِينًا وَذَاتًا - بِنَفْيِ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ هُمْ نَجَسٌ دِينًا عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَأَنْ لَا يَقْرَبُوهُ بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ، وَكَانَ نُزُولُهَا فِي سَنَةِ تِسْعٍ، وَلِهَذَا بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيًّا صُحْبَةَ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَامَئِذٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُنَادِيَ فِي المُشْرِكِينَ: أَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ هَذَا العَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، فَأَتَمَّ اللهُ ذَلِكَ وَحَكَمَ بِهِ شَرْعًا وَقَدَرًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ **قَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ**: وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: لَتُقْطَعَنَّ عَنَّا الأَسْوَاقُ، وَلَتَهْلِكَنَّ التِّجَارَةُ، وَلَيَذْهَبَنَّ عَنَّا مَا كُنَّا نُصِيبُ فِيهَا مِنَ المَرَافِقِ، فَعَوَّضَهُمُ اللهُ بِمَا قَطَعَ عَنْهُمْ مِنْ أَمْرِ الشِّرْكِ مَا أَعْطَاهُمْ مِنْ أَعْنَاقِ أَهْلِ الكِتَابِ مِنَ الجِزْيَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ: بِمَا يُصْلِحُكُمْ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ: فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ، لِأَنَّهُ الكَامِلُ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، العَادِلُ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَلِهَذَا عَوَّضَهُمْ عَنْ تِلْكَ المَكَاسِبِ بِأَمْوَالِ الجِزْيَةِ الَّتِي يَأْخُذُونَهَا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، فَقَالَ: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ فَهُمْ فِي نَفْسِ الأَمْرِ لَمَّا كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِيمَانٌ صَحِيحٌ بِأَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَلَا بِمَا جَاءُوا بِهِ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ آرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ وَآبَاءَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وَهَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ نَزَلَتْ أَوَّلَ الأَمْرِ بِقِتَالِ أَهْلِ الكِتَابِ، بَعْدَ مَا تَمَهَّدَتْ أُمُورُ المُشْرِكِينَ وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، فلما اسْتَقَرَّتْ جَزِيرَةُ العَرَبِ، أَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ، وَلِهَذَا تَجَهَّزَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِقِتَالِ الرُّومِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ وَأَظْهَرَهُ لَهُمْ. ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ ﴾ أَيْ: إِنْ لَمْ يُسْلِمُوا ﴿ عَن يَدٍ ﴾ أَيْ: عَنْ قَهْرٍ لَهُمْ وَغَلَبَةٍ ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ أَيْ: ذَلِيلُونَ حَقِيرُونَ مُهَانُونَ.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

وَهَذَا إِغْرَاءٌ مِنَ الله تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ الْكُفَّارِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، لِمَقَالَتِهِمْ هَذِهِ الْمَقَالَةِ الشَّنِيعَةِ وَالْفِرْيَةِ عَلَى الله تَعَالَى ، فَأَمَّا الْيَهُودُ فَقَالُوا فِي الْعُزَيْرِ : إِنَّهُ ابْنُ الله ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ، وَأَمَّا ضَلَالُ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ فَظَاهِرٌ ، وَلِهَذَا كَذَّبَ اللهُ سُبْحَانَهُ الطَّائِفَتَيْنِ فَقَالَ : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أَيْ : لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ فِيمَا ادَّعَوْهُ سِوَى افْتِرَائِهِمْ وَاخْتِلَاقِهِمْ ﴿ يُضَٰهِـُٔونَ ﴾ أَيْ : يُشَابِهُونَ ﴿ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ ، ضَلُّوا كَمَا ضَلَّ هَؤُلَاءِ ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: لَعَنَهُمُ اللهُ ﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أَيْ : كَيْفَ يَضِلُّونَ عَنِ الْحَقِّ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَيَعْدِلُونَ إِلَى الْبَاطِلِ ؟

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ . **قَالَ حُذَيْفَةُ ابْنُ الْيَمَانِ وغَيْرُ وَاحِدٍ فِي تَفْسِيرِ** ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ إِنَّهُمُ اتَّبَعُوهُمْ فِيمَا حَلَّلُوا وَحَرَّمُوا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ أَيْ : الَّذِي إِذَا حَرَّمَ الشَّيْءَ فَهُوَ الْحَرَامُ وَمَا حَلَّلَهُ فَهُوَ الْحَلَالُ ، وَمَا شَرَعَهُ اتُّبِعَ ، وَمَا حَكَمَ بِهِ نَفَذَ ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عنِ الشُّرَكَاءِ والنُّظَرَاءِ ، والأَعْوَانِ ، والأَضْدَادِ ، والأَوْلَادِ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَلاَ رَبَّ سِوَاهُ .

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : يُرِيدُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ﴿ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مَا بُعِثَ بِهِ رَسُول الله ﷺ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، بِمُجَرَّدِ جِدَالِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ ، فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُطْفِئَ شُعَاعَ الشَّمْسِ أَوْ نُورَ الْقَمَرِ بِنَفْخِهِ ، وَهَذَا لا سَبِيلَ إِلَيْهِ ، فَكَذَلِكَ مَا أُرْسِلَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ لا بُدَّ أَنْ يَتِمَّ وَيَظْهَرَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُقَابِلًا لَهُمْ فِيمَا رَامُوهُ وَأَرَادُوهُ ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، وَالْكَافِرُ : هُوَ الَّذِي يَسْتُرُ الشَّيْءَ وَيُغَطِّيهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ فَالْهُدَى : هُوَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْإِخْبَارَاتِ الصَّادِقَةِ ، وَالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ ، وَدِينُ الْحَقِّ : هُوَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ

الصَّحِيحَةُ النَّافِعَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أَيْ : عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ .

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

الْأَحْبَارُ : هُمْ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ [المائدة : ٦٣] ، وَالرُّهْبَانُ : عُبَّادُ النَّصَارَى ، وَالْقِسِّيسُونَ : عُلَمَاؤُهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ [المائدة : ٨٢] ، **وَالْمَقْصُودُ** : التَّحْذِيرُ مِنْ عُلَمَاءِ السُّوءِ وَعُبَّادِ الضَّلَالِ ، كَمَا قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا كَانَ فِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا كَانَ فِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى ، **وَالْحَاصِلُ** : التَّحْذِيرُ مِنَ التَّشَبُّهِ بِهِمْ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ ، وَمَنَاصِبُهُمْ وَرِيَاسَتُهُمْ فِي النَّاسِ ، يَأْكُلُونَ أَمْوَالَهُمْ بِذَلِكَ ، كَمَا كَانَ لِأَحْبَارِ الْيَهُودِ عَلَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ شَرَفٌ ، وَلَهُمْ عِنْدَهُمْ خَرْجٌ وَهَدَايَا وَضَرَائِبُ تَجِيءُ إِلَيْهِمْ ، فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ اِسْتَمَرُّوا عَلَى ضَلَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ طَمَعًا مِنْهُمْ أَنْ تَبْقَى لَهُمْ تِلْكَ الرِّيَاسَاتُ ، فَأَطْفَأَهَا اللهُ بِنُورِ النُّبُوَّةِ ، وَسَلَبَهُمْ إِيَّاهَا وَعَوَّضَهُمُ الذُّلَّ وَالصَّغَارَ ، وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى . ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : وَهُمْ مَعَ أَكْلِهِمُ الْحَرَامَ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، وَيُلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ . ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الْآيَةُ . هَؤُلَاءِ هُمُ الْقِسْمُ الثَّالِثُ مِنْ رُءُوسِ النَّاسِ ، فَإِنَّ النَّاسَ عَالَةٌ عَلَى الْعُلَمَاءِ ، وَعَلَى الْعُبَّادِ ، وَعَلَى أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ ، فَإِذَا فَسَدَتْ أَحْوَالُ هَؤُلَاءِ فَسَدَتْ أَحْوَالُ النَّاسِ . **وَأَمَّا الْكَنْزُ** : **عَنِ ابْنِ عُمَرَ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ** : هُوَ الْمَالُ الَّذِي لَا تُؤَدَّى مِنْهُ زَكَاةٌ . **وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ** : هَذَا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الزَّكَاةُ ، فَلَمَّا أُنْزِلَتْ جَعَلَهَا اللهُ طُهْرًا لِلْأَمْوَالِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ هَذَا الْكَلَامُ تَبْكِيتًا وَتَقْرِيعًا وَتَهَكُّمًا ، كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٨ - ٤٩] ، أَيْ : هَذَا بِذَاكَ ، وَهَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ لِأَنْفُسِكُمْ .

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خطبَ فِي حَجَّتِهِ فَقَالَ : « **أَلَا إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، السَّنَةُ اِثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ : ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ فَهَذَا مِمَّا كَانَتِ الْعَرَبُ أَيْضًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ تُحَرِّمُهُ ، وَإِنَّمَا كَانَتِ الْأَشْهُرُ الْمُحَرَّمَةُ أَرْبَعَةً ثَلَاثَةٌ سَرْدٌ وَوَاحِدٌ فَرْدٌ ، لِأَجْلِ أَدَاءِ مَنَاسِكِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أَيْ : هَذَا هُوَ الشَّرْعُ الْمُسْتَقِيمُ مِنِ امْتِثَالِ أَمْرِ اللهِ فِيمَا جَعَلَ مِنَ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ ، وَالْحَذْوِ بِهَا عَلَى مَا سَبَقَ مِنْ كِتَابِ اللهِ الْأَوَّلِ . ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ أَيْ : فِي هَذِهِ الْأَشْهُرِ الْمُحَرَّمَةِ ؛ لِأَنَّهَا آكَدُ وَأَبْلَغُ فِي الْإِثْمِ مِنْ غَيْرِهَا ، كَمَا أَنَّ الْمَعَاصِيَ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ تُضَاعَفُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : ٢٥] ، وَكَذَا الشَّهْرُ الْحَرَامُ تَغْلُظُ فِيهِ الْآثَامُ . **قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ إِنَّ الظُّلْمَ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ أَعْظَمُ خَطِيئَةً وَوِزْرًا مِنَ الظُّلْمِ فِيمَا سِوَاهَا . وَإِنْ كَانَ الظُّلْمُ عَلَى كُلِّ حَالٍ عَظِيمًا ، وَلَكِنَّ اللهَ يُعَظِّمُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ﴾ أَيْ : جَمِيعُكُمْ ﴿ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ أَيْ : جَمِيعُهُمْ ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

هَذَا مِمَّا ذَمَّ اللهُ تَعَالَى بِهِ الْمُشْرِكِينَ ، مِنْ تَصَرُّفِهِمْ فِي شَرْعِ اللهِ بِآرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَتَغْيِيرِهِمْ أَحْكَامَ اللهِ بِأَهْوَائِهِمُ الْبَارِدَة ، وَتَحْلِيلِهِمْ مَا حَرَّمَ اللهُ وَتَحْرِيمِهِمْ مَا أَحَلَّ اللهُ ، فَإِنَّهُمْ كَانَ فِيهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ وَالشَّهَامَةِ وَالْحَمِيَّةِ مَا اسْتَطَالُوا بِهِ مُدَّةَ الْأَشْهُرِ الثَّلَاثَةِ فِي التَّحْرِيمِ الْمَانِعِ لَهُمْ مِنْ قَضَاءِ أَوْطَارِهِمْ مِنْ قِتَالِ أَعْدَائِهِمْ ، فَكَانُوا قَدْ أَحْدَثُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِمُدَّةٍ تَحْلِيلَ الْمُحَرَّمِ وَتَأْخِيرَهُ إِلَى صَفَر ، فَيُحِلُّونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ ، وَيُحَرِّمُونَ الشَّهْرَ الْحَلَالَ ، لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ الْأَشْهُرَ الْأَرْبَعَةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ يَقُولُ : يَتْرُكُونَ الْمُحَرَّمَ عَامًا ، وَعَامًا يُحَرِّمُونَهُ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾

هَذَا شُرُوعٌ فِي عِتَابِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوك، حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ وَحَمَارَّةِ الْقَيْظِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيْ: إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ الله ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أَيْ: تَكَاسَلْتُمْ وَمِلْتُمْ إِلَى الْمُقَامِ فِي الدَّعَةِ وَالْخَفْضِ، وَطِيبِ الثِّمَارِ ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أَيْ: مَا لَكُمْ فَعَلْتُمْ هَكَذَا؟، أَرِضًى مِنْكُمْ بِالدُّنْيَا بَدَلًا مِنَ الْآخِرَةِ؟. ثُمَّ زَهَّدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الدُّنْيَا، وَرَغَّبَ فِي الْآخِرَةِ، فَقَالَ: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى مَنْ تَرَكَ الْجِهَادَ فَقَالَ: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: اسْتَنْفَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَيًّا مِنَ الْعَرَبِ فَتَثَاقَلُوا عَنْهُ، فَأَمْسَكَ اللهُ عَنْهُمُ الْقَطْرَ، فَكَانَ عَذَابُهُمْ ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أَيْ: لِنُصْرَةِ نَبِيِّهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ. ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أَيْ: وَلَا تَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا بِتَوَلِّيكُمْ عَنِ الْجِهَادِ، وَنُكُولِكُمْ وَتَثَاقُلِكُمْ عَنْهُ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيْ: قَادِرٌ عَلَى الِانْتِصَارِ مِنَ الْأَعْدَاءِ بِدُونِكُمْ.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾ أَيْ: تَنْصُرُوا رَسُولَهُ، فَإِنَّ اللهَ نَاصِرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ وَكَافِيهِ وَحَافِظُهُ، كَمَا تَوَلَّى نَصْرَهُ ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ أَيْ: عَامَ الْهِجْرَةِ لَمَّا هَمَّ الْمُشْرِكُونَ بِقَتْلِهِ أَوْ حَبْسِهِ أَوْ نَفْيِهِ، فَخَرَجَ مِنْهُمْ هَارِبًا صَحِبَهُ صَدِيقُهُ وَصِدِّيقُهُ وَصَاحِبُهُ أَبُو بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ، فَلَجَأَ إِلَى غَارِ ثَوْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لِيَرْجِعَ الطُّلَّبُ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي آثَارِهِمْ، ثُمَّ يَسِيرُوا نَحْوَ الْمَدِينَةِ، فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ يَجْزَعُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ فَيَخْلُصَ إِلَى الرَّسُولِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مِنْهُمْ أَذًى، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُسَكِّنُهُ وَيُثَبِّتُهُ وَيَقُولُ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟**»،

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ ﴾ أَيْ : تَأْيِيدُهُ وَنَصْرُهُ عَلَيْهِ ، أَيْ : عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي أَشْهَرِ الْقَوْلَيْنِ ، وَقِيلَ : عَلَى أَبِي بَكْرٍ . قَالُوا : لأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ تَزَلْ مَعَهُ سَكِينَةٌ ، وَهَذَا لَا يُنَافِي تَجَدُّدُ سَكِينَةٍ خَاصَّةٍ بِتِلْكَ الْحَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا ﴾ أَيْ : الْمَلَائِكَةُ ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: يَعْنِي بِكَلِمَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا : الشِّرْك ، وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ . ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أَيْ : فِي انْتِقَامِهِ وَانْتِصَارِهِ ، مَنِيعُ الْجَنَابِ لَا يُضَامُ مَنْ لَاذَ بِبَابِهِ ، وَاحْتَمَى بِالتَّمَسُّكِ بِخِطَابِهِ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ .

ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾

أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالنَّفِيرِ الْعَامِّ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَامَ غَزْوَةِ تَبُوك ، لِقِتَالِ أَعْدَاءِ اللهِ مِنَ الرُّومِ الْكَفَرَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَحَتَّمَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْخُرُوجِ مَعَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ ، فَقَالَ : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ قِيلَ : شُبَّانًا وَشُيُوخًا ، وَأَغْنِيَاءَ وَمَسَاكِينَ ، وَقِيلَ : اِنْفِرُوا نِشَاطًا وَغَيْرَ نِشَاطٍ . وَقِيلَ : فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الْعُمُومِ فِي الْآيَةِ .

ثُمَّ رَغَّبَ تَعَالَى فِي النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِهِ ، وَبَذْلِ الْمُهَجِ فِي مَرْضَاتِهِ وَمَرْضَاةِ رَسُولِهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ أَيْ : هَذَا خَيْرٌ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لِأَنَّكُمْ تَغْرَمُونَ فِي النَّفَقَةِ قَلِيلًا ، فَيُغْنِمَكُمُ اللهُ أَمْوَالَ عَدُوِّكُمْ فِي الدُّنْيَا ، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَكُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ فِي الْآخِرَةِ .

لَوۡ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُوَبِّخًا لِلَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوك ، وَقَعَدُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَا اسْتَأْذَنُوهُ فِي ذَلِكَ ، مُظْهِرِينَ أَنَّهُمْ ذَوُو أَعْذَارٍ وَلَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ ، فَقَالَ : ﴿ لَوۡ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: غَنِيمَةً قَرِيبَةً ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ أَيْ : قَرِيبًا أَيْضًا ﴿ لَّٱتَّبَعُوكَ ﴾ أَيْ : لَكَانُوا جَاءُوا مَعَك لِذَلِكَ ﴿ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُ ﴾ أَيْ : الْمَسَافَةُ إِلَى الشَّامِ ﴿ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لَكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴿ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ ﴾ أَيْ : لَوْ لَمْ يَكُنْ لَنَا أَعْذَارٌ لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ .

عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ : هَلْ سَمِعْتُمْ بِمُعَاتَبَةٍ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا ؟ بَدَأَ بِالْعَفْوِ قَبْلَ الْمُعَاتَبَةِ فَقَالَ : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : عَاتَبَهُ كَمَا تَسْمَعُونَ ، ثُمَّ أَنْزَلَ الَّتِي فِي سُورَةِ النُّورِ ، فَرَخَّصَ لَهُ فِي أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ إِنْ شَاءَ ، فَقَالَ : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور : ٦٢] . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾ أَيْ : فِي إِبْدَاءِ الْأَعْذَارِ ﴿ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ . **يَقُولُ تَعَالَى** : هَلَّا تَرَكْتَهُمْ لَمَّا اسْتَأْذَنُوكَ فَلَمْ تَأْذَنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي الْقُعُودِ ، لِتَعْلَمَ الصَّادِقَ مِنْهُمْ فِي إِظْهَارِ طَاعَتِكَ مِنَ الْكَاذِبِ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَانُوا مُصِرِّينَ عَلَى الْقُعُودِ عَنِ الْغَزْوِ ، وَإِنْ لَمْ تَأْذَنْ لَهُمْ فِيهِ . وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْقُعُودِ عَنِ الْغَزْوِ أَحَدٌ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، فَقَالَ : ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ﴾ أَيْ : فِي الْقُعُودِ عَنِ الْغَزْوِ ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ لِأَنَّ أُولَئِكَ يَرَوْنَ الْجِهَادَ قُرْبَةً ، وَلَمَّا نَدَبَهُمْ إِلَيْهِ بَادَرُوا وَامْتَثَلُوا ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ﴾ أَيْ : فِي الْقُعُودِ مِمَّنْ لَا عُذْرَ لَهُ ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ أَيْ : لَا يَرْجُونَ ثَوَابَ اللهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ﴿ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أَيْ : شَكَّتْ فِي صِحَّةِ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ ﴿ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أَيْ : يَتَحَيَّرُونَ يُقَدِّمُونَ رِجْلًا وَيُؤَخِّرُونَ أُخْرَى ، وَلَيْسَتْ لَهُمْ قَدَمٌ ثَابِتَةٌ فِي شَيْءٍ ، فَهُمْ قَوْمٌ حَيَارَى هَلْكَى ، لَا إِلَى هَؤُلَاءِ ، وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا .

۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ ﴾ أَيْ : مَعَكَ إِلَى الْغَزْوِ ﴿ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً ﴾ أَيْ : لَكَانُوا تَأَهَّبُوا لَهُ ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾ أَيْ : أَبْغَضَ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَكَ قَدَرًا ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ أَيْ : أَخَّرَهُمْ ﴿ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ أَيْ : قَدَرًا . ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى وَجْهَ كَرَاهِيَتِهِ لِخُرُوجِهِمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ أَيْ : لِأَنَّهُمْ جُبَنَاءُ مَخْذُولُونَ ﴿ وَلَأَوْضَعُواْ

خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ أَيْ : وَلَأَسْرَعُوا السَّيْرَ وَالْمَشْيَ بَيْنَكُمْ بِالنَّمِيمَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَالْفِتْنَةِ ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ أَيْ : مُطِيعُونَ لَهُمْ وَمُسْتَحْسِنُونَ لِحَدِيثِهِمْ وَكَلَامِهِمْ ، يَسْتَنْصِحُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ حَالَهُمْ ، فَيُؤَدِّي إِلَى وُقُوعِ شَرٍّ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَفَسَادٍ كَبِيرٍ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عِلْمِهِ فَقَالَ : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ ، وَمَا يَكُونُ ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ فَأَخْبَرَ عَنْ حَالِهِمْ كَيْفَ يَكُونُ لَوْ خَرَجُوا ، وَمَعَ هَذَا مَا خَرَجُوا .

لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَرِّضًا لِنَبِيِّهِ ﷺ عَلَى الْمُنَافِقِينَ ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ ﴾ أَيْ : لَقَدْ أَعْمَلُوا فِكْرَهُمْ ، وَأَجَالُوا آرَاءَهُمْ فِي كَيْدِكَ وَكَيْدِ أَصْحَابِكَ ، وَخِذْلَانِ دِينِكَ وَإِخْمَادِهِ مُدَّةً طَوِيلَةً ، وَذَلِكَ أَوَّلُ مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ ، رَمَتْهُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَحَارَبَتْهُ يَهُودُ الْمَدِينَةِ وَمُنَافِقُوهَا ، فَلَمَّا نَصَرَهُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَعْلَى كَلِمَتَهُ ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ وَأَصْحَابُهُ : هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ ، فَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا ، ثُمَّ كُلَّمَا أَعَزَّ اللهُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَغَاظَهُمْ ذَلِكَ وَسَاءَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ .

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ مَنْ يَقُولُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ : ﴿ ٱئْذَن لِّى ﴾ فِي الْقُعُودِ ﴿ وَلَا تَفْتِنِّىٓ ﴾ بِالْخُرُوجِ مَعَكَ بِسَبَبِ الْجَوَارِي مِنْ نِسَاءِ الرُّومِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ﴾ أَيْ : قَدْ سَقَطُوا فِي الْفِتْنَةِ بِقَوْلِهِمْ هَذَا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا ، وَلَا مَحِيصَ وَلَا مَهْرَبَ .

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

يُعْلِمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِعَدَاوَةِ هَؤُلَاءِ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ مَهْمَا أَصَابَهُ مِنْ حَسَنَةٍ أَيْ : فَتْحٍ وَنَصْرٍ وَظَفَرٍ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، مِمَّا يَسُرُّهُ وَيَسُرُّ أَصْحَابَهُ سَاءَهُمْ ذَلِكَ ﴿ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ

أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : قَدِ احْتَرَزْنَا مِنْ مُتَابَعَتِهِ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴿ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ فَأَرْشَدَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَ اللهِ ﷺ إِلَى جَوَابِهِمْ فِي عَدَاوَتِهِمْ هَذِهِ التَّامَّةِ فَقَالَ : ﴿ قُل ﴾ أَيْ : لَهُمْ ﴿ لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ أَيْ : نَحْنُ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللهِ وَقَدَرِهِ ﴿ هُوَ مَوْلَىٰنَا ﴾ أَيْ : سَيِّدُنَا وَمَلْجَؤُنَا ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي : وَنَحْنُ مُتَوَكِّلُونَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ : ﴿ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ ﴾ أَيْ : تَنْتَظِرُونَ بِنَا ﴿ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ شَهَادَةٌ أَوْ ظَفَرٌ بِكُمْ . ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ﴾ أَيْ : نَنْتَظِرُ بِكُمْ ، ﴿ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ أَيْ : نَنْتَظِرُ بِكُمْ هَذَا أَوْ هَذَا ، إِمَّا أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِقَارِعَةٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا بِسَبْيٍ أَوْ بِقَتْلٍ ﴿ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ طَائِعِينَ أَوْ مُكْرَهِينَ ﴿ لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ .ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ وَهُوَ أَنَّهُمْ لَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُمْ ﴿ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ أَيْ : وَالْأَعْمَالُ إِنَّمَا تَصِحُّ بِالْإِيمَانِ ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ قَصْدٌ صَحِيحٌ وَلَا هِمَّةٌ فِي الْعَمَلِ ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ ﴾ نَفَقَةً ﴿ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ وَقَدْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﷺ ((**إِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا**)) ((**وَإِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا**)) . فَلِهَذَا لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ هَؤُلَاءِ نَفَقَةً وَلَا عَمَلًا ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ مِنَ الْمُتَّقِينَ .

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ١٣١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : بِزَكَاتِهَا وَالنَّفَقَةِ مِنْهَا فِي سَبِيلِ اللهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ أَيْ : وَيُرِيدُ أَنْ يُمِيتَهُمْ حِينَ يُمِيتُهُمْ

عَلَى الْكُفْرِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَنْكَى لَهُمْ وَأَشَدُّ لِعَذَابِهِمْ . عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَهَذَا يَكُونُ مِنْ بَابِ الاِسْتِدْرَاجِ لَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ .

وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ عَنْ جَزَعِهِمْ وَفَزَعِهِمْ وَفَرَقِهِمْ وَهَلَعِهِمْ أَنَّهُمْ ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ يَمِينًا مُؤَكَّدَةً ﴿ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ أَيْ : فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ﴿ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ أَيْ : فَهُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى الْحَلِفِ . ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا ﴾ أَيْ : حِصْنًا يَتَحَصَّنُونَ بِهِ ، وَحِرْزًا يَتَحَرَّزُونَ بِهِ ﴿ أَوْ مَغَٰرَٰتٍ ﴾ وَهِيَ الَّتِي فِي الْجِبَالِ ﴿ أَوْ مُدَّخَلًا ﴾ وَهُوَ السَّرَبُ فِي الْأَرْضِ وَالنَّفَقُ ، ﴿ لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أَيْ : يُسْرِعُونَ فِي ذَهَابِهِمْ عَنْكُمْ لأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُخَالِطُونَكُمْ كُرْهًا لَا مَحَبَّةً ، وَوَدُّوا أَنَّهُمْ لَا يُخَالِطُونَكُمْ وَلَكِنْ لِلضَّرُورَةِ أَحْكَامٌ ، وَلِهَذَا لَا يَزَالُونَ فِي هَمٍّ وَحُزْنٍ وَغَمٍّ ؛ لأَنَّ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ لَا يَزَالُ فِي عِزٍّ وَنَصْرٍ وَرِفْعَةٍ ، فَلِهَذَا كُلَّمَا سُرَّ الْمُسْلِمُونَ سَاءَهُمْ ذَلِكَ ، فَهُمْ يَوَدُّونَ أَنْ لَا يُخَالِطُوا الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ .

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُم ﴾ أَيْ : وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿ مَّن يَلْمِزُكَ ﴾ أَيْ : يَعِيبُ عَلَيْكَ ﴿ فِي ﴾ قَسْمِ ﴿ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ إِذَا فَرَّقْتَهَا ، وَيَتَّهِمُكَ فِي ذَلِكَ وَهُمُ الْمُتَّهَمُونَ الْمَأْبُونُونَ ، وَهُمْ مَعَ هَذَا لَا يُنْكِرُونَ لِلدِّينِ وَإِنَّمَا يُنْكِرُونَ لِحَظِّ أَنْفُسِهِمْ ؛ وَلِهَذَا إِنْ أُعْطُوا مِنَ الزَّكَاةِ رَضُوا ﴿ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ أَيْ : يَغْضَبُونَ لِأَنْفُسِهِمْ . وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ يَقُولُ : وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْعَنُ عَلَيْكَ فِي الصَّدَقَاتِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا لَهُمْ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَدَبًا عَظِيمًا وَسِرًّا شَرِيفًا ، حَيْثُ جَعَلَ الرِّضَا بِمَا آتَاهُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالتَّوَكُّلَ عَلَى اللهِ وَحْدَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ وَكَذَلِكَ الرَّغْبَةُ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ فِي التَّوْفِيقِ لِطَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ ، وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ ،

وَتَصْدِيقِ أَخْبَارِهِ، وَالِاقْتِفَاءِ بِآثَارِهِ.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى اعْتِرَاضَ الْمُنَافِقِينَ الْجَهَلَةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَلَمْزِهِمْ إِيَّاهُ فِي قَسْمِ الصَّدَقَاتِ، بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَسَمَهَا وَبَيَّنَ حُكْمَهَا وَتَوَلَّى أَمْرَهَا بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكِلْ قَسْمَهَا إِلَى أَحَدٍ غَيْرِهِ، فَجَزَّأَهَا لِهَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ. **فَأَمَّا الْفُقَرَاءُ**: فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ**». **وَأَمَّا الْمَسَاكِينُ**: فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، فَتَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ**» قَالُوا: فَمَا الْمِسْكِينُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا**». **وَأَمَّا الْعَامِلُونَ عَلَيْهَا: فَهُمُ الْجُبَاةُ وَالسُّعَاةُ يَسْتَحِقُّونَ مِنْهَا قِسْطًا عَلَى ذَلِكَ** وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَقْرِبَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِينَ تَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ. **وَأَمَّا الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ فَأَقْسَامٌ: مِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى**: لِيُسْلِمَ كَمَا أَعْطَى النَّبِيُّ ﷺ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ مِنْ غَنَائِمِ حُنَيْنٍ، وَقَدْ كَانَ شَهِدَهَا مُشْرِكًا. **وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى**: لِمَا يُرْجَى مِنْ إِسْلَامِ نُظَرَائِهِ، **وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى**: لِيَجْبِيَ الصَّدَقَاتِ مِمَّنْ يَلِيهِ، أَوْ لِيَدْفَعَ عَنْ حَوْزَةِ الْمُسْلِمِينَ الضَّرَرَ مِنْ أَطْرَافِ الْبِلَادِ. **وَأَمَّا الرِّقَابُ**: **رُوِيَ عَنْ عَدَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ**: **أَنَّهُمُ** الْمُكَاتَبُونَ، **وَقَالَ آخَرُونَ**: لَا بَأْسَ أَنْ تُعْتَقَ الرَّقَبَةُ مِنَ الزَّكَاةِ. أَيْ: أَنَّ الرِّقَابَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ الْمُكَاتَبَ، أَوْ يَشْتَرِيَ رَقَبَةً فَيُعْتِقَهَا اسْتِقْلَالًا. **وَأَمَّا الْغَارِمُونَ فَهُمْ أَقْسَامٌ**: فَمِنْهُمْ مَنْ تَحَمَّلَ حَمَالَةً أَوْ ضَمِنَ دَيْنًا فَلَزِمَهُ، فَأَجْحَفَ بِمَالِهِ أَوْ غَرِمَ فِي أَدَاءِ دَيْنِهِ أَوْ فِي مَعْصِيَةٍ ثُمَّ تَابَ فَهَؤُلَاءِ يُدْفَعُ إِلَيْهِمْ. **وَأَمَّا** ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: فَمِنْهُمُ الْغُزَاةُ الَّذِينَ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي الدِّيوَانِ، **وَكَذَلِكَ** ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وَهُوَ الْمُسَافِرُ الْمُجْتَازُ فِي بَلَدٍ لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى سَفَرِهِ، فَيُعْطَى مِنَ الصَّدَقَاتِ مَا يَكْفِيهِ إِلَى بَلَدِهِ، وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ. ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: حُكْمًا مُقَدَّرًا بِتَقْدِيرِ اللهِ وَفَرْضِهِ وَقِسْمَتِهِ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَيْ: عَلِيمٌ بِظَوَاهِرِ الْأُمُورِ وَبَوَاطِنِهَا وَبِمَصَالِحِ عِبَادِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِيمَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ وَيَشْرَعُهُ وَيَحْكُمُ بِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ قَوْمٌ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﷺ بِالْكَلَامِ فِيهِ ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ أَيْ : مَنْ قَالَ لَهُ شَيْئًا صَدَّقَهُ وَمَنْ حَدَّثَهُ فِينَا صَدَّقَهُ ، فَإِذَا جِئْنَاهُ وَحَلَفْنَا لَهُ صَدَّقَنَا . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ أَيْ : هُوَ أُذُنُ خَيْرٍ يَعْرِفُ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : وَيُصَدِّقُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ الْآيَةُ . أَيْ : أَلَمْ يَتَحَقَّقُوا وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ حَادَّ اللهَ ﷻ أَيْ : شَاقَّهُ وَحَارَبَهُ وَخَالَفَهُ ، وَكَانَ فِي حَدٍّ وَاللهُ وَرَسُولُهُ فِي حَدٍّ ، ﴿ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ أَيْ : مُهَانًا مُعَذَّبًا وَ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ أَيْ : وَهَذَا هُوَ الذُّلُّ الْعَظِيمُ ، وَالشَّقَاءُ الْكَبِيرُ .

يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ : يَقُولُونَ الْقَوْلَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ يَقُولُونَ : عَسَى اللهُ أَنْ لَا يُفْشِيَ عَلَيْنَا سِرَّنَا هَذَا ، ﴿ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّ اللهَ سَيُنَزِّلُ عَلَى رَسُولِهِ مَا يَفْضَحُكُمْ بِهِ ، وَيُبَيِّنُ لَهُ أَمْرَكُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ : كَانَتْ تُسَمَّى هَذِهِ السُّورَةُ : الْفَاضِحَةُ ؛ فَاضِحَةُ الْمُنَافِقِينَ .

وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلِسٍ يَوْمًا : مَا رَأَيْتُ مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبُ بُطُونًا ، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا ، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ . فَقَالَ رَجُلٌ فِي الْمَسْجِدِ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ . فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَنَزَلَ الْقُرْآنُ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ : أَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقًا بِحَقَبِ نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَنْكُبُهُ الْحِجَارَةُ وَهُوَ يَقُولُ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ الْآيَةَ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾ أَيْ : بِهَذَا الْمَقَالِ الَّذِي اسْتَهْزَأْتُمْ بِهِ ﴿ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ ﴾ أَيْ : لَا يُعْفَى عَنْ جَمِيعِكُمْ ، وَلَا بُدَّ مِنْ عَذَابِ بَعْضِكُمْ ﴿ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ أَيْ : مُجْرِمِينَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ الْفَاجِرَةِ الْخَاطِئَةِ .

ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٍۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۗ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى خِلَافِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَمَّا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، كَانَ هَؤُلَاءِ ﴿ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡ ﴾ أَيْ : عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : نَسُوا ذِكْرَ اللهِ ﴿ فَنَسِيَهُمۡ ﴾ أَيْ : عَامَلَهُمْ مُعَامَلَةَ مَنْ نَسِيَهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ أَيْ : الْخَارِجُونَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ ، الدَّاخِلُونَ فِي طَرِيقِ الضَّلَالَةِ . ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ أَيْ : عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ الَّذِي ذُكِرَ عَنْهُمْ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا مُخَلَّدِينَ هُمْ وَالْكُفَّارُ ﴿ هِيَ حَسۡبُهُمۡ ﴾ أَيْ : كِفَايَتُهُمْ فِي الْعَذَابِ ﴿ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : طَرَدَهُمْ أَوْ بَعَّدَهُمْ ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾ .

كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : أَصَابَ هَؤُلَاءِ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا أَصَابَ مَنْ قَبْلَهُمْ ، وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً ، وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ ﴾ **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : بِدِينِهِم . ﴿ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ ﴾ أَيْ : فِي الْكَذِبِ وَالْبَاطِلِ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ أَيْ : بَطَلَتْ مَسَاعِيهِمْ ، فَلَا ثَوَابَ لَهُمْ عَلَيْهَا ؛ لِأَنَّهَا فَاسِدَةٌ ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ عَلَيْهَا ثَوَابٌ . ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ الْآيَةُ ، **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ هَؤُلَاءِ بَنُو إِسْرَائِيلَ شُبِّهْنَا بِهِمْ .

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَاعِظًا لِهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ: أَلَمْ تُخْبَرُوا خَبَرَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ وَمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْغَرَقِ الْعَامِّ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ، إِلَّا مَنْ آمَنَ بِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوحٍ ﷺ ﴿ وَعَادٍ ﴾ كَيْفَ أُهْلِكُوا بِالرِّيحِ الْعَقِيمِ، لَمَّا كَذَّبُوا هُودًا ﷺ ﴿ وَثَمُودَ ﴾ كَيْفَ أَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ، لَمَّا كَذَّبُوا صَالِحًا ﷺ وَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ كَيْفَ نَصَرَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَأَيَّدَهُ بِالْمُعْجِزَاتِ الظَّاهِرَةِ عَلَيْهِمْ، وَأَهْلَكَ مَلِكَهُمُ النُّمْرُودَ بْنَ كَنْعَانَ بْنَ كُوشٍ الْكَنْعَانِيِّ - لَعَنَهُ اللهُ - ﴿ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ ﴾ وَهُمْ قَوْمُ شُعَيْبٍ ﷺ وَكَيْفَ أَصَابَتْهُمُ الرَّجْفَةُ وَعَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ﴾ قَوْمُ لُوطٍ، وَقَدْ كَانُوا يَسْكُنُونَ فِي مَدَائِنَ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ [النجم: ٥٣] أَيْ: الْأُمَّةُ الْمُؤْتَفِكَةُ، وَقِيلَ: أُمُّ قُرَاهُمْ وَهِيَ سَدُومُ، **وَالْغَرَضُ**: أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَهْلَكَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ نَبِيَّ اللهِ لُوطًا ﷺ وَإِتْيَانِهِمُ الْفَاحِشَةَ الَّتِي لَمْ يَسْبِقْهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أَيْ: بِالْحُجَجِ وَالدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أَيْ: بِإِهْلَاكِهِ إِيَّاهُمْ؛ لِأَنَّهُ أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِزَاحَةِ الْعِلَلِ ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أَيْ: بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَمُخَالَفَتِهِمُ الْحَقَّ، فَصَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالدَّمَارِ.

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ الذَّمِيمَةَ عَطَفَ بِذِكْرِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَحْمُودَةِ، فَقَالَ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ أَيْ: يَتَنَاصَرُونَ وَيَتَعَاضَدُونَ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أَيْ: يُطِيعُونَ اللهَ وَيُحْسِنُونَ إِلَى خَلْقِهِ ﴿ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ أَيْ: فِيمَا

أَمَرَ ، وَتَرْكِ مَا عَنْهُ زَجَرَ ﴿ أُولَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ مَنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أَيْ : يُعِزُّ مَنْ أَطَاعَهُ ، فَإِنَّ الْعِزَّةَ لله وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِي قِسْمَتِهِ هَذِهِ الصِّفَاتِ لِهَؤُلَاءِ ، وَتَخْصِيصِهِ الْمُنَافِقِينَ بِصِفَاتِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ ، فَإِنَّ لَهُ الْحِكْمَةَ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِمَا أَعَدَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَالْمُؤْمِنَاتِ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِي ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً ﴾ أَيْ : حَسَنَةَ الْبِنَاءِ ، طَيِّبَةَ الْقَرَارِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أَيْ : رِضَا الله عَنْهُمْ أَكْبَرُ وَأَجَلُّ وَأَعْظَمُ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ ، كَمَا أَمَرَهُ بِأَنْ يَخْفِضَ جَنَاحَهُ لِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ مَصِيرَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ إِلَى النَّارِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ . سُئِلَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ فَقَالَ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ : « **أَوْفَى اللهُ لَهُ بِأُذُنِهِ** » . قَالَ وَذَلِكَ حِينَ سَمِعَ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ يَقُولُ وَرَسُولُ الله ﷺ يَخْطُبُ لَئِنْ كَانَ صَادِقًا فَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ ، فَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ : فَهُوَ وَالله صَادِقٌ وَلَأَنْتَ شَرٌّ مِنَ الْحِمَارِ . ثُمَّ رُفِعَ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَجَحَدَهُ الْقَائِلُ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ تَصْدِيقًا لِزَيْدٍ يَعْنِي قَوْلَهُ : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ ﴾ الْآيَةَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أَيْ : وَمَا لِلرَّسُولِ عِنْدَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا أَنَّ اللهَ أَغْنَاهُمْ بِبَرَكَتِهِ وَيُمْنِ سَعَادَتِهِ ، وَلَوْ تَمَّتْ عَلَيْهِمُ السَّعَادَةُ لَهَدَاهُمُ اللهُ لِمَا جَاءَ بِهِ كَمَا قَالَ ﷺ لِلْأَنْصَارِ : « **أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي ؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي** » كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ . وَهَذِهِ الصِّيغَةُ تُقَالُ حَيْثُ لَا

ذَنْب ، كَقَوْلِهِ ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ [البروج : ٨]، ثُمَّ دَعَاهُمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى التَّوْبَةِ فَقَالَ : ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ أَيْ : وَإِنْ يَسْتَمِرُّوا عَلَى طَرِيقِهِمْ ﴿ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : بِالْقَتْلِ وَالْهَمِّ وَالْغَمِّ ﴿ وَٱلْآخِرَةِ ﴾ أَيْ : بِالْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْهَوَانِ وَالصَّغَارِ ﴿ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ أَحَدٌ يُسْعِدُهُمْ وَلَا يُنْجِدُهُمْ ، وَلَا يُحَصِّلُ لَهُمْ خَيْرًا ، وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ شَرًّا .

۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ مَنْ أَعْطَى اللهَ عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ ، لَئِنْ أَغْنَاهُ مِنْ فَضْلِهِ لَيَصَّدَّقَنَّ مِنْ مَالِهِ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، فَمَا وَفَّى بِمَا قَالَ ، وَلَا صَدَقَ فِيمَا ادَّعَى ، فَأَعْقَبَهُمْ هَذَا الصَّنِيعُ نِفَاقًا سَكَنَ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَ اللهَ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ الْآيَةُ . أَيْ أَعْقَبَهُمُ النِّفَاقَ فِي قُلُوبِهِمْ بِسَبَبِ إِخْلَافِهِمُ الْوَعْدَ وَكَذِبِهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾ الْآيَةُ . يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، وَأَنَّهُ أَعْلَمُ بِضَمَائِرِهِمْ ، وَإِنْ أَظْهَرُوا أَنَّهُ إِنْ حَصَلَ لَهُمْ أَمْوَالٌ تَصَدَّقُوا مِنْهَا وَشَكَرُوا عَلَيْهَا ، فَإِنَّ اللهَ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى عَلَّامُ الْغُيُوبِ ، أَيْ : يَعْلَمُ كُلَّ غَيْبٍ وَشَهَادَةٍ ، وَكُلَّ سِرٍّ وَنَجْوَى ، وَيَعْلَم مَا ظَهَرَ وَمَا بَطَنَ .

ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ لَا يَسْلَمُ أَحَدٌ مِنْ عَيْبِهِمْ ، وَلَمْزِهِمْ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، حَتَّى وَلَا الْمُتَصَدِّقُونَ يَسْلَمُونَ مِنْهُمْ ، إِنْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِمَالٍ جَزِيلٍ قَالُوا : هَذَا مُرَاءٍ ، وَإِنْ جَاءَ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ قَالُوا : إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا . **عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ** ﷺ **قَالَ** : لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نُحَامِلُ عَلَى ظُهُورِنَا ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ ، فَقَالُوا : مُرَاءٍ ، وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ فَقَالُوا : إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا . فَنَزَلَتْ ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ ﴾ الْآيَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ هَذَا مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ عَلَى صَنِيعِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ

بِالْمُؤْمِنِينَ ؛ لأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنسِ الْعَمَلِ ، فَعَامَلَهُمْ مُعَامَلَةَ مَنْ سَخِرَ مِنْهُمْ ، اِنْتِصَارًا لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَعَدَّ لِلْمُنَافِقِينَ فِي الآخِرَةِ عَذَابًا أَلِيمًا ؛ لأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ .

ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ لَيْسُوا أَهْلًا لِلاسْتِغْفَارِ ، وَأَنَّهُ لَوِ اسْتَغْفَرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ السَّبْعِينَ إِنَّمَا ذُكِرَتْ حَسْمًا لِمَادَّةِ الاِسْتِغْفَارِ لَهُمْ ؛ لأَنَّ الْعَرَبَ فِي أَسَالِيبِ كَلَامِهَا تَذْكُرُ السَّبْعِينَ فِي مُبَالَغَةِ كَلَامِهَا ، وَلَا تُرِيدُ التَّحْدِيدَ بِهَا ، وَلَا أَنْ يَكُونَ مَا زَادَ عَلَيْهَا بِخِلَافِهَا .

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَامًّا لِلْمُنَافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ بَعْدَ خُرُوجِهِ ﴿ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ ﴾ مَعَهُ ﴿ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ ﴾ أَيْ : بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴿ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْخُرُوجَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ كَانَ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ عِنْدَ طِيبِ الظِّلَالِ وَالثِّمَارِ ، فَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ لَهُمْ ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ الَّتِي تَصِيرُونَ إِلَيْهَا بِسَبَبِ مُخَالَفَتِكُمْ ﴿ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ مِمَّا فَرَرْتُمْ مِنْهُ مِنَ الْحَرِّ ، بَلْ أَشَدُّ حَرًّا مِنَ النَّارِ . أَيْ : لَوْ أَنَّهُمْ يَفْقَهُونَ وَيَفْهَمُونَ لَنَفَرُوا مَعَ الرَّسُولِ فِي سَبِيلِ اللهِ فِي الْحَرِّ ؛ لِيَتَّقُوا بِهِ مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ الَّذِي هُوَ أَضْعَافُ أَضْعَافِ هَذَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ عَلَى صَنِيعِهِمْ هَذَا ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ .

فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : رَدَّكَ اللهُ مِنْ غَزْوَتِكَ هَذِهِ ﴿ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾ أَيْ : مَعَكَ إِلَى غَزْوَةٍ أُخْرَى ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾ أَيْ : تَعْزِيرًا لَهُمْ وَعُقُوبَةً ، **ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ** : ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ . فَإِنَّ جَزَاءَ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا ، كَمَا أَنَّ ثَوَابَ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا ، ﴿ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ قيل :

أَيْ : الرِّجَالُ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْغُزَاةِ .

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾

أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَبْرَأَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَأَنْ لَا يُصَلِّيَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ إِذَا مَاتَ ، وَأَنْ لَا يَقُومَ عَلَى قَبْرِهِ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُ أَوْ يَدْعُوَ لَهُ ؛ لأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا عَلَيْهِ ، وَهَذَا حُكْمٌ عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ عُرِفَ نِفَاقُهُ ، وَإِنْ كَانَ سَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولٍ رَأْسِ الْمُنَافِقِينَ . **عَنِ ابْنِ عُمَرَ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ** : لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكَفِّنَ فِيهِ أَبَاهُ . فَأَعْطَاهُ ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ تُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللهُ فَقَالَ** ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ **وَسَأَزِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ** » قَالَ : إِنَّهُ مُنَافِقٌ . قَالَ : فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ آيَةَ : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ .

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

قَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرُ تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ(١) ، وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ .

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا وَذَامًّا لِلْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ ، النَّاكِلِينَ عَنْهُ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ ، وَوُجُودِ السَّعَةِ وَالطَّوْلِ ، وَاسْتَأْذَنُوا الرَّسُولَ فِي الْقُعُودِ وَقَالُوا : ﴿ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ وَرَضُوا لِأَنْفُسِهِمْ بِالْعَارِ وَالْقُعُودِ فِي الْبَلَدِ مَعَ النِّسَاءِ ، وَهُنَّ الْخَوَالِفُ بَعْدَ خُرُوجِ الْجَيْشِ ، فَإِذَا وَقَعَ الْحَرْبُ كَانُوا أَجْبَنَ النَّاسِ ، وَإِذَا كَانَ أَمْنٌ كَانُوا أَكْثَرَ النَّاسِ كَلَامًا . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾

(١) راجع تفسير الآية ٥٥ من هذه السورة الكريمة .

أَيْ : بِسَبَبِ نُكُولِهِمْ عَنِ الْجِهَادِ ، وَالْخُرُوجِ مَعَ الرَّسُولِ فِي سَبِيلِ الله ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَفْهَمُونَ مَا فِيهِ صَلَاحٌ لَهُمْ فَيَفْعَلُوهُ ، وَلَا مَا فِيهِ مَضَرَّةٌ لَهُمْ فَيَجْتَنِبُوهُ .

لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى ذَنْبَ الْمُنَافِقِينَ ، وَبَيَّنَ ثَنَاءَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَا لَهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ ، مِنْ بَيَانِ حَالِهِمْ وَمَآلِهِمْ وَقَالَ : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَى .

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى حَالَ ذَوِي الْأَعْذَارِ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ ، الَّذِينَ جَاءُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ ، وَيُبَيِّنُونَ لَهُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّعْفِ وَعَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْخُرُوجِ ، وَهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ مِمَّنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ . ﴿ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أَيْ : وَقَعَدَ آخَرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ عَنِ الْمَجِيءِ لِلاعْتِذَارِ ، ثُمَّ أَوْعَدَهُمْ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ فَقَالَ : ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى الْأَعْذَارَ الَّتِي لَا حَرَجَ عَلَى مَنْ قَعَدَ مَعَهَا عَنِ الْقِتَالِ ، فَذَكَرَ مِنْهَا مَا هُوَ لَازِمٌ لِلشَّخْصِ لَا يَنْفَكُّ عَنْهُ ، وَهُوَ : الضَّعْفُ فِي التَّرْكِيبِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ الْجِلَادُ فِي الْجِهَادِ ، وَمِنْهُ الْعَمَى وَالْعَرَجُ وَنَحْوُهُمَا ، وَلِهَذَا بَدَأَ بِهِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ عَارِضٌ بِسَبَبِ مَرَضٍ عَنَّ لَهُ فِي بَدَنِهِ شَغَلَهُ عَنِ الْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ الله ، أَوْ بِسَبَبِ فَقْرِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى التَّجْهِيزِ لِلْحَرْبِ ، فَلَيْسَ

عَلَى هَؤُلَاءِ حَرَجٌ إِذَا قَعَدُوا وَنَصَحُوا فِي حَالِ قُعُودِهِمْ، وَلَمْ يُرْجِفُوا بِالنَّاسِ وَلَمْ يُثَبِّطُوهُمْ وَهُمْ مُحْسِنُونَ فِي حَالِهِمْ هَذَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثُمَّ رَدَّ تَعَالَى الْمَلَامَةَ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَ فِي الْقُعُودِ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ، وَأَنَّبَهُمْ فِي رِضَاهُمْ بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ النِّسَاءِ الْخَوَالِفِ فِي الرِّحَالِ ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ أَنَّهُمْ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِمْ ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أَيْ: لَنْ نُصَدِّقَكُمْ ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أَيْ: قَدْ أَعْلَمَنَا اللهُ أَحْوَالَكُمْ ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أَيْ: سَيُظْهِرُ أَعْمَالَكُمْ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: فَيُخْبِرُكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا وَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهَا. ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ سَيَحْلِفُونَ لَكُمْ مُعْتَذِرِينَ ﴿لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ فَلَا تُؤَنِّبُوهُمْ ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ احْتِقَارًا لَهُمْ ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أَيْ: خُبَثَاءُ نَجِسٌ بَوَاطِنُهُمْ وَاعْتِقَادَاتُهُمْ ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ فِي آخِرَتِهِمْ ﴿جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أَيْ: مِنَ الْآثَامِ وَالْخَطَايَا، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِنْ رَضُوا عَنْهُمْ بِحَلِفِهِمْ لَهُمْ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ أَيْ: الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، فَإِنَّ الْفِسْقَ هُوَ: الْخُرُوجُ، وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الْفَأْرَةُ فُوَيْسِقَةُ: لِخُرُوجِهَا مِنْ جُحْرِهَا لِلْإِفْسَادِ، وَيُقَالُ: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ أَكْمَامِهَا.

ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَـٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ فِي الأَعْرَابِ كُفَّارًا وَمُنَافِقِينَ وَمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّ كُفْرَهُمْ وَنِفَاقَهُمْ أَعْظَمُ مَنْ غَيْرِهِمْ وَأَشَدّ ﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ أَيْ : أَحْرَى ﴿ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ وَلَمَّا كَانَتِ الْغِلْظَةُ وَالْجَفَاءُ فِي أَهْلِ الْبَوَادِي ، لَمْ يَبْعَثِ اللهُ مِنْهُمْ رَسُولًا ، وَإِنَّمَا كَانَتِ الْبَعْثَةُ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْلِمَهُ الْإِيمَانَ وَالْعِلْمَ ، حَكِيمٌ : فِيمَا قَسَمَ بَيْنَ عِبَادِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ ، وَالْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ . وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مِنْهُمْ ﴿ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ ﴾ أَيْ : فِي سَبِيلِ الله ﴿ مَغْرَمًا ﴾ أَيْ : غَرَامَةً وَخَسَارَةً ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ﴾ أَيْ : يَنْتَظِرُ بِكُمُ الْحَوَادِثَ وَالْآفَاتُ ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ أَيْ : هِيَ مُنْعَكِسَةٌ عَلَيْهِمْ ، وَالسَّوْءُ دَائِرٌ عَلَيْهِمْ ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : سَمِيعٌ لِدُعَاءِ عِبَادِهِ ، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْخُذْلَانَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ هَذَا هُوَ الْقِسْمُ الْمَمْدُوحُ مِنَ الْأَعْرَابِ ، وَهُمُ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ مَا يُنْفِقُونَ فِي سَبِيلِ الله قُرْبَةً يَتَقَرَّبُونَ بِهَا عِنْدَ الله ، وَيَبْتَغُونَ دُعَاءَ الرَّسُولِ لَهُمْ ﴿ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ أَيْ : أَلَا إِنَّ ذَلِكَ حَاصِلٌ لَهُمْ ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ رِضَاهُ عَنِ السَّابِقِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، وَرِضَاهُمْ عَنْهُ بِمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ . **قَالَ الشَّعْبِيُّ** : السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ : مَنْ أَدْرَكَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ .

وَقَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : هُمُ الَّذِينَ صَلَّوْا إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ، فَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ الْعَظِيمُ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ .

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى رَسُولَهُ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - أَنَّ فِي أَحْيَاءِ الْعَرَبِ مِمَّنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مُنَافِقِينَ ، وَفِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَيْضًا مُنَافِقُونَ ﴿ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ أَيْ : مُرِّنُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهِ ، وَمِنْهُ يُقَال : شَيْطَانٌ مَرِيدٌ وَمَارِدٌ ، وَيُقَالُ : تَمَرَّدَ فُلَانٌ عَلَى الله ، أَيْ : عَتَا وَتَجَبَّرَ ، ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ

نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ لَا يُنَافِي قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾[محمد : ٣٠] ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ التَّوَسُّمِ فِيهِمْ بِصِفَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا ، لَا أَنَّهُ يَعْرِفُ جَمِيعَ مَنْ عِنْدَهُ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالرَّيْبِ عَلَى التَّعْيِينِ ، وَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ فِي بَعْضِ مَنْ يُخَالِطُهُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ نِفَاقًا ، وَإِنْ كَانَ يَرَاهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً . ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ يَعْنِي : الْقَتْلَ وَالسَّبْيَ ، **وَقِيلَ** : بِالْجُوعِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ ، ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ، **وَقِيلَ** : عَذَابٌ فِي الدُّنْيَا ، وَعَذَابٌ فِي الْقَبْرِ ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ النَّارِ .

وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

لَمَّا بَيَّنَ تَعَالَى حَالَ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْغَزَاةِ رَغْبَةً عَنْهَا وَتَكْذِيبًا وَشَكًّا ، شَرَعَ فِي بَيَانِ حَالِ الْمُذْنِبِينَ الَّذِينَ تَأَخَّرُوا عَنِ الْجِهَادِ كَسَلًا وَمَيْلًا إِلَى الرَّاحَةِ ، مَعَ إِيمَانِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ بِالْحَقِّ ، فَقَالَ : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : أَقَرُّوا بِهَا وَاعْتَرَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ ، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ أُخَرُ صَالِحَةٌ خَلَطُوا هَذِهِ بِتِلْكَ ، فَهَؤُلَاءِ تَحْتَ عَفْوِ اللهِ وَغُفْرَانِهِ . وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ فِي أُنَاسٍ مُعَيَّنِينَ ، إِلَّا أَنَّهَا عَامَّةٌ فِي كُلِّ الْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ الْمُخَلِّطِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ .

خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً يُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ بِهَا ، وَهَذَا عَامٌّ وَإِنْ أَعَادَ بَعْضُهُمُ الضَّمِيرَ فِي أَمْوَالِهِمْ إِلَى ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ وَلِهَذَا اعْتَقَدَ بَعْضُ مَانِعِي الزَّكَاةِ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ أَنَّ دَفْعَ الزَّكَاةِ إِلَى الْإِمَامِ لَا يَكُونُ ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا خَاصًّا بِالرَّسُولِ ﷺ ، وَلِهَذَا احْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ﴾ الْآيَةُ ، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ هَذَا التَّأْوِيلَ وَالْفَهْمَ الْفَاسِدَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ ، وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى أَدَّوْا الزَّكَاةَ إِلَى الْخَلِيفَةِ كَمَا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، حَتَّى قَالَ الصِّدِّيقُ : وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا - وَفِي رِوَايَةٍ عِقَالًا - كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى مَنْعِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : اُدْعُ لَهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ . ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: رَحْمَةٌ لَهُمْ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : وَقَارٌ . ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أَيْ : لِدُعَائِكَ ﴿ عَلِيمٌ ﴾

أَيْ : بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِنْكَ وَمَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ هَذَا تَهْيِيجٌ إِلَى التَّوْبَةِ وَالصَّدَقَةِ اللَّتَيْنِ كُلٌّ مِنْهُمَا يَحُطُّ الذُّنُوبَ وَيُمَحِّصُهَا وَيَمْحَقُهَا . وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ كُلَّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ حَلَالٍ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ، فَيُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا حَتَّى تَصِيرَ التَّمْرَةُ مِثْلَ أُحُدٍ ، كَمَا جَاءَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ : هَذَا وَعِيدٌ ، يَعْنِي مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلْمُخَالِفِيْنَ أَوَامِرَهُ ، بِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ سَتُعْرَضُ عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَعَلَى الرَّسُولِ ﷺ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَهَذَا كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٨] ، وَقَدْ يُظْهِرُ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا .

وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : هُمُ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خُلِّفُوا ، أَيْ : عَنِ التَّوْبَةِ ، وَهُمْ مَرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ ، وَكَعْبُ ابْنُ مَالِكٍ ، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ ، قَعَدُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي جُمْلَةِ مَنْ قَعَدَ كَسَلًا وَمَيْلًا إِلَى الدَّعَةِ وَالْحِفْظِ وَطِيبِ الثِّمَارِ وَالظِّلَالِ ، لَا شَكًّا وَنِفَاقًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : هُمْ تَحْتَ عَفْوِ اللهِ ، إِنْ شَاءَ فَعَلَ بِهِمْ هَذَا وَإِنْ شَاءَ فَعَلَ بِهِمْ ذَاكَ ، وَلَكِنَّ رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْعَفْوَ ، حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

رُوِيَ مِنْ طُرُقٍ مُرْسَلَةٍ : أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ - يَعْنِي مِنْ تَبُوكَ - حَتَّى نَزَلَ بِذِي أَوَانٍ - بَلَدٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ - وَكَانَ أَصْحَابُ مَسْجِدِ الضِّرَارِ قَدْ كَانُوا أَتَوْهُ وَهُوَ يَتَجَهَّزُ إِلَى تَبُوكَ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا قَدْ بَنَيْنَا مَسْجِدًا لِذِي الْعِلَّةِ وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ وَاللَّيْلَةِ الشَّاتِيَةِ ، وَإِنَّا نُحِبُّ أَنْ تَأْتِينَا فَتُصَلِّيَ لَنَا فِيهِ فَقَالَ : ((إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ وَحَالِ شُغْلٍ)) - أَوْ كَمَا

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ - ((**وَلَوْ قَدْ قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى أَتَيْنَاكُمْ فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ**)) فَلَمَّا نَزَلَ بِذِي أَوَانٍ أَتَاهُ خَبَرُ الْمَسْجِدِ ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَالِكَ بْنَ الدَّخْشَمِ ، أَخَا بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ ، وَمَعْنَ ابْنِ عَدِيٍّ أَوْ أَخَاهُ عَامِرَ بْنَ عَدِيٍّ أَخَا بَنِي عَجْلَان ، فَقَالَ : ((**انْطَلِقَا إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ فَاهْدِمَاهُ وَحَرِّقَاهُ**)) فَخَرَجَا سَرِيعَيْنِ حَتَّى أَتَيَا بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ ، وَهُمْ رَهْطُ مَالِكِ بْنِ الدَّخْشَمِ . فَقَالَ مَالِكٌ لِمَعْنٍ : أَنْظِرْنِي حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْكَ بِنَارٍ مِنْ أَهْلِي ، فَدَخَلَ أَهْلَهُ فَأَخَذَ سَعَفًا مِنَ النَّخْلِ فَأَشْعَلَ فِيهِ نَارًا ، ثُمَّ خَرَجَا يَشْتَدَّانِ حَتَّى دَخَلَا الْمَسْجِد وَفِيهِ أَهْلُهُ فَحَرَّقَاهُ وَهَدَمَاهُ ، وَتَفَرَّقُوا عَنْهُ وَنَزَلَ فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ مَا نَزَلَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ﴾ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ بَنَوْهُ ﴿ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أَيْ : مَا أَرَدْنَا بِبُنْيَانِهِ إِلَّا خَيْرًا وَرِفْقًا بِالنَّاسِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أَيْ : فِيمَا قَصَدُوا وَفِيمَا نَوَوْا ، وَإِنَّمَا بَنَوْهُ ضِرَارًا لِمَسْجِدِ قُبَاءٍ ، وَكُفْرًا بِالله وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَهُوَ أَبُو عَامِرٍ الْفَاسِقُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الرَّاهِبُ - لَعَنَهُ اللهُ - .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ نَهْيٌ لَهُ ﷺ وَالْأُمَّةُ تَبَعٌ لَهُ فِي ذَلِك ، عَنْ أَنْ يَقُومَ فِيهِ ، أَيْ : يُصَلِّي فِيهِ أَبَدًا . ثُمَّ حَثَّهُ عَلَى الصَّلَاةِ بِمَسْجِدِ قُبَاء الَّذِي أُسِّسَ مِنْ أَوَّلِ يَوْم بِنَائِهِ عَلَى التَّقْوَى ، وَهِيَ طَاعَةُ اللهِ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ ، وَجَمْعًا لِكَلِمَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَعْقِلًا وَمَوْئِلًا لِلْإِسْلَام وَأَهْلِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ وَالسِّيَاقُ إِنَّمَا هُوَ فِي مَعْرِضِ مَسْجِدِ قُبَاءٍ ، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَزُورُ مَسْجِدَ قُبَاء رَاكِبًا وَمَاشِيًا . وَقَدْ صَرَّحَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ بِأَنَّهُ مَسْجِدُ قُبَاءَ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ مَسْجِدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي فِي جَوْفِ الْمَدِينَةِ ، هُوَ الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى . وَهَذَا صَحِيحٌ ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْآيَةِ وَبَيْنَ هَذَا ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مَسْجِدُ قُبَاءَ قَدْ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ فَمَسْجِدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ الصَّلَاةِ فِي الْمَسَاجِدِ الْقَدِيمَةِ الْمُؤَسَّسَةِ مِنْ أَوَّلِ بِنَائِهَا عَلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَعَلَى اسْتِحْبَابِ الصَّلَاةِ مَعَ الْجَمَاعَةِ الصَّالِحِينَ وَالْعِبَادِ الْعَامِلِينَ الْمُحَافِظِينَ عَلَى إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ ، وَالتَّنَزُّه عَنْ مُلَابَسَةِ الْقَاذُورَاتِ . **وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ إِنَّ الطُّهُورَ بِالْمَاءِ لَحَسَنٌ ، وَلَكِنَّهُمُ الْمُطَهَّرُونَ مِنَ الذُّنُوبِ ، **وَقَالَ الْأَعْمَشُ** : التَّوْبَةُ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَالتَّطَهُّرُ مِنَ الشِّرْكِ .

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى : لَا يَسْتَوِي مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ ، وَمَنْ بَنَى مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ، فَإِنَّمَا يَبْنِي هَؤُلَاءِ بُنْيَانَهُمْ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ، أَيْ : طَرَفِ حَفِيرَةٍ مُنْثَالَةٍ ﴿ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : شَكًّا وَنِفَاقًا ، بِسَبَبِ إِقْدَامِهِمْ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ الشَّنِيعِ ، أَوْرَثَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ، كَمَا أُشْرِبَ عَابِدُو الْعِجْلِ حُبَّهُ ﴿ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أَيْ : بِمَوْتِهِمْ . ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِي مُجَازَاتِهِمْ عَنْهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ عَاوَضَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، إِذْ بَذَلُوهَا فِي سَبِيلِهِ بِالْجَنَّةِ ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِهِ وَكَرْمِهِ وَإِحْسَانِهِ ، فَإِنَّهُ قَبِلَ الْعِوَضَ عَمَّا يَمْلِكُهُ بِمَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَى عَبِيدِهِ الْمُطِيعِينَ لَهُ . وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ : بَايَعَهُمْ وَاللهِ فَأَغْلَى ثَمَنَهُمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ أَيْ : سَوَاءٌ قَتَلُوا أَوْ قُتِلُوا أَوِ اجْتَمَعَ لَهُمْ هَذَا وَهَذَا ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُمُ الْجَنَّةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ تَأْكِيدٌ لِهَذَا الْوَعْدِ ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّهُ قَدْ كَتَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ ، وَأَنْزَلَهُ عَلَى رُسُلِهِ فِي كُتُبِهِ الْكِبَارِ ، وَهِيَ : التَّوْرَاةُ الْمُنَزَّلَةُ عَلَى مُوسَى ، وَالْإِنْجِيلُ الْمُنَزَّلُ عَلَى عِيسَى ، وَالْقُرْآنُ الْمُنَزَّلُ عَلَى مُحَمَّدٍ – صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ – .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ فَإِنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ . وَهَذَا كَقَوْلِهِ ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٨٧] ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٢] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ أَيْ : فَلْيَسْتَبْشِرْ مَنْ قَامَ بِمُقْتَضَى هَذَا الْعَقْدِ ، وَوَفَّى بِهَذَا الْعَهْدِ ، بِالْفَوْزِ الْعَظِيمِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ .

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾

هَذَا نَعْتُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اشْتَرَى اللهُ مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ وَالْخِلَالِ الْجَلِيلَةِ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا، التَّارِكُونَ لِلْفَوَاحِشِ ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ أَيْ: الْقَائِمُونَ بِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ مُحَافِظِينَ عَلَيْهَا، وَهِيَ: الْأَقْوَالُ وَالْأَفْعَالُ. فَمِنْ أَخَصِّ الْأَقْوَالِ: الْحَمْدُ، **فَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ وَمِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ: الصِّيَامُ، وَهُوَ تَرْكُ الْمَلَاذِّ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْجِمَاعِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالسِّيَاحَةِ هَهُنَا، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ كَمَا وَصَفَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ أَيْ: صَائِمَاتٌ، وَكَذَا الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ، وَهُمَا عِبَارَةٌ عَنِ الصَّلَاةِ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَنْفَعُونَ خَلْقَ اللهِ، وَيُرْشِدُونَهُمْ إِلَى طَاعَةِ اللهِ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، مَعَ الْعِلْمِ بِمَا يَنْبَغِي فِعْلُهُ وَيَجِبُ تَرْكُهُ، وَهُوَ حِفْظُ حُدُودِ اللهِ فِي تَحْلِيلِهِ وَتَحْرِيمِهِ، عِلْمًا وَعَمَلًا، فَقَامُوا بِعِبَادَةِ الْحَقِّ وَنُصْحِ الْخَلْقِ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لِأَنَّ الْإِيمَانَ يَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ، وَالسَّعَادَةُ كُلُّ السَّعَادَةِ لِمَنِ اتَّصَفَ بِهِ.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، فَقَالَ: «**أَيْ عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ** ﷻ». فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَقَالَ: أَنَا عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**» فَنَزَلَتْ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ**: مَا زَالَ إِبْرَاهِيمُ يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ حَتَّى مَاتَ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ. **وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ**: أَنَّهُ يَتَبَرَّأُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ يَلْقَى أَبَاهُ وَعَلَى وَجْهِ أَبِيهِ الْقَتَرَةُ وَالْغَبَرَةُ، فَيَقُولُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، إِنِّي كُنْتُ

أَعْصِيكَ وَإِنِّي الْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ ، فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ؟ فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ ؟ فَيُقَالُ : انْظُرْ إِلَى مَا وَرَاءَكَ ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ أَيْ : قَدْ مُسِخَ ضَبْعًا ، ثُمَّ يُسْحَبُ بِقَوَائِمِهِ وَيُلْقَى فِي النَّارِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ** رضي الله عنه **أَنَّهُ قَالَ** : الْأَوَّاهُ : الدَّعَّاءُ . **وَقِيلَ** : هُوَ الرَّحِيمُ : أَيْ : بِعِبَادِ اللهِ . **وَقِيلَ** : الْمُوقِنُ . **وَقِيلَ** : التَّوَّابُ . **وَقِيلَ** : الْمُسَبِّحُ ، **وَقِيلَ** : لَا يُحَافِظُ عَلَى سُبْحَةِ الضُّحَى إِلَّا أَوَّاهٌ ، **وَقِيلَ** : الْأَوَّاهُ : الْحَفِيظُ الْوَجِلُ ، يُذْنِبُ الذَّنْبَ سِرًّا ثُمَّ يَتُوبُ مِنْهُ سِرًّا . **وَقِيلَ** : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ ﴾ أَيْ : فَقِيهٌ . **قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ قَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ الدَّعَّاءُ ، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِلسِّيَاقِ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّمَا اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ كَثِيرُ الدُّعَاءِ ، حَلِيمًا عَمَّنْ ظَلَمَهُ وَأَنَالَهُ مَكْرُوهًا ، وَلِهَذَا اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ . فَحَلُمَ عَنْهُ مَعَ أَذَاهُ لَهُ ، وَدَعَا لَهُ وَاسْتَغْفَرَ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ .

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ وَحُكْمِهِ الْعَادِلِ : إِنَّهُ لَا يُضِلُّ قَوْمًا إِلَّا بَعْدَ إِبْلَاغِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ ، حَتَّى يَكُونُوا قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ [فصلت : ١٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : هَذَا تَحْرِيضٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَمُلُوكِ الْكُفْرِ ، وَأَنَّهُمْ يَثِقُونَ بِنَصْرِ اللهِ مَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَمْ يَرْهَبُوا مِنْ أَعْدَائِهِ ، فَإِنَّهُ لَا وَلِيَّ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا نَصِيرَ لَهُمْ سِوَاهُ .

لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ أَيْ : مِنَ النَّفَقَةِ وَالظَّهْرِ وَالزَّادِ وَالْمَاءِ ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ أَيْ : عَنِ الْحَقِّ ، وَيَشُكُّ فِي دِينِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَيَرْتَابُ لِلَّذِي نَالَهُمْ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالشِّدَّةِ فِي

سَفَرِهِمْ وَغَزْوِهِمْ ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ يَقُولُ : ثُمَّ رَزَقَهُمُ الْإِنَابَةَ إِلَى رَبِّهِمْ ، وَالرُّجُوعَ إِلَى الثَّبَاتِ عَلَى دِينِهِ ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ يُحَدِّثُ حَدِيثَهُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوك فَقَالَ : لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا قَطُّ إِلَّا فِي غَزَاةِ تَبُوك غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزَاةِ بَدْرٍ ، وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا ، وَإِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ ، حَتَّى جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا وَأَشْهَر ، وَكَانَ مِنْ خَبَرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ ، وَاللهِ مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا ، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ فَغَزَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا ، وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمرَهُمْ ؛ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَثِيرٌ ، لَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ - يُرِيدُ الدِّيوَانَ - قَالَ كَعْبٌ : فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ سَيَخْفَى عَلَيْهِ ، مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ اللهِ ﷻ وَغَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزَاةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ ، فَتَجَهَّزَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ ، فَأَرْجِع وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا ، فَأَقُولُ لِنَفْسِي : أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَادِيًا وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا ، وَقُلْتُ : أَتَجَهَّزُ بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُ ، فَغَدَوْتُ بَعْدَمَا فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا ، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأَلْحَقَهُمْ - وَلَيْتَ أَنِّي فَعَلْتُ - ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذَلِكَ لِي ، فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَطُفْتُ فِيهِمْ يَحْزُنُنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَهُ اللهُ ﷻ ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ « **مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ؟** »

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ : حَبَسَهُ يَا رَسُولَ الله بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ : بِئْسَمَا قُلْتَ ، وَالله يَا رَسُول الله مَا عِلْمنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا . فَسَكَتَ رَسُولُ الله ﷺ . قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ : فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوك حَضَرَنِي هَمِّي وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ : بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا ؟ وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي ، فَلَمَّا قِيلَ : إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَمْ أَنْجُ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُتَخَلِّفُونَ وَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ ، وَيَحْلِفُونَ لَهُ - وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا - فَيَقْبَلُ مِنْهُمْ رَسُولُ الله ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ وَيَكِلُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى الله تَعَالَى حَتَّى جِئْتُهُ ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ، ثُمَّ قَالَ لِي : « **تَعَالَ** » فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ لِي : « **مَا خَلَّفَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ اشْتَرَيْتَ ظَهْرًا ؟** » فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله إِنِّي لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا ، وَلَكِنِّي وَالله لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ بِحَدِيثٍ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ بِصِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ الله ﷻ ، لا وَالله مَا كَانَ لِي عُذْرٌ ، وَالله مَا كُنْتُ قَطُّ أَفْرَغَ وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ** » فَقُمْتُ ، وَقَامَ إِلَيَّ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلَمَة ، وَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي : وَالله مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا ، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ الْمُتَخَلِّفُونَ ، فَقَدْ كَانَ كَافِيكَ مِنْ ذَنْبِكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ الله ﷺ لَكَ . قَالَ : فَوَالله مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي ، قَالَ : ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ : هَلْ لَقِيَ مَعِي هَذَا أَحَدٌ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ ، وَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ ، فَقُلْتُ : فَمَنْ هُمَا ؟ قَالُوا : مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَامِرِيُّ ، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ ، قَدْ شَهِدَا بَدْرًا ، لِي فِيهِمَا أُسْوَةٌ ، قَالَ : فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي ، فَقَالَ : وَنَهَى رَسُولُ الله ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَتَغَيَّرُوا لَنَا ، حَتَّى تَنَكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِي الْأَرْضُ فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي كُنْتُ أَعْرِفُ ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً ، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ ، فَكُنْتُ أَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ بِالْأَسْوَاقِ ، فَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ ، وَآتِي رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، فَأُسَلِّمُ ، وَأَقُولُ فِي نَفْسِي : أَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ فَإِذَا أَقْبَلْتُ

عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ ، فَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي ، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ هَجْرِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ اللهَ هَلْ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ؟ قَالَ : فَسَكَتَ ، قَالَ : فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ ، فَعُدْت لَهُ فَنَشَدْتُهُ ، فَقَالَ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا أَنَا بِنَبَطِيٍّ مِنْ أَنْبَاطِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِطَعَامٍ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُول : مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ؟ قَالَ : فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ ، حَتَّى جَاءَ فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ وَكُنْتُ كَاتِبًا فَإِذَا فِيهِ : أَمَّا بَعْدُ : فَقَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ ، وَأَنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْكَ فِي دَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيعَةٍ ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِك . قَالَ : فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهُ وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ ، قَالَ : فَتَيَمَّمْتُ بِهِ التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهِ ، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا بِرَسُولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَأْتِينِي يَقُولُ : يَأْمُرُكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ قَالَ : فَقُلْتُ أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ ؟ فَقَالَ : بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا ، قَالَ : وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ ، قَالَ : فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِي اللهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ مَا يَشَاءُ ، قَالَ : فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هِلَالًا شَيْخٌ ضَعِيفٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ ؟ قَالَ : « **لَا ، وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَكِ** » قَالَتْ : وَإِنَّهُ وَاللهِ مَا بِهِ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَى شَيْءٍ ، وَإِنَّهُ وَاللهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا ، قَالَ : فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ فَقَدْ أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ ، قَالَ : فَقُلْتُ : وَاللهِ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا أَدْرِي مَا يَقُولُ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ ، قَالَ : فَلَبِثْنَا عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينِ نَهَى عَنْ كَلَامِنَا ، قَالَ : ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الصُّبْحِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى : قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، سَمِعْتُ صَارِخًا أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : أَبْشِرْ يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ ، قَالَ : فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ الْفَرَجُ مِنَ اللهِ ﷻ بِالتَّوْبَةِ عَلَيْنَا ، فَآذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى الْفَجْرَ ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا ، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ وَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبِشَارَتِهِ لِي ، وَاللهِ مَا أَمْلِكُ يَوْمَئِذٍ غَيْرَهُمَا ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا ، وَانْطَلَقْتُ أَؤُمُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونِي بِتَوْبَةِ اللهِ ، يَقُولُونَ : لِيَهْنِكَ

تَوْبَةُ الله عَلَيْكَ حَتَّى دَخَلْتُ المَسْجِدَ ، فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ وَالنَّاسُ حَوْلَهُ فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ الله يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي ، وَالله مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ ، قَالَ : فَكَانَ كَعْبٌ لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ ، قَالَ كَعْبٌ : فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قَالَ : وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ « **أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ** » قَالَ : قُلْتُ : أَمِنَ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ الله أَمْ مِنْ عِنْدِ الله ؟ قَالَ : « **لَا ، بَلْ مِنْ عِنْدِ الله** » قَالَ : وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ ، حَتَّى يُعْرَفُ ذَلِكَ مِنْهُ ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى الله وَإِلَى رَسُولِهِ قَالَ : « **أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ** » . قَالَ : فَقُلْتُ : فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ ، وَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله إِنَّمَا نَجَّانِي اللهُ بِالصِّدْقِ ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ ، قَالَ : فَوَالله مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللهُ مِنَ الصِّدْقِ فِي الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللهُ تَعَالَى ، وَالله مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللهُ ﷻ فِيمَا بَقِيَ . قَالَ : وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ .

قَالَ : وَكُنَّا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خُلِّفْنَا عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ حَلَفُوا فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولُ الله ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللهُ فِيهِ ، **فَلِذَلِكَ قَالَ** اللهُ ﷻ : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ وَلَيْسَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا الَّذِي ذَكَرَ مِمَّا خُلِّفْنَا بِتَخَلُّفِنَا عَنِ الْغَزْوِ ، وَإِنَّمَا هُوَ عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ .

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : اُصْدُقُوا وَالْزَمُوا الصِّدْقَ ، تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهِ ، وَتَنْجُوا مِنَ الْمَهَالِكِ ، وَيَجْعَلُ لَكُمْ فَرَجًا مِنْ أُمُورِكُمْ وَمَخْرَجًا .

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾

يُعَاتِبُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ وَرَغْبَتِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ مُوَاسَاتِهِ فِيمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْمَشَقَّةِ ، فَإِنَّهُمْ نَقَصُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ لِأَنَّهُمْ ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ وَهُوَ : الْعَطَشُ ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ وَهُوَ : التَّعَبُ ﴿ وَلَا

مَخْمَصَةٌ ﴾ وَهِيَ : المَجَاعَةُ ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ أَيْ : يَنْزِلُونَ مَنْزِلًا يُرْهِبُ عَدُوَّهُمْ ﴿ وَلَا يَنَالُونَ ﴾ مِنْهُ ظَفَرًا وَغَلَبَةً عَلَيْهِ إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُمْ بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ الَّتِي لَيْسَتْ دَاخِلَةً تَحْتَ قُدْرَتِهِمْ وَإِنَّمَا هِيَ نَاشِئَةٌ عَنْ أَفْعَالِهِمْ ، أَعْمَالًا صَالِحَةً وَثَوَابًا جَزِيلًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [الكهف : ٣٠]

وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ ﴾ هَؤُلَاءِ الْغُزَاةُ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴿ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ أَيْ : قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ أَيْ : فِي السَّيْرِ إِلَى الْأَعْدَاءِ ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ هَهُنَا بِهِ لِأَنَّ هَذِهِ أَفْعَالٌ صَادِرَةٌ عَنْهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ وَقَدْ حَصَلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حَظٌّ وَافِرٌ وَنَصِيبٌ عَظِيمٌ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَنْفَقَ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ النَّفَقَاتِ الْجَلِيلَةَ وَالْأَمْوَالَ الْجَزِيلَةَ .

۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

هَذَا بَيَانٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِمَا أَرَادَ مِنْ نَفِيرِ الْأَحْيَاءِ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوك ، فَإِنَّهُ قَدْ ذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ إِلَى أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ النَّفِيرُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ . قَالَ : فَنُسِخَ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْآيَةِ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ هَذَا بَيَانٌ لِمُرَادِهِ تَعَالَى مِنْ نَفِيرِ الْأَحْيَاءِ كُلِّهَا وَشِرْذِمَةٍ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ ، إِنْ لَمْ يَخْرُجُوا كُلُّهُمْ ، لِيَتَفَقَّهَ الْخَارِجُونَ مَعَ الرَّسُولِ بِمَا يَنْزِلُ مِنَ الْوَحْيِ عَلَيْهِ ، وَيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْعَدُوِّ ، فَيَجْتَمِعَ لَهُمُ الْأَمْرَانِ فِي هَذَا النَّفِيرِ الْمُعَيَّنِ ، وَبَعْدَهُ ﷺ تَكُونُ الطَّائِفَةُ النَّافِرَةُ مِنَ الْحَيِّ إِمَّا لِلتَّفَقُّهِ ، وَإِمَّا لِلْجِهَادِ فَإِنَّهُ فَرْضُ كِفَايَةٍ عَلَى الْأَحْيَاءِ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

أَمَرَ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا الْكُفَّارَ أَوَّلًا فَأَوَّلًا ، الْأَقْرَبُ فَالْأَقْرَبُ إِلَى حَوْزَةِ الْإِسْلَامِ ، وَلِهَـذَا بَدَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُمْ وَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ

وَالمَدِينَةَ وَالطَّائِفَ وَالْيَمَنَ وَالْيَمَامَةَ وَهَجَرَ وَخَيْبَرَ وَحَضْرَمَوْتَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَقَالِيمِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ أَيْ : وَلْيَجِدِ الْكُفَّارُ مِنْكُمْ غِلْظَةً عَلَيْهِمْ فِي قِتَالِكُمْ لَهُمْ ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الْكَامِلَ هُوَ الَّذِي يَكُونُ رَفِيقًا لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ غَلِيظًا عَلَى عَدُوِّهِ الْكَافِرِ . ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : قَاتِلُوا الْكُفَّارَ وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَكُمْ إِذَا اتَّقَيْتُمُوهُ وَأَطَعْتُمُوهُ .

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ فَمِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ﴾ أَيْ : يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ إِيمَانًا ؟ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ **وَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَكْبَرِ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَكْثَرِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ مِنْ أَئِمَّةِ الْعُلَمَاءِ . بَلْ قَدْ حَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ .**

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] ، وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ شَقَائِهِمْ ، أَنَّ مَا يَهْدِي الْقُلُوبَ يَكُونُ سَبَبًا لِضَلَالِهِمْ وَدَمَارِهِمْ ، كَمَا أَنَّ سَيِّئَ الْمِزَاجِ لَوْ غُذِّيَ بِمَا غُذِّيَ بِهِ لَا يَزِيدُهُ إِلَّا خَبَالًا وَنَقْصًا .

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : أَوَلَا يَرَى هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ ﴿ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ ﴾ أَيْ : يُخْتَبَرُونَ ﴿ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَتُوبُونَ مِنْ ذُنُوبِهِمُ السَّالِفَةِ ، وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يُخْتَبَرُونَ بِالسَّنَةِ وَالْجُوعِ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : بِالْغَزْوِ فِي السَّنَةِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ هَذَا أَيْضًا إِخْبَارٌ عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ إِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ﴿ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أَيْ : تَلَفَّتُوا ﴿ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ﴾ أَيْ : تَوَلَّوْا عَنِ

الْحَقِّ وَانْصَرَفُوا عَنْهُ ، وَهَذَا حَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا لَا يَثْبُتُونَ عِنْدَ الْحَقِّ وَلَا يَقْبَلُونَهُ وَلَا يَفْهَمُونَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[الصف : ٥] أَيْ : لَا يَفْهَمُونَ عَنِ اللهِ خِطَابَهُ ، وَلَا يَقْصِدُونَ لِفَهْمِهِ وَلَا يُرِيدُونَهُ ، بَلْ هُمْ فِي شُغْلٍ عَنْهُ وَنُفُورٍ مِنْهُ ، فَلِهَذَا صَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ .

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، أَيْ : مِنْ جِنْسِهِمْ وَعَلَى لُغَتِهِمْ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾[البقرة : ١٢٩] **وَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أَيْ : مِنْكُمْ وَبِلُغَتِكُمْ . ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أَيْ : يَعِزُّ عَلَيْهِ الشَّيْءَ الَّذِي يُعْنِتَ أُمَّتَهُ وَيَشُقَّ عَلَيْهَا . ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ أَيْ : عَلَى هِدَايَتِكُمْ ، وَوُصُولِ النَّفْعِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْأُخْرَوِيِّ إِلَيْكُمْ . ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الشعراء : ٢١٥-٢١٧] ، وَهَكَذَا أَمَرَهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أَيْ : تَوَلَّوْا عَمَّا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْعَظِيمَةِ الْمُطَهَّرَةِ الْكَامِلَةِ الشَّامِلَةِ ﴿ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : اللهُ كَافِيَّ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ . ﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أَيْ : هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ ؛ لِأَنَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، الَّذِي هُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ وَجَمِيعُ الْخَلَائِقِ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرَضِينَ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا تَحْتَ الْعَرْشِ مَقْهُورُونَ بِقُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَقَدَرُهُ نَافِذٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ بَرَاءَةَ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ١٠٩ تفسير سورة يونس عليه السلام مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ

هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

أَمَّا الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ فَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أَيْ : هَذِهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْمُحْكَمِ الْمُبِينِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ الْآيَةُ . يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى مَنْ تَعَجَّبَ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ إِرْسَالِ الْمُرْسَلِينَ مِنَ الْبَشَرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ قِيلَ فِي مَعْنَاهَا : سَبَقَتْ لَهُمُ السَّعَادَةُ فِي الذِّكْرِ الْأَوَّلِ . وَقِيلَ : الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ ؛ صَلَاتُهُمْ وَصَوْمُهُمْ وَصَدَقَتُهُمْ وَتَسْبِيحُهُمْ ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ يَشْفَعُ لَهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : مَعَ أَنَّا بَعَثْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ رَجُلًا مِنْ جِنْسِهِمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : ظَاهِرٌ ، وَهُمُ الْكَاذِبُونَ فِي ذَلِكَ .

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِ جَمِيعِهِ وَأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، قِيلَ : كَهَذِهِ الْأَيَّامِ ، وَقِيلَ : كُلُّ يَوْمٍ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ ، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ وَالْعَرْشُ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ وَسَقْفُهَا . ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ أَيْ : يُدَبِّرُ أَمْرَ الْخَلَائِقِ ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [سبأ : ٣] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : أَفْرِدُوهُ بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ فِي أَمْرِكُمْ ، تَعْبُدُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا غَيْرَهُ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ .

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ إِلَيْهِ مَرْجِعَ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَتْرُكُ مِنْهُمْ أَحَدًا ، حَتَّى يُعِيدَهُ كَمَا بَدَأَهُ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ كَمَا بَدَأَ الْخَلْقَ كَذَلِكَ يُعِيدُهُ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] ، ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أَيْ : بِالْعَدْلِ وَالْجَزَاءِ الْأَوْفَى

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ أي : بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ ، مِنْ سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ .

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا خَلَقَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ ، أَنَّهُ جَعَلَ الشُّعَاعَ الصَّادِرَ عَنْ جِرْمِ الشَّمْسِ ضِيَاءً ، وَجَعَلَ شُعَاعَ الْقَمَرِ نُورًا ، هَذَا فَنٌّ وَهَذَا فَنٌّ آخَرُ ، فَفَاوَتَ بَيْنَهُمَا لِئَلَّا يَشْتَبِهَا ، وَجَعَلَ سُلْطَانَ الشَّمْسِ بِالنَّهَارِ ، وَسُلْطَانَ الْقَمَرِ بِاللَّيْلِ ، وَقَدَّرَ الْقَمَرَ مَنَازِلَ ، فَأَوَّلُ مَا يَبْدُو صَغِيرًا ثُمَّ يَتَزَايَدُ نُورُهُ وَجِرْمُهُ حَتَّى يَسْتَوْسِقَ ، وَيَكْمُلَ إِبْدَارُهُ ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حَالَتِهِ الْأُولَى فِي تَمَامِ شَهْرٍ . **وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ** : ﴿ وَقَدَّرَهُۥ ﴾ أَيْ : الْقَمَرَ ﴿ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ فَبِالشَّمْسِ تُعْرَفُ الْأَيَّامُ وَبِسَيْرِ الْقَمَرِ تُعْرَفُ الشُّهُورُ وَالْأَعْوَامُ . ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : لَمْ يَخْلُقْهُ عَبَثًا بَلْ لَهُ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ فِي ذَلِكَ وَحُجَّةٌ بَالِغَةٌ ، ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ ﴾ أَيْ : يُبَيِّنُ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أَيْ : تَعَاقُبُهُمَا إِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ هَذَا ، وَإِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا ، لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ شَيْئًا ، ﴿ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : عِقَابَ الله وَسَخَطَهُ وَعَذَابَهُ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِلِقَاءِ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يَرْجُونَ فِي لِقَائِهِ شَيْئًا ، وَرَضُوا بِهَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهَا نُفُوسُهُمْ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ حَالِ السُّعَدَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ وَامْتَثَلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ فَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، بِأَنَّهُ سَيَهْدِيهِمْ بِإِيمَانِهِمْ ، يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ هَهُنَا سَبَبِيَّةً فَتَقْدِيرُهُ ، أَيْ :

بِسَبَبِ إِيمَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا يَهْدِيهِمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، حَتَّى يَجُوزُوهُ وَيَخْلُصُوا إِلَى الْجَنَّةِ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلاسْتِعَانَةِ ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ قَالَ : يَكُونُ لَهُمْ نُورًا يَمْشُونَ بِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : هَذَا حَالُ أَهْلِ الْجَنَّةِ . **وَقِيلَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ** : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ﴾ إِذَا مَرَّ بِهِمُ الطَّيْرُ يَشْتَهُونَهُ قَالُوا : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ، وَذَلِكَ دَعْوَاهُمْ فَيَأْتِيهِمُ الْمَلَكُ بِمَا يَشْتَهُونَهُ فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ قَالَ : فَإِذَا أَكَلُوا حَمِدُوا اللهَ رَبَّهُمْ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ هَذَا فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَحْمُودُ أَبَدًا ، الْمَعْبُودُ عَلَى طُولِ الْمَدَى ، وَلِهَذَا حَمِدَ نَفْسَهُ عِنْدَ ابْتِدَاءِ خَلْقِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ ، وَفِي ابْتِدَاءِ كِتَابِهِ وَعِنْدَ ابْتِدَاءِ تَنْزِيلِهِ ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الكهف : ١]

۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حِلْمِهِ وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ ، أَنَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِذَا دَعَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَوْ أَمْوَالِهِمْ أَوْ أَوْلَادِهِمْ فِي حَالِ ضَجَرِهِمْ وَغَضَبِهِمْ ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مِنْهُمْ عَدَمَ الْقَصْدِ بِالشَّرِّ إِلَى إِرَادَةِ ذَلِكَ ، فَلِهَذَا لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ وَالْحَالَةُ هَذِهِ لُطْفًا وَرَحْمَةً ، كَمَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِذَا دَعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ أَوْ لِأَمْوَالِهِمْ أَوْ لِأَوْلَادِهِمْ بِالْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ وَالنَّمَاءِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ أَيْ : لَوِ اسْتَجَابَ لَهُمْ كُلَّ مَا دَعَوْهُ بِهِ فِي ذَلِكَ لَأَهْلَكَهُمْ ، وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي الْإِكْثَارُ مِنْ ذَلِكَ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ** : هُوَ قَوْلُ الْإِنْسَانِ لِوَلَدِهِ أَوْ مَالِهِ إِذَا غَضِبَ عَلَيْهِ : اللَّهُمَّ لَا تُبَارِكْ فِيهِ وَالْعَنْهُ . فَلَوْ يُعَجِّلُ لَهُمُ الاسْتِجَابَةَ فِي ذَلِكَ كَمَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِي الْخَيْرِ لَأَهْلَكَهُمْ .

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ وَضَجَرِهِ وَقَلَقِهِ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت : ٥١] أَيْ : كَثِيرٌ وَهُمَا فِي مَعْنًى وَاحِدٍ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ قَلِقَ لَهَا وَجَزِعَ مِنْهَا وَأَكْثَرَ الدُّعَاءَ عِنْدَ ذَلِكَ ، فَدَعَا اللهَ فِي كَشْفِهَا وَرَفْعِهَا عَنْهُ فِي حَالِ اضْطِجَاعِهِ وَقُعُودِهِ وَقِيَامِهِ وَفِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ، فَإِذَا فَرَّجَ اللهُ شِدَّتَهُ وَكَشَفَ كُرْبَتَهُ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَذَهَبَ كَأَنَّهُ مَا

كَانَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ﴿ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ ثُمَّ ذَمَّ تَعَالَى مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ وَطَرِيقَتُهُ فَقَالَ : ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فَأَمَّا مَنْ رَزَقَهُ اللهُ الْهِدَايَةَ وَالسَّدَادَ وَالتَّوْفِيقَ وَالرَّشَادَ ، فَإِنَّهُ مُسْتَثْنًى مِنْ ذَلِكَ .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا حَلَّ بِالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ فِي تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْحُجَجِ الْوَاضِحَاتِ ، ثُمَّ اسْتَخْلَفَ اللهُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا ؛ لِيَنْظُرَ طَاعَتَهُمْ لَهُ وَاتِّبَاعَهُمْ رَسُولَهُ .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَعَنُّتِ الْكُفَّارِ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ الْجَاحِدِينَ الْمُعْرِضِينَ عَنْهُ أَنَّهُمْ إِذَا قَرَأَ عَلَيْهِمُ الرَّسُولُ ﷺ كِتَابَ اللهِ وَحُجَّتَهُ الْوَاضِحَةَ قَالُوا لَهُ : ﴿ ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ ﴾ أَيْ : رُدَّ هَذَا وَجِئْنَا بِغَيْرِهِ مِنْ نَمَطٍ آخَرَ ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ إِلَى وَضْعٍ آخَرَ ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ** ﷺ ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ﴾ أَيْ : لَيْسَ هَذَا إِلَيَّ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مَأْمُورٌ وَرَسُولٌ مُبَلِّغٌ عَنِ اللهِ ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . ثُمَّ قَالَ مُحْتَجًّا عَلَيْهِمْ فِي صِحَّةِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ أَيْ : هَذَا إِنَّمَا جِئْتُكُمْ بِهِ عَنْ إِذْنِ اللهِ لِي فِي ذَلِكَ وَمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنِّي لَسْتُ أَتَقَوَّلُهُ مِنْ عِنْدِي وَلَا افْتَرَيْتُهُ أَنَّكُمْ عَاجِزُونَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ ، وَأَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقِي وَأَمَانَتِي مُنْذُ نَشَأْتُ بَيْنَكُمْ إِلَى حِينِ بَعَثَنِي اللهُ ﷻ ، لَا تَنْتَقِدُونَ عَلَيَّ شَيْئًا تَغْمِصُونِي بِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : أَفَلَيْسَ لَكُمْ عُقُولٌ تَعْرِفُونَ بِهَا الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ ؟ .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : لَا أَحَدَ أَظْلَمُ وَلَا أَعْتَى وَلَا أَشَدُّ إِجْرَامًا ﴿ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ وَتَقَوَّلَ عَلَى اللهِ ، وَزَعَمَ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ وَلَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ ، فَلَيْسَ أَحَدٌ أَكْبَرَ جُرْمًا وَلَا أَعْظَمَ ظُلْمًا مِنْ هَذَا ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَخْفَى أَمْرُهُ عَلَى الْأَغْبِيَاءِ فَكَيْفَ يَشْتَبِهُ حَالُ هَذَا بِالْأَنْبِيَاءِ ؟ فَإِنَّهُ مَنْ قَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ صَادِقًا أَوْ كَاذِبًا فَلَا بُدَّ أَنَّ اللهَ يَنْصِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى بِرِّهِ أَوْ فُجُورِهِ مَا هُوَ أَظْهَرُ مِنَ الشَّمْسِ ، فَإِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَبَيْنَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ لِمَنْ شَاهَدَهُمَا أَظْهَرَ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ وَقْتِ الضُّحَى وَبَيْنَ نِصْفِ اللَّيْلِ فِي حِنْدِسِ الظَّلْمَاءِ ، فَمِنْ شِيَمِ كُلٍّ مِنْهُمَا وَأَفْعَالِهِ وَكَلَامِهِ يَسْتَدِلُّ مَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ عَلَى صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكَذِبِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ وَسِجَاحَ وَالْأَسْوَدِ الْعَنْسِي ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، **وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ** ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ ، ظَانِّينَ أَنَّ تِلْكَ الآلِهَةَ تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَتُهَا عِنْدَ اللهِ ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَا تَمْلِكُ شَيْئًا وَلَا يَقَعُ شَيْءٌ مِمَّا يَزْعُمُونَ فِيهَا ، وَلَا يَكُونُ هَذَا أَبَدًا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : مَعْنَاهُ أَتُخْبِرُونَ اللهَ بِمَا لَا يَكُونُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ؟ ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ عَنْ شِرْكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، **فَقَالَ** : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الشِّرْكَ حَادِثٌ فِي النَّاسِ ، كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ، وَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ كَانُوا عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْإِسْلَامُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ الْآيَةَ . أَيْ : لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنَ اللهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ قَدْ أَجَّلَ الْخَلْقَ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ ؛ لَقَضَى بَيْنَهُمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، فَأَسْعَدَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْنَتَ الْكَافِرِينَ .

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

أَيْ : وَيقُولُ هَؤُلَاءِ الكَفَرَةُ المُكَذِّبُونَ المُعَانِدُونَ : لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، يَعْنُونَ كَمَا أَعْطَى اللهُ ثَمُودَ النَّاقَةَ ، أَوْ أَنْ يُحَوِّلَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا ، أَوْ يُزِيحَ عَنْهُمْ جِبَالَ مَكَّةَ وَيَجْعَلَ مَكَانَهَا بَسَاتِينَ وَأَنْهَارًا ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا اللهُ عَلَيْهِ قَادِرٌ ، وَلَكِنَّهُ حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ . يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّ سُنَّتِي فِي خَلْقِي أَنِّي إِذَا آتَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا ، فَإِنْ آمَنُوا وَإِلَّا عَاجَلْتُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ . وَلِهَذَا لَمَّا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ إِعْطَائِهِمْ مَا سَأَلُوا فَإِنْ آمَنُوا وَإِلَّا عُذِّبُوا وَبَيْنَ إِنْظَارِهِمْ ، اِخْتَارَ إِنْظَارَهُمْ ، كَمَا حَلُمَ عَنْهُمْ غَيْرَ مَرَّةٍ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِرْشَادًا لِنَبِيِّهِ ﷺ إِلَى الْجَوَابِ عَمَّا سَأَلُوا : ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : الْأَمْرُ كُلُّهُ لله ، وَهُوَ يَعْلَمُ الْعَوَاقِبَ فِي الْأُمُورِ ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ كُنْتُمْ لَا تُؤْمِنُونَ حَتَّى تُشَاهِدُوا مَا سَأَلْتُمْ ، فَانْتَظِرُوا حُكْمَ اللهِ فِيَّ وَفِيكُمْ .

هَذَا مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ شَاهَدُوا مِنْ مُعْجِزَاتِهِ ﷺ أَعْظَمَ مِمَّا سَأَلُوا ، حِينَ أَشَارَ بِحَضْرَتِهِمْ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ إِبْدَارِهِ فَانْشَقَّ اثْنَتَيْنِ ، فِرْقَةً مِنْ وَرَاءِ الجَبَلِ ، وَفِرْقَةً مِنْ دُونِهِ . وَهَذَا أَعْظَمُ مِنْ سَائِرِ الْآيَاتِ الْأَرْضِيَّةِ مِمَّا سَأَلُوا وَمَا لَمْ يَسْأَلُوا ، وَلَوْ عَلِمَ اللهُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ سَأَلُوا ذَلِكَ اسْتِرْشَادًا وَتَثْبِيتًا لَأَجَابَهُمْ ، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَسْأَلُونَ عِنَادًا وَتَعَنُّتًا فَتَرَكَهُمْ فِيمَا رَابَهُمْ وَعَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُ مِنْهُمْ أَحَدٌ مِثْلُ هَؤُلَاءِ أَقَلُّ مِنْ أَنْ يُجَابُوا إِلَى مَا سَأَلُوهُ ، لِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ فِي جَوَابِهِمْ ، لِأَنَّهُ دَائِرٌ عَلَى تَعَنُّتِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، لِكَثْرَةِ فُجُورِهِمْ وَفَسَادِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ .

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا أَذَاقَ النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ ، كَالرَّخَاءِ بَعْدَ الشِّدَّةِ ، وَالخِصْبِ بَعْدَ الجَدْبِ ، وَالمَطَرِ بَعْدَ القَحْطِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : اسْتِهْزَاءٌ وَتَكْذِيبٌ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ أَيْ : أَشَدُّ اسْتِدْرَاجًا وَإِمْهَالًا ، حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ مِنَ الْمُجْرِمِينَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُعَذَّبٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي مُهْلَةٍ ، ثُمَّ يُؤْخَذُ عَلَى غِرَّةٍ مِنْهُ ، وَالْكَاتِبُونَ الْكِرَامُ يَكْتُبُونَ عَلَيْهِ

جَمِيعَ مَا يَفعَلُهُ وَيُحْصُونَهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يُعْرِضُونَهُ عَلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُجَازِيهِ عَلَى الجَلِيلِ وَالحَقِيرِ ، وَالنَّقِيرِ وَالقِطْمِيرِ .ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ أَيْ : يَحْفَظُكُمْ وَيَكْلَؤُكُمْ بِحِرَاسَتِهِ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا ﴾ أَيْ : بِسُرْعَةِ سَيْرِهِمْ رَافِقِينَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ ﴿ جَآءَتْهَا ﴾ أَيْ : تِلْكَ السُّفُنُ ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ أَيْ : شَدِيدَةٌ ﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أَيْ : اغْتَلَمَ الْبَحْرُ عَلَيْهِمْ ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أَيْ : هَلَكُوا ﴿ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أَيْ : لَا يَدْعُونَ مَعَهُ صَنَمًا وَلَا وَثَنًا ، بَلْ يُفْرِدُونَهُ بِالدُّعَاءِ وَالِابْتِهَالِ ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ ﴾ أَيْ : هَذِهِ الْحَالُ ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ أَيْ : لَا نُشْرِكُ بِكَ أَحَدًا ، وَلَنُفْرِدَنَّكَ بِالْعِبَادَةِ هُنَاكَ كَمَا أَفْرَدْنَاكَ بِالدُّعَاءِ هَهُنَا ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّآ أَنجَـٰهُمْ ﴾ أَيْ : مِنْ تِلْكَ الْوَرْطَةِ ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : كَأَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ﴿ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَذُوقُ وَبَالَ هَذَا الْبَغْيِ أَنْتُمْ أَنْفُسُكُمْ ، وَلَا تَضُرُّونَ بِهِ أَحَدًا غَيْرَكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا لَكُمْ مَتَاعٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الدَّنِيئَةِ الْحَقِيرَةِ ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ أَيْ : مَصِيرُكُمْ وَمَآلُكُمْ ﴿ فَنُنَبِّئُكُم ﴾ أَيْ : فَنُخْبِرُكُمْ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَنُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ .

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

ضَرَبَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَثَلًا لِزَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَسُرْعَةِ انْقِضَائِهَا وَزَوَالِهَا ، بِالنَّبَاتِ الَّذِي أَخْرَجَهُ اللهُ مِنَ الْأَرْضِ بِمَاءٍ أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ ، مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ مِنْ زُرُوعٍ وَثِمَارٍ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا ، وَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ مِنْ أَبٍّ وَقَضْبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أَيْ : زِينَتُهَا الْفَانِيَةُ ﴿ وَٱزَّيَّنَت ﴾ أَيْ : حَسُنَتْ بِمَا خَرَجَ فِي رُبَاهَا مِنْ زُهُورٍ نَضِرَةٍ ، مُخْتَلِفَةِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَآ ﴾ الَّذِينَ زَرَعُوهَا وَغَرَسُوهَا ﴿ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾ أَيْ : عَلَى جِذَاذِهَا وَحَصَادِهَا ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَتْهَا صَاعِقَةٌ أَوْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ بَارِدَةٌ ، فَأَيْبَسَتْ أَوْرَاقَهَا وَأَتْلَفَتْ ثِمَارَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا ﴾

أَيْ : يَابِسًا بَعْدَ الْخُضْرَةِ وَالنَّضَارَةِ ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ أَيْ : كَأَنَّهَا مَا كَانَتْ حِينًا قَبْلَ ذَلِكَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : كَأَنْ لَمْ تُنَعَّمْ ، وَهَكَذَا الْأُمُورُ بَعْدَ زَوَالِهَا ، كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ أَيْ : نُبَيِّنُ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فَيَعْتَبِرُونَ بِهَذَا الْمَثَلِ فِي زَوَالِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِهَا سَرِيعًا ، مَعَ اغْتِرَارِهِمْ بِهَا وَتَمَكُّنِهِمْ وَثِقَتِهِمْ بِمَوَاعِيدِهَا وَتَفَلُّتِهَا عَنْهُمْ ، فَإِنَّ مِنْ طَبْعِهَا الْهَرَبَ مِمَّنْ طَلَبَهَا ، وَالطَّلَبُ لِمَنْ هَرَبَ مِنْهَا .

وقولُهُ: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ الآيَةُ . لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهَا ، رَغَّبَ فِي الْجَنَّةِ وَدَعَا إِلَيْهَا وَسَمَّاهَا دَارَ السَّلَامِ ، أَيْ : مِنَ الْآفَاتِ وَالنَّقَائِصِ وَالنَّكَبَاتِ فَقَالَ : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلَ فِي الدُّنْيَا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ أَنَّ لَهُ الْحُسْنَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠]

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ يَشْمَلُ تَضْعِيفَ ثَوَابِ الْأَعْمَالِ بِالْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ وَزِيَادَةٍ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا ، وَيَشْمَلُ مَا يُعْطِيهِمُ اللهُ فِي الْجِنَانِ مِنَ الْقُصُورِ وَالْحُورِ وَالرِّضَا عَنْهُمْ ، وَمَا أَخْفَاهُ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْلَاهُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ فَإِنَّهُ زِيَادَةٌ أَعْظَمُ مِنْ جَمِيعِ مَا أُعْطُوهُ ، لَا يَسْتَحِقُّونَهَا بِعَمَلِهِمْ بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ . ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ ﴾ أَيْ : قَتَامٌ وَسَوَادٌ فِي عَرَصَاتِ الْمَحْشَرِ ، كَمَا يَعْتَرِي وُجُوهَ الْكَفَرَةِ الْفَجَرَةِ مِنَ الْقَتَرَةِ وَالْغَبَرَةِ ﴿ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ أَيْ : هَوَانٌ وَصَغَارٌ أَيْ : لَا يَحْصُلُ لَهُمْ إِهَانَةٌ فِي الْبَاطِنِ وَلَا فِي الظَّاهِرِ .

وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

لَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ السُّعَدَاءِ الَّذِينَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَاتُ وَيَزْدَادُونَ عَلَى ذَلِكَ عَطَفَ بِذِكْرِ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ ، فَذَكَرَ تَعَالَى عَدْلَهُ فِيهِمْ ، وَأَنَّهُ يُجَازِيهِمْ عَلَى السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا لَا يَزِيدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ﴾ أَيْ : تَعْتَرِيهِمْ وَتَعْلُوهُمْ ذِلَّةٌ مِنْ مَعَاصِيهِمْ وَخَوْفِهِمْ مِنْهَا كَمَا قَالَ : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الشورى : ٤٥] .

وَقَوْلُهُ: ﴿ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أَيْ : مَانِعٍ وَلَا وَاقٍ يَقِيهِمُ الْعَذَابَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَقُولُ

ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ [القيامة : ١٠-١٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ ﴾ الْآيَةُ . إِخْبَارٌ عَنْ سَوَادِ وُجُوهِهِمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ مُّسۡفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسۡتَبۡشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٌ ﴾ .

وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ۝ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ۝ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ ﴾ أَيْ : أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهِمْ مِنْ جِنٍّ وَإِنْسٍ ، وَبَرٍّ وَفَاجِرٍ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٧] ، ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ ﴾ الْآيَةُ . أَيْ : الْزَمُوا أَنْتُم وَهُمْ مَكَانًا مُعَيَّنًا ، امْتَازُوا فِيهِ عَنْ مَقَامِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَمَّا يَأْمُرُ بِهِ الْمُشْرِكِينَ وَأَوْثَانَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ﴿ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡ ﴾ الْآيَةُ . أَنَّهُمْ أَنْكَرُوا عِبَادَتَهُمْ وَتَبَرَّءُوا مِنْهُمْ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ ﴾ ، وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِخْبَارًا عَنْ قَوْلِ الشُّرَكَاءِ فِيمَا رَاجَعُوا فِيهِ عَابِدِيهِمْ عِنْدَ ادِّعَائِهِمْ عِبَادَتَهُمْ ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴾ . أَيْ : مَا كُنَّا نَشْعُرُ بِهَا وَلَا نَعْلَمُ بِهَا ، وَإِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَنَا مِنْ حَيْثُ لَا نَدْرِي بِكُمْ ، وَاللهُ شَهِيدٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنَّا مَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَى عِبَادَتِنَا وَلَا أَمَرْنَاكُمْ بِهَا ، وَلَا رَضِينَا مِنْكُمْ بِذَلِكَ ، وَفِي هَذَا تَبْكِيتٌ عَظِيمٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ . ﴿ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡ ﴾ . أَيْ : فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُخْتَبَرُ كُلُّ نَفْسٍ وَتَعْلَمُ مَا أَسْلَفَتْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ ﴾ أَيْ : وَرَجَعَتِ الْأُمُورُ كُلُّهَا إِلَى اللهِ الْحَكَمِ الْعَدْلِ ، فَفَصَّلَهَا وَأَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ ﴿ وَضَلَّ عَنۡهُم ﴾ أَيْ : ذَهَبَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ أَيْ : مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ افْتِرَاءً عَلَيْهِ .

قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ۝ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝

يَحْتَجُّ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِاعْتِرَافِهِمْ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الإِلَهِ فَقَالَ تَعَالَى :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مَنْ ذَا الَّذِي يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءَ المَطَرِ ، فَيَشُقُّ الْأَرْضَ شَقًّا بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا ﴿ حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس : ٢٧ - ٣١] ، ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ ، ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك : ٢١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ أَيْ : الَّذِي وَهَبَكُمْ هَذِهِ الْقُوَّةَ السَّامِعَةَ وَالْقُوَّةَ الْبَاصِرَةَ ، وَلَوْ شَاءَ لَذَهَبَ بِهَا وَلَسَلَبَكُمْ إِيَّاهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ أَيْ : بِقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَمِنَّتِهِ الْعَمِيمَةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الخِلَافِ فِي ذَلِكَ ، وَأَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ لِذَلِكَ كُلِّهِ . ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ أَيْ : مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ الحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : وَهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَيَعْتَرِفُونَ بِهِ ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : أَفَلَا تَخَافُونَ مِنْهُ أَنْ تَعْبُدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ بِآرَائِكُمْ وَجَهْلِكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أَيْ : فَهَذَا الَّذِي اعْتَرَفْتُمْ بِأَنَّهُ فَاعِلُ ذَلِكَ كُلِّهِ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَهُكُمُ الْحَقُّ ، الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُفْرَدَ بِالْعِبَادَةِ ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ أَيْ : فَكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ بَاطِلٌ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ الرَّبُّ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَالْمُتَصَرِّفُ فِي كُلِّ شَيْءٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : كَمَا كَفَرَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى شِرْكِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ ، مَعَ أَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْمُلْكِ وَحْدَهُ ، الَّذِي بَعَثَ رُسُلَهُ بِتَوْحِيدِهِ ، فَلِهَذَا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ : أَنَّهُمْ أَشْقِيَاءُ مِنْ سَاكِنِي النَّارِ .

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

وَهَـذَا إِبْطَالٌ لِدَعْوَاهُمْ فِيمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ غَـيْرَهُ وَعَبَدُوا مِنَ الْأَصْـنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿ قُلْ هَلْ مِن

شُرَكَآبِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ أَيْ : مَنْ بَدَأَ خَلْقَ هَذِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، ثُمَّ يُنْشِئُ مَا فِيهِمَا مِنَ الْخَلَائِقِ ، وَيُفَرِّقُ أَجْرَامَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيُبْدِلُهُمَا بِفَنَاءِ مَا فِيهِمَا ، ثُمَّ يُعِيدُ الْخَلْقَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ هَذَا ، وَيَسْتَقِلُّ بِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ طَرِيقِ الرُّشْدِ إِلَى الْبَاطِلِ .﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآبِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ شُرَكَاءَكُمْ لَا تَقْدِرُ عَلَى هِدَايَةِ ضَالٍّ ، وَإِنَّمَا يَهْدِي الْحَيَارَى وَالضُّلَّالَ ، وَيُقَلِّبُ الْقُلُوبَ مِنَ الْغَيِّ إِلَى الرُّشْدِ ، اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ﴾ أَيْ : أَفَيَتَّبِعُ الْعَبْدُ الَّذِي يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَيُبَصِّرُ بَعْدَ الْعَمَى ، أَمِ الَّذِي لَا يَهْدِي إِلَى شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يُهْدَى لِعَمَاهُ وَبَكَمِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أَيْ : مَا بَالُكُمْ أَنْ يَذْهَبَ بِعُقُولِكُمْ ؟! كَيْفَ سَوَّيْتُمْ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ ، وَعَدَلْتُمْ هَذَا بِهَذَا ، وَعَبَدْتُمْ هَذَا وَهَذَا ؟ وَهَلَّا أَفْرَدْتُمُ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ الْمَالِكُ الْحَاكِمُ الْهَادِي مِنَ الضَّلَالَةِ ، بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ ، وَأَخْلَصْتُمْ إِلَيْهِ الدَّعْوَةَ وَالْإِنَابَةَ ؟. ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ فِي دِينِهِمْ هَذَا دَلِيلًا وَلَا بُرْهَانًا ، وَإِنَّمَا هُوَ ظَنٌّ مِنْهُمْ أَيْ : تَوَهُّمٌ وَتَخَيُّلٌ ، وَذَلِكَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ سَيُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَتَمَّ الْجَزَاءِ .

وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

هَذَا بَيَانٌ لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الْبَشَرُ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَا بِعَشْرِ سُوَرٍ ، وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ؛ لِأَنَّهُ بِفَصَاحَتِهِ وَبَلَاغَتِهِ وَوَجَازَتِهِ وَحَلَاوَتِهِ ، وَاشْتِمَالِهِ عَلَى الْمَعَانِي الْعَزِيزَةِ الْغَزِيرَةِ النَّافِعَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الَّذِي لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ فِي ذَاتِهِ ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ ، فَكَلَامُهُ لَا يُشْبِهُ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مِثْلُ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَلَا يُشْبِهُ هَذَا كَلَامَ الْبَشَرِ ﴿ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ، وَمُبَيِّنًا لِمَا وَقَعَ

فِيهَا مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ وَالتَّبْدِيلِ . ﴿ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : وَبَيَانُ الْأَحْكَامِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، بَيَانًا شَافِيًا كَافِيًا ، حَقًّا لَا مِرْيَةَ فِيهِ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : إِنِ ادَّعَيْتُمْ وَافْتَرَيْتُمْ وَشَكَكْتُمْ فِي أَنَّ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَقُلْتُمْ كَذِبًا مُبِينًا إِنَّ هَذَا مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ ، فَمُحَمَّدٌ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، وَقَدْ جَاءَ فِيمَا زَعَمْتُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، فَأْتُوا أَنْتُمْ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ أَيْ : مِنْ جِنْسِ هَذَا الْقُرْآنِ ، وَاسْتَعِينُوا عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ مَنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ إِنْسٍ وَجَانٍّ ، وَهَذَا هُوَ الْمَقَامُ الثَّالِثُ فِي التَّحَدِّي ، فَإِنَّهُ تَعَالَى تَحَدَّاهُمْ وَدَعَاهُمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي دَعْوَاهُمْ ، أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ ، فَلْيُعَارِضُوهُ بِنَظِيرِ مَا جَاءَ بِهِ وَحْدَهُ ، وَلْيَسْتَعِينُوا بِمَنْ شَاءُوا ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَيْهِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] ثُمَّ تَقَاصَرَ مَعَهُمْ إِلَى عَشْرِ سُوَرٍ مِنْهُ ، فَقَالَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ هُودٍ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود : ١٣] ثُمَّ تَنَازَلَ إِلَى سُورَةٍ فَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ يَقُولُ بَلْ كَذَّبَ هَؤُلَاءِ بِالْقُرْآنِ ، وَلَمْ يَفْهَمُوهُ وَلَا عَرَفُوهُ ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ أَيْ : وَلَمْ يُحَصِّلُوا مَا فِيهِ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، إِلَى حِينِ تَكْذِيبِهِمْ بِهِ جَهْلًا وَسَفَهًا ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : فَانْظُرْ كَيْفَ أَهْلَكْنَاهُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَنَا ظُلْمًا وَعُلُوًّا وَكُفْرًا وَعِنَادًا وَجَهْلًا ، فَاحْذَرُوا أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ . ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ أَيْ : وَمِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ بُعِثْتَ إِلَيْهِمْ يَا مُحَمَّدُ مَنْ يُؤْمِنُ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، وَيَتَّبِعُكَ وَيَنْتَفِعُ بِمَا أُرْسِلْتَ بِهِ ﴿ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ بَلْ يَمُوتُ عَلَى ذَلِكَ وَيُبْعَثُ عَلَيْهِ ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أَيْ : وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ فَيَهْدِيهِ ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الضَّلَالَةَ فَيُضِلُّهُ ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ ، بَلْ يُعْطِي كُلًّا مَا يَسْتَحِقُّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ - لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ وَإِنْ كَذَّبَكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ فَتَبَرَّأْ مِنْهُمْ وَمِنْ عَمَلِهِمْ ﴿ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ . وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ: يَسْمَعُونَ كَلَامَكَ الْحَسَنَ، وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، وَالْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ الْفَصِيحَةَ النَّافِعَةَ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَدْيَانِ وَالْأَبْدَانِ، وَفِي هَذَا كِفَايَةٌ عَظِيمَةٌ، وَلَكِنْ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْكَ وَلَا إِلَيْهِمْ، فَإِنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى إِسْمَاعِ الْأَصَمِّ وَهُوَ الْأَطْرَشُ، فَكَذَلِكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى هِدَايَةِ هَؤُلَاءِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ. ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ: يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ، وَإِلَى مَا أَعْطَاكَ اللهُ مِنَ التُّؤَدَةِ، وَالسَّمْتِ الْحَسَنِ، وَالْخُلُقِ الْعَظِيمِ، وَالدَّلَالَةِ الظَّاهِرَةِ عَلَى نُبُوءَتِكَ لِأُولِي الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى، وَهَؤُلَاءِ يَنْظُرُونَ كَمَا يَنْظُرُ غَيْرُهُمْ، وَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ الْهِدَايَةِ شَيْءٌ كَمَا يَحْصُلُ لِغَيْرِهِمْ، بَلِ الْمُؤْمِنُونَ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ بِعَيْنِ الْوَقَارِ، وَهَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ بِعَيْنِ الِاحْتِقَارِ ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ [الفرقان: ٤١]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا شَيْئًا، وَإِنْ كَانَ قَدْ هَدَى بِهِ مَنْ هَدَى، وَبَصَّرَ بِهِ مِنَ الْعَمَى، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، وَأَضَلَّ بِهِ عَنِ الْإِيمَانِ آخَرِينَ، فَهُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ بِمَا يَشَاءُ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُذَكِّرًا لِلنَّاسِ قِيَامَ السَّاعَةِ وَحَشْرِهِمْ مِنْ أَجْدَاثِهِمْ إِلَى عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يُوَافُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ: يَعْرِفُ الْأَبْنَاءُ الْآبَاءَ، وَالْقَرَابَاتُ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنْ كُلٌّ مَشْغُولٌ بِنَفْسِهِ ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ [المؤمنون: ١٠١]

وَقَوْلُهُ: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ١٥] لِأَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، وَلَا خَسَارَةَ أَعْظَمُ مِنْ خَسَارَةِ مَنْ فُرِّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ.

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى

ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾ أَيْ : نَنْتَقِمُ مِنْهُمْ فِي حَيَاتِكِ لِتَقَرَّ عَيْنُكَ مِنْهُمْ ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أَيْ : مَصِيرُهُمْ وَمُنْقَلَبُهُمْ ، وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى أَفْعَالِهِمْ بَعْدَكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ الْآيَةَ . فَكُلُّ أُمَّةٍ تُعْرَضُ عَلَى اللهِ بِحَضْرَةِ رَسُولِهَا ، وَكِتَابُ أَعْمَالِهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ مَوْضُوعٌ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ ، وَحَفَظَتُهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ شُهُودٌ أَيْضًا ، أُمَّةٌ بَعْدَ أُمَّةٍ ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ الشَّرِيفَةُ وَإِنْ كَانَتْ آخِرُ الْأُمَمِ فِي الْخَلْقِ ، إِلَّا أَنَّهَا أَوَّلُ الْأُمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُفْصَلُ بَيْنَهُمْ وَيُقْضَى لَهُمْ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ** » فَأُمَّتُهُ إِنَّمَا حَازَتْ قَصَبَ السَّبْقِ بِشَرَفِ رَسُولِهَا - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كُفْرِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتِعْجَالِهِمُ الْعَذَابَ ، وَسُؤَالِهِمْ عَنْ وَقْتِهِ قَبْلَ التَّعْيِينِ مِمَّا لَا فَائِدَةَ لَهُمْ فِيهِ ؛ وَلِهَذَا أَرْشَدَ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ إِلَى جَوَابِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ الْآيَةَ . أَيْ : لَا أَقُولُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا اسْتَأْثَرَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُطْلِعَنِي اللهُ عَلَيْهِ ، فَأَنَا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَيْكُمْ ، وَقَدْ أَخْبَرْتُكُمْ بِمَجِيءِ السَّاعَةِ ، وَأَنَّهَا كَائِنَةٌ وَلَمْ يُطْلِعْنِي عَلَى وَقْتِهَا وَلَكِنْ ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أَيْ : لِكُلِّ قَرْنٍ مُدَّةٌ مِنَ الْعُمْرِ مُقَدَّرَةٌ فَإِذَا انْقَضَى أَجَلُهُمْ ﴿ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ . ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ عَذَابَ اللهِ سَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً ، فَقَالَ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا ﴾ أَيْ : لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ **يَعْنِي** : أَنَّهُمْ إِذَا جَاءَهُمُ الْعَذَابُ قَالُوا : ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤- ٨٥]

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ ﴾ أَيْ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُقَالُ لَهُمْ : هَذَا تَبْكِيتًا وَتَقْرِيعًا .

۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ

وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَيَسْتَخْبِرُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ؟ أَيْ: الْمِعَادُ وَالْقِيَامَةُ مِنَ الْأَجْدَاثِ بَعْدَ صَيْرُورَةِ الْأَجْسَامِ تُرَابًا ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أَيْ: لَيْسَ صَيْرُورَتُكُمْ تُرَابًا بِمُعْجِزٍ اللهَ عَنْ إِعَادَتِكُمْ، كَمَا بَدَأَكُمْ مِنَ الْعَدَمِ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.
ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ يَوَدُّ الْكَافِرُ لَوِ افْتَدَى مِنْ عَذَابِ اللهِ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أَيْ: بِالْحَقِّ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّ وَعْدَهُ حَقٌّ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَأَنَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ، وَأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ، الْعَلِيمُ بِمَا تَفَرَّقَ مِنَ الْأَجْسَامِ، وَتَمَزَّقَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَالْبِحَارِ وَالْقِفَارِ.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى خَلْقِهِ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أَيْ: زَاجِرٌ عَنِ الْفَوَاحِشِ ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أَيْ: مِنَ الشُّبَهِ وَالشُّكُوكِ، وَهُوَ إِزَالَةُ مَا فِيهَا مِنْ رِجْسٍ وَدَنَسٍ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أَيْ: يَحْصُلُ بِهِ الْهِدَايَةُ وَالرَّحْمَةُ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَالْمُصَدِّقِينَ الْمُوقِنِينَ بِمَا فِيهِ.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ أَيْ: بِهَذَا الَّذِي جَاءَهُمْ مِنَ اللهِ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ فَلْيَفْرَحُوا، فَإِنَّهُ أَوْلَى مَا يَفْرَحُونَ بِهِ ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أَيْ: مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ الذَّاهِبَةِ لَا مَحَالَةَ.

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ
لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: نَزَلَتْ إِنْكَارًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِيمَا كَانُوا يُحِلُّونَ وَيُحَرِّمُونَ مِنَ الْبَحَائِرِ

وَالسَّوَائِبِ وَالْوَصَايَا . وَقَدْ أَنْكَرَ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ حَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللهُ ، أَوْ أَحَلَّ مَا حَرَّمَ بِمُجَرَّدِ الْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ الَّتِي لَا مُسْتَنَدَ لَهَا وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهَا ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ : ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ أَيْ : مَا ظَنُّهُمْ أَنْ يُصْنَعَ بِهِمْ يَوْمَ مَرْجِعِهِمْ إِلَيْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟.

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : فِي تَرْكِهِ مُعَاجَلَتَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا . **قُلْتُ** : وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ فِيمَا أَبَاحَ لَهُمْ مِمَّا خَلَقَهُ مِنَ الْمَنَافِعِ فِي الدُّنْيَا ، وَلَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا هُوَ ضَارٌّ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ أَوْ دِينِهِمْ ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ بَلْ يُحَرِّمُونَ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَيُضَيِّقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَيَجْعَلُونَ بَعْضًا حَلَالًا وَبَعْضًا حَرَامًا . وَهَذَا قَدْ وَقَعَ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا شَرَعُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ فِي دِينِهِمْ .

وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ : أَنَّهُ يَعْلَمُ جَمِيعَ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ أُمَّتِهِ ، وَجَمِيعَ الْخَلَائِقِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَأَوَانٍ وَلَحْظَةٍ ، وَأَنَّهُ لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ وَبَصَرِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي حَقَارَتِهَا وَصِغَرِهَا فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْهَا وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أَيْ : إِذْ تَأْخُذُونَ فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ نَحْنُ مُشَاهِدُونَ لَكُمْ رَاءُونَ سَامِعُونَ .

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ كَمَا فَسَّرَهُمْ رَبُّهُمْ ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ تَقِيًّا كَانَ للهِ وَلِيًّا فَـ ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَالِ الْآخِرَةِ ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ عَلَى مَا وَرَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ** : أَوْلِيَاءُ اللهِ الَّذِينَ إِذَا رُءُوا ذُكِرَ اللهُ .

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ قَالَ : « **الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ** » . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : هَذَا الْوَعْدُ لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُخْلَفُ

وَلَا يُغَيَّرُ ، بَلْ هُوَ مُقَرَّرٌ مُثْبَتٌ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ﴾ قَوْلُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ عَلَيْهِمْ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فَـ ﴿ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أَيْ : جَمِيعُهَا لَهُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ الْعَلِيمُ بِأَحْوَالِهِمْ .ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ ، وَهِيَ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا لَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَلَا دَلِيلَ لَهُمْ عَلَى عِبَادَتِهَا ، بَلْ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ فِي ذَلِكَ ظُنُونَهُمْ وَتَخَرُّصَهُمْ وَكَذِبَهُمْ وَإِفْكَهُمْ .ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ الَّذِي جَعَلَ لِعِبَادِهِ اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ ، أَيْ : يَسْتَرِيحُونَ مِنْ نَصَبِهِمْ وَكَلِّهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أَيْ : مُضِيئًا لِمَعَاشِهِمْ وَسَعْيِهِمْ وَأَسْفَارِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أَيْ : يَسْمَعُونَ هَذِهِ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا ، وَيَسْتَدِلُّونَ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَمُقَدِّرِهَا وَمُسَيِّرِهَا .

قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى مَنِ ادَّعَى أَنَّ لَهُ وَلَدًا ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ أَيْ : تَقَدَّسَ عَنْ ذَلِكَ هُوَ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ مِمَّا خَلَقَ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مَمْلُوكٌ لَهُ ، عَبْدٌ لَهُ ؟ ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ﴾ أَيْ : لَيْسَ عِنْدَكُمْ دَلِيلٌ عَلَى مَا تَقُولُونَهُ مِنَ الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ إِنْكَارٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ وَتَهْدِيدٌ شَدِيدٌ .ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى الْكَاذِبِينَ عَلَيْهِ الْمُفْتَرِينَ ، مِمَّنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا ، بِأَنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، فَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُمْ إِذَا اسْتَدْرَجَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ مَتَّعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ يَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : مُدَّةٌ قَرِيبَةٌ ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أَيْ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ ﴾ أَيْ : الْمُوجِعُ الْمُؤْلِمُ ﴿ بِمَا

كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَكَذِبِهِمْ عَلَى الله فِيمَا ادَّعَوْهُ مِنَ الْإِفْكِ وَالزُّورِ .

۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : أَخْبِرْهُمْ وَاقْصُصْ ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : عَلَى كُفَّارِ مَكَّةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَكَ وَيُخَالِفُونَكَ ﴿ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ أَيْ : خَبَرَهُ مَعَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ كَيْفَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ وَدَمَّرَهُمْ بِالْغَرَقِ أَجْمَعِينَ عَنْ آخِرِهِمْ ، لِيُحَذِّرَ هَؤُلَاءِ أَنْ يُصِيبَهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ وَالدَّمَارِ مَا أَصَابَ أُولَئِكَ ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم ﴾ أَيْ : عَظُمَ عَلَيْكُمْ ﴿ مَّقَامِى ﴾ أَيْ : فِيكُمْ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ﴿ وَتَذْكِيرِى ﴾ إِيَّاكُمْ ﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : بِحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ ﴿ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أَيْ : فَإِنِّي لَا أُبَالِي وَلَا أَكُفُّ عَنْكُمْ سَوَاءٌ عَظُمَ عَلَيْكُمْ أَوْ لَا ﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ أَيْ : فَاجْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله مِنْ صَنَمٍ وَوَثَنٍ ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ أَيْ : وَلَا تَجْعَلُوا أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ مُلْتَبِسًا ، بَلِ افْصِلُوا حَالَكُمْ مَعِي ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ مُحِقُّونَ ﴿ ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أَيْ : وَلَا تُؤَخِّرُونِي سَاعَةً وَاحِدَةً ، أَيْ : مَهْمَا قَدَرْتُمْ فَافْعَلُوا فَإِنِّي لَا أُبَالِيكُمْ وَلَا أَخَافُ مِنْكُمْ ؛ لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أَيْ : كَذَّبْتُمْ وَأَدْبَرْتُمْ عَنِ الطَّاعَةِ ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ أَيْ : لَمْ أَطْلُبْ مِنْكُمْ عَلَى نُصْحِي إِيَّاكُمْ شَيْئًا ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أَيْ : وَأَنَا مُمْتَثِلٌ مَا أُمِرْتُ بِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ لله ﷻ ، وَالْإِسْلَامُ هُوَ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُهُمْ وَتَعَدَّدَتْ مَنَاهِلُهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الثَّابِتِ عَنْهُ : « **نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ وَدِينُنَا وَاحِدٌ** » . أَيْ : وَهُوَ عِبَادَةُ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُنَا وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ : « **أَوْلَادُ عَلَّاتٍ** » ، وَهُمُ الْإِخْوَةُ مِنْ أُمَّهَاتٍ شَتَّى وَالْأَبُ وَاحِدٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ ﴾ أَيْ : عَلَى دِينِهِ ﴿ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ ، وَهِيَ السَّفِينَةُ ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ ﴾ أَيْ : فِي الْأَرْضِ ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ أَنْجَيْنَا الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلَكْنَا الْمُكَذِّبِينَ .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴿ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أَيْ: بِالْحُجَجِ وَالْأَدِلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءُوهُمْ بِهِ ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ: فَمَا كَانَتِ الْأُمَمُ لِتُؤْمِنَ بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُهُمْ، بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُمْ أَوْ مَا أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أَيْ: كَمَا طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِ هَؤُلَاءِ فَمَا آمَنُوا بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الْمُتَقَدِّمِ، هَكَذَا يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ مَنْ أَشْبَهَهُمْ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ، وَيَخْتِمُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الرُّسُلِ ﴿ مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ ﴾ أَيْ: قَوْمِهِ ﴿ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أَيْ: حُجَجِنَا وَبَرَاهِينِنَا ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أَيْ: اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالِانْقِيَادِ لَهُ، وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ كَأَنَّهُمْ قَبَّحَهُمُ اللهُ أَقْسَمُوا عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا قَالُوهُ كَذِبٌ وَبُهْتَانٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤] ﴿ قَالَ ﴾ لَهُمْ ﴿ مُوسَى ﴾ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ أَيْ: تُثْنِينَا ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾ أَيْ: الدِّينُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ﴾ أَيْ: لَكَ وَلِهَارُونَ ﴿ ٱلْكِبْرِيَآءُ ﴾ أَيْ: الْعَظَمَةُ وَالرِّيَاسَةُ ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ قِصَّةَ السَّحَرَةِ مَعَ مُوسَى عليه السلام فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا هُنَاكَ وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ ، وَفِي سُورَةِ طَه ، وَفِي الشُّعَرَاءِ ، وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللهُ - أَرَادَ أَنْ يَتَهَرَّجَ عَلَى النَّاسِ ، وَيُعَارِضَ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عليه السلام مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ بِزَخَارِفِ السَّحَرَةِ وَالْمُشَعْوِذِينَ ، فَظَنَّ فِرْعَوْنُ أَنَّهُ يَنْتَصِرُ بِالسُّحَّارِ ، عَلَى رَسُولِ عَالِمِ الْأَسْرَارِ ، فَخَابَ وَخَسِرَ الْجَنَّةَ وَاسْتَوْجَبَ النَّارَ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ وَإِنَّمَا قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا اصْطَفُّوا ، وَقَدْ وُعِدُوا مِنْ فِرْعَوْنَ بِالتَّقْرِيبِ وَالْعَطَاءِ الْجَزِيلِ ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ﴾[طه :٦٥- ٦٦] ، فَأَرَادَ مُوسَى أَنْ تَكُونَ الْبُدَاءَةُ مِنْهُمْ لِيَرَى النَّاسُ مَا صَنَعُوا ، ثُمَّ يَأْتِيَ بِالْحَقِّ بَعْدَهُ فَيَدْمَغَ بَاطِلَهُمْ . وَلِهَذَا لَمَّا أَلْقَوْا ﴿ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾[الأعراف : ١١٦] ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾[طه : ٦٧- ٦٩] ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى لَمَّا أَلْقَوْا : ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ .

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِمُوسَى عليه السلام مَعَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَاتِ ، وَالْبَرَاهِينِ السَّاطِعَاتِ ، إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ، مِنَ الذُّرِّيَّةِ وَهُمُ الشَّبَابُ عَلَى وَجَلٍ وَخَوْفٍ مِنْهُ وَمِنْ مَلَئِهِ ، أَنْ يَرُدُّوهُمْ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللهُ - كَانَ جَبَّارًا عَنِيدًا مُسْرِفًا فِي التَّمَرُّدِ وَالْعُتُوِّ ، وَكَانَتْ لَهُ سَطْوَةٌ وَمَهَابَةٌ تَخَافُ رَعِيَّتُهُ مِنْهُ خَوْفًا شَدِيدًا .

قِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ هُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وَقِيلَ : هُمْ أَوْلَادُ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ مُوسَى مِنْ طُولِ الزَّمَانِ وَمَاتَ آبَاؤُهُمْ .﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ ﴾ أَيْ : وَأَشْرَافِ قَوْمِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مَنْ يُخَافُ مِنْهُ أَنْ يَفْتِنَ عَنِ الْإِيمَانِ سِوَى قَارُون ، فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ، لَكِنَّهُ كَانَ طَاوِيًا إِلَى فِرْعَوْنَ مُتَّصِلًا بِهِ مُتَعَلِّقًا بِحِبَالِهِ ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مُؤْمِنٌ قَوْلُهُ تَعَالَى :

وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم

مُسْلِمِينَ ﴾ أَيْ : فَإِنَّ اللهَ كَافٍ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[الزمر : ٣٦] ، وَقَدِ امْتَثَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ ذَلِكَ فَقَالُوا : ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : لَا تُظْفِرْهُمْ بِنَا وَتُسَلِّطْهُمْ عَلَيْنَا ، فَيَظُنُّوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا سُلِّطُوا ؛ لأَنَّهُمْ عَلَى الحَقِّ وَنَحْنُ عَلَى البَاطِلِ ، فَيُفْتَنُوا بِذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ ﴾ أَيْ : خَلِّصْنَا بِرَحْمَةٍ مِنْكَ وَإِحْسَانٍ ﴿ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ كَفَرُوا الحَقَّ وَسَتَرُوهُ ، وَنَحْنُ قَدْ آمَنَّا بِكَ وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْكَ .

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى سَبَبَ إِنْجَائِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَكَيْفِيَّةَ خَلَاصِهِمْ مِنْهُمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - أَنْ يَتَبَوَّآ ، أَيْ : يَتَّخِذَا لِقَوْمِهِمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ، وَاخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ فَقِيلَ : قَالَ أُمِرُوا أَنْ يَتَّخِذُوهَا مَسَاجِدَ ، وَقِيلَ : كَانُوا خَائِفِينَ فَأُمِرُوا أَنْ يُصَلُّوا فِي بُيُوتِهِمْ ، وَكَأَنَّ هَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - لَمَّا اشْتَدَّ بِهِمُ الْبَلَاءُ مِنْ قِبَلِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَضَيَّقُوا عَلَيْهِمْ ، أُمِرُوا بِكَثْرَةِ الصَّلَاةِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : بِالثَّوَابِ وَالنَّصْرِ الْقَرِيبِ ، قِيلَ : أَذِنَ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ أَنْ يُصَلُّوا فِي بُيُوتِهِمْ ، وَأُمِرُوا أَنْ يَجْعَلُوا بُيُوتَهُمْ قِبَلَ الْقِبْلَةِ .

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَمَّا دَعَا بِهِ مُوسَى ﷺ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، لَمَّا أَبَوْا قَبُولَ الحَقِّ وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ضَلَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ مُعَانِدِينَ جَاحِدِينَ ، ظُلْمًا وَعُلُوًّا وَتَكَبُّرًا وَعُتُوًّا قَالَ : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً ﴾ أَيْ : مِنْ أَثَاثِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا ﴿ وَأَمْوَٰلًا ﴾ أَيْ : جَزِيلَةً كَثِيرَةً ﴿ فِى ﴾ هَذِهِ ﴿ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيَضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ ، أَيْ : أَعْطَيْتَهُمْ ذَلِكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَرْسَلْتَنِي بِهِ إِلَيْهِمُ اسْتِدْرَاجًا مِنْكَ لَهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ وَقَرَأَ آخَرُونَ ﴿ لِيُضِلُّوا ﴾ بِضَمِّ الْيَاءِ ، أَيْ : لِيَفْتَتِنَ بِمَا أَعْطَيْتَهُمْ مَنْ شِئْتَ مِنْ خَلْقِكَ لِيَظُنَّ مَنْ أَغْوَيْتَهُ أَنَّكَ إِنَّمَا أَعْطَيْتَهُمْ هَذَا لِحُبِّكَ إِيَّاهُمْ وَاعْتِنَائِكَ بِهِمْ ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ **قَالَ بَعْضُ**

العُلَمَاءِ : أَيْ : أَهْلِكْهَا ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : جَعَلَهَا اللهُ حِجَارَةً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : أَيِ : اطْبَعْ عَلَيْهَا ﴿ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ وَهَذِهِ الدَّعْوَةُ كَانَتْ مِنْ مُوسَى عليه السلام غَضَبًا للهِ وَلِدِينِهِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ الَّذِينَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُمْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ وَلَا يَجِيءُ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، وَلِهَذَا اسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَى لِمُوسَى عليه السلام فِيهِمْ هَذِهِ الدَّعْوَةَ الَّتِي أَمَّنَ عَلَيْهَا أَخُوهُ هَارُونُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ** : دَعَا مُوسَى وَأَمَّنَ هَارُونُ ، أَيْ : قَدْ أَجَبْنَاكُمَا فِيمَا سَأَلْتُمَا مِنْ تَدْمِيرِ آلِ فِرْعَوْنَ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا ﴾ الآيَةُ . أَيْ : كَمَا أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا عَلَى أَمْرِي ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ فَٱسْتَقِيمَا ﴾ فَامْضِيَا لِأَمْرِي وَهِيَ الِاسْتِقَامَةُ .

۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَاْ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةًۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى كَيْفِيَّةَ إِغْرَاقِهِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ ، فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ فِي صُحْبَةِ مُوسَى عليه السلام وَهُمْ فِيمَا قِيلَ سِتُّمِائَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ سِوَى الذُّرِّيَّةِ ، وَقَدْ كَانُوا اسْتَعَارُوا مِنَ الْقِبْطِ حُلِيًّا كَثِيرًا فَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ ، فَاشْتَدَّ حَنَقُ فِرْعَوْنَ عَلَيْهِمْ ، فَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَجْمَعُونَ لَهُ جُنُودَهُ مِنْ أَقَالِيمِهِ ، فَرَكِبَ وَرَاءَهُمْ فِي أُبَّهَةٍ عَظِيمَةٍ وَجُيُوشٍ هَائِلَةٍ لِمَا يُرِيدُهُ اللهُ تَعَالَى بِهِمْ ، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِمَّنْ لَهُ دَوْلَةٌ وَسُلْطَانٌ فِي سَائِرِ مَمْلَكَتِهِ ، فَلَحِقُوهُمْ وَقْتَ شُرُوقِ الشَّمْسِ ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦١] ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا انْتَهَوْا إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ وَفِرْعَوْنُ وَرَاءَهُمْ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَتَقَاتَلَ الْجَمْعَانِ ، وَأَلَحَّ أَصْحَابُ مُوسَى عليه السلام عَلَيْهِ فِي السُّؤَالِ : كَيْفَ الْمَخْلَصُ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ ؟ فَيَقُولُ : إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَسْلُكَ هَهُنَا ﴿ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦٢] فَعِنْدَ مَا ضَاقَ الْأَمْرُ اتَّسَعَ ، فَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بِعَصَاهُ ، فَضَرَبَهُ فَانْفَلَقَ الْبَحْرُ ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء : ٦٣] أَيْ : كَالْجَبَلِ الْعَظِيمِ ، وَصَارَ اثْنَيْ عَشَرَ طَرِيقًا ، لِكُلِّ سِبْطٍ وَاحِدٌ ، وَأَمَرَ اللهُ الرِّيحَ فَنَشَّفَتْ أَرْضَهُ ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٧٧] وَتَخَرَّقَ الْمَاءُ بَيْنَ الطُّرُقِ كَهَيْئَةِ الشَّبَابِيكِ لِيَرَى كُلُّ قَوْمٍ الْآخَرِينَ ؛ لِئَلَّا يَظُنُّوا أَنَّهُمْ هَلَكُوا ، وَجَاوَزَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ، فَلَمَّا خَرَجَ آخِرُهُمْ مِنْهُ انْتَهَى فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ إِلَى حَافَّتِهِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى ، وَهُوَ فِي مِائَةِ أَلْفِ أَدْهَمَ سِوَى بَقِيَّةِ

الْأَلْوَانِ ، فَلَمَّا رَأَى ذَٰلِكَ هَالَهُ وَأَحجَمَ وَهَابَ وَهَمَّ بِالرُّجُوعِ ، وَهَيْهَاتَ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصَ ، نَفَذَ الْقَدَرُ وَاسْتُجِيبَتِ الدَّعْوَةُ . وَجَاءَ جِبْرِيلُ عليه السلام عَلَى فَرَسٍ وَدِيقٍ حَائِلٍ ، فَمَرَّ إِلَى جَانِبِ حِصَانِ فِرْعَوْنَ فَحَمْحَمَ إِلَيْهَا ، وَاقْتَحَمَ جِبْرِيلُ الْبَحْرَ فَاقْتَحَمَ الْحِصَانُ وَرَاءَهُ ، وَلَمْ يَبْقَ فِرْعَوْنُ يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا ، فَتَجَلَّدَ لِأُمَرَائِهِ وَقَالَ لَهُمْ : لَيْسَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِأَحَقَّ بِالْبَحْرِ مِنَّا ، فَاقْتَحَمُوا كُلُّهُم عَنْ آخِرِهِمْ ، وَمِيكَائِيلُ فِي سَاقَتِهِمْ لَا يَتْرُكُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا أَلْحَقَهُ بِهِمْ ، فَلَمَّا اسْتَوْسَقُوا فِيهِ وَتَكَامَلُوا وَهَمَّ أَوَّلُهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْهُ ، أَمَرَ اللهُ - الْقَدِيرُ - الْبَحْرَ أَنْ يَرْتَطِمَ عَلَيْهِمْ ، فَارْتَطَمَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، وَجَعَلَتِ الْأَمْوَاجُ تَرْفَعُهُمْ وَتَخْفِضُهُمْ وَتَرَاكَمَتِ الْأَمْوَاجُ فَوْقَ فِرْعَوْنَ وَغَشِيَتْهُ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ ، فَقَالَ : وَهُوَ كَذَٰلِكَ ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ فَآمَنَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُ الْإِيمَانُ .

وَلِهَٰذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي جَوَابِ فِرْعَوْنَ حِينَ قَالَ مَا قَالَ : ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ أَيْ : أَهَٰذَا الْوَقْتُ تَقُولُ ، وَقَدْ عَصَيْتَ اللهَ قَبْلَ هَٰذَا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ﴿ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أَيْ : فِي الْأَرْضِ ، الَّذِينَ أَضَلُّوا النَّاسَ . ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ** : إِنَّ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ شَكُّوا فِي مَوْتِ فِرْعَوْنَ ، فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى الْبَحْرَ أَنْ يُلْقِيَهُ بِجَسَدِهِ سَوِيًّا بِلَا رُوحٍ ، وَعَلَيْهِ دِرْعُهُ الْمَعْرُوفَةُ عَلَى نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ لِيَتَحَقَّقُوا مَوْتَهُ وَهَلَاكَهُ ، وَلِهَٰذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾ أَيْ : نَرْفَعُكَ عَلَى نَشَزٍ مِنَ الْأَرْضِ ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : بِجَسَدِكَ ، **وَقَالَ الْحَسَنُ** : بِجِسْمٍ لَا رُوحَ فِيهِ ، **قِيلَ** : سَوِيًّا صَحِيحًا ، أَيْ : لَمْ يَتَمَزَّقْ لِيَتَحَقَّقُوهُ وَيَعْرِفُوهُ ، وَكُلُّ هَٰذِهِ الْأَقْوَالِ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَهَا كَمَا تَقَدَّمَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ أَيْ : لِتَكُونَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ دَلِيلًا عَلَى مَوْتِكَ وَهَلَاكِكَ ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ بِيَدِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَقُومُ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ .

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ النِّعَمِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ **قِيلَ** : هُوَ بِلَادُ مِصْرَ وَالشَّامِ مِمَّا يَلِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَنَوَاحِيهِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ اسْتَقَرَّتْ يَدُ الدَّوْلَةِ الْمُوسَوِيَّةِ عَلَى بِلَادِ مِصْرَ بِكَمَالِهَا . ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أَيْ : الْحَلَالِ مِنَ الرِّزْقِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ الْمُسْتَطَابِ طَبْعًا وَشَرْعًا ، ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ أَيْ : مَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَسَائِلِ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ، أَيْ : وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنْ يَخْتَلِفُوا ،

وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ لَهُمْ وَأَزَالَ عَنْهُمُ اللَّبْسَ ، **وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ : يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

وَهَذَا فِيهِ تَثْبِيتٌ لِلْأُمَّةِ ، وَإِعْلَامٌ لَهُمْ أَنَّ صِفَةَ نَبِيِّهِمْ ﷺ مَوْجُودَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ الَّتِي بِأَيْدِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، ثُمَّ مَعَ هَذَا الْعِلْمِ الَّذِي يَعْرِفُونَهُ مِنْ كُتُبِهِمْ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، يَلْبِسُونَ ذَلِكَ وَيُحَرِّفُونَهُ وَيُبَدِّلُونَهُ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ أَيْ : لَا يُؤْمِنُونَ إِيمَانًا يَنْفَعُهُمْ ، بَلْ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا وَلِهَذَا لَمَّا دَعَا مُوسَى ﷺ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ قَالَ : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨]

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَهَلَّا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ بِكَمَالِهَا مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الَّذِينَ بَعَثْنَا إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ ، بَلْ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَذَّبَهُ قَوْمُهُ أَوْ أَكْثَرُهُمْ .

وَالْغَرَضُ أَنَّهُ لَمْ تُوجَدْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ بِكَمَالِهَا بِنَبِيِّهِمْ مِمَّنْ سَلَفَ مِنَ الْقُرَى ، إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ وَهُمْ أَهْلُ نِينَوَى ، وَمَا كَانَ إِيمَانُهُمْ إِلَّا خَوْفًا مِنْ وُصُولِ الْعَذَابِ الَّذِي أَنْذَرَهُمْ بِهِ رَسُولُهُمْ بَعْدَ مَا عَايَنُوا أَسْبَابَهُ ، وَخَرَجَ رَسُولُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، فَعِنْدَهَا جَأَرُوا إِلَى اللهِ ، وَاسْتَغَاثُوا بِهِ وَتَضَرَّعُوا لَهُ ، وَاسْتَكَانُوا ، وَأَحْضَرُوا أَطْفَالَهُمْ وَدَوَابَّهُمْ وَمَوَاشِيَهُمْ ، وَسَأَلُوا اللهَ تَعَالَى أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ الَّذِي أَنْذَرَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ ، فَعِنْدَهَا رَحِمَهُمُ اللهُ وَكَشَفَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ .

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لَأَذِنَ لِأَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ فِي الْإِيمَانِ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ فَآمَنُوا

كُلُّهم ، وَلَكِنْ لَهُ حِكْمَةٌ فِيمَا يَفْعَلُهُ تَعَالَى ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ ﴾ أَيْ : تُلْزِمُهُمْ وَتُلْجِئُهُمْ ﴿ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ ذَلِكَ عَلَيْكَ وَلَا إِلَيْكَ بَلِ اللهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر : ٨] ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ ﴾ ، وَهُوَ الْخَبَالُ وَالضَّلَالُ ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : حُجَجَ اللهِ وَأَدِلَّتَهُ ، وَهُوَ الْعَادِلُ فِي كُلِّ ذَلِكَ فِي هِدَايَةِ مَنْ هَدَى وَإِضْلَالِ مَنْ ضَلَّ .

قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

يُرْشِدُ تَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي آلَائِهِ ، وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ لِذَوِي الْأَلْبَابِ ، مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ كَوَاكِبَ نَيِّرَاتٍ ، ثَوَابِتَ وَسَيَّارَاتٍ ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَاخْتِلَافِهِمَا ، وَإِيلَاجِ أَحَدِهِمَا فِي الْآخَرِ حَتَّى يَطُولَ هَذَا وَيَقْصُرُ هَذَا ، ثُمَّ يَقْصُرُ هَذَا وَيَطُولُ هَذَا ، وَارْتِفَاعِ السَّمَاءِ وَاتِّسَاعِهَا وَحُسْنِهَا وَزِينَتِهَا ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْهَا مِنْ مَطَرٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَأَخْرَجَ فِيهَا مِنْ أَفَانِينَ الثِّمَارِ وَالزُّرُوعِ وَالْأَزَاهِيرِ وَصُنُوفِ النَّبَاتِ ، وَمَا ذَرَأَ فِيهَا مِنْ دَوَابٍّ مُخْتَلِفَةِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ وَالْمَنَافِعِ ، وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَسُهُولٍ وَقِفَارٍ وَعُمْرَانَ وَخَرَابٍ ، وَمَا فِي الْبَحْرِ مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْأَمْوَاجِ ، وَهُوَ مَعَ هَذَا مُسَخَّرٌ مُذَلَّلٌ لِلسَّالِكِينَ يَحْمِلُ سُفُنَهُمْ وَيَجْرِي بِهَا بِرِفْقٍ بِتَسْخِيرِ الْقَدِيرِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : وَأَيُّ شَيْءٍ تُغْنِي الْآيَاتُ السَّمَاوِيَّةُ وَالْأَرْضِيَّةُ وَالرُّسُلُ ، بِآيَاتِهَا وَحُجَجِهَا وَبَرَاهِينِهَا الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهَا عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ : فَهَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ مِنَ النِّقْمَةِ وَالْعَذَابِ ، إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمُكَذِّبَةِ لِرُسُلِهِمْ ﴿ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أَيْ : وَنُهْلِكُ الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ . ﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : حَقًّا أَوْجَبَهُ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ

لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، قُلْ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ صِحَّةِ مَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ الدِّينِ الْحَنِيفِ ، الَّذِي أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ ، فَأَنَا لَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ كَمَا أَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ، فَإِنْ كَانَتْ آلِهَتُكُمُ الَّتِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَقًّا فَأَنَا لَا أَعْبُدُهَا فَادْعُوهَا فَلْتَضُرَّنِي ، فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَإِنَّمَا الَّذِي بِيَدِهِ الضُّرُّ وَالنَّفْعُ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ الْآيَةُ ، أَيْ أَخْلِصِ الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ ﴿ حَنِيفًا ﴾ أَيْ : مُنْحَرِفًا عَنِ الشِّرْكِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ الْآيَةُ . فِيهِ بَيَانٌ ؛ لِأَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَالنَّفْعَ وَالضُّرَّ إِنَّمَا هُوَ رَاجِعٌ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا يُشَارِكُهُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ ، فَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أَيْ : لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ، وَلَوْ مِنْ أَيِّ : ذَنْبٍ كَانَ ، حَتَّى مِنَ الشِّرْكِ بِهِ ، فَإِنَّهُ يَتُوبُ عَلَيْهِ .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُخْبِرَ النَّاسَ أَنَّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ فِيهِ ، فَمَنِ اهْتَدَى بِهِ وَاتَّبَعَهُ فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ الِاتِّبَاعِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ عَنْهُ فَإِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْهِ ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ أَيْ : وَمَا أَنَا مُوَكَّلٌ بِكُمْ حَتَّى تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ وَالْهِدَايَةُ عَلَى اللهِ تَعَالَى . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ ﴾ أَيْ : تَمَسَّكْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ ، وَاصْبِرْ عَلَى مُخَالَفَةِ مَنْ خَالَفَكَ مِنَ النَّاسِ ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : يَفْتَحَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ أَيْ : خَيْرُ الْفَاتِحِينَ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ يُونُسَ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ١٢٣ تفسير سورة هود عليه السلام مكية

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –: قَالَ : قَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ الله قَدْ شِبْتَ ! قَالَ : ((**شَيَّبَتْنِي هُودٌ ، وَالْوَاقِعَةُ ، وَالْمُرْسَلَاتُ ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**)). وَفِي رِوَايَةٍ : ((**هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا**)) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

أَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ أَيْ : هِيَ مُحْكَمَةٌ فِي لَفْظِهَا ، مُفَصَّلَةٌ فِي مَعْنَاهَا ، فَهُو كَامِلٌ صُورَةً ومَعْنًى . ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ أَيْ : مِنْ عِنْدِ الله ، الحَكِيمِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَحْكَامِهِ ، الخَبِيرِ بِعَوَاقِبِ الأُمُورِ . ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ المُحْكَمُ المُفَصَّلُ لِعِبَادَةِ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . ﴿ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ أَيْ: إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مِنَ الْعَذَابِ إِنْ خَالَفْتُمُوهُ ، وَبَشِيرٌ بِالثَّوَابِ إِنْ أَطَعْتُمُوهُ . ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ أَيْ : وَآمُرُكُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ ، وَالتَّوْبَةِ مِنْهَا إِلَى الله ﷻ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ ، وَأَنْ تَسْتَمِرُّوا عَلَى ذَلِكَ ﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ تَوَلَّى عَنْ أَوَامِرِ الله تَعَالَى وَكَذَّبَ رُسُلَهُ ، فَإِنَّ الْعَذَابَ يَنَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مَحَالَةَ ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أَيْ : مَعَادُكُمْ وَمَرْجِعُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَيْ : وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَى أَوْلِيَائِهِ ، وَانْتِقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ ، وَإِعَادَةِ الخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا مَقَامُ التَّرْهِيبِ كَمَا أَنَّ الْأَوَّلَ مَقَامُ تَرْغِيبٍ .

أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَسْتَقْبِلُوا السَّمَاءَ بِفُرُوجِهِمْ وَحَالَ وِقَاعِهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ . وَذُكِرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ يَسْتَغْشُونَ ﴾ يُغَطُّونَ رُءُوسَهُمْ وَرُوِيَ عَنْ عَدَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ قَالُوا : يَعْنِي بِهِ الشَّكُّ فِي اللهِ ، وَعَمَلُ السَّيِّئَاتِ ، أَيْ : أَنَّهُمْ كَانُوا يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ إِذَا قَالُوا شَيْئًا أَوْ عَمِلُوهُ ، فَيَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ بِذَلِكَ ، فَأَخْبَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ عِنْدَ مَنَامِهِمْ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ مِنَ الْقَوْلِ ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ مِنَ النِّيَّاتِ وَالضَّمَائِرِ وَالسَّرَائِرِ . وَعَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَى اللهِ أَوْلَى لِقَوْلِهِ ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ . وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ » بِرَفْعِ الصُّدُورِ عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ ، وَهُوَ قَرِيبُ الْمَعْنَى .

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ مُتَكَفِّلٌ بِأَرْزَاقِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ سَائِرِ دَوَابِّ الْأَرْضِ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا بَحْرِيِّهَا وَبَرِّيِّهَا ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا ، أَيْ : يَعْلَمُ أَيْنَ مُنْتَهَى سَيْرِهَا فِي الْأَرْضِ ، وَأَيْنَ تَأْوِي إِلَيْهِ مِنْ وَكْرِهَا ، وَهُوَ مُسْتَوْدَعُهَا ، وَقِيلَ : حَيْثُ تَمُوتُ ، وَقِيلَ : ﴿ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ فِي الرَّحِمِ . ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ فِي الصُّلْبِ كَالَّتِي فِي الْأَنْعَامِ ، وَبَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ مَكْتُوبٌ فِي كِتَابٍ عِنْدَ اللهِ مُبِينٌ .

وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، وَأَنَّ عَرْشَهُ كَانَ عَلَى الْمَاءِ قَبْلَ ذَلِكَ ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « اِقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ » . قَالُوا : قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا قَالَ : « اِقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ » قَالُوا :

قَدْ قَبْلَنَا فَأَخْبِرْنَا عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ كَيْفَ كَانَ ؟ قَالَ : « **كَانَ اللهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ ، وَكَتَبَ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ ذِكْرَ كُلِّ شَيْءٍ** » . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أَيْ : خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِنَفْعِ عِبَادِهِ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ لِيَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَلَمْ يَخْلُقْ ذَلِكَ عَبَثًا . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ ، أَيْ : لِيَخْتَبِرَكُمْ ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ وَلَمْ يَقُلْ « أَكْثَرُ عَمَلًا » بَلْ « أَحْسَنُ عَمَلًا » وَلَا يَكُونُ الْعَمَلُ حَسَنًا حَتَّى يَكُون خَالِصًا لله ﷻ عَلَى شَرِيعَةِ رَسُولِ الله ﷺ ، فَمَتَى فَقَدَ الْعَمَلُ وَاحِدًا مِنْ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ حَبِطَ وَبَطَلَ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ ﴾ الْآيَةُ . يَقُولُ تَعَالَى : وَلَئِنْ أَخْبَرْتَ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ اللهَ سَيَبْعَثُهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ كَمَا بَدَأَهُمْ ، مَعَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الله تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَهُمْ مَعَ هَذَا يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ وَالمَعَادَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْقُدْرَةِ أَهْوَنُ مِنَ الْبُدَاءَةِ . **وَقَوْلُهُمْ** : ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : يَقُولُونَ كُفْرًا وَعِنَادًا : مَا نُصَدِّقُكَ عَلَى وُقُوعِ الْبَعْثِ ، وَمَا يَذْكُرُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ سَحَرْتَهُ فَهُوَ يَتَّبِعُكَ عَلَى مَا تَقُولُ . ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ الْآيَةُ . يَقُولُ تَعَالَى وَلَئِنْ أَخَّرْنَا الْعَذَابَ وَالمُؤَاخَذَةَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ وَأَمَدٍ مَحْصُورٍ ، وَأَوْعَدْنَاهُمْ إِلَى مُدَّةٍ مَضْرُوبَةٍ ، لَيَقُولُنَّ تَكْذِيبًا وَاسْتِعْجَالًا : ﴿ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ أَيْ : يُؤَخِّرُ هَذَا الْعَذَابَ عَنَّا ، فَإِنَّ سَجَايَاهُمْ قَدْ أَلِفَتِ التَّكْذِيبَ وَالشَّكَّ ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مَحِيصٌ عَنْهُ وَلَا مَحِيدٌ .

وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ وَمَا فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ : أَنَّهُ إِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ ، حَصَلَ لَهُ يَأْسٌ وَقُنُوطٌ مِنَ الخَيْرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ ، وَكُفْرٌ وَجُحُودٌ لِمَاضِي الحَالِ ، كَأَنَّهُ لَمْ يَرَ خَيْرًا وَلَمْ يَرْجُ بَعْدَ ذَلِكَ فَرَجًا ، وَهَكَذَا إِنْ أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ بَعْدَ نِقْمَةٍ ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ﴾ أَيْ : يَقُولُ مَا يَنَالُنِي بَعْدَ هَذَا ضَيْمٌ وَلَا سُوءٌ ﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ أَيْ : فَرِحٌ بِمَا فِي يَدِهِ ، بَطِرٌ فَخُورٌ عَلَى غَيْرِهِ . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ أَيْ : عَلَى الشَّدَائِدِ وَالمَكَارِهِ ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ أَيْ : فِي الرَّخَاءِ وَالْعَافِيَةِ ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ أَيْ : بِمَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الضَّرَّاءِ ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ بِمَا أَسْلَفُوهُ فِي زَمَنِ الرَّخَاءِ .

فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ ﷺ عَمَّا كَانَ يَتَعَنَّتُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا كَانُوا يَقُولُونَهُ عَنِ الرَّسُولِ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾[الفرقان : ٧ - ٨] . فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ - صَلَوَاتُ اللهِ تَعَالَى وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَأَرْشَدَهُ إِلَى أَنْ لَا يَضِيقَ بِذَلِكَ مِنْهُمْ صَدْرُهُ وَلَا يَصُدَّنَّهُ ذَلِكَ وَلَا يُثْنِيَنَّهُ عَنْ دُعَائِهِمْ إِلَى اللهِ ﷻ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ ﴾ أَيْ : لِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ ، فَإِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَلَكَ أُسْوَةٌ بِإِخْوَانِكَ مِنَ الرُّسُلِ قَبْلَكَ ، فَإِنَّهُمْ كُذِّبُوا وَأُوذُوا فَصَبَرُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُ اللهِ ﷻ .

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى إِعْجَازَ الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ ، وَلَا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ ، وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ لِأَنَّ كَلَامَ الرَّبِّ تَعَالَى لَا يُشْبِهُ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ ، كَمَا أَنَّ صِفَاتَهُ لَا تُشْبِهُ صِفَاتِ الْمُحْدَثَاتِ ، وَذَاتُهُ لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ ﴾ أَيْ : فَإِنْ لَمْ يَأْتُوا بِمُعَارَضَةِ مَا دَعَوْتُمُوهُمْ إِلَيْهِ ، فَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ ذَلِكَ ، وَأَنَّ هَذَا الْكَلَامَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُتَضَمِّنٌ عِلْمَهُ وَأَمْرَهُ وَنَهْيَهُ ﴿ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ .

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : إِنَّ أَهْلَ الرِّيَاءِ يُعْطَوْنَ بِحَسَنَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ، يَقُولُ : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا الْتِمَاسَ الدُّنْيَا ، صَوْمًا أَوْ صَلَاةً أَوْ تَهَجُّدًا بِاللَّيْلِ لَا يَعْمَلُهُ إِلَّا الْتِمَاسُ الدُّنْيَا ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : أُوَفِّيهِ الَّذِي الْتَمَسَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَثَابَةِ ،

وَحَبِطَ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ لِالْتِمَاسِ الدُّنْيَا ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ .

وَقِيلَ : نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ وَنِيَّتَهُ وَسَدَمَهُ جَازَاهُ اللهُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ يُفْضِي إِلَى الآخِرَةِ وَلَيْسَ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا جَزَاءً ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُجَازَى بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا وَيُثَابُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ .

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى فِطْرَةِ اللهِ تَعَالَى الَّتِي فَطَرَ عَلَيْهَا عِبَادَهُ ، مِنَ الاعْتِرَافِ لَهُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . وَ**قَوْلُهُ** : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أَيْ : وَجَاءَهُ شَاهِدٌ مِنَ اللهِ ، وَهُوَ مَا أَوْحَاهُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمُطَهَّرَةِ الْمُكَمَّلَةِ الْمُعَظَّمَةِ ، الْمُخْتَتَمَةِ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أَنَّهُ جِبْرِيلُ عليه السلام **وَقَالَ آخَرُونَ** : هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَكِلَاهُمَا قَرِيبٌ فِي الْمَعْنَى ؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنْ جِبْرِيلَ وَمُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا - بَلَّغَ رِسَالَةَ اللهِ تَعَالَى ، فَجِبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ ، وَمُحَمَّدٌ إِلَى الْأُمَّةِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ عِنْدَهُ مِنَ الْفِطْرَةِ مَا يَشْهَدُ لِلشَّرِيعَةِ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةِ ، وَالتَّفَاصِيلُ تُؤْخَذُ مِنَ الشَّرِيعَةِ ، وَالْفِطْرَةُ تُصَدِّقُهَا وَتُؤْمِنُ بِهَا ، **لِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ، بَلَّغَهُ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَبَلَّغَهُ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى أُمَّتِهِ ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ أَيْ : وَمِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ كِتَابُ مُوسَى وَهُوَ التَّوْرَاةُ ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ أَيْ : أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى إِلَى تِلْكَ الْأُمَّةِ إِمَامًا لَهُمْ ، وَقُدْوَةً يَقْتَدُونَ بِهَا ، وَرَحْمَةً مِنَ اللهِ بِهِمْ ، فَمَنْ آمَنَ بِهَا حَقَّ الْإِيمَانِ قَادَهُ ذَلِكَ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِمَنْ كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ أَوْ بِشَيْءٍ مِنْهُ ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ أَيْ : وَمَنْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، مُشْرِكِهِمْ وَكَافِرِهِمْ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ ، وَمِنْ سَائِرِ طَوَائِفِ بَنِي آدَمَ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ مِمَّنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ . ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ . أَيْ : الْقُرْآنُ حَقٌّ مِنَ اللهِ لَا مِرْيَةَ وَلَا شَكَّ فِيهِ .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ

مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

يُبَيِّنُ تَعَالَى حَالَ الْمُفْتَرِينَ عَلَيْهِ ، وَفَضِيحَتَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَسَائِرِ الْبَشَرِ وَالْجَانِّ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أَيْ : يَرُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَسُلُوكِ طَرِيقِ الْهُدَى الْمُوَصِّلَةِ إِلَى اللهِ ﷻ ، وَيُجَنِّبُونَهُمُ الْجَنَّةَ ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أَيْ : وَيُرِيدُونَ أَنْ يَكُونَ طَرِيقُهُمْ عِوَجًا غَيْرَ مُعْتَدِلَةٍ ﴿ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ أَيْ : جَاحِدُونَ بِهَا ، مُكَذِّبُونَ بِوُقُوعِهَا وَكَوْنِهَا .﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أَيْ : بَلْ كَانُوا تَحْتَ قَهْرِهِ وَغَلَبَتِهِ وَفِي قَبْضَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الِانْتِقَامِ مِنْهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ الْآيَةُ . أَيْ : يُضَاعَفُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ ، بَلْ كَانُوا صُمًّا عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ ، عُمْيًا عَنِ اتِّبَاعِهِ .

قَوْلُهُ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أَيْ : خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ لِأَنَّهُمْ أُدْخِلُوا نَارًا حَامِيَةً ، فَهُمْ مُعَذَّبُونَ فِيهَا لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩٧] ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أَيْ : ذَهَبَ عَنْهُمْ ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ مِنْ دُونِ اللهِ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ ، فَلَمْ تُجْدِ عَنْهُمْ شَيْئًا ، بَلْ ضَرَّتْهُمْ كُلَّ الضَّرَرِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَآلِهِمْ أَنَّهُمْ أَخْسَرُ النَّاسِ صَفْقَةً فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ ثَنَّى بِذِكْرِ السُّعَدَاءِ ، وَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَآمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَعَمِلَتْ جَوَارِحُهُمُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ قَوْلًا وَفِعْلًا ، مِنَ الْإِتْيَانِ بِالطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ ، وَبِهَذَا وَرِثُوا الْجَنَّاتِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الْغُرَفِ الْعَالِيَاتِ ، وَالسُّرُرِ الْمَصْفُوفَاتِ ،

وَالْقُطُوفِ الدَّانِيَاتِ ، وَالْفُرُشِ الْمُرْتَفِعَاتِ ، وَالحِسَانِ الخَيْرَاتِ ، وَالْفَوَاكِهِ الْمُتَنَوِّعَاتِ ، وَالْمَآكِلِ الْمُشْتَهَيَاتِ ، وَالمَشَارِبِ الْمُسْتَلَذَّاتِ ، وَالنَّظَرِ إِلَى خَالِقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ خَالِدُونَ لَا يَمُوتُونَ ، وَلَا يَهْرَمُونَ ، وَلَا يَمْرَضُونَ ، وَلَا يَنَامُونَ ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ ، وَلَا يَبْصُقُونَ ، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ ، إِنْ هُوَ إِلَّا رَشْحُ مِسْكٍ يَعْرَقُونَ . ثُمَّ ضَرَبَ تَعَالَى مَثَلَ الْكَافِرِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ : ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ وَصَفَهُمْ أَوَّلًا بِالشَّقَاءِ ، وَالْمُؤْمِنِينَ بِالسَّعَادَةِ ، فَأُولَئِكَ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ ، وَهَؤُلَاءِ كَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، فَالْكَافِرُ أَعْمَى عَنْ وَجْهِ الحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَا يَهْتَدِي إِلَى خَيْرٍ وَلَا يَعْرِفُهُ ، أَصَمُّ عَنْ سَمَاعِ الحُجَجِ فَلَا يَسْمَعُ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٣] . وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ : فَفَطِنٌ ذَكِيٌّ لَبِيبٌ بَصِيرٌ بِالحَقِّ يُمَيِّزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَاطِلِ فَيَتَّبِعُ الخَيْرَ وَيَتْرُكُ الشَّرَّ سَمِيعٌ لِلْحُجَّةِ يُفَرِّقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشُّبْهَةِ فَلَا يُرَوَّجُ عَلَيْهِ بَاطِلٌ فَهَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا ؟ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ فَتُفَرِّقُونَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ ﷺ وَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الْأَصْنَامِ ، أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : ظَاهِرُ النِّذَارَةِ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، إِنْ أَنْتُمْ عَبَدْتُمْ غَيْرَ اللهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ أَيْ : إِنِ اسْتَمْرَرْتُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ عَذَّبَكُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا مُوجِعًا شَاقًّا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ وَالْمَلَأُ : هُمُ السَّادَةُ وَالْكُبَرَاءُ مِنَ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ أَيْ : لَسْتَ بِمَلَكٍ وَلَكِنَّكَ بَشَرٌ فَكَيْفَ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ دُونِنَا ، ثُمَّ مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ، كَالْبَاعَةِ وَالحَاكَةِ وَأَشْبَاهِهِمْ ، وَلَمْ يَتَّبِعْكَ الْأَشْرَافُ وَلَا الرُّؤَسَاءُ مِنَّا ، ثُمَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ لَمْ يَكُنْ عَنْ تَرَوٍّ مِنْهُمْ وَلَا فِكْرٍ وَلَا نَظَرٍ ، بَلْ بِمُجَرَّدِ مَا دَعَوْتَهُمْ أَجَابُوكَ فَاتَّبَعُوكَ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ أَيْ : فِي أَوَّلِ بَادِئِ الرأي ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ يَقُولُونَ : مَا رَأَيْنَا لَكُمْ عَلَيْنَا فَضِيلَةً فِي خَلْقٍ وَلَا خُلُقٍ وَلَا رِزْقٍ وَلَا حَالٍ ، لَمَّا دَخَلْتُمْ

فِي دِينِكُمْ هَذَا ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ أَيْ : فِيمَا تَدَّعُونَهُ لَكُمْ مِنَ الْبِرِّ وَالصَّلَاحِ وَالْعِبَادَةِ وَالسَّعَادَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ إِذْ صِرْتُمْ إِلَيْهَا . ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ هُمْ لَا يَرَوْنَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ عُمْيٌ عَنِ الْحَقِّ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ ، بَلْ هُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ، فِي ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ يَعْمَهُونَ ، وَهُمُ الْأَفَّاكُونَ الْكَاذِبُونَ الْأَقَلُّونَ الْأَرْذَلُونَ ، وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ .

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا رَدَّ بِهِ نُوحٌ عَلَى قَوْمِهِ فِي ذَلِكَ ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ أَيْ : عَلَى يَقِينٍ وَأَمْرٍ جَلِيٍّ وَنُبُوَّةٍ صَادِقَةٍ ، وَهِيَ الرَّحْمَةُ الْعَظِيمَةُ مِنَ اللهِ بِهِ وَبِهِمْ ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : خَفِيَتْ عَلَيْكُمْ فَلَمْ تَهْتَدُوا إِلَيْهَا ، وَلَا عَرَفْتُمْ قَدْرَهَا ، بَلْ بَادَرْتُمْ إِلَى تَكْذِيبِهَا وَرَدِّهَا ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أَيْ : نَغْصِبُكُمْ بِقَبُولِهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ .

وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ لِقَوْمِهِ : لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى نُصْحِي لَكُمْ مَالًا أُجْرَةً آخُذُهَا مِنْكُمْ ، إِنَّمَا أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللهِ ﷻ ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ كَأَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَطْرُدَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ ، احْتِشَامًا وَنَفَاسَةً مِنْهُمْ أَنْ يَجْلِسُوا مَعَهُمْ ، كَمَا سَأَلَ أَمْثَالُهُمْ خَاتَمَ الرُّسُلِ ﷺ أَنْ يَطْرُدَ عَنْهُمْ جَمَاعَةً مِنَ الضُّعَفَاءِ وَيَجْلِسَ مَعَهُمْ مَجْلِسًا خَاصًّا ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ [الأنعام : ٥٢]

وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي خَزَائِنِ اللهِ ، وَلَا يَعْلَمُ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا مَا أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ هُوَ بِمَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بَلْ هُوَ بَشَرٌ مُرْسَلٌ مُؤَيَّدٌ بِالْمُعْجِزَاتِ ، وَلَا أَقُولُ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَحْقِرُونَهُمْ وَتَزْدَرُونَهُمْ إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ ثَوَابٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، فَإِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بَاطِنًا - كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنْ حَالِهِمْ - فَلَهُمْ جَزَاءُ الْحُسْنَى ، وَلَوْ قَطَعَ لَهُمْ أَحَدٌ بِشَرٍّ بَعْدَ مَا آمَنُوا لَكَانَ ظَالِمًا ، قَائِلًا مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ .

قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اسْتِعْجَالِ قَوْمِ نُوحٍ نِقْمَةَ اللهِ وَعَذَابَهُ وَسَخَطَهُ - وَالْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ - . ﴿ قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ أَيْ : حَاجَجْتَنَا فَأَكْثَرْتَ مِنْ ذَلِكَ ، وَنَحْنُ لَا نَتَّبِعُكَ ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ أَيْ : مِنَ النِّقْمَةِ وَالْعَذَابِ ، ادْعُ عَلَيْنَا بِمَا شِئْتَ فَلْيَأْتِنَا مَا تَدْعُو بِهِ ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا الَّذِي يُعَاقِبُكُمْ وَيُعَجِّلُهَا لَكُمُ اللهُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ أَيْ : أَيُّ شَيْءٍ يُجْدِي عَلَيْكُمْ إِبْلَاغِي لَكُمْ وَإِنْذَارِي إِيَّاكُمْ وَنُصْحِي ﴿ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ أَيْ : إِغْوَاءَكُمْ وَدَمَارَكُمْ ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : هُوَ مَالِكُ أَزِمَّةِ الْأُمُورِ ، الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ ، الَّذِي لَا يَجُورُ لَهُ الْخَلْقُ ، وَلَهُ الْأَمْرُ وَهُوَ الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ ، مَالِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

هَذَا كَلَامٌ مُعْتَرِضٌ فِي وَسَطِ هَذِهِ الْقِصَّةِ مُؤَكِّدٌ لَهَا مُقَرِّرٌ لَهَا ، يَقُولُ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ أَمْ يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ الْجَاحِدُونَ : افْتَرَى هَذَا وَافْتَعَلَهُ مِنْ عِنْدِهِ ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى ﴾ أَيْ : فَإِثْمُ ذَلِكَ عَلَيَّ ﴿ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ ذَلِكَ مُفْتَعَلًا وَلَا مُفْتَرًى ، لِأَنِّي أَعْلَمُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ لِمَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ .

وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى نُوحٍ لَمَّا اسْتَعْجَلَ قَوْمُهُ نِقْمَةَ اللهِ بِهِمْ وَعَذَابَهُ لَهُمْ ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ نُوحٌ دَعْوَتَهُ الَّتِي قَالَ اللهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] ، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر : ١٠] فَعِنْدَ ذَلِكَ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا يُهِمَّنَّكَ أَمْرُهُمْ . ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾ يَعْنِي : السَّفِينَةَ

﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أَيْ : بِمَرْأًى مِنَّا ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ أَيْ : تَعْلِيمِنَا لَكَ مَا تَصْنَعُهُ ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ أَيْ : يَهْزَءُونَ بِهِ ، وَيُكَذِّبُونَ بِمَا يَتَوَعَّدُهُمْ بِهِ مِنَ الْغَرَقِ ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ الْآيَةَ . وَعِيدٌ شَدِيدٌ وَتَهْدِيدٌ أَكِيدٌ ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أَيْ : يُهِينُهُ فِي الدُّنْيَا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أَيْ : دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ أَبَدًا .

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

هَذِهِ مُوَاعَدَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِنُوحٍ ﷺ إِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ مِنَ الْأَمْطَارِ الْمُتَتَابِعَةِ وَالْهَتَّانِ الَّذِي لَا يُقْلِعُ وَلَا يَفْتُرُ ﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ التَّنُّورُ : وَجْهُ الْأَرْضِ ، أَيْ : صَارَتِ الْأَرْضُ عُيُونًا تَفُورُ ، حَتَّى فَارَ الْمَاءُ مِنَ التَّنَانِيرِ الَّتِي هِيَ مَكَانُ النَّارِ صَارَتْ تَفُورُ مَاءً ، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ السَّلَفِ وَعُلَمَاءِ الْخَلَفِ . فَحِينَئِذٍ أَمَرَ اللهُ نُوحًا ﷺ أَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ صُنُوفِ الْمَخْلُوقَاتِ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ أَيْ : وَاحْمِلْ فِيهَا أَهْلَكَ وَهُمْ أَهْلُ بَيْتِهِ وَقَرَابَتِهِ ، إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ ، فَكَانَ مِنْهُمُ ابْنُهُ « يَام » الَّذِي انْعَزَلَ وَحْدَهُ وَامْرَأَةُ نُوحٍ وَكَانَتْ كَافِرَةً بِاللهِ وَرَسُولِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ أَيْ : مِنْ قَوْمِكَ ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أَيْ : نَزْرٌ يَسِيرٌ مَعَ طُولِ الْمُدَّةِ وَالْمُقَامِ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ، أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا .

۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نُوحٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِلَّذِينَ أُمِرَ بِحَمْلِهِمْ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ ﴿ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ أَيْ : بِسْمِ اللهِ يَكُونُ جَرْيُهَا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، وَبِسْمِ اللهِ يَكُونُ مُنْتَهَى سَيْرِهَا وَهُوَ رُسُوُّهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ مُنَاسِبٌ عِنْدَ ذِكْرِ الِانْتِقَامِ مِنَ الْكَافِرِينَ بِإِغْرَاقِهِمْ أَجْمَعِينَ فَذَكَرَ أَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٦٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ أَيْ : السَّفِينَةُ سَائِرَةٌ بِهِمْ عَلَى وَجْهِ المَاءِ ، الَّذِي قَدْ طَبَّقَ جَمِيعَ الْأَرْضِ حَتَّى طَفَتْ عَلَى رُءُوسِ الجِبَالِ ، وَارْتَفَعَ عَلَيْهَا بِخَمْسَةَ عَشَر ذِرَاعًا ، وَقِيلَ : بِثَمَانِينَ مِيلًا ، وَهَذِهِ السَّفِينَةُ جَارِيَةٌ عَلَى وَجْهِ المَاءِ ، سَائِرَةٌ بِإِذْنِ الله وَتَحْتَ كَنَفِهِ وَعِنَايَتِهِ وَحِرَاسَتِهِ وَامْتِنَانِهِ . ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾ الْآيَةُ . وَكَانَ كَافِرًا ، دَعَاهُ أَبُوهُ عِنْدَ رُكُوبِ السَّفِينَةِ أَنْ يُؤْمِنَ وَيَرْكَبَ مَعَهُمْ ، وَلَا يَغْرَقَ مِثْلَمَا يَغْرَقُ الْكَافِرُونَ ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ اعْتَقَدَ بِجَهْلِهِ أَنَّ الطُّوفَانَ لَا يَبْلُغُ إِلَى رُءُوسِ الجِبَالِ ، وَأَنَّهُ لَوْ تَعَلَّقَ فِي رَأْسِ جَبَلٍ لَنَجَّاهُ ذَلِكَ مِنَ الْغَرَقِ ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ نُوحٌ عليه السلام : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ شَيْءٌ يَعْصِمُ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ الله ، وَقِيلَ : إِنَّ عَاصِمًا بِمَعْنَى مَعْصُومٍ ، كَمَا يُقَالُ : طَاعِمٌ وَكَاسٍ بِمَعْنَى مَطْعُومٌ وَمَكْسُوٌّ ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ .

وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَغْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهُمْ إِلَّا أَصْحَابَ السَّفِينَةِ ، أَمَرَ الْأَرْضَ أَنْ تَبْلَعَ مَاءَهَا الَّذِي نَبَعَ مِنْهَا وَاجْتَمَعَ عَلَيْهَا ، وَأَمَرَ السَّمَاءَ أَنْ تُقْلِعَ عَنِ المَطَرِ ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ أَيْ : شَرَعَ فِي النَّقْصِ ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أَيْ : فُرِغَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً مِمَّنْ كَفَرَ بِالله ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ دَيَّارٌ ﴿ وَٱسْتَوَتْ ﴾ السَّفِينَةُ بِمَنْ فِيهَا ﴿ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ﴾ قِيلَ : هُوَ جَبَلٌ بِالجَزِيرَةِ . وَقِيلَ : الْجُودِيُّ : جَبَلٌ بِالمَوْصِلِ ، وَقِيلَ : هُوَ الطُّورُ . ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : هَلَاكًا وَخَسَارًا لَهُمْ ، وَبُعْدًا مِنْ رَحْمَةِ الله ، فَإِنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا عَنْ آخِرِهِمْ فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ بَقِيَّةٌ .

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾

هَذَا سُؤَالُ اسْتِعْلَامٍ وَكَشْفٍ مِنْ نُوحٍ عليه السلام عَنْ حَالِ وَلَدِهِ الَّذِي غَرِقَ ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ أَيْ : وَقَدْ وَعَدْتَنِي بِنَجَاةِ أَهْلِي ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ الَّذِي لَا يُخْلَفُ ، فَكَيْفَ غَرِقَ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ ؟ ﴿ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ وَعَدْتُ إِنْجَاءَهُمْ ، لِأَنِّي إِنَّمَا وَعَدْتُكَ بِنَجَاةِ مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ فَكَانَ هَذَا

الْوَلَدُ مِمَّنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ بِالْغَرَقِ ، لِكُفْرِهِ وَمُخَالَفَتِهِ أَبَاهُ نَبِيَّ اللهِ نُوحًا عليه السلام ، **وَقَدْ نَصَّ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ** عَلَى تَخْطِئَةِ مَنْ ذَهَبَ فِي تَفْسِيرِ هَذَا إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِابْنِهِ وَإِنَّمَا كَانَ ابْنُ زَنْيَةٍ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ : مَا زَنَتِ امْرَأَةُ نَبِيٍّ قَطُّ ، قَالَ : وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ وَعَدْتُكَ نَجَاتَهُمْ ، **وَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ** ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَغْيَرُ مِنْ أَنْ يُمَكِّنَ امْرَأَةَ نَبِيٍّ مِنَ الْفَاحِشَةِ . وَسُئِلَ ابْنَ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَنْ قَوْلِ اللهِ : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قَالَ : أَمَا إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِالزِّنَا ، وَلَكِنْ كَانَتْ هَذِهِ تُخْبِرُ النَّاسَ أَنَّهُ مَجْنُونٌ ، وَكَانَتْ هَذِهِ تَدُلُّ عَلَى الْأَضْيَافِ ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ .

قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا قِيلَ لِنُوحٍ عليه السلام حِينَ أَرْسَتِ السَّفِينَةُ عَلَى الْجُودِيِّ ، مِنَ السَّلَامِ عَلَيْهِ ، وَعَلَى مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَعَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ هَذِهِ الْقِصَّةَ وَأَشْبَاهَهَا ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ يَعْنِي : مِنْ أَخْبَارِ الْغُيُوبِ السَّالِفَةِ ، نُوحِيهَا إِلَيْكَ عَلَى وَجْهِهَا كَأَنَّكَ شَاهِدُهَا ﴿ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : نُعْلِمُكَ بِهَا وَحْيًا مِنَّا إِلَيْكَ ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ أَيْ : لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ وَلَا عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ قَوْمِكَ عِلْمٌ بِهَا ، حَتَّى يَقُولَ مَنْ يُكَذِّبُكَ إِنَّكَ تَعَلَّمْتَهَا مِنْهُ ، بَلْ أَخْبَرَكَ اللهُ بِهَا مُطَابِقَةً لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ الصَّحِيحُ ، كَمَا تَشْهَدُ بِهِ كُتُبُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ فَاصْبِرْ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَكَ مِنْ قَوْمِكَ وَأَذَاهُمْ لَكَ ، فَإِنَّا سَنَنْصُرُكَ وَنَحُوطُكَ بِعِنَايَتِنَا وَنَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلِأَتْبَاعِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا فَعَلْنَا بِالْمُرْسَلِينَ حَيْثُ نَصَرْنَاهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ .

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَ ﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿ إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ آمِرًا لَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ

لَهُ ، نَاهِيًا لَهُمْ عَنِ الْأَوْثَانِ الَّتِي افْتَرَوْهَا وَاخْتَلَقُوا لَهَا أَسْمَاءَ الْآلِهَةِ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ مِنْهُمْ أُجْرَةً عَلَى هَذَا النُّصْحِ وَالْبَلَاغِ مِنَ اللهِ ، إِنَّمَا يَبْغِي ثَوَابَهُ مِنَ اللهِ الَّذِي فَطَرَهُ ، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ مَنْ يَدْعُوكُمْ إِلَى مَا يُصْلِحُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ غَيْرِ أُجْرَةٍ . ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ الَّذِي فِيهِ تَكْفِيرُ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ ، وَبِالتَّوْبَةِ عَمَّا يَسْتَقْبِلُونَ ، وَمَنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَحَفِظَ شَأْنَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ .

قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ : ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أَيْ : بِحُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ عَلَى مَا تَدَّعِيهِ ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ أَيْ : بِمُجَرَّدِ قَوْلِكَ اتْرُكُوهُمْ نَتْرُكُهُمْ ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ بِمُصَدِّقِينَ ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ يَقُولُونَ : مَا نَظُنُّ إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الْآلِهَةِ أَصَابَكَ بِجُنُونٍ وَخَبَلٍ فِي عَقْلِكَ ، بِسَبَبِ نَهْيِكَ عَنْ عِبَادَتِهَا وَعَيْبِكَ لَهَا ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ﴾ يَقُولُ : إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ وَآلِهَتُكُمْ إِنْ كَانَتْ حَقًّا ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ أَيْ : طَرْفَةَ عَيْنٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ أَيْ : تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَهُوَ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ فِي حُكْمِهِ .

فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ لَهُمْ هُودٌ : فَإِنْ تَوَلَّوْا عَمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ رَبِّكُمْ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةُ بِإِبْلَاغِي إِيَّاكُمْ رِسَالَةَ اللهِ الَّتِي بَعَثَنِي بِهَا ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ ، وَلَا يُبَالِي بِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَضُرُّونَهُ بِكُفْرِكُمْ ، بَلْ يَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ ﴿ إِنَّ رَبِّى

عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أَيْ : شَاهِدٌ وَحَافِظٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ وَأَفْعَالِهِمْ ، وَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ وَهُوَ الرِّيحُ الْعَقِيمُ ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ عَنْ آخِرِهِمْ وَنَجَّى هُودًا وَأَتْبَاعَهُ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ، بِرَحْمَتِهِ تَعَالَى وَلُطْفِهِ ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ كَفَرُوا بِهَا ، وَعَصَوْا رُسُلَ اللهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِنَبِيٍّ فَقَدْ كَفَرَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ ؛ لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ فِي وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِهِ ، فَعَادٌ كَفَرُوا بِهُودٍ فَنَزَلَ كُفْرُهُمْ مَنْزِلَةَ مَنْ كَفَرَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ تَرَكُوا اتِّبَاعَ رَسُولِهِمُ الرَّشِيدِ ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، فَلِهَذَا أُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً مِنَ اللهِ وَمِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ كُلَّمَا ذُكِرُوا ، وَيُنَادَى عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ الْآيَةَ . **قَالَ السُّدِّيُّ** : مَا بُعِثَ نَبِيٌّ بَعْدَ عَادٍ إِلَّا لُعِنُوا عَلَى لِسَانِهِ .

۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿ إِلَىٰ ثَمُودَ ﴾ وَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ مَدَائِنَ الْحِجْرِ بَيْنَ تَبُوكَ وَالْمَدِينَةِ ، وَكَانُوا بَعْدَ عَادٍ ، فَبَعَثَ اللهُ مِنْهُمْ أَخَاهُمْ صَالِحًا ، فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ مِنْهَا ، خَلَقَ مِنْهَا أَبَاكُمْ آدَمَ ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أَيْ : جَعَلَكُمْ عُمَّارًا تَعْمُرُونَهَا وَتَسْتَغِلُّونَهَا ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ لِسَالِفِ ذُنُوبِكُمْ ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[البقرة : ١٨٦]

قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا كَانَ مِنَ الْكَلَامِ بَيْنَ صَالِحٍ عليه السلام وَبَيْنَ قَوْمِهِ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ قَوْمُهُ مِنَ الْجَهْلِ وَالْعِنَادِ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ أَيْ : كُنَّا نَرْجُوكَ فِي عَقْلِكَ قَبْلَ أَنْ تَقُولَ مَا قُلْتَ ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ أَسْلَافُنَا ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ أَيْ : شَكٍّ كَثِيرٍ . ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ فِيمَا أَرْسَلَنِي بِهِ إِلَيْكُمْ عَلَى يَقِينٍ وَبُرْهَانٍ ﴿ وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ﴾ وَتَرَكْتُ دَعْوَتَكُمْ إِلَى الْحَقِّ وَعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ ، فَلَوْ تَرَكْتُهُ لَمَا نَفَعْتُمُونِي وَلَمَا زِدْتُمُونِي ﴿ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ أَيْ : خَسَارَةٍ .

وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَيْهَا فِي سُورَةِ الأَعْرَافِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ، فَلِلَّهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ.

وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ﴾ وَهُمُ المَلَائِكَةُ ﴿إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ **قِيلَ**: تُبَشِّرُهُ بِإِسْحَاقَ، ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ﴾ أَيْ: عَلَيْكُمْ. **قَالَ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ**: هَذَا أَحْسَنُ مِمَّا حَيَّوْهُ بِهِ؛ لِأَنَّ الرَّفْعَ يَدُلُّ عَلَى الثُّبُوتِ وَالدَّوَامِ ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ أَيْ: ذَهَبَ سَرِيعًا فَأَتَاهُمْ بِالضِّيَافَةِ، وَهُوَ عِجْلُ فَتَى البَقَرِ، حَنِيذٌ: مَشْوِيٌّ عَلَى الرَّضْفِ وَهِيَ الحِجَارَةُ المُحْمَاةُ. ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ﴾ تَنَكَّرَهُمْ ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ المَلَائِكَةَ لَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَى الطَّعَامِ وَلَا يَشْتَهُونَهُ وَلَا يَأْكُلُونَهُ، فَلِهَذَا رَأَى حَالَهُمْ مُعْرِضِينَ عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ فَارِغِينَ عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ نَكِرَهُمْ ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ المَلَائِكَةِ: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ أَيْ: قَالُوا لَا تَخَفْ مِنَّا إِنَّا مَلَائِكَةٌ، أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ لِنُهْلِكَهُمْ، فَضَحِكَتْ سَارَةُ اسْتِبْشَارًا بِهَلَاكِهِمْ لِكَثْرَةِ فَسَادِهِمْ وَغِلَظِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، فَلِهَذَا جُوزِيَتْ بِالْبِشَارَةِ بِالْوَلَدِ بَعْدَ الإِيَاسِ. ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ أَيْ: بِوَلَدٍ لَهَا يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَعَقِبٌ وَنَسْلٌ، فَإِنَّ يَعْقُوبَ وَلَدُ إِسْحَاقَ.

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ الْآيَةُ . حَكَى قَوْلَهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَمَا حَكَى فِعْلَهَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ، فَإِنَّهَا : ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ ﴾ ، وَفِي الذَّارِيَاتِ ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾[الذاريات : ٢٩] كَمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ النِّسَاءِ فِي أَقْوَالِهِنَّ وَأَفْعَالِهِنَّ عِنْدَ التَّعَجُّبِ . ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَهَا : لَا تَعْجَبِي مِنْ أَمْرِ اللهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَلَا تَعْجَبِي مِنْ هَذَا ، وَإِنْ كُنْتِ عَجُوزًا عَقِيمًا ، وَبَعْلُكِ شَيْخًا كَبِيرًا ، فَإِنَّ اللهَ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ . ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ أَيْ : هُوَ الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ ، مَحْمُودٌ مُمَجَّدٌ فِي صِفَاتِهِ وَذَاتِهِ .

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام أَنَّهُ لَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ ، وَهُوَ مَا أَوْجَسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ خِيفَةً حِينَ لَمْ يَأْكُلُوا ، وَبَشَّرُوهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْوَلَدِ وَأَخْبَرُوهُ بِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ ، أَخَذَ يَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾[العنكبوت : ٣٢] فَسَكَتَ عَنْهُمْ وَاطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ . ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ مَدْحٌ لِإِبْرَاهِيمَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا . ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ الْآيَةَ ، أَيْ : إِنَّهُ قَدْ نَفَذَ فِيهِمُ الْقَضَاءُ ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةُ بِالْهَلَاكِ وَحُلُولِ الْبَأْسِ الَّذِي لَا يُرَدُّ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ .

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُدُومِ رُسُلِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بَعْدَ مَا أَعْلَمُوا إِبْرَاهِيمَ بِهَلَاكِهِمْ وَفَارَقُوهُ وَأَخْبَرُوهُ بِإِهْلَاكِ اللهِ قَوْمَ لُوطٍ هَذِهِ اللَّيْلَةَ ، فَانْطَلَقُوا مِنْ عِنْدِهِ فَأَتَوْا لُوطًا عليه السلام وَهُوَ عَلَى مَا قِيلَ فِي أَرْضٍ لَهُ ، وَقِيلَ : فِي مَنْزِلِهِ ، وَوَرَدُوا عَلَيْهِ وَهُمْ فِي أَجْمَلِ صُورَةٍ تَكُون عَلَى هَيْئَةِ شُبَّانٍ حِسَانِ الْوُجُوهِ اِبْتِلَاءً مِنَ اللهِ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، فَسَاءَهُ شَأْنُهُمْ وَضَاقَتْ نَفْسُهُ بِسَبَبِهِمْ ، وَخَشِيَ إِنْ لَمْ يُضِفْهُمْ أَنْ يُضَيِّفَهُمْ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ فَيَنَالُهُمْ بِسُوءٍ ﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أَيْ : شَدِيدٌ بَلَاؤُهُ ،

وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ سَيُدَافِعُ عَنْهُمْ وَيَشُقُّ عَلَيْهِ ذَلِكَ . ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أَيْ : يُسْرِعُونَ وَيُهَرْوِلُونَ مِنْ فَرَحِهِمْ بِذَلِكَ ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أَيْ : لَمْ يَزَلْ هَذَا مِنْ سَجِيَّتِهِمْ حَتَّى أُخِذُوا وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الحَالِ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ يُرْشِدُهُمْ إِلَى نِسَائِهِمْ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ لِلْأُمَّةِ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ ، فَأَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ لَهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥ - ١٦٦] ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ لَمْ يَكُنَّ بَنَاتُهُ ، لَكِنْ كُنَّ مِنْ أُمَّتِهِ ، وَكُلُّ نَبِيٍّ أَبُو أُمَّتِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ﴾ أَيْ : اقْبَلُوا مَا آمُرُكُمْ بِهِ مِنَ الِاقْتِصَارِ عَلَى نِسَائِكُمْ ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ أَيْ : فِيهِ خَيْرٌ يَقْبَلُ مَا آمُرُهُ بِهِ وَيَتْرُكُ مَا أَنْهَاهُ عَنْهُ ؟ ﴿ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ أَيْ : إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ نِسَاءَنَا لَا أَرَبَ لَنَا فِيهِنَّ وَلَا نَشْتَهِيهِنَّ ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَنَا غَرَضٌ إِلَّا فِي الذُّكُورِ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ ذَلِكَ ، فَأَيُّ حَاجَةٍ فِي تَكْرَارِ الْقَوْلِ عَلَيْنَا فِي ذَلِكَ ؟.

قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا نَبِيَّهُ لُوطًا ﷺ إِنَّ لُوطًا تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً ﴾ الْآيَةُ ، أَيْ : لَكُنْتُ نَكَّلْتُ بِكُمْ ، وَفَعَلْتُ بِكُمُ الْأَفَاعِيلَ بِنَفْسِي وَعَشِيرَتِي . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **رَحْمَةُ اللهِ عَلَى لُوطٍ ، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ** » فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخْبَرَتْهُ الْمَلَائِكَةُ أَنَّهُمْ رُسُلُ اللهِ إِلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُمْ لَا وُصُولَ لَهُمْ إِلَيْهِ . ﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ﴾ وَأَمَرُوهُ أَنْ يَسْرِيَ بِأَهْلِهِ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ وَأَنْ يَتَّبِعَ أَدْبَارَهُمْ ، أَيْ : يَكُونَ سَاقَةً لِأَهْلِهِ ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أَيْ : إِذَا سَمِعْتَ مَا نَزَلَ بِهِمْ ، وَلَا تَهُولَنَّكُمْ تِلْكَ الْأَصْوَاتُ الْمُزْعِجَةُ ، وَلَكِنِ اسْتَمِرُّوا ذَاهِبِينَ ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ **قَالَ الْأَكْثَرُونَ** : هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الْمُثْبَتِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ تَقْدِيرُهُ ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ ، وَكَذَلِكَ قَرَأَهَا ابْنُ مَسْعُودٍ ، وَنَصَبَ هَؤُلَاءِ (امْرَأَتَكَ) لِأَنَّهُ مُثْبَتٌ فَوَجَبَ نَصْبُهُ عِنْدَهُمْ ، ثُمَّ قَرَّبُوا لَهُ هَلَاكَ قَوْمِهِ تَبْشِيرًا لَهُ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ : أَهْلِكُوهُمُ السَّاعَةَ ، فَقَالُوا : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ . هَذَا وَقَوْمُ لُوطٍ وُقُوفٌ عَلَى الْبَابِ عُكُوفٌ ، قَدْ جَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَلُوطٌ وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ يُدَافِعُهُمْ وَيَرْدَعُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ ، وَهُمْ لَا يَقْبَلُونَ مِنْهُ بَلْ يَتَوَعَّدُونَهُ وَيَتَهَدَّدُونَهُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجَ عَلَيْهِمْ

جِبْرِيلُ ﷺ فَضَرَبَ وُجُوهَهَمْ بِجَنَاحِهِ فَطَمَسَ أَعْيُنَهُمْ ، فَرَجَعُوا وَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ الطَّرِيقَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾[القمر : ٣٧]

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴿ جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا ﴾ وَهِيَ سَدُومُ ﴿ سَافِلَهَا ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾[النجم : ٥٤] أَيْ : أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ، وَهِيَ بِالْفَارِسِيَّةِ : حِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ ، وَقَدْ قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ أَيْ : مُسْتَحْجِرَةً قَوِيَّةً شَدِيدَةً ، **وَقَالَ الْبُخَارِيُّ** : سِجِّيلٍ : الشَّدِيدُ الْكَبِيرُ سِجِّيل وَسِجِّين اللَّام وَالنُّون أُخْتَانِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : مَنْضُودَةٌ فِي السَّمَاءِ ، أَيْ : مُعَدَّةٌ لِذَلِكَ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ أَيْ : يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا فِي نُزُولِهَا عَلَيْهِمْ . ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ أَيْ : مُعَلَّمَةً مَخْتُومَةً عَلَيْهَا أَسْمَاءُ أَصْحَابِهَا ، كُلُّ حَجَرٍ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ اِسْمَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَيْهِ .وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ أَيْ : وَمَا هَذِهِ النِّقْمَةُ مِمَّنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ فِي ظُلْمِهِمْ بِبَعِيدٍ عَنْهُ .

۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى مَدْيَنَ وَهُمْ قَبِيلَةٌ مِنَ الْعَرَبِ ، كَانُوا يَسْكُنُونَ بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ قَرِيبًا مِنْ مَعَانٍ . بِلَادًا تُعْرَفُ بِهِمْ يُقَالُ لَهَا مَدْيَنُ ، فَأَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ شُعَيْبًا وَكَانَ مِنْ أَشْرَفِهِمْ نَسَبًا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ التَّطْفِيفِ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ أَيْ : فِي مَعِيشَتِكُمْ وَرِزْقِكُمْ ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تُسْلَبُوا مَا أَنْتُمْ فِيهِ بِانْتِهَاكِكُمْ مَحَارِمَ اللهِ ﴿ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ .

وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

يَنْهَاهُمْ أَوَّلًا عَنْ نَقْصِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ إِذَا أَعْطَوا النَّاسَ ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِوَفَاءِ الْكَيْلِ وَالْوَزْنِ بِالْقِسْطِ ، آخِذِينَ وَمُعْطِينَ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الْعُثُوِّ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ ، وَقَدْ كَانُوا يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ ،

وَقَوْلُهُ: ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ **قِيلَ المُرَادُ**: رِزْقُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ، أي: مِنْ بَخْسِكُمُ النَّاسَ، **وَقِيلَ**: طَاعَةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أَيْ: مَا يَفْضُلُ لَكُمْ مِنَ الرِّبْحِ بَعْدَ وَفَاءِ الْكَيْلِ وَالمِيزَانِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ، **قُلْتُ**: وَيُشْبِهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ [المائدة: ١٠٠]، **وَقَوْلُهُ**: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أَيْ: بِرَقِيبٍ وَلَا حَفِيظٍ، أَي: افْعَلُوا ذَلِكَ للهِ ﷻ، لَا تَفْعَلُوهُ لِيَرَاكُمُ النَّاسُ بَلْ للهِ ﷻ.

قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

يَقُولُونَ لَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ - قَبَّحَهُمُ اللهُ -: ﴿ أَصَلَوٰتُكَ ﴾ **قِيلَ المُرَادُ**: قِرَاءَتُكَ ﴿ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ أَيْ: الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ﴾ فَنَتْرُكَ التَّطْفِيفَ عَنْ قَوْلِكَ، وَهِيَ أَمْوَالُنَا نَفْعَلُ فِيهَا مَا نُرِيدُ، ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ يَقُولُونَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِهْزَاءِ، قَبَّحَهُمُ اللهُ وَلَعَنَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ وَقَدْ فَعَلَ.

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

يَقُولُ لَهُمْ: ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ يَا قَوْمِ ﴿ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ أَيْ: عَلَى بَصِيرَةٍ فِيمَا أَدْعُو إِلَيْهِ ﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ **قِيلَ**: أَرَادَ النُّبُوَّةَ، **وَقِيلَ**: أَرَادَ الرِّزْقَ الحَلَالَ وَيَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ، **وَقَالَ الثَّوْرِيُّ**: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ أَيْ: لَا أَنْهَاكُمْ عَنِ الشَّيْءِ وَأُخَالِفُ أَنَا فِي السِّرِّ فَأَفْعَلُهُ خُفْيَةً عَنْكُمْ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ يَقُولُ: لَمْ أَكُنْ أَنْهَاكُمْ عَنْ أَمْرٍ وَأَرْتَكِبُهُ ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ أَيْ: فِيمَا آمُرُكُمْ وَأَنْهَاكُمْ، إِنَّمَا أُرِيدُ إِصْلَاحَكُمْ جَهْدِي وَطَاقَتِي ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ ﴾ أَيْ: فِي إِصَابَةِ الحَقِّ فِيمَا أُرِيدُهُ ﴿ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فِي جَمِيعِ أُمُورِي ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أَيْ: أَرْجِعُ.

وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾

يَقُولُ لَهُمْ: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ ﴾ أَيْ: لَا تَحْمِلَنَّكُمْ عَدَاوَتِي وَبُغْضِي عَلَى الْإِصْرَارِ عَلَى

مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَسَادِ ، فَيُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ وَقَوْمَ هُودٍ وَقَوْمَ صَالِحٍ وَقَوْمَ لُوطٍ مِنَ النِّقْمَةِ وَالْعَذَابِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ فِي الزَّمَانِ ، وَقِيلَ : فِي الْمَكَانِ ، وَيَحْتَمِلُ الْأَمْرَانِ ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا ﴾ رَبَّكُمْ مِنْ سَالِفِ الذُّنُوبِ ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ ﴾ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ ﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ أَيْ : لِمَنْ تَابَ .

قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾

يَقُولُونَ : ﴿ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ ﴾ مَا نَفْهَمُ ﴿ كَثِيرًا ﴾ مِنْ قَوْلِكَ ، **قَالَ الثَّوْرِيُّ** : كَانَ يُقَالُ لَهُ خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ . **قَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ قَالَ : أَنْتَ وَاحِدٌ ، **وَقَالَ غَيْرُهُ** : يَعْنُونَ ذَلِيلًا ؛ لأَنَّ عَشِيرَتَكَ لَيْسُوا عَلَى دِينِكَ ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾ أَيْ : قَوْمُكَ ، لَوْلَا مَعَزَّتُهُمْ عَلَيْنَا لَرَجَمْنَاكَ ، قِيلَ : بِالْحِجَارَةِ ، وَقِيلَ : لَسَبَبْنَاكَ ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ عِنْدَنَا لَكَ مَعَزَّةٌ . ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ يَقُولُ : أَتَتْرُكُونَنِي لِأَجْلِ قَوْمِي ، وَلَا تَتْرُكُونِي إِعْظَامًا لِجَنَابِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، أَنْ تَنَالُوا نَبِيَّهُ بِمُسَاءَةٍ وَقَدِ اتَّخَذْتُمْ كِتَابَ اللهِ ﴿ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ أَيْ : نَبَذْتُمُوهُ خَلْفَكُمْ ، وَلَا تُطِيعُونَهُ وَلَا تُعَظِّمُونَهُ ﴿ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أَيْ : هُوَ يَعْلَمُ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ وَسَيَجْزِيكُمْ بِهَا .

وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

لَمَّا يَئِسَ نَبِيُّ اللهِ شُعَيْبٌ مِنَ اسْتِجَابَتِهِمْ لَهُ ، قَالَ يَا قَوْمِ : ﴿ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أَيْ : طَرِيقَتِكُمْ وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ ﴿ إِنِّى عَٰمِلٌ ﴾ عَلَى طَرِيقَتِي فـ ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ﴾ أَيْ : مِنِّي وَمِنْكُمْ ﴿ وَٱرْتَقِبُوٓا ﴾ أَيْ : اِنْتَظِرُوا ﴿ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وَهُمْ قَوْمُهُ ﴿ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ أَيْ : هَامِدِينَ لَا حَرَاكَ بِهِمْ ، وَذُكِرَ هَاهُنَا أَنَّهُ أَتَتْهُمْ صَيْحَةٌ ، وَفِي الْأَعْرَافِ : رَجْفَةٌ ، وَفِي الشُّعَرَاءِ : عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، وَهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ

اِجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ يَوْمَ عَذَابِهِمْ هَذِهِ النِّقَمُ كُلُّهَا ، وَإِنَّمَا ذُكِرَ فِي كُلِّ سِيَاقٍ مَا يُنَاسِبُهُ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ أَيْ : يَعِيشُوا فِي دَارِهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ ، وَكَانُوا جِيرَانَهُمْ قَرِيبًا مِنْهُمْ فِي الدَّارِ ، وَشَبِيهًا بِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَقَطْعِ الطُّرُقِ ، وَكَانُوا عَرَبًا مِثْلَهُمْ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِرْسَالِ مُوسَى عليه السلام بِآيَاتِهِ وَدَلَالَاتِهِ الْبَاهِرَةِ الْقَاطِعَةِ ، إِلَى فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللهُ - وهو مَلِكُ دِيَارِ مِصْرَ عَلَى أُمَّةِ الْقِبْطِ وَمَلَئِهِ ﴿ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أَيْ : مَنْهَجَهُ وَمَسْلَكَهُ وَطَرِيقَتَهُ فِي الْغَيِّ ﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ فِيهِ رُشْدٌ وَلَا هُدًى ، وَإِنَّمَا هُوَ جَهْلٌ وَضَلَالٌ وَكُفْرٌ وَعِنَادٌ ، وَكَمَا أَنَّهُمُ اتَّبَعُوهُ فِي الدُّنْيَا وَكَانَ مُقَدَّمُهُمْ وَرَئِيسُهُمْ ، كَذَلِكَ هُوَ يَقْدُمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ ، فَأَوْرَدَهُمْ إِيَّاهَا وَشَرِبُوا مِنْ حِيَاضِ رِدَاهَا ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ الْحَظُّ الْأَوْفَرُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ الْآيَة . أَيْ : أَتْبَعْنَاهُمْ زِيَادَةً عَلَى عَذَابِ النَّارِ لَعْنَةً فِي الدُّنْيَا ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : لَعْنَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى خَبَرَ الْأَنْبِيَاءِ وَمَا جَرَى لَهُمْ مَعَ أُمَمِهِمْ ، وَكَيْفَ أَهْلَكَ الْكَافِرِينَ وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ قَالَ : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ أَيْ : أَخْبَارُهُمْ ﴿ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ ﴾ أَيْ : عَامِرٌ ﴿ وَحَصِيدٌ ﴾ أَيْ : هَالِكٌ دَاثِرٌ ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ ﴾ أَيْ : إِذْ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴿ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَنَا وَكُفْرِهِمْ بِهِمْ ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمْ ﴾ أَوْثَانُهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا وَيَدْعُونَهَا ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ مَا نَفَعُوهُمْ وَلَا أَنْقَذُوهُمْ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ اللهِ بِإِهْلَاكِهِمْ ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أَيْ : غَيْرَ تَخْسِيرٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ سَبَبَ هَلَاكِهِمْ وَدَمَارِهِمْ إِنَّمَا كَانَ بِاتِّبَاعِهِمْ تِلْكَ الْآلِهَةَ وَعِبَادَتِهِمْ إِيَّاهَا ، فَبِهَذَا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ وَخَسِرُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا أَهْلَكْنَا أُولَئِكَ الْقُرُونَ الظَّالِمَةَ الْمُكَذِّبَةَ لِرُسُلِنَا، كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِأَشْبَاهِهِمْ ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ الْآيَةَ.

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّ فِي إِهْلَاكِنَا الْكَافِرِينَ وَإِنْجَائِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿لَءَايَةً﴾ أَيْ: عِظَةً وَاعْتِبَارًا عَلَى صِدْقِ مَوْعُودِنَا فِي الْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أَيْ: أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ، ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أَيْ: عَظِيمٌ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ وَيَجْتَمِعُ فِيهِ الرُّسُلُ، وَتُحْشَرُ الْخَلَائِقُ بِأَسْرِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالطَّيْرِ وَالْوُحُوشِ وَالدَّوَابِّ، وَيَحْكُمُ فِيهِ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا. ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أَيْ: مَا نُؤَخِّرُ إِقَامَةَ الْقِيَامَةِ إِلَّا لِأَنَّهُ قَدْ سَبَقَتْ كَلِمَةُ اللهِ فِي وُجُودِ أُنَاسٍ مَعْدُودِينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ، وَضَرَبَ مُدَّةً مُعَيَّنَةً إِذَا انْقَطَعَتْ وَتَكَامَلَ وُجُودُ أُولَئِكَ الْمُقَدَّرِ خُرُوجُهُمْ قَامَتِ السَّاعَةُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أَيْ: لِمُدَّةٍ مُؤَقَّتَةٍ لَا يُزَادُ عَلَيْهَا وَلَا يُنْتَقَصُ مِنْهَا ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أَيْ: يَوْمَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أَيْ: فَمِنْ أَهْلِ الْجَمْعِ شَقِيٌّ وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ، كَمَا قَالَ: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]. ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ وَحَالَ السُّعَدَاءِ فَقَالَ:

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ أَيْ: تَنَفُّسُهُمْ زَفِيرٌ، وَأَخْذُهُمُ النَّفَسَ شَهِيقٌ، لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ**: مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تَصِفَ الشَّيْءَ بِالدَّوَامِ أَبَدًا، قَالَتْ: هَذَا دَائِمٌ دَوَامَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، **قُلْتُ**: وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِـ ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ الْجِنْسَ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ فِي عَالَمِ الْآخِرَةِ مِنْ سَمَاوَاتٍ وَأَرْضٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، **وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ**: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ يَقُولُ

سَمَاءٌ غَيْرُ هَذِهِ السَّمَاءِ ، وَأَرْضٌ غَيْرُ هَذِهِ فَمَا دَامَتْ تِلْكَ السَّمَاءُ وَتِلْكَ الْأَرْضُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٢٨] ، وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ مِنْ هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ عَلَى أَقْوَالٍ كَثِيرَةٍ ، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ - : أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ عَائِدٌ عَلَى الْعُصَاةِ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ ، مِمَّنْ يُخْرِجُهُمُ اللهُ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْمُؤْمِنِينَ ، حَتَّى يَشْفَعُونَ فِي أَصْحَابِ الْكَبَائِرِ ثُمَّ تَأْتِي رَحْمَةُ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ فَتُخْرِجُ مِنَ النَّارِ مَنْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ ، وَقَالَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ .

۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ ﴾ ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ ﴿ فَفِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ أَيْ : فَمَأْوَاهُمُ الْجَنَّةُ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ مَعْنَى الِاسْتِثْنَاءِ هَهُنَا : أَنَّ دَوَامَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ لَيْسَ أَمْرًا وَاجِبًا بِذَاتِهِ ، بَلْ هُوَ مَوْكُولٌ إِلَى مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى ، فَلَهُ الْمِنَّةُ عَلَيْهِمْ دَائِمًا ، وَلِهَذَا « **يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ** ». **وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : هِيَ فِي حَقِّ عُصَاةِ الْمُوَحِّدِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي النَّارِ ثُمَّ أُخْرِجُوا مِنْهَا ، وَعَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أَيْ : غَيْرَ مَقْطُوعٍ .

فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الْمُشْرِكُونَ ، إِنَّهُ بَاطِلٌ وَجَهْلٌ وَضَلَالٌ ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ، أَيْ لَيْسَ لَهُمْ مُسْتَنَدٌ فِيمَا هُمْ فِيهِ إِلَّا اتِّبَاعَ الْآبَاءِ فِي الْجَهَالَاتِ ، وَسَيَجْزِيهِمُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ أَتَمَّ الْجَزَاءِ ، فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا ، وَإِنْ كَانَ لَهُمْ حَسَنَاتٌ فَقَدْ وَفَّاهُمُ اللهُ إِيَّاهَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ .

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ آتَى مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ ، فَمِنْ مُؤْمِنٍ بِهِ وَمِنْ كَافِرٍ بِهِ ، فَلَكَ بِمَنْ سَلَفَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ يَا مُحَمَّدُ أُسْوَةٌ ، فَلَا يَغِيظَنَّكَ تَكْذِيبُهُمْ لَكَ وَلَا يُهِمَّنَّكَ ذَلِكَ

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنْ تَأْجِيلِهِ الْعَذَابَ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ لَقَضَى اللهُ بَيْنَهُمْ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ بِالْكَلِمَةِ : أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ وَإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ الكَافِرِينَ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ قَوِيٍّ**فَقَالَ** : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ سَيَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنَ الْأُمَمِ وَيَجْزِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، **فَقَالَ** : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِأَعْمَالِهِمْ جَمِيعًا جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا ، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا .

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى رَسُولَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالثَّبَاتِ وَالدَّوَامِ عَلَى الاِسْتِقَامَةِ ، وَذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى النَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَمُخَالَفَةِ الْأَضْدَادِ وَنَهَى عَنِ الطُّغْيَانِ ، وَهُوَ الْبَغْيُ فَإِنَّهُ مَصْرَعَةٌ حَتَّى وَلَوْ كَانَ عَلَى مُشْرِكٍ ، وَأَعْلَمَ تَعَالَى أَنَّهُ بَصِيرٌ بِأَعْمَالِ الْعِبَادِ ، فَلَا يَغْفُلُ عَنْ شَيْءٍ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ **قِيلَ** : لَا تُدَاهِنُوا ، **وقِيلَ** : هُوَ الرُّكُونُ إِلَى الشِّرْكِ ، **وَقِيلَ** : لَا تَرْضَوْا بِأَعْمَالِهِمْ ، **وَقِيلَ** : وَلَا تَمِيلُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَهَذَا الْقَوْلُ حَسَنٌ ، أَيْ : لَا تَسْتَعِينُوا بِالظَّلَمَةِ فَتَكُونُوا كَأَنَّكُمْ قَدْ رَضِيتُمْ بِأَعْمَالِهِمْ ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ يُنْقِذُكُمْ ، وَلَا نَاصِرَ يُخَلِّصَكُمْ مِنْ عَذَابِهِ .

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : الصُّبْحُ وَالمَغْرِبُ ، **وَقِيلَ** : هِيَ الصُّبْحُ وَالْعَصْرُ ، **وَقِيلَ** : هِيَ الصُّبْحُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ ، وَالظُّهْرُ وَالْعَصْرُ مِنْ آخِرِهِ ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ** : يَعْنِي صَلَاةَ الْعِشَاءِ ، **وَقَالَ آخَرُون** : إِنَّمَا صَلَاةُ المَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ قَبْلَ فَرْضِ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَجِبُ مِنَ الصَّلَاةِ صَلَاتَانِ ، صَلَاةٌ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٌ قَبْلَ غُرُوبِهَا . ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ يَقُول : إِنَّ فِعْلَ الخَيْرَاتِ يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ السَّالِفَةَ .

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا

مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: فَهَلَّا وُجِدَ مِنَ الْقُرُونِ المَاضِيَةِ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ يَنْهَوْنَ عَمَّا كَانَ يَقَعُ بَيْنَهُمْ مِنَ الشُّرُورِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ. **وَقَوْلُهُ**: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ **أَيْ**: قَدْ وُجِدَ مِنْهُمْ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ قَلِيلٌ لَمْ يَكُونُوا كَثِيرًا، وَهُمُ الَّذِينَ أَنْجَاهُمُ اللهُ عِنْدَ حُلُولِ غَضَبِهِ وَفَجْأَةِ نِقْمَتِهِ. **وَقَوْلُهُ**: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ **أَيْ**: اسْتَمَرُّوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ المَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى إِنْكَارِ أُولَئِكَ حَتَّى فَجَأَهُمُ الْعَذَابُ ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُهْلِكْ قَرْيَةً إِلَّا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِنَفْسِهَا، وَلَمْ يَأْتِ قَرْيَةً مُصْلِحَةً بَأْسُهُ وَعَذَابُهُ قَطُّ حَتَّى يَكُونُوا هُمُ الظَّالِمِينَ.

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى جَعْلِ النَّاسِ كُلِّهِمْ أُمَّةً وَاحِدَةً مِنْ إِيمَانٍ أَوْ كُفْرٍ. **وَقَوْلُهُ**: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ **أَيْ**: وَلَا يَزَالُ الخُلْفُ بَيْنَ النَّاسِ فِي أَدْيَانِهِمْ وَاعْتِقَادَاتِ مِلَلِهِمْ وَنِحَلِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَآرَائِهِمْ. **وَقَوْلُهُ**: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ **أَيْ**: إِلَّا المَرْحُومِينَ مِنْ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ، الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِمَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الدِّينِ أَخْبَرَتْهُمْ بِهِ رُسُلُ اللهِ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبَهُمْ حَتَّى كَانَ النَّبِيُّ الأُمِّيُّ، خَاتَمُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ، فَاتَّبَعُوهُ وَصَدَّقُوهُ وَوَازَرُوهُ فَفَازُوا بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، لِأَنَّهُمُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ، **قَالَ عَطَاءٌ**: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ **يَعْنِي** الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَالمَجُوسُ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ **يَعْنِي** الحَنِيفِيَّةُ، **وَقَالَ قَتَادَةُ**: أَهْلُ رَحْمَةِ اللهِ أَهْلُ الجَمَاعَةِ، وَإِنْ تَفَرَّقَتْ دِيَارُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ، وَأَهْلُ مَعْصِيَتِهِ أَهْلُ فُرْقَةٍ وَإِنِ اجْتَمَعَتْ دِيَارُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ. ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ **قِيلَ**: وَلِلِاخْتِلَافِ خَلَقَهُمْ، **وقيل**: خَلَقَهُمْ فَرِيقَيْنِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، **وَقِيلَ**: لِلرَّحْمَةِ خَلَقَهُمْ وَلَمْ يَخْلُقْهُمْ لِلْعَذَابِ، وَيَرْجِعُ مَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، **وَقِيلَ**: بَلِ المُرَادُ وَلِلرَّحْمَةِ وَالِاخْتِلَافِ خَلَقَهُمْ.

وَعَنِ الحَسَنِ البَصْرِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ قَالَ: النَّاسُ مُخْتَلِفُونَ عَلَى أَدْيَانٍ شَتَّى ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فَمَنْ رَحِمَ رَبُّكَ غَيْرُ مُخْتَلِفٍ، فَقِيلَ لَهُ: فَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ، قَالَ: خَلَقَ هَؤُلَاءِ لِجَنَّتِهِ، وَخَلَقَ هَؤُلَاءِ لِنَارِهِ، وَخَلَقَ هَؤُلَاءِ لِرَحْمَتِهِ، وَخَلَقَ هَؤُلَاءِ لِعَذَابِهِ، **وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ**: سَأَلْتُ مَالِكًا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قَالَ: فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ

وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ - لِعِلْمِهِ التَّامِّ وَحِكْمَتِهِ النَّافِذَةِ - أَنَّ مِمَّنْ خَلَقَهُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الجَنَّةَ ، وَمِنْهُمْ مِنْ يَسْتَحِقُّ النَّارَ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَمْلَأَ جَهَنَّمَ مِنْ هَذَيْنَ الثَّقَلَيْنِ الجِنِّ وَالْإِنْسِ ، وَلَهُ الحُجَّةُ الْبَالِغَةُ وَالحِكْمَةُ التَّامَّةُ .

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكُلُّ أَخْبَارٍ نَقُصُّهَا عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ المُتَقَدِّمِينَ مِنْ قَبْلِكَ مَعَ أُمَمِهِمْ ، وَكَيْفَ جَرَى لَهُمْ مِنَ المُحَاجَّاتِ وَالخُصُومَاتِ ، وَمَا احْتَمَلَهُ الْأَنْبِيَاءُ مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْأَذَى ، وَكَيْفَ نَصَرَ اللهُ حِزْبَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَذَلَ أَعْدَاءَهُ الْكَافِرِينَ ، كُلُّ هَذَا مِمَّا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، أَيّ : قَلْبَكَ يَا مُحَمَّدُ لِيَكُونَ لَك بِمَنْ مَضَى مِنْ إِخْوَانِكَ المُرْسَلِينَ أُسْوَةٌ . ﴿ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ ﴾ أَيْ : هَذِهِ السُّورَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَكَيْفَ أَنْجَاهُمُ اللهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ وَأَهْلَكَ الْكَافِرِينَ ، جَاءَكَ فِيهَا قَصَصٌ حَقٌّ وَنَبَأٌ صِدْقٌ ، وَمَوْعِظَةٌ يَرْتَدِعُ بِهَا الْكَافِرُونَ وَذِكْرَى يَتَذَكَّرُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ .

وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَبِّهِ عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ ﴿ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أَيْ : عَلَى طَرِيقَتِكُمْ وَمَنْهَجِكُمْ ﴿ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴾ أَيْ : عَلَى طَرِيقَتِنَا وَمَنْهَجِنَا ﴿ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ أَيْ : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٥] ، وَقَدْ أَنْجَزَ اللهُ لِرَسُولِهِ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَهُ وَأَيَّدَهُ وَجَعَلَ كَلِمَتَهُ هِيَ الْعُلْيَا ، وَكَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ المَرْجِعُ وَالمَآبُ ، وَسَيُؤْتِي كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ يَوْمَ الحِسَابِ ، فَلَهُ الخَلْقُ وَالْأَمْرُ ؛ فَأَمَرَ تَعَالَى بِعِبَادَتِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ كَافٍ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ مَا عَلَيْهِ مُكَذِّبُوكَ يَا مُحَمَّدُ ، بَلْ هُوَ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَتَمَّ الجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَسَيَنْصُرُكَ وَحِزْبَكَ عَلَيْهِمْ فِي الدَّارَيْنِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ هُودٍ ، وَللهِ الحَمْدُ

تفسير سورة يوسف عليه السلام
آياتها ١١١ مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. **وَقَوْلُهُ**: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أَيْ: هَذِهِ آيَاتُ الْكِتَابِ: وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمُبِينُ، أَيْ: الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ الَّذِي يُفْصِحُ عَنِ الْأَشْيَاءِ الْمُبْهَمَةِ وَيُفَسِّرُهَا وَيُبَيِّنُهَا. ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ لُغَةَ الْعَرَبِ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ وَأَبْيَنُهَا، وَأَوْسَعُهَا وَأَكْثَرُهَا تَأْدِيَةً لِلْمَعَانِي الَّتِي تَقُومُ بِالنُّفُوسِ، فَلِهَذَا أَنْزَلَ أَشْرَفَ الْكُتُبِ بِأَشْرَفِ اللُّغَاتِ عَلَى أَشْرَفِ الرُّسُلِ، بِسِفَارَةِ أَشْرَفِ الْمَلَائِكَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَشْرَفِ بِقَاعِ الْأَرْضِ، وَابْتُدِئَ إِنْزَالُهُ فِي أَشْرَفِ شُهُورِ السَّنَةِ وَهُوَ رَمَضَانُ، فَكَمُلَ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ بِسَبَبِ إِيحَائِنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى: اُذْكُرْ لِقَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ فِي قَصَصِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ، وَأَبُوهُ هُوَ: يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَمَا وَرَدَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « **الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ** ». وَقَدْ تَكَلَّمَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى تَعْبِيرِ هَذَا الْمَنَامِ أَنَّ الْأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا عِبَارَةٌ عَنْ إِخْوَتِهِ، وَكَانُوا أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا سِوَاهُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ عِبَارَةٌ عَنْ أُمِّهِ وَأَبِيهِ.

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْلِ يَعْقُوبَ لِابْنِهِ يُوسُفَ حِينَ قَصَّ عَلَيْهِ مَا رَأَى مِنْ هَذِهِ الرُّؤْيَا الَّتِي تَعْبِيرُهَا خُضُوعُ إِخْوَتِهِ لَهُ، وَتَعْظِيمُهُمْ إِيَّاهُ تَعْظِيمًا زَائِدًا، بِحَيْثُ يَخِرُّونَ لَهُ سَاجِدِينَ إِجْلَالًا

وَاحْتِرَامًا وَإِكْرَامًا ، فَخَشِيَ يَعْقُوبُ ﷺ أَنْ يُحَدِّثَ بِهَذَا الْمَنَامِ أَحَدًا مِنْ إِخْوَتِهِ فَيَحْسُدُونَهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَيَبْغُونَ لَهُ الْغَوَائِلَ حَسَدًا مِنْهُمْ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾ أَيْ : يَحْتَالُوا لَكَ حِيلَةً يُرْدُونَكَ فِيهَا.

وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

وَيَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْلِ يَعْقُوبَ لِوَلَدِهِ يُوسُفَ إِنَّهُ كَمَا اخْتَارَكَ رَبُّكَ وَأَرَاكَ هَذِهِ الْكَوَاكِبَ مَعَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ سَاجِدَةً لَكَ ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أَيْ : يَخْتَارُكَ وَيَصْطَفِيكَ لِنُبُوَّتِهِ ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يَعْنِي تَعْبِيرَ الرُّؤْيَا ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ أَيْ : بِإِرْسَالِكَ وَالْإِيحَاءِ إِلَيْكَ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ وَهُوَ الْخَلِيلُ ﴿ وَإِسْحَٰقَ ﴾ وَلَدُهُ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : هُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى .

۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : لَقَدْ كَانَ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ وَخَبَرِهِ مَعَ إِخْوَتِهِ آيَاتٌ أَيْ : عِبْرَةٌ وَمَوَاعِظُ لِلسَّائِلِينَ عَنْ ذَلِكَ الْمُسْتَخْبِرِينَ عَنْهُ ، فَإِنَّهُ خَبَرٌ عَجِيبٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُخْبَرَ عَنْهُ ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ أَيْ : حَلَفُوا فِيمَا يَظُنُّونَ : وَاللهِ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ - يَعْنُونَ بِنْيَامِين وَكَانَ شَقِيقَهُ لِأُمِّهِ - ﴿ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أَيْ : جَمَاعَةٌ ، فَكَيْفَ أَحَبَّ ذَيْنَكَ الِاثْنَيْنِ أَكْثَرَ مِنَ الْجَمَاعَةِ ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ يَعْنُونَ فِي تَقْدِيمِهِمَا عَلَيْنَا وَمَحَبَّتِهِ إِيَّاهُمَا أَكْثَرَ مِنَّا . ﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ يَقُولُونَ : هَذَا الَّذِي يُزَاحِمُكُمْ فِي مَحَبَّةِ أَبِيكُمْ لَكُمْ ، أَعْدِمُوهُ مِنْ وَجْهِ أَبِيكُمْ ؛ لِيَخْلُوَ لَكُمْ وَحْدَكُمْ ، إِمَّا بِأَنْ تَقْتُلُوهُ أَوْ تُلْقُوهُ فِي أَرْضٍ مِنَ الْأَرَاضِي ، تَسْتَرِيحُوا مِنْهُ وَتَخْلُوا أَنْتُمْ بِأَبِيكُمْ ﴿ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ فَأَضْمَرُوا التَّوْبَةَ قَبْلَ الذَّنْبِ ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ ﴾ أَيْ : لَا تَصِلُوا فِي عَدَاوَتِهِ وَبُغْضِهِ إِلَى قَتْلِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى قَتْلِهِ ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَانَ يُرِيدُ مِنْهُ أَمْرًا لَا بُدَّ مِنْ إِمْضَائِهِ وَإِتْمَامِهِ مِنَ الْإِيحَاءِ إِلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ ، وَمِنَ التَّمْكِينِ لَهُ بِبِلَادِ مِصْرَ وَالْحُكْمِ بِهَا ، فَصَرَفَهُمُ اللهُ عَنْهُ بِمَقَالَةِ رُوبِيلَ فِيهِ ، وَإِشَارَتِهِ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يُلْقُوهُ فِي

غَيَابَةِ الجُبِّ : وَهُوَ أَسْفَلُهُ . ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ أَيْ : المَارَّةُ مِنَ المُسَافِرِينَ ، فَتَسْتَرِيحُوا مِنْهُ بِهَذَا وَلَا حَاجَةَ إِلَى قَتْلِهِ ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ كُنْتُمْ عَازِمِينَ عَلَى مَا تَقُولُونَ .

قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾

لَمَّا تَوَاطَئُوا عَلَى أَخْذِهِ وَطَرْحِهِ فِي الْبِئْرِ - كَمَا أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِمْ أَخُوهُمُ الْكَبِيرُ رُوبِيلُ - جَاءُوا أَبَاهُمْ يَعْقُوب عليه السلام فَقَالُوا : ﴿ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾ وَهَذِهِ تَوْطِئَةٌ وَدَعْوَى وَهُمْ يُرِيدُونَ خِلَافَ ذَلِكَ لِمَا لَهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الحَسَدِ لِحُبِّ أَبِيهِ لَهُ ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا ﴾ أَيْ : ابْعَثْهُ مَعَنَا ﴿ غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : يَسْعَى وَيَنْشَطُ ، ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ يَقُولُونَ : وَنَحْنُ نَحْفَظُهُ وَنَحُوطُهُ مِنْ أَجْلِكَ .

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ يَعْقُوبَ إِنَّهُ قَالَ لِبَنِيهِ فِي جَوَابِ مَا سَأَلُوا مِنْ إِرْسَالِ يُوسُفَ مَعَهُمْ إِلَى الرَّعْيِ فِي الصَّحْرَاءِ : ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ ﴾ أَيْ : يَشُقُّ عَلَيَّ مُفَارَقَتُهُ مُدَّةَ ذَهَابِكُمْ بِهِ إِلَى أَنْ يَرْجِعَ ، وَذَلِكَ لِفَرْطِ مَحَبَّتِهِ لَهُ لِمَا يَتَوَسَّمُ فِيهِ مِنَ الخَيْرِ الْعَظِيمِ وَشَمَائِلِ النُّبُوَّةِ ، وَالْكَمَالِ فِي الخُلُقِ وَالخَلْقِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ . ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾ يَقُولُ : وَأَخْشَى أَنْ تَشْتَغِلُوا عَنْهُ بِرَمْيِكُمْ وَرَعْيِكُمْ ، فَيَأْتِيَهُ ذِئْبٌ فَيَأْكُلَهُ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ، فَأَخَذُوا مِنْ فَمِهِ هَذِهِ الْكَلِمَةَ وَجَعَلُوهَا عُذْرَهُمْ فِيمَا فَعَلُوهُ ، وَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ عَنْهَا فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ : ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ يَقُولُونَ لَئِنْ عَدَا عَلَيْهِ الذِّئْبُ فَأَكَلَهُ بَيْنِنَا وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ إِنَّا إِذًا لَهَالِكُونَ عَاجِزُونَ .

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَلَمَّا ذَهَبَ بِهِ إِخْوَتُهُ مِنْ عِنْدِ أَبِيهِ بَعْدَ مُرَاجَعَتِهِمْ لَهُ فِي ذَلِكَ ﴿ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ هَذَا فِيهِ تَعْظِيمٌ لِمَا فَعَلُوهُ ، أَنَّهُمْ اتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى إِلْقَائِهِ فِي أَسْفَلِ ذَلِكَ الجُبِّ ، وَقَدْ أَخَذُوهُ مِنْ عِنْدِ أَبِيهِ فِيمَا يُظْهِرُونَهُ لَهُ إِكْرَامًا لَهُ وَبَسْطًا وَشَرْحًا لِصَدْرِهِ وَإِدْخَالًا لِلسُّرُورِ عَلَيْهِ ، فَيُقَالُ إِنَّ يَعْقُوبَ عليه السلام لَمَّا بَعَثَهُ مَعَهُمْ ضَمَّهُ إِلَيْهِ وَقَبَّلَهُ وَدَعَا لَهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ

لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذَاكِرًا لُطْفَهُ وَرَحْمَتَهُ وَعَائِدَتَهُ ، ثُمَّ إِنْزَالَهُ الْيُسْرَ فِي حَالِ الْعُسْرِ ، أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى يُوسُفَ فِي ذَلِكَ الحَالِ الضَّيِّقِ تَطْيِيبًا لِقَلْبِهِ وَتَثْبِيتًا لَهُ : إِنَّكَ لَا تَحْزَنْ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ ؛ فَإِنَّ لَكَ مِنْ ذَلِكَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا حَسَنًا ، وَسَيَنْصُرُكَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَيُعْلِيكَ وَيَرْفَعُ دَرَجَتَكَ ، وَسَتُخْبِرُهُمْ بِمَا فَعَلُوا مَعَكَ مِنْ هَذَا الصَّنِيعِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قِيلَ : بِإِيحَاءِ اللهِ إِلَيْهِ ، وَقِيلَ : سَتُنَبِّئُهُمْ بِصَنِيعِهِمْ هَذَا فِي حَقِّكَ ، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَكَ وَلَا يَسْتَشْعِرُونَ بِكَ .

وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الَّذِي اِعْتَمَدَهُ إِخْوَةُ يُوسُفَ بَعْدَمَا أَلْقَوْهُ فِي غَيَابَةِ الجُبِّ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ يَبْكُونَ ، وَمُظْهِرُونَ الْأَسَفَ وَالجَزَعَ عَلَى يُوسُفَ ، وَيَتَغَمَّمُونَ لِأَبِيهِمْ ، وَقَالُوا مُعْتَذِرِينَ عَمَّا وَقَعَ فِيمَا زَعَمُوا : ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أَيْ : نَتَرَامَى ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا ﴾ أَيْ : ثِيَابِنَا وَأَمْتِعَتِنَا ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ وَهُوَ الَّذِي كَانَ قَدْ جَزِعَ مِنْهُ وَحَذِرَ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُمْ : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ تَلَطُّفٌ عَظِيمٌ فِي تَقْرِيرِ مَا يُحَاوِلُونَهُ ، يَقُولُونَ : وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تُصَدِّقُنَا وَالحَالَةُ هَذِهِ لَوْ كُنَّا عِنْدَكَ صَادِقِينَ ، فَكَيْفَ وَأَنْتَ تَتَّهِمُنَا فِي ذَلِكَ ؛ لِأَنَّكَ خَشِيتَ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ، فَأَنْتَ مَعْذُورٌ فِي تَكْذِيبِكَ لَنَا ، لِغَرَابَةِ مَا وَقَعَ وَعَجِيبِ مَا اِتَّفَقَ لَنَا فِي أَمْرِنَا هَذَا . ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أَيْ : مَكْذُوبٌ مُفْتَرًى ، وَهَذَا مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي يُؤَكِّدُونَ بِهَا مَا تَمَالَئُوا عَلَيْهِ مِنَ المَكِيدَةِ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ عَمَدُوا إِلَى سَخْلَةٍ فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ، فَذَبَحُوهَا وَلَطَّخُوا ثَوْبَ يُوسُفَ بِدَمِهَا ، مُوهِمِينَ أَنَّ هَذَا قَمِيصُهُ الَّذِي أَكَلَهُ فِيهِ الذِّئْبُ ، وَقَدْ أَصَابَهُ مِنْ دَمِهِ وَلَكِنَّهُمْ نَسُوا أَنْ يُخَرِّقُوهُ ، فَلِهَذَا لَمْ يُرْجَ هَذَا الصَّنِيعُ عَلَى نَبِيِّ اللهِ يَعْقُوبَ . بَلْ قَالَ لَهُمْ مُعْرِضًا عَنْ كَلَامِهِمْ إِلَى مَا وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ لَبْسِهِمْ عَلَيْهِ ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أَيْ : فَسَأَصْبِرُ صَبْرًا جَمِيلًا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي اِتَّفَقْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يُفَرِّجُهُ اللهُ بِعَوْنِهِ وَلُطْفِهِ ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أَيْ : عَلَى مَا تَذْكُرُونَ مِنَ الْكَذِبِ وَالْمُحَالِ ، وَقِيلَ : الصَّبْرُ الجَمِيلُ الَّذِي لَا جَزَعَ فِيهِ .

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ

وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: لَمَّا أَلْقَاهُ إِخْوَتُهُ جَلَسُوا حَوْلَ الْبِئْرِ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ، يَنْظُرُونَ مَاذَا يَصْنَعُ وَمَا يُصْنَعُ بِهِ، فَسَاقَ اللهُ لَهُ سَيَّارَةً فَنَزَلُوا قَرِيبًا مِنْ تِلْكَ الْبِئْرِ، وَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ، وَهُوَ الَّذِي يَتَطَلَّبُ لَهُمُ الْمَاءَ، فَلَمَّا جَاءَ ذَلِكَ الْبِئْرَ وَأَدْلَى بِدَلْوِهِ فِيهَا تَشَبَّثَ يُوسُفُ عليه السلام فِيهَا، فَأَخْرَجَهُ وَاسْتَبْشَرَ بِهِ وَقَالَ: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞ﴾. **وَقَوْلُهُ**: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗ﴾ أَيْ: وَأَسَرَّهُ الْوَارِدُونَ مِنْ بَقِيَّةِ السَّيَّارَةِ، وَقَالُوا: اِشْتَرَيْنَاهُ وَتَبَضَّعْنَاهُ مِنْ أَصْحَابِ الْمَاءِ مَخَافَةَ أَنْ يُشَارِكُوهُمْ فِيهِ إِذَا عَلِمُوا خَبَرَهُ. **وَقِيلَ**: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗ﴾ يَعْنِي: إِخْوَةُ يُوسُفَ أَسَرُّوا شَأْنَهُ، وَكَتَمُوا أَنْ يَكُونَ أَخَاهُمْ، وَكَتَمَ يُوسُفُ شَأْنَهُ مَخَافَةَ أَنْ يَقْتُلَهُ إِخْوَتُهُ، وَاخْتَارَ الْبَيْعَ فَذَكَرَهُ إِخْوَتُهُ لِوَارِدِ الْقَوْمِ، فَنَادَى أَصْحَابَهُ ﴿يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞ﴾ يُبَاعُ فَبَاعَهُ إِخْوَتُهُ. **وَقَوْلُهُ**: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ أَيْ: عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُهُ إِخْوَةُ يُوسُفَ وَمُشْتَرُوهُ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى تَغْيِيرِ ذَلِكَ وَدَفْعِهِ، وَلَكِنْ لَهُ حِكْمَةٌ وَقَدَرٌ سَابِقٌ، فَتَرَكَ ذَلِكَ لِيَمْضِيَ مَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ. **وَقَوْلُهُ**: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: وَبَاعَهُ إِخْوَتُهُ بِثَمَنٍ قَلِيلٍ، وَالْبَخْسُ: هُوَ النَّقْصُ؛ أَيْ: اِعْتَاضَ عَنْهُ إِخْوَتُهُ بِثَمَنٍ دُونٍ قَلِيلٍ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ، أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ رَغْبَةٌ فِيهِ بَلْ لَوْ سُئِلُوهُ بِلَا شَيْءٍ لَأَجَابُوا، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾. **وَقَالَ الضَّحَّاكُ فِي قَوْلِهِ**: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا نُبُوَّتَهُ وَمَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللهِ عز وجل.

وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِأَلْطَافِهِ بِيُوسُفَ عليه السلام أَنَّهُ قَيَّضَ لَهُ الَّذِي اِشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ، حَتَّى اِعْتَنَى بِهِ وَأَكْرَمَهُ وَأَوْصَى أَهْلَهُ بِهِ وَتَوَسَّمَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالصَّلَاحَ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ وَكَانَ الَّذِي اِشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ عَزِيزُهَا، وَهُوَ الْوَزِيرُ بِهَا. **يَقُولُ تَعَالَى**: كَمَا أَنْقَذْنَا يُوسُفَ مِنْ إِخْوَتِهِ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يَعْنِي: بِلَادَ مِصْرَ ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ **قِيلَ**: هُوَ تَعْبِيرُ الرُّؤْيَا ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ أَي: إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَلَا يُرَدُّ، وَلَا

يُمَانَعَ ، وَلَا يُخَالَفَ ، بَلْ هُوَ الْغَالِبُ لِمَا سِوَاهُ . **قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ ﴾ أَيْ : فَعَّالٌ لِمَا يَشَاءُ . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ يَقُولُ : لَا يَدْرُونَ حِكْمَتَهُ فِي خَلْقِهِ وَتَلَطُّفِهِ وَفِعْلِهِ لِمَا يُرِيدُ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ ﴾ أَيْ : يُوسُفَ عليه السلام ﴿ أَشُدَّهُۥٓ ﴾ أَيْ : اِسْتَكْمَلَ عَقْلُهُ وَتَمَّ خَلْقُهُ ﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ﴾ يَعْنِي : النُّبُوَّةَ أَنَّهُ حَبَاهُ بِهَا بَيْنَ أُولَئِكَ الْأَقْوَامِ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ كَانَ مُحْسِنًا فِي عَمَلِهِ عَامِلًا بِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَى .

وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ الَّتِي كَانَ يُوسُفُ فِي بَيْتِهَا بِمِصْرَ ، وَقَدْ أَوْصَاهَا زَوْجُهَا بِهِ وَبِإِكْرَامِهِ فَرَاوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ ، أَيْ : حَاوَلَتْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَدَعَتْهُ إِلَيْهَا ، وَذَلِكَ أَنَّهَا أَحَبَّتْهُ حُبًّا شَدِيدًا لِجَمَالِهِ وَحُسْنِهِ وَبَهَائِهِ ، فَحَمَلَهَا ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَجَمَّلَتْ لَهُ وَغَلَّقَتْ عَلَيْهِ الْأَبْوَابَ وَدَعَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا ﴿ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ ﴾ فَامْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الِامْتِنَاعِ وَ ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ ﴾ ، وَكَانُوا يُطْلِقُونَ الرَّبَّ عَلَى السَّيِّدِ الْكَبِيرِ ، أَيْ : إِنَّ بَعْلَكِ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، أَيْ : مَنْزِلِي ، وَأَحْسَنَ إِلَيَّ فَلَا أُقَابِلُهُ بِالْفَاحِشَةِ فِي أَهْلِهِ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾

اِخْتَلَفَتْ أَقْوَالُ النَّاسِ وَعِبَارَاتُهُمْ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ الْمُرَادُ بِهَمِّهِ بِهَا : خَطَرَاتُ حَدِيثِ النَّفْسِ ، **وَقِيلَ** : هَمَّ بِضَرْبِهَا ، **وَقِيلَ** : تَمَنَّاهَا زَوْجَةً ، **وَأَمَّا الْبُرْهَانُ الَّذِي رَآهُ فَفِيهِ أَقْوَالٌ أَيْضًا ، فَقَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : رَأَى صُورَةَ أَبِيهِ يَعْقُوبَ عَاضًّا عَلَى أُصْبُعِهِ بِفَمِهِ ، **وَقِيلَ** : رَأَى خَيَالَ الْمَلِكِ . يَعْنِي : سَيِّدَهُ ، **وَقِيلَ** : رَفَعَ يُوسُفُ رَأْسَهُ إِلَى سَقْفِ الْبَيْتِ فَإِذَا كِتَابٌ فِي حَائِطِ الْبَيْتِ ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء : ٣٢] . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ رَأَى آيَةً مِنْ آيَاتِ اللهِ تَزْجُرُهُ عَمَّا كَانَ هَمَّ بِهِ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ ﴾ أَيْ : كَمَا أَرَيْنَاهُ بُرْهَانًا صَرَفَهُ عَمَّا كَانَ فِيهِ ، كَذَلِكَ نَقِيهِ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمُجْتَبَيْنَ الْمُطَهَّرِينَ الْمُخْتَارِينَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ صلى الله عليه وسلم .

وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ

أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ
﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ
قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ
وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِهِمَا حِينَ خَرَجَا يَسْتَبِقَانِ إِلَى الْبَابِ ، يُوسُفُ هَارِبٌ وَالْمَرْأَةُ تَطْلُبُهُ لِيَرْجِعَ إِلَى الْبَيْتِ ، فَلَحِقَتْهُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ فَأَمْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ مِنْ وَرَائِهِ ، فَقَدَّتْهُ قَدًّا فَظِيعًا ، يُقَالُ إِنَّهُ سَقَطَ عَنْهُ ، وَاسْتَمَرَّ يُوسُفُ هَارِبًا ذَاهِبًا وَهِيَ فِي إِثْرِهِ ، فَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا وَهُوَ زَوْجُهَا عِنْدَ الْبَابِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجَتْ مِمَّا هِيَ فِيهِ بِمَكْرِهَا وَكَيْدِهَا ، وَقَالَتْ لِزَوْجِهَا مُتَنَصِّلَةً وَقَاذِفَةً يُوسُفَ بِدَائِهَا ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾ أَيْ : فَاحِشَةً ﴿ إِلَّآ أَن يُسْجَنَ ﴾ أَيْ : يُحْبَسُ ﴿ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : يُضْرَبُ ضَرْبًا شَدِيدًا مُوجِعًا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ انْتَصَرَ يُوسُفُ عليه السلام بِالْحَقِّ وَتَبَرَّأَ مِمَّا رَمَتْهُ بِهِ مِنَ الْخِيَانَةِ ، وَ ﴿ قَالَ ﴾ بَارًّا صَادِقًا ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ وَذَكَرَ أَنَّهَا اتَّبَعَتْهُ تَجْذِبُهُ إِلَيْهَا حَتَّى قَدَّتْ قَمِيصَهُ ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ أَيْ : مِنْ قُدَّامِهِ ﴿ فَصَدَقَتْ ﴾ هِيَ ، أَيْ : فِي قَوْلِهَا إِنَّهُ رَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا ؛ لأَنَّهُ يَكُونُ لَمَّا دَعَاهَا وَأَبَتْ عَلَيْهِ دَفَعَتْهُ فِي صَدْرِهِ فَقَدَّتْ قَمِيصَهُ ، فَيَصِحُّ مَا قَالَتْ ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ، وَذَلِكَ يَكُونُ كَمَا وَقَعَ لَمَّا هَرَبَ مِنْهَا وَتَطَلَّبَتْهُ ، أَمْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ مِنْ وَرَائِهِ لِتَرُدَّهُ إِلَيْهَا ، فَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ وَرَائِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾ أَيْ : لَمَّا تَحَقَّقَ زَوْجُهَا صِدْقَ يُوسُفَ وَكَذِبَهَا فِيمَا قَذَفَتْهُ وَرَمَتْهُ بِهِ ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ أَيْ : إِنَّ هَذَا الْبَهْتَ وَاللَّطْخَ الَّذِي لَطَّخْتِ عِرْضَ هَذَا الشَّابِّ بِهِ مِنْ جُمْلَةِ كَيْدِكُنَّ ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ آمِرًا لِيُوسُفَ عليه السلام بِكِتْمَانِ مَا وَقَعَ ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ أَيْ : اِضْرِبْ عَنْ هَذَا صَفْحًا ، أَيْ : فَلَا تَذْكُرْهُ لِأَحَدٍ ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ﴾ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ ، وَقَدْ كَانَ لَيِّنَ الْعَرِيكَةِ سَهْلًا ، أَوْ أَنَّهُ عَذَرَهَا لأَنَّهَا رَأَتْ مَا لَا صَبْرَ لَهَا عَنْهُ ، فَقَالَ لَهَا : ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ﴾ أَيْ : الَّذِي وَقَعَ مِنْكِ مِنْ إِرَادَةِ السُّوءِ بِهَذَا الشَّابِّ ، ثُمَّ قَذْفِهِ بِمَا هُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ ﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ .

۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا
لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا

وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ خَبَرَ يُوسُفَ وَامْرَأَةِ الْعَزِيزِ شَاعَ فِي الْمَدِينَةِ وَهِيَ مِصْرُ ، حَتَّى تَحَدَّثَ بِهِ النَّاسُ ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ مِثْلَ نِسَاءِ الْكُبَرَاءِ وَالْأُمَرَاءِ يُنْكِرْنَ عَلَى امْرَأَةِ الْعَزِيزِ وَهُوَ الْوَزِيرُ ، وَيَعِبْنَ ذَلِكَ عَلَيْهَا ﴿ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ أَيْ : تُحَاوِلُ غُلَامَهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وَتَدْعُوهُ إِلَى نَفْسِهَا ﴿ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أَيْ : قَدْ وَصَلَ حُبُّهُ إِلَى شَغَافِ قَلْبِهَا وَهُوَ غِلَافُهُ ، ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : فِي صَنِيعِهَا هَذَا مِنْ حُبِّهَا فَتَاهَا وَمُرَاوَدَتِهَا إِيَّاهُ عَنْ نَفْسِهِ ، ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : بِقَوْلِهِنَّ : ذَهَبَ الْحُبُّ بِهَا ، **وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ** : بَلْ بَلَغَهُنَّ حُسْنُ يُوسُفَ فَأَحْبَبْنَ أَنْ يَرَيْنَهُ ، فَقُلْنَ ذَلِكَ لِيَتَوَصَّلْنَ إِلَى رُؤْيَتِهِ وَمُشَاهَدَتِهِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ أَيْ : دَعَتْهُنَّ إِلَى مَنْزِلِهَا لِتُضِيِّفَهُنَّ ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : هُوَ الْمَجْلِسُ الْمُعَدُّ فِيهِ مَفَارِشُ وَمَخَادُّ وَطَعَامٌ ، فِيهِ مَا يُقْطَعُ بِالسَّكَاكِينِ مِنْ أُتْرُجٍّ وَنَحْوِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ وَكَانَ هَذَا مَكِيدَةً مِنْهَا ، وَمُقَابَلَةً لَهُنَّ فِي احْتِيَالِهِنَّ عَلَى رُؤْيَتِهِ ﴿ وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ قَدْ خَبَّأَتْهُ فِي مَكَانٍ آخَرَ ﴿ فَلَمَّا ﴾ خَرَجَ وَ ﴿ رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ ﴾ أَيْ : أَعْظَمْنَهُ ، أَيْ : أَعْظَمْنَ شَأْنَهُ وَأَجْلَلْنَ قَدْرَهُ ، وَجَعَلْنَ يُقَطِّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ دَهْشَةً بِرُؤْيَتِهِ ، وَهُنَّ يَظْنُنَّ أَنَّهُنَّ يَقْطَعْنَ الْأُتْرُجَّ بِالسَّكَاكِينِ ، وَالْمُرَادُ : أَنَّهُنَّ حَزَزْنَ أَيْدِيَهُنَّ بِهَا .

وقد ثَبَتَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِيُوسُفَ عليه السلام فِي السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ قَالَ : « **فَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ** » ، فَلِهَذَا قَالَ هَؤُلَاءِ النِّسْوَةُ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ : ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : مَعَاذَ اللهِ ، ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ « **مَا هَذَا بِشِرًى** » أَيْ : بِمُشْتَرًى بِشِرَاءٍ ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ تَقُولُ هَذَا مُعْتَذِرَةً إِلَيْهِنَّ بِأَنَّ هَذَا حَقِيقٌ أَنْ يُحَبَّ لِجَمَالِهِ وَكَمَالِهِ ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ أَيْ : فَامْتَنَعَ ، **قَالَ بَعْضُهُمْ** : لَمَّا رَأَيْنَ جَمَالَهُ الظَّاهِرَ أَخْبَرَتْهُنَّ بِصِفَاتِهِ الْحَسَنَةِ الَّتِي تَخْفَى عَنْهُنَّ وَهِيَ : الْعِفَّةُ ، مَعَ هَذَا الْجَمَالِ ، ثُمَّ قَالَتْ تَتَوَعَّدُهُ : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَعَاذَ يُوسُفُ عليه السلام مِنْ شَرِّهِنَّ

وَكَيْدِهِنَّ ، وَقَالَ : ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْفَاحِشَةِ ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أَيْ : إِنْ وَكَلْتَنِي إِلَى نَفْسِي فَلَيْسَ لِي مِنْهَا قُدْرَةٌ ، وَلَا أَمْلِكُ لَهَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، إِلَّا بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ ، أَنْتَ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْكَ التُّكْلَانُ ، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ الْآيَة ، وَذَلِكَ أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام عَصَمَهُ اللهُ عِصْمَةً عَظِيمَةً وَحَمَاهُ ، فَامْتَنَعَ مِنْهَا أَشَدَّ الِامْتِنَاعِ ، وَاخْتَارَ السِّجْنَ عَلَى ذَلِكَ ، وَهَذَا فِي غَايَةِ مَقَامَاتِ الْكَمَالِ ، أَنَّهُ مَعَ شَبَابِهِ وَجَمَالِهِ وَكَمَالِهِ تَدْعُوهُ سَيِّدَتُهُ وَهِيَ امْرَأَةُ عَزِيزِ مِصْرَ وَهِيَ مَعَ هَذَا فِي غَايَةِ الْجَمَالِ وَالْمَالِ وَالرِّيَاسَةِ ، وَيَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ وَيَخْتَارُ السِّجْنَ عَلَى ذَلِكَ خَوْفًا مِنَ اللهِ وَرَجَاءَ ثَوَابِهِ .

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ثُمَّ ظَهَرَ لَهُمْ مِنَ الْمَصْلَحَةِ فِيمَا رَأَوْهُ أَنَّهُمْ يَسْجُنُونَهُ إِلَى ﴿ حِينٍ ﴾ أَيْ : إِلَى مُدَّةٍ ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا عَرَفُوا بَرَاءَتَهُ ، وَظَهَرَتِ الْآيَاتُ وَهِيَ الْأَدِلَّةُ عَلَى صِدْقِهِ فِي عِفَّتِهِ وَنَزَاهَتِهِ ، وَكَأَنَّهُمْ - وَاللهُ أَعْلَمُ - إِنَّمَا سَجَنُوهُ لَمَّا شَاعَ الْحَدِيثُ إِيهَامًا أَنَّهُ رَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا ، وَأَنَّهُمْ سَجَنُوهُ عَلَى ذَلِكَ ، وَلِهَذَا لَمَّا طَلَبَهُ الْمَلِكُ الْكَبِيرُ فِي آخِرِ الْمُدَّةِ امْتَنَعَ مِنَ الْخُرُوجِ حَتَّى تَتَبَيَّنَ بَرَاءَتُهُ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنَ الْخِيَانَةِ ، فَلَمَّا تَقَرَّرَ ذَلِكَ خَرَجَ وَهُوَ نَقِيُّ الْعِرْضِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ .

وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

قَالَ قَتَادَةُ : كَانَ أَحَدُهُمَا : سَاقِي الْمَلِكِ ، وَالْآخَرُ : خَبَّازُهُ . وَكَانَ يُوسُفُ عليه السلام قَدِ اشْتُهِرَ فِي السِّجْنِ بِالْجُودِ وَالْأَمَانَةِ وَصِدْقِ الْحَدِيثِ وَحُسْنِ السَّمْتِ وَكَثْرَةِ الْعِبَادَةِ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ - وَمَعْرِفَةِ التَّعْبِيرِ ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى أَهْلِ السِّجْنِ ، وَعِيَادَةِ مَرْضَاهُمْ وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهِمْ ، وَلَمَّا دَخَلَ هَذَانِ الْفَتَيَانِ إِلَى السِّجْنِ تَأَلَّفَا بِهِ وَأَحَبَّاهُ حُبًّا شَدِيدًا ، ثُمَّ إِنَّهُمَا رَأَيَا مَنَامًا فَرَأَى السَّاقِي أَنَّهُ يَعْصِرُ خَمْرًا ، يَعْنِي عِنَبًا ، وَقَالَ الْآخَرُ وَهُوَ الْخَبَّازُ : ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ﴾ الْآيَة ، وَالْمَشْهُورُ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّهُمَا رَأَيَا مَنَامًا وَطَلَبَا تَعْبِيرَهُ ، وَقِيلَ : مَا رَأَى صَاحِبَا يُوسُفَ شَيْئًا إِنَّمَا كَانَا تَحَالَمَا لِيُجَرِّبَا عَلَيْهِ .

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ

مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

يُخْبِرُهُمَا يُوسُفُ عليه السلام أَنَّهُمَا مَهْمَا رَأَيَا فِي مَنَامِهِمَا مِنْ حُلْمٍ فَإِنَّهُ عَارِفٌ بِتَفْسِيرِهِ ، وَيُخْبِرُهُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ وُقُوعِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ ﴾ قِيلَ أَيْ : فِي نَوْمِكُمَا ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ ، ثُمَّ قَالَ : وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَعْلِيمِ الله إِيَّايَ ، لِأَنِّي اجْتَنَبْتُ مِلَّةَ الْكَافِرِينَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَرْجُونَ ثَوَابًا وَلَا عِقَابًا فِي الْمَعَادِ ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ الْآيَةُ . يَقُولُ : هَجَرْتُ طَرِيقَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ ، وَسَلَكْتُ طَرِيقَ هَؤُلَاءِ الْمُرْسَلِينَ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَهَكَذَا يَكُونُ حَالُ مَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْهُدَى وَاتَّبَعَ طَرِيقَ الْمُرْسَلِينَ ، وَأَعْرَضَ عَنْ طَرِيقِ الضَّالِّينَ ، فَإِنَّ اللهَ يَهْدِي قَلْبَهُ وَيُعَلِّمُهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ وَيَجْعَلُهُ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ فِي الْخَيْرِ ، وَدَاعِيًا إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ . ﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ هَذَا التَّوْحِيدُ وَهُوَ : الْإِقْرَارُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ أَيْ : أَوْحَاهُ إِلَيْنَا وَأَمَرَنَا بِهِ ﴿ وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ إِذْ جَعَلَنَا دُعَاةً لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ الله عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ ، بَلْ ﴿ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨]

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

ثُمَّ إِنَّ يُوسُفَ عليه السلام أَقْبَلَ عَلَى الْفَتَيَيْنِ بِالْمُخَاطَبَةِ وَالدُّعَاءِ لَهُمَا إِلَى عِبَادَةِ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَخَلْعِ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ الَّتِي يَعْبُدُهَا قَوْمُهُمَا ، فَقَالَ : ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ أَيْ : الَّذِي وَلِيَ كُلَّ شَيْءٍ بِعِزِّ جَلَالِهِ وَعَظَمَةِ سُلْطَانِهِ ، ثُمَّ بَيَّنَ لَهُمَا أَنَّ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا وَيُسَمُّونَهَا آلِهَةً إِنَّمَا هِيَ جَعْلٌ مِنْهُمْ ، وَتَسْمِيَةٌ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ تَلَقَّاهَا خَلَفُهُمْ عَنْ سَلَفِهِمْ ، وَلَيْسَ لِذَلِكَ مُسْتَنَدٌ مِنْ عِنْدِ الله ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ أَيْ : حُجَّةٌ وَلَا بُرْهَانٌ . ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْحُكْمَ وَالتَّصَرُّفَ وَالْمَشِيئَةَ وَالْمُلْكَ كُلَّهُ لله ، وَقَدْ أَمَرَ عِبَادَهُ قَاطِبَةً أَنْ لَا يَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ الله وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ هُوَ الدِّينُ الْمُسْتَقِيمُ ، الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ وَأَنْزَلَ بِهِ الْحُجَّةَ وَالْبُرْهَانَ ، الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : فَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ . وَلَمَّا فَرَغَ

يُوسُفُ عليه السلام مِنْ دَعْوَتِهِمَا شَرَعَ فِي تَعْبِيرِ رُؤْيَاهُمَا مِنْ غَيْرِ تِكْرَارِ سُؤَالٍ فَقَالَ :

يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

يَقُولُ لَهُمَا : ﴿ يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ﴾ وَهُوَ الَّذِي رَأَى أَنَّهُ يَعْصِرُ خَمْرًا وَلَكِنَّهُ لَمْ يُعَيِّنْهُ لِئَلَّا يَحْزَنَ ذَاكَ ، وَلِهَذَا أَبْهَمَهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ﴾ وَهُوَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ الَّذِي رَأَى أَنَّهُ يَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِهِ خُبْزًا ، ثُمَّ أَعْلَمَهُمَا أَنَّ هَذَا قَدْ فَرَغَ مِنْهُ وَهُوَ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ .

وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

وَلَمَّا ظَنَّ يُوسُفُ عليه السلام أَنَّ السَّاقِي نَاجٍ ، قَالَ لَهُ يُوسُفُ خُفْيَةً عَنِ الْآخَرِ - وَاللهُ أَعْلَمُ - لِئَلَّا يُشْعِرَهُ أَنَّهُ الْمَصْلُوبُ ، قَالَ لَهُ : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ يَقُولُ : اُذْكُرْ قِصَّتِي عِنْدَ رَبِّكَ وَهُوَ الْمَلِكُ ، فَنَسِيَ ذَلِكَ الْمُوصَى أَنْ يُذَكِّرَ مَوْلَاهُ الْمَلِكَ بِذَلِكَ ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ لِئَلَّا يَطْلُعَ نَبِيُّ اللهِ مِنَ السِّجْنِ ، هَذَا هُوَ الصَّوَابُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ عَائِدٌ عَلَى النَّاجِي ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ﴿ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ قَالَ : ثِنْتَا عَشْرَةَ سَنَةً .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ ۖ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

هَذِهِ الرُّؤْيَا مِنْ مَلِكِ مِصْرَ مِمَّا قَدَّرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّهَا كَانَتْ سَبَبًا لِخُرُوجِ يُوسُفَ عليه السلام مِنَ السِّجْنِ مُعَزَّزًا مُكَرَّمًا ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ رَأَى هَذِهِ الرُّؤْيَا فَهَالَتْهُ وَتَعَجَّبَ مِنْ أَمْرِهَا وَمَا يَكُونُ تَفْسِيرُهَا ،

فَجمَعَ الْكَهَنَةَ وَالحَادَّةَ وَكِبَارَ دَوْلَتِهِ وَأُمَرَاءَهُ ، فَقَصَّ عَلَيْهِمْ مَا رَأَى وَسَأَلَهُمْ عَنْ تَأْوِيلِهَا فَلَمْ يَعْرِفُوا ذَلِكَ وَاعْتَذَرُوا إِلَيْهِ بِأَنَّهَا ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ أَيْ : أَخْلَاطُ أَحْلَامٍ اقْتَضَتْهُ رُؤْيَاكَ هَذِهِ ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : لَوْ كَانَتْ رُؤْيَا صَحِيحَةً مِنْ أَخْلَاطٍ لَمَا كَانَ لَنَا مَعْرِفَةٌ بِتَأْوِيلِهَا ، وَهُوَ تَعْبِيرُهَا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَذَكَّرَ الَّذِي نَجَا مِنْ ذَيْنِكَ الْفَتَيَيْنِ اللَّذَيْنِ كَانَا فِي السِّجْنِ مَعَ يُوسُفَ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ قَدْ أَنْسَاهُ مَا وَصَّاهُ بِهِ يُوسُفُ مِنْ ذِكْرِ أَمْرِهِ لِلْمَلِكِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَذَكَّرَ ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أَيْ : مُدَّةٍ ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ : بَعْدَ أَمَهٍ ، أَيْ : بَعْدَ نِسْيَانٍ ، فَقَالَ لَهُمْ : أَيْ لِلْمَلِكِ وَالَّذِينَ جَمَعَهُمْ لِذَلِكَ ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ ﴾ أَيْ : بِتَأْوِيلِ هَذَا الْمَنَامِ ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أَيْ : فَابْعَثُونِ إِلَى يُوسُفَ الصِّدِّيقِ إِلَى السِّجْنِ ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ فَبَعَثُوهُ فَجَاءَ ، فَقَالَ : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾ وَذَكَرَ الْمَنَامَ الَّذِي رَآهُ الْمَلِكُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ذَكَرَ لَهُ يُوسُفُ عليه السلام تَعْبِيرَهَا مِنْ غَيْرِ تَعْنِيفٍ لِلْفَتَى فِي نِسْيَانِهِ مَا وَصَّاهُ بِهِ وَمِنْ غَيْرِ اشْتِرَاطٍ لِلْخُرُوجِ قَبْلَ ذَلِكَ ، بَلْ قَالَ : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ أَيْ : يَأْتِيكُمُ الخِصْبُ وَالمَطَرُ سَبْعَ سِنِينَ مُتَوَالِيَاتٍ ، فَفَسَّرَ الْبَقَرَ بِالسِّنِينَ ؛ لأَنَّهَا تُثِيرُ الْأَرْضَ الَّتِي تَسْتَغِلُّ مِنْهَا الثَّمَرَاتُ وَالزُّرُوعُ ، وَهُنَّ السُّنْبُلَاتُ الخُضْرُ ، ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا يَعْتَدُّونَهُ فِي تِلْكَ السِّنِينَ فَقَالَ : ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أَيْ : مَهْمَا اسْتَغْلَلْتُمْ فِي هَذِهِ السَّبْعِ السِّنِينَ الخِصْبِ فَادَّخِرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ، لِيَكُونَ أَبْقَى لَهُ وَأَبْعَدَ عَنْ إِسْرَاعِ الْفَسَادِ إِلَيْهِ ، إِلَّا المِقْدَارَ الَّذِي تَأْكُلُونَهُ ، وَلْيَكُنْ قَلِيلًا قَلِيلًا لَا تُسْرِفُوا فِيهِ لِتَنْتَفِعُوا فِي السَّبْعِ الشِّدَادِ ، وَهُنَّ السَّبْعُ السِّنِينَ المُحْلُ الَّتِي تَعْقُبُ هَذِهِ السَّبْعَ المُتَوَالِيَاتِ ، وَهُنَّ الْبَقَرَاتُ الْعِجَافُ اللَّاتِي تَأْكُلُ السِّمَانَ ؛ لأَنَّ سِنِي الجَدْبِ يُؤْكَلُ فِيهَا مَا جَمَعُوهُ فِي سِنِي الخِصْبِ وَهُنَّ السُّنْبُلَاتُ الْيَابِسَاتُ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُنَّ لَا يُنْبِتْنَ شَيْئًا ، وَمَا بَذَرُوهُ فَلَا يَرْجِعُونَ مِنْهُ إِلَى شَيْءٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ ثُمَّ بَشَّرَهُمْ بَعْدَ الجَدْبِ الْعَامِّ المُتَوَالِي : بِأَنَّهُ يَعْقُبُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ، أَيْ : يَأْتِيهِمُ الْغَيْثُ : وَهُوَ المَطَرُ ، وَتَغِلُّ الْبِلَادُ وَيَعْصِرُ النَّاسُ مَا كَانُوا يَعْصِرُونَ عَلَى عَادَتِهِمْ مِنْ زَيْتٍ وَنَحْوِهِ وَسُكَّرٍ وَنَحْوِهِ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : يَدْخُلُ فِيهِ حَلْبُ اللَّبَنِ أَيْضًا .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ

إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ المَلِكِ لَمَّا رَجَعُوا إِلَيْهِ بِتَعْبِيرِ رُؤْيَاهُ الَّتِي كَانَ رَآهَا بِمَا أَعْجَبَهُ وَأَيْقَنَهُ، فَعَرَفَ فَضْلَ يُوسُفَ عليه السلام وَعِلْمَهُ وَحُسْنَ اطِّلَاعِهِ عَلَى رُؤْيَاهُ، وَحُسْنَ أَخْلَاقِهِ عَلَى مَنْ بِبَلَدِهِ مِنْ رَعَايَاهُ، فَقَالَ: ﴿ ٱئْتُونِي بِهِۦ ﴾ أَيْ: أَخْرِجُوهُ مِنَ السِّجْنِ وَأَحْضِرُوهُ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ بِذَلِكَ امْتَنَعَ مِنَ الخُرُوجِ حَتَّى يَتَحَقَّقَ المَلِكُ وَرَعِيَّتُهُ بَرَاءَةَ سَاحَتِهِ، وَنَزَاهَةَ عِرْضِهِ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، وَأَنَّ هَذَا السِّجْنَ لَمْ يَكُنْ عَلَى أَمْرٍ يَقْتَضِيهِ، بَلْ كَانَ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، فَقَالَ: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ الْآيَة. **وَقَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ إِخْبَارٌ عَنِ المَلِكِ حِينَ جَمَعَ النِّسْوَةَ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ عِنْدَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، فَقَالَ مُخَاطِبًا لَهُنَّ كُلِّهِنَّ وَهُوَ يُرِيدُ امْرَأَةَ وَزِيرِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ، قَالَ المَلِكُ لِلنِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ: ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ أَيْ: شَأْنُكُنَّ وَخَبَرُكُنَّ ﴿ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ يَعْنِي: يَوْمَ الضِّيَافَةِ ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ أَيْ: قَالَتِ النِّسْوَةُ جَوَابًا لِلْمَلِكِ: حَاشَ للهِ أَنْ يَكُونَ يُوسُفُ مُتَّهَمًا، وَاللهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ**: تَقُولُ: الْآنَ تَبَيَّنَ الحَقُّ وَظَهَرَ وَبَرَزَ ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أَيْ: فِي قَوْلِهِ: ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾، ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ تَقُولُ: إِنَّمَا اعْتَرَفْتُ بِهَذَا عَلَى نَفْسِي لِيَعْلَمَ زَوْجِي أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَلَا وَقَعَ المَحْذُورُ الْأَكْبَرُ، وَإِنَّمَا رَاوَدْتُ هَذَا الشَّابَّ مُرَاوَدَةً فَامْتَنَعَ، فَلِهَذَا اعْتَرَفْتُ لِيَعْلَمَ أَنِّي بَرِيئَةٌ ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ﴾ تَقُولُ المَرْأَةُ: وَلَسْتُ أُبَرِّئُ نَفْسِي؛ فَإِنَّ النَّفْسَ تَتَحَدَّثُ وَتَتَمَنَّى، وَلِهَذَا رَاوَدْتُهُ لِأَنَّهَا أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، أَيْ: إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ المَلِكِ حِينَ تَحَقَّقَ بَرَاءَةَ يُوسُفَ عليه السلام وَنَزَاهَةَ عِرْضِهِ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ، **قَالَ**: ﴿ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ أَيْ: أَجْعَلَهُ مِنْ خَاصَّتِي وَأَهْلِ مَشُورَتِي ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ ﴾ أَيْ: خَاطَبَهُ المَلِكُ وَعَرَفَهُ، وَرَأَى فَضْلَهُ وَبَرَاعَتَهُ وَعَلِمَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ خُلُقٍ وَخَلْقٍ وَكَمَالٍ، **قَالَ لَهُ المَلِكُ**: ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أَيْ: إِنَّكَ عِنْدَنَا قَدْ بَقِيتَ ذَا مَكَانَةٍ وَأَمَانَةٍ، **فَقَالَ يُوسُفُ** عليه السلام: ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَيَجُوزُ لِلرَّجُلِ ذَلِكَ إِذَا جُهِلَ

أَمْرُهُ لِلْحَاجَةِ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ ﴿ حَفِيظٌ ﴾ أَيْ : خَازِنٌ أَمِينٌ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ ذُو عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ بِمَا يَتَوَلَّاهُ .

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : أَرْضَ مِصْرَ ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ قِيلَ : يَتَصَرَّفُ فِيهَا كَيْفَ يَشَاءُ ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَتَّخِذُ مِنْهَا مَنْزِلًا حَيْثُ يَشَاءُ بَعْدَ الضِّيقِ وَالحَبْسِ ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ : وَمَا أَضَعْنَا صَبْرَ يُوسُفَ عَلَى أَذَى إِخْوَتِهِ ، وَصَبْرَهُ عَلَى الحَبْسِ بِسَبَبِ اِمْرَأَةِ الْعَزِيزِ ، فَلِهَذَا أَعْقَبَهُ اللهُ ﷻ السَّلَامَةَ وَالنَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مَا اِدَّخَرَهُ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ يُوسُفَ عليه السلام فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ وَأَجَلُّ مِمَّا خَوَّلَهُ مِنَ التَّصَرُّفِ وَالنُّفُوذِ فِي الدُّنْيَا .

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

ذَكَرَ عددٌ مِنَ المُفَسِّرِينَ : أَنَّ السَّبَبَ الَّذِي أَقْدَم إِخْوَةَ يُوسُفَ بِلَادَ مِصْرَ ، أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام لَمَّا بَاشَرَ الْوَزَارَةَ بِمِصْرَ ، وَمَضَتِ السَّبْعُ سِنِينَ المُخْصِبَةُ ثُمَّ تَلَتْهَا السَّبْعُ السِّنِينَ المُجْدِبَةُ وَعَمَّ الْقَحْطُ بِلَادَ مِصْرَ بِكَمَالِهَا ، وَوَصَلَ إِلَى بِلَادِ كَنْعَانَ وَهِيَ الَّتِي فِيهَا يَعْقُوبُ عليه السلام وَأَوْلَادُهُ ، وَحِينَئِذٍ اِحْتَاطَ يُوسُفُ عليه السلام لِلنَّاسِ فِي غِلَالِهِمْ وَجَمَعَهَا أَحْسَنَ جَمْعٍ ، فَحَصَلَ مِنْ ذَلِكَ مَبْلَغٌ عَظِيمٌ وَهَدَايَا مُتَعَدِّدَةٌ هَائِلَةٌ ، وَوَرَدَ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ وَالمُعَامَلَاتِ يَمْتَارُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَعِيَالِهِمْ ، فَكَانَ لَا يُعْطِي الرَّجُلَ أَكْثَرَ مِنْ حِمْلِ بَعِيرٍ فِي السَّنَةِ ، وَكَانَ عليه السلام لَا يُشْبِعُ نَفْسَهُ ، وَلَا يَأْكُلُ هُوَ وَالمَلِكُ وَجُنُودُهُمَا إِلَّا أَكْلَةً وَاحِدَةً فِي وَسَطِ النَّهَارِ ، حَتَّى يَتَكَفَّأَ النَّاسُ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مُدَّةَ السَّبْعِ سِنِينَ ، وَكَانَ رَحْمَةً مِنَ اللهِ عَلَى أَهْلِ مِصْرَ . **وَالْغَرَضُ** : أَنَّهُ كَانَ فِي جُمْلَةِ مَنْ وَرَدَ لِلْمِيرَةِ إِخْوَةُ يُوسُفَ عَنْ أَمْرِ أَبِيهِمْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ بَلَغَهُمْ أَنَّ عَزِيزَ مِصْرَ يُعْطِي النَّاسَ الطَّعَامَ بِثَمَنِهِ ، فَأَخَذُوا مَعَهُمْ بِضَاعَةً يَعْتَاضُونَ بِهَا طَعَامًا ، وَرَكِبُوا عَشَرَةَ نَفَرٍ ، وَاحْتَبَسَ يَعْقُوبُ عليه السلام عِنْدَهُ اِبْنَهُ بِنْيَامِينَ شَقِيقَ يُوسُفَ عليه السلام ، وَكَانَ أَحَبَّ وَلَدِهِ إِلَيْهِ بَعْدَ يُوسُفَ ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ

وَهُوَ جَالِسٌ فِي أُبَّهَتِهِ وَرِيَاسَتِهِ وَسِيَادَتِهِ ، عَرَفَهُمْ حِينَ نَظَرَ إِلَيْهِمْ ﴿ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَعْرِفُونَهُ لأَنَّهُمْ فَارَقُوهُ وَهُوَ صَغِيرٌ حَدَثٌ ، وَبَاعُوهُ لِلسَّيَّارَةِ وَلَمْ يَدْرُوا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهِ ، وَلَا كَانُوا يَسْتَشْعِرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَصِيرَ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ ، فَلِهَذَا لَمْ يَعْرِفُوهُ وَأَمَّا هُوَ فَعَرَفَهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أَيْ : أَوْفَى لَهُمْ كَيْلَهُمْ ، وَحَمَلَ لَهُمْ أَحْمَالَهُمْ ، قَالَ : ائْتُونِي بِأَخِيكُمْ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُمْ ، لأَعْلَمَ صِدْقَكُمْ فِيمَا ذَكَرْتُمْ ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ يُرَغِّبُهُمْ فِي الرُّجُوعِ إِلَيْهِ ، ثُمَّ رَهَّبَهُمْ فَقَالَ : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى ﴾ الْآيَةَ . أَيْ : إِنْ لَمْ تَقْدِمُوا بِهِ مَعَكُمْ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ فَلَيْسَ لَكُمْ عِنْدِي مِيرَةٌ ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ۝ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ أَيْ : سَنَحْرِصُ عَلَى مَجِيئِهِ إِلَيْكَ بِكُلِّ مُمْكِنٍ وَلَا نُبْقِي مَجْهُودًا ، لِتَعْلَمَ صِدْقَنَا فِيمَا قُلْنَاهُ . ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ﴾ أَيْ : غِلْمَانِهِ ﴿ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ ﴾ أَيْ : الَّتِي قَدِمُوا بِهَا لِيَمْتَارُوا عِوَضًا عَنْهَا ﴿ فِى رِحَالِهِمْ ﴾ أَيْ : فِي أَمْتِعَتِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ بِهَا . قِيلَ : خَشِيَ يُوسُفُ عليه السلام أَنْ لَا يَكُونَ عِنْدَهُمْ بِضَاعَةٌ أُخْرَى يَرْجِعُونَ لِلْمِيرَةِ بِهَا ، وَقِيلَ : تَذَمَّمَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ عِوَضًا عَنِ الطَّعَامِ ، وَقِيلَ : أَرَادَ أَنْ يَرُدَّهُمْ إِذَا وَجَدُوهَا فِي مَتَاعِهِمْ تَحَرُّجًا وَتَوَرُّعًا ؛ لأَنَّهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝

يَقُولُ تَعَالَى عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ ﴾ يَعْنُونَ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ ، إِنْ لَمْ تُرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا بِنْيَامِينَ ، ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالْيَاءِ ، أَيْ : يَكْتَلْ هُوَ ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَخَفْ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ سَيَرْجِعُ إِلَيْكَ ، وَهَذَا كَمَا قَالُوا لَهُ فِي يُوسُفَ : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ : ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : هَلْ أَنْتُمْ صَانِعُونَ بِهِ إِلَّا كَمَا صَنَعْتُمْ بِأَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ، تُغَيِّبُونَهُ عَنِّي وَتَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ؟ ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ «حَافِظًا» ، ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ أَيْ : هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ بِي وَسَيَرْحَمُ كِبَرِي وَضَعْفِي وَوَجْدِي بِوَلَدِي ، وَأَرْجُو مِنَ اللهِ أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيَّ وَيَجْمَعَ شَمْلِي بِهِ ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَلَمَّا فَتَحَ إِخْوَةُ يُوسُفَ مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ، وَهِيَ الَّتِي كَانَ أَمَرَ يُوسُفُ فِتْيَانَهُ بِوَضْعِهَا فِي رِحَالِهِمْ ، فَلَمَّا وَجَدُوهَا فِي مَتَاعِهِمْ ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ﴾ أَيْ : مَاذَا نُرِيدُ ﴿ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ كَمَا قَالَ قَتَادَةُ : مَا نَبْغِي وَرَاءَ هَذَا : إِنَّ بِضَاعَتَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ، وَقَدْ أَوْفَى لَنَا الْكَيْلَ ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أَيْ : إِذَا أَرْسَلْتَ أَخَانَا مَعَنَا نَأْتِي بِالْمِيرَةِ إِلَى أَهْلِنَا ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام كَانَ يُعْطِي كُلَّ رَجُلٍ حِمْلَ بَعِيرٍ ﴿ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْكَلَامِ وَتَحْسِينِهِ ، أَيْ : أَنَّ هَذَا يَسِيرٌ فِي مُقَابَلَةِ أَخْذِ أَخِيهِمْ ، مَا يَعْدِلُ هَذَا هَذَا ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : تَحْلِفُونَ بِالْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ ﴿ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إِلَّا أَنْ تُغْلَبُوا كُلُّكُمْ وَلَا تَقْدِرُونَ عَلَى تَخْلِيصِهِ ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ أَكَّدَهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : ﴿ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ يَعْقُوبَ عليه السلام إِنَّهُ أَمَرَ بَنِيهِ لَمَّا جَهَّزَهُمْ مَعَ أَخِيهِمْ بِنْيَامِينَ إِلَى مِصْرَ ، أَنْ لَا يَدْخُلُوا كُلُّهُمْ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ، وَلْيَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ؛ فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : إِنَّهُ خَشِيَ عَلَيْهِمُ الْعَيْنَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا ذَوِي جَمَالٍ وَهَيْئَةٍ حَسَنَةٍ وَمَنْظَرٍ وَبَهَاءٍ ، فَخَشِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَهُمُ النَّاسُ بِعُيُونِهِمْ ، فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ تَسْتَنْزِلُ الْفَارِسَ عَنْ فَرَسِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ أَيْ : إِنَّ هَذَا الِاحْتِرَازَ لَا يَرُدُّ قَدَرَ اللهِ وَقَضَاءَهُ ، فَإِنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ﴾ قَالُوا : هِيَ دَفْعُ إِصَابَةِ الْعَيْنِ لَهُمْ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ وَالثَّوْرِيُّ** : لَذُو عَمَلٍ بِعِلْمِهِ ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : لَذُو عِلْمٍ لِتَعْلِيمِنَا إِيَّاهُ .

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟

يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ لَمَّا قَدِمُوا عَلَى يُوسُفَ وَمَعَهُمْ أَخُوهُ شَقِيقُهُ بِنْيَامِين ، وَأَدْخَلَهُمْ دَارَ كَرَامَتِهِ وَمَنْزِلَ ضِيَافَتِهِ ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِمُ الصِّلَةَ وَالأَلْطَافَ وَالإِحْسَانَ ، وَاخْتَلَى بِأَخِيهِ فَأَطْلَعَهُ عَلَى شَأْنِهِ وَمَا جَرَى لَهُ ، وَعَرَّفَهُ أَنَّهُ أَخُوهُ وَقَالَ لَهُ : لَا تَبْتَئِسْ ، أَيْ : لَا تَأْسَفْ عَلَى مَا صَنَعُوا بِي ، وَأَمَرَهُ بِكِتْمَانِ ذَلِكَ عَنْهُم وَأَنْ لَا يُطْلِعَهُمْ عَلَى مَا أَطْلَعَهُ عَلَيْهِ مِنْ أَنَّهُ أَخُوهُ ، وَتَوَاطَأَ مَعَهُ أَنَّهُ سَيَحْتَالُ عَلَى أَنْ يُبْقِيَهُ عِنْدَهُ مُعَزَّزًا مُكَرَّمًا مُعَظَّمًا .

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

لَمَّا جَهَّزَهُمْ وَحَمَّلَ لَهُمْ أَبْعِرَتَهُمْ طَعَامًا ، أَمَرَ بَعْضَ فِتْيَانِهِ أَنْ يَضَعَ السِّقَايَةَ وَهِيَ إِنَاءٌ مِنْ فِضَّةٍ فِي قَوْلِ الأَكْثَرِينَ ، وَقِيلَ : مِنْ ذَهَبٍ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : كَانَ يَشْرَبُ فِيهِ وَيَكِيلُ لِلنَّاسِ بِهِ مِنْ عِزَّةِ الطَّعَامِ إِذْ ذَاكَ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: ﴿ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ قَالَ : كَانَ مِنْ فِضَّةٍ يَشْرَبُونَ فِيهِ ، وَكَانَ مِثْلَ المَكُّوكِ ، وَكَانَ لِلْعَبَّاسِ مِثْلُهُ فِي الجَاهِلِيَّةِ ، فَوَضَعَهَا فِي مَتَاعِ بِنْيَامِين مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ أَحَدٌ ، ثُمَّ نَادَى مُنَادٍ بَيْنَهُمْ ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ فَالْتَفَتُوا إِلَى المُنَادِي ، وَقَالُوا : ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ أَيْ : صَاعَهُ الَّذِي يَكِيلُ بِهِ ﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ الجُعَالَةِ ﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الضَّمَانِ وَالْكَفَالَةِ .

قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

لَمَّا اتَّهَمَهُمْ أُولَئِكَ الْفِتْيَانُ بِالسَّرِقَةِ ، قَالَ لَهُمْ إِخْوَةُ يُوسُفَ : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ أَيْ : لَقَدْ تَحَقَّقْتُمْ وَعَلِمْتُمْ مُنْذُ عَرَفْتُمُونَا - لأَنَّهُمْ شَاهَدُوا مِنْهُمْ سِيرَةً حَسَنَةً - أَنَّا مَا جِئْنَا لِلفسادِ فِي الأَرْضِ ﴿ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ أَيْ : لَيْسَتْ سَجَايَانَا

تَقْتَضِي هَذِهِ الصِّفَةَ ، فَقَالَ لَهُمُ الْفِتْيَانُ : ﴿ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ ﴾ أَيْ : السَّارِقُ إِنْ كَانَ فِيكُمْ ﴿ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ أَيْ : أَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ عُقُوبَتَهُ إِنْ وَجَدْنَا فِيكُمْ مَنْ أَخَذَهُ ؟ ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وَهَكَذَا كَانَتْ شَرِيعَةُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ : أَنَّ السَّارِقَ يُدْفَعُ إِلَى المَسْرُوقِ مِنْهُ ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَرَادَ يُوسُفُ ﷺ ، وَلِهَذَا بَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ، أَيْ : فَتَّشَهَا قَبْلَه تَوْرِيَةً ﴿ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ فَأَخَذَهُ مِنْهُمْ بِحُكْمِ اعْتِرَافِهِمْ وَالْتِزَامِهِمْ ، إِلْزَامًا لَهُمْ بِمَا يَعْتَقِدُونَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ وَهَذَا مِنَ الْكَيْدِ المَحْبُوبِ المُرَادِ ، الَّذِي يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ ، لِمَا فِيهِ مِنَ الحِكْمَةِ وَالمَصْلَحَةِ المَطْلُوبَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ أَيْ : لَمْ يَكُنْ لَهُ أَخْذُهُ فِي حُكْمِ مَلِكِ مِصْرَ ، وَإِنَّمَا قَيَّضَ اللهُ لَهُ أَنِ الْتَزَمَ لَهُ إِخْوَتُهُ بِمَا الْتَزَمُوهُ ، وَهُوَ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ شَرِيعَتِهِمْ ، وَلِهَذَا مَدَحَهُ اللهُ تَعَالَى فَقَالَ : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ [المجادلة : ١١] ، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ لَيْسَ عَالِمٌ إِلَّا فَوْقَهُ عَالِمٌ حَتَّى يَنْتَهِي إِلَى اللهِ ﷻ .

وَقَالَ قَتَادَةُ : وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ حَتَّى يَنْتَهِي الْعِلْمُ إِلَى اللهِ ، مِنْهُ بُدِئَ وَتَعَلَّمَتِ الْعُلَمَاءُ ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ .

۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

وَقَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لَمَّا رَأَوْا الصُّوَاعَ قَدْ أُخْرِجَ مِنْ مَتَاعِ بِنْيَامِين : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ يَتَنَصَّلُونَ إِلَى الْعَزِيزِ مِنَ التَّشَبُّهِ بِهِ ، وَيَذْكُرُونَ أَنَّ هَذَا فَعَلَ كَمَا فَعَلَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، يَعْنُونَ بِهِ يُوسُفَ ﷺ ، قِيلَ : كَانَ يُوسُفُ ﷺ قَدْ سَرَقَ صَنَمًا لِجَدِّهِ أَبِي أُمِّهِ فَكَسَرَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ ﴾ يَعْنِي الْكَلِمَةَ الَّتِي بَعْدَهَا ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أَيْ : تَذْكُرُونَ ، قَالَ هَذَا فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهِ لَهُمْ .

قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

لَمَّا تَعَيَّنَ أَخْذُ بِنْيَامِينَ وَتَقَرَّرَ تَرْكُهُ عِنْدَ يُوسُفَ بِمُقْتَضَى اعْتِرَافِهِمْ ، شَرَعُوا يَتَرَقَّقُونَ لَهُ وَيَعْطِفُونَهُ عَلَيْهِمْ ، فَقَالُوا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ يَعْنُونَ : وَهُوَ يُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا وَيَتَسَلَّى بِهِ عَنْ وَلَدِهِ الَّذِي فَقَدَهُ ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾ أَيْ : بَدَلَهُ يَكُونُ عِنْدَكَ عِوَضًا عَنْهُ ﴿ إِنَّا

نَزَٰلكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ : الْعَادِلِينَ الْمُنْصِفِينَ الْقَابِلِينَ لِلْخَيْرِ ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥ ﴾ أَيْ : كَمَا قُلْتُمْ وَاعْتَرَفْتُمْ ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : إِنْ أَخَذْنَا بَرِيئًا بِسَقِيمٍ .

فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ أَنَّهُمْ لَمَّا يَئِسُوا مِنْ تَخْلِيصِ أَخِيهِمْ بِنْيَامِينَ ، الَّذِي قَدِ الْتَزَمُوا لِأَبِيهِمْ بِرَدِّهِ إِلَيْهِ ، وَعَاهَدُوهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَامْتَنَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ﴿ خَلَصُواْ ﴾ أَيْ : انْفَرَدُوا عَنِ النَّاسِ ﴿ نَجِيًّا ﴾ يَتَنَاجَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ لَتَرُدُّنَّهُ إِلَيْهِ ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ كَيْفَ تَعَذَّرَ عَلَيْكُمْ ذَلِكَ ، مَعَ مَا تَقَدَّمَ لَكُمْ مِنْ إِضَاعَةِ يُوسُفَ عَنْهُ ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ أَيْ : لَنْ أُفَارِقَ هَذِهِ الْبَلْدَةَ ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ ﴾ فِي الرُّجُوعِ إِلَيْهِ رَاضِيًا عَنِّي ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ﴾ قِيلَ : بِالسَّيْفِ ، وَقِيلَ : بِأَنْ يُمَكِّنَنِي مِنْ أَخْذِ أَخِي ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ .

ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يُخْبِرُوا أَبَاهُمْ بِصُورَةِ مَا وَقَعَ حَتَّى يَكُونَ عُذْرًا لَهُمْ عِنْدَهُ ، وَيَتَنَصَّلُوا إِلَيْهِ وَيَبْرَءُوا مِمَّا وَقَعَ بِقَوْلِهِمْ : ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ : مَا نَعْلَمُ أَنَّ ابْنَكَ يَسْرِقُ ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أَيْ : الَّتِي رَافَقْنَاهَا عَنْ صِدْقِنَا وَأَمَانَتِنَا وَحِفْظِنَا وَحِرَاسَتِنَا ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ سَرَقَ وَأَخَذُوهُ بِسَرِقَتِهِ .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

قَالَ لَهُمْ كَمَا قَالَ لَهُمْ حِينَ جَاءُوا عَلَى قَمِيصِ يُوسُفَ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : لَمَّا جَاءُوا يَعْقُوبَ وَأَخْبَرُوهُ بِمَا يَجْرِي اتَّهَمَهُمْ ، وَظَنَّ أَنَّهَا

كَفَعْلَتِهِمْ بِيُوسُفَ قَالَ : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ ثُمَّ تَرَجَّى مِنَ اللهِ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ أَوْلَادَهُ الثَّلَاثَةَ يُوسُفَ وَأَخَاهُ بِنْيَامِينَ وَرُوبِيلَ الَّذِي أَقَامَ بِدِيَارِ مِصْرَ يَنْتَظِرُ أَمْرَ اللهِ فِيهِ ، إِمَّا أَنْ يَرْضَى عَنْهُ أَبُوهُ فَيَأْمُرُهُ بِالرُّجُوعِ إِلَيْهِ ، وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذَ أَخَاهُ خُفْيَةً ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ : الْعَلِيمُ بِحَالِي ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي أَفْعَالِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أَيْ : أَعْرَضَ عَنْ بَنِيهِ ، وَقَالَ مُتَذَكِّرًا حُزْنَ يُوسُفَ الْأَوَّلَ : ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ جَدَّدَ لَهُ حُزْنُ الِابْنَيْنِ الْحُزْنَ الدَّفِينَ ، **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ غَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الِاسْتِرْجَاعُ ، أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى قَوْلِ يَعْقُوبَ ﷺ : ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أَيْ : سَاكِتٌ لَا يَشْكُو أَمْرَهُ إِلَى مَخْلُوقٍ ، **وَقِيلَ** : كَئِيبٌ حَزِينٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ أَيْ : لَا تُفَارِقُ تَذَكُّرَ يُوسُفَ ﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ أَيْ : ضَعِيفَ الْقُوَّةِ ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ يَقُولُونَ : إِنِ اسْتَمَرَّ بِكَ هَذَا الْحَالُ خَشِينَا عَلَيْكَ الْهَلَاكَ وَالتَّلَفَ . ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : أَجَابَهُمْ عَمَّا قَالُوا بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ ﴾ أَيْ : هَمِّي وَمَا أَنَا فِيهِ ﴿ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ وَحْدَهُ ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : أَرْجُو مِنْهُ كُلَّ خَيْرٍ . **وَقِيلَ** : أَعْلَمُ أَنَّ رُؤْيَا يُوسُفَ صَادِقَةٌ وَأَنِّي سَوْفَ أَسْجُدُ لَهُ .

يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَعْقُوبَ ﷺ : إِنَّهُ نَدَبَ بَنِيهِ عَلَى الذَّهَابِ فِي الْأَرْضِ يَسْتَعْلِمُونَ أَخْبَارَ يُوسُفَ وَأَخِيهِ بِنْيَامِينَ ، وَالتَّحَسُّسُ يَكُونُ فِي الْخَيْرِ ، وَالتَّجَسُّسُ يَكُونُ فِي الشَّرِّ ، وَنَهَضَهُمْ وَبَشَّرَهُمْ وَأَمَرَهُمْ أَنْ لَا يَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ ، أَيْ لَا يَقْطَعُوا رَجَاءَهُمْ وَأَمَلَهُمْ مِنَ اللهِ فِيمَا يَرُومُونَهُ وَيَقْصِدُونَهُ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَقْطَعُ الرَّجَاءَ وَلَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ : فَذَهَبُوا وَدَخَلُوا مِصْرَ ، وَدَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ يَعْنُونَ مِنَ الْجَدْبِ وَالْقَحْطِ وَقِلَّةِ الطَّعَامِ ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ ﴾ أَيْ : وَمَعَنَا ثَمَنُ الطَّعَامِ الَّذِي نَمْتَارُهُ ، وَهُوَ ثَمَنٌ قَلِيلٌ ، **وَقِيلَ** : الدَّرَاهِمُ الرَّدِيئَةُ الَّتِي لَا تَجُوزُ إِلَّا بِنُقْصَانٍ ، **وَقِيلَ** : فَاسِدَةٌ لَا تُنْفَقُ . **وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْهُمْ** : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ ﴾ أَيْ : أَعْطِنَا بِهَذَا الثَّمَنِ الْقَلِيلِ مَا كُنْتَ تُعْطِينَا قَبْلَ ذَلِكَ ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ **قِيلَ** : بِرَدِّ أَخِينَا إِلَيْنَا ، **وَقِيلَ** : تَصَدَّقْ عَلَيْنَا بِقَبْضِ هَذِهِ الْبِضَاعَةِ الْمُزْجَاةِ وَتَجَوَّزْ فِيهَا .

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يُوسُفَ ﷺ : إِنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ لَهُ إِخْوَتُهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الجَهْدِ وَالضِّيقِ وَقِلَّةِ الطَّعَامِ وَعُمُومِ الجَدْبِ ، وَتَذَكَّرَ أَبَاهُ وَمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الحُزْنِ لِفَقْدِ وَلَدَيْهِ ، مَعَ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ المُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ وَالسَّعَةِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَتْهُ رِقَّةٌ وَرَأْفَةٌ وَرَحْمَةٌ وَشَفَقَةٌ عَلَى أَبِيهِ لِإِخْوَتِهِ وَبَدَرَهُ الْبُكَاءُ فَتَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ ، فَيُقَالُ : إِنَّهُ رَفَعَ التَّاجَ عَنْ جَبْهَتِهِ وَكَانَ فِيهَا شَامَةٌ وَقَالَ : ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ يَعْنِي : كَيْفَ فَرَّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا حَمَلَكُمْ عَلَى هَذَا الجَهْلُ بِمِقْدَارِ هَذَا الَّذِي اِرْتَكَبْتُمُوهُ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : كُلُّ مَنْ عَصَى اللهَ فَهُوَ جَاهِلٌ ، وَقَرَأَ ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ [النحل : ١١٩]

وَالظَّاهِرُ – وَاللهُ أَعْلَمُ – أَنَّ يُوسُفَ ﷺ إِنَّمَا تَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ ، بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى لَهُ فِي ذَلِكَ ، كَمَا أَنَّهُ إِنَّمَا أَخْفَى مِنْهُمْ نَفْسَهُ فِي المَرَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . وَلَكِنْ لَمَّا ضَاقَ الحَالُ وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ ، فَرَّجَ اللهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ الضِّيقِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ – ٦] . فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا : ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ أَيْ : أَنَّهُمْ تَعَجَّبُوا مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَتَرَدَّدُونَ إِلَيْهِ مِنْ سَنَتَيْنِ وَأَكْثَر وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ ، وَهُوَ مَعَ هَذَا يَعْرِفُهُمْ وَيَكْتُمُ نَفْسَهُ ، فَلِهَذَا قَالُوا عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِفْهَامِ : ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾ أَيْ : بِجَمْعِهِ بَيْنَنَا بَعْدَ التَّفْرِقَةِ ، وَبَعْدَ المُدَّةِ ، ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ الْآيَةَ ، يَقُولُونَ مُعْتَرِفِينَ لَهُ بِالْفَضْلِ وَالْأَثَرَةِ عَلَيْهِمْ فِي الخُلُقِ وَالخَلْقِ ، وَالسَّعَةِ وَالمُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ وَالنُّبُوَّةِ أَيْضًا ، وَأَقَرُّوا بِأَنَّهُمْ أَسَاءُوا إِلَيْهِ وَاخْطَئُوا فِي حَقِّهِ . ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ يَقُولُ : لَا تَأْنِيبَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَتْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، وَلَا أُعِيدُ عَلَيْكُمْ ذَنْبَكُمْ فِي حَقِّي بَعْدَ الْيَوْمِ ، ثُمَّ زَادَهُمُ الدُّعَاءَ لَهُمْ بِالمَغْفِرَةِ فَقَالَ : ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ أَيْ : يَسْتُرُ اللهُ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْتُمْ ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾

يَقُولُ : اِذْهَبُوا بِهَذَا الْقَمِيصِ ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ وَكَانَ قَدْ عَمِيَ مِنْ كَثْرَةِ الْبُكَاءِ ﴿ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أَيْ : بِجَمِيعِ بَنِي يَعْقُوبَ . ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾ أَيْ : خَرَجَتْ مِنْ مِصْرَ ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ يَعْنِي : يَعْقُوبَ عليه السلام لِمَنْ بَقِيَ عِنْدَهُ مِنْ بَنِيهِ ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ تَنْسُبُونِي إِلَى الْفَنَدِ وَالْكِبَرِ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾ قَالَ : لَمَّا خَرَجَتِ الْعِيرُ هَاجَتْ رِيحٌ فَجَاءَتْ يَعْقُوبَ بِرِيحِ قَمِيصِ يُوسُفَ ، فَقَالَ : ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ قَالَ فَوَجَدَ رِيحَهُ مِنْ مَسِيرَةِ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ ﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ **أَيْ** : تُسَفِّهُونِ ، وَقَوْلُهُمْ : ﴿ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ لَفِي خَطَئِكَ الْقَدِيمِ ، **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : أَيْ : مِنْ حُبِّ يُوسُفَ لَا تَنْسَاهُ وَلَا تَسْلَاهُ ، قَالُوا لِوَالِدِهِمْ كَلِمَةً غَلِيظَةً ، لَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَقُولُوهَا لِوَالِدِهِمْ ، وَلَا لِنَبِيِّ اللهِ ﷺ .

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

﴿ ٱلْبَشِيرُ ﴾ الْبَرِيدُ . **قَالَ السُّدِّيُّ** : إِنَّمَا جَاءَ بِهِ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي جَاءَ بِالْقَمِيصِ وَهُوَ مُلَطَّخٌ بِدَمٍ كَذِبٍ ، فَأَحَبَّ أَنْ يَغْسِلَ ذَلِكَ بِهَذَا ، فَجَاءَ بِالْقَمِيصِ فَأَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِ أَبِيهِ فَرَجَعَ بَصِيرًا ، وَقَالَ لِبَنِيهِ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ سَيَرُدُّهُ إِلَيَّ ، وَقُلْتُ لَكُمْ : ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ . فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا لِأَبِيهِمْ مُتَرَفِّقِينَ لَهُ : ﴿ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أَيْ : مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : أَرْجَأَهُمْ إِلَى وَقْتِ السَّحَرِ .

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ وُرُودِ يَعْقُوبَ عليه السلام عَلَى يُوسُفَ عليه السلام وَقُدُومِهِ بِلَادَ مِصْرَ ، لَمَّا كَانَ يُوسُفُ قَدْ تَقَدَّمَ لِإِخْوَتِهِ أَنْ يَأْتُوهُ بِأَهْلِهِمْ أَجْمَعِينَ ، فَتَحَمَّلُوا عَنْ آخِرِهِمْ وَتَرَحَّلُوا مِنْ بِلَادِ كَنْعَانَ

قَاصِدِينَ بِلَادَ مِصْرَ ، فَلَمَّا أُخْبِرَ يُوسُفُ عليه السلام بِاقْتِرَابِهِمْ خَرَجَ لِتَلَقِّيهِمْ ، وَأَمَرَ الْمَلِكُ أُمَرَاءَهُ وَأَكَابِرَ النَّاسِ بِالْخُرُوجِ مَعَ يُوسُفَ لِتَلَقِّي نَبِيِّ اللهِ يَعْقُوبَ عليه السلام ، وَيُقَالُ إِنَّ الْمَلِكَ خَرَجَ أَيْضًا لِتَلَقِّيهِ وَهُوَ الْأَشْبَهُ ، وَقَدْ أَشْكَلَ قَوْلُهُ : ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ ﴾ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هَذَا مِنَ الْمُقَدَّمِ وَالْمُؤَخَّرِ وَمَعْنَى الْكَلَامِ : ﴿ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ وَأَوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَرَفَعَهُمَا عَلَى الْعَرْشِ ، وَرَدَّ ابْنُ جَرِيرٍ هَذَا وَأَجَادَ فِي ذَلِكَ ، ثُمَّ اخْتَارَ مَا حَكَاهُ عَنِ السُّدِّيِّ : أَنَّ يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ لَمَّا تَلَقَّاهُمَا ، ثُمَّ لَمَّا وَصَلُوا بَابَ الْبَلَدِ قَالَ : ﴿ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ ، وَفِي هَذَا نَظَرٌ أَيْضًا ؛ لأَنَّ الْإِيوَاءَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْمَنْزِلِ كَقَوْلِهِ : ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ ، وَفِي الْحَدِيثِ « مَنْ أَوَى مُحْدِثًا » . وَمَا الْمَانِعُ أَنْ يَكُونَ قَالَ لَهُمْ بَعْدَمَا دَخَلُوا عَلَيْهِ وَآوَاهُمْ إِلَيْهَا : ادْخُلُوا مِصْرَ ، وَضَمَّنَهُ اسْكُنُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ ، أَيْ : مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْجَهْدِ وَالْقَحْطِ ؟. وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يَعْنِي السَّرِيرَ ، أَيْ : أَجْلَسَهُمَا مَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ ﴿ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ أَيْ : سَجَدَ لَهُ أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ الْبَاقُونَ ، وَكَانُوا أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : الَّتِي كَانَ قَصَّهَا عَلَى أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ . وَقَدْ كَانَ هَذَا سَائِغًا فِي شَرَائِعِهِمْ : إِذَا سَلَّمُوا عَلَى الْكَبِيرِ يَسْجُدُونَ لَهُ ، وَلَمْ يَزَلْ هَذَا جَائِزًا مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى شَرِيعَةِ عِيسَى عليه السلام ، فَحُرِّمَ هَذَا فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ وَجُعِلَ السُّجُودُ مُخْتَصًّا بِجَنَابِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ أَيْ : صَحِيحَةً صِدْقًا يَذْكُرُ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِ ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ أَيْ : الْبَادِيَةِ .﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ أَيْ : إِذَا أَرَادَ أَمْرًا قَيَّضَ لَهُ أَسْبَابًا وَقَدَّرَهُ وَيَسَّرَهُ ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، وَمَا يَخْتَارُهُ وَيُرِيدُهُ .

رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

هَذَا دُعَاءٌ مِنْ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ ، دَعَا بِهِ رَبَّهُ عز وجل لَمَّا تَمَّتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ بِاجْتِمَاعِهِ بِأَبَوَيْهِ وَأَخَوَيْهِ ، وَمَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ ، سَأَلَ رَبَّهُ عز وجل كَمَا أَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا أَنْ يَسْتَمِرَّ بِهَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَأَنْ يَتَوَفَّاهُ مُسْلِمًا حِينَ يَتَوَفَّاهُ ، وَأَنْ يُلْحِقَهُ بِالصَّالِحِينَ وَهُمْ إِخْوَتُهُ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَهَذَا الدُّعَاءُ يَحْتَمِلُ أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام قَالَهُ عِنْدَ احْتِضَارِهِ .

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

يُقَرِّرُ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ لَمَّا قَصَّ عَلَيْهِ نَبَأَ إِخْوَةِ يُوسُفَ، وَكَيْفَ رَفَعَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَ لَهُ الْعَاقِبَةَ وَالنَّصْرَ وَالْمُلْكَ وَالْحُكْمَ، مَعَ مَا أَرَادُوا بِهِ مِنَ السُّوءِ وَالْهَلَاكِ وَالْإِعْدَامِ، هَذَا وَأَمْثَالُهُ يَا مُحَمَّدُ مِنْ أَخْبَارِ الْغُيُوبِ السَّابِقَةِ ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ وَنُعْلِمُكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْعِبْرَةِ لَكَ وَالِاتِّعَاظِ لِمَنْ خَالَفَكَ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ حَاضِرًا عِنْدَهُمْ وَلَا مُشَاهِدًا لَهُمْ ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ أَيْ: عَلَى إِلْقَائِهِ فِي الْجُبِّ ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بِهِ، وَلَكِنَّا أَعْلَمْنَاكَ بِهِ وَحْيًا إِلَيْكَ وَإِنْزَالًا عَلَيْكَ، يَقُولُ تَعَالَى إِنَّهُ رَسُولُهُ، وَإِنَّهُ قَدْ أَطْلَعَهُ عَلَى أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ مِمَّا فِيهِ عِبْرَةٌ لِلنَّاسِ وَنَجَاةٌ لَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنَ أَكْثَرُ النَّاسِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أَيْ: مَا تَسْأَلُهُمْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى هَذَا النُّصْحِ وَالدُّعَاءِ إِلَى الْخَيْرِ وَالرُّشْدِ مِنْ أَجْرٍ، أَيْ: مِنْ جَعَالَةٍ وَلَا أُجْرَةٍ بَلْ تَفْعَلُهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَنُصْحًا لِخَلْقِهِ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أَيْ: يَتَذَكَّرُونَ بِهِ وَيَهْتَدُونَ وَيَنْجُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ غَفْلَةِ أَكْثَرِ النَّاسِ عَنِ التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ اللهِ وَدَلَائِلِ تَوْحِيدِهِ، بِمَا خَلَقَهُ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ كَوَاكِبَ زَاهِرَاتٍ ثَوَابِتَ، وَسَيَّارَاتٍ وَأَفْلَاكٍ دَائِرَاتٍ، وَالْجَمِيعُ مُسَخَّرَاتٌ، وَكَمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ قِطَعٍ مُتَجَاوِرَاتٍ، وَحَدَائِقَ وَجَنَّاتٍ، وَجِبَالٍ رَاسِيَاتٍ، وَبِحَارٍ زَاخِرَاتٍ، وَأَمْوَاجٍ مُتَلَاطِمَاتٍ، وَقِفَارٍ شَاسِعَاتٍ، وَكَمْ مِنْ أَحْيَاءٍ وَأَمْوَاتٍ، وَحَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ، وَثَمَرَاتٍ مُتَشَابِهَةٍ وَمُخْتَلِفَاتٍ فِي الطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ وَالْأَلْوَانِ وَالصِّفَاتِ، فَسُبْحَانَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ خَالِقُ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ، الْمُتَفَرِّدُ بِالدَّوَامِ وَالْبَقَاءِ وَالصَّمَدِيَّةِ، ذِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ**: مِنْ إِيمَانِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ؟ وَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ وَمَنْ خَلَقَ الْجِبَالَ؟ قَالُوا: اللهُ، وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ، وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ ذَلِكَ الْمُنَافِقُ

يَعْمَلُ إِذَا عَمِلَ رِيَاءَ النَّاسِ ، وَهُوَ مُشْرِكٌ بِعَمَلِهِ ذَلِكَ . ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ ، أَيْ : أَفَأَمِنَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِاللهِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ أَمْرٌ يَغْشَاهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .

قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ إِلَى الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، آمِرًا لَهُ أَنْ يُخْبِرَ النَّاسَ أَنَّ هَذِهِ سَبِيلُهُ أَيْ : طَرِيقَتُهُ وَمَسْلَكُهُ وَسُنَّتُهُ ، وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، يَدْعُو إِلَى اللهِ بِهَا عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَيَقِينٍ وَبُرْهَانٍ ، وَكُلُّ مَنِ اتَّبَعَهُ يَدْعُو إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بَصِيرَةٍ وَيَقِينٍ وَبُرْهَانٍ شَرْعِيٍّ وَعَقْلِيٍّ . **وَقَوْلُهُ:** ﴿ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : وَأُنَزِّهُ اللهَ وَأُجِلُّهُ وَأُعَظِّمُهُ وَأُقَدِّسُهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ عَدِيلٌ أَوْ نَدِيدٌ ، أَوْ وَلَدٌ أَوْ وَالِدٌ ، أَوْ صَاحِبَةٌ أَوْ وَزِيرٌ أَوْ مُشِيرٌ ، تَبَارَكَ وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ عُلُوًّا كَبِيرًا .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِنَّمَا أَرْسَلَ رُسُلَهُ مِنَ الرِّجَالِ لَا مِنَ النِّسَاءِ ، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : **إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُوحِ إِلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنَاتِ بَنِي آدَمَ وَحْيَ تَشْرِيعٍ . وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي النِّسَاءِ نَبِيَّةٌ وَإِنَّمَا فِيهِنَّ صِدِّيقَاتٌ .**

وَقَوْلُهُ: ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ الْمُرَادُ بِالْقُرَى : الْمُدُنِ ، لَا أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَجْفَى النَّاسِ طِبَاعًا وَأَخْلَاقًا ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْهُودُ الْمَعْرُوفُ أَنَّ أَهْلَ الْمُدُنِ أَرَقُّ طِبَاعًا وَأَلْطَفُ مِنْ أَهْلِ بَوَادِيهِمْ ، وَأَهْلُ الرِّيفِ وَالسَّوَادِ أَقْرَبُ حَالًا مِنَ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ فِي الْبَوَادِي .

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يَعْنِي : هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ فِي الْأَرْضِ ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ ، كَيْفَ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ؟ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج : ٤٦] . فَإِذَا اسْتَمَعُوا خَبَرَ ذَلِكَ ، رَأَوْا أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ الْكَافِرِينَ وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ ، وَهَذِهِ كَانَتْ سُنَّتُهُ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ﴾ **أَيْ** : وَكَمَا نَجَّيْنَا الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا ، كَذَلِكَ كَتَبْنَا لَهُمُ النَّجَاةَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَهِيَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بِكَثِيرٍ ، وَأَضَافَ الدَّارَ

إِلَى الْآخِرَةِ فَقَالَ : ﴿ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ ﴾ ، كَمَا يُقَالُ صَلَاةُ الْأُولَى ، وَمَسْجِدُ الجَامِعِ ، وَعَامُ أَوَّل .

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّ نَصْرَهُ يَنْزِلُ عَلَى رُسُلِهِ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - عِنْدَ ضِيقِ الحَالِ وَانْتِظَارِ الْفَرَجِ مِنَ الله فِي أَحْوَجِ الْأَوْقَاتِ إِلَى ذَلِكَ . وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ كُذِبُواْ ﴾ **قِرَاءَتَانِ إِحْدَاهُمَا بِالتَّشْدِيدِ** قَدْ كُذِّبُوا ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - تَقْرَؤُهَا ، **رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ** عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ وَهُوَ يَسْأَلُهَا عَنْ قَوْلِ الله تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ قَالَ : قُلْتُ : أَكُذِبُوا أَمْ كُذِّبُوا ؟ قَالَتْ عَائِشَةُ : ﴿ كُذِّبُواْ ﴾ قُلْتُ : فَقَدِ اسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ ، فَمَا هُوَ بِالظَّنِّ ؟ قَالَتْ : أَجَلْ لَعَمْرِي ، لَقَدِ اسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ ، فَقُلْتُ لَهَا : ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ ، فَقَالَتْ : مَعَاذَ الله ، لَمْ تَكُنِ الرُّسُلُ تَظُنُّ ذَلِكَ بِرَبِّهَا ، قُلْتُ : فَمَا هَذِهِ الْآيَةُ ؟ قَالَتْ : هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَصَدَّقُوهُمْ ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمُ النَّصْرُ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ ، وَظَنَّتِ الرُّسُلُ أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ ، جَاءَهُمْ نَصْرُ الله عِنْدَ ذَلِكَ . **وَالْقِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ** : بِالتَّخْفِيفِ ؛ وَاخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِهَا ، فَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ مِنْ إِيمَانِ قَوْمِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ ، وَظَنَّ قَوْمُهُمْ حِينَ أَبْطَأَ الْأَمْرُ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا بِالتَّخْفِيفِ .

لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى لَقَدْ كَانَ فِي خَبَرِ الْمُرْسَلِينَ مَعَ قَوْمِهِمْ وَكَيْفَ نَجَّيْنَا الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلَكْنَا الْكَافِرِينَ ﴿ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وَهِيَ الْعُقُولُ ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ أَيْ : وَمَا كَانَ لِهَذَا الْقُرْآنِ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ الله ، أَيْ : يُكْذَبُ وَيُخْلَقُ ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ ، هُوَ يُصَدِّقُ مَا فِيهَا مِنَ الصَّحِيحِ ، وَيَنْفِي مَا وَقَعَ فِيهَا مِنْ تَحْرِيفٍ وَتَبْدِيلٍ وَتَغْيِيرٍ ، وَيَحْكُمُ عَلَيْهَا بِالنَّسْخِ أَوِ التَّقْرِيرِ ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ مِنْ تَحْلِيلٍ وَتَحْرِيمٍ وَمَحْبُوبٍ وَمَكْرُوهٍ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْرِ بِالطَّاعَاتِ وَالْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ وَمَا شَاكَلَهَا مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ ، وَالْإِخْبَارِ عَنِ الْأُمُورِ الجَلِيَّةِ وَعَنِ الْغُيُوبِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ الْمُجْمَلَةِ وَالتَّفْصِيلِيَّةِ ، وَالْإِخْبَارِ عَنِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ ، وَتَنَزُّهُهُ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ

فَلِهَذَا كَانَتْ ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ تَهْتَدِي بِهِ قُلُوبُهُم مِنَ الْغَيِّ إِلَى الرَّشَادِ ، وَمِنَ الضَّلَالِ إِلَى السَّدَادِ ، وَيَبْتَغُونَ بِهَا الرَّحْمَةَ مِنْ رَبِّ الْعِبَادِ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ المَعَادِ ، فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، يَوْمَ يَفُوزُ بِالرِّبْحِ الْمُبَيَّضَةُ وُجُوهُهُمُ النَّاضِرَةُ ، وَيَرْجِعُ الْمُسَوَّدَةُ وُجُوهُهُمْ بِالصَّفْقَةِ الخَاسِرَةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ يُوسُفَ عليه السلام وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ وَبِهِ الْمُسْتَعَانُ

آياتها ٤٣ تفسِيرُ سُورَةِ الرَّعْدِ مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ البَقَرَةِ ، وَقَدَّمْنَا أَنَّ كُلَّ سُورَةٍ تَبْتَدِئُ بِهَذِهِ الحُرُوفِ فَفِيهَا الانْتِصَارُ لِلْقُرْآنِ ، وَتِبْيَانُ أَنَّ نُزُولَهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ وَلَا رَيْبَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أَيْ : هَذِهِ آيَاتُ الْكِتَابِ وَهُوَ الْقُرْآنُ ، ثُمَّ عُطِفَ عَلَى ذَلِكَ عَطْفُ صِفَاتٍ فَقَالَ : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ﴾ خَبَرٌ تَقَدَّمَ مُبْتَدَؤُهُ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَالجَلَاءِ وَالْوُضُوحِ لَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ لِمَا فِيهِمْ مِنَ الشِّقَاقِ وَالْعِنَادِ وَالنِّفَاقِ .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ أَنَّهُ الَّذِي بِإِذْنِهِ وَأَمْرِهِ رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ، بَلْ بِإِذْنِهِ وَأَمْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ رَفَعَهَا عَنِ الأَرْضِ بُعْدًا لَا تُنَالُ وَلَا يُدْرَكُ مَدَاهَا ، فَالسَّمَاءُ الدُّنْيَا مُحِيطَةٌ بِجَمِيعِ الْأَرْضِ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ المَاءِ وَالهَوَاءِ ، مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهَا وَجِهَاتِهَا وَأَرْجَائِهَا ، مُرْتَفِعَةٌ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ عَلَى السَّوَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : لَهَا عَمَدٌ وَلَكِنْ لَا تُرَى ، وَقَالَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ : السَّمَاءُ مُقَبَّبَةٌ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلَ الْقُبَّةِ يَعْنِي : بِلَا عَمَدٍ ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ : ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ تَأْكِيدًا لِنَفْيِ ذَلِكَ ، أَيْ : هِيَ مَرْفُوعَةٌ بِغَيْرِ عَمَدٍ كَمَا تَرَوْنَهَا ، وَهَذَا هُوَ الْأَكْمَلُ فِي الْقُدْرَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ، وَأَنَّهُ يُمَرَّرُ كَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَلَا تَمْثِيلٍ ، تَعَالَى اللهُ عُلُوًّا كَبِيرًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ أَنَّهُمَا يَجْرِيَانِ إِلَى انْقِطَاعِهِمَا بِقِيَامِ السَّاعَةِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ أَيْ : يُوَضِّحُ الْآيَاتِ وَالدَّلَالَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَنَّهُ يُعِيدُ الْخَلْقَ إِذَا شَاءَ كَمَا بَدَأَهُ .

وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْعَالَمَ الْعُلْوِيَّ شَرَعَ فِي ذِكْرِ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَأَحْكَامِهِ لِلْعَالَمِ السُّفْلِيِّ فَقَالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ ﴾ أَيْ : جَعَلَهَا مُتَّسِعَةً مُمْتَدَّةً فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ ، وَأَرْسَاهَا بِجِبَالٍ رَاسِيَاتٍ شَامِخَاتٍ ، وَأَجْرَى فِيهَا الْأَنْهَارَ وَالْجَدَاوِلَ وَالْعُيُونَ لِيَسْقِيَ مَا جُعِلَ فِيهَا مِنَ الثَّمَرَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ ، ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ أَيْ : مِنْ كُلِّ شَكْلٍ صِنْفَانِ ﴿ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ أَيْ : جَعَلَ كُلًّا مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَثِيثًا ، فَإِذَا ذَهَبَ هَذَا غَشِيَهُ هَذَا وَإِذَا انْقَضَى هَذَا جَاءَ الْآخَرُ فَيَتَصَرَّفُ أَيْضًا فِي الزَّمَانِ كَمَا يَتَصَرَّفُ فِي الْمَكَانِ وَالسُّكَّانِ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : فِي آلَاءِ اللهِ وَحُكْمِهِ وَدَلَائِلِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ أَيْ : أَرَاضٍ يُجَاوِرُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، مَعَ أَنَّ هَذِهِ طَيِّبَةٌ تُنْبِتُ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَهَذِهِ سَبِخَةٌ مَالِحَةٌ لَا تُنْبِتُ شَيْئًا . ﴿ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ عَاطِفَةً عَلَى جَنَّاتٍ فَيَكُونَ : ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ مَرْفُوعِينَ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى أَعْنَابٍ فَيَكُونَ مَجْرُورًا ، وَلِهَذَا قَرَأَ بِكُلٍّ مِنْهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ الصِّنْوَانُ : هُوَ الْأُصُولُ الْمُجْتَمِعَةُ فِي مَنْبَتٍ وَاحِدٍ ، كَالرُّمَّانِ وَالتِّينِ وَبَعْضِ النَّخِيلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَغَيْرُ الصِّنْوَانِ : مَا كَانَ عَلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ كَسَائِرِ الْأَشْجَارِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ﴾ أَيْ : هَـذَا الِاخْتِلَافُ فِي

أَجْنَاسِ الثَّمَرَاتِ وَالزُّرُوعِ ، فِي أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا ، وَطُعُومِهَا وَرَوَائِحِهَا ، وَأَوْرَاقِهَا وَأَزْهَارِهَا فَهَذَا فِي غَايَةِ الحَلَاوَةِ وَهَذَا فِي غَايَةِ الحُمُوضَةِ وَذَا فِي غَايَةِ المَرَارَةِ ، وَذَا عَفْصٌ وَهَذَا عَذْبٌ ، وَهَذَا جَمَعَ هَذَا وَهَذَا ثُمَّ يَسْتَحِيلُ إِلَى طَعْمٍ آخَرَ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى ، وَهَذَا أَصْفَرُ وَهَذَا أَحْمَرُ وَهَذَا أَبْيَضُ وَهَذَا أَسْوَدُ وَهَذَا أَزْرَقُ ، وَكَذَلِكَ الزُّهُورَاتُ مَعَ أَنَّهَا كُلَّهَا تَسْتَمِدُّ مِنْ طَبِيعَةٍ وَاحِدَةٍ وَهُوَ المَاءُ مَعَ هَذَا الاِخْتِلَافِ الْكَبِيرِ الَّذِي لَا يَنْحَصِرُ وَلَا يَنْضَبِطُ ، فَفِي ذَلِكَ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعِيًا ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الدَّلَالَاتِ عَلَى الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ الَّذِي بِقُدْرَتِهِ فَاوَتَ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ ، وَخَلَقَهَا عَلَى مَا يُرِيدُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ ﴾ مِنْ تَكْذِيبِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِالمَعَادِ مَعَ مَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ آيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَدَلَائِلِهِ فِي خَلْقِهِ ، عَلَى أَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ ، وَمَعَ مَا يَعْتَرِفُونَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ ابْتَدَأَ خَلْقَ الْأَشْيَاءِ فَكَوَّنَهَا بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ، ثُمَّ هُمْ بَعْدَ هَذَا يُكَذِّبُونَ خَبَرَهُ فِي أَنَّهُ سَيُعِيدُ الْعَالَمَ خَلْقًا جَدِيدًا ، وَقَدِ اعْتَرَفُوا وَشَاهَدُوا مَا هُوَ أَعْجَبُ مِمَّا كَذَّبُوا بِهِ ، فَالْعَجَبُ مِنْ قَوْلِهِمْ : ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وَقَدْ عَلِمَ كُلُّ عَالِمٍ وَعَاقِلٍ أَنَّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، وَأَنَّ مَنْ بَدَأَ الخَلْقَ فَالْإِعَادَةُ عَلَيْهِ أَسْهَلُ ، ثُمَّ نَعَتَ الْمُكَذِّبِينَ بِهَذَا **فَقَالَ** : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أَيْ : يُسْحَبُونَ بِهَا فِي النَّارِ ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أَيْ : مَاكِثُونَ فِيهَا أَبَدًا لَا يُحَوَّلُونَ عَنْهَا وَلَا يَزُولُونَ .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ ﴿ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ أَيْ : بِالْعُقُوبَةِ ، فَكَانُوا مِنْ شِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَكُفْرِهِمْ يَطْلُبُونَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِعَذَابِ اللهِ ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ﴾ أَيْ : قَدْ أَوْقَعْنَا نِقَمَنَا بِالْأُمَمِ الخَالِيَةِ وَجَعَلْنَاهُمْ عِبْرَةً وَعِظَةً لِمَنِ اتَّعَظَ بِهِمْ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْلَا حِلْمُهُ وَعَفْوُهُ لَعَاجَلَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ تَعَالَى ذُو عَفْوٍ وَصَفْحٍ وَسَتْرٍ لِلنَّاسِ مَعَ أَنَّهُمْ يَظْلِمُونَ وَيُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، ثُمَّ قَرَنَ هَذَا الحُكْمَ بِأَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِيَعْتَدِلَ الرَّجَاءُ وَالخَوْفُ .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ ، أَنَّهُمْ يَقُولُونَ كُفْرًا وَعِنَادًا : لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ، كَمَا تَعَنَّتُوا عَلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا ، وَأَنْ يُزِيحَ عَنْهُمُ الْجِبَالَ وَيَجْعَلَ مَكَانَهَا مُرُوجًا وَأَنْهَارًا . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تُبَلِّغَ رِسَالَةَ اللهِ الَّتِي أَمَرَكَ بِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴾ قِيلَ : أَيْ : وَلِكُلِّ قَوْمٍ دَاعٍ ، وَقِيلَ : نَبِيٌّ ، وَقِيلَ : قَائِدٌ .

ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عِلْمِهِ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَأَنَّهُ مُحِيطٌ بِمَا تَحْمِلُهُ الْحَوَامِلُ مِنْ كُلِّ إِنَاثِ الْحَيَوَانَاتِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ ﴾[لقمان : ٣٤] أَيْ : مَا حَمَلَتْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، أَوْ حَسَنٍ أَوْ قَبِيحٍ ، أَوْ شَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ ، أَوْ طَوِيلِ الْعُمْرِ أَوْ قَصِيرِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ ﴾ قَالُوا : يَعْنِي السِّقْطَ ﴿ وَمَا تَزۡدَادُۖ ﴾ يَقُولُ : مَا زَادَتِ الرَّحِمُ فِي الْحَمْلِ عَلَى مَا غَاضَتْ حَتَّى وَلَدَتْهُ تَمَامًا ، وَذَلِكَ أَنَّ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ تَحْمِلُ عَشَرَةَ أَشْهُرٍ وَمَنْ تَحْمِلُ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ ، وَمِنْهُنَّ مَنْ تَزِيدُ فِي الْحَمْلِ وَمِنْهُنَّ مَنْ تَنْقُصُ ، فَذَلِكَ الْغَيْضُ وَالزِّيَادَةُ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِعِلْمِهِ تَعَالَى . وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴾ أَيْ : بِأَجَلٍ ، حَفِظَ أَرْزَاقَ خَلْقِهِ وَآجَالَهُمْ ، وَجَعَلَ لِذَلِكَ أَجَلًا مَعْلُومًا . ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ مِمَّا يُشَاهِدُهُ الْعِبَادُ ، وَمِمَّا يَغِيبُ عَنْهُمْ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ ﴿ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴿ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾ أَيْ : عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ﴿ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾[الطلاق : ١٢] ، وَقَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ، فَخَضَعَتْ لَهُ الرِّقَابُ ، وَدَانَ لَهُ الْعِبَادُ طَوْعًا وَكَرْهًا .

سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۢ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَأَنَّهُ سَوَاءٌ مِنْهُمْ مَنْ أَسَرَّ قَوْلَهُ أَوْ جَهَرَ بِهِ فَإِنَّهُ يَسْمَعُهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴾[طه : ٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۢ بِٱلَّيۡلِ ﴾ أَيْ : مُخْتَفٍ فِي قَعْرِ بَيْتِهِ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ ﴿ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾

أَيْ : ظَاهِرٌ مَاشٍ فِي بَيَاضِ النَّهَارِ وَضِيَائِهِ ، فَإِنَّ كِلَاهُمَا فِي عِلْمِ الله عَلَى السَّوَاءِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [هود : ٥] ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لِلْعَبْدِ مَلَائِكَةٌ يَتَعَاقَبُونَ عَلَيْهِ ، حَرَسٌ بِاللَّيْلِ وَحَرَسٌ بِالنَّهَارِ ، يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْأَسْوَاءِ وَالْحَادِثَاتِ ، كَمَا يَتَعَاقَبُ مَلَائِكَةٌ آخَرُونَ لِحِفْظِ الْأَعْمَالِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، فَاثْنَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَالشِّمَالِ يَكْتُبَانِ الْأَعْمَالَ ، صَاحِبُ الْيَمِينِ يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ ، وَصَاحِبُ الشِّمَالِ يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَلَكَانِ آخَرَانِ يَحْفَظَانِهِ وَيَحْرُسَانِهِ ، وَاحِدٌ مِنْ وَرَائِهِ وَآخَرُ مِنْ قُدَّامِهِ ، فَهُوَ بَيْنَ أَرْبَعَةِ أَمْلَاكٍ بِالنَّهَارِ ، وَأَرْبَعَةٍ آخَرِينَ بِاللَّيْلِ بَدَلًا ، حَافِظَانِ وَكَاتِبَانِ . **رُوِيَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ** : ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ قَالَ : مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ، فَإِذَا جَاءَ قَدَرُ الله خَلَوْا عَنْهُ . **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ حِفْظُهُمْ لَهُ مِنْ أَمْرِ الله ، وهذا رَأْيُ الأَكْثَرِينَ . **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ بِأَمْرِ الله .

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى : أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُسَخِّرُ الْبَرْقَ ، وَهُوَ مَا يُرَى مِنَ النُّورِ اللَّامِعِ سَاطِعًا مِنْ خَلَلِ السَّحَابِ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : خَوْفًا لِلْمُسَافِرِ يَخَافُ أَذَاهُ وَمَشَقَّتَهُ وَطَمَعًا لِلْمُقِيمِ يَرْجُو بَرَكَتَهُ وَمَنْفَعَتَهُ وَيَطْمَعُ فِي رِزْقِ الله ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ أَيْ : يَخْلُقُهَا مُنْشَأَةً جَدِيدَةً ، وَهِيَ لِكَثْرَةِ مَائِهَا ثَقِيلَةٌ قَرِيبَةٌ إِلَى الْأَرْضِ . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : السَّحَابُ الثِّقَالُ : الَّذِي فِيهِ الْمَاءُ . ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء : ٤٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : يُرْسِلُهَا نِقْمَةً يَنْتَقِمُ بِهَا مِمَّنْ يَشَاءُ ، وَقَدْ رُوِيَ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ رَجُلًا مَرَّةً إِلَى رَجُلٍ مِنْ فَرَاعِنَةِ الْعَرَبِ فَقَالَ : ((**اذْهَبْ فَادْعُهُ لِي**)) قَالَ : فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ : يَدْعُوكَ رَسُولُ الله ﷺ ، فَقَالَ لَهُ : مَنْ رَسُولُ الله ؟ وَمَا اللهُ ؟ أَمِنْ ذَهَبٍ هُوَ ، أَمْ مِنْ فِضَّةٍ هُوَ ، أَمْ مِنْ نُحَاسٍ هُوَ ؟ قَالَ فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله قَدْ خَبَّرْتُكَ أَنَّهُ أَعْتَى مِنْ ذَلِكَ ، قَالَ لِي كَذَا وَكَذَا ، فَقَالَ لِي : ((**ارْجِعْ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ**)) فَذَهَبَ فَقَالَ لَهُ مِثْلَهَا ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله قَدْ أَخْبَرْتُكَ أَنَّهُ أَعْتَى مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : ((**ارْجِعْ إِلَيْهِ فَادْعُهُ**)) فَرَجَعَ إِلَيْهِ الثَّالِثَةَ ، قَالَ : فَأَعَادَ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْكَلَامَ ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ بَعَثَ اللهُ ﷻ سَحَابَةً حِيَالَ رَأْسِهِ فَرَعَدَتْ فَوَقَعَتْ مِنْهَا صَاعِقَةً

فَذَهَبَتْ بِقِحْفِ رَأْسِهِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يَشُكُّونَ فِي عَظَمَتِهِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : شَدِيدَةٌ مُمَاحَلَتُهُ فِي عُقُوبَتِهِ مَنْ طَغَى عَلَيْهِ وَعَتَا وَتَمَادَى فِي كُفْرِهِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ أَيْ : شَدِيدُ الْأَخْذِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : شَدِيدُ الْقُوَّةِ .

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ **قِيلَ** : التَّوْحِيدُ . أَيْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ الْآيَةَ . أَيْ : وَمَثَلُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً غَيْرَ اللهِ ﴿ كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾ **قِيلَ** : كَمَثَلِ الَّذِي يَتَنَاوَلُ الْمَاءَ مِنْ طَرَفِ الْبِئْرِ بِيَدِهِ ، وَهُوَ لَا يَنَالُهُ أَبَدًا بِيَدِهِ ، فَكَيْفَ يَبْلُغُ فَاهُ ؟ ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ كَقَابِضٍ يَدَهُ عَلَى الْمَاءِ فَإِنَّهُ لَا يُحْكِمُ مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ **وَمَعْنَى الْكَلَامِ** : أَنَّ الَّذِي يَبْسُطُ يَدَهُ إِلَى الْمَاءِ إِمَّا قَابِضًا وَإِمَّا مُتَنَاوِلًا لَهُ مِنْ بُعْدٍ ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِالْمَاءِ الَّذِي لَمْ يَصِلْ إِلَى فِيهِ الَّذِي جَعَلَهُ مَحَلًّا لِلشُّرْبِ ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا غَيْرَهُ ، لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِمْ أَبَدًا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ .

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَسُلْطَانِهِ الَّذِي قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَدَانَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَلِهَذَا يَسْجُدُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ طَوْعًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَكَرْهًا عَلَى الْكَافِرِينَ ، ﴿ وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ ﴾ أَيْ : الْبُكْرَةُ ﴿ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ وَهُوَ جَمْعُ أَصِيلٍ وَهُوَ : آخِرُ النَّهَارِ .

قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

يُقَرِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، لِأَنَّهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَهُوَ رَبُّهَا وَمُدَبِّرُهَا ، وَهُمْ مَعَ هَذَا قَدِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ يَعْبُدُونَهُمْ ، وَأُولَئِكَ الْآلِهَةُ لَا تَمْلِكُ لِأَنْفُسِهَا وَلَا لِعَابِدِيهَا بِطَرِيقِ الْأَوْلَى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، أَيْ : لَا تُحَصِّلُ لَهُمْ مَنْفَعَةً وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ مَضَرَّةً ، فَهَلْ يَسْتَوِي مَنْ عَبَدَ هَذِهِ الْآلِهَةَ مَعَ اللهِ ، وَمَنْ عَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَهُوَ

عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ؟ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : أَجَعَلَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مَعَ اللهِ آلِهَةً تُنَاظِرُ الرَّبَّ وَتُمَاثِلُهُ فِي الخَلْقِ ، فَخَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، فَلَا يَدْرُونَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ مِنْ مَخْلُوقٍ غَيْرِهِ ، أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَإِنَّهُ لَا يُشَابِهُهُ شَيْءٌ وَلَا يُمَاثِلُهُ ، وَلَا نِدَّ لَهُ وَلَا عِدْلَ لَهُ ، وَلَا وَزِيرَ لَهُ ، وَلَا وَلَدَ وَلَا صَاحِبَةَ - تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا - وَإِنَّمَا عَبَدَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مَعَهُ آلِهَةً هُمْ مُعْتَرِفُونَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لَهُ عَبِيدٌ لَهُ ، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ : لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ ، وَكَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر : ٣]فَأَنْكَرَ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ حَيْثُ اعْتَقَدُوا ذَلِكَ ، وَهُوَ تَعَالَى لَا يَشْفَعُ أَحَدٌ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَإِذَا كَانَ الجَمِيعُ عَبِيدًا فَلَمْ يَعْبُدْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ بَلْ مُجَرَّدِ الرَّأْيِ وَالِاخْتِرَاعِ وَالِابْتِدَاعِ ، ثُمَّ قَدْ أَرْسَلَ رُسُلَهُ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ تَزْجُرُهُمْ عَنْ ذَلِكَ ، وَتَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ مَنْ سِوَى اللهِ فَكَذَّبُوهُمْ وَخَالَفُوهُمْ ، فَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ لَا مَحَالَةَ ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩]

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

اِشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى مَثَلَيْنِ مَضْرُوبَيْنِ لِلْحَقِّ فِي ثَبَاتِهِ وَبَقَائِهِ ، وَالْبَاطِلِ فِي اضْمِحْلَالِهِ وَفَنَائِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أَيْ : مَطَرًا ﴿ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ أَيْ : أَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ بِحَسَبِهِ ، فَهَذَا كَبِيرٌ وَسِعَ كَثِيرًا مِنَ الْمَاءِ ، وَهَذَا صَغِيرٌ فَوَسِعَ بِقَدْرِهِ ، وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى الْقُلُوبِ وَتَفَاوُتِهَا ، فَمِنْهَا مَا يَسَعُ عِلْمًا كَثِيرًا ، وَمِنْهَا مَا لَا يَتَّسِعُ لِكَثِيرٍ مِنَ الْعُلُومِ بَلْ يَضِيقُ عَنْهَا ﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ أَيْ : فَجَاءَ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ الَّذِي سَالَ فِي هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ زَبَدٌ عَالٍ عَلَيْهِ ، هَذَا مَثَلٌ . ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ ﴾ الْآيَةَ . هَذَا هُوَ الْمَثَلُ الثَّانِي هُوَ مَا يُسْبَكُ فِي النَّارِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ ، أَيْ : لِيُجْعَلَ حِلْيَةً أَوْ نُحَاسًا أَوْ حَدِيدًا فَيُجْعَلُ مَتَاعًا ، فَإِنَّهُ يَعْلُوهُ زَبَدٌ مِنْهُ كَمَا يَعْلُو ذَلِكَ زَبَدٌ مِنْهُ ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾ أَيْ : إِذَا اجْتَمَعَا لَا ثَبَاتَ لِلْبَاطِلِ وَلَا دَوَامَ لَهُ ، كَمَا أَنَّ الزَّبَدَ لَا يَثْبُتُ مَعَ الْمَاءِ وَلَا مَعَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَنَحْوِهِمَا ، مِمَّا يُسْبَكُ فِي النَّارِ ، بَلْ يَذْهَبُ وَيَضْمَحِلُّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ

فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ أَيْ : لَا يُنْتَفَعُ بِهِ ، بَلْ يَتَفَرَّقُ وَيَتَمَزَّقُ وَيَذْهَبُ فِي جَانِبَي الْوَادِي وَيُعَلَّقُ بِالشَّجَرِ وَتَنْسِفُهُ الرِّيَاحُ ، وَكَذَلِكَ خَبَثُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ وَالنُّحَاسِ يَذْهَبُ وَلَا يَرْجِعُ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَبْقَى إِلَّا الْمَاءُ ، وَذَلِكَ الذَّهَبُ وَنَحْوُهُ يُنْتَفَعُ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ . رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ الْآيَةَ . هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ احْتَمَلَتْ مِنْهُ الْقُلُوبُ عَلَى قَدْرِ يَقِينِهَا وَشَكِّهَا ، فَأَمَّا الشَّكُّ فَلَا يَنْفَعُ مَعَهُ الْعَمَلُ ، وَأَمَّا الْيَقِينُ فَيَنْفَعُ اللهُ بِهِ أَهْلَهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ ﴾ وَهُوَ الشَّكُّ ﴿ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ وَهُوَ الْيَقِينُ ، وَكَمَا يُجْعَلُ الْحُلِيُّ فِي النَّارِ فَيُؤْخَذُ خَالِصُهُ وَيُتْرَكُ خَبَثُهُ فِي النَّارِ ، فَكَذَلِكَ يَقْبَلُ اللهُ الْيَقِينَ وَيَتْرُكُ الشَّكَّ .

لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَآلِ السُّعَدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ﴾ أَيْ : أَطَاعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَانْقَادُوا لِأَوَامِرِهِ وَصَدَّقُوا أَخْبَارَهُ الْمَاضِيَةَ وَالْآتِيَةَ فَلَهُمْ ﴿ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ، وَهُوَ الْجَزَاءُ الْحَسَنُ ، ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُۥ ﴾ أَيْ : لَمْ يُطِيعُوا اللهَ ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لَوْ أَنْ يُمْكِنَهُمْ أَنْ يَفْتَدُوا مِنْ عَذَابِ اللهِ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، وَلَكِنْ لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، أَيْ : يُنَاقَشُونَ عَلَى النَّقِيرِ وَالْقِطْمِيرِ وَالْجَلِيلِ وَالْحَقِيرِ ، وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابُ عُذِّبَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ .

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْلَمُ مِنَ النَّاسِ أَنَّ الَّذِي ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ وَلَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا اخْتِلَافَ فِيهِ ، بَلْ هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، لَا يُضَادُّ شَيْءٌ مِنْهُ شَيْئًا آخَرَ ، فَأَخْبَارُهُ كُلُّهَا حَقٌّ ، وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ عَدْلٌ ، فَلَا يَسْتَوِي مَنْ تَحَقَّقَ صِدْقَ مَا جِئْتَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ ، وَمَنْ هُوَ أَعْمَى لَا يَهْتَدِي إِلَى خَيْرٍ وَلَا يَفْهَمُهُ ، وَلَوْ فَهِمَهُ مَا انْقَادَ لَهُ وَلَا صَدَّقَهُ وَلَا اتَّبَعَهُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ أَيْ : أَفَهَذَا كَهَذَا ؟ لَا اسْتِوَاءَ ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَتَّعِظُ وَيَعْتَبِرُ وَيَعْقِلُ أُولُو الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ الصَّحِيحَةِ ، جَعَلَنَا اللهُ مِنْهُمْ .

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الحَمِيدَةِ : بِأَنَّ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ، وَهِيَ العَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ . ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ وَلَيْسُوا كَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ « **إِذَا عَاهَدَ أَحَدُهُمْ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ** » .

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ مِنْ صِلَةِ الأَرْحَامِ ، وَالإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَإِلَى الفُقَرَاءِ وَالمَحَاوِيجِ ، وَبَذْلِ المَعْرُوفِ ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أَيْ : فِيمَا يَأْتُونَ وَمَا يَذَرُونَ مِنَ الأَعْمَالِ ، يُرَاقِبُونَ اللهَ فِي ذَلِكَ ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ ، فَلِهَذَا أَمَرَهُمْ عَلَى السَّدَادِ وَالاسْتِقَامَةِ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ ، وَجَمِيعِ أَحْوَالِهِمُ القَاصِرَةِ وَالمُتَعَدِّيَةِ .

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ : عَنِ المَحَارِمِ وَالمَآثِمِ ، فَفَطَمُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْهَا للهِ ﷻ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ وَجَزِيلَ ثَوَابِهِ ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بِحُدُودِهَا وَمَوَاقِيتِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَخُشُوعِهَا ، عَلَى الوَجْهِ الشَّرْعِيِّ المَرْضِيِّ ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أَيْ : عَلَى الَّذِينَ يَجِبُ عَلَيْهِمُ الإِنْفَاقُ لَهُمْ ، مِنْ زَوْجَاتٍ وَقَرَابَاتٍ وَأَجَانِبَ ، مِنْ فُقَرَاءَ وَمَحَاوِيجَ وَمَسَاكِينَ ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أَيْ : فِي السِّرِّ وَالجَهْرِ ، لَمْ يَمْنَعْهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَالٌ مِنَ الأَحْوَالِ ، آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أَيْ : يَدْفَعُونَ القَبِيحَ بِالحَسَنِ ، فَإِذَا آذَاهُمْ أَحَدٌ قَابَلُوهُ بِالجَمِيلِ صَبْرًا وَاحْتِمَالًا وَصَفْحًا وَعَفْوًا ، وَلِهَذَا قَالَ مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ السُّعَدَاءِ المُتَّصِفِينَ بِهَؤُلَاءِ الصِّفَاتِ الحَسَنَةِ بِأَنَّ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ، **ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ** : ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ وَالعَدْنُ : الإِقَامَةُ ، أَيْ : جَنَّاتُ إِقَامَةٍ يَخْلُدُونَ فِيهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أَيْ : يُجْمَعُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحْبَابِهِمْ فِيهَا مِنَ الآبَاءِ وَالأَهْلِينَ وَالأَبْنَاءِ ، مِمَّنْ هُوَ صَالِحٌ لَهُ دُخُولَ الجَنَّةِ مِنَ المُؤْمِنِينَ ، لِتَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ بِهِمْ ، حَتَّى أَنَّهُ تُرْفَعُ دَرَجَةُ الأَدْنَى إِلَى دَرَجَةِ الأَعْلَى امْتِنَانًا مِنَ اللهِ وَإِحْسَانًا مِنْ غَيْرِ تَنْقِيصٍ لِلأَعْلَى عَنْ دَرَجَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أَيْ : وَتَدْخُلُ عَلَيْهِمُ المَلَائِكَةُ مِنْ هَاهُنَا وَمِنْ هَاهُنَا لِلتَّهْنِئَةِ بِدُخُولِ الجَنَّةِ ، فَعِنْدَ دُخُولِهِمْ إِيَّاهَا

تَفِدُ عَلَيْهِمُ المَلَائِكَةُ مُسَلِّمِينَ ، مُهَنِّئِينَ لَهُمْ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِنْعَامِ ، وَالْإِقَامَةِ فِي دَارِ السَّلَامِ فِي جِوَارِ الصِّدِّيقِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ الْكِرَامِ .

وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾

هَذَا حَالُ الْأَشْقِيَاءِ وَصِفَاتُهُمْ وَذِكْرُ مَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَمَصِيرُهُمْ إِلَى خِلَافِ مَا صَارَ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ ، كَمَا أَنَّهُمُ اتَّصَفُوا بِخِلَافِ صِفَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، فَأُولَئِكَ كَانُوا يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَيَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَهَؤُلَاءِ : ﴿ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ ﴾ وَهِيَ الْإِبْعَادُ عَنِ الرَّحْمَةِ ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ وَهِيَ سُوءُ الْعَاقِبَةِ وَالْمَآلِ ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ .

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى : أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُوَسِّعُ الرِّزْقَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَيُقَتِّرُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ ، وَفَرِحَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ بِمَا أُوتُوا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا اسْتِدْرَاجًا لَهُمْ وَإِمْهَالًا ، ثُمَّ حَقَّرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا ادَّخَرَهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فَقَالَ : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قِيلِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ لَوْلَآ ﴾ أَيْ : هَلَّا ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا غَيْرَ مَرَّةٍ ، وَإِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى إِجَابَةِ مَا سَأَلُوا ، وَلِهَذَا قَالَ لِرَسُولِهِ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُضِلُّ وَالْهَادِي سَوَاءٌ بَعَثَ الرُّسُلَ بِآيَةٍ عَلَى وَفْقِ مَا اقْتَرَحُوا ، أَوْلَمْ يُجِبْهُمْ إِلَى سُؤَالِهِمْ ، فَإِنَّ الْهِدَايَةَ وَالْإِضْلَالَ لَيْسَ مَنُوطًا بِذَلِكَ وَلَا عَدَمِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أَيْ : وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ إِلَى اللهِ ، وَرَجَعَ إِلَيْهِ وَاسْتَعَانَ بِهِ وَتَضَرَّعَ لَدَيْهِ . ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : تَطِيبُ

وَتَرْكَنُ إِلَى جَانِبِ اللهِ وَتَسْكُنُ عِنْدَ ذِكْرِهِ ، وَتَرْضَى بِهِ مَوْلًى وَنَصِيرًا ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ أَيْ : هُوَ حَقِيقٌ بِذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ **قِيلَ مَعْنَاهُ** : فَرَحٌ وَقُرَّةُ عَيْنٍ ، **وَقِيلَ** : نِعْمَ مَالَهُمْ ، **وَقِيلَ** : غِبْطَةٌ لَهُمْ ، **وَقِيلَ** : خَيْرٌ لَهُمْ ؛ **وَقَالَ قَتَادَةُ** : هِيَ كَلِمَةٌ عَرَبِيَّةٌ يَقُولُ الرَّجُلُ : طُوبَى لَكَ ، أَيْ : أَصَبْتَ خَيْرًا ، **وَقَالَ فِي رِوَايَةٍ** : ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ ﴾ حُسْنَى لَهُمْ ، ﴿ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ أَيْ : مَرْجِعٌ ، **وَقِيلَ** : طُوبَى اسْمُ الْجَنَّةِ بِالْهِنْدِيَّةِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ ﴾ أَيْ : الْجَنَّةُ . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ** : أَنَّ طُوبَى شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ فِي كُلِّ دَارٍ مِنْهَا غُصْنٌ مِنْهَا .

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَكَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : تُبَلِّغُهُمْ رِسَالَةَ اللهِ إِلَيْهِمْ ، كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الْكَافِرَةِ بِاللهِ ، وَقَدْ كَذَّبَ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِكَ فَلَكَ بِهِمْ أُسْوَةٌ ، وَكَمَا أَوْقَعْنَا بَأْسَنَا وَنِقْمَتَنَا بِأُولَئِكَ فَلْيَحْذَرْ هَؤُلَاءِ مِنْ حُلُولِ النِّقَمِ بِهِمْ ، فَإِنَّ تَكْذِيبَهُمْ لَكَ أَشَدُّ مِنْ تَكْذِيبِ غَيْرِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ . **وَقَوْلُهُ**: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ أَيْ : هَذِهِ الْأُمَّةُ الَّتِي بَعَثْنَاكَ فِيهِمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ لَا يُقِرُّونَ بِهِ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْنَفُونَ مِنْ وَصْفِ اللهِ بِالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَلِهَذَا أَنِفُوا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَنْ يَكْتُبُوا « **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** » ، وَقَالُوا : مَا نَدْرِي مَا الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء : ١١٠] ، ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي تَكْفُرُونَ بِهِ أَنَا مُؤْمِنٌ بِهِ مُعْتَرِفٌ ، مُقِرٌّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ ، هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أَيْ : فِي جَمِيعِ أُمُورِي ، ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أَيْ : إِلَيْهِ أَرْجِعُ وَأُنِيبُ ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ .

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مَادِحًا لِلْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَمُفَضِّلًا لَهُ عَلَى سَائِرِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ قَبْلَهُ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ ﴾ أَيْ : لَوْ كَانَ فِي الْكُتُبِ الْمَاضِيَةِ كِتَابٌ تَسِيرُ بِهِ الْجِبَالُ

عَنْ أَمَاكِنِهَا ، أَوْ تُقَطَّعُ بِهِ الْأَرْضُ وَتَنْشَقُّ أَوْ تُكَلَّمُ بِهِ الْمَوْتَى فِي قُبُورِهِمْ ، لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ هُوَ الْمُتَّصِفُ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ ، أَوْ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِعْجَازِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَنْ آخِرِهِمْ إِذَا اجْتَمَعُوا أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَمَعَ هَذَا فَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ كَافِرُونَ بِهِ جَاحِدُونَ لَهُ ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ أَيْ : مَرْجِعُ الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى اللهِ ﷻ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ، وَقَدْ يُطْلَقُ اِسْمُ الْقُرْآنِ عَلَى كُلٍّ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ؛ لِأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْجَمْعِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أَيْ : مِنْ إِيمَانِ جَمِيعِ الْخَلْقِ ، وَيَعْلَمُوا أَوْ يَتَبَيَّنُوا ﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ حُجَّةٌ وَلَا مُعْجِزَةٌ أَبْلَغُ وَلَا أَنْجَعُ فِي الْعُقُولِ وَالنُّفُوسِ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ ، الَّذِي لَوْ أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ لَا تَزَالُ الْقَوَارِعُ تُصِيبُهُمْ فِي الدُّنْيَا أَوْ تُصِيبُ مَنْ حَوْلَهُمْ لِيَتَّعِظُوا وَيَعْتَبِرُوا . **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ ﴾ قَالَ : سَرِيَّةٌ ، **وَقِيلَ** : عَذَابٌ مِنَ السَّمَاءِ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ ، يَعْنِي : نُزُولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِهِمْ وَقِتَالُهُ إِيَّاهُمْ ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : فَتْحُ مَكَّةَ ، **وَقِيلَ** : يَوْمُ الْقِيَامَةِ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ أَيْ : لَا يَنْقُضُ وَعْدَهُ لِرُسُلِهِ بِالنُّصْرَةِ لَهُمْ وَلِأَتْبَاعِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ أَيْ : فَلَكَ فِيهِمْ أُسْوَةٌ ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أَيْ : أَنْظَرْتُهُمْ وَأَجَّلْتُهُمْ ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ أَخْذَةً رَابِيَةً ، فَكَيْفَ بَلَغَكَ مَا صَنَعْتَ بِهِمْ وَعَاقَبْتَهُمْ وَأَمْلَيْتَ لَهُمْ ؟.

أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أَيْ : حَفِيظٌ عَلِيمٌ رَقِيبٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ ، يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، أَفَمَنْ هُوَ كَذَلِكَ كَالْأَصْنَامِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَعْقِلُ وَلَا تَمْلِكُ نَفْعًا لِأَنْفُسِهَا وَلَا

لِعَابِدِيهَا ، وَلَا كَشْفَ ضُرٍّ عَنْهَا وَلَا عَنْ عَابِدِيهَا ؟ وَحُذِفَ هَذَا الْجَوَابُ اكْتِفَاءً بِدَلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَيْهِ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ أَيْ : عَبَدُوهَا مَعَهُ مِنْ أَصْنَامٍ وَأَنْدَادٍ وَأَوْثَانٍ ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أَيْ : أَعْلِمُونَا بِهِمْ وَاكْشِفُوا عَنْهُمْ حَتَّى يُعْرَفُوا ، فَإِنَّهُمْ لَا حَقِيقَةَ لَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : لَا وُجُودَ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهَا وُجُودٌ فِي الْأَرْضِ لَعَلِمَهَا ؛ لِأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ قِيلَ : بِظَنٍّ مِنَ الْقَوْلِ ، وَقِيلَ : بِبَاطِلٍ مِنَ الْقَوْلِ ، أَيْ : إِنَّمَا عَبَدْتُمْ هَذِهِ الْأَصْنَامَ بِظَنٍّ مِنْكُمْ أَنَّهَا تَنْفَعُ وَتَضُرُّ وَسَمَّيْتُمُوهَا آلِهَةً ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ ﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ : قَوْلُهُمْ ، أَيْ : مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ . ﴿ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ مَنْ قَرَأَهَا بِفَتْحِ الصَّادِ مَعْنَاهُ : أَنَّهُ لَمَّا زُيِّنَ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ وَأَنَّهُ حَقٌّ دَعَوْا إِلَيْهِ ، وَصَدُّوا النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ طَرِيقِ الرُّسُلِ ، وَمَنْ قَرَأَهَا بِالضَّمِّ أَيْ : بِمَا زُيِّنَ لَهُمْ مِنْ صِحَّةِ مَا هُمْ عَلَيْهِ صُدُّوا بِهِ عَنْ سَبِيلِ الله ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ .

لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾

ذَكَرَ تَعَالَى عِقَابَ الْكُفَّارِ وَثَوَابَ الْأَبْرَارِ ، فَقَالَ بَعْدَ إِخْبَارِهِ عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ : ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ قَتْلًا وَأَسْرًا ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أَيْ : الْمُدَّخَرُ مَعَ هَذَا الْخِزْيِ فِي الدُّنْيَا ﴿ أَشَقُّ ﴾ أَيْ : مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ ، وَلِهَذَا قَرَنَ هَذَا بِهَذَا ، فَقَالَ : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ أَيْ : صِفَتُهَا وَنَعْتُهَا ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ، أَيْ : سَارِحَةٌ فِي أَرْجَائِهَا وَجَوَانِبِهَا ، وَحَيْثُ شَاءَ أَهْلُهَا يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ، أَيْ : يُصَرِّفُونَهَا كَيْفَ شَاءُوا وَأَيْنَ شَاءُوا . ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ أَيْ : فِيهَا الْفَوَاكِهُ وَالْمَطَاعِمُ وَالْمَشَارِبُ ، لَا انْقِطَاعَ وَلَا فَنَاءَ ، وَكَثِيرًا مَا يَقْرِنُ اللهُ تَعَالَى بَيْنَ صِفَةِ الْجَنَّةِ وَصِفَةِ النَّارِ ، لِيُرَغِّبَ فِي الْجَنَّةِ وَيُحَذِّرَ مِنَ النَّارِ ، وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ صِفَةَ الْجَنَّةِ بِمَا ذَكَرَ قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ .

وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ، وَهُـمْ قَائِمُونَ بِمُقْتَضَاهُ ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ ، أَيْ : مِنَ الْقُرْآنِ لِمَا فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى صِدْقِهِ وَالْبِشَارَةِ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ﴾ أَيْ : وَمِنَ الطَّوَائِفِ مَنْ يُكَذِّبُ بِبَعْضِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا بُعِثْتُ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا أُرْسِلَ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِي ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُواْ ﴾ أَيْ : إِلَى سَبِيلِهِ أَدْعُو النَّاسَ ﴿ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾ أَيْ : مَرْجِعِي وَمَصِيرِي . ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ أَيْ : وَكَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ الْمُرْسَلِينَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ مِنَ السَّمَاءِ ، كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ مُحْكَمًا مُعْرَبًا ، شَرَّفْنَاكَ بِهِ وَفَضَّلْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُبِينِ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الَّذِي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ أَيْ : آرَاءَهُمْ ﴿ بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أَيْ : مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ وَهَذَا وَعِيدٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَّبِعُوا سُبُلَ أَهْلِ الضَّلَالَةِ بَعْدَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ سُلُوكِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ وَالْمَحَجَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، عَلَى مَنْ جَاءَ بِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَكَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولًا بَشَرِيًّا ، كَذَلِكَ قَدْ بَعَثْنَا الْمُرْسَلِينَ قَبْلَكَ بَشَرًا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَيَأْتُونَ الزَّوْجَاتِ وَيُولَدُ لَهُمْ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ، أَيْ : لَمْ يَكُنْ يَأْتِي قَوْمَهُ بِخَارِقٍ إِلَّا إِذَا أُذِنَ لَهُ فِيهِ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْهِ بَلْ إِلَى اللهِ ﷻ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أَيْ : لِكُلِّ مُدَّةٍ مَضْرُوبَةٍ كِتَابٌ مَكْتُوبٌ بِهَا وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي ذَلِكَ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: يُدَبِّرُ أَمْرَ السَّنَةِ فَيَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ إِلَّا الشَّقَاءَ وَالسَّعَادَةَ ، وَالْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ . وَعَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهُوَ يَبْكِي : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَ عَلَيَّ شِقْوَةً أَوْ ذَنْبًا فَامْحُهُ ، فَإِنَّكَ تَمْحُو مَا تَشَاءُ وَتُثْبِتُ ، وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَابِ فَاجْعَلْهُ سَعَادَةً وَمَغْفِرَةً . وَالْمَعْنَى : أَنَّ الْأَقْدَارَ يَنْسَخُ اللهُ مَا يَشَاءُ مِنْهَا وَيُثْبِتُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ :

الْكِتَابُ كِتَابَانِ فَكِتَابٌ يَمْحُو اللهُ مِنْهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ، ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وَجُمْلَةُ ذَلِكَ عِنْدَهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ النَّاسِخِ وَمَا يُبَدِّلُ وَمَا يُثْبِتُ كُلُّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قِيلَ : الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : أَيْ : جُمْلَةُ الْكِتَابِ وَأَصْلِهِ .

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ بَعْض الَّذِي نَعِدُ أَعْدَاءَكَ مِنَ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ فِي الدُّنْيَا ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ أَيْ : قَبْلَ ذَلِكَ ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ لِتُبَلِّغَهُمْ رِسَالَةَ اللهِ وَقَدْ بَلَّغْتَ مَا أُمِرْتَ بِهِ ﴿ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ أَيْ : حِسَابُهُمْ وَجَزَاؤُهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ أَيْ : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَفْتَحُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ الْأَرْضَ بَعْدَ الْأَرْضِ ، وَقِيلَ الْمُرَادُ : خَرَابُهَا ، وَقِيلَ : هُوَ ظُهُورُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَقِيلَ : نُقْصَانُ الْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَخَرَابُ الْأَرْضِ ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَوْلَى وَهُوَ ظُهُورُ الْإِسْلَامِ عَلَى الشِّرْكِ قَرْيَةً بَعْدَ قَرْيَةٍ .

وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ بِرُسُلِهِمْ وَأَرَادُوا إِخْرَاجَهُمْ مِنْ بِلَادِهِمْ ، فَمَكَرَ اللهُ بِهِمْ وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِجَمِيعِ السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ لِمَنْ تَكُونُ الدَّائِرَةُ وَالْعَاقِبَةُ لَهُمْ أَوْ لِأَتْبَاعِ الرُّسُلِ ؟ كَلَّا : بَلْ هِيَ لِأَتْبَاعِ الرُّسُلِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى يُكَذِّبُكَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ وَيَقُولُونَ : ﴿ لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ أَيْ : مَا أَرْسَلَكَ اللهُ ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ أَيْ : حَسْبِي اللهُ هُوَ الشَّاهِدُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ ، شَاهِدٌ عَلَيَّ فِيمَا بَلَّغْتُ عَنْهُ مِنَ الرِّسَالَةِ ، وَشَاهِدٌ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ فِيمَا تَفْتَرُونَهُ مِنَ الْبُهْتَانِ . ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ

عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ هُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، فَإِنَّ ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ اِسْمُ جِنْسٍ يَشْمَلُ عُلَمَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَجِدُونَ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنَعْتَهُ فِي كُتُبِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ بِشَارَاتِ الْأَنْبِيَاءِ بِهِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الرَّعْدِ وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ

آياتها ٥٢ تفسير سورة إبراهيم عليه السلام مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ . ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى أَشْرَفِ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ فِي الْأَرْضِ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِهَا عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا بَعَثْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِهَذَا الْكِتَابِ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْغَيِّ إِلَى الْهُدَى وَالرُّشْدِ . ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : هُوَ الْهَادِي لِمَنْ قَدَّرَ لَهُ الْهِدَايَةَ عَلَى يَدَيْ رَسُولِهِ الْمَبْعُوثِ عَنْ أَمْرِهِ ، يَهْدِيهِمْ ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ﴾ أَيْ : الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُغَالَبُ بَلْ هُوَ الْقَاهِرُ لِكُلِّ مَا سِوَاهُ ﴿ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أَيْ : الْمَحْمُودُ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرْعِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، الصَّادِقُ فِي خَبَرِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ مُسْتَأْنَفًا مَرْفُوعًا ، وَقَرَأَ آخَرُونَ عَلَى الْإِتْبَاعِ صِفَةً لِلْجَلَالَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ أَيْ : وَيْلٌ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذْ خَالَفُوكَ يَا مُحَمَّدُ وَكَذَّبُوكَ ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ، أَيْ : يُقَدِّمُونَهَا وَيُؤْثِرُونَهَا عَلَيْهَا وَيَعْمَلُونَ لِلدُّنْيَا ، وَنَسُوا الْآخِرَةَ وَتَرَكُوهَا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وَهِيَ اتِّبَاعُ الرُّسُلِ ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أَيْ : وَيُحِبُّونَ أَنْ تَكُونَ سَبِيلَ اللهِ عِوَجًا مَائِلَةً عَائِلَةً ، وَهِيَ مُسْتَقِيمَةٌ فِي نَفْسِهَا لَا يَضُرُّهَا مَنْ خَالَفَهَا وَلَا مَنْ خَذَلَهَا ، فَهُمْ فِي ابْتِغَائِهِمْ ذَلِكَ فِي جَهْلٍ وَضَلَالٍ بَعِيدٍ مِنَ الْحَقِّ ، لَا يُرْجَى لَهُمْ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - صَلَاحٌ .

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

هَذَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ أَنَّهُ يُرْسِلُ إِلَيْهِمْ رُسُلًا مِنْهُمْ بِلُغَاتِهِمْ ، لِيَفْهَمُوا عَنْهُمْ مَا يُرِيدُونَ وَمَا أُرْسِلُوا بِهِ إِلَيْهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : بَعْدَ الْبَيَانِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ عَنْ وَجْهِ الْهُدَى ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى الْحَقِّ ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي أَفْعَالِهِ فَيُضِلُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ ، وَيَهْدِي مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِذَلِكَ .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ كُلَّهُمْ ، تَدْعُوهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا مُوسَى إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِآيَاتِنَا . قِيلَ : وَهِيَ التِّسْعُ الْآيَاتُ . أَمَرْنَاهُ قَائِلِينَ لَهُ : ﴿ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أَيْ : أُدْعُهُمْ إِلَى الْخَيْرِ لِيَخْرُجُوا مِنْ ظُلُمَاتِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ إِلَى نُورِ الْهُدَى وَبَصِيرَةِ الْإِيمَانِ ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : بِأَيَادِيهِ وَنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ فِي إِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ وَقَهْرِهِ وَظُلْمِهِ وَغَشْمِهِ ، وَإِنْجَائِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، وَفَلْقِهِ لَهُمُ الْبَحْرَ ، وَتَظْلِيلِهِ إِيَّاهُمْ بِالْغَمَامِ ، وَإِنْزَالِهِ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي مَا صَنَعْنَا بِأَوْلِيَائِنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ أَنْقَذْنَاهُمْ مِنْ يَدِ فِرْعَوْنَ وَأَنْجَيْنَاهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ لَعِبْرَةً ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أَيْ : فِي الضَّرَّاءِ ، ﴿ شَكُورٍ ﴾ أَيْ : فِي السَّرَّاءِ .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى حِينَ ذَكَّرَ قَوْمَهُ بِأَيَّامِ اللهِ عِنْدَهُمْ ، وَنِعَمَهُ عَلَيْهِمْ ، إِذْ أَنْجَاهُمْ مِنْ

آلِ فِرْعَوْنَ ، وَمَا كَانُوا يَسُومُونَهُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْإِذْلَالِ ، حَيْثُ كَانُوا يُذَبِّحُونَ مَنْ وُجِدَ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَيَتْرُكُونَ إِنَاثَهُمْ ، فَأَنْقَذَهُمُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ وَهَذِهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْهُ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ ، أَنْتُمْ عَاجِزُونَ عَنِ الْقِيَامِ بِشُكْرِهَا . وَقِيلَ : وَفِيمَا كَانَ يَصْنَعُهُ بِكُمْ قَوْمُ فِرْعَوْنَ مِنْ تِلْكَ الْأَفَاعِيلِ ﴿ بَلَآءٌ ﴾ أَيْ : اِخْتِبَارٌ عَظِيمٌ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ هَذَا وَهَذَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ أَيْ : آذَنَكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِوَعْدِهِ لَكُمْ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ المَعْنَى : وَإِذْ أَقْسَمَ رَبُّكُمْ وَآلَى بِعِزَّتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف : ١٦٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أَيْ : لَئِنْ شَكَرْتُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ مِنْهَا ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ أَيْ : كَفَرْتُمُ النِّعَمَ وَسَتَرْتُمُوهَا وَجَحَدْتُمُوهَا ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ وَذَلِكَ بِسَلْبِهَا عَنْهُمْ وَعِقَابُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى كُفْرِهَا . ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أَيْ : هُوَ غَنِيٌّ عَنْ شُكْرِ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَمِيدُ الْمَحْمُودُ ، وَإِنْ كَفَرَهُ مَنْ كَفَرَ .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

قَصَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْنَا خَبَرَ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ مِمَّا لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللهُ ﷻ : ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أَيْ : بِالْحُجَجِ وَالدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ الْبَاهِرَاتِ الْقَاطِعَاتِ ، ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ كَذَّبُوهُمْ وَرَدُّوا عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ . قُلْتُ : وَيُؤَيِّدُهُ تَفْسِيرُ ذَلِكَ بِتَمَامِ الْكَلَامِ ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ فَكَانَ هَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - تَفْسِيرًا لِمَعْنَى ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ ، وَقِيلَ : ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ عَضُّوا عَلَيْهَا غَيْظًا . ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ الْآيَة . يَقُولُونَ : لَا نُصَدِّقُكُمْ فِيمَا جِئْتُمْ بِهِ ، فَإِنَّ عِنْدَنَا فِيهِ شَكًّا قَوِيًّا .

۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن

نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا دَارَ بَيْنَ الْكُفَّارِ وَبَيْنَ رُسُلِهِمْ مِنَ الْمُجَادَلَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ أُمَمَهُمْ لَمَّا وَاجَهُوهُمْ بِالشَّكِّ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، قَالَتِ الرُّسُلُ : ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ ، وَهَذَا يَحْتَمِلُ شَيْئَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا : أَفِي وُجُودِهِ شَكٌّ ، فَإِنَّ الْفِطَرَ شَاهِدَةٌ بِوُجُودِهِ وَمَجْبُولَةٌ عَلَى الْإِقْرَارِ بِهِ ، فَإِنَّ الِاعْتِرَافَ بِهِ ضَرُورِيٌّ فِي الْفِطَرِ السَّلِيمَةِ ، وَلَكِنْ قَدْ يَعْرِضُ لِبَعْضِهَا شَكٌّ وَاضْطِرَابٌ فَتَحْتَاجُ إِلَى النَّظَرِ فِي الدَّلِيلِ الْمُوَصِّلِ إِلَى وُجُودِهِ ، وَلِهَذَا قَالَتْ لَهُمُ الرُّسُلُ تُرْشِدُهُمْ إِلَى طَرِيقِ مَعْرِفَتِهِ بِأَنَّهُ : ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الَّذِي خَلَقَهُمَا وَابْتَدَعَهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ، فَإِنَّ شَوَاهِدَ الْحُدُوثِ وَالْخَلْقِ وَالتَّسْخِيرِ ظَاهِرٌ عَلَيْهِمَا ، فَلَا بُدَّ لَهُمَا مِنْ صَانِعٍ وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَهُهُ وَمَلِيكُهُ ، وَالْمَعْنَى الثَّانِي فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ أَيْ : أَفِي إِلَهِيَّتِهِ وَتَفَرُّدِهِ بِوُجُوبِ الْعِبَادَةِ لَهُ شَكٌّ ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ وَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِنَّ غَالِبَ الْأُمَمِ كَانَتْ مُقِرَّةً بِالصَّانِعِ ، وَلَكِنْ تَعْبُدُ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْوَسَائِطِ الَّتِي يَظُنُّونَهَا تَنْفَعُهُمْ أَوْ تُقَرِّبُهُمْ مِنَ اللهِ زُلْفَى ، وَقَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود : ٣] ، فَقَالَتْ لَهُمُ الْأُمَمُ مُحَاجِّينَ فِي مَقَامِ الرِّسَالَةِ ، بَعْدَ تَقْدِيرِ تَسْلِيمِهِمُ الْمَقَامَ الْأَوَّلَ ، وَحَاصِلُ مَا قَالُوهُ : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أَيْ : كَيْفَ نَتَّبِعُكُمْ بِمُجَرَّدِ قَوْلِكُمْ ، وَلَمَّا نَرَ مِنْكُمْ مُعْجِزَةً ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : خَارِقٍ نَقْتَرِحُهُ عَلَيْكُمْ . ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أَيْ : صَحِيحٌ أَنَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ أَيْ : بِالرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ ﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ ﴾ عَلَى وَفْقِ مَا سَأَلْتُمْ ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : بَعْدَ سُؤَالِنَا إِيَّاهُ ، وَإِذْنِهِ لَنَا فِي ذَلِكَ ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ . ثُمَّ قَالَتِ الرُّسُلُ : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : وَمَا يَمْنَعُنَا مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَقَدْ هَدَانَا لِأَقْوَمِ الطُّرُقِ وَأَوْضَحِهَا وَأَبْيَنِهَا ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾ أَيْ : مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ وَالْأَفْعَالِ السَّخِيفَةِ ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ

إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَوَعَّدَتْ بِهِ الْأُمَمُ الْكَافِرَةُ رُسُلَهُمْ مِنَ الْإِخْرَاجِ مِنْ أَرْضِهِمْ وَالنَّفْيِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، كَمَا قَالَ قَوْمُ شُعَيْبٍ لَهُ وَلِمَنْ آمَنَ بِهِ ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾ [الأعراف : ٨٨]. وَكَمَا قَالَ قَوْمُ لُوطٍ : ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ [النمل : ٥٦]، وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠]، وَكَانَ مِنْ صُنْعِهِ تَعَالَى أَنَّهُ أَظْهَرَ رَسُولَهُ وَنَصَرَهُ ، وَجَعَلَ لَهُ بِسَبَبِ خُرُوجِهِ مِنْ مَكَّةَ أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا وَجُنْدًا ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله تَعَالَى ، وَلَمْ يَزَلْ يُرَقِّيهِ تَعَالَى مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى فَتَحَ لَهُ مَكَّةَ الَّتِي أَخْرَجَتْهُ ، وَمَكَّنَ لَهُ فِيهَا وَأَرْغَمَ أُنُوفَ أَعْدَائِهِ مِنْهُمْ وَمِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، حَتَّى دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ الله أَفْوَاجًا ، وَظَهَرَتْ كَلِمَةُ الله وَدِينُهُ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ ، فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا فِي أَيْسَرِ زَمَانٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أَيْ : وَعْدِي هَذَا لِمَنْ خَافَ مَقَامَهُ بَيْنَ يَدَيْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَخَشِيَ مِنْ وَعِيدِي وَهُوَ تَخْوِيفِي وَعَذَابِي . ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ ﴾ أَيْ : اِسْتَنْصَرَتِ الرُّسُلُ رَبَّهَا عَلَى قَوْمِهَا . ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أَيْ : مُتَجَبِّرٌ فِي نَفْسِهِ عَنِيدٌ مُعَانِدٌ لِلْحَقِّ . ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ ﴾ وَرَاء هُنَا بِمَعْنَى : أَمَامُ ، أَيْ : هِيَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ ، يَسْكُنُهَا مُخَلَّدًا يَوْمَ الْمَعَادِ ، وَيُعْرَضُ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ أَيْ : فِي النَّارِ لَيْسَ لَهُ شَرَابٌ إِلَّا مِنْ حَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ ، فَهَذَا حَارٌّ فِي غَايَةِ الْحَرَارَةِ ، وَهَذَا بَارِدٌ فِي غَايَةِ الْبَرْدِ وَالنَّتْنِ ، **قِيلَ** : الصَّدِيدُ مِنَ الْقَيْحِ وَالدَّمِ ، **وَقِيلَ** : هُوَ مَا يَسِيلُ مِنْ لَحْمِهِ وَجِلْدِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ ﴾ أَيْ : يَتَغَصَّصُهُ وَيَتَكَرَّهُهُ ، أَيْ : يَشْرَبُهُ قَهْرًا وَقَسْرًا لَا يَضَعُهُ فِي فَمِهِ حَتَّى يَضْرِبَهُ الْمَلَكُ بِمِطْرَاقٍ مِنْ حَدِيدٍ ، ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ أَيْ : يَزْدَرِيهِ لِسُوءِ طَعْمِهِ وَلَوْنِهِ وَرِيحِهِ ، وَحَرَارَتِهِ أَوْ بَرْدِهِ الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ ﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أَيْ : يَأْلَمُ لَهُ جَمِيعُ بَدَنِهِ وَجَوَارِحِهِ وَأَعْضَائِهِ ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : أَيْ : مِنْ أَمَامِهِ وَخَلْفِهِ ، **وَفِي رِوَايَةٍ** : وَعَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ وَمِنْ فَوْقِهِ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِ وَمِنْ سَائِرِ أَعْضَاءِ جَسَدِهِ ، **وَقِيلَ** : أَنْوَاعُ الْعَذَابِ الَّذِي

يُعَذِّبُهُ اللهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ لَيْسَ مِنْهَا نَوْعٌ إِلَّا يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْهُ، لَوْ كَانَ يَمُوتُ وَلَكِنْ لَا يَمُوتُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أَيْ: وَلَهُ مِنْ بَعْدِ هَذِهِ الْحَالِ عَذَابٌ آخَرُ غَلِيظٌ، أَيْ: مُؤْلِمٌ صَعْبٌ شَدِيدٌ أَغْلَظُ مِنَ الَّذِي قَبْلَهُ وَأَدْهَى وَأَمَرُّ.

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِأَعْمَالِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ وَبَنَوْا أَعْمَالَهُمْ عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ صَحِيحٍ، فَانْهَارَتْ وَعَدِمُوهَا أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أَيْ: مَثَلُ أَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا طَلَبُوا ثَوَابَهَا مِنَ اللهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى شَيْءٍ، فَلَمْ يَجِدُوا شَيْئًا، وَلَا أَلْفَوْا حَاصِلًا إِلَّا كَمَا يَتَحَصَّلُ مِنَ الرَّمَادِ إِذَا اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أَيْ: ذِي رِيحٍ شَدِيدَةٍ عَاصِفَةٍ قَوِيَّةٍ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي كَسَبُوا فِي الدُّنْيَا، إِلَّا كَمَا يَقْدِرُونَ عَلَى جَمْعِ هَذَا الرَّمَادِ فِي هَذَا الْيَوْمِ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ أَيْ: سَعْيُهُمْ وَعَمَلُهُمْ عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ وَلَا اسْتِقَامَةٍ، حَتَّى فَقَدُوا ثَوَابَهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى مَعَادِ الْأَبْدَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، أَفَلَيْسَ الَّذِي قَدَرَ عَلَى خَلْقِ هَذِهِ السَّمَاوَاتِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا وَعَظَمَتِهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ وَالْحَرَكَاتِ الْمُخْتَلِفَاتِ، وَالْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ، وَهَذِهِ الْأَرْضُ بِمَا فِيهَا مِنْ مِهَادٍ وَوِهَادٍ وَأَوْتَادٍ وَبَرَارٍ وَصَحَارٍ وَقِفَارٍ وَبِحَارٍ وَأَشْجَارٍ وَنَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ، عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا وَمَنَافِعِهَا وَأَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أَيْ: بِعَظِيمٍ وَلَا مُمْتَنِعٍ، بَلْ هُوَ سَهْلٌ عَلَيْهِ إِذَا خَالَفْتُمْ أَمْرَهُ أَنْ يُذْهِبَكُمْ وَيَأْتِي بِآخَرِينَ عَلَى غَيْرِ صِفَتِكُمْ.

وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ

أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَبَرَزُواْ ﴾ أَيْ : بَرَزَتِ الْخَلَائِقُ كُلُّهَا بَرُّهَا وَفَاجِرُهَا لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، أَيْ : اِجْتَمَعُوا لَهُ فِي بِرَازٍ مِنَ الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ يَسْتُرُ أَحَدًا ﴿ فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ ﴾ وَهُمُ الْأَتْبَاعُ لِقَادَتِهِمْ وَسَادَتِهِمْ وَكُبَرَائِهِمْ ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ ﴾ عَنْ عِبَادَةِ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَعَنْ مُوَافَقَةِ الرُّسُلِ ، قَالُوا لَهُمْ : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَمَرْتُمُونَا اِئْتَمَرْنَا وَفَعَلْنَا ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ أَيْ : فَهَلْ تَدْفَعُونَ عَنَّا شَيْئًا مِنْ عَذَابِ الله ، كَمَا كُنْتُمْ تَعِدُونَنَا وَتُمَنُّونَنَا ، فَقَالَتِ الْقَادَةُ لَهُمْ : ﴿ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ﴾ وَلَكِنْ حَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ، وَسَبَقَ فِينَا وَفِيكُمْ قَدَرُ الله ، وَحَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَنَا خَلَاصٌ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ إِنْ صَبَرْنَا عَلَيْهِ أَوْ جَزِعْنَا مِنْهُ .

وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا خَاطَبَ بِهِ إِبْلِيسُ أَتْبَاعَهُ بَعْدَمَا قَضَى اللهُ بَيْنَ عِبَادِهِ ، فَأَدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّاتِ وَأَسْكَنَ الْكَافِرِينَ الدَّرَكَاتِ ، فَقَامَ فِيهِمْ إِبْلِيسُ - لَعَنَهُ اللهُ - يَوْمَئِذٍ خَطِيبًا لِيَزِيدَهُمْ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ ، وَغَبْنًا إِلَى غَبْنِهِمْ ، وَحَسْرَةً إِلَى حَسْرَتِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ وَوَعَدَكُمْ فِي اِتِّبَاعِهِمُ النَّجَاةَ وَالسَّلَامَةَ ، وَكَانَ وَعْدًا حَقًّا وَخَبَرًا صِدْقًا ، وَأَمَّا أَنَا فَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ أَيْ : مَا كَانَ لِي دَلِيلٌ فِيمَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ ، وَلَا حُجَّةَ فِيمَا وَعَدْتُكُمْ بِهِ ﴿ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ ، هَذَا وَقَدْ أَقَامَتْ عَلَيْكُمُ الرُّسُلُ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ الصَّحِيحَةَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءُوكُمْ بِهِ ، فَخَالَفْتُمُوهُمْ فَصِرْتُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ ﴿ فَلَا تَلُومُونِى ﴾ الْيَوْمَ ﴿ وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ فَإِنَّ الذَّنْبَ لَكُمْ لِكَوْنِكُمْ خَالَفْتُمُ الْحُجَجَ ، وَاتَّبَعْتُمُونِي بِمُجَرَّدِ مَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى الْبَاطِلِ ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أَيْ : بِنَافِعِكُمْ وَمُنْقِذِكُمْ وَمُخَلِّصِكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾ أَيْ : بِنَافِعِي بِإِنْقَاذِي مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَقُولُ إِنِّي

جَحَدْتُ أَنْ أَكُونَ شَرِيكًا لله ﷻ وَهَذَا هُوَ الرَّاجِحُ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وَالظَّاهِرُ مِنْ سِيَاقِ الْآيَةِ أَنَّ هَذِهِ الْخُطْبَةَ تَكُونُ مِنْ إِبْلِيسَ بَعْدَ دُخُولِهِمُ النَّارَ كَمَا قَدَّمْنَا ، ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَآلَ الْأَشْقِيَاءِ وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ ، وَأَنَّ خَطِيبَهُمْ إِبْلِيسَ عَطَفَ بِمَآلِ السُّعَدَاءِ ، وَأَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، سَارِحَةً فِيهَا حَيْثُ سَارُوا وَأَيْنَ سَارُوا ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ مَاكِثِينَ أَبَدًا لَا يَحُولُونَ وَلَا يَزُولُونَ ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وَهُوَ الْمُؤْمِنُ ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ ﴿ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ يُرْفَعُ بِهَا عَمَلُ الْمُؤْمِنِ إِلَى السَّمَاءِ ، يَعْنُونَ : إِنَّ ذَلِكَ عِبَارَةٌ عَنْ عَمَلِ الْمُؤْمِنِ وَقَوْلِهِ الطَّيِّبِ وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ كَشَجَرَةٍ مِنَ النَّخْلِ لَا يَزَالُ يُرْفَعُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ فِي كُلِّ حِينٍ وَوَقْتٍ وَصَبَاحٍ وَمَسَاءٍ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ ﴾ قِيلَ : غُدْوَةً وَعَشِيًّا ، وَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ : أَنَّ الْمُؤْمِنَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ ، لَا يَزَالُ يُوجَدُ مِنْهَا ثَمَرٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ صَيْفٍ أَوْ شِتَاءٍ ، أَوْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، كَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ لَا يَزَالُ يُرْفَعُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ، فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ أَيْ : كَامِلًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ هَذَا مَثَلُ كُفْرِ الْكَافِرِ لَا أَصْلَ لَهُ وَلَا ثَبَاتَ ، مُشَبَّهٌ بِشَجَرَةِ الْحَنْظَلِ . ﴿ ٱجْتُثَّتْ ﴾ أَيْ : اُسْتُؤْصِلَتْ ﴿ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ أَيْ : لَا أَصْلَ لَهَا وَلَا ثَبَاتَ ، كَذَلِكَ الْكُفْرُ لَا أَصْلَ لَهُ وَلَا فَرْعَ ، وَلَا يَصْعَدُ لِلْكَافِرِ عَمَلٌ وَلَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ شَيْءٌ .

يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ».

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ

﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ ۝٢٩ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۝٣٠﴾

قَالَ الْبُخَارِيُّ : قَوْلُهُ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أَلَمْ تَعْلَم كَقَوْلِهِ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ ، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾ . الْبَوَارُ : الْهَلَاكُ ، بَارَ يَبُورُ بَوْرًا وَ ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ هَالِكِينَ . **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قَالَ : هُمْ كُفَّارُ أَهْلِ مَكَّةَ . وَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى يَعُمُّ جَمِيعَ الْكُفَّارِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَنِعْمَةً لِلنَّاسِ ، فَمَنْ قَبِلَهَا وَقَامَ بِشُكْرِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ رَدَّهَا وَكَفَرَهَا دَخَلَ النَّارَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ أَيْ : جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ ، عَبَدُوهُمْ مَعَهُ وَدَعَوْا النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُهَدِّدًا لَهُمْ وَمُتَوَعِّدًا لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ : ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أَيْ : مَهْمَا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا فَافْعَلُوا ، فَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أَيْ : مَرْجِعُكُمْ وَمَوْئِلُكُمْ إِلَيْهَا .

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ۝٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ بِطَاعَتِهِ وَالْقِيَامِ بِحَقِّهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِهِ ، بِأَنْ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَهِيَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ بِأَدَاءِ الزَّكَوَاتِ ، وَالنَّفَقَةِ عَلَى الْقَرَابَاتِ ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَجَانِبِ ، وَالْمُرَادُ بِإِقَامَتِهَا هُوَ : الْمُحَافَظَةُ عَلَى وَقْتِهَا وَحُدُودِهَا وَرُكُوعِهَا وَخُشُوعِهَا وَسُجُودِهَا ، وَأَمَرَ تَعَالَى بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَ فِي السِّرِّ ، أَيْ : فِي الْخُفْيَةِ وَالْعَلَانِيَةِ وَهِيَ : الْجَهْرُ ، وَلِيُبَادِرُوا إِلَى ذَلِكَ لِخَلَاصِ أَنْفُسِهِمْ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ أَيْ : لَا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ فِدْيَةٌ أَنْ تُبَاعَ نَفْسُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[الحديد : ١٥] ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَقُولُ لَيْسَ هُنَاكَ مُخَالَّةُ خَلِيلٍ ، فَيُصْفَحُ عَمَّنِ اسْتَوْجَبَ الْعُقُوبَةَ عَنِ الْعِقَابِ لِمُخَالَفَتِهِ ، بَلْ هُنَاكَ الْعَدْلُ وَالْقِسْطُ . **قُلْتُ** : وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ أَحَدًا بَيْعٌ وَلَا فِدْيَةٌ ، وَلَوِ افْتَدَى بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَوْ وَجَدَهُ ، وَلَا تَنْفَعُهُ صَدَاقَةُ أَحَدٍ وَلَا شَفَاعَةُ أَحَدٍ إِذَا لَقِيَ اللهَ كَافِرًا .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

يُعَدِّدُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى خَلْقِهِ ، بِأَنْ خَلَقَ لَهُمُ السَّمَاوَاتِ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَالْأَرْضَ فِرَاشًا ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه : ٥٣] مَا بَيْنَ ثِمَارٍ وَزُرُوعٍ مُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ ، وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ وَالْمَنَافِعِ ، وَسَخَّرَ الْفُلْكَ بِأَنْ جَعَلَهَا طَافِيَةً عَلَى تَيَّارِ مَاءِ الْبَحْرِ تَجْرِي عَلَيْهِ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى ، وَسَخَّرَ الْبَحْرَ لِحَمْلِهَا لِيَقْطَعَ الْمُسَافِرُونَ بِهَا مِنْ إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ آخَرَ ، لِجَلْبِ مَا هُنَا إِلَى هُنَاكَ وَمَا هُنَاكَ إِلَى هُنَا ، وَسَخَّرَ الْأَنْهَارَ تَشُقُّ الْأَرْضَ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ ، رِزْقًا لِلْعِبَادِ مِنْ شُرْبٍ وَسَقْيٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ . ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ أَيْ : يَسِيرَانِ لَا يَفْتُرَانِ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس : ٤٠] فَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَتَعَاقَبَانِ ، وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ يَتَعَارَضَانِ ، فَتَارَةً يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا فَيَطُولُ ثُمَّ يَأْخُذُ الْآخَرُ مِنْ هَذَا فَيَقْصُرُ ، وَقَوْلُهُ : ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يَقُولُ هَيَّأَ لَكُمْ كُلَّ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ ، مِمَّا تَسْأَلُونَهُ بِحَالِكُمْ وَقَالِكُمْ . ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَجْزِ الْعِبَادِ عَنْ تَعْدَادِ النِّعَمِ فَضْلًا عَنِ الْقِيَامِ بِشُكْرِهَا .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى فِي هَذَا الْمَقَامِ مُحْتَجًّا عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ ، بِأَنَّ الْبَلَدَ الْحَرَامَ مَكَّةَ إِنَّمَا وُضِعَتْ أَوَّلَ مَا وُضِعَتْ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي كَانَتْ بِسَبَبِهِ آهِلَةً عَامِرَةً ، تَبَرَّأَ مِمَّنْ عَبَدَ غَيْرَ اللهِ وَأَنَّهُ دَعَا لِمَكَّةَ بِالْأَمْنِ فَقَالَ : ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ ، وَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [العنكبوت : ٦٧] وَقَوْلُهُ : ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ يَنْبَغِي لِكُلِّ دَاعٍ أَنْ يَدْعُوَ لِنَفْسِهِ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِذُرِّيَّتِهِ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ افْتُتِنَ بِالْأَصْنَامِ خَلَائِقُ مِنَ النَّاسِ وَأَنَّهُ تَبَرَّأَ مِمَّنْ عَبَدَهَا ، وَرَدَّ أَمْرَهُمْ إِلَى اللهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ .

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا دُعَاءٌ ثَانٍ بَعْدَ الدُّعَاءِ الْأَوَّلِ الَّذِي دَعَا بِهِ عِنْدَمَا وَلَّى عَنْ هَاجَرَ وَوَلَدِهَا ، وَذَلِكَ قَبْلَ بِنَاءِ الْبَيْتِ ، وَهَذَا كَانَ بَعْدَ بِنَائِهِ تَأْكِيدًا وَرَغْبَةً إِلَى اللهِ عز وجل وَلِهَذَا قَالَ :

﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : أَيْ : إِنَّمَا جَعَلْتُهُ مُحَرَّمًا لِيَتَمَكَّنَ أَهْلُهُ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ عِنْدَهُ ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : لَوْ قَالَ أَفْئِدَةَ النَّاسِ لَازْدَحَمَ عَلَيْهِ فَارِسُ وَالرُّومُ وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ ، وَلَكِنْ قَالَ : ﴿ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فَاخْتُصَّ بِهِ الْمُسْلِمُونَ ﴿ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أَيْ : لِيَكُونَ ذَلِكَ عَوْنًا لَهُمْ عَلَى طَاعَتِكَ ، وَكَمَا أَنَّهُ وَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ فَاجْعَلْ لَهُمْ ثِمَارًا يَأْكُلُونَهَا ، وَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ ذَلِكَ ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ وَبَرَكَتِهِ ، أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ مَكَّةَ شَجَرَةٌ مُثْمِرَةٌ ، وَهِيَ تُجْبَى إِلَيْهَا ثَمَرَاتُ مَا حَوْلَهَا اسْتِجَابَةً لِدُعَاءِ الْخَلِيلِ عليه السلام .

رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِهِ **أَنَّهُ قَالَ** : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾ أَيْ : أَنْتَ تَعْلَمُ قَصْدِي فِي دُعَائِي ، وَمَا أَرَدْتُ بِدُعَائِي لِأَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ ، وَإِنَّمَا هُوَ الْقَصْدُ إِلَى رِضَاكَ وَالْإِخْلَاصُ لَكَ ، فَإِنَّكَ تَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا ، لَا يَخْفَى عَلَيْكَ مِنْهَا شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، ثُمَّ حَمِدَ رَبَّهُ عز وجل عَلَى مَا رَزَقَهُ مِنَ الْوَلَدِ بَعْدَ الْكِبَرِ ، **فَقَالَ** : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ يَسْتَجِيبُ لِمَنْ دَعَاهُ ، وَقَدِ اسْتَجَابَ لِي فِيمَا سَأَلْتُهُ مِنَ الْوَلَدِ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أَيْ : مُحَافِظًا عَلَيْهَا مُقِيمًا لِحُدُودِهَا ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ أَيْ : وَاجْعَلْهُمْ كَذَلِكَ مُقِيمِينَ لَهَا ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ أَيْ : فِيمَا سَأَلْتُكَ فِيهِ كُلِّهِ . ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ « وَلِوَالِدِي » بِالْإِفْرَادِ ، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ عَدَاوَتُهُ لله عز وجل ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : كُلِّهِمْ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ أَيْ : يَوْمَ تُحَاسِبُ عِبَادَكَ فَتُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَحْسَبَنَّهُ إِذَا أَنْظَرَهُمْ وَأَجَّلَهُمْ أَنَّهُ غَافِلٌ عَنْهُمْ ، مُهْمِلٌ لَهُمْ لَا يُعَاقِبُهُمْ عَلَى صُنْعِهِمْ ، بَلْ هُوَ يُحْصِي ذَلِكَ

عَلَيْهِمْ وَيَعُدُّهُ عَلَيْهِمْ عَدًّا : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أَيْ : مِنْ شِدَّةِ الْأَهْوَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى كَيْفِيَّةَ قِيَامِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ وَعَجَلَتِهِمْ إِلَى قِيَامِ الْمَحْشَرِ فَقَالَ : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أَيْ : مُسْرِعِينَ ، ﴿ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾ رَافِعِي رُءُوسِهِمْ ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أَيْ : بَلْ أَبْصَارُهُمْ طَائِرَةٌ شَاخِصَةٌ مُدِيمُونَ النَّظَرَ لَا يَطْرِفُونَ لَحْظَةً ، لِكَثْرَةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْهَوْلِ وَالْفِكْرَةِ الْمَخَافَةِ لِمَا يَحِلُّ بِهِمْ ، عِيَاذًا بِاللهِ الْعَظِيمِ مِنْ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ أَيْ : وَقُلُوبُهُمْ خَاوِيَةٌ خَالِيَةٌ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ لِكَثْرَةِ الْوَجَلِ وَالْخَوْفِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ﴿ هَوَآءٌ ﴾ خَرَابٌ لَا تَعِي شَيْئًا لِشِدَّةِ مَا أَخْبَرَ بِهِ تَعَالَى عَنْهُمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ :

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قِيلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ ، قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ هَذَا : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ أَيْ : أَوَلَمْ تَكُونُوا تَحْلِفُونَ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ أَنَّهُ لَا زَوَالَ لَكُمْ عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ، وَأَنَّهُ لَا مَعَادَ وَلَا جَزَاءَ فَذُوقُوا هَذَا بِذَلِكَ . ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ أَيْ : قَدْ رَأَيْتُمْ وَبَلَغَكُمْ مَا أَحْلَلْنَا بِالْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ قَبْلَكُمْ ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِيهِمْ مُعْتَبَرٌ ، وَلَمْ يَكُنْ فِيمَا أَوْقَعْنَا بِهِمْ لَكُمْ مُزْدَجَرٌ . قِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ يَقُولُ : مَا كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ .

فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُقَرِّرًا لِوَعْدِهِ وَمُؤَكِّدًا : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ أَيْ : مِنْ نُصْرَتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ذُو عِزَّةٍ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَرَادَهُ وَلَا يُغَالَبُ ، وَذُو انْتِقَامٍ مِمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَجَحَدَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ أَيْ : وَعْدُهُ هَذَا حَاصِلٌ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ وَهِيَ هَذِهِ عَلَى غَيْرِ الصِّفَةِ الْمَأْلُوفَةِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَعَنْ عَائِشَةَ

رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ قَالَتْ : قُلْتُ : أَيْنَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : ((عَلَى الصِّرَاطِ)) .

وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ وَتَبْرُزُ الْخَلَائِقُ لِدَيَّانِهَا ، تَرَى يَا مُحَمَّدُ يَوْمَئِذٍ الْمُجْرِمِينَ وَهُمُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا بِكُفْرِهِمْ وَفَسَادِهِمْ ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ أَيْ : بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، قَدْ جُمِعَ بَيْنَ النُّظَرَاءِ أَوِ الْأَشْكَالِ مِنْهُمْ ، كُلُّ صِنْفٍ إِلَى صِنْفٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ أَيْ : ثِيَابُهُمُ الَّتِي يَلْبَسُونَهَا عَلَيْهِمْ مِنْ قَطِرَانٍ ، وَهُوَ الَّذِي تُهْنَأُ بِهِ الْإِبِلُ ، أَيْ : تُطْلَى ، قَالَ قَتَادَةُ : وَهُوَ أَلْصَقُ شَيْءٍ بِالنَّارِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : الْقَطْرَانُ : هُوَ النُّحَاسُ الْمُذَابُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٤] وَقَوْلُهُ : ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى هَذَا الْقُرْآنُ بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ، أَيْ : هُوَ بَلَاغٌ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ ، كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ الْآيَةَ ، ﴿ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ أَيْ : لِيَتَّعِظُوا بِهِ ﴿ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أَيْ : يَسْتَدِلُّوا بِمَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالدَّلَالَاتِ ، عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أَيْ : ذَوِي الْعُقُولِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

تفسير سورة الحجر — آياتها ٩٩ — مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾

الْآيَة ، إِخْبَارٌ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ سَيَنْدَمُونَ عَلَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ ، وَيَتَمَنَّوْنَ لَوْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ : أَنَّ كُلَّ كَافِرٍ يَوَدُّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ أَنْ لَوْ كَانَ مُؤْمِنًا ، وَقِيلَ : هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾ أَيْ : عَنِ التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : عَاقِبَةَ أَمْرِهِمْ .

وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ قَرْيَةً إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهَا وَانْتِهَاءِ أَجَلِهَا ، وَأَنَّهُ لَا يُؤَخِّرُ أُمَّةً حَانَ هَلَاكُهُمْ عَنْ مِيقَاتِهِمْ وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَنْ مُدَّتِهِمْ ، وَهَذَا تَنْبِيهٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ وَإِرْشَادٌ لَهُمْ إِلَى الْإِقْلَاعِ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالْعِنَادِ وَالْإِلْحَادِ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَ بِهِ الْهَلَاكَ .

وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ أَيْ : الَّذِي يَدَّعِي ذَلِكَ ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ أَيْ : فِي دُعَائِكَ إِيَّانَا إِلَى اتِّبَاعِكَ ، وَتَرْكِ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴿ لَّوْ مَا ﴾ أَيْ : هَلَّا ﴿ تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ أَيْ : يَشْهَدُونَ لَكَ بِصِحَّةِ مَا جِئْتَ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

قِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ بِالرِّسَالَةِ وَالعَذَابِ ، ثُمَّ قَرَّرَ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ، وَهُوَ الْحَافِظُ لَهُ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ : إِنَّهُ أَرْسَلَ مَنْ قَبْلَهُ فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ، وَإِنَّهُ مَا أَتَى أُمَّةً مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَذَّبُوهُ وَاسْتَهْزَءُوا بِهِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ سَلَكَ التَّكْذِيبَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ عَانَدُوا وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ الْهُدَى . وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ يَعْنِي : الشِّرْكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : قَدْ عُلِمَ مَا فَعَلَ تَعَالَى بِمَنْ كَذَّبَ رُسُلَهُ مِنَ الْهَلَاكِ وَالدَّمَارِ ، وَكَيْفَ أَنْجَى اللهُ الْأَنْبِيَاءَ وَأَتْبَاعَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ

نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُوَّةِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ لِلْحَقِّ : أَنَّهُ لَوْ فُتِحَ لَهُمْ بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فَجَعَلُوا يَصْعَدُونَ فِيهِ لَمَّا صَدَّقُوا بِذَلِكَ ، بَلْ قَالُوا : ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا ﴾ سُدَّتْ أَبْصَارُنَا ، وَقِيلَ : أُخِذَتْ أَبْصَارُنَا ، وَقِيلَ : شُبِّهَ عَلَيْنَا وَإِنَّمَا سُحِرْنَا ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : السَّكْرَانُ الَّذِي لَا يَعْقِلُ .

وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى خَلْقَهُ السَّمَاءَ فِي اِرْتِفَاعِهَا ، وَمَا زَيَّنَهَا بِهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ ، لِمَنْ تَأَمَّلَ وَكَرَّرَ نَظَرَهُ فِيمَا يَرَى فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ ، مَا يَحَارُ نَظَرُهُ فِيهِ ، وَبِهَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : الْبُرُوجُ هَهُنَا هِيَ : الْكَوَاكِبُ .

وَجَعَلَ الشُّهُبَ حَرَسًا لَهَا مِنْ مَرَدَةِ الشَّيَاطِينِ ؛ لِئَلَّا يَسَّمَعُوا إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **إِذَا قَضَى اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : لِلَّذِي قَالَ : الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ ، وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ ، هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ الْمُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ فَيُحْرِقَهُ ، وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّى يَرْمِيَ بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ ، إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ ، حَتَّى يُلْقُوهَا إِلَى الْأَرْضِ** » - وَرُبَّمَا قَالَ - حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْأَرْضِ : « **فَتُلْقَى عَلَى فَمِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ ، فَيُصَدَّقُ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا ؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ** » .

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى خَلْقَهُ الْأَرْضَ وَمَدَّهُ إِيَّاهَا وَتَوْسِيعَهَا وَبَسْطَهَا ، وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي وَالْأَوْدِيَةِ ، وَالْأَرَاضِي وَالرِّمَالِ ، وَمَا أَنْبَتَ فِيهَا مِنَ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ الْمُتَنَاسِبَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : أَيْ : مَعْلُومٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : مُقَدَّرٌ بِقَدَرٍ . وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُوزَنُ ، وَيُقَدَّرُ بِقَدَرٍ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ صَرَفَهُمْ فِي الْأَرْضِ فِي صُنُوفِ الْأَسْبَابِ وَالْمَعَايِشِ ، وَهِيَ جَمْعُ مَعِيشَةٍ . ﴿ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ قِيلَ : وَهِيَ الدَّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ ، وَقِيلَ : هُمُ الْعَبِيدُ وَالْإِمَاءُ وَالدَّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ ، وَالْقَصْدُ : أَنَّهُ تَعَالَى يَمْتَنُّ عَلَيْهِمْ بِمَا يَسَّرَ لَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ الْمَكَاسِبِ ، وَوُجُوهِ الْأَسْبَابِ وَصُنُوفِ

المَعَايِشِ ، وَبِمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ الدَّوَابِّ الَّتِي يَرْكَبُونَهَا ، وَالْأَنْعَامُ الَّتِي يَأْكُلُونَهَا ، وَالْعَبِيدُ وَالْإِمَاءُ الَّتِي يَسْتَخْدِمُونَهَا ، وَرِزْقُهُمْ عَلَى خَالِقِهِمْ لَا عَلَيْهِمْ ، فَلَهُمْ هُمُ الْمَنْفَعَةُ وَالرِّزْقُ عَلَى اللهِ تَعَالَى .

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ ، وَأَنَّ عِنْدَهُ خَزَائِنُ الْأَشْيَاءِ مِنْ جَمِيعِ الصُّنُوفِ ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ ، كَمَا يَشَاءُ وَكَمَا يُرِيدُ ، وَلِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ ، وَالرَّحْمَةِ بِعِبَادِهِ لَا عَلَى جِهَةِ الْوُجُوبِ بَلْ هُوَ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ أَيْ : تُلَقِّحُ السَّحَابَ فَتُدِرُّ مَاءً ، وَتُلَقِّحُ الشَّجَرَ فَتُفْتَحُ عَنْ أَوْرَاقِهَا وَأَكْمَامِهَا ، وَذَكَرَهَا بِصِيغَةِ الْجَمْعِ لِيَكُونَ مِنْهَا الْإِنْتَاجُ بِخِلَافِ الرِّيحِ الْعَقِيمِ فَإِنَّهُ أَفْرَدَهَا ، وَوَصَفَهَا بِالْعَقِيمِ وَهُوَ عَدَمُ الْإِنْتَاجِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَيْنَ شَيْئَيْنِ فَصَاعِدًا . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : تُرْسَلُ الرِّيحُ فَتَحْمِلُ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ ثُمَّ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ حَتَّى تُدِرَّ كَمَا تُدِرُّ اللِّقْحَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾ أَيْ : أَنْزَلْنَاهُ لَكُمْ عَذْبًا يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَشْرَبُوا مِنْهُ ، وَلَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ قِيلَ : بِمَانِعِينَ ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ : وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِحَافِظِينَ ، بَلْ نَحْنُ نُنَزِّلُهُ وَنَحْفَظُهُ عَلَيْكُمْ وَنَجْعَلُهُ مَعِينًا وَيَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ . ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ ﴾ إِخْبَارٌ عَنْ قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى بَدْءِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَحْيَا الْخَلْقَ مِنَ الْعَدَمِ ، ثُمَّ يُمِيتُهُمْ ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ كُلُّهُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ تَعَالَى يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عِلْمِهِ بِهِمْ أَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ ﴾ الْآيَةَ ، الْمُسْتَقْدِمُونَ : كُلُّ مَنْ هَلَكَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ ﷺ ، وَالْمُسْتَأْخِرُونَ : مَنْ هُوَ حَيٌّ وَمَنْ سَيَأْتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْمُرَادُ بِالصَّلْصَالِ هَهُنَا : التُّرَابُ الْيَابِسُ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن : ١٤ - ١٥] .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ أَيْ : الصَّلْصَالُ مِنْ حَمَإٍ : وَهُوَ الطِّينُ ، وَالْمَسْنُونُ : الْأَمْلَسُ ، وَقِيلَ :

الْمُرَادُ بِالْمَسْنُونِ هَهُنَا : الْمَصْبُوبُ . ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِ الْإِنْسَانِ ﴿ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : هِيَ السُّمُومُ الَّتِي تَقْتُلُ ، **وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ** : التَّنْبِيهُ عَلَى شَرَفِ آدَمَ عليه السلام وَطِيبِ عُنْصُرِهِ وَطَهَارَةِ مَحْتِدِهِ .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى تَنْوِيهَهُ بِذِكْرِ آدَمَ فِي مَلَائِكَتِهِ قَبْلَ خَلْقِهِ لَهُ ، وَتَشْرِيفَهُ إِيَّاهُ بِأَمْرِ الْمَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ لَهُ ، وَيَذْكُرُ تَخَلُّفَ إِبْلِيسَ عَدُوِّهِ عَنِ السُّجُودِ لَهُ ، حَسَدًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا وَافْتِخَارًا بِالْبَاطِلِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ .

قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾

يَقُولُ آمِرًا لِإِبْلِيسَ أَمْرًا كَوْنِيًّا لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا مِنَ الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَأَنَّهُ رَجِيمٌ ، أَيْ : مَرْجُومٌ ، وَأَنَّهُ قَدِ اتَّبَعَتْهُ لَعْنَةٌ لَا تَزَالُ مُتَّصِلَةٌ بِهِ لَاحِقَةٌ لَهُ مُتَوَاتِرَةٌ عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَنَّهُ لَمَّا تَحَقَّقَ الْغَضَبُ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ ، سَأَلَ مِنْ تَمَامِ حَسَدِهِ لِآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ النَّظِرَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُوَ يَوْمُ الْبَعْثِ ، وَأَنَّهُ أُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا لَهُ وَإِمْهَالًا ، فَلَمَّا تَحَقَّقَ النَّظِرَةُ قَبَّحَهُ اللهُ .

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْلِيسَ وَتَمَرُّدِهِ وَعُتُوِّهِ أَنَّهُ قَالَ لِلرَّبِّ : ﴿ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : أَقْسَمَ بِإِغْوَاءِ اللهِ لَهُ . قُلْتُ : وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ بِسَبَبِ مَا أَغْوَيْتَنِي وَأَضْلَلْتَنِي ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ أَيْ : لِذُرِّيَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : أُحَبِّبُ إِلَيْهِمُ الْمَعَاصِي وَأُرَغِّبُهُمْ فِيهَا ، وَأَؤُزُّهُمْ إِلَيْهَا

وَأُزْعِجُهُمْ إِزْعَاجًا ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أَيْ : كَمَا أَغْوَيْتَنِي وَقَدَّرْتَ عَلَيَّ ذَلِكَ ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ . قَالَ اللهُ تَعَالَى لَهُ مُتَهَدِّدًا وَمُتَوَعِّدًا ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أَيْ : مَرْجِعُكُمْ كُلُّكُمْ إِلَيَّ فَأُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ١٤] ، وَقِيلَ : طَرِيقُ الْحَقِّ مَرْجِعُهَا إِلَى اللهِ تَعَالَى وَإِلَيْهِ تَنْتَهِي . ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ قَدَّرْتُ لَهُمُ الْهِدَايَةَ فَلَا سَبِيلَ لَكَ عَلَيْهِمْ وَلَا وُصُولَ لَكَ إِلَيْهِمْ ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ اِسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ . ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أَيْ : جَهَنَّمَ مَوْعِدُ جَمِيعِ مَنِ اتَّبَعَ إِبْلِيسَ ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ لِجَهَنَّمَ سَبْعَةَ أَبْوَابٍ ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ أَيْ : قَدْ كُتِبَ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهَا جُزْءٌ مِنْ أَتْبَاعِ إِبْلِيسَ يَدْخُلُونَهُ لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ ، أَجَارَنَا اللهُ مِنْهَا ! وَكُلٌّ يَدْخُلُ مِنْ بَابٍ بِحَسَبِ عَمَلِهِ ، وَيَسْتَقِرُّ فِي دَرَكٍ بِقَدْرِ فِعْلِهِ . **عَنْ عَلِيٍّ** رضي الله عنه **قَالَ** : أَبْوَابُ جَهَنَّمَ سَبْعَةٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، فَيَمْتَلِئُ الْأَوَّلُ ثُمَّ الثَّانِي ثُمَّ الثَّالِثُ حَتَّى تَمْتَلِئَ كُلُّهَا ، **وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ** : ﴿ سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ ﴾ أَوَّلُهَا جَهَنَّمُ ، ثُمَّ لَظَى ، ثُمَّ الْحُطَمَةُ ، ثُمَّ السَّعِيرُ ، ثُمَّ سَقَرُ ، ثُمَّ الْجَحِيمُ ، ثُمَّ الْهَاوِيَةُ ، **وَقِيلَ** : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ بَابٌ لِلْيَهُودِ ، وَبَابٌ لِلنَّصَارَى ، وَبَابٌ لِلصَّابِئِينَ ، وَبَابٌ لِلْمَجُوسِ ، وَبَابٌ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا وَهُمْ كُفَّارُ الْعَرَبِ ، وَبَابٌ لِلْمُنَافِقِينَ ، وَبَابٌ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ ، فَأَهْلُ التَّوْحِيدِ يُرْجَى لَهُمْ وَلَا يُرْجَى لِأُولَئِكَ أَبَدًا .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ أَهْلِ النَّارِ عَطَفَ عَلَى ذِكْرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَنَّهُمْ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ أَيْ : سَالِمِينَ مِنَ الْآفَاتِ ، مُسَلَّمٌ عَلَيْكُمْ ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ أَيْ : مِنْ كُلِّ خَوْفٍ وَفَزَعٍ ، وَلَا تَخْشَوْا مِنْ إِخْرَاجٍ وَلَا انْقِطَاعٍ وَلَا فَنَاءٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ **قِيلَ** : يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ عَلَى مَا فِي صُدُورِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشَّحْنَاءِ وَالضَّغَائِنِ ، حَتَّى إِذَا تَوَافَوْا وَتَقَابَلُوا نَزَعَ اللهُ مَا فِي صُدُورِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ غِلٍّ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ **قِيلَ** : لَا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ فِي قَفَا بَعْضٍ ، ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ يَعْنِي : الْمَشَقَّةُ وَالْأَذَى . ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : ((**يُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَمْرَضُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَلَا تَظْعَنُوا أَبَدًا**)) . وَقَوْلُهُ : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ

أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ أَيْ : أَخْبِرْ يَا مُحَمَّدُ عِبَادِي أَنِّي ذُو رَحْمَةٍ وَذُو عَذَابٍ أَلِيمٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ نَظِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى مَقَامَي الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ .

وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَأَخْبِرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ عَنْ قِصَّةِ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ، وَالضَّيْفُ : يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ كَالزَّوْرِ وَالسَّفْرِ ، وَكَيْفَ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا : سَلَامًا ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أَيْ : خَائِفُونَ ، وَقَدْ ذَكَرَ سَبَبَ خَوْفِهِ مِنْهُمْ لَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَى مَا قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ مِنَ الضِّيَافَةِ ، وَهُوَ الْعِجْلُ السَّمِينُ الْحَنِيذُ . ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾ أَيْ : لَا تَخَفْ ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أَيْ : إِسْحَاقَ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ هُودٍ ، فـ ﴿قَالَ﴾ مُتَعَجِّبًا مِنْ كِبَرِهِ وَكِبَرِ زَوْجَتِهِ ، وَمُتَحَقِّقًا لِلْوَعْدِ ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ فَأَجَابُوهُ مُؤَكِّدِينَ لِمَا بَشَّرُوهُ بِهِ تَحْقِيقًا ، وَبِشَارَةً بَعْدَ بِشَارَةٍ ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ : الْقَنِطِينَ ، فَأَجَابَهُمْ بِأَنَّهُ لَيْسَ يَقْنَطُ وَلَكِنْ يَرْجُو مِنَ اللهِ الْوَلَدَ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ كَبُرَ وَأَسَنَّتِ امْرَأَتُهُ ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ مِنْ قُدْرَةِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ .

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام لَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى ، إِنَّهُ شَرَعَ يَسْأَلُهُمْ عَمَّا جَاءُوا لَهُ ، فَقَالُوا : ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يَعْنُونَ : قَوْمَ لُوطٍ ، وَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ سَيُنَجُّونَ آلَ لُوطٍ مِنْ بَيْنِهِمْ إِلَّا امْرَأَتَهُ فَإِنَّهَا مِنَ الْهَالِكِينَ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أَيْ : الْبَاقِينَ الْمُهْلَكِينَ .

فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ لُوطٍ لَمَّا جَاءَتْهُ الْمَلَائِكَةُ فِي صُورَةِ شَبَابٍ حِسَانِ الْوُجُوهِ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ دَارَهُ ،

قَالَ : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يَعْنُونَ : بِعَذَابِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ وَدَمَارِهِمُ الَّذِي كَانُوا يَشُكُّونَ فِي وُقُوعِهِ بِهِمْ ، وَحُلُولِهِ بِسَاحَتِهِمْ ﴿ وَأَتَيْنَكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر : ٨] . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ تَأْكِيدٌ لِخَبَرِهِمْ إِيَّاهُ بِمَا أَخْبَرُوهُ بِهِ مِنْ نَجَاتِهِ وَإِهْلَاكِ قَوْمِهِ .

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ أَمَرُوهُ أَنْ يَسْرِيَ بِأَهْلِهِ بَعْدَ مُضِيِّ جَانِبٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَأَنْ يَكُونَ لُوطٌ عليه السلام يَمْشِي وَرَاءَهُمْ لِيَكُونَ أَحْفَظَ لَهُمْ ، وَهَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْشِي فِي الْغَزَاةِ ، بِمَا يَكُونُ سَاقَةً يُزْجِي الضَّعِيفَ وَيَحْمِلُ الْمُنْقَطِعَ ،وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أَيْ : إِذَا سَمِعْتُمُ الصَّيْحَةَ بِالْقَوْمِ فَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَيْهِمْ ، وَذَرُوهُمْ فِيمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ كَأَنَّهُ كَانَ مَعَهُمْ مَنْ يَهْدِيهِمُ السَّبِيلَ ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ أَيْ : تَقَدَّمْنَا إِلَيْهِ فِي هَذَا ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ أَيْ : وَقْتَ الصَّبَاحِ .

وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَجِيءِ قَوْمِ لُوطٍ لَمَّا عَلِمُوا بِأَضْيَافِهِ وَصَبَاحَةِ وُجُوهِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ جَاءُوا مُسْتَبْشِرِينَ بِهِمْ فَرِحِينَ ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ ، وَهَذَا إِنَّمَا قَالَهُ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ بِأَنَّهُمْ رُسُلُ اللهِ ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : أَوَمَا نَهَيْنَاكَ أَنْ تُضَيِّفَ أَحَدًا ؟ فَأَرْشَدَهُمْ إِلَى نِسَائِهِمْ وَمَا خَلَقَ لَهُمْ رَبُّهُمْ مِنْهُمْ مِنَ الْفُرُوجِ الْمُبَاحَةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ إِيضَاحُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ ، هَذَا كُلُّهُ وَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ ، وَمَا قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَمَا يُصْبِحُونَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُنْتَظَرِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أَقْسَمَ تَعَالَى بِحَيَاةِ نَبِيِّهِ – صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ – وَفِي هَذَا تَشْرِيفٌ عَظِيمٌ وَمَقَامٌ رَفِيعٌ وَجَاهٌ عَرِيضٌ . وَقَالَ قَتَادَةُ ﴿ لَفِى سَكْرَتِهِمْ ﴾ أَيْ : فِي ضَلَالَتِهِمْ ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أَيْ : يَلْعَبُونَ ، قِيلَ : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ لَعَيْشُكَ ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ قَالَ : يَتَرَدَّدُونَ .

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ

﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ وَهِيَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الصَّوْتِ الْقَاصِفِ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ وَهُوَ طُلُوعُهَا ، وَذَلِكَ مَعَ رَفْعِ بِلَادِهِمْ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ، ثُمَّ قَلْبِهَا وَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا ، وَأَرْسَلَ حِجَارَةَ السِّجِّيلِ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى السِّجِّيلِ فِي هُودٍ بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أَيْ : أَنَّ آثَارَ هَذِهِ النِّقَمِ الظَّاهِرَةِ عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ ، لِمَنْ تَأَمَّلَ ذَلِكَ وَتَوَسَّمَهُ بِعَيْنِ بَصَرِهِ وَبَصِيرَتِهِ ، **كَمَا قِيلَ** : ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ **قِيلَ** : لِلْمُعْتَبِرِينَ ، **وَقِيلَ** : لِلْمُتَأَمِّلِينَ . ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أَيْ : وَإِنَّ قَرْيَةَ سَدُومَ الَّتِي أَصَابَهَا مَا أَصَابَهَا مِنَ الْقَلْبِ الصُّورِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ ، وَالْقَذْفِ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى صَارَتْ بُحَيْرَةً مُنْتِنَةً خَبِيثَةً بِطَرِيقٍ مَهْيَعٍ مَسَالِكُهُ مُسْتَمِرَّةٌ إِلَى الْيَوْمِ ، **قِيلَ** : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ مُعْلَمٌ ، **وَقِيلَ** : بِطَرِيقٍ وَاضِحٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّ الَّذِي صَنَعْنَا بِقَوْمِ لُوطٍ مِنَ الْهَلَاكِ وَالدَّمَارِ وَإِنْجَاءَنَا لُوطًا وَأَهْلَهُ ، لَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ .

أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ هُمْ : قَوْمُ شُعَيْبٍ ، **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : الْأَيْكَةُ : الشَّجَرُ الْمُلْتَفُّ ، وَكَانَ ظُلْمُهُمْ بِشِرْكِهِمْ بِاللهِ وَقَطْعِهِمُ الطَّرِيقَ وَنَقْصِهِمُ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، فَانْتَقَمَ اللهُ مِنْهُمْ بِالصَّيْحَةِ وَالرَّجْفَةِ وَعَذَابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، وَقَدْ كَانُوا قَرِيبًا مِنْ قَوْمِ لُوطٍ بَعْدَهُمْ فِي الزَّمَانِ وَمُسَامِتِينَ لَهُمْ فِي الْمَكَانِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : طَرِيقٍ مُبِينٍ . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : طَرِيقٌ ظَاهِرٌ ، وَلِهَذَا لَمَّا أَنْذَرَ شُعَيْبٌ قَوْمَهُ قَالَ فِي نِذَارَتِهِ إِيَّاهُمْ ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٩]

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

أَصْحَابُ الْحِجْرِ : هُمْ ثَمُودُ الَّذِينَ كَذَّبُوا صَالِحًا نَبِيَّهُمْ عليه السلام وَمَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ فَقَدْ كَذَّبَ بِجَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ ، وَلِهَذَا أُطْلِقَ عَلَيْهِ تَكْذِيبُ الْمُرْسَلِينَ ، وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ آتَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا يَدُلُّهُمْ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ صَالِحٌ ، كَالنَّاقَةِ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللهُ لَهُمْ بِدُعَاءِ صَالِحٍ مِنْ صَخْرَةٍ صَمَّاءَ ، وَكَانَتْ تَسْرَحُ فِي بِلَادِهِمْ ، لَهَا شِرْبٌ وَلَهُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، فَلَمَّا عَتَوْا وَعَقَرُوهَا قَالَ لَهُمْ : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : ٦٥] ، وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ : ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾ أَيْ : مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ وَلَا احْتِيَاجٍ إِلَيْهَا بَلْ أَشَرًا وَبَطَرًا وَعَبَثًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ أَيْ : وَقْتُ الصَّبَاحِ مِنَ الْيَوْمِ الرَّابِعِ ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أَيْ : مَا كَانُوا يَسْتَغِلُّونَهُ مِنْ زُرُوعِهِمْ وَثِمَارِهِمُ الَّتِي ضَنُّوا بِمَائِهَا عَنِ النَّاقَةِ حَتَّى عَقَرُوهَا لِئَلَّا تَضِيقَ عَلَيْهِمْ فِي الْمِيَاهِ ، فَمَا دَفَعَتْ عَنْهُمْ تِلْكَ الْأَمْوَالُ وَلَا نَفَعَتْهُمْ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ ﴾ أَيْ : بِالْعَدْلِ ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ [النجم : ٣١] ، ثُمَّ أَخْبَرَ نَبِيَّهُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ وَأَنَّهَا كَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالصَّفْحِ الْجَمِيلِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي أَذَاهُمْ لَهُ وَتَكْذِيبِهِمْ مَا جَاءَهُمْ بِهِ ، **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : كَانَ هَذَا قَبْلَ الْقِتَالِ ، وَهُوَ كَمَا قَالُوا ، فَإِنَّ هَذِهِ مَكِّيَّةٌ ، وَالْقِتَالُ إِنَّمَا شُرِعَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ تَقْرِيرٌ لِلْمَعَادِ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى إِقَامَةِ السَّاعَةِ ، فَإِنَّهُ الْخَلَّاقُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ خَلْقُ شَيْءٍ ، الْعَلِيمُ بِمَا تَمَزَّقَ مِنَ الْأَجْسَادِ ، وَتَفَرَّقَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : كَمَا آتَيْنَاكَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ، فَلَا تَنْظُرَنَّ إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا مَتَّعْنَا بِهِ أَهْلَهَا مِنَ الزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، فَلَا تَغْبِطْهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ ، وَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، حُزْنًا عَلَيْهِمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ لَكَ وَمُخَالَفَتِهِمْ دِينَكَ ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : أَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ ، **وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي السَّبْعِ الْمَثَانِي مَا هِيَ ؟ فَقَالَ فَرِيقٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : هِيَ السَّبْعُ الطِّوَالُ ، يَعْنُونَ : الْبَقَرَةَ ، وَآلَ عِمْرَانَ ، وَالنِّسَاءَ ، وَالْمَائِدَةَ ، وَالْأَنْعَامَ ، وَالْأَعْرَافَ ، وَيُونُسَ .

وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّهَا الْفَاتِحَةُ وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ** » فَهَذَا نَصٌّ فِي أَنَّ الْفَاتِحَةَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ، وَلَكِنْ لَا يُنَافِي وَصْفَ غَيْرِهَا مِنَ السَّبْعِ الطِّوَالِ بِذَلِكَ ، لِمَا فِيهَا مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ كَمَا لَا يُنَافِي وَصْفَ الْقُرْآنِ بِكَمَالِهِ بِذَلِكَ أَيْضًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ أَيْ : اِسْتَغْنِ بِمَا آتَاكَ اللهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْمَتَاعِ وَالزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ .

وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ أَنَّهُ النَّذِيرُ المُبِينُ الْبَيِّنُ النِّذَارَةِ ، نَذِيرٌ لِلنَّاسِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ عَلَى تَكْذِيبِهِ كَمَا حَلَّ بِمَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِرُسُلِهَا ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالِانْتِقَامِ . **وَقَوْلُهُ**: ﴿ ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾ أَيْ : الْمُتَحَالِفِينَ ، أَيْ : تَحَالَفُوا عَلَى مُخَالَفَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَتَكْذِيبِهِمْ وَأَذَاهُمْ . **قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْن زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : الْمُقْتَسِمُونَ : أَصْحَابُ صَالِحٍ الَّذِينَ تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ . ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ أَيْ : جَزَّءُوا كُتُبَهُمُ الْمُنَزَّلَةَ عَلَيْهِمْ فَآمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ ، **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : ﴿ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ قَالَ : هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ جَزَّءُوهُ أَجْزَاءً ، فَآمَنُوا بِبَعْضِهِ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ قَالُوا : سِحْرٌ ، وَقَالُوا : كِهَانَةٌ ، وَقَالُوا : أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . **وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ . قَالُوا : عَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ .

فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ بِإِبْلَاغِ مَا بَعَثَهُ بِهِ ، وَبِإِنْفَاذِهِ وَالصَّدْعِ بِهِ ، وَهُوَ مُوَاجَهَةُ الْمُشْرِكِينَ بِهِ ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أَيْ : أَمْضِهِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ أَيْ : بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّوكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم : ٩] ، وَلَا تَخَفْهُمْ ، فَإِنَّ اللهَ كَافِيكَ إِيَّاهُمْ وَحَافِظُكَ مِنْهُمْ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ جَعَلَ مَعَ اللهِ مَعْبُودًا آخَرَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أَيْ : وَإِنَّا لَنَعْلَمُ يَا مُحَمَّدُ أَنَّكَ يَحْصُلُ لَكَ مِنْ أَذَاهُمْ لَكَ ضِيقُ صَدْرٍ وَانْقِبَاضٌ ، فَلَا يَهِيدَنَّكَ ذَلِكَ وَلَا يُثْنِيَنَّكَ عَنْ إِبْلَاغِكَ رِسَالَةَ اللهِ ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ ، فَاشْتَغِلْ بِذِكْرِ اللهِ وَتَحْمِيدِهِ وَتَسْبِيحِهِ وَعِبَادَتِهِ الَّتِي هِيَ الصَّلَاةُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ نُعَيْمِ بْنِ عَمَّارٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **قَالَ اللهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ لَا تَعْجِزْ عَنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ** » ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى . ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ **عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ** ﴿ ٱلْيَقِينُ ﴾ **الْمَوْتُ** .

وَيُسْتَدَلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّ الْعِبَادَةَ كَالصَّلَاةِ وَنَحْوِهَا وَاجِبَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مَا دَامَ عَقْلُهُ ثَابِتًا ، فَيُصَلِّي بِحَسَبِ حَالِهِ . وَيُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى تَخْطِئَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْمَلَاحِدَةِ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْيَقِينِ الْمَعْرِفَةُ ، فَمَتَى وَصَلَ أَحَدُهُمْ إِلَى الْمَعْرِفَةِ سَقَطَ عَنْهُ التَّكْلِيفُ عِنْدَهُمْ ، وَهَذَا كُفْرٌ وَضَلَالٌ وَجَهْلٌ ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ عليهم السلام كَانُوا هُمْ وَأَصْحَابُهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِاللهِ وَأَعْرَفُهُمْ بِحُقُوقِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَا يَسْتَحِقُّ مِنَ التَّعْظِيمِ ، وَكَانُوا مَعَ هَذَا أَعْبَدَ وَأَكْثَرَ النَّاسِ عِبَادَةً وَمُوَاظَبَةً عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ إِلَى حِينِ الْوَفَاةِ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِالْيَقِينِ هَهُنَا : الْمَوْتُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ ، وَلِلهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحِجْرِ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

آياتها ١٢٨ تفسيرُ سُورَةِ النحْلِ مكيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَدُنُوِّهَا مُعَبِّرًا بِصِيغَةِ الْمَاضِي الدَّالِّ عَلَى التَّحْقِيقِ وَالْوُقُوعِ لَا مَحَالَةَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ أَيْ : قَرُبَ مَا تَبَاعَدَ ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ عَلَى اللهِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى الْعَذَابِ وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ . ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ شِرْكِهِمْ بِهِ غَيْرَهُ وَعِبَادَتِهِمْ مَعَهُ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ عُلُوًّا كَبِيرًا - وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُكَذِّبُونَ بِالسَّاعَةِ ، فَقَالَ : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ ﴾ أَيْ : الْوَحْيِ ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ . ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ ﴾ أَيْ : لِيُنْذِرُوا ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ أَيْ : فَاتَّقُوا عُقُوبَتِي لِمَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَعَبَدَ غَيْرِي .

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ خَلْقِهِ الْعَالَمَ الْعُلْوِيَّ : وَهُوَ السَّمَاوَاتُ ، وَالْعَالَمَ السُّفْلِيَّ : وَهُوَ الْأَرْضُ بِمَا حَوَتْ ، وَأَنَّ ذَلِكَ مَخْلُوقٌ بِالْحَقِّ لَا لِلْعَبَثِ ، بَلْ ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ

أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١]، ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ شِرْكِ مَنْ عَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَهُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَلِهَذَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى خَلْقِ جِنْسِ الْإِنْسَانِ مِنْ نُطْفَةٍ ، أَيْ : مَهِينَةٍ ضَعِيفَةٍ ، فَلَمَّا اسْتَقَلَّ وَدَرَجَ إِذَا هُوَ يُخَاصِمُ رَبَّهُ تَعَالَى وَيُكَذِّبُهُ وَيُحَارِبُ رُسُلَهُ ، وَهُوَ إِنَّمَا خُلِقَ لِيَكُونَ عَبْدًا لَا ضِدًّا .

وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

يَمْتَنُّ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ، وَهِيَ : الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ، كَمَا فَصَّلَهَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ إِلَى ثَمَانِيَةِ أَزْوَاجٍ ، وَبِمَا جَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ مِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا يَلْبَسُونَ وَيَفْتَرِشُونَ ، وَمِنْ أَلْبَانِهَا يَشْرَبُونَ ، وَيَأْكُلُونَ مِنْ أَوْلَادِهَا ، وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْجَمَالِ وَهُوَ الزِّينَةُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ وَهُوَ وَقْتُ رُجُوعِهَا عَشِيًّا مِنَ الْمَرْعَى ، فَإِنَّهَا تَكُونُ أَمَدَّهُ خَوَاصِرَ ، وَأَعْظَمَهُ ضُرُوعًا ، وَأَعْلَاهُ أَسْنِمَةً ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ أَيْ : غَدْوَةً حِينَ تَبْعَثُونَهَا إِلَى الْمَرْعَى ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ وَهِيَ الْأَحْمَالُ الثَّقِيلَةُ الَّتِي تَعْجِزُونَ عَنْ نَقْلِهَا وَحَمْلِهَا ﴿ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ﴾ وَذَلِكَ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَالْغَزْوِ وَالتِّجَارَةِ ، وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ ، تَسْتَعْمِلُونَهَا فِي أَنْوَاعِ الِاسْتِعْمَالِ مِنْ رُكُوبٍ وَتَحْمِيلٍ ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا بَعْدَ تَعْدَادِ هَذِهِ النِّعَمِ ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : رَبُّكُمُ الَّذِي قَيَّضَ لَكُمْ هَذِهِ الْأَنْعَامَ وَسَخَّرَهَا لَكُمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ أَيْ : ثِيَابٌ وَ ﴿ وَمَنَٰفِعُ ﴾ مَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ مِنَ الْأَطْعِمَةِ وَالْأَشْرِبَةِ . وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ ﴾ يَقُولُ : لَكُمْ فِيهَا لِبَاسٌ وَمَنْفَعَةٌ وَبُلْغَةٌ .

وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

هَذَا صِنْفٌ آخَرُ مِمَّا خَلَقَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ يَمْتَنُّ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَهُوَ الْخَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ الَّتِي جَعَلَهَا لِلرُّكُوبِ وَالزِّينَةِ بِهَا ، وَذَلِكَ أَكْبَرُ الْمَقَاصِدِ مِنْهَا .

وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مِنَ الْحَيَوَانَاتِ مَا يُسَارُ عَلَيْهِ فِي السُّبُلِ الْحِسِّيَّةِ ، نَبَّهَ عَلَى الطُّرُقِ الْمَعْنَوِيَّةِ الدِّينِيَّةِ ، وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ فِي الْقُرْآنِ الْعُبُورُ مِنَ الْأُمُورِ الْحِسِّيَّةِ إِلَى الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ النَّافِعَةِ الدِّينِيَّةِ ، وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْحَيَوَانَاتِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا ، الَّتِي يَرْكَبُونَهَا وَيَبْلُغُونَ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي

صُدُورِهِمْ ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَهُمْ إِلَى الْبِلَادِ وَالْأَمَاكِنِ الْبَعِيدَةِ وَالْأَسْفَارِ الشَّاقَّةِ ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ الطُّرُقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا النَّاسُ إِلَيْهِ ، فَبَيَّنَ أَنَّ الْحَقَّ مِنْهَا مَا هِيَ مُوصِلَةٌ إِلَيْهِ فَقَالَ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أَيْ : طَرِيقُ الْحَقِّ عَلَى اللهِ ؛ لأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ ثَمَّ طُرُقًا تُسْلَكُ إِلَيْهِ ، فَلَيْسَ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْهَا إِلَّا طَرِيقُ الْحَقِّ ، وَهِيَ الطَّرِيقُ الَّتِي شَرَعَهَا وَرَضِيَهَا ، وَمَا عَدَاهَا مَسْدُودَةٌ وَالْأَعْمَالُ فِيهَا مَرْدُودَةٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ أَيْ : حَائِدٌ مَائِلٌ زَائِغٌ عَنِ الْحَقِّ ، أَيْ : هِيَ الطُّرُقُ الْمُخْتَلِفَةُ وَالْآرَاءُ وَالْأَهْوَاءُ الْمُتَفَرِّقَةُ ، كَالْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمَجُوسِيَّةِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَائِنٌ عَنْ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾[يونس: ٩٩]

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالدَّوَابِّ ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ فِي إِنْزَالِ الْمَطَرِ مِنَ السَّمَاءِ ، وَهُوَ الْعُلُوُّ مِمَّا لَهُمْ فِيهِ بُلْغَةٌ وَمَتَاعٌ لَهُمْ وَلِأَنْعَامِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ أَيْ : جَعَلَهُ عَذْبًا زُلَالًا يَسُوغُ لَكُمْ شَرَابُهُ ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِلْحًا أُجَاجًا ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أَيْ : وَأَخْرَجَ لَكُمْ مِنْهُ شَجَرًا تَرْعَوْنَ فِيهِ أَنْعَامَكُمْ . قَالَ **عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أَيْ : تَرْعَوْنَ ، وَمِنْهُ الْإِبِلُ السَّائِمَةُ ، وَالسَّوْمُ : الرَّعْيُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أَيْ : يُخْرِجُهَا مِنَ الْأَرْضِ بِهَذَا الْمَاءِ الْوَاحِدِ ، عَلَى اخْتِلَافِ صُنُوفِهَا وَطُعُومِهَا وَأَلْوَانِهَا وَرَوَائِحِهَا وَأَشْكَالِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : دَلَالَةً وَحُجَّةً عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ .

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى آيَاتِهِ الْعِظَامِ وَمِنَنِهِ الْجِسَامِ ، فِي تَسْخِيرِهِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَتَعَاقَبَانِ ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يَدُورَانِ ، وَالنُّجُومَ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ فِي أَرْجَاءِ السَّمَاوَاتِ نُورًا وَضِيَاءً لِيُهْتَدَى بِهَا فِي الظُّلُمَاتِ ، وَكُلٌّ مِنْهَا يَسِيرُ فِي فَلَكِهِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى فِيهِ ، يَسِيرُ بِحَرَكَةٍ مُقَدَّرَةٍ لَا يَزِيدُ عَلَيْهَا وَلَا يَنْقُصُ عَنْهَا ، وَالْجَمِيعُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ

وَتَسْهِيلِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ لَدَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى الْبَاهِرَةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ ، لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ عَنِ اللهِ وَيَفْهَمُونَ حُجَجَهُ .

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ لَمَّا نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى مَعَالِمِ السَّمَاوَاتِ نَبَّهَ عَلَى مَا خَلَقَ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ وَالْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتَاتِ وَالْجَمَادَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْخَوَاصِّ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أَيْ : آلَاءُ اللهِ وَنِعَمُهُ فَيَشْكُرُونَهَا .

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَسْخِيرِهِ الْبَحْرَ الْمُتَلَاطِمَ الْأَمْوَاجِ ، وَيَمْتَنُّ عَلَى عِبَادِهِ بِتَذْلِيلِهِ لَهُمْ وَتَيْسِيرِهِمْ لِلرُّكُوبِ فِيهِ ، وَجَعْلِهِ السَّمَكَ وَالْحِيتَانَ فِيهِ ، وَإِحْلَالِهِ لِعِبَادِهِ لَحْمَهَا حَيَّهَا وَمَيِّتَهَا فِي الْحِلِّ وَالْإِحْرَامِ ، وَمَا يَخْلُقُهُ فِيهِ مِنَ اللَّآلِئِ وَالْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ ، وَتَسْهِيلِهِ لِلْعِبَادِ اسْتِخْرَاجَهُمْ مِنْ قَرَارِهِ حِلْيَةً يَلْبَسُونَهَا ، وَتَسْخِيرِهِ الْبَحْرَ لِحَمْلِ السُّفُنِ الَّتِي تَمْخُرُهُ ، أَيْ : تَشُقُّهُ ، وَقِيلَ : تَمْخُرُ الرِّيَاحَ ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ ، وَقِيلَ : تَمْخُرُهُ بِجُؤْجُئِهَا : وَهُوَ صَدْرُهَا الْمُسَنَّمُ الَّذِي أَرْشَدَ الْعِبَادَ إِلَى صَنْعَتِهَا ، وَهَدَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ إِرْثًا عَنْ أَبِيهِمْ نُوحٍ عليه السلام فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَكِبَ السُّفُنَ ، وَلَهُ كَانَ تَعْلِيمُ صَنْعَتِهَا ، ثُمَّ أَخَذَهَا النَّاسُ عَنْهُ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، يَسِيرُونَ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ ، وَمِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، وَمِنْ إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ ، لِجَلْبِ مَا هُنَاكَ إِلَى هُنَا وَمَا هُنَا إِلَى هُنَاكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : نِعَمَهُ وَإِحْسَانَهُ . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْأَرْضَ وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الرَّوَاسِي الشَّامِخَاتِ ، وَالْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ لِتَقَرَّ الْأَرْضُ وَلَا تَمِيدَ ، أَيْ : تَضْطَرِبُ بِمَا عَلَيْهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ ، فَلَا يَهْنَأُ لَهُمْ عَيْشٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا ﴾ أَيْ : جَعَلَ فِيهَا أَنْهَارًا تَجْرِي مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ، يَنْبُعُ فِي مَوْضِعٍ وَهُوَ رِزْقٌ لِأَهْلِ مَوْضِعٍ آخَرَ ، فَيَقْطَعُ الْبِقَاعَ وَالْبَرَارِيَّ وَالْقِفَارَ وَيَخْتَرِقُ الْجِبَالَ

وَالْآكَامَ ، فَيَصِلَ إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي سُخِّرَ لِأَهْلِهِ وَهِيَ سَائِرَةٌ فِي الْأَرْضِ يَمْنَةً وَيَسْرَةً وَجَنُوبًا وَشَمَالًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا ، مَا بَيْنَ صِغَارٍ وَكِبَارٍ وَأَوْدِيَةٍ تَجْرِي حِينًا وَتَنْقَطِعُ فِي وَقْتٍ ، وَمَا بَيْنَ نَبْعٍ وَجَمْعٍ وَقَوِيِّ السَّيْرِ وَبَطِيئِهِ بِحَسَبِ مَا أَرَادَ وَقَدَّرَ وَسَخَّرَ وَيَسَّرَ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ . وَكَذَلِكَ جَعَلَ فِيهَا ﴿ سُبُلًا ﴾ أَيْ : طُرُقًا يُسْلَكُ فِيهَا مِنْ بِلَادٍ إِلَى بِلَادٍ ، حَتَّى أَنَّهُ تَعَالَى لَيَقْطَعَ الْجَبَلَ حَتَّى يَكُونَ مَا بَيْنَهُمَا مَمَرًّا وَمَسْلَكًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ﴾ [الأنبياء : ٣١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ﴾ أَيْ : دَلَائِلُ مِنْ جِبَالٍ كِبَارٍ وَآكَامٍ صِغَارٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، يَسْتَدِلُّ بِهَا الْمُسَافِرُونَ بَرًّا وَبَحْرًا إِذَا ضَلُّوا الطُّرُقَ . ﴿ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أَيْ : فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ . وَعَنْ مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ يَقُولُ : النُّجُومُ وَهِيَ الْجِبَالُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى عَظَمَتِهِ ، وَأَنَّهُ لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ الَّتِي لَا تَخْلُقُ شَيْئًا بَلْ هُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ . ثُمَّ نَبَّهَهُمْ عَلَى كَثْرَةِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : يَتَجَاوَزُ عَنْكُمْ ، وَلَوْ طَالَبَكُمْ بِشُكْرِ نِعَمِهِ لَعَجَزْتُمْ عَنِ الْقِيَامِ بِذَلِكَ ، وَلَوْ أَمَرَكُمْ بِهِ لَضَعُفْتُمْ وَتَرَكْتُمْ ، وَلَوْ عَذَّبَكُمْ لَعَذَّبَكُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَكُمْ ، وَلَكِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ يَغْفِرُ الْكَثِيرَ وَيُجَازِي عَلَى الْيَسِيرِ .

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ الضَّمَائِرَ وَالسَّرَائِرَ كَمَا يَعْلَمُ الظَّوَاهِرَ ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ الْأَصْنَامَ الَّتِي يَدْعُونَهَا مِنْ دُونِ الله لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ أَيْ : هِيَ جَمَادَاتٌ لَا أَرْوَاحَ فِيهَا ، فَلَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَعْقِلُ ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَدْرُونَ مَتَى تَكُونُ السَّاعَةُ ، فَكَيْفَ يُرْتَجَى عِنْدَ هَذِهِ نَفْعٌ أَوْ ثَوَابٌ أَوْ جَزَاءٌ ؟ إِنَّمَا يُرْجَى ذَلِكَ مِنَ الَّذِي يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ .

إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْكَافِرِينَ تُنْكِرُ قُلُوبُهُمْ ذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ مُتَعَجِّبِينَ مِنْ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ أَيْ : عَنْ عِبَادَةِ الله مَعَ

إنْكَارِ قُلُوبِهِمْ لِتَوْحِيدِهِ، وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أَيْ : حَقًّا ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أَيْ : وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَتَمَّ الْجَزَاءِ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَإِذَا قِيلَ لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ : ﴿ مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ ﴾ مُعْرِضِينَ عَنِ الْجَوَابِ ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : لَمْ يُنْزِلْ شَيْئًا ، إِنَّمَا هَذَا الَّذِي يُتْلَى عَلَيْنَا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، أَيْ : مَأْخُوذٌ مِنْ كُتُبِ الْمُتَقَدِّمِينَ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا قَدَّرْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُولُوا ذَلِكَ ، لِيَتَحَمَّلُوا أَوْزَارَهُمْ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُمْ وَيُوَافِقُونَهُمْ ، أَيْ : يَصِيرُ عَلَيْهِمْ خَطِيئَةَ ضَلَالِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَخَطِيئَةَ إِغْوَائِهِمْ لِغَيْرِهِمْ وَاقْتِدَاءَ أُولَئِكَ بِهِمْ .

قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ قِيلَ : هُوَ النُّمْرُوذُ الَّذِي بَنَى الصَّرْحَ . وَقَالَ آخَرُونَ : هَذَا مِنْ بَابِ الْمَثَلِ لِإِبْطَالِ مَا صَنَعَهُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللهِ وَأَشْرَكُوا فِي عِبَادَتِهِ غَيْرَهُ ، كَمَا قَالَ نُوحٌ ﷺ : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ [نوح : ٢٢] أَيْ : اِحْتَالُوا فِي إِضْلَالِ النَّاسِ بِكُلِّ حِيلَةٍ ، وَأَمَالُوهُمْ إِلَى شِرْكِهِمْ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ أَيْ : اِجْتَثَّهُ مِنْ أَصْلِهِ وَأَبْطَلَ عَمَلَهُمْ ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ أَيْ : يُظْهِرُ فَضَائِحَهُمْ وَمَا كَانَتْ تُجِنُّهُ ضَمَائِرُهُمْ فَجَعَلَهُ عَلَانِيَةً ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق : ٩] أَيْ : تَظْهَرُ وَتَشْتَهِرُ ، وَهَكَذَا هَؤُلَاءِ يَظْهَرُ لِلنَّاسِ مَا كَانُوا يُسِرُّونَهُ مِنَ الْمَكْرِ ، وَيُخْزِيهِمُ اللهُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ ، وَيَقُولُ لَهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُقْرِعًا لَهُمْ وَمُوَبِّخًا : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ﴾ تُحَارِبُونَ وَتُعَادُونَ فِي سَبِيلِهِمْ ، أَيْنَ هُمْ عَنْ نَصْرِكُمْ وَخَلَاصِكُمْ هَاهُنَا ؟ ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشعراء : ٩٣] ، فَإِذَا تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ، وَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَالَةُ ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةُ ، وَسَكَتُوا عَنِ

الاِعْتِذَارِ حِينَ لَا فِرَارَ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ وَهُمُ السَّادَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالْمُخْبِرُونَ عَنِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَيَقُولُونَ حِينَئِذٍ : ﴿ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : الْفَضِيحَةُ وَالْعَذَابُ مُحِيطٌ الْيَوْمَ بِمَنْ كَفَرَ بِاللهِ ، وَأَشْرَكَ بِهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ .

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ الظَّالِمِي أَنْفُسِهِمْ عِنْدَ اِحْتِضَارِهِمْ ، وَمَجِيءِ الْمَلَائِكَةِ إِلَيْهِمْ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمُ الْخَبِيثَةِ ﴿ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ ﴾ أَيْ : أَظْهَرُوا السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ وَالاِنْقِيَادَ قَائِلِينَ ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ﴾ كَمَا يَقُولُونَ يَوْمَ الْمَعَادِ ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] قَالَ اللهُ مُكَذِّبًا لَهُمْ فِي قِيلِهِمْ ذَلِكَ : ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أَيْ : بِئْسَ الْمَقِيلُ وَالْمَقَامُ وَالْمَكَانُ مِنْ دَارِ هَوَانٍ ، لِمَنْ كَانَ مُتَكَبِّرًا عَنْ آيَاتِ اللهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ ، وَهُمْ يَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ مِنْ يَوْمِ مَمَاتِهِمْ بِأَرْوَاحِهِمْ وَيَنَالُ أَجْسَادُهُمْ فِي قُبُورِهَا مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ سَلَكَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ وَخَلَدَتْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ .

۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

هَذَا خَبَرٌ عَنِ السُّعَدَاءِ بِخِلَافِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِ الْأَشْقِيَاءِ ، فَإِنَّ أُولَئِكَ قِيلَ لَهُمْ ﴿ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ قَالُوا مُعْرِضِينَ عَنِ الْجَوَابِ : لَمْ يُنْزِلْ شَيْئًا إِنَّمَا هَذَا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، وَهَؤُلَاءِ ﴿ قَالُواْ خَيْرًا ﴾ أَيْ : أَنْزَلَ خَيْرًا ، أَيْ : رَحْمَةً وَبَرَكَةً لِمَنِ اِتَّبَعَهُ وَآمَنَ بِهِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَمَّا وَعَدَ اللهُ عِبَادَهُ فِيمَا أَنْزَلَهُ عَلَى رُسُلِهِ ، فَقَالَ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ الْآيَةَ ، أَيْ : مَنْ أَحْسَنَ عَمَلَهُ فِي الدُّنْيَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِ عَمَلَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ بِأَنَّ دَارَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ، أَيْ : مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْجَزَاءُ فِيهَا أَتَمُّ مِنَ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ وَصَفَ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَقَالَ : ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ جَنَّاتُ عَدْنٍ ، أَيْ :

مُقَامَةٌ يَدْخُلُونَهَا ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أَيْ : بَيْنَ أَشْجَارِهَا وَقُصُورِهَا ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ ، ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ كُلَّ مَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّقَاهُ وَأَحْسَنَ عَمَلَهُ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِهِمْ عِنْدَ الاحْتِضَارِ ، أَنَّهُمْ طَيِّبُونَ ، أَيْ : مُخَلَّصُونَ مِنَ الشِّرْكِ وَالدَّنَسِ وَكُلِّ سُوءٍ ، وَأَنَّ المَلَائِكَةَ تُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ وَتُبَشِّرُهُمْ بِالْجَنَّةِ .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُهَدِّدًا لِلْمُشْرِكِينَ عَلَى تَمَادِيهِمْ فِي الْبَاطِلِ وَاغْتِرَارِهِمْ بِالدُّنْيَا ، هَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا المَلَائِكَةُ أَنْ تَأْتِيهِمْ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ ؟ ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أَيْ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَمَا يُعَايِنُونَهُ مِنَ الْأَهْوَالِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ : هَكَذَا تَمَادَى فِي شِرْكِهِمْ أَسْلَافُهُمْ وَنُظَرَاؤُهُمْ وَأَشْبَاهُهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَ اللهِ وَحَلُّوا فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَعْذَرَ إِلَيْهِمْ وَأَقَامَ حُجَجَهُ عَلَيْهِمْ ، بِإِرْسَالِ رُسُلِهِ وَإِنْزَالِ كُتُبِهِ ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أَيْ : بِمُخَالَفَةِ الرُّسُلِ وَالتَّكْذِيبِ بِمَا جَاءُوا بِهِ ، فَلِهَذَا أَصَابَتْهُمْ عُقُوبَةُ اللهِ عَلَى ذَلِكَ ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أَيْ : أَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيْ : يَسْخَرُونَ مِنَ الرُّسُلِ إِذَا تَوَعَّدُوهُمْ بِعِقَابِ اللهِ ، فَلِهَذَا يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾[الطور : ١٤] .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اغْتِرَارِ الْمُشْرِكِينَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَاعْتِذَارِهِمْ مُحْتَجِّينَ بِالْقَدَرِ بِقَوْلِهِمْ ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ﴾ أَيْ : مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَالْوَصَائِلِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا ابْتَدَعُوهُ وَاخْتَرَعُوهُ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ

مِمَّا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا . وَمَضْمُونُ كَلَامِهِمْ : أَنَّا لَوْ كَانَ تَعَالَى كَارِهًا لِمَا فَعَلْنَا لَأَنْكَرَهُ عَلَيْنَا بِالْعُقُوبَةِ ، وَلَمَا مَكَّنَنَا مِنْهُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ شُبْهَتَهُمْ : ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُونَ ، أَنَّهُ لَمْ يُنْكِرْهُ عَلَيْكُمْ بَلْ قَدْ أَنْكَرَهُ عَلَيْكُمْ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ آكَدُ النَّهْيِ ، وَبَعَثَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ ، أَيْ : فِي كُلِّ قَرْنٍ وَطَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ رَسُولًا ، وَكُلُّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ فَلَمْ يَزَلْ تَعَالَى يُرْسِلُ إِلَى النَّاسِ الرُّسُلَ بِذَلِكَ ، مُنْذُ حَدَثَ الشِّرْكُ فِي بَنِي آدَمَ فِي قَوْمِ نُوحٍ ، الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ نُوحٌ ، وَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى أَنْ خَتَمَهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي طَبَّقَتْ دَعْوَتُهُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، فَكَيْفَ يَسُوغُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ هَذَا أَنْ يَقُولَ : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ﴾ فَمَشِيئَتُهُ تَعَالَى الشَّرْعِيَّةُ عَنْهُمْ مُنْتَفِيَةٌ ؛ لِأَنَّهُ نَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ ، وَأَمَّا مَشِيئَتُهُ الْكَوْنِيَّةُ وَهِيَ تَمْكِينُهِمْ مِنْ ذَلِكَ قَدَرًا فَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهَا ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ النَّارَ وَأَهْلَهَا مِنَ الشَّيَاطِينِ وَالْكَفَرَةِ وَهُوَ لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ بَالِغَةٌ وَحِكْمَةٌ قَاطِعَةٌ ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا بَعْدَ إِنْذَارِ الرُّسُلِ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أَيْ : اِسْأَلُوا عَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ مَنْ خَالَفَ الرُّسُلَ وَكَذَّبَ الْحَقَّ ، كَيْفَ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ، ثُمَّ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنَّ حِرْصَهُ عَلَى هِدَايَتِهِمْ لَا يَنْفَعُهُمْ إِذَا كَانَ اللهُ قَدْ أَرَادَ إِضْلَالَهُمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : شَأْنُهُ وَأَمْرُهُ أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ أَيْ : مَنْ أَضَلَّهُ ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ ؟ أَيْ لَا أَحَدَ ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ أَيْ : يُنْقِذُونَهُمْ مِنْ عَذَابِهِ وَوَثَاقِهِ .

وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ حَلَفُوا فَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ، أَيْ : اِجْتَهَدُوا فِي الْحَلِفِ وَغَلَّظُوا الْأَيْمَانَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ ، أَيْ : اِسْتَبْعَدُوا ذَلِكَ وَكَذَّبُوا الرُّسُلَ فِي إِخْبَارِهِمْ لَهُمْ بِذَلِكَ وَحَلَفُوا عَلَى نَقِيضِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى مُكَذِّبًا لَهُمْ وَرَادًّا عَلَيْهِمْ ﴿ بَلَىٰ ﴾ أَيْ : بَلَى

سَيَكُونُ ذَلِكَ ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ أَيْ : لَا بُدَّ مِنْهُ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : فَلِجَهْلِهِمْ يُخَالِفُونَ الرُّسُلَ وَيَقَعُونَ فِي الْكُفْرِ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى حِكْمَتَهُ فِي المَعَادِ وَقِيَامِ الأَجْسَامِ يَوْمَ التَّنَادِ ، فَقَالَ : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ أَيْ : لِلنَّاسِ ﴿ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ أَيْ : مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، ﴿ لِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴾ أَيْ : فِي أَيْمَانِهِمْ وَأَقْسَامِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ ، وَلِهَذَا يُدَعُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ ، وَأَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، وَالمَعَادُ مِنْ ذَلِكَ إِذَا أَرَادَ كَوْنَهُ فَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً فَيَكُونُ ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أَيْ : أَنْ نَأْمُرَ بِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً ، فَإِذَا هُوَ كَائِنٌ .

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَزَائِهِ لِلْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِهِ اِبْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ ، الَّذِينَ فَارَقُوا الدَّارَ وَالْإِخْوَانَ وَالخِلَّانَ رَجَاءَ ثَوَابِ اللهِ وَجَزَائِهِ ، فَقَالَ : ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ **قِيلَ** : المَدِينَةُ ، **وَقِيلَ** : الرِّزْقُ الطَّيِّبُ ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ القَوْلَيْنِ ، فَإِنَّهُمْ تَرَكُوا مَسَاكِنَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَعَوَّضَهُمُ اللهُ خَيْرًا مِنْهَا فِي الدُّنْيَا ، فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ شَيْئًا للهِ عَوَّضَهُ اللهُ بِمَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْهُ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ ثَوَابَهُ لِلْمُهَاجِرِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَعْظَمُ مِمَّا أَعْطَاهُمْ فِي الدُّنْيَا فَقَالَ : ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أَيْ : مِمَّا أَعْطَيْنَاهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : لَوْ كَانَ الْمُتَخَلِّفُونَ عَنِ الْهِجْرَةِ مَعَهُمْ يَعْلَمُونَ مَا اِدَّخَرَ اللهُ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَاتَّبَعَ رَسُولَهُ ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ تَعَالَى ، فَقَالَ : ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أَيْ : صَبَرُوا عَلَى الْأَذَى مِنْ قَوْمِهِمْ مُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللهِ الَّذِي أَحْسَنَ لَهُمُ الْعَاقِبَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

قَالَ الضَّحَّاكُ : عَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - لَمَّا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولًا أَنْكَرَتِ الْعَرَبُ ذَلِكَ - أَوْ مَنْ أَنْكَرَ مِنْهُمْ - وَقَالُوا : اللهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَسُولَهُ بَشَرًا ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ [يونس : ٢] . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : أَنَّ الْمُرَادَ بِأَهْلِ الذِّكْرِ أَهْلَ الْكِتَابِ ، وَالغَرَضُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ أَخْبَرَتْ بِأَنَّ الرُّسُلَ

الْمَاضِينَ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا بَشَرًا ، كَمَا هُوَ بَشَرٌ ، ثُمَّ أَرْشَدَ اللهُ تَعَالَى مَنْ شَكَّ فِي كَوْنِ الرُّسُلِ كَانُوا بَشَرًا إِلَى سُؤَالِ أَصْحَابِ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ سَلَفُوا : هَلْ كَانَ أَنْبِيَاؤُهُمْ بَشَرًا أَوْ مَلَائِكَةً ؟. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَهُمْ ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أَيْ : بِالْحُجَجِ وَالدَّلَائِلِ ﴿ وَٱلزُّبُرِ ﴾ وَهِيَ الْكُتُبُ ، وَالزُّبُرُ : جَمْعُ زَبُورٍ ، تَقُولُ الْعَرَبُ : زَبَرْتَ الْكِتَابَ إِذَا كَتَبْتَهُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : مِنْ رَبِّهِمْ ، لِعِلْمِكَ بِمَعْنَى مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ وَحِرْصِكَ عَلَيْهِ وَاتِّبَاعِكَ لَهُ ، وَلِعِلْمِنَا بِأَنَّكَ أَفْضَلُ الْخَلَائِقِ وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، فَتُفَصِّلَ لَهُمْ مَا أُجْمِلَ ، وَتُبَيِّنَ لَهُمْ مَا أَشْكَلَ ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : يَنْظُرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ فَيَهْتَدُونَ ، فَيَفُوزُونَ بِالنَّجَاةِ فِي الدَّارَيْنِ .

أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حِلْمِهِ وَإِنْظَارِهِ الْعُصَاةَ ، الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ وَيَدْعُونَ إِلَيْهَا وَيَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ فِي دُعَائِهِمْ إِيَّاهُمْ ، وَحَمْلِهِمْ عَلَيْهَا مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى أَنْ يَخْسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ مَجِيئَهُ إِلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أَيْ : فِي تَقَلُّبِهِمْ فِي الْمَعَايِشِ وَاشْتِغَالِهِمْ بِهَا مِنْ أَسْفَارٍ وَنَحْوِهَا مِنَ الْأَشْغَالِ الْمُلْهِيَةِ ، **قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ** : ﴿ تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أَيْ : أَسْفَارِهِمْ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أَيْ : لَا يُعْجِزُونَ اللهَ عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانُوا عَلَيْهِ . ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ أَيْ : أَوْ يَأْخُذُهُمُ اللهُ فِي حَالِ خَوْفِهِمْ مِنْ أَخْذِهِ لَهُمْ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ أَبْلَغُ وَأَشَدُّ ، فَإِنَّ حُصُولَ مَا يُتَوَقَّعُ مَعَ الْخَوْفِ شَدِيدٌ ، **وَلِهَذَا قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ يَقُولُ : إِنْ شِئْتَ أَخَذْتُهُ عَلَى أَثَرِ مَوْتِ صَاحِبِهِ وَتَخَوُّفِهِ بِذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : حَيْثُ لَمْ يُعَاجِلْكُمْ بِالْعُقُوبَةِ .

أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ الَّذِي خَضَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَدَانَتْ لَهُ الْأَشْيَاءُ

وَالمَخْلُوقَاتُ بِأَسْرِهَا جَمَادَاتُهَا وَحَيَوَانَاتُهَا وَمُكَلَّفُوهَا مِنَ الإِنْسِ وَالجِنِّ وَالمَلَائِكَةِ، فَأَخْبَرَ أَنَّ كُلَّ مَا لَهُ ظِلٌّ يَتَفَيَّأُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ، أَيْ: بُكْرَةً وَعَشِيًّا، فَإِنَّهُ سَاجِدٌ بِظِلِّهِ للهِ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أَيْ: صَاغِرُونَ، وَنَزَّلَهُمْ مَنْزِلَةَ مَنْ يَعْقِلُ إِذْ أَسْنَدَ السُّجُودَ إِلَيْهِمْ **فَقَالَ**: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أَيْ: تَسْجُدُ للهِ، أَيْ: غَيْرَ مُسْتَكْبِرِينَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ أَيْ: يَسْجُدُونَ خَائِفِينَ وَجِلِينَ مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أَيْ: مُثَابِرِينَ عَلَى طَاعَتِهِ تَعَالَى وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ.

۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّهُ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ وَرَبُّهُ ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ**: أَيْ: دَائِمًا، **وَقِيلَ**: وَاجِبًا، **وَقِيلَ**: خَالِصًا. أَيْ: لَهُ الْعِبَادَةُ وَحْدَهُ مِمَّنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ مَالِكُ النَّفْعِ وَالضُّرِّ، وَأَنَّ مَا بِالْعِبَادِ مِنْ رِزْقٍ وَنِعْمَةٍ وَعَافِيَةٍ وَنَصْرٍ فَمِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ أَيْ: لِعِلْمِكُمْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِزَالَتِهِ إِلَّا هُوَ فَإِنَّكُمْ عِنْدَ الضَّرُورَاتِ تَلْجَئُونَ إِلَيْهِ وَتَسْأَلُونَهُ، وَتُلِحُّونَ فِي الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مُسْتَغِيثِينَ بِهِ. ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ **قِيلَ**: اللَّامُ هَاهُنَا: لَامُ الْعَاقِبَةِ، **وَقِيلَ**: لَامُ التَّعْلِيلِ، بِمَعْنَى قَيَّضْنَا لَهُمْ ذَلِكَ لِيَكْفُرُوا، أَيْ: يَسْتُرُوا وَيَجْحَدُوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ الْمُسْدِي إِلَيْهِمُ النِّعَمَ، الْكَاشِفُ عَنْهُمُ النِّقَمَ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ قَائِلًا ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ أَيْ: اِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ وَتَمَتَّعُوا بِمَا أَنْتُمْ فِيهِ قَلِيلًا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: عَاقِبَةَ ذَلِكَ.

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ

ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَبَائِحِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَجَعَلُوا لِلْأَوْثَانِ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ ، أَيْ : جَعَلُوا لِآلِهَتِهِمْ نَصِيبًا مَعَ اللهِ ، وَفَضَّلُوهَا عَلَى جَانِبِهِ ، فَأَقْسَمَ اللهُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ لَيَسْأَلَنَّهُمْ عَنْ ذَلِكَ الَّذِي افْتَرَوْهُ وَائْتَفَكُوهُ ، وَلَيُقَابِلَنَّهُمْ عَلَيْهِ وَلَيُجَازِيَنَّهُمْ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، فَقَالَ : ﴿ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ، وَجَعَلُوهَا بَنَاتِ اللهِ فَعَبَدُوهَا مَعَهُ ، فَأَخْطَئُوا خَطَأً كَبِيرًا فِي كُلِّ مَقَامٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثِ ، فَنَسَبُوا إِلَيْهِ تَعَالَى أَنَّ لَهُ وَلَدًا وَلَا وَلَدَ لَهُ ، ثُمَّ أَعْطَوْهُ أَخَسَّ الْقِسْمَيْنِ مِنَ الْأَوْلَادِ وَهُوَ الْبَنَاتُ وَهُمْ لَا يَرْضَوْنَهَا لِأَنْفُسِهِمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم : ٢١-٢٢] ، وَقَوْلُهُ هَاهُنَا : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ أَيْ : عَنْ قَوْلِهِمْ وَإِفْكِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أَيْ : يَخْتَارُونَ لِأَنْفُسِهِمُ الذُّكُورَ ، وَيَأْنَفُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْبَنَاتِ الَّتِي نَسَبُوهَا إِلَى اللهِ ، تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا . فَإِنَّهُ ﴿ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ أَيْ : كَئِيبًا مِنَ الْهَمِّ ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ سَاكِتٌ مِنْ شِدَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْحُزْنِ . ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ ﴾ أَيْ : يَكْرَهُ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ ﴿ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ أَيْ : إِنْ أَبْقَاهَا أَبْقَاهَا مُهَانَةً لَا يُوَرِّثُهَا وَلَا يَعْتَنِي بِهَا ، وَيُفَضِّلُ أَوْلَادَهُ الذُّكُورَ عَلَيْهَا ﴿ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ أَيْ : يَئِدُهَا وَهُوَ أَنْ يَدْفِنَهَا فِيهِ حَيَّةً ، كَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، أَفَمَنْ يَكْرَهُونَهُ هَذِهِ الْكَرَاهَةَ وَيَأْنَفُونَ لِأَنْفُسِهِمْ عَنْهُ يَجْعَلُونَهُ للهِ ؟ ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أَيْ : بِئْسَ مَا قَالُوا ، وَبِئْسَ مَا قَسَمُوا ، وَبِئْسَ مَا نَسَبُوهُ إِلَيْهِ ، **وَقَوْلُهُ هَاهُنَا** : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾ أَيْ : النَّقْصُ إِنَّمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِمْ ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أَيْ : الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَهُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حِلْمِهِ بِخَلْقِهِ مَعَ ظُلْمِهِمْ ، وَأَنَّهُ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ، أَيْ : لَأَهْلَكَ جَمِيعَ دَوَابِّ الْأَرْضِ تَبَعًا لِإِهْلَاكِ بَنِي آدَمَ ، وَلَكِنَّ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ

يَحْلُمُ وَيَسْتُرُ وَيَنْظُرُ ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَيْ : لَا يُعَاجِلُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ ، إِذْ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ لَمَا أَبْقَى أَحَدًا ، قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : كَادَ الْجُعَلُ أَنْ يَهْلِكَ فِي جُحْرِهِ بِخَطِيئَةِ بَنِي آدَمَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْبَنَاتِ ، وَمِنَ الشُّرَكَاءِ الَّذِينَ هُمْ عَبِيدُهُ ، وَهُمْ يَأْنَفُونَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ أَحَدِهِمْ شَرِيكٌ لَهُ فِي مَالِهِ ، ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ فِي دَعْوَاهُمْ مَعَ ذَلِكَ : أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى فِي الدُّنْيَا ، وَإِنْ كَانَ ثَمَّ مَعَادٌ فَفِيهِ أَيْضًا لَهُمُ الْحُسْنَى ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ فِي تَمَنِّيهِمْ ذَلِكَ ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أَيْ : حَقًّا لَا بُدَّ مِنْهُ ﴿ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ مَنْسِيُّونَ فِيهَا مُضَيَّعُونَ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا ﴾ [الأعراف : ٥١] وَقِيلَ : مُفْرَطُونَ ، أَيْ : مُعَجَّلُونَ إِلَى النَّارِ ، مِنَ الْفَرَطِ وَهُوَ السَّابِقُ إِلَى الْوِرْدِ ، وَلَا مُنَافَاةَ ؛ لِأَنَّهُمْ يُعَجَّلُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى النَّارِ وَيُنْسَوْنَ فِيهَا ، أَيْ : يُخَلَّدُونَ .

تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ رُسُلًا فَكَذَّبَتِ الرُّسُلَ ، فَلَكَ يَا مُحَمَّدُ فِي إِخْوَانِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ أُسْوَةٌ فَلَا يَهِيدَنَّكَ تَكْذِيبُ قَوْمِكَ لَكَ ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ فَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ تَزْيِينُ الشَّيْطَانِ لَهُمْ مَا فَعَلُوهُ ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ أَيْ : هُمْ تَحْتَ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ ، وَالشَّيْطَانُ وَلِيُّهُمْ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ خَلَاصًا ، وَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ : أَنَّهُ إِنَّمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَالْقُرْآنُ فَاصِلٌ بَيْنَ النَّاسِ فِي كُلِّ مَا يَتَنَازَعُونَ فِيهِ ﴿ وَهُدًى ﴾ أَيْ : لِلْقُلُوبِ ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أَيْ : لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . وَكَمَا جَعَلَ سُبْحَانَهُ الْقُرْآنَ حَيَاةً لِلْقُلُوبِ الْمَيِّتَةِ بِكُفْرِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِمَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أَيْ : يَفْهَمُونَ الْكَلَامَ وَمَعْنَاهُ .

وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أَيْ : لَآيَةً وَدَلَالَةً عَلَى حِكْمَةِ خَالِقِهَا وَقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ ﴾ أَفْرَدَهُ هَاهُنَا عَوْدًا عَلَى مَعْنَى النَّعَمِ ، أَوِ الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْحَيَوَانِ ، فَإِنَّ الْأَنْعَامَ حَيَوَانَاتٌ ، أَيْ : نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بَطْنِ هَذَا الْحَيَوَانِ ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى مِمَّا فِي بُطُونِهَا ، وَيَجُوزُ هَذَا وَهَذَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ﴾ أَيْ : يَتَخَلَّصُ الدَّمُ بَيَاضَهُ وَطَعْمَهُ وَحَلَاوَتَهُ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ فِي بَاطِنِ الْحَيَوَانِ ، فَيَسْرِي كُلٌّ إِلَى مَوْطِنِهِ إِذَا نَضِجَ الْغِذَاءُ فِي مَعِدَتِهِ ، فَيُصْرَفُ مِنْهُ دَمٌ إِلَى الْعُرُوقِ ، وَلَبَنٌ إِلَى الضَّرْعِ ، وَبَوْلٌ إِلَى الْمَثَانَةِ ، وَرَوثٌ إِلَى الْمَخْرَجِ ، وَكُلٌّ مِنْهَا لَا يَشُوبُ الْآخَرَ وَلَا يُمَازِجُهُ بَعْدَ انْفِصَالِهِ عَنْهُ وَلَا يَتَغَيَّرُ بِهِ ، ﴿ سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ أَيْ ، لَا يُغَصُّ بِهِ أَحَدٌ . وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّبَنَ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَهُ شَرَابًا لِلنَّاسِ سَائِغًا ثَنَّى بِذِكْرِ مَا يَتَّخِذُهُ النَّاسُ مِنَ الْأَشْرِبَةِ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ ، وَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ مِنَ النَّبِيذِ الْمُسْكِرِ قَبْلَ تَحْرِيمِهِ ، وَلِهَذَا امْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ دَلَّ عَلَى إِبَاحَتِهِ شَرْعًا قَبْلَ تَحْرِيمِهِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ قَالَ السَّكَرُ : مَا حَرُمَ مِنْ ثَمَرَتَيْهِمَا ، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ : مَا أُحِلَّ مِنْ ثَمَرَتَيْهِمَا ، وَفِي رِوَايَةٍ السَّكَرُ : حَرَامُهُ ، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ : حَلَالُهُ ، يَعْنِي مَا يَبِسَ مِنْهُمَا مِنْ تَمْرٍ وَزَبِيبٍ وَمَا عُمِلَ مِنْهُمَا مِنْ طِلَاءٍ وَهُوَ الدِّبْسُ ، وَخَلٍّ وَنَبِيذٍ حَلَالٍ يُشْرَبُ قَبْلَ أَنْ يَشْتَدَّ ، كَمَا وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِذَلِكَ . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ نَاسَبَ ذِكْرَ الْعَقْلِ هَاهُنَا ، فَإِنَّهُ أَشْرَفُ مَا فِي الْإِنْسَانِ ، وَلِهَذَا حَرَّمَ اللهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الْأَشْرِبَةَ الْمُسْكِرَةَ صِيَانَةً لِعُقُولِهَا .

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

الْمُرَادُ بِالْوَحْيِ هُنَا : الْإِلْهَامُ وَالْهِدَايَةُ وَالْإِرْشَادُ لِلنَّحْلِ أَنْ تَتَّخِذَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا تَأْوِي إِلَيْهَا ، وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ، ثُمَّ هِيَ مُحْكَمَةٌ فِي غَايَةِ الْإِتْقَانِ فِي تَسْدِيسِهَا وَرَصِّهَا ، بِحَيْثُ لَا يَكُونُ فِي بَيْتِهَا خَلَلٌ . ثُمَّ أَذِنَ لَهَا تَعَالَى إِذْنًا قَدَرِيًّا تَسْخِيرِيًّا أَنْ تَأْكُلَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَأَنْ تَسْلُكَ الطُّرُقَ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى مُذَلَّلَةً لَهَا ، أَيْ : مُسَهَّلَةً عَلَيْهَا حَيْثُ شَاءَتْ مِنْ هَذَا الْجَوِّ الْعَظِيمِ وَالْبَرَارِيِّ الشَّاسِعَةِ وَالْأَوْدِيَةِ وَالْجِبَالِ الشَّاهِقَةِ ، ثُمَّ تَعُودُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا إِلَى مَوْضِعِهَا وَبَيْتِهَا لَا تَحِيدُ عَنْهُ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً ، بَلْ إِلَى بَيْتِهَا وَمَا لَهَا فِيهِ مِنْ فِرَاخٍ وَعَسَلٍ ، فَتَبْنِي الشَّمْعَ مِنْ أَجْنِحَتِهَا وَتَقِيءُ الْعَسَلَ مِنْ فِيهَا ، وَتَبِيضُ الْفِرَاخَ مِنْ دُبُرِهَا ، ثُمَّ تُصْبِحُ إِلَى مَرَاعِيهَا . **قَالَ عَدَدٌ**

مِنَ العُلَمَاءِ : ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ أَيْ : مُطِيعَةٌ ، فَجَعَلَاهُ حَالًا مِنَ السَّالِكَةِ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ أَيْ : مَا بَيْنَ أَبْيَضَ وَأَصْفَرَ وَأَحْمَرَ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْوَانِ الْحَسَنَةِ عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاعِيهَا وَمَأْكَلِهَا مِنْهَا ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ أَيْ : فِي الْعَسَلِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ، أَيْ : مِنْ أَدْوَاءٍ تَعْرِضُ لَهُمْ . قَالَ بَعْضُ مَنْ تَكَلَّمَ عَلَى الطِّبِّ النَّبَوِيِّ : لَوْ قَالَ فِيهِ الشِّفَاءُ لِلنَّاسِ ، لَكَانَ دَوَاءً لِكُلِّ دَاءٍ وَلَكِنْ قَالَ : فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ، أَيْ : يَصْلُحُ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ أَدْوَاءٍ بَارِدَةٍ فَإِنَّهُ حَارٌّ، وَالشَّيْءُ يُدَاوَى بِضِدِّهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي إِلْهَامِ اللهِ لِهَذِهِ الدَّوَابِّ الضَّعِيفَةِ الْخِلْقَةِ ، إِلَى السُّلُوكِ فِي هَذِهِ الْمَهَامَةِ وَالِاجْتِنَاءِ مِنْ سَائِرِ الثِّمَارِ ، ثُمَّ جَمْعُهَا لِلشَّمْعِ وَالْعَسَلِ وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الْأَشْيَاءِ ، لَآيَةٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَمُقَدِّرِهَا وَمُسَخِّرِهَا وَمُيَسِّرِهَا ، فَيَسْتَدِلُّونَ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ الْفَاعِلُ الْقَادِرُ الْحَكِيمُ .

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَصَرُّفِهِ فِي عِبَادِهِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَوَفَّاهُمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتْرُكُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ الْهَرَمُ : وَهُوَ الضَّعْفُ فِي الْخِلْقَةِ ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ . قِيلَ فِي : ﴿ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ قَالَ : خَمْسٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً ، وَفِي هَذَا السِّنِّ يَحْصُلُ لَهُ ضَعْفُ الْقُوَى ، وَالْخَوْفُ ، وَسُوءُ الْحِفْظِ ، وَقِلَّةُ الْعِلْمِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : بَعْدَ مَا كَانَ عَالِمًا أَصْبَحَ لَا يَدْرِي شَيْئًا مِنَ الْفَنَدِ وَالْخَرَفِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ .

وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾

يُبَيِّنُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ جَهْلَهُمْ وَكُفْرَهُمْ فِيمَا زَعَمُوهُ للهِ مِنَ الشُّرَكَاءِ ، وَهُمْ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهَا عَبِيدٌ لَهُ ، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ فِي حَجِّهِمْ : لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ . فَقَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ : أَنْتُمْ لَا تَرْضَوْنَ أَنْ تُسَاوُوا عَبِيدَكُمْ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ ، فَكَيْفَ يَرْضَى هُوَ تَعَالَى بِمُسَاوَاةِ عَبِيدٍ لَهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ وَالتَّعْظِيمِ . رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فِي هَذِهِ الْآيَةِ : يَقُولُ : لَمْ يَكُونُوا لِيُشْرِكُوا عَبِيدَهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ ، فَكَيْفَ يُشْرِكُونَ عَبِيدِي مَعِي فِي سُلْطَانِي ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ : هَذَا مَثَلٌ

ضَرَبَهُ اللهُ : فَهَلْ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُشَارِكُهُ مَمْلُوكُهُ فِي زَوْجَتِهِ وَفِي فِرَاشِهِ فَتَعْدِلُونَ بِاللهِ خَلْقَهُ وَعِبَادَهُ ؟ فَإِنْ لَمْ تَرْضَ لِنَفْسِكَ هَذَا فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ يُنَزَّهَ مِنْكَ ، ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أَيْ : أَنَّهُمْ جَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ، فَجَحَدُوا نِعْمَتَهُ وَأَشْرَكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ .

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى عَبِيدِهِ ، بِأَنْ جَعَلَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَزْوَاجًا مِنْ جِنْسِهِمْ وَشَكْلِهِمْ ، وَلَوْ جَعَلَ الْأَزْوَاجَ مِنْ نَوْعٍ آخَرٍ مَا حَصَلَ الِائْتِلَافُ وَالْمَوَدَّةُ وَالرَّحْمَةُ ، وَلَكِنْ مِنْ رَحْمَتِهِ خَلَقَ مِنْ بَنِي آدَمَ ذُكُورًا وَإِنَاثًا ، وَجَعَلَ الْإِنَاثَ أَزْوَاجًا لِلذُّكُورِ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ مِنَ الْأَزْوَاجِ الْبَنِينَ وَالْحَفَدَةِ وَهُمْ أَوْلَادُ الْبَنِينَ . وَقِيلَ : ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ ابْنُهُ وَخَادِمُهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ الْمُنْعِمِ غَيْرَهُ ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وَهُمُ الْأَنْدَادُ وَالْأَصْنَامُ ﴿ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ يَسْتُرُونَ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ وَيُضِيفُونَهَا إِلَى غَيْرِهِ .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ ، مَعَ أَنَّهُ هُوَ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ ﴿ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُ عَلَى إِنْزَالِ مَطَرٍ وَلَا إِنْبَاتِ زَرْعٍ وَلَا شَجَرٍ ، وَلَا يَمْلِكُونَ ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ ، أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ لَوْ أَرَادُوهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ أَيْ : لَا تَجْعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا وَأَشْبَاهًا وَأَمْثَالًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ يَعْلَمُ وَيَشْهَدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَنْتُمْ بِجَهْلِكُمْ تُشْرِكُونَ بِهِ غَيْرَهُ .

۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ ، فَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِثْلُ الْكَافِرِ ، وَالْمَرْزُوقُ الرِّزْقَ الْحَسَنَ فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هُوَ الْمُؤْمِنُ ، وَقِيلَ : هُوَ مَثَلٌ مَضْرُوبٌ لِلْوَثَنِ وَلِلْحَقِّ تَعَالَى ، فَهَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا ؟ وَلَمَّا كَانَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا ظَاهِرًا وَاضِحًا بَيِّنًا لَا يَجْهَلُهُ إِلَّا كُلُّ غَبِيٍّ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : وَهَذَا أَيْضًا الْمُرَادُ بِهِ الْوَثَنُ وَالْحَقُّ تَعَالَى ، يَعْنِي : أَنَّ الْوَثَنَ أَبْكَمُ لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَنْطِقُ بِخَيْرٍ ، وَلَا بِشَيْءٍ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَلَا مَقَالَ وَلَا فِعَالَ وَهُوَ مَعَ هَذَا كَلٌّ ، أَيْ : عِيَالٌ وَكُلْفَةٌ عَلَى مَوْلَاهُ ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ ﴾ أَيْ : يَبْعَثُهُ ﴿ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ وَلَا يَنْجَحُ مَسْعَاهُ ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ﴾ مَنْ هَذِهِ صِفَاتُهُ ﴿ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾ أَيْ : بِالْقِسْطِ فَمَقَالُهُ حَقٌّ وَفِعَالُهُ مُسْتَقِيمَةٌ ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، **وَقِيلَ : هُوَ مَثَلٌ لِلْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ أَيْضًا كَمَا تَقَدَّمَ** .

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ ، فِي عِلْمِهِ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِصَاصِهِ بِعِلْمِ الْغَيْبِ ، فَلَا اطِّلَاعَ لِأَحَدٍ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يُطْلِعَهُ تَعَالَى عَلَى مَا يَشَاءُ ، وَفِي قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ الَّتِي لَا تُخَالَفُ وَلَا تُمَانَعُ ، وَأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، كَمَا قَالَ : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان : ٢٨] ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مِنَّتَهُ عَلَى عِبَادِهِ فِي إِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا يَرْزُقُهُمُ السَّمْعَ الَّذِي به يُدْرِكُونَ الْأَصْوَاتَ ، وَالْأَبْصَارَ الَّتِي بِهَا يُحِسُّونَ الْمَرْئِيَّاتِ ، وَالْأَفْئِدَةَ وَهِيَ الْعُقُولُ الَّتِي مَرْكَزُهَا الْقَلْبُ عَلَى الصَّحِيحِ ، وَقِيلَ : الدِّمَاغُ ، وَالْعَقْلُ بِهِ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ ضَارِّهَا وَنَافِعِهَا ، وَهَذِهِ الْقُوَى وَالْحَوَاسُّ تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ عَلَى التَّدْرِيجِ قَلِيلًا قَلِيلًا ، كُلَّمَا كَبِرَ زِيدَ فِي سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَعَقْلِهِ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ . وَإِنَّمَا جَعَلَ تَعَالَى هَذِهِ فِي الْإِنْسَانِ لِيَتَمَكَّنَ بِهَا مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ تَعَالَى ، فَيَسْتَعِينَ بِكُلِّ جَارِحَةٍ وَعُضْوٍ وَقُوَّةٍ عَلَى طَاعَةِ مَوْلَاهُ . ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى النَّظَرِ إِلَى الطَّيْرِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، كَيْفَ جَعَلَهُ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْنِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُ هُنَاكَ إِلَّا اللهُ بِقُدْرَتِهِ تَعَالَى ، الَّتِي جَعَلَ فِيهَا قُوًى تَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَسَخَّرَ الْهَوَاءَ يَحْمِلُهَا وَيُسَيِّرُ الطَّيْرَ كَذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُلْكِ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ

بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

يَذْكُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَمَامَ نِعَمِهِ عَلَى عَبِيدِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الْبُيُوتِ الَّتِي هِيَ سَكَنٌ لَهُمْ يَأْوُونَ إِلَيْهَا، وَيَسْتَتِرُونَ بِهَا وَيَنْتَفِعُونَ بِهَا بِسَائِرِ وُجُوهِ الِانْتِفَاعِ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَيْضًا مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا، أَيْ مِنَ الْأُدُمِ يَسْتَخِفُّونَ حَمْلَهَا فِي أَسْفَارِهِمْ لِيَضْرِبُوهَا لَهُمْ فِي إِقَامَتِهِمْ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ أَيْ: الْغَنَمُ ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ أَيْ: الْإِبِلُ ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ أَيْ: الْمَعْزُ، وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْأَنْعَامِ ﴿أَثَاثًا﴾ أَيْ: تَتَّخِذُونَ مِنْهُ أَثَاثًا: وَهُوَ الْمَالُ، وَقِيلَ: الْمَتَاعُ، وَقِيلَ: الثِّيَابُ. وَالصَّحِيحُ: أَعَمُّ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، فَإِنَّهُ يَتَّخِذُ مِنَ الْأَثَاثِ الْبُسُطَ وَالثِّيَابَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَيَتَّخِذُ مَالًا وَتِجَارَةً، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أَيْ: إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَوَقْتٍ مَعْلُومٍ. ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي الشَّجَرَ ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أَيْ: حُصُونًا وَمَعَاقِلَ كَمَا ﴿جَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وَهِيَ الثِّيَابُ مِنَ الْقُطْنِ وَالْكِتَّانِ وَالصُّوفِ ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ كَالدُّرُوعِ مِنَ الْحَدِيدِ الْمُصَفَّحِ وَالزَّرَدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: هَكَذَا يَجْعَلُ لَكُمْ مَا تَسْتَعِينُونَ بِهِ عَلَى أَمْرِكُمْ وَمَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، لِيَكُونَ عَوْنًا لَكُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ هَكَذَا فَسَّرَهُ الْجُمْهُورُ وَقَرَءُوهُ بِكَسْرِ اللَّامِ مِنْ ﴿تُسْلِمُونَ﴾ أَيْ: مِنَ الْإِسْلَامِ.

وَقَالَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ: إِنَّمَا نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى قَدْرِ مَعْرِفَةِ الْعَرَبِ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ وَمَا جَعَلَ مِنَ السَّهْلِ أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ جِبَالٍ؟ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ وَمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ وَبَرٍ وَشَعْرٍ؟ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣] لِعَجَبِهِمْ مِنْ ذَلِكَ، وَمَا أَنْزَلَ مِنَ الثَّلْجِ أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَهُ؟ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ

ٱلْحَرَّ﴾ وَمَا تَقِي مِنَ الْبَرْدِ أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ حَرٍّ ؟.

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أَيْ : بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذَا الاِمْتِنَانِ فَلَا عَلَيْكَ مِنْهُمْ ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ وَقَدْ أَدَّيْتَهُ إِلَيْهِمْ ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ أَيْ : يَعْرِفُونَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْمُسْدِي إِلَيْهِمْ ذَلِكَ ، وَهُوَ الْمُتَفَضِّلُ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَمَعَ هَذَا يُنْكِرُونَ ذَلِكَ وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَيُسْنِدُونَ النَّصْرَ وَالرِّزْقَ إِلَى غَيْرِهِ ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ شَأْنِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَأَنَّهُ يَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا وَهُوَ نَبِيُّهَا ، يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِمَا أَجَابَتْهُ فِيمَا بَلَّغَهَا عَنِ اللهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أَيْ : فِي الاِعْتِذَارِ ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ بُطْلَانَهُ وَكَذِبَهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾[المرسلات : ٣٥-٣٦] ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴿ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ أَيْ : لَا يَفْتُرُ عَنْهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يُؤَخَّرُ عَنْهُمْ بَلْ يَأْخُذُهُمْ سَرِيعًا مِنَ الْمَوْقِفِ بِلَا حِسَابٍ ، فَإِنَّهُ إِذَا جِيءَ بِجَهَنَّمَ تُقَادُ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ تَنْطَوِي عَلَيْهِمْ وَتَلْتَقِطُهُمْ مِنَ الْمَوْقِفِ كَمَا يَلْتَقِطُ الطَّائِرُ الْحَبَّ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَبَرُّءِ آلِهَتِهِمْ مِنْهُمْ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهَا فَقَالَ : ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أَيْ : قَالَتْ لَهُمُ الْآلِهَةُ : كَذَبْتُمْ مَا نَحْنُ أَمَرْنَاكُمْ بِعِبَادَتِنَا ، ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾[مريم : ٨١-٨٢] . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ﴾ يَعْنِي : ذَلُّوا وَاسْتَسْلَمُوا يَوْمَئِذٍ ، أَيْ : اِسْتَسْلَمُوا للهِ جَمِيعُهُمْ فَلَا أَحَدٌ إِلَّا سَامِعٌ مُطِيعٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أَيْ : ذَهَبَ وَاضْمَحَلَّ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُ اِفْتِرَاءً عَلَى اللهِ ، فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ وَلَا مُعِينَ وَلَا مُجِيرَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا ﴾ الْآيَة ، أَيْ : عَذَابًا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعَذَابًا عَلَى صَدِّهِمُ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : ٢٦] أَيْ : يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِهِ وَيَبْتَعِدُونَ هُمْ عَنْهُ أَيْضًا ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٦] ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَفَاوُتِ الْكُفَّارِ فِي عَذَابِهِمْ ، كَمَا يَتَفَاوَتُ الْمُؤْمِنُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنَّةِ وَدَرَجَاتِهِمْ .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يَعْنِي : أُمَّتَكَ ، أَيْ : اُذْكُرْ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَهَوْلَهُ وَمَا مَنَحَكَ اللهُ فِيهِ مِنَ الشَّرَفِ الْعَظِيمِ وَالْمَقَامِ الرَّفِيعِ . ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ **قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ** ﷺ : قَدْ بَيَّنَ لَنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ كُلَّ عِلْمٍ وَكُلَّ شَيْءٍ ﴿ وَهُدًى ﴾ أَيْ : لِلْقُلُوبِ ﴿ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَأْمُرُ عِبَادَهُ بِالْعَدْلِ ، وَهُوَ الْقِسْطُ وَالْمُوَازَنَةُ وَيَنْدُبُ إِلَى الْإِحْسَانِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾ قَالَ : شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، **وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ** : الْعَدْلُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هُوَ : اِسْتِوَاءُ السَّرِيرَةِ وَالْعَلَانِيَةِ مِنْ كُلِّ عَامِلٍ للهِ عَمَلًا ، وَالْإِحْسَانُ : أَنْ تَكُونَ سَرِيرَتُهُ أَحْسَنُ مِنْ عَلَانِيَتِهِ ، ﴿ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أَيْ : يَأْمُرُ بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ . ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ فَالْفَوَاحِشُ : الْمُحَرَّمَاتُ ، وَالْمُنْكَرَاتُ : مَا ظَهَرَ مِنْهَا مِنْ فَاعِلِهَا ، وَلِهَذَا قِيلَ فِي الْمَوْضِعِ الْآخَرِ ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، وَأَمَّا الْبَغْيُ فَهُوَ : الْعُدْوَانُ عَلَى النَّاسِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « **مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا ، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ ، مِنَ الْبَغْيِ ، وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ** » . وَقَوْلُهُ : ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ أَيْ : يَأْمُرُكُمْ بِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ ، وَيَنْهَاكُمْ عَمَّا يَنْهَاكُمْ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ

إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

هَذَا مِمَّا يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى بِهِ وَهُوَ الْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ وَالمَوَاثِيقِ ، وَالمُحَافَظَةُ عَلَى الْأَيْمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ ، لأَنَّ هَذِهِ الْأَيْمَانَ المُرَادُ بِهَا الدَّاخِلَةُ فِي الْعُهُودِ وَالمَوَاثِيقِ ، لَا الْأَيْمَانَ الَّتِي هِيَ وَارِدَةٌ عَلَى حَثٍّ أَوْ مَنْعٍ ، وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ يَعْنِي : الْحِلْفَ ، أَيْ : حِلْفُ الْجَاهِلِيَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ لِمَنْ نَقَضَ الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ : هَذَا مَثَلٌ لِمَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ بَعْدَ تَوْكِيدِهِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنكَـٰثًا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اِسْمَ مَصْدَرٍ ﴿ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾ أَيْ : أَنْقَاضًا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا عَنْ خَبَرِ كَانَ ، أَيْ : لَا تَكُونُوا أَنْكَاثًا ، جَمْعُ نِكْثٍ مِنْ نَاكِثٍ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ أَيْ : خَدِيعَةً وَمَكْرًا ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أَيْ : تَحْلِفُونَ لِلنَّاسِ إِذَا كَانُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ لِيَطْمَئِنُّوا إِلَيْكُمْ ، فَإِذَا أَمْكَنَكُمُ الْغَدْرَ بِهِمْ غَدَرْتُمْ ، فَنَهَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ لِيُنَبِّهَ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى ، إِذَا كَانَ قَدْ نَهَى عَنِ الْغَدْرِ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - فَلأَنْ يَنْهَى عَنْهُ مَعَ التَّمَكُّنِ وَالْقُدْرَةِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى . ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ قِيلَ : أَيْ : أَكْثَرُ ، وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : كَانُوا يُحَالِفُونَ الْحُلَفَاءَ فَيَجِدُونَ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَعَزَّ ، فَيَنْقُضُونَ حِلْفَ هَؤُلَاءِ وَيُحَالِفُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ أَكْثَرُ وَأَعَزُّ ، فَنُهُوا عَنْ ذَلِكَ ، ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ﴾ قَالَ اِبْنُ جَرِيرٍ : أَيْ : بِأَمْرِهِ إِيَّاكُمْ بِالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ .

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٩٩] أَيْ : لَوَفَّقَ بَيْنَكُمْ وَلَمَا جَعَلَ اِخْتِلَافًا وَلَا تَبَاغُضًا وَلَا شَحْنَاءَ ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن

رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود:١١٨-١١٩] **وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا**: ﴿ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ ثُمَّ يَسْأَلُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ جَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا عَلَى الْفَتِيلِ وَالنَّقِيرِ وَالْقِطْمِيرِ ، ثُمَّ حَذَّرَ تَعَالَى عِبَادَهُ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَيْمَانِ دَخَلًا ، أَيْ : خَدِيعَةً وَمَكْرًا ؛ لِئَلَّا تَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ، مَثَلٌ لِمَنْ كَانَ عَلَى الِاسْتِقَامَةِ فَحَادَ عَنْهَا وَزَلَّ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى ، بِسَبَبِ الْأَيْمَانِ الْحَانِثَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ؛ لِأَنَّ الْكَافِرَ إِذَا رَأَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ قَدْ عَاهَدَهُ ثُمَّ غَدَرَ بِهِ لَمْ يَبْقَ لَهُ وُثُوقٌ بِالدِّينِ ، فَانْصَدَّ بِسَبَبِهِ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أَيْ : لَا تَعْتَاضُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِاللهِ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ، فَإِنَّهَا قَلِيلَةٌ لَوْ حِيزَتْ لِابْنِ آدَمَ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا لَكَانَ مَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَهُ ، أَيْ : جَزَاءُ اللهِ وَثَوَابُهُ خَيْرٌ لِمَنْ رَجَاهُ وَآمَنَ بِهِ وَطَلَبَهُ وَحَفِظَ عَهْدَهُ ، رَجَاءَ مَوْعُودِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ﴾ أَيْ : يَفْرُغُ وَيَنْقَضِي ، فَإِنَّهُ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ مَحْصُورٍ مُقَدَّرٍ مُتَنَاهٍ ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ أَيْ : وَثَوَابُهُ لَكُمْ فِي الْجَنَّةِ بَاقٍ لَا انْقِطَاعَ وَلَا نَفَادَ لَهُ فَإِنَّهُ دَائِمٌ لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ قَسَمٌ مِنَ الرَّبِّ تَعَالَى مُؤَكَّدٌ بِاللَّامِ أَنَّهُ : يُجَازِي الصَّابِرِينَ بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ ، أَيْ : وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئِهَا .

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِمَنْ عَمِلَ صَالِحًا - وَهُوَ الْعَمَلُ الْمُتَابِعُ لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى مِنْ بَنِي آدَمَ ، وَقَلْبُهُ مُؤْمِنٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنَّ هَذَا الْعَمَلَ الْمَأْمُورَ بِهِ مَشْرُوعٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ - بِأَنْ يُحْيِيَهُ اللهُ حَيَاةً طَيِّبَةً فِي الدُّنْيَا ، وَأَنْ يَجْزِيَهُ بِأَحْسَنِ مَا عَمِلَهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . وَالْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ تَشْتَمِلُ وُجُوهَ الرَّاحَةِ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ كَانَتْ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَرُزِقَ كَفَافًا ، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ** » .

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ إِذَا أَرَادُوا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ : أَنْ يَسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنَ

الشَّيْطَانِ الرَّجِيم ، وَهَذَا أَمْرُ نَدْبٍ لَيْسَ بِوَاجِبٍ ، وَالمَعْنَى فِي الاِسْتِعَاذَةِ عِنْدَ اِبْتِدَاءِ الْقِرَاءَةِ لِئَلَّا يَلْبِسَ عَلَى الْقَارِئِ قِرَاءَتَهُ ، وَيُخَلِطَ عَلَيْهِ وَيَمْنَعَهُ مِنَ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ **قَالَ الثَّوْرِيُّ** : لَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ أَنْ يُوقِعَهُمْ فِي ذَنْبٍ لَا يَتُوبُونَ مِنْهُ . ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾ **قِيلَ** : يُطِيعُونَهُ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : اِتَّخَذُوهُ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ ﴿ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ أَيْ : أَشْرَكُوا فِي عِبَادَةِ اللهِ .

وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ضَعْفِ عُقُولِ الْمُشْرِكِينَ وَقِلَّةِ ثَبَاتِهِمْ وَإِيقَانِهِمْ ، وَأَنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ مِنْهُمُ الْإِيمَانُ ، وَقَدْ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاوَةَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا تَغْيِيرَ الْأَحْكَامِ نَاسِخَهَا بِمَنْسُوخِهَا قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ﴾ أَيْ : كَذَّابٌ ، وَإِنَّمَا هُوَ الرَّبُّ تَعَالَى يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ أَيْ : رَفَعْنَاهَا وَأَثْبَتْنَا غَيْرَهَا ، **وَقَالَ قَتَادَةُ هُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ [البقرة : ١٠٦]

فَقَالَ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾ أَيْ : جِبْرِيلُ ﴿ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : بِالصِّدْقِ وَالْعَدْلِ ﴿ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فَيُصَدِّقُوا بِمَا أَنْزَلَ أَوَّلًا وَثَانِيًا ، وَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ أَيْ : وَجَعَلَهُ هَادِيًا وَبِشَارَةً لِلْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ .

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ مَا كَانُوا يَقُولُونَهُ مِنَ الْكَذِبِ وَالاِفْتِرَاءِ وَالْبَهْتِ : أَنَّ مُحَمَّدًا إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ هَذَا الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْنَا مِنَ الْقُرْآنِ بَشَرٌ ، وَيُشِيرُونَ إِلَى رَجُلٍ أَعْجَمِيٍّ كَانَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ غُلَامٌ لِبَعْضِ بُطُونِ قُرَيْشٍ ، وَكَانَ بَيَّاعًا يَبِيعُ عِنْدَ الصَّفَا ، وَرُبَّمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَجْلِسُ إِلَيْهِ وَيُكَلِّمُهُ بَعْضَ الشَّيْءِ ، وَذَاكَ كَانَ أَعْجَمِيُّ اللِّسَانِ لَا يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ الشَّيْءَ الْيَسِيرَ بِقَدْرِ مَا يَرُدُّ جَوَابَ الْخِطَابِ فِيمَا لَا بُدَّ مِنْهُ ، فَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ فِي اِفْتِرَائِهِمْ ذَلِكَ : ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : الْقُرْآنُ ، أَيْ : فَكَيْفَ يَتَعَلَّمُ مَنْ جَاءَ بِهَذَا الْقُرْآنِ فِي فَصَاحَتِهِ وَبَلَاغَتِهِ وَمَعَانِيهِ التَّامَّةِ

الشَّامِلَةِ الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ مِنْ مَعَانِي كُلِّ كِتَابٍ نَزَلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، كَيْفَ يَتَعَلَّمُ مِنْ رَجُلٍ أَعْجَمِيٍّ ؟ لَا يَقُولُ هَذَا مَنْ لَهُ أَدْنَى مُسْكَةٍ مِنَ الْعَقْلِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَهْدِي مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِهِ ، وَتَغَافَلَ عَمَّا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ قَصْدٌ إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، فَهَذَا الْجِنْسُ مِنَ النَّاسِ لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِآيَاتِهِ وَمَا أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مُوجِعٌ فِي الْآخِرَةِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ رَسُولَهُ ﷺ لَيْسَ بِمُفْتَرٍ وَلَا كَذَّابٍ ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ عَلَى اللهِ وَعَلَى رَسُولِهِ ﷺ شِرَارُ الْخَلْقِ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ مِنَ الْكَفَرَةِ وَالْمُلْحِدِينَ الْمَعْرُوفِينَ بِالْكَذِبِ عِنْدَ النَّاسِ ، وَالرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ كَانَ أَصْدَقَ النَّاسِ وَأَبَرَّهُمْ وَأَكْمَلَهُمْ عِلْمًا وَعَمَلًا وَإِيمَانًا وَإِيقَانًا ، مَعْرُوفًا بِالصِّدْقِ فِي قَوْمِهِ لَا يَشُكُّ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ ، بِحَيْثُ لَا يُدْعَى بَيْنَهُمْ إِلَّا بِالْأَمِينِ مُحَمَّدٍ .

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّنْ كَفَرَ بِهِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَالتَّبَصُّرِ ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ بِالْكُفْرِ وَاطْمَأَنَّ بِهِ ، أَنَّهُ قَدْ غَضِبَ عَلَيْهِ لِعِلْمِهِمْ بِالْإِيمَانِ ثُمَّ عُدُولِهِمْ عَنْهُ ، وَأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا عَظِيمًا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، لِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ، فَأَقْدَمُوا عَلَى مَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ مِنَ الرِّدَّةِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا ، وَلَمْ يَهْدِ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَيُثَبِّتْهُمْ عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ ، فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ بِهَا شَيْئًا يَنْفَعُهُمْ ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ فَلَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا ، وَلَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ شَيْئًا فَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أَيْ : لَا بُدَّ وَلَا عَجَبَ أَنَّ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ ﴿ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ فَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِمَّنْ كَفَرَ بِلِسَانِهِ وَوَافَقَ الْمُشْرِكِينَ بِلَفْظِهِ مُكْرَهًا لِمَا نَالَهُ مِنْ ضَرْبٍ وَأَذًى ، وَقَلْبُهُ يَأْبَى مَا يَقُولُ ، وَهُوَ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَقَدْ قِيلَ : أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي عَمَّارِ

ابْنِ يَاسِرٍ حِينَ عَذَّبَهُ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى يَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَوَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مُكْرَهًا ، وَجَاءَ مُعْتَذِرًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ . وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْمُكْرَهَ عَلَى الْكُفْرِ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُوَالِيَ إِبْقَاءً لِمُهْجَتِهِ ، وَيَجُوزُ لَهُ أَنْ يَأْبَى ، وَالأَفْضَلُ وَالأَوْلَى أَنْ يَثْبُتَ الْمُسْلِمُ عَلَى دِينِهِ وَلَوْ أَفْضَى إِلَى قَتْلِهِ .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

هَؤُلَاءِ صِنْفٌ آخَرُ كَانُوا مُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ مُهَانِينَ فِي قَوْمِهِمْ ، فَوَافَقُوهُمْ عَلَى الْفِتْنَةِ ثُمَّ إِنَّهُمْ أَمْكَنَهُمُ الْخَلَاصُ بِالْهِجْرَةِ ، فَتَرَكُوا بِلَادَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُم ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ وَغُفْرَانِهِ ، وَانْتَظَمُوا فِي سِلْكِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَاهَدُوا مَعَهُمُ الْكَافِرِينَ وَصَبَرُوا ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ مِنْ بَعْدِهَا أَيْ : تِلْكَ الْفَعْلَةِ ، وَهِيَ الْإِجَابَةُ إِلَى الْفِتْنَةِ لَغَفُورٌ لَهُمْ رَحِيمٌ بِهِمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ ﴾ أَيْ : تُحَاجُّ ﴿ عَن نَّفْسِهَا ﴾ لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاجُّ عَنْهَا ، لَا أَبَ وَلَا ابْنَ وَلَا أَخَ وَلَا زَوْجَةَ ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أَيْ : مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَنْقُصُ مِنْ ثَوَابِ الْخَيْرِ وَلَا يُزَادُ عَلَى ثَوَابِ الشَّرِّ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا .

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾

هَذَا مَثَلٌ أُرِيدَ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ ، فَإِنَّهَا كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً مُسْتَقِرَّةً ، يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهَا ، وَمَنْ دَخَلَهَا كَانَ آمِنًا لَا يَخَافُ ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ أَيْ : هَنِيئًا سَهْلًا ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : جَحَدَتْ آلَاءَ اللهِ عَلَيْهَا ، وَأَعْظَمُهَا بَعْثَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهِمْ ، وَلِهَذَا بَدَّلَهُمُ اللهُ بِحَالَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ خِلَافَهُمَا فَقَالَ : ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ ﴾ أَيْ : أَلْبَسَهَا وَأَذَاقَهَا الْجُوعَ بَعْدَ أَنْ كَانَ يُجْبَى إِلَيْهِمْ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَيَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمُ اسْتَعْصَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبَوْا إِلَّا خِلَافَهُ ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ ، فَأَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ أَذْهَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ ، فَأَكَلُوا الْعِلْهِزَ وَهُوَ : وَبَرُ الْبَعِيرِ يُخْلَطُ بِدَمِهِ إِذَا نَحَرُوهُ ﴿ وَٱلْخَوْفِ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بُدِّلُوا بِأَمْنِهِمْ خَوْفًا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ حِينَ هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ سَطْوَتِهِ وَسَرَايَاهُ وَجُيُوشِهِ ، وَجَعَلَ كُلَّ مَا لَهُمْ فِي دَمَارٍ وَسَفَالٍ حَتَّى فَتَحَهَا اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ

صَنِيعِهِمْ وَبَغْيِهِمْ وَتَكْذِيبِهِم الرَّسُولَ ﷺ الَّذِي بَعَثَهُ اللهُ فِيهِمْ ، وَكَمَا أَنَّهُ اِنْعَكَسَ عَلَى الْكَافِرِينَ حَالُهُمْ فَخَافُوا بَعْدَ الْأَمْنِ وَجَاعُوا بَعْدَ الرَّغَدِ ، فَبَدَّلَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، وَرَزَقَهُمْ بَعْدَ الْعَيْلَةِ وَجَعَلَهُمْ أُمَرَاءَ النَّاسِ وَحُكَّامَهُمْ وَسَادَتَهُمْ وَقَادَتَهُمْ وَأَئِمَّتَهُمْ .

فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَكْلِ رِزْقِهِ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ ، وَبِشُكْرِهِ عَلَى ذَلِكَ ؛ فَإِنَّهُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ بِهِ اِبْتِدَاءً ، الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ مِمَّا فِيهِ مَضَرَّةٌ لَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، مِنَ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ أَيْ : ذُبِحَ عَلَى غَيْرِ اِسْمِ اللهِ ، وَمَعَ هَذَا فَمَنِ اُضْطُرَّ إِلَيْهِ ، أَيْ : اِحْتَاجَ مِنْ غَيْرِ بَغْيٍ وَلَا عُدْوَانٍ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . ثُمَّ نَهَى تَعَالَى عَنْ سُلُوكِ سَبِيلِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ حَلَّلُوا وَحَرَّمُوا بِمُجَرَّدِ مَا وَصَفُوهُ وَاصْطَلَحُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ بِآرَائِهِمْ ، مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ شَرْعًا لَهُمُ اِبْتَدَعُوهُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ وَيَدْخُلُ فِي هَذَا كُلُّ مَنِ اِبْتَدَعَ بِدْعَةً لَيْسَ لَهُ فِيهَا مُسْتَنَدٌ شَرْعِيٌّ ، أَوْ حَلَّلَ شَيْئًا مِمَّا حَرَّمَ اللهُ ، أَوْ حَرَّمَ شَيْئًا مِمَّا أَبَاحَ اللهُ ، بِمُجَرَّدِ رَأْيِهِ وَتَشَهِّيهِ « وَمَا » فِي قَوْلِهِ : ﴿ لِمَا تَصِفُ ﴾ مَصْدَرِيَّةٌ ، أَيْ : وَلَا تَقُولُوا الْكَذِبَ لِوَصْفِ أَلْسِنَتِكُمْ . ثُمَّ تَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ . أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَمَتَاعٌ قَلِيلٌ وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، كَمَا قَالَ : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤]

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ حَرَّمَ عَلَيْنَا الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ، وَإِنَّمَا أَرْخَصَ فِيهِ

عِنْدَ الضَّرُورَةِ - وَفِي ذَلِكَ تَوْسِعَةٌ لِهَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي يُرِيدُ اللهُ بِهَا الْيُسْرَى وَلَا يُرِيدُ بِهَا الْعُسْرَى - ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا كَانَ حَرَّمَهُ عَلَى الْيَهُودِ فِي شَرِيعَتِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَنْسَخَهَا، وَمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْآصَارِ وَالتَّضْيِيقِ وَالْأَغْلَالِ وَالْحَرَجِ، **فَقَالَ**: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ: فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ لَصَٰدِقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، **وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا**: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ ﴾ أَيْ: فِيمَا ضَيَّقْنَا عَلَيْهِمْ ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أَيْ: فَاسْتَحَقُّوا ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٠]، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى تَكَرُّمًا وَامْتِنَانًا فِي حَقِّ الْعُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ: أَنَّ مَنْ تَابَ مِنْهُمْ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ **قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ**: كُلُّ مَنْ عَصَى اللهَ فَهُوَ جَاهِلٌ ﴿ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ ﴾ أَيْ: أَقْلَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ المَعَاصِي، وَأَقْبَلُوا عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ أَيْ: تِلْكَ الْفَعْلَةَ وَالزَّلَّةَ ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

يَمْدَحُ تَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ وَخَلِيلَهُ إِبْرَاهِيمَ إِمَامَ الْحُنَفَاءِ وَوَالِدَ الْأَنْبِيَاءِ، وَيُبَرِّئُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَمِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، **فَقَالَ**: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ فَأَمَّا الْأُمَّةُ: فَهُوَ الْإِمَامُ الَّذِي يُقْتَدَى بِهِ، وَالْقَانِتُ: هُوَ الْخَاشِعُ الْمُطِيعُ، وَالْحَنِيفُ: الْمُنْحَرِفُ قَصْدًا عَنِ الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، **عَنْ أَبِي الْعُبَيْدَيْنِ** أَنَّهُ سَأَلَ عَبْدَ اللهِ ابْنَ مَسْعُودٍ ﷺ عَنِ الْأُمَّةِ الْقَانِتِ؟ فَقَالَ: الْأُمَّةُ: مُعَلِّمُ الْخَيْرِ، وَالْقَانِتُ: الْمُطِيعُ للهِ وَرَسُولِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ أَيْ: قَائِمًا بِشُكْرِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٧] أَيْ: قَامَ بِجَمِيعِ مَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ، **وَقَوْلُهُ**: ﴿ ٱجْتَبَٰهُ ﴾ أَيْ: اِخْتَارَهُ وَاصْطَفَاهُ، **ثُمَّ قَالَ**: ﴿ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وَهُوَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، عَلَى شَرْعٍ مَرْضِيٍّ، ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أَيْ: جَمَعْنَا لَهُ خَيْرَ الدُّنْيَا مِنْ جَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ الْمُؤْمِنُ إِلَيْهِ فِي إِكْمَالِ حَيَاتِهِ الطَّيِّبَةِ ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾. **وَقِيلَ**: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أَيْ: لِسَانَ صِدْقٍ، **وَقَوْلُهُ**: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أَيْ: وَمِنْ كَمَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَصِحَّةِ تَوْحِيدِهِ وَطَرِيقِهِ، أَنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا خَاتَمَ الرُّسُلِ وَسَيِّدَ الْأَنْبِيَاءِ ﴿ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ

حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى اليَهُودِ :

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

لَا شَكَّ أَنَّ اللهَ تَعَالَى شَرَعَ فِي كُلِّ مِلَّةٍ يَوْمًا مِنَ الْأُسْبُوعِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ فِيهِ لِلْعِبَادَةِ ، فَشَرَعَ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ؛ لِأَنَّهُ الْيَوْمُ السَّادِسُ الَّذِي أَكْمَلَ اللهُ فِيهِ الْخَلِيقَةَ ، وَاجْتَمَعَتْ فِيهِ ، وَتَمَّتِ النِّعْمَةُ عَلَى عِبَادِهِ ، وَيُقَالُ : إِنَّ اللهَ تَعَالَى شَرَعَ ذَلِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ مُوسَى فَعَدَلُوا عَنْهُ وَاخْتَارُوا السَّبْتَ ؛ لِأَنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي لَمْ يَخْلُقْ فِيهِ الرَّبُّ شَيْئًا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّذِي كَمَّلَ خَلْقَهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَأَلْزَمَهُمْ تَعَالَى بِهِ فِي شَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ وَوَصَّاهُمْ أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِهِ وَأَنْ يُحَافِظُوا عَلَيْهِ مَعَ أَمْرِهِ إِيَّاهُمْ بِمُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا بَعَثَهُ وَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ وَعُهُودَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَلِهَذَا **قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : اتَّبَعُوهُ وَتَرَكُوا الْجُمُعَةَ . ثُمَّ إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُتَمَسِّكِينَ بِهِ حَتَّى بَعَثَ اللهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ، فَيُقَالُ : إِنَّهُ حَوَّلَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْأَحَدِ ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ لَمْ يَتْرُكْ شَرِيعَةَ التَّوْرَاةِ إِلَّا مَا نُسِخَ مِنْ بَعْضِ أَحْكَامِهَا ، وَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُحَافِظًا عَلَى السَّبْتِ حَتَّى رُفِعَ ، وَإِنَّ النَّصَارَى بَعْدَهُ فِي زَمَنِ قُسْطَنْطِينَ هُمُ الَّذِينَ تَحَوَّلُوا إِلَى يَوْمِ الْأَحَدِ مُخَالَفَةً لِلْيَهُودِ ، وَتَحَوَّلُوا إِلَى الصَّلَاةِ شَرْقًا عَنِ الصَّخْرَةِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَدْعُوَ الْخَلْقَ إِلَى اللهِ بِالْحِكْمَةِ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَهُوَ مَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، أَيْ : بِمَا فِيهِ مِنَ الزَّوَاجِرِ وَالْوَقَائِعِ بِالنَّاسِ ، ذَكِّرْهُمْ بِهَا لِيَحْذَرُوا بَأْسَ اللهِ تَعَالَى . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أَيْ : مَنِ احْتَاجَ مِنْهُمْ إِلَى مُنَاظَرَةٍ وَجِدَالٍ ، فَلْيَكُنْ بِالْوَجْهِ الْحَسَنِ بِرِفْقٍ وَلِينٍ وَحُسْنِ خِطَابٍ ، فَأَمَرَهُ تَعَالَى بِلِينِ الْجَانِبِ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ أَيْ : قَدْ عَلِمَ الشَّقِيَّ مِنْهُمْ وَالسَّعِيدَ ، وَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ وَفَرَغَ مِنْهُ ، فَادْعُهُمْ إِلَى اللهِ وَلَا تُذْهِبْ نَفْسُكَ عَلَى مَنْ ضَلَّ مِنْهُمْ حَسَرَاتٍ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ .

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى بِالْعَدْلِ فِي الْقِصَاصِ ، وَالْمُمَاثَلَةِ فِي اسْتِيفَاءِ الْحَقِّ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ إِنْ أَخَذَ مِنْكُمْ رَجُلٌ شَيْئًا فَخُذُوا مِثْلَهُ . **عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ** : لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ قُتِلَ مِنَ الْأَنْصَارِ سِتُّونَ رَجُلًا ، وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ : لَئِنْ كَانَ لَنَا يَوْمٌ مِثْلُ هَذَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَنُمَثِّلَنَّ بِهِمْ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ قَالَ رَجُلٌ : لَا تُعْرَفُ قُرَيْشٌ بَعْدَ الْيَوْمِ ، فَنَادَى مُنَادٍ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَمَّنَ الْأَسْوَدَ وَالْأَبْيَضَ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا - نَاسًا سَمَّاهُمْ - فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **نَصْبِرُ وَلَا نُعَاقِبُ** » . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ تَأْكِيدٌ لِلْأَمْرِ بِالصَّبْرِ ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُنَالُ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ وَإِعَانَتِهِ وَحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : عَلَى مَنْ خَالَفَكَ ، فَإِنَّ اللهَ قَدَّرَ ذَلِكَ ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ ﴾ أَيْ : غَمٍّ ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أَيْ : مِمَّا يُجْهِدُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي عَدَاوَتِكَ ، وَإِيصَالِ الشَّرِّ إِلَيْكَ ، فَإِنَّ اللهَ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ وَمُظْهِرُكَ وَمُظْفِرُكَ بِهِمْ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ أَيْ : مَعَهُمْ ، بِتَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ وَمَعُونَتِهِ وَهَذِهِ مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ ، وَمَعْنَى ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾ أَيْ : تَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ ﴿ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ أَيْ : فَعَلُوا الطَّاعَاتِ ، فَهَؤُلَاءِ اللهُ يَحْفَظُهُمْ وَيَكْلَؤُهُمْ ، وَيَنْصُرُهُمْ وَيُؤَيِّدُهُمْ ، وَيُظْفِرُهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَمُخَالِفِيهِمْ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّحْلِ وَللهِ الْحَمْدُ أَجْمَعُهُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ١١١ تَفْسِيرُ سُورَةِ الإِسْرَاء مكية

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ : إِنَّهُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾

يُمَجِّدُ تَعَالَى نَفْسَهُ ، وَيُعَظِّمُ شَأْنَهُ ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ سِوَاهُ ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ

وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ ﴿ لَيْلًا ﴾ أَيْ : فِي جُنْحِ اللَّيْلِ ﴿ مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ، وَهُوَ مَسْجِدُ مَكَّةَ ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ وَهُوَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ الَّذِي بِإِيلِيَاءِ ، مَعْدِنُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ لَدُنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ ؑ وَلِهَذَا جُمِعُوا لَهُ هُنَاكَ كُلُّهُمْ ، فَأَمَّهُمْ فِي مَحَلَّتِهِمْ وَدَارِهِمْ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ وَالرَّئِيسُ الْمُقَدَّمُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ أَيْ : فِي الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ﴿ لِنُرِيَهُۥ ﴾ أَيْ : مُحَمَّدًا ﴿ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ أَيْ : الْعِظَامُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أَيْ : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ ، مُصَدِّقِهِمْ وَمُكَذِّبِهِمْ ، الْبَصِيرُ بِهِمْ ، فَيُعْطِي كُلًّا مِنْهُمْ مَا يَسْتَحِقُّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرَفِهِ ، فَرَكِبْتُهُ فَسَارَ بِي حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، فَرَبَطْتُ الدَّابَّةَ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ دَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَأَتَانِي جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ : أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ ، قَالَ : ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ لَهُ مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ . فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الْخَالَةِ : يَحْيَى وَعِيسَى ، فَرَحَّبَا بِي وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ** ؑ **وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، فَقِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى :** ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ **ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، فَقِيلَ : قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، فَقِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى** ؑ ، **فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ**

السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، فَقِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ وَإِذَا هُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، فَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيلَةِ ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلَالِ ، فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا غَشِيَهَا تَغَيَّرَتْ ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا ، قَالَ : فَأَوْحَى اللهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى ، وَقَدْ فَرَضَ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسِينَ صَلَاةً ، فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ، قَالَ : مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ ؟ قُلْتُ : خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، قَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، وَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ ، قَالَ : فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي ، فَقُلْتُ : أَيْ رَبِّ خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي ، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا ، فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ، فَقَالَ : مَا فَعَلْتَ ؟ فَقُلْتُ : قَدْ حَطَّ عَنِّي خَمْسًا ، فَقَالَ : إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ، قَالَ : فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي وَبَيْنَ مُوسَى ، وَيَحُطُّ عَنِّي خَمْسًا خَمْسًا حَتَّى قَالَ : يَا مُحَمَّدُ هُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، بِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ ، فَتِلْكَ خَمْسُونَ صَلَاةً ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَشْرًا ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً . فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ، فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((لَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ)) .

قَالَ الزُّهْرِيُّ : كَانَ الْإِسْرَاءُ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِسَنَةٍ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : بِسِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا ، **وَالْحَقُّ أَنَّهُ ﷺ أُسْرِيَ بِهِ يَقَظَةً لَا مَنَامًا مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ رَاكِبًا الْبُرَاقَ** . فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى بَابِ الْمَسْجِدِ رَبَطَ الدَّابَّةَ عِنْدَ الْبَابِ ، وَدَخَلَهُ فَصَلَّى فِي قِبْلَتِهِ تَحِيَّةَ الْمَسْجِدِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ أُتِيَ بِالْمِعْرَاجِ - وَهُوَ كَالسُّلَّمِ ذُو دَرَجٍ يُرْقَى فِيهَا - فَصَعِدَ فِيهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَى بَقِيَّةِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ ، فَتَلَقَّاهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا ، وَسَلَّمَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ فِي السَّمَاوَاتِ بِحَسَبِ مَنَازِلِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ ، حَتَّى مَرَّ بِمُوسَى الْكَلِيمِ فِي السَّادِسَةِ ، وَإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ فِي السَّابِعَةِ ، ثُمَّ جَاوَزَ مَنْزِلَتَيْهِمَا - ﷺ وَعَلَيْهِمَا وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ - حَتَّى انْتَهَى إِلَى مُسْتَوًى يَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ ، أَيْ : أَقْلَامَ الْقَدَرِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ ، وَرَأَى سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى ، وَغَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى عَظَمَةٌ عَظِيمَةٌ ، مِنْ فَرَاشٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَلْوَانٌ مُتَعَدِّدَةٌ ، وَغَشِيَتْهَا الْمَلَائِكَةُ ، وَرَأَى هُنَاكَ جِبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ ، وَرَأَى رَفْرَفًا أَخْضَرَ قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ ، وَرَأَى الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ وَإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ - بَانِيَ الْكَعْبَةِ الْأَرْضِيَّةِ - مُسْنِدٌ ظَهْرَهُ إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُ الْكَعْبَةُ السَّمَاوِيَّةُ ، يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ

يَتَعَبَّدُونَ فِيهِ ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَرَأَى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ ، وَفَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ هُنَالِكَ الصَّلَوَاتِ خَمْسِينَ ، ثُمَّ خَفَّفَهَا إِلَى خَمْسٍ رَحْمَةً مِنْهُ وَلُطْفًا بِعِبَادِهِ ، وَفِي هَذَا اعْتِنَاءٌ عَظِيمٌ بِشَرَفِ الصَّلَاةِ وَعَظَمَتِهَا ، ثُمَّ هَبَطَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَهَبَطَ مَعَهُ الْأَنْبِيَاءُ ، فَصَلَّى بِهِمْ فِيهِ لَمَّا حَانَتِ الصَّلَاةُ ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهَا الصُّبْحُ مِنْ يَوْمِئِذٍ ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَمَّهُمْ فِي السَّمَاءِ ، وَالَّذِي تَظَاهَرَتْ بِهِ الرِّوَايَاتُ أَنَّهُ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَلَكِنْ فِي بَعْضِهَا أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ دُخُولِهِ إِلَيْهِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ بَعْدَ رُجُوعِهِ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا مَرَّ بِهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ جَعَلَ يَسْأَلُ عَنْهُمْ جِبْرِيلَ وَاحِدًا وَاحِدًا ، وَهُوَ يُخْبِرُهُ بِهِمْ ، وَهَذَا هُوَ اللَّائِقُ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلًا مَطْلُوبًا إِلَى الْجَنَابِ الْعُلْوِيِّ ، لِيُفْرَضَ عَلَيْهِ وَعَلَى أُمَّتِهِ مَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَى ، ثُمَّ لَمَّا فَرَغَ مِنَ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ اجْتَمَعَ بِهِ هُوَ وَإِخْوَانُهُ مِنَ النَّبِيِّينَ ، ثُمَّ أَظْهَرَ شَرَفَهُ وَفَضْلَهُ عَلَيْهِمْ بِتَقْدِيمِهِ فِي الْإِمَامَةِ ، وَذَلِكَ عَنْ إِشَارَةِ جِبْرِيلَ عليه السلام لَهُ فِي ذَلِكَ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْبَيْتِ الْمَقْدِسِ فَرَكِبَ الْبُرَاقَ وَعَادَ إِلَى مَكَّةَ بِغَلَسٍ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

وَأَمَّا عَرْضُ الْآنِيَةِ عَلَيْهِ مِنَ اللَّبَنِ وَالْعَسَلِ ، أَوِ اللَّبَنِ وَالْخَمْرِ ، أَوِ اللَّبَنِ وَالْمَاءِ ، أَوِ الْجَمِيعُ فَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَجَاءَ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَاهُنَا وَهَاهُنَا ؛ لِأَنَّهُ كَالضِّيَافَةِ لِلْقَادِمِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . ثُمَّ اخْتَلَفَ النَّاسُ هَلْ كَانَ الْإِسْرَاءُ بِبَدَنِهِ عليه السلام وَرُوحِهِ ، أَوْ بِرُوحِهِ فَقَطْ عَلَى قَوْلَيْنِ : فَالْأَكْثَرُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ أُسْرِيَ بِبَدَنِهِ وَرُوحِهِ يَقَظَةً لَا مَنَامًا ، وَلَا يُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأَى قَبْلَ ذَلِكَ مَنَامًا ، ثُمَّ رَآهُ بَعْدَهُ يَقَظَةً ؛ لِأَنَّهُ كَانَ عليه السلام لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ فَالتَّسْبِيحُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ ، فَلَوْ كَانَ مَنَامًا لَمْ يَكُنْ فِيهِ كَبِيرُ شَيْءٍ ، وَلَمْ يَكُنْ مُسْتَعْظَمًا ، وَلَمَا بَادَرَتْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ إِلَى تَكْذِيبِهِ ، وَلَمَا ارْتَدَّتْ جَمَاعَةٌ مِمَّنْ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ . وَأَيْضًا فَإِنَّ الْعَبْدَ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ ، وَقَدْ قَالَ : ﴿ أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ [الإسراء : ٦٠] **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ ، وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ هِيَ : شَجَرَةُ الزَّقُّومِ . **وَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ ، وَالْبَصَرُ مِنْ آلَاتِ الذَّاتِ لَا الرُّوحِ ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ حُمِلَ عَلَى الْبُرَاقِ وَهُوَ دَابَّةٌ بَيْضَاءُ بَرَّاقَةٌ لَهَا لَمَعَانٌ وَإِنَّمَا يَكُونُ هَذَا لِلْبَدَنِ لَا لِلرُّوحِ ؛ لِأَنَّهَا لَا تَحْتَاجُ فِي حَرَكَتِهَا إِلَى مَرْكَبٍ تَرْكَبُ عَلَيْهِ .

وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَاءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَسْرَى بِعَبْدِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، عَطَفَ بِذِكْرِ مُوسَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِيمِهِ أَيْضًا ، فَإِنَّهُ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَقْرُنُ بَيْنَ ذِكْرِ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا مِنَ اللهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَبَيْنَ ذِكْرِ التَّوْرَاةِ وَالْقُرْآنِ ، **وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ ذِكْرِ الْإِسْرَاءِ** ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يَعْنِي : التَّوْرَاةُ ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ ﴾ أَيْ : الْكِتَابَ ﴿ هُدًى ﴾ أَيْ : هَادِيًا ﴿ لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ ﴾ أَيْ : لِئَلَّا تَتَّخِذُوا ﴿ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ أَيْ : وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَلَا مَعْبُودًا دُونِي ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ أَنْ يَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ تَقْدِيرُهُ : يَا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، فِيهِ تَهْيِيجٌ وَتَنْبِيهٌ عَلَى الْمِنَّةِ ، أَيْ : يَا سُلَالَةَ مَنْ نَجَّيْنَا فَحَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ تَشَبَّهُوا بِأَبِيكُمْ ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ فَاذْكُرُوا أَنْتُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ بِإِرْسَالِي إِلَيْكُمْ مُحَمَّدًا ﷺ .

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ قَضَى إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ، أَيْ : تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرَهُمْ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ ، أَنَّهُمْ سَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَيَعْلُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ، أَيْ : يَتَجَبَّرُونَ وَيَطْغَوْنَ وَيَفْجُرُونَ عَلَى النَّاسِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر : ٦٦] أَيْ : تَقَدَّمْنَا إِلَيْهِ وَأَخْبَرْنَاهُ بِذَلِكَ وَأَعْلَمْنَاهُ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا ﴾ أَيْ : أُولَى الْإِفْسَادَتَيْنِ ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أَيْ : سَلَّطْنَا عَلَيْكُمْ جُنْدًا مِنْ خَلْقِنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ، أَيْ : قُوَّةٍ وَعُدَّةٍ وَعَدَدٍ وَسَلْطَنَةٍ شَدِيدَةٍ ﴿ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾ أَيْ : تَمَلَّكُوا بِلَادَكُمْ وَسَلَكُوا خِلَالَ بُيُوتِكُمْ ، أَيْ : بَيْنَهَا وَوَسَطَهَا ، وَانْصَرَفُوا ذَاهِبِينَ وَجَائِينَ لَا يَخَافُونَ أَحَدًا ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ فِي هَؤُلَاءِ الْمُسَلَّطِينَ عَلَيْهِمْ : مَنْ هُمْ ؟ فَقِيلَ : أَنَّهُ جَالُوتُ الْجَزَرِيُّ وَجُنُودُهُ ، سُلِّطَ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا ثُمَّ أُدِيلُوا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ

ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ وَقِيلَ : أَنَّهُ مَلِكُ الْمَوْصِلِ سَنْجَارِيبُ وَجُنُودُهُ ، وَقِيلَ : أَنَّهُ بُخْتَنَصَّرُ مَلِكُ بَابِلٍ ، وَقَدْ وَرَدَتْ فِي هَذَا آثَارٌ كَثِيرَةٌ إِسْرَائِيلِيَّةٌ نَحْنُ فِي غُنْيَةٍ عَنْهَا وَلله الْحَمْدُ . وَفِيمَا قَصَّ اللهُ عَلَيْنَا فِي كِتَابِهِ غُنْيَةٌ عَمَّا سِوَاهُ مِنْ بَقِيَّةِ الْكُتُبِ قَبْلَهُ ، وَلَمْ يُحْوِجْنَا اللهُ وَلَا رَسُولُهُ إِلَيْهِمْ ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَمَّا طَغَوْا وَبَغَوْا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ ، فَاسْتَبَاحَ بَيْضَتَهُمْ وَسَلَكَ خِلَالَ بُيُوتِهِمْ ، وَأَذَلَّهُمْ وَقَهَرَهُمْ جَزَاءً وِفَاقًا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ تَمَرَّدُوا وَقَتَلُوا خَلْقًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أَيْ : فَعَلَيْهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : ٤٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ ﴾ أَيْ : الْكَرَّةُ الْآخِرَةُ ، أَيْ : إِذَا أَفْسَدْتُمُ الْكَرَّةَ الثَّانِيَةَ وَجَاءَ أَعْدَاؤُكُمْ ﴿ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ أَيْ : يُهِينُوكُمْ وَيَقْهَرُوكُمْ ﴿ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ﴾ أَيْ : بَيْتَ الْمَقْدِسِ ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أَيْ : فِي الَّتِي جَاسُوا فِيهَا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا۟ ﴾ أَيْ : يُدَمِّرُوا وَيُخَرِّبُوا ﴿ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾ أَيْ : مَا ظَهَرُوا عَلَيْهِ ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ أَيْ : فَيَصْرِفَهُمْ عَنْكُمْ ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ أَيْ : مَتَى عُدْتُمْ إِلَى الْإِفْسَادِ ﴿ عُدْنَا ﴾ إِلَى الْإِدَالَةِ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا ، مَعَ مَا نَدَّخِرُهُ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ أَيْ : مُسْتَقَرًّا وَمَحْصَرًا وَسِجْنًا لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ . وَقِيلَ : يُحْصَرُونَ فِيهَا ، وَقِيلَ : فِرَاشًا وَمِهَادًا .

إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

يَمْدَحُ تَعَالَى كِتَابَهُ الْعَزِيزَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ الْقُرْآنُ ، بِأَنَّهُ يَهْدِي لِأَقْوَمِ الطُّرُقِ وَأَوْضَحِ السُّبُلِ ﴿ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بِهِ ، الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ عَلَى مُقْتَضَاهُ ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾ أَيْ : وَيُبَشِّرُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَنَّ ﴿ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَجَلَةِ الْإِنْسَانِ ، وَدُعَائِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ مَالِهِ بِالشَّرِّ ، أَيْ : بِالْمَوْتِ أَوِ الْهَلَاكِ وَالدَّمَارِ وَاللَّعْنَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَلَوِ اسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ لَهَلَكَ بِدُعَائِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ﴾ [يونس : ١١] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ : « لَا تَدْعُوا عَلَى

أَنْفُسِكُمْ وَلَا عَلَى أَمْوَالِكُمْ أَنْ تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةَ إِجَابَةٍ يَسْتَجِيبُ فِيهَا »» . وَإِنَّمَا يَحْمِلُ ابْنَ آدَمَ عَلَى ذَلِكَ قَلَقُهُ وَعَجَلَتُهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴾ .

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

يَمْتَنُّ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ بِآيَاتِهِ الْعِظَامِ فَمِنْهَا مُخَالَفَتُهُ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، لِيَسْكُنُوا فِي اللَّيْلِ ، وَيَنْتَشِرُوا فِي النَّهَارِ لِلْمَعَايِشِ وَالصَّنَائِعِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَسْفَارِ ، وَلِيَعْلَمُوا عَدَدَ الْأَيَّامِ وَالْجُمَعِ وَالشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ ، وَيَعْرِفُوا مُضِيَّ الْآجَالِ الْمَضْرُوبَةِ لِلدُّيُونِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَالْإِجَارَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أَيْ : فِي مَعَايِشِكُمْ وَأَسْفَارِكُمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ الزَّمَانُ كُلُّهُ نَسَقًا وَاحِدًا ، وَأُسْلُوبًا مُتَسَاوِيًا ، لَمَا عُرِفَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ اللَّيْلَ آيَةً ، أَيْ : عَلَامَةً يُعْرَفُ بِهَا وَهِيَ الظَّلَامُ وَظُهُورُ الْقَمَرِ فِيهِ ، وَلِلنَّهَارِ عَلَامَةٌ وَهِيَ النُّورُ ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ النَّيِّرَةِ فِيهِ ، وَفَاوَتَ بَيْنَ نُورِ الْقَمَرِ وَضِيَاءِ الشَّمْسِ لِيُعْرَفَ هَذَا مِنْ هَذَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٥-٦]

قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ ﴾ **كُنَّا نُحَدَّثُ أَنَّ مَحْوَ آيَةِ اللَّيْلِ سَوَادُ الْقَمَرِ الَّذِي فِيهِ** ، ﴿ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ أَيْ : مُنِيرَةً وَخَلَقَ الشَّمْسَ أَنْوَرَ مِنَ الْقَمَرِ وَأَعْظَمَ .

وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ الزَّمَانِ وَذِكْرِ مَا يَقَعُ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ : ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ وَطَائِرُهُ : هُوَ مَا طَارَ عَنْهُ مِنْ عَمَلِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَيَلْزَمُ بِهِ وَيُجَازَى عَلَيْهِ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧-٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٧ - ١٨] . **وَالْمَقْصُودُ**: أَنَّ عَمَلَ ابْنِ آدَمَ مَحْفُوظٌ عَلَيْهِ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ ، وَيُكْتَبُ عَلَيْهِ لَيْلًا وَنَهَارًا صَبَاحًا وَمَسَاءً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ أَيْ : نَجْمَعُ لَهُ عَمَلَهُ كُلَّهُ فِي كِتَابٍ يُعْطَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِمَّا بِيَمِينِهِ إِنْ كَانَ سَعِيدًا ، أَوْ بِشِمَالِهِ إِنْ كَانَ شَقِيًّا ، **مَنْشُورًا** : أَيْ مَفْتُوحًا يَقْرَؤُهُ هُوَ وَغَيْرُهُ ، فِيهِ جَمِيعُ عَمَلِهِ مِنْ أَوَّلِ عُمْرِهِ إِلَى آخِرِهِ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ

بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أَيْ : إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّكَ لَمْ تُظْلَمْ وَلَمْ يُكْتَبْ عَلَيْكَ إِلَّا مَا عَمِلْتَ ؛ لأَنَّكَ ذَكَرْتَ جَمِيعَ مَا كَانَ مِنْكَ ، وَلَا يَنْسَى أَحَدٌ شَيْئًا مِمَّا كَانَ مِنْهُ ، وَكُلُّ أَحَدٍ يَقْرَأُ كِتَابَهُ مِنْ كَاتِبٍ وَأُمِّيٍّ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلْزَمْنَهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ إِنَّمَا ذَكَرَ الْعُنُقَ ؛ لأَنَّهُ عُضْوٌ مِنَ الأَعْضَاءِ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْجَسَدِ ، وَمَنْ أُلْزِمَ بِشَيْءٍ فِيهِ فَلَا مَحِيدَ لَهُ عَنْهُ .

مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ وَاتَّبَعَ الْحَقَّ وَاقْتَفَى أَثَرَ النُّبُوَّةِ ، فَإِنَّمَا يَحْمِلُ عَاقِبَةَ ذَلِكَ الْحَمِيدَةَ لِنَفْسِهِ ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ أَيْ : عَنِ الْحَقِّ وَزَاغَ عَنْ سَبِيلِ الرَّشَادِ فَإِنَّمَا يَجْنِي عَلَى نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا يَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أَيْ : لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ ذَنْبَ أَحَدٍ ، وَلَا يَجْنِي جَانٍ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ ﴾ [فاطر : ١٨] ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ١٣] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : ٢٥] ، فَإِنَّ الدُّعَاةَ عَلَيْهِمْ إِثْمُ ضَلَالَتِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَإِثْمٌ آخَرُ بِسَبَبِ مَا أَضَلُّوا مَنْ أَضَلُّوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِ أُولَئِكَ وَلَا يَحْمِلُ عَنْهُمْ شَيْئًا . وَهَذَا مِنْ عَدْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ إِخْبَارٌ عَنْ عَدْلِهِ تَعَالَى وَأَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك : ٨ - ٩]

وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

اِخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَةِ قَوْلِهِ : ﴿ أَمَرْنَا ﴾ فَالْمَشْهُورُ قِرَاءَةُ التَّخْفِيفِ ، وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهَا ، فَقِيلَ : مَعْنَاهُ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا أَمْرًا قَدَرِيًّا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾ [يونس : ٢٤] فَإِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، قَالُوا : مَعْنَاهُ أَنَّهُ سَخَّرَهُمْ إِلَى فِعْلِ الْفَوَاحِشِ فَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ أَمَرْنَاهُمْ بِالطَّاعَاتِ فَفَعَلُوا الْفَوَاحِشَ فَاسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ : جَعَلْنَاهُمْ أُمَرَاءَ ، قُلْتُ : إِنَّمَا يَجِيءُ هَذَا عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ ﴿ أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ قَالَ فَرِيقٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا ﴾ سَلَّطْنَا أَشْرَارَهَا فَعَصَوْا فِيهَا ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٣] . قَالَ فَرِيقٌ آخَرُ : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ أَكْثَرْنَا عَدَدَهُمْ .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْذِرًا كُفَّارَ قُرَيْشٍ فِي تَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، بِأَنَّهُ قَدْ أَهْلَكَ أُمَمًا مِنَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ، وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْقُرُونَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَلَى الْإِسْلَامِ ، كَمَا قَالَهُ **اِبْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشَرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ . وَمَعْنَاهُ : أَنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ لَسْتُمْ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنْهُمْ ، وَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَشْرَفَ الرُّسُلِ وَأَكْرَمَ الْخَلَائِقِ ، فَعُقُوبَتُكُمْ أَوْلَى وَأَحْرَى ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ أَيْ : هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهَا خَافِيَةٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ يَحْصُلُ لَهُ ، بَلْ إِنَّمَا يَحْصُلُ لِمَنْ أَرَادَ اللهُ وَمَا يَشَاءُ ، وَهَذِهِ مُقَيِّدَةٌ لِإِطْلَاقِ مَا سِوَاهَا مِنَ الْآيَاتِ ، فَإِنَّهُ قَالَ : ﴿ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ يَصْلَىٰهَا ﴾ أَيْ : يَدْخُلُهَا حَتَّى تَغْمُرُهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ ﴿ مَذْمُومًا ﴾ أَيْ : فِي حَالِ كَوْنِهِ مَذْمُومًا عَلَى سُوءِ تَصَرُّفِهِ وَصَنِيعِهِ ، إِذِ اخْتَارَ الْفَانِي عَلَى الْبَاقِي ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ مُبْعَدًا مُقْصًيا حَقِيرًا ذَلِيلًا مُهَانًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ أَيْ : أَرَادَ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ وَالسُّرُورِ ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أَيْ : طَلَبَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِهِ ، وَهُوَ مُتَابَعَةُ الرَّسُولِ ﷺ ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أَيْ : قَلْبُهُ مُؤْمِنٌ ، أَيْ : مُصَدِّقٌ مُوقِنٌ بِالثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ .

كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ كُلًّا ﴾ أَيْ : كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الَّذِينَ أَرَادُوا الدُّنْيَا وَالَّذِينَ أَرَادُوا الْآخِرَةَ ، نُمِدُّهُمْ فِيمَا فِيهِ ﴿ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يَجُورُ ، فَيُعْطِي كُلًّا مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ ، فَلَا رَادَّ لِحُكْمِهِ وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى ، وَلَا مُغَيِّرَ لِمَا أَرَادَ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ أَيْ : لَا يَمْنَعُهُ أَحَدٌ وَلَا يَرُدُّهُ رَادٌّ ، **وَقِيلَ** : ﴿ مَحْظُورًا ﴾ أَيْ : مَنْقُوصًا ، **وَقِيلَ** : مَمْنُوعًا . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا

فَمِنْهُمُ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَالْحَسَنُ وَالْقَبِيحُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَمَنْ يَمُوتُ صَغِيرًا وَمَنْ يُعَمَّرُ حَتَّى يَبْقَى شَيْخًا كَبِيرًا وَبَيْنَ ذَلِكَ ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ أَيْ : وَلَتَفَاوُتُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الدَّرَكَاتِ فِي جَهَنَّمَ وَسَلَاسِلِهَا وَأَغْلَالِهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَنَعِيمِهَا وَسُرُورِهَا ، ثُمَّ أَهْلُ الدَّرَكَاتِ يَتَفَاوَتُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ يَتَفَاوَتُونَ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ مِائَةُ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَوْنَ أَهْلَ عِلِّيِّينَ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَابِرَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ** » ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .

لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى - وَالْمُرَادُ الْمُكَلَّفُونَ مِنَ الْأُمَّةِ - لَا تَجْعَلْ أَيُّهَا الْمُكَلَّفُ فِي عِبَادَتِكَ رَبَّكَ لَهُ شَرِيكًا ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا ﴾ أَيْ : عَلَى إِشْرَاكِكَ ﴿ مَّخْذُولًا ﴾ لِأَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى لَا يَنْصُرُكَ بَلْ يَكِلُكَ إِلَى الَّذِي عَبَدْتَ مَعَهُ ، وَهُوَ لَا يَمْلِكُ لَكَ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ؛ لِأَنَّ مَالِكَ الضُّرِّ وَالنَّفْعِ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ هَاهُنَا بِمَعْنَى : الْأَمْرُ . قَالَ **مُجَاهِدٌ** : ﴿ وَقَضَىٰ ﴾ يَعْنِي : وَصَّى ، وَلِهَذَا قَرَنَ بِعِبَادَتِهِ بِرَّ الْوَالِدَيْنِ ، فَقَالَ : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ أَيْ : وَأَمَرَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان : ١٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ أَيْ : لَا تُسْمِعْهُمَا قَوْلًا سَيِّئًا ، حَتَّى وَلَا التَّأْفِيفَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى مَرَاتِبِ الْقَوْلِ السَّيِّئِ ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ أَيْ : وَلَا يَصْدُرُ مِنْكَ إِلَيْهِمَا فِعْلٌ قَبِيحٌ ، **كَمَا قَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ أَيْ : لَا تَنْفُضْ يَدَكَ عَلَيْهِمَا . وَلَمَّا نَهَاهُ عَنِ الْقَوْلِ الْقَبِيحِ وَالْفِعْلِ الْقَبِيحِ ، أَمَرَهُ بِالْقَوْلِ الْحَسَنِ وَالْفِعْلِ الْحَسَنِ ، فَقَالَ : ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أَيْ : لَيِّنًا طَيِّبًا حَسَنًا ، بِتَأَدُّبٍ وَتَوْقِيرٍ وَتَعْظِيمٍ . ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ أَيْ : تَوَاضَعْ لَهُمَا بِفِعْلِكَ ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا ﴾ أَيْ : فِي كِبَرِهِمَا وَعِنْدَ وَفَاتِهِمَا ﴿ كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ .

رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : هُوَ الرَّجُلُ تَكُونُ مِنْهُ الْبَادِرَةُ إِلَى أَبَوَيْهِ ، وَفِي نِيَّتِهِ وَقَلْبِهِ أَنَّهُ لَا يُؤْخَذُ بِهِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : لَا يُرِيدُ إِلَّا الْخَيْرَ بِذَلِكَ ،فَقَالَ : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ هُوَ التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ ، الرَّجَّاعُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ ، مِمَّا يَكْرَهُ اللهُ إِلَى مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، لِأَنَّ الْأَوَّابَ : مُشْتَقٌّ مِنَ الْأَوْبِ ، وَهُوَ : الرُّجُوعُ ، يُقَالُ : آبَ فُلَانٌ إِذَا رَجَعَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾[الغاشية : ٢٥]

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى بِرَّ الْوَالِدَيْنِ عَطَفَ بِذِكْرِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْقَرَابَةِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ ، وَفِي الْحَدِيثِ « **أُمَّكَ وَأَبَاكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ** » ، وَفِي رِوَايَةٍ « **ثُمَّ الْأَقْرَبَ فَالْأَقْرَبَ** » وَفِي الْحَدِيثِ : « **مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَجَلِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ** » .

قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ لَمَّا أَمَرَ بِالْإِنْفَاقِ نَهَى عَنِ الْإِسْرَافِ فِيهِ ، بَلْ يَكُونُ وَسَطًا كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾[الفرقان : ٦٧] ، ثُمَّ قَالَ مُنَفِّرًا عَنِ التَّبْذِيرِ وَالسَّرَفِ ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ أَيْ : أَشْبَاهُهُمْ فِي ذَلِكَ . وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه : التَّبْذِيرُ : الْإِنْفَاقُ فِي غَيْرِ حَقٍّ ، وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : لَوْ أَنْفَقَ إِنْسَانٌ مَالَهُ كُلَّهُ فِي الْحَقِّ لَمْ يَكُنْ مُبَذِّرًا ، وَلَوْ أَنْفَقَ مُدًّا فِي غَيْرِ حَقٍّ كَانَ مُبَذِّرًا . ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ أَيْ : جَحُودًا ؛ لِأَنَّهُ أَنْكَرَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَعْمَلْ بِطَاعَتِهِ ، بَلْ أَقْبَلَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ .وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ الْآيَة ، أَيْ : إِذَا سَأَلَكَ أَقَارِبُكَ وَمَنْ أَمَرْنَاكَ بِإِعْطَائِهِمْ وَلَيْسَ عِنْدَكَ شَيْءٌ ، وَأَعْرَضْتَ عَنْهُمْ لِفَقْدِ النَّفَقَةِ ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ أَيْ : عِدْهُمْ وَعْدًا بِسُهُولَةٍ وَلِينٍ ، إِذَا جَاءَ رِزْقُ اللهِ فَسَنَصِلُكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ ، هَكَذَا فُسِّرَ قَوْلُهُ : ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ بِالْوَعْدِ .

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بِالِاقْتِصَادِ فِي الْعَيْشِ ، ذَامًّا لِلْبُخْلِ ، نَاهِيًا عَنِ السَّرَفِ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ أَيْ : لَا تَكُنْ بَخِيلًا مَنُوعًا ، لَا تُعْطِي أَحَدًا شَيْئًا ، كَمَا قَالَتِ الْيَهُودُ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ

الله - ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة : ٦٤] أَيْ : نَسبُوهُ إِلَى الْبُخْلِ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ الْكَرِيمُ الْوَهَّابُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ أَيْ : وَلَا تُسْرِفْ فِي الْإِنْفَاقِ ، فَتُعْطِي فَوْقَ طَاقَتِكَ وَتُخْرِجَ أَكْثَرَ مِنْ دَخْلِكَ ، فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ، أَيْ : فَتَقْعُدَ إِنْ بَخِلْتَ مَلُومًا يَلُومُكَ النَّاسُ وَيَذُمُّونَكَ وَيَسْتَغْنُونَ عَنْكَ ، وَمَتَى بَسَطْتَ يَدَكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ قَعَدْتَ بِلَا شَيْءٍ تُنْفِقُهُ ، فَتَكُونَ كَالْحَسِيرِ ، وَهُوَ : الدَّابَّةُ الَّتِي قَدْ عَجَزَتْ عَنِ السَّيْرِ فَوَقَفَتْ ضَعْفًا وَعَجْزًا ، فَإِنَّهَا تُسَمَّى الْحَسِيرُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ إِخْبَارٌ أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الرَّزَّاقُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ ، الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ فَيُغْنِي مَنْ يَشَاءُ وَيُفْقِرُ مَنْ يَشَاءُ ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ أَيْ : خَبِيرًا بَصِيرًا بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغِنَى وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ ، وَقَدْ يَكُونُ الْغِنَى فِي حَقِّ بَعْضِ النَّاسِ اسْتِدْرَاجًا ، وَالْفَقْرُ عُقُوبَةً عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ هَذَا وَهَذَا .

وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدِ بِوَلَدِهِ ؛ لِأَنَّهُ نَهَى عَنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ كَمَا أَوْصَى الْآبَاءَ بِالْأَوْلَادِ فِي الْمِيرَاثِ ، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يُوَرِّثُونَ الْبَنَاتَ ، بَلْ كَانَ أَحَدُهُمْ رُبَّمَا قَتَلَ ابْنَتَهُ ؛ لِئَلَّا تُكْثِرَ عَيْلَتَهُ فَنَهَى اللهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ أَيْ : خَوْفٌ ، أَنْ تَفْتَقِرُوا فِي ثَانِي الْحَالِ ، وَلِهَذَا قَدَّمَ الِاهْتِمَامَ بِرِزْقِهِمْ فَقَالَ : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ أَيْ : ذَنْبًا عَظِيمًا ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ (كَانَ خَطَأً كَبِيرًا) وَهُوَ بِمَعْنَاهُ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ : « **أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ** » ، قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : « **أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ** » ، قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : « **أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ** » .

وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ عَنِ الزِّنَا وَعَنْ مُقَارَبَتِهِ وَمُخَالَطَةِ أَسْبَابِهِ وَدَوَاعِيهِ ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ أَيْ : ذَنْبًا عَظِيمًا ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ أَيْ : وَبِئْسَ طَرِيقًا وَمَسْلَكًا .

وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ شَرْعِيٍّ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ : النَّفْسِ بِالنَّفْسِ ، وَالزَّانِي**

الْمُحْصَنِ ، وَالتَّارِكِ لِدِينِهِ الْمُفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ ») .
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ أَيْ : سُلْطَةٌ عَلَى الْقَاتِلِ ، فَإِنَّهُ بِالْخِيَارِ فِيهِ ، إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ قَوَدًا ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ عَلَى الدِّيَةِ ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ مَجَّانًا ، كَمَا ثَبَتَتِ السُّنَّةُ بِذَلِكَ ﴿ فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ﴾ قَالُوا : مَعْنَاهُ : فَلَا يُسْرِفِ الْوَلِيُّ فِي قَتْلِ الْقَاتِلِ ، بِأَنْ يُمَثِّلَ بِهِ أَوْ يَقْتَصَّ مِنْ غَيْرِ الْقَاتِلِ ، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ أَيْ : أَنَّ الْوَلِيَّ مَنْصُورٌ عَلَى الْقَاتِلِ شَرْعًا ، وَغَالِبًا قَدَرًا .

وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ أَيْ : لَا تَتَصَرَّفُوا لَهُ إِلَّا بِالْغِبْطَةِ ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[النساء : ٦] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ﴾ أَيْ : الَّذِي تُعَاهِدُونَ عَلَيْهِ النَّاسَ ، وَالْعُقُودَ الَّتِي تُعَامِلُونَهُمْ بِهَا ، فَإِنَّ الْعَهْدَ وَالْعَقْدَ كُلٌّ مِنْهُمَا يُسْأَلُ صَاحِبُهُ عَنْهُ ﴿ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ أَيْ : عَنْهُ ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ أَيْ : مِنْ غَيْرِ تَطْفِيفٍ ، لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴿ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ﴾ قُرِئَ بِضَمِّ الْقَافِ وَكَسْرِهَا كَالْقِرْطَاسِ ، وَهُوَ : الْمِيزَانُ ، **قَالَ مُجَاهِدٌ** : هُوَ الْعَدْلُ بِالرُّومِيَّةِ ﴿ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ أَيْ : الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ وَلَا اضْطِرَابَ ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ أَيْ : لَكُمْ فِي مَعَاشِكُمْ وَمَعَادِكُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أَيْ : مَآلًا وَمُنْقَلَبًا فِي آخِرَتِكُمْ ، **عَنْ قَتَادَةَ** ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أَيْ : خَيْرٌ ثَوَابًا وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً .

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : لَا تَقُلْ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : لَا تَرْمِ أَحَدًا بِمَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : لَا تَقُلْ رَأَيْتُ وَلَمْ تَرَ ، وَسَمِعْتُ وَلَمْ تَسْمَعْ ، وَعَلِمْتُ وَلَمْ تَعْلَمْ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى سَائِلُكَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَمَضْمُونُ مَا ذَكَرُوهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى نَهَى عَنِ الْقَوْلِ بِلَا عِلْمٍ ، بَلْ بِالظَّنِّ الَّذِي هُوَ التَّوَهُّمُ وَالْخَيَالُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[الحجرات : ١٢]
وَقَوْلُهُ : ﴿ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أَيْ : هَذِهِ الصِّفَاتُ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْفُؤَادِ ﴿ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ أَيْ : سَيُسْأَلُ الْعَبْدُ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَتُسْأَلُ عَنْهُ وَعَمَّا عَمِلَ فِيهَا .

وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ عَنِ التَّجَبُّرِ وَالتَّبَخْتُرِ فِي الْمِشْيَةِ : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أَيْ : مُتَبَخْتِرًا مُتَمَايِلًا مَشْيَ الْجَبَّارِينَ ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ ﴾ أَيْ : لَنْ تَقْطَعَ الْأَرْضَ بِمَشْيِكَ ﴿ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ أَيْ : بِتَمَايُلِكَ وَفَخْرِكَ وَإِعْجَابِكَ بِنَفْسِكَ ، بَلْ قَدْ يُجَازَى فَاعِلُ ذَلِكَ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ « **بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَعَلَيْهِ بُرْدَانِ يَتَبَخْتَرُ فِيهِمَا ، إِذْ خُسِفَ بِهِ الْأَرْضُ ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** » وَكَذَلِكَ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْ قَارُونَ أَنَّهُ خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى خَسَفَ بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ أَمَّا مَنْ قَرَأَ : « سَيِّئَةٌ » أَيْ : فَاحِشَةٌ ، فَمَعْنَاهُ عِنْدَهُ كُلُّ هَذَا الَّذِي نُهِينَا عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ إِلَى هَاهُنَا ، فَهُوَ سَيِّئَةٌ مُؤَاخَذٌ عَلَيْهَا ﴿ مَكْرُوهًا ﴾ عِنْدَ اللهِ لَا يُحِبُّهُ وَلَا يَرْضَاهُ .

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا الَّذِي أَمَرْنَاكَ بِهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ ، وَنَهَيْنَاكَ عَنْهُ مِنَ الصِّفَاتِ الرَّذِيلَةِ مِمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ لِتَأْمُرَ بِهِ النَّاسَ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا ﴾ أَيْ : تَلُومُكَ نَفْسُكَ وَالْخَلْقُ ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ أَيْ : مُبْعَدًا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ مَطْرُودًا ، وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا الْخِطَابِ الْأُمَّةُ بِوَاسِطَةِ الرَّسُولِ ﷺ ، فَإِنَّهُ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - مَعْصُومٌ .

أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى رَادًّا عَلَى الْمُشْرِكِينَ الْكَاذِبِينَ الزَّاعِمِينَ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ - أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ ، فَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ، ثُمَّ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ بَنَاتُ اللهِ ، ثُمَّ عَبَدُوهُمْ فَأَخْطَأُوا فِي كُلٍّ مِنَ الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثِ خَطَأً عَظِيمًا ، فَقَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ أَيْ : خَصَّصَكُمْ بِالذُّكُورِ ﴿ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ﴾ أَيْ : وَاخْتَارَ لِنَفْسِهِ - عَلَى زَعْمِكُمْ - الْبَنَاتِ ، ثُمَّ شَدَّدَ الْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ أَيْ : فِي زَعْمِكُمْ أَنَّ للهِ وَلَدًا ، ثُمَّ جَعْلُكُمْ وَلَدَهُ الْإِنَاثَ الَّتِي تَأْنَفُونَ أَنْ يَكُنَّ لَكُمْ ، وَرُبَّمَا قَتَلْتُمُوهُنَّ بِالْوَأْدِ ، فَتِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الإسراء : ٨٩] أَيْ : صَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ مَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ وَالْمَوَاعِظِ ، فَيَنْزَجِرُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالظُّلْمِ وَالْإِفْكِ ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ أَيْ : الظَّالِمِينَ مِنْهُمْ ﴿ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أَيْ : عَنِ الْحَقِّ وَبُعْدًا مِنْهُ .

قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الزَّاعِمِينَ أَنَّ لله شَرِيكًا مِنْ خَلْقِهِ ، الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرَهُ لِيُقَرِّبَهُمْ إِلَيْهِ زُلْفَى ، لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ وَأَنَّ مَعَهُ آلِهَةً تُعْبَدُ ؛ لِتُقَرِّبَ إِلَيْهِ وَتَشْفَعَ لَدَيْهِ لَكَانَ أُولَئِكَ الْمَعْبُودُونَ يَعْبُدُونَهُ ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ ، وَيَبْتَغُونَ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَالْقُرْبَةَ ، فَاعْبُدُوهُ أَنْتُمْ وَحْدَهُ كَمَا يَعْبُدُهُ مَنْ تَدْعُونَهُ مِنْ دُونِهِ ، وَلَا حَاجَةَ لَكُمْ إِلَى مَعْبُودٍ يَكُونُ وَاسِطَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ ، فَإِنَّهُ لَا يُحِبُّ ذَلِكَ وَلَا يَرْضَاهُ ، بَلْ يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ ، وَقَدْ نَهَى عَنْ ذَلِكَ عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ .

ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ وَقَدَّسَهَا فَقَالَ ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الْمُعْتَدُونَ الظَّالِمُونَ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى ﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ أَيْ : تَعَالِيًا كَبِيرًا ، بَلْ هُوَ اللهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ .

تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : تُقَدِّسُهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، أَيْ : مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ وَتُنَزِّهُهُ وَتُعَظِّمُهُ وَتُبَجِّلُهُ وَتُكَبِّرُهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ ، وَتَشْهَدُ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ :

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أَيْ : وَمَا مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللهِ ﴿ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أَيْ : لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ أَيُّهَا النَّاسُ ؛ لِأَنَّهَا بِخِلَافِ لُغَتِكُمْ ، وَهَذَا عَامٌّ فِي الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتِ وَالْجَمَادِ ، وَهَذَا أَشْهَرُ الْقَوْلَيْنِ ، **كَمَا ثَبَتَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ** ﷺ **أَنَّهُ قَالَ** : كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ .

وَقَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ قَالَ : الْأُسْطُوَانَةُ (السَّارِيَةُ) تُسَبِّحُ ، وَالشَّجَرَةُ تُسَبِّحُ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ رُوحٌ يُسَبِّحُ مِنْ شَجَرٍ أَوْ شَيْءٍ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ أَيْ : إِنَّهُ لَا يُعَاجِلُ مَنْ عَصَاهُ بِالْعُقُوبَةِ بَلْ يُؤَجِّلُهُ وَيُنْظِرُهُ ،

فَإِنِ اسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَعِنَادِهِ أَخَذَهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ : « **إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ** » ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] وَمَنْ أَقْلَعَ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ عِصْيَانٍ وَرَجَعَ إِلَى اللهِ وَتَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ كَمَا قَالَ فِي آخِرِ فَاطِرٍ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [فاطر : ٤١ – ٤٥]

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: وَإِذَا قَرَأْتَ يَا مُحَمَّدُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْقُرْآنَ ، جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ حِجَابًا مَسْتُورًا ، **قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ** : هُوَ الْأَكِنَّةُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : ٥] **أَيْ** : مَانِعٌ حَائِلٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْنَا مِمَّا تَقُولُ شَيْءٌ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ بِمَعْنَى : سَاتِرٌ ، كَمَيْمُونٍ وَمَشْئُومٍ بِمَعْنَى : يَامِنٍ وَشَائِمٍ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ يُمْنِهِمْ وَشُؤْمِهِمْ ، **وَقِيلَ** : مَسْتُورًا عَنِ الْأَبْصَارِ فَلَا تَرَاهُ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ حِجَابٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْهُدَى .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ جَمْعُ كِنَانٍ ، الَّذِي يَغْشِي الْقَلْبَ ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ أَيْ : لِئَلَّا يَفْهَمُوا الْقُرْآنَ ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ، وَهُوَ الثِّقَلُ الَّذِي يَمْنَعُهُمْ مِنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ سَمَاعًا يَنْفَعُهُمْ وَيَهْتَدُونَ بِهِ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ ﴾ **أَيْ** : إِذَا وَحَّدْتَ اللهَ فِي تِلَاوَتِكَ وَقُلْتَ : **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ** ، ﴿ وَلَّوْا۟ ﴾ أَيْ : أَدْبَرُوا رَاجِعِينَ ﴿ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ وَنُفُورٌ : جَمْعُ نَافِرٍ ، كَقُعُودٍ : جَمْعُ قَاعِدٍ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرًا مِنْ غَيْرِ الْفِعْلِ وَاللهُ أَعْلَمُ .

نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِمَا يَتَنَاجَى بِهِ رُؤَسَاءُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ حِينَ جَاءُوا يَسْتَمِعُونَ قِرَاءَتَهُ ﷺ

سِرًّا مِنْ قَوْمِهِمْ ، بِمَا قَالُوا : مِنْ أَنَّهُ رَجُلٌ مَسْحُورٌ ، مِنَ السِّحْرِ عَلَى المَشْهُورِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أَيْ : فَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى الحَقِّ وَلَا يَجِدُونَ إِلَيْهِ مَخْلَصًا .

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ المُسْتَبْعِدِينَ وُقُوعَ المَعَادِ ، الْقَائِلِينَ اسْتِفْهَامَ إِنْكَارٍ مِنْهُمْ لِذَلِكَ : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا ﴾ أَيْ : تُرَابًا ، **وَقِيلَ** : غُبَارًا . ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أَيْ : بَعْدَمَا بُلِينَا وَصِرْنَا عَدَمًا لَا يُذْكَرُ ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي المَوْضِعِ الْآخَرِ ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ [النازعات : ١٠-١٢]

فَأَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يُجِيبَهُمْ ، **فَقَالَ** : ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ إِذْ هُمَا أَشَدُّ امْتِنَاعًا مِنَ الْعِظَامِ وَالرُّفَاتِ ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ **قِيلَ** : هُوَ المَوْتُ ، أَيْ : لَوْ كُنْتُمْ مَوْتَى لَأَحْيَيْتُكُمْ . **وَمَعْنَى ذَلِكَ** : أَنَّكُمْ لَوْ فَرَضْتُمْ أَنَّكُمْ لَوْ صِرْتُمْ إِلَى المَوْتِ - الَّذِي هُوَ ضِدُّ الحَيَاةِ - لَأَحْيَاكُمُ اللهُ إِذَا شَاءَ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ إِذَا أَرَادَهُ . **وَقِيلَ** : ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ يَعْنِي : السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَالجِبَالُ ، ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾ أَيْ : مَنْ يُعِيدُنَا إِذَا كُنَّا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا آخَرًا شَدِيدًا ﴿ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أَيْ : الَّذِي خَلَقَكُمْ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا ، ثُمَّ صِرْتُمْ بَشَرًا تَنْتَشِرُونَ ، فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِكُمْ وَلَوْ صِرْتُمْ إِلَى أَيِّ حَالٍ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ يُحَرِّكُونَهَا اسْتِهْزَاءً ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي تَفْهَمُهُ الْعَرَبُ مِنْ لُغَاتِهَا لِأَنَّ « الْإِنْغَاض » هُوَ التَّحَرُّكُ مِنْ أَسْفَلَ إِلَى أَعْلَى ، أَوْ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾ إِخْبَارٌ عَنْهُمْ بِالاسْتِبْعَادِ مِنْهُمْ لِوُقُوعِ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الملك : ٢٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى : ١٨] ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ ، أَيْ : احْذَرُوا ذَلِكَ فَإِنَّهُ قَرِيبٌ إِلَيْكُمْ ، سَيَأْتِيكُمْ لَا مَحَالَةَ فَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ أَيْ : الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢٥] أَيْ : إِذَا أَمَرَكُمْ بِالخُرُوجِ مِنْهَا ، فَإِنَّهُ

لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ بَلْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] وَقَالَ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] ، وَقَالَ : ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣-١٤] أَيْ : إِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَاحِدٌ بِانْتِهَارٍ ، فَإِذَا النَّاسُ قَدْ خَرَجُوا مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ إِلَى ظَاهِرِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ أَيْ : تَقُومُونَ كُلُّكُمْ إِجَابَةً لِأَمْرِهِ وَطَاعَةً لِإِرَادَتِهِ ﴿ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أَيْ : بِأَمْرِهِ ، وَقِيلَ : بِمَعْرِفَتِهِ وَطَاعَتِهِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أَيْ : وَلَهُ الْحَمْدُ فِي كُلِّ حَالٍ ﴿ وَتَظُنُّونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ تَقُومُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ كَمَا قَالَ : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات : ٤٦] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الروم : ٥٥]

وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ۝٥٣

يَأْمُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَأْمُرَ عِبَادَ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا فِي مُخَاطَبَاتِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمُ الْكَلَامَ الْأَحْسَنَ ، وَالْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ ، فَإِنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمْ ، وَأَخْرَجَ الْكَلَامَ إِلَى الْفِعَالِ وَوَقَعَ الشَّرُّ وَالْمُخَاصَمَةُ وَالْمُقَاتَلَةُ ؛ فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ مِنْ حِينِ امْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ وَعَدَاوَتُهُ ظَاهِرَةٌ بَيِّنَةٌ .

رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝٥٤ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝٥٥

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْكُمُ الْهِدَايَةَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ ﴿ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ بِأَنْ يُوَفِّقَكُمْ لِطَاعَتِهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ ﴿ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ نَذِيرًا ، فَمَنْ أَطَاعَكَ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاكَ دَخَلَ النَّارَ ، ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : بِمَرَاتِبِهِمْ فِي الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، وَهَذَا لَا يُنَافِي مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ**)) فَإِنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ هُوَ التَّفْضِيلُ بِمُجَرَّدِ التَّشَهِّي وَالْعَصَبِيَّةِ ،

لَا بِمُقْتَضَى الدَّلِيلِ، فَإِذَا دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى شَيْءٍ وَجَبَ اتِّبَاعُهُ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ الرُّسُلَ أَفْضَلُ مِنْ بَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ أُولِي الْعَزْمِ مِنْهُمْ أَفْضَلُهُمْ، وَهُمُ الْخَمْسَةُ الْمَذْكُورُونَ نَصًّا فِي آيَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب: ٧]، وَلَا خِلَافَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَفْضَلُهُمْ، ثُمَّ بَعْدَهُ إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ عِيسَى - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - عَلَى الْمَشْهُورِ، وَقَدْ بَسَطْنَاهُ بِدَلَائِلِهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. **وَقَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ تَنْبِيهٌ عَلَى فَضْلِهِ وَشَرَفِهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ الْقُرْآنُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ، فَكَانَ يَقْرَؤُهُ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ**» يَعْنِي: الْقُرْآنَ.

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا غَيْرَ اللهِ ﴿ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ فَارْغَبُوا إِلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ ﴿ لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ ﴾ أَيْ: بِالْكُلِّيَّةِ ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ أَيْ: يُحَوِّلُوهُ إِلَى غَيْرِكُمْ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ. **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ فِي قَوْلِهِ:** ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ فِي نَفَرٍ مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا يَعْبُدُونَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ فَأَسْلَمَ الْجِنِّيُّونَ، وَالْإِنْسُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِإِسْلَامِهِمْ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَالْوَسِيلَةُ: هِيَ الْقُرْبَةُ، **وَلِهَذَا قَالَ:** ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ لَا تَتِمُّ الْعِبَادَةُ إِلَّا بِالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، فَبِالْخَوْفِ يَنْكَفُّ عَنِ الْمَنَاهِي، وَبِالرَّجَاءِ يُكْثِرُ مِنَ الطَّاعَاتِ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ أَيْ: يَنْبَغِي أَنْ يُحْذَرَ مِنْهُ وَيُخَافَ مِنْ وُقُوعِهِ وَحُصُولِهِ عِيَاذًا بِاللهِ مِنْهُ.

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ ﷻ بِأَنَّهُ قَدْ حَتَمَ وَقَضَى بِمَا قَدْ كَتَبَ عِنْدَهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ: أَنَّهُ مَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا سَيُهْلِكُهَا، بِأَنْ يُبِيدَ أَهْلَهَا جَمِيعَهُمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ إِمَّا بِقَتْلٍ أَوِ ابْتِلَاءٍ بِمَا يَشَاءُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِينَ ﴿ وَمَا

ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾[هود : ١٠١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾[الطلاق : ٩]

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا ، وَأَنْ يُنَحِّيَ الْجِبَالَ عَنْهُمْ فَيَزْرَعُوا ، فَقِيلَ لَهُ : « إِنْ شِئْتَ أَنْ نَسْتَأْنِيَ بِهِمْ ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الَّذِي سَأَلُوا ، فَإِنْ كَفَرُوا هَلَكُوا كَمَا أَهْلَكْتُ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ ، قَالَ : لَا بَلِ اسْتَأْنِ بِهِمْ » وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ الْآيَةَ .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ ﴾ أَيْ : نَبْعَثُ الْآيَاتِ وَنَأْتِي بِهَا عَلَى مَا سَأَلَ قَوْمُكَ مِنْكَ ، فَإِنَّهُ سَهْلٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ لَدَيْنَا ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ بَعْدَمَا سَأَلُوهَا وَجَرَتْ سُنَّتُنَا فِيهِمْ وَفِي أَمْثَالِهِمْ : أَنَّهُمْ لَا يُؤَخَّرُونَ إِذَا كَذَّبُوا بِهَا بَعْدَ نُزُولِهَا ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي الْمَائِدَةِ : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة : ١١٥] ، وَقَالَ تَعَالَى عَنْ ثَمُودَ حِينَ سَأَلُوا آيَةً - نَاقَةً تَخْرُجُ مِنْ صَخْرَةٍ عَيَّنُوهَا - فَدَعَا صَالِحٌ ﷺ رَبَّهُ فَأَخْرَجَ لَهُمْ مِنْهَا نَاقَةً عَلَى مَا سَأَلُوا ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ أَيْ : كَفَرُوا بِمَنْ خَلَقَهَا وَكَذَّبُوا رَسُولَهُ وَعَقَرُوهَا فَقَالَ : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾[هود : ٦٥] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ أَيْ : دَالَّةً عَلَى وَحْدَانِيَّةِ مَنْ خَلَقَهَا ، وَصِدْقِ رَسُولِهِ الَّذِي أُجِيبَ دُعَاؤُهُ فِيهَا ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ أَيْ : كَفَرُوا بِهَا وَمَنَعُوهَا شِرْبَهَا وَقَتَلُوهَا ، فَأَبَادَهُمُ اللهُ عَنْ آخِرِهِمْ وَانْتَقَمَ مِنْهُمْ ، وَأَخَذَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، وَلَكِنَّ اللهَ ﷻ يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ » ثُمَّ قَالَ : « يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ، وَاللهِ مَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا » .

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ مُحَرِّضًا لَهُ عَلَى إِبْلَاغِ رِسَالَتِهِ وَمُخْبِرًا لَهُ : بِأَنَّهُ قَدْ عَصَمَهُ مِنَ النَّاسِ ،

فَإِنَّهُ الْقَادِرُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَغَلَبَتِهِ . **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : عَصَمَكَ مِنْهُمْ ، ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ ﴿ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ، وَهَكَذَا فَسَّرَ ذَلِكَ بِلَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ جَمَاعَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ نَاسًا رَجَعُوا عَنْ دِينِهِمْ بَعْدَمَا كَانُوا عَلَى الْحَقِّ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ تَحْمِلْ قُلُوبُهُمْ وَعُقُولُهُمْ ذَلِكَ فَكَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ، وَجَعَلَ اللهُ ذَلِكَ ثَبَاتًا وَيَقِينًا لِآخَرِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِلَّا فِتْنَةً ﴾ أَيْ : اخْتِبَارًا وَامْتِحَانًا . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ ﴾ أَيْ : الْكُفَّارُ بِالْوَعِيدِ وَالْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴾ أَيْ : تَمَادِيًا فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ، وَذَلِكَ مِنْ خِذْلَانِ اللهِ لَهُمْ .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾

يَذْكُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَدَاوَةَ إِبْلِيسَ - لَعَنَهُ اللهُ - لِآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ ، وَأَنَّهَا عَدَاوَةٌ قَدِيمَةٌ مُنْذُ خُلِقَ آدَمُ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ فَسَجَدُوا كُلُّهُمْ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَأَبَى أَنْ يَسْجُدَ لَهُ ؛ افْتِخَارًا عَلَيْهِ وَاحْتِقَارًا لَهُ ﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] ، **وَقَالَ أَيْضًا** : ﴿ أَرَءَيْتَكَ ﴾ يَقُولُ لِلرَّبِّ جَرَاءَةً وَكُفْرًا ، وَالرَّبُّ يَحْلُمُ وَيَنْظُرُ ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الْآيَةَ ، **الْمَعْنَى** : أَنَّهُ يَقُولُ : أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي شَرَّفْتَهُ وَعَظَّمْتَهُ عَلَيَّ لَئِنْ أَنْظَرْتَنِي لَأُضِلَّنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ !.

قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

لَمَّا سَأَلَ إِبْلِيسُ النَّظْرَةَ **قَالَ اللهُ لَهُ** : ﴿ ٱذْهَبْ ﴾ فَقَدْ أَنْظَرْتُكَ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى قَالَ : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر : ٣٧-٣٨] ، ثُمَّ أَوْعَدَهُ ، وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ جَهَنَّمَ ، **فَقَالَ** : ﴿ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ ﴾ أَيْ : عَلَى أَعْمَالِكُمْ

﴿ جزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ مَوْفُورًا عَلَيْكُمْ لَا يَنْقُصُ لَكُمْ مِنْهُ . ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ قِيلَ : هُوَ الْغِنَاءُ . أَيْ : اِسْتَخِفَّهُمْ بِذَلِكَ . وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ قَالُوا : كُلُّ دَاعٍ دَعَا إِلَى مَعْصِيَةِ الله ﷻ . ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ يَقُولُ : وَاحْمِلْ عَلَيْهِمْ بِجُنُودِكَ خَيَالَتِهِمْ وَرَجِلَتِهِمْ فَإِنَّ « الرَّجْلُ » جَمْعُ « رَاجِلٍ » كَمَا أَنَّ « الرَّكْبُ » جَمْعُ « رَاكِبٍ » وَ « الصحبُ » جَمْعُ « صَاحِبٍ » ، وَمَعْنَاهُ : تَسَلَّطْ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَهَذَا أَمْرٌ قَدَرِيٌّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم : ٨٣] أَيْ : تُزْعِجُهُمْ إِلَى المَعَاصِي إِزْعَاجًا ، وَتَسُوقُهُمْ إِلَيْهَا سَوْقًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : كُلُّ رَاكِبٍ وَمَاشٍ فِي مَعْصِيَةِ الله ، وَقَالَ قَتَادَةُ : إِنَّ لَهُ خَيْلًا وَرِجَالًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَهُمُ الَّذِينَ يُطِيعُونَهُ ، وَتَقُولُ الْعَرَبُ : أَجْلَبَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ إِذَا صَاحَ عَلَيْهِ ، وَمِنْهُ اِشْتِقَاقُ « الجَلَبَة » وَهِيَ اِرْتِفَاعُ الْأَصْوَاتِ ، ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ ﴾ في الآيَةِ أَقْوَالٌ مِنْهَا : هُوَ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ إِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ فِي مَعَاصِي الله تَعَالَى ، وَمِنْهَا : هُوَ الرِّبَا ، وَمِنْهَا : جَمْعُهَا مِنْ خَبِيثٍ وَإِنْفَاقُهَا فِي حَرَامٍ ، وَمِنْهَا : أن مُشَارَكَتَهُ إِيَّاهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ فَهُوَ مَا حَرَّمُوهُ مِنْ أَنْعَامِهِمْ يَعْنِي : مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَنَحْوِهَا . وَقَالَ اِبْنُ جَرِيرٍ : وَالْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ إِنَّ الْآيَةَ تَعُمُّ ذَلِكَ كُلَّهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ﴾ قَالَ اِبْنُ جَرِيرٍ : كُلُّ مَوْلُودٍ وَلَدَتْهُ أُنْثَى عُصِيَ اللهُ فِيهِ بِتَسْمِيَتِهِ بِمَا يَكْرَهُهُ اللهُ ، أَوْ بِإِدْخَالِهِ فِي غَيْرِ الدِّينِ الَّذِي اِرْتَضَاهُ اللهُ ، أَوْ بِالزِّنَا بِأُمِّهِ ، أَوْ بِقَتْلِهِ ، أَوْ وَأْدِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَعْصِي اللهَ بِفِعْلِهِ بِهِ أَوْ فِيهِ ، فَقَدْ دَخَلَ فِي مُشَارَكَةِ إِبْلِيسَ فِيهِ مَنْ وُلِدَ ذَلِكَ الْوَلَدُ لَهُ أَوْ مِنْهُ ؛ لِأَنَّ اللهَ لَمْ يُخَصِّصْ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ﴾ مَعْنَى الشَّرِكَةِ فِيهِ بِمَعْنًى دُونَ مَعْنًى ، فَكُلُّ مَا عُصِيَ اللهُ فِيهِ أَوْ بِهِ أَوْ أُطِيعَ الشَّيْطَانُ فِيهِ أَوْ بِهِ فَهُوَ مُشَارَكَةٌ . ﴿ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ إِبْلِيسَ أَنَّهُ يَقُولُ إِذَا حَصْحَصَ الْحَقُّ يَوْمَ يُقْضَى بِالْحَقِّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٢٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ إِخْبَارٌ بِتَأْيِيدِهِ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَحِفْظِهِ إِيَّاهُمْ ، وَحِرَاسَتِهِ لَهُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ أَيْ : حَافِظًا وَمُؤَيِّدًا وَنَصِيرًا .

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

وَيُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ لُطْفِهِ بِخَلْقِهِ فِي تَسْخِيرِهِ لِعِبَادِهِ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ، وَتَسْهِيلِهِ لِمَصَالِحِ عِبَادِهِ لِابْتِغَائِهِمْ مِنْ فَضْلِهِ فِي التِّجَارَةِ مِنْ إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ أَيْ :

إِنَّمَا فَعَلَ هَذَا بِكُمْ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتِهِ بِكُمْ .

وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ النَّاسَ إِذَا مَسَّهُمْ ضُرٌّ دَعَوْهُ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ،وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ أَيْ : ذَهَبَ عَنْ قُلُوبِكُمْ كُلُّ مَا تَعْبُدُونَ غَيْرَ اللهِ تَعَالَى ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ أَيْ : نَسِيتُمْ مَا عَرَفْتُمْ مِنْ تَوْحِيدِهِ فِي الْبَحْرِ ، وَأَعْرَضْتُمْ عَنْ دُعَائِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴾ أَيْ : سَجِيَّتُهُ هَذَا ، يَنْسَى النِّعَمَ وَيَجْحَدَهَا إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ .

أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : أَفَحَسِبْتُمْ بِخُرُوجِكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَمِنْتُمْ مِنِ انْتِقَامِهِ وَعَذَابِهِ ؟ ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ ، وَهُوَ : الْمَطَرُ الَّذِي فِيهِ حِجَارَةٌ ، ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ أَيْ : نَاصِرًا يَرُدُّ ذَلِكَ عَنْكُمْ وَيُنْقِذُكُمْ مِنْهُ .

أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ ﴾ أَيُّهَا الْمُعْرِضُونَ عَنَّا ، بَعْدَمَا اعْتَرَفُوا بِتَوْحِيدِنَا فِي الْبَحْرِ وَخَرَجُوا إِلَى الْبَرِّ ﴿ أَن يُعِيدَكُمْ ﴾ فِي الْبَحْرِ مَرَّةً ثَانِيَةً ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ ﴾ أَيْ : يَقْصِفُ الصَّوَارِي وَيُغْرِقُ الْمَرَاكِبَ ، ﴿ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ وَإِعْرَاضِكُمْ عَنِ اللهِ تَعَالَى . ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ قِيلَ الْمَعْنَى : نَصِيرًا ، وَقِيلَ : نَصِيرًا ثَائِرًا ، أَيْ : يَأْخُذُ بِثَأْرِكُمْ بَعْدَكُمْ . وَقَالَ قَتَادَةُ : وَلَا نَخَافُ أَحَدًا يَتْبَعُنَا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ .

۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

وَيُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَشْرِيفِهِ لِبَنِي آدَمَ وَتَكْرِيمِهِ إِيَّاهُمْ فِي خَلْقِهِ لَهُمْ عَلَى أَحْسَنِ الْهَيْئَاتِ وَأَكْمَلِهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[التين : ٤] أَنْ يَمْشِي قَائِمًا مُنْتَصِبًا عَلَى رِجْلَيْهِ ، وَيَأْكُلَ بِيَدَيْهِ ، وَغَيْرُهُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ وَيَأْكُلُ بِفَمِهِ ، وَجَعَلَ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا

وَفُؤَادًا يَفْقَهُ بِذَلِكَ كُلِّهِ ، وَيَنْتَفِعُ بِهِ ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ وَيَعْرِفُ مَنَافِعَهَا وَخَوَاصَّهَا وَمَضَارَّهَا فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ ﴿ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ ﴾ أَيْ : عَلَى الدَّوَابِّ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ ، وَفِي الْبَحْرِ أَيْضًا عَلَى السُّفُنِ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ ﴿ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ﴾ أَيْ : مِنْ زُرُوعٍ وَثِمَارٍ وَلُحُومٍ وَأَلْبَانٍ مِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الطُّعُومِ وَالْأَلْوَانِ الْمُشْتَهَاةِ اللَّذِيذَةِ ، وَالْمَنَاظِرِ الْحَسَنَةِ ، وَالْمَلَابِسِ الرَّفِيعَةِ مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا وَأَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا ، مِمَّا يَصْنَعُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ وَيَجْلِبُهُ إِلَيْهِمْ غَيْرُهُمْ مِنْ أَقْطَارِ الْأَقَالِيمِ وَالنَّوَاحِي ﴿ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ أَيْ : مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَقَدِ اسْتُدِلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَفْضَلِيَّةِ جِنْسِ الْبَشَرِ عَلَى جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ .

يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ يُحَاسِبُ كُلَّ أُمَّةٍ بِإِمَامِهِمْ ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ ، **قِيلَ** : أَيْ : بِنَبِيِّهِمْ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ [يونس : ٤٧] . **وَقِيلَ**: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾ بِكِتَابِهِمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِمْ مِنَ التَّشْرِيعِ . **وَقِيلَ** : بِكِتَابِ أَعْمَالِهِمْ ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَرْجَحُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : ١٢]، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِإِمَامِهِمْ : أَيْ : كُلَّ قَوْمٍ بِمَنْ يَأْتَمُّونَ بِهِ ؛ فَأَهْلُ الْإِيمَانِ ائْتَمُّوا بِالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَأَهْلُ الْكُفْرِ ائْتَمُّوا بِأَئِمَّتِهِمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [القصص : ٤١]، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ : « **لِتَتْبَعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيت** » الْحَدِيثُ ، وَهَذَا لَا يُنَافِي أَنْ يُجَاءَ بِالنَّبِيِّ إِذَا حَكَمَ اللهُ بَيْنَ أُمَّتِهِ ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ شَاهِدًا عَلَى أُمَّتِهِ بِأَعْمَالِهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ [الزمر : ٦٩]، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ هَاهُنَا بِالْإِمَامِ هُوَ : كِتَابُ الْأَعْمَالِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ ﴾ أَيْ : مِنْ فَرْحَتِهِ وَسُرُورِهِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ يَقْرَؤُهُ وَيُحِبُّ قِرَاءَتَهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَـٰبِيَهْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ﴾ [الحاقة : ١٩-٢٥] ، **وَقَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْفَتِيلَ هُوَ : الْخَيْطُ الْمُسْتَطِيلُ فِي شَقِّ النَّوَاةِ . ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ ﴾ أَيْ : فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿ أَعْمَىٰ ﴾ أَيْ :

عَنْ حُجَّةِ اللهِ وَآيَاتِهِ وَبَيِّنَاتِهِ ﴿ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾ أَيْ : كَذَلِكَ يَكُونُ ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أَيْ : وَأَضَلُّ مِنْهُ كَمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ .

وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَأْيِيدِهِ رَسُولَهُ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ - وَتَثْبِيتُهُ وَعِصْمَتُهُ وَسَلَامَتُهُ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدِ الْفُجَّارِ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُتَوَلِّي أَمْرَهُ وَنَصْرَهُ ، وَأَنَّهُ لَا يَكِلُهُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، بَلْ هُوَ وَلِيُّهُ وَحَافِظُهُ وَنَاصِرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ وَمُظَفِّرُهُ وَمُظْهِرُ دِينِهِ عَلَى مَنْ عَادَاهُ وَخَالَفَهُ وَنَاوَأَهُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ﷺ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

قِيلَ : نَزَلَتْ فِي كُفَّارِ قُرَيْشٍ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ فَتَوَعَّدَهُمُ اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَأَنَّهُمْ لَوْ أَخْرَجُوهُ لَمَا لَبِثُوا بَعْدَهُ بِمَكَّةَ إِلَّا يَسِيرًا ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ هِجْرَتِهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ بَعْدَمَا اشْتَدَّ أَذَاهُمْ لَهُ إِلَّا سَنَةً وَنِصْفٌ ، حَتَّى جَمَعَهُمُ اللهُ وَإِيَّاهُ بِبَدْرٍ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُمْ وَسَلَّطَهُ عَلَيْهِمْ وَأَظْفَرَهُ بِهِمْ ، فَقَتَلَ أَشْرَافَهُمْ وَسَبَى ذَرَارِيهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ أَيْ : هَكَذَا عَادَتُنَا فِي الَّذِينَ كَفَرُوا بِرُسُلِنَا وَآذَوْهُمْ بِخُرُوجِ الرَّسُولِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ ﷺ رَسُولُ الرَّحْمَةِ لَجَاءَهُمْ مِنَ النِّقَمِ فِي الدُّنْيَا مَا لَا قِبَلَ لِأَحَدٍ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٣٣]

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ آمِرًا لَهُ بِإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾ قِيلَ : لِغُرُوبِهَا ، وَقِيلَ : دُلُوكُهَا : زَوَالُهَا ، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ ، فَعَلَى هَذَا تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ دَخَلَ فِيهَا أَوْقَاتُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ، فَمِنْ قَوْلِهِ : ﴿ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ - وَهُوَ ظَلَامُهُ ، وَقِيلَ : غُرُوبُ الشَّمْسِ - أُخِذَ مِنْهُ الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ وَالْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ ، ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ يَعْنِي : صَلَاةَ الْفَجْرِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَقُرْءَانَ

ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ قَالَ : ((**تَشْهَدُهُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ**)).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ أَمْرٌ لَهُ بِقِيَامِ اللَّيْلِ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ ، فَإِنَّ التَّهَجُّدَ مَا كَانَ بَعْدَ نَوْمٍ ، وَهُوَ المَعْرُوفُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ ، وَكَذَلِكَ ثَبَتَتِ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَتَهَجَّدُ بَعْدَ نَوْمِهِ ، وَاخْتُلِفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ ، **فَقِيلَ** : مَعْنَاهُ أَنَّكَ مَخْصُوصٌ بِوُجُوبِ ذَلِكَ وَحْدَكَ دُونَ الْأُمَّةِ ، **وَقِيلَ** : إِنَّمَا جُعِلَ قِيَامُ اللَّيْلِ فِي حَقِّهِ نَافِلَةً عَلَى الْخُصُوصِ ؛ لأَنَّهُ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَغَيْرُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِنَّمَا يُكَفِّرُ عَنْهُ صَلَوَاتُهُ النَّوَافِلُ الذُّنُوبَ الَّتِي عَلَيْهِ . ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ أَيْ : افْعَلْ هَذَا الَّذِي أَمَرْتُكَ بِهِ لِنُقِيمَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَقَامًا مَحْمُودًا ، يَحْمَدُكَ فِيهِ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ ، وَخَالِقُهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ : ذَلِكَ هُوَ المَقَامُ الَّذِي يَقُومُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلشَّفَاعَةِ لِلنَّاسِ ، لِيُرِيحَهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ عَظِيمِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ يَعْنِي : المَدِينَةَ ﴿ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ يَعْنِي : مَكَّةَ . ﴿ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهَا** : وَعَدَهُ رَبُّهُ لَيَنْزِعَنَّ مُلْكَ فَارِسٍ وَعِزَّ فَارِسٍ وَلَيَجْعَلَنَّهُ لَهُ ، وَمُلْكَ الرُّومِ وَعِزَّ الرُّومِ وَلَيَجْعَلَنَّهُ لَهُ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ فِيهَا** : إِنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ عَلِمَ أَنْ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهَذَا الأَمْرِ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ، فَسَأَلَ سُلْطَانًا نَصِيرًا لِكِتَابِ اللهِ ، وَلِحُدُودِ اللهِ ، وَلِفَرَائِضِ اللهِ ، وَلِإِقَامَةِ دِينِ اللهِ ، فَإِنَّ السُّلْطَانَ رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ جَعَلَهُ بَيْنَ أَظْهُرِ عِبَادِهِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَغَارَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَأَكَلَ شَدِيدُهُمْ ضَعِيفَهُمْ ، **وَقِيلَ** : ﴿ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ حُجَّةً بَيِّنَةً . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ الْآيَة : تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ ، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ مِنَ اللهِ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ ، وَهُوَ مَا بَعَثَهُ اللهُ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ ، وَزَهَقَ بَاطِلُهُمْ ، أَيْ : اِضْمَحَلَّ وَهَلَكَ ، فَإِنَّ الْبَاطِلَ لَا ثَبَاتَ لَهُ مَعَ الْحَقِّ وَلَا بَقَاءَ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : ١٨] **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ** رضي الله عنه **قَالَ** : دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وَثَلَاثُمِائَةِ نُصُبٍ فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ ، وَيَقُولُ : ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ .

وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ

مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] إِنَّهُ ﴿ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أَيْ : يُذْهِبُ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنْ أَمْرَاضٍ ، مِنْ شَكٍّ وَنِفَاقٍ وَشِرْكٍ وَزَيْغٍ وَمَيْلٍ ، فَالْقُرْآنُ يَشْفِي مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَهُوَ أَيْضًا رَحْمَةٌ يَحْصُلُ فِيهَا الْإِيمَانُ وَالْحِكْمَةُ وَطَلَبُ الْخَيْرِ وَالرَّغْبَةُ فِيهِ ، وَلَيْسَ هَذَا إِلَّا لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ شِفَاءٌ فِي حَقِّهِ وَرَحْمَةٌ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ الظَّالِمُ نَفْسَهُ بِذَلِكَ فَلَا يَزِيدُهُ سَمَاعُهُ الْقُرْآنَ إِلَّا بُعْدًا وَكُفْرًا ، وَالْآفَةُ مِنَ الْكَافِرِ لَا مِنَ الْقُرْآنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾ [فصلت : ٤٤] ، وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ .

وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴿٨٣﴾ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نَقْصِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ تَعَالَى ، فِي حَالَتَيْ سَرَّائِهِ وَضَرَّائِهِ ، بِأَنَّهُ إِذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِمَالٍ وَعَافِيَةٍ ، وَفَتْحٍ وَرِزْقٍ وَنَصْرٍ ، وَنَالَ مَا يُرِيدُ ، أَعْرَضَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَنَأَى بِجَانِبِهِ . **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : أَيْ : بَعُدَ عَنَّا . **قُلْتُ** : وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس : ١٢] ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡ ﴾ وَبِأَنَّهُ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ - وَهُوَ الْمَصَائِبُ وَالْحَوَادِثُ وَالنَّوَائِبُ - ﴿ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴾ أَيْ : قَنَطَ أَنْ يَعُودَ يَحْصُلُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرٌ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾ [هود : ٩-١١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ **قِيلَ** : عَلَى نَاحِيَتِهِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : عَلَى حِدَتِهِ وَطَبِيعَتِهِ ، **وَقِيلَ** : عَلَى نِيَّتِهِ ، **وَقِيلَ** : دِينِهِ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَعْنَى ، وَهَذِهِ الْآيَةُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - تَهْدِيدٌ لِلْمُشْرِكِينَ وَوَعِيدٌ لَهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ ﴾ [هود : ١٢١] ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴾ **أَيْ** : مِنَّا وَمِنْكُمْ ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، فَإِنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ .

وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه **قَالَ** : بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْثٍ ، وَهُوَ مُتَوَكِّئٌ عَلَى عَسِيبٍ ، إِذْ مَرَّ الْيَهُودُ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ ، فَقَالَ : مَا رَابَكُمْ إِلَيْهِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا يَسْتَقْبِلَنَّكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ ، فَقَالُوا : سَلُوهُ ، فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ ، فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ

ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ ، فَقُمْتُ مَقَامِي فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ الْآيَةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ أَيْ : مِنْ شَأْنِهِ ، وَمِمَّا اسْتَأْثَرَ بِعِلْمِهِ دُونَكُمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيْ : وَمَا أَطْلَعَكُمْ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا عَلَى الْقَلِيلِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يُحِيطُ أَحَدٌ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، **وَالْمَعْنَى** : أَنَّ عِلْمَكُمْ فِي عِلْمِ اللهِ قَلِيلٌ ، وَهَذَا الَّذِي تَسْأَلُونَ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ الرُّوحِ ، مِمَّا اسْتَأْثَرَ بِهِ تَعَالَى وَلَمْ يُطْلِعْكُمْ عَلَيْهِ ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يُطْلِعْكُمْ إِلَّا عَلَى الْقَلِيلِ مِنْ عِلْمِهِ - تَعَالَى - وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ فِي قِصَّةِ مُوسَى وَالْخَضِرِ ، أَنَّ الْخَضِرَ نَظَرَ إِلَى عُصْفُورٍ وَقَعَ عَلَى حَافَّةِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً - أَيْ شَرِبَ مِنْهُ بِمِنْقَارِهِ - فَقَالَ : يَا مُوسَى مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ وَعِلْمُ الْخَلَائِقِ فِي عِلْمِ اللهِ ، إِلَّا كَمَا أَخَذَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ ، أَوْ كَمَا قَالَ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا
رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ
عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ وَفَضْلَهُ الْعَظِيمَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ ﷺ فِيمَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ الَّذِي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى شَرَفِ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَوِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ كُلُّهُمْ وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ مَا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ، لَمَا أَطَاقُوا ذَلِكَ ، وَلَمَا اسْتَطَاعُوهُ ، وَلَوْ تَعَاوَنُوا وَتَسَاعَدُوا وَتَظَافَرُوا ، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ لَا يُسْتَطَاعُ ، وَكَيْفَ يُشْبِهُ كَلَامُ الْمَخْلُوقِينَ كَلَامَ الْخَالِقِ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا مِثَالَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ ؟! **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أَيْ : بَيَّنَّا لَهُمُ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ الْقَاطِعَةَ ، وَوَضَّحْنَا لَهُمُ الْحَقَّ وَشَرَحْنَاهُ وَبَسَطْنَاهُ وَمَعَ هَذَا ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أَيْ : جُحُودًا لِلْحَقِّ وَرَدًّا لِلصَّوَابِ .

وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ
مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ
عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى

ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴾ الْيَنْبُوعُ : الْعَيْنُ الْجَارِيَةُ ، سَأَلُوهُ أَنْ يُجْرِي لَهُمْ عَيْنًا مَعِينًا فِي أَرْضِ الْحِجَازِ هَاهُنَا وَهَاهُنَا ، وَذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى اللهِ تَعَالَى ، يَسِيرٌ لَوْ شَاءَ لَفَعَلَهُ وَلَأَجَابَهُمْ إِلَى جَمِيعِ مَا سَأَلُوا وَطَلَبُوا ، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾ .

وَقَوْلُهُمْ : ﴿ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ ﴾ أَيْ : أَنَّك وَعَدْتَنَا أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَنْشَقُّ فِيهِ السَّمَاءُ وَتَهِي ، وَتُدْلِي أَطْرَافهَا ، فَعَجِّلْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَسْقِطْهَا كِسَفًا ، أَيْ : قِطَعًا ، كَقَوْلِهِمْ : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، وَكَذَلِكَ سَأَلَ قَوْمُ شُعَيْبٍ مِنْهُ ، فَقَالُوا : ﴿ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨٧] فَعَاقَبَهُمُ اللهُ بِعَذَابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، وَأَمَّا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ ، الْمَبْعُوثُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، فَسَأَلَ إِنْظَارَهُمْ وَتَأْجِيلَهُمْ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ ، فَإِنَّ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذُكِرُوا مَنْ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ ، حَتَّى عَبْدُ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ - الَّذِي تبعَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَالَ لَهُ مَا قَالَ - أَسْلَمَ إِسْلَامًا تَامًّا ، وَأَنَابَ إِلَى اللهِ ﷻ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ ﴾ هُوَ الذَّهَبُ ﴿ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، أَيْ : تَصْعَدُ فِي سُلَّمٍ وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴿ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : أَيْ : مَكْتُوبٌ فِيهِ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ وَاحِدٍ صَحِيفَةً : هَذَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ لِفُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ ، تُصْبِحُ مَوْضُوعَةً عِنْدَ رَأْسِهِ . ﴿ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾ أَيْ : سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَحَدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ سُلْطَانِهِ وَمَلَكُوتِهِ ، بَلْ هُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ ، إِنْ شَاءَ أَجَابَكُمْ إِلَى مَا سَأَلْتُمْ ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يُجِبْكُمْ ، وَمَا أَنَا إِلَّا رَسُولٌ إِلَيْكُمْ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ، وَأَنْصَحُ لَكُمْ ، وَقَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ وَأَمْرُكُمْ فِيمَا سَأَلْتُمْ إِلَى اللهِ ﷻ

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ ﴾ أَيْ : أَكْثَرَهُمْ ﴿ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ ﴾ وَيُتَابِعُوا الرُّسُلَ إِلَّا اِسْتِعْجَابُهُمْ مِنْ بَعْثَةِ الْبَشَرِ رُسُلًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس : ٢] ، وَقَالَ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤٧] ، وَكَذَلِكَ قَالَتِ الْأُمَمُ لِرُسُلِهِمْ ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم : ١٠] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ : أَنَّهُ يَبْعَثُ إِلَيْهِمُ الرَّسُولَ مِنْ جِنْسِهِمْ لِيَفْقَهُوا عَنْهُ وَيَفْهَمُوا مِنْهُ ، لِتَمَكُّنِهِمْ مِنْ مُخَاطَبَتِهِ وَمُكَالَمَتِهِ ، وَلَوْ بَعَثَ إِلَى الْبَشَرِ رَسُولًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَمَا اسْتَطَاعُوا مُوَاجَهَتَهُ وَلَا الْأَخْذَ عَنْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : ١٢٨] ، وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ أَيْ : كَمَا أَنْتُمْ فِيهَا ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ أَيْ : مِنْ جِنْسِهِمْ ، وَلَمَّا كُنْتُمْ أَنْتُمْ بَشَرًا بَعَثْنَا فِيكُمْ رُسُلَنَا مِنكُمْ لُطْفًا وَرَحْمَةً .

قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُرْشِدًا نَبِيَّهُ ﷺ إِلَى الْحُجَّةِ عَلَى قَوْمِهِ فِي صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ ، إِنَّهُ شَاهِدٌ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ ، عَالِمٌ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ، فَلَوْ كُنْتُ كَاذِبًا عَلَيْهِ لَانْتَقَمَ مِنِّي أَشَدَّ الِانْتِقَامِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤-٤٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ أَيْ : عَلِيمًا بِهِمْ ، بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِنْعَامَ وَالْإِحْسَانَ وَالْهِدَايَةَ ، مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الشَّقَاءَ وَالْإِضْلَالَ وَالْإِزَاغَةَ ، وَلِهَذَا قَالَ :

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَصَرُّفِهِ فِي خَلْقِهِ وَنُفُوذِ حُكْمِهِ وَأَنَّهُ لَا مُعَقِّبَ لَهُ ، بِأَنَّهُ مَنْ يَهْدِهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أَيْ : يَهْدُونَهُمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف : ١٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رضي الله عنه **قَالَ** : قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؟ قَالَ : « **الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ** » . وَقَوْلُهُ : ﴿ عُمْيًا ﴾ أَيْ : لَا يُبْصِرُونَ ﴿ وَبُكْمًا ﴾ يَعْنِي : لَا يَنْطِقُونَ ﴿ وَصُمًّا ﴾ لَا يَسْمَعُونَ ، وَهَذَا يَكُونُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ ، جَزَاءً لَهُمْ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا ، بُكْمًا وَعُمْيًا وَصُمًّا عَنِ الْحَقِّ ، فَجُوزُوا فِي مَحْشَرِهِمْ بِذَلِكَ أَحْوَجَ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ﴿ مَّأْوَىٰهُمْ ﴾ أَيْ :

مُنْقَلَبِهُمْ وَمَصِيرِهُمْ ﴿ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ قِيلَ : سَكَنَتْ ، وَقِيلَ : طَفِئَتْ ﴿ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ أَيْ : لَهَبًا وَوَهَجًا وَجَمْرًا ، كَمَا قَالَ : ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ : ٣٠]

ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا الَّذِي جَازَيْنَاهُمْ بِهِ - مِنَ الْبَعْثِ عَلَى الْعَمَى وَالْبُكْمِ وَالصَّمَمِ - جَزَاؤُهُمُ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا ﴿ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ أَيْ : بِأَدِلَّتِنَا وَحُجَّتِنَا ، وَاسْتَبْعَدُوا وُقُوعَ الْبَعْثِ ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا ﴾ أَيْ : بَالِيَةً نَخِرَةً ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أَيْ : بَعْدَمَا صِرْنَا إِلَى مَا صِرْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْبِلَى وَالْهَلَاكِ وَالتَّفَرُّقِ وَالذَّهَابِ فِي الْأَرْضِ ، نُعَادُ مَرَّةً ثَانِيَةً ؟ فَاحْتَجَّ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَنَبَّهَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى ذَلِكَ ، بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَقُدْرَتُهُ عَلَى إِعَادَتِهِمْ أَسْهَلُ مِنْ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] ، **وَقَالَ هَاهُنَا:** ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعِيدُ أَبْدَانَهُمْ وَيُنْشِئُهُمْ نَشْأَةً أُخْرَى كَمَا بَدَأَهُمْ ، ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أَيْ : جَعَلَ لِإِعَادَتِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ أَجَلًا مَضْرُوبًا ، وَمُدَّةً مُقَدَّرَةً لَا بُدَّ مِنِ انْقِضَائِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود : ١٠٤] ، **وَقَوْلُهُ:** ﴿ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿ إِلَّا كُفُورًا ﴾ إِلَّا تَمَادِيًا فِي بَاطِلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ .

قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ لَوْ أَنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ تَمْلِكُونَ التَّصَرُّفَ فِي خَزَائِنِ اللهِ لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ . أَيْ : الْفَقْرُ ، أَيْ : خَشْيَةَ أَنْ تُذْهِبُوهَا مَعَ أَنَّهَا لَا تَفْرُغُ وَلَا تَنْفَدُ أَبَدًا ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ طِبَاعِكُمْ وَسَجَايَاكُمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ:** ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴾ أَيْ : بَخِيلًا مَنُوعًا ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ [النساء : ٥٣]أَيْ : لَوْ أَنَّ لَهُمْ نَصِيبًا فِي مُلْكِ اللهِ لَمَا أَعْطَوْا أَحَدًا شَيْئًا وَلَا مِقْدَارَ نَقِيرٍ وَاللهُ تَعَالَى يَصِفُ الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ وَهَدَاهُ ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجَزَعَ وَالْهَلَعَ صِفَةٌ لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج : ١٩-٢٢] ، وَلِهَذَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ مُوسَى بِتِسْعِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، وَهِيَ الدَّلَائِلُ الْقَاطِعَةُ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَصِدْقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ عَمَّنْ أَرْسَلَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ ، وَهِيَ : الْعَصَا وَالْيَدُ وَالسِّنِينَ وَالْبَحْرُ وَالطُّوفَانُ وَالْجَرَادُ وَالْقُمَّلُ وَالضَّفَادِعُ وَالدَّمَ ، آيَاتٌ مُفَصَّلَاتٌ ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٣] أَيْ : وَمَعَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَمُشَاهَدَتِهِمْ لَهَا كَفَرُوا بِهَا ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[النمل : ١٤] ، وَمَا نَجَعَتْ فِيهِمْ ، وَكَذَلِكَ لَوْ أَجَبْنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَأَلُوا مِنْكَ مَا سَأَلُوا ، وَقَالُوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ إِلَى آخِرِهَا لَمَا اسْتَجَابُوا ، وَلَا آمَنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ، كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى ، وَقَدْ شَاهَدَ مِنْهُ مَا شَاهَدَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ ، قَالَ : ﴿ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ قِيلَ : بِمَعْنَى : سَاحِرٌ ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

وَقَدْ أُوتِيَ مُوسَى عليه السلام آيَاتٌ أُخَرُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا : ضَرْبُهُ الْحَجَرَ بِالْعَصَا ، وَخُرُوجُ الْمَاءِ مِنْهُ ، وَمِنْهَا : تَظْلِيلُهُمْ بِالْغَمَامِ وَإِنْزَالُ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا أُوتُوهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِمْ بِلَادَ مِصْرَ ، وَلَكِنْ ذَكَرَ هَاهُنَا التِّسْعَ آيَاتِ الَّتِي شَاهَدَهَا فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ ، فَكَانَتْ حُجَّةً عَلَيْهِمْ فَخَالَفُوهَا وَعَانَدُوهَا كُفْرًا وَجُحُودًا ، وَلِهَذَا قَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾[الإسراء : ١٠٢] أَيْ : حُجَجًا وَأَدِلَّةً عَلَى صِدْقِ مَا جِئْتُكَ بِهِ ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ أَيْ : هَالِكًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : يُخْلِيَهُمْ مِنْهَا وَيُزِيلَهُمْ عَنْهَا ﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ ، وَفِي هَذَا بِشَارَةٌ لِمُحَمَّدٍ ﷺ بِفَتْحِ مَكَّةَ ، مَعَ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ نَزَلَتْ قَبْلَ الْهِجْرَةِ ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ ، فَإِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ مِنْهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾[الإسراء : ٧٦] الْآيَتَيْنِ ؛ وَلِهَذَا أَوْرَثَ اللهُ رَسُولَهُ مَكَّةَ فَدَخَلَهَا عَنْوَةً عَلَى أَشْهَرِ الْقَوْلَيْنِ ، وَقَهَرَ أَهْلَهَا ثُمَّ أَطْلَقَهُمْ حِلْمًا وَكَرَمًا ، كَمَا أَوْرَثَ اللهُ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَأَوْرَثَهُمْ بِلَادَ فِرْعَوْنَ وَأَمْوَالَهُمْ وَزُرُوعَهُمْ وَثِمَارَهُمْ وَكُنُوزَهُمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ

إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[الشعراء : ٥٩] ، وَقَالَ هَاهُنَا ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أَيْ : جَمِيعكُمْ أَنْتُمْ وَعَدُوّكُمْ . ﴿ لَفِيفًا ﴾ أَيْ : جَمِيعًا .

وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ - وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ - أَنَّهُ بِالْحَقِّ نَزَلَ ، أَيْ : مُتَضَمِّنًا لِلْحَقِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ [النساء : ١٦٦] أَيْ : مُتَضَمِّنًا عِلْمَ اللهِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُطْلِعَكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَحْكَامِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ أَيْ : وَنَزَلَ إِلَيْكَ - يَا مُحَمَّدُ - مَحْفُوظًا مَحْرُوسًا لَمْ يُشَبْ بِغَيْرِهِ ، وَلَا زِيدَ فِيهِ ، وَلَا نُقِصَ مِنْهُ ، بَلْ وَصَلَ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ ، فَإِنَّهُ نَزَلَ بِهِ شَدِيدُ الْقُوَى ، الْأَمِينُ الْمَكِينُ الْمُطَاعُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ مُبَشِّرًا لِمَنْ أَطَاعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَنَذِيرًا لِمَنْ عَصَاكَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ ﴾ أَمَّا قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ بِالتَّخْفِيفِ فَمَعْنَاهُ : فَصَّلْنَاهُ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ - مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا - ثُمَّ نَزَلَ مُفَرَّقًا مُنَجَّمًا عَلَى الْوَقَائِعِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَقَرَأَ الْبَعْضُ : ((فَرَّقْنَاهُ)) بِالتَّشْدِيدِ ، أَيْ : أَنْزَلْنَاهُ آيَةً آيَةً مُبَيَّنًا مُفَسَّرًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : لِتُبَلِّغَهُ النَّاسَ وَتَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ ، أَيْ : ﴿ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ أَيْ : مَهْلٍ ﴿ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ أَيْ : شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ .

قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ أَيْ : سَوَاءٌ آمَنْتُمْ بِهِ أَمْ لَا ، فَهُوَ حَقٌّ فِي نَفْسِهِ ، أَنْزَلَهُ اللهُ وَنَوَّهَ بِذِكْرِهِ فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ فِي كُتُبِهِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى رُسُلِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ ﴾ أَيْ : مِنْ صَالِحِي أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِكِتَابِهِمْ وَيُقِيمُونَهُ وَلَمْ يُبَدِّلُوهُ وَلَا حَرَّفُوهُ ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ هَذَا الْقُرْآنُ ﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ جَمْعُ ذَقَنٍ ، وَهُوَ أَسْفَلُ الْوَجْهِ ﴿ سُجَّدًا ﴾ أَيْ : للهِ ﷻ شُكْرًا عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ جَعْلِهِ إِيَّاهُمْ أَهْلًا أَنْ أَدْرَكُوا هَذَا الرَّسُولَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ ، وَلِهَذَا يَقُولُونَ : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ ﴾ أَيْ : تَعْظِيمًا وَتَوْقِيرًا عَلَى قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ ، وَأَنَّهُ لَا يُخْلِفُ

الْمِيعَادَ الَّذِي وَعَدَهُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ عَنْ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ ﴾ أَيْ : خُضُوعًا لله ﷻ وَإِيمَانًا وَتَصْدِيقًا بِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ ، وَيَزِيدُهُمُ اللهُ خُشُوعًا ، أَيْ : إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَخِرُّونَ ﴾ عَطْفُ صِفَةٍ عَلَى صِفَةٍ ، لَا عَطْفُ السُّجُودِ عَلَى السُّجُودِ .

قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلِ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُنْكِرِينَ صِفَةَ الرَّحْمَةِ لله ﷻ الْمَانِعِينَ مِنْ تَسْمِيَتِهِ بِالرَّحْمَنِ ﴿ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ أَيْ : لَا فَرْقَ بَيْنَ دُعَائِكُمْ لَهُ بِاسْمِ الله أَوْ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ ، فَإِنَّهُ ذُو الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ ﴿ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الحشر : ٢٢-٢٤] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَوَارٍ بِمَكَّةَ ، قَالَ : كَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ وَسَبُّوا مَنْ أَنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ ، قَالَ : فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ ﴾ أَيْ : بِقِرَاءَتِكَ فَيَسْمَعُ الْمُشْرِكُونَ فَيَسُبُّونَ الْقُرْآنَ ﴿ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا ﴾ عَنْ أَصْحَابِكَ ، فَلَا تُسْمِعُهُمُ الْقُرْآنَ ، حَتَّى يَأْخُذُوهُ عَنْكَ ﴿ وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴾ . **وَرَوَى مَالِكٌ عَنْ عَائِشَةَ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -: نَزَلَتْ فِي الدُّعَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ ﴾ بَلْ هُوَ اللهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَد ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ أَيْ : لَيْسَ بِذَلِيلٍ فَيَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلِيٌّ أَوْ وَزِيرٌ أَوْ مُشِيرٌ ، بَلْ هُوَ تَعَالَى خَالِقُ الْأَشْيَاءِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَمُدَبِّرُهَا وَمُقَدِّرُهَا بِمَشِيئَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ لَمْ يُحَالِفْ أَحَدًا وَلَمْ يَبْتَغِ نَصْرَ أَحَدٍ . ﴿ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴾ أَيْ : عَظِّمْهُ وَأَجِلَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ سُبْحَانَ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

مختصر صحيح تفسير ابن كثير

لأبي عبد الله مصطفى بن العدوي

اختصره

أبو عبد الرحمن عوض بن لطفي

الجزء الثاني

دار الفوائد

دار ابن رجب

اسم الكتـــاب : مختصر صحيح تفسير ابن كثير
اسم المؤلـف : أبو عبد الرحمن عوض لطفي الجزار
اسم المحقق : المؤلف
القطـــــع : ١٧ x ٢٤
عدد الصفحات : ١٣٢٤
عدد المجلدات : ١
سنة الطبـــع : ٢٠٠٧م

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع : ١٥٧٤٧ / ٢٠٠٧

دار ابن رجب — طبع . نشر . توزيع — دار الفوائد

المركز الرئيسي : فارسكور : تليفاكس ٠٠٢٠٥٧٤٤١٥٥٠ جوال : ٠١٢٢٣٦٨٠٠٢
فرع المنصورة : ٣٣ شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : ٠٠٢٠٥٠٢٣١٢٠٦٨

آياتها ١١٠ تفسير سورة الكهف مكية

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ »
وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ قَرَأَ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ ».
وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا
شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا
﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ
وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

قَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ أَنَّهُ تَعَالَى يَحْمَدُ نَفْسَهُ الْمُقَدَّسَةَ عِنْدَ فَوَاتِحِ الْأُمُورِ وَخَوَاتِمِهَا ، فَإِنَّهُ الْمَحْمُودُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ، وَلِهَذَا حَمِدَ نَفْسَهُ عَلَى إِنْزَالِهِ كِتَابَهُ الْعَزِيزَ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - فَإِنَّهُ أَعْظَمُ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللهُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، إِذْ أَخْرَجَهُمْ بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، حَيْثُ جَعَلَهُ كِتَابًا مُسْتَقِيمًا لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا زَيْغَ ، بَلْ يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَاضِحًا بَيِّنًا جَلِيًّا نَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ بَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ أَيْ : لَمْ يَجْعَلْ فِيهِ اعْوِجَاجًا وَلَا زَيْغًا وَلَا مَيْلًا ، بَلْ جَعَلَهُ مُعْتَدِلًا مُسْتَقِيمًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قَيِّمًا ﴾ أَيْ : مُسْتَقِيمًا ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ أَيْ : لِمَنْ خَالَفَهُ وَكَذَّبَهُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ ، يُنْذِرُهُ ﴿ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ عُقُوبَةً عَاجِلَةً فِي الدُّنْيَا ، وَآجِلَةً فِي الْآخِرَةِ ﴿ مِّن لَّدُنْهُ ﴾ أَيْ : مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : بِهَذَا الْقُرْآنِ ، ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ أَيْ : مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ جَمِيلَةً ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ ﴾ فِي ثَوَابِهِمْ عِنْدَ اللهِ - وَهُوَ الْجَنَّةُ - خَالِدِينَ فِيهِ ﴿ أَبَدًا ﴾ دَائِمًا لَا زَوَالَ لَهُ وَلَا انْقِضَاءَ ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ **قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ** : وَهُمْ مُشْرِكُو الْعَرَبِ فِي قَوْلِهِمْ : نَحْنُ نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ وَهُمْ بَنَاتُ اللهِ . ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أَيْ : بِهَذَا الْقَوْلِ الَّذِي افْتَرَوْهُ وَائْتَفَكُوهُ مِنْ عِلْمٍ ﴿ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ﴾ أَيْ : لِأَسْلَافِهِمْ ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ نُصِبَ عَلَى التَّمْيِيزِ ، تَقْدِيرُهُ : كَبُرَتْ كَلِمَتُهُمْ هَذِهِ كَلِمَةً . وَهَذَا تَبْشِيعٌ لِمَقَالَتِهِمْ وَاسْتِعْظَامٌ

لِإِفْكِهِمْ ،وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهَا مُسْتَنَدٌ سِوَى قَوْلِهِمْ ، وَلَا دَلِيلَ لَهُمْ عَلَيْهَا إِلَّا كَذِبُهُمْ وَافْتِرَاؤُهُمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ .

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - فِي حُزْنِهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ لِتَرْكِهِمُ الْإِيمَانَ وَبُعْدِهِمْ عَنْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٣] بَاخِعٌ ، أَيْ : مُهْلِكٌ نَفْسَكَ بِحُزْنِكَ عَلَيْهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآن ﴿ أَسَفًا ﴾ أَيْ : لَا تَأْسَفْ عَلَيْهِمْ ؛ بَلْ أَبْلِغْهُمْ رِسَالَةَ اللهِ ، فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ الدُّنْيَا دَارًا فَانِيَةً مُزَيَّنَةً بِزِينَةٍ زَائِلَةٍ ، وَإِنَّمَا جَعَلَهَا دَارَ اخْتِبَارٍ لَا دَارَ قَرَارٍ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِزَوَالِهَا وَفَنَائِهَا وَفَرَاغِهَا وَانْقِضَائِهَا وَذَهَابِهَا وَخَرَابِهَا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ أَيْ : وَإِنَّا لَمُصَيِّرُوهَا بَعْدَ الزِّينَةِ إِلَى الْخَرَابِ وَالدَّمَارِ ، فَنَجْعَلُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَيْهَا هَالِكًا ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ لَا يُنْبِتُ وَلَا يُنْتَفَعُ بِهِ ، وَقِيلَ : الصَّعِيدُ : الْأَرْضُ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شَجَرٌ وَلَا نَبَاتٌ .

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ وَالِاخْتِصَارِ ، ثُمَّ بَسَطَهَا بَعْدَ ذَلِكَ ، فَقَالَ : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ يَعْنِي : يَا مُحَمَّدُ ﴿ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ أَيْ : لَيْسَ أَمْرُهُمْ عَجِيبًا فِي قُدْرَتِنَا وَسُلْطَانِنَا . وَأَمَّا الْكَهْفُ فَهُوَ : الْغَارُ فِي الْجَبَلِ ، وَهُوَ الَّذِي لَجَأَ إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةُ الْمَذْكُورُونَ ، وَأَمَّا الرَّقِيمُ فَقَدْ وَرَدَ عَنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَقْوَالًا مِنْهَا : وَادٍ قَرِيبٌ مِنْ أَيْلَةَ ، وَالرَّقِيمُ : اسْمُ الْوَادِي ، وَمِنْهَا : هُوَ الْوَادِي الَّذِي فِيهِ كَهْفُهُمْ . ، ومنها : الْجَبَلُ الَّذِي فِيهِ الْكَهْفُ ، وَمِنْهَا : أَنَّ الرَّقِيمَ : الْكِتَابُ ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أُولَئِكَ الْفِتْيَةِ الَّذِينَ فَرُّوا بِدِينِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ لِئَلَّا يَفْتِنُوهُمْ عَنْهُ ، فَهَرَبُوا مِنْهُ فَلَجَئُوا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ لِيَخْتَفُوا عَنْ قَوْمِهِمْ ، فَقَالُوا حِينَ دَخَلُوا سَائِلِينَ مِنَ اللهِ تَعَالَى رَحْمَتَهُ وَلُطْفَهُ بِهِمْ : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ أَيْ : هَبْ لَنَا مِنْ عِنْدِكَ رَحْمَةً تَرْحَمُنَا بِهَا وَتَسْتُرُنَا عَنْ قَوْمِنَا ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ أَيْ : وَقَدِّرْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا هَذَا رَشَدًا ، أَيْ : اجْعَلْ عَاقِبَتَنَا رُشْدًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ أَيْ : أَلْقَيْنَا عَلَيْهِمُ النَّوْمَ حِينَ دَخَلُوا إِلَى الْكَهْفِ ، فَنَامُوا سِنِينَ كَثِيرَةً ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ أَيْ : مِنْ رَقْدَتِهِمْ تِلْكَ ، وَخَرَجَ أَحَدُهُمْ بِدَرَاهِمَ مَعَهُ لِيَشْتَرِيَ لَهُمْ بِهَا طَعَامًا يَأْكُلُونَهُ ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ وَتَفْصِيلُهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ ﴾ أَيْ : الْمُخْتَلِفَيْنِ فِيهِمْ ﴿ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾ قِيلَ : عَدَدًا ، وَقِيلَ : غَايَةً ، فَإِنَّ الْأَمَدَ : الْغَايَةَ .

نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾

مِنْ هَاهُنَا شَرَعَ فِي بَسْطِ الْقِصَّةِ وَشَرْحِهَا ، فَذَكَرَ تَعَالَى : أَنَّهُمْ فِتْيَةٌ وَهُمُ الشَّبَابُ ، وَهُمْ أَقْبَلُ لِلْحَقِّ وَأَهْدَى لِلسَّبِيلِ مِنَ الشُّيُوخِ ، هَكَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِ الْكَهْفِ ، أَنَّهُمْ كَانُوا فِتْيَةً شَبَابًا ﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ **اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ إِلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَتَفَاضُلِهِ وَأَنَّهُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ** .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى وَصَبَّرْنَاهُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ قَوْمِهِمْ وَمَدِينَتِهِمْ ، وَمُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ الرَّغِيدِ وَالسَّعَادَةِ وَالنِّعْمَةِ ، ﴿ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ﴾ وَلَنْ : لِنَفْيِ التَّأْبِيدِ ، أَيْ : لَا يَقَعُ مِنَّا هَذَا أَبَدًا ، لأَنَّا لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ لَكَانَ بَاطِلًا ، وَلِهَذَا قَالَ عَنْهُمْ : ﴿ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ أَيْ : بَاطِلًا وَكَذِبًا وَبُهْتَانًا .

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ أَيْ : هَلَّا أَقَامُوا عَلَى صِحَّةِ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ دَلِيلًا وَاضِحًا صَحِيحًا ؟! ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ يَقُولُونَ : بَلْ هُمْ ظَالِمُونَ كَاذِبُونَ فِي قَوْلِهِمْ ذَلِكَ ، ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : وَإِذَا فَارَقْتُمُوهُمْ وَخَالَفْتُمُوهُمْ بِأَدْيَانِكُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ فَفَارِقُوهُمْ أَيْضًا بِأَبْدَانِكُمْ ، ﴿ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ ، أَيْ : يَبْسُطُ عَلَيْكُمْ رَحْمَةً يَسْتُرُكُمْ بِهَا مِنْ قَوْمِكُمْ ﴿ وَيُهَيِّئْ

لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم﴾ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ ﴿مِّرْفَقًا﴾ أَيْ: أَمْرًا تَرْتَفِقُونَ بِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجُوا هِرَابًا إِلَى الْكَهْفِ، فَأَوَوْا إِلَيْهِ فَفَقَدَهُمْ قَوْمُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، وَتَطَلَّبَهُمُ الْمَلِكُ، فَيُقَالُ إِنَّهُ لَمْ يَظْفَرْ بِهِمْ وَعَمَّى اللهُ عَلَيْهِ خَبَرَهُمْ.

۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾

فَهَذَا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ بَابَ هَذَا الْكَهْفِ كَانَ مِنْ نَحْوِ الشِّمَالِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ الشَّمْسَ إِذَا دَخَلَتْهُ عِنْدَ طُلُوعِهَا تَزَاوَرُ عَنْهُ ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أَيْ: يَتَقَلَّصُ الْفَيْءُ يَمْنَةً ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ أَيْ: تَمِيلُ، وَذَلِكَ أَنَّهَا كُلَّمَا ارْتَفَعَتْ فِي الْأُفُقِ تَقَلَّصَ شُعَاعُهَا بِارْتِفَاعِهَا، حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ عِنْدَ الزَّوَالِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْمَكَانِ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أَيْ: تَدْخُلُ إِلَى غَارِهِمْ مِنْ شِمَالِ بَابِهِ، وَهُوَ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ.

وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ: ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ تَتْرُكُهُمْ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى بِذَلِكَ، وَأَرَادَ مِنَّا فَهْمَهُ وَتَدَبُّرَهُ، وَلَمْ يُخْبِرْنَا بِمَكَانِ هَذَا الْكَهْفِ فِي أَيِّ الْبِلَادِ مِنَ الْأَرْضِ، إِذْ لَا فَائِدَةَ لَنَا فِيهِ وَلَا قَصْدٌ شَرْعِيٌّ، ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أَيْ: فِي مُتَّسَعٍ مِنْهُ دَاخِلًا بِحَيْثُ لَا تَمَسُّهُمْ إِذْ لَوْ أَصَابَتْهُمْ لَأَحْرَقَتْ أَبْدَانَهُمْ وَثِيَابَهُمْ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ حَيْثُ أَرْشَدَهُمْ إِلَى هَذَا الْغَارِ الَّذِي جَعَلَهُمْ فِيهِ أَحْيَاءً، وَالشَّمْسُ وَالرِّيحُ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِيهِ لِتَبْقَى أَبْدَانُهُمْ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ **ثُمَّ قَالَ**: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الْآيَةَ. أَيْ: هُوَ الَّذِي أَرْشَدَ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةَ إِلَى الْهِدَايَةِ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ هَدَاهُ اللهُ اهْتَدَى، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ لَمَّا ضَرَبَ اللهُ عَلَى آذَانِهِمْ بِالنَّوْمِ لَمْ تَنْطَبِقْ أَعْيُنُهُمْ، لِئَلَّا يُسْرِعَ إِلَيْهَا الْبِلَى، فَإِذَا بَقِيَتْ ظَاهِرَةً لِلْهَوَاءِ كَانَ أَبْقَى لَهَا، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ وَقَدْ ذُكِرَ عَنِ الذِّئْبِ أَنَّهُ يَنَامُ فَيُطْبِقُ عَيْنًا وَيَفْتَحُ عَيْنًا ثُمَّ يَفْتَحُ هَذِهِ وَيُطْبِقُ هَذِهِ وَهُوَ رَاقِدٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ **قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ**: يُقَلَّبُونَ فِي الْعَامِ مَرَّتَيْنِ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ**: لَوْ لَمْ يُقَلَّبُوا لَأَكَلَتْهُمُ الْأَرْضُ.

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ الْوَصِيدُ : الْفِنَاءُ ، وَهُوَ الْبَابُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ [الهمزة : ٨] أَيْ : مُطْبَقَةٌ مُغْلَقَةٌ ، **قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ** : يَحْرُسُ عَلَيْهِمُ الْبَابَ ، وَهَذَا مِنْ سَجِيَّتِهِ وَطَبِيعَتِهِ حَيْثُ يَرْبِضُ بِبَابِهِمْ كَأَنَّهُ يَحْرُسُهُمْ ، وَكَانَ جُلُوسُهُ خَارِجَ الْبَابِ ؛ لأَنَّ الْمَلائِكَةَ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ ، وَشَمِلَتْ كَلْبَهُمْ بَرَكَتُهُمْ ، فَأَصَابَهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ النَّوْمِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، وَهَذَا فَائِدَةُ صُحْبَةِ الأَخْيَارِ ، فَإِنَّهُ صَارَ لِهَذَا الْكَلْبِ ذِكْرٌ وَخَبَرٌ وَشَأْنٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أَيْ : أَنَّهُ تَعَالَى أَلْقَى عَلَيْهِمُ الْمَهَابَةَ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ نَظَرُ أَحَدٍ عَلَيْهِمْ إِلَّا هَابَهُمْ ، لِمَا أُلْبِسُوا مِنَ الْمَهَابَةِ وَالذُّعْرِ .

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : كَمَا أَرْقَدْنَاهُمْ بَعَثْنَاهُمْ صَحِيحَةً أَبْدَانُهُمْ وَأَشْعَارُهُمْ وَأَبْشَارُهُمْ ، لَمْ يَفْقِدُوا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَهَيْئَاتِهِمْ شَيْئًا ، وَذَلِكَ بَعْدَ ثَلاثِمِائَةِ سَنَةٍ وَتِسْعِ سِنِينَ ، وَلِهَذَا تَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ أَيْ : كَمْ رَقَدْتُمْ ؟ ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ لأَنَّهُ كَانَ دُخُولُهُمْ إِلَى الْكَهْفِ فِي أَوَّلِ نَهَارٍ وَاسْتِيقَاظُهُمْ كَانَ فِي آخِرِ نَهَارٍ ، وَلِهَذَا اسْتَدْرَكُوا فَقَالُوا : ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ أَيْ : اللهُ أَعْلَمُ بِأَمْرِكُمْ ، وَكَأَنَّهُ حَصَلَ لَهُمْ نَوْعُ تَرَدُّدٍ فِي كَثْرَةِ نَوْمِهِمْ فَاللهُ أَعْلَمُ .

ثُمَّ عَدَلُوا إِلَى الأَهَمِّ فِي أَمْرِهِمْ إِذْ ذَاكَ ، وَهُوَ احْتِيَاجُهُمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، فَقَالُوا : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ ﴾ أَيْ : فِضَّتِكُمْ هَذِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدِ اسْتَصْحَبُوا مَعَهُمْ دَرَاهِمَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا ، فَتَصَدَّقُوا مِنْهَا وَبَقِيَ مِنْهَا ، **فَلِهَذَا قَالُوا** : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ أَيْ : مَدِينَتِكُمُ الَّتِي خَرَجْتُمْ مِنْهَا ﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ أَيْ : أَطْيَبُ طَعَامًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أَيْ : فِي خُرُوجِهِ وَذَهَابِهِ وَشِرَائِهِ وَإِيَابِهِ ، يَقُولُونَ : وَلْيَتَخَفَّ كُلَّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ ﴾ أَيْ : وَلَا يُعْلِمَنَّ ﴿ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : إِنْ عَلِمُوا بِمَكَانِكُمْ ﴿ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ يَعْنُونَ أَصْحَابَ دِقْيَانُوس ، يَخَافُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَطَّلِعُوا عَلَى مَكَانِهِمْ ، فَلا يَزَالُونَ يُعَذِّبُونَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ إِلَى أَنْ يُعِيدُوهُمْ فِي مِلَّتِهِمُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا أَوْ يَمُوتُوا ، وَإِنْ وَافَقْتُمُوهُمْ عَلَى الْعَوْدِ فِي الدِّينِ فَلا فَلاحَ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ .

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : أَطْلَعْنَا عَلَيْهِمُ النَّاسَ وَذَكَرُوا : أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَحَدُهُمُ الْخُرُوجَ لِيَذْهَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فِي شِرَاءِ شَيْءٍ لَهُمْ لِيَأْكُلُوهُ . فَجَعَلَ لَا يَرَى شَيْئًا مِنْ مَعَالِمِ الْبَلَدِ الَّتِي يَعْرِفُهَا وَلَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا ، فَجَعَلَ يَتَحَيَّرُ فِي نَفْسِهِ وَيَقُولُ : لَعَلَّ بِي جُنُونًا أَوْ مَسًّا أَوْ أَنَا حَالِمٌ ، وَيَقُولُ : وَاللهِ مَا بِي شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنَّ عَهْدِي بِهَذِهِ الْبَلْدَةِ عَشِيَّةَ أَمْسِ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الصِّفَةِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ تَعْجِيلَ الْخُرُوجِ مِنْ هَاهُنَا لَأَوْلَى لِي ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى رَجُلٍ مِمَّنْ يَبِيعُ الطَّعَامَ فَدَفَعَ إِلَيْهِ مَا مَعَهُ مِنَ النَّفَقَةِ وَسَأَلَهُ أَنْ يَبِيعَهُ بِهَا طَعَامًا ، فَلَمَّا رَآهَا ذَلِكَ الرَّجُلُ أَنْكَرَهَا وَأَنْكَرَ ضَرْبَهَا ، فَدَفَعَهَا إِلَى جَارِهِ وَجَعَلُوا يَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنَهُمْ ، فَحَمَلُوهُ إِلَى وَلِيِّ أَمْرِهِمْ ، فَسَأَلَهُ عَنْ شَأْنِهِ وَخَبَرِهِ حَتَّى أَخْبَرَهُمْ بِأَمْرِهِ ، وَهُوَ مُتَحَيِّرٌ فِي حَالِهِ وَمَا هُوَ فِيهِ ، فَلَمَّا أَعْلَمَهُمْ بِذَلِكَ قَامُوا مَعَهُ إِلَى الْكَهْفِ - مَلِكُ الْبَلَدِ وَأَهْلُهَا - حَتَّى انْتَهَى بِهِمْ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالَ لَهُمْ : دَعُونِي حَتَّى أَتَقَدَّمَكُمْ فِي الدُّخُولِ لِأُعْلِمَ أَصْحَابِي ، فَدَخَلَ فَيُقَالُ : إِنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ كَيْفَ ذَهَبَ فِيهِ وَأَخْفَى اللهُ عَلَيْهِمْ خَبَرَهُمْ ، وَيُقَالُ : بَلْ دَخَلُوا عَلَيْهِمْ وَرَأَوْهُمْ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمُ الْمَلِكُ وَاعْتَنَقَهُمْ ، ثُمَّ وَدَّعُوهُ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ ، وَعَادُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَتَوَفَّاهُمُ اللهُ ﷻ فَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ أَيْ : فِي أَمْرِ الْقِيَامَةِ ، فَمِنْ مُثْبِتٍ لَهَا وَمِنْ مُنْكِرٍ ، فَجَعَلَ اللهُ ظُهُورَهُمْ عَلَى أَصْحَابِ الْكَهْفِ حُجَّةً لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ ﴿ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ أَيْ سُدُّوا عَلَيْهِمْ بَابَ كَهْفِهِمْ وَذَرُوهُمْ عَلَى حَالِهِمْ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ هُمْ أَصْحَابُ الْكَلِمَةِ وَالنُّفُوذِ ، وَلَكِنْ هَلْ هُمْ مَحْمُودُونَ أَمْ لَا ؟ فِيهِ نَظَرٌ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ** » يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا .

سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي عِدَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ ، فَحَكَى ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ ، فَدَلَّ

عَلَى أَنَّهُ لا قَائِلَ بِرَابِعٍ ، وَلَمَّا ضَعَّفَ الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ بِقَوْلِهِ : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ أَيْ : قَوْلًا بِلَا عِلْمٍ ، كَمَنْ يَرْمِي إِلَى مَكَانٍ لَا يَعْرِفُهُ فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يُصِيبُ ، وَإِنْ أَصَابَ فَبِلَا قَصْدٍ ، ثُمَّ حَكَى الثَّالِثَ وَسَكَتَ عَلَيْهِ أَوْ قَرَّرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ فَدَلَّ عَلَى صِحَّتِهِ وَأَنَّهُ هُوَ الْوَاقِعُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ إِرْشَادٌ إِلَى أَنَّ الْأَحْسَنَ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ رَدُّ الْعِلْمِ إِلَى اللهِ تَعَالَى ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أَيْ : مِنَ النَّاسِ . **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: أَنَا مِنَ الْقَلِيلِ الَّذِي اسْتَثْنَى اللهُ ﷻ كَانُوا سَبْعَةً . ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾ أَيْ : سَهْلًا هَيِّنًا ، فَإِنَّ الْأَمْرَ فِي مَعْرِفَةِ ذَلِكَ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ كَبِيرُ فَائِدَةٍ ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أَيْ : فَإِنَّهُمْ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِذَلِكَ إِلَّا مَا يَقُولُونَهُ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ أَيْ : مِنْ غَيْرِ اسْتِنَادٍ إِلَى كَلَامٍ مَعْصُومٍ ، وَقَدْ جَاءَكَ اللهُ يَا مُحَمَّدُ بِالْحَقِّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ فِيهِ ، فَهُوَ الْمُقَدَّمُ الْحَاكِمُ عَلَى كُلِّ مَا تَقَدَّمَهُ مِنَ الْكُتُبِ وَالْأَقْوَالِ .

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى الْأَدَبِ فِيمَا إِذَا عَزَمَ عَلَى شَيْءٍ لِيَفْعَلَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، أَنْ يَرُدَّ ذَلِكَ إِلَى مَشِيئَةِ اللهِ ﷻ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ **قِيلَ** : مَعْنَاهُ إِذَا نَسِيتَ الِاسْتِثْنَاءَ فَاسْتَثْنِ عِنْدَ ذِكْرِكَ لَهُ وَلَوْ إِلَى سَنَةٍ . **وَيَحْتَمِلُ فِي الْآيَةِ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ** : أَنْ يَكُونَ اللهُ تَعَالَى قَدْ أَرْشَدَ مَنْ نَسِيَ الشَّيْءَ فِي كَلَامِهِ إِلَى ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى ، لِأَنَّ النِّسْيَانَ مَنْشَؤُهُ مِنَ الشَّيْطَانِ ، كَمَا قَالَ فَتَى مُوسَى : ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ ، وَذِكْرُ اللهِ تَعَالَى يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ ، فَإِذَا ذَهَبَ الشَّيْطَانُ ذَهَبَ النِّسْيَانُ ، فَذِكْرُ اللهِ سَبَبٌ لِلذِّكْرِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ أَيْ : إِذَا سُئِلْتَ عَنْ شَيْءٍ لَا تَعْلَمُهُ ، فَاسْأَلِ اللهَ تَعَالَى فِيهِ ، وَتَوَجَّهْ إِلَيْهِ فِي أَنْ يُوَفِّقَكَ لِلصَّوَابِ وَالرُّشْدِ فِي ذَلِكَ .

وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

هَذَا خَبَرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ بِمِقْدَارِ مَا لَبِثَ أَصْحَابُ الْكَهْفِ فِي كَهْفِهِمْ مُنْذُ أَرْقَدَهُمْ إِلَى أَنْ بَعَثَهُمُ اللهُ وَأَعْثَرَ عَلَيْهِمْ أَهْلَ الزَّمَانِ ، وَأَنَّهُ كَانَ مِقْدَارُهُ ثَلَاثَمِائَةِ سَنَةٍ تَزِيدُ تِسْعَ سِنِينَ بِالْهِلَالِيَّةِ وَهِيَ ثَلَاثُمِائَةِ سَنَةٍ بِالشَّمْسِيَّةِ ، فَإِنْ تَفَاوَتَ مَا بَيْنَ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ بِالْقَمَرِيَّةِ إِلَى الشَّمْسِيَّةِ

ثَلَاثَ سِنِينَ ، فَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ الثَّلَاثِمِائَةِ ﴿ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ أَيْ : إِذَا سُئِلْتَ عَنْ لُبْثِهِمْ ، وَلَيْسَ عِنْدَكَ عِلْمٌ فِي ذَلِكَ وَتَوْقِيفٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، فَلَا تَتَقَدَّمْ فِيهِ بِشَيْءٍ ، بَلْ قُلْ فِي مِثْلِ هَذَا : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ وَمَنْ أَطْلَعَهُ عَلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ لَبَصِيرٌ بِهِمْ سَمِيعٌ لَهُمْ ، **وَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ** : مَا أَبْصَرَ اللهَ لِكُلِّ مَوْجُودٍ وَأَسْمَعَهُ لِكُلِّ مَسْمُوعٍ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ . ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ أَيْ : أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَيْسَ لَهُ وَزِيرٌ وَلَا نَصِيرٌ ، وَلَا شَرِيكٌ وَلَا مُشِيرٌ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ .

وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ بِتِلَاوَةِ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ، وَإِبْلَاغِهِ إِلَى النَّاسِ ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أَيْ : لَا مُغَيِّرَ لَهَا وَلَا مُحَرِّفَ وَلَا مُؤَوِّلَ . ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ **أَيْ** : مَلْجَأً . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَقُولُ وَإِنْ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ لَمْ تَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ، فَإِنَّهُ لَا مَلْجَأَ لَكَ مِنَ اللهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ أَيْ : اِجْلِسْ مَعَ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ ، وَيُهَلِّلُونَهُ ، وَيَحْمَدُونَهُ ، وَيُسَبِّحُونَهُ ، وَيُكَبِّرُونَهُ ، وَيَسْأَلُونَهُ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ، مِنْ عِبَادِ اللهِ سَوَاءٌ كَانُوا فُقَرَاءَ أَوْ أَغْنِيَاءَ ، أَوْ أَقْوِيَاءَ أَوْ ضُعَفَاءَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: وَلَا تُجَاوِزْهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ ، يَعْنِي : تَطْلُبُ بَدَلَهُمْ أَصْحَابَ الشَّرَفِ وَالثَّرْوَةِ ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ أَيْ : شُغِلَ عَنِ الدِّينِ وَعِبَادَةِ رَبِّهِ بِالدُّنْيَا ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ أَيْ : أَعْمَالُهُ وَأَفْعَالُهُ سَفَهٌ وَتَفْرِيطٌ وَضَيَاعٌ ، وَلَا تَكُنْ مُطِيعًا لَهُ وَلَا مُحِبًّا لِطَرِيقَتِهِ ، وَلَا تَغْبِطْهُ بِمَا هُوَ فِيهِ .

وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ وَقُلِ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ : هَـٰذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ رَبِّكُمْ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ هَذَا مِنْ بَابِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا ﴾ أَيْ : أَرْصَدْنَا ﴿ لِلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، وَهُمُ الْكَافِرُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أَيْ : سُورُهَا . ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ الْآيَة . رُوِىَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ : الْمُهْل : الْمَاءُ الْغَلِيظُ كَالدَّمِ وَالْقَيْحِ ، فَهُوَ أَسْوَدُ مُنْتِنٌ غَلِيظٌ حَارٌّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ أَيْ : مِنْ حَرِّهِ ، إِذَا أَرَادَ الْكَافِرُ أَنْ يَشْرَبَهُ وَقَرَّبَهُ مِنْ وَجْهِهِ شَوَاهُ ، حَتَّى يَسْقُطَ جِلْدُ وَجْهِهِ فِيهِ ﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ ﴾ أَيْ : بِئْسَ هَذَا شَرَابًا ﴿ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أَيْ : وَسَاءَتِ النَّارُ مَنْزِلًا ، وَمَقِيلًا ، وَمُجْتَمَعًا ، وَمَوْضِعًا لِلارْتِفَاقِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ ثَنَّى بِذِكْرِ السُّعَدَاءِ : الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ فِيمَا جَاءُوا بِهِ ، وَعَمِلُوا بِمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، فَلَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ، وَالْعَدْنُ الْإِقَامَةُ . ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أَيْ . مِنْ تَحْتِ غُرَفِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ . ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ أَيْ . مِنَ الْحِلْيَةِ ﴿ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ فَالسُّنْدُسُ : ثِيَابٌ رِفَاعٌ رِقَاقٌ كَالْقُمْصَانِ ، وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا. وَأَمَّا الْإِسْتَبْرَقُ : فَغَلِيظُ الدِّيبَاجِ وَفِيهِ بَرِيقٌ . ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ الِاتِّكَاءُ . قِيلَ : الِاضْطِجَاعُ ، وَقِيلَ : التَّرَبُّعُ فِي الْجُلُوسِ . وَالْأَرَائِكُ : جَمْعُ أَرِيكَةٍ : وَهِيَ السَّرِيرُ تَحْتَ الْحَجَلَةِ . ﴿ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أَيْ : نِعْمَتِ الْجَنَّةُ ثَوَابًا عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أَيْ : حَسُنَتْ مَنْزِلًا وَمَقِيلًا وَمُقَامًا ، كَمَا قَالَ فِي النَّارِ : ﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ .

۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾

وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِهِ الْمُشْرِكِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْ مُجَالَسَةِ الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَافْتَخَرُوا عَلَيْهِمْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَحْسَابِهِمْ فَضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا بِرَجُلَيْنِ جَعَلَ اللهُ ﴿ لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ أَيْ: بُسْتَانَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ مَحْفُوفَتَيْنِ بِالنَّخِيلِ الْمُحْدِقَةِ فِي جَنَبَاتِهِمَا، وَفِي خِلَالِهِمَا الزُّرُوعُ، وَكُلٌّ مِنَ الْأَشْجَارِ وَالزُّرُوعِ مُثْمِرٌ مُقْبِلٌ فِي غَايَةِ الْجَوْدَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا ﴾، أَيْ: أَخْرَجَتْ ثَمَرَهَا ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ: وَلَمْ تُنْقِصْ مِنْهُ شَيْئًا ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ أَيْ: وَالْأَنْهَارُ مُتَفَرِّقَةٌ فِيهِمَا هَاهُنَا وَهَاهُنَا. ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾ قِيلَ: الثِّمَارُ ﴿ فَقَالَ ﴾ أَيْ: صَاحِبُ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ ﴿ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ أَيْ: يُجَادِلُهُ وَيُخَاصِمُهُ يَفْتَخِرُ عَلَيْهِ وَيَتَرَأَّسُ: ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ أَيْ: أَكْثَرُ خَدَمًا وَحَشَمًا وَوَلَدًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ أَيْ: بِكُفْرِهِ، وَتَمَرُّدِهِ، وَتَكَبُّرِهِ، وَتَجَبُّرِهِ، وَإِنْكَارِهِ الْمَعَادَ ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ وَذَلِكَ اغْتِرَارٌ مِنْهُ، لَمَّا رَأَى فِيهَا مِنَ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ وَالْأَشْجَارِ، وَالْأَنْهَارِ الْمُطَّرِدَةِ فِي جَوَانِبِهَا وَأَرْجَائِهَا، ظَنَّ أَنَّهَا لَا تَفْنَى وَلَا تَفْرُغُ وَلَا تَهْلِكُ وَلَا تَتْلَفُ، وَذَلِكَ لِقِلَّةِ عَقْلِهِ وَضَعْفِ يَقِينِهِ بِاللهِ، وَإِعْجَابِهِ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، وَكُفْرِهِ بِالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ أَيْ: كَائِنَةً ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ أَيْ: وَلَئِنْ كَانَ مَعَادٌ وَرَجْعَةٌ وَمَرَدٌّ إِلَى اللهِ لَيَكُونَنَّ لِي هُنَاكَ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا لِأَنِّي مُحْظًى عِنْدَ رَبِّي، وَلَوْلَا كَرَامَتِي عَلَيْهِ مَا أَعْطَانِي هَذَا.

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا أَجَابَهُ بِهِ صَاحِبُهُ الْمُؤْمِنُ وَاعِظًا لَهُ وَزَاجِرًا عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللهِ وَالِاغْتِرَارِ: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ الْآيَةَ، وَهَذَا إِنْكَارٌ وَتَعْظِيمٌ لِمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ جُحُودِ رَبِّهِ الَّذِي خَلَقَهُ وَابْتَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ، وَهُوَ آدَمُ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، وَلِهَذَا قَالَ الْمُؤْمِنُ: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي ﴾ أَيْ: لَكِنْ أَنَا لَا أَقُولُ بِمَقَالَتِك، بَلْ أَعْتَرِفُ للهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴾ أَيْ: بَلْ هُوَ اللهُ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ هَذَا تَحْضِيضٌ وَحَثٌّ عَلَى ذَلِكَ ، أَيْ : هَلَّا إِذَا أَعْجَبَتْكَ حِينَ دَخَلْتَهَا وَنَظَرْتَ إِلَيْهَا ، حَمِدْتَ اللهَ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ ، وَأَعْطَاكَ مِنَ المَالِ أَوِ الْوَلَدِ مَا لَمْ يُعْطِه غَيْرَكَ ، وَقُلْتَ : ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ . وَقَوْلُهُ: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ أَيْ : عَلَى جَنَّتِكَ فِي الدُّنْيَا ، الَّتِي ظَنَنْتَ أَنَّهَا لَا تَبِيدُ وَلَا تَفْنَى ﴿ حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ : عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مَطَرٌ عَظِيمٌ مُزْعِجٌ يُقْلِعُ زَرْعَهَا وَأَشْجَارَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أَيْ : بَلْقَعًا تُرَابًا أَمْلَسَ لَا يَثْبُتُ فِيهِ قَدَمٌ . ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾ أَيْ : غَائِرًا فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ ضِدُّ النَّابِعِ الَّذِي يَطْلُبُ وَجْهَ الْأَرْضِ ، فَالْغَائِرُ يَطْلُبُ أَسْفَلَهَا ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ وَالْغَوْرُ : مَصْدَرٌ بِمَعْنَى غَائِرٍ وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْهُ .

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ بِأَمْوَالِهِ ، أَوْ بِثِمَارِهِ عَلَى الْقَوْلِ الْآخَرِ ، وَالْمَقْصُودُ : أَنَّهُ وَقَعَ بِهَذَا الْكَافِرِ مَا كَانَ يَحْذَرُ مِمَّا خَوَّفَهُ بِهِ الْمُؤْمِنُ ، مِنْ إِرْسَالِ الْحُسْبَانِ عَلَى جَنَّتِهِ الَّتِي اغْتَرَّ بِهَا وَأَلْهَتْهُ عَنِ اللهِ ﷻ ، ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾ ، قَالَ قَتَادَةُ : يُصَفِّقُ كَفَّيْهِ مُتَأَسِّفًا مُتَلَهِّفًا ، عَلَى الْأَمْوَالِ الَّتِي أَذْهَبَهَا عَلَيْهَا ﴿ وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ ﴾ أَيْ : عَشِيرَةٌ أَوْ وَلَدٌ ، كَمَا افْتَخَرَ بِهِمْ وَاسْتَعَزَّ ﴿ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ هُنَالِكَ الْمُوَالَاةُ للهِ ، أَيْ : هُنَالِكَ كُلُّ أَحَدٍ مُؤْمِنٌ أَوْ كَافِرٌ يَرْجِعُ إِلَى اللهِ ، وَإِلَى مُوَالَاتِهِ وَالْخُضُوعِ لَهُ إِذَا وَقَعَ الْعَذَابُ ، ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ أَيْ : جَزَاءً ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أَيْ : الْأَعْمَالُ الَّتِي تَكُونُ للهِ ﷻ ثَوَابُهَا خَيْرٌ وَعَاقِبَتُهَا حَمِيدَةٌ رَشِيدَةٌ كُلُّهَا خَيْرٌ .

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَٱضْرِبْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ ﴿ مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فِي زَوَالِهَا وَفَنَائِهَا وَانْقِضَائِهَا ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مَا فِيهَا مِنَ الْحَبِّ فَشَبَّ وَحَسُنَ ،

وَعَلَاهُ الزَّهْرُ وَالنَّوْرُ وَالنَّضْرَةُ ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ﴾ يَابِسًا ﴿ تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ﴾ أَيْ : تُفَرِّقُهُ وَتَطْرَحُهُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ أَيْ : هُوَ قَادِرٌ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ وَهَذِهِ الْحَالِ . ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ ﴾[آل عمران : ١٤] ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ ﴾ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ : سُبْحَانَ الله ، وَالْحَمْدُ لله ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَاللهُ أَكْبَرُ ، **وَزَادَ بَعْضُهُمْ** : وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله . **وَقِيلَ** : هِيَ الْكَلَامُ الطَّيِّبُ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : هِيَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ كُلُّهَا .

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾[الطور : ٩-١٠] أَيْ : تَذْهَبُ مِنْ أَمَاكِنِهَا وَتَزُولُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ أَيْ : بَادِيَةً ظَاهِرَةً ، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ ، وَلَا مَكَانٌ يُوَارِي أَحَدًا ، بَلِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ ضَاحُونَ لِرَبِّهِمْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ . ﴿ وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أَيْ : وَجَمَعْنَاهُمُ ، الْأَوَّلِينَ مِنْهُمْ وَالْآخِرِينَ ، فَلَمْ نَتْرُكْ مِنْهُمْ أَحَدًا لَا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا . ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ ، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ يَقُومُونَ بَيْنَ يَدَيِ الله صَفًّا وَاحِدًا ، ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ هَذَا تَقْرِيعٌ لِلْمُنْكِرِينَ لِلْمَعَادِ وَتَوْبِيخٌ لَهُمْ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لَهُمْ** : ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ أَيْ : مَا كَانَ ظَنُّكُمْ أَنَّ هَذَا وَاقِعٌ بِكُمْ وَلَا أَنَّ هَذَا كَائِنٌ ، ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ ﴾ أَيْ : كِتَابُ الْأَعْمَالِ الَّذِي فِيهِ الْجَلِيلُ وَالْحَقِيرُ وَالْفَتِيلُ وَالْقِطْمِيرُ وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ ﴿ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ أَيْ : مِنْ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ وَأَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ ﴿ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا ﴾ أَيْ : يَا حَسْرَتَنَا وَوَيْلَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِي أَعْمَارِنَا ﴿ مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ أَيْ : لَا يَتْرُكُ ذَنْبًا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا وَلَا عَمَلًا وَإِنْ صَغُرَ ﴿ إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ ، أَيْ : ضَبَطَهَا وَحَفِظَهَا . ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟

حَاضِرًا ﴾ أَيْ : مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ . ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أَيْ : فَيَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي أَعْمَالِهِمْ جَمِيعًا ، وَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ ، بَلْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ وَيَرْحَمُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ ، وَهُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يَجُورُ وَلَا يَظْلِمُ .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا بَنِي آدَمَ عَلَى عَدَاوَةِ إِبْلِيسَ لَهُمْ وَلِأَبِيهِمْ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَمُقْرِعًا لِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْهُمْ وَخَالَفَ خَالِقَهُ وَمَوْلَاهُ ، وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَهُ وَابْتَدَأَهُ ، وَبِأَلْطَافِهِ رَزَقَهُ وَغَذَّاهُ ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ وَالَى إِبْلِيسَ وَعَادَى اللهَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ أَيْ : لِجَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ كَمَا تَقَدَّمَ تَقْرِيرُهُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ ﴾ أَيْ : سُجُودُ تَشْرِيفٍ وَتَكْرِيمٍ وَتَعْظِيمٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ أَيْ : خَانَهُ أَصْلُهُ ، فَإِنَّهُ خُلِقَ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَأَصْلُ خَلْقِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ نُورٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ تَوَسَّمَ بِأَفْعَالِ الْمَلَائِكَةِ ، وَتَشَبَّهَ بِهِمْ وَتَعَبَّدَ وَتَنَسَّكَ ، فَلِهَذَا دَخَلَ فِي خِطَابِهِمْ وَعَصَى بِالْمُخَالَفَةِ .﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ أَيْ : فَخَرَجَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ ، فَإِنَّ الْفِسْقَ : هُوَ الْخُرُوجُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُقْرِعًا وَمُوَبِّخًا لِمَنِ اتَّبَعَهُ وَأَطَاعَهُ : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى ﴾ الْآيَةَ . أَيْ : بَدَلًا عَنِّي ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ .

۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذْتُمُوهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي عَبِيدٌ أَمْثَالُكُمْ ، لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ، لَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَا كَانُوا إِذْ ذَاكَ مَوْجُودِينَ ، يَقُولُ تَعَالَى : أَنَا الْمُسْتَقِلُّ بِخَلْقِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا ، وَمُدَبِّرُهَا وَمُقَدِّرُهَا وَحْدِي لَيْسَ مَعِي فِي ذَلِكَ شَرِيكٌ ، وَلَا وَزِيرٌ وَلَا مُشِيرٌ وَلَا نَظِيرٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ **قَالَ مَالِكٌ** : أَعْوَانًا .

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُخَاطِبُ بِهِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ تَقْرِيعًا لَهُمْ وَتَوْبِيخًا : ﴿ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أَيْ : فِي دَارِ الدُّنْيَا ، ادْعُوهُمُ الْيَوْمَ يُنْقِذُونَكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ مَهْلَكًا ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَادِيًا فِي

جَهَنَّمَ أَوْ غَيْرِهِ ، وَالمَعْنَى : أَنَّ اللهَ تَعَالَى بَيَّنَ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَا وُصُولَ لَهُمْ إِلَى آلِهَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَزْعُمُونَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا فِي الْآخِرَةِ ، فَلَا خَلَاصَ لِأَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ إِلَى الْآخَرِ ، بَلْ بَيْنَهُمَا مَهْلَكٌ وَهَوْلٌ عَظِيمٌ وَأَمْرٌ كَبِيرٌ . ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ أَيْ : أَنَّهُمْ لَمَّا عَايَنُوا جَهَنَّمَ حِينَ جِيءَ بِهَا تُقَادُ بِسَبْعِينَ أَلْفِ زِمَامٍ ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ فَإِذَا رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ تَحَقَّقُوا لَا مَحَالَةَ أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا لِيَكُونَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ تَعْجِيلِ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ لَهُمْ ، فَإِنَّ تَوَقُّعَ الْعَذَابِ وَالْخَوْف مِنْهُ قَبْلَ وُقُوعِهِ عَذَابٌ نَاجِزٌ ، ﴿ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ طَرِيق يَعْدِل بِهِمْ عَنْهَا ، وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَقَدْ بَيَّنَّا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ وَوَضَّحْنَا لَهُمُ الْأُمُورَ وَفَصَّلْنَاهَا كَيْ لَا يَضِلُّوا عَنِ الْحَقِّ ، وَيَخْرُجُوا عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى ، وَمَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذَا الْفُرْقَانِ ، الْإِنْسَانُ كَثِيرُ الْمُجَادَلَةِ وَالْمُخَاصَمَةِ وَالْمُعَارَضَةِ لِلْحَقِّ بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا مَنْ هَدَى اللهُ وَبَصَّرَهُ لِطَرِيقِ النَّجَاةِ .

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَرُّدِ الْكَفَرَةِ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ الْبَيِّنِ الظَّاهِرِ مَعَ مَا يُشَاهِدُونَ مِنَ الْآيَاتِ وَالدَّلَالَاتِ الْوَاضِحَاتِ ، وَأَنَّهُ مَا مَنَعَهُمْ مِن اتِّبَاعِ ذَلِكَ إِلَّا طَلَبُهُمْ أَنْ يُشَاهِدُوا الْعَذَابَ الَّذِي وُعِدُوا بِهِ عِيَانًا ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ مِنْ غَشَيَانِهِمْ بِالْعَذَابِ وَأَخْذِهِمْ عَنْ آخِرِهِمْ ، ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ أَيْ : يَرَوْنَهُ عِيَانًا مُوَاجَهَةً وَمُقَابَلَةً . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أَيْ : قَبْلَ الْعَذَابِ مُبَشِّرِينَ مَنْ صَدَّقَهُمْ وَآمَنَ بِهِمْ ، وَمُنْذِرِينَ لِمَنْ كَذَّبَهُمْ وَخَالَفَهُمْ . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الْكُفَّارِ بِأَنَّهُمْ ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ﴾ أَيْ : لِيُضْعِفُوا بِهِ ﴿ ٱلْحَقَّ ﴾ الَّذِي جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِحَاصِلٍ لَهُمْ ﴿ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ ﴾ أَيْ : اتَّخَذُوا الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ وَخَوَارِقَ الْعَادَاتِ ، الَّتِي بُعِثَ بِهَا الرُّسُلُ ، وَمَا أَنْذَرُوهُمْ وَخَوَّفُوهُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿ هُزُوًا ﴾ أَيْ : سَخِرُوا مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ وَهُوَ أَشَدُّ التَّكْذِيبِ .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ

قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَأَيُّ عِبَادِ الله أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ الله فَأَعْرَضَ عَنْهَا ، أَيْ : تَنَاسَاهَا وَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَلَمْ يُصْغِ لَهَا ، وَلَا أَلْقَى إِلَيْهَا بَالًا ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ وَالْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : قُلُوبِ هَؤُلَاءِ ﴿ أَكِنَّةً ﴾ أَيْ : أَغْطِيَةً وَغِشَاوَةً ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ أَيْ : لِئَلَّا يَفْهَمُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْبَيَانَ ﴿ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أَيْ : صَمَمًا مَعْنَوِيًّا عَنِ الرَّشَادِ ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ أَيْ : رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ غَفُورٌ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر : ٤٥] . ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَحْلُمُ وَيَسْتُرُ وَيَغْفِرُ ، وَرُبَّمَا هَدَى بَعْضَهُمْ مِنَ الْغَيِّ إِلَى الرَّشَادِ ، وَمَنِ اسْتَمَرَّ مِنْهُمْ فَلَهُ يَوْمٌ يَشِيبُ فِيهِ الْوَلِيدُ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ عَنْهُ مَحِيصٌ وَلَا مَحِيدٌ وَلَا مَعْدِلٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ أَيْ : الْأُمَمُ السَّالِفَةُ وَالْقُرُونُ الْخَالِيَةُ أَهْلَكْنَاهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ أَيْ : جَعَلْنَاهُ إِلَى مُدَّةٍ مَعْلُومَةٍ وَوَقْتٍ مُعَيَّنٍ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ ، أَيْ : وَكَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ ، احْذَرُوا أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَشْرَفَ رَسُولٍ وَأَعْظَمَ نَبِيٍّ ، وَلَسْتُمْ بِأَعَزَّ عَلَيْنَا مِنْهُمْ فَخَافُوا عَذَابِي وَنُذُر .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

سَبَبُ قَوْلِ مُوسَى لِفَتَاهُ وَهُوَ - يُوشَعُ بْنُ نُونٍ - هَذَا الْكَلَامُ أَنَّهُ ذُكِرَ لَهُ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ الله

بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يُحِطْ بِهِ مُوسَى ، فَأَحَبَّ الرَّحِيلَ إِلَيْهِ ، وَقَالَ لِفَتَاهُ ذَلِكَ : ﴿ لَآ أَبْرَحُ ﴾ أَيْ : لَا أَزَالُ سَائِرًا ﴿ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ أَيْ : هَذَا الْمَكَانَ الَّذِي فِيهِ مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ ، ﴿ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ أَيْ : وَلَوْ أَنِّي أَسِيرُ حُقُبًا مِنَ الزَّمَانِ . **قِيلَ** : سَنَةً ، **وَقِيلَ** : ثَمانُونَ سَنَةً ، **وَقِيلَ** : سَبْعُونَ خَرِيفًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ أُمِرَ بِحَمْلِ حُوتٍ مَمْلُوحٍ مَعَهُ ، وَقِيلَ لَهُ : مَتَى فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّةَ ، فَسَارَا حَتَّى بَلَغَا مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ وَهُنَاكَ عَيْنٌ يُقَالُ لَهَا : عَيْنُ الْحَيَاةِ ، فَنَامَا هُنَالِكَ وَأَصَابَ الْحُوتَ مِنْ رَشَاشِ ذَلِكَ الْمَاءِ فَاضْطَرَبَ ، وَكَانَ فِي مِكْتَلٍ مَعَ يُوشَعَ عليه السلام ، وَطَفَرَ مِنَ الْمِكْتَلِ إِلَى الْبَحْرِ ، فَاسْتَيْقَظَ يُوشَعُ عليه السلام وَسَقَطَ الْحُوتُ فِي الْبَحْرِ ، فَجَعَلَ يَسِيرُ فِي الْمَاءِ ، وَالْمَاءُ لَهُ مِثْلُ الطَّاقِ لَا يَلْتَئِمُ بَعْدَهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ أَيْ : مِثْلَ السَّرَبِ فِي الْأَرْضِ . **قِيلَ** : صَارَ أَثَرُهُ كَأَنَّهُ حَجَرٌ . **وَقِيلَ** : جَعَلَ الْحُوتُ لَا يَمَسُّ شَيْئًا مِنَ الْبَحْرِ إِلَّا يَبِسَ حَتَّى يَكُونَ صَخْرَةً ، ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ أَيْ : الْمَكَانَ الَّذِي نَسِيَا الْحُوتَ فِيهِ ، وَنَسَبَ النِّسْيَانَ إِلَيْهِمَا ، وَإِنْ كَانَ يُوشَعُ هُوَ الَّذِي نَسِيَهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : ٢٢] ، وَإِنَّمَا يَخْرُجُ مِنَ الْمَالِحِ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ ، فَلَمَّا ذَهَبَا عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي نَسِيَاهُ فِيهِ بِمَرْحَلَةٍ ﴿ قَالَ ﴾ مُوسَى ﴿ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا ﴾ أَيْ : الَّذِي جَاوَزَا فِيهِ الْمَكَانَ ﴿ نَصَبًا ﴾ يَعْنِي : تَعَبًا ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ قَالَ : ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ ﴾ أَيْ : طَرِيقَهُ ﴿ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ أَيْ : هَذَا هُوَ الَّذِي نَطْلُبُ ﴿ فَٱرْتَدَّا ﴾ أَيْ : رَجَعَا ﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا ﴾ أَيْ : طَرِيقِهِمَا ﴿ قَصَصًا ﴾ أَيْ : يَقُصَّانِ آثَارَ مَشْيِهِمَا وَيَقْفُوَانِ أَثَرَهُمَا . ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ وَهَذَا هُوَ الْخَضِرُ عليه السلام كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بذلك .

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَوْلِ مُوسَى عليه السلام لِذَلِكَ الرَّجُلِ الْعَالِمِ وَهُوَ الْخَضِرُ ، ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ سُؤَالُ تَلَطُّفٍ لَا عَلَى وَجْهِ الْإِلْزَامِ وَالْإِجْبَارِ ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ سُؤَالُ الْمُتَعَلِّمِ مِنَ الْعَالِمِ . وَقَوْلُهُ :

﴿ أَتَّبِعُكَ ﴾ أَيْ : أَصْحَبُكَ وَأُرَافِقُكَ ﴿ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ أَيْ : مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ ، شَيْئًا أَسْتَرْشِد بِهِ فِي أَمْرِي مِنْ عِلْمٍ نَافِعٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ ، فَعِنْدَهَا ﴿ قَالَ ﴾ الْخَضِرُ لِمُوسَى ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أَيْ : إِنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى مُصَاحَبَتِي ، لِمَا تَرَى مِنِّي مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تُخَالِفُ شَرِيعَتَكَ ، لِأَنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ مَا عَلَّمَكَهُ اللهُ ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ مَا عَلَّمَنِيهِ اللهُ ، فَكُلٌّ مِنَّا مُكَلَّفٌ بِأُمُورٍ مِنَ اللهِ دُونَ صَاحِبِهِ ، وَأَنْتَ لَا تَقْدِرُ عَلَى صُحْبَتِي ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ فَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّك سَتُنْكِرُ عَلَيَّ مَا أَنْتَ مَعْذُورٌ فِيهِ ، وَلَكِنْ مَا اِطَّلَعْتَ عَلَى حِكْمَتِهِ وَمَصْلَحَتِهِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي اِطَّلَعْتُ أَنَا عَلَيْهَا دُونَكَ ﴿ قَالَ ﴾ أَيْ : مُوسَى ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ أَيْ : عَلَى مَا أَرَى مِنْ أُمُورِكَ ﴿ وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ أَيْ : وَلَا أُخَالِفُكَ فِي شَيْءٍ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ شَارَطَهُ الْخَضِرُ عليه السلام ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ ﴾ أَيْ : اِبْتِدَاءً ﴿ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ أَيْ : حَتَّى أَبْدَأَك أَنَا بِهِ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَنِي .

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى وَصَاحِبِهِ وَهُوَ الْخَضِرُ : أَنَّهُمَا اِنْطَلَقَا لَمَّا تَوَافَقَا وَاصْطَحَبَا ، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ أَنْكَرَهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَبْتَدِئُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ بِشَرْحِهِ وَبَيَانِهِ ، فَرَكِبَا فِي السَّفِينَةِ ، فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ يَعْنِي : بِغَيْرِ أُجْرَةٍ ، تَكْرِمَةً لِلْخَضِرِ ، فَلَمَّا اِسْتَقَلَّتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فِي الْبَحْرِ وَلَجَجَتْ ، أَيْ : دَخَلَتِ اللُّجَّةُ ، قَامَ الْخَضِرُ فَخَرَقَهَا وَاسْتَخْرَجَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَاحِهَا ثُمَّ رَقَّعَهَا ، فَلَمْ يَمْلِكْ مُوسَى عليه السلام نَفْسَهُ أَنْ قَالَ مُنْكِرًا عَلَيْهِ ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ ، وَهَذِهِ اللَّامُ لَامُ الْعَاقِبَةِ ، لَا لَامُ التَّعْلِيلِ .﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ قِيلَ : مُنْكَرًا ، وَقِيلَ : عَجَبًا ، فَعِنْدَهَا قَالَ لَهُ الْخَضِرُ ، مُذَكِّرًا بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الشَّرْطِ : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ يَعْنِي : وَهَذَا الصَّنِيعُ فَعَلْتُهُ قَصْدًا وَهُوَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي اِشْتَرَطْتَ مَعَك أَنْ لَا تُنْكِرَ عَلَيَّ فِيهَا ، لِأَنَّكَ لَمْ تُحِطْ بِهَا خُبْرًا ، وَلَهَا دَخْلٌ هُوَ مَصْلَحَةٌ وَلَمْ تَعْلَمْهُ أَنْتَ ﴿ قَالَ ﴾ أَيْ : مُوسَى ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أَيْ : لَا تُضَيِّقْ عَلَيَّ وَلَا تُشَدِّدْ عَلَيَّ .

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن

شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ أَيْ : بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ ﴾ كَانَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ ، فِي قَرْيَةٍ مِنَ الْقُرَى ، وَأَنَّهُ عَمَدَ إِلَيْهِ مِنْ بَيْنِهِمْ . فَلَمَّا شَاهَدَ مُوسَى ﷺ هَذَا أَنْكَرَهُ أَشَدَّ مِنَ الْأَوَّلِ وَبَادَرَ ، فَقَالَ : ﴿ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ ﴾ أَيْ : صَغِيرَةً لَمْ تَعْمَلِ الْحِنْثَ ، وَلَا عَمِلَتْ إِثْمًا بَعْدُ ، فَقَتَلْتَهُ ﴿ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ ﴾ ، أَيْ : بِغَيْرِ مُسْتَنَدٍ لِقَتْلِهِ ﴿ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴾ أَيْ : ظَاهِرُ النَّكَارَةِ . ﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴾ فَأَكَّدَ أَيْضًا فِي التَّذْكَارِ بِالشَّرْطِ الْأَوَّلِ ، فَلِهَذَا قَالَ لَهُ مُوسَى : ﴿ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا ﴾ أَيْ : إِنِ اعْتَرَضْتُ عَلَيْكَ بِشَيْءٍ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ ﴿ فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴾ أَيْ : قَدْ أَعْذَرْتَ إِلَيَّ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ .

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمَا : أَنَّهُمَا انْطَلَقَا بَعْدَ الْمَرَّتَيْنِ الْأُولَتَيْنِ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ : « **حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِئَامًا** » أَيْ : بُخَلَاءَ ﴿ فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ إِسْنَادُ الْإِرَادَةِ هَاهُنَا إِلَى الْجِدَارِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ ، فَإِنَّ الْإِرَادَةَ فِي الْمُحْدَثَاتِ : بِمَعْنَى الْمَيْلِ ، وَالِانْقِضَاضُ : هُوَ السُّقُوطُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾ أَيْ : فَرَدَّهُ إِلَى حَالَةِ الِاسْتِقَامَةِ ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ رَدَّهُ بِيَدِهِ وَدَعَّمَهُ حَتَّى رَدَّ مَيْلَهُ ، وَهَذَا خَارِقٌ فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى لَهُ : ﴿ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴾ أَيْ : لِأَجْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يُضَيِّفُونَا ، كَانَ يَنْبَغِي أَنْ لَا تَعْمَلَ لَهُمْ مَجَّانًا ، ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَ ﴾ أَيْ : لِأَنَّكَ شَرَطْتَ عِنْدَ قَتْلِ الْغُلَامِ ، أَنَّكَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ، فَهُوَ فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ ﴾ أَيْ : بِتَفْسِيرِ ﴿ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴾ .

أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾

هَذَا تَفْسِيرُ مَا أَشْكَلَ أَمْرُهُ عَلَى مُوسَى ﷺ مَا كَانَ أَنْكَرَ ظَاهِرَهُ ، وَقَدْ أَظْهَرَ اللهُ الْخَضِرَ ﷺ عَلَى حِكْمَةٍ بَاطِنَةٍ فَقَالَ : إِنَّ السَّفِينَةَ إِنَّمَا خَرَقْتُهَا لِأَعِيبَهَا ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلِكٍ مِنَ الظَّلَمَةِ ﴿ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ صَالِحَةٍ ، أَيْ : جَيِّدَةٍ ﴿ غَصۡبٗا ﴾ ، ﴿ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا ﴾ لِأَرُدَّهُ عَنْهَا لِعَيْبِهَا ،

فَيَنْتَفِعُ بِهَا أَصْحَابُهَا المَسَاكِينُ ، الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَيْءٌ يَنْتَفِعُونَ بِهِ غَيْرَهَا ، **وَقَدْ قِيلَ** : إِنَّهُمْ أَيْتَامٌ .

وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **الْغُلَامُ الَّذِي قَتَلَهُ الخَضِرُ طُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا** » ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ أَيْ : يَحْمِلُهُمَا حُبُّهُ عَلَى مُتَابَعَتِهِ عَلَى الْكُفْرِ . **قَالَ قَتَادَةُ** : قَدْ فَرِحَ بِهِ أَبَوَاهُ حِينَ وُلِدَ ، وَحَزِنَا عَلَيْهِ حِينَ قُتِلَ ، وَلَوْ بَقِيَ لَكَانَ فِيهِ هَلَاكُهُمَا فَلْيَرْضَ امْرُؤٌ بِقَضَاءِ اللهِ ، فَإِنَّ قَضَاءَ اللهِ لِلْمُؤْمِنِ فِيمَا يَكْرَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ قَضَائِهِ فِيمَا يُحِبُّ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ أَيْ : وَلَدًا أَزْكَى مِنْ هَذَا ، وَهُمَا أَرْحَمُ بِهِ مِنْهُ .

وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى إِطْلَاقِ الْقَرْيَةِ عَلَى المَدِينَةِ لأَنَّهُ قَالَ أَوَّلًا ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ ، **وَقَالَ هَاهُنَا** : ﴿ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ ، **وَمَعْنَى الْآيَةِ** : أَنَّ هَذَا الجِدَارَ إِنَّمَا أَصْلَحْتُهُ ، لأَنَّهُ كَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ يُحْفَظُ فِي ذُرِّيَّتِهِ وَتَشْمَلُ بَرَكَةُ عِبَادَتِهِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِشَفَاعَتِهِ فِيهِمْ ، وَرَفْعِ دَرَجَتِهِمْ إِلَى أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الجَنَّةِ لِتَقَرَّ عَيْنُهُ بِهِمْ . ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ ، هَاهُنَا أَسْنَدَ الْإِرَادَةَ إِلَى اللهِ تَعَالَى ؛ لأَنَّ بُلُوغَهُمَا الحُلُمَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ ، وَقَالَ فِي الْغُلَامِ : ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً ﴾ وَقَالَ فِي السَّفِينَةِ : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ فَاللهُ أَعْلَمُ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي فَعَلْتُهُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِمَنْ ذَكَرْنَا مِنْ أَصْحَابِ السَّفِينَةِ ، وَوَالِدَيِ الْغُلَامِ ، وَوَلَدَيِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ، أَيْ : لَكِنِّي أُمِرْتُ بِهِ وَوَقَفْتُ عَلَيْهِ ، **وَفِيهِ دَلَالَةٌ لِمَنْ قَالَ بِنُبُوَّةِ الخَضِرِ** ﷺ . ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أَيْ : هَذَا تَفْسِيرُ مَا ضِقْتَ بِهِ ذَرْعًا ، وَلَمْ تَصْبِرْ حَتَّى أُخْبِرَكَ بِهِ ابْتِدَاءً ، وَلَمَّا أَنْ فَسَّرَهُ لَهُ وَبَيَّنَهُ وَوَضَّحَهُ وَأَزَالَ الْمُشْكِلَ قَالَ : ﴿ تَسْطِع ﴾ ، وَقَبْلَ ذَلِكَ كَانَ الْإِشْكَالُ قَوِيًّا ثَقِيلًا فَقَالَ : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع

عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ فَقَابَلَ الْأَثْقَل بِالْأَثْقَلِ وَالْأَخف بِالأَخفِ .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ أَيْ : عَنْ خَبَرِهِ . **قَالَ الْبَعْضُ** : كَانَ مَلِكًا ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ ، لِأَنَّهُ مَلَكَ الرُّومَ وَفَارِسَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : أَعْطَيْنَاهُ مُلْكًا عَظِيمًا مُمَكَّنًا ، فِيهِ مِنْ جَمِيعِ مَا يُؤْتَى الْمُلُوكُ مِنَ التَّمْكِينِ وَالْجُنُودِ وَآلَاتِ الْحَرْبِ وَالْحِصَارَاتِ ، وَلِهَذَا مَلَكَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَدَانَتْ لَهُ الْبِلَادُ وَخَضَعَتْ لَهُ مُلُوكُ الْعِبَادِ ، وَخَدَمَتْهُ الْأُمَمُ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ، وَلِهَذَا ذَكَرَ بَعْضُهُمْ : أَنَّهُ إِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ لِأَنَّهُ بَلَغَ قَرْنَي الشَّمْسِ مَشْرِقِهَا وَمَغْرِبِهَا . ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : يَعْنِي : عِلْمًا . **وَقِيلَ** : تَعْلِيمُ الْأَلْسِنَةِ ، كَانَ لَا يَغْزُو قَوْمًا إِلَّا كَلَّمَهُمْ بِلِسَانِهِمْ .وَهَكَذَا ذُو الْقَرْنَيْنِ يَسَّرَ اللهُ لَهُ الْأَسْبَابَ ، أَيْ : الطُّرُقَ وَالْوَسَائِلَ .

فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ مَنْزِلًا وَطَرِيقًا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، **وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ مُجَاهِدٍ** : ﴿ سَبَبًا ﴾ قَالَ : طَرَفَي الْأَرْضِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : أَيْ : أَتْبَعَ مَنَازِلَ الْأَرْضِ وَمَعَالِمَهَا ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : عِلْمًا . ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾ أَيْ : فَسَلَكَ طَرِيقًا حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَقْصَى مَا يُسْلَكُ فِيهِ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ ، وَهُوَ مَغْرِبُ الْأَرْضِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أَيْ : رَأَى الشَّمْسَ فِي مَنْظَرِهِ تَغْرُبُ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ ، وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ مَنِ انْتَهَى إِلَى سَاحِلِهِ ، يَرَاهَا كَأَنَّهَا تَغْرُبُ فِيهِ ، وَهِيَ لَا تُفَارِقُ الْفَلَكَ الرَّابِعَ الَّذِي هِيَ مُثْبَتَةٌ فِيهِ لَا تُفَارِقُهُ ، وَالْحَمِئَةُ : مُشْتَقَّةٌ عَلَى إِحْدَى الْقِرَاءَتَيْنِ مِنَ الْحَمْأَةِ ، وَهُوَ : الطِّينُ ، **وَقِيلَ** : (وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ) يَعْنِي : حَارَّةٍ . ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾ أَيْ : أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ ، ذَكَرُوا أَنَّهَا كَانَتْ أُمَّةً عَظِيمَةً مِنْ بَنِي آدَمَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ مَعْنَى هَذَا : أَنَّ اللهَ تَعَالَى

مَكَّنَهُ مِنْهُمْ وَحَكَّمَهُ فِيهِمْ وَأَظْفَرَهُ بِهِمْ ، وَخَيَّرَهُ إِنْ شَاءَ قَتَلَ وَسَبَى ، وَإِنْ شَاءَ مَنَّ أَوْ فَدَى ، فَعُرِفَ عَدْلُهُ وَإِيمَانُهُ فِيمَا أَبداهُ عَدْلُهُ وَبَيَانُهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ أَيْ : اِسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَشِرْكِهِ بِرَبِّهِ ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أَيْ : شَدِيدًا بَلِيغًا وَجِيعًا أَلِيمًا ، وَفِي هَذَا إِثْبَاتُ المَعَادِ وَالجَزَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ ﴾ أَيْ : تَابَعَنَا عَلَى مَا نَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الآخِرَةِ عِنْدَ اللهِ ﷻ ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ **قِيلَ** : مَعْرُوفًا .

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ثُمَّ سَلَكَ طَرِيقًا فَسَارَ مِنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ إِلَى مَطْلَعِهَا ، وَكَانَ كُلَّمَا مَرَّ بِأُمَّةٍ قَهَرَهُمْ وَغَلَبَهُمْ وَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ فَإِنْ أَطَاعُوهُ وَإِلَّا أَذَلَّهُمْ وَأَرْغَمَ آنَافَهُمْ وَاسْتَبَاحَ أَمْوَالَهُمْ وَأَمْتِعَتَهُمْ ، وَاسْتَخْدَمَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مَا تَسْتَعِينُ بِهِ جُيُوشُهُ عَلَى قِتَالِ الإِقْلِيمِ المُتَاخِمِ لَهُمْ . وَلَمَّا اِنْتَهَى إِلَى مَطْلِعِ الشَّمْسِ مِنَ الأَرْضِ ، كَمَا **قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ أَيْ : أُمَّةٍ ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ بِنَاءٌ يَكُنُّهُمْ ، وَلَا أَشْجَارٌ تُظِلُّهُمْ وَتَسْتُرُهُمْ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ . ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ **قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ** : عِلْمًا . أَيْ : نَحْنُ مُطَّلِعُونَ عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ جَيْشِهِ لَا يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْهَا شَيْءٌ ، وَإِنْ تَفَرَّقَتْ أُمَمُهُمْ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَرْضُ .

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أَيْ : ثُمَّ سَلَكَ طَرِيقًا مِنْ مَشَارِقِ الأَرْضِ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ وَهُمَا جَبَلَانِ مُتَنَاوِحَانِ بَيْنَهُمَا ثُغْرَةٌ يَخْرُجُ مِنْهَا يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ عَلَى بِلَادِ التُّرْكِ ، فَيَعِيثُونَ فِيهَا فَسَادًا وَيُهْلِكُونَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مِنْ سُلَالَةِ آدَمَ عليه السلام .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ أَيْ : لِاسْتِعْجَامِ كَلَامِهِمْ وَبُعْدِهِمْ

عَنِ النَّاسِ ﴿ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : أَجْرًا عَظِيمًا . يَعْنِي : أَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَجْمَعُوا لَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ مَالًا يُعْطُونَهُ إِيَّاهُ ، حَتَّى يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ، فَقَالَ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِعِفَّةٍ وَدِيَانَةٍ وَصَلَاحٍ وَقَصْدٍ لِلْخَيْرِ : ﴿ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ﴾ أَيْ : إِنَّ الَّذِي أَعْطَانِي اللهُ مِنَ الْمُلْكِ وَالتَّمْكِينِ خَيْرٌ لِي مِنَ الَّذِي تَجْمَعُونَهُ ، وَلَكِنْ سَاعِدُونِي ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أَيْ : بِعَمَلِكُمْ وَآلَاتِ الْبِنَاءِ . ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ وَالزُّبُرُ : جَمْعُ زُبْرَةٍ ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ مِنْهُ ، قَالَهُ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَهِيَ كَاللَّبِنَةِ . ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ ﴾ أَيْ : وَضَعَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْأَسَاسِ ، حَتَّى إِذَا حَاذَى بِهِ رُءُوسَ الْجَبَلَيْنِ طُولًا وَعَرْضًا . ﴿ قَالَ ٱنفُخُواْ ﴾ أَيْ : أَجَّجَ عَلَيْهِ النَّارَ حَتَّى صَارَ كُلُّهُ نَارًا ﴿ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ هُوَ النُّحَاسُ الْمُذَابُ .

فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ : أَنَّهُمْ مَا قَدَرُوا عَلَى أَنْ يَصْعَدُوا مِنْ فَوْقِ هَذَا السَّدِّ ، وَلَا قَدَرُوا عَلَى نَقْبِهِ مِنْ أَسْفَلِهِ وَلَمَّا كَانَ الظُّهُورُ عَلَيْهِ أَسْهَلُ مِنْ نَقْبِهِ ، قَابَلَ كُلًّا بِمَا يُنَاسِبُهُ ، فَقَالَ : ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى نَقْبِهِ ، وَلَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ . ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ أَيْ : لِمَا بَنَاهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ أَيْ : بِالنَّاسِ ، حَيْثُ جَعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ حَائِلًا ، يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْعَبَثِ فِي الْأَرْضِ وَالْفَسَادِ ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى ﴾ أَيْ : إِذَا اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴿ جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ أَيْ : سَاوَاهُ بِالْأَرْضِ ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ أَيْ : كَائِنًا لَا مَحَالَةَ . ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ هَذَا أَوَّلُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ ﴿ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : بَلِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ قَالُوا : إِذَا مَاجَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْتَلِطُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ . ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ وَالصُّورُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ وَالَّذِي يَنْفُخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ عليه السلام ﴿ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ أَيْ : أَحْضَرْنَا الْجَمِيعَ لِلْحِسَابِ ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ .

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَفْعَلُهُ بِالْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ يَعْرِضُ عَلَيْهِمْ جَهَنَّمَ أَيْ : يُبْرِزُهَا لَهُمْ وَيُظْهِرُهَا ؛ لِيَرَوْا مَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ قَبْلَ دُخُولِهَا ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغُ فِي تَعْجِيلِ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ لَهُمْ . ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ : ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى ﴾ أَيْ : تَغَافَلُوا وَتَعَامَوْا وَتَصَامُّوا عَنْ قَبُولِ الْهُدَى وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ ، ﴿ وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ أَيْ : لَا يَعْقِلُونَ عَنِ اللهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ أَيْ : اِعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يَصْلُحُ لَهُمْ ذَلِكَ وَيَنْتَفِعُونَ بِهِ ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨٢] ، وَلِهَذَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْزِلًا .

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ عَبَدَ اللهَ عَلَى غَيْرِ طَرِيقَةٍ مَرْضِيَّةٍ ، يَحْسَبُ أَنَّهُ مُصِيبٌ فِيهَا ، وَأَنَّ عَمَلَهُ مَقْبُولٌ وَهُوَ مُخْطِئٌ وَعَمَلُهُ مَرْدُودٌ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم ﴾ أَيْ : نُخْبِرُكُمْ ﴿ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُمْ . فَقَالَ : ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : عَمِلُوا أَعْمَالًا بَاطِلَةً عَلَى غَيْرِ شَرِيعَةٍ مَشْرُوعَةٍ مَرْضِيَّةٍ مَقْبُولَةٍ ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ أَيْ : يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ وَأَنَّهُمْ مَقْبُولُونَ مَحْبُوبُونَ . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ ﴾ أَيْ : جَحَدُوا آيَاتِ اللهِ فِي الدُّنْيَا ، وَبَرَاهِينَهُ الَّتِي أَقَامَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ ، وَكَذَّبُوا بِالدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ أَيْ : لَا نُثْقِلُ مَوَازِينَهُمْ ؛ لِأَنَّهَا خَالِيَةٌ عَنِ الْخَيْرِ ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا جَازَيْنَاهُمْ بِهَذَا الْجَزَاءِ ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَاتِّخَاذِهِمْ آيَاتِ اللهِ وَرُسُلِهِ هُزُوًا ، اِسْتَهْزَءُوا بِهِمْ وَكَذَّبُوهُمْ أَشَدَّ التَّكْذِيبِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ السُّعَدَاءِ ، وَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ فِيمَا جَاءُوا بِهِ ، أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ قَالَ مُجَاهِدٌ : الْفِرْدَوْسُ هُوَ : الْبُسْتَانُ بِالرُّومِيَّةِ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : هُوَ الْبُسْتَانُ الَّذِي فِيهِ شَجَرُ الْأَعْنَابِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : الْفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُهَا وَأَفْضَلُهَا ، وَفِي

الصَّحِيح : « إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ الجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الجَنَّةِ وَأَوْسَطَ الجَنَّةِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ ». وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نُزُلاً ﴾ أَيْ : ضِيَافَةً ، فَإِنَّ النُّزُلَ : الضِّيَافَةَ . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مُقِيمِينَ سَاكِنِينَ فِيهَا لَا يَظْعَنُونَ عَنْهَا أَبَدًا ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ أَيْ : لَا يَخْتَارُونَ عَنْهَا غَيْرَهَا وَلَا يُحِبُّونَ سِوَاهَا .

قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُل ﴾ يَا مُحَمَّدُ : لَوْ كَانَ مَاءُ الْبَحْرِ مِدَادًا لِلْقَلَمِ الَّذِي يُكْتَبُ بِهِ كَلِمَاتُ اللهِ وَحُكْمِهِ وَآيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ ، لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ مِنْ كِتَابَةِ ذَلِكَ ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ ﴾ أَيْ : بِمِثْلِ الْبَحْرِ آخَرَ ثُمَّ آخَرَ ، وَهَلُمَّ جَرًّا ، بُحُورٌ تَمُدُّهُ وَيُكْتَبُ بِهَا ، لَمَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ .

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ – صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ – : ﴿ قُلْ ﴾ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِرِسَالَتِكَ إِلَيْهِمْ : ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ فَمَنْ زَعَمَ أَنِّي كَاذِبٌ فَلْيَأْتِ بِمِثْلِ مَا جِئْتُ بِهِ ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ فِيمَا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ مِنَ الْمَاضِي ، عَمَّا سَأَلْتُمْ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَخَبَرِ ذِي الْقَرْنَيْنِ ، مِمَّا هُوَ مُطَابِقٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، لَوْلَا مَا أَطْلَعَنِي اللهُ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا أُخْبِرُكُمْ ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ ﴾ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ ﴿ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾ أَيْ : ثَوَابَهُ وَجَزَاءَهُ الصَّالِحَ ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ مَا كَانَ مُوَافِقًا لِشَرْعِ اللهِ ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، **وَهَذَانِ رُكْنَا الْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا للهِ صَوَابًا عَلَى شَرِيعَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ** .

آخِرُ سُورَةِ الكَهْفِ ، وَللهِ الحَمْدُ

آياتها ٩٨ تفسير سورة مريم مكية

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قِصَّةِ الْهِجْرَةِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ مِنْ مَكَّةَ أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ قَرَأَ صَدْرَ هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى النَّجَاشِيِّ وَأَصْحَابِهِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

قَوْلُهُ: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ أَيْ: هَذَا ذِكْرُ رَحْمَةِ اللهِ بِعَبْدِهِ زَكَرِيَّا. وَكَانَ نَبِيًّا عَظِيمًا مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ كَانَ نَجَّارًا يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ فِي النِّجَارَةِ ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ**: إِنَّمَا أَخْفَى دُعَاءَهُ؛ لِئَلَّا يُنْسَبَ فِي طَلَبِ الْوَلَدِ إِلَى الرُّعُونَةِ لِكِبَرِهِ، **وَقَالَ آخَرُونَ**: إِنَّمَا أَخْفَاهُ لأَنَّهُ أَحَبُّ إِلَى اللهِ. ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى ﴾ أَيْ: ضَعُفْتُ وَخَارَتِ الْقُوَى ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ أَيْ: اِضْطَرَمَ الْمَشِيبُ فِي السَّوَادِ، **وَالْمُرَادُ** مِنْ هَذَا: الإِخْبَارُ عَنِ الضَّعْفِ وَالْكِبَرِ وَدَلَائِلِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أَيْ: وَلَمْ أَعْهَدْ مِنْكَ إِلَّا الإِجَابَةَ فِي الدُّعَاءِ، وَلَمْ تَرُدَّنِي قَطُّ فِيمَا سَأَلْتُكَ، ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى ﴾ أَرَادَ بِالْمَوَالِي الْعُصْبَة، وَأَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَصَرَّفُوا مِنْ بَعْدِهِ فِي النَّاسِ تَصَرُّفًا سَيِّئًا فَسَأَلَ اللهَ وَلَدًا يَكُونُ نَبِيًّا مِنْ بَعْدِهِ، لِيَسُوسَهُمْ بِنُبُوَّتِهِ مَا يُوحَى إِلَيْهِ، فَأُجِيبَ فِي ذَلِكَ، لَا أَنَّهُ خَشِيَ مِنْ وِرَاثَتِهِمْ لَهُ مَالَهُ، وَعَلَى هَذَا فَتَعَيَّنَ حَمْلُ قَوْلِهِ: ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى ﴾ عَلَى مِيرَاثِ النُّبُوَّةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ [النمل: ١٦] أَيْ: فِي النُّبُوَّةِ، إِذْ لَوْ كَانَ فِي الْمَالِ لَمَا خَصَّهُ مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِ بِذَلِكَ، وَلَمَا كَانَ فِي الإِخْبَارِ بِذَلِكَ كَبِيرُ فَائِدَةٍ، إِذْ مِنَ الْمَعْلُومِ الْمُسْتَقَرِّ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ وَالْمِلَلِ أَنَّ الْوَلَدَ يَرِثُ أَبَاهُ، فَلَوْلَا أَنَّهَا وِرَاثَةٌ خَاصَّةٌ لَمَا أَخْبَرَ بِهَا، ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ أَيْ: مَرْضِيًّا عِنْدَكَ وَعِنْدَ خَلْقِكَ تُحِبُّهُ وَتُحَبِّبُهُ إِلَى خَلْقِكَ فِي دِينِهِ وَخُلُقِهِ.

يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

هَذَا الْكَلَامُ يَتَضَمَّنُ مَحْذُوفًا وَهُوَ أَنَّهُ أُجِيبَ إِلَى مَا سَأَلَ فِي دُعَائِهِ، فَقِيلَ لَهُ: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴾. **وَقَوْلُهُ**: ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾. **قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ**: أَيْ: لَمْ يُسَمَّ أَحَدٌ قَبْلَهُ بِهَذَا الاِسْمِ. **وَقَالَ غَيْرُهُمْ**: ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أَيْ: شَبِيهًا، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ زَكَرِيَّا عليه السلام كَانَ لَا يُولَدُ لَهُ، وَكَذَلِكَ اِمْرَأَتُهُ كَانَتْ عَاقِرًا مِنْ أَوَّلِ عُمُرِهَا.

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـًٔا ﴿٩﴾

هَذَا تَعَجُّبٌ مِنْ زَكَرِيَّا عليه السلام حِينَ أُجِيبَ إِلَى مَا سَأَلَ وَبُشِّرَ بِالْوَلَدِ، فَفَرِحَ فَرَحًا شَدِيدًا وَسَأَلَ عَنْ كَيْفِيَّةِ مَا يُولَدُ لَهُ، وَالْوَجْهُ الَّذِي يَأْتِيهِ مِنْهُ الْوَلَدُ، مَعَ أَنَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ عَاقِرًا لَمْ تَلِدْ مِنْ أَوَّلِ عُمْرِهَا مَعَ كِبَرِهَا، وَمَعَ أَنَّهُ قَدْ كَبِرَ وَعَتَا، أَيْ: عَسَا عَظْمُهُ وَنَحَلَ، وَلَمْ يَبْقَ فِيهِ لِقَاحٌ وَلَا جِمَاعٌ. قِيلَ: ﴿ عِتِيًّا ﴾ يَعْنِي: قُحُولُ الْعَظْمِ، وَقِيلَ: ﴿ عِتِيًّا ﴾ يَعْنِي: الْكِبَرَ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَخَصُّ مِنَ الْكِبَرِ. ﴿ قَالَ ﴾ أَيْ: الْمَلَكُ مُجِيبًا لِزَكَرِيَّا عَمَّا اسْتَعْجَبَ مِنْهُ ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أَيْ: إِيجَادُ الْوَلَدِ مِنْكَ وَمِنْ زَوْجَتِكَ هَذِهِ لَا مِنْ غَيْرِهَا ﴿ هَيِّنٌ ﴾ أَيْ: يَسِيرٌ سَهْلٌ عَلَى اللهِ، ثُمَّ ذَكَرَ لَهُ مَا هُوَ أَعْجَبُ مِمَّا سَأَلَ عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـًٔا ﴾.

قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ زَكَرِيَّا عليه السلام أَنَّهُ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةً ﴾ أَيْ: عَلَامَةً وَدَلِيلًا عَلَى وُجُودِ مَا وَعَدْتَنِي، لِتَسْتَقِرَّ نَفْسِي وَيَطْمَئِنَّ قَلْبِي بِمَا وَعَدْتَنِي ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ ﴾ أَيْ: عَلَامَتُكَ ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيًّا ﴾ أَيْ: أَنْ تُحْبَسَ لِسَانُكَ عَنِ الْكَلَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَأَنْتَ صَحِيحٌ سَوِيٌّ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ وَلَا عِلَّةٍ. ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ ﴾ أَيْ: الَّذِي بُشِّرَ فِيهِ بِالْوَلَدِ ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ أَيْ: أَشَارَ إِشَارَةً خَفِيَّةً سَرِيعَةً ﴿ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴾ أَيْ: مُوَافَقَةً لَهُ فِيمَا أُمِرَ بِهِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ، زِيَادَةً عَلَى أَعْمَالِهِ وشُكْرًا للهِ عَلَى مَا أَوْلَاهُ.

يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾

وَهَذَا أَيْضًا تَضَمَّنَ مَحْذُوفًا تَقْدِيرُهُ: أَنَّهُ وُجِدَ هَذَا الْغُلَامُ الْمُبَشَّرُ بِهِ، وَهُوَ: يَحْيَى عليه السلام وَأَنَّ اللهَ عَلَّمَهُ الْكِتَابَ: وَهُوَ التَّوْرَاةُ الَّتِي كَانُوا يَتَدَارَسُونَهَا بَيْنَهُمْ، وَيَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا، وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ، وَقَدْ كَانَ سِنُّهُ إِذْ ذَاكَ صَغِيرًا، فَلِهَذَا نَوَّهَ بِذِكْرِهِ وَبِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ وَعَلَى وَالِدَيْهِ، فَقَالَ: ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ ﴾ أَيْ: تَعَلَّمِ الْكِتَابَ ﴿ بِقُوَّةٖ ﴾ أَيْ: بِجِدٍّ وَحِرْصٍ وَاجْتِهَادٍ ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴾ أَيْ: الْفَهْمَ وَالْعِلْمَ، وَالْجِدَّ وَالْعَزْمَ، وَالْإِقْبَالَ

عَلَى الْخَيْرِ ، وَالْإِكْبَابَ عَلَيْهِ ، وَالِاجْتِهَادَ فِيهِ ، وَهُوَ صَغِيرٌ حَدَثٌ ، **وَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ** : أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَحَنَانًا ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ أَيْ : وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ وَحَنَانًا وَزَكَاةً ، أَيْ : وَجَعَلْنَاهُ ذَا حَنَانٍ وَزَكَاةٍ ، فَالْحَنَانُ هُوَ : الْمَحَبَّةُ فِي شَفَقَةٍ وَمَيْلٍ ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ : حَنَّتِ النَّاقَةُ عَلَى وَلَدِهَا ، وَحَنَّتِ الْمَرْأَةُ عَلَى زَوْجِهَا . ﴿ وَزَكَوٰةً ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿ وَحَنَانًا ﴾ ، فَالزَّكَاةُ : الطَّهَارَةُ مِنَ الدَّنَسِ وَالْآثَامِ وَالذُّنُوبِ ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ **قِيلَ** : طَهُرَ فَلَمْ يَعْمَلْ بِذَنْبٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى طَاعَتَهُ لِرَبِّهِ ، وَأَنَّهُ خَلَقَهُ ذَا رَحْمَةٍ وَزَكَاةٍ وَتُقًى ، عَطَفَ بِذِكْرِ طَاعَتِهِ لِوَالِدَيْهِ وَبِرِّهِ بِهِمَا وَمُجَانَبَتِهِ عُقُوقَهُمَا ، قَوْلًا وَفِعْلًا أَمْرًا وَنَهْيًا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ ثُمَّ قَالَ بَعْدَ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ جَزَاءً لَهُ عَلَى ذَلِكَ : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ أَيْ : لَهُ الْأَمَانُ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْأَحْوَالِ .

وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ زَكَرِيَّا عليه السلام وَأَنَّهُ أَوْجَدَ مِنْهُ فِي حَالِ كِبَرِهِ وَعُقْمِ زَوْجَتِهِ وَلَدًا زَكِيًّا طَاهِرًا ، مُبَارَكًا عَطَفَ بِذِكْرِ قِصَّةِ مَرْيَمَ فِي إِيجَادِهِ وَلَدَهَا عِيسَى عليه السلام مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أَبٍ ، لِيُدِلَّ عِبَادَهُ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَظَمَةِ سُلْطَانِهِ ، وَأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ ، **فَقَالَ** : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ وَهِيَ : مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ مِنْ سُلَالَةِ دَاوُدَ عليه السلام ، وَكَانَتْ مِنْ بَيْتٍ طَاهِرٍ طَيِّبٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَنَشَأَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ نَشْأَةً عَظِيمَةً ، فَكَانَتْ إِحْدَى الْعَابِدَاتِ النَّاسِكَاتِ الْمَشْهُورَاتِ بِالْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ وَالتَّبَتُّلِ وَالدُّءُوبِ ، وَكَانَتْ فِي كَفَالَةِ زَوْجِ أُخْتِهَا زَكَرِيَّا نَبِيِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ ذَاكَ وَعَظِيمِهِمُ الَّذِي يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي دِينِهِمْ ، وَرَأَى لَهَا زَكَرِيَّا مِنَ الْكَرَامَاتِ الْهَائِلَةِ مَا بَهَرَهُ ﴿ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ أَيْ : اِعْتَزَلَتْهُمْ وَتَنَحَّتْ عَنْهُمْ وَذَهَبَتْ إِلَى شَرْقِ الْمَسْجِدِ الْمُقَدَّسِ . **وَقِيلَ** : ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ شَاسِعًا مُتَنَحِّيًا ، ﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ أَيْ : اِسْتَتَرَتْ مِنْهُمْ وَتَوَارَتْ ، فَأَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهَا جِبْرِيلَ عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ أَيْ : عَلَى صُورَةِ إِنْسَانٍ تَامٍّ كَامِلٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ أَيْ : لَمَّا تَبَدَّى لَهَا الْمَلَكُ فِي صُورَةِ بَشَرٍ ، وَهِيَ فِي مَكَانٍ مُنْفَرِدٍ وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ قَوْمِهَا حِجَابٌ ، خَافَتْهُ وَظَنَّتْ أَنَّهُ يُرِيدُهَا عَلَى نَفْسِهَا ، فَقَالَتْ :

﴿ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾ أَيْ : إِنْ كُنْتَ تَخَافُ اللهَ ، تَذْكِيرًا لَهُ بِالله ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ فِي الدَّفْعِ أَنْ يَكُونَ بِالأَسْهَلِ فَالأَسْهَلِ ، فَخَوَّفَتْهُ أَوَّلًا بِالله ﷻ ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أَيْ : فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ مُجِيبًا لَهَا وَمُزِيلًا لِمَا حَصَلَ عِنْدَهَا مِنَ الْخَوْفِ عَلَى نَفْسِهَا : لَسْتُ مِمَّا تَظُنِّينَ وَلَكِنِّي رَسُولُ رَبِّكِ ، أَيْ : بَعَثَنِي اللهُ إِلَيْكِ ، وَيُقَالُ إِنَّهَا لَمَّا ذَكَرَتِ الرَّحْمَنَ اِنْتَفَضَ جِبْرِيلُ فَرَقًا وَعَادَ إِلَى هَيْئَتِهِ ، **وَقَالَ** : ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ ﴾ أَيْ : فَتَعَجَّبَتْ مَرْيَمُ مِنْ هَذَا ، وَقَالَتْ : كَيْفَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ ؟ أَيْ : عَلَى أَيِّ صِفَةٍ يُوجَدُ هَذَا الْغُلَامُ مِنِّي ، وَلَسْتُ بِذَاتِ زَوْجٍ وَلَا يُتَصَوَّرُ مِنِّي الْفُجُورُ ؟ ، **وَلِهَذَا قَالَتْ** : ﴿ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴾ ، وَالْبَغِيُّ : هِيَ الزَّانِيَةُ . ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ ﴾ أَيْ : فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ مُجِيبًا لَهَا عَمَّا سَأَلَتْ : إِنَّ اللهَ قَدْ قَالَ إِنَّهُ سَيُوجَدُ مِنْكِ غُلَامًا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكِ بَعْلٌ وَلَا يُوجَدُ مِنْكِ فَاحِشَةٌ ، فَإِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ أَيْ : دَلَالَةً وَعَلَامَةً لِلنَّاسِ عَلَى قُدْرَةِ بَارِئِهِمْ وَخَالِقِهِمْ ، الَّذِي نَوَّعَ فِي خَلْقِهِمْ ، فَخَلَقَ أَبَاهُمْ آدَمَ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى ، وَخَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى ، وَخَلَقَ بَقِيَّةَ الذُّرِّيَّةِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى إِلَّا عِيسَى فَإِنَّهُ أَوْجَدَهُ مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ ، فَتَمَّتِ الْقِسْمَةُ الرُّبَاعِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ . ﴿ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّا ﴾ أَيْ : وَنَجْعَلُ هَذَا الْغُلَامَ رَحْمَةً مِنَ اللهِ ، نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ، يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَتَوْحِيدِهِ . ﴿ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ كَلَامِ جِبْرِيلَ لِمَرْيَمَ ، يُخْبِرُهَا أَنَّ هَذَا أَمْرٌ مُقَدَّرٌ فِي عِلْمِ اللهِ تَعَالَى وَقَدَرِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ خَبَرِ اللهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَنَّهُ كَنَّى بِهَذَا عَنِ النَّفْخِ فِي فَرْجِهَا ، **قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ** : ﴿ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾ أَيْ : إِنَّ اللهَ قَدْ عَزَمَ عَلَى هَذَا فَلَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ .

فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مَرْيَمَ : أَنَّهَا لَمَّا قَالَ لَهَا جِبْرِيلُ عَنِ اللهِ تَعَالَى مَا قَالَ ، إِنَّهَا اِسْتَسْلَمَتْ لِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَى ، **فَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ** : أَنَّ الْمَلَكَ وَهُوَ جِبْرَائِيلُ عليه السلام عِنْدَ ذَلِكَ نَفَخَ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا ، فَنَزَلَتِ النَّفْخَةُ حَتَّى وَلَجَتْ فِي الْفَرْجِ ، فَحَمَلَتْ بِالْوَلَدِ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى ، فَلَمَّا حَمَلَتْ بِهِ ضَاقَتْ ذَرْعًا وَلَمْ تَدْرِ مَاذَا تَقُولُ لِلنَّاسِ ، فَإِنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ لَا يُصَدِّقُونَهَا فِيمَا تُخْبِرُهُمْ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾ أَيْ : فَاضْطَرَّهَا وَأَلْجَأَهَا الطَّلْقُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ، وَهِيَ نَخْلَةٌ فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَنَحَّتْ إِلَيْهِ . وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ الَّذِي تَلَقَّاهُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ

عَنْ بَعْضٍ ، وَلَا تَشُكُّ فِيهِ النَّصَارَى : أَنَّهُ بِبَيْتِ لَحْمٍ ، **وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهَا** : ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ **فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ تَمَنِّي الْمَوْتِ عِنْدَ الْفِتْنَةِ** ، فَإِنَّهَا عَرَفَتْ أَنَّهَا سَتُبْتَلَى وَتُمْتَحَنُ بِهَذَا الْمَوْلُودِ ، الَّذِي لَا يَحْمِلُ النَّاسُ أَمْرَهَا فِيهِ عَلَى السَّدَادِ وَلَا يُصَدِّقُونَهَا فِي خَبَرِهَا ، وَبَعْدَمَا كَانَتْ عِنْدَهُمْ عَابِدَةً نَاسِكَةً تُصْبِحُ عِنْدَهُمْ فِيمَا يَظُنُّونَ عَاهِرَةً زَانِيَةً ، فَقَالَتْ : ﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾ أَيْ : قَبْلَ هَذَا الْحَالِ ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أَيْ : لَمْ أُخْلَقْ وَلَمْ أَكُ شَيْئًا .

فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

قَرَأَ بَعْضُهُمْ : (مَنْ تَحْتَهَا) بِمَعْنَى : الَّذِي تَحْتَهَا ، **وَقَرَأَ الْآخَرُونَ** ﴿ مِن تَحْتِهَآ ﴾ عَلَى أَنَّهُ حَرْفُ جَرٍّ ، وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِذَلِكَ : **فَقِيلَ** : جِبْرِيلُ نَادَاهَا مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي . قَالَهُ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ ﴾ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ . ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ أَيْ : نَادَاهَا قَائِلًا : لَا تَحْزَنِي ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ هُوَ النَّهْرُ الصَّغِيرُ . ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ أَيْ : وَخُذِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا كَانَتْ شَجَرَةً وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ فِي إِبَّانِ ثَمَرِهَا ، وَلِهَذَا امْتَنَّ عَلَيْهَا بِذَلِكَ بِأَنْ جَعَلَ عِنْدَهَا طَعَامًا وَشَرَابًا ، **فَقَالَ** : ﴿ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ أَيْ : طِيبِي نَفْسًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ أَيْ : مَهْمَا رَأَيْتِ مِنْ أَحَدٍ ﴿ فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ الْمُرَادُ بِهَذَا الْقَوْلِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ ، لَا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْقَوْلُ اللَّفْظِيُّ .

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مَرْيَمَ حِينَ أُمِرَتْ أَنْ تَصُومَ يَوْمَهَا ذَلِكَ ، وَأَنْ لَا تُكَلِّمَ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ ؛ فَإِنَّهَا سَتُكْفَى أَمْرَهَا وَيُقَامُ بِحُجَّتِهَا ، فَسَلَّمَتْ لِأَمْرِ الله ﷻ وَاسْتَسْلَمَتْ لِقَضَائِهِ ، فَأَخَذَتْ وَلَدَهَا ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا كَذَلِكَ أَعْظَمُوا أَمْرَهَا وَاسْتَنْكَرُوهُ جِدًّا وَ ﴿ قَالُوا۟

يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ أَيْ : أَمْرًا عَظِيمًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أَيْ : أَنَّهُمْ لَمَّا اِسْتَرَابُوا فِي أَمْرِهَا وَاسْتَنْكَرُوا قَضِيَّتَهَا ، وَقَالُوا لَهَا مَا قَالُوا مُعَرِّضِينَ بِقَذْفِهَا وَرَمْيِهَا بِالْفِرْيَةِ ، وَقَدْ كَانَتْ يَوْمَهَا ذَلِكَ صَائِمَةً صَامِتَةً ، فَأَحَالَتِ الْكَلَامَ عَلَيْهِ وَأَشَارَتْ لَهُمْ إِلَى خِطَابِهِ وَكَلَامِهِ ، فَقَالُوا مُتَهَكِّمِينَ بِهَا ظَانِّينَ أَنَّهَا تَزْدَرِي بِهِمْ وَتَلْعَبُ بِهِمْ : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أَيْ : مَنْ هُوَ مَوْجُودٌ فِي مَهْدِهِ فِي حَالِ صِبَاهُ وَصِغَرِهِ كَيْفَ يَتَكَلَّمُ ؟ ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ نَزَّهَ جَنَابَ رَبِّهِ تَعَالَى ، وَبَرَّأَهُ عَنِ الْوَلَدِ ، وَأَثْبَتَ لِنَفْسِهِ الْعُبُودِيَّةَ لِرَبِّهِ ﴿ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ أَيْ : وَجَعَلَنِي مُعَلِّمًا لِلْخَيْرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى ﴾ أَيْ : وَأَمَرَنِي بِبِرِّ وَالِدَتِي ، ذَكَرَهُ بَعْدَ طَاعَةِ رَبِّهِ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَقْرِنُ بَيْنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ وَطَاعَةِ الْوَالِدَيْنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أَيْ : وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَبِرِّ وَالِدَتِي فَأَشْقَى بِذَلِكَ . قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : لَا تَجِدُ أَحَدًا عَاقًّا لِوَالِدَيْهِ إِلَّا وَجَدْتَهُ جَبَّارًا شَقِيًّا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ إِثْبَاتٌ مِنْهُ لِعُبُودِيَّتِهِ لله ﷻ ، وَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ خَلْقِ الله يَحْيَا وَيَمُوتُ وَيُبْعَثُ كَسَائِرِ الْخَلَائِقِ ، وَلَكِنْ لَهُ السَّلَامَةُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الَّتِي هِيَ أَشَقُّ مَا يَكُونُ عَلَى الْعِبَادِ صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - ذَلِكَ الَّذِي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ مِنْ خَبَرِ عِيسَى عليه السلام ﴿ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أَيْ : يَخْتَلِفُ الْمُبْطِلُونَ وَالْمُحِقُّونَ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ وَكَفَرَ بِهِ ، وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ خَلَقَهُ عَبْدًا نَبِيًّا نَزَّهَ نَفْسَهُ الْمُقَدَّسَةَ وَقَالَ : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ﴾ أَيْ : عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أَيْ : إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِهِ فَيَصِيرُ كَمَا يَشَاءُ . ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ أَيْ : وَمِمَّا أَمَرَ بِهِ عِيسَى قَوْمَهُ وَهُوَ فِي مَهْدِهِ : أَنْ أَخْبَرَهُمْ إِذْ ذَاكَ أَنَّ اللهَ رَبُّهُ وَرَبُّهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ ، فَقَالَ : ﴿ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أَيْ : هَـذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ عَنِ الله

﴿ صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أَيْ : قَوِيمُ مَنِ اتَّبَعَهُ رَشَدَ وَهُدِيَ ، وَمَنْ خَالَفَهُ ضَلَّ وَغَوَى .

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ أَيْ : اِخْتَلَفَ قَوْلُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي عِيسَى بَعْدَ بَيَانِ أَمْرِهِ وَوُضُوحِ حَالِهِ ، وَأَنَّهُ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، فَصَمَّمَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ وَهُمْ جُمْهُورُ الْيَهُودِ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ الله - عَلَى أَنَّهُ وَلَدُ زِنْيَةٍ ، وَقَالُوا كَلَامُهُ هَذَا سِحْرٌ ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى : إِنَّمَا تَكَلَّمَ الله ، وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ هُوَ اِبْنُ الله ، وَقَالَ آخَرُونَ : ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ، وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ هُوَ عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ ، وَهَذَا هُوَ قَوْلُ الْحَقِّ الَّذِي أَرْشَدَ الله إِلَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ كَذَبَ عَلَى الله ، وَافْتَرَى وَزَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا ، وَلَكِنْ أَنْظَرَهُمْ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : إِنَّهُمْ يَكُونُونَ أَسْمَعَ شَيْءٍ وَأَبْصَرَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ أَيْ : مَا أَسْمَعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ﴿ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ وَلَا يَعْقِلُونَ فَحَيْثُ يُطْلَبُ مِنْهُمُ الْهُدَى لَا يَهْتَدُونَ وَيَكُونُونَ مُطِيعِينَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ أَيْ : أَنْذِرِ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴿ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أَيْ : فُصِلَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ ، وَصَارَ كُلٌّ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ مُخَلَّدًا فِيهِ ﴿ وَهُمْ ﴾ أَيْ : الْيَوْمُ ﴿ فِى غَفْلَةٍ ﴾ عَمَّا أُنْذِرُوا بِهِ يَوْمَ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : لَا يُصَدِّقُونَ بِهِ .

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ وَاتْلُ عَلَى قَوْمِكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ ، وَاذْكُرْ لَهُمْ مَا كَانَ مِنْ خَبَرِ إِبْرَاهِيمَ - خَلِيلِ الرَّحْمَنِ - الَّذِينَ هُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ وَيَدَّعُونَ

أَنَّهُمْ عَلَى مِلَّتِهِ ، وَقَدْ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا مَعَ أَبِيهِ ، كَيْفَ نَهَاهُ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ فَقَالَ : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾ أَيْ : لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَدْفَعُ عَنْكَ ضَرَرًا . ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ ﴾ يَقُولُ : وَإِنْ كُنْتُ مِنْ صُلْبِكَ وَتَرَانِي أَصْغَرَ مِنْكَ لأَنِّي وَلَدُكَ ، فَاعْلَمْ أَنِّي قَدِ اطَّلَعْتُ مِنَ الْعِلْمِ مِنَ اللهِ ، عَلَى مَا لَمْ تَعْلَمهُ أَنْتَ وَلَا اطَّلَعْتَ عَلَيْهِ وَلَا جَاءَكَ بَعْدُ ﴿ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾ أَيْ : طَرِيقًا مُسْتَقِيمًا مُوَصِّلًا إِلَى نَيْلِ الْمَطْلُوبِ ، وَالنَّجَاةِ مِنَ الْمَرْهُوبِ . ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَ ﴾ أَيْ : لَا تُطِعْهُ فِي عِبَادَتِكَ هَذِهِ الْأَصْنَامِ ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الدَّاعِي إِلَى ذَلِكَ وَالرَّاضِي بِهِ . ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴾ أَيْ : مُخَالِفًا مُسْتَكْبِرًا عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ فَطَرَدَهُ وَأَبْعَدَهُ ، فَلَا تَتَّبِعْهُ تَصِرْ مِثْلَهُ .

يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ أَيْ : عَلَى شِرْكِكَ وَعِصْيَانِكَ لِمَا آمُرُكَ بِهِ ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾ يَعْنِي : فَلَا يَكُون لَكَ مَوْلًى وَلَا نَاصِرًا وَلَا مُغِيثًا إِلَّا إِبْلِيس ، وَلَيْسَ إِلَيْهِ وَلَا إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، بَلِ اتِّبَاعُكَ لَهُ مُوجِبٌ لِإِحَاطَةِ الْعَذَابِ بِكَ .

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ جَوَابِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ لِوَلَدِهِ إِبْرَاهِيم فِيمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾ يَعْنِي : إِنْ كُنْتَ لَا تُرِيدُ عِبَادَتَهَا وَلَا تَرْضَاهَا ، فَانْتَهِ عَنْ سَبِّهَا وَشَتْمِهَا وَعَيْبِهَا ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَنْتَهِ عَنْ ذَلِكَ اقْتَصَصْتُ مِنْكَ وَشَتَمْتُكَ وَسَبَبْتُكَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : دَهْرًا ، قِيلَ : زَمَانًا طَوِيلًا ، قِيلَ : سَوِيًّا ، سَالِمًا ، قَبْلَ أَنْ تُصِيبَكَ مِنِّي عُقُوبَةٌ . فَعِنْدَهَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَ ﴾ يَعْنِي : أَمَّا أَنَا فَلَا يَنَالُكَ مِنِّي مَكْرُوهٌ وَلَا أَذًى ، وَذَلِكَ لِحُرْمَةِ الْأُبُوَّةِ ﴿ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ﴾ أي : وَلَكِنْ سَأَسْأَلُ اللهَ فِيكَ أَنْ يَهْدِيكَ وَيَغْفِرَ ذَنْبَكَ ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾ لَطِيفًا ، أَيْ : فِي أَنْ هَدَانِي لِعِبَادَتِهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ . وَقَدِ اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ لِأَبِيهِ مُدَّةً طَوِيلَةً ، ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ أَقْلَعَ عَنْ ذَلِكَ وَرَجَعَ عَنْهُ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴾ [التوبة : ١١٣ - ١١٤]

وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾

فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : أَجْتَنِبُكُمْ وَأَتَبَرَّأُ مِنْكُمْ وَمِنْ آلِهَتِكُمُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ ﴿ وَأَدْعُواْ رَبِّي ﴾ أَيْ : وَأَعْبُدُ رَبِّي وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ وَعَسَى هَذِهِ مُوجِبَةٌ لَا مَحَالَةَ ؛ فَإِنَّهُ ﷺ سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ .

يَقُولُ تَعَالَى فَلَمَّا اعْتَزَلَ الْخَلِيلُ أَبَاهُ وَقَوْمَهُ فِي اللهِ ، أَبْدَلَهُ اللهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَوَهَبَ لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَلِهَذَا إِنَّمَا ذَكَرَ هَاهُنَا إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، أَيْ : جَعَلْنَا لَهُ نَسْلًا وَعَقِبًا ، أَنْبِيَاءَ أَقَرَّ اللهُ بِهِمْ عَيْنَهُ فِي حَيَاتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ يَعْقُوبُ ﷺ قَدْ نُبِّئَ فِي حَيَاةِ إِبْرَاهِيمَ لَمَا اقْتَصَرَ عَلَيْهِ وَلَذَكَرَ وَلَدَهُ يُوسُفَ ؛ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ أَيْضًا .

وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ يَعْنِي : الثَّنَاءُ الْحَسَنُ ، ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ مَعْنَاهُ : أَنَّهُ كَانَ مُصْطَفًى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأعراف : ١٤٤] ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ جَمَعَ اللهُ لَهُ بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ ، فَإِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ الْكِبَارِ أُولِي الْعَزْمِ الْخَمْسَةِ . ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ﴾ أَيْ : الْجَانِبِ ﴿ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ مِنْ مُوسَى حِينَ ذَهَبَ يَبْتَغِي مِنْ تِلْكَ النَّارِ جِذْوَةً رَآهَا تَلُوحُ فَقَصَدَهَا ، فَوَجَدَهَا فِي جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ مِنْهُ غَرْبِيَّةً عِنْدَ شَاطِئِ الْوَادِي ، فَكَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى ، نَادَاهُ وَقَرَّبَهُ وَنَاجَاهُ . ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ أَيْ : وَأَجَبْنَا سُؤَالَهُ وَشَفَاعَتَهُ فِي أَخِيهِ فَجَعَلْنَاهُ نَبِيًّا .

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

هَذَا ثَنَاءٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَلَى إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ – وَهُوَ وَالِدُ عَرَبِ الْحِجَازِ كُلِّهِمْ بِأَنَّهُ ﴿ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ . قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : لَمْ يَعِدْ رَبَّهُ عِدَةً إِلَّا أَنْجَزَهَا ، يَعْنِي : مَا الْتَزَمَ عِبَادَةً قَطُّ بِنَذْرٍ إِلَّا قَامَ بِهَا وَوَفَّاهَا حَقَّهَا . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّمَا قِيلَ لَهُ : ﴿ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ لِأَنَّهُ قَالَ لِأَبِيهِ : ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، فَصَدَقَ فِي ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ فِي هَـذَا دَلَالَةٌ عَلَى شَرَفِ إِسْمَاعِيلَ عَلَى أَخِيهِ إِسْحَاقَ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا

وُصِفَ بِالنُّبُوَّةِ فَقَطْ ، وَإِسْمَاعِيلُ وُصِفَ بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ هَذَا أَيْضًا مِنَ الثَّنَاءِ الْجَمِيلِ وَالصِّفَةِ الْحَمِيدَةِ وَالْخَلَّةِ السَّدِيدَةِ حَيْثُ كَانَ صَابِرًا عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ ﷺ آمِرًا بِهَا لِأَهْلِهِ .

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

ذَكَرَ إِدْرِيسَ ﵇ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ، وَأَنَّ اللهَ رَفَعَهُ مَكَانًا عَلِيًّا .

أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَؤُلَاءِ النَّبِيُّونَ - وَلَيْسَ الْمُرَادُ الْمَذْكُورِينَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ فَقَطْ بَلْ جِنْسُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، اِسْتَطْرَدَ مِنْ ذِكْرِ الْأَشْخَاصِ إِلَى الْجِنْسِ - ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ﴾ الْآيَة . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ أَيْ : إِذَا سَمِعُوا كَلَامَ اللهِ الْمُتَضَمِّنَ حُجَجَهُ وَدَلَائِلَهُ وَبَرَاهِينَهُ ، سَجَدُوا لِرَبِّهِمْ خُضُوعًا وَاسْتِكَانَةً ، حَمْدًا وَشُكْرًا عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ ، وَالْبُكِيُّ : جَمْعُ بَاكٍ .

۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حِزْبَ السُّعَدَاءِ وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْقَائِمِينَ بِحُدُودِ اللهِ وَأَوَامِرِهِ ، الْمُؤَدِّينَ فَرَائِضَ اللهِ ، التَّارِكِينَ لِزَوَاجِرِهِ ، ذَكَرَ أَنَّهُ ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أَيْ : قُرُونٌ أُخَرُ ﴿ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وَإِذَا أَضَاعُوهَا فَهُمْ لِمَا سِوَاهَا مِنَ الْوَاجِبَاتِ أَضْيَعُ ، وَأَقْبَلُوا عَلَى شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَمَلَاذِّهَا ، فَهَؤُلَاءِ ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ أَيْ : خَسَارًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . **وَقِيلَ** : شَرًّا ، **وَقِيلَ** : وَادٍ فِي جَهَنَّمَ بَعِيدُ الْقَعْرِ خَبِيثُ الطَّعْمِ . ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أَيْ : إِلَّا مَنْ رَجَعَ عَنْ تَرْكِ الصَّلَوَاتِ وَاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ ، فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ وَيُحْسِنُ عَاقِبَتَهُ ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّوْبَةَ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا ، وَلِهَذَا لَا يَنْقُصُ هَؤُلَاءِ التَّائِبُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا شَيْئًا .

جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ

مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : الْجَنَّاتُ الَّتِي يَدْخُلُهَا التَّائِبُونَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ هِيَ ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ أَيْ : إِقَامَةً ﴿ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ ﴾ بِظَهْرِ الْغَيْبِ . أَيْ : هِيَ مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَا رَأَوْهُ ، وَذَلِكَ لِشِدَّةِ إِيقَانِهِمْ وَقُوَّةِ إِيمَانِهِمْ ، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ تَأْكِيدٌ لِحُصُولِ ذَلِكَ وَثُبُوتِهِ وَاسْتِقْرَارِهِ ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ وَلَا يُبَدِّلُهُ ، **وَقَوْلُهُ هَاهُنَا** : ﴿ مَأْتِيًّا ﴾ أَيْ : الْعِبَادُ صَائِرُونَ إِلَيْهِ وَسَيَأْتُونَهُ ، **وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ** : ﴿ مَأْتِيًّا ﴾ بِمَعْنَى : آتِيًا ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا أَتَاكَ فَقَدْ أَتَيْتَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ أَيْ : هَذِهِ الْجَنَّاتُ لَيْسَ فِيهَا كَلَامٌ سَاقِطٌ تَافِهٌ لَا مَعْنَى لَهُ ، كَمَا قَدْ يُوجَدُ فِي الدُّنْيَا ﴿ إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ [الواقعة : ٢٥-٢٦] ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أَيْ : فِي مِثْلِ وَقْتِ الْبُكُرَاتِ وَوَقْتِ الْعَشِيَّاتِ ، لَا أَنَّ هُنَاكَ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَلَكِنَّهُمْ فِي أَوْقَاتٍ تَتَعَاقَبُ يَعْرِفُونَ مُضِيَّهَا بِأَضْوَاءٍ وَأَنْوَارٍ . ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ أَيْ : هَذِهِ الْجَنَّةُ الَّتِي وَصَفْنَا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْعَظِيمَةِ ، هِيَ الَّتِي نُورِثُهَا عِبَادَنَا الْمُتَّقِينَ ، وَهُمُ الْمُطِيعُونَ للهِ ﷻ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمُونَ الْغَيْظَ وَالْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ .

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِجِبْرَائِيلَ : « **مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا ؟** » قَالَ : فَنَزَلَتْ : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ . ﴿ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ **قِيلَ** : الْمُرَادُ بِـ : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ أَمْرُ الدُّنْيَا ، ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ أَمْرُ الْآخِرَةِ ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ **قِيلَ** : مَعْنَاهُ مَا نَسِيَكَ رَبُّكَ . ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أَيْ : خَالِقُ ذَلِكَ وَمُدَبِّرُهُ ، وَالْحَاكِمُ فِيهِ وَالْمُتَصَرِّفُ الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَعْنَاهُ** : هَلْ تَعْلَمُ لِلرَّبِّ مَثَلًا أَوْ شَبِيهًا ، **وَقِيلَ** : لَيْسَ أَحَدٌ يُسَمَّى الرَّحْمَنُ غَيْرَهُ . تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ اسْمُهُ .

وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ

مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ يَتَعَجَّبُ ، وَيَسْتَبْعِدُ إِعَادَتَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ . يَسْتَدِلُّ تَعَالَى بِالْبُدَاءَةِ عَلَى الْإِعَادَةِ ، يَعْنِي : أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ، أَفَلَا يُعِيدُهُ وَقَدْ صَارَ شَيْئًا ؟!. **وَقَوْلُهُ** : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ أَقْسَمَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَحْشُرَهُمْ جَمِيعًا ، وَشَيَاطِينَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ ، **قِيلَ** : **يَعْنِي قُعُودًا** .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ يَعْنِي : مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ **عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ** ﷺ **قَالَ** : يُحْبَسُ الْأَوَّلُ عَلَى الْآخِرِ ، حَتَّى إِذَا تَكَامَلَتِ الْعِدَّةُ أَتَاهُمْ جَمِيعًا ، ثُمَّ بَدَأَ بِالْأَكَابِرِ فَالْأَكَابِرِ جُرْمًا ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ أَهْلِ كُلِّ دِينٍ قَادَتَهُمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ فِي الشَّرِّ . ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ « ثُمَّ » هَاهُنَا لِعَطْفِ الْخَبَرِ عَلَى الْخَبَرِ ، **وَالْمُرَادُ** : أَنَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنَ الْعِبَادِ أَنْ يَصْلَى بِنَارِ جَهَنَّمَ وَيُخَلَّدُ فِيهَا وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ تَضْعِيفَ الْعَذَابِ .

وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ **فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قَالَ : الصِّرَاطُ عَلَى جَهَنَّمَ مِثْلُ حَدِّ السَّيْفِ ، فَتَمُرُّ الطَّبَقَةُ الْأُولَى : كَالْبَرْقِ ، وَالثَّانِيَةُ : كَالرِّيحِ ، وَالثَّالِثَةُ : كَأَجْوَدِ الْخَيْلِ ، وَالرَّابِعَةُ : كَأَجْوَدِ الْبَهَائِمِ ، ثُمَّ يَمُرُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ يَقُولُونَ : اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ . **وَعَنْ قَتَادَةَ** : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قَالَ : هُوَ الْمَمَرُّ عَلَيْهَا . **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ** : وُرُودُ الْمُسْلِمِينَ : الْمُرُورُ عَلَى الْجِسْرِ بَيْنَ ظَهْرَانِيهَا ، وَوُرُودُ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَدْخُلُوهَا ، **وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ **قِيلَ** : قَسَمًا وَاجِبًا : **وَقِيلَ** : قَضَاءً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ أَيْ : إِذَا مَرَّ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عَلَى النَّارِ ، وَسَقَطَ فِيهَا مَنْ سَقَطَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْعُصَاةِ ذَوِي الْمَعَاصِي بِحَسَبِهِمْ ، نَجَّى اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ مِنْهَا بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ ، فَجَوَازُهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ وَسُرْعَتُهُمْ بِقَدْرِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا .

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ حِينَ تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللهِ ظَاهِرَةُ الدَّلَالَةِ ، بَيِّنَةُ الْحُجَّةِ وَاضِحَةُ الْبُرْهَانِ أَنَّهُمْ يَصُدُّونَ وَيُعْرِضُونَ عَنْ ذَلِكَ ، وَيَقُولُونَ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا مُفْتَخِرِينَ عَلَيْهِمْ ، وَمُحْتَجِّينَ عَلَى صِحَّةِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ الْبَاطِلِ بِأَنَّهُمْ : ﴿ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ أَيْ : أَحْسَنُ مَنَازِلَ ، وَأَرْفَعُ دُورًا ، وَأَحْسَنُ نَدِيًّا - وَهُوَ مَجْمَعُ الرِّجَالِ لِلْحَدِيثِ - أَيْ : نَادِيهِمْ أَعْمَرُ وَأَكْثَرُ وَارِدًا وَطَارِقًا ، يَعْنُونَ : فَكَيْفَ نَكُونُ وَنَحْنُ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ عَلَى بَاطِلٍ ، وَأُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ مُخْتَفُونَ مُسْتَتِرُونَ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ وَنَحْوِهَا مِنَ الدُّورِ عَلَى الْحَقِّ ؟. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ شُبْهَتَهُمْ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ أَيْ : وَكَمْ مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ قَدْ أَهْلَكْنَاهُمْ بِكُفْرِهِمْ ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾ أَيْ : كَانُوا أَحْسَنَ مِنْ هَؤُلَاءِ أَمْوَالًا وَأَمْتِعَةً وَمَنَاظِرَ وَأَشْكَالًا .

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِرَبِّهِمْ ، الْمُدَّعِينَ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَأَنَّكُمْ عَلَى الْبَاطِلِ : ﴿ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ ﴾ أَيْ : مِنَّا وَمِنْكُمْ ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ أَيْ : فَأَمْهَلَهُ الرَّحْمَنُ فِيمَا هُوَ فِيهِ ، حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ وَيَنْقَضِيَ أَجَلُهُ ﴿ إِمَّا ٱلْعَذَابَ ﴾ يُصِيبُهُ ﴿ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ بَغْتَةً تَأْتِيهِ ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ حِينَئِذٍ ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ فِي مُقَابَلَةِ مَا احْتَجُّوا بِهِ مِنْ خَيْرِيَّةِ الْمَقَامِ وَحُسْنِ النَّدِيِّ . **قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ فَلْيَدَعْهُ اللهُ فِي طُغْيَانِهِ .

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى إِمْدَادَ مَنْ هُوَ فِي الضَّلَالَةِ فِيمَا هُوَ فِيهِ ، وَزِيَادَتَهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ ، أَخْبَرَ بِزِيَادَةِ الْمُهْتَدِينَ هُدًى . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ الْكَهْفِ ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ أَيْ : جَزَاءً ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ أَيْ : عَاقِبَةً وَمَرَدًّا عَلَى صَاحِبِهَا .

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ

مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ قَالَ : كُنْتُ رَجُلًا قَيْنًا ، وَكَانَ لِي عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ مِنْهُ ، فَقَالَ : لَا وَاللهِ لَا أَقْضِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ، فَقُلْتُ : لَا وَاللهِ لَا أَكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى تَمُوتَ ، ثُمَّ تُبْعَثَ ، قَالَ : فَإِنِّي إِذَا مِتُّ ثُمَّ بُعِثْتُ جِئْتَنِي وَلِي ثَمَّ مَالٌ وَوَلَدٌ فَأَعْطَيْتُكَ فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ ﴾ إِنْكَارٌ عَلَى هَذَا الْقَائِلِ : ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْ : أَعَلِمَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ حَتَّى تَأَلَّى وَحَلَفَ عَلَى ذَلِكَ ؟ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ أَمْ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ سَيُؤْتِيهِ ذَلِكَ ؟ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَلَّا ﴾ هِيَ حَرْفُ رَدْعٍ لِمَا قَبْلَهَا ، وَتَأْكِيدٌ لِمَا بَعْدَهَا ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أَيْ : مِنْ طَلَبِهِ ذَلِكَ وَحُكْمِهِ لِنَفْسِهِ بِمَا يَتَمَنَّاهُ ، وَكُفْرِهِ بِاللهِ الْعَظِيمِ ﴿ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَلَى قَوْلِهِ ذَلِكَ وَكُفْرِهِ بِاللهِ فِي الدُّنْيَا ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ ﴾ أَيْ : مِنْ مَالٍ وَوَلَدٍ نَسْلُبُهُ مِنْهُ ، عَكْس مَا قَالَ إِنَّهُ يُؤْتَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مَالًا وَوَلَدًا زِيَادَةً عَلَى الَّذِي لَهُ فِي الدُّنْيَا ، بَلْ فِي الْآخِرَةِ يُسْلَبُ مِنَ الَّذِي كَانَ لَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ أَيْ : لَا مَالَ لَهُ وَلَا وَلَدَ .

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ الْمُشْرِكِينَ بِرَبِّهِمْ : أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لِتَكُونَ تِلْكَ الْآلِهَةُ ﴿ عِزًّا ﴾ يَعْتَزُّونَ بِهَا وَيَسْتَنْصِرُونَهَا ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا وَلَا يَكُونُ مَا طَمِعُوا ، فَقَالَ : ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أَيْ : بِخِلَافِ مَا ظَنُّوا فِيهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أَيْ : بِخِلَافِ مَا رَجَوْا مِنْهُمْ . قُرَنَاءُ فِي النَّارِ يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَكْفُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ تَغْوِيهِمْ إِغْوَاءً ، وَتُغْرِيهِمْ إِغْرَاءً وَتَسْتَعْجِلُهُمْ اسْتِعْجَالًا ، وَقِيلَ : تُطْغِيهِمْ طُغْيَانًا . ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ أَيْ : لَا تَعْجَلْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى هَؤُلَاءِ فِي وُقُوعِ الْعَذَابِ بِهِمْ ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا نُؤَخِّرُهُمْ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ مَضْبُوطٍ ، وَهُمْ صَائِرُونَ لَا مَحَالَةَ إِلَى عَذَابِ اللهِ وَنَكَالِهِ .

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ خَافُوهُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، وَاتَّبَعُوا رُسُلَهُ وَصَدَّقُوهُمْ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ ، وَأَطَاعُوهُمْ فِيمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ ، وَانْتَهَوْا عَمَّا عَنْهُ زَجَرُوهُمْ ، أَنَّهُ يَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفْدًا إِلَيْهِ ، وَالْوَفْدُ : هُمُ الْقَادِمُونَ رُكْبَانًا ، وَمِنْهُ الْوُفُودُ وَرُكُوبُهُمْ عَلَى نَجَائِبَ مِنْ نُورٍ مِنْ مَرَاكِبِ الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَهُمْ قَادِمُونَ عَلَى خَيْرِ مَوْفُودٍ إِلَيْهِ ، إِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ وَرِضْوَانِهِ ، وَأَمَّا الْمُجْرِمُونَ الْمُكَذِّبُونَ لِلرُّسُلِ الْمُخَالِفُونَ لَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ يُسَاقُونَ عُنْفًا إِلَى النَّارِ ﴿ وِرْدًا ﴾ عِطَاشًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ **قِيلَ** : رُكْبَانًا ، **وَقِيلَ** : عَلَى الْإِبِلِ ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ أَيْ : عِطَاشًا ، ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ كَمَا يَشْفَعُ الْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ . ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، بِمَعْنَى : لَكِنْ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا وَهُوَ : شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَالْقِيَامُ بِحَقِّهَا .

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾

لَمَّا قَرَّرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الشَّرِيفَةِ عُبُودِيَّةَ عِيسَى عليه السلام وَذَكَرَ خَلْقَهُ مِنْ مَرْيَمَ بِلَا أَبٍ ، شَرَعَ فِي مَقَامِ الْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا - فَقَالَ : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ ﴾ أَيْ : فِي قَوْلِكُمْ هَذَا ﴿ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ أَيْ : عَظِيمًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ أَيْ : يَكَادُ يَكُونُ ذَلِكَ عِنْدَ سَمَاعِهِنَّ هَذِهِ الْمَقَالَةَ مِنْ فَجَرَةِ بَنِي آدَمَ إِعْظَامًا لِلرَّبِّ وَإِجْلَالًا . ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ أَيْ : يَتَشَقَّقْنَ فَرَقًا مِنْ عَظَمَةِ اللهِ ﴿ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ ﴾ أَيْ : غَضَبًا لَهُ عز وجل ﴿ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ **قِيلَ** : هَدْمًا . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ أَيْ : لَا يَصْلُحُ لَهُ وَلَا يَلِيقُ بِهِ لِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَا كُفْءَ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ عَبِيدٌ لَهُ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ أَيْ : قَدْ عَلِمَ عَدَدَهُمْ مُنْذُ خَلَقَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ذَكَرَهُمْ وَأُنْثَاهُمْ ، وَصَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

فَرْدًا ﴾ أَيْ : لَا نَاصِرَ لَهُ وَلَا مُجِيرَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَغْرِسُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ مَحَبَّةً وَمَوَدَّةً ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا مَحِيدَ عَنْهُ . ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ ، **أَيْ** : مَحَبَّةً فِي النَّاسِ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّهُمْ وَيُحَبِّبُهُمْ إِلَى خَلْقِهِ الْمُؤْمِنِينَ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ، وَهُوَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ الْمُبِينُ الْفَصِيحُ الْكَامِلُ ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : الْمُسْتَجِيبِينَ للهِ الْمُصَدِّقِينَ لِرَسُولِهِ ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ أَيْ : عِوَجًا عَنِ الْحَقِّ مَائِلِينَ إِلَى الْبَاطِلِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ فُجَّارًا . ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ أَيْ : مِنْ أُمَّةٍ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ أَيْ : هَلْ تَرَى مِنْهُمْ أَحَدًا أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا . يَعْنِي : صَوْتًا .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ مَرْيَمَ وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ

تفسيرُ سُورَةِ طـه — آياتها ١٣٥ — مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ طه ﴾ بِمَعْنَى يَا رَجُلُ ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَهُ الْمُبْطِلُونَ ، بَلْ مَنْ آتَاهُ اللهُ الْعِلْمَ فَقَدْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا كَثِيرًا ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ لَا ، وَاللهِ مَا جَعَلَهُ شَقَاءً ، وَلَكِنْ جَعَلَهُ رَحْمَةً وَنُورًا وَدَلِيلًا إِلَى الْجَنَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ : إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ كِتَابَهُ وَبَعَثَ رُسُلَهُ رَحْمَةً ، رَحِمَ بِهَا الْعِبَادَ ؛

لِيَتَذَكَّرَ ذَاكِرٌ ، وَيَنْتَفِعَ رَجُلٌ بِمَا سَمِعَ مِنْ كِتَابِ الله ، وَهُوَ ذِكْرٌ أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ ، ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ أَيْ : هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي جَاءَكَ يَا مُحَمَّدُ هُوَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّكَ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِه ، الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ ، الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ بِانْخِفَاضِهَا وَكَثَافَتِهَا وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى فِي ارْتِفَاعِهَا وَلَطَافَتِهَا ، ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي « سُورَةِ الْأَعْرَافِ » بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ أَيْضًا ، **وَأَنَّ الْمَسْلَكَ الْأَسْلَمَ فِي ذَلِكَ طَرِيقَةُ السَّلَفِ : إِمْرَارُ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَحْرِيفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَلَا تَمْثِيلٍ** . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ مُلْكُهُ وَفِي قَبْضَتِهِ ، وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، وَإِرَادَتِهِ وَحُكْمِهِ ، ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ أَيْ : أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ، الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، **وَقِيلَ** : ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ قَالَ : السِّرُّ : مَا تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ ، وَأَخْفَى : مَا لَمْ تُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَكَ بَعْدُ . **وَقِيلَ** : أَنْتَ تَعْلَمُ مَا تُسِرُّ الْيَوْمَ وَلَا تَعْلَمُ مَا تُسِرُّ غَدًا ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّ الْيَوْمَ وَمَا تُسِرُّ غَدًا ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَأَخْفَى ﴾ يَعْنِي : الْوَسْوَسَةُ . ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أَيْ : الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ هُوَ : اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ذُو الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ الْعُلَى .

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾

مِنْ هَاهُنَا شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَّةِ مُوسَى وَكَيْفَ كَانَ ابْتِدَاءُ الْوَحْيِ إِلَيْهِ وَتَكْلِيمِه إِيَّاهُ ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صِهْرِهِ فِي رِعَايَةِ الْغَنَمِ وَسَارَ بِأَهْلِهِ - قِيلَ : قَاصِدًا بِلَادَ مِصْرَ - بَعْدَمَا طَالَتِ الْغَيْبَةُ عَنْهَا أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ سِنِينَ ، وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ فَأَضَلَّ الطَّرِيقَ ، وَكَانَتْ لَيْلَةً شَاتِيَةً ، وَنَزَلَ مَنْزِلًا بَيْنَ شِعَابٍ وَجِبَالٍ ، فِي بَرْدٍ وَشِتَاءٍ وَسَحَابٍ وَظَلَامٍ وَضَبَابٍ ، وَجَعَلَ يَقْدَحُ بِزَنْدٍ مَعَهُ لِيُورِّيَ نَارًا كَمَا جَرَتْ لَهُ الْعَادَةُ بِهِ ، فَجَعَلَ لَا يَقْدَحُ شَيْئًا وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَرَرٌ وَلَا شَيْءٌ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ، أَيْ : ظَهَرَتْ لَهُ نَارٌ مِنْ جَانِبِ الْجَبَلِ الَّذِي هُنَاكَ عَنْ يَمِينِهِ فَقَالَ لِأَهْلِهِ يُبَشِّرُهُمْ : ﴿ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ أَيْ : شِهَابٌ مِنْ نَارٍ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ بِقَبَسٍ ﴾ دَلَّ عَلَى وُجُودِ الظَّلَامِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ أَيْ : مَنْ يَهْدِينِي الطَّرِيقَ ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ تَاهَ عَنِ الطَّرِيقِ .

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا ﴾ أَيْ : النَّارَ وَاقْتَرَبَ مِنْهَا ﴿ نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴾ ، ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ أَيْ : الَّذِي يُكَلِّمُكَ وَيُخَاطِبُكَ . ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ **قِيلَ** : إِنَّمَا أَمَرَهُ بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ تَعْظِيمًا لِلْبُقْعَةِ ، **وَقِيلَ** : لِيَطَأَ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ بِقَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ مُنْتَعِلٍ ، **وَقِيلَ** : غَيْرَ ذَلِكَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ طُوًى ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : هُوَ اسْمٌ لِلْوَادِي . فَعَلَى هَذَا يَكُونُ عَطْفَ بَيَانٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى ﴾ [الأعراف : ١٤٤] أَيْ : عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ مِنَ الْمَوْجُودِينَ فِي زَمَانِهِ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ أَيْ : اسْتَمِعِ الْآنَ مَا أَقُولُ لَكَ وَأُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ هَذَا أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى الْمُكَلَّفِينَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . ﴿ فَٱعْبُدْنِى ﴾ أَيْ : وَحِّدْنِي وَقُمْ بِعِبَادَتِي مِنْ غَيْرِ شِرْكٍ ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ مَعْنَاهُ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ عِنْدَ ذِكْرِكَ لِي . ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ أَيْ : قَائِمَةٌ لَا مَحَالَةَ ، وَكَائِنَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا ، ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : مِنْ نَفْسِهِ ، **وَقِيلَ** : لَا أُطْلِعُ عَلَيْهَا أَحَدًا غَيْرِي ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا قَدْ أَخْفَى اللهُ تَعَالَى عَنْهُ عِلْمَ السَّاعَةِ . ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ أَيْ : أُقِيمُهَا لَا مَحَالَةَ لِأَجْزِيَ كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ الْآيَةَ . الْمُرَادُ بِهَذَا الْخِطَابِ آحَادُ الْمُكَلَّفِينَ ، أَيْ : لَا تَتَّبِعُوا سَبِيلَ مَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ ﴿ فَتَرْدَىٰ ﴾ أَيْ : تَهْلِكَ وَتَعْطَبَ .

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾

هَـٰذَا بُرْهَانٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِمُوسَى عليه السلام ، وَمُعْجِزَةٌ عَظِيمَةٌ وَخَرْقٌ لِلْعَادَةِ بَاهِرٌ ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِ هَذَا إِلَّا اللهُ عز وجل ، وَأَنَّهُ لَا يَأْتِي بِهِ إِلَّا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ** : إِنَّمَا قَالَ لَهُ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِينَاسِ لَهُ ، **وَقِيلَ** : إِنَّمَا قَالَ لَهُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيرِ ، أَيْ : أَمَّا هَذِهِ الَّتِي فِي يَمِينِكَ – عَصَاكَ الَّتِي تَعْرِفُهَا – فَسَتَرَى مَا نَصْنَعُ بِهَا الْآنَ ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا ﴾ أَيْ : أَعْتَمِدُ عَلَيْهَا فِي حَالِ الْمَشْيِ ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ أَيْ : أَهُزُّ بِهَا الشَّجَرَةَ لِيَتَسَاقَطَ وَرَقُهَا لِتَرْعَاهُ غَنَمِي . ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ أَيْ : مَصَالِحُ وَمَنَافِعُ وَحَاجَاتٌ أُخَرُ غَيْرُ ذَلِكَ . ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴾ أَيْ :

هَذِهِ الْعَصَا الَّتِي فِي يَدِكَ يَا مُوسَى أَلْقِهَا ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ أَيْ : صَارَتْ فِي الْحَالِ حَيَّةً عَظِيمَةً ، ثُعْبَانًا طَوِيلًا يَتَحَرَّكُ حَرَكَةً سَرِيعَةً ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَيَّاتِ حَرَكَةً ، وَلَكِنَّهُ صَغِيرٌ فَهَذِهِ فِي غَايَةِ الْكِبَرِ ، وَفِي غَايَةِ سُرْعَةِ الْحَرَكَةِ ﴿ تَسْعَىٰ ﴾ أَيْ : تَمْشِي وَتَضْطَرِبُ . ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ أَيْ : إِلَى حَالِهَا الَّتِي تُعْرَفُ قَبْلَ ذَلِكَ .

وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

وَهَذَا بُرْهَانٌ ثَانٍ لِمُوسَى عليه السلام ، وَهُوَ أَنَّ اللهَ أَمَرَهُ أَنْ يُدْخِلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ ، كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ، وَهَاهُنَا عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ كَفَّهُ تَحْتَ عَضُدِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى عليه السلام كَانَ إِذَا أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهَا تَخْرُجُ تَتَلَأْلَأُ كَأَنَّهَا فِلْقَةُ قَمَرٍ ، ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أَيْ : مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ وَلَا أَذًى وَمِنْ غَيْرِ شَيْنٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ أَيْ : اِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ الَّذِي خَرَجْتَ فَارًّا مِنْهُ وَهَارِبًا ، فَادْعُهُ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَمُرْهُ فَلْيُحْسِنْ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا يُعَذِّبْهُمْ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ طَغَى وَبَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَنَسِيَ الرَّبَّ الْأَعْلَى . ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ هَذَا سُؤَالٌ مِنْ مُوسَى عليه السلام لِرَبِّهِ عز وجل أَنْ يَشْرَحَ لَهُ صَدْرَهُ فِيمَا بَعَثَهُ بِهِ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَمَرَهُ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ وَخَطْبٍ جَسِيمٍ ، بَعَثَهُ إِلَى أَعْظَمِ مَلِكٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ ، وَأَجْبَرِهِمْ وَأَشَدِّهِمْ كُفْرًا ، وَأَكْثَرِهِمْ جُنُودًا ، وَأَعْمَرِهِمْ مُلْكًا ، وَأَطْغَاهُمْ ، وَأَبْلَغِهِمْ تَمَرُّدًا ، بَلَغَ مِنْ أَمْرِهِ أَنِ ادَّعَى أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ اللهَ وَلَا يَعْلَمُ لِرَعَايَاهُ إِلَهًا غَيْرَهُ ، هَذَا وَقَدْ مَكَثَ مُوسَى فِي دَارِهِ مُدَّةً ، وَلِيدًا عِنْدَهُمْ فِي حِجْرِ فِرْعَوْنَ عَلَى فِرَاشِهِ ، ثُمَّ قَتَلَ مِنْهُمْ نَفْسًا فَخَافَهُمْ أَنْ يَقْتُلُوهُ ، فَهَرَبَ مِنْهُمْ هَذِهِ الْمُدَّةَ بِكَمَالِهَا ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا بَعَثَهُ رَبُّهُ عز وجل إِلَيْهِمْ نَذِيرًا يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ عز وجل أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ أَيْ : إِنْ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ عَوْنِي وَنَصِيرِي وَعَضُدِي وَظَهِيرِي وَإِلَّا فَلَا طَاقَةَ لِي بِذَلِكَ . ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ وَذَلِكَ لَمَّا كَانَ أَصَابَهُ مِنَ اللَّثَغِ حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ التَّمْرَةَ وَالْجَمْرَةَ ، فَأَخَذَ الْجَمْرَةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ ، وَمَا سَأَلَ أَنْ يَزُولَ ذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ ، بَلْ بِحَيْثُ يَزُولُ الْعِيُّ

وَيَحْصُلُ لَهُمْ فَهْمُ مَا يُرِيدُ مِنْهُ ، وَهُوَ قَدْرُ الْحَاجَةِ ، وَلَوْ سَأَلَ الْجَمِيعَ لَزَالَ ، وَلَكِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَسْأَلُونَ إِلَّا بِحَسَبِ الْحَاجَةِ ؛ وَلِهَذَا بَقِيَتْ بَقِيَّةٌ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف : ٥٢] أَيْ : يُفْصِحُ بِالْكَلَامِ ، **وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: شَكَا مُوسَى إِلَى رَبِّهِ مَا يَتَخَوَّفُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ فِي الْقَتِيلِ وَعُقْدَةِ لِسَانِهِ ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي لِسَانِهِ عُقْدَةٌ تَمْنَعُهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ ، وَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُعِينَهُ بِأَخِيهِ هَارُون يَكُونُ لَهُ رِدْءًا ، وَيَتَكَلَّمُ عَنْهُ بِكَثِيرٍ مِمَّا لَا يُفْصِحُ بِهِ لِسَانُهُ فَآتَاهُ سُؤْلَهُ فَحَلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝ هَٰرُونَ أَخِى ﴾ وَهَذَا أَيْضًا سُؤَالٌ مِنْ مُوسَى ﷺ فِي أَمْرٍ خَارِجِيٍّ عَنْهُ وَهُوَ مُسَاعَدَةُ أَخِيهِ هَارُونَ لَهُ . ﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : ظَهْرِي . ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾ أَيْ : فِي مُشَاوَرَتِي . ﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ أَيْ : فِي اصْطِفَائِكَ لَنَا وَإِعْطَائِكَ إِيَّانَا النُّبُوَّةَ ، وَبَعْثَتِكَ لَنَا إِلَى عَدُوِّكَ فِرْعَوْنَ ، فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ .

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ

هَذِهِ إِجَابَةٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ مُوسَى ﷺ فِيمَا سَأَلَ مِنْ رَبِّهِ ﷻ ، وَتَذْكِيرٌ لَهُ بِنِعَمِهِ السَّالِفَةِ عَلَيْهِ ، فِيمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ أُمِّهِ ، حِينَ كَانَتْ تُرْضِعُهُ وَتَحْذَرُ عَلَيْهِ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ أَنْ يَقْتُلُوهُ ، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ وُلِدَ فِي السَّنَةِ الَّتِي يَقْتُلُونَ فِيهَا الْغِلْمَانَ ، فَاتَّخَذَتْ لَهُ تَابُوتًا ، فَحَصَلَ لَهَا مِنَ الْغَمِّ وَالْهَمِّ ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾ أَيْ : عِنْدَ عَدُوِّكَ جَعَلْتُهُ يُحِبُّكَ . **قِيلَ** : حَبَّبْتُكَ إِلَى عِبَادِي ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ **وَقِيلَ** : تُرَبَّى بِعَيْنِ اللهِ . ﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا اسْتَقَرَّ عِنْدَ آلِ فِرْعَوْنَ عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ فَأَبَاهَا ، فَجَاءَتْ أُخْتُهُ وَقَالَتْ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يُرْضِعُهُ لَكُمْ بِالْأُجْرَةِ ؟ فَذَهَبَتْ بِهِ وَهُمْ مَعَهَا إِلَى أُمِّهِ فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ ثَدْيَهَا فَقَبِلَهُ ، فَفَرِحُوا بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا ، وَاسْتَأْجَرُوهَا عَلَى إِرْضَاعِهِ ، فَنَالَهَا بِسَبَبِهِ سَعَادَةً وَرِفْعَةً وَرَاحَةً فِي الدُّنْيَا ، وَفِي الْآخِرَةِ أَعْظَمُ وَأَجْزَلُ . ﴿ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أَيْ : عَلَيْكَ ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ يَعْنِي : الْقِبْطِيَّ ﴿ فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ وَهُوَ مَا حَصَلَ لَهُ بِسَبَبِ عَزْمِ آلِ فِرْعَوْنَ عَلَى قَتْلِهِ ،

فَفَرَّ مِنْهُمْ هَارِبًا حَتَّى وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ، وَقَالَ لَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[القصص : ٢٥]

فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِمُوسَى عليه السلام إِنَّهُ لَبِثَ مُقِيمًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ فَارًّا مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ يَرْعَى عَلَى صِهْرِهِ حَتَّى اِنْتَهَتِ الْمُدَّةُ وَانْقَضَى الْأَجَلُ ، ثُمَّ جَاءَ مُوَافِقًا لِقَدَرِ الله وَإِرَادَتِهِ مِنْ غَيْرِ مِيعَادٍ ، وَالْأَمْرُ كُلُّهُ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَهُوَ الْمُسَيِّرُ عِبَادَهُ وَخَلْقَهُ فِيمَا يَشَاءُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ أَيْ : عَلَى مَوْعِدٍ . **وَقِيلَ** : عَلَى قَدَرِ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ أَيْ : اِصْطَفَيْتُكَ وَاجْتَبَيْتُكَ رَسُولًا لِنَفْسِي ، أَيْ : كَمَا أُرِيدُ وَأَشَاءُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي ﴾ أَيْ : بِحُجَجِي وَبَرَاهِينِي وَمُعْجِزَاتِي ﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ **رُوِيَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: لَا تُبْطِئَا . **وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضًا** : لَا تَضْعُفَا . **وَالْمُرَادُ** : أَنَّهُمَا لَا يَفْتُرَانِ فِي ذِكْرِ الله ، بَلْ يَذْكُرَانِ اللهَ فِي حَالِ مُوَاجَهَةِ فِرْعَوْنَ ؛ لِيَكُونَ ذِكْرُ الله عَوْنًا لَهُمَا عَلَيْهِ ، وَقُوَّةً لَهُمَا وَسُلْطَانًا كَاسِرًا لَهُ . ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ أَيْ : تَمَرَّدَ وَعَتَا وَتَجَبَّرَ عَلَى الله وَعَصَاهُ ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا عِبْرَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَهُوَ أَنَّ فِرْعَوْنَ فِي غَايَةِ الْعُتُوِّ وَالِاسْتِكْبَارِ وَمُوسَى صَفْوَةُ الله مِنْ خَلْقِهِ إِذْ ذَاكَ ، وَمَعَ هَذَا أُمِرَ أَنْ لَا يُخَاطِبَ فِرْعَوْنَ إِلَّا بِالْمُلَاطَفَةِ وَاللِّينِ . ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ أَيْ : لَعَلَّهُ يَرْجِعُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْهَلَكَةِ ، ﴿ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ أَيْ : يُوجِدُ طَاعَةً مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِ ، فَالتَّذَكُّرُ : الرُّجُوعُ عَنِ الْمَحْذُورِ ، وَالْخَشْيَةُ : تَحْصِيلُ الطَّاعَةِ .

قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى وَهَارُونَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - إِنَّهُمَا قَالَا مُسْتَجِيرَيْنِ بِالله تَعَالَى شَاكِيَيْنِ إِلَيْهِ : ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ يَعْنِيَانِ أَنْ يَبْدُرَ إِلَيْهِمَا بِعُقُوبَةٍ أَوْ يَعْتَدِي

عَلَيْهِمَا فَيُعَاقِبهُمَا ، وَهُمَا لَا يَسْتَحِقَّانِ مِنْهُ ذَلِكَ . ﴿ أَن يَفْرُطَ ﴾ قِيلَ : يَعْجَل ﴿ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ قِيلَ : يَعْتَدِي . ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ أَيْ : لَا تَخَافَا مِنْهُ فَإِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ كَلَامَكُمَا وَكَلَامَهُ ، وَأَرَى مَكَانَكُمَا وَمَكَانَهُ ، لَا يَخْفَى عَلَيَّ مِنْ أَمْرِكُمْ شَيْءٌ ، وَاعْلَمَا أَنَّ نَاصِيَتَهُ بِيَدِي فَلَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَتَنَفَّسُ وَلَا يَبْطِشُ إِلَّا بِإِذْنِي ، وَبَعْدَ أَمْرِي وَأَنَا مَعَكُمَا بِحِفْظِي وَنَصْرِي وَتَأْيِيدِي . ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ مَكَثَا عَلَى بَابِهِ حِينًا لَا يُؤْذَنُ لَهُمَا ، ثُمَّ أَذِنَ لَهُمَا بَعْدَ حِجَابٍ شَدِيدٍ . ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾[طه : ٤٧] أَيْ : بِدَلَالَةٍ وَمُعْجِزَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ أَيْ : وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ إِنِ اتَّبَعْتَ الْهُدَى ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أَيْ : قَدْ أَخْبَرَنَا اللهُ فِيمَا أَوْحَاهُ إِلَيْنَا مِنَ الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ : أَنَّ الْعَذَابَ مُتَمَحِّضٌ لِمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَتَوَلَّى عَنْ طَاعَتِهِ .

قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ لِمُوسَى مُنْكِرًا وُجُودَ الصَّانِعِ الْخَالِقِ إِلَهِ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبِّهِ وَمَلِيكِهِ ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ أَيْ : الَّذِي بَعَثَكَ وَأَرْسَلَكَ مَنْ هُوَ ؟ فَإِنِّي لَا أَعْرِفُهُ وَمَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ، ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ قِيلَ : خَلَقَ لِكُلِّ شَيْءٍ زَوْجَةً ، وَقِيلَ : أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ صُورَتَهُ ، وَقِيلَ : سَوَّى خَلْقَ كُلِّ دَابَّةٍ .

وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى : ٣] أَيْ : قَدَّرَ قَدَرًا وَهَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ ، أَيْ : كَتَبَ الْأَعْمَالَ وَالْآجَالَ وَالْأَرْزَاقَ ، ثُمَّ الْخَلَائِقَ مَاشُونَ عَلَى ذَلِكَ لَا يَحِيدُونَ عَنْهُ وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى الْخُرُوجِ ، يَقُولُ رَبُّنَا الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ وَقَدَّرَ الْقَدَرَ وَجَبَلَ الْخَلِيقَةَ عَلَى مَا أَرَادَ .

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ، أَصَحُّ الْأَقْوَالِ فِي مَعْنَى ذَلِكَ : أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا أَخْبَرَهُ مُوسَى بِأَنَّ رَبَّهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ وَرَزَقَ وَقَدَّرَ فَهَدَى ، شَرَعَ يَحْتَجُّ بِالْقُرُونِ الْأُولَى ، أَيْ : الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدُوا اللهَ ، أَيْ : فَمَا بَالُهُمْ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ لَمْ يَعْبُدُوهُ بَلْ عَبَدُوا غَيْرَهُ ؟ فَقَالَ لَهُ مُوسَى فِي جَوَابِ ذَلِكَ : هُمْ وَإِنْ لَمْ يَعْبُدُوهُ فَإِنَّ عَمَلَهُمْ عِنْدَ اللهِ مَضْبُوطٌ عَلَيْهِمْ ، وَسَيَجْزِيهِمْ بِعَمَلِهِمْ فِي كِتَابِ اللهِ ، وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ وَكِتَابُ الْأَعْمَالِ ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ أَيْ : لَا يَشِذُّ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَفُوتُهُ صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ وَلَا يَنْسَى شَيْئًا . يَصِفُ عِلْمَهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْسَى شَيْئًا تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ ، فَإِنَّ عِلْمَ الْمَخْلُوقِ يَعْتَرِيهِ نُقْصَانَانِ ،

أَحَدُهُمَا : عَدَمُ الْإِحَاطَةِ بِالشَّيْءِ ، وَالْآخَر : نِسْيَانُهُ بَعْدَ عِلْمِهِ ، فَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ ذَلِكَ .

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾

هَذَا مِنْ تَمَامِ كَلَامِ مُوسَى فِيمَا وَصَفَ بِهِ رَبَّهُ ﷻ ، حِينَ سَأَلَهُ فِرْعَوْنُ عَنْهُ فَقَالَ : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ ، ثُمَّ اعْتَرَضَ الْكَلَامَ بَيْنَ ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ وَفِي قِرَاءَةِ بَعْضِهِمْ (مِهَادًا) أَيْ : قَرَارًا تَسْتَقِرُّونَ عَلَيْهَا ، وَتَقُومُونَ وَتَنَامُونَ عَلَيْهَا ، وَتُسَافِرُونَ عَلَى ظَهْرِهَا ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أَيْ : جَعَلَ لَكُمْ طُرُقًا تَمْشُونَ فِي مَنَاكِبِهَا ، ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ أَيْ : مِنْ أَنْوَاعِ النَّبَاتَاتِ مِنْ زُرُوعٍ وَثِمَارٍ ، وَمِنْ حَامِضٍ وَحُلْوٍ وَمُرٍّ وَسَائِرِ الْأَنْوَاعِ . ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ﴾ أَيْ : شَيْءٌ لِطَعَامِكُمْ وَفَاكِهَتِكُمْ ، وَشَيْءٌ لِأَنْعَامِكُمْ لِأَقْوَاتِهَا خَضِرًا وَيَبِسًا ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ﴾ أَيْ : لَدَلَالَاتٍ وَحُجَجٍ وَبَرَاهِينَ ﴿ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ أَيْ : لِذَوِي الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَرْضِ مَبْدَؤُكُمْ فَإِنَّ أَبَاكُمْ آدَمَ مَخْلُوقٌ مِنْ تُرَابٍ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أَيْ : وَإِلَيْهَا تَصِيرُونَ إِذَا مُتُّمْ وَبُلِيتُمْ ، ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ يَعْنِي : فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَجُ وَالْآيَاتُ وَالدَّلَالَاتُ وَعَايَنَ ذَلِكَ وَأَبْصَرَهُ ، فَكَذَّبَ بِهَا وَأَبَاهَا كُفْرًا وَعِنَادًا وَبَغْيًا .

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ لِمُوسَى حِينَ أَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى وَهِيَ إِلْقَاءُ عَصَاهُ فَصَارَتْ ثُعْبَانًا عَظِيمًا ، وَنَزَعَ يَدَهُ مِنْ تَحْتِ جَنَاحِهِ فَخَرَجَتْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فَقَالَ : هَذَا سِحْرٌ جِئْتَ بِهِ لِتَسْحَرَنَا وَتَسْتَوْلِي بِهِ عَلَى النَّاسِ فَيَتْبَعُونَكَ ، وَتُكَاثِرُنَا بِهِمْ وَلَا يَتِمُّ هَذَا مَعَكَ ، فَإِنَّ عِنْدَنَا سِحْرًا مِثْلَ سِحْرِكَ ، فَلَا يَغُرَّنَّكَ مَا أَنْتَ فِيهِ ﴿ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ أَيْ : يَوْمًا

نَجْتَمِعُ نَحْنُ وَأَنْتَ فِيهِ ، فَنُعَارِضُ مَا جِئْتَ بِهِ بِمَا عِنْدَكَ مِنَ السِّحْرِ فِي مَكَانٍ مُعَيَّنٍ وَوَقْتٍ مُعَيَّنٍ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿ قَالَ ﴾ لَهُمْ مُوسَى : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ عِيدِهِمْ وَتَفَرُّغِهِمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَاجْتِمَاعِ جَمِيعِهِمْ ؛ لِيُشَاهِدَ النَّاسُ قُدْرَةَ اللهِ عَلَى مَا يَشَاءُ ، وَبُطْلَانِ مُعَارَضَةِ السِّحْرِ لِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ النَّبَوِيَّةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ﴾ ، أَيْ : جَمِيعُهُمْ ﴿ ضُحًى ﴾ أَيْ : ضَحْوَةً مِنَ النَّهَارِ لِيَكُونَ أَظْهَرَ وَأَجْلَى وَأَبْيَنَ وَأَوْضَحَ ، وَهَكَذَا شَأْنُ الْأَنْبِيَاءِ كُلُّ أَمْرِهِمْ بَيِّنٌ وَاضِحٌ لَيْسَ فِيهِ خَفَاءٌ وَلَا تَرْوِيجٌ ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ لَيْلًا وَلَكِنْ نَهَارًا ضُحًى . ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ **قِيلَ** : مُنَصَّفًا : عَدْلًا . **وَقِيلَ** : ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ مُسْتَوٍ يَتَبَيَّنُ النَّاسُ مَا فِيهِ .

فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ لَمَّا تَوَاعَدَ هُوَ وَمُوسَى إِلَى وَقْتٍ وَمَكَانٍ مَعْلُومَيْنِ تَوَلَّى ، أَيْ : شَرَعَ فِي جَمْعِ السَّحَرَةِ مِنْ مَدَائِنِ مَمْلَكَتِهِ ، كُلُّ مَنْ يُنْسَبُ إِلَى السِّحْرِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، وَقَدْ كَانَ السِّحْرُ فِيهِمْ كَثِيرًا نَافِقًا جِدًّا ، ﴿ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ أَيْ : اِجْتَمَعَ النَّاسُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، وَهُوَ يَوْمُ الزِّينَةِ ، وَجَلَسَ فِرْعَوْنُ عَلَى سَرِيرِ مَمْلَكَتِهِ وَاصْطَفَّ لَهُ أَكَابِرُ دَوْلَتِهِ وَوَقَفَتِ الرَّعَايَا يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، وَأَقْبَلَ مُوسَى عليه السلام مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصَاهُ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ ، وَوَقَفَ السَّحَرَةُ بَيْنَ يَدَيْ فِرْعَوْنَ صُفُوفًا وَهُوَ يُحَرِّضُهُمْ وَيَحُثُّهُمْ وَيُرَغِّبُهُمْ فِي إِجَادَةِ عَمَلِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَيَتَمَنَّوْنَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ، فَـ ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أَيْ : لَا تُخَيِّلُوا لِلنَّاسِ بِأَعْمَالِكُمْ إِيجَادَ أَشْيَاءَ لَا حَقَائِقَ لَهَا ، وَإِنَّهَا مَخْلُوقَةٌ وَلَيْسَتْ مَخْلُوقَةً ، فَتَكُونُونَ قَدْ كَذَبْتُمْ عَلَى اللهِ ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ أَيْ : يُهْلِكَكُمْ بِعُقُوبَةٍ هَلَاكًا لَا بَقِيَّةَ لَهُ ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم ﴾ **قِيلَ** : مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ تَشَاجَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ فَقَائِلٌ يَقُولُ : لَيْسَ هَذَا بِكَلَامِ سَاحِرٍ إِنَّمَا هَذَا كَلَامُ نَبِيٍّ ، وَقَائِلٌ يَقُولُ : بَلْ هُوَ سَاحِرٌ ، **وَقِيلَ غَيْرُ هَذَا** ، وَاللهُ أَعْلَمُ . ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾ أَيْ : تَنَاجَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ ﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ . **وَالْغَرَضُ** : أَنَّ السَّحَرَةَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ : تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ وَأَخَاهُ - يَعْنُونَ مُوسَى وَهَارُونَ - سَاحِرَانِ عَالِمَانِ خَبِيرَانِ بِصِنَاعَةِ السِّحْرِ ، يُرِيدَانِ فِي هَذَا الْيَوْمِ أَنْ يَغْلِبَاكُمْ وَقَوْمَكُمْ ، وَيَسْتَوْلِيَا عَلَى النَّاسِ وَتَتْبَعُهُمَا الْعَامَّةُ ، وَيُقَاتِلَا فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ

فَيُنْصَرَا عَلَيْهِ وَيُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ، ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ أَيْ : وَيَسْتَبِدَّا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَهِيَ السِّحْرُ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُعَظَّمِينَ بِسَبَبِهَا لَهُمْ أَمْوَالٌ وَأَرْزَاقٌ عَلَيْهَا ، يَقُولُونَ : إِذَا غَلَبَ هَذَانِ أَهْلَكَاكُمْ وَأَخْرَجَاكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَتَفَرَّدَا بِذَلِكَ ، وَتَمَحَّضَتْ لَهُمَا الرِّيَاسَةُ بِهَا دُونَكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ﴾ أَيْ : اِجْتَمِعُوا كُلُّكُمْ صَفًّا وَاحِدًا ، وَأَلْقُوا مَا فِي أَيْدِيكُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً ، لِتُبْهِرُوا الْأَبْصَارَ وَتَغْلِبُوا هَذَا وَأَخَاهُ ، ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ أَيْ : مِنَّا وَمِنْهُ ، أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ وَعَدَنَا هَذَا الْمَلِكُ الْعَطَاءَ الْجَزِيلَ ، وَأَمَّا هُوَ فَيَنَالُ الرِّيَاسَةَ الْعَظِيمَةَ .

قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ السَّحَرَةِ حِينَ تَوَافَقُوا هُمْ وَمُوسَى عليه السلام أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾ أَيْ : أَنْتَ أَوَّلًا ﴿ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ أَوَّلًا لِنَرَى مَاذَا تَصْنَعُونَ مِنَ السِّحْرِ ، وَلِيَظْهَرَ لِلنَّاسِ جَلِيَّةُ أَمْرِهِمْ ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ أَوْدَعُوهَا مِنَ الزِّئْبَقِ مَا كَانَتْ تَتَحَرَّكُ بِسَبَبِهِ وَتَضْطَرِبُ وَتَمِيدُ ، بِحَيْثُ يُخَيَّلُ لِلنَّاظِرِ أَنَّهَا تَسْعَى بِاخْتِيَارِهَا ، وَإِنَّمَا كَانَتْ حِيلَةً وَكَانُوا جَمًّا غَفِيرًا وَجَمْعًا كَثِيرًا ، فَأَلْقَى كُلٌّ مِنْهُمْ عَصًا وَحَبْلًا حَتَّى صَارَ الْوَادِي مَلْآنَ حَيَّاتٌ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ أَيْ : خَافَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُفْتَنُوا بِسِحْرِهِمْ وَيَغْتَرُّوا بِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَ مَا فِي يَمِينِهِ ، فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ أَنْ ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ يَعْنِي : عَصَاكَ ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهَا صَارَتْ تِنِّينًا عَظِيمًا هَائِلًا ذَا عُيُونٍ وَقَوَائِمَ وَعُنُقٍ وَرَأْسٍ وَأَضْرَاسٍ فَجَعَلَتْ تَتْبَعُ تِلْكَ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ حَتَّى لَمْ تُبْقِ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا تَلَقَّفَتْهُ ، وَالسَّحَرَةُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَى ذَلِكَ عِيَانًا جَهْرَةً نَهَارًا ضَحْوَةً ، فَقَامَتِ الْمُعْجِزَةُ وَاتَّضَحَ الْبُرْهَانُ ، وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ . فَلَمَّا عَايَنَ السَّحَرَةُ ذَلِكَ وَشَاهَدُوهُ ، وَلَهُمْ خِبْرَةٌ بِفُنُونِ السِّحْرِ وَطُرُقِهِ وَوُجُوهِهِ ، عَلِمُوا عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ هَذَا الَّذِي فَعَلَهُ مُوسَى لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ السِّحْرِ وَالْحِيَلِ ، وَأَنَّهُ حَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى هَذَا إِلَّا الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ وَقَعُوا

سُجَّدًا لله وَقَالُوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢١-١٢٢] ، **وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ** : كَانُوا أَوَّلَ النَّهَـارِ سَحَرَةً وَفِي آخِرِ النَّهَـارِ شُهَدَاءَ بَرَرَةً . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: كَانَتِ السَّحَرَةُ سَبْعِينَ رَجُلًا ، أَصْبَحُوا سَحَرَةً ، وَأَمْسَوْا شُهَدَاءَ .

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كُفْرِ فِرْعَوْنَ وَعِنَادِهِ وَبَغْيِهِ وَمُكَابَرَتِهِ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ حِينَ رَأَى مَا رَأَى مِنَ الْمُعْجِزَةِ الْبَاهِرَةِ وَالْآيَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَرَأَى الَّذِينَ قَدِ اسْتَنْصَرَ بِهِمْ قَدْ آمَنُوا بِحَضْرَةِ النَّاسِ كُلِّهِمْ ، وَغُلِبَ كُلَّ الْغَلَبِ ، شَرَعَ فِي الْمُكَابَرَةِ وَالْبَهْتِ ، وَعَدَلَ إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِهِ وَسُلْطَانِهِ فِي السَّحَرَةِ ، فَتَهَدَّدَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ وَقَالَ : ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾ أَيْ : صَدَّقْتُمُوهُ . ﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أَيْ : وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِذَلِكَ وَافْتَتَنْتُمْ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ ، وَقَالَ قَوْلًا يَعْلَمُ هُوَ وَالسَّحَرَةُ وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ أَنَّهُ بَهْتٌ وَكَذِبٌ ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ إِنَّمَا أَخَذْتُمُ السِّحْرَ عَنْ مُوسَى ، وَاتَّفَقْتُمْ أَنْتُمْ وَإِيَّاهُ عَلَيَّ وَعَلَى رَعِيَّتِي لِتُظْهِرُوهُ ، ثُمَّ أَخَذَ يُهَدِّدُهُمْ فَقَالَ : ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ أَيْ : لَأَجْعَلَنَّكُمْ مُثْلَةً ، وَلَأَقْتُلَنَّكُمْ وَلَأُشَهِّرَنَّكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ تَقُولُونَ : إِنِّي وَقَوْمِي عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَنْتُمْ مَعَ مُوسَى وَقَوْمِهِ عَلَى الْهُدَى ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَكُونُ لَهُ الْعَذَابُ وَيَبْقَى فِيهِ ، فَلَمَّا صَالَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَتَوَعَّدَهُمْ ، هَانَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ فِي اللهِ ﷻ وَ ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ أَيْ : لَنْ نَخْتَارَكَ عَلَى مَا حَصَلَ لَنَا مِنَ الْهُدَى وَالْيَقِينِ ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَسَمًا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى الْبَيِّنَاتِ ، يَعْنُونَ لَا نَخْتَارُكَ عَلَى فَاطِرِنَا وَخَالِقِنَا الَّذِي أَنْشَأَنَا مِنَ الْعَدَمِ الْمُبْتَدِي خَلْقَنَا مِنَ الطِّينِ ، فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ لَا أَنْتَ ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ أَيْ : فَافْعَلْ مَا شِئْتَ وَمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ يَدُكَ ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا لَكَ تَسَلُّطٌ فِي هَذِهِ الدَّارِ ، وَهِيَ دَارُ الزَّوَالِ ، وَنَحْنُ قَدْ رَغِبْنَا فِي دَارِ الْقَرَارِ . ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا ﴾ أَيْ : مَا كَانَ مِنَّا مِنَ الْآثَامِ خُصُوصًا ﴿ وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾ لِتُعَارِضَ بِهِ آيَةَ اللهِ تَعَالَى وَمُعْجِزَةَ نَبِيِّهِ . ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أَيْ : خَيْرٌ لَنَا مِنْكَ ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ أَيْ : أَدْوَمُ ثَوَابًا

مِمَّا كُنْتَ وَعَدْتَنَا وَمَنَّيْتَنَا ، وَقِيلَ : ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ ﴾ أَيْ : لَنَا مِنْكَ إِنْ أُطِيعَ ﴿ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أَيْ : مِنْكَ عَذَابًا إِنْ عُصِيَ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللهُ - صَمَّمَ عَلَى ذَلِكَ وَفَعَلَهُ بِهِمْ رَحِمَهُمُ اللهُ .

إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ مَا وَعَظَ بِهِ السَّحَرَةُ لِفِرْعَوْنَ يُحَذِّرُونَهُ مِنْ نِقْمَةِ اللهِ وَعَذَابِهِ الدَّائِمِ السَّرْمَدِيِّ ، وَيُرَغِّبُونَهُ فِي ثَوَابِهِ الْأَبَدِيِّ الْمُخَلَّدِ ، **فَقَالُوا** : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا ﴾ أَيْ : يَلْقَى اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ مُجْرِمٌ ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أَيْ : وَمَنْ لَقِيَ رَبَّهُ يَوْمَ الْمَعَادِ مُؤْمِنُ الْقَلْبِ قَدْ صَدَقَ ضَمِيرَهُ بِقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ أَيْ : الْجَنَّةُ ذَاتُ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ ، وَالْغُرَفِ الْآمِنَاتِ ، وَالْمَسَاكِنِ الطَّيِّبَاتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ أَيْ : إِقَامَةٌ ، وَهِيَ بَدَلٌ مِنَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ أَبَدًا ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أَيْ : طَهَّرَ نَفْسَهُ مِنَ الدَّنَسِ وَالْخُبْثِ وَالشِّرْكِ ، وَعَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَاتَّبَعَ الْمُرْسَلِينَ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَطَلَبٍ .

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ أَمَرَ مُوسَى ﷺ حِينَ أَبَى فِرْعَوْنُ أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَسْرِيَ بِهِمْ فِي اللَّيْلِ ، وَيَذْهَبَ بِهِمْ مِنْ قَبْضَةِ فِرْعَوْنَ ، وَقَدْ بَسَطَ اللهُ هَذَا الْمَقَامَ فِي غَيْرِ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى لَمَّا خَرَجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَصْبَحُوا وَلَيْسَ مِنْهُمْ بِمِصْرَ لَا دَاعٍ وَلَا مُجِيبٍ ، فَغَضِبَ فِرْعَوْنُ غَضَبًا شَدِيدًا ، وَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، أَيْ : مَنْ يَجْمَعُونَ لَهُ الْجُنْدَ مِنْ بُلْدَانِهِ وَرَسَاتِيقِهِ ، يَقُولُ ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ [الشعراء : ٥٤-٥٥] ثُمَّ لَمَّا جَمَعَ جُنْدَهُ ، وَاسْتَوْثَقَ لَهُ جَيْشُهُ سَاقَ فِي طَلَبِهِمْ ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ [الشعراء : ٦٠] أَيْ : عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ ﴾ [الشعراء : ٦١] أَيْ : نَظَرَ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ إِلَى الْآخَرِ ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦١-٦٢] ، وَوَقَفَ

مُوسَى بِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، الْبَحْرُ أَمَامَهُمْ وَفِرْعَوْنُ وَرَاءَهُمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ فَضَرَبَ الْبَحْرَ بِعَصَاهُ ، وَقَالَ انْفَلِقْ عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء : ٦٣] أَيْ : الْجَبَلِ الْعَظِيمِ ، فَأَرْسَلَ اللهُ الرِّيحَ عَلَى أَرْضِ الْبَحْرِ فَلَفَحَتْهُ حَتَّى صَارَ يَابِسًا كَوَجْهِ الْأَرْضِ ، **فَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا ﴾ أَيْ : مِنْ فِرْعَوْنَ ﴿ وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْبَحْرِ أَنْ يُغْرِقَ قَوْمَكَ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ ﴾ أَيْ : الْبَحْرِ ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أَيْ : الَّذِي هُوَ مَعْرُوفٌ وَمَشْهُورٌ . وَكَمَا تَقَدَّمَهُمْ فِرْعَوْنُ فَسَلَكَ بِهِمْ فِي الْيَمِّ فَأَضَلَّهُمْ وَمَا هَدَاهُمْ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ ، كَذَلِكَ ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ [هود : ٩٨]

يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعِظَامَ وَمِنَنَهُ الْجِسَامَ ، حَيْثُ أَنْجَاهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ فِرْعَوْنَ وَأَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ مِنْهُ ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَإِلَى جُنْدِهِ قَدْ غَرِقُوا فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ لَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ . ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى وَاعَدَ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ إِلَى جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ، وَهُوَ الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَأَلَ فِيهِ الرُّؤْيَةَ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ هُنَالِكَ ، وَفِي غُضُونِ ذَلِكَ عَبَدَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْعِجْلَ ، كَمَا يَقُصُّهُ اللهُ تَعَالَى قَرِيبًا ، وَأَمَّا الْمَنُّ وَالسَّلْوَى ، فَالْمَنُّ : حَلْوَى كَانَتْ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ، وَالسَّلْوَى : طَائِرٌ يَسْقُطُ عَلَيْهِمْ فَيَأْخُذُونَ مِنْ كُلٍّ قَدْرَ الْحَاجَةِ إِلَى الْغَدِ ، لُطْفًا مِنَ اللهِ وَرَحْمَةً بِهِمْ وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ ، **ولهذا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أَيْ : كُلُوا مِنْ هَذَا الرِّزْقِ الَّذِي رَزَقْتُكُمْ ، وَلَا تَطْغَوْا فِي رِزْقِي فَتَأْخُذُوهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ ، وَتُخَالِفُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أَيْ : أَغْضَبَ عَلَيْكُمْ ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ **قِيلَ** : أَيْ : فَقَدْ شَقِيَ . ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أَيْ : كُلُّ مَنْ تَابَ إِلَيَّ تُبْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ ، حَتَّى إِنَّهُ تَابَ - تَعَالَى - عَلَى مَنْ عَبَدَ الْعِجْلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَابَ ﴾ أَيْ : رَجَعَ عَمَّا كَانَ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ شِرْكٍ ، أَوْ مَعْصِيَةٍ أَوْ نِفَاقٍ ، ﴿ وَءَامَنَ ﴾ أَيْ : بِقَلْبِهِ ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أَيْ : بِجَوَارِحِهِ ، ﴿ ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ اسْتَقَامَ عَلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَ ((ثُمَّ)) هَاهُنَا : لِتَرْتِيبِ الْخَبَرِ عَلَى الْخَبَرِ .

۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾

لَمَّا سَارَ مُوسَى عليه السلام بِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ ﴿ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾، وَوَاعَدَهُ رَبُّهُ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَتْبَعَهَا عَشْرًا فَتَمَّتْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، أَيْ: يَصُومُهَا لَيْلًا وَنَهَارًا، فَسَارَعَ مُوسَى عليه السلام مُبَادِرًا إِلَى الطُّورِ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَاهُ هَارُونَ، وَلِهَذَا **قَالَ تَعَالَى**: ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي ﴾ أَيْ: قَادِمُونَ يَنْزِلُونَ قَرِيبًا مِنَ الطُّورِ ﴿ وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴾ أي: لِتَزْدَادَ عَنِّي رِضًا ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾. أَخْبَرَ تَعَالَى نَبِيَّهُ مُوسَى بِمَا كَانَ بَعْدَهُ مِنَ الْحَدَثِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَعِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ الَّذِي عَمِلَهُ لَهُمْ ذَلِكَ السَّامِرِيُّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا ﴾ أَيْ: بَعْدَمَا أَخْبَرَهُ تَعَالَى بِذَلِكَ فِي غَايَةِ الْغَضَبِ وَالْحَنَقِ عَلَيْهِمْ، وَالْأَسَفُ: شِدَّةُ الْغَضَبِ، **وَقِيلَ**: ﴿ أَسِفٗا ﴾ حَزِينًا عَلَى مَا صَنَعَ قَوْمُهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًا ﴾ أَيْ: أَمَا وَعَدَكُمْ عَلَى لِسَانِي كُلَّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَحُسْنَ الْعَاقِبَةِ، كَمَا شَاهَدْتُمْ مِنْ نُصْرَتِهِ إِيَّاكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ وَإِظْهَارِكُمْ عَلَيْهِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَيَادِي اللهِ ﴿ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ ﴾ أَيْ: فِي انْتِظَارِ مَا وَعَدَكُمُ اللهُ وَنِسْيَانِ مَا سَلَفَ مِنْ نِعَمِهِ وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قِدَمٍ ﴿ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ ﴿ أَمۡ ﴾ هَاهُنَا بِمَعْنَى: بَلْ، وَهِيَ لِلْإِضْرَابِ عَنِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ وَعُدُولٌ إِلَى الثَّانِي، كَأَنَّهُ يَقُولُ بَلْ أَرَدْتُمْ بِصَنِيعِكُمْ هَذَا أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴿ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ ﴾ أَيْ: بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي جَوَابِ مَا أَنَّبَهُمْ مُوسَى وَقَرَّعَهُمْ ﴿ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا ﴾ أَيْ: عَنْ قُدْرَتِنَا وَاخْتِيَارِنَا. ثُمَّ شَرَعُوا يَعْتَذِرُونَ بِالْعُذْرِ الْبَارِدِ، يُخْبِرُونَهُ عَنْ تَوَرُّعِهِمْ عَمَّا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ حُلِيِّ الْقِبْطِ الَّذِي كَانُوا قَدِ اسْتَعَارُوهُ مِنْهُمْ حِينَ خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ ﴿ فَقَذَفۡنَٰهَا ﴾ أَيْ: أَلْقَيْنَاهَا عَنَّا.

﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ ﴿ فَقَالُوا۟ ﴾ أَيْ : الضُّلَّالُ مِنْهُمُ الَّذِينَ افْتُتِنُوا بِالْعِجْلِ وَعَبَدُوهُ ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾ أَيْ : نَسِيَهُ هَاهُنَا وَذَهَبَ يَتَطَلَّبُهُ . قِيلَ : ﴿ فَنَسِىَ ﴾ أَيْ : نَسِيَ أَنْ يُذَكِّرَكُمْ أَنَّ هَذَا إِلَهُكُمْ ، وَقِيلَ : ﴿ فَنَسِىَ ﴾ أَيْ : تَرَكَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِسْلَامِ ، يَعْنِي : السَّامِرِيَّ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ وَتَقْرِيعًا لَهُمْ وَبَيَانًا لِفَضِيحَتِهِمْ وَسَخَافَةَ عُقُولِهِمْ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أَيْ : الْعِجْلُ ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ أَنَّهُ لَا يُجِيبُهُمْ إِذَا سَأَلُوهُ وَلَا إِذَا خَاطَبُوهُ ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أَيْ : فِي دُنْيَاهُمْ وَلَا فِي أُخْرَاهُمْ . وَحَاصِلُ مَا اعْتَذَرَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةِ : أَنَّهُمْ تَوَرَّعُوا عَنْ زِينَةِ الْقِبْطِ فَأَلْقَوْهَا عَنْهُمْ وَعَبَدُوا الْعِجْلَ ، فَتَوَرَّعُوا عَنِ الْحَقِيرِ وَفَعَلُوا الْأَمْرَ الْكَبِيرَ .

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا كَانَ مِنْ نَهْيِ هَارُونَ لَهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ وَإِخْبَارِهِ إِيَّاهُمْ ، إِنَّمَا هَذَا فِتْنَةٌ لَكُمْ ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ ﴿ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ أَيْ : فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ وَاتْرُكُوا مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴿ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ أَيْ : لَا نَتْرُكَ عِبَادَتَهُ حَتَّى نَسْمَعَ كَلَامَ مُوسَى فِيهِ ، وَخَالَفُوا هَارُونَ فِي ذَلِكَ وَحَارَبُوهُ وَكَادُوا أَنْ يَقْتُلُوهُ .

قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى عليه السلام حِينَ رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَرَأَى مَا قَدْ حَدَثَ فِيهِمْ مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ ، فَامْتَلَأَ عِنْدَ ذَلِكَ غَضَبًا ، وَأَلْقَى مَا كَانَ فِي يَدِهِ مِنَ الْأَلْوَاحِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ، وَشَرَعَ يَلُومُ أَخَاهُ هَارُونَ فَقَالَ : ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ أَيْ : فَتُخْبِرَنِي بِهَذَا الْأَمْرِ أَوَّلَ مَا وَقَعَ ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ أَيْ : فِيمَا كُنْتَ قَدَّمْتُ إِلَيْكَ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٢] قَالَ : ﴿ يَبْنَؤُمَّ ﴾ تَرَفَّقَ لَهُ بِذِكْرِ الْأُمِّ مَعَ أَنَّهُ شَقِيقُهُ لِأَبَوَيْهِ ؛ لِأَنَّ ذِكْرَ الْأُمِّ هَاهُنَا أَرَقُّ وَأَبْلَغُ فِي الْحُنُوِّ وَالْعَطْفِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ﴾ الْآيَةَ . هَذَا اعْتِذَارٌ مِنْ هَارُونَ عِنْدَ مُوسَى فِي سَبَبِ تَأَخُّرِهِ عَنْهُ ، حَيْثُ

لَمْ يَلْحَقْهُ فَيُخْبِرُهُ بِمَا كَانَ مِنْ هَذَا الْخَطْبِ الْجَسِيمِ قَالَ: ﴿ إِنِّي خَشِيتُ ﴾ أَنْ أَتْبَعَكَ فَأُخْبِرَكَ بِهَذَا ، فَتَقُولَ لِي لِمَ تَرَكْتَهُمْ وَحْدَهُمْ وَفَرَّقْتَ بَيْنَهُمْ ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ أَيْ : وَمَا رَاعَيْتَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ حَيْثُ اسْتَخْلَفْتُكَ فِيهِمْ .

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

يَقُولُ مُوسَى عليه السلام لِلسَّامِرِيِّ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ، وَمَا الَّذِي عَرَضَ لَكَ حَتَّى فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ ؟ ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ أَيْ : رَأَيْتُ جِبْرِيلَ حِينَ جَاءَ لِهَلَاكِ فِرْعَوْنَ ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أَيْ : مِنْ أَثَرِ فَرَسِهِ ، هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَوْ أَكْثَرِهِمْ ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أَيْ : أَلْقَيْتُهَا مَعَ مَنْ أَلْقَى ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ أَيْ : حَسَّنَتْهُ وَأَعْجَبَهَا إِذْ ذَاكَ ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ أَيْ : كَمَا أَخَذْتَ وَمَسِسْتَ مَا لَمْ يَكُنْ لَكَ أَخْذُهُ وَمَسُّهُ مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَعُقُوبَتُكَ فِي الدُّنْيَا أَنْ تَقُولَ : ﴿ لَا مِسَاسَ ﴾ أَيْ : لَا تَمَاسَّ النَّاسَ وَلَا يَمَسُّونَكَ ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾ أَيْ : لَا مَحِيدَ لَكَ عَنْهُ . وَلَنْ تَغِيبَ عَنْهُ ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ﴾ أَيْ : مَعْبُودِكَ . ﴿ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ أَيْ : أَقَمْتَ عَلَى عِبَادَتِهِ ، يَعْنِي : الْعِجْلَ ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ﴾ . **عَنْ عَلِيٍّ** رضي الله عنه **قَالَ** : إِنَّ مُوسَى لَمَّا تَعَجَّلَ إِلَى رَبِّهِ ، عَمَدَ السَّامِرِيُّ فَجَمَعَ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ مِنْ حُلِيِّ نِسَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، ثُمَّ صَوَّرَهُ عِجْلًا ، قَالَ : فَعَمَدَ مُوسَى إِلَى الْعِجْلِ فَوَضَعَ عَلَيْهِ الْمَبَارِدَ فَبَرَدَهُ بِهَا ، وَهُوَ عَلَى شَطِّ نَهْرٍ فَلَمْ يَشْرَبْ أَحَدٌ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ مِمَّنْ كَانَ يَعْبُدُ الْعِجْلَ إِلَّا اصْفَرَّ وَجْهُهُ مِثْلُ الذَّهَبِ ، فَقَالُوا لِمُوسَى مَا تَوْبَتُنَا ؟ قَالَ : يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ يَقُولُ لَهُمْ مُوسَى عليه السلام لَيْسَ هَذَا إِلَهَكُمْ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، أَيْ : لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ عَلَى الْعِبَادِ إِلَّا هُوَ ، وَلَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ ، فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ عَبْدٌ لَهُ ، ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ نُصِبَ عَلَى التَّمْيِيزِ ، أَيْ : هُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴿ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢]

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ

عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ كَمَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ خَبَرَ مُوسَى ، وَمَا جَرَى لَهُ مَعَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ عَلَى الْجَلِيَّةِ وَالْأَمْرِ الْوَاقِعِ ، كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَخْبَارَ الْمَاضِيَةَ كَمَا وَقَعَتْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ ، هَذَا ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ﴾ أَيْ : مِنْ عِنْدِنَا ﴿ ذِكْرًا ﴾ وَهُوَ : الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ أَيْ : كَذَّبَ بِهِ وَأَعْرَضَ عَنِ اتِّبَاعِهِ أَمْرًا وَطَلَبًا ، وَابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ ، فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴾ أَيْ : إِثْمًا ، وَهَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ ، فَكُلُّ مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ فَهُوَ نَذِيرٌ لَهُ وَدَاعٍ ، فَمَنِ اتَّبَعَهُ هُدِيَ ، وَمَنْ خَالَفَهُ وَأَعْرَضَ عَنْهُ ضَلَّ وَشَقِيَ فِي الدُّنْيَا ، وَالنَّارُ مَوْعِدُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ﴾ أَيْ : لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ وَلَا انْفِكَاكَ ﴿ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴾ أَيْ : بِئْسَ الْحِمْلُ حِمْلُهُمْ .

يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الصُّورِ فَقَالَ : « **قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ** » وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ « **كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ ، وَانْتَظَرَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ ؟** » فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ نَقُولُ ؟ قَالَ : « **قُولُوا : حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ **قِيلَ مَعْنَاهُ** : زُرْقُ الْعُيُونِ مِنْ شِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ . ﴿ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : يَتَسَاوَرُونَ بَيْنَهُمْ . أَيْ : يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، لَقَدْ كَانَ لُبْثُكُمْ فِيهَا قَلِيلًا ، عَشَرَةَ أَيَّامٍ أَوْ نَحْوِهَا ؛ **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ تَنَاجِيهِمْ بَيْنَهُمْ ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ أَيْ : الْعَاقِلُ الْكَامِلُ فِيهِمْ ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ أَيْ : لِقِصَرِ مُدَّةِ الدُّنْيَا فِي أَنْفُسِهِمْ يَوْمَ الْمَعَادِ ؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا وَإِنْ تَكَرَّرَتْ أَوْقَاتُهَا وَتَعَاقَبَتْ لَيَالِيهَا وَأَيَّامُهَا وَسَاعَاتُهَا كَأَنَّهَا يَوْمٌ وَاحِدٌ ، وَلِهَذَا يَسْتَقْصِرُ الْكَافِرُونَ مُدَّةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَكَانَ غَرَضُهُمْ فِي ذَلِكَ دَرْءَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ لِقِصَرِ الْمُدَّةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ

لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾ أَيْ : هَلْ تَبْقَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ تَزُولُ ؟ ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ أَيْ : يُذْهِبُهَا عَنْ أَمَاكِنِهَا وَيَمْحَقُهَا وَيُسَيِّرُهَا تَسْيِيرًا ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ أَيْ : الْأَرْضَ ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ أَيْ : بِسَاطًا وَاحِدًا . وَالْقَاعُ : هُوَ الْمُسْتَوِي مِنَ الْأَرْضِ ، وَالصَّفْصَفُ : تَأْكِيدٌ لِمَعْنَى ذَلِكَ ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ أي : لَا تَرَى فِي الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ وَادِيًا وَلَا رَابِيَةً ، وَلَا مَكَانًا مُنْخَفِضًا وَلَا مُرْتَفِعًا ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ أَيْ : يَوْمَ يَرَوْنَ هَذِهِ الْأَحْوَالَ وَالْأَهْوَالَ يَسْتَجِيبُونَ مُسَارِعِينَ إِلَى الدَّاعِي حَيْثُمَا أُمِرُوا بَادَرُوا إِلَيْهِ ، وَلَوْ كَانَ هَذَا فِي الدُّنْيَا لَكَانَ أَنْفَعُ لَهُمْ ، وَلَكِنْ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ أَيْ : لَا يَمِيلُونَ عَنْهُ ، وَقِيلَ : لَا عِوَجَ عَنْهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ قِيلَ : سَكَنَتْ ، وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ يَعْنِي : وَطْءَ الْأَقْدَامِ ، وَقِيلَ : الصَّوْتُ الْخَفِيُّ .

يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ﴿ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ ﴾ أَيْ : عِنْدَهُ ، ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ ، [البقرة : ٢٥٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أَيْ : يُحِيطُ عِلْمًا بِالْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ، كَقَوْلِهِ ، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ خَضَعَتْ وَذَلَّتْ وَاسْتَسْلَمَتِ الْخَلَائِقُ لِجَبَّارِهَا الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴿ ٱلْقَيُّومِ ﴾ الَّذِي لَا يَنَامُ ، وَهُوَ قَيِّمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يُدَبِّرُهُ وَيَحْفَظُهُ ، فَهُوَ الْكَامِلُ فِي نَفْسِهِ الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ لَا قِوَامَ لَهُ إِلَّا بِهِ . ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَإِنَّ اللهَ سَيُؤَدِّي كُلَّ حَقٍّ إِلَى صَاحِبِهِ حَتَّى يَقْتَصَّ لِلشَّاةِ الْجَمَّاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ . ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الظَّالِمِينَ وَوَعِيدَهُمْ ثَنَّى بِالْمُتَّقِينَ وَحُكْمِهِمْ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَلَا يُهْضَمُونَ ، أَيْ : لَا يُزَادُ فِي سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا

﴿ فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (١١٣)

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ المَعَادِ وَالجَزَاءِ بِالخَيْرِ وَالشَّرِّ وَاقِعًا لَا مَحَالَةَ ، أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ فَصِيحٍ لَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا عِيَّ ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : يَتْرُكُونَ المَآثِمَ وَالمَحَارِمَ وَالْفَوَاحِشَ ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ وَهُوَ إِيجَادُ الطَّاعَةِ وَفِعْلُ الْقُرُبَاتِ ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ أَيْ : تَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ المَلِكُ الْحَقُّ الَّذِي هُوَ حَقٌّ ، وَوَعْدُهُ حَقٌّ ، وَوَعِيدُهُ حَقٌّ ، وَرُسُلُهُ حَقٌّ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ حَقٌّ ، وَعَدْلُهُ تَعَالَى أَنْ لَا يُعَذِّبَ أَحَدًا قَبْلَ الْإِنْذَارِ وَبَعْثَةِ الرُّسُلِ ، وَالْإِعْذَارِ إِلَى خَلْقِهِ لِئَلَّا يَبْقَى لِأَحَدٍ حُجَّةٌ وَلَا شُبْهَةٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٦-١٩] ، ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ أَيْ : بَلْ أَنْصِتْ فَإِذَا فَرَغَ المَلَكُ مِنْ قِرَاءَتِهِ عَلَيْكَ فَاقْرَأْهُ بَعْدَهُ ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ أَيْ : زِدْنِي مِنْكَ عِلْمًا .

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ** : إِنَّمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ ؛ لِأَنَّهُ عُهِدَ إِلَيْهِ فَنَسِيَ ، **وَقِيلَ** : تَرَكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى تَشْرِيفَ آدَمَ وَتَكْرِيمَهُ ، وَمَا فَضَّلَهُ بِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَفِي الْأَعْرَافِ فِي الْحِجْرِ وَالْكَهْفِ ، وَسَيَأْتِي فِي آخِرِ سُورَةِ ﴿ ص ﴾ ؛ يَذْكُرُ تَعَالَى فِيهَا خَلْقَ آدَمَ ، وَأَمْرَهُ المَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا ، وَيُبَيِّنُ عَدَاوَةَ إِبْلِيسَ لِبَنِي آدَمَ وَلِأَبِيهِمْ قَدِيمًا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ أَيْ : اِمْتَنَعَ وَاسْتَكْبَرَ . ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ يَعْنِي : حَوَّاءَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ أَيْ : إِيَّاكَ أَنْ يَسْعَى فِي

إِخْرَاجِكَ مِنْهَا فَتَتْعَبَ وَتَعْنَى ، وَتَشْقَى فِي طَلَبِ رِزْقِكَ ، فَإِنَّكَ هَاهُنَا فِي عَيْشٍ رَغِيدٍ هَنِيءٍ بِلَا كُلْفَةٍ وَلَا مَشَقَّةٍ . ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ إِنَّمَا قَرَنَ بَيْنَ الْجُوعِ وَالْعُرْيِ ؛ لأَنَّ الْجُوعَ ذُلُّ الْبَاطِنِ وَالْعُرْيِ ذُلُّ الظَّاهِرِ . ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ وَهَذَانِ أَيْضًا مُتَقَابِلَانِ فَالظَّمَأُ : حَرُّ الْبَاطِنِ وَهُوَ الْعَطَشُ ، وَالضُّحَى : حَرُّ الظَّاهِرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ دَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[الأعراف : ٢١] وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى عَهِدَ إِلَى آدَمَ وَزَوْجِهِ أَنْ يَأْكُلَا مِنْ كُلِّ الثِّمَارِ ، وَلَا يَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ الْمُعَيَّنَةَ فِي الْجَنَّةِ ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِمَا إِبْلِيسُ حَتَّى أَكَلَا مِنْهَا ، ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ يُرَقِّعَانِ كَهَيْئَةِ الثَّوْبِ . وَقِيلَ : يَنْزِعَانِ وَرَقَ التِّينِ فَيَجْعَلَانِهِ عَلَى سَوْآتِهِمَا ، ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **حَاجَّ مُوسَى آدَمَ ، فَقَالَ لَهُ : أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَأَشْقَيْتَهُمْ ؟ قَالَ آدَمُ : يَا مُوسَى أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي** » أَوْ « **قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي** » قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى** » .

قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِآدَمَ وَحَوَّاءَ وَإِبْلِيسَ ﴿ ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ ، أَيْ : مِنَ الْجَنَّةِ كُلُّكُمْ وَقَدْ بَسَطْنَا ذَلِكَ فِي « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ قَالَ : آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ ، وَإِبْلِيسُ وَذُرِّيَّتُهُ . ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ **قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ** : الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ وَالْبَيَانُ ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ **قِيلَ** الْمَعْنَى : لَا يَضِلُّ فِي الدُّنْيَا ، وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ . ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ أَيْ : خَالَفَ أَمْرِي وَمَا أَنْزَلْتُهُ عَلَى رَسُولِي ، أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَنَاسَاهُ وَأَخَذَ مِنْ غَيْرِهِ هُدَاهُ ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أَيْ : ضَنْكٌ فِي الدُّنْيَا فَلَا طُمَأْنِينَةَ لَهُ وَلَا انْشِرَاحَ لِصَدْرِهِ ، بَلْ صَدْرُهُ ضَيِّقٌ حَرَجٌ لِضَلَالِهِ ، وَإِنْ تَنَعَّمَ ظَاهِرُهُ وَلَبِسَ مَا شَاءَ وَأَكَلَ مَا شَاءَ ، وَسَكَنَ حَيْثُ شَاءَ ، فَإِنَّ قَلْبَهُ مَا لَمْ يَخْلُصْ إِلَى الْيَقِينِ وَالْهُدَى فَهُوَ فِي قَلَقٍ وَحِيرَةٍ وَشَكٍّ ، فَلَا يَزَالُ فِي رِيبَةٍ يَتَرَدَّدُ فَهَذَا مِنْ ضَنْكِ الْمَعِيشَةِ . ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ قِيلَ فِي ذَلِكَ أَقْوَالٌ مِنْهَا : الشَّقَاءُ ، وَمِنْهَا : هُوَ الْعَمَلُ السَّيِّئُ وَالرِّزْقُ

الْخَبِيثُ ، وَمِنْهَا : يُضَيِّقُ عَلَيْهِ قَبْرَهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ فِيهِ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ قَالَ : « **عَذَابُ الْقَبْرِ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ **قِيلَ** : لَا حُجَّةَ لَهُ ، **وَقِيلَ** : عُمِّيَ عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا جَهَنَّمَ ، **وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ** : أَنَّهُ يُبْعَثُ أَوْ يُحْشَرُ إِلَى النَّارِ أَعْمَى الْبَصَرِ وَالْبَصِيرَةِ أَيْضًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ [الإسراء : ٩٧] . وَلِهَذَا يَقُولُ : ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ أَيْ : لَمَّا أَعْرَضْتَ عَنْ آيَاتِ اللهِ وَعَامَلْتَهَا مُعَامَلَةَ مَنْ لَمْ يَذْكُرْهَا بَعْدَ بَلَاغِهَا إِلَيْكَ تَنَاسَيْتَهَا ، وَأَعْرَضْتَ عَنْهَا وَأَغْفَلْتَهَا ، كَذَلِكَ الْيَوْمَ نُعَامِلُكَ مُعَامَلَةَ مَنْ يَنْسَاك ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، فَأَمَّا نِسْيَانُ لَفْظِ الْقُرْآنِ مَعَ فَهْمِ مَعْنَاهُ وَالْقِيَامِ بِمُقْتَضَاهُ فَلَيْسَ دَاخِلًا فِي هَذَا الْوَعِيدِ الْخَاصِّ .

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَهَكَذَا نُجَازِي الْمُسْرِفِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ اللهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ : ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [الرعد : ٣٤] ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أَيْ : أَشَدُّ أَلَمًا مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَأَدْوَمُ عَلَيْهِمْ ، فَهُمْ مُخَلَّدُونَ فِيهِ ، وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلْمُتَلَاعِنَيْنِ : « **إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ** » .

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ ﴾ لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ - بِمَا جِئْتُهُمْ بِهِ يَا مُحَمَّدُ - كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ قَبْلَهُمْ ، فَبَادُوا ، فَلَيْسَ لَهُمْ بَاقِيَةٌ وَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ كَمَا يُشَاهِدُونَ ذَلِكَ مِنْ دِيَارِهِمُ الْخَالِيَةِ الَّتِي خَلَفُوهُمْ فِيهَا ، يَمْشُونَ فِيهَا ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ أَيْ : الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ وَالْأَلْبَابُ الْمُسْتَقِيمَةُ . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أَيْ : لَوْلَا الْكَلِمَةُ السَّابِقَةُ مِنَ اللهِ وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَالْأَجَلِ الْمُسَمَّى الَّذِي ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ إِلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ ، لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً . وَلِهَذَا قَالَ

لِنَبِيِّهِ مُسَلِّيًا لَهُ : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ تَكْذِيبِهِمْ لَكَ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ ﴾ يَعْنِي : صَلَاةَ الْفَجْرِ ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ يَعْنِي : صَلَاةَ الْعَصْرِ . ﴿ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ ﴾ أَيْ : مِنْ سَاعَاتِهِ فَتَهَجَّدْ بِهِ ، وَحَمَلَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى المَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ ، ﴿ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾ فِي مُقَابَلَةِ آنَاءِ اللَّيْلِ ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى : ٥]

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا تَنْظُرْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمُتْرَفِينَ وَأَشْبَاهِهِمْ وَنُظَرَائِهِمْ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ ، فَإِنَّمَا هُوَ : زَهْرَةٌ زَائِلَةٌ وَنِعْمَةٌ حَائِلَةٌ ، لِنَخْتَبِرَهُمْ بِذَلِكَ ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّكُورُ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ يَعْنِي : الْأَغْنِيَاءُ فَقَدْ آتَاكَ خَيْرًا مِمَّا آتَاهُمْ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ** : زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَعْنِي : زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ لِنَبْتَلِيَهُمْ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ أَيْ : اِسْتَنْقِذْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَاصْبِرْ أَنْتَ عَلَى فِعْلِهَا . ﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ يَعْنِي : إِذَا أَقَمْتَ الصَّلَاةَ أَتَاكَ الرِّزْقُ مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُ . ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أَيْ : وَحُسْنُ الْعَاقِبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهِيَ الْجَنَّةُ لِمَنِ اتَّقَى اللهَ .

وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ لَوْلَا ﴾ أَيْ : هَلَّا ﴿ يَأْتِينَا ﴾ مُحَمَّدٌ ﴿ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ أَيْ : بِعَلَامَةٍ دَالَّةٍ عَلَى صِدْقِهِ فِي أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ اللهُ ، وَهُوَ أُمِّيٌّ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ وَلَمْ يُدَارِسْ أَهْلَ الْكِتَابِ ، وَقَدْ جَاءَ فِيهِ أَخْبَارُ الْأَوَّلِينَ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي سَالِفِ الدُّهُورِ بِمَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ الصَّحِيحَةُ مِنْهَا ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ مُهَيْمِنٌ عَلَيْهَا يُصَدِّقُ الصَّحِيحَ وَيُبَيِّنُ خَطَأَ الْمَكْذُوبِ فِيهَا وَعَلَيْهَا .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ أَيْ : لَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَا هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ قَبْلَ أَنْ نُرْسِلَ إِلَيْهِمْ هَذَا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ وَنُنْزِلَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْكِتَابَ

الْعَظِيمَ لَكَانُوا قَالُوا : ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ قَبْلَ أَنْ تُهْلِكَنَا حَتَّى نُؤْمِنَ بِهِ وَنَتَّبِعَهُ كَمَا قَالَ : ﴿ فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ يُبَيِّنُ تَعَالَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ مُتَعَنِّتُونَ مُعَانِدُونَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٧]

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِمَنْ كَذَّبَكَ وَخَالَفَكَ وَاسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَعِنَادِهِ ﴿ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ أَيْ : مِنَّا وَمِنْكُمْ ﴿ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ أَيْ : فَانْتَظِرُوا ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ ﴾ أَيْ : الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ ﴿ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ إِلَى الْحَقِّ وَسَبِيلِ الرُّشْدِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ طه ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

تفسيرُ سُورةِ الأنبياءِ

آياتها ١١٢ مكيـة

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وَالْكَهْفُ وَمَرْيَمُ ، وَطَه ، وَالْأَنْبِيَاءُ هُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

هَذَا تَنْبِيهٌ مِنَ اللهِ ﷻ عَلَى اقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَدُنُوِّهَا ، وَأَنَّ النَّاسَ فِي غَفْلَةٍ عَنْهَا ، أَيْ : لَا يَعْمَلُونَ لَهَا وَلَا يَسْتَعِدُّونَ مِنْ أَجْلِهَا . عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : ﴿ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ قَالَ : « فِي الدُّنْيَا » ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : ١] . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى : أَنَّهُمْ لَا يُصْغُونَ إِلَى الْوَحْيِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ - وَالْخِطَابُ مَعَ قُرَيْشٍ وَمَنْ شَابَهَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ - فَقَالَ : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ أَيْ : جَدِيدٌ إِنْزَالُهُ ﴿ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا لَكُمْ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَمَّا بِأَيْدِيهِمْ ، وَقَدْ حَرَّفُوهُ وَبَدَّلُوهُ وَزَادُوا فِيهِ

وَنَقَصُوا مِنْهُ وَكِتَابُكُمْ أَحْدَثُ الْكُتُبِ بِاللهِ تَقْرَءُونَهُ مَحْضًا لَمْ يُشَبْ .

وَقَوْله : ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أَيْ : قَائِلِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ خُفْيَةً ﴿ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ يَعْنُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَسْتَبْعِدُونَ كَوْنَهُ نَبِيًّا ؛ لأَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ فَكَيْفَ اخْتُصَّ بِالْوَحْيِ دُونَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أَيْ : أَفَتَتَّبِعُونَهُ فَتَكُونُونَ كَمَنْ يَأْتِي السِّحْرَ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سِحْرٌ ، فَقَالَ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ عَمَّا افْتَرَوْهُ وَاخْتَلَقُوهُ مِنَ الْكَذِبِ .

﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : الَّذِي يَعْلَمُ ذَلِكَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الْمُشْتَمِلَ عَلَى خَبَرِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ إِلَّا الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِكُمْ ، الْعَلِيمُ بِأَحْوَالِكُمْ ، وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ . ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ تَعَنُّتِ الْكُفَّارِ وَإِلْحَادِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ فِيمَا يَصِفُونَ بِهِ الْقُرْآنَ وَحِيرَتِهِمْ فِيهِ وَضَلَالِهِمْ عَنْهُ ، فَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ سِحْرًا ، وَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ شِعْرًا ، وَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ ، وَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ مُفْتَرًى . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ يَعْنُونَ : كَنَاقَةِ صَالِحٍ وَآيَاتِ مُوسَى وَعِيسَى ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : مَا آتَيْنَا قَرْيَةً مِنَ الْقُرَى الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمُ الرُّسُلُ آيَةً عَلَى يَدَيْ نَبِيِّهَا فَآمَنُوا بِهَا ، بَلْ كَذَّبُوا فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذَلِكَ ، أَفَهَؤُلَاءِ يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ لَوْ رَأَوْهَا دُونَ أُولَئِكَ ؟ كَلَّا .

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَـٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى رَادًّا عَلَى مَنْ أَنْكَرَ بَعْثَةَ الرُّسُلِ مِنَ الْبَشَرِ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : جَمِيعُ الرُّسُلِ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا كَانُوا رِجَالًا مِنَ الْبَشَرِ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : اِسْأَلُوا أَهْلَ الْعِلْمِ مِنَ الْأُمَمِ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَسَائِرِ الطَّوَائِفِ هَلْ كَانَ الرُّسُلُ الَّذِينَ آتَوْهُمْ بَشَرًا أَوْ مَلَائِكَةً ؟ وَإِنَّمَا كَانُوا بَشَرًا ، وَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ ، إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتَمَكَّنُونَ مِنْ تَنَاوُلِ الْبَلَاغِ مِنْهُمْ وَالْأَخْذِ عَنْهُمْ . ﴿ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ أَيْ : بَلْ قَدْ كَانُوا أَجْسَادًا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ . قَدْ كَانُوا بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ مِثْلَ النَّاسِ ، وَيَدْخُلُونَ الْأَسْوَاقَ لِلتَّكَسُّبِ وَالتِّجَارَةِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِضَارٍّ لَهُمْ وَلَا نَاقِصٍ مِنْهُمْ شَيْئًا .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَا كَانُواْ خَـٰلِدِينَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ، بَلْ كَانُوا يَعِيشُونَ ثُمَّ يَمُوتُونَ ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ ، وَخَاصَّتُهُمْ أَنَّهُمْ يُوحَى إِلَيْهِمْ مِنَ الله ﷻ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلَائِكَةُ عَنِ الله بِمَا يَحْكُمُهُ فِي خَلْقِهِ مِمَّا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ . ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ ﴾ أَيْ : الَّذِي وَعَدَهُمْ رَبُّهُمْ لَيُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ صَدَقَهُمُ اللهُ وَعْدَهُ فَفَعَلَ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ ﴾ أَيْ : أَتْبَاعُهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ أَيْ : الْمُكَذِّبِينَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ .

لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى شَرَفِ الْقُرْآنِ وَمُحَرِّضًا لَهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ قَدْرِهِ : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ **قِيلَ** : شَرَفُكُمْ ، **وَقِيلَ** : حَدِيثُكُمْ ، **وَقِيلَ** : دِينُكُمْ ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : هَذِهِ النِّعْمَةُ ، وَتَتَلَقَّوْنَهَا بِالْقَبُولِ . ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ هَذِهِ صِيغَةُ تَكْثِيرٍ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء : ١٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ أَيْ : أُمَّةً أُخْرَى بَعْدَهُمْ .﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ ﴾ أَيْ : تَيَقَّنُوا أَنَّ الْعَذَابَ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ كَمَا وَعَدَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أَيْ : يَفِرُّونَ هَارِبِينَ ﴿ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ ﴾ هَذَا تَهَكُّمٌ بِهِمْ قَدَرًا ، أَيْ : قِيلَ لَهُمْ قَدَرًا لَا تَرْكُضُوا هَارِبِينَ مِنْ نُزُولِ الْعَذَابِ ، وَارْجِعُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالسُّرُورِ وَالْمَعِيشَةِ وَالْمَسَاكِنِ الطَّيِّبَةِ . **قَالَ قَتَادَةُ** : اِسْتِهْزَاءً بِهِمْ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ أَيْ : عَمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنْ أَدَاءِ شُكْرِ النِّعَمِ . ﴿ قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾ اِعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴾ أَيْ : مَا زَالَتْ تِلْكَ الْمَقَالَةُ - وَهِيَ الِاعْتِرَافُ بِالظُّلْمِ - هِجِّيرَاهُمْ حَتَّى حَصَدْنَاهُمْ حَصْدًا ، وَخَمَدَتْ حَرَكَاتُهُمْ وَأَصْوَاتُهُمْ خُمُودًا .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

يُخبِرُ تعالى أنَّهُ خلقَ السَّماواتِ والأرضَ بالحقِّ ، أي : بالعدلِ والقسطِ ؛ ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾[النجم : ٣١] ، وأنَّهُ لم يَخْلُقْ ذلكَ عبثًا ولا لعبًا .

وعن مجاهدٍ في قولِهِ : ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ يعني : مِن عندِنا يقولُ : وما خلقْنا جنَّةً ولا نارًا ، ولا موتًا ولا بعثًا ولا حسابًا . قالَ بعضُ العلماءِ : ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ اللَّهوُ : المرأةُ ، بلسانِ أهلِ اليمنِ ، وقالَ إبراهيمُ النَّخعيُّ : ﴿ لَّٱتَّخَذْنَٰهُ ﴾ مِنَ الحورِ العينِ ، وقيلَ : المرادُ باللَّهوِ ههنا : الولدُ ، وهذا والَّذي قبلَهُ متلازمانِ ، وهو كقولِهِ تعالى : ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾[الزمر : ٤] ، فنزَّهَ نفسَهُ عنِ اتِّخاذِ الولدِ مطلقًا ، ولا سيَّما عمَّا يقولونَ مِنَ الإفكِ والباطلِ مِنَ اتِّخاذِ عيسى أوِ العزيرِ أوِ الملائكةِ .

وقولُهُ : ﴿ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ قالَ عددٌ مِنَ العلماءِ : أي : ما كُنَّا فاعلينَ . ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ ﴾ أي : نُبيِّنُ الحقَّ فيُدحِضُ الباطلَ ، ولهذا قالَ : ﴿ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أي : ذاهبٌ مضمحلٌّ ﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ ﴾ أي : أيُّها القائلونَ : للهِ ولدٌ ﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ أي : تقولونَ وتفترونَ . ثُمَّ أخبرَ تعالى عن عبوديَّةِ الملائكةِ لهُ ودأْبِهِم في طاعتِهِ ليلًا ونهارًا ، فقالَ : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ يعني : الملائكةُ ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ أي : لا يستنكفونَ عنها . ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أي : لا يتعبونَ ولا يملُّونَ ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ فهم دائبونَ في العملِ ليلًا ونهارًا ، مطيعونَ قصدًا وعملًا قادرونَ عليهِ .

أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾

يُنكِرُ تعالى على مَنِ اتَّخذَ مِن دونِهِ آلهةً فقالَ : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ أي : أهُم يُحيُونَ الموتى ويُنشِرونَهُم مِنَ الأرضِ ؟ أي : لا يقدرونَ على شيءٍ مِن ذلكَ ، فكيفَ جعلُوها للهِ نِدًّا وعبدُوها معهُ ، ثُمَّ أخبرَ تعالى أنَّهُ لو كانَ في الوجودِ آلهةٌ غيرُهُ لفسدَتِ السَّماواتُ والأرضُ ، فقالَ : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ ﴾ أي : في السَّماواتِ والأرضِ ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ ، وقالَ تعالى : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي : عمَّا يقولونَ إنَّ لهُ ولدًا أو شريكًا - سبحانَهُ وتعالى وتقدَّسَ وتنزَّهَ عنِ الَّذي يفترونَ ويأفكونَ علوًّا كبيرًا - . ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ أي : هو الحاكمُ الَّذي لا معقِّبَ لحكمِهِ ، ولا يعترضُ عليهِ أحدٌ ، لعظمتِهِ وجلالِهِ وكبريائِهِ وعلمِهِ وحكمتِهِ وعدلِهِ ولطفِهِ ﴿ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ أي : وهو سائلٌ خلقَهُ عمَّا يعملونَ .

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ ﴾ يا مُحَمَّدُ: ﴿ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ أَيْ: دَلِيلَكُمْ عَلَى مَا تَقُولُونَ: ﴿ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنُ ﴿ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾ يَعْنِي: الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ عَلَى خِلَافِ مَا تَقُولُونَهُ وَتَزْعُمُونَ، فَكُلُّ كِتَابٍ أُنْزِلَ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ أُرْسِلَ نَاطِقٌ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَكِنْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ لَا تَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ عَنْهُ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ فَكُلُّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْفِطْرَةُ شَاهِدَةٌ بِذَلِكَ أَيْضًا، وَالْمُشْرِكُونَ لَا بُرْهَانَ لَهُمْ وَحُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ.

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى رَادًّا عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ - وَلَدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، كَمَنْ قَالَ ذَلِكَ مِنَ الْعَرَبِ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، **فَقَالَ**: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ أَيْ: الْمَلَائِكَةُ عِبَادُ اللهِ، مُكْرَمُونَ عِنْدَهُ فِي مَنَازِلَ عَالِيَةٍ وَمَقَامَاتٍ سَامِيَةٍ، وَهُمْ لَهُ فِي غَايَةِ الطَّاعَةِ قَوْلًا وَفِعْلًا ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ: لَا يَتَقَدَّمُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِأَمْرٍ، وَلَا يُخَالِفُونَهُ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، بَلْ يُبَادِرُونَ إِلَى فِعْلِهِ، وَهُوَ تَعَالَى عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِهِمْ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ مِنْهُ خَافِيَةٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ ﴾ أَيْ: مِنْ خَوْفِهِ وَرَهْبَتِهِ، ﴿ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ ﴾ أَيْ: مَنِ ادَّعَى مِنْهُمْ أَنَّهُ إِلَهٌ مِنْ دُونِ اللهِ، أَيْ: مَعَ اللهِ ﴿ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ: كُلُّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ وَهَذَا شَرْطٌ وَالشَّرْطُ لَا يَلْزَمُ وُقُوعُهُ.

أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ فِي خَلْقِهِ الْأَشْيَاءَ ، وَقَهْرِهِ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، **فَقَالَ** : ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أَيْ : الْجَاحِدُونَ لِإِلَهِيَّتِهِ الْعَابِدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ الْمُسْتَبِدُّ بِالتَّدْبِيرِ ، فَكَيْفَ يَلِيقُ أَنْ يُعْبَدَ مَعَهُ غَيْرُهُ أَوْ يُشْرَكَ بِهِ مَا سِوَاهُ ؟! أَلَمْ يَرَوْا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ أَيْ : كَانَ الْجَمِيعُ مُتَّصِلًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ مُتَلَاصِقٌ ، مُتَرَاكِمٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ فِي ابْتِدَاءِ الْأَمْرِ ، فَفَتَقَ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ ، فَجَعَلَ السَّمَاوَاتِ سَبْعًا وَالْأَرْضَ سَبْعًا ، وَفَصَلَ بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالْأَرْضِ بِالْهَوَاءِ ، فَأَمْطَرَتِ السَّمَاءُ وَأَنْبَتَتِ الْأَرْضُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ : وَهُمْ يُشَاهِدُونَ الْمَخْلُوقَاتِ تَحْدُثُ شَيْئًا فَشَيْئًا عِيَانًا ، وَذَلِكَ كُلُّهُ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ الْقَادِرِ عَلَى مَا يَشَاءُ . ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أَيْ : أَصْلُ كُلِّ الْأَحْيَاءِ مِنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ أَيْ : جِبَالًا أَرْسَى الْأَرْضَ بِهَا وَقَرَّرَهَا وَثَقَّلَهَا لِئَلَّا تَمِيدَ بِالنَّاسِ ، أَيْ : تَضْطَرِب وَتَتَحَرَّك ، فَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ قَرَارٌ عَلَيْهَا ؛ لِأَنَّهَا غَامِرَةٌ فِي الْمَاءِ إِلَّا مِقْدَارَ الرُّبْعِ ، فَإِنَّهُ بَادٍ لِلْهَوَاءِ وَالشَّمْسِ لِيُشَاهِدَ أَهْلُهَا السَّمَاءَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَالْحِكَمِ وَالدَّلَالَاتِ . **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أَيْ : لِئَلَّا تَمِيدَ بِهِمْ . ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ أَيْ : ثَغْرًا فِي الْجِبَالِ ، يَسْلُكُونَ فِيهَا طُرُقًا مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ ، وَإِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ ، كَمَا هُوَ الْمُشَاهَدُ فِي الْأَرْضِ ، يَكُونُ الْجَبَلُ حَائِلًا بَيْنَ هَذِهِ الْبِلَادِ وَهَذِهِ الْبِلَادِ ، فَيَجْعَلُ اللهُ فِيهِ فَجْوَةً - ثَغْرَةً - لِيَسْلُكَ النَّاسُ فِيهَا مِنْ هَهُنَا إِلَى هَهُنَا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ أَيْ : عَلَى الْأَرْضِ وَهِيَ كَالْقُبَّةِ عَلَيْهَا ، ﴿مَّحْفُوظًا﴾ أَيْ : عَالِيًا مَحْرُوسًا أَنْ يُنَالَ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : مَرْفُوعًا . ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيمَا خَلَقَ اللهُ فِيهَا مِنَ الِاتِّسَاعِ الْعَظِيمِ وَالِارْتِفَاعِ الْبَاهِرِ ، وَمَا زُيِّنَتْ بِهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ ، فِي لَيْلِهَا وَنَهَارِهَا مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ الَّتِي تَقْطَعُ الْفُلْكَ بِكَمَالِهِ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَتَسِيرُ غَايَةً لَا يَعْلَمُ قَدْرَهَا إِلَّا اللهُ ، الَّذِي قَدَّرَهَا وَسَخَّرَهَا وَسَيَّرَهَا . ثُمَّ قَالَ مُنَبِّهًا عَلَى بَعْضِ آيَاتِهِ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أَيْ : هَذَا فِي ظَلَامِهِ وَسُكُونِهِ ، وَهَذَا بِضِيَائِهِ وَأُنْسِهِ ، يَطُولُ هَذَا تَارَةً ثُمَّ يَقْصُرُ أُخْرَى وَعَكْسُهُ الْآخَرُ ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ هَذِهِ لَهَا نُورٌ يَخُصُّهَا وَفَلَكٌ بِذَاتِهِ وَزَمَانٌ عَلَى حِدَةٍ وَحَرَكَةٌ وَسَيْرٌ خَاصٌّ ، وَهَذَا بِنُورٍ آخَرَ وَفَلَكٍ آخَرَ وَسَيْرٍ آخَرَ وَتَقْدِيرٍ آخَرَ ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أَيْ : يَدُورُونَ .

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ

ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ ٱلْخُلْدَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ﴿ أَفَإِيْن مِّتَّ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ أَيْ : يُؤَمِّلُونَ أَنْ يَعِيشُوا بَعْدَكَ ، لَا يَكُونُ هَذَا ، بَلْ كُلٌّ إِلَى الْفَنَاءِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ أَيْ : نَخْتَبِرُكُمْ بِالْمَصَائِبِ تَارَةً ، وَبِالنِّعَمِ أُخْرَى ، لِنَنْظُرَ مَنْ يَشْكُرُ وَمَنْ يَكْفُرُ ، وَمَنْ يَصْبِرُ وَمَنْ يَقْنُطُ ، ﴿ بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ بِالشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ ، وَالصِّحَّةِ وَالسَّقَمِ ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرِ ، وَالْحَلَالِ ، وَالْحَرَامِ ، وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ ، وَالْهُدَى وَالضَّلَال ، ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : فَنُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ .

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ : ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ يَعْنِي : كُفَّارُ قُرَيْشٍ كَأَبِي جَهْلٍ وَأَشْبَاهِهِ ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ أَيْ : يَسْتَهْزِئُونَ بِكَ وَيَنْتَقِصُونَكَ يَقُولُونَ ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ يَعْنُونَ أَهَذَا الَّذِي يَسُبُّ آلِهَتَكُمْ وَيُسَفِّهُ أَحْلَامَكُمْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ أَيْ : وَهُمْ كَافِرُونَ بِاللهِ ، وَمَعَ هَذَا يَسْتَهْزِئُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ . وَقَوْلُهُ : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء : ١١] أَيْ : فِي الْأُمُورِ . ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى ﴾ أَيْ : نِقَمِي وَحُكْمِي وَاقْتِدَارِي عَلَى مَنْ عَصَانِي ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ أَيْضًا بِوُقُوعِ الْعَذَابِ بِهِمْ تَكْذِيبًا وَجُحُودًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا وَاسْتِبْعَادًا فَقَالَ : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ أَيْ : لَوْ تَيَقَّنُوا أَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ لَمَا اسْتَعْجَلُوا بِهِ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ حِينَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أَيْ : لَا نَاصِرَ لَهُمْ كَمَا قَالَ : ﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [الرعد : ٣٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً ﴾ أَيْ : تَأْتِيهِمُ النَّارُ بَغْتَةً ، أَيْ : فَجْأَةً ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ أَيْ : تَذْعَرُهُمْ فَيَسْتَسْلِمُونَ لَهَا حَائِرِينَ لَا يَدْرُونَ مَا يَصْنَعُونَ ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ حِيلَةٌ فِي ذَلِكَ ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أَيْ : وَلَا يُؤَخَّرُ عَنْهُمْ ذَلِكَ سَاعَةً وَاحِدَةً .

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ عَمَّا آذَاهُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الاسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي كَانُوا يَسْتَبْعِدُونَ وُقُوعَهُ . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى نِعْمَتَهُ عَلَى عَبِيدِهِ فِي حِفْظِهِ لَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَكِلَاءَتِهِ وَحِرَاسَتِهِ لَهُمْ بِعَيْنِهِ الَّتِي لَا تَنَامُ ، فَقَالَ : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ أَيْ : بَدَلَ الرَّحْمَنِ ، يَعْنِي : غَيْرَهُ . ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَعْتَرِفُونَ بِنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، بَلْ يُعْرِضُونَ عَنْ آيَاتِهِ وَآلَائِهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾ اِسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ وَتَقْرِيعٍ وَتَوْبِيخٍ ، أَيْ : أَلَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ وَتَكْلَؤُهُمْ غَيْرُنَا ؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَوَهَّمُوا وَلَا كَمَا قَدْ زَعَمُوا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ ﴾ أَيْ : هَذِهِ الْآلِهَةُ الَّتِي اِسْتَنَدُوا إِلَيْهَا غَيْرَ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ . ﴿ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ قِيلَ : أَيْ يُجَارُونَ ، وَقِيلَ : لَا يُصْحَبُونَ مِنَ اللهِ بِخَيْرٍ ، وَقِيلَ : يُمْنَعُونَ .

بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ : إِنَّمَا غَرَّهُمْ وَحَمَلَهُمْ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ ، أَنَّهُمْ مُتِّعُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَنُعِّمُوا وَطَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فِيمَا هُمْ فِيهِ ، فَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ثُمَّ قَالَ وَاعِظًا لَهُمْ : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ :

وَقَدْ أَسْلَفْنَاهُ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ وَأَحْسَنَ مَا فُسِّرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٧] ، **وَقَالَ الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : **يَعْنِي** بِذَلِكَ ظُهُورُ الإِسْلَامِ عَلَى الْكُفْرِ ، وَالمَعْنَى : أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ بِنَصْرِ اللهِ لِأَوْلِيَائِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ ، وَإِهْلَاكِهِ الْأُمَمَ المُكَذِّبَةَ وَالْقُرَى الظَّالِمَةَ وَإِنْجَائِهِ لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ **يَعْنِي** : بَلْ هُمُ المَغْلُوبُونَ الْأَسْفَلُونَ الْأَخْسَرُونَ الْأَرْذَلُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾ **أَيْ** : إِنَّمَا أَنَا مُبَلِّغٌ عَنِ اللهِ مَا أَنْذَرْتُكُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا عَمَّا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ ، وَلَكِنْ لَا يُجْدِي هَذَا عَمَّنْ أَعْمَى اللهُ بَصِيرَتَهُ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾ **أَيْ** : وَلَئِنْ مَسَّ هَؤُلَاءِ المُكَذِّبِينَ أَدْنَى شَيْءٍ مِنْ عَذَابِ اللهِ لَيَعْتَرِفُنَّ بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا .﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ **أَيْ** : وَنَضَعُ المَوَازِينَ الْعَدْلَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، الْأَكْثَرُ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا هُوَ مِيزَانٌ وَاحِدٌ ، وَإِنَّمَا جُمِعَ بِاعْتِبَارِ تَعَدُّدِ الْأَعْمَالِ المَوْزُونَةِ فِيهِ . ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

قَدْ تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَقْرِنُ بَيْنَ ذِكْرِ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا - وَبَيْنَ كِتَابَيْهِمَا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ **قِيلَ** : التَّوْرَاةُ ، **وَقِيلَ** : مَا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِلِ ، **وَجَامِعُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ** : أَنَّ الْكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ ، وَالحَلَالِ وَالحَرَامِ ، وَعَلَى مَا يُحَصِّلُ نُورًا فِي الْقُلُوبِ ، وَهِدَايَةً وَخَوْفًا وَإِنَابَةً وَخَشْيَةً ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ **أَيْ** : تَذْكِيرًا لَهُمْ وَعِظَةً . **ثُمَّ وَصَفَهُمْ فَقَالَ** : ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ **أَيْ** : خَائِفُونَ وَجِلُونَ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ﴾ **يَعْنِي** : الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ **أَيْ** : أَفَتُنْكِرُونَهُ وَهُوَ فِي غَايَةِ الجَلَاءِ وَالظُّهُورِ ؟.

۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا

هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ أَنَّهُ آتَاهُ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ ، أَيْ : مِنْ صِغَرِهِ أَلْهَمَهُ الْحَقَّ وَالْحُجَّةَ عَلَى قَوْمِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : وَكَانَ أَهْلًا لِذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ هَذَا هُوَ الرُّشْدُ الَّذِي أُوتِيَهُ مِنْ صِغَرِهِ ، الْإِنْكَارُ عَلَى قَوْمِهِ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ مِنْ دُونِ اللهِ ﷻ ، فَقَالَ : ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ أَيْ : مُعْتَكِفُونَ عَلَى عِبَادَتِهَا . ﴿ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حُجَّةٌ سِوَى صَنِيعِ آبَائِهِمُ الضُّلَّالِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ أَيْ : الْكَلَامُ مَعَ آبَائِكُمُ الَّذِينَ احْتَجَجْتُمْ بِصَنِيعِهِمْ كَالْكَلَامِ مَعَكُمْ ، فَأَنْتُمْ وَهُمْ فِي ضَلَالٍ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ، فَلَمَّا سَفَّهَ أَحْلَامَهُمْ ، وَضَلَّلَ آبَاءَهُمْ ، وَاحْتَقَرَ آلِهَتَهُمْ ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ يَقُولُونَ هَذَا الْكَلَامَ الصَّادِرَ عَنْكَ تَقُولُهُ لَاعِبًا أَوْ مُحِقًّا فِيهِ ، فَإِنَّا لَمْ نَسْمَعْ بِهِ قَبْلَكَ . ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾ أَيْ : رَبُّكُمُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَمَا حَوَتْ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَهُنَّ ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أَيْ : وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾

ثُمَّ أَقْسَمَ الْخَلِيلُ قَسَمًا أَسْمَعَهُ بَعْضَ قَوْمِهِ لَيَكِيدَنَّ أَصْنَامَهُمْ ، أَيْ : لَيُحَرِّضَنَّ عَلَى أَذَاهُمْ وَتَكْسِيرِهِمْ بَعْدَ أَنْ يُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ، أَيْ : إِلَى عِيدِهِمْ ، وَكَانَ لَهُمْ عِيدٌ يَخْرُجُونَ إِلَيْهِ . عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : لَمَّا خَرَجَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ إِلَى عِيدِهِمْ مَرُّوا عَلَيْهِ ، فَقَالُوا : يَا إِبْرَاهِيمُ أَلَا تَخْرُجُ مَعَنَا ؟ قَالَ : إِنِّي سَقِيمٌ ، وَقَدْ كَانَ بِالْأَمْسِ قَالَ : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴾ فَسَمِعَهُ نَاسٌ مِنْهُمْ . ﴿ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا ﴾ أَيْ : حُطَامًا ، كَسَّرَهَا كُلَّهَا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ ، يَعْنِي :

إِلَّا الصَّنَمَ الْكَبِيرَ عِنْدَهُمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ [الصافات : ٩٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ ذَكَرُوا أَنَّهُ وَضَعَ الْقَدُومَ فِي يَدِ كَبِيرِهِمْ ، لَعَلَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي غَارَ لِنَفْسِهِ ، وَأَنِفَ أَنْ تُعْبَدَ مَعَهُ هَذِهِ الْأَصْنَامُ الصِّغَارُ فَكَسَّرَهَا . ﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا ﴾ أَيْ : حِينَ رَجَعُوا وَشَاهَدُوا مَا فَعَلَهُ الْخَلِيلُ بِأَصْنَامِهِمْ ، مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْإِذْلَالِ الدَّالِّ عَلَى عَدَمِ إِلَهِيَّتِهَا ، وَعَلَى سَخَافَةِ عُقُولِ عَابِدِيهَا ، ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أَيْ : فِي صَنِيعِهِ هَذَا . ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ أَيْ : قَالَ مَنْ سَمِعَهُ يَحْلِفُ إِنَّهُ لَيَكِيدَنَّهُمْ : سَمِعْنَا فَتًى ، أَيْ : شَابًّا ﴿ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ ﴾ أَيْ : عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ فِي الْمَلَإِ الْأَكْبَرِ بِحَضْرَةِ النَّاسِ كُلِّهِمْ ، وَكَانَ هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَكْبَرُ لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام ، أَنْ يُبَيِّنَ فِي هَذَا الْمَحْفِلِ الْعَظِيمِ كَثْرَةَ جَهْلِهِمْ وَقِلَّةَ عَقْلِهِمْ ، فِي عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهَا ضَرًّا ، وَلَا تَمْلِكُ لَهَا نَصْرًا ، فَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ؟ ﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ يَعْنِي : الَّذِي تَرَكَهُ لَمْ يُكَسِّرْهُ ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهَذَا أَنْ يُبَادِرُوا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ، فَيَعْتَرِفُوا : أَنَّهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ، وَأَنَّ هَذَا لَا يَصْدُرُ عَنْ هَذَا الصَّنَمِ لِأَنَّهُ جَمَادٌ .

فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ قَالَ لَهُمْ مَا قَالَ : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ أَيْ : بِالْمَلَامَةِ فِي عَدَمِ احْتِرَازِهِمْ وَحِرَاسَتِهِمْ لِآلِهَتِهِمْ **فَقَالُوا** : ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أَيْ : فِي تَرْكِكُمْ لَهَا مُهْمَلَةً لَا حَافِظَ عِنْدَهَا ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ أَيْ : ثُمَّ أَطْرَقُوا فِي الْأَرْضِ . **قَالَ قَتَادَةُ** : أَدْرَكَتِ الْقَوْمَ حَيْرَةُ سُوءٍ ، فَقَالُوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ ، وَلِهَذَا قَالُوا لَهُ : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ فَكَيْفَ تَقُولُ لَنَا سَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهَا لَا تَنْطِقُ ، فَعِنْدَهَا قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ أَيْ : إِذَا كَانَتْ لَا تَنْطِقُ وَهِيَ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ ، فَلِمَ تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ ؟ ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : أَفَلَا تَتَدَبَّرُونَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ الْغَلِيظِ ، الَّذِي لَا يَرُوجُ إِلَّا عَلَى جَاهِلٍ ظَالِمٍ فَاجِرٍ ، فَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ وَأَلْزَمَهُمْ بِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ [الأنعام : ٨٣]

قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

لَمَّا دُحِضَتْ حُجَّتُهُمْ ، وَبَانَ عَجْزُهُمْ وَظَهَرَ الْحَقُّ ، وَانْدَفَعَ الْبَاطِلُ ، عَدَلُوا إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِ مُلْكِهِمْ ، **فَقَالُوا** : ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ فَجَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا جِدًّا ، ثُمَّ جَعَلُوهُ فِي جَوْبَةٍ مِنَ الْأَرْضِ وَأَضْرَمُوهَا نَارًا ، فَكَانَ لَهَا شَرَرٌ عَظِيمٌ ، وَلَهَبٌ مُرْتَفِعٌ لَمْ تُوقَدْ نَارٌ قَطُّ مِثْلُهَا ، وَجَعَلُوا إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي كِفَّةِ الْمَنْجَنِيقِ . فَلَمَّا أَلْقَوْهُ قَالَ : حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : لَوْلَا أَنَّ اللهَ عز وجل قَالَ : ﴿ وَسَلَٰمًا ﴾ لَآذَى إِبْرَاهِيمَ بَرْدُهَا . ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ أَيْ : الْمَغْلُوبِينَ الْأَسْفَلِينَ ، لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا بِنَبِيِّ اللهِ كَيْدًا فَكَادَهُمُ اللهُ وَنَجَّاهُ مِنَ النَّارِ ، فَغُلِبُوا هُنَالِكَ .

وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ سَلَّمَهُ مِنْ نَارِ قَوْمِهِ ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُهَاجِرًا إِلَى بِلَادِ الشَّامِ ، إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ مِنْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ **قِيلَ** : عَطِيَّةً ، **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : سَأَلَ وَاحِدًا ، فَقَالَ : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٠] فَأَعْطَاهُ اللهُ إِسْحَاقَ ، وَزَادَهُ يَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ أَهْلُ خَيْرٍ وَصَلَاحٍ . ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أَيْ : يُقْتَدَى بِهِمْ ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أَيْ : يَدْعُونَ إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ﴿ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ أَيْ : فَاعِلِينَ لِمَا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِهِ ، ثُمَّ عَطَفَ بِذِكْرِ لُوطٍ وَهُوَ ابْنُ هَارَانَ بْنِ آزَرَ كَانَ قَدْ آمَنَ بِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَاتَّبَعَهُ وَهَاجَرَ مَعَهُ ، فَآتَاهُ اللهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ وَجَعَلَهُ نَبِيًّا ، وَبَعَثَهُ إِلَى سَدُومَ وَأَعْمَالِهَا فَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ وَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَصَّ خَبَرَهُمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ

كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اسْتِجَابَتِهِ لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوحٍ ﷺ حِينَ دَعَا عَلَى قَوْمِهِ لَمَّا كَذَّبُوهُ ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾[القمر : ١٠] ، ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[نوح : ٢٦] ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ . ﴿ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أَيْ : مِنَ الشِّدَّةِ وَالتَّكْذِيبِ وَالْأَذَى ، فَإِنَّهُ لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ ، وَكَانُوا يَتَصَدَّوْنَ لِأَذَاهُ وَيَتَوَاصَوْنَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ عَلَى خِلَافِهِ . ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ﴾ أَيْ : وَنَجَّيْنَاهُ وَخَلَّصْنَاهُ مُنْتَصِرًا مِنَ الْقَوْمِ ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أَيْ : أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِعَامَّةٍ ، وَلَمْ يُبْقِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَحَدًا إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ نَبِيُّهُمْ .

وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

قِيلَ : النَّفْشُ : الرَّعْيُ بِاللَّيْلِ ، وَالْهَمَلُ بِالنَّهَارِ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَضَى دَاوُدُ بِالْغَنَمِ لِأَصْحَابِ الْحَرْثِ ، فَخَرَجَ الرِّعَاءُ مَعَهُمُ الْكِلَابُ ، فَقَالَ لَهُمْ سُلَيْمَانُ : كَيْفَ قَضَى بَيْنَكُمْ فَأَخْبَرُوهُ ، فَقَالَ : لَوْ وُلِّيتُ أَمْرَكُمْ لَقَضَيْتُ بِغَيْرِ هَذَا ، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ دَاوُدُ فَدَعَاهُ ، فَقَالَ : كَيْفَ تَقْضِي بَيْنَهُمْ ؟ قَالَ : أَدْفَعُ الْغَنَمَ إِلَى صَاحِبِ الْحَرْثِ فَيَكُونُ لَهُ أَوْلَادُهَا وَأَلْبَانُهَا وَسِلَاؤُهَا وَمَنَافِعُهَا وَيَبْذُرُ أَصْحَابُ الْغَنَمِ لِأَهْلِ الْحَرْثِ مِثْلَ حَرْثِهِمْ ، فَإِذَا بَلَغَ الْحَرْثُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ أَخَذَهُ أَصْحَابُ الْحَرْثِ وَرَدُّوا الْغَنَمَ إِلَى أَصْحَابِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ فَأَثْنَى اللهُ عَلَى سُلَيْمَانَ وَلَمْ يَذُمَّ دَاوُدَ .

قُلْتُ : أَمَّا الْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - فَكُلُّهُمْ مَعْصُومُونَ مُؤَيَّدُونَ مِنَ اللهِ ﷻ وَهَذَا مِمَّا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ . وَقَرِيبٌ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ . قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَانِ لَهُمَا إِذْ جَاءَ الذِّئْبُ فَأَخَذَ أَحَدَ الِابْنَيْنِ ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى فَخَرَجَتَا ، فَدَعَاهُمَا سُلَيْمَانُ فَقَالَ : هَاتُوا السِّكِّينَ أَشُقُّهُ بَيْنَكُمَا ، فَقَالَتِ الصُّغْرَى : يَرْحَمُكَ اللهُ هُوَ ابْنُهَا لَا تَشُقُّهُ ، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى** ».

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾ الْآيَة ، وَذَلِكَ لِطِيبِ صَوْتِهِ بِتِلَاوَةِ كِتَابِهِ الزَّبُورَ ، وَكَانَ إِذَا تَرَنَّمَ بِهِ تَقِفُ الطَّيْرُ فِي الْهَوَاءِ فَتُجَاوِبُهُ ، وَتَرُدُّ عَلَيْهِ الْجِبَالُ تَأْوِيبًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ يَعْنِي : صَنْعَةَ الدُّرُوعِ قَالَ قَتَادَةُ : إِنَّمَا كَانَتِ الدُّرُوعُ قَبْلَهُ صَفَائِحُ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَرَدَهَا حِلَقًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ يَعْنِي : فِي الْقِتَالِ ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ أَيْ : نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُمْ لِمَا أَلْهَمَ بِهِ عَبْدَهُ دَاوُدَ فَعَلَّمَهُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِكُمْ . ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أَيْ : وَسَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ الْعَاصِفَةَ ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ يَعْنِي : أَرْضَ الشَّامِ ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ بِسَاطٌ مِنْ خَشَبٍ ، يُوضَعُ عَلَيْهِ كُلُّ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الْمَمْلَكَةِ ، وَالْخَيْلِ وَالْجِمَالِ وَالْخِيَامِ وَالْجُنْدِ ، ثُمَّ يَأْمُرُ الرِّيحَ أَنْ تَحْمِلَهُ فَتَدْخُلَ تَحْتَهُ ثُمَّ تَحْمِلَهُ وَتَرْفَعَهُ وَتَسِيرَ بِهِ ، وَتُظِلُّهُ الطَّيْرُ تَقِيهِ الْحَرَّ إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ مِنَ الْأَرْضِ ، فَيَنْزِل وَتُوضَعُ آلَاتُهُ وَحَشَمُهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ ﴾ أَيْ : فِي الْمَاءِ ، يَسْتَخْرِجُونَ اللَّآلِئَ وَالْجَوَاهِرَ وَغَيْرَ ذَلِكَ ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : غَيْرَ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ أَيْ : يَحْرُسُهُ اللهُ أَنْ يَنَالَهُ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ بِسُوءٍ ، بَلْ كُلٌّ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ ، لَا يَتَجَاسَرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى الدُّنُوِّ إِلَيْهِ وَالْقُرْبِ مِنْهُ ، بَلْ هُوَ يَحْكُمُ فِيهِمْ إِنْ شَاءَ أَطْلَقَ وَإِنْ شَاءَ حَبَسَ مِنْهُمْ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [ص : ٣٨]

۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى عَنْ أَيُّوبَ ﵇ مَا كَانَ أَصَابَهُ مِنَ الْبَلَاءِ فِي مَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَسَدِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ مِنَ الدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ شَيْءٌ كَثِيرٌ ، وَأَوْلَادٌ كَثِيرَةٌ ، وَمَنَازِلُ مُرْضِيَةٌ ، فَابْتُلِيَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَذَهَبَ عَنْ آخِرِهِ ، ثُمَّ ابْتُلِيَ فِي جَسَدِهِ ، يُقَالُ : بِالْجُذَامِ فِي سَائِرِ بَدَنِهِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ سَلِيمٌ سِوَى قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ يَذْكُرُ بِهِمَا اللهَ ﷻ ، حَتَّى عَافَهُ الْجَلِيسُ وَأُفْرِدَ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْبَلَدِ ، وَلَمْ يَبْقَ

أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَحْنُو عَلَيْهِ سِوَى زَوْجَتِهِ ، كَانَتْ تَقُومُ بِأَمْرِهِ ، وَيُقَالُ : إِنَّهَا اِحْتَاجَتْ فَصَارَتْ تَخْدُمُ النَّاسَ مِنْ أَجْلِهِ . عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**إِنَّ نَبِيَّ الله أَيُّوبَ لَبِثَ بِهِ بَلَاؤُهُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً ، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ ، إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ ، كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ لَهُ ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : تَعْلَمُ وَالله لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةٍ لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ فَيَكْشِفَ مَا بِهِ ، فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ أَيُّوبُ** عليه السلام **: مَا أَدْرِي مَا تَقُولُ ، غَيْرَ أَنَّ اللهَ** ﷻ **يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللهَ فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا ، كَرَاهِيَةَ أَنْ يَذْكُرَا اللهَ إِلَّا فِي حَقٍّ ، قَالَ : وَكَانَ يَخْرُجُ فِي حَاجَتِهِ فَإِذَا قَضَاهَا أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَتْ عَلَيْهِ فَأَوْحَى اللهُ إِلَى أَيُّوبَ فِي مَكَانِهِ أَنِ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ**)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : رُدُّوا عَلَيْهِ بِأَعْيَانِهِمْ . ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أَيْ : فَعَلْنَا بِهِ ذَلِكَ رَحْمَةً مِنَ الله بِهِ ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ ﴾ أَيْ : وَجَعَلْنَاهُ فِي ذَلِكَ قُدْوَةً ؛ لِئَلَّا يَظُنَّ أَهْلُ الْبَلَاءِ أَنَّمَا فَعَلْنَا بِهِمْ ذَلِكَ لِهَوَانِهِمْ عَلَيْنَا ، وَلِيَتَأَسَّوْا بِهِ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَقْدُورَاتِ الله وَابْتِلَائِهِ لِعِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي ذَلِكَ .

وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَالْمُرَادُ بِهِ اِبْنُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ ، وَكَذَا إِدْرِيسُ عليه السلام ، وَأَمَّا ذُو الْكِفْلِ فَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّهُ مَا قُرِنَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَهُوَ نَبِيٌّ ، وَقَالَ آخَرُونَ : إِنَّمَا كَانَ رَجُلًا صَالِحًا ، وَكَانَ مَلِكًا عَادِلًا ، وَحَكَمًا مُقْسِطًا .

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

هَذِهِ الْقِصَّةُ مَذْكُورَةٌ هَهُنَا ، وَفِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ ، وَفِي سُورَةِ ((ن)) وَذَلِكَ أَنَّ يُونُسَ بْنَ مَتَّى عليه السلام بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ قَرْيَةِ ((نِينَوَى)) وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ أَرْضِ الْمَوْصِلِ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الله تَعَالَى فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَتَمَادَوْا عَلَى كُفْرِهِمْ ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُغَاضِبًا لَهُمْ وَوَعَدَهُمْ بِالْعَذَابِ بَعْدَ

ثَلاثٍ ، فَلَمَّا تَحَقَّقُوا مِنْهُ ذَلِكَ وَعَلِمُوا أَنَّ النَّبِيَّ لَا يَكْذِبُ ، خَرَجُوا إِلَى الصَّحْرَاءِ بِأَطْفَالِهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْأُمَّهَاتِ وَأَوْلَادِهَا ، ثُمَّ تَضَرَّعُوا إِلَى اللهِ ﷻ ، وَجَأَرُوا إِلَيْهِ وَرَغَتِ الْإِبِلُ وَفُصْلَانُهَا ، وَخَارَتِ الْبَقَرُ وَأَوْلَادُهَا ، وَثَغَتِ الْغَنَمُ وَسِخَالُهَا ، فَرَفَعَ اللهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[يونس : ٩٨] . وَأَمَّا يُونُسُ عليه السلام فَإِنَّهُ ذَهَبَ فَرَكِبَ مَعَ قَوْمٍ فِي سَفِينَةٍ ، فَلَجَّجَتْ بِهِمْ ، وَخَافُوا أَنْ يَغْرَقُوا فَاقْتَرَعُوا عَلَى رَجُلٍ يُلْقُونَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ يَتَخَفَّفُونَ مِنْهُ ، فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى يُونُسَ ، فَأَبَوْا أَنْ يُلْقُوهُ ، ثُمَّ أَعَادُوهَا فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا ، فَأَبَوْا ثُمَّ أَعَادُوهَا فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾ [الصافات : ١٤١] أَيْ : وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ فَقَامَ يُونُسُ عليه السلام وَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ ثُمَّ أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ ، وَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ – فِيمَا قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ – حُوتًا يَشُقُّ الْبِحَارَ ، حَتَّى جَاءَ فَالْتَقَمَ يُونُسَ حِينَ أَلْقَى نَفْسَهُ مِنَ السَّفِينَةِ ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى ذَلِكَ الْحُوتِ أَنْ لَا تَأْكُلَ لَهُ لَحْمًا وَلَا تُهَشِّمَ لَهُ عَظْمًا ، فَإِنَّ يُونُسَ لَيْسَ لَكَ رِزْقًا ، وَإِنَّمَا بَطْنُكَ تَكُونُ لَهُ سِجْنًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ ﴾ يَعْنِي : الْحُوتُ ، صَحَّتِ الْإِضَافَةُ إِلَيْهِ بِهَذِهِ النِّسْبَةِ . ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ لِقَوْمِهِ ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : نُضَيِّقَ عَلَيْهِ فِي بَطْنِ الْحُوتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : ظُلْمَةُ بَطْنِ الْحُوتِ وَظُلْمَةُ الْبَحْرِ وَظُلْمَةُ اللَّيْلِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ ذَهَبَ بِهِ الْحُوتُ فِي الْبِحَارِ يَشُقُّهَا ، حَتَّى انْتَهَى بِهِ إِلَى قَرَارِ الْبَحْرِ ، فَسَمِعَ يُونُسُ تَسْبِيحَ الْحَصَى فِي قَرَارِهِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ وَهُنَالِكَ قَالَ : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**دَعْوَةُ ذِي النُّونِ ، إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ** ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ **فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ**)) .

وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ زَكَرِيَّا حِينَ طَلَبَ أَنْ يَهَبَهُ اللهُ وَلَدًا يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِ نَبِيًّا وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْقِصَّةُ مَبْسُوطَةً فِي أَوَّلِ ((سُورَةِ مَرْيَمَ)) وَفِي ((سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ)) أَيْضًا ، وَهَهُنَا أَخْصَرُ مِنْهَا ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ أَيْ : خُفْيَةً عَنْ قَوْمِهِ ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا ﴾ أَيْ : لَا وَلَدَ لِي وَلَا وَارِثَ يَقُومُ بَعْدِي فِي

النَّاسِ ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ دُعَاءٌ وَثَنَاءٌ مُنَاسِبٌ لِلْمَسْأَلَةِ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ أَيْ : اِمْرَأَتَهُ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : كَانَتْ عَاقِرًا لَا تَلِدُ فَوَلَدَتْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ أَيْ : فِي عَمَلِ الْقُرُبَاتِ وَفِعْلِ الطَّاعَاتِ ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ رَغَبًا فِيمَا عِنْدَنَا وَرَهَبًا مِمَّا عِنْدَنَا ﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ قِيلَ : أَيْ : مُصَدِّقِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ، وَقِيلَ : خَائِفِينَ ، وَقِيلَ : الْخُشُوعُ هُوَ الْخَوْفُ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ لَا يُفَارِقُهُ أَبَدًا .

وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾

هَكَذَا يَذْكُرُ تَعَالَى قِصَّةَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا عِيسَى عليه السلام ، مَقْرُونَةً بِقِصَّةِ زَكَرِيَّا وَابْنِهِ يَحْيَى - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - فَيَذْكُرُ أَوَّلًا قِصَّةَ زَكَرِيَّا ، ثُمَّ يُتْبِعُهَا بِقِصَّةِ مَرْيَمَ ؛ لِأَنَّ تِلْكَ مَرْبُوطَةٌ بِهَذِهِ ؛ فَإِنَّهَا إِيجَادُ وَلَدٍ مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ قَدْ طَعَنَ فِي السِّنِّ ، وَمِنِ امْرَأَةٍ عَجُوزٍ عَاقِرٍ لَمْ تَكُنْ تَلِدُ فِي حَالِ شَبَابِهَا ، ثُمَّ يَذْكُرُ قِصَّةَ مَرْيَمَ وَهِيَ أَعْجَبُ ؛ فَإِنَّهَا إِيجَادُ وَلَدٍ مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ ، هَكَذَا وَقَعَ فِي « سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ » وَفِي « سُورَةِ مَرْيَمَ » ، وَهَهُنَا ذَكَرَ قِصَّةَ زَكَرِيَّا ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِقِصَّةِ مَرْيَمَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ يَعْنِي : مَرْيَمُ - عَلَيْهَا السَّلَامُ -. وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : دَلَالَةً عَلَى أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ ، وَأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ .

إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ يَقُولُ : دِينُكُمْ دِينٌ وَاحِدٌ ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : أَيْ : سُنَّتُكُمْ سُنَّةٌ وَاحِدَةٌ ، فَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ ﴾ إِنَّ وَاسْمُهَا وَ ﴿ أُمَّتُكُمْ ﴾ خَبَرُ إِنَّ ، أَيْ : هَذِهِ شَرِيعَتُكُمُ الَّتِي بَيَّنْتُ لَكُمْ وَوَضَّحْتُ لَكُمْ . ﴿ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ نُصِبَ عَلَى الْحَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ : اِخْتَلَفَتِ الْأُمَمُ عَلَى رُسُلِهَا فَمِنْ بَيْنِ مُصَدِّقٍ لَهُمْ وَمُكَذِّبٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجَازَى كُلٌّ بِحَسَبِ عَمَلِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أَيْ : قَلْبُهُ مُصَدِّقٌ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ﴾ لَا يُكْفَرُ سَعْيُهُ - وَهُوَ عَمَلُهُ - بَلْ يُشْكَرُ ، فَلَا يُظْلَمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ أَيْ : يُكْتَبُ جَمِيعُ عَمَلِهِ فَلَا يَضِيعُ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ .

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٩٧ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ يَعْنِي : قَدْ قُدِّرَ أَنَّ أَهْلَ كُلِّ قَرْيَةٍ أُهْلِكُوا ، أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَى الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُمْ مِنْ سُلَالَةِ آدَمَ عليه السلام بَلْ هُمْ مِنْ نَسْلِ نُوحٍ أَيْضًا مِنَ أَوْلَادِ يَافِثَ ، أَيْ : أَبِي التُّرْكِ ، وَالتُّرْكُ شِرْذِمَةٌ مِنْهُمْ تُرِكُوا مِنْ وَرَاءِ السَّدِّ الَّذِي بَنَاهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ : ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ أَيْ : يُسْرِعُونَ فِي الْمَشْيِ إِلَى الْفَسَادِ ، وَالْحَدَبِ : هُوَ الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ ، وَهَذِهِ صِفَتُهُمْ فِي حَالِ خُرُوجِهِمْ ، كَأَنَّ السَّامِعَ مُشَاهِدٌ لِذَلِكَ ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٤] هَذَا إِخْبَارُ عَالِمٍ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ ، الَّذِي يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **تُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ فَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ كَمَا قَالَ اللهُ** عز وجل ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ **فَيَغْشَوْنَ النَّاسَ وَيَنْحَازُ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ إِلَى مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ وَيَضُمُّونَ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيهِمْ وَيَشْرَبُونَ مِيَاهَ الْأَرْضِ ، حَتَّى أَنَّ بَعْضَهُمْ لَيَمُرُّ بِالنَّهْرِ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهِ حَتَّى يَتْرُكُوهُ يَابِسًا ، حَتَّى إِنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ لَيَمُرُّ بِذَلِكَ النَّهْرِ ، فَيَقُولُ : قَدْ كَانَ هَهُنَا مَاءٌ مَرَّةً ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ إِلَّا أَحَدٌ فِي حِصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ ، قَالَ قَائِلُهُمْ هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْأَرْضِ قَدْ فَرَغْنَا مِنْهُمْ بَقِيَ أَهْلُ السَّمَاءِ ، قَالَ : ثُمَّ يَهُزُّ أَحَدُهُمْ حَرْبَتَهُ ثُمَّ يَرْمِي بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَتَرْجِعَ إِلَيْهِ مُخْتَضِبَةً دَمًا لِلْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ** عز وجل **دُودًا فِي أَعْنَاقِهِمْ كَنَغَفِ الْجَرَادِ الَّذِي يَخْرُجُ فِي أَعْنَاقِهِ ، فَيُصْبِحُونَ مَوْتَى لَا يُسْمَعُ لَهُمْ حِسٌّ ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ : أَلَا رَجُلٌ يَشْرِي لَنَا نَفْسَهُ فَيَنْظُرَ مَا فَعَلَ هَذَا الْعَدُوُّ ؟ قَالَ : فَيَنْحَدِرُ رَجُلٌ مِنْهُمْ مُحْتَسِبًا نَفْسَهُ ، قَدْ أَوْطَنَهَا عَلَى أَنَّهُ مَقْتُولٌ ، فَيَنْزِلُ فَيَجِدُهُمْ مَوْتَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَيُنَادِي يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ : أَلَا أَبْشِرُوا إِنَّ اللهَ** عز وجل **قَدْ كَفَاكُمْ عَدُوَّكُمْ ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ وَيُسَرِّحُونَ مَوَاشِيهِمْ ، فَمَا يَكُون لَهُمْ رَعْيٌ إِلَّا لُحُومُهُمْ ، فَتَشْكُرُ عَنْهُمْ كَأَحْسَنِ مَا شَكَرَتْ عَنْ شَيْءٍ مِنَ النَّبَاتِ أَصَابَتْهُ قَطُّ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ يَعْنِي يَوْمُ الْقِيَامَةِ إِذَا حَصَلَتْ هَذِهِ الْأَهْوَالُ وَالزَّلَازِلُ وَالْبَلَابِلُ أَزِفَتِ السَّاعَةُ وَاقْتَرَبَتْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَيْ : مِنْ شِدَّةِ مَا يُشَاهِدُونَهُ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ ، يَقُولُونَ : ﴿ يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾

أَيْ : فِي الدُّنْيَا ﴿ بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ يَعْتَرِفُونَ بِظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَٰلِكَ .

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِأَهْلِ مَكَّةَ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ، وَمَنْ دَانَ بِدِينِهِمْ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ أَيْ : وَقُودُهَا يَعْنِي كَقَوْلِهِ : ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم : ٦] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ أَيْ : دَاخِلُونَ . ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ يَعْنِي : لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ وَالْأَنْدَادُ الَّتِي اتَّخَذْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً صَحِيحَةً ، لَمَا وَرَدُوا النَّارَ وَمَا دَخَلُوهَا ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أَيْ : الْعَابِدُونَ وَمَعْبُودَاتهم كُلهمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ ، وَالزَّفِيرُ : خُرُوجُ أَنْفَاسِهِمْ ، ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ قِيلَ : الرَّحْمَةُ ، وَقِيلَ : السَّعَادَةُ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ فَكَمَا أَحْسَنُوا الْعَمَلَ فِي الدُّنْيَا أَحْسَنَ اللهُ مَآلَهُمْ وَثَوَابَهُمْ فَنَجَّاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ ، وَحَصَلَ لَهُمْ جَزِيلُ الثَّوَابِ ، فَقَالَ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ أَيْ : حَرِيقَهَا فِي الْأَجْسَادِ . ﴿ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ فَسَلَّمَهُمْ مِنَ الْمَحْذُورِ وَالْمَرْهُوبِ وَحَصَلَ لَهُمْ الْمَطْلُوبُ وَالْمَحْبُوبُ . ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ : الْمَوْتُ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالْفَزَعِ الْأَكْبَرِ : النَّفْخَةُ فِي الصُّورِ ، وَقِيلَ : حِينَ يُذْبَحُ الْمَوْتُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ يَعْنِي : تَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ تُبَشِّرُهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ إِذَا خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ : ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أَيْ : قَابِلُوا مَا يَسُرُّكُمْ .

يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى هَذَا كَائِنٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ السِّجِلَّ : هِيَ الصَّحِيفَةُ ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ أَيْ : عَلَى الْكِتَابِ ، بِمَعْنَى الْمَكْتُوبِ . ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا

عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ يَعْنِي : هَذَا كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ يَوْمَ يُعِيدُ اللهُ الْخَلَائِقَ خَلْقًا جَدِيدًا ، كَمَا بَدَأَهُمْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى إِعَادَتِهِمْ ، وَذَلِكَ وَاجِبُ الْوُقُوعِ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ وَعْدِ اللهِ الَّذِي لَا يُخْلَفُ وَلَا يُبَدَّلُ ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ : « **إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللهِ** ﷻ **حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا** ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ .

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا حَتَّمَهُ وَقَضَاهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ مِنَ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَوِرَاثَةِ الْأَرْضِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا مَسْطُورٌ فِي الْكُتُبِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ ، وَهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾ **قَالَ الْأَكْثَرُونَ** : الزَّبُورُ : الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى دَاوُدَ وَالذِّكْرُ : التَّوْرَاةُ ، **وَقِيلَ** : الزَّبُورُ : الْقُرْآنُ ، **وَقِيلَ** : الذِّكْرُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ ، ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ الْأَرْضُ هِيَ : الْجَنَّةُ ، وَالصَّالِحُونَ : الْمُؤْمِنُونَ ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ عَلَى عَبْدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ لَبَلَٰغًا ﴾ لَمَنْفَعَةً وَكِفَايَةً ﴿ لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ وَهُمُ الَّذِينَ عَبَدُوا اللهَ بِمَا شَرَعَهُ وَأَحَبَّهُ وَرَضِيَهُ ، وَآثَرُوا طَاعَةَ اللهِ عَلَى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ وَشَهَوَاتِ أَنْفُسِهِمْ . ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ اللهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا ﷺ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، أَيْ : أَرْسَلَهُ رَحْمَةً لَهُمْ كُلِّهِمْ ، فَمَنْ قَبِلَ الرَّحْمَةَ وَشَكَرَ هَذِهِ النِّعْمَةَ سَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ رَدَّهَا وَجَحَدَهَا خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ .

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أَيْ : مُتَّبِعُونَ عَلَى ذَلِكَ مُسْتَسْلِمُونَ مُنْقَادُونَ لَهُ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أَيْ : تَرَكُوا مَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ ﴿ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أَيْ : أَعْلَمْتُكُمْ أَنِّي حَرْبٌ لَكُمْ كَمَا أَنَّكُمْ حَرْبٌ لِي ، بَرِيءٌ مِنْكُمْ كَمَا أَنْتُمْ بُرَآءُ مِنِّي . ﴿ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ أَيْ : هُوَ وَاقِعٌ لَا

مَحَالَةَ ، وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لِي بِقُرْبِهِ وَلَا بِبُعْدِهِ . ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ الْغَيْبَ جَمِيعَهُ ، وَيَعْلَمُ مَا يُظْهِرُهُ الْعِبَادُ وَمَا يُسِرُّونَ ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ . ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أَيْ : وَمَا أَدْرِي لَعَلَّ هَذَا فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ . ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : اِفْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ، أَيْ : عَلَى مَا يَقُولُونَ وَيَفْتَرُونَ مِنَ الْكَذِبِ وَيَتَنَوَّعُونَ فِي مَقَامَاتِ التَّكْذِيبِ وَالْإِفْكِ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٧٨ تفسيرُ سُورَةِ الحَجِّ مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ بِتَقْوَاهُ ، وَمُخْبِرًا لَهُمْ بِمَا يَسْتَقْبِلُونَ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَزَلَازِلِهَا وَأَحْوَالِهَا ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : أَمْرٌ كَبِيرٌ وَخَطْبٌ جَلِيلٌ ، وَطَارِقٌ مُفْظِعٌ وَحَادِثٌ هَائِلٌ ، وَكَائِنٌ عَجِيبٌ ، وَالزِّلْزَالُ هُوَ : مَا يَحْصُلُ لِلنُّفُوسِ مِنَ الرُّعْبِ وَالْفَزَعِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ هَذَا مِنْ بَابِ ضَمِيرِ الشَّأْنِ ، وَلِهَذَا قَالَ مُفَسِّرًا لَهُ : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ أَيْ : فَتَشْتَغِلُ لِهَوْلِ مَا تَرَى عَنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهَا وَالَّتِي هِيَ أَشْفَقُ النَّاسِ عَلَيْهِ ، تُدْهَشُ عَنْهُ فِي حَالِ إِرْضَاعِهَا لَهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : « مُرْضِعٌ » وَقَالَ : ﴿ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ أَيْ : عَنْ رَضِيعِهَا قَبْلَ فِطَامِهِ ، ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ أَيْ : قَبْلَ تَمَامِهِ لِشِدَّةِ الْهَوْلِ ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ ﴾ وَقُرِئَ « سَكْرَى » أَيْ : مِنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ صَارُوا فِيهِ ، قَدْ دَهِشَتْ عُقُولُهُمْ ، وَغَابَتْ أَذْهَانُهُمْ ، فَمَنْ رَآهُمْ حَسِبَ أَنَّهُمْ سُكَارَى ﴿ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ

﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَامًّا لِمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ وَأَنْكَرَ قُدْرَةَ اللهِ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، مُعْرِضًا عَمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ، مُتَّبِعًا فِي قَوْلِهِ وَإِنْكَارِهِ وَكُفْرِهِ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ، **وَلِهَذَا قَالَ فِي شَأْنِهِمْ وَأَشْبَاهِهِمْ** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أَيْ: عِلْمٍ صَحِيحٍ ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ يَعْنِي: الشَّيْطَانُ كُتِبَ عَلَيْهِ كِتَابَةً قَدَرِيَّةً ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أَيْ: اتَّبَعَهُ وَقَلَّدَهُ ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أَيْ: يُضِلُّهُ فِي الدُّنْيَا، وَيَقُودُهُ فِي الْآخِرَةِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ، وَهُوَ الْحَارُّ الْمُؤْلِمُ الْمُقْلِقُ الْمُزْعِجُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْمُخَالِفَ لِلْبَعْثِ الْمُنْكِرَ لِلْمَعَادِ، ذَكَرَ تَعَالَى الدَّلِيلَ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى الْمَعَادِ بِمَا يُشَاهَدُ مِنْ بَدْئِهِ لِلْخَلْقِ، **فَقَالَ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ أَيْ: فِي شَكٍّ ﴿مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ وَهُوَ الْمَعَادُ وَقِيَامُ الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أَيْ: أَصْلُ بُرْئِهِ لَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْهُ آدَمَ عليه السلام ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أَيْ: ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا اسْتَقَرَّتِ النُّطْفَةُ فِي رَحِمِ الْمَرْأَةِ مَكَثَتْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا كَذَلِكَ يُضَافُ إِلَيْهِ مَا يَجْتَمِعُ إِلَيْهَا، ثُمَّ تَنْقَلِبُ عَلَقَةً حَمْرَاءَ بِإِذْنِ اللهِ، فَتَمْكُثُ كَذَلِكَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ تَسْتَحِيلُ فَتَصِيرُ ﴿مُّضْغَةٍ﴾ قِطْعَةً مِنْ لَحْمٍ لَا شَكْلَ فِيهَا وَلَا تَخْطِيطَ، ثُمَّ يُشْرَعُ فِي التَّشْكِيلِ وَالتَّخْطِيطِ فَيُصَوَّرُ مِنْهَا رَأْسٌ وَيَدَانِ وَصَدْرٌ وَبَطْنٌ وَفَخِذَانِ وَرِجْلَانِ وَسَائِرُ الْأَعْضَاءِ، فَتَارَةً تُسْقِطُهَا الْمَرْأَةُ قَبْلَ التَّشْكِيلِ وَالتَّخْطِيطِ، وَتَارَةً تُلْقِيهَا وَقَدْ صَارَتْ ذَاتَ شَكْلٍ وَتَخْطِيطٍ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أَيْ: كَمَا تُشَاهِدُونَهَا ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَيْ: وَتَارَةً تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ لَا تُلْقِيهَا الْمَرْأَةُ وَلَا تُسْقِطُهَا، كَمَا

قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ قَالَ: هُوَ السِّقْطُ مَخْلُوقٌ وَغَيْرُ مَخْلُوقٍ.

فَإِذَا مَضَى عَلَيْهَا أَرْبَعُونَ يَوْمًا وَهِي مُضْغَةٌ أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهَا مَلَكًا فَنَفَخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَسَوَّاهَا كَمَا يَشَاءُ اللهُ ﷻ مِنْ حُسْنٍ وَقُبْحٍ، وَذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَكَتَبَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ الله إِلَيْهِ المَلَكَ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ وَعَمَلَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ**».

وَقَوْلُهُ: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أَيْ: ضَعِيفًا فِي بَدَنِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَحَوَاسِّهِ وَبَطْشِهِ وَعَقْلِهِ، ثُمَّ يُعْطِيهِ اللهُ الْقُوَّةَ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَيَلْطُفُ بِهِ وَيُحَنِّنُ عَلَيْهِ وَالِدَيْهِ فِي آنَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ﴾ أَيْ: يَتَكَامَلُ الْقُوَى وَيَتَزَايَدُ وَيَصِلُ إِلَى عُنْفُوَانِ الشَّبَابِ وَحُسْنِ المَنْظَرِ ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ ﴾ أَيْ: فِي حَالِ شَبَابِهِ وَقُوَاهُ ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ وَهُوَ الشَّيْخُوخَةُ وَالْهَرَمُ، وَضَعْفُ الْقُوَّةِ وَالْعَقْلِ وَالْفَهْمِ، وَتَنَاقُصُ الأَحْوَالِ مِنَ الْخَوْفِ وَضَعْفِ الْفِكْرِ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ هَذَا دَلِيلٌ آخَرُ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى إِحْيَاءِ المَوْتَى، كَمَا يُحْيِي الأَرْضَ المَيْتَةَ الْهَامِدَةَ وَهِيَ الْمُقْحِلَةُ الَّتِي لَا يَنْبُتُ فِيهَا شَيْءٌ، **وَقَالَ قَتَادَةُ**: غَبْرَاءُ مُتَهَشِّمَةٌ. **وَقَالَ السُّدِّيُّ**: مَيْتَةٌ: ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ **أَيْ**: فَإِذَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهَا المَطَرَ ﴿ ٱهْتَزَّتْ ﴾ أَيْ: تَحَرَّكَتْ بِالنَّبَاتِ وَحَيِيَتْ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿ وَرَبَتْ ﴾ **أَيْ**: ارْتَفَعَتْ لَمَّا سَكَنَ فِيهَا الثَّرَى، ثُمَّ أَنْبَتَتْ مَا فِيهَا مِنَ الأَلْوَانِ وَالْفُنُونِ، مِنْ ثِمَارٍ وَزُرُوعٍ وَأَشْتَاتٍ فِي اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا وَطُعُومِهَا وَرَوَائِحِهَا وَأَشْكَالِهَا وَمَنَافِعِهَا، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ أَيْ: حَسَنُ المَنْظَرِ طَيِّبُ الرِّيحِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ أَيْ: الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ ﴿ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ **أَيْ**: كَمَا أَحْيَا الأَرْضَ المَيْتَةَ وَأَنْبَتَ مِنْهَا هَذِهِ الأَنْوَاعَ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩] ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أَيْ: كَائِنَةٌ لَا شَكَّ فِيهَا وَلَا مِرْيَةَ ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ أَيْ: يُعِيدُهُمْ بَعْدَمَا صَارُوا فِي قُبُورِهِمْ رِمَمًا وَيُوجِدُهُمْ بَعْدَ الْعَدَمِ.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الضُّلَّالِ الْجُهَّالِ الْمُقَلِّدِينَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ ذَكَرَ فِي هَذِهِ حَالَ الدُّعَاةِ إِلَى الضَّلَالَةِ مِنْ رُءُوسِ الْكُفْرِ وَالْبِدَعِ ، **فَقَالَ** : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ أَيْ : بِلَا عَقْلٍ صَحِيحٍ وَلَا نَقْلٍ صَرِيحٍ ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الرَّأْيِ وَالْهَوَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : مُسْتَكْبِرٌ عَنِ الْحَقِّ إِذَا دُعِيَ إِلَيْهِ ، **وَقِيلَ** : لَاوِيَ عِطْفِهِ وَهِيَ رَقَبَتُهُ ، يَعْنِي : يُعْرِضُ عَمَّا يُدْعَى إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَيَثْنِي رَقَبَتَهُ اسْتِكْبَارًا . ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : هَذِهِ لَامُ الْعَاقِبَةِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ لَا يَقْصِدُ ذَلِكَ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ لَامُ التَّعْلِيلِ ، ثُمَّ إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا الْمُعَانِدُونَ ، أَوْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا أَنَّ هَذَا الْفَاعِلَ لِهَذَا إِنَّمَا جَبَلْنَاهُ عَلَى هَذَا الْخُلُقِ لِنَجْعَلَهُ مِمَّنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِ الله . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ ﴾ وَهُوَ الْإِهَانَةُ وَالذُّلُّ ، كَمَا أَنَّهُ لَمَّا اسْتَكْبَرَ عَنْ آيَاتِ الله لَقَّاهُ الله الْمَذَلَّةَ فِي الدُّنْيَا ، وَعَاقَبَهُ فِيهَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ؛ لِأَنَّهَا أَكْبَرُ هَمِّهِ وَمَبْلَغُ عِلْمِهِ ﴿ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُ هَذَا تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝١١ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ۝١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ۝١٣

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ عَلَى شَكٍّ ، **وَقَالَ غَيْرُهُمْ** : عَلَى طَرَفٍ ، أَيْ : طَرَفُهُ ، أَيْ : دَخَلَ فِي الدِّينِ عَلَى طَرَفٍ ، فَإِنْ وَجَدَ مَا يُحِبُّهُ اسْتَقَرَّ ، وَإِلَّا انْشَمَرَ . **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ قَالَ : كَانَ الرَّجُلُ يَقْدَمُ الْمَدِينَةَ فَإِنْ وَلَدَتِ امْرَأَتُهُ غُلَامًا وَنَتَجَتْ خَيْلُهُ ، قَالَ : هَذَا دِينٌ صَالِحٌ ، وَإِنْ لَمْ تَلِد امْرَأَتُهُ وَلَمْ تُنْتَجْ خَيْلُهُ قَالَ : هَذَا دِينُ سُوءٍ . ﴿ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ ﴾ أَيْ : ارْتَدَّ كَافِرًا .﴿ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ ﴾ أَيْ : فَلَا هُوَ حَصَلَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى شَيْءٍ ، وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَقَدْ كَفَرَ بِالله الْعَظِيم ، فَهُوَ فِيهَا فِي غَايَةِ الشَّقَاءِ وَالْإِهَانَةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ أَيْ : هَذِهِ هِيَ الْخَسَارَةُ الْعَظِيمَةُ وَالصَّفْقَةُ الْخَاسِرَةُ . ﴿ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ يَسْتَغِيثُ بِهَا وَيَسْتَنْصِرُهَا وَيَسْتَرْزِقُهَا وَهِيَ لَا تَنْفَعُهُ وَلَا تَضُرُّهُ ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾ . ﴿ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ ﴾ أَيْ : ضَرَرُهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ فِيهَا وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَضَرَرُهُ مُحَقَّقٌ مُتَيَقَّنٌ . ﴿ لَبِئۡسَ

ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ قِيلَ : يَعْنِي الْوَثَنُ ، يَعْنِي : بِئْسَ هَذَا الَّذِي دَعَاهُ مِنْ دُونِ اللهِ مَوْلًى ، يَعْنِي : وَلِيًّا وَنَاصِرًا ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ ، وَهُوَ الْمُخَالِطُ وَالْمُعَاشِرُ .

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾

لَمَّا ذَكَرَ أَهْلَ الضَّلَالَةِ الْأَشْقِيَاءِ عَطَفَ بِذِكْرِ الْأَبْرَارِ السُّعَدَاءِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ وَصَدَّقُوا إِيمَانَهُمْ بِأَفْعَالِهِمْ فَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْقُرُبَاتِ وَتَرَكُوا الْمُنْكَرَاتِ ، فَأَوْرَثَهُمْ ذَلِكَ سُكْنَى الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ، وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَضَلَّ أُولَئِكَ وَهَدَى هَؤُلَاءِ ، قَالَ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ .

مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أَيْ : بِحَبْلٍ ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أَيْ : سَمَاءُ بَيْتِهِ ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ يَقُولُ : ثُمَّ لِيَخْتَنِقَ بِهِ . فَالْمَعْنَى : مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِنَاصِرٍ مُحَمَّدًا وَكِتَابَهُ وَدِينَهُ فَلْيَذْهَبْ فَلْيَقْتُلْ نَفْسَهُ إِنْ كَانَ ذَلِكَ غَائِظُهُ فَإِنَّ اللهَ نَاصِرُهُ لَا مَحَالَةَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أَيْ : الْقُرْآنُ ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أَيْ : وَاضِحَاتٌ فِي لَفْظِهَا وَمَعْنَاهَا ، حُجَّةٌ مِنَ اللهِ عَلَى النَّاسِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ أَيْ : يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَدْيَانِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالصَّابِئِينَ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ التَّعْرِيفَ بِهِمْ ، وَاخْتِلَافَ النَّاسِ فِيهِمْ ، وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا فَعَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ فَإِنَّهُ تَعَالَى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ ، فَيُدْخِلُ مَنْ آمَنَ بِهِ الْجَنَّةَ وَمَنْ كَفَرَ بِهِ النَّارَ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى شَهِيدٌ عَلَى أَفْعَالِهِمْ ، حَفِيظٌ لِأَقْوَالِهِمْ ، عَلِيمٌ بِسَرَائِرِهِمْ وَمَا تُكِنُّ ضَمَائِرُهُمْ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَإِنَّهُ يَسْجُدُ لِعَظَمَتِهِ كُلُّ شَيْءٍ طَوْعًا وَكَرْهًا، وَسُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يَخْتَصُّ بِهِ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ: مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ، وَالْحَيَوَانَاتِ فِي جَمِيعِ الْجِهَاتِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالدَّوَابِّ وَالطَّيْرِ ﴿ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ ﴾ إِنَّمَا ذَكَرَ هَذِهِ عَلَى التَّنْصِيصِ؛ لِأَنَّهَا قَدْ عُبِدَتْ مِنْ دُونِ اللهِ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا تَسْجُدُ لِخَالِقِهَا وَأَنَّهَا مَرْبُوبَةٌ مُسَخَّرَةٌ. ﴿ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾ أَيْ: الْحَيَوَانَاتُ كُلُّهَا، ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ: يَسْجُدُ لِلهِ طَوْعًا مُخْتَارًا مُتَعَبِّدًا بِذَلِكَ ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ أَيْ: مِمَّنْ امْتَنَعَ وَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾.

۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾

ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّهُ كَانَ يُقْسِمُ قَسَمًا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ نَزَلَتْ فِي حَمْزَةَ وَصَاحِبَيْهِ، وَعُتْبَةَ وَصَاحِبَيْهِ يَوْمَ بَرَزُوا فِي بَدْرٍ. وَالْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَافِرُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُرِيدُونَ نُصْرَةَ دِينِ اللهِ ﷻ وَالْكَافِرُونَ يُرِيدُونَ إِطْفَاءَ نُورِ الْإِيمَانِ، وَخِذْلَانَ الْحَقِّ، وَظُهُورَ الْبَاطِلِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ أَيْ: فُصِّلَتْ لَهُمْ مُقَطَّعَاتٌ مِنَ النَّارِ ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾ أَيْ: إِذَا صُبَّ عَلَى رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ وَهُوَ الْمَاءُ الْحَارُّ فِي غَايَةِ الْحَرَارَةِ. ﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ يُضْرَبُونَ بِهَا فَيَقَعُ كُلُّ عُضْوٍ عَلَى حِيَالِهِ فَيَدْعُونَ بِالثُّبُورِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا ﴾ **قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ**: وَاللهِ مَا طَمِعُوا فِي الْخُرُوجِ إِنَّ الْأَرْجُلَ لَمُقَيَّدَةٌ وَإِنَّ الْأَيْدِي لَمُوثَقَةٌ، وَلَكِنْ يَرْفَعُهُمْ لَهَبُهَا وَتَرُدُّهُمْ مَقَامِعُهَا. ﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة: ٢٠]، **وَمَعْنَى الْكَلَامِ**: أَنَّهُمْ يُهَانُونَ بِالْعَذَابِ قَوْلًا وَفِعْلًا.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

لَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ حَالِهِمْ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْحَرِيقِ وَالْأَغْلَالِ ، وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الثِّيَابِ مِنَ النَّارِ ذَكَرَ حَالَ أَهْلِ الْجَنَّةِ - نَسْأَلُ اللهَ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ أَنْ يُدْخِلَنَا الْجَنَّةَ - فَقَالَ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أَيْ : تَتَخَرَّقُ فِي أَكْنَافِهَا وَأَرْجَائِهَا وَجَوَانِبِهَا وَتَحْتَ أَشْجَارِهَا وَقُصُورِهَا يَصْرِفُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا وَأَيْنَ أَرَادُوا ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ مِنَ الْحِلْيَةِ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أَيْ : فِي أَيْدِيهِمْ ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ فِي مُقَابَلَةِ ثِيَابِ أَهْلِ النَّارِ الَّتِي فُصِّلَتْ لَهُمْ ، لِبَاسُ هَؤُلَاءِ مِنَ الْحَرِيرِ إِسْتَبْرَقُهُ وَسُنْدُسُهُ ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ فَهُدُوا إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَسْمَعُونَ فِيهِ الْكَلَامَ الطَّيِّبَ . ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أَيْ : إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَحْمَدُونَ فِيهِ رَبَّهُمْ عَلَى مَا أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ وَأَنْعَمَ بِهِ وَأَسْدَاهُ إِلَيْهِمْ .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْكُفَّارِ فِي صَدِّهِمُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ إِتْيَانِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَقَضَاءِ مَنَاسِكِهِمْ فِيهِ وَدَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ : ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال : ٣٤] ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا مَدَنِيَّةٌ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة : ٢١٧] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أَيْ : وَمِنْ صِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ مَعَ كُفْرِهِمْ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، أَيْ : وَيَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مَنْ أَرَادَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَهَذَا التَّرْكِيبُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد : ٢٨] أَيْ : وَمِنْ صِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ أَيْ : يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَقَدْ جَعَلَهُ اللهُ شَرْعًا سَوَاءً ، لَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ الْمُقِيمِ فِيهِ وَالنَّائِي عَنْهُ الْبَعِيدِ الدَّارِ مِنْهُ ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ اسْتِوَاءُ النَّاسِ فِي رِبَاعِ مَكَّةَ وَسُكْنَاهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ضَمَّنَ الْفِعْلَ هَهُنَا بِمَعْنَى يَهُمُّ وَلِهَذَا عَدَّاهُ بِالْبَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ ﴾ أَيْ : يَهُمُّ فِيهِ بِأَمْرٍ فَظِيعٍ مِنَ الْمَعَاصِي الْكِبَارِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أَيْ : عَامِدًا قَاصِدًا أَنَّهُ ظُلْمٌ لَيْسَ بِمُتَأَوِّلٍ ، وَقِيلَ : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أي : بِشِرْكٍ . وَقِيلَ : يَعْمَلُ فِيهِ عَمَلًا سَيِّئًا ، وَهَذَا مِنْ خُصُوصِيَّةِ الْحَرَمِ أَنَّهُ يُعَاقَبُ الْبَادِي فِيهِ الشَّرَّ إِذَا كَانَ عَازِمًا عَلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يُوقِعْهُ .

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾

هَذَا فِيهِ تَقْرِيعٌ وَتَوْبِيخٌ لِمَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللهِ وَأَشْرَكَ بِهِ مِنْ قُرَيْشٍ ، فِي الْبُقْعَةِ الَّتِي أُسِّسَتْ مِنْ أَوَّلِ يَوْم عَلَى تَوْحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ بَوَّأَ إِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ، أَيْ : أَرْشَدَهُ إِلَيْهِ وَسَلَّمَهُ لَهُ وَأَذِنَ لَهُ فِي بِنَائِهِ وَاسْتَدَلَّ بِهِ كَثِيرٌ مِمَّنْ قَالَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام هُوَ أَوَّلُ مَنْ بَنَى الْبَيْتَ الْعَتِيقَ وَأَنَّهُ لَمْ يُبْنَ قَبْلَهُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : ابْنِهِ عَلَى اسْمِي وَحْدِي ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ : مِنَ الشِّرْكِ ﴿ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ أَيْ : اجْعَلْهُ خَالِصًا لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَالطَّائِفُ بِهِ مَعْرُوفٌ وَهُوَ أَخَصُّ الْعِبَادَاتِ عِنْدَ الْبَيْتِ ، فَإِنَّهُ لَا يُفْعَلُ بِبُقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ سِوَاهَا ﴿ وَٱلْقَآئِمِينَ ﴾ أَيْ : فِي الصَّلَاةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ فَقَرَنَ الطَّوَافَ بِالصَّلَاةِ ؛ لِأَنَّهُمَا لَا يُشْرَعَانِ إِلَّا مُخْتَصِّينَ بِالْبَيْتِ ، فَالطَّوَافُ عِنْدَهُ وَالصَّلَاةُ إِلَيْهِ فِي غَالِبِ الْأَحْوَالِ إِلَّا مَا اُسْتُثْنِيَ مِنَ الصَّلَاةِ عِنْدَ اشْتِبَاهِ الْقِبْلَةِ ، وَفِي الْحَرْبِ ، وَفِي النَّافِلَةِ فِي السَّفَرِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ أَيْ : نَادِ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ دَاعِيًا لَهُمْ إِلَى الْحَجِّ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَمَرْنَاكَ بِبِنَائِهِ ، ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ الْآيَةُ . قَدْ يُسْتَدَلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْحَجَّ مَاشِيًا لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ مِنَ الْحَجِّ رَاكِبًا ؛ لِأَنَّهُ قَدَّمَهُمْ فِي الذِّكْرِ فَدَلَّ عَلَى الِاهْتِمَامِ بِهِمْ ، وَقُوَّةِ هِمَمِهِمْ وَشِدَّةِ عَزْمِهِمْ . وَالَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ أَنَّ الْحَجَّ رَاكِبًا أَفْضَلُ اقْتِدَاءً بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِنَّهُ حَجَّ رَاكِبًا مَعَ كَمَالِ قُوَّتِهِ عليه السلام . وَقَوْلُهُ : ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ ﴾ يَعْنِي : طَرِيقٍ .

لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ أَيْ : مَنَافِعَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ : أَمَّا مَنَافِعُ الْآخِرَةِ فَرِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى ، وَأَمَّا مَنَافِعُ الدُّنْيَا فَمَا يُصِيبُونَ مِنْ مَنَافِعِ الْبُدْنِ وَالذَّبَائِحِ وَالتِّجَارَاتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : الْأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ : أَيَّامُ الْعَشْرِ . وَقِيلَ فِي الْأَيَّامِ الْمَعْلُومَاتِ : أَنَّهَا يَوْمُ النَّحْرِ وَثَلَاثَةُ أَيَّامٍ بَعْدَهُ . وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : الْأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ الْمَعْدُودَاتُ : هُنَّ جَمِيعُهُنَّ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ ، فَالْأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ : يَوْمُ النَّحْرِ ، وَيَوْمَانِ بَعْدَهُ ، وَالْأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ : ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ بَعْدَ يَوْمِ النَّحْرِ . وَقِيلَ : إِنَّهَا يَوْمُ عَرَفَةَ وَيَوْمُ النَّحْرِ وَيَوْمٌ آخَرُ بَعْدَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ يَعْنِي : الْإِبِلَ وَالْبَقَرَ وَالْغَنَمَ ، كَمَا فَصَّلَهَا تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ ، ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ قِيلَ : هُوَ الْمُضْطَرُّ الَّذِي عَلَيْهِ الْبُؤْسُ وَهُوَ الْمُتَعَفِّفُ ، وَقِيلَ : هُوَ الَّذِي لَا يَبْسُطُ يَدَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ ﴾ هُوَ وَضْعُ الْإِحْرَامِ مِنْ حَلْقِ الرَّأْسِ وَلُبْسِ الثِّيَابِ وَقَصِّ الْأَظْفَارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، ﴿ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾ قِيلَ : نحر مَا نَذَرَ مِنْ أَمْرِ الْبُدْنِ ، وَقِيلَ : نَذْرَ الْحَجِّ وَالْهَدْيِ وَمَا نَذَرَ الْإِنْسَانُ مِنْ شَيْءٍ يَكُونُ فِي الْحَجِّ . ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي الطَّوَافُ الْوَاجِبُ يَوْمَ النَّحْرِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ فِيهِ مُسْتَدَلٌّ لِمَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ الطَّوَافُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجْرِ لِأَنَّهُ مِنْ أَصْلِ الْبَيْتِ الَّذِي بَنَاهُ إِبْرَاهِيمُ وَإِنْ كَانَتْ قُرَيْشٌ قَدْ أَخْرَجُوهُ مِنَ الْبَيْتِ حِينَ قَصُرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ ، وَلِهَذَا طَافَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ وَرَاءِ الْحِجْرِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْحِجْرَ مِنَ الْبَيْتِ ، وَلَمْ يَسْتَلِمِ الرُّكْنَيْنِ الشَّامِيَّيْنِ ؛ لِأَنَّهُمَا لَمْ يُتَمَّمَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ الْعَتِيقَةِ . ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ قِيلَ : لِأَنَّهُ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ، وَقِيلَ : لِأَنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ جَبَّارٌ قَطُّ . وَعَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : إِنَّمَا سُمِّيَ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ ؛ لِأَنَّ اللهَ أَعْتَقَهُ مِنَ الْجَبَابِرَةِ .

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا الَّذِي أُمِرْنَا بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ فِي أَدَاءِ الْمَنَاسِكِ وَمَا لِفَاعِلِهَا مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : وَمَنْ يَجْتَنِبْ مَعَاصِيَهُ وَمَحَارِمَهُ وَيَكُونُ ارْتِكَابُهَا عَظِيمًا فِي نَفْسِهِ ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ أَيْ : فَلَهُ عَلَى ذَلِكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ وَثَوَابٌ جَزِيلٌ ، فَكَمَا عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ

ثَوَابٌ كَثِيرٌ وَأَجْرٌ جَزِيلٌ كَذَلِكَ عَلَى تَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمَحْظُورَاتِ. ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ: أَحْلَلْنَا لَكُمْ جَمِيعَ الْأَنْعَامِ وَمَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ: مِنْ تَحْرِيمِ ﴿ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ ﴾ [المائدة: ٣] ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ «مِنْ» هَهُنَا لِبَيَانِ الْجِنْسِ، أَيْ: اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ الَّذِي هُوَ الْأَوْثَانُ، وَقَرَنَ الشِّرْكَ بِاللهِ بِقَوْلِ الزُّورِ. ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ ﴾ أَيْ: مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ مُنْحَرِفِينَ عَنِ الْبَاطِلِ قَصْدًا إِلَى الْحَقِّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ ثُمَّ ضَرَبَ لِلْمُشْرِكِ مَثَلًا فِي ضَلَالِهِ وَهَلَاكِهِ وَبُعْدِهِ عَنِ الْهُدَى فَقَالَ: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أَيْ: سَقَطَ مِنْهَا ﴿ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ ﴾ أَيْ: تَقْطَعُهُ الطُّيُورُ فِي الْهَوَاءِ ﴿ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ أَيْ: بَعِيدٌ مُهْلِكٌ لِمَنْ هَوَى فِيهِ.

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى: هَذَا ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ: أَوَامِرَهُ ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ تَعْظِيمُ الْهَدَايَا وَالْبُدْنِ، فَقَدْ قِيلَ: تَعْظِيمُهَا اسْتِسْمَانُهَا وَاسْتِحْسَانُهَا. ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ أَيْ: لَكُمْ فِي الْبُدْنِ مَنَافِعُ مِنْ لَبَنِهَا وَصُوفِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا وَرُكُوبِهَا ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قِيلَ: مَا لَمْ تُسَمَّ بُدْنًا. ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ أَيْ: مَحَلُّ الْهَدْيِ وَانْتِهَاؤُهُ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَهُوَ الْكَعْبَةُ.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ ذَبْحُ الْمَنَاسِكِ وَإِرَاقَةُ الدِّمَاءِ عَلَى اسْمِ اللهِ مَشْرُوعًا فِي جَمِيعِ الْمِلَلِ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ قِيلَ: عِيدًا، وَقِيلَ: ذَبْحًا. ﴿ لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: أَتَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَقْرَنَيْنِ فَسَمَّى وَكَبَّرَ وَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى صِفَاحِهِمَا. وَقَوْلُهُ: ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ﴾ أَيْ: مَعْبُودُكُمْ وَاحِدٌ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُ الْأَنْبِيَاءِ وَنَسَخَ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَالْجَمِيعُ يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ﴾ أَيْ: أَخْلِصُوا وَاسْتَسْلِمُوا لِحُكْمِهِ وَطَاعَتِهِ ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ قِيلَ: الْمُطْمَئِنِّينَ الرَّاضِينَ بِقَضَاءِ اللهِ الْمُسْتَسْلِمِينَ لَهُ، وَأَحْسَنَ بِمَا يُفَسَّرُ بِمَا بَعْدَهُ. وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أَيْ : خَافَتْ مِنْهُ قُلُوبُهُمْ ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَصَائِبِ ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أَيْ : وَيُنْفِقُونَ مَا آتَاهُم اللهُ مِنْ طَيِّبِ الرِّزْقِ عَلَى أَهْلِيهِمْ وَأَقَارِبِهِمْ وَفُقَرَائِهِمْ وَمَحَاوِيجِهِمْ ، وَيُحْسِنُونَ إِلَى الْخَلْقِ مَعَ مُحَافَظَتِهِمْ عَلَى حُدُودِ اللهِ ، وَهَذِهِ بِخِلَافِ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ فَإِنَّهُمْ بِالْعَكْسِ مِنْ هَذَا كُلِّه ، كَمَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ .

وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى عَبِيدِهِ فِيمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْبُدْنِ وَجَعَلَهَا مِنْ شَعَائِرِهِ وَهُوَ أَنَّهُ جَعَلَهَا تُهْدَى إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ ، بَلْ هِيَ أَفْضَلُ مَا يُهْدَى إِلَيْهِ . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ قَالُوا : الْبَقَرَةُ وَالْبَعِيرُ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : إِنَّمَا الْبُدْنُ مِنَ الْإِبِلِ . ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ أَيْ : ثَوَابٌ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . **وَقِيلَ** : ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ قَالَ : أَجْرٌ وَمَنَافِعُ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾ قَالَ : قِيَامٌ عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمَ مَعْقُولَةً يَدُهَا الْيُسْرَى ، يَقُولُ : بِسْمِ اللهِ وَاللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، اللَّهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ . ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ يَعْنِي : سَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ . **وَقِيلَ** : يَعْنِي : مَاتَتْ ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ الْأَكْلُ مِنَ الْبَدَنَةِ إِذَا نُحِرَتْ حَتَّى تَمُوتَ وَتَبْرُدَ حَرَكَتُهَا . ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : ﴿ ٱلْقَانِعَ ﴾ الْمُسْتَغْنِي بِمَا أَعْطَيْتَهُ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ ﴿ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ الَّذِي يَتَعَرَّضُ لَكَ وَيُلِمُّ بِكَ أَنْ تُعْطِيَهُ مِنَ اللَّحْمِ وَلَا يَسْأَلُ . ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى مِنْ أَجْلِ هَذَا ﴿ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ ﴾ أَيْ : ذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ ، وَجَعَلْنَاهَا مُنْقَادَةً لَكُمْ خَاضِعَةً ، إِنْ شِئْتُمْ رَكِبْتُمْ ، وَإِنْ شِئْتُمْ حَلَبْتُمْ ، وَإِنْ شِئْتُمْ ذَبَحْتُمْ ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّمَا شُرِعَ لَكُمْ نَحْرُ هَذِهِ الْهَدَايَا وَالضَّحَايَا ؛ لِتَذْكُرُوهُ عِنْدَ ذَبْحِهَا ، فَإِنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَنَالُهُ شَيْءٌ مِنْ لُحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ ، وَقَدْ كَانُوا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ إِذَا ذَبَحُوهَا لِآلِهَتِهِمْ وَضَعُوا عَلَيْهَا مِنْ لُحُومِ قَرَابِينِهِمْ ، وَنَضَحُوا عَلَيْهَا مِنْ دِمَائِهَا **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا ﴾ أَيْ : مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سَخَّرَ لَكُمُ الْبُدْنَ ﴿ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ أَيْ : لِتُعَظِّمُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ لِدِينِهِ وَشَرْعِهِ وَمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَنَهَاكُمْ عَنْ فِعْلِ مَا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ ، ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ : وَبَشِّرْ يَا مُحَمَّدُ الْمُحْسِنِينَ أَيْ : فِي عَمَلِهِمْ ، الْقَائِمِينَ بِحُدُودِ اللهِ الْمُتَّبِعِينَ مَا شُرِعَ لَهُمْ ، الْمُصَدِّقِينَ الرَّسُولَ فِيمَا أَبْلَغَهُمْ وَجَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ ﷻ .

۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَدْفَعُ عَنْ عِبَادِهِ - الَّذِينَ تَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَأَنَابُوا إِلَيْهِ - شَرَّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدَ الْفُجَّارِ وَيَحْفَظُهُمْ وَيَكْلَؤُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ أَيْ : لَا يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ مَنِ اتَّصَفَ بِهَذَا ، وَهُوَ الْخِيَانَةُ فِي الْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ ، لَا يَفِي بِمَا قَالَ . وَالْكُفْرُ : الْجَحْدُ لِلنِّعَمِ فَلَا يَعْتَرِفُ بِهَا .

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ : هَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْجِهَادِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا أُخْرِجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَخْرَجُوا نَبِيَّهُمْ إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، لَيَهْلِكُنَّ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ . ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾ أَيْ : هُوَ قَادِرٌ عَلَى نَصْرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ ، وَلَكِنْ هُوَ يُرِيدُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَبْذُلُوا جُهْدَهُمْ فِي طَاعَتِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : مَا كَانَ لَهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ إِسَاءَةٌ ، وَلَا كَانَ لَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا أَنَّهُمْ وَحَّدُوا اللهَ وَعَبَدُوهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَأَمَّا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّهُ أَكْبَرُ الذُّنُوبِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ ﴾ [الممتحنة : ١] ، وَقَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ ﴾ أَيْ : لَوْلَا أَنَّهُ يَدْفَعُ بِقَوْمٍ عَنْ قَوْمٍ ، وَيَكْشِفُ شَرَّ أُنَاسٍ عَنْ غَيْرِهِمْ بِمَا يَخْلُقُهُ وَيُقَدِّرُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَأَهْلَكَ الْقَوِيُّ الضَّعِيفَ ﴿ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ ﴾ وَهِيَ

المَعَابِدُ الصِّغَارُ لِلرُّهْبَانِ ﴿ وَبِيَعٌ ﴾ وَهِيَ أَوْسَعُ مِنْهَا وَأَكْثَرُ عَابِدِينَ فِيهَا ، وَهِيَ لِلنَّصَارَى أَيْضًا ﴿ وَصَلَوَاتٌ ﴾ قِيلَ : الصَّلَوَاتُ الْكَنَائِسُ ، إِنَّمَا كَنَائِسُ الْيَهُودِ ، وَهُمْ يُسَمُّونَهَا صَلُوتًا .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ ، فَقَدْ قِيلَ : الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا ﴾ عَائِدٌ إِلَى المَسَاجِد ؛ لأَنَّهَا أَقْرَبُ المَذْكُورَاتِ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : الصَّوَابُ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ الرُّهْبَانِ ، وَبِيَعُ النَّصَارَى ، وَصَلَوَاتُ الْيَهُودِ وَهِيَ كَنَائِسُهُمْ ، وَمَسَاجِدُ المُسْلِمِينَ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا ؛ لأَنَّ هَذَا هُوَ المُسْتَعْمَلُ المَعْرُوفُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ . ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ ، فَبِقُوَّتِهِ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ، وَبِعِزَّتِهِ لَا يَقْهَرُهُ قَاهِرٌ وَلَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ ، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ ذَلِيلٌ لَدَيْهِ فَقِيرٌ إِلَيْهِ .

ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾

قِيلَ : هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النور : ٥٥] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] ، وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ : ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ وَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ مَا صَنَعُوا .

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّد ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ خَالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾ أَيْ : مَعَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ . ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : أَنْظَرْتُهُمْ وَأَخَّرْتُهُمْ ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ كَانَ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ وَمُعَاقَبَتِي لَهُمْ ؟!. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾ أَيْ : كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْتُهَا ﴿ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ﴾ أَيْ : مُكَذِّبَةٌ لِرُسُلِهِ ﴿ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ : سُقُوفُهَا ، أَيْ : قَدْ خَرِبَتْ مَنَازِلُهَا وَتَعَطَّلَتْ حَوَاضِرُهَا ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾

أَيْ : لَا يُسْتَقَى مِنْهَا وَيَرِدُهَا أَحَدٌ بَعْدَ كَثْرَةِ وَارِدِيهَا وَالِازْدِحَامِ عَلَيْهَا ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ قِيلَ : هُوَ الْمَنِيفُ الْمُرْتَفِعُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ الشَّدِيدُ الْمَنِيعُ الْحَصِينُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : بِأَبْدَانِهِمْ وَبِفِكْرِهِمْ أَيْضًا وَذَلِكَ كَافٍ . ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أَيْ : فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْعَمَى عَمَى الْبَصَرِ ، وَإِنَّمَا الْعَمَى عَمَى الْبَصِيرَةِ ، وَإِنْ كَانَتِ الْقُوَّةُ الْبَاصِرَةُ سَلِيمَةً فَإِنَّهَا لَا تَنْفُذُ إِلَى الْعِبَرِ ، وَلَا تَدْرِي مَا الْخَبَرُ .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الْمُلْحِدُونَ الْمُكَذِّبُونَ بِاللهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ أَيْ : الَّذِي وَعَدَ مِنْ إِقَامَةِ السَّاعَةِ ، وَالِانْتِقَامِ مِنْ أَعْدَائِهِ وَالْإِكْرَامِ لِأَوْلِيَائِهِ . ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أَيْ : هُوَ تَعَالَى لَا يَعْجَلُ فَإِنَّ مِقْدَارَ أَلْفِ سَنَةٍ عِنْدَ خَلْقِهِ كَيَوْمٍ وَاحِدٍ عِنْدَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى حُكْمِهِ ، لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُ عَلَى الِانْتِقَامِ قَادِرٌ ، وَأَنَّهُ لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ وَإِنْ أَجَّلَ وَأَنْظَرَ وَأَمْلَى ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ حِينَ طَلَبَ مِنْهُ الْكُفَّارُ وُقُوعَ الْعَذَابِ وَاسْتَعْجَلُوهُ بِهِ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَرْسَلَنِي اللهُ إِلَيْكُمْ نَذِيرًا لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ، وَلَيْسَ إِلَيَّ مِنْ حِسَابِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ، أَمْرُكُمْ إِلَى اللهِ إِنْ شَاءَ عَجَّلَ لَكُمُ الْعَذَابَ ، وَإِنْ شَاءَ أَخَّرَهُ عَنْكُمْ ، وَإِنْ شَاءَ تَابَ عَلَى مَنْ يَتُوبُ إِلَيْهِ ، وَإِنْ شَاءَ أَضَلَّ مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةُ وَهُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ وَيُرِيدُ وَيَخْتَارُ ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَصَدَّقُوا إِيمَانَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ مَغْفِرَةٌ لِمَا سَلَفَ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ وَمُجَازَاةٌ حَسَنَةٌ عَلَى الْقَلِيلِ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ : إِذَا سَمِعْتَ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ :

﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فَهُوَ الْجَنَّةُ . ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ قِيلَ : مُثَبِّطِينَ ، وَقِيلَ : مُرَاغِمِينَ . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وَهِيَ النَّارُ الْحَارَّةُ الْمُوجِعَةُ الشَّدِيدُ عَذَابُهَا وَنَكَالُهَا أَجَارَنَا اللهُ مِنْهَا .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

قَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ هَهُنَا قِصَّةَ الْغَرَانِيقِ ، وَمَا كَانَ مِنْ رُجُوعِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُهَاجِرَةِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ قَدْ أَسْلَمُوا ، وَلَكِنَّهَا مِنْ طُرُقٍ كُلُّهَا مُرْسَلَةٍ ، وَلَمْ أَرَهَا مُسْنَدَةً مِنْ وَجْهٍ صَحِيحٍ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . وَقَدْ سَاقَهَا الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ مَجْمُوعَةً مِنْ كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ وَغَيْرِهِمَا بِنَحْوٍ مِنْ ذَلِكَ ، ثُمَّ سَأَلَ هَهُنَا سُؤَالًا ، كَيْفَ وَقَعَ مِثْلُ هَذَا مَعَ الْعِصْمَةِ الْمَضْمُونَةِ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَاةُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - ؟ ثُمَّ حَكَى أَجْوِبَةً عَنِ النَّاسِ مِنْ أَلْطَفِهَا : أَنَّ الشَّيْطَانَ أَوْقَعَ فِي مَسَامِعِ الْمُشْرِكِينَ ذَلِكَ ، فَتَوَهَّمُوا أَنَّهُ صَدَرَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، بَلْ إِنَّمَا كَانَ مِنْ صَنِيعِ الشَّيْطَانِ لَا عَنْ رَسُولِ الرَّحْمَنِ ﷺ وَاللهُ أَعْلَمُ . وَهَكَذَا تَنَوَّعَتْ أَجْوِبَةُ الْمُتَكَلِّمِينَ عَنْ هَذَا بِتَقْدِيرِ صِحَّتِهِ ، وَقَدْ تَعَرَّضَ الْقَاضِي عِيَاضٌ - رَحِمَهُ اللهُ - لِهَذَا فِي كِتَابِ الشِّفَاءِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ هَذَا فِيهِ تَسْلِيَةٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَيْ : لَا يُهِيدَنَّك ذَلِكَ فَقَدْ أَصَابَ مِثْلَ هَذَا مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ . قَالَ الْبُخَارِيُّ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ إِذَا حَدَّثَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي حَدِيثِهِ فَيُبْطِلُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ، وَيُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ . وَيُقَالُ : ﴿ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ قِرَاءَته . قَالَ الْبَغَوِيُّ : وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ قَالُوا مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ تَمَنَّىٰٓ ﴾ أَيْ : تَلَا وَقَرَأَ كِتَابَ اللهِ ﴿ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ أَيْ : فِي تِلَاوَتِهِ . ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ حَقِيقَةُ النَّسْخِ لُغَةً : الْإِزَالَةُ وَالرَّفْعُ ، وَقِيلَ : أَيْ فَيُبْطِلُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : بِمَا يَكُونُ مِنَ الْأُمُورِ وَالْحَوَادِثِ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : فِي تَقْدِيرِهِ وَخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ ، لَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ ، وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أَيْ : شَكٌّ وَشِرْكٌ وَكُفْرٌ وَنِفَاقٌ ، كَالْمُشْرِكِينَ حِينَ فَرِحُوا بِذَلِكَ وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ صَحِيحٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ مِنَ الشَّيْطَانِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أَيْ : فِي ضَلَالٍ وَمُخَالَفَةٍ وَعِنَادٍ بَعِيدٍ ، أَيْ : مِنَ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ أَيْ : وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ النَّافِعَ - الَّذِي يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ - وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ أَنَّ مَا أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ الَّذِي أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَحِفْظِهِ وَحَرَسَهُ أَنْ يَخْتَلِطَ بِهِ غَيْرُهُ ، بَلْ هُوَ كِتَابٌ عَزِيزٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ أَيْ : يُصَدِّقُوهُ وَيَنْقَادُوا لَهُ ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ أَيْ : تَخْضَعُ وَتَذِلُّ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَيُرْشِدُهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ وَيُوَفِّقُهُمْ لِمُخَالَفَةِ الْبَاطِلِ وَاجْتِنَابِهِ ، وَفِي الْآخِرَةِ يَهْدِيهِمُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ الْمُوَصِّلَ إِلَى دَرَجَاتِ الْجَنَّاتِ وَيُزَحْزِحُهُمْ عَنِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَالدَّرَكَاتِ .

وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ : إِنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ ﴿ فِى مِرْيَةٍ ﴾ أَيْ : فِي شَكٍّ وَرَيْبٍ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ ، ﴿ مِّنْهُ ﴾ أَيْ : مِمَّا أَلْقَى الشَّيْطَانُ ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ فَجْأَةً ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَا لَيْلَةَ لَهُمْ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أَيْ : آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَصَدَّقُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلُوا بِمُقْتَضَى مَا عَلِمُوا ، وَتُوَافِقُ قُلُوبُهُمْ وَأَقْوَالُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ ﴿ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أَيْ : لَهُمُ النَّعِيمُ الْمُقِيمُ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ وَلَا يَبِيدُ . ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أَيْ : كَفَرَتْ قُلُوبُهُم بِالْحَقِّ وَجَحَدُوا بِهِ وَكَذَّبُوا بِهِ ، وَخَالَفُوا الرُّسُلَ وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِهِمْ ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أَيْ : مُقَابَلَةَ اسْتِكْبَارِهِمْ وَإِبَائِهِمْ عَنِ الْحَقِّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر : ٦٠] أَيْ : صَاغِرِينَ .

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِ اللهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ ، وَطَلَبًا لِمَا عِنْدَهُ ، وَتَرَكَ الْأَوْطَانَ

وَالْأَهْلِينَ وَالْخِلَّانِ ، وَفَارَقَ بِلَادَهُ فِي اللهِ وَرَسُولِهِ وَنُصْرَةً لِدِينِ اللهِ ﴿ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ ﴾ أَيْ : فِي الْجِهَادِ ﴿ أَوْ مَاتُواْ ﴾ أَيْ : حَتْفَ أَنْفِهِمْ ، أَيْ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ عَلَى فُرُشِهِمْ فَقَدْ حَصَلُوا عَلَى الْأَجْرِ الْجَزِيلِ وَالثَّنَاءِ الْجَمِيلِ . ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أَيْ : لَيُجْرِيَنَّ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلِهِ وَرِزْقِهِ مِنَ الْجَنَّةِ مَا تَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُهُمْ ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ﴾ أَيْ : الْجَنَّةَ ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ ﴾ أَيْ : بِمَنْ يُهَاجِرُ وَيُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أَيْ : يَحْلُمُ وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ لَهُمُ الذُّنُوبَ وَيُكَفِّرُهَا عَنْهُمْ بِهِجْرَتِهِمْ إِلَيْهِ وَتَوَكُّلِهِمْ عَلَيْهِ ، فَأَمَّا مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ مِنْ مُهَاجِرٍ أَوْ غَيْرِ مُهَاجِرٍ فَإِنَّهُ حَيٌّ عِنْدَ رَبِّهِ يُرْزَقُ . وَأَمَّا مَنْ تُوُفِّيَ فِي سَبِيلِ اللهِ مِنْ مُهَاجِرٍ أَوْ غَيْرِ مُهَاجِرٍ فَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مَعَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ إِجْرَاءَ الرِّزْقِ عَلَيْهِ وَعَظِيمِ إِحْسَانِ اللهِ إِلَيْهِ .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى أَنَّهُ الْخَالِقُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَمَعْنَى إِيلَاجِهِ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ، وَالنَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، إِدْخَالُهُ مِنْ هَـذَا فِي هَذَا ، وَمِنْ هَذَا فِي هَذَا ، فَتَارَةً يَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ النَّهَارُ ، كَمَا فِي الشِّتَاءِ ، وَتَارَة يَطُولُ النَّهَارُ وَيَقْصُرُ اللَّيْلُ كَمَا فِي الصَّيْفِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ أَيْ : سَمِيعٌ بِأَقْوَالِ عِبَادِهِ بَصِيرٌ بِهِمْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ فِي أَحْوَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ . وَلَمَّا بَيَّنَ أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْوُجُودِ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ . قَالَ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾ أَيْ : الْإِلَهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ لِأَنَّهُ ذُو السُّلْطَانِ الْعَظِيمِ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فَقِيرٌ ذَلِيلٌ لَدَيْهِ ﴿ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ ، وَكُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِهِ تَعَالَى فَهُوَ بَاطِلٌ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا . ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ كَمَا قَالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾ ، فَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ۝٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٦٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ

أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ ، فَإِنَّهُ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَتُمْطِرُ عَلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا ، وَهِيَ هَامِدَةٌ يَابِسَةٌ سَوْدَاءُ قَحْلَةٌ ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ أَيْ : خَضْرَاءُ بَعْدَ يَبَاسِهَا وَمُحُولِهَا . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِمَا فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ وَأَقْطَارِهَا وَأَجْزَائِهَا مِنَ الْحَبِّ وَإِنْ صَغُرَ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، فَيُوصِّلُ إِلَى كُلٍّ مِنْهُ قِسْطَهُ مِنَ الْمَاءِ فَيُنْبِتُهُ بِهِ . ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مُلْكُهُ جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ وَعَبِيدٌ لَدَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مِنْ حَيَوَانٍ وَجَمَادٍ وَزُرُوعٍ وَثِمَارٍ ﴿ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ أَيْ : بِتَسْخِيرِهِ وَتَسْيِيرِهِ ، أَيْ فِي الْبَحْرِ الْعَجَّاجِ وَتَلَاطُمِ الْأَمْوَاجِ ، تَجْرِي الْفُلْكُ بِأَهْلِهَا بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَرِفْقٍ وَتُؤَدَةٍ ، فَيَحْمِلُونَ فِيهَا مَا شَاءُوا مِنْ تَجَائِرَ وَبَضَائِعَ وَمَنَافِعَ ، مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، وَقُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ ، وَيَأْتُونَ بِمَا عِنْدَ أُولَئِكَ إِلَى هَؤُلَاءِ ، كَمَا ذَهَبُوا بِمَا عِنْدَ هَؤُلَاءِ إِلَى أُولَئِكَ ، مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَيَطْلُبُونَهُ وَيُرِيدُونَهُ ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ أَيْ : لَوْ شَاءَ لَأَذِنَ لِلسَّمَاءِ فَسَقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ فَهَلَكَ مَنْ فِيهَا ، وَلَكِنْ مِنْ لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : مَعَ ظُلْمِهِمْ . ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨] ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ : كَيْفَ تَجْعَلُونَ لله أَنْدَادًا وَتَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَهُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالتَّصَرُّفِ ؟ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ﴾ أَيْ : خَلَقَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا يُذْكَرُ فَأَوْجَدَكُمْ ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ أَيْ : جَحُودٌ .

لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ قَوْمٍ مَنْسَكًا ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَعْنِي لِكُلِّ أُمَّةِ نَبِيٍّ مَنْسَكًا . قَالَ : وَأَصْلُ الْمَنْسَكِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَعْتَادُهُ الْإِنْسَانُ وَيَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ ، إِمَّا لِخَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ،

قَالَ : وَلِهَذَا سُمِّيَتْ مَنَاسِكُ الْحَجِّ بِذَلِكَ ؛ لِتَرْدَادِ النَّاسِ إِلَيْهَا وَعُكُوفِهِمْ عَلَيْهَا . فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ : لِكُلِّ أُمَّةِ نَبِيٍّ جَعَلْنَا مَنْسَكًا فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ جَعْلًا قَدَرِيًّا ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ أَيْ : فَاعِلُوهُ ، فَالضَّمِيرُ هَهُنَا عَائِدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَهُمْ مَنَاسِكُ وَطَرَائِقُ ، أَيْ : هَؤُلَاءِ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ هَذَا عَنْ قَدَرِ اللهِ وَإِرَادَتِهِ ، فَلَا تَتَأَثَّرْ بِمُنَازَعَتِهِمْ لَكَ وَلَا يَصْرِفْكَ ذَلِكَ عَمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أَيْ : طَرِيقٍ وَاضِحٍ مُسْتَقِيمٍ مُوَصِّلٍ إِلَى الْمَقْصُودِ . ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس:٤١] ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ [الشورى : ١٥]

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ عِلْمِهِ بِخَلْقِهِ وَأَنَّهُ مُحِيطٌ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى عَلِمَ الْكَائِنَاتِ كُلَّهَا قَبْلَ وُجُودِهَا ، وَكَتَبَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ، وَهُوَ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ ، فِيمَا جَهِلُوا وَكَفَرُوا وَعَبَدُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، يَعْنِي : حُجَّةً وَبُرْهَانًا ، **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا** : ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أَيْ : وَلَا عِلْمَ لَهُمْ فِيمَا اخْتَلَقُوهُ وَائْتَفَكُوهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ تَلَقَّوْهُ عَنْ آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا

حُجَّةٍ ، وَأَصْلُهُ مِمَّا سَوَّلَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ ، وزَيَّنَهُ لَهُمْ ، وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمْ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أَيْ : مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُهُمْ مِنَ اللهِ ، فِيمَا يَحِلُّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ أَيْ : وَإِذَا ذُكِرَتْ لَهُمْ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَالْحُجَجِ وَالدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ عَلَى تَوْحِيدِ اللهِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَنَّ رُسُلَهُ الْكِرَامَ حَقٌّ وَصِدْقٌ ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ أَيْ : يَكَادُونَ يُبَادِرُونَ الَّذِينَ يَحْتَجُّونَ عَلَيْهِمْ بِالدَّلَائِلِ الصَّحِيحَةِ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَيَبْسُطُونَ إِلَيْهِمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ ﴿ قُلْ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ : ﴿ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أَيْ : النَّارُ ، وَعَذَابُهَا وَنَكَالُهَا أَشَدُّ وَأَشَقُّ وَأَطَمُّ وَأَعْظَمُ مِمَّا تُخَوِّفُونَ بِهِ أَوْلِيَاءَ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا ، وَعَذَابُ الْآخِرَةِ عَلَى صَنِيعِكُمْ هَذَا أَعْظَمُ مِمَّا تَنَالُونَ مِنْهُمْ ، إِنْ نِلْتُمْ بِزَعْمِكُمْ وَإِرَادَتِكُمْ . ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أَيْ : وَبِئْسَ النَّارُ مُقِيلًا وَمَنْزِلًا وَمَرْجِعًا وَمَوْئِلًا وَمُقَامًا ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٦]

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى حَقَارَةِ الْأَصْنَامِ وَسَخَافَةِ عُقُولِ عَابِدِيهَا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ أَيْ : لِمَا يَعْبُدُهُ الْجَاهِلُونَ بِاللهِ ، الْمُشْرِكُونَ بِهِ ﴿ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ﴾ أَيْ : أَنْصِتُوا وَتَفَهَّمُوا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ﴾ أَيْ : لَوِ اجْتَمَعَ جَمِيعُ مَا تَعْبُدُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ عَلَى أَنْ يَقْدِرُوا عَلَى خَلْقِ ذُبَابٍ وَاحِدٍ مَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَيْضًا** : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ أَيْ : هُمْ عَاجِزُونَ عَنْ خَلْقِ ذُبَابٍ وَاحِدٍ ، بَلْ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ عَاجِزُونَ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ وَالِانْتِصَارِ مِنْهُ ، لَوْ سَلَبَهَا شَيْئًا مِنَ الَّذِي عَلَيْهَا مِنَ الطِّيبِ ، ثُمَّ أَرَادَتْ أَنْ تَسْتَنْقِذَهُ مِنْهُ لَمَا قَدَرَتْ عَلَى ذَلِكَ ، هَذَا وَالذُّبَابُ مِنْ أَضْعَفِ مَخْلُوقَاتِ اللهِ وَأَحْقَرِهَا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ . **رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : الطَّالِبُ : الصَّنَمُ ، وَالْمَطْلُوبُ : الذُّبَابُ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ أَيْ : مَا عَرَفُوا قَدْرَ اللهِ وَعَظَمَتِهِ حِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ مِنْ هَذِهِ الَّتِي لَا تُقَاوِمُ الذُّبَابَ لِضَعْفِهَا وَعَجْزِهَا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أَيْ : هُوَ الْقَوِيُّ الَّذِي بِقُدْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ عَزِيزٌ ﴾ أَيْ : قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَقَهَرَهُ وَغَلَبَهُ ، فَلَا يُمَانِعُ وَلَا يُغَالِبُ ، لِعَظَمَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ .

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَخْتَارُ مِنَ المَلَائِكَةِ رُسُلًا فِيمَا يَشَاءُ مِنْ شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ، وَمِنَ النَّاسِ لِإِبْلَاغِ رِسَالَاتِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ أَيْ : سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ، بَصِيرٌ بِهِمْ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام : ١٢٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ مَا يَفْعَلُ بِرُسُلِهِ فِيمَا أَرْسَلَهُمْ بِهِ ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِهِمْ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ رَقِيبٌ عَلَيْهِمْ ، شَهِيدٌ عَلَى مَا يُقَالُ لَهُمْ ، حَافِظٌ لَهُمْ نَاصِرٌ لِجَنَابِهِمْ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾

قَوْلُهُ : ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أَيْ : بِأَمْوَالِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ أَيْ : يَا هَذِهِ الْأُمَّةُ ، اللهُ اصْطَفَاكُمْ وَاخْتَارَكُمْ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ وَفَضَّلَكُمْ وَشَرَّفَكُمْ وَخَصَّكُمْ بِأَكْرَمِ رَسُولٍ وَأَكْمَلِ شَرْعٍ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ أَيْ : مَا كَلَّفَكُمْ مَا لَا تُطِيقُونَ ، وَمَا أَلْزَمَكُمْ بِشَيْءٍ يَشُقُّ عَلَيْكُمْ ، إِلَّا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا ، فَالصَّلَاةُ الَّتِي أَكْبَرُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ تَجِبُ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعٌ ، وَفِي السَّفَرِ تُقْصَرُ إِلَى اثْنَتَيْنِ ، وَفِي الْخَوْفِ يُصَلِّيهَا بَعْضُ الْأَئِمَّةِ رَكْعَةً ، كَمَا وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ وَتُصَلَّى رِجَالًا وَرُكْبَانًا ، مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ وَغَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا ، وَكَذَا فِي النَّافِلَةِ فِي السَّفَرِ إِلَى الْقِبْلَةِ وَغَيْرِهَا ، وَالْقِيَامُ فِيهَا يَسْقُطُ لِعُذْرِ المَرَضِ فَيُصَلِّيهَا المَرِيضُ جَالِسًا ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبِهِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الرُّخَصِ وَالتَّخْفِيفَاتِ فِي سَائِرِ الْفَرَائِضِ وَالْوَاجِبَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ يَعْنِي : مِنْ ضِيقٍ . ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : نُصِبَ عَلَى تَقْدِيرِ : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ أَيْ : مِنْ ضِيقٍ ، بَلْ وَسَّعَهُ عَلَيْكُمْ كَمِلَّةِ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ . وَقَوْلُهُ : ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا﴾ اللهُ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ

فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَفِي الذِّكْرِ ، ﴿ وَفِي هَـٰذَا ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا جَعَلْنَاكُمْ هَكَذَا أُمَّةً وَسَطًا عُدُولًا خِيَارًا ، مَشْهُودًا بِعَدَالَتِكُمْ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ ، لِتَكُونُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ لِأَنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ مُعْتَرِفَةٌ يَوْمَئِذٍ بِسِيَادَتِهَا وَفَضْلِهَا عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ سِوَاهَا ، فَلِهَذَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُمْ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي أَنَّ الرُّسُلَ بَلَّغَتْهُمْ رِسَالَةَ رَبِّهِمْ ، وَالرَّسُولُ يَشْهَدُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنَّهُ بَلَّغَهَا ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أَيْ : قَابِلُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ بِالْقِيَامِ بِشُكْرِهَا ، فَأَدُّوا حَقَّ اللهِ عَلَيْكُمْ فِي أَدَاءِ مَا افْتَرَضَ ، وَطَاعَةَ مَا أَوْجَبَ ، وَتَرْكَ مَا حَرَّمَ ، وَمِنْ أَهَمِّ ذَلِكَ إِقَامُ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ : وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى خَلْقِ اللهِ بِمَا أَوْجَبَ لِلْفَقِيرِ عَلَى الْغَنِيِّ مِنْ إِخْرَاجِ جُزْءٍ نَزْرٍ مِنْ مَالِهِ فِي السَّنَةِ لِلضُّعَفَاءِ وَالْمَحَاوِيجِ . ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ ﴾ أَيْ : اعْتَضِدُوا بِاللهِ ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ ، وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَتَأَيَّدُوا بِهِ ﴿ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ أَيْ : حَافِظُكُمْ وَنَاصِرُكُمْ ، وَمُظَفِّرُكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ يَعْنِي : نِعْمَ الْوَلِيُّ وَنِعْمَ النَّاصِرُ مِنَ الْأَعْدَاءِ .

هَذَا آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَجِّ وَللهِ الْفَضْلُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ١١٨ تفسيرُ سُورَةِ المؤمنون مكيـة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : قَدْ فَازُوا وَسَعِدُوا وَحَصَلُوا عَلَى الْفَلَاحِ ، وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ . ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ خَائِفُونَ سَاكِنُونَ ، وَقِيلَ : الْخُشُوعُ : خُشُوعُ الْقَلْبِ . وَالْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ لِمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ لَهَا ، وَاشْتَغَلَ

بِهَا عَمَّا عَدَاهَا ، وَآثَرَهَا عَلَى غَيْرِهَا ، وَحِينَئِذٍ تَكُونُ رَاحَةً لَهُ وَقُرَّةُ عَيْنٍ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**يَا بِلَالُ أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ**)) . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ أَيْ : عَنِ الْبَاطِلِ ، وَهُوَ يَشْمَلُ الشِّرْكَ ، وَالمَعَاصِي ، وَمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ المُرَادَ بِالزَّكَاةِ هَهُنَا زَكَاةُ الْأَمْوَالِ ، مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ ، وَإِنَّمَا فُرِضَتِ الزَّكَاةُ بِالمَدِينَةِ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ مِنَ الْهِجْرَةِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الَّتِي فُرِضَتْ بِالمَدِينَةِ إِنَّمَا هِيَ ذَاتُ النُّصُبِ وَالمَقَادِيرِ الْخَاصَّةِ ، وَإِلَّا فَالظَّاهِرُ أَنَّ أَصْلَ الزَّكَاةِ كَانَ وَاجِبًا بِمَكَّةَ ، وَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ بِالزَّكَاةِ هَهُنَا زَكَاةُ النَّفْسِ مِنَ الشِّرْكِ وَالدَّنَسِ كَقَوْلِهِ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩-١٠] ، وَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ كِلَا الْأَمْرَيْنِ مُرَادًا وَهُوَ زَكَاةُ النُّفُوسِ وَزَكَاةُ الْأَمْوَالِ ، فَإِنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ زَكَاةِ النُّفُوسِ ، وَالمُؤْمِنُ الْكَامِلُ هُوَ الَّذِي يَتَعَاطَى هَذَا وَهَذَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ أَيْ : وَالَّذِينَ قَدْ حَفِظُوا فُرُوجَهُمْ مِنَ الْحَرَامِ ، فَلَا يَقَعُونَ فِيمَا نَهَاهُمُ اللهُ عَنْهُ مِنْ زِنًا وَلِوَاطٍ ، لَا يَقْرَبُونَ سِوَى أَزْوَاجِهِمُ الَّتِي أَحَلَّهَا اللهُ لَهُمْ ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ مِنَ السَّرَارِيِّ ، وَمِنْ تَعَاطِي مَا أَحَلَّهُ اللهُ لَهُ فَلَا لَوْمَ عَلَيْهِ وَلَا حَرَجَ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : غَيْرُ الْأَزْوَاجِ وَالْإِمَاءِ ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ أَيْ : المُعْتَدُونَ . **وَقَدِ اسْتَدَلَّ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ – وَمَنْ وَافَقَهُ عَلَى تَحْرِيمِ الِاسْتِمْنَاءِ بِالْيَدِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ** ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ قَالَ : فَهَذَا الصَّنِيعُ خَارِجٌ عَنْ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ أَيْ : إِذَا أُؤْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا بَلْ يُؤَدُّونَهَا إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا عَاهَدُوا أَوْ عَاقَدُوا أَوْفُوا بِذَلِكَ . ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أَيْ : يُوَاظِبُونَ عَلَيْهَا فِي مَوَاقِيتِهَا .

وَلَمَّا وَصَفَهُمْ تَعَالَى بِالْقِيَامِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ وَالْأَفْعَالِ الرَّشِيدَةِ ، قَالَ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ ، وَأَوْسَطَ الْجَنَّةِ ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ**)) . وَقَالَ ﷺ : ((**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنْزِلَانِ : مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ ، فَإِنْ مَاتَ وَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ**)) فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ ابْتِدَاءِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ – وَهُوَ آدَمُ ﷺ – خَلَقَهُ اللهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ، **قَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ أَيْ : مِنْ مَنِيِّ آدَمَ ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : إِنَّمَا سُمِّيَ آدَمُ طِينًا لأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْهُ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : اسْتُلَّ آدَمُ مِنَ الطِّينِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ هَذَا الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى جِنْسِ الْإِنْسَانِ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أَيْ : ثُمَّ صَيَّرْنَا النُّطْفَةَ ، وَهِيَ الْمَاءُ الدَّافِقُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ الرَّجُلِ وَهُوَ ظَهْرُهُ ، وَتَرَائِبُ الْمَرْأَةِ وَهِيَ عِظَامُ صَدْرِهَا مَا بَيْنَ التَّرْقُوَةِ إِلَى السُّرَّةِ ، فَصَارَتْ عَلَقَةً حَمْرَاءَ عَلَى شَكْلِ الْعَلَقَةِ مُسْتَطِيلَةً ، **قَالَ عِكْرِمَةُ** : وَهِيَ دَمٌ ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ وَهِيَ قِطْعَةٌ كَالْبَضْعَةِ مِنَ اللَّحْمِ لَا شَكْلَ فِيهَا وَلَا تَخْطِيطَ ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ يَعْنِي : شَكَّلْنَاهَا ذَاتَ رَأْسٍ وَيَدَيْنِ وَرِجْلَيْنِ بِعِظَامِهَا وَعَصَبِهَا وَعُرُوقِهَا ، وَقَرَأَ آخَرُونَ : ((فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عظمًا)) **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : وَهُوَ عَظْمُ الصُّلْبِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ أَيْ : جَعَلْنَا عَلَى ذَلِكَ مَا يَسْتُرُهُ وَيَشُدُّهُ وَيُقَوِّيهِ ، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أَيْ : ثُمَّ نَفَخْنَا فِيهِ الرُّوحَ فَتَحَرَّكَ وَصَارَ خَلْقًا آخَرَ ، ذَا سَمْعٍ وَبَصَرٍ وَإِدْرَاكٍ وَحَرَكَةٍ وَاضْطِرَابٍ ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ . عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**إِنَّ اللهَ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ ، أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ ، أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ خَلْقَهَا قَالَ : أَيْ رَبِّ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى ؟ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ؟ فَمَا الرِّزْقُ وَالْأَجَلُ ؟ قَالَ : فَذَلِكَ يُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ**)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ يَعْنِي : حِينَ ذَكَرَ قُدْرَتَهُ وَلُطْفَهُ فِي خَلْقِ هَذِهِ النُّطْفَةِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ . وَشَكْلٍ إِلَى شَكْلٍ ، حَتَّى تَصَوَّرَتْ إِلَى مَا صَارَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِنْسَانِ السَّوِيِّ الْكَامِلِ الْخَلْقِ قَالَ : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ يَعْنِي : بَعْدَ هَذِهِ النَّشْأَةِ الْأُولَى مِنَ الْعَدَمِ تَصِيرُونَ إِلَى الْمَوْتِ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ يَعْنِي : النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ، ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْمَعَادِ وَقِيَامِ الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ ، فَيُحَاسِبُ الْخَلَائِقَ وَيُوَفِّي كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى خَلْقَ الْإِنْسَانِ عَطَفَ بِذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ .وَقَوْلُهُ : ﴿ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَهَذِهِ ، كَقَوْلِهِ ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح : ١٥] ، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ أَيْ : وَيَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَحْجُبُ عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاء ، وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا ، وَلَا جَبَلٌ إِلَّا يَعْلَمُ مَا فِي وَعْرِهِ ، وَلَا بَحْرٌ إِلَّا يَعْلَمُ مَا فِي قَعْرِهِ ، يَعْلَمُ عَدَدَ مَا فِي الْجِبَالِ وَالتِّلَالِ وَالرِّمَالِ وَالْبِحَارِ وَالْقِفَارِ وَالْأَشْجَارِ ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[الأنعام : ٥٩]

وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى عَبِيدِهِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى ، فِي إِنْزَالِهِ الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ بِقَدَرٍ أَيْ : بِحَسْبِ الْحَاجَةِ لَا كَثِيرًا فَيُفْسِدُ الْأَرْضَ وَالْعُمْرَانَ ، وَلَا قَلِيلًا فَلَا يَكْفِي الزُّرُوعَ وَالثِّمَارَ ، بَلْ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ مِنَ السَّقْيِ وَالشُّرْبِ وَالِانْتِفَاعِ بِهِ .وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَا الْمَاءَ إِذَا نَزَلَ مِنَ السَّحَابِ يَخْلُدُ فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ قَابِلِيَّةً لَهُ ، وَتَشْرَبُهُ وَيَتَغَذَّى بِهِ مَا فِيهَا مِنَ الْحَبِّ وَالنَّوَى . ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ أَيْ : لَوْ شِئْنَا أَنْ لَا تُمْطِرَ لَفَعَلْنَا ، وَلَوْ شِئْنَا لَصَرَفْنَاهُ عَنْكُمْ إِلَى السِّبَاخِ وَالْبَرَارِيِّ وَالْقِفَارِ لَفَعَلْنَا ، وَلَكِنْ بِلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ يُنْزِلُ عَلَيْكُمُ الْمَاءَ مِنَ السَّحَابِ عَذْبًا فُرَاتًا زُلَالًا ، فَيُسْكِنُهُ فِي الْأَرْضِ وَيَسْلُكُهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ، فَيُفَتِّحُ الْعُيُونَ وَالْأَنْهَارَ ، وَيَسْقِي بِهِ الزُّرُوعَ وَالثِّمَارَ ، وَتَشْرَبُونَ مِنْهُ وَدَوَابُّكُمْ وَأَنْعَامُكُمْ ، وَتَغْتَسِلُونَ مِنْهُ وَتَتَطَهَّرُونَ مِنْهُ وَتَتَنَظَّفُونَ ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ ﴾ يَعْنِي : فَأَخْرَجْنَا لَكُمْ بِمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ جَنَّاتٍ ، أَيْ : بَسَاتِينَ ، أَيْ : ذَاتَ مَنْظَرٍ حَسَنٍ . ﴿ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ ﴾ أَيْ : فِيهَا نَخِيلٌ وَأَعْنَابٌ ﴿ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ ﴾ أَيْ : مِنْ جَمِيعِ الثِّمَارِ ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى شَيْءٍ مُقَدَّرٍ ، تَقْدِيرُهُ : تَنْظُرُونَ إِلَى حُسْنِهِ وَنُضْجِهِ ، وَمِنْهُ تَأْكُلُونَ . ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ ﴾ يَعْنِي : الزَّيْتُونَةَ ،

وَالطُّورُ : هُوَ الجَبَلُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّمَا يُسَمَّى طُورًا إِذَا كَانَ فِيهِ شَجَرٌ ، فَإِنْ عُرِّيَ عَنْهَا سُمِّيَ جَبَلًا لَا طُورًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ ، وَطُورُ سَيْنَاءَ : هُوَ طُورُ سِينِينَ ، وَهُوَ الجَبَلُ الَّذِي كُلِّمَ عَلَيْهِ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عليه السلام ، وَمَا حَوْلَهُ مِنَ الجِبَالِ الَّتِي فِيهَا شَجَرُ الزَّيْتُونِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : الْبَاءُ زَائِدَةٌ ، وَتَقْدِيرُهُ : تُنْبِتُ الدُّهْنَ ، وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ مَنْ يُضَمِّنُ الْفِعْلَ فَتَقْدِيرُهُ : تَخْرُجُ بِالدُّهْنِ ، أَوْ تَأْتِي بِالدُّهْنِ ،وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَصِبۡغٍ ﴾ أَيْ : أُدْمٍ ﴿ لِّلۡأٓكِلِينَ ﴾ أَيْ : فِيهَا مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِنَ الدُّهْنِ وَالِاصْطِبَاغِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى مَا جَعَلَ لِخَلْقِهِ فِي الْأَنْعَامِ مِنَ المَنَافِعِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَشْرَبُونَ مِنْ أَلْبَانِهَا الخَارِجَةِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ ، وَيَأْكُلُونَ مِنْ حِمْلَانِهَا ، وَيَلْبَسُونَ مِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ، وَيَرْكَبُونَ ظُهُورَهَا ، وَيُحَمِّلُونَهَا الْأَحْمَالَ الثِّقَالَ إِلَى الْبِلَادِ النَّائِيَةِ عَنْهُمْ .

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٢٣ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ٢٥

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ لِيُنْذِرَهُمْ عَذَابَ اللهِ وَبَأْسَهُ الشَّدِيدَ ، وَانْتِقَامَهُ مِمَّنْ أَشْرَكَ بِهِ وَخَالَفَ أَمْرَهُ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ ﴿ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : أَلَا تَخَافُونَ مِنَ اللهِ فِي إِشْرَاكِكُمْ بِهِ ؟ فَقَالَ المَلَأُ وَهُمُ السَّادَةُ وَالْأَكَابِرُ مِنْهُمْ : ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ يَعْنُونَ يَتَرَفَّعُ عَلَيْكُمْ ، وَيَتَعَاظَمُ بِدَعْوَى النُّبُوَّةِ وَهُوَ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، فَكَيْفَ أُوحِيَ إِلَيْهِ دُونَكُمْ ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ ﴾ أَيْ : لَوْ أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ نَبِيًّا لَبَعَثَ مَلَكًا مِنْ عِنْدِهِ وَلَمْ يَكُنْ بَشَرًا ﴿ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا ﴾ أَيْ : بِبَعْثَةِ الْبَشَرِ ﴿ فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ يَعْنُونَ بِهَذَا أَسْلَافَهُمْ وَأَجْدَادَهُمْ فِي الدُّهُورِ المَاضِيَةِ ، ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ ﴾ أَيْ : مَجْنُونٌ فِيمَا يَزْعُمُهُ مِنْ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ ، وَاخْتَصَّهُ مِنْ بَيْنِكُمْ بِالْوَحْيِ ﴿ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ أَيْ : انْتَظِرُوا بِهِ رَيْبَ المَنُونِ ، وَاصْبِرُوا عَلَيْهِ مُدَّةً حَتَّى تَسْتَرِيحُوا مِنْهُ .

قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ

عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ عليه السلام أَنَّهُ دَعَا رَبَّهُ لِيَسْتَنْصِرَهُ عَلَى قَوْمِهِ ، ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِصَنْعَةِ السَّفِينَةِ وَإِحْكَامِهَا وَإِتْقَانِهَا ، وَأَنْ يَحْمِلَ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، أَيْ : ذَكَرًا وَأُنْثَى مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ وَالثِّمَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَأَنْ يَحْمِلَ فِيهَا أَهْلَهُ ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ أَيْ : مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنَ اللهِ بِالْهَلَاكِ ، وَهُمُ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ مِنْ أَهْلِهِ كَابْنِهِ وَزَوْجَتِهِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . ﴿ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ أَيْ : عِنْدَ مُعَايَنَةِ إِنْزَالِ الْمَطَرِ الْعَظِيمِ ، لَا تَأْخُذَنَّكَ رَأْفَةٌ بِقَوْمِكَ وَشَفَقَةٌ عَلَيْهِمْ ، وَطَمَعٌ فِي تَأْخِيرِهِمْ لَعَلَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ، فَإِنِّي قَدْ قَضَيْتُ أَنَّهُمْ مُغْرَقُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْقِصَّةُ مَبْسُوطَةً فِي سُورَةِ هُودٍ بِمَا يُغْنِي عَنْ إِعَادَةِ ذَلِكَ هٰهُنَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ وَقَدِ امْتَثَلَ نُوحٌ عليه السلام هَذَا ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي هَذَا الصَّنِيعِ - وَهُوَ إِنْجَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَإِهْلَاكُ الْكَافِرِينَ - لَآيَاتٍ أَيْ : لَحُجَجٍ وَدَلَالَاتٍ وَاضِحَاتٍ عَلَى صِدْقِ الْأَنْبِيَاءِ فِيمَا جَاءُوا بِهِ عَنِ اللهِ تَعَالَى . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ أَيْ : لَمُخْتَبِرِينَ لِلْعِبَادِ بِإِرْسَالِ الْمُرْسَلِينَ .

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْشَأَ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ قَرْنًا آخَرِينَ ، قِيلَ الْمُرَادُ بِهِمْ : عَادٌ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَخْلَفِينَ بَعْدَهُمْ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِهَؤُلَاءِ : ثَمُودٌ لِقَوْلِهِ : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ وَأَبَوْا عَنِ اتِّبَاعِهِ ؛ لِكَوْنِهِ بَشَرًا مِثْلَهُمْ ، وَاسْتَنْكَفُوا عَنِ اتِّبَاعِ رَسُولٍ بَشَرِيٍّ ، فَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ فِي الْقِيَامَةِ ، وَأَنْكَرُوا الْمَعَادَ الْجُثْمَانِيَّ ، وَقَالُوا : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ أَيْ : بَعِيدٌ بَعِيدٌ ذَلِكَ ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أَيْ : فِيمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالنِّذَارَةِ وَالْإِخْبَارِ بِالْمَعَادِ ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ أَيْ : اسْتَفْتَحَ عَلَيْهِمُ الرَّسُولُ ، وَاسْتَنْصَرَ رَبَّهُ عَلَيْهِمْ ، فَأَجَابَ دُعَاءَهُ . ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴾ أَيْ : بِمُخَالَفَتِكَ وَعِنَادِكَ فِيمَا جِئْتَهُمْ بِهِ ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : وَكَانُوا يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ مِنَ اللهِ ، بِكُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ﴾ أَيْ : صَرْعَى هَلْكَى كَغُثَاءِ السَّيْلِ ﴿ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الزخرف : ٧٦] أَيْ : بِكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَمُخَالَفَةِ رَسُولِ اللهِ ، فَلْيَحْذَرِ السَّامِعُونَ أَنْ يُكَذِّبُوا رَسُولَهُمْ .

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾ أَيْ : أُمَمًا وَخَلَائِقَ ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ يَعْنِي : بَلْ يُؤْخَذُونَ عَلَى حَسَبِ مَا قَدَّرَ لَهُمْ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْمَحْفُوظِ ، وَعِلْمِهِ قَبْلَ كَوْنِهِمْ أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ ، وَقَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، وَخَلَفًا بَعْدَ سَلَفٍ ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : يَعْنِي يَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . ﴿ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ يَعْنِي : جُمْهُورُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ . ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا ﴾ أَيْ : أَهْلَكْنَاهُمْ ، ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ أَيْ : أَخْبَارًا وَأَحَادِيثَ لِلنَّاسِ .

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ رَسُولَهُ مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِالْآيَاتِ وَالْحُجَجِ الدَّامِغَاتِ وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَاتِ ، وَأَنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِهِمَا وَالِانْقِيَادِ لِأَمْرِهِمَا لِكَوْنِهِمَا بَشَرَيْنِ ، كَمَا أَنْكَرَتِ الْأُمَمُ الْمَاضِيَةُ بَعْثَةَ الرُّسُلِ مِنَ الْبَشَرِ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَأَهْلَكَ اللهُ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ وَأَغْرَقَهُمْ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ أَجْمَعِينَ ، وَأَنْزَلَ عَلَى مُوسَى الْكِتَابَ - وَهُوَ التَّوْرَاةُ - فِيهَا أَحْكَامُهُ وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ قَصَمَ اللهُ فِرْعَوْنَ وَالْقِبْطَ وَأَخَذَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ، وَبَعْدَ أَنْ أَنْزَلَ اللهُ التَّوْرَاةَ لَمْ يُهْلِكْ أُمَّةً بِعَامَّةٍ ، بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِقِتَالِ الْكَافِرِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : ٤٣] .

وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَنَّهُ جَعَلَهُمَا آيَةً لِلنَّاسِ ، أَيْ : حُجَّةً قَاطِعَةً عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ ، فَإِنَّهُ خَلَقَ آدَمَ مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَلَا أُمٍّ ، وَخَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى ، وَخَلَقَ عِيسَى مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ ، وَخَلَقَ بَقِيَّةَ النَّاسِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ الرَّبْوَةُ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ ، وَهُوَ أَحْسَنُ مَا يَكُونُ فِيهِ النَّبَاتُ . ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ ذَات خِصْبٍ ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ يَعْنِي : مَاءً ظَاهِرًا ، وَقِيلَ : ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ الْمَاءُ الْجَارِي ، وَقِيلَ : ﴿ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ هُوَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ فَهَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - هُوَ الْأَظْهَرُ ؛ لِأَنَّهُ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ، وَالْقُرْآنُ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَهَذَا أَوْلَى مَا يُفَسَّرُ بِهِ ، ثُمَّ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ ، ثُمَّ الْآثَارُ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُرْسَلِينَ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَجْمَعِينَ - بِالْأَكْلِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْقِيَامِ بِالصَّالِحِ مِنَ الْأَعْمَالِ ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْحَلَالَ عَوْنٌ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ فَقَامَ الْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - بِهَذَا أَتَمَّ الْقِيَامِ ، وَجَمَعُوا بَيْنَ كُلِّ خَيْرٍ قَوْلًا وَعَمَلًا وَدَلَالَةً وَنُصْحًا فَجَزَاهُمُ اللهُ عَنِ الْعِبَادِ خَيْرًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أَيْ : دِينُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ

دِينٌ وَاحِدٌ وَمِلَّةٌ وَاحِدَةٌ ، وَهُوَ الدَّعْوَةُ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ(١) ، وَإِنَّ قَوْلَهُ : ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ . ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾ أَيْ : الْأُمَمُ الَّذِينَ بُعِثَتْ إِلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءُ ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أَيْ : يَفْرَحُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ ؛ لِأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ، وَلِهَذَا قَالَ مُتَهَدِّدًا لَهُمْ وَمُتَوَاعِدًا .﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ ﴾ أَيْ : فِي غَيِّهِمْ وَضَلَالِهِمْ ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أَيْ : إِلَى حِينِ حِينِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [الطارق : ١٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر : ٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ يَعْنِي : أَيَظُنُّ هَؤُلَاءِ الْمَغْرُورُونَ أَنَّ مَا نُعْطِيهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ لِكَرَامَتِهِمْ عَلَيْنَا وَمَعَزَّتِهِمْ عِنْدَنَا ؟ كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ : ٣٥] لَقَدْ أَخْطَئُوا فِي ذَلِكَ وَخَابَ رَجَاؤُهُمْ ، بَلْ إِنَّمَا نَفْعَلُ بِهِمْ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا وَإِنْظَارًا وَإِمْلَاءً ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [التوبة:٥٥] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ﴾ [آل عمران : ١٧٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِى لَهُمْ ﴾ [القلم : ٤٤-٤٥] . وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أَيْ : هُمْ مَعَ إِحْسَانِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ مُشْفِقُونَ مِنَ اللهِ ، خَائِفُونَ مِنْهُ ، وَجِلُونَ مِنْ مَكْرِهِ بِهِمْ ، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ، بَلْ يُوَحِّدُونَهُ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، أَحَدًا صَمَدًا لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ، وَأَنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا كُفْءَ لَهُ .﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ أَيْ : يُعْطُونَ الْعَطَاءَ وَهُمْ خَائِفُونَ وَجِلُونَ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ ؛ لِخَوْفِهِمْ أَنْ يَكُونُوا قَدْ قَصَّرُوا فِي الْقِيَامِ بِشُرُوطِ الْإِعْطَاءِ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْإِشْفَاقِ وَالِاحْتِيَاطِ .

(١) الآية رقم (٩٢) .

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ هُوَ الَّذِي يَسْرِقُ وَيَزْنِي وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ ، وَهُوَ يَخَافُ اللهَ ﷻ ؟ قَالَ : ((**لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ اللهَ ﷻ**)) .

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَدْلِهِ فِي شَرْعِهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الدُّنْيَا ، أَنَّهُ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، أَيْ إِلَّا مَا تُطِيقُ حَمْلَهُ وَالْقِيَامَ بِهِ ، وَأَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُحَاسِبُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ الَّتِي كَتَبَهَا عَلَيْهِمْ فِي كِتَابٍ مَسْطُورٍ لَا يَضِيعُ مِنْهُ شَيْءٌ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ﴾ يَعْنِي : كِتَابَ الْأَعْمَالِ ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أَيْ : لَا يُبْخَسُونَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا ، وَأَمَّا السَّيِّئَاتُ فَيَعْفُو وَيَصْفَحُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ قَالَ مُنْكِرًا عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ أَيْ : فِي غَفْلَةٍ وَضَلَالَةٍ مِنْ هَذَا ، أَيْ : الْقُرْآنُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴾ **قِيلَ** : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ ﴾ أَيْ : سَيِّئَةٌ ﴿ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ يَعْنِي : الشِّرْكَ ﴿ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴾ لَا بُدَّ أَنْ يَعْمَلُوهَا ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴾ أَيْ : قَدْ كُتِبَتْ عَلَيْهِمْ أَعْمَالٌ سَيِّئَةٌ لَا بُدَّ أَنْ يَعْمَلُوهَا قَبْلَ مَوْتِهِمْ لَا مَحَالَةَ ، لِتَحِقَّ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ، وَهُوَ ظَاهِرٌ قَوِيٌّ حَسَنٌ . ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ يَعْنِي : حَتَّى إِذَا جَاءَ مُتْرَفِيهِمْ - وَهُمُ السُّعَدَاءُ الْمُنَعَّمُونَ فِي الدُّنْيَا - عَذَابُ اللهِ وَبَأْسُهُ وَنِقْمَتُهُ بِهِمْ ﴿ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ أَيْ : يَصْرُخُونَ وَيَسْتَغِيثُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يُجِيرُكُمْ أَحَدٌ مِمَّا حَلَّ بِكُمْ ، سَوَاءٌ جَأَرْتُمْ أَوْ سَكَتُّمْ لَا مَحِيدَ وَلَا مَنَاصَ وَلَا وَزَرَ لَزِمَ الْأَمْرُ ، وَوَجَبَ الْعَذَابُ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَكْبَرَ ذُنُوبِهِمْ . فَقَالَ : ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ أَيْ : إِذَا دُعِيتُمْ أَبَيْتُمْ وَإِنْ طُلِبْتُمْ امْتَنَعْتُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ فِي تَفْسِيرِهِ قَوْلَانِ : **أَحَدُهُمَا** : أَنَّ مُسْتَكْبِرِينَ حَالٌ مِنْهُمْ حِينَ نُكُوصِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَإِبَائِهِمْ إِيَّاهُ ، اسْتِكْبَارًا عَلَيْهِ وَاحْتِقَارًا لَهُ وَلِأَهْلِهِ ، فَعَلَى هَذَا

الضَّمِيرُ فِي ﴿ بِهِۦ ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : **أَحَدُهَا** : أَنَّهُ الْحَرَمُ بِمَكَّةَ ، ذُمُّوا ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمُرُونَ فِيهِ بِالْهَجْرِ مِنَ الْكَلَامِ . **الثَّانِي** : أَنَّهُ ضَمِيرٌ لِلْقُرْآنِ كَانُوا يَسْمُرُونَ وَيَذْكُرُونَ الْقُرْآنَ بِالْهَجْرِ مِنَ الْكَلَامِ : إِنَّهُ سِحْرٌ ، إِنَّهُ شِعْرٌ ، إِنَّهُ كِهَانَةٌ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْبَاطِلَةِ . **وَالثَّالِثُ** : أَنَّهُ مُحَمَّدٌ ﷺ كَانُوا يَذْكُرُونَهُ فِي سَمَرِهِمْ بِالْأَقْوَالِ الْفَاسِدَةِ ، وَيَضْرِبُونَ لَهُ الْأَمْثَالَ الْبَاطِلَةَ مِنْ أَنَّهُ شَاعِرٌ ، أَوْ كَاهِنٌ ، أَوْ سَاحِرٌ ، أَوْ كَذَّابٌ ، أَوْ مَجْنُونٌ ، فَكُلُّ ذَلِكَ بَاطِلٌ ، بَلْ هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَأَخْرَجَهُمْ مِنَ الْحَرَمِ صَاغِرِينَ أَذِلَّاءَ ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ ﴾ أَيْ : بِالْبَيْتِ يَفْتَخِرُونَ بِهِ ، مُعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ وَلَيْسُوا بِهِ .

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عَدَمِ تَفَهُّمِهِمْ لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَتَدَبُّرِهِمْ لَهُ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ ، مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ خُصُّوا بِهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي لَمْ يُنَزِّلِ اللهُ عَلَى رَسُولٍ أَكْمَلَ مِنْهُ وَلَا أَشْرَفَ ، لَا سِيَّمَا آبَاؤُهُمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْهُمْ كِتَابٌ ، وَلَا أَتَاهُمْ نَذِيرٌ ، فَكَانَ اللَّائِقُ بِهَؤُلَاءِ أَنْ يُقَابِلُوا النِّعْمَةَ الَّتِي أَسْدَاهَا اللهُ عَلَيْهِمْ بِقَبُولِهَا ، وَالْقِيَامِ بِشُكْرِهَا وَتَفَهُّمِهَا وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ، كَمَا فَعَلَهُ النُّجَبَاءُ مِنْهُمْ مِمَّنْ أَسْلَمَ وَاتَّبَعَ الرَّسُولَ ﷺ وَرَضِيَ عَنْهُمْ . ثُمَّ قَالَ مُنْكِرًا عَلَى الْكَافِرِينَ مِنْ قُرَيْشٍ ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ أَيْ : أَفَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مُحَمَّدًا وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَصِيَانَتَهُ الَّتِي نَشَأَ بِهَا فِيهِمْ ؟ : أَيْ أَفَيَقْدِرُونَ عَلَى إِنْكَارِ ذَلِكَ وَالْمُبَاهَتَةِ فِيهِ ؟.

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ يَحْكِي قَوْلَ الْمُشْرِكِينَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ تَقَوَّلَ الْقُرْآنَ أَيْ : افْتَرَاهُ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ أَنَّ بِهِ جُنُونًا لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ ، وَأَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّ قُلُوبَهُمْ لَا تُؤْمِنُ بِهِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ بُطْلَانَ مَا يَقُولُونَهُ فِي الْقُرْآنِ ، فَإِنَّهُ أَتَاهُمْ مِنْ كَلَامِ اللهِ مَا لَا يُطَاقُ وَلَا يُدَافَعُ ، وَقَدْ تَحَدَّاهُمْ وَجَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَبَدَ الْآبِدِينَ ، **وَلِهَذَا**

قَالَ : ﴿ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ ، أَيْ فِي حَالَةِ كَرَاهَةِ أَكْثَرِهِمْ لِلْحَقِّ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ خَبَرِيَّةً مُسْتَأْنَفَةً ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ قِيلَ : الْحَقُّ هُوَ اللهُ ﷻ ، وَالْمُرَادُ لَوْ أَجَابَهُمُ اللهُ إِلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَوَى ، وَشَرَعَ الْأُمُورَ عَلَى وَفْقِ ذَلِكَ ﴿ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ أَيْ : لِفَسَادِ أَهْوَائِهِمْ وَاخْتِلَافِهَا . ﴿ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ ﴾ أَيْ : الْقُرْآنَ ﴿ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا ﴾ قَالَ الْحَسَنُ : أَجْرًا ، وَقَالَ قَتَادَةُ : جُعْلًا ﴿ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ﴾ أَيْ : أَنْتَ لَا تَسْأَلُهُمْ أُجْرَةً وَلَا جُعْلًا وَلَا شَيْئًا عَلَى دَعْوَتِكَ إِيَّاهُمْ إِلَى الْهُدَى ، بَلْ أَنْتَ فِي ذَلِكَ تَحْتَسِبُ عِنْدَ اللهِ جَزِيلَ ثَوَابِهِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [سبأ : ٤٧] وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ ﴾ أَيْ : لَعَادِلُونَ جَائِرُونَ مُنْحَرِفُونَ ، تَقُولُ الْعَرَبُ : نَكَبَ فُلَانٌ عَنِ الطَّرِيقِ إِذَا زَاغَ عَنْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ غِلَظِهِمْ فِي كُفْرِهِمْ بِأَنَّهُ لَوْ أَزَاحَ عَنْهُمُ الضُّرَّ وَأَفْهَمَهُمُ الْقُرْآنَ لَمَا انْقَادُوا لَهُ وَلَاسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣] ، فَهَذَا مِنْ بَابِ عِلْمِهِ تَعَالَى بِمَا لَا يَكُونُ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ .

وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ ﴾ أَيْ : ابْتَلَيْنَاهُمْ بِالْمَصَائِبِ وَالشَّدَائِدِ ﴿ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أَيْ : فَمَا رَدَّهُمْ ذَلِكَ عَمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمُخَالَفَةِ ، بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى غَيِّهِمْ وَضَلَالِهِمْ ﴿ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ﴾ أَيْ : مَا خَشَعُوا ﴿ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أَيْ : مَا دَعَوْا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنعام : ٤٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أَيْ : حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ

أَمْرُ الله وَجَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً فَأَخَذَهُمْ مِنْ عَذَابِ الله مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أُبْلِسُوا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ ، وَأَيِسُوا مِنْ كُلِّ رَاحَةٍ ، وَانْقَطَعَتْ آمَالُهُمْ وَرَجَاؤُهُمْ .

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ جَعَلَ لَهُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، وَهِيَ الْعُقُولُ وَالْفُهُومُ الَّتِي يَذْكُرُونَ بِهَا الْأَشْيَاءَ ، وَيَعْتَبِرُونَ بِمَا فِي الْكَوْنِ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الله ، وَأَنَّهُ الْفَاعِلُ الْمُخْتَارُ لِمَا يَشَاءُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : مَا أَقَلَّ شُكْرَكُمْ لله عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[يوسف : ١٠٣]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَسُلْطَانِهِ الْقَاهِرِ فِي بَرْئِهِ الْخَلِيقَةَ وَذَرْئِهِ لَهُمْ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ مِنْهُمْ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، فَلَا يَتْرُكُ مِنْهُمْ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا وَلَا ذَكَرًا وَلَا أُنْثَى وَلَا جَلِيلًا وَلَا حَقِيرًا إِلَّا أَعَادَهُ كَمَا بَدَأَهُ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أَيْ : يُحْيِي الرِّمَمَ وَيُمِيتُ الْأُمَمَ ﴿ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أَيْ وَعَنْ أَمْرِهِ تَسْخِيرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، كُلٌّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَثِيثًا يَتَعَاقَبَانِ لَا يَفْتُرَانِ وَلَا يَفْتَرِقَانِ بِزَمَانٍ غَيْرِهِمَا كَقَوْلِهِ ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾[يس : ٤٠] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : أَفَلَيْسَ لَكُمْ عُقُولٌ تَدُلُّكُمْ عَلَى الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ الَّذِي قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَعَزَّ كُلَّ شَيْءٍ وَخَضَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْ مُنْكِرِي الْبَعْثِ الَّذِينَ أَشْبَهُوا مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ . ﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ يَعْنِي يَسْتَبْعِدُونَ وُقُوعَ ذَلِكَ بَعْدَ صَيْرُورَتِهِمْ إِلَى الْبِلَى ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يَعْنُونَ : الْإِعَادَةُ مُحَالٌ ، إِنَّمَا يُخْبِرُ بِهَا مَنْ تَلَقَّاهَا عَنْ كُتُبِ الْأَوَّلِينَ وَاخْتِلَافِهِمْ .

قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾

يُقَرِّرُ تَعَالَى وَحْدَانِيَّتَهُ وَاسْتِقْلَالَهُ بِالْخَلْقِ وَالتَّصَرُّفِ وَالْمُلْكِ ؛ لِيُرْشِدَ إِلَى أَنَّهُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَلَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرَهُ الْمُعْتَرِفِينَ بِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهَا ، مَعَ هَذَا فَقَدْ

أَشْرَكُوا مَعَهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ فَعَبَدُوا غَيْرَهُ مَعَهُ مَعَ اعْتِرَافِهِمْ أَنَّ الَّذِينَ عَبَدُوهُمْ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَلَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ، وَلَا يَسْتَبِدُّونَ بِشَيْءٍ ، بَلِ اعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يُقَرِّبُونَهُمْ إِلَيْهِ زُلْفَى ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر : ٣] ، **فَقَالَ** : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ أَيْ : مَنْ مَالِكُهَا الَّذِي خَلَقَهَا وَمَنْ فِيهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ وَالثَّمَرَاتِ وَسَائِرِ صُنُوفِ الْمَخْلُوقَاتِ ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ؟. ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : فَيَعْتَرِفُونَ لَكَ بِأَنَّ ذَلِكَ لله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ ﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَنَّهُ لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لِلْخَالِقِ الرَّازِقِ لَا لِغَيْرِهِ ، ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أَيْ : مَنْ هُوَ خَالِقُ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ بِمَا فِيهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ النَّيِّرَاتِ وَالْمَلَائِكَةِ الْخَاضِعِينَ لَهُ فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ مِنْهَا وَالْجِهَاتِ ؟ وَمَنْ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟ يَعْنِي : الَّذِي هُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : الْعَرْشُ لَا يُقَدِّرُ قَدْرَهُ أَحَدٌ . **وَفِي رِوَايَةٍ** : **إِلَّا الله** ﷻ ، **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا** : ﴿ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أَيْ : الْكَبِيرُ ، وَقَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ ﴿ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ أَيْ : الْحَسَنُ الْبَهِيُّ ، فَقَدْ جَمَعَ الْعَرْشُ بَيْنَ الْعَظَمَةِ فِي الِاتِّسَاعِ وَالْعُلُوِّ وَالْحُسْنِ الْبَاهِرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : إِذَا كُنْتُمْ تَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَفَلَا تَخَافُونَ عِقَابَهُ وَتَحْذَرُونَ عَذَابَهُ فِي عِبَادَتِكُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ وَإِشْرَاكِكُمْ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أَيْ : بِيَدِهِ الْمُلْكُ فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ كَانَتِ الْعَرَبُ إِذَا كَانَ السَّيِّدُ فِيهِمْ فَأَجَارَ أَحَدًا لَا يُخْفَرُ فِي جِوَارِهِ ، وَلَيْسَ لِمَنْ دُونَهُ أَنْ يُجِيرَ عَلَيْهِ لِئَلَّا يَفْتَاتَ عَلَيْهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ اللهُ** : ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : وَهُوَ السَّيِّدُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : سَيَعْتَرِفُونَ أَنَّ السَّيِّدَ الْعَظِيمَ الَّذِي يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ، هُوَ اللهُ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ تَذْهَبُ عُقُولُكُمْ فِي عِبَادَتِكُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ مَعَ اعْتِرَافِكُمْ وَعِلْمِكُمْ بِذَلِكَ ؟ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ وَهُوَ الْإِعْلَامُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَقَمْنَا الْأَدِلَّةَ الصَّحِيحَةَ الْوَاضِحَةَ الْقَاطِعَةَ عَلَى ذَلِكَ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أَيْ : فِي عِبَادَتِهِمْ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ .

مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

يُنَزِّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ أَوْ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ وَالعِبَادَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أَيْ: لَوْ قُدِّرَ تَعَدُّدِ الآلِهَةِ لَانْفَرَدَ كُلٌّ مِنْهُمْ بِمَا خَلَقَ، فَمَا كَانَ يَنْتَظِمُ الْوُجُودُ، وَالْمُشَاهَدُ أَنَّ الْوُجُودَ مُنْتَظِمٌ مُتَّسِقٌ، كُلٌّ مِنَ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ مُرْتَبِطٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ فِي غَايَةِ الْكَمَالِ ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك: ٣]، ثُمَّ لَكَانَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَطْلُبُ قَهْرَ الْآخَرِ وَخِلَافه فَيَعْلُو بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أَيْ: عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ فِي دَعْوَاهُمُ الْوَلَدَ أَوِ الشَّرِيكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أَيْ: يَعْلَمُ مَا يَغِيبُ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ وَمَا يُشَاهِدُونَهُ ﴿ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أَيْ: تَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَالَى وَعَزَّ وَجَلَّ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ.

قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَدْعُوَ هَذَا الدُّعَاءَ عِنْدَ حُلُولِ النِّقَمِ ﴿ رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴾ أَيْ: إِنْ عَاقَبْتَهُمْ - وَإِنِّي شَاهِدٌ ذَلِكَ - فَلَا تَجْعَلْنِي فِيهِمْ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ «وَإِذَا أَرَدْتُ بِقَوْمٍ فِتْنَةً فَتَوَفَّنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ».

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُون ﴾ أَيْ: لَوْ شِئْنَا لَأَرَيْنَاكَ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ النِّقَمِ وَالْبَلَاءِ وَالْمِحَنِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُرْشِدًا لَهُ إِلَى التِّرْيَاقِ النَّافِعِ فِي مُخَالَطَةِ النَّاسِ، وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى مَنْ يُسِيءُ إِلَيْهِ لِيَسْتَجْلِبَ خَاطِرَهُ فَتَعُودُ عَدَاوَتُهُ صَدَاقَةً وَبُغْضُهُ مَحَبَّةً، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾، وَهَذَا كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَسْتَعِيذَ مِنَ الشَّيَاطِينِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا تَنْفَعُ مَعَهُمُ الْحِيَلُ، وَلَا يَنْقَادُونَ بِالْمَعْرُوفِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ أَيْ: فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِي، وَلِهَذَا أَمَرَ بِذِكْرِ اللهِ فِي ابْتِدَاءِ الْأُمُورِ وَذَلِكَ لِطَرْدِ الشَّيْطَانِ عِنْدَ الْأَكْلِ وَالْجِمَاعِ وَالذَّبْحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ. كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ كَلِمَاتٍ يَقُولُهُنَّ عِنْدَ النَّوْمِ مِنَ الْفَزَعِ: «**بِسْمِ اللهِ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ**

الله التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونَ».

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُحْتَضَرِ عِنْدَ الْمَوْتِ، مِنَ الْكَافِرِينَ أَوِ الْمُفَرِّطِينَ فِي أَمْرِ الله تَعَالَى، وَقِيلِهِمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَسُؤَالِهِمُ الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيُصْلِحَ مَا كَانَ أَفْسَدَهُ فِي مُدَّةِ حَيَاتِهِ، **وَلِهَذَا قَالَ:** ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ فَلَا يُجَابُونَ عِنْدَ الاحْتِضَارِ، وَيَوْمَ النُّشُورِ، وَوَقْتَ الْعَرْضِ عَلَى الْجَبَّارِ، وَحِينَ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ، وَهُمْ فِي غَمَرَاتِ عَذَابِ الْجَحِيمِ. **وَقَوْلُهُ هَهُنَا:** ﴿كَلَّآ﴾ كَلَّا حَرْفُ رَدْعٍ وَزَجْرٍ، أَيْ: لَا نُجِيبُهُ إِلَى مَا طَلَبَ وَلَا نَقْبَلُ مِنْهُ. ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ **قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ:** أَيْ: لَا بُدَّ أَنْ يَقُولَهَا لَا مَحَالَةَ كُلُّ مُحْتَضَرٍ ظَالِمٍ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عِلَّةً لِقَوْلِهِ: ﴿كَلَّآ﴾ أَيْ: لِأَنَّهَا كَلِمَةٌ، أَيْ: سُؤَالُهُ الرُّجُوعَ لِيَعْمَلَ صَالِحًا هُوَ كَلَامٌ مِنْهُ، وَقَوْلٌ لَا عَمَلَ مَعَهُ، وَلَوْ رُدَّ لَمَا عَمِلَ صَالِحًا، وَلَكَانَ يَكْذِبُ فِي مَقَالَتِهِ هَذِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ **قِيلَ:** يَعْنِي: أَمَامَهُمْ. ﴿بَرْزَخٌ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ:** الْبَرْزَخُ الْحَاجِزُ مَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. **وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ:** الْبَرْزَخُ مَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَيْسُوا مَعَ أَهْلِ الدُّنْيَا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَلَا مَعَ أَهْلِ الْآخِرَةِ يُجَاوِزُونَ بِأَعْمَالِهِمْ. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ تَهْدِيدٌ لِهَؤُلَاءِ الْمُحْتَضَرِينَ مِنَ الظَّلَمَةِ بِعَذَابِ الْبَرْزَخِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أَيْ: يَسْتَمِرُّ بِهِ الْعَذَابُ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ.

فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةُ النُّشُورِ وَقَامَ النَّاسُ مِنَ الْقُبُورِ ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ

يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَنْفَعُ الْأَنْسَابُ يَوْمئِذٍ وَلَا يَرْثِي وَالِدٌ لِوَلَدِهِ وَلَا يَلْوِي عَلَيْهِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡ ﴾[المعارج : ١٠- ١١] أَيْ : لَا يَسْأَلُ الْقَرِيبُ عَنْ قَرِيبِهِ وَهُوَ يُبْصِرُهُ ، وَلَوْ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْزَارِ مَا قَدْ أَثْقَلَ ظَهْرَهُ ، وَهُوَ أَعَزُّ النَّاسِ عَلَيْهِ - كَانَ - فِي الدُّنْيَا مَا الْتَفَتَ إِلَيْهِ وَلَا حَمَلَ عَنْهُ وَزْن جَنَاح بَعُوضَةٍ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾[عبس : ٣٤- ٣٦] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ أَيْ : مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ وَلَوْ بِوَاحِدَةٍ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ . ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ فَازُوا ، فَنَجَوْا مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُوا الْجَنَّةَ ﴿ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أَيْ : ثَقُلَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾ أَيْ : خَابُوا وَهَلَكُوا وَفَازُوا بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ . ﴿ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ أَيْ : مَاكِثُونَ فِيهَا دَائِمُونَ مُقِيمُونَ فَلَا يَظْعَنُونَ ﴿ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : عَابِسُونَ .

أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٠٥ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧

هَذَا تَقْرِيعٌ مِنَ اللهِ وَتَوْبِيخٌ لِأَهْلِ النَّارِ عَلَى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ وَالْعَظَائِمِ الَّتِي أَوْبَقَتْهُمْ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أَيْ : قَدْ أَرْسَلْتُ إِلَيْكُمْ الرُّسُلَ ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكُمُ الْكُتُبَ ، وَأَزَلْتُ شُبَهَكُمْ وَلَمْ يَبْقَ لَكُمْ حُجَّةٌ تَدْلُونَ بِهَا ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴾ أَيْ : قَدْ قَامَتْ عَلَيْنَا الْحُجَّةُ ، وَلَكِنْ كُنَّا أَشْقَى مِنْ أَنْ نَنْقَادَ لَهَا وَنَتَّبِعَهَا ، فَضَلَلْنَا عَنْهَا وَلَمْ نُرْزَقْهَا ، ثُمَّ قَالُوا : ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : أُرْدُدْنَا إِلَى الدُّنْيَا ، فَإِنْ عُدْنَا إِلَى مَا سَلَفَ مِنَّا فَنَحْنُ ظَالِمُونَ مُسْتَحِقُّونَ لِلْعُقُوبَةِ .

قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ۝١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝١١١

هَذَا جَوَابٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلْكُفَّارِ إِذَا سَأَلُوا الْخُرُوجَ مِنَ النَّارِ وَالرَّجْعَةِ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ . يَقُولُ : ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا ﴾ أَيْ : امْكُثُوا فِيهَا صَاغِرِينَ مُهَانِينَ أَذِلَّاءَ ﴿ وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ أَيْ : لَا تَعُودُوا إِلَى سُؤَالِكُمْ هَذَا فَإِنَّهُ لَا جَوَابَ لَكُمْ عِنْدِي . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُذَكِّرًا لَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَمَا

كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْلِيَائِهِ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ أَيْ : فَسَخِرْتُمْ مِنْهُمْ فِي دُعَائِهِمْ إِيَّايَ وَتَضَرُّعِهِمْ إِلَيَّ ﴿ حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى ﴾ أَيْ : حَمَلَكُمْ بُغْضُهُمْ عَلَيَّ أَنْ نَسِيتُمْ مُعَامَلَتِي ﴿ وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ صَنِيعِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا جَازَى بِهِ أَوْلِيَاءَهُ وَعِبَادَهُ الصَّالِحِينَ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾ أَيْ : عَلَى أَذَاكُمْ لَهُمْ وَاسْتِهْزَائِكُمْ بِهِمْ ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ بِالسَّعَادَةِ وَالسَّلَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ .

قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا لَهُمْ عَلَى مَا أَضَاعُوهُ فِي عُمْرِهِمُ الْقَصِيرِ فِي الدُّنْيَا ، مِنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ ، وَلَوْ صَبَرُوا فِي مُدَّةِ الدُّنْيَا الْقَصِيرَةِ لَفَازُوا كَمَا فَازَ أَوْلِيَاؤُهُ الْمُتَّقُونَ : ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ أَيْ : كَمْ كَانَتْ إِقَامَتُكُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ أَيْ : الْحَاسِبِينَ ﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيْ : مُدَّةً يَسِيرَةً عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ ﴿ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : لَمَا آثَرْتُمُ الْفَانِي عَلَى الْبَاقِي ، وَلَمَا تَصَرَّفْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ هَذَا التَّصَرُّفَ السَّيِّئَ ، وَلَا اسْتَحْقَقْتُمْ مِنَ اللهِ سَخَطَهُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ ، فَلَوْ أَنَّكُمْ صَبَرْتُمْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ كَمَا فَعَلَ الْمُؤْمِنُونَ لَفُزْتُمْ كَمَا فَازُوا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾ أَيْ : أَفَظَنَنْتُمْ أَنَّكُمْ مَخْلُوقُونَ عَبَثًا بِلَا قَصْدٍ وَلَا إِرَادَةٍ مِنْكُمْ وَلَا حِكْمَةٍ لَنَا ؟ ، **وَقِيلَ** : لِلْعَبَثِ ، أَيْ : لِتَلْعَبُوا وَتَعْبَثُوا ، كَمَا خُلِقَتِ الْبَهَائِمُ لَا ثَوَابَ لَهَا وَلَا عِقَابَ ، وَإِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ لِلْعِبَادَةِ وَإِقَامَةِ أَوَامِرِ اللهِ ﷻ ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَعُودُونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ يَعْنِي : هَمَلًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ أَيْ : تَقَدَّسَ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا عَبَثًا ، فَإِنَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُنَزَّهُ عَنْ ذَلِكَ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ فَذَكَرَ الْعَرْشَ لِأَنَّهُ سَقْفُ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ كَرِيمٌ أَيْ : حَسَنُ الْمَنْظَرِ ، بَهِيُّ الشَّكْلِ .

وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا مَنْ أَشْرَكَ بِهِ غَيْرَهُ وَعَبَدَ مَعَهُ سِوَاهُ ، وَمُخْبِرًا أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ لَا بُرْهَانَ لَهُ ، أَيْ : لَا دَلِيلَ لَهُ عَلَى قَوْلِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ وَهَذِهِ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ أَيْ : اللهُ يُحَاسِبُهُ عَلَى ذَلِكَ . **ثُمَّ أَخْبَرَ** ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أَيْ : لَدَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَا فَلَاحَ لَهُمْ وَلَا نَجَاةَ .

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى إِلَى هَذَا الدُّعَاءِ ، فَالْغَفْرُ إِذَا أُطْلِقَ مَعْنَاهُ : مَحْوُ الذَّنْبِ وَسَتْرُهُ عَنِ النَّاسِ ، وَالرَّحْمَةُ مَعْنَاهَا : أَنْ يُسَدِّدَهُ وَيُوَفِّقَهُ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ

تفسيرُ سُورَةِ النـور

آياتها ٦٤ — مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَذِهِ ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا ﴾ فِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى الاعْتِنَاءِ بِهَا وَلَا يَنْفِي مَا عَدَاهَا ﴿ وَفَرَضْنَٰهَا ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ** : أَيْ بَيَّنَّا الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْحُدُودَ . **وَقَالَ الْبُخَارِيُّ** : وَمَنْ قَرَأَ ﴿ فَرَضْنَٰهَا ﴾ يَقُولُ : فَرَضْنَاهَا عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ بَعْدَكُمْ ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ أَيْ : مُفَسَّرَاتٍ وَاضِحَاتٍ ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ يَعْنِي : **هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا حُكْمُ** الزَّانِي فِي الْحَدِّ **وَلِلْعُلَمَاءِ فِيهِ تَفْصِيلٌ وَنِزَاعٌ** ، فَإِنَّ الزَّانِيَ لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِكْرًا وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَتَزَوَّجْ ، أَوْ مُحْصَنًا وَهُوَ الَّذِي قَدْ وَطِئَ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ وَهُوَ حُرٌّ بَالِغٌ عَاقِلٌ ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ بِكْرًا لَمْ يَتَزَوَّجْ فَإِنَّ حَدَّهُ مِائَةُ جَلْدَةٍ ، كَمَا فِي الْآيَةِ ، وَيُزَادُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يُغَرَّبَ عَامًا عَنْ بَلَدِهِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ ، **فَأَمَّا إِذَا كَانَ مُحْصَنًا** وَهُوَ الَّذِي قَدْ وَطِئَ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ وَهُوَ حُرٌّ بَالِغٌ عَاقِلٌ فَإِنَّهُ يُرْجَمُ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** أَنَّ عُمَرَ قَامَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ ! فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ ، فَكَانَ فِيمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةُ

الرَّجْم فقرأناها ووعيناها ، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ، فأخشى أن يطول بالناس زمانٌ أن يقول قائل : لا نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله ، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال ومن النساء إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف . وقد أمر رسول الله ﷺ برجم المرأة - زوجة الرجل الذي استأجر الأجير - لما زنت مع الأجير ، ورجم رسول الله ﷺ ماعزًا والغامدية ، وكل هؤلاء لم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه جلدهم قبل الرجم ، وإنما وردت الأحاديث الصحيحة المتعاضدة المتعددة الطرق والألفاظ بالاقتصار على رجمهم وليس فيها ذكر الجلد .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أي : في حكم الله ، أي : لا ترأفوا بهما في شرع الله ، وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية على إقامة الحد ، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد ، فإنه لا يجوز له ذلك . **قال عدد من العلماء** : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قالوا : إقامة الحدود إذا رفعت إلى السلطان فتقام ولا تعطل .

وقوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي : فافعلوا ذلك وأقيموا الحدود على من زنى ، وشددوا عليه الضرب ، ولكن ليس مبرحًا ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك . ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جلدا بحضرة الناس ، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما وأنجع في ردعهما فإن في ذلك تقريعًا وتوبيخًا وفضيحة إذا كان الناس حضورًا .

﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة أي : لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة لا ترى حرمة ذلك ، وكذلك ﴿ الزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ ﴾ أي : عاص بزناه ﴿ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ لا يعتقد تحريمه ، **عن ابن عباس** : ﴿ وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ قال : ليس هذا بالنكاح إنما هو الجماع ، لا يزني بها إلا زان أو مشرك . ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : تعاطيه ، والتزويج بالبغايا ، أو تزويج العفائف بالرجال الفجار .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

هَذِهِ الآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا بَيَانُ حُكْمِ جَلْدِ الْقَاذِفِ لِلْمُحْصَنَةِ - وَهِيَ الْحُرَّةُ الْبَالِغَةُ الْعَفِيفَةُ ، فَإِذَا كَانَ الْمَقْذُوفُ رَجُلًا فَكَذَلِكَ يُجْلَدُ قَاذِفُهُ أَيْضًا ، وَلَيْسَ فِيهِ نِزَاعٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، فَإِنْ أَقَامَ الْقَاذِفُ بَيِّنَةً عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ دَرَأَ عَنْهُ الْحَدَّ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴾ فَأَوْجَبَ عَلَى الْقَاذِفِ إِذَا لَمْ يُقِمِ الْبَيِّنَةَ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَ ثَلَاثَةَ أَحْكَامٍ : أَحَدُهَا : أَنْ يُجْلَدَ ثَمَانِينَ جَلْدَةً . الثَّانِي : أَنَّهُ تُرَدُّ شَهَادَتُهُ أَبَدًا . الثَّالِثُ : أَنْ يَكُونَ فَاسِقًا لَيْسَ بِعَدْلٍ لَا عِنْدَ اللهِ وَلَا عِنْدَ النَّاسِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذَا الاسْتِثْنَاءِ هَلْ يَعُودُ إِلَى الْجُمْلَةِ الأَخِيرَةِ فَقَطْ فَتَرْفَعُ التَّوْبَةُ الْفِسْقَ فَقَطْ وَيَبْقَى مَرْدُودُ الشَّهَادَةِ دَائِمًا وَإِنْ تَابَ ، أَوْ يَعُودُ إِلَى الْجُمْلَتَيْنِ الثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ ؟ وَأَمَّا الْجَلْدُ فَقَدْ ذَهَبَ وَانْقَضَى سَوَاءٌ تَابَ أَوْ أَصَرَّ ، وَلَا حُكْمَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِلَا خِلَافٍ .

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ الْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

هَذِهِ الآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا فَرَجٌ لِلأَزْوَاجِ وَزِيَادَةُ مَخْرَجٍ ، إِذَا قَذَفَ أَحَدُهُمْ زَوْجَتَهُ وَتَعَسَّرَ عَلَيْهِ إِقَامَةُ الْبَيِّنَةِ أَنْ يُلَاعِنَهَا كَمَا أَمَرَ اللهُ ﷻ وَهُوَ أَنْ يُحْضِرَهَا إِلَى الإِمَامِ فَيَدَّعِي عَلَيْهَا بِمَا رَمَاهَا بِهِ ، فَيُحَلِّفُهُ الْحَاكِمُ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ فِي مُقَابَلَةِ أَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ، أَيْ : فِيمَا رَمَاهَا بِهِ مِنَ الزِّنَا ﴿ وَالْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَٰذِبِينَ ﴾ . فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ بَانَتْ مِنْهُ بِنَفْسِ هَذَا اللِّعَانِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ وَطَائِفَةٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِ أَبَدًا ، وَيُعْطِيهَا مَهْرَهَا وَيَتَوَجَّهُ عَلَيْهَا حَدُّ الزِّنَا ، وَلَا يَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ إِلَّا أَنْ تُلَاعِنَ فَتَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ، أَيْ فِيمَا رَمَاهَا بِهِ ﴿ وَالْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴾ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ ﴾ يَعْنِي : الْحَدَّ ، ﴿ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ الْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴾ فَخَصَّهَا بِالْغَضَبِ كَمَا أَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الرَّجُلَ لَا يَتَجَشَّمُ فَضِيحَةَ أَهْلِهِ ، وَرَمْيَهَا بِالزِّنَا إِلَّا وَهُوَ صَادِقٌ مَعْذُورٌ وَهِيَ تَعْلَمُ صِدْقَهُ فِيمَا رَمَاهَا بِهِ ، وَلِهَذَا كَانَتِ الْخَامِسَةُ فِي حَقِّهَا أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا ، وَالْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ

الحَقَّ ثُمَّ يَحِيدُ عَنْهُ . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى رَأْفَتَهُ بِخَلْقِهِ وَلُطْفِهِ بِهِمْ فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الْفَرَجِ وَالمَخْرَجِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَكُونُ بِهِمْ مِنَ الضِّيقِ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ أَيْ : لَحَرَجْتُمْ وَلَشَقَّ عَلَيْكُمْ كَثِيرٌ مِنْ أُمُورِكُمْ ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ ﴾ أَيْ : عَلَى عِبَادِهِ . وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ بَعْدَ الْحَلِفِ وَالأَيْمَانِ المُغَلَّظَةِ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِيمَا يَشْرَعُهُ وَيَأْمُرُ بِهِ وَفِيمَا يَنْهَى عَنْهُ ، وَقَدْ وَرَدَتِ الأَحَادِيثُ بِمُقْتَضَى الْعَمَلِ بِهَذِهِ الآيَةِ وَذِكْرِ سَبَبِ نُزُولِهَا ، وَفِيمَنْ نَزَلَتْ فِيهِ مِنَ الصَّحَابَةِ .

عَنِ **ابْنِ عَبَّاسٍ** أَنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **الْبَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ** » فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ! إِذَا رَأَى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيِّنَةَ ؟ فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : « **الْبَيِّنَةَ وَإِلَّا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ** » فَقَالَ هِلَالٌ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ وَلَيُنْزِلَنَّ اللهُ مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ ﴾ فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ ﴿ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمَا ، فَجَاءَ هِلَالٌ فَشَهِدَ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : « **إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ ؟** » ثُمَّ قَامَتْ فَشَهِدَتْ ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْخَامِسَةِ وَقَفُوهَا وَقَالُوا : إِنَّهَا مُوجِبَةٌ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَتَلَكَّأَتْ وَنَكَصَتْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهَا تَرْجِعُ ثُمَّ قَالَتْ : لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ ، فَمَضَتْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **أَبْصِرُوهَا ، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ : أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ ، سَابِغَ الأَلْيَتَيْنِ ، خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ ، فَهُوَ لِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ** » فَجَاءَتْ بِهِ كَذَلِكَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **لَوْلَا مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ** » .

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

هَذِهِ الْعَشْرُ الآيَاتُ كُلُّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - حِينَ رَمَاهَا أَهْلُ الإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، بِمَا قَالُوهُ مِنَ الْكَذِبِ الْبَحْتِ وَالْفِرْيَةِ الَّتِي غَارَ اللهُ ﷻ لَهَا وَلِنَبِيِّهِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى بَرَاءَتَهَا صِيَانَةً لِعِرْضِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ ﴾ أَيْ : جَمَاعَةٌ مِنْكُمْ ، يَعْنِي : مَا هُوَ وَاحِدٌ وَلَا اثْنَانِ بَلْ جَمَاعَةٌ ، فَكَانَ الْمُقدم فِي هَذِهِ اللَّعْنَةِ : عَبْدُ اللهِ بْنِ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ رَأْسُ الْمُنَافِقِينَ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَجْمَعُهُ وَيَسْتَوْشِيه ، حَتَّى دَخَلَ ذَلِكَ فِي أَذْهَانِ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ ، فَتَكَلَّمُوا بِهِ وَجَوَّزَهُ آخَرُونَ مِنْهُمْ ، وَبَقِيَ الأَمْرُ كَذَلِكَ قَرِيبًا مِنْ شَهْرٍ ، حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ .

عَنْ **عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ** : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ لِسَفَرٍ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ ، قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ

اللهُ عَنْهَا -: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي ، وَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَذَلِكَ بَعْدَمَا نَزَلَ الْحِجَابُ ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ ، وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنَ بِالرَّحِيلِ ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي ، أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ أَظْفَارٍ قَدِ انْقَطَعَ ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي ، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ ، وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونَنِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي ، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنِّي فِيهِ ، قَالَتْ : وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَثْقُلْنَ ، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا ، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ ، وَظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ سَيَفْقِدُونَنِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْـزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ ، وَكَانَ صَـفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ قَدْ عَرَّسَ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ ، فَأَدْلَجَ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي ، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ ، فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي - وَكَانَ قَدْ رَآنِي قَبْلَ الْحِجَابِ - فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي ، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي ، وَاللهِ مَا كَلَّمَنِي كَلِمَةً وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ ، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا فَرَكِبْتُهَا فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ مِنْ شَأْنِي ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ : عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ ابْنِ سَلُولٍ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ ﴾ أَيْ : الْكَذِبِ وَالْبُهْتِ وَالافْتِرَاءِ ﴿ عُصْبَةٌ ﴾ أَيْ جَمَاعَةٌ مِنكُمْ ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ﴾ أَيْ : يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ ﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لِسَانُ صِدْقٍ فِي الدُّنْيَا ، وَرِفْعَةُ مَنَازِلَ فِي الْآخِرَةِ ، وَإِظْهَارُ شَرَفٍ لَهُمْ بِاعْتِنَاءِ اللهِ تَعَالَى بِعَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - حَيْثُ أَنْزَلَ اللهُ بَرَاءَتَهَا فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت : ٤٢] ، **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾ أَيْ : لِكُلِّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ وَرَمَى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - بِشَيْءٍ مِنَ الْفَاحِشَةِ نَصِيبٌ عَظِيمٌ مِنَ الْعَذَابِ ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ **قِيلَ** : ابْتَدَأَ بِهِ ، **وَقِيلَ** : الَّذِي كَانَ يَجْمَعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ وَيُذِيعُهُ وَيُشِيعُهُ ﴿ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ ابْنِ سَلُولٍ - قَبَّحَهُ اللهُ وَلَعَنَهُ - .

لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾

هَذَا تَأْدِيبٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فِي قِصَّةِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - حِينَ أَفَاضَ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ الْكَلَام السُّوء، وَمَا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِ الإِفْكِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّوْلَآ﴾ يَعْنِي: هَلَّا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أَيْ: ذَلِكَ الْكَلَامَ الَّذِي رُمِيَتْ بِهِ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أَيْ قَاسُوا ذَلِكَ الْكَلَامَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَإِنْ كَانَ لَا يَلِيقُ بِهِمْ فَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى بِالْبَرَاءَةِ مِنْهُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إِلَخْ، أَيْ، هَلَّا ظَنُّوا الْخَيْرَ، فَإِنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلُهُ وَأَوْلَى بِهِ، هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْبَاطِنِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَالُوا۟﴾ أَيْ: بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أَيْ: كَذِبٌ ظَاهِرٌ عَلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - فَإِنَّ الَّذِي وَقَعَ لَمْ يَكُنْ رِيبَةً، وَذَلِكَ أَنَّ مَجِيءَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَاكِبَةٌ جَهْرَةً عَلَى رَاحِلَةِ صَفْوَانَ بْنِ الْمُعَطَّلِ فِي وَقْتِ الظَّهِيرَةِ، وَالْجَيْشُ بِكَمَالِهِ يُشَاهِدُونَ ذَلِكَ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِيهِ رِيبَةٌ لَمْ يَكُنْ هَذَا جَهْرَةً، وَلَا كَانَا يَقْدَمَانِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ، بَلْ كَانَ هَذَا يَكُونُ لَوْ قُدِّرَ خُفْيَةً مَسْتُورًا، فَتَعَيَّنَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ أَهْلُ الإِفْكِ مِمَّا رَمَوْا بِهِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الْكَذِبُ الْبَحْتُ، وَالْقَوْلُ الزُّورُ، وَالرُّعُونَةُ الْفَاحِشَةُ، الْفَاجِرَةُ، وَالصَّفْقَةُ الْخَاسِرَةُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَّوْلَا﴾ أَيْ: هَلَّا ﴿جَآءُو عَلَيْهِ﴾ أَيْ: عَلَى مَا قَالُوهُ: ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يَشْهَدُونَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءُوا بِهِ ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أَيْ: فِي حُكْمِ اللهِ كَاذِبُونَ فَاجِرُونَ.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أَيُّهَا الْخَائِضُونَ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ، بِأَنْ قَبِلَ تَوْبَتَكُمْ وَإِنَابَتَكُمْ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَعَفَا عَنْكُمْ لِإِيمَانِكُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ مِنْ قَضِيَّةِ الإِفْكِ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وَهَذَا فِيمَنْ عِنْدَهُ إِيمَانٌ يَقْبَلُ اللهُ بِسَبَبِهِ التَّوْبَةَ، كَمِسْطَحٍ وَحَسَّانَ وَحَمْنَةَ بِنْتِ جَحْشٍ أُخْتِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، فَأَمَّا مَنْ خَاضَ فِيهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيِّ ابْنِ سَلُولٍ وَأَضْرَابِهِ فَلَيْسَ أُولَئِكَ مُرَادِينَ فِي هَذِهِ

الْآيَة ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مَا يُعَادِلُ هَذَا وَلَا مَا يُعَارِضُهُ ، وَهَكَذَا شَأْنُ مَا يَرِدُ مِنَ الْوَعِيدِ عَلَى فِعْلٍ مُعَيَّنٍ يَكُونُ مُطْلَقًا مَشْرُوطًا بِعَدَمِ التَّوْبَةِ أَوْ مَا يُقَابِلُهُ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ يُوَازِنُهُ أَوْ يُرَجَّحُ عَلَيْهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أَيْ : يَرْوِيهِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ ، يَقُولُ هَذَا سَمِعْتُهُ مِنْ فُلَانٍ ، وَقَالَ فُلَانٌ كَذَا وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ كَذَا . ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أَيْ : تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : تَقُولُونَ مَا تَقُولُونَ فِي شَأْنِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَحْسَبُونَ ذَلِكَ يَسِيرًا سَهْلًا ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ زَوْجَةُ النَّبِيِّ ﷺ لَمَا كَانَ هَيِّنًا ، فَكَيْفَ وَهِيَ زَوْجَةُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ؟ فَعَظِيمٌ عِنْدَ اللهِ أَنْ يُقَالَ فِي زَوْجَةِ نَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مَا قِيلَ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَغَارُ لِهَذَا ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُقَدِّرُ عَلَى زَوْجَةِ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ذَلِكَ ، حَاشَا وَكَلَّا ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا فِي سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَزَوْجَةِ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ .

وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

هَذَا تَأْدِيبٌ آخَرُ بَعْدَ الْأَوَّلِ الْأَمْرُ بِالظَّنِّ خَيْرًا أَيْ : إِذَا ذُكِرَ مَا لَا يَلِيقُ مِنَ الْقَوْلِ فِي شَأْنِ الْخِيَرَةِ فَأَوْلَى يَنْبَغِي الظَّنُّ بِهِمْ خَيْرًا . وَأَنْ لَا يُشْعِرَ نَفْسَهُ سِوَى ذَلِكَ ، ثُمَّ إِنْ عَلِقَ بِنَفْسِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ – وَسْوَسَةً أَوْ خَيَالًا – فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ تَعَالَى تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ** » ، **وَقَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾ أَيْ : مَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَفَوَّهَ بِهَذَا الْكَلَامِ وَلَا نَذْكُرَهُ لِأَحَدٍ ﴿ سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : سُبْحَانَ اللهِ أَنْ يُقَالَ هَذَا الْكَلَامُ عَلَى زَوْجَةِ رَسُولِهِ وَحَلِيلَةِ خَلِيلِهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ أَيْ : يَنْهَاكُمُ اللهُ مُتَوَعِّدًا أَنْ يَقَعَ مِنْكُمْ مَا يُشْبِهُ هَذَا ﴿ أَبَدًا ﴾ ، أَيْ : فِيمَا يُسْتَقْبَلُ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَشَرْعِهِ وَتُعَظِّمُونَ رَسُولَهُ ﷺ ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُتَّصِفًا بِالْكُفْرِ فَلَهُ حُكْمٌ آخَرُ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ أَيْ : يُوَضِّحُ لَكُمُ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ وَالأَحْكَامَ الْقَدَرِيَّةَ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِمَا يُصْلِحُ عِبَادَهُ ، حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا

وَٱلْأَخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

هَذَا تَأْدِيبٌ ثَالِثٌ لِمَنْ سَمِعَ شَيْئًا مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ فَقَامَ بِذِهْنِهِ شَيْءٌ مِنْهُ وَتَكَلَّمَ بِهِ ، فَلَا يُكْثِرُ مِنْهُ وَلَا يُشِيعُهُ وَيُذِيعُهُ ،فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أَيْ : يَخْتَارُونَ ظُهُورَ الْكَلَامِ عَنْهُمْ بِالْقَبِيحِ ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : بِالْحَدِّ ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : فَرُدُّوا الْأُمُورَ إِلَيْهِ تَرْشُدُوا .

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : لَوْلَا هَذَا لَكَانَ أَمْرٌ آخَرُ ، وَلَكِنَّهُ - تَعَالَى - رَءُوفٌ بِعِبَادِهِ رَحِيمٌ بِهِمْ ، فَتَابَ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، وَطَهَّرَ مَنْ طَهُرَ مِنْهُمْ بِالْحَدِّ الَّذِي أُقِيمَ عَلَيْهِمْ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ يَعْنِي : طَرَائِقَهُ وَمَسَالِكَهُ وَمَا يَأْمُرُ بِهِ ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ هَذَا تَنْفِيرٌ وَتَحْذِيرٌ مِنْ ذَلِكَ بِأَفْصَحِ عِبَارَةٍ وَأَبْلَغِهَا وَأَوْجَزِهَا وَأَحْسَنِهَا ، ﴿ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ : نَزَغَاتُهُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : كُلُّ مَعْصِيَةٍ فَهِيَ مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ أَيْ : لَوْلَا هُوَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ التَّوْبَةَ وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ ، وَيُزَكِّي النُّفُوسَ مِنْ شِرْكِهَا وَفُجُورِهَا وَدَنَسِهَا وَمَا فِيهَا مِنْ أَخْلَاقٍ رَدِيئَةٍ ، كُلٌّ بِحَسَبِهِ ، لَمَا حَصَّلَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ زَكَاةً وَلَا خَيْرًا ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : مِنْ خَلْقِهِ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُرْدِيهِ فِي مَهَالِكِ الضَّلَالِ وَالْغَيِّ ، ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أَيْ : سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْهُمُ الْهُدَى وَالضَّلَالَ .

وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ مِنَ الْأَلِيَةِ وَهِيَ الْحَلِفُ ، أَيْ : لَا يَحْلِفُ ﴿ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ أَيْ : الطَّوْلِ وَالصَّدَقَةِ وَالْإِحْسَانِ ﴿ وَٱلسَّعَةِ ﴾ أَيْ : الْجِدَّةِ ﴿ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لَا تَحْلِفُوا أَنْ لَا تَصِلُوا قَرَابَاتِكُمُ الْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ،

وَهَذَا فِي غَايَةِ التَّرَفُّقِ وَالْعَطْفِ عَلَى صِلَةِ الْأَرْحَامِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ﴾ أَيْ : عَمَّا تَقَدَّمَ مِنْهُمْ مِنَ الْإِسَاءَةِ وَالْأَذَى . وَهَذَا مِنْ حِلْمِهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ وَلُطْفِهِ بِخَلْقِهِ مَعَ ظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي الصِّدِّيقِ ﷺ حِينَ حَلَفَ أَنْ لَا يَنْفَعَ مِسْطَحَ بْنَ أُثَاثَةَ بِنَافِعَةٍ أَبَدًا ، بَعْدَمَا قَالَ فِي عَائِشَةَ مَا قَالَ ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ بَرَاءَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ ، وَطَابَتِ النُّفُوسُ الْمُؤْمِنَةُ وَاسْتَقَرَّتْ ، وَتَابَ اللهُ عَلَى مَنْ كَانَ تَكَلَّمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ ، وَأُقِيمَ الْحَدُّ عَلَى مَنْ أُقِيمَ عَلَيْهِ ، شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَلَهُ الْفَضْلُ وَالْمِنَّةُ - يُعَطِّفُ الصِّدِّيقَ عَلَى قَرِيبِهِ وَنَسِيبِهِ - وَهُوَ مِسْطَحُ ابْنُ أُثَاثَةَ - فَإِنَّهُ كَانَ ابْنُ خَالَةِ الصِّدِّيقِ ، وَكَانَ مِسْكِينًا لَا مَالَ لَهُ ، إِلَّا مَا يُنْفِقُ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ ﷺ ، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَقَدْ وَلِقَ وَلْقَةً تَابَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْهَا ، وَضُرِبَ الْحَدُّ عَلَيْهَا . وَكَانَ الصِّدِّيقُ ﷺ مَعْرُوفًا بِالْمَعْرُوفِ ، لَهُ الْفَضْلُ وَالْأَيَادِي عَلَى الْأَقَارِبِ وَالْأَجَانِبِ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الْآيَةَ ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، فَكَمَا تَغْفِرُ ذَنْبَ مَنْ أَذْنَبَ إِلَيْكَ يَغْفِرُ اللهُ لَكَ ، وَكَمَا تَصْفَحُ يُصْفَحُ عَنْكَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ الصِّدِّيقُ : بَلَى وَاللهِ إِنَّا نُحِبُّ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا يَا رَبَّنَا ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ مَا كَانَ يَصِلُهُ مِنَ النَّفَقَةِ ، وَقَالَ : وَاللهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا ، فِي مُقَابَلَةِ مَا كَانَ قَالَ : وَاللهِ لَا أَنْفَعُهُ بِنَافِعَةٍ أَبَدًا . فَلِهَذَا كَانَ الصِّدِّيقُ هُوَ الصِّدِّيقُ ﷺ وَعَنْ بِنْتِهِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

هَذَا وَعِيدٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ، خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ ، فَأُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى بِالدُّخُولِ فِي هَذَا مِنْ كُلِّ مُحْصَنَةٍ ، وَلَا سِيَّمَا الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ النُّزُولِ وَهِيَ عَائِشَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ - رَحِمَهُمُ اللهُ - قَاطِبَةً عَلَى أَنَّ مَنْ سَبَّهَا بَعْدَ هَذَا وَرَمَاهَا بِمَا رَمَاهَا بِهِ بَعْدَ هَذَا الَّذِي ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، فَإِنَّهُ كَافِرٌ ؛ لِأَنَّهُ مُعَانِدٌ لِلْقُرْآنِ ، وَفِي بَقِيَّةِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ قَوْلَانِ : أَصَحُّهُمَا أَنَّهُنَّ كَهِيَ وَاللهُ أَعْلَمُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾ أَيْ حِسَابَهُمْ ، وَكُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ دِينُهُمْ أَيْ : حِسَابُهُمْ . ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ أَيْ : وَعْدُهُ وَوَعِيدُهُ وَحِسَابُهُ هُوَ الْعَدْلُ الَّذِي لَا جَوْرَ فِيهِ .

ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ العُلَمَاءِ : الْخَبِيثَاتُ مِنَ الْقَوْلِ لِلْخَبِيثِينَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَالْخَبِيثُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلْخَبِيثَاتِ مِنَ الْقَوْلِ . وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ الْقَوْلِ لِلطَّيِّبِينَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَالطَّيِّبُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلطَّيِّبَاتِ مِنَ الْقَوْلِ . قَالَوا : وَنَزَلَتْ فِي عَائِشَةَ وَأَهْلِ الإِفْكِ ، فَالْكَلَامُ الْقَبِيحُ أَوْلَى بِأَهْلِ الْقُبْحِ مِنَ النَّاسِ ، وَالْكَلَامُ الطَّيِّبُ أَوْلَى بِالطَّيِّبِينَ مِنَ النَّاسِ ، فَمَا نَسَبَهُ أَهْلُ النِّفَاقِ إِلَى عَائِشَةَ مِنْ كَلَامٍ هُمْ أَوْلَى بِهِ ، وَهِيَ أَوْلَى بِالْبَرَاءَةِ وَالنَّزَاهَةِ مِنْهُمْ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أَيْ : هُمْ بُعَدَاءُ عَمَّا يَقُولُهُ أَهْلُ الإِفْكِ وَالْعُدْوَانِ ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ مَا قِيلَ فِيهِمْ مِنَ الْكَذِبِ ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أَيْ : عِنْدَ اللهِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، وَفِيهِ وَعْدٌ بِأَنْ تَكُونَ زَوْجَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْجَنَّةِ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

هَذِهِ آدَابٌ شَرْعِيَّةٌ أَدَّبَ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَذَلِكَ فِي الاسْتِئْذَانِ ، أَمَرَهُمْ أَنْ لَا يَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِهِمْ حَتَّى يَسْتَأْنِسُوا . أَيْ : يَسْتَأْذِنُوا قَبْلَ الدُّخُولِ وَيُسَلِّمُوا بَعْدَهُ ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَأْذِنَ ثَلَاثًا فَإِنْ أُذِنَ لَهُ وَإِلَّا انْصَرَفَ . **ثُمَّ لِيُعْلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُسْتَأْذِنِ عَلَى أَهْلِ الْمَنْزِلِ أَنْ لَا يَقِفَ تِلْقَاءَ الْبَابِ بِوَجْهِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يَعْنِي : الاسْتِئْذَانُ خَيْرٌ لَكُمْ ، بِمَعْنَى هُوَ خَيْرٌ مِنَ الطَّرَفَيْنِ لِلْمُسْتَأْذِنِ وَلِأَهْلِ الْبَيْتِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ . وقولُهُ : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ وَذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي مُلْكِ الْغَيْرِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ ، فَإِنْ شَاءَ أَذِنَ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَأْذَنْ ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ أَيْ : إِذَا رَدُّوكُمْ مِنَ الْبَابِ قَبْلَ الإِذْنِ أَوْ بَعْدَهُ ﴿ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ أَيْ : رُجُوعُكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ **وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ﴾ : أَيْ : لَا تَقِفُوا عَلَى أَبْوَابِ النَّاسِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ هَذِهِ الآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَخَصُّ مِنَ الَّتِي قَبْلَهَا ، وَذَلِكَ أَنَّهَا تَقْتَضِي جَوَازَ الدُّخُولِ إِلَى الْبُيُوتِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ ، إِذَا كَانَ لَهُ مَتَاعٌ فِيهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ ، كَالْبَيْتِ الْمُعَدِّ لِلضَّيْفِ إِذَا أُذِنَ لَهُ فِيهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ كَفَى . **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : هِيَ بُيُوتُ التُّجَّارِ

كَالْخَانَاتِ ، وَمَنَازِلِ الْأَسْفَارِ ، وَبُيُوتِ مَكَّةَ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ .

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ عَمَّا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ ، فَلَا يَنْظُرُوا إِلَّا إِلَى مَا أَبَاحَ لَهُمُ النَّظَرَ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يُغْمِضُوا أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْمَحَارِمِ ، فَإِنِ اتَّفَقَ أَنْ وَقَعَ الْبَصَرُ عَلَى مُحَرَّمٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ فَلْيَصْرِفْ بَصَرَهُ عَنْهُ سَرِيعًا . **عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ** ﷺ **قَالَ** : سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ نَظْرَةِ الْفَجْأَةِ ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي ، وَلَمَّا كَانَ النَّظَرُ دَاعِيَةً إِلَى فَسَادِ الْقَلْبِ ، **كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : النَّظَرُ سَهْمٌ سُمٌّ إِلَى الْقَلْبِ . وَلِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ بِحِفْظِ الْفُرُوجِ كَمَا أَمَرَ بِحِفْظِ الْأَبْصَارِ الَّتِي هِيَ بَوَاعِثُ إِلَى ذَلِكَ **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ﴾ وَحِفْظُ الْفَرْجِ تَارَةً يَكُونُ بِمَنْعِهِ مِنَ الزِّنَا ، وَتَارَةً يَكُونُ بِحِفْظِهِ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ أَيْ : أَطْهَرُ لِقُلُوبِهِمْ وَأَتْقَى لِدِينِهِمْ ، **كَمَا قِيلَ** : مَنْ حَفِظَ بَصَرَهُ أَوْرَثَهُ اللهُ نُورًا فِي بَصِيرَتِهِ ، وَيُرْوَى : فِي قَلْبِهِ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩]

وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلنِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَغَيْرَةٌ مِنْهُ لِأَزْوَاجِهِنَّ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَمْيِيزٌ لَهُنَّ عَنْ صِفَةِ نِسَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ وَفِعَالِ الْمُشْرِكَاتِ . **فَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾ أَيْ : عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِنَّ مِنَ النَّظَرِ إِلَى غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ **قِيلَ** : عَنِ الْفَوَاحِشِ ، **وَقِيلَ** : عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُنَّ ، **وَقِيلَ** : عَنِ الزِّنَا . ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ أَيْ : لَا يُظْهِرْنَ شَيْئًا مِنَ الزِّينَةِ لِلْأَجَانِبِ ، إِلَّا مَا لَا يُمْكِنُ إِخْفَاؤُهُ ، **قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ** : كَالرِّدَاءِ وَالثِّيَابِ ، يَعْنِي : عَلَى مَا كَانَ يَتَعَاطَاهُ نِسَاءُ

الْعَرَبِ مِنَ الْمِقْنَعَةِ الَّتِي تُجَلِّلُ ثِيَابَهَا ، وَمَا يَبْدُو مِنْ أَسَافِلِ الثِّيَابِ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهَا فِيهِ ؛ لِأَنَّ هَذَا لَا يُمْكِنُهَا إِخْفَاؤُهُ ، وَنَظِيرُهُ فِي زِيِّ النِّسَاءِ مَا يَظْهَرُ مِنْ إِزَارِهَا وَمَا لَا يُمْكِنُ إِخْفَاؤُهُ .

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ قَالَ : وَجْهُهَا وَكَفَّيْهَا وَالْخَاتَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يَعْنِي : الْمَقَانِعُ يُعْمَلُ لَهَا ضيقات ضَارِبَاتٌ عَلَى صُدُورِهِنَّ لِتُوَارِيَ مَا تَحْتَهَا مِنْ صَدْرِهَا وَتَرَائِبِهَا ، لِيُخَالِفْنَ شِعَارَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّهُنَّ لَمْ يَكُنَّ يَفْعَلْنَ ذَلِكَ بَلْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ مِنْهُنَّ تَمُرُّ بَيْنَ الرِّجَالِ مُسَفِّحَةً بِصَدْرِهَا لَا يُوَارِيهِ شَيْءٌ ، وَرُبَّمَا أَظْهَرَتْ عُنُقَهَا وَذَوَائِبَ شَعْرِهَا وَأَقْرِطَةَ آذَانِهَا ، فَأَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنَاتِ أَنْ يَسْتَتِرْنَ فِي هَيْئَاتِهِنَّ وَأَحْوَالِهِنَّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الأحزاب : ٥٩] ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ وَالْخُمُرُ : جَمْعُ خِمَارٍ وَهُوَ مَا يُخَمَّرُ بِهِ ، أَيْ : يُغَطَّى بِهِ الرَّأْسُ ، وَهِيَ الَّتِي تُسَمِّيهَا النَّاسُ الْمَقَانِعَ . قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ ﴾ وَلْيَشْدُدْنَ ﴿ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يَعْنِي : عَلَى النَّحْرِ وَالصَّدْرِ فَلَا يُرَى مِنْهُ شَيْءٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ أَيْ : أَزْوَاجِهِنَّ ﴿ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ ﴾ كُلُّ هَؤُلَاءِ مَحَارِمُ لِلْمَرْأَةِ يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَظْهَرَ عَلَيْهِمْ بِزِينَتِهَا وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ تَبَرُّجٍ . ﴿ أَوْ نِسَآئِهِنَّ ﴾ يَعْنِي : تَظْهَرُ بِزِينَتِهَا أَيْضًا لِلنِّسَاءِ الْمُسْلِمَاتِ دُونَ نِسَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ ؛ لِئَلَّا تَصِفْهُنَّ لِرِجَالِهِنَّ ، وَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ مَحْذُورًا فِي جَمِيعِ النِّسَاءِ إِلَّا أَنَّهُ فِي نِسَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ أَشَدُّ ، فَإِنَّهُنَّ لَا يَمْنَعُهُنَّ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ ، فَأَمَّا الْمُسْلِمَةُ فَإِنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ فَتَنْزَجِرُ عَنْهُ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لَا تُبَاشِرُ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ ، تَنْعَتُهَا لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا** » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَعْنِي مِنْ نِسَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، فَيَجُوزُ لَهَا أَنْ تُظْهِرَ زِينَتَهَا لَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ مُشْرِكَةً ؛ لِأَنَّهَا أَمَتُهَا ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ . وَقَالَ الْأَكْثَرُونَ : بَلْ يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَظْهَرَ عَلَى رَقِيقِهَا مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ ﴾ يَعْنِي : كَالْأُجَرَاءِ وَالْأَتْبَاعِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِأَكْفَاءٍ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي عُقُولِهِمْ وَلَهٌ وَخَوَثٌ ، وَلَا هَمَّ لَهُمْ إِلَى النِّسَاءِ وَلَا يَشْتَهُونَهُنَّ ، وَقِيلَ : هُوَ الْمُغَفَّلُ الَّذِي لَا شَهْوَةَ لَهُ ، وَقِيلَ : هُوَ الْأَبْلَهُ ، وَقِيلَ : هُوَ الْمُخَنَّثُ الَّذِي لَا يَقُومُ ذَكَرُهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ يَعْنِي : لِصِغَرِهِمْ لَا يَفْهَمُونَ أَحْوَالَ النِّسَاءِ وَعَوْرَاتِهِنَّ مِنْ كَلَامِهِنَّ الرَّخِيمِ ، وَتَعَطُّفِهِنَّ فِي الْمِشْيَةِ ، وَحَرَكَاتِهِنَّ وَسَكَنَاتِهِنَّ ، فَإِذَا كَانَ الطِّفْلُ صَغِيرًا لَا يَفْهَمُ ذَلِكَ فَلَا بَأْسَ بِدُخُولِهِ عَلَى النِّسَاءِ ، فَأَمَّا إِنْ كَانَ

مُرَاهِقًا أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ ، بِحَيْثُ يَعْرِفُ ذَلِكَ وَيَدْرِيه وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الشَّوْهَاءِ وَالْحَسْنَاءِ فَلَا يُمَكَّنُ مِنَ الدُّخُولِ عَلَى النِّسَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ الْآيَةُ . كَانَتِ الْمَرْأَةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا كَانَتْ تَمْشِي فِي الطَّرِيقِ وَفِي رِجْلِهَا خَلْخَالٌ صَامِتٌ لَا يُعْلَمُ صَوْتُهُ ، ضَرَبَتْ بِرِجْلِهَا الْأَرْضَ فَيَسْمَعُ الرِّجَالُ طَنِينَهُ ، فَنَهَى اللهُ الْمُؤْمِنَاتِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ زِينَتِهَا مَسْتُورًا فَتَحَرَّكَتْ بِحَرَكَةٍ لِتُظْهِرَ مَا هُوَ خَفِيٌّ دَخَلَ فِي هَذَا النَّهْيِ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ إِلَى آخِرِهِ .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا تَنْتَهِي عَنِ التَّعَطُّرِ وَالتَّطَيُّبِ عِنْدَ خُرُوجِهَا مِنْ بَيْتِهَا لِيَشْتَمَّ الرِّجَالُ طِيبَهَا . عَنِ أَبِي مُوسَى ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ ، وَالْمَرْأَةُ إِذَا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا** » يَعْنِي زَانِيَةٌ . ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : افْعَلُوا مَا آمُرُكُمْ بِهِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْجَلِيلَةِ ، وَاتْرُكُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ الرَّذِيلَةِ ، فَإِنَّ الْفَلَاحَ كُلَّ الْفَلَاحِ فِي فِعْلِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ، وَتَرْكُ مَا نَهَيَا عَنْهُ وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الْمُسْتَعَانُ .

وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ الْمُبِينَةُ عَلَى جُمَلٍ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُحْكَمَةِ وَالْأَوَامِرِ الْمُبْرَمَةِ ، **فَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾ إِلَى آخِرِهِ هَذَا أَمْرٌ بِالتَّزْوِيجِ . وَقَدْ ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى وُجُوبِهِ عَلَى كُلِّ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ ، وَاحْتَجُّوا بِظَاهِرِ قَوْلِهِ ﷺ « **تَزَوَّجُوا الْوَلُودَ ، تَنَاسَلُوا فَإِنِّي مُبَاهٍ بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** » ، وَ ﴿ ٱلْأَيَـٰمَىٰ ﴾ جَمْعُ أَيِّم ، وَيُقَالُ ذَلِكَ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي لَا زَوْجَ لَهَا ، وَلِلرَّجُلِ الَّذِي لَا زَوْجَةَ لَهُ ، وَسَوَاءٌ كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ ثُمَّ فَارَقَ أَوْ لَمْ يَتَزَوَّجْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى

لِمَنْ لَا يَجِدُ تَزْوِيجًا بِالتَّعَفُّفِ عَنِ الْحَرَامِ ، كَمَا قَالَ ﷺ : ((**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلسَّادَةِ ، إِذَا طَلَبَ عَبِيدُهُمْ مِنْهُمُ الْكِتَابَةَ أَنْ يُكَاتِبُوهُمْ ، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ لِلْعَبْدِ حِيلَةٌ وَكَسْبٌ يُؤَدِّي إِلَى سَيِّدِهِ الْمَالَ الَّذِي شَارَطَهُ عَلَى أَدَائِهِ ، **وَقَدْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى** : أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَمْرُ إِرْشَادٍ وَاسْتِحْبَابٍ لَا أَمْرَ تَحَتُّمٍ وَإِيجَابٍ ، بَلِ السَّيِّدُ مُخَيَّرٌ . **وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى** : أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى السَّيِّدِ إِذَا طَلَبَ مِنْهُ عَبْدُهُ ذَلِكَ أَنْ يُجِيبَهُ إِلَى مَا طَلَبَ أَخْذًا بِظَاهِرِ هَذَا الْأَمْرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : أَمَانَةً ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : صِدْقًا ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : مَالًا ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : حِيلَةً وَكَسْبًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ **اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِيهِ** : **فَقَالَ بَعْضُهُمْ** : مَعْنَاهُ اطْرَحُوا لَهُمْ مِنَ الْكِتَابَةِ بَعْضَهَا ، **ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ** : مِقْدَارُ الرُّبْعِ ، **وَقِيلَ** : الثُّلُثُ ، **وَقِيلَ** : النِّصْفُ ، **وَقِيلَ** : جُزْءٌ مِنَ الْكِتَابَةِ مِنْ غَيْرِ حَدٍّ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : بَلِ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ هُوَ النَّصِيبُ الَّذِي فَرَضَ اللهُ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِ الزَّكَاةِ ، **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ** ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ **قَالَ** : ضَعُوا عَنْهُمْ مُكَاتَبَتَهُمْ وَبِهَذَا قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ ﴾ **يَعْنِي** : الزِّنَا . وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا كَانَ لِأَحَدِهِمْ أَمَةٌ أَرْسَلَهَا تَزْنِي ، وَجَعَلَ عَلَيْهَا ضَرِيبَةً يَأْخُذُهَا مِنْهَا كُلَّ وَقْتٍ ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ نَهَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ ذَلِكَ ، وَكَانَ سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فِي شَأْنِ عَبْدِ اللهِ ابْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ . **عَنْ جَابِرٍ قَالَ** : كَانَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيِّ ابْنِ سَلُولٍ جَارِيَةٌ يُقَالُ لَهَا : مُسَيْكَةُ ، وَكَانَ يُكْرِهُهَا عَلَى الْبِغَاءِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ هَذَا خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ . ﴿ لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ **أَيْ** : مِنْ خَرَاجِهِنَّ وَمُهُورِهِنَّ وَأَوْلَادِهِنَّ ، **وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ كَسْبِ الْحَجَّامِ ، وَمَهْرِ الْبَغِيِّ ، وَحُلْوَانِ الْكَاهِنِ** .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ **أَيْ** : لَهُنَّ ، **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : فَإِنْ فَعَلْتُمْ فَإِنَّ اللهَ لَهُنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، وَإِثْمُهُنَّ عَلَى مَنْ أَكْرَهَهُنَّ . وَلَمَّا فَصَّلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذِهِ الْأَحْكَامَ وَبَيَّنَهَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ **يَعْنِي** : الْقُرْآنَ فِي آيَاتٍ وَاضِحَاتٍ مُفَسِّرَاتٍ ﴿ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ **أَيْ** : خَبَرًا عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ فِي مُخَالَفَتِهِمْ أَوَامِرَ اللهِ تَعَالَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٦]

أَيْ : زَاجِرًا عَنِ ارْتِكَابِ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : لِمَنِ اتَّقَى اللهَ وَخَافَهُ .

۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قَالَ : هَادِي أَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، **وَقِيلَ** : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فِيهِمَا ، نُجُومَهُمَا وَشَمْسَهُمَا وَقَمَرَهُمَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ فِي هَذَا الضَّمِيرِ قَوْلَانِ : **أَحَدُهُمَا** : أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى اللهِ ﷻ أَيْ : مَثَلُ هُدَاهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ - قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ - كَمِشْكَاةٍ . **وَالثَّانِي** : أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ إِلَى الْمُؤْمِنِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ ، تَقْدِيرُهُ : مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ كَمِشْكَاةٍ ، فَشَبَّهَ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ وَمَا هُوَ مَفْطُورٌ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى وَمَا يَتَلَقَّاهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْمُطَابِقِ لِمَا هُوَ مَفْطُورٌ عَلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾[هود : ١٧] فَشَبَّهَ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ فِي صَفَائِهِ فِي نَفْسِهِ بِالْقِنْدِيلِ مِنَ الزُّجَاجِ الشَّفَّافِ الْجَوْهَرِيِّ ، وَمَا يَسْتَهْدِيهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالشَّرْعِ بِالزَّيْتِ الْجَيِّدِ الصَّافِي الْمُشْرِقِ الْمُعْتَدِلِ الَّذِي لَا كَدَرَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ ، فَقَوْلُهُ : ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : هُوَ مَوْضِعُ الْفَتِيلَةِ مِنَ الْقِنْدِيلِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ وَهُوَ النُّورُ الَّذِي فِي الذُّبَالَةِ . ﴿ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾ أَيْ : هَذَا الضَّوْءُ مُشْرِقٌ فِي زُجَاجَةٍ صَافِيَةٍ ، **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : وَهِيَ نَظِيرُ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ . ﴿ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ **أَيْ** : كَوْكَبٌ مُضِيءٌ ، مُبِينٌ ضَخْمٌ ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ أَيْ : يُسْتَمَدُّ مِنْ زَيْتِ زَيْتُونِ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ بَدَلٌ أَوْ عَطْفُ بَيَانٍ ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَتْ فِي شَرْقِيِّ بُقْعَتِهَا فَلَا تَصِلُ إِلَيْهَا الشَّمْسُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ ، وَلَا فِي غَرْبِهَا فَيُقَلَّصُ عَنْهَا الْفَيْءُ قَبْلَ الْغُرُوبِ ، بَلْ هِيَ فِي مَكَانٍ وَسَطٍ تَفْرَعُهَا الشَّمْسُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ ، إِلَى آخِرِهِ ، فَيَجِيءُ زَيْتُهَا صَافِيًا مُعْتَدِلًا مُشْرِقًا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ يَعْنِي : كَضَوْءِ إِشْرَاقِ الزَّيْتِ . ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ **قِيلَ** : فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي خَمْسَةٍ مِنَ النُّورِ : فَكَلَامُهُ نُورٌ ، وَعَمَلُهُ نُورٌ ، وَمَدْخَلُهُ نُورٌ ، وَمَخْرَجُهُ نُورٌ ، وَمَصِيرُهُ إِلَى النُّورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ . **وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ قَالَ : نُورُ النَّارِ وَنُورُ الزَّيْتِ حِينَ اجْتَمَعَا أَضَاءَا ، وَلَا يُضِيءُ وَاحِدٌ بِغَيْرِ صَاحِبِهِ ، كَذَلِكَ نُورُ الْقُرْآنِ وَنُورُ الْإِيمَانِ حِينَ اجْتَمَعَا ، فَلَا يَكُونُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا إِلَّا بِصَاحِبِهِ . ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : يُرْشِدُ اللهُ إِلَى هِدَايَتِهِ مَنْ

يَخْتَارُهُ . وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى هَذَا مَثَلًا لِنُورِ هُدَاهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ خَتَمَ الْآيَةَ **بِقَوْلِهِ**: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ .

فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

لَمَّا ضَرَبَ اللهُ تَعَالَى مَثَلَ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ بِالْمِصْبَاحِ فِي الزُّجَاجَةِ الصَّافِيَةِ الْمُتَوَقِّدِ مِنْ زَيْتٍ طَيِّبٍ ، وَذَلِكَ كَالْقِنْدِيلِ مَثَلًا ، ذَكَرَ مَحَلَّهَا وَهِيَ الْمَسَاجِدُ الَّتِي هِيَ أَحَبُّ الْبِقَاعِ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ الْأَرْضِ وَهِيَ بُيُوتُهُ الَّتِي يُعْبَدُ فِيهَا وَيُوَحَّدُ ، **فَقَالَ تَعَالَى**: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ أَيْ : أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِتَعَاهُدِهَا وَتَطْهِيرِهَا مِنَ الدَّنَسِ وَاللَّغْوِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي لَا تَلِيقُ فِيهَا . ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ أَيْ : اسْمُ اللهِ ، **وَقِيلَ** : يَعْنِي : يُتْلَى فِيهَا كِتَابُهُ . ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ أَيْ : فِي الْبُكُرَاتِ وَالْعَشِيَّاتِ . وَالْآصَالُ : جَمْعُ أَصِيلٍ وَهُوَ آخِرُ النَّهَارِ . **وَقِيلَ** : يَعْنِي بِالْغُدُوِّ : صَلَاةَ الْغَدَاةِ ، وَيَعْنِي بِالْآصَالِ : صَلَاةَ الْعَصْرِ ، وَهُمَا أَوَّلُ مَا افْتَرَضَ اللهُ مِنَ الصَّلَاةِ فَأَحَبَّ أَنْ يَذْكُرَهُمَا وَأَنْ يُذَكِّرَ بِهِمَا عِبَادَهُ . ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ رِجَالٌ ﴾ فِيهِ إِشْعَارٌ بِهِمَمِهِمُ السَّامِيَةِ ، وَنِيَّاتِهِمْ وَعَزَائِمِهِمُ الْعَالِيَةِ ، الَّتِي بِهَا صَارُوا عُمَّارًا لِلْمَسَاجِدِ الَّتِي هِيَ بُيُوتُ اللهِ فِي أَرْضِهِ وَمَوَاطِنِ عِبَادَتِهِ وَشُكْرِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَتَنْزِيهِهِ . وَأَمَّا النِّسَاءُ فَصَلَاتُهُنَّ فِي بُيُوتِهِنَّ أَفْضَلُ . عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون : ٩]، **يَقُولُ تَعَالَى** : لَا تَشْغَلُهُمُ الدُّنْيَا وَزُخْرُفُهَا وَزِينَتُهَا وَمَلَاذُّ بَيْعِهَا وَرِبْحِهَا عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ ، الَّذِي هُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ ، وَالَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي عِنْدَهُ هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ وَأَنْفَعُ مِمَّا بِأَيْدِيهِمْ ؛ لِأَنَّ مَا عِنْدَهُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ أَيْ : يُقَدِّمُونَ طَاعَتَهُ وَمُرَادَهُ وَمَحَبَّتَهُ عَلَى مُرَادِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ ، **وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : لَا تُلْهِيهِمُ التِّجَارَةُ وَالْبَيْعُ أَنْ يَأْتُوا الصَّلَاةَ فِي وَقْتِهَا . ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أَيْ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ، أَيْ : مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ وَعَظَمَةِ الْأَهْوَالِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ أَيْ : هَـٰؤُلَاءِ مِنَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ حَسَنَاتِهِمْ وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ، ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ أَيْ : يَتَقَبَّلُ مِنْهُمُ الْحَسَنَ وَيُضَاعِفُهُ لَهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾[الأنعام : ١٦٠] ، وَقَالَ : ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾[البقرة : ٢٦١] ، **وَقَالَ هَهُنَا** ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

هَذَانِ مَثَلَانِ ضَرَبَهُمَا اللهُ تَعَالَى لِنَوْعَي الْكُفَّارِ . **فَأَمَّا الْأَوَّلُ مِنْ هَذَيْنِ الْمَثَلَيْنِ** فَهُوَ لِلْكُفَّارِ الدُّعَاةِ إِلَى كُفْرِهِمْ ، الَّذِينَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالاعْتِقَادَاتِ وَلَيْسُوا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ عَلَى شَيْءٍ ، فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَالسَّرَابِ الَّذِي يُرَى فِي الْقِيعَانِ مِنَ الْأَرْضِ عَنْ بُعْدٍ كَأَنَّهُ بَحْرٌ طَامٌّ ، وَالْقِيعَةُ جَمْعُ قَاعٍ كَجَارٍ وَجِيرَةٍ ، وَالْقَاعُ أَيْضًا وَاحِدُ الْقِيعَانِ ، كَمَا يُقَالُ : جَارٌ وَجِيرَانٌ ، وَهِيَ الْأَرْضُ الْمُسْتَوِيَةُ الْمُتَّسِعَةُ الْمُنْبَسِطَةُ ، وَفِيهِ يَكُونُ السَّرَابُ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بَعْدَ نِصْفِ النَّهَارِ ، وَأَمَّا الْآلُ فَإِنَّمَا يَكُونُ أَوَّلَ النَّهَارِ يُرَى كَأَنَّهُ مَاءٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَإِذَا رَأَى السَّرَابَ مَنْ هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْمَاءِ يَحْسَبُهُ مَاءً قَصَدَهُ لِيَشْرَبَ مِنْهُ ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ فَكَذَلِكَ الْكَافِرُ يَحْسَبُ أَنَّهُ قَدْ عَمِلَ عَمَلًا وَأَنَّهُ قَدْ حَصَّلَ شَيْئًا ، فَإِذَا وَافَى اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَحَاسَبَهُ عَلَيْهَا وَنُوقِشَ عَلَى أَفْعَالِهِ لَمْ يَجِدْ لَهُ شَيْئًا بِالْكُلِّيَّةِ قَدْ قُبِلَ ، إِمَّا لِعَدَمِ الْإِخْلَاصِ أَوْ لِعَدَمِ سُلُوكِ الشَّرْعِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[الفرقان : ٢٣] ، **وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ ، وَهَذَا الْمَثَلُ مَثَلٌ لِذَوِي الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ ، فَأَمَّا أَصْحَابُ الْجَهْلِ الْبَسِيطِ وَهُمُ الطَّمَاطِمُ الْأَغْشَامُ الْمُقَلِّدُونَ لِأَئِمَّةِ الْكُفْرِ ، الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ، فَمَثَلُهُمْ **كَمَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : وَهُوَ الْعَمِيقُ ﴿ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾ أَيْ : لَمْ يُقَارِبْ رُؤْيَتَهَا مِنْ شِدَّةِ الظَّلَامِ ، فَهَذَا مَثَلُ قَلْبِ الْكَافِرِ الْجَاهِلِ الْبَسِيطِ الْمُقَلِّدِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ أَيْنَ يَذْهَبُ وَلَا هُوَ يَعْرِفُ حَالَ مَنْ يَقُودُهُ ، وَلَا يَدْرِي ، بَلْ كَمَا يُقَالُ فِي الْمَثَلِ لِلْجَاهِلِ : أَيْنَ تَذْهَبُ ؟ قَالَ : مَعَهُمْ ، قِيلَ : فَإِلَى أَيْنَ يَذْهَبُونَ ؟ قَالَ : لَا أَدْرِي ؟ .

وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ : الْغِشَاوَةَ

الَّتِي عَلَى الْقَلْبِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَهِيَ كَقَوْلِهِ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً ﴾ [الجاثية : ٢٣] ، **وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي خَمْسَةٍ مِنَ الظُّلَمِ : فَكَلَامُهُ ظُلْمَةٌ ، وَعَمَلُهُ ظُلْمَةٌ ، وَمَدْخَلُهُ ظُلْمَةٌ ، وَمَخْرَجُهُ ظُلْمَةٌ ، وَمَصِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الظُّلُمَاتِ إِلَى النَّارِ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ أَيْ : مَنْ لَمْ يَهْدِهِ اللهُ فَهُوَ هَالِكٌ جَاهِلٌ حَائِرٌ بَائِرٌ كَافِرٌ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾ [الأعراف : ١٨٦] ، وَهَذَا فِي مُقَابَلَةِ مَا قَالَ فِي مَثَلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَ فِي قُلُوبِنَا نُورًا ، وَعَنْ أَيْمَانِنَا نُورًا ، وَعَنْ شَمَائِلِنَا نُورًا ، وَأَنْ يُعْظِمَ لَنَا نُورًا .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنَاسِيِّ وَالْجَانِّ وَالْحَيَوَانِ حَتَّى الْجَمَادِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء : ٤٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ طَيَرَانِهَا تُسَبِّحُ رَبَّهَا وَتَعْبُدُهُ بِتَسْبِيحٍ أَلْهَمَهَا وَأَرْشَدَهَا إِلَيْهِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا هِيَ فَاعِلَةٌ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ أَيْ : كُلٌّ قَدْ أَرْشَدَهُ إِلَى طَرِيقَتِهِ وَمَسْلَكِهِ فِي عِبَادَةِ اللهِ ﷻ . ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، فَهُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ الْإِلَهُ الْمَعْبُودُ ، الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ. ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَيَحْكُمُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ ، فَهُوَ الْخَالِقُ الْمَالِكُ لَهُ الْحُكْمُ فِي الدُّنْيَا وَالْأُخْرَى ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٤﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَسُوقُ السَّحَابَ بِقُدْرَتِهِ أَوَّلَ مَا يُنْشِئُهَا وَهِيَ ضَعِيفَةٌ ، وَهُوَ الْإِزْجَاءُ ﴿ ثُمَّ

يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ﴾ أَيْ : يَجْمَعُهُ بَعْدَ تَفَرُّقِهِ ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ أَيْ : مُتَرَاكِمًا ، أَيْ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾ أَيْ : المَطَرَ ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ أَيْ : مِنْ خُلَلِهِ . ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ قَالَ بَعْضُ النُّحَاةِ (مِنْ) الْأُولَى لابْتِدَاءِ الْغَايَةِ ، وَالثَّانِيَةُ لِلتَّبْعِيضِ ، وَالثَّالِثَةُ لِبَيَانِ الْجِنْسِ ، وَهَذَا إِنَّمَا يَجِيءُ عَلَى قَوْلِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ مَعْنَاهُ : أَنَّ فِي السَّمَاءِ جِبَالُ بَرَدٍ يُنَزِّلُ اللهُ مِنْهَا الْبَرَدَ ، وَأَمَّا مَنْ جَعَلَ الْجِبَالَ هَهُنَا عِبَارَةً كِنَايَةٍ عَنِ السَّحَابِ ، فَإِنَّ « مِنْ » الثَّانِيَةَ عِنْدَ هَذَا لابْتِدَاءِ الْغَايَةِ أَيْضًا ، لَكِنَّهَا بَدَلٌ مِنَ الْأُولَى ، وَاللهُ أَعْلَمُ . ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ ﴾ أَيْ : بِمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ نَوْعَيِ الْمَطَرِ وَالْبَرَدِ فَيَكُونُ قَوْلُهُ : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ رَحْمَةً لَهُمْ ﴿ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : يُؤَخِّرُ عَنْهُمُ الْغَيْثَ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ ﴾ أَيْ : بِالْبَرَدِ نِقْمَةً عَلَى مَنْ يَشَاءُ لِمَا فِيهِ مِنْ نَثْرِ ثِمَارِهِمْ وَإِتْلَافِ زُرُوعِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ ﴿ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾ رَحْمَةً بِهِمْ . ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أَيْ : يَكَادُ ضَوْءُ بَرْقِهِ - مِنْ شِدَّتِهِ - يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ إِذَا اتَّبَعَتْهُ وَتَرَاءَتْهُ . ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أَيْ : يَتَصَرَّفُ فِيهِمَا فَيَأْخُذُ مِنْ طُولِ هَذَا فِي قِصَرِ هَذَا حَتَّى يَعْتَدِلَا ، ثُمَّ يَأْخُذُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا فَيَطُولُ الَّذِي كَانَ قَصِيرًا وَيَقْصُرُ الَّذِي كَانَ طَوِيلًا ، وَاللهُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي ذَلِكَ بِأَمْرِهِ وَقَهْرِهِ وَعِزَّتِهِ وَعِلْمِهِ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أَيْ : لَدَلِيلًا عَلَى عَظَمَتِهِ تَعَالَى .

وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى قُدْرَتَهُ التَّامَّةَ وَسُلْطَانَهُ الْعَظِيمَ فِي خَلْقِهِ أَنْوَاعَ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا وَحَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا مِنْ مَاءٍ وَاحِدٍ ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ ﴾ كَالْحَيَّةِ وَمَا شَاكَلَهَا ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ﴾ كَالْإِنْسَانِ وَالطَّيْرِ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ﴾ كَالْأَنْعَامِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ أَيْ : بِقُدْرَتِهِ لِأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

يُقَرِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنَ الْحِكَمِ وَالْأَمْثَالِ الْبَيِّنَةِ الْمُحْكَمَةِ كَثِيرًا جِدًّا ، وَأَنَّهُ يُرْشِدُ إِلَى تَفَهُّمِهَا وَتَعَقُّلِهَا أُولِي الْأَلْبَابِ وَالْبَصَائِرِ وَالنُّهَى ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ خِلَافَ مَا يُبْطِنُونَ، يَقُولُونَ قَوْلًا بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ: يُخَالِفُونَ أَقْوَالَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ فَيَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ أَيْ: إِذَا طُلِبُوا إِلَى اتِّبَاعِ الْهُدَى فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَاسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أَيْ: وَإِذَا كَانَتِ الْحُكُومَةُ لَهُمْ لَا عَلَيْهِمْ جَاءُوا سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ وَإِذَا كَانَتِ الْحُكُومَةُ عَلَيْهِ أَعْرَضَ وَدَعَا إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَأَحَبَّ أَنْ يَتَحَاكَمَ إِلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ لِيُرَوِّجَ بَاطِلَهُ ثَمَّ، فَإِذْعَانُهُ أَوَّلًا لَمْ يَكُنْ عَنِ اعْتِقَادٍ مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ، بَلْ لِأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِهَوَاهُ، وَلِهَذَا لَمَّا خَالَفَ الْحَقُّ قَصْدَهُ عَدَلَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ يَعْنِي: لَا يَخْرُجُ أَمْرُهُمْ عَنْ أَنْ يَكُونَ فِي الْقُلُوبِ مَرَضٌ لَازِمٌ لَهَا أَوْ قَدْ عَرَضَ لَهَا شَكٌّ فِي الدِّينِ، أَوْ يَخَافُونَ أَنْ يَجُورَ اللهُ وَرَسُولُهُ عَلَيْهِمْ فِي الْحُكْمِ، وَأَيًّا مَا كَانَ فَهُوَ كُفْرٌ مَحْضٌ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِكُلٍّ مِنْهُمْ وَمَا هُوَ مُنْطَوٍ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ. ﴿ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أَيْ: بَلْ هُمُ الظَّالِمُونَ الْفَاجِرُونَ، وَاللهُ وَرَسُولُهُ مُبَرَّآنِ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَمُتَوَهَّمُونَ مِنَ الْحَيْفِ وَالْجَوْرِ، تَعَالَى اللهُ وَرَسُولُهُ عَنْ ذَلِكَ. **ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى** عَنْ صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَجِيبِينَ للهِ وَلِرَسُولِهِ، الَّذِينَ لَا يَبْغُونَ دِينًا سِوَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، **فَقَالَ**: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أَيْ: سَمْعًا وَطَاعَةً، وَلِهَذَا وَصَفَهُمْ تَعَالَى بِالْفَلَاحِ وَهُوَ نَيْلُ الْمَطْلُوبِ وَالسَّلَامَةُ مِنَ الْمَرْهُوبِ، **فَقَالَ تَعَالَى**: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فِيمَا أَمَرَاهُ بِهِ ، وَتَرْكُ مَا نَهَيَاهُ عَنْهُ ، وَيَخْشَ اللهَ فِيمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ وَيَتَّقِهِ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ فَازُوا بِكُلِّ خَيْرٍ وَأَمِنُوا مِنْ كُلِّ شَرٍّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَهْلِ النِّفَاقِ الَّذِينَ كَانُوا يَحْلِفُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ بِالْخُرُوجِ فِي الْغَزْوِ لَيَخْرُجُنَّ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ﴾ أَيْ : لَا تَحْلِفُوا ، ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ طَاعَتُكُمْ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، أَيْ قَدْ عَلِمَ طَاعَتَكُمْ إِنَّمَا هِيَ قَوْلٌ لَا فِعْلَ مَعَهُ ، وَكُلَّمَا حَلَفْتُمْ كَذَبْتُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ﴾ [التوبة : ٩٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ الْآيَةَ . فَهُمْ مِنْ سَجِيَّتِهِمُ الْكَذِبُ حَتَّى فِيمَا يَخْتَارُونَهُ ، وَقِيلَ : الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ : ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ أَيْ : لِيَكُنْ أَمْرُكُمْ طَاعَةً مَعْرُوفَةً أَيْ بِالْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ حَلِفٍ ، وَلَا إِقْسَامٍ ، كَمَا يُطِيعُ اللهَ وَرَسُولَهُ الْمُؤْمِنُونَ بِغَيْرِ حَلِفٍ وَلَا إِقْسَامٍ ، فَكُونُوا أَنْتُمْ مِثْلَهُمْ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : هُوَ خَبِيرٌ بِكُمْ وَبِمَنْ يُطِيعُ مِمَّنْ يَعْصِي ، فَالْحَلِفُ وَإِظْهَارُ الطَّاعَةِ وَالْبَاطِنُ بِخِلَافِهِ ، وَإِنْ رَاجَ عَلَى الْمَخْلُوقِ ، فَالْخَالِقُ تَعَالَى يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، لَا يَرُوجُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ التَّدْلِيسِ ، بَلْ هُوَ خَبِيرٌ بِضَمَائِرِ عِبَادِهِ وَإِنْ أَظْهَرُوا خِلَافَهَا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ أَيْ : اتَّبِعُوا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أَيْ : تَتَوَلَّوْا عَنْهُ وَتَتْرُكُوا مَا جَاءَكُمْ بِهِ ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ أَيْ : إِبْلَاغُ الرِّسَالَةِ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ ﴿ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ أَيْ : بِقَبُولِ ذَلِكَ وَتَعْظِيمِهِ وَالْقِيَامِ بِمُقْتَضَاهُ ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى : ٥٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] وَقَوْلِهِ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : ٢١-٢٢]

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ

بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بِأَنَّهُ سَيَجْعَلُ أُمَّتَهُ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ، أَيْ : أَئِمَّةَ النَّاسِ وَالْوُلَاةَ عَلَيْهِمْ ، وَبِهِمْ تَصْلُحُ الْبِلَادُ وَتَخْضَعُ لَهُمُ الْعِبَادُ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ - مِنَ النَّاسِ - أَمْنًا وَحُكْمًا فِيهِمْ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ مُوسَى ﷺ إِنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[الأعراف : ١٢٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ حِينَ وَفَدَ عَلَيْهِ : « **أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ ؟** » قَالَ : لَمْ أَعْرِفْهَا ، وَلَكِنْ قَدْ سَمِعْتُ بِهَا قَالَ : « **فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ ، وَلَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ** » قُلْتُ : كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ ، كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ ، وَلَيُبْذَلَنَّ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ** » . قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ : فَهَذِهِ الظَّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيرَةِ فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيمَنْ فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ قَالَهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أَيْ : فَمَنْ خَرَجَ عَنْ طَاعَتِي بَعْدَ ذَلِكَ فَقَدْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ وَكَفَى بِذَلِكَ ذَنْبًا عَظِيمًا .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَهِيَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَهِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ ضُعَفَائِهِمْ وَفُقَرَائِهِمْ ، وَأَنْ يَكُونُوا فِي ذَلِكَ مُطِيعِينَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، أَيْ : سَالِكِينَ وَرَاءَهُ فِيمَا بِهِ أَمَرَهُمْ وَتَرْكِ مَا عَنْهُ زَجَرَهُمْ ، لَعَلَّ اللهَ يَرْحَمُهُمْ بِذَلِكَ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ فَعَلَ هَذَا أَنَّ اللهَ سَيَرْحَمُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾[التوبة : ٧١] ، **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ﴾ أَيْ : لَا تَظُنَّ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَيْ : خَالَفُوكَ وَكَذَّبُوكَ ﴿ مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيْ : لَا يُعْجِزُونَ اللهَ ، بَلِ اللهُ قَادِرٌ عَلَيْهِمَا وَسَيُعَذِّبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : بِئْسَ الْمَآلُ مَآلُ الْكَافِرِينَ ، وَبِئْسَ الْقَرَارُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ اشْتَمَلَتْ عَلَى اسْتِئْذَانِ الْأَقَارِبِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ فَهُوَ اسْتِئْذَانُ الْأَجَانِبِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسْتَأْذِنَهُمْ خَدَمُهُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَطْفَالُهُمْ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْهُمْ فِي ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ ؛ الْأَوَّلُ : مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْغَدَاةِ لِأَنَّ النَّاسَ إِذْ ذَاكَ يَكُونُونَ نِيَامًا فِي فُرُشِهِمْ ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ ﴾ أَيْ : فِي وَقْتِ الْقَيْلُولَةِ ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَضَعُ ثِيَابَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ مَعَ أَهْلِهِ ﴿ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ﴾ لِأَنَّهُ وَقْتُ النَّوْمِ ، فَيُؤْمَرُ الْخَدَمُ وَالْأَطْفَالُ أَنْ لَا يَهْجُمُوا عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ لِمَا يُخْشَى أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ﴾ أَيْ : إِذَا دَخَلُوا فِي حَالٍ غَيْرِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي تَمْكِينِكُمْ إِيَّاهُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ إِنْ رَأَوْا شَيْئًا مِنْ غَيْرِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْهُجُومِ وَلِأَنَّهُمْ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ، أَيْ : فِي الْخِدْمَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَيُغْتَفَرُ فِي الطَّوَّافِينَ مَا لَا يُغْتَفَرُ فِي غَيْرِهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : هُنَّ اللَّوَاتِي انْقَطَعَ عَنْهُنَّ الْحَيْضُ وَيَئِسْنَ مِنَ الْوَلَدِ ﴿ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أَيْ : لَمْ يَبْقَ لَهُنَّ تَشَوُّفٌ إِلَى التَّزَوُّجِ ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَجْرِ فِي التَّسَتُّرِ كَمَا عَلَى غَيْرِهِنَّ مِنَ النِّسَاءِ ، **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ ﴾ الْآيَةُ . فَنَسَخَ مِنْ ذَلِكَ وَاسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ ﴿ ٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ الْآيَةَ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ قَالُوا : الْجِلْبَابُ أَوِ الرِّدَاءُ . **وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾ يَقُولُ : لَا يَتَبَرَّجْنَ بِوَضْعِ الْجِلْبَابِ

لِيُرَى مَا عَلَيْهِنَّ مِنَ الزِّينَةِ ، ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ أَيْ : وَتَرْكُ وَضْعِهِنَّ لِثِيَابِهِنَّ - وَإِنْ كَانَ جَائِزًا - خَيْرٌ وَأَفْضَلُ لَهُنَّ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ - رَحِمَهُمُ الله - فِي الْمَعْنَى الَّذِي رُفِعَ لِأَجْلِهِ الْحَرَجُ عَنِ الْأَعْمَى وَالْأَعْرَجِ وَالْمَرِيضِ هَهُنَا ، فَيُقَالُ إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْجِهَادِ ، أَيْ أَنَّهُمْ لَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ لِضَعْفِهِمْ وَعَجْزِهِمْ ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ هَهُنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ مِنَ الْأَكْلِ مَعَ الْأَعْمَى ؛ لِأَنَّهُ لَا يَرَى الطَّعَامَ وَمَا فِيهِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَرُبَّمَا سَبَقَهُ غَيْرُهُ إِلَى ذَلِكَ ، وَلَا مَعَ الْأَعْرَجِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَمَكَّنُ مِنَ الْجُلُوسِ فَيَفْتَاتُ عَلَيْهِ جَلِيسُهُ ، وَالْمَرِيضُ لَا يَسْتَوْفِي مِنَ الطَّعَامِ كَغَيْرِهِ ، فَكَرِهُوا أَنْ يُؤَاكِلُوهُمْ لِئَلَّا يَظْلِمُوهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ رُخْصَةً فِي ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ﴾ إِنَّمَا ذَكَرَ هَذَا وَهُوَ مَعْلُومٌ ، لِيَعْطِفَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ فِي اللَّفْظِ ، وَلِيُسَاوِيَ بِهِ مَا بَعْدَهُ فِي الْحُكْمِ ، وَتَضَمَّنَ هَذَا بُيُوتُ الْأَبْنَاءِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَنُص عَلَيْهِمْ ، ﴿ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ هَذَا ظَاهِرٌ ، **وَأَمَّا قَوْلُهُ** ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ **قِيلَ** : هُوَ خَادِمُ الرَّجُلِ مِنْ عَبْدٍ وَقَهْرَمَان ، فَلَا بَأْسَ أَنْ يَأْكُلَ مِمَّا اسْتُودِعَهُ مِنَ الطَّعَامِ بِالْمَعْرُوفِ ، ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ أَيْ : بُيُوتُ أَصْدِقَائِكُمْ وَأَصْحَابِكُمْ ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي الْأَكْلِ مِنْهَا إِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ وَلَا يَكْرَهُونَ ذَلِكَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : إِذَا دَخَلْتَ بَيْتَ صَدِيقِكَ فَلَا بَأْسَ أَنْ تَأْكُلَ بِغَيْرِ إِذْنِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ . فَهَذِهِ رُخْصَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى فِي أَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ وَمَعَ الْجَمَاعَةِ ، وَإِنْ كَانَ الْأَكْلُ مَعَ الْجَمَاعَةِ أَفْضَلُ وَأَبْرَكُ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : يَعْنِي فَلْيُسَلِّمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، **عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله** قَالَ : إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ ، وَإِذَا دَخَلْتَ بَيْتًا لَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ فَقُلْ :

السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ الله الصَّالِحِينَ ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يُؤْمَرُ بِذَلِكَ ، وَحُدِّثْنَا أَنَّ المَلَائِكَةَ تَرُدُّ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا فِي السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُحْكَمَةِ وَالشَّرَائِعِ الْمُتْقَنَةِ الْمُبْرَمَةِ نَبَّهَ تَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى أَنَّهُ يُبَيِّنُ لِعِبَادِهِ الْآيَاتِ بَيَانًا شَافِيًا ؛ لِيَتَدَبَّرُوهَا وَيَتَعَقَّلُوهَا لَعَلَّهُمْ يَعْقِلُونَ .

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾

وَهَذَا أَيْضًا أَدَبٌ أَرْشَدَ اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ ، فَكَمَا أَمَرَهُمْ بِالاسْتِئْذَانِ عِنْدَ الدُّخُولِ كَذَلِكَ أَمَرَهُمْ بِالاسْتِئْذَانِ عِنْدَ الانْصِرَافِ ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانُوا فِي أَمْرٍ جَامِعٍ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ صَلَاةِ جُمْعَةٍ أَوْ عِيدٍ أَوْ جَمَاعَةٍ أَو اجْتِمَاعٍ فِي مَشُورَةٍ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ أَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى أَنْ لَا يَتَفَرَّقُوا عَنْهُ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - إِلَّا بَعْدَ اسْتِئْذَانِهِ وَمُشَاوَرَتِهِ ، وَأَنَّ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْكَامِلِينَ ، ثُمَّ أَمَرَ رَسُولَهُ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - إِذَا اسْتَأْذَنَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ إِنْ شَاءَ ،**وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

قِيلَ : كَانُوا يَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ ، يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، فَنَهَاهُمُ اللهُ ﷻ عَنْ ذَلِكَ إِعْظَامًا لِنَبِيِّهِ ﷺ قَالَ : فَقُولُوا يَا نَبِيَّ الله ، يَا رَسُولَ الله ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : أَمَرَ اللهُ أَنْ يُهَابَ نَبِيُّهُ ﷺ وَأَنْ يُبَجَّلَ وَأَنْ يُعَظَّمَ وَأَنْ يُسَوَّدَ ، ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، **قَالَ السُّدِّيُّ** : كَانُوا إِذَا كَانُوا مَعَهُ فِي جَمَاعَةٍ لَاذَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، حَتَّى يَتَغَيَّبُوا عَنْهُ فَلَا يَرَاهُمْ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : يَعْنِي : لِوَاذًا عَنْ نَبِيِّ الله ، وَعَنْ كِتَابِهِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ لِوَاذًا ﴾ خِلَافًا . ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ أَيْ : عَنْ أَمْرِ رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ سَبِيلُهُ وَمِنْهَاجُهُ وَطَرِيقَتُهُ وَسُنَّتُهُ وَشَرِيعَتُهُ ، أَيْ : فَلْيَحْذَرْ وَلْيَخْشَ مَنْ خَالَفَ شَرِيعَةَ الرَّسُولِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أَيْ : فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ كُفْرٍ أَوْ نِفَاقٍ أَوْ بِدْعَةٍ ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا بِقَتْلٍ أَوْ حَدٍّ أَوْ حَبْسٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَهُوَ عَالِمٌ بِمَا الْعِبَادُ عَامِلُونَ فِي سِرِّهِمْ وَجَهْرِهِمْ فَقَالَ : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ وَ« قَدْ » لِلتَّحْقِيقِ كَمَا قَالَ قَبْلَهَا ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾ [الأحزاب : ١٨] ، فَكُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهَا تَحْقِيقُ الْفِعْلِ بِـ« قَدْ » فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : هُوَ عَالِمٌ بِهِ مُشَاهِدٌ لَهُ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أَيْ : وَيَوْمَ تُرْجَعُ الْخَلَائِقُ إِلَى اللهِ ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ أَيْ : يُخْبِرُهُمْ بِمَا فَعَلُوا فِي الدُّنْيَا مِنْ جَلِيلٍ وَحَقِيرٍ وَصَغِيرٍ وَكَبِيرٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ١٣] ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ . وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَنَسْأَلُهُ التَّمَامَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النُّورِ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسيرُ سُورَةِ الفُرْقَانِ

آياتها ٧٧ — مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى حَامِدًا لِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ عَلَى مَا نَزَّلَهُ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تَبَارَكَ ﴾ وَهُوَ تَفَاعُلٌ مِنَ الْبَرَكَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ الثَّابِتَةِ الدَّائِمَةِ ﴿ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ نَزَّلَ : فَعَّلَ مِنَ التَّكَرُّرِ وَالتَّكَثُّرِ ، كَقَوْلِهِ ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء : ١٣٦] لِأَنَّ الْكُتُبَ الْمُتَقَدِّمَةَ كَانَتْ تَنْزِلُ جُمْلَةً وَاحِدَةً وَالْقُرْآنُ نَزَلَ مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا مُفَصَّلًا ، آيَاتٍ بَعْدَ آيَاتٍ ، وَأَحْكَامًا بَعْدَ أَحْكَامٍ ، وَسُوَرًا بَعْدَ سُوَرٍ ، وَهَذَا أَشَدُّ وَأَبْلَغُ ، وَأَشَدُّ اعْتِنَاءً بِمَنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ، وَلِهَذَا سَمَّاهُ هَهُنَا الْفُرْقَانَ ، لِأَنَّهُ يَفْرُقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ

وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ هَذِهِ صِفَةُ مَدْحٍ وَثَنَاءٍ؛ لِأَنَّهُ أَضَافَهُ إِلَى عُبُودِيَّتِهِ، كَمَا وَصَفَهُ بِهَا فِي أَشْرَفِ أَحْوَالِهِ وَهِيَ لَيْلَةُ الْإِسْرَاءِ، فَقَالَ: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [الإسراء: ١]، وَكَذَلِكَ وَصَفَهُ عِنْدَ إِنْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِ وَنُزُولِ الْمَلَكِ إِلَيْهِ ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ أَيْ، إِنَّمَا خَصَّهُ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُفَصَّلِ الْعَظِيمِ الْمُبِينِ الْمُحْكَمِ الَّذِي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ الَّذِي جَعَلَهُ فُرْقَانًا عَظِيمًا لِيَخُصَّهُ بِالرِّسَالَةِ إِلَى مَنْ يَسْتَظِلُّ بِالْخَضْرَاءِ، وَيَسْتَقِلُّ عَلَى الْغَبْرَاءِ، ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ وَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ الْوَلَدِ وَعَنِ الشَّرِيكِ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ أَيْ: كُلُّ شَيْءٍ مِمَّا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ مَرْبُوبٌ، وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ وَإِلَهُهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ.

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَهْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ، الْخَالِقِ لِكُلِّ شَيْءٍ، الْمَالِكِ لِأَزِمَّةِ الْأُمُورِ، الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَمَعَ هَذَا عَبَدُوا مَعَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ مَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى خَلْقِ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ، بَلْ هُمْ مَخْلُوقُونَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، فَكَيْفَ يَمْلِكُونَ لِعَابِدِيهِمْ؟ ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، بَلْ ذَلِكَ كُلُّهُ مَرْجِعُهُ إِلَى اللهِ ﷻ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ الَّذِي يُعِيدُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨]، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠]، فَهُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَلَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ؛ لِأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَهُوَ الَّذِي لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ وَلَا عَدِيلَ وَلَا بَدِيلَ وَلَا وَزِيرَ وَلَا نَظِيرَ، بَلْ هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَد.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ سَخَافَةِ عُقُولِ الْجَهَلَةِ مِنَ الْكُفَّارِ، فِي قَوْلِهِمْ عَنِ الْقُرْآنِ ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ

إِفْكٌ ﴾ أَيْ : كَذِبٌ ﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ يَعْنُونَ : النَّبِيَّ ﷺ ﴿ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ أَيْ : وَاسْتَعَانَ عَلَى جَمْعِهِ بِقَوْمٍ آخَرِينَ ، **فَقَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ أَيْ : فَقَدِ افْتَرَوْا هُمْ قَوْلًا بَاطِلًا ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ بَاطِلٌ ، وَيَعْرِفُونَ كَذِبَ أَنْفُسِهِمْ فِيمَا زَعَمُوهُ ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا ﴾ يَعْنُونَ كُتُبَ الْأَوَائِلِ ، أَيْ : اِسْتَنْسَخَهَا ﴿ فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : تُقْرَأُ عَلَيْهِ ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أَيْ : فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ ، وَهَذَا الْكَلَامُ لِسَخَافَتِهِ وَكَذِبِهِ وَبُهْتِهِ مِنْهُمْ يَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ بُطْلَانَهُ ، فَإِنَّهُ قَدْ عُلِمَ بِالتَّوَاتُرِ وَبِالضَّرُورَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ ، لَمْ يَكُنْ يُعَانِي شَيْئًا مِنَ الْكِتَابَةِ ، لَا فِي أَوَّلِ عُمْرِهِ وَلَا فِي آخِرِهِ ، وَقَدْ نَشَأَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مِنْ أَوَّلِ مَوْلِدِهِ إِلَى أَنْ بَعَثَهُ اللهُ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةٍ ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ مَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ ، وَصِدْقَهُ وَنَزَاهَتَهُ ، وَبِرَّهُ وَأَمَانَتَهُ ، وَبُعْدَهُ عَنِ الْكَذِبِ وَالْفُجُورِ ، وَسَائِرِ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ ، حَتَّى إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُسَمُّونَهُ فِي صِغَرِهِ وَإِلَى أَنْ بُعِثَ إِلَّا الْأَمِينَ ، لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ صِدْقِهِ وَبِرِّهِ ، فَلَمَّا أَكْرَمَهُ اللهُ بِمَا أَكْرَمَهُ بِهِ ، نَصَبُوا لَهُ الْعَدَاوَةَ ، وَرَمَوْهُ بِهَذِهِ الْأَقْوَالِ الَّتِي يَعْلَمُ كُلُّ عَاقِلٍ بَرَاءَتَهُ مِنْهَا ، وَحَارُوا فِيمَا يَقْذِفُونَهُ بِهِ ، فَتَارَةً مِنْ إِفْكِهِمْ يَقُولُونَ : سَاحِرٌ ، وَتَارَةً يَقُولُونَ : شَاعِرٌ ، وَتَارَةً يَقُولُونَ : مَجْنُونٌ ، وَتَارَةً يَقُولُونَ : كَذَّابٌ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٤٨] ، وَقَالَ تَعَالَى فِي جَوَابِ مَا عَانَدُوا هَهُنَا وَافْتَرَوْا : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الْآيَة . أَيْ : أَنْزَلَ الْقُرْآنَ الْمُشْتَمِلَ عَلَى أَخْبَارِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، إِخْبَارًا حَقًّا صِدْقًا ، مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ فِي الْخَارِجِ ، مَاضِيًا وَمُسْتَقْبَلًا ﴿ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ ﴾ أَيْ : اللهُ الَّذِي يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ السَّرَائِرَ كَعِلْمِهِ بِالظَّوَاهِرِ . ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ دُعَاءٌ لَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ، وَإِخْبَارٌ لَهُمْ بِأَنَّ رَحْمَتَهُ وَاسِعَةٌ ، وَأَنَّ حِلْمَهُ عَظِيمٌ ، مَعَ أَنَّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ ، فَهَؤُلَاءِ - مَعَ كَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَفُجُورِهِمْ وَبُهْتَانِهِمْ ، وَكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَقَوْلِهِمْ عَنِ الرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ مَا قَالُوا - يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِقْلَاعِ عَمَّا هُمْ فِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْهُدَى .

وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ
مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا
وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ
ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن
ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ
وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا

وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَعَنُّتِ الْكُفَّارِ وَعِنَادِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ لِلْحَقِّ بِلَا حُجَّةٍ وَلَا دَلِيلٍ مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا تَعَلَّلُوا بِقَوْلِهِمْ ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾ يَعْنُونَ : كَمَا نَأْكُلُهُ ، وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ كَمَا نَحْتَاجُ ﴿ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ أَيْ : يَتَرَدَّدُ فِيهَا وَإِلَيْهَا ، طَلَبًا لِلتَّكَسُّبِ وَالتِّجَارَةِ ، ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ يَقُولُونَ : هَلَّا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَكُونُ شَاهِدًا عَلَى صِدْقِ مَا يَدَّعِيهِ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ : ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٣] ، وَكَذَلِكَ قَالَ هَؤُلَاءِ عَلَى السَّوَاءِ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، **وَلِهَذَا قَالُوا** : ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ أَيْ : عِلْمُ كَنْزٍ يُنْفِقُ مِنْهُ ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أَيْ : تَسِيرُ مَعَهُ حَيْثُ سَارَ ، وَهَذَا كُلُّهُ سَهْلٌ يَسِيرٌ عَلَى اللهِ ، وَلَكِنْ لَهُ الْحِكْمَةُ فِي تَرْكِ ذَلِكَ ، وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ ﴾ أَيْ : جَاءُوا بِمَا يَقْذِفُونَكَ بِهِ ، وَيَكْذِبُونَ بِهِ عَلَيْكَ ، مِنْ قَوْلِهِمْ سَاحِرٌ مَسْحُورٌ ، مَجْنُونٌ ، كَذَّابٌ ، شَاعِرٌ ، وَكُلُّهَا أَقْوَالٌ بَاطِلَةٌ ، كُلُّ أَحَدٍ - مِمَّنْ لَهُ أَدْنَى فَهْمٍ وَعَقْلٍ - يَعْرِفُ كَذِبَهُمْ وَافْتِرَاءَهُمْ فِي ذَلِكَ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَضَلُّواْ ﴾ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْحَقِّ وَطَرِيقِ الْهُدَى فَإِنَّهُ ضَالٌّ حَيْثُمَا تَوَجَّهَ ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ وَمَنْهَجُهُ مُتَّحِدٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا نَبِيَّهُ أَنَّهُ إِنْ شَاءَ لَآتَاهُ خَيْرًا مِمَّا يَقُولُونَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَفْضَلَ وَأَحْسَنَ ، **فَقَالَ** : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ الْآيَةَ . **قِيلَ** : يَعْنِي : فِي الدُّنْيَا . ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ هَكَذَا تَكْذِيبًا وَعِنَادًا ، لَا أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ ذَلِكَ تَبَصُّرًا وَاسْتِرْشَادًا ، بَلْ تَكْذِيبُهُمْ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُمْ عَلَى قَوْلِ مَا يَقُولُونَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ أَيْ : أَرْصَدْنَا ﴿ لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ أَيْ : عَذَابًا أَلِيمًا حَارًّا لَا يُطَاقُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ . ﴿ إِذَا رَأَتْهُم ﴾ أَيْ : جَهَنَّمُ ﴿ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يَعْنِي : فِي مَقَامِ الْمَحْشَرِ ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ أَيْ : حَنَقًا عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ [الملك : ٧-٨] أَيْ : يَكَادُ يَنْفَصِلُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، مِنْ شِدَّةِ غَيْظِهَا عَلَى مَنْ كَفَرَ بِاللهِ . ﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ ﴾ ، ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ **قِيلَ** : **يَعْنِي** : مُكَتَّفِينَ ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ أَيْ : بِالْوَيْلِ وَالْحَسْرَةِ وَالْخَيْبَةِ . ﴿ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا ﴾ الْآيَةَ . **قِيلَ** : أَيْ : لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ وَيْلًا وَاحِدًا وَادْعُوا

وَيْلًا كَثِيرًا ، وَقِيلَ : الثُّبُورُ : الْهَلَاكُ ، وَالأَظْهَرُ أَنَّ الثُّبُورَ يَجْمَعُ الْهَلَاكَ وَالْوَيْلَ وَالْخَسَارَ وَالدَّمَارَ ، كَمَا قَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾[الإسراء : ١٠٢] أَيْ : هَالِكًا .

قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : يَا مُحَمَّدُ هَذَا الَّذِي وَصَفْنَاهُ لَكَ مِنْ حَالِ هَؤُلَاءِ الْأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمَ إِلَى جَهَنَّمَ فَتَتَلَقَّاهُمْ بِوَجْهٍ عَبُوسٍ وَبِغَيْظٍ وَزَفِيرٍ ، وَيُلْقَوْنَ فِي أَمَاكِنِهَا الضِّيقِ ، مُقَرَّنِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِرَاكًا وَلَا اِسْتِنْصَارًا وَلَا فِكَاكًا مِمَّا هُمْ فِيهِ ، أَهَذَا خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَهَا اللهُ الْمُتَّقِينَ مِنْ عِبَادِهِ ، الَّتِي أَعَدَّهَا لَهُمْ وَجَعَلَهَا لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا عَلَى مَا أَطَاعُوهُ فِي الدُّنْيَا ، وَجَعَلَ مَآلَهُمْ إِلَيْهَا .﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ مِنَ الْمَلَاذِّ : مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ وَمَلَابِسَ وَمَسَاكِنَ وَمَرَاكِبَ وَمَنَاظِرَ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ أَحَدٍ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ خَالِدُونَ أَبَدًا دَائِمًا سَرْمَدًا بِلَا اِنْقِطَاعٍ وَلَا زَوَالٍ وَلَا انْقِضَاءٍ ، وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ، وَهَذَا مِنْ وَعْدِ اللهِ الَّذِي تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ وَأَحْسَنَ بِهِ إِلَيْهِمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ أَيْ : لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ وَأَنْ يَكُونَ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ يَقُولُ : سَلُو الَّذِي وَاعَدْتُكُمْ - أَوْ قَالَ : وَاعَدْنَاكُمْ - نُنْجِزْ . وَقِيلَ : إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَسْأَلُ لَهُمْ ذَلِكَ ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ ﴾[غافر : ٨]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ تَقْرِيعِ الْكُفَّارِ فِي عِبَادَتِهِمْ مَنْ عَبَدُوا مِنْ دُونِ اللهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ فَقَالَ : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قِيلَ : هُوَ عِيسَى وَالْعُزَيْرُ وَالْمَلَائِكَةُ ﴿ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ الْآيَةَ ، أَيْ : فَيَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْمَعْبُودِينَ : أَأَنْتُمْ دَعَوْتُمْ هَؤُلَاءِ إِلَى عِبَادَتِكُمْ مِنْ دُونِي أَمْ هُمْ عَبَدُوكُمْ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ غَيْرِ دَعْوَةٍ مِنْكُمْ لَهُمْ ؟ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ

ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ ﴾ [المائدة : ١١٦-١١٧]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُجِيبُ بِهِ الْمَعْبُودُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ قَالُواْ سُبۡحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ قَرَأَ الْأَكْثَرُونَ بِفَتْحِ النُّونِ مِنْ قَوْلِهِ ﴿ نَتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لِلْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ أَنْ يَعْبُدُوا أَحَدًا سِوَاكَ ، لَا نَحْنُ وَلَا هُمْ ، فَنَحْنُ مَا دَعَوْنَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، بَلْ هُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَمْرِنَا وَلَا رِضَانَا ، وَنَحْنُ بُرَآءُ مِنْهُمْ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ ، وَقَرَأَ آخَرُونَ ﴿ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نُتَّخَذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ أَيْ : مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَعْبُدَنَا ، فَإِنَّا عَبِيدٌ لَكَ فُقَرَاءُ إِلَيْكَ ، وَهِيَ قَرِيبَةُ الْمَعْنَى مِنَ الْأُولَى ﴿ وَلَـٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ ﴾ أَيْ : طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ، أَيْ : نَسُوا مَا أَنْزَلْتَهُ إِلَيْهِمْ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِكَ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى عِبَادَتِكَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ﴿ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورًا ﴾ قِيلَ : أَيْ : هَلْكَى ، وَقِيلَ : لَا خَيْرَ فِيهِمْ . ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أَيْ : فَقَدْ كَذَّبَكُمُ الَّذِينَ عَبَدْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ فِيمَا زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ لَكُمْ أَوْلِيَاءَ ، وَأَنَّهُمْ يُقَرِّبُونَكُمْ إِلَى اللهِ زُلْفَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفًا وَلَا نَصۡرًا ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُونَ عَلَى صَرْفِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ وَلَا الانْتِصَارِ لِأَنْفُسِهِمْ ﴿ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ ﴾ أَيْ : يُشْرِكْ بِاللهِ ﴿ نُذِقۡهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ .

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ جَمِيعِ مَنْ بَعَثَهُ مِنَ الرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَحْتَاجُونَ إِلَى التَّغَذِّي بِهِ وَ ﴿ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾ لِلتَّكَسُّبِ وَالتِّجَارَةِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمُنَافٍ لِحَالِهِمْ وَمَنْصِبِهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ لَهُمْ مِنَ السِّمَاتِ الْحَسَنَةِ ، وَالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ ، وَالْأَقْوَالِ الْفَاضِلَةِ ، وَالْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ ، وَالْخَوَارِقِ الْبَاهِرَةِ ، وَالْأَدِلَّةِ الظَّاهِرَةِ مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ كُلُّ ذِي لُبٍّ سَلِيمٍ وَبَصِيرَةٍ مُسْتَقِيمَةٍ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءُوا بِهِ مِنَ اللهِ ، وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف : ١٠٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَ ﴾ أَيْ : اخْتَبَرْنَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَبَلَوْنَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، لِنَعْلَمَ مَنْ يُطِيعُ مِمَّنْ يَعْصِي ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ أَيْ : بِمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : ١٢٤]، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَهْدِيَهُ اللهُ ، لِمَا أَرْسَلَهُمْ بِهِ ، وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ .

۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَعنُّتِ الْكُفَّارِ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أَيْ : بِالرِّسَالَةِ ، كَمَا تَنْزِلُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُمْ هَهُنَا ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ فَنَرَاهُمْ عِيَانًا فَيُخْبِرُونَا أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللهِ ، كَقَوْلِهِمْ : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٩٢] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ سُبْحَان ، **وَلِهَذَا قَالُوا** : ﴿ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ ، **وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١١١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أَيْ : هُمْ لَا يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ فِي يَوْمِ خَيْرٍ لَهُمْ ، بَلْ يَوْم يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمئِذٍ لَهُمْ ، وَذَلِكَ يَصْدُقُ عَلَى وَقْتِ الِاحْتِضَارِ ، حِينَ تُبَشِّرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِالنَّارِ وَالْغَضَبِ مِنَ الْجَبَّارِ ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْكَافِرِ عِنْدَ خُرُوجِ رُوحِهِ : أُخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ ، أُخْرُجِي إِلَى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ، فَتَأْبَى الْخُرُوجَ وَتَتَفَرَّقُ فِي الْبَدَنِ ، فَيَضْرِبُونَهُ ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٥٠] ، **وَلِهَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ** ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ ، وَهَذَا بِخِلَافِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ فِي وَقْتِ احْتِضَارِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ يُبَشَّرُونَ بِالْخَيْرَاتِ وَحُصُولِ الْمَسَرَّاتِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠-٣٢] ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ : أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ لِرُوحِ الْمُؤْمِنِ : « **أُخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ أُخْرُجِي إِلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَان** » ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : بَلِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذَا وَمَا تَقَدَّمَ ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ فِي هَذَيْنِ الْيَوْمَيْنِ - يَوْمِ الْمَمَاتِ وَيَوْمِ الْمَعَادِ - تَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِلْكَافِرِينَ فَتُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالرَّحْمَةِ

وَالرِّضْوَانِ ، وَتُخْبِرِ الْكَافِرِينَ بِالْخَيْبَةِ وَالْخُسْرَانِ ، فَلَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أَيْ : وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْكَافِرِينَ : حَرَامٌ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمُ الْفَلَاحَ الْيَوْمَ ، وَأَصْلُ الْحَجْرِ : الْمَنْعُ ، وَمِنْهُ يُقَالُ : حَجَرَ الْقَاضِي عَلَى فُلَانٍ إِذَا مَنَعَهُ التَّصَرُّفَ ؛ إِمَّا لِفَلَسٍ أَوْ سَفَهٍ أَوْ صِغَرٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ . وَالْغَرَضُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْمَلَائِكَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ ﴾ الْآيَةُ . هَذَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ حِينَ يُحَاسِبُ اللهُ الْعِبَادَ عَلَى مَا عَمِلُوهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْأَعْمَالِ - الَّتِي ظَنُّوا أَنَّهَا مَنْجَاةٌ لَهُمْ - شَيْءٌ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا فَقَدَتِ الشَّرْطَ الشَّرْعِيَّ : إِمَّا الْإِخْلَاصُ فِيهَا وَإِمَّا الْمُتَابَعَةُ لِشَرْعِ اللهِ ، فَكُلُّ عَمَلٍ لَا يَكُونُ خَالِصًا وَعَلَى الشَّرِيعَةِ الْمَرْضِيَّةِ فَهُوَ بَاطِلٌ ، فَأَعْمَالُ الْكُفَّارِ لَا تَخْلُو مِنْ وَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ ، وَقَدْ تَجْمَعُهُمَا مَعًا ، فَتَكُونُ أَبْعَدَ مِنَ الْقَبُولِ حِينَئِذٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ وَقَدِمْنَآ ﴾ أَيْ : عَمَدْنَا ، **وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ** : أَتَيْنَا عَلَيْهِ . ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : شُعَاعُ الشَّمْسِ إِذَا دَخَلَ فِي الْكُوَّةِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ هُوَ الْمَاءُ الْمُهْرَاقُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ أَيْ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَصِيرُونَ إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ وَالْغُرُفَاتِ الْآمِنَاتِ ، فَهُمْ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ، حَسَنِ الْمَنْظَرِ ، طَيِّبِ الْمَقَامِ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ ، وَأَهْلُ النَّارِ يَصِيرُونَ إِلَى الدَّرَكَاتِ السَّافِلَاتِ وَالْحَسَرَاتِ الْمُتَتَابِعَاتِ ، وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَاتِ ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٦] أَيْ : بِئْسَ الْمَنْزِلُ مَنْظَرًا ، وَبِئْسَ الْمَقِيلُ مَقَامًا ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ أَيْ : بِمَا عَمِلُوهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُتَقَبَّلَةِ نَالُوا مَا نَالُوا ، وَصَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ .

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ
وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى
ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ
ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ ، فَمِنْهَا انْشِقَاقُ السَّمَاءِ وَتَفَطُّرُهَا وَانْفِرَاجُهَا بِالْغَمَامِ ، وَهُوَ : ظُلَلُ النُّورِ الْعَظِيمِ الَّذِي يُبْهِرُ الْأَبْصَارَ ، وَنُزُولُ مَلَائِكَةِ السَّمَاوَاتِ يَوْمَئِذٍ فَيُحِيطُونَ بِالْخَلَائِقِ فِي مَقَامِ الْمَحْشَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ الرَّبُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لِفَصْلِ

الْقَضَاءِ . قَالَ مُجَاهِدٌ : وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٥- ١٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ أَيْ : شَدِيدًا صَعْبًا ؛ لِأَنَّهُ يَوْمُ عَدْلٍ وَقَضَاءِ فَصْلٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر : ٩-١٠] ، فَهَذَا حَالُ الْكَافِرِينَ فِي هَذَا الْيَوْمِ ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ الْآيَة . يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نَدَمِ الظَّالِمِ الَّذِي فَارَقَ طَرِيقَ الرَّسُولِ ﷺ ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ ، وَسَلَكَ طَرِيقًا أُخْرَى غَيْرَ سَبِيلِ الرَّسُولِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَدِمَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُ النَّدَمُ ، وَعَضَّ عَلَى يَدَيْهِ حَسْرَةً وَأَسَفًا ، وَسَوَاءٌ كَانَ سَبَبُ نُزُولِهَا فِي عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ فَإِنَّهَا عَامَّةٌ فِي كُلِّ ظَالِمٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ ﴾ [الأحزاب : ٦٦] الْآيَتَيْنِ ، فَكُلُّ ظَالِمٍ يَنْدَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَايَةَ النَّدَمِ ، وَيَعَضُّ عَلَى يَدَيْهِ قَائِلًا : ﴿ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ يَعْنِي : مَنْ صَرَفَهُ عَنِ الْهُدَى وَعَدَلَ بِهِ إِلَى طَرِيقِ الضَّلَالِ مِنْ دُعَاةِ الضَّلَالَةِ ، وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ أَوْ أَخُوهُ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ أَوْ غَيْرُهُمَا . ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ﴾ أَيْ : بَعْدَ بُلُوغِهِ إِلَيَّ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ أَيْ : يَخْذُلُهُ عَنِ الْحَقِّ ، وَيَصْرِفُهُ عَنْهُ ، وَيَسْتَعْمِلُهُ فِي الْبَاطِلِ وَيَدْعُوهُ إِلَيْهِ .

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ رَسُولِهِ وَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا لَا يُصْغُونَ لِلْقُرْآنِ وَلَا يَسْتَمِعُونَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ [فصلت : ٢٦] ، فَكَانُوا إِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ أَكْثَرُوا اللَّغَطَ وَالْكَلَامَ فِي غَيْرِهِ ، حَتَّى لَا يَسْمَعُونَهُ ، فَهَذَا مِنْ هِجْرَانِهِ ، وَتَرْكُ الْإِيمَانِ بِهِ وَتَرْكُ تَصْدِيقِهِ مِنْ هِجْرَانِهِ ، وَتَرْكُ تَدَبُّرِهِ وَتَفَهُّمِهِ مِنْ هِجْرَانِهِ ، وَتَرْكُ الْعَمَلِ بِهِ وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ زَوَاجِرِهِ مِنْ هِجْرَانِهِ ، وَالْعُدُولُ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ مِنْ شِعْرٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ غِنَاءٍ أَوْ لَهْوٍ أَوْ كَلَامٍ

أَوْ طَرِيقَةٍ مَأْخُوذَةٍ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ هِجْرَانِهِ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أَيْ : كَمَا حَصَلَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ فِي قَوْمِكَ مِنَ الَّذِينَ هَجَرُوا الْقُرْآنَ ، كَذَلِكَ كَانَ فِي الْأُمَمِ الْمَاضِينَ ؛ لِأَنَّ اللهَ جَعَلَ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ، يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى ضَلَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا** : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ أَيْ : لِمَنِ اتَّبَعَ رَسُولَهُ وَآمَنَ بِكِتَابِهِ وَصَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ ، فَإِنَّ اللهَ هَادِيهِ وَنَاصِرُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ ؛ لِئَلَّا يَهْتَدِيَ أَحَدٌ بِهِ وَلِتَغْلِبَ طَرِيقَتُهُمْ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الْآيَةَ .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كَثْرَةِ اعْتِرَاضِ الْكُفَّارِ وَتَعَنُّتِهِمْ ، وَكَلَامِهِمْ فِيمَا لَا يَعْنِيهِمْ حَيْثُ **قَالُوا** : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ أَيْ : هَلَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَمَا نُزِّلَتِ الْكُتُبُ قَبْلَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ ، فَأَجَابَهُمُ اللهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ : بِأَنَّهُ إِنَّمَا نَزَلَ مُنَجَّمًا فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَالْحَوَادِثِ وَمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ لِيُثَبِّتَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ ﴾ الْآيَةَ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : بَيَّنَّاهُ تَبْيِينًا ، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : وَفَسَّرْنَاهُ تَفْسِيرًا .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أَيْ : بِحُجَّةٍ وَشُبْهَةٍ ﴿ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أَيْ : وَلَا يَقُولُونَ قَوْلًا يُعَارِضُونَ بِهِ الْحَقَّ ، إِلَّا أَجَبْنَاهُمْ بِمَا هُوَ الْحَقُّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَأَبْيَنُ وَأَوْضَحُ وَأَفْصَحُ مِنْ مَقَالَتِهِمْ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أَيْ : بِمَا يَلْتَمِسُونَ بِهِ عَيْبَ الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ ﴿ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الْآيَةَ ، أَيْ : إِلَّا نَزَلَ جِبْرِيلُ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِجَوَابِهِمْ وَمَا هَذَا إِلَّا اعْتِنَاءٌ كَبِيرٌ لِشَرَفِ الرَّسُولِ ﷺ ، حَيْثُ كَانَ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ اللهِ ﷻ بِالْقُرْآنِ صَبَاحًا وَمَسَاءً ، وَلَيْلًا وَنَهَارًا ، سَفَرًا وَحَضَرًا ، وَكُلُّ مَرَّةٍ كَانَ يَأْتِيهِ الْمَلَكُ بِالْقُرْآنِ لَا كَإِنْزَالِ الْكِتَابِ مِمَّا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، فَهَذَا الْمَقَامُ أَعْلَى وَأَجَلُّ وَأَعْظَمُ مَكَانَةً مِنْ سَائِرِ إِخْوَانِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - فَالْقُرْآنُ أَشْرَفُ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللهُ ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ أَعْظَمُ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى ، وَقَدْ جَمَعَ اللهُ لِلْقُرْآنِ الصِّفَتَيْنِ مَعًا ، فَفِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى أُنْزِلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي

السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ أُنْزِلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الأَرْضِ مُنَجَّمًا بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَالْحَوَادِثِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ سُوءِ حَالِ الْكُفَّارِ فِي مَعَادِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَحَشْرِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ فِي أَسْوَأِ الحَالَاتِ وَأَقْبَحِ الصِّفَاتِ . ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ **وَفِي الصَّحِيحِ** عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ الله ، كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ ، فَقَالَ ﷺ : « **إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ قَادِرٌ أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** » .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا مَنْ كَذَّبَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِهِ وَمَنْ خَالَفَهُ ، وَمُحَذِّرَهُمْ مِنْ عِقَابِهِ وَأَلِيمِ عَذَابِهِ ، مِمَّا أَحَلَّهُ بِالأُمَمِ المَاضِيَةِ المُكَذِّبِينَ لِرُسُلِهِ ، فَبَدَأَ بِذِكْرِ مُوسَى ، وَأَنَّهُ بَعَثَهُ وَجَعَلَ مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ، أَيْ : نَبِيًّا مُوَازِرًا وَمُؤَيِّدًا وَنَاصِرًا ، فَكَذَّبَهُمَا فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ فَـ ﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ [محمد : ١٠] وَكَذَلِكَ فَعَلَ بِقَوْمِ نُوحٍ حِينَ كَذَّبُوا رَسُولَهُ نُوحًا عليه السلام ، وَمَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ فَقَدْ كَذَّبَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ رَسُولٍ وَرَسُولٍ ، وَلَوْ فُرِضَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَ إِلَيْهِمْ كُلَّ رَسُولٍ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُكَذِّبُونَ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ ﴾ وَلَمْ يُبْعَثْ إِلَيْهِمْ إِلَّا نُوحٌ فَقَطْ ، وَقَدْ لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الله ﷻ وَيُحَذِّرُهُمْ نِقَمَهُ ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠] ، وَلِهَذَا أَغْرَقَهُمُ اللهُ جَمِيعًا وَلَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا ، وَلَمْ يَتْرُكْ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ سِوَى أَصْحَابِ السَّفِينَةِ فَقَطْ ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾ أَيْ : عِبْرَةً يَعْتَبِرُونَ بِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١-١٢] أَيْ : وَأَبْقَيْنَا لَكُمْ مِنَ السُّفُنِ مَا تَرْكَبُونَ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ ؛ لِتَذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ مِنْ إِنْجَائِكُمْ مِنَ الْغَرَقِ ، وَجَعَلَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَ أَمْرَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قِصَّتَيْهِمَا فِي غَيْرِ مَا سُورَةٍ ، كَسُورَةِ الأَعْرَافِ بِمَا أَغْنَى عَنِ الإِعَادَةِ ، **وَأَمَّا أَصْحَابُ الرَّسِّ** فَقِيلَ : هُمْ أَهْلُ قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى ثَمُودَ ، **وَقِيلَ** : بِئْرٌ بِأَذْرَبِيجَانَ ، **وَقِيلَ** : بِئْرٌ رَسُّوا فِيهَا نَبِيَّهُمْ ، أَيْ : دَفَنُوهُ بِهَا ، **وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ** أَنَّ المُرَادَ بِأَصْحَابِ الرَّسِّ هُمْ : أَصْحَابُ الأُخْدُودِ الَّذِينَ ذُكِرُوا فِي سُورَةِ الْبُرُوجِ ، فَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ أَيْ : وَأُمَمًا - بَيْنَ أَضْعَافِ مَنْ ذُكِرَ أَهْلَكْنَاهُمْ - كَثِيرَةً ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ أَيْ : بَيَّنَّا لَهُمُ الْحُجَجَ ، وَوَضَّحْنَا لَهُمُ الْأَدِلَّةَ ، **كَمَا قَالَ قَتَادَةُ** : وَأَزَحْنَا الْأَعْذَارَ عَنْهُمْ ﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ أَيْ : أَهْلَكْنَا إِهْلَاكًا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾[الإسراء : ١٧] ، **وَالْقَرْنُ** : هُوَ الْأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾[المؤمنون : ٤٢] وَعَدَّهُ بَعْضُهُمْ بِمِائَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةٍ ، **وَقِيلَ** : بِمِائَةٍ ، **وَقِيلَ** : بِثَمَانِينَ ، **وَقِيلَ** : أَرْبَعِينَ ، **وَقِيلَ** : غَيْرُ ذَلِكَ . **وَالْأَظْهَرُ** أَنَّ الْقَرْنَ : هُوَ الْأُمَّةُ الْمُتَعَاصِرُونَ فِي الزَّمَنِ الْوَاحِدِ ، وَإِذَا ذَهَبُوا وَخَلَفَهُمْ جِيلٌ فَهُوَ قَرْنٌ آخَرُ ، كَمَا ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ** » .

وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴾ يَعْنِي : قَرْيَةَ قَوْمِ لُوطٍ ، وَهِيَ : سَدُومُ وَمُعَامَلَتُهَا الَّتِي أَهْلَكَهَا اللهُ بِالْقَلْبِ وَبِالْمَطَرِ مِنَ الْحِجَارَةِ الَّتِي مِنْ سِجِّيلٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾[الشعراء:١٧٣] ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ﴾ أَيْ : فَيَعْتَبِرُوا بِمَا حَلَّ بِأَهْلِهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِالرَّسُولِ وَبِمُخَالَفَتِهِمْ أَوَامِرَ اللهِ ﴿ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ يَعْنِي : الْمَارِّينَ بِهَا مِنَ الْكُفَّارِ لَا يَعْتَبِرُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ، أَيْ : مَعَادًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . **ثُمَّ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ** اسْتِهْزَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِالرَّسُولِ ﷺ إِذَا رَأَوْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾[الأنبياء : ٣٦] . يَعْنُونَ بِالْعَيْبِ وَالنَّقْصِ ، **وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ أَيْ : عَلَى سَبِيلِ التَّنَقُّصِ وَالِازْدِرَاءِ ، فَقَبَّحَهُمُ اللهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ يَعْنُونَ : أَنَّهُ كَادَ يُثْنِيهِمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ لَوْلَا أَنْ صَبَرُوا وَتَجَلَّدُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى** مُتَوَعِّدًا لَهُمْ وَمُتَهَدِّدًا : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ ﴾ الْآيَة ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُنَبِّهًا أَنَّ مَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ وَالضَّلَالَ

فَإِنَّهُ لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ ﷻ. ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ أَيْ : مَهْمَا اسْتَحْسَنَ مِنْ شَيْءٍ ، وَرَآهُ حَسَنًا فِي هَوَى نَفْسِهِ كَانَ دِينُهُ وَمَذْهَبُهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر : ٨] ، **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا** ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ الْآيَة ، أَيْ : هُمْ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْأَنْعَامِ السَّارِحَةِ ، فَإِنَّ تِلْكَ تَفْعَلُ مَا خُلِقَتْ لَهُ ، وَهَؤُلَاءِ خُلِقُوا لِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَلَمْ يَفْعَلُوا ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ وَيُشْرِكُونَ بِهِ ، مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ .

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾

مِنْ هَهُنَا شَرَعَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي بَيَانِ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى وُجُودِهِ ، وَقُدْرَتِهِ التَّامَّةِ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْمُتَضَادَّةِ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : هُوَ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾ أَيْ : دَائِمًا لَا يَزُولُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ أَيْ : لَوْلَا أَنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ عَلَيْهِ لَمَا عُرِفَ ، فَإِنَّ الضِّدَّ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِضِدِّهِ . ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أَيْ : الظِّلُّ ، **وَقِيلَ** : الشَّمْسُ ﴿ يَسِيرًا ﴾ أَيْ : سَهْلًا ، **وَقِيلَ** : سَرِيعًا ، **وَقِيلَ** : خَفِيًّا ، **وَقِيلَ** : أَيْ : قَلِيلًا قَلِيلًا . ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أَيْ : يَلْبَسُ الْوُجُودَ وَيَغْشَاهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ أَيْ : قَاطِعًا لِلْحَرَكَةِ ، لِرَاحَةِ الْأَبْدَانِ ، فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ وَالْجَوَارِحَ تَكِلُّ مِنْ كَثْرَةِ الْحَرَكَةِ فِي الِانْتِشَارِ بِالنَّهَارِ فِي الْمَعَاشِ ، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ وَسَكَنَ سَكَنَتِ الْحَرَكَاتُ فَاسْتَرَاحَتْ ، فَحَصَلَ النَّوْمُ الَّذِي فِيهِ رَاحَةُ الْبَدَنِ وَالرُّوحِ مَعًا ﴿ وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ أَيْ : يَنْتَشِرُ النَّاسُ فِيهِ لِمَعَايِشِهِمْ وَمَكَاسِبِهِمْ وَأَسْبَابِهِمْ .

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ، أَيْ : بِمَجِيءِ السَّحَابِ بَعْدَهَا ، وَالرِّيَاحُ أَنْوَاعٌ فِي صِفَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ التَّسْخِيرِ ، فَمِنْهَا مَا يُثِيرُ السَّحَابَ ،

وَمِنْهَا مَا يَحْمِلُهُ ، وَمِنْهَا مَا يَسُوقُهُ ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ بَيْنَ يَدَي السَّحَابِ مُبَشِّرًا ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ قَبْلَ ذَلِكَ يَقُمُّ الْأَرْضَ ، وَمِنْهَا مَا يُلَقِّحُ السَّحَابَ لِيُمْطِرَ ، وَلِهَذَا **قَالَ تَعَالَى**: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ أَيْ : آلَةً يُتَطَهَّرُ بِهَا كَالسَّحُورِ ، وَالْوَقُودِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا ، فَهَذَا أَصَحُّ مَا يُقَالُ فِي ذَلِكَ . ﴿ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أَيْ : أَرْضًا قَدْ طَالَ انْتِظَارُهَا لِلْغَيْثِ ، فَهِيَ هَامِدَةٌ لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا شَيْءَ ، فَلَمَّا جَاءَهَا الْحَيَاءُ عَاشَتْ وَاكْتَسَتْ رُبَاهَا أَنْوَاعَ الْأَزَاهِيرِ وَالْأَلْوَانِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [الحج : ٥] ، **وَقَوْلُهُ**: ﴿ وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾ أَيْ : وَلْيَشْرَبْ مِنْهُ الْحَيَوَانُ مِنْ أَنْعَامٍ وَأَنَاسِيَّ ، مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ غَايَةَ الْحَاجَةِ لِشُرْبِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ وَثِمَارِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ [الشورى : ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [الروم : ٥٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ : أَمْطَرْنَا هَذِهِ الْأَرْضَ دُونَ هَذِهِ ، وَسُقْنَا السَّحَابَ يَمُرُّ عَلَى الْأَرْضِ وَيَتَعَدَّاهَا وَيَتَجَاوَزُهَا إِلَى الْأَرْضِ الْأُخْرَى ، فَيُمْطِرُهَا وَيَكْفِيهَا وَيَجْعَلُهَا غَدَقًا ، وَالَّتِي وَرَاءَهَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهَا قَطْرَةٌ مِنْ مَاءٍ ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ وَالْحِكْمَةُ الْقَاطِعَةُ . ﴿ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ أَيْ : لِيَذَّكَّرُوا بِإِحْيَاءِ اللهِ الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَمْوَاتِ وَالْعِظَامِ الرُّفَاتِ ، أَوْ لِيَذَّكَّرَ مَنْ مُنِعَ الْمَطَرُ إِنَّمَا أَصَابَهُ ذَلِكَ بِذَنْبٍ أَصَابَهُ ، فَيُقْلِعَ عَمَّا هُوَ فِيهِ ، ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ يَقُولُونَ : مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا ، كَمَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمًا عَلَى أَثَرِ سَمَاءٍ أَصَابَتْهُمْ مِنَ اللَّيْلِ « **أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟** » قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « **قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَاكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَاكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ** » .

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ ، وَلَكِنَّا خَصَصْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِالْبَعْثَةِ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَأَمَرْنَاكَ أَنْ تُبَلِّغَهُمْ هَذَا الْقُرْآنَ ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى:٧] ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ « **بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ** » ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ ﴾ يَعْنِي : بِالْقُرْآنِ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ . كَمَا قَالَ تَعَالَى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾ [التوبة : ٧٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أَيْ : خَلَقَ الْمَاءَيْنِ الْحُلْوَ وَالْمِلْحَ ، فَالْحُلْوُ كَالْأَنْهَارِ وَالْعُيُونِ وَالْآبَارِ ، وَهَذَا هُوَ الْبَحْرُ الْحُلْوُ الْعَذْبُ الْفُرَاتُ الزُّلَالُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أَيْ : مَالِحٌ مُرٌّ زُعَاقٌ لَا يُسْتَسَاغُ . وَهَذِهِ الْبِحَارُ السَّاكِنَةُ خَلَقَهَا اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مَالِحَةً لِئَلَّا يَحْصُلَ بِسَبَبِهَا نَتْنُ الْهَوَاءِ فَيَفْسُدُ الْوُجُودُ بِذَلِكَ ، وَلِئَلَّا تَجْوَى الْأَرْضُ بِمَا يَمُوتُ فِيهَا مِنَ الْحَيَوَانِ ، وَلَمَّا كَانَ مَاؤُهَا مِلْحًا كَانَ هَوَاؤُهَا صَحِيحًا وَمَيْتَتُهَا طَيِّبَةٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا ﴾ أَيْ : بَيْنَ الْعَذْبِ وَالْمَالِحِ ﴿ بَرْزَخًا ﴾ أَيْ : حَاجِزًا ، وَهُوَ الْيَبَسُ مِنَ الْأَرْضِ ﴿ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أَيْ : مَانِعًا مِنْ أَنْ يَصِلَ أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ ، كَقَوْلِهِ ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا ﴾ . أَيْ : خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ضَعِيفَةٍ ، فَسَوَّاهُ وَعَدَّلَهُ ، وَجَعَلَهُ كَامِلَ الْخِلْقَةِ ، ذَكَرًا وَأُنْثَى ، كَمَا يَشَاءُ ﴿ فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ فَهُوَ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ وَلَدٌ نَسِيبٌ ، ثُمَّ يَتَزَوَّجُ فَيَصِيرُ صِهْرًا ، ثُمَّ يَصِيرُ لَهُ أَصْهَارٌ وَأَخْتَانٌ وَقَرَابَاتٌ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ۝

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَهْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ مِنَ الْأَصْنَامِ ، الَّتِي لَا تَمْلِكُ لَهُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، بِلَا دَلِيلٍ قَادَهُمْ إِلَى ذَلِكَ وَلَا حُجَّةٍ أَدَّتْهُمْ إِلَيْهِ ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الْآرَاءِ وَالتَّشَهِّي وَالْأَهْوَاءِ ، فَهُمْ يُوَالُونَهُمْ وَيُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِمْ ، وَيُعَادُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فِيهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ أَيْ : عَوْنًا فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ عَلَى حِزْبِ اللهِ ، وَحِزْبُ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أَيْ : بَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَنَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ ، مُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ لِمَنْ أَطَاعَ اللهَ ، وَنَذِيرًا بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللهِ . ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أَيْ : عَنْ هَذَا الْبَلَاغِ وَهَذَا الْإِنْذَارِ

مِنْ أُجْرَةٍ أَطْلُبُهَا مِنْ أَمْوَالِكُمْ ، وَإِنَّمَا أَفْعَلُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴾ أَيْ : طَرِيقًا وَمَسْلَكًا وَمَنْهَجًا يَقْتَدِي فِيهَا بِمَا جِئْتَ بِهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ أَيْ : فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا كُنْ مُتَوَكِّلًا عَلَى الله الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا ، الَّذِي هُوَ ﴿ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣] الدَّائِمُ الْبَاقِي ، السَّرْمَدِيُّ الْأَبَدِيُّ ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ ، اجْعَلْهُ ذُخْرَكَ وَمَلْجَأَكَ ، وَهُوَ الَّذِي يُتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَيُفْزَعُ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ وَمُظَفِّرُكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أَيْ : اِقْرِنْ بَيْنَ حَمْدِهِ وَتَسْبِيحِهِ ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ » أَيْ : أَخْلِصْ لَهُ الْعِبَادَةَ وَالتَّوَكُّلَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ أَيْ : بِعِلْمِهِ التَّامِّ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ . ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أَيْ : هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ الَّذِي خَلَقَ بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي سُفُولِهَا وَكَثَافَتِهَا ﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ أَيْ : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ وَيَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ أَيْ : اسْتَعْلِمْ عَنْهُ مَنْ هُوَ خَبِيرٌ بِهِ عَالِمٌ بِهِ فَاتَّبِعْهُ وَاقْتَدِ بِهِ ، وَقَدْ عُلِمَ أَنَّهُ لَا أَحَدَ أَعْلَمَ بِالله وَلَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ : مَا أَخْبَرْتُكَ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ كَمَا أَخْبَرْتُكَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِغَيْرِ الله مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أَيْ : لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ ، وَكَانُوا يُنْكِرُونَ أَنْ يُسَمَّى اللهَ بِاسْمِهِ الرَّحْمَنِ ، كَمَا أَنْكَرُوا ذَلِكَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ ، حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْكَاتِبِ « اُكْتُبْ : بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » فَقَالُوا : لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ وَلَا الرَّحِيمَ ، وَلَكِنِ اُكْتُبْ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ : بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ، وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء : ١١٠] أَيْ : هُوَ اللهُ وَهُوَ الرَّحْمَنُ ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أَيْ : لَا نَعْرِفُهُ وَلَا نُقِرُّ بِهِ ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ أَيْ : لِمُجَرَّدِ قَوْلِكَ ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ الَّذِي هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ وَيُفْرِدُونَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ وَيَسْجُدُونَ لَهُ .

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمَجِّدًا نَفْسَهُ وَمُعَظِّمًا عَلَى جَمِيلِ مَا خَلَقَ فِي السَّمَاوَاتِ مِنَ الْبُرُوجِ وَهِيَ الْكَوَاكِبُ الْعِظَامُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾[الملك : ٥] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا ﴾ وَهِيَ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ الَّتِي هِيَ كَالسِّرَاجِ فِي الْوُجُودِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾[النبأ : ١٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ أَيْ : مُشْرِقًا مُضِيئًا بِنُورٍ آخَرَ مِنْ غَيْرِ نُورِ الشَّمْسِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾[يونس : ٥]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ أَيْ : يَخْلُفُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ ، يَتَعَاقَبَانِ لَا يَفْتَرَانِ ، إِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا ، وَإِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ ذَاكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أَيْ : جَعَلَهُمَا يَتَعَاقَبَانِ تَوْقِيتًا لِعِبَادَةِ عِبَادِهِ لَهُ ﷻ ، فَمَنْ فَاتَهُ عَمَلٌ فِي اللَّيْلِ اِسْتَدْرَكَهُ فِي النَّهَارِ ، وَمَنْ فَاتَهُ عَمَلٌ فِي النَّهَارِ اِسْتَدْرَكَهُ فِي اللَّيْلِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ : ﴿ خِلْفَةً ﴾ أَيْ : مُخْتَلِفِينَ ، أَيْ هَذَا بِسَوَادِهِ وَهَذَا بِضِيَائِهِ .

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

هَذِهِ صِفَاتُ عِبَادِ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أَيْ : بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ ، مِنْ غَيْرِ جَبْرِيَّةٍ وَلَا اِسْتِكْبَارٍ ، وَلَا مَرَحٍ وَلَا أَشَرٍ وَلَا بَطَرٍ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَمْشُونَ كَالْمَرْضَى تَصَنُّعًا وَرِيَاءً ، فَقَدْ كَانَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ﷺ إِذَا مَشَى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ ، وَكَأَنَّمَا الْأَرْضُ تُطْوَى لَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ أَيْ : إِذَا سَفِهَ عَلَيْهِمُ الْجَاهِلُ بِالْقَوْلِ السَّيِّئِ لَمْ يُقَابِلُوهُمْ عَلَيْهِ بِمِثْلِهِ ، بَلْ يَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ وَلَا يَقُولُونَ إِلَّا خَيْرًا ، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا تَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَاهِلِ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْمًا ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ لَيْلَهُمْ خَيْرُ لَيْلٍ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ أَيْ : فِي طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[الذاريات : ١٧ - ١٨] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أَيْ : مُلَازِمًا دَائِمًا . وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ كُلُّ شَيْءٍ يُصِيبُ ابْنَ آدَمَ وَيَزُولُ عَنْهُ فَلَيْسَ بِغَرَامٍ ، وَإِنَّمَا الْغَرَامُ : اللَّازِمُ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أَيْ : بِئْسَ الْمَنْزِلُ مَنْظَرًا ،

وَبِئْسَ المَقِيلُ مَقَامًا . ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ الْآيَة . أَيْ : لَيْسُوا بِمُبَذِّرِينَ فِي إِنْفَاقِهِمْ فَيَصْرِفُونَ فَوْقَ الْحَاجَةِ ، وَلَا بُخَلَاءَ عَلَى أَهْلِيهِمْ فَيُقَصِّرُونَ فِي حَقِّهِمْ فَلَا يَكْفُونَهُمْ ، بَلْ عَدْلًا خِيَارًا ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا لَا هَذَا وَلَا هَذَا ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء : ٢٩]

وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ ؟ قَالَ : « **أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ** » قَالَ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : « **أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ** » قَالَ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : « **أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ** » قَالَ عَبْدُ الله : وَأَنْزَلَ اللهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ الْآيَة . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ **أَيْ** : جَزَاءً ، ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أَيْ : **يُكَرَّرُ عَلَيْهِ وَيُغَلَّظُ** ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ أَيْ : حَقِيرًا ذَلِيلًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ أَيْ : جَزَاؤُهُ عَلَى مَا فَعَلَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْقَبِيحَةِ مَا ذُكِرَ ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا إِلَى اللهِ ﷻ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ ، فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، **وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى صِحَّةِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ** ، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذِهِ وَبَيْنَ آيَةِ النِّسَاءِ ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ [النساء : ٩٣] ، فَإِنَّ هَذِهِ وَإِنْ كَانَتْ مَدَنِيَّةٌ إِلَّا أَنَّهَا مُطْلَقَةٌ فَتُحْمَلُ عَلَى مَنْ لَمْ يَتُبْ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ مُقَيَّدَةٌ بِالتَّوْبَةِ ، ثُمَّ قَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] **وَقَدْ ثَبَتَتِ السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِصِحَّةِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ** ، كَمَا ذُكِرَ مُقَرَّرًا مِنْ قِصَّةِ الَّذِي قَتَلَ مِائَةَ رَجُلٍ ثُمَّ تَابَ فَقَبِلَ اللهُ تَوْبَتَهُ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ **فِي مَعْنَاهَا قَوْلَانِ** : **أَحَدُهُمَا** : أَنَّهُمْ بُدِّلُوا مَكَانَ عَمَلِ السَّيِّئَاتِ بِعَمَلِ الْحَسَنَاتِ ، أَيْ : هُمُ الْمُؤْمِنُونَ كَانُوا مِنْ قَبْلِ إِيمَانِهِمْ عَلَى السَّيِّئَاتِ فَرَغِبَ اللهُ بِهِمْ عَنِ السَّيِّئَاتِ فَحَوَّلَهُمْ إِلَى الْحَسَنَاتِ ، فَأَبْدَلَهُمْ مَكَانَ السَّيِّئَاتِ الْحَسَنَاتِ .

وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ تِلْكَ السَّيِّئَاتِ الْمَاضِيَةَ تَنْقَلِبُ بِنَفْسِ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ حَسَنَاتٍ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُ كُلَّمَا تَذَكَّرَ مَا مَضَى نَدِمَ وَاسْتَرْجَعَ وَاسْتَغْفَرَ ، فَيَنْقَلِبُ الذَّنْبُ طَاعَةً بِهَذَا الِاعْتِبَارِ ، فَيَوْمُ

الْقِيَامَةِ وَإِنْ وَجَدَهُ مَكْتُوبًا عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ ، وَيَنْقَلِبُ حَسَنَةً فِي صَحِيفَتِهِ ، كَمَا ثَبَتَتِ السُّنَّةُ بِذَلِكَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عُمُومِ رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَأَنَّهُ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ تَابَ عَلَيْهِ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ جَلِيلًا أَوْ حَقِيرًا ، كَبِيرًا أَوْ صَغِيرًا ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ أَيْ : فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠]

وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾

وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ : أَنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ، **قِيلَ** : هُوَ الشِّرْكُ وَعِبَادَةُ الْأَصْنَامِ ، **وَقِيلَ** : الْكَذِبُ وَالْفِسْقُ وَالْكُفْرُ وَاللَّغْوُ وَالْبَاطِلُ ، **وَقِيلَ** : هُوَ اللَّغْوُ وَالْغِنَاءُ ، **وَقِيلَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ أَيْ : شَهَادَةُ الزُّورِ ، وَهِيَ الْكَذِبُ مُتَعَمِّدًا عَلَى غَيْرِهِ ، **وَالْأَظْهَرُ مِنَ السِّيَاقِ** أَنَّ الْمُرَادَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ أَيْ : لَا يَحْضُرُونَهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ أَيْ : لَا يَحْضُرُونَ الزُّورَ ، وَإِذَا اتَّفَقَ مُرُورُهُمْ بِهِ مَرُّوا وَلَمْ يَتَدَنَّسُوا مِنْهُ بِشَيْءٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ هَذِهِ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] ، **بِخِلَافِ الْكَافِرِ** فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَ كَلَامَ اللهِ لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ وَلَا يَتَغَيَّرُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ ، بَلْ يَبْقَى مُسْتَمِرًّا عَلَى كُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ وَجَهْلِهِ وَضَلَالِهِ . **فَقَوْلُهُ** : ﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : لَمْ يَسْمَعُوا ، وَلَمْ يُبْصِرُوا ، وَلَمْ يَفْقَهُوا شَيْئًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ **يَعْنِي** : الَّذِينَ يَسْأَلُونَ اللهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ مَنْ يُطِيعُهُ وَيَعْبُدُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . **رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : يَعْنُونَ مَنْ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ فَتَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . **وَقَالَ عِكْرِمَةُ** : لَمْ يُرِيدُوا بِذَلِكَ صَبَاحَةً وَلَا جَمَالًا ، وَلَكِنْ أَرَادُوا أَنْ يَكُونُوا مُطِيعِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : أَئِمَّةً يُقْتَدَى بِنَا فِي الْخَيْرِ . **وَقَالَ غَيْرُهُمْ** : هُدَاةً مُهْتَدِينَ ، دُعَاةً إِلَى الْخَيْرِ ، فَأَحَبُّوا أَنْ تَكُونَ عِبَادَتُهُمْ مُتَّصِلَةً بِعِبَادَةِ أَوْلَادِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَأَنْ يَكُونَ هُدَاهُمْ مُتَعَدِّيًا إِلَى غَيْرِهِمْ بِالنَّفْعِ وَذَلِكَ أَكْثَرُ ثَوَابًا وَأَحْسَنُ مَآبًا .

أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ

فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مِنْ أَوْصَافِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مَا ذَكَرَ مِنَ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الْجَلِيلَةِ ، قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ أَيْ : الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ ﴿ يُجْزَوْنَ ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَة ﴿ ٱلْغُرْفَةَ ﴾ وَهِيَ الْجَنَّةُ ، ﴿ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ أَيْ : عَلَى الْقِيَامِ بِذَلِكَ ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا ﴾ أَيْ : فِي الْجَنَّةِ ﴿ تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ أَيْ : يُبْتَدَءُونَ فِيهَا بِالتَّحِيَّةِ وَالْإِكْرَامِ ، وَيَلْقَوْنَ التَّوْقِيرَ وَالِاحْتِرَامَ ، فَلَهُمُ السَّلَامُ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مُقِيمِينَ لَا يَظْعَنُونَ ، وَلَا يُحَوَّلُونَ ، وَلَا يَمُوتُونَ ، وَلَا يَزُولُونَ عَنْهَا ، وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [هود : ١٠٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أَيْ : حَسُنَتْ مَنْظَرًا ، وَطَابَتْ مَقِيلًا وَمَنْزِلًا . ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى ﴾ أَيْ : لَا يُبَالِي بِكُمْ وَلَا يَكْتَرِثُ بِكُمْ إِذَا لَمْ تَعْبُدُوهُ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا خَلَقَ الْخَلْقَ لِيَعْبُدُوهُ وَيُوَحِّدُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . ﴿ لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ أَيْ : لَوْلَا إِيمَانُكُمْ . ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أَيْ : أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴾ أَيْ : فَسَوْفَ يَكُونُ تَكْذِيبُكُمْ لِزَامًا لَكُمْ ، يَعْنِي : مُقْتَضِيًا لِعَذَابِكُمْ وَهَلَاكِكُمْ وَدَمَارِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ يَوْمُ بَدْرٍ . **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴾ يَعْنِي : يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفُرْقَانِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٢٢٧ تفسير سورة الشعراء مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾
إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ
مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ

وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

أَمَّا الكَلَامُ عَلَى الحُرُوفِ المُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ ، فَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ سُورَةِ البَقَرَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ ءَايَتُ ٱلْكِتَبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أَيْ : هَذِهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْمُبِينِ ، أَيْ : الْبَيِّنُ الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ ، الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَعَلَّكَ بَخِعٌ ﴾ أَيْ : مُهْلِكٌ ﴿ نَّفْسَكَ ﴾ أَيْ : مِمَّا تَحْرِصُ عَلَيْهِمْ وَتَحْزَنُ عَلَيْهِمْ ﴿ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي عَدَمِ إِيمَانِ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنَ الْكُفَّارِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَتٍ ﴾ [فاطر : ٨] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَرِهِمْ ﴾ [الكهف : ٦] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَقُهُمْ لَهَا خَضِعِينَ ﴾ أَيْ : لَوْ شِئْنَا لَأَنْزَلْنَا آيَةً تَضْطَرُّهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ قَهْرًا ، وَلَكِنَّا لَا نَفْعَلُ ذَلِكَ ؛ لأَنَّا لَا نُرِيدُ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا الْإِيمَانَ الِاخْتِيَارِيَّ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] . فَنَفَذَ قَدَرُهُ وَمَضَتْ حِكْمَتُهُ ، وَقَامَتْ حُجَّتُهُ الْبَالِغَةُ عَلَى خَلْقِهِ ، بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ أَيْ : كُلَّمَا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنَ السَّمَاءِ أَعْرَضَ عَنْهُ أَكْثَرُ النَّاسِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هُهُنَا : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيْ : فَقَدْ كَذَّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ مِنَ الْحَقِّ ، فَسَيَعْلَمُونَ نَبَأَ هَذَا التَّكْذِيبِ بَعْدَ حِينٍ ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ ، ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى عَظَمَتِهِ فِي سُلْطَانِهِ وَجَلَالَةِ قَدْرِهِ وَشَأْنِهِ ، الَّذِي اجْتَرَءُوا عَلَى مُخَالَفَةِ رَسُولِهِ وَتَكْذِيبِ كِتَابِهِ ، وَهُوَ الْقَاهِرُ الْعَظِيمُ الْقَادِرُ ، الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ ، وَأَنْبَتَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ، مِنْ زُرُوعٍ وَثِمَارٍ وَحَيَوَانٍ . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أَيْ : دَلَالَةً عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ لِلْأَشْيَاءِ ، الَّذِي بَسَطَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بِنَاءَ السَّمَاءِ ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : وَمَعَ هَذَا مَا آمَنَ أَكْثَرُ النَّاسِ ، بَلْ كَذَّبُوا بِهِ وَبِرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ ، وَخَالَفُوا أَمْرَهُ وَارْتَكَبُوا زَوَاجِرَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : الَّذِي عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ وَقَهَرَهُ وَغَلَبَهُ ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أَيْ : بِخَلْقِهِ فَلَا يَعْجَلُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ بَلْ يُؤَجِّلُهُ وَيُنْظِرُهُ ثُمَّ يَأْخُذُهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ، وَقِيلَ : ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ فِي نِقْمَتِهِ وَانْتِصَارِهِ مِمَّنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَعَبَدَ غَيْرَهُ : ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ .

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ

﴿ ... وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۝ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَمَرَ بِهِ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ وَكَلِيمَهُ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ - صَلَوَاتُ اللهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - حَيْثُ نَادَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ، وَكَلَّمَهُ وَنَاجَاهُ، وَأَرْسَلَهُ وَاصْطَفَاهُ، وَأَمَرَهُ بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ۝ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ هَذِهِ أَعْذَارٌ سَأَلَ مِنَ اللهِ إِزَاحَتَهَا عَنْهُ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ طه: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٢٥-٣٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ قَتْلِ ذَلِكَ الْقِبْطِيِّ الَّذِي كَانَ سَبَبُ خُرُوجِهِ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ أَيْ: قَالَ اللهُ لَهُ لَا تَخَفْ مِنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ [القصص: ٣٥] أَيْ: بُرْهَانًا ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ [القصص: ٣٥] ﴿ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦] أَيْ: إِنَّنِي مَعَكُمَا بِحِفْظِي وَكِلَاءَتِي وَنَصْرِي وَتَأْيِيدِي. ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه: ٤٧] أَيْ: كُلٌّ مِنَّا رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أَيْ: أَطْلِقْهُمْ مِنْ إِسَارِكَ وَقَبْضَتِكَ وَقَهْرِكَ وَتَعْذِيبِكَ، فَإِنَّهُمْ عِبَادُ اللهِ الْمُؤْمِنُونَ، وَحِزْبُهُ الْمُخْلِصُونَ، وَهُمْ مَعَكَ فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ، فَلَمَّا قَالَ لَهُ مُوسَى ذَلِكَ أَعْرَضَ فِرْعَوْنُ هُنَالِكَ بِالْكُلِّيَّةِ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الِازْدِرَاءِ وَالْغَمْصِ.

فَقَالَ: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ الْآيَةَ، أَيْ: أَمَا أَنْتَ الَّذِي رَبَّيْنَاهُ فِينَا، وَفِي بَيْتِنَا، وَعَلَى فِرَاشِنَا، وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِ مُدَّةً مِنَ السِّنِينَ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا قَابَلْتَ ذَاكَ الْإِحْسَانَ بِتِلْكَ الْفَعْلَةِ، أَنْ قَتَلْتَ مِنَّا رَجُلًا وَجَحَدْتَ نِعْمَتَنَا عَلَيْكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أَيْ: الْجَاحِدِينَ ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا ﴾، أَيْ: فِي تِلْكَ الْحَالِ ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أَيْ:

قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيَّ، وَيُنْعِمَ اللهُ عَلَيَّ بِالرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ. **وَقِيلَ**: ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ أَيْ: الجَاهِلِينَ. ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾. الْآيَة. أَيْ: انْفَصَلَ الْحَالُ الْأَوَّلُ وَجَاءَ أَمْرٌ آخَرُ فَقَدْ أَرْسَلَنِي اللهُ إِلَيْكَ، فَإِنْ أَطَعْتَهُ سَلِمْتَ، وَإِنْ خَالَفْتَهُ عَطِبْتَ. **ثُمَّ قَالَ مُوسَى**: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أَيْ: وَمَا أَحْسَنْتَ إِلَيَّ وَرَبَّيْتَنِي مُقَابِلَ مَا أَسَأْتَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَجَعَلْتَهُمْ عَبِيدًا وَخَدَمًا، تَصْرِفُهُمْ فِي أَعْمَالِكَ وَمَشَاقِّ رَعِيَّتِكَ، أَفَيَفِي إِحْسَانُكَ إِلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا أَسَأْتَ إِلَى مَجْمُوعِهِمْ؟ أَيْ: لَيْسَ مَا ذَكَرْتَهُ شَيْئًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فَعَلْتَ بِهِمْ.

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كُفْرِ فِرْعَوْنَ وَتَمَرُّدِهِ وَطُغْيَانِهِ وَجُحُودِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِقَوْمِهِ ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨] ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وَكَانُوا يَجْحَدُونَ الصَّانِعَ - جَلَّ وَعَلَا - وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ لَا رَبَّ لَهُمْ سِوَى فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا قَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قَالَ لَهُ: وَمَنْ هَذَا الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ غَيْرِي؟، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ أَيْ: خَالِقُ جَمِيعِ ذَلِكَ وَمَالِكُهُ، وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِ وَإِلَهُهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، هُوَ اللهُ الَّذِي خَلَقَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا، الْجَمِيعُ عَبِيدٌ لَهُ خَاضِعُونَ ذَلِيلُونَ. ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ أَيْ: إِنْ كَانَتْ لَكُمْ قُلُوبٌ مُوقِنَةٌ وَأَبْصَارٌ نَافِذَةٌ. فَعِنْدَ ذَلِكَ الْتَفَتَ فِرْعَوْنُ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ مِنْ مَلَئِهِ وَرُؤَسَاءِ دَوْلَتِهِ، قَائِلًا لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ وَالاسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ لِمُوسَى فِيمَا قَالَهُ: ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ أَيْ: أَلَا تَعْجَبُونَ مِمَّا يَقُولُ هَذَا فِي زَعْمِهِ أَنَّ لَكُمْ إِلَهًا غَيْرِي؟ فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ: خَالِقُكُمْ وَخَالِقُ آبَائِكُمُ الْأَوَائِلِ، الَّذِي كَانُوا قَبْلَ فِرْعَوْنَ وَزَمَانِهِ ﴿ قَالَ ﴾ أي: فِرْعَوْنُ لِقَوْمِهِ: ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾، أَيْ: لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ فِي دَعْوَاهُ، أَنَّ ثَمَّ رَبًّا غَيْرِي، ﴿ قَالَ ﴾ أَيْ مُوسَى لِأُولَئِكَ الَّذِينَ أَوْعَزَ إِلَيْهِمْ فِرْعَوْنُ مَا أَوْعَزَ مِنَ الشُّبْهَةِ، فَأَجَابَ مُوسَى بِقَوْلِهِ: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْمَشْرِقَ مَشْرِقًا تَطْلُعُ مِنْهُ الْكَوَاكِبُ، وَالْمَغْرِب مَغْرِبًا تَغْرُبُ فِيهِ الْكَوَاكِبُ، ثَوَابِتُهَا وَسَيَّارَاتُهَا، مَعَ هَذَا النِّظَامِ الَّذِي سَخَّرَهَا فِيهِ وَقَدَّرَهَا، فَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي

يَزْعُمُ أَنَّهُ رَبّكُمْ وَإِلهكُمْ صادِقًا فَلْيَعْكِسِ الْأَمْرَ ، وَلْيَجْعَلِ الْمَشْرِقَ مَغْرِبًا وَالْمَغْرِبَ مَشْرِقًا ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ : ﴿ ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، وَلِهَذَا لَمَّا غُلِبَ فِرْعَوْنُ وَانْقَطَعَتْ حُجَّتُهُ عَدَلَ إِلَى اِسْتِعْمَالِ جَاهِهِ وَقُوَّتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَاعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لَهُ وَنَافِذٌ فِي مُوسَى عليه السلام فَقَالَ مَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ :

قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : بِبُرْهَانٍ قَاطِعٍ وَاضِحٍ . ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : ظَاهِرٌ وَاضِحٌ فِي غَايَةِ الْجَلَاءِ وَالْوُضُوحِ وَالْعَظَمَةِ ، ذَاتُ قَوَائِمَ وَفَمٍ كَبِيرٍ وَشَكْلٍ هَائِلٍ مُزْعِجٍ ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ ﴾ أَيْ : مِنْ جَيْبِهِ ﴿ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾ أَيْ : تَتَلَأْلَأُ كَقِطْعَةٍ مِنَ الْقَمَرِ ، فَبَادَرَ فِرْعَوْنُ - لِشَقَائِهِ - إِلَى التَّكْذِيبِ وَالْعِنَادِ ، **فَقَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ** : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : فَاضِلٌ بَارِعٌ فِي السِّحْرِ ، فَرَوَّجَ عَلَيْهِمْ فِرْعَوْنُ أَنَّ هَذَا مِنْ قَبِيلِ السِّحْرِ لَا مِنْ قَبِيلِ الْمُعْجِزَةِ ، ثُمَّ هَيَّجَهُمْ وَحَرَّضَهُمْ عَلَى مُخَالَفَتِهِ وَالْكُفْرِ بِهِ ، **فَقَالَ** : ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ ﴾ أَيْ : أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ بِقُلُوبِ النَّاسِ مَعَهُ بِسَبَبِ هَذَا ، فَيُكَثِّرَ أَعْوَانَهُ وَأَنْصَارَهُ وَأَتْبَاعَهُ ، وَيَغْلِبَكُمْ عَلَى دَوْلَتِكُمْ ، فَيَأْخُذَ الْبِلَادَ مِنْكُمْ ، فَأَشِيرُوا عَلَيَّ فِيهِ مَاذَا أَصْنَعُ بِهِ ؟ ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ أَيْ : أَخِّرْهُ وَأَخَاهُ حَتَّى تَجْمَعَ لَهُ مِنْ مَدَائِنِ مَمْلَكَتِكَ وَأَقَالِيمِ دَوْلَتِكَ كُلَّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ، يُقَابِلُونَهُ وَيَأْتُونَ بِنَظِيرِ مَا جَاءَ بِهِ ، فَتَغْلِبُهُ أَنْتَ وَتَكُونُ لَكَ النُّصْرَةُ وَالتَّأْيِيدُ ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، وَكَانَ هَذَا مِنْ تَسْخِيرِ اللهِ تَعَالَى لَهُمْ فِي ذَلِكَ ، لِيَجْتَمِعَ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَتَظْهَرَ آيَاتُ اللهِ وَحُجَجُهُ وَبَرَاهِينُهُ عَلَى النَّاسِ فِي النَّهَارِ جَهْرَةً .

فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ

لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾

ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْمَنَاظِرَ الْفِعْلِيَّةَ بَيْنَ مُوسَى عليه السلام وَالْقِبْطَ فِي «سُورَةِ الْأَعْرَافِ» وَفِي «سُورَةِ طه» وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ: وَذَلِكَ أَنَّ الْقِبْطَ أَرَادُوا أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، فَأَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَهَذَا شَأْنُ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ مَا تَوَاجَهَا وَتَقَابَلَا إِلَّا غَلَبَهُ الْإِيمَانُ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وَلِهَذَا لَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ وَقَدْ جَمَعُوهُمْ مِنْ أَقَالِيمِ بِلَادِ مِصْرَ، وَكَانُوا إِذْ ذَاكَ أَسْحَرَ النَّاسِ وَأَصْنَعَهُمْ وَأَشَدَّهُمْ تَخْيِيلًا فِي ذَلِكَ، وَكَانَ السَّحَرَةُ جَمْعًا كَثِيرًا وَجَمًّا غَفِيرًا.

وَاجْتَهَدَ النَّاسُ فِي الِاجْتِمَاعِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، **وَقَالَ قَائِلُهُمْ** ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ وَلَمْ يَقُولُوا نَتَّبِعُ الْحَقَّ سَوَاءً كَانَ مِنَ السَّحَرَةِ أَوْ مِنْ مُوسَى، بَلِ الرَّعِيَّةُ عَلَى دِينِ مَلِكِهِمْ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ أَيْ: إِلَى مَجْلِسِ فِرْعَوْنَ وَقَدْ ضَرَبُوا لَهُ وِطَاقًا، وَجَمَعَ خَدَمَهُ وَحَشَمَهُ وَوُزَرَاءَهُ وَرُؤَسَاءَ دَوْلَتِهِ وَجُنُودَ مَمْلَكَتِهِ، فَقَامَ السَّحَرَةُ بَيْنَ يَدَيْ فِرْعَوْنَ يَطْلُبُونَ مِنْهُ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ، وَالتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ إِنْ غَلَبُوا - أَيْ: هَذَا الَّذِي جَمَعْتَنَا مِنْ أَجْلِهِ - **فَقَالُوا**: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أَيْ: وَأَخَصُّ مِمَّا تَطْلُبُونَ أَجْعَلُكُمْ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدِي وَجُلَسَائِي، فَعَادُوا إِلَى مَقَامِ الْمُنَاظَرَةِ ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ [طه: ٦٥-٦٦]، وَقَدِ اخْتُصِرَ هَذَا هَهُنَا **فَقَالَ**: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وَهَذَا كَمَا يَقُولُهُ الْجَهَلَةُ مِنَ الْعَوَامِّ إِذَا فَعَلُوا شَيْئًا: هَذَا بِثَوَابِ فُلَانٍ. وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ «طه» ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٦-٦٩]، **وَقَالَ هَهُنَا**: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أَيْ: تَخْطَفُهُ وَتَجْمَعُهُ مِنْ كُلِّ بُقْعَةٍ وَتَبْتَلِعُهُ، فَلَمْ تَدَعْ مِنْهُ شَيْئًا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨-١٢٢]، وَكَانَ هَذَا أَمْرًا عَظِيمًا جِدًّا، وَبُرْهَانًا قَاطِعًا لِلْعُذْرِ وَحُجَّةً دَامِغَةً، وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ اسْتَنْصَرَ بِهِمْ وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَغْلِبُوا قَدْ غُلِبُوا وَخَضَعُوا وَآمَنُوا بِمُوسَى فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ، وَسَجَدُوا للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

تَهَدَّدَهُمْ فَلَمْ يَقْطَعْ ذَلِكَ فِيهِمْ ، وَتَوَعَّدَهُمْ فَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ كُشِفَ عَنْ قُلُوبِهِمْ حِجَابُ الْكُفْرِ ، وَظَهَرَ لَهُمُ الْحَقُّ بِعِلْمِهِمْ مَا جَهِلَ قَوْمُهُمْ ، مِنْ أَنَّ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَا يَصْدُرُ عَنْ بَشَرٍ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ اللهُ قَدْ أَيَّدَهُ بِهِ ، وَجَعَلَهُ لَهُ حُجَّةً وَدَلَالَةً عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَبِّهِ ؛ وَلِهَذَا **قَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ** ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أَيْ : كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَسْتَأْذِنُونِي ، فَإِنْ أَذِنْتُ لَكُمْ فَعَلْتُمْ ، وَإِنْ مَنَعْتُكُمْ اِمْتَنَعْتُمْ ، فَإِنِّي أَنَا الْحَاكِمُ الْمُطَاعُ ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ وَهَذِهِ مُكَابَرَةٌ يَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ بُطْلَانَهَا ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَجْتَمِعُوا بِمُوسَى قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ كَبِيرُهُمُ الَّذِي أَفَادَهُمْ صِنَاعَةَ السِّحْرِ ؟ هَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ . ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ فِرْعَوْنُ بِقَطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ وَالصَّلْبِ ، فَقَالُوا : ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ أَيْ : لَا حَرَجَ ، وَلَا يَضُرُّنَا ذَلِكَ وَلَا نُبَالِي بِهِ ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ أَيْ : الْمَرْجِعُ إِلَى اللهِ ﷻ وَهُوَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ، وَلِهَذَا **قَالُوا** : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ ﴾ أَيْ : مَا قَارَفْنَاهُ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴿ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ أَنَّا بَادَرْنَا قَوْمَنَا مِنَ الْقِبْطِ إِلَى الْإِيمَانِ فَقَتَلَهُمْ كُلَّهُمْ .

۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾

لَمَّا طَالَ مُقَامُ مُوسَى عليه السلام بِبِلَادِ مِصْرَ ، وَأَقَامَ بِهَا حُجَجَ اللهِ وَبَرَاهِينَهُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يُكَابِرُونَ وَيُعَانِدُونَ ، لَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِلَّا الْعَذَابُ وَالنَّكَالُ ، فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى مُوسَى عليه السلام أَنْ يَخْرُجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْلًا مِنْ مِصْرَ ، وَأَنْ يَمْضِيَ بِهِمْ حَيْثُ يُؤْمَرُ . فَفَعَلَ مُوسَى عليه السلام مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ ﷻ ، خَرَجَ بِهِمْ بَعْدَمَا اِسْتَعَارُوا مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ حُلِيًّا كَثِيرًا ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا وَلَيْسَ فِي نَادِيهِمْ دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ ، غَاظَ ذَلِكَ فِرْعَوْنَ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمَا يُرِيدُ اللهُ بِهِ مِنَ الدَّمَارِ ، فَأَرْسَلَ سَرِيعًا فِي بِلَادِهِ حَاشِرِينَ ، أَيْ : مَنْ يَحْشُرُ الْجُنْدَ وَيَجْمَعُهُ ، كَالنُّقَبَاءِ وَالْحُجَّابِ ، وَنَادَى فِيهِمْ ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يَعْنِي : بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ أَيْ : لَطَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا

لَغَآيِظُونَ ﴾ أَيْ : كُلُّ وَقْتٍ يَصِلُ مِنْهُمْ إِلَيْنَا مَا يَغِيظُنَا ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴾ أَيْ : نَحْنُ كُلَّ وَقْتٍ نَحْذَرُ مِنْ غَائِلَتِهِمْ ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْتَأْصِلَ شَأْفَتَهُمْ ، وَأُبِيدَ خَضْرَاءَهُمْ ، فَجُوزِيَ فِي نَفْسِهِ وَجُنْدِهِ بِمَا أَرَادَ لَهُمْ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ أَيْ : فَخَرَجُوا مِنْ هَذَا النَّعِيمِ إِلَى الْجَحِيمِ ، وَتَرَكُوا تِلْكَ الْمَنَازِلَ الْعَالِيَةَ ، وَالْبَسَاتِينَ وَالْأَنْهَارَ ، وَالْأَمْوَالَ وَالْأَرْزَاقَ ، وَالْمُلْكَ وَالْجَاهَ الْوَافِرَ فِي الدُّنْيَا .

كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص : ٥]

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ فِرْعَوْنَ خَرَجَ فِي جَحْفَلٍ عَظِيمٍ وَجَمْعٍ كَبِيرٍ ، هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ مَمْلَكَةِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ فِي زَمَانِهِ ، أُولِي الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالدُّوَلِ ، مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ وَالْكُبَرَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ وَالْجُنُودِ ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ أَيْ : وَصَلُوا إِلَيْهِمْ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ ، وَهُوَ طُلُوعُهَا ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ ﴾ أَيْ : رَأَى كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ صَاحِبَهُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ انْتَهَى بِهِمُ السَّيْرُ إِلَى سِيفِ الْبَحْرِ - وَهُوَ بَحْرُ الْقُلْزُمِ - فَصَارَ أَمَامَهُمُ الْبَحْرُ ، وَقَدْ أَدْرَكَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ، فَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ أَيْ : لَا يَصِلُ إِلَيْكُمْ شَيْءٌ مِمَّا تَحْذَرُونَ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي أَمَرَنِي أَنْ أَسِيرَ هَهُنَا بِكُمْ ، وَهُوَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

وَأَوْحَى اللهُ إِلَى مُوسَى ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ فَضَرَبَهُ بِهَا ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أَيْ : كَالْجَبَلِ الْكَبِيرِ ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ﴾ أَيْ : هُنَالِكَ ﴿ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾ أَيْ : قَرَّبْنَا فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ مِنَ الْبَحْرِ وَأَدْنَيْنَاهُمْ إِلَيْهِ ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴾ أَيْ : أَنْجَيْنَا مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَنْ مَعَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ فَلَمْ يَهْلَكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَأَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا هَلَكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أَيْ : فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ وَالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ لِعِبَادِ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ لَدَلَالَةٌ وَحُجَّةٌ قَاطِعَةٌ وَحِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ(١).

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ إِمَامِ الْحُنَفَاءِ ، أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَتْلُوهُ عَلَى أُمَّتِهِ ، لِيَقْتَدُوا بِهِ فِي الْإِخْلَاصِ وَالتَّوَكُّلِ وَعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالتَّبَرِّي مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ ، فَقَالَ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أَيْ : مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ؟ ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ أَيْ : مُقِيمِينَ عَلَى عِبَادَتِهَا وَدُعَائِهَا ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يَعْنِي : اِعْتَرَفُوا بِأَنَّ أَصْنَامَهُمْ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا رَأَوْا آبَاءَهُمْ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ، فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ . فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ شَيْئًا ، وَلَهَا تَأْثِيرٌ فَلْتَخْلُصْ إِلَيَّ بِالْمَسَاءَةِ ، فَإِنِّي عَدُوٌّ لَهَا لَا أُبَالِيهَا وَلَا أُفَكِّرُ فِيهَا ، وَهَكَذَا تَبَرَّأَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ ﴾ [الأنعام : ٨١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً ﴾ [الزخرف : ٢٦-٢٨] يَعْنِي : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ . يَعْنِي : لَا أَعْبُدُ إِلَّا الَّذِي يَفْعَلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أَيْ : هُوَ الْخَالِقُ الَّذِي قَدَّرَ قَدَرًا وَهَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ ، فَكُلٌّ يَجْرِي عَلَى مَا قَدَرَ ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ .

وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾

---

(١) راجع تفسير آية (٩ - ١٠) من هذه السورة .

﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ أَيْ : هُوَ خَالِقِي وَرَازِقِي ، بِمَا سَخَّرَ وَيَسَّرَ مِنَ الْأَسْبَابِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ ، فَسَاقَ الْمُزْنَ ، وَأَنْزَلَ الْمَاءَ ، وَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ ، وَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ، وَأَنْزَلَ الْمَاءَ عَذْبًا زُلَالًا يَسْقِيهِ مِمَّا خَلَقَ أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أَسْنَدَ الْمَرَضَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَإِنْ كَانَ عَنْ قَدَرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ ، وَلَكِنْ أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ أَدَبًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى آمِرًا الْمُصَلِّي أَنْ يَقُولَ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ، فَأَسْنَدَ الْإِنْعَامَ وَالْهِدَايَةَ إِلَى اللهِ تَعَالَى ، وَالْغَضَبُ حُذِفَ فَاعِلُهُ أَدَبًا ، وَأَسْنَدَ الضَّلَالَ إِلَى الْعَبِيدِ ، كَمَا قَالَتِ الْجِنُّ ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٠] ، وَلِهَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أَيْ : إِذَا وَقَعْتُ فِي مَرَضٍ فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شِفَائِي أَحَدٌ غَيْرُهُ ، بِمَا يُقَدِّرُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَيْهِ .

﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ أَيْ : هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ أَيْ : الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى غُفْرَانِ الذُّنُوبِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا هُوَ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ ، وَهُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ .

رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

وَهَذَا سُؤَالٌ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام أَنْ يُؤْتِيَهُ رَبُّهُ حُكْمًا . قِيلَ : وَهُوَ الْعِلْمُ ، وَقِيلَ : هُوَ الْقُرْآنُ ، وَقِيلَ : هُوَ النُّبُوَّةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أَيْ : اِجْعَلْنِي مَعَ الصَّالِحِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ أَيْ : وَاجْعَلْ لِي ذِكْرًا جَمِيلًا بَعْدِي أُذْكَرُ بِهِ ، وَيُقْتَدَى بِي فِي الْخَيْرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٨-١١٠] قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ : ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ يَعْنِي : الثَّنَاءَ الْحَسَنَ ، قَالَ مُجَاهِدٌ : وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٢] . قِيلَ : كُلُّ مِلَّةٍ تُحِبُّهُ وَتَتَوَلَّاهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أَيْ : أَنْعِمْ عَلَيَّ فِي الدُّنْيَا بِبَقَاءِ الذِّكْرِ الْجَمِيلِ بَعْدِي ، وَفِي الْآخِرَةِ بِأَنْ تَجْعَلَنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ . ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ الْآيَةَ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ [إبراهيم : ٤١] ، وَهَذَا مِمَّا رَجَعَ عَنْهُ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام كَمَا قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾[التوبة : ١١٤] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أَيْ : أَجِرْنِي مِنَ الْخِزْيِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ الْخَلَائِقُ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ .وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَقِي الْمَرْءَ مِنْ عَذَابِ الله مَالُهُ ، وَلَوِ افْتَدَى بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا ﴿ وَلَا بَنُونَ ﴾ أَيْ : وَلَوِ افْتَدَى بِمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ، وَلَا يَنْفَعُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الْإِيمَانُ بِالله وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ ، وَالتَّبَرِّي مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ ،وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أَيْ : سَالِمٌ مِنَ الدَّنَسِ وَالشِّرْكِ .

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ ﴾ أَيْ : قُرِّبَتْ وَأُدْنِيَتْ مِنْ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ أَيْ : أُظْهِرَتْ وَكُشِفَ عَنْهَا ، وَبَدَتْ مِنْهَا عُنُقٌ ، فَزَفَرَتْ زَفْرَةً بَلَغَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَقِيلَ لِأَهْلِهَا تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أَيْ : لَيْسَتِ الْآلِهَةُ الَّتِي عَبَدْتُمُوهَا مِنْ دُونِ الله – مِنْ تِلْكَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ – تُغْنِي عَنْكُمُ الْيَوْمَ شَيْئًا ، وَلَا تَدْفَعُ عَنْ أَنْفُسِهَا ، فَإِنَّكُمْ وَإِيَّاهَا الْيَوْمَ حَصَبُ جَهَنَّم ، أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ يَعْنِي : فَدُهْوِرُوا فِيهَا ، وَقَالَ غَيْرُهُ : كُبُّوا فِيهَا ، وَالْكَافُ مُكَرَّرَةٌ ، كَمَا يُقَالُ : صَرْصَرٌ . وَالْمُرَادُ : أَنَّهُ أُلْقِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْكُفَّارِ وَقَادَتِهِمُ الَّذِينَ دَعَوْهُمْ إِلَى الشِّرْكِ ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ أَيْ : أُلْقُوا فِيهَا عَنْ آخِرِهِمْ ﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ أَيْ : يَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾[غافر : ٤٧] . وَيَقُولُونَ وَقَدْ عَادُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : نَجْعَلُ أَمْرَكُمْ مُطَاعًا كَمَا يُطَاعُ أَمْرُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَعَبَدْنَاكُمْ مَعَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أَيْ : مَا دَعَانَا إِلَى ذَلِكَ إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : يَعْنِي : مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، كَمَا يَقُولُونَ : ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف : ٥٣] ، وَكَذَا قَالُوا :

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ أَيْ : قَرِيبٍ . **قَالَ قَتَادَةُ** : يَعْلَمُونَ وَاللهِ أَنَّ الصَّدِيقَ إِذَا كَانَ صَالِحًا نَفَعَ ، وَأَنَّ الْحَمِيمَ إِذَا كَانَ صَالِحًا شَفَعَ ، ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَتَمَنَّوْنَ أَنَّهُمْ يُرَدُّوا إِلَى دَارِ الدُّنْيَا ؛ لِيَعْمَلُوا بِطَاعَةِ رَبِّهِمْ فِيمَا يَزْعُمُونَ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ رَدَّهُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : أَنَّ فِي مُحَاجَّةِ إِبْرَاهِيمَ لِقَوْمِهِ وَإِقَامَتِهِ الْحُجَجَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْحِيدِ لَآيَةٌ وَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ ﷻ عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوحٍ ﷺ ، وَهُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ بُعِثَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، بَعْدَمَا عُبِدَتِ الْأَصْنَامُ وَالْأَنْدَادُ ، بَعَثَهُ اللهُ نَاهِيًا عَنْ ذَلِكَ وَمُحَذِّرًا مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ ، فَكَذَّبَهُ قَوْمُهُ فَاسْتَمَرُّوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْفِعَالِ الْخَبِيثَةِ فِي عِبَادَتِهِمْ أَصْنَامِهِمْ ، يَتَنَزَّلُ تَكْذِيبُهُمْ لَهُ مَنْزِلَةَ تَكْذِيبِ جَمِيعِ الرُّسُلِ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : أَلَا تَخَافُونَ اللهَ فِي عِبَادَتِكُمْ غَيْرَهُ . ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أَيْ : إِنِّي رَسُولٌ مِنَ اللهِ إِلَيْكُمْ ، أَمِينٌ فِيمَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَةَ اللهِ وَلَا أَزِيدُ فِيهَا وَلَا أُنْقِصُ مِنْهَا ، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أَيْ : لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ جَزَاءً عَلَى نُصْحِي لَكُمْ ، بَلْ أَدَّخِرُ ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فَقَدْ وَضَحَ لَكُمْ وَبَانَ صِدْقِي وَنُصْحِي وَأَمَانَتِي فِيمَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ وَائْتَمَنَنِي عَلَيْهِ .

قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾

يَقُولُونَ : أَنُؤْمِنُ لَكَ وَنَتَّبِعُكَ وَنَتَسَاوَى فِي ذَلِكَ بِهَؤُلَاءِ الْأَرَاذِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ وَصَدَّقُوكَ وَهُمْ أَرَاذِلُنَا ؟ ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : وَأَيُّ شَيْءٍ يَلْزَمُنِي مِنِ اتِّبَاعِ هَؤُلَاءِ لِي ، وَلَوْ كَانُوا عَلَى أَيِّ شَيْءٍ كَانُوا عَلَيْهِ لَا يَلْزَمُنِي التَّنْقِيبُ عَنْهُمْ وَالْبَحْثُ وَالْفَحْصُ ، إِنَّمَا عَلَيَّ أَنْ أَقْبَلَ مِنْهُمْ تَصْدِيقَهُمْ إِيَّايَ ، وَأَكِلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كَأَنَّهُمْ سَأَلُوا مِنْهُ أَنْ يُبْعِدَهُمْ عَنْهُ وَيُتَابِعُوهُ ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ، وَقَالَ : ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أَيْ : إِنَّمَا بُعِثْتُ نَذِيرًا ، فَمَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَنِي وَصَدَّقَنِي كَانَ مِنِّي وَكُنْتُ مِنْهُ ، سَوَاءً كَانَ شَرِيفًا أَوْ وَضِيعًا ، جَلِيلًا أَوْ حَقِيرًا .

قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

لَمَّا طَالَ مُقَامُ نَبِيِّ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَسِرًّا وَجِهَارًا ، وَكُلَّمَا كَرَّرَ عَلَيْهِمُ الدَّعْوَةَ صَمَّمُوا عَلَى الْكُفْرِ الْغَلِيظِ ، وَالِامْتِنَاعِ الشَّدِيدِ وَقَالُوا فِي الْآخِرِ ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ أَيْ : عَنْ دَعْوَتِكَ إِيَّانَا إِلَى دِينِكَ يَانُوحُ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ أَيْ : لَنَرْجُمَنَّكَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ دَعَا عَلَيْهِمْ دَعْوَةً اسْتَجَابَ اللهُ مِنْهُ ، فَقَالَ : ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ الْآيَةَ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر : ١٠] الْآيَاتُ . وَقَالَ هَهُنَا : ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ وَالْمَشْحُونُ : هُوَ الْمَمْلُوءُ بِالْأَمْتِعَةِ وَالْأَزْوَاجِ الَّتِي حُمِلَ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، أَيْ : أَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ كُلَّهُمْ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ وَأَغْرَقْنَا مَنْ كَذَّبَهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ كُلَّهُمْ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ .

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾

وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ هُودٍ عليه السلام أَنَّهُ دَعَا قَوْمَهُ عَادًا وَكَانُوا قَوْمًا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ ، وَهِيَ : جِبَالُ الرَّمْلِ ، قَرِيبًا مِنْ بِلَادِ حَضْرَمَوْتَ ، أَنَّهُمْ كَانُوا فِي غَايَةٍ مِنْ قُوَّةِ التَّرْكِيبِ ، وَالْقُوَّةِ وَالْبَطْشِ الشَّدِيدِ ، وَالطُّولِ الْمَدِيدِ ، وَالْأَرْزَاقِ الدَّارَّةِ ، وَالْأَمْوَالِ وَالْجَنَّاتِ

وَالْأَنْهَارِ ، وَالْأَبْنَاءِ ، وَالزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ، وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللهِ مَعَهُ ، فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْهُمْ رَسُولًا وَبَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ وَحَذَّرَهُمْ نِقْمَتَهُ وَعَذَابَهُ فِي مُخَالَفَتِهِ ، فَقَالَ لَهُمْ كَمَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ ، **إِلَى أَنْ قَالَ** : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ **اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الرِّيعِ بِمَا حَاصِلُهُ** : أَنَّهُ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ عِنْدَ جَوَادِّ الطُّرُقِ الْمَشْهُورَةِ ، تَبْنُونَ هُنَاكَ بِنَاءً مُحْكَمًا هَائِلًا بَاهِرًا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً ﴾ أَيْ : مَعْلَمًا بِنَاءً مَشْهُورًا ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ وَإِنَّمَا تَفْعَلُونَ ذَلِكَ عَبَثًا لَا لِلِاحْتِيَاجِ إِلَيْهِ بَلْ لِمُجَرَّدِ اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ وَإِظْهَارِ الْقُوَّةِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : الْمَصَانِعُ : الْبُرُوجُ الْمُشَيَّدَةُ وَالْبُنْيَانُ الْمُخَلَّدُ ، **وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ** : بُرُوجُ الْحَمَامِ . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أَيْ : لِكَيْ تُقِيمُوا فِيهَا أَبَدًا ، وَذَلِكَ لَيْسَ بِحَاصِلٍ لَكُمْ ، بَلْ زَائِلٌ عَنْكُمْ كَمَا زَالَ عَمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ .﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ أَيْ : يَصِفُهُمْ بِالْقُوَّةِ وَالْغِلْظَةِ وَالْجَبَرُوتِ ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ أَيْ : اُعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَطِيعُوا رَسُولَكُمْ . ثُمَّ شَرَعَ يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ . فَقَالَ : ﴿ وَاتَّقُواْ الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أَيْ : إِنْ كَذَّبْتُمْ وَخَالَفْتُمْ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ فَمَا نَفَعَ فِيهِمْ .

قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ جَوَابِ قَوْمِ هُودٍ لَهُ ، بَعْدَ مَا حَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ وَرَغَّبَهُمْ وَرَهَّبَهُمْ وَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقَّ وَوَضَّحَهُ ﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَٰعِظِينَ ﴾ أَيْ : لَا نَرْجِعُ عَمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : ٥٣] ، وَهَكَذَا الْأَمْر ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : ٦]

وَقَوْلُهُمْ : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ يَعْنُونَ : دِينَهُمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ هُوَ دِينُ الْأَوَائِلِ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، وَنَحْنُ تَابِعُونَ لَهُمْ ، سَالِكُونَ وَرَاءَهُمْ ، نَعِيشُ كَمَا عَاشُوا ، وَنَمُوتُ كَمَا مَاتُوا ، وَلَا بَعْثَ وَلَا مَعَادَ ، **وَلِهَذَا قَالُوا** : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ أَيْ : اِسْتَمَرُّوا عَلَى تَكْذِيبِ نَبِيِّ اللهِ هُودٍ وَمُخَالَفَتِهِ وَعِنَادِهِ فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُرْسِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ إِلَّا مِقْدَارُ أَنْفِ الثَّوْرِ ، عَتَتْ عَلَى الْخَزَنَةِ ، فَأَذِنَ اللهُ لَهَا فِي ذَلِكَ ، فَسَلَكَتْ فَحَصَبَتْ بِلَادَهُمْ ، فَحَصَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ ، كَمَا

قَالَ تَعَالَى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف : ٢٥] الْآيَة ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ حُسُومًا ﴾ [الحاقة : ٦-٧] أَيْ : كَامِلَةً ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٧] أَيْ : بَقُوا أَبْدَانًا بِلَا رُءُوسٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ تَأْتِي الرَّجُلَ مِنْهُمْ فَتَقْتَلِعُهُ وَتَرْفَعُهُ فِي الْهَوَاءِ ثُمَّ تُنَكِّسُهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَتَشْدَخُ دِمَاغَهُ وَتَكْسِرُ رَأْسَهُ وَتُلْقِيهِ ، كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ، وَقَدْ كَانُوا تَحَصَّنُوا فِي الْجِبَالِ وَالْكُهُوفِ وَالْمَغَارَاتِ ، وَحَفَرُوا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ إِلَى أَنْصَافِهِمْ ، فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ ذَلِكَ عَنْ أَمْرِ اللهِ شَيْئًا .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾

وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ ﷻ عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَالِحٍ ﷺ ، أَنَّهُ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ ثَمُودَ وَكَانُوا عَرَبًا يَسْكُنُونَ مَدِينَةَ الْحِجْرِ الَّتِي بَيْنَ وَادِي الْقُرَى وَبِلَادِ الشَّامِ ، وَكَانُوا بَعْدَ عَادٍ وَقَبْلَ الْخَلِيلِ ﷺ فَدَعَاهُمْ نَبِيُّهُمْ صَالِحٌ إِلَى اللهِ ﷻ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ يُطِيعُوهُ فِيمَا بَلَّغَهُمْ مِنَ الرِّسَالَةِ ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يَبْتَغِي بِدَعْوَتِهِمْ أَجْرًا مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا يَطْلُبُ ثَوَابَ ذَلِكَ مِنَ اللهِ ﷻ ، ثُمَّ ذَكَّرَهُمْ آلَاءَ اللهِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ :

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾

يَقُولُ لَهُمْ وَاعِظًا لَهُمْ وَمُحَذِّرًا إِيَّاهُمْ نِقَمَ اللهِ أَنْ تَحِلَّ بِهِمْ ، وَمُذَكِّرًا بِأَنْعُمِ اللهِ عَلَيْهِمْ فِيمَا رَزَقَهُمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ الدَّارَّةِ ، وَجَعَلَهُمْ فِي أَمْنٍ مِنَ الْمَحْذُورَاتِ ، وَأَنْبَتَ لَهُمْ مِنَ الْجَنَّاتِ ، وَفَجَّرَ لَهُمْ مِنَ الْعُيُونِ الْجَارِيَاتِ ، وَأَخْرَجَ لَهُمْ مِنَ الزُّرُوعِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قِيلَ : أَيْنَعَ وَبَلَغَ فَهُوَ هَضِيمٌ ، وَقِيلَ : مُعْشِبَةٌ ، وَقِيلَ : إِذَا رَطُبَ وَاسْتَرْخَى ، وَقِيلَ : الْهَضِيمُ : الرَّطْبُ اللَّيِّنُ . ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : حَاذِقِينَ ، وَقِيلَ : شَرِهِينَ أَشِرِينَ ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ تِلْكَ الْبُيُوتَ الْمَنْحُوتَةَ فِي الْجِبَالِ أَشَرًا وَبَطَرًا وَعَبَثًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى سُكْنَاهَا ، وَكَانُوا حَاذِقِينَ مُتْقِنِينَ لِنَحْتِهَا وَنَقْشِهَا ، كَمَا هُوَ الْمُشَاهَدُ مِنْ حَالِهِمْ لِمَنْ رَأَى مَنَازِلَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ أَيْ : أَقْبِلُوا عَلَى مَا

يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، مِنْ عِبَادَةِ رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ ؛ لِتَعْبُدُوهُ وَتُوَحِّدُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ يَعْنِي : رُؤَسَاءَهُمْ وَكُبَرَاءَهُمْ ، الدُّعَاةُ لَهُمْ إِلَى الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَمُخَالَفَةِ الْحَقِّ .

قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ثَمُودَ فِي جَوَابِهِمْ لِنَبِيِّهِمْ صَالِحٍ عليه السلام حِينَ دَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ يَعْنُونَ : مِنَ الْمَسْحُورِينَ ، **يَقُولُونَ** : إِنَّمَا أَنْتَ فِي قَوْلِكَ هَذَا مَسْحُورٌ لَا عَقْلَ لَكَ . **ثُمَّ قَالُوا** : ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ يَعْنِي : فَكَيْفَ أُوحِيَ إِلَيْكَ دُونَنَا ؟، كَمَا قَالُوا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ [القمر : ٢٥ - ٢٦] ثُمَّ إِنَّهُمُ اقْتَرَحُوا عَلَيْهِ آيَةً يَأْتِيهِمْ بِهَا ؛ لِيَعْلَمُوا صِدْقَهُ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِمْ فَطَلَبُوا مِنْهُ وَقَدِ اجْتَمَعَ مَلَؤُهُمْ أَنْ يُخْرِجَ لَهُمُ الْآنَ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ نَاقَةً عُشَرَاءَ - وَأَشَارُوا إِلَى صَخْرَةٍ عِنْدَهُمْ - مِنْ صِفَتِهَا كَذَا وَكَذَا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ عَلَيْهِمْ نَبِيُّ اللهِ صَالِحٌ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ لَئِنْ أَجَابَهُمْ إِلَى مَا سَأَلُوا لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَتَّبِعُنَّهُ ، فَأَعْطَوْهُ ذَلِكَ ، فَقَامَ نَبِيُّ اللهِ صَالِحٌ عليه السلام فَصَلَّى ثُمَّ دَعَا اللهَ عز وجل أَنْ يُجِيبَهُمْ إِلَى سُؤَالِهِمْ ، فَانْفَطَرَتْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ الَّتِي أَشَارُوا إِلَيْهَا عَنْ نَاقَةٍ عُشَرَاءَ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي وَصَفُوهَا ، فَآمَنَ بَعْضُهُمْ وَكَفَرَ أَكْثَرُهُمْ . ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ يَعْنِي : تَرِدُ مَاءَكُمْ يَوْمًا ، وَيَوْمًا تَرِدُونَهُ أَنْتُمْ . ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فَحَذَّرَهُمْ نِقْمَةَ اللهِ إِنْ أَصَابُوهَا بِسُوءٍ ، فَمَكَثَتِ النَّاقَةُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ تَرِدُ الْمَاءَ ، وَتَأْكُلُ الْوَرَقَ وَالْمَرْعَى ، وَيَنْتَفِعُونَ بِلَبَنِهَا يَحْلِبُونَ مِنْهَا مَا يَكْفِيهِمْ شُرْبًا وَرِيًّا ، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ وَحَضَرَ شَقَاؤُهُمْ تَمَالَئُوا عَلَى قَتْلِهَا وَعَقْرِهَا ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ وَهُوَ أَنَّ أَرْضَهُمْ زُلْزِلَتْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ، وَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ عَظِيمَةٌ اقْتَلَعَتِ الْقُلُوبَ مِنْ مَحَالِّهَا ، وَأَتَاهُمْ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ، وَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ لُوطٍ عليه السلام وَهُوَ اِبْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عليه السلام ، وَكَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ بَعَثَهُ إِلَى أُمَّةٍ عَظِيمَةٍ فِي حَيَاةِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَكَانُوا يَسْكُنُونَ « سَدُوم » فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ عز وجل أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ يُطِيعُوا رَسُولَهُمُ الَّذِي بَعَثَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ ، وَارْتِكَابِ مَا كَانُوا قَدِ ابْتَدَعُوهُ فِي الْعَالَمِ ، مِمَّا لَمْ يَسْبِقْهُمُ الْخَلَائِقُ إِلَى فِعْلِهِ ، مِنْ إِتْيَانِ الذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى :

أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

لَمَّا نَهَاهُمْ نَبِيُّ اللهِ عَنِ ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ وَغَشَيَانِهِمُ الذُّكُورَ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى إِتْيَانِ نِسَائِهِمُ اللَّاتِي خَلَقَهُنَّ اللهُ لَهُمْ ، مَا كَانَ جَوَابُهُمْ لَهُ إِلَّا أَنْ قَالُوا : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ ﴾ أَيْ : عَمَّا جِئْتَنَا بِهِ ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾ أَيْ : نَنْفِيكَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٢] ، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُمْ لَا يَرْتَدِعُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ ، وَأَنَّهُمْ مُسْتَمِرُّونَ عَلَى ضَلَالَتِهِمْ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ ، **وَقَالَ** : ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾ أَيْ : الْمُبْغِضِينَ ، لَا أُحِبُّهُ وَلَا أَرْضَى بِهِ ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِنْكُمْ ، ثُمَّ دَعَا اللهَ عَلَيْهِمْ ، **فَقَالَ** : ﴿ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ أَيْ : كُلَّهُمْ ، ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾ وَهِيَ اِمْرَأَتُهُ ، وَكَانَتْ عَجُوزَ سَوْءٍ ، بَقِيَتْ فَهَلَكَتْ مَعَ مَنْ بَقِيَ مِنْ قَوْمِهَا ، وَذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي سُورَةِ « الْأَعْرَاف » ، « وَهُود » وَكَذَا فِي « الْحِجْر » حِينَ أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَسْرِيَ بِأَهْلِهِ إِلَّا اِمْرَأَتَهُ ، وَأَنَّهُمْ لَا يَلْتَفِتُوا إِذَا سَمِعُوا الصَّيْحَةَ حِينَ تَنْزِلُ عَلَى قَوْمِهِ ، فَصَبَرُوا لِأَمْرِ اللهِ وَاسْتَمَرُّوا ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى أُولَئِكَ الْعَذَابَ الَّذِي عَمَّ جَمِيعَهُمْ ، وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾

إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾

هَؤُلَاءِ - أَعْنِي : أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ - هُمْ أَهْلُ مَدْيَنَ عَلَى الصَّحِيحِ ، وَكَانَ نَبِيُّ الله شُعَيْبٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ هَهُنَا : أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ ؛ لِأَنَّهُمْ نُسِبُوا إِلَى عِبَادَةِ الْأَيْكَةِ ، وَهِيَ شَجَرَةٌ ، وَقِيلَ : شَجَرٌ مُلْتَفٌّ كَالْغَيْضَةِ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا ؛ فَلِهَذَا لَمَّا قَالَ : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ لَمْ يَقُلْ : « إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ » . وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ فَقَطَعَ نَسَبَ الْأُخُوَّةِ بَيْنَهُمْ ؛ لِلْمَعْنَى الَّذِي نُسِبُوا إِلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُمْ نَسَبًا ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَمْ يَفْطِنْ لِهَذِهِ النُّكْتَةِ فَظَنَّ أَنَّ أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ غَيْرُ أَهْلِ مَدْيَنَ ، فَزَعَمَ أَنَّ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أُمَّتَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : ثَلَاثَ أُمَمٍ . وَالصَّحِيحُ : أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ ، وُصِفُوا فِي كُلِّ مَقَامٍ بِشَيْءٍ ؛ وَلِهَذَا وَعَظَ هَؤُلَاءِ وَأَمَرَهُمْ بِوَفَاءِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ ، كَمَا فِي قِصَّةِ مَدْيَنَ سَوَاءً ، بِسَوَاءٍ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمَا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ .

۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾

يَأْمُرُهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِيفَاءِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّطْفِيفِ فِيهِمَا ، فَقَالَ : ﴿ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴾ أَيْ : إِذَا دَفَعْتُمْ لِلنَّاسِ فَكَمِّلُوا الْكَيْلَ لَهُمْ ، وَلَا تَبْخَسُوا الْكَيْلَ فَتُعْطُوهُ نَاقِصًا ، وَتَأْخُذُوهُ إِذَا كَانَ لَكُمْ تَامًّا وَافِيًا ، وَلَكِنْ خُذُوا كَمَا تُعْطُونَ وَأَعْطُوا كَمَا تَأْخُذُونَ . ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ وَالْقِسْطَاسُ : هُوَ الْمِيزَانُ ، وَقِيلَ : هُوَ الْقَبَّانُ ، وَقِيلَ : الْقِسْطَاسُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ : الْعَدْلُ بِالرُّومِيَّةِ . ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ أَيْ : لَا تُنْقِصُوهُمْ أَمْوَالَهُمْ ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ يَعْنِي : قَطْعَ الطَّرِيقِ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يُخَوِّفُهُمْ بَأْسَ اللهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَخَلَقَ آبَاءَهُمُ الْأَوَائِلَ .

قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ

﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَوَابِ قَوْمِهِ لَهُ بِمِثْلِ مَا أَجَابَتْ بِهِ ثَمُودُ لِرَسُولِهَا ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ حَيْثُ **قَالُوا** : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ يَعْنُونَ : مِنَ الْمَسْحُورِينَ ، كَمَا تَقَدَّمَ ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أَيْ : تَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ فِيمَا تَقُولُهُ لَا أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ إِلَيْنَا ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ **قِيلَ** : جَانِبًا مِنَ السَّمَاءِ ، **وَقِيلَ** : قِطَعًا مِنَ السَّمَاءِ ، **وَقِيلَ** : عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ ، وَهَذَا شَبِيهٌ بِمَا قَالَتْ قُرَيْشٌ فِيمَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، **وَهَكَذَا قَالَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ الْجَهَلَةُ** ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الْآيَة .

﴿ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يَقُولُ : اللهُ أَعْلَمُ بِكُمْ ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ جَازَاكُمْ بِهِ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَكُمْ ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ بِهِمْ كَمَا سَأَلُوا جَزَاءً وِفَاقًا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وَهَذَا مِنْ جِنْسِ مَا سَأَلُوهُ مِنْ إِسْقَاطِ الْكِسَفِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - جَعَلَ عُقُوبَتَهُمْ أَنْ أَصَابَهُمْ حَرٌّ شَدِيدٌ جِدًّا مُدَّةَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ لَا يُكِنُّهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ إِلَيْهِمْ سَحَابَةٌ أَظَلَّتْهُمْ فَجَعَلُوا يَنْطَلِقُونَ إِلَيْهَا يَسْتَظِلُّونَ بِظِلِّهَا مِنَ الْحَرِّ ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ تَحْتَهَا أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنْهَا شَرَرًا مِنْ نَارٍ وَلَهَبًا وَوَهَجًا عَظِيمًا ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ ، وَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ عَظِيمَةٌ أَزْهَقَتْ أَرْوَاحَهُمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أَيْ : الْعَزِيزُ فِي انْتِقَامِهِ مِنَ الْكَافِرِينَ ، الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أَيْ : الْقُرْآنُ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ ﴾ الْآيَة ، ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْكَ وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ عليه السلام ، وَهَذَا مَا لَا نِزَاعَ فِيهِ . ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ أَيْ : نَزَلَ بِهِ مَلَكٌ كَرِيمٌ أَمِينٌ ذُو مَكَانَةٍ

عِنْدَ الله ، مُطَاعٌ فِي المَلَإِ الأَعْلَى ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ، سَالِمًا مِنَ الدَّنَسِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ أَيْ : لِتُنْذِرَ بِهِ بَأْسَ الله وَنِقْمَتَهُ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَكَذَّبَهُ ، وَتُبَشِّرَ بِهِ المُؤْمِنِينَ المُتَّبِعِينَ لَهُ . ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْفَصِيحِ الْكَامِلِ الشَّامِلِ ؛ لِيَكُونَ بَيِّنًا وَاضِحًا ظَاهِرًا ، قَاطِعًا لِلْعُذْرِ ، مُقِيمًا لِلْحُجَّةِ ، دَلِيلًا إِلَى المَحَجَّةِ .

وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَإِنَّ ذِكْرَ هَذَا الْقُرْآنِ وَالتَّنْوِيهِ بِهِ لَمَوْجُودٌ فِي كُتُبِ الأَوَّلِينَ ، المَأْثُورَةِ عَنْ أَنْبِيَائِهِمُ الَّذِينَ بَشَّرُوا بِهِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ ، كَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَيْهِمُ المِيثَاقَ بِذَلِكَ ، حَتَّى قَامَ آخِرُهُمْ خَطِيبًا فِي مَلَئِهِ بِالْبِشَارَةِ بِأَحْمَدَ : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] ، وَالزُّبُرُ : هَهُنَا هِيَ الْكُتُبُ جَمْعُ زُبْرَةٍ ، وَكَذَلِكَ الزَّبُورُ : وَهُوَ كِتَابُ دَاوُدَ ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ [القمر : ٥٢] أَيْ : مَكْتُوبٌ عَلَيْهِمْ فِي صُحُفِ المَلَائِكَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أَيْ : أَوَلَيْسَ يَكْفِيهِمْ مِنَ الشَّاهِدِ الصَّادِقِ عَلَى ذَلِكَ : أَنَّ الْعُلَمَاءَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَجِدُونَ ذِكْرَ هَذَا الْقُرْآنِ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي يَدْرُسُونَهَا ؟ وَالمُرَادُ الْعُدُولُ مِنْهُمْ ، الَّذِينَ يَعْتَرِفُونَ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَبْعَثِهِ وَأُمَّتِهِ ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ كَعَبْدِ الله بْنِ سَلَامٍ وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ عَمَّنْ أَدْرَكَهُ مِنْهُمْ وَمَنْ شَاكَلَهُمْ ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** مُخْبِرًا عَنْ شِدَّةِ كُفْرِ قُرَيْشٍ وَعِنَادِهِمْ لِهَذَا الْقُرْآنِ ، أَنَّهُ لَوْ نَزَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الأَعَاجِمِ مِمَّنْ لَا يَدْرِي مِنَ الْعَرَبِيَّةِ كَلِمَةً ، وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ بِبَيَانِهِ وَفَصَاحَتِهِ ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي الآيَةِ الأُخْرَى ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : ١٤- ١٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام : ١١١]

كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى كَذَلِكَ سَلَكْنَا التَّكْذِيبَ وَالْكُفْرَ وَالْجُحُودَ وَالْعِنَادَ أَيْ: أَدْخَلْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أَيْ: بِالْحَقِّ ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أَيْ: حَيْثُ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أَيْ: عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أَيْ: يَتَمَنَّوْنَ حِينَ يُشَاهِدُونَ الْعَذَابَ أَنْ لَوْ أُنْظِرُوا قَلِيلًا لِيَعْمَلُوا فِي زَعْمِهِمْ بِطَاعَةِ اللهِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] فَكُلُّ ظَالِمٍ وَفَاجِرٍ وَكَافِرٍ إِذَا شَاهَدَ عُقُوبَتَهُ نَدِمَ نَدَمًا شَدِيدًا، هَذَا فِرْعَوْنُ لَمَّا دَعَا عَلَيْهِ الْكَلِيمُ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٨-٨٩] فَأَثَّرَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ فِي فِرْعَوْنَ، فَمَا آمَنَ حَتَّى رَأَى الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠-٩١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ الْآيَاتِ. **وَقَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ وَتَهْدِيدٌ لَهُمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ تَكْذِيبًا وَاسْتِبْعَادًا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ الْآيَةَ. **ثُمَّ قَالَ**: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ أَيْ: لَوْ أَخَّرْنَاهُمْ وَأَنْظَرْنَاهُمْ وَأَمْلَيْنَا لَهُمْ بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ وَحِينًا مِنَ الزَّمَانِ وَإِنْ طَالَ، ثُمَّ جَاءَهُمْ أَمْرُ اللهِ، أَيُّ شَيْءٍ يُجْدِي عَنْهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ «**يُؤْتَى بِالْكَافِرِ فَيُغْمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ رَأَيْتَ نَعِيمًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا كَانَ فِي الدُّنْيَا، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ**» أَيْ: مَا كَأَنَّ شَيْئًا كَانَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَدْلِهِ فِي خَلْقِهِ، أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ وَالْإِنْذَارِ لَهُمْ، وَبَعْثِهِ الرُّسُلَ إِلَيْهِمْ، وَقِيَامِ الْحُجَجِ عَلَيْهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ، أَنَّهُ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ الْمُؤَيَّدُ مِنَ اللهِ ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدِهَا : أَنَّهُ مَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَيْ : لَيْسَ هُوَ مِنْ بُغْيَتِهِمْ وَلَا مِنْ طِلْبَتِهِمْ ؛ لِأَنَّ مِنْ سَجَايَاهُمُ الْفَسَادَ وَإِضْلَالَ الْعِبَادِ ، وَهَذَا فِيهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَنُورٌ ، وَهُدًى ، وَبُرْهَانٌ عَظِيمٌ ، فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيَاطِينِ مُنَافَاةٌ عَظِيمَةٌ .وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أَيْ : وَلَوِ انْبَغَى لَهُمْ لَمَا اسْتَطَاعُوا ذَلِكَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[الحشر : ٢١] ، ثُمَّ أَنَّهُ لَوِ انْبَغَى لَهُمْ وَاسْتَطَاعُوا حَمْلَهُ وَتَأْدِيَتَهُ لَمَا وَصَلُوا إِلَى ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ حَالَ نُزُولِهِ ؛ لِأَنَّ السَّمَاءَ مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا فِي مُدَّةِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَى رَسُولِهِ فَلَمْ يَخْلُصْ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ إِلَى اسْتِمَاعِ حَرْفٍ ، وَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ لِئَلَّا يَشْتَبِهَ الْأَمْرُ ، وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ ، وَحِفْظِهِ لِشَرْعِهِ ، وَتَأْيِيدِهِ لِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْجِنِّ ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[الجن : ٨-١٠]

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَمُخْبِرًا أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ بِهِ عَذَّبَهُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى آمِرًا لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُنْذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ ، أَيْ : الْأَدْنَيْنَ إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُ لَا يُخَلِّصُ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا إِيمَانُهُ بِرَبِّهِ ﷻ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُلِينَ جَانِبَهُ لِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ عِبَادِ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ عَصَاهُ مِنْ خَلْقِ اللهِ ، كَائِنًا مَنْ كَانَ ، فَلْيَتَبَرَّأْ مِنْهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وَهَذِهِ النِّذَارَةُ الْخَاصَّةُ لَا تُنَافِي الْعَامَّةَ ، بَلْ هِيَ فَرْدٌ مِنْ أَجْزَائِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ

ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [يس : ٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لِّتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ . عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « **يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ** » . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أَيْ : فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ ، فَإِنَّهُ مُؤَيِّدُكَ وَحَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ وَمُظَفِّرُكَ وَمُعْلٍ كَلِمَتَكَ . ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أَيْ : هُوَ مُعْتَنٍ بِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ **يَعْنِي : إِلَى الصَّلَاةِ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ قَالُوا : فِي الصَّلَاةِ يَرَاكَ وَحْدَكَ وَيَرَاكَ فِي الْجَمْعِ . ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ، الْعَلِيمُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ .

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ أَيْ : أُخْبِرُكُمْ ﴿ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أَيْ : كَذُوبٌ فِي قَوْلِهِ ، وَهُوَ الْأَفَّاكُ ﴿ أَثِيمٍ ﴾ وَهُوَ الْفَاجِرُ فِي أَفْعَالِهِ ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي تَنْزِلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ مِنَ الْكُهَّانِ ، وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمْ مِنَ الْكَذَبَةِ الْفَسَقَةِ ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ أَيْضًا كَذَبَةٌ فَسَقَةٌ . ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ أَيْ : يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ مِنَ السَّمَاءِ ، فَيَسْمَعُونَ الْكَلِمَةَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ ، ثُمَّ يُلْقُونَهَا إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ فَيُحَدِّثُونَ بِهَا فَيُصَدِّقُهُمُ النَّاسُ فِي كُلِّ مَا قَالُوهُ بِسَبَبِ صِدْقِهِمْ فِي تِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ ، كَمَا صَحَّ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **إِذَا قَضَى اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانَ ، حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا ، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا**

قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مَائَةَ كَذْبَةٍ ، فَيُقَالُ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا : كَذَا وَكَذَا ؟ فَيَصْدُقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : الْكُفَّارُ يَتَّبِعُهُمْ ضُلَّالُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ . وَقَالَ عِكْرِمَةُ : كَانَ الشَّاعِرَانِ يَتَهَاجَيَانِ فَيَنْتَصِرُ لِهَذَا فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ ، وَلِهَذَا فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ فِي كُلِّ لَغْوٍ يَخُوضُونَ . قَالَ قَتَادَةُ : الشَّاعِرُ يَمْدَحُ قَوْمًا بِبَاطِلٍ وَيَذُمُّ قَوْمًا بِبَاطِلٍ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَكْثَرُ قَوْلِهِمْ يَكْذِبُونَ فِيهِ . وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - هُوَ الْوَاقِعُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، فَإِنَّ الشُّعَرَاءَ يَتَبَجَّحُونَ بِأَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ لَمْ تَصْدُرْ مِنْهُمْ وَلَا عَنْهُمْ فَيَتَكَثَّرُونَ بِمَا لَيْسَ لَهُمْ . وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا يَرِيهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا » .

وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنُ لَيْسَ بِكَاهِنٍ وَلَا بِشَاعِرٍ ؛ لِأَنَّ حَالَهُ مُنَافٍ لِحَالِهِمْ مِنْ وُجُوهٍ ظَاهِرَةٍ ، ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٠-٤٣]

قَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : إِنَّ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مِمَّا تَقَدَّمَ وَلَا شَكَّ أَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ ، وَلَكِنَّ هَذَا الاسْتِثْنَاءَ يَدْخُلُ فِيهِ شُعَرَاءُ الْأَنْصَارِ وَغَيْرُهُمْ ، حَتَّى يَدْخُلَ فِيهِ مَنْ كَانَ مُتَلَبِّسًا مِنْ شُعَرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ بِذَمِّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، ثُمَّ تَابَ وَأَنَابَ وَرَجَعَ وَأَقْلَعَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا فِي مُقَابَلَةِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّءِ ، فَإِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ : ذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا فِي كَلَامِهِمْ ، وَقِيلَ : فِي شِعْرِهِمْ ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ مُكَفِّرٌ لِمَا سَبَقَ . ﴿ وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: يَرُدُّونَ عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا يَهْجُونَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهَذَا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِحَسَّانَ : « اُهْجُهُمْ - أَوْ قَالَ - هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ . قِيلَ : الْمُرَادُ بِهِمْ أَهْلُ مَكَّةَ ، وَقِيلَ : الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَّةٌ عَلَى كُلِّ ظَالِمٍ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

آياتها ٩٣ تفسير سورة النمل مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ فِي سُورَةِ « البَقَرَةِ » عَلَى الحُرُوفِ المُتَقَطِّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ﴾ أَيْ : هَذِهِ آيَاتُ ﴿ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : بَيِّنٌ وَاضِحٌ ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا تَحْصُلُ الهِدَايَةُ وَالْبِشَارَةُ مِنَ الْقُرْآنِ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ المَكْتُوبَةَ ، وَآتَى الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ ، وَآمَنَ بِالدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ ، وَالجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ [فصلت : ٤٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم : ٩٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ ﴾ أَيْ : يُكَذِّبُونَ بِهَا وَيَسْتَبْعِدُونَ وُقُوعَهَا ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أَيْ : حَسَّنَّا لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ ، وَمَدَدْنَا لَهُمْ فِي غَيِّهِمْ فَهُمْ يَتِيهُونَ فِي ضَلَالِهِمْ ، وَكَانَ هَذَا جَزَاءً عَلَى مَا كَذَّبُوا مِنَ الدَّارِ الْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ١١٠] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ وَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ يَخْسَرُ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ سِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ المَحْشَرِ ، ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ لَتُلَقَّى ﴾ أَيْ : لَتَأْخُذُ ﴿ ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أَيْ : مِنْ عِنْدِ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ، أَيْ : حَكِيمٌ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا ، فَخَبَرُهُ هُوَ الصِّدْقُ المَحْضُ ، وَحُكْمُهُ هُوَ الْعَدْلُ التَّامُّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ

وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ مُذَكِّرًا لَهُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ مُوسَى عليه السلام ، كَيْفَ اصْطَفَاهُ اللهُ ، وَكَلَّمَهُ وَنَاجَاهُ ، وَأَعْطَاهُ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الْبَاهِرَةِ وَالْأَدِلَّةِ الْقَاهِرَةِ ، وَابْتَعَثَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَجَحَدُوا بِهَا وَكَفَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا مِنِ اتِّبَاعِهِ وَالانْقِيَادِ لَهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ ﴾ أَيْ : اُذْكُرْ حِينَ سَارَ مُوسَى بِأَهْلِهِ ، فَأَضَلَّ الطَّرِيقَ ، وَذَلِكَ فِي لَيْلٍ وَظَلَامٍ ، فَآنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ، أَيْ : رَأَى نَارًا تَتَأَجَّجُ وَتَضْطَرِمُ ، **فَقَالَ** : ﴿ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أَيْ : عَنِ الطَّرِيقِ ﴿ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أَيْ : تَسْتَدْفِئُونَ بِهِ ، وَكَانَ كَمَا قَالَ ، فَإِنَّهُ رَجَعَ مِنْهَا بِخَبَرٍ عَظِيمٍ وَاقْتَبَسَ مِنْهَا نُورًا عَظِيمًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي : فَلَمَّا أَتَاهَا وَرَأَى مَنْظَرًا هَائِلًا عَظِيمًا ، حَيْثُ انْتَهَى إِلَيْهَا ، وَالنَّارُ تَضْطَرِمُ فِي شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ لَا تَزْدَادُ النَّارُ إِلَّا تَوَقُّدًا ، وَلَا تَزْدَادُ الشَّجَرَةُ إِلَّا خُضْرَةً وَنَضْرَةً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا نُورُهَا مُتَّصِلٌ بِعَنَانِ السَّمَاءِ . فَوَقَفَ مُوسَى مُتَعَجِّبًا مِمَّا رَأَى ﴿ نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : قُدِّسَ ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَلَائِكَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَلَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مَصْنُوعَاتِهِ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ، الْمُبَايِنُ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَلَا يَكْتَنِفُهُ الْأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ ، بَلْ هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ ، الْمُنَزَّهُ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمُحْدَثَاتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أَعْلَمَهُ أَنَّ الَّذِي يُخَاطِبُهُ وَيُنَاجِيهِ هُوَ رَبُّهُ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، الَّذِي عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ وَقَهَرَهُ وَغَلَبَهُ ، الْحَكِيمُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ . ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يُلْقِيَ عَصَاهُ مِنْ يَدِهِ ؛ لِيُظْهِرَ لَهُ دَلِيلًا وَاضِحًا عَلَى أَنَّهُ الْفَاعِلُ الْمُخْتَارُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَمَّا أَلْقَى مُوسَى تِلْكَ الْعَصَا مِنْ يَدِهِ انْقَلَبَتْ فِي الْحَالِ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ هَائِلَةٌ فِي غَايَةِ الْكِبَرِ وَسُرْعَةِ الْحَرَكَةِ مَعَ ذَلِكَ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ ، وَالْجَانُّ : ضَرْبٌ مِنَ الْحَيَّاتِ ، أَسْرَعُهُ حَرَكَةً وَأَكْثَرُهُ اضْطِرَابًا ، وَفِي الْحَدِيثِ : نَهْيٌ عَنْ قَتْلِ جِنَانِ الْبُيُوتِ . فَلَمَّا عَايَنَ مُوسَى ذَلِكَ ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أَيْ : لَمْ يَلْتَفِتْ مِنْ شِدَّةِ فَرَقِهِ ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَخَفْ

مِمَّا تَرَى ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَصْطَفِيكَ رَسُولًا وَأَجْعَلُكَ نَبِيًّا وَجِيهًا . ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، وَفِيهِ بِشَارَةٌ عَظِيمَةٌ لِلْبَشَرِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ كَانَ عَلَى شَيْءٍ ثُمَّ أَقْلَعَ عَنْهُ وَرَجَعَ وَتَابَ وَأَنَابَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٢] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ هَذِهِ آيَةٌ أُخْرَى وَدَلِيلٌ بَاهِرٌ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ ، وَصِدْقِ مَنْ جَعَلَ لَهُ مُعْجِزَةً ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَهُ أَنْ يُدْخِلَ يَدَهُ فِي جَيْبِ دِرْعِهِ ، فَإِذَا أَدْخَلَهَا وَأَخْرَجَهَا خَرَجَتْ بَيْضَاءَ سَاطِعَةً كَأَنَّهَا قِطْعَةُ قَمَرٍ ، لَهَا لَمَعَانٌ تَتَلَأْلَأُ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ . ﴿ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ ﴾ أَيْ : هَاتَانِ ثِنْتَانِ مِنْ تِسْعِ آيَاتٍ ، أُؤَيِّدُكَ بِهِنَّ وَأَجْعَلُهُنَّ بُرْهَانًا لَكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ ، وَهَذِهِ هِيَ الْآيَاتُ التِّسْعُ الَّتِي قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء : ١٠١] كَمَا تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ ذَلِكَ هُنَالِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أَيْ : بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ ظَاهِرَةٌ ﴿ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وَأَرَادُوا مُعَارَضَتَهُ بِسِحْرِهِمْ فَغُلِبُوا وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا ﴾ أَيْ : فِي ظَاهِرِ أَمْرِهِمْ ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ أَيْ : عَلِمُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهَا حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَلَكِنْ جَحَدُوهَا وَعَانَدُوهَا وَكَابَرُوهَا ﴿ ظُلْمًا ﴾ أَيْ : ظُلْمًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ سَجِيَّةً مَلْعُونَةً ﴿ وَعُلُوًّا ﴾ أَيْ : اِسْتِكْبَارًا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أَيْ : أُنْظُرْ يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ كُفْرِهِمْ فِي إِهْلَاكِ اللهِ إِيَّاهُمْ وَإِغْرَاقِهِمْ عَنْ آخِرِهِمْ فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَفَحْوَى الْخِطَابِ يَقُولُ : احْذَرُوا أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ لِمُحَمَّدٍ الْجَاحِدُونَ لِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَبِّهِ ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَشْرَفُ وَأَعْظَمُ مِنْ مُوسَى ، وَبُرْهَانُهُ أَدَلُّ وَأَقْوَى مِنْ بُرْهَانِ مُوسَى .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى عَبْدَيْهِ وَنَبِيَّيْهِ دَاوُدَ وَابْنِهِ سُلَيْمَانَ – عَلَيْهِمَا مِنَ اللهِ السَّلَامُ – مِنَ النِّعَمِ

الْجَزِيلَةِ ، وَالْمَوَاهِبِ الْجَلِيلَةِ ، وَالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ ، وَمَا جَمَعَ لَهُمَا بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالْمُلْكِ وَالتَّمْكِينِ التَّامِّ فِي الدُّنْيَا ، وَالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ فِي الدِّينِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ أَيْ : فِي الْمُلْكِ وَالنُّبُوَّةِ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ وِرَاثَةَ الْمَالِ ، إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَخُص سُلَيْمَانَ وَحْدَهُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ أَوْلَادِ دَاوُدَ ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لِدَاوُدَ مِائَةُ امْرَأَةٍ ، وَلَكِنِ الْمُرَادُ بِذَلِكَ وِرَاثَةُ الْمُلْكِ وَالنُّبُوَّةِ ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا تُورَثُ أَمْوَالُهُمْ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ : « **نَحْنُ مُعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أَيْ : أَخْبَرَ سُلَيْمَانُ بِنِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ ، فِيمَا وَهَبَهُ لَهُ مِنَ الْمُلْكِ التَّامِّ وَالتَّمْكِينِ الْعَظِيمِ ، حَتَّى إِنَّهُ سَخَّرَ لَهُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَالطَّيْرَ ، وَكَانَ يَعْرِفُ لُغَةَ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ أَيْضًا ، وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ يُعْطَهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ فِيمَا عَلِمْنَاهُ مِمَّا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أَيْ : مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلْكُ ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أَيْ : الظَّاهِرُ الْبَيِّنُ للهِ عَلَيْنَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ ﴾ أَيْ : وَجُمِعَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ ، يَعْنِي : رَكِبَ فِيهِمْ فِي أُبَّهَةٍ وَعَظَمَةٍ كَبِيرَةٍ فِي الْإِنْسِ ، وَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ يَلُونَهُ ، وَالْجِنُّ وَهُمْ بَعْدَهُمْ فِي الْمَنْزِلَةِ ، وَالطَّيْرِ وَمَنْزِلَتُهَا فَوْقَ رَأْسِهِ ، فَإِنْ كَانَ حَرٌّ أَظَلَّتْهُ مِنْهُ بِأَجْنِحَتِهَا . ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أَيْ : يُكَفُّ أَوَّلُهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ لِئَلَّا يَتَقَدَّمَ أَحَدٌ عَنْ مَنْزِلَتِهِ الَّتِي هِيَ مُرَتَّبَةٌ لَهُ ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ ﴾ أَيْ : حَتَّى إِذَا مَرَّ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْجُيُوشِ وَالْجُنُودِ عَلَى وَادِي النَّمْلِ ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أَيْ : خَافَتْ عَلَى النَّمْلِ أَنْ تَحْطِمَهَا الْخُيُولُ بِحَوَافِرِهَا ، فَأَمَرَتْهُمْ بِالدُّخُولِ إِلَى مَسَاكِنِهِمْ ، فَفَهِمَ ذَلِكَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهَا ، ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾ أَيْ : أَلْهِمْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي مَنَنْتَ بِهَا عَلَيَّ مِنْ تَعْلِيمِي مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ ، وَعَلَى وَالِدَيَّ بِالْإِسْلَامِ لَكَ وَالْإِيمَانِ بِكَ ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ أَيْ : عَمَلًا تُحِبُّهُ وَتَرْضَاهُ ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ أَيْ : إِذَا تَوَفَّيْتَنِي فَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ ، وَالرَّفِيقِ الْأَعْلَى مِنْ أَوْلِيَائِكَ .

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾

تَفَقَّدَ سُلَيْمَانُ عليه السلام الطَّيْرَ لِيَرَى الهُدْهُدَ فَلَمْ يَرَهُ ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ أَخْطَأَهُ بَصَرِي مِنَ الطَّيْرِ أَمْ غَابَ فَلَمْ يَحْضُرْ ؟ ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ يَعْنِي : نَتْفُ رِيشِهِ . ﴿ أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾ يَعْنِي : قَتْلَهُ ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ بِعُذْرٍ بَيِّنٍ وَاضِحٍ .

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ فَمَكَثَ ﴾ الهُدْهُد ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أَيْ : غَابَ زَمَانًا يَسِيرًا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ لِسُلَيْمَانَ ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ أَيْ : اطَّلَعْتُ عَلَى مَا لَمْ تَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَنْتَ وَلَا جُنُودُكَ ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أَيْ : بِخَبَرِ صِدْقٍ حَقٍّ يَقِينٍ ، وَسَبَأٌ : هُمْ حِمْيَرٌ ، وَهُمْ مُلُوكُ الْيَمَنِ ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ قَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ : هِيَ بِلْقِيسُ . ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أَيْ : مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ المَلِكُ المُتَمَكِّنُ ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يَعْنِي : سَرِيرٌ تَجْلِسُ عَلَيْهِ عَظِيمٌ هَائِلٌ مُزَخْرَفٌ بِالذَّهَبِ وَأَنْوَاعِ الجَوَاهِرِ وَاللَّآلِئِ . ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أَيْ : عَنْ طَرِيقِ الحَقِّ ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : لَا يَعْرِفُونَ سَبِيلَ الحَقِّ الَّتِي هِيَ إِخْلَاصُ السُّجُودِ للهِ وَحْدَهُ دُونَ مَا خَلَقَ مِنَ الْكَوَاكِبِ وَغَيْرِهَا . ﴿ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يَعْلَمُ كُلَّ خَبِيئَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ مَا يُخْفِيهِ الْعِبَادُ وَمَا يُعْلِنُونَهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴾ أَيْ : هُوَ المَدْعُوُّ ، وَهُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، الَّذِي لَيْسَ فِي المَخْلُوقَاتِ أَعْظَمُ مِنْهُ .

۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْلِ سُلَيْمَانَ لِلْهُدْهُدِ حِينَ أَخْبَرَهُ عَنْ أَهْلِ سَبَأٍ وَمَلِكَتِهِمْ ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ أَيْ : أَصَدَقْتَ فِي إِخْبَارِكَ هَذَا ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ فِي مَقَالَتِكَ لِتَتَخَلَّصَ مِنَ الْوَعِيدِ الَّذِي أَوْعَدْتُكَ ؟ وَذَلِكَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عليه السلام كَتَبَ كِتَابًا إِلَى بِلْقِيسَ وَقَوْمِهَا ، وَأَعْطَاهُ ذَلِكَ الْهُدْهُدَ فَحَمَلَهُ قِيلَ : فِي جَنَاحِهِ ، كَمَا هِيَ عَادَةُ الطَّيْرِ ، وَقِيلَ : بِمِنْقَارِهِ ، وَذَهَبَ إِلَى بِلَادِهِمْ فَجَاءَ إِلَى قَصْرِ بِلْقِيسَ ، إِلَى الْخَلْوَةِ الَّتِي كَانَتْ تَخْتَلِي فِيهَا بِنَفْسِهَا ، فَأَلْقَاهُ إِلَيْهَا مِنْ كُوَّةٍ هُنَالِكَ بَيْنَ يَدَيْهَا ، ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهَا أَدَبًا وَرِيَاسَةً ، فَتَحَيَّرَتْ مِمَّا رَأَتْ ، وَهَالَهَا ذَلِكَ ، ثُمَّ عَمَدَتْ إِلَى الْكِتَابِ فَأَخَذَتْهُ فَفَتَحَتْ خَتْمَهُ وَقَرَأَتْهُ فَإِذَا فِيهِ ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ . فَجَمَعَتْ عِنْدَ ذَلِكَ أُمَرَاءَهَا وَوُزَرَاءَهَا وَكُبَرَاءَ دَوْلَتِهَا وَمَمْلَكَتِهَا ، ثُمَّ قَالَتْ لَهُمْ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴾ تَعْنِي : بِكَرَمِهِ مَا رَأَتْهُ مِنْ عَجِيبِ أَمْرِهِ ، كَوْنُ طَائِرٍ ذَهَبَ بِهِ فَأَلْقَاهُ إِلَيْهَا ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهَا أَدَبًا ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ قَرَأَتْهُ عَلَيْهِمْ ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ فَعَرَفُوا أَنَّهُ مِنْ نَبِيِّ اللهِ سُلَيْمَانَ عليه السلام ، وَأَنَّهُ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ ، وَهَذَا الْكِتَابُ فِي غَايَةِ الْبَلَاغَةِ وَالْوَجَازَةِ وَالْفَصَاحَةِ ، فَإِنَّهُ حَصَّلَ الْمَعْنَى بِأَيْسَرِ عِبَارَةٍ وَأَحْسَنِهَا ، قَالَ الْعُلَمَاءُ : لَمْ يَكْتُبْ أَحَدٌ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قَبْلَ سُلَيْمَانَ عليه السلام . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ ﴾ يَقُولُ قَتَادَةُ : لَا تَجَبَّرُوا عَلَيَّ ﴿ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ ، قِيلَ : لَا تَمْتَنِعُوا وَلَا تَتَكَبَّرُوا عَلَيَّ . وَقِيلَ : ﴿ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ مُوَحِّدِينَ ، وَقِيلَ : مُخْلِصِينَ ، وَقِيلَ : طَائِعِينَ .

قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝٣٢ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝٣٣ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٣٤ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥

لَمَّا قَرَأَتْ عَلَيْهِمْ كِتَابَ سُلَيْمَانَ اسْتَشَارَتْهُمْ فِي أَمْرِهَا ، وَمَا قَدْ نَزَلَ بِهَا ، وَلِهَذَا قَالَتْ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ أَيْ : حَتَّى تَحْضُرُونِ وَتُشِيرُونِ ﴿ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أَيْ : مَنُّوا إِلَيْهَا بِعَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ ، ثُمَّ فَوَّضُوا إِلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ الْأَمْرَ ، فَقَالُوا : ﴿ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ أَيْ : نَحْنُ لَيْسَ لَنَا عَاقَةٌ وَلَا بِنَا بَأْسٌ ، إِنْ شِئْتِ أَنْ تَقْصِدِيهِ وَتُحَارِبِيهِ فَمَا لَنَا عَاقَةٌ عَنْهُ ، وَبَعْدَ هَذَا فَالْأَمْرُ إِلَيْكِ مُرِي فِينَا رَأْيَكِ نَمْتَثِلْهُ وَنُطِيعُهُ ، فَلَمَّا قَالُوا لَهَا مَا قَالُوا ، كَانَتْ هِيَ أَحْزَمَ رَأْيًا مِنْهُمْ وَأَعْلَمَ بِأَمْرِ سُلَيْمَانَ ، وَأَنَّهُ لَا

قِبَلَ لَهَا بِجُنُودِهِ وَجُيُوشِهِ ، فَقَالَتْ لَهُمْ : إِنِّي أَخْشَى أَنْ نُحَارِبَهُ وَنَمْتَنِعَ عَلَيْهِ فَيَقْصِدَنَا بِجُنُودِهِ وَيُهْلِكَنَا بِمَنْ مَعَهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَتْ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ أي : إِذَا دَخَلُوا بَلَدًا خَرَّبُوهُ ﴿ وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ أَيْ : وَقَصَدُوا مَنْ فِيهَا مِنَ الْوُلَاةِ وَالْجُنُودِ فَأَهَانُوهُمْ غَايَةَ الْهَوَانِ ، إِمَّا بِالْقَتْلِ أَوْ بِالْأَسْرِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَتْ بِلْقِيسُ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ قَالَ الرَّبُّ ﷻ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ . ثُمَّ عَدَلَتْ إِلَى الْمُصَالَحَةِ وَالْمُهَادَنَةِ وَالْمُسَالَمَةِ وَالْمُخَادَعَةِ ، فَقَالَتْ : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أَيْ : سَأَبْعَثُ إِلَيْهِ بِهَدِيَّةٍ تَلِيقُ بِمِثْلِهِ ، وَأَنْظُرُ مَاذَا يَكُونُ جَوَابُهُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ فَلَعَلَّهُ يَقْبَلُ ذَلِكَ مِنَّا وَيَكُفُّ عَنَّا ، أَوْ يَضْرِبُ عَلَيْنَا خَرَاجًا نَحْمِلُهُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ عَامٍ ، وَنَلْتَزِمُ لَهُ بِذَلِكَ وَيَتْرُكُ قِتَالَنَا وَمُحَارَبَتَنَا . قَالَ قَتَادَةُ - رَحِمَهُ اللهُ -: مَا كَانَ أَعْقَلَهَا فِي إِسْلَامِهَا وَشِرْكِهَا ، عَلِمَتْ أَنَّ الْهَدِيَّةَ تَقَعُ مَوْقِعًا مِنَ النَّاسِ .

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهَا بَعَثَتْ إِلَيْهِ بِهَدِيَّةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ ذَهَبٍ وَجَوَاهِرَ وَلَآلِئَ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ سُلَيْمَانَ ﷺ لَمْ يَنْظُرْ إِلَى مَا جَاءُوا بِهِ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَلَا اعْتَنَى بِهِ ، بَلْ أَعْرَضَ عَنْهُ ، وَقَالَ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ أَيْ : أَتُصَانِعُونَنِي بِمَالٍ لِأَتْرُكَكُمْ عَلَى شِرْكِكُمْ وَمُلْكِكُمْ ﴿ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ﴾ أَيْ : الَّذِي أَعْطَانِي اللهُ - مِنَ الْمُلْكِ وَالْمَالِ وَالْجُنُودِ - خَيْرٌ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ، ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ أَيْ : أَنْتُمُ الَّذِينَ تَنْقَاضُونَ لِلْهَدَايَا وَالتُّحَفِ ، وَأَمَّا أَنَا فَلَا أَقْبَلُ مِنْكُمْ إِلَّا الإِسْلَامَ أَوِ السَّيْفَ . ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : بِهَدِيَّتِهِمْ ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ أَيْ : لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِقِتَالِهِمْ ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً ﴾ أَيْ : وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْ بَلْدَتِهِمْ أَذِلَّةً ﴿ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ أَيْ : مُهَانُونَ مَدْحُورُونَ ، فَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَيْهَا رُسُلُهَا بِهَدِيَّتِهَا وَبِمَا قَالَ سُلَيْمَانُ ، سَمِعَتْ وَأَطَاعَتْ هِيَ وَقَوْمُهَا ، وَأَقْبَلَتْ تَسِيرُ إِلَيْهِ فِي جُنُودِهَا خَاضِعَةً ذَلِيلَةً ، مُعَظِّمَةً لِسُلَيْمَانَ نَاوِيَةً مُتَابَعَتَهُ فِي الْإِسْلَامِ ، وَلَمَّا تَحَقَّقَ سُلَيْمَانُ ﷺ قُدُومَهُمْ عَلَيْهِ وَوُفُودَهُمْ إِلَيْهِ فَرِحَ بِذَلِكَ وَسَرَّهُ .

قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ

مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

وَقَالَ قَتَادَةُ : لَمَّا بَلَغَ سُلَيْمَانُ أَنَّهَا جَائِيَةٌ ، وَكَانَ قَدْ ذُكِرَ لَهُ عَرْشُهَا فَأَعْجَبَهُ ، وَكَانَ مِنْ ذَهَبٍ ، وَقَائِمُهُ لُؤْلُؤٌ وَجَوْهَرٌ ، وَكَانَ مُسَتَّرًا بِالدِّيبَاجِ وَالْحَرِيرِ ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ تِسْعَةُ مَغَالِيقَ ، فَكَرِهَ أَنْ يَأْخُذَهُ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ، وَقَدْ عَلِمَ نَبِيُّ اللهِ أَنَّهُمْ مَتَى أَسْلَمُوا تَحْرُمُ أَمْوَالُهُمْ مَعَ دِمَائِهِمْ فَقَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ، ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ يَعْنِي : قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَجْلِسِكَ ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ قِيلَ : أَيْ : قَوِيٌّ عَلَى حَمْلِهِ ، أَمِينٌ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْجَوْهَرِ . ﴿ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : وَهُوَ « آصَفُ » كَاتِبُ سُلَيْمَانَ ، وَكَانَ صِدِّيقًا يَعْلَمُ الِاسْمَ الْأَعْظَمَ . ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أَيْ : ارْفَعْ بَصَرَكَ وَانْظُرْ مَدَّ بَصَرِكَ مِمَّا تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّكَ لَا يَكِلُّ بَصَرُكَ إِلَّا وَهُوَ حَاضِرٌ عِنْدَكَ . **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : لَمَّا دَعَا اللهَ تَعَالَى وَسَأَلَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِعَرْشِ بِلْقِيسَ ، وَكَانَ فِي الْيَمَنِ وَسُلَيْمَانُ ﷺ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ ، غَابَ السَّرِيرُ وَغَاصَ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ نَبَعَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ سُلَيْمَانَ ﷺ ، فَلَمَّا عَايَنَ سُلَيْمَانُ وَمَلَؤُهُ ذَلِكَ ، وَرَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ أَيْ : هَذَا مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيَّ ﴿ لِيَبْلُوَنِيٓ ﴾ أَيْ : لِيَخْتَبِرَنِي ﴿ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : ٤٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ أَيْ : هُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْعِبَادِ وَعِبَادَتِهِمْ ، ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أَيْ : كَرِيمٌ فِي نَفْسِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَعْبُدْهُ أَحَدٌ ، فَإِنَّ عَظَمَتَهُ لَيْسَتْ مُفْتَقِرَةٌ إِلَى أَحَدٍ .

قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

لَمَّا جِيءَ سُلَيْمَانَ ﷺ بِعَرْشِ بِلْقِيسَ قَبْلَ قُدُومِهَا أَمَرَ بِهِ أَنْ يُغَيَّرَ بَعْضَ صِفَاتِهِ لِيَخْتَبِرَ مَعْرِفَتَهَا وَثَبَاتَهَا عِنْدَ رُؤْيَتِهِ ، هَلْ تُقْدِمُ عَلَى أَنَّهُ عَرْشُهَا ، أَوْ أَنَّهُ لَيْسَ بِعَرْشِهَا ؟ فَقَالَ : ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾ أَيْ :

عُرِضَ عَلَيْهَا عَرْشُهَا ، وَقَدْ غُيِّرَ وَنُكِّرَ وَزِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ مِنْهُ ، فَكَانَ فِيهَا ثَبَاتٌ وَعَقْلٌ ، وَلَهَا لُبٌّ وَدَهَاءٌ وَحَزْمٌ ، فَلَمْ تُقْدِمْ عَلَى أَنَّهُ هُوَ لِبُعْدِ مَسَافَتِهِ عَنْهَا ، وَلَا أَنَّهُ غَيْرُهُ لِمَا رَأَتْ مِنْ آثَارِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَإِنْ غُيِّرَ وَبُدِّلَ وَنُكِّرَ ، **فَقَالَتْ** : ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾ أَيْ : يُشْبِهُهُ وَيُقَارِبُهُ ، وَهَذَا غَايَةٌ فِي الذَّكَاءِ وَالْحَزْمِ ، ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : سُلَيْمَانُ يَقُولُهُ . ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ كَلَامِ سُلَيْمَانَ عليه السلام ، وَهِيَ كَانَتْ قَدْ صَدَّهَا ، أَيْ : مَنَعَهَا مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ ﴿ مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ ، **وَذَلِكَ أَنَّ** سُلَيْمَانَ عليه السلام أَمَرَ الشَّيَاطِينَ فَبَنَوْا لَهَا قَصْرًا عَظِيمًا مِنْ قَوَارِيرَ ، أَيْ : مِنْ زُجَاجٍ ، وَأَجْرَى تَحْتَهُ الْمَاءَ ، فَالَّذِي لَا يَعْرِفُ أَمْرَهُ يَحْسِبُ أَنَّهُ مَاء ، وَلَكِنَّ الزُّجَاجَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَاشِي وَبَيْنَهُ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ﴾ لِيُرِيَهَا مُلْكًا هُوَ أَعَزُّ مِنْ مُلْكِهَا ، وَسُلْطَانًا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ سُلْطَانِهَا ، ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ ، لَا تَشُكُّ أَنَّهُ مَاءٌ تَخُوضُهُ ، **فَقِيلَ لَهَا** : ﴿ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ فَلَمَّا وَقَفَتْ عَلَى سُلَيْمَانَ ، دَعَاهَا إِلَى عِبَادَةِ اللهِ عز وجل وَحْدَهُ وَعَاتَبَهَا فِي عِبَادَتِهَا الشَّمْسَ مِنْ دُونِ اللهِ ، فَقَالَتْ بِقَوْلِ الزَّنَادِقَةِ ، فَوَقَعَ سُلَيْمَانُ سَاجِدًا إِعْظَامًا لِمَا قَالَتْ ، وَسَجَدَ مَعَهُ النَّاسُ ، فَسُقِطَ فِي يَدَيْهَا حِينَ رَأَتْ سُلَيْمَانَ صَنَعَ مَا صَنَعَ ، فَلَمَّا رَفَعَ سُلَيْمَانُ رَأْسَهُ ، قَالَ : وَيْحَكِ مَاذَا قُلْتِ ؟ - قَالَ : وَأُنْسِيَتْ مَا قَالَتْ ؟ - فَقَالَتْ : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فَأَسْلَمَتْ وَحَسُنَ إِسْلَامُهَا . وَالصَّرْحُ : قَصْرٌ فِي الْيَمَنِ عَالِي الْبِنَاءِ ، وَالْمُمَرَّدُ : الْمَبْنِيُّ بِنَاءً مُحْكَمًا أَمْلَسَ ﴿ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ أَيْ : زُجَاجٍ ، وَتَمْرِيدُ الْبِنَاءِ : تَمْلِيسُهُ ، وَمَارِدٌ : حِصْنٌ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أَيْ : بِمَا سَلَفَ مِنْ كُفْرِهَا وَشِرْكِهَا ، وَعِبَادَتِهَا وَقَوْمِهَا لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : مُتَابِعَةً لِدِينِ سُلَيْمَانَ فِي عِبَادَتِهِ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ « ثَمُودَ » وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهَا مَعَ نَبِيِّهَا صَالِحٍ عليه السلام حِينَ بَعَثَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ أَيْ : لِمَ تَدْعُونَ بِحُضُورِ الْعَذَابِ ، وَلَا تَطْلُبُونَ مِنَ اللهِ رَحْمَتَهُ ؟! وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ أَيْ : مَا رَأَيْنَا عَلَى وَجْهِكَ وَوُجُوهِ مَنِ اتَّبَعَكَ خَيْرًا ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لِشَقَائِهِمْ كَانَ لَا يُصِيبُ أَحَدًا مِنْهُمْ سُوءٌ إِلَّا قَالَ : هَذَا مِنْ قِبَلِ صَالِحٍ وَأَصْحَابِهِ . قَالَ **مُجَاهِدٌ** : تَشَاءَمُوا بِهِمْ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ [الأعراف : ١٣١] ، **وَقَالَ هَؤُلَاءِ** : ﴿ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : اللهُ يُجَازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ أَيْ : تُسْتَدْرَجُونَ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ .

وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ طُغَاةِ ثَمُودَ وَرُءُوسِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا دُعَاةَ قَوْمِهِمْ إِلَى الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ وَتَكْذِيبِ صَالِحٍ ، وَآلَ بِهِمُ الْحَالُ إِلَى أَنَّهُمْ عَقَرُوا النَّاقَةَ وَهَمُّوا بِقَتْلِ صَالِحٍ أَيْضًا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أَيْ : مَدِينَةِ ثَمُودَ ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أَيْ : تِسْعَةُ نَفَرٍ ﴿ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ وَإِنَّمَا غَلَبَ هَؤُلَاءِ عَلَى أَمْرِ ثَمُودَ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا كُبَرَاءَ فِيهِمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ . **وَالْغَرَضُ** : أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكَفَرَةَ الْفَسَقَةَ كَانَ مِنْ صِفَاتِهِمُ الْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ بِكُلِّ طَرِيقٍ يَقْدِرُونَ عَلَيْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ أَيْ : تَحَالَفُوا وَتَبَايَعُوا عَلَى قَتْلِ نَبِيِّ اللهِ صَالِحٍ عليه السلام مَنْ لَقِيَهُ لَيْلًا غِيلَةً ، فَكَادَهُمُ اللهُ وَجَعَلَ الدَّائِرَةَ عَلَيْهِمْ . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ تَقَاسَمُوا۟ ﴾ تَحَالَفُوا عَلَى هَلَاكِهِ ، فَلَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِ حَتَّى هَلَكُوا وَقَوْمُهُمْ أَجْمَعِينَ .

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ : لَمَّا عَقَرُوا النَّاقَةَ وَقَالَ لَهُمْ صَالِحٌ : ﴿ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : ٦٥] قَالُوا : زَعَمَ صَالِحٌ أَنَّهُ يَفْرُغُ مِنَّا إِلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، فَنَحْنُ نَفْرُغُ مِنْهُ وَأَهْلَهُ قَبْلَ ثَلَاثٍ ، وَكَانَ لِصَالِحٍ مَسْجِدٌ فِي الْحِجْرِ عِنْدَ شِعْبٍ هُنَاكَ يُصَلِّي فِيهِ ، فَخَرَجُوا إِلَى كَهْفٍ أَيْ : غَارٍ هُنَاكَ لَيْلًا ، فَقَالُوا : إِذَا جَاءَ يُصَلِّي قَتَلْنَاهُ ، ثُمَّ رَجَعْنَا إِذَا فَرَغْنَا مِنْهُ إِلَى أَهْلِهِ فَفَرَغْنَا مِنْهُمْ ، فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ صَخْرَةً مِنَ الْهَضْبِ حِيَالَهُمْ ، فَخَشُوا أَنْ تَشْدَخَهُمْ

فَتَبَادَرُوا فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ وَهُمْ فِي ذَلِكَ الْغَارِ ، فَلَا يَدْرِي قَوْمُهُمْ أَيْنَ هُمْ وَلَا يَدْرُونَ مَا فُعِلَ بِقَوْمِهِمْ ، فَعَذَّبَ اللهُ هَؤُلَاءِ هَهُنَا وَهَؤُلَاءِ هَهُنَا ، وَأَنْجَى اللهُ صَالِحًا وَمَنْ مَعَهُ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ أَيْ : فَارِغَةٌ لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ ﴿ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ .

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ لُوطٍ ﷺ أَنَّهُ أَنْذَرَ قَوْمَهُ نِقْمَةَ اللهِ بِهِمْ فِي فِعْلِهِمُ الْفَاحِشَةَ ، الَّتِي لَمْ يَسْبِقهمْ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ ، وَهِيَ : إِتْيَانُ الذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ ، وَذَلِكَ فَاحِشَةٌ عَظِيمَةٌ : اسْتَغْنَى الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أَيْ : يَرَى بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ؟ ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَعْرِفُونَ شَيْئًا ، لَا طَبْعًا وَلَا شَرْعًا ، ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أَيْ : يَتَحَرَّجُونَ مِنْ فِعْلِ مَا تَفْعَلُونَهُ ، وَمِنْ إِقْرَارِكُمْ عَلَى صَنِيعِكُمْ ، فَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَصْلُحُونَ لِمُجَاوَرَتِكُمْ فِي بِلَادِكُمْ ، فَعَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ ، فَدَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْهَالِكِينَ مَعَ قَوْمِهَا ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ رِدْءًا لَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ ، وَعَلَى طَرِيقَتِهِمْ فِي رِضَاهَا بِأَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَة ، فَكَانَتْ تَدُلُّ قَوْمَهَا عَلَى ضِيفَانِ لُوطٍ لِيَأْتُوا إِلَيْهِمْ ، لَا أَنَّهَا كَانَتْ تَفْعَلُ الْفَوَاحِشَ ، تَكْرِمَةً لِنَبِيِّ اللهِ ﷺ لَا كَرَامَةَ لَهَا . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ أَيْ : حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ، وَوَصَلَ إِلَيْهِمُ الْإِنْذَارُ ، فَخَالَفُوا الرَّسُولَ وَكَذَّبُوهُ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ .

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ

بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : عَلَى نِعَمِهِ عَلَى عِبَادِهِ ، مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى ، وَعَلَى مَا اتَّصَفَ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْعُلَى وَالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى ، وَأَنْ يُسَلِّمَ عَلَى عِبَادِ اللهِ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ وَاخْتَارَهُمْ ، وَهُمْ رُسُلُهُ وَأَنْبِيَاؤُهُ الْكِرَامُ - عَلَيْهِمْ مِنَ اللهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ - وَهُوَ كَقَوْلِهِ : ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٠-١٨٢] ، وَقِيلَ : هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَضِيَ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ ، وَلَا مُنَافَاةَ ، فَإِنَّهُمْ إِذَا كَانُوا مِنْ عِبَادِ اللهِ الَّذِينَ اصْطَفَى فَالْأَنْبِيَاءُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ، وَالْقَصْدُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ رَسُولَهُ وَمَنِ اتَّبَعَهُ بَعْدَ مَا ذَكَرَ لَهُمْ مَا فَعَلَ بِأَوْلِيَائِهِ مِنَ النَّجَاةِ وَالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ ، وَمَا أَحَلَّ بِأَعْدَائِهِ مِنَ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ وَالْقَهْرِ - أَنْ يَحْمَدُوهُ عَلَى جَمِيعِ أَفْعَالِهِ ، وَأَنْ يُسَلِّمُوا عَلَى عِبَادِهِ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ اِسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أَيْ : تِلْكَ السَّمَاوَاتِ بِارْتِفَاعِهَا وَصَفَائِهَا ، وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ النَّيِّرَةِ ، وَالنُّجُومِ الزَّاهِرَةِ ، وَالْأَفْلَاكِ الدَّائِرَةِ ، الْأَرْضِ بِاسْتِفَالِهَا وَكَثَافَتِهَا ، وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ وَالْأَطْوَادِ وَالسُّهُولِ وَالْأَوْعَارِ ، وَالْفَيَافِي وَالْقِفَارِ ، وَالزُّرُوعِ وَالْأَشْجَارِ ، وَالثِّمَارِ وَالْبِحَارِ وَالْحَيَوَانِ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَصْنَافِ وَالْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أَيْ : جَعَلَهُ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ﴾ أَيْ : بَسَاتِينَ ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أَيْ : مَنْظَرٍ حَسَنٍ وَشَكْلٍ بَهِيٍّ ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾ أَيْ : لَمْ تَكُونُوا تَقْدِرُونَ عَلَى إِنْبَاتِ شَجَرِهَا ، وَإِنَّمَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُسْتَقِلُّ بِذَلِكَ ، الْمُتَفَرِّدُ بِهِ دُونَ مَا سِوَاهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ ، أَيْ : أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ يُعْبَدُ ؟، وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ وَلِكُلِّ ذِي لُبٍّ مِمَّا يَعْتَرِفُونَ بِهِ أَيْضًا أَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ ؟.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ((أَمَّنْ)) فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَقْدِيرُهُ : أَمَّنْ يَفْعَلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ كَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا ؟ هَذَا مَعْنَى السِّيَاقِ وَإِنْ لَمْ يُذْكَرِ الْآخَرُ ؛ لِأَنَّ فِي قُوَّةِ الْكَلَامِ مَا يُرْشِدُ إِلَى ذَلِكَ ، **وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى** ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ الْآيَةِ : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ أَيْ : يَجْعَلُونَ للهِ عِدْلًا وَنَظِيرًا .

أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

يَقُولُ : ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أَيْ : قَارَّةً سَاكِنَةً ثَابِتَةً لَا تَمِيدُ ، وَلَا تَتَحَرَّكُ بِأَهْلِهَا وَلَا تَرْجُفُ بِهِمْ . ﴿ وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ﴾ أَيْ : جَعَلَ فِيهَا الْأَنْهَارَ الْعَذْبَةَ الطَّيِّبَةَ ، شَقَّهَا فِي خِلَالِهَا ، ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ ﴾ أَيْ : جِبَالًا شَامِخَةً ، تُرْسِي الْأَرْضَ وَتُثَبِّتُهَا لِئَلَّا تَمِيدَ بِكُمْ ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ أَيْ : جَعَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الْعَذْبَةِ وَالْمَالِحَةِ حَاجِزًا ، أَيْ : مَانِعًا يَمْنَعُهَا مِنَ الِاخْتِلَاطِ لِئَلَّا يَفْسُدَ هَذَا بِهَذَا ، وَهَذَا بِهَذَا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ فَعَلَ هَذَا ، أَوْ يُعْبَدُ ، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَهُ .

أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الْمَدْعُوُّ عِنْدَ الشَّدَائِدِ ، الْمَرْجُوُّ عِنْدَ النَّوَازِلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[الإسراء : ٦٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾[النحل : ٥٣] ، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ أَيْ : مَنْ هُوَ الَّذِي لَا يَلْجَأُ الْمُضْطَرُّ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَالَّذِي لَا يَكْشِفُ ضُرَّ الْمَضْرُورِينَ سِوَاهُ ؟

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : يَخْلُفُ قَرْنًا لِقَرْنٍ قَبْلَهُمْ وَخَلَفًا لِسَلَفٍ قَوْمًا يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ، أَوْ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ يُعْبَدُ ؟ وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِفِعْلِ ذَلِكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ؟ ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : مَا أَقَلَّ تَذَكُّرِهِمْ فِيمَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ .

أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

يَقُولُ : ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ أَيْ : بِمَا خَلَقَ مِنَ الدَّلَائِلِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[النحل : ١٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الأنعام : ٩٧] . ﴿ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ أَيْ : بَيْنَ يَدَيِ السَّحَابِ ، الَّذِي فِيهِ مَطَرٌ يُغِيثُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ الْمُجْدِبِينَ الْأَزِلِينَ الْقَنِطِينَ ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ

هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾

أَيْ : هُوَ الَّذِي بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : بِمَا يُنْزِلُ مِنْ مَطَرِ السَّمَاءِ وَيُنْبِتُ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [سبأ : ٢] ، فَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَيُسْكِنُهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ أَنْوَاعَ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ وَالْأَزَاهِيرِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَلْوَانٍ شَتَّى ﴿ كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه : ٥٤] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فَعَلَ هَذَا ، وَعَلَى الْقَوْلِ الْآخَرِ بَعْدَ هَذَا ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾ عَلَى صِحَّةِ مَا تَدَّعُونَهُ مِنْ عِبَادَةِ آلِهَةٍ أُخْرَى ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ فِي ذَلِكَ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ وَلَا بُرْهَانَ .

قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ مُعَلِّمًا لِجَمِيعِ الْخَلْقِ : أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، أَيْ : لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ ذَلِكَ إِلَّا اللهُ ﷻ فَإِنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِذَلِكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أَيْ : وَمَا يَشْعُرُ الْخَلَائِقُ السَّاكِنُونَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِوَقْتِ السَّاعَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ أَيْ : اِنْتَهَى عِلْمُهُمْ وَعَجَزَ عَنْ مَعْرِفَةِ وَقْتِهَا ، وَقَرَأَ آخَرُونَ : « بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ » أَيْ : تَسَاوَى عِلْمُهُمْ فِي ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِجِبْرِيلَ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ : « **مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ** » أَيْ : تَسَاوَى فِي الْعَجْزِ عَنْ دَرْكِ ذَلِكَ عِلْمُ الْمَسْئُولِ وَالسَّائِلِ ، وَقِيلَ : ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أَيْ : غَابَ ، ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْجِنْسِ ، وَالْمُرَادُ : الْكَافِرُونَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف : ٤٨] أَيْ : الْكَافِرُونَ مِنْكُمْ ، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ أَيْ : شَاكُّونَ فِي وُجُودِهَا وَوُقُوعِهَا ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ أَيْ : فِي عَمَايَةٍ وَجَهْلٍ كَبِيرٍ فِي أَمْرِهَا وَشَأْنِهَا .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ

وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُنْكِرِي الْبَعْثِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ: اِسْتَبْعَدُوا إِعَادَةَ الْأَجْسَادِ بَعْدَ صَيْرُورَتِهَا عِظَامًا وَرُفَاتًا وَتُرَابًا، **ثُمَّ قَالَ**: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: مَا زِلْنَا نَسْمَعُ بِهَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا، وَلَا نَرَى لَهُ حَقِيقَةً وَلَا وُقُوعًا، وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يَعْنُونَ: مَا هَذَا الْوَعْدُ بِإِعَادَةِ الْأَبْدَانِ ﴿إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ: أَخَذَهُ قَوْمٌ عَمَّنْ قَبْلَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَتَلَقَّاهُ بَعْضٌ عَنْ بَعْضٍ، وَلَيْسَ لَهُ حَقِيقَةٌ ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ: ﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أَيْ: الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ، وَمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ وَغَيْرِهِ، كَيْفَ حَلَّتْ بِهِمْ نِقَمُ اللهِ وَعَذَابُهُ وَنَكَالُهُ، وَنَجَّى اللهُ مِنْ بَيْنِهِمْ رُسُلَهُ الْكِرَامَ وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَصِحَّتُهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: الْمُكَذِّبِينَ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَلَا تَأْسَفْ عَلَيْهِمْ وَتَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٌ ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أَيْ: فِي كَيْدِكَ وَرَدِّ مَا جِئْتَ بِهِ، فَإِنَّ اللهَ مُؤَيِّدُكَ وَنَاصِرُكَ وَمُظْهِرُ دِينِكَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَعَانَدَهُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي سُؤَالِهِمْ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَاسْتِبْعَادِهِمْ وُقُوعَ ذَلِكَ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ قَالَ اللهُ مُجِيبًا لَهُمْ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ قَرُبَ أَوْ أَنْ يَقْرُبَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ.

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: فِي إِسْبَاغِهِ نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ مَعَ ظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَشْكُرُونَهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أَيْ: يَعْلَمُ الضَّمَائِرَ وَالسَّرَائِرَ كَمَا يَعْلَمُ الظَّوَاهِرَ ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾، ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى: بِأَنَّهُ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَهُوَ مَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ وَمَا شَاهَدُوهُ، **فَقَالَ تَعَالَى**: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾

يَعْنِي : وَمَا مِنْ شَيْءٍ ﴿ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[الحج : ٧٠]

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ، وَمَا اِشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ وَالْفُرْقَانِ ، أَنَّهُ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَهُمْ حَمَلَةُ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ ﴿ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ كَاخْتِلَافِهِمْ فِي عِيسَى وَتَبَايُنِهِمْ فِيهِ ، فَالْيَهُودُ اِفْتَرَوْا وَالنَّصَارَى غَلَوْا ، فَجَاءَ الْقُرْآنُ بِالْقَوْلِ الْوَسَطِ الْحَقِّ الْعَدْلِ ، أَنَّهُ : عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ الْكِرَامِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾[مريم : ٣٤] ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾أَيْ : هُدًى لِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، وَرَحْمَةٌ لَهُمْ فِي الْعَمَلِيَّاتِ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : فِي اِنْتِقَامِهِ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ وَأَقْوَالِهِمْ ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ ، وَبَلِّغْ رِسَالَةَ رَبِّكَ ﴿ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ أَيْ : أَنْتَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ، وَإِنْ خَالَفَكَ مَنْ خَالَفَكَ ، مِمَّنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةُ ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أَيْ : لَا تُسْمِعُهُمْ شَيْئًا يَنْفَعُهُمْ ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ عَلَى قُلُوبِهِمْ غِشَاوَةٌ ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرُ الْكُفْرِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لَكَ مَنْ هُوَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ، السَّمْعُ وَالْبَصَرُ النَّافِعُ فِي الْقَلْبِ وَالْبَصِيرَةِ ، الْخَاضِعُ للهِ ، وَلِمَا جَاءَ عَنْهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - .

۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

هَذِهِ الدَّابَّةُ تَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ ، وَتَرْكِهِمْ أَوَامِرَ اللهِ ، وَتَبْدِيلِهِمُ الدِّينَ الْحَقَّ ، يُخْرِجُ اللهُ لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ ، قِيلَ : مِنْ مَكَّةَ ، وَقِيلَ : مِنْ غَيْرِهَا ، فَتُكَلِّمُ النَّاسَ عَلَى

ذَلِكَ تُكَلِّمُهُمْ كَلَامًا ، أَيْ : تُخَاطِبُهُمْ مُخَاطَبَةً .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَحَشْرُ الظَّالِمِينَ - مِنَ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ اللهِ وَرُسُلِهِ - إِلَى بَيْنَ يَدَي اللهِ ﷻ لِيَسْأَلَهُمْ عَمَّا فَعَلُوهُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا وَتَحْقِيرًا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ أَيْ : مِنْ كُلِّ قَوْمٍ وَقَرْنٍ فَوْجًا ، أَيْ : جَمَاعَةً ﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ ، ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أَيْ : يُدْفَعُونَ ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو ﴾ ، وَوَقَفُوا بَيْنَ يَدَي اللهِ ﷻ فِي مَقَامِ الْمُسَاءَلَةِ ﴿ قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : فَيُسْئَلُونَ عَنِ اعْتِقَادِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أَيْ : بُهِتُوا فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوَابٌ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ وَشَأْنِهِ الرَّفِيعِ ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ أَيْ : فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ لِتَسْكُنَ حَرَكَاتُهُمْ بِسَبَبِهِ ، وَتَهْدَأَ أَنْفَاسُهُمْ وَيَسْتَرِيحُونَ مِنْ نَصَبِ التَّعَبِ فِي نَهَارِهِمْ ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أَيْ : مُنِيرًا مُشْرِقًا ، فَبِسَبَبِ ذَلِكَ يَتَصَرَّفُونَ فِي الْمَعَايِشِ وَالْمَكَاسِبِ وَالْأَسْفَارِ وَالتِّجَارَاتِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شُئُونِهِمُ الَّتِي يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَوْلِ يَوْمِ نَفْخَةِ الْفَزَعِ فِي الصُّورِ ، وَهُوَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ » وَفِي حَدِيثِ الصُّورِ : إِنَّ إِسْرَافِيلَ هُوَ الَّذِي يَنْفُخُ فِيهِ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى ، فَيَنْفُخُ فِيهِ أَوَّلًا نَفْخَةَ الْفَزَعِ وَيُطَوِّلُهَا ، وَذَلِكَ فِي آخِرِ عُمُرِ الدُّنْيَا حِينَ تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى شِرَارِ النَّاسِ مِنَ الْأَحْيَاءِ ، فَيَفْزَعُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ، وَهُمُ الشُّهَدَاءُ فَإِنَّهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ

رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، وَفِي الحَدِيثِ : ((**ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا**)) اللِّيتُ : هُوَ صَفْحَةُ العُنُقِ ، أَيْ : أَمَالَ عُنُقَهُ لِيَسْتَمِعَهُ مِنَ السَّمَاءِ جَيِّدًا . فَهَذِهِ نَفْخَةُ الْفَزَعِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الصَّعْقِ وَهُوَ : المَوْتُ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَهُوَ : النُّشُورُ مِنَ الْقُبُورِ لِجَمِيعِ الخَلَائِقِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ قُرِئَ بِالمَدِّ وَبِغَيْرِهِ عَلَى الْفِعْلِ ، وَكُلٌّ بِمَعْنًى وَاحِدٍ وَ ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ أَيْ : صَاغِرِينَ مُطِيعِينَ ، لَا يَتَخَلَّفُ أَحَدٌ عَنْ أَمْرِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ أَيْ : تَرَاهَا كَأَنَّهَا ثَابِتَةً بَاقِيَةً عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ، وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، أَيْ : تَزُولُ عَنْ أَمَاكِنِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [الطور : ٩-١٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٥-١٠٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ **أَيْ** : **يَفْعَلُ ذَلِكَ بِقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّذِي قَدْ** أَتْقَنَ كُلَّ مَا خَلَقَ ، وَأَوْدَعَ فِيهِ مِنَ الحِكْمَةِ مَا أَوْدَعَ ﴿ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ أَيْ : هُوَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُ عِبَادُهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ فَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ . ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى حَالَ السُّعَدَاءِ والأَشْقِيَاءِ يَوْمَئِذٍ ، **فَقَالَ** : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ **قِيلَ** : بِالإِخْلَاصِ ، **وَقِيلَ** : هِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴿ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ وَقَدْ بَيَّنَ تَعَالَى فِي المَوْضِعِ الآخَرِ أَنَّ لَهُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا ﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : بِالشِّرْكِ ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا رَسُولَهُ وَآمِرًا لَهُ أَنْ يَقُولَ : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ ، إِضَافَةُ الرُّبُوبِيَّةِ إِلَى الْبَلْدَةِ عَلَى سَبِيلِ التَّشْرِيفِ لَهَا وَالاِعْتِنَاءِ بِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : ٣-٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا ﴾ أَيْ : الَّذِي إِنَّمَا صَارَتْ حَرَامًا شَرْعًا وَقَدَرًا بِتَحْرِيمِهِ لَهَا ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ : ((**إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ ، وَلَا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ ، أَيْ : هُوَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أَيْ : الْمُوَحِّدِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُنْقَادِينَ لِأَمْرِهِ الْمُطِيعِينَ لَهُ . ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ، أَيْ : عَلَى النَّاسِ أُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهُ ، ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ أَيْ : لِي أُسْوَةٌ بِالرُّسُلِ الَّذِينَ أَنْذَرُوا قَوْمَهُمْ ، وَقَامُوا بِمَا عَلَيْهِمْ مِنْ أَدَاءِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ وَخَلَصُوا مِنْ عُهْدَتِهِمْ ، وَحِسَابُ أُمَمِهِمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠]

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أَيْ : للهِ الْحَمْدُ الَّذِي لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : بَلْ هُوَ شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّمْلِ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٨٨ تفسيرُ سُورَةِ القَصَص مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ تِلْكَ ﴾ أَيْ : هَذِهِ ﴿ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أَيْ : الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الْكَاشِفِ عَنْ حَقَائِقِ الْأُمُورِ ، وَعِلْمِ مَا قَدْ كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ . ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الْآيَةَ ،

(١) في أول سورة البقرة .

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] أَيْ: نَذْكُرُ لَكَ الْأَمْرَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، كَأَنَّكَ شَاهِدٌ وَكَأَنَّكَ حَاضِرُهُ. ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: تَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ وَطَغَى ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أَيْ: أَصْنَافًا قَدْ صَرَّفَ كُلَّ صِنْفٍ فِيمَا يُرِيدُ مِنْ أُمُورِ دَوْلَتِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ يَعْنِي: بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانُوا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ خِيَارَ أَهْلِ زَمَانِهِمْ هَذَا، وَقَدْ سُلِّطَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ الْعَنِيدُ، يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي أَخَسِّ الْأَعْمَالِ، وَيَكُدُّهُمْ لَيْلًا وَنَهَارًا فِي أَشْغَالِهِ وَأَشْغَالِ رَعِيَّتِهِ، وَيُقَتِّلُ مَعَ هَذَا أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِهَانَةً لَهُمْ وَاحْتِقَارًا، وَخَوْفًا مِنْ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُمُ الْغُلَامُ الَّذِي كَانَ قَدْ تَخَوَّفَ هُوَ وَأَهْلُ مَمْلَكَتِهِ مِنْهُ، أَنْ يُوجَدَ مِنْهُمْ غُلَامٌ، يَكُونُ سَبَبَ هَلَاكِهِ وَذَهَابِ دَوْلَتِهِ عَلَى يَدَيْهِ. فَاحْتَرَزَ فِرْعَوْنُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ ذُكُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَنْ يَنْفَعَ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ؛ لأَنَّ أَجَلَ الله إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ وَقَدْ فَعَلَ تَعَالَى ذَلِكَ بِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] أَرَادَ فِرْعَوْنُ - بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ - أَنْ يَنْجُوَ مِنْ مُوسَى، فَمَا نَفَعَهُ مِنْ ذَلِكَ مَعَ قَدَرِ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يُخَالَفُ أَمْرُهُ الْقَدَرِيُّ، بَلْ نَفَذَ حُكْمُهُ وَجَرَى قَلَمُهُ فِي الْقِدَمِ بِأَنْ يَكُونَ هَلَاكُ فِرْعَوْنَ عَلَى يَدَيْهِ، بَلْ يَكُونُ هَذَا الْغُلَامُ الَّذِي اِحْتَرَزْتَ مِنْ وُجُودِهِ، وَقَتَلْتَ بِسَبَبِهِ أُلُوفًا مِنَ الْوِلْدَانِ إِنَّمَا مَنْشَؤُهُ وَمُرَبَّاهُ عَلَى فِرَاشِكَ، وَفِي دَارِكَ، وَغِذَاؤُهُ مِنْ طَعَامِكَ، وَأَنْتَ تُرَبِّيهِ وَتُدَلِّلُهُ وَتَتَفَدَّاهُ، وَحَتْفُكَ وَهَلَاكُكَ وَهَلَاكُ جُنُودِكَ عَلَى يَدَيْهِ، لِتَعْلَمَ أَنَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ الْعُلَا هُوَ الْقَاهِرُ الْغَالِبُ الْعَظِيمُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ الشَّدِيدُ الْمِحَالِ، الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

ذَكَرُوا أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا أَكْثَرَ مِنْ قَتْلِ ذُكُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، خَافَتِ الْقِبْطُ أَنْ يُفْنِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَيَلُونَ هُمْ مَا كَانُوا يَلُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ، فَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: إِنَّهُ يُوشِكُ إِنِ اسْتَمَرَّ هَذَا الْحَالُ أَنْ يَمُوتَ شُيُوخُهُمْ، وَغِلْمَانُهُمْ لَا يَعِيشُونَ، وَنِسَاؤُهُمْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُمْنَ بِمَا يَقُومُ بِهِ رِجَالُهُمْ

مِنَ الْأَعْمَالِ فَيَخْلُصَ إِلَيْنَا ذَلِكَ ، فَأَمَرَ بِقَتْلِ الْوِلْدَانِ عَامًا وَتَرْكِهِمْ عَامًا ، فَوُلِدَ هَارُونُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي السَّنَةِ الَّتِي يَتْرُكُونَ فِيهَا الْوِلْدَانَ ، وَوُلِدَ مُوسَى فِي السَّنَةِ الَّتِي يُقَتِّلُونَ فِيهَا الْوِلْدَانَ ، وَكَانَ لِفِرْعَوْنَ أُنَاسٌ مُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ ، وَقَوَابِلُ يَدُرْنَ عَلَى النِّسَاءِ ، فَمَنْ رَأَيْنَهَا قَدْ حَمَلَتْ أَحْصَوْا اسْمَهَا فَإِذَا كَانَ وَقْتُ وِلَادَتِهَا لَا يَقْبَلُهَا إِلَّا نِسَاءُ الْقِبْطِ ، فَإِنْ وَلَدَتِ الْمَرْأَةُ جَارِيَةً تَرَكْنَهَا وَذَهَبْنَ ، وَإِنْ وَلَدَتْ غُلَامًا دَخَلَ أُولَئِكَ الذَّبَّاحُونَ بِأَيْدِيهِمُ الشِّفَارُ الْمُرْهَفَةُ فَقَتَلُوهُ وَمَضَوْا - قَبَّحَهُمُ اللهُ تَعَالَى - . فَلَمَّا حَمَلَتْ أُمُّ مُوسَى بِهِ عليه السلام لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهَا مَخَايِلُ الْحَمْلِ كَغَيْرِهَا وَلَمْ تَفْطِنْ لَهَا الدَّايَاتُ ، وَلَكِنْ لَمَّا وَضَعَتْهُ ذَكَرًا ضَاقَتْ بِهِ ذَرْعًا ، وَخَافَتْ عَلَيْهِ خَوْفًا شَدِيدًا ، وَأَحَبَّتْهُ حُبًّا زَائِدًا ، وَكَانَ مُوسَى عليه السلام لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا أَحَبَّهُ ، فَالسَّعِيدُ مَنْ أَحَبَّهُ طَبْعًا وَشَرْعًا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾[طه : ٣٩] ، فَلَمَّا ضَاقَتْ بِهِ ذَرْعًا أُلْهِمَتْ فِي سِرِّهَا ، وَأُلْقِيَ فِي خَلَدِهَا ، وَنُفِثَ فِي رُوعِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَتْ دَارُهَا عَلَى حَافَّةِ النِّيلِ فَاتَّخَذَتْ تَابُوتًا وَمَهَّدَتْ فِيهِ مَهْدًا ، وَجَعَلَتْ تُرْضِعُ وَلَدَهَا فَإِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِمَّنْ تَخَافُهُ ذَهَبَتْ فَوَضَعَتْهُ فِي ذَلِكَ التَّابُوتِ وَسَيَّرَتْهُ فِي الْبَحْرِ وَرَبَطَتْهُ بِحَبْلٍ عِنْدَهَا ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ دَخَلَ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِمَّنْ تَخَافُهُ ، فَذَهَبَتْ فَوَضَعَتْهُ فِي ذَلِكَ التَّابُوتِ ، وَأَرْسَلَتْهُ فِي الْبَحْرِ وَذَهِلَتْ عَنْ أَنْ تَرْبِطَهُ ، فَذَهَبَ مَعَ الْمَاءِ وَاحْتَمَلَهُ ، حَتَّى مَرَّ بِهِ عَلَى دَارِ فِرْعَوْنَ فَالْتَقَطَهُ الْجَوَارِي ، فَاحْتَمَلْنَهُ فَذَهَبْنَ بِهِ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَلَا يَدْرِينَ مَا فِيهِ ، وَخَشِينَ أَنْ يَفْتَتْنَ عَلَيْهَا فِي فَتْحِهِ دُونَهَا ، فَلَمَّا كَشَفَتْ عَنْهُ إِذَا هُوَ غُلَامٌ مِنْ أَحْسَنِ الْخَلْقِ وَأَجْمَلِهِ وَأَحْلَاهُ وَأَبْهَاهُ ، فَأَوْقَعَ اللهُ مَحَبَّتَهُ فِي قَلْبِهَا حِينَ نَظَرَتْ إِلَيْهِ ؛ وَذَلِكَ لِسَعَادَتِهَا وَمَا أَرَادَ اللهُ مِنْ كَرَامَتِهَا وَشَقَاوَةِ بَعْلِهَا .

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ الْآيَة . مَعْنَاهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَيَّضَهُمْ لِالْتِقَاطِهِ لِيَجْعَلَهُ عَدُوًّا لَهُ وَحَزَنًا ، فَيَكُونَ أَبْلَغَ فِي إِبْطَالِ حَذَرِهِمْ مِنْهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ﴾ الْآيَة . يَعْنِي : أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا رَآهُ هَمَّ بِقَتْلِهِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَشَرَعَتِ امْرَأَتُهُ آسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ تُخَاصِمُ عَنْهُ وَتَذُبُّ دُونَهُ وَتُحَبِّبُهُ إِلَى فِرْعَوْنَ ، فَقَالَتْ : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ﴾ ، فَقَالَ فِرْعَوْنُ : أَمَّا لَكِ فَنَعَمْ ، وَأَمَّا لِي فَلَا ، فَكَانَ كَذَلِكَ ، وَهَدَاهَا اللهُ بِسَبَبِهِ ، وَأَهْلَكَهُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ . ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ وَقَدْ حَصَلَ لَهَا ذَلِكَ ، وَهَدَاهَا اللهُ بِهِ وَأَسْكَنَهَا الْجَنَّةَ بِسَبَبِهِ . ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ أَيْ : أَرَادَتْ أَنْ تَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَتَتَبَنَّاهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ مِنْهُ ، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَدْرُونَ مَا أَرَادَ

اللهُ مِنْهُ بِالْتِقَاطِهِمْ إِيَّاهُ، مِنَ الْحِكْمَةِ الْعَظِيمَةِ الْبَالِغَةِ وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ.

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فُؤَادِ أُمِّ مُوسَى حِينَ ذَهَبَ وَلَدُهَا فِي الْبَحْرِ، أَنَّهُ أَصْبَحَ فَارِغًا، أَيْ: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا إِلَّا مِنْ مُوسَى ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أَيْ: إِنْ كَادَتْ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِهَا وَحُزْنِهَا وَأَسَفِهَا لَتُظْهِرَ أَنَّهُ ذَهَبَ لَهَا وَلَدٌ، وَتُخْبِرُ بِحَالِهَا لَوْلَا أَنَّ اللهَ ثَبَّتَهَا وَصَبَّرَهَا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي: أَمَرَتِ ابْنَتَهَا، وَكَانَتْ كَبِيرَةً تعي ما يُقَالُ لَهَا، فَقَالَتْ لَهَا: ﴿قُصِّيهِ﴾ أَيْ: اِتَّبِعِي أَثَرَهُ، وَخُذِي خَبَرَهُ، وَتطَلَّبِي شَأْنَهُ مِنْ نَوَاحِي الْبَلَد، فَخَرَجَتْ لِذَلِكَ ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ**: عَنْ جَانِبٍ. **وَقَالَ قَتَادَةُ**: جَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَكَأَنَّهَا لَا تُرِيدُهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا اِسْتَقَرَّ مُوسَى عليه السلام بِدَارِ فِرْعَوْن وَأَحَبَّتْهُ امْرَأَةُ الْمَلِكِ وَاسْتَطْلَقَتْهُ مِنْهُ، عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ الَّتِي فِي دَارِهِمْ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهَا ثَدْيًا، وَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجُوا بِهِ إِلَى السُّوقِ لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ اِمْرَأَةً تَصْلُحُ لِرِضَاعَتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ بِأَيْدِيهِمْ عَرَفَتْهُ، وَلَمْ تُظْهِرْ ذَلِكَ وَلَمْ يَشْعُرُوا بِهَا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: تَحْرِيمًا قَدَرِيًّا، وَذَلِكَ لِكَرَامَتِهِ عِنْدَ اللهِ وَصِيَانَتِهِ لَهُ، أَنْ يَرْتَضِعَ غَيْرَ ثَدْيِ أُمِّهِ، وَلأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ ذَلِكَ سَبَبًا إِلَى رُجُوعِهِ إِلَى أُمِّهِ لِتُرْضِعَهُ وَهِيَ آمِنَةٌ بَعْدَ مَا كَانَتْ خَائِفَةً، فَلَمَّا رَأَتْهُمْ حَائِرِينَ فِيمَنْ يُرْضِعهُ ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ فَلَمَّا قَالَتْ لَهُمْ ذَلِكَ، ذَهَبُوا مَعَهَا إِلَى مَنْزِلِهِمْ، فَدَخَلُوا بِهِ عَلَى أُمِّهِ، فَأَعْطَتْهُ ثَدْيَهَا فَالْتَقَمَهُ، فَفَرِحُوا بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا.

وَذَهَبَ الْبَشِيرُ إِلَى اِمْرَأَةِ الْمَلِكِ، فَاسْتَدْعَتْ أُمَّ مُوسَى، وَأَحْسَنَتْ إِلَيْهَا، وَأَعْطَتْهَا عَطَاءً جَزِيلًا، وَهِيَ لَا تَعْرِفُ أَنَّهَا أُمُّهُ فِي الْحَقِيقَةِ، وَلَكِنْ لِكَوْنِهِ وَافَقَ ثَدْيَهَا، ثُمَّ سَأَلَتْهَا آسِيَةُ أَنْ تُقِيمَ عِنْدَهَا فَتُرْضِعَهُ فَأَبَتْ عَلَيْهَا، وَقَالَتْ: إِنَّ لِي بَعْلًا وَأَوْلَادًا وَلَا أَقْدِرُ عَلَى الْمُقَامِ عِنْدَكِ، وَلَكِنْ إِنْ أَحْبَبْتِ أَنْ أُرْضِعَهُ فِي بَيْتِي فَعَلْتُ، فَأَجَابَتْهَا اِمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ إِلَى ذَلِكَ، وَأَجْرَتْ عَلَيْهَا النَّفَقَةَ وَالصِّلَاتِ وَالْكَسَاوِي وَالْإِحْسَانَ الْجَزِيلَ، فَرَجَعَتْ أُمُّ مُوسَى بِوَلَدِهَا رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً قَدْ

أَبْدَلَهَا اللهُ بَعْدَ خَوْفِهَا أَمْنًا فِي عِزٍ وَجَاهٍ وَرِزْقٍ دَارٍّ ، فَسُبْحَانَ مَنْ بِيَدِهِ الْأَمْرُ ، مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، الَّذِي يَجْعَلُ لِمَنِ اتَّقَاهُ بَعْدَ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا ، وَبَعْدَ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ أَيْ : بِهِ ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أَيْ : عَلَيْهِ ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أَيْ : فِيمَا وَعَدَهَا مِنْ رَدِّهِ إِلَيْهَا ، وَجَعْلَهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، فَحِينَئِذٍ تَحَقَّقَتْ - بِرَدِّهِ إِلَيْهَا - أَنَّهُ كَائِنٌ مِنْهُ رَسُولٌ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، فَعَامَلَتْهُ فِي تَرْبِيَتِهِ مَا يَنْبَغِي لَهُ طَبْعًا وَشَرْعًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : حُكْمَ اللهِ فِي أَفْعَالِهِ وَعَوَاقِبِهَا الْمَحْمُودَةِ الَّتِي هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَرُبَّمَا يَقَعُ الْأَمْرُ كَرِيهًا إِلَى النُّفُوسِ وَعَاقِبَتُهُ مَحْمُودَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦]

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَبْدَأَ أَمْرِ مُوسَى عليه السلام ذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَاهُ اللهُ حُكْمًا وَعِلْمًا . قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي : النُّبُوَّةَ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى سَبَبَ وُصُولِهِ إِلَى مَا كَانَ تَعَالَى قَدَّرَ لَهُ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالتَّكْلِيمِ : فِي قَضِيَّةِ قَتْلِهِ ذَلِكَ الْقِبْطِيَّ الَّذِي كَانَ سَبَبَ خُرُوجِهِ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ إِلَى بِلَادِ مَدْيَنَ . فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أَيْ : يَتَضَارَبَانِ وَيَتَنَازَعَانِ ﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ أَيْ : إِسْرَائِيلِيٌّ ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ أَيْ : قِبْطِيٌّ ، فَاسْتَغَاثَ الْإِسْرَائِيلِيُّ بِمُوسَى ، فَوَجَدَ مُوسَى فُرْصَةً وَهِيَ غَفْلَةُ النَّاسِ فَعَمَدَ إِلَى الْقِبْطِيِّ ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ قِيلَ : فَوَكَزَهُ ، أَيْ : طَعَنَهُ بِجُمْعِ كَفِّهِ ، وَقِيلَ : وَكَزَهُ بِعَصًا كَانَتْ مَعَهُ ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : كَانَ فِيهَا حَتْفُهُ فَمَاتَ ﴿ قَالَ ﴾ مُوسَى ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ أَيْ : بِمَا جَعَلْتَ لِي مِنَ الْجَاهِ وَالْعِزِّ وَالْمَنَعَةِ ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا ﴾ أَيْ : مُعِينًا ﴿ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أَيْ : الْكَافِرِينَ بِكَ الْمُخَالِفِينَ لِأَمْرِكَ .

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى عليه السلام لَمَّا قَتَلَ ذَلِكَ الْقِبْطِيَّ أَنَّهُ أَصْبَحَ ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ أَيْ: مِنْ مَعَرَّةِ مَا فَعَلَ ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أَيْ: يَتَلَفَّتُ، وَيَتَوَقَّعُ مَا يَكُونُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، فَمَرَّ فِي بَعْضِ الطُّرُقِ، فَإِذَا ذَلِكَ الَّذِي اِسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ عَلَى ذَلِكَ الْقِبْطِيِّ يُقَاتِلُ آخَرَ، فَلَمَّا مَرَّ مُوسَى اسْتَصْرَخَهُ عَلَى الْآخَرِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أَيْ: ظَاهِرُ الْغِوَايَةِ كَثِيرُ الشَّرِّ، ثُمَّ عَزَمَ عَلَى الْبَطْشِ بِذَلِكَ الْقِبْطِيِّ فَاعْتَقَدَ الْإِسْرَائِيلِيُّ لِخَوَرِهِ وَضَعْفِهِ وَذِلَّتِهِ أَنَّ مُوسَى إِنَّمَا يُرِيدُ قَصْدَهُ، لَمَّا سَمِعَهُ يَقُولُ ذَلِكَ، فَقَالَ - يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ -: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ إِلَّا هُوَ وَمُوسَى - عليه السلام - فَلَمَّا سَمِعَهَا ذَلِكَ الْقِبْطِيُّ لَقِفَهَا مِنْ فَمِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهَا إِلَى بَابِ فِرْعَوْنَ وَأَلْقَاهَا عِنْدَهُ، فَعَلِمَ فِرْعَوْنُ بِذَلِكَ، فَاشْتَدَّ حَنَقُهُ وَعَزَمَ عَلَى قَتْلِ مُوسَى، فَطَلَبُوهُ فَبَعَثُوا وَرَاءَهُ لِيُحْضِرُوهُ لِذَلِكَ.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ وَصَفَهُ بِالرُّجُولِيَّةِ لِأَنَّهُ خَالَفَ الطَّرِيقَ، فَسَلَكَ طَرِيقًا أَقْرَبَ مِنْ طَرِيقِ الَّذِينَ بُعِثُوا وَرَاءَهُ، فَسَبَقَ إِلَى مُوسَى فَقَالَ لَهُ: يَا مُوسَى ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أَيْ: يَتَشَاوَرُونَ فِيكَ ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ أَيْ: مِنَ الْبَلَدِ ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

لَمَّا أَخْبَرَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ بِمَا تَمَالَأَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَدَوْلَتُهُ فِي أَمْرِهِ، خَرَجَ مِنْ مِصْرَ وَحْدَهُ، وَلَمْ يَأْلَفْ

ذَلِكَ قَبْلَهُ ، بَلْ كَانَ فِي رَفَاهِيَةٍ وَنِعْمَةٍ وَرِيَاسَةٍ ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أَيْ : يَتَلَفَّتُ ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ أَيْ : أَخَذَ طَرِيقًا سَالِكًا مَهْيَعًا ، فَرِحَ بِذَلِكَ ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أَيْ : الطَّرِيقَ الْأَقْوَمَ ، فَفَعَلَ اللهُ بِهِ ذَلِكَ وَهَدَاهُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَجَعَلَهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ أَيْ : لَمَّا وَصَلَ إِلَى مَدْيَنَ وَوَرَدَ مَاءَهَا ، وَكَانَ لَهَا بِئْرٌ تَرِدُهُ رِعَاءُ الشَّاءِ ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ أَيْ : جَمَاعَةً يَسْقُونَ ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أَيْ : تُكَفْكِفَانِ غَنَمَهُمَا أَنْ تَرِدَ مَعَ غَنَمِ أُولَئِكَ الرِّعَاءِ لِئَلَّا يُؤْذَيَا ، فَلَمَّا رَآهُمَا مُوسَى ﷺ رَقَّ لَهُمَا وَرَحِمَهُمَا ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أَيْ : مَا خَبَرُكُمَا لَا تَرِدَانِ مَعَ هَؤُلَاءِ ؟ ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ﴾ أَيْ : لَا يَحْصُلُ لَنَا سَقْيٌ إِلَّا بَعْدَ فَرَاغِ هَؤُلَاءِ ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ أَيْ : فَهَذَا الْحَالُ الْمُلْجِئُ لَنَا إِلَى مَا تَرَى . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ **قِيلَ** : جَلَسَ تَحْتَ شَجَرَةٍ .

فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

لَمَّا رَجَعَتِ الْمَرْأَتَانِ سَرِيعًا بِالْغَنَمِ إِلَى أَبِيهِمَا أَنْكَرَ حَالَهُمَا بِسَبَبِ مَجِيئِهِمَا سَرِيعًا ، فَسَأَلَهُمَا عَنْ خَبَرِهِمَا ، فَقَصَّتَا عَلَيْهِ مَا فَعَلَ مُوسَى ﷺ ، فَبَعَثَ إِحْدَاهُمَا إِلَيْهِ لِتَدْعُوهُ إِلَى أَبِيهَا ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى**: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ أَيْ : مَشْيَ الْحَرَائِرِ . ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ وَهَذَا تَأَدُّبٌ فِي الْعِبَارَةِ ، لَمْ تَطْلُبْهُ طَلَبًا مُطْلَقًا لِئَلَّا يُوهِمَ رِيبَةً ، **بَلْ قَالَتْ**: ﴿ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ يَعْنِي : لِيُثِيبَكَ ، وَيُكَافِئَكَ عَلَى سَقْيِكَ لِغَنَمِنَا ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ ﴾ أَيْ : ذَكَرَ لَهُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ ، وَمَا جَرَى لَهُ مِنَ السَّبَبِ الَّذِي خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ مِنْ بَلَدِهِ ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يَقُولُ : طِبْ نَفْسًا وَقَرَّ عَيْنًا ،

فَقَدْ خَرَجْتَ مِنْ مَمْلَكَتِهِمْ فَلَا حُكْمَ لَهُمْ فِي بِلَادِنَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ أَيْ : قَالَتْ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَذَا الرَّجُلِ . ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ﴾ أَيْ : لِرَعِيَّةِ هَذِهِ الْغَنَمِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ ﴾ أَيْ : طَلَبَ إِلَيْهِ هَذَا الرَّجُلُ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ أَنْ يَرْعَى غَنَمَهُ وَيُزَوِّجهُ إِحْدَى ابْنَتَيْهِ هَاتَيْنِ . ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ﴾ أَيْ : عَلَى أَنْ تَرْعَى غَنَمِي ثَمَانِي سِنِينَ ، فَإِنْ تَبَرَّعْتَ بِزِيَادَةِ سَنَتَيْنِ فَهُوَ إِلَيْكَ ، وَإِلَّا فَفِي الثَّمَانِ كِفَايَةٌ ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أَيْ : لَا أُشَاقُّكَ ، وَلَا أُؤَاذِيكَ ، وَلَا أُمَارِيكَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى ﷺ : ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ يَقُولُ : إِنَّ مُوسَى قَالَ لِصِهْرِهِ : الْأَمْرُ عَلَى مَا قُلْتَ مِنْ أَنَّكَ اسْتَأْجَرْتَنِي عَلَى ثَمَانِ سِنِينَ ، فَإِنْ أَتْمَمْتُ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِي ، فَأَنَا مَتَى فَعَلْتُ أَقَلَّهُمَا فَقَدْ بَرِئْتُ مِنَ الْعَهْدِ وَخَرَجْتُ مِنَ الشَّرْطِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ ﴾ أَيْ : فَلَا حَرَجَ عَلَيَّ ، هَذَا وَقَدْ دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ مُوسَى ﷺ إِنَّمَا فَعَلَ أَكْمَلَ الْأَجَلَيْنِ وَأَتَمَّهُمَا . فَفِي الْبُخَارِيِّ : عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - سُئِلَ : أَيَ الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى ؟ فَقَالَ : قَضَى أَكْثَرَهُمَا وَأَطْيَبَهُمَا : إِنَّ رَسُولَ اللهِ إِذَا قَالَ فَعَلَ .

۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ أَيْ : الْأَكْمَلَ مِنْهُمَا وَاللهُ أَعْلَمُ ، ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ قَالُوا : كَانَ مُوسَى قَدِ اشْتَاقَ إِلَى بِلَادِهِ وَأَهْلِهِ ، فَعَزَمَ عَلَى زِيَارَتِهِمْ فِي خُفْيَةٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، فَتَحَمَّلَ بِأَهْلِهِ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْغَنَمِ الَّتِي وَهَبَهَا لَهُ صِهْرُهُ ، فَسَلَكَ بِهِمْ فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ مُظْلِمَةٍ

بَارِدَةٍ، فَنَزَلَ مَنْزِلًا فَجَعَلَ كُلَّمَا أَوْرَى زَنْدَهُ لَا يُضِيءُ شَيْئًا، فَتَعَجَّبَ مِنْ ذَلِكَ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ﴾ أَيْ: رَأَى نَارًا تُضِيءُ لَهُ عَلَى بُعْدٍ فـ ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ أَيْ: حَتَّى أَذْهَب إِلَيْهَا ﴿ لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ وَذَلِكَ لأَنَّهُ قَدْ أَضَلَّ الطَّرِيقَ ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ: قِطْعَةٍ مِنْهَا ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أَيْ: تَتَدَفَّئُونَ بِهَا مِنَ الْبَرْدِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ أَيْ: مِنْ جَانِبِ الْوَادِي مِمَّا يَلِي الْجَبَلَ، عَنْ يَمِينِهِ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَرْبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾، فَهَذَا مِمَّا يُرْشِدُ إِلَى أَنَّ مُوسَى قَصَدَ النَّارَ إِلَى جِهَةِ الْقِبْلَةِ، وَالْجَبَلُ الْغَرْبِيُّ عَنْ يَمِينِهِ، وَالنَّارُ وَجَدَهَا تَضْطَرِمُ فِي شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ فِي لِحْفِ الْجَبَلِ مِمَّا يَلِي الْوَادِي، فَوَقَفَ بَاهِتًا فِي أَمْرِهَا فَنَادَاهُ رَبُّهُ ﴿ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أَيْ: الَّذِي يُخَاطِبُكَ وَيُكَلِّمُكَ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ أَيْ: الَّتِي فِي يَدِكَ، ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ ﴾ أَيْ: تَضْطَرِبُ ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ أَيْ: فِي حَرَكَتِهَا السَّرِيعَةِ، مَعَ عِظَمِ خِلْقَةِ قَوَائِمِهَا وَاتِّسَاعِ فَمِهَا، وَاصْطِكَاكِ أَنْيَابِهَا وَأَضْرَاسِهَا، بِحَيْثُ لَا تَمُرُّ بِصَخْرَةٍ إِلَّا ابْتَلَعَتْهَا تَنْحَدِرُ فِي فِيهَا، تَتَقَعْقَعُ كَأَنَّهَا حَادِرَةٌ فِي وَادٍ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أَيْ: وَلَمْ يَكُنْ يَلْتَفِتُ لأَنَّ طَبْعَ الْبَشَرِيَّةِ يَنْفِرُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا قَالَ اللهُ لَهُ ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ﴾ رَجَعَ فَوَقَفَ فِي مَقَامِهِ الْأَوَّلِ.

ثُمَّ قَالَ اللهُ لَهُ: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أَيْ: إِذَا أَدْخَلْتَ يَدَكَ فِي جَيْبِ دِرْعِكَ، ثُمَّ أَخْرَجْتَهَا، فَإِنَّهَا تَخْرُجُ تَتَلَأْلَأُ كَأَنَّهَا قِطْعَةُ قَمَرٍ فِي لَمَعَانِ الْبَرْقِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أَيْ: مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ. ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ قِيلَ: مِنَ الْفَزَعِ، وَقِيلَ: مِنَ الرُّعْبِ، وَالظَّاهِرُ: أَنَّ الْمُرَادَ أَعَمُّ مِنْ هَذَا، وَهُوَ أَنَّهُ أُمِرَ عليه السلام إِذَا خَافَ مِنْ شَيْءٍ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ جَنَاحَهُ مِنَ الرَّهْبِ وَهُوَ يَدُهُ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُهُ مِنَ الْخَوْفِ، وَرُبَّمَا إِذَا اسْتَعْمَلَ أَحَدٌ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الِاقْتِدَاءِ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فُؤَادِهِ، فَإِنَّهُ يَزُولُ عَنْهُ مَا يَجِدُ أَوْ يَخِفُّ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثِّقَةُ. ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾ يَعْنِي: إِلْقَاءُ الْعَصَا وَجَعْلُهَا حَيَّةً تَسْعَى، وَإِدْخَالُهُ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ فَتَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، دَلِيلَانِ قَاطِعَانِ وَاضِحَانِ عَلَى قُدْرَةِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، وَصِحَّةِ نُبُوَّةِ مَنْ جَرَى هَذَا الْخَارِقُ عَلَى يَدَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ﴾ أَيْ: وَقَوْمِهِ مِنَ الرُّؤَسَاءِ وَالْكُبَرَاءِ وَالْأَتْبَاعِ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا

فَسِقِينَ ﴾ أَيْ : خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ الله ، مُخَالِفِينَ لِدِينِ الله .

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

لَمَّا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ ، الَّذِي إِنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ فِرَارًا مِنْهُ وَخَوْفًا مِنْ سَطْوَتِهِ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴾ يَعْنِي : ذَلِكَ الْقِبْطِيَّ ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ أَيْ : إِذَا رَأَوْنِي ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى عليه السلام كَانَ فِي لِسَانِهِ لُثْغَةٌ ، بِسَبَبِ مَا كَانَ تَنَاوَلَ تِلْكَ الْجَمْرَةَ حِينَ خُيِّرَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ التَّمْرَة - أَوِ الدُّرَّةِ - فَأَخَذَ الْجَمْرَةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ فَحَصَلَ فِيهِ شِدَّةٌ فِي التَّعْبِيرِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴾ [طه : ٢٧-٣٢] أَيْ : يُؤْنِسُنِي فِيمَا أَمَرْتَنِي بِهِ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ الْعَظِيمِ ، وَهُوَ الْقِيَامُ بِأَعْبَاءِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ إِلَى هَذَا الْمَلِكِ الْمُتَكَبِّرِ الْجَبَّارِ الْعَنِيدِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴾ أَيْ : وَزِيرًا وَمُعِينًا وَمُقَوِّيًا لِأَمْرِي ، يُصَدِّقُنِي فِيمَا أَقُولُهُ وَأُخْبِرُ بِهِ عَنِ الله عز وجل لِأَنَّ خَبَرَ الِاثْنَيْنِ أَنْجَعُ فِي النُّفُوسِ مِنْ خَبَرِ الْوَاحِدِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ . فَلَمَّا سَأَلَ ذَلِكَ مُوسَى ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أَيْ : سَنُقَوِّي أَمْرَكَ وَنُعِزُّ جَانِبَكَ بِأَخِيكَ ، الَّذِي سَأَلْتَ لَهُ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَعَكَ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه : ٣٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا ﴾ أَيْ : حُجَّةً قَاهِرَةً ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أَيْ : لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى أَذَاكُمَا بِسَبَبِ إِبْلَاغِكُمَا آيَاتِ الله ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٣٩] أَيْ : وَكَفَى بِالله نَاصِرًا وَمُعِينًا ، وَمُؤَيِّدًا ، وَلِهَذَا أَخْبَرَهُمَا أَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُمَا وَلِمَنِ اتَّبَعَهُمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ .

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن

تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَجِيءِ مُوسَى وَأَخِيهِ هَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، وَعَرْضِهِ مَا آتَاهُمَا اللهُ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالدَّلَالَةِ الْقَاهِرَةِ عَلَى صِدْقِهِمَا فِيمَا أَخْبَرَا عَنِ اللهِ ﷻ : مِنْ تَوْحِيدِهِ وَاتِّبَاعِ أَوَامِرِهِ ، فَلَمَّا عَايَنَ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ ذَلِكَ ، وَشَاهَدُوهُ وَتَحَقَّقُوهُ وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ مِنَ اللهِ عَدَلُوا بِكُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ إِلَى الْعِنَادِ وَالْمُبَاهَتَةِ ، وَذَلِكَ لِطُغْيَانِهِمْ وَتَكَبُّرِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ **فَقَالُوا** : ﴿ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ أَيْ : مُفْتَعَلٌ مَصْنُوعٌ ، وَأَرَادُوا مُعَارَضَتَهُ بِالْحِيلَةِ وَالْجَاهِ ، فَمَا صَعِدَ مَعَهُمْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يَعْنُونَ عِبَادَةَ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، يَقُولُونَ : مَا رَأَيْنَا أَحَدًا مِنْ آبَائِنَا عَلَى هَذَا الدِّينِ ، وَلَمْ نَرَ النَّاسَ إِلَّا يُشْرِكُونَ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى . **فَقَالَ مُوسَى مُجِيبًا لَهُمْ** : ﴿ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ ﴾ يَعْنِي : مِنِّي وَمِنْكُمْ ، وَسَيَفْصِلُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ﴾ أَيْ : مِنَ النُّصْرَةِ وَالظَّفَرِ وَالتَّأْيِيدِ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : الْمُشْرِكُونَ بِاللهِ ﷻ.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِ فِرْعَوْنَ وَطُغْيَانِهِ ، وَافْتِرَائِهِ فِي دَعْوَاهُ الْإِلَهِيَّةَ لِنَفْسِهِ الْقَبِيحَةِ - لَعَنَهُ اللهُ - كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف : ٥٤] ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ دَعَاهُمْ إِلَى الِاعْتِرَافِ لَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ ، فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ بِقِلَّةِ عُقُولِهِمْ وَسَخَافَةِ أَذْهَانِهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾ يَعْنِي : أَمَرَ وَزِيرَهُ ((هَامَان)) وَمُدَبِّرَ رَعِيَّتِهِ وَمُشِيرَ دَوْلَتِهِ أَنْ يُوقِدَ لَهُ عَلَى الطِّينِ يَعْنِي : يَتَّخِذَ لَهُ آجُرًّا لِبِنَاءِ الصَّرْحِ ، وَهُوَ : الْقَصْرُ الْمُنِيفُ الرَّفِيعُ الْعَالِي ، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهَذَا أَنْ يُظْهِرَ لِرَعِيَّتِهِ تَكْذِيبَ مُوسَى ، فِيمَا زَعَمَهُ مِنْ دَعْوَى إِلَهٍ غَيْرَ فِرْعَوْنَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ أَيْ : فِي قَوْلِهِ ، أَنَّ ثَمَّ

رَبًّا غَيْرِي ، لَا أَنَّهُ كَذَّبَهُ فِي أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْتَرِفُ بِوُجُودِ الصَّانِعِ - جَلَّ وَعَلَا - .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : طَغَوْا وَتَجَبَّرُوا وَأَكْثَرُوا فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ لَا قِيَامَةَ وَلَا مَعَادَ ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ١٣-١٤]

وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ أَيْ : أَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْبَحْرِ فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : لِمَنْ سَلَكَ وَرَاءَهُمْ وَأَخَذَ بِطَرِيقَتِهِمْ ، فِي تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَتَعْطِيلِ الصَّانِعِ ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ أَيْ : فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ خِزْيُ الدُّنْيَا مَوْصُولًا بِذُلِّ الْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أَيْ : وَشَرَعَ اللهُ لَعْنَتَهُمْ وَلَعْنَةَ مَلِكِهِمْ فِرْعَوْنَ ، عَلَى أَلْسِنَةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتَّبِعِينَ رُسُلَهُ ، وَكَمَا أَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا مَلْعُونُونَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَكَذَلِكَ ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود : ٩٩]

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى الْكَلِيمِ - عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ - مِنْ إِنْزَالِ التَّوْرَاةِ عَلَيْهِ بَعْدَمَا أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ بَعْدَ إِنْزَالِ التَّوْرَاةِ لَمْ يُعَذِّبْ أُمَّةً بِعَامَّةٍ ، بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا أَعْدَاءَ اللهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْعَمَى وَالْغَيِّ ، ﴿ وَهُدًى ﴾ إِلَى الْحَقِّ ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ ، أَيْ : إِرْشَادًا إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : لَعَلَّ النَّاسَ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ وَيَهْتَدُونَ بِسَبَبِهِ .

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا

فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى بُرْهَانِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَيْثُ أَخْبَرَ بِالْغُيُوبِ المَاضِيَةِ، خبَرًا كَأَنَّ سَامِعَهُ شَاهِدٌ وَرَاءٍ لِمَا تَقدَّمَ، وَهُوَ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لا يَقْرأُ شَيْئًا مِنَ الْكُتُبِ نَشَأَ بَيْنَ قَوْمٍ لا يَعْرِفُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، كَمَا أَنَّهُ لَمَّا أَخْبَرَهُ عَنْ مَرْيمَ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[آل عمران: ٤٤]. أَيْ: وَمَا كُنْتَ حَاضِرًا لِذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللهَ أَوْحَاهُ إِلَيْكَ، وَهَكَذَا لَمَّا أَخْبَرَهُ عَنْ نُوحٍ وَقَوْمِهِ، وَمَا كَانَ مِنْ إِنْجَاءِ اللهِ لَهُ وَإِغْرَاقِ قَوْمِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[هود: ٤٩]، وَقَالَ هَهُنَا بَعْدَمَا أَخْبَرَ عَنْ قِصَّةِ مُوسَى مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، وَكَيْفَ كَانَ ابْتِدَاءُ إِيحَاءِ اللهِ إِلَيْهِ وَتَكْلِيمِهِ لَهُ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ يَعْنِي: مَا كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ بِجَانِبِ الجَبَلِ الْغَرْبِيِّ، الَّذِي كَلَّمَ اللهُ مُوسَى مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي هِيَ شَرْقِيَّةٌ عَلَى شَاطِئِ الْوَادِي ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ لِذَلِكَ. وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْحَى إِلَيْكَ ذَلِكَ لِيَكُونَ حُجَّةً وَبُرْهَانًا عَلَى قُرُونٍ قَدْ تَطَاوَلَ عَهْدُهَا، وَنَسَوْا حُجَجَ اللهِ عَلَيْهِمْ وَمَا أَوْحَاهُ إِلَى الأَنْبِيَاءِ المُتَقَدِّمِينَ، ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ أَيْ: وَمَا كُنْتَ مُقِيمًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا حِينَ أُخْبِرْتَ عَنْ نَبِيِّهَا شُعَيْبٍ، وَمَا قَالَ لِقَوْمِهِ وَمَا رَدُّوا عَلَيْهِ ﴿وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أَيْ: وَلَكِنْ نَحْنُ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ذَلِكَ، وَأَرْسَلْنَاكَ إِلَى النَّاسِ رَسُولًا.

قَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ مُوسَى، وَهَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَشْبَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾، ثُمَّ أَخْبَرَ هَهُنَا بِصِيغَةٍ أُخْرَى أَخَصَّ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ النِّدَاءُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾[الشعراء: ١٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أَيْ: مَا كُنْتَ مُشَاهِدًا لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْحَاهُ إِلَيْكَ وَأَخْبَرَكَ بِهِ، رَحْمَةً مِنْهُ بِكَ وَبِالْعِبَادِ بِإِرْسَالِكَ إِلَيْهِمْ ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَيْ: لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ اللهِ ﷻ. ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الْآيَة. أَيْ: وَأَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِمْ لِتُقِيمَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ، ولِتَقْطَعَ عُذْرَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ عَذَابٌ مِنَ اللهِ بِكُفْرِهِمْ، فَيَحْتَجُّوا بِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتِهِمْ رَسُولٌ وَلَا نَذِيرٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِهِ إِنْزَالَ كِتَابِهِ المُبَارَكِ وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا

ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام:١٥٦-١٥٧]
وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]
وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْقَوْمِ الَّذِينَ لَوْ عَذَّبَهُمْ قَبْلَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ لَاحْتَجُّوا بِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتِهِمْ رَسُولٌ ، أَنَّهُمْ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِهِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، قَالُوا عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ وَالْكُفْرِ وَالْجَهْلِ وَالْإِلْحَادِ ﴿ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ﴾ الْآيَة . يَعْنُونَ - وَاللهُ أَعْلَمُ - مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ مِثْلَ الْعَصَا ، وَالْيَدِ ، وَالطُّوفَانِ ، وَالْجَرَادِ ، وَالْقُمَّلِ ، وَالضَّفَادِعِ ، وَالدَّمِ وَتَنَقُّصِ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ، بِمَا يُضَيِّقُ عَلَى أَعْدَاءِ اللهِ ، وَكَفَلْقِ الْبَحْرِ ، وَتَظْلِيلِ الْغَمَامِ ، وَإِنْزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالْحُجَجِ الْقَاهِرَةِ ، الَّتِي أَجْرَاهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْ مُوسَى عليه السلام حُجَّةً وَبُرْهَانًا لَهُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ يَنْجَعْ فِي فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، بَلْ كَفَرُوا بِمُوسَى وَأَخِيهِ هَارُونَ ، كَمَا قَالُوا لَهُمَا : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٧٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴾ [المؤمنون : ٤٨] ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : أَوَلَمْ يَكْفُرِ الْبَشَرُ بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ تِلْكَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ ﴿ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا ﴾ أَيْ : تَعَاوَنَا وَتَنَاصَرَا وَصَدَّقَ كُلٌّ مِنْهُمَا الْآخَرَ ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾ أَيْ : بِكُلٍّ مِنْهُمَا كَافِرُونَ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ سَاحِرَانِ ﴾ يَعْنُونَ : مُوسَى وَهَارُونَ ، وَهَذَا قَوْلٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . وَقِيلَ : يَعْنُونَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَقِيلَ : الْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ . وَالظَّاهِرُ عَلَى قِرَاءَةِ ﴿ سِحْرَانِ ﴾ أَنَّهُمْ يَعْنُونَ التَّوْرَاةَ وَالْقُرْآنَ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ بَعْدَهُ ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ ﴾ وَكَثِيرًا مَا يَقْرِنُ اللهُ بَيْنَ التَّوْرَاةِ وَالْقُرْآنِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ

أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : فِيمَا تُدَافِعُونَ بِهِ الْحَقَّ وَتُعَارِضُونَ بِهِ مِنَ الْبَاطِلِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ ﴾ أَيْ : فَإِنْ لَمْ يُجِيبُوكَ عَمَّا قُلْتَ لَهُمْ ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا الْحَقَّ ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أَيْ : بِلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : بِغَيْرِ حُجَّةٍ مَأْخُوذَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : فَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ . يَعْنِي : قُرَيْشًا .

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْعُلَمَاءِ الْأَلِبَّاءِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾[البقرة : ١٢١] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾[آل عمران : ١٩٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ يَعْنِي : مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ كُنَّا مُسْلِمِينَ ، أَيْ : مُوَحِّدِينَ مُخْلِصِينَ لله مُسْتَجِيبِينَ لَهُ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ الْأَوَّلِ ثُمَّ بِالثَّانِي ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أَيْ : عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، فَإِنَّ تَجَشُّمَ مِثْلَ هَذَا شَدِيدٌ عَلَى النُّفُوسِ . ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ أَيْ : لَا يُقَابِلُونَ السَّيِّئَ بِمِثْلِهِ ، وَلَكِنْ يَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أَيْ : وَمِنَ الَّذِي رَزَقَهُمْ مِنَ الْحَلَالِ يُنْفِقُونَ عَلَى خَلْقِ اللهِ فِي النَّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ لِأَهْلِيهِمْ وَأَقَارِبِهِمْ ، وَالزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ وَالْمُسْتَحَبَّةِ مِنَ التَّطَوُّعَاتِ وَصَدَقَاتِ النَّفْلِ وَالْقُرُبَاتِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ أَيْ : لَا يُخَالِطُونَ أَهْلَهُ وَلَا يُعَاشِرُونَهُمْ ، بَلْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾[الفرقان : ٧٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ أَيْ : إِذَا سَفِهَ عَلَيْهِمْ سَفِيهٌ ، وَكَلَّمَهُمْ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِمُ الْجَوَابُ عَنْهُ ، أَعْرَضُوا عَنْهُ وَلَمْ يُقَابِلُوهُ بِمِثْلِهِ مِنَ الْكَلَامِ الْقَبِيحِ وَلَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ إِلَّا كَلَامٌ طَيِّبٌ ، وَلِهَذَا قَالَ عَنْهُمْ : إِنَّهُمْ قَالُوا : ﴿ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ أَيْ : لَا نُرِيدُ طَرِيقَ الْجَاهِلِينَ وَلَا نُحِبُّهَا .

إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ إِلَيْكَ ذَلِكَ ، إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ ، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ أَيْ : هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْغِوَايَةَ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ - عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ - وَقَدْ كَانَ يَحُوطُهُ وَيَنْصُرُهُ وَيَقُومُ فِي صَفِّهِ ، وَيُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا طَبْعِيًّا لَا شَرْعِيًّا ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَحَانَ أَجَلُهُ دَعَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْإِيمَانِ وَالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ ، فَسَبَقَ الْقَدَرُ فِيهِ وَاخْتُطِفَ مِنْ يَدِهِ ، فَاسْتَمَرَّ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ، وَللهِ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اعْتِذَارِ بَعْضِ الْكُفَّارِ فِي عَدَمِ اتِّبَاعِ الْهُدَى ، حَيْثُ قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ أَيْ : نَخْشَى إِنِ اتَّبَعْنَا مَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَخَالَفْنَا مَنْ حَوْلَنَا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ الْمُشْرِكِينَ ، أَنْ يَقْصِدُونَا بِالْأَذَى وَالْمُحَارَبَةِ وَيَتَخَطَّفُونَا أَيْنَمَا كُنَّا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ يَعْنِي : هَذَا الَّذِي اعْتَذَرُوا بِهِ كَذِبٌ وَبَاطِلٌ ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَهُمْ فِي بَلَدٍ أَمِينٍ وَحَرَمٍ مُعَظَّمٍ آمِنٍ مُنْذُ وُضِعَ ، فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا الْحَرَمُ آمِنًا لَهُمْ فِي حَالِ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ ، وَلَا يَكُونُ آمِنًا لَهُمْ وَقَدْ أَسْلَمُوا وَتَابَعُوا الْحَقَّ ؟ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أَيْ : مِنْ سَائِرِ الثِّمَارِ مِمَّا حَوْلَهُ مِنَ الطَّائِفِ وَغَيْرِهِ وَكَذَلِكَ الْمَتَاجِرِ وَالْأَمْتِعَةِ ﴿ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ أَيْ : مِنْ عِنْدِنَا ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، فَلِهَذَا قَالُوا مَا قَالُوا .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُعَرِّضًا بِأَهْلِ مَكَّةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أَيْ : طَغَتْ وَأَشِرَتْ وَكَفَرَتْ نِعْمَةَ اللهِ فِيمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ ، ﴿ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيْ : دَثَرَتْ دِيَارُهُمْ فَلَا تُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ . ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾

أَيْ : رَجَعَتْ خَرَابًا لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَدْلِهِ وَأَنَّهُ لَا يُهْلِكُ أَحَدًا ظَالِمًا لَهُ ، وَإِنَّمَا يُهْلِكُ مَنْ أَهْلَكَ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا ﴾ ، وَهِيَ مَكَّةُ ﴿ رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ – وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ الْمَبْعُوثُ مِنْ أُمِّ الْقُرَى – رَسُولٌ إِلَى جَمِيعِ الْقُرَى مِنْ عَرَبٍ وَأَعْجَامٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى : ٧] وَلِهَذَا خُتِمَ بِهِ النُّبُوَّةُ وَالرِّسَالَةُ ، فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَلَا رَسُولَ ، بَلْ شَرْعُهُ بَاقٍ بَقَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَقِيلَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولاً ﴾ أَيْ : أَصْلِهَا وَعَظِيمَتِهَا كَأُمَّهَاتِ الرَّسَاتِيقِ وَالْأَقَالِيمِ .

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ حَقَارَةِ الدُّنْيَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الزِّينَةِ الدَّنِيئَةِ وَالزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنَ النَّعِيمِ الْعَظِيمِ الْمُقِيمِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى : ١٦-١٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : أَفَلَا يَعْقِلُ مَنْ يُقَدِّمُ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى أَفَمَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ مُصَدِّقٌ بِمَا وَعَدَهُ اللهُ عَلَى صَالِحِ أَعْمَالِهِ مِنَ الثَّوَابِ ، الَّذِي هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَا مَحَالَةَ ، كَمَنْ هُوَ كَافِرٌ مُكَذِّبٌ بِلِقَاءِ اللهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ، فَهُوَ مُمَتَّعٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَيَّامًا قَلَائِلَ ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُوَبِّخُ بِهِ الْكُفَّارَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَيْثُ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ

﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ يَعْنِي: أَيْنَ الْآلِهَةُ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ؟ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ؟ وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّهْدِيدِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ يَعْنِي: الشَّيَاطِينَ وَالْمَرَدَةَ وَالدُّعَاةَ إِلَى الْكُفْرِ ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ فَشَهِدُوا عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أَغْوَوْهُمْ فَاتَّبَعُوهُمْ ثُمَّ تَبَرَّءُوا مِنْ عِبَادَتِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢]، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ أَيْ: لِيُخَلِّصُوكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ كَمَا كُنْتُمْ تَرْجُونَ مِنْهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ أَيْ: وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَى النَّارِ لَا مَحَالَةَ. ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾ أَيْ: فَوَدُّوا حِينَ عَايَنُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ النِّدَاءُ الْأَوَّلُ عَنْ سُؤَالِ التَّوْحِيدِ، وَهَذَا فِيهِ إِثْبَاتُ النُّبُوَّاتِ: مَاذَا كَانَ جَوَابُكُمْ لِلْمُرْسَلِينَ إِلَيْكُمْ؟ وَكَيْفَ كَانَ حَالُكُمْ مَعَهُمْ؟ وَهَذَا كَمَا يُسْأَلُ الْعَبْدُ فِي قَبْرِهِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ: فَيَشْهَدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، وَلِهَذَا لَا جَوَابَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَيْرَ السُّكُوتِ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ**: فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَجُ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ بِالْأَنْسَابِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ((وَعَسَى)) مِنَ اللهِ مُوجِبَةٌ، فَإِنَّ هَذَا وَاقِعٌ بِفَضْلِ اللهِ وَمَنِّهِ لَا مَحَالَةَ.

وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٨ وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝٦٩ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٧٠

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِالْخَلْقِ وَالِاخْتِيَارِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي ذَلِكَ مُنَازِعٌ وَلَا مُعَقِّبٌ **قَالَ تَعَالَى**: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ﴾ أَيْ: مَا يَشَاءُ، فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَالْأُمُورُ كُلُّهَا خَيْرُهَا وَشَرُّهَا بِيَدِهِ وَمَرْجِعُهَا إِلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾ نَفْيٌ عَلَى أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، **وَلِهَذَا قَالَ**:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ الَّتِي لَا تَخْلُقُ وَلَا تَخْتَارُ شَيْئًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ مَا تُكِنُّهُ الضَّمَائِرُ ، وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ السَّرَائِرُ ، كَمَا يَعْلَمُ مَا تُبْدِيهِ الظَّوَاهِرُ مِنْ سَائِرِ الْخَلَائِقِ ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْإِلَهِيَّةِ ، فَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ ، كَمَا لَا رَبَّ يَخْلُقُ وَيَخْتَارُ سِوَاهُ ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ﴾ أَيْ : فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَيْهِ لِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ ﴿ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ أَيْ : الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لَهُ لِقَهْرِهِ وَغَلَبَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : جَمِيعُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ فِي سَائِرِ الْأَعْمَالِ .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى عِبَادِهِ بِمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، اللَّذَيْنِ لَا قِوَامَ لَهُمْ بِدُونِهِمَا ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ لَوْ جَعَلَ اللَّيْلَ دَائِمًا عَلَيْهِمْ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَضَرَّ ذَلِكَ بِهِمْ ، وَلَسَئِمَتْهُ النُّفُوسُ وَانْحَصَرَتْ مِنْهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى :** ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾ أَيْ : تُبْصِرُونَ بِهِ وَتَسْتَأْنِسُونَ بِسَبَبِهِ ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ جَعَلَ النَّهَارَ سَرْمَدًا ، أَيْ : دَائِمًا مُسْتَمِرًّا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَأَضَرَّ ذَلِكَ بِهِمْ وَلَتَعِبَتِ الْأَبْدَانُ ، وَكَلَّتْ مِنْ كَثْرَةِ الْحَرَكَاتِ وَالْأَشْغَالِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى :** ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ أَيْ : تَسْتَرِيحُونَ مِنْ حَرَكَاتِكُمْ وَأَشْغَالِكُمْ ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ .

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أَيْ : بِكُمْ ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أَيْ : خَلَقَ هَذَا وَهَذَا ﴿ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ أَيْ : فِي اللَّيْلِ ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أَيْ : فِي النَّهَارِ بِالْأَسْفَارِ وَالتَّرْحَالِ وَالْحَرَكَاتِ وَالْأَشْغَالِ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : تَشْكُرُونَ اللهَ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَمَنْ فَاتَهُ شَيْءٌ بِاللَّيْلِ اسْتَدْرَكَهُ بِالنَّهَارِ ، أَوْ بِالنَّهَارِ اسْتَدْرَكَهُ بِاللَّيْلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان : ٦٢] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

وَهَذَا أَيْضًا نِدَاءٌ ثَانٍ عَلَى سَبِيلِ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ لِمَنْ عَبَدَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخر ، يُنَادِيهِمُ الرَّبُّ تَعَالَى عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ فَيَقُولُ : ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أَيْ : فِي دَارِ الدُّنْيَا . ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يَعْنِي : رَسُولًا ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ أَيْ : عَلَى صِحَّةِ مَا ادَّعَيْتُمُوهُ مِنْ أَنَّ لله شُرَكَاءَ ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أَيْ : لَا إِلَهَ غَيْرُهُ فَلَمْ يَنْطِقُوا وَلَمْ يُحِيرُوا جَوَابًا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أَيْ : ذَهَبُوا فَلَمْ يَنْفَعُوهُمْ .

﴿۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ قَالَ : كَانَ ابْنَ عَمِّهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أَيْ : الْأَمْوَالِ ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ أَيْ : لَيُثْقِلُ حَمْلُهَا الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ لِكَثْرَتِهَا . ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أَيْ : وَعَظَهُ فِيمَا هُوَ فِيهِ صَالِحُو قَوْمِهِ ، فَقَالُوا عَلَى سَبِيلِ النُّصْحِ وَالْإِرْشَادِ : لَا تَفْرَحْ بِمَا أَنْتَ فِيهِ ، يَعْنُونَ : لَا تَبْطَرْ بِمَا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الْمَالِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : الْمَرِحِينَ ، **وَقِيلَ** : الْأَشِرِينَ الْبَطِرِينَ الَّذِينَ لَا يَشْكُرُونَ اللهَ عَلَى مَا أَعْطَاهُمْ . ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ : اسْتَعْمِلْ مَا وَهَبَكَ اللهُ مِنْ هَذَا الْمَالِ الْجَزِيلِ وَالنِّعْمَةِ الطَّائِلَةِ فِي طَاعَةِ رَبِّكَ ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْقُرُبَاتِ الَّتِي يَحْصُلُ لَكَ بِهَا الثَّوَابُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ : مِمَّا أَبَاحَ اللهُ فِيهَا مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ وَالْمَنَاكِحِ ، فَإِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، فَآتِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أَيْ : أَحْسِنْ إِلَى خَلْقِهِ كَمَا أَحْسَنَ هُوَ إِلَيْكَ ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ : لَا تَكُنْ هِمَّتُكَ بِمَا أَنْتَ

فِيهِ أَنْ تُفْسِدَ بِهِ فِي الْأَرْضِ وَتُسِيءَ إِلَى خَلْقِ اللهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ .

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ جَوَابِ قَارُونَ لِقَوْمِهِ حِينَ نَصَحُوهُ وَأَرْشَدُوهُ إِلَى الْخَيْرِ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أَيْ : أَنَا لَا أَفْتَقِرُ إِلَى مَا تَقُولُونَ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِنَّمَا أَعْطَانِي هَذَا الْمَالَ لِعِلْمِهِ بِأَنِّي أَسْتَحِقُّهُ وَلِمَحَبَّتِهِ لِي ، فَتَقْدِيرُهُ : إِنَّمَا أُعْطِيتُهُ لِعِلْمِ اللهِ فِيَّ أَنِّي أَهْلٌ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِ فِيمَا ادَّعَاهُ مِنِ اعْتِنَاءِ اللهِ بِهِ فِيمَا أَعْطَاهُ مِنَ الْمَالِ : ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أَيْ : قَدْ كَانَ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ مَالًا وَمَا كَانَ ذَلِكَ عَنْ مَحَبَّةٍ مِنَّا لَهُ ، وَقَدْ أَهْلَكَهُمُ اللهُ مَعَ ذَلِكَ بِكُفْرِهِمْ وَعَدَمِ شُكْرِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أَيْ : لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ . وَقَدْ أَجَادَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْإِمَامُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فَإِنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ : ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ قَالَ : لَوْلَا رِضَا اللهِ عَنِّي وَمَعْرِفَتُهُ بِفَضْلِي مَا أَعْطَانِي هَذَا الْمَالَ ، وَقَرَأَ ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ الْآيَةَ . وَهَكَذَا يَقُولُ مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ إِذَا رَأَى مَنْ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ : لَوْلَا أَنْ يَسْتَحِقَّ ذَلِكَ لَمَا أُعْطِيَ .

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَارُونَ أَنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَةٍ عَظِيمَةٍ وَتَجَمُّلٍ بَاهِرٍ ، مِنْ مَرَاكِبَ وَمَلَابِسَ عَلَيْهِ وَعَلَى خَدَمِهِ وَحَشَمِهِ ، فَلَمَّا رَآهُ مَنْ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَمِيلُ إِلَى زَخَارِفِهَا وَزِينَتِهَا تَمَنَّوْا أَنْ لَوْ كَانَ لَهُمْ مِثْلَ الَّذِي أُعْطِيَ **قَالُوا** : ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أَيْ : ذُو حَظٍّ وَافِرٍ مِنَ الدُّنْيَا ، فَلَمَّا سَمِعَ مَقَالَتَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ النَّافِعِ **قَالُوا لَهُمْ** : ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أَيْ : جَزَاءُ اللهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا تَرَوْنَ . ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ **قَالَ السُّدِّيُّ** : وَلَا يُلَقَّى الْجَنَّةَ إِلَّا الصَّابِرُونَ ، كَأَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ مِنْ تَمَامِ كَلَامِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .

فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا

كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى اخْتِيَالَ قَارُونَ فِي زِينَتِهِ ، وَفَخْرَهُ عَلَى قَوْمِهِ وَبَغْيَهُ عَلَيْهِمْ ، عَقَّبَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ خَسَفَ بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ . ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ أَيْ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَلَا جَمْعُهُ ، وَلَا خَدَمُهُ وَحَشَمُهُ ، وَلَا دَفَعُوا عَنْهُ نِقْمَةَ اللهِ وَعَذَابَهُ وَنَكَالَهُ بِهِ ، وَلَا كَانَ هُوَ فِي نَفْسِهِ مُنْتَصِرًا لِنَفْسِهِ ، فَلَا نَاصِرَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ لَمَّا رَأَوْهُ فِي زِينَتِهِ قَالُوا : ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ، فَلَمَّا خُسِفَ بِهِ أَصْبَحُوا يَقُولُونَ : ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْمَالُ بِدَالٍّ عَلَى رِضَا اللهِ عَنْ صَاحِبِهِ ، فَإِنَّ اللهَ يُعْطِي وَيَمْنَعُ ، وَيُضَيِّقُ وَيُوَسِّعُ ، وَيَخْفِضُ وَيَرْفَعُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ . ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ أَيْ : لَوْلَا لُطْفُ اللهِ بِنَا وَإِحْسَانُهُ إِلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا كَمَا خَسَفَ بِهِ ؛ لِأَنَّا وَدِدْنَا أَنْ نَكُونَ مِثْلَهُ ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ يَعْنُونَ : أَنَّهُ كَانَ كَافِرًا ، وَلَا يُفْلِحُ الْكَافِرُ عِنْدَ اللهِ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ . وَقَدِ اخْتَلَفَ النُّحَاةُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَعْنَاهُ ، « وَيْلَكَ اعْلَمْ أَنَّ » وَلَكِنْ خُفِّفَتْ ، فَقِيلَ : « وَيْكَ » ، وَدَلَّ فَتْحُ « أَنَّ » عَلَى حَذْفِ « اِعْلَمْ » ، وَقِيلَ مَعْنَاهَا : وَيْكَأَنَّ ، أَيْ : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ » .

تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَنَعِيمَهَا الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ، جَعَلَهَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ، أَيْ : تَرَفُّعًا عَلَى خَلْقِ اللهِ ، وَتَعَاظُمًا عَلَيْهِمْ وَتَجَبُّرًا بِهِمْ ، وَلَا فَسَادًا فِيهِمْ ، وَالْفَسَادُ : أَخْذُ الْمَالِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، **وَقِيلَ** : ﴿ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تَعَظُّمًا وَتَجَبُّرًا ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ عَمَلًا بِالْمَعَاصِي . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ أَيْ : ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ مِنْ حَسَنَةِ الْعَبْدِ ، فَكَيْفَ وَاللهُ يُضَاعِفُهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، فَهَذَا مَقَامُ الْفَضْلِ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا

كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل : ٩٠] ، وَهَذَا مَقَامُ الْفَصْلِ الْعَدْلِ .

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بِبَلَاغِ الرِّسَالَةِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ عَلَى النَّاسِ ، وَمُخْبِرًا لَهُ بِأَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَى مَعَادٍ ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَة ، فَيَسْأَلُهُ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ مِنْ أَعْبَاءِ النُّبُوَّةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أَيْ : افْتَرَضَ عَلَيْكَ أَدَاءَهُ إِلَى النَّاسِ ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أَيْ : إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيَسْأَلُكَ عَنْ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : قُلْ لِمَنْ خَالَفَكَ وَكَذَّبَكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ قَوْمِكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ ، قُلْ : رَبِّي أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِي مِنْكُمْ وَمِنِّي ، وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، وَلِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُذَكِّرًا لِنَبِيِّهِ نِعْمَتَهُ الْعَظِيمَةَ عَلَيْهِ وَعَلَى الْعِبَادِ إِذْ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أَيْ : مَا كُنْتَ تَظُنُّ قَبْلَ إِنْزَالِ الْوَحْيِ إِلَيْكَ أَنَّ الْوَحْيَ يَنْزِلُ عَلَيْكَ ﴿ وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أُنْزِلَ الْوَحْيُ عَلَيْكَ مِنَ الله ، مِنْ رَحْمَتِهِ بِكَ وَبِالْعِبَادِ بِسَبَبِكَ ، فَإِذَا مَنَحَكَ هَذِهِ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا ﴾ أَيْ : مُعِينًا ﴿ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ وَلَكِنْ فَارِقْهُمْ وَنَابِذْهُمْ وَخَالِفْهُمْ . ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : لَا تَتَأَثَّرْ لِمُخَالَفَتِهِمْ لَكَ وَصَدِّهِمُ النَّاسَ عَنْ طَرِيقِكَ ، وَلَا تَلْوِي عَلَى ذَلِكَ وَلَا تُبَالِهِ ، فَإِنَّ اللهَ مُعْلٍ كَلِمَتَكَ ، وَمُؤَيِّدٌ دِينَكَ ، وَمُظْهِرٌ مَا أُرْسِلْتَ بِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أَيْ : إِلَى عِبَادَةِ رَبِّكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : لَا تَلِيقُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ ، وَلَا تَنْبَغِي الْإِلَهِيَّةُ إِلَّا لِعَظَمَتِهِ . ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ الدَّائِمُ الْبَاقِي الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، الَّذِي

تَمُوتُ الْخَلَائِقُ وَلَا يَمُوتُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦-٢٧] فَعَبَّرَ بِالْوَجْهِ عَنِ الذَّاتِ ، وَهَكَذَا قَوْلُهُ هَهُنَا : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ أَيْ : إِلَّا إِيَّاهُ . ﴿ لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ أَيْ : الْمُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ مَعَادِكُمْ فَيَجْزِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ، إِنْ كَانَ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقَصَصِ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٦٩ تفسيرُ سورةِ العنكبوتِ مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾

أَمَّا الكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ اِسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَا بُدَّ أَنْ يَبْتَلِيَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِحَسَبِ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ « **أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ لَهُ فِي الْبَلَاءِ** » ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ صَدَقُوا فِي دَعْوَاهُمُ الْإِيمَانَ مِمَّنْ هُوَ كَاذِبٌ فِي قَوْلِهِ وَدَعْوَاهُ ، وَاللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ . وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ عِنْدَ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِيمَانِ أَنَّهُمْ يَتَخَلَّصُونَ مِنْ هَذِهِ الْفِتْنَةِ وَالِامْتِحَانِ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ مَا هُوَ أَغْلَظُ مِنْ هَذَا وَأَطَمُّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ﴾ أَيْ : يَفُوتُونَا ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أَيْ : بِئْسَ مَا يَظُنُّونَ .

مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا

يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ، وَرَجَا مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ، فَإِنَّ اللهَ سَيُحَقِّقُ لَهُ رَجَاءَهُ، وَيُوَفِّيهِ عَمَلَهُ كَامِلًا مَوْفُورًا، فَإِنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ؛ لِأَنَّهُ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، بَصِيرٌ بِكُلِّ الْكَائِنَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦] أَيْ: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ عَمَلِهِ عَلَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ، وَلَوْ كَانُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْهُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُجَاهِدُ وَمَا ضَرَبَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ بِسَيْفٍ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ - مَعَ غِنَاهُ عَنِ الْخَلَائِقِ جَمِيعِهِمْ، وَمِنْ بِرِّهِ وَإِحْسَانِهِ بِهِمْ - يُجَازِي الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ، وَهُوَ أَنَّهُ يُكَفِّرُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا، وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَيَقْبَلُ الْقَلِيلَ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَيُثِيبُ عَلَيْهَا، الْوَاحِدَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَيَجْزِي عَلَى السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا أَوْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ بَعْدَ الْحَثِّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِتَوْحِيدِهِ، فَإِنَّ الْوَالِدَيْنِ هُمَا سَبَبُ وُجُودِ الْإِنْسَانِ، وَلَهُمَا عَلَيْهِ غَايَةُ الْإِحْسَانِ، فَالْوَالِدُ بِالْإِنْفَاقِ وَالْوَالِدَةُ بِالْإِشْفَاقِ، وَمَعَ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا فِي مُقَابَلَةِ إِحْسَانِهِمَا الْمُتَقَدِّمِ قَالَ: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ أَيْ: وَإِنْ حَرَصَا عَلَيْكَ أَنْ تُتَابِعَهُمَا عَلَى دِينِهِمَا - إِذَا كَانَا مُشْرِكَيْنِ - فَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُمَا، لَا تُطِعْهُمَا فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ مَرْجِعَكُمْ إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَجْزِيكَ بِإِحْسَانِكَ إِلَيْهِمَا وَصَبْرِكَ عَلَى دِينِكَ، وَأَحْشُرُكَ مَعَ الصَّالِحِينَ لَا فِي زُمْرَةِ

وَالِدَيْكَ ، وَإِنْ كُنْتَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِمَا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ الْمَرْءَ إِنَّمَا يُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ، أَيْ : حُبًّا دِينِيًّا ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ : نَزَلَتْ فِيَّ أَرْبَعُ آيَاتٍ ، فَذَكَرَ قِصَّتَهُ وَقَالَ : قَالَتْ أُمُّ سَعْدٍ : أَلَيْسَ اللهُ قَدْ أَمَرَكَ بِالْبِرِّ ؟ وَاللهُ لَا أَطْعَمُ طَعَامًا وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى أَمُوتَ أَوْ تَكْفُرَ ، قَالَ : فَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُطْعِمُوهَا شَجَرُوا فَاهَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ﴾ الْآيَةَ .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ صِفَاتِ قَوْمٍ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ، وَلَمْ يَثْبُتِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ ، بِأَنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ مِحْنَةٌ وَفِتْنَةٌ فِي الدُّنْيَا اعْتَقَدُوا أَنَّ هَذَا مِنْ نِقْمَةِ اللهِ تَعَالَى بِهِمْ ، فَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : يَعْنِي : فِتْنَتَهُ أَنْ يَرْتَدَّ عَنْ دِينِهِ إِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [الحج : ١١-١٢] ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أَيْ : وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ قَرِيبٌ مِنْ رَبِّكَ - يَا مُحَمَّدُ - وَفَتْحٌ وَمَغَانِمُ ، لَيَقُولَنَّ هَؤُلَاءِ لَكُمْ : إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ، أَيْ : إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ **ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ وَمَا تُكِنُّهُ ضَمَائِرُهُمْ وَإِنْ أَظْهَرُوا لَكُمُ الْمُوَافَقَةَ ؟ ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ أَيْ : وَلَيَخْتَبِرَنَّ اللهُ النَّاسَ بِالضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ ، لِيَتَمَيَّزَ هَؤُلَاءِ مِنْ هَؤُلَاءِ ، مَنْ يُطِيعُ اللهَ فِي الضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ ، وَمَنْ إِنَّمَا يُطِيعُهُ فِي حَظِّ نَفْسِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] ، وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ وَقْعَةِ أُحُدٍ ، الَّتِي كَانَ فِيهَا مَا كَانَ ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩]

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا

مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ : إِنَّهُمْ قَالُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الْهُدَى : اِرْجِعُوا عَنْ دِينِكُمْ إِلَى دِينِنَا وَاتَّبِعُوا سَبِيلَنَا ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ أَيْ : وَآثَامَكُمْ - إِنْ كَانَتْ لَكُمْ آثَامٌ فِي ذَلِكَ - عَلَيْنَا وَفِي رِقَابِنَا ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ : اِفْعَلْ هَذَا وَخَطِيئَتُكَ فِي رَقَبَتِي ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى تَكْذِيبًا لَهُمْ** : ﴿ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أَيْ : فِيمَا قَالُوهُ ، إِنَّهُمْ يَحْتَمِلُونَ عَنْ أُولَئِكَ خَطَايَاهُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ وِزْرَ أَحَدٍ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر : ١٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ إِخْبَارٌ عَنِ الدُّعَاةِ إِلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ ، أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْزَارَ أَنْفُسِهِمْ وَأَوْزَارًا أُخْرَى بِسَبَبِ مَا أَضَلُّوا مِنَ النَّاسِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِ أُولَئِكَ شَيْئًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : ٢٥] ، وَفِي الصَّحِيحِ « **مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلَ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا** » .

﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أَيْ : يَكْذِبُونَ وَيَخْتَلِقُونَ مِنَ الْبُهْتَانِ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

هَذِهِ تَسْلِيَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ﷺ يُخْبِرُهُ عَنْ نُوحٍ عليه السلام أَنَّهُ مَكَثَ فِي قَوْمِهِ هَذِهِ الْمُدَّةَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَسِرًّا وَجِهَارًا ، وَمَعَ هَذَا مَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا فِرَارًا عَنِ الْحَقِّ وَإِعْرَاضًا عَنْهُ وَتَكْذِيبًا لَهُ ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أَيْ : بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ مَا نَجَعَ فِيهِمُ الْبَلَاغُ وَالْإِنْذَارُ ، فَأَنْتَ - يَا مُحَمَّدُ - لَا تَأْسَفْ عَلَى مَنْ كَفَرَ بِكَ مِنْ قَوْمِكَ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَبِيَدِهِ الْأَمْرُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ [يونس : ٩٦- ٩٧] ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ سَيُظْهِرُكَ وَيَنْصُرُكَ ، وَيُؤَيِّدُكَ وَيُذِلُّ عَدُوَّكَ وَيَكْبِتُهُمْ وَيَجْعَلُهُمْ أَسْفَلَ السَّافِلِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ آمَنُوا بِنُوحٍ عليه السلام وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ ذَلِكَ مُفَصَّلًا فِي سُورَةِ « هُودٍ » ، وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : وَجَعَلْنَا تِلْكَ السَّفِينَةَ بَاقِيَةً ، إِمَّا عَيْنُهَا ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ : أَنَّهَا بَقِيَتْ إِلَى أَوَّلِ الْإِسْلَامِ عَلَى جَبَلِ الْجُودِيِّ ، أَوْ نَوْعُهَا جَعَلَهُ لِلنَّاسِ تَذْكِرَةً لِنِعَمِهِ عَلَى الْخَلْقِ كَيْفَ نَجَّاهُمْ زَمَنَ الطُّوفَانِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١-١٢] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّدْرِيجِ مِنَ الشَّخْصِ إِلَى الْجِنْسِ ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : لَوْ قِيلَ إِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَجَعَلْنَٰهَآ ﴾ عَائِدٌ إِلَى الْعُقُوبَةِ لَكَانَ وَجْهًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ - إِمَامِ الْحُنَفَاءِ - أَنَّهُ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَالْإِخْلَاصِ لَهُ فِي التَّقْوَى ، وَطَلَبِ الرِّزْقِ مِنْهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَتَوْحِيدِهِ فِي الشُّكْرِ ، فَإِنَّهُ الْمَشْكُورُ عَلَى النِّعَمِ لَا مُسْدِي لَهَا غَيْرُهُ ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ أَيْ : أَخْلِصُوا لَهُ فِي الْعِبَادَةِ وَالْخَوْفِ ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ حَصَلَ لَكُمُ الْخَيْرُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَانْدَفَعَ عَنْكُمُ الشَّرُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْأَصْنَامَ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَإِنَّمَا اِخْتَلَقْتُمْ أَنْتُمْ لَهَا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا آلِهَةً ، وَإِنَّمَا هِيَ مَخْلُوقَةٌ مِثْلُكُمْ . قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : وَتَصْنَعُونَ إِفْكًا ، أَيْ : تَنْحِتُونَهَا أَصْنَامًا . وَهِيَ لَا تَمْلِكُ لَكُمْ رِزْقًا ﴿ فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾ وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْحَصْرِ ، كَقَوْلِهِ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَٱبْتَغُواْ ﴾ أَيْ : فَاطْلُبُوا ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾ أَيْ : لَا عِنْدَ غَيْرِهِ ، فَإِنَّ غَيْرَهُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا ﴿ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ﴾ أَيْ : كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ ، وَاشْكُرُوا لَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ . ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ أَيْ : فَبَلَغَكُمْ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ فِي مُخَالَفَةِ الرُّسُلِ ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ يَعْنِي إِنَّمَا عَلَى الرَّسُولِ أَنْ يُبَلِّغَكُمْ مَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ ، وَاللهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، فَاحْرِصُوا لِأَنْفُسِكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ السُّعَدَاءِ . وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ

أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ قَالَ : يُعَزِّي نَبِيَّهُ ﷺ.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْخَلِيلِ ﵇ أَنَّهُ أَرْشَدَهُمْ إِلَى إِثْبَاتِ الْمَعَادِ الَّذِي يُنْكِرُونَهُ ، بِمَا يُشَاهِدُونَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ خَلْقِ اللهِ إِيَّاهُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا ، ثُمَّ وُجِدُوا وَصَارُوا أُنَاسًا سَامِعِينَ مُبْصِرِينَ ، فَالَّذِي بَدَأَ هَذَا قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ ، فَإِنَّهُ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ . ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى الِاعْتِبَارِ بِمَا فِي الْآفَاقِ مِنَ الْآيَاتِ الْمُشَاهَدَةِ مِنْ خَلْقِ اللهِ الْأَشْيَاءَ : السَّمَاوَاتِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ النَّيِّرَةِ الثَّوَابِتِ ، وَالسَّيَّارَاتِ ، وَالْأَرَضِينَ وَمَا فِيهَا مِنْ مِهَادٍ وَجِبَالٍ وَأَوْدِيَةٍ وَبَرَارِي وَقِفَارٍ وَأَشْجَارٍ وَأَنْهَارٍ وَثِمَارٍ وَبِحَارٍ ، كُلُّ ذَلِكَ دَالٌّ عَلَى حُدُوثِهَا فِي أَنْفُسِهَا وَعَلَى وُجُودِ صَانِعِهَا الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وَهَذَا الْمَقَامُ شَبِيهٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : هُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ، لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ فَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، مَهْمَا فَعَلَ فَعَدْلٌ ؛ لِأَنَّهُ الْمَالِكُ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « إِنَّ اللهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ » وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ أَيْ : تُرْجَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أَيْ : لَا يُعْجِزُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ ، بَلْ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، فَكُلُّ شَيْءٍ خَائِفٌ مِنْهُ فَقِيرٌ إِلَيْهِ ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ ﴾ أَيْ : جَحَدُوهَا وَكَفَرُوا بِالْمَعَادِ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى ﴾

أَيْ : لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا ﴿ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : مُوجِعٌ شَدِيدٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَمُكَابَرَتِهِمْ وَدَفْعِهِمُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، أَنَّهُمْ مَا كَانَ لَهُمْ جَوَابٌ بَعْدَ مَقَالَةِ إِبْرَاهِيمَ هَذِهِ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى الْهُدَى وَالْبَيَانِ ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَامَ عَلَيْهِمُ الْبُرْهَانُ ، وَتَوَجَّهَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ، فَعَدَلُوا إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِهِمْ وَقُوَّةِ مُلْكِهِمْ ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات : ٩٧-٩٨] ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حَشَدُوا فِي جَمْعِ أَحِطَابٍ عَظِيمَةٍ مُدَّةً طَوِيلَةً ، وَحَوَّطُوا حَوْلَهَا ، ثُمَّ أَضْرَمُوا فِيهَا النَّارَ فَارْتَفَعَ لَهَا لَهَبٌ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ، وَلَمْ تُوقَدْ نَارٌ قَطُّ أَعْظَمُ مِنْهَا ، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَكَتَّفُوهُ وَأَلْقَوْهُ فِي كِفَّةِ الْمَنْجَنِيقِ ، ثُمَّ قَذَفُوهُ فِيهَا ، فَجَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا ، وَخَرَجَ مِنْهَا سَالِمًا بَعْدَ مَا مَكَثَ فِيهَا أَيَّامًا ، وَلِهَذَا وَأَمْثَالِهِ جَعَلَهُ اللهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، فَإِنَّهُ بَذَلَ نَفْسَهُ لِلرَّحْمَنِ ، وَجَسَدَهُ لِلنِّيرَانِ ، وَسَخَا بِوَلَدِهِ لِلْقُرْبَانِ ، وَجَعَلَ مَالَهُ لِلضِّيفَانِ ، وَلِهَذَا اجْتَمَعَ عَلَى مَحَبَّتِهِ جَمِيعُ أَهْلِ الْأَدْيَانِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : سَلَّمَهُ مِنْهَا بِأَنْ جَعَلَهَا عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يَقُولُ لِقَوْمِهِ - مُقَرِّعًا لَهُمْ وَمُوَبِّخًا عَلَى سُوءِ صَنِيعِهِمْ فِي عِبَادَتِهِمْ لِلْأَوْثَانِ -: إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ هَذِهِ لِتَجْتَمِعُوا عَلَى عِبَادَتِهَا فِي الدُّنْيَا ، صَدَاقَةً وَأُلْفَةً مِنْكُمْ ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يَنْعَكِسُ هَذَا الْحَالُ ، فَتَبْقَى هَذِهِ الصَّدَاقَةُ وَالْمَوَدَّةُ بُغْضًا وَشَنَآنًا ، فَـ ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ أَيْ : تَتَجَاحَدُونَ مَا كَانَ بَيْنَكُمْ ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ أَيْ : يَلْعَنُ الْأَتْبَاعُ الْمَتْبُوعِينَ ، وَالْمَتْبُوعُونَ الْأَتْبَاعَ ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : ٣٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] ، **وَقَالَ هَهُنَا** ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ الْآيَةَ . أَيْ : وَمَصِيرُكُمْ وَمَرْجِعُكُمْ بَعْدَ عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ إِلَى النَّارِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُكُمْ وَلَا مُنْقِذَ يُنْقِذُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، وَهَذَا حَالُ الْكَافِرِينَ ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَبِخِلَافِ ذَلِكَ .

۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ آمَنَ لَهُ لُوطٌ يُقَالَ : إِنَّهُ اِبْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ . يَقُولُونَ : هُوَ لُوطُ بْنُ هَارَانَ بْنِ آزَرَ ، يَعْنِي : وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ سِوَاهُ وَسَارَةُ اِمْرَأَةُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ، فَإِنَّ لُوطًا عليه السلام آمَنَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ ، وَهَاجَرَ مَعَهُ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ ، ثُمَّ أُرْسِلَ فِي حَيَاةِ الْخَلِيلِ إِلَى أَهْلِ «سَدُوم» وَإِقْلِيمِهَا ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا تَقَدَّمَ وَمَا سَيَأْتِي .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ يَحْتَمِلُ عَوْدُ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ : ﴿وَقَالَ﴾ عَلَى لُوطٍ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ أَقْرَبُ الْمَذْكُورَيْنِ ، وَيَحْتَمِلُ عَوْدُهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُ بِأَنَّهُ اخْتَارَ الْمُهَاجَرَةَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمُ اِبْتِغَاءَ إِظْهَارِ الدِّينِ وَالتَّمَكُّنِ مِنْ ذَلِكَ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أَيْ : لَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ الْقَدَرِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم : ٤٩] أَيْ : أَنَّهُ لَمَّا فَارَقَ قَوْمَهُ أَقَرَّ اللهُ عَيْنَهُ بِوُجُودِ وَلَدٍ صَالِحٍ نَبِيٍّ ، وَوُلِدَ لَهُ وَلَدٌ صَالِحٌ نَبِيٌّ فِي حَيَاةِ جَدِّهِ ، وَكَذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء : ٧٢] أَيْ : زِيَادَةً ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود : ٧١] أَيْ : يُولَدُ لِهَذَا الْوَلَدِ وَلَدٌ فِي حَيَاتِكُمَا تَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُكُمَا ، وَكَوْنُ يَعْقُوبَ وَلَدٌ لِإِسْحَاقَ نَصَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ، وَثَبَتَتْ بِهِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ هَذِهِ خِلْعَةٌ سَنِيَّةٌ عَظِيمَةٌ مَعَ اتِّخَاذِ اللهِ إِيَّاهُ خَلِيلًا وَجَعْلَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، أَنْ جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، فَلَمْ يُوجَدْ نَبِيٌّ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام إِلَّا وَهُوَ مِنْ سُلَالَتِهِ ، فَجَمِيعُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ سُلَالَةِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، حَتَّى كَانَ آخِرُهُمْ عِيسَى اِبْنُ مَرْيَمَ ، فَقَامَ فِي مَلَئِهِمْ مُبَشِّرًا بِالنَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْقُرَشِيِّ الْهَاشِمِيِّ ، مِنْ سُلَالَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -. ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أَيْ : جَمَعَ اللهُ لَهُ بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا الْمَوْصُولَةِ بِسَعَادَةِ الْآخِرَةِ ، فَكَانَ لَهُ فِي الدُّنْيَا الرِّزْقُ الْوَاسِعُ الْهَنِيُّ ، وَالْمَنْزِلُ الرَّحْبُ ، وَالْمَوْرِدُ الْعَذْبُ ، وَالزَّوْجَةُ الْحَسَنَةُ الصَّالِحَةُ ، وَالثَّنَاءُ الْجَمِيلُ ، وَالذِّكْرُ الْحَسَنُ ، وَكُلُّ أَحَدٍ يُحِبُّهُ وَيَتَوَلَّاهُ . مَعَ الْقِيَامِ بِطَاعَةِ اللهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ أَيْ : قَامَ بِجَمِيعِ مَا أُمِرَ وَكَمَّلَ طَاعَةَ رَبِّهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**:

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ لُوطٍ ﷺ أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَى قَوْمِهِ سُوءَ صَنِيعِهِمْ ، وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ مِنْ قَبِيحِ الْأَعْمَالِ فِي إِتْيَانِهِمُ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ، وَلَمْ يَسْبِقْهُمْ إِلَى هَذِهِ الْفِعْلَةِ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ قَبْلَهُمْ ، وَكَانُوا مَعَ هَذَا يَكْفُرُونَ بِاللهِ ، وَيُكَذِّبُونَ رَسُولَهُ ، وَيُخَالِفُونَ وَيَقْطَعُونَ السَّبِيلَ أَيْ : يَقِفُونَ فِي طَرِيقِ النَّاسِ يَقْتُلُونَهُمْ وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَهُمْ ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ أَيْ : يَفْعَلُونَ مَا لَا يَلِيقُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ فِي مَجَالِسِهِمُ الَّتِي يَجْتَمِعُونَ فِيهَا ، لَا يُنْكِرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، **فَمِنْ قَائِلٍ** : كَانُوا يَأْتُونَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا فِي الْمَلَأِ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ . **وَمِنْ قَائِلٍ** : كَانُوا يَتَضَارَطُونَ وَيَتَضَاحَكُونَ ، **وَمِنْ قَائِلٍ** : كَانُوا يُنَاطِحُونَ بَيْنَ الْكِبَاشِ وَيُنَاقِرُونَ بَيْنَ الدُّيُوكِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ يَصْدُرُ عَنْهُمْ ، وَكَانُوا شَرًّا مِنْ ذَلِكَ . ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ، وَهَذَا مِنْ كُفْرِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ وَعِنَادِهِمْ . وَلِهَذَا اسْتَنْصَرَ عَلَيْهِمْ نَبِيُّ اللهِ فَقَالَ : ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

لَمَّا اسْتَنْصَرَ لُوطٌ ﷺ بِاللهِ ﷻ عَلَيْهِمْ ، بَعَثَ اللهُ لِنُصْرَتِهِ مَلَائِكَةً فَمَرُّوا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ فِي هَيْئَةِ أَضْيَافٍ ، فَجَاءَهُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ ، فَلَمَّا رَأَى إِبْرَاهِيمُ أَنَّهُ لَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَى الطَّعَامِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، فَشَرَعُوا يُؤَانِسُونَهُ وَيُبَشِّرُونَهُ بِوُجُودِ وَلَدٍ صَالِحٍ مِنِ امْرَأَتِهِ سَارَةَ - وَكَانَتْ حَاضِرَةً - فَتَعَجَّبَتْ مِنْ ذَلِكَ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ « هُودٍ » وَ « الْحِجْرِ » ، فَلَمَّا جَاءَتْ

إِبْرَاهِيمَ الْبُشْرَى ، وَأَخْبَرُوهُ بِأَنَّهُمْ أُرْسِلُوا لِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ ، أَخَذَ يُدَافِعُ لَعَلَّهُمْ يَنْظُرُونَ ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ ، وَلَمَّا قَالُوا : إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ .﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْهَالِكِينَ ؛ لأَنَّهَا كَانَتْ تُمَالِئُهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ ، ثُمَّ سَارُوا مِنْ عِنْدِهِ فَدَخَلُوا عَلَى لُوطٍ فِي صُورَةِ شُبَّانٍ حِسَانٍ ، فَلَمَّا رَآهُمْ كَذَلِكَ ﴿ سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ أَيْ : اغْتَمَّ بِأَمْرِهِمْ إِنْ هُوَ أَضَافَهُمْ خَافَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَوْمِهِ ، وَإِنْ لَمْ يُضِفْهُمْ خَشِيَ عَلَيْهِمْ مِنْهُمْ ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِأَمْرِهِمْ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ ﴿ وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ . وَذَلِكَ أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام اقْتَلَعَ قُرَاهُمْ مِنْ قَرَارِ الْأَرْضِ ، ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ ، وَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ، وَجَعَلَ اللهُ مَكَانَهَا بُحَيْرَةً خَبِيثَةً مُنْتِنَةً ، وَجَعَلَهُمْ عِبْرَةً إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ ، وَهُمْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْمَعَادِ .وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً ﴾ أَيْ : وَاضِحَةً ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[الصافات : ١٣٧-١٣٨]

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ شُعَيْبٍ عليه السلام أَنَّهُ أَنْذَرَ قَوْمَهُ - أَهْلَ مَدْيَنَ - فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ يَخَافُوا بَأْسَ اللهِ وَنِقْمَتَهُ وَسَطْوَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،فَقَالَ : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : قَالَ بَعْضُهُمْ : مَعْنَاهُ : وَاخْشَوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾[الأحزاب : ٢١] ، ثُمَّ نَهَاهُمْ عَنِ الْعَيْثِ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ ، وَهُوَ السَّعْيُ فِيهَا وَالْبَغْيُ عَلَى أَهْلِهَا ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُنْقِصُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ وَيَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ عَلَى النَّاسِ ، هَذَا مَعَ كُفْرِهِمْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ بِرَجْفَةٍ عَظِيمَةٍ زَلْزَلَتْ عَلَيْهِمْ بِلَادَهُمْ ، وَصَيْحَةٍ أَخْرَجَتِ الْقُلُوبَ مِنْ حَنَاجِرِهَا . وَعَذَابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ الَّذِي أَزْهَقَ الْأَرْوَاحَ مِنْ مُسْتَقَرِّهَا ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ قِصَّتُهُمْ مَبْسُوطَةً فِي سُورَةِ « الْأَعْرَافِ »« وَهُودٍ »« وَالشُّعَرَاءِ » ، ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : مَيِّتِينَ . وَقَالَ غَيْرُهُ : قَدْ أُلْقِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ .

وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ

فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ ، كَيْفَ أَبَادَهُمْ وَتَنَوَّعَ فِي عَذَابِهِمْ وَأَخَذَهُمْ بِالِانْتِقَامِ مِنْهُمْ ، فَعَادٌ قَوْمُ هُودٍ ﷺ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ بِبِلَادِ الْيَمَنِ ، وَثَمُودُ قَوْمُ صَالِحٍ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْحِجْرَ قَرِيبًا مِنْ وَادِي الْقُرَى . وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَعْرِفُ مَسَاكِنَهُمَا جَيِّدًا وَتَمُرُّ عَلَيْهَا كَثِيرًا ، وَقَارُونُ صَاحِبُ الْأَمْوَالِ الْجَزِيلَةِ وَمَفَاتِيحِ الْكُنُوزِ الثَّقِيلَةِ ، وَفِرْعَوْنُ مَلِكُ مِصْرَ فِي زَمَانِ مُوسَى ، وَوَزِيرُهُ هَامَانُ الْقِبْطِيَّانِ الْكَافِرَانِ بِاللهِ تَعَالَى وَبِرَسُولِهِ ﷺ .

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ أَيْ : كَانَتْ عُقُوبَتُهُ بِمَا يُنَاسِبُهُ ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ ، وَهُمْ عَادٌ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ فَجَاءَتْهُمْ رِيحٌ صَرْصَرٌ بَارِدَةٌ شَدِيدَةُ الْبَرْدِ ، عَاتِيَةٌ شَدِيدَةُ الْهُبُوبِ جِدًّا ، تَحْمِلُ عَلَيْهِمْ حَصْبَاءَ الْأَرْضِ فَتُلْقِيهَا عَلَيْهِمْ وَتَقْتَلِعُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، فَتَرْفَعُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ثُمَّ تُنَكِّسُهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَتَشْدَخُهُ ، فَيَبْقَى بَدَنًا بِلَا رَأْسٍ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ ، **وَهُمْ ثَمُودُ** قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَظَهَرَتْ لَهُمُ الدَّلَالَةُ مِنْ تِلْكَ النَّاقَةِ الَّتِي انْفَلَقَتْ عَنْهَا الصَّخْرَةُ ، مِثْلَ مَا سَأَلُوا سَوَاءً بِسَوَاءٍ ، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنُوا بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى طُغْيَانِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَتَهَدَّدُوا نَبِيَّ اللهِ صَالِحًا وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ ، وَتَوَعَّدُوهُمْ بِأَنْ يُخْرِجُوهُمْ وَيَرْجُمُوهُمْ فَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَخْمَدَتِ الْأَصْوَاتَ مِنْهُمْ وَالْحَرَكَاتِ ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ ، **وَهُوَ قَارُونُ** الَّذِي طَغَى وَبَغَى وَعَتَا وَعَصَى الرَّبَّ الْأَعْلَى ، وَمَشَى فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، وَفَرِحَ وَمَرِحَ وَتَاهَ بِنَفْسِهِ ، وَاعْتَقَدَ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ ، وَاخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ ، فَخَسَفَ اللهُ بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ ، **وَهُوَ فِرْعَوْنُ وَوَزِيرُهُ هَامَانُ وَجُنُودُهُمَا عَنْ آخِرِهِمْ** ، أُغْرِقُوا فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ مُخْبِرٌ ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أَيْ : فِيمَا فَعَلَ بِهِمْ ﴿ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ جَزَاءً وِفَاقًا بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ .

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ ظَاهِرُ سِيَاقِ الْآيَةِ ، وَهُوَ مِنْ بَابِ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ ، وَهُوَ أَنَّهُ ذَكَرَ الْأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ أَيْ : مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ .

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ يَرْجُونَ نَصْرَهُمْ وَرِزْقَهُمْ وَيَتَمَسَّكُونَ بِهِمْ فِي الشَّدَائِدِ ، فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ فِي ضَعْفِهِ وَوَهَنِهِ ، فَلَيْسَ فِي أَيْدِي هَؤُلَاءِ مِنَ آلِهَتِهِمْ إِلَّا كَمَنْ يَتَمَسَّكُ بِبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ ، فَإِنَّهُ لَا يُجْدِي عَنْهُ شَيْئًا ، فَلَوْ عَلِمُوا هَذَا الْحَالَ لَمَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ ، وَهَذَا بِخِلَافِ الْمُسْلِمِ الْمُؤْمِنِ قَلْبُهُ للهِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُحْسِنُ الْعَمَلَ فِي اتِّبَاعِ الشَّرْعِ ، فَإِنَّهُ مُتَمَسِّكٌ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا لِقُوَّتِهَا وَثَبَاتِهَا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِمَنْ عَبَدَ غَيْرَهُ وَأَشْرَكَ بِهِ ، أَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَيَعْلَمُ مَا يُشْرِكُونَ بِهِ مِنَ الْأَنْدَادِ ، وَسَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : وَمَا يَفْهَمُهَا وَيَتَدَبَّرُهَا إِلَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ الْمُتَضَلِّعُونَ مِنْهُ .

خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، يَعْنِي : لَا عَلَى وَجْهِ الْعَبَثِ وَاللَّعِبِ ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ١٥] ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : لَدَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ وَالْإِلَهِيَّةِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، وَهُوَ قِرَاءَتُهُ وَإِبْلَاغُهُ لِلنَّاسِ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ الصَّلَاةَ تَشْتَمِلُ عَلَى شَيْئَيْنِ عَلَى تَرْكِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ ، أَيْ : إِنَّ مُوَاظَبَتَهَا تَحْمِلُ عَلَى تَرْكِ ذَلِكَ . **قَالَ ابْنُ عَوْنٍ الْأَنْصَارِيُّ** : إِذَا كُنْتَ فِي صَلَاةٍ فَأَنْتَ فِي مَعْرُوفٍ ، وَقَدْ حَجَزَتْكَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَالَّذِي أَنْتَ فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أَكْبَرُ . **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قَالُوا : وَلَذِكْرُ اللهِ لِعِبَادِهِ - إِذَا ذَكَرُوهُ - أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِهِمْ إِيَّاهُ .

۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾

قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : هَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ السَّيْفِ وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُمْ مُجَادَلَةٌ وَإِنَّمَا هُوَ الْإِسْلَامُ أَوِ الْجِزْيَةُ أَوِ السَّيْفُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ هِيَ بَاقِيَةٌ مُحْكَمَةٌ لِمَنْ أَرَادَ الِاسْتِبْصَارَ مِنْهُمْ فِي الدِّينِ ، فَيُجَادِلُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ لِيَكُونَ أَنْجَعَ فِيهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ أَيْ : حَادُوا عَنْ وَجْهِ الْحَقِّ وَعَمُوا عَنْ وَاضِحِ الْمَحَجَّةِ وَعَانَدُوا وَكَابَرُوا ، فَحِينَئِذٍ يَنْتَقِلُ مِنَ الْجِدَالِ إِلَى الْجِلَادِ ، وَيُقَاتَلُونَ بِمَا يَمْنَعُهُمْ وَيَرْدَعُهُمْ . ﴿ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ يَعْنِي : إِذَا أَخْبَرُوا بِمَا لَا نَعْلَمُ صِدْقَهُ وَلَا كَذِبَهُ ، فَهَذَا لَا نُقْدِمُ عَلَى تَكْذِيبِهِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ حَقًّا ، وَلَا تَصْدِيقُهُ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ بَاطِلًا ، وَلَكِنْ نُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانًا مُجْمَلًا مُعَلَّقًا عَلَى شَرْطٍ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مُنَزَّلًا لَا مُبَدَّلًا وَلَا مُؤَوَّلًا . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** » . ثُمَّ لِيُعْلَمَ أَنَّ أَكْثَرَ مَا يَتَحَدَّثُونَ بِهِ غَالِبُهُ كَذِبٌ وَبُهْتَانٌ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ دَخَلَهُ تَحْرِيفٌ وَتَبْدِيلٌ وَتَغْيِيرٌ وَتَأْوِيلٌ ، وَمَا أَقَلَّ الصِّدْقَ فِيهِ ، ثُمَّ مَا أَقَلَّ فَائِدَةَ كَثِيرٍ مِنْهُ لَوْ كَانَ صَحِيحًا .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : كَمَا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الرُّسُلِ ، كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْكِتَابَ ، ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ أَخَذُوهُ فَتَلَوْهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ مِنْ أَحْبَارِهِمُ الْعُلَمَاءِ الْأَذْكِيَاءِ ، كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ ، وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ، وَأَشْبَاهِهِمَا . ﴿ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ يَعْنِي : الْعَرَبُ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أَيْ : مَا يُكَذِّبُ بِهَا وَيَجْحَدُ حَقَّهَا إِلَّا مَنْ يَسْتُرُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَيُغَطِّي ضَوْءَ الشَّمْسِ بِالْوَصَائِلِ ، وَهَيْهَاتَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ أَيْ : قَدْ لَبِثْتَ فِي

قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَ بِهَذَا الْقُرْآنِ عُمْرًا لَا تَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا تُحْسِنُ الْكِتَابَةَ ، بَلْ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ قَوْمِكَ وَغَيْرِهِمْ يَعْرِفُ أَنَّكَ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لَا تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبُ ، وَهَكَذَا صِفَتُهُ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، وَهَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ وَلَا يَخُطُّ سَطْرًا وَلَا حَرْفًا بِيَدِهِ ، بَلْ كَانَ لَهُ كُتَّابٌ يَكْتُبُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْوَحْيَ وَالرَّسَائِلَ إِلَى الْأَقَالِيمِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ أَيْ : لَوْ كُنْتَ تُحْسِنُهَا لَارْتَابَ بَعْضُ الْجَهَلَةِ مِنَ النَّاسِ ، فَيَقُولُ : إِنَّمَا تَعَلَّمَ هَذَا مِنْ كُتُبٍ قَبْلَهُ مَأْثُورَةٍ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ ، مَعَ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُ أُمِّيٌّ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان : ٥] ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الفرقان : ٦] **وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ أَيْ : هَذَا الْقُرْآنُ آيَاتٌ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْحَقِّ أَمْرًا وَنَهْيًا وَخَبَرًا يَحْفَظُهُ الْعُلَمَاءُ ، يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ حِفْظًا وَتِلَاوَةً وَتَفْسِيرًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : مَا يُكَذِّبُ بِهَا وَيَبْخَسُ حَقَّهَا وَيَرُدُّهَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ، أَيْ : الْمُعْتَدُونَ الْمُكَابِرُونَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ وَيَحِيدُونَ عَنْهُ .

وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي تَعَنُّتِهِمْ وَطَلَبِهِمْ آيَاتٍ - يَعْنُونَ - تُرْشِدُهُمْ إِلَى أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ كَمَا أَتَى صَالِحٌ بِنَاقَتِهِ ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَمْرُ ذَلِكَ إِلَى اللهِ ، فَإِنَّهُ لَوْ عَلِمَ أَنَّكُمْ تَهْتَدُونَ لَأَجَابَكُمْ إِلَى سُؤَالِكُمْ ؛ لِأَنَّ هَذَا سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ يَعْلَمُ مِنْكُمْ أَنَّكُمْ إِنَّمَا قَصَدْتُمُ التَّعَنُّتَ وَالِامْتِحَانَ فَلَا يُجِيبُكُمْ إِلَى ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ [الإسراء : ٥٩] ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا بُعِثْتُ نَذِيرًا لَكُمْ بَيِّنُ النِّذَارَةِ فَعَلَيَّ أَنْ أُبَلِّغَكُمْ رِسَالَةَ اللهِ وَ ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ ، وَقَالَ

تَعَالَى : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا كَثْرَةَ جَهْلِهِمْ وَسَخَافَةَ عَقْلِهِمْ ، حَيْثُ طَلَبُوا آيَاتٍ تَدُلُّهُمْ عَلَى صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِيمَا جَاءَهُمْ ، وَقَدْ جَاءَهُمْ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ، الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ مُعْجِزَةٍ إِذْ عَجَزَتِ الْفُصَحَاءُ وَالْبُلَغَاءُ عَنْ مُعَارَضَتِهِ ، بَلْ عَنْ مُعَارَضَةِ عَشْرِ سُوَرٍ مِنْ مِثْلِهِ ، بَلْ عَنْ مُعَارَضَةِ سُورَةٍ مِنْهُ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ آيَةٌ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الَّذِي فِيهِ خَبَرُ مَا قَبْلَهُمْ ، وَنَبَأُ مَا بَعْدَهُمْ ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَهُمْ ، وَأَنْتَ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لَا تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبُ ، وَلَمْ تُخَالِطْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَجِئْتَهُمْ بِأَخْبَارِ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ، بِبَيَانِ الصَّوَابِ مِمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَبِالْحَقِّ الْوَاضِحِ الْبَيِّنِ الْجَلِيِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء : ١٩٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه : ١٣٣]

وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أَيْ : بَيَانًا لِلْحَقِّ وَإِزَاحَةً لِلْبَاطِلِ وَ ﴿ وَذِكْرَىٰ ﴾ بِمَا فِيهِ حُلُولُ النِّقْمَاتِ وَنُزُولُ الْعِقَابِ بِالْمُكَذِّبِينَ وَالْعَاصِينَ ﴿ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ أَيْ : هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ ، وَيَعْلَمُ مَا أَقُولُ لَكُمْ مِنْ إِخْبَارِي عَنْهُ بِأَنَّهُ أَرْسَلَنِي ، فَلَوْ كُنْتُ كَاذِبًا عَلَيْهِ لَانْتَقَمَ مِنِّي ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤-٤٧] ، وَإِنَّمَا أَنَا صَادِقٌ عَلَيْهِ فِيمَا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ ، وَلِهَذَا أَيَّدَنِي بِالْمُعْجِزَاتِ الْوَاضِحَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ . ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، سَيَجْزِيهِمْ عَلَى مَا فَعَلُوا وَيُقَابِلُهُمْ عَلَى مَا صَنَعُوا فِي تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ ، كَذَّبُوا بِرُسُلِ اللهِ مَعَ قِيَامِ الْأَدِلَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ ، وَآمَنُوا بِالطَّوَاغِيتِ وَالْأَوْثَانِ بِلَا دَلِيلٍ ، سَيُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : مُخْبِرًا عَنْ جَهْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي اِسْتِعْجَالِهِمْ عَذَابَ اللهِ أَنْ يَقَعَ بِهِمْ ، وَبَأْس اللهِ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، **وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أَيْ : لَوْلَا مَا حَتَّمَ اللهُ مِنْ تَأْخِيرِ الْعَذَابِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ قَرِيبًا سَرِيعًا كَمَا اسْتَعْجَلُوهُ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً ﴾ أَيْ : فَجْأَةً ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ ، وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : ١٦] ، فَالنَّارُ تَغْشَاهُمْ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهِمْ ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْعَذَابِ الْحِسِّيِّ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ وَتَقْرِيعٌ وَتَوْبِيخٌ ، وَهَذَا عَذَابٌ مَعْنَوِيٌّ عَلَى النُّفُوسِ .

يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، بِالْهِجْرَةِ مِنَ الْبَلَدِ الَّذِي لَا يَقْدِرُونَ فِيهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ إِلَى أَرْضِ اللهِ الْوَاسِعَةِ ، حَيْثُ يُمْكِنُ إِقَامَةَ الدِّينِ بِأَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ وَيَعْبُدُوهُ كَمَا أَمَرَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ .

وَلِهَذَا لَمَّا ضَاقَ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ مُقَامُهُمْ بِهَا خَرَجُوا مُهَاجِرِينَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ لِيَأْمَنُوا عَلَى دِينِهِمْ هُنَاكَ ، فَوَجَدُوا هُنَاكَ خَيْرَ الْمَنْزِلَيْنِ أَصْحَمَةَ النَّجَاشِيَّ مَلِكَ الْحَبَشَةِ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - فَآوَاهُمْ وَأَيَّدَهُمْ بِنَصْرِهِ وَجَعَلَهُمْ سُيُومًا بِبِلَادِهِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ هَاجَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالصَّحَابَةُ الْبَاقُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ يَثْرِبَ الْمُطَهَّرَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : أَيْنَمَا كُنْتُمْ يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ ، فَكُونُوا فِي طَاعَةِ اللهِ وَحَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا مَحِيدَ عَنْهُ ، ثُمَّ إِلَى اللهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ ، فَمَنْ كَانَ مُطِيعًا لَهُ جَازَاهُ أَفْضَلَ الْجَزَاءِ وَوَافَاهُ أَتَمَّ الثَّوَابِ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ أَيْ : لَنُسْكِنَنَّهُمْ مَنَازِلَ عَالِيَةً فِي الْجَنَّةِ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ عَلَى اِخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا

مِنْ مَاءٍ وَخَمْرٍ وَعَسَلٍ وَلَبَنٍ ، يَصْرِفُونَهَا وَيُجْرُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا ، لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ نِعْمَتْ هَذِهِ الْغُرَفُ أَجْرًا عَلَى أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ أَيْ : عَلَى دِينِهِمْ وَهَاجَرُوا إِلَى اللهِ وَنَابَذُوا الْأَعْدَاءَ ، وَفَارَقُوا الْأَهْلَ وَالْأَقْرِبَاءَ اِبْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَرَجَاءَ مَا عِنْدَهُ وَتَصْدِيقَ مَوْعُودِهِ . ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فِي أَحْوَالِهِمْ كُلِّهَا فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ تَعَالَى أَنَّ الرِّزْقَ لَا يَخْتَصُّ بِبُقْعَةٍ ، بَلْ رِزْقُهُ تَعَالَى عَامٌّ لِخَلْقِهِ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ كَانُوا ، بَلْ كَانَتْ أَرْزَاقُ الْمُهَاجِرِينَ حَيْثُ هَاجَرُوا أَكْثَرَ وَأَوْسَعَ وَأَطْيَبَ ، فَإِنَّهُمْ بَعْدَ قَلِيلٍ صَارُوا حُكَّامَ الْبِلَادِ فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ وَالْأَمْصَارِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ أَيْ : لَا تُطِيقُ جَمْعَهُ وَتَحْصِيلَهُ ، وَلَا تَدَّخِرُ شَيْئًا لِغَدٍ ﴿ ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أَيْ : يُقَيِّضُ لَهَا رِزْقَهَا عَلَى ضَعْفِهَا وَيُيَسِّرُهُ عَلَيْهَا ، فَيَبْعَثُ إِلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ مِنَ الرِّزْقِ مَا يُصْلِحُهُ ، حَتَّى الذَّرِّ فِي قَرَارِ الْأَرْضِ ، وَالطَّيْرِ فِي الْهَوَاءِ ، وَالْحِيتَانِ فِي الْمَاءِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : ٦] ، **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ، الْعَلِيمُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ .

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُقَرِّرًا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ الْمُسْتَقِلُّ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَتَسْخِيرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ لِعِبَادِهِ ، وَمُقَدِّرُ آجَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهَا وَاخْتِلَافَ أَرْزَاقِهِمْ فَتَفَاوَتَ بَيْنَهُمْ ، فَمِنْهُمُ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا يُصْلِحُ كُلًّا مِنْهُمْ ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغِنَى مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ ، فَذَكَرَ أَنَّهُ الْمُسْتَقِلُّ بِخَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُنْفَرِدُ بِتَدْبِيرِهَا ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلِمَ يُعْبَد غَيْرُهُ ؟ وَلِمَ يُتَوَكَّلْ عَلَى غَيْرِهِ ؟ فَكَمَا أَنَّهُ الْوَاحِدُ فِي مُلْكِهِ فَلْيَكُنِ الْوَاحِدُ فِي عِبَادَتِهِ ، وَكَثِيرًا مَا يُقَرِّرُ تَعَالَى مَقَامَ الْإِلَهِيَّةِ بِالِاعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ . وَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ : ((**لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ**)).

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ

يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ حَقَارَةِ الدُّنْيَا وَزَوَالِهَا ، وَأَنَّهَا لَا دَوَامَ لَهَا ، وَغَايَةُ مَا فِيهَا لَهْوٌ وَلَعِبٌ : ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ أَيْ : الْحَيَاةُ الدَّائِمَةُ الْحَقُّ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهَا وَلَا انْقِضَاءَ بَلْ هِيَ مُسْتَمِرَّةٌ أَبَدَ الْآبَادِ ، ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : لَآثَرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ عِنْدَ الِاضْطِرَارِ يَدْعُونَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَهَلَّا يَكُونُ هَذَا مِنْهُمْ دَائِمًا ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ هَذِهِ « اللَّامُ » يُسَمِّيهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ وَالتَّفْسِيرِ وَعُلَمَاءِ الْأُصُولِ « **لَامَ الْعَاقِبَةِ** » لِأَنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ ذَلِكَ ، وَلَا شَكَّ أَنَّهَا كَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ ، وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى تَقْدِيرِ اللهِ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَتَقْيِيضِهِ إِيَّاهُمْ لِذَلِكَ فَهِيَ « **لَامُ التَّعْلِيلِ** » .

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى قُرَيْشٍ فِيمَا أَحَلَّهُمْ مِنْ حَرَمِهِ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، فَهُمْ فِي أَمْنٍ عَظِيمٍ ، وَالْأَعْرَابُ حَوْلَهُ يَنْهَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أَيْ : أَفَكَانَ شُكْرُهُمْ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ أَنْ أَشْرَكُوا بِهِ وَعَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَ ﴿ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ ﴾ أَيْ : لَا أَحَدَ أَشَدُّ عُقُوبَةً مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ ، فَقَالَ إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيْهِ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ . وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ ، وَهَكَذَا لَا أَحَدَ أَشَدُّ عُقُوبَةً مِمَّنْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ، فَالْأَوَّلُ مُفْتَرٍ وَالثَّانِي مُكَذِّبٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا ﴾ يَعْنِي : الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَأَتْبَاعُهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أَيْ : لَنُبَصِّرَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، أَيْ : طُرُقَنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ

تفسيرُ سُورَةِ الرُّوم

آياتها ٦٠ مكـية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾

نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ حِينَ غَلَبَ سَابُورُ مَلِكُ الْفُرْسِ عَلَى بِلَادِ الشَّامِ وَمَا وَالَاهَا مِنْ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ وَأَقَاصِي بِلَادِ الرُّومِ ، وَاضْطَرَّ هِرَقْلَ مَلِكَ الرُّومِ حَتَّى أَلْجَأَهُ إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، وَحَاصَرَهُ فِيهَا مُدَّةً طَوِيلَةً ثُمَّ عَادَتِ الدَّوْلَةُ لِهِرَقْلَ .

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَأَمَّا الرُّومُ فَهُمْ مِنْ سُلَالَةِ الْعِيصِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَمِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَيُقَالُ لَهُمْ : بَنُو الْأَصْفَرِ ، وَكَانُوا عَلَى دِينِ الْيُونَانِ ، وَالْيُونَانُ مِنْ سُلَالَةِ يَافِثَ بْنِ نُوحٍ أَبْنَاءُ عَمِّ التُّرْكِ ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ السَّيَّارَةَ السَّبْعَةَ ، وَكَانَ مَنْ مَلَكَ الشَّامَ مَعَ الْجَزِيرَةِ يُقَالُ لَهُ « قَيْصَرُ » . وَكَانَتِ الْوَقْعَةُ الْكَائِنَةُ بَيْنَ فَارِس وَالرُّومِ حِينَ غُلِبَتِ الرُّومُ بَيْنَ أَذْرِعَاتٍ وَبُصْرَى ، وَهِيَ طَرَفُ بِلَادِ الشَّامِ مِمَّا يَلِي بِلَادِ الْحِجَازِ . ثُمَّ كَانَ غَلَبُ الرُّومِ لِفَارِسَ بَعْدَ بِضْعِ سِنِينَ ، وَهِيَ . تِسْعٌ ، فَإِنَّ الْبِضْعَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ : مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التِّسْعِ . ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ وَمِنْ بَعْدِهِ . ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لِلرُّومِ أَصْحَابِ قَيْصَرَ مَلِكِ الشَّامِ عَلَى فَارِس أَصْحَابِ كِسْرَى وَهُمُ الْمَجُوسُ . ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أَيْ : فِي انْتِصَارِهِ وَانْتِقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ . ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ مِنْ أَنَّا سَنَنْصُرُ الرُّومَ عَلَى فَارِس

وَعْدٌ مِنَ اللهِ حَقٌّ ، وَخَبَرُ صِدْقٍ لَا يُخْلَفُ ، وَلَا بُدَّ مِنْ كَوْنِهِ وَوُقُوعِهِ ؛ لِأَنَّ اللهَ قَدْ جَرَتْ سُنَّتُهُ أَنْ يَنْصُرَ أَقْرَبَ الطَّائِفَتَيْنِ الْمُقْتَتِلَتَيْنِ إِلَى الْحَقِّ وَيَجْعَلَ لَهَا الْعَاقِبَةَ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : بِحُكْمِ اللهِ فِي كَوْنِهِ وَأَفْعَالِهِ الْمُحْكَمَةِ الْجَارِيَةِ عَلَى وَفْقِ الْعَدْلِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ أَيْ : أَكْثَرُ النَّاسِ لَيْسَ لَهُمْ عِلْمٌ إِلَّا بِالدُّنْيَا وَأَكْسَابِهَا وَشُؤُونِهَا وَمَا فِيهَا ، فَهُمْ حُذَّاقٌ أَذْكِيَاءُ فِي تَحْصِيلِهَا وَوُجُوهِ مَكَاسِبِهَا وَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يَنْفَعُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، كَأَنَّ أَحَدَهُمْ مُغَفَّلٌ لَا ذِهْنَ لَهُ وَلَا فِكْرَةَ .

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **فِي قَوْلِهِ** : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ يَعْنِي : الْكُفَّارُ يَعْرِفُونَ عُمْرَانَ الدُّنْيَا وَهُمْ فِي أَمْرِ الدِّينِ جُهَّالٌ .

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى التَّفَكُّرِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى وُجُودِهِ وَانْفِرَادِهِ بِخَلْقِهَا وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، **فَقَالَ** : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ﴾ يَعْنِي بِهِ : النَّظَرُ وَالتَّدَبُّرُ وَالتَّأَمُّلُ لِخَلْقِ اللهِ الْأَشْيَاءَ مِنَ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ وَالْأَجْنَاسِ الْمُخْتَلِفَةِ ، فَيَعْلَمُوا أَنَّهَا مَا خُلِقَتْ سُدًى وَلَا بَاطِلًا بَلْ بِالْحَقِّ وَأَنَّهَا مُؤَجَّلَةٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ .

ثُمَّ نَبَّهَهُمْ عَلَى صِدْقِ رُسُلِهِ فِيمَا جَاءُوا بِهِ عَنْهُ بِمَا أَيَّدَهُمْ بِهِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ وَالدَّلَالَاتِ الْوَاضِحَاتِ مِنْ إِهْلَاكِ مَنْ كَفَرَ بِهِمْ وَنَجَاةِ مَنْ صَدَّقَهُمْ . **فَقَالَ** : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : بِأَفْهَامِهِمْ وَعُقُولِهِمْ وَنَظَرِهِمْ وَسَمَاعِهِمْ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أَيْ : كَانَتِ الْأُمَمُ الْمَاضِيَةُ وَالْقُرُونُ السَّالِفَةُ أَشَدُّ مِنْكُمْ - أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ - وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا أُوتِيتُمْ مِعْشَارَ مَا أُوتُوا ، وَمُكِّنُوا فِي الدُّنْيَا تَمْكِينًا لَمْ تَبْلُغُوا إِلَيْهِ ، وَعُمِّرُوا فِيهَا أَعْمَارًا طِوَالًا فَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِنْكُمْ ، وَاسْتَغَلُّوهَا أَكْثَرَ مِنِ اسْتِغْلَالِكُمْ ، وَمَعَ هَذَا لَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَفَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ،

وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ ، وَلَا حَالَتْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَأْسِ اللهِ ، وَلَا دَفَعُوا عَنْهُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ فِيمَا أَحَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أَيْ : وَإِنَّمَا أُوتُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ حَيْثُ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاسْتَهْزَءُوا بِهَا ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمُ السَّالِفَةِ وَتَكْذِيبِهِمُ الْمُتَقَدِّمِ . **وَلِهَذَا قَالَ :** ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ أَيْ : كَمَا هُوَ قَادِرٌ عَلَى بُدَاءَتِهِ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، **ثُمَّ قَالَ :** ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ **قِيلَ :** يَيْأَسُ الْمُجْرِمُونَ ، **وَقِيلَ :** يَفْتَضِحُ الْمُجْرِمُونَ . ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ ﴾ أَيْ : مَا شَفَعَتْ فِيهِمُ الْآلِهَةُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَى وَكَفَرُوا بِهِمْ وَخَانُوهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِمْ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ :** هِيَ وَاللهِ الْفُرْقَةُ الَّتِي لَا اجْتِمَاعَ بَعْدَهَا ، يَعْنِي : إِذَا رُفِعَ هَذَا إِلَى عِلِّيِّينَ وَخُفِضَ هَذَا إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ فَذَاكَ آخِرُ الْعَهْدِ بَيْنَهُمَا ، **وَلِهَذَا قَالَ :** ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ **قِيلَ :** يَنْعَمُونَ .

فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

هَذَا تَسْبِيحٌ مِنْهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَإِرْشَادٌ لِعِبَادِهِ إِلَى تَسْبِيحِهِ وَتَحْمِيدِهِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الْمُتَعَاقِبَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ ، عِنْدَ الْمَسَاءِ وَهُوَ إِقْبَالُ اللَّيْلِ بِظَلَامِهِ ، وَعِنْدَ الصَّبَاحِ وَهُوَ إِسْفَارُ النَّهَارِ عَنْ ضِيَائِهِ . ثُمَّ اعْتَرَضَ بِحَمْدِهِ مُنَاسَبَةً لِلتَّسْبِيحِ وَهُوَ التَّحْمِيدُ **فَقَالَ :** ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى مَا خَلَقَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ فَالْعِشَاءُ : هُوَ شِدَّةُ الظَّلَامِ ، وَالْإِظْهَارُ : قُوَّةُ الضِّيَاءِ ، فَسُبْحَانَ خَالِقِ هَذَا وَهَذَا ، فَالِقِ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلِ اللَّيْلِ سَكَنًا كَمَا قَالَ : ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾[الشمس : ٣-٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾[الليل : ١-٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ هُوَ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَقَابِلَةِ ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ الْمُتَتَابِعَةُ الْكَرِيمَةُ كُلُّهَا مِنْ هَذَا النَّمَطِ ، فَإِنَّهُ يَذْكُرُ فِيهَا خَلْقَهُ الْأَشْيَاءَ وَأَضْدَادَهَا ؛ لِيَدُلَّ خَلْقُهُ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾[يس : ٣٣-٣٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾[الحج : ٥-٧] ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ .

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ﴾ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِهِ وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ ، أَنَّهُ خَلَقَ أَبَاكُمْ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ فَأَصْلُكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ تَصَوَّرَ فَكَانَ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً ، ثُمَّ صَارَ عِظَامًا ، مُشَكَّلَةً عَلَى شَكْلِ الْإِنْسَانِ ، ثُمَّ كَسَا اللهُ تِلْكَ الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ ، فَإِذَا هُوَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ صَغِيرًا ضَعِيفَ الْقُوَى وَالْحَرَكَةِ ، ثُمَّ كُلَّمَا طَالَ عُمْرُهُ تَكَامَلَتْ قُوَاهُ وَحَرَكَاتُهُ حَتَّى آلَ بِهِ الْحَالُ إِلَى أَنْ صَارَ يَبْنِي الْمَدَائِنَ وَالْحُصُونَ ، وَيُسَافِرُ فِي أَقْطَارِ الْأَقَالِيمِ وَيَرْكَبُ مَتْنَ الْبُحُورِ وَيَدُورُ أَقْطَارَ الْأَرْضِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أَيْ : خَلَقَ لَكُمْ مِنْ جِنْسِكُمْ إِنَاثًا يَكُنَّ لَكُمْ أَزْوَاجًا ﴿ لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[الأعراف : ١٨٩] يَعْنِي : بِذَلِكَ حَوَّاءَ خَلَقَهَا اللهُ مِنْ آدَمَ مِنْ ضِلْعِهِ الْأَقْصَرِ الْأَيْسَرِ . وَلَوْ أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ بَنِي آدَمَ كُلَّهُمْ ذُكُورًا وَجَعَلَ إِنَاثَهُمْ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ إِمَّا مِنْ جَانٍّ أَوْ حَيَوَانٍ لَمَا حَصَلَ هَذَا الْإِئْتِلَافُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَزْوَاجِ ، ثُمَّ مِنْ تَمَامِ رَحْمَتِهِ بِبَنِي آدَمَ أَنْ جَعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُنَّ مَوَدَّةً وَهِيَ : الْمَحَبَّةُ ، وَرَحْمَةً وَهِيَ : الرَّأْفَةُ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ يُمْسِكُ الْمَرْأَةَ إِمَّا لِمَحَبَّتِهِ لَهَا أَوْ لِرَحْمَةٍ بِهَا ، بِأَنْ يَكُونَ لَهَا مِنْهُ وَلَدٌ أَوْ مُحْتَاجَةٌ إِلَيْهِ فِي الْإِنْفَاقِ ، أَوْ

لِلْأُلْفَةِ بَيْنَهُمَا وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَمِنْ آيَاتِ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ ﴿ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أَيْ : خَلْقُ السَّمَاوَاتِ فِي اِرْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا وَشُقُوفِ أَجْرَامِهَا ، وَزَهَارَةِ كَوَاكِبِهَا وَنُجُومِهَا الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ ، وَالْأَرْضِ فِي اِنْخِفَاضِهَا وَكَثَافَتِهَا وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَأَوْدِيَةٍ وَبِحَارٍ وَقِفَارٍ وَحَيَوَانٍ وَأَشْجَارٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ ﴾ يَعْنِي : اللُّغَاتُ ، وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِهِمْ وَهِيَ حُلَاهُمْ ، فَجَمِيعُ أَهْلِ الْأَرْضِ - بَلْ أَهْلُ الدُّنْيَا - مُنْذُ خَلَقَ اللهُ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ كُلٌّ لَهُ عَيْنَانِ وَحَاجِبَانِ ، وَأَنْفٌ وَجَبِينٌ ، وَفَمٌ وَخَدَّانِ ، وَلَيْسَ يُشْبِهُ وَاحِدٌ مِنْهُمُ الْآخَرَ ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُفَارِقَهُ بِشَيْءٍ مِنَ السَّمْتِ أَوِ الْهَيْئَةِ أَوِ الْكَلَامِ ، ظَاهِرًا كَانَ أَوْ خَفِيًّا . يَظْهَرُ عِنْدَ التَّأَمُّلِ ، كُلُّ وَجْهٍ مِنْهُمْ أُسْلُوبٌ بِذَاتِهِ وَهَيْئَةٍ لَا تُشْبِهُ أُخْرَى ، وَلَوْ تَوَافَقَ جَمَاعَةٌ فِي صِفَةٍ مِنْ جَمَالٍ أَوْ قُبْحٍ لَا بُدَّ مِنْ فَارِقٍ بَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَبَيْنَ الْآخَرِ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾ .

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ ﴾ أَيْ : وَمِنَ الْآيَاتِ مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ صِفَةِ النَّوْمِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، فِيهِ تَحْصُلُ الرَّاحَةُ وَسُكُونُ الْحَرَكَةِ وَذَهَابُ الْكَلَالِ وَالتَّعَبِ ، وَجَعَلَ لَكُمُ الِانْتِشَارَ وَالسَّعْيَ فِي الْأَسْبَابِ وَالْأَسْفَارِ فِي النَّهَارِ وَهَذَا ضِدُّ النَّوْمِ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾ أَيْ : يَعُونَ .

وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ الدَّالَّةُ عَلَى عَظَمَتِهِ أَنَّهُ ﴿ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا ﴾ أَيْ : تَارَةً تَخَافُونَ مِمَّا يَحْدُثُ بَعْدَهُ مِنْ أَمْطَارٍ مُزْعِجَةٍ وَصَوَاعِقَ مُتْلِفَةٍ ، وَتَارَةً تَرْجُونَ وَمِيضَهُ وَمَا يَأْتِي بَعْدَهُ مِنَ الْمَطَرِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ ﴾ أَيْ : بَعْدَمَا كَانَتْ هَامِدَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا شَيْءَ ، فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَاءُ ﴿ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ [الحج : ٥] ، وَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ وَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى الْمَعَادِ وَقِيَامِ السَّاعَةِ ،

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج: ٦٥]، أَيْ: هِيَ قَائِمَةٌ ثَابِتَةٌ بِأَمْرِهِ لَهَا وَتَسْخِيرِهِ إِيَّاهَا، ثُمَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُدِّلَتِ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، وَخَرَجَتِ الْأَمْوَاتُ مِنْ قُبُورِهَا أَحْيَاءً بِأَمْرِهِ تَعَالَى وَدُعَائِهِ إِيَّاهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٥٣]

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيْ: مِلْكُهُ وَعَبِيدُهُ ﴿ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ أَيْ: خَاضِعُونَ خَاشِعُونَ طَوْعًا وَكَرْهًا. ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ يَعْنِي: أَيْسَرُ عَلَيْهِ. ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ قَالَ هِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الَّذِي لَا يُغَالَبُ وَلَا يُمَانَعُ، بَلْ قَدْ غَلَبَ كُلَّ شَيْءٍ وَقَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ شَرْعًا وَقَدَرًا.

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ۖ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٩﴾

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ بِهِ، الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرَهُ، الْجَاعِلِينَ لَهُ شُرَكَاءَ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُعْتَرِفُونَ أَنَّ شُرَكَاءَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ عَبِيدٌ لَهُ مِلْكٌ لَهُ، كَمَا كَانُوا فِي تَلْبِيَتِهِمْ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أَيْ: تَشْهَدُونَهُ وَتَفْهَمُونَهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴿ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ أَيْ: لَا يَرْتَضِي أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ شَرِيكًا لَهُ فِي مَالِهِ، فَهُوَ وَهُوَ فِيهِ عَلَى السَّوَاءِ ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أَيْ: تَخَافُونَ أَنْ يُقَاسِمُوكُمُ الْأَمْوَالَ.

وَالمعْنَى : أَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْنَفُ مِنْ ذَلِكَ فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ لله الْأَنْدَادَ مِنْ خَلْقِهِ ، فَنَسَبُوا إِلَيْهِ مَا لَا يَرْتَضُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ ، فَهَذَا أَغْلَظُ الْكُفْرِ ، وَهَكَذَا فِي هَذَا المَقَامِ جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ مِنْ عَبِيدِهِ وَخَلْقِهِ ، وَأَحَدُهُمْ يَأْبَى غَايَةَ الْإِبَاءِ وَيَأْنَفُ غَايَةَ الْأَنَفَةِ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ شَرِيكَهُ فِي مَالِهِ يُسَاوِيهِ فِيهِ ، وَلَوْ شَاءَ لَقَاسَمَهُ عَلَيْهِ ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا أَنَّ المُشْرِكِينَ إِنَّمَا عَبَدُوا غَيْرَهُ سَفَهًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجَهْلًا ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾ أَيْ : المُشْرِكُونَ ﴿ أَهْوَآءَهُم ﴾ أَيْ : فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَنْدَادَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : فَلَا أَحَدَ يَهْدِيهِمْ إِذَا كَتَبَ اللهُ ضَلَالَهُمْ ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ مِنْ قُدْرَةِ اللهِ مُنْقِذٌ وَلَا مُجِيرٌ وَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ ؛ لِأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَسَدِّدْ وَجْهَكَ وَاسْتَمِرَّ عَلَى الدِّينِ الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ لَكَ مِنَ الْحَنِيفِيَّةِ - مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ - الَّذِي هَدَاكَ اللهُ لَهَا وَكَمَّلَهَا لَكَ غَايَةَ الْكَمَالِ ، وَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ لَازِمْ فِطْرَتَكَ السَّلِيمَةَ الَّتِي فَطَرَ اللهُ الْخَلْقَ عَلَيْهَا ، فَإِنَّهُ تَعَالَى فَطَرَ خَلْقَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، وَفِي الْحَدِيثِ « **إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِمْ** » ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى فَطَرَ خَلْقَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ طَرَأَ عَلَى بَعْضِهِمُ الْأَدْيَانُ الْفَاسِدَةُ كَالْيَهُودِيَّةِ أَوِ النَّصْرَانِيَّةِ أَوِ المَجُوسِيَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ مَعْنَاهُ لَا تُبَدِّلُوا خَلْقَ اللهِ فَتُغَيِّرُوا النَّاسَ عَنْ فِطْرَتِهِمُ الَّتِي فَطَرَهُمُ اللهُ عَلَيْهَا ، وَقَالَ **الْبُخَارِيُّ** : قَوْلُهُ ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ : لِدِينِ اللهِ ، خَلْقُ الْأَوَّلِينَ : دِينُ الْأَوَّلِينَ ، وَالْفِطْرَةُ : الْإِسْلَامُ . وَأَوْرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « **مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ** » ثُمَّ يَقُولُ : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أَيْ : التَّمَسُّكُ بِالشَّرِيعَةِ وَالْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ هُوَ الدِّينُ الْقَيِّمُ الْمُسْتَقِيمُ ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : فَلِهَذَا لَا يَعْرِفُهُ أَكْثَرُ النَّاسِ فَهُمْ عَنْهُ نَاكِبُونَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ أَيْ : رَاجِعِينَ إِلَيْهِ ﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾ أَيْ : خَافُوهُ وَرَاقِبُوهُ ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ، وَهِيَ الطَّاعَةُ الْعَظِيمَةُ ﴿ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أَيْ : بَلْ كُونُوا مِنَ الْمُوَحِّدِينَ الْمُخْلِصِينَ لَهُ الْعِبَادَةَ لَا يُرِيدُونَ بِهَا سِوَاهُ . ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَدْ فَرَّقُوا دِينَهُمْ . أَيْ : بَدَّلُوهُ وَغَيَّرُوهُ وَآمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ : ((فَارَقُوا دِينَهُمْ)) أَيْ : تَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَهَؤُلَاءِ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ وَعَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَسَائِرِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ مِمَّا عَدَا أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١٥٩]، فَأَهْلُ الْأَدْيَانِ قَبْلَنَا اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى آرَاءٍ وَمِلَلٍ بَاطِلَةٍ . وَكُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ تَزْعُمُ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ أَيْضًا اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى نِحَلٍ كُلُّهَا ضَلَالَةٌ إِلَّا وَاحِدَةٌ ، وَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، الْمُتَمَسِّكُونَ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ وَبِمَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّدْرُ الْأَوَّلُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ .

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ النَّاسِ إِنَّهُمْ فِي حَالِ الِاضْطِرَارِ يَدْعُونَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّهُ إِذَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمُ النِّعَمَ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ فِي حَالَةِ الِاخْتِيَارِ يُشْرِكُونَ بِاللهِ وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ هِيَ ((لَامُ الْعَاقِبَةِ)) عِنْدَ بَعْضِهِمْ ، وَ ((لَامُ التَّعْلِيلِ)) عِنْدَ آخَرِينَ ، وَلَكِنَّهَا تَعْلِيلٌ لِتَقْيِيضِ اللهِ لَهُمْ ذَلِكَ . ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِيمَا اخْتَلَقُوهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا ﴾ أَيْ : حُجَّةً ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ أَيْ : يَنْطِقُ ﴿ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ ، وَهَذَا اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ ، أَيْ : لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ هَذَا إِنْكَارٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ وَوَفَّقَهُ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ بَطِرَ وَقَالَ : ﴿ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود : ١٠] أَيْ : يَفْرَحُ فِي نَفْسِهِ

وَيَفْخَرُ عَلَى غَيْرِهِ ، وَإِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ قَنِطَ وَأَيِسَ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرٌ بِالْكُلِّيَّةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْفَاعِلُ لِذَلِكَ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ فَيُوَسِّعُ عَلَى قَوْمٍ وَيُضَيِّقُ عَلَى آخَرِينَ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بِإِعْطَاءِ ﴿ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ أَيْ : مِنَ الْبِرِّ وَالصِّلَةِ ﴿ وَٱلْمِسْكِينَ ﴾ وَهُوَ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ يُنْفِقُ عَلَيْهِ ، أَوْ لَهُ شَيْءٌ لَا يَقُومُ بِكِفَايَتِهِ ﴿ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وَهُوَ الْمُسَافِرُ الْمُحْتَاجُ إِلَى نَفَقَةٍ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي سَفَرِهِ ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : النَّظَرَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهُوَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى ﴿ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مَنْ أَعْطَى عَطِيَّةً يُرِيدُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّاسُ أَكْثَرَ مِمَّا أَهْدَى لَهُمْ فَهَذَا لَا ثَوَابَ لَهُ عِنْدَ اللهِ ، وَهَذَا الصَّنِيعُ مُبَاحٌ وَإِنْ كَانَ لَا ثَوَابَ فِيهِ ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَاصَّةً ، وَاسْتُدِلَّ بِقَوْلِهِ ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ أَيْ : لَا تُعْطِ الْعَطَاءَ تُرِيدُ أَكْثَرَ مِنْهُ . ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ يُضَاعِفُ اللهُ لَهُمُ الثَّوَابَ وَالْجَزَاءَ . ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ أَيْ : هُوَ الْخَالِقُ الرَّزَّاقُ ، يُخْرِجُ الْإِنْسَانَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ عُرْيَانًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا سَمْعَ وَلَا بَصَرَ وَلَا قُوَّةَ ، ثُمَّ يَرْزُقُهُ جَمِيعَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَالرِّيَاشَ وَاللِّبَاسَ وَالْمَالَ وَالْأَمْلَاكَ وَالْمَكَاسِبَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ أَيْ : بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم ﴾ أَيْ : الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ﴿ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، بَلِ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - هُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ ثُمَّ يَبْعَثُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أَيْ : تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَاظَمَ وَجَلَّ وَعَزَّ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ .

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟

لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ﴿٤٢﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْمُرَادُ بِالْبَرِّ : هَهُنَا الْفَيَافِي ، وَبِالْبَحْرِ : الْأَمْصَارُ وَالْقُرَى . **وَقَالَ** آخَرُونَ : بَلِ الْمُرَادُ بِالْبَرِّ هُوَ : الْبَرُّ الْمَعْرُوفُ ، وَبِالْبَحْرِ هُوَ : الْبَحْرُ الْمَعْرُوفُ . **وَقَالَ زَيْدُ بْنُ رُفَيْعٍ** : ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ ﴾ يَعْنِي : انْقِطَاعَ الْمَطَرِ عَنِ الْبَرِّ يَعْقُبُهُ الْقَحْطُ ، وَعَنِ الْبَحْرِ يَعْنِي : دَوَابَّهُ . **وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ** : الْمُرَادُ بِالْبَرِّ : مَا فِيهِ مِنَ الْمَدَائِنِ وَالْقُرَى ، وَبِالْبَحْرِ : جَزَائِرُهُ ، **وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : بَانَ النَّقْصُ فِي الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ بِسَبَبِ الْمَعَاصِي . وَالسَّبَبُ فِي هَذَا أَنَّ الْحُدُودَ إِذَا أُقِيمَتْ انْكَفَّ النَّاسُ - أَوْ أَكْثَرُهُمْ أَوْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ - عَنْ تَعَاطِي الْمُحَرَّمَاتِ ، وَإِذَا تُرِكَتِ الْمَعَاصِي كَانَ سَبَبًا فِي حُصُولِ الْبَرَكَاتِ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَلِهَذَا إِذَا نَزَلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَحْكُمُ بِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ قَتْلِ الْخِنْزِيرِ ، وَكَسْرِ الصَّلِيبِ ، وَوَضْعِ الْجِزْيَةِ - وَهُوَ تَرْكُهَا - فَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ أَوِ السَّيْفَ ، فَإِذَا أَهْلَكَ اللهُ فِي زَمَانِهِ الدَّجَّالَ وَأَتْبَاعَهُ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ قِيلَ : لِلْأَرْضِ أَخْرِجِي بَرَكَتَكِ ، فَيَأْكُلُ مِنَ الرُّمَّانَةِ الْفِئَامُ مِنَ النَّاسِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقَحْفِهَا ، وَيَكْفِي لَبَنُ اللِّقْحَةِ الْجَمَاعَةَ مِنَ النَّاسِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِبَرَكَةِ تَنْفِيذِ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَكُلَّمَا أُقِيمَ الْعَدْلُ كَثُرَتِ الْبَرَكَاتُ وَالْخَيْرُ . ((**إِنَّ الْفَاجِرَ إِذَا مَاتَ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ**)).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ ﴾ الْآيَة . أَيْ : يَبْتَلِيهِمْ بِنَقْصِ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، اخْتِبَارًا مِنْهُ وَمُجَازَاةً عَلَى صَنِيعِهِمْ ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ أَيْ : عَنِ الْمَعَاصِي . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِكُمْ ﴿ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ﴾ أَيْ : فَانْظُرُوا مَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَكُفْرِ النِّعَمِ .

فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى الِاسْتِقَامَةِ فِي طَاعَتِهِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا أَرَادَ كَوْنَهُ فَلَا رَادَّ لَهُ ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أَيْ : يَتَفَرَّقُونَ ، فَفَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ . **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن

فَضْلِهِۦ ﴾ أَيْ : يُجَازِيهِمْ مُجَازَاةَ الْفَضْلِ ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، إِلَى مَا يَشَاءُ اللهُ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ ، وَمَعَ هَذَا هُوَ الْعَادِلُ فِيهِمُ الَّذِي لَا يَجُورُ .

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى خَلْقِهِ فِي إِرْسَالِهِ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ بِمَجِيءِ الْغَيْثِ عَقِيبَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أَيْ : الْمَطَرَ الَّذِي يُنْزِلُهُ فَيُحْيِي بِهِ الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ ﴿ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ أَيْ : فِي الْبَحْرِ ، وَإِنَّمَا سَيَّرَهَا بِالرِّيحِ ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أَيْ : فِي التِّجَارَاتِ ، وَالْمَعَايِشِ ، وَالسَّيْرِ مِنْ إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ ، وَقُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : تَشْكُرُونَ اللهَ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ﴾ هَذِهِ تَسْلِيَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَنَّهُ وَإِنْ كَذَّبَهُ كَثِيرٌ مِنْ قَوْمِهِ وَمِنَ النَّاسِ فَقَدْ كُذِّبَتِ الرُّسُلُ الْمُتَقَدِّمُونَ مَعَ مَا جَاءُوا أُمَمَهُمْ بِهِ مِنَ الدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ . وَلَكِنِ انْتَقَمَ اللهُ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ وَخَالَفَهُمْ ، وَأَنْجَى الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : هُوَ حَقٌّ أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ تَكَرُّمًا وَتَفَضُّلًا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤]

ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾

يُبَيِّنُ تَعَالَى كَيْفَ يَخْلُقُ السَّحَابَ الَّتِي يَنْزِلُ مِنْهَا الْمَاءُ ، فَقَالَ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ إِمَّا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ مِمَّا يَشَاءُ اللهُ ﷻ ﴿ فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ أَيْ : يَمُدُّهُ فَيُكَثِّرُهُ وَيُنَمِّيهِ ، وَيَجْعَلُ مِنَ الْقَلِيلِ كَثِيرًا ، ﴿ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا ﴾ يَعْنِي : قِطَعًا . ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ﴾ أَيْ : فَتَرَى الْمَطَرَ - وَهُوَ الْقَطْرُ - يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ السَّحَابِ ﴿ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أَيْ : لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ يَفْرَحُونَ بِنُزُولِهِ عَلَيْهِمْ وَوُصُولِهِ إِلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾ مَعْنَى الْكَلَامِ : أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ أَصَابَهُمْ هَذَا الْمَطَرُ كَانُوا قَنِطِينَ أَزَلِّينَ مِنْ نُزُولِ الْمَطَرِ إِلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ جَاءَهُمْ عَلَى فَاقَةٍ فَوَقَعَ مِنْهُمْ مَوْقِعًا عَظِيمًا . ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ يَعْنِي : الْمَطَرَ ﴿ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ ثُمَّ نَبَّهَ بِذَلِكَ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَجْسَادِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَفَرُّقِهَا وَتَمَزُّقِهَا فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أَيْ : إِنَّ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ لَقَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَمْوَاتِ ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴾ يَقُولُ : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴾ يَابِسَةً عَلَى الزَّرْعِ الَّذِي زَرَعُوهُ وَنَبَتَ وَشَبَّ وَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ﴿ فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ أَيْ : قَدِ اصْفَرَّ وَشَرَعَ فِي الْفَسَادِ ﴿ لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أَيْ : بَعْدَ هَذَا الْحَالِ ﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ أَيْ : يَجْحَدُونَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ النِّعَمِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ .

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : كَمَا أَنَّكَ لَيْسَ فِي قُدْرَتِكَ أَنْ تُسْمِعَ الْأَمْوَاتَ فِي أَجْدَاثِهَا ، وَلَا تُبَلِّغ كَلَامَكَ الصُّمَّ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُدْبِرُونَ عَنْكَ ، كَذَلِكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى هِدَايَةِ الْعُمْيَانِ عَنِ الْحَقِّ وَرَدِّهِمْ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ، بَلْ ذَلِكَ إِلَى اللهِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى بِقُدْرَتِهِ يُسْمِعُ الْأَمْوَاتَ أَصْوَاتَ الْأَحْيَاءِ إِذَا شَاءَ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ سِوَاهُ . **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أَيْ : خَاضِعُونَ مُسْتَجِيبُونَ مُطِيعُونَ ، فَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْحَقَّ وَيَتَّبِعُونَهُ ، وَهَذَا حَالُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْأَوَّلُ مِثْلُ الْكَافِرِينَ .

۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى عَلَى تَنَقُّلِ الْإِنْسَانِ فِي أَطْوَارِ الْخَلْقِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، فَأَصْلُهُ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ ، ثُمَّ يَصِيرُ عِظَامًا ، ثُمَّ يُكْسَى لَحْمًا ، وَيُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ ، ثُمَّ يُخْرَجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ضَعِيفًا نَحِيفًا وَاهِنَ الْقُوَى ، ثُمَّ يَشِبُّ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى يَكُونَ صَغِيرًا ، ثُمَّ حَدَثًا ، ثُمَّ مُرَاهِقًا ، ثُمَّ شَابًّا وَهُوَ الْقُوَّةُ بَعْدَ الضَّعْفِ ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ ، فَيَكْتَهِلُ ثُمَّ يَشِيخُ ، ثُمَّ يَهْرَمُ وَهُوَ الضَّعْفُ بَعْدَ الْقُوَّةِ ، فَتَضْعُفُ الْهِمَّةُ وَالْحَرَكَةُ وَالْبَطْشُ ، وَتَشِيبُ اللِّمَّةُ وَتَتَغَيَّرُ الصِّفَاتُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ أَيْ : يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَتَصَرَّفُ فِي عَبِيدِهِ بِمَا يُرِيدُ ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ .

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَهْلِ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَفِي الدُّنْيَا فَعَلُوا مَا فَعَلُوا مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، وَفِي الْآخِرَةِ يَكُونُ مِنْهُمْ جَهْلٌ عَظِيمٌ أَيْضًا ، فَمِنْهُ إِقْسَامُهُمْ بِالله أَنَّهُمْ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَمَقْصُودُهُمْ بِذَلِكَ عَدَم قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يُنْظَرُوا حَتَّى يُعْذَر إِلَيْهِمْ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾ أَيْ : فَيَرُدُّ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ الْعُلَمَاءُ فِي الْآخِرَةِ كَمَا أَقَامُوا عَلَيْهِمْ حُجَّةَ اللهِ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُونَ لَهُمْ حِينَ يَحْلِفُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فِي كِتَابِ الْأَعْمَالِ ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾ أَيْ : مِنْ يَوْمِ خُلِقْتُمْ إِلَى أَنْ بُعِثْتُمْ ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ أَيْ : اِعْتِذَارُهُمْ عَمَّا فَعَلُوا ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أَيْ : وَلَا هُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى الدُّنْيَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت : ٢٤]

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أَيْ : قَدْ بَيَّنَّا لَهُمُ الْحَقَّ ، وَوَضَّحْنَاهُ لَهُمْ وَضَرَبْنَا لَهُمْ فِيهِ الْأَمْثَالَ ، لِيَتَبَيَّنُوا الْحَقَّ وَيَتَّبِعُوهُ ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ أَيْ : لَوْ رَأَوْا أَيَّ آيَةٍ كَانَتْ ، سَوَاءً كَانَتْ بِاقْتِرَاحِهِمْ أَوْ غَيْرِهِ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا سِحْرٌ وَبَاطِلٌ ، كَمَا قَالُوا فِي انْشِقَاقِ الْقَمَرِ وَنَحْوِهِ . ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أَيْ : اِصْبِرْ عَلَى مُخَالَفَتِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى مُنْجِزٌ لَكَ مَا وَعَدَكَ مِنْ نَصْرِهِ إِيَّاكَ وَجَعْلِهِ الْعَاقِبَةَ لَكَ ، ولِمَنِ اتَّبَعَكَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أَيْ : بَلِ اثْبُتْ عَلَى ما بَعَثَكَ اللهُ بِهِ ، فَإِنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ ، وَلَا تَعْدِلْ عَنْهُ وَلَيْسَ فِيمَا سِوَاهُ هُدًى يُتَّبَعُ بَلِ الْحَقُّ كُلُّهُ مُنْحَصِرٌ فِيهِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الرُّومِ ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

تفسير سورة لقمان

آياتها ٣٤ مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » عَامَّةُ الْكَلَامِ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِصَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَهُوَ أَنَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - جَعَلَ هَذَا الْقُرْآنَ هُدًى وَشِفَاءً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ، وَهُمُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْعَمَلَ فِي اتِّبَاعِ الشَّرِيعَةِ ، فَأَقَامُوا الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ بِحُدُودِهَا وَأَوْقَاتِهَا وَمَا يَتْبَعُهَا مِنْ نَوَافِلَ رَاتِبَةٍ وَغَيْرِ رَاتِبَةٍ ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِمْ إِلَى مُسْتَحِقِّيهَا ، وَوَصَلُوا أَرْحَامَهُمْ وَقَرَابَاتِهِمْ ، وَأَيْقَنُوا بِالْجَزَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، فَرَغِبُوا إِلَى اللهِ فِي ثَوَابِ ذَلِكَ ، لَمْ يُرَاءُوا بِهِ ، وَلَا أَرَادُوا جَزَاءً مِنَ النَّاسِ وَلَا شُكُورًا ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَهُوَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أَيْ : عَلَى بَصِيرَةٍ وَبَيِّنَةٍ وَمَنْهَجٍ وَاضِحٍ جَلِيٍّ ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ السُّعَدَاءِ وَهُمُ الَّذِينَ يَهْتَدُونَ بِكِتَابِ اللهِ وَيَنْتَفِعُونَ بِسَمَاعِهِ عَطَفَ بِذِكْرِ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنِ الِانْتِفَاعِ بِسَمَاعِ كَلَامِ اللهِ ، وَأَقْبَلُوا عَلَى اسْتِمَاعِ الْمَزَامِيرِ وَالْغِنَاءِ بِالْأَلْحَانِ وَآلَاتِ الطَّرَبِ ، كَمَا قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ هُوَ : الْغِنَاءُ . الْغِنَاءُ وَالْمَزَامِيرُ ، وَقِيلَ : عَنَى بِقَوْلِهِ ﴿ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ اشْتِرَاءُ الْمُغَنِّيَاتِ مِنَ الْجَوَارِي . ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَصْنَعُ هَذَا لِلتَّخَالُفِ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ . ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ أَيْ : وَيَتَّخِذُ سَبِيلَ اللهِ هُزُوًا يَسْتَهْزِئُ بِهَا . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أَيْ : كَمَا اسْتَهَانُوا بِآيَاتِ اللهِ وَسَبِيلِهِ ، أُهِينُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعَذَابِ الدَّائِمِ الْمُسْتَمِرِّ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ

أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ أَيْ : هَذَا الْمُقْبِلُ عَلَى اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَالطَّرَبِ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ وَلَّى عَنْهَا وَأَعْرَضَ وَأَدْبَرَ وَتَصَامَمَ وَمَا بِهِ مِنْ صَمَمٍ ، كَأَنَّهُ مَا سَمِعَهَا ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُؤْلِمُهُ كَمَا تَأَلَّمَ بِسَمَاعِ كِتَابِ اللهِ وَآيَاتِهِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾

هَذَا ذِكْرُ مَآلِ الْأَبْرَارِ مِنَ السُّعَدَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ الْمُتَابِعَةَ لِشَرِيعَةِ اللهِ ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أَيْ : يَتَنَعَّمُونَ فِيهَا بِأَنْوَاعِ الْمَلَاذِّ وَالْمَسَارِّ مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ ، وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ ، وَالْمَرَاكِبِ وَالنِّسَاءِ ، وَالنَّضْرَةِ وَالسَّمَاعِ الَّذِي لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِ أَحَدٍ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ مُقِيمُونَ دَائِمًا فِيهَا لَا يَظْعَنُونَ وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ﴾ أَيْ : هَذَا كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ وَعْدِ اللهِ ، وَاللهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الَّذِي قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَدَانَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ .

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

يُبَيِّنُ سُبْحَانَهُ بِهَذَا قُدْرَتَهُ الْعَظِيمَةَ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ لَيْسَ لَهَا عَمَدٌ مَرْئِيَّةٌ وَلَا غَيْرُ مَرْئِيَّةٍ . ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ ﴾ يَعْنِي : الْجِبَالَ أَرْسَتِ الْأَرْضَ وَثَقَّلَتْهَا ؛ لِئَلَّا تَضْطَرِبَ بِأَهْلِهَا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أَيْ : لِئَلَّا تَمِيدَ بِكُمْ . ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ أَيْ : وَذَرَأَ فِيهَا مِنْ أَصْنَافِ الْحَيَوَانَاتِ مِمَّا لَا يَعْلَمُ عَدَدَ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا إِلَّا الَّذِي خَلَقَهَا ، وَلَمَّا قَرَّرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ الْخَالِقُ نَبَّهَ عَلَى أَنَّهُ الرَّازِقُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ أَيْ : مِنْ كُلِّ زَوْجٍ مِنَ النَّبَاتِ كَرِيمٌ ، أَيْ : حَسَنُ الْمَنْظَرِ . ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ تَعَالَى مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا صَادِرٌ عَنْ فِعْلِ اللهِ وَخَلْقِهِ وَتَقْدِيرِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أَيْ : مِمَّا تَعْبُدُونَ وَتَدْعُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿ فِى ضَلَٰلٍ ﴾ أَيْ : فِي جَهْلٍ وَعَمًى ﴿ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : ظَاهِرٌ وَاضِحٌ لَا خَفَاءَ بِهِ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

اِخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي لُقْمَانَ ﷺ هَلْ كَانَ نَبِيًّا أَوْ عَبْدًا صَالِحًا مِنْ غَيْرِ نُبُوَّةٍ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ : الْأَكْثَرُونَ عَلَى الثَّانِي ، وَجُمْهُورُ السَّلَفِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ أَيْ : الْفَهْمَ وَالْعِلْمَ وَالتَّعْبِيرَ ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : أَمَرْنَاهُ أَنْ يَشْكُرَ اللهَ ﷻ عَلَى مَا آتَاهُ اللهُ وَمَنَحَهُ وَوَهَبَهُ مِنَ الْفَضْلِ الَّذِي خَصَّهُ بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَأَهْلِ زَمَانِهِ ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ وَثَوَابُهُ عَلَى الشَّاكِرِينَ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : ٤٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ أَيْ : غَنِيٌّ عَنِ الْعِبَادِ لَا يَتَضَرَّرُ بِذَلِكَ وَلَوْ كَفَرَ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، فَإِنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ وَصِيَّةِ لُقْمَانَ لِوَلَدِهِ ، وَهُوَ لُقْمَانُ بْنُ عَنْقَاءَ بْنِ سَدُون ، وَقَدْ ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ ، فَإِنَّهُ آتَاهُ الْحِكْمَةَ وَهُوَ يُوصِي وَلَدَهُ الَّذِي هُوَ أَشْفَقُ النَّاسِ عَلَيْهِ وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ ، فَهُوَ حَقِيقٌ أَنْ يَمْنَحَهُ أَفْضَلَ مَا يَعْرِفُ ، وَلِهَذَا أَوْصَاهُ أَوَّلًا بِأَنْ يَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، ثُمَّ قَالَ مُحَذِّرًا لَهُ : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : هُوَ أَعْظَمُ الظُّلْمِ .

ثُمَّ قَرَنَ بِوَصِيَّتِهِ إِيَّاهُ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ الْبِرَّ بِالْوَالِدَيْنِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] ، وَكَثِيرًا مَا يَقْرِنُ تَعَالَى بَيْنَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ ، **وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ **قِيلَ** : مَشَقَّةً وَهْنِ الْوَلَدِ ، **وَقِيلَ** : جَهْدًا عَلَى جَهْدٍ ، **وَقِيلَ** : ضَعْفًا عَلَى ضَعْفٍ . ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ أَيْ : تَرْبِيَتُهُ وَإِرْضَاعُهُ بَعْدَ وَضْعِهِ فِي عَامَيْنِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ، **وَمِنْ هَهُنَا اِسْتَنْبَطَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ**

أَنَّ أَقَلَّ مُدَّةِ الحَمْلِ سِتَّةُ أَشْهُرٍ ؛ لأَنَّهُ قَالَ فِي الآيَةِ الأُخْرَى ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف : ١٥] ، وَإِنَّمَا يَذْكُرُ تَعَالَى تَرْبِيَةَ الْوَالِدَةِ وَتَعَبَهَا وَمَشَقَّتَهَا فِي سَهَرِهَا لَيْلًا وَنَهَارًا ؛ لِيُذَكِّرَ الْوَلَدَ بِإِحْسَانِهَا الْمُتَقَدِّمِ إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٤] وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : فَإِنِّي سَأَجْزِيكَ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الجَزَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ أَيْ : إِنْ حَرَصَا عَلَيْكَ كُلَّ الحِرْصِ عَلَى أَنْ تُتَابِعَهُمَا عَلَى دِينِهِمَا فَلَا تَقْبَلْ مِنْهُمَا ذَلِكَ ، وَلَا يَمْنَعُكَ ذَلِكَ مِنْ أَنْ تُصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، أَيْ : مُحْسِنًا إِلَيْهِمَا ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ يَعْنِي : المُؤْمِنِينَ ﴿ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

هَذِهِ وَصَايَا نَافِعَةٌ قَدْ حَكَاهَا اللهُ سُبْحَانَهُ عَنْ لُقْمَانَ الحَكِيمِ ؛ لِيَمْتَثِلَهَا النَّاسُ وَيَقْتَدُوا بِهَا فَقَالَ : ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أَيْ : إِنَّ المَظْلَمَةَ أَوِ الخَطِيئَةَ لَوْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ . وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : أَحْضَرَهَا اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ ، وَجَازَى عَلَيْهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧-٨] ، وَلَوْ كَانَتْ تِلْكَ الذَّرَّةُ مُحَصَّنَةً مُحَجَّبَةً فِي دَاخِلِ صَخْرَةٍ صَمَّاءَ أَوْ غَائِبَةٍ ذَاهِبَةٍ فِي أَرْجَاءِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِهَا ؛ لأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أَيْ : لَطِيفُ العِلْمِ فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ الأَشْيَاءُ وَإِنْ دَقَّتْ وَلَطُفَتْ وَتَضَاءَلَتْ ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بِدَبِيبِ النَّمْلِ فِي اللَّيْلِ البَهِيمِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أَيْ : بِحُدُودِهَا وَفُرُوضِهَا وَأَوْقَاتِهَا ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ أَيْ : بِحَسَبِ طَاقَتِكَ وَجَهْدِكَ ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ عَلِمَ أَنَّ الآمِرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّاهِي عَنِ المُنْكَرِ لَا بُدَّ أَنْ يَنَالَهُ مِنَ النَّاسِ أَذًى فَأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ إِنَّ الصَّبْرَ عَلَى أَذَى النَّاسِ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ يَقُولُ : لَا تُعْرِضْ بِوَجْهِكَ عَنِ النَّاسِ إِذَا كَلَّمْتَهُمْ أَوْ كَلَّمُوكَ اِحْتِقَارًا مِنْكَ لَهُمْ وَاسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ ، وَلَكِنْ أَلِنْ جَانِبَكَ ، وَابْسُطْ وَجْهَكَ إِلَيْهِمْ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : ((**وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ**)) . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أَيْ : خَذَلًا مُتَكَبِّرًا جَبَّارًا عَنِيدًا ، لَا تَفْعَلْ ذَلِكَ يُبْغِضك اللهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أَيْ : مُخْتَالٌ مُعْجَبٌ فِي نَفْسِهِ ، فَخُورٌ أَيْ : عَلَى غَيْرِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أَيْ : اِمْشِ مَشْيًا مُقْتَصِدًا لَيْسَ بِالْبَطِيءِ الْمُتَثَبِّطِ ، وَلَا بِالسَّرِيعِ الْمُفْرِطِ ، بَلْ عَدْلًا وَسَطًا بَيْنَ بَيْنَ . ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ أَيْ : لَا تُبَالِغْ فِي الْكَلَامِ ، وَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ . **إِنَّ أَقْبَحَ** الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ، أَيْ : غَايَةُ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ أَنَّهُ يُشَبَّهُ بِالْحَمِيرِ فِي عُلُوِّهِ وَرَفْعِهِ ، وَمَعَ هَذَا هُوَ بَغِيضٌ إِلَى اللهِ ، وَهَذَا التَّشْبِيهُ فِي هَذَا بِالْحَمِيرِ يَقْتَضِي تَحْرِيمَهُ وَذَمَّهُ غَايَةَ الذَّمِّ .

أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا خَلْقَهُ عَلَى نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِأَنَّهُ سَخَّرَ لَهُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ نُجُومٍ يَسْتَضِيئُونَ بِهَا فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ ، وَمَا يَخْلُقُ فِيهَا مِنْ سَحَابٍ وَأَمْطَارٍ وَثَلْجٍ وَبَرَدٍ ، وَجَعْلُهُ إِيَّاهَا لَهُمْ سَقْفًا مَحْفُوظًا ، وَمَا خَلَقَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ قَرَارٍ وَأَنْهَارٍ وَأَشْجَارٍ وَزُرُوعٍ وَثِمَارٍ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ نِعَمَهُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ وَإِزَاحَةِ الشُّبَهِ وَالْعِلَلِ ، ثُمَّ مَعَ هَذَا كُلِّهِ مَا آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ بَلْ مِنْهُمْ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ أَيْ : فِي تَوْحِيدِهِ ، وَإِرْسَالِهِ الرُّسُلَ ، وَمُجَادَلَتِهِ فِي ذَلِكَ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ حُجَّةٍ صَحِيحَةٍ ، وَلَا كِتَابٍ مَأْثُورٍ صَحِيحٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ أَيْ : مُبِينٍ مُضِيءٍ . ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ أَيْ : لِهَؤُلَاءِ الْمُجَادِلِينَ فِي تَوْحِيدِ اللهِ : ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : عَلَى رَسُولِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمُطَهَّرَةِ ﴿ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ أَيْ : لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حُجَّةٌ إِلَّا اتِّبَاعُ الْآبَاءِ الْأَقْدَمِينَ ، قَالَ اللهُ : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] أَيْ : فَمَا ظَنُّكُمْ أَيُّهَا الْمُحْتَجُّونَ بِصَنِيعِ آبَائِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَنْتُمْ خَلَفٌ لَهُمْ فِيمَا كَانُوا فِيهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله ، أَيْ : أَخْلَصَ لَهُ الْعَمَلَ ، وَانْقَادَ لِأَمْرِهِ ، وَاتَّبَعَ شَرْعَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أَيْ : فِي عَمَلِهِ : بِاتِّبَاعِ مَا بِهِ أُمِرَ ، وَتَرْكُ مَا عَنْهُ زُجِرَ ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ أَيْ : فَقَدْ أَخَذَ مَوْثِقًا مِنَ الله مَتِينًا أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُهُ ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾ أَيْ : لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ يَا مُحَمَّدُ فِي كُفْرِهِمْ بِالله وَبِمَا جِئْتَ بِهِ ، فَإِنَّ قَدَرَ الله نَافِذٌ فِيهِمْ ، وَإِلَى الله ﴿ مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ﴾ أَيْ : فَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ . ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ ﴿ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أَيْ : نُلْجِئُهُمْ ﴿ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أَيْ : فَظِيعٍ صَعْبٍ شَاقٍّ عَلَى النُّفُوسِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل : ١١٦] ﴿ مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٧٠]

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ : أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ اللهَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ شُرَكَاءَ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهَا خَلْقٌ لَهُ وَمِلْكٌ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : إِذَا قَامَتْ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةُ بِاعْتِرَافِكُمْ ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : هُوَ خَلْقُهُ وَمُلْكُهُ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ أَيْ : الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ مَا خَلَقَ ، لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى مَا خَلَقَ وَشَرَّعَ ، وَهُوَ المَحْمُودُ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَجَلَالِهِ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَا وَكَلِمَاتِهِ التَّامَّةِ

الَّتِي لَا يُحِيطُ بِهَا أَحَدٌ ، وَلَا اطِّلَاعَ لِبَشَرٍ عَلَى كُنْهِهَا وَإِحْصَائِهَا ، كَمَا قَالَ سَيِّدُ الْبَشَرِ وَخَاتَمُ الرُّسُلِ : ((**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**)) ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : وَلَوْ أَنَّ جَمِيعَ أَشْجَارِ الْأَرْضِ جُعِلَتْ أَقْلَامًا ، وَجُعِلَ الْبَحْرُ مِدَادًا وَأَمَدَّهُ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَعَهُ ، فَكُتِبَتْ بِهَا كَلِمَاتُ اللهِ الدَّالَّةُ عَلَى عَظَمَتِهِ وَصِفَاتِهِ وَجَلَالِهِ لَتَكَسَّرَتِ الْأَقْلَامُ ، وَنَفِدَ مَاءُ الْبَحْرِ ، وَلَوْ جَاءَ أَمْثَالُهَا مَدَدًا . وَإِنَّمَا ذُكِرَتْ ((**السَّبْعَةُ**)) عَلَى وَجْهِ الْمُبَالَغَةِ وَلَمْ يُرِدِ الْحَصْرَ . **قَالَ قَتَادَةُ** : قَالَ الْمُشْرِكُونَ : إِنَّمَا هَذَا كَلَامٌ يُوشِكُ أَنْ يَنْفَدَ ، **فَقَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ أَيْ : لَوْ كَانَ شَجَرُ الْأَرْضِ أَقْلَامًا وَمَعَ الْبَحْرِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا كَانَ لِتَنْفَدَ عَجَائِبُ رَبِّي وَحِكْمَتُهُ وَخَلْقُهُ وَعِلْمُهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : عَزِيزٌ قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ وَقَهَرَهُ وَغَلَبَهُ ، فَلَا مَانِعَ لِمَا أَرَادَ وَلَا مُخَالِفَ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، حَكِيمٌ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَشَرْعِهِ وَجَمِيعِ شُئُونِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ أَيْ : مَا خَلْقُ جَمِيعِ النَّاسِ وَبَعْثُهُمْ يَوْمَ الْمَعَادِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَتِهِ - إِلَّا كَنِسْبَةِ خَلْقِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، الْجَمِيعُ هَيِّنٌ عَلَيْهِ ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس ٨٢] ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ أَيْ : كَمَا هُوَ سَمِيعٌ لِأَقْوَالِهِمْ بَصِيرٌ بِأَفْعَالِهِمْ كَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، كَذَلِكَ قُدْرَتُهُ عَلَيْهِمْ كَقُدْرَتِهِ عَلَى نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ الْآيَةَ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ ﴾ يَعْنِي : يَأْخُذُ مِنْهُ فِي النَّهَارِ فَيَطُولُ ذَاكَ وَيَقْصُرُ هَذَا ، وَهَذَا يَكُونُ زَمَنُ الصَّيْفِ يَطُولُ النَّهَارُ إِلَى الْغَايَةِ ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ فَيَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ النَّهَارُ ، وَهَذَا يَكُونُ فِي الشِّتَاءِ ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ **قِيلَ** : إِلَى غَايَةٍ مَحْدُودَةٍ ، **وَقِيلَ** : إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَكِلَا الْمَعْنَيَيْنِ صَحِيحٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحج :٧٠] ، وَمَعْنَى هَذَا : أَنَّهُ تَعَالَى الْخَالِقُ الْعَالِمُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ . ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يُظْهِرُ لَكُمْ آيَاتِهِ لِتَسْتَدِلُّوا بِهَا عَلَى أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَيْ : الْمَوْجُودُ الْحَقُّ الْإِلَهُ الْحَقُّ ، وَأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ بَاطِلٌ فَإِنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ ؛

لأَنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْجَمِيعُ خَلْقُهُ وَعَبِيدُهُ ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى تَحْرِيكِ ذَرَّةٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَلَوِ اجْتَمَعَ كُلُّ أَهْلِ الْأَرْضِ عَلَى أَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا لَعَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ فِيهِ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ، أَيْ : بِلُطْفِهِ وَتَسْخِيرِهِ ، فَإِنَّهُ لَوْلَا مَا جَعَلَ فِي الْمَاءِ مِنْ قُوَّةٍ يَحْمِلُ بِهَا السُّفُنَ لَمَا جَرَتْ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ أَيْ : مِنْ قُدْرَتِهِ ﴿ إن فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أَيْ : صَبَّارٌ فِي الضَّرَّاءِ ، شَكُورٌ فِي الرَّخَاءِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ ﴾ أَيْ : كَالْجِبَالِ وَالْغَمَامِ ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[العنكبوت : ٦٥] . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : أَيْ : كَافِرٌ ، كَأَنَّهُ فَسَّرَ الْمُقْتَصِدَ هَهُنَا بِالْجَاحِدِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[العنكبوت : ٦٥] ، **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ فَالْخَتَّارُ هُوَ : الْغَدَّارُ ، وَهُوَ الَّذِي كُلَّمَا عَاهَدَ نَقَضَ عَهْدَهُ ، وَالْخَتْرُ : أَتَمُّ الْغَدْرِ وَأَبْلَغُهُ . ﴿ كَفُورٍ ﴾ أَيْ : جَحُود لِلنِّعَمِ لَا يَشْكُرُهَا ، بَلْ يَتَنَاسَاهَا وَلَا يَذْكُرُهَا .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْذِرًا لِلنَّاسِ يَوْمَ الْمَعَادِ وَآمِرًا لَهُمْ بِتَقْوَاهُ ، وَالْخَوْفِ مِنْهُ ، وَالْخَشْيَةِ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَيْثُ ﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ أَيْ : لَوْ أَرَادَ أَنْ يَفْدِيَهُ بِنَفْسِهِ لَمَا قُبِلَ مِنْهُ ، وَكَذَلِكَ الْوَلَدُ لَوْ أَرَادَ فِدَاءَ وَالِدِهِ بِنَفْسِهِ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْهُ . ثُمَّ عَادَ بِالْمَوْعِظَةِ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : لَا تُلْهِيَنَّكُمْ بِالطُّمَأْنِينَةِ فِيهَا عَنِ الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ يَعْنِي : الشَّيْطَانَ .

إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

هَذِهِ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ الَّتِي اِسْتَأْثَرَ اللهُ تَعَالَى بِعِلْمِهَا ، فَلَا يَعْلَمُهَا أَحَدٌ إِلَّا بَعْدَ إِعْلَامِهِ تَعَالَى بِهَا ،

فَعِلْمُ وَقْتِ السَّاعَةِ لَا يَعْلَمُهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[الأعراف: ١٨٧] ، وَكَذَلِكَ إِنْزَالُ الْغَيْثِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ ، وَلَكِنْ إِذَا أَمَرَ بِهِ عَلِمَتْهُ الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ وَمَنْ شَاءَ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ ، وَكَذَلِكَ لَا يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِمَّا يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَهُ تَعَالَى سِوَاهُ ، وَلَكِنْ إِذَا أَمَرَ بِكَوْنِهِ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى ، أَوْ شَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا ، عَلِمَ الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ ، وَمَنْ شَاءَ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ . وَكَذَلِكَ لَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا فِي دُنْيَاهَا وَأُخْرَاهَا ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أَفِي بَلَدِهَا أَوْ غَيْرِهِ مِنْ أَيِّ بِلَادِ اللهِ كَانَ ، لَا عِلْمَ لِأَحَدٍ بِذَلِكَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ لُقْمَانَ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

تفسيرُ سُورَةِ السجدة آياتها ٣٠ مكية

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ﴾ السَّجْدَة ، وَ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣

قَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ على الحُرُوفِ المُتَقَطِّعَةِ فِي أَوَّلِ « سُورَةَ البَقَرةِ » بِما أَغْنَى عَنْ إعادَتِهِ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَيْ : لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ أَنَّهُ نَزَلَ ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ** : ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أَيْ : اخْتَلَقَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أَيْ : يَتَّبِعُونَ الحَقَّ .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الخَالِقُ لِلأَشْيَاءِ ، فَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى

عَلَى الْعَرْشِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ . ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ أَيْ : بَلْ هُوَ الْمَالِكُ لِأَزِمَّةِ الْأُمُورِ ، الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، الْمُدبِّرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَا وَلِيَ لِخَلْقِهِ سِوَاهُ ، وَلَا شَفِيعَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ . ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يَعْنِي : أَيُّهَا الْعَابِدُونَ غَيْرَهُ ، الْمُتَوَكِّلُونَ عَلَى مَنْ عَدَاهُ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ أَنْ يَكُونَ لَهُ نَظِيرٌ أَوْ شَرِيكٌ أَوْ وَزِيرٌ أَوْ نَدِيدٌ أَوْ عَدِيلٌ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أَيْ يَتَنَزَّلُ أَمْرُهُ مِنْ أَعْلَى السَّمَاوَاتِ إِلَى أَقْصَى تُخُومِ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] ، وَتُرْفَعُ الْأَعْمَالُ إِلَى دِيوَانِهَا فَوْقَ سَمَاءِ الدُّنْيَا ، وَمَسَافَةُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَرْضِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَسُمْكُ السَّمَاءِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : النُّزُولُ مِنَ الْمَلَكِ فِي مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ ، وَصُعُودُهُ فِي مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ ، وَلَكِنَّهُ يَقْطَعُهَا فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فِي يَوْمٖ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أَيْ : الْمُدَبِّرُ لِهَذِهِ الْأُمُورِ ، الَّذِي هُوَ شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِ عِبَادِهِ يَرْفَعُ إِلَيْهِ جَلِيلَهَا وَحَقِيرَهَا ، وَصَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ، هُوَ ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الَّذِي قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَقَهَرَهُ وَغَلَبَهُ ، وَدَانَتْ لَهُ الْعِبَادُ وَالرِّقَابُ ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَهُوَ عَزِيزٌ فِي رَحْمَتِهِ رَحِيمٌ فِي عِزَّتِهِ .

ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلٗا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّهُ الَّذِي أَحْسَنَ خَلْقَ الْأَشْيَاءِ وَأَتْقَنَهَا وَأَحْكَمَهَا . ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَرَعَ فِي ذِكْرِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴾ يَعْنِي : خَلَقَ أَبَا الْبَشَرِ آدَمَ مِنْ طِينٍ ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴾ أَيْ : يَتَنَاسَلُونَ كَذَلِكَ مِنْ نُطْفَةٍ تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ صُلْبِ الرَّجُلِ وَتَرَائِبِ الْمَرْأَةِ ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ ﴾ يَعْنِي : آدَمَ لَمَّا خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ خَلَقَهُ سَوِيًّا مُسْتَقِيمًا ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ يَعْنِي : الْعُقُولَ ﴿ قَلِيلٗا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : بِهَذِهِ الْقُوَى الَّتِي رَزَقَكُمُوهَا اللهُ ﷻ ، فَالسَّعِيدُ مَنِ اسْتَعْمَلَهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِ ﷻ .

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٖ جَدِيدِۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتِبْعَادِهِمُ الْمَعَادَ حَيْثُ قَالُوا : ﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : تَمَزَّقَتْ أَجْسَامُنَا وَتَفَرَّقَتْ فِي أَجْزَاءِ الْأَرْضِ وَذَهَبَتْ ﴿ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أَيْ : أَئِنَّا لَنَعُودُ بَعْدَ تِلْكَ الْحَالِ ؟ يَسْتَبْعِدُونَ تِلْكَ الْحَالَ ، وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ بَعِيدٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدَرِهِمُ الْعَاجِزَةِ لَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَةِ الَّذِي بَدَأَهُمْ وَخَلَقَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ ، الَّذِي إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ الظَّاهِرُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ شَخْصٌ مُعَيَّنٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ مَعَادِكُمْ وَقِيَامِكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ لِجَزَائِكُمْ .

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ **يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ، وَقَالِهِمْ حِينَ عَايَنُوا الْبَعْثَ ، وَقَامُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ﷻ حَقِيرِينَ ذَلِيلِينَ ﴿ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْحَيَاءِ وَالْخَجَلِ ، **يَقُولُونَ** : ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أَيْ : نَحْنُ الْآنَ نَسْمَعُ قَوْلَكَ وَنُطِيعُ أَمْرَكَ ﴿ فَٱرْجِعْنَا ﴾ أَيْ : إِلَى الدُّنْيَا ﴿ نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أَيْ : قَدْ أَيْقَنَّا وَتَحَقَّقْنَا فِيهَا أَنَّ وَعْدَكَ حَقٌّ وَلِقَاءَكَ حَقٌّ ، وَقَدْ عَلِمَ الرَّبُّ تَعَالَى مِنْهُمْ أَنَّهُ لَوْ أَعَادَهُمْ إِلَى دَارِ الدُّنْيَا لَكَانُوا كَمَا كَانُوا فِيهَا كُفَّارًا يُكَذِّبُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيُخَالِفُونَ رُسُلَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾ [الأنعام : ٢٧]

وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأَمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٩٩] ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أَيْ : مِنَ الصِّنْفَيْنِ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ : ذُوقُوا الْعَذَابَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِكُمْ بِهِ ، وَاسْتِبْعَادِكُمْ وُقُوعَهُ ، وَتَنَاسِيكُمْ لَهُ ، إِذَا عَامَلْتُمُوهُ مُعَامَلَةَ مَنْ هُوَ نَاسٍ لَهُ ﴿ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ﴾ أَيْ : سَنُعَامِلُكُمْ مُعَامَلَةَ النَّاسِي ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَنْسَى شَيْئًا وَلَا يَضِلُّ عَنْهُ شَيْءٌ بَلْ مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الجاثية : ٣٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ وَتَكْذِيبِكُمْ .

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أَيْ : إِنَّمَا يُصَدِّقُ بِهَا ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ أَيْ : اِسْتَمَعُوا لَهَا وَأَطَاعُوهَا قَوْلًا وَفِعْلًا ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عَنِ اتِّبَاعِهَا وَالانْقِيَادِ لَهَا ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْجَهَلَةُ مِنَ الْكَفَرَةِ الْفَجَرَةِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر : ٦٠] ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ يَعْنِي ذَلِكَ : قِيَامَ اللَّيْلِ وَتَرْكَ النَّوْمِ وَالِاضْطِجَاعَ عَلَى الْفُرُشِ الْوَطِيئَةِ .

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أَيْ : خَوْفًا مِنْ وَبَالِ عِقَابِهِ ، وَطَمَعًا فِي جَزِيلِ ثَوَابِهِ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ فِعْلِ الْقُرُبَاتِ اللَّازِمَةِ وَالْمُتَعَدِّيَةِ .

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ : كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ ، وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ قَالَ : « **لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، تَعْبُدُ اللهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ ثُمَّ قَالَ : أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ - ثُمَّ قَرَأَ** ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ - **حَتَّى بَلَغَ** - ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الْآيَةَ . أَيْ : فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ عَظَمَةَ مَا أَخْفَى اللهُ لَهُمْ فِي الْجَنَّاتِ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، وَاللَّذَّاتِ الَّتِي لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى مِثْلِهَا أَحَدٌ ، لَمَّا أَخْفَوْا أَعْمَالَهُمْ أَخْفَى اللهُ لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ جَزَاءً وِفَاقًا ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : « **قَالَ اللهُ تَعَالَى : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ** » قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ . وَعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ يَرْفَعُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **سَأَلَ مُوسَى** عليه السلام **رَبَّهُ** عز وجل **: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ فَيُقَالُ لَهُ : أُدْخُلِ الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ كَيْفَ ؟ وَقَدْ أَخَذَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ ؟ فَيُقَالُ لَهُ : أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا ؟ فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ ، فَيَقُولُ : لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ : رَضِيتُ رَبِّ ، فَيَقُولُ : هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ مَعَهُ ، وَلَكَ مَا**

اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ ، فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ ، قَالَ : رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدَيَّ ، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، قَالَ : وَمِصْدَاقُهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ ﷻ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الْآيَةَ .

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَدْلِهِ وَكَرَمِهِ أَنَّهُ لَا يُسَاوِي فِي حُكْمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِآيَاتِهِ مُتَّبِعًا لِرُسُلِهِ بِمَنْ كَانَ فَاسِقًا ، أَيْ : خَارِجًا عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ ، مُكَذِّبًا لِرُسُلِهِ إِلَيْهِ ، فَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ أَيْ : عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أَيْ : صَدَّقَتْ قُلُوبُهُمْ بِآيَاتِ اللهِ ، وَعَمِلُوا بِمُقْتَضَاهَا ، وَهِيَ الصَّالِحَاتُ ﴿ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ أَيْ : الَّتِي فِيهَا الْمَسَاكِنُ وَالدُّورُ وَالْغُرَفُ الْعَالِيَةُ ﴿ نُزُلًۢا ﴾ أَيْ : ضِيَافَةً وَكَرَامَةً ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ، ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ ﴾ أَيْ : خَرَجُوا عَنِ الطَّاعَةِ ﴿ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [الحج : ٢٢] . قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ : وَاللهِ إِنَّ الْأَيْدِي لَمُوثَقَةٌ ، وَإِنَّ الْأَرْجُلَ لَمُقَيَّدَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَبَ لَيَرْفَعُهُمْ وَالْمَلَائِكَةُ تَقْمَعُهُمْ ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي بِالعَذَابِ الأَدْنَى مَصَائِبَ الدُّنْيَا وَأَسْقَامِهَا وَآفَاتِهَا ، وَمَا يَحِلُّ بِأَهْلِهَا مِمَّا يَبْتَلِي اللهُ بِهِ عِبَادَهُ لِيَتُوبُوا إِلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾ أَيْ : لَا أَظْلَمَ مِمَّنْ ذَكَّرَهُ اللهُ بِآيَاتِهِ وَبَيَّنَهَا لَهُ وَوَضَّحَهَا ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَرَكَهَا وَجَحَدَهَا وَأَعْرَضَ عَنْهَا وَتَنَاسَاهَا كَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ : ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ أَيْ : سَأَنْتَقِمُ مِمَّنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَشَدَّ الانْتِقَامِ .

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى ﷺ إِنَّهُ آتَاهُ الْكِتَابَ ، وَهُوَ التَّوْرَاةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : يَعْنِي بِهِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أُرِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ رَجُلًا آدَمَ طُوَالًا جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ ، وَرَأَيْتُ عِيسَى رَجُلًا مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ ، سَبِطَ الرَّأْسِ ، وَرَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ وَالدَّجَّالَ** » فِي آيَاتٍ أَرَاهُنَّ اللهُ إِيَّاهُ ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ » . **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ قَالَ : جُعِلَ مُوسَى هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ قَالَ : « **مِنْ لِقَاءِ مُوسَى رَبَّهُ** ﷻ » . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ أَيْ : لَمَّا كَانُوا صَابِرِينَ عَلَى أَوَامِرِ اللهِ ، وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ ، وَتَصْدِيقِ رُسُلِهِ ، وَاتِّبَاعِهِمْ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ ، كَانَ مِنْهُمْ أَئِمَّةٌ يَهْدُونَ إِلَى الْحَقِّ بِأَمْرِ اللهِ وَيَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، ثُمَّ لَمَّا بَدَّلُوا وَحَرَّفُوا وَأَوَّلُوا سُلِبُوا ذَلِكَ الْمَقَامَ ، وَصَارَتْ قُلُوبُهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، فَلَا عَمَلًا صَالِحًا وَلَا اعْتِقَادًا صَحِيحًا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ﴾ **قِيلَ** : لَمَّا صَبَرُوا عَنِ الدُّنْيَا . **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ .

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى : أَوَلَمْ يَهْدِ لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ مَا أَهْلَكَ اللهُ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُمْ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنْ قَوِيمِ السُّبُلِ فَلَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ وَلَا عَيْنٍ وَلَا أَثَرٍ ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴾ [مريم : ٩٨] ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ﴾ أَيْ : وَهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِ أُولَئِكَ الْمُكَذِّبِينَ فَلَا يَرَوْنَ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ كَانَ يَسْكُنُهَا وَيَعْمُرُهَا ، ذَهَبُوا مِنْهَا ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ﴾ [الأعراف : ٩٢] كَمَا قَالَ : ﴿ فَتِلْكَ

بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾ [النمل : ٥٢] ، **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا** : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي ذَهَابِ أُولَئِكَ الْقَوْمِ وَدَمَارِهِمْ وَمَا حَلَّ بِهِمْ ، بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ ، وَنَجَاةِ مَنْ آمَنَ بِهِمْ لَآيَاتٍ وَعِبَرًا وَمَوَاعِظ وَدَلَائِل مُتَنَاظِرَةً ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ أَيْ : أَخْبَارَ مَنْ تَقَدَّمَ كَيْفَ كَانَ أَمْرُهُمْ ؟ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾ يُبَيِّنُ تَعَالَى لُطْفَهُ بِخَلْقِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ فِي إِرْسَالِهِ الْمَاءَ ، إِمَّا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ مِنَ السَّيْحِ ، وَهُوَ مَا تَحْمِلُهُ الْأَنْهَارُ وَيَتَحَدَّرُ مِنَ الْجِبَالِ إِلَى الْأَرَاضِي الْمُحْتَاجَةِ إِلَيْهِ فِي أَوْقَاتِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾ ، وَهِيَ الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف : ٨] أَيْ : يَبَسًا لَا تُنْبِتُ شَيْئًا ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾ أَرْضِ مِصْرَ فَقَطْ ، بَلْ هي بَعْضُ الْمَقْصُودِ ، وَإِنْ مَثَّلَ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فَلَيْسَتْ هِيَ الْمَقْصُودَةُ وَحْدَهَا وَلَكِنَّهَا مُرَادَةٌ قَطْعًا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ، فَإِنَّهَا فِي نَفْسِهَا أَرْضٌ رِخْوَةٌ غَلِيظَةٌ تَحْتَاجُ مِنَ الْمَاءِ مَا لَوْ نَزَّلَ عَلَيْهَا مَطَرًا لَتَهَدَّمَتْ أَبْنِيَتُهَا ، فَيَسُوقُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهَا النِّيلُ بِمَا يَتَحَمَّلُهُ مِنَ الزِّيَادَةِ الْحَاصِلَةِ مِنْ أَمْطَارِ بِلَادِ الْحَبَشَةِ ، وَفِيهِ طِينٌ أَحْمَرُ ، فَيَغْشَى أَرْضَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ سَبِخَةٌ مُرْمِلَةٌ مُحْتَاجَةٌ إِلَى ذَلِكَ الْمَاءِ ، وَذَلِكَ الطِّينِ أَيْضًا ؛ لِيَنْبُتَ الزَّرْعُ فِيهِ ، فَيَسْتَغِلُّونَ كُلَّ سَنَةٍ عَلَى مَاءٍ جَدِيدٍ مَمْطُورٍ فِي غَيْرِ بِلَادِهِمْ ، وَطِينٍ جَيِّدٍ مِنْ غَيْرِ أَرْضِهِمْ ، فَسُبْحَانَ الْحَكِيمُ الْكَرِيمُ الْمَنَّانُ الْمَحْمُودُ ابتِدَاءً .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ [عبس : ٢٤-٢٥] ، **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا** ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اسْتِعْجَالِ الْكُفَّارِ ، وَوُقُوعِ بَأْسِ اللهِ بِهِمْ ، وَحُلُولِ غَضَبِهِ وَنِقْمَتِهِ عَلَيْهِمُ اسْتِبْعَادًا وَتَكْذِيبًا وَعِنَادًا ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ ﴾ أَيْ : مَتَى تُنْصَرُ عَلَيْنَا يَا مُحَمَّدُ ؟ كَمَا تَزْعُمُ أَنَّ لَكَ وَقْتًا تُدَالُ عَلَيْنَا وَيُنْتَقَمُ لَكَ مِنَّا ، فَمَتَى يَكُونُ هَذَا ؟ مَا نَرَاكَ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ إِلَّا مُخْتَفِينَ خَائِفِينَ ذَلِيلِينَ . ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ ﴾ أَيْ : إِذَا حَلَّ بِكُمْ بَأْسُ اللهِ وَسَخَطُهُ وَغَضَبُهُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [غافر : ٨٣] الْآيَتَيْنِ . الْمُرَادُ : الْفَتْحُ الَّذِي هُوَ الْقَضَاءُ وَالْفَصْلُ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أَيْ : أَعْرِضْ عَنْ هَٰؤُلَاءِ

الْمُشْرِكِينَ وَبَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام :١٠٦] وَانْتَظِرْ فَإِنَّ اللهَ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ ، وَسَيَنْصُرُكَ عَلَى مَنْ خَالَفَكَ إِنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أَيْ : أَنْتَ مُنْتَظِرٌ وَهُمْ مُنْتَظِرُونَ ، وَسَتَرَى أَنْتَ عَاقِبَةَ صَبْرِكَ عَلَيْهِمْ ، وَسَيَجِدُونَ غِبَّ مَا يَنْتَظِرُونَهُ فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ ، مِنْ وَبِيلِ عِقَابِ اللهِ لَهُمْ وَحُلُولِ عَذَابِهِ بِهِمْ ، وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ السَّجْدَةِ وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٧٣ تفسيرُ سُورَةِ الأحزاب مدنية

عَنْ زِرٍّ قَالَ : قَالَ لِي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ كَأَيِّنْ تَقْرَأُ سُورَةَ الْأَحْزَابِ أَوْ كَأَيِّنْ تَعُدُّهَا ؟ قَالَ : قُلْتُ : ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ آيَةً ، فَقَالَ : قَطُّ لَقَدْ رَأَيْتُهَا وَإِنَّهَا لَتُعَادِلُ « سُورَةَ الْبَقَرَةِ » ، وَلَقَدْ قَرَأْنَا فِيهَا : « **الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ نَكَالًا مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** » .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾

هَذَا تَنْبِيهٌ بِالْأَعْلَى عَلَى الْأَدْنَى ، فَإِنَّهُ تَعَالَى إِذَا كَانَ يَأْمُرُ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ بِهَذَا فَلَأَنْ يَأْتَمِرَ مَنْ دُونَهُ بِذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ، **وَقَدْ قَالَ طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ** : التَّقْوَى أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ تَرْجُو ثَوَابَ اللهِ ، وَأَنْ تَتْرُكَ مَعْصِيَةَ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ مَخَافَةَ عَذَابِ اللهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾ أَيْ : لَا تَسْمَعْ مِنْهُمْ وَلَا تَسْتَشِرْهُمْ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أَيْ : فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ تَتَّبِعَ أَوَامِرَهُ وَتُطِيعَهُ ، فَإِنَّهُ عَلِيمٌ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أَيْ : مِنْ قُرْآنٍ وَسُنَّةٍ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أَيْ : فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ . ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ، أَيْ : فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ وَأَحْوَالِكَ ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أَيْ : وَكَفَى بِهِ وَكِيلًا لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ .

مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ

أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُوَطِّئًا قَبْلَ المَقْصُودِ المَعْنَوِيِّ أَمْرًا مَعْرُوفًا حِسِّيًّا، وَهُوَ أَنَّهُ كَمَا لَا يَكُونُ لِلشَّخْصِ الْوَاحِدِ قَلْبَانِ فِي جَوْفِهِ، وَلَا تَصِيرُ زَوْجَتُهُ الَّتِي يُظَاهِرُ مِنْهَا بِقَوْلِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي، أُمًّا لَهُ، كَذَلِكَ لَا يَصِيرُ الدَّعِيُّ وَلَدًا لِلرَّجُلِ إِذَا تَبَنَّاهُ فَدَعَاهُ ابْنًا لَهُ، **فَقَالَ**: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ﴾ كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾[المجادلة: ٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ هَذَا هُوَ المَقْصُودُ بِالنَّفْيِ، فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ تَبَنَّاهُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، فَكَانَ يُقَالُ لَهُ: زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، فَأَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَقْطَعَ هَذَا الإِلْحَاقَ وَهَذِهِ النِّسْبَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي أَثْنَاءِ السُّورَةِ ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[الأحزاب: ٤٠]، **وَقَالَ هَهُنَا**: ﴿ ذَٰلِكُم قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾، يَعْنِي: تَبَنِّيكُمْ لَهُمْ قَوْلٌ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ ابْنًا حَقِيقِيًّا، فَإِنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ صُلْبِ رَجُلٍ آخَرَ، فَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَبَوَانِ، كَمَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِلْبَشَرِ الْوَاحِدِ قَلْبَانِ ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ **قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ**: ﴿ يَقُولُ ٱلْحَقَّ ﴾ أَيْ: الْعَدْلَ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** ﴿ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ أَيْ: الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ هَذَا أَمْرٌ نَاسِخٌ لِمَا كَانَ فِي ابْتِدَاءِ الإِسْلَامِ مِنْ جَوَازِ ادِّعَاءِ الْأَبْنَاءِ الْأَجَانِبِ، وَهُمُ الْأَدْعِيَاءُ، فَأَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِرَدِّ نَسَبِهِمْ إِلَى آبَائِهِمْ فِي الْحَقِيقَةِ، وَأَنَّ هَذَا هُوَ الْعَدْلُ وَالْقِسْطُ.

أَمَّا دَعْوَةُ الْغَيْرِ ابْنًا عَلَى سَبِيلِ التَّكْرِيمِ وَالتَّحْبِيبِ فَلَيْسَ مِمَّا نَهَى عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ. بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ مَسْلِمٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((**يَا بُنَيَّ**)).

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ أَمَرَ تَعَالَى بِرَدِّ أَنْسَابِ الْأَدْعِيَاءِ إِلَى آبَائِهِمْ - إِنْ عُرِفُوا - فَإِنْ لَمْ يُعْرَفُوا فَهُمْ إِخْوَانُهُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيهِمْ، أَيْ: عِوَضًا عَمَّا فَاتَهُمْ مِنَ النَّسَبِ، **وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ** ﷺ: قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ فَأَنَا مِمَّنْ لَا يُعْرَفُ أَبُوهُ، فَأَنَا مِنْ

إِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ . وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : ((**مَنِ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمهُ إِلَّا كَفَرَ**)) ، وَهَذَا تَشْدِيدٌ وَتَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ فِي التَّبَرِّي مِنَ النَّسَبِ الْمَعْلُومِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ ﴾ أَيْ : إِذَا نَسَبْتُمْ بَعْضَهُمْ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ فِي الْحَقِيقَةِ خَطَأً بَعْدَ الِاجْتِهَادِ وَاسْتِفْرَاغِ الْوُسْعِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ وَضَعَ الْحَرَجَ فِي الْخَطَأِ وَرَفَعَ إِثْمَهُ ، كَمَا أَرْشَدَ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ أَنْ يَقُولُوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾[البقرة : ٢٨٦] ، وَثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**قَالَ اللهُ ﷻ : قَدْ فَعَلْتُ**)) .

وَفِي الْحَدِيثِ : ((**إِنَّ اللهَ تَعَالَى رَفَعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وما يُكْرَهُونَ عَلَيْهِ**)) . **وَقَالَ هَهُنَا** ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أَيْ : وَإِنَّمَا الْإِثْمُ عَلَى مَنْ تَعَمَّدَ الْبَاطِلَ .

ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

قَدْ عَلِمَ اللهُ تَعَالَى شَفَقَةَ رَسُولِهِ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ ، وَنُصْحِهِ لَهُمْ ، فَجَعَلَهُ أَوْلَى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَحُكْمُهُ فِيهِمْ كَانَ مُقَدَّمًا عَلَى اخْتِيَارِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ** ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ **فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا ، فَإِنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا ، فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ**)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ أَيْ : فِي الْحُرْمَةِ وَالِاحْتِرَامِ وَالتَّوْقِيرِ وَالْإِكْرَامِ وَالْإِعْظَامِ ، وَلَكِنْ لَا تَجُوزُ الْخَلْوَةُ بِهِنَّ ، وَلَا يَنْتَشِرُ التَّحْرِيمُ إِلَى بَنَاتِهِنَّ وَأَخَوَاتِهِنَّ بِالْإِجْمَاعِ . ﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فِي حُكْمِ اللهِ ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ أَيْ : الْقَرَابَاتِ أَوْلَى بِالتَّوَارُثِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَهَذِهِ نَاسِخَةٌ لِمَا كَانَ قَبْلَهَا مِنَ التَّوَارُثِ بِالْحِلْفِ وَالْمُؤَاخَاةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ ، **كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ** : كَانَ الْمُهَاجِرِيُّ يَرِثُ الْأَنْصَارِيَّ دُونَ قَرَابَاتِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ لِلْأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى بَيْنَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلا أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ﴾ أَيْ : ذَهَبَ الْمِيرَاثُ وَبَقِيَ النَّصْرُ وَالْبِرُّ وَالصِّلَةُ وَالْإِحْسَانُ وَالْوَصِيَّةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ أَيْ : هَذَا الْحُكْمُ ، وَهُوَ : أَنَّ أُولِي الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ ، حُكْمٌ مِنَ اللهِ مُقَدَّرٌ مَكْتُوبٌ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ الَّذِي لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُغَيَّرُ .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أُولِي الْعَزْمِ الْخَمْسَةِ وَبَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ ، أَنَّهُ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ فِي إِقَامَةِ دِينِ الله تَعَالَى ، وَإِبْلَاغِ رِسَالَتِهِ ، وَالتَّعَاوُنِ وَالتَّنَاصُرِ وَالِاتِّفَاقِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٨١] ، فَهَذَا الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ أُخِذَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ إِرْسَالِهِمْ ، وَكَذَلِكَ هَذَا ، وَنَصَّ مِنْ بَيْنِهِمْ عَلَى هَؤُلَاءِ الْخَمْسَةِ ، وَهُمْ أُولُو الْعَزْمِ ، وَهُوَ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذِكْرِهِمْ أَيْضًا فِي هَذِهِ الْآيَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : الْمُبَلِّغِينَ الْمُؤَدِّينَ عَنِ الرُّسُلِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : مِنْ أُمَمِهِمْ ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أَيْ : مُوجِعًا .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نِعْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي صَرْفِهِ أَعْدَاءَهُمْ وَهَزْمِهِ إِيَّاهُمْ عَامَ تَأَلَّبُوا عَلَيْهِمْ وَتَحَزَّبُوا وَذَلِكَ عَامَ الْخَنْدَقِ ، وَذَلِكَ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ خَمْسٍ مِنَ الْهِجْرَةِ عَلَى الصَّحِيحِ الْمَشْهُورِ . وَكَانَ سَبَبُ قُدُومِ الْأَحْزَابِ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَشْرَافِ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ ، الَّذِينَ كَانُوا قَدْ أَجْلَاهُمْ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى خَيْبَرَ ، مِنْهُمْ : سَلَّامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ ، وَسَلَّامُ بْنُ مِشْكَمٍ ، وَكِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ ، خَرَجُوا إِلَى مَكَّةَ ، فَاجْتَمَعُوا بِأَشْرَافِ قُرَيْشٍ ، وَأَلَّبُوهُمْ عَلَى حَرْبِ النَّبِيِّ ﷺ وَوَعَدُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمُ النَّصْرَ وَالْإِعَانَةَ فَأَجَابُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى غَطَفَانَ فَدَعَوْهُمْ فَاسْتَجَابُوا لَهُمْ أَيْضًا ، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي أَحَابِيشِهَا وَمَنْ تَابَعَهَا ، وَقَائِدُهُمْ : أَبُو سُفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ ، وَعَلَى غَطَفَانَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ بَدْرٍ ، وَالْجَمِيعُ قَرِيبٌ مِنْ عَشَرَةِ آلَافٍ ، فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَسِيرِهِمْ أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِمَّا يَلِي الشَّرْقَ ، وَذَلِكَ بِإِشَارَةِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ﷺ ، فَعَمِلَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ وَاجْتَهَدُوا ، وَنَقَلَ مَعَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ التُّرَابَ ، وَحَفَرَ وَكَانَ فِي حَفْرِهِ ذَلِكَ آيَاتٌ وَدَلَائِلُ وَاضِحَاتٌ ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ

فَنزَلُوا شَرْقِيَّ المَدِينَةِ قَرِيبًا مِنْ أُحُدٍ ، وَنَزَلَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فِي أَعَالِي أَرْضِ المَدِينَةِ . **كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى**: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ وَمَن مَعَهُ مِنَ المُسْلِمِينَ وَهُمْ نَحْوٌ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ ، وَقِيلَ : سَبْعِمِائَةٍ ، فَأَسْنَدُوا ظُهُورَهُمْ إِلَى سَلْعٍ وَوُجُوهَهُمْ إِلَى نَحْوِ الْعَدُوِّ ، وَالْخَنْدَقُ حَفِيرٌ لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ يَحْجُبُ الخَيَّالَةَ وَالرَّجَّالَةَ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِمْ ، وَجَعَلَ النِّسَاءَ وَالذَّرَارِيَّ فِي آطَامِ المَدِينَةِ ، وَكَانَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ - وَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ - لَهُمْ حِصْنٌ شَرْقِيُّ المَدِينَةِ ، وَلَهُمْ عَهْدٌ مِنَ النَّبِيِّ وَذِمَّةٌ ، وَهُمْ قَرِيبٌ مِنْ ثَمَانِمِائَةِ مُقَاتِلٍ ، فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ النَّضْرِيُّ فَلَمْ يَزَلْ بِهِمْ حَتَّى نَقَضُوا الْعَهْدَ ، وَمَالَئُوا الأَحْزَابَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ ، فَعَظُمَ الْخَطْبُ وَاشْتَدَّ الأَمْرُ وَضَاقَ الْحَالُ ، كَمَا قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب : ١١] وَمَكَثُوا مُحَاصِرِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ قَرِيبًا مِنْ شَهْرٍ إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَصِلُونَ إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَقَعْ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ ، إِلَّا أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَبْدِ وُدٍّ الْعَامِرِيَّ - وَكَانَ مِنَ الْفُرْسَانِ الشُّجْعَانِ المَشْهُورِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ - رَكِبَ وَمَعَهُ فَوَارِسُ فَاقْتَحَمُوا الْخَنْدَقَ وَخَلَصُوا إِلَى نَاحِيَةِ الْمُسْلِمِينَ ، فَنَدَبَ رَسُولُ الله ﷺ خَيْلَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَبْرُزْ إِلَيْهِ أَحَدٌ ، فَأَمَرَ عَلِيًّا ﷺ فَخَرَجَ إِلَيْهِ ، فَتَجَاوَلَا سَاعَةً ثُمَّ قَتَلَهُ عَلِيٌّ ﷺ ، فَكَانَ عَلَامَةً عَلَى النَّصْرِ .

ثُمَّ أَرْسَلَ اللهُ ﷻ عَلَى الأَحْزَابِ رِيحًا شَدِيدَةَ الْهُبُوبِ قَوِيَّةً ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُمْ خَيْمَةٌ وَلَا شَيْءٌ وَلَا تُوقَدُ لَهُمْ نَارٌ وَلَا يَقِرُّ لَهُمْ قَرَارٌ ، حَتَّى ارْتَحَلُوا خَائِبِينَ خَاسِرِينَ ، كَمَا قَالَ **اللهُ** ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : وَهِيَ : الصَّبَا ، وَيُؤَيِّدُهُ الْحَدِيثُ الآخَرُ «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا ، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**» .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ هُمُ الْمَلَائِكَةُ ، زَلْزَلَتْهُمْ وَأَلْقَتْ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وَالْخَوْفَ ، فَكَانَ رَئِيسُ كُلِّ قَبِيلَةٍ يَقُولُ : يَا بَنِي فُلَانٍ إِلَيَّ ، فَيَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ ، فَيَقُولُ : النَّجَاءَ ، النَّجَاءَ ، لِمَا أَلْقَى **اللهُ** ﷻ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الرُّعْبِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ أَيْ : **الأَحْزَابُ** ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ أَنَّهُمْ : بَنُو قُرَيْظَةَ ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ أَيْ : مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : ظَنَّ بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّ الدَّائِرَةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّ اللهَ سَيَفْعَلُ ذَلِكَ . **وَقَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ** ﷻ: ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ ظُنُونٌ مُخْتَلِفَةٌ ، ظَنَّ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ يُسْتَأْصَلُونَ ، وَأَيْقَنَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ مَا وَعَدَ اللهُ وَرَسُولُهُ حَقٌّ ، وَأَنَّهُ سَيُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .

هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذَلِكَ الحَالِ حِينَ نَزَلَ الْأَحْزَابُ حَوْلَ المَدِينَةِ وَالْمُسْلِمُونَ مَحْصُورُونَ فِي غَايَةِ الجَهْدِ وَالضِّيقِ ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ إِنَّهُمْ ابْتُلُوا وَاخْتُبِرُوا وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ، فَحِينَئِذٍ ظَهَرَ النِّفَاقُ ، وَتَكَلَّمَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أَمَّا الْمُنَافِقُ فَنَجَمَ نِفَاقُهُ ، وَالَّذِي فِي قَلْبِهِ شُبْهَةٌ أَوْ حَسِيكَةٌ ضَعُفَ حَالُهُ فَتَنَفَّسَ بِمَا يَجِدُهُ مِنَ الْوَسْوَاسِ فِي نَفْسِهِ ؛ لِضَعْفِ إِيمَانِهِ وَشِدَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ ضِيقِ الحَالِ ، وَقَوْمٌ آخَرُونَ قَالُوا : كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ يَعْنِي : المَدِينَةَ . ﴿ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ أَيْ : هَهُنَا ، يَعْنُونَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَقَامِ المُرَابَطَةِ ﴿ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ أَيْ : إِلَى بُيُوتِكُمْ وَمَنَازِلِكُمْ ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ ﴾ قَالُوا : بُيُوتُنَا نَخَافُ عَلَيْهَا السَّرَقَ . يَعْنِي : اِعْتَذَرُوا فِي الرُّجُوعِ إِلَى مَنَازِلِهِمْ بِأَنَّهَا عَوْرَةٌ ، أَيْ : لَيْسَ دُونَهَا مَا يَحْجُبُهَا مِنَ الْعَدُوِّ ، فَهُمْ يَخْشَوْنَ عَلَيْهَا مِنْهُمْ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَتْ كَمَا يَزْعُمُونَ ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أَيْ : هَرَبًا مِنَ الزَّحْفِ .

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أَنَّهُمْ لَوْ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ المَدِينَةِ وَقُطْرٍ مِنْ أَقْطَارِهَا ، ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ - وَهِيَ الدُّخُولُ فِي الْكُفْرِ - لَكَفَرُوا سَرِيعًا ، وَهُمْ لَا يُحَافِظُونَ عَلَى الإِيمَانِ ، وَلَا يَسْتَمْسِكُونَ بِهِ مَعَ أَدْنَى خَوْفٍ وَفَزَعٍ ، وَهَذَا ذَمٌّ لَهُمْ فِي غَايَةِ الذَّمِّ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى يُذَكِّرُهُمْ بِمَا كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ - مِنْ قَبْلِ هَذَا الخَوْفِ - أَنْ لَا يُوَلُّوا الْأَدْبَارَ وَلَا يَفِرُّوا مِنَ الزَّحْفِ ﴿ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ أَيْ : وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى سَيَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ لَا بُدَّ

مِنْ ذَلِكَ ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ فِرَارَهُمْ ذَلِكَ لَا يُؤَخِّرُ آجَالَهُمْ ، وَلَا يُطَوِّلُ أَعْمَارَهُمْ ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي تَعْجِيلِ أَخْذِهِمْ غُرَّةً ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيْ : بَعْدَ هَرَبِكُمْ وَفِرَارِكُمْ ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [النساء : ٧٧] ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يَمْنَعُكُمْ ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ وَلَا لِغَيْرِهِمْ مِنَ اللهِ مُجِيرٌ وَلَا مُغِيثٌ .

۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِالْمُعَوِّقِينَ لِغَيْرِهِمْ عَنْ شُهُودِ الْحَرْبِ ، وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ ، أَيْ : أَصْحَابِهِمْ وَعُشَرَائِهِمْ وَخُلَطَائِهِمْ ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أَيْ : إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْإِقَامَةِ فِي الظِّلَالِ وَالثِّمَارِ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : بُخَلَاءُ بِالْمَوَدَّةِ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْكُمْ . ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ أَيْ : مِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِ وَجَزَعِهِ ، وَهَكَذَا خَوْفُ هَؤُلَاءِ الْجُبَنَاءِ مِنَ الْقِتَالِ ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ أَيْ : فَإِذَا كَانَ الْأَمْنُ تَكَلَّمُوا كَلَامًا بَلِيغًا فَصِيحًا عَالِيًا ، وَادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمُ الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةَ فِي الشَّجَاعَةِ وَالنَّجْدَةِ وَهُمْ يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أَيْ : سَهْلًا هَيِّنًا عِنْدَهُ .

يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ صِفَاتِهِمُ الْقَبِيحَةِ فِي الْجُبْنِ وَالْخَوَرِ وَالْخَوْفِ ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾ بَلْ هُمْ قَرِيبٌ مِنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمْ عَوْدَةً إِلَيْهِمْ ﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ﴾ أَيْ : وَيَوَدُّونَ إِذَا جَاءَتِ الْأَحْزَابُ أَنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ حَاضِرِينَ مَعَكُمْ فِي الْمَدِينَةِ ، بَلْ فِي الْبَادِيَةِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَخْبَارِكُمْ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ مَعَ عَدُوِّكُمْ ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيْ : وَلَوْ كَانُوا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ لَمَا قَاتَلُوا مَعَكُمْ إِلَّا قَلِيلًا ؛ لِكَثْرَةِ جُبْنِهِمْ وَذِلَّتِهِمْ وَضَعْفِ يَقِينِهِمْ .

﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴿٢٢﴾ ﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي التَّأَسِّي بِرَسُولِ الله ﷺ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ ؛ وَلِهَذَا أُمِرَ النَّاسُ بِالتَّأَسِّي بِالنَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ فِي صَبْرِهِ وَمُصَابَرَتِهِ وَمُرَابَطَتِهِ وَمُجَاهَدَتِهِ وَانْتِظَارِهِ الْفَرَجَ مِنْ رَبِّهِ ﷻ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ - ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى لِلَّذِينَ تَقَلَّقُوا وَتَضَجَّرُوا وَتَزَلْزَلُوا وَاضْطَرَبُوا فِي أَمْرِهِمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴾ أَيْ : هَلَّا اقْتَدَيْتُمْ بِهِ وَتَأَسَّيْتُمْ بِشَمَائِلِهِ ﷺ ؟ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى :** ﴿ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُصَدِّقِينَ بِمَوْعُودِ الله لَهُمْ ، وَجَعْله الْعَاقِبَةَ حَاصِلَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . **فَقَالَ :** ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ :** يَعْنُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ « الْبَقَرَةِ » ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾ [البقرة : ٢١٤] أَيْ : هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الِابْتِلَاءِ وَالِاخْتِبَارِ وَالِامْتِحَانِ الَّذِي يَعْقُبُهُ النَّصْرُ الْقَرِيبُ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴾ دَلِيلٌ عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَقُوَّتِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى النَّاسِ وَأَحْوَالِهِمْ ، كَمَا قَالَهُ جُمْهُورُ الْأَئِمَّةِ : إِنَّهُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﴿ وَمَا زَادَهُمۡ ﴾ أَيْ : ذَلِكَ الْحَالُ وَالضِّيقُ وَالشِّدَّةُ ﴿ إِلَّآ إِيمَٰنٗا ﴾ بِالله ﴿ وَتَسۡلِيمٗا ﴾ أَيْ : اِنْقِيَادًا لِأَوَامِرِهِ ، وَطَاعَةً لِرَسُولِهِ ﷺ .

﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٤﴾ ﴾

لَمَّا ذَكَرَ ﷻ عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ نَقَضُوا الْعَهْدَ الَّذِي كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ، وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ اِسْتَمَرُّوا عَلَى الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ وَ ﴿ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ :** أَجَلَهُ ، **وَقَالَ الْبُخَارِيُّ :** عَهْدَهُ ، وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى الْأَوَّلِ ، ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴾ أَيْ : وَمَا غَيَّرُوا عَهْدَ الله وَلَا نَقَضُوهُ وَلَا بَدَّلُوهُ . **عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ** قَالَ : لَمَّا نَسَخْنَا الْمُصْحَفَ فُقِدَتْ آيَةٌ مِنْ سُورَةِ الْأَحْزَابِ ، كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ الله ﷺ يَقْرَؤُهَا ،

لَمْ أَجِدْهَا إِلَّا مَعَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ ، الَّذِي جَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَهَادَتَهُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ .

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ : عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ ﷺ الَّذِي سُمِّيتُ بِهِ ، لَمْ يَشْهَدْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ فَشَقَّ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ غُيِّبْتُ عَنْهُ ، لَئِنْ أَرَانِي اللهُ تَعَالَى مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيَرَيَنَّ اللهُ ﷻ مَا أَصْنَعُ قَالَ : فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا ، فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ ، فَاسْتَقْبَلَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ ﷺ ، فَقَالَ لَهُ أَنَسٌ ﷺ : يَا أَبَا عَمْرٍو ؛ أَيْنَ ؟ وَاهًا لِرِيحِ الْجَنَّةِ ، إِنِّي أَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ ، قَالَ : فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ ﷺ ، قَالَ : فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ ، فَقَالَتْ أُخْتُهُ - عَمَّتِي الرُّبَيِّعُ ابْنَةُ النَّضْرِ -: فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ ، قَالَ : فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾ قَالَ : فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ ﷺ . وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**طَلْحَةُ مِمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ**)) . **قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :** ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ﴾ عَهْدَهُ ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ قَالَ : يَوْمًا فِيهِ قِتَالٌ فَيَصْدُقُ فِي اللِّقَاءِ ، **وَقَالَ الْحَسَنُ :** ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ﴾ يَعْنِي : مَوْتَهُ عَلَى الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ الْمَوْتَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُبَدِّلْ تَبْدِيلًا . **وَقَوْلُهُ :** ﴿ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾ أَيْ : وَمَا غَيَّرُوا عَهْدَهُمْ وَبَدَّلُوا الْوَفَاءَ بِالْغَدْرِ ، بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِالْخَوْفِ وَالزِّلْزَالِ ؛ لِيَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، فَيُظْهِر أَمْرَ هَذَا بِالْفِعْلِ ، وَأَمْرَ هَذَا بِالْفِعْلِ ، مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ الشَّيْءَ قَبْلَ كَوْنِهِ ، وَلَكِنْ لَا يُعَذِّبُ الْخَلْقَ بِعِلْمِهِ فِيهِمْ حَتَّى يَعْمَلُوا بِمَا يَعْلَمُهُ فِيهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى :** ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أَيْ : بِصَبْرِهِمْ عَلَى مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ وَقِيَامِهِمْ بِهِ وَمُحَافَظَتِهِمْ عَلَيْهِ ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾ وَهُمُ النَّاقِضُونَ لِعَهْدِ اللهِ الْمُخَالِفُونَ لِأَوَامِرِهِ ، فَاسْتَحَقُّوا بِذَلِكَ عِقَابَهُ وَعَذَابَهُ ، وَلَكِنْ هُمْ تَحْتَ مَشِيئَتِهِ فِي الدُّنْيَا ، إِنْ شَاءَ اسْتَمَرَّ بِهِمْ عَلَى مَا فَعَلُوا حَتَّى يَلْقَوْهُ فَيُعَذِّبَهُمْ عَلَيْهِ ، وَإِنْ شَاءَ تَابَ عَلَيْهِمْ بِأَنْ أَرْشَدَهُمْ إِلَى النُّزُوعِ عَنِ النِّفَاقِ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ بَعْدَ الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ ، وَلَمَّا كَانَتْ رَحْمَتُهُ وَرَأْفَتُهُ بِخَلْقِهِ هِيَ الْغَالِبَةُ لِغَضَبِهِ **قَالَ :** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْأَحْزَابِ لَمَّا أَجْلَاهُمْ عَنِ الْمَدِينَةِ بِمَا أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ وَالْجُنُودِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَلَوْلَا أَنَّ اللهَ جَعَلَ رَسُولَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ لَكَانَتْ هَذِهِ الرِّيحُ عَلَيْهِمْ أَشَدَّ مِنَ الرِّيحِ الْعَقِيمِ عَلَى عَادٍ ، وَلَكِنْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٣٣] فَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ هَوَاءً فَرَّقَ شَمْلَهُمْ ، كَمَا كَانَ سَبَبُ اجْتِمَاعِهِمْ مِنَ الْهَوَى ، وَهُمْ أَخْلَاطٌ مِنْ قَبَائِلَ شَتَّى ، أَحْزَابٌ وَآرَاءٌ ، فَنَاسَبَ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْهِمُ الْهَوَاءَ الَّذِي فَرَّقَ جَمَاعَتَهُمْ وَرَدَّهُمْ خَائِبِينَ خَاسِرِينَ بِغَيْظِهِمْ وَحَنَقِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، لَا فِي الدُّنْيَا مِمَّا كَانَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الظَّفَرِ وَالْمَغْنَمِ ، وَلَا فِي الْآخِرَةِ بِمَا تَحَمَّلُوهُ مِنَ الْآثَامِ فِي مُبَارَزَةِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْعَدَاوَةِ ، وَهَمِّهِمْ بِقَتْلِهِ وَاسْتِئْصَالِ جَيْشِهِ ، وَمَنْ هَمَّ بِشَيْءٍ وَصَدَّقَ هَمَّهُ بِفِعْلِهِ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَفَاعِلِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾ أَيْ : لَمْ يَحْتَاجُوا إِلَى مُنَازَلَتِهِمْ وَمُبَارَزَتِهِمْ حَتَّى يُجْلُوهُمْ عَنْ بِلَادِهِمْ ، بَلْ كَفَى اللهُ وَحْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ ، وَفِي قَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى وَضْعِ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ ، وَهَكَذَا وَقَعَ بَعْدَهَا لَمْ يَغْزُهُمُ الْمُشْرِكُونَ بَلْ غَزَاهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي بِلَادِهِمْ . قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ ((**الْآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَا**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ أَيْ : بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ رَدَّهُمْ خَائِبِينَ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَأَعَزَّ اللهُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ ، وَصَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ رَسُولَهُ وَعَبْدَهُ ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ لَمَّا قَدِمَتْ جُنُودُ الْأَحْزَابِ وَنَزَلُوا عَلَى الْمَدِينَةِ نَقَضُوا مَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْعَهْدِ ، وَكَانَ ذَلِكَ بِسِفَارَةِ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ النَّضْرِيِّ - لَعَنَهُ اللهُ - دَخَلَ حِصْنَهُمْ وَلَمْ يَزَلْ بِسَيِّدِهِمْ كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ حَتَّى نَقَضَ الْعَهْدَ ، وَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ : وَيْحَكَ قَدْ جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ ، أَتَيْتُكَ بِقُرَيْشٍ وَأَحَابِيشِهَا ، وَغَطَفَانَ وَأَتْبَاعِهَا ، وَلَا يَزَالُونَ هَهُنَا حَتَّى يَسْتَأْصِلُوا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ ، فَقَالَ لَهُ كَعْبٌ : بَلْ وَاللهِ أَتَيْتَنِي بِذُلِّ الدَّهْرِ ، وَيْحَكَ يَا حُيَيُّ إِنَّكَ مَشْئُومٌ فَدَعْنَا مِنْكَ ، فَلَمْ يَزَلْ يَفْتِلُ فِي الذِّرْوَةِ وَالْغَارِبِ حَتَّى أَجَابَهُ ، وَاشْتَرَطَ لَهُ حُيَيٌّ إِنْ ذَهَبَ الْأَحْزَابُ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْءٌ أَنْ يَدْخُلَ مَعَهُمْ فِي الْحِصْنِ فَيَكُونَ لَهُ أُسْوَتُهُمْ ، فَلَمَّا نَقَضَتْ قُرَيْظَةُ ، وَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَاءَهُ وَشَقَّ عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ جِدًّا ، فَلَمَّا أَيَّدَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَصَرَهُ وَكَبَتَ الْأَعْدَاءَ ، وَرَدَّهُمْ خَائِبِينَ بِأَخْسَرِ صَفْقَةٍ ، وَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ

مُؤَيَّدًا مَنْصُورًا ، وَوَضَعَ النَّاسُ السِّلَاحَ ، فَبَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَغْتَسِلُ مِنْ وَعْثَاءِ تِلْكَ الْمُرَابَطَةِ فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - إِذْ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ ﷺ مُعْتَجِرًا بِعِمَامَةٍ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ عَلَى بَغْلَةٍ عَلَيْهَا قَطِيفَةٌ مِنْ دِيبَاجٍ ، فَقَالَ : أَوَضَعْتَ السِّلَاحَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ ﷺ : « **نَعَمْ** » قَالَ : لَكِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ تَضَعْ أَسْلِحَتَهَا ، وَهَذَا الْآنَ رُجُوعِي مِنْ طَلَبِ الْقَوْمِ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّ اللهَ - يَأْمُرُكَ أَنْ تَنْهَضَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ - وَفِي رِوَايَةٍ - فَقَالَ لَهُ : عَذِيرَكَ مِنْ مُقَاتِلٍ ، أَوَضَعْتُمُ السِّلَاحَ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ** » قَالَ : لَكِنَّا لَمْ نَضَعْ أَسْلِحَتَنَا بَعْدُ ، انْهَضْ إِلَى هَؤُلَاءِ قَالَ ﷺ : « **أَيْنَ ؟** » قَالَ : بَنِي قُرَيْظَةَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَنِي أَنْ أُزَلْزِلَ عَلَيْهِمْ ، فَنَهَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ فَوْرِهِ ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالْمَسِيرِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَكَانَتْ عَلَى أَمْيَالٍ مِنَ الْمَدِينَةِ وَذَلِكَ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ ، وَقَالَ : « **لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ** » فَسَارَ النَّاسُ فَأَدْرَكَتْهُمُ الصَّلَاةُ فِي الطَّرِيقِ ، فَصَلَّى بَعْضُهُمْ فِي الطَّرِيقِ ، وَقَالُوا : لَمْ يُرِدْ مِنَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَّا تَعْجِيلَ الْمَسِيرِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : لَا نُصَلِّيهَا إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَتَبِعَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَدِ اسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ ﷺ ، وَأَعْطَى الرَّايَةَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ . ثُمَّ نَازَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً ، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْحَالُ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ سَيِّدِ الْأَوْسِ ﷺ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا حُلَفَاءَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ ، كَمَا فَعَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولٍ فِي مَوَالِيهِ بَنِي قَيْنُقَاعَ حِينَ اسْتَطْلَقَهُمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَظَنَّ هَؤُلَاءِ أَنَّ سَعْدًا سَيَفْعَلُ فِيهِمْ كَمَا فَعَلَ ابْنُ أُبَيٍّ فِي أُولَئِكَ ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ سَعْدًا ﷺ كَانَ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ فِي أَكْحَلِهِ أَيَّامَ الْخَنْدَقِ فَكَوَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أَكْحَلِهِ وَأَنْزَلَهُ فِي قُبَّةٍ فِي الْمَسْجِدِ لِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ ، وَقَالَ سَعْدٌ ﷺ فِيمَا دَعَا بِهِ : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقِنِي لَهَا ، وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَافْجُرْهَا وَلَا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَاسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَى دُعَاءَهُ ، وَقَدَّرَ عَلَيْهِمْ إِنْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ بِاخْتِيَارِهِمْ طَلَبًا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَدْعَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ لِيَحْكُمَ فِيهِمْ ، فَلَمَّا أَقْبَلَ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ قَدْ وَطَئُوا لَهُ عَلَيْهِ جَعَلَ الْأَوْسُ يَلُوذُونَ بِهِ ، وَيَقُولُونَ : يَا سَعْدُ إِنَّهُمْ مَوَالِيكَ فَأَحْسِنْ فِيهِمْ ، وَيُرَقِّقُونَهُ عَلَيْهِمْ وَيُعَطِّفُونَهُ وَهُوَ سَاكِتٌ لَا يَرُدُّ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ قَالَ ﷺ : لَقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ . فَعَرَفُوا أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَبْقِيهِمْ ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْخَيْمَةِ الَّتِي فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ** » فَقَامَ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ فَأَنْزَلُوهُ إِعْظَامًا وَإِكْرَامًا وَاحْتِرَامًا لَهُ فِي مَحَلِّ وِلَايَتِهِ ؛ لِيَكُونَ أَنْفَذَ لِحُكْمِهِ فِيهِمْ ، فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّ هَؤُلَاءِ - وَأَشَارَ إِلَيْهِمْ - قَدْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ فَاحْكُمْ فِيهِمْ بِمَا شِئْتَ** »

فَقَالَ ﷺ وَحُكْمِي نَافِذٌ عَلَيْهِمْ ؟ قَالَ : ((**نَعَمْ**)) قَالَ : وَعَلَى مَنْ فِي هَذِهِ الْخَيْمَةِ ؟ قَالَ : ((**نَعَمْ**)) قَالَ : وَعَلَى مَنْ هَهُنَا ؟ - وَأَشَارَ إِلَى الْجَانِبِ الَّذِي فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُعْرِضٌ بِوَجْهِهِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِجْلَالًا وَإِكْرَامًا وَإِعْظَامًا - فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**نَعَمْ**)) فَقَالَ ﷺ : إِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ وَتُسْبَى ذُرِّيَّتُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللهِ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ**)) وَفِي رِوَايَةٍ ((**لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللهِ**)) ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْأَخَادِيدِ فَخُدَّتْ فِي الْأَرْضِ ، وَجِيءَ بِهِمْ مُكَتَّفِينَ فَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ ، وَكَانُوا مَا بَيْنَ السَّبْعِمِائَةِ إِلَى الثَّمَانِمِائَةِ ، وَسَبَى مَنْ لَمْ يُنْبِتْ مِنْهُمْ مَعَ النِّسَاءِ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم ﴾ أَيْ : عَاوَنُوا الْأَحْزَابَ وَسَاعَدُوهُمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ . ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يَعْنِي : بَنِي قُرَيْظَةَ مِنَ الْيَهُودِ مِنْ بَعْضِ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ . ﴿ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ يَعْنِي : حُصُونِهِمْ . وَمِنْهُمْ سُمِّيَتْ صَيَاصِي الْبَقَرِ ، وَهِيَ قُرُونُهَا ؛ لِأَنَّهَا أَعْلَى شَيْءٍ فِيهَا ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ وَهُوَ الْخَوْفُ ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ فَالَّذِينَ قُتِلُوا هُمُ الْمُقَاتِلَةُ ، وَالْأُسَرَاءُ هُمُ الْأَصَاغِرُ وَالنِّسَاءُ . ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ ﴾ أَيْ : جَعَلَهَا لَكُمْ مِنْ قَتْلِكُمْ لَهُمْ ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾ **قِيلَ** : خَيْبَرَ ، **وَقِيلَ** : مَكَّةَ ، **وَقِيلَ** : فَارِسَ وَالرُّومَ ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ مُرَادًا ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ بِأَنْ يُخَيِّرَ نِسَاءَهُ بَيْنَ أَنْ يُفَارِقَهُنَّ ، فَيَذْهَبْنَ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ يَحْصُلُ لَهُنَّ عِنْدَهُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ، وَبَيْنَ الصَّبْرِ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ ضِيقِ الْحَالِ ، وَلَهُنَّ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ الثَّوَابُ الْجَزِيلُ ، فَاخْتَرْنَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ وَأَرْضَاهُنَّ - اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ، فَجَمَعَ اللهُ تَعَالَى لَهُنَّ بَعْدَ ذَلِكَ بَيْنَ خَيْرِ الدُّنْيَا وَسَعَادَةِ الْآخِرَةِ .

عَنْ جَابِرٍ ﷺ **قَالَ** : أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَالنَّاسُ بِبَابِهِ جُلُوسٌ وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، ثُمَّ أَذِنَ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فَدَخَلَا ، وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ وَحَوْلَهُ نِسَاؤُهُ ، وَهُوَ ﷺ سَاكِتٌ ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ : لَأُكَلِّمَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَلَّهُ يَضْحَكُ ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ : يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ رَأَيْتَ ابْنَةَ زَيْدٍ - امْرَأَةَ عُمَرَ - سَأَلَتْنِي النَّفَقَةَ آنِفًا فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ وَقَالَ :

((**هُنَّ حَوْلِي يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ**)) فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ إِلَى عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - لِيَضْرِبَهَا ، وَقَامَ عُمَرُ ﷺ إِلَى حَفْصَةَ ، كِلَاهُمَا يَقُولَانِ : تَسْأَلَانِ النَّبِيَّ ﷺ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ ، فَنَهَاهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقُلْنَ : وَاللهِ لَا نَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ هَذَا الْمَجْلِسِ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ ، قَالَ : وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ الْخِيَارَ ، فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - فَقَالَ : ((**إِنِّي أَذْكُرُ لَكِ أَمْرًا مَا أُحِبُّ أَنْ تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ**)) قَالَتْ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : فَتَلَا عَلَيْهَا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ الْآيَةَ قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - : أَفِيكَ أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ ؟ بَلْ أَخْتَارُ اللهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا تَذْكُرَ لِامْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِكَ مَا اخْتَرْتُ ، فَقَالَ : ((**إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّفًا ، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا ، لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ عَمَّا اخْتَرْتِ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا**)) . قَالَ عِكْرِمَةُ : وَكَانَ تَحْتَهُ يَوْمَئِذٍ تِسْعُ نِسْوَةٍ ، خَمْسٌ مِنْ قُرَيْشٍ : عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ وَأُمُّ حَبِيبَةَ وَسَوْدَةُ وَأُمُّ سَلَمَةَ ، وَكَانَتْ تَحْتَهُ ﷺ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ النَّضِيرِيَّةُ ، وَمَيْمُونَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ الْهِلَالِيَّةُ ، وَزَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ الْأَسَدِيَّةُ ، وَجُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ الْمُصْطَلِقِيَّةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ وَأَرْضَاهُنَّ - .

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَاعِظًا نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ اللَّاتِي اخْتَرْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَاسْتَقَرَّ أَمْرُهُنَّ تَحْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَنَاسَبَ أَنْ يُخْبِرَهُنَّ بِحُكْمِهِنَّ وَتَخْصِيصِهِنَّ دُونَ سَائِرِ النِّسَاءِ بِأَنَّ مَنْ يَأْتِ مِنْهُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ - **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: وَهِيَ النُّشُوزُ وَسُوءُ الْخُلُقِ - وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَهُوَ شَرْطٌ ، وَالشَّرْطُ لَا يَقْتَضِي الْوُقُوعَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾[الزمر : ٦٥] ، وَكَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾[الزخرف : ٨١] ، فَلَمَّا كَانَتْ مَحَلَّتُهُنَّ رَفِيعَةً نَاسَبَ أَنْ يَجْعَلَ الذَّنْبَ لَوْ وَقَعَ مِنْهُنَّ مُغَلَّظًا صِيَانَةً لِجَنَابِهِنَّ وَحِجَابِهِنَّ الرَّفِيعِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أَيْ : سَهْلًا هَيِّنًا . ثُمَّ ذَكَرَ عَدْلَهُ وَفَضْلَهُ **فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أَيْ : تُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَتَسْتَجِيبَ ﴿ نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ أَيْ : فِي الْجَنَّةِ ، فَإِنَّهُنَّ فِي مَنَازِلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ ، فَوْقَ مَنَازِلِ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ ، فِي الْوَسِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ مَنَازِلِ الْجَنَّةِ إِلَى الْعَرْشِ .

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى

فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

هَذِهِ آدَابٌ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهَا نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ، وَنِسَاءُ الْأُمَّةِ تَبَعٌ لَهُنَّ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِنِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: بِأَنَّهُنَّ إِذَا اتَّقَيْنَ اللهَ ﷻ كَمَا أَمَرَهُنَّ فَإِنَّهُ لَا يُشْبِهُهُنَّ أَحَدٌ مِنَ النِّسَاءِ ، وَلَا يَلْحَقُهُنَّ فِي الْفَضِيلَةِ وَالْمَنْزِلَةِ ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى**: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ تَرْقِيقُ الْكَلَامِ إِذَا خَاطَبْنَ الرِّجَالَ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ أَيْ : دَغَلٌ ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ قَوْلًا حَسَنًا جَمِيلًا مَعْرُوفًا فِي الْخَيْرِ ، وَمَعْنَى هَذَا : أَنَّهَا تُخَاطِبُ الْأَجَانِبَ بِكَلَامٍ لَيْسَ فِيهِ تَرْخِيمٌ ، أَيْ : لَا تُخَاطِبُ الْمَرْأَةُ الْأَجَانِبَ كَمَا تُخَاطِبُ زَوْجَهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ أَيْ : اِلْزَمْنَ بُيُوتَكُنَّ فَلَا تَخْرُجْنَ لِغَيْرِ حَاجَةٍ ، وَمِنَ الْحَوَائِجِ الشَّرْعِيَّةِ الصَّلَاةُ فِي الْمَسْجِدِ بِشَرْطِهِ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ ، وَلْيَخْرُجْنَ وَهُنَّ تَفِلَاتٌ** » وَفِي رِوَايَةٍ « **وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ** ». وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ بِرَوْحَةِ رَبِّهَا وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا . وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا ، وَصَلَاتُهَا فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا** ».

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : إِذَا خَرَجْتُنَّ مِنْ بُيُوتِكُنَّ – وَكَانَتْ لَهُنَّ مِشْيَةٌ وَتَكَسُّرٌ وَتَغَنُّجٌ – فَنَهَى اللهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ . **وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ** : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ، وَالتَّبَرُّجُ : أَنَّهَا تُلْقِي الْخِمَارَ عَلَى رَأْسِهَا ، وَلَا تَشُدُّهُ فَيُوَارِي قَلَائِدَهَا وَقُرْطَهَا وَعُنُقَهَا ، وَيَبْدُو ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْهَا ، وَذَلِكَ التَّبَرُّجُ ، ثُمَّ عَمَّتْ نِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ فِي التَّبَرُّجِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ نَهَاهُنَّ أَوَّلًا عَنِ الشَّرِّ ، ثُمَّ أَمَرَهُنَّ بِالْخَيْرِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ ، وَهِيَ : عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَهِيَ : الْإِحْسَانُ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ ﴿ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ وَهَذَا نَصٌّ فِي دُخُولِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ هَهُنَا ؛ لِأَنَّهُنَّ سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ ، **ثُمَّ الَّذِي لَا يَشُكُّ فِيهِ مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ أَنَّ نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ دَاخِلَاتٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ . فَإِنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ مَعَهُنَّ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ**

هَذَا كُلِّهِ: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ أَيْ: وَاعْمَلْنَ بِمَا يُنَزِّلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَاذْكُرْنَ هَذِهِ النِّعْمَةَ الَّتِي خُصِّصْتُنَّ بِهَا مِنْ بَيْنِ النَّاسِ: أَنَّ الْوَحْيَ يَنْزِلُ فِي بُيُوتِكُنَّ دُونَ سَائِرِ النَّاسِ وَعَائِشَةُ الصِّدِّيقَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَوْلَاهُنَّ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ، وَأَحْظَاهُنَّ بِهَذِهِ الْغَنِيمَةِ، وَأَخَصُّهُنَّ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ الْعَمِيمَةِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْوَحْيُ فِي فِرَاشِ امْرَأَةٍ سِوَاهَا، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ**: لِأَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ بِكْرًا سِوَاهَا، وَلَمْ يَنَمْ مَعَهَا رَجُلٌ فِي فِرَاشِهَا سِوَاهُ فَنَاسَبَ أَنْ تُخَصَّصَ بِهَذِهِ الْمَزِيَّةِ، وَأَنْ تُفَرَّدَ بِهَذِهِ الْمَرْتَبَةِ الْعَلِيَّةِ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ أَزْوَاجُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَقَرَابَتُهُ أَحَقُّ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أَيْ: بِلُطْفِهِ بِكُنَّ بَلَغْتُنَّ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ وَبِخِبْرَتِهِ بِكُنَّ، وَأَنَّكُنَّ أَهْلٌ لِذَلِكَ، أَعْطَاكُنَّ ذَلِكَ وَخَصَّكُنَّ بِذَلِكَ.

إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - **زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ**: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا لَنَا لَا نُذْكَرُ فِي الْقُرْآنِ كَمَا يُذْكَرُ الرِّجَالُ؟ قَالَتْ: فَلَمْ يَرُعْنِي مِنْهُ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَّا وَنِدَاؤُهُ عَلَى الْمِنْبَرِ، قَالَتْ: وَأَنَا أُسَرِّحُ شَعْرِي، فَلَفَفْتُ شَعْرِي، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى حُجْرَةٍ مِنْ حُجَرِ بَيْتِي، فَجَعَلْتُ سَمْعِي عِنْدَ الْجَرِيدِ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ عِنْدَ الْمِنْبَرِ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ**: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾» إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ **دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ غَيْرُ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ أَخَصُّ مِنْهُ**؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤]، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**» فَسَلَبَهُ الْإِيمَانَ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ كُفْرُهُ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَخَصُّ مِنْهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ ﴾ **الْقُنُوتُ**: هُوَ الطَّاعَةُ فِي سُكُونٍ ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾ هَذَا فِي الْأَقْوَالِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ خَصْلَةٌ مَحْمُودَةٌ، وَلِهَذَا كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ﷺ لَمْ تُجَرَّبْ عَلَيْهِ كِذْبَةٌ لَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا فِي الْإِسْلَامِ، وَهُوَ عَلَامَةٌ عَلَى الْإِيمَانِ، كَمَا أَنَّ الْكَذِبَ

أَمَارَةٌ عَلَى النِّفَاقِ ، وَمَنْ صَدَقَ نَجَا ﴿ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ ﴾ هَذِهِ سَجِيَّةُ الْأَثْبَاتِ ، وَهِيَ الصَّبْرُ عَلَى المَصَائِبِ ، وَالْعِلْمُ بِأَنَّ الْمُقَدَّرَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ، وَتَلَقِّي ذَلِكَ بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ ، ﴿ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ ﴾ الْخُشُوعُ : السُّكُونُ وَالطُّمَأْنِينَةُ وَالتُّؤَدَةُ وَالْوَقَارُ وَالتَّوَاضُعُ .

﴿ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ ﴾ الصَّدَقَةُ هِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ المَحَاوِيجِ الضُّعَفَاءِ الَّذِينَ لَا كَسْبَ لَهُمْ وَلَا كَاسِبَ ، يُعْطَوْنَ مِنْ فُضُولِ الْأَمْوَالِ طَاعَةً لله وَإِحْسَانًا إِلَى خَلْقِهِ .

﴿ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ ﴾ **قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ دَخَلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ ﴾ ، وَلَمَّا كَانَ الصَّوْمُ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى كَسْرِ الشَّهْوَةِ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ** » نَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ بَعْدَهُ ﴿ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ ﴾ أَيْ : عَنِ المَحَارِمِ وَالمَآثِمِ إِلَّا عَنِ المُبَاحِ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥- ٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ ، فَأَتَى عَلَى جُمْدَانَ فَقَالَ « **هَذَا جُمْدَانُ ، سِيرُوا فَقَدْ سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ** » قَالُوا : وَمَا الْمُفَرِّدُونَ ؟ قَالَ ﷺ : « **الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ** » . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أَيْ : هَيَّأَ لَهُمْ مِنْهُ لِذُنُوبِهِمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا وَهُوَ الْجَنَّةُ .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ۝٣٦

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - حِينَ خَطَبَهَا رَسُولُ الله ﷺ عَلَى مَوْلَاهُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ ، اِمْتَنَعَتْ ثُمَّ أَجَابَتْ ، وَالْآيَةُ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا حَكَمَ اللهُ وَرَسُولُهُ بِشَيْءٍ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مُخَالَفَتُهُ وَلَا اِخْتِيَارَ لِأَحَدٍ هَهُنَا ، وَلَا رَأْيَ وَلَا قَوْلَ ، وَلِهَذَا شَدَّدَ فِي خِلَافِ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣]

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ

وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِمَوْلَاهُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رضي الله عنه وَهُوَ الَّذِي ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : بِالْإِسْلَامِ وَمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : بِالْعِتْقِ مِنَ الرِّقِّ ، وَكَانَ سَيِّدًا كَبِيرَ الشَّأْنِ ، جَلِيلَ الْقَدْرِ ، حَبِيبًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، يُقَالُ لَهُ : الْحِبُّ ، وَيُقَالُ لِابْنِهِ : أُسَامَةُ الْحِبُّ ابْنُ الْحِبِّ ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَدْ زَوَّجَهُ بِابْنَةِ عَمَّتِهِ زَيْنَبَ بِنتِ جَحْشٍ الأَسَدِيَّةِ ، فَمَكَثَتْ عِنْدَهُ قَرِيبًا مِنْ سَنَةٍ أَوْ فَوْقَهَا ، ثُمَّ وَقَعَ بَيْنَهُمَا ، فَجَاءَ زَيْدٌ يَشْكُوهَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ لَهُ : ((**أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ الله**)) قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ الْوَطَرُ : هُوَ الْحَاجَةُ وَالْأَرَبُ ، أَيْ : لَمَّا فَرَغَ مِنْهَا وَفَارَقَهَا زَوَّجْنَاكَهَا ، وَكَانَ الَّذِي وَلِيَ تَزْوِيجَهَا مِنْهُ هُوَ اللهُ ﷻ بِمَعْنَى : أَنَّهُ أَوْحَى أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهَا بِلَا وَلِيٍّ وَلَا عَقْدٍ وَلَا مَهْرٍ وَلَا شُهُودٍ مِنَ الْبَشَرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَبَحْنَا لَكَ تَزْوِيجَهَا وَفَعَلْنَا ذَلِكَ ؛ لِئَلَّا يَبْقَى حَرَجٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَزْوِيجِ مُطَلَّقَاتِ الْأَدْعِيَاءِ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ قَدْ تَبَنَّى زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ رضي الله عنه فَكَانَ يُقَالُ : زَيْدُ ابْنُ مُحَمَّدٍ ، فَلَمَّا قَطَعَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ النِّسْبَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب : ٤-٥] ثُمَّ زَادَ ذَلِكَ بَيَانًا وَتَأْكِيدًا بِوُقُوعِ تَزْوِيجِ رَسُولِ الله ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - لَمَّا طَلَّقَهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رضي الله عنه ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ التَّحْرِيمِ ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] لِيَحْتَرِزَ مِنَ الِابْنِ الدَّعِيِّ ، فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ كَثِيرًا فِيهِمْ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أَيْ : وَكَانَ هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي وَقَعَ قَدْ قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَى وَحَتَّمَهُ ، وَهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ، كَانَتْ زَيْنَبُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - فِي عِلْمِ الله سَتَصِيرُ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ .

مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ أَيْ : فِيمَا أَحَلَّ لَهُ وَأَمَرَهُ بِهِ مِنْ تَزْوِيجِ زَيْنَبَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - الَّتِي طَلَّقَهَا دَعِيُّهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رضي الله عنه .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : هَذَا حُكْمُ الله تَعَالَى فِي الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ ، لَمْ يَكُنْ

لِيَأْمُرَهُمْ بِشَيْءٍ وَعَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ حَرَجٌ ، وَهَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ تَوَهَّمَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ نَقْصًا فِي تَزْوِيجِهِ امْرَأَةَ زَيْدٍ مَوْلَاهُ وَدَعِيِّهِ الَّذِي كَانَ قَدْ تَبَنَّاهُ ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ أَيْ : وَكَانَ أَمْرُهُ الَّذِي يُقَدِّرُهُ كَائِنًا لَا مَحَالَةَ ، وَوَاقِعًا لَا مَحِيدَ عَنْهُ وَلَا مَعْدِلَ ، فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ .

ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

يَمْدَحُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : إِلَى خَلْقِهِ وَيُؤَدُّونَهَا بِأَمَانَتِهَا ﴿ وَيَخْشَوْنَهُۥ ﴾ أَيْ : يَخَافُونَهُ وَلَا يَخَافُونَ أَحَدًا سِوَاهُ ، فَلَا تَمْنَعُهُمْ سَطْوَةُ أَحَدٍ عَنْ إِبْلَاغِ رِسَالَاتِ اللهِ تَعَالَى ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أَيْ : وَكَفَى بِاللهِ نَاصِرًا وَمُعِينًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ نَهَى أَنْ يُقَالَ بَعْدَ هَذَا : زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، أَيْ : لَمْ يَكُنْ أَبَاهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ تَبَنَّاهُ ، فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يَعِشْ لَهُ وَلَدٌ ذَكَرٌ حَتَّى بَلَغَ الْحُلُمَ ، فَإِنَّهُ ﷺ وُلِدَ لَهُ الْقَاسِمُ وَالطَّيِّبُ وَالطَّاهِرُ مِنْ خَدِيجَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - فَمَاتُوا صِغَارًا ، وَوُلِدَ لَهُ ﷺ إِبْرَاهِيمُ مِنْ مَارِيَةَ الْقِبْطِيَّةِ ، فَمَاتَ أَيْضًا رَضِيعًا . ﴿ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[الأنعام : ١٢٤] ، فَهَذِهِ الْآيَةُ نَصٌّ فِي أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ ، وَإِذَا كَانَ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ فَلَا رَسُولَ بِالطَّرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ؛ لِأَنَّ مَقَامَ الرِّسَالَةِ أَخَصُّ مِنْ مَقَامِ النُّبُوَّةِ ، فَإِنَّ كُلَّ رَسُولٍ نَبِيٌّ وَلَا يَنْعَكِسُ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِمْ لِرَبِّهِمْ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - الْمُنْعِمِ عَلَيْهِمْ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ وَصُنُوفِ الْمِنَنِ ، لِمَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ وَجَمِيلِ الْمَآبِ . عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ** ؟ » قَالُوا : وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ ﷺ : « **ذِكْرُ اللهِ ﷻ** » . **وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَفْرِضْ عَلَى

عِبَادِهِ فَرِيضَةً إِلَّا جعَلَ لَهَا حَدًّا مَعْلُومًا، ثُمَّ عَذَرَ أَهْلَهَا فِي حَالِ الْعُذْرِ، غَيْرَ الذِّكْرِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَجْعَلْ لَهُ حَدًّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ، وَلَمْ يَعْذُرْ أَحَدًا فِي تَرْكِهِ إِلَّا مَغْلُوبًا عَلَى تَرْكِهِ، فَقَالَ: ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء: ١٠٣] بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَفِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَالسَّقَمِ وَالصِّحَّةِ، وَالسِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ. **وَقَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أَيْ: عِنْدَ الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ، كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم: ١٧-١٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ هَذَا تَهْيِيجٌ إِلَى الذِّكْرِ، أَيْ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَذْكُرُكُمْ فَاذْكُرُوهُ أَنْتُمْ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**)). **وَالصَّلَاةُ مِنَ اللهِ تَعَالَى**: ثَنَاؤُهُ عَلَى الْعَبْدِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، **وَقِيلَ**: الصَّلَاةُ مِنَ اللهِ ﷻ: الرَّحْمَةُ، وَقَدْ يُقَالُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، وَاللهُ أَعْلَمُ. **وَأَمَّا الصَّلَاةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ**: فَبِمَعْنَى الدُّعَاءِ لِلنَّاسِ وَالِاسْتِغْفَارِ. ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ رَحْمَتِهِ بِكُمْ وَثَنَائِهِ عَلَيْكُمْ، وَدُعَاءِ مَلَائِكَتِهِ لَكُمْ، يُخْرِجُكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ إِلَى نُورِ الْهُدَى وَالْيَقِينِ ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ قَدْ أَخَذَتْ صَبِيًّا لَهَا، لَصِقَتْهُ إِلَى صَدْرِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ ﷺ: ((**أَتَرَوْنَ هَذِهِ تُلْقِي وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟**)) قَالُوا: لَا. قَالَ ﷺ: ((**فَوَاللهِ للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**)).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ﴾ **الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ** - وَاللهُ أَعْلَمُ - ﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ أَيْ: مِنَ اللهِ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ﴾ أَيْ: يَوْمَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ ﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨]، وَزَعَمَ قَتَادَةُ أَنَّ الْمُرَادَ: أَنَّهُمْ يُحَيِّي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالسَّلَامِ يَوْمَ يَلْقَوْنَ اللهَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. **قُلْتُ**: وَقَدْ يُسْتَدَلُّ لَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ يَعْنِي: الْجَنَّةَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ وَالْمَنَاكِحِ وَالْمَلَاذِّ وَالْمَنَاظِرِ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ﴿٤٨﴾

عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ : لَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فَقُلْتُ : أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ ، قَالَ : أَجَلْ ، وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ ، فَأَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي ، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا ، وَآذَانًا صُمًّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿شَٰهِدًا﴾ أَيْ : للهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، وَعَلَى النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أَيْ : بَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِجَزِيلِ الثَّوَابِ ، وَنَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ مِنْ وَبِيلِ الْعِقَابِ . ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أَيْ : دَاعِيًا لِلْخَلْقِ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ عَنْ أَمْرِهِ لَكَ بِذَلِكَ ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ أَيْ : وَأَمْرُكَ ظَاهِرٌ فِيمَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ، كَالشَّمْسِ فِي إِشْرَاقِهَا وَإِضَاءَتِهَا لَا يَجْحَدُهَا إِلَّا مُعَانِدٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أَيْ : لَا تُطِعْهُمْ وَتَسْمَعْ مِنْهُمْ فِي الَّذِي يَقُولُونَهُ ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أَيْ : اِصْفَحْ وَتَجَاوَزْ عَنْهُمْ وَكِلْ أَمْرَهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ فِيهِ كِفَايَةٌ لَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا أَحْكَامٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا إِطْلَاقُ النِّكَاحِ عَلَى الْعَقْدِ وَحْدَهُ ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَصْرَحُ فِي ذَلِكَ مِنْهَا ، وَقَدِ اِخْتَلَفُوا فِي النِّكَاحِ هَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ فِي الْعَقْدِ وَحْدَهُ أَوْ فِي الْوَطْءِ أَوْ فِيهِمَا ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ ، وَاسْتِعْمَالُ الْقُرْآنِ إِنَّمَا هُوَ فِي الْعَقْدِ وَالْوَطْءِ بَعْدَهُ إِلَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، فَإِنَّهُ اُسْتُعْمِلَ فِي الْعَقْدِ وَحْدَهُ لِقَوْلِهِ : ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ ، وَفِيهَا دَلَالَةٌ لِإِبَاحَةِ طَلَاقِ الْمَرْأَةِ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ ، إِذْ لَا فَرْقَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ الْمُؤْمِنَةِ وَالْكِتَابِيَّةِ فِي ذَلِكَ بِالِاتِّفَاقِ . وَقَدِ اِسْتَدَلَّ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ : الطَّلَاقَ لَا يَقَعُ إِلَّا إِذَا تَقَدَّمَهُ نِكَاحٌ ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ فَعَقَّبَ النِّكَاحَ بِالطَّلَاقِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ وَلَا يَقَعُ قَبْلَهُ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ هَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ : أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا طُلِّقَتْ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا لَا عِدَّةَ عَلَيْهَا ، فَتَذْهَبُ فَتَتَزَوَّجُ فِي فَوْرِهَا مَنْ شَاءَتْ وَلَا يُسْتَثْنَى مِنْ هَذَا إِلَّا الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا ، فَإِنَّهَا تَعْتَدُّ مِنْهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ دَخَلَ بِهَا

بِالْإِجْمَاعِ أَيْضًا . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ الْمُتْعَةُ هَهُنَا أَعَمُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ نِصْفَ الصَّدَاقِ الْمُسَمَّى ، أَوِ الْمُتْعَةُ الْخَاصَّةُ إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ سَمَّى لَهَا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٦] ، **وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ وَأَبِي أُسَيْدٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَا** : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَزَوَّجَ أُمَيْمَةَ بِنْتَ شَرَاحِيلَ ، فَلَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَيْهِ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا ، فَكَأَنَّهَا كَرِهَتْ ذَلِكَ ، فَأَمَرَ أَبَا أُسَيْدٍ أَنْ يُجَهِّزَهَا وَيَكْسُوهَا ثَوْبَيْنِ رَازِقِيَّيْنِ . **وَرُوِيَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ** : إِنْ كَانَ سَمَّى لَهَا صَدَاقًا فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا النِّصْفُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ سَمَّى لَهَا صَدَاقًا أَمْتَعَهَا عَلَى قَدْرِ عُسْرِهِ وَيُسْرِهِ ، وَهُوَ السَّرَاحُ الْجَمِيلُ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا نَبِيَّهُ ﷺ بِأَنَّهُ قَدْ أَحَلَّ لَهُ مِنَ النِّسَاءِ أَزْوَاجَهُ اللَّاتِي أَعْطَاهُنَّ مُهُورَهُنَّ وَهِيَ الْأُجُورُ هَهُنَا . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أَيْ : وَأَبَاحَ لَكَ التَّسَرِّي مِمَّا أَخَذْتَ مِنَ الْمَغَانِمِ ، وَقَدْ مَلَكَ صَفِيَّةَ وَجُوَيْرِيَةَ فَأَعْتَقَهُمَا وَتَزَوَّجَهُمَا ، وَمَلَكَ رَيْحَانَةَ بِنْتَ شَمْعُونَ النَّضْرِيَّةَ ، وَمَارِيَةَ الْقِبْطِيَّةَ أُمَّ ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَكَانَتَا مِنَ السَّرَارِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -. ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ﴾ الْآيَةَ . هَذَا عَدْلٌ وَسَطٌ بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ ، فَإِنَّ النَّصَارَى لَا يَتَزَوَّجُونَ الْمَرْأَةَ إِلَّا إِذَا كَانَ الرَّجُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا سَبْعَةُ أَجْدَادٍ فَصَاعِدًا ، وَالْيَهُودُ يَتَزَوَّجُ أَحَدُهُمْ بِنْتَ أَخِيهِ وَبِنْتَ أُخْتِهِ ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ الْكَامِلَةُ الطَّاهِرَةُ بِهَدْمِ إِفْرَاطِ النَّصَارَى ، فَأَبَاحَ بِنْتَ الْعَمِّ وَالْعَمَّةِ وَبِنْتَ الْخَالِ وَالْخَالَةِ ، وَتَحْرِيمِ مَا فَرَّطَتْ فِيهِ الْيَهُودُ مِنْ إِبَاحَةِ بِنْتِ الْأَخِ وَالْأُخْتِ ، وَهَذَا بَشِعٌ فَظِيعٌ ، وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ﴾ فَوَحَّدَ لَفْظَ الذَّكَرِ لِشَرَفِهِ ، وَجَمَعَ الْإِنَاثَ لِنَقْصِهِنَّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ عَنْ أُمِّ هَانِئٍ قَالَتْ : خَطَبَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاعْتَذَرْتُ إِلَيْهِ فَعَذَرَنِي ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ

يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ قَالَتْ : فَلَمْ أَكُنْ أَحِلُّ لَهُ وَلَمْ أَكُنْ مِمَّنْ هَاجَرَ مَعَهُ ، كُنْتُ مِنَ الطُّلَقَاءِ . ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ ﴾ الآيَة . أَيْ : وَيُحِلُّ لَكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ المَرْأَةَ المُؤْمِنَةَ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لَكَ أَنْ تَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ مَهْرٍ إِنْ شِئْتَ ذَلِكَ . **وَعَنْ ثَابِتٍ البُنَانِيِّ قَالَ** : كُنْتُ مَعَ أَنَسٍ جَالِسًا وَعِنْدَهُ اِبْنَةٌ لَهُ ، فَقَالَ أَنَسٌ : جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ : يَا نَبِيَّ الله هَلْ لَكَ فِيَّ حَاجَةٌ ؟ فَقَالَتِ اِبْنَتُهُ : مَا كَانَ أَقَلَّ حَيَاءَهَا ! فَقَالَ : ((**هِيَ خَيْرٌ مِنْكِ رَغِبَتْ فِي النَّبِيِّ فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ نَفْسَهَا**)).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ أَيْ : إِنِ اِخْتَارَ ذَلِكَ ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ **قَالَ عِكْرِمَةُ وغيره** ، أَيْ : لَا تَحِلُّ المَوْهُوبَةُ لِغَيْرِكَ ، وَلَوْ أَنَّ اِمْرَأَةً وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ لَمْ تَحِل لَهُ حَتَّى يُعْطِيَهَا شَيْئًا . أَيْ أَنَّهَا إِذَا فَوَّضَتِ المَرْأَةُ نَفْسَهَا إِلَى رَجُلٍ فَإِنَّهُ مَتَى دَخَلَ بِهَا وَجَبَ عَلَيْهِ بِهَا مَهْرُ مِثْلِهَا ، كَمَا حَكَمَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ فِي تَزْوِيجِ بِنْتِ وَاشِقٍ[1] لَمَّا فَوَّضَتْ ، فَحَكَمَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ بِصَدَاقِ مِثْلِهَا ، لَمَّا تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا ، وَالمَوْتُ وَالدُّخُولُ سَوَاءٌ فِي تَقْرِيرِ المَهْرِ ، وَثُبُوت مَهْرِ المِثْلِ فِي المُفَوِّضَةِ لِغَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَأَمَّا هُوَ عليه السلام فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ لِلْمُفَوَّضَةِ شَيْءٌ وَلَوْ دَخَلَ بِهَا ؛ لِأَنَّ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِغَيْرِ صَدَاقٍ وَلَا وَلِيٍّ وَلَا شُهُودٍ ، كَمَا فِي قِصَّةِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْش - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -، **وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يَقُولُ : لَيْسَ لِامْرَأَةٍ تَهَبُ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ بِغَيْرِ وَلِيٍّ وَلَا مَهْرٍ إِلَّا لِلنَّبِيِّ ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ ﴾ أَيْ : مِنْ حَصْرِهِمْ فِي أَرْبَعِ نِسْوَةٍ حَرَائِرَ وَمَا شَاءُوا مِنَ الإِمَاءِ ، وَاشْتِرَاط الْوَلِيِّ وَالمَهْرِ وَالشُّهُودِ عَلَيْهِمْ ، وَهُمُ الأُمَّةُ ، وَقَدْ رَخَّصْنَا لَكَ فَلَمْ نُوجِبْ عَلَيْكَ شَيْئًا مِنْهُ ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ : كُنْتُ أَغَار من اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ الله ﷺ قَالَتْ : أَلَا تَسْتَحْيِي المَرْأَةُ أَنْ تَعْرِضَ نَفْسَهَا بِغَيْرِ صَدَاقٍ ؟ **فَأَنْزَلَ اللهُ** ﷻ ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ

(١) انظر القصة في مسند أحمد (٣/ ٣٨٠)، وأبي داود (٥/ ٢١١٤) وغيرها . فقد رويت هنالك بسندٍ صحيح .

وَتُؤوِيَ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ الآيَة . قَالَتْ : إِنِّي أَرَى رَبَّكَ يُسَارِعُ لَكَ فِي هَوَاكَ ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ المُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ تُرْجِى ﴾ أَيْ : تُؤَخِّرُ ﴿ مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ أَيْ : مِنَ الْوَاهِبَاتِ ﴿ وَتُؤوِيَ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ أَيْ : مَنْ شِئْتَ قَبِلْتَهَا وَمَنْ شِئْتَ رَدَدْتَهَا ، وَمَنْ رَدَدْتَهَا فَأَنْتَ فِيهَا أَيْضًا بِالْخِيَارِ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْ شِئْتَ عُدْتَ فِيهَا فَأَوَيْتَهَا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ .

وَقَالَ آخَرُونَ : بَلِ المُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ الآيَة . أَيْ : مِنْ أَزْوَاجِكَ لَا حَرَجَ عَلَيْكَ أَنْ تَتْرُكَ الْقَسْمَ لَهُنَّ ، فَتُقَدِّمَ مَنْ شِئْتَ وَتُؤَخِّرَ مَنْ شِئْتَ ، وَتُجَامِعَ مَنْ شِئْتَ ، وَتَتْرُكَ مَنْ شِئْتَ ، وَمَعَ هَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْسِمُ لَهُنَّ ، **اِخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ** : أَنَّ الآيَةَ عَامَّةٌ فِي الْوَاهِبَاتِ وَفِي النِّسَاءِ اللَّاتِي عِنْدَهُ أَنَّهُ مُخَيَّرٌ فِيهِنَّ إِنْ شَاءَ قَسَمَ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَقْسِمْ ، وَهَذَا الَّذِي اِخْتَارَهُ حَسَنٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ أَيْ : إِذَا عَلِمْنَ أَنَّ اللهَ قَدْ وَضَعَ عَنْكَ الْحَرَجَ فِي الْقَسْمِ ، فَإِنْ شِئْتَ قَسَمْتَ ، وَإِنْ شِئْتَ لَمْ تَقْسِمْ ، لَا جُنَاحَ عَلَيْكَ فِي أَيِّ ذَلِكَ فَعَلْتَ ، ثُمَّ مَعَ هَذَا إِنْ تَقْسِمْ لَهُنَّ اِخْتِيَارًا مِنْكَ لَا أَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْوُجُوبِ فَرِحْنَ بِذَلِكَ وَاسْتَبْشَرْنَ بِهِ ، وَحَمَلْنَ جَمِيلَكَ فِي ذَلِكَ ، وَاعْتَرَفْنَ بِمِنَّتِكَ عَلَيْهِنَّ فِي قَسْمِكَ لَهُنَّ ، وَتَسْوِيَتِكَ بَيْنَهُنَّ ، وَإِنْصَافِكَ لَهُنَّ ، وَعَدْلِكَ فِيهِنَّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أَيْ : مِنَ المَيْلِ إِلَى بَعْضِهِنَّ دُونَ بَعْضٍ مِمَّا لَا يُمْكِنُ دَفْعُهُ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أَيْ : بِضَمَائِرِ السَّرَائِرِ ﴿ حَلِيمًا ﴾ أَيْ : يَحْلُمُ وَيَغْفِرُ .

لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ مُجَازَاةً لِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَرِضًا عَنْهُنَّ عَلَى حُسْنِ صَنِيعِهِنَّ فِي اِخْتِيَارِهِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ ، لَمَّا خَيَّرَهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الآيَةِ ، فَلَمَّا اِخْتَرْنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ جَزَاؤُهُنَّ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَصَرَهُ عَلَيْهِنَّ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِغَيْرِهِنَّ أَوْ يَسْتَبْدِلَ بِهِنَّ أَزْوَاجًا غَيْرَهُنَّ وَلَوْ أَعْجَبَهُ حُسْنُهُنَّ ، إِلَّا الإِمَاءَ وَالسَّرَارِيَّ فَلَا حَجْرَ عَلَيْهِ فِيهِنَّ ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى رَفَعَ عَنْهُ الحَجْرَ فِي ذَلِكَ ، وَنَسَخَ حُكْمَ هَذِهِ الآيَةِ وَأَبَاحَ لَهُ التَّزَوُّجَ وَلَكِنْ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ تَزَوُّجٌ لِتَكُونَ المِنَّةُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَيْهِنَّ .

وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ الآيَةَ عَامَّةٌ فِيمَنْ ذُكِرَ مِنْ أَصْنَافِ النِّسَاءِ ، وَفِي النِّسَاءِ اللَّوَاتِي فِي عِصْمَتِهِ وَكُنَّ تِسْعًا وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ جَيِّدٌ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ

نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

هَذِهِ آيَةُ الْحِجَابِ وَفِيهَا أَحْكَامٌ وَآدَابٌ شَرْعِيَّةٌ ، وَهِيَ مِمَّا وَافَقَ تَنْزِيلُهَا قَوْلَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ ، قَالَ : وَافَقْتُ رَبِّي ﷻ فِي ثَلَاثٍ ، ذكر منها : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ نِسَاءَكَ يَدْخُلُ عَلَيْهِنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ فَلَوْ حَجَبْتَهُنَّ ؟ ، فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ الْحِجَابِ . وَكَانَ وَقْتُ نُزُولِهَا فِي صَبِيحَةِ عُرْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ الَّتِي تَوَلَّى اللهُ تَعَالَى تَزْوِيجَهَا بِنَفْسِهِ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : لَمَّا تَزَوَّجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ دَعَا الْقَوْمَ ، فَطَعِمُوا ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ ، فَإِذَا هُوَ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ ، فَلَمْ يَقُومُوا ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ ، فَلَمَّا قَامَ قَامَ مَنْ قَامَ وَقَعَدَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَدْخُلَ فَإِذَا الْقَوْمُ جُلُوسٌ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا فَانْطَلَقْتُ فَجِئْتُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدِ انْطَلَقُوا ، فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ ، فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ فَأَلْقِي الْحِجَابُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ ﴾ الْآيَةَ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ ﴾ حَظْرٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْخُلُوا مَنَازِلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِغَيْرِ إِذْنٍ . ثُمَّ اسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ أَيْ : غَيْرُ مُتَحَيِّنِينَ نُضْجَهُ وَاسْتِوَاءَهُ ، أَيْ : لَا تَرْقُبُوا الطَّعَامَ إِذَا طُبِخَ حَتَّى إِذَا قَارَبَ الِاسْتِوَاءَ تَعَرَّضْتُمْ لِلدُّخُولِ ، فَإِنَّ هَذَا مِمَّا يَكْرَهُهُ اللهُ وَيَذُمُّهُ ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ التَّطْفِيلِ ، وَهُوَ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَرَبُ الضَّيْفَن . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُجِبْ ، عُرْسًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ » ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ أَيْ : كَمَا وَقَعَ لِأُولَئِكَ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ اسْتَرْسَلَ بِهِمُ الْحَدِيثُ وَنَسُوا أَنْفُسَهُمْ ، حَتَّى شَقَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾ ، قِيلَ : الْمُرَادُ أَنَّ دُخُولَكُمْ مَنْزِلَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ كَانَ يَشُقُّ عَلَيْهِ وَيَتَأَذَّى بِهِ ، وَلَكِنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَنْهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ حَيَائِهِ عليه السلام ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ النَّهْيَ عَنْ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : وَكَمَا نَهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ وَزَجَرَكُمْ عَنْهُ . ثُمَّ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ أَيْ : وَكَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنِ الدُّخُولِ عَلَيْهِنَّ ، كَذَلِكَ لَا تَنْظُرُوا إِلَيْهِنَّ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَلَوْ كَانَ لِأَحَدِكُمْ حَاجَةٌ يُرِيدُ تَنَاوُلَهَا مِنْهُنَّ فَلَا يَنْظُرْ إِلَيْهِنَّ ، وَلَا يَسْأَلْهُنَّ حَاجَةً إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ . ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَشَرَعْتُهُ لَكُمْ مِنَ الْحِجَابِ أَطْهَرُ وَأَطْيَبُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ، وَلِهَذَا أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ قَاطِبَةً عَلَى : أَنَّ مَنْ تُوُفِّيَ عَنْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَزْوَاجِهِ أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى غَيْرِهِ تَزَوُّجُهَا مِنْ بَعْدِهِ ؛ لِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا تَقَدَّمَ . وَقَدْ عَظَّمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَلِكَ وَشَدَّدَ فِيهِ وَتَوَعَّدَ عَلَيْهِ **بِقَوْلِهِ** : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ أَيْ : مَهْمَا تُكِنُّهُ ضَمَائِرُكُمْ وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ سَرَائِرُكُمْ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ ، فَإِنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾[غافر : ١٩]

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

لَمَّا أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النِّسَاءَ بِالْحِجَابِ مِنَ الْأَجَانِبِ ، بَيَّنَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَقَارِبَ لَا يَجِبُ الِاحْتِجَابُ مِنْهُمْ ، كَمَا اسْتَثْنَاهُمْ فِي « سُورَةِ النُّورِ » عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾[النور : ٣١] ، وَفِيهَا زِيَادَاتٌ عَلَى هَذِهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا وَالْكَلَامُ عَلَيْهَا بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا ، **وَقَدْ سَأَلَ بَعْضُ السَّلَفِ فَقَالَ** : لِمَ لَمْ يَذْكُرِ الْعَمَّ وَالْخَالَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ؟ **فَأَجَابَ عِكْرِمَةُ وَالشَّعْبِيُّ** : بِأَنَّهُمَا لَمْ يُذْكَرَا ؛ لِأَنَّهُمَا قَدْ يَصِفَانِ ذَلِكَ لِبَنِيهِمَا . وَكَرِهَا أَنْ تَضَعَ خِمَارَهَا عِنْدَ خَالِهَا وَعَمِّهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا نِسَآئِهِنَّ ﴾ يَعْنِي : بِذَلِكَ عَدَمَ الِاحْتِجَابِ مِنَ النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ . ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ يَعْنِي : بِهِ أَرِقَّاءَهُنَّ مِنَ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ ، **قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ** : إِنَّمَا يَعْنِي بِهِ الْإِمَاءَ فَقَطْ . ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ أَيْ : وَاخْشَيْنَهُ فِي الْخَلْوَةِ وَالْعَلَانِيَةِ ، فَإِنَّهُ شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، فَرَاقِبْنَ الرَّقِيبَ .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾

قَالَ **الْبُخَارِيُّ** : قَالَ **أَبُو الْعَالِيَةِ** : صَلَاةُ اللهِ تَعَالَى ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ الدُّعَاءُ ، **وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: يُصَلُّونَ : يُبَرِّكُونَ . هَكَذَا عَلَّقَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْهُمَا ، **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : صَلَاةُ الرَّبِّ : الرَّحْمَةُ ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ : الِاسْتِغْفَارُ ، **وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ** : أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخْبَرَ عِبَادَهُ بِمَنْزِلَةِ عَبْدِهِ وَنَبِيِّهِ عِنْدَهُ فِي الْمَلَإِ الْأَعْلَى ، بِأَنَّهُ يُثْنِي عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُصَلِّي عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى أَهْلَ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ عَلَيْهِ ؛ لِيَجْتَمِعَ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمَيْنِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ جَمِيعًا . وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأَنَّهُ يُصَلِّي عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب : ٤١-٤٣] ، وَفِي الْحَدِيثِ : « **اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى** » ، وَقَدْ جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْأَمْرِ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَكَيْفِيَّةِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ ، عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ قَالَ : قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَمَّا السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ ، فَكَيْفَ الصَّلَاةُ ؟ فَقَالَ : « **قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ** » . وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ : أَمَّا السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ ، هُوَ الَّذِي فِي التَّشَهُّدِ الَّذِي كَانَ يُعَلِّمُهُمْ إِيَّاهُ ، كَمَا كَانَ يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَفِيهِ « **السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ** » .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا مُّهِينًا ٥٧ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنًا وَإِثۡمًا مُّبِينًا ٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا وَمُتَوَعِّدًا مَنْ آذَاهُ بِمُخَالَفَةِ أَوَامِرِهِ وَارْتِكَابِ زَوَاجِرِهِ ، وَإِصْرَارِهِ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِيذَاءِ رَسُولِهِ بِعَيْبٍ أَوْ بِنَقْصٍ ، عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ . **قَالَ عِكْرِمَةُ** ﷺ **فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ نَزَلَتْ فِي الْمُصَوِّرِينَ . **وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ آذَاهُ بِشَيْءٍ** ، وَمَنْ آذَاهُ فَقَدْ آذَى اللهَ ، كَمَا أَنَّ مَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ﴾ أَيْ : يَنْسُبُونَ إِلَيْهِمْ مَا هُمْ بُرَآءُ مِنْهُ لَمْ يَعْمَلُوهُ وَلَمْ يَفْعَلُوهُ ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنًا وَإِثۡمًا مُّبِينًا﴾ وَهَذَا هُوَ الْبُهْتُ

البَيِّنُ أَنْ يُحْكَى أَوْ يُنْقَلَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مَا لَمْ يَفْعَلُوهُ عَلَى سَبِيلِ الْعَيْبِ وَالتَّنَقُّصِ لَهُمْ .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ : ((**أَيُّ الرِّبَا أَرْبَى عِنْدَ اللهِ ؟**)) قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : ((**أَرْبَى الرِّبَا عِنْدَ اللهِ : اِسْتِحْلَالُ عِرْضِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ**)) ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا : أَنْ يَأْمُرَ النِّسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ الْمُسْلِمَاتِ - خَاصَّةً أَزْوَاجَهُ وَبَنَاتَهُ لِشَرَفِهِنَّ - بِأَنْ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ؛ لِيَتَمَيَّزْنَ عَنْ سِمَاتِ نِسَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ وَسِمَاتِ الْإِمَاءِ . وَالْجِلْبَابُ هُوَ : الرِّدَاءُ فَوْقَ الْخِمَارِ . **قَالَ الْجَوْهَرِيُّ** : الْجِلْبَابُ الْمِلْحَفَةُ ، **وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : أَمَرَ اللهُ نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا خَرَجْنَ مِنْ بُيُوتِهِنَّ فِي حَاجَةٍ أَنْ يُغَطِّينَ وُجُوهَهُنَّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِنَّ بِالْجَلَابِيبِ ، وَيُبْدِينَ عَيْنًا وَاحِدَةً . **وَقَالَ عِكْرِمَةُ** : تُغَطِّي ثُغْرَةَ نَحْرِهَا بِجِلْبَابِهَا تُدْنِيهِ عَلَيْهَا . **وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ** : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ خَرَجَ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِهِنَّ الْغِرْبَانُ مِنَ السَّكِينَةِ ، وَعَلَيْهِنَّ أَكْسِيَةٌ سُودٌ يَلْبَسْنَهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ أَيْ : إِذَا فَعَلْنَ ذَلِكَ عُرِفْنَ أَنَّهُنَّ حَرَائِرُ لَسْنَ بِإِمَاءٍ وَلَا عَوَاهِرَ . ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أَيْ : لِمَا سَلَفَ فِي أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُنَّ عِلْمٌ بِذَلِكَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِلْمُنَافِقِينَ - وَهُمُ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ - ﴿ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ **قَالَ عِكْرِمَةُ وَغَيْرُهُ** : هُمُ الزُّنَاةُ هَهُنَا ﴿ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ يَقُولُونَ : جَاءَ الْأَعْدَاءُ وَجَاءَتِ الْحُرُوبُ ، وَهُوَ كَذِبٌ وَافْتِرَاءٌ ؛ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَنْ ذَلِكَ وَيَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ أَيْ : لَنُسَلِّطَنَّكَ عَلَيْهِمْ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : لَنُحَرِّشَنَّكَ بِهِمْ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : لَنُعْلِمَنَّكَ بِهِمْ ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ ﴾ أَيْ : فِي الْمَدِينَةِ ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ﴾ حَالَ مِنْهُمْ فِي مُدَّةِ إِقَامَتِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ مُدَّةً قَرِيبَةً مَطْرُودِينَ مُبْعَدِينَ ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ ﴾ أَيْ : وُجِدُوا ﴿ أُخِذُوا۟ ﴾ لِذِلَّتِهِمْ وَقِلَّتِهِمْ ﴿ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : هَذِهِ سُنَّتُهُ فِي الْمُنَافِقِينَ إِذَا تَمَرَّدُوا

عَلَى نِفَاقِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَلَمْ يَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ ، أَنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ يُسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ وَيَقْهَرُونَهُمْ ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أَيْ : وَسُنَّةُ اللهِ فِي ذَٰلِكَ لَا تُبَدَّلُ وَلَا تُغَيَّرُ .

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا لِرَسُولِهِ – صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ – أَنَّهُ لَا عِلْمَ لَهُ بِالسَّاعَةِ ، وَإِنْ سَأَلَهُ النَّاسُ عَنْ ذَلِكَ ، وَأَرْشَدَهُ أَنْ يَرُدَّ عِلْمَهَا إِلَى اللهِ ﷻ ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي « سُورَةِ الْأَعْرَافِ » وَهِيَ مَكِّيَّةٌ وَهَذِهِ مَدَنِيَّةٌ ، فَاسْتَمَرَّ الْحَالُ فِي رَدِّ عِلْمِهَا إِلَى الَّذِي يُقِيمُهَا ، لَكِنْ أَخْبَرَهُ أَنَّهَا قَرِيبَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : أَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ مُسْتَمِرِّينَ فَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا وَلَا زَوَالَ لَهُمْ عَنْهَا ﴿ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أَيْ : وَلَيْسَ لَهُمْ مُغِيثٌ وَلَا مُعِينٌ يُنْقِذُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ أَيْ : يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَتُلْوَى وُجُوهُهُمْ عَلَى جَهَنَّمَ ، يَقُولُونَ وَهُمْ كَذَلِكَ ، يَتَمَنَّوْنَ أَنْ لَوْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِمَّنْ أَطَاعَ اللهَ وَأَطَاعَ الرَّسُولَ ، وَهَكَذَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي حَالَتِهِمْ هَذِهِ أَنَّهُمْ يَوَدُّونَ أَنْ لَوْ كَانُوا أَطَاعُوا اللهَ وَأَطَاعُوا الرَّسُولَ فِي الدُّنْيَا ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ ، وَقَالَ طَاوُسٌ : ﴿ سَادَتَنَا ﴾ يَعْنِي : الْأَشْرَافَ ، ﴿ وَكُبَرَآءَنَا ﴾ يَعْنِي : الْعُلَمَاءَ . أَيْ : اتَّبَعْنَا السَّادَةَ وَهُمُ الْأُمَرَاءُ وَالْكُبَرَاءُ مِنَ الْمَشْيَخَةِ ، وَخَالَفْنَا الرُّسُلَ وَاعْتَقَدْنَا أَنَّ عِنْدَهُمْ شَيْئًا وَأَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ، فَإِذَا هُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ أَيْ : بِكُفْرِهِمْ وَإِغْوَائِهِمْ إِيَّانَا ﴿ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّ مُوسَى** عليه السلام **كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا ، لَا يُرَى**

مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اِسْتِحْيَاءً مِنْهُ ، فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَقَالُوا : مَا يَتَسَتَّرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ فِي جِلْدِهِ ، إِمَّا بَرَصٌ ، وَإِمَّا أُدْرَةٌ ، وَإِمَّا آفَةٌ وَإِنَّ اللهَ ﷻ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى ﵇ ، فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ فَخَلَعَ ثِيَابَهُ عَلَى حَجَرٍ ، ثُمَّ اِغْتَسَلَ ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ عَلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَإِنَّ الحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الحَجَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ : ثَوْبِي حَجَر ، ثَوْبِي حَجَر حَتَّى اِنْتَهَى إِلَى مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللهُ ﷻ ، وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ ، وَقَامَ الحَجَرُ ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ ، وَطَفِقَ بِالحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ ، فَوَاللهِ إِنَّ بِالحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا » قَالَ : فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ . وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ ﵁ قَالَ : قَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ قَسْمًا ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ : إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ ، قَالَ : فَقُلْتُ : يَا عَدُوَّ اللهِ أَمَا لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِمَا قُلْتَ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَاحْمَرَّ وَجْهُهُ ، ثُمَّ قَالَ : « رَحْمَةُ اللهِ عَلَى مُوسَى ، فَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ أَيْ : لَهُ وَجَاهَةٌ وَجَاهٌ عِنْدَ رَبِّهِ ﷻ ، قَالَ الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : كَانَ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ عِنْدَ اللهِ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ وَأَنْ يَعْبُدُوهُ عِبَادَةَ مَنْ كَأَنَّهُ يَرَاهُ ، وَأَنْ يَقُولُوا : ﴿ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ أَيْ : مُسْتَقِيمًا لَا اِعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا اِنْحِرَافَ . وَوَعَدَهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَثَابَهُمْ عَلَيْهِ بِأَنْ يُصْلِحَ لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ، أَيْ : يُوَفِّقُهُمْ لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَهُمُ الذُّنُوبَ الْمَاضِيَةَ ، وَمَا قَدْ يَقَعُ مِنْهُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ يُلْهِمُهُمُ التَّوْبَةَ مِنْهَا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُجَارُ مِنَ نَارِ الْجَحِيمِ ، وَيَصِيرُ إِلَى النَّعِيمِ الْمُقِيمِ .

إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

قِيلَ : يَعْنِي بِالْأَمَانَةِ : الطَّاعَةَ ، وَقِيلَ : الْأَمَانَةُ : الْفَرَائِضُ ، عَرَضَهَا اللهُ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ إِنْ أَدَّوْهَا أَثَابَهُمْ ، وَإِنْ ضَيَّعُوهَا عَذَّبَهُمْ ، فَكَرِهُوا ذَلِكَ وَأَشْفَقُوا مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، وَلَكِنْ

تَعْظِيمًا لِدِينِ اللهِ أَنْ لَا يَقُومُوا بِهَا ، ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَى آدَمَ فَقَبِلَهَا بِمَا فِيهَا ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ يَعْنِي : غِرًّا بِأَمْرِ اللهِ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : عُرِضَتْ عَلَى آدَمَ ، فَقَالَ : خُذْهَا بِمَا فِيهَا ، فَإِنْ أَطَعْتَ غَفَرْتُ لَكَ ، وَإِنْ عَصَيْتَ عَذَّبْتُكَ ، قَالَ : قَبِلْتُ . فَمَا كَانَ إِلَّا قَدْرَ مَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، حَتَّى أَصَابَ الْخَطِيئَةَ .

وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾ قَالَ : عَرَضَهَا عَلَى السَّبْعِ الطِّبَاقِ الطَّرَائِقِ الَّتِي زُيِّنَتْ بِالنُّجُومِ ، وَحَمَلَةِ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، فَقِيلَ لَهَا : هَلْ تَحْمِلِينَ الْأَمَانَةَ وَمَا فِيهَا ؟ قَالَتْ : وَمَا فِيهَا ؟ قَالَ : قِيلَ لَهَا : إِنْ أَحْسَنْتِ جُزِيتِ ، وَإِنْ أَسَأْتِ عُوقِبْتِ ، قَالَتْ : لَا ، ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَى الْأَرَضِينَ السَّبْعِ الشِّدَادِ الَّتِي شُدَّتْ بِالْأَوْتَادِ وَذُلِّلَتْ بِالْمِهَادِ ، قَالَ : فَقِيلَ لَهَا : هَلْ تَحْمِلِينَ الْأَمَانَةَ وَمَا فِيهَا ؟ قَالَتْ : وَمَا فِيهَا ؟ قَالَ : قِيلَ لَهَا : إِنْ أَحْسَنْتِ جُزِيتِ ، وَإِنْ أَسَأْتِ عُوقِبْتِ ، قَالَتْ : لَا ، ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَى الْجِبَالِ الشُّمِّ الشَّوَامِخِ الصِّعَابِ الصِّلَابِ ، قَالَ : قِيلَ لَهَا : هَلْ تَحْمِلِينَ الْأَمَانَةَ وَمَا فِيهَا ؟ قَالَتْ : وَمَا فِيهَا ؟ قَالَ لَهَا : إِنْ أَحْسَنْتِ جُزِيتِ ، وَإِنْ أَسَأْتِ عُوقِبْتِ ، قَالَتْ : لَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا حَمَّلَ بَنِي آدَمَ الْأَمَانَةَ - وَهِيَ التَّكَالِيفُ - لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ مِنْهُمْ وَالْمُنَافِقَاتِ ، وَهُمُ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ خَوْفًا مِنْ أَهْلِهِ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ مُتَابَعَةً لِأَهْلِهِ ﴿ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ﴾ وَهُمُ الَّذِينَ ظَاهِرُهُمْ وَبَاطِنُهُمْ عَلَى الشِّرْكِ بِاللهِ ﷻ وَمُخَالَفَةِ رُسُلِهِ ﴿ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾ أَيْ : وَلِيَرْحَمَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْخَلْقِ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَحْزَابِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسير سورة سبأ

آياتها ٥٤ — مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ لَهُ الْحَمْدُ الْمُطْلَقُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة ؛ لأَنَّهُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، الْمَالِكُ لِجَمِيعِ ذَلِكَ ، الْحَاكِمُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠] ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا** : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ **أَيْ** : الْجَمِيعُ مُلْكُهُ وَعَبِيدُهُ وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَقَهْرِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ [الليل : ١٣] ، **ثُمَّ قَالَ** ﷻ ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ فَهُوَ الْمَعْبُودُ أَبَدًا ، الْمَحْمُودُ عَلَى طُولِ الْمَدَى . ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾ **أَيْ** : فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ ، **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ **أَيْ** : يَعْلَمُ عَدَدَ الْقَطْرِ النَّازِلِ فِي أَجْزَاءِ الْأَرْضِ وَالْحَبِّ الْمَبْذُورِ وَالْكَامِنِ فِيهَا ، وَيَعْلَمُ مَا يَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ ، عَدَدُهُ وَكَيْفِيَّتُهُ وَصِفَاتُهُ ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ **أَيْ** : مِنْ قَطْرٍ وَرِزْقٍ ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ **أَيْ** : مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ **أَيْ** : الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ فَلَا يُعَاجِلُ عُصَاتَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ ، الْغَفُورُ عَنْ ذُنُوبِ التَّائِبِينَ إِلَيْهِ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾

هَذِهِ إِحْدَى الْآيَاتِ الثَّلَاث الَّتِي لَا رَابِعَ لَهُنَّ مِمَّا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُقْسِمَ بِرَبِّهِ الْعَظِيمِ عَلَى وُقُوعِ الْمَعَادِ ؛ لَمَّا أَنْكَرَهُ مَنْ أَنْكَرَهُ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ ، فَإِحْدَاهُنَّ فِي « سُورَةِ يُونُسَ » : ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس : ٥٣] وَالثَّانِيَةُ هَذِهِ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ، وَالثَّالِثَةُ فِي « التَّغَابُنِ » : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن : ٧] ، ثُمَّ وَصَفَهُ بِمَا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ وَيُقَرِّرُهُ : ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ** : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ لَا يَغِيبُ عَنْهُ ، أَيْ : الْجَمِيعُ مُنْدَرِجٌ تَحْتَ عِلْمِهِ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَالْعِظَامُ وَإِنْ تَلَاشَتْ وَتَفَرَّقَتْ وَتَمَزَّقَتْ فَهُوَ عَالِمٌ أَيْنَ ذَهَبَتْ ؟ ، وَأَيْنَ تَفَرَّقَتْ ؟ ، ثُمَّ يُعِيدُهَا كَمَا بَدَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَإِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . ثُمَّ بَيَّنَ حِكْمَتَهُ فِي إِعَادَةِ الْأَبْدَانِ وَقِيَامِ السَّاعَةِ بِقَوْلِهِ :

لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٦﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ أَيْ : سَعَوْا فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ الله تَعَالَى وَتَكْذِيبِ رُسُلِهِ ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : لِيُنَعِّمَ السُّعَدَاءَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيُعَذِّبَ الْأَشْقِيَاءَ مِنَ الْكَافِرِينَ ، كَمَا قَالَ : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ هَذِهِ حِكْمَةٌ أُخْرَى مَعْطُوفَةٌ عَلَى الَّتِي قَبْلَهَا وَهِيَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى الرُّسُلِ إِذَا شَاهَدُوا قِيَامَ السَّاعَةِ وَمُجَازَاةَ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ بِالَّذِي كَانُوا قَدْ عَلِمُوهُ مِنْ كُتُبِ الله تَعَالَى فِي الدُّنْيَا ، رَأَوْهُ حِينَئِذٍ عَيْنَ الْيَقِينِ ، وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ أَيْضًا ﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٤٣] وَيُقَالُ أَيْضًا ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس : ٥٢] ، **قَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ الْعَزِيزُ : هُوَ الْمَنِيعُ الْجَنَابِ الَّذِي لَا يُغَالَبُ وَلَا يُمَانَعُ ، بَلْ قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ، الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ الله ﷻ عَنِ اسْتِبْعَادِ الْكَفَرَةِ الْمُلْحِدِينَ قِيَامَ السَّاعَةِ ، وَاسْتِهْزَائِهِمْ بِالرَّسُولِ ﷺ فِي إِخْبَارِهِ بِذَلِكَ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أَيْ : تَفَرَّقَتْ أَجْسَادُكُمْ فِي الْأَرْضِ وَذَهَبَتْ فِيهَا كُلَّ مَذْهَبٍ ، وَتَمَزَّقَتْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أَيْ : بَعْدَ هَذَا الْحَالِ ﴿ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أَيْ : تَعُودُونَ أَحْيَاءً تُرْزَقُونَ بَعْدَ ذَلِكَ . وَهُوَ فِي هَذَا الْإِخْبَارِ لَا يَخْلُو أَمْرُهُ مِنْ قِسْمَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ تَعَمَّدَ الِافْتِرَاءَ عَلَى الله تَعَالَى أَنَّهُ قَدْ أَوْحَى إِلَيْهِ ذَلِكَ ، أَوْ أَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ ، لَكِنْ لُبِّسَ عَلَيْهِ كَمَا يُلَبَّسُ عَلَى الْمَعْتُوهِ وَالْمَجْنُونِ ، **وَلِهَذَا قَالُوا** : ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾ **قَالَ الله** ﷻ **رَادًّا عَلَيْهِمْ** ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ

﴿ٱلْبَعِيدِ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا وَلَا كَمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ ، بَلْ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ الصَّالِحُ الْبَارُّ الرَّاشِدُ الَّذِي جَاءَ بِالْحَقِّ ، وَهُمُ الْكَذَبَةُ الْجَهَلَةُ الْأَغْبِيَاءُ ﴿فِي ٱلْعَذَابِ﴾ أَيْ : الْكُفْرِ الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى عَذَابِ اللهِ تَعَالَى : ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ مِنَ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا لَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، **فَقَالَ** : ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ : حَيْثُمَا تَوَجَّهُوا وَذَهَبُوا ، فَالسَّمَاءُ مُظِلَّةٌ مُظَلِّلَةٌ عَلَيْهِمْ ، وَالْأَرْضُ تَحْتَهُمْ ، كَمَا قَالَ ﷻ ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات : ٤٧-٤٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أَيْ : لَوْ شِئْنَا لَفَعَلْنَا بِهِمْ ذَلِكَ لِظُلْمِهِمْ وَقُدْرَتِنَا عَلَيْهِمْ ، وَلَكِنْ نُؤَخِّرُ ذَلِكَ لِحِلْمِنَا وَعَفْوِنَا ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ **قِيلَ** : ﴿مُّنِيبٍ﴾ تَائِبٌ ، أَيْ : إِنَّ فِي النَّظَرِ إِلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَدَلَالَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ فَطِنٍ لَبِيبٍ رَجَّاعٍ إِلَى اللهِ ، عَلَى قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى بَعْثِ الْأَجْسَادِ وَوُقُوعِ الْمَعَادِ ؛ لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِ هَذِهِ السَّمَاوَاتِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا ، وَهَذِهِ الْأَرَضِينَ فِي انْخِفَاضِهَا وَأَطْوَالِهَا وَأَعْرَاضِهَا إِنَّهُ لَقَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ الْأَجْسَامِ وَنَشْرِ الرَّمِيمِ مِنَ الْعِظَامِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر : ٥٧]

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ دَاوُدَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مِمَّا آتَاهُ مِنَ الْفَضْلِ الْمُبِينِ ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ الْمُتَمَكِّنِ وَالْجُنُودِ ذَوِي الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ ، وَمَا أَعْطَاهُ وَمَنَحَهُ مِنَ الصَّوْتِ الْعَظِيمِ الَّذِي كَانَ إِذَا سَبَّحَ بِهِ تُسَبِّحُ مَعَهُ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ الصُّمُّ الشَّامِخَاتُ ، وَتَقِفُ لَهُ الطُّيُورُ السَّارِحَاتُ ، وَالْغَادِيَاتُ وَالرَّائِحَاتُ ، وَتُجَاوِبُهُ بِأَنْوَاعِ اللُّغَاتِ ، ﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أَيْ رَجِّعِي مَعَهُ مُسَبِّحَةً ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : كَانَ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يُدْخِلَهُ نَارًا ، وَلَا يَضْرِبُهُ بِمِطْرَقَةٍ ، بَلْ كَانَ يَفْتِلُهُ بِيَدِهِ مِثْلَ الْخُيُوطِ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ وَهِيَ الدُّرُوعُ ، ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ دَاوُدَ عليه السلام فِي تَعْلِيمِهِ صَنْعَةَ الدُّرُوعِ . **قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ** : ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ لَا تُدِقَّ الْمِسْمَارَ فَيَقْلَقَ فِي الْحَلْقَةِ ، وَلَا تُغَلِّظْهُ فَيَفْصِمَهَا وَاجْعَلْهُ بِقَدَرٍ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ أَيْ : فِي الَّذِي أَعْطَاكُمُ اللهُ تَعَالَى مِنَ النِّعَمِ ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَيْ : مُرَاقِبٌ لَكُمْ ، بَصِيرٌ بِأَعْمَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمْ ، لَا يَخْفَى عَلَيَّ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ .

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى دَاوُدَ عَطَفَ بِذِكْرِ مَا أَعْطَى ابْنَهُ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - مِنْ تَسْخِيرِ الرِّيحِ لَهُ تَحْمِلُ بِسَاطَهُ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ القَطْرُ : النُّحَاسُ . ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ أَيْ : وَسَخَّرْنَا لَهُ الْجِنَّ يَعْمَلُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، أَيْ : بِقَدَرِهِ ، وَتَسْخِيرِهِ لَهُمْ بِمَشِيئَتِهِ مَا يَشَاءُ مِنَ الْبِنَايَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ أَيْ : وَمَنْ يَعْدِلْ وَيَخْرُجْ مِنْهُمْ عَنِ الطَّاعَةِ ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ وَهُوَ الْحَرِيقُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ ﴾ أَمَّا الْمَحَارِيبُ : فَهِيَ الْبِنَاءُ الْحَسَنُ ، وَهُوَ أَشْرَفُ شَيْءٍ فِي الْمَسْكَنِ وَصَدْرِهِ ، وَأَمَّا التَّمَاثِيلُ : الصُّوَرُ ، **وَقِيلَ** : كَانَتْ مِنْ نُحَاسٍ ، **وَقِيلَ** : مِنْ طِينٍ وَزُجَاجٍ . ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ الْجَوَابُ : جَمْعُ جَابِيَةٍ : وَهِيَ الْحَوْضُ الَّذِي يُجْبَى فِيهِ الْمَاءُ ، **وَقِيلَ** : ﴿ كَٱلْجَوَابِ ﴾ أَيْ : كَالْجَوْبَةِ مِنَ الْأَرْضِ ، **وَقِيلَ** : كَالْحِيَاضِ ، وَالْقُدُورُ الرَّاسِيَاتُ : أَيِ الثَّابِتَاتُ فِي أَمَاكِنِهَا لَا تَتَحَرَّكُ وَلَا تَتَحَوَّلُ عَنْ أَمَاكِنِهَا لِعِظَمِهَا . ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ أَيْ : وَقُلْنَا لَهُمُ اعْمَلُوا شُكْرًا عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا . فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الشُّكْرَ يَكُونُ بِالْفِعْلِ كَمَا يَكُونُ بِالْقَوْلِ وَالنِّيَّةِ . **قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ** : الصَّلَاةُ شُكْرٌ : وَالصِّيَامُ شُكْرٌ ، وَكُلُّ خَيْرٍ تَعْمَلُهُ للهِ ﷻ شُكْرٌ ، وَأَفْضَلُ الشُّكْرِ الْحَمْدُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ . **ثُمَّ يَذْكُرُ تَعَالَى** كَيْفِيَّةَ مَوْتِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَيْفَ عَمَّى اللهُ مَوْتَهُ عَلَى الْجَانِّ الْمُسَخَّرِينَ لَهُ فِي الْأَعْمَالِ الشَّاهِقَةِ ، فَإِنَّهُ مَكَثَ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصَاهُ وَهِيَ مِنْسَأَتُهُ مُدَّةً طَوِيلَةً نَحْوًا مِنْ سَنَةٍ فَلَمَّا أَكَلَتْهَا دَابَّةُ الْأَرْضِ وَهِيَ الْأَرَضَةُ ، ضَعُفَتْ وَسَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ ، وَعُلِمَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ ، تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَيْضًا أَنَّ الْجِنَّ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ، كَمَا كَانُوا يَتَوَهَّمُونَ وَيُوهِمُونَ النَّاسَ ذَلِكَ .

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ

وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ﴿١٥﴾ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿١٩﴾

كَانَتْ سَبَأٌ مُلُوكُ الْيَمَنِ وَأَهْلُهَا ، وَكَانَتِ التَّبَابِعَةُ مِنْهُمْ ، وَبَلْقِيسُ صَاحِبَةُ سُلَيْمَانَ ﷺ مِنْ جُمْلَتِهِمْ ، وَكَانُوا فِي نِعْمَةٍ وَغِبْطَةٍ فِي بِلَادِهِمْ وَعَيْشِهِمْ ، وَاتِّسَاعِ أَرْزَاقِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ وَثِمَارِهِمْ ، وَبَعَثَ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ تَأْمُرُهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ، وَيَشْكُرُوهُ بِتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ فَكَانُوا كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، ثُمَّ أَعْرَضُوا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ ، فَعُوقِبُوا بِإِرْسَالِ السَّيْلِ وَالتَّفَرُّقِ فِي الْبِلَادِ أَيْدِي سَبَأ ، شَذَرَ مَذَرَ . وَكَانَ مِنْ أَمْرِ السَّدِّ أَنَّهُ كَانَ الْمَاءُ يَأْتِيهِمْ مِنْ بَيْنِ جَبَلَيْنِ وَتَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَيْضًا سُيُولُ أَمْطَارِهِمْ وَأَوْدِيَتِهِمْ ، فَعَمَدَ مُلُوكُهُمُ الْأَقَادِمُ فَبَنَوْا بَيْنَهُمَا سَدًّا عَظِيمًا مُحْكَمًا حَتَّى ارْتَفَعَ الْمَاءُ وَحَكَمَ عَلَى حَافَّاتِ ذَيْنِكَ الْجَبَلَيْنِ ، فَغَرَسُوا الْأَشْجَارَ وَاسْتَغَلُّوا الثِّمَارَ فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْكَثْرَةِ وَالْحُسْنِ ، وَكَانَ هَذَا السَّدُّ بِمَأْرِبَ : بَلْدَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ صَنْعَاءَ ثَلَاثُ مَرَاحِلَ ، وَيُعْرَفُ بِسَدِّ مَأْرِبَ . قِيلَ : أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِبَلَدِهِمْ شَيْءٌ مِنَ الذُّبَابِ وَلَا الْبَعُوضِ وَلَا الْبَرَاغِيثِ وَلَا شَيْءٍ مِنَ الْهَوَامِ ، وَذَلِكَ لِاعْتِدَالِ الْهَوَاءِ ، وَصِحَّةِ الْمِزَاجِ ، وَعِنَايَةِ اللهِ بِهِمْ ؛ لِيُوَحِّدُوهُ وَيَعْبُدُوهُ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞ ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖ ﴾ أَيْ : مِنْ نَاحِيَتَيِ الْجَبَلَيْنِ ، وَالْبَلْدَة بَيْنَ ذَلِكَ ﴿ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ﴾ أَيْ : غَفُورٌ لَكُمْ إِنِ اسْتَمْرَرْتُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَعۡرَضُواْ ﴾ أَيْ : عَنْ تَوْحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَشُكْرِهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ وَعَدَلُوا إِلَى عِبَادَةِ الشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ، كَمَا قَالَ الْهُدْهُدُ لِسُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - : ﴿ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [النمل:٢٢-٢٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ ﴾ الْمُرَادُ بِالْعَرِمِ : الْمِيَاهُ ، وَقِيلَ : الْمَاءُ الْغَزِيرُ ، وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ : أَنَّ اللهَ ﷻ لَمَّا أَرَادَ عُقُوبَتَهُمْ بِإِرْسَالِ الْعَرِمِ عَلَيْهِمْ ، بَعَثَ عَلَى السَّدِّ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ ،

يُقَالُ لَهَا « الجُرُذُ » نَقَبَتْهُ . فَانْهَارَ عَلَيْهِمْ . كَمَا قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ : وَهُوَ الأَرَاكُ ، أُكُلُهُ : البَرِيرُ ﴿ وَأَثْلٍ ﴾ قِيلَ : هُوَ الطَّرْفَاءُ ، وَقِيلَ : هُوَ شَجَرٌ يُشْبِهُ الطَّرْفَاءَ ، وَقِيلَ : هُوَ السَّمُرُ . وَاللهُ أَعْلَمُ . وَلَمَّا كَانَ أَجْوَدَ هَذِهِ الأَشْجَارِ المُبَدَّلِ بِهَا هُوَ السِّدْرُ قَالَ : ﴿ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ فَهَذَا الَّذِي صَارَ أَمْرُ تَيْنِكَ الجَنَّتَيْنِ إِلَيْهِ بَعْدَ الثِّمَارِ النَّضِيجَةِ وَالمَنَاظِرِ الحَسَنَةِ ، وَالظِّلَالِ العَمِيقَةِ وَالأَنْهَارِ الجَارِيَةِ ، تَبَدَّلَتْ إِلَى شَجَرِ الأَرَاكِ وَالطَّرْفَاءِ وَالسِّدْرِ ذِي الشَّوْكِ الكَثِيرِ وَالثَّمَرِ القَلِيلِ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ بِاللهِ وَتَكْذِيبِهِمُ الحَقَّ ، وَعُدُولِهِمْ عَنْهُ إِلَى البَاطِلِ .وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ أَيْ : عَاقَبْنَاهُمْ بِكُفْرِهِمْ . قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ : صَدَقَ اللهُ العَظِيمُ لَا يُعَاقِبُ بِمِثْلِ فِعْلِهِ إِلَّا الكَفُورَ . ثُمَّ يَذْكُرُ تَعَالَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالغِبْطَةِ ، وَالعَيْشِ الهَنِيءِ الرَّغِيدِ ، وَالبِلَادِ الرَخِيَّةِ وَالأَمَاكِنِ الآمِنَةِ ، وَالقُرَى المُتَوَاصِلَةِ المُتَقَارِبَةِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، مَعَ كَثْرَةِ أَشْجَارِهَا وَزُرُوعِهَا وَثِمَارِهَا ، بِحَيْثُ إِنَّ مُسَافِرَهُمْ لَا يَحْتَاجُ إِلَى حَمْلِ زَادٍ وَلَا مَاءٍ ، بَلْ حَيْثُ نَزَلَ وَجَدَ مَاءً وَثَمَرًا ، وَيُقِيلُ فِي قَرْيَةٍ وَيَبِيتُ فِي أُخْرَى بِمِقْدَارِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي سَيْرِهِمْ ،وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ : يَعْنِي : قُرَى الشَّامِ ، فَالقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا بَيْتُ المَقْدِسِ ﴿ قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾ أَيْ : بَيِّنَةً وَاضِحَةً يَعْرِفُهَا المُسَافِرُونَ ، يُقِيلُونَ فِي وَاحِدَةٍ وَيَبِيتُونَ فِي أُخْرَى ،وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَاهَا بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُ المُسَافِرُونَ إِلَيْهِ ﴿ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ أَيْ : الأَمْنُ حَاصِلٌ لَهُمْ فِي سَيْرِهِمْ لَيْلًا وَنَهَارًا . ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ أَيْ : بِكُفْرِهِمْ ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَاهُمْ حَدِيثًا لِلنَّاسِ وَسَمَرًا يَتَحَدَّثُونَ بِهِ ، مِنْ خَبَرِهِمْ وَكَيْفَ مَكَرَ اللهُ بِهِمْ ، وَفَرَّقَ شَمْلَهُمْ بَعْدَ الاِجْتِمَاعِ وَالأُلْفَةِ وَالعَيْشِ الهَنِيءِ ، تَفَرَّقُوا فِي البِلَادِ هَهُنَا وَهَهُنَا ، وَلِهَذَا تَقُولُ العَرَبُ فِي القَوْمِ إِذَا تَفَرَّقُوا : « تَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبَأ » « وَأَيَادِي سَبَأ » و « تَفَرَّقُوا شَذَرَ مَذَرَ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي هَذَا الَّذِي حَلَّ بِهَؤُلَاءِ مِنَ النِّقْمَةِ وَالعَذَابِ ، وَتَبْدِيلِ النِّعْمَةِ وَتَحْوِيلِ العَافِيَةِ ، عُقُوبَةً عَلَى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الكُفْرِ وَالآثَامِ لَعِبْرَةً وَدَلَالَةً لِكُلِّ عَبْدٍ صَبَّارٍ عَلَى المَصَائِبِ ، شَكُورٍ عَلَى النِّعَمِ .

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ
لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ سَبَأٍ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي اتِّبَاعِهِمُ الْهَوَى وَالشَّيْطَانَ، أَخْبَرَ عَنْهُمْ وَعَنْ أَمْثَالِهِمْ مِمَّنِ اتَّبَعَ إِبْلِيسَ وَالْهَوَى وَخَالَفَ الرَّشَادَ وَالْهُدَى، **فَقَالَ**: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ**: هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْلِيسَ حِينَ امْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ عليه السلام، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وَقَالَ: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أَيْ: مِنْ حُجَّةٍ. ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ أَيْ: إِنَّمَا سَلَّطْنَاهُ عَلَيْهِمْ لِيَظْهَرَ أَمْرُ مَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ بِالْآخِرَةِ وَقِيَامِهَا وَالْحِسَابِ فِيهَا وَالْجَزَاءِ، فَيُحْسِنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ عز وجل فِي الدُّنْيَا مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ. ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أَيْ: وَمَعَ حِفْظِهِ ضَلَّ مَنْ ضَلَّ مِنْ أَتْبَاعِ إِبْلِيسَ، وَبِحِفْظِهِ وَكِلَاءَتِهِ سَلِمَ مَنْ سَلِمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ. ثُمَّ يُبَيِّنُ تَعَالَى أَنَّهُ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا شَرِيكَ لَهُ، بَلْ هُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْأَمْرِ وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ مُشَارِكٍ وَلَا مُنَازِعٍ وَلَا مُعَارِضٍ، **فَقَالَ**: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: مِنَ الْآلِهَةِ الَّتِي عُبِدَتْ مِنْ دُونِهِ ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أَيْ: لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا اسْتِقْلَالًا وَلَا عَلَى سَبِيلِ الشَّرِكَةِ ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أَيْ: وَلَيْسَ للهِ مِنْ هَذِهِ الْأَنْدَادِ مِنْ ظَهِيرٍ يَسْتَظْهِرُ بِهِ فِي الْأُمُورِ، بَلِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ فُقَرَاءُ إِلَيْهِ عَبِيدٌ لَدَيْهِ. ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أَيْ: لِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ لَا يَجْتَرِئُ أَحَدٌ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ تَعَالَى فِي شَيْءٍ إِلَّا بَعْدَ إِذْنِهِ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾، وَهَذَا أَيْضًا مَقَامٌ رَفِيعٌ فِي الْعَظَمَةِ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى إِذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ فَسَمِعَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ كَلَامَهُ أُرْعِدُوا مِنَ الْهَيْبَةِ حَتَّى يَلْحَقَهُمْ مِثْلُ الْغَشْيِ. فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ سَأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُ بِذَلِكَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ لِلَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ لِمَنْ تَحْتَهُمْ، حَتَّى يَنْتَهِيَ الْخَبَرُ إِلَى أَهْلِ السَّمَاءِ

الدُّنْيَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَالُوا ٱلْحَقَّ ﴾ أَيْ : أَخْبَرُوا بِمَا قَالَ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ يَقُولُ : إِنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا قَضَى اللهُ تَعَالَى الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا ، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ ، فَيُقَالُ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا ؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ » .

۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُقَرِّرًا تَفَرُّدَهُ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ ، وَانْفِرَادَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ أَيْضًا ، فَكَمَا كَانُوا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُمْ لَا يَرْزُقُهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، أَيْ : بِمَا يَنْزِلُ مِنَ الْمَطَرِ وَيَنْبُتُ مِنَ الزَّرْعِ إِلَّا اللهُ فَكَذَلِكَ فَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ هَذَا مِنْ بَابِ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ ، أَيْ : وَاحِدٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مُبْطِلٌ وَالْآخَرُ مُحِقٌّ لَا سَبِيلَ إِلَى أَنْ تَكُونُوا أَنْتُمْ وَنَحْنُ عَلَى الْهُدَى أَوْ عَلَى الضَّلَالِ ، بَلْ وَاحِدٌ مِنَّا مُصِيبٌ وَنَحْنُ قَدْ أَقَمْنَا الْبُرْهَانَ عَلَى التَّوْحِيدِ فَدَلَّ عَلَى بُطْلَانِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ بِاللهِ تَعَالَى ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ مَعْنَاهُ التَّبَرِّي مِنْهُمْ ، أَيْ : لَسْتُمْ مِنَّا وَلَا نَحْنُ مِنْكُمْ بَلْ نَدْعُوكُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَإِلَى تَوْحِيدِهِ وَإِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لَهُ ، فَإِنْ أَجَبْتُمْ فَأَنْتُمْ مِنَّا وَنَحْنُ مِنْكُمْ ، وَإِنْ كَذَّبْتُمْ فَنَحْنُ بُرَاءُ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ بُرَآءُ مِنَّا ، ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ الْخَلَائِقَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : يَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ ، فَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، وَسَتَعْلَمُونَ يَوْمَئِذٍ لِمَنِ الْعِزَّةُ وَالنُّصْرَةُ وَالسَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ ، ﴿ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ : الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾ أَيْ : أَرُونِي هَذِهِ الْآلِهَةَ الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا

لله أَنْدَادًا وَصَيَّرْتُمُوهَا لَهُ عَدْلًا ﴿ كَلَّا ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ وَلَا نَدِيدٌ وَلَا شَرِيكٌ وَلَا عَدِيلٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ﴾ . أَيْ : الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أَيْ : ذُو الْعِزَّةِ الَّذِي قَدْ قَهَرَ بِهَا كُلَّ شَيْءٍ ، وَغَلَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، الْحَكِيمُ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ .

وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ أَيْ : إِلَّا إِلَى جَمِيعِ الْخَلَائِقِ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ ، ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أَيْ : تُبَشِّرُ مَنْ أَطَاعَكَ بِالْجَنَّةِ وَتُنْذِرُ مَنْ عَصَاكَ بِالنَّارِ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] ، ثُمَّ قَالَ ﷻ مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ فِي اسْتِبْعَادِهِمْ قِيَامَ السَّاعَةِ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ [الشورى : ١٨] . ثُمَّ قَالَ : ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أَيْ : لَكُمْ مِيعَادٌ مُؤَجَّلٌ مَعْدُودٌ لَا يُزَادُ وَلَا يُنْقَصُ ، فَإِذَا جَاءَ فَلَا يُؤَخَّرُ سَاعَةً وَلَا يُقَدَّمُ .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَادِي الْكُفَّارِ فِي طُغْيَانِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى عَدَمِ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ ، وَمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قَالَ اللهُ ﷻ مُتَهَدِّدًا لَهُمْ وَمُتَوَعِّدًا وَمُخْبِرًا عَنْ مَوَاقِفِهِمُ الذَّلِيلَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي

حَالِ تَخَاصُمِهِمْ وَتَحَاجِّهِمْ : ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ ﴾ مِنْهُمْ وَهُمُ الْأَتْبَاعُ ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ ، وَهُمْ قَادَتُهُمْ وَسَادَتُهُمْ ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : لَوْلَا أَنْتُمْ تَصُدُّونَا لَكُنَّا اتَّبَعْنَا الرُّسُلَ وَآمَنَّا بِمَا جَاءُونَا بِهِ . فَقَالَ لَهُمُ الْقَادَةُ وَالسَّادَةُ وَهُمُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ﴾ أَيْ : نَحْنُ مَا فَعَلْنَا بِكُمْ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّا دَعَوْنَاكُمْ فَاتَّبَعْتُمُونَا مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ ، وَخَالَفْتُمُ الْأَدِلَّةَ وَالْبَرَاهِينَ وَالْحُجَجَ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ ؛ لِشَهْوَتِكُمْ وَاخْتِيَارِكُمْ لِذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أَيْ : بَلْ كُنْتُمْ تَمْكُرُونَ بِنَا لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَتَغُرُّونَا وَتُمَنُّونَا وَتُخْبِرُونَا أَنَّا عَلَى هُدًى وَأَنَّا عَلَى شَيْءٍ ، فَإِذَا جَمِيعُ ذَلِكَ بَاطِلٌ وَكَذِبٌ مُبِينٌ . ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ أَيْ : نُظَرَاءَ وَآلِهَةً مَعَهُ ، وَتُقِيمُوا لَنَا شُبَهًا وَأَشْيَاءَ مِنَ الْمُحَالِ تُضِلُّونَا بِهَا ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ مِنَ السَّادَةِ وَالْأَتْبَاعِ كُلٌّ نَدِمَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُ ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وَهِيَ السَّلَاسِلُ الَّتِي تَجْمَعُ أَيْدِيَهُمْ مَعَ أَعْنَاقِهِمْ ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا نُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ كُلٌّ بِحَسَبِهِ ، لِلْقَادَةِ عَذَابٌ بِحَسَبِهِمْ وَلِلْأَتْبَاعِ بِحَسَبِهِمْ ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨]

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ وَآمِرًا لَهُ بِالتَّأَسِّي بِمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ وَمُخْبِرُهُ بِأَنَّهُ مَا بَعَثَ نَبِيًّا فِي قَرْيَةٍ إِلَّا كَذَّبَهُ مُتْرَفُوهَا وَاتَّبَعَهُ ضُعَفَاؤُهُمْ ، كَمَا قَالَ قَوْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١١١] ، ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ [هود : ٢٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٣] ، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ أَيْ : نَبِيٍّ أَوْ رَسُولٍ ﴿ إِلَّا قَالَ

مُتْرَفُوهَآ ﴾ ، وَهُمْ أُولُو النِّعْمَةِ وَالْحِشْمَةِ وَالثَّرْوَةِ وَالرِّيَاسَةِ ، ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ أَيْ : لَا نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نَتَّبِعُهُ . **وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُتْرَفِينَ الْمُكَذِّبِينَ :** ﴿ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ أَيْ : اِفْتَخَرُوا بِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى مَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَى لَهُمْ وَاعْتِنَائِهِ بِهِمْ ، وَأَنَّهُ مَا كَانَ لِيُعْطِيَهُمْ هَذَا فِي الدُّنْيَا ثُمَّ يُعَذِّبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَهَيْهَاتَ لَهُمْ ذَلِكَ ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٥٥]

وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ ﷻ عَنْ صَاحِبِ تَيْنِكَ الْجَنَّتَيْنِ أَنَّهُ كَانَ ذَا مَالٍ وَثَمَرٍ وَوَلَدٍ ، ثُمَّ لَمْ يُغْنِ عَنْهُ شَيْئًا ، بَلْ سُلِبَ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ ﷻ هَا هُنَا :** ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أَيْ : يُعْطِي الْمَالَ لِمَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، فَيُفْقِرُ مَنْ يَشَاءُ وَيُغْنِي مَنْ يَشَاءُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ الْبَالِغَةُ ، وَالْحُجَّةُ الْقَاطِعَةُ الدَّامِغَةُ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى :** ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ أَيْ : لَيْسَتْ هَذِهِ دَلِيلًا عَلَى مَحَبَّتِنَا لَكُمْ وَلَا اعْتِنَائِنَا بِكُمْ . ﴿ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ أَيْ : تُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَةُ بِعَشْرَةِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ﴿ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ أَيْ : فِي مَنَازِلِ الْجَنَّةِ الْعَالِيَةِ آمِنُونَ مِنْ كُلِّ بَأْسٍ وَخَوْفٍ وَأَذًى ، وَمِنْ كُلِّ شَرٍّ يُحْذَرُ مِنْهُ . ﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ أَيْ : يَسْعَوْنَ فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ وَالتَّصْدِيقِ بِآيَاتِهِ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أَيْ : جَمِيعُهُمْ مَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ فِيهَا بِحَسَبِهِمْ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى :** ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ﴾ أَيْ : بِحَسَبِ مَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ يَبْسُطُ عَلَى هَذَا مِنَ الْمَالِ كَثِيرًا وَيُضَيِّقُ عَلَى هَذَا وَيُقَتِّرُ عَلَى هَذَا رِزْقَهُ جِدًّا ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ مَا لَا يُدْرِكُهَا غَيْرُهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَأَبَاحَهُ لَكُمْ فَهُوَ يُخْلِفُهُ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْبَدَلِ ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُقَرِّعُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ ، فَيَسْأَلُ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ كَانَ

الْمُشْرِكُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَنْدَادَ الَّتِي هِيَ عَلَى صُوَرِهِمْ لِيُقَرِّبُوهُمْ إِلَى اللهِ زُلْفَى ، فَيَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ أَمَرْتُمْ هَؤُلَاءِ بِعِبَادَتِكُمْ ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الفرقان : ١٧] ، وَكَمَا يَقُولُ لِعِيسَى ﷺ ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة : ١١٦] ، **وَهَكَذَا تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ** : ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ أَيْ : تَعَالَيْتَ وَتَقَدَّسْتَ عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ إِلَهٌ ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾ أَيْ : نَحْنُ عَبِيدُكَ وَنَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ هَؤُلَاءِ ﴿ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ﴾ يَعْنُونَ : الشَّيَاطِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يُزَيِّنُونَ لَهُمْ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَيُضِلُّونَهُمْ ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ [النساء : ١١٧-١١٨] **قَالَ اللهُ ﷻ** : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أَيْ : لَا يَقَعُ لَكُمْ نَفْعٌ مِمَّنْ كُنْتُمْ تَرْجُونَ نَفْعَهُ الْيَوْمَ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ الَّتِي اِدَّخَرْتُمْ عِبَادَتَهَا لِشَدَائِدِكُمْ وَكُرَبِكُمْ الْيَوْمَ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ ، وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ مِنْهُ الْعُقُوبَةَ وَالْأَلِيمَ مِنَ الْعَذَابِ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ بَيِّنَاتٌ يَسْمَعُونَهَا غَضَّةً طَرِيَّةً مِنْ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ ﴿ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ يَعْنُونَ : أَنَّ دِينَ آبَائِهِمْ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ عِنْدَهُمْ بَاطِلٌ - عَلَيْهِمْ وَعَلَى آبَائِهِمْ لَعَائِنُ اللهِ تَعَالَى - : ﴿ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ يَعْنُونَ : الْقُرْآنَ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ أَيْ : مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى الْعَرَبِ مِنْ كِتَابٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ ، وَمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ نَبِيًّا قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَقَدْ كَانُوا يَوَدُّونَ ذَلِكَ وَيَقُولُونَ : لَوْ جَاءَنَا نَذِيرٌ أَوْ أُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابٌ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْ غَيْرِنَا ، فَلَمَّا مَنَّ اللهُ

عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ كَذَّبُوهُ وَجَحَدُوهُ وَعَانَدُوهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ: مِنَ الْأُمَمِ ﴿ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: أَيْ: مِنَ الْقُوَّةِ فِي الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾[غافر: ٨٢] أَيْ: وَمَا دَفَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ وَلَا رَدَّهُ بَلْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمَّا كَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أَيْ: فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي وَنَكَالِي وَانْتِصَارِي لِرُسُلِي؟.

قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ الزَّاعِمِينَ أَنَّكَ مَجْنُونٌ ﴿ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ﴾ أَيْ: إِنَّمَا آمُرُكُمْ بِوَاحِدَةٍ وَهِيَ: ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ أَيْ: تَقُومُوا قِيَامًا خَالِصًا للهِ ﷻ مِنْ غَيْرِ هَوًى وَلَا عَصَبِيَّةٍ، فَيَسْأَلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا: هَلْ بِمُحَمَّدٍ مِنْ جُنُونٍ؟، فَيَنْصَحُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ أَيْ: يَنْظُرُ الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيَسْأَلُ غَيْرَهُ مِنَ النَّاسِ عَنْ شَأْنِهِ إِنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ وَيَتَفَكَّرُ فِي ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّفَا ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: « يَا صَبَاحَاهُ » فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ، فَقَالُوا: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّيكُمْ أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي » قَالُوا: بَلَى! قَالَ ﷺ: « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » فَقَالَ أَبُو لَهَب: تَبًّا لَكَ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟! فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾، وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[الشعراء: ٢١٤]

قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أَيْ: لَا

أُرِيدُ مِنْكُمْ جُعْلًا وَلَا عَطَاءً عَلَى أَدَاءِ رِسَالَةِ اللهِ ﷻ إِلَيْكُمْ وَنُصْحِي إِيَّاكُمْ وَأَمْرِكُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ: إِنَّمَا أَطْلُبُ ثَوَابَ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أَيْ: عَالِمٌ بِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِمَا أَنَا عَلَيْهِ مِنْ إِخْبَارِي عَنْهُ بِإِرْسَالِهِ إِيَّايَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ١٥] أَيْ: يُرْسِلُ الْمَلَكَ إِلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَهُوَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ أَيْ: جَاءَ الْحَقُّ مِنَ اللهِ وَالشَّرْعُ الْعَظِيمُ، وَذَهَبَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ وَاضْمَحَلَّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وَلِهَذَا لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَوَجَدَ تِلْكَ الْأَصْنَامَ مَنْصُوبَةً حَوْلَ الْكَعْبَةِ جَعَلَ يَطْعَنُ الصَّنَمَ مِنْهَا بِسِيَةِ قَوْسِهِ وَيَقْرَأُ ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١] ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ أَيْ: لَمْ يَبْقَ لِلْبَاطِلِ مَقَالَةٌ وَلَا رِيَاسَةٌ وَلَا كَلِمَةٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ ﴾ أَيْ: الْخَيْرُ كُلُّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَفِيمَا أَنْزَلَهُ اللهُ ﷻ مِنَ الْوَحْيِ وَالْحَقِّ الْمُبِينِ، فِيهِ الْهُدَى وَالْبَيَانُ وَالرَّشَادُ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أَيْ: سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، قَرِيبٌ يُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ ﴾ يَا مُحَمَّدُ إِذْ فَزِعَ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ أَيْ: فَلَا مَفَرَّ لَهُمْ وَلَا وِزْرَ لَهُمْ وَلَا مَلْجَأَ ﴿ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أَيْ: لَمْ يُمَكَّنُوا أَنْ يُمْعِنُوا فِي الْهَرَبِ، بَلْ أُخِذُوا مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ. وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ الطَّامَّةُ الْعُظْمَى، ﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُونَ: آمَنَّا بِاللهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِرُسُلِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أَيْ: كَيْفَ لَهُمْ تَعَاطِي الْإِيمَانِ وَقَدْ بَعُدُوا عَنْ مَحَلِّ قَبُولِهِ مِنْهُمْ وَصَارُوا إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ وَهِيَ دَارُ الْجَزَاءِ لَا دَارُ الِابْتِلَاءِ

فَلَوْ كَانُوا آمَنُوا فِي الدُّنْيَا لَكَانَ ذَلِكَ نَافِعُهُمْ ، وَلَكِنْ بَعْدَ مَصِيرِهِمْ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى قَبُولِ الْإِيمَانِ ، كَمَا لَا سَبِيلَ إِلَى حُصُولِ الشَّيْءِ لِمَنْ يَتَنَاوَلُهُ مِنْ بَعِيدٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : كَيْفَ يَحْصُلُ لَهُمُ الْإِيمَانُ فِي الْآخِرَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِالْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَكَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ . يَرْجُمُونَ بِالظَّنِّ ، لَا بَعْثَ وَلَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ . ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ يَعْنِي : فَإِنَّهُ قَدْ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ شَهَوَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا طَلَبُوهُ فِي الْآخِرَةِ فَمُنِعُوا مِنْهُ . ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ أَيْ : كَمَا جَرَى لِلْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمُكَذِّبَةِ بِالرُّسُلِ ، لَمَّا جَاءَهُمْ بَأْسُ اللهِ تَمَنَّوْا أَنْ لَوْ آمَنُوا فَلَمْ يُقْبَلْ مِنْهُمْ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴾ أَيْ : كَانُوا فِي الدُّنْيَا فِي شَكٍّ وَرِيبَةٍ ، فَلِهَذَا لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْهُمُ الْإِيمَانُ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ سَبَأٍ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٤٥ تفسيرُ سُورَةِ فاطــر مكيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : كُنْتُ لَا أَدْرِي مَا فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى أَتَانِي أَعْرَابِيَّانِ يَخْتَصِمَانِ فِي بِئْرٍ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَنَا فَطَرْتُهَا ، أَيْ : بَدَأْتُهَا ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ : كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَهُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ أَيْ : بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْبِيَائِهِ ﴿ أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ ﴾ أَيْ : يَطِيرُونَ بِهَا لِيُبَلِّغُوا مَا أُمِرُوا بِهِ سَرِيعًا ﴿ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ أَيْ : مِنْهُمْ مَنْ لَهُ جَنَاحَانِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلَاثَةٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَرْبَعَةٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ عليه السلام لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ بَيْنَ كُلِّ جَنَاحَيْنِ كَمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَأَنَّهُ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ . وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ [يونس : ١٠٧] ، وَلَهَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ عَلَى تَوْحِيدِهِ فِي إِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لَهُ ، كَمَا أَنَّهُ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ ، فَكَذَلِكَ فَلْيُفْرَدْ بِالْعِبَادَةِ وَلَا يُشْرَكْ بِهِ غَيْرُهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ تُؤْفَكُونَ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَوُضُوحِ هَذَا الْبُرْهَانِ ، وَأَنْتُمْ بَعْدَ هَذَا تَعْبُدُونَ الْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانَ .

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾

يَقُولُ : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ - يَا مُحَمَّدُ - هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِاللهِ وَيُخَالِفُوكَ فِيمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ ، فَلَكَ فِيمَنْ سَلَفَ قَبْلَكَ مِنَ الرُّسُلِ أُسْوَةٌ ، فَإِنَّهُمْ كَذَلِكَ جَاءُوا قَوْمَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَمَرُوهُمْ بِالتَّوْحِيدِ فَكَذَّبُوهُمْ وَخَالَفُوهُمْ ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أَيْ : وَسَنَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أَيْ : الْمَعَادُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : الْعِيشَةُ الدَّنِيئَةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ وَأَتْبَاعِ رُسُلِهِ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ فَلَا تَتَلَهَّوْا عَنْ ذَلِكَ الْبَاقِي بِهَذِهِ الزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ ، أَيْ : لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ وَيَصْرِفَنَّكُمْ عَنِ اتِّبَاعِ رُسُلِ اللهِ وَتَصْدِيقِ كَلِمَاتِهِ ، فَإِنَّهُ غَرَّارٌ كَذَّابٌ أَفَّاكٌ .

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى عَدَاوَةَ إِبْلِيسَ لِابْنِ آدَمَ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ أَيْ : هُوَ مُبَارِزٌ لَكُمْ بِالْعَدَاوَةِ ، فَعَادُوهُ أَنْتُمْ أَشَدَّ الْعَدَاوَةِ ، وَخَالِفُوهُ وَكَذِّبُوهُ فِيمَا يَغُرُّكُمْ بِهِ ﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَقْصِدُ أَنْ يُضِلَّكُمْ حَتَّى تَدْخُلُوا مَعَهُ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ فَهَذَا هُوَ الْعَدُوُّ الْمُبِينُ .

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ

فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ أَتْبَاعَ إِبْلِيسَ مَصِيرُهُمْ إِلَى السَّعِيرِ ، ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ؛ لأَنَّهُمْ أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ وَعَصَوُا الرَّحْمَنَ ، وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ أَيْ : لِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ ذَنْبٍ ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ عَلَى مَا عَمِلُوهُ مِنْ خَيْرٍ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ يَعْنِي : كَالْكُفَّارِ وَالْفُجَّارِ يَعْمَلُونَ أَعْمَالًا سَيِّئَةً وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَعْتَقِدُونَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ، أَيْ : أَفَمَنْ كَانَ هَكَذَا – قَدْ أَضَلَّهُ اللهُ – أَلَكَ فِيهِ حِيلَةٌ ؟ لَا حِيلَةَ لَكَ فِيهِ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : بِقَدَرِهِ كَانَ ذَلِكَ ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ أَيْ : لَا تَأْسَفْ عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّ اللهَ حَكِيمٌ فِي قَدَرِهِ ، إِنَّمَا يُضِلُّ مَنْ يُضِلُّ وَيَهْدِي مَنْ يَهْدِي لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ وَالْعِلْمِ التَّامِّ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

كَثِيرًا مَا يَسْتَدِلُّ تَعَالَى عَلَى الْمَعَادِ بِإِحْيَائِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَمَا فِي سُورَةِ الْحَجِّ يُنَبِّهُ عِبَادَهُ أَنْ يَعْتَبِرُوا بِهَذَا عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّ الْأَرْضَ تَكُونُ مَيْتَةً هَامِدَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا ، فَإِذَا أَرْسَلَ إِلَيْهَا السَّحَابَ تَحْمِلُ الْمَاءَ وَأَنْزَلَهُ عَلَيْهَا ﴿ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج – ٥] كَذَلِكَ الْأَجْسَادُ إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى بَعْثَهَا وَنُشُورَهَا أَنْزَلَ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ مَطَرًا يَعُمُّ الْأَرْضَ جَمِيعًا ، فَتَنْبُتُ الْأَجْسَادُ فِي قُبُورِهَا ، كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي الْأَرْضِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أَيْ : مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ عَزِيزًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَلْزَمْ طَاعَةَ اللهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ مَقْصُودُهُ ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى مَالِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلَهُ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٣٩]

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ يَعْنِي: الذِّكْرَ وَالتِّلَاوَةَ وَالدُّعَاءَ. ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ**: الْكَلِمُ الطَّيِّبُ: ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى يُصْعَدُ بِهِ إِلَى اللهِ ﷻ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ: أَدَاءُ فَرَائِضِهِ، وَمَنْ ذَكَرَ اللهَ وَلَمْ يُؤَدِّ فَرَائِضَهُ رُدَّ كَلَامُهُ عَلَى عَمَلِهِ، فَكَانَ أَوْلَى بِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ**: هُمُ الْمُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، يَعْنِي: يَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ يُوهِمُونَ أَنَّهُمْ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى، وَهُمْ بُغَضَاءُ إِلَى اللهِ ﷻ يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ أَيْ: يَفْسُدُ وَيَبْطُلُ وَيَظْهَرُ زَيْفُهُمْ عَنْ قَرِيبٍ لِأُولِي الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى، فَإِنَّهُ مَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَبْدَاهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ، وَمَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا كَسَاهُ اللهُ تَعَالَى رِدَاءَهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أَيْ: اِبْتَدَأَ خَلْقَ أَبِيكُمْ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أَيْ: ذَكَرًا وَأُنْثَى، لُطْفًا مِنْهُ وَرَحْمَةً أَنْ جَعَلَ لَكُمْ أَزْوَاجًا مِنْ جِنْسِكُمْ لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا. ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ أَيْ: هُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ بَلْ ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام - ٥٩]، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٨ - ٩]

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ ﴾ أَيْ: مَا يُعْطَى بَعْضُ النُّطَفِ مِنَ الْعُمُرِ الطَّوِيلِ يَعْلَمُهُ، وَهُوَ عِنْدَهُ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴾ الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْجِنْسِ لَا عَلَى الْعَيْنِ؛ لِأَنَّ الْعَيْنَ الطَّوِيلَ الْعُمُرَ فِي الْكِتَابِ وَفِي عِلْمِ اللهِ تَعَالَى لَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ، وَإِنَّمَا عَادَ الضَّمِيرُ عَلَى الْجِنْسِ، **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ**: وَهَذَا كَقَوْلِهِمْ: **عِنْدِي ثَوْبٌ وَنِصْفُهُ** أَيْ: وَنِصْفُ ثَوْبٍ آخَرَ. ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أَيْ: سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ، لَدَيْهِ عِلْمٌ بِذَلِكَ وَبِتَفْصِيلِهِ فِي جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، فَإِنَّ عِلْمَهُ شَامِلٌ لِلْجَمِيعِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ.

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ فِي خَلْقِهِ الْأَشْيَاءَ الْمُخْتَلِفَةَ، وَخَلَقَ الْبَحْرَيْنِ الْعَذْبَ الزُّلَالَ، وَهُوَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ السَّارِحَةُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ كِبَارٍ وَصِغَارٍ، بِحَسَبِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا فِي

الْأَقَالِيمِ وَالْأَمْصَارِ وَالْعُمْرَانِ وَالْبَرَارِيِّ وَالْقِفَارِ ، وَهِيَ عَذْبَةٌ سَائِغٌ شَرَابُهَا لِمَنْ أَرَادَ ذَلِكَ ﴿ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أَيْ : وَهُوَ الْبَحْرُ السَّاكِنُ الَّذِي تَسِيرُ فِيهِ السُّفُنُ الْكِبَارُ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ مَالِحَةً زُعَاقًا مُرَّةً ،وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أَيْ : مُرٌّ ،ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ يَعْنِي : السَّمَكَ ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[الرحمن : ٢٢-٢٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ أَيْ : تَمْخُرُهُ وَتَشُقُّهُ بِحَيْزُومِهَا ، وَهُوَ مُقَدَّمُهَا الْمُسَنَّمُ الَّذِي يُشْبِهُ جُؤْجُؤَ الطَّيْرِ ، وَهُوَ صَدْرُهُ . ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أَيْ : بِأَسْفَارِكُمْ بِالتِّجَارَةِ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ . وَإِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : تَشْكُرُونَ رَبَّكُمْ عَلَى تَسْخِيرِهِ لَكُمْ هَذَا الْخَلْقَ الْعَظِيمَ ، وَهُوَ الْبَحْرُ تَتَصَرَّفُونَ فِيهِ كَيْفَ شِئْتُمْ ، وَتَذْهَبُونَ أَيْنَ أَرَدْتُمْ ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنْهُ ، بَلْ بِقُدْرَتِهِ قَدْ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، الْجَمِيعُ مِنْ فَضْلِهِ وَمِنْ رَحْمَتِهِ .

يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ فِي تَسْخِيرِهِ اللَّيْلَ بِظَلَامِهِ وَالنَّهَارَ بِضِيَائِهِ ، وَيَأْخُذُ مِنْ طُولِ هَذَا فَيَزِيدُهُ فِي قِصَرِ هَذَا فَيَعْتَدِلَانِ ، ثُمَّ يَأْخُذُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا فَيَطُولُ هَذَا وَيَقْصُرُ هَذَا ، ثُمَّ يَتَقَارَضَانِ صَيْفًا وَشِتَاءً ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ أَيْ : وَالنُّجُومَ السَّيَّارَاتِ ، وَالثَّوَابِتِ الثَّاقِبَاتِ بِأَضْوَائِهِنَّ أَجْرَامَ السَّمَاوَاتِ ، الْجَمِيعُ يَسِيرُونَ بِمِقْدَارٍ مُعَيَّنٍ . وَعَلَى مِنْهَاجٍ مُقَنَّنٍ مُحَرَّرٍ ، تَقْدِيرًا مِنْ عَزِيزٍ عَلِيمٍ ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَيْ : إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أَيْ : الَّذِي فَعَلَ هَذَا هُوَ الرَّبُّ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ الَّتِي هِيَ عَلَى صُورَةِ مَنْ تَزْعُمُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ الْقِطْمِيرُ هُوَ : اللِّفَافَةُ الَّتِي تَكُونُ عَلَى نَوَاةِ التَّمْرَةِ ، أَيْ : لَا يَمْلِكُونَ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا بِمِقْدَارِ هَذَا الْقِطْمِيرِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ ﴾ يَعْنِي : الْآلِهَةَ الَّتِي تَدْعُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ لَا تَسْمَعُ دُعَاءَكُمْ ؛ لِأَنَّهَا جَمَادٌ لَا أَرْوَاحَ فِيهَا ﴿ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا تَطْلُبُونَ مِنْهَا ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أَيْ : يَتَبَرَّءُونَ مِنْكُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ أَيْ : وَلَا يُخْبِرُكَ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَمَآلِهَا ، وَمَا تَصِيرُ إِلَيْهِ مِثْلُ خَبِيرٍ بِهَا . قَالَ قَتَادَةُ : يَعْنِي : نَفْسَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَخْبَرَ بِالْوَاقِعِ لَا مَحَالَةَ .

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِغِنَائِهِ عَمَّا سِوَاهُ ، وَبِافْتِقَارِ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا إِلَيْهِ وَتَذَلُّلِهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : هُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ ، وَهُوَ تَعَالَى الْغَنِيُّ عَنْهُمْ بِالذَّاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْغِنَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهُوَ الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ وَيَقُولُهُ وَيُقَدِّرُهُ وَيَشْرَعُهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أَيْ : لَوْ شَاءَ لَأَذْهَبَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَأَتَى بِقَوْمٍ غَيْرِكُمْ ، وَمَا هَذَا عَلَيْهِ بِصَعْبٍ وَلَا مُمْتَنِعٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا ﴾ أَيْ : وَإِنْ تَدْعُ نَفْسٌ مُثْقَلَةٌ بِأَوْزَارِهَا إِلَى أَنْ تُسَاعَدَ عَلَى حَمْلِ مَا عَلَيْهَا مِنَ الْأَوْزَارِ أَوْ بَعْضِهِ ﴿ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾ أَيْ : وَإِنْ كَانَ قَرِيبًا إِلَيْهَا ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ أَبَاهَا أَوِ ابْنَهَا ، كُلٌّ مَشْغُولٌ بِنَفْسِهِ وَحَالِهِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَتَّعِظُ بِمَا جِئْتَ بِهِ أُولُو الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى ، الْخَائِفُونَ مِنْ رَبِّهِمُ الْفَاعِلُونَ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾ أَيْ : وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : كَمَا لَا تَسْتَوِي هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْمُتَبَايِنَةُ الْمُخْتَلِفَةُ ، كَالْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ لَا يَسْتَوِيَانِ ،

بَلْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ وَبَوْنٌ كَثِيرٌ ، وَكَمَا لَا تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ، كَذَلِكَ لَا تَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ، وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ وَهُمُ الْأَحْيَاءُ ، وَلِلْكَافِرِينَ وَهُمُ الْأَمْوَاتُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [هود : ٢٤] ، فَالْمُؤْمِنُ بَصِيرٌ سَمِيعٌ فِي نُورٍ ، يَمْشِي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، حَتَّى يَسْتَقِرَّ بِهِ الْحَالُ فِي الْجَنَّاتِ ذَاتِ الظِّلَالِ وَالْعُيُونِ ، وَالْكَافِرُ أَعْمَى وَأَصَمُّ فِي ظُلُمَاتٍ يَمْشِي ، لَا خُرُوجَ مِنْهَا بَلْ هُوَ يَتِيهُ فِي غَيِّهِ وَضَلَالِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، حَتَّى يُفْضِي بِهِ ذَلِكَ إِلَى الْحَرُورِ وَالسَّمُومِ وَالْحَمِيمِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : يَهْدِيهِمْ إِلَى سَمَاعِ الْحُجَّةِ وَقَبُولِهَا وَالِانْقِيَادِ لَهَا ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ أَيْ : كَمَا لَا يَنْتَفِعُ الْأَمْوَاتُ بَعْدَ مَوْتِهِمْ وَصَيْرُورَتِهِمْ إِلَى قُبُورِهِمْ ، وَهُمْ كُفَّارٌ بِالْهِدَايَةِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهَا ، كَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ - الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاوَةُ - لَا حِيلَةَ لَكَ فِيهِمْ وَلَا تَسْتَطِيعُ هِدَايَتَهُمْ . ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَالْإِنْذَارُ ، وَاللهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أَيْ : بَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَنَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أَيْ : وَمَا مِنْ أُمَّةٍ خَلَتْ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا وَقَدْ بَعَثَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِمُ النُّذُرَ ، وَأَزَاحَ عَنْهُمُ الْعِلَلَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٧] . وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ وَهِيَ : الْمُعْجِزَاتُ الْبَاهِرَاتُ وَالْأَدِلَّةُ الْقَاطِعَاتُ ﴿ وَبِٱلزُّبُرِ ﴾ ، وَهِيَ الْكُتُبُ ﴿ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ أَيْ : الْوَاضِحِ الْبَيِّنِ ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أَيْ : وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ كَذَّبَ أُولَئِكَ رُسُلَهُمْ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ فَأَخَذْتُهُمْ ، أَيْ : بِالْعِقَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ رَأَيْتَ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ عَظِيمًا شَدِيدًا بَلِيغًا .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ فِي خَلْقِهِ الْأَشْيَاءَ الْمُتَنَوِّعَةَ الْمُخْتَلِفَةَ مِنَ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ ، وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي يُنَزِّلُهُ مِنَ السَّمَاءِ ، يُخْرِجُ بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا مِنْ أَصْفَرَ وَأَحْمَرَ وَأَخْضَرَ وَأَبْيَضَ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ أَلْوَانِ الثِّمَارِ ، كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ مِنْ تَنَوُّعِ أَلْوَانِهَا وَطُعُومِهَا وَرَوَائِحِهَا ،

كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا ﴾ أَيْ : وَخَلَقَ الْجِبَالَ كَذَلِكَ مُخْتَلِفَةَ الْأَلْوَانِ ، كَمَا هُوَ الْمُشَاهَدُ أَيْضًا مِنْ بِيضٍ وَحُمْرٍ ، وَفِي بَعْضِهَا طَرَائِقُ ، وَهِيَ : الْجُدَدُ ، جَمْعُ جُدَّةٍ مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ أَيْضًا . وَمِنْهَا ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ قِيلَ : الْجِبَالُ الطِّوَالُ السُّودُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : كَذَلِكَ الْحَيَوَانَاتُ مِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ - وَهُوَ كُلُّ مَا دَبَّ عَلَى قَوَائِمَ - وَالْأَنْعَامُ : مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ، كَذَلِكَ هِيَ مُخْتَلِفَةٌ أَيْضًا ، فَالنَّاسُ مِنْهُمْ بَرْبَرٌ وَحُبُوشٌ وَطُمَاطِمُ فِي غَايَةِ السَّوَادِ ، وَصَقَالِبَةٌ وَرُومٌ فِي غَايَةِ الْبَيَاضِ ، وَالْعَرَبُ بَيْنَ ذَلِكَ ، وَالْهُنُودُ دُونَ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم : ٢٢] ، وَكَذَلِكَ الدَّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ حَتَّى فِي الْجِنْسِ الْوَاحِدِ ، بَلِ النَّوْعُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مُخْتَلِفُ الْأَلْوَانِ ، بَلِ الْحَيَوَانُ الْوَاحِدُ يَكُونُ أَبْلَقَ ، فِيهِ مِنْ هَذَا اللَّوْنِ وَهَذَا اللَّوْنِ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَخْشَاهُ حَقَّ خَشْيَتِهِ الْعُلَمَاءُ الْعَارِفُونَ بِهِ ، لِأَنَّهُ كُلَّمَا كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ لِلْعَظِيمِ الْقَدِيرِ الْعَلِيمِ ، الْمَوْصُوفِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ، الْمَنْعُوتِ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى ، كُلَّمَا كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ بِهِ أَتَمَّ ، وَالْعِلْمُ بِهِ أَكْمَلَ كَانَتِ الْخَشْيَةُ لَهُ أَعْظَمَ وَأَكْثَرَ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَهُ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ ، مِنْ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي الْأَوْقَاتِ الْمَشْرُوعَةِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ أَيْ : يَرْجُونَ ثَوَابًا عِنْدَ اللهِ لَا بُدَّ مِنْ حُصُولِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أَيْ : لِيُوَفِّيَهُمْ ثَوَابَ مَا عَمِلُوهُ وَيُضَاعِفَهُ لَهُمْ بِزِيَادَاتٍ لَمْ تَخْطُرْ لَهُمْ ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ ﴾ أَيْ : لِذُنُوبِهِمْ ﴿ شَكُورٌ ﴾ لِلْقَلِيلِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ .

وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ

لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الْكِتَابِ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ بِصِدْقِهَا ، كَمَا شَهِدَتْ هِيَ لَهُ بِالنُّبُوَّةِ ، وَأَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ أَيْ : هُوَ خَبِيرٌ بِهِمْ بَصِيرٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مَا يُفَضِّلُهُ بِهِ عَلَى مَنْ سِوَاهُ .

ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ثُمَّ جَعَلْنَا الْقَائِمِينَ بِالْكِتَابِ الْعَظِيمِ الْمُصَدِّقِ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا - وَهُمْ هَذِهِ الْأُمَّةُ - ثُمَّ قَسَّمَهُمْ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ : **فَقَالَ** : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ ، وَهُوَ الْمُفَرِّطُ فِي فِعْلِ بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ ، الْمُرْتَكِبُ لِبَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ هُوَ الْمُؤَدِّي لِلْوَاجِبَاتِ التَّارِكُ لِلْمُحَرَّمَاتِ ، وَقَدْ يَتْرُكُ بَعْضَ الْمُسْتَحَبَّاتِ وَيَفْعَلُ بَعْضَ الْمَكْرُوهَاتِ ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وَهُوَ : الْفَاعِلُ لِلْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ ، التَّارِكُ لِلْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ وَبَعْضِ الْمُبَاحَاتِ . **رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ قَالَ : هُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَّثَهُمُ اللهُ تَعَالَى كُلَّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ فَظَالِمُهُمْ يُغْفَرُ لَهُ ، وَمُقْتَصِدُهُمْ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَسَابِقُهُمْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُصْطَفَيْنَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ الْمُنَزَّلَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَأْوَاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ أَيْ : جَنَّاتُ الْإِقَامَةِ ، يَدْخُلُونَهَا يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَقُدُومِهِمْ عَلَى اللهِ ﷻ : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ**)).

﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ، وَلِهَذَا كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا فَأَبَاحَهُ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ**)) ، وَقَالَ : ((**هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ**)). ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ ، وَهُوَ

الْخَوْفُ مِنَ الْمَحْذُورِ ، أَزَاحَهُ عَنَّا ، وَأَرَاحَنَا مِمَّا كُنَّا نَتَخَوَّفُهُ وَنَحْذَرُهُ مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ يَقُولُونَ : الَّذِي أَعْطَانَا هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ وَهَذَا الْمَقَامَ - مِنْ فَضْلِهِ وَمَنِّهِ وَرَحْمَتِه - لَمْ تَكُنْ أَعْمَالُنَا تُسَاوِي ذَلِكَ . ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أَيْ : لَا يَمَسُّنَا فِيهَا عَنَاءٌ وَلَا إِعْيَاءٌ ، وَالنَّصَبُ وَاللُّغُوبُ : كُلٌّ مِنْهُمَا يُسْتَعْمَلُ فِي التَّعَبِ ، وَكَأَنَّ الْمُرَادَ بِنَفْيِ هَذَا وَهَذَا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا تَعَبَ عَلَى أَبْدَانِهِمْ وَلَا أَرْوَاحِهِمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَالَ السُّعَدَاءِ شَرَعَ فِي بَيَانِ مَآلِ الْأَشْقِيَاءِ ، **فَقَالَ** : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [طه : ٧٤] ، وَثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ**)) ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧] ، فَهُمْ فِي حَالِهِمْ ذَلِكَ يَرَوْنَ مَوْتَهُمْ رَاحَةً لَهُمْ ، وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٤-٧٥] ، **وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا** : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩٧] ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أَيْ : هَذَا جَزَاءُ كُلِّ مَنْ كَفَرَ بِرَبِّهِ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ . ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أَيْ : يُنَادُونَ فِيهَا ، يَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ ﷻ بِأَصْوَاتِهِمْ ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أَيْ : يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا غَيْرَ عَمَلِهِمُ الْأَوَّلِ ، وَقَدْ عَلِمَ الرَّبُّ - جَلَّ جَلَالُهُ - أَنَّهُ لَوْ رَدَّهُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، فَلِهَذَا لَا يُجِيبُهُمْ إِلَى سُؤَالِهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا** : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ أَيْ : أَوَمَا عِشْتُمْ فِي الدُّنْيَا أَعْمَارًا لَوْ كُنْتُمْ مِمَّنْ يَنْتَفِعُ بِالْحَقِّ لَانْتَفَعْتُمْ بِهِ فِي مُدَّةِ عُمُرِكُمْ ؟ . **قَالَ ابْنُ عَبَّاس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** - : الْعُمُرُ الَّذِي أَعْذَرَ اللهُ تَعَالَى لِابْنِ آدَمَ ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ أَرْبَعُونَ سَنَةً .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ يَعْنِي : الشَّيْبَ ، **وَقِيلَ** : يَعْنِي بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أَيْ : فَذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ جَزَاءً عَلَى مُخَالَفَتِكُمْ

لِلْأَنْبِيَاءِ فِي مُدَّةِ أَعْمَارِكُمْ ، فَمَا لَكُمُ الْيَوْمَ نَاصِرٌ يُنْقِذُكُم مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْأَغْلَالِ .

إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّهُ السَّرَائِرُ ، وَ تَنْطَوِي عَلَيْهِ الضَّمَائِرُ ، وَسَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : يَخْلُفُ قَوْمٌ لِآخَرِينَ قَبْلَهُمْ ، وَجِيلٌ لِجِيلٍ قَبْلَهُمْ . ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾ أَيْ : فَإِنَّمَا يَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ دُونَ غَيْرِهِ ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾ أَيْ : كُلَّمَا اِسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ أَبْغَضَهُمُ اللهُ تَعَالَى ، وَكُلَّمَا اِسْتَمَرُّوا فِيهِ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّهُمْ كُلَّمَا طَالَ عُمُرُ أَحَدِهِمْ وَحَسُنَ عَمَلُهُ اِرْتَفَعَتْ دَرَجَتُهُ وَمَنْزِلَتُهُ فِي الْجَنَّةِ ، وَزَادَ أَجْرُهُ وَأَحَبَّهُ خَالِقُهُ وَبَارِئُهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ ، أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ﴾ أَيْ : أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ كِتَابًا بِمَا يَقُولُونَهُ مِنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ ؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ أَيْ : بَلْ إِنَّمَا اِتَّبَعُوا فِي ذَلِكَ أَهْوَاءَهُمْ وَآرَاءَهُمْ وَأَمَانِيهِمُ الَّتِي تَمَنَّوْهَا لِأَنْفُسِهِمْ ، وَهِيَ غُرُورٌ وَبَاطِلٌ وَزُورٌ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي بِهَا تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ عَنْ أَمْرِهِ ، وَمَا جَعَلَ فِيهِمَا مِنَ الْقُوَّةِ الْمَاسِكَةِ لَهُمَا ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ أَيْ : أَنْ تَضْطَرِبَا عَنْ أَمَاكِنِهِمَا ، ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُ عَلَى دَوَامِهِمَا وَإِبْقَائِهِمَا إِلَّا

هُوَ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ حَلِيمٌ غَفُورٌ أَنْ يَرَى عِبَادَهُ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِهِ وَيَعْصُونَهُ ، وَهُوَ يَحْلُمُ فَيُؤَخِّرُ ، وَيُنْظِرُ وَيُؤَجِّلُ وَلَا يَعْجَلُ ، وَيَسْتُرُ آخَرِينَ وَيَغْفِرُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ .

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ أَنَّهُمْ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ قَبْلَ إِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِمْ ﴿ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ﴾ أَيْ : مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ . ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ - وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ - بِمَا أُنْزِلَ مَعَهُ مِنَ الْكِتَابِ الْعَظِيمِ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمُبِينُ ﴿ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أَيْ : مَا ازْدَادُوا إِلَّا كُفْرًا إِلَى كُفْرِهِمْ . ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : اِسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللهِ ﴿ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ﴾ أَيْ : وَمَكَرُوا بِالنَّاسِ فِي صَدِّهِمْ إِيَّاهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ أَيْ : وَمَا يَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ إِلَّا عَلَيْهِمْ أَنْفُسِهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ . ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يَعْنِي : عُقُوبَةَ اللهِ لَهُمْ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَهُ ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أَيْ : لَا تُغَيَّرَ وَلَا تُبَدَّلَ بَلْ هِيَ جَارِيَةٌ كَذَلِكَ فِي كُلِّ مُكَذِّبٍ ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ أَيْ : ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾ [الرعد : ١١] ، وَلَا يَكْشِفُ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَيُحَوِّلُهُ عَنْهُمْ أَحَدٌ .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ ؟ كَيْفَ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ؟ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ، فَخُلِّيَتْ مِنْهُمْ مَنَازِلُهُمْ ، وَسُلِبُوا مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ ، بَعْدَ كَمَالِ الْقُوَّةِ وَكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ وَكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، فَمَا أَغْنَى ذَلِكَ شَيْئًا ، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ، لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ إِذَا أَرَادَ كَوْنَهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا

قديرًا ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ ، قَدِيرٌ عَلَى مَجْمُوعِهَا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أَيْ : لَوْ آخَذَهُمْ بِجَمِيعِ ذُنُوبِهِمْ لَأَهْلَكَ جَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ وَمَا يَمْلِكُونَهُ مِنْ دَوَابٍّ وَأَرْزَاقٍ . ﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَيْ : وَلَكِنْ يُنْظِرُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَيُحَاسِبُهُمْ يَوْمَئِذٍ وَيُوَفِّي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، فَيُجَازِي بِالثَّوَابِ أَهْلَ الطَّاعَةِ ، وَبِالْعِقَابِ أَهْلَ الْمَعْصِيَةِ . وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ فَاطِرٍ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ

آياتها ٨٣ تفسير سورة يس مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَّلِ « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » ، وَقِيلَ إِنَّ ﴿ يس ﴾ بِمَعْنَى : يَا إِنْسَانُ ، وَقِيلَ : هُوَ اسْمٌ مِن أَسْمَاءِ الله تَعَالَى . ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أَيْ : الْمُحْكَمِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴿ إِنَّكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أَيْ : عَلَى مَنْهَجٍ وَدِينٍ قَوِيمٍ ، وَشَرْعٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أَيْ : هَذَا الصِّرَاطُ وَالْمَنْهَجُ وَالدِّينُ الَّذِي جِئْتَ بِهِ ، مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ ، الرَّحِيمِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ يَعْنِي بِهِمُ الْعَرَب ، فَإِنَّهُ مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِهِ ، وَذِكْرُهُمْ وَحْدَهُمْ لَا يَنْفِي مَنْ عَدَاهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : لَقَدْ وَجَبَ الْعَذَابُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ بِأَنَّ اللهَ حَتَّمَ عَلَيْهِمْ فِي أُمِّ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بِالله وَلَا يُصَدِّقُونَ رُسُلَهُ .

إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ

ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّا جَعَلْنَا هَؤُلَاءِ المَحْتُومَ عَلَيْهِمْ بِالشَّقَاءِ ، نِسْبَتُهُمْ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى الْهُدَى كَنِسْبَةِ مَنْ جُعِلَ فِي عُنُقِهِ غُلٌّ ، فَجَمَعَ يَدَيْهِ مَعَ عُنُقِهِ تَحْتَ ذَقَنِهِ ، فَارْتَفَعَ رَأْسُهُ فَصَارَ مُقْمَحًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ وَالْمُقْمَحُ هُوَ : الرَّافِعُ رَأْسَهُ ، وَاكْتَفَى بِذِكْرِ الْغُلِّ فِي الْعُنُقِ عَنْ ذِكْرِ الْيَدَيْنِ ، وَإِنْ كَانَتَا مُرَادَتَيْنِ . ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ قَالَ : رَافِعُو رُءُوسِهِمْ ، وَأَيْدِيهِمْ مَوْضُوعَةٌ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ فَهُمْ مَغْلُولُونَ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ . ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ عَنِ الْحَقِّ ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ عَنِ الْحَقِّ فَهُمْ يَتَرَدَّدُونَ : فِي الضَّلَالَاتِ ﴿ فَأَغْشَيْنَٰهُمْ ﴾ أَيْ : أَغْشَيْنَا أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْحَقِّ ﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَنْتَفِعُونَ بِخَيْرٍ وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ . ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : قَدْ خَتَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ بِالضَّلَالَةِ ، فَمَا يُفِيدُ فِيهِمُ الْإِنْذَارُ وَلَا يَتَأَثَّرُونَ بِهِ ، ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِإِنْذَارِكَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الذِّكْرَ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ﴿ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أَيْ : حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ وَعَالِمٌ بِمَا يَفْعَلُهُ ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أَيْ : لِذُنُوبِهِ ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أَيْ : كَبِيرٍ وَاسِعٍ حَسَنٍ جَمِيلٍ . ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُحْيِي قَلْبَ مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْكُفَّارِ - الَّذِينَ قَدْ مَاتَتْ قُلُوبُهُمْ بِالضَّلَالَةِ - فَيَهْدِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْحَقِّ ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ قَوْلَانِ : **أَحَدُهُمَا** : نَكْتُبُ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي بَاشَرُوهَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَآثَارَهُمُ الَّتِي أَثَّرُوهَا مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَنَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، **وَالْقَوْلُ الثَّانِي** : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ آثَارَ خُطَاهُمْ إِلَى الطَّاعَةِ أَوِ الْمَعْصِيَةِ . ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ مَكْتُوبٌ فِي كِتَابٍ مَسْطُورٍ مَضْبُوطٍ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ، وَالْإِمَامُ الْمُبِينُ هَهُنَا : هُوَ أُمُّ الْكِتَابِ .

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَاضْرِبْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ الَّذِينَ كَذَّبُوكَ ﴿ مَّثَلاً أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ قِيلَ : إِنَّهَا مَدِينَةُ أَنْطَاكِيَّةَ ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ أَيْ : بَادَرُوهُمَا بِالتَّكْذِيبِ ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أَيْ : قَوَّيْنَاهُمَا وَشَدَدْنَا أَزْرَهُمَا بِرَسُولٍ ثَالِثٍ . ﴿ فَقَالُوٓاْ ﴾ أَيْ : لِأَهْلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ : ﴿ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ يَأْمُرُكُمْ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ أُوحِيَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ بَشَرٌ وَنَحْنُ بَشَرٌ ، فَلِمَ لَا أُوحِيَ إِلَيْنَا مِثْلَكُمْ ؟ وَلَوْ كُنْتُمْ رُسُلًا لَكُنْتُمْ مَلَائِكَةً ، وَلِهَذَا قَالَ هَؤُلَاءِ : ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ أَيْ : أَجَابَتْهُمْ رُسُلُهُمُ الثَّلَاثَةُ قَائِلِينَ : اللهُ يَعْلَمُ أَنَّا رُسُلُهُ إِلَيْكُمْ ، وَلَوْ كُنَّا كَذَبَةً عَلَيْهِ ؛ لَانْتَقَمَ مِنَّا أَشَدَّ الِانْتِقَامِ وَلَكِنَّهُ سَيُعِزُّنَا وَيَنْصُرُنَا عَلَيْكُمْ ، وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ عَاقِبَةُ الدَّارِ . ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ يَقُولُونَ : إِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نُبَلِّغَكُمْ مَا أُرْسِلْنَا بِهِ إِلَيْكُمْ ، فَإِنْ أَطَعْتُمْ كَانَتْ لَكُمُ السَّعَادَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ لَمْ تُجِيبُوا فَسَتَعْلَمُونَ غِبَّ ذَلِكَ .

قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُمْ أَهْلُ الْقَرْيَةِ : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أَيْ : لَمْ نَرَ عَلَى وُجُوهِكُمْ خَيْرًا فِي عَيْشِنَا . ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ بِالْحِجَارَةِ . ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : عُقُوبَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَقَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ : ﴿ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ أَيْ : مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَوَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ : أَيْ : أَعْمَالُكُمْ مَعَكُمْ . وَقَالَ ﷻ : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٧٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ أَجْلِ أَنَّا ذَكَّرْنَاكُمْ وَأَمَرْنَاكُمْ بِتَوْحِيدِ اللهِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ ، قَابَلْتُمُونَا بِهَذَا الْكَلَامِ وَتَوَعَّدْتُمُونَا وَتَهَدَّدْتُمُونَا ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ .

وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : إِنَّ أَهْلَ الْقَرْيَةِ هَمُّوا بِقَتْلِ رُسُلِهِمْ فَجَاءَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى أَيْ لِيَنْصُرَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ . ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ يَحُضُّ قَوْمَهُ عَلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ الَّذِينَ أَتَوْهُمْ ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا ﴾ أَيْ : عَلَى إِبْلَاغِ الرِّسَالَةِ ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فِيمَا يَدْعُونَكُمْ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ أَيْ : وَمَا يَمْنَعُنِي مِنْ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّذِي خَلَقَنِي وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْمَعَادِ فَيُجَازِيكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ . ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ اِسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ وَتَوْبِيخٍ وَتَقْرِيعٍ ﴿ إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ أَيْ : هَذِهِ الْآلِهَةُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَوْ أَرَادَنِي بِسُوءٍ ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ [يونس - ١٠٧] ، وَهَذِهِ الْأَصْنَامُ لَا تَمْلِكُ دَفْعَ ذَلِكَ وَلَا مَنْعَهُ ، وَلَا يُنْقِذُونَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ ﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : إِنِ اتَّخَذْتُهَا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهِ ﴿ فَٱسْمَعُونِ ﴾ أَيْ : فَاسْمَعُوا قَوْلِي ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ خِطَابُهُ لِلرُّسُلِ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أَيْ : الَّذِي أَرْسَلَكُمْ ﴿ فَٱسْمَعُونِ ﴾ أَيْ : فَاشْهَدُوا لِي بِذَلِكَ عِنْدَهُ . وَقَالَ قَتَادَةُ : جَعَلُوا يَرْجُمُونَهُ بِالْحِجَارَةِ ، وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى أَقْعَصُوهُ ، وَهُوَ يَقُولُ كَذَلِكَ ، فَقَتَلُوهُ رَحِمَهُ اللهُ .

قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾

قَالَ اللهُ لَهُ : ﴿ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ فَدَخَلَهَا ، فَهُوَ يُرْزَقُ مِنْهَا ، قَدْ أَذْهَبَ اللهُ عَنْهُ سَقَمَ الدُّنْيَا وَحُزْنَهَا وَنَصَبَهَا ، قَالَ قَتَادَةُ : لَا تَلْقَى الْمُؤْمِنَ إِلَّا نَاصِحًا ، لَا تَلْقَاهُ غَاشًّا ، لَمَّا عَايَنَ مَا عَايَنَ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ تَمَنَّى وَاللهِ أَنْ يَعْلَمَ قَوْمُهُ بِمَا عَايَنَ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ ، وَمَا هَجَمَ عَلَيْهِ . وَمَقْصُودُهُ : أَنَّهُمْ لَوِ اطَّلَعُوا عَلَى مَا حَصَلَ لِي مِنَ الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ - فَرَحِمَهُ اللهُ وَرَضِيَ عَنْهُ - فَلَقَدْ كَانَ حَرِيصًا عَلَى هِدَايَةِ قَوْمِهِ . ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ انْتَقَمَ مِنْ قَوْمِهِ بَعْدَ قَتْلِهِمْ إِيَّاهُ غَضَبًا مِنْهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَلَيْهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَهُ وَقَتَلُوا وَلِيَّهُ ، وَيَذْكُرُ ﷻ أَنَّهُ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ وَمَا احْتَاجَ فِي إِهْلَاكِهِ إِيَّاهُمْ إِلَى إِنْزَالِ جُنْدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ ، بَلِ الْأَمْرُ كَانَ أَيْسَرَ مِنْ ذَلِكَ . وَقِيلَ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾

أَيْ : وَمَا كُنَّا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ عَلَى الْأُمَمِ إِذَا أَهْلَكْنَاهُمْ ، بَلْ نَبْعَثُ عَلَيْهِمْ عَذَابًا يُدَمِّرُهُمْ .

يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾ أَيْ : يَا وَيْلَ الْعِبَادِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾ أَيْ : يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَلَى مَا ضَيَّعَتْ مِنْ أَمْرِ الله ، وَفَرَّطَتْ فِي جَنْبِ الله ، وَفِي بَعْضِ الْقِرَاءَاتِ « **يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ عَلَى أَنْفُسِهَا** » ، وَمَعْنَى هَذَا : يَا حَسْرَتهم وَنَدَامَتهم يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا عَايَنُوا الْعَذَابَ ، كَيْفَ كَذَّبُوا رُسُلَ الله وَخَالَفُوا أَمْرَ الله ؟ فَإِنَّهُمْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا الْمُكَذِّبُونَ مِنْهُمْ ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيْ : يُكَذِّبُونَهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ وَيَجْحَدُونَ مَا أُرْسِلَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أَيْ : أَلَمْ يَتَّعِظُوا بِمَنْ أَهْلَكَ اللهُ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ ، كَيْفَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا كَرَّةٌ وَلَا رَجْعَةٌ وَلَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ كَثِيرٌ مِنْ جَهَلَتِهِمْ وَفَجَرَتِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ [المؤمنون : ٣٧] ، وَهُمُ الْقَائِلُونَ بِالدَّوْرِ مِنَ الدَّهْرِيَّةِ وَهُمُ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ جَهْلًا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَعُودُونَ إِلَى الدُّنْيَا كَمَا كَانُوا فِيهَا ، فَرَدَّ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَلَيْهِمْ بَاطِلَهُمْ ، **فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أَيْ : وَإِنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ سَتُحْضَرُ لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ الله - جَلَّ وَعَلَا - فَيُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ كُلِّهَا خَيْرِهَا وَشَرِّهَا .

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ أَيْ : دَلَالَةٌ لَهُمْ عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ ، وَقُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَإِحْيَائِهِ الْمَوْتَى ﴿ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ أَيْ : إِذَا كَانَتْ مَيْتَةً هَامِدَةً لَا شَيْءَ فِيهَا مِنَ النَّبَاتِ ، فَإِذَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَاهُ رِزْقًا لَهُمْ وَلِأَنْعَامِهِمْ ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا

فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَا فِيهَا أَنْهَارًا سَارِحَةً فِي أَمْكِنَةٍ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ ﴾ لَمَّا امْتَنَّ عَلَى خَلْقِهِ بِإِيجَادِ الزُّرُوعِ لَهُمْ ، عَطَفَ بِذِكْرِ الثِّمَارِ وَتَنَوُّعِهَا وَأَصْنَافِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أَيْ : وَمَا ذَاكَ كُلُّهُ إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى بِهِمْ ، لَا بِسَعْيِهِمْ وَلَا كَدِّهِمْ ، وَلَا بِحَوْلِهِمْ وَبِقُوَّتِهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : فَهَلَّا يَشْكُرُونَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ أَيْ : مِنْ زُرُوعٍ وَثِمَارٍ وَنَبَاتٍ ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ، فَجَعَلَهُمْ ذَكَرًا وَأُنْثَى ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ مَخْلُوقَاتٍ شَتَّى لَا يَعْرِفُونَهَا .

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَمِنَ الدَّلَالَةِ لَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - الْعَظِيمَةِ خَلْقُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، هَذَا بِظَلَامِهِ وَهَذَا بِضِيَائِهِ ، وَجَعْلُهُمَا يَتَعَاقَبَانِ ، يَجِيءُ هَذَا فَيَذْهَبُ هَذَا ، وَيَذْهَبُ هَذَا فَيَجِيءُ هَذَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، **وَلِهَذَا قَالَ ﷻ هَهُنَا** : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ أَيْ : نَصْرِمُهُ مِنْهُ فَيَذْهَبُ فَيُقْبِلُ اللَّيْلُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « **إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَهُنَا ، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَهُنَا ، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ** » .

وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ **قَوْلَانِ** : **أَحَدُهُمَا** : أَنَّ الْمُرَادَ مُسْتَقَرُّهَا الْمَكَانِيُّ ، وَهُوَ تَحْتَ الْعَرْشِ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ فِي ذَلِكَ الْجَانِبِ ، وَهِيَ أَيْنَمَا كَانَتْ فَهِيَ تَحْتَ الْعَرْشِ هي وَجَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ ، لِأَنَّهُ سَقْفُهَا .

عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ : كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ ، فَقَالَ ﷺ : « **يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ ؟** » قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ ﷺ : « **فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ » .

وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ الْمُرَادَ بِمُسْتَقَرِّهَا : هُوَ مُنْتَهَى سَيْرِهَا ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَبْطُلُ سَيْرُهَا ، وَتَسْكُنُ حَرَكَتُهَا ، وَتُكَوَّرُ وَيَنْتَهِي هَذَا الْعَالَمُ إِلَى غَايَتِهِ ، وَهَذَا هُوَ مُسْتَقَرُّهَا الزَّمَانِيُّ .

قَالَ قَتَادَةُ : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ أَيْ : لِوَقْتِهَا وَلِأَجَلٍ لَا تَعْدُوهُ ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ أَنَّهَا لَا تَزَالُ تَنْتَقِلُ فِي مَطَالِعِهَا الصَّيْفِيَّةِ إِلَى مُدَّةٍ لَا تَزِيدُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ تَنْتَقِلُ فِي مَطَالِعِ الشِّتَاءِ إِلَى مُدَّةٍ لَا تَزِيدُ عَلَيْهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ﴾ أَيْ : الَّذِي لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ ﴿ ٱلْعَلِيمِ ﴾ بِجَمِيعِ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ ، وَقَدْ قَدَّرَ ذَلِكَ وَقَنَّنَهُ عَلَى مِنْوَالٍ لَا اِخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا تَعَاكُسَ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَاهُ يَسِيرُ سَيْرًا آخَرَ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى مُضِيِّ الشُّهُورِ ، كَمَا أَنَّ الشَّمْسَ يُعْرَفُ بِهَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَكَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٨٩] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس : ٥] ، فَجَعَلَ الشَّمْسَ لَهَا ضَوْءٌ يَخُصُّهَا ، وَالْقَمَرَ لَهُ نُورٌ يَخُصُّهُ ، وَفَاوَتَ بَيْنَ سَيْرِ هَذِهِ وَهَذَا ، فَالشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ يَوْمٍ وَتَغْرُبُ فِي آخِرِهِ عَلَى ضَوْءٍ وَاحِدٍ ، وَلَكِنْ تَنْتَقِلُ فِي مَطَالِعِهَا وَمَغَارِبِهَا صَيْفًا وَشِتَاءً ، يَطُولُ بِسَبَبِ ذَلِكَ النَّهَارُ وَيَقْصُرُ اللَّيْلُ ، ثُمَّ يَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ النَّهَارُ وَجَعَلَ سُلْطَانَهَا بِالنَّهَارِ ، فَهِيَ كَوْكَبٌ نَهَارِيٌّ ، وَأَمَّا الْقَمَرُ فَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ، يَطْلُعُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنَ الشَّهْرِ ضَئِيلًا قَلِيلَ النُّورِ ، ثُمَّ يَزْدَادُ نُورًا فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ وَيَرْتَفِعُ مَنْزِلَةً ، ثُمَّ كُلَّمَا ارْتَفَعَ اِزْدَادَ ضِيَاءً ، وَإِنْ كَانَ مُقْتَبَسًا مِنَ الشَّمْسِ حَتَّى يَتَكَامَلَ نُورُهُ فِي اللَّيْلَةِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ إِلَى آخِرِ الشَّهْرِ حَتَّى يَصِيرَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . وَهُوَ أَصْلُ الْعُنْقُودِ مِنَ الرُّطَبِ إِذَا عَتُقَ وَيَبِسَ وَانْحَنَى ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا يُبْدِيهِ اللهُ تَعَالَى جَدِيدًا فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ الْآخَرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : لِكُلٍّ مِنْهُمَا حَدٌّ لَا يَعْدُوهُ وَلَا يُقَصِّرُ دُونَهُ ، إِذَا جَاءَ سُلْطَانُ هَذَا ذَهَبَ هَذَا ، وَإِذَا ذَهَبَ سُلْطَانُ هَذَا جَاءَ سُلْطَانُ هَذَا . ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ يَقُولُ : لَا يَنْبَغِي إِذَا كَانَ اللَّيْلُ أَنْ يَكُونَ لَيْلٌ آخَرُ حَتَّى يَكُونَ النَّهَارُ ، فَسُلْطَانُ الشَّمْسِ بِالنَّهَارِ ، وَسُلْطَانُ الْقَمَرِ بِاللَّيْلِ . وَالْمَعْنَى فِي هَذَا : أَنَّهُ لَا فَتْرَةَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، بَلْ كُلٌّ مِنْهُمَا يَعْقُبُ الْآخَرَ بِلَا مُهْلَةٍ وَلَا تَرَاخٍ ؛ لِأَنَّهُمَا مُسَخَّرَانِ دَائِبَيْنِ يَتَطَالَبَانِ طَلَبًا حَثِيثًا . ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يَعْنِي : اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلُّهُمْ يَسْبَحُونَ ، أَيْ : يَدُورُونَ فِي فَلَكِ السَّمَاءِ .

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَدَلَالَةٌ لَهُمْ أَيْضًا عَلَى قُدْرَتِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - تَسْخِيرُهُ الْبَحْرَ لِيَحْمِلَ السُّفُنَ ، فَمِنْ ذَلِكَ - بَلْ أَوَّلُهُ - سَفِينَةُ نُوحٍ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - الَّتِي أَنْجَاهُ اللهُ تَعَالَى فِيهَا بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - غَيْرُهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أَيْ : آبَاءَهُمْ ﴿ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ أَيْ :

فِي السَّفِينَةِ الْمَمْلُوءَةِ مِنَ الْأَمْتِعَةِ وَالْحَيَوَانَاتِ الَّتِي أَمَرَهُ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أَنْ يَحْمِلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ قِيلَ: يَعْنِي: بِذَلِكَ الْإِبِلَ، فَإِنَّهَا سُفُنُ الْبَرِّ يَحْمِلُونَ عَلَيْهَا وَيَرْكَبُونَهَا. وَقِيلَ: أَيْ: السُّفُنَ.

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ فِي السُّفُنِ ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أَيْ: فَلَا مُغِيثَ لَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ أَيْ: مِمَّا أَصَابَهُمْ ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾، وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ تَقْدِيرُهُ: وَلَكِنْ بِرَحْمَتِنَا نُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَنُسَلِّمُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أَيْ: إِلَى وَقْتٍ مَعْلُومٍ عِنْدَ اللهِ.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَمَادِي الْمُشْرِكِينَ فِي غَيِّهِمْ وَضَلَالِهِمْ، وَعَدَمِ اكْتِرَاثِهِمْ بِذُنُوبِهِمُ الَّتِي أَسْلَفُوهَا، وَمَا يَسْتَقْبِلُونَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ مِنَ الذُّنُوبِ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أَيْ: لَعَلَّ اللهَ بِاتِّقَائِكُمْ ذَلِكَ يَرْحَمُكُمْ وَيُؤَمِّنُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ.

وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: أَنَّهُمْ لَا يُجِيبُونَ إِلَى ذَلِكَ بَلْ يُعْرِضُونَ عَنْهُ، وَاكْتَفَى عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ: عَلَى التَّوْحِيدِ وَصِدْقِ الرُّسُلِ ﴿ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أَيْ: لَا يَتَأَمَّلُونَهَا وَلَا يَقْبَلُونَهَا وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا. وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ: وَإِذَا أُمِرُوا بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحَاوِيجِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أَيْ: عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْفُقَرَاءِ، أَيْ: قَالُوا لِمَنْ أَمَرَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِنْفَاقِ مُحَاجِّينَ لَهُمْ فِيمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ أَيْ: وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَمَرْتُمُونَا بِالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ لَوْ شَاءَ اللهُ لَأَغْنَاهُمْ وَلَأَطْعَمَهُمْ مِنْ رِزْقِهِ، فَنَحْنُ نُوَافِقُ مَشِيئَةَ اللهِ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ: فِي أَمْرِكُمْ لَنَا بِذَلِكَ.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اسْتِبْعَادِ الْكَفَرَةِ لِقِيَامِ السَّاعَةِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾؟ ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى: ١٨]، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أَيْ: مَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً، وَهَذِهِ - وَاللهُ أَعْلَمُ - نَفْخَةُ الْفَزَعِ، يُنْفَخُ

فِي الصُّورِ نَفْخَةُ الْفَزَعِ وَالنَّاسُ فِي أَسْوَاقِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ يَخْتَصِمُونَ وَيَتَشَاجَرُونَ عَلَى عَادَتِهِمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَمَرَ اللهُ ﷻ إِسْرَافِيلَ فَنَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً يُطَوِّلُهَا وَيَمُدُّهَا، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا، وَهِيَ: صَفْحَةُ الْعُنُقِ، يَتَسَمَّعُ الصَّوْتَ مِنْ قِبَلِ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُسَاقُ الْمَوْجُودُونَ مِنَ النَّاسِ إِلَى مَحْشَرِ الْقِيَامَةِ بِالنَّارِ، تُحِيطُ بِهِمْ مِنْ جَوَانِبِهِمْ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أَيْ: عَلَى مَا يَمْلِكُونَهُ، الْأَمْرُ أَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾، وَقَدْ وَرَدَتْ هَهُنَا آثَارٌ وَأَحَادِيثُ ذَكَرْنَاهَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ هَذَا نَفْخَةُ الصَّعْقِ، الَّتِي تَمُوتُ بِهَا الْأَحْيَاءُ كُلُّهُمْ مَا عَدَا الْحَيُّ الْقَيُّومُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الْبَعْثِ.

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

هَذِهِ هِيَ النَّفْخَةُ الثَّالِثَةُ وَهِيَ: نَفْخَةُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ لِلْقِيَامِ مِنَ الْأَجْدَاثِ وَالْقُبُورِ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾، وَالنَّسَلَانُ هُوَ: الْمَشْيُ السَّرِيعُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣]

﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ يَعْنُونَ: قُبُورَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَعْتَقِدُونَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا أَنَّهُمْ لَا يُبْعَثُونَ مِنْهَا، فَلَمَّا عَايَنُوا مَا كَذَّبُوا بِهِ فِي مَحْشَرِهِمْ ﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾، وَهَذَا لَا يَنْفِي عَذَابَهُمْ فِي قُبُورِهِمْ؛ لِأَنَّهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا بَعْدَهُ فِي الشِّدَّةِ كَالرُّقَادِ. **قَالَ قَتَادَةُ**: يَنَامُونَ نَوْمَةً قَبْلَ الْبَعْثِ. **قَالَ**: وَذَلِكَ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ، فَلِذَلِكَ يَقُولُونَ: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ أَجَابَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ: ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، **وَقَالَ الْحَسَنُ**: إِنَّمَا يُجِيبُهُمْ بِذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ، وَلَا مُنَافَاةَ إِذِ الْجَمْعُ مُمْكِنٌ، وَاللهُ أَعْلَمُ. **وَقَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤] أَيْ: إِنَّمَا نَأْمُرُهُمْ أَمْرًا وَاحِدًا فَإِذَا الْجَمِيعُ مُحْضَرُونَ ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أَيْ: مِنْ عَمَلِهَا ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا ارْتَحَلُوا مِنَ الْعَرَصَاتِ فَنَزَلُوا فِي رَوْضَاتِ

الْجَنَّاتِ ، أَنَّهُمْ فِي شُغُلٍ عَنْ غَيْرِهِمْ ، بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ ، ﴿ فَٰكِهُونَ ﴾ أَيْ : فَرِحُونَ ، ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ ﴾ وَحَلَائِلُهُمْ ﴿ فِى ظِلَٰلٍ ﴾ أَيْ : فِي ظِلَالِ الْأَشْجَارِ ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾ ٱلْأَرَآئِكِ : هِيَ السُّرُرُ تَحْتَ الْحِجَالِ . ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾ أَيْ : مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِهَا ﴿ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ أَيْ : مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ الْمَلَاذِّ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ فَإِنَّ اللهَ نَفسهُ سَلَامٌ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾[الأحزاب : ٤٤]

وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَئُولُ إِلَيْهِ حَالُ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَمْرِهِ لَهُمْ أَنْ يَمْتَازُوا ، بِمَعْنَى : يُمَيَّزُونَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَوْقِفِهِمْ ، قَالَ ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾[الروم : ١٤] ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أَيْ : يَصِيرُونَ صَدْعَيْنِ فِرْقَتَيْنِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ هَذَا تَقْرِيعٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلْكَفَرَةِ مِنْ بَنِي آدَمَ الَّذِينَ أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ ، وَهُوَ عَدُوٌّ لَهُمْ مُبِينٌ وَعَصَوا الرَّحْمَنَ ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَرَزَقَهُمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أَيْ : قَدْ أَمَرْتُكُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا بِعِصْيَانِ الشَّيْطَانِ ، وَأَمَرْتُكُمْ بِعِبَادَتِي ، وَهَذَا هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ فَسَلَكْتُمْ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ . **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ : الْخَلْقُ الْكَثِيرُ . ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : أَفَمَا كَانَ لَكُمْ عَقْلٌ فِي مُخَالَفَةِ رَبِّكُمْ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَعُدُولِكُمْ إِلَى اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ ؟! .

هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

يُقَالُ لِلْكَفَرَةِ مِنْ بَنِي آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَدْ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لَهُمْ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أَيْ : هَذِهِ الَّتِي حَذَّرَتْكُمُ الرُّسُلُ فَكَذَّبْتُمُوهُمْ . ﴿ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ

تَكْفُرُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾[الطور : ١٣-١٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ هَذَا حَالُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُنْكِرُونَ مَا اجْتَرَمُوهُ فِي الدُّنْيَا ، وَيَحْلِفُونَ مَا فَعَلُوهُ ، فَيَخْتِمُ اللهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ، وَيَسْتَنْطِقُ جَوَارِحَهُمْ بِمَا عَمِلَتْ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، ثُمَّ قَالَ ﷺ : ((**أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ ؟**)) قُلْنَا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ ﷺ : ((**مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَقُولُ : رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى ، فَيَقُولُ : لَا أُجِيزُ عَلَيَّ إِلَّا شَاهِدًا مِنْ نَفْسِي ، فَيَقُولُ : كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا ، فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ : انْطِقِي بِعَمَلِهِ ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ ، فَيَقُولُ : بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ**)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ **قِيلَ** : وَلَوْ نَشَاءُ لَأَضْلَلْنَاهُمْ عَنِ الْهُدَى فَكَيْفَ يَهْتَدُونَ ، **وَقِيلَ** : وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَطَمَسَ عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَجَعَلَهُمْ عُمْيًا يَتَرَدَّدُونَ ﴿ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ يَعْنِي : الطَّرِيقَ ، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : يَعْنِي بِالصِّرَاطِ هَهُنَا الْحَقَّ ﴿ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ وَقَدْ طَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ . وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ **قَالَ السُّدِّيُّ** : يَعْنِي : لَغَيَّرْنَا خَلْقَهُمْ ، **وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ** : لَجَعَلْنَاهُمْ حِجَارَةً ، **وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ** : لَأَقْعَدَهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا ﴾ أَيْ : إِلَى أَمَامٍ ﴿ وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ إِلَى وَرَاءٍ ، بَلْ يَلْزَمُونَ حَالًا وَاحِدًا لَا يَتَقَدَّمُونَ وَلَا يَتَأَخَّرُونَ .

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ ابْنِ آدَمَ أَنَّهُ كُلَّمَا طَالَ عُمْرُهُ رُدَّ إِلَى الضَّعْفِ بَعْدَ الْقُوَّةِ ، وَالْعَجْزِ بَعْدَ النَّشَاطِ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [الروم : ٥٤] ، وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - الْإِخْبَارُ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ بِأَنَّهَا دَارُ زَوَالٍ وَانْتِقَالٍ لَا دَارُ دَوَامٍ وَاسْتِقْرَارٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : يَتَفَكَّرُونَ بِعُقُولِهِمْ فِي ابْتِدَاءِ خَلْقِهِمْ ثُمَّ صَيْرُورَتِهِمْ إِلَى سِنِّ الشَّبِيبَةِ ، ثُمَّ إِلَى الشَّيْخُوخَةِ ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ خُلِقُوا لِدَارٍ أُخْرَى لَا زَوَالَ لَهَا وَلَا انْتِقَالَ مِنْهَا ، وَلَا مَحِيدَ عَنْهَا ، وَهِيَ الدَّارُ الْآخِرَةُ . ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ يَقُولُ ﷻ مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ مَا عَلَّمَهُ

الشِّعْرَ ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ أَيْ : مَا هُوَ فِي طَبْعِهِ ، فَلَا يُحْسِنُهُ وَلَا يُحِبُّهُ وَلَا تَقْتَضِيهِ جِبِلَّتُهُ ، وَلِهَذَا وَرَدَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ لَا يَحْفَظُ بَيْتًا عَلَى وَزْنٍ مُنْتَظِمٍ ، بَلْ إِنْ أَنْشَدَهُ زَحَّفَهُ أَوْ لَمْ يُتِمَّهُ . يَعْنِي : فِي المَعْنَى صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : مَا هَذَا الَّذِي عَلَّمْنَاهُ ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : بَيِّنٌ وَاضِحٌ جَلِيٌّ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ وَتَدَبَّرَهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ أَيْ : لِيُنْذِرَ هَذَا الْقُرْآنُ المُبِينُ كُلَّ حَيٍّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِنِذَارَتِهِ مَنْ هُوَ حَيُّ الْقَلْبِ مُسْتَنِيرُ الْبَصِيرَةِ ، ﴿ وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : هُوَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ ، وَحُجَّةٌ عَلَى الْكَافِرِ .

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى خَلْقِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَنْعَامِ الَّتِي سَخَّرَهَا لَهُمْ ﴿ فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : مُطِيقُونَ ، أَيْ : جَعَلَهُمْ يَقْهَرُونَهَا وَهِيَ ذَلِيلَةٌ لَهُمْ لَا تَمْتَنِعُ مِنْهُمْ ، بَلْ لَوْ جَاءَ صَغِيرٌ إِلَى بَعِيرٍ لَأَنَاخَهُ ، وَلَوْ شَاءَ لَأَقَامَهُ وَسَاقَهُ ، وَذَاكَ ذَلِيلٌ مُنْقَادٌ مَعَهُ ، وَكَذَا لَوْ كَانَ الْقِطَارُ مِائَةَ بَعِيرٍ أَوْ أَكْثَرَ لَسَارَ الجَمِيعُ بِسَيْرِ الصَّغِيرِ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أَيْ : مِنْهَا مَا يَرْكَبُونَ فِي الْأَسْفَارِ وَيَحْمِلُونَ عَلَيْهِ الْأَثْقَالَ إِلَى سَائِرِ الجِهَاتِ وَالْأَقْطَارِ ، وَمِنْهَا مَا يَأْكُلُونَ إِذَا شَاءُوا نَحَرُوا وَاجْتَزَرُوا ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ أَيْ : مِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ أَيْ : مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا لِمَنْ يَتَدَاوَى وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : أَفَلَا يُوَحِّدُونَ خَالِقَ ذَلِكَ وَمُسَخِّرَهُ وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ غَيْرَهُ ؟ .

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمُ الْأَنْدَادَ آلِهَةً مَعَ الله يَبْتَغُونَ بِذَلِكَ أَنْ تَنْصُرَهُمْ تِلْكَ الْآلِهَةُ وَتَرْزُقَهُمْ وَتُقَرِّبَهُمْ إِلَى الله زُلْفَى . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ أَيْ : لَا تَقْدِرُ الْآلِهَةُ عَلَى نَصْرِ عَابِدِيهَا ، بَلْ هِيَ أَضْعَفُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقَلُّ وَأَذَلُّ وَأَحْقَرُ وَأَدْحَرُ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يَعْنِي عِنْدَ الحِسَابِ . يُرِيدُ أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ مَحْشُورَةٌ مَجْمُوعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُحْضَرَةٌ عِنْدَ حِسَابِ عَابِدِيهَا ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي حُزْنِهِمْ وَأَدَلَّ عَلَيْهِمْ فِي إِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يَعْنِي : الْآلِهَةَ ، ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ ، وَالْمُشْرِكُونَ يَغْضَبُونَ لِلْآلِهَةِ فِي الدُّنْيَا وَهِيَ لَا تَسُوقُ إِلَيْهِمْ

خيْرًا ، وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ شَرًّا ، إِنَّمَا هِيَ أَصْنَامٌ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أَيْ : تَكْذِيبُهُمْ لَكَ وَكُفْرُهُمْ بِاللهِ ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أَيْ : نَحْنُ نَعْلَمُ جَمِيعَ مَا هُمْ عَلَيْهِ ، وَسَنَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ وَنُعَامِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، يَوْمَ لَا يَفْقِدُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ جَلِيلًا وَلَا حَقِيرًا ، وَلَا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا ، بَلْ يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ جَمِيعُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا .

أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : جَاءَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ - لَعَنَهُ اللهُ - إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفِي يَدِهِ عَظْمٌ رَمِيمٌ ، وَهُوَ يُفَتِّتُهُ وَيُذْرِيهِ فِي الْهَوَاءِ ، وَهُوَ يَقُولُ : يَا مُحَمَّدُ أَتَزْعُمُ أَنَّ اللهَ يَبْعَثُ هَذَا ؟ قَالَ ﷺ : « **نَعَمْ ؛ يُمِيتُكَ اللهُ تَعَالَى ، ثُمَّ يَبْعَثُكَ ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ إِلَى النَّارِ** » وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ « **يس** » : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إِلَى آخِرِهِنَّ . وَالْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ لِلْجِنْسِ ، يَعُمُّ كُلَّ مُنْكِرٍ لِلْبَعْثِ ﴿ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : أَوَلَمْ يَسْتَدِلَّ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ بِالْبَدْءِ عَلَى الْإِعَادَةِ ، فَإِنَّ اللهَ ابْتَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، فَخَلَقَهُ مِنْ شَيْءٍ حَقِيرٍ ضَعِيفٍ مَهِينٍ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ ، فَالَّذِي خَلَقَهُ مِنْ هَذِهِ النُّطْفَةِ الضَّعِيفَةِ أَلَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَى إِعَادَتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ .

عَنْ بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ قَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **قَالَ اللهُ تَعَالَى : ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَّلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْكَ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ : أَتَصَدَّقُ ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ ؟** » . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ أَيْ : اسْتَبْعَدَ إِعَادَةَ اللهِ تَعَالَى ذِي الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي خَلَقَتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِلْأَجْسَادِ وَالْعِظَامِ الرَّمِيمَةِ وَنَسِيَ نَفْسَه ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ ، فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا اسْتَبْعَدَهُ وَأَنْكَرَهُ وَجَحَدَهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ الْعِظَامَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَأَرْجَائِهَا ، أَيْنَ ذَهَبَتْ ؟ وَأَيْنَ تَفَرَّقَتْ وَتَمَزَّقَتْ ؟ .

عَنْ حُذَيْفَةَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **إِنَّ رَجُلًا حَضَرَهُ الْمَوْتُ ، فَلَمَّا يَئِسَ مِنَ الْحَيَاةِ ، أَوْصَى أَهْلَهُ : إِذَا أَنَا مِتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا كَثِيرًا جَزْلًا ، ثُمَّ أَوْقِدُوا فِيهِ نَارًا ، حَتَّى إِذَا أَكَلَتْ**

لحمِي وَخَلَصَتْ إِلَى عظمِي فَامْتَحَشَتْ فَخُذُوهَا ، فَدُقُّوهَا فَذُرُّوهَا فِي الْيَمِّ ، فَفَعَلُوا فَجَمَعَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : مِنْ خَشْيَتِكَ ، فَغَفَرَ اللهُ ﷻ لَهُ)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ أَيْ : الَّذِي بَدَأَ خَلْقَ هَذَا الشَّجَرِ مِنْ مَاءٍ حَتَّى صَارَ خَضِرًا نَضِرًا ذَا ثَمَرٍ وَيَنْعٍ ، ثُمَّ أَعَادَهُ إِلَى أَنْ صَارَ حَطَبًا يَابِسًا تُوقَدُ بِهِ النَّارُ ، كَذَلِكَ هُوَ فَعَّالٌ لِمَا يَشَاءُ ، قَادِرٌ عَلَى مَا يُرِيدُ ، لَا يَمْنَعُهُ شَيْءٌ .

أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ بِمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ وَالثَّوَابِتِ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعِ ، وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَرِمَالٍ وَبِحَارٍ وَقِفَارٍ ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ، وَمُرْشِدًا إِلَى الِاسْتِدْلَالِ عَلَى إِعَادَةِ الْأَجْسَادِ بِخَلْقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْعَظِيمَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] ، وَقَالَ ﷻ هَهُنَا ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ أَيْ : مِثْلَ الْبَشَرِ فَيُعِيدُهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف : ٣٣] ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَأْمُرُ بِالشَّيْءِ أَمْرًا وَاحِدًا لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكْرَارٍ .

إِذَا مَا أَرَادَ اللهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا ... يَقُولُ لَهُ ((كُنْ)) قَوْلَةً فَيَكُونُ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : تَنْزِيهٌ وَتَقْدِيسٌ وَتَبْرِئَةٌ مِنَ السُّوءِ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ وَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، وَإِلَيْهِ تَرْجِعُ الْعِبَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، وَهُوَ الْعَادِلُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ . وَمَعْنَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[المؤمنون : ٨٨] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾[الملك : ١] ، فَالْمُلْكُ وَالْمَلَكُوتُ وَاحِدٌ فِي الْمَعْنَى ، كَرَحْمَةٍ وَرَحَمُوتٍ ، وَرَهْبَةٍ وَرَهَبُوتٍ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ((يس)) ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسيرُ سُورَةِ الصافات مكية آياتها ١٨٢

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُنا بِالتَّخْفِيفِ وَيَؤُمُّنَا بِالصَّافَّاتِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴾ وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴾ وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾ وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ؟ » قُلْنَا : وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ؟ قَالَ ﷺ: « يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْمُتَقَدِّمَةَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ » .

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ أَنَّهُ تَعَالَى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ﴿ وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْخَلْقِ بِتَسْخِيرِهِ بِمَا فِيهِ مِنْ كَوَاكِبَ ثَوَابِتَ وَسَيَّارَاتٍ تَبْدُو مِنَ الْمَشْرِقِ وَتَغْرُبُ مِنَ الْمَغْرِبِ ، وَاكْتَفَى بِذِكْرِ الْمَشَارِقِ عَنِ الْمَغَارِبِ ؛ لِدَلَالَتِهَا عَلَيْهَا ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾ [المعارج : ٤٠]، وَقَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ [الرحمن : ١٧] يَعْنِي : فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ .

إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ زَيَّنَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا لِلنَّاظِرِينَ إِلَيْهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ﴿ بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ ، فَالْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ وَالثَّوَابِتُ يَثْقُبُ ضَوْءُهَا جِرْمَ السَّمَاءِ الشَّفَّافِ فَتُضِيءُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك : ٥] ، قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا : ﴿ وَحِفْظًا ﴾ تَقْدِيرُهُ : وَحَفِظْنَاهَا حِفْظًا ﴿ مِّن

كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ : يَعْنِي المُتَمَرِّدَ الْعَاتِي ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْتَرِقَ السَّمْعَ أَتَاهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ فَأَحْرَقَهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أَيْ : لِئَلَّا يَصِلُوا إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى ، وَهِيَ السَّمَاوَاتُ وَمَنْ فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، إِذَا تَكَلَّمُوا بِمَا يُوحِيهِ اللهُ تَعَالَى مِمَّا يَقُولُهُ مِنْ شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ، ﴿ وَيُقْذَفُونَ ﴾ أَيْ : يُرْمَوْنَ ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أَيْ : مِنْ كُلِّ جِهَةٍ يَقْصِدُونَ السَّمَاءَ مِنْهَا . ﴿ دُحُورًا ﴾ أَيْ : رَجْمًا ، يُدْحَرُونَ بِهِ وَيُزْجَرُونَ وَيُمْنَعُونَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى ذَلِكَ وَيُرْجَمُونَ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لَهُمْ عَذَابٌ دَائِمٌ مُوجِعٌ مُسْتَمِرٌّ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ ﴾ أَيْ : إِلَّا مَنِ اخْتَطَفَ مِنَ الشَّيَاطِينِ الْخَطْفَةَ ، وَهِيَ الْكَلِمَةُ يَسْمَعُهَا مِنَ السَّمَاءِ فَيُلْقِيهَا إِلَى الَّذِي تَحْتَهُ ، وَيُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى الَّذِي تَحْتَهُ ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا ، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا - بِقَدَرِ اللهِ تَعَالَى - قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَه الشِّهَابُ فَيُحْرِقَهُ فَيَذْهَب بِهَا الْآخَرُ إِلَى الْكَاهِنِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ أَيْ : مُسْتَنِيرٌ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ** : كَانَ لِلشَّيَاطِينِ مَقَاعِدُ فِي السَّمَاءِ ، **قَالَ** : فَكَانُوا يَسْتَمِعُونَ الْوَحْيَ ، **قَالَ** : وَكَانَتِ النُّجُومُ لَا تَجْرِي ، وَكَانَتِ الشَّيَاطِينُ لَا تُرْمَى ، **قَالَ** : فَإِذَا سَمِعُوا الْوَحْيَ نَزَلُوا إِلَى الْأَرْضِ فَزَادُوا فِي الْكَلِمَةِ تِسْعًا ، **قَالَ** : فَلَمَّا بُعِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَعَلَ الشَّيْطَانُ إِذَا قَعَدَ مَقْعَدَهُ جَاءَهُ شِهَابٌ فَلَمْ يُخْطِئْهُ حَتَّى يُحْرِقَهُ ، **قَالَ** : فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللهُ ، فَقَالَ : مَا هُوَ إِلَّا مِنْ أَمْرٍ حَدَثَ ، **قَالَ** : فَبَثَّ جُنُودَهُ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي بَيْنَ جَبَلَيْ نَخْلَة .

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَسَلْ هَؤُلَاءِ الْمُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ أَيُّمَا أَشَدُّ خَلْقًا هُمْ أَمِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالشَّيَاطِينِ وَالْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ ؟ ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُمْ خُلِقُوا مِنْ شَيْءٍ ضَعِيفٍ ، **فَقَالَ** : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ **قِيلَ** : هُوَ الْجَيِّدُ الَّذِي يَلْتَزِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، **وَقِيلَ** : هُوَ اللَّزِجُ الْجَيِّدُ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الَّذِي يَلْزَقُ بِالْيَدِ . ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ أَيْ : بَلْ عَجِبْتَ - يَا مُحَمَّدُ - مِنْ تَكْذِيبِ هَؤُلَاءِ الْمُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ ، وَأَنْتَ مُوقِنٌ مُصَدِّقٌ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْأَمْرِ الْعَجِيبِ ، وَهُوَ إِعَادَةُ الْأَجْسَامِ بَعْدَ فَنَائِهَا ، وَهُمْ بِخِلَافِ أَمْرِكَ مِنْ شِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ يَسْخَرُونَ مِمَّا تَقُولُ لَهُمْ

مِنْ ذَلِكَ . قَالَ قَتَادَةُ : عَجِبَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَسَخِرَ ضُلَّالُ بَنِي آدَمَ ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً ﴾ أَيْ : دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى ذَلِكَ ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ يَسْتَهْزِئُونَ . ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : إِنْ هَذَا الَّذِي جِئْتَ بِهِ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ يَسْتَبْعِدُونَ ذَلِكَ وَيُكَذِّبُونَ بِهِ ﴿ قُلْ نَعَمْ ﴾ أَيْ : قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ : نَعَمْ تُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَمَا تَصِيرُونَ تُرَابًا وَعِظَامًا ﴿ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ أَيْ : حَقِيرُونَ تَحْتَ الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ ، **ثُمَّ قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ** : ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ أَيْ : فَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَاحِدٌ مِنَ اللهِ ﷻ يَدْعُوهُمْ دَعْوَةً وَاحِدَةً : أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْأَرْضِ ، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ، يَنْظُرُونَ إِلَى أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

وَقَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قِيلِ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ ، وَيَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، فَإِذَا عَايَنُوا أَهْوَالَ الْقِيَامَةِ نَدِمُوا كُلَّ النَّدَمِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ ﴿ وَقَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ فَتَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ : ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ ، وَهَذَا يُقَالُ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ ، وَيَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى الْمَلَائِكَةَ أَنْ تُمَيِّزَ الْكُفَّارَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَوْقِفِ فِي مَحْشَرِهِمْ وَمَنْشَرِهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ يَعْنِي بِأَزْوَاجِهِمْ : أَشْبَاهِهِمْ وَأَمْثَالَهُمْ ، ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ، وَتُحْشَرُ مَعَهُمْ فِي أَمَاكِنِهِمْ . ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أَيْ : أَرْشِدُوهُمْ إِلَى طَرِيقِ جَهَنَّمَ . ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ أَيْ : قِفُوهُمْ حَتَّى يُسْأَلُوا عَنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمُ الَّتِي صَدَرَتْ عَنْهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، يَعْنِي : احْبِسُوهُمْ إِنَّهُمْ مُحَاسَبُونَ ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ أَيْ : كَمَا زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ . ﴿ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ أَيْ : مُنْقَادُونَ لِأَمْرِ اللهِ ، لَا يُخَالِفُونَهُ وَلَا يَحِيدُونَ عَنْهُ .

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّ الْكُفَّارَ يَتَلَاوَمُونَ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ كَمَا يَتَخَاصَمُونَ فِي دَرَكَاتِ النَّارِ. ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ **قِيلَ فِي مَعْنَاهَا** : كُنْتُمْ تَقْهَرُونَنَا بِالْقُدْرَةِ مِنْكُمْ عَلَيْنَا؛ لِأَنَّا كُنَّا أَذِلَّاء وَكُنْتُمْ أَعِزَّاء، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : قَالَتِ الْإِنْسُ لِلْجِنِّ : ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ قَالَ : مِنْ قِبَلِ الْخَيْرِ فَتَنْهونَا عَنْهُ وَتُبَطِّئُونَا عَنْهُ، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : مَعْنَاهُ تَحُولُونَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْخَيْرِ، وَرَدَدْتُمُونَا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ بِالْخَيْرِ الَّذِي أُمِرْنَا بِهِ. ﴿ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ تَقُولُ الْقَادَةُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لِلْأَتْبَاعِ : مَا الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُونَ، بَلْ كَانَتْ قُلُوبُكُمْ مُنْكِرَةٌ لِلْإِيمَانِ قَابِلَةٌ لِلْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ أَيْ : مِنْ حُجَّةٍ عَلَى صِحَّةِ مَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَيْهِ ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴾ أَيْ : بَلْ كَانَ فِيكُمْ طُغْيَانٌ وَمُجَاوَزَةٌ لِلْحَقِّ، فَلِهَذَا اسْتَجَبْتُمْ لَنَا وَتَرَكْتُمُ الْحَقَّ الَّذِي جَاءَتْكُمْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، وَأَقَامُوا لَكُمُ الْحُجَجَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءُوكُمْ بِهِ فَخَالَفْتُمُوهُمْ. ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾ يَقُولُ الْكُبَرَاءُ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ : حَقَّتْ عَلَيْنَا كَلِمَةُ اللهِ إِنَّا مِنَ الْأَشْقِيَاءِ الذَّائِقِينَ لِلْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ ﴾ أَيْ : دَعَوْنَاكُمْ إِلَى الضَّلَالَةِ ﴿ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾ أَيْ : فَدَعَوْنَاكُمْ إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَاسْتَجَبْتُمْ لَنَا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ فِي النَّارِ كُلٌّ بِحَسَبِهِ ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أَيْ : يَسْتَكْبِرُونَ أَنْ يَقُولُوهَا كَمَا يَقُولُهَا الْمُؤْمِنُونَ. ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ أَيْ : أَنَحْنُ نَتْرُكُ عِبَادَةَ آلِهَتِنَا وَآلِهَةِ آبَائِنَا عَنْ قَوْلِ هَذَا الشَّاعِرِ الْمَجْنُونِ، يَعْنُونَ : رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ اللهُ تَعَالَى تَكْذِيبًا لَهُمْ وَرَدًّا عَلَيْهِمْ : ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يَعْنِي : رَسُولُ اللهِ ﷺ جَاءَ بِالْحَقِّ فِي جَمِيعِ شِرْعَةِ اللهِ تَعَالَى لَهُ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالطَّلَبِ ﴿ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أَيْ : صَدَّقَهُمْ فِيمَا أَخْبَرُوا عَنْهُ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ وَالْمَنَاهِجِ السَّدِيدَةِ، وَأَخْبَرَ عَنِ اللهِ تَعَالَى فِي شَرْعِهِ وَأَمْرِهِ كَمَا أَخْبَرُوا ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت : ٤٣]

﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ

ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِلنَّاسِ : ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ثُمَّ اسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ عِبَادَهُ الْمُخْلِصِينَ ، ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أَيْ : لَيْسُوا يَذُوقُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ، وَلَا يُنَاقَشُونَ فِي الْحِسَابِ ، بَلْ يُتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ إِنْ كَانَ لَهُمْ سَيِّئَاتٌ ، وَيُجْزَوْنَ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ إِلَى مَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَى مِنَ التَّضْعِيفِ . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةَ ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَوَٰكِهُ ﴾ أَيْ : مُتَنَوِّعَةٌ ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾ أَيْ : يُخْدَمُونَ وَيُرَفَّهُونَ وَيُنَعَّمُونَ . ﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : لَا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى قَفَا بَعْضٍ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ كَمَا قَالَ ﷻ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة : ١٧-١٩] نَزَّهَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَمْرَ الْجَنَّةِ عَنِ الْآفَاتِ الَّتِي فِي خَمْرِ الدُّنْيَا مِنْ صُدَاعِ الرَّأْسِ وَوَجَعِ الْبَطْنِ - وَهُوَ الْغَوْلُ - وَذَهَابِهَا بِالْعَقْلِ جُمْلَةً ، فَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ أَيْ : بِخَمْرٍ مِنْ أَنْهَارٍ جَارِيَةٍ لَا يَخَافُونَ انْقِطَاعَهَا وَلَا فَرَاغَهَا . ﴿ بَيْضَآءَ ﴾ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : خَمْرٌ جَارِيَةٌ بَيْضَاءُ ، أَيْ : لَوْنُهَا مُشْرِقٌ حَسَنٌ بَهِيٌّ ، لَا كَخَمْرِ الدُّنْيَا فِي مَنْظَرِهَا الْبَشِعِ الرَّدِيءِ مِنْ حُمْرَةٍ أَوْ سَوَادٍ أَوِ اصْفِرَارٍ أَوْ كُدُورَةٍ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُنَفِّرُ الطَّبْعَ السَّلِيمَ . ﴿ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ أَيْ : طَعْمُهَا طَيِّبٌ كَلَوْنِهَا ، وَطِيبُ الطَّعْمِ دَلِيلٌ عَلَى طِيبِ الرِّيحِ ، بِخِلَافِ خَمْرِ الدُّنْيَا فِي جَمِيعِ ذَلِكَ . ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ يَعْنِي : لَا تُؤَثِّرُ فِيهِمْ غَوْلًا - وَهُوَ وَجَعُ الْبَطْنِ - كَمَا تَفْعَلُهُ خَمْرُ الدُّنْيَا مِنَ الْقُولَنْجِ وَنَحْوِهِ لِكَثْرَةِ مَائِيَّتِهَا ، ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ لَا تُذْهِبُ عُقُولَهُمْ . ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أَيْ : عَفِيفَاتٌ لَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ . ﴿ عِينٌ ﴾ أَيْ : حِسَانُ الْأَعْيُنِ ، ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ وَصَفَهُنَّ بِتَرَافَةِ الْأَبْدَانِ بِأَحْسَنِ الْأَلْوَانِ ، وَقِيلَ : يَعْنِي : مَحْضُونٌ لَمْ تَمَسَّهُ الْأَيْدِي ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : الْبَيْضُ فِي عُشِّهِ مَكْنُونٌ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : يَعْنِي : بَطْنُ الْبَيْضِ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : بَيَاضُ الْبَيْضِ حِينَ يُنْزَعُ قِشْرُهُ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ لِقَوْلِهِ ﴿ مَّكْنُونٌ ﴾ قَالَ : وَالْقِشْرَةُ الْعُلْيَا يَمَسُّهَا جَنَاحُ

الطَّيْرِ وَالْعُشِّ ، وَتَنَالُهَا الْأَيْدِي بِخِلَافِ دَاخِلِهَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، أَنَّهُ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ، أَيْ : عَنْ أَحْوَالِهِمْ وَكَيْفَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا ، وَمَاذَا كَانُوا يُعَانُونَ فِيهَا ، وَذَلِكَ مِنْ حَدِيثِهِمْ عَلَى شَرَابِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ فِي تَنَادُمِهِمْ ، وَمُعَاشَرَتِهِمْ فِي مَجَالِسِهِمْ ، وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَى السُّرُرِ ، وَالْخَدَمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَسْعَوْنَ وَيَجِيئُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَظِيمٍ ، مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ وَمَلَابِسَ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : شَيْطَانًا ، وَقِيلَ : هُوَ الرَّجُلُ الْمُشْرِكُ يَكُونُ لَهُ صَاحِبٌ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ فِي الدُّنْيَا ، وَلَا تَنَافِي ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَكُونُ مِنَ الْجِنِّ ، فَيُوَسْوِسُ فِي النَّفْسِ ، وَيَكُونُ مِنَ الْإِنْسِ فَيَقُولُ كَلَامًا تَسْمَعُهُ الْأُذُنَانِ ، وَكِلَاهُمَا مُتَعَادِيَانِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢] ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يُوَسْوِسُ ، كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ . وَلِهَذَا ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾ أَيْ : أَأَنْتَ تُصَدِّقُ بِالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ ؟! يَعْنِي : يَقُولُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّعَجُّبِ وَالتَّكْذِيبِ وَالِاسْتِبْعَادِ وَالْكُفْرِ وَالْعِنَادِ ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ ، قِيلَ : لَمُحَاسَبُونَ ، وَقِيلَ : لَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِنَا ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ . ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ أَيْ : مُشْرِفُونَ ، يَقُولُ الْمُؤْمِنُ لِأَصْحَابِهِ وَجُلَسَائِهِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ يَعْنِي : فِي وَسَطِ الْجَحِيمِ .

﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ يَقُولُ الْمُؤْمِنُ مُخَاطِبًا لِلْكَافِرِ : وَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُهْلِكُنِي لَوْ أَطَعْتُكَ ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ أَيْ : وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيَّ لَكُنْتُ مِثْلَكَ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ حَيْثُ أَنْتَ ، مُحْضَرٌ مَعَكَ فِي الْعَذَابِ ؛ وَلَكِنَّهُ تَفَضَّلَ عَلَيَّ وَرَحِمَنِي فَهَدَانِي لِلْإِيمَانِ ، وَأَرْشَدَنِي إِلَى تَوْحِيدِهِ ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ هَذَا مِنْ كَلَامِ الْمُؤْمِنِ

مُغْتَبِطًا نَفْسَهُ بِمَا أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْخُلْدِ فِي الْجَنَّةِ ، وَالإِقَامَةِ فِي دَارِ الْكَرَامَةِ بِلَا مَوْتٍ فِيهَا وَلَا عَذَابٍ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : هَذَا مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : هُوَ مِنْ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى ، وَمَعْنَاهُ : لِمِثْلِ هَذَا النَّعِيمِ وَهَذَا الْفَوْزِ فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ فِي الدُّنْيَا ؛ لِيَصِيرُوا إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ .

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ وَمَنَاكِحَ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَلَاذِّ خَيْرٌ ضِيَافَةً وَعَطَاءً ﴿ أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾ أَيْ : الَّتِي فِي جَهَنَّمَ . ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : ذُكِرَتْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ، فَافْتُتِنَ بِهَا أَهْلُ الضَّلَالَةِ ، وَقَالُوا : صَاحِبُكُمْ يُنَبِّئُكُمْ أَنَّ فِي النَّارِ شَجَرَةً وَالنَّارُ تَأْكُلُ الشَّجَرَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ . قُلْتُ : وَمَعْنَى الْآيَةِ : إِنَّمَا أَخْبَرْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِشَجَرَةِ الزَّقُّومِ اخْتِبَارًا نَخْتَبِرُ بِهِ النَّاسَ مَنْ يُصَدِّقُ مِنْهُمْ مِمَّنْ يُكَذِّبُ ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٦٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أَيْ : أَصْلُ مَنْبَتِهَا فِي قَرَارِ النَّارِ ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ تَبْشِيعٌ لَهَا وَتَكْرِيهٌ لِذِكْرِهَا . ﴿ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الَّتِي لَا أَبْشَعَ مِنْهَا وَلَا أَقْبَحَ مِنْ مَنْظَرِهَا ، مَعَ مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الطَّعْمِ وَالرِّيحِ وَالطَّبْعِ ، فَإِنَّهُمْ لَيَضْطَرُّونَ إِلَى الْأَكْلِ مِنْهَا ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ إِلَّا إِيَّاهَا ، وَمَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ [الغاشية : ٦ - ٧] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : شُرْبُ الْحَمِيمِ عَلَى الزَّقُّومِ ، وَقِيلَ : يَعْنِي : يُمْزَجُ لَهُمُ الْحَمِيمُ بِصَدِيدٍ وَغَسَّاقٍ مِمَّا يَسِيلُ مِنْ فُرُوجِهِمْ وَعُيُونِهِمْ . ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ أَيْ : ثُمَّ إِنَّ مَرَدَّهُمْ بَعْدَ هَذَا الْفَصْلِ لَإِلَى نَارٍ تَتَأَجَّجُ ، وَجَحِيمٍ تَتَوَقَّدُ ، وَسَعِيرٍ تَتَوَهَّجُ ، فَتَارَةً فِي هَذَا ، وَتَارَةً فِي هَذَا ، ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا جَازَيْنَاهُمْ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ وَجَدُوا آبَاءَهُمْ عَلَى الضَّلَالَةِ ، فَاتَّبَعُوهُمْ فِيهَا بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : شَبِيهَةٌ بِالْهَرْوَلَةِ .

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْأُمَمِ المَاضِيَةِ: أَنَّ أَكْثَرَهُمْ كَانُوا ضَالِّينَ يَجْعَلُونَ مَعَ الله آلِهَةً أُخْرَى، وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَ فِيهِمْ مُنْذِرِينَ يُنْذِرُونَ بَأْسَ الله وَيُحَذِّرُونَهُمْ سَطْوَتَهُ وَنِقْمَتَهُ، مِمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَعَبَدَ غَيْرَهُ، وَأَنَّهُمْ تَمَادَوْا عَلَى مُخَالَفَةِ رُسُلِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ، فَأَهْلَكَ المُكَذِّبِينَ وَدَمَّرَهُمْ، وَنَجَّى المُؤْمِنِينَ وَنَصَرَهُمْ وَظَفَّرَهُمْ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى عَنْ أَكْثَرِ الْأَوَّلِينَ أَنَّهُمْ ضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ النَّجَاةِ، شَرَعَ يُبَيِّنُ ذَلِكَ مُفَصلًا فَذَكَرَ نُوحًا ﷺ وَمَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ التَّكْذِيبِ، وَأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ مَعَ طُولِ المُدَّةِ، لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ تَكْذِيبُهُمْ، وَكُلَّمَا دَعَاهُمْ اِزْدَادُوا نُفْرَةً، فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ، فَغَضِبَ اللهُ تَعَالَى لِغَضَبِهِ عَلَيْهِمْ، **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ أَيْ: فَلَنِعْمَ المُجِيبُونَ لَهُ ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وَهُوَ التَّكْذِيبُ وَالْأَذَى ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾. **روى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** -: لَمْ تَبْقَ إِلَّا ذُرِّيَّةُ نُوحٍ ﷺ، ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ **قِيلَ**: يُذْكَرُ بِخَيْرٍ، **وَقِيلَ**: لِسَانُ صِدْقٍ لِلْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ مُفَسِّرٌ لِمَا أَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ الْجَمِيلِ وَالثَّنَاءِ الْحَسَنِ، أَنَّهُ يُسَلَّمُ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ الطَّوَائِفِ وَالْأُمَمِ ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ: هَكَذَا نَجْزِي مَنْ أَحْسَنَ مِنَ الْعِبَادِ فِي طَاعَةِ الله تَعَالَى، نَجْعَلُ لَهُ لِسَانَ صِدْقٍ يُذْكَرُ بِهِ بَعْدَهُ بِحَسَبِ مَرْتَبَتِهِ فِي ذَلِكَ، **ثُمَّ قَالَ**: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ: المُصَدِّقِينَ المُوَحِّدِينَ المُوقِنِينَ ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴾ أَيْ: أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ عَيْنٌ تَطْرِفُ، وَلَا ذِكْرٌ لَهُمْ وَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ، وَلَا يُعْرَفُونَ إِلَّا بِهَذِهِ الصِّفَةِ الْقَبِيحَةِ.

۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ مِنْ أَهْلِ دِينِهِ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَسُنَّتِهِ . ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ قَالَ الحَسَنُ : سَلِيمٌ مِنَ الشِّرْكِ . ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ : ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : يَعْنِي : مَا ظَنُّكُمْ أَنَّهُ فَاعِلٌ بِكُمْ إِذَا لَاقَيْتُمُوهُ ، وَقَدْ عَبَدْتُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ ؟!

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

إِنَّمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام لِقَوْمِهِ ذَلِكَ ، لِيُقِيمَ فِي الْبَلَدِ إِذَا ذَهَبُوا إِلَى عِيدِهِمْ ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَزِفَ خُرُوجُهُمْ إِلَى عِيدٍ لَهُمْ فَأَحَبَّ أَنْ يَخْتَلِيَ بِآلِهَتِهِمْ لِيُكَسِّرَهَا ، فَقَالَ لَهُمْ كَلَامًا هُوَ حَقٌّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، فَهِمُوا مِنْهُ أَنَّهُ سَقِيمٌ عَلَى مُقْتَضَى مَا يَعْتَقِدُونَهُ . قَالَ قَتَادَةُ : وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِمَنْ تَفَكَّرَ : نَظَرَ فِي النُّجُومِ . يَعْنِي : أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ مُتَفَكِّرًا فِيمَا يُلْهِيهِمْ بِهِ فَقَالَ : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أَيْ : ضَعِيفٌ ، أَمَّا الحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غَيْرَ ثَلَاثِ كَذِبَاتٍ : ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللهِ تَعَالَى قَوْلُهُ : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ ، وَقَوْلُهُ فِي سَارَةَ هِيَ أُخْتِي » فَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الْكَذِبِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي يُذَمُّ فَاعِلُهُ ، حَاشَا وَكَلَّا وَلَمَّا ، إِنَّمَا أُطْلِقَ الْكَذِبُ عَلَى هَذَا تَجَوُّزًا ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْمَعَارِيضِ فِي الْكَلَامِ لِمَقْصِدٍ شَرْعِيٍّ دِينِيٍّ . ﴿ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أَيْ : إِلَى عِيدِهِمْ ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾ أَيْ : ذَهَبَ إِلَيْهَا بَعْدَمَا خَرَجُوا فِي سُرْعَةٍ وَاخْتِفَاءٍ ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ وَضَعُوا بَيْنَ أَيْدِيهَا طَعَامًا قُرْبَانًا لِتُبَرِّكَ لَهُمْ فِيهِ . ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ أَيْ : فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ، وَإِنَّمَا ضَرَبَهُمْ بِالْيَمِينِ ؛ لِأَنَّهَا أَشَدُّ وَأَنْكَى ، وَلِهَذَا تَرَكَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ، ﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ أَيْ : يُسْرِعُونَ ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ هَهُنَا مُخْتَصَرَةٌ وَفِي « سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ » مَبْسُوطَةٌ ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَجَعُوا مَا عَرَفُوا - مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ - مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ حَتَّى كَشَفُوا وَاسْتَعْلَمُوا ، فَعَرَفُوا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - هُوَ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ ، فَلَمَّا جَاءُوا لِيُعَاتِبُوهُ أَخَذَ فِي تَأْنِيبِهِمْ وَعَيْبِهِمْ فَقَالَ : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أَيْ : أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنَ الْأَصْنَامِ مَا أَنْتُمْ تَنْحِتُونَهَا وَتَجْعَلُونَهَا بِأَيْدِيكُمْ ؟!. ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ خَلَقَكُمْ وَعَمَلَكُمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَمَّا قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ عَدَلُوا إِلَى أَخْذِهِ بِالْيَدِ وَالْقَهْرِ ، فَقَالُوا : ﴿ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا

فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴾ وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَنَجَّاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ ، وَأَظْهَرَهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَعْلَى حُجَّتَهُ وَنَصَرَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ .

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ إِنَّهُ بَعْدَمَا نَصَرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى قَوْمِهِ وَأَيِسَ مِنْ إِيمَانِهِمْ بَعْدَمَا شَاهَدُوا مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ ، هَاجَرَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، وَقَالَ : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ يَعْنِي : أَوْلَادًا مُطِيعِينَ يَكُونُونَ عِوَضًا مِنْ قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ الَّذِينَ فَارَقَهُمْ ، ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ ، وَهَذَا الْغُلَامُ هُوَ إِسْمَاعِيلُ ﷺ ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ وَلَدٍ بُشِّرَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ ﷺ ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنْ إِسْحَاقَ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ ﴾ بِمَعْنَى : شَبَّ وَارْتَحَلَ وَأَطَاقَ مَا يَفْعَلُهُ أَبُوهُ مِنَ السَّعْيِ وَالْعَمَلِ ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ ، وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ ، وَإِنَّمَا أَعْلَمَ ابْنَهُ بِذَلِكَ ؛ لِيَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ ، وَلِيَخْتَبِرَ صَبْرَهُ وَجَلَدَهُ وَعَزْمَهُ فِي صِغَرِهِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى وَطَاعَةِ أَبِيهِ ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أَيْ : اِمْضِ لِمَا أَمَرَكَ اللهُ مِنْ ذَبْحِي ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أَيْ : سَأَصْبِرُ وَأَحْتَسِبُ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ ﷻ ، وَصَدَقَ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - فِيمَا وَعَدَ ، ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ أَيْ : فَلَمَّا تَشَهَّدَا وَذَكَرَا اللهَ تَعَالَى ، إِبْرَاهِيمُ عَلَى الذَّبْحِ ، وَالْوَلَدُ عَلَى شَهَادَةِ الْمَوْتِ ، وَقِيلَ : ﴿ أَسْلَمَا ﴾ اِسْتَسْلَمَا وَانْقَادَا ، إِبْرَاهِيمُ امْتَثَلَ أَمْرَ اللهِ تَعَالَى ، وَإِسْمَاعِيلُ طَاعَةَ اللهِ وَلِأَبِيهِ . وَمَعْنَى : ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ أَيْ : صَرَعَهُ عَلَى وَجْهِهِ لِيَذْبَحَهُ مِنْ قَفَاهُ ، وَلَا يُشَاهِدُ وَجْهَهُ عِنْدَ ذَبْحِهِ لِيَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ . ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ

أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ ﴾ أَيْ : قَدْ حَصَلَ الْمَقْصُودُ مِنْ رُؤْيَاكَ بِإِضْجَاعِكَ وَلَدَكَ لِلذَّبْحِ . ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ أَيْ : هَكَذَا نَصْرِفُ عَمَّنْ أَطَاعَنَا الْمَكَارِهَ وَالشَّدَائِدَ ، وَنَجْعَلُ لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا ، ﴿ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴾ ، **الصَّحِيحُ** الَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ أَنَّهُ فُدِيَ بِكَبْشٍ . ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ لَمَّا تَقَدَّمَتِ الْبِشَارَةُ بِالذَّبِيحِ - وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ - عُطِفَ بِذِكْرِ الْبِشَارَةِ بِأَخِيهِ إِسْحَاقَ ، وَقَدْ ذُكِرَتْ فِي سُورَتَيْ ((**هُود**)) ((**وَالْحِجْر**)) قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَبِيّٗا ﴾ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ ، أَيْ : سَيَصِيرُ مِنْهُ نَبِيٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [هود : ٤٨]

وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ مِنَ النُّبُوَّةِ ، وَالنَّجَاةِ بِمَنْ آمَنَ مَعَهُمَا مِنْ قَهْرِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، وَمَا كَانَ يَعْتَمِدُ فِي حَقِّهِمْ مِنَ الْإِسَاءَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ قَتْلِ الْأَبْنَاءِ وَاسْتِحْيَاءِ النِّسَاءِ وَاسْتِعْمَالِهِمْ فِي أَخَسِّ الْأَشْيَاءِ ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ نَصَرَهُمْ عَلَيْهِمْ وَأَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ مِنْهُمْ فَغَلَبُوهُمْ ، وَأَخَذُوا أَرْضَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَمَا كَانُوا جَمَعُوهُ طُولَ حَيَاتِهِمْ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ ﷻ عَلَى مُوسَى الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الْوَاضِحَ الْجَلِيَّ الْمُسْتَبِينَ - وَهُوَ التَّوْرَاةُ - ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ أَيْ : فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، ﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ أَيْ : أَبْقَيْنَا لَهُمَا مِنْ بَعْدِهِمَا ذِكْرًا جَمِيلًا وَثَنَاءً حَسَنًا ، **ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ .

وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

إِلْيَاسُ هُوَ : إِدْرِيسُ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : أَلَا تَخَافُونَ اللهَ ﷻ فِي عِبَادَتِكُمْ غَيْرَهُ ؟ ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ بَعْلًا : يَعْنِي : رَبًّا . وَقِيلَ : أَتَعْبُدُونَ صَنَمًا ؟ ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أَيْ : لِلْعَذَابِ يَوْمَ الْحِسَابِ ، ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أَيْ : الْمُوَحِّدِينَ مِنْهُمْ وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ مِنْ مُثْبَتٍ . ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ أَيْ : ثَنَاءً جَمِيلًا ، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ ، كَمَا يُقَالُ فِي إِسْمَاعِيلَ : إِسْمَاعِينَ ، وَقِيلَ : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ يَعْنِي : آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ(١).

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ لُوطٍ عليه السلام أَنَّهُ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ فَكَذَّبُوهُ ، فَنَجَّاهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، هُوَ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ فَإِنَّهَا هَلَكَتْ مَعَ مَنْ هَلَكَ مِنْ قَوْمِهَا ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَهْلَكَهُمْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعُقُوبَاتِ ، وَجَعَلَ مَحَلَّتَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بُحَيْرَةً مُنْتِنَةً قَبِيحَةَ الْمَنْظَرِ وَالطَّعْمِ وَالرِّيحِ ، وَجَعَلَهَا بِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ، يَمُرُّ بِهَا الْمُسَافِرُونَ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ بِهِمْ كَيْفَ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَتَعْلَمُونَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ أَمْثَالَهَا ؟.

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

قَدْ تَقَدَّمَتْ قِصَّةُ يُونُسَ عليه السلام فِي سُورَةِ ((الْأَنْبِيَاءِ)) ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى**)) .

---

(١) انظر تفسير الآيتين (٨٠ ، ٨١) ، والآيتين (١١٠ ، ١١١) من هذه السورة الكريمة .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ هُوَ المُوقَرُ . أَيْ : المَمْلُوءُ بِالْأَمْتِعَةِ ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ أَيْ : قَارَعَ ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾ أَيْ : المَغْلُوبِينَ ، وَذَلِكَ أَنَّ السَّفِينَةَ تَلَعَّبَتْ بِهَا الْأَمْوَاجُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَأَشْرَفُوا عَلَى الْغَرَقِ ، فَسَاهَمُوا عَلَى مَنْ تَقَعُ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ يُلْقَى فِي الْبَحْرِ ؛ لِتَخِفَّ بِهِمُ السَّفِينَةُ ، فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى نَبِيِّ اللهِ يُونُسَ عليه السلام ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَهُمْ يَضِنُّونَ بِهِ أَنْ يُلْقَى مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ لِيُلْقِيَ نَفْسَهُ وَهُمْ يَأْبُونَ عَلَيْهِ ذَلِكَ .

وَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى حُوتًا مِنَ الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ أَنْ يَشُقَّ الْبِحَارَ ، وَأَنْ يَلْتَقِمَ يُونُسَ عليه السلام ، فَلَا يُهَشِّمُ لَهُ لَحْمًا وَلَا يَكْسِرُ لَهُ عَظْمًا ، فَجَاءَ ذَلِكَ الْحُوتُ وَأَلْقَى يُونُسُ عليه السلام نَفْسَهُ ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ ، وَذَهَبَ بِهِ فَطَافَ بِهِ الْبِحَارَ كُلَّهَا . وَلَمَّا اسْتَقَرَّ يُونُسُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ حَسِبَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ ، ثُمَّ حَرَّكَ رَأْسَهُ وَرِجْلَيْهِ وَأَطْرَافَهُ فَإِذَا هُوَ حَيٌّ ، فَقَامَ فَصَلَّى فِي بَطْنِ الْحُوتِ . ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ قِيلَ : لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ لَهُ مِنَ الْعَمَلِ فِي الرَّخَاءِ . وَقِيلَ ﴿ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ : يَعْنِي : الْمُصَلِّينَ ﴿ فَنَبَذْنَٰهُ ﴾ أَيْ : أَلْقَيْنَاهُ ﴿ بِٱلْعَرَآءِ ﴾ هِيَ الْأَرْضُ الَّتِي لَيْسَ بِهَا نَبْتٌ وَلَا بِنَاءٌ . ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أَيْ : ضَعِيفُ الْبَدَنِ . ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ الْيَقْطِينُ : هُوَ الْقَرْعُ . ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ بَلْ يَزِيدُونَ ﴿ فَـَٔامَنُوا۟ ﴾ أَيْ : فَآمَنَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ يُونُسُ عليه السلام جَمِيعُهُمْ ﴿ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أَيْ : إِلَى وَقْتِ آجَالِهِمْ ، كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[يونس : ٩٨]

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي جَعْلِهِمْ للهِ تَعَالَى الْبَنَاتِ - سُبْحَانَهُ - وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ، أَيْ : مِنَ الذُّكُورِ ، أَيْ : يَوَدُّونَ لِأَنْفُسِهِمُ الْجَيِّدَ ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[النحل : ٥٨] أَيْ : يَسُوءُهُ ذَلِكَ وَلَا يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ إِلَّا الْبَنِينَ ، يَقُولُ عز وجل فَكَيْفَ نَسَبُوا إِلَى اللهِ تَعَالَى الْقِسْمَ الَّذِي لَا يَخْتَارُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ أَيْ :

سَلْهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ ﴿ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم : ٢١-٢٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ أَيْ : كَيْفَ حَكَمُوا عَلَى الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ إِنَاثٌ وَمَا شَاهَدُوا خَلْقَهُمْ ، ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ ﴾ أَيْ : مِنْ كَذِبِهِمْ ﴿ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : صَدَرَ مِنْهُ الْوَلَدُ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فَذَكَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي الْمَلَائِكَةِ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ فِي غَايَةِ الْكُفْرِ وَالْكَذِبِ : فَأَوَّلًا جَعَلُوهُمْ بَنَاتِ اللهِ ، فَجَعَلُوا للهِ وَلَدًا - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ - وَجَعَلُوا ذَلِكَ الْوَلَدَ أُنْثَى ، ثُمَّ عَبَدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ - وَكُلٌّ مِنْهَا كَافٍ فِي التَّخْلِيدِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ .

ثُمَّ قَالَ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ : ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾ أَيْ : أَيُّ شَيْءٍ يَحْمِلُهُ عَنْ أَنْ يَخْتَارَ الْبَنَاتِ دُونَ الْبَنِينَ ؟ كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿ أَفَأَصْفَٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء : ٤٠] ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أَيْ : مَا لَكُمْ عُقُولٌ تَتَدَبَّرُونَ بِهَا مَا تَقُولُونَ . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : حُجَّةٌ عَلَى مَا تَقُولُونَهُ ؟ ﴿ فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : هَاتُوا بُرْهَانًا عَلَى ذَلِكَ ، يَكُونُ مُسْتَنِدًا إِلَى كِتَابٍ مُنَزَّلٍ مِنَ السَّمَاءِ عَنِ اللهِ تَعَالَى أَنَّهُ اتَّخَذَ مَا تَقُولُونَهُ ، فَإِنَّ مَا تَقُولُونَهُ لَا يُمْكِنُ اسْتِنَادُهُ إِلَى عَقْلٍ ، بَلْ لَا يُجَوِّزُهُ الْعَقْلُ بِالْكُلِّيَّةِ . ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ قِيلَ : إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا : الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ فَسُئِلُوا فَمَنْ أُمَّهَاتُهُنَّ ؟ قَالُوا : بَنَاتُ سَرَوَاتِ الْجِنِّ ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ نَسَبُوا إِلَيْهِمْ ذَلِكَ ﴿ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ لَمُحْضَرُونَ فِي الْعَذَابِ يَوْمَ الْحِسَابِ ؛ لِكَذِبِهِمْ فِي ذَلِكَ وَافْتِرَائِهِمْ وَقَوْلِهِمُ الْبَاطِلَ بِلَا عِلْمٍ ، ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أَيْ : تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، وَعَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الظَّالِمُونَ الْمُلْحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا . ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، وَهُوَ مِنْ مُثْبَتٍ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ عَائِدًا إِلَى النَّاسِ جَمِيعِهِمْ ، ثُمَّ اسْتَثْنَى مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ، وَهُمُ الْمُتَّبِعُونَ لِلْحَقِّ الْمُنَزَّلِ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ .

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦٣ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝١٦٤ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ۝١٦٧ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٩ فَكَفَرُوا بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝١٧٠

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِلْمُشْرِكِينَ ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ

ٱلْجَحِيمِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَنْقَادُ لِمَقَالَتِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالَةِ ، وَالْعِبَادَةِ الْبَاطِلَةِ مَنْ هُوَ أَضَلُّ مِنْكُمْ مِمَّنْ ذُرِئَ لِلنَّارِ ، ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُنَزِّهًا لِلْمَلَائِكَةِ مِمَّا نَسَبُوا إِلَيْهِمْ مِنَ الْكُفْرِ بِهِمْ وَالْكَذِبِ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ بَنَاتُ اللهِ ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أَيْ : لَهُ مَوْضِعٌ مَخْصُوصٌ فِي السَّمَاوَاتِ ، وَمَقَامَاتُ الْعِبَادَةِ لَا يَتَجَاوَزُهُ وَلَا يَتَعَدَّاهُ . ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ أَيْ : نَقِفُ صُفُوفًا فِي الطَّاعَةِ . ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ أَيْ : نَصْطَفُّ فَنُسَبِّحُ الرَّبَّ وَنُمَجِّدُهُ وَنُقَدِّسُهُ وَنُنَزِّهُهُ عَنِ النَّقَائِصِ ، فَنَحْنُ عَبِيدٌ لَهُ فُقَرَاءُ إِلَيْهِ خَاضِعُونَ لَدَيْهِ . ﴿ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أَيْ : قَدْ كَانُوا يَتَمَنَّوْنَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ - يَا مُحَمَّدُ - لَوْ كَانَ عِنْدَهُمْ مَنْ يُذَكِّرُهُمْ بِأَمْرِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْقُرُونِ الْأُولَى ، وَيَأْتِيهِمْ بِكِتَابِ اللهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [فاطر : ٤٢] ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا** : ﴿ فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وَعِيدٌ أَكِيدٌ وَتَهْدِيدٌ شَدِيدٌ عَلَى كُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ ﷻ وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ ﷺ .

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أَيْ : تَقَدَّمَ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ أَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ أَيْ : تَكُون لَهُمُ الْعَاقِبَةُ . ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي : اصْبِرْ عَلَى أَذَاهُمْ لَكَ ، وَانْتَظِرْ إِلَى وَقْتٍ مُؤَجَّلٍ ، فَإِنَّا سَنَجْعَلُ لَكَ الْعَاقِبَةَ وَالنُّصْرَةَ وَالظَّفَرَ ، ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ أَيْ : أَنْظِرْهُمْ وَارْتَقِبْ مَاذَا يَحِلُّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ عَلَى مُخَالَفَتِكَ وَتَكْذِيبِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ : ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ **ثُمَّ قَالَ** ﷻ : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أَيْ : هُمْ إِنَّمَا يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ لِتَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِكَ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَغْضَبُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَيَجْعَلُ لَهُمُ الْعُقُوبَةَ ، وَمَعَ هَذَا أَيْضًا كَانُوا مِنْ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ وَالْعُقُوبَةَ . ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أَيْ : فَإِذَا نَزَلَ الْعَذَابُ بِمَحَلَّتِهِمْ فَبِئْسَ ذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمُهُمْ ، بِإِهْلَاكِهِمْ وَدَمَارِهِمْ ، ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرِ بِذَلِكَ .

سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ

لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

يُنَزِّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَفْسَهُ وَيُقَدِّسُهَا وَيُبَرِّئُهَا عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ الْمُكَذِّبُونَ الْمُعْتَدُونَ ، تَعَالَى وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ أَيْ : ذِي الْعِزَّةِ الَّتِي لَا تُرَامُ ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أَيْ : عَنْ قَوْلِ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَدِينَ الْمُفْتَرِينَ ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أَيْ : سَلَامُ اللهِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ فِي رَبِّهِمْ وَصِحَّتِهِ وَحَقِّيَّتِهِ ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ فِي كُلِّ حَالٍ ، وَلَمَّا كَانَ التَّسْبِيحُ يَتَضَمَّنُ التَّنْزِيهَ وَالتَّبْرِئَةَ مِنَ النَّقْصِ بِدَلَالَةِ الْمُطَابَقَةِ ، وَيَسْتَلْزِمُ إِثْبَاتَ الْكَمَالِ - كَمَا أَنَّ الْحَمْدَ يَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ مُطَابَقَةً ، وَيَسْتَلْزِمُ التَّنْزِيهَ مِنَ النَّقْصِ - قَرَنَ بَيْنَهُمَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَفِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ فِي كَفَّارَةِ الْمَجْلِسِ : « **سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ** » .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الصَّافَّاتِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٨٨ — تَفْسِيرُ سُورَةِ ص — مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ « **سُورَةِ الْبَقَرَةِ** » بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَاهُنَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ أَيْ : وَالْقُرْآنُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى مَا فِيهِ ذِكْرٌ لِلْعِبَادِ ، وَنَفْعٌ لَهُمْ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ . ﴿ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ ذِي الشَّرَفِ وَالشَّأْنِ وَالْمَكَانَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ لَذِكْرَى لِمَنْ يَتَذَكَّرُ ، وَعِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ ، وَإِنَّمَا لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ الْكَافِرُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ ﴿ فِى عِزَّةٍ ﴾ أَيْ : اسْتِكْبَارٍ عَنْهُ وَحَمِيَّةٍ ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ أَيْ : وَمُخَالَفَةٍ لَهُ وَمُعَانَدَةٍ وَمُفَارَقَةٍ ، ثُمَّ خَوَّفَهُمْ مَا أَهْلَكَ بِهِ الْأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ قَبْلَهُمْ بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ لِلرُّسُلِ وَتَكْذِيبِهِمُ الْكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ مِنَ السَّمَاءِ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ أَيْ :

مِنْ أُمَّةٍ مُكَذِّبَةٍ ﴿ فَنَادَوا ﴾ أَيْ : حِينَ جَاءَهُمُ الْعَذَابُ اسْتَغَاثُوا وَجَأَرُوا إِلَى الله تَعَالَى ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمُجْدٍ عَنْهُمْ شَيْئًا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَيْسَ بِحِينِ نِدَاءٍ ، وَلَا نَزْوٍ ، وَلَا فِرَارٍ ، وَقِيلَ : لَيْسَ بِحِينِ مُغَاثٍ ، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ وَهِيَ « لَاتَ » هِيَ « لَا » الَّتِي لِلنَّفْيِ ، زِيدَتْ مَعَهَا « التَّاء » .

وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي تَعَجُّبِهِمْ مِنْ بَعْثَةِ رَسُولِ الله ﷺ بَشِيرًا نَذِيرًا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ أَيْ : بَشَرٌ مِثْلُهُمْ ﴿ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ أَيْ : أَزَعَمَ أَنَّ الْمَعْبُودَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ؟! أَنْكَرَ الْمُشْرِكُونَ ذَلِكَ - قَبَّحَهُمُ اللهُ تَعَالَى - وَتَعَجَّبُوا مِنْ تَرْكِ الشِّرْكِ بِالله ، فَإِنَّهُمْ قَدْ تَلَقَّوْا عَنْ آبَائِهِمْ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَأُشْرِبَتْهُ قُلُوبُهُمْ ، فَلَمَّا دَعَاهُمُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى خَلْعِ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَإِفْرَادِ الْإِلَهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ أَعْظَمُوا ذَلِكَ وَتَعَجَّبُوا ، وَقَالُوا : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾ ، وَهُمْ سَادَتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ وَرُؤَسَاؤُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ قَائِلِينَ ﴿ ٱمْشُواْ ﴾ أَيِ : اسْتَمِرُّوا عَلَى دِينِكُمْ ﴿ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ وَلَا تَسْتَجِيبُوا لِمَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ مِنَ التَّوْحِيدِ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : قَالُوا إِنَّ هَذَا الَّذِي يَدْعُونَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ التَّوْحِيدِ لَشَيْءٌ يُرِيدُ بِهِ الشَّرَفَ عَلَيْكُمْ وَالِاسْتِعْلَاءَ ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْكُمْ أَتْبَاعٌ وَلَسْنَا نُجِيبُهُ إِلَيْهِ . وَقَوْلُهُمْ : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أَيْ : مَا سَمِعْنَا بِهَذَا الَّذِي يَدْعُونَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ مِنَ التَّوْحِيدِ فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ، قِيلَ : يَعْنُونَ دِينَ قُرَيْشٍ ، وَقِيلَ : يَعْنُونَ النَّصْرَانِيَّةَ ، قَالُوا : لَوْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ حَقًّا لَأَخْبَرَتْنَا بِهِ النَّصَارَى ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ كَذِبٌ وَتَخَرُّصٌ ، وَقَوْلُهُمْ : ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُمْ يَسْتَبْعِدُونَ تَخْصِيصَهُ بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِهِمْ كُلِّهِمْ ، وَلِهَذَا لَمَّا قَالُوا هَذَا الَّذِي دَلَّ عَلَى جَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عَقْلِهِمْ فِي اسْتِبْعَادِهِمْ إِنْزَالُ الْقُرْآنِ عَلَى الرَّسُولِ مِنْ بَيْنِهِمْ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَقُولُونَ هَذَا لِأَنَّهُمْ مَا ذَاقُوا - إِلَى حِينِ

قَوْلِهِمْ ذَلِكَ - عَذَابَ اللهِ تَعَالَى وَنِقْمَتَهُ ، سَيَعْلَمُونَ غِبَّ مَا قَالُوا وَمَا كَذَّبُوا بِهِ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ، ثُمَّ قَالَ - تَعَالَى - مُبَيِّنًا أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ ، الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾ أَيْ : الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُرَامُ جَنَابُهُ ، الْوَهَّابُ الَّذِي يُعْطِي مَا يُرِيدُ لِمَنْ يُرِيدُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾ أَيْ : إِنْ كَانَ لَهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْعَدُوا فِي الْأَسْبَابِ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : طُرُقُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الْجُنْدُ الْمُكَذِّبُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ سَيُهْزَمُونَ وَيُغْلَبُونَ ، وَيُكْبَتُونَ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأَحْزَابِ الْمُكَذِّبِينَ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾[القمر : ٤٤-٤٥] ، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾[القمر : ٤٦]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالنِّقْمَاتِ فِي مُخَالَفَةِ الرُّسُلِ وَتَكْذِيبِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَقَدْ تَقَدَّمَتْ قِصَصُهُمْ مَبْسُوطَةً فِي أَمَاكِنَ مُتَعَدِّدَةٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ أَيْ : كَانُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ، وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ، فَمَا دَافَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ فَجَعَلَ عِلَّةَ إِهْلَاكِهِمْ هُوَ تَكْذِيبُهُمْ بِالرُّسُلِ ، فَلْيَحْذَرِ الْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْحَذَرِ . ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ قَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَيْ : لَيْسَ لَهَا مَثْنَوِيَّةٌ ، أَيْ : مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ، أَيْ : فَقَدِ اقْتَرَبَتْ وَدَنَتْ وَأَزِفَتْ ، وَهَذِهِ الصَّيْحَةُ هِيَ : نَفْخَةُ الْفَزَعِ ، الَّتِي يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى إِسْرَافِيلَ أَنْ يُطَوِّلَهَا ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فَزِعَ ، إِلَّا مَنِ اسْتَثْنَى اللهُ ﷻ .

وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي دُعَائِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِتَعْجِيلِ الْعَذَابِ ، فَإِنَّ الْقِطَّ هُوَ : الْكِتَابُ ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : سَأَلُوا تَعْجِيلَ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنَ الْخَيْرِ أَوِ الشَّرِّ فِي الدُّنْيَا ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ جَيِّدٌ ، وَاللهُ

أَعْلَمُ . وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْكَلَامُ مِنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الاسْتِهْزَاءِ وَالاسْتِبْعَادِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ آمِرًا لَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ ، وَمُبَشِّرًا لَهُ عَلَى صَبْرِهِ بِالْعَاقِبَةِ وَالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ .

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ دَاوُدَ عليه السلام أَنَّهُ كَانَ ذَا أَيْدٍ ، وَالْأَيْدُ : الْقُوَّةُ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، وَقِيلَ : الْأَيْدُ : الْقُوَّةُ فِي الطَّاعَةِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ تَعَالَى سَخَّرَ الْجِبَالَ تُسَبِّحُ مَعَهُ عِنْدَ إِشْرَاقِ الشَّمْسِ وَآخِرِ النَّهَارِ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ [سبأ : ١٠] ، وَكَذَلِكَ كَانَتِ الطَّيْرُ تُسَبِّحُ بِتَسْبِيحِهِ وَتُرَجِّعُ بِتَرْجِيعِهِ ، إِذَا مَرَّ بِهِ الطَّيْرُ وَهُوَ سَابِحٌ فِي الْهَوَاءِ ، فَسَمِعَهُ وَهُوَ يَتَرَنَّمُ بِقِرَاءَةِ الزَّبُورِ لَا يَسْتَطِيعُ الذَّهَابَ بَلْ يَقِفُ فِي الْهَوَاءِ وَيُسَبِّحُ مَعَهُ ، وَتُجِيبُهُ الْجِبَالُ الشَّامِخَاتُ تُرَجِّعُ مَعَهُ وَتُسَبِّحُ تَبَعًا لَهُ . وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أَيْ : مَحْبُوسَةً فِي الْهَوَاءِ ﴿ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أَيْ : مُطِيعٌ يُسَبِّحُ تَبَعًا لَهُ . ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَا لَهُ مُلْكًا كَامِلًا مِنْ جَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ . ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي الْفَهْمَ وَالْعَقْلَ وَالْفِطْنَةَ ، وَقِيلَ : الْحِكْمَةُ : الْعَدْلُ ، وَقِيلَ : كِتَابُ اللهِ وَاتِّبَاعُ مَا فِيهِ ، وَقِيلَ : النُّبُوَّةُ . ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ قِيلَ : فَصْلُ الْخِطَابِ : الشُّهُودُ وَالْأَيْمَانُ ، وَقِيلَ : هُوَ إِصَابَةُ الْقَضَاءِ وَفَهْمُ ذَلِكَ ، وَقِيلَ : هُوَ الْفَصْلُ فِي الْكَلَامِ وَفِي الْحُكْمِ ، وَهَذَا يَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ ، وَهُوَ الْمُرَادُ . وَقِيلَ : أَوَّلُ مَنْ قَالَ : « أَمَّا بَعْدُ » دَاوُدُ عليه السلام وَهُوَ فَصْلُ الْخِطَابِ .

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

قَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ هَهُنَا قِصَّةً أَكْثَرُهَا مَأْخُوذٌ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِيهَا عَنِ الْمَعْصُومِ

حَدِيثٌ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ ، فَالْأَوْلَى أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَى مُجَرَّدِ تِلَاوَةِ هَذِهِ الْقِصَّةِ ، وَأَنْ يُرَدَّ عِلْمُهَا إِلَى اللهِ ﷻ ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ وَمَا تَضَمَّنَ فَهُوَ حَقٌّ أَيْضًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي مِحْرَابِهِ وَهُوَ أَشْرَفُ مَكَانٍ فِي دَارِهِ ، وَكَانَ قَدْ أَمَرَ أَنْ لَا يَدْخُلَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ ، فَلَمْ يَشْعُرْ إِلَّا بِشَخْصَيْنِ قَدْ تَسَوَّرَا عَلَيْهِ الْمِحْرَابَ ، أَيْ : احْتَاطَا بِهِ يَسْأَلَانِهِ عَنْ شَأْنِهِمَا . **وَقَوْلُهُ** ﷻ : ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾ أَيْ : غَلَبَنِي ، يُقَالُ عَزَّ يَعِزُّ إِذَا قَهَرَ وَغَلَبَ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ ﴾ أَيْ : اخْتَبَرْنَاهُ ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أَيْ : سَاجِدًا ﴿ وَأَنَابَ ﴾ ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ رَكَعَ أَوَّلًا ، ثُمَّ سَجَدَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّهُ اسْتَمَرَّ سَاجِدًا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : مَا كَانَ مِنْهُ مِمَّا يُقَالُ فِيهِ : « إِنَّ حَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ » . وَقَدِ اخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ فِي سَجْدَةِ « ص » **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ قَالَ فِي السَّجْدَةِ فِي** « ص » : لَيْسَتْ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَسْجُدُ فِيهَا . وَعَنْهُ قَالَ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ فِي « ص » وَقَالَ : « **سَجَدَهَا دَاوُدُ** عليه السلام **تَوْبَةً وَنَسْجُدُهَا شُكْرًا** » . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ أَيْ : وَإِنَّ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ اللهُ ﷻ بِهَا ، وَحُسْنُ مَرْجِعٍ ، وَهُوَ الدَّرَجَاتُ الْعَالِيَةُ فِي الْجَنَّةِ لِنُبُوَّتِهِ وَعَدْلِهِ التَّامِّ فِي مُلْكِهِ .

يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

هَذِهِ وَصِيَّةٌ مِنَ اللهِ ﷻ لِوُلَاةِ الْأُمُورِ أَنْ يَحْكُمُوا بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَلَا يَعْدِلُوا عَنْهُ فَيَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَقَدْ تَوَعَّدَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - مَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَتَنَاسَى يَوْمَ الْحِسَابِ بِالْوَعِيدِ الْأَكِيدِ وَالْعَذَابِ الشَّدِيدِ .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا خَلَقَ الْخَلْقَ عَبَثًا ، وَإِنَّمَا خَلَقَهُمْ لِيَعْبُدُوهُ وَيُوَحِّدُوهُ ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ يَوْمَ الْجَمْعِ فَيُثِيبُ الْمُطِيعَ وَيُعَذِّبُ الْكَافِرَ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْ : الَّذِينَ لَا يَرَوْنَ بَعْثًا وَلَا مَعَادًا ، وَإِنَّمَا يَعْتَقِدُونَ هَذِهِ الدَّارَ فَقَطْ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أَيْ : وَيْلٌ لَهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَنُشُورِهِمْ مِنَ النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَهُمْ ، ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ ﷻ مِنْ عَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ لَا يُسَاوِي بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أَيْ : لَا نَفْعَلُ ذَلِكَ وَلَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ مِنْ دَارٍ أُخْرَى يُثَابُ فِيهَا هَذَا الْمُطِيعُ وَيُعَاقَبُ فِيهَا هَذَا الْفَاجِرُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أَيْ : ذَوُو الْعُقُولِ وَهِيَ الْأَلْبَابُ ، جَمْعُ لُبٍّ .

وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ وَهَبَ لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ أَيْ : نَبِيًّا ، كَمَا قَالَ ﷻ ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أَيْ : فِي النُّبُوَّةِ ، وَإِلَّا فَقَدْ كَانَ لَهُ بَنُونَ غَيْرُهُ ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ عِنْدَهُ مِائَةُ امْرَأَةٍ حَرَائِرَ ، وَقَوْلُهُ : ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ثَنَاءٌ عَلَى سُلَيْمَانَ ، بِأَنَّهُ كَثِيرُ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَى اللهِ ﷻ . ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ أَيْ : إِذْ عُرِضَ عَلَى سُلَيْمَانَ عليه السلام فِي حَالِ مَمْلَكَتِهِ وَسُلْطَانِهِ الْخَيْلُ الصَّافِنَاتُ ، وَهِيَ الَّتِي تَقِفُ عَلَى ثَلَاثٍ وَطَرَفِ حَافِرِ الرَّابِعَةِ . وَالْجِيَادُ : السِّرَاعُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ **ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْمُفَسِّرِينَ** : أَنَّهُ اشْتَغَلَ بِعَرْضِهَا حَتَّى فَاتَ وَقْتُ صَلَاةِ الْعَصْرِ ، وَالَّذِي يُقْطَعُ بِهِ أَنَّهُ لَمْ يَتْرُكْهَا عَمْدًا بَلْ نِسْيَانًا ، كَمَا شُغِلَ النَّبِيُّ يَوْمَ الْخَنْدَقِ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ ، حَتَّى صَلَّاهَا بَعْدَ الْغُرُوبِ . ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ . **قَالَ السُّدِّيُّ** : ضَرَبَ أَعْنَاقَهَا وَعَرَاقِيبَهَا بِالسُّيُوفِ ، وَقِيلَ : جَعَلَ يَمْسَحُ أَعْرَافَ الْخَيْلِ وَعَرَاقِيبَهَا حُبًّا لَهَا .

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ أَيْ : اخْتَبَرْنَاهُ بِأَنْ سَلَبْنَاهُ الْمُلْكَ مَرَّةً ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾(١) يَعْنِي شَيْطَانًا ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أَيْ : رَجَعَ إِلَى مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ وَأُبَّهَتِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : مَعْنَاهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ، أَيْ : لَا يَصْلُحُ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْلُبَنِيهِ بَعْدِي ، وَالصَّحِيحُ : أَنَّهُ سَأَلَ مِنَ اللهِ تَعَالَى مُلْكًا لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ مِنَ الْبَشَرِ مِثْلُهُ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ** - أَوْ كَلِمَةً نَحْوِهَا - **لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ ، فَأَمْكَنَنِي اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - مِنْهُ ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ** عليه السلام ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾)) **فَرَدَّهُ اللهُ خَاسِئًا** .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً ﴾ لَمَّا عَقَرَ سُلَيْمَانُ عليه السلام الْخَيْلَ غَضَبًا للهِ ﷻ عَوَّضَهُ اللهُ تَعَالَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا وَأَسْرَعُ : الرِّيحُ الَّتِي غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أَيْ : حَيْثُ أَرَادَ مِنَ الْبِلَادِ . ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ أَيْ : مِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْأَبْنِيَةِ الْهَائِلَةِ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْبَشَرُ ، وَطَائِفَةٌ غَوَّاصُونَ فِي الْبِحَارِ يَسْتَخْرِجُونَ مَا فِيهَا مِنَ اللَّآلِئِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْأَشْيَاءِ النَّفِيسَةِ الَّتِي لَا تُوجَدُ إِلَّا فِيهَا ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ أَيْ : مُوَثَّقُونَ فِي الْأَغْلَالِ وَالْأَكْبَالِ مِمَّنْ قَدْ تَمَرَّدَ وَعَصَى وَامْتَنَعَ مِنَ الْعَمَلِ وَأَبَى ، أَوْ قَدْ أَسَاءَ فِي صَنِيعِهِ وَاعْتَدَى .﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي أَعْطَيْنَاكَ مِنَ الْمُلْكِ التَّامِّ وَالسُّلْطَانِ الْكَامِلِ كَمَا سَأَلْتَنَا ، فَأَعْطِ مَنْ شِئْتَ وَاحْرِمْ مَنْ شِئْتَ ، لَا حِسَابَ عَلَيْكَ ، أَيْ : مَهْمَا فَعَلْتَ فَهُوَ جَائِزٌ لَكَ ، أُحْكُمْ بِمَا شِئْتَ فَهُوَ صَوَابٌ ، وَلَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا أَعْطَى سُلَيْمَانَ عليه السلام فِي الدُّنْيَا نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْضًا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ وَالْآخِرَةِ .

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ

(١) أَوْرَدَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ - جُمْلَةَ آثَارٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ ، وَقَالَ : هَذِهِ كُلُّهَا مِنَ الإِسْرَائِيلِيَّاتِ .

﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

يَذْكُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ أَيُّوبَ عليه السلام وَمَا كَانَ ابْتَلَاهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الضُّرِّ فِي جَسَدِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْ جَسَدِهِ مَغْرِزَ إِبْرَةٍ سَلِيمًا سِوَى قَلْبِهِ ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى مَرَضِهِ ، وَمَا هُوَ فِيهِ غَيْرُ أَنَّ زَوْجَتَهُ حَفِظَتْ وُدَّهُ لِإِيمَانِهَا بِاللهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ، فَكَانَتْ تَخْدُمُ النَّاسَ بِالْأُجْرَةِ وَتُطْعِمُهُ وَتَخْدُمُهُ نَحْوًا مِنْ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَة ، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ فِي مَالٍ جَزِيلٍ وَأَوْلَادٍ وَسَعَةٍ طَائِلَةٍ مِنَ الدُّنْيَا ، فَسُلِبَ جَمِيعُ ذَلِكَ حَتَّى آلَ بِهِ الْحَالُ إِلَى أَنْ أُلْقِيَ عَلَى مَزْبَلَةٍ مِنْ مَزَابِلِ الْبَلْدَةِ هَذِهِ الْمُدَّةَ بِكَمَالِهَا ، وَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ سِوَى زَوْجَتِهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - فَإِنَّهَا كَانَتْ لَا تُفَارِقُهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً إِلَّا بِسَبَبِ خِدْمَةِ النَّاسِ ثُمَّ تَعُودُ إِلَيْهِ قَرِيبًا ، فَلَمَّا طَالَ الْمَطَالُ ، وَاشْتَدَّ الْحَالُ ، وَانْتَهَى الْقَدَرُ وَتَمَّ الْأَجَلُ الْمُقَدَّرُ ، تَضَرَّعَ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ وَإِلَهِ الْمُرْسَلِينَ ، فَقَالَ : ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، **وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ قَالَ** : ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ **قِيلَ** : بِنُصْبٍ فِي بَدَنِي ، وَعَذَابٍ فِي مَالِي وَوَلَدِي ، فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَجَابَ لَهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَقَامِهِ وَأَنْ يَرْكُضَ الْأَرْضَ بِرِجْلِهِ ، فَفَعَلَ فَأَنْبَعَ اللهُ تَعَالَى عَيْنًا ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَغْتَسِلَ مِنْهَا ، فَأَذْهَبَتْ جَمِيعَ مَا كَانَ فِي بَدَنِهِ مِنَ الْأَذَى ، ثُمَّ أَمَرَهُ فَضَرَبَ الْأَرْضَ فِي مَكَانٍ آخَرٍ ، فَأَنْبَعَ لَهُ عَيْنًا أُخْرَى ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَشْرَبَ مِنْهَا ، فَأَذْهَبَتْ جَمِيعَ مَا كَانَ فِي بَاطِنِهِ مِنَ السُّوءِ وَتَكَامَلَتِ الْعَافِيَةُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ . **عَنْ أَنَسِ ابْنِ مَالِكٍ** رضي الله عنه قَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ نَبِيَّ اللهِ أَيُّوبَ** عليه السلام **لَبِثَ بِهِ بَلَاؤُهُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَة ، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ ، إِلَّا رَجُلَيْنِ كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ بِهِ كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : تَعْلَمُ وَاللهِ ، لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَة لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ تَعَالَى ، فَيَكْشِفُ مَا بِهِ ، فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ أَيُّوبُ** عليه السلام : **لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللهَ** عز وجل **يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللهَ تَعَالَى ، فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا ، كَرَاهِيَةَ أَنْ يُذْكَرَ اللهَ تَعَالَى إِلَّا فِي حَقٍّ وَقَالَ : وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى حَاجَتِهِ فَإِذَا قَضَاهَا أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا ، فَأَوْحَى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى أَيُّوبَ** عليه السلام ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ **فَاسْتَبْطَأَتْهُ فَالْتَفَتَتْ تَنْظُرُ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ وَهُوَ عَلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ : أَيْ بَارَكَ اللهُ فِيكَ ، هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللهِ هَذَا الْمُبْتَلَى ؟**

فَوَاللهِ الْقَدِيرِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا ، قَالَ : فَإِنِّي أَنَا هُوَ ، قَالَ : وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ أَنْدَرٌ لِلْقَمْحِ وَأَنْدَرٌ لِلشَّعِيرِ ، فَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى سَحَابَتَيْنِ فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْقَمْحِ أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَ ، وَأَفْرَغَتِ الْأُخْرَى فِي أَنْدَرِ الشَّعِيرِ حَتَّى فَاضَ » .

قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ : أَحْيَاهُمُ اللهُ تَعَالَى لَهُ بِأَعْيَانِهِمْ وَزَادَهُمْ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ . ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أَيْ : بِهِ عَلَى صَبْرِهِ وَثَبَاتِهِ وَإِنَابَتِهِ وَتَوَاضُعِهِ وَاسْتِكَانَتِهِ ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أَيْ : لِذَوِي الْعُقُولِ لِيَعْلَمُوا أَنَّ عَاقِبَةَ الصَّبْرِ الْفَرَجُ وَالْمَخْرَجُ وَالرَّاحَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَيُّوبَ عليه السلام كَانَ قَدْ غَضِبَ عَلَى زَوْجَتِهِ ، وَوَجَدَ عَلَيْهَا فِي أَمْرٍ فَعَلَتْهُ ، قِيلَ : بَاعَتْ ضَفِيرَتَهَا بِخُبْزٍ فَأَطْعَمَتْهُ إِيَّاهُ فَلَامَهَا عَلَى ذَلِكَ ، وَحَلَفَ إِنْ شَفَاهُ اللهُ تَعَالَى لَيَضْرِبَنَّهَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَقِيلَ : لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ ، فَلَمَّا شَفَاهُ اللهُ عز وجل وَعَافَاهُ ، مَا كَانَ جَزَاؤُهَا مَعَ هَذِهِ الْخِدْمَةِ التَّامَّةِ وَالرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ وَالْإِحْسَانِ أَنْ تُقَابَلَ بِالضَّرْبِ ، فَأَفْتَاهُ اللهُ عز وجل أَنْ يَأْخُذَ ضِغْثًا - وَهُوَ : الشِّمْرَاخُ - فِيهِ مِائَةُ قَضِيبٍ فَيَضْرِبَهَا بِهِ ضَرْبَةً وَاحِدَةً ، وَقَدْ بَرَّتْ يَمِينُهُ وَخَرَجَ مِنْ حِنْثِهِ ، وَوَفَّى بِنَذْرِهِ ، وَهَذَا مِنَ الْفَرَجِ وَالْمَخْرَجِ لِمَنِ اتَّقَى اللهَ تَعَالَى وَأَنَابَ إِلَيْهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أَثْنَى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَمَدَحَهُ بِأَنَّهُ ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أَيْ : رَجَّاعٌ مُنِيبٌ .

وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فَضَائِلِ عِبَادِهِ الْمُرْسَلِينَ وَأَنْبِيَائِهِ الْعَابِدِينَ : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ : الْعَمَلَ الصَّالِحَ وَالْعِلْمَ النَّافِعَ ، وَالْقُوَّةَ فِي الْعِبَادَةِ ، وَالْبَصِيرَةَ النَّافِذَةَ . رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ﴿ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى ﴾ يَقُولُ : أُولِي الْقُوَّةِ ﴿ وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ يَقُولُ : الْفِقْهُ فِي الدِّينِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : أَيْ : جَعَلْنَاهُمْ يَعْمَلُونَ لِلْآخِرَةِ لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ غَيْرُهَا ، وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ : نَزَعَ اللهُ تَعَالَى مِنْ قُلُوبِهِمْ حُبَّ الدُّنْيَا وَذِكْرَهَا وَأَخْلَصَهُمْ بِحُبِّ الْآخِرَةِ وَذِكْرِهَا ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : يَعْنِي بِالدَّارِ : الْجَنَّةَ ، يَقُولُ : أَخْلَصْنَاهَا لَهُمْ بِذِكْرِهِمْ لَهَا ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ أَيْ : لَمِنَ الْمُخْتَارِينَ الْمُجْتَبَيْنَ

الْأَخْيَارِ ، فَهُمْ أَخْيَارٌ مُخْتَارُونَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَصَصِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ مُسْتَقْصَاةً فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا .

هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ ﴾ أَيْ : هَذَا فَصْلٌ فِيهِ ذِكْرٌ لِمَنْ يَتَذَكَّرُ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : يَعْنِي : الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ السُّعَدَاءِ أَنَّ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ ، وَهُوَ : الْمَرْجِعُ وَالْمُنْقَلَبُ ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ﴾ أَيْ : جَنَّاتُ إِقَامَةٍ ﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾ أَيْ : إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُهَا . وَقَدْ وَرَدَ فِي ذِكْرِ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مِنْ وُجُوهٍ عَدِيدَةٍ ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾ قِيلَ : مُتَرَبِّعِينَ عَلَى سُرُرٍ تَحْتَ الْحِجَالِ ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أَيْ : مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا وَأُحْضِرَ كَمَا أَرَادُوا ﴿ وَشَرَابٍ ﴾ أَيْ : مِنْ أَيِّ أَنْوَاعِهِ شَاءُوا أَتَتْهُمْ بِهِ الْخُدَّامُ ﴿ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أَيْ : عَنْ غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ فَلَا يَلْتَفِتْنَ إِلَى غَيْرِ بُعُولَتِهِنَّ ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أَيْ : مُتَسَاوِيَاتٍ فِي السِّنِّ وَالْعُمْرِ . ﴿ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ صِفَةِ الْجَنَّةِ هِيَ الَّتِي وَعَدَهَا لِعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ الَّتِي يَصِيرُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ نُشُورِهِمْ وَقِيَامِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ وَسَلَامَتِهِمْ مِنَ النَّارِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَنِ الْجَنَّةِ أَنَّهُ لَا فَرَاغَ لَهَا وَلَا زَوَالَ وَلَا انْقِضَاءَ وَلَا انْتِهَاءَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ .

هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَآلَ السُّعَدَاءِ ثَنَّى بِذِكْرِ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ وَمَرْجِعِهِمْ وَمَآبِهِمْ فِي دَارِ مَعَادِهِمْ وَحِسَابِهِمْ فَقَالَ ﷻ : ﴿ هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ ﴾ ، وَهُمُ الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ ﷻ

الْمُخَالِفُونَ لِرُسُلِ الله ﴿ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ أَيْ : لَسُوءِ مُنْقَلَبٍ وَمَرْجِعٍ ،ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أَيْ : يَدْخُلُونَهَا فَتَغْمُرُهُمْ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ ﴿ فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ أَمَّا الحَمِيمُ فَهُوَ : الحَارُّ الَّذِي قَدِ انْتَهَى حَرُّهُ ، وَأَمَّا الْغَسَّاقُ : فَهُوَ ضِدُّهُ وَهُوَ الْبَارِدُ الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ مِنْ شِدَّةِ بَرْدِهِ الْمُؤْلِمِ ،وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ أَيْ : وَأَشْيَاءُ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ : الشَّيْءُ وَضِدُّهُ يُعَاقَبُونَ بِهَا . وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ أَلْوَانٌ مِنَ الْعَذَابِ ، وَقِيلَ : كَالزَّمْهَرِيرِ وَالسَّمُومِ ، وَشُرْبِ الْحَمِيمِ وَأَكْلِ الزَّقُّومِ ، وَالصَّعُودِ وَالْهَوِيِّ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ الْمُتَضَادَّةِ ، وَالْجَمِيعُ مِمَّا يُعَذَّبُونَ بِهِ وَيُهَانُونَ بِسَبَبِهِ ﴿ هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ الله تَعَالَى عَنْ قِيلِ أَهْلِ النَّارِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾[الأعراف : ٣٨] يَعْنِي : بَدَلُ السَّلَام يَتَلَاعَنُونَ وَيَتَكَاذَبُونَ وَيَكْفُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، فَتَقُولُ الطَّائِفَةُ الَّتِي تَدْخُلُ قَبْلَ الْأُخْرَى إِذَا أَقْبَلَتِ الَّتِي بَعْدَهَا مَعَ الْخَزَنَةِ مِنَ الزَّبَانِيَةِ ﴿ هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ ﴾ أَيْ : دَاخِلٌ مَعَكُمْ ﴿ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : لأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ جَهَنَّمَ ﴿ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ﴾ أَيْ : فَيَقُولُ لَهُمُ الدَّاخِلُونَ : بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ دَعَوْتُمُونَا إِلَى مَا أَفْضَى بِنَا إِلَى هَذَا المَصِيرِ ﴿ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ أَيْ : فَبِئْسَ الْمَنْزِلُ وَالْمُسْتَقَرُّ وَالمَصِيرُ ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴾ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف : ٣٨] أَيْ : لِكُلٍّ مِنْكُمْ عَذَابٌ بِحَسَبِهِ ﴿ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْكُفَّارِ فِي النَّارِ أَنَّهُمْ يَفْتَقِدُونَ رِجَالًا كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى الضَّلَالَةِ - وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ - فِي زَعْمِهِمْ ، قَالُوا : مَا لَنَا لَا نَرَاهُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ ؟ فَكُلُّ الْكُفَّارِ هَذَا حَالُهُمْ ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَدْخُلُونَ النَّارَ ، فَلَمَّا دَخَلَ الْكُفَّارُ النَّارَ افْتَقَدُوهُمْ فَلَمْ يَجِدُوهُمْ فَقَالُوا : ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ يُسَلُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمُحَالِ يَقُولُونَ : أَوْ لَعَلَّهُمْ مَعَنَا فِي جَهَنَّمَ وَلَكِنْ لَمْ يَقَعْ بَصَرُنَا عَلَيْهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ فِي الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : إِنَّ هَذَا الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ - مِنْ تَخَاصُمِ أَهْلِ النَّارِ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ ، وَلَعْنُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ - لَحَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ .

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْكُفَّارِ بِاللهِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ الْمُكَذِّبِينَ لِرَسُولِهِ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ لَسْتُ كَمَا تَزْعُمُونَ ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ أَيْ : هُوَ وَحْدَهُ قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَغَلَبَهُ ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أَيْ : هُوَ مَالِكُ جَمِيعِ ذَلِكَ وَمُتَصَرِّفٌ فِيهِ ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ أَيْ : غَفَّارٌ مَعَ عَظَمَتِهِ وَعِزَّتِهِ ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : خَبَرٌ عَظِيمٌ وَشَأْنٌ بَلِيغٌ وَهُوَ إِرْسَالُ اللهِ تَعَالَى إِيَّايَ إِلَيْكُمْ ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ أَيْ : غَافِلُونَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أَيْ : لَوْلَا الْوَحْيُ مِنْ أَيْنَ كُنْتُ أَدْرِي بِاخْتِلَافِ الْمَلَإِ الْأَعْلَى ؟ يَعْنِي فِي شَأْنِ آدَمَ عليه السلام وَامْتِنَاعِ إِبْلِيسَ مِنَ السُّجُودِ لَهُ وَمُحَاجَّتِهِ رَبَّهُ فِي تَفْضِيلِهِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى :

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

هَذِهِ الْقِصَّةُ ذَكَرَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي « **سُورَةِ الْبَقَرَةِ** » وَفِي أَوَّلِ « **سُورَةِ الْأَعْرَافِ** » وَفِي « **سُورَةِ الْحِجْرِ ، وَسُبْحَانَ ، وَالْكَهْفِ** » ، وَهُنَا ، وَهِيَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمَ الْمَلَائِكَةَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ عليه السلام بِأَنَّهُ سَيَخْلُقُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ، وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِالْأَمْرِ : مَتَى فَرَغَ مِنْ خَلْقِهِ وَتَسْوِيَتِهِ فَلْيَسْجُدُوا لَهُ إِكْرَامًا وَإِعْظَامًا وَاحْتِرَامًا وَامْتِثَالًا لِأَمْرِ اللهِ ﷻ ، فَامْتَثَلَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ ذَلِكَ سِوَى إِبْلِيسَ - وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ جِنْسًا كَانَ مِنَ الْجِنِّ - فَخَانَهُ طَبْعُهُ وَجِبِلَّتُهُ أَحْوَجُ مَا كَانَ إِلَيْهِ ، فَاسْتَنْكَفَ عَنِ السُّجُودِ لِآدَمَ ، وَخَاصَمَ رَبَّهُ ﷻ فِيهِ ، وَادَّعَى أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ آدَمَ ، فَإِنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ طِينٍ ، وَالنَّارُ خَيْرٌ مِنَ الطِّينِ فِي زَعْمِهِ ، وَقَدْ أَخْطَأَ فِي

ذَلِكَ وَخَالَفَ أَمْرَ اللهِ تَعَالَى وَكَفَرَ بِذَلِكَ ، فَأَبْعَدَهُ اللهُ ﷻ وَأَرْغَمَ أَنْفَهُ وَطَرَدَهُ عَنْ بَابِ رَحْمَتِهِ وَمَحَلِّ أُنْسِهِ وَحَضْرَةِ قُدْسِهِ ، وَسَمَّاهُ إِبْلِيسَ إِعْلَامًا لَهُ بِأَنَّهُ قَدْ أُبْلِسَ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَأَنْزَلَهُ مِنَ السَّمَاءِ مَذْمُومًا مَدْحُورًا إِلَى الْأَرْضِ ، فَسَأَلَ اللهَ النَّظِرَةَ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ، فَأَنْظَرَهُ الْحَلِيمُ الَّذِي لَا يَعْجَلُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ ، فَلَمَّا أَمِنَ الْهَلَاكَ إِلَى الْقِيَامَةِ تَمَرَّدَ وَطَغَى وَقَالَ : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . **وَفَسَّرَهُ مُجَاهِدٌ بِأَنَّ مَعْنَاهُ :** أَنَا الْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ، **وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ :** الْحَقُّ مِنِّي وَأَقُولُ الْحَقَّ .

قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ : مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى هَذَا الْبَلَاغِ وَهَذَا النُّصْحِ أَجْرًا تُعْطُونِيهِ مِنْ عَرَضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أَيْ : وَمَا أُرِيدُ عَلَى مَا أَرْسَلَنِي اللهُ تَعَالَى بِهِ وَلَا أَبْتَغِي زِيَادَةً عَلَيْهِ ، بَلْ مَا أُمِرْتُ بِهِ أَدَّيْتُهُ لَا أَزِيدُ عَلَيْهِ وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ ﷻ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ ذِكْرٌ لِجَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ ﴾ أَيْ : خَبَرَهُ وَصِدْقَهُ ﴿ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ أَيْ : عَنْ قَرِيبٍ . **قَالَ الْحَسَنُ :** يَا ابْنَ آدَمَ عِنْدَ الْمَوْتِ يَأْتِيكَ الْخَبَرُ الْيَقِينُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ص وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٧٥ — تفسيرُ سُورَةِ الزمـر — مكيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ تَنْزِيلَ هَذَا الْكِتَابِ - وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ - مِنْ عِنْدِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ﴾ أَيْ: الْمَنِيعُ الْجَنَابُ ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أَيْ: فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ أَيْ: فَاعْبُدِ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَادْعُ الْخَلْقَ إِلَى ذَلِكَ، وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّهُ لَا تَصْلُحُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَلَا عَدِيلٌ وَلَا نَدِيدٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ أَيْ: لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا أَخْلَصَ فِيهِ الْعَامِلُ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. **قَالَ قَتَادَةُ**: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ ﷻ عَنْ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ أَيْ: إِنَّمَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى عِبَادَتِهِمْ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَمَدُوا إِلَى أَصْنَامٍ اتَّخَذُوهَا عَلَى صُوَرِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ فِي زَعْمِهِمْ، فَعَبَدُوا تِلْكَ الصُّوَرَ تَنْزِيلًا لِذَلِكَ مَنْزِلَةَ عِبَادَتِهِمُ الْمَلَائِكَةَ لِيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى فِي نَصْرِهِمْ وَرِزْقِهِمْ وَمَا يَنُوبُهُمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، فَأَمَّا الْمَعَادُ فَكَانُوا جَاحِدِينَ لَهُ كَافِرِينَ بِهِ. وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّتِي فِي السَّمَاوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَغَيْرِهِمْ كُلُّهُمْ عَبِيدٌ خَاضِعُونَ للهِ لَا يَشْفَعُونَ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ لِمَنِ ارْتَضَى، وَلَيْسُوا عِنْدَهُ كَالْأُمَرَاءِ عِنْدَ مُلُوكِهِمْ يَشْفَعُونَ عِنْدَهُمْ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فِيمَا أَحَبَّهُ الْمُلُوكُ وَأَبَوْهُ ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [النحل: ٧٤] تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا. وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أَيْ: سَيَفْصِلُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أَيْ: لَا يُرْشِدُ إِلَى الْهِدَايَةِ مَنْ قَصْدُهُ الْكَذِبُ وَالِافْتِرَاءُ عَلَى اللهِ تَعَالَى، وَقَلْبُهُ كَافِرٌ بِآيَاتِهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ. ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ، كَمَا يَزْعُمُهُ جَهَلَةُ الْمُشْرِكِينَ فِي الْمَلَائِكَةِ وَالْمُعَانِدُونَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي الْعُزَيْرِ وَعِيسَى، **فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ أَيْ: لَكَانَ الْأَمْرُ عَلَى خِلَافِ مَا يَزْعُمُونَ، وَهَذَا شَرْطٌ لَا يَلْزَمُ وُقُوعُهُ وَلَا جَوَازُهُ بَلْ هُوَ مُحَالٌ، وَإِنَّمَا قَصَدَ تَجْهِيلَهُمْ فِيمَا ادَّعَوْهُ وَزَعَمُوهُ ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ أَيْ: تَعَالَى وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، فَإِنَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ عَبْدٌ لَدَيْهِ فَقِيرٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ الَّذِي قَدْ قَهَرَ الْأَشْيَاءَ فَدَانَتْ لَهُ وَذَلَّتْ وَخَضَعَتْ.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم

مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْخَالِقُ لِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَبِأَنَّهُ مَالِكُ الْمُلْكِ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِ يُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ أَيْ : سَخَّرَهُمَا يَجْرِيَانِ مُتَعَاقِبَيْنِ لَا يَفْتُرَانِ ، كُلٌّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَثِيثًا ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَيْ : إِلَى مُدَّةٍ مَعْلُومَةٍ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى ، ثُمَّ يَنْقَضِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ أَيْ : مَعَ عِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ هُوَ غَفَّارٌ لِمَنْ عَصَاهُ ثُمَّ تَابَ وَأَنَابَ إِلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ أَيْ : خَلَقَكُمْ مَعَ اخْتِلَافِ أَجْنَاسِكُمْ وَأَصْنَافِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَهُوَ آدَمُ عليه السلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ، وَهِيَ حَوَّاءُ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ أَيْ : وَخَلَقَ لَكُمْ مِنْ ظُهُورِ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي « **سُورَةِ الْأَنْعَامِ** » ثَمَانِيَةُ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ أَيْ : قَدَّرَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴿ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ يَكُونُ أَحَدُكُمْ أَوَّلًا نُطْفَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً ، ثُمَّ يُخْلَقُ فَيَكُونُ لَحْمًا وَعَظْمًا وَعَصَبًا وَعُرُوقًا ، وَيُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَيَصِيرُ خَلْقًا آخَرَ ﴿ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾ يَعْنِي : فِي ظُلْمَةِ الرَّحِمِ ، وَظُلْمَةِ الْمَشِيمَةِ الَّتِي هِيَ كَالْغِشَاوَةِ وَالْوِقَايَةِ عَلَى الْوَلَدِ ، وَظُلْمَةِ الْبَطْنِ . وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَخَلَقَكُمْ وَخَلَقَ آبَاءَكُمْ هُوَ الرَّبُّ لَهُ الْمُلْكُ ، وَالتَّصَرُّفُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ؟ أَيْنَ يُذْهَبُ بِعُقُولِكُمْ ؟!

إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ كَمَا قَالَ مُوسَى عليه السلام ﴿ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ « **يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا** » . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ أَيْ : **لَا يُحِبُّهُ** وَلَا يَأْمُرُ بِهِ ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أَيْ : **يُحِبُّهُ لَكُمْ وَيَزِدْكُمْ مِنْ فَضْلِهِ** ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أَيْ : لَا تَحْمِلُ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا بَلْ كُلٌّ مُطَالَبٌ بِأَمْرِ نَفْسِهِ ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أَيْ : **فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ** .

وَقَوْلُهُ عز وجل ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ أَيْ : عِنْدَ الْحَاجَةِ يَتَضَرَّعُ وَيَسْتَغِيثُ بِاللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، **وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ الرَّفَاهِيَةِ يَنْسَى ذَلِكَ الدُّعَاءَ وَالتَّضَرُّعَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس : ١٢] ، **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ الْعَافِيَةِ يُشْرِكُ بِاللهِ وَيَجْعَلُ لَهُ أَنْدَادًا ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : قُلْ لِمَنْ هَذِهِ حَالَتُهُ وَطَرِيقَتُهُ وَمَسْلَكُهُ : تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ، وَهُوَ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى :﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٣٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤]

أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

يَقُولُ عز وجل أَمَّنْ هَذِهِ صِفَتُهُ كَمَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ وَجَعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٣] ، **وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَهُنَا** ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾ أَيْ : فِي حَالِ سُجُودِهِ وَفِي حَالِ قِيَامِهِ . **عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ** رضي الله عنه **قَالَ** : الْقَانِتُ الْمُطِيعُ للهِ عز وجل وَلِرَسُولِهِ ﷺ ، **وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ﴾ أَوَّلُهُ وَأَوْسَطُهُ وَآخِرُهُ ﴿ يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ عِبَادَتِهِ خَائِفٌ رَاجٍ وَلَا بُدَّ فِي الْعِبَادَةِ مِنْ هَذَا وَهَذَا ، وَأَنْ يَكُونَ الْخَوْفُ فِي مُدَّةِ الْحَيَاةِ هُوَ الْغَالِبُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ

فَلْيَكُنِ الرَّجَاءُ هُوَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : هَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَالَّذِي قَبْلَهُ مِمَّنْ جَعَلَ لله أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَعْلَمُ الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا مَنْ لَهُ لُبٌّ ، وَهُوَ الْعَقْلُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالِاسْتِمْرَارِ عَلَى طَاعَتِهِ وَتَقْوَاهُ ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أَيْ : لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ ﴿ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : فَهَاجِرُوا فِيهَا وَجَاهِدُوا وَاعْتَزِلُوا الْأَوْثَانَ ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ **قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ** : لَيْسَ يُوزَنُ لَهُمْ وَلَا يُكَالُ لَهُمْ ، إِنَّمَا يُغْرَفُ لَهُمْ غَرْفًا ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ يَعْنِي : فِي الْجَنَّةِ . ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أُمِرْتُ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ، **قَالَ السُّدِّيُّ** : يَعْنِي مِنْ أُمَّتِهِ ﷺ.

قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ وَأَنْتَ رَسُولُ الله : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا شَرْطٌ ، وَمَعْنَاهُ : التَّعْرِيضُ بِغَيْرِهِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ وَهَذَا أَيْضًا تَهْدِيدٌ وَتَبَرٍّ مِنْهُمْ ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا الْخَاسِرُونَ كُلَّ الْخُسْرَانِ ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أَيْ : تَفَارَقُوا فَلَا الْتِقَاءَ لَهُمْ أَبَدًا ، وَسَوَاءٌ ذَهَبَ أَهْلُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَقَدْ ذَهَبُوا هُمْ إِلَى النَّارِ ، أَوْ أَنَّ الْجَمِيعَ أُسْكِنُوا النَّارَ وَلَكِنْ لَا اجْتِمَاعَ لَهُمْ وَلَا سُرُورَ ﴿ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أَيْ : هَذَا هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ الظَّاهِرُ الْوَاضِحُ . ثُمَّ وَصَفَ حَالَهُمْ فِي النَّارِ ، **فَقَالَ** : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ

ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَقُصُّ خَبَرَ هَذَا الْكَائِنِ لَا مَحَالَةَ لِيُخَوِّفَ بِهِ عِبَادَهُ ، لِيَنْزَجِرُوا عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَآثِمِ ﴿ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ أَيْ : اِخْشَوْا بَأْسِي وَسَطْوَتِي وَعَذَابِي وَنِقْمَتِي .

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾

قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ نَزَلَتْ فِي زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ وَأَبِي ذَرٍّ وَسَلْمَانَ الفَارِسِي ، وَالصَّحِيحُ : أَنَّهَا شَامِلَةٌ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ مِمَّنِ اجْتَنَبَ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَأَنَابَ إِلَى عِبَادَةِ الرَّحْمَنِ ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ أَيْ : يَفْهَمُونَهُ وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمُوسَى ﷺ حِينَ آتَاهُ التَّوْرَاةَ : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف : ١٤٥] ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ هُمُ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أَيْ : ذَوُو الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ وَالْفِطَرِ الْمُسْتَقِيمَةِ .

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : أَفَمَنْ كَتَبَ اللهُ أَنَّهُ شَقِيٌّ تَقْدِرُ تُنْقِذُهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْهَلَاكِ ؟ أَيْ : لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ مِنْ بَعْدِ اللهِ ؛ لِأَنَّهُ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَمَنْ يَهْدِهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، ثُمَّ أَخْبَرَ ﷻ عَنْ عِبَادِهِ السُّعَدَاءِ أَنَّ لَهُمْ غُرَفًا فِي الْجَنَّةِ ، وَهِيَ : الْقُصُورُ الشَّاهِقَةُ ﴿ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ طِبَاقٌ فَوْقَ طِبَاقٍ ، مَبْنِيَّاتٌ مُحْكَمَاتٌ مُزَخْرَفَاتٌ عَالِيَاتٌ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أَيْ : تَسْلُكُ الْأَنْهَارُ بَيْنَ خِلَالِ ذَلِكَ ، كَمَا يَشَاءُونَ وَأَيْنَ أَرَادُوا ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَعْدٌ وَعَدَهُ اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ أَصْلَ الْمَاءِ فِي الْأَرْضِ مِنَ السَّمَاءِ ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان : ٤٨]فَإِذَا أَنْزَلَ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ كَمَنَ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَصْرِفُهُ تَعَالَى فِي أَجْزَاءِ الْأَرْضِ كَمَا يَشَاءُ وَيُنْبِعُهُ عُيُونًا مَا بَيْنَ صِغَارٍ وَكِبَارٍ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ أَيْ : ثُمَّ يُخْرِجُ بِالْمَاءِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ وَالنَّابِعِ مِنَ الْأَرْضِ زَرْعًا ﴿ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ أَيْ : أَشْكَالُهُ وَطُعُومُهُ وَرَوَائِحُهُ وَمَنَافِعُهُ ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أَيْ : بَعْدَ نَضَارَتِهِ وَشَبَابِهِ يُكْتَهَلُ ﴿ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ﴾ قَدْ خَالَطَهُ الْيُبْسُ ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ﴾ أَيْ : ثُمَّ يَعُودُ يَابِسًا يَتَحَطَّمُ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ أَي : الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ بِهَذَا فَيَعْتَبِرُونَ إِلَى أَنَّ الدُّنْيَا هَكَذَا ، تَكُونُ خَضِرَةً نَضْرَةً حَسْنَاءَ ثُمَّ تَعُودُ عَجُوزًا شَوْهَاءَ ، وَالشَّابُّ يَعُودُ شَيْخًا هَرِمًا كَبِيرًا ضَعِيفًا ، وَبَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ الْمَوْتُ ، فَالسَّعِيدُ مَنْ كَانَ حَالُهُ بَعْدَهُ إِلَى خَيْرٍ ، وَكَثِيرًا مَا يَضْرِبُ اللهُ تَعَالَى مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِمَا يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ وَيُنْبِتُ بِهِ زُرُوعًا وَثِمَارًا ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ حُطَامًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف : ٤٥] ، وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أَيْ : هَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَمَنْ هُوَ قَاسِي الْقَلْبِ بَعِيدٌ عَنِ الْحَقِّ ، كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فَلَا تَلِينَ عِنْدَ ذِكْرِهِ وَلَا تَخْشَعَ وَلَا تَعِي وَلَا تَفْهَمَ ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

هَذَا مَدْحٌ مِنَ اللهِ ﷻ لِكِتَابِهِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، الْمُنَزَّلِ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي : الْقُرْآنَ كُلَّهُ مُتَشَابِهٌ مَثَانِي ، وَقَالَ قَتَادَةُ : الْآيَةُ تُشْبِهُ الْآيَةَ ، وَالْحَرْفُ يُشْبِهُ الْحَرْفَ ، وَعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ أَنَّ سِيَاقَاتُ الْقُرْآنِ تَارَةً تَكُونُ فِي مَعْنًى وَاحِدٍ ، فَهَذَانِ مِنَ الْمُتَشَابِهِ ، وَتَارَةً تَكُونُ بِذِكْرِ الشَّيْءِ وَضِدِّهِ ، كَذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ الْكَافِرِينَ ، وَكَصِفَةِ الْجَنَّةِ ثُمَّ صِفَةِ النَّارِ ، وَمَا أَشْبَهَ هَذَا ، فَهَذَا مِنَ الْمَثَانِي ، أَيْ : فِي مَعْنَيَيْنِ اثْنَيْنِ . ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ

تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : هَذِهِ صِفَةُ الْأَبْرَارِ عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِ الْجَبَّارِ الْمُهَيْمِنِ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ، لِمَا يَفْهَمُونَ مِنْهُ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَالتَّخْوِيفِ وَالتَّهْدِيدِ ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُهُمْ مِنَ الْخَشْيَةِ وَالْخَوْفِ ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ لِمَا يَرْجُونَ وَيُؤَمِّلُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : هَذِهِ صِفَةُ مَنْ هَدَاهُ اللهُ ، وَمَنْ كَانَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ فَهُوَ مِمَّنْ أَضَلَّهُ اللهُ ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ .

أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ، وَيُقْرَعُ فَيُقَالُ لَهُ وَلِأَمْثَالِهِ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ كَمَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك : ٢٢] ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يَعْنِي : الْقُرُونَ الْمَاضِيَةَ الْمُكَذِّبَةَ لِلرُّسُلِ أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ . ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : بِمَا أَنْزَلَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، وَتَشَفِّي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ ، فَلْيَحْذَرِ الْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا أَشْرَفَ الرُّسُلِ وَخَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ ، وَالَّذِي أَعَدَّهُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ أَعْظَمَ مِمَّا أَصَابَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أَيْ : بَيَّنَّا لِلنَّاسِ فِيهِ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فَإِنَّ الْمَثَلَ يُقَرِّبُ الْمَعْنَى إِلَى الْأَذْهَانِ . ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ أَيْ : هُوَ قُرْآنٌ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ، لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ وَلَا لَبْسَ ، بَلْ هُوَ بَيَانٌ وَوُضُوحٌ وَبُرْهَانٌ ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى كَذَلِكَ وَأَنْزَلَهُ بِذَلِكَ ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : يَحْذَرُونَ مَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ

مُتَشَٰكِسُونَ ﴾ أَيْ : يَتَنَازَعُونَ فِي ذَلِكَ الْعَبْدِ الْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُمْ ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا ﴾ أَيْ : سَالِمًا ﴿ لِّرَجُلٍ ﴾ أَيْ : خَالِصًا لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ أَيْ : لَا يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا ، كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْمُشْرِكُ الَّذِي يَعْبُدُ آلِهَةً مَعَ اللهِ ، وَالْمُؤْمِنُ الْمُخْلِصُ الَّذِي لَا يَعْبُدُ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا ؟ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : عَلَى إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : فَلِهَذَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ . ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي اسْتَشْهَدَ بِهَا الصِّدِّيقُ ﷺ عِنْدَ مَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ ، حَتَّى تَحَقَّقَ النَّاسُ مَوْتَهُ ، وَمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ : أَنَّكُمْ سَتُنْقَلُونَ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ لَا مَحَالَةَ ، وَسَتَجْتَمِعُونَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَتَخْتَصِمُونَ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ﷻ ، فَيَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَيَفْتَحُ بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ، فَيُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُوَحِّدِينَ ، وَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ الْجَاحِدِينَ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ ، ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ وَإِنْ كَانَ سِيَاقُهَا فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ، وَذِكْرِ الْخُصُومَةِ بَيْنَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، فَإِنَّهَا شَامِلَةٌ لِكُلِّ مُتَنَازِعَيْنِ فِي الدُّنْيَا ، فَإِنَّهُ تُعَادُ عَلَيْهِمُ الْخُصُومَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، **عَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ** : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قَالَ الزُّبَيْرُ ﷺ : يَا رَسُولَ اللهِ أَتُكَرَّرُ عَلَيْنَا الْخُصُومَةُ ؟ قَالَ ﷺ : ((**نَعَمْ**)) قَالَ ﷺ : إِنَّ الْأَمْرَ إِذًا لَشَدِيدٌ . **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** -: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ يَقُولُ : يُخَاصِمُ الصَّادِقُ الْكَاذِبَ ، وَالْمَظْلُومُ الظَّالِمَ ، وَالْمُهْتَدِي الضَّالَّ ، وَالضَّعِيفُ الْمُسْتَكْبِرَ .

۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

يَقُولُ ﷻ مُخَاطِبًا لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ افْتَرَوْا عَلَى اللهِ وَجَعَلُوا مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى ، وَادَّعَوْا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ ، وَجَعَلُوا للهِ وَلَدًا - تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا - وَمَعَ هَذَا كَذَّبُوا بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِ اللهِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾ أَيْ : لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْ هَذَا ؛ لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ طَرَفَيِ الْبَاطِلِ ، كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، قَالُوا الْبَاطِلَ وَرَدُّوا الْحَقَّ ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ مُتَوَعِّدًا لَهُمْ : ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ ، وَهُمُ الْجَاحِدُونَ الْمُكَذِّبُونَ .

ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ هُوَ رَسُولُ الله ﷺ، وَقِيلَ: هُوَ جِبْرِيلُ ﵇ ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ يَعْنِي: مُحَمَّدًا ﷺ، وَالرَّسُولُ ﷺ أَوْلَى النَّاسِ بِالدُّخُولِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ، فَإِنَّهُ جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ، وَآمَنَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ اِتَّقُوا الشِّرْكَ ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يَعْنِي: فِي الْجَنَّةِ، مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ كَمَا قَالَ ﷻ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٦]

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: «عِبَادَهُ» يَعْنِي: أَنَّهُ تَعَالَى يَكْفِي مَنْ عَبَدَهُ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ يَعْنِي: الْمُشْرِكِينَ يُخَوِّفُونَ الرَّسُولَ ﷺ وَيَتَوَعَّدُونَهُ بِأَصْنَامِهِمْ وَآلِهَتِهِمُ الَّتِي يَدْعُونَهَا مِنْ دُونِ الله جَهْلًا مِنْهُمْ وَضَلَالًا، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ أَيْ: مَنِيعُ الْجَنَابِ لَا يُضَامُ مَنِ اسْتَنَدَ إِلَى جَنَابِهِ وَلَجَأَ إِلَى بَابِهِ، فَإِنَّهُ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا أَعَزَّ مِنْهُ، وَلَا أَشَدَّ انْتِقَامًا مِنْهُ، مِمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَأَشْرَكَ وَعَانَدَ رَسُولَهُ ﷺ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ يَعْنِي: الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللهَ ﷻ هُوَ الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِمَّا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ﴾ أَيْ: لَا تَسْتَطِيعُ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ. ﴿ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ: اللهُ كَافٍ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أَيْ: عَلَى طَرِيقَتِكُمْ وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ ﴿ إِنِّى عَـٰمِلٌ ﴾ أَيْ: عَلَى طَرِيقَتِي وَمَنْهَجِي ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ: سَتَعْلَمُونَ غِبَّ ذَلِكَ

وَوَبَالَهُ ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أَيْ : دَائِمٌ وَمُسْتَمِرٌّ لَا مَحِيدَ عَنْهُ ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَة ، أَعَاذَنَا اللهُ مِنْهَا .

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : لِجَمِيعِ الْخَلْقِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ لِتُنْذِرَهُمْ بِهِ ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ أَيْ : فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ إِلَى نَفْسِهِ ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أَيْ : بِمُوَكَّلٍ أَنْ يَهْتَدُوا ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود : ١٢] ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْوُجُودِ بِمَا يَشَاءُ ، وَأَنَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ الْوَفَاةَ الْكُبْرَى بِمَا يُرْسِلُ مِنَ الْحَفَظَةِ الَّذِينَ يَقْبِضُونَهَا مِنَ الْأَبْدَانِ وَالْوَفَاةِ الصُّغْرَى عِنْدَ الْمَنَامِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهَا تَجْتَمِعُ فِي الْمَلَإِ الْأَعْلَى .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ لِيَقُلْ : بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا ، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ**)) ﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ الَّتِي قَدْ مَاتَتْ ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ **قَالَ السُّدِّيُّ** : إِلَى بَقِيَّةِ أَجَلِهَا ، **وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –**: يُمْسِكُ أَنْفُسَ الْأَمْوَاتِ وَيُرْسِلُ أَنْفُسَ الْأَحْيَاءِ وَلَا يَغْلَطُ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَامًّا لِلْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ شُفَعَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهُمُ الْأَصْنَامُ وَالْأَنْدَادُ الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ هَدَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَهِيَ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ ، بَلْ وَلَيْسَ لَهَا عَقْلٌ تَعْقِلُ بِهِ ، وَلَا سَمْعٌ تَسْمَعُ بِهِ ، وَلَا بَصَرٌ تُبْصِرُ بِهِ ، بَلْ هِيَ جَمَادَاتٌ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْحَيَوَانِ بِكَثِيرٍ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ قُل ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الزَّاعِمِينَ أَنَّ مَا اتَّخَذُوهُ شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى أَخْبِرْهُمْ أَنَّ الشَّفَاعَةَ لَا تَنْفَعُ عِنْدَ اللهِ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَاهُ وَأَذِنَ لَهُ ، فَمَرْجِعُهَا كُلُّهَا إِلَيْهِ ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَحْكُمُ بَيْنَكُمْ بِعَدْلِهِ وَيَجْزِي كُلًّا بِعَمَلِهِ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ذَامًّا لِلْمُشْرِكِينَ أَيْضًا** : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ أَيْ : إِذَا قِيلَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ ﴿ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ٱشْمَأَزَّتْ : انْقَبَضَتْ ، **وَقِيلَ** : نَفَرَتْ ، **وَقِيلَ** : كَفَرَتْ وَاسْتَكْبَرَتْ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات : ٣٥] أَيْ : عَنِ الْمُتَابَعَةِ وَالِانْقِيَادِ لَهَا ، فَقُلُوبُهُمْ لَا تَقْبَلُ الْخَيْرَ ، وَمَنْ لَمْ يَقْبَلِ الْخَيْرَ يَقْبَلُ الشَّرَّ ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أَيْ : يَفْرَحُونَ وَيُسَرُّونَ .

قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعْدَمَا ذَكَرَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ مَا ذَكَرَ ، مِنَ الْمَذَمَّةِ لَهُمْ فِي حُبِّهِمُ الشِّرْكَ وَنُفْرَتِهِمْ عَنِ التَّوْحِيدِ ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أَيْ : اُدْعُ أَنْتَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَفَطَرَهَا ، أَيْ : جَعَلَهَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ﴿ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أَيْ : السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أَيْ : فِي دُنْيَاهُمْ سَتَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَنُشُورِهِمْ وَقِيَامِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ ، وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ ﴿ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ ﴾ أَيْ : وَلَوْ أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي الْأَرْضِ وَضِعْفَهُ مَعَهُ ﴿ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ ﴾ أَيْ : الَّذِي أَوْجَبَهُ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَعَ هَذَا لَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُمُ الْفِدَاءُ وَلَوْ كَانَ مِلْءَ الْأَرْضِ ذَهَبًا ، ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ أَيْ : وَظَهَرَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ بِهِمْ

مَا لَمْ يَكُنْ فِي بَالِهِمْ وَلَا فِي حِسَابِهِمْ ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ أَيْ : وَظَهَرَ لَهُمْ جَزَاءُ مَا اِكْتَسَبُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِنَ الْمَحَارِمِ وَالْمَآثِمِ ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيْ : وَأَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا .

فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْإِنْسَانِ : أَنَّهُ فِي حَالِ الضَّرَّاءِ يَتَضَرَّعُ إِلَى اللهِ ﷻ وَيُنِيبُ إِلَيْهِ وَيَدْعُوهُ ، وَإِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ بَغَى وَطَغَى وَقَالَ: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أَيْ : لِمَا يَعْلَمُ اللهُ تَعَالَى مِنِ اسْتِحْقَاقِي لَهُ ، وَلَوْلَا أَنِّي عِنْدَ اللهِ خِصِّيصٌ لَمَا خَوَّلَنِي هَذَا . قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ ، بَلْ إِنَّمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ لِنَخْتَبِرَهُ فِيمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ، أَيُطِيعُ أَمْ يَعْصِي ؟ مَعَ عِلْمِنَا الْمُتَقَدِّمِ بِذَلِكَ فَهِيَ فِتْنَةٌ ، أَي : اخْتِبَارٌ ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، فَلِهَذَا يَقُولُونَ مَا يَقُولُونَ وَيَدَّعُونَ . ﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ : قَدْ قَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ ، وَزَعَمَ هَذَا الزَّعْمَ ، وَادَّعَى هَذِهِ الدَّعْوَى كَثِيرٌ مِمَّنْ سَلَفَ مِنَ الْأُمَمِ ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أَيْ : فَمَا صَحَّ قَوْلُهُمْ وَلَا مَنَعَهُمْ جَمْعُهُمْ وَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمُخَاطَبِينَ ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ أَيْ : كَمَا أَصَابَ أُولَئِكَ ﴿ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ . ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أَيْ : يُوَسِّعُهُ عَلَى قَوْمٍ وَيُضَيِّقُهُ عَلَى آخَرِينَ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : لَعِبَرًا وَحُجَجًا .

۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ دَعْوَةٌ لِجَمِيعِ الْعُصَاةِ مِنَ الْكَفَرَةِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ تَابَ مِنْهَا وَرَجَعَ عَنْهَا ، وَإِنْ كَانَتْ مَهْمَا كَانَتْ ، وَإِنْ كَثُرَتْ وَكَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ ، وَلَا يَصِحُّ حَمْلُ هَذِهِ عَلَى غَيْرِ تَوْبَةٍ ؛ لِأَنَّ الشِّرْكَ لَا يُغْفَرُ لِمَنْ لَمْ يَتُبْ مِنْهُ . عَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا فَأَكْثَرُوا ،

وَزَنَوْا فَأَكْثَرُوا فَأَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ فَقَالُوا : إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ لَوْ تُخْبِرنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةٌ ، فَنَزَلَ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان : ٦٨] ، وَنَزَلَ قَوْلُهُ : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ . وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ الْأُولَى قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إلا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا ﴾ [الفرقان : ٧٠] ، وَهَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ - تَعَالَى - يَغْفِرُ جَمِيعَ ذَلِكَ مَعَ التَّوْبَةِ ، وَلَا يَقْنَطَنَّ عَبْدٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وَإِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبُهُ وَكَثُرَتْ ، فَإِنَّ بَابَ الرَّحْمَةِ وَالتَّوْبَةِ وَاسِعٌ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠]

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه **قَالَ** : إِنَّ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ ، وَإِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ بِخَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ [النحل : ٩٠] ، وَإِنَّ أَكْثَرَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَرَجًا فِي سُورَةِ الْغُرَفِ ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ ، وَإِنَّ أَشَدَّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ تَفْوِيضًا ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢-٣]

وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٥٩

اسْتَحَثَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى الْمُسَارَعَةِ إِلَى التَّوْبَةِ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ ﴾ إِلَخ ، أَي : ارْجِعُوا إِلَى اللهِ وَاسْتَسْلِمُوا لَهُ ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أَيْ : بَادِرُوا بِالتَّوْبَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ قَبْلَ حُلُولِ النِّقْمَةِ ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُونَ وَلَا تَشْعُرُونَ . ثُمَّ **قَالَ** عز وجل : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَحَسَّرُ الْمُجْرِمُ الْمُفَرِّطُ فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ، وَيَوَدُّ لَوْ كَانَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُطِيعِينَ للهِ عز وجل ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا كَانَ عَمَلِي فِي الدُّنْيَا عَمَلَ سَاخِرٍ مُسْتَهْزِئٍ غَيْرِ مُوقِنٍ مُصَدِّقٍ ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى

ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ : تَوَدُّ أَنْ لَوْ أُعِيدَتْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا فَتُحْسِنَ الْعَمَلَ . وَلَمَّا تَمَنَّى أَهْلُ الْجَرَائِمِ الْعَوْدَ إِلَى الدُّنْيَا وَتَحَسَّرُوا عَلَى تَصْدِيقِ آيَاتِ اللهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ . **قَالَ تَعَالَى** : ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : قَدْ جَاءَتْكَ أَيُّهَا الْعَبْدُ النَّادِمُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ آيَاتٌ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، وَقَامَتْ حُجَجِي عَلَيْكَ ، فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ عَنِ اتِّبَاعِهَا ، وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِهَا الْجَاحِدِينَ لَهَا .

وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ تَسْوَدُّ فِيهِ وُجُوهٌ وَتَبْيَضُّ فِيهِ وُجُوهٌ ، تَسْوَدُّ وُجُوهُ أَهْلِ الْفُرْقَةِ وَالاخْتِلَافِ ، وَتَبْيَضُّ وُجُوهُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فِي دَعْوَاهُمْ لَهُ شَرِيكًا وَوَلَدًا ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ أَيْ : بِكَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أَيْ : أَلَيْسَتْ جَهَنَّمُ كَافِيَةً لَهُمْ سِجْنًا وَمَوْئِلًا لَهُمْ ، فِيهَا الْخِزْيُ وَالْهَوَانُ بِسَبَبِ تَكَبُّرِهِمْ وَتَجَبُّرِهِمْ وَإِبَائِهِمْ عَنِ الانْقِيَادِ لِلْحَقِّ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ أَيْ : بِمَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ السَّعَادَةِ وَالْفَوْزِ عِنْدَ اللهِ ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أَيْ : وَلَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ، بَلْ هُمْ آمِنُونَ مِنْ كُلِّ فَزَعٍ ، مُزَحْزَحُونَ عَنْ كُلِّ شَرٍّ مُؤَمَّلُونَ كُلَّ خَيْرٍ .

ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا وَرَبُّهَا وَمَلِيكُهَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهَا ، وَكُلٌّ تَحْتَ تَدْبِيرِهِ وَقَهْرِهِ وَكِلَاءَتِهِ ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ **قِيلَ** : الْمَقَالِيدُ هِيَ الْمَفَاتِيحُ بِالْفَارِسِيَّةِ ، **قِيلَ** : خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالْمَعْنَى عَلَى كِلَا الْقَوْلَيْنِ : أَنَّ أَزِمَّةَ الْأُمُورِ بِيَدِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : حُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾

قِيلَ : أَنَّ الْمُشْرِكِينَ بِجَهْلِهِمْ دَعَوْا رَسُولَ الله ﷺ إِلَى عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ إِلَهَهُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٨] ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ **أَيْ : أَخْلِصِ الْعِبَادَةَ للهِ** وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، أَنْتَ وَمَنِ اتَّبَعَكَ وَصَدَّقَكَ .

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ أَيْ : مَا قَدَرَ الْمُشْرِكُونَ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، حِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، الْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ . **وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَالطَّرِيقُ فِيهَا وَفِي أَمْثَالِهَا مَذْهَبُ السَّلَفِ ، وَهُوَ إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَحْرِيفٍ** .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ **قَالَ** : جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ ﷻ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى أُصْبُعٍ ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى أُصْبُعٍ ، وَالشَّجَرَ عَلَى أُصْبُعٍ ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى أُصْبُعٍ ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى أُصْبُعٍ ، فَيَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ ، فَضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ الْآيَةَ . **وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -** قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وَرَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ ، يُحَرِّكُهَا ، يُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ : « **يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ : أَنَا الْجَبَّارُ ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ ، أَنَا الْمَلِكُ ، أَنَا الْعَزِيزُ ، أَنَا الْكَرِيمُ** » فَرَجَفَ بِرَسُولِ الله ﷺ الْمِنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا : لَيَخِرَّنَّ بِهِ .

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ وَالزَّلَازِلِ

الْهَائِلَةِ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ هَذِهِ النَّفْخَةُ هِيَ الثَّانِيَةُ ، وَهِيَ نَفْخَةُ الصَّعْقِ ، وَهِيَ الَّتِي يَمُوتُ بِهَا الْأَحْيَاءُ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ، وَالنَّفْخَةُ الثَّالِثَةُ نَفْخَةُ الْبَعْثِ ، قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ أَيْ : أَحْيَاءُ بَعْدَمَا كَانُوا عِظَامًا وَرُفَاتًا صَارُوا أَحْيَاءَ يَنْظُرُونَ إِلَى أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣-١٤]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ أَيْ : أَضَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا تَجَلَّى الْحَقُّ جَلَّ وَعَلَا لِلْخَلَائِقِ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : كِتَابُ الْأَعْمَالِ ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - يَشْهَدُونَ عَلَى الْأُمَمِ بِأَنَّهُمْ بَلَّغُوهُمْ رِسَالَاتِ اللهِ إِلَيْهِمْ ﴿ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ أَيِ : الشُّهَدَاءُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْحَفَظَةِ عَلَى أَعْمَالِ الْعِبَادِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : بِالْعَدْلِ ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أَيْ : مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الْكُفَّارِ ، كَيْفَ يُسَاقُونَ إِلَى النَّارِ ؟ وَإِنَّمَا يُسَاقُونَ سَوْقًا عَنِيفًا بِزَجْرٍ وَتَهْدِيدٍ وَوَعِيدٍ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ أَيْ : بِمُجَرَّدِ وُصُولِهِمْ إِلَيْهَا فُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُهَا سَرِيعًا ؛ لِتُعَجَّلَ لَهُمُ الْعُقُوبَةُ ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ خَزَنَتُهَا مِنَ الزَّبَانِيَةِ الَّذِينَ هُمْ غِلَاظُ الْأَخْلَاقِ شِدَادُ الْقُوَى - عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ وَالتَّنْكِيلِ ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ أَيْ : مِنْ جِنْسِكُمْ تَتَمَكَّنُونَ مِنْ مُخَاطَبَتِهِمْ وَالْأَخْذِ عَنْهُمْ ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ ﴾ أَيْ : يُقِيمُونَ عَلَيْكُمُ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَى صِحَّةِ مَا دَعَوْكُمْ إِلَيْهِ ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ أَيْ : وَيُحَذِّرُونَكُمْ مِنْ شَرِّ هَذَا الْيَوْمِ ؟ فَيَقُولُ الْكُفَّارُ لَهُمْ ﴿ بَلَىٰ ﴾ أَيْ : قَدْ جَاءُونَا وَأَنْذَرُوا وَأَقَامُوا عَلَيْنَا الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : وَلَكِنْ كَذَّبْنَاهُمْ وَخَالَفْنَاهُمْ ، لِمَا سَبَقَ لَنَا مِنَ الشِّقْوَةِ الَّتِي كُنَّا نَسْتَحِقُّهَا حَيْثُ عَدَلْنَا عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ . ﴿ قِيلَ

ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : كُلُّ مَنْ رَآهُمْ وَعَلِمَ حَالَهُمْ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ لِلْعَذَابِ ، وَلِهَذَا لَمْ يُسْنِدْ هَذَا الْقَوْلَ إِلَى قَائِلٍ مُعَيَّنٍ بَلْ أَطْلَقَهُ ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْكَوْنَ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ ، بِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ مَا هُمْ فِيهِ بِمَا حَكَمَ الْعَدْلُ الْخَبِيرُ عَلَيْهِمْ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا ، لَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا وَلَا زَوَالَ لَكُمْ عَنْهَا ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أَيْ : فَبِئْسَ الْمَصِيرُ وَبِئْسَ الْمَقِيلُ لَكُمْ ، بِسَبَبِ تَكَبُّرِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَإِبَائِكُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، فَهُوَ الَّذِي صَيَّرَكُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ فَبِئْسَ الْحَالُ وَبِئْسَ الْمَآلُ .

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾

وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ حَالِ السُّعَدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ يُسَاقُونَ عَلَى النَّجَائِبِ وَفْدًا إِلَى الْجَنَّةِ ﴿ زُمَرًا ﴾ أَيْ : جَمَاعَةً بَعْدَ جَمَاعَةٍ : الْمُقَرَّبُونَ ثُمَّ الْأَبْرَارُ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، كُلُّ طَائِفَةٍ مَعَ مَنْ يُنَاسِبُهُمْ ، الْأَنْبِيَاءُ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَالصِّدِّيقُونَ مَعَ أَشْكَالِهِمْ ، وَالشُّهَدَاءُ مَعَ أَضْرَابِهِمْ ، وَالْعُلَمَاءُ مَعَ أَقْرَانِهِمْ ، وَكُلُّ صِنْفٍ مَعَ صِنْفٍ ، كُلُّ زُمْرَةٍ تُنَاسِبُ بَعْضَهَا بَعْضًا ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا ﴾ أَيْ : وَصَلُوا إِلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ بَعْدَ مُجَاوَزَةِ الصِّرَاطِ ، حُبِسُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَاقْتُصَّ لَهُمْ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ لَمْ يُذْكَرِ الْجَوَابُ هَهُنَا ، **وَتَقْدِيرُهُ** : حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ مِنْ فَتْحِ الْأَبْوَابِ لَهُمْ إِكْرَامًا وَتَعْظِيمًا ، وَتَلَقَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ الْخَزَنَةُ بِالْبِشَارَةِ وَالسَّلَامِ وَالثَّنَاءِ ، لَا كَمَا تَلْقَى الزَّبَانِيَةُ الْكَفَرَةَ بِالتَّثْرِيبِ وَالتَّأْنِيبِ ، **فَتَقْدِيرُهُ** : إِذَا كَانَ هَذَا سَعِدُوا وَطَابُوا وَسُرُّوا وَفَرِحُوا بِقَدْرِ كُلِّ مَا يَكُونُ لَهُمْ فِيهِ نَعِيمٌ ، وَإِذَا حُذِفَ الْجَوَابُ هَهُنَا ذَهَبَ الذِّهْنُ كُلَّ مَذْهَبٍ فِي الرَّجَاءِ وَالْأَمَلِ . **وَأَبْوَابُ الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةٌ** : عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ بَابٌ مِنْهَا يُسَمَّى الرَّيَّانُ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ** » .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ أَيْ : طَابَتْ أَعْمَالُكُمْ وَأَقْوَالُكُمْ وَطَابَ سَعْيُكُمْ وَطَابَ جَزَاؤُكُمْ ﴿ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا . ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ أَيْ : يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ إِذَا عَايَنُوا فِي الْجَنَّةِ ذَلِكَ الثَّوَابَ الْوَافِرَ ، وَالْعَطَاءَ الْعَظِيمَ ، وَالنَّعِيمَ الْمُقِيمَ وَالْمُلْكَ الْكَبِيرَ ، يَقُولُونَ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿ ٱلْحَمْدُ

لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ أي : الَّذِي كَانَ وَعَدَنَا عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ الْكِرَامِ . وَقَوْلُهُمْ : ﴿ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ ﴾ أَيْ : أَرْضَ الْجَنَّةِ . فَهَذِهِ الآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ أَيْ : أَيْنَ شِئْنَا حَلَلْنَا ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ فَنِعْمَ الأَجْرُ أَجْرُنَا عَلَى عَمَلِنَا .

وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حُكْمَهُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَأَنَّهُ كُلًّا فِي الْمَحَلِّ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ وَيَصْلُحُ لَهُ ، وَهُوَ الْعَادِلُ فِي ذَلِكَ الَّذِي لَا يَجُورُ ، أَخْبَرَ عَنْ مَلَائِكَتِهِ أَنَّهُمْ مُحْدِقُونَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ الْمَجِيدِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُمَجِّدُونَهُ وَيُعَظِّمُونَهُ وَيُقَدِّسُونَهُ وَيُنَزِّهُونَهُ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْجَوْرِ ، وَقَدْ فَصَلَ الْقَضِيَّةَ ، وَقَضَى الأَمْرَ ، وَحَكَمَ بِالْعَدْلِ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم ﴾ أَيْ : بَيْنَ الْخَلَائِقِ ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : نَطَقَ الْكَوْنُ أَجْمَعُهُ نَاطِقُهُ وَبَهِيمُهُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالْحَمْدِ فِي حُكْمِهِ وَعَدْلِهِ ، وَلِهَذَا لَمْ يُسْنِدِ الْقَوْلَ إِلَى قَائِلٍ بَلْ أَطْلَقَهُ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ شَهِدَتْ لَهُ بِالْحَمْدِ . قَالَ قَتَادَةُ : افْتَتَحَ الْخَلْقَ بِالْحَمْدِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأنعام : ١] ، وَاخْتَتَمَ بِالْحَمْدِ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الزُّمَرِ وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ

آياتها ٨٥ — تفسير سورة غافر — مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾

أَمَّا الكَلَامُ عَلَى الحُرُوفِ المُتَقَطِّعَةُ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ « سُورَةِ البَقَرَةِ » بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَاهُنَا ، وَقَدْ قِيلَ إِنَّ ﴿ حمٓ ﴾ اِسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ ﷻ . وَقَوْلُهُ : ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ أَيْ : تَنْزِيلُ هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ الْقُرْآنُ مِنَ اللهِ ذِي الْعِزَّةِ وَالْعِلْمِ فَلَا يُرَامُ جَنَابُهُ ، وَلَا يَخْفَى

عَلَيْهِ الذَّرُّ وَإِنْ تَكَاثَفَ حِجَابُهُ . ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾ أَيْ : يَغْفِرُ مَا سَلَفَ مِنَ الذَّنْبِ وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَخَضَعَ لَدَيْهِ ﴿ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ أَيْ : لِمَنْ تَمَرَّدَ وَطَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَعَتَا عَنْ أَوَامِرِ اللهِ تَعَالَى وَبَغَى . ﴿ ذِى ٱلطَّوۡلِ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : السَّعَةُ وَالْغِنَى ، **وَقِيلَ** : الْخَيْرُ الْكَثِيرُ ، **وَقِيلَ** : ﴿ ذِى ٱلطَّوۡلِ ﴾ ذِي الْمَنِّ ، **قِيلَ** : ذِي النِّعَمِ وَالْفَوَاضِلِ ، **وَالْمَعْنَى** : أَنَّهُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى عِبَادِهِ ، الْمُتَطَوِّلُ عَلَيْهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْمِنَنِ وَالْإِنْعَامِ الَّتِي لَا يُطِيقُونَ الْقِيَامَ بِشُكْرِ وَاحِدَةٍ مِنْهَا . ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : لَا نَظِيرَ لَهُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ أَيْ : إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ .

مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : مَا يَدْفَعُ الْحَقَّ وَيُجَادِلُ فِيهِ بَعْدَ الْبَيَانِ وَظُهُورِ الْبُرْهَانِ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أَيْ : الْجَاحِدُونَ لِآيَاتِ اللهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ ﴿ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ أَيْ : فِي أَمْوَالِهَا وَنَعِيمِهَا وَزَهْرَتِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ [آل عمران : ١٩٦-١٩٧] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، بِأَنَّ لَهُ أُسْوَةً مَنْ سَلَفَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَإِنَّهُ قَدْ كَذَّبَهُمْ أُمَمُهُمْ وَخَالَفُوهُمْ وَمَا آمَنَ بِهِمْ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، **فَقَالَ** : ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ ﴾ ، وَهُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ يَنْهَى عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ﴿ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ أَيْ : مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ ﴿ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُ ﴾ أَيْ : حَرَصُوا عَلَى قَتْلِهِ بِكُلِّ مُمْكِنٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ رَسُولَهُ ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ ﴾ أَيْ : مَا حَلُّوا بِالشُّبْهَةِ لِيَرُدُّوا الْحَقَّ الْوَاضِحَ الْجَلِيَّ ﴿ فَأَخَذۡتُهُمۡ ﴾ أَيْ : أَهْلَكْتُهُمْ عَلَى مَا صَنَعُوا مِنْ هَذِهِ الْآثَامِ وَالذُّنُوبِ الْعِظَامِ ﴿ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ بَلَغَكَ عَذَابِي لَهُمْ وَنَكَالِي بِهِمْ ؟ قَدْ كَانَ شَدِيدًا مُوجِعًا مُؤْلِمًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ : أَي : كَمَا حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ كَذَلِكَ حَقَّتْ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوكَ وَخَالَفُوكَ - يَا مُحَمَّدُ - بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ؛ لِأَنَّ مَنْ كَذَّبَكَ فَلَا وُثُوقَ لَهُ بِتَصْدِيقِ غَيْرِكَ .

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ المَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ الْأَرْبَعَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ المَلَائِكَةِ الْكَرُوبِيِّينَ بِأَنَّهُمْ ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أَيْ: يَقْرِنُونَ بَيْنَ التَّسْبِيحِ الدَّالِّ عَلَى نَفْيِ النَّقَائِصِ، وَالتَّحْمِيدِ الْمُقْتَضِي لِإِثْبَاتِ صِفَاتِ المَدْحِ ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أَيْ: خَاشِعُونَ لَهُ أَذِلَّاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَنَّهُمْ ﴿يَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أَيْ: مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ مِمَّنْ آمَنَ بِالْغَيْبِ، فَقَيَّضَ اللهُ تَعَالَى مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ أَنْ يَدْعُوا لِلْمُؤْمِنِينَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا مِنْ سَجَايَا المَلَائِكَةِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَانُوا يُؤَمِّنُونَ عَلَى دُعَاءِ الْمُؤْمِنِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: ((**إِذَا دَعَا الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ المَلَكُ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلِهِ**)).

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ أَيْ: رَحْمَتُكَ تَسَعُ ذُنُوبَهُمْ وَخَطَايَاهُمْ وَعِلْمُكَ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ أَيْ: فَاصْفَحْ عَنِ الْمُسِيئِينَ إِذَا تَابُوا وَأَنَابُوا وَأَقْلَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ وَاتَّبَعُوا مَا أَمَرْتَهُمْ بِهِ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أَيْ: وَزَحْزِحْهُمْ عَنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ، وَهُوَ الْعَذَابُ الْمُوجِعُ الْأَلِيمُ. ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ أَي: اجْمَعْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ لِتَقَرَّ بِذَلِكَ أَعْيُنُهُمْ بِالِاجْتِمَاعِ فِي مَنَازِلَ مُتَجَاوِرَةٍ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أَي: الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُغَالَبُ، وَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، الْحَكِيمُ فِي أَقْوَالِكَ وَأَفْعَالِكَ، مِنْ شَرْعِكَ وَقَدَرِكَ ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أَيْ: فِعْلَهَا، أَوْ وَبَالَهَا مِمَّنْ وَقَعَتْ مِنْهُ ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾ أَيْ: لَطَفْتَ بِهِ وَنَجَّيْتَهُ مِنَ الْعُقُوبَةِ ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ۝١٠ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ

تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ يُنَادَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ فِي غَمَرَاتِ النِّيرَانِ يَتَلَظَّوْنَ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا بَاشَرُوا مِنْ عَذَابِ الله تَعَالَى مَا لَا قِبَلَ لِأَحَدٍ بِهِ، فَمَقَتُوا عِنْدَ ذَلِكَ أَنْفُسَهُمْ وَأَبْغَضُوهَا غَايَةَ الْبُغْضِ، بِسَبَبِ مَا أَسْلَفُوا مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ دُخُولِهِمْ إِلَى النَّارِ، فَأَخْبَرَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ إِخْبَارًا عَالِيًا، نَادَوْهُمْ نِدَاءً بِأَنَّ مَقْتَ الله تَعَالَى لَهُمْ فِي الدُّنْيَا - حِينَ كَانَ يُعْرَضُ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانُ فَيَكْفُرُونَ - أَشَدُّ مِنْ مَقْتِكُمْ أَيُّهَا الْمُعَذَّبُونَ أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ. وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ: أَنَّ الْكُفَّارَ يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ وَهُمْ وُقُوفٌ بَيْنَ يَدَيِ الله ﷻ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، فَلَا يُجَابُونَ، ثُمَّ إِذَا رَأَوُا النَّارَ وَعَايَنُوهَا وَوَقَفُوا عَلَيْهَا وَنَظَرُوا إِلَى مَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، سَأَلُوا الرَّجْعَةَ أَشَدَّ مِمَّا سَأَلُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَلَا يُجَابُونَ، فَإِذَا دَخَلُوا النَّارَ وَذَاقُوا مَسَّهَا وَحَسِيسَهَا وَمَقَامِعَهَا وَأَغْلَالَهَا، كَانَ سُؤَالُهُمْ لِلرَّجْعَةِ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ تَلَطَّفُوا فِي السُّؤَالِ وَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ كَلَامِهِمْ مُقَدِّمَةً وَهِيَ قَوْلُهُمْ ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أَيْ: قُدْرَتُكَ عَظِيمَةٌ، فَإِنَّكَ أَحْيَيْتَنَا بَعْدَمَا كُنَّا أَمْوَاتًا، ثُمَّ أَمَتَّنَا ثُمَّ أَحْيَيْتَنَا، فَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَى مَا تَشَاءُ، وَقَدِ اعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا، وَإِنَّنَا كُنَّا ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِنَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أَيْ: فَهَلْ أَنْتَ مُجِيبُنَا إِلَى أَنْ تُعِيدَنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ؛ لِنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ، فَإِنْ عُدْنَا إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ فَإِنَّا ظَالِمُونَ، فَأُجِيبُوا أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى عَوْدِكُمْ وَمَرْجِعِكُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا، ثُمَّ عُلِّلَ الْمَنْعُ مِنْ ذَلِكَ بِأَنَّ سَجَايَاكُمْ لَا تَقْبَلُ الْحَقَّ وَلَا تَقْتَضِيهِ بَلْ تَجْحَدُهُ وَتَنْفِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ﴾ أَيْ: أَنْتُمْ هَكَذَا تَكُونُونَ وَإِنْ رُدِدْتُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ أَيْ: هُوَ الْحَاكِمُ فِي خَلْقِهِ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أَيْ: يُظْهِرُ قُدْرَتَهُ لِخَلْقِهِ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ فِي خَلْقِهِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ خَالِقِهَا وَمُبْدِعِهَا ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾

وَهُوَ المَطَرُ الَّذِي يُخْرِجُ بِهِ مِنَ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ مَا هُوَ مُشَاهَدٌ بِالحِسِّ ، مِنِ اخْتِلَافِ أَلْوَانِهِ وَطُعُومِهِ وَرَوَائِحِهِ وَأَشْكَالِهِ وَأَلْوَانِهِ وَهُوَ مَاءٌ وَاحِدٌ ، فَبِالْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ فَاوَتَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ أَيْ : يَعْتَبِرُ وَيَتَفَكَّرُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَيَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا ﴿ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ أَيْ : مَنْ هُوَ بَصِيرٌ مُنِيبٌ إِلَى اللهِ ﷻ . ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ أَيْ : فَأَخْلِصُوا للهِ وَحْدَهُ الْعِبَادَةَ وَالدُّعَاءَ وَخَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ فِي مَسْلَكِهِمْ وَمَذْهَبِهِمْ .

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَارْتِفَاعِ عَرْشِهِ الْعَظِيمِ الْعَالِي عَلَى جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ كَالسَّقْفِ لَهَا ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل : ٢] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٢-١٩٤] **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ **قِيلَ** : يَوْمُ التَّلَاقِ : اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، حَذَّرَ اللهُ مِنْهُ عِبَادَهُ ، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : يَلْتَقِي فِيهِ الْعِبَادُ ، **وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : يَلْتَقِي فِيهِ أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ وَالْخَالِقُ وَالْخَلْقُ ، **وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ** : يَلْتَقِي الظَّالِمُ وَالمَظْلُومُ ، **وَقَدْ يُقَالُ** : إِنَّ يَوْمَ التَّلَاقِ يَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ ، وَيَشْمَلُ أَنَّ كُلَّ عَامِلٍ سَيَلْقَى مَا عَمِلَهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ . ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ أَيْ : ظَاهِرُونَ بَادُونَ كُلُّهُمْ لَا شَيْءَ يُكِنُّهُمْ وَلَا يُظِلُّهُمْ وَلَا يَسْتُرُهُمْ ، وَالْجَمِيعُ فِي عِلْمِهِ عَلَى السَّوَاءِ . ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ أَيْ : الَّذِي هُوَ وَحْدَهُ قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَغَلَبَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَدْلِهِ فِي حُكْمِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ ، أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ وَلَا مِنْ شَرٍّ بَلْ يَجْزِي بِالْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا وَبِالسَّيِّئَةِ وَاحِدَةً ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أَيْ : يُحَاسِبُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ كَمَا يُحَاسِبُ نَفْسًا وَاحِدَةً ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان : ٢٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠]

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

يَوْم الْآزِفَةِ : اِسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِاقْتِرَابِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم : ٥٧-٥٨] **وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ﴾ وَقَفَتِ الْقُلُوبُ فِي الْحَنَاجِرِ مِنَ الْخَوْفِ فَلَا تَخْرُجُ وَلَا تَعُودُ إِلَى أَمَاكِنِهَا ، وَمَعْنَى ﴿كَـٰظِمِينَ﴾ أَيْ : سَاكِتِينَ ، لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، **وَقِيلَ** : بَاكِينَ ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أَيْ : لَيْسَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالشِّرْكِ بِاللهِ مِنْ قَرِيبٍ مِنْهُمْ يَنْفَعُهُمْ وَلَا شَفِيعٍ يَشْفَعُ فِيهِمْ ، بَلْ قَدْ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ يُخْبِرُ ﷻ عَنْ عِلْمِهِ التَّامِّ الْمُحِيطِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا ، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا ، دَقِيقِهَا وَلَطِيفِهَا ، لِيَحْذَرَ النَّاسُ عِلْمَهُ فِيهِمْ فَيَسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ تَعَالَى حَقَّ الْحَيَاءِ ، وَيَتَّقُوهُ حَقَّ تَقْوَاهُ ، وَيُرَاقِبُوهُ مُرَاقَبَةَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَرَاهُ ، فَإِنَّهُ ﷻ يَعْلَمُ الْعَيْنَ الْخَائِنَةَ وَإِنْ أَبْدَتْ أَمَانَةً ، وَيَعْلَمَ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ خَبَايَا الصُّدُورِ مِنَ الضَّمَائِرِ وَالسَّرَائِرِ . **رُوِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ هُوَ الرَّجُلُ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ بَيْتَهُمْ وَفِيهِمُ الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ - أَوْ تَمُرُّ بِهِ وَبِهِمُ الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ - فَإِذَا غَفَلُوا لَحَظَ إِلَيْهَا فَإِذَا فَطِنُوا غَضَّ بَصَرَهُ عَنْهَا ، فَإِذَا غَفَلُوا لَحَظَ فَإِذَا فَطِنُوا غَضَّ ، وَقَدِ اطَّلَعَ اللهُ تَعَالَى مِنْ قَلْبِهِ أَنَّهُ وَدَّ أَنْ لَوِ اطَّلَعَ عَلَى فَرْجِهَا .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ أَيْ : يَحْكُمُ بِالْعَدْلِ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ : قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْزِيَ بِالْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ وَبِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ .

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ أَيْ : لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَحْكُمُونَ بِشَيْءٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أَيْ : سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ خَلْقِهِ بَصِيرٌ بِهِمْ ، فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ .

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ

ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : أَوَ لَمْ يَسْرِ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ بِرِسَالَتِكَ يا مُحَمَّدُ ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِالأَنْبِيَاءِ ، مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْ هَؤُلَاءِ قُوَّةً ﴿ وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : أَثَّرُوا فِي الأَرْضِ مِنَ البِنَايَاتِ وَالمَعَالِمِ والدِّيَارَاتِ ، مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ ، وَمَعَ هذِهِ الْقُوَّةِ الْعَظِيْمَةِ وَالْبَأْسِ الشَّدِيْدِ ، أَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَهِي كُفْرُهُمْ بِرُسُلِهِمْ ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ أَيْ : وَمَا دَفَعَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ أَحَدٌ ، وَلَا رَدَّهُ عَنْهُمْ رَادٌّ ، وَلَا وَقَاهُمْ وَاقٍ .

ثُمَّ ذَكَرَ عِلَّةَ أَخْذِهِ إِيَّاهُمْ وَذُنُوبَهُمُ الَّتِي ارْتَكَبُوهَا واجْتَرَمُوهَا ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ أَيْ : بِالدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَاتِ ﴿ فَكَفَرُوا ﴾ أَيْ : مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَالْبُرْهَانِ كَفَرُوا وَجَحَدُوا ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : أَهْلَكَهُمْ ، وَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ ، وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أَيْ : ذُو قُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَبَطْشٍ شَدِيدٍ وَهُوَ ﴿ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أَيْ : عِقَابُهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ وَجِيعٌ . أَعَاذَنَا اللهُ مِنْهُ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، وَمُبَشِّرًا لَهُ بِأَنَّ الْعَاقِبَةَ وَالنُّصْرَةَ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا جَرَى لِمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ﷺ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ وَالسُّلْطَانُ : هُوَ الْحُجَّةُ وَالْبُرْهَانُ ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ وَهُوَ مَلِكُ الْقِبْطِ بِالدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ﴿ وَهَـٰمَـٰنَ ﴾ ، وَهُوَ وَزِيرُهُ فِي مَمْلَكَتِهِ ﴿ وَقَـٰرُونَ ﴾ وَكَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ فِي زَمَانِهِ مَالًا وَتِجَارَةً ﴿ فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ أَيْ : كَذَّبُوهُ وَجَعَلُوهُ سَاحِرًا مَجْنُونًا مُمَوِّهًا كَذَّابًا فِي أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات : ٥٢-٥٣]

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴾ أَيْ : بِالْبُرْهَـانِ الْقَاطِعِ الدَّالِّ عَـلَى أَنَّ اللهَ ﷻ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ

﴿ قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ﴾ ، وَهَذَا أَمْرٌ ثَانٍ مِنْ فِرْعَوْنَ بِقَتْلِ ذُكُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، أَمَّا الأَوَّلُ فَكَانَ لِأَجْلِ الاِحْتِرَازِ مِنْ وُجُودِ مُوسَى ، أَوْ لِإِذْلَالِ هَذَا الشَّعْبِ وَتَقْلِيلِ عَدَدِهِمْ ، أَوْ لِمَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ ، وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِي فَلِلْعِلَّةِ الثَّانِيَةِ وَلِإِهَانَةِ هَذَا الشَّعْبِ ، وَلِكَيْ يَتَشَاءَمُوا بِمُوسَى عليه السلام ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩]

قَالَ قَتَادَةُ : هَذَا أَمْرٌ بَعْدَ أَمْرٍ .

قَالَ اللهُ عز وجل : ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾ أَيْ : وَمَا مَكْرُهُمْ وَقَصْدُهُمُ الَّذِي هُوَ تَقْلِيلُ عَدَدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، لِئَلَّا يُنْصَرُوا عَلَيْهِمْ إِلَّا ذَاهِبٌ وَهَالِكٌ فِي ضَلَالٍ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ ، وَهَذَا عَزْمٌ مِنْ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللهُ تَعَالَى - عَلَى قَتْلِ مُوسَى عليه السلام أَيْ : قَالَ لِقَوْمِهِ : دَعُونِي حَتَّى أَقْتُلَ لَكُمْ هَذَا ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ أَيْ : لَا أُبَالِي مِنْهُ . وَهَذَا فِي غَايَةِ الْجَحْدِ وَالتَّجَهْرُمِ وَالْعِنَادِ . وَقَوْلُهُ قَبَّحَهُ اللهُ : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ يَعْنِي : مُوسَى ، يَخْشَى فِرْعَوْنُ أَنْ يُضِلَّ مُوسَى النَّاسَ وَيُغَيِّرَ رُسُومَهُمْ وَعَادَاتِهِمْ ، وَهَذَا كَمَا يُقَالُ فِي الْمَثَلِ : صَارَ فِرْعَوْنُ مُذَكِّرًا ، - يَعْنِي : وَاعِظًا - يُشْفِقُ عَلَى النَّاسِ مِنْ مُوسَى عليه السلام .

وَقَالَ مُوسَى : ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ أَيْ : لَمَّا بَلَغَهُ قَوْلُ فِرْعَوْنَ ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ قَالَ مُوسَى عليه السلام : اِسْتَجَرْتُ بِاللهِ وَعُذْتُ بِهِ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ أَمْثَالِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم ﴾ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أَيْ : عَنِ الْحَقِّ مُجْرِمٌ ﴿ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾

الْمَشْهُورُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ الْمُؤْمِنَ كَانَ قِبْطِيًّا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ عَنْ قَوْمِهِ الْقِبْطِ ، فَلَمْ يَظْهَرْ إِلَّا هَذَا الْيَوْمَ حِينَ قَالَ فِرْعَوْنُ : ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ فَأَخَذَتِ الرَّجُلَ غَضْبَةٌ للهِ عز وجل ، وَلَا أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ عِنْدَ فِرْعَوْنَ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ اللَّهُمَّ إِلَّا مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ : بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِفِنَاءِ الْكَعْبَةِ ،

إذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَوَى ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَالَ: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾. **وَقَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أَيْ: كَيْفَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا لِكَوْنِهِ يَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَقَدْ أَقَامَ لَكُمُ الْبُرْهَانَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ؟ ثُمَّ تَنَزَّلَ مَعَهُمْ فِي الْمُخَاطَبَةِ فَقَالَ: ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ يَعْنِي: إِذَا لَمْ يَظْهَرْ لَكُمْ صِحَّةُ مَا جَاءَكُمْ بِهِ فَمِنَ الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ التَّامِّ وَالْحَزْمِ أَنْ تَتْرُكُوهُ وَنَفْسَهُ فَلَا تُؤْذُوهُ، فَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَإِنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - سَيُجَازِيهِ عَلَى كَذِبِهِ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا وَقَدْ آذَيْتُمُوهُ يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ، فَإِنَّهُ يَتَوَعَّدُكُمْ إِنْ خَالَفْتُمُوهُ بِعَذَابٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمِنَ الْجَائِزِ عِنْدَكُمْ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا، فَيَنْبَغِي عَلَى هَذَا أَنْ لَا تَتَعَرَّضُوا لَهُ، بَلِ اتْرُكُوهُ وَقَوْمَهُ يَدْعُوهُمْ وَيَتَّبِعُونَهُ.

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ أَيْ: لَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ كَاذِبًا - كَمَا تَزْعُمُونَ - لَكَانَ أَمْرُهُ بَيِّنًا يَظْهَرُ لِكُلِّ أَحَدٍ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَكَانَتْ تَكُونُ فِي غَايَةِ الِاخْتِلَافِ وَالِاضْطِرَابِ، وَهَذَا نَرَى أَمْرَهُ سَدِيدًا وَمَنْهَجَهُ مُسْتَقِيمًا، وَلَوْ كَانَ مِنَ الْمُسْرِفِينَ الْكَذَّابِينَ لَمَا هَدَاهُ اللهُ وَأَرْشَدَهُ إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنِ انْتِظَامِ أَمْرِهِ وَفِعْلِهِ.

ثُمَّ قَالَ الْمُؤْمِنُ مُحَذِّرًا قَوْمَهُ زَوَالَ نِعْمَةِ اللهِ عَنْهُمْ وَحُلُولَ نِقْمَةِ اللهِ بِهِمْ: ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ: قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْمُلْكِ وَالظُّهُورِ فِي الْأَرْضِ، بِالْكَلِمَةِ النَّافِذَةِ وَالْجَاهِ الْعَرِيضِ، فَرَاعُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ بِشُكْرِ اللهِ تَعَالَى وَتَصْدِيقِ رَسُولِهِ ﷺ، وَاحْذَرُوا نِقْمَةَ اللهِ إِنْ كَذَّبْتُمْ رَسُولَهُ ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ أَيْ: لَا تُغْنِي عَنْكُمْ هَذِهِ الْجُنُودُ وَهَذِهِ الْعَسَاكِرُ، وَلَا تَرُدُّ عَنَّا شَيْئًا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ أَرَادَنَا بِسُوءٍ ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لِقَوْمِهِ رَادًّا عَلَى مَا أَشَارَ بِهِ هَذَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ الْبَارُّ الرَّاشِدُ، الَّذِي كَانَ أَحَقَّ بِالْمُلْكِ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ أَيْ: مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُشِيرُ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا أَرَاهُ لِنَفْسِي، وَقَدْ كَذَبَ فِرْعَوْنُ فَإِنَّهُ كَانَ يَتَحَقَّقُ صِدْقَ مُوسَى ﷺ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ، فَقَوْلُهُ: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ كَذَبَ فِيهِ وَافْتَرَى، وَخَانَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَرَسُولَهُ ﷺ وَرَعِيَّتَهُ، فَغَشَّهُمْ وَمَا نَصَحَهُمْ، وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ أَيْ: وَمَا أَدْعُوكُمْ إِلَّا إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصِّدْقِ وَالرَّشَدِ، وَقَدْ كَذَبَ أَيْضًا فِي ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ قَوْمُهُ قَدْ أَطَاعُوهُ وَاتَّبَعُوهُ.

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ

نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ ﷻ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ - مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ - أَنَّهُ حَذَّرَ قَوْمَهُ بَأْسَ اللهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، **فَقَالَ**: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أَيْ: الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ اللهِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ، كَقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ، كَيْفَ حَلَّ بِهِمْ بَأْسُ اللهِ؟ وَمَا رَدَّهُ عَنْهُمْ رَادٌّ وَلَا صَدَّهُ عَنْهُمْ صَادٌّ. ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ أَيْ: إِنَّمَا أَهْلَكَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِذُنُوبِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَهُ، فَأَنْفَذَ فِيهِمْ قَدَرَهُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ أَيْ: ذَاهِبِينَ هَارِبِينَ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١١-١٢] **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ أَيْ: لَا مَانِعَ يَمْنَعُكُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَعَذَابِهِ ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ أَيْ: مَنْ أَضَلَّهُ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ غَيْرُهُ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ يَعْنِي: أَهْلَ مِصْرَ، قَدْ بَعَثَ اللهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ قَبْلِ مُوسَى عليه السلام وَهُوَ يُوسُفُ عليه السلام، كَانَ عَزِيزَ أَهْلِ مِصْرَ، وَكَانَ رَسُولًا يَدْعُو إِلَى اللهِ تَعَالَى أُمَّتَهُ بِالْقِسْطِ، فَمَا أَطَاعُوهُ تِلْكَ الطَّاعَةَ إِلَّا بِمُجَرَّدِ الْوَزَارَةِ وَالْجَاهِ الدُّنْيَوِيِّ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗا﴾ أَيْ: يَئِسْتُمْ فَقُلْتُمْ طَامِعِينَ ﴿لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗا﴾، وَذَلِكَ لِكُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ أَيْ: كَحَالِكُمْ هَذَا يَكُونُ حَالُ مَنْ يُضِلُّهُ اللهُ؛ لِإِسْرَافِهِ فِي أَفْعَالِهِ وَارْتِيَابِ قَلْبِهِ. **ثُمَّ قَالَ** ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ أَيْ: الَّذِينَ يَدْفَعُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيُجَادِلُونَ الْحُجَجَ بِغَيْرِ دَلِيلٍ وَحُجَّةٍ مَعَهُمْ مِنَ اللهِ تَعَالَى، فَإِنَّ اللهَ ﷻ يَمْقُتُ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْمَقْتِ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أَيْ: وَالْمُؤْمِنُونَ أَيْضًا يُبْغِضُونَ مَنْ تَكُونُ هَذِهِ صِفَتُهُ، فَإِنَّ مَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ فَلَا يَعْرِفُ بَعْدَ ذَلِكَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، **وَلِهَذَا قَالَ**

تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أَيْ : عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ ﴿ جَبَّارٍ ﴾ .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَعُتُوِّهِ وَتَمَرُّدِهِ وَافْتِرَائِهِ فِي تَكْذِيبِهِ مُوسَى ﷺ أَنَّهُ أَمَرَ وَزِيرَهُ هَامَانَ أَنْ يَبْنِيَ لَهُ ﴿ صَرْحًا ﴾ ، وَهُوَ : الْقَصْرُ الْعَالِي الْمُنِيفُ الشَّاهِقُ ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ قِيلَ : أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ ، وَقِيلَ : طُرُقُ السَّمَاوَاتِ ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ ، وَهَذَا مِنْ كُفْرِهِ وَتَمَرُّدِهِ أَنَّهُ كَذَّبَ مُوسَى ﷺ فِي أَنَّ اللهَ ﷻ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أَيْ : بِصُنْعِهِ هَذَا الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُوهِمَ بِهِ الرَّعِيَّةَ أَنَّهُ يَعْمَلُ شَيْئًا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى تَكْذِيبِ مُوسَى ﷺ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ يَعْنِي : إِلَّا فِي خَسَارٍ .

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ الْمُؤْمِنُ لِقَوْمِهِ مِمَّنْ تَمَرَّدَ وَطَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الْأَعْلَى ، فَقَالَ لَهُمْ : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ لَا كَمَا كَذَّبَ فِرْعَوْنُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ ، ثُمَّ زَهَّدَهُمْ فِي الدُّنْيَا الَّتِي قَدْ آثَرُوهَا عَلَى الْأُخْرَى وَصَدَّتْهُمْ عَنِ التَّصْدِيقِ بِرَسُولِ اللهِ مُوسَى ﷺ ، فَقَالَ : ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾ ، أَيْ : قَلِيلَةٌ زَائِلَةٌ فَانِيَةٌ عَنْ قَرِيبٍ تَذْهَبُ وَتَضْمَحِلُّ ﴿ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ أَيْ : الدَّارُ الَّتِي لَا زَوَالَ لَهَا وَلَا انْتِقَالَ مِنْهَا ، وَلَا ظَعْنَ عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا ، بَلْ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا جَحِيمٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ أَيْ : وَاحِدَةً مِثْلَهَا ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أَيْ : لَا يَتَقَدَّرُ بِجَزَاءٍ ، بَلْ يُثِيبُهُ اللهُ ﷻ ثَوَابًا كَثِيرًا لَا انْقِضَاءَ لَهُ وَلَا نَفَادَ .

۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا

جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

يَقُولُ لَهُمُ الْمُؤْمِنُ : مَا بَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَهِيَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَتَصْدِيقُ رَسُولِهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَهُ ﴿ وَتَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أَيْ : عَلَى جَهْلٍ بِلَا دَلِيلٍ ﴿ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾ أَيْ : هُوَ فِي عِزَّتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ يَغْفِرُ ذَنْبَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ : حَقًّا ، وَقِيلَ : بَلَى ، وَقِيلَ : لَا كَذِبَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فَيُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : خَالِدِينَ فِيهَا بِإِسْرَافِهِمْ ، وَهُوَ شِرْكُهُمْ بِاللهِ ﷻ ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ أَيْ : سَوْفَ تَعْلَمُونَ صِدْقَ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَنَهَيْتُكُمْ عَنْهُ ، وَنَصَحْتُكُمْ وَوَضَّحْتُ لَكُمْ ، وَتَتَذَكَّرُونَهُ وَتَنْدَمُونَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُكُمُ النَّدَمُ ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ وَأَسْتَعِينُهُ وَأُقَاطِعُكُمْ وَأُبَاعِدُكُمْ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ أَيْ : هُوَ بَصِيرٌ بِهِمْ - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ - فَيَهْدِي مَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ ، وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، وَالْحِكْمَةُ التَّامَّةُ ، وَالْقَدَرُ النَّافِذُ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَنَجَّاهُ اللهُ تَعَالَى مَعَ مُوسَى عليه السلام ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَبِالْجَنَّةِ ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ وَهُوَ : الْغَرَقُ فِي الْيَمِّ ، ثُمَّ النَّقْلَةُ مِنْهُ إِلَى الْجَحِيمِ ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ تُعْرَضُ عَلَى النَّارِ صَبَاحًا وَمَسَاء إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ اجْتَمَعَتْ أَرْوَاحُهُمْ وَأَجْسَادُهُمْ فِي النَّارِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ أَيْ : أَشَدَّهُ أَلَمًا وَأَعْظَمَهُ نَكَالًا .

وَهَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي اسْتِدْلَالِ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى عَذَابِ الْبَرْزَخِ فِي الْقُبُورِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ . وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ صَبَاحًا وَمَسَاءً مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا ، يُقَالُ لَهُمْ : يَا آلَ فِرْعَوْنَ هَذِهِ مَنَازِلُكُمْ ، تَوْبِيخًا وَنِقْمَةً وَصَغَارًا لَهُمْ .

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَحَاجِّ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ وَتَخَاصُمِهِمْ - وَفِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ مِنْ جُمْلَتِهِمْ - فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ - وَهُمُ الْأَتْبَاعُ - لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا - وَهُمُ الْقَادَةُ وَالسَّادَةُ وَالْكُبَرَاءُ - ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أَيْ : أَطَعْنَاكُمْ فِيمَا دَعَوْتُمُونَا إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أَيْ : قِسْطًا تَتَحَمَّلُونَهُ عَنَّا ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أَيْ : لَا نَتَحَمَّلُ عَنْكُمْ شَيْئًا ، كَفَى بِنَا مَا عِنْدَنَا وَمَا حُمِّلْنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ أَيْ : فَقَسَمَ بَيْنَنَا الْعَذَابَ بِقَدْرِ مَا يَسْتَحِقُّهُ كُلٌّ مِنَّا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٨]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ لَمَّا عَلِمُوا أَنَّ اللهَ ﷻ لَا يَسْتَجِيبُ مِنْهُمْ وَلَا يَسْتَمِعُ لِدُعَائِهِمْ ، بَلْ قَدْ قَالَ : ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] سَأَلُوا الْخَزَنَةَ - وَهُمْ كَالبَوَّابِينَ لِأَهْلِ النَّارِ - أَنْ يَدْعُوا لَهُمُ اللهَ تَعَالَى فِي أَنْ يُخَفِّفَ عَنِ الْكَافِرِينَ وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا مِنَ الْعَذَابِ ، فَقَالَتْ لَهُمُ الْخَزَنَةُ رَادِّينَ عَلَيْهِمْ : ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ أَيْ : أَوَ مَا قَامَتْ عَلَيْكُمُ الْحُجَجُ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ ؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟﴾ أَيْ : أَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، فَنَحْنُ لَا نَدْعُو لَكُمْ ، وَلَا نَسْمَعُ مِنْكُمْ ، وَلَا نَوَدُّ خَلَاصَكُمْ ، وَنَحْنُ مِنْكُمْ بُرَآءُ ، ثُمَّ نُخْبِرُكُمْ أَنَّهُ سَوَاءٌ دَعَوْتُمْ أَوْ لَمْ تَدْعُوا ، لَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْكُمْ ؛ وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَـٰلٍ﴾ أَيْ : إِلَّا فِي ذَهَابٍ ، وَلَا يُتَقَبَّلُ وَلَا يُسْتَجَابُ .

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا

كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ **أَيْ** : يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكُونُ النُّصْرَةُ أَعْظَمَ وَأَكْبَرَ وَأَجَلَّ . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : الْأَشْهَادُ : الْمَلَائِكَةُ ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ ، **وَقَرَأَ آخَرُونَ** : « **يَوْمُ** » بِالرَّفْعِ ، كَأَنَّهُ فَسَّرَهُ بِهِ « **يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** : **يَوْمُ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ** » وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ ﴿ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ أَيْ : لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ عُذْرٌ وَلَا فِدْيَةٌ ﴿ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ ﴾ أَيْ : الْإِبْعَادُ وَالطَّرْدُ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ وَهِيَ النَّارُ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ أَيْ : سُوءُ الْعَاقِبَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ وَهُوَ مَا بَعَثَهُ اللهُ ﷻ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالنُّورِ ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَا لَهُمُ الْعَاقِبَةَ وَأَوْرَثْنَاهُمْ بِلَادَ فِرْعَوْنَ وَأَمْوَالَهُ وَحَوَاصِلَهُ وَأَرْضَهُ بِمَا صَبَرُوا عَلَى طَاعَةِ اللهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَاتِّبَاعِ رَسُولِهِ مُوسَى ﵇ ، وَفِي الْكِتَابِ الَّذِي أُورِثُوهُ ، وَهُوَ التَّوْرَاةُ ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ ، وَهِيَ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ السَّلِيمَةُ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أَيْ : وَعَدْنَاكَ أَنَّا سَنُعْلِي كَلِمَتَكَ وَنَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلِمَنِ اتَّبَعَكَ ، وَاللهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ، وَهَذَا الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ حَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ هَذَا تَهْيِيجٌ لِلْأُمَّةِ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ ﴾ أَيْ : فِي أَوَاخِرِ النَّهَارِ وَأَوَائِلِ اللَّيْلِ ﴿ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴾ ، وَهِيَ أَوَائِلُ النَّهَارِ وَأَوَاخِرُ اللَّيْلِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ **أَيْ** : يَدْفَعُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَيَرُدُّونَ الْحُجَجَ الصَّحِيحَةَ بِالشُّبَهِ الْفَاسِدَةِ بِلَا بُرْهَانٍ وَلَا حُجَّةٍ مِنَ اللهِ ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ﴾ أَيْ : مَا فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَاحْتِقَارٍ لِمَنْ جَاءَهُمْ بِهِ ، وَلَيْسَ مَا يَرُومُونَهُ مِنْ إِخْمَادِ الْحَقِّ وَإِعْلَاءِ الْبَاطِلِ بِحَاصِلٍ لَهُمْ ، بَلِ الْحَقُّ هُوَ الْمَرْفُوعُ ، وَقَوْلُهُمْ وَقَصْدُهُمْ هُوَ الْمَوْضُوعُ ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مِنْ حَالِ مِثْلِ هَؤُلَاءِ ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أَوْ : مِنْ شَرِّ مِثْلِ هَؤُلَاءِ الْمُجَادِلِينَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ .

لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى أَنَّهُ يُعِيدُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَخَلْقُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ بَدْأَةً وَإِعَادَةً، فَمَنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى مَا دُونِهِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى، **وَقَالَ هٰهُنَا**: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، فَلِهَذَا لَا يَتَدَبَّرُونَ هَذِهِ الْحُجَّةَ وَلَا يَتَأَمَّلُونَهَا، كَمَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْعَرَبِ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَيُنْكِرُونَ الْمَعَادَ اسْتِبْعَادًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا، وَقَدِ اعْتَرَفُوا بِمَا هُوَ أَوْلَى مِمَّا أَنْكَرُوا.

ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾ أَيْ: كَمَا لَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى الَّذِي لَا يُبْصِرُ شَيْئًا، وَالْبَصِيرُ الَّذِي يَرَى مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ بَلْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ عَظِيمٌ، كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُونَ الْأَبْرَارُ وَالْكَفَرَةُ الْفُجَّارُ ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ: مَا أَقَلَّ مَا يَتَذَكَّرُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ. **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى**: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ ﴾ أَيْ: لَكَائِنَةٌ وَوَاقِعَةٌ ﴿ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ: لَا يُصَدِّقُونَ بِهَا بَلْ يُكَذِّبُونَ بِوُجُودِهَا.

وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

هَذَا مِنْ فَضْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَكَرَمِهِ، أَنَّهُ نَدَبَ عِبَادَهُ إِلَى دُعَائِهِ وَتَكَفَّلَ لَهُمْ بِالْإِجَابَةِ، كَمَا كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ: يَا مَنْ أَحَبُّ عِبَادِهِ إِلَيْهِ مَنْ سَأَلَهُ فَأَكْثَرَ سُؤَالَهُ، وَيَا مَنْ أَبْغَضُ عِبَادِهِ إِلَيْهِ مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ كَذَلِكَ غَيْرُكَ يَا رَبِّ. **وَقَوْلُهُ** ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ أَيْ: عَنْ دُعَائِي وَتَوْحِيدِي ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أَيْ: صَاغِرِينَ حَقِيرِينَ.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى خَلْقِهِ، بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ الَّذِي يَسْكُنُونَ فِيهِ، وَيَسْتَرِيحُونَ مِنْ حَرَكَاتِ تَرَدُّدِهِمْ فِي الْمَعَايِشِ بِالنَّهَارِ، وَجَعَلَ النَّهَارَ ﴿ مُبْصِرًا ﴾ أَيْ: مُضِيئًا لِيَتَصَرَّفُوا فِيهِ بِالْأَسْفَارِ وَقَطْعِ الْأَقْطَارِ وَالتَّمَكُّنِ مِنَ الصِّنَاعَاتِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَقُومُونَ بِشُكْرِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ .

قَالَ ﷻ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : الَّذِي فَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَخْلُقُ شَيْئًا بَلْ هِيَ مَخْلُوقَةٌ مَنْحُوتَةٌ ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أَيْ : كَمَا ضَلَّ هَؤُلَاءِ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ كَذَلِكَ أُفِكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَعَبَدُوا غَيْرَهُ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ بَلْ بِمُجَرَّدِ الْجَهْلِ وَالْهَوَى وَجَحَدُوا حُجَجَ اللهِ وَآيَاتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أَيْ : جَعَلَهَا لَكُمْ مُسْتَقَرًّا بِسَاطًا مِهَادًا تَعِيشُونَ عَلَيْهَا وَتَتَصَرَّفُونَ فِيهَا وَتَمْشُونَ فِي مَنَاكِبِهَا وَأَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ لِئَلَّا تَمِيدَ بِكُمْ ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ أَيْ : سَقْفًا لِلْعَالَمِ مَحْفُوظًا ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أَيْ : فَخَلَقَكُمْ فِي أَحْسَنِ الْأَشْكَالِ وَمَنَحَكُمْ أَكْمَلَ الصُّوَرِ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ فِي الدُّنْيَا ، فَذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَ الدَّارَ وَالسُّكَّانَ وَالْأَرْزَاقَ فَهُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : هُوَ الْحَيُّ أَزَلًا وَأَبَدًا ، لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ ، وَهُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ، وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ ﴿ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أَيْ : مُوَحِّدِينَ لَهُ مُقِرِّينَ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . **عَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ** قَالَ : إِذَا قَرَأْتَ ﴿ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ فَقُلْ : « **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ** » وَقُلْ عَلَى أَثَرِهَا « **الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** » ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ اللهَ ﷻ يَنْهَى أَنْ يَعْبُدَ أَحَدٌ سِوَاهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ ، وَقَدْ بَيَّنَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ أَحَدٌ سِوَاهُ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ﴾ أَيْ : هُوَ الَّذِي يُقَلِّبُكُمْ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ كُلِّهَا وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَعَنْ أَمْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ يَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِ أَنْ

يُوجَدَ وَيَخْرُجَ إِلَى هَذَا الْعَالَمِ بَلْ تُسْقِطُهُ أُمُّهُ سَقْطًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُتَوَفَّى صَغِيرًا وَشَابًّا ، وَكَهْلًا قَبْلَ الشَّيْخُوخَةِ ﴿ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : تَتَذَكَّرُونَ الْبَعْثَ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِذَلِكَ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ ﴿ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أَيْ : لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ بَلْ مَا شَاءَ كَانَ لَا مَحَالَةَ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَلَا تَعْجَبُ يَا مُحَمَّدُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ اللهِ ، وَيُجَادِلُونَ فِي الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ ، كَيْفَ تُصْرَفُ عُقُولُهُمْ عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾ أَيْ : مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ مِنَ الرَّبِّ - جَلَّ جَلَالُهُ - لِهَؤُلَاءِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : ١٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ ﴾ أَيْ : مُتَّصِلَةٌ بِالْأَغْلَالِ بِأَيْدِي الزَّبَانِيَةِ ، يَسْحَبُونَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ تَارَةً إِلَى الْحَمِيمِ وَتَارَةً إِلَى الْجَحِيمِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : قِيلَ لَهُمْ : أَيْنَ الْأَصْنَامُ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمُ الْيَوْمَ ؟ ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ أَيْ : ذَهَبُوا فَلَمْ يَنْفَعُونَا ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : جَحَدُوا عِبَادَتَهُمْ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أَيْ : تَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ : هَذَا الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ جَزَاءٌ عَلَى فَرَحِكُمْ فِي الدُّنْيَا بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَرَحِكُمْ وَأَشَرِكُمْ وَبَطَرِكُمْ ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أَيْ : فَبِئْسَ الْمَنْزِلُ وَالْمَقِيلُ الَّذِي فِيهِ الْهَوَانُ وَالْعَذَابُ الشَّدِيدُ ، لِمَنِ اسْتَكْبَرَ عَنْ آيَاتِ اللهِ وَاتِّبَاعِ دَلَائِلِهِ وَحُجَجِهِ .

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ عَلَى قَوْمِكَ ، وَجَعْلَ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلِمَنِ اتَّبَعَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ مِنْ كُبَرَائِهِمْ وَعُظَمَائِهِمْ أُبِيدُوا فِي يَوْمِ بَدْرٍ ، ثُمَّ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَسَائِرَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي حَيَاتِهِ ﷺ . ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أَيْ : فَنُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ فِي الْآخِرَةِ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لَهُ** : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ ، أَيْ : مِنْهُمْ مَنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ خَبَرَهُمْ وَقَصَصَهُمْ مَعَ قَوْمِهِمْ كَيْفَ كَذَّبُوهُمْ ، ثُمَّ كَانَتْ لِلرُّسُلِ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ ، وَهُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ ذُكِرَ بِأَضْعَافِ أَضْعَافٍ ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أَيْ : وَلَمْ يَكُنْ لِوَاحِدٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ يَأْتِيَ قَوْمَهُ بِخَارِقٍ لِلْعَادَاتِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ ، وَهُوَ عَذَابُهُ وَنَكَالُهُ الْمُحِيطُ بِالْمُكَذِّبِينَ ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ فَيُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ وَيُهْلِكُ الْكَافِرِينَ ، **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ .

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى عِبَادِهِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ، وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس : ٧٢] . فَالْإِبِلُ تُرْكَبُ وَتُؤْكَلُ وَتُحْلَبُ وَيُحْمَلُ عَلَيْهَا الْأَثْقَالُ فِي الْأَسْفَارِ وَالرِّحَالِ إِلَى الْبِلَادِ النَّائِيَةِ وَالْأَقْطَارِ الشَّاسِعَةِ ، وَالْبَقَرُ تُؤْكَلُ وَيُشْرَبُ لَبَنُهَا ، وَتَحْرُثُ عَلَيْهَا الْأَرْضَ ، وَالْغَنَمُ تُؤْكَلُ وَيُشْرَبُ لَبَنُهَا ، وَالْجَمِيعُ تُجَزُّ أَصْوَافُهَا وَأَشْعَارُهَا وَأَوْبَارُهَا ، فَيُتَّخَذُ مِنْهَا الْأَثَاثُ وَالثِّيَابُ وَالْأَمْتِعَةُ .

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أَيْ : حُجَجَهُ وَبَرَاهِينَهُ فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ﴿فَأَيَّ

ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَقْدِرُونَ عَلَى إِنْكَارِ شَيْءٍ مِنْ آيَاتِهِ ، إِلَّا أَنْ تُعَانِدُوا وَتُكَابِرُوا .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِالرُّسُلِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَمَاذَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ مَعَ شِدَّةِ قُوَاهُمْ وَمَا أَثَّرُوهُ فِي الْأَرْضِ وَجَمَعُوهُ مِنَ الْأَمْوَالِ ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا وَلَا رَدَّ عَنْهُمْ ذَرَّةً مِنْ بَأْسِ اللهِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَمَّا جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَاتِ وَالْبَرَاهِينِ الدَّامِغَاتِ ، لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِمْ وَلَا أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ وَاسْتَغْنَوْا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ فِي زَعْمِهِمْ عَمَّا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِجَهَالَتِهِمْ فَأَتَاهُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ تَعَالَى مَا لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أَيْ : أَحَاطَ بِهِمْ ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيْ : يُكَذِّبُونَ وَيَسْتَبْعِدُونَ وُقُوعَهُ . ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ﴾ أَيْ : عَايَنُوا وُقُوعَ الْعَذَابِ بِهِمْ ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾ أَيْ : وَحَّدُوا اللهَ ﷻ وَكَفَرُوا بِالطَّاغُوتِ وَلَكِنْ حَيْثُ لَا تُقَالُ الْعَثَرَاتُ وَلَا تَنْفَعُ الْمَعْذِرَةُ . **قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾ أَيْ : هَذَا حُكْمُ اللهِ فِي جَمِيعِ مَنْ تَابَ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ ، أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « **إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ** » أَيْ : فَإِذَا غَرْغَرَ وَبَلَغَتِ الرُّوحُ الْحَنْجَرَةَ ، وَعَايَنَ الْمَلَكَ ، فَلَا تَوْبَةَ حِينَئِذٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ غَافِرٍ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

آياتها ٥٤ — تفسيرُ سُورَةِ فصلت — مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا

تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنُ مُنَزَّلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ أَيْ: بُيِّنَتْ مَعَانِيهِ وَأُحْكِمَتْ أَحْكَامُهُ ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أَيْ: فِي حَالِ كَوْنِهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا بَيِّنًا وَاضِحًا، فَمَعَانِيهِ مُفَصَّلَةٌ، وَأَلْفَاظُهُ وَاضِحَةٌ غَيْرُ مُشْكَلَةٍ ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ: إِنَّمَا يَعْرِفُ هَذَا الْبَيَانَ وَالْوُضُوحَ الْعُلَمَاءُ الرَّاسِخُونَ ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أَيْ: تَارَةً يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَارَةً يُنْذِرُ الْكَافِرِينَ ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أَيْ: أَكْثَرُ قُرَيْشٍ فَهُمْ لَا يَفْهَمُونَ مِنْهُ شَيْئًا مَعَ بَيَانِهِ وَوُضُوحِهِ ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ ﴾ أَيْ: فِي غُلْفٍ مُغَطَّاةٍ ﴿ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ أَيْ: صَمَمٌ عَمَّا جِئْتَنَا بِهِ ﴿ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ فَلَا يَصِلُ إِلَيْنَا شَيْءٌ مِمَّا تَقُولُ ﴿ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ أَيْ: اِعْمَلْ أَنْتَ عَلَى طَرِيقَتِكَ وَنَحْنُ عَلَى طَرِيقَتِنَا لَا نُتَابِعُكَ.

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ لَا كَمَا تَعْبُدُونَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَرْبَابِ الْمُتَفَرِّقِينَ، إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ أَيْ: أَخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ عَلَى مِنْوَالِ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أَيْ: لِسَالِفِ الذُّنُوبِ ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ أَيْ: دَمَارٌ لَهُمْ وَهَلَاكٌ عَلَيْهِمْ ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾. **الْمُرَادُ بِالزَّكَاةِ هَهُنَا**: طَهَارَةُ النَّفْسِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَمِنْ أَهَمِّ ذَلِكَ طَهَارَةُ النَّفْسِ مِنَ الشِّرْكِ، وَزَكَاةُ الْمَالِ إِنَّمَا سُمِّيَتْ زَكَاةً؛ لِأَنَّهَا تُطَهِّرُهُ مِنَ الْحَرَامِ، وَتَكُونُ سَبَبًا لِزِيَادَتِهِ وَبَرَكَتِهِ وَكَثْرَةِ نَفْعِهِ، وَتَوْفِيقًا إِلَى اسْتِعْمَالِهِ فِي الطَّاعَاتِ. ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ لَا مَقْطُوعٍ وَلَا مَجْبُوبٍ.

۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، الْمُقَدِّرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَقَالَ : ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ أَيْ : نُظَرَاءَ وَأَمْثَالًا تَعْبُدُونَهَا مَعَهُ ﴿ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْأَحَدِ وَيَوْمَ الْإِثْنَيْنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا ﴾ أَيْ : جَعَلَهَا مُبَارَكَةً قَابِلَةً لِلْخَيْرِ وَالْبَذْرِ وَالْغِرَاسِ ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ ، وَهُوَ مَا يَحْتَاجُ أَهْلُهَا إِلَيْهِ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْأَمَاكِنِ الَّتِي تُزْرَعُ وَتُغْرَسُ ، يَعْنِي يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ وَالْأَرْبِعَاءِ ، فَهُمَا مَعَ الْيَوْمَيْنِ السَّابِقَيْنِ أَرْبَعَةٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ أَيْ : لِمَنْ أَرَادَ السُّؤَالَ عَنْ ذَلِكَ لِيَعْلَمَهُ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : مَعْنَاهُ : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ أَيْ : عَلَى وَفْقِ مُرَادِهِ مَنْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى رِزْقٍ أَوْ حَاجَةٍ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدَّرَ لَهُ مَا هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ يُشْبِهُ مَا ذَكَرُوهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، وَاللهُ أَعْلَمُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ ، وَهُوَ بُخَارُ الْمَاءِ الْمُتَصَاعِدُ مِنْهُ حِينَ خُلِقَتِ الْأَرْضُ ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أَيْ : اِسْتَجِيبَا لِأَمْرِي وَانْفَعِلَا لِفِعْلِي طَائِعَتَيْنِ أَوْ مُكْرَهَتَيْنِ . ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ أَيْ : بَلْ نَسْتَجِيبُ لَكَ مُطِيعِينَ بِمَا فِينَا مِمَّا تُرِيدُ خَلْقَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَمِيعًا مُطِيعِينَ لَكَ ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ أَيْ : فَفَرَغَ مِنْ تَسْوِيَتِهِنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ . أَيْ : آخَرَيْنِ وَهُمَا يَوْمُ الْخَمِيسِ وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ أَيْ : وَرَتَّبَ مُقَرَّرًا فِي كُلِّ سَمَاءٍ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ ﴾ ، وَهِيَ الْكَوَاكِبُ الْمُنِيرَةُ الْمُشْرِقَةُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ﴿ وَحِفْظًا ﴾ أَيْ : حَرَسًا مِنَ الشَّيَاطِينِ أَنْ تَسْتَمِعَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ أَيْ : الْعَـزِيزُ الَّذِي قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَغَلَبَهُ وَقَهَـرَهُ ، الْعَلِيمُ بِجَمِيعِ حَرَكَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ وَسَكَنَاتِهِمْ .

فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ

فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ : إِنْ أَعْرَضْتُمْ عَمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى فَإِنِّي أُنْذِرُكُمْ حُلُولَ نِقْمَةِ اللهِ بِكُمْ ، كَمَا حَلَّتْ بِالْأُمَمِ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْمُرْسَلِينَ ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أَيْ : وَمَنْ شَاكَلَهُمَا مِمَّنْ فَعَلَ كَفِعْلِهِمَا ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾ [الأحقاف : ٢١] أَيْ : فِي الْقُرَى الْمُجَاوِرَةِ لِبِلَادِهِمْ ، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ يَأْمُرُونَ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَمُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَرَأَوْا مَا أَحَلَّ اللهُ بِأَعْدَائِهِ مِنَ النِّقَمِ ، وَمَا أَلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ مِنَ النِّعَمِ ، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنُوا وَلَا صَدَّقُوا بَلْ كَذَّبُوا وَجَحَدُوا ، **وَقَالُوا** : ﴿ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ أَيْ : لَوْ شَاءَ أَرْسَلَ اللهُ رُسُلًا لَكَانُوا مَلَائِكَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴿ فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾ أَيْ : أَيُّهَا الْبَشَرُ ﴿ كَٰفِرُونَ ﴾ أَيْ : لَا نَتَّبِعُكُمْ وَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِثْلُنَا . ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : بَغَوْا وَعَتَوْا وَعَصَوْا ﴿ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ أَيْ : مَنُّوا بِشِدَّةِ تَرْكِيبِهِمْ وَقُوَاهُمْ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يَمْتَنِعُونَ بِهَا مِنْ بَأْسِ اللهِ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أَيْ : أَفَمَا يَتَفَكَّرُونَ فِيمَنْ يُبَارِزُونَ بِالْعَدَاوَةِ ؟ فَإِنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي خَلَقَ الْأَشْيَاءَ وَرَكَّبَ فِيهَا قُوَاهَا الْحَامِلَةَ لَهَا ، وَإِنَّ بَطْشَهُ شَدِيدٌ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧] ، فَبَارَزُوا الْجَبَّارَ بِالْعَدَاوَةِ وَجَحَدُوا بِآيَاتِهِ وَعَصَوْا رَسُولَهُ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ كَانَتْ رِيحًا شَدِيدَةً قَوِيَّةً لِتَكُونَ عُقُوبَتُهُمْ مِنْ جِنْسِ مَا اغْتَرُّوا بِهِ مِنْ قُوَاهُمْ ، وَكَانَتْ بَارِدَةً شَدِيدَةَ الْبَرْدِ جِدًّا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٦] أَيْ : بَارِدَةً شَدِيدَةً ، وَكَانَتْ ذَاتَ صَوْتٍ مُزْعِجٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ أَيْ : مُتَتَابِعَاتٍ ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة : ٧] وَكَقَوْلِهِ : ﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ [القمر : ١٩] أَيْ : ابْتُدِئُوا بِهَذَا الْعَذَابِ فِي يَوْمِ نَحْسٍ عَلَيْهِمْ ، وَاسْتَمَرَّ بِهِمْ هَذَا النَّحْسُ ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ حَتَّى أَبَادَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ ، وَاتَّصَلَ بِهِمْ خِزْيُ الدُّنْيَا بِعَذَابِ الْآخِرَةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ﴾ أَيْ : أَشَدُّ خِزْيًا لَهُمْ ﴿ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ أَيْ : فِي الْأُخْرَى ، كَمَا لَمْ يُنْصَرُوا فِي الدُّنْيَا ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ يَقِيهِمُ الْعَذَابَ وَيَدْرَأُ عَنْهُمُ النَّكَالَ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ أي : بَيَّنَّا لَهُمْ ، وَقِيلَ : دَعَوْنَاهُمْ ﴿ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ أَيْ : بَصَّرْنَاهُمْ وَبَيَّنَّا لَهُمْ وَوَضَّحْنَا لَهُمُ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ صَالِحٍ ﷺ فَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ وَعَقَرُوا نَاقَةَ الله تَعَالَى الَّتِي جَعَلَهَا آيَةً وَعَلَامَةً عَلَى صِدْقِ نَبِيِّهِمْ ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ ﴾ أَيْ : بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَرَجْفَةً وَذُلًّا وَهَوَانًا وَعَذَابًا وَنَكَالًا ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أَيْ : مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْجُحُودِ ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أَيْ : مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَلَا نَالَهُمْ مِنْ ذَلِكَ ضَرَرٌ ، بَلْ نَجَّاهُمُ اللهُ تَعَالَى مَعَ نَبِيِّهِمْ صَالِحٍ ﷺ بِإِيمَانِهِمْ وَبِتَقْوَاهُمْ لله ﷻ .

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أَيْ : اُذْكُرْ هَٰؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ يُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ أَيْ : تَجْمَعُ الزَّبَانِيَةُ أَوَّلَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم : ٨٦] أَيْ : عِطَاشًا . وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا ﴾ أَيْ : وُقِفُوا عَلَيْهَا ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : بِأَعْمَالِهِمْ مِمَّا قَدَّمُوهُ وَأَخَّرُوهُ لَا يُكْتَمُ مِنْهُ حَرْفٌ . ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ أَيْ : لَامُوا أَعْضَاءَهُمْ وَجُلُودَهُمْ حِينَ شَهِدُوا عَلَيْهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَجَابَتْهُمُ الْأَعْضَاءُ ﴿ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : فَهُوَ لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ أَيْ : تَقُولُ لَهُمُ الْأَعْضَاءُ وَالْجُلُودُ حِينَ يَلُومُونَهَا عَلَى الشَّهَادَةِ عَلَيْهِمْ : مَا كُنْتُمْ تَتَكَتَّمُونَ مِنَّا الَّذِي كُنْتُمْ تَفْعَلُونَهُ ، بَلْ كُنْتُمْ تُجَاهِرُونَ اللهَ بِالْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي وَلَا تُبَالُونَ مِنْهُ فِي زَعْمِكُمْ ؛ لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ يَعْلَمُ جَمِيعَ أَفْعَالِكُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ أَيْ : هَذَا الظَّنُّ الْفَاسِدُ - وَهُوَ اعْتِقَادُكُمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ - هُوَ الَّذِي أَتْلَفَكُمْ وَأَرْدَاكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أَيْ : فِي مَوَاقِفِ الْقِيَامَةِ خَسِرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ .

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ قَالَ : ((**إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُفَدَّمًا عَلَى أَفْوَاهِكُمْ بِالْفِدَامِ فَأَوَّلُ شَيْءٍ يُبِينُ عَنْ أَحَدِكُمْ فَخِذُهُ وَكَفُّهُ**)) .

قَالَ مَعْمَرٌ : وَتَلَا الْحَسَنُ : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ ثُمَّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**قَالَ اللهُ تَعَالَى : أَنَا مَعَ عَبْدِي عِنْدَ ظَنِّهِ بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي**)) . ثُمَّ أَفْتَرَّ الْحَسَنُ يَنْظُرُ فِي هَذَا ، فَقَالَ : أَلَا إِنَّمَا عَمَلُ النَّاسِ عَلَى قَدْرِ ظُنُونِهِمْ بِرَبِّهِمْ ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَأَحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ فَأَحْسَنَ الْعَمَلَ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَأَسَاءَا الظَّنَّ بِاللهِ فَأَسَاءَا الْعَمَلَ ، ثُمَّ قَالَ : قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ الْآيَة .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ أَيْ : سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَصَبَرُوا أَمْ لَمْ يَصْبِرُوا هُمْ فِي النَّارِ ، لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا . وَإِنْ طَلَبُوا أَنْ يَسْتَعْتِبُوا وَيُبْدُوا أَعْذَارًا فَمَا لَهُمْ أَعْذَارٌ وَلَا تُقَالُ لَهُمْ عَثَرَاتٌ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ ﴾ أَيْ : يَسْأَلُوا الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا فَلَا جَوَابَ لَهُمْ ، قَالَ : وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : ١٠٦-١٠٨]

۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَضَلَّ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَنَّ ذَلِكَ بِمَشِيئَتِهِ وَكَوْنِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فِي أَفْعَالِهِ ، بِمَا قَيَّضَ لَهُمْ مِنَ الْقُرَنَاءِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴿ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أَيْ : حَسَّنُوا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فِي الْمَاضِي ، وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ فَلَمْ يَرَوْا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا مُحْسِنِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ أَيْ : كَلِمَةُ الْعَذَابِ ، كَمَا حَقَّ عَلَى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِمَّنْ فَعَلَ كَفِعْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ أَيْ : اِسْتَوَوْا هُمْ وَإِيَّاهُمْ فِي

الْخَسَارِ وَالدَّمَارِ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أَيْ : تَوَاصَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَنْ لَا يُطِيعُوا لِلْقُرْآنِ وَلَا يَنْقَادُوا لِأَوَامِرِهِ ﴿ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾ يَعْنِي : بِالْمُكَاءِ وَالصَّفِيرِ وَالتَّخْلِيطِ فِي الْمَنْطِقِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ هَذَا حَالُ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةِ مِنَ الْكُفَّارِ ، وَمَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُمْ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِخِلَافِ ذَلِكَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف : ٢٠٤] ، ثُمَّ قَالَ ﷻ مُنْتَصِرًا لِلْقُرْآنِ وَمُنْتَقِمًا مِمَّنْ عَادَاهُ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرَانِ ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أَيْ : فِي مُقَابَلَةِ مَا اعْتَمَدُوهُ فِي الْقُرْآنِ وَعِنْدَ سَمَاعِهِ ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : بِشَرِّ أَعْمَالِهِمْ وَسَيِّئِ أَفْعَالِهِمْ . ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا ﴾ قَالَ : إِبْلِيسُ وَابْنُ آدَمَ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ أَيْ : أَسْفَلَ مِنَّا فِي الْعَذَابِ لِيَكُونَا أَشَدَّ عَذَابًا مِنَّا ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ أَيْ : فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ أَيْ : أَخْلَصُوا الْعَمَلَ لله وَعَمِلُوا بِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى مَا شَرَعَ اللهُ لَهُمْ . عَنْ سَعِيدِ بْنِ نِمْرَانَ قَالَ : قَرَأْتُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ ، قَالَ : هُمُ الَّذِينَ لَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : يَعْنِي : عِنْدَ الْمَوْتِ قَائِلِينَ : ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ ﴾ أَيْ : مِمَّا تَقْدِمُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ ﴿ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ عَلَى مَا خَلَفْتُمُوهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا ، مِنْ وَلَدٍ وَأَهْلٍ ، وَمَالٍ أَوْ دَيْنٍ ، فَإِنَّا نَخْلُفُكُمْ فِيهِ ﴿ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فَيُبَشِّرُونَهُمْ بِذَهَابِ الشَّرِّ وَحُصُولِ الْخَيْرِ ، وَقِيلَ : إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ خُرُوجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ . وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ : يُبَشِّرُونَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ وَفِي قَبْرِهِ وَحِينَ يُبْعَثُ ، وَهَذَا الْقَوْلُ يَجْمَعُ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا ، وَهُوَ حَسَنٌ جِدًّا ، وَهُوَ الْوَاقِعُ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أَيْ : تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ : نَحْنُ كُنَّا أَوْلِيَاءَكُمْ ، أَيْ : قُرَنَاءَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا نُسَدِّدُكُمْ

وَنُوَفِّقُكُمْ وَنَحْفَظُكُمْ بِأَمْرِ الله ، وَكَذَلِكَ نَكُونُ مَعَكُمْ فِي الآخِرَةِ نُؤْنِسُ مِنْكُمُ الْوَحْشَةَ فِي الْقُبُورِ ، وَعِنْدَ النَّفْخَةِ فِي الصُّورِ ، وَنُؤَمِّنُكُمْ يَوْمَ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ ، وَنُجَاوِزُ بِكُمُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَنُوَصِّلُكُمْ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿ وَلَكُم فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ ﴾ أَيْ : فِي الْجَنَّةِ مِنْ جَمِيعِ مَا تَخْتَارُونَ مِمَّا تَشْتَهِيهِ النُّفُوسُ وَتَقَرُّ بِهِ الْعُيُونُ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ أَيْ : مَهْمَا طَلَبْتُمْ وَجَدْتُمْ ، وَحَضَرَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ كَمَا اخْتَرْتُمْ ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ أَيْ : ضِيَافَةً وَعَطَاءً ، وَإِنْعَامًا مِنْ غَفُورٍ لِذُنُوبِكُمْ رَحِيمٍ بِكُمْ ، رَءُوفٍ حَيْثُ غَفَرَ وَسَتَرَ وَرَحِمَ وَلَطَفَ .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

يَقُولُ ﷻ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : دَعَا عِبَادَ الله إِلَيْهِ ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أَيْ : وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مُهْتَدٍ بِمَا يَقُولُهُ ، فَنَفْعُهُ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ لَازِمٌ وَمُتَعَدٍّ ، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَأْتُونَهُ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَأْتُونَهُ ، بَلْ يَأْتَمِرُ بِالْخَيْرِ وَيَتْرُكُ الشَّرَّ ، وَيَدْعُو الْخَلْقَ إِلَى الْخَالِقِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَهَذِهِ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ دَعَا إِلَى خَيْرٍ وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مُهْتَدٍ ، وَرَسُولُ الله ﷺ أَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ . ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ أَيْ : فَرْقٌ عَظِيمٌ بَيْنَ هَذِهِ وَهَذِهِ ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أَيْ : مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ فَادْفَعْهُ عَنْكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَ عُمَرُ ﷺ : مَا عَاقَبْتَ مَنْ عَصَى الله فِيكَ بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللهَ فِيهِ . ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ ، وَهُوَ الصَّدِيقُ ، أَيْ : إِذَا أَحْسَنْتَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ قَادَتْهُ تِلْكَ الْحَسَنَةُ إِلَيْهِ إِلَى مُصَافَاتِكَ وَمَحَبَّتِكَ وَالْحُنُوِّ عَلَيْكَ ، حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ لَكَ حَمِيمٌ ، أَيْ : قَرِيبٌ إِلَيْكَ ، مِنَ الشَّفَقَةِ عَلَيْكَ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْكَ . قَالَ ﷻ : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ أَيْ : وَمَا يَقْبَلُ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ وَيَعْمَلُ بِهَا إِلَّا مَنْ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَشُقُّ عَلَى النُّفُوسِ ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أَيْ : ذُو نَصِيبٍ وَافِرٍ مِنَ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَالْحِلْمِ عِنْدَ الْجَهْلِ ، وَالْعَفْوِ عِنْدَ الْإِسَاءَةِ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَخَضَعَ لَهُمْ عَدُوُّهُمْ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ أَيْ : إِنَّ شَيْطَانَ الْإِنْسِ رُبَّمَا يَنْخَدِعُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، فَأَمَّا شَيْطَانُ الْجِنِّ فَإِنَّهُ لَا حِيلَةَ فِيهِ - إِذَا وَسْوَسَ - إِلَّا الِاسْتِعَاذَةُ بِخَالِقِهِ الَّذِي سَلَّطَهُ

عَلَيْكَ ، فَإِذَا اِسْتَعَذْتَ بِاللهِ وَالْتَجَأْتَ إِلَيْهِ كَفَّهُ عَنْكَ وَرَدَّ كَيْدَهُ ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ يَقُولُ : « **أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ** » .

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا خَلْقَهُ عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ ، وَأَنَّهُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ ، وَأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ خَلَقَ اللَّيْلَ بِظَلَامِهِ وَالنَّهَارَ بِضِيَائِهِ ، وَهُمَا مُتَعَاقِبَانِ لَا يَفْتُرَانِ ، وَالشَّمْسَ وَنُورَهَا وَإِشْرَاقَهَا ، وَالْقَمَرَ وَضِيَاءَهُ وَتَقْدِيرَ مَنَازِلِهِ فِي فَلَكِهِ ، وَاخْتِلَافَ سَيْرِهِ فِي سَمَائِهِ ؛ لِيُعْرَفَ بِاخْتِلَافِ سَيْرِهِ وَسَيْرِ الشَّمْسِ مَقَادِيرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْجُمَعُ وَالشُّهُورُ وَالْأَعْوَامُ ، وَيَتَبَيَّنُ بِذَلِكَ حُلُولُ الْحُقُوقِ وَأَوْقَاتُ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ . ثُمَّ لَمَّا كَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ أَحْسَنُ الْأَجْرَامِ الْمُشَاهَدَةِ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ ، نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُمَا مَخْلُوقَانِ عَبْدَانِ مِنْ عَبِيدِهِ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ ، **فَقَالَ** : ﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أَيْ : وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ ، فَمَا تَنْفَعُكُمْ عِبَادَتُكُمْ لَهُ مَعَ عِبَادَتِكُمْ لِغَيْرِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ . **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ أَيْ : عَنْ إِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَأَبَوْا إِلَّا أَنْ يُشْرِكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ يَعْنِي : الْمَلَائِكَةُ ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ﴾ أَيْ : عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى إِعَادَةِ الْمَوْتَى ﴿ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً ﴾ أَيْ : هَامِدَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا ، بَلْ هِيَ مَيِّتَةٌ ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ أَيْ : أَخْرَجَتْ مِنْ جَمِيلِ أَلْوَانِ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو

مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

قَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ قَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ : الْإِلْحَادُ : وَضْعُ الْكَلَامِ عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ : هُوَ الْكُفْرُ وَالْعِنَادُ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ فِيهِ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، أَيْ : أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِمَنْ يُلْحِدُ فِي آيَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَسَيَجْزِيهِ عَلَى ذَلِكَ بِالْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أَيْ : أَيَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا ؟ لَا يَسْتَوِيَانِ . ثُمَّ قَالَ ﷻ تَهْدِيدًا لِلْكَفَرَةِ ﴿ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ﴾ وَعِيدٌ : أَيْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِكُمْ وَبَصِيرٌ بِأَعْمَالِكُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ أَيْ : مَنِيعُ الْجَنَابِ لَا يُرَامُ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدٌ بِمِثْلِهِ ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لِلْبُطْلَانِ إِلَيْهِ سَبِيلٌ ؛ لِأَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ أَيْ : حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، حَمِيدٌ بِمَعْنَى : مَحْمُودٌ ، أَيْ : فِي جَمِيعِ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ ، الْجَمِيعُ مَحْمُودَةٌ عَوَاقِبُهُ وَغَايَاتُهُ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ مَا يُقَالُ لَكَ مِنَ التَّكْذِيبِ إِلَّا كَمَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ، فَكَمَا كُذِّبْتَ كُذِّبُوا ، وَكَمَا صَبَرُوا عَلَى أَذَى قَوْمِهِمْ لَهُمْ فَاصْبِرْ أَنْتَ عَلَى أَذَى قَوْمِكَ لَكَ . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ أَيْ : لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أَيْ : لِمَنِ اسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ وَعِنَادِهِ وَشِقَاقِهِ وَمُخَالَفَتِهِ .

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْقُرْآنَ وَفَصَاحَتَهُ وَبَلَاغَتَهُ ، وَإِحْكَامَهُ فِي لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ الْمُشْرِكُونَ ، نَبَّهَ عَلَى أَنَّ كُفْرَهُمْ بِهِ كُفْرُ عِنَادٍ وَتَعَنُّتٍ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٨-١٩٩] كَذَلِكَ لَوْ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ كُلُّهُ بِلُغَةِ الْعَجَمِ ؛ لَقَالُوا عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ : ﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ أَيْ : لَقَالُوا : هَلَّا أُنْزِلَ مُفَصَّلًا بِلُغَةِ الْعَرَبِ وَلَأَنْكَرُوا ذَلِكَ ، فَقَالُوا : أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، أَيْ : كَيْفَ يَنْزِلُ كَلَامٌ أَعْجَمِيٌّ عَلَى مُخَاطَبٍ عَرَبِيٍّ لَا يَفْهَمُهُ ؟ وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ ﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ

ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عۡجَمِيٞ وَعَرَبِيّٞ ﴾ أَيْ : هَلَّا أُنْزِلَ بَعْضُهَا بِالْأَعْجَمِيِّ وَبَعْضُهَا بِالْعَرَبِيِّ ؟ ، ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ ﴾ أَيْ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ هَذَا الْقُرْآنَ لِمَنْ آمَنَ بِهِ هُدًى لِقَلْبِهِ وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ مِنَ الشُّكُوكِ وَالرِّيَبِ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ ﴾ أَيْ : لَا يَفْهَمُونَ مَا فِيهِ ﴿ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ ﴾ أَيْ : لَا يَهْتَدُونَ إِلَى مَا فِيهِ مِنَ الْبَيَانِ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي : بَعِيدٌ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : مَعْنَاهُ : كَأَنَّ مَنْ يُخَاطِبُهُمْ يُنَادِيهِمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ لَا يَفْهَمُونَ مَا يَقُولُ ، قُلْتُ : وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ ﴾ أَيْ : كُذِّبَ وَأُوذِيَ ﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ بِتَأْخِيرِ الْحِسَابِ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ ﴿ لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ أَيْ : لَعُجِّلَ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾ أَيْ : وَمَا كَانَ تَكْذِيبُهُمْ لَهُ عَنْ بَصِيرَةٍ مِنْهُمْ لَمَّا قَالُوا ، بَلْ كَانُوا شَاكِّينَ فِيمَا قَالُوهُ غَيْرَ مُحَقِّقِينَ لِشَيْءٍ كَانُوا فِيهِ .

مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ ﴿ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْهِ ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ أَيْ : لَا يُعَاقِبُ أَحَدًا إِلَّا بِذَنْبِهِ ، وَلَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ أَيْ : لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ - وَهُوَ سَيِّدُ الْبَشَرِ - لِجِبْرِيلَ ؏ - وَهُوَ مِنْ سَادَاتِ الْمَلَائِكَةِ - حِينَ سَأَلَهُ عَنِ السَّاعَةِ فَقَالَ : « **مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ** ».

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ بِعِلْمِهِ لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا ﴾ [الأنعام : ٥٩]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴾ [الرعد : ٨]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنَادِي اللهُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ : أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ عَبَدْتُمُوهُمْ مَعِي ؟ ﴿ قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ ﴾ أَيْ : أَعْلَمْنَاكَ ﴿ مَا مِنَّا

مِن شَهِيدٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ أَحَدٌ مِنَّا يَشْهَدُ الْيَوْمَ أَنَّ مَعَكَ شَرِيكًا ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : ذَهَبُوا فَلَمْ يَنْفَعُوهُمْ ﴿ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أَيْ : وَظَنَّ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا بِمَعْنَى الْيَقِينِ ﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أَيْ : لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْ عَذَابِ الله .

لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : لَا يَمَلُّ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ رَبِّهِ بِالْخَيْرِ ، وَهُوَ : الْمَالُ وَصِحَّةُ الْجِسْمِ وَغَيْرُ ذَلِكَ ﴿ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ ، وَهُوَ الْبَلَاءُ أَوِ الْفَقْرُ ﴿ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾ أَيْ : يَقَعُ فِي ذِهْنِهِ أَنَّهُ لَا يَتَهَيَّأُ لَهُ بَعْدَ هَذَا خَيْرٌ ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى ﴾ أَيْ : إِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ وَرِزْقٌ بَعْدَمَا كَانَ فِي شِدَّةٍ لَيَقُولَنَّ : هَذَا لِي ، إِنِّي كُنْتُ أَسْتَحِقُّهُ عِنْدَ رَبِّي ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ أَيْ : يَكْفُرُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ ، أَيْ : لِأَجْلِ أَنَّهُ خُوِّلَ نِعْمَةً ، يَبْطَرُ وَيَفْخَرُ وَيَكْفُرُ ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ أَيْ : وَلَئِنْ كَانَ ثَمَّ مَعَادٌ ، فَلَيُحْسِنَنَّ إِلَيَّ رَبِّي كَمَا أَحْسَنَ إِلَيَّ فِي هَذِهِ الدَّارِ ، يَتَمَنَّى عَلَى الله ﷻ مَعَ إِسَاءَتِهِ الْعَمَلَ وَعَدَمِ الْيَقِينِ ، **قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ يَتَهَدَّدُ تَعَالَى مَنْ كَانَ هَذَا عَمَلُهُ وَاعْتِقَادُهُ بِالْعِقَابِ وَالنَّكَالِ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ أَيْ : أَعْرَضَ عَنِ الطَّاعَةِ وَاسْتَكْبَرَ عَنِ الِانْقِيَادِ لِأَوَامِرِ الله ﷻ ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ أَيْ : الشِّدَّةُ ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ أَيْ : يُطِيلُ الْمَسْأَلَةَ فِي الشَّيْءِ الْوَاحِدِ ، فَالْكَلَامُ الْعَرِيضُ : مَا طَالَ لَفْظُهُ وَقَلَّ مَعْنَاهُ وَالْوَجِيز عَكْسُهُ : وَهُوَ مَا قَلَّ وَدَلَّ .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْقُرْآنِ ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ ﴾ هَذَا الْقُرْآنُ ﴿ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ أَيْ : كَيْفَ تَرَوْنَ حَالَكُمْ عِنْدَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ؟ **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أَيْ : فِي كُفْرٍ وَعِنَادٍ وَمُشَاقَّةٍ لِلْحَقِّ وَمَسْلَكٍ بَعِيدٍ مِنَ الْهُدَى . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أَيْ : سَنُظْهِرُ لَهُمْ دَلَالَاتِنَا

وَحُجَجِنَا عَلَى كَوْنِ الْقُرْآنِ حَقًّا مُنَزَّلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِدَلَائِلَ خَارِجِيَّةٍ ﴿ فِي ٱلْآفَاقِ ﴾ مِنَ الْفُتُوحَاتِ وَظُهُورِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْأَقَالِيمِ وَسَائِرِ الْأَدْيَانِ . ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أَيْ : كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا عَلَى أَفْعَالِ عِبَادِهِ وَأَقْوَالِهِمْ ، وَهُوَ يَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ صَادِقٌ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ . ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : فِي شَكٍّ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ وَلِهَذَا لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهِ وَلَا يَعْمَلُونَ لَهُ وَلَا يَحْذَرُونَ مِنْهُ ، بَلْ هُوَ عِنْدَهُمْ هَدَرٌ لَا يَعْبَئُونَ بِهِ ، وَهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ وَوَاقِعٌ لَا رَيْبَ فِيهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُقَرِّرًا أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَبِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ، وَإِقَامَةُ السَّاعَةِ لَدَيْهِ يَسِيرٌ سَهْلٌ عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ أَيْ : المَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا تَحْتَ قَهْرِهِ وَفِي قَبْضَتِهِ ، وَتَحْتَ طَيِّ عِلْمِهِ ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا كُلِّهَا بِحُكْمِهِ ، فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ((فُصِّلَتْ))

آياتها ٥٣ تفسيرُ سُورَةِ الشُّورى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ أَيْ : كَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ كَذَلِكَ أَنْزَلَ الْكُتُبَ وَالصُّحُفَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ . ﴿ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : فِي انْتِقَامِهِ ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ عَبِيدٌ لَهُ ، وَمُلْكٌ لَهُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَصْرِيفِهِ ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** : أَيْ : فَرَقًا مِنَ الْعَظَمَةِ ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر : ٧] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَآ إِنَّ

ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ إِعْلَامٌ بِذَلِكَ وَتَنْوِيهٌ بِهِ ،وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، يُحْصِيهَا وَيَعُدُّهَا عَدًّا ، وَسَيَجْزِيهِمْ بِهَا أَوْفَرَ الْجَزَاءِ ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى الأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ ﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أَيْ : وَاضِحًا جَلِيًّا بَيِّنًا ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ ، وَهِيَ مَكَّةُ ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أَيْ : مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَسُمِّيَتْ مَكَّةُ أُمَّ الْقُرَى ؛ لأَنَّهَا أَشْرَفُ مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ ، لِأَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ مَذْكُورَةٍ فِي مَوَاضِعِهَا ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، يَجْمَعُ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أَيْ : لَا شَكَّ فِي وُقُوعِهِ وَأَنَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أَيْ : إِمَّا عَلَى الْهِدَايَةِ أَوْ عَلَى الضَّلَالَةِ ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى فَاوَتَ بَيْنَهُمْ فَهَدَى مَنْ يَشَاءُ إِلَى الْحَقِّ وَأَضَلَّ مَنْ يَشَاءُ عَنْهُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ ، وَمُخْبِرًا أَنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَقُّ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ ، فَإِنَّهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنَ الأُمُورِ وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ الأَشْيَاءِ ﴿ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : هُوَ الْحَاكِمُ فِيهِ بِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء : ٥٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ أَيْ : الْحَاكِمُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أَيْ : أَرْجِعُ

فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : خَالِقُهُمَا وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أَيْ : مِنْ جِنْسِكُمْ وَشَكْلِكُمْ ، مِنَّةً عَلَيْكُمْ وَتَفَضُّلًا جَعَلَ مِنْ جِنْسِكُمْ ذَكَرًا وَأُنْثَى ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾ أَيْ : وَخَلَقَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ أَيْ : يَخْلُقُكُمْ فِيهِ ، أَيْ : فِي ذَلِكَ الْخَلْقِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ لَا يَزَالُ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ذُكُورًا وَإِنَاثًا ، خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، وَنَسْلًا بَعْدَ نَسْلٍ مِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ أَيْ : لَيْسَ كَخَالِقِ الْأَزْوَاجِ كُلِّهَا شَيْءٌ ؛ لِأَنَّهُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ « الزُّمَرِ » وَحَاصِلُ ذَلِكَ أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ فِيهِمَا ﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أَيْ : يُوَسِّعُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَيُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْعَدْلُ التَّامُّ ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ فَذَكَرَ أَوَّلَ الرُّسُلِ بَعْدَ آدَمَ عليه السلام وَهُوَ نُوحٌ عليه السلام وَآخِرُهُمْ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، ثُمَّ ذَكَرَ مَنْ بَيْنَ ذَلِكَ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ وَهُمْ : إِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ انْتَظَمَتْ ذِكْرَ الْخَمْسَةِ كَمَا اشْتَمَلَتْ آيَةُ « الْأَحْزَابِ » عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب : ٧] . وَالدِّينُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ كُلُّهُمْ هُوَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] . وَفِي الْحَدِيثِ « **نَحْنُ مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ** » أَيْ : الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَهُمْ هُوَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ شَرَائِعُهُمْ وَمَنَاهِجُهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ أَيْ : أَوْصَى اللهُ تَعَالَى جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بِالِائْتِلَافِ وَالْجَمَاعَةِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الِافْتِرَاقِ وَالِاخْتِلَافِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أَيْ : شَقَّ عَلَيْهِمْ وَأَنْكَرُوا مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ

يَا مُحَمَّدُ مِنَ التَّوْحِيدِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ أَيْ : هُوَ الَّذِي يُقَدِّرُ الْهِدَايَةَ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا وَيَكْتُبُ الضَّلَالَةَ عَلَى مَنْ آثَرَهَا عَلَى طَرِيقِ الرُّشْدِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ [آل عمران : ١٩] أَيْ : إِنَّمَا كَانَ مُخَالَفَتُهُمْ لِلْحَقِّ بَعْدَ بُلُوغِهِ إِلَيْهِمْ وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْبَغْيُ وَالْعِنَادُ وَالْمُشَاقَّةُ ، ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَيْ : لَوْلَا الْكَلِمَةُ السَّابِقَةُ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِإِنْظَارِ الْعِبَادِ بِإِقَامَةِ حِسَابِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ لَعَجَّلَ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا سَرِيعًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ يَعْنِي : الْجِيلَ الْمُتَأَخِّرَ بَعْدَ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ الْمُكَذِّبِ لِلْحَقِّ ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أَيْ : لَيْسُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ وَإِنَّمَا هُمْ مُقَلِّدُونَ لِآبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ ، وَهُمْ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَشَكٍّ مُرِيبٍ وَشِقَاقٍ بَعِيدٍ .

فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى عَشْرِ كَلِمَاتٍ مُسْتَقِلَّاتٍ ، كُلٌّ مِنْهَا مُنْفَصِلَةٌ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا ، حُكْمٌ بِرَأْسِهِ ، قَالُوا : وَلَا نَظِيرَ لَهَا سِوَى آيَةِ الْكُرْسِيِّ ، فَإِنَّهَا أَيْضًا عَشْرُ فُصُولٍ كَهَذِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ﴾ أَيْ : فَلِلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الدِّينِ الَّذِي وَصَّيْنَا بِهِ جَمِيعَ الْمُرْسَلِينَ قَبْلَكَ ، أَصْحَابَ الشَّرَائِعِ الْكِبَارِ الْمُتَّبَعَةِ كَأُولِي الْعَزْمِ وَغَيْرِهِمْ فَادْعُ النَّاسَ إِلَيْهِ . ﴿ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ أَيْ : وَاسْتَقِمْ أَنْتَ وَمَنِ اتَّبَعَكَ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى كَمَا أَمَرَكُمُ اللهُ ﷻ ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَكَذَّبُوهُ وَافْتَرَوْهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ . ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ﴾ أَيْ : صَدَّقْتُ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ . ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أَيْ : فِي الْحُكْمِ كَمَا أَمَرَنِي اللهُ ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمَعْبُودُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، فَنَحْنُ نُقِرُّ بِذَلِكَ اخْتِيَارًا ، وَأَنْتُمْ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوهُ اخْتِيَارًا فَلَهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي الْعَالَمِينَ طَوْعًا وَإِجْبَارًا . ﴿ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ﴾ أَيْ : نَحْنُ بُرَآءُ مِنْكُمْ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ٤١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : أَيْ : لَا خُصُومَةَ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : وَذَلِكَ قَبْلَ نُزُولِ آيَةِ السَّيْفِ ، وَهَذَا مُتَّجِهٌ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ وَآيَةُ السَّيْفِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ . ﴿ ٱللَّهُ يَجْمَعُ

بَيْنَنَا ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [سبأ : ٢٦] ، ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ يَوْمَ الْحِسَابِ .

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ ﴾ أَيْ : يُجَادِلُونَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَجِيبِينَ للهِ وَلِرَسُولِهِ لِيَصُدُّوهُمْ عَمَّا سَلَكُوهُ مِنْ طَرِيقِ الْهُدَى ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : بَاطِلَةٌ عِنْدَ اللهِ ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ أَيْ : مِنْهُ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : جَادَلُوا الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَمَا اسْتَجَابُوا للهِ وَلِرَسُولِهِ ، لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ الْهُدَى وَطَمِعُوا أَنْ تَعُودَ الْجَاهِلِيَّةُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَالُوا لَهُمْ : دِينُنَا خَيْرٌ مِنْ دِينِكُمْ ، وَنَبِيُّنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ ، وَنَحْنُ خَيْرٌ مِنْكُمْ وَأَوْلَى بِاللهِ مِنْكُمْ ، وَقَدْ كَذَبُوا فِي ذَلِكَ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يَعْنِي : الْكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ مِنْ عِنْدِهِ عَلَى أَنْبِيَائِهِ ﴿ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ ، وَهُوَ : الْعَدْلُ وَالْإِنْصَافُ ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ فِيهِ تَرْغِيبٌ فِيهَا وَتَرْهِيبٌ مِنْهَا وَتَزْهِيدٌ فِي الدُّنْيَا ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ أَيْ : يَقُولُونَ : ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الملك : ٢٥] ، وَإِنَّمَا يَقُولُونَ ذَلِكَ تَكْذِيبًا وَاسْتِبْعَادًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ أَيْ : خَائِفُونَ وَجِلُونَ مِنْ وُقُوعِهَا ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ أَيْ : كَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ فَهُمْ مُسْتَعِدُّونَ لَهَا عَامِلُونَ مِنْ أَجْلِهَا . ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ ﴾ أَيْ : يُجَادِلُونَ فِي وُجُودِهَا وَيَدْفَعُونَ وُقُوعَهَا ﴿ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أَيْ : فِي جَهْلٍ بَيِّنٍ ؛ لِأَنَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى .

ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ

ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ لُطْفِهِ بِخَلْقِهِ فِي رِزْقِهِ إِيَّاهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ لَا يَنْسَى أَحَدًا مِنْهُمْ سَوَاءٌ فِي رِزْقِهِ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[هود : ٦] ، وَلَهَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ .

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : يُوَسِّعُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴿ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ ﴾ أَيْ : عَمَلَ الْآخِرَةِ ﴿ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ﴾ أَيْ : نُقَوِّيهِ وَنُعِينُهُ عَلَى مَا هُوَ بِصَدَدِهِ ، وَنُكْثِرُ نَمَاءَهُ وَنَجْزِيهِ بِالْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى مَا يَشَاءُ اللهُ ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ أَيْ : وَمَنْ كَانَ إِنَّمَا سَعْيُهُ لِيُحَصِّلَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا وَلَيْسَ لَهُ إِلَى الْآخِرَةِ هِمَّةٌ الْبَتَّةَ بِالْكُلِّيَّةِ ، حَرَمَهُ اللهُ الْآخِرَةَ وَالدُّنْيَا إِنْ شَاءَ أَعْطَاهُ مِنْهَا وَإِنْ لَمْ يَشَأْ لَمْ يُحَصِّلْ لَا هَذِهِ وَلَا هَذِهِ . وَفَازَ السَّاعِي بِهَذِهِ النِّيَّةِ بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : هُمْ لَا يَتَّبِعُونَ مَا شَرَعَ اللهُ لَكَ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ ، بَلْ يَتَّبِعُونَ مَا شَرَعَ لَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، مِنْ تَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ ، مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ ، وَتَحْلِيلِ أَكْلِ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَالْقِمَارِ ، إِلَى نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالْجَهَالَةِ الْبَاطِلَةِ ، الَّتِي كَانُوا قَدِ اخْتَرَعُوهَا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ ، وَالْعِبَادَاتِ الْبَاطِلَةِ وَالْأَمْوَالِ الْفَاسِدَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ : لَعُوجِلُوا بِالْعُقُوبَةِ ، لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِنْظَارِ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : شَدِيدٌ مُوجِعٌ فِي جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ أَيْ : فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾ أَيْ : الَّذِي يَخَافُونَ مِنْهُ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ ، هَذَا حَالُهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَهُمْ فِي هَذَا الْخَوْفِ وَالْوَجَلِ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فَأَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا ؟ أَيْ : أَيْنَ مَنْ هُوَ فِي الْعَرَصَاتِ فِي الذُّلِّ وَالْهَوَانِ وَالْخَوْفِ الْمُحَقَّقِ عَلَيْهِ بِظُلْمِهِ ، مِمَّنْ هُوَ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ، فِيمَا يَشَاءُ مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ وَمَلَابِسَ وَمَسَاكِنَ وَمَنَاظِرَ وَمَنَاكِحَ وَمَلَاذٍّ ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَيْتَ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أَيْ : الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَالنِّعْمَةُ التَّامَّةُ السَّابِغَةُ الشَّامِلَةُ الْعَامَّةُ .

ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ

أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لِعِبَادِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أَيْ : هَذَا حَاصِلٌ لَهُمْ ، كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ بِبِشَارَةِ اللهِ تَعَالَى لَهُمْ بِهِ . ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أَيْ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى هَذَا الْبَلَاغِ وَالنُّصْحِ لَكُمْ مَالًا تُعْطُونِيهِ ، وَإِنَّمَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ أَنْ تَكُفُّوا شَرَّكُمْ عَنِّي وَتَذَرُونِي أُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّي ، إِنْ لَمْ تَنْصُرُونِي فَلَا تُؤْذُونِي بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : قُرْبَى آلِ مُحَمَّدٍ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : عَجِلْتَ ، إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ ، فَقَالَ : إِلَّا أَنْ تَصِلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ﴾ أَيْ : وَمَنْ يَعْمَلْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ، أَيْ : أَجْرًا وَثَوَابًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ أَيْ : يَغْفِرُ الْكَثِيرَ مِنَ السَّيِّئَاتِ ، وَيُكَثِّرُ الْقَلِيلَ مِنَ الْحَسَنَاتِ ، فَيَسْتُرُ وَيَغْفِرُ وَيُضَاعِفُ فَيَشْكُرُ . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أَيْ : لَوِ افْتَرَيْتَ عَلَيْهِ كَذِبًا كَمَا يَزْعُمُ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ ﴿ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أَيْ : يَطْبَعُ عَلَى قَلْبِكَ ، وَسَلَبَكَ مَا كَانَ آتَاكَ مِنَ الْقُرْآنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤-٤٧] أَيْ : لَانْتَقَمْنَا مِنْهُ أَشَدَّ الِانْتِقَامِ ، وَمَا قَدَرَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَحْجِزَ عَنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ لَيْسَ مَعْطُوفًا عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ يَخْتِمْ ﴾ فَيَكُونَ مَجْزُومًا بَلْ هُوَ مَرْفُوعٌ عَلَى الِابْتِدَاءِ . وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ ﴾ أَيْ : يُحَقِّقُهُ وَيُثْبِتُهُ وَيُبَيِّنُهُ وَيُوَضِّحُهُ ﴿ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ﴾ أَيْ : بِحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أَيْ : بِمَا تُكِنُّهُ الضَّمَائِرُ وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ السَّرَائِرُ .

وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ

مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِىُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى عِبَادِهِ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ إِلَيْهِ إِذَا تَابُوا وَرَجَعُوا إِلَيْهِ ، إِنَّهُ مِنْ كَرَمِهِ وَحِلْمِهِ أَنَّهُ يَعْفُو وَيَصْفَحُ وَيَسْتُرُ وَيَغْفِرُ ، كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾[النساء : ١١٠] ، **وَقَوْلُهُ** ﷻ : ﴿ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أَيْ : يَقْبَلُ التَّوْبَةَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ فِي الْمَاضِي ﴿ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ أَيْ : هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا فَعَلْتُمْ وَصَنَعْتُمْ وَقُلْتُمْ ، وَمَعَ هَذَا يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ . ﴿ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ يَعْنِي : يَسْتَجِيبُ لَهُمْ ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ ﴾ أَيْ : يَسْتَجِيبُ دُعَاءَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ فَوْقَ ذَلِكَ ﴿ وَٱلۡكَـٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ ، ذَكَرَ الْكَافِرِينَ وَمَا لَهُمْ عِنْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ الْمُوجِعِ الْمُؤْلِمِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَحِسَابِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أَيْ : لَوْ أَعْطَاهُمْ فَوْقَ حَاجَتِهِمْ مِنَ الرِّزْقِ ، لَحَمَلَهُمْ ذَلِكَ عَلَى الْبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ أَشَرًا وَبَطَرًا ﴿ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ أَيْ : وَلَكِنْ يَرْزُقُهُمْ مِنَ الرِّزْقِ مَا يَخْتَارُهُ مِمَّا فِيهِ صَلَاحُهُمْ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِذَلِكَ فَيُغْنِي مَنْ يَسْتَحِقُّ الْغِنَى وَيُفْقِرُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ . ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ أَيْ : مِنْ بَعْدِ إِيَاسِ النَّاسِ مِنْ نُزُولِ الْمَطَرِ ، يُنَزِّلُهُ عَلَيْهِمْ فِي وَقْتِ حَاجَتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ إِلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ﴾[الروم : ٤٩] ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ ﴾ أَيْ : يَعُمُّ بِهَا الْوُجُود عَلَى أَهْلِ ذَلِكَ الْقُطْرِ وَتِلْكَ النَّاحِيَةِ . فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمُتَصَرِّفُ لِخَلْقِهِ بِمَا يَنْفَعُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ الْعَاقِبَةَ فِي جَمِيعِ مَا يُقَدِّرُهُ وَيَفْعَلُهُ .

وَمِنۡ ءَايَـٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِى ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنۡ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ الدَّالَّةُ عَلَى عَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَسُلْطَانِهِ الْقَاهِرِ ﴿ خَلۡقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا ﴾ أَيْ : ذَرَأَ فِيهِمَا ، أَيْ : فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ مِن دَآبَّةٖ ﴾ وَهَذَا يَشْمَلُ الْمَلَائِكَةَ وَالْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَسَائِرَ الْحَيَوَانَاتِ ، عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ

وَلُغَاتِهِمْ وَطِبَاعِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ وَأَنْوَاعِهِمْ ، وَقَدْ فَرَّقَهُمْ فِي أَرْجَاءِ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ وَهُوَ ﴾ مَعَ هَذَا كُلِّهِ ﴿ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ ، فَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ الْحَقِّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَصَابَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنَ الْمَصَائِبِ فَإِنَّمَا هِيَ عَنْ سَيِّئَاتٍ تَقَدَّمَتْ لَكُمْ ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ أَيْ : مِنَ السَّيِّئَاتِ فَلَا يُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا بَلْ يَعْفُو عَنْهَا ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر:٤٥]

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَمِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ الْبَاهِرَةِ وَسُلْطَانِهِ تَسْخِيرُهُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ فِيهِ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ، وَهِيَ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ، أَيْ : كَالْجِبَالِ . أَيْ : هَذِهِ فِي الْبَحْرِ كَالْجِبَالِ فِي الْبَرِّ ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ ﴾ أَيْ : الَّتِي تَسِيرُ فِي الْبَحْرِ بِالسُّفُنِ لَوْ شَاءَ لَسَكَّنَهَا حَتَّى لَا تَتَحَرَّكَ السُّفُنُ بَلْ تَبْقَى رَاكِدَةً لَا تَجِيءُ وَلَا تَذْهَبُ بَلْ وَاقِفَةً عَلَى ظَهْرِهِ ، أَيْ : عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أَيْ فِي الشَّدَائِدِ ﴿ شَكُورٍ ﴾ أَيْ : فِي الرَّخَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ أَيْ : وَلَوْ شَاءَ لَأَهْلَكَ السُّفُنَ وَغَرَّقَهَا بِذُنُوبِ أَهْلِهَا الَّذِينَ هُمْ رَاكِبُونَ فِيهَا ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ أَيْ : مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَلَوْ آخَذَهُمْ بِجَمِيعِ ذُنُوبِهِمْ لَأَهْلَكَ كُلَّ مَنْ رَكِبَ الْبَحْرَ ﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أَيْ : لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْ بَأْسِنَا وَنِقْمَتِنَا فَإِنَّهُمْ مَقْهُورُونَ بِقُدْرَتِنَا .

فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَقِّرًا لِشَأْنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرَةِ وَالنَّعِيمِ الْفَانِي بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : مَهْمَا حَصَّلْتُمْ وَجَمَعْتُمْ فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ ، فَإِنَّمَا هُوَ

مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهِيَ دَارٌ دَنِيئَةٌ فَانِيَةٌ زَائِلَةٌ لَا مَحَالَةَ ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ أَيْ : وَثَوَابُ اللهِ تَعَالَى خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ بَاقٍ سَرْمَدِيٌّ فَلَا تُقَدِّمُوا الْفَانِي عَلَى الْبَاقِي ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أَيْ : لِلَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى تَرْكِ الْمَلَاذِّ فِي الدُّنْيَا ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أَيْ : لِيُعِينَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ فِي أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ . ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ فِي سُورَةِ « الأَعْرَافِ » . ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أَيْ : سَجِيَّتُهُمْ تَقْتَضِي الصَّفْحَ وَالْعَفْوَ عَنِ النَّاسِ ، لَيْسَ سَجِيَّتُهُمُ الاِنْتِقَامُ مِنَ النَّاسِ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ « **أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ قَطُّ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ اللهِ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : اتَّبَعُوا رُسُلَهُ وَأَطَاعُوا أَمْرَهُ وَاجْتَنَبُوا زَجْرَهُ ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وَهِيَ أَعْظَمُ الْعِبَادَاتِ للهِ ﷻ ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ : لَا يُبْرِمُونَ أَمْرًا حَتَّى يَتَشَاوَرُوا فِيهِ لِيَتَسَاعَدُوا بِآرَائِهِمْ فِي مِثْلِ الْحُرُوبِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ وَذَلِكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِ اللهِ ، الْأَقْرَبُ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ فَالْأَقْرَبُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أَيْ : فِيهِمْ قُوَّةُ الاِنْتِصَارِ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ وَاعْتَدَى عَلَيْهِمْ ، لَيْسُوا بِالْعَاجِزِينَ وَلَا الْأَذَلِّينَ ، بَلْ يَقْدِرُونَ عَلَى الاِنْتِقَامِ مِمَّنْ بَغَى عَلَيْهِمْ وَإِنْ كَانُوا مَعَ هَذَا إِذَا قَدَرُوا عَفَوْا ، كَمَا قَالَ يُوسُفُ عليه السلام لِإِخْوَتِهِ ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [يوسف : ٩٢] مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى مُؤَاخَذَتِهِمْ وَمُقَابَلَتِهِمْ عَلَى صَنِيعِهِمْ إِلَيْهِ ، وَكَمَا عَفَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ عَدَدٍ مِمَّنْ أَسَاءوا إِلَيْهِ وَنَالُوا مِنْهُ ، فَلَمَّا قَدَرَ عَلَيْهِمْ مَنَّ عَلَيْهِمْ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الاِنْتِقَامِ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤] وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ [النحل : ١٢٦] فَشَرَعَ الْعَدْلَ وَهُوَ الْقِصَاصُ وَنَدَبَ إِلَى الْفَضْلِ وَهُوَ الْعَفْوُ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾ [المائدة : ٤٥] وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لَا يَضِيعُ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ ، كَمَا صَحَّ ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ « **وَمَا زَادَ اللهُ تَعَالَى عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا** » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : الْمُعْتَدِينَ

وَهُوَ الْمُبْتَدِئُ بِالسَّيِّئَةِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ فِي الِانْتِصَارِ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا الْحَرَجُ وَالْعَنَتُ ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : يَبْدَءُونَ النَّاسَ بِالظُّلْمِ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : شَدِيدٌ مُوجِعٌ . ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَمَّ الظُّلْمَ وَأَهْلَهُ وَشَرَعَ الْقِصَاصَ ، قَالَ نَادِبًا إِلَى الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ أَيْ : صَبَرَ عَلَى الْأَذَى وَسَتَرَ السَّيِّئَةَ ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ **قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : يَعْنِي : لَمِنْ حَقِّ الْأُمُورِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهَا ، أَيْ لَمِنَ الْأُمُورِ الْمَشْكُورَةِ وَالْأَفْعَالِ الْحَمِيدَةِ الَّتِي عَلَيْهَا ثَوَابٌ جَزِيلٌ وَثَنَاءٌ جَمِيلٌ .

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَلَا رَادَّ لَهُ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ فَلَا مُوجِدَ لَهُ ، وَأَنَّهُ مَنْ هَدَاهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف : ١٧] ثُمَّ قَالَ ﷻ مُخْبِرًا عَنِ الظَّالِمِينَ ، وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ بِاللهِ ﴿ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَمَنَّوُا الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٧-٢٨] **وَقَوْلُهُ** ﷻ : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أَيْ : عَلَى النَّارِ ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ أَيْ : الَّذِي قَدِ اعْتَرَاهُمْ بِمَا أَسْلَفُوا مِنْ عِصْيَانِ اللهِ تَعَالَى ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يَعْنِي : ذَلِيلٌ ، أَيْ : يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا مُسَارَقَةً خَوْفًا مِنْهَا ، وَالَّذِي يَحْذَرُونَ مِنْهُ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ ، وَمَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا فِي نُفُوسِهِمْ ، أَجَارَنَا اللهُ مِنْ ذَلِكَ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أَيْ : يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أَيْ : الْخَسَارُ الْأَكْبَرُ ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أَيْ : ذَهَبَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ ، فَعَدِمُوا لَذَّتَهُمْ فِي دَارِ الْأَبَدِ وَخَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَفَرَّقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحْبَابِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ وَأَهَالِيهِمْ وَقَرَابَاتِهِمْ فَخَسِرُوهُمْ ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾

أَيْ : دَائِمٌ سَرْمَدِيٌّ أَبَدِيٌّ ، لَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا وَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يُنْقِذُونَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُ خَلَاصٌ .

ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا يَكُونُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَهْوَالِ وَالْأُمُورِ الْعِظَامِ الْهَائِلَةِ حَذَّرَ مِنْهُ وَأَمَرَ بِالِاسْتِعْدَادِ لَهُ فَقَالَ : ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : إِذَا أَمَرَ بِكَوْنِهِ فَإِنَّهُ كَلَمْحِ الْبَصَرِ يَكُونُ وَلَيْسَ لَهُ دَافِعٌ وَلَا مَانِعٌ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَكُمْ حِصْنٌ تَتَحَصَّنُونَ فِيهِ وَلَا مَكَانٌ يَسْتُرُكُمْ وَتَتَنَكَّرُونَ فِيهِ ، فَتَغِيبُونَ عَنْ بَصَرِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِكُمْ بِعِلْمِهِ وَبَصَرِهِ وَقُدْرَتِهِ ، فَلَا مَلْجَأَ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة : ١٠-١٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أَيْ : لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هَاهُنَا : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا كَلَّفْنَاكَ أَنْ تُبَلِّغَهُمْ رِسَالَةَ اللهِ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ﴾ أَيْ : إِذَا أَصَابَهُ رَخَاءٌ وَنِعْمَةٌ فَرِحَ بِذَلِكَ ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ ﴾ يَعْنِي : النَّاسَ ﴿ سَيِّئَةٌۢ ﴾ أَيْ : جَدْبٌ وَنِقْمَةٌ وَبَلَاءٌ وَشِدَّةٌ ﴿ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ أَيْ : يَجْحَدُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ النِّعَمِ وَلَا يَعْرِفُ إِلَّا السَّاعَةَ الرَّاهِنَةَ ، فَإِنْ أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ أَشِرَ وَبَطِرَ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مِحْنَةٌ يَئِسَ وَقَنِطَ .

لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَالِكُهُمَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ

يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَأَنَّهُ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ ، وَأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا ﴾ أَيْ : يَرْزُقُهُ الْبَنَاتَ فَقَطْ ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ أَيْ : يَرْزُقُهُ الْبَنِينَ فَقَطْ ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ﴾ أَيْ : وَيُعْطِي لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ النَّاسِ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ، أَيْ : مِنْ هَذَا وَهَذَا ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ أَيْ : لَا يُولَدُ لَهُ ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : بِمَنْ يَسْتَحِقُّ كُلَّ قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ ﴿ قَدِيرٌ ﴾ أَيْ : عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ تَفَاوُتِ النَّاسِ فِي ذَلِكَ .

۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

هَذِهِ مَقَامَاتُ الْوَحْيِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَنَابِ اللهِ ﷻ وَهُوَ أَنَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - تَارَةً يَقْذِفُ فِي رَوْعِ النَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا لَا يَتَمَارَى فِيهِ أَنَّهُ مِنَ اللهِ ﷻ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ كَمَا كَلَّمَ مُوسَى عليه السلام فَإِنَّهُ سَأَلَ الرُّؤْيَةَ بَعْدَ التَّكْلِيمِ فَحُجِبَ عَنْهَا ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ كَمَا يَنْزِلُ جِبْرِيلُ عليه السلام وَغَيْرُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ فَهُوَ عَلِيٌّ عَلِيمٌ خَبِيرٌ حَكِيمٌ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ أَيْ : عَلَى التَّفْصِيلِ الَّذِي شُرِعَ لَكَ فِي الْقُرْآنِ ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ ﴾ أَيْ : الْقُرْآنَ ﴿ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾[فصلت : ٤٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وَهُوَ الْخُلُقُ الْقَوِيمُ . ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : شَرْعُهُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ اللهُ ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : رَبُّهُمَا وَمَالِكُهُمَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا ، وَالْحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أَيْ : تَرْجِعُ الْأُمُورُ فَيَفْصِلُهَا وَيَحْكُمُ فِيهَا . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الشُّورَى ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

تفسير سورة الزخرف آياتها ٨٩ مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أَيْ : الْبَيِّنُ الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ الْمَعَانِي وَالْأَلْفَاظ ؛ لِأَنَّهُ نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ الَّتِي هِيَ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ لِلتَّخَاطُبِ بَيْنَ النَّاسِ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ ﴾ أَيْ : أَنْزَلْنَاهُ ﴿ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ أَيْ : بِلُغَةِ الْعَرَبِ فَصِيحًا وَاضِحًا ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : تَفْهَمُونَهُ وَتَتَدَبَّرُونَهُ . ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ بَيَّنَ شَرَفَهُ فِي الْمَلَإِ الْأَعْلَى لِيُشَرِّفَهُ وَيُعَظِّمَهُ وَيُطِيعهُ أَهْلُ الْأَرْضِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أَيْ : الْقُرْآنُ ﴿ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أَيْ : اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ﴿ لَدَيْنَا ﴾ أَيْ : عِنْدَنَا ﴿ لَعَلِىٌّ ﴾ أَيْ : ذُو مَكَانَةٍ عَظِيمَةٍ وَشَرَفٍ وَفَضْلٍ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : مُحْكَمٌ بَرِيءٌ مِنَ اللَّبْسِ وَالزَّيْغِ ، وَهَذَا كُلُّهُ تَنْبِيهٌ عَلَى شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الواقعة : ٧٧-٨٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ **وَالْمَعْنَى** : أَنَّهُ تَعَالَى مِنْ لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ لَا يَتْرُكُ دُعَاءَهُمْ إِلَى الْخَيْرِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ - وَهُوَ الْقُرْآنُ - وَإِنْ كَانُوا مُسْرِفِينَ مُعْرِضِينَ عَنْهُ ، بَلْ أَمَرَ بِهِ لِيَهْتَدِيَ بِهِ مَنْ قَدَّرَ هِدَايَتَهُ وَتَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَى مَنْ كَتَبَ شَقَاوَتَهُ ، ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ وَآمِرًا لَهُ بِالصَّبْرِ عَلَيْهِمْ ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيْ : يُكَذِّبُونَهُ وَيَسْخَرُونَ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ أَيْ : فَأَهْلَكْنَا الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ ، وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ بَطْشًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ **قِيلَ** : عُقُوبَتُهُمْ ، **وَقِيلَ** : عِبْرَتُهُمْ ، أَيْ : جَعَلْنَاهُمْ عِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ أَنْ يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ .

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَئِنْ سَأَلْتَ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أَيْ: لَيَعْتَرِفُنَّ بِأَنَّ الْخَالِقَ لِذَلِكَ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهُمْ مَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ. **ثُمَّ قَالَ**: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أَيْ: فِرَاشًا قَرَارًا ثَابِتَةً، يَسِيرُونَ عَلَيْهَا وَيَقُومُونَ وَيَنَامُونَ وَيَتَصَرَّفُونَ مَعَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ عَلَى تَيَّارِ الْمَاءِ، لَكِنَّهُ أَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ؛ لِئَلَّا تَمِيدَ هَكَذَا وَلَا هَكَذَا ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أَيْ: طُرُقًا بَيْنَ الْجِبَالِ وَالْأَوْدِيَةِ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أَيْ: فِي سَيْرِكُمْ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَقُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ وَإِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ أَيْ: بِحَسَبِ الْكِفَايَةِ؛ لِزُرُوعِكُمْ وَثِمَارِكُمْ وَشُرْبِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أَيْ: أَرْضًا مَيْتَةً فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَاءُ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ؛ ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَجْسَادِ يَوْمَ الْمَعَادِ بَعْدَ مَوْتِهَا **فَقَالَ**: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ **ثُمَّ قَالَ**: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أَيْ: مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ سَائِرِ الْأَصْنَافِ، مِنْ نَبَاتٍ وَزُرُوعٍ وَثِمَارٍ وَأَزَاهِيرَ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمِنَ الْحَيَوَانَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا وَأَصْنَافِهَا ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾ أَيْ: السُّفُنِ ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أَيْ: ذَلَّلَهَا لَكُمْ وَسَخَّرَهَا وَيَسَّرَهَا لِأَكْلِكُمْ لُحُومَهَا، وَشُرْبِكُمْ أَلْبَانَهَا، وَرُكُوبِكُمْ ظُهُورَهَا، وَلِهَذَا **قَالَ**: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أَيْ: لِتَسْتَوُوا مُتَمَكِّنِينَ مُرْتَفِعِينَ ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أَيْ: عَلَى ظُهُورِ هَذَا الْجِنْسِ ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ أَيْ: فِيمَا سَخَّرَ لَكُمْ ﴿إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أَيْ: مُقَاوِمِينَ، وَلَوْلَا تَسْخِيرُ اللهِ لَنَا هَذَا مَا قَدَرْنَا عَلَيْهِ ﴿مُقْرِنِينَ﴾ أَيْ: مُطِيقِينَ ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أَيْ: لَصَائِرُونَ إِلَيْهِ بَعْدَ مَمَاتِنَا، وَإِلَيْهِ سَيْرُنَا الْأَكْبَرُ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّنْبِيهِ بِسَيْرِ الدُّنْيَا عَلَى سَيْرِ الْآخِرَةِ، كَمَا نَبَّهَ بِالزَّادِ الدُّنْيَوِيِّ عَلَى الزَّادِ الْأُخْرَوِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وَبِاللِّبَاسِ الدُّنْيَوِيِّ عَلَى الْأُخْرَوِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]

وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِيمَا افْتَرَوْهُ وَكَذَّبُوهُ، فِي جَعْلِهِمْ بَعْضَ الْأَنْعَامِ لِطَوَاغِيتِهِمْ وَبَعْضَهَا لله تَعَالَى، كَمَا ذَكَرَ اللهُ ﷻ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، وَكَذَلِكَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ قِسْمَةِ الْبَنَاتِ وَالْبَنِينَ أَخَسَّهُمَا وَأَرْدَأَهُمَا وَهُوَ الْبَنَاتُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١-٢٢] **وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا**: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ وَهَذَا إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ غَايَةَ الْإِنْكَارِ. ثُمَّ ذَكَرَ تَمَامَ الْإِنْكَارِ **فَقَالَ**: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أَيْ: إِذَا بُشِّرَ أَحَدُ هَؤُلَاءِ بِمَا جَعَلُوهُ لله مِنَ الْبَنَاتِ يَأْنَفُ مِنْ ذَلِكَ غَايَةَ الْأَنَفَةِ، وَتَعْلُوهُ كَآبَةٌ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، وَيَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ خَجَلِهِ مِنْ ذَلِكَ، يَقُولُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فَكَيْفَ تَأْنَفُونَ أَنْتُمْ مِنْ ذَلِكَ وَتَنْسُبُونَهُ إِلَى الله ﷻ؟!

ثُمَّ قَالَ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أَيْ: الْمَرْأَةُ نَاقِصَةٌ يَكْمُلُ نَقْصُهَا بِلُبْسِ الْحُلِيِّ مُنْذُ تَكُونُ طِفْلَةً، وَإِذَا خَاصَمَتْ فَلَا عِبَارَةَ لَهَا، بَلْ هِيَ عَاجِزَةٌ عَيِيَّةٌ، أَوَمَنْ يَكُونُ هَكَذَا يُنْسَبُ إِلَى جَنَابِ الله الْعَظِيمِ؟ فَالْأُنْثَى نَاقِصَةُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ فِي الصُّورَةِ وَالْمَعْنَى، فَيَكْمُلُ نَقْصُ ظَاهِرِهَا وَصُورَتِهَا بِلُبْسِ الْحُلِيِّ وَمَا فِي مَعْنَاهُ، لِيُجْبَرَ مَا فِيهَا مِنْ نَقْصٍ.

وَأَمَّا نَقْصُ مَعْنَاهَا: فَإِنَّهَا ضَعِيفَةٌ عَاجِزَةٌ عَنِ الِانْتِصَارِ عِنْدَ الِانْتِصَارِ، لَا عِبَارَةَ لَهَا وَلَا هِمَّةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ أَيْ: اِعْتَقَدُوا فِيهِمْ ذَلِكَ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ تَعَالَى قَوْلَهُمْ ذَلِكَ **فَقَالَ**: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أَيْ: شَاهَدُوهُ وَقَدْ خَلَقَهُمُ اللهُ إِنَاثًا ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ أَيْ: بِذَلِكَ ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عَنْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ﴿وَقَالُوا لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ أَيْ: لَوْ أَرَادَ اللهُ لَحَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي

هِيَ عَلَى صُورَةِ الْمَلَائِكَةِ الَّتِي هِيَ بَنَاتُ اللهِ ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أَيْ : بِصِحَّةِ مَا قَالُوهُ وَاحْتَجُّوا بِهِ ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أَيْ : يَكْذِبُونَ وَيَتَقَوَّلُونَ ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ يَعْنِي : مَا يَعْلَمُونَ قُدْرَةَ اللهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَلَى ذَلِكَ .

أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ بِلَا بُرْهَانٍ وَلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ : ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِ شِرْكِهِمْ ﴿ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ أَيْ : فِيمَا هُمْ فِيهِ، أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم : ٣٥] أَيْ : لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ مُسْتَنَدٌ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ سِوَى تَقْلِيدِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، بِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى أُمَّةٍ ، وَالْمُرَادُ بِهَا : الدِّينُ هَاهُنَا ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم ﴾ أَيْ : وَرَائِهِمْ ﴿ مُّهْتَدُونَ ﴾ دَعْوَى مِنْهُمْ بِلَا دَلِيلٍ .

ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ قُلْ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ أَيْ : وَلَوْ عَلِمُوا وَتَيَقَّنُوا صِحَّةَ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ لَمَا انْقَادُوا لِذَلِكَ ، لِسُوءِ قَصْدِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ . ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ ، كَمَا فَصَّلَهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فِي قَصَصِهِمْ ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أَيْ : كَيْفَ بَادُوا وَهَلَكُوا ، وَكَيْفَ نَجَّى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ إِمَامِ الْحُنَفَاءِ ، وَوَالِدِ مَنْ بُعِثَ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، الَّذِي تُنْتَسَبُ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ فِي نَسَبِهَا وَمَذْهَبِهَا : أَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَوْثَانَ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ أَيْ : هَذِهِ الْكَلِمَةُ وَهِيَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَخَلْعُ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ ، وَهِيَ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ » أَيْ : جَعَلَهَا دَائِمَةً فِي ذُرِّيَّتِهِ يَقْتَدِي بِهِ فِيهَا مَنْ هَدَاهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أَيْ : إِلَيْهَا ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ ﴿ وَءَابَآءَهُمْ ﴾ أَيْ : فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فِي ضَلَالِهِمْ ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : بَيِّنَ الرِّسَالَةَ وَالنِّذَارَةَ ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ أَيْ : كَابَرُوهُ وَعَانَدُوهُ وَدَفَعُوا بِالصُّدُورِ وَالرَّاحِ كُفْرًا وَحَسَدًا وَبَغْيًا ﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ أَيْ : كَالْمُعْتَرِضِينَ عَلَى الَّذِي أَنْزَلَهُ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أَيْ : هَلَّا كَانَ إِنْزَالُ هَذَا الْقُرْآنِ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ كَبِيرٍ فِي أَعْيُنِهِمْ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ ؟ يَعْنُونَ : مَكَّةَ وَالطَّائِفَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الاعْتِرَاضِ : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ مَرْدُودًا إِلَيْهِمْ ، بَلْ إِلَى اللهِ ﷻ ، وَاللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يُنَزِّلُهَا إِلَّا عَلَى أَزْكَى الْخَلْقِ قَلْبًا وَنَفْسًا وَأَشْرَفِهِمْ بَيْتًا ، وَأَطْهَرِهِمْ أَصْلًا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا أَنَّهُ قَدْ فَاوَتَ بَيْنَ خَلْقِهِ فِيمَا أَعْطَاهُمْ ، مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَرْزَاقِ وَالْعُقُولِ وَالْفُهُومِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ، فَقَالَ : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ الْآيَةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ لِيُسَخِّرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْأَعْمَالِ لِاحْتِيَاجِ هَذَا إِلَى هَذَا وَهَذَا إِلَى هَذَا ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أَيْ : رَحْمَةُ اللهِ بِخَلْقِهِ خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أَيْ : لَوْلَا أَنْ يَعْتَقِدَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْجَهَلَةِ أَنَّ إِعْطَاءَنَا الْمَالَ دَلِيلٌ عَلَى مَحَبَّتِنَا لِمَنْ أَعْطَيْنَاهُ ، فَيَجْتَمِعُوا عَلَى الْكُفْرِ لِأَجْلِ الْمَالِ ﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ ﴾ أَيْ : سَلَالِمَ وَدَرَجًا مِنْ فِضَّةٍ ﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ أَيْ : يَصْعَدُونَ ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا ﴾ أَيْ : أَغْلَاقًا عَلَى أَبْوَابِهِمْ ﴿ وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴾ أَيْ : جَمِيعُ ذَلِكَ يَكُونُ فِضَّةً ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ أَيْ : وَذَهَبًا ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ الْحَقِيرَةِ

عِنْدَ اللهِ تَعَالَى ، أَيْ : يُعَجِّلَ لَهُمْ بِحَسَنَاتِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا فِي الدُّنْيَا مَآكِلَ وَمَشَارِبَ ، لِيُوَافُوا الْآخِرَةَ وَلَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - حَسَنَةٌ يَجْزِيهِمْ بِهَا . ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : هِيَ لَهُمْ خَاصَّةً لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ غَيْرُهُمْ .

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾ أَيْ : يَتَعَامَى وَيَتَغَافَلُ وَيُعْرِضُ ﴿ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ وَالْعَشَا فِي الْعَيْنِ ضَعْفُ بَصَرِهَا ، وَالْمُرَادُ هَاهُنَا : عَشَا الْبَصِيرَةِ ﴿ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] وَكَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [فصلت : ٢٥] وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي تَغَافَلَ عَنِ الْهُدَى نُقَيِّضُ لَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ . فَإِذَا وَافَى اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَبَرَّمُ بِالشَّيْطَانِ الَّذِي وُكِّلَ بِهِ ﴿ قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ . وَالْمُرَادُ بِالْمَشْرِقَيْنِ هَاهُنَا هُوَ : مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَإِنَّمَا اُسْتُعْمِلَ هَهُنَا تَغْلِيبًا ، كَمَا يُقَالُ : الْقَمَرَانِ ، وَالْعُمَرَانِ ، وَالْأَبَوَانِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أَيْ : لَا يُغْنِي عَنْكُمُ اجْتِمَاعُكُمْ فِي النَّارِ وَاشْتِرَاكُكُمْ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ . ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْكَ ، إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَلَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ، وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ فِي ذَلِكَ ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ أَيْ : لَا بُدَّ أَنْ نَنْتَقِمَ مِنْهُمْ وَنُعَاقِبَهُمْ ، وَلَوْ ذَهَبْتَ أَنْتَ ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ أَيْ : نَحْنُ قَادِرُونَ عَلَى هَذَا وَعَلَى هَذَا ، وَلَمْ يَقْبِضِ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ حَتَّى أَقَرَّ عَيْنَهُ

مِنْ أَعْدَائِهِ ، وَحَكَّمَهُ فِي نَوَاصِيهِمْ ، وَمَلَّكَهُ مَا تَضَمَّنَتْهُ صَيَاصِيهِمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أَيْ : خُذْ بِالْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ عَلَى قَلْبِكَ فَإِنَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَمَا يَهْدِي إِلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ الْمُفْضِي إِلَى صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ الْمُوصِّلِ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالْخَيْرِ الدَّائِمِ الْمُقِيمِ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ لَشَرَفٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّهُ شَرَفٌ لَهُمْ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ أُنْزِلَ بِلُغَتِهِمْ ، فَهُمْ أَفْهَمُ النَّاسِ لَهُ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا أَقْوَمَ النَّاسِ بِهِ وَأَعْمَلَهُمْ بِمُقْتَضَاهُ ، وَهَكَذَا كَانَ خِيَارُهُمْ وَصَفْوَتُهُمْ مِنَ الْخُلَّصِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَمَنْ شَابَهَهُمْ وَتَابَعَهُمْ ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أَيْ : لَتَذْكِيرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَتَخْصِيصُهُمْ بِالذِّكْرِ لَا يَنْفِي مَنْ سِوَاهُمْ ﴿ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ أَيْ : عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ ، وَكَيْفَ كُنْتُمْ فِي الْعَمَلِ بِهِ وَالِاسْتِجَابَةِ لَهُ ؟ ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أَيْ : جَمِيعُ الرُّسُلِ دَعَوْا إِلَى مَا دَعَوْتَ النَّاسَ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَنَهَوْا عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى عليه السلام أَنَّهُ ابْتَعَثَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ وَالْقَادَةِ وَالْأَتْبَاعِ وَالرَّعَايَا ، مِنَ الْقِبْطِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ ، يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ ، وَأَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُ آيَاتٍ عِظَامًا ، كَيَدِهِ وَعَصَاهُ ، وَمَا أُرْسِلَ مَعَهُ مِنَ الطُّوفَانِ وَالْجَرَادِ وَالْقُمَّلِ وَالضَّفَادِعِ وَالدَّمِ ، وَمِنْ نَقْصِ الزُّرُوعِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِهَا وَالِانْقِيَادِ لَهَا ، وَكَذَّبُوهَا وَسَخِرُوا مِنْهَا وَضَحِكُوا مِمَّنْ جَاءَهُمْ بِهَا ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ وَمَعَ هَذَا مَا رَجَعُوا عَنْ غَيِّهِمْ وَضَلَالِهِمْ وَجَهْلِهِمْ وَخَبَالِهِمْ ، وَكُلَّمَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ يَضْرَعُونَ إِلَى مُوسَى عليه السلام وَيَتَلَطَّفُونَ لَهُ فِي الْعِبَارَةِ بِقَوْلِهِمْ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ﴾ أَيْ : الْعَالِمُ ، وَكَانَ عُلَمَاءُ زَمَانِهِمْ هُمُ السَّحَرَةُ ، وَلَمْ يَكُنِ السِّحْرُ فِي زَمَانِهِمْ مَذْمُومًا عِنْدَهُمْ ، فَلَيْسَ هَذَا مِنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ الِانْتِقَاصِ مِنْهُمْ ؛ لِأَنَّ الْحَالَ حَالُ ضَرُورَةٍ مِنْهُمْ إِلَيْهِ لَا تُنَاسِبُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعْظِيمٌ فِي زَعْمِهِمْ فَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَعِدُونَ مُوسَى عليه السلام إِنْ كَشَفَ عَنْهُمْ هَذَا أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيُرْسِلُوا مَعَهُ بَنِي

إِسْرَائِيلَ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَنْكُثُونَ مَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ.

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَتَمَرُّدِهِ وَعُتُوِّهِ وَكُفْرِهِ وَعِنَادِهِ: أَنَّهُ جَمَعَ قَوْمَهُ، فَنَادَى فِيهِمْ مُتَبَجِّحًا مُفْتَخِرًا بِمُلْكِ مِصْرَ وَتَصَرُّفِهِ فِيهَا ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: قَدْ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتٌ وَأَنْهَارُ مَاءٍ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أَيْ: أَفَلَا تَرَوْنَ مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْمُلْكِ؟ يَعْنِي: وَمُوسَى وَأَتْبَاعُهُ فُقَرَاءُ ضُعَفَاءُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٣-٢٥]

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَقُولُ: بَلْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ، فَإِنَّمَا يَعْنِي فِرْعَوْنُ - لَعَنَهُ اللهُ - بِذَلِكَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ مُوسَى عليه السلام وَقَدْ كَذَبَ فِي قَوْلِهِ هَذَا كَذِبًا بَيِّنًا وَاضِحًا، وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ ﴿مَهِينٌ﴾ قِيلَ: حَقِيرٌ، وَقِيلَ: ضَعِيفٌ لَا مُلْكَ لَهُ وَلَا سُلْطَانَ وَلَا مَالَ ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يَعْنِي: لَا يَكَادُ يُفْصِحُ عَنْ كَلَامِهِ، فَهُوَ عَيِيٌّ حَصِرٌ. وَقِيلَ: لَا يَكَادُ يُفْهِمُ، وَقِيلَ: يَعْنِي: عَيِيُّ اللِّسَانِ، وَقِيلَ: يَعْنِي فِي لِسَانِهِ شَيْءٌ، مِنَ الْجَمْرَةِ حِينَ وَضَعَهَا فِي فَمِهِ وَهُوَ صَغِيرٌ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ فِرْعَوْنُ - لَعَنَهُ اللهُ - كَذِبٌ وَاخْتِلَاقٌ، وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى هَذَا الْكُفْرُ وَالْعِنَادُ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عليه السلام بِعَيْنٍ كَافِرَةٍ شَقِيَّةٍ، وَقَدْ كَانَ مُوسَى عليه السلام مِنَ الْجَلَالَةِ وَالْعَظَمَةِ وَالْبَهَاءِ فِي صُورَةٍ يُبْهِرُ أَبْصَارَ ذَوِي الْأَلْبَابِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أَيْ: وَهِيَ مَا يُجْعَلُ فِي الْأَيْدِي مِنَ الْحُلِيِّ ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أَيْ: يَكْنُفُونَهُ خِدْمَةً لَهُ وَيَشْهَدُونَ بِتَصْدِيقِهِ، نَظَرَ إِلَى الشَّكْلِ الظَّاهِرِ، وَلَمْ يَفْهَمِ السِّرَّ الْمَعْنَوِيَّ الَّذِي هُوَ أَظْهَرُ مِمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ لَوْ كَانَ يَعْلَمُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ أَيْ: اسْتَخَفَّ عُقُولَهُمْ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الضَّلَالَةِ فَاسْتَجَابُوا لَهُ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قِيلَ: ﴿ءَاسَفُونَا﴾ أَسْخَطُونَا، وَقِيلَ: أَغْضَبُونَا ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ قَالَ أَبُو مِجْلَزٍ: ﴿سَلَفًا﴾ لِمِثْلِ مَنْ عَمِلَ بِعَمَلِهِمْ ﴿وَمَثَلًا﴾ أَيْ: عِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَعَنُّتِ قُرَيْشٍ فِي كُفْرِهِمْ وَتَعَمُّدِهِمُ الْعِنَادَ وَالْجَدَلَ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ **قِيلَ**: يَضْحَكُونَ. أَيْ: **أُعْجِبُوا بِذَلِكَ**، **وَقِيلَ**: **يَجْزَعُونَ** وَيَضْحَكُونَ، **وَقِيلَ**: يُعْرِضُونَ. ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ**: يَقُولُونَ: آلِهَتُنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أَيْ: مِرَاءً، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَى الْآيَةِ؛ لِأَنَّهَا لِمَا لَا يَعْقِلُ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ثُمَّ هِيَ خِطَابٌ لِقُرَيْشٍ، وَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ، وَلَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَ الْمَسِيحَ حَتَّى يُورِدُوهُ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ مَقَالَتَهُمْ إِنَّمَا كَانَتْ جَدَلًا مِنْهُمْ لَيْسُوا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهَا، **عَنْ أَبِي أُمَامَةَ** ﷺ **قَالَ**: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُورِثُوا الْجَدَلَ**»، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ **يَعْنِي**: **عِيسَى** عليه السلام **مَا هُوَ إِلَّا عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ** ﷻ **أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ** ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ **أَيْ**: **دَلَالَةً وَحُجَّةً وَبُرْهَانًا عَلَى قُدْرَتِنَا عَلَى مَا نَشَاءُ** ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ **أَيْ**: **بَدَلَكُمْ** ﴿مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ **يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، كَمَا يَخْلُفُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا** ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ الصَّحِيحُ أَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى عِيسَى، فَإِنَّ السِّيَاقَ فِي ذِكْرِهِ، ثُمَّ الْمُرَادُ بِذَلِكَ: نُزُولُهُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، **قَالَ مُجَاهِدٌ**: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أَيْ: آيَةٌ لِلسَّاعَةِ خُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ أَخْبَرَ بِنُزُولِ عِيسَى عليه السلام قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أَيْ: لَا تَشُكُّوا فِيهَا، إِنَّهَا وَاقِعَةٌ وَكَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ أَيْ: فِيمَا أُخْبِرُكُمْ بِهِ ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ

مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أَيْ : عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ أَيْ : بِالنُّبُوَّةِ ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ يَعْنِي مِنَ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ لَا الدُّنْيَوِيَّةِ ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ أَيْ : أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ لَهُ ، فُقَرَاءُ إِلَيْهِ ، مُشْتَرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَهُوَ عِبَادَةُ الرَّبِّ ﷻ وَحْدَهُ ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ أَيْ : اخْتَلَفَتِ الْفِرَقُ وَصَارُوا شِيَعًا فِيهِ ، مِنْهُمْ مَنْ يُقِرُّ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَهُوَ الْحَقُّ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ وَلَدُ اللهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّهُ اللهُ - تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا - وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الْمُكَذِّبُونَ لِلرُّسُلِ ﴿ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أَيْ : فَإِنَّهَا كَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ وَوَاقِعَةٌ ، وَهَؤُلَاءِ غَافِلُونَ عَنْهَا غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ ، فَإِذَا جَاءَتْ إِنَّمَا تَجِيءُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِهَا ، فَحِينَئِذٍ يَنْدَمُونَ كُلَّ النَّدَمِ ، حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : كُلُّ صَدَاقَةٍ وَصَحَابَةٍ لِغَيْرِ اللهِ فَإِنَّهَا تَنْقَلِبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَدَاوَةً ، إِلَّا مَا كَانَ للهِ ﷻ فَإِنَّهُ دَائِمٌ بِدَوَامِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ ثُمَّ بَشَّرَهُمْ فَقَالَ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ أَيْ : آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَبَوَاطِنُهُمْ ، وَانْقَادَتْ لِشَرْعِ اللهِ جَوَارِحُهُمْ وَظَوَاهِرُهُمْ ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴿ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ ﴾ أَيْ : نُظَرَاؤُكُمْ ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ أَيْ : تَتَنَعَّمُونَ وَتَسْعَدُونَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ الرُّومِ ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ أَيْ : زَبَادِي آنِيَةِ الطَّعَامِ ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ وَهِيَ : آنِيَةُ الشَّرَابِ ، أَيْ : مِنْ ذَهَبٍ لَا خَرَاطِيمَ لَهَا وَلَا عُرَى ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ أَيْ : طِيبَ الطَّعْمِ وَالرِّيحِ

وَحَسِنَ الْمَنْظَرِ ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا ﴾ أَيْ : فِي الْجَنَّةِ ﴿ خَٰلِدُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا تَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا . ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّفَضُّلِ وَالِامْتِنَانِ ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : أَعْمَالُكُمُ الصَّالِحَةُ كَانَتْ سَبَبًا لِشُمُولِ رَحْمَةِ اللهِ إِيَّاكُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، وَلَكِنْ بِرَحْمَةِ اللهِ وَفَضْلِهِ ، وَإِنَّمَا الدَّرَجَاتُ يُنَالُ تَفَاوُتُهَا بِحَسَبِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ أَيْ : مِنْ جَمِيعِ الْأَنْوَاعِ ﴿ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أَيْ : مَهْمَا اخْتَرْتُمْ وَأَرَدْتُمْ ، وَلَمَّا ذَكَرَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ ذَكَرَ بَعْدَهُ الْفَاكِهَةَ لِتَتِمَّ النِّعْمَةُ وَالْغِبْطَةُ .

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ السُّعَدَاءِ ، ثَنَّى بِذِكْرِ الْأَشْقِيَاءِ ، **فَقَالَ** : ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ أَيْ : سَاعَةً وَاحِدَةً ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أَيْ : آيِسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ ، بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ ، فَكَذَّبُوا وَعَصَوْا ، فَجُوزُوا بِذَلِكَ جَزَاءً وِفَاقًا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ ﴾ وَهُوَ : خَازِنُ النَّارِ .

عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَعْلَى عَنْ أَبِيهِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ عَلَى الْمِنْبَرِ : ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ . أَيْ : يَقْبِضُ أَرْوَاحَنَا فَيُرِيحُنَا مِمَّا نَحْنُ فِيهِ ، فَإِنَّهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر : ٣٦] وَقَالَ ﷻ : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى : ١١-١٣] فَلَمَّا سَأَلُوا أَنْ يَمُوتُوا **أَجَابَهُمْ مَالِكٌ** : ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ أَيْ : لَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا وَلَا مَحِيدَ لَكُمْ عَنْهَا ، ثُمَّ ذَكَرَ سَبَبَ شِقْوَتِهِمْ وَهُوَ مُخَالَفَتُهُمْ لِلْحَقِّ وَمُعَانَدَتُهُمْ لَهُ ، **فَقَالَ** : ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : بَيَّنَّاهُ لَكُمْ وَوَضَّحْنَاهُ وَفَسَّرْنَاهُ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ أَيْ : وَلَكِنْ كَانَتْ سَجَايَاكُمْ لَا تَقْبَلُهُ وَلَا تُقْبِلُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا تَنْقَادُ لِلْبَاطِلِ وَتُعَظِّمُهُ ، وَتَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَتَأْبَاهُ ، وَتُبْغِضُ أَهْلَهُ . فَعُودُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِالْمَلَامَةِ وَانْدَمُوا حَيْثُ لَا تَنْفَعُكُمُ النَّدَامَةُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : أَرَادُوا كَيْدَ شَرٍّ فَكِدْنَاهُمْ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مُجَاهِدٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ٥٠] ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَتَحَيَّلُونَ فِي رَدِّ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ بِحِيَلٍ وَمَكْرٍ يَسْلُكُونَهُ ، فَكَادَهُمُ اللهُ

تَعَالَى ، وَرَدَّ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ .

أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قَالَ : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ﴾ أَيْ : سِرُّهُمْ وَعَلَانِيَتُهُمْ ﴿ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أَيْ : نَحْنُ نَعْلَمُ مَا هُمْ عَلَيْهِ وَالْمَلَائِكَةُ أَيْضًا يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ أَيْ : لَوْ فُرِضَ هَذَا لَعَبَدْتُهُ عَلَى ذَلِكَ لِأَنِّي عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِهِ ، مُطِيعٌ لِجَمِيعِ مَا يَأْمُرُنِي بِهِ ، لَيْسَ عِنْدِي اسْتِكْبَارٌ وَلَا إِبَاءٌ عَنْ عِبَادَتِهِ ، فَلَوْ فُرِضَ هَذَا لَكَانَ هَذَا ، وَلَكِنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّهِ تَعَالَى ، وَالشَّرْطُ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ الْوُقُوعُ وَلَا الْجَوَازُ أَيْضًا ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الزمر : ٤] وَقَالَ قَتَادَةُ : هِيَ كَلِمَةٌ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فَلَا يَنْبَغِي ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ يَقُولُ : لَوْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ عَبَدَهُ بِأَنَّ لَهُ وَلَدٌ ، وَلَكِنْ لَا وَلَدَ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أَيْ : تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، فَإِنَّهُ فَرْدٌ أَحَدٌ صَمَدٌ ، لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا كُفْءَ لَهُ ، فَلَا وَلَدَ لَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا ﴾ أَيْ : فِي جَهْلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ ﴿ وَيَلْعَبُوا ﴾ فِي دُنْيَاهُمْ ﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، أَيْ : فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ كَيْفَ يَكُونُ مَصِيرُهُمْ وَمَآلُهُمْ وَحَالُهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ أَيْ : هُوَ إِلَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ ، وَإِلَهُ مَنْ فِي الْأَرْضِ ، يَعْبُدُهُ أَهْلُهُمَا ، وَكُلُّهُمْ خَاضِعُونَ لَهُ ، أَذِلَّاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أَيْ : هُوَ خَالِقُهُمَا وَمَالِكُهُمَا

وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا ، بِلَا مُدَافَعَةٍ وَلَا مُمَانَعَةٍ ، فَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْوَلَدِ ﴿ وَتَبَارَكَ ﴾ أَيْ : اِسْتَقَرَّ لَهُ السَّلَامَةُ مِنَ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ ؛ لِأَنَّهُ الرَّبُّ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ، الْمَالِكُ لِلْأَشْيَاءِ ، الَّذِي بِيَدِهِ أَزِمَّةُ الْأُمُورِ نَقْضًا وَإِبْرَامًا ﴿ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ أَيْ : لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : فَيُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ ﴿ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الشَّفَاعَةِ لَهُمْ ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، أَيْ : لَكِنْ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ عَلَى بَصِيرَةٍ وَعِلْمٍ ، فَإِنَّهُ تَنْفَعُ شَفَاعَتُهُ عِنْدَهُ بِإِذْنِهِ لَهُ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أَيْ : وَلَئِنْ سَأَلْتَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿ مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : هُمْ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهُ الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ جَمِيعِهَا ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِمَّنْ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ، فَهُمْ فِي ذَلِكَ فِي غَايَةِ الْجَهْلِ وَالسَّفَاهَةِ وَسَخَافَةِ الْعَقْلِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : وَقَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ قِيلَهُ ، أَيْ : شَكَا إِلَى رَبِّهِ شَكْوَاهُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٣٠] ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ أَيْ : الْمُشْرِكِينَ ﴿ وَقُلْ سَلَٰمٌ ﴾ أَيْ : لَا تُجَاوِبْهُمْ بِمِثْلِ مَا يُخَاطِبُونَكَ بِهِ مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ ، وَلَكِنْ تَأَلَّفْهُمْ وَاصْفَحْ عَنْهُمْ فِعْلًا وَقَوْلًا ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لَهُمْ ، وَلِهَذَا أَحَلَّ بِهِمْ بَأْسَهُ الَّذِي لَا يُرَدُّ ، وَأَعْلَى دِينَهُ وَكَلِمَتَهُ ، وَشَرَعَ بَعْدَ ذَلِكَ الْجِهَادَ وَالْجِلَادَ ، حَتَّى دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ، وَانْتَشَرَ الْإِسْلَامُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الزُّخْرُفِ ، وللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٥٩ تفسير سورة الدخان مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ : إِنَّهُ أَنْزَلَهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ، وَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة : ١٨٥]

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ أَيْ : مُعَلِّمِينَ النَّاسَ مَا يَنْفَعُهُمْ وَيَضُرُّهُمْ شَرْعًا لِتَقُومَ حُجَّةُ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ ، أَيْ : فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ يُفْصَلُ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى الْكَتَبَةِ أَمْرُ السَّنَةِ ، وَمَا يَكُونُ فِيهَا مِنَ الْآجَالِ وَالْأَرْزَاقِ وَمَا يَكُونُ فِيهَا إِلَى آخِرِهَا . **وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا** : ﴿ حَكِيمٍ ﴾ أَيْ : مُحْكَمٌ ، لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُغَيَّرُ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ﴾ أَيْ : جَمِيعُ مَا يَكُونُ وَيُقَدِّرُهُ اللهُ تَعَالَى وَمَا يُوحِيهِ فَبِأَمْرِهِ وَإِذْنِهِ وَعِلْمِهِ ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أَيْ : إِلَى النَّاسِ ، رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ ، فَإِنَّ الْحَاجَةَ كَانَتْ مَاسَّةً إِلَيْهِ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ أَيْ : الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَخَالِقُهُمَا وَمَالِكُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ كُنْتُمْ مُتَحَقِّقِينَ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : بَلْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ، أَيْ : قَدْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ الْيَقِينُ ، وَهُمْ يَشُكُّونَ فِيهِ وَيَمْتَرُونَ ، وَلَا يُصَدِّقُونَ بِهِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ وَمُتَهَدِّدًا : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيْدٍ الْغِفَارِيِّ ﷺ قَالَ : أَشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غُرْفَةٍ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ السَّاعَةَ ، فَقَالَ ﷺ : « **لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ : طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالدُّخَانَ ، وَالدَّابَّةَ ، وَخُرُوجَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَخُرُوجَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَالدَّجَّالَ ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ : خَسْفٍ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسْفٍ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٍ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَنَارًا تَخْرُجُ**

مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ تَسُوقُ النَّاسَ - أَوْ تَحْشُرُ النَّاسَ -: تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا ، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا » . وَفِيهِ دَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى أَنَّ الدُّخَانَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُنْتَظَرَةِ .

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : بَيِّنٌ وَاضِحٌ يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ ﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ أَيْ : يَتَغَشَّاهُمْ وَيُعْمِيهِمْ . ﴿ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا ، أَوْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ذَلِكَ ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : يَقُولُ الْكَافِرُونَ إِذَا عَايَنُوا عَذَابَ اللهِ وَعِقَابَهُ سَائِلِينَ رَفْعَهُ وَكَشْفَهُ عَنْهُمْ ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ يَقُولُ : كَيْفَ لَهُمْ بِالتَّذَكُّرِ وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا بَيِّنَ الرِّسَالَةَ وَالنِّذَارَةَ ، وَمَعَ هَذَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَمَا وَافَقُوهُ ، بَلْ كَذَّبُوهُ وَقَالُوا : مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ . ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ : **أَحَدُهُمَا** : أَنَّهُ يَقُولُ تَعَالَى : وَلَوْ كَشَفْنَا عَنْكُمُ الْعَذَابَ وَرَجَعْنَاكُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا ، لَعُدْتُمْ إِلَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٨] ، **وَالثَّانِي** : أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ إِنَّا مُؤَخِّرُو الْعَذَابِ عَنْكُمْ قَلِيلًا بَعْدَ انْعِقَادِ أَسْبَابِهِ وَوُصُولِهِ إِلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ مُسْتَمِرُّونَ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالضَّلَالِ ، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْكَشْفِ عَنْهُمْ أَنْ يَكُونَ بَاشَرَهُمْ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ إِلَى عَذَابِ اللهِ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِنْ كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ يَوْمُ بَطْشَةٍ أَيْضًا ، **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -**: قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ : الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى يَوْمَ بَدْرٍ ، وَأَنَا أَقُولُ : هِيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ .

۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْأَيَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَقَدِ اخْتَبَرْنَا قَبْلَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، وَهُمْ قِبْطُ مِصْرَ ﴿ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ يَعْنِي : مُوسَى كَلِيمُهُ عليه السلام ﴿ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ كَقَوْلِهِ عز وجل ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[طه : ٤٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أَيْ : مَأْمُونٌ عَلَى مَا أُبَلِّغُكُمُوهُ ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لَا تَسْتَكْبِرُوا عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِهِ ، وَالِانْقِيَادِ لِحُجَجِهِ وَالْإِيمَانِ بِبَرَاهِينِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر:٦٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : بِحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ وَاضِحَةٍ ، وَهِيَ مَا أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْأَدِلَّةِ الْقَاطِعَاتِ ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ قِيلَ : هُوَ الرَّجْمُ بِاللِّسَانِ وَهُوَ الشَّتْمُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : الرَّجْمُ بِالْحِجَارَةِ ، أَيْ : أَعُوذُ بِاللهِ الَّذِي خَلَقَنِي وَخَلَقَكُمْ مِنْ أَنْ تَصِلُوا إِلَيَّ بِسُوءٍ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴾ أَيْ : فَلَا تَتَعَرَّضُوا لِي وَدَعُوا الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مُسَالَمَةً إِلَى أَنْ يَقْضِيَ اللهُ بَيْنَنَا ، فَلَمَّا طَالَ مَقَامُهُ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ وَأَقَامَ حُجَجَ اللهِ عَلَيْهِمْ ، كُلُّ ذَلِكَ وَمَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا كُفْرًا وَعِنَادًا ، دَعَا رَبَّهُ عَلَيْهِمْ دَعْوَةً نَفَذَتْ فِيهِمْ ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَخْرُجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَمْرِ فِرْعَوْنَ وَمُشَاوَرَتِهِ وَاسْتِئْذَانِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾[طه : ٧٧] ، وَقَوْلُهُ هَاهُنَا : ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى عليه السلام لَمَّا جَاوَزَ هُوَ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ، أَرَادَ مُوسَى أَنْ يَضْرِبَهُ بِعَصَاهُ حَتَّى يَعُودَ كَمَا كَانَ ، لِيَصِيرَ حَائِلًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ فِرْعَوْنَ ، فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ ، فَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَتْرُكَهُ عَلَى حَالِهِ سَاكِنًا ، وَبَشَّرَهُ بِأَنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ فِيهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَخَافُ دَرَكًا وَلَا يَخْشَى . ﴿ رَهْوًا ﴾ طَرِيقًا يَبَسًا كَهَيْئَتِهِ ، يَقُولُ : لَا تَأْمُرْهُ يَرْجِعْ ، اُتْرُكْهُ حَتَّى يَرْجِعَ آخِرُهُمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ ﴾ وَهِيَ الْبَسَاتِينُ ﴿ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ ﴾ وَالْمُرَادُ بِهَا : الْأَنْهَارُ وَالْآبَارُ ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ وَهِيَ الْمَسَاكِنُ الْأَنِيقَةُ وَالْأَمَاكِنُ الْحَسَنَةُ ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴾ أَيْ : عِيشَةٍ ، كَانُوا يَتَفَكَّهُونَ فِيهَا فَيَأْكُلُونَ مَا شَاءُوا ، وَيَلْبَسُونَ مَا أَحَبُّوا ، مَعَ الْأَمْوَالِ أَوِ الْجَاهَاتِ وَالْحُكْمِ فِي الْبِلَادِ ، فَسُلِبُوا ذَلِكَ جَمِيعَهُ فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَفَارَقُوا الدُّنْيَا وَصَارُوا إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَتِلْكَ الْحَوَاصِلِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ ، وَالْمَمَالِكِ الْقِبْطِيَّةِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، كَمَا قَالَ وَتَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[الشعراء : ٥٩]

وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ كَمَا تَقَدَّمَ . ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ

ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أَيْ : لَمْ تَكُنْ لَهُمْ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ تَصْعَدُ فِي أَبْوَابِ السَّمَاءِ فَتَبْكِي عَلَى فَقْدِهِمْ ، وَلَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ بِقَاعٌ عَبَدُوا اللهَ تَعَالَى فِيهَا فَقَدَتْهُمْ ، فَلِهَذَا اِسْتَحَقُّوا أَنْ لَا يُنْظَرُوا وَلَا يُؤَخَّرُوا لِكُفْرِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ ، وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ . **قَالَ قَتَادَةُ** : كَانُوا أَهْوَنَ عَلَى اللهِ ﷻ مِنْ أَنْ تَبْكِي عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ يَمْتَنُّ عَلَيْهِمْ تَعَالَى بِذَلِكَ ، حَيْثُ أَنْقَذَهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنْ إِهَانَةِ فِرْعَوْنَ وَإِذْلَالِهِ لَهُمْ ، وَتَسْخِيرِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْأَعْمَالِ الْمُهِينَةِ الشَّاقَّةِ . ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا ﴾ أَيْ : مُسْتَكْبِرًا جَبَّارًا عَنِيدًا ﴿ مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ أَيْ :سَرِفًا فِي أَمْرِهِ ، سَخِيفَ الرَّأْيِ عَلَى نَفْسِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : عَلَى مَنْ هُمْ بَيْنَ ظَهْرَيْهِ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : أُخْتِيرُوا عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِمْ ذَلِكَ ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أَيْ : الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ ﴿ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : اخْتِبَارٌ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ لِمَنِ اهْتَدَى بِهِ .

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ وَالْمَعَادَ ، وَأَنَّهُ مَا ثَمَّ إِلَّا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا حَيَاةَ بَعْدَ الْمَمَاتِ ، وَلَا بَعْثَ وَلَا نُشُورَ ، وَيَحْتَجُّونَ بِآبَائِهِمُ الْمَاضِينَ الَّذِينَ ذَهَبُوا فَلَمْ يَرْجِعُوا ، فَإِنْ كَانَ الْبَعْثُ حَقًّا ﴿ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وَهَذِهِ حُجَّةٌ بَاطِلَةٌ وَشُبْهَةٌ فَاسِدَةٌ ، فَإِنَّ الْمَعَادَ إِنَّمَا هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا بَلْ بَعْدَ انْقِضَائِهَا وَذَهَابِهَا وَفَرَاغِهَا ، يُعِيدُ اللهُ الْعَالَمِينَ خَلْقًا جَدِيدًا وَيَجْعَلُ الظَّالِمِينَ لِنَارِ جَهَنَّمَ وَقُودًا يَوْمَ تَكُونُونَ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا لَهُمْ ، وَمُتَوَعِّدًا وَمُنْذِرًا لَهُمْ بَأْسَهُ الَّذِي لَا يُرَدُّ ، كَمَا حَلَّ بِأَشْبَاهِهِمْ وَنُظَرَائِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْمُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ ، كَقَوْمِ تُبَّعٍ - وَهُمْ سَبَأٌ - حَيْثُ أَهْلَكَهُمُ اللهُ ﷻ وَخَرَّبَ بِلَادَهُمْ ، وَشَرَّدَهُمْ فِي الْبِلَادِ ، وَفَرَّقَهُمْ شَذَرَ مَذَرَ ، كَمَا تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ سَبَأٍ .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَدْلِهِ وَتَنْزِيهِهِ نَفْسَهُ عَنِ اللَّعِبِ وَالْعَبَثِ وَالْبَاطِلِ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص : ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون : ١١٥-١١٦] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ اللهُ تَعَالَى فِيهِ بَيْنَ الْخَلَائِقِ ، فَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ وَيُثِيبُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أَيْ : يَجْمَعُهُمْ كُلُّهُمْ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ ، ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَا يَنْفَعُ قَرِيبٌ قَرِيبًا ، كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١] وَكَقَوْلِهِ ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ [المعارج : ١٠-١١] أَيْ : لَا يَسْأَلُ أَخًا لَهُ عَنْ حَالِهِ وَهُوَ يَرَاهُ عِيَانًا .

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَنْصُرُ الْقَرِيبُ قَرِيبَهُ ، وَلَا يَأْتِيهِ نَصْرُهُ مِنَ الْخَارِجِ ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : لَا يَنْفَعُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا رَحْمَةُ اللهِ ﷻ بِخَلْقِهِ ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أَيْ : هُوَ عَزِيزٌ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ .

إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُعَذِّبُ بِهِ الْكَافِرِينَ الْجَاحِدِينَ لِلِقَائِهِ : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾ وَالْأَثِيمُ . أَيْ : فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ ، وَهُوَ الْكَافِرُ ﴿ كَٱلْمُهْلِ ﴾ قَالُوا : كَعَكَرِ الزَّيْتِ ﴿ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ أَيْ : مِنْ حَرَارَتِهَا وَرَدَاءَتِهَا ﴿ خُذُوهُ ﴾ أَيْ : الْكَافِرُ ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ تَعَالَى إِذَا قَالَ لِلزَّبَانِيَةِ ﴿ خُذُوهُ ﴾ ابْتَدَرَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْهُمْ ﴿ فَٱعْتِلُوهُ ﴾ أَيْ : سُوقُوهُ سَحْبًا وَدَفْعًا فِي ظَهْرِهِ ﴿ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أَيْ : وَسَطِهَا ﴿ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾ [الحج : ١٩-٢٠] ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ أَيْ : قُولُوا لَهُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّهَكُّمِ وَالتَّوْبِيخِ ﴿ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور : ١٣-١٥] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ

مُتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٥٤﴾ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : لله فِي الدُّنْيَا ﴿ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ أَيْ : فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْجَنَّةُ قَدْ أَمِنُوا فِيهَا مِنَ الْمَوْتِ وَالْخُرُوجِ ، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ وَحُزْنٍ وَجَزَعٍ وَتَعَبٍ وَنَصَبٍ ، وَمِنَ الشَّيْطَانِ وَكَيْدِهِ ، وَسَائِرِ الْآفَاتِ وَالْمَصَائِبِ ﴿ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴾ وَهَذَا فِي مُقَابَلَةِ مَا أُولَئِكَ فِيهِ مِنْ شَجَرَةِ الزَّقُّومِ ، وَشُرْبِ الْحَمِيمِ ﴿ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ ﴾ وَهُوَ : رَفِيعُ الْحَرِيرِ ، كَالْقُمْصَانِ وَنَحْوِهَا ﴿ وَإِسۡتَبۡرَقٖ ﴾ وَهُوَ : مَا فِيهِ بَرِيقٌ وَلَمَعَانٌ وَذَلِكَ كَالرِّيَاشِ ، وَمَا يُلْبَسُ عَلَى أَعَالِي الْقُمَاشِ ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ أَيْ : عَلَى السُّرُرِ ، لَا يَجْلِسُ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَظَهْرُهُ إِلَى غَيْرِهِ ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴾ أَيْ : هَذَا الْعَطَاءُ مَعَ مَا قَدْ مَنَحْنَاهُمْ مِنَ الزَّوْجَاتِ الْحِسَانِ الْحُورِ الْعِينِ اللَّاتِي ﴿ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ أَيْ : مَهْمَا طَلَبُوا مِنْ أَنْوَاعِ الثِّمَارِ أُحْضِرَ لَهُمْ ، وَهُمْ آمِنُونَ مِنِ انْقِطَاعِهِ وَامْتِنَاعِهِ بَلْ يُحْضَرُ إِلَيْهِمْ كُلَّمَا أَرَادُوا ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ يُؤَكِّدُ النَّفْيَ ، فَإِنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّهُمْ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ أَبَدًا ﴿ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ أَيْ : مَعَ هَذَا النَّعِيمِ الْعَظِيمِ الْمُقِيمِ قَدْ وَقَاهُمْ ، وَسَلَّمَهُمْ وَنَجَّاهُمْ وَزَحْزَحَهُمْ عَنِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي دَرَكَاتِ الْجَحِيمِ ، فَحَصَلَ لَهُمُ الْمَطْلُوبُ ، وَنَجَّاهُمْ مِنَ الْمَرْهُوبِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا كَانَ هَذَا بِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَسَّرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ سَهْلًا وَاضِحًا بَيِّنًا جَلِيًّا بِلِسَانِكَ الَّذِي هُوَ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ وَأَجْلَاهَا وَأَحْلَاهَا وَأَعْلَاهَا ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : يَتَفَهَّمُونَ وَيَعْلَمُونَ ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ مَعَ هَذَا الْوُضُوحِ وَالْبَيَانِ مِنَ النَّاسِ مَنْ كَفَرَ وَخَالَفَ وَعَانَدَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ مُسَلِّيًا لَهُ وَوَاعِدًا لَهُ بِالنَّصْرِ ، وَمُتَوَعِّدًا لِمَنْ كَذَّبَهُ بِالْعَطَبِ وَالْهَلَاكِ : ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ ﴾ أَيْ : انْتَظِرْ ﴿ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴾ أَيْ : فَسَيَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ النُّصْرَةُ وَالظَّفَرُ وَعُلُوُّ الْكَلِمَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَإِنَّهَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ وَلِإِخْوَانِكَ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ﴾ [المجادلة : ٢١]

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الدُّخَانِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

تفسير سورة الجاثية آياتها ٣٧ مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ
ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

يُرْشِدُ تَعَالَى خَلْقَهُ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي آلَائِهِ وَنِعَمِهِ ، وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي خَلَقَ بِهَا السَّمَاوَاتِ الْأَرْضِ ، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَجْنَاسِ وَالْأَنْوَاعِ ، مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، وَالدَّوَابِّ وَالطُّيُورِ وَالْوُحُوشِ وَالسِّبَاعِ وَالْحَشَرَاتِ ، وَمَا فِي الْبَحْرِ مِنَ الْأَصْنَافِ الْمُتَنَوِّعَةِ ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي تَعَاقُبِهِمَا دَائِبَيْنِ لَا يَفْتُرَانِ ، هَذَا بِظَلَامِهِ وَهَذَا بِضِيَائِهِ ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ السَّحَابِ مِنَ الْمَطَرِ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ، وَسَمَّاهُ رِزْقًا ؛ لِأَنَّ بِهِ يَحْصُلُ الرِّزْقُ ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، أَيْ : بَعْدَمَا كَانَتْ هَامِدَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا شَيْءَ ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾ أَيْ : جَنُوبًا ، وَشِمَالًا ، وَدَبُورًا وَصَبًا ، بَرِّيَّةً وَبَحْرِيَّةً ، لَيْلِيَّةً وَنَهَارِيَّةً ، وَمِنْهَا مَا هُوَ لِلْمَطَرِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ لِلِّقَاحِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ غِذَاءٌ لِلْأَرْوَاحِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ عَقِيمٌ لَا يُنْتِجُ ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوَّلًا : ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثُمَّ ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ ثُمَّ ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ وَهُوَ تَرَقٍّ مِنْ حَالٍ شَرِيفٍ إِلَى مَا هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ وَأَعْلَى .

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾
وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ
فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ
﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَذِهِ آيَاتُ اللهِ يَعْنِي الْقُرْآنَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : مُتَضَمِّنَةٌ الْحَقَّ مِنَ الْحَقِّ ، فَإِذَا كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَلَا يَنْقَادُونَ لَهَا ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ

وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ؟! **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أَيْ : أَفَّاكٍ فِي قَوْلِهِ كَذَّابٍ ، حَلَّافٍ مَهِينٍ ، أَثِيمٍ فِي فِعْلِهِ وَقَلْبِهِ ، كَافِرٍ بِآيَاتِ اللهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : تُقْرَأُ عَلَيْهِ ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ أَيْ : عَلَى كُفْرِهِ وَجُحُودِهِ اسْتِكْبَارًا وَعِنَادًا ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أَيْ : كَأَنَّهُ مَا سَمِعَهَا ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أَيْ : فَأَخْبِرْهُ أَنَّ لَهُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابًا أَلِيمًا مُوجِعًا ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ أَيْ : إِذَا حَفِظَ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ كَفَرَ بِهِ وَاتَّخَذَهُ سُخْرِيًّا وَهُزُوًا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أَيْ : فِي مُقَابَلَةِ مَا اسْتَهَانَ بِالْقُرْآنِ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ .

ثُمَّ فَسَّرَ الْعَذَابَ الْحَاصِلَ لَهُ يَوْمَ مَعَادِهِ **فَقَالَ** : ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أَيْ : كُلُّ مَنِ اتَّصَفَ بِذَلِكَ سَيَصِيرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَا تَنْفَعُهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴿ وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ أَيْ : وَلَا تُغْنِي عَنْهُمُ الْآلِهَةُ الَّتِي عَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ شَيْئًا ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . **ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ هَٰذَا هُدًى ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ وَهُوَ الْمُؤْلِمُ الْمُوجِعُ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

۞ **ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾**

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى عَبِيدِهِ فِيمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ الْبَحْرِ ﴿ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ ﴾ وَهِيَ السُّفُنُ فِيهِ بِأَمْرِهِ تَعَالَى ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَمَرَ الْبَحْرَ بِحَمْلِهَا ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أَيْ : فِي الْمَتَاجِرِ وَالْمَكَاسِبِ ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : عَلَى حُصُولِ الْمَنَافِعِ الْمَجْلُوبَةِ إِلَيْكُمْ مِنَ الْأَقَالِيمِ النَّائِيَةِ وَالْآفَاقِ الْقَاصِيَةِ ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْكَوَاكِبِ وَالْجِبَالِ ، وَالْبِحَارِ وَالْأَنْهَارِ ، وَجَمِيعِ مَا تَنْتَفِعُونَ بِهِ ، أَيْ : الْجَمِيعُ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ وَامْتِنَانِهِ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ أَيْ : مِنْ عِنْدِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لِيَصْفَحُوا عَنْهُمْ وَيَتَحَمَّلُوا الْأَذَى مِنْهُمْ ، وَكَانَ هَذَا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ، أُمِرُوا أَنْ يَصْبِرُوا عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ كَالتَّأْلِيفِ لَهُمْ ، ثُمَّ لَمَّا أَصَرُّوا عَلَى الْعِنَادِ شَرَعَ اللهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْجِلَادَ وَالْجِهَادَ ﴿ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أَيْ : إِذَا صَفَحُوا عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا

فَإِنَّ اللهَ ﷻ مُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ فِي الْآخِرَةِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : تَعُودُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتُعْرَضُونَ بِأَعْمَالِكُمْ عَلَيْهِ ، فَيَجْزِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ إِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ ، وَجَعْلِهِ الْمُلْكَ فِيهِمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : فِي زَمَانِهِمْ ، ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ أَيْ : حُجَجًا وَبَرَاهِينَ وَأَدِلَّةً قَاطِعَاتٍ ، فَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَجُ ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ قِيَامِ الْحُجَّةِ ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بَغْيًا مِنْهُمْ عَلَى بَعْضِهِمْ بَعْضًا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أَيْ : سَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ ، وَهَذَا فِيهِ تَحْذِيرٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ تَسْلُكَ مَسْلَكَهُمْ ، وَأَنْ تَقْصِدَ مَنْهَجَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : اِتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ أَيْ : وَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ وِلَايَتُهُمْ لِبَعْضِهِمْ بَعْضًا ، فَإِنَّهُمْ لَا يَزِيدُونَهُمْ إِلَّا خَسَارًا وَدَمَارًا وَهَلَاكًا ، ﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وَهُوَ تَعَالَى يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ، ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى : لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ **أَيْ** : عَمِلُوهَا وَكَسَبُوهَا ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ **أَيْ** : نُسَاوِيهِمْ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أَيْ : سَاءَ مَا ظَنُّوا بِنَا وَبِعَدْلِنَا أَنْ نُسَاوِيَ بَيْنَ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَفِي هَذِهِ الدَّارِ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ، **وَقَالَ** ﷻ : ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ **أَيْ** : بِالْعَدْلِ ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ . **ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا** : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَأْتَمِرُ بِهَوَاهُ ، فَمَهْمَا رَآهُ حَسَنًا فَعَلَهُ ، وَمَهْمَا رَآهُ قَبِيحًا تَرَكَهُ ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ **يَحْتَمِلُ قَوْلَيْنِ** : **أَحَدُهُمَا** : وَأَضَلَّهُ اللهُ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ ، **وَالْآخَرُ** : وَأَضَلَّهُ اللهُ بَعْدَ بُلُوغِ الْعِلْمِ إِلَيْهِ ، وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، وَالثَّانِي : يَسْتَلْزِمُ الْأَوَّلَ ، وَلَا يَنْعَكِسُ ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً﴾ أَيْ : فَلَا يَسْمَعُ مَا يَنْفَعُهُ ، وَلَا يَعِي شَيْئًا يَهْتَدِي بِهِ ، وَلَا يَرَى حُجَّةً يَسْتَضِيءُ بِهَا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٦]

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الدَّهْرِيَّةِ مِنَ الْكُفَّارِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ فِي إِنْكَارِ الْمَعَادِ : ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أَيْ : مَا ثَمَّ إِلَّا هَذِهِ الدَّارُ ، يَمُوتُ قَوْمٌ وَيَعِيشُ آخَرُونَ ، وَمَا ثَمَّ مَعَادٌ وَلَا قِيَامَةٌ ، **وَلِهَذَا قَالُوا** : ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أَيْ : يَتَوَهَّمُونَ وَيَتَخَيَّلُونَ . **قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَغَيْرُهُمَا** مِنَ الْأَئِمَّةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ ﷺ : « **لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ** » كَانَتِ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا إِذَا أَصَابَهُمْ شِدَّةٌ أَوْ بَلَاءٌ أَوْ نَكْبَةٌ ، قَالُوا : يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ . فَيُسْنِدُونَ تِلْكَ الْأَفْعَالَ إِلَى الدَّهْرِ

وَيَسُبُّونَهُ ، وَإِنَّمَا فَاعِلُهَا هُوَ اللهُ تَعَالَى ، فَكَأَنَّهُمْ إِنَّمَا سَبُّوا اللهَ ﷻ ؛ لأَنَّهُ فَاعِلُ ذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ ، فَلِهَذَا نَهَى عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ بِهَذَا الاعْتِبَارِ ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الدَّهْرُ الَّذِي يَعْنُونَهُ وَيُسْنِدُونَ إِلَيْهِ تِلْكَ الأَفْعَالَ ، هَذَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي تَفْسِيرِهِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ ، **وَقَدْ غَلِطَ ابْنُ حَزْمٍ وَمَنْ نَحَا نَحْوَهُ مِنَ الظَّاهِرِيَّةِ فِي عَدِّهِمُ الدَّهْرَ مِنَ الأَسْمَاءِ الْحُسْنَى أَخْذًا مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ** .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ أَيْ : إِذَا اسْتَدَلَّ عَلَيْهِمْ وَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقَّ ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ الأَبْدَانِ بَعْدَ فَنَائِهَا وَتَفَرُّقِهَا ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : أَحْيُوهُمْ إِنْ كَانَ مَا تَقُولُونَهُ حَقًّا . ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ أَيْ : كَمَا تُشَاهِدُونَ ذَلِكَ ، يُخْرِجُكُمْ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٨] أَيْ : الَّذِي قَدَرَ عَلَى الْبُدَاءَةِ قَادِرٌ عَلَى الإِعَادَةِ بِطَرِيقِ الأَوْلَى وَالأَحْرَى ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يُعِيدُكُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى تَقُولُوا : ﴿ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ **وَقَوْلُهُ** : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أَيْ : لَا شَكَّ فِيهِ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : فَلِهَذَا يُنْكِرُونَ الْمَعَادَ ، وَيَسْتَبْعِدُونَ قِيَامَ الأَجْسَادِ .

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَالْحَاكِمُ فِيهِمَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ وَهُمُ الْكَافِرُونَ بِاللهِ الْجَاحِدُونَ بِمَا أَنْزَلَهُ عَلَى رُسُلِهِ مِنَ الآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ أَيْ : عَلَى رُكَبِهَا مِنَ الشِّدَّةِ وَالْعَظَمَةِ ، وَيُقَالُ : إِنَّ هَذَا إِذَا جِيءَ بِجَهَنَّمَ فَإِنَّهَا تَزْفِرُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا جَثَا لِرُكْبَتَيْهِ ، حَتَّى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ ﵇ وَيَقُولُ : **نَفْسِي ، نَفْسِي ، نَفْسِي ، لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي** ، وَحَتَّى أَنَّ عِيسَى ﵇ **لَيَقُولُ : لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي ، لَا أَسْأَلُكَ مَرْيَمَ الَّتِي وَلَدَتْنِي** . **وَقَوْلُهُ** ﷻ : ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾ يَعْنِي : كِتَابَ أَعْمَالِهَا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : تُجَازَوْنَ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : يَسْتَحْضِرُ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّا كُنَّا نَأْمُرُ الْحَفَظَةَ أَنْ تَكْتُبَ أَعْمَالَكُمْ عَلَيْكُمْ .

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حُكْمِهِ فِي خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أَيْ: آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَعَمِلَتْ جَوَارِحُهُمُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، وَهِيَ الْخَالِصَةُ الْمُوَافِقَةُ لِلشَّرْعِ ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ وَهِيَ الْجَنَّةُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ «**أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ**» ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أَيْ: الْبَيِّنُ الْوَاضِحُ. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أَيْ: يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا: أَمَا قُرِئَتْ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ تَعَالَى فَاسْتَكْبَرْتُمْ عَنِ اتِّبَاعِهَا، وَأَعْرَضْتُمْ عَنْ سَمَاعِهَا؟ ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: فِي أَفْعَالِكُمْ، مَعَ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ؟. ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أَيْ: إِذَا قَالَ لَكُمُ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أَيْ: لَا نَعْرِفُهَا ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أَيْ: إِنْ نَتَوَهَّمُ وُقُوعَهَا إِلَّا تَوَهُّمًا، أَيْ مَرْجُوحًا؛ وَلِهَذَا قَالُوا، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أَيْ: بِمُتَحَقِّقِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ أَيْ: وَظَهَرَ لَهُمْ عُقُوبَةُ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أَيْ: أَحَاطَ بِهِمْ ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أَيْ: مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ أَيْ: نُعَامِلُكُمْ مُعَامَلَةَ النَّاسِي لَكُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أَيْ: فَلَمْ تَعْمَلُوا لَهُ لِأَنَّكُمْ لَمْ تُصَدِّقُوا بِهِ ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أَيْ: إِنَّمَا جَازَيْنَاكُمْ هَذَا الْجَزَاءَ لِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ حُجَجَ اللهِ عَلَيْكُمْ سِخْرِيًّا، تَسْخَرُونَ وَتَسْتَهْزِئُونَ بِهَا ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ: خَدَعَتْكُمْ فَاطْمَأْنَنْتُمْ إِلَيْهَا، فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷻ: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أَيْ: مِنَ النَّارِ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أَيْ: لَا يُطْلَبُ مِنْهُمُ الْعُتْبَى، بَلْ يُعَذَّبُونَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

وَلَا عِتَابٍ ، كَمَا تَدْخُلُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَذَابٍ وَلَا حِسَابٍ . ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حُكْمَهُ فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ قَالَ : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : الْمَالِكُ لَهُمَا وَمَا فِيهِمَا ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي : السُّلْطَانُ ، أَيْ : هُوَ الْعَظِيمُ الْمُمَجَّدُ ، الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ لَدَيْهِ فَقِيرٌ إِلَيْهِ ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : الَّذِي لَا يُغَالَبُ وَلَا يُمَانَعُ ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْجَاثِيَةِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

تفسيرُ سُورةِ الأحْقافِ — آياتها ٣٥ — مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالْعِزَّةِ الَّتِي لَا تُرَامُ ، وَالْحِكْمَةِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : لَا عَلَى وَجْهِ الْعَبَثِ وَالْبَاطِلِ ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَيْ : وَإِلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ مَضْرُوبَةٍ لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾ أَيْ : لَاهُونَ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ كِتَابًا وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا ، وَهُمْ مُعْرِضُونَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، أَيْ : وَسَيَعْلَمُونَ غِبَّ ذَلِكَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ أَيْ : لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْعَابِدِينَ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ ﴿ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : أَرْشِدُونِي إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي اسْتَقَلُّوا بِخَلْقِهِ مِنَ الْأَرْضِ ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أَيْ : وَلَا شِرْكَ لَهُمْ فِي السَّمَاوَاتِ

وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَمَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ، إِنِ الْمُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ كُلُّهُ إِلَّا لله ﷻ فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَتُشْرِكُونَ بِهِ ؟ مَنْ أَرْشَدَكُمْ إِلَى هَذَا ؟ مَنْ دَعَاكُمْ إِلَيْهِ ؟ أَهُوَ أَمَرَكُمْ بِهِ ؟ أَمْ هُوَ شَيْءٌ اقْتَرَحْتُمُوهُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ؟ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ ﴾ أَيْ : هَاتُوا كِتَابًا مِنْ كُتُبِ الله الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - يَأْمُرُكُمْ بِعِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ ﴿ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أَيْ : دَلِيلٌ بَيِّنٌ عَلَى هَذَا الْمَسْلَكِ الَّذِي سَلَكْتُمُوهُ ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : لَا دَلِيلَ لَكُمْ لَا نَقْلِيًّا وَلَا عَقْلِيًّا عَلَى ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ أَيْ : لَا أَضَلَّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ الله أَصْنَامًا ، وَيَطْلُبُ مِنْهَا مَا لَا تَسْتَطِيعُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَهِيَ غَافِلَةٌ عَمَّا يَقُولُ ، لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَبْطِشُ ؛ لأَنَّهَا جَمَادٌ ، حِجَارَةٌ صُمٌّ . وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨١-٨٢] أَيْ : سَيَخُونُونَهُمْ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِمْ .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ : أَنَّهُمْ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الله بَيِّنَاتٌ ، أَيْ : فِي حَالِ بَيَانِهَا وَوُضُوحِهَا وَجَلَائِهَا ، يَقُولُونَ : ﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : سِحْرٌ وَاضِحٌ ، وَقَدْ كَذَبُوا ، وَافْتَرَوْا ، وَضَلُّوا ، وَكَفَرُوا ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ يَعْنُونَ : مُحَمَّدًا ﷺ . قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَوْ كَذَبْتُ عَلَيْهِ وَزَعَمْتُ أَنَّهُ أَرْسَلَنِي - وَلَيْسَ كَذَلِكَ - لَعَاقَبَنِي أَشَدَّ الْعُقُوبَةِ ، وَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، لَا أَنْتُمْ وَلَا غَيْرُكُمْ ، أَنْ يُجِيرَنِي مِنْهُ ، لِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، وَتَرْهِيبٌ شَدِيدٌ ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تَرْغِيبٌ لَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ، أَيْ : وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ إِنْ رَجَعْتُمْ وَتُبْتُمْ تَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ، وَغَفَرَ وَرَحِمَ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ أَيْ : لَسْتُ بِأَوَّلِ رَسُولٍ طَرَقَ الْعَالَمَ ،

بَلْ قَدْ جَاءَتِ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِي ، فَمَا أَنَا بِالْأَمْرِ الَّذِي لا نَظِيرَ لَهُ حَتَّى تَسْتَنْكِرُونِي وَتَسْتَبْعِدُونَ بَعْثَتِي إِلَيْكُمْ ، فَإِنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ اللهُ جَلَّ وَعَلا قَبْلِي جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى الْأُمَمِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَدۡرِى مَا يُفۡعَلُ بِى وَلَا بِكُمۡ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢] ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : ﴿ وَمَآ أَدۡرِى مَا يُفۡعَلُ بِى وَلَا بِكُمۡ ﴾ أَيْ : مَا أَدْرِي بِمَاذَا أُومَرُ وَبِمَاذَا أُنْهَى بَعْدَ هَذَا ؟. **وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَمَآ أَدۡرِى مَا يُفۡعَلُ بِى وَلَا بِكُمۡ ﴾ **قَالَ** : أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَمَعَاذَ اللهُ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ ، وَلَكِنْ قَالَ : لَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ فِي الدُّنْيَا ، أُخْرَجُ كَمَا أُخْرِجَتِ الْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مِنْ قَبْلِي ؟ أَمْ أُقْتَلُ كَمَا قُتِلَتِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِي ؟ وَلَا أَدْرِي أَيُخْسَفُ بِكُمْ أَوْ تُرْمَوْنَ بِالْحِجَارَةِ ؟. ﴿ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُنَزِّلُهُ اللهُ عَلَيَّ مِنَ الْوَحْيِ ﴿ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : بَيِّنُ النِّذَارَةِ ، أَمْرِي ظَاهِرٌ لِكُلِّ ذِي لُبٍّ وَعَقْلٍ .

قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحۡمَةًۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلۡ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ؛ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ بِالْقُرْآنِ : ﴿ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ ﴾ هَذَا الْقُرْآنُ ﴿ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ ﴾ أَيْ : مَا ظَنُّكُمْ أَنَّ اللهَ صَانِعٌ بِكُمْ إِنْ كَانَ هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ قَدْ أَنْزَلَهُ عَلَيَّ لِأُبَلِّغَكُمُوهُ ، وَقَدْ كَفَرْتُمْ بِهِ وَكَذَّبْتُمُوهُ ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ ﴾ أَيْ : وَقَدْ شَهِدَتْ بِصِدْقِهِ وَصِحَّتِهِ الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ الْمُنَزَّلَةُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي ، بَشَّرَتْ بِهِ وَأَخْبَرَتْ بِمِثْلِ مَا أَخْبَرَ هَذَا الْقُرْآنُ بِهِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَـَٔامَنَ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي شَهِدَ بِصِدْقِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمَعْرِفَتِهِ بِحَقِّيَّتِهِ ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ ﴾ أَنْتُمْ عَنِ اتِّبَاعِهِ ، **وَقَالَ مَسْرُوقٌ** : فَآمَنَ هَذَا الشَّاهِدُ بِنَبِيِّهِ وَكِتَابِهِ ، وَكَفَرْتُمْ أَنْتُمْ بِنَبِيِّكُمْ وَكِتَابِكُمْ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وَهَذَا الشَّاهِدُ اسْمُ جِنْسٍ يَعُمُّ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلَامٍ وَغَيْرَهُ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ نَزَلَتْ قَبْلَ إِسْلَامِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ ﷺ . **وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ** ﷺ **قَالَ** : مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ لِأَحَدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ : « **إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ**

الجنَّةِ » إلَّا لِعَبْدِ الله بْنِ سَلَامٍ ﷺ، قَالَ : وَفِيهِ نَزَلَتْ ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ ﴾ أَيْ : قَالُوا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقُرْآنِ : لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ خَيْرًا مَا سَبَقَنَا هَؤُلَاءِ إِلَيْهِ ، يَعْنُونَ : بِلَالًا وَعَمَّارًا وَصُهَيْبًا وَخَبَّابًا ﷺ، وَأَشْبَاهَهُمْ وَأَضْرَابَهُمْ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لأَنَّهُمْ - عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ - يَعْتَقِدُونَ أَنَّ لَهُمْ عِنْدَ الله وَجَاهَةً ، وَلَهُ بِهِمْ عِنَايَةٌ . وَقَدْ غَلِطُوا فِي ذَلِكَ غَلَطًا فَاحِشًا ، وَأَخْطَئُوا خَطَأً بَيِّنًا ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ ﴾ وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فَيَقُولُونَ فِي كُلِّ فِعْلٍ وَقَوْلٍ لَمْ يَثْبُتْ عَنِ الصَّحَابَةِ ﷺ هُوَ بِدْعَةٌ ؛ لأَنَّهُ لَوْ كَانَ خَيْرًا لَسَبَقُونَا إِلَيْهِ ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَتْرُكُوا خَصْلَةً مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ إِلَّا وَقَدْ بَادَرُوا إِلَيْهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ ﴾ أَيْ : بِالْقُرْآنِ ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ ﴾ أَيْ : كَذِبٌ ﴿ قَدِيمٞ ﴾ أَيْ : مَأْثُورٌ عَنِ النَّاسِ الْأَقْدَمِينَ ، فَيَنْتَقِصُونَ الْقُرْآنَ وَأَهْلَهُ ، وَهَذَا هُوَ الْكِبْرُ الَّذِي قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **بَطَرُ الحَقِّ ، وَغَمْطُ النَّاسِ** » . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ وَهُوَ التَّوْرَاةُ ﴿ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ ﴿ مُّصَدِّقٞ ﴾ أَيْ : لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا ﴾ أَيْ : فَصِيحًا بَيِّنًا وَاضِحًا ﴿ لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ أَيْ : مُشْتَمِلٌ عَلَى النِّذَارَةِ لِلْكَافِرِينَ وَالْبِشَارَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ « حم السَّجْدَة » ، ﴿ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أَيْ : فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَ ﴿ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ عَلَى مَا خَلَّفُوا ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ أَيْ : الْأَعْمَالُ سَبَبٌ لِنَيْلِ الرَّحْمَةِ لَهُمْ وَسُبُوغِهَا عَلَيْهِمْ .

وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِىٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓۖ إِنِّى تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِىٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُولَى التَّوْحِيدَ لَهُ وَإِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِقَامَةَ إِلَيْهِ ، عَطَفَ بِالْوَصِيَّةِ بِالْوَالِدَيْنِ ، كَمَا هُوَ مَقْرُونٌ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] ، **وَقَالَ ﷻ هَاهُنَا** : ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًا ﴾ أَيْ : أَمَرْنَاهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا ، **عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ** ﷺ **قَالَ** : قَالَتْ أُمُّ سَعْدٍ لِسَعْدٍ :

أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ اللهُ بِطَاعَةِ الْوَالِدَيْنِ ، فَلَا آكُلُ طَعَامًا ، وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى تَكْفُرَ بِاللهِ تَعَالَى ، فَامْتَنَعَتْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، حَتَّى جَعَلُوا يَفْتَحُونَ فَاهَا بِالْعَصَا ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾ الْآيَةَ .

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا ﴾ أَيْ : قَاسَتْ بِسَبَبِهِ فِي حَالِ حَمْلِهِ مَشَقَّةً وَتَعَبًا ، مِنْ وَحَامٍ وَغَثَيَانٍ وَثِقَلٍ وَكَرْبٍ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَنَالُ الْحَوَامِلُ مِنَ التَّعَبِ وَالْمَشَقَّةِ ﴿ وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ أَيْ : بِمَشَقَّةٍ أَيْضًا مِنَ الطَّلْقِ وَشِدَّتِهِ ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ وَقَدِ اسْتَدَلَّ عَلِيٌّ ﷺ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَعَ الَّتِي فِي لُقْمَانَ : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾[لقمان : ١٤] وَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾[البقرة : ٢٣٣] عَلَى أَنَّ أَقَلَّ مُدَّةِ الْحَمْلِ سِتَّةُ أَشْهُرٍ ، وَهُوَ اسْتِنْبَاطٌ قَوِيٌّ صَحِيحٌ ، وَوَافَقَهُ عَلَيْهِ عُثْمَانُ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ أَيْ : قَوِيَ وَشَبَّ وَارْتَجَلَ ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ أَيْ : تَنَاهَى عَقْلُهُ وَكَمُلَ فَهْمُهُ وَحِلْمُهُ ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ لَا يَتَغَيَّرُ غَالِبًا عَمَّا يَكُونُ عَلَيْهِ ابْنُ الْأَرْبَعِينَ ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ ﴾ أَيْ : أَلْهِمْنِي ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ أَيْ : فِي الْمُسْتَقْبَلِ ﴿ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ﴾ أَيْ : نَسْلِي وَعَقِبِي ﴿ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ، وَهَذَا فِيهِ إِرْشَادٌ لِمَنْ بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ أَنْ يُجَدِّدَ التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ إِلَى اللهِ ﷻ وَيَعْزِمَ عَلَيْهَا . **قَالَ اللهُ ﷻ** : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الْمُتَّصِفُونَ بِمَا ذَكَرْنَا ، التَّائِبُونَ إِلَى اللهِ الْمُنِيبُونَ إِلَيْهِ ، الْمُسْتَدْرِكُونَ مَا فَاتَ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ ، هُمُ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ، وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَيُغْفَرُ لَهُمُ الْكَثِيرُ مِنَ الزَّلَلِ ، وَنَتَقَبَّلُ مِنْهُمُ الْيَسِيرَ مِنَ الْعَمَلِ ﴿ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أَيْ : هُمْ فِي جُمْلَةِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ، وَهَذَا حُكْمُهُمْ عِنْدَ اللهِ ، كَمَا وَعَدَ اللهُ ﷻ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ .

وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الدَّاعِينَ لِلْوَالِدَيْنِ الْبَارِّينَ بِهِمَا وَمَا لَهُمْ عِنْدَهُ مِنَ الْفَوْزِ وَالنَّجَاةِ ، عَطَفَ بِحَالِ الأَشْقِيَاءِ الْعَاقِّينَ لِلْوَالِدَيْنِ ، فَقَالَ : ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ وَهَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ قَالَ هَذَا ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فَقَوْلُهُ ضَعِيفٌ ؛ لأَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ وَحَسُنَ إِسْلاَمُهُ ، وَكَانَ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ زَمَانِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أَيْ : أُبْعَثُ ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى ﴾ أَيْ : قَدْ مَضَى النَّاسُ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْهُمْ مُخْبِرٌ ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : يَسْأَلاَنِ اللهَ فِيهِ أَنْ يَهْدِيَهُ ، وَيَقُولاَنِ لِوَلَدِهِمَا ﴿ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ أَيْ : دَخَلُوا فِي زُمْرَةِ أَشْبَاهِهِمْ وَأَضْرَابِهِمْ مِنَ الْكَافِرِينَ الْخَاسِرِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ : ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّهُ جِنْسٌ يَعُمُّ كُلَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ . ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ أَيْ : لِكُلٍّ عَذَابٌ بِحَسَبِ عَمَلِهِ ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أَيْ : لاَ يَظْلِمُهُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فَمَا دُونَهَا .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا ، وَقَدْ تَوَرَّعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ طَيِّبَاتِ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ ، وَتَنَزَّهَ عَنْهَا وَيَقُولُ : إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَكُونَ كَالَّذِينَ قَالَ اللهُ لَهُمْ وَوَبَّخَهُمْ وَقَرَّعَهُمْ : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ . وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ فَجُوزُوا مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ ، فَكَمَا مَتَّعُوا أَنْفُسَهُمْ وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، وَتَعَاطَوُا الْفِسْقَ وَالْمَعَاصِيَ ، جَازَاهُمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِعَذَابِ الْهُونِ ، وَهُوَ الإِهَانَةُ وَالْخِزْيُ وَالآلاَمُ الْمُوجِعَةُ ، وَالْحَسَرَاتُ الْمُتَتَابِعَةُ ، وَالْمَنَازِلُ فِي الدَّرَكَاتِ الْمُفْظِعَةِ أَجَارَنَا اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ .

۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ وَهُوَ هُودٌ عليه السلام بَعَثَهُ اللهُ عز وجل إِلَى عَادٍ الْأُولَى ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ - جَمْعُ حِقْفٍ وَهُوَ : الْجَبَلُ مِنَ الرَّمْلِ - ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ : الْأَحْقَافُ : الْجَبَلُ وَالْغَارُ ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾ يَعْنِي : وَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى إِلَى مَنْ حَوْلَ بِلَادِهِمْ فِي الْقُرَى مُرْسِلِينَ وَمُنْذِرِينَ ، ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أَيْ : قَالَ لَهُمْ هُودٌ ذَلِكَ ، فَأَجَابَهُ قَوْمُهُ قَائِلِينَ : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ أَيْ : لِتَصُدَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ اسْتَعْجَلُوا عَذَابَ اللهِ وَعُقُوبَتَهُ ، اسْتِبْعَادًا مِنْهُمْ وُقُوعَهُ ﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : اللهُ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَحِقِّينَ لِتَعْجِيلِ الْعَذَابِ فَسَيُفْعَلُ ذَلِكَ بِكُمْ ، وَأَمَّا أَنَا فَمِنْ شَأْنِي أَنِّي أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴿ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَعْقِلُونَ وَلَا تَفْهَمُونَ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ أَيْ : لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ مُسْتَقْبِلَهُمْ ، اعْتَقَدُوا أَنَّهُ عَارِضٌ مُمْطِرٌ ، فَفَرِحُوا وَاسْتَبْشَرُوا بِهِ ، وَقَدْ كَانُوا مُمْحِلِينَ مُحْتَاجِينَ إِلَى الْمَطَرِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : هُوَ الْعَذَابُ الَّذِي قُلْتُمْ ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٠] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تُدَمِّرُ ﴾ أَيْ : تُخَرِّبُ ﴿ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ مِنْ بِلَادِهِمْ مِمَّا مِنْ شَأْنِهِ الْخَرَابُ ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أَيْ : بِإِذْنِ اللهِ لَهَا فِي ذَلِكَ ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ أَيْ : قَدْ بَادُوا كُلُّهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ وَلَمْ تَبْقَ لَهُمْ بَاقِيَةٌ ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أَيْ : هَذَا حُكْمُنَا فِيمَنْ كَذَّبَ رُسُلَنَا ، وَخَالَفَ أَمْرَنَا .

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَقَدْ مَكَّنَّا الْأُمَمَ السَّالِفَةَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، وَأَعْطَيْنَاهُمْ مِنْهَا مَا لَمْ نُعْطِكُمْ مِثْلَهُ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيْ : وَأَحَاطَ بِهِمُ الْعَذَابُ وَالنَّكَالُ الَّذِي كَانُوا يُكَذِّبُونَ بِهِ وَيَسْتَبْعِدُونَ وُقُوعَهُ ، أَيْ : فَاحْذَرُوا أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ ، فَيُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ يَعْنِي : أَهْلَ مَكَّةَ ، قَدْ أَهْلَكَ اللهُ الْأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ بِالرُّسُلِ مِمَّا حَوْلَهَا كَعَادٍ ، وَكَانُوا بِالْأَحْقَافِ بِحَضْرَمَوْتَ عِنْدَ الْيَمَنِ ، وَثَمُودَ وَكَانَتْ مَنَازِلُهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الشَّامِ ، وَكَذَلِكَ سَبَأٌ وَهُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ ، وَمَدْيَنُ وَكَانَتْ فِي طَرِيقِهِمْ وَمَمَرِّهِمْ إِلَى غَزَّةَ ، وَكَذَلِكَ بُحَيْرَةُ قَوْمِ لُوطٍ ، كَانُوا يَمُرُّونَ بِهَا أَيْضًا ﴿ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ ﴾ أَيْ : بَيَّنَّاهَا وَأَوْضَحْنَاهَا ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ﴾ أَيْ : فَهَلْ نَصَرُوهُمْ عِنْدَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِمْ ؟ ﴿ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ﴾ أَيْ : بَلْ ذَهَبُوا عَنْهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِمْ ﴿ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ أَيْ : كَذِبُهُمْ ﴿ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أَيْ : وَافْتِرَاؤُهُمْ فِي اتِّخَاذِهِمْ إِيَّاهُمْ آلِهَةً ، وَقَدْ خَابُوا وَخَسِرُوا فِي عِبَادَتِهِمْ لَهَا ، وَاعْتِمَادِهِمْ عَلَيْهَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

عَنِ الزُّبَيْرِ ﷺ ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ قَالَ : بِنَخْلَةَ ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ ﴿ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن : ١٩] قَالَ سُفْيَانُ : أَلْبَدَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، كَاللِّبَدِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : مَا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْجِنِّ وَلَا رَآهُمْ ، اِنْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ ، فَقَالُوا : مَا لَكُمْ ؟ فَقَالُوا : حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ ، قَالُوا : مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، فَانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا يَبْتَغُونَ مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ النَّفَرُ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدًا إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ ، فَقَالُوا : هَذَا وَاللهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١-٢] ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ

مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الجن : ١] ، وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ أَيْ : طَائِفَةً مِنَ الْجِنِّ ﴿ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾ أَيْ : اِسْتَمِعُوا وَهَذَا أَدَبٌ مِنْهُمْ ﴿ فَلَمَّا قُضِىَ ﴾ أَيْ : فَرَغَ . ﴿ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أَيْ : رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَأَنْذَرُوهُمْ مَا سَمِعُوهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَقَدِ اُسْتُدِلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُ فِي الْجِنِّ نُذُرٌ ، وَلَيْسَ فِيهِمْ رُسُلٌ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجِنَّ لَمْ يَبْعَثِ اللهُ تَعَالَى مِنْهُمْ رَسُولًا ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف : ١٠٩]

وَقَوْلُهُمْ : ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : فِي الِاعْتِقَادِ وَالْإِخْبَارِ ﴿ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فِي الْأَعْمَالِ ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ مُشْتَمِلٌ عَلَى شَيْئَيْنِ : خَبَرٌ وَطَلَبٌ ، فَخَبَرُهُ صِدْقٌ ، وَطَلَبُهُ عَدْلٌ ﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، حَيْثُ دَعَاهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ السُّورَةَ الَّتِي فِيهَا خِطَابُ الْفَرِيقَيْنِ ، وَتَكْلِيفُهُمْ وَوَعْدُهُمْ وَوَعِيدُهُمْ وَهِيَ « سُورَةُ الرَّحْمَنِ » وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أَيْ : وَيَقِيكُمْ مِنْ عَذَابِهِ الْأَلِيمِ . ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ : ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : بَلْ قُدْرَةُ اللهِ شَامِلَةٌ لَهُ وَمُحِيطَةٌ بِهِ ﴿ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ أَيْ : لَا يُجِيرُهُمْ مِنْهُ أَحَدٌ ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ وَهَذَا مَقَامُ تَهْدِيدٍ وَتَرْهِيبٍ ، فَدَعَوْا قَوْمَهُمْ بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ ، وَلِهَذَا نَجَعَ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ، وَجَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وُفُودًا وُفُودًا ، وَللهِ الْحَمْدُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ أي : هَؤُلَاءِ الْمُنْكِرُونَ لِلْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الْمُسْتَبْعِدُونَ لِقِيَامِ الْأَجْسَادِ يَوْمَ الْمَعَادِ ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ أَيْ : وَلَمْ يُكْرِثْهُ خَلْقُهُنَّ ، بَلْ قَالَ لَهَا : « كُونِي » فَكَانَتْ ، بِلَا مُمَانَعَةٍ وَلَا مُخَالَفَةٍ ، بَلْ طَائِعَةً مُجِيبَةً خَائِفَةً وَجِلَةً ،

أَفَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُهَدِّدًا وَمُتَوَعِّدًا لِمَنْ كَفَرَ بِهِ : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ : أَمَا هَذَا حَقٌّ ؟ أَفَسِحْرٌ هَذَا ؟ أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ؟ ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ أَيْ : لَا يَسَعُهُمْ إِلَّا الِاعْتِرَافُ ﴿ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ أَيْ : عَلَى تَكْذِيبِ قَوْمِهِمْ لَهُمْ ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي تَعْدَادِ أُولِي الْعَزْمِ عَلَى أَقْوَالٍ ، وَأَشْهَرُهَا أَنَّهُمْ : نُوحٌ ، وَإِبْرَاهِيمُ ، وَمُوسَى ، وَعِيسَى ، وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ قَدْ نَصَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَسْمَائِهِمْ مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ فِي آيَتَيْنِ مِنْ سُورَتَي « الْأَحْزَابِ » وَ « الشُّورَى » ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِأُولِي الْعَزْمِ جَمِيعَ الرُّسُلِ ، فَتَكُونُ « مِنْ » فِي قَوْلِهِ : ﴿ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ لِبَيَانِ الْجِنْسِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ أَيْ : لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ حُلُولَ الْعُقُوبَةِ بِهِمْ ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات : ٤٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلَٰغٌ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ ، أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُهُ : وَذَلِكَ لُبْثٌ بَلَاغٌ ، وَآخَرُ : أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُهُ : هَذَا الْقُرْآنُ بَلَاغٌ ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَهْلِكُ عَلَى اللهِ إِلَّا هَالِكٌ . وَهَذَا مِنْ عَدْلِهِ ﷻ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَحْقَافِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

تفسير سورة محمد

آياتها ٣٨ — مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أَيْ : بِآيَاتِ اللهِ ﴿ وَصَدُّواْ ﴾ غَيْرَهُمْ ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ أَيْ : أَبْطَلَهَا وَأَذْهَبَهَا وَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا ثَوَابًا وَلَا جَزَاءً ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ

مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣]

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أَيْ : آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَسَرَائِرُهُمْ ، وَانْقَادَتْ لِشَرْعِ اللهِ جَوَارِحُهُمْ وَبَوَاطِنُهُمْ وَظَوَاهِرُهُمْ ﴿ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ عَطْفُ خَاصٍّ عَلَى عَامٍّ ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ الْإِيمَانِ بَعْدَ بَعْثَتِهِ ﷺ ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ حَسَنَةٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أَيْ : أَمْرَهُمْ ، وَقِيلَ : شَأْنَهُمْ ، وَقِيلَ : حَالَهُمْ ، وَالْكُلُّ مُتَقَارِبٌ ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ تَشْمِيتِ الْعَاطِسِ « يَهْدِيكُمُ اللهُ ، وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ » .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَبْطَلْنَا أَعْمَالَ الْكُفَّارِ ، وَتَجَاوَزْنَا عَنْ سَيِّئَاتِ الْأَبْرَارِ ، وَأَصْلَحْنَا شُؤُونَهُمْ ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ، أَيْ : اخْتَارُوا الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ ﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾ أَيْ : يُبَيِّنُ لَهُمْ مَآلَ أَعْمَالِهِمْ ، وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ فِي مَعَادِهِمْ .

فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُرْشِدًا لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَا يَعْتَمِدُونَهُ فِي حُرُوبِهِمْ مَعَ الْمُشْرِكِينَ : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ أَيْ : إِذَا وَاجَهْتُمُوهُمْ فَاحْصُدُوهُمْ حَصْدًا بِالسُّيُوفِ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أَيْ : أَهْلَكْتُمُوهُمْ قَتْلًا ﴿ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ ﴾ الْأُسَارَى الَّذِينَ تَأْسِرُونَهُمْ ، ثُمَّ أَنْتُمْ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْحَرْبِ وَانْفِصَالِ الْمَعْرَكَةِ مُخَيَّرُونَ فِي أَمْرِهِمْ ؛ إِنْ شِئْتُمْ مَنَنْتُمْ عَلَيْهِمْ فَأَطْلَقْتُمْ أُسَارَاهُمْ مَجَّانًا ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَادَيْتُمُوهُمْ بِمَالٍ تَأْخُذُونَهُ مِنْهُمْ وَتُشَاطِرُونَهُمْ عَلَيْهِ ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام ، وَقَالَ قَتَادَةُ : حَتَّى لَا يَبْقَى شِرْكٌ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٩٣]

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ أَيْ : هَذَا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَانْتَقَمَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِعُقُوبَةٍ وَنَكَالٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ أَيْ : وَلَكِنْ شَرَعَ لَكُمُ الْجِهَادَ وَقِتَالَ الْأَعْدَاءِ لِيَخْتَبِرَكُمْ ، وَلِيَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ مِنْ شَأْنِ الْقِتَالِ أَنْ يُقْتَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ،

قَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ أَيْ : لَنْ يُذْهِبَهَا بَلْ يُكَثِّرُهَا وَيُنَمِّيهَا وَيُضَاعِفُهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْرِي عَلَيْهِ عَمَلُهُ طُولَ بَرْزَخِهِ ، كَمَا وَرَدَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ ، عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتَّ خِصَالٍ : أَنْ يَغْفِرَ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْقَةٍ مِنْ دَمِهِ ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ ، وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ مُرَصَّعٌ بِالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، وَيَشْفَعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ » وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الدَّيْنَ » . وَقَوْلُهُ : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ أَيْ : إِلَى الْجَنَّةِ ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ أَيْ : أَمْرَهُمْ وَحَالَهُمْ ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ أَيْ : عَرَّفَهُمْ بِهَا وَهَدَاهُمْ إِلَيْهَا ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ : يَعْرِفُونَ بُيُوتَهُمْ إِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ ، كَمَا تَعْرِفُونَ بُيُوتَكُمْ إِذَا انْصَرَفْتُمْ مِنَ الْجُمُعَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج : ٤٠] فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾ عَكْسَ تَثْبِيتِ الْأَقْدَامِ لِلْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِينَ للهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ ﷺ ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ أَيْ : أَحْبَطَهَا وَأَبْطَلَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : لَا يُرِيدُونَهُ وَلَا يُحِبُّونَهُ ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ .

۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ الْمُكَذِّبِينَ لِرَسُولِهِ ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : عَاقَبَهُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، أَيْ : وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ ؛ وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ رَئِيسُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ أُحُدٍ حِينَ سَأَلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فَلَمْ يُجَبْ ، وَقَالَ : أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ هَلَكُوا ، وَأَجَابَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ فَقَالَ : كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللهِ ، بَلْ أَبْقَى اللهُ تَعَالَى لَكَ مَا يَسُوءُكَ ،

وَإِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لَأَحْيَاءٌ ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ ، أَمَا إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي ، ثُمَّ ذَهَبَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ : اُعْلُ هُبَلْ ، اُعْلُ هُبَلْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَلَا تُجِيبُوهُ ؟** » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَمَا نَقُولُ ؟ قَالَ ﷺ : « **قُولُوا : اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ** » ، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَان : لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَلَا تُجِيبُوهُ ؟** » قَالُوا : وَمَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « **قُولُوا : اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ** » . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ ﴾ أَيْ : فِي دُنْيَاهُمْ ، يَتَمَتَّعُونَ بِهَا وَيَأْكُلُونَ مِنْهَا كَأَكْلِ الْأَنْعَامِ ، خَضْمًا وَقَضْمًا ، وَلَيْسَ لَهُمْ هِمَّةٌ إِلَّا فِي ذَلِكَ ، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ : « **الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ** » **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ جَزَائِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ﴾ **يَعْنِي** : مَكَّةَ ﴿ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ ، فِي تَكْذِيبِهِمْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَهُوَ سَيِّدُ الرُّسُلِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، فَإِذَا كَانَ اللهُ ﷻ قَدْ أَهْلَكَ الْأُمَمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ قَبْلَهُ بِسَبَبِهِمْ ، وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً مِنْ هَؤُلَاءِ ، فَمَاذَا ظَنُّ هَؤُلَاءِ أَنْ يَفْعَلَ اللهُ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْأُخْرَى ؟ فَإِنْ رَفَعَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهُمُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا لِبَرَكَةِ وُجُودِ الرَّسُولِ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، فَإِنَّ الْعَذَابَ يُوفَرُ عَلَى الْكَافِرِينَ بِهِ فِي مَعَادِهِمْ .

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أَيْ : عَلَى بَصِيرَةٍ وَيَقِينٍ فِي أَمْرِ اللهِ وَدِينِهِ ، بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِي كِتَابِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ ، وَبِمَا جَبَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْفِطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴾ أَيْ : لَيْسَ هَذَا كَهَذَا . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ **قَالَ عِكْرِمَةُ** : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أَيْ : نَعْتُهَا ﴿ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ **يَعْنِي** : غَيْرُ مُتَغَيِّرٍ ، **وَقِيلَ** : غَيْرُ مُنْتِنٍ ، **وَالْعَرَبُ تَقُولُ** : أَسِنَ الْمَاءُ إِذَا تَغَيَّرَ رِيحُهُ ، **وَقِيلَ** : يَعْنِي : الصَّافِي الَّذِي لَا كَدَرَ فِيهِ ، ﴿ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾ أَيْ : بَلْ فِي غَايَةِ الْبَيَاضِ وَالْحَلَاوَةِ وَالدُّسُومَةِ ﴿ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ أَيْ : لَيْسَتْ كَرِيهَةُ الطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ كَخَمْرِ الدُّنْيَا ، بَلْ حَسَنَةُ الْمَنْظَرِ وَالطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ وَالْفِعْلِ ﴿ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ أَيْ : وَهُوَ فِي غَايَةِ الصَّفَاءِ ، وَحُسْنِ اللَّوْنِ وَالطَّعْمِ وَالرِّيحِ

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴾ [الدخان : ٥٥] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ [الرحمن : ٥٢]

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أَيْ : مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ ﴿ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرْنَا مَنْزِلَتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ؟ لَيْسَ هَؤُلَاءِ كَهَؤُلَاءِ ، وَلَيْسَ مَنْ هُوَ فِي الدَّرَجَاتِ كَمَنْ هُوَ فِي الدَّرَكَاتِ ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا ﴾ أَيْ : حَارًّا شَدِيدَ الْحَرِّ لَا يُسْتَطَاعُ ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ أَيْ : قَطَّعَ مَا فِي بُطُونِهِمْ مِنَ الْأَمْعَاءِ وَالْأَحْشَاءِ عِيَاذًا بِاللهِ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ .

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُنَافِقِينَ فِي بَلَادَتِهِمْ وَقِلَّةِ فَهْمِهِمْ ، حَيْثُ كَانُوا يَجْلِسُونَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَسْتَمِعُونَ كَلَامَهُ فَلَا يَفْهَمُونَ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ ﴿ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ : ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ أَيْ : السَّاعَةَ ، لَا يَعْقِلُونَ مَا يُقَال ، وَلَا يَكْتَرِثُونَ لَهُ ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أَيْ : فَلَا فَهْمٌ صَحِيحٌ ، وَلَا قَصْدٌ صَحِيحٌ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ أَيْ : وَالَّذِينَ قَصَدُوا الْهِدَايَةَ وَفَّقَهُمُ اللهُ - تَعَالَى - لَهَا فَهَدَاهُمْ إِلَيْهَا ، وَثَبَّتَهُمْ عَلَيْهَا ، وَزَادَهُمْ مِنْهَا ﴿ وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ أَيْ : أَلْهَمَهُمْ رُشْدَهُمْ ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أَيْ : وَهُمْ غَافِلُونَ عَنْهَا ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أَيْ : أَمَارَاتُ اقْتِرَابِهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر : ١] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ١] ، فَبَعْثَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ؛ لِأَنَّهُ خَاتَمُ الرُّسُلِ الَّذِي أَكْمَلَ اللهُ تَعَالَى بِهِ الدِّينَ ، وَأَقَامَ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَقَدْ أَخْبَرَ ﷺ بِأَمَارَاتِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا ، وَأَبَانَ عَنْ ذَلِكَ وَأَوْضَحَهُ بِمَا لَمْ يُؤْتَهُ نَبِيٌّ قَبْلَهُ ، كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ ، **فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ** ﷺ **قَالَ** : رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ بِأُصْبُعَيْهِ هَكَذَا - بِالْوُسْطَى وَالَّتِي تَلِيهَا -: « **بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ** » **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ لِلْكَافِرِينَ بِالتَّذَكُّرِ إِذَا جَاءَتْهُمُ الْقِيَامَةُ ، حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ ؟.

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَلَا يَتَأَتَّى كَوْنُهُ آمِرًا بِعِلْمِ

ذَلِكَ ؛ وَلِهَذَا عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ ﷻ : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً)) . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ تَصَرُّفَكُمْ فِي نَهَارِكُمْ وَمُسْتَقَرَّكُمْ فِي لَيْلِكُمْ .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ تَمَنَّوْا شَرْعِيَّةَ الْجِهَادِ ، فَلَمَّا فَرَضَهُ اللهُ ﷻ وَأَمَرَ بِهِ نَكَلَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ أَيْ : مُشْتَمِلَةٌ عَلَى حُكْمِ الْقِتَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ أَيْ : مِنْ فَزَعِهِمْ وَرُعْبِهِمْ وَجُبْنِهِمْ مِنْ لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ . ثُمَّ قَالَ مُشَجِّعًا لَهُمْ : ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ أَيْ : وَكَانَ الْأَوْلَى بِهِمْ أَنْ يَسْمَعُوا وَيُطِيعُوا ، أَيْ : فِي الْحَالَةِ الرَّاهِنَةِ ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أَيْ : جَدَّ الْحَالُ ، وَحَضَرَ الْقِتَالُ ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : أَخْلَصُوا لَهُ النِّيَّةَ ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أَيْ : عَنِ الْجِهَادِ ، وَنَكَلْتُمْ عَنْهُ ﴿ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ أَيْ : تَعُودُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ الْجَهْلَاءِ ، تَسْفِكُونَ الدِّمَاءَ ، وَتُقَطِّعُونَ الْأَرْحَامَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ وَهَذَا نَهْيٌ عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ عُمُومًا ، وَعَنْ قَطْعِ الْأَرْحَامِ خُصُوصًا ، بَلْ قَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالْإِصْلَاحِ فِي الْأَرْضِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ ، وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْأَقَارِبِ فِي الْمَقَالِ وَالْأَفْعَالِ وَبَذْلِ الْأَمْوَالِ .

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ

بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَتَفَهُّمِهِ ، وَنَاهِيًا عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ ، فَقَالَ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ أَيْ : بَلْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ، فَهِيَ مُطْبَقَةٌ لَا يَخْلُصُ إِلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ مَعَانِيهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم ﴾ أَيْ : فَارَقُوا الْإِيمَانَ وَرَجَعُوا إِلَى الْكُفْرِ ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ أَيْ : زَيَّنَ لَهُمْ ذَلِكَ وَحَسَّنَهُ ﴿ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ أَيْ : غَرَّهُمْ وَخَدَعَهُمْ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ﴾ أَيْ : مَالَئُوهُمْ وَنَاصَحُوهُمْ فِي الْبَاطِنِ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَهَذَا شَأْنُ الْمُنَافِقِينَ يُظْهِرُونَ خِلَافَ مَا يُبْطِنُونَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ أَيْ : مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُخْفُونَ ، اللهُ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ وَعَالِمٌ بِهِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ أَيْ : كَيْفَ حَالُهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ ، وَتَعَاصَتِ الْأَرْوَاحُ فِي أَجْسَادِهِمْ ، وَاسْتَخْرَجَتْهَا الْمَلَائِكَةُ بِالْعُنْفِ وَالْقَهْرِ وَالضَّرْبِ .

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ أَيْ : أَيَعْتَقِدُ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ اللهَ لَا يَكْشِفُ أَمْرَهُمْ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ؟! بَلْ سَيُوَضِّحُ أَمْرَهُمْ وَيُجْلِيهِ حَتَّى يُفْهِمَهُمْ ذَوُو الْبَصَائِرِ ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ سُورَةَ « بَرَاءَة » فَبَيَّنَ فِيهَا فَضَائِحَهُمْ وَمَا يَعْتَمِدُونَهُ مِنَ الْأَفْعَالِ الدَّالَّةِ عَلَى نِفَاقِهِمْ ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ تُسَمَّى الْفَاضِحَةَ ، وَالْأَضْغَانُ : جَمْعُ ضِغْنٍ ، وَهُوَ مَا فِي النُّفُوسِ مِنَ الْحَسَدِ وَالْحِقْدِ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ وَالْقَائِمِينَ بِنَصْرِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : وَلَوْ نَشَاءُ - يَا مُحَمَّدُ - لَأَرَيْنَاكَ أَشْخَاصَهُمْ ، فَعَرَفْتَهُمْ عِيَانًا ، وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ تَعَالَى ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْمُنَافِقِينَ سَتْرًا مِنْهُ عَلَى خَلْقِهِ ، وَحَمْلًا لِلْأُمُورِ عَلَى ظَاهِرِ السَّلَامَةِ ، وَرَدًّا لِلسَّرَائِرِ إِلَى عَالِمِهَا ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ أَيْ : فِيمَا يَبْدُو مِنْ كَلَامِهِمُ الدَّالِّ عَلَى مَقَاصِدِهِمْ ، يُفْهَمُ الْمُتَكَلِّمُ مِنْ أَيِّ الْحِزْبَيْنِ هُوَ ، بِمَعَانِي كَلَامِهِ وَفَحْوَاهُ ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ لَحْنِ الْقَوْلِ ، كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ﷺ : مَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَبْدَاهَا اللهُ عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ ، وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ . وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ تَعْيِينُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ أَيْ : لَنَخْتَبِرَنَّكُمْ بِالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ

﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ وَلَيْسَ فِي تَقَدُّمِ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ أَنَّهُ سَيَكُونُ شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ ، فَالْمُرَادُ : حَتَّى نَعْلَمَ وُقُوعَهُ ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ اِبْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فِي مِثْلِ هَذَا : إِلَّا لِنَعْلَمَ ، أَيْ : لِنَرَى .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ كَفَرَ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَخَالَفَ الرَّسُولَ وَشَاقَّهُ وَارْتَدَّ عَنِ الْإِيمَانِ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ، أَنَّهُ لَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ وَيَخْسَرُهَا يَوْمَ مَعَادِهَا ، وَسَيُحْبِطُ اللهُ عَمَلَهُ فَلَا يُثِيبُهُ عَلَى سَالِفِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَقَّبَهُ بِرِدَّتِهِ مِثْقَالَ بَعُوضَةٍ مِنْ خَيْرٍ ، بَلْ يُحْبِطُهُ وَيَمْحَقُهُ بِالْكُلِّيَّةِ ، كَمَا أَنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .

ثُمَّ أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ الَّتِي هِيَ سَعَادَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الِارْتِدَادِ الَّذِي هُوَ مُبْطِلٌ لِلْأَعْمَالِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أَيْ : بِالرِّدَّةِ . وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهَا : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء : ٤٨] .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ : ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ أَيْ : لَا تَضْعُفُوا عَنِ الْأَعْدَاءِ ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أَيْ : الْمُهَادَنَةِ وَالْمُسَالَمَةِ وَوَضْعِ الْقِتَالِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ فِي حَالِ قُوَّتِكُمْ وَكَثْرَةِ عَدَدِكُمْ وَعُدَّتِكُمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أَيْ : فِي حَالِ عُلُوِّكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْكُفَّارُ فِيهِمْ قُوَّةٌ وَكَثْرَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَرَأَى الْإِمَامُ فِي الْمُهَادَنَةِ وَالْمُعَاهَدَةِ مَصْلَحَةً ، فَلَهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ ، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ صَدَّهُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ عَنْ مَكَّةَ ، وَدَعَوْهُ إِلَى الصُّلْحِ وَوَضْعِ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ عَشْرَ سِنِينَ ، فَأَجَابَهُمْ ﷺ إِلَى ذَلِكَ .

﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فِيهِ بِشَارَةٌ عَظِيمَةٌ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أَيْ : وَلَنْ يُحْبِطَهَا وَيُبْطِلَهَا وَيَسْلُبَكُمْ إِيَّاهَا ، بَلْ يُوفِيكُمْ ثَوَابَهَا وَلَا يُنْقِصُكُمْ مِنْهَا شَيْئًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ

﴿أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ۝٣٧ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ۝٣٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى تَحْقِيرًا لِأَمْرِ الدُّنْيَا وَتَهْوِينًا لِشَأْنِهَا : ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أَيْ : حَاصِلُهَا ذَلِكَ إِلَّا مَا كَانَ مِنْهَا للهِ ﷿ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أَيْ : هُوَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ لَا يَطْلُبُ مِنْكُمْ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا فَرَضَ عَلَيْكُمُ الصَّدَقَاتِ مِنَ الْأَمْوَالِ مُوَاسَاةً لِإِخْوَانِكُمُ الْفُقَرَاءِ ، لِيَعُودَ نَفْعُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ ، وَيَرْجِعُ ثَوَابُهُ إِلَيْكُمْ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾ أَيْ : يُحْرِجْكُمْ تَبْخَلُوا ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : قَدْ عَلِمَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ فِي إِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ إِخْرَاجُ الْأَضْغَانِ ، وَصَدَقَ قَتَادَةُ ، فَإِنَّ الْمَالَ مَحْبُوبٌ ، وَلَا يُصْرَفُ إِلَّا فِيمَا هُوَ أَحَبُّ إِلَى الشَّخْصِ مِنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أَيْ : لَا يُجِيبُ إِلَى ذَلِكَ ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أَيْ : إِنَّمَا نَقَصَ نَفْسَهُ مِنَ الْأَجْرِ ، وَإِنَّمَا يَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْهِ ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ أَيْ : عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ دَائِمًا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ أَيْ : بِالذَّاتِ إِلَيْهِ ، فَوَصْفُهُ بِالْغَنِيِّ وَصْفٌ لَازِمٌ لَهُ ، وَوَصْفُ الْخَلْقِ بِالْفَقْرِ وَصْفٌ لَازِمٌ لَهُمْ ، لَا يَنْفَكُّونَ عَنْهُ ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ أَيْ : عَنْ طَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ شَرْعِهِ ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ أَيْ : وَلَكِنْ يَكُونُونَ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ لَهُ وَلِأَوَامِرِهِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقِتَالِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسيرُ سُورَةِ الفتح

آياتها ٢٩ — مدنية

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ يَقُولُ : قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فِي مَسِيرِهِ ، سُورَةَ الْفَتْحِ عَلَى رَاحِلَتِهِ ، فَرَجَّعَ فِيهَا ، قَالَ مُعَاوِيَةُ : لَوْلَا أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَيْنَا لَحَكَيْتُ لَكُمْ قِرَاءَتَهُ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ

نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ سَنَةِ سِتٍّ مِنَ الْهِجْرَةِ ، حِينَ صَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لِيَقْضِيَ عُمْرَتَهُ فِيهِ ، وَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، ثُمَّ مَالُوا إِلَى الْمُصَالَحَةِ وَالْمُهَادَنَةِ ، وَأَنْ يَرْجِعَ عَامَهُ هَذَا ، ثُمَّ يَأْتِيَ مِنْ قَابِلٍ ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ عَلَى تَكَرُّهٍ مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ، مِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ - ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى - فَلَمَّا نَحَرَ هَدْيَهُ حَيْثُ أُحْصِرَ وَرَجَعَ ، أَنْزَلَ اللهُ عز وجل هَذِهِ السُّورَةَ ، فِيمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِهِمْ ، وَجَعَلَ ذَلِكَ الصُّلْحَ فَتْحًا بِاعْتِبَارِ مَا فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ ، وَمَا آلَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ ، **كَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ** رضي الله عنه **وَغَيْرِهِ أَنَّهُ قَالَ** : إِنَّكُمْ تَعُدُّونَ الْفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ ، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ صُلْحَ الْحُدَيْبِيَةِ . **وَعَنْ جَابِرٍ** رضي الله عنه **قَالَ** : مَا كُنَّا نَعُدُّ الْفَتْحَ إِلَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ . **وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ** رضي الله عنه **قَالَ** : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **نَزَلَتْ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ سُورَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا** : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ . **فَقَوْلُهُ** : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ أَيْ : بَيِّنًا ظَاهِرًا ، وَالْمُرَادُ بِهِ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ ، فَإِنَّهُ حَصَلَ بِسَبَبِهِ خَيْرٌ جَزِيلٌ ، وَآمَنَ النَّاسُ وَاجْتَمَعَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَتَكَلَّمَ الْمُؤْمِنُ مَعَ الْكَافِرِ ، وَانْتَشَرَ الْعِلْمُ النَّافِعُ وَالْإِيمَانُ ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ هَذَا مِنْ خَصَائِصِهِ ﷺ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ ، وَلَمَّا كَانَ أَطْوَعَ خَلْقِ اللهِ للهِ ، وَأَكْثَرَهُمْ تَعْظِيمًا لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ ، قَالَ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ النَّاقَةُ « **حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ** » ثُمَّ قَالَ ﷺ : « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي الْيَوْمَ شَيْئًا يُعَظِّمُونَ بِهِ حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَجَبْتُهُمْ إِلَيْهَا** » . فَلَمَّا أَطَاعَ اللهَ فِي ذَلِكَ وَأَجَابَ إِلَى الصُّلْحِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى **لَهُ** : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ أَيْ : بِمَا يَشْرَعُهُ لَكَ مِنَ الشَّرْعِ الْعَظِيمِ وَالدِّينِ الْقَوِيمِ ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ خُضُوعِكَ لِأَمْرِ اللهِ عز وجل ، يَرْفَعُكَ اللهُ وَيَنْصُرُكَ عَلَى أَعْدَائِكَ .

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ

مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ أَيْ : جَعَلَ الطُّمَأْنِينَةَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : **الْوَقَارَ فِي** قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُمُ الصَّحَابَةُ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ الَّذِينَ اِسْتَجَابُوا للهِ وَلِرَسُولِهِ ، وَانْقَادُوا لِحُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، فَلَمَّا اِطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ بِذَلِكَ وَاسْتَقَرَّتْ ، زَادَهُمْ إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ، **وَقَدِ اسْتَدَلَّ بِهَا الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ عَلَى تَفَاضُلِ الْإِيمَانِ فِي الْقُلُوبِ** . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَانْتَصَرَ مِنَ الْكَافِرِينَ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : وَلَوْ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مَلَكًا وَاحِدًا لَأَبَادَ خَضْرَاءَهُمْ ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى شَرَعَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْجِهَادَ وَالْقِتَالَ ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ ، وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ ، وَالْبَرَاهِينِ الدَّامِغَةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالُوا : هَنِيئًا لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا لَكَ فَمَا لَنَا ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ أَيْ : خَطَايَاهُمْ وَذُنُوبَهُمْ ، فَلَا يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهَا بَلْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ ، وَيَغْفِرُ وَيَسْتُرُ ، وَيَرْحَمُ وَيَشْكُرُ ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ أَيْ : يَتَّهِمُونَ اللهَ تَعَالَى فِي حُكْمِهِ ، وَيَظُنُّونَ بِالرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ﷺ أَنْ يُقْتَلُوا وَيَذْهَبُوا بِالْكُلِّيَّةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾ أَيْ : أَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ ثُمَّ قَالَ ﷻ مُؤَكِّدًا لِقُدْرَتِهِ عَلَى الِانْتِقَامِ مِنَ الْأَعْدَاءِ ، أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْكَفَرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا ﴾ أَي : عَلَى الْخَلْقِ ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ أَي : لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ أَي : لِلْكَافِرِيْنَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي « سُورَةِ الأَحْزَابِ »[١] . ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

(١) الآية : رقم (٤٥) .

وتُعزِّروهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: تُعَظِّمُوهُ ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ : مِنَ التَّوْقِيرِ ، وَهُوَ الِاحْتِرَامُ وَالْإِجْلَالُ وَالْإِعْظَامُ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أَيْ : تُسَبِّحُونَ اللهَ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أَيْ : أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ . ثُمَّ قَالَ ﷻ لِرَسُولِهِ ﷺ تَشْرِيفًا لَهُ وَتَعْظِيمًا وَتَكْرِيمًا : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أَيْ : هُوَ حَاضِرٌ مَعَهُمْ يَسْمَعُ أَقْوَالَهُمْ وَيَرَى مَكَانَهُمْ وَيَعْلَمُ ضَمَائِرَهُمْ وَظَوَاهِرَهُمْ ، فَهُوَ تَعَالَى هُوَ الْمُبَايِعُ بِوَاسِطَةِ رَسُولِهِ ﷺ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْحَجَرِ : « وَاللهِ لَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ يَنْظُرُ بِهِمَا ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ . وَيَشْهَدُ عَلَى مَنِ اسْتَلَمَهُ بِالْحَقِّ ، فَمَنِ اسْتَلَمَهُ فَقَدْ بَايَعَ اللهَ تَعَالَى » ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا : ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَى النَّاكِثِ ، وَاللهُ غَنِيٌّ عَنْهُ ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أَيْ : ثَوَابًا جَزِيلًا ، وَهَذِهِ الْبَيْعَةُ هِيَ : بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ ، وَكَانَتْ تَحْتَ شَجَرَةِ سَمُرٍ بِالْحُدَيْبِيَةِ ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ ، قِيلَ : أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ . وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ : « أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ الْيَوْمَ » قَالَ جَابِرٌ ﷺ : لَوْ كُنْتُ أُبْصِرُ لَأَرَيْتُكُمْ مَوْضِعَ الشَّجَرَةِ . وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ كَمَا قَالَ ﷻ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ .

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا رَسُولَهُ ﷺ، بِمَا يَعْتَذِرُ بِهِ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ اخْتَارُوا الْمُقَامَ فِي أَهْلِيهِمْ وَشَغْلِهِمْ، وَتَرَكُوا الْمَسِيرَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاعْتَذَرُوا بِشَغْلِهِمْ بِذَلِكَ، وَسَأَلُوا أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ، وَذَلِكَ قَوْلٌ مِنْهُمْ لَا عَلَى سَبِيلِ الاعْتِقَادِ بَلْ عَلَى وَجْهِ التَّقِيَّةِ وَالْمُصَانَعَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ أَيْ: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَرُدَّ مَا أَرَادَهُ اللهُ فِيكُمْ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَهُوَ الْعَلِيمُ بِسَرَائِرِكُمْ وَضَمَائِرِكُمْ، وَإِنْ صَانَعْتُمُونَا وَتَابَعْتُمُونَا؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾. ثُمَّ قَالَ: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ أَيْ: لَمْ يَكُنْ تَخَلُّفُكُمْ تَخَلُّفَ مَعْذُورٍ وَلَا عَاصٍ بَلْ تَخَلُّفَ نِفَاقٍ، وَاعْتَقَدْتُمْ أَنَّهُمْ يُقْتَلُونَ وَتُسْتَأْصَلُ شَأْفَتُهُمْ، وَتُسْتَبَادُ خَضْرَاؤُهُمْ، وَلَا يَرْجِعُ مِنْهُمْ مُخْبِرٌ ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ أَيْ: هَلْكَى ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أَيْ: مَنْ لَمْ يُخْلِصِ الْعَمَلَ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ للهِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى سَيُعَذِّبُهُ فِي السَّعِيرِ، وَإِنْ أَظْهَرَ لِلنَّاسِ مَا يَعْتَقِدُونَ خِلَافَ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ. ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ الْحَاكِمُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أَيْ: لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ وَخَضَعَ لَدَيْهِ.

سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَةِ، إِذْ ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ يَفْتَحُونَهَا، أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُمْ إِلَى الْمَغْنَمِ، وَقَدْ تَخَلَّفُوا عَنْ وَقْتِ مُحَارَبَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُجَالَدَتِهِمْ وَمُصَابَرَتِهِمْ، فَأَمَرَ اللهُ - تَعَالَى - رَسُولَهُ ﷺ أَنْ لَا يَأْذَنَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، مُعَاقَبَةً لَهُمْ مِنْ جِنْسِ ذَنْبِهِمْ، فَإِنَّ اللهَ - تَعَالَى - قَدْ وَعَدَ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَةِ بِمَغَانِمِ خَيْبَرَ وَحْدَهُمْ، لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ الْمُتَخَلِّفِينَ، فَلَا يَقَعُ غَيْرُ ذَلِكَ شَرْعًا وَلَا قَدَرًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ وَهُوَ الْوَعْدُ الَّذِي وَعَدَ بِهِ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَةِ ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ: وَعَدَ اللهُ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَةِ قَبْلَ سُؤَالِكُمُ الْخُرُوجَ مَعَهُمْ ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أَيْ: أَنْ نُشْرِكَكُمْ فِي الْمَغَانِمِ ﴿ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيْ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا، وَلَكِنْ لَا فَهْمَ لَهُمْ.

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ

﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَيْهِمُ الَّذِينَ هُمْ أُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ، عَلَى أَقْوَالٍ: **أَحَدُهَا**: أَنَّهُمْ هَوَازِنُ، **الثَّانِي**: ثَقِيفُ، **الثَّالِثُ**: بَنُو حَنِيفَةَ، **الرَّابِعُ**: هُمْ أَهْلُ فَارِسٍ، **وَقِيلَ**: هُمُ الرُّومُ، **وَقِيلَ**: هُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ، **وَقِيلَ**: هُمْ أَهْلُ الْأَوْثَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يَعْنِي: شُرِعَ لَكُمْ جِهَادُهُمْ وَقِتَالُهُمْ، فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ مُسْتَمِرًّا عَلَيْهِمْ، وَلَكُمُ النُّصْرَةُ عَلَيْهِمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَيَدْخُلُونَ فِي دِينِكُمْ بِلَا قِتَالٍ، بَلْ بِاخْتِيَارٍ، **ثُمَّ قَالَ** ﷻ: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾ أَيْ: تَسْتَجِيبُوا وَتَنْفِرُوا فِي الْجِهَادِ وَتُؤَدُّوا الَّذِي عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يَعْنِي: زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ حَيْثُ دُعِيتُمْ فَتَخَلَّفْتُمْ ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْأَعْذَارَ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ، فَمِنْهَا لَازِمٌ كَالْعَمَى وَالْعَرَجِ الْمُسْتَمِرِّ، وَعَارِضٌ كَالْمَرَضِ الَّذِي يَطْرَأُ أَيَّامًا ثُمَّ يَزُولُ، فَهُوَ فِي حَالِ مَرَضِهِ مُلْحَقٌ بِذَوِي الْأَعْذَارِ اللَّازِمَةِ حَتَّى يَبْرَأَ، ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، مُرَغِّبًا فِي الْجِهَادِ وَطَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أَيْ: يَنْكُلُ عَنِ الْجِهَادِ وَيُقْبِلُ عَلَى الْمَعَاشِ ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فِي الدُّنْيَا بِالْمَذَلَّةِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالنَّارِ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ رِضَاهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ عُدَّتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ كَانَتْ سَمُرَةً بِأَرْضِ الْحُدَيْبِيَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أَيْ: مِنَ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ وَهِيَ الطُّمَأْنِينَةُ ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وَهُوَ مَا أَجْرَى اللهُ ﷻ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الصُّلْحِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِمْ، وَمَا حَصَلَ بِذَلِكَ مِنَ الْخَيْرِ الْعَامِّ وَالْمُسْتَمِرِّ الْمُتَّصِلِ بِفَتْحِ خَيْبَرَ وَفَتْحِ مَكَّةَ، ثُمَّ فَتْحِ سَائِرِ الْبِلَادِ وَالْأَقَالِيمِ عَلَيْهِمْ، وَمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْعِزِّ وَالنَّصْرِ وَالرِّفْعَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ هِيَ جَمِيعُ الْمَغَانِمِ إِلَى الْيَوْمِ ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ يَعْنِي: فَتْحَ خَيْبَرَ، قِيلَ: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ يَعْنِي: صُلْحَ الْحُدَيْبِيَةِ، ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أَيْ: لَمْ يَنَلْكُمْ سُوءٌ مِمَّا كَانَ أَعْدَاؤُكُمْ أَضْمَرُوهُ لَكُمْ مِنَ الْمُحَارَبَةِ وَالْقِتَالِ، وَكَذَلِكَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ الَّذِينَ خَلَّفْتُمُوهُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ عَنْ عِيَالِكُمْ وَحَرِيمِكُمْ ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: يَعْتَبِرُونَ بِذَلِكَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى حَافِظُهُمْ وَنَاصِرُهُمْ عَلَى سَائِرِ الْأَعْدَاءِ مَعَ قِلَّةِ عَدَدِهِمْ، وَلِيَعْلَمُوا بِصَنِيعِ اللهِ هَذَا بِهِمْ أَنَّهُ الْعَلِيمُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ، وَأَنَّ الْخِيرَةَ فِيمَا يَخْتَارُهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ كَرِهُوهُ فِي الظَّاهِرِ، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أَيْ: بِسَبَبِ انْقِيَادِكُمْ لِأَمْرِهِ، وَاتِّبَاعِكُمْ طَاعَتَهُ، وَمُوَافَقَتِكُمْ رَسُولَهُ ﷺ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ أَيْ: وَغَنِيمَةٌ أُخْرَى وَفَتْحًا آخَرَ مُعَيَّنًا، لَمْ تَكُونُوا تَقْدِرُونَ عَلَيْهَا قَدْ يَسَّرَهَا اللهُ عَلَيْكُمْ وَأَحَاطَ بِهَا لَكُمْ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يَرْزُقُ عِبَادَهُ - الْمُتَّقِينَ لَهُ - مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ، وَهِيَ كُلُّ فَتْحٍ وَغَنِيمَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: هَذِهِ الْفُتُوحُ الَّتِي تُفْتَحُ إِلَى الْيَوْمِ. ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يَقُولُ ﷻ مُبَشِّرًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ لَوْ نَاجَزَهُمُ الْمُشْرِكُونَ لَنَصَرَ اللهُ رَسُولَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ، وَلَانْهَزَمَ جَيْشُ الْكُفْرِ فَارًّا مُدْبِرًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا؛ لِأَنَّهُمْ مُحَارِبُونَ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِحِزْبِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أَيْ: هَذِهِ سُنَّةُ اللهِ وَعَادَتُهُ فِي خَلْقِهِ، مَا تَقَابَلَ الْكُفْرُ وَالْإِيمَانُ فِي مَوْطِنٍ فَيْصَلٍ إِلَّا نَصَرَ اللهُ الْإِيمَانَ عَلَى الْكُفْرِ، فَرَفَعَ الْحَقَّ وَوَضَعَ الْبَاطِلَ. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ هَذَا امْتِنَانٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ

الْمُؤْمِنِينَ ، حِينَ كَفَّ أَيْدِيَ الْمُشْرِكِينَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ سُوءٌ ، وَكَفَّ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فَلَمْ يُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، بَلْ صَانَ كُلًّا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَأَوْجَدَ بَيْنَهُمْ صُلْحًا فِيهِ خِيَرَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَعَاقِبَةٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَعَنْ **أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** ﷺ **قَالَ** : لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْحُدَيْبِيَةِ هَبَطَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ثَمَانُونَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ بِالسِّلَاحِ ، مِنْ قِبَلِ جَبَلِ التَّنْعِيمِ يُرِيدُونَ غِرَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ فَأُخِذُوا ، قَالَ : فَعَفَا عَنْهُمْ ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَمَنْ مَالَأَهُمْ عَلَى نُصْرَتِهِمْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أَيْ : هُمُ الْكُفَّارُ دُونَ غَيْرِهِمْ ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ أَيْ : وَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ ، وَأَنْتُمْ أَهْلُهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ﴿ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ أَيْ : وَصَدُّوا الْهَدْيَ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَحِلِّهِ ، وَهَذَا مِنْ بَغْيِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَكَانَ الْهَدْيُ : سَبْعِينَ بَدَنَةً ، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى بَيَانُهُ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ ﴾ أَيْ : بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مِمَّنْ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ وَيُخْفِيهِ مِنْهُمْ خِيفَةً عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ ، لَكُنَّا سَلَّطْنَاكُمْ عَلَيْهِمْ فَقَتَلْتُمُوهُمْ وَأَبَدْتُمْ خَضْرَاءَهُمْ ، وَلَكِنْ بَيْنَ أَفْنَائِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ أَقْوَامٌ لَا تَعْرِفُونَهُمْ حَالَةَ الْقَتْلِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ ﴾ أَيْ : إِثْمٌ وَغَرَامَةٌ ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : يُؤَخِّرُ عُقُوبَتَهُمْ لِيُخَلِّصَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَرْجِعَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ .

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ ﴾ أَيْ : لَوْ تَمَيَّزَ الْكُفَّارُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ﴿ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أَيْ : لَسَلَّطْنَاكُمْ عَلَيْهِمْ فَلَقَتَلْتُمُوهُمْ قَتْلًا ذَرِيعًا . ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ وَذَلِكَ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَكْتُبُوا « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » وَأَبَوْا أَنْ يَكْتُبُوا « هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ » ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ

سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ . وَهِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، فَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا وَاسْتَكْبَرَ عَنْهَا الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ ، وَكَاتَبَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى قَضِيَّةِ الْمُدَّةِ ، وَقِيلَ : ﴿ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ : الإِخْلَاصُ ، وَقَالَ كَثِيرُونَ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ : هِيَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ كَانَ الْمُسْلِمُونَ أَحَقَّ بِهَا وَكَانُوا أَهْلَهَا ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أَيْ : هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْخَيْرَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الشَّرَّ .

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : إِنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺ وَفِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ ﷺ : « **اُكْتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** » فَقَالَ سُهَيْلٌ : لَا نَدْرِي مَا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَلَكِنِ اُكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ، فَقَالَ ﷺ : « **اُكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ** » قَالَ : لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ لَاتَّبَعْنَاكَ ، وَلَكِنِ اُكْتُبْ اِسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **اُكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ** » وَاشْتَرَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكُمْ ، وَمَنْ جَاءَكُمْ مِنَّا رَدَدْتُمُوهُ عَلَيْنَا ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَنَكْتُبُ هَذَا ؟ قَالَ ﷺ : « **نَعَمْ ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللهُ** » .

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ رَأَى فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ دَخَلَ مَكَّةَ وَطَافَ بِالْبَيْتِ ، فَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ ، فَلَمَّا سَارُوا عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ لَمْ يَشُكَّ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أَنَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا تَتَفَسَّرُ هَذَا الْعَامَ ، فَلَمَّا وَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ قَضِيَّةِ الصُّلْحِ وَرَجَعُوا عَامَهُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَعُودُوا مِنْ قَابِلٍ ، وَقَعَ فِي نَفْسِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، حَتَّى سَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ : أَفَلَمْ تَكُنْ تُخْبِرُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ ؟ قَالَ : « **بَلَى ، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ عَامَكَ هَذَا ؟** » قَالَ : لَا ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ** » وَبِهَذَا أَجَابَ الصِّدِّيقُ ﷺ أَيْضًا حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ هَذَا لِتَحْقِيقِ الْخَبَرِ وَتَوْكِيدِهِ ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الِاسْتِثْنَاءِ فِي شَيْءٍ ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ دُخُولِكُمْ ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ ؛ لِأَنَّهُمْ فِي حَالِ حَرَمِهِمْ لَمْ يَكُونُوا مُحَلِّقِينَ وَمُقَصِّرِينَ ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا فِي ثَانِي الْحَالِ ، كَانَ مِنْهُمْ مَنْ حَلَقَ رَأْسَهُ ، وَمِنْهُمْ

مَنْ قَصَّرَهُ . وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ فِي الْمَعْنَى ، فَأَثْبَتَ لَهُمُ الْأَمْنَ حَالَ الدُّخُولِ ، وَنَفَى عَنْهُمُ الْخَوْفَ حَالَ اسْتِقْرَارِهِمْ فِي الْبَلَدِ لَا يَخَافُونَ مِنْ أَحَدٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ أَيْ : فَعَلِمَ اللهُ ﷻ مِنَ الْخِيرَةِ وَالْمَصْلَحَةِ فِي صَرْفِكُمْ عَنْ مَكَّةَ وَدُخُولِكُمْ إِلَيْهَا عَامَكُمْ ذَلِكَ ، مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : قَبْلَ دُخُولِكُمُ الَّذِي وُعِدْتُمْ بِهِ فِي رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ فَتْحًا قَرِيبًا ، وَهُوَ الصُّلْحُ الَّذِي كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِنُصْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى عَدُوِّهِ وَعَلَى سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ تَشْتَمِلُ عَلَى شَيْئَيْنِ عِلْمٍ وَعَمَلٍ ، فَالْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ صَحِيحٌ ، وَالْعَمَلُ الشَّرْعِيُّ مَقْبُولٌ ، فَإِخْبَارَاتُهَا حَقٌّ وَإِنْشَاءَاتُهَا عَدْلٌ ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أَيْ : عَلَى أَهْلِ جَمِيعِ الْأَدْيَانِ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ وَمُسْلِمِينَ وَمُشْرِكِينَ ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أَيْ : أَنَّهُ رَسُولُهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ .

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ رَسُولُهُ حَقًّا بِلَا شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ ، فَقَالَ : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ ، وَهَذَا مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ ، وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى كُلِّ وَصْفٍ جَمِيلٍ ، ثُمَّ ثَنَّى بِالثَّنَاءِ عَلَى أَصْحَابِهِ ﷺ فَقَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ شَدِيدًا عَنِيفًا عَلَى الْكُفَّارِ رَحِيمًا بَرًّا بِالْأَخْيَارِ ، غَضُوبًا عَبُوسًا فِي وَجْهِ الْكَافِرِ ، ضَحُوكًا بَشُوشًا فِي وَجْهِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ . ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ ، وَصَفَهُمْ بِكَثْرَةِ الْعَمَلِ وَكَثْرَةِ الصَّلَاةِ وَهِيَ خَيْرُ الْأَعْمَالِ ، وَوَصَفَهُمْ بِالْإِخْلَاصِ فِيهَا لله ﷻ وَالِاحْتِسَابِ عِنْدَ الله تَعَالَى جَزِيلَ الثَّوَابِ ، وَهُوَ : الْجَنَّةُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى فَضْلِ الله ﷻ وَهُوَ سَعَةُ الرِّزْقِ عَلَيْهِمْ وَرِضَاهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْأَوَّلِ ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة : ٧٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي السَّمْتَ الْحَسَنَ ، وَقِيلَ : الْخُشُوعَ وَالتَّوَاضُعَ . وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ ،

وَالْغَرَضُ أَنَّ الشَّيْءَ الْكَامِنَ فِي النَّفْسِ يَظْهَرُ عَلَى صَفَحَاتِ الْوَجْهِ ، فَالْمُؤْمِنُ إِذَا كَانَتْ سَرِيرَتُهُ صَحِيحَةٌ مَعَ الله تَعَالَى أَصْلَحَ اللهُ ﷻ ظَاهِرَهُ لِلنَّاسِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ مُعَظَّمَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَأَعْظَمُهَا وَأَفْضَلُهَا أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ ، وَقَدْ نَوَّهَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِذِكْرِهِمْ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَدَاوَلَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ ﴾ أَيْ : فِرَاخَهُ ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ أَيْ : شَدَّهُ ﴿ فَٱسْتَغْلَظَ ﴾ أَيْ : شَبَّ وَطَالَ ﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ أَيْ : فَكَذَلِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ آزَرُوهُ وَأَيَّدُوهُ وَنَصَرُوهُ ، فَهُمْ مَعَهُ كَالشَّطْءِ مَعَ الزَّرْعِ ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم ﴾ « مِنْ » هَذِهِ لِبَيَانِ الْجِنْسِ ﴿ مَّغْفِرَةً ﴾ أَيْ : لِذُنُوبِهِمْ ﴿ وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أَيْ : ثَوَابًا جَزِيلًا وَرِزْقًا كَرِيمًا ، وَوَعْدُ الله حَقٌّ وَصِدْقٌ لَا يُخْلَفُ وَلَا يُبَدَّلُ ، وَكُلُّ مَنِ اقْتَفَى أَثَرَ الصَّحَابَةِ ﷺ فَهُوَ فِي حُكْمِهِمْ ، وَلَهُمُ الْفَضْلُ وَالسَّبْقُ وَالْكَمَالُ الَّذِي لَا يَلْحَقُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ وَجَعَلَ جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُمْ ، وَقَدْ فَعَلَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَتْحِ ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ١٨ تفسير سورة الحجرات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

هَذِهِ آدَابٌ أَدَّبَ اللهُ تَعَالَى بِهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا يُعَامِلُونَ بِهِ الرَّسُولَ ﷺ مِنَ التَّوْقِيرِ وَالِاحْتِرَامِ وَالتَّبْجِيلِ وَالْإِعْظَامِ ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أَيْ : لَا تَقُولُوا خِلَافَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ : لَا تَقْضُوا أَمْرًا دُونَ الله وَرَسُولِهِ مِنْ شَرَائِعِ دِينِكُمْ ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ أَيْ : لِأَقْوَالِكُمْ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بِنِيَّاتِكُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ هَذَا أَدَبٌ ثَانٍ أَدَّبَ اللهُ تَعَالَى بِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْ لَا يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بَيْنَ يَدَي النَّبِيِّ ﷺ . وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الشَّيْخَيْنِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فَفِي الْبُخَارِيِّ : قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : أَمِّرِ الْقَعْقَاعَ بْنَ مَعْبَدٍ ، وَقَالَ عُمَرُ ﷺ : بَلْ أَمِّرِ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : مَا أَرَدْتَ إِلَّا خِلَافِي ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ ، فَتَمَارَيَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا ، فَنَزَلَتْ فِي ذَلِكَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ حَتَّى انْقَضَتِ الْآيَةِ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴾ الْآيَة .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ وَكَانَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ رَفِيعَ الصَّوْتِ ، فَقَالَ : أَنَا الَّذِي كُنْتُ أَرْفَعُ صَوْتِي عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ حَبِطَ عَمَلِي ، وَجَلَسَ فِي أَهْلِهِ حَزِينًا ، فَفَقَدَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَانْطَلَقَ بَعْضُ الْقَوْمِ إِلَيْهِ ، فَقَالُوا لَهُ : تَفَقَّدَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، مَالَكَ ؟ قَالَ : أَنَا الَّذِي أَرْفَعُ صَوْتِي فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَجْهَرُ لَهُ بِالْقَوْلِ حَبِطَ عَمَلِي أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَأَتَوا النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ بِمَا قَالَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَا بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » . قَالَ الْعُلَمَاءُ : يُكْرَهُ رَفْعُ الصَّوْتِ عِنْدَ قَبْرِهِ ﷺ كَمَا كَانَ يُكْرَهُ فِي حَيَاتِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لِأَنَّهُ مُحْتَرَمٌ حَيًّا وَفِي قَبْرِهِ ﷺ دَائِمًا ، ثُمَّ نَهَى عَنِ الْجَهْرِ لَهُ بِالْقَوْلِ كَمَا يَجْهَرُ الرَّجُلُ لِمُخَاطِبِهِ مِمَّنْ عَدَاهُ ، بَلْ يُخَاطَبُ بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ وَتَعْظِيمٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور : ٦٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا نَهَيْنَاكُمْ عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ عِنْدَهُ خَشْيَةَ أَنْ يَغْضَبَ مِنْ ذَلِكَ ، فَيَغْضَبُ اللهُ تَعَالَى لِغَضَبِهِ ، فَيَحْبَطَ عَمَلُ مَنْ أَغْضَبَهُ ، وَهُوَ لَا يَدْرِي . ثُمَّ نَدَبَ اللهُ تَعَالَى إِلَى خَفْضِ الصَّوْتِ عِنْدَهُ ، وَحَثَّ عَلَى ذَلِكَ وَأَرْشَدَ إِلَيْهِ وَرَغَّبَ فِيهِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أَيْ : أَخْلَصَهَا لَهَا وَجَعَلَهَا أَهْلًا وَمَحَلًّا ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

ثُمَّ إِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَمَّ الَّذِينَ يُنَادُونَهُ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ وَهِيَ بُيُوتُ نِسَائِهِ ، كَمَا يَصْنَعُ أَجْلَافُ

الْأَعْرَابِ ، فَقَالَ : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ . ثُمَّ أَرْشَدَ تَعَالَى إِلَى الْأَدَبِ فِي ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ أَيْ : لَكَانَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْخِيَرَةُ وَالْمَصْلَحَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ثُمَّ قَالَ دَاعِيًا لَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى بِالتَّثَبُّتِ فِي خَبَرِ الْفَاسِقِ لِيُحْتَاطَ لَهُ ، لِئَلَّا يُحْكَمَ بِقَوْلِهِ فَيَكُونُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ كَاذِبًا أَوْ مُخْطِئًا ، فَيَكُونُ الْحَاكِمُ بِقَوْلِهِ قَدِ اقْتَفَى وَرَاءَهُ ، وَقَدْ نَهَى اللهُ ﷻ عَنِ اتِّبَاعِ سَبِيلِ الْمُفْسِدِينَ ، وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ ، حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ أَيْ : اِعْلَمُوا أَنَّ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ رَسُولَ اللهِ ، فَعَظِّمُوهُ ، وَوَقِّرُوهُ ، وَتَأَدَّبُوا مَعَهُ ، وَانْقَادُوا لِأَمْرِهِ ، فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِكُمْ وَأَشْفَقُ عَلَيْكُمْ مِنْكُمْ ، وَرَأْيُهُ فِيكُمْ أَتَمُّ مِنْ رَأْيِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٦] ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ رَأْيَهُمْ سَخِيفٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مُرَاعَاةِ مَصَالِحِهِمْ فَقَالَ : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أَيْ : لَوْ أَطَاعَكُمْ فِي جَمِيعِ مَا تَخْتَارُونَهُ لَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى عَنَتِكُمْ وَحَرَجِكُمْ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧١]

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أَيْ : حَبَّبَهُ إِلَى نُفُوسِكُمْ وَحَسَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ أَيْ : وَبَغَّضَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَهِيَ : الذُّنُوبُ الْكِبَارُ ، وَالْعِصْيَانُ وَهِيَ : جَمِيعُ الْمَعَاصِي ، وَهَذَا تَدْرِيجٌ لِكَمَالِ النِّعْمَةِ ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ أَيْ : الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ هُمُ الرَّاشِدُونَ الَّذِينَ قَدْ آتَاهُمُ اللهُ رُشْدَهُمْ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ أَيْ : هَذَا الْعَطَاءُ الَّذِي مَنَحَكُمُوهُ هُوَ فَضْلٌ مِنْهُ عَلَيْكُمْ ، وَنِعْمَةٌ مِنْ لَدُنْه ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْغِوَايَةَ ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ .

وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ

فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بِالْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْفِئَتَيْنِ الْبَاغِيَتَيْنِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ فَسَمَّاهُمْ مُؤْمِنِينَ مَعَ الِاقْتِتَالِ ، **وَبِهَذَا اسْتَدَلَّ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْمَعْصِيَةِ وَإِنْ عَظُمَتْ** . **وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ** : قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَرَكِبَ حِمَارًا ، وَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ يَمْشُونَ وَهِيَ أَرْضٌ سَبِخَةٌ ، فَلَمَّا انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِ قَالَ : إِلَيْكَ عَنِّي فَوَاللهِ لَقَدْ آذَانِي رِيحُ حِمَارِكَ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ : وَاللهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ ، قَالَ : فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللهِ رِجَالٌ مِنْ قَوْمِهِ فَغَضِبَ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ ، قَالَ : فَكَانَ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالْأَيْدِي وَالنِّعَالِ ، فَبَلَغَنَا أَنَّهُ أُنْزِلَتْ فِيهِمْ ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ **أَيْ** : اِعْدِلُوا بَيْنَهُمْ فِيمَا كَانَ أَصَابَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ بِالْقِسْطِ ، وَهُوَ الْعَدْلُ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ إِخْوَةٌ فِي الدِّينِ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ** » ، وَفِي الصَّحِيحِ « **وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ** » . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ **يَعْنِي** : الْفِئَتَيْنِ الْمُقْتَتِلَتَيْنِ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ، وَهَذَا تَحْقِيقٌ مِنْهُ تَعَالَى لِلرَّحْمَةِ لِمَنِ اتَّقَاهُ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾

يَنْهَى تَعَالَى عَنِ السُّخْرِيَةِ بِالنَّاسِ وَهُوَ احْتِقَارُهُمْ وَالِاسْتِهْزَاءُ بِهِمْ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ **أَنَّهُ** قَالَ : « **الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ** – وَيُرْوَى – **وَغَمْطُ النَّاسِ** » ، وَالْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ احْتِقَارُهُمْ وَاسْتِصْغَارُهُمْ وَهَذَا حَرَامٌ ، فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ الْمُحْتَقَرُ أَعْظَمَ قَدْرًا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ السَّاخِرِ مِنْهُ الْمُحْتَقِرُ لَهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ فَنَصَّ عَلَى نَهْيِ الرِّجَالِ وَعَطَفَ بِنَهْيِ النِّسَاءِ ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أَيْ : لَا تَلْمِزُوا النَّاسَ ، وَالْهَمَّازُ اللَّمَّازُ

مِنَ الرِّجَالِ مَذْمُومٌ مَلْعُونٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة : ١] ، فَالْهَمْزُ بِالْفِعْلِ ، وَاللَّمْزُ بِالْقَوْلِ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم : ١١] أَيْ : يَحْتَقِرُ النَّاسَ وَيَهْمِزُهُمْ طَاعِنًا عَلَيْهِمْ ، وَيَمْشِي بَيْنَهُمْ بِالنَّمِيمَةِ ، وَهِيَ : اللَّمْزُ بِالْمَقَالِ ، **وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا** : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء : ٢٩] أَيْ : لَا يَقْتُلْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، أَيْ : لَا يَطْعَنْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ . ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ أَيْ : لَا تَتَدَاعَوْا بِالْأَلْقَابِ وَهِيَ الَّتِي يَسُوءُ الشَّخْصَ سَمَاعُهَا ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ أَيْ : بِئْسَ الصِّفَةُ وَالِاسْمُ الْفُسُوقُ وَهُوَ : التَّنَابُزُ بِالْأَلْقَابِ ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَنَاعَتُونَ بَعْدَمَا دَخَلْتُمْ فِي الْإِسْلَامِ وَعَقَلْتُمُوهُ ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ أَيْ : مِنْ هَذَا ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الظَّنِّ وَهُوَ : **التُّهَمَةُ** وَالتَّخَوُّنُ لِلْأَهْلِ وَالْأَقَارِبِ وَالنَّاسِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ ؛ لِأَنَّ بَعْضَ ذَلِكَ يَكُونُ إِثْمًا مَحْضًا ، فَلْيُجْتَنَبْ كَثِيرٌ مِنْهُ احْتِيَاطًا . قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا تَحَسَّسُوا ، وَلَا تَنَافَسُوا ، وَلَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ أَيْ : عَلَى بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، وَالتَّجَسُّسُ غَالِبًا يُطْلَقُ فِي الشَّرِّ ، وَمِنْهُ الْجَاسُوسُ ، وَأَمَّا التَّحَسُّسُ فَيَكُونُ غَالِبًا فِي الْخَيْرِ ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ كُلٌّ مِنْهُمَا فِي الشَّرِّ ، **وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ** : التَّجَسُّسُ : الْبَحْثُ عَنِ الشَّيْءِ ، وَالتَّحَسُّسُ : الِاسْتِمَاعُ إِلَى حَدِيثِ الْقَوْمِ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ ، أَوْ يَتَسَمَّعُ عَلَى أَبْوَابِهِمْ وَالتَّدَابُرُ : الصَّرْمُ ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ فِيهِ نَهْيٌ عَنِ الْغِيبَةِ ، وَقَدْ فَسَّرَهَا الشَّارِعُ كَمَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْغِيبَةُ ؟ قَالَ ﷺ : « **ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ** » قِيلَ : أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ ؟ قَالَ ﷺ : « **إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ** » . **وَالْغِيبَةُ مُحَرَّمَةٌ بِالْإِجْمَاعِ لَا يُسْتَثْنَى** مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا رُجِّحَتْ مَصْلَحَتُهُ ، كَمَا فِي الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ وَالنَّصِيحَةِ ، كَقَوْلِهِ ﷺ لَمَّا اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ الْفَاجِرُ « **ائْذَنُوا لَهُ ، بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ** » ، وَكَقَوْلِهِ ﷺ لِفَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - وَقَدْ خَطَبَهَا مُعَاوِيَةُ وَأَبُو الْجَهْمِ « **أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ وَأَمَّا أَبُو الْجَهْمِ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ** » وَكَذَا مَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ ، ثُمَّ بَقِيَّتُهَا عَلَى التَّحْرِيمِ الشَّدِيدِ ، وَقَدْ وَرَدَ فِيهَا

الزَّجْرُ الأَكِيدُ ؛ وَلِهَذَا شَبَّهَهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَكْلِ اللَّحْمِ مِنَ الْإِنْسَانِ الْمَيِّتِ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ أَيْ : كَمَا تَكْرَهُونَ هَذَا طَبْعًا فَاكْرَهُوا ذَاكَ شَرْعًا ، فَإِنَّ عُقُوبَتَهُ أَشَدُّ مِنْ هَذَا ، وَهَذَا مِنَ التَّنْفِيرِ عَنْهَا وَالتَّحْذِيرِ مِنْهَا .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ فَرَاقِبُوهُ فِي ذَلِكَ وَاخْشَوْا مِنْهُ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : تَوَّابٌ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ ، رَحِيمٌ لِمَنْ رَجَعَ إِلَيْهِ وَاعْتَمَدَ عَلَيْهِ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا لِلنَّاسِ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَهُمَا آدَمُ وَحَوَّاءُ وَجَعَلَهُمْ شُعُوبًا ، وَهِيَ أَعَمُّ مِنَ الْقَبَائِلِ ، وَبَعْدَ الْقَبَائِلِ مَرَاتِبُ أُخَرُ كَالْفَصَائِلِ وَالْعَشَائِرِ وَالْعَمَائِرِ وَالْأَفْخَاذِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . قَالَ تَعَالَى بَعْدَ النَّهْيِ عَنِ الْغِيبَةِ وَاحْتِقَارِ بَعْضِ النَّاسِ بَعْضًا ، مُنَبِّهًا عَلَى تَسَاوِيهِمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ أَيْ : لِيَحْصُلَ التَّعَارُفُ بَيْنَهُمْ كُلٌّ يَرْجِعُ إِلَى قَبِيلَتِهِ ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا تَتَفَاضَلُونَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى بِالتَّقْوَى لَا بِالْأَحْسَابِ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِكُمْ خَبِيرٌ بِأُمُورِكُمْ ، فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُفَضِّلُ مَنْ يَشَاءُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ .

۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْأَعْرَابِ الَّذِينَ أَوَّلَ مَا دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ مَقَامَ الْإِيمَانِ وَلَمْ يَتَمَكَّنِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ بَعْدُ ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ وَقَدِ اسْتُفِيدَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْإِيمَانَ أَخَصُّ مِنَ

الْإِسْلَامِ ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَهَؤُلَاءِ الْأَعْرَابُ الْمَذْكُورُونَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَيْسُوا بِمُنَافِقِينَ ، وَإِنَّمَا هُمْ مُسْلِمُونَ لَمْ يَسْتَحْكِمِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ فَادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ مَقَامًا أَعْلَى مِمَّا وَصَلُوا إِلَيْهِ ، فَأُدِّبُوا فِي ذَلِكَ ، وَلَوْ كَانُوا مُنَافِقِينَ لَعُنِّفُوا وَفُضِحُوا ، كَمَا ذُكِرَ الْمُنَافِقُونَ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ ، وَإِنَّمَا قِيلَ لِهَؤُلَاءِ تَأْدِيبًا : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أَيْ : لَمْ تَصِلُوا إِلَى حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ بَعْدُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَا يُنْقِصُكُمْ مِنْ أُجُورِكُمْ شَيْئًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الْكُمَّلُ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ أَيْ : لَمْ يَشُكُّوا وَلَا تَزَلْزَلُوا ، بَلْ ثَبَتُوا عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ ، وَهِيَ التَّصْدِيقُ الْمَحْضُ ﴿ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : وَبَذَلُوا مُهَجَهُمْ وَنَفَائِسَ أَمْوَالِهِمْ فِي طَاعَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ أَيْ : فِي قَوْلِهِمْ إِذَا قَالُوا إِنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ لَا كَبَعْضِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ لَيْسَ مَعَهُمْ مِنَ الدِّينِ إِلَّا الْكَلِمَةُ الظَّاهِرَةُ ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أَيْ : أَتُخْبِرُونَهُ بِمَا فِي ضَمَائِرِكُمْ ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ﴾ يَعْنِي : الْأَعْرَابُ الَّذِينَ يَمُنُّونَ بِإِسْلَامِهِمْ وَمُتَابَعَتِهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ ﴿ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ﴾ فَإِنَّ نَفْعَ ذَلِكَ إِنَّمَا يَعُودُ عَلَيْكُمْ ، وَللهِ الْمِنَّةُ عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : فِي دَعْوَاكُمْ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْأَنْصَارِ يَوْمَ حُنَيْنٍ : « **يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي ؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي ؟** » كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ .

ثم كَرَّرَ الْإِخْبَارَ بِعِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ ، وَبَصَرِهِ بِأَعْمَالِ الْمَخْلُوقَاتِ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحُجُرَاتِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

آياتها ٤٥ تفسيرُ سُورَةِ ق مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا

شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾

﴿ قٓ ﴾ حَرْفٌ مِنْ حُرُوفِ الهِجَاءِ المَذْكُورَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ص ﴾ - وَ ﴿ ن ﴾ - وَ ﴿ الم ﴾ - وَ ﴿ حم ﴾ - وَ ﴿ طس ﴾ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ أَيْ : الْكَرِيمُ الْعَظِيمُ الَّذِي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢]

وَجَوَابُ الْقَسَمِ : هُوَ مَضْمُونُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقَسَمِ ، وَهُوَ إِثْبَاتُ النُّبُوَّةِ ، وَإِثْبَاتُ المَعَادِ وَتَقْرِيرُهُ وَتَحْقِيقُهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْقَسَمُ مُتَلَقًّى لَفْظًا ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ [ص : ١ - ٢]

وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أَيْ : تَعَجَّبُوا مِنْ إِرْسَالِ رَسُولٍ إِلَيْهِمْ مِنَ الْبَشَرِ وَلَيْسَ هَذَا بِعَجِيبٍ فَإِنَّ اللهَ يَصْطَفِي مِنَ المَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ . **ثُمَّ قَالَ** ﷻ **مُخْبِرًا عَنْهُمْ** فِي تَعَجُّبِهِمْ أَيْضًا مِنَ المَعَادِ وَاسْتِبْعَادِهِمْ لِوُقُوعِهِ ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ أَيْ : يَقُولُونَ : أَئِذَا مِتْنَا وَبَلِينَا وَتَقَطَّعَتِ الْأَوْصَالُ مِنَّا وَصِرْنَا تُرَابًا ، كَيْفَ يُمْكِنُ الرُّجُوعُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى هَذِهِ الْبِنْيَةِ وَالتَّرْكِيبِ ؟ ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ أَيْ : بَعِيدُ الْوُقُوعِ . **وَالمَعْنَى** : أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ اسْتِحَالَتَهُ وَعَدَمَ إِمْكَانِهِ ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى** رَادًّا **عَلَيْهِمْ** ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أَيْ : مَا تَأْكُلُ مِنْ أَجْسَادِهِمْ فِي الْبِلَى ، نَعْلَمُ ذَلِكَ وَلَا يَخْفَى عَلَيْنَا أَيْنَ تَفَرَّقَتِ الْأَبْدَانُ ، وَأَيْنَ ذَهَبَتْ ؟ وَإِلَى أَيْنَ صَارَتْ ؟ ﴿ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ أَيْ : حَافِظٌ لِذَلِكَ ، فَالْعِلْمُ شَامِلٌ ، وَالْكِتَابُ أَيْضًا فِيهِ كُلُّ الْأَشْيَاءِ مَضْبُوطَةٌ . **ثُمَّ بَيَّنَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** سَبَبَ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَاسْتِبْعَادِهِمْ مَا لَيْسَ بِبَعِيدٍ **فَقَالَ** : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ أَيْ : وَهَذَا حَالُ كُلِّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الحَقِّ مَهْمَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ بَاطِلٌ ، وَالمَرِيجُ : المُخْتَلِفُ المُضْطَرِبُ المُلْتَبِسُ المُنْكَرُ خِلَالُهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات : ٨-٩]

أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا لِلْعِبَادِ عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَظْهَرَ بِهَا مَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا تَعَجَّبُوا مُسْتَبْعِدِينَ لِوُقُوعِهِ ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ أَيْ : بِالمَصَابِيحِ ﴿ وَمَا

لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي مِنْ شُقُوقٍ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : فُتُوقٍ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : مِنْ صُدُوعٍ ، وَالمَعْنَى مُتَقَارِبٌ ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ أَيْ : وَسَّعْنَاهَا وَفَرَشْنَاهَا ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ وَهِيَ الجِبَالُ لِئَلَّا تَمِيدَ بِأَهْلِهَا وَتَضْطَرِبُ ، فَإِنَّهَا مُقَرَّةٌ عَلَى تَيَّارِ المَاءِ المُحِيطِ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهَا ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ أَيْ : مِنْ جَمِيعِ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ وَالنَّبَاتِ وَالأَنْوَاعِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ بَهِيجٍ ﴾ أَيْ : حَسَنٍ نَضِرٍ ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ أَيْ : وَمُشَاهَدَةُ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا جُعِلَ فِيهِمَا مِنَ الآيَاتِ الْعَظِيمَةِ تَبْصِرَةً وَدَلَالَةً وَذِكْرَى ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ أَيْ : خَاضِعٍ خَائِفٍ وَجِلٍ رَجَّاعٍ إِلَى اللهِ ﷻ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ أَيْ : نَافِعًا ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ ﴾ أَيْ : حَدَائِقَ مِنْ بَسَاتِينَ وَنَحْوِهَا ﴿ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ وَهُوَ الزَّرْعُ الَّذِي يُرَادُ لِحَبِّهِ وَادِّخَارِهِ ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ ﴾ أَيْ : طِوَالٍ شَاهِقَاتٍ ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ أَيْ : مَنْضُودٌ ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ أَيْ : لِلْخَلْقِ ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ وَهِيَ الأَرْضُ الَّتِي كَانَتْ هَامِدَةً فَلَمَّا نَزَلَ عَلَيْهَا المَاءُ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ مِنْ أَزَاهِيرَ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، مِمَّا يَحَارُ الطَّرْفُ فِي حُسْنِهَا ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا كَانَتْ لَا نَبَاتَ بِهَا فَأَصْبَحَتْ تَهْتَزُّ خَضْرَاءُ ، فَهَذَا مِثَالٌ لِلْبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ وَالهَلَاكِ ، كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَى ، وَهَذَا المُشَاهَدُ مِنْ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ بِالحِسِّ أَعْظَمُ مِمَّا أَنْكَرَهُ الجَاحِدُونَ لِلْبَعْثِ كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت : ٣٩]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ ، بِمَا أَحَلَّهُ بِأَشْبَاهِهِمْ وَنُظَرَائِهِمْ وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ المُكَذِّبِينَ قَبْلَهُمْ ، مِنَ النِّقَمَاتِ وَالْعَذَابِ الأَلِيمِ فِي الدُّنْيَا ، كَقَوْمِ نُوحٍ وَمَا عَذَّبَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْغَرَقِ الْعَامِّ لِجَمِيعِ أَهْلِ الأَرْضِ ، وَأَصْحَابِ الرَّسِّ وَقَدْ تَقَدَّمَتْ قِصَّتُهُمْ فِي ((سُورَةِ الْفُرْقَانِ)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴾ وَهُمْ أُمَّتُهُ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ سَدُومٍ وَمُعَامَلَتِهَا مِنَ الْغَوْرِ ، وَكَيْفَ خَسَفَ اللهُ تَعَالَى بِهِمُ الأَرْضَ ، وَأَحَالَ أَرْضَهُمْ بُحَيْرَةً مُنْتِنَةً خَبِيثَةً بِكُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمُ الحَقَّ ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ ﴾ وَهُمْ قَوْمُ شُعَيْبٍ عليه السلام ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ وَهُوَ الْيَمَانِيُّ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْ شَأْنِهِ فِي ((سُورَةِ الدُّخَانِ)) [الآية رقم : ٣٧] مَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا ،

وَلله الحَمْدُ ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ أَيْ : كُلٌّ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ وَهَؤُلَاءِ الْقُرُونِ كَذَّبَ رَسُولَهُ ، وَمَنْ كَذَّبَ رَسُولًا فَكَأَنَّمَا كَذَّبَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٥] وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ وَاحِدٌ ، فَهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَوْ جَاءَهُمْ جَمِيعُ الرُّسُلِ كَذَّبُوهُمْ ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أَيْ : فَحَقَّ عَلَيْهِمْ مَا أَوْعَدَهُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى التَّكْذِيبِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، فَلْيَحْذَرِ الْمُخَاطَبُونَ أَنْ يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ كَمَا كَذَّبَ أُولَئِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ أَيْ : أَفَأَعْجَزَنَا ابْتِدَاءُ الْخَلْقِ ، حَتَّى هُمْ فِي شَكٍّ مِنَ الْإِعَادَةِ ؟ ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وَالْمَعْنَى : أَنَّ ابْتِدَاءَ الْخَلْقِ لَمْ يُعْجِزْنَا وَالْإِعَادَةُ أَسْهَلُ مِنْهُ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ ﴾ [الروم : ٢٧]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ بِأَنَّهُ خَالِقُهُ ، وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ أُمُورِهِ ، حَتَّى إِنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نُفُوسُ بَنِي آدَمَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ تَعَالَى تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ** » .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ يَعْنِي : مَلَائِكَتُهُ تَعَالَى أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَ فِي الْمُحْتَضَرِ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة : ٨٥] يَعْنِي : مَلَائِكَتُهُ ، وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ إِلَيْهِ بِإِقْدَارِ الله جَلَّ وَعَلَا لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، فَلِلْمَلَكِ لَمَّةٌ فِي الْإِنْسَانِ كَمَا أَنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً ، وَكَذَلِكَ « **الشَّيْطَانُ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ** » كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ يَعْنِي : الْمَلَكَيْنِ اللَّذَيْنِ يَكْتُبَانِ عَمَلَ الْإِنْسَانِ ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ أَيْ : مُتَرَصِّدٌ .

﴿ مَّا يَلْفِظُ ﴾ أَيْ : ابْنُ آدَمَ ﴿ مِن قَوْلٍ ﴾ أَيْ : مَا يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ ﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ أَيْ : إِلَّا وَلَهَا مَنْ يَرْقُبُهَا ، مُعْتَدٌّ لِذَلِكَ يَكْتُبُهَا ، لَا يَتْرُكُ كَلِمَةً وَلَا حَرَكَةً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يَقُولُ ﷻ وَجَاءَتْ - أَيُّهَا الْإِنْسَانُ - سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، أَيْ : كَشَفَتْ لَكَ عَنِ الْيَقِينِ الَّذِي كُنْتَ تَمْتَرِي فِيهِ ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ

مِنهُ تَحِيدُ ﴾ أَيْ : هَذَا هُوَ الَّذِي كُنْتَ تَفِرُّ مِنْهُ قَدْ جَاءَكَ فَلَا مَحِيدَ وَلَا مَنَاصَ وَلَا فِكَاكَ وَلَا خَلَاصَ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى حَدِيثِ النَّفْخِ فِي الصُّورِ وَالْفَزَعِ وَالصَّعْقِ وَالْبَعْثِ ، وَذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ أَيْ : مَلَكٌ يَسُوقُهُ إِلَى الْمَحْشَرِ ، وَمَلَكٌ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِأَعْمَالِهِ ، هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ يَعْنِي : مِنْ هَذَا الْيَوْمِ ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أَيْ : قَوِيٌّ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ مُسْتَبْصِرًا حَتَّى الْكُفَّارُ فِي الدُّنْيَا يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الِاسْتِقَامَةِ لَكِنْ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ .

وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمَلَكِ الْمُوَكَّلِ بِعَمَلِ ابْنِ آدَمَ أَنَّهُ يَشْهَدُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا فَعَلَ **وَيَقُولُ** : ﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ أَيْ : مُعْتَدٌّ مُحْضَرٌ بِلَا زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : هَذَا كَلَامُ الْمَلَكِ السَّائِقِ ، يَقُولُ : هَذَا ابْنُ آدَمَ الَّذِي وَكَّلْتَنِي بِهِ قَدْ أَحْضَرْتُهُ . **وَقَدِ اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ** : أَنْ يَعُمَّ السَّائِقَ وَالشَّهِيدَ ، وَلَهُ اتِّجَاهٌ وَقُوَّةٌ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَحْكُمُ اللهُ تَعَالَى فِي الْخَلِيقَةِ بِالْعَدْلِ ، **فَيَقُولُ** : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ وَقَدِ اخْتَلَفَ النُّحَاةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَلْقِيَا ﴾ ، **وَالظَّاهِرُ** : أَنَّهَا مُخَاطَبَةٌ مَعَ السَّائِقِ وَالشَّهِيدِ ، فَالسَّائِقُ أَحْضَرَهُ إِلَى عَرْصَةِ الْحِسَابِ ، فَلَمَّا أَدَّى الشَّهِيدُ عَلَيْهِ ، أَمَرَهُمَا اللهُ تَعَالَى بِإِلْقَائِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ أَيْ : كَثِيرُ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ ﴿ عَنِيدٍ ﴾ مُعَانِدٌ لِلْحَقِّ ، مُعَارِضٌ لَهُ بِالْبَاطِلِ مَعَ عِلْمِهِ بِذَلِكَ ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ أَيْ : لَا يُؤَدِّي مَا عَلَيْهِ مِنَ الْحُقُوقِ ، وَلَا بِرَّ فِيهِ وَلَا صِلَةَ وَلَا صَدَقَةَ ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ أَيْ : فِيمَا يُنْفِقُهُ وَيَصْرِفُهُ يَتَجَاوَزُ فِيهِ الْحَدَّ ﴿ مُّرِيبٍ ﴾ أَيْ : شَاكٌّ فِي أَمْرِهِ ، مُرِيبٌ لِمَنْ نَظَرَ فِي أَمْرِهِ ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أَيْ : أَشْرَكَ بِاللهِ فَعَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ هُوَ الشَّيْطَانُ الَّذِي وُكِّلَ بِهِ ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ أَيْ : يَقُولُ عَنِ الْإِنْسَانِ الَّذِي قَدْ وَافَى الْقِيَامَةَ كَافِرًا يَتَبَرَّأُ مِنْهُ شَيْطَانُهُ فَيَقُولُ : ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ أَيْ : مَا أَضْلَلْتُهُ ﴿ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴾ أَيْ : بَلْ كَانَ هُوَ فِي نَفْسِهِ ضَالًّا قَابِلًا لِلْبَاطِلِ مُعَانِدًا لِلْحَقِّ . ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾ يَقُولُ الرَّبُّ ﷻ لِلْإِنْسِيِّ وَقَرِينِهِ مِنَ الْجِنِّ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمَا يَخْتَصِمَانِ بَيْنَ

يَدَي الحَقِّ تَعَالَى ، فَيَقُولُ الإِنسِيُّ : يَا رَبِّ هَذَا أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ، وَيَقُولُ الشَّيْطَانُ ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴾ أَيْ : عَنْ مَنْهَجِ الحَقِّ ، فَيَقُولُ الرَّبُّ ﷻ لَهُمَا : ﴿ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾ أَيْ : عِنْدِي ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ أَيْ : قَدْ أَعْذَرْتُ إِلَيْكُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ وَأَنْزَلْتُ الْكُتُبَ وَقَامَتْ عَلَيْكُمُ الْحُجَجُ وَالْبَيِّنَاتُ وَالْبَرَاهِينُ . ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ يَعْنِي : قَدْ قَضَيْتُ مَا أَنَا قَاضٍ ﴿ وَمَآ أَنَاْ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أَيْ : لَسْتُ أُعَذِّبُ أَحَدًا بِذَنْبِ أَحَدٍ ، وَلَكِنْ لَا أُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بِذَنْبِهِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ .

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ﴿ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾ ؟ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَعَدَهَا أَنْ سَيَمْلَؤُهَا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، فَهُوَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَأْمُرُ بِمَنْ يَأْمُرُ بِهِ إِلَيْهَا وَيُلْقَى ، وَهِيَ تَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ ، أَيْ : هَلْ بَقِيَ شَيْءٌ تَزِيدُونِي ؟ هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنْ سِيَاقِ الْآيَةِ ، وَعَلَيْهِ تَدُلُّ الْأَحَادِيثُ ، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **يُلْقَى فِي النَّارِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ حَتَّى يَضَعَ قَدَمَهُ فِيهَا ، فَتَقُولُ : قَطْ قَطْ** » ، ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أُدْنِيَتْ وَقُرِّبَتْ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَيْسَ بِبَعِيدٍ ؛ لِأَنَّهُ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ قَرِيبٌ ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ أَيْ : رَجَّاعٍ تَائِبٍ مُقْلِعٍ ﴿ حَفِيظٍ ﴾ أَيْ : يَحْفَظُ الْعَهْدَ فَلَا يَنْقُضُهُ وَلَا يَنْكُثُهُ ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أَيْ : مَنْ خَافَ اللهَ فِي سِرِّهِ حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ ﷻ كَقَوْلِهِ ﷺ : « **وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ تَعَالَى خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ** » . ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ أَيْ : وَلَقِيَ اللهَ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ سَلِيمٍ إِلَيْهِ خَاضِعٍ لَدَيْهِ . ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ أَيْ : الْجَنَّةَ ﴿ بِسَلَٰمٍ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : سَلِمُوا مِنْ عَذَابِ اللهِ ﷻ ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَةُ اللهِ ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ أَيْ : يَخْلُدُونَ فِي الْجَنَّةِ ، فَلَا يَمُوتُونَ أَبَدًا ، وَلَا يَظْعَنُونَ أَبَدًا ، وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَهْمَا اخْتَارُوا وَجَدُوا مِنْ أَيِّ أَصْنَافِ الْمَلَاذِّ طَلَبُوا أُحْضِرَ لَهُمْ ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ صُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ الرُّومِيِّ : أَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ الْكَرِيمِ .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ

خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ أَيْ : قَبْلَ هَؤُلَاءِ الْمُنْكِرِينَ ﴿ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ أي : كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾ قِيلَ : أَثَّرُوا فِيهَا ، وَقِيلَ : ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ ، وَقِيلَ : فَسَارُوا فِي الْبِلَادِ ، أَيْ : سَارُوا فِيهَا يَبْتَغُونَ الْأَرْزَاقَ وَالْمَتَاجِرَ وَالْمَكَاسِبَ أَكْثَرَ مِمَّا طُفْتُمْ أَنْتُمْ فِيهَا ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ أَيْ : هَلْ مِنْ مَفَرٍّ كَانَ لَهُمْ مِنْ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ ؟ وَهَلْ نَفَعَهُمْ مَا جَمَعُوهُ ، وَرَدَّ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ إِذْ جَاءَهُمْ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ؟ فَأَنْتُمْ أَيْضًا لَا مَفَرَّ لَكُمْ وَلَا مَحِيدَ وَلَا مَنَاصَ وَلَا مَحِيصَ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ أَيْ : لَعِبْرَةً ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ أَيْ : لُبٌّ يَعِي بِهِ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : عَقْلٌ ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أَيْ : اِسْتَمَعَ الْكَلَامَ فَوَعَاهُ وَتَعَقَّلَهُ بِقَلْبِهِ وَتَفَهَّمَهُ بِلُبِّهِ . ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ قَالَ : شَاهِدٌ بِالْقَلْبِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ فِيهِ تَقْرِيرٌ لِلْمَعَادِ ؛ لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِي الْمَوْتَى بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ أَيْ : مِنْ إِعْيَاءٍ وَلَا تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ يَعْنِي : الْمُكَذِّبِينَ ، اِصْبِرْ عَلَيْهِمْ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا . ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ وَكَانَتِ الصَّلَاةُ الْمَفْرُوضَةُ قَبْلَ الْإِسْرَاءِ ثِنْتَانِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فِي وَقْتِ الْفَجْرِ ، وَقَبْلَ الْغُرُوبِ فِي وَقْتِ الْعَصْرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ أَيْ : فَصَلِّ لَهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] ، ﴿ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ قِيلَ : هُوَ التَّسْبِيحُ بَعْدَ الصَّلَاةِ .

وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَٱسْتَمِعْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ :

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى مَلَكًا أَنْ يُنَادِيَ عَلَى صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ : أَيَّتُهَا الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ وَالْأَوْصَالُ الْمُتَقَطِّعَةُ ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَأْمُرُكُنَّ أَنْ تَجْتَمِعْنَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يَعْنِي : النَّفْخَةَ فِي الصُّورِ ، الَّتِي تَأْتِي بِالْحَقِّ الَّذِي كَانَ أَكْثَرُهُمْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَإِلَيْهِ مَصِيرُ الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ ، فَيُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ ﷻ يُنْزِلُ مَطَرًا مِنَ السَّمَاءِ يُنْبِتُ أَجْسَادَ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا فِي قُبُورِهَا ، كَمَا يَنْبُتُ الْحَبُّ فِي الثَّرَى بِالْمَاءِ ، فَإِذَا تَكَامَلَتِ الْأَجْسَادُ ، أَمَرَ اللهُ تَعَالَى إِسْرَافِيلَ فَيَنْفُخُ فِي الصُّورِ ، وَقَدْ أُودِعَتِ الْأَرْوَاحُ فِي ثُقْبٍ فِي الصُّورِ ، فَإِذَا نَفَخَ إِسْرَافِيلُ فِيهِ خَرَجَتِ الْأَرْوَاحُ تَتَوَهَّجُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَتَرْجِعَنَّ كُلُّ رُوحٍ إِلَى الْجَسَدِ الَّذِي كَانَتْ تَعْمُرُهُ ، فَتَرْجِعُ كُلُّ رُوحٍ إِلَى جَسَدِهَا ، فَتَدِبُّ فِيهِ كَمَا يَدِبُّ السُّمُّ فِي اللَّدِيغِ ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ ، فَيَقُومُونَ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ سِرَاعًا مُبَادِرِينَ إِلَى أَمْرِ اللهِ ﷻ : ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر : ٨]

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أَيْ : تِلْكَ إِعَادَةٌ سَهْلَةٌ عَلَيْنَا يَسِيرَةٌ لَدَيْنَا ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أَيْ : نَحْنُ عِلْمُنَا مُحِيطٌ بِمَا يَقُولُ لَكَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ التَّكْذِيبِ ، فَلَا يَهِيدَنَّكَ ذَلِكَ ، ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ أَيْ : وَلَسْتَ بِالَّذِي تُجْبِرُ هَؤُلَاءِ عَلَى الْهُدَى ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مَا كُلِّفْتُ بِهِ . بِمَعْنَى : وَمَا أَنْتَ بِمُجْبِرِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُبَلِّغٌ . ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ أَيْ : بَلِّغْ أَنْتَ رِسَالَةَ رَبِّكَ ، فَإِنَّمَا يَتَذَكَّرُ مَنْ يَخَافُ اللهَ وَوَعِيدَهُ وَيَرْجُو وَعْدَهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ كَانَ قَتَادَةُ يَقُولُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ يَخَافُ وَعِيدَكَ وَيَرْجُو مَوْعُودَكَ ، يَا بَارُّ يَا رَحِيمُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ((ق)) وَالْحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ ، وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

آياتها ٦٠ — تفسير سورة الذاريات — مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَـٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَـٰمِلَـٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَـٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾
إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ

مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

ثَبَتَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ أَنَّهُ صَعِدَ مِنْبَرَ الْكُوفَةِ فَقَالَ : لَا تَسْأَلُونِي عَنْ آيَةٍ فِي كِتَابِ الله تَعَالَى وَلَا عَنْ سُنَّةٍ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِذَلِكَ ، فَقَامَ إِلَيْهِ ابْنُ الْكَوَّاءِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴾ قَالَ : الرِّيحُ ﴿ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴾ قَالَ : السَّحَابُ ﴿ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴾ قَالَ : السُّفُنُ ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾ قَالَ : الْمَلَائِكَةُ .

وَهَذَا قَسَمٌ مِنَ الله ﷻ عَلَى وُقُوعِ المَعَادِ ؛ ولهذا قَالَ تعالَى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ أَيْ : لَخَبَرٌ صِدْقٍ ﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ ﴾ وَهُوَ الْحِسَابُ ﴿ لَوَٰقِعٌ ﴾ أَيْ : لَكَائِنٌ لَا مَحَالَةَ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ ذَاتُ الْجَمَالِ وَالْبَهَاءِ وَالْحُسْنِ وَالِاسْتِوَاءِ ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ أَيْ : إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ الْمُكَذِّبُونَ لِلرُّسُلِ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ مُضْطَرِبٍ لَا يَلْتَئِمُ وَلَا يَجْتَمِعُ ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَرُوجُ عَلَى مَنْ هُوَ ضَالٌّ فِي نَفْسِهِ ؛ لِأَنَّهُ قَوْلٌ بَاطِلٌ ، إِنَّمَا يَنْقَادُ لَهُ وَيَضِلُّ بِسَبَبِهِ وَيُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ هُوَ مَأْفُوكٌ ضَالٌّ غُمْرٌ ، لَا فَهْمَ لَهُ ، وَقِيلَ : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ يَضِلُّ عَنْهُ مَنْ ضَلَّ ، وَقَالَ الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : يُصْرَفُ عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ مَنْ كَذَّبَ بِهِ ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : الْكَذَّابُونَ ، قَالَ : وَهِيَ مِثْلُ الَّتِي فِي عَبَسَ ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ [عبس : ١٧]، وَالْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ يَقُولُونَ : لَا نُبْعَثُ ، وَلَا يُوقِنُونَ . وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾ أَيْ : لُعِنَ الْمُرْتَابُونَ ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ قِيلَ : فِي الْكُفْرِ وَالشَّكِّ غَافِلُونَ لَاهُونَ ﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ وَإِنَّمَا يَقُولُونَ هَذَا تَكْذِيبًا وَعِنَادًا وَشَكًّا وَاسْتِبْعَادًا .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يُعَذَّبُونَ ، كَمَا يُفْتَنُ الذَّهَبُ عَلَى النَّارِ ، وَقِيلَ : ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ يُحْرَقُونَ ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ عَذَابَكُمْ ﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَتَحْقِيرًا وَتَصْغِيرًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ

مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُتَّقِينَ للهِ ﷻ إِنَّهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ يَكُونُونَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، بِخِلَافِ مَا أُولَئِكَ الْأَشْقِيَاءُ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْحَرِيقِ وَالْأَغْلَالِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ ﴾ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ ءَاخِذِينَ ﴾ حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ فَالْمُتَّقُونَ فِي حَالِ كَوْنِهِمْ فِي الْجَنَّاتِ وَالْعُيُونِ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، أَيْ : مِنَ النَّعِيمِ وَالسُّرُورِ وَالْغِبْطَةِ ، وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ مُحۡسِنِينَ ﴾ ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ إِحْسَانَهُمْ فِي الْعَمَلِ ، فَقَالَ : ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾ ، كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ هُجُوعُهُمْ وَنَوْمُهُمْ . ﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ قِيلَ : يُصَلُّونَ ، وَقَالَ آخَرُونَ : قَامُوا اللَّيْلَ وَأَخَّرُوا الاسْتِغْفَارَ إِلَى الْأَسْحَارِ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴾ [آل عمران : ١٧] ، فَإِنْ كَانَ الاسْتِغْفَارُ فِي صَلَاةٍ فَهُوَ أَحْسَنُ ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ لَمَّا وَصَفَهُمْ بِالصَّلَاةِ ثَنَّى بِوَصْفِهِمْ بِالزَّكَاةِ وَالْبِرِّ وَالصِّلَةِ ، فَقَالَ : ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ ﴾ أَيْ : جُزْءٌ مَقْسُومٌ قَدْ أَفْرَزُوهُ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ، أَمَّا السَّائِلُ فَمَعْرُوفٌ ، وَهُوَ الَّذِي يَبْتَدِئُ بِالسُّؤَالِ وَلَهُ حَقٌّ ، وَأَمَّا الْمَحْرُومُ فَقِيلَ : الَّذِي لَا مَالَ لَهُ بِأَيِّ سَبَبٍ كَانَ وَقَدْ ذَهَبَ مَالُهُ ، سَوَاءٌ كَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْكَسْبِ ، أَوْ قَدْ هَلَكَ مَالُهُ أَوْ نَحْوُهُ بِآفَةٍ أَوْ نَحْوِهَا . ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَـٰتٌ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴾ أَيْ : فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَقُدْرَتِهِ الْبَاهِرَةِ ، مِمَّا قَدْ ذَرَأَ فِيهَا مِنْ صُنُوفِ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْمِهَادِ وَالْجِبَالِ وَالْقِفَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْبِحَارِ ، وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَةِ النَّاسِ وَأَلْوَانِهِمْ ، وَمَا جُبِلُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِرَادَاتِ وَالْقُوَى ، وَمَا بَيْنَهُمْ مِنَ التَّفَاوُتِ فِي الْعُقُولِ وَالْفُهُومِ وَالْحَرَكَاتِ وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ ، وَمَا فِي تَرْكِيبِهِمْ مِنَ الْحِكَمِ فِي وَضْعِ كُلِّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِمْ فِي الْمَحَلِّ الَّذِي هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ فِيهِ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : مَنْ تَفَكَّرَ فِي خَلْقِ نَفْسِهِ عَرَفَ أَنَّهُ إِنَّمَا خُلِقَ ، وَلُيِّنَتْ مَفَاصِلُهُ لِلْعِبَادَةِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ ﴾ ، يَعْنِي : الْمَطَرُ ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةُ . ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾ يُقْسِمُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْقِيَامَةِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ وَهُوَ حَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ فَلَا تَشُكُّوا فِيهِ ، كَمَا لَا تَشُكُّوا فِي نُطْقِكُمْ حِينَ تَنْطِقُونَ ، وَكَانَ مُعَاذٌ ﷺ إِذَا حَدَّثَ بِالشَّيْءِ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : إِنَّ هَذَا لَحَقٌّ كَمَا أَنَّكَ هَاهُنَا .

هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَـٰمًاۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوۡمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ

أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

هَذِهِ الْقِصَّةُ قَدْ تَقَدَّمَتْ فِي سُورَةِ «هُودٍ» وَ«الْحِجْرِ» أَيْضًا، فَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ أَيْ: الَّذِينَ أَرْصَدَ لَهُمُ الْكَرَامَةَ ﴿فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ الرَّفْعُ أَقْوَى وَأَثْبَتُ مِنَ النَّصْبِ، فَرَدُّهُ أَفْضَلُ مِنَ التَّسْلِيمِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦] فَالْخَلِيلُ اخْتَارَ الْأَفْضَلَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَهُمْ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي صُوَرِ شُبَّانٍ حِسَانٍ، عَلَيْهِمْ مَهَابَةٌ عَظِيمَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ أَيْ: انْسَلَّ خُفْيَةً فِي سُرْعَةٍ ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أَيْ: مِنْ خِيَارِ مَالِهِ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩] أَيْ: مَشْوِيٍّ عَلَى الرَّضْفِ ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ أَيْ: أَدْنَاهُ مِنْهُمْ ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ تَلَطُّفٌ فِي الْعِبَارَةِ وَعَرْضٌ حَسَنٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ هَذَا مُحَالٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْقِصَّةِ فِي السُّورَةِ الْأُخْرَى وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ [هود: ٧٠-٧١] أَيْ: اسْتَبْشَرَتْ بِهَلَاكِهِمْ لِتَمَرُّدِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى، فَعِنْدَ ذَلِكَ بَشَّرَتْهَا الْمَلَائِكَةُ بِإِسْحَاقَ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود ٧٢ - ٧٣] وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَاهُنَا: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ فَالْبِشَارَةُ لَهُ هِيَ بِشَارَةٌ لَهَا؛ لِأَنَّ الْوَلَدَ مِنْهُمَا فَكُلٌّ مِنْهُمَا بُشِّرَ بِهِ ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ أَيْ: فِي صَرْخَةٍ عَظِيمَةٍ وَرَنَّةٍ، وَهِيَ قَوْلُهَا ﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أَيْ: ضَرَبَتْ بِيَدِهَا عَلَى جَبِينِهَا، وَقِيلَ: لَطَمَتْ، أَيْ: تَعَجُّبًا، كَمَا تَتَعَجَّبُ النِّسَاءُ مِنَ الْأَمْرِ الْغَرِيبِ ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أَيْ: كَيْفَ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ، وَقَدْ كُنْتُ فِي حَالِ الصِّبَا عَقِيمًا لَا أَحْبَلُ؟ ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ أَيْ: عَلِيمٌ بِمَا تَسْتَحِقُّونَ مِنَ الْكَرَامَةِ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ.

۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ

ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٍ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ
يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

قَالَ اللهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٍ ﴾ [هود : ٧٤-٧٦] ، **وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ أَيْ : مَا شَأْنُكُمْ ، وَفِيمَ جِئْتُمْ ؟ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٍ مُّجۡرِمِينَ ﴾ يَعْنُونَ : قَوْمَ لُوطٍ ﴿ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً ﴾ أَيْ : مُعَلَّمَةً ﴿ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ أَيْ : مُكْتَتَبَةً عِنْدَهُ بِأَسْمَائِهِمْ كُلُّ حَجَرٍ عَلَيْهِ اسْمُ صَاحِبِهِ ، فَقَالَ فِي سُورَةِ « الْعَنْكَبُوتِ » ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣٢]

وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ وَهُمْ لُوطٌ وَأَهْلُ بَيْتِهِ إِلَّا امْرَأَتُهُ ، ﴿ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٍ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَاهَا عِبْرَةً لِمَا أَنْزَلْنَا بِهِم مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَحِجَارَةِ السِّجِّيلِ ، وَجَعَلْنَا مَحَلَّتَهُمْ بُحَيْرَةً مُنْتِنَةً خَبِيثَةً ، فَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ ﴿ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾ .

وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ
﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ
ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ
حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ
مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوۡمَ نُوحٍ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : بِدَلِيلٍ بَاهِرٍ وَحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ ﴾ أَيْ : فَأَعْرَضَ فِرْعَوْنُ عَمَّا جَاءَهُ بِهِ مُوسَى مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ اسْتِكْبَارًا وَعِنَادًا ﴿ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴾ أَيْ : لَا يَخْلُو أَمْرَكَ فِيمَا جِئْتَنِي بِهِ مِنْ أَنْ تَكُونَ سَاحِرًا أَوْ مَجْنُونًا . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ ﴾ أَيْ : أَلْقَيْنَاهُمْ ﴿ فِي ٱلۡيَمِّ ﴾ وَهُوَ الْبَحْرُ ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أَيْ : وَهُوَ مَلُومٌ كَافِرٌ جَاحِدٌ فَاجِرٌ مُعَانِدٌ . ثُمَّ قَالَ عز وجل : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴾ أَيْ : الْمُفْسِدَةَ الَّتِي لَا تُنْتِجُ شَيْئًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ ﴾ أَيْ : مِمَّا تُفْسِدُهُ الرِّيحُ ﴿ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ أَيْ : كَالشَّيْءِ الْهَالِكِ الْبَالِي . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ

تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ ﴾ [فصلت : ١٧] ، وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمُ انْتَظَرُوا الْعَذَابَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَجَاءَهُمْ فِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ الرَّابِعِ بُكْرَةَ النَّهَارِ ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ ﴾ أَيْ : مِنْ هَرَبٍ وَلَا نُهُوضٍ ﴿ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴾ أَيْ : وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَنْتَصِرُوا مِمَّا هُمْ فِيهِ ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ أَيْ : وَأَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ وَكُلُّ هَذِهِ الْقَصَصِ قَدْ تَقَدَّمَتْ مَبْسُوطَةً فِي أَمَاكِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ سُوَرٍ مُتَعَدِّدَةٍ .

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى خَلْقِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا ﴾ أَيْ : جَعَلْنَاهَا سَقْفًا مَحْفُوظًا رَفِيعًا ﴿ بِأَيْيدٍ ﴾ أَيْ : بِقُوَّةٍ ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ أَيْ : قَدْ وَسَّعْنَا أَرْجَاءَهَا وَرَفَعْنَاهَا بِغَيْرِ عَمَدٍ حَتَّى اسْتَقَلَّتْ كَمَا هِيَ ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ﴾ أَيْ : جَعَلْنَاهَا فِرَاشًا لِلْمَخْلُوقَاتِ ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ أَيْ : وَجَعَلْنَاهَا مَهْدًا لِأَهْلِهَا ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ أَيْ : جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ أَزْوَاجٌ ، سَمَاءٌ وَأَرْضٌ ، وَلَيْلٌ وَنَهَارٌ ، وَشَمْسٌ وَقَمَرٌ ، وَبَرٌّ وَبَحْرٌ ، وَضِيَاءٌ وَظَلَامٌ ، وَإِيمَانٌ وَكُفْرٌ ، وَمَوْتٌ وَحَيَاةٌ ، وَشَقَاءٌ وَسَعَادَةٌ ، وَجَنَّةٌ وَنَارٌ ، حَتَّى الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : لِتَعْلَمُوا أَنَّ الْخَالِقَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ أَيْ : الْجَئُوا إِلَيْهِ وَاعْتَمِدُوا فِي أُمُورِكُمْ عَلَيْهِ ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ، ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ أَيْ : لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ ، وَكَمَا قَالَ لَكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ قَالَ الْمُكَذِّبُونَ الْأَوَّلُونَ لِرُسُلِهِمْ

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴾ . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦ ﴾ أَيْ : أَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهَذِهِ المَقَالَةِ ؟ ﴿ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ﴾ أَيْ : لَكِنْ هُمْ قَوْمٌ طُغَاةٌ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَقَالَ مُتَأَخِّرُهُمْ ، كَمَا قَالَ مُتَقَدِّمُهُمْ . ﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ ﴾ أَيْ : فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ يَا مُحَمَّدُ ﴿ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ يَعْنِي : فَمَا نَلُومُكَ عَلَى ذَلِكَ ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا تَنْتَفِعُ بِهَا القُلُوبُ المُؤْمِنَةُ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا خَلَقْتُهُمْ لِآمُرَهُمْ بِعِبَادَتِي لَا لِاحْتِيَاجِي إِلَيْهِمْ . ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ ، وَمَعْنَى الآيَةِ : أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ العِبَادَ لِيَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَمَنْ أَطَاعَهُ جَازَاهُ أَتَمَّ الجَزَاءِ ، وَمَنْ عَصَاهُ عَذَّبَهُ أَشَدَّ العَذَابِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِمْ ، بَلْ هُمُ الفُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ ، فَهُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا ﴾ أَيْ : نَصِيبًا مِنَ العَذَابِ ﴿ مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴾ أَيْ : فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ﴿ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ ، يَعْنِي : يَوْمَ القِيَامَةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الذَّارِيَاتِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ

آياتها ٤٩ تَفْسِيرُ سُورَةِ الطور مكية

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : شَكَوْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِّي أَشْتَكِي ، فَقَالَ : « **طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ** » ، فَطُفْتُ ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي إِلَى جَنْبِ البَيْتِ ، يَقْرَأُ بِالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرًا ۝١٠ فَوَيۡلٌ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٍ يَلۡعَبُونَ ۝١٢ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ۝١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٦

يُقْسِمُ تَعَالَى بِمَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ ، أَنَّ عَذَابَهُ وَاقِعٌ بِأَعْدَائِهِ ، وَأَنَّهُ لَا دَافِعَ لَهُ عَنْهُمْ ، فَالطُّور هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ أَشْجَارٌ ، مِثْلَ الَّذِي كَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ مُوسَى ، وَأَرْسَلَ مِنْهُ عِيسَى ، وَمَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَجَرٌ لَا يُسَمَّى طُورًا ، إِنَّمَا يُقَالُ لَهُ : جَبَلٌ . ﴿ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾ قِيلَ : هُوَ اللَّوْحُ المَحْفُوظُ ، وَقِيلَ : الْكُتُبُ الْمُنَزَّلَةُ الْمَكْتُوبَةُ الَّتِي تُقْرَأُ عَلَى النَّاسِ جِهَارًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ بَعْدَ مُجَاوَزَتِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ : « **ثُمَّ رُفِعَ بِي إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ** » يَعْنِي : يَتَعَبَّدُونَ فِيهِ وَيَطُوفُونَ بِهِ كَمَا يَطُوفُ أَهْلُ الْأَرْضِ بِكَعْبَتِهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴾ يَعْنِي : السَّمَاءُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٢] ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ هُوَ هَذَا الْبَحْرُ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ المُرَادُ أَنَّهُ يُوقَدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَارًا ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير : ٦] أَيْ : أُضْرِمَتْ ، فَتَصِيرُ نَارًا تَتَأَجَّجُ مُحِيطَةٌ بِأَهْلِ الْمَوْقِفِ ، ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ ، أَيْ : وَاقِعٌ بِالْكَافِرِينَ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ إِذَا أَرَادَ اللهُ بِهِمْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ قِيلَ : تَتَحَرَّكُ تَحْرِيكًا ، وَقِيلَ : هُوَ تَشَقُّقُهَا ، وَقِيلَ : تَدُورُ دَوْرًا ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أَيْ : تَذْهَبُ فَتَصِيرُ هَبَاءً مُنْبَثًّا ، وَتُنْسَفُ نَسْفًا ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أَيْ : وَيْلٌ لَهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، وَنَكَالِهِ بِهِمْ وَعِقَابِهِ لَهُمْ ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أَيْ : هُمْ فِي الدُّنْيَا يَخُوضُونَ فِي الْبَاطِلِ ، وَيَتَّخِذُونَ دِينَهُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ أَيْ : يُدْفَعُونَ وَيُسَاقُونَ ﴿ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ يُدْفَعُونَ فِيهَا دَفْعًا . ﴿ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أَيْ : تَقُولُ لَهُ الزَّبَانِيَةُ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا ﴿ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا ﴾ أَيْ : ادْخُلُوهَا دُخُولَ مَنْ تَغْمُرُهُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ﴿ فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : سَوَاءٌ صَبَرْتُمْ عَلَى عَذَابِهَا وَنَكَالِهَا أَمْ لَمْ تَصْبِرُوا لَا مَحِيدَ لَكُمْ عَنْهَا وَلَا خَلَاصَ لَكُمْ مِنْهَا ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : وَلَا يَظْلِمُ اللهُ أَحَدًا بَلْ يُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝١٨ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٢٠

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنْ حَالِ السُّعَدَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ وَذَلِكَ بِضِدِّ مَا

أُولَئِكَ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أَيْ : يَتَفَكَّهُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنَ النَّعِيمِ ، مِنْ أَصْنَافِ الْمَلَاذِّ مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ وَمَلَابِسَ وَمَسَاكِنَ وَمَرَاكِبَ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أَيْ : وَقَدْ نَجَّاهُمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ ، وَتِلْكَ نِعْمَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ بِذَاتِهَا عَلَى حِدَتِهَا ، مَعَ مَا أُضِيفَ إِلَيْهَا مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ ، الَّتِي فِيهَا مِنَ السُّرُورِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ . ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤] أَيْ : هَذَا بِذَاكَ تَفَضُّلًا مِنْهُ وَإِحْسَانًا ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ السُّرُرُ فِي الْحِجَالِ ، وَمَعْنَى ﴿ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ أَيْ : وُجُوهُ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الصافات : ٤٤] ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أَيْ : وَجَعَلْنَا لَهُمْ قَرِينَاتٍ صَالِحَاتٍ ، وَزَوْجَاتٍ حِسَانٍ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن
شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾
يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ
مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا
مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ
نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَامْتِنَانِهِ وَلُطْفِهِ بِخَلْقِهِ وَإِحْسَانِهِ ، أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّاتُهُمْ فِي الْإِيمَانِ يُلْحِقُهُمْ بِآبَائِهِمْ فِي الْمَنْزِلَةِ ، وَإِنْ لَمْ يَبْلُغُوا عَمَلَهُمْ لِتَقَرَّ أَعْيُنُ الْآبَاءِ بِالْأَبْنَاءِ عِنْدَهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ ، فَيَجْمَعُ بَيْنَهُمْ عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ ، بِأَنْ يَرْفَعَ النَّاقِصَ الْعَمَلَ ، بِكَامِلِ الْعَمَلِ ، وَلَا يَنْقُصُ ذَاكَ مِنْ عَمَلِهِ وَمَنْزِلَتِهِ لِلتَّسَاوِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَاكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : إِنَّ اللهَ لَيَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ الْمُؤْمِنِ فِي دَرَجَتِهِ وَإِنْ كَانُوا دُونَهُ فِي الْعَمَلِ لِتَقَرَّ بِهِمْ عَيْنُهُ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ لَمَّا أَخْبَرَ عَنْ مَقَامِ الْفَضْلِ - وَهُوَ رَفْعُ دَرَجَةِ الذُّرِّيَّةِ إِلَى مَنْزِلَةِ الْآبَاءِ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ يَقْتَضِي ذَلِكَ - أَخْبَرَ عَنْ مَقَامِ الْعَدْلِ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُؤَاخِذُ أَحَدًا بِذَنْبِ أَحَدٍ ، بَلْ ﴿ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ أَيْ : مُرْتَهَنٌ بِعَمَلِهِ ، لَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ ذَنْبُ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أَيْ : وَأَلْحَقْنَاهُمْ بِفَوَاكِهَ

وَلُحُومٍ مِنْ أَنْوَاعٍ شَتَّى مِمَّا يُسْتَطَابُ وَيُشْتَهَى ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ أَيْ : يَتَعَاطَوْنَ فِيهَا كَأْسًا ، أَيْ : مِنَ الْخَمْرِ ، ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ أَيْ : لَا يَتَكَلَّمُونَ فِيهَا بِكَلَامٍ لَاغٍ ، أَيْ : هَذَيَانٍ وَإِثْمٍ ، أَيْ : فُحْشٍ ، كَمَا يَتَكَلَّمُ بِهِ الشَّرَبَةُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا . **وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : اللَّغْوُ : الْبَاطِلُ ، وَالتَّأْثِيمُ : الْكَذِبُ ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ إِخْبَارٌ عَنْ خَدَمِهِمْ وَحَشَمِهِمْ فِي الْجَنَّةِ ، كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ الرَّطْبُ الْمَكْنُونُ ، فِي حُسْنِهِمْ وَبَهَائِهِمْ وَنَظَافَتِهِمْ وَحُسْنِ مَلَابِسِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أَيْ : أَقْبَلُوا يَتَحَادَثُونَ وَيَتَسَاءَلُونَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَهَذَا كَمَا يَتَحَدَّثُ أَهْلُ الشَّرَابِ عَلَى شَرَابِهِمْ – إِذَا أَخَذَ فِيهِمُ الشَّرَابُ – بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أَيْ : كُنَّا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا وَنَحْنُ بَيْنَ أَهْلِينَا خَائِفِينَ مِنْ رَبِّنَا مُشْفِقِينَ مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ ، أَيْ : فَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا وَأَجَارَنَا مِمَّا نَخَافُ ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أَيْ : نَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ فَاسْتَجَابَ لَنَا وَأَعْطَانَا سُؤَالَنَا ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يُبَلِّغَ رِسَالَتَهُ إِلَى عِبَادِهِ وَأَنْ يُذَكِّرَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ نَفَى عَنْهُ مَا يَرْمِيهِ بِهِ أَهْلُ الْبُهْتَانِ وَالْفُجُورِ ، **فَقَالَ** : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ أَيْ : لَسْتَ بِحَمْدِ اللهِ بِكَاهِنٍ ، كَمَا تَقُولُهُ الْجَهَلَةُ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ، وَالْكَاهِنُ : الَّذِي يَأْتِيهِ الرَّئِيُّ مِنَ الْجَانِّ بِالْكَلِمَةِ يَتَلَقَّاهَا مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ ﴿ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ فِي الرَّسُولِ ﷺ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ أَيْ : قَوَارِعَ الدَّهْرِ ، وَالْمَنُونُ : الْمَوْتُ ، يَقُولُونَ : نَنْتَظِرُهُ وَنَصْبِرُ عَلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ فَنَسْتَرِيحَ مِنْهُ وَمِنْ شَأْنِهِ . ﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أَيْ : اِنْتَظِرُوا فَإِنِّي مُنْتَظِرٌ مَعَكُمْ وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ﴾ أَيْ : عُقُولُهُمْ تَأْمُرُهُمْ بِهَذَا الَّذِي يَقُولُونَهُ فِيكَ ، مِنَ الْأَقَاوِيلِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي يَعْلَمُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهَا كَذِبٌ وَزُورٌ ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أَيْ : وَلَكِنْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ضُلَّالٌ مُعَانِدُونَ ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى مَا قَالُوهُ فِيكَ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ﴾ أَيْ : اِخْتَلَقَهُ وَافْتَرَاهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ ،

يَعْنُونَ الْقُرْآنَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : كُفْرُهُمْ هُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى هَذِهِ المَقَالَةِ ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ : تَقَوَّلَهُ وَافْتَرَاهُ ، فَلْيَأْتُوا بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ ، فَإِنَّهُمْ لَوِ اجْتَمَعُوا هُمْ وَجَمِيعُ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَا جَاءُوا بِمِثْلِهِ ، وَلَا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ .

أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

هَذَا الْمَقَامُ فِي إِثْبَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ أَيْ : أَوُجِدُوا مِنْ غَيْرِ مُوجِدٍ ؟ أَمْ هُمْ أَوْجَدُوا أَنْفُسَهُمْ ؟، أَيْ : لَا هَذَا وَلَا هَذَا ، بَلِ اللهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَأَنْشَأَهُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا . عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ . وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ كَانَ قَدْ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ فِي فِدَاءِ الْأُسَارَى ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ مُشْرِكًا ، فَكَانَ سَمَاعُهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ جُمْلَةِ مَا حَمَلَهُ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ أَيْ : أَهُمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ وَهَذَا إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ فِي شِرْكِهِمْ بِاللهِ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْخَالِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَكِنَّ عَدَمَ إِيقَانِهِمْ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ أَيْ : أَهُمْ يَتَصَرَّفُونَ فِي الْمُلْكِ ، وَبِيَدِهِمْ مَفَاتِيحُ الْخَزَائِنِ ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ أَيْ : الْمُحَاسِبُونَ لِلْخَلَائِقِ ؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، بَلِ اللهُ ﷻ هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أَيْ : مِرْقَاةٌ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : فَلْيَأْتِ الَّذِي يَسْتَمِعُ لَهُمْ بِحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ عَلَى صِحَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْفِعَالِ وَالْمَقَالِ ، أَيْ : وَلَيْسَ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى ذَلِكَ ، فَلَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ ، وَلَا لَهُمْ دَلِيلٌ . ثُمَّ قَالَ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا نَسَبُوهُ إِلَيْهِ مِنَ الْبَنَاتِ وَجَعْلِهِمُ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا ، وَاخْتِيَارِهِمْ لِأَنْفُسِهِمُ الذُّكُورَ عَلَى الْإِنَاثِ ،

بِحَيْثُ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . هَذَا وَقَدْ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ بَنَاتِ اللهِ ، وَعَبَدُوهُمْ مَعَ اللهِ ، فَقَالَ : ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا ﴾ أَيْ : أُجْرَةً عَلَى إِبْلَاغِكَ إِيَّاهُمْ رِسَالَةَ اللهِ ؟ أَيْ لَسْتَ تَسْأَلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا ﴿ فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ أَيْ : فَهُمْ مِنْ أَدْنَى شَيْءٍ يَتَبَرَّمُونَ مِنْهُ وَيُثْقِلُهُمْ وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى أَمْ يُرِيدُ هَؤُلَاءِ بِقَوْلِهِمْ هَذَا فِي الرَّسُولِ وَفِي الدِّينِ غُرُورَ النَّاسِ وَكَيْدَ الرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ ، فَكَيْدُهُمْ إِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالُهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وَهَذَا إِنْكَارٌ شَدِيدٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ مَعَ اللهِ ، ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ عَمَّا يَقُولُونَ وَيَفْتَرُونَ وَيُشْرِكُونَ ، فَقَالَ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ بِالْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ لِلْمَحْسُوسِ ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا ﴾ أَيْ : عَلَيْهِمْ يُعَذَّبُونَ بِهِ لَمَا صَدَّقُوا وَلَمَا أَيْقَنُوا ، بَلْ يَقُولُونَ : هَذَا ﴿ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ أَيْ : مُتَرَاكِمٌ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : ١٤ - ١٥]

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أَيْ : دَعْهُمْ يَا مُحَمَّدُ ﴿ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ ، وَذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَا يَنْفَعُهُمْ كَيْدُهُمْ وَلَا مَكْرُهُمُ الَّذِي اسْتَعْمَلُوهُ فِي الدُّنْيَا لَا يُجْزِي عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَيْئًا ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : قَبْلَ ذَلِكَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : نُعَذِّبُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَنَبْتَلِيهِمْ فِيهَا بِالْمَصَائِبِ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَيُنِيبُونَ فَلَا يَفْهَمُونَ مَا يُرَادُ بِهِمْ ، بَلْ إِذَا جُلِّيَ عَنْهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ عَادُوا إِلَى أَسْوَإِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أَيْ : اِصْبِرْ عَلَى أَذَاهُمْ وَلَا تُبَالِهِمْ ، فَإِنَّكَ بِمَرْأَى مِنَّا وَتَحْتَ كِلَاءَتِنَا ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ : أَيْ : إِلَى الصَّلَاةِ : سُبْحَانَكَ

اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ ، وَتَعَالَى جَدُّكَ ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ . **وَقَالَ أَبُو الجَوْزَاءِ** : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أَيْ : مِنْ نَوْمِكَ مِنْ فِرَاشِكَ . **وَقِيلَ** : مِنْ كُلِّ مَجْلِسٍ . كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ بِآخِرِ عُمُرِهِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ مِنَ المَجْلِسِ : « **سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ** » . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ أَيْ : اُذْكُرْهُ وَاعْبُدْهُ بِالتِّلَاوَةِ وَالصَّلَاةِ فِي اللَّيْلِ . ﴿ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ **قِيلَ** : إِنَّهُمَا الرَّكْعَتَانِ اللَّتَانِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، فَإِنَّهُمَا مَشْرُوعَتَانِ عِنْدَ إِدْبَارِ النُّجُومِ ، أَيْ : عِنْدَ جُنُوحِهَا لِلْغَيْبُوبَةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الطُّورِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ

آياتها ٦٢ — تفسيرُ سُورَةِ النجم — مكيـة

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ قَالَ : أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ ﴿ وَٱلنَّجْمِ ﴾ قَالَ : فَسَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ ، إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾

قَالَ الشَّعْبِيُّ وَغَيْرُهُ : الخَالِقُ يُقْسِمُ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ ، وَالمَخْلُوقُ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالخَالِقِ . وَاخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ ، **فَقِيلَ** : يَعْنِي بِالنَّجْمِ : الثُّرَيَّا إِذَا سَقَطَتْ مَعَ الْفَجْرِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ إِذَا رَمَى بِهِ الشَّيَاطِينَ ، وَهَذَا الْقَوْلُ لَهُ اتِّجَاهٌ . **وَقِيلَ** : يَعْنِي : الْقُرْآنُ إِذَا نَزَلَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ هَذَا هُوَ المُقْسَمُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الشَّهَادَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ بِأَنَّهُ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ لَيْسَ بِضَالٍّ وَهُوَ : الجَاهِلُ الَّذِي يَسْلُكُ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَالْغَاوِي : هُوَ الْعَالِمُ بِالْحَقِّ الْعَادِلُ عَنْهُ قَصْدًا إِلَى غَيْرِهِ ، فَنَزَّهَ اللهُ رَسُولَهُ وَشَرْعَهُ عَنْ مُشَابَهَةِ أَهْلِ الضَّلَالِ كَالنَّصَارَى وَطَرَائِقِ الْيَهُودِ ، وَهِيَ عِلْمُ الشَّيْءِ وَكِتْمَانُهُ وَالْعَمَلُ بِخِلَافِهِ بَلْ هُوَ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَمَا بَعَثَهُ اللهُ بِهِ مِنَ الشَّرْعِ الْعَظِيمِ فِي غَايَةِ الِاسْتِقَامَةِ وَالِاعْتِدَالِ وَالسَّدَادِ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ أَيْ : مَا يَقُولُ قَوْلًا عَنْ هَوًى وَغَرَضٍ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَقُولُ مَا أُمِرَ بِهِ ، يُبَلِّغُهُ إِلَى النَّاسِ كَامِلًا مَوْفُورًا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ .

عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ : عَلَّمَهُ الَّذِي جَاءَ بِهِ إِلَى النَّاسِ ﴿ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ عليه السلام ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير :١٩ - ٢١] وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ فَإِنَّهُ عليه السلام ذُو مَنْظَرٍ حَسَنٍ وَقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ . ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ يَعْنِي : جِبْرِيلُ اِسْتَوَى فِي الْأُفُقِ الْأَعْلَى . وَالْأُفُقُ الْأَعْلَى : الَّذِي يَأْتِي مِنْهُ الصُّبْحُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هُوَ مَطْلَعُ الشَّمْسِ . ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ أَيْ : فَاقْتَرَبَ جِبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ - لَمَّا هَبَطَ عَلَيْهِ إِلَى الْأَرْضِ - حَتَّى كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَابَ قَوْسَيْنِ ، أَيْ : بِقَدْرِهِمَا إِذَا مُدَّا ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ بُعْدَ مَا بَيْنَ وَتَرِ الْقَوْسِ إِلَى كَبِدِهَا . ﴿ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَذِهِ الصِّيغَةَ تُسْتَعْمَلُ فِي اللُّغَةِ لِإِثْبَاتِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ وَنَفْيِ مَا زَادَ عَلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة : ٧٤] أَيْ : مَا هِيَ بِأَلْيَنَ مِنَ الْحِجَارَةِ ، بَلْ هِيَ مِثْلُهَا أَوْ تَزِيدُ عَلَيْهَا فِي الشِّدَّةِ وَالْقَسْوَةِ ، وَعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الشَّيْبَانِيِّ قَالَ : سَأَلْتُ زِرًّا عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ . فَعَلَى ذَلِكَ يَكُونُ مَعْنَى الآيَةِ : فَأَوْحَى جِبْرِيلُ إِلَى عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدٍ مَا أَوْحَى ، أَوْ فَأَوْحَى اللهُ إِلَى عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ مَا أَوْحَى بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ ، وَكِلَا الْمَعْنَيَيْنِ صَحِيحٌ . ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ عَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ قَالَ : رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ . وَقَدْ خَالَفَهُ اِبْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهَا جِبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا ، وَكَانَتْ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ . عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - فَقُلْتُ : أَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [التكوير : ٢٣] ، ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ، فَقَالَتْ : أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْهَا فَقَالَ : « إِنَّمَا ذَاكَ جِبْرِيلُ » لَمْ يَرَهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا إِلَّا

مَرَّتَيْنِ ، رَآهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ سَادًّا عُظْمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ **عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ** ﷺ **قَالَ** : لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ الله ﷺ انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا ، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يَهْبِطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ قَالَ : فِرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ قَالَ : وَأُعْطِيَ رَسُولُ الله ﷺ ثَلَاثًا : أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا مِنْ أُمَّتِهِ الْمُقْحِمَاتُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ قِيلَ : مَا ذَهَبَ يَمِينًا ، وَلَا شِمَالًا ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ مَا جَاوَزَ مَا أُمِرَ بِهِ ، وَهَذِهِ صِفَةٌ عَظِيمَةٌ فِي الثَّبَاتِ وَالطَّاعَةِ ، فَإِنَّهُ مَا فَعَلَ إِلَّا مَا أُمِرَ بِهِ ، وَلَا سَأَلَ فَوْقَ مَا أُعْطِيَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ [طه : ٢٣] أَيْ : الدَّالَّةُ عَلَى قُدْرَتِنَا وَعَظَمَتِنَا ، **وَبِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ اسْتَدَلَّ مَنْ ذَهَبَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الرُّؤْيَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ لَمْ تَقَعْ لِأَنَّهُ قَالَ** : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ وَلَوْ كَانَ رَأَى رَبَّهُ لَأَخْبَرَ بِذَلِكَ ، وَلَقَالَ ذَلِكَ لِلنَّاسِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ « سُبْحَانَ ».

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُقَرِّعًا لِلْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانَ ، وَاتِّخَاذِهِمْ لَهَا الْبُيُوتَ مُضَاهَاةً لِلْكَعْبَةِ الَّتِي بَنَاهَا خَلِيلُ الرَّحْمَنِ عليه السلام ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ ﴾ وَكَانَتِ « **اللَّاتُ** » صَخْرَةً بَيْضَاءَ مَنْقُوشَةً ، وَعَلَيْهَا بَيْتٌ بِالطَّائِفِ لَهُ أَسْتَارٌ وَسَدَنَةٌ وَحَوْلَهُ فِنَاءٌ مُعَظَّمٌ عِنْدَ أَهْلِ الطَّائِفِ ، وَهُمْ ثَقِيفٌ وَمَنْ تَابَعَهَا يَفْتَخِرُونَ بِهَا عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ بَعْدَ قُرَيْشٍ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَكَذَا الْعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ ، وَكَانَتْ شَجَرَةً عَلَيْهَا بِنَاءٌ وَأَسْتَارٌ بِنَخْلَةَ وَهِيَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ يُعَظِّمُونَهَا ، كَمَا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ يَوْمَ أُحُدٍ : لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **قُولُوا : الله مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ** ».

وَأَمَّا مَنَاة : فَكَانَتْ بِالْمُشَلَّلِ عِنْدَ قُدَيْدٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، وَكَانَتْ خُزَاعَةُ وَالْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يُعَظِّمُونَهَا ، وَيُهِلُّونَ مِنْهَا لِلْحَجِّ إِلَى الْكَعْبَةِ .

وَقَدْ كَانَتْ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهَا . طَوَاغِيتُ أُخَرُ ، تُعَظِّمُهَا الْعَرَبُ كَتَعْظِيمِ الْكَعْبَةِ غَيْرِ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي نَصَّ عَلَيْهَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ، وَإِنَّمَا أَفْرَدَ هَذِهِ بِالذِّكْرِ ؛ لأَنَّهَا أَشْهَرُ مِنْ غَيْرِهَا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ أَيْ : أَتَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا ، وَتَجْعَلُونَ وَلَدَهُ أُنْثَى ، وَتَخْتَارُونَ لِأَنْفُسِكُمُ الذُّكُورَ ، أَيْ : لَوِ اقْتَسَمْتُمْ أَنْتُمْ وَمَخْلُوقٌ مِثْلُكُمْ هَذِهِ الْقِسْمَةَ لَكَانَتْ ﴿ قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ أَيْ : جَوْرًا بَاطِلَةً فَكَيْفَ تُقَاسِمُونَ رَبَّكُمْ هَذِهِ الْقِسْمَةَ الَّتِي لَوْ كَانَتْ بَيْنَ مَخْلُوقِينَ كَانَتْ جَوْرًا وَسَفَهًا . ثُمَّ قَالَ مُنْكِراً عَلَيْهِمْ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ وَأَحْدَثُوهُ مِنَ الْكَذِبِ والافْتِرَاءِ وَالْكُفْرِ ، مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ وَتَسْمِيَتِهَا آلِهَةً : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ أَيْ : مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِكُمْ ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ أَيْ : مِنْ حُجَّةٍ ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُ مُسْتَنَدٌ إِلَّا حُسْنُ ظَنِّهِمْ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ سَلَكُوا هَذَا الْمَسْلَكَ الْبَاطِلَ قَبْلَهُمْ ، وَإِلَّا حَظَّ نُفُوسِهِمْ فِي رِيَاسَتِهِمْ وَتَعْظِيمِ آبَائِهِمُ الأَقْدَمِينَ ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ أَيْ : وَلَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ بِالْحَقِّ الْمُنِيرِ وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ ، وَمَعَ هَذَا مَا اتَّبَعُوا مَا جَاءَهُمْ بِهِ وَلَا انْقَادُوا لَهُ .

ثُمَّ قَالَ: ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ أَيْ : لَيْسَ كُلُّ مَنْ تَمَنَّى خَيْرًا حَصَلَ لَهُ ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [النساء : ١٢٣] مَا كُلُّ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُهْتَدٍ يَكُونُ كَمَا قَالَ ، وَلَا كُلُّ مَنْ وَدَّ شَيْئًا يَحْصُلُ لَهُ . وَقَوْلُهُ: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا الأَمْرُ كُلُّهُ لله ، مَالِكُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَالْمُتَصَرِّفُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، فَهُوَ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ : ٢٣] فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي حَقِّ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، فَكَيْفَ تَرْجُونَ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ شَفَاعَةَ هَذِهِ الأَصْنَامِ وَالأَنْدَادِ عِنْدَ اللهِ ، وَهُوَ تَعَالَى لَمْ يُشَرِّعْ عِبَادَتَهَا وَلَا أَذِنَ فِيهَا ، بَلْ قَدْ نَهَى عَنْهَا عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ رُسُلِهِ ، وَأَنْزَلَ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ جَمِيعَ كُتُبِهِ ؟!

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي تَسْمِيَتِهِمُ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى ، وَجَعْلِهِمْ لَهَا أَنَّهَا بَنَاتُ اللهِ - تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ - كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ

أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ١٩] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ عِلْمٌ صَحِيحٌ بِصِدْقِ مَا قَالُوهُ ، بَلْ هُوَ كَذِبٌ وَزُورٌ وَافْتِرَاءٌ وَكُفْرٌ شَنِيعٌ ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَا يُجْدِي شَيْئًا وَلَا يَقُومُ أَبَدًا مَقَامَ الْحَقِّ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾ أَيْ : أَعْرِضْ عَنِ الَّذِي أَعْرَضَ عَنِ الْحَقِّ وَاهْجُرْهُ ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : وَإِنَّمَا أَكْثَرُ هَمِّهِ وَمَبْلَغُ عِلْمِهِ الدُّنْيَا ، فَذَاكَ هُوَ غَايَةُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ وَلِذَلِكَ قَالَ : ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أَيْ : طَلَبُ الدُّنْيَا وَالسَّعْيُ لَهَا هُوَ غَايَةُ مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ أَيْ : هُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَالْعَالِمُ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ عَنْ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ أَبَدًا لَا فِي شَرْعِهِ وَلَا فِي قَدَرِهِ .

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ ، الْحَاكِمُ فِي خَلْقِهِ بِالْعَدْلِ ، وَخَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ أَيْ : يُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، فَسَّرَ الْمُحْسِنِينَ بِأَنَّهُمْ ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ أَيْ : لَا يَتَعَاطَوْنَ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْكَبَائِرَ ، وَإِنْ وَقَعَ مِنْهُمْ بَعْضُ الصَّغَائِرِ فَإِنَّهُ يَغْفِرُ لَهُمْ وَيَسْتُرُ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء : ٣١] **وَقَالَ هَاهُنَا** : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ؛ لِأَنَّ اللَّمَمَ مِنْ صَغَائِرِ الذُّنُوبِ وَمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ . وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ قَالَ : الَّذِي يُلِمُّ بِالذَّنْبِ ثُمَّ يَدَعُهُ ، **وَعَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى** : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ **قَالَ** : كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُونَ : هُوَ الرَّجُلُ يُصِيبُ اللَّمَّةَ مِنَ الزِّنَا ، وَاللَّمَّةَ مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ ، فَيَجْتَنِبُهَا وَيَتُوبُ مِنْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ أَيْ : رَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَمَغْفِرَتُهُ تَسَعُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا لِمَنْ تَابَ مِنْهَا ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : هُوَ بَصِيرٌ بِكُمْ ، عَلِيمٌ بِأَحْوَالِكُمْ

وَأَفْعَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمُ الَّتِي سَتَصْدُرُ عَنْكُمْ وَتَقَعُ مِنْكُمْ ، حِينَ أَنْشَأَ أَبَاكُمْ آدَمَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَاسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْ صُلْبِهِ أَمْثَالَ الذَّرِّ ، ثُمَّ قَسَمَهُمْ فَرِيقَيْنِ فَرِيقًا لِلْجَنَّةِ وَفَرِيقًا لِلسَّعِيرِ ، وَكَذَا قَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ : قَدْ كَتَبَ الْمَلَكُ الَّذِي يُوَكَّلُ بِهِ : رِزْقَهُ ، وَأَجَلَهُ ، وَعَمَلَهُ ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ . ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ أَيْ : تَمْدَحُوهَا وَتَشْكُرُوهَا وَتَمُنُّوا بِأَعْمَالِكُمْ ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللهَ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ** » .

وَمَدَحَ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ - مِرَارًا - إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ : أَحْسِبُ فُلَانًا وَاللهُ حَسِيبُهُ ، وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا ، أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا ، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ** » .

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَامًّا لِمَنْ تَوَلَّى عَنْ طَاعَةِ اللهِ ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [القيامة : ٣١-٣٢] ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : أَطَاعَ قَلِيلًا ثُمَّ قَطَعَهُ ، كَمَثَلِ الْقَوْمِ إِذَا كَانُوا يَحْفِرُونَ بِئْرًا فَيَجِدُونَ فِي أَثْنَاءِ الْحَفْرِ صَخْرَةً تَمْنَعُهُمْ مِنْ تَمَامِ الْعَمَلِ ، فَيَقُولُونَ : أَكْدَيْنَا ، وَيَتْرُكُونَ الْعَمَلَ . ﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾ أَيْ : أَعِنْدَ هَذَا الَّذِي قَدْ أَمْسَكَ يَدَهُ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَقَطَعَ مَعْرُوفَهُ ، أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ أَنَّهُ سَيَنْفَدُ مَا فِي يَدِهِ ، حَتَّى قَدْ أَمْسَكَ عَنْ مَعْرُوفِهِ ، فَهُوَ يَرَى ذَلِكَ عِيَانًا ؟ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، وَإِنَّمَا أَمْسَكَ عَنِ الصَّدَقَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْبِرِّ وَالصِّلَةِ بُخْلًا وَشُحًّا وَهَلَعًا . ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ وَفَّىٰٓ ﴾ طَاعَةَ اللهِ ، وَأَدَّى رِسَالَتَهُ إِلَى خَلْقِهِ ، قَامَ بِجَمِيعِ الْأَوَامِرِ ، وَتَرَكَ جَمِيعَ النَّوَاهِي ، وَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ عَلَى التَّمَامِ وَالْكَمَالِ ، فَاسْتَحَقَّ بِهَذَا أَنْ يَكُونَ لِلنَّاسِ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ . ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى يُبَيِّنُ مَا كَانَ أَوْحَاهُ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ، فَقَالَ : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أَيْ : كُلُّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ نَفْسَهَا بِكُفْرٍ أَوْ شَيْءٍ مِنَ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا عَلَيْهَا وِزْرُهَا لَا يَحْمِلُهُ عَنْهَا أَحَدٌ ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ أَيْ : كَمَا لَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ وِزْرُ غَيْرِهِ ، كَذَلِكَ لَا يُحَصِّلُ مِنَ الْأَجْرِ إِلَّا مَا كَسَبَ هُوَ لِنَفْسِهِ ، **وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ اسْتَنْبَطَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - وَمَنِ اتَّبَعَهُ : أَنَّ الْقِرَاءَةَ لَا يَصِلُ إِهْدَاءُ ثَوَابِهَا إِلَى الْمَوْتَى** ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَمَلِهِمْ وَلَا

كَسْبِهِمْ ، وَهَٰذَا لَمْ يَنْدُبْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أُمَّتَهُ وَلَا حَثَّهُمْ عَلَيْهِ ، وَلَا أَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ بِنَصٍّ وَلَا إِيمَاءٍ ، وَلَمْ يُنْقَلْ ذَٰلِكَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ ، وَلَوْ كَانَ خَيْرًا لَسَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وَبَابُ الْقُرُبَاتِ يُقْتَصَرُ فِيهِ عَلَى النُّصُوصِ وَلَا يُتَصَرَّفُ فِيهِ بِأَنْوَاعِ الْأَقْيِسَةِ وَالْآرَاءِ ، فَأَمَّا الدُّعَاءُ وَالصَّدَقَةُ فَذَاكَ مُجْمَعٌ عَلَى وُصُولِهِمَا ، وَمَنْصُوصٌ مِنَ الشَّارِعِ عَلَيْهِمَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ أَيْ : الْأَوْفَرَ .

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ أَيْ : الْمَعَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ أَيْ : خَلَقَ فِي عِبَادِهِ الضَّحِكَ وَالْبُكَاءَ وَسَبَبَهُمَا وَهُمَا مُخْتَلِفَانِ ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ [الملك : ٢] ، ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ أَيْ : كَمَا خَلَقَ الْبُدَاءَةَ ، هُوَ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ ، وَهِيَ النَّشْأَةُ الْآخِرَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ أَيْ : مَلَّكَ عِبَادَهُ الْمَالَ ، وَجَعَلَهُ لَهُمْ قُنْيَةً مُقِيمًا عِنْدَهُمْ ، لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى بَيْعِهِ ، فَهَٰذَا تَمَامُ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ ، وَعَلَى هَٰذَا يَدُورُ كَلَامُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ، **وَقِيلَ** : ﴿ أَغْنَىٰ ﴾ مَوَّلَ ﴿ وَأَقْنَىٰ ﴾ أَخْدَمَ ، **وَقِيلَ** : ﴿ أَغْنَىٰ ﴾ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ وَ ﴿ وَأَقْنَىٰ ﴾ أَفْقَرَ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ . ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴾ هُوَ هَٰذَا النَّجْمُ الْوَقَّادُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ : « مِرْزَمُ الْجَوْزَاءِ » ، كَانَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْعَرَبِ يَعْبُدُونَهُ ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴾ هُمْ : قَوْمُ هُودٍ ، وَيُقَالُ لَهُمْ : عَادُ بْنُ إِرَمَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴾ أَيْ : دَمَّرَهُمْ ، فَلَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ أَيْ : أَشَدُّ تَمَرُّدًا مِنَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ يَعْنِي : مَدَائِنُ قَوْمِ لُوطٍ ، قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ فَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا ، وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ؛ **وَلِهَٰذَا قَالَ** : ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْحِجَارَةِ الَّتِي أَرْسَلَهَا عَلَيْهِمْ

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ أَيْ : فَفِي أَيِّ نِعَمِ اللهِ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ تَمْتَرِي ؟ .

هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ ﴿ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ أَيْ : مِنْ جِنْسِهِمْ أُرْسِلَ كَمَا أُرْسِلُوا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٩] ، وَالنَّذِيرُ : الْحَذِرُ لِمَا يُعَايِنُ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي يَخْشَى وُقُوعَهُ فِيمَنْ أَنْذَرَهُمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ : ٤٦] ، وَفِي الْحَدِيثِ « أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ » أَيْ : الَّذِي أَعْجَلَهُ شِدَّةُ مَا عَايَنَ مِنَ الشَّرِّ عَنْ أَنْ يَلْبَسَ عَلَيْهِ شَيْئًا ، بَلْ بَادَرَ إِلَى إِنْذَارِ قَوْمِهِ قَبْلَ ذَلِكَ فَجَاءَهُمْ عُرْيَانًا مُسْرِعًا ، وَهُوَ مُنَاسِبٌ لِقَوْلِهِ : ﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴾ أَيْ : اِقْتَرَبَتِ الْقَرِيبَةُ ، يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أَيْ : لَا يَدْفَعُهَا إِذًا مِنْ دُونِ اللهِ أَحَدٌ وَلَا يَطَّلِعُ عَلَى عِلْمِهَا سِوَاهُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي اِسْتِمَاعِهِمُ الْقُرْآنَ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ وَتَلَهِّيهِمْ ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾ مِنْ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ مِنْهُ اِسْتِهْزَاءً وَسُخْرِيَةً ﴿ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ أَيْ : كَمَا يَفْعَلُ الْمُوقِنُونَ بِهِ ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾ [الإسراء : ١٠٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴾ قِيلَ الْمُرَادُ بِهِ : الْغِنَاءُ ، وَقِيلَ : ﴿ سَٰمِدُونَ ﴾ مُعْرِضُونَ ، وَقِيلَ : غَافِلُونَ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى آمِرًا لِعِبَادِهِ بِالسُّجُودِ لَهُ ، وَالْعِبَادَةِ الْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِهِ ﷺ وَالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ أَيْ : فَاخْضَعُوا لَهُ وَأَخْلِصُوا وَوَحِّدُوهُ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِالنَّجْمِ وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّجْمِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٥٥ — تَفْسِيرُ سُورَةِ القمر — مكية

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ بِقاف وَاقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ فِي الْأَضْحَى وَالْفِطْرِ ، وَكَانَ يَقْرَأُ بِهِمَا فِي الْمَحَافِلِ الْكِبَارِ ؛ لِاشْتِمَالِهِمَا عَلَى ذِكْرِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَبَدْءِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ ، وَالتَّوْحِيدِ وَإِثْبَاتِ النُّبُوَّاتِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الْعَظِيمَةِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَفَرَاغِ الدُّنْيَا وَانْقِضَائِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : ١] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ قَدْ كَانَ هَذَا فِي زَمَانِ رَسُولِ الله ﷺ ، وَهَذَا أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، أَنَّ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ قَدْ وَقَعَ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَنَّهُ كَانَ إِحْدَى الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمُ الْقَمَرَ شِقَّيْنِ حَتَّى رَأَوْا حِرَاءَ بَيْنَهُمَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً ﴾ أَيْ : دَلِيلًا وَحُجَّةً وَبُرْهَانًا ﴿ يُعْرِضُوا۟ ﴾ أَيْ : لَا يَنْقَادُوا لَهُ بَلْ يُعْرِضُونَ عَنْهُ وَيَتْرُكُونَهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴿ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ أَيْ : وَيَقُولُونَ هَذَا الَّذِي شَاهَدْنَاهُ مِنَ الْحُجَجِ سِحْرٌ سَحَرَنَا بِهِ ، وَمَعْنَى ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ أَيْ : ذَاهِبٌ ، أَيْ : بَاطِلٌ مُضْمَحِلٌّ لَا دَوَامَ لَهُ . ﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أَيْ : كَذَّبُوا بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُمْ ، وَاتَّبَعُوا مَا أَمَرَتْهُمْ بِهِ آرَاؤُهُمْ وَأَهْوَاؤُهُمْ مِنْ جَهْلِهِمْ وَسَخَافَةِ عَقْلِهِمْ ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : مَعْنَاهُ : أَنَّ الْخَيْرَ وَاقِعٌ بِأَهْلِ الْخَيْرِ ، وَالشَّرُّ وَاقِعٌ بِأَهْلِ الشَّرِّ . ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَخْبَارِ عَنْ قَصَصِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعِقَابِ وَالنَّكَالِ وَالْعَذَابِ ، مِمَّا يُتْلَى عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أَيْ : مَا فِيهِ وَاعِظٌ لَهُمْ عَنِ الشِّرْكِ وَالتَّمَادِي عَلَى التَّكْذِيبِ . ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ﴾ أَيْ : فِي هِدَايَتِهِ تَعَالَى لِمَنْ هَدَاهُ ، وَإِضْلَالِهِ لِمَنْ أَضَلَّهُ ﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ يَعْنِي : أَيُّ شَيْءٍ تُغْنِي النُّذُرُ عَمَّنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ وَخَتَمَ عَلَى قَلْبِهِ ؟ فَمَنِ الَّذِي يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ الله ؟.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَتَوَلَّ يَا مُحَمَّدُ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ إِذَا رَأَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا هَذَا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ، أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْهُمْ ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ أَيْ : إِلَى شَيْءٍ مُنْكَرٍ فَظِيعٍ ، وَهُوَ مَوْقِفُ الْحِسَابِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ بَلْ وَالزَّلَازِلِ وَالْأَهْوَالِ ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ أَيْ : ذَلِيلَةً أَبْصَارُهُمْ ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ وَهِيَ الْقُبُورُ ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ أَيْ : كَأَنَّهُمْ فِي انْتِشَارِهِمْ وَسُرْعَةِ

سَيْرِهِمْ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ إِجَابَةً لِلدَّاعِي ، جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ فِي الْآفَاقِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ مُّهْطِعِينَ ﴾ أَيْ : مُسْرِعِينَ ﴿ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ لَا يُخَالِفُونَ وَلَا يَتَأَخَّرُونَ ﴿ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ أَيْ : يَوْمٌ شَدِيدُ الْهَوْلِ عَبُوسٌ قَمْطَرِيرٌ ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر : ٩ - ١٠]

۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ قَبْلَ قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا ﴾ أَيْ : صَرَّحُوا لَهُ بِالتَّكْذِيبِ وَاتَّهَمُوهُ بِالْجُنُونِ ﴿ وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ وَٱزْدُجِرَ ﴾ أَيْ : اُسْتُطِيرَ جُنُونًا ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَٱزْدُجِرَ ﴾ أَيْ : اِنْتَهَرُوهُ وَزَجَرُوهُ وَتَوَعَّدُوهُ ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٦] ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ أَيْ : إِنِّي ضَعِيفٌ عَنْ هَؤُلَاءِ وَعَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ ﴿ فَٱنتَصِرْ ﴾ أَنْتَ لِدِينِكَ . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ **قَالَ السُّدِّيُّ** : وَهُوَ الْكَثِيرُ ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أَيْ : نَبَعَتْ جَمِيعُ أَرْجَاءِ الْأَرْضِ حَتَّى التَّنَانِيرُ الَّتِي هِيَ مَحَالُّ النِّيرَانِ نَبَعَتْ عُيُونًا ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ ﴾ أَيْ : مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أَيْ : أَمْرٍ مُقَدَّرٍ . **وَقَدْ قِيلَ فِي** قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ كَثِيرٌ ، لَمْ تُمْطِرِ السَّمَاءُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَا بَعْدَهُ ، وَلَا مِنَ السَّحَابِ ، فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بِالْمَاءِ مِنْ غَيْرِ سَحَابٍ ذَلِكَ الْيَوْمَ ، فَالْتَقَى الْمَاءَانِ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ هِيَ الْمَسَامِيرُ . ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ أَيْ : بِأَمْرِنَا بِمَرْأًى مِنَّا وَتَحْتَ حِفْظِنَا وَكِلَاءَتِنَا ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ أَيْ : جَزَاءً لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِاللهِ وَانْتِصَارًا لِنُوحٍ عليه السلام . ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : أَبْقَى اللهُ سَفِينَةَ نُوحٍ حَتَّى أَدْرَكَهَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، **وَالظَّاهِرُ** : أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ جِنْسُ السُّفُنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس : ٤١ - ٤٢] **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا** : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أَيْ : فَهَلْ مَنْ يَتَذَكَّرُ وَيَتَّعِظُ ؟ . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ أَيْ : كَيْفَ كَانَ عَذَابِي لِمَنْ كَفَرَ بِي وَكَذَّبَ رُسُلِي ، وَلَمْ يَتَّعِظْ بِمَا جَاءَتْ بِهِ نُذُرِي ، وَكَيْفَ اِنْتَصَرْتُ لَهُمْ وَأَخَذْتُ لَهُمْ بِالثَّأْرِ ؟ ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ أَيْ : سَهَّلْنَا لَفْظَهُ ، وَيَسَّرْنَا مَعْنَاهُ لِمَنْ أَرَادَهُ ، لِيَتَذَكَّرَ النَّاسُ . ﴿ فَهَل مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أَيْ : فَهَلْ مِنْ مُتَذَكِّرٍ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، الَّذِي قَدْ يَسَّرَ اللهُ حِفْظَهُ وَمَعْنَاهُ ؟ .

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَادٍ قَوْمِ هُودٍ، إِنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ أَيْضًا، كَمَا صَنَعَ قَوْمُ نُوحٍ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، وَهِيَ الْبَارِدَةُ الشَّدِيدَةُ الْبَرْدِ ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أَيْ: عَلَيْهِمْ ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ عَلَيْهِمْ نَحْسُهُ وَدَمَارُهُ؛ لِأَنَّهُ يَوْمٌ اتَّصَلَ فِيهِ عَذَابُهُمُ الدُّنْيَوِيُّ بِالْأُخْرَوِيِّ. ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ تَأْتِي أَحَدَهُمْ فَتَرْفَعُهُ حَتَّى تُغَيِّبَهُ عَنِ الْأَبْصَارِ ثُمَّ تُنَكِّسُهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ، فَيَسْقُطُ إِلَى الْأَرْضِ فَتَثْلَغُ رَأْسُهُ، فَيَبْقَى جُثَّةً بِلَا رَأْسٍ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ ثَمُودَ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ صَالِحًا ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ يَقُولُونَ: لَقَدْ خِبْنَا وَخَسِرْنَا إِنْ سَلَّمْنَا كُلُّنَا قِيَادَنَا لِوَاحِدٍ مِنَّا، ثُمَّ تَعَجَّبُوا مِنْ إِلْقَاءِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ خَاصَّةً مِنْ دُونِهِمْ، ثُمَّ رَمَوْهُ بِالْكَذِبِ فَقَالُوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أَيْ: مُتَجَاوِزٌ فِي حَدِّ الْكَذِبِ. ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أَيْ: اخْتِبَارًا لَهُمْ، أَخْرَجَ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ نَاقَةً عَظِيمَةً عُشَرَاءَ مِنْ صَخْرَةٍ صَمَّاءَ طِبْقَ مَا سَأَلُوا؛ لِتَكُونَ حُجَّةَ اللهِ عَلَيْهِمْ فِي تَصْدِيقِ صَالِحٍ عليه السلام فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى آمِرًا لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَالِحٍ: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ أَيْ: انْتَظِرْ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ، وَاصْبِرْ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَالنَّصْرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أَيْ: يَوْمٌ لَهُمْ وَيَوْمٌ لِلنَّاقَةِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : إِذَا غَابَتْ حَضَرُوا الْمَاءَ ، وَإِذَا جَاءَتْ حَضَرُوا اللَّبَنَ . ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : هُوَ عَاقِرُ النَّاقَةِ ، وَكَانَ أَشْقَى قَوْمِهِ ؛ كَقَوْلِهِ : ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ [الشمس : ١٢] ﴿ فَتَعَاطَىٰ ﴾ أَيْ : فَجَسَرَ ﴿ فَعَقَرَ ﴾ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أَيْ : فَعَاقَبْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِي وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولِي ؟ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ أَيْ : فَبَادُوا عَنْ آخِرِهِمْ لَمْ تَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ ، وَخَمَدُوا وَهَمَدُوا كَمَا يَهْمَدُ يَبِيسُ الزَّرْعِ وَالنَّبَاتِ . قَالَ السُّدِّيُّ : وَالْمُحْتَظِرُ هُوَ الْمَرْعَى بِالصَّحْرَاءِ حِينَ يَبِسَ وَتَحَرَّقَ وَنَسَفَتْهُ الرِّيحُ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : كَانَتِ الْعَرَبُ يَجْعَلُونَ حِظَارًا عَلَى الْإِبِلِ وَالْمَوَاشِي مِنْ يَبِيسِ الشَّوْكِ ، فَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْمِ لُوطٍ كَيْفَ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ وَخَالَفُوهُ ، وَارْتَكَبُوا الْمَكْرُوهَ مِنْ إِتْيَانِ الذُّكُورِ ؛ وَهِيَ الْفَاحِشَةُ الَّتِي لَمْ يَسْبِقْهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ، وَلِهَذَا أَهْلَكَهُمُ اللهُ هَلَاكًا لَمْ يُهْلِكْهُ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ . فَإِنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ جِبْرِيلَ ﷺ بِحَمْلِ مَدَائِنِهِمْ حَتَّى وَصَلَ بِهَا إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ، ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ وَأَرْسَلَهَا ، وَأُتْبِعَتْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ، وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ وَهِيَ : الْحِجَارَةُ ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ أَيْ : خَرَجُوا مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَنَجَوْا مِمَّا أَصَابَ قَوْمَهُمْ ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِلُوطٍ مِنْ قَوْمِهِ أَحَدٌ وَلَا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، حَتَّى وَلَا امْرَأَتُهُ ، أَصَابَهَا مَا أَصَابَ قَوْمَهَا ، وَخَرَجَ نَبِيُّ اللهِ لُوطٌ وَبَنَاتٌ لَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ سَالِمًا لَمْ يَمْسَسْهُ سُوءٌ .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا ﴾ أَيْ : وَلَقَدْ كَانَ قَبْلَ حُلُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ قَدْ أَنْذَرَهُمْ بَأْسَ اللهِ وَعَذَابَهُ ، فَمَا الْتَفَتُوا إِلَى ذَلِكَ ، وَلَا أَصْغَوْا إِلَيْهِ ، بَلْ شَكُّوا فِيهِ وَتَمَارَوْا بِهِ . ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ﴾ ذَلِكَ لَيْلَةَ وَرَدَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ جِبْرِيلُ ، وَمِيكَائِيلُ ، وَإِسْرَافِيلُ فِي صُوَرِ شَبَابٍ مُرْدٍ حِسَانٍ ، مِحْنَةً مِنَ اللهِ بِهِمْ ، فَأَضَافَهُمْ لُوطٌ وَبَعَثَتِ امْرَأَتُهُ الْعَجُوزُ السُّوءُ إِلَى قَوْمِهَا ، فَأَعْلَمَتْهُمْ بِأَضْيَافِ لُوطٍ ، فَأَقْبَلُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَأَغْلَقَ لُوطٌ دُونَهُمُ الْبَابَ ، فَجَعَلُوا يُحَاوِلُونَ كَسْرَ الْبَابِ ، وَذَلِكَ عَشِيَّةً ، وَلُوطٌ ﷺ يُدَافِعُهُمْ

وَيُمَانِعُهُمْ دُونَ أَضْيَافِهِ، وَيَقُولُ لَهُمْ: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي ﴾ يَعْنِي: نِسَاءَهُمْ ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾، ﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾[هود: ٧٩] أَيْ: لَيْسَ لَنَا فِيهِنَّ أَرَبٌ ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾[هود: ٧٩] فَلَمَّا اشْتَدَّ الْحَالُ وَأَبَوْا إِلَّا الدُّخُولَ، خَرَجَ عَلَيْهِمْ جِبْرِيلُ عليه السلام فَضَرَبَ أَعْيُنَهُمْ بِطَرَفِ جَنَاحِهِ، فَانْطَمَسَتْ أَعْيُنُهُمْ. يُقَالُ: إِنَّهَا غَارَتْ مِنْ وُجُوهِهِمْ، وَقِيلَ: إِنَّهُ لَمْ تَبْقَ لَهُمْ عُيُونٌ بِالْكُلِّيَّةِ، فَرَجَعُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ يَتَحَسَّسُونَ بِالْحِيطَانِ، وَيَتَوَعَّدُونَ لُوطًا عليه السلام إِلَى الصَّبَاحِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أَيْ: لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ، وَلَا انفِكَاكَ لَهُمْ مِنْهُ ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، إِنَّهُمْ جَاءَهُمْ رَسُولُ اللهِ مُوسَى وَأَخُوهُ هَارُونُ بِالْبِشَارَةِ إِنْ آمَنُوا، وَالنِّذَارَةِ إِنْ كَفَرُوا، وَأَيَّدَهُمَا بِمُعْجِزَاتٍ عَظِيمَةٍ وَآيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فَكَذَّبُوا بِهَا كُلِّهَا، فَأَخَذَهُمُ اللهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، أَيْ: فَأَبَادَهُمُ اللهُ وَلَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ مُخْبِرًا وَلَا عَيْنًا وَلَا أَثَرًا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ ﴾ أَيْ: أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ ﴾ يَعْنِي: مِنَ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ، مِمَّنْ أُهْلِكُوا بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَكُفْرِهِمْ بِالْكُتُبِ، أَأَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ؟ ﴿ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ أَيْ: أَمْ مَعَكُمْ مِنَ اللهِ بَرَاءَةٌ أَنْ لَا يَنَالَكُمْ عَذَابٌ وَلَا نَكَالٌ؟

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ أَيْ: يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يَتَنَاصَرُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَأَنَّ جَمْعَهُمْ يُغْنِي عَنْهُمْ مَنْ أَرَادَهُمْ بِسُوءٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ أَيْ: سَيَتَفَرَّقُ شَمْلُهُمْ وَيُغْلَبُونَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ لَهُ يَوْمَ بَدْرٍ «**أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا**» فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بِيَدِهِ وَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ، أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَثِبُ فِي الدِّرْعِ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾.

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ

﴿مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾

يُخْبِرُنَا تَعَالَى عَنِ الْمُجْرِمِينَ أَنَّهُمْ فِي ضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ ، وَسُعُرٍ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّكُوكِ وَالِاضْطِرَابِ فِي الْآرَاءِ ، وَهَذَا يَشْمَلُ كُلَّ مَنِ اتَّصَفَ بِذَلِكَ مِنْ كَافِرٍ وَمُبْتَدِعٍ مِنْ سَائِرِ الْفِرَقِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ أَيْ : كَمَا كَانُوا فِي سُعُرٍ وَشَكٍّ وَتَرَدُّدٍ ، أَوْرَثَهُمْ ذَلِكَ النَّارَ ، وَكَمَا كَانُوا ضُلَّالًا يُسْحَبُونَ فِيهَا عَلَى وُجُوهِهِمْ لَا يَدْرُونَ أَيْنَ يَذْهَبُونَ ، وَيُقَالُ لَهُمْ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا : ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى : ١ - ٣] أَيْ : قَدَّرَ قَدْرًا وَهَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ ، **وَلِهَذَا يَسْتَدِلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَئِمَّةُ السُّنَّةِ عَلَى إِثْبَاتِ قَدَرِ اللهِ السَّابِقِ لِخَلْقِهِ ، وَهُوَ عِلْمُهُ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا ، وَكِتَابَتُهُ لَهَا قَبْلَ بَرْئِهَا .**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُخَاصِمُونَهُ فِي الْقَدَرِ ، فَنَزَلَتْ ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ وَهُوَ إِخْبَارٌ عَنْ نُفُوذِ مَشِيئَتِهِ فِي خَلْقِهِ ، كَمَا أَخْبَرَ بِنُفُوذِ قَدَرِهِ فِيهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ ﴾ إِنَّمَا نَأْمُرُ بِالشَّيْءِ مَرَّةً وَاحِدَةً ، لَا نَحْتَاجُ إِلَى تَأْكِيدٍ بِثَانِيَةٍ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ الَّذِي نَأْمُرُ بِهِ حَاصِلًا مَوْجُودًا كَلَمْحِ الْبَصَرِ ، لَا يَتَأَخَّرُ طَرْفَةَ عَيْنٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ ﴾ يَعْنِي أَمْثَالَكُمْ ، وَسَلَفَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أَيْ : فَهَلْ مِنْ مُتَّعِظٍ بِمَا أَخْزَى اللهُ أُولَئِكَ وَقَدَّرَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ أَيْ : مَكْتُوبٌ عَلَيْهِمْ فِي الْكُتُبِ الَّتِي بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ أَيْ : مِنْ أَعْمَالِهِمْ ﴿ مُّسْتَطَرٌ ﴾ أَيْ : مَجْمُوعٌ عَلَيْهِمْ ، وَمُسَطَّرٌ فِي صَحَائِفِهِمْ ، لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ أَيْ : بِعَكْسِ مَا الْأَشْقِيَاءُ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالسُّعُرِ ، وَالسَّحْبُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ مَعَ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ وَالتَّهْدِيدِ . ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ أَيْ : فِي دَارِ كَرَامَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ وَفَضْلِهِ ، وَامْتِنَانِهِ وَجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ أَيْ : عِنْدَ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ الْخَالِقِ لِلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا وَمُقَدِّرِهَا ، وَهُوَ مُقْتَدِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ مِمَّا يَطْلُبُونَ وَيُرِيدُونَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ((اقْتَرَبَتْ))
وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

آياتها ٧٨ تفسير سورة الرحمن مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ ﴾

يُخْبِرُ تعالَى عَنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَى عِبَادِهِ الْقُرْآنَ ، وَيَسَّرَ حِفْظَهُ وَفَهْمَهُ عَلَى مَنْ رَحِمَهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ : يَعْنِي : النُّطْقَ . ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أَيْ : يَجْرِيَانِ مُتَعَاقِبَيْنِ بِحِسَابٍ مُقَنَّنٍ لَا يَخْتَلِفُ وَلَا يَضْطَرِبُ ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج : ١٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ ، يَعْنِي : الْعَدْلَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾ أَيْ : خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، لِتَكُونَ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ .

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ أَيْ : لَا تَبْخَسُوا الْوَزْنَ بَلْ زِنُوا بِالْحَقِّ وَالْقِسْطِ . ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ أَيْ : كَمَا رَفَعَ السَّمَاءَ وَضَعَ الْأَرْضَ وَمَهَّدَهَا ، وَأَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ الشَّامِخَاتِ ، لِتَسْتَقِرَّ لِمَا عَلَى وَجْهِهَا مِنَ الْأَنَامِ ، وَهُمُ الْخَلَائِقُ الْمُخْتَلِفَةُ أَنْوَاعُهُمْ وَأَشْكَالُهُمْ وَأَلْوَانُهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ ، فِي سَائِرِ أَقْطَارِهَا وَأَرْجَائِهَا ﴿ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾ أَيْ : مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ ﴿ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴾ أَفْرَدَهُ بِالذِّكْرِ ؛ لِشَرَفِهِ وَنَفْعِهِ ، رُطَبًا وَيَابِسًا ، وَالْأَكْمَامُ : هِيَ أَوْعِيَةُ الطَّلْعِ وَهُوَ الَّذِي يَطْلُعُ فِيهِ الْقِنْوُ ثُمَّ يَنْشَقُّ عَنِ الْعُنْقُودِ فَيَكُونُ بُسْرًا ، ثُمَّ رُطَبًا ، ثُمَّ يَنْضَجُ وَيَتَنَاهَى نَفْعُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ .

وَقَولُهُ :﴿ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ ﴾ : يَعْنِي : التِّبْنَ . وَقِيلَ : ﴿ ٱلۡعَصۡفِ ﴾ : وَرَقُ الزَّرْعِ الْأَخْضَرِ الَّذِي قُطِعَ رُءُوسُهُ ، فَهُوَ يُسَمَّى الْعَصْفُ إِذَا يَبِسَ ﴿ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴾ يَعْنِي : الْوَرَق ، وَقِيلَ : خُضْرُ الزَّرْعِ ، وَمَعْنَى هَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْحَبَّ كَالْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ وَنَحْوِهِمَا ، لَهُ فِي حَالِ نَبَاتِهِ عَصْفٌ ، وَهُوَ : مَا عَلَى السُّنْبُلَةِ ، وَرَيْحَانٌ ، وَهُوَ : الْوَرَقُ الْمُلْتَفُّ عَلَى سَاقِهَا ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أَيْ : فَبِأَيِّ الْآلَاءِ يَا مَعْشَرَ الثَّقَلَيْنِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ تُكَذِّبَانِ ؟ أَيْ : النِّعَمُ ظَاهِرَةٌ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ مَغْمُورُونَ بِهَا ، لَا تَسْتَطِيعُونَ إِنْكَارَهَا وَلَا جُحُودَهَا ، فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَتِ الْجِنُّ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ : اللَّهُمَّ ؛ وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ ، فَلَكَ الْحَمْدُ .

خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى خَلْقَهُ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ، وَخَلْقَهُ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَهُوَ : طَرَفُ لَهَبِهَا ، وَقِيلَ : ﴿ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴾ مِنْ خَالِصِ النَّارِ . ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ ﴿ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴾ يَعْنِي : مَشْرِقَي الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ ، وَمَغْرِبَي الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ ، وَلَمَّا كَانَ فِي اخْتِلَافِ هَذِهِ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ مَصَالِحُ لِلْخَلْقِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، قَالَ : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴾ أَيْ : أَرْسَلَهُمَا ، وَقَوْلُهُ : ﴿ يَلۡتَقِيَانِ ﴾ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ : أَيْ : مَنَعَهُمَا أَنْ يَلْتَقِيَا ، بِمَا جَعَلَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْبَرْزَخِ الْحَاجِزِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُمَا ، وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ ﴾ الْمِلْحُ وَالْحُلْوُ ، فَالْحُلْوُ هَذِهِ الْأَنْهَارُ السَّارِحَةُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ « الْفُرْقَانِ » . قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴾ أَيْ : وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ، وَهُوَ : الْحَاجِزُ مِنَ الْأَرْضِ ، لِئَلَّا يَبْغِيَ هَذَا عَلَى هَذَا ، وَهَذَا عَلَى هَذَا ، فَيُفْسِدُ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْآخَرَ وَيُزِيلُهُ عَنْ صِفَتِهِ الَّتِي هِيَ مَقْصُودَةٌ مِنْهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴾ أَيْ : مِنْ مَجْمُوعِهِمَا فَإِذَا وُجِدَ ذَلِكَ لِأَحَدِهِمَا كَفَى ، وَاللُّؤْلُؤُ مَعْرُوفٌ ، وَأَمَّا الْمَرْجَانُ فَقِيلَ : هُوَ صِغَارُ اللُّؤْلُؤِ ، وَقِيلَ : كِبَارُهُ وَجَيِّدُهُ . وَقِيلَ : هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْجَوَاهِرِ أَحْمَرُ اللَّوْنِ . وَلَمَّا كَانَ اتِّخَاذُ هَذِهِ الْحِلْيَةِ نِعْمَةً عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ امْتَنَّ بِهَا عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾، يَعْنِي: السُّفُنُ الَّتِي تَجْرِي ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ**: مَا رُفِعَ قَلْعُهُ مِنَ السُّفُنِ فَهِيَ مُنْشَأَةٌ، وَمَا لَمْ يُرْفَعْ قَلْعُهُ فَلَيْسَ بِمُنْشَأَةٍ، **وَقَالَ قَتَادَةُ**: ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ يَعْنِي: المَخْلُوقَاتُ ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ أَيْ: كَالْجِبَالِ فِي كِبَرِهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ المَتَاجِرِ وَالمَكَاسِبِ المَنْقُولَةِ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ، وَإِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ، مِمَّا فِيهِ صَلَاحٌ لِلنَّاسِ فِي جَلْبِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الْبَضَائِعِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ سَيَذْهَبُونَ وَيَمُوتُونَ أَجْمَعُونَ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ، وَلَا يَبْقَى أَحَدٌ سِوَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، فَإِنَّ الرَّبَّ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ لَا يَمُوتُ، بَلْ هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا. **قَالَ قَتَادَةُ**: أَنْبَأَ بِمَا خَلَقَ ثُمَّ أَنْبَأَ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ فَانٍ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، وَقَدْ نَعَتَ تَعَالَى وَجْهَهُ الْكَرِيمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أَيْ: هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُخَالَفُ، **رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ**: ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ذُو الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ. وَلَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَسَاوِي أَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ فِي الْوَفَاةِ، وَأَنَّهُمْ سَيَصِيرُونَ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَيَحْكُمُ فِيهِمْ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ **قَالَ**: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ غِنَاهُ عَمَّا سِوَاهُ، وَافْتِقَارُ الْخَلَائِقِ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْآنَاتِ، وَأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ بِلِسَانِ حَالِهِمْ وَقَالِهِمْ، وَأَنَّهُ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ **قِيلَ**: مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُجِيبَ دَاعِيًا، أَوْ يُعْطِيَ سَائِلًا، أَوْ يَفُكَّ عَانِيًا، أَوْ يَشْفِيَ سَقِيمًا. **وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ**: كُلَّ يَوْمٍ هُوَ يُجِيبُ دَاعِيًا، وَيَكْشِفُ كَرْبًا، وَيُجِيبُ مُضْطَرًّا، وَيَغْفِرُ ذَنْبًا.

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ قَالَ : وَعِيدٌ مِنَ الله تَعَالَى لِلْعِبَادِ ، وَلَيْسَ بِالله شُغْلٌ ، وَقَالَ الْبُخَارِيُّ : سَيُحَاسِبُكُمْ ، لَا يَشْغَلُهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ، يُقَالُ : لَأَتَفَرَّغَنَّ لَكَ وَمَا بِهِ شُغْلٌ ، يَقُولُ : لَآخُذَنَّكَ عَلَى غِرَّتِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ الثَّقَلَانُ : الإِنْسُ وَالْجِنُّ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴾ أَيْ : لَا تَسْتَطِيعُونَ هَرَبًا مِنْ أَمْرِ الله وَقَدَرِهِ ، بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِكُمْ ، لَا تَقْدِرُونَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ حُكْمِهِ ، وَلَا النُّفُوذِ عَنْ حُكْمِهِ فِيكُمْ ، أَيْنَمَا ذَهَبْتُمْ أُحِيطَ بِكُمْ ، وَهَذَا فِي مَقَامِ الْمَحْشَرِ ، الْمَلَائِكَةُ مُحْدِقَةٌ بِالْخَلَائِقِ ، سَبْعُ صُفُوفٍ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى الذَّهَابِ ﴿ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ أَيْ : إِلَّا بِأَمْرِ الله . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ قِيلَ : الشُّوَاظُ : هُوَ لَهَبُ النَّارِ ، وَقِيلَ : الشُّوَاظُ : الدُّخَانُ ، وَقِيلَ : هُوَ اللَّهِيبُ الْأَخْضَرُ الْمُنْقَطِعُ ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ قِيلَ : الصُّفْرُ ، يُذَابُ فَيُصَبُّ عَلَى رُءُوسِهِمْ ، وَالْمَعْنَى : لَوْ ذَهَبْتُمْ هَارِبِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَدَّتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ وَالزَّبَانِيَةُ بِإِرْسَالِ اللَّهَبِ مِنَ النَّارِ وَالنُّحَاسِ الْمُذَابِ عَلَيْكُمْ لِتَرْجِعُوا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَاتُ مَعَ مَا شَاكَلَهَا مِنَ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي مَعْنَاهَا ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٦] وَقَوْلِهِ : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق ١ - ٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ أَيْ : تَذُوبُ كَمَا يَذُوبُ الدُّرْدِيُّ وَالْفِضَّةُ فِي السَّبْكِ ، وَتَتَلَوَّنُ كَمَا تَتَلَوَّنُ الْأَصْبَاغُ الَّتِي يُدْهَنُ بِهَا ، فَتَارَةً حَمْرَاءُ وَصَفْرَاءُ وَزَرْقَاءُ وَخَضْرَاءُ ، وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ ، وَهَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْعَظِيمِ ﴿ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ قِيلَ : تَغَيَّرَ لَوْنُهَا ، وَقِيلَ : كَأَلْوَانِ الدِّهَانِ ، وَقِيلَ : تَصِيرُ السَّمَاءُ كَالدُّهْنِ الذَّائِبِ ، وَذَلِكَ حِينَ يُصِيبُهَا حَرُّ جَهَنَّمَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ

لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : ٣٥ - ٣٦] ، فَهَذَا فِي حَالٍ ، وَثَمَّ فِي حَالٍ يَسْأَلُ الْخَلَائِقَ فِيهَا عَنْ جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : ٩٢-٩٣] ، وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ قَالَ : قَدْ كَانَتْ مَسْأَلَةٌ ، ثُمَّ خُتِمَ عَلَى أَفْوَاهِ الْقَوْمِ ، وَتَكَلَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقِيلَ : لَا يَسْأَلُهُمْ هَلْ عَمِلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ ، لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ يَقُولُ : لِمَ عَمِلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟. فَهَذَا قَوْلٌ ثَانٍ . وَقِيلَ : لَا يَسْأَلُ الْمَلَائِكَةُ عَنِ الْمُجْرِمِينَ بَلْ يُعْرَفُونَ بِسِيمَاهُمْ ، وَهَذَا قَوْلٌ ثَالِثٌ ، وَكَأَنَّ هَذَا بَعْدَمَا يُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ ، فَذَلِكَ الْوَقْتُ لَا يُسْأَلُونَ عَنْ ذُنُوبِهِمْ ، بَلْ يُقَادُونَ إِلَيْهَا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ أَيْ : بِعَلَامَاتٍ تَظْهَرُ عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ : يَعْرِفُونَهُمْ بِاسْوِدَادِ الْوُجُوهِ وَزُرْقَةِ الْعُيُونِ . قُلْتُ : وَهَذَا كَمَا يُعْرَفُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغُرَّةِ وَالتَّحْجِيلِ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ أَيْ : تَجْمَعُ الزَّبَانِيَةُ نَاصِيَتَهُ مَعَ قَدَمَيْهِ ، وَيُلْقُونَهُ فِي النَّارِ كَذَلِكَ ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أَيْ : هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ بِوُجُودِهَا ، هَا هِيَ حَاضِرَةٌ تُشَاهِدُونَهَا عِيَانًا ؛ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا وَتَحْقِيرًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ أَيْ : تَارَةً يُعَذَّبُونَ فِي الْجَحِيمِ ، وَتَارَةً يُسْقَوْنَ مِنَ الْحَمِيمِ ، وَهُوَ الشَّرَابُ الَّذِي هُوَ كَالنُّحَاسِ الْمُذَابِ يُقَطِّعُ الْأَمْعَاءَ وَالْأَحْشَاءَ . ﴿ ءَانٍ ﴾ أَيْ : حَارٌّ ، قَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ فِي الْحَرَارَةِ ، لَا يُسْتَطَاعُ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ . ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ أَيْ : قَدِ انْتَهَى غَلْيُهُ وَاشْتَدَّ حَرُّهُ . وَلَمَّا كَانَ مُعَاقَبَةُ الْعُصَاةِ الْمُجْرِمِينَ وَتَنْعِيمُ الْمُتَّقِينَ مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَلُطْفِهِ بِخَلْقِهِ ، وَكَانَ إِنْذَارُهُ لَهُمْ عَذَابَهُ وَبَأْسَهُ مِمَّا يَزْجُرُهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي وَغَيْرِ ذَلِكَ ، قَالَ مُمْتَنًّا بِذَلِكَ عَلَى بَرِيَّتِهِ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠] ، وَلَمْ يَطْغَ وَلَا آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَعَلِمَ أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، فَأَدَّى فَرَائِضَ اللهِ ، وَاجْتَنَبَ مَحَارِمَهُ ، فَلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ . وَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، فَهِيَ مِنْ أَدَلِّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْجِنَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِذَا آمَنُوا وَاتَّقَوْا ، وَلِهَذَا امْتَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى

الثَّقَلَيْنِ بِهَذَا الْجَزَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، ثُمَّ نَعتَ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ فَقَالَ : ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ أَيْ : أَغْصَانٌ نَضِرَةٌ حَسَنَةٌ ، تَحْمِلُ مِنْ كُلِّ ثَمَرَةٍ نَضِيجَةً فَائِقَةً ، وَقِيلَ : ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ ذَوَاتَا أَلْوَانٍ ، وَقَالَ عَطَاءٌ : كُلُّ غُصْنٍ يَجْمَعُ فُنُونًا مِنَ الْفَاكِهَةِ ، ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ أَيْ : تَسْرَحَانِ لِسَقْيِ تِلْكَ الْأَشْجَارِ وَالْأَغْصَانِ فَتُثْمِرُ مِنْ جَمِيعِ الْأَلْوَانِ . قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : إِحْدَاهُمَا يُقَالُ لَهَا : تَسْنِيمٌ ، وَالْأُخْرَى : السَّلْسَبِيلُ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ أَيْ : مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الثِّمَارِ مِمَّا يَعْلَمُونَ ، وَخَيْرٌ مِمَّا يَعْلَمُونَ ، وَمِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ ﴾ يَعْنِي : أَهْلَ الْجَنَّةِ ، وَالْمُرَادُ بِالِاتِّكَاءِ هَهُنَا : الِاضْطِجَاعُ ، وَيُقَالُ : الْجُلُوسُ عَلَى صِفَةِ التَّرَبُّعِ ﴿ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ وَهُوَ مَا غَلُظَ مِنَ الدِّيبَاجِ ، وَقَالَ أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيّ : هُوَ الدِّيبَاجُ الْمُغَرَّى بِالذَّهَبِ ، فَنَبَّهَ عَلَى شَرَفِ الظِّهَارَةِ بِشَرَفِ الْبِطَانَةِ ، فَهَذَا مِنَ التَّنْبِيهِ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى .

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ أَيْ : ثَمَرُهُمَا قَرِيبٌ إِلَيْهِمْ مَتَى شَاءُوا تَنَاوَلُوهُ ، عَلَى أَيِّ صِفَةٍ كَانُوا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ٢٣] وَقَالَ : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ [الإنسان : ١٤] أَيْ : لَا تَمْتَنِعُ مِمَّنْ تَنَاوَلَهَا بَلْ تَنْحَطُّ إِلَيْهِ مِنْ أَغْصَانِهَا ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وَلَمَّا ذَكَرَ الْفُرُشَ وَعَظَمَتَهَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ فِيهِنَّ ﴾ أَيْ : فِي الْفُرُشِ ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أَيْ : غَضِيضَاتٌ عَنْ غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ ، فَلَا يَرَيْنَ شَيْئًا فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنَ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ أَيْ : بَلْ هُنَّ أَبْكَارٌ عُرُبٌ أَتْرَابٌ ، لَمْ يَطَأْهُنَّ أَحَدٌ قَبْلَ أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى دُخُولِ مُؤْمِنِي الْجِنِّ الْجَنَّةَ . ثُمَّ قَالَ يَنْعَتُهُنَّ لِلْخُطَّابِ : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : فِي صَفَاءِ الْيَاقُوتِ ، وَبَيَاضِ الْمَرْجَانِ ، فَجَعَلُوا الْمَرْجَانَ هَهُنَا اللُّؤْلُؤَ . ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ أَيْ : مَا لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا الْإِحْسَانَ إِلَيْهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟

ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] ، وَلَمَّا كَانَ فِي الَّذِي ذُكِرَ نِعَمٌ عَظِيمَةٌ لَا يُقَاوِمُهَا عَمَلٌ بَلْ مُجَرَّدُ تَفَضُّلٍ وَامْتِنَانٍ ،قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

هَاتَانِ الْجَنَّتَانِ دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا فِي الْمَرْتَبَةِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْمَنْزِلَةِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ « جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا » فَالْأُولَيَانِ لِلْمُقَرَّبِينَ ، وَالْأُخْرَيَانِ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَقَالَ أَبُو مُوسَى : جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ لِلْمُقَرَّبِينَ ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ أَيْ : سَوْدَاوَانِ مِنْ شِدَّةِ الرِّيِّ ، وَقِيلَ : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ خَضْرَاوَانِ ، وَقِيلَ : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ مُمْتَلِئَتَانِ مِنَ الْخُضْرَةِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : خَضْرَاوَانِ مِنَ الرِّيِّ نَاعِمَتَانِ ﴿ نَضَّاخَتَانِ ﴾ قِيلَ : أَيْ : فَيَّاضَتَانِ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ : ﴿ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أَيْ : مُمْتَلِئَتَانِ وَلَا تَنْقَطِعَانِ ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ أَفْرَدَ النَّخْلَ وَالرُّمَّانَ بِالذِّكْرِ لِشَرَفِهِمَا عَلَى غَيْرِهِمَا . ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ حَسَنَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَقِيلَ : خَيْرَاتٌ ، جَمْعُ خَيْرَةٍ ، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ الْحَسَنَةُ الْخُلُقِ الْحَسَنَةُ الْوَجْهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ ﴾ ، وَهُنَاكَ قَالَ : ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ وَلَا شَكَّ أَنَّ الَّتِي قَدْ قَصَرَتْ طَرْفَهَا بِنَفْسِهَا أَفْضَلُ مِمَّنْ قُصِرَتْ ، وَإِنْ كَانَ الْجَمِيعُ مُخَدَّرَاتٍ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ ، عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا ، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الْآخَرِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ » وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي عِمْرَانَ بِهِ وَلَفْظُهُ : « إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا ، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُهُ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ سَوَاءً ، إِلَّا أَنَّهُ زَادَ فِي وَصْفِ الْأَوَائِلِ

بِقَوْلِهِ : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ ، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ الرَّفْرَفُ عَلَى السَّرِيرِ ، كَهَيْئَةِ المَحَابِسِ المُتَدَلِّي ، **وَقِيلَ** : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ يَعْنِي : الْوَسَائِدَ ، **وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ قَالَ : الرَّفْرَفُ : رِيَاضُ الْجَنَّةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : الْعَبْقَرِيُّ : الزَّرَابِيُّ : **قِيلَ** : هِيَ عِتَاقُ الزَّرَابِيِّ ، يَعْنِي : جِيَادَهَا ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : الْعَبْقَرِيُّ : الدِّيبَاجُ ، **وَقِيلَ** : العَبْقَرِيُّ : أَحْمَرُ وَأَصْفَرُ وَأَخْضَرُ ، وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ : كُلُّ ثَوْبٍ مُوَشًّى عِنْدَ الْعَرَبِ عَبْقَرِيٌّ ، وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ ، فَصِفَةُ مَرَافِقِ أَهْلِ الْجَنَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ أَرْفَعُ وَأَعْلَى مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ ، فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ هُنَاكَ : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ فَنَعَتَ بَطَائِنَ فُرُشِهِمْ وَسَكَتَ عَنْ ظَهَائِرِهَا ، اِكْتِفَاءً بِمَا مَدَحَ بِهِ الْبَطَائِنَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ، وَتَمَامُ الخَاتِمَةِ أَنَّهُ قَالَ بَعْدَ الصِّفَاتِ المُتَقَدِّمَةِ ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ فَوَصَفَ أَهْلَهَا بِالْإِحْسَانِ وَهُوَ أَعْلَى المَرَاتِبِ وَالنِّهَايَاتِ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ أَيْ : هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَى ، وَأَنْ يُكْرَمَ فَيُعْبَدَ ، وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ ، وَأَنْ يُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى ، **وَقِيلَ** فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ ذُو الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الرَّحْمَنِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ

آياتها ٩٦ — تَفْسِيرُ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ — مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ
رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً ﴿٧﴾
فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾
وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾

الْوَاقِعَةُ : اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ ؛ لِتَحَقُّقِ كَوْنِهَا وَوُجُودِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لِوُقُوعِهَا - إِذَا أَرَادَ اللهُ كَوْنَهَا - صَارِفٌ يَصْرِفُهَا وَلَا دَافِعٌ يَدْفَعُهَا ، وَمَعْنَى ﴿ كَاذِبَةٌ ﴾ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : لَيْسَ فِيهَا مَثْنَوِيَّةٌ وَلَا

اِرْتِدَادٌ وَلَا رَجْعَةٌ . ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ أَيْ : تَخْفِضُ أَقْوَامًا إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ إِلَى الْجَحِيمِ ، وَإِنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا أَعِزَّاءَ ، وَتَرْفَعُ آخَرِينَ إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ إِلَى النَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، وَإِنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا وُضَعَاءَ . **وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ** : تَخْفِضُ رِجَالًا كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُرْتَفِعِينَ وَتَرْفَعُ رِجَالًا كَانُوا فِي الدُّنْيَا مَخْفُوضِينَ . ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾ أَيْ : حُرِّكَتْ تَحْرِيكًا فَاهْتَزَّتْ وَاضْطَرَبَتْ بِطُولِهَا وَعَرْضِهَا ، **وَلِهَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾ أَيْ : زُلْزِلَتْ زِلْزَالًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ أَيْ : فُتِّتَتْ فَتًّا ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ قِيلَ : كَرَهْجِ الْغُبَارِ يَسْطَعُ ثُمَّ يَذْهَبُ ، فَلَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ ، **وَقِيلَ** : **الْهَبَاءُ** : الَّذِي يَطِيرُ مِنَ النَّارِ إِذَا اضْطَرَمَتْ ، يَطِيرُ مِنْهُ الشَّرَرُ ، فَإِذَا وَقَعَ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَأَخَوَاتِهَا الدَّالَّةِ عَلَى زَوَالِ الْجِبَالِ عَنْ أَمَاكِنِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَذَهَابِهَا وَتَسْيِيرِهَا وَنَسْفِهَا وَصَيْرُورَتِهَا كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ أَيْ : **يَنْقَسِمُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ** : **قَوْمٌ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ** : وَهُمُ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ شِقِّ آدَمَ الْأَيْمَنِ ، وَيُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ ، وَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتُ الْيَمِينِ . **قَالَ السُّدِّيُّ** : وَهُمْ جُمْهُورُ أَهْلِ الْجَنَّةِ . **وَآخَرُونَ عَنْ يَسَارِ الْعَرْشِ** : وَهُمُ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ شِقِّ آدَمَ الْأَيْسَرِ ، وَيُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِشِمَالِهِمْ ، وَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتُ الشِّمَالِ وَهُمْ عَامَّةُ أَهْلِ النَّارِ ، عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ صَنِيعِهِمْ . **وَطَائِفَةٌ سَابِقُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ** ﷻ : وَهُمْ أَخَصُّ وَأَحْظَى وَأَقْرَبُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، الَّذِينَ هُمْ سَادَتُهُمْ ، فِيهِمُ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ ، وَهُمْ أَقَلُّ عَدَدًا مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ وَهَكَذَا قَسَّمَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ فِي آخِرِ السُّورَةِ وَقْتَ احْتِضَارِهِمْ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ **قِيلَ** : هُمُ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، **وَقِيلَ** : الَّذِينَ صَلَّوْا إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ ، **وَقِيلَ** : أَوَّلُهُمْ رَوَاحًا إِلَى الْمَسْجِدِ ، وَأَوَّلُهُمْ خُرُوجًا فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا صَحِيحَةٌ ، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِالسَّابِقِينَ هُمُ الْمُبَادِرُونَ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ كَمَا أُمِرُوا ، فَمَنْ سَابَقَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَسَبَقَ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ كَانَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى الْكَرَامَةِ ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ .

ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ

﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ أَنَّهُمْ ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ أَيْ : جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ، وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : مِنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ أَيْ : مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَوَّلَ كُلِّ أُمَّةٍ خَيْرٌ مِنْ آخِرِهَا فَيَحْتَمِلُ أَنْ تَعُمَّ الْآيَةُ جَمِيعَ الْأُمَمِ ، كُلُّ أُمَّةٍ بِحَسْبِهَا ، وَلِهَذَا ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ** » ، **وَالْغَرَضُ** : أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَشْرَفُ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ ، وَالْمُقَرَّبُونَ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهَا وَأَعْلَى مَنْزِلَةً ، لِشَرَفِ دِينِهَا وَعِظَمِ نَبِيِّهَا . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ **قَالَ عَدَد مِنَ الْعُلَمَاءِ** : أَيْ : مَرْمُولَةٌ بِالذَّهَبِ ، يَعْنِي مَنْسُوجَةٌ بِهِ . ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴾ أَيْ : وُجُوهُ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ لَيْسَ أَحَدٌ وَرَاءَ أَحَدٍ ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أَيْ : مُخَلَّدُونَ عَلَى صِفَةٍ وَاحِدَةٍ ، لَا يَكْبُرُونَ عَنْهَا وَلَا يَشِيبُونَ وَلَا يَتَغَيَّرُونَ ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ أَمَّا الْأَكْوَابُ فَهِيَ : الْكِيزَانُ الَّتِي لَا خَرَاطِيمَ لَهَا وَلَا آذَانَ ، وَالْأَبَارِيقُ : الَّتِي جَمَعَتِ الْوَصْفَيْنِ ، وَالْكُؤُوسُ : الْهِنَابَاتُ ، وَالْجَمِيعُ مِنْ خَمْرٍ مِنْ عَيْنٍ جَارِيَةٍ مَعِينٍ ، لَيْسَ مِنْ أَوْعِيَةٍ تَنْقَطِعُ وَتَفْرُغُ ، بَلْ مِنْ عُيُونٍ سَارِحَةٍ ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ أَيْ : لَا تُصَدَّعُ رُءُوسُهُمْ وَلَا تُنْزَفُ عُقُولُهُمْ ، بَلْ هِيَ ثَابِتَةٌ مَعَ الشِّدَّةِ الْمُطْرِبَةِ وَاللَّذَّةِ الْحَاصِلَةِ . وَقَالُوا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَذْهَبُ بِعُقُولِهِمْ ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ أَيْ : وَيَطُوفُونَ عَلَيْهِمْ بِمَا يَتَخَيَّرُونَ مِنَ الثِّمَارِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ أَكْلِ الْفَاكِهَةِ عَلَى صِفَةِ التَّخَيُّرِ لَهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالرَّفْعِ ، وَتَقْدِيرُهُ : وَلَهُمْ فِيهَا حُورٌ عِينٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ أَيْ : كَأَنَّهُنَّ اللُّؤْلُؤُ الرَّطْبُ فِي بَيَاضِهِ وَصَفَائِهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي « سُورَةِ الصَّافَّاتِ » : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات:٤٩] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي « سُورَةِ الرَّحْمَنِ » وَصْفُهُنَّ أَيْضًا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي أَتْحَفْنَاهُمْ بِهِ مُجَازَاةً لَهُمْ عَلَى مَا أَحْسَنُوا مِنَ الْعَمَلِ ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ أَيْ : لَا يَسْمَعُونَ فِي الْجَنَّةِ كَلَامًا لَاغِيًا ، أَيْ : غَثًّا خَالِيًا عَنِ الْمَعْنَى ، أَوْ مُشْتَمِلًا عَلَى مَعْنَى حَقِيرٍ أَوْ ضَعِيفٍ ، كَمَا قَالَ : ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴾ [الغاشية : ١١] أَيْ : كَلِمَةً لَاغِيَةً ﴿ وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ أَيْ : وَلَا كَلَامًا فِيهِ قُبْحٌ ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ أَيْ : إِلَّا التَّسْلِيمُ مِنْهُمْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ [إبراهيم : ٢٣] وَكَلَامُهُمْ أَيْضًا سَالِمٌ مِنَ اللَّغْوِ وَالْإِثْمِ .

وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَآلَ السَّابِقِينَ - وَهُمُ الْمُقَرَّبُونَ - عَطَفَ عَلَيْهِمْ بِذِكْرِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ - وَهُمُ الْأَبْرَارُ - كَمَا قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ : أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَنْزِلَةٌ دُونَ الْمُقَرَّبِينَ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾ أَيْ : أَيُّ شَيْءٍ أَصْحَابُ الْيَمِينِ ؟ وَمَا حَالُهُمْ ؟ وَكَيْفَ مَآلُهُمْ ؟ ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هُوَ الَّذِي لَا شَوْكَ فِيهِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ الْمُوقَرُ بِالثَّمَرِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ هَذَا وَهَذَا ، فَإِنَّ سِدْرَ الدُّنْيَا كَثِيرُ الشَّوْكِ قَلِيلُ الثَّمَرِ ، وَفِي الْآخِرَةِ الْعَكْسُ مِنْ هَذَا ، لَا شَوْكَ فِيهِ ، وَفِيهِ الثَّمَرُ الْكَثِيرُ الَّذِي قَدْ أَثْقَلَ أَصْلَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ الطَّلْحُ : شَجَرٌ عِظَامٌ يَكُونُ بِأَرْضِ الْحِجَازِ ، مِنْ شَجَرِ الْعِضَاهِ ، وَاحِدَتُهُ طَلْحَةٌ ، وَهُوَ شَجَرٌ كَثِيرُ الشَّوْكِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ أَيْ : مُتَرَاكِمُ الثَّمَرِ .

وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ الْمَوْزُ ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ ﷺ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ قَالَ الثَّوْرِيُّ : يَجْرِي فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ . ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أَيْ : وَعِنْدَهُمْ مِنَ الْفَوَاكِهِ الْكَثِيرَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ فِي الْأَلْوَانِ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ . ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أَيْ : لَا تَنْقَطِعُ شِتَاءً وَلَا صَيْفًا ، بَلْ أُكُلُهَا دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ أَبَدًا مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا ، لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ بِقُدْرَةِ اللهِ شَيْءٌ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : لَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ تَنَاوُلِهَا عُودٌ وَلَا شَوْكٌ وَلَا بُعْدٌ ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أَيْ : عَالِيَةٌ وَطِيئَةٌ نَاعِمَةٌ ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ جَرَى الضَّمِيرُ عَلَى غَيْرِ مَذْكُورٍ ، لَكِنْ لَمَّا دَلَّ السِّيَاقُ - وَهُوَ ذِكْرُ الْفُرُشِ عَلَى النِّسَاءِ اللَّاتِي يُضَاجِعْنَ فِيهَا - اِكْتَفَى بِذَلِكَ عَنْ ذِكْرِهِنَّ ، وَعَادَ الضَّمِيرُ عَلَيْهِنَّ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ ﴾ أَيْ : أَعَدْنَاهُنَّ فِي النَّشْأَةِ الْأُخْرَى بَعْدَمَا كُنَّ عَجَائِزَ رُمْصًا ، صِرْنَ أَبْكَارًا عُرُبًا ، أَيْ : بَعْدَ الثُّيُوبَةِ عُدْنَ أَبْكَارًا ﴿ عُرُبًا ﴾ أي : مُتَحَبِّبَاتٌ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ بِالْحَلَاوَةِ وَالظَّرَافَةِ وَالْمَلَاحَةِ ، وَقِيلَ : الْعُرُب : الْعَوَاشِقُ لِأَزْوَاجِهِنَّ ، وَأَزْوَاجُهُنَّ لَهُنَّ عَاشِقُونَ . وَقِيلَ : هِيَ حُسْنُ التَّبَعُّلِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَتْرَابًا ﴾ قِيلَ : يَعْنِي فِي سِنٍّ وَاحِدَةٍ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، وَقِيلَ : الْأَتْرَابُ : الْمُسْتَوِيَاتُ ، وَقِيلَ : ﴿ أَتْرَابًا ﴾ أَيْ : فِي

الْأَخْلَاقِ الْمُتَوَاخِيَاتُ بَيْنَهُنَّ ، لَيْسَ بَيْنَهُنَّ تَبَاغُضٌ وَلَا تَحَاسُدٌ ، يَعْنِي : لَا كَمَا كُنَّ ضَرَائِرَ مُتَعَادِيَاتٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أَيْ : خُلِقْنَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ أَوِ ادُّخِرْنَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ، أَوْ زُوِّجْنَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ فَتَقْدِيرُهُ : أَنْشَأْنَاهُنَّ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ . ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ أَيْ : جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ .

وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ عَطَفَ عَلَيْهِمْ بِذِكْرِ أَصْحَابِ الشِّمَالِ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ أَيْ : أَيُّ شَيْءٍ هُمْ فِيهِ أَصْحَابُ الشِّمَالِ ؟ **ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ فَقَالَ** : ﴿ فِى سَمُومٍ ﴾ وَهُوَ : الْهَوَاءُ الْحَارُّ ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ وَهُوَ الْمَاءُ الْحَارُّ ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ وَهُوَ الدُّخَانُ الْأَسْوَدُ ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ طَيِّبَ الْهُبُوبِ وَلَا حَسَنَ الْمَنْظَرِ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى اسْتِحْقَاقَهُمْ لِذَلِكَ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ أَيْ : كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مُنَعَّمِينَ مُقْبِلِينَ عَلَى لَذَّاتِ أَنْفُسِهِمْ ، لَا يَلْوُونَ عَلَى مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ ﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ ﴾ أَيْ : يُصَمِّمُونَ وَلَا يَنْوُونَ تَوْبَةً ﴿ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وَهُوَ الْكُفْرُ بِاللهِ ، وَجَعْلِ الْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ﴿ ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : هو الشِّرْكُ . **وَقِيلَ** : هُوَ الْيَمِينُ الْغَمُوسُ ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ مُكَذِّبِينَ بِهِ مُسْتَبْعِدِينَ لِوُقُوعِهِ ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أَيْ : أَخْبِرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنْ بَنِي آدَمَ سَيُجْمَعُونَ إِلَى عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ ، لَا نُغَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٣ - ١٠٥] **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا** : ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ

مَّعْلُومٍ﴾ أَيْ : هُوَ مُوَقَّتٌ بِوَقْتٍ مُحَدَّدٍ ، لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ ، وَلَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُقْبَضُونَ وَيُسْجَرُونَ حَتَّى يَأْكُلُوا مِنْ شَجَرِ الزَّقُّومِ ، حَتَّى يَمْلَئُوا مِنْهَا بُطُونَهُمْ ﴿ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ وَهِيَ الْإِبِلُ الْعِطَاشُ الظِّمَاءُ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : الْهِيمُ : دَاءٌ يَأْخُذُ الْإِبِلَ فَلَا تَرْوَى أَبَدًا حَتَّى تَمُوتَ ، فَكَذَلِكَ أَهْلُ جَهَنَّمَ لَا يَرْوَوْنَ مِنَ الْحَمِيمِ أَبَدًا . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي وَصَفْنَا هُوَ ضِيَافَتُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ حِسَابِهِمْ .

نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُقَرِّرًا لِلْمَعَادِ وَرَادًّا عَلَى الْمُكَذِّبِينَ بِهِ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالْإِلْحَادِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الصافات : ١٦] وَقَوْلُهُمْ ذَلِكَ صَدَرَ مِنْهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّكْذِيبِ وَالِاسْتِبْعَادِ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ أَيْ : نَحْنُ ابْتَدَأْنَا خَلْقَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا ، أَفَلَيْسَ الَّذِي قَدَرَ عَلَى الْبُدَاءَةِ بِقَادِرٍ عَلَى الْإِعَادَةِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ؟ **فَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أَيْ : فَهَلَّا تُصَدِّقُونَ بِالْبَعْثِ ؟ **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** مُسْتَدِلًّا عَلَيْهِمْ **بِقَوْلِهِ** : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ تُقِرُّونَهُ فِي الْأَرْحَامِ وَتَخْلُقُونَهُ فِيهَا أَمِ اللهُ الْخَالِقُ لِذَلِكَ ؟ **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ أَيْ : صَرَفْنَاهُ بَيْنَكُمْ . **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : سَاوَى فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أَيْ : وَمَا نَحْنُ بِعَاجِزِينَ ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ ﴾ أَيْ : نُغَيِّرُ خَلْقَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : مِنَ الصِّفَاتِ وَالْأَحْوَالِ ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ اللهَ أَنْشَأَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا ، فَخَلَقَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، فَهَلَّا تَتَذَكَّرُونَ وَتَعْرِفُونَ أَنَّ الَّذِي قَدَرَ عَلَى هَذِهِ النَّشْأَةِ وَهِيَ الْبَدَاءَةُ ، قَادِرٌ عَلَى النَّشْأَةِ الْأُخْرَى ، وَهِيَ الْإِعَادَةُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى .

أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى

تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ وَهُوَ شَقُّ الْأَرْضِ وَإِثَارَتُهَا وَالْبَذْرُ فِيهَا ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ ﴾ أَيْ: تُنْبِتُونَهُ فِي الْأَرْضِ ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ أَيْ: بَلَى نَحْنُ الَّذِي نُقِرُّهُ قَرَارَهُ وَنُنْبِتُهُ فِي الْأَرْضِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ أَيْ: نَحْنُ أَنْبَتْنَاهُ بِلُطْفِنَا وَرَحْمَتِنَا، وَأَبْقَيْنَاهُ لَكُمْ رَحْمَةً بِكُمْ، وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا، أَيْ: لَأَيْبَسْنَاهُ قَبْلَ اسْتِوَائِهِ وَاسْتِحْصَادِهِ ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أَيْ: لَوْ جَعَلْنَاهُ حُطَامًا لَظَلَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ فِي الْمَقَالَةِ، تُنَوِّعُونَ كَلَامَكُمْ فَتَقُولُونَ تَارَةً ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ أَيْ: لَمُلْقَوْنَ، **وَقِيلَ**: إِنَّا لَمُولَعٌ بِنَا، **وَقَالَ قَتَادَةُ**: مُعَذَّبُونَ ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أَيْ: مَحْدُودُونَ، يَعْنِي: لَا حَظَّ لَنَا ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ تُعْجَبُونَ، **وَقِيلَ**: ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ تَفْجَعُونَ وَتَحْزَنُونَ عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنْ زَرْعِكُمْ.

وَقِيلَ: ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ تَلَاوَمُونَ، **وَقِيلَ**: تَنْدَمُونَ، وَمَعْنَاهُ: إِمَّا عَلَى مَا أَنْفَقْتُمْ أَوْ عَلَى مَا أَسْلَفْتُمْ مِنَ الذُّنُوبِ، **قَالَ الْكِسَائِيُّ**: تَفَكَّهَ مِنَ الْأَضْدَادِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: تَفَكَّهْتُ، بِمَعْنَى: تَنَعَّمْتُ، وَتَفَكَّهْتُ بِمَعْنَى: حَزِنْتُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ ﴾ يَعْنِي: السَّحَابُ، ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾ يَقُولُ: بَلْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴾ أَيْ: زُعَاقًا مُرًّا لَا يَصْلُحُ لِشُرْبٍ وَلَا زَرْعٍ ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ: فَهَلَّا تَشْكُرُونَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ فِي إِنْزَالِهِ الْمَطَرَ عَلَيْكُمْ عَذْبًا زُلَالًا، **ثُمَّ قَالَ**: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ أَيْ: تَقْدَحُونَ مِنَ الزِّنَادِ وَتَسْتَخْرِجُونَهَا مِنْ أَصْلِهَا ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾ أَيْ: بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ جَعَلْنَاهَا مُودَعَةً فِي مَوْضِعِهَا، وَلِلْعَرَبِ شَجَرَتَانِ، إِحْدَاهُمَا: الْمَرْخُ، وَالْأُخْرَى: الْعَفَارُ، إِذَا أُخِذَ مِنْهُمَا غُصْنَانِ أَخْضَرَانِ فَحُكَّ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ تَنَاثَرَ مِنْ بَيْنِهِمَا شَرَرُ النَّارِ ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً ﴾ **قِيلَ**: أَيْ: تُذَكِّرُ النَّارَ الْكُبْرَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ**: مَعْنَى «الْمُقْوِينَ» الْمُسَافِرِينَ، **وَقِيلَ**: ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ يَعْنِي: الْمُسْتَمْتِعِينَ مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ أَعَمُّ مِنْ غَيْرِهِ، فَإِنَّ الْحَاضِرَ وَالْبَادِي مِنْ غَنِيٍّ وَفَقِيرٍ الْجَمِيعُ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهَا لِلطَّبْخِ وَالِاصْطِلَاءِ وَالْإِضَاءَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَنَافِعِ، ثُمَّ مِنْ لُطْفِ اللهِ تَعَالَى أَنْ أَوْدَعَهَا فِي الْأَحْجَارِ وَخَالِصِ الْحَدِيدِ، بِحَيْثُ يَتَمَكَّنُ

الْمُسَافِرُ مِنْ حَمْلِ ذَلِكَ فِي مَتَاعِهِ وَبَيْنَ ثِيَابِهِ ، فَإِذَا احْتَاجَ إِلَى ذَلِكَ فِي مَنْزِلِهِ أَخْرَجَ زَنْدَهُ وَأَوْرَى وَأَوْقَدَ نَارَهُ ، فَأَطْبَخَ بِهَا وَاصْطَلَى ، وَاشْتَوَى وَاسْتَأْنَسَ بِهَا ، وَانْتَفَعَ بِهَا سَائِرَ الِانْتِفَاعَاتِ ، فَلِهَذَا أَفْرَدَ الْمُسَافِرُونَ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عَامًّا فِي حَقِّ النَّاسِ كُلِّهِمْ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أَيْ : الَّذِي بِقُدْرَتِهِ خَلَقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الْمُخْتَلِفَةَ الْمُتَضَادَّةَ : الْمَاءَ الزُّلَالَ الْعَذْبَ الْبَارِدَ ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ مِلْحًا أُجَاجًا كَالْبِحَارِ الْمُغْرِقَةِ ، وَخَلَقَ النَّارَ الْمُحْرِقَةَ ، وَجَعَلَ ذَلِكَ مَصْلَحَةً لِلْعِبَادِ ، وَجَعَلَ هَذِهِ مَنْفَعَةً لَهُمْ فِي مَعَاشِ دُنْيَاهُمْ ، وَزَجْرًا لَهُمْ فِي الْمَعَادِ .

۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾

الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّهُ قَسَمٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى يُقْسِمُ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى عَظَمَتِهِ ، **ثُمَّ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ** : « لَا » هَهُنَا زَائِدَةٌ ، وَتَقْدِيرُهُ : أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وَيَكُونُ جَوَابُهُ ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : لَيْسَتْ « لَا » زَائِدَةً لَا مَعْنَى لَهَا ، بَلْ يُؤْتَى بِهَا فِي أَوَّلِ الْقَسَمِ إِذَا كَانَ مُقْسَمًا بِهِ عَلَى مَنْفِيٍّ ، **كَقَوْلِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا** -: « لَا وَاللهِ مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ » ، **وَهَكَذَا هَهُنَا تَقْدِيرُ الْكَلَامِ** : لَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ سِحْرٌ أَوْ كِهَانَةٌ ، بَلْ هُوَ قُرْآنٌ كَرِيمٌ . **وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ** : ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ **فَقِيلَ** : يَعْنِي : نُجُومُ الْقُرْآنِ ، فَإِنَّهُ نَزَلَ جُمْلَةً لَيْلَةَ الْقَدْرِ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ نَزَلَ مُفَرَّقًا فِي السِّنِينَ بَعْدُ ، **وَقِيلَ** : مَوَاقِعُ النُّجُومِ : فِي السَّمَاءِ ، **وَيُقَالُ** : مَطَالِعُهَا وَمَشَارِقُهَا ، **وَعَنْ قَتَادَةَ** : مَوَاقِعُهَا : مَنَازِلُهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : وَإِنَّ هَذَا الْقَسَمَ الَّذِي أَقْسَمْتُ بِهِ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ ، لَوْ تَعْلَمُونَ عَظَمَتَهُ لَعَظَّمْتُمُ الْمُقْسَمَ بِهِ عَلَيْهِ ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ أَيْ : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ لَكِتَابٌ عَظِيمٌ ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ أَيْ : مُعَظَّمٍ ، فِي كِتَابٍ مُعَظَّمٍ مَحْفُوظٍ مُوَقَّرٍ ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ يَعْنِي : الْمَلَائِكَةَ ، **وَقِيلَ** : ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْجَنَابَةِ وَالْحَدَثِ . قَالُوا : وَلَفْظُ الْآيَةِ خَبَرٌ وَمَعْنَاهَا الطَّلَبُ ، قَالُوا : وَالْمُرَادُ بِالْقُرْآنِ : هَهُنَا الْمُصْحَفُ . ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : هَذَا الْقُرْآنُ مُنَزَّلٌ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَلَيْسَ هُوَ كَمَا يَقُولُونَ : إِنَّهُ سِحْرٌ أَوْ كِهَانَةٌ أَوْ شِعْرٌ ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ ، وَلَيْسَ وَرَاءَهُ حَقٌّ نَافِعٌ .
﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : أَيْ : مُكَذِّبُونَ غَيْرُ مُصَدِّقِينَ ، **وَقَالَ غَيْرُهُمْ** :

﴿ مُدْهِنُونَ ﴾ أَيْ : تُرِيدُونَ أَنْ تُمَالِئُوهُمْ فِيهِ وَتَرْكَنُوا إِلَيْهِمْ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : يَعْنِي : وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ بِمَعْنَى شُكْرَكُمْ ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أَيْ : تُكَذِّبُونَ بَدَلَ الشُّكْرِ .

فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ أَيْ : الرُّوحُ ﴿ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ أَيْ : الْحَلْقَ ، وَذَلِكَ حِينَ الِاحْتِضَارِ ، **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا** : ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ أَيْ : إِلَى الْمُحْتَضَرِ وَمَا يُكَابِدُهُ مِنْ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ أَيْ : بِمَلَائِكَتِنَا ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ أَيْ : وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ **مَعْنَاهُ** : فَهَلَّا تُرْجِعُونَ هَذِهِ النَّفْسَ الَّتِي قَدْ بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ إِلَى مَكَانِهَا الْأَوَّلِ ، وَمَقَرِّهَا مِنَ الْجَسَدِ إِنْ كُنْتُمْ ﴿ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : يَعْنِي : مُحَاسَبِينَ ، **وَقِيلَ** : ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ غَيْرَ مُصَدِّقِينَ ، أَنَّكُمْ تُدَانُونَ وَتُبْعَثُونَ وَتُجْزَوْنَ فَرُدُّوا هَذِهِ النَّفْسَ .

فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

هَذِهِ الْأَحْوَالُ الثَّلَاثَةُ هِيَ أَحْوَالُ النَّاسِ عِنْدَ احْتِضَارِهِمْ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، أَوْ يَكُونَ مِمَّنْ دُونَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ ، الضَّالِّينَ عَنِ الْهُدَى ، الْجَاهِلِينَ بِأَمْرِ اللهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ ﴾ أَيْ : الْمُحْتَضَرُ ﴿ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ وَهُمُ الَّذِينَ فَعَلُوا الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ ، وَتَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ وَبَعْضَ الْمُبَاحَاتِ ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ أَيْ : فَلَهُمْ رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ، وَتُبَشِّرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الْمَوْتِ ، كَمَا فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ أَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَةِ تَقُولُ : « **أَيَّتُهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ اُخْرُجِي إِلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ** ». ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ رَاحَةٌ ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ مُسْتَرَاحَةٌ ، **وَقِيلَ** : الرَّوْحُ : الْفَرَحُ ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ جَنَّةٌ وَرَخَاءٌ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ صَحِيحَةٌ ، فَإِنَّ مَنْ مَاتَ مُقَرَّبًا حَصَلَ لَهُ جَمِيعُ ذَلِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالرَّاحَةِ وَالِاسْتِرَاحَةِ وَالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ وَالرِّزْقِ الْحَسَنِ ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أَيْ : وَأَمَّا إِنْ

كَانَ الْمُحْتَضَرُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أَيْ : تُبَشِّرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِذَلِكَ ، تَقُولُ لِأَحَدِهِمْ : سَلَامٌ لَكَ ، أَيْ : لَا بَأْسَ عَلَيْكَ أَنْتَ إِلَى سَلَامَةٍ ، أَنْتَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَقَالَ **قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ** : سَلِمَ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَسَلَّمَتْ عَلَيْهِ مَلَائِكَةُ اللهِ ، كَمَا قَالَ **عِكْرِمَةُ** : تُسَلِّمُ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ وَتُخْبِرُهُ أَنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَهَذَا مَعْنًى حَسَنٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أَيْ : وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمُحْتَضِرُ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ الضَّالِّينَ عَنِ الْهُدَى ﴿ فَنُزُلٌ ﴾ أَيْ : فَضِيَافَةٌ ﴿ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ وَهُوَ الْمُذَابُ الَّذِي يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُود ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أَيْ : وَتَقْرِيرٌ لَهُ فِي النَّارِ الَّتِي تَغْمُرُهُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ أَيْ : إِنَّ هَذَا الْخَبَرَ لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ ، وَلَا مَحِيدَ لِأَحَدٍ عَنْهُ ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

عَنْ **عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ** قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ قَالَ : ((**اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ**)) وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ : سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**)) .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٢٩ تفسير سورة الحديد مدنية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتِ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : الَّذِي قَدْ خَضَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَشَرْعِهِ . ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ فَيُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَيُعْطِي مَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَيْ : مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ . ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾

وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الْمُشَارُ إِلَيْهَا فِي حَدِيثِ عِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ ، أَنَّهَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ .

عَنْ أَبِي زُمَيْلٍ قَالَ : سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ ، فَقُلْتُ : مَا شَيْءٌ أَجِدُهُ فِي صَدْرِي ؟ قَالَ : مَا هُوَ ؟ قُلْتُ : وَاللهِ لَا أَتَكَلَّمُ بِهِ . قَالَ : فَقَالَ لِي : أَشَيْءٌ مِنْ شَكٍّ ؟ قَالَ : وَضَحِكَ ، قَالَ : مَا نَجَا مِنْ ذَلِكَ أَحَدٌ ، قَالَ : حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾[يونس : ٩٤] . قَالَ : وَقَالَ لِي : إِذَا وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا فَقُلْ : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قَالَ الْبُخَارِيُّ : قَالَ يَحْيَى : الظَّاهِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ، وَالْبَاطِنُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا . فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو عِنْدَ النَّوْمِ : « **اللَّهُمَّ ؛ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، مُنَزِّلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ ، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ لَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ** » .

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ أَخْبَرَ بِاسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ بَعْدَ خَلْقِهِنَّ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ وَأَشْبَاهِهَا فِي « سُورَةِ الْأَعْرَافِ » بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَاهُنَا . ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ عَدَدَ مَا يَدْخُلُ فِيهَا مِنْ حَبٍّ وَقَطْرٍ ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ مِنْ نَبَاتٍ وَزَرْعٍ وَثِمَارٍ . ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَمْطَارِ وَالثُّلُوجِ وَالْبَرَدِ ، وَالْأَقْدَارِ وَالْأَحْكَامِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ . ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَعْمَالِ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ : « **يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أَيْ : رَقِيبٌ عَلَيْكُمْ ، شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِكُمْ حَيْثُ كُنْتُمْ ، وَأَيْنَمَا كُنْتُمْ ، مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ ، فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، فِي الْبُيُوتِ أَوْ فِي الْقِفَارِ ، الْجَمِيعُ فِي عِلْمِهِ عَلَى السَّوَاءِ ، وَتَحْتَ بَصَرِهِ وَسَمْعِهِ ، فَيَسْمَعُ كَلَامَكُمْ وَيَرَى مَكَانَكُمْ ، وَيَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَنَجْوَاكُمْ . فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ . ﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمَالِكُ

لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾ [الليل : ١٣] وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أَيْ : إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَحْكُمُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ وَلَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، بَلْ إِنْ يَكُنْ عَمِلَ أَحَدُهُمْ حَسَنَةً وَاحِدَةً يُضَاعِفُهَا إِلَى عَشْرِ أَمْثَالِهَا ﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْخَلْقِ ، يُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَيُقَدِّرُهُمَا بِحِكْمَتِهِ كَمَا يَشَاءُ ، فَتَارَةً يُطَوِّلُ اللَّيْلَ وَيُقَصِّرُ النَّهَارَ ، وَتَارَةً بِالْعَكْسِ ، وَتَارَةً يَتْرُكُهُمَا مُعْتَدِلَيْنِ . وَتَارَةً يَكُونُ الْفَصْلُ شِتَاءً ثُمَّ رَبِيعًا ثُمَّ قَيْظًا ثُمَّ خَرِيفًا ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِحِكْمَتِهِ وَتَقْدِيرِهِ لِمَا يُرِيدُهُ بِخَلْقِهِ ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ السَّرَائِرَ ، وَإِنْ دَقَّتْ وَخَفِيَتْ .

ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ ، وَالدَّوَامِ وَالثَّبَاتِ عَلَى ذَلِكَ ، وَالِاسْتِمْرَارِ وَحَثَّ عَلَى الْإِنْفَاقِ ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ أَيْ : مِمَّا هُوَ مَعَكُمْ عَلَى سَبِيلِ الْعَارِيَةِ ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ فِي أَيْدِي مَنْ قَبْلَكُمْ ثُمَّ صَارَ إِلَيْكُمْ ، فَأَرْشَدَ تَعَالَى إِلَى اسْتِعْمَالِ مَا اسْتَخْلَفَهُمْ فِيهِ مِنَ الْمَالِ فِي طَاعَتِهِ ، فَإِنْ يَفْعَلُوا وَإِلَّا حَاسَبَهُمْ عَلَيْهِ وَعَاقَبَهُمْ لِتَرْكِهِمُ الْوَاجِبَاتِ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ سَيَكُونُ مُخَلَّفًا عَنْكَ ، فَلَعَلَّ وَارِثَكَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فِيهِ ، فَيَكُونُ أَسْعَدَ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْكَ ، أَوْ يَعْصِي اللهَ بِهِ فَتَكُونُ قَدْ سَعَيْتَ فِي مُعَاوَنَتِهِ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ . ﴿ فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ تَرْغِيبٌ فِي الْإِيمَانِ وَالْإِنْفَاقِ فِي الطَّاعَةِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ ﴾ أَيْ : وَأَيُّ شَيْءٍ يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَالرَّسُولُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ، يَدْعُوكُمْ إِلَى ذَلِكَ ، وَيُبَيِّنُ لَكُمُ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ ؟ . ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [المائدة : ٧] ، وَيَعْنِي بِذَلِكَ : بَيْعَةَ الرَّسُولِ ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ أَيْ : حُجَجًا وَاضِحَاتٍ وَدَلَائِلَ بَاهِرَاتٍ - وَبَرَاهِينَ قَاطِعَاتٍ ﴿ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أَيْ : مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالْكُفْرِ وَالْآرَاءِ الْمُتَضَادَّةِ إِلَى نُورِ الْهُدَى وَالْيَقِينِ ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : فِي إِنْزَالِهِ الْكُتُبَ وَإِرْسَالِهِ الرُّسُلَ لِهِدَايَةِ النَّاسِ ، وَإِزَاحَةِ الْعِلَلِ وَإِزَالَةِ الشُّبَهِ ، وَلَمَّا أَمَرَهُمْ أَوَّلًا بِالْإِيمَانِ وَالْإِنْفَاقِ ، ثُمَّ حَثَّهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ قَدْ أَزَالَ عَنْهُمْ مَوَانِعَهُ حَثَّهُمْ أَيْضًا عَلَى الْإِنْفَاقِ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : أَنْفِقُوا وَلَا تَخْشَوْا فَقْرًا وَإِقْلَالًا ، فَإِنَّ الَّذِي أَنْفَقْتُمْ فِي سَبِيلِهِ هُوَ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَبِيَدِهِ مَقَالِيدُهُمَا ، وَعِنْدَهُ خَزَائِنُهُمَا وَهُوَ مَالِكُ الْعَرْشِ بِمَا حَوَى ، وَهُوَ الْقَائِلُ : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ : ٣٩] ، وَقَالَ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦] فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللهِ أَنْفَقَ ، وَلَمْ يَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا ، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ سَيُخْلِفُهُ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ﴾ أَيْ : لَا يَسْتَوِي هَذَا وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ كَفِعْلِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ كَانَ الْحَالُ شَدِيدًا ، فَلَمْ يَكُنْ يُؤْمِنُ حِينَئِذٍ إِلَّا الصِّدِّيقُونَ ، وَأَمَّا بَعْدَ الْفَتْحِ فَإِنَّهُ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ ظُهُورًا عَظِيمًا ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَتْحِ هَهُنَا : فَتْحُ مَكَّةَ . وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْمُرَادُ بِالْفَتْحِ هَهُنَا : صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ يَعْنِي الْمُنْفِقِينَ قَبْلَ الْفَتْحِ وَبَعْدَهُ ، كُلُّهُمْ لَهُمْ ثَوَابٌ عَلَى مَا عَمِلُوا ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمْ تَفَاوُتٌ فِي تَفَاضُلِ الْجَزَاءِ ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أَيْ : فَلِخِبْرَتِهِ فَاوَتَ بَيْنَ ثَوَابِ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِعِلْمِهِ بِقَصْدِ الْأَوَّلِ وَإِخْلَاصِهِ التَّامِّ ، وَإِنْفَاقِهِ فِي حَالِ الْجَهْدِ وَالْقِلَّةِ وَالضِّيقِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ قِيلَ : هُوَ الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللهِ . فَكُلُّ مَنْ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ ، وَعَزِيمَةٍ صَادِقَةٍ ، دَخَلَ فِي عُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، ﴿ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أَيْ : جَزَاءٌ جَمِيلٌ ، وَرِزْقٌ بَاهِرٌ - وَهُوَ الْجَنَّةُ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ . عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ الْأَنْصَارِيُّ : يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنَّ اللهَ لَيُرِيدُ مِنَّا

الْقَرْضِ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ** » قَالَ : أَرِنِي يَدَكَ يَا رَسُولَ الله . قَالَ : فَنَاوَلَهُ يَدَهُ ، قَالَ : فَإِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطِي ، وَلَهُ حَائِطٌ فِيهِ سِتُّمِائَةِ نَخْلَةٍ ، وَأُمُّ الدَّحْدَاحِ فِيهِ وَعِيَالُهَا . قَالَ : فَجَاءَ أَبُو الدَّحْدَاحِ ، فَنَادَاهَا : يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ . قَالَتْ : لَبَّيْكَ . قَالَ : اُخْرُجِي فَقَدْ أَقْرَضْتُهُ رَبِّي ﷻ . وَفِي رِوَايَةٍ : أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ : رَبِحَ بَيْعُكَ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ ، وَنَقَلَتْ مِنْهُ مَتَاعَهَا وَصِبْيَانَهَا ، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **كَمْ مِنْ عِذْقٍ رَدَاحٍ فِي الجَنَّةِ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ** » ، وَفِي لَفْظٍ « **رُبَّ نَخْلَةٍ مُدَلَّاةٍ عُرُوقُهَا دُرٌّ وَيَاقُوتٌ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الجَنَّةِ** » .

يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَصَدِّقِينَ إِنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ ، كَمَا قَالَ عَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ قَالَ : عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ يَمُرُّونَ عَلَى الصِّرَاطِ ، مِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ الْجَبَلِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ النَّخْلَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ الرَّجُلِ الْقَائِمِ ، وَأَدْنَاهُمْ نُورًا مَنْ نُورُهُ فِي إِبْهَامِهِ يَتَّقِدُ مَرَّةً وَيُطْفَأُ مَرَّةً . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ **قِيلَ** : أَيْ : وَبِأَيْمَانِهِمْ كُتُبُهُمْ . ﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أَيْ : يُقَال لَهُمْ : بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ . أَيْ : لَكُمُ الْبِشَارَةُ بِجَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنْهُ تَعَالَى عَمَّا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعَرَصَاتِ مِنَ الْأَهْوَالِ الْمُزْعِجَةِ ، وَالزَّلَازِلِ الْعَظِيمَةِ ، وَالْأُمُورِ الْفَظِيعَةِ ، وَإِنَّهُ لَا يَنْجُو يَوْمَئِذٍ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِالله وَرَسُولِهِ ، وَعَمِلَ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ ، وَتَرَكَ مَا عَنْهُ زُجِرَ . ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ ﴾ هُوَ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ ، ﴿ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ ﴾ أَيْ : الْجَنَّةُ وَمَا فِيهَا ﴿ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ أَيْ : النَّارُ ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ أَيْ : يُنَادِي الْمُنَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ : أَمَا كُنَّا مَعَكُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، نَشْهَدُ مَعَكُمُ الْجُمُعَاتِ ، وَنُصَلِّي مَعَكُمُ

الْجَمَاعَاتِ، وَنَقِفُ مَعَكُمْ بِعَرَفَاتٍ، وَنَحْضُرُ مَعَكُمُ الْغَزَوَاتِ، وَنُؤَدِّي مَعَكُمْ سَائِرَ الْوَاجِبَاتِ؟ ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أَيْ: فَأَجَابَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُنَافِقِينَ قَائِلِينَ: ﴿ بَلَىٰ ﴾ قَدْ كُنْتُمْ مَعَنَا ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ أَيْ: فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاللَّذَّاتِ وَالْمَعَاصِي وَالشَّهَوَاتِ ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ أَيْ: أَخَّرْتُمُ التَّوْبَةَ مِنْ وَقْتٍ إِلَى وَقْتٍ. **وَقَالَ قَتَادَةُ**: ﴿ تَرَبَّصْتُمْ ﴾ بِالْحَقِّ وَأَهْلِهِ ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أَيْ: بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ أَيْ: قُلْتُمْ: سَيُغْفَرُ لَنَا، **وَقِيلَ**: غَرَّتْكُمُ الدُّنْيَا ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أَيْ: مَا زِلْتُمْ فِي هَذَا حَتَّى جَاءَكُمُ الْمَوْتُ ﴿ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ أَيْ: الشَّيْطَانُ. **قَالَ قَتَادَةُ**: كَانُوا عَلَى خُدْعَةٍ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَاللهِ مَا زَالُوا عَلَيْهَا حَتَّى قَذَفَهُمُ اللهُ فِي النَّارِ. **وَمَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُنَافِقِينَ**: إِنَّكُمْ كُنْتُمْ مَعَنَا، أَيْ: بِأَبْدَانٍ لَا نِيَّةَ لَهَا وَلَا قُلُوبَ مَعَهَا، وَإِنَّمَا كُنْتُمْ فِي حِيرَةٍ وَشَكٍّ فَكُنْتُمْ تُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا تَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَيْ: لَوْ جَاءَ أَحَدُكُمُ الْيَوْمَ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدِيَ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ مَا قُبِلَ مِنْهُ ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أَيْ: هِيَ مَصِيرُكُمْ، وَإِلَيْهَا مُنْقَلَبُكُمْ ﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أَيْ: هِيَ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ كُلِّ مَنْزِلٍ عَلَى كُفْرِكُمْ وَارْتِيَابِكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمَا آنَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أَيْ: تَلِينَ عِنْدَ الذِّكْرِ وَالْمَوْعِظَةِ وَسَمَاعِ الْقُرْآنِ، فَتَفْهَمَهُ وَتَنْقَادَ لَهُ وَتَسْمَعَ لَهُ وَتُطِيعَهُ. **عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ** رضي الله عنه **قَالَ**: مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ نَهَى اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِالَّذِينَ حُمِّلُوا الْكِتَابَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، لَمَّا تَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ بَدَّلُوا كِتَابَ اللهِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ، وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، وَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَأَقْبَلُوا عَلَى الْآرَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْأَقْوَالِ الْمُؤْتَفِكَةِ، وَقَلَّدُوا الرِّجَالَ فِي دِينِ اللهِ، وَاتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ، فَلَا يَقْبَلُونَ مَوْعِظَةً، وَلَا تَلِينُ قُلُوبُهُمْ بِوَعْدٍ وَلَا وَعِيدٍ ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أَيْ: فِي الْأَعْمَالِ، فَقُلُوبُهُمْ فَاسِدَةٌ، وَأَعْمَالُهُمْ بَاطِلَةٌ، وَلِهَذَا نَهَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ الْأَصْلِيَّةِ وَالْفَرْعِيَّةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فِيهِ إِشَارَةٌ

إِلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُلِينُ الْقُلُوبَ بَعْدَ قَسْوَتِهَا ، وَيَهْدِي الْحَيَارَى بَعْدَ ضَلَّتِهَا ، وَيُفَرِّجُ الْكُرُوبَ بَعْدَ شِدَّتِهَا ، فَكَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ الْمُجْدِبَةَ الْهَامِدَةَ بِالْغَيْثِ الْهَتَّانِ ، كَذَلِكَ يَهْدِي الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ بِبَرَاهِينِ الْقُرْآنِ وَالدَّلَائِلِ ، وَيُولِجُ إِلَيْهَا النُّورَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُقْفَلَةً لَا يَصِلُ إِلَيْهَا الْوَاصِلُ ، فَسُبْحَانَ الْهَادِي لِمَنْ يَشَاءُ بَعْدَ الْإِضْلَالِ ، وَالْمُضِلُّ لِمَنْ أَرَادَ بَعْدَ الْكَمَالِ ، الَّذِي هُوَ لِمَا يَشَاءُ فَعَّالٌ ، وَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ فِي جَمِيعِ الْفِعَالِ ، اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالُ .

إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يُثِيبُ بِهِ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ بِأَمْوَالِهِمْ عَلَى أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْفَقْرِ وَالْمَسْكَنَةِ ﴿ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أَيْ : دَفَعُوهُ بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ اِبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ ، لَا يُرِيدُونَ جَزَاءً مِمَّنْ أَعْطَوْهُ وَلَا شُكُورًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمْ ﴾ أَيْ : يُقَابِلُ لَهُمُ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، وَيُزَادُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أَيْ : ثَوَابٌ جَزِيلٌ حَسَنٌ ، وَمَرْجِعٌ صَالِحٌ وَمَآبٌ ﴿ كَرِيمٌ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ هَذَا تَمَامُ الْجُمْلَةِ وَصْفُ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ بِأَنَّهُمْ صِدِّيقُونَ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ هَذِهِ مَفْصُولَةٌ ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ : « **إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ اطِّلَاعَةً فَقَالَ : مَاذَا تُرِيدُونَ ؟ فَقَالُوا : نُحِبُّ أَنْ تَرُدَّنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا فَنُقَاتِلُ فِيكَ فَنُقْتَلُ كَمَا قُتِلْنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَقَالَ : إِنِّي قَدْ قَضَيْتُ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ أَيْ : لَهُمْ عِنْدَ اللهِ أَجْرٌ جَزِيلٌ وَنُورٌ عَظِيمٌ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَتَفَاوَتُونَ بِحَسْبِ مَا كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَعْمَالِ . ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ لَمَّا ذَكَرَ السُّعَدَاءَ وَمَآلَهُمْ عَطَفَ بِذِكْرِ الْأَشْقِيَاءِ وَبَيَّنَ حَالَهُمْ .

ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُوَهِّنًا أَمْرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمُحَقِّرًا لَهَا ﴿ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا حَاصِلُ أَمْرِهَا عِنْدَ أَهْلِهَا هَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[آل عمران : ١٤] ثُمَّ ضَرَبَ تَعَالَى مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي أَنَّهَا زَهْرَةٌ فَانِيَةٌ وَنِعْمَةٌ زَائِلَةٌ فَقَالَ : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ وَهُوَ الْمَطَرُ الَّذِي يَأْتِي بَعْدَ قُنُوطِ النَّاسِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ أَيْ : يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ نَبَاتُ ذَلِكَ الزَّرْعِ الَّذِي نَبَتَ بِالْغَيْثِ ، وَكَمَا يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ذَلِكَ كَذَلِكَ تُعْجِبُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا الْكُفَّارَ ، فَإِنَّهُمْ أَحْرَصُ شَيْءٍ عَلَيْهَا وَأَمْيَلُ النَّاسِ إِلَيْهَا ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ أَيْ : يَهِيجُ ذَلِكَ الزَّرْعُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا بَعْدَ مَا كَانَ خَضِرًا نَضِرًا ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ حُطَامًا ، أَيْ : يَصِيرُ يَبِسًا مُتَحَطِّمًا ، هَكَذَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا تَكُونُ أَوَّلًا شَابَّةً ، ثُمَّ تُكْتَهِلُ ، ثُمَّ تَكُونُ عَجُوزًا شَوْهَاءَ ، وَالْإِنْسَانُ يَكُونُ كَذَلِكَ فِي أَوَّلِ عُمْرِهِ وَعُنْفُوَانِ شَبَابِهِ ، غَضًّا طَرِيًّا لَيِّنَ الْأَعْطَافِ بَهِيَّ الْمَنْظَرِ ، ثُمَّ إِنَّهُ يَشْرَعُ فِي الْكُهُولَةِ ، فَتَتَغَيَّرُ طِبَاعُهُ وَيَفْقِدُ بَعْضَ قُوَاهُ ، ثُمَّ يَكْبُرُ فَيَصِيرُ شَيْخًا كَبِيرًا ، ضَعِيفُ الْقُوَى ، قَلِيلُ الْحَرَكَةِ ، يُعْجِزُهُ الشَّيْءُ الْيَسِيرُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾[الروم : ٥٤]

وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْمَثَلُ دَالًّا عَلَى زَوَالِ الدُّنْيَا وَانْقِضَائِهَا وَفَرَاغِهَا لَا مَحَالَةَ ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ كَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ ، حَذَّرَ مِنْ أَمْرِهَا وَرَغَّبَ فِيمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ ، فَقَالَ : ﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ﴾ أَيْ : وَلَيْسَ فِي الْآخِرَةِ الْآتِيَةِ الْقَرِيبَةِ إِلَّا إِمَّا هَذَا وَإِمَّا هَذَا : إِمَّا عَذَابٌ شَدِيدٌ وَإِمَّا مَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ أَيْ : هِيَ مَتَاعٌ فَانٍ غَارٌّ لِمَنْ رَكَنَ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ يَغْتَرُّ بِهَا وَتُعْجِبُهُ ، حَتَّى يَعْتَقِدَ أَنْ لَا دَارَ سِوَاهَا وَلَا مَعَادَ وَرَاءَهَا ، وَهِيَ حَقِيرَةٌ قَلِيلَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وَالْمُرَادُ جِنْسُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي أَهَّلَهُمُ اللهُ لَهُ هُوَ مِنْ فَضْلِهِ وَمَنِّهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ

وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ . قَالَ : « **وَمَا ذَاكَ ؟** » قَالُوا : يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نَعْتِقُ . قَالَ : « **أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ سَبَقْتُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ ؟ : تُسَبِّحُونَ ، وَتُكَبِّرُونَ ، وَتَحْمَدُونَ ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثَةً وَثَلَاثِينَ** » قَالَ : فَرَجَعُوا فَقَالُوا : سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ مَا فَعَلْنَا ، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ** » .

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَدَرِهِ السَّابِقِ فِي خَلْقِهِ قَبْلَ أَنْ يَبْرَأَ الْبَرِيَّةَ فَقَالَ : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أَيْ : فِي الْآفَاقِ وَفِي نُفُوسِكُمْ ﴿ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِ أَنْ نَخْلُقَ الْخَلِيقَةَ وَنَبْرَأَ النَّسَمَةَ ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ هِيَ السُّنُونَ ، يَعْنِي : الْجَدْبَ ﴿ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ يَقُولُ : الْأَوْجَاعُ وَالْأَمْرَاضُ ، قَالَ : وَبَلَغَنَا أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُصِيبُهُ خَدْشُ عُودٍ ، وَلَا نَكْبَةُ قَدَمٍ ، وَلَا خَلَجَانُ عِرْقٍ إِلَّا بِذَنْبٍ وَمَا يَعْفُو اللهُ عَنْهُ أَكْثَرُ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أَيْ : أَنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا ، وَكِتَابَتَهُ لَهَا طِبْقَ مَا يُوجَدُ فِي حِينِهَا ، سَهْلٌ عَلَى اللهِ ﷻ ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أَيْ : أَعْلَمْنَاكُمْ بِتَقَدُّمِ عِلْمِنَا وَسَبْقِ كِتَابَتِنَا لِلْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا ، وَتَقْدِيرِنَا الْكَائِنَاتِ قَبْلَ وُجُودِهَا ؛ لِتَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَصَابَكُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكُمْ وَمَا أَخْطَأَكُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكُمْ ، فَلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قُدِّرَ شَيْءٌ لَكَانَ ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أَيْ : جَاءَكُمْ ، وَيُقْرَأُ « آتَاكُمْ » أَيْ : أَعْطَاكُمْ وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ ، أَيْ : لَا تَفْخَرُوا عَلَى النَّاسِ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِسَعْيِكُمْ وَلَا كَدِّكُمْ ، وَإِنَّمَا هُوَ عَنْ قَدَرِ اللهِ وَرِزْقِهِ لَكُمْ ، فَلَا تَتَّخِذُوا نِعَمَ اللهِ أَشَرًا وَبَطَرًا تَفْخَرُونَ بِهَا عَلَى النَّاسِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أَيْ : مُخْتَالٌ فِي نَفْسِهِ مُتَكَبِّرٌ ﴿ فَخُورٍ ﴾ أَيْ : عَلَى غَيْرِهِ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ أَيْ : يَفْعَلُونَ الْمُنْكَرَ وَيَحُضُّونَ النَّاسَ عَلَيْهِ ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أَيْ : عَنْ أَمْرِ اللهِ وَطَاعَتِهِ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ

وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أَيْ : بِالْمُعْجِزَاتِ وَالْحُجَجِ الْبَاهِرَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وَهُوَ النَّقْلُ الصِّدْقُ ﴿ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ وَهُوَ الْعَدْلُ ، وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي تَشْهَدُ بِهِ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ الْمُخَالِفَةُ لِلْآرَاءِ السَّقِيمَةِ ﴿ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أَيْ : بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، وَهُوَ اتِّبَاعُ الرُّسُلِ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ ، وَطَاعَتُهُمْ فِيمَا أُمِرُوا بِهِ ، فَإِنَّ الَّذِي جَاءُوا بِهِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَيْسَ وَرَاءَهُ حَقٌّ . ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ أَيْ : وَجَعَلْنَا الْحَدِيدَ رَادِعًا لِمَنْ أَبَى الْحَقَّ وَعَانَدَهُ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، وَلِهَذَا أَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً تُوحَى إِلَيْهِ السُّوَرُ الْمَكِّيَّةُ ، وَكُلُّهَا جِدَالٌ مَعَ الْمُشْرِكِينَ وَبَيَانٌ وَإِيضَاحٌ لِلتَّوْحِيدِ ، وَبَيِّنَاتٌ وَدَلَالَاتٌ ، فَلَمَّا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَى مَنْ خَالَفَ ، شَرَعَ اللهُ الْهِجْرَةَ وَأَمَرَهُمْ بِالْقِتَالِ بِالسُّيُوفِ وَضَرْبِ الرِّقَابِ وَالْهَامِ لِمَنْ خَالَفَ الْقُرْآنَ وَكَذَّبَ بِهِ وَعَانَدَهُ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يَعْنِي : السِّلَاحُ كَالسُّيُوفِ وَالْحِرَابِ وَالسِّنَانِ وَالنِّصَالِ وَالدُّرُوعِ وَنَحْوِهَا ﴿ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أَيْ : فِي مَعَايِشِهِمْ ، كَالْآلَاتِ الَّتِي يُسْتَعَانُ بِهَا فِي الْحِرَاثَةِ وَالْحِيَاكَةِ وَالطَّبْخِ وَالْخَبْزِ ، وَمَا لَا قِوَامَ لِلنَّاسِ بِدُونِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أَيْ : مِنْ نِيَّتِهِ فِي حَمْلِ السِّلَاحِ نُصْرَةَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ أَيْ : هُوَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ، يَنْصُرُ مَنْ نَصَرَهُ مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ مِنْهُ إِلَى النَّاسِ ، وَإِنَّمَا شَرَعَ الْجِهَادَ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مُنْذُ بَعَثَ نُوحًا عليه السلام لَمْ يُرْسِلْ بَعْدَهُ رَسُولًا وَلَا نَبِيًّا إِلَّا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ، وَكَذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام خَلِيلُ الرَّحْمَنِ ، لَمْ يُنْزِلْ مِنَ السَّمَاءِ كِتَابًا وَلَا أَرْسَلَ رَسُولًا وَلَا أَوْحَى إِلَى بَشَرٍ مِنْ بَعْدِهِ إِلَّا وَهُوَ مِنْ سُلَالَتِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ حَتَّى كَانَ آخِرَ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الَّذِي بَشَّرَ مِنْ بَعْدِهِ بِمُحَمَّدٍ – صَلَوَاتُ اللهِ

وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا - وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيْهِ ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ ، وَهُمُ الْحَوَارِيُّونَ ﴿ رَأْفَةً ﴾ أَيْ : رِقَّةً ، وَهِيَ الْخَشْيَةُ ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ بِالْخَلْقِ ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ أَيْ : اِبْتَدَعَتْهَا أُمَّةُ النَّصَارَى ﴿ مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : مَا شَرَعْنَاهَا وَإِنَّمَا هُمُ الْتَزَمُوهَا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : **أَحَدُهُمَا** : أَنَّهُمْ قَصَدُوا بِذَلِكَ رِضْوَانَ الله ، **وَالْآخَرُ** : مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ذَلِكَ إِنَّمَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمُ اِبْتِغَاءَ رِضْوَانِ الله ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أَيْ : فَمَا قَامُوا بِمَا اِلْتَزَمُوهُ حَقَّ الْقِيَامِ ، وَهَذَا ذَمٌّ لَهُمْ مِنْ وَجْهَيْنِ : **أَحَدِهِمَا** : الْإِبْتِدَاعُ فِي دِينِ الله مَا لَمْ يَأْمُرْ بِهِ اللهُ ، **وَالثَّانِي** : فِي عَدَمِ قِيَامِهِمْ بِمَا اِلْتَزَمُوهُ مِمَّا زَعَمُوا أَنَّهَا قُرْبَةٌ تُقَرِّبُهُمْ إِلَى الله ﷻ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ الله وَحَقَّ مَوَالِيهِ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَرَجُلٌ أَدَّبَ أَمَتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا ، فَلَهُ أَجْرَانِ** ».

هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال : ٢٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اِسْتَعْمَلَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ ، عَلَى أَجْرٍ مَعْلُومٍ فَعَمِلُوا إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ ، فَقَالُوا : لَا حَاجَةَ لَنَا فِي أَجْرِكَ الَّذِي شَرَطْتَ لَنَا ، وَمَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ ، فَقَالَ لَهُمْ : لَا تَفْعَلُوا أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا ، فَأَبَوْا وَتَرَكُوا وَاسْتَأْجَرَ آخَرِينَ بَعْدَهُمْ ، فَقَالَ : أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمْ وَلَكُمُ الَّذِي شَرَطْتُ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينَ صَلُّوا الْعَصْرَ ، قَالُوا : مَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ وَلَكَ الْأَجْرُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فِيهِ ، فَقَالَ : أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ ، فَإِنَّ مَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ شَيْءٌ يَسِيرٌ فَأَبَوْا ، فَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ ، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ فَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا ، فَذَلِكَ مَثَلُهُمْ وَمَثَلُ مَا قَبِلُوا مِنْ هَذَا النُّورِ** » وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ

ألا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ : لِيَتَحَقَّقُوا أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى رَدِّ مَا أَعْطَاهُ اللهُ وَلَا إِعْطَاءِ مَا مَنَعَ الله ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الحَدِيدِ ، وَلله الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٢٢ تفسيرُ سُورَةِ المجادلة مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : الحَمْدُ لله الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتِ ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُكَلِّمُهُ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ أَصْلُ الظِّهَارِ مُشْتَقٌّ مِنَ الظَّهْرِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ كَانُوا إِذَا ظَاهَرَ أَحَدُهُمْ مِنِ امْرَأَتِهِ ، قَالَ لَهَا : أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي ، ثُمَّ فِي الشَّرْعِ كَانَ الظِّهَارُ فِي سَائِرِ الْأَعْضَاءِ قِيَاسًا عَلَى الظَّهْرِ ، وَكَانَ الظِّهَارُ عِنْدَ الْجَاهِلِيَّةِ طَلَاقًا ، فَأَرْخَصَ اللهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَجَعَلَ فِيهِ كَفَّارَةً وَلَمْ يَجْعَلْهُ طَلَاقًا ، كَمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ ، قَالَ سَعِيدُ ابْنُ جُبَيْرٍ : كَانَ الْإِيلَاءُ وَالظِّهَارُ مِنْ طَلَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَوَقَّتَ اللهُ الإِيلَاءَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، وَجَعَلَ فِي الظِّهَارِ الْكَفَّارَةَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ أَيْ : لَا تَصِيرُ الْمَرْأَةُ بِقَوْلِ الرَّجُلِ : أَنْتِ عَلَيَّ كَأُمِّي ، أَوْ مِثْلَ أُمِّي ، أَوْ كَظَهْرِ أُمِّي ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ لَا

تَصِيرُ أُمَّهُ بِذَلِكَ ، إِنَّمَا أُمَّهُ الَّتِي وَلَدَتْهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ أَيْ : كَلَامًا فَاحِشًا بَاطِلًا ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أَيْ : عَمَّا كَانَ مِنْكُمْ فِي حَالِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَهَكَذَا أَيْضًا عَمَّا خَرَجَ مِنْ سَبْقِ اللِّسَانِ وَلَمْ يَقْصِدْ إِلَيْهِ الْمُتَكَلِّمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ اِخْتَلَفَ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ فِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ قَالَ الشَّافِعِيُّ : هُوَ أَنْ يُمْسِكَهَا بَعْدَ الْمُظَاهَرَةِ زَمَانًا يُمْكِنُهُ أَنْ يُطَلِّقَ فِيهِ فَلَا يُطَلِّقُ ، وَقَالَ أَحْمَدُ : هُوَ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْجِمَاعِ أَوْ يَعْزِمَ عَلَيْهِ ، فَلَا لَهُ حَتَّى يُكَفِّرَ بِهَذِهِ الْكَفَّارَةِ ، وَقَدْ حُكِيَ عَنْ مَالِكٍ : أَنَّهُ الْعَزْمُ عَلَى الْجِمَاعِ وَالْإِمْسَاكِ ، وَعَنْهُ أَنَّهُ الْجِمَاعُ ، قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : هُوَ أَنْ يَعُودَ إِلَى الظِّهَارِ بَعْدَ تَحْرِيمِهِ ، وَرَفْعُ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَمَتَى تظَاهَرَ الرَّجُلُ مِنِ امْرَأَتِهِ فَقَدْ حَرَّمَهَا تَحْرِيمًا لَا يَرْفَعُهُ إِلَّا الْكَفَّارَةُ ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أَصْحَابُهُ وَاللَّيْثُ ابْنُ سَعْدٍ ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ : لَيْسَ لَهُ أَنْ يُقَبِّلَهَا وَلَا يَمَسَّهَا حَتَّى يُكَفِّرَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أَيْ : فَإِعْتَاقُ رَقَبَةٍ كَامِلَةٍ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴿ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ﴾ أَيْ : تَزْجُرُونَ بِهِ ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أَيْ : خَبِيرٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ ، عَلِيمٌ بِأَحْوَالِكُمْ . ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْأَحَادِيثُ الْآمِرَةُ بِهَذَا عَلَى التَّرْتِيبِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ فِي قِصَّةِ الَّذِي جَامَعَ امْرَأَتَهُ فِي رَمَضَانَ ﴿ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أَيْ : شَرَعْنَا هَذَا لِهَذَا ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مَحَارِمُهُ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا وَلَا الْتَزَمُوا بِأَحْكَامِ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنَ الْبَلَاءِ ، كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا ، بَلْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَعَانَدُوا شَرْعَهُ ﴿ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ : أُهِينُوا وَلُعِنُوا وَأُخْزُوا ، كَمَا فُعِلَ بِمَنْ أَشْبَهَهُمْ مِمَّنْ قَبْلَهُمْ ﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ أَيْ : وَاضِحَاتٍ لَا يُعَانِدُهَا وَلَا يُخَالِفُهَا إِلَّا كَافِرٌ فَاجِرٌ مُكَابِرٌ ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أَيْ : فِي مُقَابَلَةِ

مَا اِسْتَكْبَرُوا عَنِ اِتِّبَاعِ شَرْعِ اللهِ وَالِانْقِيَادِ لَهُ وَالْخُضُوعِ لَدَيْهِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ وَذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾ أَيْ : فَيُخْبِرُهُمْ بِالَّذِي صَنَعُوا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ أَيْ : ضَبَطَهُ اللهُ وَحَفِظَهُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ قَدْ نَسُوا مَا كَانُوا عَمِلُوا ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أَيْ : لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَخْفَى ، وَلَا يَنْسَى شَيْئًا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِخَلْقِهِ ، وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِمْ ، وَسَمَاعِهِ كَلَامَهُمْ ، وَرُؤْيَتِهِ مَكَانَهُمْ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ كَانُوا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ ﴾ أَيْ : مِنْ سِرِّ ثَلَاثَةٍ ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ﴾ أَيْ : يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ يَسْمَعُ كَلَامَهُمْ وَسِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ، وَرُسُلُهُ أَيْضًا مَعَ ذَلِكَ تَكْتُبُ مَا يَتَنَاجَوْنَ بِهِ ، مَعَ عِلْمِ اللهِ وَسَمْعِهِ لَهُمْ ، وَلِهَذَا حَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَعِيَّةُ عِلْمِهِ تَعَالَى ، وَلَا شَكَّ فِي إِرَادَةِ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ سَمْعُهُ أَيْضًا مَعَ عِلْمِهِ مُحِيطٌ بِهِمْ ، وَبَصَرُهُ نَافِذٌ فِيهِمْ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَى خَلْقِهِ ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : اِفْتَتَحَ الْآيَةَ بِالْعِلْمِ وَاخْتَتَمَهَا بِالْعِلْمِ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾ : هُمُ الْيَهُودُ . ﴿ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ ﴾ أَيْ : يَتَحَدَّثُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالْإِثْمِ وَهُوَ مَا يَخْتَصُّ بِهِمْ ﴿ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِغَيْرِهِمْ ، وَمِنْهُ مَعْصِيَةُ الرَّسُولِ وَمُخَالَفَتُهُ يُصِرُّونَ عَلَيْهَا وَيَتَوَاصَوْنَ بِهَا . ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَهُودٌ فَقَالُوا : السَّامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : وَعَلَيْكُمُ السَّامُ ، قَالَتْ : فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « يَا عَائِشَةُ ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ » قُلْتُ : أَلَا تَسْمَعُهُمْ يَقُولُونَ : السَّامُ عَلَيْكَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « أَوَمَا سَمِعْتِ أَقُولُ : وَعَلَيْكُمْ » ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ أَيْ : يَفْعَلُونَ هَذَا ، وَيَقُولُونَ مَا يُحَرِّفُونَ مِنَ الْكَلَامِ وَإِيهَامُ السَّلَامِ ، وَإِنَّمَا هُوَ شَتْمٌ فِي الْبَاطِنِ ، وَمَعَ هَذَا يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ : لَوْ كَانَ هَذَا نَبِيًّا لَعَذَّبَنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ لَهُ فِي الْبَاطِنِ ؛ لأَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا نُسِرُّهُ ، فَلَوْ كَانَ هَذَا نَبِيًّا حَقًّا لَأَوْشَكَ أَنْ يُعَاجِلَنَا اللهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ ﴾ أَيْ : جَهَنَّمُ كِفَايَتُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا النَّجْوَى : وَهِيَ الْمُسَارَّةُ حَيْثُ يَتَوَهَّمُ مِنْهَا مُؤْمِنٌ سُوءًا ﴿ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يَعْنِي : إِنَّمَا يَصْدُرُ هَذَا مِنَ الْمُتَنَاجِينَ عَنْ تَسْوِيلِ الشَّيْطَانِ وَتَزْيِينِهِ ﴿ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أَيْ : لِيَسُوءَهُمْ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَمَنْ أَحَسَّ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ شَيْءٌ بِإِذْنِ اللهِ ، وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِالنَّهْيِ عَنِ التَّنَاجِي حَيْثُ يَكُونُ فِي ذَلِكَ تَأَذٍّ عَلَى مُؤْمِنٍ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَيَنَّ اِثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ** » .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُؤَدِّبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَآمِرًا لَهُمْ أَنْ يُحْسِنَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي الْمَجَالِسِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ ﴾ وَقُرِئَ « فِي الْمَجْلِسِ » ﴿ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ . وَقَدْ وَرَدَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ فَيَجْلِسُ فِيهِ ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا** » . وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ أَيْ : اِنْهَضُوا لِلْقِتَالِ ، وَقِيلَ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ أَيْ : إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى خَيْرٍ فَأَجِيبُوا . ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ أَيْ : لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّهُ إِذَا فَسَحَ أَحَدٌ مِنْكُمْ لِأَخِيهِ إِذَا أَقْبَلَ ، أَوْ إِذَا أَمَرَ بِالْخُرُوجِ فَخَرَجَ ، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ نَقْصًا فِي حَقِّهِ ، بَلْ هُوَ رِفْعَةٌ وَمِزْيَةٌ عِنْدَ اللهِ ، وَاللهُ تَعَالَى لَا يُضَيِّعُ ذَلِكَ لَهُ ، بَلْ يَجْزِيهِ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَإِنَّ مَنْ تَوَاضَعَ لِأَمْرِ اللهِ رَفَعَ اللهُ قَدْرَهُ وَنَشَرَ ذِكْرَهُ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ أَيْ : خَبِيرٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ ، وَبِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يُنَاجِي رَسُولَ اللهِ ﷺ أَيْ: يُسَارَّهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، أَنْ يُقَدِّمَ بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُ وَتُزَكِّيهِ، وَتُؤَهِّلُهُ لأَنْ يَصْلُحَ لِهَذَا الْمَقَامِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾ أَيْ: إِلَّا مَنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ لِفَقْدِهِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فَمَا أَمَرَ بِهَا إِلَّا مَنْ قَدَرَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖ﴾ أَيْ: أَخِفْتُمْ مِنِ اسْتِمْرَارِ هَذَا الْحُكْمِ عَلَيْكُمْ مِنْ وُجُوبِ الصَّدَقَةِ قَبْلَ مُنَاجَاةِ الرَّسُولِ ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فَنَسَخَ وُجُوبَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ بِهَذِهِ الآيَةِ قَبْلَ نَسْخِهَا سِوَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه.

۞ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٥ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٦ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٧ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡۖ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٨ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٩﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُنَافِقِينَ فِي مُوَالاتِهِمُ الْكُفَّارَ فِي الْبَاطِنِ، وَهُمْ فِي نَفْسِ الأَمْرِ لَا مَعَهُمْ وَلَا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٣] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ يَعْنِي: الْيَهُودُ الَّذِينَ كَانَ الْمُنَافِقُونَ يُمَالِئُونَهُمْ وَيُوَالُونَهُمْ فِي الْبَاطِنِ ﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ أَيْ: هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ لَيْسُوا فِي الْحَقِيقَةِ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمْ وَهُمُ الْيَهُودُ.

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يَعْنِي : الْمُنَافِقِينَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ عَالِمُونَ بِأَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِيمَا حَلَفُوا ، وَهِيَ الْيَمِينُ الْغَمُوسُ ، وَلَا سِيَّمَا فِي مِثْلِ حَالِهِمُ اللَّعِينِ - عِيَاذًا بِاللهِ مِنْهُ - فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا : آمَنَّا ، وَإِذَا جَاءُوا الرَّسُولَ حَلَفُوا بِاللهِ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ فِيمَا حَلَفُوا بِهِ ؛ لأَنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ صِدْقَ مَا قَالُوهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مُطَابِقًا ، وَلِهَذَا شَهِدَ اللهُ بِكَذِبِهِمْ فِي أَيْمَانِهِمْ وَشَهَادَتِهِمْ لِذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : أَرْصَدَ اللهُ لَهُمْ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ عَلَى أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ ، وَهِيَ مُوَالَاةُ الْكَافِرِينَ وَنُصْحُهُمْ ، وَمُعَادَاةُ الْمُؤْمِنِينَ وَغِشُّهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ وَأَبْطَنُوا الْكُفْرَ وَاتَّقَوْا بِالْأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ فَظَنَّ كَثِيرٌ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ صِدْقَهُمْ فَاغْتَرَّ بِهِمْ فَحَصَلَ بِهَذَا صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لِبَعْضِ النَّاسِ ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أَيْ : فِي مُقَابَلَةِ مَا امْتَهَنُوا مِنَ الْحَلِفِ بِاسْمِ اللهِ الْعَظِيمِ فِي الْأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ الْحَانِثَةِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَنْ يَدْفَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ بَأْسًا إِذَا جَاءَهُمْ ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أَيْ : يَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ آخِرِهِمْ ، فَلَا يُغَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ أَيْ : يَحْلِفُونَ بِاللهِ ﷻ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى وَالِاسْتِقَامَةِ ، كَمَا كَانُوا يَحْلِفُونَ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا ؛ لِأَنَّ مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ وَبُعِثَ عَلَيْهِ ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللهِ كَمَا كَانَ يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ النَّاسِ ، فَيُجْرُونَ عَلَيْهِمُ الْأَحْكَامَ الظَّاهِرَةَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ أَيْ : حَلِفُهُمْ ذَلِكَ لِرَبِّهِمْ ﷻ . ثُمَّ قَالَ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ حُسْبَانَهُمْ ذَلِكَ : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾ فَأَكَّدَ الْخَبَرَ عَنْهُمْ بِالْكَذِبِ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي ظِلِّ حُجْرَةٍ مِنْ حُجَرِهِ ، وَعِنْدَهُ نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، قَدْ كَادَ يَقْلِصُ عَنْهُمُ الظِّلُّ ، قَالَ : « **إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إِنْسَانٌ يَنْظُرُ بِعَيْنَيْ شَيْطَانٍ ، فَإِذَا أَتَاكُمْ فَلَا تُكَلِّمُوهُ** » ، فَجَاءَ رَجُلٌ أَزْرَقُ ، فَدَعَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ فَقَالَ : « **عَلَامَ تَشْتُمُنِي أَنْتَ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ ؟** » نَفَرٌ دَعَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، قَالَ : فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ فَدَعَاهُمْ فَحَلَفُوا لَهُ وَاعْتَذَرُوا إِلَيْهِ ، قَالَ : فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : اسْتَحْوَذَ عَلَى قُلُوبِهِمُ الشَّيْطَانُ ، حَتَّى أَنْسَاهُمْ أَنْ يَذْكُرُوا اللهَ ﷻ ، وَكَذَلِكَ يَصْنَعُ بِمَنِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ ، لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ ، إِلَّا قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ،**

فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ » . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ اِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ الله ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ الْمُعَانِدِينَ الْمُحَادِّينَ لله وَرَسُولِهِ ، يَعْنِي : الَّذِينَ هُمْ فِي حَدٍّ وَالشَّرْعُ فِي حَدٍّ ، أَيْ : مُجَانِبُونَ لِلْحَقِّ مُشَاقُّونَ لَهُ ، هُمْ فِي نَاحِيَةٍ وَالْهُدَى فِي نَاحِيَةٍ ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ أَيْ : فِي الْأَشْقِيَاءِ الْمُبْعَدِينَ الْمَطْرُودِينَ عَنِ الصَّوَابِ الْأَذَلِّينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ أَيْ : قَدْ حَكَمَ وَكَتَبَ فِي كِتَابِهِ الْأَوَّلِ ، وَقَدَرِهِ الَّذِي لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ وَلَا يُبَدَّلُ ، بِأَنَّ النُّصْرَةَ لَهُ وَلِكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ وَعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ أَيْ : كَتَبَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ أَنَّهُ الْغَالِبُ لِأَعْدَائِهِ ، وَهَذَا قَدَرٌ مُحْكَمٌ وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ ، أَنَّ الْعَاقِبَةَ وَالنُّصْرَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ أَيْ : لَا يُوَادُّونَ الْمُحَادِّينَ وَلَوْ كَانُوا مِنَ الْأَقْرَبِينَ . ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أَيْ : مَنِ اِتَّصَفَ بِأَنَّهُ لَا يُوَادُّ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ ، فَهَذَا مِمَّنْ كَتَبَ اللهُ فِي قَلْبِهِ الْإِيمَانَ ، أَيْ : كَتَبَ لَهُ السَّعَادَةَ وَقَرَّرَهَا فِي قَلْبِهِ ، وَزَيَّنَ الْإِيمَانَ فِي بَصِيرَتِهِ ، قَالَ السُّدِّيُّ : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ ﴾ جَعَلَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ، وَقَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أَيْ : قَوَّاهُمْ . ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ كُلُّ هَذَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ . وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ سِرٌّ بَدِيعٌ وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا سَخِطُوا عَلَى الْقَرَائِبِ وَالْعَشَائِرِ فِي الله تَعَالَى عَوَّضَهُمُ اللهُ بِالرِّضَا عَنْهُمْ ، وَأَرْضَاهُمْ عَنْهُ بِمَا أَعْطَاهُمْ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ ، وَالْفَضْلِ الْعَمِيمِ . ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : هَـٰؤُلَاءِ حِزْبُ الله ، أَيْ : عِبَادُ الله وَأَهْلُ كَرَامَتِهِ ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ

ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ تَنْوِيهٌ بِفَلَاحِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فِي مُقَابَلَةِ مَا ذُكِرَ عَنْ أُولَئِكَ بِأَنَّهُمْ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ ، وَلله الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفْسِيرُ سُورَةِ الحَشْر

آياتها ٢٤ — مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ يُسَبِّحُ لَهُ ، وَيُمَجِّدُهُ وَيُقَدِّسُهُ وَيُصَلِّي لَهُ وَيُوَحِّدُهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : مَنِيعُ الْجَنَابِ ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي قَدَرِهِ وَشَرْعِهِ . ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يَعْنِي : يَهُودَ بَنِي النَّضِيرِ . كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ هَادَنَهُمْ وَأَعْطَاهُمْ عَهْدًا وَذِمَّةً ، عَلَى أَنْ لَا يُقَاتِلَهُمْ وَلَا يُقَاتِلُوهُ ، فَنَقَضُوا الْعَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ ، فَأَحَلَّ اللهُ بِهِمْ بَأْسَهُ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ قَضَاءَهُ الَّذِي لَا يُصَدُّ ، فَأَجْلَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ حُصُونِهِمُ الْحَصِينَةِ الَّتِي مَا طَمِعَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ ، وَظَنُّوا هُمْ أَنَّهَا مَانِعَتُهُمْ مِنْ بَأْسِ الله ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، وَجَاءَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُنْ بِبَالِهِمْ ، وَسَيَّرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَجْلَاهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ ، فَكَانَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ذَهَبُوا إِلَى أَذْرِعَاتٍ مِنْ أَعَالِي الشَّامِ - وَهِيَ أَرْضُ الْمَحْشَرِ وَالْمَنْشَرِ - وَمِنْهُمْ طَائِفَةٌ ذَهَبُوا إِلَى خَيْبَرَ ، وَكَانَ قَدْ أَنْزَلَهُمْ مِنْهَا عَلَى

أَنَّ لَهُمْ مَا حَمَلَتْ إِبِلُهُمْ ، فَكَانُوا يُخَرِّبُونَ مَا فِي بُيُوتِهِمْ مِنَ الْمَنْقُولَاتِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُحْمَلَ مَعَهُمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أَيْ : تَفَكَّرُوا فِي عَاقِبَةِ مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللهِ ، وَخَالَفَ رَسُولَهُ وَكَذَّبَ كِتَابَهُ ، كَيْفَ يَحِلُّ بِهِ مِنْ بَأْسِهِ الْمُخْزِي لَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُهُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ . ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يَعْنِي : بَنِي النَّضِيرِ ﴿ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ﴾ أَيْ : فِي مُدَّةِ حِصَارِكُمْ لَهُمْ وَقِصَرِهَا – وَكَانَتْ سِتَّةَ أَيَّامٍ – مَعَ شِدَّةِ حُصُونِهِمْ وَمَنَعَتِهَا . ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ أَيْ : جَاءَهُمْ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي بَالٍ . ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ أَيْ : الْخَوْفَ وَالْهَلَعَ وَالْجَزَعَ ، وَكَيْفَ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ ذَلِكَ وَقَدْ حَاصَرَهُمُ الَّذِي نُصِرَ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ – صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ – .﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَبِهِ نَقْضُ مَا اسْتَحْسَنُوهُ مِنْ سُقُوفِهِمْ وَأَبْوَابِهِمْ وَتَحَمُّلِهَا عَلَى الْإِبِلِ ، **وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ** : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُقَاتِلُهُمْ ، فَإِذَا ظَهَرَ عَلَى دَرْبٍ أَوْ دَارٍ هَدَمَ حِيطَانَهَا لِيَتَّسِعَ الْمَكَانُ لِلْقِتَالِ ، وَكَانَ الْيَهُودُ إِذَا عَلَوْا مَكَانًا أَوْ غَلَبُوا عَلَى دَرْبٍ أَوْ دَارٍ ، نَقَّبُوا مِنْ أَدْبَارِهَا ثُمَّ حَصَّنُوهَا وَدَرَّبُوهَا ، **يَقُولُ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : لَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ هَذَا الْجَلَاءَ – وَهُوَ النَّفْيُ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ – لَكَانَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ عَذَابٌ آخَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ اللهَ قَدْ كَتَبَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ سَيُعَذِّبُهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، مَعَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ . ﴿ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : حَتْمٌ لَازِمٌ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ ، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا فَعَلَ اللهُ بِهِمْ ذَلِكَ ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ رَسُولَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، لِأَنَّهُمْ خَالَفُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَكَذَّبُوا بِمَا أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى رُسُلِهِ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي الْبِشَارَةِ ، بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمْ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ اللِّينُ : نَوْعٌ مِنَ التَّمْرِ وَهُوَ جَيِّدٌ ، هُوَ جَمِيعُ النَّخْلِ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا حَاصَرَهُمْ أَمَرَ بِقَطْعِ نَخِيلِهِمْ إِهَانَةً لَهُمْ ، وَإِرْهَابًا وَإِرْعَابًا لِقُلُوبِهِمْ ، أَيْ : مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ ، وَمَا تَرَكْتُمْ مِنَ الْأَشْجَارِ ، فَالْجَمِيعُ بِإِذْنِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَقَدَرِهِ وَرِضَاهُ ، وَفِيهِ نِكَايَةٌ بِالْعَدُوِّ ، وَخِزْيٌ لَهُمْ ، وَإِرْغَامٌ لِأُنُوفِهِمْ . **وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ** أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَرَقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَطَعَ – وَهِيَ الْبُوَيْرَةُ – فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِيهِ ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا لِمَالِ الْفَيْءِ وَمَا صِفَتُهُ ؟ وَمَا حُكْمُهُ ؟ ، فَالْفَيْءُ : كُلُّ مَالٍ أُخِذَ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ وَلَا إِيجَافِ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، كَأَمْوَالِ بَنِي النَّضِيرِ هَذِهِ ، فَإِنَّهَا مِمَّا لَمْ يُوجِفِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، أَيْ : لَمْ يُقَاتِلُوا الْأَعْدَاءَ فِيهَا بِالْمُبَارَزَةِ وَالْمُصَاوَلَةِ بَلْ نَزَلَ أُولَئِكَ مِنَ الرُّعْبِ الَّذِي أَلْقَى اللهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ هَيْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَفَاءَهُ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَلِهَذَا تَصَرَّفَ فِيهِ كَمَا يَشَاءُ ، فَرَدَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي وُجُوهِ الْبِرِّ وَالْمَصَالِحِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ ﷻ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ أَيْ : مِنْ بَنِي النَّضِيرِ ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ ، يَعْنِي : الْإِبِلَ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيْ : هُوَ قَدِيرٌ لَا يُغَالَبُ وَلَا يُمَانَعُ ، بَلْ هُوَ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أَيْ : جَمِيعُ الْبُلْدَانِ الَّتِي تُفْتَحُ هَكَذَا ، فَحُكْمُهَا حُكْمُ أَمْوَالِ بَنِي النَّضِيرِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ إِلَى آخِرِهَا وَالَّتِي بَعْدَهَا ، فَهَذِهِ مَصَارِفُ أَمْوَالِ الْفَيْءِ وَوُجُوهِهِ . **عَنْ عُمَرَ** ﷺ **قَالَ** : كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ إِلَى رَسُولِهِ مِمَّا لَمْ يُوجِفِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ خَالِصَةً ، فَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ مِنْهَا نَفَقَةَ سَنَتِهِ ، وَمَا بَقِيَ جَعَلَهُ فِي الْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ . وَهَذِهِ الْمَصَارِفُ الْمَذْكُورَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هِيَ الْمَصَارِفُ الْمَذْكُورَةُ فِي خُمُسِ الْغَنِيمَةِ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَيْهَا فِي « سُورَةِ الْأَنْفَالِ » بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا ، وَللهِ الْحَمْدُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ أَيْ : جَعَلْنَا هَذِهِ الْمَصَارِفَ لِمَالِ الْفَيْءِ لِئَلَّا يَبْقَى مَأْكَلَةً يَتَغَلَّبُ عَلَيْهَا الْأَغْنِيَاءُ وَيَتَصَرَّفُونَ فِيهَا بِمَحْضِ الشَّهَوَاتِ وَالْآرَاءِ ، وَلَا يَصْرِفُونَ مِنْهُ شَيْئًا إِلَى الْفُقَرَاءِ ، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ أَيْ : مَهْمَا أَمَرَكُمْ بِهِ فَافْعَلُوهُ ، وَمَهْمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَأْمُرُ بِخَيْرٍ وَإِنَّمَا يَنْهَى عَنْ شَرٍّ . **وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ** أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أَيْ : اِتَّقُوهُ فِي اِمْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ ، فَإِنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ عَصَاهُ ، وَخَالَفَ أَمْرَهُ وَأَبَاهُ ، وَارْتَكَبَ مَا عَنْهُ زَجَرَهُ وَنَهَاهُ .

لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا حَالَ الْفُقَرَاءِ الْمُسْتَحِقِّينَ لِمَالِ الْفَيْءِ أَنَّهُمْ ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ أَيْ : خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَخَالَفُوا قَوْمَهُمُ اِبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ ﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ صَدَقُوا قَوْلَهُمْ بِفِعْلِهِمْ ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ سَادَاتُ الْمُهَاجِرِينَ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مَادِحًا لِلْأَنْصَارِ** ، وَمُبَيِّنًا فَضْلَهُمْ وَشَرَفَهُمْ وَكَرَمَهُمْ وَعَدَمَ حَسَدِهِمْ ، وَإِيثَارِهِمْ مَعَ الْحَاجَةِ ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ : سَكَنُوا دَارَ الْهِجْرَةِ مِنْ قَبْلِ الْمُهَاجِرِينَ ، وَآمَنُوا قَبْلَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : مِنْ كَرَمِهِمْ وَشَرَفِ أَنْفُسِهِمْ يُحِبُّونَ الْمُهَاجِرِينَ وَيُوَاسُونَهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ . ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ أَيْ : وَلَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَسَدًا لِلْمُهَاجِرِينَ ، فِيمَا فَضَّلَهُمُ اللهُ بِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ وَالشَّرَفِ وَالتَّقْدِيمِ فِي الذِّكْرِ وَالرُّتْبَةِ . ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ يَعْنِي : حَاجَةٌ ، أَيْ : يُقَدِّمُونَ الْمَحَاوِيجَ عَلَى حَاجَةِ أَنْفُسِهِمْ ، وَيَبْدَءُونَ بِالنَّاسِ قَبْلَهُمْ فِي حَالِ اِحْتِيَاجِهِمْ إِلَى ذَلِكَ . **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ** : أَتَى رَجُلٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَصَابَنِي الْجَهْدُ ، فَأَرْسَلَ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ**)) فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ ، فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ : هَذَا ضَيْفُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَا تَدَّخِرِيهِ شَيْئًا ، فَقَالَتْ : وَاللهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَةِ ، قَالَ : فَإِذَا أَرَادَ الصِّبْيَةُ الْعَشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ ، وَتَعَالَيْ فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ ، فَفَعَلَتْ ، ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : ((**لَقَدْ عَجِبَ اللهُ** ﷻ - **أَوْ ضَحِكَ** - **مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ**)) ، وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : مَنْ سَلِمَ مِنَ الشُّحِّ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ . عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ هَؤُلَاءِ فِي الْقِسْمِ الثَّالِثِ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ فُقَرَاؤُهُمْ مِنْ مَالِ الْفَيْءِ وَهُمُ الْمُهَاجِرُونَ ، ثُمَّ الْأَنْصَارُ ، ثُمَّ التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، كَمَا قَالَ فِي آيَةِ بَرَاءَةَ ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] ، فَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ هُمُ الْمُتَّبِعُونَ لِآثَارِهِمُ الْحَسَنَةِ ، وَأَوْصَافِهِمُ الْجَمِيلَةِ ، الدَّاعُونَ لَهُمْ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ﴾ أَيْ : قَائِلِينَ : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا ﴾ أَيْ : بُغْضًا وَحَسَدًا ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَضْرَابِهِ حِينَ بَعَثُوا إِلَى يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ يَعِدُونَهُمُ النَّصْرَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أَيْ : لَكَاذِبُونَ فِيمَا وَعَدُوهُمْ بِهِ ، إِمَّا لِأَنَّهُمْ قَالُوا لَهُمْ قَوْلًا

مِنْ نِيَّتِهِمْ أَنْ لَا يَفُوا لَهُمْ بِهِ ، وَإِمَّا لأَنَّهُمْ لَا يَقَعُ مِنْهُمُ الَّذِي قَالُوهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ أَيْ : لَا يُقَاتِلُونَ مَعَهُمْ ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ أَيْ : قَاتَلُوا مَعَهُمْ ﴿ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ ، وَهَذِهِ بِشَارَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ بِنَفْسِهَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يَخَافُونَ مِنْكُمْ أَكْثَرَ مِنْ خَوْفِهِمْ مِنَ اللهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء : ٧٧] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُمْ مِنْ جُبْنِهِمْ وَهَلَعِهِمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مُوَاجَهَةِ جَيْشِ الْإِسْلَامِ بِالْمُبَارَزَةِ وَالْمُقَاتَلَةِ ، بَلْ إِمَّا فِي حُصُونٍ ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ مُحَاصَرِينَ ، فَيُقَاتِلُونَ لِلدَّفْعِ عَنْهُمْ ضَرُورَةً . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أَيْ : عَدَاوَتُهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ شَدِيدَةٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام : ٦٥] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ أَيْ : تَرَاهُمْ مُجْتَمِعِينَ فَتَحْسَبُهُمْ مُؤْتَلِفِينَ وَهُمْ مُخْتَلِفُونَ غَايَةَ الِاخْتِلَافِ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ : يَعْنِي أَهْلَ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقِينَ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يَعْنِي : يَهُودَ بَنِي قَيْنُقَاعٍ ، فَإِنَّ يَهُودَ بَنِي قَيْنُقَاعٍ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ أَجْلَاهُمْ قَبْلَ هَذَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ ﴾ يَعْنِي : مَثَلُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ فِي اغْتِرَارِهِمْ بِالَّذِينَ وَعَدُوهُمُ النَّصْرَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَقَوْلُ الْمُنَافِقِينَ لَهُمْ : ﴿ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ ثُمَّ لَمَّا حَقَّتِ الْحَقَائِقُ وَجَدَّ بِهِمُ الْحِصَارُ وَالْقِتَالُ تَخَلَّوْا عَنْهُمْ وَأَسْلَمُوهُمْ لِلْهَلَكَةِ ، مِثَالُهُمْ فِي هَذَا كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ سَوَّلَ لِلْإِنْسَانِ - وَالْعِيَاذُ بِاللهِ - الْكُفْرَ ، فَإِذَا دَخَلَ فِيمَا سَوَّلَهُ لَهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ وَتَنَصَّلَ وَقَالَ : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا ﴾ أَيْ : فَكَانَ عَاقِبَةُ الْآمِرِ بِالْكُفْرِ وَالْفَاعِلِ لَهُ ، وَمَصِيرُهُمَا إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدَيْنِ فِيهَا ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : جَزَاءُ كُلِّ ظَالِمٍ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ أَمْرٌ بِتَقْوَاهُ ، وَهُوَ يَشْمَلُ فِعْلَ مَا بِهِ أَمَرَ ، وَتَرْكَ مَا عَنْهُ زَجَرَ . ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أَيْ : حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا ، وَانْظُرُوا مَاذَا ادَّخَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِيَوْمِ مَعَادِكُمْ وَعَرْضِكُمْ عَلَى رَبِّكُمْ

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ تَأْكِيدٌ ثَانٍ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : اِعْلَمُوا أَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ، وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ أُمُورِكُمْ جَلِيلٌ وَلَا حَقِيرٌ . ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أَيْ : لَا تَنْسَوْا ذِكْرَ اللهِ تَعَالَى ، فَيُنْسِيكُمُ الْعَمَلَ لِمَصَالِحِ أَنْفُسِكُمُ الَّتِي تَنْفَعُكُمْ فِي مَعَادِكُمْ ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أَيْ : الْخَارِجُونَ مِنْ طَاعَةِ اللهِ ، الْهَالِكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الْخَاسِرُونَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أَيْ : لَا يَسْتَوِي هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فِي حُكْمِ اللهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ أَيْ : النَّاجُونَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ ﷻ .

لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُعَظِّمًا لِأَمْرِ الْقُرْآنِ ، وَمُبَيِّنًا عُلُوَّ قَدْرِهِ ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تَخْشَعَ لَهُ الْقُلُوبُ وَتَتَصَدَّعُ عِنْدَ سَمَاعِهِ ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ الْحَقِّ وَالْوَعِيدِ الْأَكِيدِ ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فَإِذَا كَانَ الْجَبَلُ فِي غِلْظَتِهِ وَقَسَاوَتِهِ لَوْ فَهِمَ هَذَا الْقُرْآنَ فَتَدَبَّرَ مَا فِيهِ لَخَشَعَ وَتَصَدَّعَ مِنْ خَوْفِ اللهِ ﷻ ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِكُمْ يَا أَيُّهَا الْبَشَرُ أَنْ لَا تَلِينَ قُلُوبُكُمْ وَتَخْشَعَ وَتَتَصَدَّعَ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَقَدْ فَهِمْتُمْ عَنِ اللهِ أَمْرَهُ وَتَدَبَّرْتُمْ كِتَابَهُ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ الَّذِي : لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَلَا رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا إِلَهَ لِلْوُجُودِ سِوَاهُ ، وَكُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ فَبَاطِلٌ ، وَأَنَّهُ ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ الْمُشَاهَدَاتِ لَنَا وَالْغَائِبَاتِ عَنَّا ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، مِنْ جَلِيلٍ وَحَقِيرٍ ، وَصَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ، حَتَّى الذَّرِّ فِي الظُّلُمَاتِ ﴿ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الْمُرَادُ : أَنَّهُ ذُو الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ الشَّامِلَةِ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَهُوَ رَحْمَنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمُهُمَا ، ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ﴾ أَيْ : الْمَالِكُ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا بِلَا مُمَانَعَةٍ وَلَا مُدَافَعَةٍ ، ﴿ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ **قِيلَ** : أَيْ : الطَّاهِرُ ، **وَقِيلَ** : أَيْ : الْمُبَارَكُ ﴿ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ أَيْ :

مِنْ جَمِيعِ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ ، لِكَمَالِهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، ﴿ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾ قِيلَ : أَيْ : أَمَّنَ خَلْقَهُ مِنْ أَنْ يَظْلِمَهُمْ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : أَمَّنَ بِقَوْلِهِ إِنَّهُ حَقٌّ ، ﴿ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : أَيْ : الشَّاهِدُ عَلَى خَلْقِهِ بِأَعْمَالِهِمْ ، بِمَعْنَى : هُوَ رَقِيبٌ عَلَيْهِمْ ، ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : الَّذِي قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَقَهَرَهُ وَغَلَبَ الْأَشْيَاءَ ، فَلَا يُنَالُ جَنَابُهُ لِعِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَبَرُوتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ أَيْ : الَّذِي لَا تَلِيقُ الْجَبْرِيَّةُ إِلَّا لَهُ ، وَلَا التَّكَبُّرُ إِلَّا لِعَظَمَتِهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحِ « **الْعَظَمَةُ إِزَارِي ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ** » ، وَقَالَ قَتَادَةُ : الْجَبَّارُ الَّذِي جَبَرَ خَلْقَهُ عَلَى مَا يَشَاءُ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : الْجَبَّارُ الْمُصْلِحُ أُمُورَ خَلْقِهِ ، الْمُتَصَرِّفُ فِيهِمْ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ الْخَلْقُ : التَّقْدِيرُ ، وَالْبَرْءُ : هُوَ الْفَرْيُ ، وَهُوَ التَّنْفِيذُ ، وَإِبْرَازُ مَا قَدَّرَهُ وَقَرَّرَهُ إِلَى الْوُجُودِ ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ قَدَّرَ شَيْئًا وَرَتَّبَهُ يَقْدِرُ عَلَى تَنْفِيذِهِ وَإِيجَادِهِ سِوَى اللهِ ﷻ . ﴿ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ أَيْ : الَّذِي إِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي يُرِيدُ وَالصُّورَةِ الَّتِي يَخْتَارُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٨] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ أَيْ : الَّذِي يُنَفِّذُ مَا يُرِيدُ إِيجَادَهُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي يُرِيدُهَا ، ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي « سُورَةِ الْأَعْرَافِ » وَذِكْرِ حَدِيثِ « **إِنَّ للهِ تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا ، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : فَلَا يُرَامُ جَنَابُهُ ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَشْرِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ١٣ تفسيرُ سُورَةِ ٱلْمُمْتَحَنَةِ مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ

وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءً وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣﴾

كَانَ سَبَبُ نُزُولِ صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ ، قِصَّةَ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ ، وَذَلِكَ أَنَّ حَاطِبًا هَذَا كَانَ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ أَيْضًا ، وَكَانَ لَهُ بِمَكَّةَ أَوْلَادٌ وَمَالٌ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قُرَيْشٍ أَنْفُسِهِمْ بَلْ كَانَ حَلِيفًا لِعُثْمَانَ ، فَلَمَّا عَزَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى فَتْحِ مَكَّةَ لَمَّا نَقَضَ أَهْلُهَا الْعَهْدَ ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّجْهِيزِ لِغَزْوِهِمْ وَقَالَ : « **اللَّهُمَّ عَمِّ عَلَيْهِمْ خَبَرَنَا** » فَعَمَدَ حَاطِبٌ هَذَا فَكَتَبَ كِتَابًا وَبَعَثَهُ مَعَ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ ، يُعْلِمُهُمْ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوِهِمْ ، لِيَتَّخِذَ بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ يَدًا ، فَأَطْلَعَ اللهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ رَسُولَهُ ﷺ اسْتِجَابَةً لِدُعَائِهِ ، فَبَعَثَ فِي أَثَرِ الْمَرْأَةِ فَأَخَذَ الْكِتَابَ مِنْهَا . فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارَ الَّذِينَ هُمْ مُحَارِبُونَ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، الَّذِينَ شَرَعَ اللهُ عَدَاوَتَهُمْ وَمُصَارَمَتَهُمْ ، وَنَهَى أَنْ يُتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ وَأَصْدِقَاءَ وَأَخِلَّاءَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ ﴾ [آل عمران : ٢٨] ، وَلِهَذَا قَبِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُذْرَ حَاطِبٍ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ مُصَانَعَةً لِقُرَيْشٍ ؛ لِأَجْلِ مَا كَانَ لَهُ عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ ﴾ هَذَا مَعَ مَا قَبْلَهُ مِنَ التَّهْيِيجِ عَلَى عَدَاوَتِهِمْ وَعَدَمِ مُوَالَاتِهِمْ لِأَنَّهُمْ أَخْرَجُوا الرَّسُولَ وَأَصْحَابَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ كَرَاهَةً لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ للهِ وَحْدَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ ﴾ أَيْ : لَمْ يَكُنْ لَكُمْ عِنْدَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا إِيمَانُكُمْ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [البروج : ٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِي ﴾ أَيْ : إِنْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ ، فَلَا تَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِي بَاغِينَ لِمَرْضَاتِي عَنْكُمْ ، فَلَا تُوَالُوا أَعْدَائِي وَأَعْدَاءَكُمْ وَقَدْ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ حَنَقًا عَلَيْكُمْ وَسُخْطًا لِدِينِكُمْ ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡ ﴾ أَيْ : تَفْعَلُونَ ذَلِكَ ، وَأَنَا الْعَالِمُ بِالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ وَالظَّوَاهِرِ ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءً وَيَبۡسُطُوٓاْ

إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ ﴾ أَيْ : لَوْ قَدَرُوا عَلَيْكُمْ لَمَا اتَّقَوْا فِيكُمْ مِنْ أَذًى يَنَالُونَكُمْ بِهِ بِالْمَقَالِ وَالْفِعَالِ ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ أَيْ : وَيَحْرِصُونَ عَلَى أَنْ لَا تَنَالُوا خَيْرًا ، فَهُمْ عَدَاوَتُهُمْ لَكُمْ كَامِنَةٌ وَظَاهِرَةٌ ، فَكَيْفَ تُوَالُونَ مِثْلَ هَؤُلَاءِ ؟ وَهَذَا تَهْيِيجٌ عَلَى عَدَاوَتِهِمْ أَيْضًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أَيْ : قَرَابَاتُكُمْ لَا تَنْفَعُكُمْ عِنْدَ اللهِ إِذَا أَرَادَ اللهُ بِكُمْ سُوءًا وَنَفْعُهُمْ لَا يَصِلُ إِلَيْكُمْ إِذَا أَرْضَيْتُمُوهُمْ بِمَا يُسْخِطُ اللهَ ، وَمَنْ وَافَقَ أَهْلَهُ عَلَى الْكُفْرِ لِيُرْضِيَهُمْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ وَضَلَّ عَمَلُهُ ، وَلَا يَنْفَعُهُ عِنْدَ اللهِ قَرَابَتُهُ مِنْ أَحَدٍ ، وَلَوْ كَانَ قَرِيبًا إِلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ .

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَمَرَهُمْ بِمُصَارَمَةِ الْكَافِرِينَ وَعَدَاوَتِهِمْ وَمُجَانَبَتِهِمْ وَالتَّبَرِّي مِنْهُمْ ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ أَيْ : وَأَتْبَاعُهُ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ ﴾ أَيْ : تَبَرَّأْنَا مِنْكُمْ ﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أَيْ : بِدِينِكُمْ وَطَرِيقِكُمْ ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا ﴾ يَعْنِي : وَقَدْ شُرِعَتِ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ مِنَ الْآنِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ مَا دُمْتُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ ، فَنَحْنُ أَبَدًا نَتَبَرَّأُ مِنْكُمْ وَنَبْغَضُكُمْ ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ أَيْ : إِلَى أَنْ تُوَحِّدُوا اللهَ فَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَتَخْلَعُوا مَا تَعْبُدُونَ مَعَهُ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ أَيْ : لَكُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، تَتَأَسَّوْنَ بِهَا إِلَّا فِي اسْتِغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، وَذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَدْعُونَ لِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الشِّرْكِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ

لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾[التوبة : ١١٣ - ١١٤] . وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَكُمْ فِي ذَلِكَ أُسْوَةٌ ، أَيْ : فِي الاِسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ، حِينَ فَارَقُوا قَوْمَهُمْ وَتَبَرَّءُوا مِنْهُمْ فَلَجَئُوا إِلَى اللهِ وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ ، **فَقَالُوا** : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : تَوَكَّلْنَا عَلَيْكَ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ ، وَسَلَّمْنَا أُمُورَنَا إِلَيْكَ ، وَفَوَّضْنَاهَا إِلَيْكَ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ : أَيْ : الْمَعَادُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : مَعْنَاهُ لَا تُعَذِّبْنَا بِأَيْدِيهِمْ وَلَا بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِكَ ، فَيَقُولُوا : لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ عَلَى حَقٍّ مَا أَصَابَهُمْ هَذَا ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : لَا تُظْهِرْهُمْ عَلَيْنَا فَيَفْتَتِنُوا بِذَلِكَ ، يَرَوْنَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا ظَهَرُوا عَلَيْنَا لِحَقٍّ هُمْ عَلَيْهِ . ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أَيْ : وَاسْتُرْ ذُنُوبَنَا عَنْ غَيْرِكَ ، وَاعْفُ عَنْهَا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : الَّذِي لَا يُضَامُ مَنْ لَاذَ بِجَنَابِكَ ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي أَقْوَالِكَ وَأَفْعَالِكَ وَشَرْعِكَ وَقَدَرِكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ وَهَذَا تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ ، وَمُسْتَثْنًى مِنْهُ مَا تَقَدَّمَ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُسْوَةُ الْمُثْبَتَةُ هَهُنَا هِيَ الْأُولَى بِعَيْنِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ تَهْيِيجٌ إِلَى ذَلِكَ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ بِاللهِ وَالْمَعَادِ ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أَيْ : عَمَّا أَمَرَ اللهُ بِهِ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ الْغَنِيُّ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي غِنَاهُ ، وَهُوَ اللهُ ، هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ ، لَيْسَ لَهُ كُفْءٌ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، سُبْحَانَ اللهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، وَالْحَمِيدُ الْمُسْتَحْمَدُ إِلَى خَلْقِهِ ، أَيْ : هُوَ الْمَحْمُودُ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُمْ بِعَدَاوَةِ الْكَافِرِينَ : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ أَيْ : مَحَبَّةً بَعْدَ الْبِغْضَةِ ، وَمَوَدَّةً بَعْدَ النَّفْرَةِ ، وَأُلْفَةً بَعْدَ الْفُرْقَةِ ﴿ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ﴾ أَيْ : عَلَى مَا يَشَاءُ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ الْمُتَنَافِرَةِ وَالْمُتَبَايِنَةِ وَالْمُخْتَلِفَةِ ، فَيُؤَلِّفُ بَيْنَ

الْقُلُوبِ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ وَالْقَسَاوَةِ ، فَتُصْبِحُ مُجْتَمِعَةً مُتَّفِقَةً ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى الْأَنْصَارِ ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] الْآيَةَ ، وَكَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي ، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي ؟** ». وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : يَغْفِرُ لِلْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِذَا تَابُوا مِنْهُ وَأَنَابُوا إِلَى رَبِّهِمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ بِكُلِّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ أَيْ : لَا يَنْهَاكُمْ عَنِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْكَفَرَةِ الَّذِينَ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ فِي الدِّينِ وَلا يُعَاوِنُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ كَالنِّسَاءِ وَالضَّعَفَةِ مِنْهُمْ ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ أَيْ : تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ ﴿ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : تَعْدِلُوا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ فِي « سُورَةِ الْحُجُرَاتِ » وَأَوْرَدْنَا الْحَدِيثَ الصَّحِيحَ « **الْمُقْسِطُونَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ ، وَأَهَالِيهِمْ وَمَا وُلُّوا** ».

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ عَنْ مُوَالَاةِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَاصَبُوكُمْ بِالْعَدَاوَةِ ، فَقَاتَلُوكُمْ وَأَخْرَجُوكُمْ ، وَعَاوَنُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ ، يَنْهَاكُمُ اللهُ ﷻ عَنْ مُوَالَاتِهِمْ ، وَيَأْمُرُكُمْ بِمُعَادَاتِهِمْ ، ثُمَّ أَكَّدَ الْوَعِيدَ عَلَى مُوَالَاتِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

تَقَدَّمَ فِي « سُورَةِ الْفَتْحِ » فِي ذِكْرِ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ الَّذِي وَقَعَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ، فَكَانَ فِيهِ : عَلَى أَنْ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا ، وَفِي رِوَايَةٍ : عَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا أَحَدٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا ، فَعَلَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ مُخَصِّصَةً لِلسُّنَّةِ ، وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ ، وَعَلَى طَرِيقَةِ بَعْضِ السَّلَفِ نَاسِخَةٌ ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ أَمَرَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا جَاءَهُمُ النِّسَاءُ مُهَاجِرَاتٌ أَنْ يَمْتَحِنُوهُنَّ فَإِنْ عَلِمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ

فَلَا يَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ، لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ . وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ كَانَ اِمْتِحَانُهُنَّ أَنْ يَشْهَدْنَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ فَاسْأَلُوهُنَّ عَمَّا جَاءَ بِهِنَّ ، فَإِنْ كَانَ جَاءَ بِهِنَّ غَضَبٌ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ أَوْ سُخْطَةٌ أَوْ غَيْرُهُ وَلَمْ يُؤْمِنْ ، فَارْجِعُوهُنَّ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يُمْكِنُ الِاطِّلَاعُ عَلَيْهِ يَقِينًا ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الَّتِي حَرَّمَتِ الْمُسْلِمَاتِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَقَدْ كَانَ جَائِزًا فِي اِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ أَنْ يَتَزَوَّجَ الْمُشْرِكُ الْمُؤْمِنَةَ . ﴿ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ﴾ يَعْنِي : أَزْوَاجَ الْمُهَاجِرَاتِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، اِدْفَعُوا إِلَيْهِمُ الَّذِي غَرِمُوهُ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْأَصْدِقَةِ ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ يَعْنِي : إِذَا أَعْطَيْتُمُوهُنَّ أَصْدُقَتَهُنَّ فَانْكِحُوهُنَّ ، أَيْ : تَزَوَّجُوهُنَّ بِشَرْطِهِ مِنِ اِنْقِضَاءِ الْعِدَّةِ وَالْوَلِيِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ تَحْرِيمٌ مِنَ اللهِ ﷻ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ نِكَاحَ الْمُشْرِكَاتِ وَالِاسْتِمْرَارَ مَعَهُنَّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ﴾ أَيْ : وَطَالِبُوا بِمَا أَنْفَقْتُمْ عَلَى أَزْوَاجِكُمُ اللَّاتِي يَذْهَبْنَ إِلَى الْكُفَّارِ إِنْ ذَهَبْنَ ، وَلْيُطَالِبُوا بِمَا أَنْفَقُوا عَلَى أَزْوَاجِهِمُ اللَّاتِي هَاجَرْنَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ أَيْ : فِي الصُّلْحِ وَاسْتِثْنَاءِ النِّسَاءِ مِنْهُ ، وَالْأَمْرُ بِهَذَا كُلِّهِ هُوَ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِمَا يُصْلِحُ عِبَادَهُ حَكِيمٌ فِي ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ﴾ قِيلَ : هَذَا فِي الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ عَهْدٌ إِذَا فَرَّتْ إِلَيْهِمُ امْرَأَةٌ وَلَمْ يَدْفَعُوا إِلَى زَوْجِهَا شَيْئًا ، فَإِذَا جَاءَتْ مِنْهُمُ امْرَأَةٌ لَا يُدْفَعُ إِلَى زَوْجِهَا شَيْءٌ ، حَتَّى يُدْفَعَ إِلَى زَوْجِ الذَّاهِبَةِ إِلَيْهِمْ مِثْلَ نَفَقَتِهِ عَلَيْهَا . قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ أَصَبْتُمْ غَنِيمَةً مِنْ قُرَيْشٍ أَوْ غَيْرِهِمْ ﴿ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ﴾ يَعْنِي : مَهْرَ مِثْلِهَا ، وَهَذَا لَا يُنَافِي الْأَوَّلَ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَمْكَنَ الْأَوَّلُ فَهُوَ أَوْلَى ، وَإِلَّا فَمِنَ الْغَنَائِمِ اللَّاتِي تُؤْخَذُ مِنْ أَيْدِي الْكُفَّارِ ، وَهَذَا أَوْسَعُ ، وَهُوَ اِخْتِيَارُ اِبْنِ جَرِيرٍ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ بِهَذِهِ

الْآيَةِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ : فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ « **قَدْ بَايَعْتُكِ** » كَلَامًا ، وَلَا وَاللهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ ، مَا يُبَايِعُهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ : « **قَدْ بَايَعْتُكِ عَلَى ذَلِكَ** » .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ أَيْ : مَنْ جَاءَكَ مِنْهُنَّ يُبَايِعُ عَلَى هَذِهِ الشُّرُوطِ فَبَايِعْهَا ﴿ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ ﴾ أَمْوَالَ النَّاسِ الْأَجَانِبِ ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ الزَّوْجُ مُقَصِّرًا فِي نَفَقَتِهَا فَلَهَا أَنْ تَأْكُلَ مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ ، مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ أَمْثَالِهَا ، وَإِنْ كَانَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ ، **عَمَلًا بِحَدِيثِ هِنْدِ بِنْتِ عُتْبَةَ أَنَّهَا قَالَتْ** : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ ، لَا يُعْطِينِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يَكْفِينِي وَيَكْفِي بَنِيَّ ، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إِنْ أَخَذْتُ مِنْ مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمِهِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **خُذِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ ، مَا يَكْفِيكِ وَيَكْفِي بَنِيكِ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾ ، وَهَذَا يَشْمَلُ قَتْلَهُ بَعْدَ وُجُودِهِ ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقْتُلُونَ أَوْلَادَهُمْ خَشْيَةَ الْإِمْلَاقِ ، وَيَعُمُّ قَتْلُهُ وَهُوَ جَنِينٌ ، كَمَا قَدْ يَفْعَلُهُ بَعْضُ الْجَهَلَةِ مِنَ النِّسَاءِ ، تَطْرَحُ نَفْسَهَا لِئَلَّا تَحْبَلَ إِمَّا لِغَرَضٍ فَاسِدٍ أَوْ مَا أَشْبَهَهُ ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ يَعْنِي : لَا يُلْحِقْنَ بِأَزْوَاجِهِنَّ غَيْرَ أَوْلَادِهِمْ ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ يَعْنِي : فِيمَا أَمَرْتَهُنَّ بِهِ مِنْ مَعْرُوفٍ وَنَهَيْتَهُنَّ عَنْهُ مِنْ مُنْكَرٍ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ مُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ كَمَا نَهَى عَنْهَا فِي أَوَّلِهَا ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يَعْنِي : **الْيَهُودَ** وَالنَّصَارَى وَسَائِرَ الْكُفَّارِ ، مِمَّنْ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ، وَاسْتَحَقَّ مِنَ اللهِ الطَّرْدَ وَالْإِبْعَادَ ، فَكَيْفَ تُوَالُونَهُمْ وَتَتَّخِذُونَهُمْ أَصْدِقَاءَ وَأَخِلَّاءَ ، وَقَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ ، أَيْ : ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا فِي حُكْمِ اللهِ ﷻ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ **فِيهِ قَوْلَانِ** : **أَحَدُهُمَا** ، كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ الْأَحْيَاءُ مِنْ قَرَابَاتِهِمُ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ أَنْ يَجْتَمِعُوا بِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ بَعْثًا وَلَا نُشُورًا ، فَقَدِ انْقَطَعَ رَجَاؤُهُمْ مِنْهُمْ فِيمَا يَعْتَقِدُونَهُ . **وَالْقَوْلُ الثَّانِي** : مَعْنَاهُ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ الَّذِينَ هُمْ فِي الْقُبُورِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ . **وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ** ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ قَالَ : كَمَا يَئِسَ هَذَا الْكَافِرُ إِذَا مَاتَ وَعَايَنَ ثَوَابَهُ وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُمْتَحَنَةِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسير سورة الصف — آياتها ١٤ — مدنية

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ أَنَّ أُنَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا : لَوْ أَرْسَلْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ نَسْأَلُهُ عَنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ ﷻ ؟ فَلَمْ يَذْهَبْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنَّا ، وَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ ، قَالَ فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أُولَئِكَ النَّفَرَ رَجُلًا رَجُلًا ، حَتَّى جَمَعَهُمْ ، وَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ السُّورَةُ سَبَّحَ « الصَّفّ » ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ : فَقَرَأَهَا عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ كُلَّهَا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾

تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ غَيْرَ مَرَّةٍ ، بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ يَعِدُ عِدَةً أَوْ يَقُولُ قَوْلًا لَا يَفِي بِهِ ، وَلِهَذَا اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِالْوَعْدِ مُطْلَقًا ، سَوَاءٌ تَرَتَّبَ عَلَيْهِ عَزْمُ الْمَوْعُودِ أَمْ لَا . وَاحْتَجُّوا أَيْضًا مِنَ السُّنَّةِ بِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَ إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ** » . وَلِهَذَا أَكَّدَ اللهُ تَعَالَى هَذَا الْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِمَحَبَّتِهِ عِبَاده الْمُؤْمِنِينَ إِذَا اصْطَفُّوا مُوَاجِهِينَ لِأَعْدَاءِ اللهِ فِي حَوْمَةِ الْوَغَى ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ ، لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَدِينُهُ هُوَ الظَّاهِرُ الْعَالِي عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ . ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ أَيْ : مُلْتَصِقٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، مِنَ الصَّفِّ فِي الْقِتَالِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ، أَلَمْ تَرَ إِلَى صَاحِبِ الْبُنْيَانِ ، كَيْفَ لَا يُحِبُّ أَنْ يَخْتَلِفَ بُنْيَانُهُ ؟ فَكَذَلِكَ اللهُ ﷻ لَا يَخْتَلِفُ أَمْرُهُ ، وَإِنَّ اللهَ صَفَّ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِتَالِهِمْ وَصَفَّهُمْ فِي صَلَاتِهِمْ ، فَعَلَيْكُمْ بِأَمْرِ اللهِ ، فَإِنَّهُ عِصْمَةٌ لِمَنْ أَخَذَ بِهِ .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ

مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِيمِهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : لِمَ تُوصِلُونَ الْأَذَى إِلَيَّ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ ؟ وَفِي هَذَا تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِيمَا أَصَابَهُ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ ، وَأَمْرٌ لَهُ بِالصَّبْرِ ، وَلِهَذَا قَالَ : « **رَحْمَةُ اللهِ عَلَى مُوسَى ، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أَيْ : فَلَمَّا عَدَلُوا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ مَعَ عِلْمِهِمْ بِهِ ، أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْهُدَى ، وَأَسْكَنَهَا الشَّكَّ وَالْحَيْرَةَ وَالْخِذْلَانَ ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ يَعْنِي : التَّوْرَاةُ قَدْ بَشَّرَتْ بِي ، وَأَنَا مِصْدَاقُ مَا أَخْبَرَتْ عَنْهُ ، وَأَنَا مُبَشِّرٌ بِمَنْ بَعْدِي ، وَهُوَ الرَّسُولُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الْعَرَبِيُّ الْمَكِّيُّ أَحْمَدُ . فَعِيسَى عليه السلام وَهُوَ خَاتَمُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَقَدْ أَقَامَ فِي مَلَإِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَشِّرًا بِمُحَمَّدٍ ، وَهُوَ أَحْمَدُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ الَّذِي لَا رِسَالَةَ بَعْدَهُ وَلَا نُبُوَّةَ . وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : سَمَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ نَفْسَهُ أَسْمَاءً ، مِنْهَا مَا حَفِظْنَا فَقَالَ : « **أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَالْحَاشِرُ ، وَالْمُقَفِّي ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ وَالتَّوْبَةِ وَالْمَلْحَمَةِ** » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم ﴾ أَحْمَدُ ، أَيْ : الْمُبَشَّرُ بِهِ فِي الْأَعْصَارِ الْمُتَقَادِمَةِ ، الْمُنَوَّهُ بِذِكْرِهِ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ لَمَّا ظَهَرَ أَمْرُهُ وَجَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ الْكَفَرَةُ وَالْمُخَالِفُونَ : ﴿ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ﴾ أَيْ : لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنْ يَفْتَرِي الْكَذِبَ عَلَى اللهِ ، وَيَجْعَلُ لَهُ أَنْدَادًا وَشُرَكَاءَ ، وَهُوَ يُدْعَى إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أَيْ : يُحَاوِلُونَ أَنْ يَرُدُّوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُطْفِئَ شُعَاعَ الشَّمْسِ بِفِيهِ ، وَكَمَا أَنَّ هَذَا مُسْتَحِيلٌ كَذَلِكَ ذَاكَ مُسْتَحِيلٌ ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى :

﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢ - ٣٣] وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ فِي « سُورَةِ بَرَاءَة » بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ ، وَلله الحَمْدُ وَالمِنَّةُ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ الله بْنِ سَلَامٍ أَنَّ الصَّحَابَةَ ﷺ أَرَادُوا أَنْ يَسْأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ عَنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى الله ﷻ لِيَفْعَلُوهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ السُّورَةَ ، وَمِنْ جُمْلَتِهَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ثُمَّ فَسَّرَ هَذِهِ التِّجَارَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي لَا تَبُورُ ، الَّتِي هِيَ مُحَصِّلَةٌ لِلْمَقْصُودِ وَمُزِيلَةٌ لِلْمَحْذُورِ . فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ تِجَارَةِ الدُّنْيَا ، وَالْكَدِّ لَهَا وَالتَّصَدِّي لَهَا وَحْدَهَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أَيْ : إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَدَلَلْتُكُمْ عَلَيْهِ ، غَفَرْتُ لَكُمُ الزَّلَّاتِ ، وَأَدْخَلْتُكُمُ الْجَنَّاتِ ، وَالمَسَاكِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَالدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ﴾ أَيْ : وَأَزِيدُكُمْ عَلَى ذَلِكَ زِيَادَةً تُحِبُّونَهَا وَهِيَ : ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أَيْ : إِذَا قَاتَلْتُمْ فِي سَبِيلِهِ وَنَصَرْتُمْ دِينَهُ ، تَكَفَّلَ اللهُ بِنَصْرِكُمْ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أَيْ : عَاجِلٌ فَهَذِهِ الزِّيَادَةُ هِيَ خَيْرُ الدُّنْيَا مَوْصُولٌ بِنَعِيمِ الْآخِرَةِ ، لِمَنْ أَطَاعَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَنَصَرَ اللهَ وَدِينَهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ۖ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا أَنْصَارَ الله فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَأَنْ يَسْتَجِيبُوا لله وَلِرَسُولِهِ كَمَا اسْتَجَابَ الْحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى حِينَ قَالَ :

﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مُعِينِي فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ﷻ ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ وَهُمْ أَتْبَاعُ عِيسَى عليه السلام : ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : نَحْنُ أَنْصَارُكَ عَلَى مَا أُرْسِلْتَ بِهِ وَمُوَازِرُوكَ عَلَى ذَٰلِكَ ؛ وَلِهَٰذَا بَعَثَهُمْ دُعَاةً إِلَى النَّاسِ فِي بِلَادِ الشَّامِ فِي الْإِسْرَائِيلِيِّينَ وَالْيُونَانِيِّينَ ، وَهَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي أَيَّامِ الْحَجِّ : ((**مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي ؟ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي**)) حَتَّى قَيَّضَ اللهُ ﷻ لَهُ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، فَبَايَعُوهُ وَوَازَرُوهُ ، وَشَارَطُوهُ أَنْ يَمْنَعُوهُ مِنَ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ إِنْ هُوَ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَيْهِمْ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَفَوْا لَهُ بِمَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ، وَلِهَٰذَا سَمَّاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ الْأَنْصَارَ ، وَصَارَ ذَٰلِكَ عَلَمًا عَلَيْهِمْ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ - . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ أَيْ : لَمَّا بَلَّغَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام رِسَالَةَ رَبِّهِ إِلَى قَوْمِهِ ، وَوَازَرَهُ مَنْ وَازَرَهُ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ ، اهْتَدَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ ، وَضَلَّتْ طَائِفَةٌ فَخَرَجَتْ عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ ، وَجَحَدُوا نُبُوَّتَهُ ، وَرَمَوْهُ وَأُمَّهُ بِالْعَظَائِمِ ، وَهُمُ الْيَهُودُ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ أَيْ : نَصَرْنَاهُمْ عَلَى مَنْ عَادَاهُمْ مِنْ فِرَقِ النَّصَارَى ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ أَيْ : عَلَيْهِمْ ، وَذَٰلِكَ بِبَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ((الصَّفِّ)) وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ١١ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجُمُعَةِ مدنية

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهم أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ بِسُورَةِ ((**الْجُمُعَةِ**)) وَ ((**الْمُنَافِقُونَ**)) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، أَيْ : مِنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ نَاطِقِهَا وَجَامِدِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء : ٤٤] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى :

﴿ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ﴾ أَيْ : هُوَ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا بِحُكْمِهِ وَهُوَ ﴿ ٱلْقُدُّوسِ ﴾ أَيْ : الْمُنَزَّهُ عَنِ النَّقَائِصِ الْمَوْصُوفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ الْأُمِّيُّونَ هُمْ : الْعَرَبُ ، وَتَخْصِيصُ الْأُمِّيِّينَ بِالذِّكْرِ لَا يَنْفِي مَنْ عَدَاهُمْ ، وَلَكِنَّ الْمِنَّةَ عَلَيْهِمْ أَبْلَغُ وَآكَدُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[الزخرف : ٤٤] وَهُوَ ذِكْرٌ لِغَيْرِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ .

وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ مِصْدَاقُ إِجَابَةِ اللهِ لِخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ دَعَا لِأَهْلِ مَكَّةَ أَنْ يَبْعَثَ اللهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، فَبَعَثَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ - عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ وَطُمُوسٍ مِنَ السُّبُلِ وَقَدِ اشْتَدَّتِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ ، وَقَدْ مَقَتَ اللهُ أَهْلَ الْأَرْضِ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَيْ : نَزْرًا يَسِيرًا مِمَّنْ تَمَسَّكَ بِمَا بَعَثَ اللهُ بِهِ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عليه السلام وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا مُتَمَسِّكِينَ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عليه السلام فَبَدَّلُوهُ وَغَيَّرُوهُ وَقَلَبُوهُ وَخَالَفُوهُ ، وَاسْتَبْدَلُوا بِالتَّوْحِيدِ شِرْكًا ، وَبِالْيَقِينِ شَكًّا ، وَابْتَدَعُوا أَشْيَاءَ لَمْ يَأْذَنْ بِهَا اللهُ ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْكِتَابِ قَدْ بَدَّلُوا كُتُبَهُمْ وَحَرَّفُوهَا وَغَيَّرُوهَا وَأَوَّلُوهَا ، فَبَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِشَرْعٍ عَظِيمٍ كَامِلٍ شَامِلٍ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ ، فِيهِ هِدَايَتُهُمْ ، وَالْبَيَانُ لِجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ ، وَالدَّعْوَةُ لَهُمْ إِلَى مَا يُقَرِّبُهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَرِضَا اللهِ عَنْهُمْ ، وَالنَّهْيُ عَمَّا يُقَرِّبُهُمْ إِلَى النَّارِ وَسَخَطِ اللهِ تَعَالَى ، حَاكِمٌ وَفَاصِلٌ لِجَمِيعِ الشُّبُهَاتِ وَالشُّكُوكِ وَالرِّيَبِ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ . وَجَمَعَ لَهُ تَعَالَى - وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ - جَمِيعَ الْمَحَاسِنِ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَهُ ، وَأَعْطَاهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ، وَلَا يُعْطِيهِ أَحَدًا مِنَ الْآخِرِينَ ، فَصَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ هُمُ الْأَعَاجِمُ ، وَكُلُّ مَنْ صَدَّقَ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أَيْ : ذُو الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ يَعْنِي : مَا أَعْطَاهُ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ النُّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ ، وَمَا خَصَّ بِهِ أُمَّتَهُ مِنْ بِعْثَتِهِ ﷺ إِلَيْهِمْ .

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا

يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَامًّا لِلْيَهُودِ الَّذِينَ أُعْطُوا التَّوْرَاةَ وَحُمِّلُوهَا لِلْعَمَلِ بِهَا ، فَلَمْ يَعْمَلُوا بِهَا مِثْلَهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ أَيْ : كَمَثَلِ الْحِمَارِ إِذَا حَمَلَ كُتُبًا لَا يَدْرِي مَا فِيهَا فَهُوَ يَحْمِلُهَا حَمْلًا حِسِّيًّا وَلَا يَدْرِي مَا عَلَيْهِ ، وَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ فِي حَمْلِهِمُ الْكِتَابَ الَّذِي أُوتُوهُ ، حَفِظُوهُ لَفْظًا وَلَمْ يَفْهَمُوهُ . وَلَا عَمِلُوا بِمُقْتَضَاهُ بَلْ أَوَّلُوهُ وَحَرَّفُوهُ وَبَدَّلُوهُ ، فَهُمْ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْحَمِيرِ ؛ لِأَنَّ الْحِمَارَ لَا فَهْمَ لَهُ ، وَهَؤُلَاءِ لَهُمْ فُهُومٌ لَمْ يَسْتَعْمِلُوهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[الأعراف : ١٧٩] **وَقَالَ تَعَالَى هَاهُنَا** : ﴿ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ عَلَى هُدًى ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ عَلَى ضَلَالَةٍ ، فَادْعُوا بِالْمَوْتِ عَلَى الضَّالِّ مِنَ الْفِئَتَيْنِ ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : فِيمَا تَزْعُمُونَهُ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أَيْ : بِمَا يَعْلَمُونَ لَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالْفُجُورِ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ **كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ ((النِّسَاءِ))** : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[النساء : ٧٨]

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾

إِنَّمَا سُمِّيَتِ الْجُمُعَةُ جُمُعَةً لِأَنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْجَمْعِ ، فَإِنَّ أَهْلَ الْإِسْلَامِ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ مَرَّةً بِالْمَعَابِدِ الْكِبَارِ ، وَفِيهِ كَمُلَ جَمِيعُ الْخَلَائِقِ ، فَإِنَّهُ الْيَوْمُ السَّادِسُ مِنَ السِّتَّةِ الَّتِي خَلَقَ اللهُ فِيهَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَفِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يَسْأَلُ فِيهَا اللهَ خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ ، كَمَا ثَبَتَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ . **وَقَدْ كَانَ يُقَالُ لَهُ فِي اللُّغَةِ الْقَدِيمَةِ** : يَوْمُ الْعُرُوبَةِ ، وَثَبَتَ أَنَّ الْأُمَمَ قَبْلَنَا أُمِرُوا بِهِ فَضَلُّوا عَنْهُ ، وَاخْتَارَ الْيَهُودُ يَوْمَ السَّبْتِ الَّذِي لَمْ يَقَعْ فِيهِ خَلْقٌ ، وَاخْتَارَ النَّصَارَى يَوْمَ الْأَحَدِ الَّذِي ابْتُدِئَ فِيهِ الْخَلْقُ ، وَاخْتَارَ اللهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الَّذِي أَكْمَلَ اللهُ فِيهِ الْخَلِيقَةَ ،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ، ثُمَّ إِنَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ ، فَهَدَانَا اللهُ لَهُ ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ ، الْيَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ** » وَفِي لَفْظٍ : « **أَضَلَّ اللهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا ، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا ، فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الْمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ** » .

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالِاجْتِمَاعِ لِعِبَادَتِهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : اقْصُدُوا وَاعْمِدُوا وَاهْتَمُّوا فِي سَيْرِكُمْ إِلَيْهَا ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالسَّعْيِ هَاهُنَا الْمَشْيُ السَّرِيعُ ، وَإِنَّمَا هُوَ الِاهْتِمَامُ بِهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[الإسراء : ١٩] وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَابْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - يَقْرَآنِهَا « **فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ** » فَأَمَّا الْمَشْيُ السَّرِيعُ إِلَى الصَّلَاةِ فَقَدْ نُهِيَ عَنْهُ ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ ، فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ ، وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ ، وَلَا تُسْرِعُوا ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ ﴾ الْمُرَادُ بِهَذَا النِّدَاءِ هُوَ النِّدَاءُ الثَّانِي الَّذِي كَانَ يُفْعَلُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ فَجَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ ، فَإِنَّهُ كَانَ حِينَئِذٍ يُؤَذَّنُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ فَأَمَّا النِّدَاءُ الْأَوَّلُ الَّذِي زَادَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ﷺ فَإِنَّمَا كَانَ هَذَا لِكَثْرَةِ النَّاسِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾ أَيْ : اِسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَاتْرُكُوا الْبَيْعَ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ ، وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى تَحْرِيمِ الْبَيْعِ بَعْدَ النِّدَاءِ الثَّانِي . ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : تَرْكُكُمُ الْبَيْعَ وَإِقْبَالُكُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَإِلَى الصَّلَاةِ خَيْرٌ لَكُمْ ، أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾ أَيْ : فُرِغَ مِنْهَا ﴿ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ لَمَّا حَجَرَ عَلَيْهِمْ فِي التَّصَرُّفِ بَعْدَ النِّدَاءِ وَأَمَرَهُمْ بِالِاجْتِمَاعِ ، أَذِنَ لَهُمْ بَعْدَ الْفَرَاغِ فِي الِانْتِشَارِ فِي الْأَرْضِ وَالِابْتِغَاءِ مِنْ فَضْلِ اللهِ ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ بَيْعِكُمْ وَشِرَائِكُمْ وَأَخْذِكُمْ وَإِعْطَائِكُمْ ، اُذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ، وَلَا تُشْغِلُكُمُ الدُّنْيَا عَنِ الَّذِي يَنْفَعُكُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ .

وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

يُعَاتِبُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى مَا كَانَ وَقَعَ مِنَ الانْصِرَافِ عَنِ الْخُطْبَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى التِّجَارَةِ الَّتِي قَدِمَتِ المَدِينَةَ يَوْمَئِذٍ ،فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ﴾ أَيْ : عَلَى الْمِنْبَرِ تَخْطُبُ ، عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : قَدِمَتْ عِيرٌ المَدِينَةَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ ، فَخَرَجَ النَّاسُ وَبَقِيَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا ، فَنَزَلَتْ ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ .وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الإِمَامَ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَائِمًا . ﴿ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الثَّوَابِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ أَيْ : لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَطَلَبَ الرِّزْقَ فِي وَقْتِهِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْجُمُعَةِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

تفسير سورة المنافقون — آياتها ١١ — مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُنَافِقِينَ : إِنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَفَوَّهُونَ بِالْإِسْلَامِ إِذَا جَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ ، فَأَمَّا فِي بَاطِنِ الْأَمْرِ فَلَيْسُوا كَذَلِكَ ، بَلْ عَلَى الضِّدِّ مِنْ ذَلِكَ ،وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : إِذَا حَضَرُوا عِنْدَكَ وَاجَهُوكَ بِذَلِكَ ، وَأَظْهَرُوا لَكَ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ كَمَا يَقُولُونَ ؛ وَلِهَذَا اعْتَرَضَ بِجُمْلَةٍ مُخْبِرَةٍ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ،فَقَالَ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أَيْ : فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ ، وَإِنْ كَانَ مُطَابِقًا لِلْخَارِجِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ صِحَّةَ مَا يَقُولُونَ وَلَا صِدْقَهُ ، وَلِهَذَا كَذَّبَهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اعْتِقَادِهِمْ . ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : اتَّقَوا النَّاسَ بِالْأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ

وَالْحَلْفَانِ الْآثِمَةِ ، لِيُصَدَّقُوا فِيمَا يَقُولُونَ ، فَاغْتَرَّ بِهِمْ مَنْ لَا يَعْرِفُ جَلِيَّةَ أَمْرِهِمْ ، فَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ ، فَرُبَّمَا اقْتَدَى بِهِمْ فِيمَا يَفْعَلُونَ وَصَدَّقَهُمْ فِيمَا يَقُولُونَ ، وَهُمْ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْبَاطِنِ لَا يَأْلُونَ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ خَبَالًا ، فَحَصَلَ بِهَذَا الْقَدْرِ ضَرَرٌ كَبِيرٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا قُدِّرَ عَلَيْهِمُ النِّفَاقُ لِرُجُوعِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرَانِ ، وَاسْتِبْدَالِهِمُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أَيْ : فَلَا يَصِلُ إِلَى قُلُوبِهِمْ هُدًى ، وَلَا يَخْلُصُ إِلَيْهَا خَيْرٌ ، فَلَا تَعِي وَلَا تَهْتَدِي . ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ أَيْ : وَكَانُوا أَشْكَالًا حَسَنَةً وَذَوِي فَصَاحَةٍ وَأَلْسِنَةٍ ، إِذَا سَمِعَهُمُ السَّامِعُ يُصْغِي إِلَى قَوْلِهِمْ لِبَلَاغَتِهِمْ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي غَايَةِ الضَّعْفِ وَالْخَوَرِ وَالْهَلَعِ وَالْجَزَعِ وَالْجُبْنِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : كُلَّمَا وَقَعَ أَمْرٌ أَوْ كَائِنَةٌ أَوْ خَوْفٌ يَعْتَقِدُونَ لِجُبْنِهِمْ أَنَّهُ نَازِلٌ بِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب : ١٩] فَهُمْ جِهَامَاتٌ وَصُوَرٌ بِلَا مَعَانٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أَيْ : كَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُنَافِقِينَ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ - : إِنَّهُمْ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ ﴾ أَيْ : صَدُّوا وَأَعْرَضُوا عَمَّا قِيلَ لَهُمْ ، اسْتِكْبَارًا عَنْ ذَلِكَ ، وَاحْتِقَارًا لِمَا قِيلَ لَهُمْ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ ثُمَّ جَازَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ

ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ ((بَرَاءَة)) وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ ، **وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ** ؛ أَنَّ هَذَا السِّيَاقَ كُلَّهُ نَزَلَ فِي عَبْدِ الله بْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ . **عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ** : كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : يَا لَلْأَنْصَارِ ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ : يَا لَلْمُهَاجِرِينَ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ ؟ دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**)) وَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ : وَقَدْ فَعَلُوهَا ، وَالله لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، قَالَ جَابِرٌ : وَكَانَ الْأَنْصَارُ بِالْمَدِينَةِ أَكْثَرَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حِينَ قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ كَثُرَ الْمُهَاجِرُونَ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَقَالَ عُمَرُ : دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**دَعْهُ ؛ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ ، قَالَ : كَانُوا رِجَالاً أَجْمَلَ شَيْءٍ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِ ، وَنَاهِيًا لَهُمْ عَنْ أَنْ تَشْغَلَهُمُ الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ عَنْ ذَلِكَ ، وَمُخْبِرًا لَهُمْ بِأَنَّهُ مَنِ الْتَهَى بِمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا عَمَّا خُلِقَ لَهُ مِنْ طَاعَةِ رَبِّهِ وَذِكْرِهِ فَإِنَّهُ مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ يَخْسَرُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ حَثَّهُمْ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي طَاعَتِهِ فَقَالَ : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ فَكُلُّ مُفَرِّطٍ يَنْدَمُ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ ، وَيَسْأَلُ طُولَ الْمُدَّةِ وَلَوْ شَيْئًا يَسِيرًا ، لِيَسْتَعْتِبَ وَيَسْتَدْرِكَ مَا فَاتَهُ ، وَهَيْهَاتَ ! كَانَ مَا كَانَ ، وَأَتَى مَا هُوَ آتٍ ، وَكُلٌّ بِحَسَبِ تَفْرِيطِهِ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : لَا يُنْظِرُ أَحَدًا بَعْدَ حُلُولِ أَجَلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ وَأَخْبَرُ بِمَنْ يَكُونُ صَادِقًا فِي قَوْلِهِ وَسُؤَالِهِ مِمَّنْ لَوْ رُدَّ لَعَادَ إِلَى شَرٍّ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُنَافِقُونَ ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

آياتها ١٨ تفسير سورة التغابن مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤

هَذِهِ السُّورَةُ هِيَ آخِرُ الْمُسَبِّحَاتِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى تَسْبِيحِ الْمَخْلُوقَاتِ لِبَارِئِهَا وَمَالِكِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ ، الْمَحْمُودُ عَلَى جَمِيعِ مَا يَخْلُقُهُ وَيُقَدِّرُهُ ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَرَادَ كَانَ بِلَا مُمَانِعٍ وَلَا مُدَافِعٍ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ أَيْ : هُوَ الْخَالِقُ لَكُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ ، وَأَرَادَ مِنْكُمْ ذَلِكَ ، فَلَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ ، وَهُوَ الْبَصِيرُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الضَّلَالَ ، وَهُوَ شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِ عِبَادِهِ ، وَسَيَجْزِيهِمْ بِهَا أَتَمَّ الْجَزَاءِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أَيْ : أَحْسَنَ أَشْكَالَكُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ السَّمَائِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِينَ ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ فِي مُخَالَفَةِ الرُّسُلِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : خَبَرُهُمْ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴿ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أَيْ : وَخِيمَ تَكْذِيبِهِمْ وَرَدِيءَ أَفْعَالِهِمْ ، وَهُوَ مَا حَلَّ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْعُقُوبَةِ وَالْخِزْيِ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مُضَافٌ إِلَى هَذَا الدُّنْيَوِيِّ .

ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ أَيْ : بِالْحُجَجِ وَالدَّلَائِلِ وَالْبَرَاهِينِ ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا ﴾ أَيْ : اِسْتَبْعَدُوا أَنْ تَكُونَ الرِّسَالَةُ فِي الْبَشَرِ ، وَأَنْ يَكُونَ هُدَاهُمْ عَلَى يَدَيْ بَشَرٍ مِثْلِهِمْ ﴿ فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ﴾ أَيْ : كَذَّبُوا بِالْحَقِّ وَنَكَلُوا عَنِ الْعَمَلِ ﴿ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : عَنْهُمْ ﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴾ .

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُلْحِدِينَ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لَا يُبْعَثُونَ ﴿ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡ ﴾ أَيْ : لَتُخْبَرُنَّ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ ، جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا ، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا . ﴿ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ أَيْ : بَعْثُكُمْ وَمُجَازَاتُكُمْ ، وَهَذِهِ هِيَ الْآيَةُ الثَّالِثَةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُقْسِمَ بِرَبِّهِ ﷻ عَلَى وُقُوعِ الْمَعَادِ وَوُجُودِهِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ أَيْ : فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ خَافِيَةٌ . ﴿ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، سُمِّيَ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ يُجْمَعُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ . ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ هُوَ اِسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَغْبِنُونَ أَهْلَ النَّارِ ، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ : لَا غَبْنَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُدْخَلَ هَؤُلَاءِ إِلَى الْجَنَّةِ وَيُذْهَبُ بِأُولَئِكَ إِلَى النَّارِ . قُلْتُ : وَقَدْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ مِثْلِ هَذِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ .

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ بِأَمْرِ الله، يَعْنِي: عَنْ قَدَرِهِ وَمَشِيئَتِهِ. **وَقَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ: وَمَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَعَلِمَ أَنَّهَا بِقَضَاءِ الله وَقَدَرِهِ، فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ، وَاسْتَسْلَمَ لِقَضَاءِ الله، هَدَى اللهُ قَلْبَهُ، وَعَوَّضَهُ عَمَّا فَاتَهُ مِنَ الدُّنْيَا هُدًى فِي قَلْبِهِ، وَيَقِينًا صَادِقًا، وَقَدْ يُخْلِفُ عَلَيْهِ مَا كَانَ أَخَذَ مِنْهُ أَوْ خَيْرًا مِنْهُ. **رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ يَعْنِي: يَهْدِ قَلْبَهُ لِلْيَقِينِ، فَيَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ. **وَقَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ أَمْرٌ بِطَاعَةِ الله وَرَسُولِهِ فِيمَا شَرَعَ، وَفِعْلِ مَا بِهِ أَمَرَ، وَتَرْكِ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ. **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى**: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أَيْ: إِنْ نَكَلْتُمْ عَنِ الْعَمَلِ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ مِنَ الْبَلَاغِ، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ مِنَ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ. **قَالَ الزُّهْرِيُّ**: مِنَ الله الرِّسَالَةُ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، **فَقَالَ تَعَالَى**: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ فَالْأَوَّلُ خَبَرٌ عَنِ التَّوْحِيدِ، وَمَعْنَاهُ مَعْنَى الطَّلَبِ، أَيْ: وَحِّدُوا الْإِلَهِيَّةَ لَهُ، وَأَخْلِصُوهَا لَدَيْهِ، وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: ٩]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ: إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ عَدُوُّ الزَّوْجِ وَالْوَلَدِ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ يُلْتَهَى بِهِ عَنِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩] **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا**: ﴿ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ **قَالَ ابْنُ زَيْدٍ**: يَعْنِي عَلَى دِينِكُمْ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ**: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ قَالَ: يَحْمِلُ الرَّجُلَ عَلَى قَطِيعَةِ الرَّحِمِ أَوْ مَعْصِيَةِ رَبِّهِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ مَعَ حُبِّهِ إِلَّا أَنْ يُطِيعَهُ. **وَقَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّمَا الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ فِتْنَةٌ، أَيْ: اخْتِبَارٌ وَابْتِلَاءٌ مِنَ الله تَعَالَى لِخَلْقِهِ؛ لِيَعْلَمَ مَنْ يُطِيعُهُ مِمَّنْ يَعْصِيهِ

﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ أَيْ : جَهْدُكُمْ وَطَاقَتُكُمْ ، قَالَ رَسُول الله ﷺ : « **إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَائْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ** » . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ﴾ أَيْ : كُونُوا مُنْقَادِينَ لِمَا يَأْمُرُكُمُ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ، وَلَا تَحِيدُوا عَنْهُ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً ، وَلَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَلَا تَتَخَلَّفُوا عَمَّا بِهِ أُمِرْتُمْ ، وَلَا تَرْكَبُوا مَا عَنْهُ زُجِرْتُمْ . ﴿ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾ أَيْ : وَابْذُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ عَلَى الْأَقَارِبِ وَالْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ ، وَأَحْسِنُوا إِلَى خَلْقِ اللهِ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكُمْ ، يَكُنْ خَيْرًا لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ لَا تَفْعَلُوا يَكُنْ شَرًّا لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ « الْحَشْرِ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَمَهْمَا تَصَدَّقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَعَلَيْهِ جَزَاؤُهُ . وَنَزَلَ ذَلِكَ مَنْزِلَةَ الْقَرْضِ لَهُ ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أَيْ : وَيُكَفِّرُ عَنْكُمُ السَّيِّئَاتُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ ﴾ أَيْ : يَجْزِي عَلَى الْقَلِيلِ بِالْكَثِيرِ ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أَيْ : يَصْفَحُ وَيَغْفِرُ وَيَسْتُرُ ، وَيَتَجَاوَزُ عَنِ الذُّنُوبِ وَالزَّلَّاتِ وَالْخَطَايَا وَالسَّيِّئَاتِ ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ غَيْرُ مَرَّةٍ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّغَابُنِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

آياتها ١٢ — تفسيرُ سُورَةِ الطلاق — مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾

خُوطِبَ النَّبِيُّ ﷺ أَوَّلًا تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا ، ثُمَّ خَاطَبَ الْأُمَّةَ تَبَعًا ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ طَلَّقَ ابْنُ عُمَرَ امْرَأَتَهُ حَائِضًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلَ عُمَرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ : إِنَّ عَبْدَ اللهِ بنَ عُمَرَ طَلَّقَ امرأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لِيُرَاجِعْهَا** » فَرَدَّهَا ، وَقَالَ : « **إِذَا طَهُرَتْ فَلْيُطَلِّقْ أَوْ يُمْسِكْ** » قَالَ ابْنُ عُمَرَ : وَقَرَأَ النَّبِيُّ

ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ قَالَ : الطُّهْرُ مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ . **وَقَالَ عِكْرِمَةُ** : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ الْعِدَّةُ : الطُّهْرُ ، وَالْقُرْءُ : الْحَيْضَةُ ، أَنْ يُطَلِّقَهَا حُبْلَى مُسْتَبِينًا حَمْلُهَا ، وَلَا يُطَلِّقَهَا وَقَدْ طَافَ عَلَيْهَا ، وَلَا يَدْرِي حُبْلَى هِيَ أَمْ لَا . وَمِنْ هَاهُنَا أَخَذَ الْفُقَهَاءُ أَحْكَامَ الطَّلَاقِ وَقَسَّمُوهُ إِلَى طَلَاقِ سُنَّةٍ وَطَلَاقِ بِدْعَةٍ ، **فَطَلَاقُ السُّنَّةِ** : أَنْ يُطَلِّقَهَا مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ ، أَوْ حَامِلًا قَدِ اسْتَبَانَ حَمْلُهَا ، **وَالْبِدْعِيُّ** : هُوَ أَنْ يُطَلِّقَهَا فِي حَالِ الْحَيْضِ ، أَوْ فِي طُهْرٍ قَدْ جَامَعَهَا فِيهِ ، وَلَا يَدْرِي أَحَمَلَتْ أَمْ لَا ؟ **وَطَلَاقٌ ثَالِثٌ** لَا سُنَّةَ فِيهِ وَلَا بِدْعَةَ ، وَهُوَ طَلَاقُ الصَّغِيرَةِ وَالْآيِسَةِ وَغَيْرِ الْمَدْخُولِ بِهَا ، وَتَحْرِيرُ الْكَلَامِ فِي ذَلِكَ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مُسْتَقْصًى فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ﴾ أَيْ : احْفَظُوهَا وَاعْرِفُوا ابْتِدَاءَهَا وَانْتِهَاءَهَا لِئَلَّا تَطُولَ الْعِدَّةُ عَلَى الْمَرْأَةِ فَتَمْتَنِعُ مِنَ الْأَزْوَاجِ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ أَيْ : فِي ذَلِكَ ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ أَيْ : فِي مُدَّةِ الْعِدَّةِ لَهَا حَقُّ السُّكْنَى عَلَى الزَّوْجِ مَا دَامَتْ مُعْتَدَّةً مِنْهُ ، فَلَيْسَ لِلرَّجُلِ أَنْ يُخْرِجَهَا وَلَا يَجُوزُ لَهَا أَيْضًا الْخُرُوجُ ؛ لِأَنَّهَا مُعْتَقَلَةٌ لِحَقِّ الزَّوْجِ أَيْضًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ أَيْ : لَا يَخْرُجْنَ مِنْ بُيُوتِهِنَّ إِلَّا أَنْ تَرْتَكِبَ الْمَرْأَةُ فَاحِشَةً مُبَيِّنَةً فَتَخْرُجُ مِنَ الْمَنْزِلِ ، وَالْفَاحِشَةُ الْمُبَيِّنَةُ تَشْمَلُ الزِّنَا ، وَتَشْمَلُ مَا إِذَا نَشَزَتِ الْمَرْأَةُ أَوْ بَذَّتْ عَلَى أَهْلِ الرَّجُلِ وَآذَتْهُمْ فِي الْكَلَامِ وَالْفِعَالِ ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : شَرَائِعُهُ وَمَحَارِمُهُ ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يَخْرُجُ عَنْهَا وَيَتَجَاوَزُهَا إِلَى غَيْرِهَا وَلَا يَأْتَمِرُ بِهَا ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ أَيْ : بِفِعْلِ ذَلِكَ . ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَبْقَيْنَا الْمُطَلَّقَةَ فِي مَنْزِلِ الزَّوْجِ فِي مُدَّةِ الْعِدَّةِ لَعَلَّ الزَّوْجَ يَنْدَمُ عَلَى طَلَاقِهَا ، وَيَخْلُقُ اللهُ تَعَالَى فِي قَلْبِهِ رَجْعَتَهَا ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَيْسَرَ وَأَسْهَلَ .

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَإِذَا بَلَغَتِ الْمُعْتَدَّاتُ ﴿ أَجَلَهُنَّ ﴾ أَيْ : شَارَفْنَ عَلَى انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ وَقَارَبْنَ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ لَمْ تَفْرُغِ الْعِدَّةُ الْكُلِّيَّةُ ، فَحِينَئِذٍ إِمَّا أَنْ يَعْزِمَ الزَّوْجُ عَلَى إِمْسَاكِهَا ، وَهُوَ رَجْعَتُهَا إِلَى عِصْمَةِ نِكَاحِهِ ، وَالِاسْتِمْرَارِ بِهَا عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ عِنْدَهُ ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أَيْ : مُحْسِنًا إِلَيْهَا فِي

صُحْبَتِهَا ، وَإِمَّا أَنْ يَعْزِمَ عَلَى مُفَارَقَتِهَا ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أَيْ : مِنْ غَيْرِ مُقَابَحَةٍ وَلَا مُشَاتَمَةٍ وَلَا تَعْنِيفٍ ، بَلْ يُطَلِّقُهَا عَلَى وَجْهٍ جَمِيلٍ وَسَبِيلٍ حَسَنٍ . ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ أَيْ : عَلَى الرَّجْعَةِ إِذَا عَزَمْتُمْ عَلَيْهَا . ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي أَمَرْنَاكُمْ بِهِ مِنَ الْإِشْهَادِ وَإِقَامَةِ الشَّهَادَةِ إِنَّمَا يَأْتَمِرُ بِهِ مَنْ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنَّهُ شَرَعَ هَذَا ، وَمَنْ يَخَافُ عِقَابَ الله فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ أَيْ : وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ وَتَرَكَ مَا نَهَاهُ عَنْهُ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ أَيْ : مِنْ جِهَةٍ لَا تَخْطُرُ بِبَالِهِ . **وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ يُنْجِيهِ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ **وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ** : ﴿ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ أَيْ : مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ضَاقَ عَلَى النَّاسِ . **وَقِيلَ** : مَنْ طَلَّقَ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا . **وَقِيلَ** : ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ أَيْ : مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ أَيْ : مِنْ شُبُهَاتِ الْأُمُورِ وَالْكَرْبِ عِنْدَ الْمَوْتِ ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ مِنْ حَيْثُ يَرْجُو وَلَا يَأْمُلُ . ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّهُ رَكِبَ خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ : « **يَا غُلَامُ ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : اِحْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، اِحْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اِسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ﴾ أَيْ : مُنَفِّذٌ قَضَايَاهُ وَأَحْكَامَهُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يُرِيدُهُ وَيَشَاؤُهُ ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : ٨]

وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا لِعِدَّةِ الْآيِسَةِ - وَهِيَ الَّتِي قَدِ انْقَطَعَ عَنْهَا الْمَحِيضُ لِكِبَرِهَا - : أَنَّهَا ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ، عِوَضًا عَنِ الثَّلَاثَةِ قُرُوءٍ فِي حَقِّ مَنْ تَحِيضُ ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ آيَةُ « الْبَقَرَةِ » ، وَكَذَا الصِّغَارُ اللَّائِي لَمْ يَبْلُغْنَ سِنَّ الْحَيْضِ : إِنَّ عِدَّتَهُنَّ كَعِدَّةِ الْآيِسَةِ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ؛ وَلِهَذَا **قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : إِنْ رَأَيْنَ دَمًا وَشَكَكْتُمْ فِي كَوْنِهِ حَيْضًا أَوِ اسْتِحَاضَةً ، وَارْتَبْتُمْ فِيهِ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : إِنِ ارْتَبْتُمْ فِي حُكْمِ عِدَّتِهِنَّ ، وَلَمْ

تَعْرِفُوهُ فَهُوَ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ، وَهُوَ أَظْهَرُ فِي المَعْنَى . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : وَمَنْ كَانَتْ حَامِلًا فَعِدَّتُهَا بِوَضْعِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْدَ الطَّلَاقِ أَوِ المَوْتِ بِفُوَاقِ نَاقَةٍ ، فِي قَوْلِ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ ، كَمَا هُوَ نَصُّ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَكَمَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ . ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ أَيْ : يُسَهِّلُ لَهُ أَمْرَهُ ، وَيُيَسِّرُهُ عَلَيْهِ وَيَجْعَلُ لَهُ فَرَجًا قَرِيبًا وَمَخْرَجًا عَاجِلًا ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : حُكْمُهُ وَشَرْعُهُ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ بِوَاسِطَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ أَيْ : يُذْهِبُ عَنْهُ المَحْذُورَ وَيُجْزِلُ لَهُ الثَّوَابَ عَلَى الْعَمَلِ الْيَسِيرِ .

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ إِذَا طَلَّقَ أَحَدُهُمُ المَرْأَةَ أَنْ يُسْكِنَهَا فِي مَنْزِلٍ حَتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهَا فَقَالَ : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ أَيْ : عِنْدَكُمْ ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : يَعْنِي : سِعَتِكُمْ ، حَتَّى **قَالَ قَتَادَةُ** : إِنْ لَمْ تَجِدْ إِلَّا جَنْبَ بَيْتِكَ فَأَسْكِنْهَا فِيهِ . ﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ﴾ **قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ** : يَعْنِي : يُضَاجِرُهَا لِتَفْتَدِيَ مِنْهُ بِمَالِهَا أَوْ تَخْرُجَ مِنْ مَسْكَنِهِ ، **وَعَنْ أَبِي الضُّحَى** ﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ﴾ قَالَ : يُطَلِّقُهَا فَإِذَا بَقِيَ يَوْمَانِ رَاجَعَهَا . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ **قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : هَذِهِ فِي الْبَائِنِ ، إِنْ كَانَتْ حَامِلًا أَنْفَقَ عَلَيْهَا حَتَّى تَضَعَ حَمْلَهَا . قَالُوا : بِدَلِيلِ أَنَّ الرَّجْعِيَّةَ تَجِبُ نَفَقَتُهَا سَوَاءٌ كَانَتْ حَامِلًا أَوْ حَائِلًا . **وَقَالَ آخَرُونَ** : بَلِ السِّيَاقُ كُلُّهُ فِي الرَّجْعِيَّاتِ ، وَإِنَّمَا نُصَّ عَلَى الْإِنْفَاقِ عَلَى الْحَامِلِ وَإِنْ كَانَتْ رَجْعِيَّةً ؛ لِأَنَّ الْحَمْلَ تَطُولُ مُدَّتُهُ غَالِبًا ، فَاحْتِيجَ إِلَى النَّصِّ عَلَى وُجُوبِ الْإِنْفَاقِ إِلَى الْوَضْعِ ، لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّهُ إِنَّمَا تَجِبُ النَّفَقَةُ بِمِقْدَارِ مُدَّةِ الْعِدَّةِ . ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ أَيْ : إِذَا وَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَهُنَّ طَوَالِقُ ، فَقَدْ بِنَّ بِانْقِضَاءِ عِدَّتِهِنَّ ، وَلَهَا حِينَئِذٍ أَنْ تُرْضِعَ الْوَلَدَ ، وَلَهَا أَنْ تَمْتَنِعَ مِنْهُ ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ تُغَذِّيَهُ بِاللِّبَأِ - وَهُوَ بَاكُورَةُ اللَّبَنِ الَّذِي لَا قِوَامَ لِلْمَوْلُودِ غَالِبًا إِلَّا بِهِ - فَإِنْ أَرْضَعَتِ اسْتَحَقَّتْ أُجْرَةَ مِثْلِهَا ، وَلَهَا أَنْ تُعَاقِدَ أَبَاهُ أَوْ وَلِيَّهُ عَلَى مَا يُنْفِقَانِ عَلَيْهِ مِنْ أُجْرَةٍ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ أَيْ :

وَلْتَكُنْ أُمُورُكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، مِنْ غَيْرِ إِضْرَارٍ وَلَا مُضَارَّةٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » : ﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٣٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾ أَيْ : وَإِنِ اخْتَلَفَ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ فَطَلَبَتِ الْمَرْأَةُ فِي أُجْرَةِ الرَّضَاعِ كَثِيرًا وَلَمْ يُجِبْهَا الرَّجُلُ إِلَى ذَلِكَ ، أَوْ بَذَلَ الرَّجُلُ قَلِيلًا وَلَمْ تُوَافِقْهُ عَلَيْهِ فَلْيَسْتَرْضِعْ لَهُ غَيْرَهَا ، فَلَوْ رَضِيَتِ الْأُمُّ بِمَا اسْتُؤْجِرَتْ بِهِ الْأَجْنَبِيَّةُ فَهِيَ أَحَقُّ بِوَلَدِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ أَيْ : لِيُنْفِقْ عَلَى الْمَوْلُودِ وَالِدُهُ ، أَوْ وَلِيُّهُ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ وَعْدٌ مِنْهُ تَعَالَى ، وَوَعْدُهُ حَقٌّ ، وَهُوَ لَا يُخْلِفُهُ .

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ ، وَكَذَّبَ رُسُلَهُ ، وَسَلَكَ غَيْرَ مَا شَرَعَهُ ، وَمُخْبِرًا عَمَّا حَلَّ بِالْأُمَمِ السَّالِفَةِ بِسَبَبِ ذَلِكَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾ أَيْ : تَمَرَّدَتْ وَطَغَتْ وَاسْتَكْبَرَتْ عَنِ اتِّبَاعِ أَمْرِ اللهِ وَمُتَابَعَةِ رُسُلِهِ ﴿ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أَيْ : مُنْكَرًا فَظِيعًا ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ أَيْ : غِبَّ مُخَالَفَتِهَا ، وَنَدِمُوا حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ ﴿ وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، مَعَ مَا عَجَّلَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ مَا قَصَّ مِنْ خَبَرِ هَؤُلَاءِ ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أَيْ : الْأَفْهَامُ الْمُسْتَقِيمَةُ ، لَا تَكُونُوا مِثْلَهُمْ فَيُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أَيْ : صَدَّقُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ . ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : ﴿ رَّسُولًا ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى أَنَّهُ بَدَلُ اشْتِمَالٍ وَمُلَابَسَةٍ ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ هُوَ الَّذِي بَلَّغَ الذِّكْرَ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : الصَّوَابُ أَنَّ الرَّسُولَ تَرْجَمَةٌ عَنِ الذِّكْرِ يَعْنِي تَفْسِيرًا لَهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ كَوْنِهَا بَيِّنَةً وَاضِحَةً جَلِيَّةً

﴿ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] أَيْ : مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالْجَهْلِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ ، وَقَدْ سَمَّى اللهُ تَعَالَى الْوَحْيَ الَّذِي أَنْزَلَهُ نُورًا ؛ لِمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنَ الْهُدَى ، كَمَا سَمَّاهُ رُوحًا ؛ لِمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنْ حَيَاةِ الْقُلُوبِ . ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ مِثْلِ هَذَا غَيْرَ مَرَّةٍ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ بَاعِثًا عَلَى تَعْظِيمِ مَا شَرَعَ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نُوحٍ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح : ١٥] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ أَيْ : سَبْعًا أَيْضًا ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ : ((**مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شِبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**)) وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ : ((**خُسِفَ بِهِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ**)).

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الطَّلَاقِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ١٢ تَفْسِيرُ سُورَةِ التحريم مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾
قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ
بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ
بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى
ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا
خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

اُخْتُلِفَ فِي سَبَبِ نُزُولِ صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ ، فَقِيلَ : نَزَلَتْ فِي شَأْنِ مَارِيَةَ ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ حَرَّمَهَا ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾ الْآيَةَ ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ يَطَؤُهَا ، فَلَمْ تَزَلْ بِهِ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ حَتَّى حَرَّمَهَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، وَيَمْكُثُ عِنْدَهَا ، فَتَوَاطَأْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ عَلَى أَيَّتِنَا دَخَلَ عَلَيْهَا ، فَلْتَقُلْ لَهُ : أَكَلْتَ مَغَافِيرَ ؟ إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ ، قَالَ : « **لَا ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ فَلَنْ أَعُودَ لَهُ ، وَقَدْ حَلَفْتُ ، لَا تُخْبِرِي بِذَلِكَ أَحَدًا** » . وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ ﴾ ظَاهِرٌ ﴿ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾ أَيْ : صَائِمَاتٌ ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ أَيْ : مِنْهُنَّ ثَيِّبَاتٍ ، وَمِنْهُنَّ أَبْكَارًا ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَشْهَى إِلَى النَّفْسِ ، فَإِنَّ التَّنَوُّعَ يُبْسِطُ النَّفْسَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

قَوْلُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ قِيلَ فِي مَعْنَاهَا : أَدِّبُوهُمْ وَعَلِّمُوهُمْ ، وَقِيلَ : اِعْمَلُوا بِطَاعَةِ اللهِ ، وَاتَّقُوا مَعَاصِيَ اللهِ ، وَمُرُوا أَهْلِيكُمْ بِالذِّكْرِ ، يُنْجِيكُمُ اللهُ مِنَ النَّارِ ، وَقِيلَ : اِتَّقُوا اللهَ وَأَوْصُوا أَهْلِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ ، وَقِيلَ : يَأْمُرُهُمْ بِطَاعَةِ اللهِ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ ، وَأَنْ يَقُومَ عَلَيْهِمْ بِأَمْرِ اللهِ وَيَأْمُرُهُمْ بِهِ وَيُسَاعِدُهُمْ عَلَيْهِ ، فَإِذَا رَأَيْتَ للهِ مَعْصِيَةً قَدَعْتَهُمْ عَنْهَا وَزَجَرْتَهُمْ عَنْهَا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ وَقُودُهَا ، أَيْ : حَطَبُهَا الَّذِي يُلْقَى فِيهَا جُثَثُ بَنِي آدَمَ ﴿ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْأَصْنَامُ الَّتِي تُعْبَدُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : ٩٨] قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هِيَ حِجَارَةٌ مِنْ كِبْرِيتٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ أَيْ : طِبَاعُهُمْ غَلِيظَةٌ ، قَدْ نُزِعَتْ مِنْ قُلُوبِهِمُ الرَّحْمَةُ بِالْكَافِرِينَ بِاللهِ ﴿ شِدَادٌ ﴾ أَيْ : تَرْكِيبُهُمْ فِي غَايَةِ الشِّدَّةِ وَالْكَثَافَةِ وَالْمَنْظَرِ الْمُزْعِجِ ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ

مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَمَرَهُمْ بِهِ تَعَالَى يُبَادِرُوا إِلَيْهِ ، لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى فِعْلِهِ لَيْسَ بِهِمْ عَجْزٌ عَنْهُ . وَهَؤُلَاءِ هُمُ الزَّبَانِيَةُ ، عِيَاذًا بِاللهِ مِنْهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لِلْكَفَرَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : لَا تَعْتَذِرُوا فَإِنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْكُمْ ، وَإِنَّمَا تُجْزَوْنَ الْيَوْمَ بِأَعْمَالِكُمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ أَيْ : تَوْبَةً صَادِقَةً جَازِمَةً ، تَمْحُو مَا قَبْلَهَا مِنَ السَّيِّئَاتِ وَتَلُمُّ شَعَثَ التَّائِبِ وَتَجْمَعُهُ ، وَتَكُفُّهُ عَمَّا كَانَ يَتَعَاطَاهُ مِنَ الدَّنَاءَاتِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ وَ ((عَسَى)) مِنَ اللهِ مُوجِبَةٌ ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ أَيْ : وَلَا يُخْزِيهِمْ مَعَهُ ، يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هَذَا يَقُولُهُ الْمُؤْمِنُونَ حِينَ يَرَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورَ الْمُنَافِقِينَ قَدْ طُفِئَ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ ، هَؤُلَاءِ بِالسِّلَاحِ وَالْقِتَالِ وَهَؤُلَاءِ بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ ﴿ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : فِي الْآخِرَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أَيْ : فِي مُخَالَطَتِهِمُ الْمُسْلِمِينَ وَمُعَاشَرَتِهِمْ لَهُمْ ، أَنَّ ذَلِكَ لَا يُجْدِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللهِ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ الْإِيمَانُ حَاصِلًا فِي قُلُوبِهِمْ ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمَثَلَ فَقَالَ : ﴿ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ ﴾ أَيْ : نَبِيَّيْنِ رَسُولَيْنِ عِنْدَهُمَا فِي صُحْبَتِهِمَا لَيْلًا وَنَهَارًا ، يُؤَاكِلَانِهِمَا وَيُضَاجِعَانِهِمَا وَيُعَاشِرَانِهِمَا أَشَدَّ الْعِشْرَةِ وَالِاخْتِلَاطِ ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ أَيْ : فِي الْإِيمَانِ ، لَمْ يُوَافِقَاهُمَا عَلَى الْإِيمَانِ ، وَلَا صَدَّقَاهُمَا فِي الرِّسَالَةِ ، فَلَمْ يُجْدِ ذَلِكَ كُلِّهِ شَيْئًا ، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمَا مَحْذُورًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لِكُفْرِهِمَا ﴿ وَقِيلَ ﴾ أي : لِلْمَرْأَتَيْنِ ﴿ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ فِي فَاحِشَةٍ ، بَلْ فِي الدِّينِ ، فَإِنَّ نِسَاءَ الْأَنْبِيَاءِ مَعْصُومَاتٌ عَنِ الْوُقُوعِ فِي الْفَاحِشَةِ ، لِحُرْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، كَمَا قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ النُّورِ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قَالَ : مَا زَنَتَا ، أَمَّا خِيَانَةُ امْرَأَةِ نُوحٍ فَكَانَتْ تُخْبِرُ أَنَّهُ مَجْنُونٌ ، وَأَمَّا خِيَانَةُ امْرَأَةِ لُوطٍ فَكَانَتْ تَدُلُّ قَوْمَهَا عَلَى أَضْيَافِهِ .

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ لَا تَضُرُّهُمْ مُخَالَطَةُ الْكَافِرِينَ إِذَا كَانُوا مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ [آل عمران : ٢٨] **قَالَ قَتَادَةُ** : كَانَ فِرْعَوْنُ أَعْتَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَأَكْفَرَهُمْ ، فَوَاللهِ مَا ضَرَّ امْرَأَتَهُ كُفْرُ زَوْجِهَا حِينَ أَطَاعَتْ رَبَّهَا ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ تَعَالَى حَكَمٌ عَدْلٌ ، لَا يُؤَاخِذُ أَحَدًا إِلَّا بِذَنْبِهِ .

فَقَوْلُهَا : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ **قَالَ الْعُلَمَاءُ** : اخْتَارَتِ الْجَارَ قَبْلَ الدَّارِ ، وَقَدْ وَرَدَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ ﴿ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ ﴾ أَيْ : خَلِّصْنِي مِنْهُ فَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ عَمَلِهِ ﴿ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ هِيَ آسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أَيْ : حَفِظَتْهُ وَصَانَتْهُ ، وَالْإِحْصَانُ هُوَ الْعَفَافُ وَالْحُرِّيَّةُ ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ أَيْ : بِوَاسِطَةِ الْمَلَكِ ، وَهُوَ جِبْرِيلُ ، فَإِنَّ اللهَ بَعَثَهُ إِلَيْهَا فَتَمَثَّلَ لَهَا فِي صُورَةِ بَشَرٍ سَوِيٍّ ، وَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَنْفُخَ بِفِيهِ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا ، فَنَزَلَتِ النَّفْخَةُ فَوَلَجَتْ فِي فَرْجِهَا ، فَكَانَ مِنْهُ الْحَمْلُ بِعِيسَى عليه السلام ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ أَيْ : بِقَدَرِهِ وَشَرْعِهِ ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّحْرِيمِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٣٠ — تفسيرُ سُورَةِ المُلك — مكية

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ قَالَ : ((**إِنَّ سُورَةً فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثِينَ آيَةً شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ : تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ**)) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾

يُمَجِّدُ تَعَالَى نَفْسَهُ الكَرِيمَةَ ، وَيُخْبِرُ أَنَّهُ بِيَدِهِ المُلْكُ ، أَيْ : هُوَ المُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ المَخْلُوقَاتِ بِمَا يَشَاءُ ، لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، لِقَهْرِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ وَاسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ قَالَ : إِنَّ المَوْتَ أَمْرٌ وُجُودِيٌّ لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ ، **وَمَعْنَى الْآيَةِ** : أَنَّهُ أَوْجَدَ الْخَلَائِقَ مِنَ الْعَدَمِ لِيَبْلُوَهُمْ وَيَخْتَبِرَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة : ٢٨] فَسَمَّى الْحَالَ الْأَوَّلَ - وَهُوَ الْعَدَمُ - مَوْتًا ، وَسَمَّى هَذِهِ النَّشْأَةَ حَيَاةً . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أَيْ : خَيْرٌ عَمَلًا ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ أَيْ : هُوَ الْعَزِيزُ الْعَظِيمُ المَنِيعُ الْجَنَابِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ غَفُورٌ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ ، بَعْدَمَا عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ ، وَإِنْ كَانَ تَعَالَى عَزِيزًا هُوَ مَعَ ذَلِكَ يَغْفِرُ وَيَرْحَمُ وَيَصْفَحُ وَيَتَجَاوَزُ . ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أَيْ : طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ . ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ أَيْ : بَلْ هُوَ مُصْطَحِبٌ مُسْتَوٍ ، لَيْسَ فِيهِ اخْتِلَافٌ وَلَا تَنَافُرٌ وَلَا مُخَافَةٌ ، وَلَا نَقْصٌ وَلَا عَيْبٌ وَلَا خَلَلٌ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أَيْ : انْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ فَتَأَمَّلْهَا ، هَلْ تَرَى فِيهَا عَيْبًا أَوْ نَقْصًا أَوْ خَلَلًا أَوْ فُطُورًا ؟. ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ مَرَّتَيْنِ ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ ذَلِيلًا صَاغِرًا ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : وَهُوَ كَلِيلٌ ، **وَقِيلَ** : الْحَسِيرُ : المُنْقَطِعُ مِنَ الْإِعْيَاءِ ، **وَمَعْنَى الْآيَةِ** : إِنَّكَ لَوْ كَرَرْتَ الْبَصَرَ - مَهْمَا كَرَرْتَ - لَانْقَلَبَ إِلَيْكَ ، أَيْ : لَرَجَعَ إِلَيْكَ الْبَصَرُ ﴿خَاسِئًا﴾ عَنْ أَنْ يَرَى عَيْبًا أَوْ خَلَلًا ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أَيْ : كَلِيلٌ ، وَقَدِ انْقَطَعَ مِنَ الْإِعْيَاءِ مِنْ كَثْرَةِ التَّكَرُّرِ وَلَا يَرَى نَقْصًا ، وَلَمَّا نَفَى عَنْهَا فِي خَلْقِهَا النَّقْصَ بَيَّنَ كَمَالَهَا وَزِينَتَهَا **فَقَالَ** : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ ، وَهِيَ الْكَوَاكِبُ الَّتِي وُضِعَتْ فِيهَا مِنَ السَّيَّارَاتِ وَالثَّوَابِتِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ ، عَادَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ عَلَى جِنْسِ

الْمَصَابِيحِ لَا عَلَى عَيْنِهَا ؛ لأَنَّهُ لَا يَرْمِي بِالْكَوَاكِبِ الَّتِي فِي السَّمَاءِ ، بَلْ بِشُهُبٍ مِنْ دُونِهَا ، وَقَدْ تَكُونُ مُسْتَمَدَّةً مِنْهَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَا لِلشَّيَاطِينِ هَذَا الْخِزْيَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ فِي الْأُخْرَى .

وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَ ﴾ أَعْتَدْنَا ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : بِئْسَ الْمَآلُ وَالْمُنْقَلَبُ ﴿ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَعْنِي : الصِّيَاحُ ﴿ وَهِىَ تَفُورُ ﴾ **قَالَ الثَّوْرِيُّ** : تَغْلِي بِهِمْ كَمَا يَغْلِي الْحَبُّ الْقَلِيلُ فِي الْمَاءِ الْكَثِيرِ . ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ أَيْ : يَكَادُ يَنْفَصِلُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ مِنْ شِدَّةِ غَيْظِهَا عَلَيْهِمْ وَحَنَقِهَا بِهِمْ ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ . يَذْكُرُ تَعَالَى عَدْلَهُ فِي خَلْقِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، وَإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : ١٥] وَهَكَذَا عَادُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ ، وَنَدِمُوا حَيْثُ لَا تَنْفَعُهُمُ النَّدَامَةُ ، فَقَالُوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أَيْ : لَوْ كَانَتْ لَنَا عُقُولٌ نَنْتَفِعُ بِهَا أَوْ نَسْمَعُ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْحَقِّ ، لَمَا كُنَّا عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللهِ وَالِاغْتِرَارِ بِهِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَنَا فَهْمٌ نَعِي بِهِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ ، وَلَا كَانَ لَنَا عَقْلٌ يُرْشِدُنَا إِلَى اتِّبَاعِهِمْ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّنْ يَخَافُ مَقَامَ رَبِّهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ إِذَا كَانَ غَائِبًا عَنِ النَّاسِ ، فَيَنْكَفُّ عَنِ الْمَعَاصِي وَيَقُومُ بِالطَّاعَاتِ ، حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ تَعَالَى : بِأَنَّهُ لَهُ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ، أَيْ :

تُكَفَّرُ عَنْهُ ذُنُوبُهُ ، وَيُجَازَى بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى الضَّمَائِرِ وَالسَّرَائِرِ : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أَيْ : بِمَا خَطَرَ فِي الْقُلُوبِ ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ ، أَيْ : أَلَا يَعْلَمُ الْخَالِقُ ؟ وَقِيلَ : مَعْنَاهُ : أَلَا يَعْلَمُ اللهُ مَخْلُوقَهُ ؟ وَالأَوَّلُ أَوْلَى ، لِقَوْلِهِ ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ . ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَى خَلْقِهِ فِي تَسْخِيرِهِ لَهُمُ الْأَرْضَ وَتَذْلِيلِهِ إِيَّاهَا لَهُمْ ، بِأَنْ جَعَلَهَا قَارَّةً سَاكِنَةً لَا تَمِيدُ وَلَا تَضْطَرِبُ ، بِمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ ، وَأَنْبَعَ فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ، وَسَلَكَ فِيهَا مِنَ السُّبُلِ ، وَهَيَّأَ فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَمَوَاضِعِ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ أَيْ : فَسَافِرُوا حَيْثُ شِئْتُمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ، وَتَرَدَّدُوا فِي أَقَالِيمِهَا وَأَرْجَائِهَا فِي أَنْوَاعِ الْمَكَاسِبِ وَالتِّجَارَاتِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ سَعْيَكُمْ لَا يُجْدِي عَلَيْكُمْ شَيْئًا ، إِلَّا أَنْ يُيَسِّرَهُ اللهُ لَكُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ فَالسَّعْيُ فِي السَّبَبِ لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ ، وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ : إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا** » . فَأَثْبَتَ لَهَا رَوَاحًا وَغُدُوًّا لِطَلَبِ الرِّزْقِ ، مَعَ تَوَكُّلِهَا عَلَى اللهِ ﷻ وَهُوَ الْمُسَخِّرُ الْمُسَيِّرُ الْمُسَبِّبُ ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ أَيْ : الْمَرْجِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ مَنَاكِبِهَا ﴾ أَطْرَافِهَا وَفِجَاجِهَا وَنَوَاحِيهَا ، وَقِيلَ : ﴿ مَنَاكِبِهَا ﴾ الْجِبَالُ .

ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تَعْذِيبِهِمْ ، بِسَبَبِ كُفْرِ بَعْضِهِمْ بِهِ ، وَعِبَادَتِهِمْ مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَهُوَ مَعَ هَذَا يَحْلُمُ وَيَصْفَحُ وَيُؤَجِّلُ وَلَا يُعَجِّلُ ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾ أَيْ : تَذْهَبُ وَتَجِيءُ وَتَضْطَرِبُ ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أَيْ : رِيحًا فِيهَا حَصْبَاءُ تَدْمَغُكُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٨] وَهَكَذَا تَوَعَّدَهُمْ هَهُنَا بِقَوْلِهِ : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ أَيْ : كَيْفَ يَكُونُ إِنْذَارِي ، وَعَاقِبَةَ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ وَكَذَّبَ بِهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ كَانَ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ وَمُعَاقَبَتِي لَهُمْ ؟ أَيْ : عَظِيمًا شَدِيدًا أَلِيمًا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ أَيْ : تَارَةً يَصْفُفْنَ أَجْنِحَتَهُنَّ فِي الْهَوَاءِ ، وَتَارَةً

تَجْمَعُ جَنَاحًا وَتَنْشُرُ جَنَاحًا ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ أَيْ : فِي الْجَوِّ ﴿ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أَيْ : بِمَا سَخَّرَ لَهُنَّ مِنَ الْهَوَاءِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ أَيْ : بِمَا يُصْلِحُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ .

أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا غَيْرَهُ ، يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمْ نَصْرًا وَرِزْقًا ، مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا اعْتَقَدُوهُ وَمُخْبِرًا لَهُمْ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ مَا أَمَّلُوهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ وَلَا نَاصِرٍ لَكُمْ غَيْرُهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ﴾ أَيْ : مَنْ هَذَا الَّذِي إِذَا قَطَعَ اللهُ عَنْكُمْ رِزْقَهُ يَرْزُقُكُمْ بَعْدَهُ ؟ أَيْ : لَا أَحَدَ يُعْطِي وَيَمْنَعُ وَيَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَيَنْصُرُ إِلَّا اللهُ ﷻ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، أَيْ : وَهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَل لَّجُّوا۟ ﴾ أَيْ : اِسْتَمَرُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ وَإِفْكِهِمْ وَضَلَالِهِمْ ﴿ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ أَيْ : فِي مُعَانَدَةٍ وَاسْتِكْبَارٍ وَنُفُورٍ عَلَى إِدْبَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ لَا يَسْمَعُونَ لَهُ وَلَا يَتَّبِعُونَهُ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، فَالْكَافِرُ مَثَلُهُ فِيمَا هُوَ فِيهِ كَمَثَلِ مَنْ يَمْشِي مُنْكَبًّا عَلَى وَجْهِهِ ، أَيْ : يَمْشِي مُنْحَنِيًا لَا مُسْتَوِيًا عَلَى وَجْهِهِ ، أَيْ : لَا يَدْرِي أَيْنَ يَسْلُكُ وَلَا كَيْفَ يَذْهَبُ ، بَلْ تَائِهٌ حَائِرٌ ضَالٌّ ، أَهَذَا أَهْدَى ﴿ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا ﴾ أَيْ : مُنْتَصِبُ الْقَامَةِ ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أَيْ : عَلَى طَرِيقٍ وَاضِحٍ بَيِّنٍ وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مُسْتَقِيمٌ وَطَرِيقُهُ مُسْتَقِيمَةٌ ، هَذَا مَثَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَكَذَلِكَ يَكُونُونَ فِي الْآخِرَةِ ، فَالْمُؤْمِنُ يُحْشَرُ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، مُفْضٍ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ الْفَيْحَاءِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّهُ يُحْشَرُ يَمْشِي عَلَى وَجْهِهِ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؟ فَقَالَ : « **أَلَيْسَ**

الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيهِمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؟ ». وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ ﴾ أَيْ : إِبْتَدَأَ خَلْقَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ أَيْ : الْعُقُولَ وَالْإِدْرَاكَ ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : مَا أَقَلَّ مَا تَسْتَعْمِلُونَ هَذِهِ الْقُوَى الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فِي طَاعَتِهِ وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ ، وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : بَثَّكُمْ وَنَشَرَكُمْ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَأَرْجَائِهَا مَعَ اخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ فِي لُغَاتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، وَحُلَاكُمْ وَأَشْكَالِكُمْ وَصُوَرِكُمْ ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أَيْ : تُجْمَعُونَ بَعْدَ هَذَا التَّفَرُّقِ وَالشَّتَاتِ يَجْمَعُكُمْ كَمَا فَرَّقَكُمْ وَيُعِيدُكُمْ كَمَا بَدَأَكُمْ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ الْمُنْكِرِينَ لِلْمَعَادِ الْمُسْتَبْعِدِينَ وُقُوعَهُ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : مَتَى هَذَا الَّذِي تُخْبِرُنَا بِكَوْنِهِ ، مِنَ الِاجْتِمَاعِ بَعْدَ هَذَا التَّفَرُّقِ ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لَا يَعْلَمُ وَقْتَ ذَلِكَ عَلَى التَّعْيِينِ إِلَّا اللهُ ﷻ ، لَكِنَّهُ أَمَرَنِي أَنْ أُخْبِرَكُمْ أَنَّ هَذَا كَائِنٌ وَوَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ فَاحْذَرُوهُ ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : وَإِنَّمَا عَلَيَّ الْبَلَاغُ وَقَدْ أَدَّيْتُهُ إِلَيْكُمْ . ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أَيْ : لَمَّا قَامَتِ الْقِيَامَةُ وَشَاهَدَهَا الْكُفَّارُ ، وَرَأَوْا أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ قَرِيبًا ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ وَإِنْ طَالَ زَمَنُهُ ، فَلَمَّا وَقَعَ مَا كَذَّبُوا بِهِ سَاءَهُمْ ذَلِكَ ، لِمَا يَعْلَمُونَ مَا لَهُمْ هُنَاكَ مِنَ الشَّرِّ ، أَيْ : فَأَحَاطَ بِهِمْ ذَلِكَ وَجَاءَهُمْ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي بَالٍ وَلَا حِسَابٍ ، وَلِهَذَا يُقَالُ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ ﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾ أَيْ : تَسْتَعْجِلُونَ .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ
أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ الْجَاحِدِينَ لِنِعَمِهِ ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أَيْ : خَلِّصُوا أَنْفُسَكُمْ فَإِنَّهُ لَا مُنْقِذَ لَكُمْ مِنَ اللهِ إِلَّا التَّوْبَةُ وَالْإِنَابَةُ ، وَالرُّجُوعُ إِلَى دِينِهِ ، وَلَا يَنْفَعُكُمْ وُقُوعُ مَا تَتَمَنَّوْنَ لَنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، فَسَوَاءٌ عَذَّبَنَا اللهُ أَوْ رَحِمَنَا ، فَلَا مَنَاصَ لَكُمْ مِنْ نَكَالِهِ وَعَذَابِهِ الْأَلِيمِ الْوَاقِعِ بِكُمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أَيْ : آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[هود : ١٢٣] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : مِنَّا وَمِنْكُمْ ، وَلِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ أَيْ : ذَاهِبًا فِي الْأَرْضِ إِلَى

أَسْفَلِ ، فَلَا يُنَالُ بِالْفُؤُوسِ الْحِدَادِ ، وَلَا السَّوَاعِدِ الشِّدَادِ ، وَالْغَائِرُ : عَكْسُ النَّابِعِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ أَيْ : نَابِعٍ سَائِحٍ جَارٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، أَيْ : لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللهُ ﷻ فَمِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ أَنْ أَنْبَعَ لَكُمُ الْمِيَاهَ ، وَأَجْرَاهَا فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُ الْعِبَادُ إِلَيْهِ مِنَ الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُلْكِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٥٢ تفْسِيرُ سُورَةِ القلم مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى حُرُوفِ الْهِجَاءِ فِي أَوَّلِ « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » ، وَأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ ن ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ ص ﴾ ﴿ ق ﴾ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ ، وَتَحْرِيرُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ ن ﴾ حُوتٌ عَظِيمٌ عَلَى تَيَّارِ الْمَاءِ الْعَظِيمِ الْمُحِيطِ ، وَهُوَ حَامِلٌ لِلْأَرَضِينَ السَّبْعِ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ . قَالَ : اُكْتُبْ . قَالَ : وَمَاذَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اُكْتُبِ الْقَدَرَ ، فَجَرَى بِمَا يَكُونُ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمَ إِلَى يَوْمِ قِيَامِ السَّاعَةِ ، ثُمَّ خَلَقَ النُّونَ ، وَرَفَعَ بُخَارَ الْمَاءِ ، فَفُتِقَتْ مِنْهُ السَّمَاءُ ، وَبُسِطَتِ الْأَرْضُ عَلَى ظَهْرِ النُّونِ ، فَاضْطَرَبَ النُّونُ فَمَادَتِ الْأَرْضُ ، فَأُثْبِتَتْ بِالْجِبَالِ ، فَإِنَّهَا لَتَفْخَرُ عَلَى الْأَرْضِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْقَلَمِ ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّهُ جِنْسُ الْقَلَمِ الَّذِي يُكْتَبُ بِهِ ، كَقَوْلِهِ ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٣ - ٥] فَهُوَ قَسَمٌ مِنْهُ تَعَالَى ، وَتَنْبِيهٌ لِخَلْقِهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعْلِيمِ الْكِتَابَةِ الَّتِي بِهَا تُنَالُ الْعُلُومُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ وَمَا يَكْتُبُونَ ، وَقِيلَ : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أَيْ : وَمَا يَعْمَلُونَ ، وَقَالَ آخَرُونَ : بَلِ الْمُرَادُ هَهُنَا بِالْقَلَمِ الَّذِي أَجْرَاهُ اللهُ بِالْقَدَرِ حِينَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرَضِينَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ عَامٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أَيْ : لَسْتَ - وَللهِ الْحَمْدُ - بِمَجْنُونٍ كَمَا يَقُولُهُ الْجَهَلَةُ مِنْ قَوْمِكَ الْمُكَذِّبُونَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ الْمُبِينِ ، فَنَسَبُوكَ فِيهِ إِلَى الْجُنُونِ ﴿ وَإِنَّ

لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ﴾ أَيْ : بَلْ إِنَّ لَكَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ ، وَالثَّوَابَ الْجَزِيلَ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ وَلَا يَبِيدُ ، عَلَى إِبْلَاغِكَ رِسَالَةَ رَبِّكَ إِلَى الْخَلْقِ ، وَصَبْرِكَ عَلَى أَذَاهُمْ ، وَمَعْنَى : ﴿ غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ﴾ أَيْ : غَيْرُ مَقْطُوعٍ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : وَإِنَّكَ لَعَلَى دِينٍ عَظِيمٍ ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ . **وَقِيلَ** : لَعَلَى أَدَبٍ عَظِيمٍ . **عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ** : سَأَلْتُ عَائِشَةَ ، فَقُلْتُ : أَخْبِرِينِي يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ : أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ ، فَقَالَتْ : كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ . **وَمَعْنَى هَذَا** : أَنَّهُ ﷺ صَارَ امْتِثَالُ الْقُرْآنِ أَمْرًا وَنَهْيًا سَجِيَّةً لَهُ ، وَخُلُقًا تَطَبَّعَهُ وَتَرَكَ طَبْعَهُ الْجِبِلِّيَّ ، فَمَهْمَا أَمَرَهُ الْقُرْآنُ فَعَلَهُ وَمَهْمَا نَهَاهُ عَنْهُ تَرَكَهُ ، هَذَا مَعَ مَا جَبَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ مِنَ الْحَيَاءِ وَالْكَرَمِ وَالشَّجَاعَةِ وَالصَّفْحِ وَالْحِلْمِ وَكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ . **وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** ﷺ **قَالَ** : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ﴾ أَيْ : فَسَتَعْلَمُ يَا مُحَمَّدُ وَسَيَعْلَمُ مُخَالِفُوكَ وَمُكَذِّبُوكَ مَنِ الْمَفْتُونُ الضَّالُّ مِنْكَ وَمِنْهُمْ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴾[القمر : ٢٦] وَمَعْنَى الْمَفْتُونِ ظَاهِرٌ ، أَيْ : الَّذِي قَدِ افْتَتَنَ عَنِ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُ ، وَإِنَّمَا دَخَلَتِ « الْبَاءُ » فِي قَوْلِهِ : « بِأَيِّكُمْ » لِتَدُلَّ عَلَى تَضْمِينِ الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ﴾ ، وَتَقْدِيرُهُ : فَسَتَعْلَمُ وَيَعْلَمُونَ ، أَوْ فَسَتُخْبَرُ وَيُخْبَرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ أَيْ : هُوَ يَعْلَمُ تَعَالَى أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ هُوَ الْمُهْتَدِي ، وَيَعْلَمُ الْحِزْبَ الضَّالَّ عَنِ الْحَقِّ .

فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ۝١٦

يَقُولُ تَعَالَى ، كَمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْكَ وَأَعْطَيْنَاكَ الشَّرْعَ الْمُسْتَقِيمَ وَالْخُلُقَ الْعَظِيمَ ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ﴾ **قِيلَ** : لَوْ تُرَخِّصُ لَهُمْ فَيُرَخِّصُونَ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ ﴾ تَرْكَنُ إِلَى آلِهَتِهِمْ وَتَتْرُكُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْكَاذِبَ لِضَعْفِهِ وَمَهَانَتِهِ إِنَّمَا يَتَّقِي بِأَيْمَانِهِ الْكَاذِبَةِ الَّتِي يَجْتَرِئُ بِهَا عَلَى أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى ، وَاسْتِعْمَالِهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ فِي غَيْرِ مَحَلِّهَا ، **قِيلَ** : الْمَهِينُ : الْكَاذِبُ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الضَّعِيفُ الْقَلْبُ ، **وَقِيلَ** : كُلُّ حَلَّافٍ مُكَابِرٍ مَهِينٍ ضَعِيفٍ ﴿ هَمَّازٖ ﴾ يَعْنِي : الِاغْتِيَابُ ﴿ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴾ يَعْنِي :

الَّذِي يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ ، وَيُحَرِّشُ بَيْنَهُمْ ، وَيَنْقُلُ الْحَدِيثَ لِفَسَادِ ذَاتِ الْبَيْنِ وَهِيَ الْحَالِقَةُ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ : « **إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ** » الْحَدِيثَ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ **أَيْ** : **يَمْنَعُ مَا عَلَيْهِ وَمَا لَدَيْهِ** مِنَ الْخَيْرِ ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ فِي تَنَاوُلِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَهُ ، يَتَجَاوَزُ فِيهَا الْحَدَّ الْمَشْرُوعَ ﴿ أَثِيمٍ ﴾ **أَيْ** : يَتَنَاوَلُ الْمُحَرَّمَاتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ **أَمَّا الْعُتُلُّ فَهُوَ** : الْفَظُّ الْغَلِيظُ الصَّحِيحُ الْجَمُوعُ الْمَنُوعُ . **وَأَمَّا الزَّنِيمُ** : فَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ **قَالَ** : رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ لَهُ زَنَمَةٌ مِثْلَ زَنَمَةِ الشَّاةِ . وَمَعْنَى هَذَا : أَنَّهُ كَانَ مَشْهُورًا بِالسُّوءِ كَشُهْرَةِ الشَّاةِ ذَاتِ الزَّنَمَةِ مِنْ بَيْنِ أَخَوَاتِهَا ، **وَإِنَّمَا الزَّنِيمُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ** : هُوَ الدَّعِيُّ فِي الْقَوْلِ . **وَقِيلَ** : الدَّعِيُّ الْفَاحِشُ اللَّئِيمُ . **وَقِيلَ** : هُوَ وَلَدُ الزِّنَا ، وَالْأَقْوَالُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ ، وَتَرْجِعُ إِلَى مَا قُلْنَاهُ ، وَهُوَ أَنَّ الزَّنِيمَ **هُوَ** : الْمَشْهُورُ بِالشَّرِّ الَّذِي يُعْرَفُ بِهِ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ ، وَغَالِبًا يَكُونُ دَعِيًّا وَلَدَ زِنًا ، فَإِنَّهُ فِي الْغَالِبِ يَتَسَلَّطُ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِ مَا لَا يَتَسَلَّطُ عَلَى غَيْرِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ **يَقُولُ تَعَالَى** : هَذَا مُقَابَلَةُ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ وَالْبَنِينَ ، كَفَرَ بِآيَاتِ اللهِ ﷻ وَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَزَعَمَ أَنَّهَا كَذِبٌ مَأْخُوذٌ مِنْ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : سَنُبَيِّنُ أَمْرَهُ بَيَانًا وَاضِحًا حَتَّى يَعْرِفُوهُ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ ، كَمَا لَا تَخْفَى السِّمَةُ عَلَى الْخَرَاطِيمِ ، **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ يُقَاتِلُ يَوْمَ بَدْرٍ فَيُخْطَمُ بِالسَّيْفِ فِي الْقِتَالِ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ سَنَسِمُهُۥ ﴾ سِمَةُ أَهْلِ النَّارِ ، يَعْنِي : نُسَوِّدُ وَجْهَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَعَبَّرَ عَنِ الْوَجْهِ بِالْخُرْطُومِ . وَلَا مَانِعَ مِنِ اجْتِمَاعِ الْجَمِيعِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ
۝١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠ فَتَنَادَوْاْ
مُصْبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ۝٢٢ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ
۝٢٣ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۝٢٤ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ۝٢٥ فَلَمَّا رَأَوْهَا
قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ
۝٢٨ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠
قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢

كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ فِيمَا أَهْدَى إِلَيْهِمْ مِنَ الرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ وَأَعْطَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ الجَسِيمَةِ ، وَهُوَ بَعْثُهُ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَيْهِمْ ، فَقَابَلُوهُ بِالتَّكْذِيبِ وَالرَّدِّ وَالمُحَارَبَةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ ﴾ أَيْ : اخْتَبَرْنَاهُمْ ﴿ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ وَهِيَ الْبُسْتَانُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى أَنْوَاعِ الثِّمَارِ وَالْفَوَاكِهِ ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أَيْ : حَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ لَيَجُذُّنَّ ثَمَرَهَا لَيْلًا ؛ لِئَلَّا يَعْلَمَ بِهِمْ فَقِيرٌ وَلَا سَائِلٌ لِيَتَوَفَّرَ ثَمَرُهَا عَلَيْهِمْ وَلَا يَتَصَدَّقُوا مِنْهُ بِشَيْءٍ ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ أَيْ : فِيمَا حَلَفُوا بِهِ ، وَلِهَذَا حَنَّثَهُمُ اللهُ فِي أَيْمَانِهِمْ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ أَيْ : أَصَابَتْهَا آفَةٌ سَمَاوِيَّةٌ ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ أَيْ : كَاللَّيْلِ الْأَسْوَدِ ، **وَقِيلَ** : مِثْلَ الزَّرْعِ إِذَا حُصِدَ أَيْ : هَشِيمًا يَبِسًا ﴿ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴾ أَيْ : لَمَّا كَانَ وَقْتُ الصُّبْحِ نَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِيَذْهَبُوا إِلَى الجِذَاذِ ﴿ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴾ أَيْ : تُرِيدُونَ الصِّرَامَ ﴿ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴾ أَيْ : يَتَنَاجَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، بِحَيْثُ لَا يُسْمِعُونَ أَحَدًا كَلَامَهُمْ . ثُمَّ فَسَّرَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَالِمُ السِّرِّ وَالنَّجْوَى - مَا كَانُوا يَتَخَافَتُونَ بِهِ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ أَيْ : يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَا تُمَكِّنُوا الْيَوْمَ فَقِيرًا يَدْخُلُهَا عَلَيْكُمْ ﴿ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أَيْ : قُوَّةٍ وَشِدَّةٍ ، **وَقِيلَ** : أَيْ : جِدٍّ ، **وَقِيلَ** : عَلَى غَيْظٍ ﴿ قَـٰدِرِينَ ﴾ أَيْ : عَلَيْهَا فِيمَا يَزْعُمُونَ وَيَرُومُونَ .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ أَيْ : فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهَا وَأَشْرَفُوا عَلَيْهَا ، وَهِيَ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي قَالَ اللهُ ﷻ قَدِ اسْتَحَالَتْ عَنْ تِلْكَ النَّضَارَةِ وَالزَّهْرَةِ وَكَثْرَةِ الثِّمَارِ إِلَى أَنْ صَارَتْ سَوْدَاءَ مُدْلَهِمَّةً لَا يُنْتَفَعُ بِشَيْءٍ مِنْهَا ، فَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَخْطَئُوا الطَّرِيقَ ، **وَلِهَذَا قَالُوا** : ﴿ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ أَيْ : قَدْ سَلَكْنَا إِلَيْهَا غَيْرَ الطَّرِيقِ فَتُهْنَا عَنْهَا ، ثُمَّ رَجَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ وَتَيَقَّنُوا أَنَّهَا هِيَ ، **فَقَالُوا** : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أَيْ : بَلْ هِيَ هَذِهِ وَلَكِنْ نَحْنُ لَا حَظَّ لَنَا وَلَا نَصِيبَ ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أَيْ : أَعْدَلُهُمْ وَخَيْرُهُمْ ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أَيْ : لَوْلَا تَسْتَثْنُونَ ، **وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ** : هُوَ قَوْلُ الْقَائِلِ : إِنْ شَاءَ اللهُ ، **وَقِيلَ مَعْنَاهُ** : هَلَّا تُسَبِّحُونَ اللهَ وَتَشْكُرُونَهُ عَلَى مَا أَعْطَاكُمْ وَأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾ أَتَوْا بِالطَّاعَةِ حَيْثُ لَا تَنْفَعُ ، وَنَدِمُوا وَاعْتَرَفُوا حَيْثُ لَا يَنْفَعُ ، **وَلِهَذَا قَالُوا** : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾ ، ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴾ أَيْ : يَلُومُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى مَا كَانُوا أَصَرُّوا عَلَيْهِ مِنْ مَنْعِ الْمَسَاكِينِ مِنْ حَقِّ الجِذَاذِ ، فَمَا كَانَ جَوَابُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ إِلَّا الِاعْتِرَافُ بِالْخَطِيئَةِ وَالذَّنْبِ ﴿ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴾ أَيْ : اعْتَدَيْنَا وَبَغَيْنَا

وَطَغَيْنَا ، وَجَاوَزْنَا الحَدَّ حَتَّى أَصَابَنَا مَا أَصَابَنَا ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ قِيلَ : رَغِبُوا فِي بَدَلِهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَقِيلَ : اِحْتَسَبُوا ثَوَابَهَا فِي الدَّارِ الآخِرَةِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾ أَيْ : هَكَذَا عَذَابُ مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللهِ وَبَخِلَ بِمَا آتَاهُ اللهُ وَأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ ، وَمَنَعَ حَقَّ الْمِسْكِينِ وَالْفَقِيرِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ ، وَبَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : هَذِهِ عُقُوبَةُ الدُّنْيَا كَمَا سَمِعْتُمْ ، وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ أَهْلِ الْجَنَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، وَمَا أَصَابَهُمْ فِيهَا مِنَ النِّقْمَةِ حِينَ عَصَوا اللهَ ﷻ وَخَالَفُوا أَمْرَهُ ، بَيَّنَ أَنَّ لِمَنِ اتَّقَاهُ وَأَطَاعَهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ جَنَّاتُ النَّعِيمِ الَّتِي لَا تَبِيدُ . وَلَا تَفْرُغُ وَلَا يَنْقَضِي نَعِيمُهَا .ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أَيْ : أَفَنُسَاوِي بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فِي الْجَزَاءِ ، كَلَّا وَرَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أَيْ : كَيْفَ تَظُنُّونَ ذَلِكَ ؟.ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى أَفَبِأَيْدِيكُمْ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنَ السَّمَاءِ تَدْرُسُونَهُ وَتَحْفَظُونَهُ وَتَتَدَاوَلُونَهُ بِنَقْلِ الْخَلَفِ عَنِ السَّلَفِ مُتَضَمِّنٌ حُكْمًا مُؤَكَّدًا كَمَا تَدْعُونَهُ ؟ ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أَيْ : أَمَعَكُمْ عُهُودٌ مِنَّا وَمَوَاثِيقُ مُؤَكَّدَةٌ ؟ ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ سَيَحْصُلُ لَكُمْ مَا تُرِيدُونَ وَتَشْتَهُونَ ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ أَيْ : قُلْ لَهُمْ : مَنْ هُوَ الْمُتَضَمِّنُ الْمُتَكَفِّلُ بِهَذَا ؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَـٰدِقِينَ ﴾ .

يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ، بَيَّنَ مَتَى ذَلِكَ كَائِنٌ وَوَاقِعٌ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ

مِنَ الْأَهْوَالِ وَالزَّلَازِلِ وَالْبَلَاءِ وَالِامْتِحَانِ وَالْأُمُورِ الْعِظَامِ . عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « **يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً ، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ بِإِجْرَامِهِمْ وَتَكَبُّرِهِمْ فِي الدُّنْيَا فَعُوقِبُوا بِنَقِيضِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ ، وَلَمَّا دُعُوا إِلَى السُّجُودِ فِي الدُّنْيَا فَامْتَنَعُوا مِنْهُ مَعَ صِحَّتِهِمْ وَسَلَامَتِهِمْ ، كَذَلِكَ عُوقِبُوا بِعَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ إِذَا تَجَلَّى الرَّبُّ ﷻ فَيَسْجُدُ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ الْكَافِرِينَ وَلَا الْمُنَافِقِينَ أَنْ يَسْجُدَ ، بَلْ يَعُودُ ظَهْرُ أَحَدِهِمْ طَبَقًا وَاحِدًا ، كُلَّمَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ لِقَفَاهُ عَكْسَ السُّجُودِ ، كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ ، أَيْ : دَعْنِي وَإِيَّاهُ مِنِّي وَمِنْهُ أَنَا أَعْلَمُ بِهِ كَيْفَ أَسْتَدْرِجُهُ ، وَأَمُدُّهُ فِي غَيِّهِ وَأُنْظِرُهُ ، ثُمَّ آخُذُهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، بَلْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللهِ كَرَامَةٌ وَهُوَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ إِهَانَةٌ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أَيْ : وَأُؤَخِّرُهُمْ وَأُنْظِرُهُمْ وَأَمُدُّهُمْ ، وَذَلِكَ مِنْ كَيْدِي وَمَكْرِي بِهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أَيْ : عَظِيمٌ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَكَذَّبَ رُسُلِي وَاجْتَرَأَ عَلَى مَعْصِيَتِي .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ : أَنَّكَ يَا مُحَمَّدُ تَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ بِلَا أَجْرٍ تَأْخُذُهُ مِنْهُمْ ، بَلْ تَرْجُو ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى ، وَهُمْ يُكَذِّبُونَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ بِمُجَرَّدِ الْجَهْلِ وَالْكُفْرِ وَالْعِنَادِ .

فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ عَلَى أَذَى قَوْمِكَ لَكَ وَتَكْذِيبِهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ سَيَحْكُمُ لَكَ عَلَيْهِمْ ، وَيَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلِأَتْبَاعِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ يَعْنِي : ذَا النُّونِ ، وَهُوَ يُونُسُ بْنُ مَتَّى ﷺ ، حِينَ ذَهَبَ مُغَاضِبًا عَلَى قَوْمِهِ ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ مِنْ رُكُوبِهِ فِي الْبَحْرِ ، وَالْتِقَامِ الْحُوتِ لَهُ ، وَشُرُودِ الْحُوتِ بِهِ فِي الْبِحَارِ ، وَظُلُمَاتِ غَمَرَاتِ الْيَمِّ ، وَسَمَاعِهِ تَسْبِيحَ الْبَحْرِ بِمَا فِيهِ لِلْعَلِيِّ الْقَدِيرِ الَّذِي لَا يَرُدُّ مَا أَنْفَذَهُ مِنَ التَّقْدِيرِ ، فَحِينَئِذٍ نَادَى فِي

الظُّلُمَاتِ ﴿ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٨] ، وَقَالَ هَاهُنَا ﴿ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ أي : مَكْرُوبٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ لَيُنْفِذُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ، أَيْ : لَيَعِينُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ، بِمَعْنَى : يَحْسُدُونَكَ لِبُغْضِهِمْ إِيَّاكَ ، لَوْلَا وِقَايَةُ اللهِ لَكَ وَحِمَايَتُهُ إِيَّاكَ مِنْهُمْ ، وَفِي هَذِهِ الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَيْنَ إِصَابَتُهَا وَتَأْثِيرُهَا حَقٌّ بِأَمْرِ اللهِ ﷻ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **الْعَيْنُ حَقٌّ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَر سَبَقَتِ الْعَيْنُ ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا** » . وَعَنْ عُبَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ قَالَ : قَالَتْ أَسْمَاءُ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ بَنِي جَعْفَرٍ تُصِيبُهُمُ الْعَيْنُ أَفَأَسْتَرْقِي لَهُمْ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبِقُ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ أَيْ : يَزْدَرُونَهُ بِأَعْيُنِهِمْ وَيُؤْذُونَهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ، أَيْ : لِمَجِيئِهِ بِالْقُرْآنِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « الْقَلَمِ » وَللهِ الْحَمْدُ

آياتها ٥٢ تفسيرُ سُورَةِ الحاقة مكيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾

« الْحَاقَّةُ » مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لأَنَّ فِيهَا يَتَحَقَّقُ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ ؛ وَلِهَذَا عَظَّمَ اللهُ أَمْرَهَا فَقَالَ : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى إِهْلَاكَهُ الأُمَمَ الْمُكَذِّبِينَ بِهَا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴾ ، وَهِيَ الصَّيْحَةُ الَّتِي أَسْكَتَتْهُمْ وَالزَّلْزَلَةُ الَّتِي أَسْكَنَتْهُمْ . ﴿ وَأَمَّا عَادٌ

فَأُهْلِكُوا بريحٍ صَرْصَرٍ﴾ أَيْ : بَادِرَةٍ ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ أَيْ : شَدِيدَةِ الْهُبُوبِ . **قَالَ قَتَادَةُ** : عَتَتْ عَلَيْهِمْ حَتَّى نَقَّبَتْ عَنْ أَفْئِدَتِهِمْ ، **وَقِيلَ** : ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ عَتَتْ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ رَحْمَةٍ وَلَا بَرَكَةٍ ، ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : سَلَّطَهَا عَلَيْهِمْ ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ أَيْ : كَوَامِلَ مُتَتَابِعَاتٍ مَشَائِيمَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ ، **قِيلَ** : لأَنَّهَا تَكُونُ فِي عَجُزِ الشِّتَاءِ . ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ خَرِبَةٌ ، **وَقِيلَ** : بَالِيَةٌ ، أَيْ : جَعَلَتِ الرِّيحُ تَضْرِبُ بِأَحَدِهِمُ الأَرْضَ فَيَخِرُّ مَيِّتًا عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ ، فَيَنْشَرِخُ رَأْسُهُ وَتَبْقَى جُثَّتُهُ هَامِدَةً ، كَأَنَّهَا قَائِمَةُ النَّخْلَةِ إِذَا خَرَّتْ بِلَا أَغْصَانٍ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **نُصِرْتُ بِالصَّبَا ، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ** » . ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ أَيْ : هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَقَايَاهُمْ أَوْ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِمْ ؟ بَلْ بَادُوا عَنْ آخِرِهِمْ وَلَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُمْ خَلَفًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قِبَلَهُۥ ﴾ قُرِئَ بِكَسْرِ الْقَافِ ، أَيْ : وَمَنْ عِنْدَهُ مِمَّنْ فِي زَمَانِهِ مِنْ أَتْبَاعِهِ مِنْ كُفَّارِ الْقِبْطِ ، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِفَتْحِهَا ، أَيْ : وَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الأُمَمِ الْمُشْبِهِينَ لَهُ ، ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ ﴾ ، وَهُمُ الأُمَمُ الْمُكَذِّبُونَ بِالرُّسُلِ ﴿ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴾ ، أَيْ : بِالْفَعْلَةِ الْخَاطِئَةِ وَهِيَ التَّكْذِيبُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ . **قَالَ الرَّبِيعُ** : ﴿ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴾ أَيْ : بِالْمَعْصِيَةِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : بِالْخَطَايَا ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ ، وَهَذَا جِنْسٌ ، أَيْ : كُلٌّ كَذَّبَ رَسُولَ اللهِ إِلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ [ص : ١٤]فَحَقَّ وَعِيد ، وَمَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ فَقَدْ كَذَّبَ بِالْجَمِيعِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٥]﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٢٣]﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٤١]، وَإِنَّمَا جَاءَ إِلَى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ وَاحِدٌ ، **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا**: ﴿ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ أَيْ : عَظِيمَةً شَدِيدَةً أَلِيمَةً .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ ﴾ أَيْ : زَادَ عَلَى الْحَدِّ بِإِذْنِ اللهِ وَارْتَفَعَ عَلَى الْوُجُودِ . وَذَلِكَ بِسَبَبِ دَعْوَةِ نُوحٍ عَلَى قَوْمِهِ حِينَ كَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ فَعَبَدُوا غَيْرَ اللهِ فَاسْتَجَابَ اللهُ لَهُ وَعَمَّ أَهْلَ الأَرْضِ بِالطُّوفَانِ ، إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْ سُلَالَةِ نُوحٍ وَذُرِّيَّتِهِ . ﴿ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ ، وَهِيَ السَّفِينَةُ الْجَارِيَةُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ **عَادَ الضَّمِيرُ** عَلَى الْجِنْسِ لِدَلَالَةِ الْمَعْنَى عَلَيْهِ ، أَيْ : وَأَبْقَيْنَا لَكُمْ مِنْ جِنْسِهَا مَا تَرْكَبُونَ عَلَى تَيَّارِ الْمَاءِ فِي الْبِحَارِ ، ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ أَيْ : وَتَفْهَمُ هَذِهِ النِّعْمَةَ وَتَذْكُرُهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ . **قِيلَ** : حَافِظَةٌ سَامِعَةٌ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ عَقَلَتْ عَنِ اللهِ فَانْتَفَعَتْ بِمَا سَمِعَتْ مِنْ كِتَابِ اللهِ .

فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ ذَلِكَ نَفْخَةُ الْفَزَعِ، ثُمَّ يُعْقِبُهَا نَفْخَةُ الصَّعْقِ حِينَ يُصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ بَعْدَهَا نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَالْبَعْثُ وَالنُّشُورُ، وَهِيَ هَذِهِ النَّفْخَةُ، وَقَدْ أَكَّدَهَا هَهُنَا بِأَنَّهَا وَاحِدَةٌ؛ لأَنَّ أَمْرَ اللهِ لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكْرَارٍ وَتَأْكِيدٍ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ أَيْ: فَمُدَّتْ مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاظِيِّ، وَتَبَدَّلَتِ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ، ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أَيْ: قَامَتِ الْقِيَامَةُ ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾، **قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ**: هِيَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبأ: ١٩] ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ الْمَلَكُ: اِسْمُ جِنْسٍ، أَيْ: الْمَلَائِكَةُ عَلَى أَرْجَاءِ السَّمَاءِ. **رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ**: عَلَى مَا لَمْ يَهِ مِنْهَا. أَيْ: حَافَّتَهَا، **وَقِيلَ**: أَطْرَافَهَا، **وَقِيلَ**: أَبْوَابَهَا. ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ الْعَرْشَ ثَمَانِيَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَذَا الْعَرْشِ الْعَرْشَ الْعَظِيمَ، أَوِ الْعَرْشُ الَّذِي يُوضَعُ فِي الْأَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ. **وَعَنْ جَابِرٍ** ﷺ **قَالَ**: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ عَنْ مَلَكٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، بُعْدُ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وَعُنُقِهِ مَخْفِقُ الطَّيْرِ سَبْعُمِائَةِ عَامٍ**». **وَقَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أَيْ: تُعْرَضُونَ عَلَى عَالِمِ السِّرِّ وَالنَّجْوَى الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِكُمْ، بَلْ هُوَ عَالِمٌ بِالظَّوَاهِرِ وَالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ سَعَادَةِ مَنْ يُؤْتَى كِتَابَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَمِينِهِ وَفَرَحِهِ بِذَلِكَ، وَأَنَّهُ مِنْ شِدَّةِ فَرَحِهِ يَقُولُ لِكُلِّ مَنْ لَقِيَهُ: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ أَيْ: خُذُوا اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ؛ لأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي فِيهِ خَيْرٌ وَحَسَنَاتٌ مَحْضَةٌ؛ لأَنَّهُ مِمَّنْ بَدَّلَ اللهُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ. وَ﴿هَآؤُمُ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّهَا بِمَعْنَى: هَاكُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أَيْ: قَدْ كُنْتُ مُوقِنًا فِي الدُّنْيَا أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أَيْ: مَرْضِيَّةٍ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أَيْ: رَفِيعَةٌ قُصُورُهَا، حِسَانٌ حُورُهَا، نَعِيمَةٌ دُورُهَا، دَائِمٌ حُبُورُهَا. ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أَيْ: قَرِيبَةٌ يَتَنَاوَلُهَا أَحَدُهُمْ وَهُوَ نَائِمٌ عَلَى سَرِيرِهِ.

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وَهَـٰذَا إِخْبَارٌ عَنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ إِذَا أُعْطِيَ أَحَدُهُمْ كِتَابَهُ فِي الْعَرَصَـاتِ بِشِمَالِهِ ، فَحِينَئِذٍ يَنْدَمُ غَايَةَ النَّدَمِ ، فَيَقُولُ : ﴿ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾ يَعْنِي : مَوْتَةً لَا حَيَاةَ بَعْدَهَا ، وَقَالَ قَتَادَةُ : تَمَنَّى المَوْتَ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ فِي الدُّنْيَا أَكْرَهُ إِلَيْهِ مِنْهُ . ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ أَيْ : لَمْ يَدْفَعْ عَنِّي مَالِي وَلَا جَاهِي عَذَابَ اللهِ وَبَأْسَهُ ، بَلْ خَلَصَ الْأَمْرُ إِلَيَّ وَحْدِي ، فَلَا مُعِينَ لِي وَلَا مُجِيرَ ، فَعِنْدَهَا يَقُولُ اللهُ ﷻ : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أَيْ : يَأْمُرُ الزَّبَانِيَةَ أَنْ تَأْخُذَهُ عُنُفًا مِنَ المَحْشَرِ ، فَتَغُلَّهُ ، أَيْ : تَضَعُ الْأَغْلَالَ فِي عُنُقِهِ ، ثُمَّ تُورِدُهُ إِلَى جَهَنَّمَ فَتُصْلِيهِ إِيَّاهَا ، أَيْ : تَغْمُرُهُ فِيهَا . ﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أَيْ : اغْمُرُوهُ فِيهَا . ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ قِيلَ : بِذِرَاعِ المَلَكِ . ﴿ فَٱسْلُكُوهُ ﴾ قِيلَ : تَدْخُلُ فِي اسْتِهِ ثُمَّ تَخْرُجُ مِنْ فِيهِ ، ثُمَّ يُنْظَمُونَ فِيهَا كَمَا يُنْظَمُ الجَرَادُ فِي الْعُودِ حِينَ يُشْوَى . ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ أَيْ : لَا يَقُومُ بِحَقِّ اللهِ عَلَيْهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ ، وَلَا يَنْفَعُ خَلْقَهُ وَيُؤَدِّي حَقَّهُمْ ، فَإِنَّ للهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُوَحِّدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَلِلْعِبَادِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ حَقُّ الْإِحْسَانِ وَالمُعَاوَنَةِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى . ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ مَنْ يُنْقِذُهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى ، لَا حَمِيمٌ ، وَهُوَ الْقَرِيبُ ، وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ ، وَلَا طَعَامٌ لَهُ هَهُنَا إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ . قَالَ قَتَادَةُ : هُوَ شَرُّ طَعَامِ أَهْلِ النَّارِ ، وَقِيلَ : الغِسْلِينُ : الدَّمُ وَالمَاءُ يَسِيلُ مِنْ لُحُومِهِمْ .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُقْسِمًا لِخَلْقِهِ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ آيَاتِهِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِهِ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ،

وَمَا غَابَ عَنْهُمْ مِمَّا لَا يُشَاهِدُونَهُ مِنَ الْمُغَيَّبَاتِ عَنْهُمْ : إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُهُ وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ ، أَضَافَهُ إِلَيْهِ عَلَى مَعْنَى التَّبْلِيغِ ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُبَلِّغَ عَنِ الْمُرْسِلِ ؛ وَلِهَذَا أَضَافَهُ فِي سُورَةِ التَّكْوِيرِ إِلَى الرَّسُولِ الْمَلَكِيِّ : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ وَهَذَا جِبْرِيلُ عليه السلام . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى جِبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أَيْ : بِمُتَّهَمٍ ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ فَأَضَافَهُ اللهُ تَارَةً إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ الْمَلَكِيِّ ، وَتَارَةً إِلَى الرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ ؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُبَلِّغٌ عَنِ اللهِ مَا اسْتَأْمَنَهُ عَلَيْهِ مِنْ وَحْيِهِ وَكَلَامِهِ ؛ ولهذا قال : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا ﴾ أَيْ : مُحَمَّدٌ ﷺ ، لَوْ كَانَ كَمَا يَزْعُمُونَ مُفْتَرِيًا عَلَيْنَا فَزَادَ فِي الرِّسَالَةِ أَوْ نَقَصَ مِنْهَا ، أَوْ قَالَ شَيْئًا مِنْ عِنْدِهِ فَنَسَبَهُ إِلَيْنَا ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ لَعَاجَلْنَاهُ بِالْعُقُوبَةِ ؛ ولِهَذَا قَالَ : ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ ، قِيلَ : مَعْنَاهُ لَانْتَقَمْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ؛ لِأَنَّهَا أَشَدُّ فِي الْبَطْشِ ، وَقِيلَ : لَأَخَذْنَا بِيَمِينِهِ . ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هُوَ نِيَاطُ الْقَلْبِ ، وَهُوَ الْعِرْقُ الَّذِي الْقَلْبُ مُعَلَّقٌ فِيهِ . ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ أَيْ : فَمَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْكُمْ عَلَى أَنْ يَحْجِزَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ إِذَا أَرَدْنَا بِهِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، وَالْمَعْنَى فِي هَذَا : بَلْ هُوَ صَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ ؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مُقَرِّرٌ لَهُ مَا يُبَلِّغُهُ عَنْهُ ، وَمُؤَيِّدٌ لَهُ بِالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَالدَّلَالَاتِ الْقَاطِعَاتِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ، ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ أَيْ : مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَالْوُضُوحِ سَيُوجَدُ مِنْكُمْ مَنْ يُكَذِّبُ بِالْقُرْآنِ . ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَإِنَّ التَّكْذِيبَ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَقِيلَ : لَنَدَامَةٌ ، وَيَحْتَمِلُ عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَى الْقُرْآنِ ، أَيْ : وَإِنَّ الْقُرْآنَ وَالْإِيمَانَ بِهِ لَحَسْرَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ عَلَى الْكَافِرِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [الشعراء : ٢٠٠ - ٢٠١]

وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ أَيْ : الْخَبَرُ الصِّدْقُ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ وَلَا رَيْبَ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أَيْ : الَّذِي أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الحَاقَّةِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ

آياتها ٤٤ تفسيرُ سُورَةِ المَعَارِج مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾

﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ فِيهِ تَضْمِينٌ دَلَّ عَلَيْهِ حَرْفُ « الْبَاءِ » كَأَنَّهُ مُقَدَّرٌ اِسْتَعْجَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ [الحج : ٤٧] أَيْ : وَعَذَابُهُ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ قَالَ : النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ كِلْدَةَ ، وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ : ذَلِكَ سُؤَالُ الْكُفَّارِ عَنْ عَذَابِ اللهِ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ، وَقِيلَ : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ ﴾ دَعَا دَاعٍ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ يَقَعُ فِي الْآخِرَةِ ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : مُرْصَدٌ مُعَدٌّ لِلْكَافِرِينَ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: ﴿ وَاقِعٍ ﴾ جَاءٍ ﴿ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ أَيْ : لَا دَافِعَ لَهُ إِذَا أَرَادَ اللهُ كَوْنَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ذُو الدَّرَجَاتِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾ يَعْنِي : الْعُلُوَّ وَالْفَوَاضِلَ . ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ تَعْرُجُ : تَصْعَدُ ، وَأَمَّا الرُّوحُ ، فَقَالَ الْبَعْضُ : هُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يُشْبِهُونَ النَّاسَ وَلَيْسُوا أُنَاسًا ، قُلْتُ : وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ جِبْرِيلُ وَيَكُونُ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اِسْمُ جِنْسٍ لِأَرْوَاحِ بَنِي آدَمَ ، فَإِنَّهَا إِذَا قُبِضَتْ يَصْعَدُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ الْبَرَاءِ . ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَا مِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي حَقَّهُ إِلَّا جُعِلَ صَفَائِحُ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، فَتُكْوَى بِهَا جَبْهَتُهُ وَجَنْبُهُ وَظَهْرُهُ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ

بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ » . وَعَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ ﷺ قَالَ : سَأَلَ رَجُلٌ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قَالَ : فَاتَّهَمَهُ ، فَقِيلَ لَهُ فِيهِ ، فَقَالَ : مَا يَوْمٌ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا سَأَلْتُكَ لِتُحَدِّثَنِي . قَالَ : هُمَا يَوْمَانِ ذَكَرَهُمَا اللهُ ، اللهُ أَعْلَمُ بِهِمَا ، وَأَكْرَهُ أَنْ أَقُولَ فِي كِتَابِ اللهِ بِمَا لَا أَعْلَمُ . ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ أَيْ : اصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى تَكْذِيبِ قَوْمِكَ لَكَ وَاسْتِعْجَالِهِمُ الْعَذَابَ اسْتِبْعَادًا لِوُقُوعِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾[الشورى : ١٨] وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴾ أَيْ : وُقُوعَ الْعَذَابِ وَقِيَامَ السَّاعَةِ يَرَاهُ الْكَفَرَةُ بَعِيدَ الْوُقُوعِ ، بِمَعْنَى مُسْتَحِيلُ الْوُقُوعِ ﴿ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ أَيْ : المُؤْمِنُونَ يَعْتَقِدُونَ كَوْنَهُ قَرِيبًا ، وَإِنْ كَانَ لَهُ أَمَدٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ ﷻ لَكِنْ كُلُّ مَا هُوَ آتٍ فَهُوَ قَرِيبٌ وَوَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ .

يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : الْعَذَابُ وَاقِعٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : أَيْ : كَدُرْدِيِّ الزَّيْتِ ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾ أَيْ : كَالصُّوفِ المَنْفُوشِ . ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ أَيْ : لَا يَسْأَلُ الْقَرِيبُ قَرِيبَهُ عَنْ حَالِهِ وَهُوَ يَرَاهُ فِي أَسْوَإِ الْأَحْوَالِ ، فَتَشْغَلُهُ نَفْسُهُ عَنْ غَيْرِهِ ، قِيلَ : يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ يَفِرُّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ بَعْدَ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ﴾ أَيْ : لَا يُقْبَلُ مِنْهُ فِدَاءٌ وَلَوْ جَاءَ بِأَهْلِ الْأَرْضِ وَبِأَعَزِّ مَا يَجِدُهُ مِنَ المَالِ ، وَلَوْ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا ، أَوْ مِنْ وَلَدِهِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا حُشَاشَةَ كَبِدِهِ يَوَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا رَأَى الْأَهْوَالَ أَنْ يَفْتَدِيَ مِنْ عَذَابِ اللهِ بِهِ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ . قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ قَبِيلَتِهِ وَعَشِيرَتِهِ ، وَقِيلَ : ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ : أُمِّهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾ يَصِفُ النَّارَ ، وَشِدَّةَ حَرِّهَا ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ قِيلَ : جِلْدَةُ الرَّأْسِ ، ﴿ نَزَّاعَةً ﴾ أَيْ : تُقْطَعُ عِظَامُهُ ثُمَّ يُجَدَّدُ خَلْقُهُمْ وَتُبَدَّلُ جُلُودُهُمْ .﴿ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾ أَيْ : تَدْعُو النَّارُ إِلَيْهَا أَبْنَاءَهَا الَّذِينَ خَلَقَهُمُ اللهُ لَهَا ، وَقَدَّرَ لَهُمْ أَنَّهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا

يَعْمَلُونَ عَمَلَهَا ، فَتَدْعُوهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِسَانٍ طَلْقٍ ذَلْقٍ ، ثُمَّ تَلْتَقِطُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِ الْمَحْشَرِ كَمَا يَلْتَقِطُ الطَّيْرُ الْحَبَّ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ كَانُوا مِمَّنْ ﴿ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أَيْ : كَذَّبَ بِقَلْبِهِ ، وَتَرَكَ الْعَمَلَ بِجَوَارِحِهِ ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾ أَيْ : جَمَعَ الْمَالَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَأَوْعَاهُ ، أَيْ : أَوْكَاهُ وَمَنَعَ حَقَّ اللهِ مِنْهُ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ فِي النَّفَقَاتِ وَمِنْ إِخْرَاجِ الزَّكَاةِ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ : « **لَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللهُ عَلَيْكِ** ».

۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْإِنْسَانِ وَمَا هُوَ مَجْبُولٌ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الدَّنِيئَةِ : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ أَيْ : إِذَا أَصَابَهُ الضُّرُّ فَزِعَ وَجَزِعَ وَانْخَلَعَ قَلْبُهُ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ ، وَأَيِسَ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ أَيْ : إِذَا حَصَلَتْ لَهُ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ بَخِلَ بِهَا عَلَى غَيْرِهِ وَمَنَعَ حَقَّ اللهِ تَعَالَى فِيهَا ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ أَيْ : الْإِنْسَانُ مِنْ حَيْثُ هُوَ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الذَّمِّ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ وَوَفَّقَهُ ، وَهَدَاهُ إِلَى الْخَيْرِ وَيَسَّرَ لَهُ أَسْبَابَهُ وَهُمُ الْمُصَلُّونَ ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ **قِيلَ** : مَعْنَاهُ يُحَافِظُونَ عَلَى أَوْقَاتِهَا وَوَاجِبَاتِهَا ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِالدَّوَامِ هَهُنَا : السُّكُونُ وَالْخُشُوعُ ، وَمِنْهُ الْمَاءُ الدَّائِمُ أَيِ : السَّاكِنُ الرَّاكِدُ ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِذَلِكَ الَّذِينَ إِذَا عَمِلُوا عَمَلًا دَاوَمُوا عَلَيْهِ وَأَثْبَتُوهُ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ** ».

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ أَيْ : فِي أَمْوَالِهِمْ نَصِيبٌ مُقَرَّرٌ لِذَوِي الْحَاجَاتِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي « سُورَةِ الذَّارِيَاتِ ».

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ أَيْ : يُوقِنُونَ بِالْمَعَادِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ ، فَهُمْ يَعْمَلُونَ عَمَلَ مَنْ يَرْجُو الثَّوَابَ وَيَخَافُ الْعِقَابَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أَيْ : خَائِفُونَ وَجِلُونَ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ أَيْ : لَا يَأْمَنُهُ أَحَدٌ مِمَّنْ عَقَلَ عَنِ

الله أَمْرَهُ إِلَّا بِأَمَانٍ مِنَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴾ أَيْ : وَالَّذِينَ قَدْ حَفِظُوا فُرُوجَهُمْ مِنَ الْحَرَامِ فَلَا يَقَعُونَ فِيمَا نَهَاهُمُ اللهُ عَنْهُ مِنْ زِنًا وَلِوَاطٍ ، **وَقَدِ اسْتَدَلَّ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - وَمَنْ وَافَقَهُ عَلَى تَحْرِيمِ الِاسْتِمْنَاءِ بِالْيَدِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ** ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ ﴾ قَالَ فَهَذَا الصَّنِيعُ خَارِجٌ عَنْ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ أَيْ : لَا يَقْرَبُونَ سِوَى أَزْوَاجِهِمُ الَّتِي أَحَلَّهَا اللهُ لَهُمْ ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ مِنَ السَّرَارِيِّ ، وَمَنْ تَعَاطَى مَا أَحَلَّهُ اللهُ لَهُ فَلَا لَوْمَ عَلَيْهِ وَلَا حَرَجَ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ . ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : غَيْرَ الْأَزْوَاجِ وَالْإِمَاءِ ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ أَيْ : الْمُعْتَدُونَ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ أَيْ : إِذَا أُؤْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا ، وَإِذَا عَاهَدُوا لَمْ يَغْدِرُوا وَهَذِهِ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَضِدُّهَا صِفَاتُ الْمُنَافِقِينَ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ « **آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ** » ، وَفِي رِوَايَةٍ « **إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ أَيْ : مُحَافِظُونَ عَلَيْهَا لَا يَزِيدُونَ فِيهَا وَلَا يُنْقِصُونَ مِنْهَا ، وَلَا يَكْتُمُونَهَا ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ [البقرة : ٢٨٣]

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أَيْ : عَلَى مَوَاقِيتِهَا وَأَرْكَانِهَا وَوَاجِبَاتِهَا وَمُسْتَحَبَّاتِهَا ، فَافْتَتَحَ الْكَلَامَ بِذِكْرِ الصَّلَاةِ وَاخْتَتَمَهُ بِذِكْرِهَا ، فَدَلَّ عَلَى الِاعْتِنَاءِ بِهَا وَالتَّنْوِيهِ بِشَرَفِهَا ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ أَيْ : مُكْرَمُونَ بِأَنْوَاعِ الْمَلَاذِّ وَالْمَسَارِّ .

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُمْ مُشَاهِدُونَ لَهُ ، وَلِمَا أَرْسَلَهُ اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَمَا أَيَّدَهُ اللهُ بِهِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ ، ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذَا كُلِّهِ فَارُّونَ مِنْهُ ، مُتَفَرِّقُونَ عَنْهُ ، شَارِدُونَ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فِرَقًا فِرَقًا ، وَشِيَعًا شِيَعًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ

ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٌ مُّسۡتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةٍ ﴾ [المدثر : ٤٩-٥١] الْآيَةَ ، وَهَذِهِ مِثْلُهَا ، فَإِنَّهُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ﴾ أَيْ : فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ عِنْدَكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿ مُهۡطِعِينَ ﴾ أَيْ : مُسْرِعِينَ نَافِرِينَ مِنْكَ ﴿ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ وَاحِدُهَا عِزَةٌ ، أَيْ : مُتَفَرِّقِينَ ، وَهُوَ حَالٌ مِنْ مُهْطِعِينَ ، أَيْ : فِي حَالِ تَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ مُهۡطِعِينَ ﴾ عَامِدِينَ ﴿ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ أَيْ : فِرَقًا حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ لَا يَرْغَبُونَ فِي كِتَابِ الله ، وَلَا فِي نَبِيِّهِ ﷺ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ حِلَقٌ ، فَقَالَ : « مَالِي أَرَاكُمْ عِزِينَ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ۝ كَلَّآ ﴾ أَيْ : أَيَطْمَعُ هَؤُلَاءِ وَالْحَالَةُ هَذِهِ مِنْ فِرَارِهِمْ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ وَنِفَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ أَنْ يَدْخُلُوا جَنَّاتِ النَّعِيمِ . لَا بَلْ مَأْوَاهُمُ الْجَحِيمِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُقَرِّرًا لِوُقُوعِ الْمَعَادِ وَالْعَذَابِ بِهِمُ الَّذِي أَنْكَرُوا كَوْنَهُ ، وَاسْتَبْعَدُوا وُجُودَهُ مُسْتَدِلًّا عَلَيْهِمْ بِالْبُدَاءَةِ الَّتِي الْإِعَادَةُ أَهْوَنُ مِنْهَا ، وَهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِهَا ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَنِيِّ الضَّعِيفِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴾ [المرسلات : ٢٠]

ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ ﴾ أَيْ : الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَجَعَلَ مَشْرِقًا وَمَغْرِبًا ، وَسَخَّرَ الْكَوَاكِبَ تَبْدُو مِنْ مَشَارِقِهَا وَتَغِيبُ فِي مَغَارِبِهَا ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ أَنْ لَا مَعَادَ وَلَا حِسَابَ وَلَا بَعْثَ وَلَا نُشُورَ ، بَلْ كُلُّ ذَلِكَ وَاقِعٌ وَكَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ، وَلِهَذَا أَتَى بِـ « لَا » فِي ابْتِدَاءِ الْقَسَمِ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ نَفْي وَهُوَ مَضْمُونُ الْكَلَامِ ، وَهُوَ الرَّدُّ عَلَى زَعْمِهِمُ الْفَاسِدِ فِي نَفْيِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَقَدْ شَاهَدُوا مِنْ عَظِيمِ قُدْرَةِ الله تَعَالَى مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ إِقَامَةِ الْقِيَامَةِ ، وَهُوَ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَتَسْخِيرُ مَا فِيهِمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْجَمَادَاتِ وَسَائِرِ صُنُوفِ الْمَوْجُودَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُعِيدُهُمْ بِأَبْدَانٍ خَيْرٍ مِنْ هَذِهِ ، فَإِنَّ قُدْرَتَهُ صَالِحَةٌ لِذَلِكَ ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴾ أَيْ : بِعَاجِزِينَ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَذَرۡهُمۡ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ ﴾ أَيْ : دَعْهُمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ﴿ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ أَيْ : فَسَيَعْلَمُونَ غِبَّ ذَلِكَ وَيَذُوقُونَ وَبَالَهُ ﴿ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴾ أَيْ : يَقُومُونَ مِنَ الْقُبُورِ إِذَا دَعَاهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمَوْقِفِ الْحِسَابِ ، يَنْهَضُونَ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ، قِيلَ مَعْنَاهَا : إِلَى عِلْمٍ يَسْعَوْنَ ، وَقِيلَ : إِلَى غَايَةٍ يَسْعَوْنَ إِلَيْهَا ، وَقِيلَ : هُوَ الصَّنَمُ ، أَيْ : كَأَنَّهُمْ فِي إِسْرَاعِهِمْ إِلَى الْمَوْقِفِ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا يُهَرْوِلُونَ إِلَى النُّصُبِ إِذَا عَايَنُوهُ يُوفِضُونَ ، يَبْتَدِرُونَ أَيُّهُمْ يَسْتَلِمُهُ أَوَّلُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ أَيْ : خَاضِعَةً ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أَيْ : فِي مُقَابَلَةِ مَا اسْتَكْبَرُوا فِي الدُّنْيَا عَنِ الطَّاعَةِ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « سَأَلَ سَائِلٌ » وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ

تفْسِيرُ سُورَةِ نُوح

آياتها ٢٨ — مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ
وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نُوحٍ عليه السلام أَنَّهُ أَرْسَلَهُ إِلَى قَوْمِهِ آمِرًا لَهُ أَنْ يُنْذِرَهُمْ بَأْسَ اللهِ قَبْلَ حُلُولِهِ بِهِمْ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَنَابُوا رُفِعَ عَنْهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : بَيِّنُ النِّذَارَةِ ظَاهِرُ الْأَمْرِ وَاضِحُهُ ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ أَيْ : اُتْرُكُوا مَحَارِمَهُ وَاجْتَنِبُوا مَآثِمَهُ ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أَيْ : إِذَا فَعَلْتُمْ مَا آمُرُكُمْ بِهِ وَصَدَّقْتُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ غَفَرَ اللهُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، « وَمِنْ » هَهُنَا قِيلَ : إِنَّهَا بِمَعْنَى « عَنْ » تَقْدِيرُهُ : يَصْفَحُ لَكُمْ عَنْ ذُنُوبِكُمْ ، وَقِيلَ : إِنَّهَا لِلتَّبْعِيضِ ، أَيْ : يَغْفِرُ لَكُمُ الذُّنُوبَ الْعِظَامَ الَّتِي وَعَدَكُمْ عَلَى ارْتِكَابِكُمْ إِيَّاهَا الِانْتِقَامَ . ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَيْ : يَمُدُّ فِي أَعْمَارِكُمْ وَيَدْرَأُ عَنْكُمُ الْعَذَابَ الَّذِي إِنْ لَمْ تَنْزَجِرُوا عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ : أَوْقَعَهُ بِكُمْ . ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : بَادِرُوا بِالطَّاعَةِ قَبْلَ حُلُولِ النِّقْمَةِ ، فَإِنَّهُ إِذَا أَمَرَ تَعَالَى بِكَوْنِ ذَلِكَ لَا يُرَدُّ وَلَا يُمَانَعُ ، فَإِنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ، الْعَزِيزُ الَّذِي دَانَتْ لِعِزَّتِهِ جَمِيعُ المَخْلُوقَاتِ .

قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى
كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ
وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ
إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوحٍ عليه السلام أَنَّهُ اِشْتَكَى إِلَى رَبِّهِ عز وجل مَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ وَمَا صَبَرَ عَلَيْهِمْ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَلْفُ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وَمَا بَيَّنَ لِقَوْمِهِ وَوَضَّحَ لَهُمْ وَدَعَاهُمْ إِلَى الرُّشْدِ وَالسَّبِيلِ الْأَقْوَمِ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أَيْ: لَمْ أَتْرُكْ دُعَاءَهُمْ فِي لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ، اِمْتِثَالًا لِأَمْرِكَ وَابْتِغَاءً لِطَاعَتِكَ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ أَيْ: كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيَقْتَرِبُوا مِنَ الْحَقِّ فَرُّوا مِنْهُ وَحَادُوا عَنْهُ ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أَيْ: سَدُّوا آذَانَهُمْ لِئَلَّا يَسْمَعُوا مَا أَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ قِيلَ: تَنَكَّرُوا لَهُ لِئَلَّا يَعْرِفَهُمْ. وَقِيلَ: غَطَّوْا رُءُوسَهُمْ لِئَلَّا يَسْمَعُوا مَا يَقُولُ: ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ أَيْ: اِسْتَمَرُّوا عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ الْعَظِيمِ الْفَظِيعِ ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أَيْ: وَاسْتَنْكَفُوا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالانْقِيَادِ لَهُ ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أَيْ: جَهْرَةً بَيْنَ النَّاسِ ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ أَيْ: كَلَامًا ظَاهِرًا بِصَوْتٍ عَالٍ ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أَيْ: فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَنَوَّعَ عَلَيْهِمُ الدَّعْوَةَ؛ لِتَكُونَ أَنْجَعَ فِيهِمْ ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ أَيْ: اِرْجِعُوا إِلَيْهِ، وَارْجِعُوا عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ وَتُوبُوا إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ، فَإِنَّهُ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ مَهْمَا كَانَتْ فِي الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ. ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أَيْ: مُتَوَاصِلَةَ الْأَمْطَارِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ أَيْ: إِذَا تُبْتُمْ إِلَى اللهِ وَاسْتَغْفَرْتُمُوهُ وَأَطَعْتُمُوهُ، كَثُرَ الرِّزْقُ عَلَيْكُمْ، وَأَسْقَاكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ، وَأَنْبَتَ لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ، وَأَنْبَتَ لَكُمُ الزَّرْعَ، وَأَدَرَّ لَكُمُ الضَّرْعَ، وَأَمَدَّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ، أَيْ: أَعْطَاكُمُ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ، وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ فِيهَا أَنْوَاعُ الثِّمَارِ، وَخَلَّلَهَا بِالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ بَيْنَهَا. هَذَا مَقَامُ الدَّعْوَةِ بِالتَّرْغِيبِ، ثُمَّ عَدَلَ بِهِمْ إِلَى دَعْوَتِهِمْ بِالتَّرْهِيبِ، فَقَالَ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أَيْ: عَظَمَةً. أَيْ: لَا تُعَظِّمُونَ اللهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ، أَيْ: لَا تَخَافُونَ مِنْ بَأْسِهِ وَنِقْمَتِهِ ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ. ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أَيْ: وَاحِدَةً فَوْقَ وَاحِدَةٍ، ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾

أَيْ : فَاوَتَ بَيْنَهُمَا فِي الاِسْتِنَارَةِ ، فَجَعَلَ كُلًّا مِنْهُمَا أُنْمُوذَجًا عَلَى حِدَةٍ ، لِيُعْرَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ بِمَطْلَعِ الشَّمْسِ وَمَغِيبِهَا ، وَقَدَّرَ لِلْقَمَرِ مَنَازِلَ وَبُرُوجًا ، وَفَاوَتَ نُورَهُ ، فَتَارَةً يَزْدَادُ حَتَّى يَتَنَاهَى ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ حَتَّى يَسْتَتِرَ لِيَدُلَّ عَلَى مُضِيِّ الشُّهُورِ وَالأَعْوَامِ ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ هَذَا اسْمُ مَصْدَرٍ ، وَالإِتْيَانُ بِهِ هَهُنَا أَحْسَنُ ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ أَيْ : إِذَا مُتُّمْ ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعِيدُكُمْ ، كَمَا بَدَأَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ أَيْ : بَسَطَهَا وَمَهَّدَهَا وَقَرَّرَهَا وَثَبَّتَهَا بِالْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ الشُّمِّ الشَّامِخَاتِ ﴿ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ أَيْ : خَلَقَهَا لَكُمْ لِتَسْتَقِرُّوا عَلَيْهَا وَتَسْلُكُوا فِيهَا أَيْنَ شِئْتُمْ مِنْ نَوَاحِيهَا وَأَرْجَائِهَا وَأَقْطَارِهَا وَكُلّ هَذَا مِمَّا يُنَبِّهُهُمْ بِهِ نُوحٌ عليه السلام عَلَى قُدْرَةِ اللهِ وَعَظَمَتِهِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ ، فَهُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ وَيُوَحَّدَ وَلَا يُشْرِكُ بِهِ أَحَدٌ ؛ لأَنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ ، وَلَا نِدَّ وَلَا كُفْءَ وَلَا صَاحِبَةَ وَلَا وَلَدَ وَلَا وَزِيرَ وَلَا مُشِيرَ ، بَلْ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ .

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نُوحٍ عليه السلام إِنَّهُ أَنْهَى إِلَيْهِ وَهُوَ الْعَلِيمُ الَّذِي لَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ أَنَّهُ مَعَ الْبَيَانِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ وَالدَّعْوَةُ الْمُتَنَوِّعَةُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى التَّرْغِيبِ تَارَةً وَالتَّرْهِيبِ أُخْرَى أَنَّهُمْ عَصَوْهُ وَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ ، وَاتَّبَعُوا أَبْنَاءَ الدُّنْيَا مِمَّنْ غَفَلَ عَنْ أَمْرِ اللهِ وَمُتِّعَ بِمَالٍ وَأَوْلَادٍ ، وَهِيَ فِي نَفْسِ الأَمْرِ اسْتِدْرَاجٌ وَإِنْظَارٌ لَا إِكْرَامٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ أَيْ : عَظِيمًا ، وَقِيلَ : كَبِيرًا ، وَالمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ أَيْ : بِاتِّبَاعِهِمْ فِي تَسْوِيلِهِمْ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ وَهَذِهِ أَسْمَاءُ أَصْنَامِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ ، وَهِيَ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ ، فَفَعَلُوا ، فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ﴾ يَعْنِي : الأَصْنَامُ الَّتِي اتَّخَذُوهَا ، أَضَلُّوا بِهَا خَلْقًا كَثِيرًا فَإِنَّهُ اسْتَمَرَّتْ عِبَادَتُهَا فِي الْقُرُونِ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا فِي الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَسَائِرِ صُنُوفِ بَنِي آدَمَ ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴾ دُعَاءٌ مِنْهُ عَلَى قَوْمِهِ لِتَمَرُّدِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ

كَمَا دَعَا مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨] وَقَدِ اِسْتَجَابَ اللهُ لِكُلٍّ مِنَ النَّبِيِّينَ فِي قَوْمِهِ ، وَأَغْرَقَ أُمَّتَهُ بِتَكْذِيبِهِمْ لَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ .

مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ ﴾ وَقُرِئَ « خَطَايَاهُمْ » ﴿ أُغْرِقُوا۟ ﴾ أَيْ : مِنْ كَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ رَسُولَهُمْ ﴿ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾ أَيْ : نُقِلُوا مِنْ تَيَّارِ الْبِحَارِ إِلَى حَرَارَةِ النَّارِ ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾ أَيْ : لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مُعِينٌ وَلَا مُغِيثٌ وَلَا مُجِيرٌ يُنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أَيْ : لَا تَتْرُكْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَحَدًا وَلَا دَيَّارًا ، وَهَذِهِ مِنْ صِيَغِ تَأْكِيدِ النَّفْيِ . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ دَيَّارًا ﴾ وَاحِدًا ، وَقَالَ آخَرُونَ : الدَّيَّارُ الَّذِي يَسْكُنُ الدَّارَ . فَاسْتَجَابَ اللهُ لَهُ فَأَهْلَكَ جَمِيعَ مَنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ، حَتَّى وَلَدَ نُوحٍ لِصُلْبِهِ الَّذِي اِعْتَزَلَ عَنْ أَبِيهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ ﴾ أَيْ : إِنَّكَ إِنْ أَبْقَيْتَ مِنْهُمْ أَحَدًا أَضَلُّوا عِبَادَكَ ، أَيْ : الَّذِينَ تَخْلُقُهُمْ بَعْدَهُمْ ﴿ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أَيْ : فَاجِرًا فِي الْأَعْمَالِ كَافِرَ الْقَلْبِ ، وَذَلِكَ لِخِبْرَتِهِ بِهِمْ ، وَمُكْثِهِ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا . ثُمَّ قَالَ : ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ : يَعْنِي مَسْجِدِي ، وَلَا مَانِعَ مِنْ حَمْلِ الْآيَةِ عَلَى ظَاهِرِهَا ، وَهُوَ أَنَّهُ دَعَا لِكُلِّ مَنْ دَخَلَ مَنْزِلَهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ . ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾ دُعَاءٌ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَذَلِكَ يَعُمُّ الْأَحْيَاءَ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ ؛ وَلِهَذَا يُسْتَحَبُّ مِثْلُ هَذَا الدُّعَاءِ اِقْتِدَاءً بِنُوحٍ عليه السلام وَبِمَا جَاءَ فِي الْآثَارِ وَالْأَدْعِيَةِ الْمَشْهُورَةِ الْمَشْرُوعَةِ .

﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴾ قِيلَ : إِلَّا هَلَاكًا ، وَقِيلَ : إِلَّا خَسَارًا ، أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ نُوحٍ عليه السلام ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

آياتها ٢٨ تفسير سورة الجن مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُخْبِرَ قَوْمَهُ أَنَّ الْجِنَّ اِسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ فَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ وَانْقَادُوا لَهُ ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ أَيْ : إِلَى السَّدَادِ وَالنَّجَاحِ ﴿ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ وَهَذَا الْمَقَامُ شَبِيهٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [الأحقاف : ٢٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ قِيلَ : أَيْ : فِعْلُهُ وَأَمْرُهُ وَقُدْرَتُهُ ﴿ مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ أَيْ : تَعَالَى عَنِ اتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْأَوْلَادِ ، أَيْ : قَالَتِ الْجِنُّ : تَنَزَّهَ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ – حِينَ أَسْلَمُوا وَآمَنُوا بِالْقُرْآنِ – عَنِ اتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ . ثُمَّ قَالُوا : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴾ سَفِيهُنَا : يَعْنُونَ إِبْلِيسَ ﴿ شَطَطًا ﴾ أَيْ : جَوْرًا ، وَقِيلَ : ظُلْمًا كَبِيرًا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ ﴿ سَفِيهُنَا ﴾ اِسْمُ جِنْسٍ لِكُلِّ مَنْ زَعَمَ أَنَّ للهِ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ أَيْ : قَبْلَ إِسْلَامِهِ ﴿ عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴾ أَيْ : بَاطِلًا وَزُورًا ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أَيْ : مَا حَسِبْنَا أَنَّ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ يَتَمَالَئُونَ عَلَى الْكَذِبِ عَلَى اللهِ تَعَالَى فِي نِسْبَةِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا سَمِعْنَا هَذَا الْقُرْآنَ وَآمَنَّا بِهِ ، عَلِمْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْذِبُونَ عَلَى اللهِ فِي ذَلِكَ . ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أَيْ : كُنَّا نَرَى أَنَّ لَنَا فَضْلًا عَلَى الْإِنْسِ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعُوذُونَ بِنَا ، أَيْ : إِذَا نَزَلُوا وَادِيًا أَوْ مَكَانًا مُوحِشًا مِنَ الْبَرَارِي وَغَيْرِهَا ، كَمَا كَانَتْ عَادَةُ الْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يَعُوذُونَ بِعَظِيمِ ذَلِكَ الْمَكَانِ مِنَ الْجَانِّ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِشَيْءٍ يَسُوؤُهُمْ ، كَمَا كَانَ أَحَدُهُمْ يَدْخُلُ بِلَادَ أَعْدَائِهِ فِي جِوَارِ رَجُلٍ كَبِيرٍ وَذِمَامِهِ وَخِفَارَتِهِ ، فَلَمَّا رَأَتِ الْجِنُّ أَنَّ الْإِنْسَ يَعُوذُونَ بِهِمْ مِنْ خَوْفِهِمْ مِنْهُمْ

﴿ زَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أَيْ : خَوْفًا وَإِرْهَابًا وَذُعْرًا حَتَّى بَقُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ مَخَافَةً وَأَكْثَرَ تَعَوُّذًا بِهِمْ ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أَيْ : إِثْمًا ، وَازْدَادَتِ الْجِنُّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ جَرَاءَةً ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴾ أَيْ : لَنْ يَبْعَثَ اللهُ بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ رَسُولًا .

وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْجِنِّ حِينَ بَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ، وَكَانَ مِنْ حِفْظِهِ لَهُ أَنَّ السَّمَاءَ مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَحُفِظَتْ مِنْ سَائِرِ أَرْجَائِهَا ، وَطُرِدَتِ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَقَاعِدِهَا الَّتِي كَانَتْ تَقْعُدُ فِيهَا قَبْلَ ذَلِكَ ، لِئَلَّا يَسْتَرِقُوا شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ فَيُلْقُوهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْكَهَنَةِ فَيَلْتَبِسُ الْأَمْرُ وَيَخْتَلِطُ وَلَا يُدْرَى مَنِ الصَّادِقُ ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِ اللهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ ، وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَحِفْظِهِ لِكِتَابِهِ الْعَزِيزِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْجِنُّ : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ أَيْ : مَنْ يَرُومُ أَنْ يَسْتَرِقَ السَّمْعَ الْيَوْمَ يَجِدُ لَهُ شِهَابًا مُرْصَدًا لَهُ ، لَا يَتَخَطَّاهُ وَلَا يَتَعَدَّاهُ ، بَلْ يَمْحَقُهُ وَيُهْلِكُهُ ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ أَيْ : مَا نَدْرِي هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي قَدْ حَدَثَ فِي السَّمَاءِ ، لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ؟ وَهَذَا مِنْ أَدَبِهِمْ فِي الْعِبَارَةِ حَيْثُ أَسْنَدُوا الشَّرَّ إِلَى غَيْرِ فَاعِلٍ ، وَالْخَيْرَ أَضَافُوهُ إِلَى اللهِ ﷻ ، فَأَخَذُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَوَجَدُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ بِأَصْحَابِهِ فِي الصَّلَاةِ ، فَعَرَفُوا أَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي حُفِظَتْ مِنْ أَجْلِهِ السَّمَاءُ ، فَآمَنَ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَتَمَرَّدَ فِي طُغْيَانِهِ مَنْ بَقِيَ . وَلَا شَكَّ أَنَّهُ لَمَّا حَدَثَ هَذَا الْأَمْرُ وَهُوَ كَثْرَةُ الشُّهُبِ فِي السَّمَاءِ وَالرَّمْيِ بِهَا ، هَالَ ذَلِكَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَانْزَعَجُوا لَهُ وَارْتَاعُوا لِذَلِكَ ، وَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ لِخَرَابِ الْعَالَمِ .

وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْجِنِّ أَنَّهُمْ قَالُوا مُخْبِرِينَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : غَيْرَ ذَٰلِكَ ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ أَيْ : طَرَائِقَ مُتَعَدِّدَةً مُخْتَلِفَةً وَآرَاءَ مُتَفَرِّقَةً . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ أَيْ : مِنَّا الْمُؤْمِنُ وَمِنَّا الْكَافِرُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾ أَيْ : نَعْلَمُ أَنَّ قُدْرَةَ اللهِ حَاكِمَةٌ عَلَيْنَا ، وَأَنَّا لَا نُعْجِزُهُ فِي الْأَرْضِ ، وَلَوْ أَمْعَنَّا فِي الْهَرَبِ ، فَإِنَّهُ عَلَيْنَا قَادِرٌ ، لَا يُعْجِزُهُ أَحَدٌ مِنَّا ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ يَفْتَخِرُونَ بِذَٰلِكَ ، وَهُوَ مَفْخَرٌ لَهُمْ ، وَشَرَفٌ رَفِيعٌ ، وَصِفَةٌ حَسَنَةٌ ﴿ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ فَلَا يَخَافُ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ حَسَنَاتِهِ ، أَوْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ غَيْرُ سَيِّئَاتِهِ ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ أَيْ : مِنَّا الْمُسْلِمُ وَمِنَّا الْقَاسِطُ ، وَهُوَ : الْجَائِرُ عَنِ الْحَقِّ النَّاكِبُ عَنْهُ ، بِخِلَافِ الْمُقْسِطِ فَإِنَّهُ الْعَادِلُ ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴾ أَيْ : طَلَبُوا لِأَنْفُسِهِمُ النَّجَاةَ ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ أَيْ : وَقُودٌ تُسَعَّرُ بِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ .

وَالْمَعْنَى : وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامَ الْقَاسِطُونَ عَلَى طَرِيقَةِ الْإِسْلَامِ وَعَدَلُوا إِلَيْهَا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا ﴿ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ أَيْ : كَثِيرًا ، وَالْمُرَادُ بِذَٰلِكَ سَعَةُ الرِّزْقِ ، وَعَلَى هَٰذَا يَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أَيْ : لِنَخْتَبِرَهُمْ ، مَنْ يَسْتَمِرُّ عَلَى الْهِدَايَةِ مِمَّنْ يَرْتَدُّ إِلَى الْغِوَايَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أَيْ : عَذَابًا مُشِقًّا شَدِيدًا مُوجِعًا مُؤْلِمًا ، وَقِيلَ : جَبَلٌ فِي جَهَنَّمَ ، وَقِيلَ : بِئْرٌ فِيهَا .

وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ أَنْ يُوَحِّدُوهُ فِي مَحَالِّ عِبَادَتِهِ ، وَلَا يُدْعَى مَعَهُ أَحَدٌ وَلَا يُشْرَكُ بِهِ ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ قَالَ : كَانَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى إِذَا دَخَلُوا كَنَائِسَهُمْ وَبِيَعَهُمْ أَشْرَكُوا بِاللهِ ، فَأَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُوَحِّدُوهُ وَحْدَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قِيلَ : تَلَبَّدَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى هَٰذَا الْأَمْرِ لِيُطْفِئُوهُ ، فَأَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يَنْصُرَهُ وَيُمْضِيَهُ وَيُظْهِرَهُ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُ ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ

لِقَوْلِهِ بَعْدَهُ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ أَيْ : قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَمَّا آذَوْهُ وَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ وَتَظَاهَرُوا عَلَيْهِ ، لِيُبْطِلُوا مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَاجْتَمَعُوا عَلَى عَدَوَاتِهِ : ﴿ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَعْبُدُ رَبِّي وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَسْتَجِيرُ بِهِ وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ، وَعَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ لَيْسَ إِلَيَّ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ فِي هِدَايَتِكُمْ وَلَا غِوَايَتِكُمْ ، بَلِ الْمَرْجِعُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى اللهِ ﷻ ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ أَيْضًا أَنَّهُ لَا يُجِيرُهُ مِنَ اللهِ أَحَدٌ ، أَيْ : لَوْ عَصَيْتَهُ فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى إِنْقَاذِي مِنْ عَذَابِهِ ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ أَيْ : لَا نَصِيرَ وَلَا مَلْجَأَ ، وَفِي رِوَايَةٍ : لَا وَلِيَّ وَلَا مَوْئِلَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : هُوَ مُسْتَثْنًى مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ...... إِلَّا بَلَٰغًا ﴾ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اسْتِثْنَاءً مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أَيْ : لَا يُجِيرَنِي مِنْهُ وَيُخَلِّصُنِي إِلَّا إِبْلَاغِي الرِّسَالَةَ الَّتِي أَوْجَبَ أَدَاءَهَا عَلَيَّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَةَ اللهِ فَمَنْ يَعْصِ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ جَزَاءٌ عَلَى ذَلِكَ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، أَيْ : لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ أَيْ : حَتَّى إِذَا رَأَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَا يُوعَدُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَسَيَعْلَمُونَ يَوْمَئِذٍ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ، هُمْ أَمِ الْمُؤْمِنُونَ الْمُوَحِّدُونَ للهِ تَعَالَى ؟ أَيْ : بَلِ الْمُشْرِكُونَ لَا نَاصِرَ لَهُمْ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَهُمْ أَقَلُّ عَدَدًا مِنْ جُنُودِ اللهِ ﷻ .

قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ : إِنَّهُ لَا عِلْمَ لَهُ بِوَقْتِ السَّاعَةِ ، وَلَا يَدْرِي أَقَرِيبٌ وَقْتُهَا أَمْ بَعِيدٌ ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴾ أَيْ : مُدَّةً طَوِيلَةً ، وَقَدْ كَانَ ﷺ يُسْأَلُ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ فَلَا يُجِيبُ عَنْهَا ، وَلَمَّا تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ فِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ ، كَانَ فِيمَا سَأَلَهُ أَنْ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ ؟ قَالَ : « **مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ**

مِنَ السَّائِلِ ؟ » . وَلَمَّا نَادَاهُ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ بِصَوْتٍ جَهْورِيٍّ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ مَتَى السَّاعَةُ ؟ قال : « وَيْحَكَ ، إِنَّهَا كَائِنَةٌ فَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟ » قَالَ : أَمَا إِنِّي لَمْ أُعِدَّ لَهَا كَثِيرَ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، قَالَ : « فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » قَالَ أَنَسٌ : فَمَا فَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِشَيْءٍ فَرَحُهُمْ بِهَذَا الْحَدِيثِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ هَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا : إِنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَالشَّهَادَةَ ، وَإِنَّهُ لَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا مِمَّا أَطْلَعَهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ وَهَذَا يَعُمُّ الرَّسُولَ الْمَلَكِيَّ وَالْبَشَرِيَّ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ أَيْ : يَخْتَصُّهُ بِمَزِيدِ مُعَقِّبَاتٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ، وَيُسَاوِقُونَهُ عَلَى مَا مَعَهُ مِنْ وَحْيِ اللهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴾ وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الضَّمِيرِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ : ﴿ لِّيَعْلَمَ ﴾ إِلَى مَنْ يَعُودُ ؟ فَقِيلَ : إِنَّهُ عَائِدٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَيْ : لِيَعْلَمَ بِي اللهُ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغَتْ عَنِ اللهِ ﷻ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ قِيلَ : هِيَ مُعَقِّبَاتٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ الشَّيْطَانِ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ بِهِ إِلَيْهِمْ ، وَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ لِيَعْلَمَ أَهْلُ الشِّرْكِ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ عَائِدًا إِلَى اللهِ ﷻ ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ أَنَّهُ يَحْفَظُ رُسُلَهُ بِمَلَائِكَتِهِ ؛ لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ أَدَاءِ رِسَالَاتِهِ وَيَحْفَظُ مَا يُبَيِّنُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْوَحْيِ ، لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [العنكبوت : ١١] إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ ، مِنَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا قَطْعًا لَا مَحَالَةَ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا : ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْجِنِّ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسيرُ سُورةِ المُزمل

آياتها ٢٠ — مكيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلاً ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً ۝٩﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَتْرُكَ التَّزَمُّلَ ، وَهُوَ : التَّغَطِّي فِي اللَّيْلِ ، يَنْهَضُ إِلَى الْقِيَامِ لِرَبِّهِ ﷻ ، وَكَذَلِكَ كَانَ ﷺ مُمْتَثِلًا مَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ ، وَقَدْ كَانَ وَاجِبًا عَلَيْهِ وَحْدَهُ ، وَهَهُنَا بَيَّنَ لَهُ مِقْدَارَ مَا يَقُومُ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ يعني : يَا أَيُّهَا النَّائِمُ . **قَالَ قَتَادَةُ** : الْمُزَّمِّلُ فِي ثِيَابِهِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ بَدَلٌ مِنَ اللَّيْلِ ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أَيْ : أَمَرْنَاكَ أَنْ تَقُومَ نِصْفَ اللَّيْلِ بِزِيَادَةٍ قَلِيلَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ قَلِيلٍ ، لَا حَرَجَ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ . ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً﴾ أَيْ : اِقْرَأْهُ عَلَى تَمَهُّلٍ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ عَوْنًا عَلَى فَهْمِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَقْرَأُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ **قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ** : أَيْ : الْعَمَلُ بِهِ ، **وَقِيلَ** : ثَقِيلٌ وَقْتَ نُزُولِهِ مِنْ عَظَمَتِهِ ، **كَمَا قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ** ﷺ : أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي ، فَكَادَتْ تُرَضُّ فَخِذِي ، وَقَالَتْ عَائِشَةُ : وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ ﷺ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ ، وَجَبِينُهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ هِيَ : سَاعَاتُهُ وَأَوْقَاتُهُ ، وَكُلُّ سَاعَةٍ مِنْهُ تُسَمَّى نَاشِئَةٌ ، وَهِيَ الْآنَاتُ . **وَالْمَقْصُودُ** : أَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ هُوَ أَشَدُّ مُوَاطَأَةً بَيْنَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ ، وَأَجْمَعُ عَلَى التِّلَاوَةِ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ أَيْ : أَجْمَعُ لِلْخَاطِرِ فِي أَدَاءِ الْقِرَاءَةِ وَتَفَهُّمِهَا مِنْ قِيَامِ النَّهَارِ ؛ لِأَنَّهُ وَقْتُ اِنْتِشَارِ النَّاسِ ، وَلَغَطِ الْأَصْوَاتِ ، وَأَوْقَاتِ الْمَعَاشِ .

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : الْفَرَاغُ وَالنَّوْمُ ، **وَقَالَ آخَرُ** : فَرَاغًا طَوِيلًا ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : فَرَاغًا وَبُغْيَةً وَمُنْقَلَبًا ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾ تَطَوُّعًا كَثِيرًا ، **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً﴾ **قَالَ** : لِحَوَائِجِكَ ، فَأَفْرِغْ لِدِينِكَ اللَّيْلَ . قَالَ : وَهَذَا حِينَ كَانَتْ صَلَاةُ اللَّيْلِ فَرِيضَةً ، ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنَّ عَلَى عِبَادِهِ فَخَفَّفَهَا وَوَضَعَهَا ، وَقَرَأَ ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ اللَّيْلُ نِصْفُهُ أَوْ ثُلُثُهُ ، ثُمَّ جَاءَ أَمْرٌ أَوْسَعُ وَأَفْسَحُ ، وَضَعَ الْفَرِيضَةَ عَنْهُ وَعَنْ أُمَّتِهِ فَقَالَ : ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴾ أَيْ: أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِهِ وَانْقَطِعْ إِلَيْهِ وَتَفَرَّغْ لِعِبَادَتِهِ إِذَا فَرَغْتَ مِنْ أَشْغَالِكَ وَمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ دُنْيَاكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ﴾ [الشرح: ٧] أَيْ: إِذَا فَرَغْتَ مِنْ مَهَامِّكَ فَانْصَبْ فِي طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ لِتَكُونَ فَارِغَ الْبَالِ، ﴿ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴾ أَيْ: أَخْلِصْ لَهُ الْعِبَادَةَ. ﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ أَيْ: هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَكَمَا أَفْرَدْتَهُ بِالْعِبَادَةِ فَأَفْرِدْهُ بِالتَّوَكُّلِ ﴿ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ ﴾ [هود: ١٢٣]

وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴿١٠﴾ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٣﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى مَا يَقُولُهُ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ سُفَهَاءِ قَوْمِهِ، وَأَنْ يَهْجُرَهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا، وَهُوَ الَّذِي لَا عِتَابَ مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ مُتَهَدِّدًا لِكُفَّارِ قَوْمِهِ وَمُتَوَعِّدًا وَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يَقُومُ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ: ﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ ﴾ أَيْ: دَعْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ الْمُتْرَفِينَ أَصْحَابَ الْأَمْوَالِ فَإِنَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى الطَّاعَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَهُمْ يُطَالَبُونَ مِنَ الْحُقُوقِ بِمَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ ﴿ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴾ أَيْ: رُوَيْدًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾ [لقمان: ٢٤] وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا ﴾ وَهِيَ الْقُيُودُ ﴿ وَجَحِيمٗا ﴾ وَهِيَ السَّعِيرُ الْمُضْطَرِمَةُ ﴿ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَنْشَبُ فِي الْحَلْقِ فَلَا يَدْخُلُ وَلَا يَخْرُجُ ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٣﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ ﴾ أَيْ: تَزَلْزَلُ ﴿ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ﴾ أَيْ: تَصِيرُ كَكُثْبَانِ الرَّمْلِ بَعْدَ مَا كَانَتْ حِجَارَةً صَمَّاءَ، ثُمَّ إِنَّهَا تُنْسَفُ نَسْفًا فَلَا يَبْقَى مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا ذَهَبَ حَتَّى تَصِيرَ الْأَرْضُ قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا، أَيْ: وَادِيًا، وَلَا أَمْتًا. أَيْ: رَابِيَةً، وَمَعْنَاهُ: لَا شَيْءَ يَنْخَفِضُ وَلَا شَيْءَ يَرْتَفِعُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ وَالْمُرَادُ سَائِرُ النَّاسِ: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ ﴾ أَيْ: بِأَعْمَالِكُمْ ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴾. ﴿ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴾ أَيْ: شَدِيدًا. أَيْ: فَاحْذَرُوا أَنْتُمْ أَنْ تُكَذِّبُوا هَذَا الرَّسُولَ فَيُصِيبَكُمْ مَا

أَصَابَ فِرْعَوْنَ حَيْثُ أَخَذَهُ اللهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ، وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْهَلَاكِ وَالدَّمَارِ إِنْ كَذَّبْتُمْ رَسُولَكُمْ ؛ لأَنَّ رَسُولَكُمْ أَشْرَفُ وَأَعْظَمُ مِنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ . ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ﴿ يَوْمًا ﴾ مَعْمُولًا « لِتَتَّقُونَ » كَمَا حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ « فَكَيْفَ تَخَافُونَ أَيُّهَا النَّاسُ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا إِنْ كَفَرْتُمْ بِاللهِ وَلَمْ تُصَدِّقُوا بِهِ ؟ » وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْمُولًا « لِكَفَرْتُمْ » فَعَلَى الْأَوَّلِ : كَيْفَ يَحْصُلُ لَكُمْ أَمَانٌ مِنْ يَوْمِ هَذَا الْفَزَعِ الْعَظِيمِ إِنْ كَفَرْتُمْ ؟ وَعَلَى الثَّانِي : كَيْفَ يَحْصُلُ لَكُمْ تَقْوَى إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجَحَدْتُمُوهُ ؟ وَكِلَاهُمَا مَعْنًى حَسَنٌ ، وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ أَوْلَى ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ أَيْ : مِنْ شِدَّةِ أَهْوَالِهِ وَزَلَازِلِهِ وَبَلَابِلِهِ وَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِآدَمَ : ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ ، فَيَقُولُ : مِنْ كَمْ ؟ فَيَقُولُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ . ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِهِ ، مِنْ شِدَّتِهِ وَهَوْلِهِ ، ﴿ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ أَيْ : كَانَ وَعْدُ هَذَا الْيَوْمِ مَفْعُولًا ، أَيْ : وَاقِعًا لَا مَحَالَةَ وَكَائِنًا لَا مَحِيدَ عَنْهُ .

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ ﴾ أَيْ : السُّورَةَ ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أَيْ : يَتَذَكَّرُ بِهَا أُولُو الْأَلْبَابِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ أَيْ : مِمَّنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى هِدَايَتَهُ ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أَيْ : تَارَةً هَكَذَا وَتَارَةً هَكَذَا ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنْكُمْ ، وَلَكِنْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى الْمُوَاظَبَةِ عَلَى مَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ ؛ لأَنَّهُ يَشُقُّ عَلَيْكُمْ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أَيْ : تَارَةً يَعْتَدِلَانِ ، وَتَارَةً يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا ، أَوْ هَذَا مِنْ هَذَا ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ أَيْ : الْفَرْضَ الَّذِي أَوْجَبَهُ عَلَيْكُمْ ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أَيْ : مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدٍ بِوَقْتٍ ، أَيْ : وَلَكِنْ قُومُوا مِنَ

اللَّيْلِ مَا تيَسَّرَ ، وَعَبَّرَ عَنِ الصَّلَاةِ بِالْقِرَاءَةِ ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ سُبْحَانَ ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ أَيْ : بِقِرَاءَتِكَ ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ [الإسراء : ١١٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : عَلِمَ أَنْ سَيَكُون مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ذَوُو أَعْذَارٍ فِي تَرْكِ قِيَامِ اللَّيْلِ ، مِنْ مَرْضَى لَا يَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ ، وَمُسَافِرِينَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ فِي الْمَكَاسِبِ وَالْمَتَاجِرِ وَآخَرِينَ مَشْغُولِينَ بِمَا هُوَ الْأَهَمُّ فِي حَقِّهِمْ مِنَ الْغَزْوِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ أَيْ : قُومُوا بِمَا تَيَسَّرَ عَلَيْكُمْ مِنْهُ ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أَيْ : أَقِيمُوا صَلَاتَكُمُ الْوَاجِبَةَ عَلَيْكُمْ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ ، وَهَذَا يَدُلُّ لِمَنْ قَالَ : إِنَّ فَرْضَ الزَّكَاةِ نَزَلَ بِمَكَّةَ ، لَكِنَّ مَقَادِيرَ النُّصُبِ وَالْمُخْرَجَ لَمْ تُبَيَّنْ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ يَعْنِي : مِنَ الصَّدَقَاتِ ، فَإِنَّ اللهَ يُجَازِي عَلَى ذَلِكَ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ وَأَوْفَرَهُ . ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ أَيْ : جَمِيعُ مَا تُقَدِّمُوهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَهُوَ لَكُمْ حَاصِلٌ ، وَهُوَ خَيْرٌ مِمَّا أَبْقَيْتُمُوهُ لِأَنْفُسِكُمْ فِي الدُّنْيَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ فِي أُمُورِكُمْ كُلِّهَا ، فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِمَنِ اسْتَغْفَرَهُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسيرُ سُورَةِ المدَّثر

آياتها ٥٦ — مكيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ جَابِرٍ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : أَوَّلُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ . وَخَالَفَهُ الْجُمْهُورُ فَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ أَوَّلَ الْقُرْآنِ نُزُولًا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق : ١]، كَمَا سَيَأْتِي ذَلِكَ هُنَالِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ : سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ عَنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُـرْآنِ ؟

فَقَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ قُلْتُ : يَقُولُونَ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ فَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ : سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ عَنْ ذَلِكَ ، وَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ مَا قُلْتَ لِي ، فَقَالَ جَابِرٌ : لَا أُحَدِّثُكَ إِلَّا مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ : « **جَاوَرْتُ بِحِرَاءَ ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا ، وَنَظَرْتُ عَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا ، وَنَظَرْتُ أَمَامِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا ، وَنَظَرْتُ خَلْفِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ شَيْئًا ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ : دَثِّرُونِي وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا** » قَالَ : « **فَدَثَّرُونِي وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا** » قَالَ : فَنَزَلَتْ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ أَيْ : شَمِّرْ عَنْ سَاقِ الْعَزْمِ ، وَأَنْذِرِ النَّاسَ ، وَبِهَذَا حَصَلَ الْإِرْسَالُ ، كَمَا حَصَلَ بِالْأَوَّلِ النُّبُوَّةُ ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أَيْ : عَظِّمْ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قَالَ : فِي كَلَامِ الْعَرَبِ نَقِيُّ الثِّيَابِ ، **وَفِي رِوَايَةٍ** : فَطَهِّرْ مِنَ الذُّنُوبِ ، **وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أَيْ : عَمَلَكَ فَأَصْلِحْ .

وَقِيلَ : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ يَعْنِي : لَا تَكُنْ ثِيَابُكَ الَّتِي تَلْبَسُ مِنْ مَكْسَبٍ غَيْرِ طَائِبٍ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أَيْ : اغْسِلْهَا بِالْمَاءِ ، وَقَدْ تَشْمَلُ الْآيَةُ جَمِيعَ ذَلِكَ مَعَ طَهَارَةِ الْقَلْبِ ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تُطْلِقُ الثِّيَابَ عَلَيْهِ ﴿ وَٱلرُّجْزَ ﴾ هُوَ الْأَصْنَامُ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ أَيْ : اتْرُكِ الْمَعْصِيَةَ ، وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَلَا يَلْزَمُ تَلَبُّسُهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ لَا تُعْطِ الْعَطِيَّةَ تَلْتَمِسُ أَكْثَرَ مِنْهَا ، **وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : لَا تَمْنُنْ بِعَمَلِكَ عَلَى رَبِّكَ تَسْتَكْثِرُهُ ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ أَيْ : اِجْعَلْ صَبْرَكَ عَلَى أَذَاهُمْ لِوَجْهِ رَبِّكَ ﷻ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴾ النَّاقُورُ : الصُّورُ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴾ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ** ؟ » فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ : فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « **قُولُوا : حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا** » . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ أَيْ : شَدِيدٌ ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أَيْ : غَيْرُ سَهْلٍ عَلَيْهِمْ .

ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣
وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦
سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ
۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ
يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا

تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِهَذَا الْخَبِيثِ الَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِنِعَمِ الدُّنْيَا فَكَفَرَ بِأَنْعُمِ اللهِ وَبَدَّلَهَا كُفْرًا وَقَابَلَهَا بِالْجُحُودِ بِآيَاتِ اللهِ وَالافْتِرَاءِ عَلَيْهَا ، وَجَعَلَهَا مِنْ قَوْلِ الْبَشَرِ ، وَقَدْ عَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِ نِعَمَهُ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴾ أَيْ : خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ وَحْدَهُ لَا مَالَ لَهُ وَلَا وَلَدَ ، ثُمَّ رَزَقَهُ اللهُ تَعَالَى ﴿ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴾ أَيْ : وَاسِعًا كَثِيرًا ﴿ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : لَا يَغِيبُونَ . أَيْ : حُضُورًا عِنْدَهُ لَا يُسَافِرُونَ بِالتِّجَارَاتِ ، بَلْ مَوَالِيهِمْ وَأُجَرَاؤُهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ذَلِكَ عَنْهُمْ ، وَهُمْ قُعُودٌ عِنْدَ أَبِيهِمْ يَتَمَتَّعُ بِهِمْ وَيَتَمَلَّى بِهِمْ ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي النِّعْمَةِ ، وَهُوَ إِقَامَتُهُمْ عِنْدَهُ ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴾ أَيْ : مَكَّنْتُهُ مِنْ صُنُوفِ الْمَالِ وَالْأَثَاثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴾ أَيْ : مُعَانِدًا ، وَهُوَ الْكُفْرُ عَلَى نِعَمِهِ بَعْدَ الْعِلْمِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ . أَيْ : مَشَقَّةً مِنَ الْعَذَابِ ، قِيلَ : عَذَابًا لَا رَاحَةَ فِيهِ ، ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَرْهَقْنَاهُ صَعُودًا ، أَيْ : قَرَّبْنَاهُ مِنَ الْعَذَابِ الشَّاقِّ لِبُعْدِهِ عَنِ الْإِيمَانِ : لِأَنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ، أَيْ : تَرَوَّى مَاذَا يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ حِينَ سُئِلَ عَنِ الْقُرْآنِ ، فَفَكَّرَ مَاذَا يَخْتَلِقُ مِنَ الْمَقَالِ ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ أَيْ : تَرَوَّى ﴿ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴾ دُعَاءٌ عَلَيْهِ ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أَيْ : أَعَادَ النَّظَرَ وَالتَّرَوِّي ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ أَيْ : قَبَضَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَقَطَّبَ ﴿ وَبَسَرَ ﴾ أَيْ : كَلَحَ وَكَرِهَ . ﴿ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴾ أَيْ : صُرِفَ عَنِ الْحَقِّ ، وَرَجَعَ الْقَهْقَرَى مُسْتَكْبِرًا عَنِ الِانْقِيَادِ لِلْقُرْآنِ ﴿ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴾ أَيْ : هَذَا سِحْرٌ يَنْقُلُهُ مُحَمَّدٌ عَنْ غَيْرِهِ مِمَّنْ قَبْلَهُ وَيَحْكِيهِ عَنْهُمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴾ أَيْ : لَيْسَ بِكَلَامِ اللهِ ، قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴾ أَيْ : سَأَغْمُرُهُ فِيهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴾ وَهَذَا تَهْوِيلٌ لِأَمْرِهَا وَتَفْخِيمٌ ، ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ أَيْ : تَأْكُلُ لُحُومَهُمْ وَعُرُوقَهُمْ وَعَصَبَهُمْ وَجُلُودَهُمْ ثُمَّ تُبَدَّلُ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ لَا يَمُوتُونَ وَلَا يَحْيَوْنَ ﴿ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴾ أَيْ : حَرَّاقَةٌ لِلْجِلْدِ . ﴿ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴾ أَيْ : مِنْ مُقَدَّمِي الزَّبَانِيَةِ عَظِيمٌ خَلْقُهُمْ غَلِيظٌ خُلُقُهُمْ .

وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗاۙ وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ

﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : خُزَّانَهَا ﴿ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ أَيْ : زَبَانِيَةً غِلَاظًا شِدَادًا ، وَذَلِكَ رَدٌّ عَلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ حِينَ ذَكَرُوا عَدَدَ الْخَزَنَةِ ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؛ أَمَا يَسْتَطِيعُ كُلُّ عَشَرَةٍ مِنْكُمْ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ فَتَغْلِبُونَهُمْ ؟ فَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ أَيْ : شَدِيدِي الْخَلْقِ لَا يُقَاوَمُونَ وَلَا يُغَالَبُونَ ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا ذَكَرْنَا عِدَّتَهُمْ أَنَّهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ اخْتِبَارًا مِنَّا لِلنَّاسِ ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الرَّسُولَ حَقٌّ ؛ فَإِنَّهُ نَطَقَ بِمُطَابَقَةِ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾ أَيْ : إِلَى إِيمَانِهِمْ بِمَا يَشْهَدُونَ مِنْ صِدْقِ إِخْبَارِ نَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ أَيْ : يَقُولُونَ : مَا الْحِكْمَةُ فِي ذِكْرِ هَذَا هَهُنَا ؟ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : مِنْ مِثْلِ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ يَتَأَكَّدُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِ أَقْوَامٍ ، وَيَتَزَلْزَلُ عِنْدَ آخَرِينَ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : مَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ وَكَثْرَتَهُمْ إِلَّا هُوَ تَعَالَى ، لِئَلَّا يَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أَنَّهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ فَقَطْ ، كَمَا قَدْ قَالَهُ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ وَمِنَ الْفَلَاسِفَةِ الْيُونَانِيِّينَ ، وَمَنْ شَايَعَهُمْ مِنَ الْمِلَّتَيْنِ الَّذِينَ سَمِعُوا هَذِهِ الْآيَةَ ، فَأَرَادُوا تَنْزِيلَهَا عَلَى الْعُقُولِ الْعَشْرَةِ وَالنُّفُوسِ التِّسْعَةِ الَّتِي اخْتَرَعُوا دَعْوَاهَا وَعَجَزُوا عَنْ إِقَامَةِ الدَّلَالَةِ عَلَى مُقْتَضَاهَا ، فَأُفْهِمُوا صَدْرَ الْآيَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِآخِرِهَا وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي صِفَةِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ الَّذِي فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ : « **فَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : ﴿ وَمَا هِىَ ﴾ أَيْ : النَّارُ الَّتِي وُصِفَتْ ﴿ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ أَيْ : وَلَّى ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ ، أَيْ : أَشْرَقَ ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴾ أَيْ : الْعَظَائِمِ ، يَعْنِي : النَّارُ .

﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ أَيْ : لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَقْبَلَ النِّذَارَةَ ، وَيَهْتَدِي لِلْحَقِّ ، أَوْ يَتَأَخَّرَ عَنْهَا وَيُوَلِّي وَيَرُدَّهَا .

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾
عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ

نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾
حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ
﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ
صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ
ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّ ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ أَيْ : مُعْتَقَلَةٌ بِعَمَلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ فَإِنَّهُمْ ﴿ فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أَيْ : يَسْأَلُونَ الْمُجْرِمِينَ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ، وَأُولَئِكَ فِي الدَّرَكَاتِ قَائِلِينَ لَهُمْ : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴾ أَيْ : مَا عَبَدْنَا رَبَّنَا وَلَا أَحْسَنَّا إِلَى خَلْقِهِ مِنْ جِنْسِنَا ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴾ أَيْ : نَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا نَعْلَمُ ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ يَعْنِي : الْمَوْتَ . ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ ﴾ أَيْ : مَنْ كَانَ مُتَّصِفًا بِمِثْلِ هَذِهِ الصِّفَاتِ ، فَإِنَّهُ لَا تَنْفَعُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفَاعَةُ شَافِعٍ فِيهِ ؛ لِأَنَّ الشَّفَاعَةَ إِنَّمَا تَنْجَعُ إِذَا كَانَ الْمَحَلُّ قَابِلًا ، فَأَمَّا مَنْ وَافَى اللهَ كَافِرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَإِنَّهُ لَهُ النَّارُ لَا مَحَالَةَ خَالِدًا فِيهَا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ أَيْ : فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْكَفَرَةِ الَّذِينَ قِبَلَكَ مِمَّا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ وَتُذَكِّرُهُمْ بِهِ مُعْرِضِينَ ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ أَيْ : كَأَنَّهُمْ فِي نِفَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ حُمُرٌ مِنْ حُمُرِ الْوَحْشِ ، إِذَا فَرَّتْ مِمَّنْ يُرِيدُ صَيْدَهَا مِنْ أَسَدٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ أَيْ : بَلْ يُرِيدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ كَمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ .

فَقَوْلُهُ : ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَفْسَدَهُمْ عَدَمُ إِيمَانِهِمْ بِهَا ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِوُقُوعِهَا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴾ أَيْ : حَقًّا إِنَّ الْقُرْآنَ تَذْكِرَةٌ ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان : ٣٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ أَيْ : هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُخَافَ مِنْهُ ، وَهُوَ أَهْلٌ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسير سورة القيامة

آياتها ٤٠ مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾

قَدْ تَقَدَّمَ غَيْرُ مَرَّةٍ أَنَّ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ مُنْتَفِيًا جَازَ الْإِتْيَانُ بِـ « لا » قَبْلَ الْقَسَمِ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ ، وَالْمُقْسَمُ عَلَيْهِ هَهُنَا هُوَ : إِثْبَاتُ الْمَعَادِ ، وَالرَّدُّ عَلَى مَا يَزْعُمُهُ الْجَهَلَةُ مِنْ عَدَمِ بَعْثِ الْأَجْسَادِ ،وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ أَقْسَمَ بِهِمَا ، فَأَمَّا يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَمَعْرُوفٌ ، وَأَمَّا النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ : عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : إِنَّ الْمُؤْمِنَ - وَاللهِ - مَا نَرَاهُ إِلَّا يَلُومُ نَفْسَهُ : مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَتِي ؟ مَا أَرَدْتُ بِأَكْلَتِي ؟ مَا أَرَدْتُ بِحَدِيثِ نَفْسِي ؟ . وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَمْضِي قُدُمًا مَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ .وَقَوْلُهُ : ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ أَيْ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَيَظُنُّ أَنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَى إِعَادَةِ عِظَامِهِ وَجَمْعِهَا مِنْ أَمَاكِنِهَا الْمُتَفَرِّقَةِ ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ أَنْ نَجْعَلَهُ خُفًّا أَوْ حَافِرًا ، وَالظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿قَـٰدِرِينَ﴾ حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿نَّجْمَعَ﴾ أَيْ : أَيَظُنُّ الْإِنْسَانُ أَنَّا لَا نَجْمَعُ عِظَامَهُ ؟ بَلَى سَنَجْمَعُهَا ، قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ، أَيْ : قُدْرَتُنَا صَالِحَةٌ لِجَمْعِهَا وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَاهُ أَزْيَدَ مِمَّا كَانَ ، فَتُجْعَلُ بَنَانُهُ - وَهِيَ أَطْرَافُ أَصَابِعِهِ - مُسْتَوِيَةٌ . ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ يَعْنِي : يَمْضِي قُدُمًا ، يَقُولُ الْإِنْسَانُ أَعْمَلُ ثُمَّ أَتُوبُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيُقَالُ : هُوَ الْكُفْرُ بِالْحَقِّ بَيْنَ يَدَيِ الْقِيَامَةِ ، وَقِيلَ : هُوَ الْكَافِرُ يُكَذِّبُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ، وَهَذَا هُوَ الْأَظْهَرُ مِنَ الْمُرَادِ ،وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ : ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أَيْ : يَقُولُ : مَتَى يَكُونُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ؟ وَإِنَّمَا سُؤَالُهُ سُؤَالُ اسْتِبْعَادٍ لِوُقُوعِهِ وَتَكْذِيبٍ لِوُجُودِهِ ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ الْمَقْصُودُ : أَنَّ الْأَبْصَارَ تَنْبَهِرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَخْشَعُ وَتَحَارُ وَتَذِلُّ مِنْ شِدَّةِ الْأَهْوَالِ ، وَمِنْ عِظَمِ مَا تُشَاهِدُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأُمُورِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴾ أَيْ: ذَهَبَ ضَوْؤُهُ ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: كُوِّرَا، ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾ أَيْ: إِذَا عَايَنَ ابْنُ آدَمَ هَذِهِ الْأَهْوَالَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَئِذٍ يُرِيدُ أَنْ يَفِرَّ، وَيَقُولُ: أَيْنَ الْمَفَرُّ؟ أَيْ: هَلْ مِنْ مَلْجَإٍ أَوْ مَوْئِلٍ؟.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾ أَيْ: لَا نَجَاةَ ﴿ لَا وَزَرَ ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَكُمْ مَكَانٌ تَعْتَصِمُونَ فِيهِ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ أَيْ: الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ أَيْ: يُخْبَرُ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِ قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا، أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ أَيْ: هُوَ شَهِيدٌ عَلَى نَفْسِهِ، عَالِمٌ بِمَا فَعَلَهُ وَلَوِ اعْتَذَرَ وَأَنْكَرَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤] أَيْ: يَشْهَدُ عَلَيْهِ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَيَدَاهُ وَرِجْلَاهُ وَجَوَارِحُهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ وَلَوْ جَادَلَ عَنْهَا فَهُوَ بَصِيرٌ عَلَيْهَا.

لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾

هَذَا تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ ﷻ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي كَيْفِيَّةِ تَلَقِّيهِ الْوَحْيَ مِنَ الْمَلَكِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُبَادِرُ إِلَى أَخْذِهِ وَيُسَابِقُ الْمَلَكَ فِي قِرَاءَتِهِ، فَأَمَرَهُ اللهُ ﷻ إِذَا جَاءَهُ الْمَلَكُ بِالْوَحْيِ أَنْ يَسْتَمِعَ لَهُ، وَتَكَفَّلَ اللهُ لَهُ أَنْ يَجْمَعَهُ فِي صَدْرِهِ، وَأَنْ يُيَسِّرَهُ لِأَدَائِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَلْقَاهُ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُبَيِّنَهُ لَهُ وَيُفَسِّرَهُ وَيُوَضِّحَهُ فَالْحَالَةُ الْأُولَى: جَمْعُهُ فِي صَدْرِهِ، وَالثَّانِيَةُ: تِلَاوَتُهُ، وَالثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُهُ وَإِيضَاحُ مَعْنَاهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ أَيْ: بِالْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]

ثُمَّ قَالَ: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ ﴾ أَيْ: فِي صَدْرِكَ ﴿ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ أَيْ: أَنْ تَقْرَأَهُ ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ ﴾ أَيْ: إِذَا تَلَاهُ عَلَيْكَ الْمَلَكُ عَنِ اللهِ ﷻ ﴿ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ أَيْ: فَاسْتَمِعْ لَهُ ثُمَّ اقْرَأْهُ كَمَا أَقْرَأَكَ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ أَيْ: بَعْدَ حِفْظِهِ وَتِلَاوَتِهِ نُبَيِّنُهُ لَكَ وَنُوَضِّحُهُ وَنُلْهِمُكَ مَعْنَاهُ عَلَى مَا أَرَدْنَا وَشَرَعْنَا.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، فَكَانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ، قَالَ: فَأَنَا أُحَرِّكُ شَفَتَيَّ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ قَالَ: جَمْعُهُ فِي صَدْرِكَ، ثُمَّ تَقْرَأُهُ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾

أَيْ : فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ كَمَا أَقْرَأَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمُخَالَفَةِ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ ﷻ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الْحَقِّ وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . أَنَّهُمْ إِنَّمَا هِمَّتُهُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةِ وَهُمْ لَاهُونَ مُتَشَاغِلُونَ عَنِ الْآخِرَةِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ مِنَ النَّضَارَةِ ، أَيْ : حَسَنَةٌ بَهِيَّةٌ مُشْرِقَةٌ مَسْرُورَةٌ ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أَيْ : تَرَاهُ عِيَانًا ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا** » .

وَقَدْ ثَبَتَتْ رُؤْيَةُ الْمُؤْمِنِينَ للهِ ﷻ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ مِنْ طُرُقٍ مُتَوَاتِرَةٍ عِنْدَ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ ، لَا يُمْكِنُ دَفْعُهَا وَلَا مَنْعُهَا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ نَاسًا قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ : « **هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْسَ دُونَهُمَا سَحَابٌ** ؟ » قَالُوا : لَا ، قَالَ : « **فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَذَلِكَ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ هَذِهِ وُجُوهُ الْفُجَّارِ تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَاسِرَةً ، وَقِيلَ : كَالِحَةً ، وَقِيلَ : تُغَيَّرُ أَلْوَانُهَا ﴿ تَظُنُّ ﴾ أَيْ : تَسْتَيْقِنَ ﴿ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : دَاهِيَةٌ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : شَرٌّ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : تَسْتَيْقِنُ أَنَّهَا هَالِكَةٌ .

كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالَةِ الِاحْتِضَارِ وَمَا عِنْدَهَا مِنَ الْأَهْوَالِ - ثَبَّتَنَا اللهُ هُنَاكَ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ - فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴾ إِنْ جَعَلْنَا « كَلَّا » رَادِعَةً ، فَمَعْنَاهَا : لَسْتَ يَا ابْنَ آدَمَ هُنَاكَ تُكَذِّبُ بِمَا أَخْبَرْتَ بِهِ ، بَلْ صَارَ ذَلِكَ عِنْدَكَ عِيَانًا ، وَإِنْ جَعَلْنَاهَا بِمَعْنَى « حَقًّا » فَظَاهِرٌ ، أَيْ : حَقًّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ، أَيْ : انْتُزِعَتْ رُوحُكَ مِنْ جَسَدِكَ وَبَلَغَتْ تَرَاقِيكَ ، وَالتَّرَاقِي : جَمْعُ تَرْقُوَةٍ ، وَهِيَ الْعِظَامُ الَّتِي بَيْنَ ثُغْرَةِ النَّحْرِ وَالْعَاتِقِ ﴿ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴾ أَيْ : مَنْ رَاقٍ يَرْقِي ؟ وَقِيلَ : أَيْ : مَنْ طَبِيبٍ شَافٍ ، وَقِيلَ : مَنْ يَرْقَى بِرُوحِهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ أَمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ ؟ فَعَلَى هَذَا يَكُونُ مِنْ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : آخِرُ يَوْمٍ فِي الدُّنْيَا ، وَأَوَّلُ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ ، فَتَلْتَقِي الشِّدَّةُ بِالشِّدَّةِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ ،

وَقَالَ الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : هُمَا سَاقَاكَ إِذَا الْتَفَّتَا ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ : مَاتَتْ رِجْلَاهُ فَلَمْ تَحْمِلَاهُ ، وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِمَا جَوَّالًا ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ : هُوَ لَفُّهُمَا فِي الْكَفَنِ ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ أَيْ : الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ ، وَذَلِكَ أَنَّ الرُّوحَ تُرْفَعُ إِلَى السَّمَاوَاتِ ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ : رُدُّوا عَبْدِي إِلَى الْأَرْضِ ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ الطَّوِيلِ . ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْكَافِرِ الَّذِي كَانَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مُكَذِّبًا لِلْحَقِّ بِقَلْبِهِ ، مُتَوَلِّيًا عَنِ الْعَمَلِ بِقَالِبِهِ ، فَلَا خَيْرَ فِيهِ بَاطِنًا وَلَا ظَاهِرًا ، ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰ ﴾ أَيْ : جَذِلًا أَشِرًا بَطِرًا كَسْلَانًا ، لَا هِمَّةَ لَهُ وَلَا عَمَلَ ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰ ﴾ أَيْ : يَخْتَالُ ، وَقِيلَ : يَتَبَخْتَرُ . ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلْكَافِرِ بِهِ الْمُتَبَخْتِرُ فِي مِشْيَتِهِ ، أَيْ : يَحِقُّ لَكَ أَنْ تَمْشِيَ هَكَذَا وَقَدْ كَفَرْتَ بِخَالِقِكَ وَبَارِئِكَ ، كَمَا يُقَالُ فِي مِثْلِ هَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ وَالتَّهْدِيدِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أَيْ : لَيْسَ يُتْرَكُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مُهْمَلًا لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى ، وَلَا يُتْرَكُ فِي قَبْرِهِ سُدًى لَا يُبْعَثُ ، بَلْ هُوَ مَأْمُورٌ مَنْهِيٌّ فِي الدُّنْيَا ، مَحْشُورٌ إِلَى اللهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . وَالمَقْصُودُ هُنَا إِثْبَاتُ المَعَادِ ، وَالرَّدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَهُ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالْجَهْلِ وَالْعِنَادِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُسْتَدِلًّا عَلَى الْإِعَادَةِ بِالْبُدَاءَةِ فَقَالَ : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ أَيْ : أَمَا كَانَ الْإِنْسَانُ نُطْفَةً ضَعِيفَةً مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، يُمْنَى : يُرَاقُ مِنَ الْأَصْلَابِ فِي الْأَرْحَامِ ؟. ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ أَيْ : فَصَارَ عَلَقَةً ، ثُمَّ مُضْغَةً ثُمَّ شُكِّلَ وَنُفِخَ فِيهِ الرُّوحُ ، فَصَارَ خَلْقًا آخَرَ سَوِيًّا سَلِيمَ الْأَعْضَاءِ ، ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى بِإِذْنِ اللهِ وَتَقْدِيرِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أَيْ : أَمَا هَذَا الذي أَنْشَأَ هَذَا الْخَلْقَ السَّوِيَّ مِن هِذِه النُّطْفَةِ الضَّعِيفَةِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُعِيدَهُ كَمَا بَدَأَهُ ؟. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: أَنَّهُ مَرَّ بِهَذِهِ الآيَةِ : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ قَالَ : سُبْحَانَكَ ، فَبَلَى .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقِيَامَةِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٣١ تفسيرُ سورةِ الإنسان مدنية

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ﴿ الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ﴾ السَّجْدَةَ ، وَ ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ أَوْجَدَهُ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا يُذْكَرُ ، لِحَقَارَتِهِ ، وَضَعْفِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ .

ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أَيْ : أَخْلَاطٍ ، وَالْمَشْجُ وَالْمَشِيجُ : الشَّيْءُ الْخَلِيطُ ، بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ . **رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :** ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ يَعْنِي : مَاءُ الرَّجُلِ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ إِذَا اجْتَمَعَا وَاخْتَلَطَا ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ بَعْدُ مِنْ طَوْرٍ إِلَى طَوْرٍ ، وَحَالٍ إِلَى حَالٍ ، وَلَوْنٍ إِلَى لَوْنٍ . ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ أَيْ : نَخْتَبِرُهُ ، ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ أَيْ : جَعَلْنَا لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا يَتَمَكَّنُ بِهِمَا مِنَ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ . ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ أَيْ : بَيَّنَّاهُ لَهُ وَوَضَّحْنَاهُ وَبَصَّرْنَاهُ بِهِ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : ١٧] **وَقَوْلُهُ تَعَالَى :** ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ مِنَ « الْهَاءِ » فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ تَقْدِيرُهُ : فَهُوَ فِي ذَلِكَ إِمَّا شَقِيٌّ وَإِمَّا سَعِيدٌ .

إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَرْصَدَهُ لِلْكَافِرِينَ مِنْ خَلْقِهِ بِهِ مِنَ السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ وَالسَّعِيرِ ، وَهُوَ اللَّهِيبُ وَالْحَرِيقُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَلَمَّا ذَكَرَ مَا أَعَدَّهُ لِهَؤُلَاءِ الْأَشْقِيَاءِ مِنَ السَّعِيرِ **قَالَ بَعْدَهُ :** ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ ، وَقَدْ عُلِمَ مَا فِي الْكَافُورِ مِنَ التَّبْرِيدِ وَالرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ مَعَ مَا يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ اللَّذَاذَةِ فِي الْجَنَّةِ . **قَالَ الْحَسَنُ :** بَرْدُ الْكَافُورِ فِي طِيبِ الزَّنْجَبِيلِ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ :** ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي مُزِجَ لِهَؤُلَاءِ

الْأَبْرَارِ مِنَ الْكَافُورِ هُوَ عَيْنٌ يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ مِنْ عِبَادِ اللهِ صَرْفًا بِلَا مَزْجٍ وَيُرْوَوْنَ بِهَا عَلَى التَّمْيِيزِ . هَذَا الشَّرَابُ فِي طِيبِهِ كَالْكَافُورِ ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : هُوَ مِنْ عَيْنِ كَافُورٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أَيْ : يَتَصَرَّفُونَ فِيهَا حَيْثُ شَاءُوا وَأَيْنَ شَاءُوا مِنْ قُصُورِهِمْ وَدُورِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ وَمَحَالِّهِمْ . وَالتَّفْجِيرُ هُوَ الْإِنْبَاعُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾[الإسراء : ٩٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ أَيْ : يَتَعَبَّدُونَ للهِ فِيمَا أَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الطَّاعَاتِ الْوَاجِبَةِ بِأَصْلِ الشَّرْعِ ، وَمَا أَوْجَبُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِطَرِيقِ النَّذْرِ . عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ : ((**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ**)). وَيَتْرُكُونَ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي نَهَاهُمْ عَنْهَا خِيفَةً مِنْ سُوءِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْمَعَادِ ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي شَرُّهُ مُسْتَطِيرٌ ، أَيْ : مُنْتَشِرٌ عَامٌّ عَلَى النَّاسِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الطَّعَامِ ، أَيْ : وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ فِي حَالِ مَحَبَّتِهِمْ وَشَهْوَتِهِمْ لَهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾[البقرة : ١٧٧]

وَفِي الصَّحِيحِ ((أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ ، تَأْمُلُ الْغِنَى وَتَخْشَى الْفَقْرَ)) أَيْ : فِي حَالِ مَحَبَّتِكَ لِلْمَالِ وَحِرْصِكَ عَلَيْهِ وَحَاجَتِكَ إِلَيْهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ أَمَّا الْمِسْكِينُ وَالْيَتِيمُ فَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُمَا وَصِفَتُهُمَا ، **وَأَمَّا الْأَسِيرُ : فَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : هُوَ الْأَسِيرُ عُمُومًا سَوَاءٌ كَانَ مُسْلِمًا أَوْ مُشْرِكًا . أَيْ : يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ هَؤُلَاءِ وَهُمْ يَشْتَهُونَهُ وَيُحِبُّونَهُ ، قَائِلِينَ بِلِسَانِ الْحَالِ ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : رَجَاءَ ثَوَابِ اللهِ وَرِضَاهُ ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ أَيْ : لَا نَطْلُبُ مِنْكُمْ مُجَازَاةً تُكَافِئُونَا بِهَا وَلَا أَنْ تَشْكُرُونَا عِنْدَ النَّاسِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا نَفْعَلُ هَذَا لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَرْحَمَنَا وَيَتَلَقَّانَا بِلُطْفِهِ فِي الْيَوْمِ الْعَبُوسِ الْقَمْطَرِيرِ . **قِيلَ** : ﴿ عَبُوسًا ﴾ ضَيِّقًا ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ طَوِيلًا ، **وَقِيلَ** : ﴿ يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ أَيْ : يَعْبَسُ الْكَافِرُ يَوْمَئِذٍ حَتَّى يَسِيلَ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْهِ عَرَقٌ مِثْلُ الْقَطِرَانِ ، ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ يَقْبِضُ الْوَجْهَ بِالْبُسُورِ ، **وَقِيلَ** : تَعْبَسُ فِيهِ الْوُجُوهُ مِنَ الْهَوْلِ . **قِيلَ** : ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ تَقْلِيصُ الْجَبِينِ وَمَا بَيْنَ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الْهَوْلِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّجَانُسِ الْبَلِيغِ ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ﴾ أَيْ : آمَنَهُمْ بِمَا خَافُوا مِنْهُ ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً ﴾ أَيْ : فِي وُجُوهِهِمْ ﴿ وَسُرُورًا ﴾ أَيْ : فِي قُلُوبِهِمْ ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ صَبْرِهِمْ أَعْطَاهُمْ وَنَوَّلَهُمْ

وَبَوَّأَهُمْ ﴿ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ أَيْ : مَنْزِلًا رَحْبًا ، وَعَيْشًا رَغَدًا ، وَلِبَاسًا حَسَنًا .

مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الجَنَّةِ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ المُقِيمِ ، وَمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَضْلِ الْعَمِيمِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ الِاتِّكَاءُ ، قِيلَ : الِاضْطِجَاعُ ، وَقِيلَ : التَّرَبُّعُ فِي الْجُلُوسِ ، وَالْأَرَائِكُ : هِيَ السُّرُرُ تَحْتَ الْحِجَالِ . ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ أَيْ : لَيْسَ عِنْدَهُمْ حَرٌّ مُزْعِجٌ ، وَلَا بَرْدٌ مُؤْلِمٌ ، بَلْ هِيَ مِزَاجٌ وَاحِدٌ دَائِمٌ سَرْمَدِيٌّ ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا ﴾ أَيْ : قَرِيبَةٌ إِلَيْهِمْ أَغْصَانُهَا ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ أَيْ : مَتَى تَعَاطَاهُ دَنَا الْقِطْفُ إِلَيْهِ وَتَدَلَّى مِنْ أَعْلَى غُصْنِهِ ، كَأَنَّهُ سَامِعٌ طَائِعٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن : ٥٤] ، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ٢٣] . قَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ إِنْ قَامَ ارْتَفَعَتْ مَعَهُ بِقَدْرٍ ، وَإِنْ قَعَدَ تَدَلَّتْ لَهُ حَتَّى يَنَالَهَا ، وَإِنِ اضْطَجَعَ تَدَلَّتْ لَهُ حَتَّى يَنَالَهَا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَذْلِيلًا ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أَيْ : يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْخَدَمُ بِأَوَانِي الطَّعَامِ وَهِيَ مِنْ فِضَّةٍ ، وَأَكْوَابِ الشَّرَابِ وَهِيَ الْكِيزَانُ الَّتِي لَا عُرَى لَهَا وَلَا خَرَاطِيمَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ ﴾ فَالْأَوَّلُ مَنْصُوبٌ بِخَبَرِ كَانَ ، أَيْ : كَانَتْ قَوَارِيرَ ، وَالثَّانِي مَنْصُوبٌ إِمَّا عَلَى الْبَدَلِيَّةِ ، أَوْ تَمْيِيزٌ ؛ لِأَنَّهُ بَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ ﴾ أَيْ : بَيَاضُ الْفِضَّةِ فِي صَفَاءِ الزُّجَاجِ ، وَالْقَوَارِيرُ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ زُجَاجٍ ، فَهَذِهِ الْأَكْوَابُ هِيَ مِنْ فِضَّةٍ ، وَهِيَ مَعَ هَذَا شَفَّافَةٌ يُرَى مَا فِي بَاطِنِهَا مِنْ ظَاهِرِهَا ، وَهَذَا مِمَّا لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الدُّنْيَا . ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ أَيْ : عَلَى قَدْرِ رِيِّهِمْ ، لَا تَزِيدُ عَنْهُ وَلَا تَنْقُصُ ، ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ أَيْ : وَيُسْقَوْنَ يَعْنِي الْأَبْرَارَ أَيْضًا فِي هَذِهِ الْأَكْوَابِ ﴿ كَأْسًا ﴾ أَيْ : خَمْرًا ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ فَتَارَةً يُمْزَجُ لَهُمُ الشَّرَابُ بِالْكَافُورِ وَهُوَ بَارِدٌ ، وَتَارَةً بِالزَّنْجَبِيلِ وَهُوَ حَارٌّ ، لِيَعْتَدِلَ

الْأَمْرُ ، وَهَؤُلَاءِ يُمْزَجُ لَهُمْ مِنْ هَذَا تَارَةً وَمِنْ هَذَا تَارَةً ، وَأَمَّا الْمُقَرَّبُونَ فَإِنَّهُمْ يَشْرَبُونَ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا صِرْفًا ، ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ أَيْ : الزَّنْجَبِيل عَيْنٌ فِي الْجَنَّةِ تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أَيْ : يَطُوفُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ لِلْخِدْمَةِ وِلْدَانٌ مِنْ وِلْدَانِ الْجَنَّةِ ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أَيْ : عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ مُخَلَّدُونَ عَلَيْهَا ، لَا يَتَغَيَّرُونَ عَنْهَا ، لَا تَزِيدُ أَعْمَارُهُمْ عَنْ تِلْكَ السِّنِّ . ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أَيْ : إِذَا رَأَيْتَهُمْ فِي انْتِشَارِهِمْ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ السَّادَةِ وَكَثْرَتِهِمْ ، وَصَبَاحَةِ وُجُوهِهِمْ ، وَحُسْنِ أَلْوَانِهِمْ وَثِيَابِهِمْ وَحُلِيِّهِمْ ، حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا ، وَلَا يَكُونُ فِي التَّشْبِيهِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا ، وَلَا فِي الْمَنْظَرِ أَحْسَنُ مِنَ اللُّؤْلُؤِ الْمَنْثُورِ عَلَى الْمَكَانِ الْحَسَنِ . ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ ، أَيْ : وَإِذَا رَأَيْتَ يَا مُحَمَّدُ ﴿ ثَمَّ ﴾ أَيْ : هُنَاكَ ، يَعْنِي فِي الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا وَسَعَتِهَا وَارْتِفَاعِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْحَبْرَةِ وَالسُّرُورِ ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ أَيْ : مَمْلَكَةً للهِ هُنَاكَ عَظِيمَةً وَسُلْطَانًا بَاهِرًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ أَيْ : لِبَاسُ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيهَا الْحَرِيرُ ، وَمِنْهُ سُنْدُسٌ وَهُوَ رَفِيعُ الْحَرِيرِ كَالْقُمْصَانِ وَنَحْوِهَا مِمَّا يَلِي أَبْدَانَهُمْ ، وَالْإِسْتَبْرَقُ مِنْهُ مَا فِيهِ بَرِيقٌ وَلَمَعَانٌ وَهُوَ مِمَّا يَلِي الظَّاهِرَ ، كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ فِي اللِّبَاسِ . ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ وَهَذِهِ صِفَةُ الْأَبْرَارِ ، وَأَمَّا الْمُقَرَّبُونَ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾[الحج : ٢٣] ، وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى زِينَةَ الظَّاهِرِ بِالْحَرِيرِ وَالْحُلِيِّ قَالَ بَعْدَهُ ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ أَيْ : طَهَّرَ بَوَاطِنَهُمْ مِنَ الْحَسَدِ وَالْحِقْدِ وَالْغِلِّ وَالْأَذَى وَسَائِرِ الْأَخْلَاقِ الرَّدِيَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَكْرِيمًا لَهُمْ وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾[الحاقة : ٢٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ أَيْ : جَزَاكُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْقَلِيلِ بِالْكَثِيرِ .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ
كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا
طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ
خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ
فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا يَمْتَنُّ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ بِمَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ تَنْزِيلًا ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أَيْ : كَمَا أَكْرَمَكَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ ، فَاصْبِرْ عَلَى قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ سَيُدَبِّرُكَ بِحُسْنِ تَدْبِيرِهِ ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ أَيْ : لَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنْ أَرَادُوا صَدَّكَ عَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، بَلْ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ؛ فَإِنَّ اللهَ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ . **فَالْآثِمُ** : هُوَ الْفَاجِرُ فِي أَفْعَالِهِ ، **وَالْكَفُورُ** : هُوَ الْكَافِرُ قَلْبُهُ . ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أَيْ : أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ ﴿ وَمِنَ الَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْكُفَّارِ وَمَنْ أَشْبَهَهُمْ فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهَا وَالِانْصِبَابِ إِلَيْهَا وَتَرْكِ الدَّارِ الْآخِرَةِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ يَعْنِي : خَلْقَهُمْ ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ أَيْ : وَإِذَا شِئْنَا بَعَثْنَاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَبَدَّلْنَاهُمْ فَأَعَدْنَاهُمْ خَلْقًا جَدِيدًا ، وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ بِالْبُدَاءَةِ عَلَى الرَّجْعَةِ ، ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ﴾ يَعْنِي هَذِهِ السُّورَةُ تَذْكِرَةٌ ﴿ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ أَيْ : طَرِيقًا وَمَسْلَكًا ، أَيْ : مَنْ شَاءَ اهْتَدَى بِالْقُرْآنِ ، ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَهْدِيَ نَفْسَهُ ، وَلَا يَدْخُلَ فِي الْإِيمَانِ وَلَا يَجُرَّ لِنَفْسِهِ نَفْعًا ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ، أَيْ : عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ فَيُيَسِّرُهَا لَهُ ، وَيُقَيِّضُ لَهُ أَسْبَابَهَا ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغِوَايَةَ فَيَصْرِفُهُ عَنِ الْهُدَى ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ ، وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَالظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أَيْ : يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، فَمَنْ يَهْدِهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِنْسَانِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسيرُ سُورَةِ المرْسَلاتِ — آياتها ٥٠ — مكيـة

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه **قَالَ** : بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَارٍ بِمِنًى ، إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ : ﴿ وَالْمُرْسَلَٰتِ ﴾ ، فَإِنَّهُ لَيَتْلُوهَا وَإِنِّي لَأَتَلَقَّاهَا مِنْ فِيهِ ، وَإِنَّ فَاهُ لَرَطْبٌ بِهَا ، إِذْ وَثَبَتْ عَلَيْنَا حَيَّةٌ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **اقْتُلُوهَا** » فَابْتَدَرْنَاهَا فَذَهَبَتْ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **وُقِيَتْ شَرَّكُمْ كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا** » . **عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : **أَنَّ أُمَّ الْفَضْلِ** سَمِعَتْهُ يَقْرَأُ : ﴿ وَالْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ فَقَالَتْ : يَا بُنَيَّ ، ذَكَّرْتَنِي بِقِرَاءَتِكَ هَذِهِ السُّورَةَ ، إِنَّهَا لَآخِرُ مَا سَمِعْتُ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا فِي الْمَغْرِبِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ قَالَ : المَلَائِكَةُ ، **وَقِيلَ** : هِيَ الرُّسُلُ . **وَعَنْ أَبِي الْعُبَيْدَيْنِ** قَالَ : سَأَلْتُ اِبْنَ مَسْعُودٍ ﷺ عَنْ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ قَالَ : الرِّيحُ ، وَكَذَا قَالَ فِي : ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ : إِنَّهَا الرِّيحُ ، وَهُوَ الأَظْهَرُ . ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ يَعْنِي : المَلَائِكَةُ ، وَلَا خِلَافَ هَاهُنَا ؛ فَإِنَّهَا تَنْزِلُ بِأَمْرِ اللهِ عَلَى الرُّسُلِ ، تَفْرُقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْهُدَى وَالْغَيِّ ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَتُلْقِي إِلَيْهِمْ وَحْيًا فِيهِ إِعْذَارٌ إِلَى الْخَلْقِ ، وَإِنْذَارٌ لَهُمْ عِقَابَ اللهِ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَهُ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ بِهَذِهِ الْأَقْسَامِ ، أَيْ : مَا وُعِدْتُمْ بِهِ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ ، وَالنَّفْخِ فِي الصُّورِ ، وَبَعْثِ الْأَجْسَادِ ، وَجَمْعِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَمُجَازَاةِ كُلِّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، إِنَّ هَذَا كُلَّهُ ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ أَيْ : لَكَائِنٌ لَا مَحَالَةَ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أَيْ : ذَهَبَ ضَوْؤُهَا ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ أَيْ : اِنْفَطَرَتْ وَانْشَقَّتْ ، وَتَدَلَّتْ أَرْجَاؤُهَا ، وَوَهَتْ أَطْرَافُهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أَيْ : ذُهِبَ بِهَا فَلَا يَبْقَى لَهَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ جُمِعَتْ ، **قَالَ اِبْنُ زَيْدٍ** : وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة : ١٠٩] ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿أُقِّتَتْ﴾ أُجِّلَتْ ، **وَقِيلَ** : ﴿أُقِّتَتْ﴾ أُوعِدَتْ ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ **يَقُولُ** تَعَالَى : لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتِ الرُّسُلُ وَأُرْجِئَ أَمْرُهَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ، **ثُمَّ قَالَ مُعَظِّمًا لِشَأْنِهِ** ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أَيْ : وَيْلٌ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ غَدًا .

أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم

مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ الْمُخَالِفِينَ لِمَا جَاءُوهُمْ بِهِ ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴾ أَيْ : مِمَّنْ أَشْبَهَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ مُمْتَنًّا عَلَى خَلْقِهِ وَمُحْتَجًّا عَلَى الإِعَادَةِ بِالبَدَاءَةِ : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ أَيْ : ضَعِيفٍ حَقِيرٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَةِ الْبَارِئِ ﷻ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ ((يس)) فِي حَدِيثِ بُسْرِ بْنِ جِحَاشٍ ﷺ ((اِبْنَ آدَمَ ، أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ؟)) . ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ يَعْنِي : جَمَعْنَاهُ فِي الرَّحِمِ ، وَهُوَ قَرَارُ الْمَاءِ مِنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ ، وَالرَّحِمُ مُعَدٌّ لِذَلِكَ ، حَافِظٌ لِمَا أُودِعَ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ . ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ يعني : إِلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ سِتَّةِ أَشْهُرٍ أَوْ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ قِيلَ : كُنًّا ، وَقِيلَ : يُكْفَتُ الْمَيِّتُ فَلَا يُرَى مِنْهُ شَيْءٌ وَقِيلَ : بَطْنُهَا لِأَمْوَاتِكُمْ ، وَظَهْرُهَا لِأَحْيَائِكُم .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ ﴾ يَعْنِي : الْجِبَالَ أَرْسَى بِهَا الْأَرْضَ لِئَلَّا تَمِيدَ وَتَضْطَرِبَ ﴿ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾ أَيْ : عَذْبًا زُلَالًا مِنَ السَّحَابِ ، أَوْ مِمَّا أَنْبَعَهُ مِنْ عُيُونِ الْأَرْضِ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أَيْ : وَيْلٌ لِمَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا يَسْتَمِرُّ عَلَى تَكْذِيبِهِ وَكُفْرِهِ .

ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِلْكُفَّارِ الْمُكَذِّبِينَ بِالْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، أَنَّهُمْ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴾ يَعْنِي : لَهَبَ النَّارِ إِذَا اِرْتَفَعَ وَصَعِدَ مَعَهُ دُخَانٌ ، فَمِنْ شِدَّتِهِ وَقُوَّتِهِ أَنَّ لَهُ ثَلَاثُ شُعَبٍ ﴿ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴾ أَيْ : ظِلُّ الدُّخَانِ الْمُقَابِلُ لِلَّهَبِ لَا ظَلِيلَ هُوَ فِي نَفْسِهِ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ، يَعْنِي : وَلَا يَقِيهِمْ حَرَّ اللَّهَبِ ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴾ أَيْ : يَتَطَايَرُ الشَّرَرُ مِنْ لَهَبِهَا كَالْقَصْرِ ﴿ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ أَيْ : كَالْإِبِلِ السُّودِ ، وَقِيلَ : ﴿ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ يَعْنِي : حِبَالَ السُّفُنِ ، عَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ

عَنْهُمَا - ﴿ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ قِطَعُ نُحَاسٍ ، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَتَكَلَّمُونَ ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْكَلَامِ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فِيهِ لِيَعْتَذِرُوا ، بَلْ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ، وَعَرَصَاتُ الْقِيَامَةِ حَالَاتٌ ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يُخْبِرُ عَنْ هَذِهِ الْحَالَةِ تَارَةً ، وَعَنْ هَذِهِ الْحَالَةِ تَارَةً ؛ لِيَدُلَّ عَلَى شِدَّةِ الْأَهْوَالِ وَالزَّلَازِلِ يَوْمَئِذٍ . وَلِهَذَا يَقُولُ بَعْدَ كُلِّ فَصْلٍ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ، وَهَذِهِ مُخَاطَبَةٌ مِنَ الْخَالِقِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ يَقُولُ لَهُمْ : أَنَّهُ جَمَعَهُمْ بِقُدْرَتِهِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ . ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، أَيْ : إِنْ قَدَرْتُمْ عَلَى أَنْ تَتَخَلَّصُوا مِنْ قَبْضَتِي ، وَتَنْجُوا مِنْ حُكْمِي فَافْعَلُوا ، فَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ عَبَدُوهُ بِأَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ ، وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ : إِنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُونَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، أَيْ : بِخِلَافِ مَا أُولَئِكَ الْأَشْقِيَاءُ فِيهِ مِنْ ظِلِّ الْيَحْمُومِ ، وَهُوَ الدُّخَانُ الْأَسْوَدُ الْمُنْتِنُ ﴿ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الثِّمَارِ مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا خَبَرًا مُسْتَأْنَفًا ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ : هَذَا جَزَاؤُنَا لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلَ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ خِطَابٌ لِلْمُكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ ، وَأَمَرَهُمْ أَمْرَ تَهْدِيدٍ وَوَعِيدٍ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا ﴾ أَيْ : مُدَّةً قَلِيلَةً قَرِيبَةً قَصِيرَةً ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤] وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴾ أَيْ : إِذَا أُمِرَ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةُ مِنَ الْكُفَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُصَلِّينَ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، امْتَنَعُوا مِنْ ذَلِكَ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْقُرْآنِ فَبِأَيِّ كَلَامٍ يُؤْمِنُونَ بِهِ ؟.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسير سورة النبأ — آياتها ٤٠ — مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤
ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا
۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا
فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤
لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي تَسَاؤُلِهِمْ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْكَارًا لِوُقُوعِهَا ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أَيْ : عَنْ أَيِّ شَيْءٍ يَتَسَاءَلُونَ مِنْ أَمْرِ الْقِيَامَةِ ، وَهُوَ النَّبَأُ الْعَظِيمُ ، يَعْنِي : الْخَبَرُ الْهَائِلُ الْمُفْظِعُ الْبَاهِرُ . قَالَ قَتَادَةُ ، وَابْنُ زَيْدٍ : النَّبَأُ الْعَظِيمُ : الْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ ، ﴿ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ يَعْنِي : النَّاسُ فِيهِ عَلَى قَوْلَيْنِ مُؤْمِنٌ بِهِ وَكَافِرٌ . ثُمَّ قَالَ مُتَوَعِّدًا لِمُنْكِرِي الْقِيَامَةِ ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ . ثُمَّ شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُبَيِّنُ قُدْرَتَهُ الْعَظِيمَةَ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْغَرِيبَةِ وَالْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ ، الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ وَغَيْرِهِ ، فَقَالَ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴾ أَيْ : مُمَهَّدَةً لِلْخَلَائِقِ ، ذَلُولًا لَهُمْ قَارَّةً سَاكِنَةً ثَابِتَةً ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ أَيْ جَعَلَهَا لَهَا أَوْتَادًا أَرْسَاهَا بِهَا وَثَبَّتَهَا وَقَرَّرَهَا حَتَّى سَكَنَتْ ، وَلَمْ تَضْطَرِبْ بِمَنْ عَلَيْهَا ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ يَعْنِي : ذَكَرًا وَأُنْثَى يَسْتَمْتِعُ كُلٌّ مِنْهُمَا بِالْآخَرِ ، وَيَحْصُلُ التَّنَاسُلُ بِذَلِكَ . ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ أَيْ : قَطْعًا لِلْحَرَكَةِ لِتَحْصُلَ الرَّاحَةُ مِنْ كَثْرَةِ التَّرْدَادِ وَالسَّعْيِ فِي الْمَعَايِشِ فِي عَرَضِ النَّهَارِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي « سُورَةِ الْفُرْقَانِ » . ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أَيْ : يَغْشَى النَّاسَ ظَلَامُهُ وَسَوَادُهُ ، ﴿ لِبَاسًا ﴾ أَيْ : سَكَنًا . ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ أَيْ : جَعَلْنَاهُ مُشْرِقًا نَيِّرًا مُضِيئًا ، لِيَتَمَكَّنَ النَّاسُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيهِ وَالذَّهَابِ وَالْمَجِيءِ لِلْمَعَاشِ ، وَالتَّكَسُّبِ وَالتِّجَارَاتِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ . ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ يَعْنِي : السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ فِي اتِّسَاعِهَا وَارْتِفَاعِهَا وَإِحْكَامِهَا وَإِتْقَانِهَا ، وَتَزْيِينِهَا بِالْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ يَعْنِي : الشَّمْسَ الْمُنِيرَةَ عَلَى جَمِيعِ الْعَالَمِ الَّتِي يَتَوَهَّجُ ضَوْءُهَا لِأَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴾

الْمُرَادُ بِالْمُعْصِرَاتِ : السَّحَابُ . ﴿ مَآءً ثَجَّاجًا ﴾ ، الثَّجُّ : الصَّبُّ الْمُتَتَابِعُ الْكَثِيرُ ، ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴾ أَيْ : لِنُخْرِجَ بِهَذَا الْمَاءِ الْكَثِيرِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ الْمُبَارَكِ ﴿ حَبًّا ﴾ يُدَّخَرُ لِلْأَنَاسِيِّ وَالْأَنْعَامِ ﴿ وَنَبَاتًا ﴾ أَيْ : خَضِرًا يُؤْكَلُ رَطْبًا . ﴿ وَجَنَّٰتٍ ﴾ أَيْ : بَسَاتِينَ وَحَدَائِقَ مِنْ ثَمَرَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ ، وَأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَطُعُومٍ وَرَوَائِحَ مُتَفَاوِتَةٍ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي بُقْعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ مُجْتَمِعًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: ﴿ أَلْفَافًا ﴾ مُجْتَمِعَةً .

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَوْمِ الْفَصْلِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، أَنَّهُ مُؤَقَّتٌ بِأَجَلٍ مَعْدُودٍ لَا يُزَادُ عَلَيْهِ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ ، وَلَا يَعْلَمُ وَقْتَهُ عَلَى التَّعْيِينِ إِلَّا اللهُ ﷻ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود : ١٠٤] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : زُمَرًا زُمَرًا **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَعْنِي : تَأْتِي كُلُّ أُمَّةٍ مَعَ رَسُولِهَا . ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾ أَيْ : طُرُقًا وَمَسَالِكَ لِنُزُولِ الْمَلَائِكَةِ ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ أَيْ : يُخَيَّلُ إِلَى النَّاظِرِ أَنَّهَا شَيْءٌ ، وَلَيْسَتْ بِشَيْءٍ ، بَعْدَ هَذَا تَذْهَبُ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٥ - ١٠٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ أَيْ : مُرْصَدَةً مُعَدَّةً ﴿ لِّلطَّٰغِينَ ﴾ ، وَهُمْ : الْمَرَدَةُ الْعُصَاةُ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ ﴿ مَـَٔابًا ﴾ أَيْ : مَرْجِعًا وَمُنْقَلَبًا وَمَصِيرًا وَنُزُلًا . ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ، وَهِيَ جَمْعُ « حُقْبٍ » ، وَهُوَ : الْمُدَّةُ مِنَ الزَّمَانِ . وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِهِ ، **قَالَ قَتَادَةُ** : قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ ، وَهُوَ : مَا لَا انْقِطَاعَ لَهُ ، وَكُلَّمَا مَضَى حُقْبٌ جَاءَ حُقْبٌ بَعْدَهُ ، وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحُقْبَ ثَمَانُونَ سَنَةً . ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ أَيْ : لَا يَجِدُونَ فِي جَهَنَّمَ بَرْدًا ، لِقُلُوبِهِمْ وَلَا شَرَابًا طَيِّبًا يَتَغَذَّوْنَ بِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ . **قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ** : اسْتَثْنَى مِنَ الْبَرْدِ الْحَمِيمَ ، وَمِنَ الشَّرَابِ الْغَسَّاقَ . فَأَمَّا الْحَمِيمُ : فَهُوَ الْحَارُّ الَّذِي قَدِ انْتَهَى حَرُّهُ وَحَمُوُهُ . وَالْغَسَّاقُ : هُوَ مَا اجْتَمَعَ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ النَّارِ وَعَرَقِهِمْ وَدُمُوعِهِمْ وَجُرُوحِهِمْ فَهُوَ بَارِدٌ لَا يُسْتَطَاعُ مِنْ بَرْدِهِ وَلَا يُوَاجَهُ مِنْ نَتْنِهِ ، أَجَارَنَا اللهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْعُقُوبَةِ وَفْقَ أَعْمَالِهِمُ الْفَاسِدَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَهَا فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ أَيْ : لَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ ثَمَّ دَارًا يُجَازَوْنَ فِيهَا وَيُحَاسَبُونَ ﴿ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴾ أَيْ : وَكَانُوا يُكَذِّبُونَ بِحُجَجِ اللهِ وَدَلَائِلِهِ عَلَى خَلْقِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ فَيُقَابِلُونَهَا بِالتَّكْذِيبِ وَالْمُعَانَدَةِ . ﴿ وَكَذَّبُواْ ﴾ أَيْ : تَكْذِيبًا . ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴾ أَيْ : وَقَدْ عَلِمْنَا أَعْمَالَ الْعِبَادِ كُلِّهِمْ ، وَكَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ، وَسَنَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ . ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ أَيْ : يُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ : ذُوقُوا مَا أَنْتُمْ فِيهِ فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا مِنْ جِنْسِهِ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ السُّعَدَاءِ وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ تَعَالَى مِنَ الْكَرَامَةِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ مُتَنَزَّهًا ، ﴿ حَدَآئِقَ ﴾ وَهِيَ : الْبَسَاتِينُ مِنَ النَّخِيلِ وَغَيْرِهَا ﴿ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ أَيْ : وَحُورًا كَوَاعِبَ ﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ أَيْ : نَوَاهِدَ ، يَعْنُونَ أَنَّ ثُدِيَّهُنَّ نَوَاهِدُ لَمْ يَتَدَلَّيْنَ ؛ لِأَنَّهُنَّ أَبْكَارٌ عُرُبٌ أَتْرَابٌ ، أَيْ : فِي سِنٍّ وَاحِدَةٍ . ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ مَمْلُوءَةً مُتَتَابِعَةً ، وَقِيلَ : صَافِيَةً . ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴾ أَيْ : لَيْسَ فِيهَا كَلَامٌ لَاغٍ عَارٍ عَنِ الْفَائِدَةِ ، وَلَا إِثْمٌ كَذِبٌ ، بَلْ هِيَ دَارُ السَّلَامِ ، وَكُلُّ كَلَامٍ فِيهَا سَالِمٌ مِنَ النَّقْصِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ جَازَاهُمُ اللهُ بِهِ وَأَعْطَاهُمُوهُ بِفَضْلِهِ وَمَنِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ أَيْ : كَافِيًا وَافِرًا شَامِلاً كَثِيرًا ، تَقُولُ الْعَرَبُ : أَعْطَانِي فَأَحْسَبَنِي ، أَيْ : كَفَانِي . وَمِنْهُ : حَسْبِيَ اللهُ ، أَيْ : اللهُ كَافِي .

رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ ، وَأَنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَأَنَّهُ الرَّحْمَنُ الَّذِي شَمِلَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى ابْتِدَاءِ مُخَاطَبَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، ﴿ يَوْمَ

يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ إِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِالرُّوحِ هَاهُنَا ، مَا هُوَ ؟ عَلَى أَقْوَالٍ : **أَحَدُهَا** : أَنَّهُمْ أَرْوَاحُ بَنِي آدَمَ . **الثَّانِي** : هُمْ بَنُو آدَمَ . **الثَّالِثُ** : أَنَّهُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ ، عَلَى صُوَرِ بَنِي آدَمَ ، وَلَيْسُوا بِمَلائِكَةٍ وَلَا بِبَشَرٍ ، وَهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ . **الرَّابِعُ** : هُوَ جِبْرِيلُ وَيُسْتَشْهَدُ لِهَذَا الْقَوْلِ بِقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ . **الْخَامِسُ** : أَنَّهُ الْقُرْآنُ . **وَالسَّادِسُ** : أَنَّهُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِقَدْرِ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [هود : ١٠٥] **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أَيْ : حَقًّا ، وَمِنَ الْحَقِّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ . ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ﴾ أَيْ : الْكَائِنُ لَا مَحَالَةَ ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾ أَيْ : مَرْجِعًا وَطَرِيقًا يَهْتَدِي إِلَيْهِ وَمَنْهَجًا يَمُرُّ بِهِ عَلَيْهِ . ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ : يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لِتَأَكُّدِ وُقُوعِهِ صَارَ قَرِيبًا ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ . ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أَيْ : يُعْرَضُ عَلَيْهِ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا . ﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ أَيْ : يَوَدُّ الْكَافِرُ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُ كَانَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا تُرَابًا وَلَمْ يَكُنْ خُلِقَ ، وَلَا خَرَجَ إِلَى الْوُجُودِ ، وَذَلِكَ حِينَ عَايَنَ عَذَابَ اللهِ ، وَنَظَرَ إِلَى أَعْمَالِهِ الْفَاسِدَةِ ، قَدْ سُطِّرَتْ عَلَيْهِ بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النبأ ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

آياتها ٤٦ — تفسيرُ سُورَةِ النازعات — مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا
﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ
﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً
﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴾ الْمَلَائِكَةُ ، يَعْنُونَ حِينَ تَنْزِعُ أَرْوَاحَ بَنِي آدَمَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُ رُوحَهُ بِعُسْرٍ فَتَغْرَقُ فِي نَزْعِهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُ رُوحَهُ بِسُهُولَةٍ وَكَأَنَّمَا حَلَّتْهُ مِنْ نِشَاطٍ ، **وَهُوَ قَوْلُهُ** : ﴿ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴾ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ ﴾ هِيَ : أَنْفُسُ الْكُفَّارِ تُنْزَعُ ثُمَّ تُنْشَطُ ، ثُمَّ تُغْرَقُ فِي النَّارِ .
وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴾ هِيَ الْمَلَائِكَةُ ، **وَقِيلَ** : الْمَوْتُ ، وَقِيلَ : هِيَ النُّجُومُ ، **وقيل** :

هِيَ السُّفُنُ ، ﴿ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴾ يَعْنِي : المَلَائِكَةَ ؛ قَالَ الحَسَنُ : سَبَقَتْ إِلَى الإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴾ هِيَ المَلَائِكَةُ . تُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ، يَعْنِي : بِأَمْرِ رَبِّهَا ﷻ . وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: هُمَا النَّفْخَتَانِ الأُولَى وَالثَّانِيَةُ ، ﴿ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ﴾ يَعْنِي : خَائِفَةً . ﴿ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ﴾ أَيْ : أَبْصَارُ أَصْحَابِهَا ، وَإِنَّمَا أُضِيفَ إِلَيْهَا لِلْمُلَابَسَةِ ، أَيْ : ذَلِيلَةٌ حَقِيرَةٌ مِمَّا عَايَنَتْ مِنَ الأَهْوَالِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴾ يَعْنِي : مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ، وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِهِمْ فِي إِنْكَارِ المَعَادِ ، يَسْتَبْعِدُونَ وُقُوعَ البَعْثِ بَعْدَ المَصِيرِ إِلَى الحَافِرَةِ وَهِيَ القُبُورُ ، وَبَعْدَ تَمَزُّقِ أَجْسَادِهِمْ وَتَفَتُّتِ عِظَامِهِمْ وَنُخُورِهَا ؛ وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ﴾ وَقُرِئَ : (نَاخِرَةً) أَيْ : بَالِيَةً . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: وَدَخَلَتِ الرِّيحُ فِيهِ ﴿ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ : الحَافِرَةُ : الحياةُ بَعْدَ المَوْتِ ، وقَالَ ابنُ زَيْدٍ : الحَافِرَةُ : النَّارُ ، وَمَا أَكْثَرَ أَسْمَاءَهَا ! هي النَّارُ ، وَالجَحِيمُ ، وَسَقَرُ ، وَجَهَنَّمُ ، والهَاوِيَةُ ، والحَافِرَةُ ، وَلَظَى ، والحُطَمَةُ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ أَيْ : فَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ مِنَ اللهِ لَا مَثْنَوِيَّةَ فِيهِ وَلَا تَأْكِيدَ ، فَإِذَا النَّاسُ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ، وَهُوَ أَنْ يَأْمُرَ اللهُ تَعَالَى إِسْرَافِيلَ فَيَنْفُخُ فِي الصُّورِ نَفْخَةَ البَعْثِ ، فَإِذَا الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ قِيَامٌ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ ﷻ يَنْظُرُونَ . قَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴾ صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ : زَجْرَةٌ مِنَ الغَضَبِ . ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ : ﴿ ٱلسَّاهِرَةِ ﴾ الأَرْضُ كُلُّهَا ، وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ ٱلسَّاهِرَةِ ﴾ وَجْهُ الأَرْضِ ، وَالصَّحِيحُ : أَنَّهَا الأَرْضُ وَجْهُهَا الأَعْلَى .

هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ۝٢٦

يُخْبِرُ تَعَالَى رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى ﵇ أَنَّهُ ابْتَعَثَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَأَيَّدَهُ اللهُ بِالمُعْجِزَاتِ ، وَمَعَ هَذَا اسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ ، حَتَّى أَخَذَهُ اللهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ، وَكَذَلِكَ عَاقِبَةُ مَنْ خَالَفَكَ وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتَ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِ القِصَّةِ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴾ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ أَيْ : هَلْ سَمِعْتَ بِخَبَرِهِ ﴿ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ ﴾ أَيْ : كَلَّمَهُ نِدَاءً ﴿ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ ﴾ أَيْ : المُطَهَّرِ ﴿ طُوًى ﴾ ، وَهُوَ اسْمُ الوَادِي عَلَى الصَّحِيحِ ، كَمَا

تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ « طه » ، فَقَالَ : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ أَيْ : تَجَرَّدَ وَتَمَرَّدَ وَعَتَا ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ أَيْ : قُلْ لَهُ : هَلْ لَكَ أَنْ تُجِيبَ إِلَى طَرِيقَةٍ وَمَسْلَكٍ تُزَكَّى بِهِ . أَيْ : تَسْلَمُ وَتُطِيعُ ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أَيْ : أَدُلُّكَ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّكَ ﴿ فَتَخْشَىٰ ﴾ أَيْ : فَيَصِيرَ قَلْبُكَ خَاضِعًا لَهُ مُطِيعًا خَاشِعًا ، بَعْدَمَا كَانَ قَاسِيًا خَبِيثًا بَعِيدًا مِنَ الْخَيْرِ . ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ يَعْنِي : فَأَظْهَرَ لَهُ مُوسَى مَعَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْحَقِّ حُجَّةً قَوِيَّةً ، وَدَلِيلًا وَاضِحًا عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾ أَيْ : فَكَذَّبَ بِالْحَقِّ وَخَالَفَ مَا أَمَرَهُ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَحَاصِلُهُ : أَنَّهُ كَفَرَ قَلْبُهُ فَلَمْ يَنْفَعِلْ لِمُوسَى بِبَاطِنِهِ وَلَا بِظَاهِرِهِ ، وَعِلْمُهُ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ حَقٌّ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِهِ ؛ لأَنَّ الْمَعْرِفَةَ عِلْمُ الْقَلْبِ ، وَالإِيمَانُ عَمَلُهُ ، وَهُوَ الِانْقِيَادُ لِلْحَقِّ وَالْخُضُوعُ لَهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴾ أَيْ : فِي مُقَابَلَةِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ ، وَهُوَ جَمْعُهُ السَّحَرَةَ لِيُقَابِلُوا مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عليه السلام مِنَ الْمُعْجِزَةِ الْبَاهِرَةِ ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾ أَيْ : فِي قَوْمِهِ ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ : أَيْ : اِنْتَقَمَ اللهُ مِنْهُ اِنْتِقَامًا جَعَلَهُ بِهِ عِبْرَةً وَنَكَالًا لِأَمْثَالِهِ مِنَ الْمُتَمَرِّدِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ أَيْ : لِمَنْ يَتَّعِظُ وَيَنْزَجِرُ .

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحْتَجًّا عَلَى مُنْكِرِي الْبَعْثِ فِي إِعَادَةِ الْخَلْقِ بَعْدَ بَدْئِهِ ﴿ ءَأَنتُمْ ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ يَعْنِي : بَلِ السَّمَاءُ أَشَدُّ خَلْقًا مِنْكُمْ ، ﴿ بَنَىٰهَا ﴾ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ أَيْ : جَعَلَهَا عَالِيَةَ الْبِنَاءِ ، بَعِيدَةَ الْفِنَاءِ ، مُسْتَوِيَةَ الْأَرْجَاءِ ، مُكَلَّلَةً بِالْكَوَاكِبِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ أَيْ : جَعَلَ لَيْلَهَا مُظْلِمًا أَسْوَدَ حَالِكًا ، وَنَهَارَهَا مُضِيئًا مُشْرِقًا نَيِّرًا وَاضِحًا ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ أَيْ : أَنَارَ نَهَارَهَا . ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ « حم السَّجْدَة » أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ ، وَلَكِنْ إِنَّمَا دُحِيَتْ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ ، بِمَعْنَى : أَنَّهُ أَخْرَجَ مَا كَانَ فِيهَا بِالْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ . عَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ وَدَحْيُهَا أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى ، وَشَقَّقَ الْأَنْهَارَ ، وَجَعَلَ فِيهَا الْجِبَالَ وَالرِّمَالَ وَالسُّبُلَ وَالْآكَامَ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ أَيْ : قَرَّرَهَا وَأَثْبَتَهَا وَأَكَّدَهَا فِي أَمَاكِنِهَا ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الرَّءُوفُ بِخَلْقِهِ الرَّحِيمُ . ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ أَيْ : دَحَا الْأَرْضَ فَأَنْبَعَ عُيُونَهَا ، وَأَظْهَرَ

مَكْنُونَهَا ، وَأَجْرَى أَنْهَارَهَا ، وَأَنْبَتَ زُرُوعَهَا وَأَشْجَارَهَا وَثِمَارَهَا ، وَثَبَّتَ جِبَالَهَا لِتَسْتَقِرَّ بِأَهْلِهَا وَيَقَرَّ قَرَارُهَا ، كُلُّ ذَلِكَ مَتَاعًا لِخَلْقِهِ وَلِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَنْعَامِ الَّتِي يَأْكُلُونَهَا وَيَرْكَبُونَهَا مُدَّةَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهَا فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ الْأَمَدُ وَيَنْقَضِيَ الْأَجَلُ .

فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ . سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَطِمُّ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ هَائِلٍ مُفْظِعٍ ، ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾ أَيْ : حِينَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ابْنُ آدَمَ جَمِيعَ عَمَلِهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ أَيْ : أُظْهِرَتْ لِلنَّاظِرِينَ فَرَآهَا النَّاسُ عِيَانًا ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ أَيْ : تَمَرَّدَ وَعَتَا ﴿ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : قَدَّمَهَا عَلَى أَمْرِ دِينِهِ وَأُخْرَاهُ ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ أَيْ : فَإِنَّ مَصِيرَهُ إِلَى الْجَحِيمِ ، وَإِنَّ مَطْعَمَهُ مِنَ الزَّقُّومِ وَمَشْرَبَهُ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ أَيْ : خَافَ الْقِيَامَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ﷻ ، وَحُكْمَ اللهِ فِيهِ ، وَنَهَى نَفْسَهُ عَنْ هَوَاهَا ، وَرَدَّهَا إِلَى طَاعَةِ مَوْلَاهَا ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ أَيْ : مُنْقَلَبُهُ ، وَمَصِيرُهُ وَمَرْجِعُهُ إِلَى الْجَنَّةِ الْفَيْحَاءِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ أَيْ : لَيْسَ عِلْمُهَا إِلَيْكَ وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ ، بَلْ مَرَدُّهَا وَمَرْجِعُهَا إِلَى اللهِ ﷻ فَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ وَقْتَهَا عَلَى التَّعْيِينِ ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ ، وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ جِبْرِيلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ قَالَ : « **مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ** » . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِتُنْذِرَ النَّاسَ وَتُحَذِّرَهُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَعَذَابِهِ ، فَمَنْ خَشِيَ اللهَ وَخَافَ مَقَامَهُ وَوَعِيدَهُ ، اتَّبَعَكَ فَأَفْلَحَ وَأَنْجَحَ ، وَالْخَيْبَةُ وَالْخَسَارُ عَلَى مَنْ كَذَّبَكَ وَخَالَفَكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ أَيْ : إِذَا قَامُوا مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَى الْمَحْشَرِ يَسْتَقْصِرُونَ مُدَّةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، حَتَّى كَأَنَّهَا عِنْدَهُمْ كَانَتْ عَشِيَّةً مِنْ يَوْمٍ أَوْ ضُحًى مِنْ يَوْمٍ . أَمَّا عَشِيَّةٌ فَمَا بَيْنَ الظُّهْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ ﴿ أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ النَّازِعَاتِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسير سورة عبس مكية آياتها ٤٢

بسم الله الرحمن الرحيم

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَوْمًا يُخَاطِبُ بَعْضَ عُظَمَاءِ قُرَيْشٍ ، وَقَدْ طَمِعَ فِي إِسْلَامِهِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُخَاطِبُهُ وَيُنَاجِيهِ إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ - وَكَانَ مِمَّنْ أَسْلَمَ قَدِيمًا - فَجَعَلَ يَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ وَيُلِحُّ عَلَيْهِ ، وَوَدَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لَوْ كَفَّ سَاعَتَهُ تِلْكَ ، لِيَتَمَكَّنَ مِنْ مُخَاطَبَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ ، طَمَعًا وَرَغْبَةً فِي هِدَايَتِهِ ، وَعَبَسَ فِي وَجْهِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ وَأَعْرَضَ عَنْهُ ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْآخَرِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ أَيْ : يَحْصُلُ لَهُ زَكَاةٌ وَطَهَارَةٌ فِي نَفْسِهِ ، ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ أَيْ : يَحْصُلُ لَهُ اتِّعَاظٌ وَانْزِجَارٌ عَنِ الْمَحَارِمِ ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ أَيْ : أَمَّا الْغَنِيُّ فَأَنْتَ تَتَعَرَّضُ لَهُ لَعَلَّهُ يَهْتَدِي ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ أَيْ : مَا أَنْتَ بِمُطَالَبٍ بِهِ إِذَا لَمْ يَحْصُلْ لَهُ زَكَاةٌ ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴾ أَيْ : يَقْصِدُكَ وَيَؤُمُّكَ لِيَهْتَدِيَ بِمَا تَقُولُ لَهُ ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ أَيْ : تَتَشَاغَلُ ، وَمِنْ هَاهُنَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ لَا يَخُصَّ بِالْإِنْذَارِ أَحَدًا ، بَلْ يُسَاوِي فِيهِ بَيْنَ الشَّرِيفِ وَالضَّعِيفِ ، وَالْفَقِيرِ وَالْغَنِيِّ ، وَالسَّادَةِ وَالْعَبِيدِ ، وَالرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، وَالصِّغَارِ وَالْكِبَارِ ، ثُمَّ اللهُ تَعَالَى يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ ، وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ . ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أَيْ : هَذِهِ السُّورَةُ ، أَوِ الْوَصِيَّةُ بِالْمُسَاوَاةِ بَيْنَ النَّاسِ فِي إِبْلَاغِ الْعِلْمِ بَيْنَ شَرِيفِهِمْ وَوَضِيعِهِمْ ، ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ أَيْ : فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَ اللهَ تَعَالَى فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ ، وَيَحْتَمِلُ عَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَى الْوَحْيِ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أَيْ هَذِهِ السُّورَةُ أَوِ الْعِظَةُ ، وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ بَلْ جَمِيعُ الْقُرْآنِ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . أَيْ : مُعَظَّمَةٍ مُوَقَّرَةٍ ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أَيْ : عَالِيَةِ الْقَدْرِ ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أَيْ : مِنَ الدَّنَسِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ . ﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴾ هِيَ الْمَلَائِكَةُ ، ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ أَيْ : خَلْقُهُمْ كَرِيمٌ حَسَنٌ شَرِيفٌ ، وَأَخْلَاقُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ بَارَّةٌ طَاهِرَةٌ كَامِلَةٌ ، وَمِنْ هَاهُنَا يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ

يَكُونَ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ عَلَى السَّدَادِ وَالرَّشَادِ . قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ ، وَالَّذِي يَقْرَؤُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ** » .

قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَامًّا لِمَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ وَالنُّشُورَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ لُعِنَ الإِنْسَانُ ، وَهَذَا لِجِنْسِ الْإِنْسَانِ الْمُكَذِّبِ ؛ لِكَثْرَةِ تَكْذِيبِهِ بِلَا مُسْتَنَدٍ ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الاسْتِبْعَادِ وَعَدَمِ الْعِلْمِ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : ﴿ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ أَيْ : مَا أَشَدَّ كُفْرَهُ ، **قَالَ** : وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ : أَيُّ شَيْءٍ جَعَلَهُ كَافِرًا ؟ أَيْ : مَا حَمَلَهُ عَلَى التَّكْذِيبِ بِالْمَعَادِ . **ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى لَهُ كَيْفَ خَلَقَهُ مِنَ الشَّيْءِ الْحَقِيرِ** وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ كَمَا بَدَأَهُ فَقَالَ : ﴿ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ أَيْ : قَدَّرَ أَجَلَهُ وَرِزْقَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ ثُمَّ يَسَّرَ عَلَيْهِ خُرُوجَهُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : هَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٣] أَيْ : بَيَّنَّاهُ لَهُ وَأَوْضَحْنَاهُ وَسَهَّلْنَا عَلَيْهِ عِلْمَهُ ، وَهَذَا هُوَ الْأَرْجَحُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُم أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾ أَيْ : إِنَّهُ بَعْدَ خَلْقِهِ لَهُ ﴿ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾ أَيْ : جَعَلَهُ ذَا قَبْرٍ . ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ أَيْ : بَعَثَهُ بَعْد مَوْتِهِ ، وَمِنْهُ يُقَالُ : الْبَعْثُ وَالنُّشُورُ . ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : كَلَّا ، لَيْسَ الْأَمْرُ بِقَوْلِ هَذَا الْإِنْسَانِ الْكَافِرِ مِنْ أَنَّهُ قَدْ أَدَّى حَقَّ الله عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ يَقُولُ : لَمْ يُؤَدِّ مَا فَرَضَ عَلَيْهِ مِنَ الْفَرَائِضِ لِرَبِّهِ ﷻ . وَالَّذِي يَقَعُ لِي فِي مَعْنَى ذَلِكَ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمَعْنَى : ﴿ ثُم إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ أَيْ : بَعَثَهُ ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ لَا يَفْعَلُهُ الْآنَ حَتَّى تَنْقَضِي الْمُدَّةُ ، وَيَفْرُغُ الْقَدَرُ مِنْ بَنِي آدَمَ مِمَّنْ كَتَبَ اللهُ أَنْ سَيُوجَدُ مِنْهُمْ ، وَيَخْرُجُ إِلَى الدُّنْيَا ، وَقَدْ أَمَرَ بِهِ تَعَالَى كَوْنًا وَقَدَرًا ، فَإِذَا تَنَاهَى ذَلِكَ عِنْدَ الله أَنْشَرَ اللهُ الْخَلَائِقَ وَأَعَادَهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ فِيهِ امْتِنَانٌ ، وَفِيهِ اسْتِدْلَالٌ بِإِحْيَاءِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ الْهَامِدَةِ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَجْسَامِ بَعْدَمَا كَانَتْ عِظَامًا بَالِيَةً وَتُرَابًا مُتَمَزِّقًا ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ أَيْ : أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾ أَيْ : أَسْكَنَّاهُ فِيهَا فَدَخَلَ

فِي تُخُومِهَا ، وَتَخَلَّلَ فِي أَجْزَاءِ الْحَبِّ الْمُودَعِ فِيهَا ، فَنبَتَ وَارْتَفَعَ ، وَظَهَرَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴾ فَالْحَبُّ : كُلُّ مَا يُذْكَرُ مِنَ الْحُبُوبِ ، وَالْعِنَبُ مَعْرُوفٌ ، وَالْقَضْبُ هُوَ : الْفِصْفِصَةُ الَّتِي تَأْكُلُهَا الدَّوَابُّ رَطْبَةً ، وَيُقَالُ لَهَا : الْقَتُّ أَيْضًا ، ﴿ وَزَيۡتُونٗا ﴾ ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ ، وَهُوَ أُدْمٌ وَعَصِيرُهُ أُدْمٌ ، وَيُسْتَصْبَحُ بِهِ ، وَيُدَّهَنُ بِهِ ﴿ وَنَخۡلٗا ﴾ يُؤْكَلُ بَلَحًا بُسْرًا وَرُطَبًا ، وَتَمْرًا ، وَنِيئًا ، وَمَطْبُوخًا ، وَيُعْتَصَرُ مِنْهُ رُبٌّ وَخَلٌّ ﴿ وَحَدَآئِقَ ﴾ أَيْ : بَسَاتِينَ ﴿ غُلۡبٗا ﴾ نَخْلٌ غِلَاظٌ كِرَامٌ ، **وَقِيلَ** : الْحَدَائِقَ : كُلُّ مَا الْتَفَّ وَاجْتَمَعَ ﴿ غُلۡبٗا ﴾ الشَّجَرُ الَّذِي يُسْتَظَلُّ بِهِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ غُلۡبٗا ﴾ أَيْ : طِوَالٌ ، ﴿ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴾ أَمَّا الْفَاكِهَةُ فَهُوَ كُلُّ مَا يُتَفَكَّهُ بِهِ مِنَ الثِّمَارِ . الْفَاكِهَةُ : كُلُّ مَا أُكِلَ رَطْبًا ، وَالْأَبُّ : مَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ ، مِمَّا يَأْكُلُهُ الدَّوَابُّ وَلَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ ، **وَقِيلَ** : الْأَبُّ لِلْبَهَائِمِ كَالْفَاكِهَةِ لِبَنِي آدَمَ ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : كُلُّ شَيْءٍ أَنْبَتَتْهُ الْأَرْضُ سِوَى الْفَاكِهَةِ فَهُوَ الْأَبُّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾ أَيْ : عِيشَةً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ۝٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۝٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ۝٤٢

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ اِسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، عَظَّمَهُ اللهُ وَحَذَّرَهُ عِبَادَهُ . **وَقَالَ الْبَغَوِيُّ** : ﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ يَعْنِي : صَيْحَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهَا تَصُخُّ الْأَسْمَاعَ ، أَيْ : تُبَالِغُ فِي إِسْمَاعِهَا حَتَّى تَكَادُ تُصِمُّهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾ أَيْ : يَرَاهُ ، وَيَفِرُّ مِنْهُ ، وَيَبْتَعِدُ عَنْهُمْ ؛ لِأَنَّ الْهَوْلَ عَظِيمٌ ، وَالْخَطْبَ جَلِيلٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴾ **أَيْ** : هُوَ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنْ غَيْرِهِ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ** : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً مُشَاةً غُرْلًا** » قَالَ : فَقَالَتْ زَوْجَتُهُ : يَا رَسُولَ اللهِ نَنْظُرُ أَوْ يَرَى بَعْضُنَا عَوْرَةَ بَعْضٍ ؟ قَالَ : ﴿ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴾ أَوْ قَالَ : « **مَا أَشْغَلَهُ عَنِ النَّظَرِ** » . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴾ **أَيْ** : يَكُونُ النَّاسُ هُنَالِكَ فَرِيقَيْنِ « وُجُوهٌ مُسْفِرَةٌ » أَيْ : مُسْتَنِيرَةٌ ﴿ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴾ **أَيْ** : مَسْرُورَةٌ فَرِحَةٌ مِنْ سُرُورِ قُلُوبِهِمْ ، قَدْ ظَهَرَ الْبِشْرُ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ ﴿ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۝٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أَيْ : يَعْلُوهَا وَتَغْشَاهَا قَتَرَةٌ ، أَيْ : سَوَادٌ . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴾ أَيْ : الْكَفَرَةُ قُلُوبُهُمْ ، الْفَجَرَةُ فِي أَعْمَالِهِمْ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ عَبَسَ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٢٩ تفسير سورة التكوير مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾

﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : أَظْلَمَتْ ، **وَقِيلَ** : ذَهَبَتْ ، **وَقِيلَ** : ذَهَبَ ضَوْؤُهَا ، **وَقِيلَ** : رُمِيَ بِهَا . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ عِنْدَنَا فِي ذَلِكَ أَنَّ التَّكْوِيرَ جَمْعُ الشَّيْءِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَمِنْهُ تَكْوِيرُ الْعِمَامَةِ ، وَهُوَ لَفُّهَا عَلَى الرَّأْسِ ، وَكَتَكْوِيرِ الكَارِهِ وَهِيَ جَمْعُ الثِّيَابِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ ، فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كُوِّرَتۡ ﴾ جُمِعَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ لُفَّتْ فَرُمِيَ بِهَا ، وَإِذَا فُعِلَ بِهَا ذَلِكَ ذَهَبَ ضَوْؤُهَا . عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُكَوَّرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴾ أَيْ : اِنْتَثَرَتْ ، وَأَصْلُ الِانْكِدَارِ الِانْصِبَابُ . ﴿ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴾ أَيْ : زَالَتْ عَنْ أَمَاكِنِهَا وَنُسِفَتْ ، فَتُرِكَتِ الْأَرْضُ قَاعًا صَفْصَفًا . ﴿ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ ﴾ عِشَارُ الْإِبِلِ . ﴿ عُطِّلَتۡ ﴾ تُرِكَتْ وَسُيِّبَتْ ، وَأَهْمَلَهَا أَهْلُهَا . ﴿ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴾ أَيْ : جُمِعَتْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : **يُحْشَرُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الذُّبَابُ** ، ﴿ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴾ **قِيلَ** : ﴿ سُجِّرَتۡ ﴾ أُوقِدَتْ ، **وَقِيلَ** : يَبِسَتْ ، **وَقِيلَ** : فُجِّرَتْ ، **وَقِيلَ** : فَاضَتْ . ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴾ أَيْ : جُمِعَ كُلُّ شَكْلٍ إِلَى نَظِيرِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴾ هَكَذَا قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ ﴿ سُئِلَتۡ ﴾ . **وَالْمَوْءُودَةُ** : هِيَ الَّتِي كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَدُسُّونَهَا فِي التُّرَابِ كَرَاهِيَةَ الْبَنَاتِ ، فَيَوْمُ الْقِيَامَةِ تُسْأَلُ الْمَوْءُودَةُ : عَلَى أَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ؟ لِيَكُونَ ذَلِكَ تَهْدِيدًا لِقَاتِلِهَا ، فَإِذَا سُئِلَ الْمَظْلُومُ فَمَا ظَنُّ الظَّالِمِ إِذًا ؟ **وَقِيلَ** : ﴿ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴾ أَيْ : سَأَلَتْ ، أَيْ : طَالَبَتْ بِدَمِهَا . ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴾ **قِيلَ** : أُعْطِيَ كُلُّ إِنْسَانٍ صَحِيفَتَهُ بِيَمِينِهِ أَوْ بِشِمَالِهِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : يَا ابْنَ آدَمَ ، تُمْلِي فِيهَا ، ثُمَّ تُطْوَى ، ثُمَّ تُنْشَرُ عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَلْيَنْظُرْ رَجُلٌ مَاذَا يُمْلِي فِي صَحِيفَتِهِ . ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ : اُجْتُذِبَتْ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : كُشِفَتْ . ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ **قَالَ السُّدِّيُّ** : أُحْمِيَتْ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : أُوقِدَتْ . **قَالَ** : وَإِنَّمَا يُسَعِّرُهَا غَضَبُ اللهِ وَخَطَايَا بَنِي آدَمَ . ﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ أَيْ : قُرِّبَتْ إِلَى أَهْلِهَا . ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ هَذَا هُوَ الْجَوَابُ ، أَيْ : إِذَا وَقَعَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ حِينَئِذٍ تَعْلَمُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَأُحْضِرَ ذَلِكَ لَهَا .

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

عَنْ عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ ﷺ **قَالَ** : صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ الصُّبْحَ فَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ . **وَعَنْ خَالِدِ بْنِ عَرْعَرَةَ** ، سَمِعْتُ عَلِيًّا ﷺ وَسُئِلَ عَنْ ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ فَقَالَ : هِيَ النُّجُومُ تَخْنَسُ بِالنَّهَارِ وَتَكْنُسُ بِاللَّيْلِ . **وَقَالَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ** : إِنَّمَا قِيلَ لِلنُّجُومِ الْخُنَّسُ ، أَيْ : فِي حَالِ طُلُوعِهَا ، ثُمَّ هِيَ جَوَارٍ فِي فَلَكِهَا ، وَفِي حَالِ غَيْبُوبَتِهَا يُقَالُ لَهَا كُنَّسٌ ، مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ : أَوَى الظَّبْيُ إِلَى كِنَاسِهِ إِذَا تَغَيَّبَ فِيهِ . **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ﴿ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ قَالَ : الْبَقَرُ تَكْنُسُ إِلَى الظِّلِّ . ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ إِذَا أَقْبَلَ ، وَإِنْ كَانَ يَصِحُّ اِسْتِعْمَالُهُ فِي الْإِدْبَارِ أَيْضًا ، لَكِنَّ الْإِقْبَالَ هَاهُنَا أَنْسَبُ ، كَأَنَّهُ أَقْسَمَ بِاللَّيْلِ وَظَلَامِهِ إِذَا أَقْبَلَ ، وَبِالْفَجْرِ وَضِيَائِهِ إِذَا أَشْرَقَ ، ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ إِذَا طَلَعَ . ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَتَبْلِيغُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، أَيْ : مَلَكٌ شَرِيفٌ حَسَنُ الْخَلْقِ بَهِيُّ الْمَنْظَرِ ، وَهُوَ جِبْرِيلُ ﷺ . ﴿ ذِى قُوَّةٍ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ ﴾ [النجم : ٥ - ٦] أَيْ : شَدِيدُ الْخَلْقِ ، شَدِيدُ الْبَطْشِ وَالْفِعْلِ ﴿ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ أَيْ : لَهُ مَكَانَةٌ عِنْدَ اللهِ ﷻ وَمَنْزِلَةٌ رَفِيعَةٌ . ﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ ﴾ أَيْ : لَهُ وَجَاهَةٌ ، وَهُوَ مَسْمُوعُ الْقَوْلِ مُطَاعٌ فِي الْمَلَإِ الْأَعْلَى . ﴿ أَمِينٍ ﴾ صِفَةٌ لِجِبْرِيلَ بِالْأَمَانَةِ ، وَهَذَا عَظِيمٌ جِدًّا أَنَّ الرَّبَّ ﷻ يُزَكِّي عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الْمَلَكِيَّ جِبْرِيلَ ، كَمَا زَكَّى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الْبَشَرِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ يَعْنِي : وَلَقَدْ رَأَى مُحَمَّدٌ جِبْرِيلَ الَّذِي يَأْتِيهِ بِالرِّسَالَةِ عَنِ اللهِ ﷻ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ ﴿ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أَيْ :

الْبَيِّنُ ، وَهِيَ الرُّؤْيَةُ الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ بِالْبَطْحَاءِ ، وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ٥ - ١٠] ، كَمَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ وَتَقْرِيرُهُ ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ جِبْرِيلُ عليه السلام . ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أَيْ : وَمَا مُحَمَّدٌ عَلَى مَا أَنْزَلَهُ اللهُ إِلَيْهِ بِظَنِينٍ ، أَيْ : بِمُتَّهَمٍ ، وَقِيلَ : أَيْ : بِبَخِيلٍ ، بَلْ يَبْذُلُهُ لِكُلِّ أَحَدٍ . قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : ظَنِينٌ وَضَنِينٌ سَوَاءٌ ، أَيْ : مَا هُوَ بِكَاذِبٍ ، وَمَا هُوَ بِفَاجِرٍ . وَالظَّنِينُ : الْمُتَّهَمُ ، وَالضَّنِينُ : الْبَخِيلُ . وَقَالَ قَتَادَةُ : كَانَ الْقُرْآنُ غَيْبًا ، فَأَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَمَا ضَنَّ بِهِ عَلَى النَّاسِ بَلْ نَشَرَهُ وَبَلَّغَهُ وَبَذَلَهُ لِكُلِّ مَنْ أَرَادَهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ أَيْ : وَمَا هَذَا الْقُرْآنُ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ، أَيْ : لَا يَقْدِرُ عَلَى حَمْلِهِ ، وَلَا يُرِيدُهُ ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ ، ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أَيْ : فَأَيْنَ تَذْهَبُ عُقُولُكُمْ فِي تَكْذِيبِكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، مَعَ ظُهُورِهِ وَوُضُوحِهِ ، وَبَيَانِ كَوْنِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِ اللهِ ﷻ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أَيْ : عَنْ كِتَابِ اللهِ وَعَنْ طَاعَتِهِ . ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : هَذَا الْقُرْآنُ ذِكْرٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ ، يَتَذَكَّرُونَ بِهِ وَيَتَّعِظُونَ ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ أَيْ : مَنْ أَرَادَ الْهِدَايَةَ فَعَلَيْهِ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، فَإِنَّهُ مَنْجَاةٌ لَهُ وَهِدَايَةٌ ، وَلَا هِدَايَةَ فِيمَا سِوَاهُ ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : لَيْسَتِ الْمَشِيئَةُ مَوْكُولَةً إِلَيْكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ اهْتَدَى وَمَنْ شَاءَ ضَلَّ ، بَلْ ذَلِكَ كُلُّهُ تَابِعٌ لِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى رَبِّ الْعَالَمِينَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّكْوِيرِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ١٩ تفسيرُ سُورَةِ الانفِطَار مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ أَيْ : انْشَقَّتْ ، ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ أَيْ : تَسَاقَطَتْ . ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : فَجَّرَ اللهُ بَعْضَهَا فِي بَعْضٍ . وَقَالَ قَتَادَةُ : اخْتَلَطَ

عَذْبُهَا بِمَالِحِهَا . ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: بُحِثَتْ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : تُبَعْثَر : تُحَرَّكُ فَيَخْرُجُ مَنْ فِيهَا . ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ أَيْ : إِذَا كَانَ هَذَا حَصَلَ هَذَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ ، وَالْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ : مَا غَرَّكَ يَا ابْنَ آدَمَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ، أَيْ : الْعَظِيمِ ، حَتَّى أَقْدَمْتَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَقَابَلْتَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ ؟ .

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : غَرَّهُ - وَاللهِ - جَهْلُهُ . وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ شَيْءٌ مَا غَرَّ ابْنَ آدَمَ ، وَهَذَا الْعَدُوُّ الشَّيْطَانُ . وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ : لَوْ قَالَ لِي ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ لَقُلْتُ : غَرَّنِي كَرَمُ الْكَرِيمِ . ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أَيْ : مَا غَرَّكَ بِالرَّبِّ الْكَرِيمِ ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أَيْ : جَعَلَكَ سَوِيًّا مُسْتَقِيمًا مُعْتَدِلَ الْقَامَةِ مُنْتَصِبَهَا فِي أَحْسَنِ الْهَيْئَاتِ وَالْأَشْكَالِ . ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : فِي أَيِّ شَبَهِ أَبٍ أَوْ أُمٍّ ، أَوْ خَالٍ أَوْ عَمٍّ . وَقَدْ قَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ إِنْ شَاءَ فِي صُورَةِ قِرْدٍ ، وَإِنْ شَاءَ فِي صُورَةِ خِنْزِيرٍ . وَمَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ : أَنَّ اللهَ ﷻ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ النُّطْفَةِ عَلَى شَكْلٍ قَبِيحٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُنْكَرَةِ الْخَلْقِ ، وَلَكِنْ بِقُدْرَتِهِ وَلُطْفِهِ وَحِلْمِهِ يَخْلُقُهُ عَلَى شَكْلٍ حَسَنٍ مُسْتَقِيمٍ مُعْتَدِلٍ تَامٍّ ، حَسَنِ الْمَنْظَرِ وَالْهَيْئَةِ .﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَحْمِلُكُمْ عَلَى مُوَاجَهَةِ الْكَرِيمِ وَمُقَابَلَتِهِ بِالْمَعَاصِي ، تَكْذِيبٌ فِي قُلُوبِكُمْ بِالْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ يَعْنِي : وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَمَلَائِكَةً حَفَظَةً كِرَامًا كَاتِبِينَ فَلَا تُقَابِلُوهُمْ بِالْقَبَائِحِ ، فَإِنَّهُمْ يَكْتُبُونَ عَلَيْكُمْ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ .

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يَصِيرُ الْأَبْرَارُ إِلَيْهِ مِنَ النَّعِيمِ وَهُمُ الَّذِينَ أَطَاعُوا اللهَ ﷻ وَلَمْ يُقَابِلُوهُ بِالْمَعَاصِي ، ثُمَّ ذَكَرَ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ الْفُجَّارُ مِنَ الْجَحِيمِ وَالْعَذَابِ الْمُقِيمِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَالْقِيَامَةِ ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾ أَيْ : لَا يَغِيبُونَ عَنِ الْعَذَابِ سَاعَةً وَاحِدَةً ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ، وَلَا يُجَابُونَ إِلَى مَا يَسْأَلُونَ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الرَّاحَةِ ، وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا . ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ أَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى نَفْعِ أَحَدٍ وَلَا خَلَاصِهِ مِمَّا هُوَ فِيهِ ، إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ، وَنَذْكُرُ هَاهُنَا

حَدِيثَ : « يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا » ، قَالَ قَتَادَةُ : وَالْأَمْرُ وَاللهِ الْيَوْمَ للهِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يُنَازِعُهُ فِيهِ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الِانْفِطَارِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

آياتها ٣٦ تفسيرُ سُورةِ المطففين مكيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **قَالَ** : لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ كَانُوا مِنْ أَخْبَثِ النَّاسِ كَيْلًا ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فَحَسَّنُوا الْكَيْلَ بَعْدَ ذَلِكَ . **وَالْمُرَادُ بِالتَّطْفِيفِ هَاهُنَا** : الْبَخْسُ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ ، إِمَّا بِالِازْدِيَادِ إِنِ اقْتَضَى مِنَ النَّاسِ ، وَإِمَّا بِالنُّقْصَانِ إِنْ قَضَاهُمْ ، ولِهَذَا فَسَّرَ - تَعَالَى - الْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ وَعَدَهُمْ بِالخَسَارِ وَالهَلَاكِ ، وَهُوَ الوَيْلُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : مِنَ النَّاسِ ﴿ يَسْتَوْفُونَ ﴾ أَيْ : يَأْخُذُونَ حَقَّهُمْ بِالْوَافِي وَالزَّائِدِ ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ أَيْ : يُنْقِصُونَ ، **وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالْوَفَاءِ فِي الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ** ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٥] **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ** : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ أَيْ : أَمَا يَخَافُ أُولَئِكَ مِنَ الْبَعْثِ وَالْقِيَامِ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ يَعْلَمُ السَّرَائِرَ وَالضَّمَائِرَ فِي يَوْمٍ عَظِيمِ الْهَوْلِ ، كَثِيرِ الْفَزَعِ ، جَلِيلِ الْخَطْبِ ، مَنْ خَسِرَ فِيهِ أُدْخِلَ نَارًا حَامِيَةً . ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ **أَيْ** : يَقُومُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ، فِي مَوْقِفٍ صَعْبٍ ، حَرِجٍ ضَيِّقٍ ، ضَنْكٍ عَلَى الْمُجْرِمِ ، وَيَغْشَاهُمْ مِنْ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى مَا تَعْجِزُ الْقُوَى وَالْحَوَاسُّ عَنْهُ . عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ **حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ** » .

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ

أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : حَقًّا ﴿ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ أَيْ : إِنَّ مَصِيرَهُمْ وَمَأْوَاهُمْ لَفِي سِجِّينٍ - فِعِّيلٌ مِنَ السِّجْنِ - وَهُوَ الضِّيقُ ، كَمَا يُقَالُ : فِسِّيقٌ وَشِرِّيبٌ وَخِمِّيرٌ وَسِكِّيرٌ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ ؛ وَلِهَذَا عَظَّمَ أَمْرَهُ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ أَيْ : هُوَ أَمْرٌ عَظِيمٌ ، وَسِجْنٌ مُقِيمٌ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ : « **يَقُولُ اللهُ ﷻ فِي رُوحِ الْكُفَّارِ : اُكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ** ». وَسِجِّينٌ : هِيَ تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ ، وَقِيلَ : صَخْرَةٌ تَحْتَ السَّابِعَةِ خَضْرَاءُ ، وَقِيلَ : بِئْرٌ فِي جَهَنَّمَ . وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ، وَهُوَ يَجْمَعُ الضِّيقَ وَالسُّفُولَ . ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾ لَيْسَ تَفْسِيرًا لِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَفْسِيرٌ لِمَا كُتِبَ لَهُمْ مِنَ الْمَصِيرِ إِلَى سِجِّينٍ ، أَيْ : مَرْقُومٌ مَكْتُوبٌ مَفْرُوغٌ مِنْهُ ، لَا يُزَادُ فِيهِ أَحَدٌ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ أَحَدٌ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أَيْ : إِذَا صَارُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَا أَوْعَدَهُمُ اللهُ مِنَ السِّجْنِ وَالْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿ وَيْلٌ ﴾ الْهَلَاكُ وَالدَّمَارُ ، كَمَا يُقَالُ : وَيْلٌ لِفُلَانٍ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُفَسِّرًا لِلْمُكَذِّبِينَ الْفُجَّارِ الْكَفَرَةِ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ أَيْ : لَا يُصَدِّقُونَ بِوُقُوعِهِ ، وَلَا يَعْتَقِدُونَ كَوْنَهُ وَيَسْتَبْعِدُونَ أَمْرَهُ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أَيْ : مُعْتَدٍ فِي أَفْعَالِهِ ، مِنْ تَعَاطِي الْحَرَامِ ، وَالْمُجَاوَزَةِ فِي تَنَاوُلِ الْمُبَاحِ ، وَالْأَثِيمُ فِي أَقْوَالِهِ : إِنْ حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِنْ خَاصَمَ فَجَرَ . ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : إِذَا سَمِعَ كَلَامَ اللهِ تَعَالَى مِنَ الرَّسُولِ ، يُكَذِّبُ بِهِ ، وَيَظُنُّ بِهِ ظَنَّ السُّوءِ ، فَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُفْتَعَلٌ مَجْمُوعٌ مِنْ كُتُبِ الْأَوَائِلِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا وَلَا كَمَا قَالُوا : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، بَلْ هُوَ كَلَامُ اللهِ وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ، وَإِنَّمَا حَجَبَ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ مَا عَلَيْهَا مِنَ الرَّيْنِ الَّذِي قَدْ لَبِسَ قُلُوبَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ ، وَالرَّيْنُ يَعْتَرِي قُلُوبَ الْكَافِرِينَ ، وَالْغَيْمُ لِلْأَبْرَارِ ، وَالْغَيْنُ لِلْمُقَرَّبِينَ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ ، فَإِنْ تَابَ مِنْهَا صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زَادَتْ ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾** » . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : هُوَ

الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ ، حَتَّى يَعْمَى الْقَلْبُ فَيَمُوتُ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ أَيْ : لَهُمْ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَنْزِلٌ وَنُزُلُ سِجِّين ، ثُمَّ هُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ ذَلِكَ مَحْجُوبُونَ عَنْ رُؤْيَةِ رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ . **قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ** : **هَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ ﷻ يَوْمَئِذٍ** . وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي غَايَةِ الْحُسْنِ ، وَهُوَ اسْتِدْلَالٌ بِمَفْهُومِ هَذِهِ الْآيَةِ : كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ مَنْطُوقُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢ - ٢٣] ، وَكَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ الْمُتَوَاتِرَةُ فِي رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ رَبَّهُمْ ﷻ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، رُؤْيَةً بِالْأَبْصَارِ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ ، وَفِي رَوْضَاتِ الْجِنَانِ الْفَاخِرَةِ . **قَوْلُهُ** : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ أَيْ : ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذَا الْحِرْمَانِ عَنْ رُؤْيَةِ الرَّحْمَنِ مِنْ أَهْلِ النِّيرَانِ ﴿ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ وَالتَّصْغِيرِ وَالتَّحْقِيرِ .

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨

يَقُولُ تَعَالَى : حَقًّا ﴿ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ ، وَهُمْ بِخِلَافِ الْفُجَّارِ ﴿ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ أَيْ : مَصِيرُهُمْ إِلَى عِلِّيِّينَ ، وَهُوَ بِخِلَافِ سِجِّين . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ من الْعُلَمَاءِ** : سِجِّينٌ : هِيَ الْأَرْضُ السَّابِعَةُ ، وَفِيهَا أَرْوَاحُ الْكُفَّارِ . و ﴿ عِلِّيِّينَ ﴾ هِيَ السَّمَاءُ السَّابِعَةُ وَفِيهَا أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ . **وَقِيلَ** : ﴿ عِلِّيِّينَ ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةُ . **وَالظَّاهِرُ** : أَنَّ ﴿ عِلِّيِّينَ ﴾ مَأْخُوذٌ مِنَ الْعُلُوِّ ، وَكُلَّمَا عَلَا الشَّيْءُ وَارْتَفَعَ عَظُمَ وَاتَّسَعَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُعَظِّمًا أَمْرَهُ وَمُفَخِّمًا شَأْنَهُ : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ مُؤَكِّدًا لِمَا كُتِبَ لَهُمْ : ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ هُمُ الْمَلَائِكَةُ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ فِي نَعِيمٍ مُقِيمٍ ، وَجَنَّاتٍ فِيهَا فَضْلٌ عَمِيمٌ ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ وَهِيَ : السُّرُرُ تَحْتَ الْحِجَالِ ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ **قِيلَ** : مَعْنَاهُ يَنْظُرُونَ فِي مُلْكِهِمْ ، وَمَا أَعْطَاهُمُ اللهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالْفَضْلِ الَّذِي لَا يَنْقَضِي وَلَا يَبِيدُ ، **وَقِيلَ** : مَعْنَاهُ ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ إِلَى اللهِ ﷻ ، وَهَذَا مُقَابِلٌ لِمَا وُصِفَ بِهِ أُولَئِكَ الْفُجَّارُ ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ فَذَكَرَ عَنْ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ يُبَاحُونَ النَّظَرَ إِلَى اللهِ ﷻ وَهُمْ عَلَى سُرُرِهِمْ وَفُرُشِهِمْ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أَيْ : تَعْرِفُ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِمْ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ، أَيْ : صِفَةَ التَّرَافَةِ وَالْحِشْمَةِ وَالسُّرُورِ وَالدَّعَةِ وَالرِّيَاسَةِ ، مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ الْعَظِيمِ . ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾ أَيْ :

يُسْقَوْنَ مِنْ خَمْرٍ مِنَ الجَنَّةِ ، وَالرَّحِيقُ : مِنْ أَسْمَاءِ الخَمْرِ . وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ﴾ أَيْ : خِلْطُهُ مِسْكٌ . وَقِيلَ : عَاقِبَتُهُ مِسْكٌ . وَقِيلَ : طِيبُهُ مِسْكٌ . ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾ أَيْ : وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الحَالِ فَلْيَتَفَاخَرِ المُتَفَاخِرُونَ ، وَلْيَتَبَاهَ وَيُكَاثَرْ وَيَسْتَبِقْ إِلَى مِثْلِهِ المُسْتَبِقُونَ ، ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ أَيْ : وَمِزَاجُ هَذَا الرَّحِيقِ المَوْصُوفِ مِنْ تَسْنِيمٍ ، أَيْ : مِنْ شَرَابٍ يُقَالُ لَهُ : تَسْنِيمٌ ، وَهُوَ أَشْرَفُ شَرَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ وَأَعْلَاهُ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ أَيْ : يَشْرَبُهَا المُقَرَّبُونَ صِرْفًا ، وَتُمْزَجُ لِأَصْحَابِ اليَمِينِ مَزْجًا .

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ المُجْرِمِينَ ؛ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا يَضْحَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ ، أَيْ : يَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ وَيَحْتَقِرُونَهُمْ ، وَإِذَا مَرُّوا بِالمُؤْمِنِينَ يَتَغَامَزُونَ عَلَيْهِمْ ، أَيْ : مُحْتَقِرِينَ لَهُمْ ، ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴾ أَيْ : وَإِذَا انْقَلَبَ ، أَيْ : رَجَعَ هَؤُلَاءِ المُجْرِمُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ ، انْقَلَبُوا إِلَيْهَا فَكِهِينَ ، أَيْ : مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا ، وَمَعَ هَذَا مَا شَكَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِمْ ، بَلِ اشْتَغَلُوا بِالقَوْمِ المُؤْمِنِينَ يَحْتَقِرُونَهُمْ وَيَحْسُدُونَهُمْ ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ أَيْ : لِكَوْنِهِمْ عَلَى غَيْرِ دِينِهِمْ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴾ أَيْ : وَمَا بُعِثَ هَؤُلَاءِ المُجْرِمُونَ حَافِظِينَ عَلَى هَؤُلَاءِ المُؤْمِنِينَ مَا يَصْدُرُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ ، وَلَا كُلِّفُوا بِهِمْ ؟ فَلِمَ اشْتَغَلُوا بِهِمْ ، وَجَعَلُوهُمْ نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ ، ﴿ فَٱلْيَوْمَ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ القِيَامَةِ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ أَيْ : فِي مُقَابَلَةِ مَا ضَحِكَ بِهِمْ أُولَئِكَ ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ أَيْ : إِلَى اللهِ ﷻ فِي مُقَابَلَةِ مَنْ زَعَمَ فِيهِمْ أَنَّهُمْ ضَالُّونَ وَلَيْسُوا بِضَالِّينَ ، بَلْ هُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ المُقَرَّبِينَ ، يَنْظُرُونَ إِلَى رَبِّهِمْ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ أَيْ : هَلْ جُوزِيَ الكُفَّارُ عَلَى مَا كَانُوا يُقَابِلُونَ بِهِ المُؤْمِنِينَ مِنَ الاسْتِهْزَاءِ وَالتَّنْقِيصِ أَمْ لَا ؟ يَعْنِي : قَدْ جُوزُوا أَوْفَرَ الجَزَاءِ وَأَتَمَّهُ وَأَكْمَلَهُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ المُطَفِّفِينَ وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ

آياتها ٢٥ تفسير سورة الانشقاق مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا
وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ (٦)
فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ
مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا
(١٢) إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا (١٥)

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أَيْ : اِسْتَمَعَتْ لِرَبِّهَا وَأَطَاعَتْ أَمْرَهُ فِيمَا أَمَرَهَا بِهِ مِنَ الِانْشِقَاقِ ، ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أَيْ : وَحُقَّ لَهَا أَنْ تُطِيعَ أَمْرَهُ ؛ لِأَنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُغَالَبُ ، بَلْ قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَذَلَّ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أَيْ : بُسِطَتْ ، وَفُرِشَتْ وَوُسِّعَتْ . ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أَيْ : أَلْقَتْ مَا فِي بَطْنِهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ ، وَتَخَلَّتْ مِنْهُمْ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ أَيْ : سَاعٍ إِلَى رَبِّكَ سَعْيًا ، وَعَامِلٌ عَمَلًا ﴿ فَمُلَٰقِيهِ ﴾ ثُمَّ إِنَّكَ سَتَلْقَى مَا عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ أَيْ : سَهْلًا بِلَا تَعْسِيرٍ ، أَيْ : لَا يُحَقِّقُ عَلَيْهِ جَمِيعَ دَقَائِقِ أَعْمَالِهِ ، فَإِنَّ مَنْ حُوسِبَ كَذَلِكَ يَهْلِكُ لَا مَحَالَةَ . عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ** » قَالَتْ : فَقُلْتُ : أَلَيْسَ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ قَالَ : « **لَيْسَ ذَاكَ بِالْحِسَابِ وَلَكِنْ ذَلِكَ الْعَرْضُ ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ** » . ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ أَيْ : وَيَرْجِعُ إِلَى أَهْلِهِ فِي الْجَنَّةِ ، ﴿ مَسْرُورًا ﴾ أَيْ : فَرِحًا مُغْتَبِطًا بِمَا أَعْطَاهُ اللهُ ﷻ . ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴾ أَيْ : بِشِمَالِهِ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ ، تُثْنَى يَدُهُ إِلَى وَرَائِهِ وَيُعْطَى كِتَابَهُ بِهَا كَذَلِكَ ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴾ أَيْ : خَسَارًا وَهَلَاكًا ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ أَيْ : فَرِحًا لَا يُفَكِّرُ فِي الْعَوَاقِبِ ، وَلَا يَخَافُ مِمَّا أَمَامَهُ ، فَأَعْقَبَهُ ذَلِكَ الْفَرَحُ الْيَسِيرُ الْحُزْنَ الطَّوِيلَ ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ أَيْ : كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا يَرْجِعُ إِلَى اللهِ وَلَا يُعِيدُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَالْحَوْرُ : هُوَ الرُّجُوعُ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ يَعْنِي : بَلَى سَيُعِيدُهُ اللهُ كَمَا بَدَأَهُ ، وَيُجَازِيهِ عَلَى

أَعْمَالِهِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، فَإِنَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ، أَيْ : عَلِيمًا خَبِيرًا .

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾

قَالَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الشَّفَقُ : الْحُمْرَةُ . فَالشَّفَقُ : هُوَ حُمْرَةُ الْأُفُقِ إِمَّا قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ، وَإِمَّا بَعْدَ غُرُوبِهَا ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **وَقْتُ الْمَغْرِبِ مَا لَمْ يَغِبِ الشَّفَقُ** ». **وَقَالَ اِبْنُ جَرِيرٍ** : أَقْسَمَ اللهُ بِالنَّهَارِ مُدْبِرًا ، وَبِاللَّيْلِ مُقْبِلًا . ﴿ وَمَا وَسَقَ ﴾ وَمَا جَمَعَ ، أَيْ : مِنْ نَجْمٍ وَدَابَّةٍ ، ﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ إِذَا اِجْتَمَعَ وَاسْتَوَى . **قَالَ الْحَسَنُ** : إِذَا اِجْتَمَعَ ، إِذَا امْتَلَأَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : إِذَا اِسْتَدَارَ ، وَمَعْنَى كَلَامِهِمْ أَنَّهُ إِذَا تَكَامَلَ نُورُهُ وَأَبْدَرَ ، جَعَلَهُ مُقَابِلًا لِلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ . ﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ **قَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، قَالَ هَذَا نَبِيُّكُمْ ﷺ ، **وَقَالَ الشَّعْبِيُّ** : ﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قَالَ : لَتَرْكَبَنَّ يَا مُحَمَّدُ سَمَاءً بَعْدَ سَمَاءٍ . **وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ يَقُولُ : حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، رَخَاءً بَعْدَ شِدَّةٍ ، وَشِدَّةً بَعْدَ رَخَاءٍ ، وَغِنًى بَعْدَ فَقْرٍ ، وَفَقْرًا بَعْدَ غِنًى ، وَصِحَّةً بَعْدَ سَقَمٍ ، وَسَقَمًا بَعْدَ صِحَّةٍ . **قَالَ اِبْنُ جَرِيرٍ** : وَالصَّوَابُ مِنَ التَّأْوِيلِ قَوْلُ مَنْ قَالَ : لَتَرْكَبَنَّ أَنْتَ - يَا مُحَمَّدُ - حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، وَأَمْرًا بَعْدَ أَمْرٍ مِنَ الشَّدَائِدِ ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ - وَإِنْ كَانَ الْخِطَابُ مُوَجَّهًا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ - جَمِيعُ النَّاسِ ، وَأَنَّهُمْ يَلْقَوْنَ مِنْ شَدَائِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهِ أَحْوَالًا . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴾ أَيْ : فَمَاذَا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ؟ وَمَا لَهُمْ إِذَا قُرِئَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللهِ وَكَلَامُهُ - وَهُوَ هَذَا الْقُرْآنُ - لَا يَسْجُدُونَ إِعْظَامًا وَإِكْرَامًا وَاحْتِرَامًا ؟ . ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ سَجِيَّتِهِمُ التَّكْذِيبُ ، وَالْعِنَادُ وَالْمُخَالَفَةُ لِلْحَقِّ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِهِمْ ﴿ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أَيْ : فَأَخْبِرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ بِأَنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ هَذَا اِسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، يَعْنِي : لَكِنِ الَّذِينَ آمَنُوا ، أَيْ : بِقُلُوبِهِمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِجَوَارِحِهِمْ ﴿ لَهُمۡ أَجۡرٌ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ ﴾ **قِيلَ** : غَيْرُ مَنْقُوصٍ ، **وَقِيلَ** : غَيْرُ مَحْسُوبٍ ، وَحَاصِلُ قَوْلِهِمَا أَنَّهُ غَيْرُ مَقْطُوعٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٍ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْانْشِقَاقِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

تفسير سورة البروج

آياتها ٢٢ — مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠﴾

يُقْسِمُ تَعالَى بِالسَّماءِ وَبُرُوجِها ، وَهِيَ : النُّجُومُ العِظامُ ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ يَوْمُ الْقِيامَةِ ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ يَوْمُ عَرَفَةَ . **وَقِيلَ** : الشَّاهِدُ : مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ تَعالَى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء : ٤١]، وَالْمَشْهُودُ : يَوْمُ الْقِيامَةِ ، قَالَ تَعالَى : ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود : ١٠٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ أَيْ : لُعِنَ أَصْحابُ الأُخْدُودِ ، وَجَمْعُهُ أَخادِيدُ ، وَهِيَ الْحَفِيرُ فِي الْأَرْضِ ، وَهَذا خَبَرٌ عَنْ قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَمَدُوا إِلَى مَنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ ﷻ ، فَقَهَرُوهُمْ وَأَرادُوهُمْ أَنْ يَرْجِعُوا عَنْ دِينِهِمْ ، فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ ، فَحَفَرُوا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُخْدُودًا ، وَأَجَّجُوا فِيهِ نارًا ، وَأَعَدُّوا لَها وَقُودًا يُسَعِّرُونَها بِهِ ، ثُمَّ أَرادُوهُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ فَقَذَفُوهُمْ فِيها ، **وَلِهَذا قَالَ تَعالَى** : ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أَيْ : مُشاهِدُونَ لِما يُفْعَلُ بِأُولَئِكَ الْمُؤْمِنِينَ . ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أَيْ : وَما كانَ لَهُمْ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا إِيمانُهُمْ بِاللهِ الْعَزِيزِ الَّذِي لا يُضامُ مَنْ لاذَ بِجَنابِهِ ، الْمَنِيعُ الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ أَقْوالِهِ وَأَفْعالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ، وَإِنْ كانَ قَدْ قَدَّرَ عَلَى عِبادِهِ هَؤُلاءِ هَذا الَّذِي وَقَعَ بِهِمْ بِأَيْدِي الْكُفَّارِ بِهِ ، فَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ ، وَإِنْ خَفِيَ سَبَبُ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ . **ثُمَّ قَالَ تَعالَى** : ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مِنْ تَمامِ الصِّفَةِ إِنَّهُ الْمالِكُ لِجَمِيعِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَما فِيهِما وَما بَيْنَهُما ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَيْ : لا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا تَخْفَى عَلَيْهِ خافِيَةٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أَيْ : حَرَقُوا ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ أَيْ : لَمْ يُقْلِعُوا

عَمَّا فَعَلُوا وَيَنْدَمُوا عَلَى مَا أَسْلَفُوا ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ . قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ ﴿ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ، بِخِلَافِ مَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْحَرِيقِ وَالْجَحِيمِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أَيْ : إِنَّ بَطْشَهُ وَانْتِقَامَهُ - مِنْ أَعْدَائِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُ وَخَالَفُوا أَمْرَهُ - لَشَدِيدٌ عَظِيمٌ قَوِيٌّ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ، الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ كَمَا يَشَاءُ فِي مِثْلِ لَمْحِ الْبَصَرِ ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ أَيْ : مِنْ قُوَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ التَّامَّةِ يُبْدِئُ الْخَلْقَ وَيُعِيدُهُ كَمَا بَدَأَهُ ، بِلَا مُمَانِعٍ وَلَا مُدَافِعٍ ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ أَيْ : يَغْفِرُ ذَنْبَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَخَضَعَ لَدَيْهِ ، وَلَوْ كَانَ الذَّنْبُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ ، وَالْوَدُودُ . قِيلَ : هُوَ الْحَبِيبُ ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴾ أَيْ : صَاحِبُ الْعَرْشِ الْمُعَظَّمِ الْعَالِي عَلَى جَمِيعِ الْخَلَائِقِ . ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَرَادَ فِعْلَهُ ، لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِعَظَمَتِهِ وَقَهْرِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ أَيْ : هَلْ بَلَغَكَ مَا أَحَلَّ اللهُ بِهِمْ مِنَ الْبَأْسِ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّقْمَةِ الَّتِي لَمْ يَرُدَّهَا عَنْهُمْ أَحَدٌ ؟ وَهَذَا تَقْرِيرٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أَيْ : إِذَا أَخَذَ الظَّالِمَ أَخَذَهُ أَخْذًا أَلِيمًا شَدِيدًا ، أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ . ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴾ أَيْ : هُمْ فِي شَكٍّ وَرَيْبٍ وَكُفْرٍ وَعِنَادٍ ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ أَيْ : هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ ، قَاهِرٌ لَا يَفُوتُونَهُ وَلَا يُعْجِزُونَهُ ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ أَيْ : عَظِيمٌ كَرِيمٌ ﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾ أَيْ : هُوَ فِي الْمَلَإِ الْأَعْلَى مَحْفُوظٌ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ وَالتَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبُرُوجِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالعِصْمَةُ

آياتها ١٧ تفسير سورة الطارق مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾

يُقْسِمُ تبارَكَ وتَعالَى بِالسَّماءِ وَمَا جعَلَ فِيهَا مِنَ الْكَواكِبِ النَّيِّرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾. **قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ**: إِنَّمَا سُمِّيَ النَّجْمُ طَارِقًا، لأَنَّهُ إِنَّمَا يُرَى بِاللَّيْلِ وَيَخْتَفِي بِالنَّهَارِ، وَ﴿الثَّاقِبُ﴾ **قِيلَ**: الْمُضِيءُ، **وَقِيلَ**: يَثْقُبُ الشَّيَاطِينَ إِذَا أُرْسِلَ عَلَيْهَا، **وَقِيلَ**: هُوَ مُضِيءٌ وَمُحْرِقٌ لِلشَّيْطَانِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ أَيْ: كُلُّ نَفْسٍ عَلَيْهَا مِنَ اللهِ حَافِظٌ يَحْرُسُهَا مِنَ الْآفَاتِ، ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ تَنْبِيهٌ لِلْإِنْسَانِ عَلَى ضَعْفِ أَصْلِهِ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ، وَإِرْشَادٌ لَهُ إِلَى الِاعْتِرَافِ بِالْمَعَادِ؛ لأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْبُدَاءَةِ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]

وَقَوْلُهُ: ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ يَعْنِي: الْمَنِيَّ يَخْرُجُ دَفْقًا مِنَ الرَّجُلِ وَمِنَ الْمَرْأَةِ، فَيَتَوَلَّدُ مِنْهُمَا الْوَلَدُ بِإِذْنِ اللهِ ﷻ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ يَعْنِي: صُلْبَ الرَّجُلِ وَتَرَائِبَ الْمَرْأَةِ وَهُوَ صَدْرُهَا. **وَقِيلَ**: التَّرَائِبُ: بَيْنَ ثَدْيَيْهَا، **وَقِيلَ**: التَّرَائِبُ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ إِلَى الصَّدْرِ، **وَعَنْ قَتَادَةَ** ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ مِنْ بَيْنِ صُلْبِهِ وَنَحْرِهِ، ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ عَلَى رَجْعِ هَذَا الْإِنْسَانِ الْمَخْلُوقِ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ - أَيْ: إِعَادَتُهُ وَبَعْثُهُ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ - لَقَادِرٌ؛ لأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْبُدَاءَةِ قَدَرَ عَلَى الْإِعَادَةِ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أَيْ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ تُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ، أَيْ: تَظْهَرُ وَتَبْدُو، وَيَبْقَى السِّرُّ عَلَانِيَةً وَالْمَكْنُونُ مَشْهُورًا. ﴿فَمَا لَهُ﴾ أَيْ: الْإِنْسَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ أَيْ: فِي نَفْسِهِ ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ أَيْ: مِنْ خَارِجٍ مِنْهُ، أَيْ: لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُنْقِذَ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ لَهُ أَحَدٌ ذَلِكَ.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝١٧﴾

الرَّجْعُ : قِيلَ : هُوَ المَطَرُ ، وَقِيلَ : هُوَ السَّحَابُ فِيهِ المَطَرُ ، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴾ تُمْطِرُ ثُمَّ تُمْطِرُ ، ﴿ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : هُوَ انْصِدَاعُهَا عَنِ النَّبَاتِ . ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ قِيلَ : حَقٌّ ، وَقِيلَ : حُكْمٌ عَدْلٌ . ﴿ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ أَيْ : بَلْ هُوَ حَقٌّ جِدٌّ . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الكَافِرِينَ بِأَنَّهُمْ يُكَذِّبُونَ بِهِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِهِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ أَيْ : يَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى خِلَافِ الْقُرْآنِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : أَنْظِرْهُمْ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ أَيْ : قَلِيلًا ، أَيْ : وَسَتَرَى مَاذَا أَحَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْعُقُوبَةِ وَالْهَلَاكِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الطَّارِقِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

تفسِيرُ سُورَةِ الأعلى

آياتها ١٩ — مكية

ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِمُعَاذٍ : « **هَلَّا صَلَّيْتَ بِـ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى** » . وَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ فِي الْعِيدَيْنِ بِـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ وَ ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾ ، وَإِنْ وَافَقَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَرَأَهُمَا جَمِيعًا . وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْوِتْرِ بِـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ وَ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ وَ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ
أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ
إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾
سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا
يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الجُهَنِيِّ ﷺ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة : ٧٤] قَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ** » ، فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ قَالَ : « **اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ** » . وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ أَيْ : خَلَقَ الْخَلِيقَةَ وَسَوَّى كُلَّ مَخْلُوقٍ فِي أَحْسَنِ الْهَيْئَاتِ : ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ هَدَى الْإِنْسَانَ لِلشَّقَاوَةِ وَالسَّعَادَةِ ، وَهَدَى الْأَنْعَامَ لِمَرَاتِعِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴾ أَيْ : مِنْ جَمِيعِ صُنُوفِ النَّبَاتَاتِ وَالزُّرُوعِ ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴾ هَشِيمًا مُتَغَيِّرًا ، ﴿ سَنُقۡرِئُكَ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ ، وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَوَعْدٌ مِنْهُ لَهُ بِأَنَّهُ سَيُقْرِئُهُ قِرَاءَةً لَا يَنْسَاهَا ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ، ﴿ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ مَا يَجْهَرُ بِهِ الْعِبَادُ وَمَا يُخْفُونَهُ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴾ أَيْ : نُسَهِّلُ عَلَيْكَ أَفْعَالَ الْخَيْرِ وَأَقْوَالِهِ ، وَنَشْرَعُ لَكَ شَرْعًا سَهْلًا سَمْحًا مُسْتَقِيمًا عَدْلًا ، لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا حَرَجَ وَلَا عُسْرَ ، ﴿ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾ أَيْ : ذَكِّرْ حَيْثُ تَنْفَعُ التَّذْكِرَةُ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴾ أَيْ : سَيَتَّعِظُ بِمَا تُبَلِّغُهُ يَا مُحَمَّدُ مَنْ قَلْبُهُ يَخْشَى اللهَ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ مُلَاقِيهِ ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴾ أَيْ : لَا يَمُوتُ فَيَسْتَرِيحَ ، وَلَا يَحْيَى حَيَاةً تَنْفَعُهُ ، بَلْ هِيَ مُضِرَّةٌ عَلَيْهِ ، لِأَنَّ بِسَبَبِهَا يَشْعُرُ مَا يُعَاقَبُ بِهِ مِنْ أَلِيمِ الْعَذَابِ ، وَأَنْوَاعِ النَّكَالِ .

قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أَيْ : طَهَّرَ نَفْسَهُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ ، وَتَابَعَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ ﴿ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ أَيْ : أَقَامَ الصَّلَاةَ فِي أَوْقَاتِهَا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ وَطَاعَةً لِأَمْرِ اللهِ ، وَامْتِثَالًا لِشَرْعِ اللهِ . **وَقَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ** : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ زَكَّى مَالَهُ ، وَأَرْضَى خَالِقَهُ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ أَيْ : تُقَدِّمُونَهَا عَلَى أَمْرِ الْآخِرَةِ ، وَتُبَدُّونَهَا عَلَى مَا فِيهِ نَفْعُكُمْ وَصَلَاحُكُمْ فِي مَعَاشِكُمْ وَمَعَادِكُمْ ﴿ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ أَيْ : ثَوَابُ اللهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَأَبْقَى ، فَإِنَّ الدُّنْيَا دَانِيَةٌ فَانِيَةٌ ، وَالْآخِرَةُ شَرِيفَةٌ بَاقِيَةٌ ، فَكَيْفَ يُؤْثِرُ عَاقِلٌ مَا يَفْنَى عَلَى مَا يَبْقَى ، وَيَهْتَمُّ بِمَا يَزُولُ عَنْهُ قَرِيبًا ، وَيَتْرُكُ الِاهْتِمَامَ بِدَارِ الْبَقَاءِ وَالْخُلْدِ . **قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قَالَ : كُلُّهَا فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ إِشَارَةً إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ أَيْ : مَضْمُونُ هَذَا الْكَلَامِ ﴿ لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ ، وَهَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ حَسَنٌ قَوِيٌّ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ سَبِّحْ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

آياتها ٢٦ تفسير سورة الغاشية مكية

عَنِ النُّعْمَانِ بْن بَشِيرٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْرأُ بـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ وَالْغَاشِيَةِ فِي صَلَاةِ الْعِيدِ وَيَوْمِ الْجُمْعَةِ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾

الْغَاشِيَةُ : مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . لِأَنَّهَا تَغْشَى النَّاسَ وَتَعُمُّهُمْ . ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴾ أَيْ : ذَلِيلَةٌ . ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ أَيْ : قَدْ عَمِلَتْ عَمَلًا كَثِيرًا ، وَنَصِبَتْ فِيهِ ، وَصَلِيَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَارًا حَامِيَةً . ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ أَيْ : حَارَّةً شَدِيدَةَ الْحَرِّ . ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾ أَيْ : قَدِ انْتَهَى حَرُّهَا وَغَلَيَانُهَا . ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ أَيْ : شَجَرٌ مِنَ النَّارِ ، وَقِيلَ : هُوَ الزَّقُّومُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ يَعْنِي : لَا يَحْصُلُ بِهِ مَقْصُودٌ ، وَلَا يَنْدَفِعُ بِهِ مَحْذُورٌ .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْأَشْقِيَاءِ ثَنَّى بِذِكْرِ السُّعَدَاءِ فَقَالَ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ نَّاعِمَةٌ ﴾ أَيْ : يُعْرَفُ النَّعِيمُ فِيهَا ، وَإِنَّمَا حَصَلَ لَهَا ذَلِكَ بِسَعْيِهَا . ﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ : قَدْ رَضِيَتْ عَمَلَهَا ، ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أَيْ : رَفِيعَةٍ بَهِيَّةٍ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴾ أَيْ : لَا تَسْمَعُ فِي الْجَنَّةِ الَّتِي هُمْ فِيهَا كَلِمَةَ لَغْوٍ ، ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أَيْ : سَارِحَةٌ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا عَيْنًا وَاحِدَةً ، وَإِنَّمَا هَذَا جِنْسٌ ، يَعْنِي : فِيهَا عُيُونٌ جَارِيَاتٌ . ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ أَيْ : عَالِيَةٌ نَاعِمَةٌ كَثِيرَةُ الْفُرُشِ مُرْتَفِعَةُ السُّمْكِ ، عَلَيْهَا الْحُورُ الْعِينُ . قَالُوا : فَإِذَا أَرَادَ وَلِيُّ اللهِ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى تِلْكَ السُّرُرِ الْعَالِيَةِ تَوَاضَعَتْ لَهُ . ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ يَعْنِي : أَوَانِي الشُّرْبِ مُعَدَّةٌ مُرْصَدَةٌ لِمَنْ أَرَادَهَا مِنْ أَرْبَابِهَا . ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ النَّمَارِقُ : الْوَسَائِدُ ، ﴿ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ الزَّرَابِيُّ : الْبُسُطُ ، وَمَعْنَى : مَبْثُوثَةٌ ، أَيْ : هَهُنَا وَهَهُنَا ، لِمَنْ أَرَادَ الْجُلُوسَ عَلَيْهَا .

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ بِالنَّظَرِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ فَإِنَّهَا خَلْقٌ عَجِيبٌ وَتَرْكِيبُهَا غَرِيبٌ ، فَإِنَّهَا فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ وَالشِّدَّةِ ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَلِينُ لِلْحَمْلِ الثَّقِيلِ ، وَتَنْقَادُ لِلْقَائِدِ الضَّعِيفِ ، وَتُؤْكَلُ ، وَيُنْتَفَعُ بِوَبَرِهَا ، وَيُشْرَبُ لَبَنُهَا ، وَنُبِّهُوا بِذَلِكَ لِأَنَّ الْعَرَبَ غَالِبُ دَوَابِّهِمْ كَانَتِ الْإِبِلُ . ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أَيْ : جُعِلَتْ مَنْصُوبَةً ، قَائِمَةً ثَابِتَةً رَاسِيَةً لِئَلَّا تَمِيدَ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَعَادِنِ . ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أَيْ : كَيْفَ بُسِطَتْ وَمُدَّتْ وَمُهِّدَتْ ؟ فَنَبَّهَ الْبَدَوِيَّ عَلَى الِاسْتِدْلَالِ بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنْ بَعِيرِهِ الَّذِي هُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهِ ، وَالسَّمَاءِ الَّتِي فَوْقَ رَأْسِهِ ، وَالْجَبَلِ الَّذِي تُجَاهَهُ ، وَالْأَرْضِ الَّتِي تَحْتَهُ عَلَى قُدْرَةِ خَالِقِ ذَلِكَ وَصَانِعِهِ ، وَأَنَّهُ الرَّبُّ الْعَظِيمُ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ ، وَأَنَّهُ الْإِلَهُ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ أَيْ : فَذَكِّرْ يَا مُحَمَّدُ النَّاسَ بِمَا أُرْسِلْتَ بِهِ إِلَيْهِمْ ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُمَا : لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : لَسْتَ بِالَّذِي تُكْرِهُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ . ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ أَيْ : تَوَلَّى عَنِ الْعَمَلِ بِأَرْكَانِهِ ، وَكَفَرَ بِالْحَقِّ بِجَنَانِهِ وَلِسَانِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ . ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ أَيْ : مَرْجِعَهُمْ وَمُنْقَلَبَهُمْ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ أَيْ : نَحْنُ نُحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَنُجَازِيهِمْ بِهَا ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْغَاشِيَةِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

آياتها ٣٠ — تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَجْرِ — مكيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ

لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

أَمَّا الْفَجْرُ فَمَعْرُوفٌ وَهُوَ الصُّبْحُ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِهِ فَجْرُ يَوْمِ النَّحْرِ خَاصَّةً ، وَهُوَ خَاتِمَةُ اللَّيَالِي الْعَشْرِ . ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : أَنَّ الْوَتْرَ يَوْمُ عَرَفَةَ ، لِكَوْنِهِ التَّاسِعَ ، وَإِنَّ الشَّفْعَ يَوْمَ النَّحْرِ لِكَوْنِهِ الْعَاشِرَ . **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ **قَالَ** : اللهُ وِتْرٌ وَاحِدٌ ، وَأَنْتُمْ شَفْعٌ . **وَقِيلَ** : اللهُ الْوَتْرُ ، وَخَلْقُهُ الشَّفْعُ ، الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى . **وَعَنِ الْحَسَنِ** : ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ هُوَ الْعَدَدُ مِنْهُ شَفْعٌ وَمِنْهُ وَتْرٌ . ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أَيْ : إِذَا ذَهَبَ ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ أَيْ : لِذِي عَقْلٍ وَلُبٍّ وَحِجًا ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْعَقْلُ حِجْرًا ؛ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنْ تَعَاطِي مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ ، وَمِنْهُ حَجَرَ الْحَاكِمُ عَلَى فُلَانٍ إِذَا مَنَعَهُ التَّصَرُّفَ ، وَهَذَا الْقَسَمُ هُوَ بِأَوْقَاتِ الْعِبَادَةِ ، وَبِنَفْسِ الْعِبَادَةِ مِنْ حَجٍّ وَصَلَاةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْقُرَبِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا الْمُتَّقُونَ الْمُطِيعُونَ لَهُ ، الْخَائِفُونَ مِنْهُ ، الْمُتَوَاضِعُونَ لَدَيْهِ ، الْخَاشِعُونَ لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ .وَلَمَّا ذَكَرَ هَؤُلَاءِ وَعِبَادَتَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ قَالَ بَعْدَهُ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ وَهَؤُلَاءِ كَانُوا مُتَمَرِّدِينَ عُتَاةً جَبَّارِينَ ، خَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ مُكَذِّبِينَ لِرُسُلِهِ ، جَاحِدِينَ لِكُتُبِهِ ، فَذَكَرَ تَعَالَى كَيْفَ أَهْلَكَهُمْ وَدَمَّرَهُمْ ، وَجَعَلَهُمْ أَحَادِيثَ وَعِبَرًا فَقَالَ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ ، وَهَؤُلَاءِ عَادٌ الْأُولَى ، وَهُمْ أَوْلَادُ عَادِ بْنِ إِرَمَ بْنِ عَوْصَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ ، وَهُمُ الَّذِينَ بَعَثَ اللهُ فِيهِمْ رَسُولَهُ هُودًا عليه السلام فَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ ، فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ ، وَأَهْلَكَهُمْ ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة : ٦ - ٨] ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ قِصَّتَهُمْ فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ ؛ لِيَعْتَبِرَ بِمَصْرَعِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ . فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ عَطْفُ بَيَانٍ ، زِيَادَةُ تَعْرِيفٍ بِهِمْ ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْكُنُونَ بُيُوتَ الشَّعْرِ الَّتِي تُرْفَعُ بِالْأَعْمِدَةِ الشِّدَادِ ، وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ فِي زَمَانِهِمْ خِلْقَةً وَأَقْوَاهُمْ بَطْشًا ؛ وَلِهَذَا ذَكَّرَهُمْ هُودٌ بِتِلْكَ النِّعْمَةِ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنْ يَسْتَعْمِلُوهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِمُ الَّذِي خَلَقَهُمْ ، ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ أَيْ : الْقَبِيلَةُ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي بِلَادِهِمْ ، لِقُوَّتِهِمْ وَشِدَّتِهِمْ وَعِظَمِ تَرْكِيبِهِمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى

ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ . أَيْ : لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُ تِلْكَ الْقَبِيلَةِ فِي الْبِلَادِ ، يَعْنِي : فِي زَمَانِهِمْ . ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ يَعْنِي : يَقْطَعُونَ الصَّخْرَ بِالْوَادِي ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: يَنْحِتُونَهَا وَيَخْرِقُونَهَا ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴾ [الشعراء : ١٤٩]

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾ قِيلَ : الْأَوْتَادُ : الْجُنُودُ الَّذِينَ يَشُدُّونَ لَهُ أَمْرَهُ ، وَيُقَالُ : كَانَ فِرْعَوْنُ يُوَتِّدُ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلَهُمْ فِي أَوْتَادٍ مِنْ حَدِيدٍ يُعَلِّقُهُمْ بِهَا . ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴾ أَيْ : تَمَرَّدُوا وَعَتَوْا وَعَاثُوا فِي الْأَرْضِ بِالْإِفْسَادِ وَالْأَذِيَّةِ لِلنَّاسِ ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أَيْ : أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ ، وَأَحَلَّ بِهِمْ عُقُوبَةً لَا يَرُدُّهَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ يَعْنِي : يَرْصُدُ خَلْقَهُ فِيمَا يَعْمَلُونَ ، وَيُجَازِي كُلًّا بِسَعْيِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَسَيُعْرَضُ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عَلَيْهِ ، فَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِعَدْلِهِ ، وَيُقَابِلُ كُلًّا بِمَا يَسْتَحِقُّهُ ، وَهُوَ الْمُنَزَّهُ عَنِ الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ .

فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْإِنْسَانِ فِي اعْتِقَادِهِ إِذَا وَسَّعَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ لِيَخْتَبِرَهُ فِي ذَلِكَ ، فَيَعْتَقِدَ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللهِ إِكْرَامٌ لَهُ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، بَلْ هُوَ ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥-٥٦] وَكَذَلِكَ فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ ، إِذَا ابْتَلَاهُ وَامْتَحَنَهُ وَضَيَّقَ عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ يَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللهِ إِهَانَةً لَهُ . ﴿ كَلَّا ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ ، لَا فِي هَذَا وَلَا فِي هَذَا ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُعْطِي الْمَالَ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، وَيُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، وَإِنَّمَا الْمَدَارُ فِي ذَلِكَ عَلَى طَاعَةِ اللهِ فِي كُلٍّ مِنَ الْحَالَيْنِ ، إِذَا كَانَ غَنِيًّا بِأَنْ يَشْكُرَ اللهَ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِذَا كَانَ فَقِيرًا بِأَنْ يَصْبِرَ . ﴿ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾ فِيهِ أَمْرٌ بِالْإِكْرَامِ لَهُ . قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ** » ، وَقَرَنَ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ الْوُسْطَى وَالَّتِي تَلِي الْإِبْهَامَ . ﴿ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ يَعْنِي : لَا يَأْمُرُونَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَيَحُثُّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي ذَلِكَ ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ ﴾ يَعْنِي : الْمِيرَاثَ ﴿ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ أَيْ : مِنْ أَيِّ جِهَةٍ حَصَلَ لَهُمْ ، مِنْ حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ أَيْ : كَثِيرًا ، زَادَ بَعْضُهُمْ : فَاحِشًا .

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَهْوَالِ الْعَظِيمَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّآ ﴾ أَيْ : حَقًّا ﴿ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴾ أَيْ : وُطِئَتْ وَمُهِّدَتْ وَسُوِّيَتِ الْجِبَالُ ، وَقَامَ الْخَلَائِقُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّهِمْ ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ يَعْنِي : لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا يَسْتَشْفِعُونَ إِلَيْهِ ، بِسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، بَعْدَمَا يَسْأَلُونَ أُولِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، فَكُلُّهُمْ يَقُولُ : لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَاكُمْ ، حَتَّى تَنْتَهِي النَّوْبَةُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَقُولُ : « **أَنَا لَهَا ، أَنَا لَهَا** » فَيَذْهَبُ فَيَشْفَعُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى فِي أَنْ يَأْتِيَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ فَيُشَفِّعُهُ اللهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ ، وَهِيَ أَوَّلُ الشَّفَاعَاتِ ، وَهِيَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ « سُبْحَانَ » فَيَجِيءُ الرَّبُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لِفَصْلِ الْقَضَاءِ كَمَا يَشَاءُ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَجِيئُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صُفُوفًا صُفُوفًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ ﴾ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾ أَيْ : عَمَلَهُ وَمَا كَانَ أَسْلَفَهُ فِي قَدِيمِ دَهْرِهِ وَحَدِيثِهِ ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾ أَيْ : وَكَيْفَ تَنْفَعُهُ الذِّكْرَى ؟ ﴿ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾ يَعْنِي : يَنْدَمُ عَلَى مَا كَانَ سَلَفَ مِنْهُ مِنَ الْمَعَاصِي إِنْ كَانَ عَاصِيًا وَيَوَدُّ لَوْ كَانَ ازْدَادَ مِنَ الطَّاعَاتِ إِنْ كَانَ طَائِعًا .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴾ أَيْ : لَيْسَ أَحَدٌ أَشَدَّ عَذَابًا مِنْ تَعْذِيبِ اللهِ مَنْ عَصَاهُ ﴿ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴾ أَيْ : وَلَيْسَ أَحَدٌ أَشَدَّ قَبْضًا وَوَثْقًا مِنَ الزَّبَانِيَةِ لِمَنْ كَفَرَ بِرَبِّهِمْ ﷻ ، وَهَذَا فِي حَقِّ الْمُجْرِمِينَ مِنَ الْخَلَائِقِ وَالظَّالِمِينَ ، فَأَمَّا النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، وَهِيَ السَّاكِنَةُ الثَّابِتَةُ الدَّائِرَةُ مَعَ الْحَقِّ ، فَيُقَالُ لَهَا ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ أَيْ : إِلَى جِوَارِهِ وَثَوَابِهِ وَمَا أَعَدَّ لِعِبَادِهِ فِي جَنَّتِهِ ﴿ رَاضِيَةٗ ﴾ أَيْ : فِي نَفْسِهَا ﴿ مَّرۡضِيَّةٗ ﴾ أَيْ : قَدْ رَضِيَتْ عَنِ اللهِ وَرَضِيَ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا ﴿ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴾ أَيْ : فِي جُمْلَتِهِمْ ﴿ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ ، وَهَذَا يُقَالُ لَهَا عِنْدَ الِاحْتِضَارِ ، وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَيْضًا ، كَمَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يُبَشِّرُونَ الْمُؤْمِنَ عِنْدَ احْتِضَارِهِ وَعِنْدَ قِيَامِهِ مِنْ قَبْرِهِ ، فَكَذَلِكَ هَهُنَا .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَجْرِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

آياتها ٢٠ تفسير سورة البلد مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾

هَذَا قَسَمٌ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمَكَّةَ أُمِّ الْقُرَى فِي حَالِ كَوْنِ السَّاكِنِ فِيهَا حَالًّا ، لِيُنَبِّهَ عَلَى عَظَمَةِ قَدْرِهَا فِي حَالِ إِحْرَامِ أَهْلِهَا ، **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴾ يَعْنِي : مَكَّةَ ﴿ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴾ قَالَ : أَنْتَ - يَا مُحَمَّدُ - يَحِلُّ لَكَ أَنْ تُقَاتِلَ بِهِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : مَا أَصَبْتَ فِيهِ فَهُوَ حَلَالٌ لَكَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴾ قَالَ : أَنْتَ بِهِ مِنْ غَيْرِ حَرَجٍ وَلَا إِثْمٍ ، **وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : أَحَلَّهَا اللهُ لَهُ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي قَالُوهُ قَدْ وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يُعْضَدُ شَجَرُهُ وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ ، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ ، أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ** » ، وَفِي لَفْظٍ « **فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ فَقُولُوا إِنَّ اللهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴾ **قِيلَ** : الْوَالِدُ : الَّذِي يَلِدُ ، وَمَا وَلَدَ : الْعَاقِرُ الَّذِي لَا يُولَدُ لَهُ ، **وَقِيلَ** : وَوَالِدٍ هُوَ : آدَمُ ، وَمَا وَلَدَ : ذُرِّيَّتُهُ . ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴾ ، وَالْكَبَدُ : الاسْتِوَاءُ وَالاسْتِقَامَةُ ، وَمَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ : لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ سَوِيًّا مُسْتَقِيمًا كَقَوْلِهِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار : ٦ - ٧] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ [التين : ٤] ، **وَقِيلَ** : ﴿ فِي كَبَدٍ ﴾ نُطْفَةً ، ثُمَّ عَلَقَةً ، ثُمَّ مُضْغَةً يَتَكَبَّدُ فِي الْخَلْقِ . **وَقِيلَ** : ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴾ فِي شِدَّةٍ وَطَلَبِ مَعِيشَةٍ ، **وَقِيلَ** : فِي مَشَقَّةٍ . ﴿ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ﴾ **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : يَعْنِي : ﴿ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ﴾ يَأْخُذُ مَالَهُ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ابْنُ آدَمَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يُسْأَلَ عَنْ هَذَا الْمَالِ : مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟

وَأَيْنَ أَنْفَقَهُ ؟ **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ قَالَ : اللهُ ﷻ . ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا ﴾ أَيْ : يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : أَنْفَقْتُ مَالًا لُبَدًا ، أَيْ : كَثِيرًا . ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : أَيْ : أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ اللهُ ﷻ . ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴾ أَيْ : يُبْصِرُ بِهِمَا ، ﴿ وَلِسَانًا ﴾ أَيْ : يَنْطِقُ بِهِ ، فَيُعَبِّرُ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ يَسْتَعِينُ بِهِمَا عَلَى الْكَلَامِ وَأَكْلِ الطَّعَامِ ، وَجَمَالًا لِوَجْهِهِ وَفَمِهِ . ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ** ﷺ **قَالَ** : الْخَيْرُ وَالشَّرُّ .

فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ **قِيلَ** : عَقَبَةٌ فِي جَهَنَّمَ ، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ أَيْ : أَفَلَا سَلَكَ الطَّرِيقَ الَّتِي فِيهَا النَّجَاةُ وَالْخَيْرُ ، ثُمَّ بَيَّنَهَا فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ ﴾ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ إِرْبٍ مِنْهَا إِرْبًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُعْتِقُ بِالْيَدِ الْيَدَ ، وَبِالرِّجْلِ الرِّجْلَ ، وَبِالْفَرْجِ الْفَرْجَ** » . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾ **ذِي مَجَاعَةٍ** ، وَالسَّغَبُ : هُوَ الْجُوعُ . ﴿ يَتِيمًا ﴾ أَيْ : أَطْعِمْ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ يَتِيمًا ﴿ ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أَيْ : ذَا قَرَابَةٍ مِنْهُ . **عَنْ سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ** ﷺ **قَالَ** : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ ، صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ** » . ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أَيْ : فَقِيرًا مُدْقِعًا لَاصِقًا بِالتُّرَابِ ، وَهُوَ الدَّقْعَاءُ أَيْضًا . **قِيلَ** : هُوَ الَّذِي لَا أَحَدَ لَهُ . ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أَيْ : ثُمَّ هُوَ مَعَ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ الطَّاهِرَةِ ، مُؤْمِنٌ بِقَلْبِهِ ، مُحْتَسِبٌ ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ ﷻ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ أَيْ : كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْعَامِلِينَ صَالِحًا الْمُتَوَاصِينَ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَى النَّاسِ ، وَعَلَى الرَّحْمَةِ بِهِمْ . ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ أَيْ : الْمُتَصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ أَيْ : أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴾ أَيْ : مُطْبَقَةٌ عَلَيْهِمْ ، فَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا ، وَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا . ﴿ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴾ أَيْ : مُطْبَقَةٌ . أَيْ : مُغْلَقَةُ الْأَبْوَابِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَلَدِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالعِصْمَةُ

تفسير سورة الشمس — آياتها ١٥ — مكية

عِنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِمُعَاذٍ : ((**هَلَّا صَلَّيْتَ بِـ** ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ **وَ** ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ **وَ** ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ؟)) .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : أَيْ : وَضَوْئِهَا ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَضُحَىٰهَا ﴾ النَّهَارُ كُلُّهُ . ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ تَبِعَهَا . ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾ أَضَاءَ ، **وَقِيلَ** : إِذَا غَشِيَهَا . **وَقِيلَ** : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ يَعْنِي : إِذَا يَغْشَى الشَّمْسَ حِينَ تَغِيبُ ، فَتُظْلِمُ الْآفَاقُ . ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ ((مَا)) هٰهُنَا مَصْدَرِيَّةٌ ، بِمَعْنَى : وَالسَّمَاءِ وَبِنَائِهَا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى ((مَنْ)) يَعْنِي : وَالسَّمَاءِ وَبَانِيهَا ، وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ ، وَالْبِنَاءُ هُوَ الرَّفْعُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ **قِيلَ** : ﴿ طَحَىٰهَا ﴾ دَحَاهَا ، **وَقِيلَ** : ﴿ طَحَىٰهَا ﴾ أَيْ : خَلَقَ فِيهَا . **قَالَ الْأَكْثَرُونَ** : طَحَاهَا : بَسَطَهَا ، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ أَيْ : خَلَقَهَا سَوِيَّةً مُسْتَقِيمَةً عَلَى الْفِطْرَةِ الْقَوِيمَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ أَيْ : فَأَرْشَدَهَا إِلَى فُجُورِهَا وَتَقْوَاهَا ، أَيْ : بَيَّنَ لَهَا وَهَدَاهَا إِلَى مَا قَدَّرَ لَهَا . **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -** : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ بَيَّنَ لَهَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ . **وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : أَلْهَمَهَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ . وَإِنَّ رَجُلًا مِنْ مُزَيْنَةَ أَوْ جُهَيْنَةَ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ فِيهِ وَيَتَكَادَحُونَ ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ ، أَمْ شَيْءٌ مِمَّا يَسْتَقْبِلُونَ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ ﷺ وَأُكِّدَتْ بِهِ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ؟ قَالَ : ((**بَلْ شَيْءٌ قَدْ قُضِيَ عَلَيْهِمْ**)) قَالَ : فَفِيمَ نَعْمَلُ ؟ قَالَ : ((**مَنْ كَانَ اللهُ خَلَقَهُ لِإِحْدَى الْمَنْزِلَتَيْنِ يُهَيِّئُهُ لَهَا ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى** ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ ، أَيْ : بِطَاعَةِ اللهِ ، وَطَهَّرَهَا مِنَ الْأَخْلَاقِ الدَّنِيئَةِ وَالرَّذَائِلِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ أَيْ : دَسَّسَهَا ، أَيْ : أَخْمَلَهَا وَوَضَعَ مِنْهَا بِخِذْلَانِهِ إِيَّاهَا عَنِ الْهُدَى حَتَّى رَكِبَ الْمَعَاصِي وَتَرَكَ طَاعَةَ اللهِ ﷻ ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى اللهُ نَفْسَهُ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّى اللهُ نَفْسَهُ .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ثَمُودَ : أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ بِسَبَبِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالْبَغْيِ ، فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ تَكْذِيبًا فِي قُلُوبِهِمْ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُهُمْ مِنَ الْهُدَى وَالْيَقِينِ ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ أَيْ : أَشْقَى الْقَبِيلَةِ ، وَهُوَ « قِدَارُ بْنُ سَالِفٍ » عَاقِرُ النَّاقَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ يَعْنِي : صَالِحًا ﷺ : ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : احْذَرُوا نَاقَةَ اللهِ أَنْ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴿ وَسُقْيَٰهَا ﴾ أَيْ : لَا تَعْتَدُوا عَلَيْهَا فِي سُقْيَاهَا ، فَإِنَّ لَهَا شِرْبُ يَوْمٍ ، وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ . ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ أَيْ : كَذَّبُوهُ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ، فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ أَنْ عَقَرُوا النَّاقَةَ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللهُ مِنَ الصَّخْرَةِ آيَةً لَهُمْ وَحُجَّةً عَلَيْهِمْ ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ ﴾ أَيْ : غَضِبَ عَلَيْهِمْ ، فَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ ﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾ أَيْ : فَجَعَلَ الْعُقُوبَةَ نَازِلَةً عَلَيْهِمْ عَلَى السَّوَاءِ . ﴿ وَلَا يَخَافُ ﴾ وَقُرِئَ « فَلَا يَخَافُ » ﴿ عُقْبَٰهَا ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : لَا يَخَافُ اللهُ مِنْ أَحَدٍ تَبِعَةً .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الشَّمْسِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

تفسير سورة الليل

آياتها ٢١ مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾

أَقْسَمَ تَعَالَى بِاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ، أَيْ : إِذَا غَشِيَ الْخَلِيقَةَ بِظَلَامِهِ ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ أَيْ : بِضِيَائِهِ

وَإِشْرَاقِهِ ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [النبأ : ٨]، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : ٤٩] ، وَلَمَّا كَانَ الْقَسَمُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَضَادَّةِ كَانَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ أَيْضًا مُتَضَادًّا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ أَيْ : أَعْمَالُ الْعِبَادِ الَّتِي اِكْتَسَبُوهَا مُتَضَادَّةٌ أَيْضًا وَمُتَخَالِفَةٌ ، فَمِنْ فَاعِلٍ خَيْرًا وَمِنْ فَاعِلٍ شَرًّا . ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ أَيْ : أَعْطَى مَا أُمِرَ بِإِخْرَاجِهِ ، وَاتَّقَى اللهَ فِي أُمُورِهِ ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أَيْ : بِالْمُجَازَاةِ عَلَى ذَلِكَ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أَيْ : بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ . ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : لِلْخَيْرِ ، ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ ﴾ أَيْ : بِمَا عِنْدَهُ ﴿ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾ أَيْ : بَخِلَ بِمَالِهِ ، وَاسْتَغْنَى عَنْ رَبِّهِ ﷻ ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أَيْ : بِالْجَزَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ أَيْ : لِطَرِيقِ الشَّرِّ . **عَنْ عَلِيٍّ** رضي الله عنه **قَالَ** : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ فِي جِنَازَةٍ فَقَالَ : « **مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ** » ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أَفَلَا نَتَّكِلُ ؟ فَقَالَ : « **اِعْمَلُوا ، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ** » ثُمَّ قَرَأَ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ قِيلَ : إِذَا مَاتَ ، وَقِيلَ : إِذَا تَرَدَّى فِي النَّارِ .

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١

قَالَ قَتَادَةُ : ﴿ إِن عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ أَيْ : نُبَيِّنُ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ ، **وَقَالَ غَيْرُهُ** : مَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْهُدَى وَصَلَ إِلَى اللهِ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ مِلْكُنَا وَأَنَا الْمُتَصَرِّفُ ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ أَيْ : تَوَهَّجُ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴾ أَيْ : لَا يَدْخُلُهَا دُخُولًا يُحِيطُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ إِلَّا الْأَشْقَى ، **ثُمَّ فَسَّرَهُ فَقَالَ** : ﴿ ٱلَّذِى كَذَّبَ ﴾ أَيْ : بِقَلْبِهِ ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أَيْ : عَنِ الْعَمَلِ بِجَوَارِحِهِ وَأَرْكَانِهِ . ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ أَيْ : وَسَيُزَحْزَحُ عَنِ النَّارِ التَّقِيُّ النَّقِيُّ الْأَتْقَى ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ أَيْ : يَصْرِفُ مَالَهُ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ ، لِيُزَكِّيَ نَفْسَهُ وَمَالَهُ وَمَا وَهَبَهُ اللهُ مِنْ دِينٍ وَدُنْيَا ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴾ أَيْ : لَيْسَ بَذْلُهُ مَالَهُ فِي مُكَافَأَةِ مَنْ أَسْدَى إِلَيْهِ مَعْرُوفًا ، فَهُوَ يُعْطِي فِي مُقَابَلَةِ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا دَفَعَهُ ذَلِكَ ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أَيْ : طَمَعًا فِي أَنْ يَحْصُلَ لَهُ رُؤْيَتُهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ . ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ أَيْ : وَلَسَوْفَ يَرْضَى مَنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ اللَّيْلِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالعِصْمَةُ

آياتها ١١ تفسير سورة الضحى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾

عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ جُنْدُبًا يَقُولُ: اِشْتَكَى النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ، فَأَتَتِ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ؛ مَا أَرَى شَيْطَانَكَ إِلَّا قَدْ تَرَكَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ **قِيلَ**: إِنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ هِيَ أُمُّ جَمِيلٍ، اِمْرَأَةُ أَبِي لَهَبٍ.

وَهَذَا قَسَمٌ مِنْهُ تَعَالَى بِالضُّحَى وَمَا جَعَلَ فِيهِ مِنَ الضِّيَاءِ ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ أَيْ: سَكَنَ فَأَظْلَمَ وَادْلَهَمَّ. **وَقَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ أَيْ: مَا تَرَكَكَ ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ أَيْ: وَمَا أَبْغَضَكَ ﴿ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾، أَيْ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ؛ وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، وَأَعْظَمَهُمْ لَهَا إِطْرَاحًا، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِنْ سِيرَتِهِ، وَلَمَّا خُيِّرَ ﵇ فِي آخِرِ عُمُرِهِ بَيْنَ الْخُلْدِ فِي الدُّنْيَا إِلَى آخِرِهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ، وَبَيْنَ الصَّيْرُورَةِ إِلَى اللهِ ﷻ اِخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ عَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ. **وَقَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ أَيْ: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ يُعْطِيهِ حَتَّى يُرْضِيَهُ فِي أُمَّتِهِ، وَفِيمَا أَعَدَّهُ لَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ، وَمِنْ جُمْلَتِهِ نَهْرُ الْكَوْثَرِ الَّذِي حَافَّتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ الْمُجَوَّفِ، وَطِينُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى يُعَدِّدُ نِعَمَهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ أَبَاهُ تُوُفِّيَ وَهُوَ حَمْلٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، **وَقِيلَ**: بَعْدَ أَنْ وُلِدَ ﵇، ثُمَّ تُوُفِّيَتْ أُمُّهُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ سِتُّ سِنِينَ، ثُمَّ كَانَ فِي كَفَالَةِ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَمَانِ سِنِينَ، فَكَفَلَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَحُوطُهُ وَيَنْصُرُهُ وَيَرْفَعُ مِنْ قَدْرِهِ وَيُوَقِّرُهُ، وَيَكُفُّ عَنْهُ أَذَى قَوْمِهِ بَعْدَ أَنِ ابْتَعَثَهُ اللهُ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ عُمُرِهِ، هَذَا وَأَبُو طَالِبٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِقَدَرِ اللهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ، إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ أَبُو طَالِبٍ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِقَلِيلٍ، فَأَقْدَمَ عَلَيْهِ سُفَهَاءُ قُرَيْشٍ وَجُهَّالُهُمْ، فَاخْتَارَ اللهُ لَهُ الْهِجْرَةَ مِنْ بَيْنِ

أَظْهُرِهِمْ إِلَى بَلَدِ الْأَنْصَارِ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، كَمَا أَجْرَى اللهُ سُنَّتَهُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَتَمِّ الْأَكْمَلِ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ آوَوْهُ وَنَصَرُوهُ وَحَاطُوهُ وَقَاتَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ ﷺ أَجْمَعِينَ ، وَكُلُّ هَذَا مِنْ حِفْظِ اللهِ لَهُ وَكِلَاءَتِهِ وَعِنَايَتِهِ بِهِ . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ أَيْ : كُنْتَ فَقِيرًا ذَا عِيَالٍ فَأَغْنَاكَ اللهُ عَمَّنْ سِوَاهُ ، فَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ مَقَامَي الْفَقِيرِ الصَّابِرِ وَالْغَنِيِّ الشَّاكِرِ ﷺ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ أَيْ : كَمَا كُنْتَ يَتِيمًا فَآوَاكَ اللهُ فَلَا تَقْهَرِ الْيَتِيمَ ، أَيْ : لَا تُذِلُّهُ وَتَنْهَرْهُ وَتُهِنْهُ ، وَلَكِنْ أَحْسِنْ إِلَيْهِ ، وَتَلَطَّفْ بِهِ . ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ أَيْ : وَكَمَا كُنْتَ ضَالًّا فَهَدَاكَ اللهُ ، فَلَا تَنْهَرِ السَّائِلَ فِي الْعِلْمِ الْمُسْتَرْشِدَ . ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أَيْ : وَكَمَا كُنْتَ عَائِلًا فَقِيرًا فَأَغْنَاكَ اللهُ ، فَحَدِّثْ بِنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الضُّحى ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالعِصْمَةُ

آياتها ٨ — تَفْسِيرُ سُورَةِ الشَّرحِ — مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ يَعْنِي : أَمَا شَرَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ ، أَيْ : نَوَّرْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ فَسِيحًا رَحِيبًا وَاسِعًا ، ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ بِمَعْنَى : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢] ، ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ الْإِنْقَاضُ : الصَّوْتُ ، **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أَيْ : الَّذِي أَثْقَلَكَ حَمْلُهُ ، ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : رَفَعَ اللهُ ذِكْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَلَيْسَ خَطِيبٌ وَلَا مُتَشَهِّدٌ وَلَا صَاحِبُ صَلَاةٍ إِلَّا يُنَادِي بِهَا : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ** : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ سَأَلْتُهُ . قُلْتُ : قَدْ كَانَ قَبْلِي أَنْبِيَاءُ مِنْهُمْ مَنْ سُخِّرَتْ لَهُ الرِّيحُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيْتُكَ ؟ قُلْتُ** :

بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ : أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلًا فَأَغْنَيْتُكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ : أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ؟ أَلَمْ أَرْفَعْ لَكَ ذِكْرَكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ »).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُوجَدُ الْيُسْرُ ، ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا الْخَبَرَ . ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾ أَيْ : إِذَا فَرَغْتَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَأَشْغَالِهَا وَقَطَعْتَ عَلَائِقَهَا ، فَانْصَبْ إِلَى الْعِبَادَةِ ، وَقُمْ إِلَيْهَا نَشِيطًا فَارِغَ الْبَالِ ، وَأَخْلِصْ لِرَبِّكَ النِّيَّةَ وَالرَّغْبَةَ ، ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ قَالَ الثَّوْرِيُّ : اِجْعَلْ نِيَّتَكَ وَرَغْبَتَكَ إِلَى اللهِ ﷻ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ أَلَمْ نَشْرَحْ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

تفسيرُ سُورَةِ التين

آياتها ٨ — مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨

اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ هَهُنَا ، فَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالتِّينِ : مَسْجِدُ دِمَشْقَ ، وَقِيلَ : هِيَ نَفْسُهَا ، وَقِيلَ : الْجَبَلُ الَّذِي عِنْدَهَا ، وَقِيلَ : هُوَ تِينُكُمْ هَذَا ، ﴿ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ قِيلَ : هُوَ مَسْجِدُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَقِيلَ : هُوَ هَذَا الزَّيْتُونُ الَّذِي تَعْصِرُونَ . ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي كَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ مُوسَى عليه السلام ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ يَعْنِي : مَكَّةَ ، وَلَا خِلَافَ فِي ذَلِكَ . ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَشَكْلٍ ، مُنْتَصِبَ الْقَامَةِ ، سَوِيَّ الْأَعْضَاءِ حَسَنَهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ أَيْ : إِلَى النَّارِ ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الْحُسْنِ وَالنَّضَارَةِ مَصِيرُهُ إِلَى النَّارِ إِنْ لَمْ يُطِعِ اللهَ وَيَتَّبِعِ الرُّسُلَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أَيْ : غَيْرُ مَقْطُوعٍ . ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ أَيْ : يَا ابْنَ آدَمَ ﴿ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾ أَيْ : بِالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ وَقَدْ عَلِمْتَ الْبُدَاءَةَ ، وَعَرَفْتَ أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْبُدَاءَةِ ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الرَّجْعَةِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى ، فَأَيُّ شَيْءٍ يَحْمِلُكَ عَلَى التَّكْذِيبِ بِالْمَعَادِ وَقَدْ عَرَفْتَ هَذَا ؟ . ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ أَيْ : أَمَا هُوَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ الَّذِي لَا يَجُورُ وَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا ؟، وَمِنْ عَدْلِهِ أَنْ يُقِيمَ الْقِيَامَةَ فَيُنْصِفَ الْمَظْلُومَ فِي الدُّنْيَا مِمَّنْ ظَلَمَهُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ «التِّينِ وَالزَّيْتُونِ» ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

تفسير سورة « اقرأ » آياتها ١٩ مكية

وَهِيَ أَوَّلُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنَ القُرْآنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ : أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ ، فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءَ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى فَجَأَهُ الْوَحْيُ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ : اِقْرَأْ . قَالَ رَسُول الله ﷺ : « **فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ** ». **قَالَ : فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ : اِقْرَأْ . فَقُلْتُ** : « مَا أَنَا بِقَارِئٍ » ، **فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اِقْرَأْ . فَقُلْتُ** : « مَا أَنَا بِقَارِئٍ » ، **فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ** : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ **حَتَّى بَلَغَ** ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ قَالَ : فَرَجَعَ بِهَا تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ ، فَقَالَ : « **زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي** » فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ . فَقَالَ : « **يَا خَدِيجَةُ ؛ مَا لِي ؟** » فَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ وَقَالَ : « **قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي** » فَقَالَتْ لَهُ : كَلَّا ، أَبْشِرْ فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ، ثُمَّ اِنْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ - وَهُوَ اِبْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا - وَكَانَ اِمْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ ، وَكَتَبَ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ ، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ : أَيِ اِبْنَ عَمِّ اِسْمَعْ مِنِ اِبْنِ أَخِيكَ ، فَقَالَ وَرَقَةُ : اِبْنَ أَخِي مَا تَرَى ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِمَا رَأَى ، فَقَالَ وَرَقَةُ : هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ؟** » فَقَالَ وَرَقَةُ : نَعَمْ ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا . ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ ، وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ رَسُولُ الله ﷺ - فِيمَا بَلَغَنَا - حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ

يَتَرَدَّى مِنْ رُءُوسِ شَوَاهِقِ الجِبَالِ ، فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِي نَفْسَهُ مِنْهُ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا ، فَيَسْكُنُ بِذَلِكَ جَأْشُهُ وَتَقِرُّ نَفْسُهُ ، فَيَرْجِعُ فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ ، فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ الْجَبَلِ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ .

فَأَوَّلُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ الْمُبَارَكَاتُ وَهُنَّ أَوَّلُ رَحْمَةٍ رَحِمَ اللهُ بِهَا الْعِبَادَ ، وَأَوَّلُ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْهِمْ ، وَفِيهَا التَّنْبِيهُ عَلَى خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ عَلَقَةٍ ، وَأَنَّ مِنْ كَرَمِهِ تَعَالَى أَنْ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ، فَشَرَّفَهُ وَكَرَّمَهُ بِالْعِلْمِ ، وَهُوَ الْقَدْرُ الَّذِي امْتَازَ بِهِ أَبُو الْبَرِيَّةِ آدَمَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، وَالْعِلْمُ تَارَةً يَكُونُ فِي الْأَذْهَانِ ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي اللِّسَانِ ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي الْكِتَابَةِ بِالْبَنَانِ ، ذِهْنِيٌّ وَلَفْظِيٌّ وَرَسْمِيٌّ . وَالرَّسْمِيُّ يَسْتَلْزِمُهُمَا مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ ذُو فَرَحٍ وَأَشَرٍ وَبَطَرٍ وَطُغْيَانٍ ، إِذَا رَأَى نَفْسَهُ قَدِ اسْتَغْنَى وَكَثُرَ مَالُهُ ثُمَّ تَهَدَّدَهُ وَتَوَعَّدَهُ وَوَعَظَهُ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ أَيْ : إِلَى اللهِ الْمَصِيرِ وَالْمَرْجِعِ ، وَسَيُحَاسِبُكَ عَلَى مَالِكَ مِنْ أَيْنَ جَمَعْتَهُ وَفِيمَ صَرَفْتَهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ - لَعَنَهُ اللهُ - تَوَعَّدَ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى الصَّلَاةِ عِنْدَ الْبَيْتِ فَوَعَظَهُ اللهُ تَعَالَى بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَوَّلًا ، فَقَالَ : ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ أَيْ : فَمَا ظَنُّكَ إِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي تَنْهَاهُ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمَةِ فِي فِعْلِهِ ، ﴿ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴾ بِقَوْلِهِ ، وَأَنْتَ تَزْجُرُهُ وَتَتَوَعَّدُهُ عَلَى صَلَاتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ أَيْ : أَمَا عَلِمَ هَذَا النَّاهِي لِهَذَا الْمُهْتَدِي أَنَّ اللهَ يَرَاهُ وَيَسْمَعُ كَلَامَهُ وَسَيُجَازِيهِ عَلَى فِعْلِهِ أَتَمَّ الْجَزَاءِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا وَمُتَهَدِّدًا ﴿ كَلا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ أَيْ : لَئِنْ لَمْ يَرْجِعْ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الشِّقَاقِ وَالْعِنَادِ ﴿ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ أَيْ : لَنَسِمَنَّهَا سَوَادًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ يَعْنِي : نَاصِيَةُ أَبِي جَهْلٍ كَاذِبَةٌ فِي مَقَالِهَا ، خَاطِئَةٌ فِي أَفْعَالِهَا ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾ أَيْ : قَوْمَهُ وَعَشِيرَتَهُ ، أَيْ : لِيَدْعُهُمْ يَسْتَنْصِرُ بِهِمْ ، ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ ، وَهُمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ ، حَتَّى يَعْلَمَ مَنْ يَغْلِبُ :

أَحِزْبُنَا أَوْ حِزْبُهُ ؟. عَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ – رِضَيَ اللهُ عَنْهُمَا – قَالَ : قَالَ أَبُو جَهْل : لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ لَأَطَأَنَّ عَلَى عُنُقِهِ ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : ((لَئِنْ فَعَلَهُ لَأَخَذَتْهُ المَلَائِكَةُ)).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ ﴾ يَعْنِي : يَا مُحَمَّدُ لَا تُطِعْهُ فِيمَا يَنْهَاكَ عَنْهُ مِنَ الْمُدَاوَمَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَكَثْرَتِهَا ، وَصَلِّ حَيْثُ شِئْتَ وَلَا تُبَالِهِ ، فَإِنَّ اللهَ حَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ ، وَهُوَ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ((اِقْرَأْ)) ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

آياتها ٥ تفْسِيرُ سُورَةِ ((القَدْر)) مكيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ ، وَهِيَ اللَّيْلَةُ المُبَارَكَةُ الَّتِي قَالَ اللهُ ﷻ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان : ٣] ، وَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، وَهِيَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : أَنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ المَحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ نَزَلَ مُفَصَّلًا بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُعَظِّمًا لِشَأْنِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، الَّتِي اِخْتَصَّهَا بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِيهَا ، فَقَالَ : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ . أَيْ : أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ أَلْفِ شَهْرٍ – لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ – .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ أَيْ : يَكْثُرُ تَنَزُّلُ المَلَائِكَةِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ لِكَثْرَةِ بَرَكَتِهَا ، وَالمَلَائِكَةُ يَتَنَزَّلُونَ مَعَ تَنَزُّلِ الْبَرَكَةِ وَالرَّحْمَةِ ، كَمَا يَتَنَزَّلُونَ عِنْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَيُحِيطُونَ بِحِلَقِ الذِّكْرِ ، وَيَضَعُونَ أَجْنِحَتَهُمْ لِطَالِبِ الْعِلْمِ بِصِدْقٍ تَعْظِيمًا لَهُ ، وَأَمَّا الرُّوحُ فَقِيلَ : الْمُرَادُ بِهِ هَهُنَا : جِبْرِيلُ عليه السلام . ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ قِيلَ : سَلَامٌ هِيَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ، ﴿ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ عن الشَّعْبِيِّ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ قَالَ : تُسَلِّمُ المَلَائِكَةُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ عَلَى أَهْلِ المَسَاجِدِ ، حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ . وَقَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ سَلَـٰمٌ هِىَ ﴾ يَعْنِي : هِيَ خَيْرٌ كُلُّهَا ، لَيْسَ فِيهَا شَرٌّ إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقَدْرِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

آياتها ٨ تفسيرُ سُورَةِ « لم يكن » مدنيـة

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ : « إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ » قَالَ : وَسَمَّانِي لَكَ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » فَبَكَى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

أَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ فَهُمْ : الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، وَالْمُشْرِكُونَ : عَبَدَةُ الْأَوْثَانِ وَالنِّيرَانِ مِنَ الْعَرَبِ وَمِنَ الْعَجَمِ ، لَمْ يَكُونُوا ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ يَعْنِي : مُنْتَهِينَ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ أَيْ : هَذَا الْقُرْآنُ ، ثُمَّ فَسَّرَ الْبَيِّنَةَ بِقَوْلِهِ : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ ، وَمَا يَتْلُوهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ مُكْتَتَبٌ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى فِي صُحُفٍ مُطَهَّرَةٍ ، ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : أَيْ : فِي الصُّحُفِ الْمُطَهَّرَةِ كُتُبٌ مِنْ كُتُبِ اللهِ قَيِّمَةٌ ، عَادِلَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ ، لَيْسَ فِيهَا خَطَأٌ ؛ لِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ عز وجل ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٥] يَعْنِي : بِذَلِكَ أَهْلَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأُمَمِ قَبْلَنَا ، بَعْدَمَا أَقَامَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْحُجَجَ وَالْبَيِّنَاتِ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا فِي الَّذِي أَرَادَهُ اللهُ مِنْ كُتُبِهِمْ ، وَاخْتَلَفُوا اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ حُنَفَآءَ ﴾ أَيْ : مُتَحَنِّفِينَ عَنِ الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ الْحَنِيفِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا ﴿ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ، وَهِيَ أَشْرَفُ عِبَادَاتِ الْبَدَنِ ﴿ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ، وَهِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحَاوِيجِ ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ أَيْ : الْمِلَّةُ الْقَائِمَةُ الْعَادِلَةُ ، أَوِ الْأُمَّةُ الْمُسْتَقِيمَةُ الْمُعْتَدِلَةُ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَآلِ الْفُجَّارِ ، مِنْ كَفَرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَالْمُشْرِكِينَ الْمُخَالِفِينَ لِكُتُبِ اللهِ الْمُنَزَّلَةِ وَأَنْبِيَاءِ اللهِ الْمُرْسَلَةِ ؛ أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ لَا يُحَوَّلُونَ عَنْهَا وَلَا يَزُولُونَ . ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ أَيْ : شَرُّ الْخَلِيقَةِ الَّتِي بَرَأَهَا اللهُ وَذَرَأَهَا . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْأَبْرَارِ الَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِأَبْدَانِهِمْ بِأَنَّهُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ . ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أَيْ : بِلَا انْفِصَالٍ وَلَا انْقِضَاءٍ وَلَا فَرَاغٍ ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ وَمَقَامُ رِضَاهُ عَنْهُمْ أَعْلَى مِمَّا أُوتُوهُ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ ﴿ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ فِيمَا مَنَحَهُمْ مِنَ الْفَضْلِ الْعَمِيمِ . ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ أَيْ : هَذَا الْجَزَاءُ حَاصِلٌ لِمَنْ خَشِيَ اللهَ وَاتَّقَاهُ حَقَّ تَقْوَاهُ ، وَعَبَدَهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَرَهُ فَإِنَّهُ يَرَاهُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ((لَمْ يَكُنْ)) ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

آياتها ٨ — تفسيرُ سُورَةِ الزلزلة — مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ أَيْ : تَحَرَّكَتْ مِنْ أَسْفَلِهَا ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ يَعْنِي : أَلْقَتْ مَا فِيهَا مِنَ الْمَوْتَى . ﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾ أَيْ : اِسْتَنْكَرَ أَمْرَهَا بَعْدَمَا كَانَتْ قَارَّةً سَاكِنَةً ثَابِتَةً ، وَهُوَ مُسْتَقِرٌّ عَلَى ظَهْرِهَا ، أَيْ : تَقَلَّبَتِ الْحَالُ ، فَصَارَتْ مُتَحَرِّكَةً مُضْطَرِبَةً ، قَدْ جَاءَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى مَا قَدْ أَعَدَّهُ لَهَا مِنَ الزِّلْزَالِ الَّذِي لَا مَحِيدَ لَهَا عَنْهُ ، ثُمَّ أَلْقَتْ مَا فِي بَطْنِهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، وَحِينَئِذٍ اِسْتَنْكَرَ النَّاسُ أَمْرَهَا ، وَتَبَدَّلَتِ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ

وَالسَّمَاوَاتِ ، وَبَرَزُوا لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ أَيْ : تُحَدِّثُ بِمَا عَمِلَ الْعَامِلُونَ عَلَى ظَهْرِهَا . ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أَيْ : أَوْحَى إِلَيْهَا ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا مُضَمَّنٌ أَذِنَ لَهَا . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ **قَالَ** : قَالَ لَهَا رَبُّهَا : قُولِي ، فَقَالَتْ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أَيْ : أَمَرَهَا ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ أَيْ : يَرْجِعُونَ عَنْ مَوْقِفِ الْحِسَابِ ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ أَيْ : أَنْوَاعًا وَأَصْنَافًا ، مَا بَيْنَ شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ ، مَأْمُورٍ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَأْمُورٍ بِهِ إِلَى النَّارِ ، ﴿ لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ أَيْ : لِيَعْمَلُوا وَيُجَازَوْا بِمَا عَمِلُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « إِذَا زُلْزِلَتْ » وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ١١ تفسير سورة العاديات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

يُقْسِمُ تَعَالَى بِالْخَيْلِ إِذَا أُجْرِيَتْ فِي سَبِيلِهِ فَعَدَتْ وَضَبَحَتْ ، وَهُوَ : الصَّوْتُ الَّذِي يُسْمَعُ مِنَ الْفَرَسِ حِينَ تَعْدُو ﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴾ يعني : اصْطِكَاكُ نِعَالِهَا لِلصَّخْرِ فَتَقْدَحُ مِنْهُ النَّارُ ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ يَعْنِي : الْإِغَارَةُ وَقْتُ الصَّبَاحِ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُغِيرُ صَبَاحًا ، وَيَتَسَمَّعُ أَذَانًا فَإِنْ سَمِعَ وَإِلَّا أَغَارَ . ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ يَعْنِي : غُبَارًا فِي مَكَانِ مُعْتَرَكِ الْخُيُولِ ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ أَيْ : تَوَسَّطْنَ ذَلِكَ الْمَكَانَ كُلُّهُنَّ جَمْعٌ ، ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ يَعْنِي : إِغَارَةُ الْخَيْلِ صُبْحًا فِي سَبِيلِ اللهِ ، ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي إِذَا حَلَّتْ فِيهِ أَثَارَتْ بِهِ الْغُبَارُ ، إِمَّا فِي حَجٍّ أَوْ غَزْوٍ . ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ يَعْنِي : جَمْعُ الْكُفَّارِ مِنَ الْعَدُوِّ ، ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ ، بِمَعْنَى : أَنَّهُ بِنِعَمِ رَبِّهِ لَجَحُودٌ كَفُورٌ ، ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ وَإِنَّ اللهَ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ عَلَى الْإِنْسَانِ ، فَيَكُونُ تَقْدِيرُهُ : وَإِنَّ الْإِنْسَانَ عَلَى كَوْنِهِ كَنُودًا لَشَهِيدٌ ، أَيْ : بِلِسَانِ حَالِهِ ، أَيْ : ظَاهِرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَإِنَّهُۥ

لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ أَيْ : وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ - وَهُوَ الْمَالُ - لَشَدِيدٌ ، وَفِيهِ مَذْهَبَانِ : **أَحَدُهُمَا** : أَنَّ الْمَعْنَى وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ الْمَحَبَّةِ لِلْمَالِ ، **وَالثَّانِي** : وَإِنَّهُ لَحَرِيصٌ بَخِيلٌ مِنْ مَحَبَّةِ الْمَالِ ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ . ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُزَهِّدًا فِي الدُّنْيَا ، وَمُرَغِّبًا فِي الْآخِرَةِ ، وَمُنَبِّهًا عَلَى مَا هُوَ كَائِنٌ بَعْدَ هَذِهِ الْحَالِ ، وَمَا يَسْتَقْبِلُهُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْأَهْوَالِ ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ أَيْ : أُخْرِجَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **وَغَيْرُهُ** : يَعْنِي : أُبْرِزَ وَأُظْهِرَ مَا كَانُوا يُسِرُّونَ فِي نُفُوسِهِمْ ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ أَيْ : لَعَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَيَعْمَلُونَ ، وَمُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ ، وَلَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْعَادِيَاتِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

آياتها ١١ — تفسيرُ سُورةِ القارعة — مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَالْحَاقَّةِ ، وَالطَّامَّةِ ، وَالصَّاخَّةِ ، وَالْغَاشِيَةِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُعَظِّمًا وَمُهَوِّلًا لِشَأْنِهَا ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ ، ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ أَيْ : فِي انْتِشَارِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ ، وَذَهَابِهِمْ وَمَجِيئِهِمْ ، مِنْ حَيْرَتِهِمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، كَأَنَّهُمْ فَرَاشٌ مَبْثُوثٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر : ٧] **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ يَعْنِي : قَدْ صَارَتْ كَأَنَّهَا الصُّوفُ الْمَنْفُوشُ الَّذِي قَدْ شَرَعَ فِي الذَّهَابِ وَالتَّمَزُّقِ ، ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أَيْ : رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ يَعْنِي : فِي الْجَنَّةِ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أَيْ : رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ **قِيلَ** : مَعْنَاهُ فَهُوَ سَاقِطٌ هَاوٍ بِأُمِّ رَأْسِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِأُمِّهِ ، يَعْنِي : دِمَاغُهُ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : يَهْوِي فِي النَّارِ عَلَى رَأْسِهِ ، **وَقِيلَ** : مَعْنَاهُ ﴿ فَأُمُّهُۥ ﴾ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا وَيَصِيرُ فِي الْمَعَادِ إِلَيْهَا ﴿ هَاوِيَةٌ ﴾ وَهِيَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْهَاوِيَةِ

أُمُّهُ لأَنَّهُ لا مَأْوَى لَهُ غَيْرُهَا . ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ أَيْ : حَارَّةٌ شَدِيدَةُ الحَرِّ ، قَوِيَّةُ اللَّهَبِ وَالسَّعِيرِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقَارِعَةِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسِيرُ سُورَةِ التكاثر

آياتها ٨ — مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ
ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : أَشْغَلَكُمْ حُبُّ الدُّنْيَا وَنَعِيمُهَا وَزَهْرَتُهَا عَنْ طَلَبِ الْآخِرَةِ وَابْتِغَائِهَا ، وَتَمَادَى بِكُمْ ذَلِكَ حَتَّى جَاءَكُمُ الْمَوْتُ وَزُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ، وَصِرْتُمْ مِنْ أَهْلِهَا .

وَقَالَ الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ . **عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ** رضي الله عنه **قَالَ** : كُنَّا نَرَى هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ حَتَّى نَزَلَتْ ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ يَعْنِي : « **لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ** » .

﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ أَيْ : صِرْتُمْ إِلَيْهَا وَدُفِنْتُمْ فِيهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ **قَالَ الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : هَذَا وَعِيدٌ بَعْدَ وَعِيدٍ ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يَعْنِي : الْكُفَّارُ ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يَعْنِي : أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ أَيْ : لَوْ عَلِمْتُمْ حَقَّ الْعِلْمِ لَمَا أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ عَنْ طَلَبِ الدَّارِ الْآخِرَةِ حَتَّى صِرْتُمْ إِلَى الْمَقَابِرِ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ هَذَا تَفْسِيرُ الْوَعِيدِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تَوَعَّدَهُمْ بِهَذَا الحَالِ ، وَهُوَ رُؤْيَةُ أَهْلِ النَّارِ الَّتِي إِذَا زَفَرَتْ زَفْرَةً وَاحِدَةً خَرَّ كُلُّ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ ، وَنَبِيٍّ مُرْسَلٍ عَلَى رُكْبَتَيْهِ ، مِنَ الْمَهَابَةِ وَالْعَظَمَةِ وَمُعَايَنَةِ الْأَهْوَالِ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الْأَثَرُ الْمَرْوِيُّ فِي ذَلِكَ . ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أَيْ : ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ شُكْرِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ الصِّحَّةِ وَالْأَمْنِ وَالرِّزْقِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا إِذَا قَابَلْتُمْ بِهِ نِعْمَةً مِنْ شُكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ .

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : حَتَّى عَنْ شَرْبَةِ عَسَلٍ . **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : عَنْ كُلِّ لَذَّةٍ مِنْ لَذَّاتِ الدُّنْيَا .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّكَاثُرِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٣ تفسير سورة العصر مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣

الْعَصْرُ : الزَّمَانُ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ حَرَكَاتُ بَنِي آدَمَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ . فَأَقْسَمَ تَعَالَى بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، أَيْ : فِي خَسَارَةٍ وَهَلَاكٍ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ ، فَاسْتَثْنَى مِنْ جِنْسِ الْإِنْسَانِ عَنِ الْخُسْرَانِ ، الَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِجَوَارِحِهِمْ ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، وَهُوَ أَدَاءُ الطَّاعَاتِ ، وَتَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ عَلَى الْمَصَائِبِ وَالأَقْدَارِ ، وَأَذَى مَنْ يُؤْذِي مِمَّنْ يَأْمُرُونَهُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَهُ عَنِ الْمُنْكَرِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْعَصْرِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٩ تفسير سورة الهمزة مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩

الْهَمَّازُ : بِالْقَوْلِ ، وَاللَّمَّازُ : بِالْفِعْلِ ، يَعْنِي : يَزْدَرِي بِالنَّاسِ وَيَنْتَقِصُ بِهِمْ ، **وَقِيلَ** : ﴿ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ طَعَّانٌ مِعْيَابٌ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : هَمْزُهُ وَلَمْزُهُ بِلِسَانِهِ وَعَيْنِهِ ، وَيَأْكُلُ لُحُومَ النَّاسِ وَيَطْعَنُ عَلَيْهِمْ .

﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾ أَيْ : جَمَعَهُ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَأَحْصَى عَدَدَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾ أَيْ : يَظُنُّ أَنَّ جَمْعَهُ الْمَالَ يُخَلِّدُهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ ﴿ كَلَّا ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ وَلَا كَمَا حَسِبَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴾ أَيْ : لَيُلْقَيَنَّ هَذَا الَّذِي جَمَعَ مَالًا فَعَدَّدَهُ فِي الْحُطَمَةِ ، وَهِيَ اِسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ صِفَةٌ ؛ لِأَنَّهَا تُحَطِّمُ مَنْ فِيهَا ؛ **وَلِهَذَا**

قَالَ: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ﴾ قَالَ ثَابِتُ الْبُنَانِيُّ: تُحْرِقُهُمْ إِلَى الْأَفْئِدَةِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، ثُمَّ يَقُولُ: لَقَدْ بَلَغَ مِنْهُمُ الْعَذَابَ، ثُمَّ يَبْكِي. ﴿ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٌ ﴾ أَيْ: مُطْبَقَةٌ. ﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ ﴾ يَعْنِي: الْأَبْوَابُ هِيَ الْمَمْدُودَةُ، وَقِيلَ: إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ بِعَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ، وَقِيلَ: ﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ ﴾ يَعْنِي: الْقُيُودُ الطِّوَالُ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ» وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٥ تفسيرُ سورةِ الفيل مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِى تَضۡلِيلٍ ۝ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٍ مَّأۡكُولٍۭ ۝

هَذِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي اِمْتَنَّ اللهُ بِهَا عَلَى قُرَيْشٍ، فِيمَا صَرَفَ عَنْهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْفِيلِ، الَّذِينَ كَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى هَدْمِ الْكَعْبَةِ وَمَحْوِ أَثَرِهَا مِنَ الْوُجُودِ، فَأَبَادَهُمُ اللهُ، وَأَرْغَمَ آنَافَهُمْ، وَخَيَّبَ سَعْيَهُمْ، وَأَضَلَّ عَمَلَهُمْ، وَرَدَّهُمْ بِشَرِّ خَيْبَةٍ، وَكَانُوا قَوْمًا نَصَارَى، وَكَانَ دِينُهُمْ إِذْ ذَاكَ أَقْرَبُ حَالًا مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَلَكِنْ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْإِرْهَاصِ وَالتَّوْطِئَةِ لِمَبْعَثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِنَّهُ فِي ذَلِكَ الْعَامِ وُلِدَ عَلَى أَشْهَرِ الْأَقْوَالِ، وَلِسَانِ حَالِ الْقُدْرَةِ يَقُولُ: لَمْ نَنْصُرْكُمْ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ عَلَى الْحَبَشَةِ لِخَيْرِيَّتِكُمْ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ صِيَانَةً لِلْبَيْتِ الْعَتِيقِ، الَّذِي سَنُشَرِّفُهُ وَنُعَظِّمُهُ وَنُوَقِّرُهُ بِبَعْثَةِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ.

قَالَ اِبْنُ هِشَامٍ: الْأَبَابِيلُ: الْجَمَاعَاتُ، وَأَمَّا السِّجِّيلُ: الشَّدِيدُ الصُّلْبُ، وَقِيلَ: أَبَابِيلُ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَقِيلَ: الْأَبَابِيلُ: الْكَثِيرَةُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَبَابِيلُ: شَتَّى مُتَتَابِعَةٌ مُجْتَمِعَةٌ، وَقِيلَ: الْأَبَابِيلُ: الْمُخْتَلِفَةُ، تَأْتِي مِنْ هَهُنَا وَمِنْ هَهُنَا، أَتَتْهُمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ. عَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ﴿ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ﴾ قَالَ: لَهَا خَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ الطَّيْرِ، وَأَكُفٌّ كَأَكُفِّ الْكِلَابِ.

﴿ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ طِينٍ فِي حِجَارَةٍ، وَقَدْ قَدَّمْنَا بَيَانَ ذَلِكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٍ مَّأۡكُولٍۭ ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَعْنِي: التِّبْنَ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ: هَبُورٌ، وَالْمَأْكُولُ: الْقَصِيلُ يُجَزُّ لِلدَّوَابِّ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَهْلَكَهُمْ وَدَمَّرَهُمْ وَرَدَّهُمْ بِكَيْدِهِمْ وَغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَأَهْلَكَ عَامَّتَهُمْ وَلَمْ يَرْجِعْ مِنْهُمْ مُخْبِرٌ إِلَّا

وَهُوَ جَرِيحٌ ، كَمَا جَرَى لِمَلِكِهِمْ أَبْرَهَةَ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ : « إِنَّ اللهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّهُ قَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ ، أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ».

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفِيلِ ، وَلله الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

تَفْسِيرُ سُورَةِ قُرَيْشٍ

آياتها ٤ — مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

هَذِهِ السُّورَةُ مَفْصُولَةٌ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا فِي الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ ، كَتَبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرَ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وَإِنْ كَانَتْ مُتَعَلِّقَةً بِمَا قَبْلَهَا ؛ لأَنَّ الْمَعْنَى عِنْدَهُمَا : حَبَسْنَا عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ وَأَهْلَكْنَا أَهْلَهُ ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ أَيْ : لِائْتِلَافِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ فِي بَلَدِهِمْ آمِنِينَ .

وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ مَا كَانُوا يَأْلَفُونَهُ مِنَ الرِّحْلَةِ فِي الشِّتَاءِ إِلَى الْيَمَنِ ، وَفِي الصَّيْفِ إِلَى الشَّامِ فِي الْمَتَاجِرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى بَلَدِهِمْ آمِنِينَ فِي أَسْفَارِهِمْ ، لِعَظَمَتِهِمْ عِنْدَ النَّاسِ ، لِكَوْنِهِمْ سُكَّانُ حَرَمِ الله ، فَمَنْ عَرَفَهُمْ احْتَرَمَهُمْ ، بَلْ مَنْ صُوفِيَ إِلَيْهِمْ وَسَارَ مَعَهُمْ أَمِنَ بِهِمْ ، هَذَا حَالُهُمْ فِي أَسْفَارِهِمْ وَرِحْلَتِهِمْ فِي شِتَائِهِمْ وَصَيْفِهِمْ ، وَأَمَّا فِي حَالِ إِقَامَتِهِمْ فِي الْبَلَدِ فَكَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ٦٧] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ ﴾ بَدَلٌ مِنَ الْأَوَّلِ وَمُفَسِّرٌ لَهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : الصَّوَابُ أَنَّ اللَّامَ لَامُ التَّعَجُّبِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : اعْجَبُوا لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ وَنِعْمَتِي عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ . قَالَ : وَذَلِكَ لِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّهُمَا سُورَتَانِ مُنْفَصِلَتَانِ مُسْتَقِلَّتَانِ . ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى شُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ فَقَالَ : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ أَيْ : فَلْيُوَحِّدُوهُ بِالْعِبَادَةِ ، كَمَا جَعَلَ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا وَبَيْتًا مُحَرَّمًا ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ أَيْ : هُوَ رَبُّ الْبَيْتِ ، وَهُوَ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ أَيْ : تَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِالْأَمْنِ وَالرُّخْصِ ، فَلْيُفْرِدُوهُ بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا يَعْبُدُوا مِنْ دُونِهِ صَنَمًا وَلَا نِدًّا وَلَا وَثَنًا ؛ وَلِهَذَا مَنِ اسْتَجَابَ لِهَذَا الْأَمْرِ جَمَعَ اللهُ لَهُ بَيْنَ أَمْنِ الدُّنْيَا وَأَمْنِ

الْآخِرَةِ ، وَمَنْ عَصَاهُ سَلَبَهُمَا مِنْهُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ((لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ)) ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

آياتها ٧ تفسير سورة الماعون مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَرَءَيْتَ ﴾ - يَا مُحَمَّدُ - ﴿ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾ وَهُوَ المَعَادُ وَالجَزَاءُ وَالثَّوَابُ ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ أَيْ : هُوَ الَّذِي يَقْهَرُ الْيَتِيمَ وَيَظْلِمُهُ حَقَّهُ ، وَلَا يُطْعِمُهُ وَلَا يُحْسِنُ إِلَيْهِ ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الفجر : ١٧ - ١٨] يَعْنِي : الْفَقِيرُ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ يَقُومُ بِأَوَدِهِ وَكِفَايَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: يَعْنِي : الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ فِي الْعَلَانِيَةِ وَلَا يُصَلُّونَ فِي السِّرِّ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ وَقَدِ الْتَزَمُوا بِهَا ، ثُمَّ هُمْ عَنْهَا سَاهُونَ ، إِمَّا عَنْ فِعْلِهَا بِالْكُلِّيَّةِ ، وَإِمَّا عَنْ فِعْلِهَا فِي الْوَقْتِ الْمُقَدَّرِ لَهَا شَرْعًا ، فَيُخْرِجُهَا عَنْ وَقْتِهَا بِالْكُلِّيَّةِ . **وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ دِينَارٍ** : الحَمْدُ للهِ الَّذِي قَالَ : ﴿ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ .

وَإِمَّا عَنْ وَقْتِهَا الْأَوَّلِ فَيُؤَخِّرُونَهَا إِلَى آخِرِهِ دَائِمًا أَوْ غَالِبًا ، وَإِمَّا عَنْ أَدَائِهَا بِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ . وَإِمَّا عَنِ الْخُشُوعِ فِيهَا وَالتَّدَبُّرِ لِمَعَانِيهَا ، فَاللَّفْظُ يَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ ، لِكُلِّ مَنِ اتَّصَفَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ قِسْطٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ . وَمَنِ اتَّصَفَ بِجَمِيعِ ذَلِكَ فَقَدْ تَمَّ نَصِيبُهُ مِنْهَا ، وَكَمُلَ لَهُ النِّفَاقُ الْعَمَلِيُّ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ ، قَامَ فَنَقَرَ أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا**)).

فَهَذَا آخِرُ صَلاَةِ الْعَصْرِ الَّتِي هِيَ الْوُسْطَى ، كَمَا ثَبَتَ بِهِ النَّصُّ إِلَى آخِرِ وَقْتِهَا ، وَهُوَ وَقْتُ كَرَاهَةٍ ، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا فَنَقَرَهَا نَقْرَ الْغُرَابِ ، لَمْ يَطْمَئِنَّ وَلاَ خَشَعَ فِيهَا أَيْضًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ : « **لاَ يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا** » وَلَعَلَّهُ إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى الْقِيَامِ إِلَيْهَا مُرَاءَاةُ النَّاسِ ، لاَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ، فَهُوَ كَمَا إِذَا لَمْ يُصَلِّ بِالْكُلِّيَّةِ ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ أَنَّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا للهِ فَاطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ ، فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ أَنَّ هَذَا لاَ يُعَدُّ رِيَاءً . ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ أَيْ : لاَ أَحْسَنُوا عِبَادَةَ رَبِّهِمْ ، وَلاَ أَحْسَنُوا إِلَى خَلْقِهِ حَتَّى وَلاَ بِإِعَارَةِ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ وَيُسْتَعَانُ بِهِ ، مَعَ بَقَاءِ عَيْنِهِ وَرُجُوعِهِ إِلَيْهِمْ ، فَهَؤُلاَءِ لِمَنْعِ الزَّكَاةِ وَأَنْوَاعِ الْقُرُبَاتِ أَوْلَى وَأَوْلَى . أَمَّا الْمَاعُونُ فَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ : الزَّكَاةُ . وَقِيلَ : هُوَ مَا يَتَعَاوَرُهُ النَّاسُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْفَأْسِ وَالْقِدْرِ . وَقِيلَ : ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ يَعْنِي : مَتَاعَ الْبَيْتِ . فَإِنَّهُ يَشْمَلُ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا ، تَرْجِعُ كُلُّهَا إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ هُوَ تَرْكُ الْمُعَاوَنَةِ بِمَالٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « **كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ** » .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمَاعُونِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

آياتها ٣ — تَفْسِيرُ سُورَةِ الْكَوْثَر — مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

قَدْ وَرَدَ فِي صِفَةِ الْحَوْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ نَهَرِ الْكَوْثَرِ ، وَأَنَّ عَلَيْهِ آنِيَةً عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ ، عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فِي الْمَسْجِدِ إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا ، قُلْنَا : مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « **أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ** » فَقَرَأَ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ : « **أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ** » ؟ قُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « **فَإِنَّهُ نَهَرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي** ﷻ **عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ ، وَهُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ ، فَأَقُولُ : رَبِّ ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي ، فَيَقُولُ : إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثَ بَعْدَكَ** » . **فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ نَهَرٌ فِي الْجَنَّةِ . وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أُعْطِيتُ الْكَوْثَرَ ، فَإِذَا هُوَ نَهَرٌ يَجْرِي ، وَلَمْ يُشَقَّ شَقًّا ، وَإِذَا حَافَّتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ ، فَضَرَبْتُ بِيَدِي فِي تُرْبَتِهِ ،**

فَإِذَا مِسْكَةٌ ذَفِرَةٌ وَإِذَا حَصْبَاؤُهُ اللُّؤْلُؤُ ». وَقَوْلُهُ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ أَيْ : كَمَا أَعْطَيْنَاكَ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمِنْ ذَلِكَ النَّهَرُ الَّذِي تَقَدَّمَ صِفَتُهُ ، فَأَخْلِصْ لِرَبِّكَ صَلَاتَكَ الْمَكْتُوبَةَ وَالنَّافِلَةَ وَنَحْرَكَ ، فَاعْبُدْهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَانْحَرْ عَلَى اسْمِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ؛ وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي يَوْمَ الْعِيدِ ثُمَّ يَنْحَرُ نُسُكَهُ وَيَقُولُ : « مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَنَسَكَ نُسُكَنَا ، فَقَدْ أَصَابَ النُّسُكَ ، وَمَنْ نَسَكَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلَا نُسُكَ لَهُ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ أَيْ : إِنَّ مُبْغِضَكَ - يَا مُحَمَّدُ - وَمُبْغِضَ مَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ السَّاطِعِ وَالنُّورِ الْمُبِينِ ، هُوَ الْأَبْتَرُ الْأَقَلُّ الْأَذَلُّ الْمُنْقَطِعُ ذِكْرُهُ .

فَالْأَبْتَرُ الَّذِي إِذَا مَاتَ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ ، فَتَوَهَّمُوا لِجَهْلِهِمْ أَنَّهُ إِذَا مَاتَ بَنُوهُ يَنْقَطِعُ ذِكْرُهُ ، وَحَاشَا وَكَلَّا ، بَلْ قَدْ أَبْقَى اللهُ ذِكْرَهُ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ، وَأَوْجَبَ شَرْعَهُ عَلَى رِقَابِ الْعِبَادِ ، مُسْتَمِرًّا عَلَى دَوَامِ الْآبَادِ ، إِلَى يَوْمِ الْمَحْشَرِ وَالْمَعَادِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْكَوْثَرِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

آياتها ٦ — تفسير سورة الكافرون — مكية

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ بِهَذِهِ السُّورَةِ وبـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فِي رَكْعَتَيِ الطَّوَافِ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ بِهِمَا فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ. وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ فِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ وَالرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ بِضْعًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً أَوْ بِضْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ وَ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

هَذِهِ السُّورَةُ سُورَةُ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْعَمَلِ الَّذِي يَعْمَلُهُ الْمُشْرِكُونَ ، وَهِيَ آمِرَةٌ بِالْإِخْلَاصِ فِيهِ .

فَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ يَشْمَلُ كُلَّ كَافِرٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، وَلَكِنِ الْمُوَاجَهُونَ بِهَذَا الْخِطَابِ هُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ . وَقِيلَ : إِنَّهُمْ مِنْ جَهْلِهِمْ دَعَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ إِلَى عِبَادَةِ أَوْثَانِهِمْ سَنَةً وَيَعْبُدُونَ مَعْبُودَهُ سَنَةً ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ وَأَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ فِيهَا أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ دِينِهِمْ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَقَالَ : ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾

وَهُوَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . فَـ ((مَا)) هَهُنَا بِمَعْنَى ((مَنْ)) .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَآ أَنَاْ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ أَيْ : وَلَا أَعْبُدُ عِبَادَتَكُمْ ، أَيْ : لَا أَسْلُكُهَا وَلَا أَقْتَدِي بِهَا ، وَإِنَّمَا أَعْبُدُ اللهَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ أَيْ : لَا تَقْتَدُونَ بِأَوَامِرِ اللهِ وَشَرْعِهِ فِي عِبَادَتِهِ ، بَلْ قَدِ اخْتَرَعْتُمْ شَيْئًا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّ الْعَابِدَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَعْبُودٍ يَعْبُدُهُ ، وَعِبَادَةٌ يَسْلُكُهَا إِلَيْهِ ، فَالرَّسُولُ ﷺ وَأَتْبَاعُهُ يَعْبُدُونَ اللهَ بِمَا شَرَعَهُ ، وَلِهَذَا كَانَ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ ((لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ)) أَيْ : لَا مَعْبُودَ إِلَّا اللهَ وَلَا طَرِيقَ إِلَيْهِ إِلَّا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ ، وَالْمُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللهِ عِبَادَةً لَمْ يَأْذَنْ بِهَا اللهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ ، **وَقَالَ الْبُخَارِيُّ** : يُقَالُ : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ الْكُفْرُ ﴿ وَلِىَ دِينِ ﴾ الْإِسْلَامُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ((قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ)) ، وَلله الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

آياتها ٣ تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّصْرِ مدنية

عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ ؛ قَالَ : **قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ** : يَا ابْنَ عُتْبَةَ ، أَتَعْلَمُ آخِرَ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ نَزَلَتْ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ قَالَ : صَدَقْتَ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ ، فَقَالَ : لِمَ يَدْخُلُ هَذَا مَعَنَا ، وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ ؟ فَقَالَ عُمَرُ : إِنَّهُ مِمَّنْ عَلِمْتُمْ ، فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَنِي مَعَهُمْ ، فَمَا رَأَيْتُ أَنَّهُ دَعَانِي فِيهِمْ يَوْمِئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ ، فَقَالَ : مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ ﷻ : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نَصَرَنَا وَفَتَحَ عَلَيْنَا ، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ، فَقَالَ لِي : أَكَذَلِكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ؟ فَقُلْتُ : لَا . فَقَالَ : مَا تَقُولُ ؟ فَقُلْتُ : هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ لَهُ ، قَالَ : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ فَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ قَالَ عُمَرُ بْنُ

الْخَطَّابِ : لَا أَعْلَمُ مِنهَا إِلَّا مَا تَقُولُ .وَعَنْ عَائِشَةَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ فِي آخِرِ أَمْرِهِ مِنْ قَوْلِ : « سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ » وَقَالَ : « إِنَّ رَبِّي كَانَ أَخْبَرَنِي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي ، وَأَمَرَنِي إِذَا رَأَيْتُهَا أَنْ أُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ وَأَسْتَغْفِرَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ، فَقَدْ رَأَيْتُهَا ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ . وَالْمُرَادُ بِالْفَتْحِ هَهُنَا فَتْحُ مَكَّةَ قَوْلًا وَاحِدًا ، فَإِنَّ أَحْيَاءَ الْعَرَبِ كَانَتْ تَتَلَوَّمُ بِإِسْلَامِهَا فَتْحَ مَكَّةَ يَقُولُونَ : إِنْ ظَهَرَ عَلَى قَوْمِهِ فَهُوَ نَبِيٌّ ، فَلَمَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ، فَلَمْ تَمْضِ سَنَتَانِ حَتَّى اِسْتَوْسَقَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ إِيمَانًا ، وَلَمْ يَبْقَ فِي سَائِرِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ إِلَّا مُظْهِرٌ لِلْإِسْلَامِ ، وَلِلهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّصْرِ ، وَلِلهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالعِصْمَةُ

آياتها ٥ — تفسير سورة المسد — مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝

عَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْبَطْحَاءِ فَصَعِدَ الْجَبَلَ فَنَادَى : « يَا صَبَاحَاهُ » فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ فَقَالَ : « أَرَأَيْتُمْ إِنْ حَدَّثْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُصَبِّحُكُمْ أَوْ مُمَسِّيكُمْ ، أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي ؟ » قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ : أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا ؟ تَبًّا لَكَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ... ﴾ إِلَى آخِرِهَا . وَفِي رِوَايَةٍ : فَقَامَ يَنْفُضُ يَدَيْهِ ، وَهُوَ يَقُولُ : تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ الْأَوَّلُ دُعَاءٌ عَلَيْهِ ، وَالثَّانِي خَبَرٌ عَنْهُ ، فَأَبُو لَهَبٍ هَذَا هُوَ أَحَدُ أَعْمَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَاسْمُهُ عَبْدُ الْعُزَّى بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَكُنْيَتُهُ أَبُو عُتَيْبَةَ وَإِنَّمَا سُمِّيَ « أَبَا لَهَبٍ » لِإِشْرَاقِ وَجْهِهِ ، وَكَانَ كَثِيرُ الْأَذِيَّةِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَالْبِغْضَةِ لَهُ ، وَالِازْدِرَاءِ بِهِ ، وَالتَّنَقُّصِ لَهُ وَلِدِينِهِ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ أَيْ : خَسِرَتْ وَخَابَتْ ، وَضَلَّ عَمَلُهُ وَسَعْيُهُ ﴿ وَتَبَّ ﴾ أَيْ : وَقَدْ تَبَّ تَحَقَّقَ خَسَارَتُهُ وَهَلَاكُهُ . ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ يعني : وَلَدَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أَيْ : ذَاتَ شَرَرٍ وَلَهِيبٍ وَإِحْرَاقٍ شَدِيدٍ ، ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ

ٱلۡحَطَبِ ﴾ وكَانَتْ زَوْجَتُهُ مِنْ سَادَاتِ نِسَاءِ قُرَيْشٍ ، وَهِيَ : أُمُّ جَمِيل ، وَاسْمُهَا : أَرْوَى بِنْتُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ ، وَهِيَ أُخْتُ أَبِي سُفْيَانَ ، وَكَانَتْ عَوْنًا لِزَوْجِهَا عَلَى كُفْرِهِ وَجُحُودِهِ وَعِنَادِهِ ، فَلِهَذَا تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَوْنًا عَلَيْهِ فِي عَذَابِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ يَعْنِي : تَحْمِلُ الحَطَبَ فَتُلْقِي عَلَى زَوْجِهَا ، لِيَزْدَادَ عَلَى مَا هُوَ فِيهِ ، وَهِيَ مُهَيَّأَةٌ لِذَلِكَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ . ﴿ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ مِنْ مَسَدِ النَّارِ ، وَقِيلَ : ﴿ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴾ كَانَتْ تَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ ، وَقِيلَ : كَانَتْ تَضَعُ الشَّوْكَ فِي طَرِيقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ . وَقِيلَ : كَانَتْ لَهَا قِلَادَةٌ فَاخِرَةٌ ، فَقَالَتْ : لَأُنْفِقَنَّهَا فِي عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ ، يَعْنِي فَأَعْقَبَهَا اللهُ مِنْهَا حَبْلًا فِي جِيدِهَا مِنْ مَسَدِ النَّارِ ، وَقِيلَ : المَسَدُ : اللِّيفُ ، وَقِيلَ : المَسَدُ : سِلْسِلَةٌ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ، وَعَنِ الثَّوْرِيِّ : هُوَ قِلَادَةٌ مِنْ نَارٍ ، طُولُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا .

قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ مُعْجِزَةٌ ظَاهِرَةٌ وَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى النُّبُوَّةِ ، فَإِنَّهُ مُنْذُ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ فَأَخْبَرَ عَنْهُمَا بِالشَّقَاءِ وَعَدَمِ الإِيمَانِ ، لَمْ يُقَيِّضْ لَهُمَا أَنْ يُؤْمِنَا وَلَا وَاحِدٌ مِنْهُمَا ، لَا بَاطِنًا وَلَا ظَاهِرًا ، لَا مُسِرًّا وَلَا مُعْلِنًا ، فَكَانَ هَذَا مِنْ أَقْوَى الأَدِلَّةِ الْبَاهِرَةِ الْبَاطِنَةِ عَلَى النُّبُوَّةِ الظَّاهِرَةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ المَسَدِ ، وَلله الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالعِصْمَةُ

آياتها ٤ — تفسير سورة الإخلاص — مكية

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِـ ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : ((سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ ؟)) فَسَأَلُوهُ ، فَقَالَ : لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّهُ)) . وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ ؛ أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ : ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يُرَدِّدُهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ)) . وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ : ((أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ ؟)) فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا : أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ فَقَالَ : ((اللهُ الوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ)).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((احْشُدُوا فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ)) فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ فَقَرَأَ : ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثُمَّ دَخَلَ ، فَقَالَ بَعْضُنَا

لِبَعْضٍ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ** » إِنِّي لأَرَى هَذَا خَبَرًا جَاءَ مِنَ السَّمَاءِ ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « **إِنِّي قُلْتُ : سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ، أَلَا وَإِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ** » . وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَبِيبٍ عَنْ أَبِيهِ ؛ قَالَ : أَصَابَنَا عَطَشٌ وَظُلْمَةٌ ، فَانْتَظَرْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِنَا ، فَخَرَجَ فَأَخَذَ بِيَدَيَّ فَقَالَ : « **قُلْ** » فَسَكَتَ ، قَالَ : « **قُلْ** » قُلْتُ : مَا أَقُولُ ؟ قَالَ : « ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ **وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثًا ، تَكْفِيكَ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ** » . وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا آوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا وَقَرَأَ فِيهِمَا ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وَ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ وَ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ ، وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

يَعْنِي : هُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ ، الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا وَزِيرَ ، وَلَا نَدِيدَ وَلَا شَبِيهَ وَلَا عَدِيلَ ، وَلَا يُطْلَقُ هَذَا اللَّفْظُ عَلَى أَحَدٍ فِي الْإِثْبَاتِ إِلَّا عَلَى اللهِ ﷻ لِأَنَّهُ الْكَامِلُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي مَعْنَاهَا** : يَعْنِي الَّذِي يَصْمُدُ إِلَيْهِ الْخَلَائِقُ فِي حَوَائِجِهِمْ وَمَسَائِلِهِمْ ، **وَقَالَ عُلَمَاءُ آخَرُونَ** : هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي سُؤْدُدِهِ ، وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي شَرَفِهِ ، وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عَظَمَتِهِ ، وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِلْمِهِ ، وَالْعَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عِلْمِهِ ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِكْمَتِهِ ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدُدِ ، وَهُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ ، هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ ، لَيْسَ لَهُ كُفْءٌ ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، سُبْحَانَ اللهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . **وَقِيلَ** : هُوَ الْبَاقِي بَعْدَ خَلْقِهِ ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهُ ، **وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ** : هُوَ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، كَأَنَّهُ جَعَلَ مَا بَعْدَهُ تَفْسِيرًا لَهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وَهُوَ تَفْسِيرٌ جَيِّدٌ ، **وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ . **وَقَدْ قَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ فِي كِتَابِ السُّنَّةِ لَهُ** بَعْدَ إِيرَادِهِ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ فِي تَفْسِيرِ ﴿ الصَّمَدُ ﴾ وَكُلُّ هَذِهِ صَحِيحَةٌ ، وَهِيَ صِفَاتُ رَبِّنَا ﷻ هُوَ الَّذِي يُصْمَدُ إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ ، وَهُوَ الَّذِي قَدِ انْتَهَى سُؤْدُدُهُ ، وَهُوَ الصَّمَدُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ وَلَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ ، وَهُوَ الْبَاقِي بَعْدَ خَلْقِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ وَلَا صَاحِبَةٌ . **قَالَ مُجَاهِدٌ** :

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ يَعْنِي : لَا صَاحِبَةَ لَهُ ، أَيْ : هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ نَظِيرٌ يُسَامِيهِ ، أَوْ قَرِيبٌ يُدَانِيهِ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

تفسيرُ سُورَةِ الفَلَق

آياتها ٥ — مكية

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ ؛ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ** ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ وَ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ » .

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ ؛ قَالَ : بَيْنَا أَنَا أَقُودُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي نَقَبٍ مِنْ تِلْكَ النِّقَابِ ، إِذْ قَالَ لِي : « **يَا عُقْبَةُ ، أَلَا تَرْكَبُ ؟** » قَالَ فَأَجْلَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ أَرْكَبَ مَرْكَبَهُ . ثُمَّ قَالَ : « **يَاعُقَيْبُ ، أَلَا تَرْكَبُ ؟** » قَالَ : فَأَشْفَقْتُ أَنْ تَكُونَ مَعْصِيَةً ، قَالَ : فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَكِبْتُ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ رَكِبَ ، ثُمَّ قَالَ : « **يَا عُقَيْبُ أَلَا أُعَلِّمكَ سُورَتَيْنِ مِنْ خَيْرِ سُورَتَيْنِ قَرَأَ بِهِمَا النَّاسُ ؟** » قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ؛ فَأَقْرَأَنِي ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ وَ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ثُمَّ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ ، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَرَأَ بِهِمَا ، ثُمَّ مَرَّ بِي فَقَالَ : « **كَيْفَ رَأَيْتَ يَا عُقَيْبُ ؛ اِقْرَأْ بِهِمَا كُلَّمَا نِمْتَ وَكُلَّمَا قُمْتَ** » .

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ ؛ قَالَ : أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَقْرَأَ بِالْمُعَوِّذَاتِ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ .

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ . وَيَنْفُثُ ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ ، وَأَمْسَحُ بِيَدِهِ عَلَيْهِ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ ٱلْفَلَقِ ﴾ الصُّبْحُ . وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ [الأنعام : ٩٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أَيْ : مِنْ شَرِّ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ . ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ قِيلَ : غَاسِقُ اللَّيْلِ إِذَا وَقَبَ غُرُوبُ الشَّمْسِ ، **وَقَالَ الزُّهْرِيُّ** : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ الشَّمْسُ إِذَا غَرَبَتْ . قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِي فَأَرَانِي الْقَمَرَ حِينَ طَلَعَ ، وَقَالَ : « **تَعَوَّذِي بِاللهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الْغَاسِقِ إِذَا وَقَبَ** » . وَفِي رِوَايَةٍ : « **تَعَوَّذِي بِاللهِ**

مِنْ شَرِّ هَذَا فَإِنَّ هَذَا الْغَاسِقَ إِذَا وَقَبَ » **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ يَعْنِي : السَّوَاحِرُ إِذَا رَقَيْنَ وَنَفَثْنَ فِي الْعُقَدِ . فِي الْحَدِيثِ أَنَّ جِبْرِيلَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : اِشْتَكَيْتُ يَا مُحَمَّدُ ؟ فَقَالَ : « **نَعَمْ ، فَقَالَ : بِسْمِ اللهِ ، أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ دَاءٍ يُؤْذِيكَ ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ حَاسِدٍ وَعَيْنٍ ، اللهُ يَشْفِيكَ** » ، وَلَعَلَّ هَذَا كَانَ مِنْ شَكْوَاهُ عليه السلام حِينَ سُحِرَ ، ثُمَّ عَافَاهُ اللهُ تَعَالَى وَشَفَاهُ ، وَرَدَّ كَيْدَ السَّحَرَةِ الْحُسَّادِ مِنَ الْيَهُودِ فِي رُءُوسِهِمْ ، وَجَعَلَ تَدْمِيرَهُمْ فِي تَدْبِيرِهِمْ ، وَفَضَحَهُمْ وَلَكِنْ مَعَ هَذَا لَمْ يُعَاتِبهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ ، بَلْ كَفَى اللهُ وَشَفَى وَعَافَى .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « الْفَلَقِ » ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

آياتها ٦ — تفسير سورة الناس — مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

هَذِهِ الصِّفَاتُ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ عز وجل : الرُّبُوبِيَّةُ ، وَالْمُلْكُ ، وَالْإِلَهِيَّةُ ، فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَإِلَهُهُ ، فَجَمِيعُ الْأَشْيَاءِ مَخْلُوقَةٌ لَهُ مَمْلُوكَةٌ عَبِيدٌ لَهُ ، فَأَمَرَ الْمُسْتَعِيذَ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِالْمُتَّصِفِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ الْمُوَكَّلُ بِالْإِنْسَانِ ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا وَلَهُ قَرِينٌ يُزَيِّنُ لَهُ الْفَوَاحِشَ ، وَلَا يَأْلُوهُ جَهْدًا فِي الْخَبَالِ . وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ قال : « **مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا قَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ** » قَالُوا : وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ : « **نَعَمْ إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ ، فَأَسْلَمَ ، فَلَا يَأْمُرَنِي إِلَّا بِخَيْرٍ** ».

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ الشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ اِبْنِ آدَمَ ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسْوَسَ ، فَإِذَا ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ هَلْ يَخْتَصُّ هَذَا بِبَنِي آدَمَ - كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ - أَوْ يَعُمُّ بَنِي آدَمَ وَالْجِنَّ ؟ فِيهِ قَوْلَانِ ، وَيَكُونُونَ قَدْ دَخَلُوا فِي لَفْظِ النَّاسِ تَغْلِيبًا ، **وَقَالَ اِبْنُ جَرِيرٍ** : وَقَدِ اُسْتُعْمِلَ فِيهِمْ ﴿ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ فَلَا بِدْعَ فِي إِطْلَاقِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ هَلْ هُوَ تَفْصِيلٌ لِقَوْلِهِ : ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ

ٱلنَّاسِ ﴾ ثُمَّ بَيَّنَهُمْ فَقَالَ : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ ؟ وَهَذَا يُقَوِّي القَوْلَ الثَّانِي

وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ تَفْسِيرٌ لِلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢] **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ؛ إِنِّي لَأُحَدِّثُ نَفْسِي بِالشَّيْءِ لَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ . قَالَ : فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ ، الحَمْدُ لله الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ**)).

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّاسِ ، وَلله الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة